

المعاني

عَلَى تَدْبِيرِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ

بِقَلَمِ

مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ مَكِّيٍّ

مَوْسَسَةُ الرِّوَايَاتِ

دَارُ الرِّيَاضَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالتَّحْقِيقِ

المعاني

على تدبر الكتاب المبين

بقلم

محمد بن أحمد مكي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الرحمن، علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان، وصلاة الله وسلامه الأتمّان الأكملان على نبيّنا محمد الذي أنزل عليه الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً حسناً، ورضي الله عن آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإنّ تدبّر آيات الله في كتابه من أعظم العبادات، وأشرف الأعمال والطاعات. وقد أنزل الله كتابه الكريم لتدبّر آياته، لا لتعرض عنه ونهجره، وبعد الفهم والتدبّر يكون التأثير والعمل بموجب العلم.

أهمية تدبّر القرآن:

وتدبّر القرآن أولى وأوّل ما يُشَمّر له أصحاب الهمم العالية، إذ هو مفتاح سائر علوم الإسلام، ولا يحسن بطالب العلم أن يقدّم عليه سواه.

قال ابن القيم - (ت: ٧٥١) رحمه الله تعالى -: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبّر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر في معاني آياته»^(١).

التدبّر في اللغة والاصطلاح:

والتدبّر لغة: مأخوذ من مادة (د ب ر) وهي آخر الشيء وخلفه، يقال: دبّر الأمر وتدبّره: نظر في عاقبته. واستدبره: رأى في عاقبته ما لم ير في صدره. والتدبّر في الأمر: التفكير فيه^(٢).

وجاء على صيغة التفعّل، ليدلّ على تكلف الفعل، وحصوله بعد جهد، والتدبّر: حصول النظر في الأمر المُتدبّر مرّة بعد مرّة.

قال العلامة الآلوسي (ت: ١٢٧٠): «وأصل التدبّر: التأمل في أذبار الأمور وعواقبها، ثمّ استعمل في كلّ تأمل سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعاقبه»^(٣).

والتدبّر اصطلاحاً: هو تحديق ناظر القلب إلى معاني القرآن، وجمع الفكر على تأمله وتعقله، وهو المقصود بإنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبّر^(٤).

أو: هو التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الألفاظ والكلمات والآيات والسور القرآنية ومراميها

(١) مدارج السالكين ١: ٤٧٥.

(٢) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٢: ٣٢٤، ولسان العرب، لابن منظور ٤: ٢٣٧.

(٣) روح المعاني ٥: ٩٢.

(٤) مدارج السالكين، لابن القيم ١: ٤٧٥.

ومن الكلمات التي بينها وبين التدبر تقارب وتداخل في المعاني: التفكير والتأمل.

والتفكير: تصرف القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب^(٢). والتأمل: تدقيق النظر في الآيات بغرض الاتعاظ والتذكر.

فالتدبر يعني النظر العقلي إلى عواقب الأمور، أي: إنه يتجاوز الحاضر إلى المستقبل، والتفكير جَوْلان الفكر في الأمر الذي تكون له صورة عقلية عن طريق الدليل، وأما التأمل فقد رُوِيَ فيه إدامة النظر والتثبت، ومن ثم فلا تكون النظرة الواحدة تأملاً، وإن كان يمكن أن تكون من قبيل التفكير^(٣).

فهذه المعاني الثلاثة - وإن كانت متقاربة - إلا أنها ليست واحدة، وإذا ذكر بعض أهل العلم أنها مترادفة، فإنما يقصد فقط الترادف الجزئي الذي قد يوجد في بعض الأحيان دون بعضها الآخر.

الآيات التي تؤكد على أهمية تدبر القرآن الكريم:

١ - وفي التأكيد على أهمية التدبر أنزل الله على رسوله ﷺ في مكة قوله في سورة (ص): ﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩) فهذا الكتاب العظيم، قد أنزله الله تعالى إلى رسوله محمد ﷺ، وهو مبارك لا تنضب فيوض معانيه، ولكن هذه المعاني الثرة لا ينتفع بها إلا الذين يتدبرون آياته، ويتذكرون معانيه، ويتعظون به، وهذا التذكر المقصود لا يتحقق به إلا أصحاب العقول الحصيفة الدراة. ومرحلة التدبر تأتي بعد الفهم، إذ لا يمكن أن يطلب منهم تدبر كلام لا يعقلونه، وهذا يدل على أنه لا يوجد في القرآن ما لا يفهم معناه مطلقاً، وأن التدبر يكون فيما يتعلق بالمعنى المعلوم^(٤).

(١) قواعد التدبر الأمثل، للميداني ص ١٠.

(٢) التعريفات، للجرجاني ص ٦٦.

(٣) لم يرد لفظ التأمل في القرآن الكريم صراحةً، ولكن أشارت إليه عديد من الآيات التي تأمر بالنظر في خلق الله، والتثبت في رؤية عجائب الكون وآثار السابقين، وقد نعت آيات كثيرة على المشركين عدم تأملهم فيما تشاهده أعينهم من عجائب صنع الله، وقد اقترنت آيات كثيرة بالأفعال «يروا، ينظروا» بصيغة المضارع التي تدل على الاستمرار وإدامة الرؤية أو النظر.

(٤) أخرج الطبري في «تفسيره» ١: ٣٤ من طريق أبي الزناد عبد الله بن ذكوان، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعَدَّر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله» انتهى. ١ - أما التفسير الذي تعرفه العرب من كلامها، فهذا سبيله معرفة استعمال العرب للألفاظ والتراكيب. قال الطبري ١: ٤١: «إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة». وهو مشروط - كما قال ابن جرير الطبري أيضاً - بأن «لا يكون خارجاً عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأمة». ٢ - وأما التفسير الذي لا يُعَدَّر أحد بجهالته، فالمراد به ما هو بيّن بنفسه، يفهمه التالي، وهذا هو الأصل؛ لأن أكثر القرآن يعود إليه، ولأجله جاء الأمر بالتدبر، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]. ٣ - وأما التفسير الذي يعلمه العلماء، فهو الذي يدركه أهل التدبر العميق، والنظر الدقيق، والبصيرة النافذة الكاشفة. ولا يقتصر على القدر الذي يفهمه المتدبر السطحي، بل يصل إلى ما تشتمل عليه الآيات من معاني عميقة، ودلالات دقيقة. ٤ - وأما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، فيراد به متشابه القرآن، وما تؤول إليه حقيقة الشيء الذي لا تصل العقول إلى حقيقته، وذلك مثل ما أخبر الله عنه من الغيوب، وهذا النوع من المتشابه الكلي الذي يستوي الناس جميعاً في عدم إدراكه.

٢- ثم أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ في مكة قوله في سورة (المؤمنون): ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨).

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾؟ تأنيب شديد للذين أعرضوا عن القرآن، وهجروه، ولم يعباؤا به، ولا بما جاء فيه، فلم يدبّروا القول الذي أنزله الله ليفهموا دلالته، حتى يهتدوا بهديها، ويعملوا بما جاء فيها.

٣- ثم أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ في المدينة قوله في سورة (النساء): ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢).

«لقد ورد هذا النص في معرض الحديث عن المنافقين، وهم الذين يتظاهرون بالإسلام، ويعلنون الطاعة، ويحضرون مجالس الرسول ﷺ، ولكن قلوبهم غير مؤمنة، وأفكارهم منصرفة معرضة عن كل ما يبين لهم.

هؤلاء قد وضع الله تعالى بين أيديهم ما يدلهم على الحق، ويهديهم سواء السبيل، ويقنعهم، لو أرادوا لأنفسهم النجاة، والسعادة الحقة الأبدية، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ولم يواجههم بهذا الخطاب إعراضاً عنهم في مقابل إعراضهم عن تدبر كتابه، وتفهم آياته، وفي الاستفهام الإنكاري هذا تلويم لهم على ترك التدبر، لعلهم يثوبون إلى رشدهم.

إن هذا التدبر الذي يقصد منه البحث عن الحقيقة، والمقرون بالإخلاص في الوصول إليها؛ سوف يكشف لذوي الاستعداد منهم أن هذا القرآن حق كله، وأنه منزل من عند الله عز وجل؛ لأنه لو كان من عند غير الله لاشتمل على اختلاف كثير في الواقع والحقيقة»^(١).

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؟! «نعم! إنهم ولا شك - وكل أمثالهم منذ أربعة عشر قرناً، سواء كانوا من الكفار الصُّرَحَاء، أو من المنافقين - لا يتدبرون القرآن! ولو تدبروه بعقول وقلوب مفتوحة، لعلموا أنه من عند الله عز وجل، وأنه لا يمكن أن يكون من عند غير الله سبحانه!

إن بشراً في الأرض كلها لا يتأتى له أن يخرج كتاباً كهذا الكتاب المعجز على جميع المستويات، وفي جميع الاتجاهات، والذين يتعرّضون للتأليف هم أدرى بهذه الحقيقة، كما كان العرب العالمون بأسرار البلاغة أدرى بحقيقة الإعجاز البلاغي للقرآن.

الاختلاف أوسع من التناقض:

والآية تُقرّر أنه لو كان القرآن من عند غير الله - أي: من صنع البشر - لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. وأول ما يرد على ذهن بشأن الاختلاف هو التناقض، وواضح أن القرآن لا يحتوي اختلافاً بهذا المعنى، ولكن الاختلاف في الحقيقة أوسع من التناقض، إنه يمكن أن يمتد إلى جميع المستويات بلا استثناء. وهنا يتبدى إعجاز القرآن على ذات المستوى الذي يتبدى به الإعجاز البلاغي بلا اختلاف^(٢).

(١) قواعد التدبر الأمثل، للميداني ص ١٠ - ١١ .

(٢) ينظر: موضوع التوازن في مبحث الإعجاز التربوي في كتاب: «لا يأتون بمثله» للأستاذ محمد قطب، ص ١٠٧ - ١١٣ .

وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن:

إنَّ القرآن العظيم في المقام الأول كتاب تربية وتوجيه، وهو الذي أنشأ هذه الأمة التي وصفها خالقها هذا الوصف: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهو - من هذه الوجهة - يتناول كلَّ ميادين التربية الرئيسة في حياة «الإنسان» على مستوى واحد من توجيه الاهتمام، وعلى مستوى واحد من الإتقان والإحكام. . . بلا اختلاف!

ففي تربية الروح، وفي تربية العقل، وفي تربية الجسد . . وفي التربية السياسية والاجتماعية والأخلاق . . تجد الدرجة ذاتها من الإحكام، كما تجد وحدة التوجيه نحو إنشاء «الإنسان الصالح» على نَسَقٍ لا مثيل له في منهج البشر التي تُعنى بجانب وتهمل جانباً آخر، وتُركِّز على جانب على حساب جانب آخر.

والقرآن ينشئ مجتمعاً متوازناً من أفراد متوازنين، بلا اختلاف في التَّوجيه بالنسبة للفرد وبالنسبة للمجتمع، لا مثيل له في كلِّ ما يصنع البشر من نُظم ومناهج، تُبرز كيان الفرد لتُفكَّت تماسك المجتمع، أو تُبرز كيان المجتمع لتسحق كيان الفرد.

والقرآن ينشئ فرداً وجماعة توازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح، وبين الدنيا والآخرة بلا اختلاف! على نسق لا مثيل له في كلِّ الحضارات التي تُبرز عالم الجسد لتطمس عالم الروح، أو تبرز عالم الروح لتحقر الجسد وتستقذره وتُذله.

وهكذا . . في أيِّ مجال وعلى أيِّ مستوى تدبَّرت هذا القرآن وجدت أنه يحوي توجيهاً مُوحَّداً . . بلا اختلاف! وعلى درجة معجزة في كلِّ جانب، ثم على درجة أشدَّ إعجازاً في اجتماع كلِّ الجوانب . . وبلا اختلاف فيما بين توجيه لجانب وتوجيه لجانب آخر . .

وهذا الكتاب ما يملك أحد أن يتدبَّره دون أن يرى لونا من الإعجاز فيه . . ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١).

الآية الرابعة والأخيرة نزولاً في الدعوة إلى التدبُّر:

٤ - ثم أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ في معرض الحديث عن المنافقين أيضاً قوله تعالى في سورة (محمد): ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤).

فارتقى البيان بالمنافقين المعرضين عن تدبُّر القرآن من دعوتهم إلى التدبُّر، إلى توبيخهم على ترك التدبُّر، وتأنبيهم بأن قلوبهم مقفلة، فهي لا تسمح بدخول الهداية إليها.

عطاء القرآن المستمر:

والقرآن الكريم عطاؤه مُستمر لا ينفد، وبيانه مُتجدد لا ينقطع، ومعانيه كثيرة لا تنضب، وقد اجتهد الكثير من العلماء في الدعوة والتذكير بضرورة تدبُّر هذا الكتاب الممين، وأكَّدوا لزوم ذلك وأهميته.

(١) دراسات قرآنية، للأستاذ محمد قطب ص ٤٧٦ - ٤٧٧.

وقام كثير من المفسرين بهذه المهمة خير قيام، وما تفسيره إلا ثمرة للتأمل والتدبر، وقد اختلفت مناهج المفسرين في تفسيره، فمنهم من غلبت عليه النزعة الفكرية الجدلية، فتوسّع توسعاً كبيراً في شرح الآيات المتصلة بهذه المعاني، وغلبت على تفسيره هذه الظاهرة، ومنهم من غلبت عليه النزعة اللغوية والبلاغية، فتوسّع توسعاً كبيراً في هذه النواحي، ومنهم من غلبت عليه النزعة الفقهية، فتوسّع فيها، ومنهم من توسّع في القصص والأخبار، ومنهم من توسّع في الأخلاق والمواعظ، ونحو ذلك. كذلك كان من المفسرين من أطال حتى أمل، ومنهم من اختصر حتى أخل، ومنهم من توسّط بين هذا وذاك.

الدعوة المتجددة إلى كتابة تفسير ملائم لأهل العصر:

وهذه الجهود الموفقة في تفسير القرآن يسّرت السبل للانتفاع به، والاستضاءة بنوره، غير أنّ كلّ زمان له مقتضيات، وكل بيئة لها حاجات. يقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف - (ت: ١٣٧٥) رحمه الله تعالى - في مقال له بعنوان: «واجبنا في خدمة القرآن»: «فأول واجب علينا في خدمة القرآن: وضع تفسير سهل العبارة، حسن الأسلوب، يُلائم أساليب عصرنا وثقافتنا، يستبين منه المسلم معاني المفردات والمراد من الآيات، ويسترشد إلى ما في الآية من هُدى ورحمة، ومن دروس وعبر، ليس فيه طول مُمل، ولا إيجاز مُخل، ولا نحو ولا إعراب، ولا إسرائيليات ولا اختلافات، وجملة وصف هذا التفسير: أنه تفسير يُبَيِّن هداية القرآن، ويجعل القارئ والسماع مُتّصلاً بمعانيه والمراد منه، لا مُجرّد مُردّد للصوت بألفاظه، وهذا التفسير موجود، ولكنه مُفرّق ومبثوث في التفاسير، والواجب أن نستخلصه منها، ونُحسن الصياغة والترتيب. ولقد سُئل بعض العلماء: ما خير التفاسير؟ فقال: خير التفاسير مبثوث في التفاسير. وكثير ما سُئل الواحد منا: عن خير تفسير تُفهم منه الآيات بسهولة، وبدون احتمال عناء في الإعراب، والخلافيات والإسرائيليات، فلا نستطيع الجواب عن هذا السؤال.

إنّ التفاسير التي بين أيدينا قيمة ونافعة، ولكن لا ينتفع بها إلا خاصّة الخاصّة؛ ولهذا تعدّر على أكثرية المتعلّمين من المسلمين أن يتّصلوا بمعاني القرآن الكريم، وأن يتعرّفوا على ما اشتمل عليه. والمقصود الأول من القرآن: هُداة ونوره وما جاء به»^(١).

وقد اجتهد الكثير من العلماء والهيئات والمؤسسات العلمية في كتابة تفاسير تُحقّق هذا الهدف المنشود، وأبلى الكثير منهم في هذا الميدان أحسنّ البلاء، ووضعوا عدداً كثيراً من التفاسير النافعة الجامعة، وكلّ منهم ولّى في تفسيره الوجهة التي رأى فيها خدمة كتاب الله تعالى، وتقريبه للمسلمين.

توجيهي لكتابة هذا التفسير:

ومن ثمّ أردت أن أدلي بدلوي المتواضع في هذا المضمّار، مُستشعراً خطورة الدخول في هذا الميدان، وذلك خشية أن تُقام علينا الحجّة إن لم نقم بواجبنا نحو القرآن، ولشدّة حاجتي من جهة ثانية لتدبر كتاب الله تعالى، وللأمل في أن أكون من أهل الله تعالى وخاصّته، وأن ألحق بهذه القافلة المباركة التي خدمت كتاب

(١) مجلة «لواء الإسلام» العدد الرابع من السنة الخامسة (١٣٧٠)، ومجلة «كنوز الفرقان» العدد الأول من السنة الرابعة (١٣٧١).

الله تعالى عبر الأجيال، وأتشبه بهم، وأنضم إلى ركبهم، سائلاً المولى سبحانه الإخلاص والتوفيق، والهداية إلى أقوم طريق.

وهذا العمل الذي شرفني الله تعالى به، كان أمنية قديمة في نفسي، ورغبة حَقَّقَهَا اللهُ لي. وكثيراً ما كنت أسأَلُ نفسي عند تلاوة القرآن عن معنى كلمة، أو مرجع ضمير، أو دلالة جملة، وأرغب أن أقف أثناء التلاوة على هذا المعنى بوضوح، ورأيت أن الكثير ممن أسهموا في تفسير كتاب الله تعالى؛ لإعانة القارئ، اقتصروا على معاني بعض الكلمات، أو اكتفوا باختصار بعض العبارات. وعلى كثرة ما كُتِبَ في عصرنا هذا من تفاسير مُوجِزة مختصرة مُيسِّرة لا تخلو من ثغرة ونقص، كما هو شأن الأعمال البشريَّة، ولا أدعي لنفسي العصمة من الزَّلَل، ولا السلامة من الخطأ، ولكنِّي سَدَدْتُ وقاربتُ، وبذلتُ جهدي في تقديم المعاني الموجزة التي تُقَرِّب المعنى، وتحقِّق الفهم للآيات بأيسر طريق، وأدق عبارة.

بداية العمل في هذا التفسير:

وقد بدأتُ هذا العمل في أول شروعي فيه بالاعتماد على تفسير الإمام الخازن علي بن محمد - (ت: ٧٤١) رحمه الله تعالى - «لباب التأويل في معاني التنزيل»، وهو من أفضل التفاسير وأوضحها وأدقها عبارة، وصاحبه فقيه محدث، وتفسيره - مظلوم - بثَّمة الإكثار من الإسرائيليات، مع أنه يُنبِّه إلى كثير من ذلك، ويُحرِّر المسائل العلمية، وقد انتهيتُ من اختصاره في فترة وجيزة، وقَدِّمت الكتاب للطباعة، وانتهيتُ من تصحيحه، ليكون عملي مُقارباً لمن اختصر تفسير الطبري (ت: ٣١٠)، أو ابن كثير (ت: ٧٧٤)، أو الشوكاني (ت: ١٢٥٠)، أو القاسمي (ت: ١٣٣٢) ... ممَّا هو منتشر بين أيدي الناس.

ولكنِّي رأيت أن اختصار تفسير الخازن - على نفعه - لا يُحقِّق الغاية المرجوة التي أطمح إليها، ولا سيما فيما يحتاج إليه القارئ المعاصر من معاني جديدة، وترجيحات سديدة، وتوجيهات مفيدة، ولغة تناسب العصر.

الإشادة بتفسير العلامة الميداني وطلتي به:

وكنْتُ أتابع أثناء عملي في «التفسير» ما يُصدره شيخنا العلامة الجليل عبدالرحمن حبنكة الميداني - (ت: ١٤٢٥) رحمه الله تعالى - من تفسيره التدبري العميق «معارج التفكير ودقائق التدبر»، وأراجعهُ فيما يكتب، وقد أعجبت بمنهجه، وبما فتح الله عليه من فهم عميق، وتدبر دقيق لكتاب الله، فأخذتُ أعيد النظر فيما كتبت، مُستفيداً مرحلَةً بعد مرحلة مما كان يكتبه في تفسيره الذي أصدره تبعاً وَفَّق مراحل النزول، حتى انتهى من التنزيل المكي^(١).

ولشيخنا رحمه الله تعالى منهج متميِّز في التدبر، أوضح ملامحه، وذكر قواعده في كتابه النفيس

(١) انتهى الشيخ رحمه الله تعالى من تفسير القسم المكي حسب النزول، وصدر في (١٥) مجلداً، ثم شرع في تدبر سورة البقرة من أول التنزيل المدني، وتكلَّم عن موضوع السورة، ودروسها، وحال الأجل دون تحقيق الأمل، وقد كتبت كلمات في التعريف بتفسيره التدبري في مجلة «هدى القرآن» التي تصدرها الهيئة العالمية لتحفيظ القرآن بجدة في العدد الثاني، سنة (١٤٢٥)، ثم صدر سنة (١٤٢٧) عن دار القلم بدمشق بعنوان: «التعريف بكتاب معارج التفكير».

«قواعد التدبر الأمثل» الذي اشتمل على أربعين قاعدة، ويُعدُّ الشيخ - بحق - من رواد علم التدبر في عصرنا هذا، وذلك فضل الله سبحانه يُؤتيه مَنْ يشاء من عباده.

ونظراً لطول الكتاب، وكثرة مباحثه، وسعة موضوعاته أولاً، ولاقتصاره على مرحلة التنزيل المكي ثانياً، أحببتُ أن أقدم للقارئ المعاصر خلاصة وافية مركزة لما كتبه الشيخ في «تفسيره التدبري» ليكون مُعيناً لمن أراد التعمُّق في التدبر بالرجوع إلى تفسيره، واستجلاء المعاني الدقيقة منه، وقد التمسْتُ خطى الشيخ فيما كتبه في تدبر السور المدنية، مُستنيراً ببعض «قواعد التدبر الأمثل»، ومُستفيداً ممَّا دُوَّنه في بعض كتبه الأخرى مثل: «ظاهرة النفاق»، و«فقه الدعوة»، و«أمثال القرآن»، و«الأخلاق الإسلامية»... وكلُّها تدور حول التفسير الموضوعي الذي يُتابع مراحل النزول، ويجمع الآيات في موضوع واحد بتناسق وترابط.

أهم مجاهدي في هذا التفسير:

ورجعتُ في تفسيري هذا إلى مصادر كثيرة أخرى سوى ما ذكرت على سبيل الاستئناس والاسترشاد، كالتههيل لابن جزي (ت: ٧٤١)، وتفسير النسفي (ت: ٧١٠)، وابن كثير (ت: ٧٧٤)، و«الجواهر الحسان في تفسير القرآن» لعبد الرحمن الثعالبي (ت: ٨٧٦)، و«تفسير الجلالين»: المحلي (ت: ٨٦٤)، والسيوطي (ت: ٩١١)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (ت: ٩٧٧).

ومن تفاسير المعاصرين: «صفوة البيان» للعلامة حسنين محمد مخلوف (ت: ١٤٠٢) رحمه الله تعالى، و«المنتخب في تفسير القرآن» الذي أصدره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، و«التفسير الميسر» الذي أصدره مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة. كما استفدت في تفسير السور المدنية من الأجزاء العشرة الأولى، ممَّا كتبه العلامة الفقيه المفسر محمد أبو زهرة (ت: ١٣٩٤) رحمه الله تعالى في تفسيره النافع «زهرة التفاسير»، إلى غير ذلك من المصادر المتنوعة الكثيرة، والقراءات المتعددة المستمرة المتصلة بكتاب الله عز وجل.

المستفيدون من هذا التفسير:

وقد حرصتُ أن يكون هذا التفسير مخاطباً لعموم المثقفين، ولا سيما خريجي الجامعات العلمية، مُحاولاً أن أُقرب إليهم الكثير من معاني الآيات الكريمة، لتكون خطوة نحو فهم عميق، وتدبر دقيق للكتاب الكريم.

وقد يجد المتخصِّصون من طلبة العلم الشرعي في هذا التفسير ما يروُّقُ لهم، ويسرُّهم مما وفَّقني الله سبحانه إلى دقة فهمه وحُسن اختياره.

ولكن لا بدَّ للاستفادة من هذا الكتاب من إعمال الفكر، ومُعَاودة النظر، وبذل الجهد، إذ لم يكن عملي مجرد اختصار، وإعادة ترتيب، بل فيه من دقائق النظر، وبدائع الفكر ما يدعو إلى بذل الجهد، لا الاقتصار على القراءة العابرة السطحية.

دقة هذا العمل ومشقته:

ولا يخفى عليك - أخي القارئ - دقة هذا العمل وصعوبته ومسؤوليته، وكنت أُعيد النظر في كل كلمة

وجملة مرّات مُتعدّدات، وزاد مشقّة هذا العمل الالتزام بمقدار معيّن مُحدّد في حاشية المصحف الشريف. فكنتُ في كثير من الأحيان أعدّ الكلمات، وأقيس الصفحة، لتأتي الآيات في مكانها المحدّد، ولو كان المكان مُتّسعاً لجرى القلم بيسر وسهولة. والله - سبحانه - وحده يعلم قدر ما بذلته من جهد، فكم كتبت وشطبت! وكم أنعمت وفكرت! وكم تأملت ونظرت! وكم قدمت وأخرت!

لا يعرف البحث إلا من يكابده ولا الكتابة إلا من يعانيها

اعتذار ورجاء:

ولا يخلو عملي - على ما بذلتُ من جهد - من قصور، كيف وهو يحاول أن يسمو لتدبرّ كلام الله سبحانه وتعالى. وإذا كان الكاتب في مختلف مجالات العلوم، يزيد وينقص، ويؤخّر ويقدم، كما يقول القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت: ٥٩٦) فيما كتبه إلى نائبه في وزارة الكتابة الأديب المؤرخ الشهير العماد الأصفهاني (ت: ٥٩٧) رحمهما الله تعالى: «إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسانُ كتاباً في يومه، ونظر فيه في غده إلا قال: لو غيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يُستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جُملة البشر»^(١).

فكيف إذا كانت الكتابة تتعلّق بكلام الله وتدبره في وقتٍ معدود، ومكان محدود. فرجائي من القارئ المنصف البصير أن يتجاوز عن الهفوات، والهتات الهيئات، فجلاً من لا يسهو، وسبحان من لا ينسى، وتبارك اسم من تفرّد بالكمال .

وأرجو أن يكون هذا العمل باكورةً لأعمال أخرى تتعلّق بكتاب الله عز وجل وعلومه، وأن يتقبّل مني هذا الجهد، ويثني عليّ، ويكرمني بكرامته ورضوانه .

أهم القواعد التي التزمت بها في هذا التفسير:

وقد اجتهدت خلال كتابتي لهذا التفسير التدبري الموجز على الاهتمام بجُملة قواعد هادية تعين على تدبر كلام الله سبحانه بطريقة مثلى، وصورة فضلى، ومن تلك القواعد التي اجتهدت في الالتزام بها، وإيرادها في هذا التفسير التدبري:

١ - الاستفادة مما صحّ من التفسير المأثور، والنظر فيما ورد من أقوال المفسرين المعتمدين، واعتماد ما هو راجح.

٢ - النظر فيما ورد من أسباب النزول، مما صحّ سنده مع مراعاة قاعدة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، ومراعاة دلالة السياق والقرائن التي تدلّ على تخصيص العام.

٣ - اخترتُ من معاني الكلمات القرآنية المعنى المراد الذي يُلائم دلالة النصّ القرآني بوجه عام، وكما هي في كلام العرب في عصر نزول القرآن، وابتعدت عن المعاني الاصطلاحية المتأخّرة

(١) شرح الإحياء ١: ٣ للإمام المرتضى الزبيدي رحمه الله تعالى.

عن عصر التنزيل، مع النظر فيما قاله أهل التفسير في معنى الكلمة، للاهتمام إلى فهم المعنى المراد بتوفيق الله تعالى.

٤ - حَمَلَ النص على كل المعاني إذا كانت الكلمات أو الجمل القرآنية تدل على أكثر من معنى، وعدم قصر النص على واحد منها دون غيره، تمثيلاً مع عطاء القرآن الثَّر، الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تَنُضَب معانيه.

٥ - اسْتِبْعَاد احتمال التكرير لمجرّد التأكيد ما أمكن؛ لتكامل النصوص القرآنية، ولأن التأسيس في كل نص منها مُقَدَّم على التأكيد.

٦ - ملاحظة قواعد اللغة العربية، وتوجيه الآيات التي يُخالف إعرابها مقتضى الظاهر من خلال التفسير، كما في تفسير الآية (١٧٧) من سورة البقرة، والآية (١٦٢) من سورة النساء، والآية (٦٩) من سورة المائدة، وغير ذلك كثير.

٧ - استجلاء الغرض الفكري من الوجوه البلاغية التي اشتملت عليها نصوص القرآن، مع الإيجاز الشديد والاقتصاد في العبارة، والتنبيه على أغراض الاختلاف في أسلوب التعبير في النصوص القرآنية.

٨ - محاولة فهم الآية القرآنية وفق ترتيب نظمها.

٩ - بيان بعض ما يشتمل عليه النص القرآني من أوجه، وما يهدف إليه من أغراض تربوية وتعليمية.

١٠ - عُنيَتْ بخواتم الآيات ومراميها، وما تشتمل عليه من قضايا كلية ترتبط بما جاء قبلها بمضمون الآية.

١١ - اعتنيتُ بما جاء في الآيات القرآنية من قَسَم؛ بذكر المناسبة بين المُقَسَم به والمُقَسَم عليه، وبيان الغرض من القسم، والتنبيه على ما فيه من دلائل وعبر، وأوضحت الحكمة من القسم المسبوق بحرف النفي (لا) الوارد في القرآن في سبع سور بصيغة: (لا أقسم) في الواقعة (٧٥ - ٨٠)، والحاقة (٣٨ - ٤٣)، والمعارج (٤٠ - ٤١)، والقيامة (١ - ٤)، والتكوير (١٥ - ٢١)، والانشقاق (١٦ - ١٩)، والبلد (١ - ٤).

١٢ - ملاحظة العمق القرآني، والتنبيه إلى كثير من المعاني العميقة والدلالات الدقيقة التي لم يرد في النص ألفاظ صريحة تدل عليها دلالة واضحة، كالمحاذيف التي تُحذف للإيجاز، ويقتضيها معنى النص، واللوازم الفكرية، والكنائيات البعيدة، وقد أنعمتُ النظر في استنباط المضامين الفكرية التي تُستفاد من النص عن طريق اللزوم الفكري، أو الإشارات الضمنية للكلام، بما فيها من تلويح، أو تلميح، أو تعريض، أو كناية، أو غير ذلك؛ إذ أنّ الكثير من المعاني تُستفاد من النص لزوماً أو يقتضيها النص اقتضاءً، كسؤالٍ ذكر جوابه دون أن يُذكر، وجواب ذكر سؤاله دون أن يذكر، واعتراض ردّ النص عليه دون أن يُذكر في اللفظ، لكنه مُلاحَظٌ ذهنياً، وتتمّات يستدعيها اللزوم العقلي، وقد سَكَتَ النص عنها، كما راعيتُ ظاهرة التّضمين، وهو أن تُذكر كلمة ذات معنى، وتُضمّن مع معناها كلمة أخرى، ثم يُبنى عليها كلامٌ على أساس معنى الكلمة الأخرى.

١٣ - النظر في توجيه الخطاب الرباني، فالنصوص المصدرة بخطاب الناس (يا أيها الناس) تشتمل على معنى يضم الناس جميعاً، وقد تكررت نداءات الله تعالى للناس سبع مرات في كتاب الله تعالى، والنصوص القرآنية المصدرة بخطاب المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا) تشتمل على معان تخص الذين آمنوا، وما يؤمرون به، وما يُنهون عنه، وما يُحذرون منه، وما يُوجَّهون له، وقد تكررت نداءات الله للذين آمنوا (٨٩) مرة في كتاب الله، وخطاب الله عز وجل للرسول ﷺ في القرآن شامل للمؤمنين ما لم يكن فيه دلالة صريحة على الخصوصية، وكذلك كل تربية موجَّهة للرسول ﷺ هي موجَّهة تبعاً لأُمته. وخطاب المفرد هو خطاب لكل فرد يصلح له الخطاب، وخطاب الذكور خطاب للإناث ما لم تأت قرينة صارفة، وهو أسلوب من أساليب التعميم الذي هو بمثابة النص على العموم وتأكيده.

١٤ - التدبر في إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما يُسند إليه، إذ لا يشترط لصحة الإسناد أن يكون المسند إليه فاعلاً للشيء الذي تضمَّنه الفعل أو ما في معناه، أو موصوفاً به. ويقع كثير من مفسري الآيات القرآنية بأغاليط ناشئة عن عدم ملاحظة العلاقات الإسنادية المختلفة، وعدم تدبر النصوص استهداء بقرائنها السابقة واللاحقة. ومن هذه الأغاليط ما وقع به الجبريون لدى تفسير النصوص القرآنية المتعلقة بموضوع القضاء والقدر، تصوراً منهم أن إسناد الفعل أو ما في معناه إلى المُسند إليه لا يفهم منه إلا معنى القيام مباشرة بالفعل. مع أن المسند إليه قد يكون هو الدال أو الداعي للقيام بما تضمَّنه الفعل، كما في الآية (٦١) من سورة الأنعام، والآية (٨٥) من سورة طه، والآية (٣) من سورة الإنسان، وغير ذلك كثير.

كما يُنسب إلى المسند إليه ما تضمَّنه الفعل أو ما في معناه إلى فاعله، أو من قام به، كقولنا: برأته إذا نسبته إلى البراءة، وذكرت أنه بريء، ومثل ذلك: صوبته، وخطأته ..

ومن الإسناد القرآني في حدود هذه العلاقة الكثير من الآيات، كما في الآية (٤٩) (و(٨٨) من سورة النساء، والآية (٢٧) من سورة إبراهيم، إلى عشرات الآيات التي لا يفهم من إسنادها إلى الله عز وجل أنه هو المُجبر، مما يُسقط في المفاهيم الجبرية المفسدة لمعنى القضاء والقدر الذي دلت عليه النصوص الصريحة (١).

أهم الجوابات التي راعيتها في كتابة هذا التفسير:

كما راعيتُ أموراً أخرى سوى ما قدَّمته من قواعد منهجية التزمْتُ بها، وهي أمورٌ تُحقِّق الهدف من إصدار هذا التفسير وتقريبه للقارئ، من أهمها ما يأتي:

١ - تفسير كل آية على حدة، وعدم إعادة ألفاظ النص القرآني في التفسير إلا نادراً.

٢ - الإشارة إلى رقم الآية في بداية تفسيرها.

٣ - تجنَّب ذكر القراءات ومسائل النحو والإعراب.

(١) تنظر هذه القاعدة المهمة في كتاب «قواعد التدبر الأمثل» القاعدة السابعة والثلاثون ص ٦٦٥ - ٦٨١.

- ٤ - التزمت رواية حفص عن عاصم، وهي الرواية التي طُبع التفسير في حاشيتها.
- ٥ - حرصت على أن يكون التفسير بالقدر الذي تتسع له حاشية «مصحف المدينة النبوية» المنورة، ليشترك اللسان والعقل والقلب في تلاوة القرآن حق تلاوته . فحظُّ اللسان: تصحيح الحروف بالترتيل، وحظُّ العقل: تفسير المعاني، وحظُّ القلب: الاتعاظ والتأثر، فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ.
- ٦ - سهولة البحث وتسهيل الفهم والتدبر، فكونه في مجلد واحد يساعد في الوقوف على معنى الآية أثناء التلاوة دون البحث في عدّة مجلدات، وكذلك سهولة حمله واقتنائه.
- ٧ - اخترت أن يكون أسلوب كتابتي لهذا التفسير صالحاً لجميع القراء على اختلاف مستوياتهم الثقافية وفق الأسلوب السهل الممتنع، فالعالم المتخصص في التفسير والعلوم الشرعية يجد فيه معانٍ جديدةً يستفيدها، والمثقف الجامعي في العلوم المختلفة يجد فيه ما يحقق مقصده لفهم آيات كتاب الله المجيد، والمثقف المتوسط لا يجد فيه صعوبة، تجعله يسأم من متابعة قراءته؛ لسهولة فهم كثير من معانيه، ودلالات عباراته، لأنني حرصت على كتابته بأسلوب عصري سهل ميسر واضح العبارة، وجيز لا يُخل ولا يُمل، حتى يكون قريباً من القارئ، ويكون كذلك صالحاً لترجمته إلى اللغات الأجنبية ترجمةً دقيقةً صحيحة.

شكر وثناء:

وبعد، فهذه بعض القواعد التي التزمتُ بها، والضوابط التي راعيتها، وقد تمّ - بفضل الله وعونه - إنجاز هذا التفسير التدبري المعين، أسأل الله سبحانه أن يتقبله مني، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يكون مُعيناً للقراء على تدبر كتابه الكريم، وأن ينفعني بدعواتهم وإرشاداتهم .

وجزى الله عني خيراً كلّ من أعانني في تأليف هذا الكتاب، وساعدني على التفرغ لإنجازه، وصبر على تأخري في إصداره، أو راجع بعض تجاربه، أو أبدى ملاحظاته، وأُجزي بالخير الإخوة العاملين في مؤسسة الريان ببيروت، الذين قاموا بطباعته، وحُسن ترتيبه، وجودة إخراجهِ، وصابروا على كثرة تعديلاتي وتنقيحاتي المتتابة، حتى ظهر الكتاب في هذه الحلة الزاهية القشبية، وجزى الله خيراً جميع أسرتي: زوجتي وأبنائي وبناتي خير الجزاء، الذين آزروني، وصبروا عن انشغالي عنهم، وانهماكي في كتابة هذا التفسير، لأُخلف لهم أكرم ميراث يتدبرون به كتاب ربهم سبحانه في رحلة امتحانهم في دنياهم، ويتزودون منه لآخرتهم، وهو سبحانه يتولاهم بما يتولّى به عباده الصّالحين .

ربّ ألهمني الصواب، وسدّني، وافتح لي فتحاً مبيناً، واجعل عملي خالصاً لوجهك، وارفعني به عندك، وانفع به عبادك، وأتمم عليّ نعمك، إنك أنت الوهاب، ولا حول ولا قوة إلا بك .

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دِينِي﴾ [٤٦].

ونسأل الله المبتدئ لنا بنعمه قبل استحقاقها، المُديمها علينا، مع تقصيرنا في الإتيان على ما أوجب

به من شكره بها، الْجَاعِلُنَا فِي خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ: أَنْ يَرْزُقَنَا فَهْمًا فِي كِتَابِهِ، ثُمَّ فِي سُنَّةِ نَبِيِّهِ، وَقَوْلًا وَعَمَلًا يُوَدِّي بِهَا عَنَّا حَقَّهُ، وَيُوجِبُ لَنَا نَافِلَةً مَزِيدَهُ»^(١).

«اللهم فلا تعذب لساناً يخبر عنك، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدلُّ عليك، ولا قدماً تمشي إلى خدمتك، ولا يداً تكتب حديث رسولك ﷺ؛ فبعزتك: لا تدخلني النار، فقد ظننت في نفسي: أنني أدافع عن دينك»^(٢). ويرحم الله من قال: آمين.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه:

محي

الاثنين ٢٦ من شوال ١٤٢٦

(١) اقتباس من «الرسالة»: ص ١٩ - ٢٠، للإمام الشافعي (ت: ٢٠٤) رحمه الله تعالى.
(٢) هذا الدعاء للعلامة ابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧) رحمه الله تعالى.

من أجل قراءة مؤثرة للقرآن الكريم

أولاً: استحضّر عظمة الكلام الذي تتلوه، وجلالة قدره، وعلو منزلته، وتهياً لتلاوته بالوجل والخوف، والرجاء والفرح به، ولاحظ فضل الله سبحانه ولطفه في إيصال معاني كلامه إلى فهمك.

ثانياً: استحضّر عَظَمَةَ المتكلم سبحانه، وجلاله وهيبته، وأنّ ما تتلوه ليس من كلام البشر، فإذا عَظُمَ المتكلم في قلبك، وكَبُرَ في نفسك، أطلت الفكر في خطابه، وأنعمت تدبّر كلامه، وجدّدت تذكره عند كلّ مناسبة تستدعي ذكره؛ لأنّ القرآن ذكرٌ يجب علينا أن نفهمه أولاً، ونذكر ما فيه دواماً.

ثالثاً: استعذ بالله عزّ وجل من الشيطان الرجيم، واستحضّر طلب العون من الله تعالى من كيد الشيطان، الذي يسعى جهده لصدّك عن تلاوة كلام الله وتدبره، ويحول بينك وبين الانتفاع بالقرآن.

رابعاً: اقرأ قراءةً صحيحةً مُرْتَلَةً بِتَوَدّةٍ واطمئنان؛ ليكون ذلك أدنى إلى فهم المعاني، وليكن همك عرض المعاني على قلبك عسى أن تتأثّر وتخشع، ولا يكن همك متى تختم السورة.

قال ابن مسعود - (ت: ٣٢) رضي الله عنه -: (لا تهذّوا القرآن هذّ الشعر - أي: تسرعوا في قراءته كقراءة الشعر، - ولا تشروه نثر الدّقل - وهو أردأ التمر - ففوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب)^(١).

وقال الحسن البصري - (ت: ١١٠) رحمه الله تعالى -: (يا ابن آدم: كيف يرقّ قلبك، وإنما همّتك آخر السورة).

خامساً: تدرّج في التلاوة التأملية التدبّرية ما بين خمس آيات إلى عشر آيات، لترسخ معاني الآيات في عقلك وقلبك، وتحوّل بعد الفهم إلى العمل بمقتضاها والتطبيق لها.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يُجاوزهنّ، حتى يعرف معانيهنّ، والعمل بهنّ)^(٢).

سادساً: كرّر القراءة للآية مراراً، وردّها لتقف على معانيها ومراميها.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قام النبي ﷺ بآية يُردّها)، وهي: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَمُوتُ وَإِنْ تَفَقَّرْتُمْ فَلَا تَمُوتُ أَنْتَ الْمَرْبُوبُ الْمَكِينُ﴾^(٣).

سابعاً: تجاوب مع الآيات التي تتلوها بفهمها وتدبّر معانيها، وأورد ما يُناسبها من الأدعية والأذكار،

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٧٨٢)، ومختصر قيام الليل، للمروزي ص ١١٦ و ١٣٥.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١: ٨٠ (٨٢)، والحاكم في المستدرک ١: ٥٥٧.

(٣) رواه أحمد في «المسند» ١٤٩: ٥ (٢١٣٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٤)، وابن ماجه في «السنن» (١٣٥٠) وقال البوصيري: إسناده صحيح ورجاله ثقات. وقد بوّب الإمام أبو غبيد القاسم بن سلام في كتابه «فضائل القرآن» باب ما يُستحبّ لقارئ القرآن من تكرار الآية وتردادها، ثم ساق هذا الحديث (١١٨)، وأورد غيره من الأحاديث والآثار.

فإذا مَرَرْتَ بِآيةٍ تسبيحٍ سُبَّحَ وكَبَّرَ، وإذا مَرَرْتَ بِآيةٍ دعاءٍ واستغفارٍ ادعُ واستغفر، وإن مَرَرْتَ بمرجٍ أو سأل، وإن مَرَرْتَ بمخوفٍ استعد، وافعل ذلك بلسانك وقلبك.

ثامناً: استوضح من معنى كل آية ما يليق بها؛ إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر أحوال المكذبين لهم، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (من أراد خبر الأولين والآخرين، فَلْيُثَوِّرِ القرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين)^(١) أي: لِيُنْقَرِ عنه، ويفكر في معانيه وتفسيره.

قال مالك بن دينار - (ت: ١٣١) رحمه الله تعالى -: (يا حملة القرآن ما زرع القرآن في قلوبكم، فإن القرآن ربيع المؤمنين كما أن الغيث ربيع الأرض)^(٢).

تاسعاً: اجتنب موانع التدبر والفهم لمعاني القرآن، وهذه الموانع كثيرة، منها:

١ - أن يكون همك مُنصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مَخارجها، فيكون تأملك مَقصُوراً على مَخارج الحروف، ويُبْطِئُك عن المهم، وهو الوصول إلى فهم المعاني. فمثل من يفعل ذلك مثل من اشتغل بالوسائل، وأعرض عن المقاصد.

٢ - أن تكون مُقلداً لمذهب سمعته بالتقليد وَجَمَدت عليه، وَثَبَّت في نفسك التعصُّب له بمجرد الاتِّباع للمسموع من غير وصولٍ إليه ببصيرة نيرة، وبُرهان ساطع، فيكون مثلك كمثُل شخص قِيَدُهُ معتقده من أن يجاوزَه، فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن بَدَأَ له معنى من المعاني التي تُبَاين مسموعه حَمَلَ عليه شيطان التقليد حَمَلةً منكراً، وقال: كيف هذا يخطر ببالك، وهو خلاف معتقد آبائك؟! فيرى أن ذلك الذي فُتِحَ له فهمٌ في ذلك المعنى الذي بَدَأَ له غُرور الشيطان، ويعده من تلبساته، فَيَتَبَاعَدُ عنه، ويتحرَّز عن الوقوع في مثله.

٣ - أن تكون مُصِيراً على ذنب، أو مُتَّصِفاً بِكِبَرٍ وعُجْبٍ^(٣)، أو مُبتلى في الجملة بهوى في الدنيا يُطاع بما تميل إليه نفسك، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه.

وكلُّما كانت الشَّهوات أشدَّ تراكمًا، وأكثرَ تَوَارداً، كانت معاني الكلام أشدَّ احتجاباً، وأكثر استتاراً، وكلُّما خَفَّتْ عن القلب أثقال الدنيا، قَرُبَ تجلِّي المعنى فيه، فالقلب مثل المرآة

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٠٦٤١)، وابن المبارك في «الزهد» (٨١٤)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٦٤)، وأورده الهيثمي في «المجمع» ٧: ١٦٥ بلفظ: «من أراد العلم فَلْيُثَوِّرِ القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين»، ثم قال: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح، وقال مسروق بن الأجدع الكوفي (ت: ٦٢): «من سرَّه أن يعلم علم الأولين والآخرين، فليقرأ سورة الواقعة» كما في «سير أعلام النبلاء» ٤: ٦٨ للذهبي. وقال: «هذا ما قاله مسروق على المبالغة، لعظم ما في السورة من جَمَلِ أمور الدارين، ومعنى قوله: فَلْيُثَوِّرِ الواقعة. أي: يقرؤها بتدبر وتفكير وحضور».

(٢) مختصر قيام الليل، ص ١٦٠.

(٣) ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿سَاصِرُونَ عَنْ ءِثْنَيْ آلَيْنِ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال سفيان بن عُيينة: «أنزع عنهم فهم القرآن» كما في تفسير الطبري ١٣: ١١٢.

المجلوة، والشهوات عليه مثل الصدا على المرأة، ومعاني القرآن مثل الصورة التي تتراءى في المرأة، فما دام صدا الشهوات عليها لا تتجلى الصور على حقيقتها.

وقد شرط الله تعالى الإنابة في الفهم والتذكر، فقال تعالى: ﴿تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، والذي أثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب، فلذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب، ولا يفتح له في تدبرها باب.

٤ - أن تكون قد قرأت تفسيراً ظاهراً، فاعتقدت أنه لا معنى لكلمات القرآن، إلا ما تناوله النقل عن بعض السلف، وأن ما وراء ذلك تفسيرٌ بالرأي، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار، فلا طريق لفهم القرآن وتدبره إلا بما نقل عن هؤلاء الأئمة، فهذا أيضاً من الحجب المانعة عن فهم القلب للمعاني^(١).

عاشراً: قدر نفسك أنك المقصود بكل خطاب جاء في القرآن، فإن سمعت أمراً أو نهياً قدر أنك المنهي والمأمور، وتبرأ من حولك وقوتك، ولا تلتفت إلى نفسك بعين الرضا والتزكية، فإذا تلوت آيات الوعد والمدح للصالحين، فلا تشهد نفسك عند ذلك، بل اشهد الموقنين والصديقين. وإذا تلوت آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهدت نفسك هناك، وقدرت أنك المخاطب خوفاً وإشفاقاً.

حادي عشر: ترق في تلاوة كلام الله بأن تُقدر أنك تقرؤه على الله عز وجل واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليك، ومستمع منك، ويكون حالك: السؤال والتملق والتضرع والابتهاال، ثم تترقى إلى درجة ثانية، وهي أن تشهد بقلبك؛ كأن الله عز وجل يُخاطبك بألفاظه، ويناجيك بإنعامه وإحسانه، فمقامك: الحياء والتعظيم، والإصغاء والفهم، ثم تترقى إلى درجة ثالثة، وهي أن ترى في الكلام أوصاف المتكلم، فتكون مقصور الهم على المتكلم، موقوف الفكر عليه كأنك تشاهده^(٢). «فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ثاني عشر: أحسن صُحبة كتاب الله عز وجل بحمل رسالته، وتحقيق أهدافه ومقاصده، واعلم أن هذا القرآن الحبيب لا يفتح كنوزه إلا لمن يعمل به، ويتحرك به حركةً عمليةً واقعيةً، ويتزود بالزاد العلمي الذي يملأ وقته، ويستولي على أحاسيسه ومشاعره.. أما الذي يقرأ القرآن - ولو على القراءات العشر - ويحفظ

(١) قال الغزالي في «الإحياء» ١: ٢٩٠: «وليس معنى فهم القرآن: حفظ تفسيره، فإن في معاني القرآن مُتَسَعاً بالغاً، ومجالاً رخباً لأرباب الفهم، وإن المتقول من ظاهر التفسير ليس مُنتهى الإدراك فيه»، ثم وجه معنى النهي عن تفسير القرآن بالرأي بأنه يُنزل على أحد وجهين: أحدهما: أن يكون له في الشيء غرض، وإليه ميل من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه، ليجتج به على تصحيح غرضه، فيكون المراد بالرأي: الرأي الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح. والوجه الثاني: أن يُسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسَّماع والثقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيها من الألفاظ المبهمة والمجملّة والمُبدلة، وما فيها من الإيجاز والاختصار، والحذف والإضمار، والتقديم والتأخير، وغير ذلك.

فمن لم يُحكّم ظاهر التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زُمرة من يفسر القرآن بالرأي وهوى النفس انتهى. وقد نقل هذا التوجيه لأحاديث النهي عن التفسير بالرأي ابن الأثير في «جامع الأصول» ٤: ٢، والقرطبي في مقدمة «تفسيره» ص ٩٢ - ٩٣ دون أن يعزوا إلى الغزالي.

(٢) الإحياء ١: ٢٨٧، والبرهان ١: ٤٥٢.

أجزاءه الثلاثين، ويُطالع معظم تفاسيره، ويبحث عن بيانه وأسلوبه وبلاغته، وهو (قاعدٌ) عن اهتماماته وحركته ودعوته، فإنه لا يمكن أن يتعرّف على القرآن، ولا أن يُحسن صُحبته، ولا أن يتعامل معه!!

فعليك أن تدعو النَّاس إلى القرآن، وتُرَبِّيهم عليه، وتَعقد حلقات ودورات التلاوة والحفظ، والتدبُّر والفهم، ومجالس التَّزْكِيَةِ والتَّزْيِيَةِ. . ولتواجه الأعداء بالقرآن، وتجاهدهم به، وتُحصِّن شباب الأُمَّة بالقرآن. . . عليك أن تُعطي القرآن أفضل أوقاتك، وأبرك ساعاتك، وهي ما تكون وقت السحر لمناجاة الله، وبعد الفجر للتلاوة والحفظ والتدبُّر، وفي النهار للدعوة والتَّوجيه والتَّزْكِيَةِ.

ولا تنسَ هذه القاعدة الصَّادقة: إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يُعْطِيكَ بَعْضَهُ إِلَّا إِذَا أُعْطِيَتْهُ كُلُّكَ. ومعنى أن تُعطي القرآن (كلُّكَ): أن تَقْصُر هدفك وغايتك عليه، وتُوَجِّه هَمَّكَ واهتمامك له، وتملأ أوقاتك به، وتعيش مع القرآن في حياتك.

* * *

الاستعاذة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم إذا أراد أن يقرأ القرآن، قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]. والأمر بالتعوذ يعم جميع الأمة، وهو أمر للثَّوب لا للوجوب.

والحكمة في مشروعية التعوذ عند إرادة القراءة هي: أن قراءة القرآن الكريم عبادة عظيمة، تتطلب الإخلاص لله تعالى، وإحضار القلب؛ ليعظم الأجر، وتحقق الفائدة. وإن من شأن الشيطان أن يوسوس للإنسان إذا دخل في عبادة، ليشغل قلبه عن الحضور، فجاء الأمر الإلهي بالتعوذ عند إرادة قراءة القرآن الكريم، ليكون القارئ في عباد منيع، وجزز حصين، وبذلك يحضر القلب، وينشرح للتلاوة. فالاستعاذة - إذن - تُطهر القلب عن كل شيء يشغله عن الله تعالى.

وفيها: إقرار العبد بالعجز والضعف، واعترافه بقدرة الباري سبحانه، وأنه هو الغنيُّ القادر على دفع جميع المضرات والآفات. وفيها: اعتراف من العبد أيضاً بأن الشيطان عدوٌّ مبین. ومعنى «أعوذ بالله»: ألتجئ إليه وأمتنع به؛ لأجل أن يحفظني من شرِّ الشيطان ووساوسه، ومن إفساده عليَّ أمر ديني ودنياي، فإنه لا يحفظ العبد ولا يُجيريه من الشيطان إلا الله تعالى. و«الشيطان»: كلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ مُتَّباعدٍ عما يُرضي الله تعالى من الجنِّ والإنس، وإبليس إمام الشياطين ورئيسهم.

و«الرجيم»: المطرود عن رحمة الله تعالى. وكلُّ من اتخذ إبليس إماماً له، وصار مُغوياً مُضلاً لعباد الله، فهو شيطان رجيم.

واتفق جمهور العلماء على أن الاستعاذة سنة في الصلاة، ويُستحبُّ لقارئ القرآن خارج الصلاة أن يتعوذ أيضاً قبل قراءة القرآن.

وأجمع العلماء على أنَّ الاستعاذة ليست من القرآن الكريم؛ ولهذا لم تُكتب في المصاحف.

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

سُمِّيتْ هذه السُّورَةُ بالفاتحة؛ لأنه بها افتُتِحَ القرآن، وبها تُفْتَحُ كتابَةُ المصاحف، وبها تُفْتَحُ الصَّلَاةُ. وتُسَمَّى سورة الحمد؛ لافتتاحها بالحمد لله، وأمَّ القرآن، وأمَّ الكتاب؛ لاشتغالها على أهمِّ موضوعات القرآن، وتُسَمَّى أيضاً السَّبعِ المِثْنِيَّ؛ لأنَّ بينَ جملِها مَطَوِيَّاتٍ مِنَ المعاني جامعةً لِكُلِّياتِ كِبَرَى لِلدِّينِ، جاءَ بيانُها التَّفصِيلِي فِي سائرِ سورِ القرآن، ولِها أسماءُ أُخرى. وهي أعظمُ سورة فِي القرآن العظيم.

١ - بِاسْمِ اللَّهِ أَفْرَأُ، ﴿اللَّهُ﴾ اسْمٌ عَلَمٌ، دالٌّ عَلَى ذاتِ اللَّهِ تَعَالَى، الإلهِ المعبودِ بِحَقٍّ، الْمُتَّصِفُ بِجميعِ الكَمالاتِ، الْمُنَزَّهُ عَنِ جميعِ الآفاتِ، وهو اسمُ تَفَرُّدٍ بِهِ الباري سُبْحانَهُ، لا يَشْرِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ، ﴿الْكَرِيمُ﴾ العظيمُ الرَّحمةَ، الَّذِي تَجَلَّتْ آثارُ رَحْمَتِهِ، وَبَدَتْ مظاهِرُها فِي كُلِّ أُنْحاءِ الوجودِ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ الدائمُ الرَّحمةَ. وتَقْدِيمُ الرَّحْمَنِ عَلَى الرَّحِيمِ مِنْ بابِ تَقْدِيمِ الدَّلِيلِ عَلَى النَتِيجَةِ، فَإِنَّ ظُهُورَ آثارِ الرَّحمةِ عَلَى كَثْرَةِ واتِّساعِ، دَلِيلٌ عَلَى دوامِ الرَّحمةِ وَرِسوخِها.

٢ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الْمُسْتَحَقُّ لِلْحَمْدِ هو اللَّهُ تَعَالَى، لِكَمالاتِهِ الذاتِيَّةِ المطلقةِ، وَلأنَّهُ الْمُحْسِنُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى كافَةِ الخَلْقِ، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مالِكُهُم، وَخالِقُهُم، وَرازِقُهُم، وَمُربِّيَهُم وَفَقَ نظامِ التَّربِيَةِ المتدرِّجِ حالاً بَعْدَ حالٍ، وَمُصلِحُهُم، وَسَيِّدُهُم المطلقِ. وَ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جَمْعُ عَالَمٍ، وهو اسمٌ لِكُلِّ مَوْجودٍ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى.

٣ - ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الَّذِي وَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ الْإِنْسَانِيَّةَ جَمِيعُها، بِنِعْمَةِ الوجودِ والحياةِ والرِّزْقِ، وَنِعْمَةِ الهِدايَةِ الفِطْرِيَّةِ، وَنِعْمَةِ الهِدايَةِ السَّمَاوِيَّةِ بِإِرسالِ الرِّسْلِ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ، ﴿الرَّحِيمُ﴾ الَّذِي يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ وَفِيوضاتِ إِنْعامِهِ وإِكرامِهِ الْمُؤْمِنِينَ، بِالْإِصْطِفَاءِ وَالاجْتِبَاءِ، وَالقِيادَةِ

وَالْإِمَامَةِ، وَالتَّوْفِيقِ وَالرَّشَادِ، وَالْمَزِيدِ مِنَ الْفَضْلِ. وَعَلَى هاتينِ الرَّحْمَتَيْنِ يَقومُ رُكْنُ النُّبُواتِ، فهو رَحْمَةٌ عَامَّةٌ لِلْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، وَرَحْمَةٌ خَاصَّةٌ لِلْمُرْسَلِينَ، وَمِنْ اهْتَدَى بِهَدْيِهِمْ.

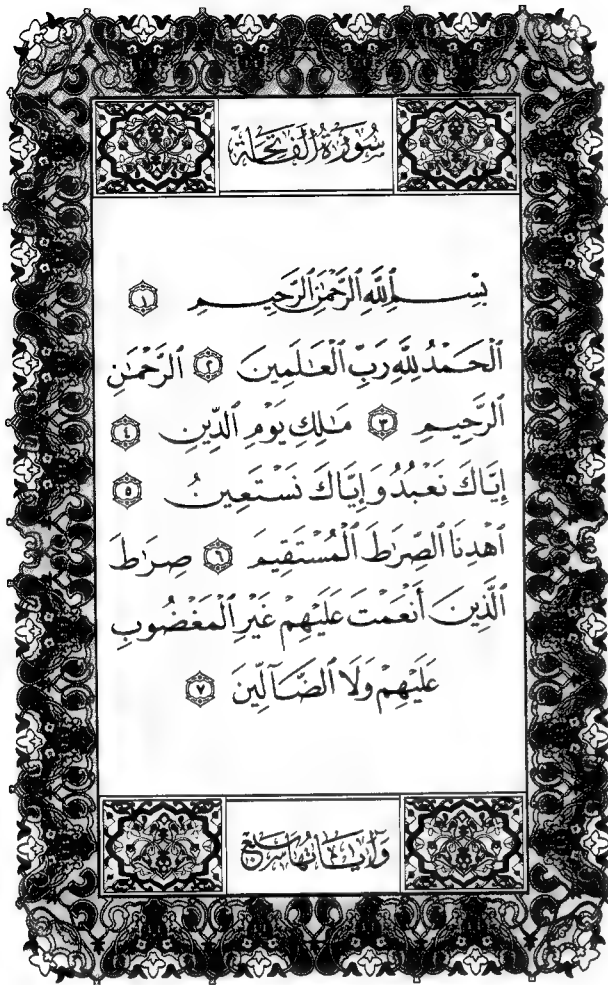
٤ - وهو سُبْحانَهُ صاحِبُ ذَلِكَ اليَوْمِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْحِسابُ وَالْجِزاءُ. وَخَصَّ يَوْمَ الدِّينِ بِالذِّكْرِ مَعَ كَوْنِهِ سُبْحانَهُ مالِكاً لِلْأَيامِ كُلِّها؛ لِأَنَّ مَلِكَ الْأَمْلاكِ يَوْمَئِذٍ زائِلٌ، فَلَا مَلِكَ وَلَا أَمْرَ يَوْمَئِذٍ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. وَقَدْ انْتَضَمَتْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢) مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ (٣) أركانُ العَقِيدَةِ الْقُرْآنِيَّةِ الثَّلَاثَةِ فِي تَرْتِيبٍ بِالْغَايَةِ فِي الْإِبْداعِ وَالْإِحْكامِ: التَّوْحِيدِ، فَالنُّبُوَّةِ، فَالْجِزاءِ.

٥ - إِيَّاكَ نَخْصُ بِغَايَةِ التَّذَلُّلِ وَنِهايَةِ التَّعْظِيمِ، وَنَوْجِدُكَ وَنَطِيعُكَ، وَمِنْكَ وَحْدُكَ نَطْلُبُ المَعُونَةَ عَلَى عِبادَتِكَ وَعَلَى جَمِيعِ أُمُورِنَا. وَباجْتِماعِ هاتينِ الْكَلِمَتَيْنِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٤) بَطَلَ الشُّرْكُ كُلُّهُ: شُرْكُ الْعِبادةِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشُرْكُ الاسْتِعاْنَةِ بِما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ. وَبَطَلَتْ الْعَقائِدُ الْمُنْحَرِفَةُ كُلُّها: بَطَلَتْ عَقِيدَةُ الْجَبْرِ الْمُحْضِ، الَّذِي يُنْكَرُ قَدْرَتَنَا وَمَسْؤُولِيَّتَنَا، وَبَطَلَتْ عَقِيدَةُ الْإِختِيارِ الْمُحْضِ، الَّذِي يَدَّعِي الاسْتِغْناءَ عَنِ مَعُونَةِ رَبِّنا، فَناحِنُ نَعْبُدُ وَنَسْتَعِينُ، وَنَعْمَلُ وَنَتَوَكَّلُ.

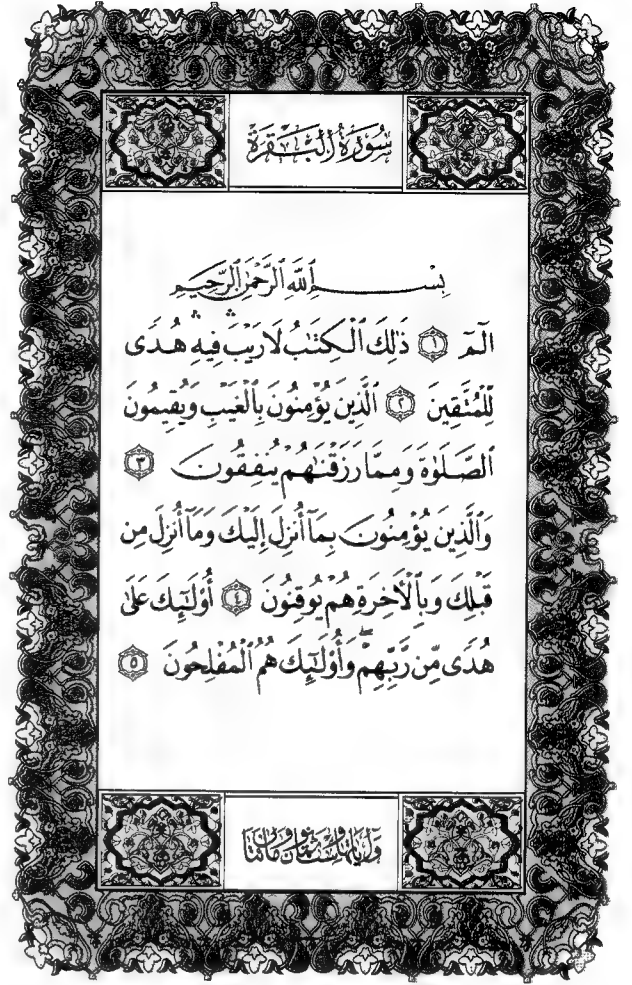
٦ - أَعْلَمْنَا وَأَرشَدْنَا وَوَفَّقْنَا إِلَى الطَّرِيقِ الْواضِحِ الْجَلِيِّ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لا عِوَجَ فِيهِ وَلا انْحِرافَ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلامِ، وَبُئِنا عَلَيْهِ حَتَّى نَلْقَاكَ.

٧ - طَرِيقَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ بِالْهِدايَةِ وَالتَّوْفِيقِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ، وَاحْفَظْنَا مِنَ الْمَيْلِ وَالانْحِرافِ عَنِ السَّبِيلِ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ حَتَّى لا نَسْلُكَ طَرِيقَ الَّذِينَ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ مِمَّنْ عَرَفُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنادِهِمْ وَإِصرارِهِمْ عَلَى الْباطِلِ، وَهُمْ الْيَهُودُ، وَمَنْ اتَّبَعَ سُلُوكَهُمْ، وَلا طَرِيقَ الضَّالِّينَ عَنِ طَرِيقِ الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ، بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ وَضِياعِهِمْ فِي مَتاهاتِ الْأَهْواءِ وَالشُّبُهاتِ وَالشَّهْواتِ، وَهُمْ النَّصارَى، وَمَنْ كانَ عَلَى شاكِلَتِهِمْ. وَبُسْنُ الْقارِئِ بَعْدَ فِراغِهِ مِنَ الْفاتِحَةِ أَنْ يَقُولَ: (أَمِينَ) مَفْصُولاً عَنْها بِسَكْتَةٍ.

وَمَعْنَى آمِينَ: اللَّهُمَّ اسْمَعْ وَاسْتَجِبْ، وَلَيْسَتْ آيَةُ مِنْ سورَةِ الْفاتِحَةِ بِاتِّفاقِ الْعُلَماءِ، وَلِهَذَا أَجْمَعُوا عَلَى عَدَمِ كِتابَتِها فِي الْمِصْاحِفِ.



سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ



١ - ﴿الْم﴾ افتتح الله بعض أوائل السور القرآنية بحروف التهجي التي تتركب منها الكلمات لحكم كثيرة، منها: التحدي بها، وإعلام الفصحاء والبلغاء بأن هذا القرآن مركب من مثل هذه الحروف، فإن كنتم تزوّن أن هذا القرآن من جنس كلام البشر، فتعالوا ألقوا وركبوا من هذه الحروف مثل هذا القرآن، فإن لم تفعلوا ذلك وعجزتم، فاعلموا أن هذا القرآن هو كلام رب العالمين. والحكمة الثانية: إثارة انتباههم إلى ما يراد إلقاؤه عليهم، إذ أن حروف التهجي هي أول ما يتعلمه المتعلمون من القراءة والكتابة، وفي هذا إشارة إلى أنهم بعيدون عن آفاق العلم والمعرفة، وعليهم أن يسيروا في طريق العلم من نقطة البدء بتعلم حروف التهجي، حتى يحسنوا الكتابة والقراءة، ثم ليرتقوا صاعدين في تدبر كلام الله والتعرف على أسرارهِ. والحكمة الثالثة: إقامة الحجة والشهادة بأن محمداً رسول الله، الذي علمه الله تلاوة هذه الأحرف بأسمائها، مع أنه أمي لم يقرأ كتاباً ولم يأخذ من معلم. والحكمة الرابعة: أن هذه الحروف المقطعة مأخوذة من كلمات على طريقة العرب في ذكر حرف من كلمة، وهم يريدونها. فكل حرف من تلك الحروف يشير إلى اسم من أسماء الله تعالى، أو اسم من أسماء النبي ﷺ حسب المناسبة لما وراءها من الآيات الكريمة، وذلك من باب إطلاق الحرف من الكلمة، وإرادة الكلمة. والعرب الذين عاصروا الرسالة، ونزل القرآن بلغتهم - وفيهم المعارضون المعاندون - لم يجدوا في هذه الحروف المقطعة ما به ينتقدون أو يشهرون، الأمر الذي يدل على أن افتتاح الكلام بأمثالها لا يثبو عن أنسابهم وأصول لغتهم. فكل حرف من هذه الحروف

هو مقصود بذاته، يدل على معنى، والله تعالى به مراد، الله أعلم بمراده منها.

٢ - ذلك الكتاب الكامل في الهداية والحكمة، لا شك في أنه من عند الله، وأنه الحق والصدق، وهو هدى للمتقين الذين يجعلون أنفسهم في وقاية مما يخاف، بامثال أوامر الله، واجتناب نواهيه. وخص الله سبحانه المتقين بالذكر تشريفاً لهم؛ لأنهم هم المنتفعون بالقرآن الكريم.

٣ - هؤلاء المتقون هم مؤمنو العرب من المهاجرين والأنصار الذين يصدقون بالغيب، الذي لا تراه عيونهم، ولا تدركه حواسهم وعقولهم، مثل الملائكة، والجنّة، والنار، والضراط، والميزان، وغير ذلك مما أخبر الله به أو أخبر به رسوله. وهم يداومون على الصلاة في أوقاتها بحدودها وإتمام أركانها وحفظها من أن يقع فيها خلل، ويتصدقون من بعض ما أعطاهم الله من الرزق في وجوه البر التي حث الله على البذل في سبيلها. والإنفاق في وجوه البر، يكون واجباً، كالزكاة والنذر ومن تجب نفقته، ويكون تطوعاً كالصدقات العامة.

٤ - والمؤمنون من أهل الكتاب الذين يصدقون بالقرآن المنزل عليك من الله، وبالكتاب المنزل على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل والزبور، ويصدقون بالدار الآخرة وما فيها من بعث وحساب، وثواب وعقاب، كأنه رأي العين.

٥ - أولئك المتصنفون بهذه الأوصاف الستة من مؤمني العرب ومؤمني أهل الكتاب، ومن اتصف بأوصافهم، وسلك سبيلهم متمكنون من تحقيق الهدى الذي جاءهم من عند ربهم، سائرون على رشاد ونور، وأولئك رفعوا المنزلة هم - دون غيرهم - الظافرون بكل خير في الدنيا، الفائزون بالجنّة والتاجون من النار في الآخرة.

الجزء الأول

سورة البقرة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمَ الْآخِرُ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمُ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لُفُّوا إِلَى اللَّهِ قَالُوا ءَامِنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خُلُوا إِلَى شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ فَمَا رَجِحتُ بَعْدَ رُغْمَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

٦ - إِنَّ الَّذِينَ أَحَدَثُوا الْكُفْرَ فِي أَنْفُسِهِمْ عَنْ إِرَادَةٍ وَتَصْمِيمٍ بَعْدَ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، مُتَسَاوٍ لَدَيْهِمْ تَخْوِيفُهُمْ وَتَحْذِيرُهُمْ وَعَدَمُهُ، فَهَم لَا يُصَدِّقُونَ فِي أَيِّ حَالٍ. وَالْمُرَادُ بِهَؤُلَاءِ الْكَافَرُ: أَجْبَارُ الْيَهُودِ وَزَعَمَاءُهُمُ الَّذِينَ جَحَدُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَعَ عِلْمِهِمْ بِهَا، وَمَعْرِفَتِهِمْ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى النَّاسِ كَافَةٌ.

٧ - طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا تَعْيِي خَيْرًا وَلَا تَفْهَمُهُ، وَخَتَمَ عَلَى مَوْضِعِ سَمْعِهِمْ فَلَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ. وَجَعَلَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِطَاءً فَلَا يَرَوْنَ الْحَقَّ، وَيَتَعَامَلُونَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ كَبِيرٌ دَائِمٌ مُؤَلَّمٌ.

٨ - وَالْمُنَافِقُونَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ أَظْهَرُوا كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ وَأَسْرَوْا الْكُفْرَ وَاعْتَقَدُوهُ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ: آمَنَّا بِاللَّهِ، وَآمَنَّا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا هُمْ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ بِمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِالسَّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ.

٩ - وَالْبَاعِثُ الْمُبَاشِرُ لَهُمْ عَلَى إِعْلَانِهِمُ الْكُذْبَ هُوَ مَبَالِغَتُهُمْ وَيَذُلُّ غَايَةَ جَهْدِهِمْ فِي مُخَادَعَةِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا، فَيُظْهِرُونَ مَا يُؤْهِمُ الصُّدْقَ وَالسَّلَامَةَ وَالسَّدَادَ، وَيُخْفُونَ خِلَافَ ذَلِكَ، وَإِنَّهُمْ إِذَا يُخَادِعُونَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلِيَّهُمْ، إِنَّمَا يُخَادِعُونَ مَعَهُمُ اللَّهَ رَبَّهُمْ، الَّذِي يَتَوَلَّاهُمْ بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ، وَيَحْمِيهِمْ مِنْ مَكْرِ الْمُنَافِقِينَ وَكَيْدِهِمْ، لِذَلِكَ فَهَمُ يَغْفُلْتَهُمْ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ أَوْ بِجَحُودِهِمْ لَهَا لَا يُخَدِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، إِذْ أَنَّهُمْ هُمُ الْوَاقِعُونَ فِي شَرِّ أَعْمَالِهِمْ، وَمَا يَعْلَمُونَ أَدْنَى عِلْمٍ أَنَّ خُدَيْعَتَهُمْ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِمْ، وَكَيْدُهُمْ مُنْقَلَبٌ إِلَيْهِمْ.

١٠ - فِي قُلُوبِهِمْ شَكٌّ وَنِفَاقٌ، فَزَادَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا وَأَلَمًا نَفْسِيًّا، كُلَّمَا

تَطَاوَلَ أَمْدُهُمْ فِي النِّفَاقِ، وَلَهُمْ بَعْدَ الْعُقُوبَاتِ الْمُعْجَلَاتِ فِي الدُّنْيَا عَذَابٌ مُّؤَلَّمٌ فِي يَوْمِ الدِّينِ؛ بِسَبَبِ مَا قَدْ سَبَقَ فِي أَيَّامِ حَيَاةِ ابْتِلَائِهِمْ مِنْ تَجَدُّدِ كَذِبِهِمْ حِينَ بَعْدَ حِينَ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ، إِذْ قَالُوا: آمَنَّا، وَهَمُ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ.

١١، ١٢ - وَإِذَا قَالَ الْمُؤْمِنُونَ لِلْمُنَافِقِينَ: لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِالْكَفْرِ وَمَوَالَاةِ أَهْلِهِ، وَنَقْلَ أَخْبَارِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَعْدَائِهِمْ، وَتَوْهِينِ قَوَى الْمُسْلِمِينَ وَتَحْذِيلِهِمْ، وَتَعْوِيقِ النَّاسِ عَنِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِالْقُرْآنِ، قَالُوا كَذِبًا: مَا نَحْنُ إِلَّا مُصْلِحُونَ. تَنَبَّهُوا وَتَحَقَّقُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - إِنَّهُمْ هُمُ شُرُ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، لَا أَنْتُمْ الَّذِينَ يَتَّهِمُكُمُ الْمُنَافِقُونَ بِإِفْسَادِ وَحْدَةِ جَمَاعَةِ قَوْمِهِمْ بِدِينِكُمُ الْجَدِيدِ، وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ أَدْنَى عِلْمٍ بِمَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنَ الْفُسَادِ؛ لِأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ صَلَاحٌ، وَهُوَ أَشَدُّ الْفُسَادِ.

١٣ - وَإِذَا قِيلَ لِلْمُنَافِقِينَ: آمَنُوا كَمَا آمَنَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، وَأَخْلَصُوا فِي إِيْمَانِكُمْ كَمَا أَخْلَصَ هَؤُلَاءُ فِي إِيْمَانِهِمْ، قَالُوا: أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ الضُّعَافُ وَالرَّأْيُ؟ تَنَبَّهُوا وَتَحَقَّقُوا إِنَّهُمْ هُمُ نَاقِصُو الْعَقْلِ، قَلِيلُو التَّفَكُّيرِ، وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كَذَلِكَ.

١٤ - هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِذَا لُقُوا بِالْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: آمَنَّا كَمَا آمَنَ الْإِيمَانُ، وَإِذَا خُلُوا مِنْ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَجَعُوا إِلَى رُؤْسَائِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ، قَالُوا لَهُمْ: إِنَّا عَلَى دِينِكُمْ، وَلَمْ نَفَارِقْكُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ، مَا نَحْنُ إِلَّا سَاخِرُونَ وَمُسْتَحْخَفُونَ بِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، بِمَا نُظْهِرُ لَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ؛ لِئَنَّا نَمُنُّ شَرَّهُمْ وَنَقْفُ عَلَى سَرِّهِمْ.

١٥ - اللَّهُ سَبْحَانَهُ يُجَازِيهِمْ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَيَمُدُّهُمْ بِالْقَوَى وَالطَّاقَاتِ ضَمِنَ سُنَّتِهِ الثَّابِتَةَ لِاسْتِكْمَالِ ابْتِلَائِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَتَرَكُهُمْ وَيُهْمِلُهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ وَإِسْرَافِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ يَعْمُونَ عَنِ الرُّشْدِ، وَيَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ الْبَقَاءِ عَلَى الْكُفْرِ وَتَرْكِهِ إِلَى الْإِيمَانِ، لَا يَدْرُونَ عَلَى أَيِّ مَنَهِجٍ يَسِيرُونَ.

١٦ - أُولَٰئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ مِنْ كُفَارِ الْيَهُودِ وَمُنَافِقِيهِمْ، الَّذِينَ أَجْرَوْا تَبَادُلًا فِي صَفَقَةٍ، امْتَلَكُوا فِيهَا الضَّلَالَةَ، وَبَدَلُوا مِنْ جَانِبِهِمُ الْهُدَى، فَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ، وَسَلَكُوا سَبِيلَ النِّفَاقِ الْمَظْلَمَةِ، وَهَمُ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ بِهَذِهِ الْمُبَادَلَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى النِّفَاقِ يَرْبِحُونَ مَا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْنٍ وَغَنَائِمٍ، وَمَصَالِحٍ وَمَنَافِعٍ، فَمَا رَبِحُوا فِي تِجَارَتِهِمُ الرِّبْحَ الَّذِي يَقْصِدُونَهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا الثَّوَابَ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ اللَّهِ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ فِي الْحَقِيقَةِ، بَلْ بَذَلُوا هَدًى ظَاهِرِيًّا غَيْرَ حَقِيقِيٍّ، لِذَلِكَ فَهَمُ سَيُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَاخْتِيَارِهِمْ سَبِيلَ الضَّلَالِ.

١٧ - صفة هؤلاء الأَحْبَارِ من يهود المدينة الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأْتَتْهُمُ آيَاتُ اللَّهِ مِنْ قَبْلِهِمْ أَوْ آخَرُهَا أَوْ لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْا كِسْفًا مِنَ النُّجُومِ نَارًا كَاشِفَةً لِلْغُمَمِ أَفَآمَنُوا بِهِمْ أَذُنًا دُونَ آلَاءِ اللَّهِ وَلَوْ سَئَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْبُدُهُمْ فَإِذَا هُم بَارِئُونَ مِنْهَا ۚ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْ قَوْمٍ مَذْمُومٍ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۚ﴾
ليؤمنوا به ويسترشدوا بهدايته، وينتصروا به على المشركين، ثم كفرهم وجحدوهم لنبوته، وإعراضهم عن هُذَاهُ، كوصف رجل اشتوق ناراً عظيمة في مفازة مظلمة مُوحِشَةً؛ ليتنفع بها، فلما أضاءت النار حوّل المُستوقِد، ورأى طريقه، وعرف سبيل هدايته، ووجد أنه على غير ما يهوى ويشتهي، اتخذ وسيلة أبعد عنها شعاع الضوء رافضاً الاهتداء بالنور، فوقع عليه قانون ذهاب النور الذي تسبّب هو في إذهابه، فبقي في ظلمات الشك والكفر والنفاق حائراً مُتخوفاً، وكذلك حال المنافقين من أحرار اليهود مروا بمرحلة رؤية نور الإسلام، والاستضاءة به، ثم أعرضوا عن هذا النور، فلم ينتفعوا به، وآثروا عليه الظلام الذي كانوا يعيشون فيه.

١٨ - إلههم صُمٌّ عن سماع الحق، خرسٌ عن التُطْقِ به، لا بصائر لهم يُمَيِّزون بها بين الحق والباطل، فهم لا يرجعون عن ضلالهم ونفاقهم؛ لأنهم اتخذوا باختيارهم الحر الوسائل إلى ذلك؛ بإصرارهم على الكفر بعد معرفتهم دلائل الإيمان، ورؤيتهم أضواء آيات الله، وبيانات الرسول ﷺ.

١٩ - وصفة فريق آخر من المنافقين المتذبذبين بين الإيمان والكفر، وهم إلى الكفر أقرب، كأصحاب مطر غزير نزل من السماء فيه الخير والخصب، والذي هو كتعاليم الدين التي تنزل من السماء بخير الناس وسعادتهم، فيه ظلمات - وهو حال من يغمض عينيه عن هدى الله ونور كتابه -، ورعدٌ - وهو مثال آيات الإنذار والوعيد -، وبرقٌ - وهو مثال لمحات من نور ما يُنزل الله على رسوله، حين يفتح هؤلاء عيونهم للرؤية -، يجعلون رؤوس أصابعهم في آذانهم، ويبالغون بضغط أصابعهم على آذانهم، ولو كان الواقع يسمح بدخولها كلها لفعلوا؛ لَحَجَبَ صوت الصواعق مَخَافَةَ الهلاك من الصوت العظيم -

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنَارٌ تَلْعَلْجُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَافُهِ إِذَا ظُلَمَ عَلَيْهِمْ فَأَمَوْا أَوْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

وهو مثال العقوبات التي يتخوفون أن تنزل بهم -، والله عالمٌ بحال الكافرين الساترين لدلائل الحق.

٢٠ - يَفْرُبُ البرق أن يختلس أبصارهم ويعميها من شدته، ومتى جاء البرق مَشَوْا في إضاءته على قدر ما يكشف لهم وميضه - وهو حالهم حينما يفتحون أعينهم على ما جاء به رسول الله -، وإذا انتهت مضاته السريعات الخاطفات وَفَقُوا متحيرين - وهو حالهم حينما يغمضون أعينهم، وهي الحال الغالبة عليهم -، فهذا الصنف من المنافقين لم تنظم بصيرتهم انطاماً تاماً، بل يتلاعب لهم نور الحق أحياناً، فيرونه، فيسيرون قليلاً فيه، ثم يعودون إلى حالتهم الأولى، ولو شاء الله لأذهب بصوت الرعد سمعهم، وبوميض البرق أبصارهم، فصاروا صُمًّا بكماً عُمى، كما فعل بأصحاب الصنف الأول من أحرار اليهود؛ إِنَّ الله على كل شيء يشاء خلقه عظيم القدرة، لا يعجزه شيء أراد.

٢١ - يا أيها المُكَلَّفون جميعاً: وخذوا ربكم ولا تشركوا في عبادته أحداً، لأنه ربكم الذي ابتدع خلقكم على غير مثال سبق، وخلق الذين من قبلكم، ويذكركم دوماً بعبادته، ويبيده نفعمكم وضرركم، رغبة أن تختاروا بإرادتكم الحُرَّة عبادة الله التي فُرِضت عليكم، فتتقون بذلك عقاب الله، وتنجون من عذابه.

٢٢ - الذي خلق لكم الأرض بساطاً ووطاءً مُدَلَّلَةً، صالحةً للسكنى والسعي والإنبات، وجعل السماء سَقْفاً مرفوعاً، تشرق عليكم شمسها، وتضيء كواكبها، وأنزل من السحاب مطراً، فأخرج بذلك المطر من ألوان الثمرات وأصناف النباتات رزقاً لكم، وإذ قد تبينتم دلائل التوحيد القائمة في أنفسكم، والمحيط بكم في الأرض والسماء، فلا تجعلوا لله أمثالاً ونظراً تعبدونها لعبادته، وأنتم تعلمون أن هذه الأصنام والأوثان لا يصحُّ عبادتها، وأنه سبحانه خالق لجميع الأشياء، وأنه لا مثل له ولا ضد.

٢٣ - وإن كنتم في شك مما نزلنا على عبدنا محمد ﷺ الكامل في عبوديته لنا، فأتوا بسورة من مثل القرآن في سمو الرتبة، وعلو الطبقة في النظم البديع، والأسلوب البليغ، واستعينوا بأهتكم التي تعبدونها من دون الله، إن كنتم صادقين أن القرآن من كلام البشر، وأن محمداً ﷺ يقول من تلقاء نفسه.

٢٤ - فإن لم تأتوا بسورة من مثله فيما مضى - بعد أن تتضافروا وتتعاونوا، وتدعوا من استطعتم أن تدعوه -، ولن تأتوا بسورة من مثله فيما يأتي، وتبين لكم أن أحداً لا يستطيع معارضة القرآن، فدعوا عنادكم، وصدّقوا بالحق الذي جاءكم، وبذلك تتقون النار التي خطبها الناس المكذّبون بالقرآن الكريم، والأصنام المصنوعة من الحجارة التي تعبدونها وتعتقدون نفعها وشفاعتها، هذه النار هيئت للكافرين بالله ورسوله. وفي الآية دليل على أن النار مخلوقة الآن.

الجزء الأول

سورة البقرة

٢٥ - وأخبر - يا رسول الله ويا كلُّ داع إلى الله من أمته - الذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات التي تُعبّر عملياً عن صحة الإيمان الإرادي الاعتقادي، بالخبر السار بأنَّ لهم بساتين فيها أشجارٌ مُلتفة متكاثفة مثمرة تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار. كلما أطعموا من الجنة طعاماً من غير جهد يبذلونه، ولا عمل يعملونه، وإنما يجيء بفضل الله وإنعامه، قالوا متعجبين: هذا الذي رزقنا من قبل في حُسن المنظر، ولذة الطعم، وأتوا بالرزق مُتشابهاً في اللون والاسم، مختلفاً في اللذة والطعم؛ ليأنسوا به، ويقدموا على أكله؛ لأنَّ النفس للمألوف أميل، ولهم في الجنات أزواجٌ مُطهرة من البَوْل والغائط والحِيض وسائر الأقدار ومساوئ الأخلاق، وهم في الجنات باقون مطمئنون، لا يخرجون منها ولا يموتون.

٢٦ - إنَّ الله سبحانه لا يمنعه الحياء من ضرب المثل بالبعوضة وما هو أكبر منها في الحجم، كالذباب والعنكبوت، والكلب والحمار، لأنَّ الله تعالى خلق جميع الكائنات الحيّة من أدناها إلى أرقاها، وجعل من كلِّ نوع منها أدلة كثيرة على كمال قدرته وعلمه وحكمته، ووجه أنظار الناس إليها ليتفكروا في خلقها، ويتأملوا في إتقان صنْعها، حتى تكون طريقاً لمعرفة خالقهم وخالق كل شيء. فهل استحيا سبحانه من خلقها، ووضّعها أمام أسماع الناس وأبصارهم حتى يستحيي من ذكرها والتّمثيل بها؟ فالمؤمنون يعلمون أنَّ ضرب المثل حقٌّ وصدق ثابت، لا سبيل إلى إنكاره، أو الاعتراض عليه؛ لأنَّه من ربهم وخالقهم، وأنَّ له حكماً وفوائد يتفهّمونها ويستفيدون منها، وأما الكفّار فيقولون بأسلوب الإنكار والاعتراض والاستغراب بسبب ضلال اعتقادهم في أوثانهم،

وغرستهم وعنادهم: ما الذي أراد الله بهذا المثل؟ والله سبحانه بعديله وحكمته يحكم بضلال المنكرين؛ لأنَّهم يكذبونه فيزدادون به ضلالاً، ويحكم بهداية المؤمنين؛ لأنَّهم يُصدّقون ويعلمون أنه حقٌّ من عند ربهم، وما يحكم الله إلا بضلال الخارجين عن الإيمان إلى ذرّكات الكفر.

٢٧ - من أوصاف الفاسقين الخارجين عن الإيمان: أنَّهم ينكثون بتجدّد واستمرار دين الله تعالى وشريعته من بعد عَقْدِهِ وتوكيده، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الإيمان بمحمد ﷺ وجميع الرسل، ويقطعون كذلك الأرحام التي أمر الله بصلتها، ويفسدون في الأرض بهدم عقائد الإيمان الصحيح، وبإثارة الفتن وإيقاد الحروب، ونشر الفسوق والفجور، وأنواع الفواحش، والمجاهرة الوقحة بمعصية الله ورسوله، أولئك الموصوفون بهذه الأوصاف الثلاثة القبيحة، البعداء المنحطون إلى جهة الدرك الأسفل من النار هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

٢٨ - كيف تنكرون - أيها المشركون - وحدانية الله تعالى، وتشركون به غيره في العبادة، وكنتم أمواتاً يوم استقراركم نُطفاً في أصلاب آبائكم، فنفخ فيكم الأرواح، وأصبحتم في طور إحساس وحركة وتفكير وبيان، ثم بعد انتهاء حياة الابتلاء في الحياة الدنيا يميّتكم بقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم المقدّرة لكم، ثم بعد مدّة البرزخ في الفاصل بين الموت والبعث يُحييكم ببعثكم من قبوركم، ثمَّ إليه وحده دون سواه بعد الموت وبعد البعث تردّون في الآخرة، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء. فكفركم مع هذه الأدلة الداعية إلى الإيمان أمرٌ مُستغرب يُتعجب منه؟

٢٩ - كيف تكفرون بالله؟ وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً؛ لتنتفعوا به وتحسنوا استعمال ما خلقه لكم وملّكم التصرف فيه، فإنه ما من شيء في الوجود إلا يمكن استعماله في طريق الخير، واستعماله في طريق الشر، وقد وضّع الله هذه الوسائل الكونية والمُسخرات تحت أيديكم لبيّتلكم فيها، هل تستعملونها في الخير أم تستعملونها في الشر؟! ثم قصّد سبحانه وأقبل إلى خلق السموات، فخلّقهنَّ سبعَ سمواتٍ مُستويات لا صدع فيها ولا فطور، وهو سبحانه بكلِّ شيء عليم، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم الجزئيات كما يعلم الكلّيات. وفي الآية دليل على أنَّ الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما وردَّ الشرع بتحريمه.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

﴿٢٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٨﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٩﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٠﴾

٣٠ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي لبيانا - حين قال ربك للملائكة: إني خالق خليفة، وهو آدم عليه السلام وذريته، يخلف بعضهم بعضاً في عمارة الأرض، فسأل الملائكة ربهم: ما صفة هذا المخلوق؟ وما خصائصه؟ فأبان لهم صفاته، ومنها أنه يكون ذا إرادة حرة، وذا صفات نفسية ينتج عنها الإفساد في الأرض، وسفك الدماء. قالوا له على سبيل التعجب: أتجعل في الأرض من يُفسد فيها بالمعاصي، ويُريق الدماء بغير حق؟ ونحن نُنْزِلُكَ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بعظمتك تنزيهاً مقترباً بحمدك والثناء عليك، ونُطَهِّرُكَ عن النقائص وكل سوء، ونُصَفِّقُ بما يَلِيْقُ بعزك وجلالك. فقال سبحانه للملائكة: إني أعلم ما لا تعلمون. وفي هذه الآية دليل على أن حكمة الله تخفى على أقرب الخلق إليه، كما خفيت حكمة استخلاف آدم في الأرض على الملائكة، حتى اشتاقوا إلى معرفة الحكمة في هذا الاختيار.

٣١ - ولَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَتَمَّ خَلْقَهُ، عَلَّمَهُ صِفَاتِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا وَخَصَائِصَهَا الدَّالَّةَ عَلَيْهَا، وَالْمُمَيِّزَةَ لَهَا، فَأَظْهَرَ اللَّهُ فَضْلَ آدَمَ عَلَيْهِمُ بِالْعِلْمِ، ثُمَّ عَرَّضَ تِلْكَ الْمُسَمَّيَاتِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ تَعْجِزُ أَهْمُ: أَخْبَرُونِي بِأَسْمَاءِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَنِّي لَمْ أَخْلُقْ خَلْقًا إِلَّا كُنْتُ أَفْضَلُ مِنْهُ وَأَعْلَمُ؟ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى نُبُوَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ عَلَّمَهُ سَبْحَانَهُ أَسْمَاءَ الْمُسَمَّيَاتِ بِدُونِ وَاسِطَةٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُبَيِّنَ بِهَا الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

٣٢ - قالت الملائكة: تنزيهاً لك عن أن يكون فعلك لغير حكمة، لا نُحِيطُ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِكَ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ بِخَلْقِكَ، الْحَكِيمُ فِي أَمْرِكَ.

٣٣ - قال الله تعالى لَمَّا ظَهَرَ عَجْزُ الْمَلَائِكَةِ: يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَسَمَّى كُلَّ شَيْءٍ بِاسْمِهِ، وَذَكَرَ وَجْهَ الْحِكْمَةِ الَّتِي خَلَقَ لَهَا، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ - يَا مَلَائِكَتِي - إني أعلم ما خفي عنكم في السموات والأرض، ممَّا كَانَ وَمَا سَيَكُونُ، وَأَعْلَمُ مَا تُظْهِرُونَ وَمَا تُسْرُونَ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَزِيَّةُ الْعِلْمِ وَفَضْلُهُ عَلَى

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ
فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا
سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْبِيَائِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْفَاطِكِينَ ﴿٣٥﴾
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾
فَنَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

العبادة، وأنه شرط في الخلافة في الأرض وعمارته، بل هو عُمْدَتُهَا وَأَسَاسُهَا.

٣٤ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي لبيانا - هذا الحدث الذي جرى وقت قال ربك للملائكة: اسجدوا لآدم، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ لِآدَمَ سَجُودَ تَحِيَّةٍ وَتَكْرِيمٍ لَا سَجُودَ عِبَادَةٍ، إِلَّا إِبْلِيسَ الَّذِي كَانَ مُنْذَرًا فِيهِمْ، كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ، امْتَنَعَ وَتَكَبَّرَ وَتَعَظَّمَ عَنِ السَّجُودِ لِآدَمَ، وَكَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْكَافِرِينَ.

٣٥ - وقال الله تعالى: يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ حَوَاءَ الْجَنَّةَ، وَاتَّخِذَا مِنْهَا مَأْوًى وَمَنْزَلًا، وَكُلَا مِنْ ثَمَرِهَا أَكْلًا وَاسِعًا هَنِيئًا مِنْ غَيْرِ انْقِطَاعٍ كَيْفَ شِئْتُمَا وَمَتًى شِئْتُمَا وَأَيْنَ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ لِلْأَكْلِ، فَإِنْ أَكَلْتُمَا مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ظَلَمْتُمَا أَنْفُسَكُمْ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِي وَمَعْصِيَتِي، إِذْ تُسَبِّبُ لَكُمَا مَعْصِيَتِكُمَا الْإِخْرَاجَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْإِهْبَاطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَتَحْمُلَ الْكَدْحِ وَالْعَنَاءَ وَالْمَتَاعِبَ فِيهَا. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ ثَابِتَةٌ عَلَى نُبُوَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ بِدُونِ وَاسِطَةٍ، وَالْخُطَابَ مُوجَّهًا لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَحَوَاءَ تَابِعَةٌ لَهُ، وَبِوَاسِطَتِهِ تَوَجَّهَ الْخُطَابُ لَهَا. وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ مَخْلُوقَةٌ الْآنَ.

٣٦ - وَسُوسَ الشَّيْطَانِ لِآدَمَ وَحَوَاءَ، وَذَعَاهُمَا إِلَى الْخَطِيئَةِ، وَجَعَلَهُمَا يَزْلَآنَ وَيَزْلَقَانِ حَتَّى سَقَطَا فِي وَحْلِ الْمَخَالَفَةِ لِمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ مِنَ النِّعَمِ وَالْعَيْشِ الْكَرِيمِ، وَقَالَ اللَّهُ لِآدَمَ وَحَوَاءَ وَلَمَنْ أَوْدَعَ فِيهِمَا مِنْ ذُرِّيَّاتٍ سَتَنَاسِلُ مِنْهُمَا حَتَّى آخِرَ إِنْسَانٍ فِي الْأَرْضِ: انْزِلُوا مِنْ مَكَانِ الْجَنَّةِ الْعَالِي إِلَى الْأَرْضِ، وَالْحَالُ أَنَّهُ سَيَكُونُ بَعْضُكُمْ عَدُوًّا لِبَعْضٍ؛ بِسَبَبِ اخْتِلَافِ مَصَالِحِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَمَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ مِنْ تَحَاسُدٍ، فَتُظْهِرُ الْعِدَاوَاتُ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْأَسْرَ، وَالْأَقْوَامِ وَالْأُمَمِ، حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَكَائِدَ كَثِيرَةٍ بَيْنَهُمْ، وَخُصُومَاتٍ شَدِيدَةٍ، وَحُرُوبٍ كَبِيرٍ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَكَانٌ اسْتِقْرَارٌ مُؤَقَّتٌ، مُقَدَّرٌ بِأَحْكَامٍ لِسُكَّانِهِ، وَمَتَاعٌ يَنْتَفِعُ بِهِ إِلَى زَمَنِ مُحَدَّدٍ، بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، لِكُلِّ فَرْدٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا.

٣٧ - فاستقبل آدم بالأخذ والقبول من ربه كلمات كانت سبب توبته، وهي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَنَا تَقْوَرٌ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فَأَتَمَّهُمْ وَعَمِلَ بِمَا جَاءَ فِي مَضْمُونِهِمْ، فَتَجَاوَزَ عَنْهُ وَعَفَّرَ لَهُ، إِنَّهُ هُوَ الرَّجَّاعُ عَلَى عِبَادِهِ بِقَبُولِ التَّوْبَةِ، الدَّائِمِ الرَّحْمَةِ بِالْمُؤْمِنِينَ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ - وَإِنْ سَمَتْ مَزَلَّتُهُ وَعَظُمَتْ رُبَّتُهُ - لَا يَخْلُو مِنْ هَفْوَةٍ تَقَعُ مِنْهُ، لِنِسْيَانٍ يَعْرِضُ لَهُ، أَوْ تَأْوِيلٍ يَرَاهُ، كَمَا وَقَعَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَيْثُ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ نَاسِيًا. وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ وَقُوعَ الْمَخَالَفَةِ مِنَ الْعِبَادَةِ يُجْبِرُ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ آدَمَ حِينَ اعْتَرَفَ وَتَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَاجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ.

٣٨ - قال الله لآدم وزوجه وذريتهما في ظهر آدم: انزلوا من مكان الجنة العالي جميعاً، وقد أنعمت عليكم بهدايتي التي تؤدبكم إلى الجنة مرة أخرى، فإِذَا يَأْتِيكُمْ مني تعليمات مُنْزَلَات تُبَيِّن لكم ديني، وفيها هدايتكم فأتبعوها، واعملوا بما تشتمل عليه من أوامر ونواهي، وإرشادات ونصائح، فمن تبع هداي، للارتقاء في درجات البر والإحسان، فلا خوف مُسلط عليهم تُضطرب به نفوسهم وقلوبهم، بسبب ترقب حدوث مكروه، أو توقع فوات محبوب، ولا هم يحزنون بسبب مكروه نزل فعلاً بهم، أو من أجل محبوب فاتهم الحصول عليه، وهذا يكون لهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلا أن إيمانهم يجعلهم راضون عن الله تمام الرضا بكل مقاديره، مطمئنين لحكمته، واثقين بثوابه، وأما في الآخرة، فإنهم لا يخافون من عقاب الله، لأن رحمة الله ستشملهم، ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا، لأنهم سينالون من النعيم فوق ما يمتنون، وسيعطون من كل ما يطلبون ويشتهون.

٣٩ - والذين جحدوا وكذبوا بآياتنا الكونية والبيانية المنزلة والإعجازية والجزائية العقابية أولئك البعداء عن رحمة الله أصحاب النار الملامون لها، المخالطون لألوان عذابها، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

٤٠ - يا أولاد العبد الصالح يعقوب: كونوا مثل أبيكم في اتباع الحق، واشكروا نعمي الكثيرة عليكم، وامثلوا أمري، وأدوه وافيًا، فإن فَعَلْتُمْ ذلك أوفٍ بما عاهدتكم عليه من طيب الحياة في الدنيا، وحسن الثواب في الآخرة. وإيائي - وحدي - فخافوني في نقضكم العهد، وفي جميع ما تأتون وتذرون، ولا تخافوا غيري من الشركاء.

٤١ - وأمّوا - يا ذرية يعقوب - بالقرآن المنزل من عند الله، المُوافق لما في التوراة من التوحيد والنبوة وصفة النبي ﷺ، ممّا بقي معكم من غير تحريف ولا تبديل، ولا تكونوا - يا معشر اليهود - أول من كفر به، بل يجب أن تكونوا أول من آمن به لأنكم تعرفون صفته، ولا

تستبدلوا بآياتي الواضحة الدالة على صدق محمد، ولا تتبعوها بشمن دنيوي قليل من حطام الدنيا، وإيائي - وحدي - فأتبعوا أمري، واجتنبوا معصيتي، ولا تتقوا غيري من الشركاء.

٤٢ - ولا تكتبوا في التوراة ما ليس منها، فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبت، ولا تكتبوا الحق بإخفائه وطمس معالمه، ومن ذلك: صفات النبي محمد ﷺ التي صرح بها أنبياءكم، وجاء ذكرها في الكتب المنزلة عليهم، وأنتم تعلمون أن محمداً ﷺ نبي مرسل من عند الله عز وجل.

٤٣ - وأقيموا الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها وجميع أركانها، وأدوا الزكاة المفروضة عليكم في أموالكم، طيبة بها نفوسكم، ابتغاء وجه الله، وصلوا مع المصلين من أمة محمد ﷺ.

٤٤ - يا أحبار اليهود: ما أقبح حالكم حين تأمرون الناس بالتوسع في أعمال الخير والطاعات فوق الواجبات، وتركوا أنفسكم، فلا تأمرونها كما تأمرون الناس، مع أنكم مكلفون بما تأمرون الناس به، وأنتم تقرأون التوراة وتدرسونها، وفيها نعت محمد ﷺ، والحث على الأفعال الحسنة، والإعراض عن الأفعال القبيحة، أفليس لديكم عقل إرادي تستطيعون به عقل نفوسكم عن اتباع أهوائها وشهواتها، واتباع خطوات الشيطان إلى ما فيه هلاككم وعذابكم عند ربكم؟!

٤٥، ٤٦ - واطلبوا المعونة - يا أحبار اليهود - على أمر الإيمان بمحمد ﷺ والتزام شريعته، وترك الرياسة وحُب الجاه والمال، بحس النفس عن الشهوات والمُحَرَّمات، وإن صَمَمْتُمْ إلى ذلك الصلاة هان عليكم ترك ما أنتم عليه، وإن هذه النقلة من اليهودية والأنانية إلى الإسلام لثِقَلَةٌ شاقّة إلا على الخائفين المتواضعين المُحِبِّين للطاعة، الذين يتوقعون لقاء الله تعالى، ويرجون ثوابه في الآخرة، وأنهم إليه سبحانه وحده راجعون، والظن بملافة الله يوم الدين كافٍ لقبول هذا التغيير، فكيف باليقين؟! فأنتم - يا أحبار اليهود - لم تصلوا إلى مُستوى الظن فضلاً عن اليقين. ولو بلغتكم إلى ذلك المستوى لتركتم ما أنتم عليه من أنانية بغیضة، واستكبار مقیت.

٤٧ - يا ذرية يعقوب: تذكروا نعمي الكثيرة التي أنعمت بها عليكم دون غيركم من الناس، واشكروا لي عليها، وتذكروا أنني فضلتكم على عالمي زمانكم عندما كنتم تقيمون التوراة.

٤٨ - واحذروا عذاب يوم لا تقضي فيه نفس عن نفس حقاً لزمها، ولا ترد عنها شيئاً ممّا أصابها، ولا تقبل في ذلك اليوم الشفاعة في نفس كافرة، ولا يؤخذ من أحد فديةً وبَدَل عن كفره بالغا البدل ما بلغ، ولا يجدون من يعينهم ويمنعهم من عذاب الله.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارِهٌ بِكُمْ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتِنٌ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسِنُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَالْأَنَامِ تَعَاوُنًا ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الزَّكَاةِ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيَّ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾



٤٩ - وضعوا في ذاكرتكم - أيها اليهود المعاصرون - نعمتنا عليكم حين خلصنا أسلافكم وأجدادكم الذين تفاخرون بهم، من أتباع فرعون ونصرائه وأعدائه الذين كانوا يُكَلِّفونكم ويَحْمِلونكم أشد العذاب وأسوأه وأكثره مشقة وظلماً؛ يُذَبِّحُونَ أبناءكم الذكور؛ لثلاث يكثر رجالكم فيكونوا خطراً على قوة آل فرعون العسكرية، ويستيقظون موليدكم البنات أحياء اللواتي سيكون مصيرهنّ نساء؛ للخدمة والامتهان. وفي ذلكم الذي كان يجري لأجدادكم في مصر امتحاناً لكم عظيم من ربكم، الذي كافاكم على الصبر عليه بأن فضلكم على أهل تلك القرون، وأنجاكم بالمعجزة الخارقة.

٥٠ - واذكروا نعمتنا عليكم، حين فصلنا لأجلكم البحر بعضه عن بعض، وجعلنا فيه طريقاً يابسة، فعبثتم إلى البرّ سالمين، فألقنناكم من فرعون وجنوده، وأغرقنا آل فرعون، وأنتم تنظرون إلى هلاكهم.

٥١ - واذكروا نعمتنا عليكم حين واعدنا موسى أربعين ليلة لأنزال التوراة عليه هداية لكم ونوراً، ثم اتخذتم العجل الذهبي الذي صاغه لكم السامري إلهاً من بعد ذهاب موسى إلى موضع المناجاة عند جبل الطور، وأنتم ظالمون لأنفسكم أعظم أنواع الظلم بالشرك بالله تعالى، حيث وضعتم العبادة في غير موضعها.

٥٢ - ثم بعد مدة متراخية من الزمن تجاوزنا عنكم، ومَحَوْنَا ذُنُوبَكُمْ من بعد عبادتكم العجل؛ رغبة أن تشكروا عفوي عنكم، وحُسن صنيعي إليكم.

٥٣ - واذكروا نعمتنا عليكم حين أعطينا موسى التوراة والشرائع والأحكام الفارقة بين الحلال والحرام، والمعجزات الفارقة بين دعوى الصادق والكاذب؛ لكي تهتدوا من الضلالة.

٥٤ - واذكروا - يا بني إسرائيل - نعمتنا عليكم، حين قال موسى للذين عبدوا العجل من قومه: إنكم عَرَضْتُمْ أَنْفُسَكُمْ لعقاب الله الشديد المرتب على الشُّرك به، بأنخذكم العجل إلهاً لعبودته، وإذا كنتم قد

ضللتم هذا الضلال، وظلمتم أنفسكم ذلك الظلم، فارجعوا إلى خالقكم الذي خلقكم خَلْقاً مُبَرَّئاً عن التفاوت والنقص، في ذروة الكمال للغاية التي أعددت لها، بالتوبة من ذنوبكم العظيم، الذي ارتكبتموه، ومن توبتكم أن تنفذوا الحد الذي أَوْجَبَهُ الله عليكم، بأن يقوم الذين لم يعبدوا العجل بقتل الذين عبدوه، في ساحة واحدة مشتركة. توبتكم إلى ربكم ذات المكانة الرفيعة، وقتلكم لأنفسكم طاعة له خير لكم عند خالقكم من الخلود الأبدي في النار، ففعلتم ما أمرتكم به، فتجاوز عنكم، ورفع تنفيذ حدّ القتل عَمَّنْ لم يُقتل بعد منكم؛ لأنه هو وحده الرجاء بالمغفرة، القابل للتوبة، كثير الرحمة بخلقه.

٥٥ - واذكروا وقت أن قال آباؤكم: يا موسى لن نؤمن بما تدعونا للإيمان به منقادين لك، حتى نرى الله عياناً بلا حاجز، فنزلت عليكم نار من السماء أحرقتكم، أو صيحة سماوية صعقتكم؛ بسبب جُرأتكم على الله تعالى، وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض كيف يأخذه الموت. وسؤالهم هذا سؤال تعنت وعناد، وليس سؤال استرشاد، إذ أجرى الله تعالى على يدي موسى كثيراً من المعجزات الدالة على صدقه، وإنزال الصاعقة عليهم ليس لمجرد الطلب، ولكن لما انضم إليه من التعنت وفرط العناد.

٥٦ - ثم أحييناكم من بعد موتكم؛ نستوفوا بقية آجالكم وأرزاقكم المقدرة لكم؛ لكي تشكروني على نعمتي عليكم بإحيائكم.

٥٧ - واذكروا نعمتنا عليكم حين كنتم في التَّيِّه في الصحراء بين مصر والشام، بعد أن خذلتكم نبيكم موسى عليه السلام، ورفضتم الجهاد معه لدخول الأرض المقدسة، فحرّمنا عليكم دخولها أربعين سنة، وجعلنا الغمام الأبيض الرقيق يقيكم حرّ الشمس، ويسرنا لكم في فترة التَّيِّه الحصول على الطعام، وأغنياكم عن عناء طلبه، والبحث عنه في الصحراء، وأنزلنا عليكم المنّ، - وهو رزق يسقط لهم على وجه الأرض، يتجمّع كالجليد، طعمه كرقاق خبز بعسل - والسَّلْوَى - وهو طير بريّ لذيذ اللحم، سهل الصيّد، يمسكونه بأيديهم يشبه السَّمَانَى -، وقلنا لكم: كُلُوا من هذا الطعام اللذيذ الحلال النافع، الذي يسرناه لكم بدون عناء ولا تعب، ولا تدخروا لغد، فخالقتم وأدخرتهم ففسد. وما ظلمونا بكفرهم وفجورهم، لأنه لا يضرّني ظلم الظالمين، كما لا تنفعني طاعة المطيعين، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون المرأة بعد الأخرى؛ إذ يُعْرِضُونَهَا لعذاب أبدي في جهنم مع ما ينزل بهم من عذاب واضطهاد ودلّ ومهانة في الدنيا.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُوءُ مَوْتَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلًّا مِنْ طَائِفَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

٥٨ - واذكروا نعمتنا عليكم حين قلنا لأبائكم بعد خروجهم من الثَّيِّه: ادخلوا هذه القرية، مُقاتلين في سبيل الله، فكلُّوا من طعام القرية وثمارها عَقَبَ دخولكم فاتحين، وقبل أن تستقروا فيها ساكنين، من أيِّ مكانٍ شتُم أكلاً طيباً كثيراً واسعاً بلا عناء، وادخلوا الباب منحنين خُضْعاً متواضعين، شكراً لله على ما أنعم به عليكم من إخراجكم من الثَّيِّه، والمقام ببلدة تعيشون فيها عيشة ناعمة، وقولوا: حُطَّ عنا - يا ربُّنا - خطايانا وذنوبنا، ولا تُحاسِبنا عليها، نسْتُرْ لكم ذنوبكم ومعاصيكم، فلا نكشفها لمحاسبتكم عليها، وسنزيد المحسنين الذين أحسنوا في عبادتهم وطاعتهم، واستشعروا برقابة الله عليهم، على ما يستحقون من الثواب تفضلاً منا.

٥٩ - فغيّر الظالمون من بني إسرائيل قولَ الله الذي أمرهم به، فقالوا قولاً غير ما قيلَ لهم، وبَدَّل أن يتوجَّهوا إلى الله تعالى بالضراعة توجَّهوا إليه بطلب المادة، وذلك أنهم بدَّلوا قولَ الحِطَّة بالحِطَّة، استخفافاً بأمر الله تعالى، وعدولاً عن إرضائه سبحانه إلى طلب ما يُرضي أهواءهم، ويُسبِّح بطونهم، ودخلوا زُخْفاً على أستاذهم، فخالفوا في الفعل كما خالفوا في القول. فتفرَّع على فسقهم عن طاعة الله بتبديل القول الذي قيلَ لهم، معاقبتهم بإنزال عذاب أنصبَّ عليهم من السماء؛ بسبب خروجهم عن أمر الله المرَّة بعد الأخرى.

٦٠ - واذكروا نعمتنا عليكم - وأنتم عطاشٌ في الثَّيِّه بعد خروجكم من مصر - حين طَلَبَ موسى السِّقْيَا لكم، فأوحينا إليه: اضرب بعصاك الحجر الذي أعلمناك به، فَضْرَبَهُ، فانشَقَّت من الحجر المَعِين اثنتا عشرة عَيْناً، وانصَبَّت مياهاً بشدَّة وتدفُّق على عَدَدِ قبائل بني إسرائيل، لكلِّ قبيلة عَيْنٌ تجري بالماء تشرب منها، وأعلمنا كلَّ

قبيلة بموضع شربهم وزمانه؛ لكيلا يتزاحموا على الماء، فينال الماء القوي، ويضيع الضعيف، وقلنا لهم: كُلُّوا من المَنِّ والسَّلْوَى، واشربوا من الماء المتفجِّر من الحَجَر، فهذا كُلُّه من رزقِ الله أناكم بلا مَشَقَّة ولا كُلفَة، ولا تَمَادَا في الفسادِ حالِ إفسادكم في الأرض التي خلقها مالكم لتتفعوا بها، وتعملوا عليها صالحاً، ولكنهم لم يطيعوا الله فيما نهاهم من أن يفسدوا في الأرض إفساداً شديداً، بل انطلقوا بعد ذلك في الأرض، يفسدون العقائد، والأخلاق، والنظم، وسلوك الناس في الحياة الدنيا، ويُجنِّدون الشياطين الأشرار لتدمير كلِّ القيم الإنسانية، ومحو كلِّ الوصايا والتعليمات الربَّانية.

٦١ - واذكروا حين سَمِئْتُمْ من المَنِّ والسَّلْوَى، فأصابكم الضيق والملل، فقلتم: يا موسى لن نحبسَ أنفسنا على طعام واحد متكرِّر ومستمر، لا يتبدَّل ولا يَخْتَلِف، فاسأل لنا ربُّكَ يُظهر لنا مما تُثبِت الأرض من الخضر ممَّا يأكله الناس والأنعام، كاللِّعْناع والكراث والكرفس، وخيارها، وثُومها، وعَدْسها، وبَصَلها. قال موسى تعجباً واستنكاراً: أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هو أَقْلُ شَأْنًا بالذي هو أَفْضَلُ وأَهْأ؟ وإنَّ أَبَيْتُمْ إلَّا ذلك، فانزلوا من علياء الضيافة الربَّانية، والعزَّة الإلهية، فَأَتَوْا مِصْرًا من الأمصار، ففيها تجدون ما تُشبعون بطونكم، وتُرضون أهواءكم، وجعلت الذَّلَّة والفاقة والخضوع والاستسلام للوهن والضعف محيطة بهم مشتملة عليهم لا يخرجون من دائرتها؛ مُجَاوِزَةً لهم على كفرانهم، وَرَجَعُوا بغضبٍ من الله مُسْتَحْقِّينَ له؛ ذلك الوقوع في الذَّلَّة والمسكنة ونزول الغضب عليهم بسبب أنهم كانوا يكفرون بآياتِ الله الإعجازية والبيانية التي أنزلها في التوراة والإنجيل والقرآن، ويقتلون الأنبياء عُدواناً وظلماً، وهم يعلمون أنَّهم على باطل، فليس لهم عذرٌ في هذا الاعتداء، بل أقدموا عليه وقد استهانوا بمقام النبوة، فكان فعلهم إجراماً في باعته، وفي حقيقته، وموضوعه، وقد جرَّأهم على ذلك الكفر والقتل ما ركب في نفوسهم من التمرد والعصيان الوقح لأوامر الله ونواهيه، ومجاوزة الحدِّ في المعاصي، والاعتداء على حدود الله وحقوق الناس.

الجزء الأول

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى
لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ
اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا
وَشَرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُؤُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْيطُوا وَمَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنْ
اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ بَعَثَ اللَّهُ فِيهِمُ الْحَقَّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾



٦٢ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَآذِكُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ ﴿٦٦﴾ فَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَنُحَدِّثُكَ هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصَ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٧٠﴾

٦٣ - واذكروا - يا معشر اليهود - حين أخذنا عهدكم المؤكد منكم بقبول ما في التوراة، ورفعنا فوق رؤوسكم «الطور» الجبل العظيم في «سيناء»، لإخافة لكم، وإنذاراً بحلول عقاب الله وغضبه عليكم إذا لم تستجيبوا للأمر، وقلنا لكم: خذوا ما أعطيناكم من أوامر ونواهي بقوة إرادة وعزيمة، وضعوا في ذاكرتكم ما جاء في الكتاب من وصايا؛ ليكون تذكركم لها باعثاً للعمل بمقتضاها، فعلاً فيما يجب فعله، وتركاً فيما يجب تركه.

٦٤ - ثم بعد مدة من الزمن انصرفتم مُبتعدين عن الوفاء بالعهد من بعد ما قبلتم التوراة، فتركتم العمل بها، وحرفتم الكلم عن مواضعه، وقتلتم الأنبياء، بعد أن كفرتم بهم، وعصيتهم أمرهم، فلولا أن وفقكم الله للتوبة، وعفاً عن زلاتكم، لكنتم من الهالكين في العذاب.

٦٥ - ونقسم مُؤكدين أنكم علمتم العذاب الذي أنزلناه بالذين جاوزوا الحد في يوم السبت، وهو اليوم الذي أمرناهم أن يتفرغوا فيه لطاعتنا، وحرّمنا عليهم الاشتغال بأي عمل دنيوي، فخالف

بعضكم أمرنا، وضعفوا أمام الكسب المادي الذي لاح لهم في هذا اليوم، فكانت الأسماك تأتي إلى شواطئ بلدهم في يوم السبت، وتغيب مبتعدة في أعماق البحر في الأيام الأخرى، فنصبوا الشباك، واصطادوا الحيتان، فقال الله عز وجل لهم: كُونُوا قِرَدَةً أَذِلَّةً صَاغِرِينَ مُبْعَدِينَ مَطْرُودِينَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فكانوا كما قال الله سبحانه، وتحولوا إلى قرود من غير امتناع ولا تأخير.

٦٦ - فجعلنا عقوبتهم بالمسخ في القرية التي كانت حاضرة البحر، عقوبة رادعة لأمم معاصرة تقع بين يديها في قراها، حتى لا تتماذى في غيها وعصيانها، وتحذيراً للأمم التي ستأتي مُستقبلاً من أمم بني إسرائيل، ونصحاً مقروناً بما يثير الرغبة والرّهبة في النفس، ودافعاً للالتزام بأوامر الله واجتناب نواهي، بالنسبة إلى الذين يَتَّقُونَ عقاب الله في سلوكهم؛ لئلا يفعلوا مثل فعلهم.

٦٧ - واذكروا - يا بني إسرائيل - حين اشتبه عليكم أمر القتل، فسألتم موسى أن يدعوا الله ليبيّن لكم ما أشكل عليكم، فسأل موسى ربه، فأمرهم الله بذبح بقرة، وأن يضربوا القاتل ببعضها؛ ليحيا فيخبرهم بقاتله، ولتكون حياته دليلاً على البعث بعد الموت، فلم يستجيبوا لأمر الله تعالى، فأخذوا يراوغون بكثرة الأسئلة، وإثارة الجدل. قالوا: أتجعلنا موضعاً للسخرية والاستهزاء عندما تطلب منا هذا الطلب؟ وما هي الصلة بين ذبح البقرة وبين الكشف عن هوية القاتل؟ فردّ عليهم موسى بقوله: أَسْتَجِيرُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ الْآنَ وَمُسْتَقْبَلًا مِنَ الْجَاهِلِينَ؛ لأن الاستهزاء في موضع الجدّ وبيان أمر الله تعالى ضرب من الجهل والسفه.

٦٨ - فلما علموا أن ذبح البقرة عزّم من الله تعالى، استوصفوه إياها، ولو أنهم عمدوا إلى أي بقرة كانت فذبوها لأجزأت عنهم، ولكن شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم. قالوا: ادع لنا ربك الذي أمرنا بهذا الأمر يُبَيِّنْ لَنَا ما صفة هذه البقرة؟ قال موسى: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا كَبِيرَةَ مُسِنَّةً، وَلَا صَغِيرَةَ فَتِيَّةً، نَصَفَ بَيْنَ السَّيْتَيْنِ، وَوَسَطَ فِي الْعَمَرِ بَيْنَ الْعُمُرَيْنِ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ مِنْ ذَبْحِ الْبَقَرَةِ، بَلَا لِحَاجَةٍ وَلَا مُرَاوَعَةٍ، وَلَا مُحَاوَلَةَ الْإِفْلَاتِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

٦٩ - فعادوا إلى سؤال موسى - عليه السلام - مرة ثانية، واستمروا في لجاجتهم ومراوغتهم، قالوا: ادع لنا ربك يُوَضِّحْ لَنَا ما لونها؟ قال موسى: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ شَدِيدَةُ الصُّفْرَةِ، يُعْجِبُ النَّاظِرِينَ حُسْنُهَا وَصَفَاءُ لَوْنِهَا. وهذا تشديد من الله عليهم، عقوبة لهم، لأن البقر الأصفر قليل، والأصفر الفاقع نادر الوجود، ولن يبيعها أهلها - إن وُجدت - إلا بثمان مرفّع.

٧٠ - كرّر بنو إسرائيل السؤال لموسى عليه السلام مرةً ثالثة ، وقالوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُوضَحْ لَنَا حَالَةَ هَذِهِ الْبَقْرَةِ: أَسَائِمَةٌ هِيَ أَوْ عَامِلَةٌ؟ إِنَّ الْبَقَرَ الْمَوْصُوفَ بِكَوْنِهِ وَسَطًا فِي الْعَمْرِ بَيْنَ الْعَجُوزِ الْمُسِنَّةِ، وَالصَّغِيرَةِ الْفَتِيَّةِ، وَبِالضُّفْرِ الْفَاقِعَةِ، كَثِيرٌ قَدْ التَّبَسَّ وَاشْتَبَهَ عَلَيْنَا، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ إِلَى وَصْفِ الْبَقْرَةِ الْمَأْمُورِينَ بِذَبْحِهَا لَمْهْتَدُونَ.

٧١ - قال لهم موسى عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَهَا أَوْصَافٌ يُشْتَرَطُ وَجُودُهَا، لِيَكُونَ ذَبْحُهَا سَائِغًا جَائِزًا، الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: أَنَّهَا لَيْسَتْ مُدَلَّلَةٌ لِلْعَمَلِ فِي حِرَاثَةِ الْأَرْضِ لِلزَّرْعَةِ، وَالْوَصْفُ الثَّانِي: أَنَّهَا غَيْرُ مُعَدَّةٍ لِسَقْيِ الزَّرْعِ، وَالْوَصْفُ الثَّلَاثُ: أَنَّهَا بَرِيَّةٌ مِنَ الْعَيُوبِ وَالتَّقَاتِصِ وَالْأَفَاتِ، وَالْوَصْفُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ لَا لَوْنٌ فِيهَا يُخَالِفُ لَوْنَ سَائِرِ جُلْدِهَا. وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ فِي الْبَقْرَةِ سَبَبُهَا أَنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَدَيَّنُ اللَّهُ يُسْرَ، وَالتَّعَمُّقُ فِي سَوَالِ الْأَنْبِيَاءِ مَذْمُومٌ. قَالُوا: هَذَا الْوَقْتُ جِئْتُ بِالْبَيَانِ النَّامِ الَّذِي لَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَعَثَرُوا عَلَى صِفَاتِ هَذِهِ الْبَقْرَةِ الْمَجْهُولَةِ لَهُمْ فِي بَقْرَةٍ خَاصَّةٍ لِيَتِيمٍ فَقِيرٍ، كَانَ أَبُوهُ رَجُلًا صَالِحًا لَمْ يُخَلَّفْ لَهُ غَيْرُ هَذِهِ الْبَقْرَةِ، فَاشْتَرَوْهَا بِشَمْنٍ كَبِيرٍ، كَانَ مِنْ حِطِّ هَذَا الْيَتِيمِ الْفَقِيرِ، فَذَبَحُوهَا وَمَا قَارَبُوا أَنْ يَفْعَلُوا مَا أَمَرُوا بِهِ؛ لِكثَرَةِ شَكُوكِهِمْ وَتَرَدُّدَاتِهِمْ، وَلَعُسْرِ تَحْصِيلِ الْبَقْرَةِ الْجَامِعَةِ لِلْأَوْصَافِ السَّابِقَةِ مِنْ جِهَةِ السِّنِّ وَاللَّوْنِ وَكُونِهَا مِنَ السَّوَامِثِ لَا الْعَوَامِلِ.

٧٢ - واذكروا حين قتلتم أنفساً، فاخْتَصِمْتُمْ فِي شَأْنِ هَذِهِ النَّفْسِ الَّتِي قُتِلَتْ، فَالْقَى كُلُّ مِنْكُمْ تَهْمَةَ الْقَتْلِ عَلَى الْآخَرِ، وَاللَّهُ مُظْهِرٌ مَا كُتِمْتُمْ مِنْ أَمْرِ الْقَتِيلِ.

٧٣ - فقلنا: اضربوا القَتِيلَ بِجُزْءٍ مِنَ الْبَقْرَةِ الْمَذْبُوحَةِ؛ لِيَحْيَا

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا أَتَقْنِ جِئْتَ بِالْحَقِّ قَدْ بَجَّوْهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لِمَا يُنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لِمَا يَسْقُوقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَنُظْمِعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحَقُونَ بِهِ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذْ قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ يَمَافَتِحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيَحْجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

الْمَضْرُوبِ، فَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا، فَصَارَ الْقَتِيلُ حَيًّا وَقَامَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأَخْبَرَ عَنْ قَاتِلِهِ، مِثْلَ إِحْيَاءِ ذَلِكَ الْقَتِيلِ بَعْدَ مَوْتِهِ يُحْيِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَائِرَ الْمَوْتَى؛ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُرِيكُمْ مَعْجَزَاتِهِ الدَّالَّةَ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ؛ رَغْبَةً أَنْ تَعْقِلُوا عَقْلًا عِلْمِيًّا، فَتُؤْمِنُوا بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى الْبَعْثِ، وَتَعْقِلُوا عَقْلًا إِرَادِيًّا، فَتَمْنَعُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَعَاصِي.

٧٤ - ثُمَّ بَعْدَ مَدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ غَلْظَتْ وَاشْتَدَّتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ظُهُورِ الدَّلَالَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى، فَهَذِهِ الْقُلُوبُ فِي الْغَلْظِ وَالشَّدَّةِ كَالْحِجَارَةِ الصَّخَاءِ، بَلْ هِيَ أَشَدُّ قَسْوَةً؛ لِأَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ مَا يَتَسَّعُ وَيَنْفَرُجُ حَتَّى تَنْصَبَّ مِنْهُ الْمِيَاهُ صَبًّا، فَتَصِيرُ أَنْهَارًا جَارِيَةً، وَمِنْ الْحِجَارَةِ مَا يَتَصَدَّعُ فَيَنْشَقُّ، فَتَخْرُجُ مِنْهُ الْعَيُونُ الصُّغَارُ الَّتِي هِيَ دُونَ الْأَنْهَارِ، وَمِنْ الْحِجَارَةِ مَا يَنْزِلُ مِنْ أَعَالِي الْجِبَالِ انْقِيَادًا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَقُلُوبُكُمْ - يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ - قَاسِيَةٌ تَمَائِلُ قَسْوَةَ الْحِجَارَةِ الصَّلْدَةِ، بَلْ هِيَ أَشَدُّ قَسْوَةً، لَا تَتَفَجَّرُ بِعَطَاءِ الْخَيْرِ مُطْلَقًا، وَلَا تَرْشَحُ - وَلَوْ بِصُعُوبَةٍ وَكَلْفَةٍ - بِشَيْءٍ قَلِيلٍ، وَهِيَ قُلُوبٌ مَتَعَالِيَةٌ مُسْتَكْبِرَةٌ لَا تَخْضَعُ لِجَلَالِ اللَّهِ، وَلَا تَسْجُدُ لَهُ، وَلَا تَخْشَى مِنْ خَشْيَتِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ بِالْمُرْصَادِ لَهُؤُلَاءِ الْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ، وَحَافِظٌ لِأَعْمَالِهِمْ حَتَّى يُجَازِيَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ.

٧٥ - أَفَتَتَعَلَّقُ نَفُوسُكُمْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - تَعَلُّقًا قَوِيًّا أَنْ يُصَدِّقَكُمْ الْيَهُودُ بِمَا تُخْبِرُونَهُمْ مُتَّبِعِينَ لَكُمْ؟ وَقَدْ كَانَ عُلَمَاؤُهُمْ يَسْمَعُونَ التَّوْرَةَ وَيَعْقِلُونَهَا، ثُمَّ يَغْيِرُونَ كَلَامَ اللَّهِ بِتَبْدِيلِ الْأَفَافِ بِالْأَفَافِ أُخْرَى، وَبِالزِّيَادَةِ أَوْ النَقْصِ عَلَى النَّصِّ الْمُنْزَلِ، لَتُعْطِي دَلَالَاتٍ تَوَافِقُ مَا يَرِيدُونَ، عَلَى خِلَافِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ مِنْهَا فِي التَّنْزِيلِ الرَّبَّانِيِّ، وَبِتَأْوِيلِهَا التَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةَ، وَالتَّفْسِيرَاتِ الْفَاسِدَةَ، بِحَسَبِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا عَلِمُوا صِحَّةَ كَلَامِ اللَّهِ وَمُرَادِهِ فِيهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ فَسَادَ مُخَالَفَتِهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُبْطِلُونَ كَاذِبُونَ.

٧٦ - وَإِذَا لَقِيَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ آمَنُوا، قَالُوا بِلِسَانِهِمْ: آمَنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ، وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ صَادِقٌ، وَإِنَّا نَجِدُ نَعْتَهُ فِي التَّوْرَةِ، وَإِذَا اجْتَمَعَ مُنَافِقُو الْيَهُودِ إِلَى رُؤَسَائِهِمْ مُفْرِدِينَ بِهِمْ، مَائِلِينَ إِلَيْهِمْ، لِأَمْنِهِمُ الرُّؤْسَاءِ عَلَى ذَلِكَ، وَقَالُوا: اتَّحَدَّثُوا الْيَهُودَ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ فَهْمٍ مَعَانِي نصوصِ توراتكم فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ؛ لِيَخَاصِمَكُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَيَحْتَجُّوا عَلَيْكُمْ بِقَوْلِكُمْ، وَتَكُونَ لَهُمُ الْحُجَّةُ عَلَيْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَيْسَتْ لَكُمْ عُقُولٌ تَمْنَعُكُمْ مِنْ أَنْ تُحَدِّثُوهُمْ بِمَا يَكُونُ لَهُمْ فِيهِ حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ؟!!

٧٧ - أيلومونهم على تحديث المؤمنين بما في التوراة مخافة المُحاجة، ولا يعلم اليهود أن الله يعلم ما يُخفون وما يُظهرون، فيُظهر للمؤمنين ما يُخفونه بواسطة الوحي إلى نبيه ﷺ فتحصل المُحاجة ويقع التكبيت، فأَيُّ فائدة لهم في اللوم والعتاب؟!

٧٨ - ويوجد فريق من أحبار اليهود منافقون نفاق مكر وكيد، ومنهم أميون جهلة، لا يُحسنون الكتابة ولا القراءة، جاهلون بالدين، وبدالات نصوص كتبهم، لا يعلمون كتاب التوراة إلا أكاذيب مُختلفة سمعوها من علمائهم، فتقبلوها على التقليد والتعصب الأعمى، وإنهم لفرط جهلهم لا يعلمون إلا ما يكون فيه إرضاءً لأمانيتهم، وتحقيقاً لرغباتهم، ولا يُدركون التكاليفات والأحكام، ولا يعلمون المواثيق التي أخذت عليهم، وما هم إلا يظنون ظناً مُتجذراً مُستمراً من غير أن يصلوا إلى مرتبة العلم، فأَيُّ يُرجى منهم الإيمان المُؤسس على قواعد اليقين؟! فطمعكم - أيها المؤمنون - في إيمان جمهور اليهود، لأجل دعوتكم وحرصكم على هدايتهم في غير محله، لأن الظاهرات الاجتماعية تدل على أن هداية جمهورهم أمر ميؤوس منه، ولا مَطْمَع فيه، فَوَجَّهُوا جهودكم الدعوية لمُجتمعات أخرى يكون بذل المجهود فيها أنفع وأجدى.

٧٩ - وإذا كان الأمر كذلك، فهلاك عظيم وعذاب جسيم، وفضيحة وخزي لأحبار السوء من اليهود الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، تبعاً لأهوائهم لإثبات ما يريدون إثباته، ومحو ما يريدون محوه، ثم يقولون لأتباعهم الأميين: هذا من عند الله؛ ليأخذوا ثمناً قليلاً من مال أو منافع أو مصالح دنيوية، مقابل هذا الذي يُقدّمونه وببذلونه من مكتوبات أيديهم المُفتريات على الله، فلهم عذاب أليم وفضيحة وحسرة بسبب كتابتهم هذا الباطل بأيديهم، ولهم عذاب أليم وفضيحة وحسرة بسبب ما يكسبون من ثمرات افترائهم على الله. وفي الآية تحذير من التبدل والتغيير والزيادة في الشرع، فكل من بذل وغير، أو ابتدع في دين الله ما ليس منه، فهو داخل تحت هذا الوعيد

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾
وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُنْتُ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ
أَتَّخِذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِآلِهِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

الشديد، والعذاب الأليم.

٨٠ - وقال الذين يكتبون الكتاب بأيديهم من اليهود: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ فِي الْآخِرَةِ مَسًّا خَفِيفًا إِلَّا أَيَّامًا قَلِيلَةً الْعَدَد، ثم يزول عنا العذاب. قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ منكرًا على اليهود تلك الدعوى المزعومة: أَتَّخِذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْثِقًا أَنْ لَا يُعَذِّبَكُمْ فِي النَّارِ إِلَّا هَذِهِ الْمُدَّةَ الْمُحَدَّدَةَ الْقَلِيلَةَ، فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ؟ وقد ثبت أنه لا دليل لكم، بل إنكم تقولون على الله ما لا تعلمون، فكيف تفترون مثل هذا الافتراء على الله؟

٨١ - ليس الأمر كما تقولون وتتمنون، فهي أمانى خادعة، وستمسكم النار مُخلِّدين فيها أبدًا، فمن ارتكب الآثام حتى صارت حالاً ثابتة قائمة، وأحدثت به خطيئاته الاعتقادية والسلوكية من جميع جوانبه فأسقطته في الكفر، وسَدَّتْ عليه مَسَالِكُ النِّجَاةِ، فأُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ مَجَالَاتِ الرَّحْمَةِ بسبب كفرهم، هم أصحاب النار الملازمون لها ملازمة دائمة لا تنقطع.

٨٢ - وَالَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعبروا عن صحّة إيمانهم الإرادي الاعتقادي بالأعمال الصالحة، أولئك الفضلاء رفيعو الدرجة يُلازِمُونَ الْجَنَّةَ فِي الْآخِرَةِ ملازمة دائمة لا تنقطع.

٨٣ - واذكروا - يا بني إسرائيل - حين أخذنا عليكم عهداً شديداً في التوراة، يشتمل على ثمانية أمور: أولها: لا تعبدوا غير الله، وذلك بالإيمان به وبرسله، والعمل بما أنزل في كتبه، والأمر الثاني: أحسنوا إلى الوالدين، بمعاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، والقيام بما أوجبه لهما من حقوق، لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية، والأمر الثالث: أحسنوا إلى القرابة بالقيام بما يحتاجون إليه بقدر الاستطاعة، والأمر الرابع: أحسنوا إلى الأيتام الذين مات آباؤهم في الصَّغَرِ دُونَ سِنِّ الْبُلُوغِ؛ لقصور أيديهم وضعفها عن الكسب، والأمر الخامس: أحسنوا إلى المساكين الذين يكشفون بالمسكنة الظاهرة حالة فقرهم، بإطعامهم، وإعطائهم حقهم، وسد حاجاتهم، والأمر السادس: قلنا لهم في الميثاق: وقولوا للناس قولاً حسناً طيباً، والأمر السابع: واطلبوا على أداء الصلاة المفروضة بشروطها وأركانها وسُنَنها وآدابها مع الخشوع والمراقبة لله، فإن إقامتها وجعلها مستقيمة لا يتم إلا بذلك، والأمر الثامن: أعطوا الزكاة المفروضة طيبة بها نفوسكم، ابتغاء وجه الله. ولَمَّا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ التَّكَالِيفِ الثَّمَانِيَةِ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مَا وَفَوْا بِذَلِكَ، وتولّوا عن العهد إلا قليلاً من الذين آمنوا منهم، وهم قومٌ عادتهم الإعراض وعدم الوفاء بالعهود والمواثيق، وتركها جملة وتفصيلاً من غير أن يقبلوا منها شيئاً.

٨٤ - واذكروا - يا بني إسرائيل - حين أخذنا عليكم عهداً مؤكّداً: لا يَسْفِكُ بعضُكم دماءَ بعضٍ، ولا يُخْرِجُ بعضُكم بعضاً من مساكنهم، ولا يؤدي جازَ جاره حتى يُلجِئَهُ إلى الخروج من داره تخلصاً من شرِّه؛ لأنكم أمة متواصلة متآزرة، بحيث يُعَدُّ قتل الرجل لغيره قتل لنفسه، وإخراجه من منزله إخراجاً لنفسه، ثم اعترفتم على أنفسكم بهذا العهد، وأنه حقٌّ، وأنتم - يا معشر اليهود - تشهدون على صحّة هذا الإقرار الذي صَدَرَ عن أجدادكم وأسلافكم، وتؤمنون بصدقه.

٨٥ - ثم أنتم - يا هؤلاء اليهود - بعد إقراركم بالميثاق الذي أخذته عليكم، وبعد شهادتكم على أنفسكم، يقتل بعضُكم بعضاً، ويُخْرِجُ بعضُكم بعضاً من ديارهم، وتتعاونون على إجلائهم بخلفائكم من العرب بالمعصية وتجاوز الحد في الظلم، وإذا وجدتم الذين أخرجتموهم من ديارهم أسارى في يد الأعداء تَسْعَوْنَ لفكهم، وتبذلون فدية لإطلاقهم، والشأن أنه مُحَرَّم عليكم إخراجهم من ديارهم، أفْتُمْنُون بعبث أحكام التوراة، فَتُحَرِّمُوا ترك الأسرى في أيدي عدوكم، وتجددون وتكررون أحكاماً أخرى، فتستبيحوا القتل، والإخراج من الديار، والتعاون مع الأعداء؟ فما جزاء مَنْ يفعل ذلك منكم - يا معشر اليهود - إلا عذابٌ وهوانٌ وفضيحة في الدنيا، ويوم القيامة يصيرون إلى عذابٍ أشدَّ وأبقى، وهو عذاب النار، وما الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

لقد أعرَضَ اليهودُ عن العهود الأربعة التي أخذها الله عليهم، وهي: ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة مع أعدائهم، وفك أسرارهم، فأعرضوا عن الكلِّ إلا الفداء، فذمَّهم الله على مناقضة أفعالهم، وجمعهم بين الكفر والإيمان؛ إذ كفروا ببعض الأحكام، وآمنوا ببعضها، وهم في عصيانهم أمر الله بالقتل والإخراج والمظاهرة مع أعدائهم، يعتقدون أنَّ الحكمة والصواب فيما يفعلون دون أن يكون في قلوبهم أثرٌ من الحرج، أو الندم والحزن. وفي هذه الآية دليل واضح على أنَّ عناصر الإيمان لا تقبل التفريق، فالإيمان وحدة متماسكة متى انفكَّت عروة من عراها، انحلت سائرُها، وانفطرت عقدها.

٨٦ - أولئك البعداء عن رحمة الله الذين أخذوا مطامعهم من الحياة والدنيا وزينتها، وتركوا مقابل ذلك الآخرة وما فيها من نعيم مقيم عند الله، وقد كانت في أيديهم بمقتضى إيمانهم بموسى وأنبياء بني إسرائيل، وما أنزل الله عليهم في كتبهم، لكنهم آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعضه، والإيمان لا يقبل التجزئة والتبعض، فمن كفر ببعض ما أنزل الله فقد كفر كُفْراً مُخْلِداً في عذاب النار، فلا يُهَوِّنُ عليهم العذاب يوم الدين، ولا يجدون ناصراً ينصرهم من عذاب الله.

٨٧ - ونقسم مُؤكِّدِينَ لكم أننا أعطينا موسى التوراة، وأُتبعنا من بعده بالرسول من بني إسرائيل رسولاً بعد رسول، وكانوا يحكمون بشريعة موسى إلى أن بعث الله تعالى عيسى عليه السلام، فجاءهم بشريعة جديدة، وغير بعض أحكام التوراة، وآتينا عيسى ابن مريم الدلالات الواضحات والمعجزات الظاهرات، وقوَّيناه بالروح الطاهر جبريل عليه السلام، ومع ذلك فقد أنكر اليهود الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام، وتآمروا عليه، وحاولوا التخلص منه لولا أن نَجَّاه الله فرفعه إليه، كما فعلوا ببعض أسلافه من بني إسرائيل؛ وذلك بسبب الحسد القبيح مع الحرص على اتِّباع الهوى. أفكلُّما جاءكم - يا معشر اليهود - رسولٌ لا يوافق ما تميل إليه نفوسكم من مطالب وحاجات، أو متع ولذات وشهوات، تعاطمتم عن الإيمان به، واستكبرتم عن إجابة دعوته، فبادرتم فريقاً من الرسل بالكذب فقط حيث لا تقدرون على قتلهم، وأقبلتم على فريق منهم بالقتل حيث تقدرون على قتلهم!!!

٨٨ - وقال اليهود لنبي الله ورسوله محمد ﷺ: لسا بحاجة إلى العلوم والمعارف الدينية التي عندك؛ إذ عندنا من العلوم الدينية ما ملأ قلوبنا، حتى صارت لا مُتَّسِعَ فيها لواردات جديدة، وحتى صارت مُغلَّفة كما تُغلَّف السلع والأمتعة والبضائع ويختم عليها لتفسيرها، فهي غير قابلة لإضافة جديدة إليها، فهي صمَّاء عن سماع ما تقول، وليس الأمر كما يقولون، بل طَرَدَهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ؛ بسبب كفرهم وجحودهم بنوَّة محمد ﷺ، فلم يؤمن منهم إلا قليل.

فإصرارهم على الكفر وعنادهم هو الذي سبَّب لهم اللعنة، وهذه اللعنة جعلت قلوبهم غُلْفاً صمَّاء لا تقبل المعرفة، ولا تستجيب لدعوة الهداية، ففي هذا إقرارٌ بأن قلوبهم غُلْفٌ، ولكن لا على معنى امتلائها بالمعرفة الدينية كما زعموا، وإنما على معنى إصابتها باللعنة والطرْد من رحمة الله؛ بسبب إصرارهم على الكفر وعنادهم.

البقرة الآخرة

سورة البقرة

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
مِنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَحْرُومٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُونُومُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَكَتَفَرُونَ
بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ
بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ
اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا
قُلُونَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

٨٩ - وحين جاءهم القرآن من عند الله عز وجل، مُصَدِّقٌ لما معهم من التوراة من الأوامر والنواهي والمواثيق التي أخذت عليهم، وبصحة نبوة محمد ﷺ الذي كانوا ينتظرون بعثته، ويتوقعون مجيئه، جحدوه وأنكروا نبوته، بدل أن يذعنوا للحق الذي عرفوه، وكان اليهود قبل مبعث النبي ﷺ يطلبون من الله النصر على مشركي العرب بالنبي العربي المبعوث في آخر الزمان، ويقولون: سننصحه ونقاتلكم معه. فلما جاءهم محمد ﷺ الذي عرفوا صفته معرفة تامة، كفروا برسالة ﷺ، وأعرضوا عن دعوته بغياً وحسداً؛ لأنه لم يأت من بني إسرائيل، بل جاء من العرب أولاد عمهم إسماعيل، وهم يعلمون صدق رسالته، بشهادة صفاته المُنوّه بها في كتبهم، وإذا كانوا قد كفروا بما علموا علماً جازماً مطابقاً للواقع، فأبعداً وطرداً من مواقع رحمة الله وخيراته الباقية مُضْطَبّاً على الكافرين.

٩٠ - بشئ الشيء الذي أخذه وبدلوا مقابلته أنفسهم، فدفعوها لنقمة الله وغضبه عليهم وعذابه، إذ استبدلوا الكفر بالإيمان ظمناً وحسداً تجاوزوا به الحد، إلى الكفر الذي يجعلهم خالدين في عذاب الله؛ لأجل تنزيل الله من فضله القرآن على محمد ﷺ، واختياره للرسالة الخاتمة الخالدة، وهو من العرب من ولد إسماعيل، لا من ولد إسحاق، كما كانوا يُحِبُّون أنانيّة عرقية، فرجعوا بغضب من الله عليهم محمول على غضب آخر، بتضييعهم التوراة، وكفرهم بمحمد ﷺ، وشناعاتهم الكثيرة التي كانت ملازمة لكثير منهم قبل البعثة المحمدية. وللاجاحدين نبوة محمد ﷺ من الناس كلهم عذاب مُذِل يُهانون فيه؛ جزاء كفرهم وكبرهم واستعلائهم الكاذب.

٩١ - وإذا قال بعض المسلمين لهؤلاء اليهود: آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله الخاتم محمد ﷺ. قالوا: نحن نؤمن بالتوراة، وما أنزل على أنبيائنا، فوحي الله حكرّ علينا، ويكفرون بما بعده من الكتب، والقرآن حق ثابت أنزله الله مُصَدِّقاً لما معهم في التوراة. فلو كانوا يؤمنون بما أنزل الله على أنبيائهم حقاً لآمنوا بالقرآن الذي صدّقها فيما اشتملت عليه من البشارة بمحمد ﷺ.

قل لهم يا رسول الله: إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله عليكم، وتتعضّون لأنبيائكم، وتؤمنون بهم وحدهم، فلا شيء يقتلون الأنبياء الذين بعثهم الله إليكم قبل محمد ﷺ المرة بعد المرة مع ادّعائكم الإيمان بالتوراة، وقد نُهيتم فيها عن قتل الأنبياء؟ فما كان منهم في ماضيهم وحاضرهم يتنافى مع ادّعائهم الإيمان، وفي ذلك تنديد بهم، وبيان أنهم لم يؤمنوا بالكتاب الذي جاء مُصَدِّقاً لما معهم، كما أنهم لم يؤمنوا بما عندهم.

٩٢ - ونقسم مؤكدين لكم أن موسى جاءكم بالدلالات الواضحات، والمعجزات الباهرات، ثم بعد مدة اتخذتم العجل الذي صنعه لكم السامري إلهاً تعبدونه، من بعد خروج موسى عليه السلام إلى الميقات، وأنتم ظالمون بوضع العبادة في غير موضعها.

٩٣ - واذكروا - يا معشر اليهود - حين أخذنا عليكم عهداً مؤكداً على العمل بالتوراة، ورَفَعْنَا جَبَلَ الطُّورِ فَوْقَ رؤوسكم، وإخافة لكم، وإنذاراً بحلول عقاب الله وغضبه عليكم إذا لم تستجيبوا للأمر، وقلنا لكم: اعملوا بالتوراة بجدٍّ وعزم واجتهاد، واستجبوا وأطيعوا فيما أمرتم به، وإلا أسقطنا الجبل عليكم. قالوا: سمعنا قولك وعَصَيْنَا أَمْرَكَ، فقلوبكم جافية مُعرضة، تنطق بحالكم من الإصرار على المعصية، واختلط حبّ عبادة العجل حتى خلص إلى قلوبهم ورسخ فيها وتشربته، وخالطته مخالطة تامة، كما يتشرب الثوب الصبغ، ويتلون بلونه، ويخالط أجزاءه؛ بسبب كفرهم بالله تعالى، المُستَكِرُّ في قلوبهم، فجُهِمَ البالغ للعجل ناشيء من كفر سابق، فهو كفر على كفر. قل لهم يا رسول الله: بشئ الشيء الذي يدعوكم إليه إيمانكم، قتل الأنبياء، وعبادة العجل، إن كنتم مُصَدِّقين كما زعمتم بالتوراة، والواقع أن التوراة لا تسيع شيئاً مما أتيت به، فما أنتم بمؤمنين.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِثْنَا أَنْ يُزِيلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَبِعَظْمٍ عَلَى غَصَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوَلَّوْا نَحْنُ نَكُفِّرُ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا وَكَفَرُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾



الخزائن الأولى

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٩٤ - قل - يا رسول الله - لليهود الذين يدعون أنَّ الجنةَ خاصَّةٌ بهم سالمةٌ لهم؛ لزعمهم أنَّهم أبناءُ الله وأحبَّاءُه. إنْ كانت لكم الجنةُ مُختصةً بكم في حكم الله، سالمةٌ لكم من دون الناس؛ لأنكم - كما تزعمون - في منزلة والناس دونكم لا يبلغون منزلتكم، بل أنتم وحدكم الذين تتالونها، فاطلبوا الموت الذي هو الطريق الوحيد إليها، وأسألوه بالسستكم، إن كنتم صادقين في قولكم ودعواكم. فامتنت اليهود عن إجابة النبي ﷺ إلى طلب الموت وسؤاله لعلها أنها إن تمت الموت هلكت، فذهبت دنياها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها.

٩٥ - ولن يَتَمَتَّى الْيَهُودُ الْمَوْتَ أَبَداً، وَلَوْ بِأَلْسِنَتِهِمْ، لَعَلَّمَهُمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ، وَأَنَّ النَّارَ لَنْ تَمْسَهُمْ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً؛ بِسَبَبِ مَا أَسْلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى حِرْمَانِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَدُخُولِ النَّارِ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلِيمٌ بِالْيَهُودِ الْمُتَعَدِّينَ حُدُودَ اللَّهِ، وَالْمُدْعَيْنَ اخْتِصَاصَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَانْفِرَادَهُمْ بِهَا دُونَ النَّاسِ، وَهُمْ مُعَاقِبُونَ بِهَذَا الظُّلْمِ الَّذِي أَصْبَحَ سَجِيَّةً لَهُمْ.

٩٦ - وَاللّٰهُ لَتَجِدَنَّ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - الْيَهُودَ أَشَدَّ النَّاسِ طَلَبًا لِحَيَاتِهِ مُتَطَوِّلَةً، مَهْمَا كَانَتْ صَوْرَتُهَا، سَوَاءَ كَانَتْ حَيَاةُ ذَلَّ أَمْ كَانَتْ حَيَاةُ عِزٍّ، وَسَوَاءَ كَانَتْ حَيَاةُ اسْتِعْبَادٍ أَمْ كَانَتْ حَيَاةَ حُرِّيَّةٍ، فَهَمْ يَحْرَصُونَ عَلَى الْحَيَاةِ ذَاتِهَا، خَوْفًا مِنْ مَلَاقَةِ عَذَابِ اللَّهِ، وَاعْتِقَادًا أَنَّ كُلَّ نَصِيبِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ مَنْحَصَرٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَتَجِدَهُمْ - وَهَمَّ الَّذِينَ يَعْتَرِفُونَ بِالْحِسَابِ وَفَصَلَ الْقَضَاءِ وَتَفْظِيزِ الْجَزَاءِ - أَحْرَصَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ بَعَثًا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْمَعَادِ. يَتَمَنَّى الْيَهُودِيُّ تَعْمِيرَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَلَا يُعِدُّهُ - وَلَوْ بِمَعَانَاةٍ وَمَعَالِجَةٍ - هَذَا الْعُمُرَ الطَّوِيلَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَاللّٰهُ عَالِمٌ بِأَعْمَالِهِمْ، مُحِيطٌ بِمَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، فَهُوَ مُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا.

٩٧ - قل - يا رسول الله - لليهود حين قالوا: إِنَّ جبريل هو عدونا من الملائكة؛ لأنه مَلَكٌ يَأْتِي بِالشَّدَةِ، وينزل بالعذاب والهلاك، وسفك الدِّمَاءِ، نَزَلَ بِالْقُرْآنِ عَلَى قَلْبِكَ بِأَمْرِ اللَّهِ مُوَافِقًا لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ فِي إِنْشَائِهَا إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَبُشْرَى لَهُمْ بِثَوَابِهَا إِذَا أَتَوْا بِهَا. فجبريل لم ينزل اختاره رسولاً أميناً لنزول القرآن، فهو من حيث إنه مأمورٌ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ مَشْكُوراً؛ وعداوة مَنْ هَذَا سَبِيلُهُ عداوةُ اللَّهِ تَعَالَى.

٩٨ - مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ بِكَفْرِهِ بِهِ وَمُخَالَفَتِهِ لأَوَامِرِهِ عِنَادًا، وَعَدُوًّا لِمَلَائِكَتِهِ فِي إنْكَارِ فَضْلِهِمْ، وَوَصْفِهِمْ بِمَا يُنَافِي عَصَمَتَهُمْ، وَرَفْعَهُ مِنْزِلَتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَعَدُوًّا لِرُسُلِ اللَّهِ بِتَكْذِيبِهِمْ وَإِلْحَاقِ الْأَذَى بِهِمْ، وَبِخَاصَّةِ الْمَلَكَانِ الْكَرِيمَيْنِ: جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، فَإِنَّ عِدَاوَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ كُفْرٌ، وَمَنْ كَفَرَ فَقَدْ بَاءَ بِعِدَاوَةِ اللَّهِ، وَمَنْ بَاءَ بِعِدَاوَةِ اللَّهِ فَجَزَاؤُهُ الْخِزْيُ وَعَذَابُ الْحَرِيقِ.

خصّ جبريل بالذكر مع أنه داخل في عموم الملائكة، تحذيراً لليهود من معاداتهم له، وضمّ إليه ميكائيل لقيامه بوظيفة أرزاق العباد التي بها حياة الأجساد، مقابل قيام جبريل بوظيفة الوحي الذي به حياة القلوب والنفوس.

٩٩ - ونؤكد مقسمين أننا أنزلنا إليك - يا رسول الله - آيات واضحات مُفَصَّلَات دالّات على صدق نبوتك، وما يَجْعَدُ بهذه الآيات البيّنة المتلوة إلا المُتَمَرِّدُونَ على الكُفْرِ، المُتَمَرِّسُونَ على الفجور ونقض العهود.

١٠٠ - أفهروا بالآيات البينات؟ وكلما أعطى اليهود عهداً مؤكّداً بالإيمان بمحمد ﷺ، طَرَحَ العهدَ فريقٌ منهم، ونَقَضُوهُ المَرَّةَ بعد الأخرى؛ استخفافاً واستهانة به كما يُنبِذُ الشيء التافه الحَقِير، بل أكثرهم لا يؤمنون بالتوراة، وليسوا من الدين في شيء. وقد أثبت الله عليهم خلق نقض العهود والمواثيق بدلالة الصيغة المُقْتَضِيَةِ معنى تكرار ذلك منهم، وهذا الفريق الذي ينبذ عهده فيهم هو الفريق الأكثر.

١٠١ - ولَمَّا جَاءَ الْيَهُودَ رَسُولٌ بَالِغُ أَقْصَى دَرَجَاتِ الْفَضْلِ، مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالنَّعْمِ الْمُتَوَالِيَةِ، مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّكْلِيفَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْمَوَاقِيقِ الَّتِي أَخَذَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَجَاءَ عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي يَنْطَبِقُ عَلَى صِفَةِ الرَّسُولِ الْمُبَشِّرِ بِهِ فِي التَّوْرَةِ، طَرَحَ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ التَّوْرَةَ، وَرَفَضُوهَا عَنْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ، وَأَصْرَوْا عَلَى إِنْكَارِ نُبُوَّتِهِ ﷺ مَكَابِرَةً وَجَحُودًا؛ كَأَنَّ ذَلِكَ الْفَرِيقَ الْمُدْبِرَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ صَدَقَ وَحَقٌّ.

١٠٢ - لقد نَبَذَ اليهود التوراة كما نَبَذُوا القرآن، وأعرضوا عن جميع الشرائع التي أنزلها الله، وأتبعوا كُتُبَ السَّحَرَةِ والشَّعْوَدةَ التي كانت تَقْرؤها الشَّيَاطِينُ على عهد مُلْكِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ وفي زَمَانِهِ، وقد سَخَّرَ اللهُ لَهُ مَرْدَةَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ، يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ، وَيَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْكَبِيرَةِ، وَالْمُنْشَأَاتِ الضَّخْمَةِ الْهَائِلَةِ، مُعْجَزَةً لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِرَهَانًا عَلَى صِحَّةِ نَبَوْتِهِ، وَصَدَقَ رِسَالَتَهُ، وَبَعْدَ مَوْتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَشَاعَ الشَّيَاطِينُ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّهُ كَانَ سَاحِرًا، وَأَنَّهُ مَا أَخْضَعَهُمْ إِلَّا بِقُوَّةِ السَّحَرِ، وَانْتَشَرَتْ هَذِهِ الشَّائِعَاتُ بَيْنَ الْيَهُودِ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ - كَمَا زَعَمَتِ الشَّيَاطِينُ - بِالسَّحَرِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ. وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا السَّحَرَ لِأَنْفُسِهِمْ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا؛ وَسَبَّبَ كُفْرَهُمْ: أَنَّهُمْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ قَاصِدِينَ إِغْوَاءَهُمْ وَإِضْلَالَهُمْ، وَيُعَلِّمُونَ مَا أَلْهِمَ وَعُلِّمَ الْمَلَكُانَ «هَارُوتَ وَمَارُوتَ» بِأَرْضِ «بَابِلَ» فِي الْعِرَاقِ، مِنْ وَصْفِ السَّحَرِ وَمَاهِيَّتِهِ وَكَيْفِيَّةِ الْاِحْتِيَالِ بِهِ، لِيَعْرِفَاهُ النَّاسُ فَيَجْتَنِبُوهُ، وَمَا يُعَلِّمُ الْمَلَكُانِ «هَارُوتَ وَمَارُوتَ» أَحَدًا حَتَّى يَنْصَحَاهُ وَيَقُولَا لَهُ: مَا نَحْنُ إِلَّا ابْتِلَاءٌ وَمِحْنَةٌ، لَتَمَيِّزِ الْمَطِيعَ مِنَ الْعَاصِي، وَمَا نَصَفَهُ لَكَ مِنَ السَّحَرِ إِنَّمَا الْغَرَضُ مِنْهُ تَمَيِّزُ السَّحَرِ مِنَ الْمَعْجَزَةِ، وَالتَّعْرِيفُ بِالَّذِينَ يَدْعُونَ النُّبُوَّةَ كَذِبًا، فَلَا تَعْمَلْ بِمَا تَتَعَلَّمُهُ مِنَ السَّحَرِ فَتُكْفِرَ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنَ الْمَلَكَيْنِ عِلْمَ السَّحَرِ الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، بِإِزَالَةِ الْإِلْفَةِ بَيْنَهُمَا، وَإِحْدَاثِ الْبَغْضَاءِ، وَمَا السَّحَرَةُ بِضَارَيْنِ بِالسَّحَرِ أَحَدًا فِي جِسْمِهِ أَوْ نَفْسِهِ إِلَّا بِعِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَمُشِيتِهِ، وَيَتَعَلَّمُونَ السَّحَرَ الَّذِي يَضُرُّهُمْ، وَيُفْسِدُ عَقُولَهُمْ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ بَأَيِّ صُورَةٍ مِنْ صُورِ النَّفْعِ، وَلَيْسَ لِعَاقِلٍ أَنْ يَقُومَ بِعَمَلٍ مُؤَكَّدٍ الضَّرَرُ، وَلَا نَفْعَ فِيهِ، وَلَقَدْ عَلِمَ الْيَهُودُ الَّذِينَ نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ، وَاسْتَبَدَّلُوا بِهِ اتِّبَاعَ السَّحَرِ أَنَّ مِنْ اسْتِبْدَالِ السَّحَرِ بِكِتَابِ اللَّهِ مَا لَهُ مِنْ نَصِيبٍ فِي الْجَنَّةِ، وَلَيْسَ مَا بَاعُوا بِهِ حِطًّا أَنْفُسَهُمْ، حَيْثُ اخْتَارُوا السَّحَرَ وَالْكَفَرَ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ مَا فِي تَرْكِ الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَالِاسْتِغْنَالِ بِالسَّحَرِ مِنَ الْعِقَابِ.

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينِ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رِعْسًا فَقُولُوا آنظُرْنَا وَاسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنَّ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

١٠٣ - ولو أنَّ اليهود الذين يتعلمون السَّحَرَ ويعملون به آمنوا بمحمد ﷺ والقرآن، واتَّقَوْا غَضَبَ اللَّهِ تَعَالَى، فتركوا ما هم عليه من تَبَذُّرِ كِتَابِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ كُتُبِ الشَّيَاطِينِ، لَكَانَ ثَوَابُ اللَّهِ الدَّائِمُ الْمُسْتَمِرَّ خَيْرًا لَهُمْ مِنَ السَّحَرِ وَمِمَّا اكْتَسَبُوهُ بِهِ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ثَوَابَ اللَّهِ وَجَزَاءَهُ عَلَى طَاعَتِهِ.

١٠٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَعَمِلُوا بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ: لَا تَقُولُوا لِلرَّسُولِ ﷺ: رَاعِنَا، أَيْ: رَاعِ أَحْوَالَنَا، وَدَبِّرْ أُمُورَنَا، وَرَاقِبْنَا وَأَمْهَلْنَا حَتَّى تَتِمَّكَ مِنْ حِفْظِ مَا تُلْقِيهِ عَلَيْنَا؛ لَكِي لَا يَجِدَ الْيَهُودُ بِذَلِكَ سَبِيلًا إِلَى شَتْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنَسْبَتِهِ إِلَى الرُّعُونَةِ ﷺ، وَقُولُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - بَدَلًا مِنْهَا: آنظُرْنَا، أَيْ: آنظُرْ إِلَيْنَا، وَتَأَنَّنَا، وَأَقْبِلُوا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ بِقُلُوبِكُمْ حَتَّى تَحْفَظُوا مَا يُلْقِيهِ عَلَيْكُمْ، وَلَا يَفُوتَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ، وَاسْمَعُوا مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ سَمَاعَ قَبُولٍ وَانْقِيَادٍ وَاجِبَةٍ، لَا سَمَاعَ عِنَادٍ وَجُحُودٍ، كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ مَعَ نَبِيِّهِمْ مُوسَى عِنْدَمَا قَالُوا لَهُ: «سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا». وَلِلْيَهُودِ الَّذِينَ سَبَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَلِلسَّبِّ كَلِمَةُ «رَاعِنَا» وَسَبِيلَةٌ إِلَى إِيْذَانِهِ، عَذَابٌ مُّؤَلَّمٌ مُّوجِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

نُهي المؤمنين عن مخاطبته ﷺ بهذه اللفظة؛ قطعاً لألسنة اليهود حتى لا يتخذوها ذريعةً إلى سبِّه ﷺ وإيْذَانِهِ. وهذه الآية أصلٌ في سدِّ الذرائع؛ إِذْ أَنَّ الذرائع أو الوسائل تأخذ حكم ما تؤدِّي إليه، فما يؤدِّي إلى المطلوب يكون مطلوباً، وما يؤدِّي إلى الممنوع يكون ممنوعاً. وهذا النداء الإلهي هو النداء الأول من جملة أحد عشر نداءً لجماعة المؤمنين في هذه السورة.

١٠٥ - مَا يَحِبُّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَلَا عَبْدُهُ الْأَوْتَانُ أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ مَهْمَا كَانَ قَلِيلًا، وَأَعْظَمُ خَيْرٍ يُنْزَلُهُ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لِمَا فِيهِ مِنْ حِكْمَةٍ رَّائِعَةٍ، وَحُجَّةٍ بِالْغَةِ، وَبِلَاغَةٍ بَاهِرَةٍ، وَهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَصِيبَكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - خَيْرٌ، سِوَاكَانِ خَيْرٍ مَادِيٍّ، أَوْ مَعْنَوِيٍّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا قَائِمًا عَلَى الْأَنَانِيَّةِ وَالْحَسَدِ، وَكَرَاهِيَةِ الْحَقِّ، وَالتَّعَصُّبِ الْأَعْمَى لِلْعَقَائِدِ الْمُرَوَّرَةِ، وَهَذِهِ الْعَوَامِلُ تَجْعَلُهُمْ يَكْرَهُونَ الْخَيْرَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَخَالِفُونَهُمْ فِي عَقِيدَتِهِمْ وَمَنْهَجِ حَيَاتِهِمْ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَيَحِبُّونَ الْخَيْرَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَأَوَّلُ مَا يَحِبُّونَ لَهُمُ النِّجَاةَ وَالسَّعَادَةَ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَطَاعَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَخْتَصُّ بِحَمْلِ نَبَوْتِهِ وَرِسَالَتِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَتَفَضَّلُ بِالْإِيمَانِ وَالْهُدَايَةِ عَلَى مَنْ أَحَبَّ مِنْ خَلْقِهِ رَحْمَةً مِنْهُمْ لَهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ، وَحَيْثُ يَجْعَلُ هُدَايَتَهُ أَيْضًا، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ صَاحِبُ الْعَطَاءِ الْوَاسِعِ الْكَثِيرِ عَلَى خَلْقِهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ سَابِقَةٌ اسْتِحْقَاقٌ عَلَيْهِ سَبْحَانَهُ، فَالْفَضْلُ لَهُ أَوَّلًا وَآخِرًا، فَإِحْسَانُهُ عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ مِنْ مُحَضِّضِ فَضْلِهِ، وَحَرَمَانِ بَعْضِهِمْ لِمُشِيتِهِ وَحِكْمَتِهِ.

الْبَيْتُ الْاَوَّلُ

سُورَةُ النِّبَاةِ

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ﴿ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نُسَلِّقَ رُسُلَكُمْ كَمَا سَلِّقَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا ۚ وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿

١٠٦ - ما نزيل من آية برفع حكمها، أو نرفعها من القلوب، نأتي بدلها بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم، وأكثر لأجوركم، أو بمثلها في المنفعة والثواب، والله سبحانه أن يكلف عباده بما شاء من تكاليف، سواء أكانت أفعالا يؤدونها، أو أفعالا يتركونها، والغرض منها امتحان طاعتهم، مع ما قد يكون فيها من منافع ومصالح لهم. ألم تعلم - يا رسول الله - أنني عظيم القدرة على تعويضك مما نسخت من أحكامي وغيرته من فرائضي التي كنت افترضتها عليك، ما أشاء مما هو خير لك ولعبادي المؤمنين، وأنفع لك ولهم عاجلاً وأجلاً.

١٠٧ - ألم تعلم - يا رسول الله - أن الله تعالى هو المتصرف في السموات والأرض، يحكم فيهما بما شاء من أمر ونهي ونسخ وتبديل، وما لكم - يا معشر اليهود المنكرين للنسخ والجاحدين لنبوة محمد ﷺ - عند نزول العذاب مما سوى الله من قريب يعينكم، ولا ناصر يمنعكم من العذاب.

١٠٨ - بل أتريدون - أيها المخاطبون المكلفون بالإيمان بالرسالة الخاتمة - أن تسألوا رسولكم محمداً ﷺ أسئلة تعتني بوجهها إليكم اليهود، لصد من لم يسلم بعد من مشركي العرب عن الدخول في الإسلام، وفتنة ضعفاء المسلمين عن دينهم، مثلما سأل موسى قومه في زمن مضى، فقالوا: أرأنا الله جهرة، ومن يجعل الإيمان في مقابل الكفر، فقد أخطأ قصد الطريق الذي يكون السائر فيه بمأمن من أن يتيه عن الغاية المنشودة.

١٠٩ - تمتئ كثير من اليهود أن ترجعوا - يا معشر المؤمنين - إلى ما كنتم عليه من الكفر، من بعد إيمانكم الراسخ الذي يمنعكم من تحقيق ما تمتوه، يحسدونكم حسداً نابحاً من أعماق أنفسهم،

ويتمنون زوال النعمة عنكم، ولا يريدون الخير لكم، وهذا الحسد راسخ في طبائعهم، من بعد علمهم في التوراة أن محمداً ﷺ رسول الله، ودينه حق، ويتخذون الوسائل المختلفة ليردوكم عن إيمانكم فتكونوا كافرين؛ وهذه هي خطتهم الإجرامية التي يسرون عليها في إفساد العالم، وإخراج الناس من الإيمان إلى الكفر، فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وحسد، واتركوا مواخذتهم وتأنبيهم حتى يأتي الله بأمره بقتالهم ونفيهم، إن الله سبحانه قادر على الانتقام منهم، ونصركم عليهم، لا يعجزه شيء.

١١٠ - ولا يعوقكم حسد أهل الكتاب لكم وحقدهم عليكم، عن طاعة ربكم وعبادته، فدعوا قلوبهم تحترق بنار الحسد والغم، وأدوا الصلاة كاملة الأركان والشروط، وادفعوا الزكاة المفروضة للمستحقين، طيبة بها نفوسكم، واستكثروا من فعل الخيرات والطاعات، وما تقدموا لأنفسكم من طاعة وعمل صالح تجددوا ثوابه وأجره عند الله، إن الله لا يخفى عليه شيء من قليل الأعمال وكثيرها، فلا يضيع عنده عمل عامل، ولا ينقض منه شيئاً، بل يزيده سبحانه بفضلته وكرمه.

١١١ - وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، تلك دعاوهم الباطلة التي تمتوها على الله بغير حق. قل لهم - يا رسول الله - يا كل داع إلى الله -: أحضروا دليلكم القاطع الملزم على دعاوكم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً أو نصرانياً، إن كنتم صادقين فيما تدعون.

١١٢ - ليس الأمر كما تزعمون، ولكن من أخلص دينه وعبادته لله وحده، وانقاد في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا لأوامر الله ونواهيه انقياداً تاماً، والحال أنه محسن عبادته وطاعته لربه، من أهل مرتبة الإحسان، الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، والذين أحسنوا معاملتهم مع الناس، فله ثواب عمله، وأجره الملائم بفضل الله، ولا خوف مسلط عليهم تضطرب به نفوسهم وقلوبهم في الآخرة، بسبب ترقب مكروه من عذاب الله، ولا هم يحزنون بسبب مكروه نزل بهم، أو من أجل محبوب فاتهم الحصول عليه؛ لأن ما أعد الله لهم في آخرتهم أعظم وأجل من كل ما في الدنيا من متاع وزينة ومحاب نفوسهم.

١١٣ - أدى التعصّب الممقوت بالمتنسبين إلى الملل الإلهية ذات الأصل الواحد، إلى الاختلاف والافتتال، وإنكار كل فريق ما عند الآخر، وجحد نبوة ورسالة أنبياء آخرين، وقالت اليهود: ليست النصارى على شيء من الدين الصحيح، وكذلك قالت النصارى في اليهود، وكلا الفريقين يقرؤون التوراة والإنجيل، وكل واحد من الكتابين مُصدق للآخر. كحال أهل الكتاب الذين قالوا لمن خالفهم: لستم على شيء من الدين، قال مشركو العرب الذين لا يعلمون من الكتب الربانية شيئاً، في محمد وأصحابه: إنهم ليسوا على شيء من الدين، وزعموا أن ما هم عليه من عبادة الأصنام والأوثان بجوار بيته الحرام هو الحق، ومنعوا المسلمين الموحدين من عبادة الله فيه، وآذوهم واضطهدوهم، فإله يقضي بين المحق والمبطل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويجازي كل بعمله يوم القيامة.

١١٤ - لا أحد أكفر وأبغى ممن منع مساجد الله كراهة أن يُعبد ويُصلى له فيها، ويُذكر بالدعاء والاستغفار والتسبيح، وجدّ في خرابها بالهدم، أو الإغلاق، أو بمنع المؤمنين منها، أولئك البعداء عن رحمة الله، الذين منعوا مساجد الله تعالى أن يُذكر فيها اسمه ما كان يسوغ لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم؛ فضلاً عن أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها. لهم صغارٌ وذل ومهانة في الحياة الدنيا، جزاء استكبارهم، ولهم في الآخرة عذاب شديد في النار.

١١٥ - إن الله المشرق والمغرب وما بينهما خلقاً ومُلْكاً، فأُيِّ جبهة توجّهتم إليها في الصلاة فهناك قبلة الله التي وجّهكم إليها، فالأصل في الجهات والأمكنة أنها سواء بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى، وكلها صالحة لعبادة الله، لكن اقتضت حكمة توحيد جهة المؤمنين تحديد مكان قبلتهم، واقتضت الحكمة في بعض المناسك تحديد أمكنة وأزمنة لها، فاختصت بامتيازات خاصّة اقتضتها مصالح العبادات أنفسها، والأغراض الدينية التي تهدف إليها منها. إن الله عظيم الصفات، لا حدّ لكمالها تنتهي إليه، واسع المغفرة والعلم والعطاء الذي عمّت نعمه، وشملت رحمته كل برّ وفاجر، عليم بأعمالكم لا يخفى عليه منها شيء.

١١٦ - وقالت اليهود والنصارى والمشركون: اتّخذَ الله لنفسه ولداً، تنزّه الله وتقدّست ذاته العلية عن اتّخاذ الولد، وعن قولهم وافترائهم عليه، بل كل من في السموات والأرض مُلكه وعبيده، فلا حاجة له إلى اتّخاذ الولد، إذ الولد إنما يسعى إليه الوالد أو يرغب فيه ليعتزه به، أو ليحيي ذكره، أو ليستعين به على القيام بأعمال الحياة، والله مُنزّه عن أمثال هذه الأغراض، كما أن الحكمة من التوالد بقاء النوع محفوظاً بتوارد أمثال الوالد حيث لا سبيل إلى بقاءه بعينه، أما الخالق فهو الواحد في ذاته وصفاته، الباقي على الدوام، وجميع أهل السموات والأرض مطيعون خاضعون، مُدلّلون مُسخّرون لما خُلقوا له، لا يستعصي منهم شيء على مشيئته وتكوينه، شاهدون بلسان الحال والمقال بوحدانيته.

١١٧ - الله خالق السموات والأرض ومُنشئهما على غير مثال سبق، ودون إرشادٍ من أحد، وإذا قدر أمراً وأراد خلقه فإنما يقول له بأمره التكويني القدري: «كن» فيكون ذلك الأمر على ما أَرَادَ الله تعالى وجوده من غير امتناع ولا مُهل.

١١٨ - وقال الجّهلة من أهل الكتاب والمشركين لرسول الله محمد ﷺ بالحاح: هَلَا يَكَلِّمُنَا اللَّهُ عَيَاناً بِأَنَّكَ رَسُولُهُ، أو تأتينا دلالة وعلامة كبرى على صدقك كما أتى الله موسى وعيسى. ومثل ذلك القول قالته كفار الأمم الخالية، تشابهت قلوب المكذّبين في الكفر والقسوة والعننى مع تباعد عصورهم، فعوامل الكبر والحسد والرغبة بالفجور التي وصلت إلى عمق قلوب الآخرين، كما وصلت إلى عمق قلوب الأولين من أهل الكفر، لها ظواهر في سلوك هؤلاء وأولئك متشابهة، بسبب التشابه الذي حصل في قلوبهم، وإن آيات القرآن وما جاء به محمد ﷺ من المعجزات الباهرات كافية لقوم يريدون أن يصلوا إلى يقين من أمر شريعة الله لعباده.

١١٩ - إنّنا بعبضة ربوبيتنا أرسلناك - يا رسول الله - بالحقّ الثابت المطابق للواقع، المؤيّد بالبراهين القاطعة، بشيراً لمن آمن بالسعادة الأبدية في جنات النعيم يوم الدين، مع أنواع ثواب مُعجّل في الدنيا، ونذيراً لمن كفر وأعرض عن الاستجابة لدعوتك بالشقاء الأبدى بعذاب في نار جهنم يوم الدين، مع أنواع عقاب في الدنيا، ولست مُكلّفاً - بعد البلاغ - تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان بالإكراه، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فأنت غير مسؤول عن أصحاب النار المتأجّجة المُلازمين لها، الذين لا يرجي رجوعهم عن طريق إرادتهم الحرّة من الكفر والعناد والتعنّت إلى الإيمان والإسلام والطاعة.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَٰؤُوا فَسَمَّ جَهَّ اللَّهُ إِلَٰهَ اللَّهِ وَاسِعٌ عَلَيْهِ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِيرٌ ﴿١١٦﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُشْغَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

البقرة الأولى

سورة البقرة

١٢٠ - وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - اليهود ولا النصارى إلا باتباع دينهم وطريقتهم. قُلْ - يا رسول الله - إنَّ دين الله الذي هو الإسلام هو الهدى كله وليس وراءه هدى، ونؤكد لك - يا رسول الله - أنَّك إن أتبعت أهواء اليهود والنصارى في أمور عقيدتهم وشريعتهم المنحرفة عن الحق، الصادرة عن شهوات أنفسهم، بعد الذي جاءك من العلم في الكتاب المُنزَّل عليك، بأنَّ الدين هو الإسلام الذي رَضِيَ الله لعباده، ما لك عند الله من ولي ينفعك، ولا نصير ينصرك. فإذا كان الرسول ﷺ غير مُستثنى من قانون العقاب والجزاء الرباني، لو أتبع أهواء اليهود والنصارى، وهو لا يفعل ذلك حتماً، فكيف يكون حالكم؟!

١٢١ - الَّذِينَ أَعْطَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَتَقَبَّلُوا الْعِطَاءَ بنفسى شاكراً، وقلب مؤمن، وعقل مدرك، يقرؤون الكتاب قراءة حقَّة كما أنزل لا يغيرونه ولا يحرفونه، ولا يُبدلون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ، ويتعرفون معناه، ويتعظون بعظاته، ويتبعونه حقَّ الاتباع، أولئك الذين يتلونهم حقَّ تلاوته، يُصدِّقون به تصديقاً لا يُرتاب فيه، ويدعون لما يأمر به وينهى عنه، ويعملون بموجبه، دون المعاندين المحرفين لكلِّه عن مواضعه، ومن يكفر بالكتاب بتحريفه، وينكر ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد ﷺ، فأولئك المنحطون البعيدون عن مواطن تنزل رحمت الله هم الذين خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالإيمان، فقاتهم ما أعدَّه الله للمؤمنين من نعيم دائم ومقام كريم، ويخلدون بعد هذا الحرمان في عذاب مهين.

١٢٢ - يَا ذُرِّيَّةَ يَعْقُوبَ: اذكروا نعمي الكثيرة التي أنعمت بها عليكم، دون غيركم من الناس، واذكروا تفضيلي لكم في أيام موسى وهارون وداود وسليمان وبعض أزمان أخرى على العالمين لحمل رسالة الله إلى الناس.

١٢٣ - وَفَوَّا أَنْفُسَكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ لَا تَجْزِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا فِدْيَةٌ، وَلَا يَشْفَعُ لَهَا شَافِعٌ إِذَا وَجِبَ عَلَيْهَا الْعَذَابُ، ولم تستحقَّ سواه، ولا ناصرَ لهم ينصرهم من الله إذا انتقم منهم.

١٢٤ - وَضَعُ فِي ذَاكَرَتِكَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِكَلَامِ رَبِّكَ - حين اختبر الله إبراهيم بكلمات تكليفية، وأوامر ونواهي، لا ينهض بها إلا ذو عزم يتلقى أوامر ربه بحسن الطاعة، فقام بهنَّ حقَّ القيام، وعَمِلَ بهنَّ على وفق ما طُلب منه، ولم يَنْتَقِصْ مِنْهُنَّ شَيْئاً. قال الله له: إني مُصَيِّرُكَ بِإِتِمَامِكَ الْكَلِمَاتِ، ووفائك لها قدوة يقتدي النَّاسُ بك في الخير. قال إبراهيم: وهل يكون من بعض ذُرِّيَّتِي أُمَّةٌ يُقْتَدَى بِهِمْ؟ قال الله تعالى له: سيكون من ذُرِّيَّتِكَ أُمَّةٌ، ولكن لا يُصِيبُ ما عَهِدْتُ إِلَيْكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْإِمَامَةِ من كان ظالماً منهم، لأنهم غير مؤهلين للإمامة.

١٢٥ - وَضَعُ فِي ذَاكَرَتِكَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِبَيَانِنَا - حين صَيَّرْنَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ مَرْجِعاً لِلنَّاسِ، يرجعون إليه من كلِّ جانب، ويترددون إليه في كلِّ عام، لعبادتنا بالطواف والصلاة والاعتكاف، ويثابون بحجَّه واعتمازه، ومَوْضِعاً ذَا أَمْنٍ يَأْمَنُونَ فِيهِ مِنَ الْحَوَادِثِ الْكُونِيَّةِ الْمُدْمِرَةِ، كالزلازل والبراكين، وجعلنا فيه الأمان بالأحكام التكليفية الشرعية، وقلنا لهم: اتَّخَذُوا مِنَ الْحَجَرِ الَّذِي قَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ عِنْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ مَكَاناً لِلصَّلَاةِ وَرَاءَهُ أَوْ فِي مَكَانٍ تَشَاهَدُونَهُ فِيهِ؛ لَتَذْكُرُوا بَعْدَ الطَّوْفِ شَيْخَ الْمُرْسَلِينَ، وإمام الصالحين من بعده، وتقننوا به في صالحات أعماله، وأمرنا إبراهيم وابنه إسماعيل: أَنْ طَهَّرَا الْكَعْبَةَ الْمُشْرِقَةَ بِمَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ مِنَ النِّجَاسَاتِ الْمَادِيَةِ، والمعنوية، كالأوثان والصور والتماثيل والمعاصي والآثام، وصيَّانته عن كلِّ ما لا يليق به؛ ليكون طاهراً للدائرين حَوْلَ الْبَيْتِ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ بِالطَّوْفِ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، ممَّنْ يَأْتُونَ لِحَجٍّ وَعِمْرَةٍ ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ، وللمقيمين به، المُلَازِمِينَ لَهُ بِقَصْدِ الْإِكْثَارِ مِنَ الْعِبَادَةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَالْمُصَلِّينَ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ بِالصَّلَوَاتِ فَرَائِضَ وَنَوَافِلَ، ويخضعون لله راعين ساجدين.

١٢٦ - وَضَعُ فِي ذَاكَرَتِكَ - يَا أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِكَلَامِنَا - حين قال إبراهيم داعياً: رَبِّ اجْعَلْ مَكَّةَ بِلَداً ذَا أَمْنٍ يَأْمَنُ فِيهِ أَهْلُهُ، وازرُق المؤمنين بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً من أهله من أنواع الثمرات. قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: سَأَرْزُقُ الْكَافِرَ أَيْضاً فِي الدُّنْيَا وَأَمْتَعَهُ تَمَتُّعاً قَلِيلاً إِلَى مُنْتَهَى أَجَلِهِ، استدراجاً له، ثم أَلْجَأْتُهُ وَأَدْفَعُهُ بَعْدَ مَتَاعِهِ الْقَلِيلِ الْمُنْقَطِعِ مَشُوقاً بِالْإِكْرَاهِ إِلَى عَذَابِ النَّارِ، وَيَبْسُ الْمَرْجِعِ الَّذِي يَصِيرُ إِلَيْهِ الْكَافِرُ، النَّارَ. ولو خَصَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّوَسُّعِ فِي الرِّزْقِ، وحرَمَ مِنْهَا الْكَافِرِينَ، لكانَ هَذَا التَّخْصِيبُ سَائِقاً لِلْكَافِرِينَ إِلَى الْإِيمَانِ عَلَى وَجْهِ شِبْهِ الْإِلْجَاءِ، وَقَدْ قَضَتْ حُكْمَتُهُ أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ اخْتِيَارِيّاً حَتَّى يَنْسَاقَ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَتِهِ الْحَرَّةِ.



١٢٧ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي لكلامنا - كأنك تشاهد الرسولَيْن الكريمَيْن إبراهيم وإسماعيل حين يرفعان أُسُس الكعبة المُشرَّفة على الأسس القديمة، التي كانت مبنية عليها قبل اندثارها، ومع قيامهما ببناء الكعبة كانا يدعوان الله تعالى: رَبَّنَا تَقَبَّلْ طَاعَتَنَا يَاكَ وعبادتنا لك، بالرضا والإثابة؛ إِنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ السَّمِيعُ دَوَاماً لدعائنا، العليمُ بِنِياتنا.

١٢٨ - رَبَّنَا واجْعَلْنَا بتوفيقك لنا وهدايتنا مُخْلِصَيْن مُطِيعَيْن خَاضِعَيْن لَكَ، رَبَّنَا واجْعَلْ بعضَ أولادنا بحكمتك وتوفيقك جماعةً خاضعةً منقادةً لك، رَبَّنَا وعَلِّمْنَا وبصِّرْنَا شرائعَ ديننا وأعمالَ حَجَّتنا، والأماكن الخاصة التي جعلتها لعبادتك، وتجاوزَ عنا بالعفو والغفران، وتَقَبَّلْ منا توبتنا، وارحمنا إِنَّكَ أَنْتَ كثيرُ القبول لتوبة التائبين من عبادك، الدائم الرحمة بهم.

١٢٩ - رَبَّنَا وابْعَثْ في الأُمَّة المسلمة رسولاً عظيماً كريماً من العرب، وهو مُحَمَّد ﷺ، يعرفون نشأته الطيبة، وسيرته النقية، يقرأ عليهم القرآن الذي ستنزله عليه؛ ليحفظوه ويحسنوا أداءه، وليكتبوه ولينقله جيلٌ إلى جيلٍ من بعده، ويُعَلِّمهم معانيه وحقائقه، ويعلمهم كلُّ ما دلت عليه السَّنة النبوية من قول وفعل وخلق، ويُرشدهم إلى وَضْع الأشياء في مواضعها عملاً، أو فكراً، أو معرفة، أو اعتقاداً، ويُطَهِّرهم من الشُّرك وسائر الأرجاس، ويزيدهم في الخير والفضائل على اختلاف أنواعها: النفسية والفكرية والاعتقادية والسلوكية، إِنَّكَ أَنْتَ القويُّ الغالب الذي لا يُغْلَب، الذي يختار أفضل الأشياء وأحسنها، ويضعُ كُلَّ ما منها في أحسن المواضع الملائمة.

١٣٠ - ولا يترك دينَ إبراهيم وشريعته زاهداً فيها، أو كارهاً لها، إلا من افتتن نفسه واستخفَّ بها، وخَمَلها على السفاهة والطيش، وعنده طرق المعرفة، وأسبابها، ويتركها حقاً ورعونة، ولقد اخترنا إبراهيم في الدنيا للنُّبوة والرسالة، وإنه في الآخرة لمن الكاملين في الصُّلاح،

وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَؤُا إِنَّا اللَّهُ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

المشهد لهم بالاستقامة على الطريقة المثلى.

١٣١ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي لبیاننا - حين قال الله تعالى لإبراهيم: اسْتَقِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَاثْبُتْ عَلَيْهِ. قال إبراهيم مُستجيباً للتكليف الرباني: خَضَعْتُ بالطاعة، وأَخْلَصْتُ العبادة لِمَالِكِ الْخَلَائِقِ وَمُدْبِرِهَا وَرَازِقِهَا، وَمُرَبِّيَهَا وَفَقْ نِظَامِ التَّربِيَةِ الْمَتَدَرِّجِ، وَمُذْهِبِهَا بِرَعَايَتِهِ وَحِفْظِهِ. فَاسْلُمُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مُتَقَادِينَ خَاضِعِينَ مُطِيعِينَ لِأَوَامِرِهِ الَّتِي يُبَلِّغُكُمْ إِلَيْهَا مُحَمَّد خَاتَمُ رُسُلِهِ الَّذِي هُوَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ، يَا مَنْ تَفَاخَرُونَ بِأَنْتُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَتَعْتَزُّونَ بِأَنْتُمْ عَلَى مِلَّتِهِ.

١٣٢ - وَوَصَّى إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ وَالْمِلَّةِ الْحَنِيفَةِ وَالِاسْتِسْلَامِ الْكَامِلِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَوَصَّى يَعْقُوبَ بَنِيهِ - وَكَانُوا اثْنَا عَشَرَ وَلِداً، أَحَدُهُمْ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِمِثْلِ مَا وَصَّى بِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَكُلٌّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَالَ لِبَنِيهِ فِي وَصِيَّتِهِ لَهُمْ: يَا أَبْنَائِي إِنْ اللَّهُ اخْتَارَ لَكُمْ عَقَائِدَ الدِّينِ وَشَرَائِعَهُ وَأَحْكَامَهُ، فَاسْتَخْلَصْ لَكُمْ أَحْسَنَهَا، وَكَلَّفَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِهَا، وَتَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهَا، وَأَمْرُكُمْ أَنْ تَكُونُوا مُسْلِمِي قِيَادَتِكُمْ فِي مَسِيرَةِ حَيَاتِكُمْ إِلَيْهِ جُلَّ جَلَالِهِ، تَطِيعُونَهُ فِيمَا أَمْرُكُمْ بِهِ فَتَوْدُونَهُ، وَتَطِيعُونَهُ فِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَتَجْتَنِبُونَهُ، فَالْتَزِمُوا بِإِسْلَامِكُمْ لَهُ كُلَّ أَزْمَانٍ حَيَاتِكُمْ، حَتَّى إِذَا جَاءَكُمْ الْمَوْتُ الَّذِي لَا تَعْلَمُونَ وَقْتُ نَزُولِهِ بِكُمْ، عِنْدَ انْتِهَاءِ أَجَالِكُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا مُمْتَحَنُونَ، جَاءَكُمْ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ مُسْتَسْلِمُونَ مُتَقَادُونَ مُطِيعُونَ رَبِّكُمْ، فِيمَا أَمْرُكُمْ بِهِ، وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ؛ لَتَكُونُوا مِنَ النَّاجِينَ وَالْفَائِزِينَ بِالْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

١٣٣ - بَلْ مَا كُنْتُمْ - يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ - حَاضِرِينَ حِينَ اخْتُصِرَ يَعْقُوبَ وَقُرُبَ مِنَ الْمَوْتِ، فَلَا تَدْعُوا - يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ - عَلَى أَنْبِيَائِي وَرُسُلِي الْأَبَاطِيلِ، وَتَسْبُوهُمْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، وَاذْكُرُوا وَقْتُ قَوْلِ الْأَنْبِيَاءِ الْإِثْنِي عَشَرَ: أَيُّ شَيْءٍ تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي؟ قَالُوا لَهُ: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ، مَعْبُوداً وَاحِداً لَا شَرِيكَ لَهُ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْتَسْلِمُونَ مُخْلِصُونَ فِي الْعِبَادَةِ.

١٣٤ - تِلْكَ الْجَمَاعَةُ الْفَاضِلَةُ الْمُجْتَمِعَةُ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، قَدْ مَضَتْ لِسَبِيلِهَا، لَهَا جِزَاءٌ مَا كَسَبَتْ مِنَ الْعَمَلِ، وَلَكُم - يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى - جِزَاءٌ مَا كَسَبْتُمْ مِنَ الْعَمَلِ، إِنْ عَمِلْتُمْ مِثْلَ عَمَلِهِمْ، وَاتَّبَعْتُمْ هَدْيَهُمْ، وَأَخَذْتُمْ بِوَصِيَّتِهِمْ، فَلَا تَتْرَكُوا طَاعَةَ اللَّهِ، أَوْ تَتَبَايَعُوا فِي الْقِيَامِ بِمَا أَمْرُكُمْ، اتَّكَالاً عَلَى انْتِسَابِكُمْ لِآبَاءٍ كَانُوا أَنْبِيَاءَ أَوْ صَالِحِينَ، وَكُلَّ فَرِيقٍ يُسْأَلُ عَنْ عَمَلِهِ لَا عَنْ عَمَلِ غَيْرِهِ، فَلَا مَجَالَ فِي الْعَدْلِ الرَّبَّانِيِّ لِتَصَوُّرِ خَطِيئَةِ مَوْرُوثَةٍ، وَلَا لِأَخْذِ الْبَرِّ بِخَطِيئَةِ الْمَذْنَبِ، وَالْمَسْئُولِيَّةِ عَنِ السُّلُوكِ مَسْئُولِيَّةِ شَخْصِيَّةٍ لَا تَحْمِلُ مَوَارِيثَ لِأَصُولِ الْأَوَّلِينَ، وَلَا تَحْمِلُ نَصِيباً مِنْ سُلُوكِ الْأَهْلِ وَالْأَقْرَابِ وَالْعَشِيرَةِ الْمَعَاصِرِينَ، وَلَا تَوَرِّثُ تَبَاعُثَهَا لِلذَّرَارِيِّ الْقَادِمِينَ.

١٣٥ - وقال اليهود الحاقدون الكافرون بأنعم الله التي توالى عليهم لأمة محمد ﷺ: كونوا يهوداً تهتدوا، وقال النصارى المثلثون الضالون: كونوا نصارى تهتدوا. قل لهم - يا رسول الله ويا كل داع إلى الله من أمته -: لا أتبع ملة اليهود، ولا ملة النصارى المحرفتين، بل الهداية أن نتبع جميعاً ملة إبراهيم، حالة كونه مائلاً عن كل دين باطل إلى دين الحق الذي أوحى الله به إليه، وما كان إبراهيم من المشركين، كاليهود والنصارى الذين يدعون اتباع ملته.

١٣٦ - قولوا - أيها المؤمنون - لهؤلاء اليهود والنصارى: صدقنا بالله وحده، وما اختص به من صفات الكمال على وجه الجزم واليقين، وبالقرآن الذي أوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ، وأما بما أنزل من الصحف إلى إبراهيم، وابنته إسماعيل وإسحاق، وإلى يعقوب، وأنبياء الأسباط المنحدرين من أولاد يعقوب الاثني عشر الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل، وما أعطي موسى من التوراة، وعيسى من الإنجيل، وما أنزل على غيرهم من الأنبياء، وصدقنا أن الجميع من عند الله، وأن جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى وحق، لا نفرق بين جماعة من النبيين فتؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض، كما فعل اليهود إذ كفروا بعيسى ومحمد، وكما فعل النصارى إذ كفروا بمحمد ﷺ، بل نؤمن بهم جميعاً، ونحن لله تعالى خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية.

١٣٧ - فإن آمن اليهود والنصارى بنفس ما آمنتم به، فقد اهتدوا إلى الحق؛ إذ اختاروا لأنفسهم الإيمان الصحيح الصادق، وإن أدبروا مُنصرفين عن الإيمان الذي تدعوهم إليه فما هم إلا في مخالفة الله تعالى ومُعادية لك وللمؤمنين، فسيكفيك الله - يا رسول الله - شر اليهود والنصارى، وينصرك عليهم، وهو السميع لأقوالهم وما يتناجون به من الإثم، العليم بأحوالهم وبما يُبيتونه لكم من كيد، فلا يتركهم دون أن يكف عنكم بأسهم، ويقطع دابرهم. وقد أوفى الله بعهده، فأظهره عليهم، ومنعه منهم، بتفريق كلمتهم، وقتل من لا بد من قتله، وإجلاء من يكفي في السلامة من شره الإجلاء.

١٣٨ - وقولوا - أيها المؤمنون - لليهود والنصارى: صبغنا الله بالإيمان صبغته، وطهر به نفوسنا، وفطرنا على عبادته، ولا دين أحسن من دينه، ونحن له خاضعون مطيعون. وإنما سمي الإيمان صبغة باعتبار تمكنه في قلب المؤمن، وتخلله في جميع أجزائه، وكما أن للصبغ أثراً في حلية المصبوغ، كذلك القلب إذا صبغ بالإيمان، فإن له زينة وحسناً ونوراً وبهاء.

١٣٩ - قل - يا رسول الله ويا كل داع إلى الله - لليهود والنصارى: أخاصموننا وتجادلوننا في توحيد الله والإخلاص له، وتدعون أن لكم مكانة خاصة عنده، والحال أنه ربنا وربكم سواء، ونحن جميعاً عباده، ولكل فريق منا أعمال يختص بما يترتب عليها من ثواب أو عقاب، فكما أننا نتساوى في العبودية له تعالى، نتساوى في استحقاق الجزاء على الأعمال الصادرة منا، ونحن مُخلصون في أعمالنا الله وحده، ولم نخلطها بشيء من الشرك كما فعل غيرنا.

١٤٠ - أتزعمون - يا معشر اليهود والنصارى - أن إبراهيم وبنيه: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب بن إسحاق، والأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثني عشر من ولد يعقوب، كانوا على دينكم وملتكم؟ وإنما حدثت اليهودية والنصرانية بعد، فثبت كذبكم على إبراهيم وبنيه. قل لهم - يا رسول الله -: أأنتم أعلم بدينهم أم الله أعلم بذلك؟ ولا أحد أظلم ممن أخفى شهادة جاءته من عند الله، بأن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين، وأن محمداً حق بصفته التي بشرت به التوراة والإنجيل، وما الله بغافل عن شيء من عملكم، بل هو مُحْصِيهِ عليكم، فترقبوا عقابه الشديد على ظلمكم الذي هو أظلم الظلم.

١٤١ - تلك جماعة من أسلافكم قد مضت لسبيلها، لها جزاء ما كسبت من العمل، ولكم جزاء ما كسبتم من العمل، فلا يؤخذ البريء بخطيئة المذنب، ولا يتحمل أحد خطيئة موروثه لا شأن له بها، وكل إنسان يُسأل يوم القيامة عن عمله لا عن عمل غيره ولو كان أقرب الأقربين إليه. فلا تتكلموا - يا معشر اليهود - على شرف الآباء وفضلهم.

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنِي إِلَى اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ إِنَّا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَظَرُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

١٤٢ - سَيَقُولُ ضِعَافُ الْعُقُولِ، الطاعنون في تحويل القبلة إلى الكعبة من مشركي العرب وأحبار اليهود والمنافقين: أَيُّ شَيْءٍ صَرَفَهُمْ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قُلْ لَهُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -: لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَجَمِيعُ الْأَمَكَةِ مَمْلُوكَةٌ لَهُ، وَهِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ مُتَسَاوِيَةٌ، وَلَهُ أَنْ يَخْصُ بَعْضُهَا بِحُكْمٍ دُونَ بَعْضٍ، وَمَا عَلَى النَّاسِ إِلَّا أَنْ يَمْتَثِلُوا أَمْرَهُ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ وَشَرَعَ قَوِيمٍ، إِذْ يَتَّجِهْ إِلَى جِهَةِ الْكَعْبَةِ وَقِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي أَمَرَهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا.

١٤٣ - وَكَمَا هَدَيْنَاكُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَجَعَلْنَا الْقِبْلَةَ فِي مَكَانٍ وَسْطٍ مِنَ الْأَرْضِ، جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً عُذُولًا خِيَارًا تُبَلِّغُونَ دِينَ اللَّهِ لِلنَّاسِ كَمَا تَلْقَيْتُمُوهُ مِنَ الرُّسُولِ ﷺ؛ لَتَكُونُوا إِذَا بَلَّغْتُمْ وَدَعَوْتُمْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكُمْ كَمَا دَعَا الرُّسُولُ ﷺ، شُهَدَاءَ عَلَى الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ الرِّسْلَ قَدْ بَلَّغْتُمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَأَنْكُمْ بَلَّغْتُمْ النَّاسَ الرِّسَالَاتِ، وَأَذَيْتُمْ إِلَيْهِمُ الْأَمَانَةَ، وَيَكُونُ الرُّسُولُ فِي الْآخِرَةِ مُزَكَّيًّا لَكُمْ، شَاهِدًا بِصَدَقَتِكُمْ. وَمَا جَعَلْنَا - يَا رَسُولَ اللَّهِ - قِبْلَةَ «بَيْتِ الْمَقْدِسِ» الَّتِي أَمَرْنَاكَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا حِينَئِذٍ مِنَ الدَّهْرِ، ثُمَّ صَرَفْنَاكَ عَنْهَا إِلَى الْكَعْبَةِ بِ«مَكَّةَ» إِلَّا امْتِحَانًا لِلْمُسْلِمِينَ؛ لِيُظْهَرَ مِنْ يُطِيعُ الرُّسُولَ فِي أَمْرِ الْقِبْلَةِ وَتَحْوِيلِهَا، مِمَّنْ يَخْرُجُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَيَرْجِعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ سَائِرًا عَلَى مُؤَخَّرِ قَدَمَيْهِ إِلَى الْوَرَاءِ سَيْرًا مُضْطَرِبًا، بَعْدَ أَنْ سَارَ بِضَعِ خَطَوَاتِهِ إِلَى الْأَمَامِ فِي طَرِيقِ الْهَدَايَةِ. وَقَدْ كَانَتْ تَوَلِيَةُ الْقِبْلَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ ثَقِيلَةً وَشَاقَّةً عَلَى النُّفُوسِ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ قُلُوبَهُمْ إِلَى اتِّبَاعِكَ، وَالْإِيمَانِ بِكَ، وَالْعِلْمِ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكْلِفَ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ، وَيَنْسَخَ مَا يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُرِيدًا لِيُضَيِّعَ صَلَاتَكُمْ الْمَاضِيَةَ الَّتِي صَلَّيْتُمُوهَا لِلَّهِ مُتَوَجِّهِينَ فِيهَا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَاللَّهُ لَا يَضَيِّعُ أَجْرَ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ، الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ مَظَاهِرُ الْأَعْمَالِ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَشَدِيدُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ، يَنْعَمُ عَلَيْهِمْ

بِجَلَالِ النِّعَمِ وَدَقَائِقِهَا، وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ الْمَكْرُوهَ، وَيَتَعَهَّدُهُمْ بِعَنَائَتِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ وَعَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ، دَائِمَ الرَّحْمَةِ بِهِمْ. وَقَدْ أَطْلَقَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى الصَّلَاةِ اسْمَ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ مَظْهَرٌ مِنَ مَظَاهِرِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، مَهْمَا كَانَتْ الْجِهَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا وَاتَّخَذَهَا قِبْلَةً فِي الصَّلَاةِ.

١٤٤ - قَدْ نَرَى تَرَدُّدَ وَجْهِكَ وَتَصَرُّفَ نَظْرِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - إِلَى جِهَةِ السَّمَاءِ، انْتِظَارًا لِنَزُولِ الْوَحْيِ إِلَيْكَ، وَاسْتِعْظَافًا صَامِتًا فِي تَحْوِيلِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قِبْلَتِهِمُ الْأُولَى، قَوْلًا لثُمَّ كُنْ لَكَ، وَنَصَرَفَكَ عَنْ «بَيْتِ الْمَقْدِسِ» إِلَى قِبْلَةٍ تَجْهَى وَتَمِيلُ إِلَيْهَا. قَوْلُ وَجْهِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - جِهَةُ الْكَعْبَةِ، وَفِي أَيِّ مَكَانٍ كُنْتُمْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - وَأَرَدْتُمْ الصَّلَاةَ، فَوَجَّهُوا وَجُوهَكُمْ جِهَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يَعْلَمُونَ أَنَّ أَمْرَ الْقِبْلَةِ وَتَحْوِيلِهَا إِلَى الْكَعْبَةِ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ مِنْ رَبِّهِمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَرَبَّاهُمْ، وَالَّذِي لَهُ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، فَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ تَكُونُ الْقِبْلَةُ الَّتِي يَخْتَارُهَا، كَمَا أَنَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ، وَمَا اللَّهُ بِسَاءِ عَمَّا يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ الْمَعْتَرِضُونَ، فَسَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى جُحُودِهِمْ لِلْحَقِّ وَإِنْكَارِهِمْ لَهُ، وَإِثَارَتِهِمْ لِلرَّيْبِ، وَبُشْمِ الشُّكِّ.

١٤٥ - وَالَّذِي نَفْسُكَ بِهِ، إِنْ جِئْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِكُلِّ حُجَّةٍ وَبِرْهَانٍ عَلَى أَنَّ تَوَجُّهَكَ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي الصَّلَاةِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ عِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا، وَمَا أَنْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى، وَمَا الْيَهُودُ بِتَابِعِينَ قِبْلَةَ النَّصَارَى، وَلَا النَّصَارَى بِتَابِعِينَ قِبْلَةَ الْيَهُودِ، فَهُمْ فِي تَعْصُبٍ وَعِنَادٍ مُسْتَمِرٍّ، وَكُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ مُلَازِمٌ مُلْتَمِةٌ، لَا يَفَارِقُ قِبْلَتَهُ، حَتَّى يَفَارِقَ مُلْتَمَتَهُ، فَاتَّبَعُوا عَلَى قِبْلَتِكُمْ، وَدَعَوْهُمْ وَشَأْنَهُمْ، وَلَا تَقِيمُوا لِمَشَاغِبَتِهِمْ وَزَنًا؛ وَأَقْسَمُ: لَنْ رَجَعْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - إِلَى قِبْلَتِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا وَصَلَ إِلَيْكَ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مُقِيمُونَ عَلَى بَاطِلٍ، وَاتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمُ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ الْعَقِيدَةِ وَالشَّرِيعَةِ، فِي شَتَّى أَحْكَامِهَا وَتَعَالِيمِهَا، إِنَّكَ إِذَا مِنْ فِتْنَةِ النَّاسِ الَّذِينَ يَضَعُونَ الْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ.

فَالْآيَةُ وَعِيدٌ وَتَحْذِيرٌ مِنْ اتِّبَاعِ أَهْوَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَتَوَجُّهُ الْوَعِيدِ فِي صُورَةِ الْخُطَابِ لِلرُّسُولِ الْأَكْرَمِ ﷺ الَّذِي لَا يَتَوَقَّعُ مِنْهُ أَنْ يَتَّبِعَ أَهْوَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ، تَأْكِيدًا وَتَحْذِيرًا لِمَنْ كَانَ دُونَهُ فِي الْفَضْلِ وَغُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ إِذَا اتَّبَعَ أَهْوَاءَ الْمُبْطِلِينَ؛ إِذْ مِنْ شَأْنِ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ مُحَاوَلَةَ التَّلَاعِبِ بِشَرَائِعِ اللَّهِ حَسَبَ أَهْوَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَوْ تَلَايَنَ مَعَهُمْ، فَسَدَّتْ مَفَاهِيمُ الْحَقِّ وَالِدِينِ، وَاخْتَلَطَتِ الْأُمُورُ، وَضَاعَ الْخَيْرُ فِي خَضَمِ الشُّرُورِ.

الْبَيْتُ الْكَرِيمُ

سُورَةُ النِّبَا

الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُومٌ وَلَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعُوا عَنَّا هُكْمًا وَأَعْلَمُكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُوفِي أَذْكَرَكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

١٤٦ - الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من علماء اليهود والنصارى يعرفون محمداً ﷺ معرفة جلية بالوصف المعين الذي يجدونه عندهم، لا يشتبه عليهم كما لا تشبه عليهم أبناءهم من أبناء غيرهم، وإن فريقاً من علماء أهل الكتاب ليخفون صفة محمد ﷺ حسداً وعناداً، وهم يعلمون أن صفة محمد ﷺ مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل، والتي من جملتها أنه ﷺ يصلي إلى القبليتين، ويعلمون أن كتمانهم إثم، ويعلمون نتائج ذلك الإثم، ولكنهم في غي دائم، وضلال مستمر.

١٤٧ - الذي يكتُمونه هو الحق من ربك المنعم عليك، فلا تكونن من الشاكين المترددين في أنهم علموا صحة نبوتك.

والنهي موجه للأمة في صورة الخطاب له ﷺ، إذ في الأمة حديثو عهد بكفر، يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروج به أهل الكتاب شبهاً تعلق بأذهان من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم.

١٤٨ - ولكل أهل ملة قبلة يتجهون إليها، وعقيدة اختاروها، فبادروا بالطاعات، وابدلوا جهدكم في السبق إليها، أينما تكونوا أنتم - أيها المؤمنون - المسارعون إلى ما اختاره لكم من الأعمال التي من جملتها التوجه إلى الكعبة للصلاة، وفي أي موضع كنتم - يا أهل الكتاب، الذين يكتُمون الحق وهم يعلمون، ويولون وجوههم غير المسجد الحرام - يأت بكم الله جميعاً يوم القيامة، إن الله على الإعادة بعد الموت، والإثابة لأهل الطاعة، والعقاب لمستحقي العقوبة عظيم القدرة لا يعجزه شيء أرادته.

١٤٩ - ومن أي موضع خرجت - يا رسول الله - وأردت الصلاة، فوجه وجهك نحو المسجد الحرام، فتوجهك للكعبة كتوجه الأمة، لا يختص ببقعة دون بقعة، ولا بزمان دون زمان، ولا بحضر دون سفر، وإن التوجه إلى المسجد الحرام هو الحق الثابت الذي لا شك فيه، وليس الله بساء عن أعمالكم، ولكنه مُحصيها لكم وعليكم، فيجازيكم بها يوم القيامة.

١٥٠ - ومن أي موضع خرجت، قول وجهك - يا رسول الله - نحو المسجد الحرام، وفي أي مكان كنتم - أيها المسلمون - وأردتم الصلاة فولوا وجوهكم نحو المسجد الحرام؛ لكي لا يكون للناس المخالفين لكم احتجاج عليكم بعدم العلم في تحويل القبلة إلى الكعبة، لكن الذين ظلموا من مشركي قريش واليهود، فإنهم يتعلّقون بالشبه ويجادلونكم بالباطل، فيقول اليهود: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً لدين قومه، وحجاً لبلده. ويقول المشركون: بدأ له فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم، فلا تخافوا أولئك المعاندين، ولا تقيموا لما يشاغبون به في أمر القبلة وغيره وزناً، فإنني أكفيكم بأسهم، وأرد عنكم كيدهم، واحذروا عقابي إن أنتم عدلتم عما فرضت عليه عليكم، وحافظوا على التوجه في صلواتكم إلى البيت الحرام لكي أنعم عليكم بهدياتي إياكم إلى أكمل الشرائع، ورغبة أن تهتدوا من الضلالة إلى الحق والصواب.

١٥١ - كما أنعمنا عليكم باستقبال الكعبة، أرسلنا فيكم - يا معشر العرب - رسلاً منكم إجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل، تعرفون نشأته الطيبة، وسيرته النقية، يتلو عليكم القرآن، ويطهركم من دنس الشرك والذنوب، ورذائل الأخلاق وأعمال الجاهلية، ويزيدكم في الخير والفضائل على اختلاف أنواعها: النفسية، والفكرية، والاعتقادية، والسلوكية، ويعلمكم معاني الكتاب وحقائقه، ويعلمكم كل ما دلت عليه السنة النبوية من قول وفعل وخلق، ويُرشدكم إلى وضع الأشياء في مواضعها اعتقاداً، أو فكراً، أو سلوكاً، ويعلمكم من أخبار الأمم الماضية، والقرون الخالية، والحوادث المستقبلية مما لم تكونوا تعلمون قبل بعثة رسول الله ﷺ.

١٥٢ - فاذكروني باللسان والقلب والجوارح أذكركم بالثواب والرضا عنكم، واشكروا لي ما أنعمت به عليكم، بعبادتي واتباع رسولي، والاستسلام لأحكام شريعتي، ولا تتجحدوا نعمي عليكم كما فعل المعاندون الجاحدون من أهل الكتاب الذين أنعمت عليهم، فقابلوا نعمي بالبحود والكفران.

١٥٣ - يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله: اطلبوا العون من الله في القيام بما كلفكم به من الجهاد والدعوة إلى الحق؛ بحبس النفس على تحمّل المشاق في الطاعات، وتجنب الجزع عند نزول المصائب التي تجري بها الأقدار، وترك المعاصي والمحظورات، وبالصلاة الخاشعة التي يستعان بها على القيام بالطاعات، ومخالفة الأهواء والشهوات، والاطمئنان عند مفاجأة المصائب، إن الله مع الصابرين بالعون والنصر والوقاية من شر الأعداء. وهذا النداء الإلهي هو النداء الثاني للمؤمنين في هذه السورة.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١٥٤ - ولا تقولوا - أيها المؤمنون - لِمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ بِمَنْزِلَةٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ، بَلْ هُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، حَيَاةً تِلْكَ الْفَاصِلُ الْبَرَزِيَّةَ بَيْنَ انْتِهَاءِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبَدْءِ الْحَيَاةِ الْآخِرَى بِالْبَيْعِ، وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ أَدْنَى عِلْمِ حَقِيقَةِ تِلْكَ الْحَيَاةِ، وَمَا خَصَّصَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ مَزِيدِ النِّعَمِ، وَزَرَّقَهُمْ مِنْ مَطَاعِمِ الْجَنَّةِ وَمَا كَلَّهَا.

١٥٥ - وَلَتُخَبِّرَنَّكُمْ - أيها المسلمون - بشيءٍ قليلٍ من الغمِّ الذي تَقْطُرُ به نفوسكم من توفُّعِ مكروهه، ومن المجاعة العامة بعدم كفاية ما تنبتُه الأرضُ لسدِّ حاجاتكم، وبنقصٍ من الأموال؛ بالهلاكِ والخسران أو تعسُّرِ الحصولِ عليها، ونقصٍ من الأنفس؛ بالموتِ أو القتل، ونقصٍ من الثمرات؛ بالجوائح أو موتِ الأولاد؛ ليكون من ثمرة الصبرِ والثباتِ على طاعتي الثواب العظيم. وبشِّر - يا رسولَ الله - الصَّابِرِينَ على امتحاني عند نزولِ البلاءِ بالسكينةِ والتسليمِ لقضاءِ الله، بما يَسْرُهُمْ ويُفَرِّجُهُمْ من حُسْنِ العاقبةِ في الدنيا والآخرة.

١٥٦ - صِفَةُ هَؤُلَاءِ الصَّابِرِينَ أَتُهُمْ إِذَا أَصَابَهُمْ بَلَاءٌ، وَسُلِبَتْ مِنْهُمْ نِعْمَةٌ سَبَقَ أَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا، أَوْ حُرِّمُوا مِنَ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِمِثْلِهَا عَلَى عِبَادِهِ، تَذَكَّرُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ نَفْسَهُمْ مَمْلُوكَةٌ لِلَّهِ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ مَمْلُوكُونَ لِلَّهِ، وَهُمْ عِبَادُهُ، وَمَصِيرُ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى مَالِكِهِمْ، وَمَصِيرُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا أَنْ تَعُودَ إِلَى مَالِكِهَا، فَعَلَامَ الْحُزَنِ وَالْأَسَى؟ وَلَمْ يَلْعَنُوا الْإِعْتِرَاضَ وَالتَّسَخُّطَ؟! وَحِينَمَا يَتَذَكَّرُ الْمُؤْمِنُونَ الصَّابِرُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ يَقُولُونَ: إِنَّا عِبِيدٌ وَمُلْكُكَ لِلَّهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ وَحْدَهُ صَائِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجَازِنُنَا عَلَى مَا دَعَانَا إِلَيْهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالتَّسْلِيمِ إِلَى قَضَائِهِ عِنْدَ نَزُولِ الْمَصَائِبِ الَّتِي لَيْسَ فِي اسْتَطَاعَتِنَا دَفْعُهَا.

١٥٧ - أولئك الصّابرون لهم أنواعٌ من رحمة الله وغفرانه، لصبرهم ابتغاء مرضاة الله، ولهم نوع آخر خاص من رحمة الله، مضافاً إلى أنواع الرحمات السابقة لرضاهم عن الله، وتسليمهم لما تجري به

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَتَبْلُوُنَّكُمْ فِي نَفْسٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَاءِ مَّوَالٍ فَمَنْ حَاجَ الْيَئِتِ أَوْ اعْتَصَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاللَّهُ كُفَرًا لَّهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

مقاديره، وأولئك الفضلاء رفيعو المنزلة هم وحدهم المهتدون إلى سبيل سعادتهم، وهم السالكون لطريق الحق والصواب.

١٥٨ - إِنَّ الصُّفَا والمروة - وهما الجَبَلَان المعروفان في طَرْفِي الْمَسْعَى قُرْب الكعبة - من أعلام دينه وعلامات طاعته، حيث يُسعى بينهما؛ فَمَنْ قَصَدَ الْبَيْتَ وَزَارَهُ لِلْحَجِّ أو الْعُمْرة، فلا لَئْمَ عليه أن يسعى بينهما، إذ كانوا في الجاهلية يُحْرَمُونَ لِمَنَاء، ثم يسعون بين الصفا والمروة من أجل صنمين هما: «أساف» و«نائلة»، فلما جاء الإسلام تَحَرَّجُوا من السعي بينهما؛ فدفعَت الآية الحرج الذي كان يتردّد في صدورهم. ومن فَعَلَ فعلاً زائداً على ما افترضَ عليه من جميع أنواع الطاعات، فإن الله مُجَازِيهِ على الطاعة بالشواب، عليمٌ بكل ما يصدر عن عباده من الأعمال، فلا يضيع عنده أجر المحسنين.

١٥٩ - إِنَّ الَّذِينَ يُخْفُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْآيَاتِ الدَّلَالَاتِ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْعِلْمَ النَّافِعَ الْمُسْتَمَدَّ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ عَنْ طَرِيقِ
الاسْتِثْبَاتِ وَالْاجْتِهَادِ الْقَائِمِ عَلَى الْأَصُولِ الْمُحْكَمَةِ، وَذَلِكَ بِإِخْفَاءِ النُّصُوصِ وَعَدَمِ ذِكْرِهَا لِلنَّاسِ، أَوْ إِزَالَتِهَا وَوَضْعَ شَيْءٍ آخَرَ مَكَانَهَا،
أَوْ تَأْوِيلَهَا التَّأْوِيلَ الْفَاسِدَ عَنِ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ جَزْئياً مَعَ الْأَهْوَاءِ، مِنْ بَعْدِهَا أَوْضَحْنَاهُ لِلنَّاسِ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ الْمَنْزُلةِ، أَوْلَئِكَ الْبُعْدَاءُ
الْمُنْحَطُّونَ فِي الدَّرَكَاتِ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيَدْعُو عَلَيْهِمُ بِاللَّعْنَةِ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ.

١٦٠ - وَلَا يُسْتَشْنَى مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَلْعُونِينَ إِلَّا الَّذِينَ أَقْلَعُوا عَنِ الذَّنْبِ، وَتَدَبَّرُوا عَلَى مَا صَدَّرَ مِنْهُمْ مِنْ كِتْمَانٍ، وَعَزَمُوا عَزْماً مُؤَكِّداً أَلَّا يَعُودُوا إِلَيْهِ، وَأَصْلَحُوا مَا أَفْسَدُوهُ، وَأَظْهَرُوا مَا كَتَمُوا مِنَ الْعِلْمِ، فَأَوَّلُكَ أَرْجِعْ عَلَيْهِمْ بِالْقَبُولِ وَالْعِزَاءِ، وَأَنَا كَثِيرُ قَبُولِ التَّوْبَةِ، دَائِمِ الرَّحْمَةِ بَعْدِي بَعْدَ إِقْبَالِهِمْ عَلَيَّ وَرَجُوعِهِمْ إِلَيَّ.

١٦١، ١٦٢ - إِنَّ الَّذِينَ سَتَرُوا دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَتَابِيِّينَ، وَكَتَمُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَتَوْبُوا، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى مَاتُوا، أَوْلَتْكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، بَاقِينَ فِي النَّارِ فِي اللَّعْنَةِ وَفِي النَّارِ إِلَى غَيْرِ نَهَايَةٍ، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مَقْدَارَ الْعَذَابِ الَّذِي اسْتَحَقُّوه، وَلَا يُمَهِّلُونَ وَيُؤَخَّرُونَ عَنِ الْعَذَابِ سَاعَةً، بَلْ يَلَاقِيهِمُ الْعَذَابُ حَالَ مَفَارِقَةِ الْحَيَاةِ.

١٦٣ - وإلهمكم - أيها الناس - الذي يستحقُّ العبادة إلهَ واحدٍ في ذاتِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، لا معبودَ بحقٍ إلا هو، العظيم الرحمة الذي تعمُّ رحمته الوجود كُلُّهُ في السموات والأرض، والدنيا والآخرة، وهو دائم الرحمة بعباده يغفر لهم، ويتوب عليهم، ويشرع لهم من الشرائع ما يكون خيراً لهم في معاشهم ومعادهم.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنْ
النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ
وَتَنَفَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوَ أَنَّا
لَنَآكِرَةٌ فَتَنَبَّرَ أَمْنُهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾
يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِن مَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

١٦٤ - إِنَّ فِي هذه الآيات الكونية لدلائل واضحات على ربوبيته وإلهيته سبحانه: الآية الأولى: آية خلق السموات بارتفاعها بغير عمد وما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وفي مد الأرض وبسطها وما فيها من الجبال والبحار والأنهار والأشجار، والآية الثانية: تعاقب الليل والنهار على محيط الأرض في المجيء والذهاب، والظلمة والنور بنظام مُحكم دقيق، والآية الثالثة: السفن التي تجري على وجه الماء موقرة بالأنقال، وتنقلها من بلد إلى آخر، بما ينفع الناس في تجارتهم ومنافعهم، والآية الرابعة: الدورة المائية ونظام تحلية الماء بالتبخّر والاجتماع في السحاب، ثم هطوله مطراً على ما يشاء الله، ولمن يشاء، وآية دورة الحياة النباتية، والآية الخامسة: ما فرّق الله في الأرض من أنواع الدوابّ كلّها على اختلاف أحجامها وأشكالها ألوانها وأصواتها، ومدد حملها، وكيفيّة تناسلها، ووجوه الانتفاع بها، والآية السادسة: تقلب الله الرياح وتنويعها في جهاتها شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وفي أحوالها حارة وباردة، وعاصفة وليّنة، وملقحة للنبات وعقيماً، والآية السابعة: الغيم المذلل المسير وفق مقادير الله وأوامره الحكيمة بين السماء والأرض، ففي هذه الآيات الكونية السبع دلائل على وحدانيته، وعجائب دالّة على عظّمة قدرة الله، وكمال إرادته، وواسع علمه، وجليل حكمته وإتقانه وإبداعه لمخلوقاته، وعنايته بعباده، لقوم يعقلون عقلاً علمياً، فيعلمون أنّ لهذه الأشياء خالقاً ومُدبراً قادراً على ما يريد.

١٦٥ - ومع هذه البراهين الواضحة، يتخذ فريق من المشركين أصناماً يزعمون أنّها أمثال الله، يطيعونهم في أمر التحليل والتحريم، ويعتقدون أنّها تُوصل النفع وتلحق الضرر بمن تشاء، ويُعطونهم من المحبة والتعظيم البالغ والعبادة، ما لا يليق إلا بالله وحده، والذين آمنوا أعظم حباً لله من حبّ المشركين للأنداد؛ لأنهم يعتقدون كمال الله فوق كل كمال، والكمال الثابت يبين يستميل القلوب بأشدّ مما يستميلها الكمال الذي تُصوره الأوهام، ولو يعلم الذين ظلموا أنفسهم باتخاذ أنداد من دون الله في الحياة الدنيا، حين يُعانون العذاب المُعدّ لهم يوم القيامة، أنّ القدرة كلها لله وحده، وأنّ عذاب الله شديد، لرأوا ما لا يُوصف من الأهوال والشدائد.

١٦٦ - حين يرى الذين ظلموا العذاب يوم القيامة، يتنَزّه ويتباعد أئمة الضلال المتبعون من أتباعهم الذين يتلقّون جميع أقوالهم بالتقليد والطاعة، وتنقطع بسبب كفرهم الصلّات التي كانوا يرجون بها النجاة في الدنيا من قرابة وصداقة ورياسة وتبعية، فلا يمكن وصل تلك الصلّات التي ارتبطوا بها في الدنيا بحال من الأحوال.

١٦٧ - وقال الأنبياء: لو ثبت أنّ لنا رجعة إلى الدنيا، حياة الابتلاء، فتبرّأ من زعمائنا ورؤسائنا الذين كنا نسير وراءهم في الدنيا، كما تبرّأوا منا في هذا اليوم العصيب. كذلك الشأن الذي يَرَوْنَ فيه أتباعهم لأئمتهم وقادتهم في الكفر حَسَرَاتٍ عليهم، يُرِيهِمُ الله سائر أعمالهم التي عملوها باختيارهم في الدنيا ندامات تتوالى عليهم حَسرة بعد حَسرة، تملأ صدورهم، وتحرق قلوبهم، إذ كفروا بالله، فأضاعوا في الدنيا أعمارهم، فهم يتحسّرون على ما أضاعوا، ويتمنون العودة إلى الدنيا؛ ليصلحوا أعمالهم، فلا يُستجاب لهم، وما هم بخارجين من النار، بل هم فيها دائمون يتعلّبون بنار الحسرة والندم التي تحرق قلوبهم، ونار جهنم التي تشوي أجسادهم وجلودهم.

١٦٨ - يا أيّها الناس يُباح لكم أن تأكلوا من كلّ ما تحويه الأرض من المطعومات حال كون ما تأكلون منه مأذوناً من الشرع في تناوله، طيباً تقبل عليه النفوس الطاهرة لطهارته، وخلوّه من القذارة، وعدم إيقاعه في الضرر، واحذروا أنّ تعدوا ما أحلّ الله لكم إلى ما حرم عليكم، أو تحرّموا على أنفسكم ما لم يحُرّمه الله، كما فعل أهل الجاهليّة، متبعين في ذلك خطوات الشيطان في الإضلال والإغواء، التي ينقل بها فريسته ذرّة فدركة، حتى يوصله إن استطاع إلى أسفل سافلين؛ إنّهُ لكم عدوٌّ ظاهرُ العداوة مُظهرُ لها، لا تخفى عليكم عداوته.

١٦٩ - إنّما يُوسوس لكم الشيطان لطاعته فيما يأمر به من فعل السوء، بدءاً من صغائر الذنوب والمعاصي إلى أشدّها وكبائرّها، ولطاعته فيما يأمر به من الكبائر المُتعلّقة بالفروج، ولطاعته فيما يأمر به من تقوّل على الله في دينه، وتحريف في أحكام شريعته لعباده، سواء أكان ذلك في الحقائق العلميّة الاعتقاديّة، أو في الأحكام السلوكيّة. فالشيطان بخطواته المُتتارلات يبدأ بأهون الذنوب وأصغرها، وينتقل بمن يُؤويهم ويخدعهم شيئاً فشيئاً إلى المعاصي الأشدّ فالأشدّ، التي تمتدّ بقعة انتشارها، وآثارها الفاسدة والمُفسِدة، حتى يوصلهم إلى الشُّرك، فما هو أقبَح وأخسّ من الشُّرك، كالإلحاد بإنكار وجود الخالق، وكالنفاق.

١٧٠ - وإذا قال المؤمنون للمشركين المُقلِّدين لآبائهم تقليداً أعمى: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ من حقائق إيمانية، وشرائع وأحكام سلوكٍ نافع في الحياة، ومُسَعِّدٍ لكم بعد الممات. قالوا: لا نَتَّبِعُ ما تدعوننا إليه، لأننا لا نؤمن به، بل نَتَّبِعُ ما وَجَدنا عليه آبائنا من عبادة الأصنام. أيعاندون مُصْرِينَ على اتِّباع آبائهم، ولو كان آبائهم الذين يَتَّبِعُونهم لا يعلمون شيئاً من أمر الدين وحقائق العلم، ولا يعقلون بإرادتهم أنفسهم عن اتِّباع أهوائهم الجانحة، وشهواتهم الجامحة، ولا يهتدون إلى سبيل نجاتهم وسعادتهم؟ إذ كلُّ همهم مُنْصَرَفٌ إلى إرضاء غرائزهم وأهوائهم وشهواتهم.

١٧١ - وصفه الكفار الذين استوى لديهم الإنذارُ وعدمه، والداعي لهم إلى الإيمان حين يدعوهم فيعرضون عن دعوته وينصرفون عن تفهيمها كصفة الراعي الذي يصيح بالغنم، وهي لا تسمع إلا صَوْتاً وألفاظاً لا تعقل لها معنى، وكذلك الكفار يسمعون صوت الداعي إلى الله، ولكن لا ينتفعون به، ولا يدركون دلالاته، ونفس الداعية الذي يخطب فيهم تتمزق بمشاعر الخيبة وعدم جدوى عمله. هؤلاء الكفار ضَمُّ عن سَماع الحق، خُرْسٌ عن التُّطرق به، غُمَيٌّ عن طريق الهدى، فهم لا يفقهون الموعظة. فهذا مَثَلٌ لصف من الكافرين رفضوا أن يستجيبوا لدعوة الإيمان؛ لأنهم صَمُّوا على أن لا يؤمنوا، واختاروا بكمال إرادتهم سُبُل الكفر على سبيل الإيمان، وفي هذا المثل إلماح للدعاة بأن لا يُوجِّهوا اهتمامهم لهذا الصنف الميؤوس من إيمانه، إذا استوى عنده الإنذار وعدمه.

١٧٢ - يا أيُّها الذين آمنوا كُلُوا من الحلال المُسْتَلَذِّ من المطاعم الذي أنعم الله به عليكم، وأباحه لكم، ولا تأكلوا ما حرَّمه الله، وما هو خبيث مُسْتَقْدَر ضار، واشكروا الله الذي رزقكم هذه النعم بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، إن كنتم حقاً تَخْشَوْنَه بالعبادة، وتقروْنَ أَنَّهُ إِلَهٌ واحدٌ. وهذا النداء هو النداء الإلهي الثالث للمؤمنين في هذه السورة.

١٧٣ - ما حرَّم الله عليكم الأكل من أجساد الأحياء غير الإنسانية والتي تأكلون منها، إلا أربعة مُحَرَّمات: الأول: المَيْتَةُ، وهي كل ما فَارَقَتْه روحه من غير ذكاة ممَّا يُدْبَح، والمُحَرَّم الثاني: الدم الجاري، والمُحَرَّم الثالث: الخنزير بجميع أجزائه، والمُحَرَّم الرابع: ما أعلن ذابحه أَنَّهُ يُقدِّمه قرباناً لغير الله تعالى. فمن ألجى بإكراه أو جوع مُهلِك إلى أكل شيء من هذه المُحَرَّمات الأربع، فأكل غير طالب للشيء المُحَرَّم ذاته، ولا مُتَعَدِّ مقدار الحاجة وسدَّ الجُوع، فلا خَرَجَ في أكلها، درءاً لأشدَّ الضررين بارتكاب أخفهما؛ لأن مَضَرَّةَ موت الإنسان من الجوع أشدَّ من المَضَرَّة التي تحصل بأكل ما يدفع به ضرورته من هذه المُحَرَّمات؛ إنَّ الله كثير السَّتر للمضطر الذي يأكل أكثر مما يدفع به ضرورته؛ لأنه يعسرُ عليه ضبط مقدار ما يدفع به ضرورته، دائم الرحمة بعباده إذ أباح لهم الأكل من هذه المُحَرَّمات عند الضرورة.

١٧٤ - إنَّ الذين يُخْفُونَ ما أنزل الله في الكتاب، ويبدلون من أنفسهم معصية كتمان ما يريدون كتمانهم ما أنزل الله من الكتاب، مقابل ما يحصلون عليه من عوض يسير من متاع الحياة الدنيا، أولئك البُعداء عن رحمة الله المقيمون في عذاب جهنم، ما يأكلون بأفواههم، ويهضمون في بطونهم الجائعة الطالبة للطعام إلا طعاماً حاراً كالجَفر من النار، ولا يُكَلِّمهم الله كلاماً برفق وتكريم، أو بمواجهة وخطاب، بل يحاسبهم كخطاب الغائب إعراضاً عنهم؛ لأنهم كتموا كلامه المنزل، فهو يجازيهم بمثل عملهم، ولا يُظهِرهم من دَسِّ الكفر والذنوب، ولهم عذابٌ وجيعٌ يصل أَلَمُهُ إلى قلوبهم.

١٧٥، ١٧٦ - أولئك البُعداء عن رحمة الله، في دركات العذاب في جهنم، الذين أجزؤا تبادلاً في صَفَقَةٍ تشبه الصفقات التجارية، فامتلكوا فيها الضلالة بكتمانهم ما أنزل الله، وبدلوا من جانبهم الهدى الذي كانوا عليه، وهو علمهم بما أنزل الله، وبواجب تبليغه والعمل به، وامتلكوا فيها العذاب النازل بهم، وبدلوا من جانبهم ما كان في ملكهم بفضل الله، وهو مغفرة الله لذنوبهم التي لا تصل إلى الكفر، ولا إلى كتمان ما أنزل الله. فما أشدَّ جرأتهم على ارتكاب الكبائر العظمى التي تُفْضي بهم إلى عذاب النار التي يحتاجون فيها إلى صبر شديد طويل؟! ذلك العذاب الأليم الواقع على الكاتمين للحق بسبب أن الله نَزَلَ كتاب التوراة مصححاً ببيان الحق، فكفروا به وأنكروه، وإنَّ أهل الكتاب الذين خالف بعضهم بعضاً في الكتاب، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وتناولوا بعضه بالتحريف، أو التأويل على غير ما يُراد منه، لفي خلافٍ ونزاعٍ بعيدٍ عن الحق والصواب.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَ نَا أُولَئِكَ أَكِبَارٌ ۖ وَتِلْكَ أَسْمَاءُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا
يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ
بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
﴿١٧١﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ إِيمَانُ مَا رَزَقْنَاهُمْ
وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ
عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ
لِغَيْرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ مِمَّا قَلِيلًا أَوْلَتْكَ مَا يَكُونُ
فِي بَطُونِهِمْ إِلَّا النَّارُ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ ۖ فَمَا
أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ نَزَلُوا
بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

١٨٢ - فَمَنْ اضْطُرِبَتْ نَفْسُهُ مُتَوَقِّعًا مِنْ مُوصٍ مِثْلًا عَنْ الْحَقِّ عَلَى وَجْهِ الْخَطَا فِي الْوَصِيَّةِ، أَوْ تَعَمُّدًا لِلظُّلْمِ، فَأُصْلَحَ بَيْنَ الْمُوصِي لَهُمْ، بَرَدَهُمْ إِلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ، فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي تَغْيِيرِ الْوَصِيَّةِ بِالْإِصْلَاحِ، لِأَنَّهُ غَيَّرَ الْبَاطِلَ بِحَقِّ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعُ الشُّرْ دَائِمِ الرَّحْمَةِ لِمَنْ يَقْصِدُ بِعَمَلِهِ الْإِصْلَاحَ، وَلَوْ اعْتَمَدَ عَلَى ظَنٍّ غَالِبٍ، أَوْ أَخْطَأَ وَجْهَ الصَّوَابِ فِيهِ. وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ وَقَفَ عَلَى جَوْرِ فِي الْوَصِيَّةِ - مِنْ جِهَةِ الْعَمْدِ أَوْ الْخَطَا - سَوَاءٌ كَانَ وَصِيًّا أَوْ حَاكِمًا أَوْ وَارِثًا أَنْ يَرْدُّهَا إِلَى الْعَدْلِ. وَفِيهَا الدَّلَالَةُ عَلَى جَوَازِ الْاجْتِهَادِ وَالْعَمَلِ بِغَالِبِ الظَّنِّ، لِأَنَّ الْخَوْفَ مِنَ الْمِثْلِ يَكُونُ فِي غَالِبِ ظَنٍّ الْخَائِفِ.

١٨٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَعَمِلُوا بِشَرْعِهِ، فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الصِّيَامَ، بِالْإِمْسَاكِ عَنِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجَمَاعِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ مَعَ النَّيَّةِ، كَمَا فَرَضَ الصِّيَامَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ؛ رَغْبَةً أَنْ تَخْتَارُوا بِإِرَادَاتِكُمُ الْحُرَّةِ الْعَمَلُ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ، فَتَتَّقُونَ بِذَلِكَ عِقَابَ اللَّهِ عَلَى الْمَخَالَفَةِ، وَتَتَنَظَّمُونَ فِي زُمْرَةِ الْمُتَّقِينَ. وَهَذَا النَّدَاءُ الْإِلَهِيُّ هُوَ النَّدَاءُ الْخَامِسُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ.

١٨٤ - فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصُومُوا أَيَّامًا مُقَدَّرَاتٍ قَلِيلَاتٍ، وَلَمْ يَفْرِضْ عَلَيْكُمْ صِيَامًا شَاقًّا مُضْنِيًّا، يَأْخُذُ قَسْطًا كَبِيرًا مِنْ عَمَلِكُمْ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ، فَأَفْطَرِ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْهِ مَتَى بَرِئَ مِنْ مَرَضِهِ أَوْ انْقَطَعَ مِنْ سَفَرِهِ، صِيَامَ أَيَّامٍ بَعْدَ مَا أَفْطَرَ فِيهِ مِنْ أَيَّامِ رَمَضَانَ، وَعَلَى الَّذِينَ يَتَكَلَّفُونَ الصِّيَامَ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ مَشَقَّةٌ غَيْرَ مُحْتَمِلَةٍ كَالشَّيْخِ الْكَبِيرِ السَّنِّ، وَالْمَرِيضِ الَّذِي لَا يُزْجَى شِفَاؤُهُ، فَدِيَّةٌ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ يَفْطَرُهُ، وَهِيَ طَعَامُ مَسْكِينٍ، فَمَنْ أَطْعَمَ أَكْثَرَ مِنْ مَسْكِينٍ، أَوْ زَادَ عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَصِيَامُكُمْ - وَلَوْ تَحَمَّلْتُمْ فِي الصِّيَامِ مَشَقَّةً كَبِيرَةً غَيْرَ ضَارَةٍ بِصِحَّتِكُمْ - خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُمْ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ أَنْ هُدَى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

الإفطار والفدية، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ مِنْ أَجْرِ عَظِيمٍ لِلصَّائِمِينَ.

١٨٥ - وَقَدْ صِيَامَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، وَسَبَبُ تَخْصِيصِهِ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ الْعَظِيمَةِ: نَزُولُ الْقُرْآنِ فِيهِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، أُنْزِلَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ جَمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، لَيْلَةَ الْقَدْرِ، ثُمَّ نَزَلَ مُنْجَمًا مُفْرَقًا خِلَالَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حَسَبَ الْحَاجَةِ وَالْوَقَائِعِ. وَمِنْ صِفَةِ هَذَا الْقُرْآنِ أَنَّهُ هَدَى لِلنَّاسِ إِلَى الْحَقِّ وَطَرِيقِ نَجَاتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ، وَهَذَا الْهُدَى جَاءَ فِي آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ كَاشِفَاتٍ وَجْهَ الْحَقِّ وَسَبِيلَ الرِّشَادِ، وَهَذَا الْهُدَى فَارَقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، يَزِيلُ الْإِلْتِبَاسَ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُخْتَلَطَاتِ فَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمَا وَقَعَ فِي الْإِلْتِبَاسِ، وَتَدَاخَلَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ، وَاخْتَلَطَتْ عَلَيْهِ الْمُتَشَابِهَاتُ الْمُتَقَارِبَةُ. فَمَنْ كَانَ حَاضِرًا مُقِيمًا فَأَذْرَكَ الشَّهْرَ بظُهُورِ هِلَالِ أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْهُ، فَلْيَصُمْ فِي أَيَّامِهِ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا مَرَضًا يُؤْذِي إِلَى ضَرْرٍ فِي النَّفْسِ أَوْ زِيَادَةِ عِلَّةٍ وَاشْتِدَادِ وَجَعٍ، أَوْ كَانَ مُسَافِرًا سَفَرًا مُبَاحًا مَسَافَةَ قَصْرِ الصَّلَاةِ (٨٩ كَلِمًا) أَوْ أَكْثَرَ، وَيُجَاهِدُ الصَّوْمَ، فَأَفْطَرَ فَعَلِيهِ عِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ التَّسْهِيلَ فِي جَمِيعِ التَّكَالِيفِ الدِّينِيَّةِ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ، وَمِنْهَا: الصَّوْمُ، وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ مَرَادَهُ، فَأُنْزِلَ أَحْكَامُ التَّيْسِيرِ بِإِبَاحَةِ الْفِطْرِ لِلْمَسَافِرِ وَالْمَرِيضِ، وَشَرَعَ لَكُمْ فَرِيضَةَ الصِّيَامِ لِتَكْمِلُوا عِدَّةَ أَيَّامِ الصِّيَامِ الْمَفْرُوضِ فَلَا تَنْقُصُوا مِنْهَا شَيْئًا، وَلِتَكْمِلُوا أَيْضًا عِدَّةَ الْأَيَّامِ الَّتِي أَفْطَرْتُمْ فِيهَا بَعْدَ السَّفَرِ وَالْمَرَضِ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ وَتُعْظِمُوهُ فِي نَفْسِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ عَلَى مَا أَرْشَدَكُمْ إِلَى طَاعَتِهِ، وَوَقَّعَكُمْ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ، وَمَا مُنَحَكَمٍ مِنْ عَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَلَكِي تَقْدُمُوا بِالصِّيَامِ الَّذِي تَصُومُونَهُ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا بَعْضُ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى، عَلَى جَلَالِ نِعْمِهِ، وَعَظِيمِ فَضْلِهِ عَلَيْكُمْ.

١٨٦ - وَإِذَا سَأَلَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - عِبَادِي عَنْ ذَاتِي أَوْ صِفَاتِي أَوْ أَعْمَالِي، فَقُلْ لَهُمْ: إِنِّي قَرِيبٌ بِالْعِلْمِ وَالْحِفْظِ لَا يَخْفَى عَلَيَّ شَيْءٌ، أَسْمِعْ دَعَاءَ عَبْدِي إِذَا دَعَانِي، وَأَلْبِي دَعْوَةَ الدَّاعِي، وَأُسْعِفِ السَّائِلَ إِذَا تَجَأَ إِلَيَّ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي بِعِبَادَتِي وَطَاعَتِي، وَلْيُؤْمِنُوا بِي الْإِيْمَانُ الصَّحِيحَ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ، بِالثَّبَاتِ وَالِدَوَامِ عَلَيْهِ؛ رَغْبَةً أَنْ يَهْتَدُوا إِلَى مَصَالِحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَيَسِيرُوا فِي طَرِيقِ الرِّشَادِ الَّذِي لَا عُوجَ فِيهِ، فَيُصْلِحُونَ وَيُصْلِحُونَ.

البقرة

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١٨٧ - أُبَيِّحَ لَكُمْ لِيَالِي الصَّيَامِ الْجَمَاعِ وَمُقَدَّمَاتِهِ، مُفْضِينَ بِهِ إِلَى نَسَائِكُمْ، هُنَّ كَاللِّبَاسِ السَّاتِرِ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ كَاللِّبَاسِ السَّاتِرِ لَهُنَّ؛ لَمَا يَكُونُ بَيْنَكُمَا - أَيُّهَا الزَّوْجَانِ - مِنْ مِبَاشَرَةِ الْجَسَدِ بِالْجَسَدِ، وَتَلَاصِقَهُمَا، وَتَدَاخِلُهُمَا، وَإِحَاطَةِ كُلِّ مِنْكُمَا بِصَاحِبِهِ، وَطَوَّلِ مَلَازِمَتِهِ لَهُ، مَعَ مَا فِي كُلِّ مِنْكُمَا لِصَاحِبِهِ مِنْ سَرٍّ وَدَفِئٍ وَحِفْظٍ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَتَحَمَّلُونَ ارْتِكَابَ الْخِيَانَةِ لِأَنْفُسِكُمْ بِالْمُجَامَعَةِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ، إِذْ كُنْتُمْ فِي صِرَاعٍ شَدِيدٍ بَيْنَ مُقْتَضِيَاتِ الْوَاجِبِ، وَعَنْفِ حَاجَةِ النَّفْسِ، فَعَادَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِرَحْمَتِهِ، فَخَفَّفَ ثَقُلَ التَّكْلِيفِ، وَتَجَاوَزَ عَنْكُمْ، وَمَحَا ذُنُوبَكُمْ، فَالآنَ جَامِعُوهُنَّ فَهُوَ حَلَالٌ لَكُمْ فِي لِيَالِي الصُّومِ، وَاطْلُبُوا مَا قَضَى اللَّهُ لَكُمْ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ مِنَ الْوَلَدِ، حِفْظًا لِلنَّسْلِ، وَعِمَارَةً لِلْكُونِ، وَلَا يَكُنْ هُمُكُمْ مُجَرَّدَ الْوُطْءِ، وَالِاسْتِمْتَاعِ، وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا فِي لِيَالِي الصُّومِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ أَوَّلُ النَّهَارِ الَّذِي يَشْبَهُ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ الَّذِي يَشْبَهُ الْخَيْطَ الْأَسْوَدَ، مِنَ الْفَجْرِ الصَّادِقِ الْمُسْتَطِيرِ الْمُتَشَتِّرِ فِي الْأَفْقِ، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ الصَّادِقُ حَرَّمَ عَلَى الصَّائِمِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ وَالْجَمَاعَ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَإِذَا دَخَلَ اللَّيْلُ حَصَلَ الْفِطْرُ. وَلَا تُجَامِعُوا نِسَاءَكُمْ وَأَنْتُمْ مَقِيمُونَ فِي الْمَسْجِدِ بَنِيَّةَ الْعِبَادَةِ، فَالْجَمَاعُ يَحْرُمُ عَلَى الْمُعْتَكِفِ فِي النَّهَارِ وَاللَّيْلِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ اعْتِكَافِهِ، تِلْكَ الْأَحْكَامُ الَّتِي ذَكَرْتُ فِي الصَّيَامِ وَالِاعْتِكَافِ هِيَ الْمَعَالِمُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ذَاتِ الْمَقَادِيرِ الْمُحَدَّدَةِ فَلَا تَقْرِبُوهَا حَتَّى لَا تَقْعُوا فِي الْحَرَامِ؛ لِأَنَّ مِنْ اقْتِرَابٍ مِنَ الْحَدِّ الْفَاصِلِ أَوْشَكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ. وَكَمَا بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ مَعَالِمَ دِينِهِ وَأَحْكَامَ شَرِيعَتِهِ لِلنَّاسِ؛ رَغْبَةً أَنْ يَتَّقُوا مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ، فَيَنْجُوا مِنَ الْعَذَابِ.

١٨٨ - وَلَا يَأْكُلْ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ دُونَ وَجْهِهِ مِنَ الْحَقِّ، كَالْيَمِينِ الْكَاذِبَةِ، وَالْغَصْبِ، وَالسَّرْقَةِ، وَالْغَشِّ، وَالتَّغْرِيرِ، وَالرِّبَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ فَلَا يَسْتَحِلُّ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ إِلَّا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ

كَالْمِيرَاثِ وَالْهَبَةِ، وَالْعَقْدِ الصَّحِيحِ الْمَبِيحِ لِلْمَلِكِ، وَلَا يَنْزَاعُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فِي الْمَالِ وَهُوَ مُبْتَطِلٌ، وَيَرْفَعُ إِلَى الْحَاكِمِ أَوْ الْقَاضِي لِيَحْكُمَ لَهُ، وَيَنْتَزِعُ مِنْ أَخِيهِ مَالَهُ بِشَهَادَةٍ بَاطِلَةٍ، أَوْ بَيِّنَةٍ كَازِبَةٍ، أَوْ رِشْوَةٍ خَبِيثَةٍ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ تَحْرِيمَ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، فَإِذَا كَانَ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ مُحَرَّمَاً فِي نَهَارِ رَمَضَانَ فَإِنَّ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ مُحَرَّمٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَمَنْ امْتَثَلَ أَمْرَ اللَّهِ فِي اجْتِنَابِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي نَهَارِ صَوْمِهِ، فَلْيُمِثِّلْ أَمْرَهُ فِي اجْتِنَابِ أَكْلِ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ، فَإِنَّهُ مُحَرَّمٌ بِكُلِّ حَالٍ لَا يَبَاحُ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.

١٨٩ - يَسْأَلُونَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - عَنْ سَبَبِ الظَّاهِرَةِ الْكُونِيَّةِ فِي الْأَهْلَةِ، لِمَاذَا يَبْدُو الْهَلَالُ دَقِيقاً مِثْلَ الْخَيْطِ، ثُمَّ يَزِيدُ حَتَّى يَمْتَلِئَ وَيَسْتَوِي، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَنْقُصُ حَتَّى يَعُودَ كَمَا بَدَأَ، وَلَا يَكُونُ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ كَالشَّمْسِ؟ قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -: إِنَّ لَتَكَرُّارِ هَذِهِ الْأَهْلَةِ وَاخْتِلَافِ نُمُوءِهَا حِكْماً وَمَصَالِحَ دِينِيَّةٍ وَدُنْيَوِيَّةٍ، فَهِيَ عَلَامَاتٌ مُبَيِّنَاتٌ لِلْمَوَاقِيتِ الَّتِي تُحَسَّبُ بِالْأَيَّامِ وَالْأَشْهُرِ؛ لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَوْقَاتَ تَوَارِيخِهِمْ، وَمَعَامِلَاتِهِمْ، وَعِبَادَاتِهِمْ، كَالصَّيَامِ، وَمُرُورِ الْخَوْلِ لِأَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَأَشْهُرِ الْعِدَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَهْلَةِ، وَلَا سِيَّامَا الْحَجِّ، إِذْ دَخَلَ فِيهِ التَّحْرِيفُ الْجَاهِلِيُّ بِالنِّسْبِ الَّذِي كَانُوا يَصْنَعُونَهُ، وَلَوْ اسْتَقَرَّ الْهَلَالُ عَلَى حَالِهِ كَالشَّمْسِ، مَا اسْتَقَامَ لَكُمْ تَوْقِيتُ مَعَاشِكُمْ وَحُجَّتُكَمُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَرْكَانِ دِينِكُمْ، وَأَمَّا سَبَبُ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ الْكُونِيَّةِ، فَهِيَ إِحْدَى أَنْظِمَةِ الْكُونِ الَّتِي يُمْكِنُ بِالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ أَنْ يَكْتَشِفَهَا النَّاسُ مُسْتَقْبَلًا، وَلَيْسَ بَيَانُهَا مِنَ الْأَغْرَاضِ الَّتِي بُعِثَ الرَّسُولُ لِبَيَانِهَا. وَفَتَحَ أَبْوَابَ السُّؤَالِ عَنْهَا وَالِإِجَابَةُ عَلَيْهَا يُحَوِّلُ مَهْمَةً الرَّسُولِ ﷺ مِنْ رِسَالَةٍ دِينِيَّةٍ إِلَى رِسَالَةٍ عَالَمٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَنْظِمَةِ اللَّهِ فِي كُونِهِ. وَلَيْسَ الْبَرُّ بِتَحَرُّجِكُمْ مِنْ دُخُولِ أَبْوَابِ الْبُيُوتِ وَأَنْتُمْ مُحَرَّمُونَ بِالْحَجِّ أَوْ الْعِمْرَةِ، وَلَكِنَّ الْبَرَّ الْمَقْبُولَ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ بَرٌّ مَنْ أَتَقَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ، أَمَا مَنْ لَمْ يُحَقِّقْ فِي نَفْسِهِ أَصْلَ التَّقْوَى فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ عَمَلُ الْبَرِّ، وَأَتَوْا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا فِي حَالِ الْإِحْرَامِ وَغَيْرِهِ، وَبَاشَرُوا الْأُمُورَ مِنْ وَجُوهِهَا الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَبَاشَرَ بِهَا، وَأَتَقُوا اللَّهَ فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ؛ لَتَفُوزُوا بِكُلِّ مَا تَحِبُّونَ مِنَ الْحَيَاةِ الْمُطْمَئِنَّةِ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّعِيمِ الْخَالِدِ فِي الْآخِرَةِ.

١٩٠ - وَقَاتِلُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - فِي طَاعَةِ اللَّهِ الَّذِينَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَيَقَاتِلُونَكُمْ، وَيَفْتَنُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ فِي دِينِهِمْ، لِيَرُدُّوهُمْ كُفْرًا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ، وَاجْعَلُوا قِتَالَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَرَفْعِ كَلِمَتِهِ، وَلَا تَجْعَلُوهُ لِلْعُدُونِ، وَلَا تَقْتُلُوا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ وَالشُّيُوخَ وَالرُّهْيَانَ وَلَا مِنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ، وَلَا تَعْتَدُوا بِظُلْمِ غَيْرِكُمْ فِي حَقٍّ مِنْ حَقِّهِ الْمَادِيَّةِ أَوْ الْمَعْنَوِيَّةِ، أَوْ بِفَعْلٍ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْ فَعْلِهِ، وَتَرَكَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِفَعْلِهِ، أَوْ بِتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ، إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَا يُحِبُّ الَّذِينَ يُجَاوِزُونَ حَدُودَهُ، فَيَسْتَحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَنْ جَعَلَ نَفْسَهُ بِإِرَادَتِهِ فِي زِمْرَةِ الَّذِينَ لَا يُحِبُّهُمْ اللَّهُ، فَقَدْ جَعَلَهَا غُرْضَةً لِنَقْمَتِهِ وَعَذَابِهِ الشَّدِيدِ.

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفْعَ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَسْغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتَنُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

١٩١ - واقتلوا الذين يُقاتلونكم من المشركين حيث وجدتموهم في الجبل والحرّ؛ لأنهم يقاتلونكم، وما زالوا مُخرجين لكم، ويفتنون مَنْ يفتنون منكم في الدين، وأُخرجوهم من ديارهم كما أُخرجوكم من دياركم حتى ينتهوا عن القتال، والإخراج، والفتنة في الدين، وإن فتنهم للمؤمنين بالتخويف والإيذاء، والإلجاء إلى مفارقة الأهل والوطن أعظم من قتلهم إياهم في الحرّ والإحرام، ولا تُبدؤوهم بالقتال عند المسجد الحرام حتى يبدؤوكم بالقتال فيه، فإن قاتلوكم في المسجد الحرام فاجتمعوا على قتلهم قتل إبادة، مثل ذلك الجزاء الرادع بمقاتلة هؤلاء الذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم، يكون جزاء الكافرين الذين يعملون مثل أعمالهم.

١٩٢ - فإن كفوا عن المُقاتلة والإخراج، فدعُوهم وتوقفوا عن مقاتلتهم وإخراجهم، فإن الله كثير السّر لما سلف، واسع الرحمة بعباده.

١٩٣ - وقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى لَا تَكُونَ قُوًى طَآغِيَةٌ ظَالِمَةٌ، لا تقيم العدل في شعوبها، ولا تعطيهم الحرية في اعتناق الحقّ الذي يرغبون في اعتناقه، ويكون الخضوع والاستسلام لأحكام الله تعالى، إما بالدخول في الإسلام، أو بالرضا بحكم الإسلام والعيش بين المسلمين في ظل سماحة الإسلام وعدله، فليس لأحد حقّ الفتنة في الدين، ولا الإكراه لقبول دين ما أو تركه، فإن انتهوا عن فتنهم للمؤمنين في دينهم فكفوا عنهم؛ فالعقوبة لا تكون إلا على المُستمرّين على عدوانهم واضطهادهم للمؤمنين.

١٩٤ - هذا الشهر الحرام الذي تؤدّون فيه - أيها المؤمنون - عمرة القضاء، بالشهر الحرام الذي صُدِّئْتُمْ فيه عن البيت، ومثل الشهر الحرام الحرمات كلّها، فهي قصاص يُقابل العدوان فيها بمثلها، فمن اعتدى عليكم بانتهاك حرمة من حرمات دولتكم، أو إلحاق أذى بجماعتكم، بحرب شئها عليكم، أو مُصادرة لتجارتكم، أو ترصّد في الطريق التي تسلكها قوافلكم، فاعتدوا عليهم بعقوبة مُثابِلة لعدوانهم، وأتقوا الله بالوقوف عند حدوده، والتزام أحكام شريعته في أثناء

القتال، فلا تعتدوا إلى ما لا يحلّ لكم، ولا تُسايروا خصومكم في أذاهم، فتقتلوا الذراري أو الشيوخ أو الرهبان الملازمين لعبادتهم، والعمّال الذين لا يُعينون في حرب، إذ أن الرأفة بعباد الله تُدني من النصر، واعلموا أن الله مع المتّقين بالنصر والمعونة والتأييد.

١٩٥ - وأعدّوا العدة للقتال بإتفاق المال في الجهاد في سبيل الله، فإذا دخلتم الحرب دون إعداد ما يلزم لقتال أعدائكم من أعتدة وخطط حربية، وإعداد القوة اللازمة، كان ذلك ارتقاء إلى التهلكة، ولا تُلقُوا أنفسكم فيما فيه هلاككم في دين أو دنيا، بترك الجهاد وعدم الاستعداد والتدريب على فنون القتال، والإمسك عن الإنفاق في سبيل الله، وأحسنوا العمل مع الله تعالى بالقيام بما أمركم به مع الإخلاص وصدق النية، وأحسنوا العمل مع خلق الله بالبرّ والعفو والإنفاق على مَنْ تلزمكم نفقته، وأحسنوا الإعداد لخوض المعركة، بالتدريب واتخاذ الأسباب الكافية، والإنفاق الذي يرتقي بكم إلى درجة الإحسان؛ إن الله يحبّ المحسنين ويثيبهم على إحسانهم، ويُدخلهم جنات النعيم، لأنّ من أحبه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

١٩٦ - وأدّوا مناسك الحجّ والعمرة بعد الشروع بهما تامّين، بحدودهما وسننهما، لوجه الله، فإن منعكم مانع من مرض أو عدوّ دون تمام الحجّ والعمرة، وحال بينكم وبين الوصول إلى الحرم، فحللتم، فعليكم ذبح ما تيسّر لكم من الإبل أو البقر أو الغنم، يُهدى إلى بيت الله تقريباً إلى الله، ولا تخرجوا من إحرامكم بِحَلْقِ رُؤُوسِكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَكَانَهُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُذْبَحَ فِيهِ، وهو الحرم أو موضع الإحصار، جلاً كان أو حرماً، فمن كان منكم به مرض أو به أذى من رأسه من قمل أو صداع فَحَلَقْ رَأْسَهُ، فعليه فدية من صوم ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو ذبيحة أعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة، وهذه الفدية على التّخيير إن شاء ذبَح أو صام أو تصدّق لمساكين الحرم. فإذا أنتم من الإحصار، وزال عنكم الخوف، وأصبحتُم في حال سعة وأمن، فمن استمتع بالعمرة في أشهر الحج وأقام بمكة حلالاً حتى أنشأ منها الحجّ، فحجّ من عامه هذا، فعليه ما استيسر من الهدى، وهو شاة يذبحها يوم النحر، فمن لم يجد الهدى فعليه صيام ثلاثة أيام في وقت اشتغاله بالحجّ، وصوموا سبعة أيام إذا رجعتُم إلى أوطانكم وأهليكم، تلك عشرة كاملة في الثواب والأجر، وفي قيامها مقام الهدى. ذلك التمتع بالعمرة في أشهر الحج، لمن لم يكن أهله مقيمين في مكة وما حولها، فإن أولئك يفردون ولا يجمعون؛ لأنّ العمرة في إمكانهم في طوال العام، أو الحكم المذكور وهو: الهدى أو بدله لغير الساكنين في الحرم وحوله ضمن حدود المواقيت، فأما المكّي إذا تمتّع وقرن فلا هدي عليه. وأتقوا الله فيما قرّضه الله عليكم ونهاكم عنه في الحجّ وفي غيره، واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره، وتهاون بحدوده، فاحرصوا على أداء المناسك كما شرّعت، وحافظوا على حرمة الإحرام والحرم.

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ يَقْبَضُوهُمْ وَآخَرُجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنَّهُوَا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوَا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَاتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّنْ رَأْسِهِ فَفَدِيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَمِعَهُ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

١٩٧ - وقت الحج أشهر معلومة، وهي: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، لأن أركان الحج تستوفي فيها، وتؤخذ الأبهة له فيها، ويحرم به فيها، فمن ألزم نفسه وأوجب عليها في الأشهر المعلومات الحج بالإحرام، فيحرم عليه الجماع ومقدماته القولية والفعلية، وتحرم عليه المعاصي، والبراء والمخاصمة، وإذا كنتم قد تنزهتم في حجكم عن كل شر، فاعلموا أنكم اجتمعتم لعمل الخير، فتنافسوا فيه، وتبادلوا النفع، واعملوا على ما يقوي جمعكم، ويزيل الضر عنكم، ويدفع عنكم كيد الكائدين، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو الذي يثيبكم عليها يوم القيامة. وتزودوا ما تتبلغون به في سفركم، وتكفون به وجوهكم عن الناس، وتزودوا بالتقوى لمعادكم، عندما ترحلون عن الدنيا بالموت، فإن أفضل زاد يتزود الإنسان به إلى دار الآخرة هو تقوى الله تعالى، بالتزام أحكام شريعته، والعمل بطاعته الذي يوصل إلى النعيم المقيم في الجنة، وخافوا عقابي، والتزموا بشريعتي، واشتغلوا بعبادتي، يا ذوي العقول الواعية الدراكة التي تعقل المعارف فتُمْسِكُ بها، وتعقل النفوس عن اتباع الهوى والشهوات.

١٩٨ - ليس عليكم حرج في أن تطلبوا في مواسم الحج رزقاً وربحاً حلالاً في التجارة، على أن تكونوا في طلبكم وأخذكم بالأسباب معتمدين على خالقكم ومالككم الذي أنشأكم ورباكم ونماكم، فإذا دفعتم بكثرة بعد غروب شمس اليوم التاسع من ذي الحجة راجعين من «عرفات»، فاذكروا الله بالتسبيح والتلبية والدعاء عند «المزدلفة»، التي تقع بين «عرفات» و«منى»، واذكروا الله تعالى بالتوحيد والتعظيم كما ذكركم بالهداية، فهداكم لدينه ومناسك حجه، وقد كنتم من قبل هدايته لكم لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبودونه. فاعرفوا فضل الله عليكم بإنزال القرآن الكريم، وبعثه الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم.

١٩٩ - ولتكن إفاضتكم في «عرفات» - يا معشر قريش - من حيث أفاض الناس، لا من «مزدلفة» حيث كنتم تتعاضمون أن تقفوا مع سائر الناس بعرفات، لأنها خارج حدود الحرم، واستغفروا الله من مخالفتكم في الموقف ولجميع ذنوبكم، إن الله هو الساتر لذنوب عباده، دائم الرحمة بهم.

٢٠٠ - فإذا فرغتم من حجكم وعبادتكم، وذبحت ذبائحكم بعد رمي جمرة العقبة والاستقرار بمنى، فاذكروا الله بالتحميد والتمجيد والتلهيل والتكبير والثناء عليه مثل ذكركم مفاخر آبائكم في الجاهلية، بل أكثر ذكراً؛ لأنه هو المستحق للذكر والحمد مطلقاً. فمن الناس فريق مشرك كانوا يسألون الله في حجهم الدنيا ونعيمها، ولم يطلبوا نعيم الآخرة، فغاية همهم الحياة الدنيا، يكدحون من أجلها فقط، ولا يطلبون نصيباً من الآخرة؛ لأنهم ينكرون البعث، ويدعون قائلين: ربنا آتانا في الدنيا مالا، وأولاداً، ومكانة، وجاهاً، وهؤلاء ليس لهم في الآخرة من حظ ولا نصيب؛ لأنهم لم يطلبوها ولم يسعوا إليها.

٢٠١ - ومن الناس فريق مؤمن لهم مطلبان: مطلب عاجل، ومطلب آجل، أما المطلب العاجل، فهو زاد حسن يجتازون به طريق الحياة الدنيا، ويتبلغون به إلى نهايته وفق الأجل المحدد لهم، وأما المطلب الآجل، فهو الذي يطمحون إليه، وتتعلق غاية هممتهم به وبمراتبه التي لا تنتهى سموً وارتقاءً، يقولون في دعائهم: ربنا آتانا في الدنيا ما يحسن به حالنا، وفي الآخرة الجنة، واصرف عنا عذاب النار، فهم جمعو في الدعاء بين حسنة الدنيا، كالصحة والأمن والكفاية والتوفيق إلى الخير والولد الصالح والزوجة الصالحة، وحسنة الآخرة بالمغفرة والرحمة والثواب. وهذا الدعاء من أجمع الأدعية، ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ.

٢٠٢ - أولئك المؤمنون الطالبون للمطلبين العاجل والآجل، الداعون بالحسنتين، في الدنيا والآخرة لهم حظ من الخير والجزاء على الدعاء، وثواب عظيم بسبب ما كسبوه من الأعمال الصالحة، والله المحيط بكل شيء علماً سريع الحساب، لا يشغله شأن عن شأن، فهو قدير على أن يحاسبهم جميعاً في ساعة واحدة، دون أن ينقص أحداً شيئاً من حقه، فاستكثروا من فعل الخيرات، والتوجه إلى الله تعالى بالدعاء وسؤاله خير الدنيا والآخرة.

الجزء الثاني

سورة البقرة

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۚ وَتَزُودُوا فِي الْكَيْدِ الْكَائِدِينَ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۚ وَلَا تَقُونِ الْيَتَامَىٰ ۚ وَلَا تَقْنَطُوا مِنْ رِّبِّكُم ۚ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ ۚ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۚ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ۚ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَكَّصَ النَّاسُ ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ فَإِذَا أَقَضَيْتُمْ مَنَسِكَكُمْ ۚ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ۚ أَوْ أَشْكَدَ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۚ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۚ

٢٠٣ - واذكروا الله بالتوحيد والتعظيم والتكبير في أديار الصَّلوات وعند رمي الجمرات، وعند ذبح الهدايا والأضاحي، في أيام التشريق المعدودات، وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر: الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، من شهر ذي الحجة، فمن تعجل النحر الأول من «منى»، بعد أن مكث فيها يومين فقط، وهما: الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة فلا ذنب عليه، ومن تأخر إلى النحر الثاني، ومكث في «منى» إلى اليوم الثالث عشر من ذي الحجة فلا ذنب عليه، لمن أتى الله في حجه، وابتعد فيه عن الرفث والفسوق، فإن آثامه تسقط عنه، ويرجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، سواء نحر في اليوم الأول من يومي النحر متعجلاً أو تأخر إلى اليوم الثاني، وأتقوا الله - أيها المؤمنون - في المستقبل، بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، واعلموا أنكم إليه وحده تَجْمعون حين يبعثكم من قبوركم، فيجازيكم على أعمالكم.

٢٠٤ - وبعض الناس من المنافقين مَنْ تستحسن - أيها السامع - كلامه فيما يتعلق بأمر الدنيا وشؤونها، ويستولي على جلسائه في المجلس بزُخرف القول، والكلام المُنمق المُجَوَّد، الذي يُوهم أنه صادق، ويحلف ويقول مؤكداً دعاواه العريضة: الله شاهد عليّ أنني صادق، وأن سريرتي مطابقة لعلافتي، وهو أشد الخصومة بالباطل، وأكثر المخاصمين جدلاً، وأغلبهم لأقرانه بغير حق.

٢٠٥ - وإذا تولى مُذبراً منصرفاً إلى شؤونه وأعماله، مشى في الأرض بهمة ونشاط واجتهاد؛ لِيُحَقِّقَ ما يهوى ويشتهي، وما يطلب لنفسه من مطالب الحياة الدنيا، كالمال والنساء والجاه والسلطان والغلو في الأرض، فإذا اعترضته عقبات في سبيله لا تجتاز إلا بالفساد بالأرض، بتضليل الناس، وصدّهم عن صراط الله المستقيم، ونشر الفاحشة فيهم، وإهلاك الثروة النباتية، والثروة الحيوانية التي تتكاثر عن طريق التناسل، أو بإهلاك الناس بقتل الرجال، وذبح الذراري، وتعقيم النساء، فعل ذلك طاعياً باغياً، دون تحسُّسٍ بعاطفة إنسانية. والله لا

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمَنْ أَنْتَقَىٰ مِنَ يَعْجَبِكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدْ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَكَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ أَرْحَتَ وَالسَّلَّ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَكْمُ الْآيَاتِ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِيَ الْأُمُورُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

يُحِبُّ الفساد.

٢٠٦ - وإذا قيل لهذا المنافق المفسد: أتق عقاب الله على إفسادك في الأرض، وإهلاك الزرع والنسل، حملته القوة الغالبة وحمية الجاهلية على فعل الإثم، غير مكتوث بما يجنيه من إفساد في الأرض، وغير عابىء بالعواقب الوخيمة التي أعدت للآثمين، وإذا أخذته عزته الحمقاء بعيداً عن المواطن الواقية له من عذاب الله، مُكْبَلًا بسلاسل الإثم، أخذته العزة الحقيقية التي هي لله، فألقته في جهنم بجريرة الإثم الذي ارتكبه، فكافية له جهنم جزاءً وعذاباً، وليس المكان المُمهَّد الموطأ.

٢٠٧ - وفريق من المؤمنين ذوي تفوق في أعمال البر والإحسان يبيع نفسه ببذلها في طاعة الله من جهاد، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإصلاح الفساد المنتشر في المجتمع الإسلامي، بسبب مُتسلطين ظلمة طغاة، طلباً لثواب الله في الدار الآخرة، والله شديد الرحمة بعباده، لا يُكَلِّفُهُمْ إلزاماً بذل أنفسهم رافة بهم، وشفقة عليهم، لكن يندبهم إلى ذلك أحياناً لنصرة دينه، فينتدب فريق منهم باذلاً نفسه ابتغاء مرضاة الله.

٢٠٨ - يا أيها الذين آمنوا بالله رباً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً: ادخلوا في أحكام الإسلام وشرائعه جميعاً، وقوموا بها كلها، مجتمعين غير متفرقين ولا متنازعين، وَحَقَّقُوا السَّلَامَ في مجتمعكم، بالعمل على إصلاح الفساد بالطرق السلمية، فالدواعي القائمة ربما تجعل القتال لإصلاح الفساد مأذوناً به في أول الأمر، إلا أَنَّ الشيطان يستغله، ويستهوِي بخطواته الماكرات إلى أن يتحوَّل القتال بين المسلمين إلى ما هو أشدَّ شراً وفساداً من الفساد الذي قام المصلحون لمحاربة ناشريه الطغاة المفسدين، فلا تَتَّبِعُوا خطوات الشيطان المُتنازلات الماكرات؛ لثلاثا تقعوا فريسة له؛ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ مُظْهِرُهَا. وهذا النداء الإلهي هو النداء السادس للمؤمنين في هذه السورة.

٢٠٩ - فَإِنْ مِلْتُمْ عن طريق الحق انتصاراً للنفس والهوى - من بعدما جاءكم الدلالات الواضحات من القرآن والسنة - فاعلموا أَنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ غَالِبٌ في نعمته مَنَّ خالقه، لا يفوته أحدٌ من خلقه، حكيم في أمره ونهيه، يضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجهٍ وأكمل.

٢١٠ - إن أولئك المشركين قد كفروا مع أَنَّ الْحُجَّةَ قاطعة، والبيِّنات دامغة، وإذا كانوا قد كفروا مع تلك البيِّنات، فهل ينظرون إلا أن يأتيهم الله هو وملأنته في ظلل من السحاب الأبيض، لكي يؤمنوا برسالة محمد بعد أن يَرَوْا الله وملأنته جهرة، وَوَجِبَ العذاب عند مُعاينة الحقائق التي أنكروها، ولم تعد لديهم فرصة للتوبة، وإلى حساب الله سبحانه وحده، وفصل قضائه، تصير أمور العباد في الآخرة، فيجازيهم على أعمالهم.

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

نُبُوَّةُ الْبَقِيَّةِ

٢١١ - أسأل - يا رسول الله - اليهودَ تقرِّباً وتوبيخاً لهم: كم آتاهم الله من دلالات واضحات كثيرات على نبوة موسى عليه السلام؟ فكفروا بالآيات الواضحات كلها، وأعرضوا عنها، وحرقوها عن مواضعها، ومن يُغيّر آيات الله من بعدما عرفها، ويستعمل نعمة الله في معصيته، بدّل أن يستعملها في شكره وطاعته، فإنَّ الله شديد العقاب لمن بدّل دين الله ونعمته، فاحذروا أن تُعرضوا أنفسكم لعقابه الشديد، واشكروه على نعمه، وتمسكوا بدينه وشريعته، وانقادوا لحكمه وأمره، ولا تغتروا بزينة الحياة الدنيا وزخارفها.

٢١٢ - جعل الله الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وأظهر للكافرين زهرة الدنيا، فأعجبهم حُسْنُها، وانخدعوا بحلاوة مظهرها، فأحبُّوها وفُتِنُوا بها، وتصوَّروا أنَّ ما ظهر لهم من طلائع وزخارف وأصباغ خادعة عنوان ما بطن وخفي منها، فأعطوا للباطن حكم ما بدا لهم في الظاهر، ولم يعلموا أنَّ الحياة الدنيا زينة ظاهرة لا تحتوي على جوهر حقيقي ثابت. فالكفار مع أنهم مخدوعون بزينة الحياة الدنيا، وساقطون في الغرور، يتصوِّرون المؤمنين مُضِيعِينَ لذات حياتهم، ومُتعلِّقِينَ بالأوهام وبرؤيا خيالية عن الدار الآخرة، ويستهوون من المؤمنين بسبب إغرائهم عن الدنيا وعدم انهماكهم بها. والذين اتَّقُوا ربَّهم فوق الكفار يوم القيامة لأنهم في عليين، والله يوسِّع لمن يشاء من عباده بلا حصر ولا عدَّ لما يعطيه.

٢١٣ - كان النَّاسُ جماعةً واحدة يجمعهم الإيمان بالله والتزام شريعته، التي تلقوها من أبيهم آدم، وظلَّ أمرهم كذلك حتى اختلفوا وتفرَّقوا في عقائدهم وشرائعهم، ودخلت فيهم أنواع الضلالات الاعتقاديَّة والعملية، فبعث الله النَّبِيَّينَ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ بِالثَّوَابِ لِمَنْ آمَنَ وَأَطَاعَ، وَمُخَوِّفِينَ بِالْعِقَابِ لِمَنْ كَفَرَ وَعَصَى، لردِّ النَّاسِ عن ضلالتهم، وأنواع اختلافاتهم، وأنزل مع كلِّ واحدٍ من النَّبِيِّينَ الكتابَ بالعدل والصدق؛ ليحكم الله بالكتاب الذي أنزله في الحقِّ الذي اختلفوا فيه من بعدما كانوا متَّفِقِينَ عليه، ثمَّ بعد حين دبَّ إلى

الذين أوتوا الكتاب وآمنوا به الاختلاف في الكتاب الرِّبَّانِيَّ نفسه، من بعدما جاءتهم البيانات الواضحات؛ والتي كان من مُقتضاها أن لا يختلفوا مع وجودها. وكان السبب في هذا الاختلاف وجود البغي بينهم، إذ ظهر فيهم التحاسد، والفجور، وأتباع الهوى، والخروج عن طاعة الله، فأخذوا يتلاعبون بالكتاب بالتحريف والتبديل والتأويلات الباطلات، مع بقاء ظاهر الانتماء إليه، وإلى الرسول الذي بلغهم إِيَّاه عن ربِّه، ثمَّ بعث الله سبحانه خاتم النَّبِيِّينَ محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن، بيِّنا واضح الدلالة على أصول الإيمان، فهدى الله بتوفيقه ومعونته الَّذِينَ آمَنُوا بالرسول وبما أنزل الله عليه إلى الاستمسك بالحقِّ الذي جاء به في القرآن. فأحقَّ أئمة الاجتهاد منهم الحقُّ، وأوضحوا للنَّاس صراط الله في العقائد والعبادات والأخلاق بالأدلة الجليلة، بحثاً واستنباطاً من نصوص الكتاب وبيانات الرسول ﷺ، وكان هذا بمعونة من الله لهم، إذ علم أنهم مُخلصون في تحرِّي الحقِّ، والله يهدي بمقتضى علمه وحكمته مَنْ يشاء من عباده إلى صراط مستقيم، هدايةً دلالة ومعونة وتوفيق، ومشيةً الله سبحانه في كلِّ مقاديره لا تُفارق حكمته.

٢١٤ - بل أظننتم - أيها المؤمنون - أن تدخلوا الجنة، ولَمَّا يأتكم نموذج يُقاس عليه من سُنن الله في خلقه فيما أصاب مَنْ كان قبلكم من النَّبِيِّينَ وأتباعهم من الشدائد والمحن: أصابهم الفقر، والمرض، وضروب الخوف، وحُرِّكوا بأنواع البلايا والرزايا، واضطربت قلوبهم من كثرة الشدائد وأنواع المحن، حتى إذا بلغ بهم الجهد والشدَّة الغاية القصوى، واستبَطُّوا النصر، وقال الرسول والذين آمنوا معه: متى يأتينا النصر الموعود به من الله تعالى؟ قيل لهم: تحقَّقوا وتأكدوا إنَّ نصر الله قريب. فكونوا - يا معشر المؤمنين - كذلك، وتحملوا الأذى والشدَّة والمشقة إلى أن يأتكم نصر الله عزَّ وجلَّ.

٢١٥ - يسألك أصحابك - يا رسول الله -: ماذا ينفقون في سبيل الله من أموالهم؟ قل لهم: ما تفعلوا من إنفاق شيء من المال الحلال الطيب قُلَّ أو كَثُرَ، فأنفقوه في هذه الوجوه الخمسة، الأول: الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية، والثاني: الأقربون من أهلكم وذوي أرحامكم، والثالث: اليتامى الذين مات آباؤهم في الصَّغر دون سنِّ البلوغ، والرابع: المساكين المُتَعَرِّضُونَ للعطاء، الذين يسألون الصدقة، والخامس: المسافر المتقطع عن بلده، وليس له ما يقطع به مسافة سفره، وما تفعلوا - أيها المؤمنون - من خير قُلَّ أو كَثُرَ مع هؤلاء أو غيرهم طلباً لوجه الله ورضوانه، فإنَّ الله سبحانه به عليم، فيجازيكم عليه.

سأل الصحابة رضي الله عنهم عن الشيء الذي ينفقونه، فعلمَ اللهُ رسوله ﷺ أن يُجيبهم عن الذين يُبْغِي أن تُوجَّه لهم النفقة، إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسألوا عن ذلك.

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِلَكُمْ أَنِّي أَنبِئُهُمْ مِنِّي بِنَبِيٍّ وَمَن يَدُلَّ نِعْمَةً
اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣٥﴾ زَيْنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ رَزَقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
﴿٣٦﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
فِيمَا اختلفوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أَوْتُوهُ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
لِمَا اختلفوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ لِمَا
صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٧﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ
وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ
أَلَا إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٣٨﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ
مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلِلنَّبِيِّينَ وَالْمَسْكِينِ
وَأَيْنَ السَّبِيلُ وَمَا نَفَعُ لَكُمْ أَن تَقُولُوا بِهِ عَلَيْهِمْ ﴿٣٩﴾

٢١٦ - فُرِضَ عَلَيْكُمْ جِهَادُ الْكُفَّارِ، وَالْقِتَالُ شَاقٌّ عَلَيْكُمْ مِنْ حَيْثُ نَفُورُ الطَّبَعِ مِنْهُ لَمَّا فِيهِ مِنْ بَذْلِ الْمَالِ، وَالْمَخَاطَرَةُ بِالرُّوحِ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً مِمَّا تَرَوْنَ فِيهِ لَأَنْفُسِكُمْ سُوءاً أَوْ ضِراً أَوْ أَذًى، وَقَدْ يَكُونُ فِي حَقِيقَةِ حَالِهِ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً مِمَّا تَرَوْنَ فِيهِ لَأَنْفُسِكُمْ نِعْمَةً أَوْ مَنْفَعَةً أَوْ لَذَةً، وَقَدْ يَكُونُ فِي حَقِيقَةِ حَالِهِ شِراً أَوْ سَبَباً لَوْقُوعِ الشَّرِّ أَوْ السُّوءِ بِهِ. فَلَمَّاذَا تَكْرَهُونَ الْغَزْوَ وَفِيهِ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ: إِمَّا الظَّفَرَ وَالْغَنِيمَةَ، وَإِمَّا الشَّهَادَةَ وَالْجَنَّةَ؟ وَلَمَّاذَا تُحِبُّونَ الْقُعُودَ عَنِ الْغَزْوِ وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ لَمَّا فِيهِ مِنْ قُوَّةِ الْأَجْرِ وَالْغَنِيمَةِ وَطَمَعِ الْعُدُوِّ فِيكُمْ، لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ مَيْلَكُمْ إِلَى الرَّاحَةِ وَالذَّعَةِ قَصَدَ بِلَادَكُمْ وَقَاتَلَكُمْ، وَإِذَا عَلِمَ فِيكُمْ شَهَامَةً وَجَلَادَةً عَلَى الْقِتَالِ كَفَّ عَنْكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الْجِهَادِ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالْأَجْرِ وَالْخَيْرِ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ. وَعِلْمُهُ سَبْحَانَهُ عِلْمٌ إِحَاطَةٌ لِلْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً جَدًّا.

٢١٧ - يَسْأَلُكَ الْمُشْرِكُونَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - عَنِ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؟ قُلْ لَهُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -: قِتَالٌ فِيهِ عَظِيمٌ مُسْتَنْكَرٌ. وَصَدُّكُمْ - أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ - الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْحَجِّ، وَصَدُّكُمْ عَنِ الْإِسْلَامِ مِنْ يَرِيدِهِ، وَكَفَرَكُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَصَدُّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَإِخْرَاجُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أَعْظَمُ وَزْراً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ. وَامْتِحَانُ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْوَاعِ التَّعْذِيبِ وَالْأَذَى وَالْبَلَايَا لَصَرْفِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَرَدُّهُمْ إِلَى الشُّرْكِ، أَعْظَمُ وَزْراً مِنَ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَلَا يَزَالُ مُشْرِكُو مَكَّةَ يَقَاتِلُونَكُمْ - يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ - حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِلَى الْكُفْرِ إِنْ قَدَرُوا عَلَى تَحْقِيقِ ذَلِكَ، وَمَنْ يُطَاوِعَهُمْ مِنْكُمْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - فِيرْجِعْ إِلَى دِينِهِمْ، فِيمَتِ عَلَى رَدِّهِ قَبْلَ أَنْ يَتُوبَ، فَأُولَئِكَ بَطَلَتْ أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ الَّتِي كَانُوا قَدْ عَمِلُوهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَعَهَا عَظُمَتْ وَكَثُرَتْ، وَأَصْبَحَتْ لَا تَنْتِجُ إِلَّا شِراً لِصَاحِبِهَا، كَالدَّابَّةِ الَّتِي تَأْكُلُ شَرَّ الثَّمَارِ حَتَّى تَنْتَفِخَ بَطْنُهَا مِنْ سُوءِ مَا تَأْكُلُ، فَلَا تُحَقِّقُ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَا يَرْجُونَ، وَكَذَلِكَ بَطَلَتْ أَعْمَالُهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا يَرِيدُونَ مِنْهَا تَحْقِيقَ مَنَافِعٍ أُخْرَوِيَّةٍ، فَلَا يَقْبَلُهَا اللَّهُ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ شَرْطَ قَبُولِ الْأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَنْ تَكُونَ فِي طَاعَتِهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ، وَطَلَبِ ثَوَابِهِ، وَأُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الرَّدَّةِ وَالْكَفْرِ هُمُ أَصْحَابُ النَّارِ الْمُلَازِمُونَ لَهَا، الْمُخَالَطُونَ لِأَلْوَانِ عَذَابِهَا، هُمْ فِيهَا دَائِمُو الْبَقَاءِ، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَداً وَلَا يَمُوتُونَ؛ لِأَنَّهُمْ صَمَّمُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى أَنْ يَظْلُوا جَا حِدِينَ لِلَّهِ، كَافِرِينَ بِهِ، مُنْكَرِينَ لِرِسَالَاتِهِ.

٢١٨ - إِنَّ الَّذِينَ أَنْصَفُوا بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ: الْأُولَى: آمَنُوا إِيمَاناً صَاحِقاً، وَالثَّانِيَّةُ: فَارَقُوا مَسَاكِنَهُمْ وَعَشَائِرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ طَلَباً لِإِعْزَازِ الدِّينِ، بِدَلِّ الْبَقَاءِ فِي الذَّلَّةِ وَالرِّضَا بِحَيَاةِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَالثَّالِثَةُ: جَاهَدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، أُولَئِكَ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ يَطْعَمُونَ فِي تَيْلٍ رَحْمَةِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ وَفَضْلِهِ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ كَثِيرُ السُّرْرِ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ، دَائِمُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ.

٢١٩ - يَسْأَلُكَ الْمُسْلِمُونَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - عَنْ حُكْمِ الْقِمَارِ - وَهُوَ اخْتِذُ الْمَالِ أَوْ إِعْطَاؤُهُ بِالْمَقَامَرَةِ، وَهِيَ الْمَغَالِبَاتُ الَّتِي فِيهَا عَوْضُ مِنَ الْغُلْبَةِ - قُلْ لَهُمْ: فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَزَّرٌ عَظِيمٌ، وَضَرَرٌ كَبِيرٌ، فَمُرْتَكِبُهُمَا مُرْتَكِبُ إِثْمٍ كَبِيرٍ، فَالْخَمْرُ عَدُوُّ الْعَقْلِ، فَإِذَا غَلَبَ عَلَى الْعَقْلِ ارْتَكَبَ كُلَّ قَبِيحٍ، وَالْمَيْسِرُ أَكَلَ الْمَالَ بِالْبَاطِلِ، وَمَا يَجْرِي بَيْنَ مُتَعَاطِيهِمَا مِنَ الشُّتْمِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَالْمَعَادَاةِ، وَتَضْيِيعِ الطَّاقَاتِ، وَإِهْدَارِ الْأَوْقَاتِ. وَفِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْجُونَ فِي بَيْعِ الْخَمْرِ، وَيَأْخُذُونَ الْمَالَ بِغَيْرِ كَدٍّ وَلَا تَعَبٍ فِي الْمَيْسِرِ، وَيَتْرَكُونَهُ لِلْمُحْتَاجِينَ وَالْفُقَرَاءِ. وَضَرَرُهُمَا الَّذِي يَجْلِبَانِهِ لِمُرْتَكِبَيْهِمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا الْمُقْتَضِي إِبَاحَتَهُمَا؛ لِأَنَّهُمَا يُضِدُّانَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، وَتُوقِعَانِ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَ النَّاسِ. وَكَانَ هَذَا تَمْهِيداً لِتَحْرِيمِهِمَا؛ لِأَنَّ مَا زَادَ ضَرَرَهُ عَلَى نَفْعِهِ يَبْتَعِدُ عَنْهُ أَهْلُ الْفِكْرِ النَّاقِبِ، وَالرَّأْيُ الْحَصِيفِ.

وَيَسْأَلُونَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - عَنِ الْقَدْرِ الَّذِي يَنْفَقُونَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ؟ قُلْ لَهُمْ: أَنْفَقُوا مَا تَيْسَّرَ عَلَيْكُمْ دَفْعَهُ، أَوْ مَا زَادَ عَنْ قَدْرِ الْحَاجَةِ لَأَنْفُسِكُمْ وَلَمْ تَعُولُوا. مِثْلُ ذَلِكَ الْبَيَانُ الْوَاضِحُ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْعَلَامَاتِ الَّتِي تَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى أَحْكَامِ الْحُظَرِ، فَحِينَ يَكُونُ إِثْمُ الشَّيْءِ أَكْبَرَ مِنْ نَفْعِهِ، فَإِنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تَمْتَنَعُوا عَنْهُ، وَيُبَيِّنُ لَكُمْ مِنَ الْآيَاتِ سَوَى ذَلِكَ؛ لِتَقْسِمُوا عَلَيْهَا قِيَاساً مُسْتَنَداً إِلَى إِعْمَالِ الْفِكْرِ بِتَكَرُّارِ وَرَوِيَّةٍ وَعُمُقٍ؛ لِاسْتِنْبَاطِ أَحْكَامِ الْمُسْتَجِدَّاتِ وَمَا لَا تَجِدُونَ لَهُ نَصّاً صَرِيحاً.

٢٢٠ - مثل هذا التبيين الواضح يُبين الله لكم سائر الآيات؛ رغبة أن تتفكروا بتكرار وروية وعمق فيما ينفعكم في الدنيا والآخرة، وتعملون لما يصلحكم فيهما.

ويسألونك - يا رسول الله - عن تصرفهم في أموال اليتامى؟ قل لهم: إصلاح أموال اليتامى من غير أخذ أجره ولا عوض خير لكم وأعظم أجراً، وإن تشاركوهم في أموالهم وتخلطوها بأموالكم فتصيبوا من أموالهم عوضاً عن قيامكم بأمورهم، فهم إخوانكم يعين بعضكم بعضاً، ويصيب بعضكم من مال بعض على وجه الإصلاح والرضا، والله يعلم المفسد لِمَالِ الْيَتِيمِ والمصلح له، فيجازي المفسد على إفساده، ويثيب المصلح على إصلاحه. ولو أراد الله لضيْقِ عليكم، وما أباح لكم مخالطتهم، ولكنه وسع عليكم وخفف عنكم، فأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، إن الله قوي غالب يقدر أن يشق على عباده، ولكنه حكيم لا يكلف عباده إلا ما تتسع فيه مقدرتهم، مع بقاء فضل من جهدهم بحيث لا يستغرق أقصى قدرتهم.

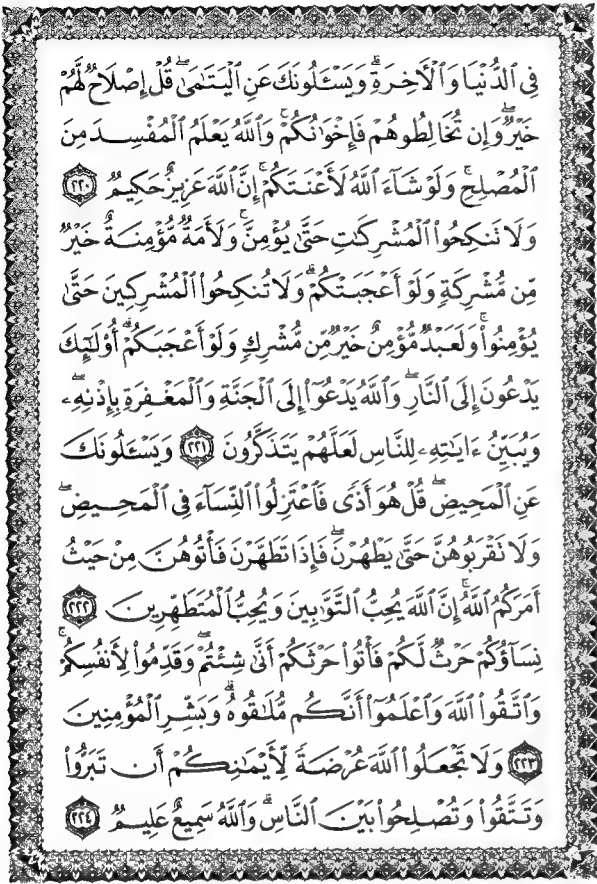
٢٢١ - ولا تزوجوا - أيها المؤمنون - المشركات الوثنيات، حتى يُصدّقن بالله ورسوله، بالإقرار بالشهادتين، والتزام أحكام الإسلام، ولأمة مملوكة مؤمنة - مع ما فيها من ذل العبودية والرق - أنفع وأصلح وأفضل من مشركة حرة ولو أعجبكم جمالها ومالها ونسبها. ولا تزوجوا - أيها المؤمنون - نساءكم المؤمنات - إماء أو حرائر - لأي صنف من أصناف المشركين حتى يؤمنوا بالله ورسوله، واعلموا أن عبداً مؤمناً، خير من مشرك حر، ولو أعجبكم بحسنه وماله ومركزه الاجتماعي، وغير ذلك، أولئك البعداء عن رحمة الله المتصفون بالشرك رجلاً ونساءً يدعون إلى الشرك الذي يؤدي إلى النار يوم القيامة، والله تعالى بين هذه الأحكام، فاعملوا بما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم عنه، فإنه من عمل بذلك استحقَّ الجنة وسُتر الذنوب والتجاوز عنها بتيسير الله وإرادته وتوفيقه، فلا غنى لأي إنسان عن معونة الله وهدايته، والله يوضح أدلته وحججه في أوامره ونواهيه وأحكامه للناس؛ رغبة في أن يضعوها في ذاكرتهم، فتكون دافعاً لهم إلى العمل بما جاء فيها من أوامر، أو نواهي، أو وصايا.

٢٢٢ - ويسألك المسلمون عن الحيض - وهو الدم الذي يسيل من رحم المرأة البالغة جبلةً في أوقات مخصوصة إذا كانت غير حامل، ولم تبلغ سن اليأس؟ قل لهم - يا رسول الله -: هذا الدم الذي يلفظه الرحم شيء مؤذٍ قدر، فاجتنبوا مُجامعة النساء، ولا تقربوهن بالوطء حتى يزول عنهنَّ الدم، فإذا انقطع الدم، واغتسلن من حيضهنَّ، فجامعوهُنَّ في المكان الذي أمركم الله باجتنابه لعارض الأذى، وهو الفرج، ولا تعدّوه إلى غيره، إنَّ الله يحبُّ كثيري التوبة من الذنوب، والمتطهرين من الأحداث وسائر النجاسات، الذين جمعوا بين التطهر المعنوي والمادي، بالتخلص من المعاصي والآثام، وبإزالة النجاسات، وبالطهارة من الأحداث الصغرى والكبرى بالوضوء والغتسال، ويثيبهم على توبتهم وتطهرهم، ويدخلهم جنات النعيم؛ لأنَّ من أحبه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

٢٢٣ - نساؤكم موضع زرع لكم، تضعون النطفة في أرحامهنَّ، كالأرض التي تتقبل البذر وتحمله وتنميه، فجامعوهُنَّ كيف شئتم: قائمات قاعدات مُستلقيات، إذا كان في الفرج. وفي الآية دليل على تحريم إتيان النساء في أديارهنَّ؛ لأنَّ محل الحرث والزرع هو القبل لا الدبر. وقدّموا لأنفسكم ما تستطيعون من الخير والعمل الصالح، واجعلوا بينكم وبين معصية الله وقاية، واحذروا أن تأتوا شيئاً ممّا نهاكم الله عنه، واعلموا أنكم صائرون إليه في الآخرة، فيجزيكُم بأعمالكم، وبشّر - يا رسول الله - المؤمنين بما يسرهم ويفرحهم من حُسن الجزاء يوم القيامة إذا ما اتَّقوا ربهم، وتمسَّكوا بأحكام شريعته.

٢٢٤ - ولا تجعلوا - أيها المسلمون - الخلف بالله وأسمائه وصفاته سبباً مانعاً لكم من البرِّ والتقوى والإصلاح بين الناس؛ بأن تدعوا إلى برٍّ أو صِلَةٍ رَجِمَ، فتحثُّوا بأنكم قد حلفتم بالله في ترك البرِّ والإصلاح بين الناس، بل على الحالف أن يعدل عن حلفه، ويفعل أعمال البرِّ، ويكفر عن يمينه، والله سميع لحلفكم، عليم بنياتكم.

والنهي عن جعل الله غرضاً للأيمان بحاجة أو بغير حاجة يتضمَّن التوجيه للاقتصاد الشديد في الأيمان، وجعلها بقدر الضرورة أو الحاجة الماسة، وعند الجزم بتحقيق الغاية منها.



٢٢٥ - لا يعاقبكم الله ببلغو اليمين في الدنيا بالكفارة ولا في الآخرة بالعقوبة، وهو: أن يحلف أحدكم على شيء يرى أنه صادق فيه، ثم يبتئن له خلاف ذلك، أو ما يجري على اللسان بلا قصد الحلف بالله، ولكن يعاقبكم بما حلفتكم من أيمان ناتجة عن كسب قلوبكم، بتوجه إرادتكم، لفعل أمر أو امتناع عن أمر، أو تعمدتكم بما حلفتكم الكذب، وهو: أن يحلف أحدكم على شيء ماض كذباً، ويسمى اليمين الغموس، وإن اليمين الكاذبة الفاجرة لا كفارة لها شرعاً، وليس لصاحبها من سبيل إلا باب التوبة، ورد الحقوق إلى أصحابها إن ترتب على يمينه ضياع حق أو حكم باطل، والله كثير الستر لعباده فيما لغوا من أيمانهم، حلیم في ترك معاملة أهل العصيان بالعقوبة.

٢٢٦ - للأزواج الذين يحلفون بالله أيماناً تفيد امتناعهم عن المباشرة الجنسية مع زوجاتهم، انتظار مدة أربعة أشهر، فإن رجعوا عما خلّفوا عليه من ترك جماعهنّ بالوطء قبل فوات الأشهر الأربعة، فإن الله كثير الستر للزوج إذا تاب من إضراره بامراته، دائم الرحمة بكلّ التائبين.

٢٢٧ - وإن تحقّقوا إيقاع الطلاق، باستمرارهم في اليمين، وترك الجماع، فإن الله سمیع لأقوالهم، عليم بنياتهم.

٢٢٨ - وعدة المطلقات الحرائر ذوات الحيض أن ينتظرن بعد الطلاق ويحملن أنفسهنّ على الصبر فلا يتزوجنّ مدة ثلاثة أطهار أو ثلاث حيضات، ولا يحلّ للمرأة كتمان ما خلق الله في رحمها من الحيض أو الحمل؛ لينتقل بذلك الكتمان حق الزوج من الرجعة والولد، وهنّ لا يفعلن ذلك، إن كنّ يصدّقن بالله واليوم الآخر إيماناً قوياً مؤثراً حاضراً في تصوّرهنّ، وأزواج المطلقات في الطلاق الرجعي أولى برجعتهنّ وردّهنّ إليهم في حال العدة، إن أراد الزوج بالرجعة الإصلاح وحسن العشرة لا الإضرار بهنّ، بتطويل العدة. وللنساء حقوق على الأزواج من المهر والنفقة وحسن المعاشرة، مثل الذي عليهنّ من طاعة الزوج، وحسن القيام على شؤون الأسرة بالوجه الذي لا ينكر في الشرع، وللرجال على النساء منزلة ورفعة، بالقوامة،

وحسن الصحبة، والعشرة بالمعروف، والتغاضي عن الأخطاء والهفوات. وهذه الدرجة التي جعلها الله، تجعل له حقوقاً، وتجعل عليه واجبات أكثر. والله سبحانه قويّ غالب لا يمتنع عليه شيء، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه، يضع كل شيء في موضعه المناسب.

٢٢٩ - إن عدد الطلاق الذي لكم فيه رجعة على أزواجكم إذا كنّ مدخولاً بهنّ: تطليقتان، وإذا راجعها بعد التطليقة الثانية، فعليه أن يُمسكها بالمعروف بخسن الصحبة وأداء حقوق النكاح، أو يتركها بعد الطلاق فلا يراجعها حتى تنقضي عدتها من غير مضارة.

ولا يحلّ لكم - أيها الأزواج - أن تأخذوا ممّا أعطيتموهنّ شيئاً من مهر أو غيره، إلا أن يعلم الزوجان من أنفسهما أن لا يقيما بينهما ما تقتضيه الزوجية من حقوق والتزامات مادية وأدبية، على الوجه المشروع، فإن خشيتن - أيها الأولياء - أن لا يقيما ما أوجب الله على كلّ واحد من الزوجين من حسن الصحبة والمعاشرة بالمعروف، فلا حرج على المرأة فيما أعطت للزوج من المال، ولا على الزوج فيما أخذ من المال إذا أعطته المرأة طائعة راضية، مقابل طلاقها. هذه الأحكام المتعلقة بالطلاق والرجعة والخلع وأوامر الله ونواهيه، فلا تُجاوزوها، ومن يجاوزها ويمس منطقة الحرام، فأولئك هم الظالمون أنفسهم بتعريضها لعذاب الله تعالى.

٢٣٠ - فإن طلق الرجل زوجته الطليقة الثالثة، بعد الطليقتين اللتين له الرجعة فيهما أثناء العدة، أو بعقد زواج بعد انتهائهما، فلا تحلّ له رجعتهما بعد الثلاث حتى تتزوج زوجاً آخر غير المطلق ويجمعهما فيه، ويكون الزواج عن رغبة لا بنية تحليل المرأة لزوجها الأول، فإن طلقها الزوج الثاني بعد وطئها أو مات عنها، وانقضت عدتها، فلا إثم على المرأة المطلقة والزواج الأول أن يرجعا إلى حياتهما الزوجية السابقة بعقد جديد، ومهر جديد، إن ظنا ظناً راجحاً مقبولاً أن يقيما أحكام الله التي شرعها للزوجين في حياتهما الزوجية الجديدة. والظنون الراجحة يصحّ الاعتماد عليها عقلاً وشرعاً، في الحكم والقضاء، واستنباط الأحكام، وتفسير أعمال الحياة، لأنه لا سبيل إلى اليقين التام في كل مسألة، وتلك أحكام الله المحددة المتعلقة بأحكام المعاشرة الزوجية، وواجبات كلّ من الزوجين نحو الآخر، يُبينها الله سبحانه لقوم يعلمون ما أمرهم به ونهاهم عنه، ويتنفعون بعلمهم، فيعملون بأوامره، وينتهون عن نواهيه.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفْوٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ نَبْزٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِنْ وَسَاكَ بُعْرُوفٌ أَوْ تَرِبَ رَيْحٌ يَأْخُذْ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوها وَمَنْ يَعْصِ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهَا حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

٢٣١ - وإذا طلقتم النساء طلاقاً رجعيّاً مرةً أو مرتين، فقَارَينَ انقضاء عدتهنَّ، وشارفت العلاقة الزوجية على الانقطاع التام، فراجعوهنَّ بنية القيام بحقوقهنَّ على الوجه المُستحسن شرعاً وعرفاً، وذلك بأن تشهدوا على رجعتهنَّ، وتراجعوهنَّ بالقول لا بالوطء، أو اتركوهنَّ حتى تنقضي عدتهنَّ فيملكن أنفسهنَّ من غير مشاحنة ولا مُعاندة ولا إيذاء، والتسريح بالمعروف يقتضي أن يؤدّي لها كلّ حقوقها، وأن يعاونها إن كانت في حاجة إلى معاونته، وألا يذكرها إلا بخير. ولا تقصدوا باستئناف الحياة الزوجية الضرر والأذى بأن تكون أسباب الثفرة قائمة مُستحكمة، أو أن يكون إمساك الزوجة مكيدة ومبالغة في الظلم، لتكون عاقبة الرجعة الاعتداء والظلم بمجاوزتكم في أمورهنَّ حدود الله التي بينها لكم. ومن يرجع مُطلّقة إضراراً فقد ظلم نفسه ظلماً مُؤكداً بمخالفة أمر الله وتعريضها لعذابه، ولأنه جعل البيت الذي هو مَنابة الراحة والقرار، مكان نكد واضطراب، يستبدل فيه المودة بالبغيضاء. ولا تتخذوا ما بين الله لكم من حلاله وحرامه في وحيه وتزييله سُخْريّةً بالتهاون في المحافظة عليها، واذكروا نعمة الله عليكم بالإيمان والإسلام وتفصيل الأحكام، واذكروا ما أنزله عليكم - فيما بلغه الرسول ﷺ - من القرآن والسنة، واشكروا له على هذه النعم الجليلة، ينصحبكم الله بالكتاب الذي أنزله على نبيه ﷺ نصحاً مقروناً بما يثير الرغبة والرغبة في النفس، للانتفاع بالنصح، وأتباع ما هدى الله إليه، واجعلوا بينكم وبين غضب الله سبحانه وعذابه وقاية، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، واعلموا أن الله تعالى يعلم ما أخفيتم من طاعةٍ ومعصيةٍ في سرٍّ وعلنٍ، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك، وسيُجازي كلّاً بما يستحق.

٢٣٢ - وإذا طَلَقْتُم نساءكم طلاقاً رجعيّاً دون الثلاث، وانقضت عدتهنَّ من غير مراجعةٍ لهنَّ، فلا تُضَيّقُوا - أيها الأولياء - على المُطلّقات فتمنعوهنَّ من مراجعة الذين كانوا أزواجهنَّ سابقاً بنكاح جديد، إذا رضي كل منهما بالآخر، بما وافق الشرع من عقدٍ حلالٍ ومهر جائز، ذلك النهي عن المنع والتضييق يُنصح به نصحاً مقروناً بما يثير الرغبة والرغبة في النفس، من كان منكم يؤمن بتجدد واستمرار بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً، فهو الذي يتنفع بالنصح دون غيره، ويتبع ما هدى الله إليه.

٢٣٣ - والأمهات - سواء أكنَّ أزواجاً لأبائ الأولاد، أم كنَّ مُطلّقاتٍ منهم - يُرضعن أولادهنَّ في حكم الله الذي نَدب إليه أربعة عشر شهراً لِمَنْ أراد إتمام الرضاعة، فليس من شأن الوالدات ذوات الحنان والشفقة على أطفالهنَّ، وهنَّ مؤمنات برهنَّ أن يتركن إرضاع أولادهنَّ دون ضرورة أو حاجة شديدة، وعلى الآباء الذين يُسبب الولد إليهم أن يكفلوا للمرضعات المُطلّقات طعامهنَّ ولباسهنَّ، على الوجه المُستحسن شرعاً وعرفاً، من غير إسراف ولا تقتير، لا يُكَلِّف أبو الولد في الإنفاق عليه وعلى أمه إلا قدر ما تتسع به قدرته، مع بقاء فضل من جهده، بحيث لا يستغرق أقصى قدرته. لا يُنزع الولد من أمه بعد أن رضيت بإرضاعه ولا يُدفع إلى غيرها، ولا يُكرهها عليه إذا أبته، ولا يمنعها شيئاً ممَّا وَجِبَ لها عليه، وكذلك لا تُلقى المرأة الولد إلى أبيه وقد أفهها، تضارّه بذلك، ولا تطلب منه ما ليس حقاً لها، ولا تشغل قلبه بالتفريط في شأن الولد، ويجب على وارث أبي الولد إذا مات مثل ما كان يجب على الوالد قبل موته من النفقة والكسوة.

فإن أراد الوالدان فطامَ الولد قبل انتهاء السنتين على اتفاقٍ منهما، وإرادة حُرّة صريحة واضحة، صادرة عن تراضٍ صحيح ليس فيه شائبة إكراه، وعن تداولٍ في الرأي بينهما، أو مع أهل الخبرة؛ ليصلا إلى ما فيه مصلحة المولود، من حيث قوّته وقدرته على الاستغناء عن لبن الأم، وسلامة جسمه ونموّه، فلا حَرَج ولا إثم على الوالدين في الفطام قبل الحولين إذا لم يضُرَّ بالولد. وإن أردتم أن تسترضعوا لأولادكم مرضع غير أمهاتهنَّ إذا أبَت أمهاتهنَّ إرضاعهنَّ وتعذّر ذلك، فلا إثم عليكم إذا سلّمتم إلى المرضع ما آتيت لهنَّ من أجره الرضاع بالإحسان والإجمال من غير مُمانعة ولا مُماكسة، بل بالمعروف الذي لا يستنكره الناس، وتقرّه العقول والأخلاق القويمة. وخافوا الله فيما فرض عليكم من الحقوق، وفيما أوجب عليكم لأولادكم، واعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرّها وعلانياتها؛ فإنه تعالى يراها ويعلمها، وسيُجازيكم على ذلك.

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا نَظَرْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخٍ مِّنْ مَّعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِئَعْنَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَذْخِدُوا إِنْ آتَى اللَّهُ هُزْوَاً وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعَظِّمُ بِهِنَّ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عِلِمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا نَظَرْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَاً لَعَنَ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُسَرِّضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

٢٣٤ - والذين يموتون منكم - يا معشر الأزواج - ويتركون زوجات بعدهم، ينتظرن بأنفسهن في العدة مدة أربعة أشهر قمرية وعشر ليال من وفاة الزوج، لا يخرجن من منزل الزوجية، ولا يتزينن، ولا يتزوجن، فإذا انقضت عدتهن المذكورة فلا إثم عليكم - أيها الأولياء - فيما فعلن في أنفسهن مما كان مُحَرَّمًا عليهن أثناء العدة بالوجه الذي يعرفه الشرع ولا ينكره، وتقره العقول، وتدركه الأفهام، وتعرفه أهل المدارك السليمة، كالتزين، والتطيب، والثقله من المسكن الذي كانت مُعْتَدَةً فيه، ونكاح من يجوز لها نكاحه، والله تعالى خبير بأعمالكم، على سبيل الحضور والشهود المُصَاحِبِ لكل أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، لا يخفى عليه خافية.

وعدة الوفاة أربعة أشهر قمرية وعشر ليال بأيامها خاصة بغير الحوامل، أما عدة الحامل فتكون بوضع الحمل، عملاً بآية الحمل ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤] وتشمل حال الوفاة والطلاق كما هو مذهب جمهور الفقهاء.

٢٣٥ - ولا حرج عليكم - أيها الرجال - فيما لو حتم وأشرت به من طلب النكاح والتماسه من النساء المعتقدات في عدتهن من غير تصريح، ولا إثم عليكم أيضاً فيما أضمرت في أنفسكم من الرغبة في نكاحهن بعد انتهاء عدتهن، عليم الله أنكم ستذكرون النساء المعتقدات بقلوبكم؛ لأن الخواطر والأمانى لا يمكن دفعها، ولكن لا تؤاعدوهن وعداً سرياً؛ ولا تندفعوا وراء رغباتكم فتلقوا بهن سراً، وتقولوا لهن ما تستحيون من قوله جهراً، لكن المباح لكم أن تقولوا لهم قولاً معروفاً لا تستنكره العقول، وتقره الأخلاق، ولا يقبح إعلانه، وذلك بالتعريض بالخطبة، ولا تُحَقِّقُوا الْعَزْمَ على عقد عتدة النكاح في زمن العدة حتى تنقضي مدتها، واعلموا أن الله يعلم ما في خلجات قلوبكم وخطرات نفوسكم فخافوه، واعلموا أن الله كثير

السِّرِّ لِمَنْ تَابَ من ذنوبه، حليم لا يُعَجِّلُ بالعقوبة على مَنْ جَاهَرَ بالمعصية، بل يَسْتُرُ عليه. وفي الآية مشروعية الخطبة، وإباحة التعريض بها في العدة، وتحريم التصريح فيها، وتحريم العقد في العدة.

٢٣٦ - لا تبعة عليكم - أيها الأزواج - من مهر إذا طلقتم النساء بعد العقد عليهن، وقبل أن تجامعهن، أو تقدروا لهن مهراً محدداً، وأعطوهن من مالكم ما يتمتعن به جبراً لهن، ودفعاً لوحشة الطلاق، وإزالةً للأحقاد. وهذه المتعة تجب بحسب حال الرجل المطلق: على الغني قدر إمكانه وسعة رزقه، وعلى الفقير الضيق الحال قدر ما يملكه، متعوهن تمتيعاً على الوجه المُستحسن المعروف شرعاً وعرفاً، من غير ظلم ولا خيف، وذلك التمتع حق واجب ثابت على المُحسنين إلى أنفسهم بطاعة الله، والذين يُحسنون إلى النساء المطلقات.

٢٣٧ - وإن طلقتم النساء بعد العقد عليهن، من قبل أن تجامعهن، وقد سَمَّيْتُمْ لهنَّ مهراً محدداً، ألزمت أنفسكم به، فيجب عليكم أن تعطوهن نصف المهر المُسمى، ولا متعة لهن، إلا أن تترك المرأة نصيبها من الصداق، وتتنازل عن حقها، فتترك نصف المهر المستحق لها، فتَهَبَهُ للزوج، فيعود جميع الصداق إلى الزوج، أو يعفو الزوج، ويترك حقه في النصف الثاني من المهر، فيُعْطِي المرأة الصداق كاملاً، وعفو بعضكم على بعض - أيها الرجال والنساء - أقرب إلى حصول التقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم، باتخاذ الوسائل المُذكِّرة، وطرده عوامل النسيان عن الفكر، وإن ما فَضَّلَ الله به الرجال على النساء يقتضي من الرجال أن يتنازلوا عن حَقِّهم، فلا يُطالبوا بنصف المهر الذي بذلوه لمُطلقاتهم قبل الدخول بهن، بل يُعطوا المهر كاملاً، ولتفضل بعضكم على بعض، لتبقى العلاقات الأسرية قائمة على الإحسان ومكارم الأخلاق، ولا يبقى في القلوب أحقاد؛ إن الله بما تعملون من عفو بعضكم لبعض بما وَجَبَ عليه من حق بصير، لا يخفى عليه شيء من ذلك، فيجازي المحسنين على إحسانهم، وأصحاب الفضل على فضلهم.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ عَنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَسْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَفْرِمُوا عَقْدَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لهنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوُسْعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْفَقِيرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لهنَّ فَرِيضَةً فَنَصِبْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَا أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

البقرة النجاة

سورة البقرة

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلْتُمْ لَأَيُّكُمْ يُؤْتَى وَفَعَلْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَمَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٤﴾

٢٣٨ - ذابوا على الصلوات الخمس المكتوبات بجميع شروطها وحدودها وإتمام أركانها، وفعلها في أوقاتها المختصة بها، وحافظوا على الصلاة الفضلى بين الصلوات، وهي صلاة العصر، وقوموا في صلاتكم مطيعين لله، خاشعين خاضعين. والصلاة الوسطى - وهي في أظهر الأقوال صلاة العصر أو الفجر - داخلية في عموم لفظ «الصلوات»، لكن خُصت بالذكر، وعُطفت على عموم الصلوات اهتماماً بشأنها، وتوجيهاً لتخصيصها بعناية فائقة خاصة.

٢٣٩ - فإن خفتكم من عدو أو حيوان مفترس، ولم يمكنكم أن تصلوا قانتين موفين حقوق الصلاة، فصلوا مشاة على أرجلكم، أو ركباً على دوابكم وغيرها من وسائل السفر، مُستقبلي القبلة وغير مستقبلها، فإذا زالت أسباب الخوف، فصلوا لله الصلوات الخمس تامة بأركانها وسُننها، واذكروا الله فيها، واشكروا له، كما أنعم الله تعالى عليكم بالعلم والهداية، ولولا هدايته وتعليمه إياكم لم تعلموا شيئاً، فله الحمد على ذلك.

٢٤٠ - والذين يموتون منكم - يا معشر الرجال - ويتركون زوجات، فليوصوا وصية لأزواجهن قبل أن يحتضروا بأن تمتنع أزواجهن بعدهن، سنة تامة بالنفقة عليهن من تركتهن، ولا يخرجن من مسكنهن الذي كن يسكنن فيه في حياة أزواجهن، فإن خرجت الزوجات مختارات راضيات راغبات غير مُخرجات قبل انقضاء السنة، فلا إثم عليكم - يا معشر أولياء الميت - فيما فعلن من أمور تتعلق بأنفسهن بالمعروف الذي تقره الشريعة، ويعرفه العقل، فإن وجدت مصلحتها أن تنتفع بحق البقاء سنة كاملة بعد وفاة زوجها، فإنها تبقى، وإن رأت مصلحتها أن تأوي إلى بيت ذويها، أو عرض لها أن تزوج بعد انتهاء عدتها، وهي: أربعة أشهر وعشرة أيام، فإن لها ذلك، والله قوي غالب في انتقامه ممن خالف أمره ونهيه، حكيم فيما شرع من الشرائع ويبين من الأحكام.

٢٤١ - وللمطلقات عموماً المدخول بهن وغير المدخول بهن انتفاع ممتد الوقت من كسوة ونفقة على الوجه المعروف المُستحسن شرعاً وعقلاً، حقاً ثابتاً للمطلقات على المؤمنين الذين يخافون الله في أمره ونهيه.

٢٤٢ - كما عرفتمكم أحكامي والحق الذي يجب لبعضكم على بعض في هذه الآيات، كذلك أبين لكم سائر أحكامي في آياتي التي أنزلتها على محمد ﷺ في هذا الكتاب؛ رغبة أن تعقلوا عقلاً علمياً ما بينت لكم من الفرائض والأحكام، وما فيه صلاحكم وصلاح دينكم، وتعقلوا عقلاً إرادياً شهواتكم وأهواء نفوسكم.

٢٤٣ - ألم تر - أيها الرائي - عن طريق العلم اليقيني الخبري، المماثل للرؤية البصرية ناظراً إلى الذين خرجوا من ديارهم، وهم أُلوف مؤلفة، وكثرة كاثرة، وهم مُؤتلفون مجتمعون؛ والباعث على خروجهم: حذرهم من الموت، وحرصهم على الحياة مهما كان نوع الحياة، فقال لهم الله بأمره التكويني: موتوا، فماتوا عن آخرهم، ثم أعادهم الله سبحانه بقدرته إلى الحياة بعد موتهم؛ ليستوفوا آجالهم، وليتعظوا ويتوبوا، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على أن الله تعالى قادر على إعادة الأموات بلا ريب؛ إن الله تعالى مُتفضل على كافة الخلق في الدنيا؛ لأنه خلقهم وأمدّهم بأسباب الوجود، وأنعم عليهم بنعمه الكثيرة، ويخص المؤمنين بفضله يوم القيامة، ولكن أكثر من أنعم الله عليهم لا يشكرون فضل الله عليهم، بل يكفرون ويجهلون.

٢٤٤ - وقاتلوا - أيها المؤمنون - في سبيل الله - واثبتوا ولا تهربوا من الموت كما هرب هؤلاء، فلم ينفعهم ذلك، واعلموا أن الله سميع لكل أقوالكم التي تنطقون بها، سواء أكانت تلك الأقوال تدل على رغبة في الجهاد وطلب للاستشهاد، أم كانت هذه الأقوال مُخذلة للمجاهدين الأبرار، وهو عليهم بخواطركم والدوافع التي تدفعكم إلى القتال، أي فخار ورغبة في الدنيا، أم لتكون كلمة الله هي العليا، وسيجزي كل واحد بقوله ونبيته، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٢٤٥ - مَنْ ذَا الذي يُقدّم نفسه إلى الله ما يرجو ثوابه عنده، بالإنفاق في سبيل الله؛ لإعداد العدة، وأخذ الأبهة، مُحسباً طيبة به نفسه، ولا يكون فيه رياء ولا سمعة؟ فيضاعف الله له ثواب ما أنفق أمثالاً كثيرة بما لا يعلمه إلا الله تعالى، فارغبوا في هذا الثواب العظيم، فأنفقوا في سبيل الله، والله يقبض عن بعض عبادته من أرزاقهم، ويضيق عليهم، ويقبض مشاعر النفس من حواشيتها حتى أعماقها حيث الفؤاد، ويَبْسُط لهم الرزق ويوسعهم عليهم، ويبسط مشاعر المسرة النفسية حتى عمق الأحاسيس القلبية، وإلى الله - وحده - تُردون بالبعث بعد مماتكم؛ للحساب وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وستركون في الدنيا كل ما تجمعون منها، فلا ينفعكم لآخرتكم إلا ما بذلتموه في سبيل الله، وابتغاء مرضاته.

٢٤٦ - ألم تر - أيها الرائي - عن طريق العلم اليقيني الخبري، المماثل للرؤية البصرية ناظراً إلى أشراف القوم وسادتهم المقدمين فيهم الذين يملؤون العيون رواء ومنظراً، والنفوس بهاءً وجلالاً؛ من بني إسرائيل الذين عاشوا بعد عهد موسى عليه السلام، حين طلبوا من نبيهم أن يوَلِّيَ عليهم مَلِكاً يقاتلون معه في سبيل الله، ويقودهم إلى العزِّ والنصر، بعد أن وجد بنو إسرائيل من أنفسهم القدرة على مواجهة أعدائهم، بتوفر الشروط الكافية لتحقيق الانتصار، ضمن سُنَّةِ الله الكونية المؤيَّدة - بمعونة الله المعتادة - للمؤمنين. قال لهم نبيهم: هل توفَّعتم إن فُرضَ عليكم القتال في سبيل الله مع ذلك المَلِكِ أن لا تفُؤا بما قُلتُم، وتجنبوا عن القتال معه كما أتوقعه منكم؟ وهذا القول من نبيهم يدلُّ على أنه كان عالماً بصفاتهم، خبيراً بطبائعهم، مُطلِعاً على تمكُّن صفات الجُبْنِ والتراجع، ونقض العهد، والتولي عن القتال، والقعود عن الواجب منهم، وهذه النقصات مُتَّصِلَةٌ في طبيعة اليهود ونفوسهم، وأخلاقهم وتصرفاتهم. قالوا لنبيهم: وما سَوْغُ لنا ألا نقاتل في سبيل الله، والحال أننا قد أخرجنا من ديارنا باستيلاء العدو عليها، وأخرجنا من أبنائنا بسنيهم وفصلهم عنا، وجعل قوتهم لأعدائنا، وليست لنا، فبواغت القتال قد توافرت، فحق علينا أن نقاتل.

فسأل الله تعالى ذلك النبي، فبعث لهم مَلِكاً، وفُرضَ عليهم القتال، فلما فُرض جَبَنُوا عن الجهاد، وضيَّعوا أمر الله إلا قليلاً منهم لم يتولَّوا عن الجهاد، وثبَّتوا بفضل الله، والله عليم بالظالمين أنفسهم بمعصيته، المتولِّين عن تنفيذ أمره.

٢٤٧ - وقال لهم نبيهم: إنَّ الله سبحانه قد أرسلَ لكم «طالوت» من سبط «بنيامين»، وجعله مَلِكاً عليكم، وفي مصلحتكم، واختاره من صفوفكم، يقودكم لقتال عدوكم.

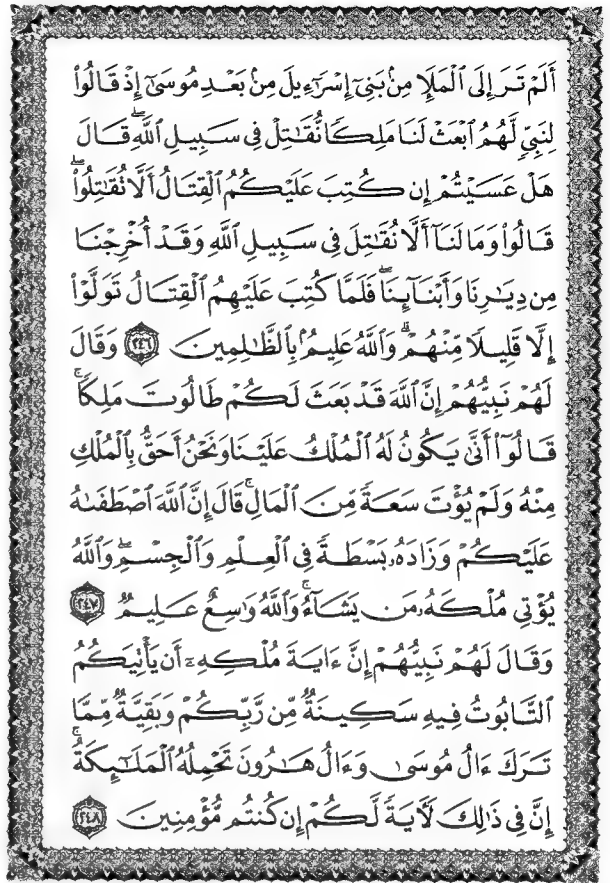
قال كبراء بني إسرائيل: من أين يكون له الملك وكيف يستحقُّه؟ لأنَّه ليس من سبط الملوك، ولا من بيت النبوة، ولم يُعطِ كثرة في الأموال ليستعين بها في ملكه، فنحن أحقُّ بالملك منه؛ لأننا من سبط الملوك وبيت النبوة.

تمرد بنو إسرائيل على نبيهم، واعترضوا عليه بعد أن فَوَّضُوا الأمر إليه، فانقضوا أنفسهم، وبنوا الاعتراض على أسباب جعلوها مناط الملك، وليست هي السبب للرئاسة الصالحة، فظفروا أنَّ سبب الملك أحد أمرين: إما ثروة طائلة، وإما سلالة ملكية متوارثة، وكذلك يكون تفكير الجماعات التي سيطرت عليها الأهواء، وغلبت على أمرها، تتَّجه إلى الماديَّات فتحكُمها، وتفقد تقدير المعنويَّات، وبذلك تختل مقاييس التقدير والاختيار للأعمال والمناصب.

قال لهم نبيهم: إنَّ الله اختاره عليكم، وخَصَّه بالملك دونكم، وزاده فضيلة وسعة في العلم، وقوة في الجسم، والله تعالى لا اعتراض لأحدٍ عليه في فعله، فيخصُّ بملكه مَنْ يشاء من عباده، فإنكم إن طعنتم في طالوت بكونه فقيراً، فالله واسع الفضل والرزق، وسع كل شيءٍ برحمته وقدرته، فإذا فَوَّضَ إليه الملك فَتَحَ عليه أبواب الرزق والمال من فضله وسعته، والله تعالى مع قدرته على إغنايته عالم بما يحتاج إليه في تدبير نفسه وملكه، لا يخفى عليه شيء.

٢٤٨ - خضع بنو إسرائيل لقول نبيهم، ولحكم الله باختيار «طالوت» متولياً لقيادتهم، ولكنه خضوع القلق المضطرب الذي لم يُصب السكون قلبه، فسألوا عن دليل ربَّاني يدلُّهم على أنَّ الله ملكه عليهم، فقال لهم نبيهم: إنَّ علامة ملكه التي تدلُّ على أنَّ الله اختاره ملكاً عليكم، أن يأتاكم الصندوق الذي فيه التوراة - وكان أعداؤهم قد انتزعوه منهم - فيه طمانينة من ربكم تروُن في عودته بشري بالسلطان والعزة والتمكين، وفيه أيضاً بعض الأشياء المتوارثة ممَّا ترك آل موسى وآل هارون، مثل العصا وشيء من ألواح التوراة، هي سبب عزكم وتيمُّنكم، والصِّلَة بين حاضركم وماضيكم، تأتيكم به الملائكة حاملين له، إنَّ في مجيء التابوت تحمله الملائكة علامة ودلالة على صدقي فيما أخبرتكم: أنَّ الله قد بعثَ لكم «طالوت» ملكاً؛ إن كنتم مُصدِّقين بذلك.

وأعطاهم نبيهم موعداً لمجيء التابوت تحمله الملائكة، فخرجوا لاستقباله، فلما وجدوا «تابوت العهد» قد جيء به حسب الموعد، أذعنوا لملك «طالوت»، فكان أول ملوك بني إسرائيل.



٢٤٩ - فلما خرج «طالوت» بجنوده من بيت المقدس لقتال العمالقة، رأى أن أكثرهم ليسوا مستعدين للقتال حقاً، وأن وجود هؤلاء في جيشه مُبْطِلٌ لهم، وربما يُسبب الهزيمة لكل الجيش إذا انهزموا أو اضطربوا، فأراد أن يختبرهم ويصطفي منهم من يمكن أن يصدق في القتال حقاً، إذا حصلت المواجهة القتالية بينهم وبين جالوت الجبار، وجنوده الأشداء، فما أن أتجه بهم شطر عدوهم، ومضى بهم في الطريق، حتى علم أنهم قد اشتد بهم الظمأ، فقال طالوت لهم: إن الله مُختبركم - وهو أعلم بأمركم - بنهر أمامكم تعبرونه؛ ليمتيز المؤمن من المنافق، فمن شرب منكم من ماء النهر فليس من جنودي، ولن يقاتل معي، فالذي لا يصبر على العطش لا يصبر في أرض المعركة، ولا يثبت في وجه العدو، ومن لم يذق الماء فإنه من جنودي، وسيقاتل معي، إلا من ترخص واغترف غُرْفَةً واحدة بيده، يبل بها عطشه، ويتنقع غلته، ويدفع حاجته العاجلة إلى الماء، فلا لؤم عليه، فسقط أكثرهم في هذا الامتحان الذي هو أقل من مواجهة العدو بالقتال، ولم يطيعوا قائدهم الحكيم، فشربوا من النهر إلا عدداً قليلاً منهم صبروا على العطش والحر، واكتفوا بغُرْفَةٍ اليد، وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، فلم يأخذ معه إلى الحرب إلا الذين نجحوا في هذا الامتحان، وكانوا بالنسبة إلى عدوهم عدداً قليلاً.

فلما جاوز «طالوت» النهر مع القليل الذين آمنوا معه، وصبروا على العطش والتعب، ولم ينالوا من الماء إلا ما يدفع العطش المميت، قال فريقٌ منهم لما رأوا العدو وكثرته، وجبنوا عن مواجهته خوفاً من الموت: لا قدرة لنا اليوم بجالوت قائد جيش العدو وجنوده، ولو بتحمل أقصى المشقة، فأجابهم إخوانهم الذين دفعوا بأنفسهم إلى أوائل الصفوف، وكانوا غُرْضة للقتل، يظنون أن منايهم قد اقتربت عن طريق الشهادة، فهم ملاقو ربهم وشيكا، وهم مُتَشَوِّقون إلى هذا اللقاء، ومُتَحَمِّسون له، فقالوا لإخوانهم مطمئنين: كم من جماعة قليلة مؤمنة صابرة، متعاونة مُتَساندة، يفيء بعضها إلى بعض، غلبت جماعة كثيرة كافرة باغية بقضاء الله وإرادته؟ والله مع الصابرين بالنصر والمعونة.

لقد تُمَّتْ تصفية بني إسرائيل الذين خرجوا مع طالوت ثلاث مرات: فقد سقط كثير من الجنود في المرحلة الأولى، وضعفوا أمام الامتحان الأول، وشربوا من النهر، وهذا القليل لم يثبت إلى النهاية، فأمام كثرة الأعداء وقوتهم، تهاوت العزائم، وزلزلت القلوب، وأمام هذا التخاذل ثبتت القلة القليلة المختارة واعتصمت بالله، فخلاصة خلاصة الخلاصة، هم الذين صدقوا الله في الجهاد، فصدقهم الله وعده، وأنزل عليهم نصره.

٢٥٠ - ولما ظهر طالوت وجنوده المؤمنون لجالوت وجنوده الكافرين، قالوا: ربنا اضرب علينا صبراً، يعم ظاهراً، ويتسرّب إلى باطننا، فيُلقي في القلوب برداً وسلاماً، وأمناً وطمأنينة، وقوً قلوبنا؛ لثبّت أقدامنا، وانصرنا بعونك وتأييدك على القوم الكافرين.

٢٥١ - فاستجاب الله دعاء المؤمنين ونصرهم على القوم الكافرين، فكسروهم وردّوهم بقضاء الله وإرادته، وقتل «داود» - عليه السلام - «جالوت» قائد الجبابرة، الذي كان يفرض أهواءه وشهوته عليهم، فيجعل منهم جنداً طائعين له، يسيرون مع رغبته، فليست لهم إرادة غير إرادته، ولا روح جماعية تجعل لهم كياناً مستقلاً، بل الطاغية «جالوت» هو المُسلّط عليهم، فلما قتل داود عليه السلام ذلك الطاغية، تفرّق الجمع، وكان ظهور «داود» من وسط الجيش المجاهد، في ميدان المعركة، وترقى في طريق القيادة والملك والحكمة، وأعطاه الله عزّ وجل الملك والتدبير المُحكم على وفق العلم، والعقل المدرك النافذ البصير الذي يرى بواطن الأمور، ويتغلغل في أعماقها، ويضع الأمور في مواضعها، وعلمه ما يشاء من الزبور، والصوت الطيّب، ومنطق الطير، وصناعة الدروع، وسياسة الملك وضبطه، ومعرفة أحوال الناس، ومنازع النفوس، وأحوال البلدان، ولولا أن الله يدفع بأهل الإيمان والطاعة أهل الكفر والمعصية، ويُسلط الكفار بعضهم على بعض، لساد الباطل، وتمادى الطغاة في طغيانهم، وفشى الظلم والاستبداد والانحلال الخلقي، وصنوف الانحراف في الأرض، ولكن الله جعل من سنّته تدافع الخير والشر، الذي ينتهي بغلبة الخير والقضاء على الشر، والله يمنّ على عباده بأن جعل من سنّته أن يوجد في الأرض أهل إيمان وصلاح وحقّ يدفع بهم أهل الباطل، فيزحق الباطل، ويتنصر الحق، وينحسر الفساد.

٢٥٢ - تلك القصص التي قصّها الله سبحانه: من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم، وتمليك «طالوت» وإظهاره، وإهلاك الجبابرة على يد داود عليه السلام، نقرأها عليك متابعة مُفسّرة واضحة، تتابع فيها الألفاظ، وتتصل فيها المعاني باليقين الثابت المطابق للواقع الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لأنه في كتبهم، وإنك تُخبر بهذه الأخبار العجيبة والقصص القديمة من غير أن تُعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار، فدلّ ذلك على أنك من المرسلين، وأن ما تُخبر به وحيّ من الله عزّ وجل، وأن إرسالك من قبل ربّ العالمين أمر ثابت معروف عند أهل العلم، فلم تكن رسالتك بدعاً، ولا أمراً غير مألوف أو معروف، فلا يُماري في رسالتك إلا جهول أو جحود.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَنْ فِئْتَةٍ لَقِيَةَ غَلَبَتْ فِئَتَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبْرَرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَكَرَهُهُمُ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

٢٥٣ - جماعة الرُّسُل الذين تقدّم ذكرهم في هذه السُّورة، وإن كانوا جميعاً مبعوثين من ربِّ العالمين، ليسوا بدرجة واحدة، فقد فضّل الله بعضهم على بعض، ومن الرسل من كلمه الله، وهو موسى عليه السلام، ورفع الله بعضهم دَرَجَاتٍ، بالمنزلة الرفيعة السامية، وكبير التفاوت بينه وبين غيره، وهو محمد ﷺ؛ لعموم رسالته، وختم النبوة به، وتفضيله بالآيات البينات والمعجزات الباهرات، وأعطينا عيسى ابن مريم الحُجَج والأدلة الباهرة والمعجزات الظاهرة على نبوته، كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وقوّينه بالروح المُقدس المُطهّر جبريل عليه السلام، يحفظه ويصونه من خصومه وأعدائه الذين يترصّون به الدوائر، من رومان ووثنيين ويهود؛ وقد أنقذه منهم لما بسطوا أيديهم لقتله، ورفع له إليه سبحانه. ولو أراد الله لسلب الناس إرادتهم الحُرّة، فجعلهم مُجبورين على طاعته غير مُخيرين، على طبيعة الملائكة عليهم السلام، لا يتنازعون ولا يتقاتلون، وبما أنّ الله سبحانه جعلهم ذوي إرادات حرة، فإنهم لا يزالون مختلفين، ومن مظاهر اختلافهم: الاقتتال الذي وقع بين الأنبياء الذين جاؤوا من بعد هؤلاء الرسل، من بعدما جاءتهم الدلالات الواضحات من الله، ولكن أراد الله أن يضعهم موضع الامتحان، ومنحهم إرادات حُرّة، ونتيجة لامتحانهم اختلفوا، بعد تبين الحق، ووضوح معالمه، فمنهم من ثبت على إيمانه بالله ورسوله بفضل الله، ومنهم من تعمّد الكفر وجحد وعاند بعد قيام الحُجّة وبعثه الرسل، ولو أراد الله أن يحجزهم عن الاقتتال والاختلاف لَحَجَزَهُمْ عن ذلك؛ لأنّ مشيئته نافذة لا محالة، وكلّ ما يريد الله يفعله، لا اعتراض عليه في ملكه وفعله.

٢٥٤ - يا أيّها الذين صدّقوا الله وأطيعوا رسوله: أدّوا الزكاة الواجبة وصدقة التطوّع، من بعض ما أعطاكم الله، وقدموا لأنفسكم اليوم من أموالكم من قبل أن يأتي يوم لا تجارة فيه ليكسب الإنسان ما يفتدي به من العذاب، ولا مودة تنفع، ولا شفاعة لأحد إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فلا تتكلموا على غيركم، وأدّوا ما كلّفكم به ربكم، واحذروا أن تظلموا أنفسكم بمعصيته، والكافرون هم الظالمون؛ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، فلا تكونوا مثلهم، تتخذون فضله عليكم، وتستعملون نعمته في غير ما كلّفكم به.

٢٥٥ - الله الذي لا يستحقّ الإلهية إلا هو، ذو الحياة الكاملة، الباقي على الأبد، الدائم بلا زوال، القائم بنفسه الذي لا يحتاج إلى شيء، والمقيم لغيره، إذ هو القائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون إليه، لا يأخذه سبحانه نعاس يتقدّم النوم، فضلاً عن أن يأخذه نوم مُزِيل للقوّة والعلم؛ لأنّه سبحانه مُنزه عن النقص والافات والتغيّر، وهو مالك السموات والأرض بغير شريك ولا مُنازع، ومن كمال سلطانه، وشمول إرادته أنّه لا يشفع عنده أحد إلا بأمره وإرادته، كشفاعة الأنبياء، والملائكة، والمؤمنين بعضهم لبعض. وهو سبحانه يعلم كلّ ما قدّم عباده في الدنيا من اعتقادات ونيّات وأعمال ظاهرة وباطنة، ويعلم سبحانه كلّ ما سيأتي في مستقبل أمرهم يوم الدين، فهو الذي يكون خلفهم؛ لأنهم يجهلونّه، لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه، ولا أحد يحيط بمعلومات الله تعالى علم إحاطة واستغراق إلا ما أطلع الله عليه الأنبياء والرسل ليكون دليلاً على نبوتهم، وسيع كرسية السموات والأرض، والكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش، وهو أعظم من السموات والأرض، نفوذ علم حقيقته إليه تعالى، ولا يُثقله سبحانه بأفلاكها وطبقاتها وكواكبها، والأرض وما عليها ومن عليها، وما فيها ظاهراً وباطناً، كلّ ذلك يسير على نظام مُحكم محفوظ خاضع لقوانينه التي سنّها في خلقه، وهو المتعالي عن الأشباه والأنداد والأمثال الذي ليس فوقه شيء، ذو العظمة والكبرياء الذي لا شيء أعظم منه. وهذه الآية أعظم آية في القرآن، وتُسمّى: آية الكرسي.

٢٥٦ - ليس في دين الإسلام - وهو عقْد في القلب وإدعان في النفس - إكراه وإجبار، بل مَنابته على التّصديق الإرادي والاختيار، فالقلوب التي هي مراكز الإيمان لا يمكن إكراهها إلا بالجبّر الرباني الذي يسلبها معه حرية إرادتها، وهذا مناقض لوضعها موضع الامتحان، والوسائل الإكراهية التي يملكها الناس تصنع منافقين، لا مؤمنين، والمنافقون أسوأ حالاً من الكافرين الصّرحاء. قد ظهر وتميّز الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهُدى من الضلال بكثرة الآيات والبراهين الدالة على صحّته، فمن رأى الحق بيّناً فقد أدرك السبيل، وعليه أن يسير فيها، وليس لأحد أن يحمله حملاً، وليس على الداعي إلى الحق إلا بيان الرشد من الغي، وليس مكلفاً أن يُكره الناس على الهداية، فمن يكفر بكل ما عبّد من دون الله، كالشيطان وأعوانه ودعاة الكفر ورؤساء الضلال، الذين يقتنون الناس عن دين الحق، ويكرهونهم على اعتناق الباطل، ويصدّق بالله أنّه ربّه ومعبوده من دون كلّ شيء كان يعبّده، فقد تمسك واعتصم بقوة وشدة بالعقد الوثيق المحكم، لا انقطاع له حتى يؤديه إلى الجنة، والله سميع لأقوال عباده، عليم بأفعالهم ونيّاتهم، وسَيَجْازِيهم على ذلك.

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَحْنَا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٍ وَلَا شَفِيعَةٍ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

٢٥٧ - اللَّهُ سبحانه ناصرُ المؤمنين ومعينهم ومُتولي أمورهم، يُخرجهم من الكفر والجهل بحقائق الإيمان ومفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه إلى الإيمان والعلم بحقائق الإيمان ومفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه عن طريق إراداتهم الحرة، بوسائل دعوتهم إلى الحق وتعليمهم وهدايتهم وتربيتهم، والذين كفروا عن إرادة وتصميم أنصارهم الأنداد والأوثان والجبابرة المتحكمون، والكبراء المضلون، يُخرجونهم من الإيمان والعلم بحقائق الإيمان ومفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه إلى الكفر والجهل بحقائق الإيمان ومفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه، عن طريق إراداتهم الحرة، بوسائل دعوتهم إلى الباطل وتزيينه. أولئك الكفار البُعداء عن رحمة الله أصحاب النار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء بقاءً أبدياً، لا يُخرجون منها ولا يموتون؛ لأنهم صَمَمُوا في الدنيا على أن يظلوا أبداً جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكبين لرسالاته.

٢٥٨ - ألم تر - أيها الرائي - رؤية تفكيرية ناظراً بها نظر متعجب إلى «نمرود» ملك بابل الجبار المَراوغ المُغالط الذي خاصم إبراهيم وجادله في وجود ربه ووحدايته وقدرته؛ لأن الله آتاه نعمة الملك والسلطان الديني فطغى وتجبّر بسببه، وكان الواجب عليه أن يشكر نعمة الله عليه، فيؤمن. قال نمرود لإبراهيم: مَنْ ربك؟ قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت بدوام واستمرار، أي: أنه يخلق نفساً من مادة لا حياة لها، فينفخ فيها الروح، فتكون بخلق الله نفساً ذات حياة، وهو الذي يميت الأحياء عند انتهاء آجالهم، بتزغ الروح من أجسادهم التي كانوا بها أحياء، فما من أحد غير الرب الخالق يستطيع أن يوجد حياة في مادة غير حية، وما من حيٍ يستطيع أن يحافظ على حياته بوسيلة ما من الوسائل، فيمنع عنها الموت الذي قضاه الرب على كل الكائنات الحية. قال نمرود: أنا أحيي وأميت؛ أقتل مَنْ أردت

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ
أَنَآ أَنَّهُ اللَّهُ الْمَلِكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوَلَا ذِي مَرَّةٍ
عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ
بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ
قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ
فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى
الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

قتله، وأستقي من أردت بقاءه. واستدل على ادعائه بأن أحضر رجلين من السجن، فقتل أحدهما، وعفا عن الآخر. ولم يشأ إبراهيم أن يدخل في جدال يكشف فيه المغالطة التي صنعها النمرود، إذ جعل القتل إماتة، والعفو لمن يستحق الموت إحياء، وهما غير مرادين في أصل دليل إبراهيم، إذ هو يريد خلق الحياة في المادة غير الحية، وسلب هذه الحياة سلباً حقيقياً، لا سلباً عن طريق اتخاذ الأسباب التي جعلها الله أسباباً لحدوث الموت الذي يتم بخلق الله وبقدرته، وهو أمر متنازع للنمرود ولغيره. قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس صباحاً من جهة الشرق، فهل تستطيع يا نمرود - إن كنت رياً - أن تغير هذه السنة الإلهية بأن تجعلها تشرق صباحاً من المغرب بدل أن تبرز صباحاً من المشرق؟ فتحيّر نمرود ودهش وغلب، وانقطعت حجته، وعجز عن تقديم شاهد عملي يثبت قدرته على أن يأتي بالشمس من المغرب، والله لا يرشد الظالمين إلى حجة يدحضون بها حجج أهل الحق عند المحاجة والمخاصمة.

٢٥٩ - أو هل رأيت - أيها الرائي - رؤية تفكيرية ناظراً بها نظر متعجب إلى مثل الذي مر على قرية، وهي خالية من سكانها، مُتهمة جدرانها، ساقطة حيطانها على سُقوفها التي سقطت، فقال ذلك المارء استعظماً للأمر، وتفخيماً وتعجباً من عظمة قدرة الله تعالى: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام، ثم أحياه بعد موته. قال الله تعالى له لإظهار عجزه عن الإحاطة بشؤون الله تعالى وعظيم قدرته: كم قدر الزمان الذي مكثت فيه ميتاً قبل أن أبعثك من مكانك حياً؟ قال ذلك المبعوث بعد مماته: بقيت - بحسب تصوُّري - في نومي هذا يوماً أو بعض يوم؛ لأنني كنت فاقداً الإحساس بمرور الزمن، قال الله تعالى له: بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك الذي كان معك قبل موتك وشرابك لم تغيِّره السُّنون التي أتت عليه، ولم تصل إليه عفونة، ولم يتطرق إليه فساد؛ وذلك بسبب حفظ الله له، وانظر إلى إحياء حمارك الذي تفرقت أعضاؤه، وبليت عظامه، وفعلنا ما فعلنا من الإماتة والإحياء؛ لنجعلك عبرة ودلالة للناس على قدرة الله على البعث بعد الموت. وانظر إلى عظام الحمار البالي، المتفرقة أوصاله وعظامه كيف نرفعها من أماكنها من الأرض، ونردها إلى مكانها من الجسد، ونركب بعضها على بعض، ثم بعد رفعها إلى مواضعها، نسترد العظام بعد الالتئام لحماً كما نسترد الجسد باللباس. فلما اتضح له اتضاحاً تاماً، ورأى إعادة الحياة وشاهدها عياناً، قال مخبراً عن نفسه: أعلم علماً مستمراً مُتجدداً أن الله على كل شيء يشاؤه عظيم القدرة، وذلك علم رؤية وعيان فوق ما كنت عليه من اليقين والإيمان.

٢٦٠ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي لكلام ربك - حين طَلَب إبراهيم من ربه أن يُريَه بمشاهدة حسنة كيفية البعث؛ ليكون إيمانه الراسخ مُستنداً إلى عين اليقين، فيشاهد بعينه حَدَثاً واقعياً يكون فيه إحياء للموتى، قال: رب أرني كيف تحيي الموتى بعد أن تتمزق أجسادها وتفتت؟ فقال الله تعالى لإبراهيم: ألم تعلم علماً كافياً للإيمان، وألم تؤمن بأني أحيي الموتى؟ قال إبراهيم: بلى يا رب، قد آمنْتُ وصدقت، وعلمت علماً من مرتبة علم اليقين، وأريد أن ارتقي إلى مرتبة عين اليقين؛ ليزداد إيماني، ويصل إلى الطمأنينة. قال الله تعالى: إذا كنت راعباً أن ترتقي من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة عين اليقين فخذ أربعة من الطير مختلفة الأنواع، فاجمعهن واضمنهن إليك؛ لتأملهن وتعرف أشكالهن وهياتهن؛ كيلا تلتبس عليك بعد الإحياء، ثم اذبحهن وقطعهن أجزاءً واخلط لحمهن وريشهن، واجعل جزءاً على كل جبل من تلك الأشياء المتقطعة، ثم نادِهْن يأتينك مُسرعات، كل طير منها يأتيك بكامل وصفه الذي كان عليه قبل أن تذبحه وتجزئه وتخلطه مع أجزاء الطيور الأخرى، واعلم أنه تعالى غالب قوي على جميع الأشياء، لا يعجزه شيء يريدُه، حكيم في جميع أموره، يَضَع الأشياء في مواضعها.

٢٦١ - مثل صدقات الذين يُنفقون أموالهم في الجهاد وأبواب الخير ووجوه البر كمثل زارع حبة في أرض طيبة معطاء، أخرجت تلك الحبة عوداً مستوياً قائماً تتعلق به سبع سنابل، في كل سُنبلة مائة حبة، فتعطي الحبة الواحدة سبعمائة حبة، والله تعالى يُضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، والله واسع الغنى والقدرة، عليم بنية من ينفق في سبيله.

٢٦٢ - الذين يُعينون المجاهدين في سبيل الله بالإِنفاق عليهم في حوائجهم ومؤنتهم، ثم لا يُتبعون نفقتهم التي أنفقوها عليهم بالمَنْ عليهم بالعطاء وإظهار المعروف، ولا أذى بقول أو فعل يُشعر بالتطاول والتفاخر على المُنعم عليهم، ولكنهم ينفقون احتساباً وابتغاء

ثواب الله، وطلب مرضاته، ويستمرُّون على نزعة الخير، ولا يفسدون نيَّتهم، لهم جزاؤهم العظيم مكافأة لهم على أعمالهم عند ربهم في الآخرة، ولا خوف مُسلط عليهم من مُزهبات قادمات مُستقبلات؛ لأن الله جعل لهم الأمن منذ لحظة موتهم، يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا من الدنيا، لأن ما أعد الله لهم في آخرتهم أعظم وأجل من كل ما في الدنيا من متاع وزينة ومُحَاب نفوس.

٢٦٣ - كلام حسن ورد جميل على الفقير السائل للعطاء، وسُتْر لفقره، وتجاوز عنه إذا أغلظ وجفا، أو أنقل في السؤال، وألحف في المسألة، وعفو عما يفرط منه عند الرد وعدم الإعطاء، خير وأفضل من الصدقة التي تدفعها إلى الفقير تمن عليه بها أو تُعيِّره بقول أو تؤذيه بفعل، والله مُستغن عن صدقة العباد وطاعاتهم، حليم لا يُعجل بالعقوبة على من يمتن على عباده، ويؤذي بصدقته.

٢٦٤ - يا أيها الذين صدقوا بالله واليوم الآخر، لا تُبطلوا أجور صدقاتكم بالمَنْ والأذى على السائل والفقير، فلا تعدوا إحسانكم على مَنْ أحسنتم إليه، ولا يصدر عنكم ما يؤلم من يأخذ، كأن يقول له: ألا تعمل؟ أو يتجهَّم في وجهه عند العطاء، فهذا شبيهة بالمنافق الذي يُنفق ماله مُراةً للناس وسمعةً ليرَوْا نفقته، وليقولوا: إنه سخي كريم، فوضف هذا المرائي بصدقته وسائر أعماله كوضف زارع على حَجَر أمْلَس صلب، فوق ذلك الحجر الأمْلَس تراب، يُرجى أن يكون مُنتجاً مُنبِتاً للزرع، فأصابه مطر شديد عظيم القَطَر - وهو مُثل رحمة الله وجوده الشامل للبادلين - فترك المطر ذلك الحجر أجرد أمْلَس لا شيء عليه من ذلك التراب. وكذلك قلب المرائي ونفسه ليس فيها قابلية لامتناس رحمة الله وثوابه، وليس فيها لين من رحمة، ولا رقة من إيمان، فينجرف عنها غيث رحمة الله، كما ينجرف المطر عن الصخرة الملساء القاسية، وكذلك حال المرائين يوم القيامة تبطل أعمالهم وتضمحل؛ لأنَّها لم تكن لله، كما أذهب المطر الغزير ما على الحجر الأمْلَس من التراب، لا يجدون ثواب شيء مما عملوا في الدنيا، ولا ينتفعون بشيء من طاعاتهم وعبادتهم، وقد كان من شأن إنفاقهم - لو كان ابتغاء وجه الله - أن يكون كسباً للثواب، بمقتضى ما وعد الله به عباده المخلصين، وهؤلاء المراؤون الذين يُتبعون ما أنفقوا متاً وأذى، ليس عندهم قدرة على شيء من المال الذي كسبوه، إنَّما القدرة من الله سبحانه، فهو بقدرته مكَّتهم منه، وسلَّطهم عليه، والله لا يحكم بهداية القوم الذين اختاروا لأنفسهم الكفر بإراداتهم الحرَّة، وأصروا على الكفر والجحود. وهذا النداء الإلهي هو النداء الثامن للمؤمنين في هذه السورة. وقد شدَّد سبحانه في النهي عن المَنْ والأذى، وكرَّره في ثلاث آيات متواليات، لأنَّ المَنْ والأذى ينشأ عن استطالة الغني بفضل غناه، والمباهاة بثروته وقدرته، ممَّا يشعر الفقير بصغاره بسبب الفقر، وتألَّمه من مرارته باعتزاز الغني عليه، وإشعاره بذل الحاجة، وإن ذلك يدفع إلى تمرد النفوس، وتفكيك الروابط، وذهاب الوحدة الجامعة التي تجمع بين المؤمنين.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ تَمُوتَ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيْطَمِينَ قُلِّي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾
مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِهِمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءً لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَكَفَّلْهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

الجنة الثالثة

سورة البقرة

٢٦٥ - وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ طَلَبَ رِضَا اللَّهِ الدائم المستمر، وتصديقاً راسخاً بوعد الله وثوابه، وتوطئاً لأنفسهم على حفظ هذه الطاعة وترك ما يفسدها من الرياء والمن والأذى، كمثال بستان كثير الأشجار في أرض جيدة طيبة مرتفعة، لا تغمرها السيول فتفسدها، أصابها مطر كثير شديد، فأعطت بتوافر الأسباب التي خلقها الله سبحانه فيها، إنتاجاً مضاعفاً عما كانت تُعطي في كل موسم، فإن لم يكن أصابها مطر غزير فمطر خفيف لين، يكفيها لمضاعفة إنتاجها، وكما أن هذه الجنة تُضاعف ثمرها وتزكو في كل حال سواء كان المطر قليلاً أو كثيراً، فكذلك يُضاعف الله صدقة المؤمن المخلص سواء قلَّت نفقته أو كثُرت، والله تعالى بصير بظاهر عملكم وباطنه، وبمقاصدكم منه، يُعامل كل باذل على قدر عمله وإخلاصه، فمن الباذلين من يستحق قبضاً من رحمة الله ومضاعفة الأجر يُماثله الوايل من المطر، ومن الباذلين من يستحق عطاء يماثله الطل من المطر.

٢٦٦ - أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ بستانٌ كثير الأشجار، تغطي الأشجار الأرض وتسترها، فيه أفضل أنواع الفاكهة وأكثرها نفعاً وغذاءً، من نخيل وأعناب، تجري من تحت أشجاره الأنهار، فتملأها بالخصب، كما تسر الناظرين، وله فيه من كل أنواع الثمرات غير النخيل والعنب، وأصاب صاحب البستان كبر الشيخوخة، ولم يكن له كسب غيره، وهو في غاية الاحتياج إليه، وله أولاد صغار ضعاف يريد أن يكونوا من بعده أغنياء بما يورثهم من هذه الجنة ذات الشجر الكثير، والثمر الوفير، حتى إذا كان وضعه كذلك أصاب ذلك البستان ريح عاصفة ترتفع من الأرض إلى السماء وتستدير على نفسها، في الريح العاصفة نارٌ محرقة فاحترقت الجنة بنار الإعصار الذي أصابها؟ كذلك حال من أتى يوم القيامة بأعمال حسنة ولم يقصد بها وجه الله تعالى، فَيُبْطِلُهَا اللَّهُ تعالى وهو في غاية الحاجة إليها. كما بين الله لكم أمر النفقة المقبولة وغير المقبولة، كذلك يبين الله لكم من الآيات سوى ذلك؛ لتقيسوا عليها قياساً مُستنداً إلى أعمال الفكر بتكرار وروية وعمق؛ لاستنباط أحكام المُستجدات وما لا تجدون له نصاً صريحاً.

وفي هذا التشبيه فوائد كثيرة أولها: أن الرياء والاستطالة بعمل الخير، تذهب به بل تُحرقه، كما يحرق الإعصار الحديقة الغناء. وثانيها: أن عمل الخير يربو وينمو ويُنتج، كالحديقة الغناء التي تؤتي أكلها بإذن ربها، فهي في نماء مستمر. وثالثها: الإشارة إلى أن هذه الحياة الدنيا مهما طالَّت فهي متاع قليل، وعلى المؤمن أن ينتفع في كل لحظة بعمل الخير، يحسبُه عند ربِّه، كالرجل الذي يكون في شيخوخة فانية، فعليه أن يتوقع الموت دائماً، وعليه أن يعمل الخير عمل من يخشى الفوت، وقد قُرب منه الموت.

٢٦٧ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ: أنفقوا النفقة الواجبة عليكم من خيار ما كسبتم وجيده، الذي تستطيه النفس وتطلبه، ومما أخرجنا لكم من الأرض من الحب والتمر والمعادن وغيرها، ولا تقصدوا الرديء من أموالكم فتخصوه بأن تنفقوا منه، لا من غيره، والحال أنكم لستم بأخذي ذلك الشيء الخبيث الرديء - لو كنتم أنتم الفقراء - إلا في حالة إغماض أعينكم عن رؤيته كراهية له، فاليد تأخذ للحاجة، والعين تغمض للكراهية، فكيف ترضون لغيركم ما لا ترضونه لأنفسكم؟ أما إذا كان مُختلطاً ضمن الطيب الجيد، فلا مانع من الإنفاق منه، لأن الأشياء غالباً ما يختلط فيها الجيد والرديء، ولأن الخبيث لم يقصد بالذات. واعلموا أن الله غني عن صدقاتكم، كثير الحمد والثناء للذين ينفقون من طيب أموالهم، محمودٌ على عظيم صفاته، وجليل نعمه. وهذا النداء الإلهي هو النداء التاسع للمؤمنين في هذه السورة.

٢٦٨ - الشيطان ينهاكم عن الإنفاق في سبيل الله؛ إذ يُخَوِّفُكم بالفقر، ويُحَسِّنُ لكم البخل ومنع الزكاة والصدقة، ويأمركم بالفحشاء ولو اقتضت منكم إسرافاً في البذل وتبذيراً، والله ينهاكم عن الفحشاء وعن التبذير، ويأمركم بالبذل في سبيله في وجه الخير، ويعيدكم - إذا عصيتم واستغفرتهم - مغفرةً لذنوبكم وسراً لكم في الآخرة، وإذا أنفقتم في سبيله أن يعطيكم ويُخلف عليكم، ويزيدكم فضلاً منه، والله غنيٌ قادرٌ على إغناكم، عليمٌ بما تنفقونه، لا تخفى عليه خافية.

٢٦٩ - يُؤْتِي الله العلم وإصابة الحق في القول والعمل، ووضع الأشياء في مواضعها من يشاء من عباده، ومن يؤتيه الله ذلك فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يُعْظُ بما وعظه الله إلا أصحاب العقول العميقة المتدبرة الواعية الذين عَقَلُوا عن الله أمره ونهيه. والله سبحانه يرشدكم إلى الحكمة في أمر الإنفاق، وذلك بأن تنفقوا كلُّما كان الإنفاق يَجْلِبُ لكم ثمرات طيبات، وبأن تُمسكوا عن الإنفاق، كلُّما كان الإنفاق إسرافاً وتبذيراً، وجالباً لكم شراً وإثماً، بخلاف دعوة الشيطان فهي دعوة إلى ركوب الحماقة، إذ يأمر بوضع الأشياء في غير موضعها، فيدعو إلى التبذير فيما يجب الإمساك فيه، وإلى الإمساك فيما يجب البذل فيه.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتُبَيِّنَاتٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَقَاتَتْ أَكْثُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفُهُ
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُخَمَّصُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

٢٧٠ - وما أعطيتم من عطاء عاجل، كثير أو قليل في باب من أبواب البر، وأدبتموه ابتغاء مرضاة الله، أو أوجبتموه على أنفسكم في طاعة الله، وعاهدتم الله على الوفاء به من مال أو غيره، فإن الله يعلم ما أنفقتم أقصد به ابتغاء مرضاة الله، أم قصد به رياء الناس، أو كان من الطيب الذي يقبله الله، أم من الخبيث؟ ويعلم سبحانه أوفى الناذر بنذره أم نكث عهده، وأبطل ما أوجب على نفسه؟ وما للظالمين الذين يمنعون الصدقات، أو يضعونها في غير موضعها من أعوان ينصرونهم ويدفعون عنهم عذاب الله.

٢٧١ - إن تظهروا الصدقات، وتعطوها الفقراء في العلن، فنجمت الخصلة هي، وإن تسروا الصدقة، وتعطوها الفقراء في السر فهو أفضل لكم؛ لأنه أبعد عن الرياء، وأكثر دلالة على الإخلاص، ولأن في إخفاء الصدقة سرّاً لحال أخذي الصدقة الذين يؤلمهم جداً أن يعلم الناس بفقرهم وحاجتهم إلى أخذ الصدقات، وأنتم مدعون لضرورة التحري عن الفقراء حقيقة؛ لئلا يأخذها الأغنياء من مستوري الحال، وهم يزعمون سرّاً أنهم فقراء، وكل من بذل الصدقة بصفة علنية وبصفة سرية مقبول عند الله إذا كانت النية صادقة، ويستر ويغطي سيئاتكم، والله بما تعملون من إظهار الصدقات وإخفائها عليم علماً كاملاً شاملاً، لكل ظواهر الأشياء، وبواطنها، علم حضور وشهود.

٢٧٢ - ليس عليك - يا رسول الله - دأ إلى الله من أمته - هداية كل المسلمين هداية عملية، وتحويلهم إلى متخلقين جميعاً بخلق حب العطاء، منفقين في سبيل الله، ومسؤوليتك مسؤولية تبليغ وإرشاد وتربية، وهم المسؤولون عن سلوك سبيل الهداية بإراداتهم الحرة، أما القدرة على التحويل الفعلي إلى الهداية فهي من صفات الله عز وجل، الذي بيده الخلق والأمر، وهذا لم يختره الله لنفسه

بعد أن اختار للمكلفين من عباده أن يمتحن إراداتهم الحرة. وما تنفقوا من مال قل أو كثر فلا أنفسكم فائدته وثمراته، ولكن هذا إنما يكون لكم في حال كون إنفاقكم طلباً لمرضاة الله، وما تنفقوا من مال يوقر لكم جزاؤه مضاعفاً، وأنتم لا تثقون شيئاً من ثواب أعمالكم.

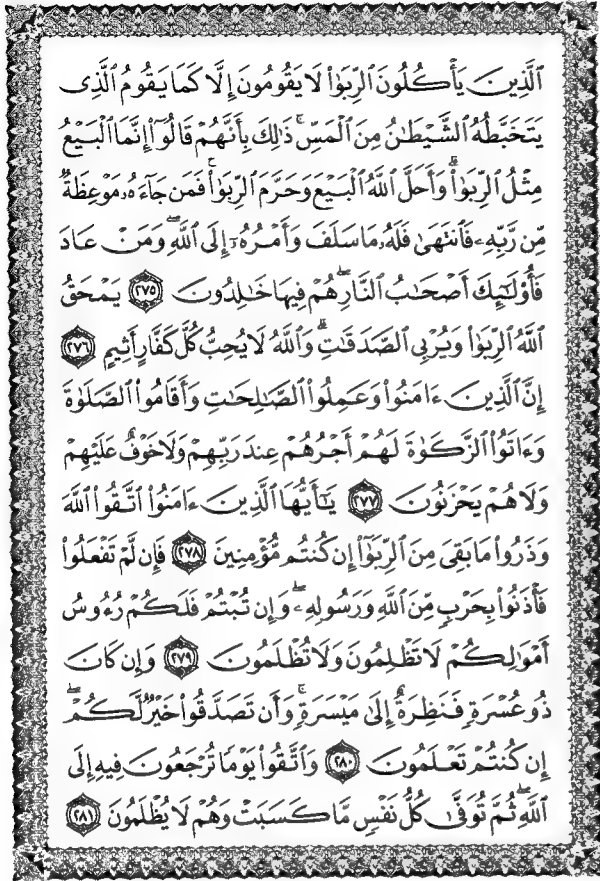
٢٧٣ - اجعلوا ما تنفقون للفقراء الذين اتصفوا بهذه الأوصاف الخمسة: الوصف الأول: حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله، والتفرغ لطلب العلم الواجب. الوصف الثاني: لا يستطيعون سيراً في البلاد وتقلباً فيها، ولا يتفرغون للتجارة وطلب المعاش والكسب؛ لاشتغالهم بالجهاد والدعوة إلى الله وطلب العلم. الوصف الثالث: يظنهم من لم يعرف حالهم أغنياء؛ لإظهارهم التجميل، وتركهم المسألة. الوصف الرابع: تعرفهم بأثر الجهد من الحاجة والفقر. الوصف الخامس: ليس يصدر منهم سؤال حتى يقع فيه إلحاح، فهم لا يسألون الناس ألبتة، وإن سألوا اضطراراً لم يلحوا في السؤال، وطلب الصدقة من الناس، فعلى المسلمين أن يبحثوا عن أحوال الفقراء المتعطفين من العلامات التي تظهر عليهم، في الطعام، والملبس، والسكن، وحالة الجسم، وموارد الرزق، وغير ذلك من علامات، فيمدوهم بحقوقهم التي فرضها الله في أموال الأغنياء، والله تعالى يعلم مقادير إنفاقكم، ويجازيكم عليها أفضل الجزاء يوم القيامة.

٢٧٤ - الذين ينفقون أموالهم مرضاة لله، في جميع الأوقات والأحوال ليلاً أو نهاراً، خفية أو جهاراً، ويعمّن بها أصحاب الحاجات والفاقات، فلهم جزاء أعمالهم عند ربهم، ولا خوف مسلط عليهم تضطرب به نفوسهم وقلوبهم بسبب ترقب حدوث مكروه، أو توقع فوات محبوب؛ ولا هم يحزنون بسبب مكروه نزل فعلاً بهم، أو من أجل فوات محبوب فاتهم الحصول عليه، وهذا يكون لهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فلأن إيمانهم يجعلهم راضين عن الله تمام الرضا بكل مقاديره، مطمئنين لحكمته، واثقين بثوابه، وأما في الآخرة، فإنهم لا يخافون من عقاب الله؛ لأن رحمة الله ستشملهم بالعتو والغفران، ولا يحزنون من أجل محبوب فاتهم في الدنيا، لأنهم سينالون من النعيم فوق ما يتمنون، وسيعطون من كل ما يطلبون ويشتهون.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا لَاصِدَقْتُمْ فَنِعْمَ أَهْلُ الْخَفَاءِ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُوْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُوءُهُمْ وَلَا مَنَاسِكُ اللَّهِ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا لِابْتِغَاءِ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِيتِلِ وَالْهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

الْحِجَةُ الثَّالِثَةُ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ



٢٧٥ - الذين يتعاملون بالربا أخذاً وإعطاء، فلا يُقْلَعُونَ عنه، ولا يتوبون إلى بارئهم منه، وَيَرَوْنَ مع ذلك أَنَّهُمْ لَا يفعلون شيئاً منكراً، ويرفضون حكم الله في تحريمه، حالهم وهم يأكلون الربا - إذ يسلب الإثراء بغير حق عاطفتهم الإنسانية، ويجعل أفكارهم ونفوسهم مُضطربة دائماً التطلع لمضاعفة رؤوس أموالهم من جهد الآخرين، واستغلال ضرورتهم - كالمجنون ذي الحركات المضطربة، يمشي ويتعثر، ويصطدم بالأشياء، وتأتيه الخبطات من كل جانب، وهو لا يرى الشخص المسؤول عن الضربات التي تنهال عليه من كل جهة، فكأنما يتخبطه شيطان خبيث عديم الرحمة، خفي لا تراه أعين الناس؛ ذلك الذي نزل بهم من العذاب لرفضهم حكم الله في تحريم الربا، واعتراضهم عليه بقولهم: إنما البيع مثل الربا، فكما أن البيع يؤدي إلى الربح وهو حلال، فكذلك الربا يؤدي إلى الربح وهو حلال في نظرهم أيضاً، مع أن الحقيقة تثبت أن البيع ليس مثل الربا، فالربا ظلم واستغلال بغير حق، ووسيلة لمنع التعاطف والتعاون الاجتماعي عن طريق القرض الحسن، وهو كذلك ربح لا يقابله جهد ولا ضمان خسارة، وربح البيع يقابله ضمان الخسارة المحتملة، فكيف يكون البيع مثل الربا؟! وأحل الله لكم الأرباح في التجارة بالبيع والشراء، لما فيها من نفع للأفراد والجماعات، وحرم الربا الذي هو زيادة في المال لأجل تأخير الأجل، لما فيه من استغلال وضيق وهلاك. فمن جاءه نصيح مقرون بما يُثير الرغبة والرهبة من ربه، فانتهى عن أكل الربا، فلا يؤاخذ على ما مضى من ذنبه قبل نزول التحريم، وأمره إلى الله، فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته فالله لا يضعه أجره، ومن عاد إلى أكل الربا بعد التحريم مُستحلاً له، فأولئك البعداء عن رحمة الله أصحاب النار الملامون لها، المخالطون لأنوار عذابها، هم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

٢٧٦ - يُنْقِصُ اللَّهُ الربا ويُهْلِكُهُ ويذهب بركته، ويزيد الصدقات ويُبارك فيها في الدنيا، ويُضاعف أجرها في الآخرة، والله لا يحب كل مُصِرٍّ على كفره مقيم عليه، مُستحِلٍّ لأكل الربا، مُتمادٍ في الإثم، ومن جعل نفسه بإرادته الحرة في زمرة الذين لا يحبهم الله، فقد جعلها غرضة لنقمته وعذابه الشديد.

٢٧٧ - إن الذين صدّقوا تصديقاً إرادياً قليلاً بكل ما أوجب الله عليهم أن يؤمنوا به من الأركان الإيمانية الستة، وعبروا بسلوهم الإرادي في أعمال ظاهرة وباطنة عن صحة إيمانهم وصدقهم فيه، وأقاموا الصلاة المفروضة بأركانها وحدودها في أوقاتها، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم في أموالهم طيبة بها نفوسهم، ابتغاء مرضاة الله، لهم ثواب أعمالهم، ولا خوف مُسلط عليهم يوم القيامة؛ لأن رحمة الله ستشملهم بالعتق والغفران، ولا هم يحزنون على شيء فاتهم؛ لأنهم سينالون من النعيم فوق ما يتمنون، وسيعطون من كل ما يطلبون ويشتهون.

٢٧٨ - يا أيها الذين صدّقوا بالله واليوم الآخر، وأتبعوا رسوله: خافوا الله فيما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم عنه، واتركوا طلب ما بقي لكم ممّا فضل على رؤوس أموالكم التي كانت لكم قبل تحريم الربا، إن كنتم مُحققين لإيمانكم قولاً وفعلاً. وهذا النداء الإلهي هو النداء العاشر للمؤمنين في هذه السورة.

٢٧٩ - فإن لم تتركوا ما بقي من الربا بعد تحريمه، وتناقداو لحكم الله، وتستجيبوا لأمره، فاعلموا وأيقنوا بحرب عظيمة مُستمرة من الله ورسوله، في أموالكم، وأجسامكم، وقلوبكم، وعقولكم، وفي مجتمعاتكم، لا تعلمون وقتها، ولا كيفيتها، ولا وسائلها، حتى تستسلموا لأحكام الله، وتتوبوا إليه، وإن تركتم أكل الربا ورجعتم عنه، فلکم الحق بمطالبة المُستقرضين برؤوس أموالكم التي دفعتموها لهم، لا تظلمون أنتم الغريم بطلب زيادة على رأس المال، ولا تظلمون أنتم بنقصان رأس المال.

٢٨٠ - وإن كان المدين الذي عليه الحق من غرامتكم مُعسراً ليس عنده ما يفي به دينه، فعليكم تأخيرهِ وإمهاله إلى زمن اليسار، أو مسامحته والتجاوز عنه، وإن تركوا رأس المال كله، وتصدّقوا على المُعسر بالتجاوز والمسامحة بما عليه من الدين، خير لكم إن كنتم تعلمون أن التصدق أكثر ثواباً لكم من الإنظار والإمهال؛ لأن فيه الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في الآخرة.

٢٨١ - وخافوا - أيها الناس - يوماً تُردّون فيه إلى حساب الله، وَفَضَّلَ قضاؤه، بعد انتهاء زمن ابتلائكم في الحياة الدنيا، ثم تُعطى كل نفس جزاء ما كسبت من خير أو شر وافيّاً، وهم لا ينقصون شيئاً من ثواب ما عملوا، ولا يعاقبون على ما لم يعملوا. وهذه الآية هي آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ.

٢٨٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِذَا دَايَنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا إِلَى مُدَّةٍ مُسَمَّاةٍ مَعْلُومَةٍ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ مِثْلَ السَّنَةِ وَالشَّهْرِ، فَاتَّكَبُوا الدِّينَ الَّذِي تَدَايَنْتُمْ بِهِ بَيْعًا كَانَ ذَلِكَ أَوْ سَلَمًا أَوْ قَرْضًا؛ حِفْظًا لِلْحَقِّ، وَمَنْعًا لِلْجَهَالَةِ، وَدَفْعًا لِلنِّزَاعِ. وَلِيَكْتَبَ الدِّينَ بَيْنَ الدَّائِنِ وَالْمَدِينِ شَخْصٌ مَاهِرٌ فِي الْكِتَابَةِ، يَكُونُ عَلَى عِلْمِ بَشَرُوطِ الْعُقُودِ وَتَوْثِيقِهَا، وَتَكُونُ كِتَابَتُهُ بِالْعَدْلِ، فَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ فِي الدِّينِ الَّذِي يَكْتُبُهُ، وَلَا يُقَيِّدُ أَحَدَ الْعَاقِدَيْنِ بِشَرُوطٍ شَدِيدَةٍ، وَيُحِلُّ الْآخَرَ مِنْ كُلِّ الْقَيُودِ وَالشَّرُوطِ. فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ الْكَاتِبُ عَارِفًا بِالْعَدْلِ، مَعْرُوفًا بِالْعَدْلِ، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَارِفًا بِالْعَدْلِ لَمْ يَتِمَّكُنْ مِنْهُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مُعْتَبَرًا عَدْلًا عِنْدَ النَّاسِ رَضِيًّا، لَمْ تَكُنْ كِتَابَتُهُ مُعْتَبَرَةً، وَلَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ، وَهُوَ حِفْظُ الْحَقِّ. وَلَا يَمْتَنِعُ كَاتِبُ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ الْكِتَابَةَ وَيُسَرِّهَا لَهُ، وَجَعَلَهُ أَهْلُ خَبْرَةٍ، فَمِنْ تَمَامِ شُكْرِهِ لِنِعْمَةِ اللَّهِ أَنْ يَقُومَ بِالْكِتَابَةِ لغيره كَمَا شَرَعَ اللَّهُ وَأَمَرَ بِهِ، وَلِيُقَيِّرَ الْمَدِينُ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ عَلَى نَفْسِهِ بِلِسَانِهِ لِيَعْلَمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، فَيَذْكُرَ قَدْرَهُ وَجَنَسَهُ وَصِفَةَ الْأَجْلِ، وَلِيَتَّقِيَ الْمُتَمَلِّيَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ، الَّذِي هُوَ خَالِقُهُ وَمَالِكُهُ وَمَرْبِيهِ، وَلَا يَنْقُصُ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي وَجَبَ عَلَيْهِ شَيْئًا فِي الْإِمْلَاءِ عَلَى الْكَاتِبِ، فَلَا يَنْقُصُهُ فِي قَدْرِهِ، وَلَا فِي وَصْفِهِ، وَلَا فِي شَرْطٍ مِنْ شُرُوطِهِ، أَوْ قَيِّدٍ مِنْ قَيُودِهِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَرِفَ بِكُلِّ مَا عَلَيْهِ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ الْحَقِّ، كَمَا يَجِبُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ الْحَقُّ عَلَى غَيْرِهِ لَهُ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنَ الْمُطْغَفِّينَ الْبَاخْسِينَ. فَإِنْ كَانَ الْمَدِينُ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ جَاهِلًا بِالْإِمْلَاءِ وَالْعُقُودِ وَالتَّصَرُّفَاتِ، أَوْ مُتَبَدِّرًا مِثْلًا لَا يُحَسِّنُ إِدَارَةَ أَمْوَالِهِ، أَوْ كَانَ ضَعِيفًا لَصَغَرٍ أَوْ شَيْخُوخَةً أَوْ مَرِيضًا، أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِمْلَاءَ لَخَرَسٍ أَوْ عِيِّ أَوْ حَبْسٍ أَوْ غِيْبَةٍ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَقُومَ غَيْرُهُمْ بِمَقَامِهِمْ، فَلْيَتَوَلَّ وَلِيُّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ الْمَحْجُورِ عَلَيْهِمُ الْإِمْلَاءُ بِالْعَدْلِ، فَلَا يَبْخَسُ صَاحِبُ الْحَقِّ وَلَا يُنْقِصُهُ، وَلَا يُمَالِئُهُ، وَلَا يَذْكُرُ شَرْطًا أَوْ التَّزَامًا يَخَالِفُ الشَّرْعَ. وَأَشْهَدُوا عَلَى حَقِّقَتِكُمْ شَاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَحْرَارِ، وَيَشْتَرِطُ فِي كُلِّ شَاهِدٍ أَنْ تَتَوَافَرَ فِيهِ الْعَدَالَةُ وَالضَّبْطُ، وَانْتِفَاءُ الثُّمَّةِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الشَّاهِدَانِ رَجُلَيْنِ، فَلْيَشْهَدْ رَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ كَانَ مَرْضِيًّا عِنْدَكُمْ فِي دِينِهِ وَأَمَانَتِهِ؛ مَخَافَةً أَنْ تَنْسَى إِحْدَى الْمَرَاتِينِ الشَّهَادَةَ، فَتَذْكُرَ كُلَّ وَاحِدَةٍ تَضِلُّ الْأُخْرَى، فَهَمَا يَتَبَادَلَانِ الْخَطَأَ، وَيَتَبَادَلَانِ التَّذْكَيرَ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ لِقُوَّةِ عَاطِفَتِهَا، وَشِدَّةِ انْفِعَالِهَا، قَدْ تَوَهَّجَتْ بِهَمٍّ، وَوَثِقَ النَّاسُ بِهِمْ، وَاطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهِمْ عَنِ الْإِجَابَةِ إِذَا مَا دُعُوا لِأَدَاءِ الشَّهَادَةِ الَّتِي تَحْمِلُوهَا، سَوَاءٌ كَانَتْ الدَّعْوَةُ لِلْحَضُورِ وَتَحْمِلُ الشَّهَادَةَ، كَالشَّهَادَةِ فِي تَوْثِيقِ الدِّينِ بِالْكِتَابَةِ، أَمْ كَانَتْ الدَّعْوَةُ لِأَدَاءِ الشَّهَادَةِ عِنْدَ الْإِنْكَارِ فِي مَجَالِسِ الْقَضَاءِ. وَلَا تَمْلُؤُوا وَلَا تَضْجُرُوا أَنْ تَكْتُبُوا الْحَقَّ أَوْ الدِّينَ قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا، إِلَى وَقْتِهِ الْمَعْلُومِ؛ فَلَا يَذْهَبُ بِكُمْ احْتِقَارُ الدِّينِ الصَّغِيرِ إِلَى إِهْمَالِهِ وَعَدَمِ كِتَابَتِهِ؛ لِأَنَّ الصَّغَرَ وَالْكَبَرَ لَا حُدُودَ لَهُمَا، فَقَدْ يَكُونُ صَغِيرًا فِي نَظَرِ غَنِيِّ مَلِيٍّ، وَيَكُونُ كَبِيرًا خَطِيرًا عِنْدَ غَيْرِهِ، وَلَئِنْ إِهْمَالَ الصَّغِيرِ يُوْذِي إِلَى جُحُودِهِ، وَعِنْدَئِذٍ تَذْهَبُ الثَّقَةُ، وَيَسُودُ التَّنَاحُرُ وَالتَّنَازُعُ؛ وَلَئِنْ التَّهَوَّنُ فِي الصَّغِيرِ قَدْ يُوْذِي إِلَى التَّهَوَّنِ فِي الْكَبِيرِ. ذَلِكَ الْكِتَابَةُ لِلْأُمُورِ الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِعُقُودِ الْمُدَايِنَاتِ وَنَحْوِهَا، أَكْثَرُ التَّزَامِ بِالْقِسْطِ، وَأَعْدَلُ فِي شَرْعِ اللَّهِ وَأَحْفَظُ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ جَمِيعِ التَّفْصِيلَاتِ يُحَدِّدُ الْحَقِيقَةَ تَمَامًا، وَيُبْعِدُ عَنِ الْخِلَافِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَاثْبَتَ لِلشَّهَادَةِ، وَأَكْثَرُ تَقْوِيمًا وَتَعْدِيلًا لِشَّهَادَةِ الشُّهُودِ عِنْدَ التَّحْمُلِ، وَأَعْظَمُ عَوْنًا عَلَى تَذْكَرِ الشُّهُودِ عِنْدَ دَعْوَتِهِمْ لِأَدَاءِ الشَّهَادَةِ إِذَا دَعَتْ الْحَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَحْرَى وَأَقْرَبُ أَنْ لَا تَشْكُوا فِي الشَّهَادَةِ؛ لِأَنَّ كِتَابَةَ كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ فِي الْعُقُودِ وَالصُّكُوكِ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَصْرِفَ عَنْكُمْ الشُّكُوكَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ كَثِيرَ النِّسْيَانِ، فَإِذَا لَمْ يُسْجَلِ الْحَقُّ، وَيَكْتُبَ التَّفْصِيلَاتِ، دَخَلَ الشُّكُ إِلَى قَلْبِهِ، إِلَّا أَنْ تَقَعَ تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ، يَجْرِي فِيهَا التَّقَابُضُ فِي الْمَجْلِسِ يَدًا بِيَدٍ، فَلَا ضَرَرَ عَلَيْكُمْ وَلَا إِثْمَ إِلَّا تَكْتُبُوا التِّجَارَةَ الْحَاضِرَةَ، وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ فِيهَا جَرَّتِ الْعَادَةُ بِالْإِشْهَادِ فِيهِ، مَنَعًا لِلنِّزَاعِ وَالشَّقَاقِ. وَلَا يُلْحَقُ الْكَاتِبُ وَالشَّاهِدُ الضَّرَرَ بِأَحَدٍ الْمُتَعَامِلِينَ، بِأَنْ يَبْخَسَ الْكَاتِبُ أَحَدَهُمَا، أَوْ يَشْهَدَ الشَّاهِدُ بِغَيْرِ الْحَقِّ، كَمَا لَا يَنْبَغِي الْإِضْرَارَ بِالْكَاتِبِ أَوْ الشَّاهِدِ لِحَمْلِهِمَا عَلَى كِتَابَةِ غَيْرِ الْحَقِّ أَوْ قَوْلِ غَيْرِ الْحَقِّ، لِأَنَّهُمَا أَمِينَانِ، وَإِضْرَارُ الْأَمْنَاءِ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْخِيَانَةِ، وَفِي ذَلِكَ ضِيَاعٌ لِلْأَمَانَةِ، وَذَهَابٌ لِلثَّقَةِ، وَإِنْ تَفَعَّلُوا مَا تُهَيِّمُ عَنْهُ مِنَ الضَّرَرِ، فَإِنَّهُ مَعْصِيَةٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْأَمْرِ مِنْ مَسْتَوَى ظُلْمِ عِبَادِ اللَّهِ فِي حَقِّقَتِهِمْ، وَخَافُوا اللَّهَ وَاحْذَرُوهُ فِي مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ مَا يَكُونُ إِرْشَادًا لَكُمْ فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا، وَاللَّهُ تَعَالَى عَلِيمٌ بِجَمِيعِ مَصَالِحِ عِبَادِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ. وَهَذَا النِّدَاءُ الْإِلَهِيُّ لِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ النِّدَاءُ الْحَادِي عَشَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَهُوَ آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ النِّدَاءَاتِ الْإِلَهِيَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَنِدَائَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بَلَّغَتْ (٨٩) نِدَاءً، وَجَمِيعُهَا مَدْنِيَّةٌ، وَأَوَّلُهَا مَا جَاءَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فِي الْآيَةِ (١٠٤)، وَآخِرُهَا هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي نَزَلَتْ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ
كَاتِبُ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يُمْلِئَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْأَلُكُمْ أَشْهَادَيْنِ
مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ
مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
أَنْ تَكْتُمُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْقَى الْأَلْتِرَاتِبُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُمُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوفَ يَكُفُّ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ

الحِجَّةُ الثَّالِثَةُ

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِيَ مِنْهُ مَآثِرَهُ وَلْيَتَّقِ
اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ
عِندَ اللَّهِ قَلْبُهُ مُخْلَبٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ
يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكَلِيمِهِ
وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ
اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ خَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا أَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا
تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا
أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

٢٨٣ - وإن كنتم مسافرين وتعاملتم بالدين ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم فارتهنوا ممن تدبئونه رهوناً مقبوضة؛ بأن يدفع لكم المدين شيئاً يكون عندهم، ضماناً لحقكم إلى أن يزدد المدين ما عليه من دين، فإن كان الذي عليه الحق أميناً عند صاحب الحق ولم يرتهن منه شيئاً لحسن ظنه، فليؤد المدين الذي عليه الحق حقه الذي ائتمنه عليه الدائن ولم يرتهن منه عليه شيئاً، وليتق المدين الله سبحانه في أداء الحق عند حلول الأجل من غير مُماطلة ولا جحود. ولا تكتُموا الشهادة - أيها الشهود - إذا دُعيتُم إلى إقامتها وأدائها، بأن تمتنعوا عن الذهاب إلى مجلس القضاء، أو لا تقولوا ما عاينتم، أو تقولوا بعض ما علمتم، ومن يكتُم الشهادة فإنه صاحب قلب آثم فاجر؛ لأنه يعلم حقيقة يجب أن يشهد بها، ثم يكتُمها، والله بما تعملون عليم من بيان الشهادة وكتُمناها، محيط علمه بكل ما تعملون، وسيحاسبكم على ذلك.

٢٨٤ - لله عز وجل ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتديباً، وأهلها له عبيد، وهو مالكهم، وإن تظاهروا ما استقر في أنفسكم أو تخفوه من حديث النفس والخواطر الفاسدة التي ترد على القلب يجازكم به الله، فيغفر لمن يشاء الذنب العظيم بفضله ورحمته، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ بعدله، ومشيئته سبحانه لا تفارق حكمته، والله تعالى على كل شيء يشاؤه من الممكنات العقلية، عظيم القدرة، لا يعجزه شيء أراد، إنما أمره إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

ومقتضى الآية المحاسبة على حديث النفس والخواطر المخفية، وقد تفضل الله على عباده المؤمنين بعد ذلك، فعفا عن حديث النفس والخواطر الفاسدة التي ترد على القلب؛ إذ ليس في الوسع الخلو عنها. أما العزم على المعصية والتصميم عليها فمُؤَاخَذٌ عليه.

٢٨٥ - صدق الرسول محمد ﷺ أن هذا القرآن وجملة ما فيه من الشرائع والأحكام مُنْزَلٌ من عند الله عز وجل، وصدق المؤمنون بذلك أيضاً، كل واحد من المؤمنين صدق تصديقاً جازماً بهذه الأركان الإيمانية الخمسة: الأول: الإيمان بالله تعالى، وأنه واحد لا

شريك له، وأنه سبحانه متصف بكل كمال، مُنْزَهٌ عن كل نقص، وأنه هو المُسْتَحَقُّ لأن نعبد ونطيعه، والثاني: الإيمان بالملائكة الكرام، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والثالث: الإيمان بالكتب المنزلة على رسله، المشتملة على هداية العباد، وبيان ما فيه صلاحهم في دنياهم وآخرتهم، والتي ذكر سبحانه منها: صحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن الكريم، والرابع: الإيمان بالرسول الذين اصطفاهم الله من البشر، واختصهم بالوحي، وأمرهم بتبليغه، من لدن آدم إلى خاتمهم محمد عليهم الصلاة والسلام، وقال المؤمنون: لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ فِي إِبْتِاثِ النُّبُوَّةِ، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميع رسله، وقال المؤمنون: سمعنا قول ربنا فيما أمرنا به، وأطعناه فيما ألزمنا من فرائضه، نسألك أن تستر - بفضلك ذنوبنا، فأنت خالقنا وربنا وممّئنا بالنعم، وإلى حكمك وحكمك، وفصل قضائك، وتنفيذ جزائك، وإلى المكان الذي تقضي فيه، مرجع جميع الخلائق في الآخرة. والإيمان باليوم الآخر هو الركن الإيماني الخامس الذي يُصَدِّقُ به المؤمنون تصديقاً جازماً.

٢٨٦ - لا يُكَلِّفُ الله نفساً توافرت لديها شروط التكليف إلا ما يكون في إمكانها، وحدود استطاعتها، من غير حرج ولا ضيق، بحيث لا تستطيع الأمر إلا بمشقة وجهد، فعلى مقدار الهبة تكون درجة التكليف والمسؤولية، وتتفاوت درجات مسؤوليات المُكَلَّفِينَ بحسب هبات الله لهم؛ لتحقيق كمال العدل الرتاني. للنفس أجر وثواب ما عملت من الخير، وقصّدت من الطاعة، وعليها وزر وعقاب ما اكتسبت بتكليف من الشر؛ إذ أن كسب الخيرات يتمشى مع فطرة الإنسان، ولا يحتاج منه إلى زيادة تعمّل وتكليف ليخرج عن طبعه، كما أن فعل الحسنات ثروة يدخرها الإنسان لآخرته، وأما السيئات والمعاصي والآثام فهي أوزار وأحمال ثقيلة تأتيه بأنواع من العذاب في دنياه وآخره، وإن جلبت له لذة عاجلة.

قولوا: ربنا لا تعاقبنا إن نسينا نسياناً ناشئاً عن حالة من أحوالنا الطبيعية الغالبة لإرادتنا، والتي لا نملك دفعها ولا نستطيعه، وما كان بسبب تهاوننا وإهمالنا وتقصيرنا، أو أخطأنا بإتيان ما نهيتنا عنه بقصد وإرادة، أو جهل وظن. ربنا ولا تحمل علينا عهداً ثقيلًا وميثاقاً غليظًا، لا نستطيع القيام به، فتعذبنا بنقصه وتركه، كما حملته على الأمم من قبلنا، فلم يقوموا به فعذبهم. ربنا ولا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا لَا نَطِيقُ الْقِيَامَ بِهِ؛ لِثِقَلِ حَمْلِهِ عَلَيْنَا، وَتَجَاوُزِ عَنْ ذُنُوبِنَا وَأَمْحُهَا عَنَّا، وَاسْتُرْ عَلَيْنَا خَطَايَانَا وَلَا تَفْضَحْنَا، وَتَغْمِدْنَا بِرَحْمَةٍ تُنْجِينَا بِهَا مِنْ عِقَابِكَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِنَاجٍ مِنْ عِقَابِكَ إِلَّا مَنْ رَحِمْتَهُ، وَنَحْنُ نَرْجُوكَ وَنَدْعُوكَ يَا رَبَّنَا بِهَذِهِ الْأُمُورِ، لَأَنْهَا بِبَيْدِكَ، وَنَحْنُ تَحْتَ سُلْطَانِكَ وَتَدْبِيرِكَ، فَأَنْتَ نَاصِرُنَا وَحَافِظُنَا وَمُتَوَلِّي أُمُورِنَا، فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْجَا حِدِينَ الَّذِينَ جَعَدُوا وَحْدَانِيَّتِكَ، وَعَبَدُوا غَيْرَكَ، وَكَذَّبُوا نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَلَا نَصْرَ لَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ إِلَّا بِتَأْيِيدِكَ وَمَعُونَتِكَ.

١ - ﴿الْعَمَّ﴾، سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

٢ - هو الله الذي لا يستحقُّ العبادة سواه؛ لأنه الواحد الأحد ليس معه إله ولا له ولد؛ الحيُّ الدائم الباقي الذي له الحياة الدائمة التي لا فناء لها. لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعتريه الموت بعد الحياة، القائم بذاته والدائم القيام بتدبير الخلق ومصالحهم فيما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم.

٣، ٤ - نزل عليك القرآن مصحوباً بالحق الثابت ومشتماً عليه، ومُبيناً له، وداعياً إليه، مُصدّقاً لما قبله من الكتب الإلهية في التوحيد والنبؤات والأخبار وبعض الشرائع، وأنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى من قبل نزول القرآن هدىً للناس، وأنزل القرآن الفارق بين الحق والباطل، والمُبين للصادق من الكاذب من الكتب السابقة.

إن الذين كفروا بآيات الله الكونية، والبيانية المنزلّة، والإعجازيّة، والجزائيّة العقابيّة لهم عذابٌ شديد، والله قويٌّ غالبٌ لا يُغلب، ذو عقوبة شديدة ممّن كفر به.

٥ - إن الله علِيمٌ بكلِّ شيء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم القلوب وما تُخفيه، وما تكفه السرائر، فهو سبحانه يعلم البواعث على الكفر، وأنها ليست نقصاً في الدليل، ولكنها مآرب الدنيا، ورغبات الفجور، وآتباع الهوى، والتقليد الأعمى، والعصبية الجنسية والمذهبية، فليس الذين ينكرون ما جاء به محمد مخلصين في إنكارهم، بل هي لجاجة العناد، وجحود المُستيقن.

٦ - والدليل على علم الله المحيط بكلِّ شيء عامة، وعلمه بالإنسان خاصّة أنه سبحانه الذي يُصوّركم في ظلمات الأرحام صوراً مختلفة في الشكل والطبع واللون، ويُنمّيكم ويكوّنكم، بإرادته ومشيتته، لا معبود بحق سواه، القويُّ الغالب الذي لا يُغالب، الحكيم في أمره

وتدبيره.

٧ - هو الله سبحانه المتّصف بتلك الصفات الذي أنزل عليك الكتاب الذي يجب تدوينه بالكتابة، وجعله بين الناس كتاباً محمياً من التحريف والتغيير بالزيادة أو النقص أو التبديل، منه آيات مُبينات مُفصّلات واضحات الدلالة، أحكمت عبارتها من احتمال التأويل والاشتباه، هُنَّ أصل الكتاب الذي يُعوّل عليه في الأحكام، ويُعمل به في الحلال والحرام، وورد إليه ما تشابه من آياته، وأشكل من معانيها، ومنه آيات أخر لفظها يشبه لفظ غيرها، ومعناها يُخالف معناها، ولا يتعيّن المراد منها إلا بضمّها إلى المُحكم. فأما الذين في قلوبهم مُيلٌ عن الاستقامة، وانحرف عن الحق من المبتدعة، فيحيلون المُحكم على المتشابه، والمتشابه على المُحكم؛ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلّوهم، وطلب أن يؤولوا التأويل الذي يشتهونه، والتحريف السقيم الذي يقصدونه. وما يعلم تأويل المتشابه الذي تؤول إليه حقيقة الأشياء إلا الله تعالى ممّا استأثر بعلمه من كميّاتٍ ووقّتٍ وقوع ما أخبر عنه في كتابه من أخبار القيامة وأشراتها أو غيرها من المغيبيات. والثابتون المتمكّنون في العلم يقولون: آمنا بهذا القرآن، مُحكمه ومُتشابهه، وما علمنا منه وما لم نعلم، فنؤمن بالمتشابه ونكبل معرفته إلى الله، ونؤمن بالمُحكم ونعمل بمقتضاه، وما يتذكّر مُستندعياً ما يعرف من أصول يقينية عن الله وصفاته ودلالات المُحكمات من آياته، ليحمل ما تشابه على ما هو مُحكمٌ غير متشابه، إلا أصحاب العقول السليمة الواعية المُدركة.

أما إذا كان التأويل بمعنى التفسير، فإنّ المتشابه يتعلق بأمر يمكن أن يعلمه الناس، وهو المعنى، فإذا خفي على بعضهم شيء من معناه، فهو بالنسبة إليهم متشابه، ويكون من باب المتشابه التّسبي الذي يعلمه قوم دون قوم، بخلاف التأويل بمعنى: ما تؤول إليه حقائق الأشياء التي ذكرها الله في كتابه، ممّا يتعلق بالغيبيات، فهذا النوع هو المتشابه الكلّي، الذي يستوي الناس جميعاً في عدم إدراكه.

٨ - ويقول الراسخون في العلم: ربّنا لا تُؤمل قلوبنا عن الحق والهدى بعد أن وفقتنا لدينك والإيمان بالمُحكم والمتشابه من كتابك، وأعطنا من محض فضلك الواسع توفيقاً وتثبيتاً للذي نحن عليه من الإيمان والهدى، إنك أنت كثير الفضل والعطاء.

٩ - ويقول الراسخون في العلم أيضاً: يا ربّنا إنا نعلم أنّك جامع الناس للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء في يوم القيامة، لا شك فيه أنه كائن؛ إنّ الله لا يترك ولا يهمل تنجيز ما وعدّه به إذا حان الوقت المُحدّد الذي قرّر حصول موعده فيه.



١٠ - إن الذين كفروا برسول الله ﷺ، وجحدوا الحق وأنكروه، لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، إن وقع بهم في الدنيا، ولن تدفعه عنهم في الآخرة، وأولئك البعداء المنحطون إلى جهة الدرك الأسفل من النار، هم حطَبُ جهنم تشتعل بهم يوم القيامة.

١١ - إن عادة هؤلاء الكفار في تكذيب رسول الله ﷺ وجحود الحق واستحقاق العذاب كعادة آل فرعون، والذين سبقوا فرعون من كفار الأمم الماضية، مثل عاد وثمود وغيرهم، كذبوا بآياتنا الكونية والبيانية والإعجازية والجزائية العقابية، فأخذهم الله بسبب تكذيبهم أخذ إهلاك شامل مفرور بعذاب شديد، والله شديد العقاب لمن جحد الحق وأنكره، وكذب رسله.

١٢ - قل - يا رسول الله - لليهود الذين دعوتهم إلى الإسلام، فتمردوا عليك بنقض العهد، وممالة قريش عليك: سئلبون في معارك القتال الدنيوية بيننا وبينكم كما غلب المشركون يوم بدر، وستجمعون في الآخرة وتساقون إلى نار جهنم؛ لتكون فراشاً لكم، ويش ما مهلتموه لأنفسكم في النار.

١٣ - قد كان لكم عبرة ودلالة على صدق ما أقول أنكم سئلبون، في فرقتين التقتا يوم بدر متقاتلتين: فرقة مؤمنة تقاتل لإعلاء كلمة الله وطلب مرضاته، وهم رسول الله وأصحابه، وفرقة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت، وهم مشركو مكة، يزؤون المسلمين مثلهم قرابة ألفين، رؤيا حسنة حقيقية بصرية؛ ليحبسوا، فيكون ذلك سبب خذلانهم، وليؤيد الفئة المؤمنة بنصره، والله يقوي بنصره من يشاء، فاعتبروا؛ إن في مشاهدة هذه الحادثة التي كانت في غزوة بدر، وما كان من نصر الله للمؤمنين، وهم الفئة القليلة عدداً وعدة، على المشركين وهم الفئة الكثيرة عدداً وعدة، عبرة يعتبر ويتعظ بها أصحاب العقول والبصائر.

١٤ - جعل الله تعالى الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وحسن للناس حب الشهوات المختلفة المتباينات من هذه الأصناف الستة: **الصف الأول:** حب النساء، فحبهن فطري في الطبيعة الإنسانية مستكن فيها، **والصف الثاني:** حب البنين؛ لأنهم يزؤون في كثرتهم نصراً وفخاراً، **والصف الثالث:** حب الأموال الكثيرة من الذهب والفضة؛ لأن المال الكثير هو السبيل إلى طلب ملاذ الحياة الدنيا وإشباع الحاجات منها، **والصف الرابع:** حب الخيل الراعية في المروج، المعلمة بعلامة تجعلها حسنة المنظر، ويدخل في الخيل المسؤومة كل ما يقتني للمباهاة والزينة، أو لأغراض القوة على إطلاقها، ومنه السيارات والطائرات، **والصف الخامس:** حب الأنعام من الإبل والبقر والغنم، يتخذ منها مطعماً ومركباً وزينة، ويدخل في الأنعام كل ما يقتني للتجارة والكسب، **والصف السادس:** حب الزرع والغراس، واستثمار الأرض، ويدخل في حب الحرث كل ما يقتني للاعتماد والإيجار، ومنه: المصانع والمعامل، ذلك الذي ذكر من هذه الأصناف الستة التي حُبَّت إلى النفوس هي متاع يستمتع به في الحياة الدنيا، وهي زائلة فانية، مشوبة بالمنغصات، والله عنده حسن رجوع إليه، ومكان حسن، ويوم حسن، تنقلبون وترجعون إليه في الجنة، فهي الأحق بالرغبة فيها لبقائها دون المتع الفانية.

دلَّت هذه الآية على أنَّ حب هذه الشهوات متى كان سبباً في الحرص عليها، والإكثار منها، فهو خطأ وضرر مُحقق، فإذا زُين ذلك للإنسان، كان أشدَّ ضرراً، والغرض من الآية: تجاوز الحد المعقول من شهوات الدنيا، فإن تجاوزها يجعل الدنيا هي الغاية مع أنها وسيلة فقط. وهذه الشهوات في صورتها الطبيعية الملتزمة بحدود الله، هي مُزيئة من عند الله، وفي صورتها الفاحشة، غير الملتزمة بحدود الله، هي مُزيئة من عند الشيطان. والإشارة في الآية إلى هذا المجال الذي يعمل فيه الشيطان، بتزيين هذه الشهوات بقدر زائد عن الحد، وتخذيل الضوابط الفطرية عن العمل وتخليدها أمام دوافع الشهوات القويّة، حتى تخفّ قبضتها، فيتسنى للشهوات أن تنطلق بلا ضابط.

١٥ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته -: أخبركم بخير من الذي ذُكر من متاع الدنيا الزائل؟ لمن راقب الله وخاف عقابه، وامتنل أوامره، واجتنب نواهيه؛ جثّت كثرات عظيمة تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين فيها، ولهم فيها أزواج مطهرات من كل أنواع الدنس الحسّي كالبول والحيض، والمعنوي كالكذب وسوء الخلق، ولهم أعظم من ذلك: رضوان عظيم من الله، لا سخط بعده أبداً، وأي نعيم أكبر من ذلك الرضوان؟ والله سبحانه علّم بأحوال العباد علم من يبصر ويرى، فهو يعلم دقائق أحوالهم، وخفي أمورهم، وخلجات قلوبهم، وسيجزي المحسن الذي يؤثّر ما عند الله على شهوات الدنيا إحساناً، ويجزي المسيء الذي يؤثّر الدنيا على ما عند الله خساراً.

البقرة الثالثة

سورة البقرة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ١٠ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَلَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ١١ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ١٢ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُكُمْ وَسَعْيُكُمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُؤْمِنِينَ ١٣ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَىٰ الْمَعِينِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ١٤ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَآئِ ١٥ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِوَعْدِي مِنَ الَّذِينَ لَدَيْنَا عَهْدٌ بِهَمَّ جُنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ١٦



١٦ - هؤلاء العبادُ الْمُتَّقُونَ الذين استحقُّوا ذلك الجزاء الكريم من ربِّ العالمين، يقولون: ربُّنا إِنَّا صدَّقنا بك، وأتبعنا رسولك محمداً ﷺ، فاستُرْ علينا ذنوبنا، وتجاوز عنا، ونَجِّنَا من عذاب النار.

١٧ - هؤلاء الْمُتَّقُونَ هم الذين اتَّصفوا بهذه الأوصاف الخمسة: الوصف الأول: الصَّبْر على أداء الواجبات، وعن المُحَرَّمَات والمنهيات، وعلى ما يصيبهم من أقدار الله المؤلمة، والوصف الثاني: الصَّدق في أقوالهم وأفعالهم ونيَّاتهم، والوصف الثالث: دوام الطاعة والمواظبة عليها، والإذعان المطلق لله سبحانه دون تَمَلُّل ولا تبرُّم، والوصف الرابع: إنفاق أموالهم في طاعة الله سراً وعلانية، والوصف الخامس: الدعاء والاستغفار آخر الليل قبل طلوع الفجر؛ لأن الدعاء في هذا الوقت أقرب إلى الإجابة؛ إذ العبادة حيثند أشقُّ، والنفس أصفى، والقلب أجمع.

١٨ - بَيَّنَّ الله تعالى وأظهر أن لا معبود بحق إلا هو، بما بيَّن من عجائب مصنوعاته وغرائب مُبتدعاته، وأقرَّ الملائكة وأهل العلم من الأنبياء والمؤمنين المتحقِّقين بعلم ظواهر الحياة الدنيا وبواطنها ودلالاتها على الربِّ الخالق، وعظيم صفاته، حال كونه قائماً بتدبير خلقه بالعدل، لا معبود بحق إلا هو، القويُّ الغالب الذي لا يُفْهَر، الحكيم في جميع أفعاله.

١٩ - إِنَّ الدِّينَ الْمَرْضِيُّ عند الله تعالى الذي اضطفَّاه للناس، والذي يقبله الله سبحانه ولا يقبل غيره هو الإسلام، وهو الاستسلام والانقياد إليه، والدخول في طاعته سبحانه، والإخلاص له، وأتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى في نبوة محمد ﷺ إلا من بعد جاءهم بياضُ نعتِهِ وصفَتِهِ في كتبهم؛ حَسْداً وطلباً للملك والرئاسة، ومن يُصِرُّ على كفره من اليهود والنصارى،

وَيُحْجِدُ نبوة محمد ﷺ، فإنَّ الله مُحاسبه ومعاقبه، والله سريعُ الحساب لا يحتاج في إصدار أحكامه إلى أناةٍ ورويةٍ، حتى يُحْصِي أجزاء ما يحكم به، لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده، وسيجزئهم بما كانوا يعملون.

٢٠ - فَإِنْ خَاصَمَكَ - يا رسول الله - أهل الكتاب وَمَنْ لَفَّ لَهْمُ، وَسَلَّكَ مَسْلَكَهُمْ فِي الدِّينِ، فَقُلْ لَهُمْ: أَخْلَصْتُ عِبَادَتِي لله وحده، وانقدت له سبحانه بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وكذلك من أتبعني من المؤمنين وأسلم كما أسلمتُ، وقل لليهود والنصارى ومشركي العرب: أَسْلِمُوا؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ سَلَكُوا طريق الحقِّ، واهتدوا إلى الفوز والنجاة في الآخرة، وإن تولَّوا مدبرين عن الإيمان والإسلام فما عليك إلا تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله، وليست وظيفتك تحويل الناس إلى الهداية، فإنهم هم المسؤولون عن أنفسهم، وعن سلوك سبيل الهداية، والله تعالى عالمٌ علمٌ مَنْ يبصر بمن يؤمن وبمن لا يؤمن، لا يخفى عليه من أمر عبادة شيء.

وهذه الآية من أصرح الأدلة على عموم بعثته ﷺ للخلق كافة، وقد نطقت بذلك الآيات الكثيرة والأحاديث الصحيحة.

٢١ - إِنَّ الَّذِينَ يَجْحَدُونَ بآيات الله البَيِّنَةِ والْكُونِيَّةِ والْجَزَائِيَّةِ والإِعْجَازِيَّةِ، ويقتلون أنبياء الله ظلماً بغير حقٍّ ثابتٍ أو موهوم، فليس لهم عذر في هذا الاعتداء، بل أقدموا عليه وقد استهانوا بمقام النبوة، ويعلمون أنهم على باطل، فكان فعلهم إجراماً في باعته، وفي حقيقته، وموضوعه، ويقتلون دعاة الحق الذين يأمرون بالعدل من أتباع الأنبياء؛ لأنهم يكرهون الحق، ويصُمُّون أذانهم عن سماعه، ويتبرَّمون من أهله، فبشَّروهم - يا رسول الله - متهكماً بهم بعذاب مؤلِّم يوم القيامة.

٢٢ - أولئك البعداء عن رحمة الله المنحطون في الدَّرَكَات الذين بَطَلَتْ أعمالهم، وأصبحت لا تُنتج إلا شراً لصاحبها، كالدَّابَّةِ التي تأكل شرَّ الثمار حتى تنتفخ بطنها من سوء ما تأكل، فلا تُحَقِّقْ لهم أعمالهم في الدنيا ما يرجون من انتصار على رسل الله والذين آمنوا معهم، وكذلك بطلت أعمالهم التي عملوها يريدون منها تحقيق منافع أخروية، فلا يقبلها الله منهم؛ لأن شرط قبول الأعمال عند الله أن تكون في طاعته وابتغاء مرضاته، وما لهم حين يقضي الله بتنفيذ عقابه عليهم من ناصرين يحمونهم وينصرونهم، فيكشفون عنهم عذاب ربهم.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْكُنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْتَعْفِرِينَ بِأَلْسِنَاهُمْ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ جَاحَوْكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَعِيرَ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

٢٣ - ألم تر - أيها الرائي - رؤية فكرية شبيهة بالمُشاهدة البصرية ناظراً إلى اليهود الذين آتاهم الله حظاً من التوراة، يُدْعَوْنَ إلى ما جاء في القرآن ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه، ثم يتولى الرؤساء والعلماء منهم عن حكم الله، لأنه لا يُوافق أهواءهم وشهواتهم، وهم معرضون عن الحق بصفة مستمرة.

٢٤ - ذلك التولي والانصراف عن الحق من اليهود إنما حصل بسبب أنهم قالوا: لن تصيبنا النار إلا أياماً قليلة، ثم صدقوا فرية أنفسهم، وأتخذوها عقيدة من عقائدهم، وغرهم في دينهم ما استمروا على افتراءه من أكاذيب على ربهم جيلاً بعد جيل.

٢٥ - فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم في يوم عظيم لا شك فيه أنه كائن وواقع، وهو يوم القيامة، وأعطيت كل نفس جزاء ما كسبت وافياً، ولا ينقص من حسناتهم إن كان لهم حسنة، ولا يزداد على سيئاتهم.

٢٦ - قل - يا رسول الله، ويا كل مؤمن -: يا الله، يا مالك العباد وما ملكوا، الذي تنفذ مشيئتك في ملكك كيف تشاء، لا مردّ لقضائك، لك كمال القدرة، والعزة والغنى، تؤتي الملك والحكم والتمكين في الأرض من تشاء من خلقك، وتسلب بقوة الملك والحكم والتمكين في الأرض ممن تشاء، وتمنح العزة والقوة الغالبة في الدنيا من تشاء، وتجعل الذلة والمهانة على من تشاء، فما من عز يناله الإنسان إلا بإعزاز الله له، وما من ذل ينحدر إليه الإنسان إلا بإذلال الله له. وأعلى أنواع العز: عز الطاعة والقرب من الله، وشراً أنواع الذل: ذل المعصية والبعد عن الله. بيدك وحدك كل الخيرات والنعم الدنيوية التي تبثلي بها عبادك بمحض مشيئتك، إنك على كل شيء تشاؤه عظيم القدرة، لا يعجزك شيء أردته.

سُورَةُ الْغَاثَةِ

الجزء الثالث

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يُدِيرُ الْخَيْرَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ تُؤْتِي أَيُّهَا النَّهَارُ وَتُؤْتِي الْلَيْلَ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعِزِّ حِسَابِ ﴿٤١﴾ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُشِّرُوهُ بِعَلْمِهِ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٣﴾

٢٧ - ومن مظاهر القدرة وتام الملك والعظمة أنك تدخل ظلمة الليل في ضوء النهار، بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب الليل عند تتابع حالات الشروق، وتدخل ضوء النهار في ظلمة الليل، بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب النهار عند تتابع حالات الغروب، وتخرج الحي من ذات الميت، فتجعل الميت حياً بإدخال الروح في النفس بأمرك التكويني مباشرة، وتخرج الميت من ذات الحي، فتجعل الحي ميتاً بفضل الروح عن النفس، وترزق من تشاء، رزقاً كثيراً من غير تضيق ولا تقير، ولا عدد وإحصاء.

٢٨ - لا يتخذ المؤمنون الكافرين أنصاراً وأعواناً من دون إرادة وموافقة سائر المؤمنين، أما حينما يحصل إجماع من المؤمنين على شيء من ذلك لضرورة ألجأت إليه، أو ترى القيادة الإسلامية - بعد المشاورة - ذلك، فإن الأمر يجوز بمقدار الحاجة إلى المناصرة، ومن يوال الكفار ويحبهم ويؤدبهم، فليس هو من ولاية الله في شيء؛ لأن الله إنما يتولى أوليائه، فمن اتخذ أعداء الله أولياء له، فقد أدخل نفسه في مواقع أعداء الله، وأخرجها من مواقع أولياء الله الذين يتولاهم الله بنصره وتأييده، إلا أن تخافوا منهم مخافة، أو تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه، من الضرر في النفس أو المال أو العرض، وذلك إذا كان الكفار غالبين ظاهرين، أو كنتم في قوم كفار، فيرخص لكم في موالاتهم الظاهرة بحدود الضرورة التي استدعتها، على ألا تنطوي قلوبكم على شيء من مودتهم، بل تدارونهم وأنتم لهم كارهون، دفعاً عن نفوسكم من غير أن تستحلوا دماً حراماً أو مالاً حراماً أو غير ذلك من المحرمات. ويخوفكم الله أن تعصوه بأن ترتكبوا المنهي أو تخالفوا المأمور به، أو ثوالوا الكفار فتستحقوا عقابه على ذلك، وإلى حكم الله وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، وإلى المكان الذي يقضي فيه مصير جميع الخلاق في الآخرة.

٢٩ - قل - يا رسول الله ويا كل داع إلى الله من أمته - للمؤمنين: إن تكلموا ما استقر في قلوبكم من موالاة الكفار ومودتهم، أو تظهروا مودة الكفار قولاً وفعلاً، يحفظه الله عليكم ويجازيكم به، وإذا كان تعالى لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض، فكيف يخفى عليه حالكم وموالاتكم الكفار، وميلكم إليهم بقلوبكم؟ والله على كل شيء يشاء إيجاده أو إعدامه من الممكنات العقلية عظيم القدرة، ومن يكون بهذه الصفة فهو الحقيق بأن يتخذ ولياً، ومن لا يكون بهذه الصفة فليس بولي.

٣٠ - خافوا الله واحذروه، واخشَوْا حسابَهُ وعقابَهُ، وارْجُوا ثوابه يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ جزاءَ ما عملت يومَ القيامة من خيرٍ مُشاهدًا في الصُّحفِ ظاهرًا، لم ينقص منه شيء، فُتسِّرُ به، وما عملت من سوءٍ ظاهرًا ثابتًا واضحًا، وتتمنى لو أن بينها وبين ما عملت من السوءِ زمانًا بعيدًا، ويُخَوِّفُكم الله نفسه، فخافوا الله واحذروه، واخشوا حسابَهُ وعقابَهُ، وارجوا ثوابه، والله شديد الرحمة بعباده لا يُعْجَلُ بعقوبته؛ رغبة في أن يتوبوا.

٣١ - قل - يا رسول الله -: إن كنتم صادقين في ادِّعاء محبة الله، فاتَّبِعُوني وأطيعوني، وإن اتَّبَعْتُمُوني وأطعتموني يُحِبِّبْكم الله، ويسِّرْ لكم ذُنُوبكم، فاتَّبِعُوا الرسول ﷺ لازم من لوازم محبة الله، واتَّبِعُوا شرطَ جزاءه الظفر بمحبة الله لعبده، ويوجد جزاء آخر لهذا الاتِّباع، وهو غفران الذنوب، وبهذا الغفران تصفو المحبة من مُنْغَصَّاتِ الخطيئة والمعصية، واللَّهُ كثير السَّيْرِ للذنوب عباده، دائم الرحمة بهم.

٣٢ - قل - يا رسول الله -: أطيعوا الله باتِّباع كتابه، وأطيعوا الرسول باتِّباع سنَّته، فإن تولَّوا مدبرين عن طاعة الله ورسوله، فأولئك البُعداء عن رحمة الله هم الكافرون، والله لا يُحِبُّهم؛ لأنه لا يُحِبُّ الكافرين؛ إذ هم بتوليَّهم وإدبارهم يُبعدون أنفسهم عن مواقع محبة الله، ويقذفون أنفسهم في مواقع سخطة وغضبه وطرده، فلا نصيب لهم من فضله، بل يكون نصيبهم من عدله هو الخلود في عذاب النار خلودًا أبدى لا نهاية له.

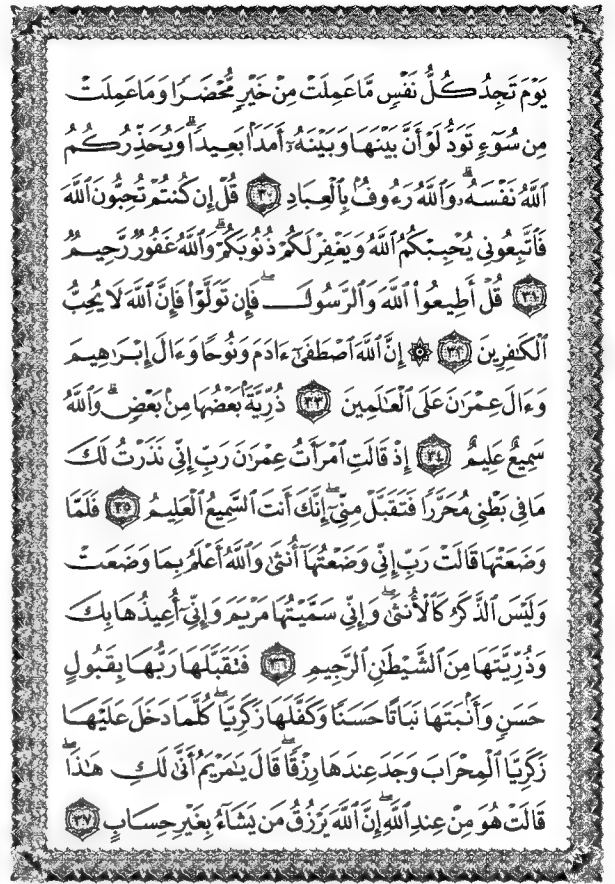
٣٣ - إنَّ الله سبحانه اختار وانتقى أبأ البشر آدم، ومن سلالة عدداً من الأنبياء والمرسلين، منهم شِيث وإدريس، واختار نوحاً، ومن سلالة عدداً من الأنبياء والمرسلين، منهم هود وصالح، واختار إبراهيم، ويلحق بهم آله ومنهم: إسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد ﷺ، واختار موسى ومعه هارون، ومن ذُرِّيَّة أبيهما عمران كلُّ أنبياء بني إسرائيل من بعده، اختارهم سبحانه وفضَّلهم - لعلمه بهم - على الناس أجمعين.

٣٤ - اصْطَفَى الله هؤلاء الأنبياء والرُّسُل ذُرِّيَّةً بعضُها من ولد بعض، والله سَمِيعٌ لأقوال العباد، عَلِيمٌ بِنِيَّاتِهِمْ. فالله اختار هؤلاء لأداء رسالته، وهي الإسلام، وأنتم - يا معشر اليهود - على غير دين الإسلام، إذ أمركم باتِّباعه فخالقتم، وأرسل إليكم رسولاً بشراً به موسى وعيسى، وهو من بيت النبوة، ومن ذُرِّيَّة إبراهيم، كموسى وعيسى، وقد اصْطَفَاهُ الله كما اصْطَفَى مَنْ قبله، فلمَ كفرتم به؟

٣٥ - ضع في ذاكرتك - أيها المتلقِّي للقرآن - ما كان من دعاء امرأة عمران - رئيس الرِّبَّانِيِّين، وكاهنهم الأكبر - حين حَمَلَتْ، فقالت: يا ربِّ إني جعلتُ الحَمْلَ الذي في بطني حال كونه نَذراً خالصاً مُفَرَّغاً لعبادتك وخدمة «بيت المقدس»، مُعْتَقاً من أمر الدنيا، فَتَقَبَّلْ نَذري؛ إِنَّكَ أَنْتَ وحدك السميع لتضرعي ودعائي، العليم بِنِيَّتي وما في ضميري.

٣٦ - فلما ولدت حَمَلُها قالت مُتَحَسِّرة حزينة: ربِّ إني وضعتها أنثى لا تصلح للخدمة في «بيت المقدس» - والله تعالى أعلم بالشئ الذي وَضَعَتْ - وليس الذَّكَرُ الذي كنت أتوقَّعه كالأنثى التي وَهَبْتَهَا لي، وهي ليس من وظائفها أن تكون إمامةً مثل أبيها، من الأئمة الرِّبَّانِيِّين، ومن علماء الدين في الهيكل؛ وإني سَمَّيْتُها مريم، وإني أَمْنَعُها وأَجِيرُها بك وذُرِّيَّتُها من الشَّيْطَانِ اللعين الطريد من رحمة الله.

٣٧ - فَتَقَبَّلَ الله تعالى مريمَ قَبُولاً حسناً، وأجرى الأسباب المعروفة عند بني إسرائيل لَقَبُولِها في خدمة الهيكل، وأنبتها ربُّها إنباتاً حسناً، فَنَبَتَتْ نباتاً حسناً، وَضَمَّها الله تعالى إلى زكريا، وجعله كافلاً لها، ومسؤولاً عن تربيته ورعايتها، وضامناً لمصالحها، بالقرعة التي أجروها حينما اختلفوا فيمن يكفلها، وأسكنها في مكان عبادته، وكان كلما دخل عليها زكريا مكان عبادتها، وَجَدَ عندها رزقاً هنيئاً مُعَدَّاً، وفاكهةً في غير وقتها. قال زكريا عليه السلام: يا مريمُ من أين لك هذا الرزق الطَّيِّب؟ قالت مريم: هو رزق من عند الله، ليس من عند أحدٍ من البشر، إِنَّ الله تعالى يرزق من يشاء رزقاً كثيراً بغير عدد ولا إحصاء.



٣٨ - في ذلك المكان الذي جرى فيه هذا الحدث الخارق للعادة الذي أكرم الله به مريم، تحركت الرغبة الشديدة في قلب زكريا إلى الذرية، وإلى الفيض الإلهي الذي يفيض بالخير والعطاء، ودخل محرابه وسأل ربه قائلاً: يا رب أعطني من محض فضلك الواسع، وقدرتك الباهرة نسلاً طاهراً مباركاً تقياً صالحاً، إنك سميع الدعاء ومجيبه، لا يخفى عليك دعاء مهما كان خفياً.

٣٩ - فنادته عقب دعائه من غير تراخ جماعة من الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب: بأن الله يخبرك بخبر يسرك، وهو أنك سترزق بولد اسمه يحيى، له أربعة أوصاف: الوصف الأول: يُصدق بعيسى ابن مريم وبرسالته، والوصف الثاني: أنه سيد للمؤمنين في الدين والعلم والخلق، له المنزلة والمكانة العالية، والاستغناء عما في أيدي الناس، والوصف الثالث: أنه حصور مُمتنع عن الوطء مع القدرة عليه، ترفعاً عن الشهوات، وضبطاً لغرائزه بإرادة حازمة، والوصف الرابع: أنه نبي من أولاد الأنبياء الكاملين في الصلاح.

٤٠ - قال زكريا مستعظماً: يا رب كيف يكون لي غلام، وقد وصل إليّ الكبر، وأدركني الضعف، وامرأتي عقيم لا تلد لكبر سنّها؟ فأجابه الرسول من الملائكة بقوله: نعم أنت وزوجك كما ذكرت، هي عاقر لا تُنجب، وأنت شيخ كبير تعجز عن معاشره النساء، وجواباً على استفهامك: الله تعالى قادرٌ على هبة الولد على الكبر، يفعل ما يشاء لا يعجزه شيء، ومشيئته نافذة لا محالة.

٤١ - قال زكريا: رب اجعل لي علامة أعلم بها وقت حمل امرأتي؛ فأزيد في العبادة والشكر لك. قال الله تعالى: علامتك على الذي طلبت معرفة علمه أن لا تقدر على تكليم الناس مدة ثلاثة أيام بلياليها إلا إشارة إليهم، مع صحة الجسم وسلامة الجوارح، واذكر ربك كثيراً فإنك لا تمنع من ذلك ولا يحال بينك وبينه، وعظم ربك ونزّهه عن النقائص في المساء ما بين زوال الشمس إلى غروبها، وفي الصباح ما بين طلوع الفجر إلى الضحى.

٤٢ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لآيات كتاب ربك - قصة هذا الحدث الذي أجراه الله تعالى لمريم عليها السلام، وهو يُنشئها نشئة تقيّة بارّة في «بيت المقدس»، ويحيطها بالعبادة والحفظ والعصمة، حين قالت الملائكة: يا مريم إن الله فضلك واختارك لسدانة «بيت المقدس»، وطهرك من كل رجس فكري في العقيدة، أو نفسي في الأخلاق، أو سلوكي في الأعمال الظاهرة والباطنة، واختارك على نساء العالمين لتكوني أمّاً لمن لا أب له.

٤٣ - يا مريم أخلصي لربك العبادة، وأديمي له الطاعة، وأطيلي القيام والسجود في صلاتك منفردة، واركعي مع الراكعين في الجماعة، وانظمي نفسك في جملة المصلين المنقطعين للعبادة والعلم في الهيكل.

٤٤ - ذلك الذي ذكرت لك - يا رسول الله - من حديث زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام من أخبار الغيب تُلقيه إليك - يا رسول الله - لأنه لا يمكنك أن تعلم أخبار الأمم الماضية إلا بوحى منا إليك، وما كنت - يا رسول الله - هنالك عندهم وقت يرمون أقلامهم في الماء الجاري لأجل الاقتراع: أيهم يرثي مريم ويقوم بمصالحها؟ وما كنت هنالك عندهم وقت تنافسهم الشديد على كفالته وتربيته. وفي الآية دليل على جواز استعمال القرعة عند التنازع.

٤٥ - وما كنت - يا رسول الله - هناك حين قالت الملائكة وفي مقدّمهم جبريل: يا مريم إن الله يخبرك بما يسرك، بكلمة من كلماته التكوينية التي يتحقّق بها ما سبق به قدره، كائنة مبتدأة من الله من غير توسط الأسباب العادية، وهو ولد يولد لك من غير زوج يقول له: كن فيكون، وذلك الولد اسمه: المسيح عيسى ابن مريم، حالة كونه شريفاً رفيعاً ذا جاهٍ وقدرٍ في الدنيا والآخرة، وهو من زمرة المقرّبين عند الله، السابقين في فعل الخيرات والطاعات وأعمال البر والإحسان.

الجزء الثالث

سورة العنكبوت

هَذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنادته الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيْحِ مَصْدَقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ رَبِّ كَثِيرًا وَسَيِّحَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُا قُنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

ربك كثيراً فإنك لا تمنع من ذلك ولا يحال بينك وبينه، وعظم ربك ونزّهه عن النقائص في المساء ما بين زوال الشمس إلى غروبها، وفي الصباح ما بين طلوع الفجر إلى الضحى.

٤٢ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لآيات كتاب ربك - قصة هذا الحدث الذي أجراه الله تعالى لمريم عليها السلام، وهو يُنشئها نشئة تقيّة بارّة في «بيت المقدس»، ويحيطها بالعبادة والحفظ والعصمة، حين قالت الملائكة: يا مريم إن الله فضلك واختارك لسدانة «بيت المقدس»، وطهرك من كل رجس فكري في العقيدة، أو نفسي في الأخلاق، أو سلوكي في الأعمال الظاهرة والباطنة، واختارك على نساء العالمين لتكوني أمّاً لمن لا أب له.

٤٣ - يا مريم أخلصي لربك العبادة، وأديمي له الطاعة، وأطيلي القيام والسجود في صلاتك منفردة، واركعي مع الراكعين في الجماعة، وانظمي نفسك في جملة المصلين المنقطعين للعبادة والعلم في الهيكل.

٤٤ - ذلك الذي ذكرت لك - يا رسول الله - من حديث زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام من أخبار الغيب تُلقيه إليك - يا رسول الله - لأنه لا يمكنك أن تعلم أخبار الأمم الماضية إلا بوحى منا إليك، وما كنت - يا رسول الله - هنالك عندهم وقت يرمون أقلامهم في الماء الجاري لأجل الاقتراع: أيهم يرثي مريم ويقوم بمصالحها؟ وما كنت هنالك عندهم وقت تنافسهم الشديد على كفالته وتربيته. وفي الآية دليل على جواز استعمال القرعة عند التنازع.

٤٥ - وما كنت - يا رسول الله - هناك حين قالت الملائكة وفي مقدّمهم جبريل: يا مريم إن الله يخبرك بما يسرك، بكلمة من كلماته التكوينية التي يتحقّق بها ما سبق به قدره، كائنة مبتدأة من الله من غير توسط الأسباب العادية، وهو ولد يولد لك من غير زوج يقول له: كن فيكون، وذلك الولد اسمه: المسيح عيسى ابن مريم، حالة كونه شريفاً رفيعاً ذا جاهٍ وقدرٍ في الدنيا والآخرة، وهو من زمرة المقرّبين عند الله، السابقين في فعل الخيرات والطاعات وأعمال البر والإحسان.

٤٦ - وَيُكَلِّمُ النَّاسَ صَغِيرًا قَبْلَ أَوَانِ الْكَلَامِ، وَهُوَ فِي الْمَهْدِ مُبَشِّرًا بِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ الْقَادِمَةِ، وَمُثْبِتًا بَرَاءَةَ أُمِّهِ وَطَهَارَتِهَا، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي حَالِ الْكُهُولَةِ الَّتِي يَسْتَحْكِمُ فِيهَا الْعَقْلَ، وَيَسْتَنْبِأُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءَ، مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ بَيْنَ حَالِ الطُّفُولَةِ، وَحَالِ الْكُهُولَةِ، وَإِنَّهُ مِنَ الْعِبَادِ الصَّالِحِينَ الْمَوَاطِبِينَ عَلَى التَّهَجُّجِ الْأَصْلَحِ وَالطَّرِيقِ الْأَكْمَلِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ.

٤٧ - قَالَتْ مَرْيَمُ مُتَعَجِّبَةً مِنْ هَذَا الْأَمْرِ: مَنْ أَيْنَ يَكُونُ لِي وَلَدٌ، وَلَمْ يُصْنَبِ رَجُلٌ؟ قَالَ لَهَا جَبْرِيلُ: أَنْتَ كَذَلِكَ، لَمْ يَمْسَسْكَ بَشَرٌ لَا بَزْوَاجٍ وَلَا بَغِيرِهِ، يَخْلُقُ اللَّهُ مِنْكَ وَلَدًا عَلَى غَيْرِ نِظَامِ الْأَسْبَابِ الَّتِي وَضَعَهَا سُبْحَانَهُ، فَيَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَعِبْرَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَصْنَعُ مَا يَرِيدُ، إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يُوجِدُهُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، وَيَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ مَوْجُودًا ضَمْنَ الْمَوْجُودَاتِ، وَيَحْدُثُ فَوْرًا بِلَا مَهْلَةٍ.

٤٨ - وَيُعَلِّمُهُ سُبْحَانَهُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ: الْأَوَّلُ: الْكِتَابَةَ وَالْخَطَّ بِالْيَدِ، وَالْعِلْمَ وَأَحْكَامَ الشَّرَائِعِ، وَالثَّانِي: الْإِصَابَةَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَوَضْعَ الْأَشْيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا، سَوَاءً أَكَانَتْ فِي الْمَعْرِفَةِ الْفِكْرِيَّةِ، أَمْ فِي السُّلُوكِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَالثَّالِثُ: يَعَلِّمُهُ التَّوْرَةَ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالرَّابِعُ: يُنْزِلُ عَلَيْهِ وَيُعَلِّمُهُ الْإِنْجِيلَ.

٤٩ - وَنَبِئْتُهُ رَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا بُعِثَ إِلَيْهِمْ قَالَ: إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِعَلَامَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ قَوْلِي، وَهَذِهِ الْمَعْجِزَةُ الْخَارِقَةُ لِلْعَادَةِ لَهَا خَمْسُ ظَوَاهِرٍ: الْأُولَى: أَنِّي أَصَوِّرُ وَأَقْدِرُ لِأَجْلِ تَصْدِيقِكُمْ بِي مِنَ الطِّينِ كَصُورَةِ الطَّيْرِ، فَأَنْفُخُ فِي الطِّينِ الْمُهَيَّأِ الْمُصَوَّرِ فَيَكُونُ طَيْرًا يَتَكَوَّنُ اللَّهُ وَتَخْلُقُهُ، وَالثَّانِيَّةُ: أَنِّي أَشْفِي الْأَكْمَةَ الَّتِي وُلِدَ أَعْمَى، وَالثَّالِثَةُ: أَنِّي أَشْفِي الْأَبْرَصَ الَّذِي بِهِ وَضَحَ، وَالرَّابِعَةُ: أَنِّي أَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَالخَامِسَةُ: أَنِّي أَخْبِرُكُمْ الْخَبَرَ الْعَظِيمَ بِمَا تَأْكُلُونَ مِمَّا لَمْ أَعَايَنَهُ، وَمَا تَرْفَعُونَهُ

فَتَخْبِثُونَهُ فِي بَيْتِكُمْ لِتَأْكُلُوهُ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ خَلْقِ الطَّيْرِ مِنَ الطِّينِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَالْإِخْبَارِ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ بِإِعْلَامِ اللَّهِ إِلَيَّ، لِعَلَامَةٍ بَرَهَانِيَّةٍ لَكُمْ، تَشْهَدُونَهَا فَتَدْلُكُمْ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِي إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَعِدِّينَ مُسْتَقْبِلًا لِأَنْ تَوْفَعُوا بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ رَبِّكُمْ.

٥٠ - وَجِئْتُكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنَ التَّوْرَةِ الصَّحِيحَةِ غَيْرِ الْمَحْرُوفَةِ، وَلِأَجْلِ لَكُمْ بُوْحِي مِنَ اللَّهِ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ فِي شَرِيعَةِ مُوسَى بِسَبَبِ ظُلْمِكُمْ وَقَسْوَتِكُمْ تَخْفِيفًا وَرَحْمَةً، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ بَيَانِيَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَهِيَ الْإِنْجِيلُ الَّذِي أَنَا فِي إِثَارِهِ، لِيَتَّبِعُوهُ مُؤْمِنِينَ بِهِ، وَلِيَتَنَفَّعُوا بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ حُكْمٍ وَمَوَاطِظَ، وَوَصَايَا وَبَيِّنَاتٍ نَافِعَاتٍ، فَاتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ - يَامَعْشَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ - فَآمَنُوا بِي، وَلَا تَكْفُرُوا بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ، وَأَطِيعُوا فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ؛ لِتَكُونُوا مِنَ الْفَائِزِينَ بِالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

٥١ - إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكُمْ، وَأَمَدَّنَا دَوَامًا بِعِطَاءَاتِهِ، فَاعْبُدُوهُ، فَأَنَا وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ فِي الْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ لَهُ، هَذَا الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ اتِّقَاءِ عَذَابِ اللَّهِ، وَطَاعَتِي، وَعِبَادَةِ رَبِّكُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ بِمَا أُبَلِّغُكُمْ بِهِ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ، الَّذِي يُوصِلُكُمْ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ وَالْخُلُودِ فِي جَنَّتِهِ.

٥٢ - فَلَمَّا عَلِمَ عِيسَى عِلْمًا يَقِينًا وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ إِصْرَاهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَعَزَمَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: مِنَ الَّذِينَ يَنْصُرُونِي، سَاعِينَ إِلَى بُلُوغِ مَرْضَاةِ اللَّهِ، بِالْجِهَادِ الدَّعْوِيِّ فِي سَبِيلِهِ، مُبَلِّغِينَ دِينَهُ مَهْمَا تَلَقَّوْا مِنْ أَدَى وَاضْطِهَادٍ؟ قَالَ أَصْفِيَاءُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَخَاصَّتُهُ: نَحْنُ أَنْصَارُ دِينِ اللَّهِ بِصِدْقِ وَإِحْلَاصِ وَتَضَحِّيَةٍ، صَدَّقْنَا بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّنَا وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَسْلَمْنَا لَهُ، وَاعْلَمْ - يَا عِيسَى - عِلْمًا مُتَبَعًا مِنَ الْمُعَايَنَةِ وَالْمُشَاهَدَةِ بِأَنَّ مُسْتَسْلِمُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ، مُنْقَادُونَ لِمَا تَرِيدُ مِنْ نَصْرِكَ وَالِدَفْعِ عَنْكَ.

٥٣ - قال أصفياء عيسى وخاصته: ربنا آمنة بكتابك الذي أنزلته على عيسى، وأتبعنا رسولك، مطيعين لأوامره ونواهيه، وقمنا بالدعوة إلى دين الله، فأمدنا بالعون والتوفيق للقيام بهذه الوظيفة التبليغية، حتى تكتبنا مع الشاهدين، الذين يشهدون على الناس يوم الدين، بأنهم بلغوهم دينك، والتعليمات التي جاء بها رسولك، فأثبت أسماءنا مع أسمائهم، واجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به.

٥٤ - وسعى كفار بني إسرائيل بالفساد في الخفية، ودبروا قتل عيسى غيلة، فأحبط الله تعالى تدبيرهم، بإلقاء الشبه على صاحبهم الذي دلهم على عيسى حين أرادوا قتله، ورفعوه إلى محل كرامته، والله خير الماكرين، وأفضل المجازين، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر العقاب.

٥٥ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لبياننا - حين قال الله لعيسى: إني فاصل بين رُوحك المُمدة لك بالحياة، وبين نفسك بالنوم العميق الذي تنفصل فيه الروح انفصلاً جزئياً تنعدم به الحركة الإرادية، ورافعك من الأرض إلى السماء بروحك وجسدك، ومُطهرَك من أرجاس أيدي الذين كفروا ونفوسهم القذرة، وعاصمك من أن يقتلوك، أو يُعذّبوك، وجاعل الذين اتبعوك مؤمنين بك إيماناً صحيحاً، وعاملين بأحكام الشريعة التي أوصيت بالعمل بها، فوق الذين كفروا بك سعادة وقلبا مطمئناً، وذكرأ حسناً، ومزلة في القلوب إلى يوم القيامة. وينطبق هذا على الذين كانوا على التوحيد من الذين قالوا: إنا نصارى قبل بعثة محمد ﷺ، أما بعد بعثته فمتبعو عيسى هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ الذي بشر به عيسى وأتبعوه، ثم بعد انتهاء زمن ابتلائكم في الحياة الدنيا، تموتون؛ ثم تبعثون؛ لتلاقوا حساب ربكم، وفصل قضائه، وفيه يكون مرجع الفريقين في الآخرة: الذين أتبعوا عيسى وصدقوا به، والذين كفروا به، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من الحق في أمر عيسى عليه السلام.

سُورَةُ النِّسَاءِ

الْبَقَرَةِ

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَأَتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَارْفَعْكَ إِلَى مِطْبَحِكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِنِّي مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

٥٦ - فأما الذين جحدوا نبوة عيسى وخالفوا ملته، وقالوا فيه ما قالوا من الباطل، ووصفوه بما لا ينبغي من سائر اليهود والنصارى، فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسبي والدلة وأخذ الجزية منهم، وأعذبهم في الآخرة بالنار، وما لهم حين يقضي الله بتنفيذ عقابه عليهم من مانعين يمنعونهم من عذابنا.

٥٧ - وأما الذين آمنوا بعيسى وصدقوا بنبوته، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وعملوا بما قرضت عليهم وشرعت لهم، فيعطيهم الله جزاء أعمالهم كاملاً لا ينقص منه شيء، والله لا يحب الظالمين الذين يضعون العبادة في غير موضعها، ومن جعل نفسه بإرادته في زمرة الذين لا يحبهم الله، فقد جعلها غرضة لنقمته وعذابه الشديد.

٥٨ - ذلك الذي ذكرته لك من أخبار عيسى وأمه مريم والحواريين تُخبرك به - يا رسول الله - على لسان جبريل، من العلامات الدالات على صحة نبوتك، وصحة القرآن المحكم في لفظه ومعانيه، وفيما اشتمل عليه من أخبار نوحها إليك.

٥٩ - إن شأن خلق عيسى عند الله في كونه خلقه من غير أب، كشأن آدم في كونه خلقه من غير أبوين؛ بل شأن آدم أعجب حيث خلقه من تراب، وقدره سبحانه جسداً من طين، ثم أنشأه خلقاً بكلمة كن فيكون. فمن آمن بقدرته تعالى في خلقه آدم من تراب، كيف لا يؤمن بها في خلقه عيسى ابن مريم من غير أب! وإذا ادعى النصارى أن عيسى عليه السلام هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، لشبهة أنه ولد من أم بلا أب، فإن آدم أخرى بذلك منه، فقد خلقه الله من التراب مباشرة من غير أب ولا أم، وإذ يوافق النصارى على أن هذا في آدم باطل، فحجتهم في عيسى أشد بطلاناً؛ لأن وجودها في عيسى أضعف من وجودها في آدم.

٦٠، ٦١ - الذي أخبرتك به في أمر خلق عيسى من غير أب، وخلق آدم من طين، وكون هذا التكوين بإرادة مختارة، لا قيد يُقيدُها، هو الحق الثابت من ربك، فلا تكن من الشاكين الذين يدفعهم الشك إلى المراء والمجادلة المبنية على الأوهام، واثبت على يقينك وطمأنيتك. فمن جادلَكَ - يا رسول الله - في عيسى عليه السلام وكونه إلهاً أو ابن إله وغير ذلك من الثرثرات الباطلة، من بعدما جاءك من العلم بأنه عبد الله ورسوله، فقل: هلموا يدع كل واحد منا ومنكم أبناء ونساء ونفسه، ويتلاقى جَمْعُنا وجَمْعُكم، ثم نجتهد ونبالغ في الدعاء مُتَّجِهين إليه سبحانه بقلوبنا، فنجعل لعنة الله وطرده من رحمته مُسَلِّطاً ومُنْصَبّاً على الكاذبين منا ومنكم في أمر عيسى، المُصْرِّين على عنادهم، المنحرفين في اعتقادهم.

٦٢ - إِنَّ هَذَا الَّذِي قُصَّ عَلَيْكَ - يا رسول الله - من خبر عيسى عليه السلام لهو وحده القصص الثابت الذي لا مجال فيه لإنكار منكر، ولا لتشكيك مُشَكِّك، وما من معبود يستحقُّ العبادة إلا الله وحده، وأنَّ الله لهو القويُّ الغالب المنتقم ممَّن عصاه وخالف أمره، وادَّعى معه إلهاً آخر، الحكيم في تدبيره.

٦٣ - فَإِنْ تَوَلَّوْا مَنْصَرِفِينَ عَنِ الْإِيمَانِ وَلَمْ يَقْبَلُوهُ، فَهَمَّ الْمَفْسُدُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ، ويدعون الناس إلى عبادة غيره، والله عليهم بهم لا يتركهم يعيشون في الأرض فساداً، بل سيُعاقبهم ويجازيهم على فسادهم.

٦٤ - قُلْ - يا رسول الله - لأهل الكتاب عامةً من اليهود والنصارى: يا أهل الكتاب الذين حرفتم في كتابكم الكلم عن مواضعه، وانحرفتم عن مبادئه، وفَرَقْتُمْ أَحْكَامَهُ، وتَفَرَّقْتُمْ فِي فَهْمِهِ: هَلُمُّوا إِلَى كَلِمَةٍ فِيهَا إِصْطَفَ وَعَدَلَ نَلْتَقِي فِيهَا مَعَكُمْ، مُسْتَوِيَةً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، لَا يَخْتَلِفُ فِيهَا التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ، وَهِيَ: أَنْ نُخَصَّ اللَّهَ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَلَا نَتَّخِذَ أَيَّ شَرِيكَ مَعَهُ فِي رَبوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَلَا نَطْعُ أَحْبَارَنَا وَرَهْبَانَنَا فِيمَا أَحْدَثُوا مِنَ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا مَدْبِرِينَ عَمَّا أَمَرْتَهُمْ بِهِ، فَقُولُوا - أيها المؤمنون - لهؤلاء: اشهدوا بأننا مخلصون بالتوحيد لله والعبادة له.

٦٥ - يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى: لِمَ تُجَادِلُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ، مُقَدِّمِينَ فِي جِدَالِكُمُ الْحُجَجَ الْبَاطِلَةَ؛ إِذْ يَزْعُمُ الْيَهُودُ مِنْكُمْ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا، وَيَزْعُمُ النَّصَارَى مِنْكُمْ أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا؟ وَالْحَالُ أَنَّ التَّوْرَةَ الَّتِي يَعْتَبَرُهَا الْيَهُودُ مَصْدَرُ الْيَهُودِيَّةِ، وَالْإِنْجِيلُ الَّذِي هُوَ الْمَصْدَرُ الْأَوَّلُ لِلنَّصْرَانِيَّةِ، لَمْ يَنْزِلْهُمَا اللَّهُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِبْرَاهِيمَ بِزَمَانٍ طَوِيلٍ، أَفْتَصْرِوْا - يا معشر اليهود والنصارى - عَلَى الْبُهْتَانِ الْمَبِينِ الْمَفْضُوحِ، فَلَا تَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيًّا حَقِيقَةً مَا تَفْتَرُونَهُ، وَلَا تَعْقِلُونَ

إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَهُ اللَّهِ هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾
قُلْ يَكْفُرُ أَهْلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَكْفُرُ أَهْلُ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِيهِ
إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَذَا أَنْتُمْ هُنَالِكَ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ
عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ
لَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ
بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ
وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَكْفُرُ
أَهْلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

نفوسكم عقلاً إرادياً عن اتباع الهوى والمكابرة في الباطل بعنادٍ ووقاحةٍ وسفاهةٍ؟

٦٦ - ها أنتم - يا معشر اليهود والنصارى - جادلتم جدالاً باطلاً فيما لكم به أصل علم يُسَوِّغُ لَكُمْ أَنْ تُجَادِلُوا بِشَأْنِهِ، مُتَّخِذِينَ ذِرَاعَ تُمْكِنِكُمْ مِنْ أَنْ تُرَاوَعُوا بِهَا، مُتَأَوِّلِينَ بِهَا نصوص التوراة والإنجيل كما يحلو لكم، ويُحَقِّقُ لَكُمْ مَا تَرِيدُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَلَمْ تَتَّخِذُوا الْجِدَالَ وَتَقْدِيمَ الْحُجَجِ الْبَاطِلَةِ دَيْدَنَكُمْ، حَتَّى فِي الْقَضَايَا الَّتِي تَجْهَلُونَهَا، وَلَيْسَ لَكُمْ بِهَا عِلْمٌ مُطْلَقاً؟! وَاللَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، فَيَعْلَمُ مَا تَضْمُرُهُ نَفُوسُكُمْ، وَمَا تَسْتَخْفُونَ بِهِ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَمَا تَقْصِدُونَهُ مِنْ جِدَالِيَّاتِكُمْ بِالْبَاطِلِ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَقْدَارَ مَا أَخْفَاهُ لَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، يُنْزِلُهُ بِكُمْ يَوْمَ الدِّينِ جَزَاءً كَفَرِكُمْ.

٦٧ - لِمَ يَكُنْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَهُودِيًّا - كما يزعم اليهود -، وَلَا نَصْرَانِيًّا - كما يزعم النصارى -، وَلَكِنَّهُ كَانَ مَائِلاً عَنِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ كُلِّهَا إِلَى الدِّينِ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، مُوَحِّداً مُنْقَاداً لَطَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَيَّ شَرِكٍ فِي رَبوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ.

٦٨ - إِنَّ أَخَصَّ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ وَأَحَقَّهُمْ بِالانْتِمَاءِ إِلَيْهِ وَمَوَالَاتِهِ وَمَنَاصَرَةِ مِلَّتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، كَأِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَيُوسُفَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَكَالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بَوْلَايَةِ إِبْرَاهِيمَ بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، هَذَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ.

٦٩ - تَمَثَّتْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَوْ يَخْرُجُونَكُمْ - أيها المؤمنون - عَنْ دِينِكُمْ وَيَرْدُّونَكُمْ إِلَى الْكُفْرِ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَقْبَلُونَ قَوْلَهُمْ، وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِمْ وَسَائِلُهُمُ الْمُضِلَّةُ، فَيَحْصِلُ عَلَيْهِمُ الْإِثْمُ بِتَمْنِيَّتِهِمْ إِضْلَالَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهْتَدِينَ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَنَّ وَبَالَ الْإِضْلَالِ يَعُودُ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ يُضَاعَفُ لَهُمْ بِسَبَبِ ضَلَالِهِمْ وَتَمْنِي إِضْلَالَ الْمُسْلِمِينَ.

٧٠ - يَا أَهْلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ: لِمَ تَجْحَدُونَ آيَاتِ اللَّهِ الْوَارِدَةَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصِفَتِهِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صَدَقَ الرُّسُولُ عِلْمًا يَقِينًا كَعِلْمِ الْمُشَاهِدَةِ وَالْعَيَانِ، بِمَا أَخْبَرَ بِهِ كِتَابَكُمْ وَتَشْهَدُونَ كَذَلِكَ كُلَّ يَوْمٍ الدَّلَائِلَ الصَّادِقَةَ الَّتِي تُثَبِّتُ الرِّسَالََةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ؟

٧١ - يا أهل التوراة والإنجيل: لِمَ تُحَرِّفُونَ التوراة والإنجيل، فتخلطون المحرّف الذي كتبتموه بأيديكم بالحقّ المنزل، وتكتمون نعت محمد ﷺ وصفته في التوراة، وأنتم تعلمون أنه رسول من عند الله حقاً وصدقاً؟

٧٢ - وقالت جماعة من اليهود: ادخلوا في دين محمد وأظهروا الإسلام أوّل النهار باللسان دون اعتقاد بالقلب، حتى تتمّ الثقة بكم والاطمئنان إليكم، ثمّ اكفروا آخر النهار، بعد أمد قصير، وإنا إذا ألقينا هذه الشبهة لعلّ أصحاب محمد يشكون في دينهم، ويقولوا: إنما ردهم إلى دينهم اطلّاعهم على نقيصة وعيب في دين الإسلام، فيرجعوا إلى الكفر بعد الإيمان.

٧٣ - وقال قاداتهم من أحبارهم وعلمائهم لمن وجّهوهم للقيام بمكيده النفاق: ولا تُصدّقوا منقادين حقاً، مسلمين صدقاً إلا لمن وافق ملتكم التي أنتم عليها، وهي اليهودية مُتّبِعاً لكم. قل لهم - يا رسول الله -: إن الهدى هدى الله، فليس هدى موسى أو أحد من بني إسرائيل حتى تتعصبوا له تعصباً قومياً، والله يصطفي لتبليغ هداية من يشاء، أنرفضون هدى الله الذي أنزله على رسوله محمد حسداً من عند أنفسكم، وكراهية أن يؤتى أحد من خلق الله مثلما أوتيتم من اضطفاء رسل منكم، وإنزال هدى الله عليهم؟ أنكتمون الحقّ الذي عندكم عن المسلمين وأنتم تعلمونه؛ خشية أن يُحاجّوكم عند ربكم، أليس الله عليمًا بكلّ ما تُعلنون وما تُسرون؟ قل - يا رسول الله -: إنّ التوفيق للإيمان والهداية للإسلام، والاختصاص بالنبوة بيد الله، يؤتي الفضل من يشاء من عباده، ويوفّق من أراد من خلقه، والله ذو سعةٍ يتفضّل على من يشاء، عليهم بمن يتفضّل عليه وهو للفضل أهل.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

الجزء الثالث

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكُونُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا أَعْيُنَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا إِلَّا لِمَنْ تَمَعَّ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّا أَلْهَيْنَا هَدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْفَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّا الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ ﴿٧٦﴾ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنُ إِن تَأْمَنُوا بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكُمْ وَمِنْهُمْ مَنُ إِن تَأْمَنُوا بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكُمْ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ بَلَى مَن أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنَ بِهِمْ مِّنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ لَا يَخْلَقُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٠﴾

٧٤ - يختصّ بنبوته ورسالته من يشاء من خلقه بمقتضى علمه وحكمته، والله ذو الفضل العظيم. فإذا كان بنو إسرائيل وأشباههم قد ضلّوا على بني إسماعيل أن تكون فيهم النبوة الكبرى الخاتمة للنبوات، فذلك ممّا اختصّ الله به سبحانه بعض عباده بالرحمة، وليس لأحد أن يعترض على الله، فإنّ فضله على من اختصّه عظيم، وفضله على من لم يمنحه هذا النوع من الرحمة عظيم، فلا عظمة تساوي عظمة فضل الله تعالى على خلقه، فالاختصاص النوعي لبعض الرحمات لا يعارضه عموم الفضل على خلقه.

٧٥ - وفريق من أهل الكتاب من اليهود من يؤدّي الأمانة وإن كثرت، وفريق منهم من لا يؤدّيها وإن قلّت، إلا أن تقوم عليه وتطالبه بالإلحاح والخصومة والملازمة، وسبب ذلك الاستحلال والخيانة من اليهود أنهم يقولون: ليس علينا في خيانة غير اليهود من الأمم الأخرى، وفي أكل أموالهم بالباطل حرج، ولا تتوجّه علينا سبيل من سبل المؤاخذه أو العتاب، ويقول اليهود على الله الكذب، وهم يعلمون أنهم كاذبون على الله في هذا. فالإدانة بالكذب إنما تكون مع علم المتكلم بأنّ ما يقوله كلام كذب مُخالف للواقع أو لما يعتقد.

٧٦ - ليس الأمر كما زعمتم، بل عليكم في الأميين سبيل، وأنتم مُعذّبون فيما تُجرمون بشأنهم، ومثابون إن أوفيتهم بعهدهم، فمن أوفى بعهد الله الذي عهد إليه في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي أنزل عليه، وبإداء الأمانة إلى من أثمنه عليها، واتقى الكفر والخيانة ونقض العهد، فإنّ الله يحبّ المتقين المُتّثلين لأوامره، والمُجتنبين لنواهيه، ويثيبهم على تقواهم، ويدخلهم جنّات النعيم؛ لأنّ من أحبّه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

٧٧ - إنّ الذين يبذلون عهد الله وأيمانهم كاذبين مقابل ثمن قليل من متاع الحياة الدنيا يحصلون عليه، أولئك البُعْداء عن رحمة الله لا نصيب لهم في الآخرة، ولا حظّ لهم في نعيمها، ولا يُواجههم الله بالخطاب عند الحساب، بل يحاسبهم كخطاب الغائب إعرافاً عنهم؛ ولا ينظر إليهم يوم القيامة نظر رحمة؛ لأنهم لا يستحقّون ذلك، لعظم جريمتهم، إذ كفروا برسول الله وبما أنزل عليه، وهم يعلمون أنّ ما كفروا به حقّ وصدق، ولا يُطهّروهم من دنس الذنوب، ولا يُثني عليهم بجميل، ولهم عذاب مؤلم في الآخرة جزاء كفرهم وعدم وفائهم بعهد الله، وجزاء استهانتهم بالإيمان التي حلفوها، ووثّقوا بها العهود التي أعطوها لله عزّ وجلّ على أن يؤمنوا بالرسول الخاتم ويتبعوه.

٧٨ - وَإِنَّ مِنْ الْيَهُودِ لَجَمَاعَةً يُمِيلُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ بِالْتَحْرِيفِ
والتغيير والتبديل، فيخلطون المدسوس الذي هو من افتراءهم
بالأصل الصحيح؛ لتظنوا أن الذي حُرِّفوه ويدلوه من الكتاب الذي
أنزله الله على أنبيائه، وما هو منها في شيء، ويقولون: هذا من عند
الله أوحاه الله إلى نبيه موسى، وما هذا الذي يقولونه ويُغيرونه من
عند الله، ويقولون على الله الكذب، وهم يعلمون ذلك من أنفسهم.
فهؤلاء اليهود يقولون كلاماً كذباً، وهم يعلمون أنه كذب، فهم
كاذبون مُدانون بالافتراء.

٧٩ - مَا يَنْبَغِي لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ، ويجعله حكماً بين خلقه،
ويختاره نبياً، ثم يقول للناس - مع ما أتاه الله -: كونوا عباداً لي من
دون الله، وكيف يدعو الناس إلى عبادة نفسه من دون الله، وعبادة
غير الله، واتخاذ أرباب مع الله، وقد أتاه الله ما أتاه، واضطفاه ليأمر
الناس بالإيمان لا بالكفر؟ ولكن يقول لهم: كونوا علماء فقهاء
حُكماء مُعلمين للناس الخير، ومواظبين على طاعة الله وعبادته، بما
كنتم تُعلمونه غيركم من وحي الله، وما كنتم تدرسون من كتاب الله
قراءةً وحفظاً وفقهاً، وهي تدعوكم أن تُتبعوا العلم بالعمل والتطبيق،
لا أن تستغلوا العلم للتلاعب بالدين، وتحريف نصوصه حسب
أهوائكم.

٨٠ - وما كان لبشر اضطفاه الله فاتاه الكتاب والحكم والنبوة أن
يأمركم بعبادة الملائكة وعبادة النبيين من دون الله، أيأمركم بالكفر
بعد إذ أنتم مسلمون؟ فإنه لا يقول هذا ولا يفعله.

٨١ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لكلام ربك - حين أخذَ الله
العهدَ المؤكَّد على جميع الأنبياء؛ أن يُصدِّق بعضهم بعضاً، ويؤمن
كلُّ نبيٍّ بَمَنْ يأتي بعده من الأنبياء، وينصره إن أدركه، فإن لم
يُدركه يأمر قومه بنصرته؛ مهما آتيتكم من كتاب وشريعة حاكمية، ثم

جاءكم محمد ﷺ مُطابقٌ وصفه وأحواله لما في كتبكم المُنزَّلة، لتؤمننَّ به، ولتنصرنَّه. قال الله تعالى للنبيين: أأقرتم بالإيمان به
والنصر له، وأخذتم على ذلك عهدي الموثَّق؟ قال النبيون: أقرنا بما ألزمتنا من الإيمان برسولك. قال الله عزَّ وجلَّ للنبيين:
فاشهدوا على أنفسكم وعلى أممكم بالتزام هذا العهد، وأنا معكم - يا معشر الأنبياء - من الشَّاهدين عليكم وعلى أتباعكم.

وفي الآية دليل على وحدة الرسالات الإلهية في مقصدها وغايتها، وأنَّ كلَّ نبيٍّ مُتَّمِّمٌ لما بدأ به النبيُّ الذي سبقه، حتى ختم الله
أنبياءه بمحمد ﷺ. وإذا كان حقاً على النبيِّ المبعوث أن يؤمن بَمَنْ سبقه، ومَنْ يجيئون بعده ممَّن أخبر الله بمجيئهم، فإنه بلا ريب
حقٌّ على الذين يتبعونه أن يُصدِّقوا ذلك النبيَّ الذي يجيء بعده، فحقٌّ على اليهود والنصارى بمقتضى هذا العهد، وبمقتضى إيمان
هؤلاء النبيين أن يؤمنوا بالنبيِّ محمد ﷺ، وإلا ما كانوا متبعين لموسى وعيسى عليهما السلام، إنما يكونون متبعين لأهوائهم
وشهواتهم.

٨٢ - فَمَنْ تَوَلَّى مَدْبراً عن الإيمان بمحمد ﷺ ونُصرتَه بعد ذلك العهد المؤكَّد الذي أخذه الله على أنبيائه وأممهم، فأولئك البعداء
عن رحمة الله هم الخارجون عن الإيمان والطاعة.

٨٣ - أبعِدَ أخذ الميثاق والعهد عليهم ووضوح الدلائل لهم يطلبون غير دين الإسلام؟ وله سبحانه وحده خضع وانقاد كلُّ من في
السموات والأرض، من الملائكة والإنس والجن، طائعين وكارهين، فالكلُّ تحت قهره وسلطانه، وفي قبضة قدرته وتسخير إرادته،
فمن لم يستسلم لأمره التكليفي، انقاد وخضع لأمره التكويني القُدري، وإليه وحده مرجعُ الخلق كلهم يوم القيامة، فيحاسب كلُّ
على ما صنع من خير وشر.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ
وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾
وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَكَيْفَ دِينَ اللَّهِ يَبْعَثُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

٨٤ - قل لهم - يا رسول الله، ويا كُلَّ مؤمن به، وبما أنزل الله عليه: صدقنا بالله أنه ربنا وإلهنا لا إله لنا غيره ولا رب سواه، وصدقنا أيضاً بما أنزل علينا من نصوص بيانية مشتملة على تكاليف ربانية، وما أنزل على إبراهيم خليل الله، وابنته: إسماعيل وإسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق، والذي أنزله على الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة من ولد يعقوب، وما أوتي موسى وعيسى من التوراة والإنجيل، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحدٍ وغيره منهم، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض، بل نؤمن بجميع الأنبياء، وما أنزله الله عليهم، ونحن له موحّدون مُخلصون، لا نجعل له شريكاً في عبادتنا.

٨٥ - إنّ الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام، الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد والطاعة والعبودية، ولرسوله النبي الخاتم محمد ﷺ بالإيمان به ومتابعته ومحبته، وإنّ كل دين سواه غير مقبول عنده؛ لأنّ الدين الصحيح ما يأمر الله به ويرضى عن فاعله ويثبته عليه، ومن يطلب بعد مبعثه ﷺ ديناً غير دين الإسلام، وشريعة غير شريعته، فلن يقبل منه ذلك، وهو في الآخرة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة؛ إذ صاروا إلى عذاب النار الأبدي في جهنم.

٨٦ - كيف يحكم الله بالهداية لقوم جحدوا نبوة محمد ﷺ بعد تصديقهم إياه، وإقرارهم به، وبما جاء به من عند ربه، وبعد أن أقرّوا وشهدوا أنّ محمداً رسول الله إلى خلقه، وأنّ ما جاء به حقّ وصدق، وجاءهم بالحجج والبراهين من عند الله الدالة على صحّة نبوّته؟ والله لا يحكم بالهداية للقوم الظالمين الذين عدلوا عن الحقّ إلى الباطل، فاختاروا بإرادتهم الحرة الكفر على الإيمان.

٨٧ - أولئك الظالمون الذين كفروا بعد إيمانهم، جزاؤهم أنّ عليهم سخط الله وغضبه، والملائكة، والناس أجمعين من المؤمنين في الحياة الدنيا والآخرة، وكذلك تكون اللعنة عليهم من غير المؤمنين يوم القيامة حينما يكفر بعض الظالمين ببعض، ويلعن بعض الكافرين بعضاً، وهذه اللعنة التي يُنزلها يوم القيامة بعض الكافرين ببعض، تُضاف إلى اللعنة التي تحلّ بهم كفاء كفرهم من الله تعالى، ومن الملائكة، ومن مؤمني الجنّ والإنس، فهم مطرودون من رحمة الله، مشمولون بلعنته من كلّ جانب؛ بسبب كتمانهم للحقّ، وجحودهم له مع معرفتهم به.

٨٨ - خالدين في اللعنة، لا تُزِيلهم ولا تنفصل عنهم أبداً، وإذا كان سخط الله دائماً فعذابه دائماً لا يقبل التخفيف، فلا يرفع عنهم العذاب قليلاً ليستريحوا، ولا يؤخّرون عن وقت العذاب لمعدّرة يعتذرون بها، أو ليتكفّروا من إصلاح خطئهم، بل يلاقيهم العذاب حال مفارقتهم للحياة الدنيا.

٨٩ - إلّا الذين رجعوا إلى ربهم بالتوبة النصوح من بعد ارتدادهم وكفرهم، وضمّوا إلى التوبة الأعمال الصالحة، فإنّ الله يقبلها، فهو كثير السّتر لذنوبهم، دائم الرحمة بهم، يتفضّل عليهم بالعفو وإعطاء الثواب العظيم في الآخرة.

٩٠ - إنّ الذين كفروا بالله وسّروا دلائل وجوده ووحّدانيّته بعد إقرارهم بأنّ الله خالقهم، ثم ازدادوا انحطاطاً وتسفلاً في دركات الكفر، بزيادة الجحود والإنكار والمعاندة، وكثرة الطغيان وعمل الشر، واستمروا على كفرهم إلى الممّات، لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، وأولئك البُعداء عن رحمة الله هم الذين ضلّوا عن سبيل الحق، وأخطؤوا طريق الهدى المستقيم، بسبب جهلهم وضياعهم في متاهات الأهواء والشبهات والشهوات.

٩١ - إنّ الذين كفروا وماتوا على الكفر بالله ورسوله، فلن يقبل من أحدهم قدر ما يملأ الأرض ذهباً، وكذلك لو افتدى نفسه من العذاب بملء الأرض ذهباً لم ينفعه ذلك، أولئك البُعداء المنحطون إلى جهة الدرك الأسفل من النار، الذين ماتوا على الكفر، لهم عذاب مؤلم مُوجع، وما لهم من مانعين يمنعونهم من العذاب.

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرٰهِيْمَ وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوْبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسٰى وَعِيسٰى وَالنَّبِيُّوْنَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰنِهِمْ وَشٰهَدُوا أَنَّ الرُّسُوْلَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ الْبَيِّنٰتُ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰلِمِيْنَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَیْهِمْ لَعْنَةُ اللّٰهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ ﴿٨٧﴾ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُوْنَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِيْنَ تَابَوْا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰنِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّآلُوْنَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كٰفِرًا فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلٌۢ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدٰى بِهِ ؕ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِيْنَ ﴿٩١﴾

٩٢ - لن تصلوا إلى مرتبة البر في الإنفاق في مرضاة الله حتى تنفقوا من بعض ما تحبون من جيد أموالكم وأنفسها عندكم، وما تنفقوا من أي شيء كان من طيب تحبونه أو من خبيث تكرهونه، فإن الله يعلمه ويُجازيكم عليه، فاختاروا لأنفسكم، إذا كنتم تريدون أن تكونوا من الأبرار، وترجون أحسن ما عند الله، فقدّموا لأنفسكم أحسن ما عندكم.

٩٣ - كل الأطعمة الطيبة قبل نزول التوراة كانت حلالاً لأبناء يعقوب، وليس الأمر كما تدّعي اليهود من تحريم لحوم الإبل على إبراهيم، بل كان ذلك حلالاً، وإنما حرم يعقوب على نفسه لحوم الإبل وألبانها لمرض نزل به، وذلك من قبل أن تُنزل التوراة، أما بعد نزول التوراة فقد حرم الله تعالى عليهم أشياء كثيرة من أنواع الطعام بسبب ظلمهم وبغيهم. قل لهم - يا رسول الله -: إذا كانت دعاكم تحريم الإبل في شريعة إبراهيم، فأحضروا التوراة واقرووها بإمعان عقب إحضارها حتى يتبين أن الأمر كما قلتم، إن كنتم صادقين فيما ادّعيتهم. وإنكم لو جئتم بالتوراة، وأمعتم في تفهّمها، لكذبتمكم، ولأثبتت افتراءكم على الله سبحانه.

٩٤ - إذا كنتم مُصرّين على قولكم فأنتم ظالمون لأنفسكم وللناس، فمن تعمّد الكذب على الله من بعد قراءة التوراة، وظهر الحُجّة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب ولم يكن مُحَرّماً قبله، فأولئك البُعْداء عن رحمة الله هم الكافرون المُستحقّون للعذاب؛ لأنّ كفرهم ظلم منهم لأنفسهم ولمن أضلّوه عن الدين من بعدهم.

٩٥ - قل لهم - يا رسول الله ويا كلّ داع إلى الله من أمته - : صدّق الله فيما أخبر أن ذلك النوع من الطعام صار حراماً على يعقوب وأولاده بعد أن كان حلالاً لهم، وأنتم كاذبون يا معشر اليهود، فأتبعوا ما يدعوكم إليه محمد ﷺ من ملّة إبراهيم ماثلاً عن سائر الأديان الباطلة

لَن نَّأَلُوا الْآلِهَةَ نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّيَ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْرَحَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَى سَبِيلٍ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَتَّهِلُّ الْكَافِرُ لَمْ تَكْفُرُوا بِمَا يَنْتِ اللَّهُ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَّهِلُّ الْكَافِرُ لَمْ تُصَدِّقُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبَغَّوْهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَتَّهِلُّ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فِرْقَانِ مِنَ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكَافِرُ بِرُدِّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾

إلى الدين الحق، ولم يدع مع الله إلهاً آخر، ولا عبدَ سواه، فهو بريء من مشركي قريش براءته من اليهود، فليس لأحد الفريقين أن يتمسح به، وأن يدعي أنه يسير على ملته، وهو لا يخلص في عبادة الله، ولا يتبع شريعته.

٩٦ - من أعظم شعائر ملّة إبراهيم: الحجّ إلى الكعبة، وهي أوّل بيت وضعه الله موضعاً يشترك فيه جميع الناس للعبادات، وقبلة للصلاة، ومكاناً للحجّ والطواف، الذي في مكة، وهو مبارك فائض الخيرات، تتضاعف فيه الحسنات، كثير الثمرات المادية والمعنوية، وهو موضع مُبْعَث محمد ﷺ، ومنازل وحيه، يتّجه الناس إليه في كلّ بقاع الأرض، وهو مصدر هداية للناس أجمعين.

٩٧ - في هذا البيت دلالات واضحات على حُرْمته ومزيد فضله، ومنها: الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عند بناء البيت، ومن دَخَلَ الْحَرَمَ آمِنٌ عَلَى نَفْسِهِ فَلَا يَمْسُهُ أَحَدٌ بِسَوْءٍ، ولله على الناس فرض الحجّ لمن استطاع من أهل التكليف، وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى حِجِّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، بتوفّر الاستطاعة الجسدية والمالية، وقدرة الإنسان على حماية نفسه من مخاوف الطريق إذا كانت فيه مخاوف، وَمَنْ جَحَدَ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ فَرْضِ حِجِّ بَيْتِهِ وَكَفَرَهُ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ عَنْهُ وَعَنْ حُجِّهِ، وعن جميع خلقه.

٩٨ - قل - يا رسول الله، ويا كلّ داع إلى الله من أمته - لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: لِمَ تكفرون بالآيات الدالات على نبوة محمد ﷺ؟ والله شهيدٌ حاضرٌ مُطَّلِعٌ على أعمالكم، فيُجازيكم عليها.

٩٩ - قل - يا رسول الله، وياكلّ داع إلى الله من أمته - لليهود والنصارى: لِمَ تَصْرَفُونَ عَنْ دِينِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِالْقَاءِ الشُّبْهِ وَالشُّكُوكِ، وإنكار صفة محمد ﷺ، تطلبون لدين الله زِينَةً وَمِثْلًا عَنْ الْحَقِّ؟ وتطلبون لأهلها طريقاً معوجة، وذلك بالتحريش والإغراء بينهم؛ لتختلف كلمتهم، ويختل أمرهم!! والحال أنكم عالمون علم مَنْ يُعَايِن وَيُشَاهِدُ أَنَّ نَعْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصَفَتَهُ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ، وَأَنَّ دِينَ اللَّهِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ غَيْرَهُ هُوَ الْإِسْلَامُ، وما الله بغافل عما تعملون من الصّدّ عن سبيله، وسوف يُجازيكم على ذلك.

١٠٠ - يا من آمنتم بالله وأتبعتم رسوله، إن تطيعوا - على سبيل الاحتمال الذي لا نريده لكم - جماعة من اليهود في إثارة الإحن التي كانت بينكم في الجاهلية، وتهيج الفتنة؛ كراهة لما أنتم عليه بعد الإسلام من التآخي والتراحم، يُصَيِّرُوكُمْ بتأثيرهم وتسلطهم عليكم بعد إيمانكم كافرين. وهذا النداء الإلهي هو الأول من النداءات الإلهية السبعة للمؤمنين في هذه السورة.

١٠١ - وكيف تكفرون - أيها المؤمنون - وأنتم تثنى عليكم آيات القرآن حالاً بعد حال، ورسول الله ﷺ فيكم يرشدكم إلى مصالحكم؟ وذلك يمنع من وقوع الكفر منكم، ومن يحتم بالله سبحانه مُلتجئاً إليه ومُمتنعاً به، بالإيمان به، والإسلام له، وعبادته وحده، فقد هُدي إلى طريق واضح، وهو طريق الحق المؤدي إلى الجنة. دلّت هذه الآية على أن الله عز وجل أضاء مشعلين لهداية المسلمين، لا ينطفئان إلى يوم القيامة، أما الأول: فهو آيات الله عز وجل، وأما الثاني: فهو وجود الرسول ﷺ أيام حياته، وسنته الشريفة بعد مماته.

١٠٢ - يا أيها الذين صدّقوا الله، واتبعوا رسوله، اتقوا الله اتقاء واجباً ثابتاً، وذلك بأن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، وثابتوا على الإسلام إلى الموت، حتى تلقوا الله وأنتم مسلمون مُدعون للحق. وهذا النداء الإلهي هو النداء الثاني في هذه السورة لجماعة المؤمنين.

١٠٣ - والجؤوا إلى ما يعصم من الهلاك والضّر والأذى وتسلط أعدائكم عليكم، واجتماعهم ضدكم، بالتمسك بشريعة الله المحكمة، واقتضوا عليها بشدة حتى تظفروا بالعصمة المنجية من الهلاك، حال كونكم مجتمعين، ولا تأخذوا بجزء منها دون جزء، فإنها كل لا تقبل التجزئة، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى، وابتعدوا عن كل أسباب الفرقة والخلاف والشقاق، واذكروا - يا معشر العرب - نعمة الله عليكم بالإسلام إذ كنتم قبل الإسلام أعداء مُتفرقين، فألف بالإسلام وبنبيه ﷺ بين قلوبكم، فصرتُم برحمته وبدينه إخواناً مُتحابين، وكنتم - يا معشر الأوس والخزرج - على طَرَف حُفرة من النار بشرككم وظلمكم وفسقكم وعدوانكم، ليس

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ يَمِينِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تَٰلَٰكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

بينكم وبين الوقوع فيها، إلا أن تموتوا على كفركم، فخلصكم بالإيمان الصحيح وتعاليم الإسلام وشرائعه من الوقوع في النار. وما كان سبب إنقاذكم من قبل، وسبب وحدتكم وقوتكم هو السبب الذي سيظل أبداً الدهر لإنقاذكم ووحدة قوتكم؛ مثل ذلك البيان البليغ يُبين الله لكم آيات القرآن؛ رغبة أن تهتدوا إلى الحق والصواب، وتُقارنوا بين ما كنتم عليه في جاهليتكم قبل الإسلام، وما تحوّلتم إليه بالإسلام الذي كان نعمة سيقت من الله سبحانه إليكم.

١٠٤ - ولتكن منكم - أيها المؤمنون - جماعة دعاء إلى ما فيه صلاح الناس جميعاً في دينهم ودنياهم، وتأمر بكل فعل حسن يُستحسن في الشرع والعقل، وتنهى عن كل ما عُرِف في الشرع والعقل قبحه، داخل جماعات المسلمين الذين عرفوا أوامر الدين، وعرفوا حُسْنَهَا، وعرفوا نواهي الدين، وعرفوا قُبْحَهَا، وأولئك ذوو المنزل الرفيعة عند الله الذين قاموا بوظيفتي الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم الفائزون بكل مطلوب، الظافرون بالنعيم المقيم والسعادة الخالدة.

١٠٥ - ولا تكونوا - يا معشر المؤمنين - كأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين تفرّقوا بسبب العداوة وأتباع الهوى، واختلفوا في دين الله وأمره ونهيه من بعد ما جاءهم الحُجَج الواضحات، فعلموها ثم خالفوها، ولهؤلاء الذين تفرّقوا واختلفوا عذاب عظيم في الآخرة.

١٠٦ - اذكروا يوم تَبْيَضُّ وجوه المؤمنين من شدة الفرح والسرور، وتَسْوَدُّ وجوه الكافرين من شدة الغم والحزن، فأما الكفار أهل الشقاوة الذين اسودّت وجوههم، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: أكفرتُم بعد أخذ الميثاق عليكم بالإيمان، وظهور الأدلة التي توجب الإيمان؟ فاخترتم الكفر، وجحدتم الحق وأنكرتموه؟ فادخلوا جهنم، وذوقوا مرارة العذاب بسبب استمراركم على الكفر، وموتكم عليه.

١٠٧ - وأما المؤمنون أهل السعادة الذين ابْيَضَّتْ وجوههم بنصرة النعيم، وما بُشروا به من الخير، ففي جنة الله يدخلونها برحمته، وهم في الجنة باقون دائمون.

١٠٨ - تلك آيات القرآن الرفيعة الرتبة، العالية المنزلة، نُزِّلَها عليك - يا رسول الله - مثلوة مَقْرُوءة واضحة، مُتَلَبَّسة بالحق الثابت الذي لا شك فيه، وما الله بظالم أحد من خلقه، ولا يُعاقب أحداً بغير جرم واستحقاقٍ للعقوبة؛ لأنه الحاكم العدل الذي لا يجور.

١٠٩ - والله ما في السموات وما في الأرض، وجميع ما فيهما ملكه، وأهلها عبده، وإلى الله وحده مصير جميع الخلائق: المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، فيُجازي الكل على قدر استحقاقهم، ولا يظلم أحداً منهم.

١١٠ - أنتم - يا أمة محمد ﷺ - خير أمة، أظهرت للناس، وحملت وظيفة الخروج لتبليغ الناس دين الله لهم، وهذه الخيرية قد علمها الله فيكم قبل أن يُخرجكم؛ لأن علمه يشمل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وسبب بقاء تلك الخيرية فيكم إلى أن تقوم الساعة أنكم ستظلون تأمرون داخل مجتمعكم الإسلامي بما عُرف في الشرع والعقل حسنه، وتنهون عن كل ما عُرف بالشرع والعقل قبحه، فتحمّون مجتمعكم بهذا من الانحراف الخطير والانهيار إلى الحضيض الذي بلغته الأمم قبلكم، وأنكم ستظلون تُصدّقون بالله وتخلصون له التوحيد والعبادة مهما اشتدت عليكم النكبات من الأمم الأخرى بغية إخراجكم من الإيمان إلى الكفر، ولو آمن اليهود والنصارى بمحمد ﷺ وبالدين الذي جاء به لكان خيراً لهم ممّا هم عليه من اليهودية والنصرانية. لكن القليل من أهل الكتاب استجابوا لدعوة هذا الدين فآمنوا وأكثرهم لم يؤمنوا؛ إذ منعهم فسقهم من الإيمان حتى لا يلتزموا بشرائع الإسلام وأحكامه، فيمتنعوا عما هم فيه من فسق وعصيان وكبائر فاجرة.

١١١ - لن يُضركم - أيها المؤمنون - هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب ضرراً يَبْقَى أثراً في جماعتكم، ويؤثر في قوتكم إلا ضرراً يسيراً باللسان بطعنهم في دينكم أو إلقاء الشبه والشكوك في القلوب، وإن يقاتلوكم يهربوا مؤلّين الأدبار منهزمين مخذولين، ثم لا يكون لهم النصر عليكم، بل تُنصرون عليهم.

١١٢ - جعلت الذلّة مُلصقة باليهود أينما ذهبوا وحيثما وجدوا،

فالذلّة المضروبة عليهم ثلاثتهم، لأنهم لا يستطيعون بحسب موارثهم، وتكوينهم الاجتماعي إلا أن يعملوا أعمالاً أنانية سائئة غائظة، تُثير الأمم عليهم بالغضب والحقد فتذلهم، ولا تُرفع الذلّة المضروبة عليهم إلا بحبل من الله يمدّهم فيه إمداداً ضعيفاً، وحبل من الناس يُقويهم ويعزّهم، ويجعلهم غالبين لفترة مؤقتة، ويكون ذلك لحكمة، كأن يعاقب الله بهم أمة خرجت عن منهج الحق، ثم يعيدهم إلى موقع الذلّة المضروبة عليهم المحيطة بهم، ورجعوا بغضب من الله واستوجبه، وأثبتت عليهم المسكنة بشدة وإلزام - وهي شعورهم النفسي بالفقر وإن كانوا مُوسرين، وتظاهرهم بالفقر والحاجة ليستدروا عطف الناس عليهم -؛ ذلك الذل الذي نزل بهم، والمسكنة التي أحاطت بهم، والغضب الذي حلّوا فيه؛ بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله البيانية والإعجازية والجزائية، ويقتلون الأنبياء ظلماً وعدواناً بدون شبهة حق، وما جرّأهم على هذا إلا ارتكابهم المعاصي وتجاوزهم حدود الله واعتداؤهم على حقوق الناس.

١١٣ - ليس كل أهل الكتاب مُتساوين في الاتصاف بما ذُكر من القبائح، بل منهم جماعة سلّمت منها، وأنصفت بالخير، فمن أهل الكتاب جماعة مستقيمة ثابتة على طاعة الله، كانوا قبل بعثة محمد ﷺ، يقرؤون بخشوع آيات الله من التوراة في ساعات من الليل، وهم يُصلّون ويخضعون ويخشعون لربهم.

١١٤ - يؤمنون بالله، واليوم الآخر إيماناً صادقاً، ويعملون بمقتضى إيمانهم، ويأمرون بتوحيد الله والإيمان بمحمد ﷺ والخير كله، وينهون عن الشرك والشر كله، ويبادرون إلى فعل الخيرات الجديدة التي تُعرض عليهم، فيؤمنون برسالة محمد، استجابة لأمر الله، ويطرحون عصبيّاتهم وأنانيّاتهم، وأولئك الموصوفون بتلك الأوصاف الثمانية من جملة الصالحين الذين صلّحت أحوالهم عند الله عز وجل، ورضي عنهم، واستحقوا ثناءه عليهم.

١١٥ - وما يفعلوه من أعمال الخير قل أو كثر، فلن يعدموا ثوابه، بل يشكره الله لهم، ويُجازيهم عليه بفضله، ومن كان صادقاً في تقواه فإن الله عليهم به؛ لأنه سبحانه عليهم بما في الصدور.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَتِّلُوكُم يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُ وَبَعْضٌ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُ اللَّهُ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَإِنَّا إِلَى الْبَلِّ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ مُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفِّرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

١١٦ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُدْفَعَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمُ الَّتِي يَبْذُلُونَهَا فِي إِعْدَادِ الْعِدَّةِ لِمُحَارَبَةِ دِينِ اللَّهِ، وَلَنْ تُكَفَى عَنْهُمْ أَوْلَادُهُمُ الَّذِينَ يُعِينُونَهُمْ فِي ذَلِكَ، مِنْ بَأْسِ اللَّهِ شَيْئاً، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْزَالَ بِأَسِهِ وَعِقَابِهِ فِيهِمْ، وَأُولَئِكَ الْمُنْخَطَطُونَ السَّافِلُونَ الْبُعْدَاءُ جَدّاً عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَصْحَابِ النَّارِ الْمُلَازِمُونَ لَهَا، الْمُخَالِطُونَ لِأَنْوَاعِ عَذَابِهَا، وَهُمْ فِيهَا دَائِمُونَ الْبَقَاءَ، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا يَمُوتُونَ.

١١٧ - صِفَةُ مَا يَنْفِقُ الْكَافِرُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِتُدْعِمَ قَضَايَا الْكُفْرِ، وَتَهْدِيمَ قَضَايَا الْإِيمَانِ، كَوْصَفِ قَوْمٍ حَرَثُوا أَرْضاً وَزَرَعُوهَا، فَأَنْبَتَتْ لَهُمْ نَبَاتاً حَسِناً، وَلَمْ يَنْقُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَجْمَعُوا نَتَاجِهَا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا رِيحاً فِيهَا بَرْدٌ شَدِيدٌ أَوْ سَمُومٌ حَارَةٌ مُهْلِكَةٌ، أَصَابَتْ تِلْكَ الرِّيحُ زَرْعَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَمُحَارَبَةِ دِينِ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِهِ، فَأَهْلَكَتِ الرِّيحُ الزَّرْعَ فَلَمْ يَنْتَفِعْ أَصْحَابُهُ مِنْهُ شَيْئاً، وَكَذَلِكَ تَكُونُ خِيبةُ أَعْمَالِ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا، وَعَاقِبَةُ مَا يَنْفِقُونَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِفْسَادَ أَعْمَالِهِمْ، وَأَنْزَالَ بِأَسِهِ فِيهِمْ، وَنُصْرَةَ أَوْلِيَائِهِ الصَّادِقِينَ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ، وَلَكِنَّهُمْ عَصَوْا اللَّهَ فَاسْتَحَقُّوا عِقَابَهُ الدُّنْيَوِيَّ الْمُعْجِلَ، فَأَبْطَلَ أَعْمَالَهُمْ، وَأَهْلَكَ حَرْثَهُمْ.

١١٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ: لَا تَتَّخِذُوا أَخْلَاءَ وَأَصْفِيَاءَ لَكُمْ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ، تُصَافُونَهُمْ وَتُطْلَعُونَهُمْ عَلَى أَسْرَارِكُمْ، وَيَقْدُمُونَ إِلَيْكُمْ نَصَائِحَهُمْ وَمَشُورَاتِهِمْ؛ لِلْأَسْبَابِ التَّالِيَةِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ لَا يَقْضُرُونَ فِي إِفْسَادِكُمْ، وَتَدْبِيرِ الْمَكَايِدِ ضِدَّكُمْ، وَتَوَهِينِ قَوَاكِمِ، وَتَمْزِيقِ صَفُوفِكُمْ، الثَّانِي: تَمَثُّوا مَا يَشُقُّ عَلَيْكُمْ مِنَ الضَّرَرِّ وَالشَّرِّ وَالْهَلَاكِ، وَتَتَّخِذُوا الْوَسَائِلَ لِتَحْقِيقِ مَا يَتِمُّونَ، الثَّالِثُ: قَدْ ظَهَرَتِ الْعَدَاوَةُ الشَّدِيدَةُ وَأَمَارَاتُ الْبَغْضِ الثَّابِتُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، رَغْمَ تَكْتُمُهُمْ وَتَصْنَعُهُمْ، الرَّابِعُ: مَا يَطَّوْنُ فِي صُدُورِهِمْ

مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْغِيظِ أَشَدَّ وَأَفْظَعَ مِمَّا يَظْهَرُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، أَوْ يَبْدُو فِي أَعْمَالِهِمْ. قَدْ أَوْضَحْنَا لَكُمْ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى وَجوبِ الْإِخْلَاصِ فِي الدِّينِ مِنْ مَوَالَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُعَادَاةِ الْكَافِرِينَ، فَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونَ دَلَالَاتَهَا، وَتَعْمَلُونَ بِمَقْتَضَاهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيّاً تَذْكُرُونَ فِيهِ مَا بَيَّنَّاهُ لَكُمْ، وَتَعْقِلُونَ عَقْلاً إِرَادِيّاً تَضْبِطُونَ بِهِ نَفُوسَكُمْ، وَشَهَوَاتِهَا وَأَهْوَاءَهَا. وَهَذَا النِّدَاءُ الْإِلَهِيُّ هُوَ النِّدَاءُ الثَّالِثُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ.

١١٩ - هَا أَنْتُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ - تُجِبُونَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الَّذِينَ نَهَيْتُكُمْ عَنْ اتِّخَاذِهِمْ أَخْلَاءَ مُدَاخِلِينَ، تُطْلَعُونَهُمْ عَلَى الْخَفَايَا وَالْأَسْرَارِ الْبَاطِنَةِ، وَتَرِيدُونَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ، وَلَا يَحْبُونَكُمْ لِمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمَخَالَفَةِ فِي الدِّينِ، وَيَرِيدُونَ لَكُمْ الْكُفْرَ، وَالْحَالُ أَنَّكُمْ تَوَمِّنُونَ بِالْكِتَابِ الْمُنْزَلَةِ كُلِّهَا وَمِنْهَا كِتَابُهُمْ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ كِتَابِكُمْ، وَإِذَا لَقَوْكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - قَالُوا بِفَقَاحٍ: صَدَّقْنَا كِتَابِيَكُمْ، وَنَحْنُ نَحْبِبُكُمْ وَنُودِّكُمْ، وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا: لَمْ نُؤْمِنْ، بَلْ نَحْنُ عَلَى دِينِنَا، وَأَظْهَرُوا الْعَدَاوَةَ وَشِدَّةَ الْغِيظِ مِنْكُمْ، وَعَبَّرُوا عَنْ ذَلِكَ بِوَضْعِ أُنَامِلِهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا غِيظاً وَحَقِيقاً، وَهُمْ يُشَدُّونَ عَضَّهُمْ عَلَى أُنَامِلِهِمْ، لِأَنَّهُمْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ يَعْضُونَهَا وَأَنْتُمْ فِيهَا، رَغْبَةً فِي إِيْلَامِكُمْ، وَهُمْ فِي الْوَاقِعِ يُؤْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ. قُلْ لَهُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -: ابْقُوا إِلَى الْمَمَاتِ بِغِيظِكُمْ، وَلِيَشْتَدَّ غِيظُكُمْ حَتَّى يَكُونَ سَبَباً قَاتِلاً لَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْأَسْرَارِ وَالنِّيَّاتِ وَالزُّرْعَاتِ الْمُصَاحِبَاتِ لِلصُّدُورِ، فَضْلاً عَمَّا هُوَ دُونَ ذَلِكَ فِي الْخَفَاءِ، مِمَّا يُبَيِّنُونَهُ ضِدَّ الْمُؤْمِنِينَ.

١٢٠ - وَمِنْ عِلَامَاتِ نِفَاقِهِمْ: إِنْ تَمَسَّسْتُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - حَسَنَةً - وَلَوْ مَسّاً رَفِيقاً بِأَقْلٍ مَقْدَارٍ - مِنْ مَنَافِعِ الدُّنْيَا، تُحْزَنُهُمْ وَتَغْمُهُمْ، وَإِنْ وَقَعَ بِكُمْ مَسَاءَةٌ - وَلَوْ كَانَتْ إِصَابَةٌ بِالْغَةِ شَدِيدَةً - يَفْرَحُوا بِمَا أَصَابَكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَكْرُوهِ، وَيَكِيدُونَكُمْ بِمُخْتَلَفِ الْوَسَائِلِ، فَاصْبِرُوا، وَخَافُوا رَبَّكُمْ، وَاحْذَرُوا مَكَايِدَهُمْ، وَإِنْ تَصَبَرُوا عَلَى أَذَاهُمْ، وَتَخَافُوا رَبَّكُمْ، وَتَتَّقُوا كَيْدَهُمْ، وَتُرَاقِبُوا تَحَرُّكَاتِهِمْ، لَا يَضُرُّكُمْ عِدَاوَتُهُمْ وَمَكْرُهُمْ شَيْئاً؛ لِأَنَّكُمْ فِي عَنَاءِ اللَّهِ وَحِفْظِهِ، إِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ مِنْ عِدَاوَتِكُمْ وَأَذَاكُم، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ كَيْدِهِمْ، وَسَيُحِيطُ كُلُّ مَا يُدَبِّرُونَ، وَسَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ.

١٢١ - وَاذْكُرْ لَهُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - حِينَ خَرَجْتَ مُبَكِّراً إِلَى غَزْوَةِ أَحَدٍ مِنْ مَنَازِلِ عَائِشَةَ لَابِساً عِدَّةَ الْحَرْبِ، تُنْزِلُ الْمُؤْمِنِينَ، وَتُثَبِّتُهُمْ لِهَمِّ التَّنْظِيمِ وَالتَّرْتِيبِ مَوَاقِعَ لِلْقِتَالِ لِلِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ «أَحَدٍ»، وَاللَّهُ سَمِيعٌ لِدَعَائِكُمْ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَحْوَالِ عَدُوِّهِمْ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾
مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُؤُكُمْ خَبَلاً وَلَا دُؤلاً وَمَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
هَاتَمْتُمْ أَوْلَاءَ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا ءَمْنَا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَنْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغِيظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغِيظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾
تَبَوَّءَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

١٢٢ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي لبيانا - ما كان من أمر بني سَلَمَةَ وبني حارثة حين تحرّكت أنفسهم لتنفيذ ما اتّجهت رغبتهم إليه بالرجوع مع زعيمهم عبد الله بن أبي، خوفاً من لقاء المشركين، فعصمهم الله، فثبتوا ومضوا مع رسول الله ﷺ، والله ناصرهما وحافظهما ومُتَوَلِّي أمرهما، وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون، فلا يتوكلوا إلا عليه، ولا يُفوضوا أمرهم إلا إليه، مع قيامهم بالأسباب التي دعا سبحانه إلى اتّخاذها.

١٢٣ - ونؤكد لكم - أيها المؤمنون - أن الله نصركم يوم «بدر»، وأنتم ضعفاء؛ لقلّة العدد والسلاح والمال، فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ رغبة أن تشكروا بتقواكم ما أنعم الله به عليكم من النصر.

١٢٤ - واذكر - يا رسول الله - ما كان من الوهن الذي أصاب بعض المؤمنين يوم أحد، فأوحينا إليك أن تقول لهم: ألن تكفيكم معونة الله بأن يُمدّكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُساوياً لعدد المشركين يوم أحد، مُنزّلين من السماء إلى أرض المعركة؛ لتقوى قلوبكم، وتثقوا بنصر الله؟

١٢٥ - بلى يكفيكم الإمداد بهم، وإنْ تصبروا على لقاء عدوكم، وتثقوا بمعصية الله ومخالفة نبيه ﷺ، ويأت المشركون من ساعتهم غضباً لقتالهم يوم بدر، يُمدّكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مع الثلاثة آلاف المُتقدّمة، مُعلّمين أنفسهم وخيولهم بعلامات مخصوصة.

١٢٦ - وما جعلَ الله هذا الوعدَ والمددَ إلا بشارَةً لكم بأنكم تُنصرون، وتُسكن قلوبكم به، فلا تُجزعوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم، وما النصرُ إلا من عند الله القويّ الغالب الذي لا يُغالب، الحكيم في تدبيره وفعله. فبِعَزَّتْهُ ينصر، وبِحكْمَتِهِ يقضي بنصره

للمؤمنين الصابرين الصادقين على الكافرين المُصرّين المُعاندين الصّادّين عن سبيل الله.

١٢٧ - وما النصر إلا كائن من عند الله؛ لِهَيْلِكَ طائفة من الذين كفروا، فينقص من عددهم بالقتل والأسر، ومن أرضهم بالفتح، ومن سلطانهم بالقهر، أو يصرفهم مهزومين أذلاء مقهورين، فيرجعوا بالْحَيَبَةِ والألم النفسي لم ينالوا شيئاً من الذي أُمِّلوه من الظفر بكم، والنصر عليكم.

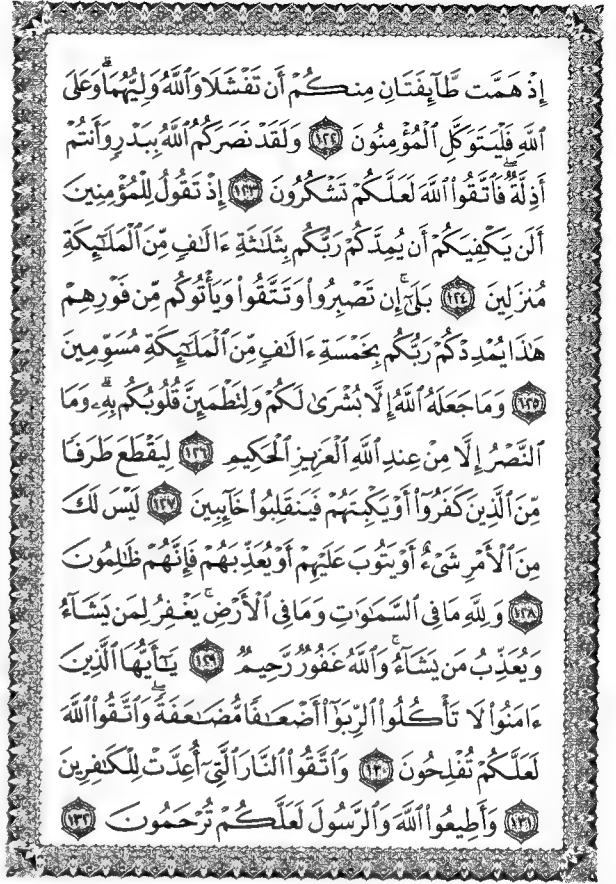
١٢٨ - ليس لك - يا رسول الله - من أمر مصالح عبادي شيء إلا ما أوحى إليك، فإنَّ الله تعالى هو مالك أمرهم، وأنت عبدٌ مأمورٌ بدعوتهم، فإذا أن يتوب عليهم إن أسلموا ورجعوا ففرح بتوبتهم، أو يُعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر إذا أصرُّوا على كفرهم، فترى آية الله فيهم، وصدق وعده لأتباعه. وسبب تعذيبهم أنهم ظالمون؛ لأنهم اعتدوا على النبيّ والمؤمنين.

١٢٩ - إنّما الأمر يكون لمن له ما في السموات وما في الأرض، وليس ذلك إلا لله تعالى، وليس لأحد معه أمر، يغفر لمن يشاء بفضلِهِ ورحمته، ويعذب من يشاء بعدله، ومشيتُهُ لا تفارق حكمته، والله كثير السَّتر لذنوب عباده، دائم الرحمة بهم.

١٣٠ - يا أيها الذين صدّقوا الله وأتبعوا رسوله: لا تأخذوا في القرض زيادة على رؤوس أموالكم، وإن قلّت، فكيف إذا كانت هذه الزيادة تتضاعف أضاعافاً مضاعفة عند حلول الدَّيْنِ وتأخير الأجل؟ واجعلوا بينكم وبين غضب الله وقاية، فأطيعوه في أوامره ونواهيه لأجل أن تظفروا بالنجاة والسعادة العظيمة في الدنيا والآخرة. وهذا النداء الإلهي للمؤمنين هو النداء الرابع في هذه السورة.

١٣١ - واجعلوا - أيها المؤمنون - بينكم وبين النار التي أعدّها الله للكافرين وقاية، فلا تستحلُّوا شيئاً ممَّا حرَّم الله، فإنْ من استحلَّ شيئاً ممَّا حرَّم الله فهو كافرٌ يستحقُّ النار.

١٣٢ - وأطيعوا الله - أيها المؤمنون - فيما أمركم به من الطاعات، أو نهاكم عنه من أكل الربا وغيره من المحرمات، وأطيعوا الرسول أيضاً؛ لأنَّ طاعته ﷺ طاعة لله سبحانه؛ رغبة أن تُرحموا ولا تُعذبوا إذا أطعتم الله ورسوله، فإنَّ طاعة الله مع معصية رسوله، ليست بطاعة مقبولة.



١٣٣ - وَبَادِرُوا وَسَابِقُوا إِلَى مَا يُوجِبُ الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّكُمْ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الْمَأْمُورُ بِفَعْلِهَا، وَسَارِعُوا إِلَى جَنَّةٍ وَاسِعَةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ صِفَةً عَرْضُهَا فَكَيْفَ بَطُولُهَا؟ هُيُتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ الْمُتَّقِينَ لِأَوَامِرِهِ، وَالْمُجْتَنِبِينَ لِنَوَاهِيهِ.

١٣٤ - وَمِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ: أَنَّهُمْ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِدَوَامٍ وَاسْتِمْرَارٍ فِي الْيُسْرِ وَالسَّعَةِ فِي الرِّزْقِ، وَالْعُسْرِ وَالشَّدَةِ وَالضِّيقِ، فَلَا يَتْرَكُونَ الْإِنْفَاقَ فِي كُلِّ الْحَالَتَيْنِ، لَا تُبْطِرُهُمِ السَّعَةُ، فَيَنْسَوْنَ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَلَا تَفْسِدُ نَفْسُهُمُ الشَّدَّةَ وَالضِّيقَ وَالْمَصَائِبَ فِي الْأَمْوَالِ أَوْ الْأَنْفُسِ، فَيُمْسِكُوا وَيَسْخَرُوا وَيَمْنَعُوا مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَأَمْدَحَ الْمُتَّقِينَ الْغَيْظَ عِنْدَ امْتِلَاءِ نَفْسِهِمْ مِنْهُ، فَلَا يُظْهِرُونَهُ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ، وَأَمْدَحَ الْعَافِينَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَأَسَاءَ إِلَيْهِمْ، وَأَمْنَحَهُمْ مَحَبَّةً مِنِّي، إِذَا ارْتَقَوْا إِلَى مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْعَمَلَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَامُوا بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مَعَ الْإِخْلَاصِ لَهُ، وَصَدَقَ التَّوَجُّهُ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ مُشَاهِدِينَ أَوْ مُرَاقِبِينَ، وَأَحْسَنُوا الْعَمَلَ مَعَ خَلْقِ اللَّهِ، وَثَبَّتَهُمْ عَلَى إِحْسَانِهِمْ، وَبَدَّخَلَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَحَبِّهِ اللَّهُ أَكْرَمَهُ، وَأَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ.

١٣٥ - وَمِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ: أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا فِعْلَةً بِالْغَةِ فِي الْقَبِيحِ كَالزِّنَى، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بَارْتِكَابِ أَيِّ ذَنْبٍ، ذَكَرُوا اللَّهَ فَتَجَلَّتْ لَهُمْ صِفَاتُ عَدْلِهِ وَصِفَاتُ رَحْمَتِهِ، فَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ بَيْنَ الْخَوْفِ الَّذِي يُحَذِّرُهُمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، وَالرَّجَاءِ الَّذِي يُطْمَعُهُمْ بِعَفْوِ اللَّهِ، فَلَجَّزُوا إِلَى اللَّهِ فِي طَلَبِ الْعَفْوِ وَالسَّتْرِ لِأَجْلِ ذُنُوبِهِمْ فَتَابُوا مِنْهَا، وَأَقْلَعُوا عَنْهَا نَادِمِينَ عَلَى فَعْلِهَا، عَازِمِينَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودُوا إِلَيْهَا، - وَلَا أَحَدٌ يَسْتَرْ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، فَلَا مَفْزَعَ لِلْمُذْنِبِينَ إِلَّا إِلَى فَضْلِ اللَّهِ وَكَرَمِهِ

وإِحْسَانِهِ وَعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ - وَلَمْ يَقِيمُوا عَلَى الذُّنُوبِ وَلَمْ يَثْبُتُوا عَلَيْهَا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا مَعْصِيَةٌ، وَأَنَّ لَهُمْ رَبًّا يَسْتَرُهَا، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ لَا يَتَعَاطَاهُ الْعَفْوُ عَنِ الذُّنُوبِ وَإِنْ كَثُرَتْ. وَفِي الْآيَةِ تَطْيِيبٌ لِنَفُوسِ الْعِبَادِ، وَتَنْشِيطٌ لِلتَّوْبَةِ، وَبَعَثٌ عَلَيْهَا، وَرَدْعٌ عَنِ الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ، وَبَيَانٌ لِسَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَقُرْبِ مَغْفِرَتِهِ مِنَ التَّائِبِ، وَإِشْعَارٌ بِأَنَّ الذُّنُوبَ وَإِنْ جَلَّتْ فَإِنَّ عَفْوَهُ أَجَلٌ، وَكَرَمُهُ أَعْظَمُ.

١٣٦ - أُولَئِكَ الْمَوْصُوفُونَ بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ الْخَمْسَةِ جَزَاءُهمُ الْأَمْنُ مِنَ الْعِقَابِ بِسِتْرِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِيصَالُ الثَّوَابِ بِدُخُولِهِمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ قُصُورِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِي الْجَنَاتِ، وَنِعْمَ ثَوَابُ الْمُطِيعِينَ الْجَنَّةَ.

١٣٧ - قَدْ انْقَضَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَقَائِعُ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ، أَجْرَاهَا اللَّهُ حَسَبَ عَادَتِهِ بِالْهَلَاكِ وَالِاسْتِثْصَالِ؛ لِأَنَّهُمْ خَالَفُوا الرِّسْلَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَإِذَا كَانَتْ سَنَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، فَسَيَرُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - فِي الْأَرْضِ، وَتَعَرَّفُوا سَنَنَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ آخِرُ أَمْرِ الْمُكَذِّبِينَ مِنَ الْهَلَاكِ، فَلَا تَحْزَنُوا لَغَلْبَتِهِمْ فَإِنَّمَا أَمَلُهُمْ لَوْقَتِهِمُ الْمُقَدَّرَ لِإِهْلَاكِهِمْ.

١٣٨ - هَذَا الْقُرْآنُ بَيَانٌ لِلنَّاسِ عَامَةً، وَإِرْشَادٌ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ، وَتَذَكِيرٌ وَنَصِيحٌ مَقْرُونٌ بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ فِي النَّفْسِ يَنْتَفِعُ بِالنَّصِيحِ، وَيَتَّبِعُ مَا هَدَى إِلَيْهِ الْمُتَّقُونَ الْمُتَمَثِّلُونَ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْمُتَّهِنُونَ عَنْ نَوَاهِيهِ.

١٣٩ - وَلَا تَسْتَرْسِلُوا فِي الْهَمِّ وَالْمِ نَفْسٍ مِمَّا نَالَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ يَوْمَ «أَحَدٍ»، وَلَا تَضَعِفُوا عَنِ الْجِهَادِ، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ عَقِيدَةً وَمَنْجَعًا وَشَأْنًا وَنَصْرًا وَغَلْبَةً عَلَى الْكَافِرِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لَكُمْ إِذَا كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا.

١٤٠ - إِنْ يُصِيبْكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - جَرَّاحٌ أَوْ قَتْلٌ فِي غَزْوَةِ «أَحَدٍ»، فَقَدْ أَصَابَ الْكَفَّارَ جَرَّاحٌ وَقَتْلٌ مِثْلُهُ يَوْمَ «بَدْرٍ». فَلَا نَصْرَ يَدُومَ، وَلَا هَزِيمَةَ تَدُومَ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَجْعُهَا إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا، وَنِعْمَةٌ وَمَصِيبَةٌ، وَنَصْرًا وَهَزِيمَةً، فَحِكْمَةُ امْتِحَانِ النَّاسِ تَقْتَضِي ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَتْ قَوَانِينُ الْجَزَاءِ الْمُعْتَبَلِ حَتْمِيَّةً كَقَوَانِينِ طَبَائِعِ الْأَشْيَاءِ، لَمَا كَانَتْ لِلْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ خِيَارٌ فِي الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَلَكِنْ اللَّهُ سَبْحَانَهُ سَتَرَ جَزَاءَهُ بِالتَّدَاوُلِ بَيْنَ النَّاسِ، كَمَا سَتَرَ مَقَادِيرَهُ بِالْأَسْبَابِ؛ لِتَكُونَ الْإِسْتِقَامَةُ ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا قَصْدُوقًا جِهَادًا وَصَبْرًا، وَلِيَعْلَمَ أَيْضًا ضَعْفَاءَ الْإِيمَانِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَلِيَكْرِمَ قَوْمًا مِنْكُمْ بِالشَّهَادَةِ مِمَّنْ أَرَادَ أَنْ يَكْرِمَهُمْ بِهَا، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ لَا يَكُونُ ثَابِتًا عَلَى الْإِيمَانِ، صَابِرًا عَلَى الْجِهَادِ، وَمَنْ جَعَلَ نَفْسَهُ بِإِرَادَتِهِ فِي زِمْرَةِ الَّذِينَ لَا يُحِبُّهُمْ اللَّهُ، فَقَدْ جَعَلَهَا عُزْضَةً لِنَقْمَتِهِ وَعَذَابِهِ الشَّدِيدِ.

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَظِيمِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى
مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهمُ مَغْفِرَةٌ
مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَنِعَمٌ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ
﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسِكْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾



١٤١ - وَلِيُطَهِّرَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُصَفِّهِمُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَمِمَّا كَانَ يَشُوبُ قُلُوبِهِمْ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا، وَيُخَلِّصَهُمْ مِمَّنْ كَانُوا يُخَالِطُونَهُمْ مِنْ ضَعَافِ الْإِيمَانِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَيَنْقُصَ الْكَافِرِينَ وَيُهْلِكَهُمْ شَيْئًا فَنِيًّا.

١٤٢ - بَلْ أَظُنُّكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، وَتَنَالُوا كِرَامَتِي وَثَوَابِي، وَلَمَّا يَسْتَبِينَ لَكُمْ أَمْرُكُمْ، وَيُظْهِرَ عِلْمُ اللَّهِ الْوَاقِعَ فِيكُمْ وَاقِعًا مُحَسَّنًا، بَعْدَ أَنْ كَانَ خَفِيًّا عَنْكُمْ؟ فَالْبَتَاءُ الشَّدِيدُ أَظْهَرَ الْمَجَاهِدِينَ الثَّابِتِينَ الَّذِينَ يُجَالِدُونَ عَدُوَّهُمْ وَلَا يَفِرُّونَ، وَفَشَلَ فَرِيقٌ مِنْ إِيْوَائِهِمْ، وَأَظْهَرَ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ لَمْ يَذْهَبْ تَفْكِيرُهُمْ، وَلَمْ يَضَعْ رُشْدُهُمْ، وَجَزَعَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ. فَالطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ مُحْفُوفٌ بِالشَّدَائِدِ وَالْمَكَارِهِ، لَا يَصِلُ إِلَى غَايَتِهِ إِلَّا الَّذِينَ قَاتَلُوا وَقُتِلُوا وَبَذَلُوا مُهْجَهُمْ لِرَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَصَبَرُوا عَلَى مَا نَالَهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ مِنْ جِرَاحٍ وَأَلَمٍ وَمَكْرُوهٍ، وَثَبَّتُوا أَمَامَ عَدُوِّهِمْ.

١٤٣ - وَأَقْسَمُ مُؤَكَّدًا لَكُمْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - تَطْلُبُونَ أَسْبَابَ الْمَوْتِ بِالْقِتَالِ وَالْجِهَادِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقُوا الْعَدُوَّ يَوْمَ «أَحَدٍ»، وَإِذَا كُنْتُمْ تَمْتَنُّونَ الْمَوْتَ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ بِأَعْيُنِكُمْ مَا كُنْتُمْ تَمْتَنُّونَ، شَاهِدِينَ قَتْلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، وَأَنْتُمْ تَنْتَظِرُونَ مَا تَمْتَنُّونَ فَلِمَ انْهَزِمْتُمْ؟

١٤٤ - وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَدْ مَضَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، فَسِمِضِي مُحَمَّدًا ﷺ كَمَا مَضَتْ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِهِ، فَكَمَا أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ بَقُوا مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِهِمْ بَعْدَ مُضِيِّ أَنْبِيَائِهِمْ، فَعَلَيْكُمْ أَنْتُمْ أَنْ تَتَمَسَّكُوا بِدِينِهِ بَعْدَ مُضِيِّ وَمَوْتِهِ ﷺ أَوْ قَتْلَهُ لَا يُوجِبُ ضَعْفًا فِي الدِّينِ وَلَا رَجُوعًا عَنْهُ. إِذَا مَاتَ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مَوْتَهُ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ، أَوْ قُتِلَ فِي مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ كَمَا أَشَاعَ الْأَعْدَاءُ، عُذِمَ كَفَارًا بَعْدَ أَنْ آمَنْتُمْ، وَضَلَّالًا بَعْدَ أَنْ اهْتَدَيْتُمْ!! وَمَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ وَيَرْجِعْ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا بَارْتِدَادِهِ؛ لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، وَإِنَّمَا يَضُرُّ الْمُرْتَدَّ نَفْسَهُ، وَسَيُثِيبُ اللَّهُ الثَّابِتِينَ عَلَى دِينِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا عَنْهُ؛ لِأَنَّهُمْ احْتَمَلُوا الْبَلَاءَ، وَثَبَّتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَتَجَاوَزُوا حُدَّ الصَّبْرِ إِلَى حُدِّ الشُّكْرِ عَلَى هَذِهِ الْكُرْهَةِ مِنْ غَيْرِ تَمَلُّلٍ وَتَضَجُّرٍ.

١٤٥ - وَمَا تَحَقَّقَ وَمَا ثَبَّتَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ وَعِلْمِهِ، وَاللَّهُ كَتَبَ لِكُلِّ نَفْسٍ أَجَلًا مُؤَقَّتًا بِوَقْتٍ مَعْلُومٍ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى تَقْدِيمِهِ أَوْ تَأْخِيرِهِ، فَاحْرَصُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - عَلَى الْجِهَادِ، وَتَشَجَّعُوا عَلَى لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ، فَإِنَّ الْحَذَرَ وَالْحَرَصَ عَلَى الْحَيَاةِ لَا يَمْنَعَانِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ، وَمَنْ يَطْلُبُ بِعَمَلِهِ عَرَضَ الدُّنْيَا كَالْمَالِ، وَالْمَجْدِ، وَالثَّنَاءِ، وَالْمَنَاصِبِ وَالْمَرَاتِبِ، نَعَطَهُ مَا قَسَمْنَا لَهُ مِنْ رِزْقٍ، وَلَا حَظَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ يَطْلُبُ بِعَمَلِهِ الْآخِرَةَ، وَيَقْصِدُ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، تُؤْتِيهِ ثَوَابُهُ فِيهَا، بِالْجَزَاءِ الْعَظِيمِ، وَالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ، فِي جَنَّاتِ خَالِدَاتٍ، وَسَنَجْزِي الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِينَ الَّذِينَ لَمْ يَشْغَلْهُمْ شَيْءٌ عَنِ الْجِهَادِ، وَلَمْ يَرِيدُوا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ.

١٤٦ - وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَاتَلَ مَعَهُمْ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِعْزَازِ دِينِهِ، عُلَمَاءُ أَتَقِيَاءَ كَثِيرُونَ، فَأَصَابَهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ قُرُوحٌ وَجِرَاحَاتٌ، فَمَا جَبُّوا عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ جُرُوحٍ أَوْ قَتْلٍ، وَمَا ضَعُفُوا عَنْ مُجَاهَدَةِ عَدُوِّهِمْ، وَمَا خَضَعُوا لَهُمْ، بَلْ اسْتَمَرُّوا عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، لِأَنَّ الَّذِي أَصَابَهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَكَانَ يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ - يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ -، وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ فِي الْجِهَادِ، وَيُثِيبُهُمْ عَلَى صَبْرِهِمْ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَحَبِّهِ اللَّهُ أَكْرَمَهُ، وَأَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ.

١٤٧ - وَمَا كَانَ قَوْلُ هَؤُلَاءِ الصَّابِرِينَ إِلَّا أَنْ قَالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا تَقْصِيرَنَا فِي حَقِّكَ، وَتَجَاوَزْنَا أَمْرَكَ، وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا؛ لَكِي لَا تَزَلَ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ جَحَدُوا وَحْدَانِيَّتِكَ وَنُبُوَّةَ أَنْبِيَائِكَ.

١٤٨ - فَأَعْطَى اللَّهُ أَوْلَئِكَ الصَّابِرِينَ ثَوَابَ الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ وَالْغَنِيمَةِ وَقَهْرِ الْأَعْدَاءِ وَالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ وَغُفْرَانِ الذُّنُوبِ، وَالثَّوَابِ الْحَسَنِ فِي الْآخِرَةِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ الْمَقِيمِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ رَاقَبُوا اللَّهَ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَأَتَقَنُوا الْعَمَلَ فِي جِهَادِهِمْ، وَصَبَرُوا عَلَى الشَّدَائِدِ وَالْمَكَارِهِ، وَيُثِيبُهُمْ عَلَى إِحْسَانِهِمْ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَحَبِّهِ اللَّهُ أَكْرَمَهُ، وَأَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ.

وَلِيُخَصِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾
حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَلْبًا مُوجَلًّا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

١٤٩ - يا أيها الذين صدّقوا الله، وأتبعوا رسوله، إن تطيعوا الذين كفروا من اليهود والنصارى والمنافقين فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه، يُرجعوكم إلى الكفر بالله بعد الإيمان به، فتعودوا مغبونين في الدنيا بطاعة الكفار والتذلل لهم، مغبونين في الآخرة بدخول النار وحرمان دار القرار. وهذا هو مطلب الكافرين أن يردّوكم عن دينكم، ويُرجعوكم إلى موضع الذلّة، فإن أطعتموهم فقد حقّقتم لهم مقصدهم، وأصبحت زمام أموركم بأيديهم. وهذا النداء الإلهي للمؤمنين هو النداء الخامس في هذه السورة.

١٥٠ - إنكم إنما تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم، وهم عاجزون عن نصر أنفسهم فضلاً عن غيرهم، فاطلبوا النصّر من الله تعالى، فهو ناصركم وحافظكم، وهو سبحانه خيرُ الناصرين، ومن كان الله ناصره، فإنه لا محالة غالب.

١٥١ - سنقذف في قلوب الذين كفروا أشدّ الفزع والخوف منكم، حتى تقهروهم ويظهر دينكم على سائر الأديان، وسبب إلقاء الرعب في قلوبهم: إشراكهم بالله دون دليل شرعي مُنزّل من عند الله، مثبت لما يدعون، ولن يستطيعوا الإتيان به، لأن الله لم ينزل شيئاً من ذلك. ومسكنهم في الآخرة النار، وبشّ المسكن الذي يستقرون به ويقيمون فيه؛ وفاقاً لظلمهم أنفسهم، وفتنة المؤمنين عن دينهم.

١٥٢ - وأقسم مؤكّداً لكم أنّ الله حقّ لكم وعده بالنصر والظفر في «أحد»، حين كنتم تقتلون الكفار قتلاً ذريعاً مُتتابعاً، وتزيحونهم عن مواقعهم، ومحطّ رحالهم بعلم الله وأمره، وتأبيده وتثيته، فلولا أنّ الله سبحانه أذن لكم بذلك إذناً دينياً، وإذناً قديراً بالتمكين، وتيسير الأسباب، ما استطعتم أن تتسلطوا عليهم بسيفوكم، وتخلّوهم عن موقعهم، واستمرّ ظهوركم على عدوكم، وانتصاركم عليهم، إلى أن

كان منكم الضعف والفزع والجبن عندما هجم العدو عليكم من وراء ظهوركم، فاختلف نظامكم، ووقع الخلاف بينكم حول متابعة القتال والثبات في المواقع، وتفرّق صفوفكم، وترك معظم الرماة مواقعهم، طمعاً في حيازة الغنائم، فالسبب المباشر للفشل هو التنازع في الأمر، وسبب التنازع الذي حصل في «أحد» هو معصية من عصى من المسلمين أمر الرسول، ومخالفتهم لإخوانهم، وتمزيقهم للصف، فمنعكم الله النصر، من بعد ما أراكم ما تُحبّون - يا معشر المسلمين - من النصر والظفر والغنيمة، وكان السبب الداخلي في النفوس الذي جرّ إلى المعصية والتنازع والفشل هو إرادة مطامع الدنيا من العصاة، منكم - أيها المحاربون - الذين تركوا المركز وأقبلوا على الغنيمة، ومنكم الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جُبَيْر حتى قُتلوا، ثم ردّكم - يا معشر المسلمين - عن المشركين، وحوّلهم عن التسلّط عليهم بالقتل؛ ليختبر صدق إيمانكم وثباتكم على الحقّ، ويكشف أحوال مُريدي الدنيا ومريدي الآخرة، ولقد عفا الله عنكم، ومحا أثر ذنبيكم - أيها المُخالفون أمر رسول الله ﷺ - حيث ندمتم على ما فرط منكم، والله صاحب فضلٍ على عباده المؤمنين؛ لأنه نصرهم أولاً، ثم عفا عن المذنبين ثانياً.

١٥٣ - اذكروا عند كل قتال لعدوكم حالكم في غزوة «أحد»، حين ذهبتم في الأرض وأبعدتم فيها، هائمين منطلقين، منهزمين هاربين من أعدائكم في كلّ اتّجاه، ولا تلتفتون على أحد من شدّة الهرب وخوف العدو، كلّ واحد منكم يطلب النجاة لنفسه. والرسول ﷺ ثابت في موقف البأس الشديد يناديكم في آخر الجيش ومن ورائكم قائلاً: إني عباد الله، وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون، فجازاكم بفراركم عن نبيكم ﷺ، وضعفكم عن عدوكم جزاء تأديبٍ وتربية، فأُنزل بكم ألماً وضيقاً وغماً مُتصلاً بآلم وضيق وغم؛ لتمرّنوا على تجرّع الغموم، فلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر وغنيمة، ولا ما أصابكم من قتل وهزيمة، فالإيمان الصادق يستلزم أن تُسلموا لحكمة الله دائماً فيما تجري به مقاديره، سواء نزل بكم ما تُحبّون أو تكرهون، ومتى رسّخت في قلوبكم هذه الحقيقة لم تحزنوا على ما فاتكم ممّا تُحبّون. وتصاريفه سبحانه في نصره وعدم نصره، مظاهر لحكمته المُستندة إلى علمه وخبرته، والله عليم بجميع أعمالكم خيرها وشرّها، علماً كاملاً شاملاً، علم حضور وشهود وتدبير، فإذا كان ما تعملون يقتضي بحسب حكمته أن ينصركم نصركم، أو أن يصرفكم عن عدوكم صرفكم، أو أن ينزل الغم فيكم أنزله، فارجعوا إلى نفوسكم فلوموها، وسلموا لله سبحانه في قضائه وقدره، واعلموا أنّ الله عزّ وجلّ لا يقضي إلا ما فيه الحكمة والخير.

يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي
فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ
مَثْوًى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ
وَعْدَهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ
مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ
مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ
وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِكُمْ
عَمَّا بَيْنَكُمْ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرُ رِيَّاعٍ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾



١٥٤ - ثُمَّ كَانَ مِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ بِكُمْ أَنْ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ - يَا مُعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ - مِنْ بَعْدِ الْكَرْبِ الَّذِي أَصَابَكُمْ أَمْنًا، كَانَ مَظْهَرُهُ نَعَاسًا أَطْمَأَنَّتْ فِيهِ النُّفُوسُ، وَاسْتَرَخَتْ الْأَعْضَاءُ، يُغْطِي النَّعَاسُ وَيَسْتَرُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَصْرِفُ الْأَذْهَانَ عَنِ التَّفَكُّرِ فِيمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ مَصِيبَةٍ، وَعَنِ الْوَسَاوِسِ الْمُزَعِجَةِ، وَيَصْرِفُ النُّفُوسَ عَنِ الْخَوْفِ وَالْقَلْقِ وَالْاضْطِرَابِ، وَعَنِ الْاهْتِمَامِ بِذَوَاتِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ وَضَعَاءُ الْإِيمَانِ فَلَمْ يُلْقَ عَلَيْهِمُ النَّعَاسُ، لَا يَهْمُهُمْ إِلَّا هُمْ أَنْفُسُهُمْ وَخِلَاصُهَا لَا هُمْ الدِّينَ، وَلَا هُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ، يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنًّا غَيْرَ الظَّنِّ الْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُظَنَّ بِهِ كَظَنِّ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ. يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ مُكَرَّرِينَ مَقَالَتَهُمْ: لِمَ يَكُنْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ أَقَلُّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَكُنْ لِرَأْيِنَا اعْتِبَارٌ، وَنَحْنُ أَهْلُ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ وَالْحِكْمَةِ؟ قُلْ - يَا رَسُولُ اللَّهِ - لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ: لَيْسَ الْأَمْرُ لِي وَلَا لَكُمْ، وَلَا لِلْفَرِيقِ الْآخِرِ الَّذِي كَانَ مُتَحَمِّسًا لِلخُرُوجِ، بَلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وَبِيَدِهِ، يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، وَيُدَبِّرُهُ كَيْفَ يُحِبُّ، وَمِنْ مَنَاجِحِهِ: الْعَمَلُ بِالشُّرَى، وَالْأَخْذُ بِرَأْيِ الْأَكْثَرِيَّةِ الْمُؤْمِنَةِ، مَا لَمْ يَنْزِلْ مِنْ لَدُنْهِ أَمْرٌ خَاصٌّ، وَقَدْ أَقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ فَوْقَ ذَلِكَ أَنْ يَمْتَحِنَ جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ. يُخْفَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّكِّ فِي وَعْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا لَا يُظْهِرُونَ لَكَ. يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا عَقْلٌ لَمْ نَخْرُجْ مَعَ مُحَمَّدٍ إِلَى الْقِتَالِ، وَلَمْ نُقْتَلْ رُؤُوسًا؟

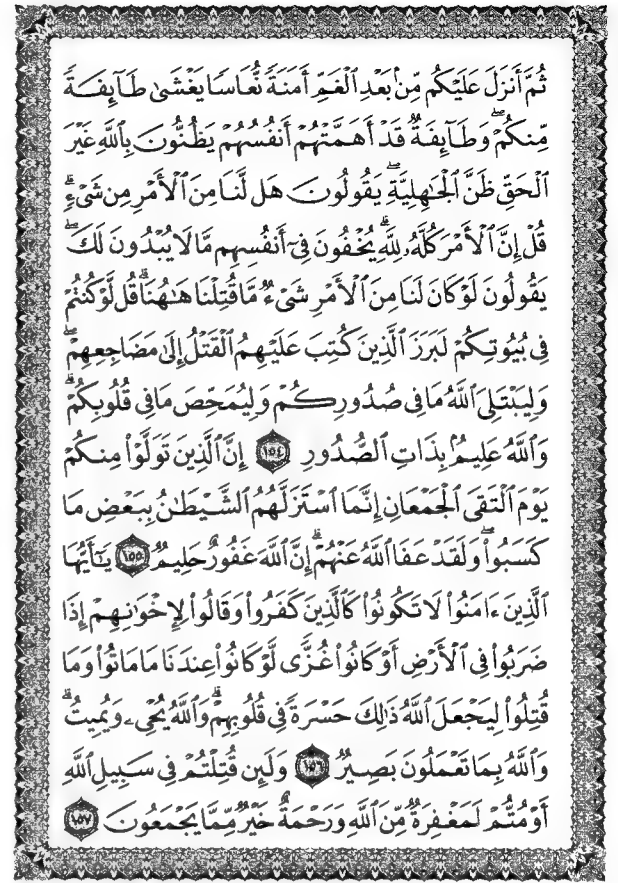
قُلْ - يَا رَسُولُ اللَّهِ - لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ: لَوْ لَمْ تَخْرُجُوا إِلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي «أُحُدٍ» وَبَقِيتُمْ فِي بَيْوتِكُمْ فِي «الْمَدِينَةِ»، مَخْتَبِئِينَ مِنْ عَدُوِّكُمْ، لَخَرَجَ مِنْهَا الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ بِعِلْمِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ إِلَى مَصَارِعِهِمُ الَّتِي يُصْرَعُونَ بِهَا، فَكَانَتْ مَدَافِنُهُمْ مَضَاجِعَهُمُ الْمُرِيحَةَ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، حَتَّى سَاعَةِ يُعْثُونَ. وَنَزَلَ بِكُمْ مَا نَزَلَ مِنْ امْتِحَانَاتٍ وَتَجَارِبٍ قَاسِيَاتٍ، وَمِنْ أَشَدِّهَا مَصَائِبُ الْحَرْبِ،

وَنَكِبَاتِ الْمَعَارِكِ الْقِتَالِيَّةِ؛ لِتَتَعَوَّدُوا تَحْمُلَ الشَّدَائِدِ وَالْمَحَنَ، وَلِيَكْشِفَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالنَّفَاقِ، وَنَوَازِعِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَلِيُنْقِيَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ شَوَائِبِ الشُّكِّ وَالْارْتِيَابِ، وَنَزَعَاتِ الْإِثْمِ وَالْخَطِيئَةِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأَسْرَارِ وَالضَّمَائِرِ الْمَوْجُودَةِ فِي الصُّدُورِ.

١٥٥ - إِنَّ الَّذِينَ أَنَهِزُوا مِنْكُمْ - يَا مُعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ - عَنِ الْقِتَالِ يَوْمَ التَّقَى جَمَعَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَجَمَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ «أُحُدٍ»، مَا أَوْقَعَهُمْ فِي الزَّلْزَلِ الَّذِي وَقَعُوا فِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ الَّذِي أَطْمَعَهُمُ بِالْغَنَائِمِ، وَوَسَّوَسَ فِي قُلُوبِهِمْ: أَنْ يَخَالَفُوا أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ بِالثَّبَاتِ فِي مَوَاقِفِهِمُ الَّتِي عَيْنُهَا لَهُمْ، فَأَطَاعُوهُ فَخَرَمُوا التَّأْيِيدَ بَعْضُ مَا عَمِلُوا مِنَ الذُّنُوبِ، وَنَوَكَّدَ لَكُمْ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ تَجَاوَزَ عَنِ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ فَلَمْ يَعَاقِبَهُمْ بِذَلِكَ؛ لِنَدَمِهِمْ عَمَّا فَرَطَ مِنْهُمْ، وَلِتَوْبَتِهِمُ النَّصُوحَ؛ إِنَّ اللَّهَ كَثِيرُ السَّرِّ لِمَنْ تَابَ وَأَنَابَ، حَلِيمٌ لَا يُعَجِّلُ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَا يَسْتَأْصِلُهُمُ بِالْقِتْلِ.

١٥٦ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ، لَا تَكُونُوا كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالُوا لِأَجْلِ إِخْوَانِهِمْ فِي النِّفَاقِ وَالْكَفْرِ إِذَا سَافَرُوا فِي الْأَرْضِ لِتِجَارَةٍ وَغَيْرِهَا، فَمَاتُوا بِحَادَثٍ مُهْلِكٍ فِي أَسْفَارِهِمْ، أَوْ كَانُوا غَزَاةً قَتَلُوا فِي مَعَارِكٍ حَرْبِيَّةٍ: لَوْ كَانُوا مُقِيمِينَ عِنْدَنَا مَا مَاتَ مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ بِحَادَثٍ مُهْلِكٍ، وَهُوَ مُسَافِرٌ يَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ لِلتِّجَارَةِ أَوْ السِّيَاحَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَمَا قُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ فِي مَعْرَكَةٍ قِتَالٍ غَازِيًا؛ لِجَعْلِ اللَّهِ قَوْلَهُمْ وَظَنَّهُمْ عَمَّا وَتَأَسَّفًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَاللَّهُ يُحْيِي الْأَحْيَاءَ بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيهَا، وَبُيُوتُهَا بِنَزْعِ مَا بِهِ تَكُونُ حَيَاتُهَا، وَهِيَ الرُّوحُ الَّتِي هِيَ مِنْ أَمْرِ التَّكْوِينِيِّ، وَلَيْسَ لِلْأَسْبَابِ تَأْثِيرَاتٌ حَقِيقَتِيَّةٌ فِيهَا، وَإِنْ كَانَ لَهَا تَأْثِيرَاتٌ صُورِيَّةٌ، فَحِينَ لَا يَكُونُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَضَاءٌ وَقَدَرٌ بِحَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ، لَمْ تَفْعَلِ الْأَسْبَابُ شَيْئًا إِنْ وَجَدَتْ، أَوْ تَتَدَخَّلُ الْمَقَادِيرُ الرَّبَّائِيَّةُ بِصَرْفِ الْأَسْبَابِ، أَوْ إِقَامَةِ الْحَوَاجِزِ دُونَهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. وَهَذَا النِّدَاءُ الْإِلَهِيُّ لِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ النِّدَاءُ السَّادِسُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ.

١٥٧ - وَأَقْسَمَ لَنْ تَمَّ عَلَيْكُمْ مَا تَخَافُونَهُ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - مِنَ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْهَلَاكِ بِالْمَوْتِ، فَإِنَّ مَا تَنَالُونَهُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ السَّاتِرَةِ لِسَوَابِقِ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ، وَالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي دَارِ رَحْمَتِهِ؛ جَنَّاتِ النِّعِيمِ، خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَا يَجْمَعُهُ أَهْلُ الدُّنْيَا.



١٥٨ - وأقسم لئن انقضت آجالكم في هذه الحياة الدنيا، أو قُتلتم في ساحة القتال، لإلى الله الرحيم الواسع الرحمة والمغفرة، المُثِيب العظيم الثواب، تُجمعون في الآخرة، فيُجازيكم بأعمالكم. فالجزاء الرباني الأوفى على الصالحات، التي يُقدّمها المؤمنون الصادقون، إنما يكون بعد هذه الحياة الدنيا، يوم يُحشر الناس إلى ربهم.

وجاء تقديم القتل على الموت في الآية السابقة، وتقديم الموت على القتل في هذه الآية، إشعاراً بأن من خرج في سبيل الله، فإن له مغفرة من الله ورحمة، سواء قُتل مجاهداً، أو مات بحادث في خروجه، فالأمران متساويان ما دام الخروج في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

١٥٩ - فبسبب رحمة عظيمة من الله وفُقل الله للرفق والتلطّف بأصحابك، وألقى في قلبك داعية الرحمة والعطف، فسَهلتَ لهم أخلاقك، ولنت لمن أتبعك في أقوالك وأعمالك، فاجتمعوا عليك، ولو كنت جافياً متجهم الوجه، سيء الخلق، قليل الاحتمال، قاسي القلب، خالياً من عاطفة الرحمة، لنفروا عنك وتفرّقوا حتى لا يبقى أحد منهم عندك، فتجاوز عن زلاتهم، واسأل الله الشّرّ لذنوبهم، واستخرج آراءهم، واعلم ما عندهم فيما لم ينزل فيه وحياً، تطيباً لقلوبهم، فإذا وصلت إرادتك إلى مستوى العزم على الأمر بعد الشورى واستعراض مختلف الآراء، وترجيح الرأي الأكثر نفعاً وسداداً لعامة المسلمين، فاعمل على تنفيذ ما عزمته عليه متوكلاً على الله وحده، والله سيمدك بمعونته وتسديده، ويدفع عنك الأعراض والموانع، ويُحقّق لك النتائج التي ترجوها؛ لأنه يحب المتوكلين عليه، مع قيامهم بكل ما تقتضيه حاجات التنفيذ من أسباب ربط الله بها النتائج في نظام كونه.

١٦٠ - إن يُعزّكم الله بنصره، ويمنعكم من عدوكم فلا قاهر لكم من الناس؛ لأن الله تعالى هو المتوليّ نصركم، وإن يخذلكم ويكلّكم إلى أنفسكم فمن ذا الذي ينصركم من بعد خذلانه؟ وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون في تدبير أمورهم، وتحقيق ما يرجون، مع القيام بالأسباب المُستطاعة الماديّة والمعنويّة، طاعة لأمره.

سُورَةُ الْعَنْكَرَانِ

البقرة الزاوية

وَلَيْنَ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَا إِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفُضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفَ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ يَرْضَى اللَّهَ كَمَا بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهَّجَهُمْ وَبَشَّرَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوْلَمَّا أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْنَا أُنْهَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

١٦١ - وما سَأَغَ وما صَحَّ لني أن يَخُون أصحابه بأن يأخذ شيئاً من الغنيمة غير ما اختصّه الله به، لأن النبوة والخيانة نقيضان لا يجتمعان، فمنصب النبوة أعظم المناصب وأشرفها، والخيانة نهاية الدناءة والخسّة، ومن يَخُن في الغنائم يأت بالشيء الذي خان به عينه يحمله على ظهره يوم القيامة؛ ليزداد فضيحة، ثم تُعطى كل نفس جزاء ما كسبت من خير أو شر، وإفياً غير منقوص.

١٦٢ - لا يستوي عند الله الأمين والخائن، أفمن أتبع رضا الله بطاعته، فَحَفِظَ ما أوْتَمَنَ عليه، كَمَن رَجَعَ مُتَلَبِّساً بغضب من الله؛ بسبب غلّه وخيانتته التي تجلب عليه أبلغ الغضب، وأشدّ العقاب، والمستقرّ الذي يستقرّ فيه وينتهي إليه؛ جهنّم، وبشّر ذلك المصير الذي صار إليه.

١٦٣ - أصحابُ الحِجَّة المتّبعون لما يُرضي الله، متفاوتون في المنازل حسب أعمالهم، وأصحاب النار الراجعون بسخطه سبحانه، متفاوتون في الدرجات، والله بصيرٌ بأعمال الفريقين، لا يخفى عليه منها شيء.

١٦٤ - لقد أنعم الله على المؤمنين النعمة العظيمة؛ إذ بعث فيهم رسلاً عريباً مثلهم، وُلِدَ ببلدهم، ونشأ بينهم، يعرفون نسبته وصدقته وأمانته، يقرأ عليهم آيات القرآن الذي أنزل عليه، ويُطهّروهم من دَسَس الكفر ونجاسة المُحرّمات والخبائث، ويزيدهم في الخير والفضائل على اختلاف أنواعها: النفسيّة والفكريّة والاعتقاديّة والسلوكيّة، ويُعلّمهم معاني القرآن وحقائقه، والسنة التي سنّها لهم على لسان نبيّه ﷺ، والإصابت في القول والعمل، ووضع الأشياء في مواضعها، وإن كانوا من قبل بعثته ﷺ لفي جهالة وخيرة عن الهدى، فهداهم الله عزّ وجلّ بنبيّه محمد ﷺ.

١٦٥ - أو حين أصابتكم - أيها المؤمنون - مصيبة يوم «أحد» إذ قُتل منكم سبعون، قد نلتُم ومثّلها من المشركين بيدر، فقتلتُم منهم سبعين، وأسرتُم سبعين كان في مقدوركم أن تقتلوهم، لمّا حصل هذا قتلتم متعجّبين من الأمر، ظانّين أن من حقّكم على الله أن ينصركم ولو لم تحقّقوا في أنفسكم شروط النصر: من أين لنا هذا القتل والهزيمة؟! قل لهم - يا رسول الله -: إنّما وقعتُم فيما وقعتُم فيه بشؤم ذنوبكم، ومخالفتكم أمر رسول الله ﷺ، وليس ما جرى لكم من مصيبة على أيدي أعدائكم عجزاً في قدرة الله عن نصرتكم، فالله قادرٌ على نصرتكم دواماً مع ما كان منكم، لكن هذا يتنافى مع حكمته التي قضت تأديبكم وتربيتكم، وتمييز المؤمنين الصادقين من غيرهم، وابتلاء ما في صدوركم، إنّ الله قادرٌ على نصركم، وقادرٌ على مُجازاتكم بالغم الذي نزل بكم، وقادرٌ على تمكين أعدائكم من الظهور عليكم، فعليكم أن تبشّوا عن حكمة ربكم فيما أذن بأن ينزل بكم من مصيبة في غزوة «أحد»، وكذلك في كلّ مصيبة تنزل بكم مستقبلاً.

١٦٦ - والذي أصابكم من القتل والجراح والهزيمة يوم التقى المؤمنون المشركين في «أحد»، فبعلم الله وتمكينه تمكيناً قديراً، وتسخيره الأسباب والمسببات؛ إذ مكن أعداءكم منكم؛ لتربيتكم وتأديبكم، ولبعلم الله سبحانه وقوع ما قدره في علمه الأزلي، فبعلم المؤمنين الثابتين الأقوياء الصابرين على ما نالهم بحسب مراتبهم ودرجات إيمانهم.

١٦٧ - ولبعلم وقوع ما قدره الله في علمه الأزلي، فبعلم نفاق المنافقين بقلة صبرهم على ما نزل بهم، حين قال المؤمنون لهم قبل المعركة: تعالوا قاتلوا لأجل دين الله وطاعته، أو ادفعوا عن أموالكم وأرضكم وأهلكم. فقال المنافقون: لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم ولدافعنا عنكم، ولما خذلناكم، ولكننا نرى أنه لن يكون قتال. هم - في تعللهم بهذا القول - للكفر الصريح أقرب منهم إلى ادعاء الإيمان، يملؤون أفواههم مُتَشَدِّقِينَ بكلام يُفْخَمُونَهُ على قدر تجاوزيفها، حين يزعمون أنهم حريصون على مشاركة المؤمنين في القتال، ويكتمون في قلوبهم عدم الرغبة بنصرة الرسول والمؤمنين معه، والله أعلم منهم بما يكتمون من النفاق في قلوبهم.

١٦٨ - هؤلاء المنافقون الذين قالوا بعد معركة «أحد» لأجل إخوانهم في النفاق، وقعدوا عن الجهاد: لو أطاعنا هؤلاء الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ في الانصراف عنه، ما قُتِلُوا يومئذٍ. قل لهم - يا رسول الله -: إذا كنتم تظنون أنكم دفعتم عن أنفسكم الموت بامتناعكم عن الخروج إلى الميدان، وعودكم في الديار، فادفعوا عن أنفسكم الموت إذا نزل بكم، إن كنتم صادقين في زعمكم أن تفادي أسباب الموت يمنع حدوثه ويدفعه!!

١٦٩ - ولا تَظُنُّوا - يا رسول الله - يا كل مؤمن من أُمَّته - أنَّ الذين قُتِلُوا في سبيل الله أمواتاً كغيرهم ممن لم يُقْتَل في سبيل الله، بل

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذِي اللَّهِ وَلِبَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ
 (١٦٦) وَلِبَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعَنَّكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ
 يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ
 فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
 وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ
 الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ
 بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
 بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)
 (١٧١) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُؤْمِنِينَ (١٧٢) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
 أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٣)
 الَّذِينَ قَالُوا لَكُمْ فَاتُوا لَكُمْ فَاتَّقُوا لَكُمْ فَاتَّقُوا لَكُمْ فَاتَّقُوا لَكُمْ
 فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٤)

هم أحياء عند ربهم في محل كرامته وفضله، يُرْزَقُونَ ويأكلون ويتنعمون من ثمار الجنة وتحفها.

١٧٠ - إنهم في هذه الحياة التي يَحْيُونَهَا يشعرون بسعادة عظيمة بما أعطاهم الله من الثواب والكرامة والرضا في دار النعيم، وهم يفرحون بإخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على منهج الإيمان والجهاد، لعلمهم بأنهم إذا استشهدوا في سبيل الله مخلصين له، لحقوا بهم، ونالوا من الكرامة مثل الذي نالوه، وأنهم لا خوف مُسَلِّطٌ عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة، ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا.

١٧١ - يطلبون البشرى بنعمة جزيلة كريمة صادرة من الله، مانح النعم لهذا الوجود كله، ومُسْندِهَا لكل حي، بما يناله المسلمون من نعمة النصر، وما يتفضل به عليهم من عزة وتمكين، وكما أنه تعالى لا يُضِيعُ أَجْرَ المجاهدين والشهداء، كذلك لا يضيع أجر المؤمنين من بعدهم، بالنصر والتمكين في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

١٧٢ - الذين أجابوا الله والرسول ﷺ، وخرجوا في أعقاب المشركين إلى «حمرى الأسد» من بعدما نالهم من ألم الجراح في غزوة «أحد»، للذين أجادوا الخطأ في القتال، وأحسنوا بطاعة الله سبحانه والرسول ﷺ وأجابوه إلى الغزوة، واتَّقُوا معصيته والتخلف عنه، ثوابٌ جليل، وهو الجنة.

١٧٣ - هؤلاء الذين لبَّوا نداء الله ورسوله، قال لهم بعض المشركين يُبْطِلُونَهُم عن الجهاد، ويُلقون الرُّعب في قلوبهم: إنَّ أبا سفيان وأصحابه قد جمعوا لكم الجُمُوعَ الكثيرة لاستئصالكم، فخافوهم واحذروهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، فزاد المسلمين ذلك التخويف تصديقاً وبقيناً وقوة في دينهم، وفوضوا أمورهم إلى الله تعالى، وقالوا: يكفينا الله عن أعدادهم التي يستكثرون بها، وقواتهم التي يحشدونها، وهو نعم النصير الكفيل المعاون الذي توكل إليه الأمور كلها، الذي يقوم بأمور عباده، وتحقيق ما يحتاجون إليه، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كفاه، ومن استغنى به أغناه عما سواه. وفي الآية: استحباب هذه الكلمة: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ عند الغم والأمور العظيمة.

١٧٤ - فعادوا من «حمراء الأسد» إلى «المدينة» مصحوبين بأربعة أمور: أولها: نعمة الله العظيمة عليهم، إذ خذل أعداءهم وبُطّطهم، وألقى الرُّعب في قلوبهم، وثانيها: فضل معنوي وريح مالي، وثالثها: عادوا سالمين لم يصيبهم أذى ولا مكروه من قتل وجراح، ورابعها: اتَّبَعُوا أمر الله، وساروا في الطريق الذي يكون فيه رضوانه، والله سبحانه صاحب فضل عظيم، فيما أسبغه عليهم من نِعَم، وما وفَّقهم له من طلب رضوانه، وما نصرهم به من نصر مُؤَزَّر.

١٧٥ - إِنَّمَا ذَلِكُمُ الْقَوْلُ الْمَدْسُوسُ الْمُفْرَعُ الَّذِي حَمَلْتَهُ رَسُلُ أَبِي سَفْيَانَ هُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ وَتَدْبِيرِهِ، وَهُوَ يُخَوِّفُ بِهِ نَصْرَاءَهُ وَأَتْبَاعَهُ الَّذِينَ هُمْ مُوَضَّعُ ثِقَتِهِ وَوَسْوَستِهِ، فَيَجْعَلُهُمْ جَبْنَاءَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَهْمُهُمْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَلَا تَخَافُوا الْمَشْرِكِينَ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ، وَلَا تَقْعُدُوا عَنْ قِتَالِهِمْ، وَلَا تَجْنِبُوا عَنْهُمْ، وَخَافُونِي فَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِي مَعَ رَسُولِي، فَإِنِّي وَلِيُّكُمْ وَنَاصِرُكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ بِوَعْدِي أَنِّي مُتَكَفِّلٌ لَكُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ.

١٧٦ - لا تحزن - يا رسول الله - من أجل الدين وحرصك على ظهوره وانتصاره، فهو مُؤَيَّد بتأييد الله، ولا يكن في نفسك - يا رسول الله - حَسْرَة على المنافقين المُتظاهرين بالإسلام، الذين يُسرعون بهمة ونشاط في السُّبُل المُوصلة إلى الكفر، ويُدَبِّرون التدبير الخبيث والمكر السيء، إنهم بسلوكهم مسالك النفاق، ومسارعتهم في طرق الكفر، لن يضرُوا الله شيئاً لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في قوانين كونه، ولا في سُنَّته الثابتة، ولن يُؤثِّروا على مسيرة الحق وانتشاره، إنَّما يَضرُّون أنفسهم بذلك. يريدُ الله ألاَّ يجعل لهم نصيباً من نعيم الجنة في الآخرة؛ لأنهم انصرفوا عن دعوة الحق، ولهم عذابٌ عظيمٌ في النار.

١٧٧ - إِنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ اسْتَبَدَّلُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ، فَأَخَذُوا الْكُفْرَ وَتَرَكُوا الْإِيمَانَ، لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئاً بِاسْتِبْدَالِهِمُ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ، وَإِنَّمَا ضَرُّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَلِأَنفُسِهِمْ يَكُونُونَ فِيهَا عَذَاباً أَلِيماً. ١٧٨ - وَلَا يَنْظُرَنَّ الَّذِينَ اسْتَقَرُّوا فِي الْكُفْرِ فِي الْبَاطِنِ، مَعَ اتِّخَاذِ تَقِيَّةِ النَّفْسِ التَّمَتُّعَ بِطَيِّبَاتِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا - عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ - خَيْرَ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، شَرَّ لَهُمْ؛ إِنَّمَا تُمَهِّلُهُمْ وَتُؤَخِّرُ فِي آجَالِهِمْ؛ لِيُزَادُوا أَعْذَارَهُمْ، فَلَا يَبْقَى لَهُمْ عَذْرٌ يَعْتَرِدُونَ بِهِ، وَيَسْتَحَقُّونَ دُخُولَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْخَالِقِ جَلٍّ وَعَلَا.

١٧٩ - ليس من شأنه سبحانه ولا من سُنَّتِه أن يترك المؤمنين على مثل ما أنتم عليه من اختلاط المنافقين بالمؤمنين المخلصين، حتى يفصل المنافق من المؤمن الخالص بالامتحان الشديد، وليس من شأنه سبحانه ولا من سُنَّتِه، أن يغيّر نظام حِكْمَتِه في خلقه، فيختصّكم - أيها المؤمنون - بإطلاّعكم على الغيب، حتى تكتشفوا المنافقين، فتميّزوهم وتنبذوهم من صفوفكم، ولكنّ الله يختار من رسله من يشاء، فيُطلعه على بعض غيبه، ومن ذلك: نفاق المنافقين وإخلاص المؤمنين؛ ففضيئة الإطلاّع على الغيب ممّا يختصّ الله به رُسُلُه الذين يختارهم، ولا يجعله أمراً عاماً لكلّ المؤمنين، وإذا علمتم أن الله تعالى لا يُطلع على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول، فأمنوا بالله إيماناً كاملاً نقيّاً من الشكوك، وآمنوا برسله ويصدقهم فيما يبلّغون عن ربّهم، وإن تؤمنوا هذا الإيمان الكامل، وتتّقوا الله في أعمالكم الباطنة والظاهرة، فلكم بهذا الإيمان وهذه التقوى أجرٌ عظيم عند ربّكم في عاجل أمركم وآجله.

١٨٠ - ولا يظنُّ الذين ييخُلون بما أنعم الله عليهم من مال وعطاء أنَّ هذا البخل خَيْرٌ لهم، بل هو شرٌّ لهم في الدنيا والآخرة، وذلك لأنَّ البخل يدفع إلى الحقد في الدنيا، والنزاع بين الأفراد، والخراب والدمار للمجتمعات، سيُجعل ما يخلوا به من المال الواجب عليهم أداؤه طَوْقًا من نار في أعناقهم يوم القيامة؛ لأنهم لمَّا جعلوا أيديهم مغلولة إلى أعناقهم، عُوِّقوا بعقاب من جنس عملهم، والله سبحانه الباقي الدائم بعد فناء جميع خلقه وزوال أملاكهم، فيبقى المُلْكُ لله تعالى، ويَبْطُلُ ملك جميع المالكين، والله بما تعملون خبير على سبيل الشهود والحضور المُصَّاحِب لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، فيجَازيكم على أعمالكم.

١٨١ - لقد سمع الله قولَ اليهود الذين قالوا: إِنَّ الله فقيرٌ يطلب منا أن نُقرضه أموالاً، ونحن أغنياء. سنكتب قولهم، وتجروهم عليه سبحانه، ونكتب عليهم أيضاً رضاهم بقتل آبائهم الأنبياء ظلماً وعدواناً، بدون شبهة حق، مُستهينين بمقام النبوة، وهم يعلمون أنهم على باطل، وسنلقيهم في جهنم، ونُخاطبهم وهم يضلون نارا: أحسوا بعذاب تلك النار الملتهبة وآلامها.

١٨٢ - ذلك العذاب المُحرق الشَّدِيد؛ بسبب ما كسبتم بكل جوارحكم الظاهرة والباطنة، حيث وصفتكم الله بالفقر، وأقدمتم على قتل الأنبياء، وهذا الذي جرى لكم هو بسبب صفة العدل الرباني، ومظاهرها من الجزاء بالعقاب، والله سبحانه لا يظلم أحداً شيئاً، وليس بظلام لجميع عباده، بأدنى ظلم لكل واحد منهم، أولعدي كبير منهم، بل هم الظالمون لأنفسهم، إذ ارتكبوا السيئات وهم يعلمون أنهم مُعاقبون عليها، ضمن قانون الجزاء الرباني.

١٨٣ - قد سمع الله قولَ الذين قالوا من اليهود حين دُعوا إلى الإسلام: إِنَّ الله أمرنا وأوصانا في التوراة أن لا نُؤمن منقادين لرسول يزعم أنه جاء من عند الله حتى يأتينا بقرآن يُقَرِّب به إلى الله من نعم وغيرها، فتنزل نار من السماء فتحرقها، فيكون ذلك دليلاً على صدقه. قل - يا رسول الله - لهؤلاء اليهود المتعتنين: قد جاءكم رسل من قبلي بالدلالات الواضحات على صدقهم، وبالذي طلبتم من القرآن الذي تأكله النار، فقد جاءكم هذا ولم تؤمنوا، بل كذبتم وجحدتم حتى بلغ بكم الأمر والاستهانة بالأنبياء أن قتلتموهم، فلم قتلتم الأنبياء الذين أتوا بما طلبتم منهم، مثل زكريا ويحيى، إن كنتم صادقين في دعوكم؟! وهذا الذي كان من أسلافكم من التكذيب والقتل قائم فيكم، وأنتم راضون عن أعمالهم، وتحملون وصف الإجرام الذي وقع من الماضين حتى تتخلصوا من الانتساب إلى

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءَ وَبِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِجَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعٌ الْعُرُورِ ﴿١٨٥﴾ تَسْبُلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ نَصَرُوا وَتَنَفَّوْا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

تلك الأمة الخاسرة، وتدخلوا في أمة الإيمان والإسلام.

١٨٤ - فإن كذبتك - يا رسول الله - هؤلاء اليهود، فلا يهولئك، فقد كُذِّبَ رسلٌ كثيرون من قبلك، مثل نوح وهود وصالح وغيرهم من الرسل، جاؤوا أقوامهم بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات، التي تدل على صدق نبوتهم، والكتب الداعية إلى الحق الزاجرة عن الباطل، والكتاب الواضح المضيء الذي يشتمل على آيات بيانية كالمصابيح، تكشف الحق والخير، للعقول والقلوب والنفوس، فالله سبحانه أيد رسله بمعجزات خارقات ثبتت أنهم صادقون في رسالتهم، وأنزل على بعض الرسل صُحفاً دون أن تبلغ كتباً كبرى، وأنزل على بعض الرسل كتباً عظيمة منيرة، كالتوراة والإنجيل والقرآن، وهو أكملها وأجمعها وأعظمها.

١٨٥ - كل نفس مخلوقة ذائقة طعم الموت، بالفصل الكلي بين الروح المميدة بالحياة، وبين النفس التي تجتمع فيها خصائص الكائن القابل للحياة، وسيكون المذاق إما مُراً حنظلاً يشبعه العقاب، وإما أن يكون حلواً هنيئاً يتبعه النعيم المقيم، وإنما تُوفَّوْنَ جزاء أعمالكم يوم القيامة، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر، فَمَن نَجَا وأبعد عن النار، وغالب شهواته، وجاهد أهواءه، وتوفى الأسباب الموصلة إليها، وأدخل الجنة بفضل الله ورحمته، وأتخذ الوسائل الموصلة إليها، فقد ظفر بالنجاة، ونجا من الخوف، ونال غاية ما يطلب، وما العيش في هذه الدار الفانية إلا متاع زائل يغتر الإنسان بما فيه من طول البقاء، وسينقطع عن قريب.

١٨٦ - والله لَتُخْتَبِرُنَّ - أيها المؤمنون - فنقع عليكم المحن في الأموال بالنقصان منها، وبالجوائح تنزل بها، وفي الأنفس بالمصائب والأمراض والقتل وفقد الأقارب والأحباب؛ وذلك حتى يتميز الصادق من غيره، وَلَتَسْمَعُنَّ من اليهود والنصارى والمشركين ما يؤذي أسماعكم من ألفاظ الشرك والافتراء والتهكم والطعن في دينكم. وإن تصبروا - أيها المؤمنون - على أذاهم، وتضبطوا أنفسكم وتحبسوها عن الجزع، وتحبسوها أيضاً مع أهل الإيمان، وتتخذوا الوقاية لطلب رضا الله، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، وتدفعوا الاعتداء بالحق، وتعملوا على الخروج من المحنة، فإن ذلك الصبر والتقوى من الأمور التي تحتاج إلى إرادة جادة قوية قادرة على متابعة الأمور الشديدة الصعبة على النفوس بالتنفيذ.

١٨٧ - وضعوا في ذاكرتكم - أيها المؤمنون - وقت أخذ الله العهد المؤكد من اليهود والنصارى: يجب عليكم وجوباً مؤكداً أن تبينوا للناس ما في التوراة والإنجيل من الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ، ولا تكتموا منه شيئاً، فطرحوا الكتاب وراء ظهورهم استخفافاً واستهانة به كما يُنبذ الشيء الحقيق، وتركوا العمل به وأهملوه، وأخذوا ثمناً بخساً من متاع الحياة الدنيا مقابل كتمانهم الحق وتحريفهم الكتاب، فبُئس ثمناً الذي يأخذونه بدلاً عن عدم وفائهم بالميثاق الذي أخذه الله عليهم، وعن طرحهم كتاب الله مع الاستهانة به، حتى كان فيهم بمثابة النوى الذي يُنبذ وراء الظهر.

١٨٨ - لا تتوهمن - أيها المُخاطَب - الذين يفرحون بما فعلوا، ويحبون أن يحمدهم الناس على شيء لم يفعلوه موقنين مهتدين، وإذا كانوا بهذا الوصف، فلا تظننهم بمنجاة من العذاب الذي أعدّه الله لهم في الدنيا، ولهم عذاب مؤلم أشد الإيلام في الآخرة. وفي الآية تحذير شديد من الإعجاب بما يصدر عن النفس من السوء، ومن مُفاخرة الإنسان بما لم يعمل؛ لئني الناس عليه الثناء الكاذب.

١٨٩ - ولله سبحانه - وحده - ملكُ السموات والأرض وما فيهما خلقاً وتدبيراً، يتصرف في ملكه كيف يشاء، والله على كل شيء شاهر عظيم القدرة، إذا أراد شيئاً كان أسرع ما يكون.

١٩٠ - تفكروا - أيها الناس - واعتبروا فيما خلقته وأنشأته من السموات والأرض لمعاشكم وأرزاقكم، وفيما عَقبت بين الليل والنهار واختلافهما في الطول والقصر، فجعلتهما يَخْتَلِفَانِ ويعتقبان عليكم؛ لكي تتصرفوا فيهما لمعاشكم، تطلبون أرزاقكم في النهار، وتسكنون في الليل لراحة أجسادكم، فاعتبروا وتفكروا يا ذوي العقول الخالصة المدركة الصافية عن شوائب الوهم التي تنفذ إلى لب الأشياء، ولا تكفي بظواهرها.

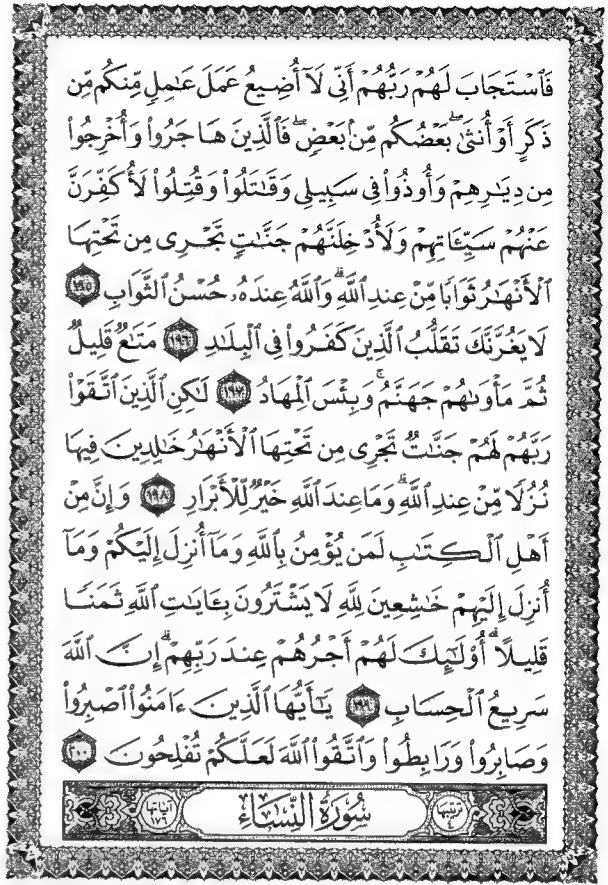
وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِسْمًا وَقَعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قَبْلَ عَذَابِ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْآثَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآءِ إِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

١٩١ - أصحاب العقول السليمة المدركة هم الذين يُداومون على ذكر الله، ويستحضرون عظمتَه وجلالَه، ويستشعرون نعمه وفضله في غالب أحوالهم: قياماً، وقعوداً، ونائمين على جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض وما أبدع الله فيهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته، ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى، ويعلمون أنَّ لهما خالقاً قادراً مُدبراً حكيماً. وبعد تأملهم العميق في خلق السموات والأرض، وتعرفهم من جمال الصُّنعة على جلال الصَّانع، ومن تدبُّر خلق الكون ونواميسه على عظمة الخالق المبدع سبحانه يدعون ربهم من أعماق قلوبهم بهذه الأدعية الخمسة: الدعاء الأول: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا عَبَثًا وَهَزْلًا، عَارِيًا عَنِ الْحِكْمَةِ، خَالِيًا عَنِ الْمَصْلَحَةِ، بل خلقته دليلاً على وحدانيَّتكَ، وكمال قدرتك، مشتملاً على حكم جليلة، منتظماً لمصالح عظيمة، تنزيهاً لك عن أن تخلق شيئاً عبثاً لغير حكمة، فاضرف عنا عذاب النار، واجعل بيننا وبينها وقاية، بأن توفقنا لاجتناب ما لا يُرضيك، وأن تغفر لنا ما فرطنا في جَنبِكَ.

١٩٢ - الدعاء الثاني: يا ربنا بفضلِكَ ورحمتِكَ نجنا من النار، فإنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَهْتَه وَأَذَلْتَه بدخوله فيها وتعذيبه بها، وما للمشركين الذين يضعون العبادة في غير موضعها من أنصارٍ ينصرونهم يوم القيامة، ويمنعونهم من العذاب.

١٩٣ - الدعاء الثالث: يا ربنا إِنَّا سَمِعْنَا نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا ﷺ ينادي الناس للتصديق بك، والإقرار بوحْدانيَّتِكَ، والعمل بشرعك، فأجبتنا دعوتَه، وصدقتنا رسالَتَه. والدعاء الرابع: رَبَّنَا فَاسْتَثْنِ لَنَا كِبَائِرَ ذُنُوبِنَا، وأزل عنا صغائرنا، وتوفقنا على مثل أعمال الصَّالحين المتوسِّعين في نوافل الطاعات بعد أداء الواجبات واجتناب المنهيات، حتى نكون في زمرة من درجاتهم يوم القيامة.

١٩٤ - الدعاء الخامس: يا ربنا أعطنا الذي وعدتنا على ألسنة رُسُلِكَ الأكرمين من نصر وتمكين وتوفيق وهداية، ولا تفضحنا بذنوبنا يوم القيامة، إنَّكَ لا تترك ولا تهمل وعداً وَعَدْتَ به عبادك إذا حان الوقت المُحدَّد الذي قرَّرت حصول موعدك فيه.



١٩٥ - فأجاب خالفهم ومربيهم والمنعم عليهم دعاءهم، وأعطاهم ما سألوه عقب تضرعهم، قائلاً: إني لا أحبط عملكم - أيها المؤمنون - ذكراً كان أو أنثى، بل أثيبكم عليه، وأجزيكم الجزاء الأوفى، بعضكم من بعض في الدين والثمرة والمال، والثواب على الطاعة والجزاء عليها، فالذين تحققوا بهذه الأوصاف الخمسة: الوصف الأول: المهاجرون الذين هجروا أوطانهم وأهليهم رغبة في رضا الله تعالى، والوصف الثاني: الذين أخرجوا من ديارهم ملجئين مكرهين، والوصف الثالث: الذين ألحق المشركون بهم الضر بسبب إسلامهم، وأوذوا في طاعتي وديني وابتغاء مرضاتي، والوصف الرابع: الذين قاتلوا العدو في سبيل الله، والوصف الخامس: الذين استشهدوا في جهاد الكفار، لأمحون عن هؤلاء الفضلاء المتحققين بهذه الأوصاف الخمسة ذنوبهم ولأستريحهم لهم، ولأدخلهم جنات عظيمات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ثواباً من فضل الله وإحسانه، والله عنده حسن الجزاء.

١٩٦ - لا يصح أن يخدع أحد بما عليه هؤلاء الكفار من تصرفهم في البلاد حاكمين مسيطرين أقوياء، ينتقلون أحراراً من بلد إلى بلد، وما هم عليه من قوة وسطوة ومتاع دنيوي.

١٩٧ - ذلك التصرف في شؤون البلاد، وما هم عليه من قوة وسطوة، متاع قليل زائل، وانتفاع عاجل، ثم مكانهم الذي يصيرون إليه في الآخرة جهنم، وبئس ما مهدوا لأنفسهم فراشاً من اللظى في جهنم؛ بسبب كفرهم.

١٩٨ - لكن الذين اتقوا ربهم بالعمل فيما أمرهم به، واجتناب ما نهاهم عنه، لهم جنات عظيمات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين فيها ضيافة وإكراماً من فضل الله وكرمه وإحسانه، وما عند الله من ثواب زائد على الجنات التي تجري من

تحتها الأنهار هو خير وأفضل، وهو معد للآبرار، الذين تحققوا بمرتبة التقوى، وزادوا عليها من نوافل القربات حتى كانوا بها من الأبرار.

١٩٩ - ونؤكد لكم أن بعضاً من اليهود والنصارى لمن يتصف بخمسة أوصاف: الوصف الأول: يؤمن بتجدد واستمرار بالله الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد، والوصف الثاني: يؤمن بالقرآن الذي أنزل إليكم - أيها المؤمنون -، والوصف الثالث: يؤمن بالكتب المنزلة عليهم مثل التوراة والإنجيل والزبور قبل طرء التحريف والتبديل عليها، الوصف الرابع: الخشوع لله، والخوف منه خوف إجلال وتعظيم، والصراعة إليه، وطلب رضاه دون سواه، الوصف الخامس: الثبات على الحق، فلا يغيرون كتبهم ولا يحرفونها، ولا يكتمون صفة محمد ﷺ لأجل الرئاسة والمآكل كما يفعله غيرهم من الأحزاب والفسس، أولئك الفضلاء رفيعو المنزلة المتصفون بتلك الأوصاف الخمسة لهم ثواب أعمالهم التي عملوها، إن الله عالم بجميع المعلومات، لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده، فيجازي كل أحد على قدر عمله، لأنه سريع الحساب، لا يشغله شأن عن شأن، فهو قدير على محاسبتهم جميعاً في ساعة واحدة، دون أن ينقص أحداً شيئاً من حقه.

٢٠٠ - يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه تحققوا بهذه الأمور الأربعة: الأول: احبسوا أنفسكم بمنعها عن أهوائها، وقمعها عن شهواتها، والقيام بالطاعات على وجهها، وتحمل المكاره وآثار الهزيمة، وأذى الأعداء وسخريتهم، والعمل على النهوض بعد الكبوة، والثاني: صابروا الكفار، وغالبوا الأعداء في الصبر على شدائد الحرب، واكسروا بصبركم صلابة صبرهم، ولا تكونوا أضعف منهم فيكونوا أشد منكم صبراً، والثالث: أقيموا في الثغور، مترصدين للغزو، ومستعدين له أكثر من أعدائكم، ودأبوا على جهاد المشركين واثبوا عليه، والرابع: اتقوا الله بامثال جميع أوامره، واجتناب نواهيه؛ لأجل أن تفوزوا بحياة طيبة في الدنيا، وسعادة عظيمة في الآخرة. وهذا النداء للمؤمنين هو النداء الإلهي السابع والآخر في هذه السورة.

سُورَةُ النِّسَاءِ

الجزء الرابع

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ وَأَوَّلُ آيَاتِنَا أَنْ مَوَّلَاهُمْ لَا تَتَّبِعُوا الْحَيِّثُ بِالطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْآيَاتِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَقْتُمْ لَعْنَتَكُمْ ۝٣ وَأَوَّلُ آيَاتِنَا أَنْ مَوَّلَاهُمْ لَا تَتَّبِعُوا الْحَيِّثُ بِالطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٤ وَلَا تَتَّبِعُوا الشَّهَادَةَ أَمْوَالِكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝٥ وَأَبْلُوا أَلْيَتَكُمْ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦

١ - يا أيها الناس احذروا أمر ربكم أن تخالفوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، الذي خلق السلالة الإنسانية كلها مشتقة من نفس واحدة، وهو آدم أبو البشر عليه السلام، وخلق من آدم زوجة حواء، ونشر من ظهر آدم وحواء بالتناسل رجالاً كثيراً ونساء كثيرات، واتقوا الله الذي يسأل به بعضكم بعضاً، واتقوا الأرحام أن تقطعوها فلا تصلوها، إن الله كان عليكم حافظاً لا يغيب عليه شيء من أمركم، مطلعاً عليكم، فهو جدير بأن يخاف ويتقى.

٢ - وأنفقوا - أيها الأولياء - أموال اليتامى الذين فقدوا آباءهم قبل بلوغ الحلم، في شؤونهم ومصالحهم، وأعطوهم أموالهم التي في تصرفكم كاملة غير منقوصة ولا مبدلة بتمليكهم إياها، وحفظها لهم نيابة عنهم، إلى أن يستحقوا تسلمها، والتصرف فيها بأنفسهم، ولا تستبدلوا الجيد من أموالهم بالردىء من أموالكم، ولا تتركوا مالكم الحلال الطيب، وتمدوا أيديكم إلى مال اليتيم وتصرفوا منه في شؤونكم، ولا تخلطوا أموالهم بأموالكم؛ لتحالوا بذلك على أكل أموالهم، إن الذي ذكر من استبدالكم الخبيث بالطيب، والانتفاع بأموال اليتامى مضمومة إلى أموالكم، كان إثماً عظيماً؛ لأنه اعتداء على ضعيف عاجز عن الدفاع عن ماله والمحافظة عليه، من الشخص الذي عهد إليه أن يدفع عنه الاعتداء، ويحافظ على ماله، وليس أعظم ذنباً من عدوان من أقيم لدفع العدوان، وتضييع المال ممن عهد إليه أن يحفظه.

٣ - وإن خفتكم - يا أولياء اليتامى - أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن، فانكحوا غيرهن مما حل لكم من النساء: اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، فإن خشيتم ألا تعدلوا بين الأزواج الأربع في القسم والنفقة وحقوق الزوجية، فانكحوا واحدة، أو ما ملكتم من السراي؛ لأنه لا يلزم

فيهن من الحقوق مثل ما يلزم في الحرائر، ذلك الذي شرعته لكم من الاقتصار على واحدة أو ملك اليمين، أدنى ألا تحملوا مسؤولية النفقة على عيال كثيرين، وأقرب إلى عدم الميل والجور لأنفسكم، ولا لزواجكم، ولا لمن تعولونهم ممن تجب عليكم نفقتهم والقيام بحقوقهم.

٤ - وأعطوا - أيها الأزواج - النساء مهورهن فريضة مسماة عن طيب نفس منكم، فإن طابت نفوسهن عن شيء من ذلك الصداق المعين، فوهبن ذلك لكم، فكلوا ما وهبته لكم أكلاً طيباً سائغاً. وفي الآية دليل على إباحة هبة المرأة صداقها، وأنها تملكه، ولا حق للولي فيه.

٥ - ولا تؤثوا - أيها الأولياء - ناقصي العقل والتدبير من الرجال والنساء والصبيان أموالهم التي تحت أيديكم التي جعلها الله سبباً للقيام بمعاشكم، وصلاح أموركم؛ خشية إساءة التصرف فيها، وإتلافها فيما لا خير فيه، ولا مصلحة من ورائه؛ لأن صيانة أموال الأفراد صيانة للثروة الجماعية، وليكن من عقلائكم أولياء عليهم يقومون بشؤونهم، ويستثمرون أموالهم بأي طريق مشروع لتكون النفقة من ربحها لا من أصلها، وأطعموا وأكسوا من يجب عليكم رزقه وكسوته منهم، وقولوا لهم قولاً معروفاً يقتضيه المقام، ويناسب الحال التي يقال فيها، بنصحهم وبيان عاقبة السوء وخطره، وقيمة المال وحسن التصرف فيه.

٦ - واختبروا - أيها الأولياء - اليتامى في عقولهم وأديانهم وحسن تصرفهم في أموالهم، وهم في سن التمييز قبيل بلوغهم الحلم، حتى إذا بلغوا مبلغ الرجال والنساء، فإن أبصرتم وعرفت منهم عقلاً وصلاًحاً في الدين، وحفظاً للمال وعلماً بما يصلحه، فسلموا لهم أموالهم؛ ليتولوا هم بأنفسهم شؤونهم المالية، ولا تأكلوا - يا معشر الأولياء - أموال اليتامى مشرفين فيها، ومسارعين في صرفها؛ حذر أن يكبروا ويطلبوا بها، وتلزموا بدفعها إليهم، ومن كان منكم غنياً - أيها الأولياء - فليعف عن أن يأكل شيئاً من مال اليتيم أجراً على ولايته، ولا يرزاه قليلاً ولا كثيراً، ومن كان فقيراً محتاجاً إلى أخذ شيء من مال اليتيم في مقابل صرفه بعض وقته في شؤون ولايته وتدبير ماله، فليباح له أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف الذي لا يستكره أهل الخبرة بالأعمال، وهو أن يأخذ أجر مثل عمله في إدارة شؤون اليتيم لا يزيد على ذلك، فإذا دفعتم إلى اليتامى أموالهم بعد البلوغ، فأشهدوا على دفع المال إليهم؛ لتزول التهمة، وتنقطع الخصومة، وتظهر أمانة الوصي. وكفى بالله كافياً لمن توكل عليه، ومحاسناً ومجازياً لكم، وشاهداً عليكم، فلا تخالفوا ما أمرتم به.

٧ - للذكور من أولاد الميِّت وعُصْبته حظٌّ ممَّا ترك الوالدان والأقربون من الميراث، وللإناث من أولاد الميِّت حظٌّ ممَّا ترك الوالدان والأقربون ممَّا قلَّ من المال المخلف عن الميِّت أو كثر، جعله الله حقاً ثابتاً، ونصيباً معلوماً لا بدَّ من إعطائه كاملاً غير منقوص.

٨ - وإذا حضر قسمة الميراث القراة الذين ليس لهم نصيب مفروض من الميراث، أو حضرها مَنْ مات أبائهم وهم صغار، أو مَنْ لا مال لهم، فأعطوهم من المال قبل القسمة، على سبيل الترضية وجبر الخاطر، ولا تَبَرُّمُوا وتتضايقوا إذا حضر من ليس له في المال نصيب مفروض، ولا تسيئوا إليهم بقول، أو تجرحوا عزَّتهم بكلمة، وقلوا لهم قولاً حسناً، ولا تُتبعوا العطية بالمن والأذى. وفي تحقيق هذه الوصية ترابط اجتماعي عظيم، وتوثيق لوشائج المودة والمحبة بين أعضاء الأسرة، وتعميق لخلق الرحمة بالضعفاء في نفوس المسلمين.

٩ - وَلْيَخَفِ الله الذين لو ماتوا وتركوا خلفهم أبناء صغاراً ضعافاً، خافوا عليهم الظلم والضياع من بعدهم، فليَتَّقُوا الله فيمن تحت أيديهم من اليتامى، بالإحسان إليهم، وحفظ أموالهم، وفعل ما يُحِبُّ أن يفعل بأولادهم من بعدهم، وليقولوا قولاً عدلاً وصواباً يُصِيب موقعه الملائم له، فيكلموا اليتامى كما يكلمون أولادهم، ولا يُؤذوهم بقول ولا فعل.

١٠ - إِنَّ الذين يعتدون على أموال اليتامى بسائر أنواع التصرفات الرديئة المثلفة للمال حراماً بغير حق، سيأكلون في بطونهم يوم القيامة ناراً، تحرق بطونهم، وتشوي أحشاءهم، وسيدخلون ناراً هائلة مُشتعلة، يحترقون فيها جزء أكلهم أموال اليتامى ظلماً.

١١ - يعهد الله إليكم ويفرض عليكم في شأن ميراث أولادكم

لصلبكم الذين ولدوا لكم، ونُسبوا إليكم، أو أولاد أبنائكم عند عدم وجود أولادكم لصلبكم: إذا توفى الأب عن أولاده، أو توفيت الأم عن أولادها: ذكوراً وإناثاً، للولد الذكر من الميراث مثل نصيب الأنثيين، إذا لم يكن هناك وارث غيرهم. فإن كنَّ المتروكات من الأولاد بنتين فصاعداً، فلهنَّ ثلثا ما ترك، كالأختين المذكور حكمهما في الآية الأخيرة من السورة، وإن كانت البنت واحدة فقط، فلها النصف فرضاً لها؛ لانفرادها عن ابن يعصبها، أوبنت أخرى تُشاركها. ولأبوي الميِّت لكل واحدٍ منهما سُدُس الميراث إن كان له ولد: ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو أكثر، فإن لم يكن للميِّت ولد، وورثه أبواه، وليس له وارث سواهما، فلأُمُّهُ الثلث بالفرض، وبأخذ الأب باقي المال بالفرض والتعصيب، فإن كان للميِّت إخوة اثنان فأكثر، ذكوراً كانوا أو إناثاً، وسواء أكانوا لأبوين أو لأب أو لأم أو خليطاً، فلأم الميِّت سُدُس التركة إذا كان معها أب، وللأب الباقي، ولا شيء للإخوة لَحْجَبهم بالأب، فالأب إذا كان لولده المتوفى ولد يرث سُدُس ما تركه، وإن لم يكن له ولد يرث الباقي من تركته بعد فرض ذوي الفروض، والأم إذا كان لولدها المتوفى ولد أو إخوة ترث سُدُس ما ترك، وإن لم يكن له ولد ولا إخوة ترث ثلث ما ترك. وهذه السَّهَام إنما تُقَسَّم وتُعطى لأصحابها بعد قضاء الدين، وإنفاذ وصية الميِّت في ثلثه، وهما يتقدَّمان على حقِّ الورثة.

أبائكم وأبنائكم الذين ترثونهم لا تعلمون أيُّهم أنفع لكم في الدين والدنيا، فلا يدرى أحدكم: هل الأقرب له نفعاً أبوه الذي نشأه من صغره ورباه، وأنفق عليه وكفله، أو ابنه الذي يخلفه ويحفظ اسمه، ويقوم بواجبه في كبره، والذي يعلم الأقرب نفعاً هو الله، وهو الذي قسم الإرث بناءً على علمه، فلا ينبغي لمن لا يعلم أن يعترض على مَنْ يعلم، ولو وكل الأمر إليكم لأعطيتم مَنْ لا يستحق ما لا يستحق من الميراث، وتمنعون مَنْ يستحق الميراث، هذا الذي قدَّره الله من الموارث لأهلها فريضةً واجبة من عند الله، إِنَّ الله كان عليمًا بالأشياء قبل خلقها، حكيمًا فيما قدَّر من الفرائض وفَرَضَ من الأحكام، فالتزموا بشرعه، وتمسَّكوا بحكمه.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْوَلَدِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ عَآبَاءُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

١٢ - ولكم - أيها الأزواج - نصف ما ترك أزواجكم بعد وفاتهن، إن لم يكن لهن ولد ذكراً كان أو أنثى، سواء أكان منكم أو من غيركم، فإن كان لهن ولد منكم أو من زوج آخر، فلكم الربع مما تركن من المال، ترثونه من بعد إنفاذ وصيتهن الجائزة، أو ما يكون عليهن من دين لمستحقه.

وللزوجات الربع مما تركتم - أيها الرجال - إن لم يكن لكم ولد أو ولد ابن أو ولد بنت، سواء كان من الزوجة أو من غيرها، فإن كان لكم ولد منها أو من غيرها فلهن الثمن مما تركتم، فالواحدة من النساء لها الربع أو الثمن، وكذلك لو كن أربع زوجات فلنهن يشتركن في الربع أو الثمن، من بعد إنفاذ وصيتهن الجائزة، أو قضاء ما عليكم من دين، سواء أكان ديناً لله كدين زكاة أو نذر، أم ديناً للعباد كدين قرض، أو ثمن مشتري، أو أجرة مستأجر.

وقدم في الآية لفظ الوصية على لفظ الدين لحث الورثة على الاهتمام بما هو مظنة إهمالهم؛ لأن الوصية تبرع، قد يرضى بها الورثة، وأما الدين فهو حق للدين في مقابل بدل، فليس تبرعاً، وليس مظنة للشح به.

ولا يعرف خلاف بين العلماء في أن أول ما يبدأ به من تركه المتوفى بعد تجهيزه هو أن تؤدى ديونه، ثم يقسم الباقي من تركته بعد ديونه ووصيته على ورثته كما فصل الله سبحانه.

وإن كان الميت رجلاً أو امرأة ولا ولد له ولا والد، وترك أخاً لأم، أو أختاً لأم، فلكل واحد منهما السدس ذكراً كان أو أنثى، وإذا كان الإخوة لأم اثنين فصاعداً، سواء كانوا ذكوراً فقط أو إناثاً فقط، أو خليطاً من الإخوة والأخوات، فإنهم يشتركون في الثلث، يقسم بينهم بالسوية لا فرق بين الذكر والأنثى. فكما تساوى الأخ والأخت عند الانفراد فلكل منهما السدس، يتساويان عند الاجتماع في قسمة الثلث.

وهذا الذي فرضه الله للإخوة والأخوات لأم يأخذونه ميراثاً لهم، من بعد قضاء الدين، وإنفاذ الوصية الجائزة، غير مُدخل الضرر على الورثة بوصية أو دين، كمتجاوزة الثلث في الوصية، أو الإقرار بدين ليس عليه. فكما يجب على الورثة أن يخلصوا ذمة مورثهم بقضاء ما عليه من دين، وتنفيذ ما أوصى به، فكذلك على المورث أن لا يكون مضاراً بوصيته أو دينه، بأن لا يحرمهم من التركة أو من أكثرها من طريق الوصية أو الدين، فلا تنفذ وصيته في أكثر من ثلث تركته إلا برضاهم، ولا يؤدى دينه إذا كان متهما في إقراره به، وبهذا تتحقق مصلحة الورثة ومصلحة المورث.

يعهد الله عهداً إليكم فيما يجب لكم من ميراث من مات منكم، والله عليم بمصالح عباده ومضارهم، وبما يفرض عليهم من أحكام، ذو جلم وأناة لا يعجل بالعقوبة حتى يرجعوا ويتوبوا.

١٣ - تلك الأحكام التي تقدم ذكرها في هذه السورة في شأن مال اليتامى، والصاايا، والأنكحة، والموارث، فرائض الله، فلا يجوز لكم أن تتجاوزوها، ومن يطع الله ورسوله في قسمة الموارث وفي غيرها من الأوامر والنواهي، يدخله جنات عظيمات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم.

١٤ - ومن يعص الله ورسوله برحمة الله في قسمة الموارث، وعدم الرضا بقسمة الله ورسوله له، ويتجاوز ما أمر الله تعالى به استحلالاً، ويعطل العمل بما شرع الله لعباده، ويغير أحكام الله، يدخله ناراً متأججة خالداً فيها، وله فيها عذاب يخزيه ويهينه، لهوانه على الله تعالى.

البقرة الطارئة

سورة النساء

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّوْ كُنَّ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِيْنَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِن لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصَوْنَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾



١٥ - والزوجات اللاتي يرتكبن فاحشة الزنى من نسائكم، فاطلبوا - أيها الأزواج - أربعة من الشهود المسلمين ليشهدوا عليهن، فإن شهد الشهود عليهن بالزنى، فاحبسوهن في البيوت، فلا يخرجن منها، حتى تتوفاهن ملائكة الموت عند انقضاء آجالهن، أو يجعل الله لهن مخرجاً من هذه العقوبة.

١٦ - والزاني والزانية البكران اللذان يقعان في فاحشة الزنى من رجالكم ونسائكم، فعيروهما بالقول باللسان، فإن تابا من الفاحشة، وأصلحا العمل فيما يأتي، فاتركوهما ولا تؤذوهما، إن الله كان تواباً رحيماً يعود على عباده بفضله ومغفرته ورحمته إذا تابوا إليه.

وهذا الحكم كان في ابتداء الإسلام، فلما نزلت الحدود، وثبتت الأحكام نسخ ذلك الإيذاء بالآية التي في سورة النور: ﴿الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ فَإِذَا زَانَا فَلَْيُؤْذَيَا بِأَلْسِنَتِهِمَا وَبِأَفْئِدَتِهِمَا وَأَبْصَارُهُمَا شَاهِدٌ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فثبت الجلد على البكر بنص الكتاب، وثبت الرجم على الثيب المحصن بسنة رسول الله ﷺ.

١٧ - إنما التوبة التي يقبلها الله سبحانه: هي توبة الذين يرتكبون الذنوب والمعاصي متلبسين بجهالة من الجهالات النفسية، التي تضعف معها إرادتهم، ثم يتوبون بعد الإقلاع عن الذنب بزمان قريب قبل معاناة الموت، فأولئك يقبل الله سبحانه توبتهم بفضله ورحمته، وكان الله عليماً بما في قلوب عباده المؤمنين، حكيماً بالتوبة لمن تاب عن معاصيه، وأتاب عن الذنب بزمان قريب.

١٨ - وليس قبول التوبة للذين يصرون على ارتكاب المعاصي، ويسوفون توبتهم إلى أن يزول حال التكليف، حتى إذا وقع في الشرع، وعابن ملائكة الموت قال: إني تبت الآن، فإن توبة هؤلاء غير مقبولة؛ لأنها حال اضطرار لا حالة اختيار، كما لا تقبل توبة الكفار إذا ماتوا على كفرهم. أولئك البُعداء عن رحمة الله، المصرون على المعاصي إلى أن ماتوا، والجاحدون الذين يموتون

وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَكَّرْنَ مِنْكُمْ بَعْضُ مَا أُنْذِرُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَدْحَشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

وهم كفار، هيأنا لهم عذاباً مؤلماً وجيعاً. وفي هذه الآية: بيان الوقت الذي تقبل فيه التوبة، وهو ما لم يصل الإنسان إلى العرصة ومُشاهدة ملك الموت، ومقدمات وسائل العذاب، فإذا وصل إلى ذلك، لم تقبل له توبة، ولا يصح منه إيمان.

١٩ - يا أيها الذين صدقوا بالله، وأتبعوا رسوله لا يحل لكم أن تأخذوا النساء بعد موت أزواجهن، على سبيل الإرث، كما يؤخذ المال الموروث، تتصرفون فيهن بالزواج منهن، أو المنع لهن، أو تزويجهن للآخرين، وهن كارهات لذلك، ولا تُمسكوهن من غير حاجة لهن، مضارة ومضايقة؛ لتضجر فتفتدي ببعض مالها، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة أخلاقهن وكاشفة عن أحوالهن بالترفع على الزوج، وسوء الخلق، وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء وفحش القول، فحينئذ يحل لكم إضرارهن ليفتدين منكم بالخلع، لوجود السبب من جهتهن، وعاشروهن بالمعروف، معاملة تليق بأمثالهن من غير أن يكون منكم ما يستنكر عقلاً أو شريعاً، وذلك بإعطائهن حقوق الزوجية، والإحسان إليهن، والتلطف معهن، والإنفاق عليهن، والصبر على عوجهن، وعدم إيذاهن ومكارتتهن حتى يطلبن الطلاق بأنفسهن، مقابل تنازلهن عن حقوقهن، فإن كرهتم عشرتهن وصحبتهن، وآثرتم فراقهن، فاصبروا عليهن مع الكراهة، فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله في ذلك الشيء المكروه خيراً كثيراً. فكم من امرأة لم تأت مزاج الرجل وذوقه، وليس فيها سوء خلق، أو ضعف دين، أو قلة أمانة، فضبر عليها زوجها، وعاشرها بالمعروف، وتغاضى عن الجوانب التي لا تميل إليها نفسه فيها، فجعل الله منها خيراً كثيراً، فكانت مُعينة له، وحافضة له ولماله ولولده، وأنجبت له ذرية صالحة يسعد بها.

والخير الكثير يتكشف للرجل في الأمر المكروه بإحدى حالتين: إما بالنظر الثاقب الذي يتغلب فيه العقل على الهوى، وإما بعد فوات الوقت، فيعرف الخير الذي فاته بفعله، فلا يمكن التدارك، ويكون الندم المرير.

وهذه الآية: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لا تخص الحياة الزوجية وحدها، بل تشير إلى معنى عام، وهو ألا يثبت في الأمور تحت تأثير الكراهة، فإنها عارض وجداني قد يزول، وقد يكون في المكروه الخير الكثير.

٢٠ - وإن أردتم - يا معشر الرجال - طلاق زوجة واستبدال زوجة أخرى مكانها، وكان صدق من تريدون طلاقها مالا كثيرا، فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئا، إن لم يكن من قبلها نشوز وسوء عشرة، تأخذونه مفسرين فاعلين فعلا تتحير العقول في سببه، أتمين بفعله إنما واضحا معلن الوضوح، مستنكر الوقوع، فلا تفعلوا هذا الفعل مع ظهور قبجه في الشرع والعقل.

٢١ - ولأي وجه تفعلون مثل هذا الفعل، وكيف يليق بالعاقل أن يسترد شيئا بذله لزوجته عن طيب نفس، وقد وصل بعضكم إلى بعض بالجماع، أو الخلوة، وأخذ منكم عهدا شديدا مؤكدا، وهي كلمة النكاح التي تستحل بها فروج النساء؟!

دلت هذه الآية على أن الرجل إذا افترق عن زوجته، لا يحل له ديناً أن يأخذ منها شيئا إذا كان الشوز من جانبه، ولا يحل أن يأخذ أكثر مما أعطى إذا كان الشوز من جانبها.

٢٢ - ولا تتزوجوا من تزوجه آبائكم من النساء إلا ما مضى في الجاهلية قبل نزول التحريم، فإنه معفو عنه، ولا تؤاخذون عليه؛ لأن الزواج من زوجة الأب وهي في منزلة الأم أمر مستقبح غاية القبح، ويورث أشد الغضب من الله، وبئس الزواج بزواج الآباء طريقا يسلكه الأبناء لقضاء الشهوات؛ لأنه يؤدي إلى مقت الله.

وعقد النكاح ذاته سبب التحريم، فإذا عقد الأب أو الجد على زوجة، فإنها تكون حراماً على الأبناء والأحفاد، ولو لم يدخل بها؛ لأن ذلك ما يقتضيه الإحسان إلى الوالدين.

وفي النص إشارة إلى أنه لا عقوبات من غير نص محرم، وهؤلاء كانوا يرتكبون ما يرتكبون مستحلين، فلما جاء النص القاطع المحرم كان العقاب، ولا عقاب قبل النص.

٢٣ - حرم الله عليكم نكاح هذه المحرمات السبع بسبب القرابة القريبة: الأول: نكاح الأمهات، ويدخل في حكمهن جميع الجدات من جهة الأب أو جهة الأم، وإن علون، والثاني: نكاح البنات، ويشمل بنت البنت، وبنت الابن وإن نزلن، والثالث: الأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم، والرابع: العمات؛ أخوات الأب وأخوات الأجداد وإن علون، والخامس: الخالات؛ أخوات الأمهات وأخوات الجدات وإن علون، والسادس والسابع: بنات الأخ، وبنات الأخت؛ ويدخل في ذلك أولادهن، فهذه الأصناف السبعة محرمه بسبب النسب، وحرمتهن مؤبدة لا تحل بوجه من الوجوه.

والصنف الثاني: المحرمات بالسبب، وهن سبع أيضاً: الأول والثاني: نكاح الأمهات، والأخوات من الرضاة - وقد حرم رسول الله ﷺ من الرضاة ما يحرم من النسب، فتحرم البنات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ والأخت من الرضاة، وإن نزلت درجاتهن في القرابة -، والثالث: نكاح أمهات زوجاتكم، سواء كن أمهات ضليعات أم جدات، وسواء دخلتم بزواجكم، أو لم تدخلوا بهن، والرابع: نكاح بنات زوجاتكم من زوج اللاتي يترين غالباً في بيوتكم، وتحت رعايتكم، وهن محرمات وإن لم يكن في حُجورككم، ولكن حرمة بنات الزوجة وبنات أولادها بعد الدخول بالزوجة لا بمجرد العقد، فلو فارقت زوجاتكم قبل الدخول، أو ماتت قبل دخولكم جاز لكم أن تتزوجوا ابنتها، والخامس: نكاح زوجات آبائكم وأبناء آبائكم من النسب والرضاة وإن سفلوا، وذلك بنفس العقد، دخل الابن بها أم لم يدخل، بشرط أن يكونوا من ظهوركم، أما زوجة المتبني فلا تحرم على الرجل الذي تبناه، والسادس: الجمع بين الأختين في نكاح واحد، سواء كانت الأخوة بينهما أخوة نسب أو رضاع، لكن ما قد مضى وسلف منكم في الجاهلية قبل ذلك التحريم فإنه معفو عنه، ولا يجوز كذلك الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها كما جاء في السنة، إن الله كان كثير الستر للمذنبين إذا تابوا، دائم الرحمة بالمؤمنين.

الجزء الرابع

سورة النساء

وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحديهن نقداً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه، وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذت منكم ميثاقاً غليظاً ١٤ ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ١٥ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم التي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاة وأمهات نسائكم وربيباتكم التي في حُجوركم من نسائكم التي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلبكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان عفواً رحيماً ١٦

٢٤ - **والمحرّم السابع:** نكاح ذوات الأزواج من النساء قبل مفارقة أزواجهن، لكن المَسْبِيَّات اللاتي سُبِينَ في الجهاد، ولهنّ أزواج في دار الحرب، فيحلّ لِمَالِكِهِنَّ وَطُوهُنَّ بعد الاستبراء بحیضة، كتب الله عليكم تحريم نكاح هذه المُحَرَّمات المذكورات كتاباً، وفرضه فريضة، وأحلّ الله لكم نكاح ما سوى ذلكم الذي ذكر من المُحَرَّمات، أن تطلبوا الزواج أشدّ الطلب، وترغبوا فيه أشدّ الرغبة، مُتَقَدِّمِينَ في ذلك بأموالكم بصدّق؛ لإعزاز المرأة وتكريمها، ولتستعين فيما تتأهّل به للزواج، حالة أنكم في طلبكم الزواج تُحَصِّنُونَ به أنفسكم وتُطْفِكُمْ، وتحفظون به أولادكم، واضعين للنطفة الإنسانية في حرثها الذي أعدّه الله تعالى لها، غير زانين مُلْتَقِينَ لها على تراب الرذيلة، فما انتفعت به وتلذذتم بالجماع من النساء بنكاح صحيح، فأعطوهنّ مُهورهنّ، فريضة لازمة وواجبة. ولا حرج عليكم فيما تراضيتنّ به من بعد المهر الذي سمّيتهنّ وفرضتموه على أنفسكم بزيادته أو نقصه عن طيب نفس من الزوجة؛ إن الله كان عليمًا بما يُصلحكم - أيها الناس - في مناكحكم وغيرها من سائر أموركم، حكيمًا فيما يأمركم به وينهاكم عنه، يضع كلّ شيء في موضعه.

٢٥ - ومن لم يقدر على مهر الحرائر المؤمنات، فلينزوّج الأمة المؤمنة والفتيات الجوّاري المملوكات، والله تعالى أعلم بحقيقة إيمانكم، وهو أعلم منكم بأنفسكم، كلُّكم من نفس واحدة، فلا تستنكفوا من نكاح الأمة عند الضرورة، ولا يستعلي حرٌّ على عبد، ولا حرّة على أمة، فجميعكم تضمُّكم إنسانيّة واحدة، فاخطبوا الإماء إلى ساداتهنّ، واعقدوا عليهنّ عقْد الزواج بإذن أهلهنّ، وأعطوهنّ مُهورهنّ بالقدر الذي لا يستنكره العرف، من غير مظل ولا إضرار، فانكحوهنّ حال كونهنّ عفاف غير زانيات علانية، ولا

مُتَخَذَات أخلاء للزنى في السر، فإذا تزوّجن وأتَيْن بفاحشة الزنى، - على سبيل الشك الذي لا يتوقع حصوله من زوجة حرة أو غير حرة - فعلى الإماء اللاتي زَنَيْن نصف ما على الحرائر الأَبْكَار إذا زَنَيْن من الجُلْد؛ لأنّ الجريمة تهون بهوان مُرتكِبها، وتعلو بعلو مُرتكِبها، فإذا علّت الجريمة علّت معها العقوبة، وإذا نقصت، نقصت معها العقوبة، وهذا دليل على عدل الشريعة.

ذلك الذي أبيض من نكاح الإماء لمن خاف أن تحمله شدّة الشهوة على الزنى، وشقّ عليه الصبر عن الجماع. فأباح الله نكاح الأمة بثلاثة شروط: الأول: عدم القدرة على نكاح الحرّة، والثاني: خوف الإثم بسبب غلبة الشهوة، والثالث: كون الأمة مؤمنة. وأن تصبروا عن نكاح الإماء مُتَعَفِّفِينَ حتى يُيسّر الله لكم نكاح الحرائر خير لكم؛ كيلا يكون الولد عبدًا رقيقًا، وفي ذلك تكثير للرق، ولأنها لا يتحقّق مع بقائها على رقّها بيت زوجيّة صالح، إذ ستكون مُطالِبَةً بخدمة وليّها، ولهذا يكون السبيل للزواج بهنّ شراءهنّ وإعتاقهنّ، وبذلك يقلّ الرقيق، ويكثر الأحرار، والله كثير الشّر لكُم، دائم الرحمة بكم، حيث أباح لكم ما أنتم محتاجون إليه.

٢٦ - يريد الله بإنزال هذه الآيات وتفصيل هذه الشّريعات لكم في كتابه، أن يُبيّن لكم معالم دينه القويم، ويوضح لكم شرع الحكيم، ويُرشدكم شرائع من قبلكم، من الأحكام الباقية على ما كانت في الأمم السابقة، كتحرير الزّنى، وتحريم الأمّهات والبنات والأخوات الشقيقات، ويتجاوز عنكم ما أصبتم من نكاح زوجات آبائكم قبل أن يُبيّن لكم، ويرجع بكم عن المعصية التي كنتم عليها إلى طاعته، واللّه عليم بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم، حكيم فيما دبر من أمورهم، يضع كلّ شيء في موضعه.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِحْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا
بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ
مِنْهُنَّ فَقَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ٢٤ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ
الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ
فَنَيْتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ
بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَخَذَاتٍ
أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ
مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ
الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
٢٥ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي
مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦

٢٧ - والله يريد أن يرجع عليكم بما هو خير لكم ولاسرکم بتحريم العمات والخالات والأخت لأب ونحو ذلك، مما لم يكن محرماً على الأمم السابقة، ويريد الذين يتبعون الشهوات الذين يحكمون بإباحتها من الأمم السابقة أن تنحرفوا عن الحق انحرفاً عظيماً بإتيانكم ما حرم الله عليكم.

٢٨ - يريد الله ليسهل عليكم في تكاليف الشريعة إحساناً وتفضلاً منه، بالإذن لغير ذي القدرة المالية على نكاح الحرّة بأن ينكح أمة مؤمنة، وخلق الإنسان ضعيف الإرادة أمام شهوته الثائرة إلى النساء.

وقد راعى الإسلام واقع حال الضعف البشري الذي قد ينزل به إلى الوقوع في الخطيئة، فأذن بالتزويج من الإماء عند عدم القدرة على التزويج من الحرائر، وفتح له أبواب التوبة والاستغفار، وأطمعه بالعفو والغفران، ليتابع مسيرته في الحياة سالكاً سواء السبيل، حتى يظفر بالنجاح حينما تنتهي فترة ابتلائه في هذه الحياة الدنيا.

٢٩ - يا أيها الذين صدّقوا بالله، وأتبعوا رسوله لا يأخذ بعضكم مال بعض بالحرام الذي لا يحل في الشرع، كالربا والقمار والغصب والسرقة وشهادة الزور، وجميع التصرفات الواقعة على وجه الباطل والعقود الفاسدة، لكن يحل لكم أخذ المال بالتجارة الناشئة عن تراض طيبة نفس كل واحد منكم، فالتراضي أساس العقود عامة، وأساس المبادلات المالية خاصة، فلا بيع ولا شراء، ولا إجارة ولا شركة ولا غيرها من عقود التجارة ما لم يتحقق الرضا.

ولا يقتل الإنسان نفسه، ولا يقتل بعضكم بعضاً؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، وقتل واحد منكم للآخر قتل لأنفسكم؛ إن الله تعالى كان بكم رحيماً، ولرحمته بكم ينهكم على ما فيه صيانة أموالكم، وحفظ أبدانكم، ونهاكم عن كل ما يسبب لكم مشقة أو محنة.

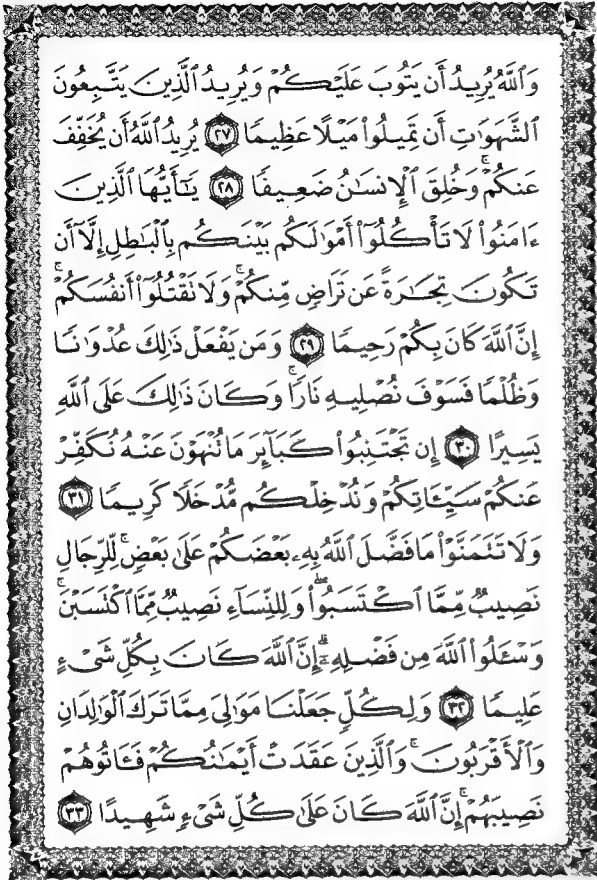
٣٠ - ومن يفعل ما سبق ذكره من قتل النفس المحرمة، وأكل المال بالباطل متجاوزاً الحد المشروع قصداً، وواضعاً الشيء في غير موضعه، فسوف ندخله في الآخرة ناراً شديدة العذاب، ونحرقه بها، وكان ذلك على الله هيئاً؛ لأنه تعالى قادرٌ على كل شيء، فعّالٌ لما يريد.

٣١ - إن تتابعوا - أيها المؤمنون - عمّا كبر وعظم من الذنوب، كالإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس بغير الحق، وغير ذلك، فتكونوا في جانب، والكبائر في جانب آخر، نستر عليكم ما دون الكبائر من الصغائر، ونُدخلكم مكاناً حسناً شريفاً، تُكرمون فيه، وهو الجنة.

٣٢ - ولا تتمموا ما فضل الله به بعضكم على بعض، في قسمة الميراث، للرجال نصيب مُقدّر في تشريع الميراث تابع لطبيعة أعمالهم التي يكتسبونها بحسب مسؤولياتهم، وللنساء نصيب مُقدّر في تشريع الميراث تابع أيضاً لطبيعة أعمالهن التي يكتسبنها بحسب مسؤولياتهن، فالتمييز في أنصبة الميراث بين الذكور والإناث تابع للتمييز في أصل الخصائص التكوينية، وفي طبيعة نظام الحياة الاجتماعية، فتمنّى النساء ما فضل الله به الرجال عليهن في الميراث هو من قبيل تمنّي الأشياء التي لا يمكن اكتسابها بالسعي والعمل، وهو من الحسد المنهي عنه، واطلبوا من فضل الله ما يكون سبباً لصلاح دينكم ودنياكم وآخرتكم، واقطعوا نظركم عمّا في أيدي الناس من نعم فضلهم الله بها ليحكم هو بها عليهم، إن الله كان من الأزلى إلى الأبد بكل شيء عليمًا كاملاً شاملاً.

٣٣ - ولكل واحد ممن يتركون الحياة الدنيا جعلنا خلفاء له في ماله من أقرب الناس له، وأكثرهم نصرة، ويكون لكل من هؤلاء الأولياء حظ من ماله يأخذه، لا يستبد به قريبٌ دون قريب إذا اتحدت درجة القرابة وقوتها، والذين تحالفتم معهم بالآيمان المؤكدة على النصرة والإرث والدّية، فأعطوهم حظهم من الميراث، إن الله يُخبر عن كل شيء في الكون إخباراً مطابقاً لما هو عليه في الواقع، فهو سبحانه حاضرٌ مُعَيّنٌ لما يُخبر به، لا تخفى عليه في الوجود خافية، يعلم جميع الأشياء علمَ شهودٍ وحضور، ويُخبر الخلق يوم القيامة بكل ما عملوه.

والميراث بالولاء لا يتعارض مع الميراث بالقرابة، لأنه يكون إذا لم يكن للشخص أحد من الأقارب قط، وبذلك لا يكون للولاء قوة القرابة، ولكن تكون له قوة الوصية التي تتأخر عن القرابة والزوجية، وعقد الولاء يُقدّم على بيت المال؛ لأن النصرة الخاصة مُقدّمة على النصرة العامة؛ إذ عقد الولاء سببٌ للنصرة الخاصة.



٣٤ - الرجال قوامون على توجيهِ النساء ورعايتهن وحفظهن، لسببين: الأول: بسبب ما فضل الله الرجال على النساء، من خصائص نفسيّة وجسديّة، والسبب الثاني: بما أعطوا من مهر النساء والنفقة عليهن، فالنساء المحسنات العاملات بالخير، المستقيمات في خلقهن ودينهن، مطيعات لله تعالى ولأزواجهن، حافظات للأمور المغيبيّة المُستترة، فلا يفشين ما يكون بينهن وأزواجهن، ولا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن، ولا يعتدين عليه، ولا يَصْنَعْنَ في الوديعة التي أودعها الله إليهن ما لا يجوز أن يكون فيها، بحفظ الله وتوفيقه، وبما حفظهن الله حين أوصى بهن الأزواج وأمرهم بأداء المهر والنفقة عليهن. والزوجات اللاتي تعلمون دلالات ترفعهن على أزواجهن بالقول أو الفعل، فإذا ظهر منهن بوادر العصيان، فانصحوهن نصحاً مفروناً بما يثير الرغبة في دوام الحياة الزوجيّة، والتخويف من نتائج الترفع والإعراض والعصيان، فإن لم ينزعن عن ذلك بالقول المؤثر، فاهجروهن في الفراش، ولا تقربوهن، فإن لم ينزعن بالهجران، فاضربوهن ضرباً غير مُبرح ولا شائن، فإن رجعن عن تمردهن واستعصانهن إلى طاعتكم عند هذا التأديب، فلا تطلبوا بعد طاعتهم لكم طريقاً مُستعلياً عليهن، يكون لكم به عليهن تسلط بغير حق؛ لأن هذا ظلم، واستعمالاً لسلطة القوامة في غير ما أذن الله به، إن الله كان من الأزل إلى الأبد عليّاً كبيراً، له كمال الغلو وكل غاياته، والكبير الذي ليس في الوجود كله مثل وصفه بالكبر، فهو سبحانه أعلى منكم سلطاناً، وأكبر قدرة، فإذا تجاوزتم حدودكم فيمن جعل الله تحت أيديكم، فإن الله أقدر على عقوبتكم، وسلطانه أعلى من سلطانكم.

٣٥ - وإن علمتم - أيها المؤمنون - شقاقاً ومخالفةً بين الزوجين، يؤدي إلى الفراق، فأرسلوا إليهما حكماً عدلاً من أهل الزوج، وحكماً عدلاً من أهل الزوجة؛ لينظرا في أمرهما، ويحكمما بما يريانه مصلحاً من الجمع أو التفريق، إن يرد الزوجان إصلاحاً يُوفق الله بينهما، فيجعل كل قلب يلتقي مع الآخر؛ إن الله كان من الأزل إلى الأبد عليماً علماً كاملاً شاملاً، خبيراً بظواهر الأشياء وبواطنها، علم حضور وشهود وتدبير.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَلَا صَلَاحَ لَهُتُمْ قَيْنَاتٌ أَنْفَكَتُمْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ سُورَهُنَّ فِعْظُوهُنَّ وَأَهْبِئُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً ﴿٣٥﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيمًا ﴿٣٦﴾ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّوْا لِدِينِ إِحْسَانًا وَيَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ الَّتِي آتَاهُمُ اللَّهُ لِيُزَكِّيَهُمْ وَأَلْجُلْ وَيَكْثُرُوا مَاءً آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٨﴾

٣٦ - أوصيكم بهذه الوصايا العشر: الأولى: وُحِّدُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوهُ وَأَخْلَصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ، ولا تجعلوا له في الربوبية والإلهية شريكاً، والوصية الثانية: أحسنوا إلى الوالدين برّاً بهما، وعطفاً عليهما بالقيام بخدمتهما، وتحصيل مُرادهما، والإنفاق عليهما بقدر القدرة، والوصية الثالثة: أحسنوا إلى ذوي القرابة من الإخوة والأخوات، والأعمام والعَمَّات، والأخوال والخالات، وأبنائهم وبناتهم، وغيرهم من أولي الأرحام، لصلتهم وسد حاجتهم وإحسان صحبتهم، والوصية الرابعة: أحسنوا إلى اليتامى الذين مات آبائهم وهم دون بلوغ الخُلُم، ببوائهم والعطف عليهم، والوصية الخامسة: أحسنوا إلى المساكين الذين يتعرضون للعطاء، ويسألون الصدقة، بكفالتهم وسد حاجتهم، والوصية السادسة: أحسنوا إلى الجار الذي بينكم وبينه قرابة رَحِم، أو الذي تكون دائره قريبه من داركم، والوصية السابعة: أحسنوا إلى الجار الذي ليس بينكم وبينه قرابة رَحِم، أو الذي تكون دائره مُجانبه ليست بملاصقه، والوصية الثامنة: أحسنوا إلى الرقيق في أمر حسن؛ كتعلم وتجارة وصناعة وسفر، يصحبك في ذلك، ويكون في جنبك وجوارك بصفة دائمة أو مؤقتة، ويدخل في ذلك المرأة مع زوجها، والزوج مع امرأته، والوصية التاسعة: أحسنوا إلى المسافر المحتاج الذي انقطع عن أهله وماله، أو الضيف الذي يمر بك فتكرمه وتُساعده وتحسن إليه، والوصية العاشرة: أحسنوا إلى الممالك من فتيانكم وفتياتكم، فلا تكلفوهم ما لا يطيقون، ولا تؤذوهم بالكلام الخشن، وأعطوهم من الطعام والكسوة ما يحتاجون إليه بقدر الكفاية. والإحسان إلى ملك اليمين، وإن كان ينصرف إلى الرقيق، فهو بعموم لفظه يشمل كل ما تحت يد الإنسان من حيوانات ومن أجهزة وآلات وأشياء، فهو مأمور بالإحسان إليها، وذلك بأن يحافظ عليها، ويصونها، ويرعاها، ولا يُبددها؛ لأنه مؤتمن عليها، مُستخلف فيها؛ إن الله لا يحب من كان مُتكبراً مُعجباً بنفسه، يتخيل لنفسه من الصفات والسجاياء والأفعال ما ليس فيه، فخوراً على الناس يعد مناقبه تكبراً وتطاولاً، ويحب أن يُحمد بما لم يفعل. ومن لا يحبه الله، فإنه يُعرض نفسه لنقمته وعذابه الشديد.

٣٧ - من صفات المختالين الفخوريين: أنهم يَبْخُلُونَ بكتمان العلم، ومنع المال، ويأمرون غيرهم بالبخل، ويُسْجَعُونَ عليه؛ لأنهم يكرهون السخاء، ويمقتون الجود والكرم، ويكتمون ما أنعم الله عليهم من العلم أو الغنى أو الجاه، ويتظاهرون بالفقر، ويخفون فضل الله وعطاءه، لهم وعيد شديد، وَهَيَّا لِلْجَاهِدِينَ وَحَدَائِثَ اللَّهِ تَعَالَى، ورسالة محمد ﷺ، وسائر نعم الله عليهم عذاباً مُخزياً يُهانون به في الآخرة، فإذا كانوا قد استكبروا وطغوا واستعلوا واختالوا في الدنيا، وهي متاع قليل، فالذل الدائم، والهوان المُستمر مُلزمٌ لهم في الآخرة.

٣٨ - وهَيَّأْنَا هَذَا الْعَذَابَ كَذَلِكَ لِلَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ مِنْ أَجْلِ الشَّهْرَةِ وَالسُّمْعَةِ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا يَرِيدُونَ بِمَا أَنْفَقُوا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَلَا بِالْمَعَادِ الَّذِي فِيهِ جَزَاءُ الْأَعْمَالِ، وَقَدْ دَفَعَ هَؤُلَاءَ إِلَى الرِّيَاءِ فِي إِنْفَاقِهِمْ وَإِلَى الْبَخْلِ وَالْكَتْمَانِ، قُرْءَانُ الشُّوْءِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ صَاحِبًا مُلَازِمًا لَهُ، قَدْ اخْتَلَطَ بِهِ، وَمَازَجَ نَفْسَهُ، فَبُئْسَ الصَّاحِبُ وَالْخَلِيلُ.

٣٩ - وَأَيُّ ضَرَرٍ يُلْحَقُهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ الَّذِي سَيَكُونُ فِيهِ الْحِسَابُ، وَفَصَلَ الْقَضَاءَ، وَتَنْفِيزَ الْجَزَاءِ، وَأَنْفَقُوا مِنْ بَعْضِ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ؛ إِنْ اللَّهُ كَانَ مِنَ الْأَزَلِّ إِلَى الْأَبَدِ بِهِمْ عَلِيمًا عَلَمًا كَامِلًا شَامِلًا، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِأَجْلِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، وَسَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ.

٤٠ - إِنَّ اللَّهَ لَا يَبْخُسُ أَحَدًا شَيْئًا مِنْ ثَوَابِ عَمَلِهِ، وَلَوْ وَزَنَ ذَرَّةً، وَإِنْ تَكَنَّ زَرَّةُ الذَّرَّةِ حَسَنَةً، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ يُضَاعِفُهَا إِلَى عَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى أَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، وَيُعْطِي مِنْ مَحْضِ فَضْلِهِ الْوَاسِعِ ثَوَابًا عَظِيمًا، لَا يَحِيطُ بِمَقْدَارِهِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى دُخُولِ كُلِّ مُؤْمِنٍ الْجَنَّةِ.

٤١ - فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ مِنَ النَّبِيِّينَ أَوْ مِنْ غَيْرِ النَّبِيِّينَ مِنَ الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ، يَشْهَدُ عَلَى أُمَّتِهِ بِأَنَّهُ قَدْ بَلَّغَهُمَا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِمْ إِلَيْهَا، وَجِئْنَا بِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - شَهِيدًا عَلَى أُمَّتِكَ الَّذِينَ بَلَّغْتَهُمْ رِسَالَةَ رَبِّكَ، وَأَدَيْتَ لَهُمُ الْأَمَانَةَ، وَشَهِيدًا عَلَى الرُّسُلِ أَنَّهُمْ بَلَّغُوا أُمَّمَهُمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ؟

٤٢ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَتِمُّ الَّذِينَ جَحَدُوا وَحِدَانِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَصَوْا الرَّسُولَ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ، لَوْ يَدْفَنُونَ، فَتُسَوَّى عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ كَمَا تُسَوَّى عَلَى الْمَوْتِ، وَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى كِتْمَانِ اللَّهِ شَيْئًا مِمَّا فِي أَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ جَوَّارِحُهُمْ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ.

٤٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِاللَّهِ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَقُومُوا إِلَيْهَا فِي حَالَةِ الشُّكْرِ، حَتَّى تَصْخُوا مِنْ سُكْرِكُمْ تَمَامًا، وَتَعْلَمُوا مَا تَتَلَوْنَ فِي صَلَاتِكُمْ، فَلَا تَخْلُطُوا فِي تِلَاوَتِكُمْ. وَهَذَا النَّهْيُ عَنْ قُرْبَانِ الصَّلَاةِ فِي حَالَةِ الشُّكْرِ كَانَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، فَكَانُوا يَشْرَبُونَهَا فِي غَيْرِ أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ، وَذَلِكَ مِنْ قِبَلِ التَّدْرُجِ، حَتَّى يَأْلَفُوا اجْتِنَابَ الْخَمْرِ، ثُمَّ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ تَحْرِيمًا قَاطِعًا بَعْدَ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ.

وَلَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ جُنُبٌ، وَلَا تَقْرَبُوا مَوَاضِعَهَا وَهِيَ الْمَسَاجِدُ جُنُبًا، إِلَّا مُجْتَازِينَ فِيهَا إِمَّا لِلخُرُوجِ مِنْهَا أَوْ لِلدُّخُولِ فِيهَا، إِلَى أَنْ تَغْتَسِلُوا بِتَعْمِيمِ الْجَسْمِ كُلِّهِ بِالْمَاءِ. وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى مَرْضًى يَضُرُّ مَعَهُ إِمْسَاسُ الْمَاءِ، أَوْ كُنْتُمْ مَسَافِرِينَ سَفَرًا طَوِيلًا أَوْ قَصِيرًا، وَكَانَ الْمَاءُ قَلِيلًا، وَأَصَابَتْكُمْ جَنَابَةٌ، أَوْ مَا يَنْقُضُ الْوُضُوءَ، أَوْ جَاءَ أَحَدُكُمْ مِنْكُمْ الْمَطْمِثُ مِنَ الْأَرْضِ، لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ، أَوْ جَامِعَتِ الْمَرْءَ الْمَاءُ، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فِي حَالِ السَّلَامَةِ وَالْإِقَامَةِ، فَاقْصِدُوا تَرَابًا طَاهِرًا، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرْفَقَيْنِ بِضَرْبَتَيْنِ مِنْهُ؛ إِنْ اللَّهُ كَانَ مِنَ الْأَزَلِّ إِلَى الْأَبَدِ عَفْوًا بِتَجَاوُزِهِ عَنْ ذُنُوبِ عِبَادِهِ، لَا يَخْتَارُ لَهُمْ، إِلَّا السَّهْلَ الْيَسِيرَ الَّذِي يَسْهَلُ عَلَيْهِمْ أَدَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ مُرْهِقَةٍ، وَيَعْفُو عَنْ التَّقْصِيرِ فِي الْوَاجِبَاتِ الْأَصْلِيَّةِ لِلْأَعْذَارِ، وَيَفْتَحُ بَابَ الرُّخْصِ، وَيَجْعَلُ كُلَّ مَا هُوَ شَاقٌّ مُرْهِقٌ فِي مَرْتَبَةِ الْعَفْوِ دَائِمًا، وَهُوَ كَثِيرُ السُّتْرِ عَمَّنْ يَتُوبُ إِلَيْهِ.

٤٤ - أَلَمْ تَرَ - أَيُّهَا الرَّائِي الْمَتَفَكِّرُ - رُؤْيَا عِلْمِيَّةً فِكْرِيَّةً حِينَ نَظَرْتَ مُتَفَكِّرًا فِي أَحْوَالِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ أَعْطَوْا مَقْدَارًا مِنْ عِلْمِ التَّوْرَةِ، وَهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ لَمْ يَعْمَلُوا بِأَحْكَامِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِمْ، وَحَرَّفُوهُ وَأَوَّلُوهُ عَلَى غَيْرِ مَعْنَاهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ عَرَفُوا نَبُوَّةَ مُوسَى مِنَ التَّوْرَةِ، وَأَنْكَرُوا نَبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْهَا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ يَبْحَثُونَ عَنِ الضَّلَالَةِ، وَيَشْتَرُونَهَا بِأَمْوَالِهِمْ، أَتْبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، إِذْ يَكْفُرُونَ بِالرُّسُولِ مُحَمَّدٍ وَبِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَأْخُذُونَ بِالضَّلَالَةِ، وَيَبْذُلُونَ الْهُدَى الَّذِي يَعْلَمُونَهُ مِنْ كِتَابِهِمْ، وَلَا يَكْتَفُونَ بِأَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمُ الضَّلَالَةَ، بَلْ يَرِيدُ الْيَهُودُ أَنْ تَنْحَرِفُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، فَخَرَجُوا عَنْهُ، وَتَنَطَّلَقُوا تَائِهِينَ فِي سُبُلِ الضَّلَالِ وَالْعَوَايَا، وَيَتَّخِذُونَ الْوَسَائِلَ لِتَحْقِيقِ مَرَادِهِمْ فِي إِضْلَالِكُمْ.

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ فَرِيضًا فَسَاءَ
فَرِيضًا ﴿٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا
مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَ مِيزِ يَوْمَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ سَوَّيْنَاهُمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكُونُونَ
اللَّهُ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي
سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
فَتَمَسَّحُوا بِأَيْدِيكُمْ فَالْمَسْحُ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنْ
اللَّهُ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ
الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَبْطُلَ السَّيْلُ ﴿٤٤﴾

٤٥ - والله سبحانه أعلم بكنهه ما في قلوب اليهود من العداوة والبغضاء لكم - يا معشر المؤمنين - فلا تستنصحوهم فإنهم أعداؤكم، ومن شأن العدو أن يكيد ويمكر، فإذا آمنتم بالله وأطعتم أوامره، وتوكلتم عليه، واستنصرتهم به، كان لكم ولياً، وكان لكم نصيراً، وكفى بالله متولياً أمركم، وكفى به نصيراً ينصركم عليهم، فنقوا بولايته ونصره. وفي هذه الآية تطمين لقلوب المؤمنين تجاه أعداء لم يظهروا بعد على ساحة المواجهة، بأن الله سينصرهم عليهم بوسائله التي لا تحصى.

٤٦ - من اليهود فريق يتلاعبون بالألفاظ، في محادثاتهم ومخاطباتهم، فيأتون بالألفاظ يُقارب نطقها نطق ألفاظ أخرى ذات معانٍ فيها سب، أو طعن، أو دعاء بسوء، ويقولون لرسول الله ﷺ إصراراً على الكفر، ومكابرة على الباطل: سمعنا قولك وعصينا أمرك، واسمع منا ولا نسمع منك، ويقولون: راعنا. يريدون نسبته ﷺ إلى الرعونة والخفة والطيش، ويوهمون أنهم يقصدون بأن يُراعي أمرهم بعناية خاصة على اعتبار أنهم أهل كتاب، يُحرفون الكلم إيهاماً بأنه من لهجاتهم في لغتهم، وغرضهم من ذلك: سب الرسول، والاستهزاء به، ويقولون: لو كان نبياً لعرف ذلك، ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا، بدل سمعنا وعصينا، واسمع بدل قولهم: لا سمعت، وانظرنا بدل قولهم: راعنا، لكان خيراً لهم عند الله وأعدل وأصوب، ولكن طردهم الله وأبعدهم عن رحمته، بسبب إصرارهم على الكفر، وإيغالهم فيه بإرادتهم الحرة، فغلقت عليهم أبواب الحق، وطمس الله على بصائرهم، فلا يؤمن من اليهود إلا نفر قليل.

٤٧ - يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بالقرآن الذي نزلناه مُصدّقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهكم بضربة عليها تمحو ملامحها، ونجعلها في أكره منظر، أو نطردهم من الرحمة، وننزل بهم العذاب، ونمسخهم قردةً وخنازير، كما فعلنا بأوائلهم من أصحاب السبت الذين نهوا عن الصيد فيه فلم ينتهوا، فغضب الله عليهم وطردهم من رحمته، وكان أمر الله واقعاً لا محالة، لا يمتنع عليه شيء يريد أن يفعله.

٤٨ - إن الله لا يغفر لمشرك مات على شركه، ولا تشمل رحمة الله بنجاة من الخلود في عذاب النار، ويغفر الله سبحانه ما دون الشرك لمن يشاء من أصحاب الذنوب والآثام برحمته على وفق حكمته، وبحسب علمه بأحوال عبده، ومن يجعل مع الله شريكاً في ربوبيته أو إلهيته، فقد اختلق ذنباً عظيماً غير مغفور إن مات عليه. أما من تاب من الكفر بمختلف أنواعه بالإيمان الصادق الصحيح ضمن مدة امتحانه في الحياة الدنيا، تجاوز الله عن كل ما كان منه وهو في الكفر، وغفر ذلك له. وفي هذه الآية رد على من قال: إن الكبائر لا تغفر، وعلى من قال: إن أصحاب الكبائر من المسلمين لا يُعذبون.

٤٩ - ألم ينته علمك - يا رسول الله - إلى اليهود الذين يمدحون أنفسهم بالصّلاح والدين والأفعال الحسنة، وينسبوننا إلى الطهارة من الشرك والمعصية، وهم كافرون فاسقون عصاة؟ بل الله وحده يحكم بعلمه بزكاة من يشاء، وينسب إليه الطهارة من الكفر والفسوق والعصيان، وإن الذين زكاهم الله لا يُقصدون من ثواب الله شيئاً مقدار الخيط الذي يكون في شق النواة.

٥٠ - انظر - يا رسول الله - يا كل مؤمن من أمة - نظر تعجب إلى هؤلاء اليهود، كيف يفترون على الله الكذب بتزكيتهم أنفسهم، ودعواهم: إنهم لا ذنوب لهم، وأنهم محبوبون من الله، وأنه يغفر لهم كل ما يفعلون؟ وكفى بذلك الكذب ذنباً بيناً واضحاً يستحقون عليه أشد العقوبات وأعظمها.

٥١ - ألم تر - أيها الرائي - أمراً عجيباً ناظراً إلى أمر أولئك اليهود الجاهلين الذين أعطوا حظاً من الكتاب، ككعب بن الأشرف وأصحابه، يُوجهون إراداتهم للإيمان بالباطل، من السحر والكهانة، ويُصدّقون بكل ما يُعبد من دون الله من الأصنام والشياطين ورؤوس الضلالة، ويقولون لكفار قريش: أنتم - يا هؤلاء في شرككم وعبادة الأوثان - أهدى من الذين آمنوا طريقاً، وأقوم ديناً. وفي الآية: ذم السحر والساحر، والكهانة والكاهن، ومُصدّقهما، وأنه ملعون.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرُ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنِيًّا ﴿٤٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

٥٢ - أولئك البُعْداء المنحطون إلى جهة الدرك الأسفل من النار الذين أبعدهم الله عن رحمته، ومن يطرده من رحمته فلن تجد له نصيراً ينصُرُهُ في الدنيا والآخرة.

٥٣ - ليس لهؤلاء اليهود نصيب من الملك ألبتة؛ لأنهم كانوا يقولون: نحن أولى بالملك والنبوة فكيف نتبع العرب؟ ولئن كان لليهود البخلاء نصيب وحظ من الملك فهم من شدة الحرص والبخل بحيث لو أوتوا شيئاً منه لما أعطوا الناس منه أقل القليل، ولو كان مقدار النقطة التي تكون على ظهر الثواة.

٥٤ - بل أيحسد بنو إسرائيل العرب أبناء عمهم إسماعيل عليه السلام؛ لأن الله تعالى بعث منهم الرسول الخاتم للأنبياء والمرسلين، وأنزل عليه الكتاب المجيد، أعظم كتبه؟! فقد آتينا آل إبراهيم من فرع إسحاق ويعقوب الكتاب الشامل للتوراة والزبور والإنجيل، وآتيناهم علماً وهداية وحقائق زائدة على ما أنزل في التوراة والزبور والإنجيل، وآتيناهم داود وسليمان ملكاً عظيماً، فلم يشغلهم الملك عن أمر النبوة.

٥٥ - فمن اليهود من آمن بالنبِيِّ ﷺ وما أنزل إليه، ومنهم من أعرض عنه ونأى، وأدبر وتولى حسداً وجحوداً، وهؤلاء لهم يوم الدين عذاب في جهنم، وكفى بجهنم ناراً موقدة إيقاداً شديداً لتعذيب الكافرين، دون أن يكون لهم عذر في كفرهم.

٥٦ - إن الذين جحدوا ما أنزلت على رسولي محمد ﷺ من آياتي الدالة على توحيدي وصدق رسالته ﷺ، سوف ندخلهم ناراً هائلة شديدة اللهب نشويهم فيها، كلما احترقت جلودهم، وانقطع إحساسها، بدلناهم جلوداً غير الجلود المحترقة، وإنما فعلنا بهم ذلك ليجدوا ألم العذاب المتجدد. إن الله كان قوياً غالباً في انتقامه لا يغلبه شيء، ولا يمتنع عليه أحد، حكيماً في تذييره وقضائه ولا يفعل إلا ما هو الصواب.

سُورَةُ النِّسَاءِ

الْبَيْتُ الْخَامِسُ

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَهُ نَصِيرًا ٥٢
 أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ٥٣
 يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا
 آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ٥٤
 فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَعْنَاهُ وَكَفَىٰ بِهِمْ سَعِيرًا ٥٥
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصْلِي
 جُلُودَهُمْ بَدَلًا لَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ٥٧
 إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ
 النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
 بَصِيرًا ٥٨
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
 الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
 تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩

٥٧ - والذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات التي تُعبر عملياً عن صحة الإيمان الإرادي الاعتقادي سوف ندخلهم يوم القيامة جئات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، باقين فيها أبداً بغير نهاية ولا انقطاع، ولهم في الجئات أزواج مطهرات من جميع الأدناس الحسية والمعنوية، وندخلهم ظلاً وارفاً لا يصيب صاحبه حرٌ ولا سموم، دائماً لا تنسخه الشمس.

٥٨ - إن الله يأمركم أن تؤدوا جميع ما ائتمتم عليه من الحقوق إلى أصحابها ومستحقها، سواء أكانت لله تعالى أم للعباد، فعليّة أم قوليّة أم اعتقاديّة، ويأمركم أن تحكموا بين الناس بالعدل بإيصال الحق إلى مستحقه، دون تمييز بين عناصرهم وطبقاتهم وبعدهم وذوي قرباتهم، إن أداء الأمانات والحكم بالعدل نِعَم الشيء الذي ينصحكم الله به نصحاً مقروناً بما يشير الرغبة والرهبة في النفس؛ للانتفاع بالنصح، وأتباع ما هدى الله إليه؛ إن الله سميع لشكاوى المظلومين الذين لا يعاملون بالعدل، بصير بأعمال الظالمين الجائرين، وسيجازيهم على ظلمهم وجورهم.

٥٩ - يا أيها الذين صدّقوا في إيمانهم امتثلوا أمر الله فيما أمر، وانقادوا لأمر رسوله ﷺ، وأطيعوا الفقهاء المجتهدين الموثوقين الذين يُعلمونكم معالم دينكم، وأمراء الحق، وولاة العدل من المسلمين، وأهل الحل والعقد ضمن حدود اختصاصاتهم، في غير معصية الله، فإن اختلفتم في شيء من أمر دينكم، وفي طلب الحق في سائر شؤونكم، وجذب كل واحد من المختلفين الحجة إلى جانبه، فردوا ذلك الأمر الذي تنازعتم فيه إلى كتاب الله عز وجل، وإلى سنة رسوله ﷺ، وذلك بالتماس ما يكون من الأحكام متفقاً مع المقاصد والغايات التي جاء بها الكتاب والسنة، بالقياس والنظر إلى المقاصد العامة للشريعة، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر الذي يكون فيه الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء؛ ذلك الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله أحمد عاقبة، وأحسن إرجاعاً يؤول أمركم إليه - أيها المؤمنون - من أن تردوا ما تنازعتم به من أمر إلى حكم آخر، كتحكيم العقل، أو العرف، أو القوانين الوضعيّة، أو غير ذلك.

والذين يتولون رد الأمر المُختلف فيه، يجب أن يكونوا على علم بالكتاب والسنة ومقاصد الشريعة وغاياتها، وهم علماء الإسلام المتفقهون في أحكامه، ولذلك يجب أن يكون مع أهل الحل والعقد، رجال من الفقهاء المخلصين الصادقين، الذين لا يغلب عليهم الهوى، ولا يخضعون لهوى الحكام، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه.

٦٠ - ألم تر - يا رسول الله - أمراً عجباً وسلوكاً متناقضاً ناظرأ إلى المنافقين من اليهود الذين يدعون بالانتهم ادعاءً كاذباً، أنهم آمنوا بالقرآن، وبما أنزل إلى الرسل من قبلك، يريدون دوماً أن يتحاكموا إلى غير ما شرع الله من الباطل، وقد أمروا أن يكفروا بكل رأس في الضلال، وكل ما عُبِدَ من دون الله، ويريد الشيطان أن يضلهم عن طريق الهدى والحق ضلالاً بعيداً.

دلّت هذه الآية على أن التحاكم إلى غير شريعة الله لا يتفق مع الإيمان الصادق، وأن من يرفض حكم القرآن يخضع لحكم الشيطان، يضل به ضلالاً كلماً أوغل فيه بعد عن الحق المبين، والصرط المستقيم.

٦١ - وإذا قيل للمنافقين: هلموا إلى حكم الله الذي أنزله في كتابه فاعملوا به، وتعالوا إلى الرسول ليحكم بينكم، رأيت المنافقين يعضون عنك وعن حكمك إعراضاً وأي إعراض. أما غير المنافقين فإنهم يتعظون، وتلين قلوبهم، ويتغلبون على أهوائهم بمقدار نسبة ما لديهم من إيمان.

٦٢ - فكيف تكون حال هؤلاء المنافقين، إذا أصابتهم مصيبة يعجزون عنها، تُصيبهم بسبب التحاكم إلى غير شرع الله، ورضاهم بحكم الطاغوت؟ إنهم سيصابون بالهلع والخوف الشديد، فيفكرون في انتحال الأعداء التي تُخرجهم من مواقع الإدانة، فالعقاب، ثم جاؤوك يسعون إليك - يا رسول الله - مذعورين، يحلفون بالله: ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا إحساناً لك - يا رسول الله - بإبعادك عن مواطن الاتهامات والشبهات، وإصلاحاً بين الخصمين لا مخالفة لك في حكمك؟!

٦٣ - أولئك البعداء عن الإيمان، النافرون عن حكم الله الذين يعلم الله ما يستكن في قلوبهم من النفاق، فأعرض عن عقوبتهم

ومؤاخذتهم على ما بدّر منهم، وانصحهم نصحاً مقروناً بالتحذير من معية تحاكمهم إلى غير حكم الله ورسوله، وبالإطماع بثواب الذين يحكمون كتاب الله وسنة رسوله، وقل لهم خالياً بهم في سرهم، وفي شأن حقيقة أنفسهم قولاً بالغاً عُتِق وجدانهم، يؤثر في قلوبهم، ويكشف حقيقة نفاقهم الذي يكتُمونه، وأعمالهم التي يخفونها.

٦٤ - وما أرسلنا من رسول من رسلنا لأمة من الأمم إلا ليُطاع فيما يأمرهم به، أو ينهاهم عنه بأمر الله، وإنما وَجِبَتْ طاعة الرسول لأن الله أمر بذلك، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، ولو أن الذين ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت، جاؤوك - يا رسول الله - تائبين من النفاق والتحاكم إلى غير ما شرع الله من الباطل، مُتَّصِلِينَ مِمَّا ارتكبوا من المخالفة، فاستغفروا الله من ذلك الذنب بإخلاص، وبالعفو في الاعتذار إليك من رُدِّهم حكمك والتحاكم إلى غيرك، واستغفروا لهم الرسول ﷺ من مخالفته والتحاكم إلى غيره، لعلوا أن الله يتوب عليهم، ويتجاوز عنهم ويرحمهم، ويغفر لهم ذنوبهم، ويزيدهم من فضله.

٦٥ - ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وهم يُخالفون حكمك، وربك - يا رسول الله - لا يكونون مؤمنين صادقي الإيمان، حتى يُحكموك فيما اختلفوا فيه من الأمور، وأشكل عليهم حكمه، ثم لا يجدوا في داخل أنفسهم ضيقاً وعدم ارتياح ممَّا قَضَيْتَ، بل يرضوا بقضائك، وينقادوا لأمرك انقياداً كاملاً لا شائبة فيه بظاهرهم وباطنهم، ولا يعارضونك في شيء من أمرك. فأول مظهر من مظاهر الإيمان: تحكيم شريعة الله، ولكن التحكيم وحده ليس كافياً، بل لا بد له من أمرين آخرين: أولاهما: أن يكون عن رضا وطيب نفس من غير حرج ولا ضيق ولا تملُّل، وثانيهما: التسليم والخضوع لحكم الشرع والانقياد له ظاهراً وباطناً.

فتحكيم الرسول ﷺ بعد وفاته يتحقق بالتحاكم إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وهو من ظواهر صدق الإيمان به، وبما أنزل عليه من حق وعدل. ورفض تحكيمه يتضمن معنى عدم الإسلام لله ورسوله، أو اتهام أحكام الرسول بالخروج عن الحق والعدل. والأول: كفر من نوع كفر من آمن ولم يسلم، والثاني: ناقض لأصل الإيمان؛ لأنه يتنافى معه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ وَكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

٦٦ - ٦٨ - ما فرضنا على المنافقين إلا طاعة الرسول ﷺ والرضا بحكمه، ولو أنا فَرَضْنَا وَأَوْجَبْنَا على المنافقين؛ ليكفروا عن ذنبهم الذي ارتكبوه بتحاكمهم إلى الطاغوت؛ أن يقتل بعضهم بعضاً، أو أن يخرجوا من ديارهم، كما كتبنا على بني إسرائيل القتل والخروج من مصر، لم يفعله إلا عددٌ قليل منهم. فهؤلاء المنافقون من اليهود أسوأ حالاً من أسلافهم اليهود مع ما كانوا عليه من قسوة قلب، وفسق، وسوء حال. ولو أنهم فعلوا ما يُنصحون به من طاعة الرسول والرضا بحكمه، لكانَ العطاء الرباني لهم يتكوّن من أربع ثمرات: **الثمرة الأولى:** لنالوا بفعلهم ما يُعظون به خيراً ممّا يفرّثهم من دنياهم بسببه، إذ يُعوّض الله عليهم من فضله ما هو أفضل وأحسن، كسعة في الرزق، وطمأنينة في النفس، **والثمرة الثانية:** تثبيت الإيمان في نفوسهم، ممّا يصرف عنهم قلق النفس، الذي يجلبه النفاق، والخوف من انكشاف حالهم للمسلمين، ويجعل لهم تمكيناً راسخاً بين صفوف المسلمين، **والثمرة الثالثة:** لآتيناهم في الآخرة يوم الدين أجراً عظيماً جداً في جنّات النعيم، ليس من نوع ما سبق من العطاءات، **والثمرة الرابعة:** لأرشدناهم ووقفناهم إلى دين الإسلام القويم، وأمددناهم بمعونتنا وتوفيقنا، لمعرفة الحق في الأمور، وإدراك وجه الخير، ومعرفة الأنفع والأقوم والأصلح.

٦٩ - ومن يُطع الله دوماً في أداء الفرائض واجتناب النواهي، ويُطع الرسول في السنن التي سنّها، فأولئك الفضلاء ذوو المنزلة الرفيعة، المطيعون لله ورسوله في ضحبة الذين أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق في الدنيا، ويدخلون الجنة في الآخرة في منازل الفردوس الأعلى من النبيين الذين أنبأهم الله، واختارهم ليخبروا عنه سبحانه، ويبلغوا شرعه، ومع كثيري الصدق في إيمانهم وأقوالهم وأعمالهم

سُورَةُ النَّسَاءِ

الْبَيْتُ الْخَامِسُ

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ احْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ۖ وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَلَهْدِيهِمْ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا ۚ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلْمًا ۖ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَخُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ تَنْفِرُوا جَمِيعًا ۚ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيْسَ بِطَائِفَةٍ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۚ وَلَٰئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَ لِي بِشَيْءٍ مِنْهُمَا فَاغْرَبْ فَرَجًا عَظِيمًا ۚ فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ

من أتباع الرسل الذين صدّقوا بكلّ الدين، والشهداء الذين شهدوا الحقّ وعلموه كعلم المعاينة والمُشاهدة، واستشهدوا في سبيل الله، وبذلوا أرواحهم لإعلاء كلمة الله، والصّالحين الذين صلّحت أحوالهم وحسنت أعمالهم، ونعمتِ الضحبة ضحبة أولئك النبيين والصّديقين والشهداء والصّالحين في منازل الفردوس الأعلى من جنّات النعيم.

٧٠ - ذلك الأجر العظيم والمقام الرفيع الذي أعطى الله الذين أنعم عليهم، هو زيادة عطاء من الله يتفضّل به عليهم، وأغنى الله حال كونه عليمًا بكلّ ما يفعل عباده، وما يُضمرون في قلوبهم، وهو سبحانه يضع الناس في الدرجات والمراتب بحسب ما يعلم من أحوال قلوبهم وسرائرهم، لا بحسب ظاهر أعمالهم المخالفة لما في دخال نفوسهم.

٧١ - يا أيّها الذين أذعنوا للحقّ، واستجابوا لله ولرسوله، خُذُوا أَمْرَكُمْ، واحترزوا من عدوكم، وتيقظوا له، ولا تُمكنوه من أنفسكم، فاخرجوا لدفع عدوكم حالة كونكم جماعات متفرقة مُتَبَيِّنة في كلّ جهة، أو اخرجوا حالة كونكم مجتمعين إلى جهاد عدوكم، حسب مقتضيات المصلحة، لصدّ مطامع العدو ومواجهة مكائده وهجماته بما هو أقوى منها.

٧٢ - وإنّ من جمعكم المُشْتَمِل على المؤمنين الصّادقين، وضعفاء الإيمان، والمنافقين لفرقاً تعدّونهم منكم بحسب ظاهر انتمائهم، ليتأخروا ويتأخّلوا عن الخروج إلى الجهاد، ويُتَبَطَّنْ غيره من الجُبناء وضعفاء الإيمان، فإنّ أصابكم قتلٌ وهزيمة على أيدي عدوكم بإذن الله وتمكينه، على مقتضى حكمته في التربية والتأديب والامتحان، قال هذا الفريق المتباطيء المتخلف عن الجهاد: قد أنعم الله عليّ بالعودة حين لم أكن مع المؤمنين حاضراً المعركة، فيصيني ما أصابهم.

٧٣ - وأقسم لئن أصابكم نعمة من فضل الله عليكم بالنصر والغنيمة بمقتضى حكمته، ليقولنّ هذا المنافق - كأَنه غريب عنكم ليس بينكم وبينه مودةٌ في قلبه تحمله على مُشارككم في الجهاد والبلاء -: يا ليتني كنتُ معهم في تلك الغزوة التي غَنِمَ فيها المؤمنون، فأخذ حظاً وافراً من الغنيمة.

٧٤ - فَلْيُقَاتِلْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُخْلَصُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الذين يبيعون متاع الحياة في الدنيا بثواب الآخرة، وما وعد الله فيها أهل الإيمان والطاعة، ومن يُقاتل في سبيل الله صادقاً مُحْتَسِباً أجره عند الله، فيُستَشْهِد، أو يظفر بعدوه من الكفار، فسوف نُؤْتِيهِ في كلا الحالتين: الشهادة أو الظفر ثواباً وافراً لا يحده تعين، ولا يبيته تعريف.

٧٥ - وأي شيء من الأعداء ثابت لكم - أيها المؤمنون - حال كونكم لا تقاتلون في سبيل الله، وفي سبيل نصرته وإنقاذ إخوانكم المؤمنين المضطهدين بسبب ضعفهم عن المقاومة والهجرة، من الرجال والنساء والصغار الذين اعتدى عليهم الكفار، ومنعواهم من الهجرة، وقد بلغ حالهم ما بلغ من الضعف والأذى، يدعون ربهم قائلين: أخرجنا من مكة الظالم أهلها أنفسهم بالشرك والعدوان على المستضعفين، واجعل لنا من لدنك ولياً يتولى أمرنا، واجعل لنا من لدنك نصيراً نصرنا ويقتدنا ويمتحننا من العدو، ويرفع عنا الظلم والاضطهاد.

٧٦ - الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، يقاتلون في طاعة الله وإعلاء كلمته وابتغاء مرضاته، والذين كفروا بالله واليوم الآخر يقاتلون في سبيل الطاغوت من أشخاص أو مبادئ باطلة، أو شياطين، ونحو ذلك، وهم بذلك يكونون أولياء الشيطان، فقاتلوا - أيها المؤمنون - أتباع الشيطان وجنوده الكفار، ولا تخافوا مكرهم وكيدهم؛ إن سعي الشيطان واحتياله بتخويف المؤمنين كان ضعيفاً أمام معونة الله للمؤمنين؛ إذ ينصرهم ويحبط مكايد أعدائهم، ما اتخذوا الوسائل والأعمال السيئة التي أوصاهم باتخاذها.

٧٧ - ألم تر - أيها الرائي - أمراً عجيباً ناظراً إلى الذين قيل لهم قبل فرض الجهاد: امنعوا أيديكم عن قتال المشركين الذين يضطهدونكم من أجل دينكم، وأذوا ما افترض الله عليكم من الصلاة والزكاة، فحين فرض عليهم جهاد المشركين إذا جماعة من الذين سألوا أن يفرض عليهم الجهاد، يخافون مشركي مكة كخوف لقاء الله يوم الحساب أو أشد خوفاً، وقالوا متذمرين متزعجين من إلزامهم بالقتال: ربنا لم فرضت علينا الجهاد؟ هلا تركتنا مدة يسيرة ولم تفرض علينا القتال، حتى تتمكن أكثر تمكناً، وتزداد قوتنا أكثر مما وصلنا إليه؟

قل لهم - يا رسول الله - : متاع الدنيا ولذاتها قليل زائل مهما كبرت في نظركم، وكثيرها قليل إذا كانت في ذلة، ولا يبقى الانتفاع بها إذا تحكّم فيكم الأعداء، وثواب الآخرة بما فيها من نعيم مقيم خير لمن يجرى من أجوركم على الجهاد، ولو كان مقدار الخيط الدقيق الذي يكون في شق النواة. فإذا كان حرصكم على الدنيا ومتاعها هو الذي جعلكم تخشون القتال وترجونه، فإنه يجب أن يكون حرصكم كبيراً على ما هو أعلى وأعظم، وما هو مؤكد لا احتمال فيه.

٧٨ - إن كنتم تريدون بعودكم عن الجهاد أن تؤخروا الموت أو تطيلوا الحياة، فقد أخطأتم، فإنه حيشما تكونوا ينزل بكم الموت، ويطلبكم ويتبعكم، فلا نجاة لكم منه ولو كنتم في قلاع مرفوعة محكمة البناء، محمية بأسوار، فأنتم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجي حذر من قدر، فما بالكم تجبنون عن القتال، وكل إنسان يموت بأجله، سواء قاتل أو لم يقاتل!! وإن يحصل للمنافقين في المعارك القتالية وبعد انتهاء المعركة، ما يسر، كالنصر والغنيمة يقولوا: هذه من قبل الله، ولم يكن لحكمة الرسول في إدارته وسياسته وقيادته تسبب في إكرام الله لنا بالنصر والغنيمة، وإن يحصل لهم ما هو مكروه، كالقتل والجرح والخسارة والهزيمة، يقولوا: هذه من شؤم محمد، وبسبب إدارته، وقيادته، وأمره بالخروج إلى قتال العدو. قل لهم: - يا رسول الله - كل من النعمة والبليّة، والغنيمة والهزيمة، من عند الله، خلقاً وإيجاداً، وتقديراً نافذاً في البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، جازياً على مقتضى الحكمة والمشية، فما شأن هؤلاء القوم المنافقين واليهود الذين قالوا ما قالوا، لا يفاربون فهم حديث ما، وإن الأشياء كلها، خيرها وشرها من عند الله؟

٧٩ - ما أصابك - أيها الإنسان - من خير ونعمة، فمن فضل الله عليك يتفضل به إحساناً منه إليك ليس لك تسبب فيها، وما أصابك من شدة ومكروه ومشقة وأذى، فهي بسبب أو داع من نفسك، للامتحان والابتلاء، أو التربية والتأديب، أو للجزاء. وإن كانت النعم والمصائب كلها من عند الله خلقاً وتقديراً، وإن - أيها النبي - قد شرفناك برسالتنا، فأرسلناك للناس رسولا، تبليغ رسالة ربك، ولا تتكفل بالأرزاق، ولا تهب النصر، ولا تمسك مقاليد الكون، إنما أنت مكلّف بالتبليغ، فإن بلغت فما عليك شيء، وإن اتخذت الأسباب في الحروب للظفر، وتوكلت على الله، فإن الله مانحك النصر، ومعطيك الغلب، وإن خالف من معك ما سنّت لهم من مناهج للظفر، فإن الهزيمة واقعة بهم، وليست مسؤولة عما يصيبهم، ولئن كذبتك أو شكّ فيك هؤلاء القلة من المنافقين وأهل الرّيب، فأنت لست رسولا لهم فقط، ولا رسولا للعرب فقط، بل أرسلناك - يا رسول الله - إلى كافة الناس رسولا، وأغنى الله حالة كونه شهيداً حاضراً معاً على أنك رسول الله حقاً وصدقاً، عن طريق معجزة القرآن، والمعجزات الأخرى التي أمّدك بها، وما آتاك من تأييد ونصر مبين.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلِهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الْظَّالِمِينَ فَفَتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فِرَقٌ
مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ
كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ
حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا
هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ
سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

٨٧ - الله الواحد الأحد الذي لا معبود بحق إلا هو، ليجمعنكم مسوقين إلى يوم القيامة، الذي لا شك فيه؛ ولا أحد أصدق من الله حديثاً فيما أخبر به.

٨٨ - أي شيء حصل لكم - يا معشر المؤمنين - في شأن المنافقين الذين تخلّفوا عن الهجرة، وظاهروا المشركين بمكة سرّاً، وصرتهم في أمرهم فرقتين: فرقة منخدعة بظواهرهم، تُحسن الظنّ بهم، وتذبّ عنهم، وفرقة عارفة بصيرة، تُباينهم وتُعاديهم، وتحكم عليهم بالردة والخروج من صفوف أهل الإيمان بعد الذي ظهر منهم من علائم الكفر ودلائله؟ والله سبحانه نكسهم وأذلّهم في كفرهم وارتدادهم، وردّهم إلى أحكام الكفار؛ بسبب ما اكتسبوا من أعمالهم الخبيثة. أتريدون - أيها المؤمنون المنخدعون بهم - بتقديم الأعداء لهؤلاء المنافقين، وتحسين الظنّ بهم أن تنسبهم إلى الهداية، مع أن الله قد أثبت لهم الضلال، ومكنكم من الحكم عليهم بذلك، استدلالاً بأقوالهم وأفعالهم التي تكشف عن حقيقة كفرهم؟ ومن يحكم الله عليه بالضلال حكماً مُستنداً إلى علمه وحكمته وعدله، فلن تجد له - أيها الراغب في تربيته والحكم عليه بالهداية - سبيلاً لتربيته ممّا هو عليه من الكفر المُحقّق الذي بدّت دلائله في أقواله وأفعاله.

٨٩ - تمثي أولئك الذين رجّعوا عن الإيمان إلى الكفر، لو تكفرون أنتم - يا معشر المؤمنين - كما كفروا، فتكونون متساوين معهم في الكفر. فلا تتخذوا - أيها المؤمنون - منهم جماعة تُصافونهم، وتتبادلون معهم الودّ والتعاون، حتى يتقلّوا من دار الكفر التي يُحارب أهلها المسلمين إلى دار الإسلام، ويخرجوا مع رسول الله ﷺ في سبيل الله مسلمين مخلصين، فإن أدبروا وابتعدوا عن الإسلام والهجرة من دار الكفر، واختاروا الإقامة على الكفر، فخذوهم - أيها المؤمنون - واقتلوهم حيث وجدتموهم، ولا تتخذوا منهم ولياً يتولّى أيّ أمر من أموركم، ولا نصيراً ينصركم على أعدائكم.

٩٠ - لكن الذين ينتسبون إلى قوم بينكم وبينهم عهد، ويدخلون معهم بالحلف والجوار، فلا تقتلوه، وكذلك الذين أتوا إليكم، وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم مع قومهم، أو قتال قومهم معكم، فلم يكونوا قومهم ولا مع قومهم، فلا تقتلوه، ولو شاء الله لجعل في قلوبهم قدراً من الحميّة والشجاعة، وبذلك يكونون محاربين للمسلمين مع قومهم المحاربين لهم، ولكن قذف في قلوبهم الرُعب، وكفّهم عنكم، فإن اعترضوا عن قتالكم، فلم يقاتلوكم مع قومهم وانقادوا واستسلموا، وأعلنوا حيادهم التام، فما جعل الله لكم - أيها المؤمنون - سبيلاً مُستعلياً عليهم بالقتل والقتال.

٩١ - ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون بالتظاهر بالإسلام أن يأمّنوكم، فلا تتعرّضوا لهم، ويريدون بإظهار الكفر أن يأمّنوا قومهم، فلا يتعرّضوا لهم، كلّما ردّوا إلى اختبار صدق إسلامهم الذي أعلنوه، بما يُخالف رغباتهم وما يهوّون، رجّعوا منكوسين على رؤوسهم في الكفر، فهؤلاء الذين سلّكوا هذا المسلك السيئ إن لم ينصرفوا عن قتالكم، وينقادوا لكم بطلب الصلح والاستسلام التام، ولم يُمسكوا عن قتالكم، فخذوهم أسرى، واقتلوهم حيث وجدتموهم وتمكّنتم منهم، وأولئك الأخباث البُعداء عن رحمة الله، الذين اتّصفوا بهذه الأوصاف، جعلنا لكم - أيها المؤمنون - عليهم حُجّة ظاهرة على قتالهم وأسْرهم.

قسّمت الآيات المنافقين الذين لم يلحقوا بالمؤمنين إلى دار الهجرة إلى أربعة أقسام: القسم الأول: أولئك الذين يدعون الإسلام ولم يهاجروا مع أنه ليس بهم عجز عن الهجرة، ولا يحول بينهم وبينها شيء، فهؤلاء لا تُقبل منهم دعوى الإيمان، ولا يُعاملون إلا معاملة المشركين، والقسم الثاني: فريق استتبعهم الآيات من هؤلاء الذين لم يهاجروا إلى المدينة مع المؤمنين، وهم الذين لم يبقوا في مكة مع المشركين، ولكن انحازوا إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد، فأصبحوا بذلك بعيدين عن أن يشتركوا في إيذاء المؤمنين والتدبير لكيدهم، والقسم الثالث: فريق آثروا أن يقفوا موقف الحياد بينهم وبين المشركين بسبب أنهم مُخرجون، ضاقت صدورهم بأن يُقاتلوا المسلمين - وهم لا يستحقّون في نظرهم قتالاً - أو يُقاتلوا قومهم - وفيهم أقرباؤهم ومصالحهم - فالآيات تستثني هؤلاء أيضاً من حكم الأخذ والقتل الذي حكمت به على الأولين، وتأمّر بقبول حيادهم وعدم التعرّض لهم كالقسم الثاني. وقد جعلت الآية على هؤلاء وأولئك - وهم الذين استثنوا من الأولين - شرطين: الأول: أن يعتزلوا المسلمين فلا يقاتلوه، والثاني: أن يخضعوا لحكمهم مسالمين. القسم الرابع: فريق يريدون أن يجمعوا بين إرضاء المؤمنين ليأمنوهم، وإرضاء الكافرين ليأمنوهم، فهم ليسوا حياديين، فهم في الحقيقة أعداء، وإن حاولوا أن يظهروا بمظهر الأصدقاء. والسياسة مع هؤلاء أن يُعطوا الأمن كالفريق الذين جاؤوا مُستسلمين معلّنين حيادهم بشروط ثلاث: الأول: أن يعتزلوا صفوف المسلمين الصادقين، والثاني: أن يلقوا للمسلمين الاستسلام، الثالث: أن يكفوا أيديهم عن المسلمين، فإن اخلّوا بشرط من هذه الشروط انطبقت عليهم قاعدة: «فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم».

سُورَةُ النِّسَاءِ

النِّسَاءِ

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿١٠٠﴾

٩٢ - وما سَأَغْ ولا جَارَ لمؤمن أن يقتل مؤمناً البتة، فإن ذلك أمر مُحَرَّمٌ تحريماً قاطعاً، لكن إن وقع خطأ من غير قصد وتعمد، مثل أن يرمي هدفاً فتنحرف الرمية، فيصيب إنساناً معصوم الدم، أو أن يقصد هدفاً معيناً، على أنه حيوان مفترس مثلاً، فيتبين أنه إنسان معصوم الدم، أو أن يقتل إنساناً على أنه من الأعداء، فيتبين أنه معصوم الدم، فإن ذلك يُعَدُّ معذرة، وتجب عليه كفارة القتل الخطأ لتركه التحرز، وعدم مبالغته في التثبت، فكفارة خطئه: إعتاق رقبة مؤمنة بتحريرها من الرق، وعليه دية كاملة مقدارها مائة من الإبل، ومن لا يجد مائة من الإبل تكون عليه قيمتها من الذهب أو الفضة، توجب على عَصَبَةِ القتال، وتسلم إلى أهل القتل الذين يرثونه، يفتسمونها بينهم قسمة الميراث، إلا أن يتصدق أهل القتل عن القاتل بترك أخذ الدية، ويعفوا عنه.

فإن كان المقتول خطأ مسلماً في دار الحرب، وهو منفرد مع قوم كفار محاربين لكم، فقتله من لم يعلم بإسلامه، فلا دية عليه، وعليه الكفارة، بإعتاق رقبة مؤمنة؛ لأن إرسال الدية إلى قومه تقوية لهم على المؤمنين، فلا تُعَوِّضُ أسرة القتيل، ولكن تُعَوِّضُ الجماعة الإسلامية بالحرية التي تُمنح لواحد منها، تعويضاً عما فقدت.

وإذا كان المقتول خطأ كافراً؛ مُعَاهِداً أو ذمياً من قوم بينكم وبينهم عهد، فحكمه حكم المسلم، فتجب فيه الدية لأهل المقتول، ولو كانوا غير مسلمين، وتجب الكفارة بإعتاق رقبة مؤمنة، فمن لم يجد رقبة مؤمنة يعتقها؛ بسبب إفسار، أو تعذر الحصول عليها، فالواجب عليه، صيام شهرين متتابعين متصليين في أيامها، لا يُفَرِّقُ بينهما فطر بدلاً عن إعتاق الرقبة المؤمنة، شرع الله سبحانه الكفارة والدية توبة منه تعالى لقاتل الخطأ، وكان الله تعالى عليمًا بمن قتل خطأ، حكيمًا فيما حكم عليه من الدية والكفارة. وإنما رفع الله عن القاتل خطأ القصاص رعايةً لاحتمال براءة النية من إرادة الجريمة مع وجود القرائن

التي تفيد ذلك، وألزم القاتل بالكفارة، لتشتد حيلة الناس في هذا الأمر الجسيم، ليبالغوا في البعد عن كل مظان الخطأ الذي قد يُفْضِي إلى قتل البراء. وألزم بالدية صيانة لحق أولياء القتيل، ومراعاةً لاحتمال أن يكون ادعاء الخطأ ادعاءً كاذباً، مهما كانت القرائن مؤيدة صدق الادعاء؛ لأنَّ التعمد الحقيقي عملٌ من أعمال القلوب، وربما يوجد دون أن تدلَّ عليه أمارة ظاهرة، ووفقاً بحال القاتل خطأ جعل الإسلام الدية تكليفاً تعاونياً يلزم به أقرباء القاتل خطأً.

٩٣ - ومن يقتل مؤمناً قاصداً مُسْتَحْلَاً لقتله، سواء أكان باليةً من شأنها أن تقتل كالرصاصة أو السيف أو السكين، أم كان باليةً ليس من شأنها أن تقتل، ولكن قُصِدَ بها القتل، وكان الضرب في مقتل، فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه بسبب ارتكابه جرماً عظيماً، وهو العدوان على الحياة الإنسانية، وقتله المؤمن متعمداً، وطردته عن رحمته، وأعد له عذاباً عظيماً. وحمل العلماء هذا الوعيد الشديد على خلود القاتل المتعمد في النار، على سبيل التغليظ في الزجر، ويجوز في حقه سبحانه أن يُخْلَفَ الوعيد، ويمتنع في حقه أن يخلف الوعد، أو أن هذه الآية في القاتل المُسْتَحْل. وفي هذه الآية دليل على حرص الشريعة على حماية حق الإنسان في الحياة.

٩٤ - يا أيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ إِذَا سَافَرْتُمْ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَاطْلُبُوا بَيَانَ الْأَمْرِ فِي كُلِّ مَا تَفْعَلُونَ وَتَتْرَكُونَ، حَتَّى تَعْرِفُوا الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ، وَتَعْرِفُوا حَقِيقَةَ الْأَمْرِ الَّذِي تُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ، وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ حَيَّاكُمْ بِحَيَّةِ الْإِسْلَامِ وَاسْتَسْلِمَ وَانْقَادَ: لَسْتُ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَإِنَّمَا قُلْتُ ذَلِكَ تَعَوِّذاً، وَلَكِنْ كَفُّوا عَنْهُ، وَاقْبَلُوا مِنْهُ مَا أَظْهَرَ لَكُمْ، فَلَا تَقْتُلُوهُ طَالِبِينَ مَنَافِعَ الدُّنْيَا وَمَتَاعَهَا الزَّائِلَ، فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ وَخَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ يَغْنِيكُمْ بِهَا عَنْ قَتْلِ مَنْ يُظْهِرُ الْإِسْلَامَ، وَكَمَا كَانَ هَذَا الَّذِي أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ، وَاسْتَسْلِمَ وَانْقَادَ إِلَيْكُمْ، مُسْتَخْفِياً بِدِينِهِ عَنْ قَوْمِهِ حَذِراً عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُمْ، فَقُلْتُمْ لَهُ: لَسْتُ مُؤْمِناً فَقَتَلْتُمُوهُ، كُنْتُمْ أَنْتُمْ فِي بَدْءِ الْإِسْلَامِ تَسْتَخْفُونَ بِدِينِكُمْ عَنْ قَوْمِكُمُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُعِزَّ اللَّهُ دِينَهُ، فَانْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَةِ الْإِيمَانِ الْعَظِيمِ، وَإِعْلَانِ إِسْلَامِكُمْ، فَإِذَا كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَتَبَيَّنُوا حَالَ الَّذِينَ تَقَاتِلُونَهُمْ، عَسَى أَنْ يَكُونُوا قَدْ هَدَى اللَّهُ بَعْضَهُمْ كَمَا هَدَاكُمْ، فَلَا تَسْتَكْبِرُوا عَلَى مُشْرِكٍ أَنْ يُؤْمِنَ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي حَوْمَةِ الْوَعْيِ، فَلَا تَتَهَاوَنُوا فِي الْقَتْلِ، وَلَا تَعْجَلُوا بِقَتْلِ مُؤْمِنٍ، وَكُونُوا مُتَحَرِّزِينَ مِنْ ذَلِكَ، مُحْتَاطِينَ فِيهِ؛ إِنَّ اللَّهَ كَانَ دَوَاماً مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْراً عَلَى سَبِيلِ الشُّهُودِ وَالْحُضُورِ الْمُصَاحِبِ لِكُلِّ أَجْزَاءِ الْعَمَلِ، ظَوَاهِرِهِ وَبَوَاطِينِهِ.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴿٩٣﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتُ مُؤْمِناً تَبْتُغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

٩٥ - لا يتساوى المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من المؤمنين - غير أصحاب الأمراض والجلل التي لا سبيل معها إلى الجهاد، من نحو عمى أو شلل أو عرج أو ضعف بدن - والمجاهدون في سبيل الله، بأموالهم وأنفسهم، فإنهم يُساوون المجاهدين؛ لأن العذر أقعدهم عن الجهاد. فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين أولي الضرر درجةً ومنزلةً في الآخرة، وكلاً من المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين من أهل الأعذار وعَدَّ الله الجنة، وفضّل الله تعالى المجاهدين في سبيل الله على القاعدين الذين لا عذر لهم ولا ضرر فيهم ثواباً جزياً.

٩٦ - ذلك الأجر العظيم، فضّل الله به المجاهدين على القاعدين من غير ضرر ولا عذر، فضّلوا عليهم بثلاثة أمور: الأول: بدرجات كثيرات منه سبحانه في الجنة، والثاني: ستر لذنوبهم، وتجاوز عنها، وعدم مؤاخذه عليها، والثالث: رحمة واسعة يُعْمون فيها، وكان الله من الأزل إلى الأبد كثير السّتر لذنوب عباده المؤمنين، دائم الرحمة بأهل طاعته، المجاهدين في سبيله.

٩٧ - إن الذين تُقبض أرواحهم ملائكة الموت عند حلول آجالهم، وهم في حال ظلمهم أنفسهم؛ بسبب رضاهم بالذل والهوان، واستمرار إقامتهم في أرض لا يستطيعون إقامة دينهم فيها، وعدم انضمامهم إلى أهل الإسلام؛ ليعثر بهم المسلمون، ويعظم جهادهم، تقول لهم الملائكة توبيخاً وتقريعاً: في أي الفريقين كنتم، أفي فريق المسلمين أم في فريق المشركين؟ فاعتذروا بالضعف عن مقاومة المشركين، وقالوا: كنّا ضعفاء في أرضنا، مفهولين عاجزين عن دفع الظلم والقهر عن أنفسنا. فتقول لهم الملائكة توبيخاً: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا من أرضكم إلى أرض أخرى، وتخرجوا من بين أظهر المشركين؟ فأولئك البُعءاء عن رحمة الله

الذين رضوا بالذل، وظلموا أنفسهم، منزلهم وموضع إقامتهم جهنم، وبئس المصير مصيرهم إلى جهنم.

٩٨ - ويُعذر من ذلك المصير الذين استثناهم الله ممن علم ضعفه من أهل الأعذار من الأصناف الثلاثة: أولهم: ضعفاء الرجال من الشيوخ الفانين، والمرضى وذوي العاهات، والصف الثاني: النساء اللاتي لا يستطيعن الخروج، إما لثقلهن بالأولاد، وإما لفقد أمن الطريق، وإما لعدم وجود زوج يصحبها، ولا ذي رَجَم محرم يكون معها في الطريق، والصف الثالث: الأطفال الصغار، الذين لا يقدرون على حيلة ولا نفقة، ولا قوّة لهم على الخروج من بلادهم التي عَنّا فيها الكافرون، وأخذوا يفتنون الناس عن دينهم، ويكرهونهم على الكفر بطريق مباشر أو غير مباشر، ولا يعرفون طريقاً يسلكونه من البلد الذي تضطّروهم إقامتهم فيه إلى مخالفة أوامر الله، والوقوع في معاصيه، إلى البلد الذي يستطيعون فيه أن يقيموا شرائع الإسلام وواجباته.

٩٩ - فأولئك المُستضعِفون وأهل الأعذار الذين لا يستطيعون الهجرة هم الذين يُرجى لهم من الله تعالى أن يتجاوز عنهم بفضله وإحسانه، وكان الله من الأزل إلى الأبد عفوّاً يمحو أثر الذنوب ويزيلها، ويترك المؤاخذه عليها، كثير السّتر لذنوب عباده، فضلاً منه وكرماً.

١٠٠ - ومن يُهاجر في سبيل الله من وطنه ومسكنه وماله يجذب في الأرض مكاناً يتحوّل إليه، ويقيم فيه عوضاً من موطنه الذي منع فيه من أن يكون حرّاً في دينه، وطريقاً يفارق فيه قومه مذلاً لهم ومُهيناً، ويجد سعةً في الرزق والصّدر، ومن يخرج من بيته قاصداً نصرة دين الله ورسوله، ثم يدرکه الموت قبل بلوغه إلى مهاجره، فقد ثَبَّتَ أجرُ هجرته على الله، تفضلاً وكرماً منه سبحانه، وكان الله من الأزل إلى الأبد كثير السّتر لذنوب عباده، دائم الرحمة بهم.

١٠١ - وإذا سافرت - أيها المؤمنون - في نواحي الأرض، في برّها وبحرها وجوّها، فليس عليكم حَرَجٌ ولا إثمٌ أن تُقْصروا الصلاة من أربع ركعات إلى ركعتين، وذلك في صلاة الظهر والعصر والعشاء، إن خفتم أن يتعرّض لكم الأعداء في الصلاة بقتل أو جرح أو أسر، كما هو غالب أسفار النبي ﷺ وإن كان الحكم ثابتاً في حال الأمن والخوف، إن الكافرين كانوا على الدوام والاستمرار ظاهري العداءة لكم، يطلبون لكم الشر، ويترصّدون مواقع غفلتكم؛ ليقبضوا عليكم، فلعلمي بهذا رخصت لكم قَصْر الصلاة؛ لثلا يجدوا إلى قتلكم سبيلاً.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ أَحْسَنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ نِصَابٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَأْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُرْهُدًا وَأُمَيِّينَ ﴿١٠١﴾

١٠٢ - وإذا كنت - يا رسول الله - في أصحابك، وشهدت معهم القتال، وحن وقت الصلاة، وأقمته، فاجعل أصحابك فرقتين: فلتقف فرقة منهم معك، فتصلي بهم، وليأخذوا أسلحتهم الخفيفة في الصلاة حتى يكونوا على أهبة القتال دائماً، فإذا سجد هؤلاء فلتكن الجماعة الأخرى من خلفكم في مواجهة عدوكم، وتتم الجماعة الأولى ركعتهم الثانية ويسلمون، ولينصرفوا إلى المكان الذي هو في وجه العدو للحراسة، ولتأب الجماعة الأخرى الحراسة التي كانت في وجه العدو، فليصلوا معك الركعة الثانية التي بقيت عليك، ويتموا بقية صلاتهم، وليتقظوا ويتحرزوا من الكفار مع أخذ الأسلحة. تمنى الكفار لو وجدوكم غافلين عن أسلحتكم التي بها شوكتكم وقوتكم، وعن حوائجكم التي بها بلاغكم في أسفاركم، وفيها زادكم وبها تستمرون على القتال من غير أن يصيبكم غري أو جوع، فيفقدونكم ويحملون عليكم حملة واحدة مباغتة، وينقلون الوطأة عليكم، وأنتم مشغولون بصلاتكم، فيصيبون منكم غيرة فيقتلونكم، ويضربونكم الضربة المستأصلة القاصمة.

ولا إنتم ولا خرج عليكم في وضع السلاح في حال المطر وحال المرض، وراقبوا عدوكم، ولا تغفلوا عنه؛ لئلا يتجرأ عليكم، إن الله أعد للكافرين عذاباً مذللاً لهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالغلب عليهم، وإذهاب صولتهم ودولتهم، وذلك يكون بأخذ الأهبة والحذر والاعتماد على الله تعالى، وأعد لهم في الآخرة عذاباً معنوياً مهيناً يهانون به، لا يقل إيلاماً عن العذاب المادي الحسي.

١٠٣ - فإذا فرغتم من صلاة الخوف، فداوموا على ذكر الله بالتنسيخ والتحميد والتهليل والتكبير، وأثنوا على الله في جميع أحوالكم قائمين، أو قاعدين مستريحين، أو نائمين على جنوبكم، حتى في

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ١٠٢ فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ١٠٣ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ١٠٥

حال المقارعة والالتحام، فإذا زالت أسباب الخوف وسكنت قلوبكم، وصرتهم مقيمين في أوطانكم، فأقيموا الصلاة أربعاً من غير قَصر بإتمام ركوعها وسجودها، إن الصلاة كانت على المؤمنين فرضاً مكتوباً مقدراً في أوقات محددة معلومة في الشرع.

١٠٤ - ولا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب عدوكم وقتاله، حتى لا تبقى لهم قوة تهددكم، إن تكونوا تتألمون من القتال وآثاره، فأعدوكم كذلك يتألمون منه أشد الألم، فحصول الألم قدر مشترك بينكم وبينهم، وليس ما تكابدون من الوجع وألم الجراح مختصاً بكم، بل هم كذلك، فإذا لم يكن الألم مانعاً لهم عن قتالكم، فكيف يكون مانعاً لكم عن قتالهم؟ وكيف لا تصبرون مثل صبرهم مع أنكم أولى بالصبر منهم؛ لأنكم مقرؤون بالحرش والحساب والثواب والعقاب، وتتوقعون ثواب الله طامعين راغبين فيه، وتخافون عقابه في الآخرة، والمشركون لا يقرؤون بذلك، وكان الله من الأزل إلى الأبد عليمًا بكل أحوالكم، حكيمًا في تدبيره وأمره، فلا يأمركم بشيء إلا وهو يعلم أنه مصلحة لكم.

١٠٥ - إنا بعظمة العلم الشامل، والحكمة الكاملة أنزلنا إليك - يا رسول الله - القرآن مُتَّصِفًا بِالْحَقِّ الثابت، وأصول الحكم، وقواعد العدل بين الخصوم؛ لتحكم بين الناس بما علمك الله علماً بيتاً لا غموض فيه، حتى كأنه مرئي بالحس البصري دون غَبْش، فاحكم بين الناس بما أراك الله، مُسْتَنَدًا إِلَى مبادئ الحق وقواعد العدل التي أنزلها الله في الكتاب، مُتَّبِعًا وَجْهَ الْحَقِّ فِي الْقَضَايَا الْمَطْرُوحَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ بِالْإِسْتِنَادِ إِلَى الْأَدْلَةِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالْأَمَارَاتِ، وَلَا تَكُن - يا رسول الله - لأجل الخائنين لحقوق الآخرين من الناس، ولتبرئتهم مُجَادِلًا وَمَحَامِيًا عَنْهُمْ بِمَا أَبَدُوهُ لَكَ مِنَ الْقَوْلِ الْمَخَالِفِ لِلْحَقِيقَةِ.

وفي هذه الآية نهى لكل مؤمن أن يدافع عن الخائنين، سواء أكان قاضياً، أو شافعياً، أو وكيلًا، أو محامياً، أو شاهداً، فالدفاع عن الخائن معصية من الكبائر؛ لأنها تُساعد على إبطال الحق، وإحقاق الباطل، وأنه يجب على القاضي ألا يتأثر بعاطفة ما، فينحاز إلى أحد الخصمين، ويجادل عنه ظاناً أنه صاحب حق، وألا يتسرع في حكمه أو إبداء رأيه في إدانة أو تبرئة أحد الخصمين قبل استكمال أصول وقواعد الحكم بين الناس بالحق والعدل.

١٠٦ - واستغفر الله ممّا همّمت به، ممّا يُعدُّ بالنسبة لمنصبك الرفيع ذنباً، يغفر الله لك؛ إنّ الله كان كثير السّتر لذنوب عباده، دائم الرحمة بعباده المؤمنين. والأمر في طاهره للنبي ﷺ وهو في عمومته لكلّ أمته، ولكلّ قاض يفصل بين الناس.

١٠٧ - ولا تُجادل - يا رسول الله - عن الذين يقصدون خيانة أنفسهم ويتحرّونها، ويحكمون إخفاء المستور من جرائمهم، ويظلمون أنفسهم بالخيانة، فيما لله عليهم من تكاليف وأمور تعبدية، فيعرضون أنفسهم للعقوبة الإلهية؛ إنّ الله لا يحبّ من كان مُفرطاً في الخيانة، ركوب المآثم والمعاصي، صارت الخيانة ارتكاب الإثم عادة لازمة له. ومن أخرج نفسه بخياناته وآثامه من محبة الله، صار محلاً لسخطه عليه ونقمته، وابتعد عن مجالات مغفرة الله ورحمته.

١٠٨ - يحاولون جهدهم اتّخاذ وسائل الاستتار عن أعين الناس ومراقبتهم لارتكاب جرائمهم وآثامهم في الخفاء، ولا يستترون من الله السميع البصير، ولا يستحيون منه سبحانه، وهو أحقّ أن يستحيا منه، ويخشى عقابه، والله معهم بعلمه وقدرته، لا يخفى عليه شيء من حالهم، وقت إضمارهم وتديبرهم بالليل فيما بينهم ما لا يرضى من القول الذي يجعلونه متضمناً خطط الخيانة التي سيعملون بمقتضاها، والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أسرار عباده، وهو مُطلع عليهم ومُحيط بهم، وسيُحبط كيدهم، ولن يفلتوا من عقابه.

١٠٩ - ها أنتم - يا أيّها المؤمنون - جادلتُم عن هؤلاء الخائنين في الحياة الدنيا؛ بغية تيرثتهم وإبعاد تُهمة السرقة عنهم، فمَنْ يُجادل الله عنهم يوم القيامة إذا أخذهم الله بعذابه، بل من يكون يوم القيامة وكيلاً على الخائنين، يتولى حمايتهم، ويقيهم من بأس الله إذا نزل بهم؟!

١١٠ - ومَنْ يعمل عملاً سيئاً من الصّغائر أو الكبائر، يدرك الناس قُبْحه، ويسؤوهم أن يرتكبه، أو يظلم نفسه بارتكاب المعاصي فيما يختصّ به، ثمّ يستغفر الله من ذنوبه وظلم نفسه بمعصية ربّه، مع الندم والعزم على الاستقامة، يجد الله كثير السّتر له، دائم الرحمة به، يعفو عن جميع الذنوب الكبائر والصّغائر.

١١١ - ومَنْ يَضُمُّ إلى نفسه ذنباً يَأْتُم به، من جميع المعاصي التي نهى الله عنها، كبائرهما، ومتوسّطاتهما، وصغائرها، ما هو ظاهر منها، وما هو باطنٌ منها في السرّ، فلئنما يعود وبال كسبه ومضرة ذنبه عليه، وإنّ بدّاً في عاجل أمره أنه لمنفعته ولذّته؛ لأنّ العبرة بعواقب الأمور، لا بأوائلها التي تغرّ المتعجلين، وكان الله من الأزَل إلى الأبد عليمّاً يحاسبه على عمله بعلمه الشامل، حكيمّاً يجازيه بالعدل إن لم تقتض حكمة الله أن يشملها بمغفرته والتجاوز عن معاصيه.

١١٢ - ومَنْ يرتكب ذنباً عظيماً بأن يتحرّاه، وتدنّر به نفسه، حتى إنه يصدر عنه من غير تكلف ولا معاناة، أو يعمل إثماً يستحقّ عليه العقوبة، ثم يقذف بما جنّاه من إثم وخطيئة إنساناً بريئاً منه، مُتَّهماً إيّاه به؛ ليبعد التُّهمة عن نفسه، فقد احتمل من الجرائم حملاً ثقيلاً لا يستطيع حمله إلا بتكلف ومشقة، وهذا الحمل يشتمل على جريمتين كبيرتين: الجريمة الأولى: افتراء الكذب، واتّهام البريء بما لم يفعل، ومواجهته بذلك بطريقة يُبْهت فيها، محتاراً كيف يدفع الكذب الصّراح عن نفسه، والجريمة الأخرى: الذنب الواضح الجلي، وهو ما كان منه من قذف للبريء، بما يجزّ عليه العقوبة، وهو ظلّم عظيم، من الكبائر الكبرى.

١١٣ - ولولا فضل الله عليك - يا رسول الله - بالبصيرة والحفظ، ورحمته بما أوحى إليك، لتوجّهت نفوس جماعة من أهل الكيد والنفاق، أن يضلّوك عن القضاء بالحقّ، وتوخي طريق العدل، لكنهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى مستوى الهَمّ الذي هو دون مستوى الإرادة الجازمة التي تدفع إلى التنفيذ، بسبب فضل الله عليك ورحمته، ولو أنهم حاولوا أن يضلّوك فإنهم لا يضلّون إلا أنفسهم، فَوَيْلَ ذلك يرجع إليهم، وما يضُرُّونك من شيء في المستقبل لدوام عصمة الله لك، وأنزل الله عليك القرآن، والإصابة في القول والعمل، ووضع الأشياء في مواضعها، وما دلت عليه السنة النبوية من قول أو فعل أو خُلُق أو إقرار، وعلمك فوق ذلك ما لم تكن تعلم من علم الغيب وأحوال المنافقين وأحكام الشرع وأمور الدين، ولم يزل فضل الله عليك - يا رسول الله - عظيماً، فاشكره على ما أولأك من إحسانه، وما حَبَّأك من ألطافه، وما شملك من فضله؛ لتقوم بواجب حقّه سبحانه.

وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَافًا أَشِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنْتُمْ هُنَا لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ سَوَاءٌ أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

١١٤ - لا خَيْرَ في كثير من الأحاديث السريّة التي تكون داخل المجتمعات، بعيداً عن علم ومراقبة القيادة المؤمنة المسلمة، إلا في نجوى الذين يأمرُونَ بالصّدقة لذي حاجة مُتَعَفِّف يكره أن تفتضح حاجته، محافظةً على مكانته الاجتماعية، أو مجلس تكون فيه نجوى قائمة على أمرٍ معروف، أو نهى عن منكر لشخص بعينه، أو أشخاص بأعيانهم، فواجب النصيحة في مثل هذه الحالة أن تكون سرّاً، لا حديثاً مُعلناً، وإلا كان فضيحة لا نصيحة، وربما جرّأته الفضيحة على التّماذي في الغي، والمُجَاهَرَة بالإثم مع المُكَاثَبَة والعناد، أو مجلس تكون فيه نجوى قائمة على محاولة الإصلاح بين المتخاصمين ليتراجعا إلى ما كانا عليه من الإلفة والاجتماع، ومن يفعل تلك الأمور طلباً لمرضاة الله وخالصاً لوجهه، فسوف تُؤْتِيه في الآخرة أجراً عظيماً لا يعلم قدره إلا الله.

١١٥ - وَمَنْ يُخَالِفِ الرَّسُولَ ﷺ وَيُعَادِيهِ وَيَكُونُ فِي جَانِبِ، وَالرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ فِي جَانِبٍ آخَرَ بِإِيمَانِهِمْ وَلَوْلَاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ بَعْدِ مَا وَضَّحَ لَهُ الْحَقُّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَيَسِيرُ فِي غَيْرِ طَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْهُ: التَّنَاجِي فِي السَّرِّ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ، ثُمَّ كُنْ مِنْ أَنْ يَتَوَلَّى مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ مِنَ الضَّلَالِ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَتُدْخِلُهُ جَهَنَّمَ، وَتُذَقُّهُ عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَنَجْعَلُهُ خَالِداً فِي النَّارِ، إِذْ تَكُونُ هِيَ مَصِيرَهُ الْآخِرَ، وَسَاءَ ذَلِكَ الْمَصِيرَ.

١١٦ - إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِمُشْرِكٍ مَاتَ عَلَى شِرْكِهِ، وَلَا تَشْمَلُهُ رَحْمَةُ اللَّهِ بِنَجَاتِهِ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ، وَيَغْفِرُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَا دُونَ الشِّرْكِ مِنْ كُلِّ الْمَعَاصِي، كَبَاثَرِهَا وَصَغَائِرِهَا لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ غَيْرَهُ، فَيُدْعِي أَنَّ لَهُ شَرِيكاً فِي الْخَلْقِ

والتكوين أو في الوجود ممّا يُمِثِّلُهُ ذَاتاً أَوْ صِفَاتٍ، أَوْ يَدْعِي أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ مَعَهُ، فَقَدْ ذَهَبَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، وَحَرَّمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ إِذَا مَاتَ عَلَى شِرْكِهِ. فَعَقُوبَةُ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ فِي رَبُوبِيَّتِهِ أَوْ إِلَهِيَّتِهِ وَسَائِرُ ذَرَكَاتِ الْكُفْرِ، الْخُلُودُ الْأَبَدِيُّ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، وَهَذَا مِنَ الْعَدْلِ، لِأَنَّ الْكَافِرَ لَوْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَالِداً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَبَقِيَ كَافِراً أَبَداً، فَاسْتَحَقَّ بِالْعَدْلِ الْخُلُودَ فِي الْعَذَابِ، وَعَقُوبَةُ الْمَعَاصِي مِنْ دُونَ الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ تَكُونُ عَلَى مَقَادِيرِهَا كَمّاً وَكَيْفَاً، وَيَغْفِرُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ عَلَى وَفْقِ حُكْمَتِهِ، وَبِحَسَبِ عِلْمِهِ بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ.

١١٧ - مَا يَعْبُدُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَصْنَاماً سَمَّوْهَا بِأَسْمَاءِ الْإِنَاثِ؛ كَاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ، وَهِيَ جَمَادَاتٌ لَا تَعْقِلُ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، وَمَا يَعْبُدُونَ بِعِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ وَاللَّتَجَاءِ إِلَيْهَا لِإِنْقَاذِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ أَوْ الْمَرَضِ أَوْ الْكَوَارِثِ إِلَّا شَيْطَاناً عَاتِياً خَارِجاً عَنِ الطَّاعَةِ، أَغْرَاهُمْ بِعِبَادَتِهَا فَطَاعُوهُ، فَكَانُوا لَهُ عَابِدِينَ.

١١٨، ١١٩ - أَبْعَدَهُ اللَّهُ وَطَرَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جَنَّتِهِ؛ بِسَبَبِ تَكْبُرِهِ وَجَرَأَتِهِ عَلَى مَخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَقَالَ إِبْلِيسُ مُقْسِماً وَمَوْكُداً بِلِسَانِ الْمَقَالِ وَالْفِعَالِ: لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ حِطّاً مُقَدَّراً مَعْلوماً؛ فَأَسِيطِرُ عَلَى نَفْسِهِمْ، وَأَجْعَلُهُمْ فِي طَاعَتِي، بَدَلِ أَنْ يَتَّجِهُوا إِلَى طَاعَتِكَ، وَلَا يُبْعِدَنَّ مِنْ تَبَعِي مِنْهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ بِالتَّزْيِينِ وَالْوَسْوَسَةِ، وَلَا تُقَيِّنَنَّ فِي قُلُوبِهِمُ الْأَمَانِي الْبَاطِلَةَ وَالْمَوَاعِيدَ الْكَاذِبَةَ مِنْ طَوْلِ الْأَعْمَارِ، وَبَلُوغِ الْأَمَالِ، وَلَا أَحْمِلْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَقْطَعُوا آذَانَ الْأَنْعَامِ، وَيَتْرَكُوا الْحَمْلَ عَلَيْهَا، تَقَرُّباً لِلْأَوْثَانِ، وَلَا دَعْوَتُهُمْ إِلَى تَغْيِيرِ دِينِ اللَّهِ، بِتَحْلِيلِ الْحَرَامِ، وَتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، وَتَغْيِيرِ هَيْئَةٍ مَا عَلَيْهِ الْخَلْقُ، بِتَغْيِيرِ صُورَةِ الْأَعْضَاءِ السُّوِيَّةِ، إِلَى مَا يَظُنُّونَ أَنَّهَا أَحْسَنُ مِنَ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا، كَالْوَشْمِ فِي الْجِلْدِ، وَنَشْرِ الْأَسْنَانِ، وَالنَّمِصِّ لِإِزَالَةِ الْحَوَاجِبِ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ نَاصِراً لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، يَطِيعُهُ فِيمَا يَأْمُرُهُ بِهِ، فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً ظَاهِراً وَاضِحاً؛ لِأَنَّ طَاعَةَ الشَّيْطَانِ تُوصِلُهُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ، وَهِيَ غَايَةُ الْخُسْرَانِ.

١٢٠، ١٢١ - يَعِدُّ الشَّيْطَانُ حَزْبَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ بِالْوَعْدِ الْكَاذِبِ، وَيُغْرِيهُمُ بِالْأَمَانِي الْبَاطِلَةِ الْخَادِعَةِ، وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا وَعْداً غُرُوراً، مَخَادَعَةً وَإِطْمَاعاً بِالْبَاطِلِ. أُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ الْمُنْحَطُّونَ إِلَى جِهَةِ الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانُ وَلِيّاً، مَرْجِعُهُمْ وَمَسْتَقَرُّهُمْ جَهَنَّمَ، وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَلْجَأً يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ، وَلَا مَفْزَراً وَمَهْرَباً يَهْرَبُونَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا.



لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ١١٥ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١١٥ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِمَنْ يُشْرِكْ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١١٦ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الشَّيْطَانَ مَرِيدًا ١١٧ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا لِخَلْقٍ مِنْ عِبَادِكَ نَفْسِيًّا مَفْرُوضًا ١١٨ وَلَا ضَلَالَةً وَلَا مَيِّمَةً وَلَا مَرْتَبَةً فَلْيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرْتَبَةً فَلْيَغْيِرْ بَخْلَقِ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ١١٩ يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠ أُولَئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَحْذَرُونَ عَنْهَا مُحِيطًا ١٢١

١٢٢ - والذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات التي تُعبر عملياً عن صحّة الإيمان الإراديّ الاعتقاديّ، سَنُدْخِلُهُمْ فِي الآخِرَةِ جَنّاتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين في الجنّات خلوداً أبدياً بلا انتهاء ولا غاية، وَعَدَ اللهُ ذَلِكَ الذي ذكر وعداً حقاً، وليس أحدٌ أصدق من الله قولاً؛ لأنه سبحانه يستحيل عليه الكذب، وهو سبحانه قادر دائماً على تنفيذ ما يريد، وعلمه المحيط بكل شيء لا يتخلف، وحكمته العظيمة لا تنقض ولا تبدّل.

١٢٣ - ليس ما وعد الله به من الثواب ودخول الجنة، والظفر بمراتبها العلية، ولا النجاة من النار، ومن دركاتها الدنيّة، بالأمانى الحاصلة في نفوسكم التي تريدون وقوعها - أيها المسلمون -، ولا بأمانى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وإنّما الأمر بالإيمان والسعي والجِدّ في فعل الصالحات، وترك السيئات، وبذل الطاقة ارتقاءً في مراتب الكمال، وترفعاً عن ذرّات النقصان، ولكن من يرتكب معصية، مؤمناً كان أو كافراً، يُجازاه الله بها، عاجلاً أو آجلاً، ولا يجد له من دون الله ولياً ما يرحمه، فيحميه ويؤويه، ولا نصيراً ينصره، فيمنع عنه نزول عذاب الله الذي يستحقّه بالعدل.

١٢٤ - ومن يعمل بعض الصالحات من ذكر أو أنثى، وهو مؤمنٌ حقّ الإيمان، فأولئك الفضلاء رفيعو المنزلة يدخلون الجنة، ولا يُنْقَضُونَ من ثواب أعمالهم شيئاً ما، مهما كان هذا الشيء صغيراً، ولو قدر الثفرة في ظهر النواة.

١٢٥ - لا يوجد أحسن ديناً ممّن انقاد في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا لأوامر الله ونواهيه انقياداً تاماً، وخضع له في سرّه وعلايته، وأخلص طاعته له، والحال أنه مُحسِنٌ في عمله وعبادته وسلوكه وأخلاقه لله عزّ وجلّ، من أهل مرتبة الإحسان، وهم الذين يعبدون

الله كأنهم يَرُونَهُ، وهي أعلى مراتب المؤمنين، وأتبع دين إبراهيم عليه السلام مخلصاً مائلاً عن سائر الأديان الزائغة إلى الإسلام، واتخذ الله إبراهيم - عليه السلام - صفيّاً، أحبه سبحانه محبةً كاملة؛ لإخلاصه في عبادته، واجتهاده فيما يرضي الله، ولحبّه لله سبحانه محبةً تُخالل كيانه كله، وتُهيمن على كلّ مشاعره.

١٢٦ - ولله عزّ وجلّ ما في السموات وما في الأرض، خلقاً وملكاً وتصرّفاً وتديباً، وكان الله عالماً علماً إحاطةً وقدرةً بكل شيء، فهو المُستحقُّ وحده للعبادة، وإسلام الوجه والطاعة له سبحانه وتعالى.

١٢٧ - ويطلبون منك - يا رسول الله - تبين المُشكل من الأحكام في شأن النّساء وميراثهنّ، وصدّاقهنّ، ومعاملتهنّ. قل لهم - يا رسول الله - : اللّهُ تعالى يفتيكم في شأن النّساء مُبيناً أمرهنّ وما يجبّ لهنّ، ويفتيكم ما أنزل في كتابه عليكم في شأن اليتامى وأولاد النّساء اللاتي لا يُعطونهنّ ما فرض الله لهنّ من المهر والميراث وغير ذلك من الحقوق، وتميل نفوسكم إلى نكاحهنّ لمالهنّ وجمالهنّ بأقلّ من صدّاقهنّ، ويفتيكم أيضاً في شأن المُستضعفين من الصغار الذين هم في حال يستضعفهم غيرهم، ولا يعطيهم حقوقهم، وهم ضعفاء في ذات أنفسهم، أن تُعطوهم حقّهم من الميراث كاملاً غير منقوص، ويبيّن الله لكم أيضاً في شأن اليتامى - ذكوراً كانوا أو أنثاء - أن تقوموا لأجلهم ومصلحتهم بالعدل في ميراثهم وسائر أموالهم وأحوالهم، وأن تتعهدوهم بالعطف والمحبة والإكرام والتربية والتحذير؛ لأنهم قوة للأمة إن صلحوا، أما إذا لم تقوموا لمصلحتهم وتعتنوا بحالهم فإنهم ينشؤون وبينهم وبين الناس عداوات مُستمرةً ونفور مُستحكم يدفعهم إلى أن يكونوا عناصر فساد وتخريب في مجتمعهم؛ بسبب حرمانهم من المودة والرحمة في طفولتهم، وما تفعلوا من خير لأنفسكم ولجماعتكم، فإنّ الله كان به عليمًا علماً دقيقاً، لا يخفى عليه منه شيء، فيجازيكم عليه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ
وَلَا بِأَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
مُحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَى النِّسَاءِ
الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغْبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضَعِّفِينَ مِنْ الْأَوْلَادِ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى
بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

١٢٨ - وَإِنْ تَوَقَّعت امرأةٌ مِنْ زوجها تَرْفَعاً عَلَيْهَا أَوْ تَجَافِياً عَنْهَا بَانَ يَمْنَعُهَا نَفْسُهُ وَنَفَقَتُهُ وَمَوَدَّتُهُ، وَيُؤْذِيهَا بِسَبِّ أَوْ ضَرْبٍ، أَوْ انْصِرَافاً عَنْهَا بِأَنْ يَقْلُلَ مُحَادَثَتَهَا وَمَوَاسِئَتَهَا، فَلَا حَرَجَ عَلَى الزَّوْجِ وَالرَّأْسَةِ أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً بِتَسَامُحِ كُلِّ مِنْهُمَا عَنْ بَعْضِ حَقِّهِ، لِيَنَالَ خَيْراً مِمَّا تَسَامُحُ فِيهِ، وَيَكُونُ هَذَا الصُّلْحُ صُلْحاً نَفْسِيّاً تَتَلَقَّى فِيهِ الْقُلُوبُ، وَتَصْفُو النُّفُوسُ. وَالصُّلْحُ فِي ذَاتِهِ خَيْرٌ يَعْهُمُ الطَّرَفَيْنِ، وَإِقَامَةُ الزَّوْجَةِ بَعْدَ تَخْيِيرِ زَوْجِهَا لَهَا، وَالْمُصَالَحَةُ عَلَى تَرْكِ بَعْضِ حَقِّهَا مِنَ الْقَسَمِ وَالنَّفَقَةِ أَوْلَى وَأَفْضَلُ مِنَ الْفِرْقَةِ، وَطُبِعَتِ النُّفُوسُ عَلَى أَشَدِّ الْبَخْلِ، وَأَحْضَرُ فِي دَاخِلِ الْأَنْفُسِ بِالتَّكْوِينِ الْفَطْرِيِّ لَهَا، فَكَأَنَّهُ حَاضِرُهَا لَا يَنْفَكُ عَنْهَا، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ يَحْرُصُ عَلَى مَنَعِ الْخَيْرِ عَنِ الْآخَرِ، وَيَلْتَزِمُ مَوْقِفَهُ مَتَمَسِّكاً بِحَقْوَقِهِ الشَّكْلِيَّةِ، وَإِنْ تُحْسِنُوا - أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ - الصُّحْبَةَ وَالْعِشْرَةَ، وَتَتَّقُوا اللَّهَ فِي حَقِّ الْمَرْأَةِ، فَلَا تَظْلَمُوهَا وَلَا تَجْوَرونها عَلَيْهَا، فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ مِنَ الْأَزْلِ إِلَى الْأَبَدِ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيماً عِلْماً تَامّاً شَامِلاً، لِكُلِّ ظَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ وَبَوَاطِنِهَا، عِلْمٌ حَاضِرٌ وَشُهُودٌ وَتَدْبِيرٌ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ.

١٢٩ - وَلَنْ تَقْدَرُوا - أَيُّهَا الرِّجَالُ - أَنْ تُسَوُّوا بَيْنَ النِّسَاءِ فِي الْحُبِّ وَمِثْلِ الْقَلْبِ، لِأَنَّ ذَلِكَ خَارِجٌ عَنْ قُدْرَتِكُمْ وَوَسْعِكُمْ، وَلَوْ حَرَصْتُمْ فِي تَحْرِيزِ ذَلِكَ أَتَمَّ الْحَرَصِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُكَلِّفْكُمْ اللَّهُ بِهِ، إِذِ التَّكْلِيفُ الشَّرْعِيُّ يَكُونُ بِمَا فِي الْوَسْعِ وَالطَّاقَةِ، فَقَارِبُوا وَاجْتَهِدُوا أَلَّا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ إِلَى الَّتِي تُحِبُّونَهَا فِي الْقَسَمِ وَالنَّفَقَةِ، فَتَدْعُوا الْآخَرَى الَّتِي لَا تَمِيلُونَ إِلَيْهَا، كَالْمَرْأَةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِذَاتِ زَوْجٍ تَنَالِ الْحَقُوقَ الزَّوْجِيَّةَ أَوْ بَعْضَهَا، وَلَا هِيَ خَالِيَةُ الْأَزْوَاجِ، كَالشَّيْءِ الْمُعْلَقِ لَا هُوَ فِي السَّمَاءِ وَلَا عَلَى الْأَرْضِ، وَإِنْ تُصْلِحُوا بِالْعَدْلِ فِي الْقَسَمِ، وَتَتَّقُوا الْجَوْرَ، وَتَرَاقِبُوا اللَّهَ تَعَالَى وَتَخْشَوْهُ فِي زَوْجَاتِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ

كَانَ كَثِيرَ الشَّرِّ لَمَّا حَصَلَ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ دُونَ بَعْضٍ، دَائِمَ الرَّحْمَةِ بِكُمْ حَيْثُ لَمْ يُكَلِّفْكُمْ مَا لَا تَقْدَرُونَ عَلَيْهِ.

١٣٠ - وَإِنَّ لَمْ يُضْطَلْحَا، وَتَعَدَّرَ عَلَيْهِمَا التَّلَاوُمُ، وَأَرَادَا الْفِرْقَةَ، يُغْنِي اللَّهُ كُلَّاً مِنْ فَضْلِهِ وَغَنَاهُ وَرِزْقِهِ، وَكَانَ اللَّهُ مِنَ الْأَزْلِ إِلَى الْأَبَدِ وَاسِعَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ، حَكِيماً فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ. وَتَشْرِيعُ الطَّلَاقِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ، عِنْدَمَا يَتَعَدَّرُ إِزَالَةُ الْخِلَافِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ تَشْرِيعٌ حَكِيمٌ، فِيهِ دَرَّةٌ لِمَفَاسِدَ كَثِيرَةٍ وَخَطِيرَةٍ، تَتَرْتَّبُ عَلَى إِجْبَارِ الزَّوْجَيْنِ الْمُتَنَازِعَيْنِ أَنْ يَعِيشَا مَعَ بَعْضِهِمَا، وَهَمَا فِي تَنَافُرٍ وَخِصَامٍ مُسْتَمْرَيْنِ، فَإِنَّ هَذَا يُؤَثِّرُ عَلَى الْأَوْلَادِ، وَيَمْتَدُّ فَسَادُهُ إِلَى الْمَجْتَمَعِ الْمَحِيطِ بِالْأُسْرَةِ.

١٣١ - وَلِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ وَحْدَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ خَلْقاً وَمِلْكَاً وَتَصَرُّفاً، وَنُقُصَمُ مُؤَكِّدِينَ لَكُمْ أَنَّنا طَلَبْنَا مِنَ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى طَلَباً مُؤَكِّداً، وَعَهَدْنَا إِلَيْكُمْ - يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ - فِي كِتَابِكُمْ بَأَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ فَتُخَوِّدُوهُ وَتُطِيعُوهُ وَتَحْدَرُوهُ وَلَا تُخَالَفُوهُ أَمْرَهُ، وَإِنْ تَجَحَّدُوا مَا وَصَّاكُمْ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ عِبَادَتِكُمْ وَطَاعَتِكُمْ وَتَقْوَاكُمْ، وَكَانَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنَ الْأَزْلِ إِلَى الْأَبَدِ غَنِيّاً عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ غَيْرِ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ وَلَا إِلَى طَاعَتِهِمْ، حَامِداً أَهْلَ طَاعَتِهِ، مُثْنِياً عَلَيْهِمْ بِمَا فَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ، مَحْمُوداً عَلَى عَظِيمِ صِفَاتِهِ، وَجَلِيلِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، لَا يُضِيرُهُ كُفْرُ الْكَافِرِ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ سُلْطَانِهِ فَجُورُ الْفَاجِرِ؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ فِي قَبْضَةِ يَدِهِ، وَتَحْتَ سُلْطَانِهِ.

١٣٢، ١٣٣ - وَلِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ وَحْدَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، خَلْقاً وَمِلْكَاً وَتَصَرُّفاً، وَأَغْنَى اللَّهُ حَالَهُ كَوْنُهُ قَائِماً بِشُؤْنِ خَلْقِهِ، كَفَيْلاً بِأُمُورِهِمْ، مُعْتَمِداً عَلَيْهِ، فَاتَّخِذُوهُ وَكِيلاً وَلَا تَتَّكِلُوا عَلَى غَيْرِهِ. إِنَّ يَشَأَ اللَّهُ يُهْلِكْكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَيَأْتِ بِغَيْرِكُمْ، هُمْ خَيْرٌ مِنْكُمْ وَأَطْوَعُ لَهُ، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ قُدْرَةً مُطْلَقَةً، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْإِهْلَاكِ وَإِيجَادِ غَيْرِكُمْ، عَظِيمُ الْقُدْرَةِ، لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَرَادَهُ.

١٣٤ - مَنْ كَانَ يُرِيدُ مِنْكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا، وَيَطْلُبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ وَجَهَادِهِمْ مَتَاعَ الدُّنْيَا وَمَا يَنَالُونَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَهُمْ مَخْطُؤُونَ فِي قَصْدِهِمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَثَوَابُ الْآخِرَةِ، يُؤْتِيهِ مِنَ الدُّنْيَا مَا قُدِّرَ لَهُ، وَيَجْزِيهِ فِي الْآخِرَةِ خَيْرَ الْجِزَاءِ، وَكَانَ اللَّهُ بِالْكَيْفُونَةِ الْأَزَلِّيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ سَمِيعاً لِأَقْوَالِهِمْ، بَصِيراً بِنِيَّاتِهِمْ وَمَا فِي نَفْسِهِمْ، وَسَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَرْغِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي أَنْ يَبْتَغُوا بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ثَوَابَ الْآخِرَةِ، وَلَوْ كَانَتْ مَطَامِعُ نَفْسِهِمْ مُتَعَلِّقَةً بِثَوَابِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ اللَّهَ عِزُّ وَجَلُّ ذُو فَضْلٍ، إِذَا طَلَبُوا ثَوَابَ الْآخِرَةِ لَمْ يَحْرَمَهُمْ مِنَ ثَوَابِ الدُّنْيَا، بَلْ يَجْمَعُهُمَا لَهُمْ.

وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوراً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ يَعْمَلُونَ خَيْرًا ۖ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوراً رَحِيماً ۖ وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ۖ وَاللَّهُ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً ۖ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ۖ إِنَّ يَشَأُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ۖ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيرًا ۖ

ويؤخذ من الآية النَّهْيُ عَنْ مَجَالَسَةِ أَهْلِ الْعُقَاثِ الْبَاطِلَةِ عَامَّةً عِنْدَ خَوْضِهِمْ فِي بَاطِلِهِمْ؛ كَالْمُبْتَدِعَةِ وَالْفَسَاقِ وَالْمَلَاخِدَةِ. وَأَنَّ مَنْ رَضِيَ بِالْكَفْرِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ رَضِيَ بِمَنْكَرٍ أَوْ خَالَطَ أَهْلَهُ، كَانَ بِالْإِثْمِ بِمَنْزِلَتِهِمْ، إِذَا رَضِيَ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَبَاشِرْهُ.

١٤١ - من صفات المنافقين أنهم ينتظرون بترقب يقظ ما يحدث لكم - أيها المؤمنون - من خير أو شر، وينتظرون الفرص، فإن كان لكم نصر من الله تعالى على عدوكم وغنيمة تنالونها منهم، قال المنافقون لكم: ألم نكن معكم في الموقعة والفتح؟! فاجعلوا لنا نصيباً من الغنيمة، كما تقسمون لسائر المقاتلين المجاهدين، وإن كان للكافرين نصيب مما كسبوا بأسبابهم، ضمن سنة الله عز وجل، وبمقتضى حكمته التربوية أو الجزائية، قال المنافقون للكفار: ألم نحط بكم إحاطة حماية ومعونة ونصرة؟ ودفعنا المؤمنين بتخديلتهم عنكم، ومراسلتنا إليكم بأخبارهم وأسرارهم؟ فأعطونا نصيباً مما أصبتم منهم، فالله يحكم بين الفريقين: فريق المؤمنين، وفريق المنافقين يوم القيامة، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين طريقاً بالانتصارات الحاسمة، والغلبة الدائمة، والسيطرة المستمرة، بل يساعد المؤمنين إذا عملوا بما أمرهم من إعداد المستطاع من القوة، حتى يتفوقوا على أعدائهم، ويكونوا هم المنصورين الغالبين.

١٤٢ - إن المنافقين يتصفون بخمس صفات سلوكية: **الصفة الأولى:** أنهم يظهرون ما يؤمهم الإيمان والصدق والسلامة، ويطنون خلاف ذلك، ويبالغون جداً في الاستخفاء والثواري، ويؤمنون في إيقاع المؤمنين فيما يكرهون غاية جهدهم، وهم حين يخادعون الذين آمنوا مع أن الله معهم، وهو وليهم، إنما يخادعون معهم الله ربهم، الذي يتولاهم بتأييده، ويحميهم من مكر المنافقين ومكايدهم، والمنافقون بسبب غفلتهم عن هذه الحقيقة، لا يخدعون إلا أنفسهم، والله مجازيهم بمثل عملهم، إذ يستدرجهم من حيث لا يشعرون، حتى يوقعهم بشر عملهم الذي يمحرون به، **والصفة الثانية:** إذا قام المنافقون إلى الصلاة قاموا متثاقلين؛ لأنهم غير مؤمنين باطناً، فهم لا يؤمنون بجدوى الصلاة، ولا يتذوقون حلاوتها، ولا يشعرون بلذة مناجاة الله فيها، **والصفة الثالثة:** أنهم يفتصدون بصلاتهم وسائر أعمالهم الدينية الرياء والسُمعة، ويظهرون للناس أنهم أهل خير وصلاح، فإذا خلوا إلى أنفسهم لم يؤدوا هذه الأعمال التي يتظاهرون بها أمام الناس، **والصفة الرابعة:** أنهم لا يذكرون الله تعالى إلا ذكراً قليلاً؛ لأنهم من قسم المنافقين المترددين، إذ هم في نوبة اتجاء قلوبهم إلى الإيمان قد يذكرون الله عز وجل، لكنهم سرعان ما يرتدون إلى الطرف الآخر، أما المنافقون الذين استقروا في الكفر دوماً، وانتهت لديهم حالة التردد، فإن ذكرهم القليل من قبيل ذكر المشركين وسائر الكافرين الصرحاء الذين يؤمنون بربوبية الله، ولكنهم لا يؤمنون بآلهيته، ولا برسوله، وإذا ذكروا الله فإنهم يذكرونه لدينامهم لا لأخرتهم.

١٤٣ - **الصفة الخامسة:** أنهم متحيرون مترددون في ولائهم، وفي سلوكهم، لا هوية لهم ولا مبدأ، فلا هم متؤمنون حقيقة إلى المؤمنين، ولا هم منتؤمنون إلى هؤلاء الكفار، ويظلون في حياتهم قلقين لا ثبات لهم، ومن يحكم الله عليه بالضلال بمقتضى قانون العدل، فليس له من ينجيهِ من عذاب الله على ضلاله.

١٤٤ - يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله، لا توالوا الكفار من دون أهل ملتكم ودينكم، أتريدون - أيها المتخذون الكفار أولياء - أن تجعلوا لله عليكم حجة ظاهرة جليلة، وهي تقتضي أن يرفع عنكم ولايته، وينزل بكم عقوبته؟

١٤٥ - إن المنافقين الذين يموتون على النفاق في الطبقة السفلى من طبقات دار العذاب، يذوقون فيها عذاباً خالداً، ولن تجد - أيها المخاطب - لهؤلاء المنافقين ناصراً ينصرهم فيرفع عنهم من عذاب الله إذا نزل بهم.

١٤٦ - لكن الذين رجعوا عن النفاق إلى الإيمان الصادق الصحيح، وأصلحوا الفساد الذي كان في نفوسهم وأعمالهم، فعملوا بما أمر الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه، وتمسكوا بعهد الله، وانضمو إلى جماعة المسلمين الصادقين، وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي عملوها لله عز وجل، لا يبتغون مرأاة الناس أو مغايب الدنيا ومنافعها. فأولئك المتصفون بهذه الأوصاف الأربعة مع المؤمنين في الجنة، وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً في الآخرة.

١٤٧ - لا يفعل الله تعالى بعذابكم على آثامكم وجرائمكم شيئاً لنفسه، من جلب نفع أو دفع ضرر. إن شكرتم نعم الله عليكم التي تنتهي بكم إلى معرفة المنعم والإيمان به، آثامكم أجراً عظيماً، ولا ينقص ذلك العطاء من ملكه شيئاً، ولا يزيد شكركم وإيمانكم في ملكه شيئاً، وكان الله دوماً من الأزل إلى الأبد مثيباً عباده المؤمنين الشاكرين، مؤقياً أجورهم، عليم بأعمال عباده جميعاً، من يستحق منهم الثواب، ومن يستحق منهم العقاب.

الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ فَكُلُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ فَأَلَوْا أَلَمْ تَسْتَحِذُوا عَلَيْهِمْ وَنَمَنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مَذْذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوا اللَّهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

١٤٨ - لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ خَفَاءً فِيهِ، كالكذب والسباب، وإعلان المعاصي والجرائم، وتفصيل القول فيها من غير حاجة إلى بيانها؛ لأن إعلان الآثام والمفاسد يُسهل ارتكابها، ويُزيل استنكارها من القلوب، لكن مَنْ ظلم، فله أن يجهر بالسوء لدفع الظلم عنه؛ لأن دفع الظلم واجب، وما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب، فللمظلوم أن يجهر بما ارتكب خصمه من مآثم في حقه أمام القاضي، وأن يدعو على ظالمه جهراً، وأن يذكره في مجالسه من غير كذب ولا بهتان، وكان الله سميعاً لدعاء المظلوم، وما يجهر به، عليمًا بما في قلبه، فليثق الله ولا يقل إلا الحق.

١٤٩ - إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالنَّفْعِ الْإِنْسَانِيَّ الْعَامِ، للدعوة إليه، فإلى الخير تدعون، أو تخفوا الخير فلم تُظهره أثقاءً لله، ومنعاً للرياء، وسراً على من تُعطون، فنعماً تفعلون، أو تعفوا عن مظلمة، وتركوا التشهير بالظالم والانتقام منه، فإن الله تعالى لم يزل ذا عفو عن أصحاب المعاصي والآثام مع قدرته على الانتقام، فاعفوا أنتم عمن ظلمكم، واقعدوا بسنة الله عز وجل يعف عنكم يوم القيامة. فالانتقام من الظالم عدلٌ، والعفو عليه عند المقدرة عليه فضل وإحسان.

١٥٠ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، ويريدون أن يُفرقوا بين الإيمان بالله والإيمان برسله، بأن يؤمنوا بالله ويكذبوا رسله الذين أرسلهم الله إلى خلقه، أو يعترفوا بصدق بعض الرسل دون بعض، ويريدون أن يتخذوا من الإيمان بالله دون الإيمان برسله، أو الإيمان ببعض الرسل دون بعض مذهباً يذهبون إليه، وديناً يدينون به.

١٥١ - أُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، المفرقون بين الله ورسله في الإيمان هم الكافرون كفراً ثابتاً لا شك فيه، وهيئنا للكافرين عذاباً يُهانون فيه؛ جزاء استكبارهم في الدنيا. وفي هذه الآية دليل واضح على أن العقيدة الإسلامية لا تقبل التفريق في الإيمان بين أركان الإيمان، أو بين عناصر الركن الواحد، والإيمان غير قابل للتجزئة والتفريق، بأن يؤمن ببعض العناصر الإيمانية ويكفر ببعضها، ومَنْ فعل ذلك كان كافراً غير مؤمن.

١٥٢ - وَالَّذِينَ صَدَّقُوا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ، وثبوت جميع أنبيائه، وأن جميع ما جاؤوا به من عند الله حقٌ وصدق، ولم يُفرقوا بين أحد من الرسل، بل آمنوا بجميعهم إيماناً كاملاً، أولئك رُفِعوا المنزلة الموصوفون بالأوصاف السابقة سَوْفَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْجَنَّةِ أَجْرَهُمْ وَثَوَابَهُمْ جِزَاءَ إِيْمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَبِجَمِيعِ كِتَابِهِ وَرُسُلِهِ، وكان الله كثير السَّتر يتجاوز عن سيئاتهم، واسع الرحمة بهم.

١٥٣ - يَسْأَلُكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَهْبَارُ الْيَهُودِ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ جَمْلَةً كَمَا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ عَلَى مُوسَى مَكْتُوبَةً، حتى يؤمنوا بك، فلا تعجب - يَا رَسُولَ اللَّهِ - فقد سألوا موسى أعظم من الذي سألوك - يَا رَسُولَ اللَّهِ - فقالوا: أَرَأَيْتَ اللَّهُ عَيَاناً بِالْبَصَرِ، فأخذتهم نار من السماء بسبب ظلمهم وسؤالهم الرؤية، وبعد أن أحياهم الله بعد الصَّعق؛ لِيَسْتَوْفُوا بَقِيَّةَ أَجَالِهِمْ، اتَّخَذُوا الْعَجَلَ الذَّهَبِيَّ الَّذِي صَاغَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ إِلَهًا، من بعد ما جاءتهم الدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات على صدق موسى، فَتَجَاوَزْنَا عَنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ، فلم نَسْتَأْصِلْ عَبْدَةَ الْعَجَلَ، تفضلاً منا وإحساناً، وآتَيْنَا مُوسَى حُجَّةً وَاضِحَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ نَبَوْتِهِ.

١٥٤ - وَرَفَعْنَا فَوْقَ رُؤُوسِهِمُ الْجِبَلَ الْمُسَمَّى بِالطُّورِ تَهْدِيداً لَهُمْ حِينَ امْتَنَعُوا عَنِ الْإِثْمِ بِالْعَهْدِ الْمُؤَكَّدِ الَّذِي أَعْطَاهُ عَلَى الْعَمَلِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ؛ وَقَلْنَا لَهُمُ وَالطُّورُ يُظْلِمُهُمْ: ادخلوا الباب مُتَحَنِّينَ خَاضِعِينَ لِلَّهِ، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقلنا لهم: لا تُجَاوِزُوا فِي يَوْمِ السَّبْتِ مَا أُبِيحَ لَكُمْ إِلَى مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَصْطِيَادِ فِيهِ، فاعتدوا وصادوا، وأخذنا منهم عهداً مُؤَكَّدًا شديداً بأن يعملوا بما أمرهم الله به، وأن يَتَنَهَوْا عَمَّا نَهَاكَمُ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَصَوْا وَنَقَضُوا الْعَهْدَ. فهؤلاء اليهود في ماضيهم، لا يَتَّجِهُونَ إِلَى الْحَقِّ اتِّجَاهَ الْمُؤْمِنِ الْمُذْنَعِ، ولكن يُحْمِلُونَ عَلَيْهِ حَمْلَ الْمُلْجَأِ، فلا تنتظروا - أيها المؤمنون - أن يستجيبوا لكم؛ لأن ذلك لم يكن من طبعهم، فهم في ماضيهم لم يُنفذوا أحكام التَّوْرَةِ، مع أنهم حُمِلُوا عَلَى الْعَمَلِ بِهَا حَمْلًا، وَهَدُّوا تَهْدِيدًا حَسِيًّا بِأَنَّ الْعَذَابَ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ.

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالنَّفْعِ الْإِنْسَانِيَّ الْعَامِ سَوْفَ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ١٤٩ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ١٥١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا ١٥٢ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيْتًا فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَى سُلْطَنًا مُبِينًا ١٥٣ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقَلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ مُجْتَدًا وَقَلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ١٥٤

الْبَيْتُ السَّابِعُ

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

١٥٥ - طردناهم من رحمتنا وسَخَطْنَا عليهم، وفعلنا بهم ما فعلنا؛ بسبب نقضهم للعهود، وبسبب جحودهم بآيات الله الدالة على صدق أنبيائه، وقتلهم الأنبياء بعد قيام الحجة على صحة نبوتهم بغير استحقاق لذلك القتل، فليس لهم عُذْر في هذا الاعتداء، بل أقدموا عليه مُسْتَهْنِئِينَ بمقام النبوة، وهم يعلمون أنهم على باطل. وبسبب قولهم: قلوبنا مليئة بالمعارف الدينية التي أنزلت علينا، مغلفة كما تغلف السلع والأمتعة حتى صارت لا متسعة فيها لواردات جديدة، فلسنا بحاجة إلى العلوم والمعارف الدينية التي عندك، ولن نقبل شيئاً مما تدعونا إليه يا محمد، وليس الأمر كما يزعمون، بل ختم الله على قلوبهم فَحَجَبَهَا عن العلم بسبب كفرهم، فلا يؤمنون إلا بموسى والتوراة، ويكفرون بما سواه من الأنبياء والكتب.

١٥٦ - وكذلك لعناهم بسبب إنكارهم قدرة الله على خلق الولد من غير أب، وقولهم على مريم كذباً وباطلاً فاحشاً حين رموها بالزنى، مع ظهور المعجزات الدالة على براءتها.

١٥٧ - وبسبب ادعائهم الكاذب وقولهم: إنا قتلنا عيسى ابن مريم عليه السلام، رسول الله وصلبناه. وقولهم هذا يُؤْذَنُ بِمُنْتَهَى الْجُرْأَةِ على الباطل، وارتكاب أفظع الجرائم، وهم ما وصفوه بأنه «رسول الله» إلا على سبيل التهكم والاستهزاء به. والحال أنهم ما قتلوه كما زعموا تبجحاً بالجريمة، وما صلبوه كما ادعوا وشاع بين الناس، ولكن ألقي الله شبه عيسى على غيره حتى قُتِلَ وصلب، وإن اليهود الذين اختلفوا في قتل عيسى لفي تردّد وحيرة من قتله، ولم يعرفوا حقيقة ذلك المقتول، ما لهم دليل إلا اتباع الظن، وما قتلوه متيقنين أنه هو، فلم يكن علمهم بقتل عيسى علماً تاماً كاملاً، بل كانوا في ذلك شاكّين متوهّمين.

١٥٨ - إنهم لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه، ولكن الله عزّ وجلّ رفعه إليه بيدنه وروجه، وخلّصه ممّن أراد به سوء، فهو حيّ في السماء، وسينزل قبيل قيام الساعة، فيقتل الدجّال، ويكسر الصليب، وكان الله من الأزل إلى الأبد قوياً غالباً في اقتداره على من يشاء من عباده، حكيماً في إنجاء عيسى عليه السلام وتخليصه من اليهود.

١٥٩ - وما من أحد من اليهود والنصارى بعد نزول عيسى عليه السلام من السماء قبيل الساعة إلا ليؤمننّ به عليه السلام إيماناً صحيحاً، وذلك بأن يؤمنوا أنّه عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته ألّقاها إلى مريم، وهذا الإيمان سيكون قبل موته عليه السلام، لأنه رُفِعَ إلى السلام حياً، وسينزل إلى الأرض؛ ليقمّ أحكام الشريعة الإسلامية التي أنزلها الله على محمد ﷺ، ويوم القيامة يكون عيسى عليه السلام شاهداً على اليهود أنهم كذّبوه وطعنوا فيه، وعلى النصارى أنهم اتّخذوه ربّاً وأشركوا به، ويشهد على تصديق من صدّقه منهم وآمن به.

١٦٠ - فَيَسْبَبُ ظَلَمَ اليهود ظلماً من دركة الكفر، حرّمنا عليهم بعض الطّيبات التي كانت حلالاً لهم، تهدياً لهم، وفضماً لنفوسهم عن الشهوات، وبسبب صدّهم أنفسهم وغيرهم عن دين الله الحق.

١٦١ - وبسبب أكلهم الربا مُسْتَحْلِينَ له مع أنهم قد نهوا عنه في الكتب المنزلة على أنبيائهم، بسبب عدوانهم على أموال الناس وأكلهم لها بالطرق المحرّمة، كالرشوة والقمار والغضب والاحتكار والغش وسائر الوجوه المحرّمة ظلماً وعدواناً، وهو مُحَرَّمٌ في كلّ الشرائع. وهَيَّأْنَا للكافرين من هؤلاء اليهود عذاباً أليماً في الآخرة، دون مَنْ آمَنَ منهم فإنهم آمنون من العذاب.

١٦٢ - لكن الثابتون في العلم بأحكام الله من اليهود، المُتَقِنُونَ له، الذين تعمّقوا في دراسة التوراة، وعرفوا ما أخبرت به من صفات محمد ﷺ، والمؤمنون بدين موسى عليه السلام، يؤمنون بما أنزل إليك - يا رسول الله - من القرآن، وبما أنزل من قبلك من الكتب على الرسل السابقين، مع المسلمين المقيمين الصلاة، يصلّون صلاتهم، ويركعون ركوعهم، والمؤدّون الزكاة المفروضة عليهم، طيبة بها نفوسهم، والمُصَدِّقُونَ بوحداية الله، وبالبعث بعد الموت، والحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، أولئك الفضلاء رفيعو المنزل ستؤتيهم في الآخرة يوم الدين أجراً عظيماً، في جنّات النعيم.

فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ
بُهْتَانًا عَظِيمًا ۝١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
۝١٥٨ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩ فِطْرًا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا
حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
كَثِيرًا ۝١٦٠ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ
بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١ لَكِنِ
الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٦٢

١٦٣ - إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - كما أَوْحينا إلى نوح، وهو أول نبي بُعِثَ بشريعة، وأول نذير على الشُّرك، وأَوْحينا إلى النبيين من بعد نوح إلى عهد إبراهيم عليهما السلام، وأَوْحينا بعد هذه الفترة الزمنية إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ابنا إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق، وأنبياء الأسباط المنحدرين من أولاد يعقوب الاثني عشر الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل، وعيسى ابن مريم وأيوب ويونس وهارون وسليمان بن داود. وآتينَا داود صحفاً مكتوبة فيها حِكْمٌ ومواعظ ونصائح، ومناجاة لله وتضرُّع ودعاء، وتمجيد وتقديس له وثناء. ولم يُذكر موسى في هذه الآية؛ لأنَّ الله أنزل عليه التوراة جملةً واحدة.

والمقصود بذكر مَنْ ذُكر من الأنبياء في الآية أنه لم ينزل على أحد منهم كتاباً جملةً واحدة، فلما لم يكن عدم إنزال الكتاب جملةً واحدة قادحاً في نبوتهم، فكذلك لم يكن إنزال القرآن على محمد ﷺ مُفَرِّقاً قادحاً في نبوته، بل قد أنزل عليه كما أنزل عليهم.

١٦٤ - وأرسلنا رُسُلًا إلى أُمَمٍ قد سَمِينَاهُمْ في القرآن، وعَرَّفْنَاكَ أخبارهم من قبل هذه الآية، وأرسلنا رُسُلًا لم نُسَمِّهم لك، ولم نَعْرِفَكَ أخبارهم، وخاطب الله موسى مخاطبةً من وراء حجاب، وأسمعه كلامه من غير واسطة. فليس الوحي إلى محمد حَدَثًا غريباً لا سابقة له في تاريخ الناس، حتى يستنكره اليهود المعاصرون للرسول ﷺ، بل هو الأمر المعتاد المُتَكَرِّر، وهذه حُجَّةٌ دامغةٌ لهم، لأن كثيراً مِمَّنْ ذكروا من الأنبياء والرسل مِمَّنْ يؤمنون بنبوته والوحي إليه.

١٦٥ - أَرْسَلْتُ رُسُلًا إلى خلقي مُبَشِّرِينَ مَنْ أَطَاعَنِي، وَاتَّبَعَ أَمْرِي، وَصَدَّقَ رُسُلِي بالشَّوَابِ الجَزِيلِ في الْجَنَّةِ، وَمُنْذِرِينَ مَنْ عَصَانِي،

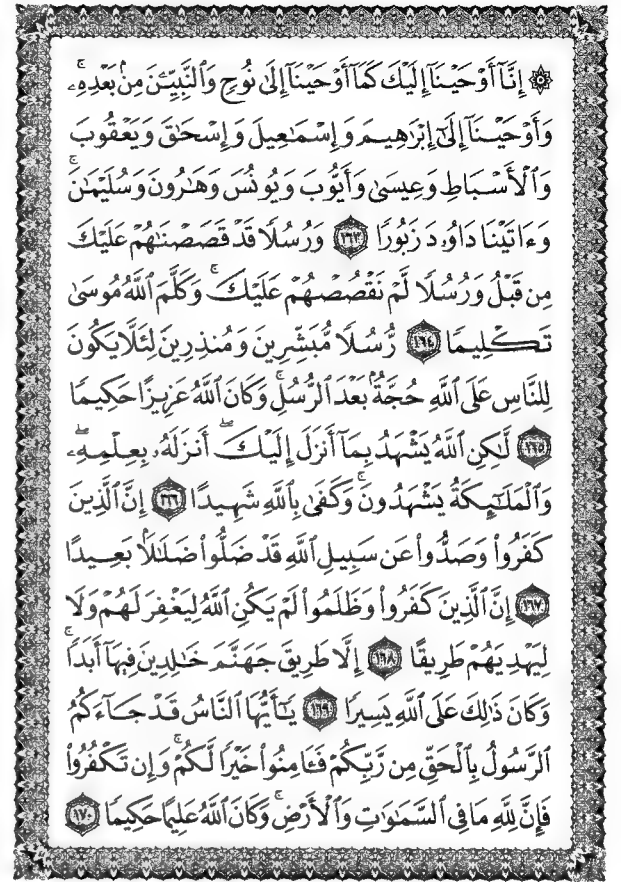
وخالفَ أَمْرِي، وكذَّبَ رُسُلِي بالعذاب الأليم في النار؛ لئلاَّ يَحْتَجَّ النَّاسُ بعد إرسالِ الرُّسل وإنزالِ الكتب على الله في ترك التوحيد والطاعة، بالجهل، أو بالغفلة، أو بموارث البيئ، وكان الله دوماً قوياً غالباً في انتقامه مِمَّنْ خالف أمره وَعَصَى رُسُلَهُ، حَكِيمًا في إرساله الرُّسل، وإنزاله الكتب.

١٦٦ - إِنْ جَحَدَكَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ، وكفروا بما أَوْحينا إليك، فَإِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ لَكَ بِالنَّبُوءَةِ، ويشهد بما أنزل إليك من كتابه ووحيه، أنزلَهُ عليك بعلم تام وحكمة بالغة، والملائكة يشهدون أيضاً بأنَّ اللَّهَ أنزلَهُ عليك، وَحَشْبُكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ لَكَ، وَأَغْنَى اللَّهُ حالة كونه شَهِيداً عالماً علم شهود وحضور وإن لم يشهد معه أحدٌ غيره.

١٦٧ - إِنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ جَحَدُوا نَبُوءَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، لم يكتفوا بانصرافهم عن الإيمان والإذعان، بل يمنعون غيرهم عن الإيمان به، بكتمان صفته، وإلقاء الشبهات في قلوب الناس، قد ضلُّوا عن طريق الهدى ضلالاً بعيداً.

١٦٨، ١٦٩ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وظلموا أنفسهم بالضلال البعيد، والاستمرار على الكفر، وظلموا محمداً ﷺ بكتمان صفته، وإنكار رسالته، وظلموا غيرهم بالصدِّ عن سبيل الله، فازدادوا بذلك كُفْراً، وأَصْرُوا عليه إلى الممات، لم يكن الله لِيَسْتُرَ عليهم قبائح أفعالهم، ولا لِيَهْدِيَهُمْ طريقاً ينجون فيه من النار؛ لكنه تعالى يهديهم إلى طريق يؤدي بهم إلى جهنم، خالدين فيها أبداً؛ بسبب سوء اختيارهم، وجحودهم وإصرارهم على ظلمهم، وكان ذلك العذاب الذي يستحقونه على الله سبحانه هيناً يسيراً، فلا يُعْجزه شيء.

١٧٠ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ الْخَاتَمُ مُحَمَّدٌ ﷺ، بدين الإسلام من عند ربِّكم، وإذا كان ذلك الرسول هو الكامل في رسالته التي جاءت مقرونةً بالحقِّ، مُصَاحِبَةً له، وفيها مصلحةٌ لكم، فأمنوا بما جاءكم به محمد ﷺ، يكن الإيمان خيراً لكم في الدنيا والآخرة من الكفر الذي أنتم عليه، وإن تَجَحَّدُوا رسالةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وتكذبوا بما جاءكم به من الحقِّ من ربِّكم، فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عن إيمانكم؛ لأنَّ له ما في السموات والأرض ملكاً وعبداً، وكان الله من الأزل إلى الأبد عليمًا بما يكون منكم، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم، فَيَجْزِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، حَكِيمًا في تكليفكم مع علمه بما يكون منكم. وفي هذه الآية دليل على عموم رسالة محمد ﷺ.



١٧١ - يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى: لا تُجاوزوا الحدَّ في أمر عيسى عليه السلام، فلا تحطوه عن منزلته، ولا ترفعوه فوق قدره، ولا تقولوا مُفْتَرِينَ على الله إلا القول الحقَّ الثابت القائم على الدليل المُقْنِع، لا على الوهم البعيد. ما المسيحُ عيسى ابنُ مريم إلا رسول الله أرسله الله بالحق، وخلقهُ بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، بقوله: «كُنْ»، فكان بشراً من غير أب ولا واسطة أوصلها إلى مريم، وروحٌ بتخليقه وتكوينه من غير توسيط سُلالة بشرية، ونطفة تشكّل إنساناً، وإذا كان الحقُّ في عيسى عليه السلام، أنه رسول الله، وأنه سبحانه خلقه من غير طريق الأسباب المعتادة، فصدّقوا - يا أهل الكتاب - بوحداية الله، وصدّقوا رسله الذين سبقوا عيسى، والرسول الذي جاء من بعده، ولا تكفروا بأحد منهم، ولا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، انتهوا عن هذا القول الفاسد الباطل، يكن الانتهاء خيراً لكم؛ لأنكم تخرجون من خيرة الأوهام إلى تفكير العقول، وتدركون الحقَّ وتذعنون له، وتكونون مؤمنين بالمسيح حقاً وصدقاً، ما الله سبحانه إلا إله واحد، تنزه أن يكون له ولد، له تعالى ملك السموات والأرض، ومنَ فيهما وما فيهما عبيدُه ومُلكه، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟ وكفى بالله وكيلاً قائماً بأمر عبادِه، ويتحصّل ما يحتاجون إليه، مَنْ توكّل عليه كفاه، ومن استغنى به أغناه عمّا سواه.

وفي الآية تحذيرٌ من الغلو في الدين، وهو تجاوز الحدود الشرعية؛ لأن الغلو يُوقِع صاحبه في مخالفة الشرع، وهو يحسب أنه يُحسن صنعاً، وقد يوقِع الغلو صاحبه في الكفر كما حصل لليهود والنصارى في عيسى عليه السلام. فاليهود تجاوزوا الحدود الشرعية في عيسى وأمه، فأنزلوهما دون منزلتهما التي أنزلهما الله فيها، فكذبوا عيسى، واتّهموا أمه بالفاحشة، والنصارى تجاوزوا الحدود الشرعية غلواً منهم بعيسى، فجعلوه وأمه إلهين مع الله عز وجل.

١٧٢ - لن يستكبرَ ويمتنعَ المسيحُ الذي تعبدونه من دون الله أن يكونَ عبداً لله؛ لأنه رسولٌ مُجتبى، فليس هو ثالث ثلاثة، وليس هو ابناً لله، وليس هو الله، ولم يأمر أحداً بعبادته، وكان هو من العابدين لله، وكذلك لن يستكبرَ ويمتنع الملائكة المُقَرَّبون، كجبريل وإسرافيل وميكائيل وحَمَلَةُ العرش أن يكونوا عبيداً لله؛ لأنهم في ملكه ومن جُملة خلقه، ومن يتعظّم عن عبادة الله، ويأتف من التذلل والخضوع له، ويرتفع عن مشاركة الضعفاء الفقراء من المؤمنين في عبادة الله سبحانه، فسيجمعهم يوم القيامة لموعدهم الذي وعدهم، حيث لا يملكون لأنفسهم شيئاً، ويفصل بينهم بحكمه العادل، ويُجازي كلّاً بما يستحق.

١٧٣ - فأما الذين آمنوا بالآركان الإيمانية الستة إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصّالحات التي تُعبّر عملياً عن صحّة الإيمان الإراديّ الاعتقاديّ، فيعطيهم الله جزاء أعمالهم الصّالحة كاملاً، ويزيدهم على ما أعطاهم من الثواب زيادات لا تخطر على بالهم، ولا تقع في تصوراتهم. وأما الذين ترفعوا عن اتباع النبيين، وتكبروا عن أن يكونوا في صفٍّ واحد مع الضعفاء والفقراء في عبادة الله تعالى والتذلل له، فيُعَذِّبهم عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دون الله لأنفسهم وليّاً يُنجيهم من عذابه، ولا ناصراً يُنصّرهم منه، ويدفع عنهم عقوبته.

١٧٤ - يا أيّها الناس قد جاءكم دليلٌ قاطعٌ من ربّكم، مُثَبِّتٌ لرسالة الرسول ﷺ بما أيّده من الآيات البيّنات، والمعجزات الباهرات، وأنزلنا إليكم القرآن نوراً ظاهراً واضحاً، ومُظهِراً مُبَيِّناً، تتبيّن به الأحكام، وبه يدخل نور الإيمان في القلب.

١٧٥ - فأما الذين صدّقوا بوحداية الله، وبما أرسل من رسول، وأنزل من كتاب، واحتموا بالله مُلتجئين إليه، ومُمتنعين به سبحانه؛ بعبادته بصدق وإخلاص، وبالعَمَل بِمراضيه، وباللجوء إليه وحده، فَسَيَدْخُلُهُمْ في رحمته، فيغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، ويجعلهم مشمولين بفضل منه؛ إذ يعصمهم عن الوقوع فيما يُسخطه، ويتولّاهم بحماية منه، مع ما يمنحهم في الحياة الدنيا من راحة ضمير، وسعادة نفس، وتيسير للأمر، ودفع للمكاره، ويُسَدِّدُهُمْ لسلوكٍ منهجٍ من أنعم عليهم من أهل طاعته، ويهديهم طريقاً مستقيماً واضحاً فيما بقي لهم من مسيرتهم في حياتهم، وهو صراط الله الذي يبلغون به رضوان الله في جنته، ويتفضّل عليهم بعد إدخالهم الجنة، بما لا عين رأت ولا أُذُن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويهديهم في الجنة إلى الصراط الذي يوصلهم إلى حيث يَرَوْنَ ربّهم، فيفيض عليهم من عطاءاته وإحسانه.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خِيراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

١٧٦ - يطلبون منك - يا رسول الله - الإجابة عن حكم ميراث الكلالة، وهو من مات وليس له ولد ولا والد؟ قل: إن الله يخبركم عما سألتكم عنه من أمر الكلالة: إن مات أمرؤ ليس له ولد ولا والد، ولذلك الهالك أخت شقيقة من أبيه وأمه، أو من أبيه فقط، فلاخت الميت نصف تركته، وإذا ماتت الأخت ولم يكن لها ولد ولا والد، وتركت أختاً شقيقاً من الأب والأم، أو من الأب، فإنه يستغرق جميع ميراث الأخت إذا انفرد، وإن مات وترك أختين أو أخوات فلهن الثلثان مما ترك الميت، وإن كان المتروكون من الإخوة رجالاً ونساءً، فللذكر منهم نصيب اثنتين من أخواته الإناث، يبين الله لكم هذه الفرائض والأحكام، وقسمة الموارث، وحكم الكلالة؛ خشية أن تضلوا عن الحق في أمر الموارث، فتهملوا الميراث جملةً بالآل تعطوا أحداً من الورثة شيئاً، أو تفرقوا المال من غير قيد، فتتركوا ورثتكم ضياعاً، أو تحرموا من تشاؤوا، وتعطوا من تشاؤوا، فتشربوا العداوة والبغضاء بينهم، والله بكل شيء عليم علماً كاملاً شاملاً لجميع المعلومات، ومحيطاً بها، وسابقاً على وجودها، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء. وفي هذا إشارة إلى أن شرعه أحكم شرع، لأنه شرع من يعلم العدل على أنتم وجوهه، والمصلحة المستقرة الثابتة التي لا تعبت بها الأهواء، ثم هو عليم بمن يخالفه ويعصيه، ومن يطيعه ويرضى حكمه.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١ - يا أيها الذين صدقوا الله وأطيعوا رسوله، نفذوا ارتباطاتكم التي عقدتموها مع ربكم بسبب إيمانكم، والعقود التي عقدتموها مع أنفسكم بسبب حلفكم ونذركم على أن تفعلوا فعلاً، أو تكفوا عن فعل، والعقود التي عقدها بعضكم مع بعض بإرادته واختياره من بيع وإجارة ورهن وشركة ومضاربة وزواج ونحوها، والعقود التي تعقدها الدولة المسلمة مع غيرها من الدول في السلم والحرب. وقد أحل الله لكم بهيمة الأنعام؛ ذكورها وإناثها، وهي: الإبل والبقر والغنم، إلا ما يتلى عليكم في القرآن تحريمه من تحريم الميتة والدم وغير ذلك، غير مجوزين للاصطياد أو الانتفاع بالمصيد من حيوان البر وأنتم محرمون بحج أو عُمْرة، سواء أكنتم في الجبل أم في الحرم، فإذا تحللتم من الإحرام حل لكم ذلك؛ إن الله يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما أراد تحليله، ومن تحريم ما أراد تحريمه، فما يريد الله عز وجل من مراد يقضيه، ويُجزه خالياً من الخلل والفساد، ومنها الشرائع والتكاليف والأحكام.

٢ - يا أيها الذين صدقوا بأركان الإيمان، وعملوا بشريعة الإسلام، لا تنتهكوا شيئاً من فرائضه التي افترض عليكم، واجتنبوا نواهيها التي نهى عنها، ولا تحلوا الأشهر الحرم الأربعة ببدء القتال فيها، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، ولا تحلوا حرمة ما يهدي إلى البيت الحرام من الأنعام تقريباً إلى الله بالتعرض له، بنحو غضب أو سرقة أو حبس عن بلوغه موضعه الذي يحل فيه إراقة دمه، ولا تحلوا بشكل خاص من الهدي ذوات القلائد، بالتعرض لها - وهي صفائر من صوف أو وبر توضع في رقاب البدن علامة على أن البهيمة هدي وأن مالكة يريد الحج -، ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى البيت الحرام لأداء الحج أو العمرة يطلبون الثواب من الله تعالى، ويطلبون فوق الثواب رضا الله عنهم. وإذا خرجتم من إحرامكم بالحج أو العمرة فقد أبيح لكم الصيد، ولا يحملنكم بعض قوم وعداوتهم؛ من أجل أن منعكم عن المسجد الحرام يوم «الحديبية» أن تعتدوا عليهم بالقتل وأخذ المال. وتعاونوا - أيها المؤمنون - على فعل الخيرات التي هي من مرتبة البر، وتعاونوا على القيام بمقتضيات مرتبة التقوى التي تتحقق لكم بفعل الواجبات وترك المحرمات، ولا يعن بعضكم بعضاً على ترك ما أمر الله بفعله، وفعل ما أمر بتركه، ومجاوزة حدود الله، وأتقوا الله، واحذروا أن تتركوا ما أمركم به، أو ترتكبوا ما نهاكم عنه؛ إن الله شديد العقاب لمن خالف أمره.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْرَهُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رَجُلًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَيْمَانَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَّبِّهِمْ وَرَضَوْنَا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ يَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧٨﴾

٣ - حُرِّمَ عليكم أكل هذه المحرّمات العشر من أجساد الأحياء غير الإنسانية: المحرّم الأول: الميتة، وهي كل ما فارقه الروح ممّا يُذبح بغير ذكاة، والمحرّم الثاني: الدّم المسفوح الجاري، والمحرّم الثالث: لحم الخنزير وسائر أجزائه وأعضائه، والمحرّم الرابع: ما أعلن ذابحه أنّه يُقدّمه قرباناً لغير الله تعالى، والمحرّم الخامس: المُنخَنقة التي حُبِسَ نَفْسُها حتى ماتت، والمحرّم السادس: البهيمة المقتولة بالعَصَا أو الحجر، والمحرّم السابع: البهيمة المُترَدِّة التي سقطت من مكان عالٍ أو هَوَتْ في بئر فماتت، والمحرّم الثامن: النطيحة التي تنطحها شاةٌ أخرى حتى تموت، والمحرّم التاسع: البهيمة التي أكلها حيوان له نابٌ يفترس به، كالأسد والنمر والفهد. فلا يحلّ أكل ما بقي ممّا حرّمه من المُنخَنقة وما بعدها، إلا ما أدرَكتموه، وقد بقيت فيه حياة مُستَفِرَّةٌ فقطعتم أوداجه وأنهرتم دمه فإنه يحل. والمحرّم العاشر عليكم: ما ذُبِحَ على النُصْب، وهي أحجار تُنصب حول الكعبة، كان أهل الجاهلية يعبدونها ويعظمونها، ويلطخونها بالدماء.

وحُرِّمَ عليكم أن تطلبوا علم ما قَسِمَ لكم أو لم يُقسَم بالأزلام، وهي قطع من الخشب تشبه السهام، وذلك أنهم كانوا إذا أرادوا سفراً أو غزواً أو زواجاً أو بيعاً وتردّدوا فيما يريدون: أخيراً هو فيقدمون عليه أو شراً فيحجمون عنه؟ عمّدوا إلى هذه الأزلام فأجلوها في الأقداح، فإن خرج لهم السهم المكتوب عليه: «أمرني ربي» أمضوا ما أرادوا مُستبشرين، وإن خرج المكتوب عليه: «نهاني ربي» أمسكوا عما يريدون، وإن خرج السهم الغفل الذي لا كتابة عليه أعادوا حتى يخرج أحد السهمين الآخرين. ولا ريب أن الاعتماد على مثل هذا في معرفة ما يكون في مستقبل الإنسان، وهو غيب لا يعلمه إلا الله، اعتماد على وهم ياباه الدين والعقل. ويلحق بهذا النوع ما يشبهه من وسائل الاستقسام التي يعتادها الناس اليوم، كالطرق بالحصا، وضرب الرمل، ونحو ذلك.

ذلكم المذكور من هذه المحرّمات - إذا ارتكبت - خروج عن أمر الله وطاعته إلى معصيته. اليوم الذي هو يوم عرفة في حجة الوداع انقطع أمل الكفار من القضاء على دينكم، أو تغيير حقائقه، أو أن ترجعوا عن دينكم إلى دينهم، وإذا كان المشركون قد يشعرون من السيطرة عليكم، ووهنت قواهم، فلا تخافوهم - أيها المؤمنون -، وخافوا مخالفة أمري، وأخلصوا الخشية لي.

اليوم أكملت لكم بيان شرائع دينكم ببيان الفرائض والأحكام والحلال والحرام، وأتممت عليكم نعمتي بإخراجكم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، وهدايتكم إلى أكمل الشرائع، وبفتح مكة، وإزالة دولة الأوثان، واخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان، فالزموه ولا تفارقوه. فمن أجهّد وأصيب بالضّر الذي لا يمكنه معه الامتناع من أكل الميتة في مجاعة شديدة ثورت ضُمور البطن، فليأكل غير ماثل قصداً إلى إثم أو منحرف إليه بأن يأكل فوق الشبع، فإن الله لمن أكل من الميتة في حال الجوع والاضطرار كثير السّتر له، دائم الرحمة.

٤ - يَسْأَلُكَ أَصْحَابُكَ - يا رسول الله - قائلين: ما الذي أحلّ لهم أكله من المأكّل؟ قل لهم - يا رسول الله -: أحلّ لكم ما أذن الشارع في أكله ممّا يُسْتَلَذُّ وَيُسْتَطَاب من غير ما ورد بتحريمه نصّ من كتاب أو سنة، وأحلّ لكم صَيْدٌ ما درّبتُم على الصّيد من سباع البهائم؛ كالفهود والكلاب، وسباع الطير؛ كالصقور ونحوها مما يقبل التعليم والتدريب، مؤدبين ومُعَوِّدين لها على الصّيد، تُعلّمون الجوارح طلب الصّيد لكم من بعض العلم الذي علّمكم الله، فكلّوا ممّا أمسكته محبوساً عليكم، واذكروا اسم الله على ما علّمتُم من الجوارح عند إرسالها للصّيد، واحذروا مخالفة الله فيما أحلّ لكم وحرم عليكم؛ إنّ الله سريع الحساب لا يشغله شأن، فهو قدير على أن يحاسبكم جميعاً في ساعة واحدة، دون أن ينقص أحداً شيئاً من حقه.

٥ - كما أكمل الله لكم الدين، وأتمّ النعمة، فكذلك أتمّ النعمة بإحلال الطيبات، وأحلّ لكم ذبائح اليهود والنصارى، وذبائحكم حلالاً لهم، فيحلّ لكم - أيها المؤمنون - أن تطعموهم من طعامكم، وأحلّ لكم - أيها المؤمنون - زواج الحرائر العفاف من المؤمنات، وكذلك نكاح الحرائر العفيفات من اليهود والنصارى إذا أعطيتموهنّ مهورهنّ، متعقّفين بالزواج، وكنتم أعماء غير مرتكبين للزنى، ولا منفردين باتّخاذ صديقة يُفجر بها، ومن يتخذ ما أمر الله من توحيدِه ونبوة محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، فقد بطل ثواب عمله الذي كان عمله في الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين إذا مات على ذلك.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسْقُ الْيَوْمِ بَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخِصَّةٍ غَيْرِ مِتْجَانِفٍ لَأَتِيَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ١
يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَكُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٢
الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِسْلَامِ فَقَدْ خِطَّ عَمَلَهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٣

٦ - يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله، إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وتهيّأتم واستعددتهم لها، وأنتم محدثون حَدَثًا أصغر، فاغسلوا وجوهكم من منابت شعر الرأس إلى مُنتهى الذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، واغسلوا أيديكم مع المرافق (والمرفق: أعلى الذراع وأسفل العضد)، وامسحوا برؤوسكم بإمرار اليد المبللة بالماء عليها، واغسلوا أرجلكم مع الكعبين، (وهما العظمان الناثان عند ملتقى الساق بالقدم)، وإن أصابكم الحدث الأكبر فاغتسلوا بصبّ الماء وتعميمه على سائر البدن، وإن كنتم مرضى، أو على سفر في حال الصحة، لا يمكن معهما استعمال الماء يُسْرَ وسهولة، أو قضى أحدكم حاجته، أو جامع زوجته، فلم تجدوا ماءً، فاضربوا بأيديكم وجه الأرض، وامسحوا وجوهكم وأيديكم إلى الرُسْغين أو المرفقين منه.

ما يُريد الله ليَجْعَلَ عليكم من ضيق بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والْتِيْمُ عند عدم الماء، ولكن يُريد إلزامكم بهذه الأحكام لِيُطَهِّرَكُمْ من الأحداث والأرجاس، والذنوب والخطايا، ويريد إنزال الأحكام عليكم بالتتابع التدريجي لِيُثَبِّتَ نعمته عليكم في الدنيا والآخرة ببيان جميع الشرائع والأحكام؛ رغبة أن تشكروا نعمة الله عليكم بالقيام بما نكلكم إيّاه، لنجزيكم الجزاء الأوفى على شكركم، ولنزيدكم من الفضل والنعمة.

وإنما شرع التيمم بالصّعيد الطيّب بَدَل الماء، لقصد إقرار الطهارة للصلاة في النفس، وغرس ملكة المواظبة، والحرص على تنفيذ الأوامر والاستمرار عليها؛ لأن الترك في أوقات الأعذار للطهارة الأصلية - وقد تمتد تلك الأوقات أو تكثر - لسبيل بحسب العادة إلى التهاون بها في غير أوقات الأعذار، ولا يخفى ما تخلّفه المواظبة من ملكة الاحتفاظ بأصل المطلوب. ومن حكمة الله تعالى أنه لم يجعل البدل شيئاً يعزّ وجوده، أو يصعب استعماله على أحد من خلقه. ومن

رحمته: أنه اقتصر منه على ما يحقق الرمز والوجود الشبهي، وكان مظهر ذلك في الاقتصار على مسح بعض أعضاء الوضوء، وهو الوجه والأيدي فقط، والاكتفاء بالوجود الشبهي على صورة واحدة في حالة الحدث الأصغر الذي طهارته الوضوء، والحدث الأكبر الذي طهارته الغسل، ذلك أن الرمز لا يقصد منه تمام مشاكلة البدل للأصل، وإنما يقصد منه الاحتفاظ بتعود الأصل والمواظبة عليه.

٧ - واذكروا ما أنعم الله به عليكم من النعم كلها العائمة التي تعمّ الناس جميعاً، مُشركهم ومؤمنهم، كنعمة الوجود، وتسخير الكون، ونعمه الخاصة؛ إذ كنتم ضالّين فهداكم، وكنتم قليلين فكثركم، وكنتم مُتفرقين فجمعكم، وكنتم أذلاء فأعزّكم، وكنتم فقراء فأغناكم، وكنتم مُستضعفين في الأرض فمكّن لكم فيها بمنه سبحانه وفضله، واذكروا عهد الإيمان والطاعة والامتنال الذي عاهدكم به، وتبادل معكم - أيها المؤمنون - توثيقه وتأكيد، في الوقت الذي التزمت فيه بالسمع والطاعة فيما أحببتم أو كرهتم، وأنقوا الله فيما أخذه عليكم من الميثاق فلا تنقضوه، إن الله تعالى عليم بالنيات والسرائر صاحبة الاستقرار في الصدور داخل النفوس.

٨ - يا أيها الذين صدّقوا بالإيمان، وعملوا بشريعة الإسلام كونوا كثيري الحرص على القيام بما يُرضي الله في كل ما يلزمكم القيام به، بالعمل بطاعته واجتناب نواهيه، وأن يكون قيامكم لله لا لأنفسكم وأهوائكم ومصالحكم الدنيوية الخاصة، شهداء بالعدل، كلما كان تثبيت الحقوق متوقفاً على شهادة تشهدون بها، فلا تقدّموا شهادات كاذبات، تهضمون بها حقّ ذي حق، ولا يحملنكم حملاً أثماً شدة بغض قوم على ترك العدل فيهم، وارتكاب جريمة الظلم لهم، أو الاعتداء على حقوقهم في قول أو فعل أو حكم وقضاء. اعدلوا مع أعداء الإسلام، العدل أقرب للتحقق بأصل التقوى، مهما لاحظتم أن ظلم أعداء الإسلام لا يتنافى مع التقوى باعتبارهم مُعادين لدين الله، فالعدل معهم أقرب للتقوى؛ لأن العدل مع أعداء الإسلام يُقدّم صورة عملية عن المسلمين، تدعو إلى الإسلام، وأنقوا الله بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه في كل أحوالكم وشؤونكم؛ إن الله خبير بجميع أعمالكم مُطْلِع عليها على سبيل الشهود والحضور، المُصاحِب لكل أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، وسيُجازيكم على أعمالكم.

٩ - وَعَدَ الله الذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا بما واثقهم الله عليه، وأوفوا بالعهود التي عاهدكم الله عليها، لهم سَترٌ كبير للذنوبهم، وثواب عظيم في الجنة، جزاء أعمالهم الصالحة، وذلك من الله عزّ وجلّ تَكْرُماً وفضلاً، وهو سبحانه ذو الفضل العظيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا
وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا
وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَايِطِ
أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا
فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُثَبِّتَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾
وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ
بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الْصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ
شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوَّامِينَ عَلَى
أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

١٠ - والذين جحدوا وحدانية الله، ونقضوا عهده ومواريثه، وكذبوا بآياتنا الكونية والبيانية والإعجازية والجزائية، أولئك البعداء عن رحمة الله المنحطون في الدركات أصحاب النار المتأججة الشديدة اللهب الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، لا يخرجون منها ولا يموتون، كما أنهم صمموا في الدنيا على أن يظلوا جاحدين لله، كافرين بصفاته، مكذّبين بآياته، منكرين لرسالاته.

١١ - يا أيها الذين صدّقوا الله وتبعوا رسوله أذكروا ما أنعم الله به عليكم من نعمة الأمن، ودفع غدر اليهود عنكم الذين نزعتم نفوسهم أن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك، فمنعهم الله من تنفيذ ما توجهت نفوسهم إليه، وآثقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون في جميع أمورهم الدينية والدنيوية مع القيام بالأسباب المستطاعة المادية والمعنوية، طاعة لأمره سبحانه ونهيه.

١٢ - ونقسم مؤكدين أن الله أخذ العهد المؤكّد على بني إسرائيل أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأن يعملوا بما جاء في التوراة من الأحكام والتكاليف، وأمر الله موسى أن يجعل عليهم اثني عشر نقيباً ينقّب عن أحوال القوم، ويفتّش عنها، بعدد فروعهم، يأخذون عليهم العهد بالسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه، وقال الله تعالى لبني إسرائيل: إني معكم بعلمي، أعلم حالكم من طاعة أو عصيان علم مصاحب لكم، لا يخفى عليّ أمركم، وإني مصاحب لكم بحفظي ونصري، إذا وقّمت بأركان الميثاق الخمسة: الأول: والله لئن أقمتم الصلاة المكتوبة، والثاني: آتيتم الزكاة المفروضة لمستحقّيها، والثالث: آمنتم بجميع رسلي، والرابع: نصرتموه مع تعظيمهم وطاعتهم، والخامس: أخرجتم الصدقات المندوبة من

حلال، عن طيب نفس، دون من ولا أذى، إذا فعلتم سائر ما أمرتكم به من أركان الميثاق الخمسة، لأمنحوكم عنكم سيئاتكم وأسترها لكم، ولأدخلنكم جنّات تجري من تحتها الأنهار، فمن كفر بعد أخذ العهد الأكيد والميثاق الغليظ فقد أخطأ الطريق المستقيم، وعدّل عن طريق الحق والهدى إلى طريق الباطل والضلال.

١٣ - فبسبب نقض بني إسرائيل عهد الله المؤكّد، عاقبناهم بعقوبتين: الأولى: أبعدناهم وطردهم من رحمتنا، والثانية: جعلنا قلوبهم غليظة يابسة، مزروعة منها الرأفة والرحمة، مشوبة بالكفر والنفاق؛ لأنّ من طال عليه الأمد في العصيان، وارتكاب الفسوق والفجور والعدوان، قسا قلبه، وجفّت منابع الرحمة والعطاء، وهي نتيجة طبيعية تنتهي إليها هذه القلوب، ضمن سنن الله السببية والجزائية، ومن مظاهر قسوة قلوبهم، مظهران: المظهر الأول: يُغيّرون حدود التوراة وأحكامها، بتبديل ألفاظها بألفاظ أخرى، وبالإضافة أو النقص على النصّ المنزل، لتعطي دلالات توافق ما يريدون، على خلاف المعنى المراد منها في التنزيل الربّاني، ويتأويلها التأويلات الباطلة، والتفسيرات الفاسدة، بحسب أهوائهم وشهواتهم، وإرضاء لقادتهم وكبرائهم، والمظهر الثاني من مظاهر قسوة قلوبهم: أنهم تركوا نصيباً كبيراً ممّا ذكروا به من تعاليم موسى وتعاليم الأنبياء من قبله، فلم يعملوا بها، ومن ذلك: تركهم ما أمروا به من الإيمان بمحمد ﷺ، وبيان نعته وصفته.

ولا تزال - يا رسول الله - تطلّع على خيانتهم التي ظهرت من نقض العهد، ومُظاهرة المشركين، وهمهم بقتلك، فهم على منهج أسلافهم، ورثوا عاداتهم وأخلاقهم، إلا قليلاً منهم لم يخونوا ولم ينقضوا العهد، كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا، فاعف عن زلاتهم - يا رسول الله - بعدم مقابلة إساءتهم بمثلها، واضفّع عن جرّهم ومؤاخذتهم ما دام العفو والصفح مظنةً لإصلاحهم، أو تخفيف شرورهم، أو إزالة ما في قلوبهم من غيظ وحسد وعصيّة، أو مظنةً لتحقيق مثل ذلك في غيرهم من أهلهم وأقوامهم، ليجذبهم لتقبّل الإسلام والدخول في جماعة المسلمين؛ إنّ الله يحب المحسنين الذين أحسنوا العمل مع الله تعالى، فقاموا بما أمرهم به مع الإخلاص له، وصدّق التوجّه إليه، والإقبال عليه مُشاهدين أو مراقبين، وأحسنوا العمل مع خلق الله، وبُنييتهم على إحسانهم، ويدخلهم جنّات النعيم، لأنّ من أحبه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ١٠ يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ
اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا يَسْطُونَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ١١ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي
إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ
إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ
وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا لَّا أَكْفُرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَا دَخَلَنَكُمْ
جَنَّتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا إِلَّا نَهْرٌ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١٢ فِيمَا
نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً
يَجْرِفُونَ كَلِمَةً عَنْ مَوَاضِعَةٍ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١٣

١٤ - وأخذنا على الذين سمّوا أنفسهم نصارى، وأدّعوا الانتساب إلى المسيح، العهد المؤكّد في الإنجيل: بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ وما جاء به من بيان وحدانية الله تعالى، فتركوا نصيباً كبيراً ممّا أمروا به من التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ، وغفلوا عن كثير من وصايا عيسى عليه السلام، وما دعاهم إليه من تسامح وحبّ للسلام، كما صنع اليهود من قبلهم، فالزّمنّا وألصقنا بين فرق النصارى - بسبب نسيان كتبهم، واختلاط الباطل بالحقّ في مصدر دينهم - العداوة الظاهرة بالجدل والمحاربة والاضطهاد، والكراهية المُستَكَنّة في النفوس، فكلّ فرقة تكفر الأخرى وتُعاديها وتضطهدها وترميها بالكفر، أو تبغضها أشدّ البغض، وسيستمرون في رِيْبهم يتردّدون، وفي عداوتهم يلجّون حتى يوم القيامة، وسوف يُخبرهم الله تعالى في الآخرة بأعمالهم التي عملوها في الدنيا، وسيُعاقبهم عليها.

١٥ - يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ يظهر لكم كثيراً ممّا كنتم تكتمون من حكم التوراة التي أنزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، كالبشائر بالنبيّ محمد ﷺ، وبما يكون بعد الموت من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب، ممّا ليس له ذكر في توراتكم، وما أخفيتُموه كذلك من تكليفات دينية لا تختصّ بقوم دون قوم، كتحرّيم الربا وأكله، والقصاص العادل، والعقوبات الزاجرة. ويترك كثيراً، ممّا تكتمونه فلا يتعرّض له ولا يُؤاخذكم به، قد جاءكم من الله رسولنا محمد السراج المنير، وقرآن واضح مُبين للشرع، ولما أخفاه أهل الكتاب وطمسوه من معاني الوحداية الخالصة والشرائع المحكمة.

١٦ - يهدي الله بالكتاب المبين من اتّبع دينه مُخلصاً في طلب الحقّ، طُرُق السّلامة والنّجاة في أمور دنياهم وآخرتهم، فإذا سلّكوها حمّوا أنفسهم من الشرور والمصائب التي تكسبها أيدي الناس، ودفعوا شرور أعدائهم عنهم، وانتهت بهم إلى الوصول إلى دار السلام، ويُخرجهم القرآن من ظلمات الكفر والجهل والضلال إلى نور الإيمان والمعرفة والهدى، بتوفيقه وهدايته، ويهديهم هداية دلالة وتعليم في مسيرتهم في حياتهم إلى طريق واضح جلّي مستقيم لا عوج فيه ولا انحراف عن الحقّ والخير، وهو دين الإسلام، الموصول من سلّكه إلى جنّات النعيم.

١٧ - لقد كفر النصارى القائلون بأنّ الله عزّ وجلّ قد حلّ في بدن عيسى عليه السلام، وهو دين الإسلام. قل - يا رسول الله يا كلّ داع إلى الله من أمته - لهؤلاء النصارى الذين يقولون هذه المقالة: ألم يكن عيسى عليه السلام يأكل ويشرب، وتجري عليه الأحوال التي تجري على سائر البشر، ومنها الهلاك بالموت المعتاد أو بغيره، فمن يقدر أن يدفع من أمر الله شيئاً ولو كان ضئيلاً، إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم بالموت المعتاد أو بغيره، أو أن يهلك أمه ومن في الأرض جميعاً؟ فلو كان إلهاً - كما يزعمون - لقدرة على دفع أمر الله إذا أراد إهلاكه وإهلاك أمه. فالذي يستحقّ العبادة هو الذي له القدرة على الإنشاء والإفناء من غير قيد يُقيدها، ولا مانع يمنعها، فإذا كان المسيح لا يملك أن يدفع عن نفسه الإعدام، فهو أولى بالألّا يستطيع الإنشاء ولا الإفناء. والله ملك السموات والأرض وما بينهما من الأشياء، فإنها ملكه، وأهلها عبيده، وعيسى وأمّه من جملة عبيده، له سبحانه الملكية التامة المطلقة، في التصرف في السموات والأرض، والإرادة التامة المطلقة في خلق الأشياء، يخلق ما يشاء من غير اعتراض عليه فيما يخلق، ومن غير قيد يُقيّد إرادته المطلقة في طريقة الخلق والتكوين، فيخلق الناس من أب وأم، ويخلق آدم من غير أب ولا أم، ويخلق عيسى من أم من غير أب، والله سبحانه عظيم القدرة على إيجاد كلّ شيء يشاء إيجاده، وعلى إعدام كلّ شيء يشاء إعدامه، ومشيئته سبحانه في الإيجاد والإعدام لا تتعلّق إلا بالجاترات العقلية، فلا تتعلّق بالواجبات العقلية، وهي ذاته وصفاته، ولا بالمُستحيالات العقلية، كإيجاد ربّ مُمائل له سبحانه، أو ابن له، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

١٨ - وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه، فلا يدخلنا يوم القيامة في جهنم مهما ارتكبنا من ذنوب وجرائم في الحياة الدنيا. قل لهم - يا رسول الله ويا كل داع إلى الله من أمته - : إذا كان الأمر كما تزعمون فلم يُعَذِّبْكُمْ بسبب ذنوبكم، في الحياة الدنيا، كما هو مُشَاهَدٌ من تعرضكم لبعض العقوبات الدنيوية؟ فلو كنتم أبناء الله وأحباؤه لما تعرضتم لهذه العقوبات في الحياة الدنيا!! وقل لهم: بل أنتم - يا معشر اليهود والنصارى - خلق كسائر بني آدم مَجْزُيُونَ بالإساءة والإحسان، إن أحسنتم جُوزِيتُمْ بإحسانكم خيراً، وإن أسأتم جُوزِيتُمْ بإساءتكم شراً، فالله يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ إذا اقتضت حكمته أن يغفر له، وهو لا يغفر لِمَن مات على كفره، ويُعَذِّبُ من يشاء إذا اقتضت حكمته أن يُعَذِّبَهُ، وليس مخلوق في الوجود كله ابناً لله، بل كل ما سوى الله مُلْكٌ له سبحانه، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وما بينهما، لا شريك له يُعَارِضُهُ في ذلك، وإلى الله وحده مَرْجِعُ الْعِبَادِ في الآخرة، فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ.

١٩ - يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد جاءكم رسولنا مُحَمَّدٌ ﷺ يُبَيِّنُ لَكُمْ أَحْكَامَ الدِّينِ وَالشَّرَائِعِ عَلَى انْقِطَاعٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، وَتَغْيِيرِ الْأَدْيَانِ، وَكَثْرَةِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ؛ لِقَلًّا تقولوا: ما جَاءَنَا من بَشِيرٍ يُشِيرُ بِالْخَيْرِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَلَا نَذِيرٍ يُنْذِرُنَا بِالْعَذَابِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، لَا عَذْرَ لَكُمْ، وَقَدْ قَطَعَ السَّبِيلَ عَلَيْكُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِشِيرٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنَذِيرٍ لِلْكَافِرِينَ بِعَذَابِ أَلِيمٍ بَعْدَ دَعْوَتِكُمْ وَإِقْنَاعِكُمْ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْكُمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى بَعْثِ الرُّسُلِ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ الَّذِي يَخْتَارُهُمْ، وَيَخْتَارُ مَعْجَزَاتِهِمْ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى تَنْفِيزِ مَا أَمَرَ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ تَبْشِيرٍ وَإِنْذَارٍ، فَيُثِيبُ الطَّائِعَ، وَيُعَذِّبُ الْعَاصِي.

٢٠ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي لِبَيَانِنَا - حين قال موسى عليه السلام لقومِهِ: يا بني إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم، إذ فَضَّلَكُمْ بِأَنْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ كَثِيرِينَ، وَجَعَلَكُمْ أحراراً تملكون أنفسكم بعد أن كنتم عبيداً في أيدي القبط، وآتاكم من صنوف النعم ما لم يُؤْتِ أَحَدًا من عَالَمِي زمانكم، حيث أعطاكم التمكين والنصر، وأنجاكم من فرعون وجنوده، وأهلك أعداءكم الكافرين. ولقد فَضَّلَ اللهُ بني إسرائيل على أولئك الحاكمين في زمانهم لا لجنسهم ولا لأصلهم، بل لإيمانهم، إذ كانوا هم المؤمنين وسط أقوام من الكافرين، أما بعد تلك الفترة، فقد أزال الله عنهم ذلك التفضيل، بسبب كفرهم وبغيهم وإفسادهم، وبعث الله محمداً ﷺ، وجعل رسالته للعالمين، وكان المسلمون خير أمة أخرجت للناس.

٢١ - يا قوم ادخلوا الأرضَ الْمُطَهَّرَةَ - وهي «بيت المقدس» وما حَوْلَهَا - التي كَتَبَ اللهُ بِأَنَّ تكونَ لَكُمْ بِشَرِطِ التَّزَامِ شَرِيعَتَهُ الْمَنْزِلَةَ، وَلَا تَرْجِعُوا عَنْ قِتَالِ الْجَبَّارِينَ مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، فَتَرْجِعُوا خَائِبِينَ؛ لَأَنكُمْ رَدَدْتُمْ أَمْرَ اللهِ، فَتَخَسَّرُوا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالَّذِينَ كَتَبَ اللهُ لَهُمُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ هم بنو إسرائيل الذين آمنوا بموسى، وخرجوا معه من مصر، وهم الذين جاؤوا بعد موسى، واتبعوا أنبياءهم وآمنوا بهم، وبعد ذلك تَغَيَّرَ اليهود، وكَذَّبُوا الرُّسُلَ ﷺ، وكفروا بالدين الحق الذي جاء به، ففقدوا أيَّ حقٍ لهم في الأرض المقدسة؛ إذ انتزعها الله منهم، وجعلها لعباده الصالحين المؤمنين.

٢٢ - قال قوم موسى: يا موسى، إن في الأرض المقدسة قوماً أقوياء شديدي البطش، لا طاقة لنا بهم، ولا قوة لنا بقتالهم؛ لِشِدَّةِ بَطْشِهِمْ، وَعِظَمِ خَلْقِهِمْ، وَإِنَّا لَنُتَخَلَّ أرضَ الْجَبَّارِينَ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِنَّا دَاخِلُونَ إِلَيْهَا.

٢٣ - قال رجلان من بني إسرائيل من الذين يخافون الله ويُرَاقِبُونَهُ، أَنَعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا بِالْهَدَايَةِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْجَرَاةِ وَالثَبَاتِ: ادخلوا - يا بني إسرائيل - على هؤلاء الجبارين باب مدينتهم، مُفَاجِئِينَ لَهُمْ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ فَاتْحِينِ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ؛ لِأَنَّهُمْ عِنْدُنَا يَصِيبُهُمُ الذُّعْرُ، وَتَأْخُذُهُمُ الْفَجَاءَةُ، وَيَتَحَيَّرُونَ، وَعَلَى اللهِ وَحْدَهُ فَتَوَكَّلُوا، وَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَى أَحَدٍ سِوَاهُ، وَلَا تَرْجُوا النَّصْرَ إِلَّا مِنْهُ سَبْحَانَهُ، فَإِنَّهُ مَعَكُمْ وَنَاصِرُكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُصْذِقِينَ رَسُولَهُ فِيمَا بَلَّغَكُمْ، عَامِلِينَ بِشَرْعِهِ.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ. قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَتَقَوْمُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَى آدَارِكُمُ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

٢٤ - قال الجمع الخائف الجبان من بني إسرائيل لموسى بعد تشجيع الرجلين القويين على الحرب الهجومية، وغزو عدوهم: إنا لن ندخل مدينة الجبارين مدة حياتنا، ما داموا مقيمين في الأرض المقدسة، فاذهب أنت وربك فقاتلهم، أما نحن فقاعدون هنا، ولن نقاتلهم.

إن جبن اليهود وخوفهم هو الذي كرهه إليهم الجهاد والقتال، ورغبهم في القعود والاستسلام، وهذا الجبن والخوف والوهن هو أساس الداء عند أية أمة تسلك ما سلكه أولئك اليهود، حيث ترفض طريق القتال والجهاد والاستشهاد، وتؤثر عليه طريق الذل والضعف والاستسلام، والآية تدل على جبن اليهود ووقاحتهم وإساءة الأدب مع موسى عليه السلام، وتخليهم عنه.

٢٥ - قال موسى عليه السلام بعد ما سمع من قومه الجبناء التأكيد القاطع بعدم القتال: يا رب إني لا أملك إلا نفسي، ونفس أخي، هارون، فأفصل بحكمك بيننا وبين القوم الخارجين عن طاعتك، المتمردين عن أوامرك.

٢٦ - أجاب الله دعاء موسى عليه السلام فقال: إنهم إذا كانت حالهم كذلك من الخور، وضعف العزيمة، والخوف من أعدائهم، فإن الأرض المقدسة مُحَرَّمَةٌ على هؤلاء دخولها أربعين سنة، يتحيرون في أرض «سيناء» هائمين على وجوههم، يضطرب عيشتهم وحياتهم، ولا يستقر مقامهم، عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى، فلا تحزن - يا موسى - على القوم الخارجين عن طاعة الله. وقد قدر الله سبحانه مدة التي في أرض «سيناء» بأربعين سنة، لينتهي ذلك الجيل الجبان من بني إسرائيل الذي لم تنفع معه الحوافز والبواعث للجهاد. وقد اختار الله صحراء «سيناء» ذات البيئة القاسية والطبيعة الشاقة مكاناً للجيل الجديد من بني إسرائيل، ليُعَدَّ فيها الإعداد الخاص الذي يؤهله لدخول الأرض المقدسة وتحريرها من الجبارين.

٢٧ - واذكر - يا رسول الله - لبني إسرائيل الذين بسطوا إليك أيديهم بالأذى، ونقضوا المواثيق، وزعموا أنهم شعب الله المختار، بسبب

الحسد الكمين في نفوسهم، وأخبرهم بعناية خبر ابني آدم: قابيل وهابيل، وهو خبر عظيم ذو شأن مثلبس بالحق الثابت، حين قرب كل واحد منهما نسكاً إلى الله عز وجل، فتقبل من هابيل تقبلاً حسناً؛ لأنه كان تقياً، ولم يتقبل من قابيل؛ لسوء نيته، ولأنه قصد الخبيث من ماله، وأراد التقرب به، ولأنه قصد المباهاة والفخر، ولم يقصد وجهه الله، فغضب قابيل، وحسد أخاه إذ لم يتقبل قربانه، وأراد أن يتخلص منه بالقتل، وواجهه بالأمر، فقال له: والله لأقتلك. قال هابيل لأخيه مترفقاً: ولم تقتلني، وأني ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني إلا أنني أثقت الله تعالى؟ ما يتقبل الله إلا من المتقين الذين يلتزمون أوامره، ويجتنبون نواهيه.

٢٨ - وقال هابيل واعظاً أخاه: واللّه، لئن مددت إلي يدك - لئقتلني ظلماً، ما أنا بمُتَمَتِّعٍ لنفسي، بل أَسْتَسْلِمُ لأمر الله، وأصبر واحتسب، ولا أقابل صنيعك الفاسد بمثل، وأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، إني أخاف الله ربّ الخلائق أجمعين، الذي يتعهدهم برزقه وتربيته.

٢٩ - إني أريد أن ترجع بإثم قتلي إلى إثم معاصيك التي عملتها من قبل، والتي عوّقت صدقتك عن أن تقبل، فترتكب إثمين، وتضيف إلى ذنبك الأصلي ذنباً آخر، فتكون من أصحاب النار الملازمين لها، وذلك جزاء الظالمين.

٣٠ - فزُيِّنَ له نفسه الشريرة قتل أخيه، بعد معركة في داخل نفسه بين الخير والشر، وبين الإقدام على الجريمة والإحجام عنها، حتى انتصرت نفسه الأمارة بالسوء، فقتل قابيل هابيل فأصبح من الخاسرين، خسر نفسه فأوزدها موارد الهلاك، وخسر أخاه ففقد الناصر والمعين، وخسر دنياه فما تهناً للقتال حياة، وخسر آخرته، فبأثم يائمه الأول والأخير، فكان قابيل أول من سنّ القتل في تاريخ البشرية، ولا تقتل نفس ظلماً إلا كان عليه نصيب إثم إهراق دمها ظلماً وعدواناً.

٣١ - لما قتل قابيل أخاه لم يدر ما يصنع به، وكيف يُؤاري جثته، وجعل ينتقل بها من مكان إلى آخر، ويخشى افتضاح أمره، فأرسل الله غراباً، فوقف بالقرب منه، وجعل الغراب يحفر في الأرض وينثر ترابها، ليدفن فيها غراباً آخر ميتاً؛ ليري قابيل كيف يستر جثمان أخيه، فلما رأى ذلك من فعل الغراب، قال مُتَحَسِّراً معترفاً على نفسه باستحقاق العذاب: يا فضيحتي وهلاكِي أَقْبَلِي فهذا وقتك؛ لأنني قد نزلت بي أسبابك!! أعجزت عن أن أكون مثل هذا الغراب الذي وارى الغراب الآخر، فاستُر عورة أخي عن الأعين؟ فدفن قابيل أخاه، فأصبح من النادمين على الخسارة الشديدة التي نالته بفقد أخيه الذي كانت أخوته توجب المودة والمحبة بدل الحقد والحسد، وقد كانت حسرته للفعل الذي ارتكبه، وللعجز الذي لحقه، ولصغر نفسه أمام الطائر، والندم الذي وقع فيه هو خيبة الأمل فيما يرجوه، وليس ندمه كندم التائب الذي يرجع إلى الله، وإنما ندمه كندم المغيظ المُخْنَق الذي كان يتوقع أمراً قتيلاً له غيره.

وإن سبب هذه الجريمة الكبرى التي فتحت باب القتل والقتال هو الحسد، وإن أكثر جرائم هذا الوجود الإنساني هو الحسد، فكفر اليهود بالنبيين، وخصوصاً نبينا محمداً ﷺ كان سببه الحسد.

قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ
أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾
﴿٢٧﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ يَالْحَقُّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٨﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ
لَيَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بَايَئِي وَإِثْمَكَ وَفَتْكُونَ
مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَطَوَّعَتْ
لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣١﴾
فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَدِّي
سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُؤَدِّيكَ أَخِي فَأَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا
الْغُرَابِ فَأُوَدِّيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٢﴾

الْبَيْتَةُ السَّابِقَةُ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ
نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا
جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ
لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ
لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَشِئْلَهُمْ مَّعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهٖ مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

٣٢ - من جرّاء هذه الجناية التي ارتكبتها أحد ابنتي آدم، ودلالتها على تغلغل الشرّ في نفوس بعض الناس واستعدادهم لأن تكون منهم الجريمة في كلّ وقت وحين، قرّضنا وأوجبنا على بني إسرائيل القصاص، وكتبنا في التوراة تعظيم القتل العمد، وشدّدنا عليهم فيه، لشيوعه فيهم، وإسرافهم في قتل الأبرياء ودعاة الحق، حتى إنهم تجرّؤوا على قتل الأنبياء، وكتبنا عليهم أنّه من قتل نفساً ظلماً بغير قتل نفس أو بغير فساد في الأرض، فكأنّما قتل الناس جميعاً؛ إذ يكون قد تعدّى على الناس جميعاً بالقتل، فالاعتداء على حرمة إنسان واحد اعتداء على حرّمات الناس كلّهم، وذلك لأنّ القاتل مُستعدّ من الناحية النفسيّة لأن يكون قاتلاً للناس جميعاً، متى نهّأت له الفرصة، وتعلّقت مصلحة نفسه بذلك، ومنّ أحيا نفساً بتحريم قتلها على نفسه، والامتناع عن انتهاك حرّمتها، عندما تُساوَره قوّة الشرّ دافعةً حاملةً له على ذلك الفعل الأثيم، أو أنقذ إنساناً كان مُشرفاً على الهلاك، أو أحيا نفساً قد قُتلت بالتمكين من استيفاء القصاص ممّن اعتدى عليها وقتلها، فكأنّما نجّى جميع الناس؛ فالحفاظ على حرمة إنسان واحد حفاظٌ على حرّمات الناس كلّهم، واستيفاء القصاص يُوجد الرّدع العام عن القتل والاعتداء، فتحيا النفوس، وينقمع الأشرار.

وأقسم مؤكّداً أنّه جاءت بني إسرائيل رُسُلنا ببيان الأحكام والشرائع والدلالات الواضحات، ثمّ إنّ كثيراً منهم بعد مجيء الرسل، وبعدما كُتِبنا عليهم من تحريم القتل في الأرض لمجاززون الحدّ بالقتل بغير حق لا يَنْتَهون عنه. فاليهود هم الذين نشروا الفساد في العالم، وقتلوا دعاة الحقّ المُخلصين، ونشروا الربا والمجون والفجور، وقى الله المسلمين شرّهم، وألبسهم لباس الذلّ والخوف إلى يوم القيامة.

٣٣ - ما جرّاء الذين يُخالفون أمر الله ورسوله بمحاربة أوليائه، ويسعون في الأرض فساداً بحمل السلاح، وقتل النفس، وأخذ الأموال، وقطع الطريق، إلّا أن يُقتلوا قتلاً شديداً، مهما كان عددهم، ويقتل معهم من يُعاونهم ويتفق معهم على جريمتهم، ويصلبوا على مكان مرتفع يُروّن فيه بعد القتل، وذلك إذا قتلوا وأخذوا المال، وأن يُقتلوا إذا قتلوا ولم يأخذوا المال، وأن تُقطع يد المحارب اليمنى ورجله اليسرى إذا أخذوا المال ولم يُقتلوا، وأن يُبعدوا من الأرض أو يُسجنوا إذا أخافوا السبيل ولم يُقتلوا ولم يأخذوا مالاً، ذلك الذي ذكر في هذه الآية من الحدود للمُحاربين عذابٌ وهوانٌ وفضيحةٌ في الدنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم إن لم يتوبوا. والمراد بهؤلاء الذين يحاربون شرّ الله ورسوله: قطاع الطرق وأهل الحرابة، وهم الذين يخرجون لارتكاب جرائم السلب والنهب والقتل، وسائر المُوبقات، بلا تأويل يتأوّلونه، بل يرتكبون ما يرتكبون إثماً وعدواناً مقصوداً، كالعصابات الإجرامية التي تُزعج الأمن بقوة إرهابيّة.

٣٤ - لكن الذين تابوا من حربهم لله ورسوله، ومن السّعي في الأرض بالفساد، من قبل أن تُقدروا عليهم من غير حصار ولا مُطاردة، وجاؤوا طائعين نادمين، فإنه يسقط عنهم ما كان لله عزّ وجلّ، فاعلموا - أيها المؤمنون - أنّ الله كثير الشّرّ لمن تاب من الإفساد في الأرض، دائم الرحمة لمن رجع عما يُسخِطُ الله عزّ وجلّ.

٣٥ - يا أيّها الذين صدّقوا الله واتبعوا رسوله، اتقوا الله بترك المَنهيات، وفعل المأمورات، واتخذوا الوسيلة الواقية من عقابه ونقمته، واطلبوا برغبة صادقة إليه سبحانه القُرب بطاعته والعمل بما يرضيه، وجاهدوا أنفسكم بكبحها عن أهوائها وشهواتها، وبإلزامها أن تتحمّل المشقّات، وتجتاز العقبات اقتحاماً، رغبةً أن تسعدوا بالخلود في جنته.

٣٦ - إنّ الذين جحدوا وحدانيّة الله وشريعته، لو أنهم ملكوا الدنيا، ودنيا أخرى مثلها معها، ثمّ أرادوا أن يُخلّصوا أنفسهم من العذاب يوم القيامة ببذل جميع ما ملكوا، لم يُقبل منهم ذلك الفداء تخليصاً لأنفسهم، ولهم في الآخرة عذابٌ أليمٌ مُوجع مُستمر لا سبيل إلى الخلاص منه.

٣٧ - يريد هؤلاء الكافرون الخروج من النار وعذابها الشديد، ويطلبونه راغبين ملحفين، وليس من شأنهم أن يخرجوا، ولا يصح أن نثبت لهم وصف الخروج؛ لأن العذاب هو الجزاء الحق الوفاق لما ارتكبوا، ولهم عذاب دائم ثابت، لا يزول عنهم، ولا يتقل أبدًا.

٣٨ - والسارق والسارقة الذين يأخذون المال المحرز المصون على سبيل الاستخفاء، فاقطعوا - يا ولادة الأمر - أيديهما، بقطع يمين السارق من رؤوس الأصابع إلى الرُشغ، ذلك القطع مجازاة لهما على أخذهما أموال الناس بغير حق، عقوبة من الله، يمنع بها غيرهما أن يصنع مثل صنيعهما، والله قوي غالب في انتقامه ممن عصاه، حكيم فيما أوجبه من قطع يد السارق.

وقد اتفق الفقهاء على أن السرقة أخذ المال على سبيل الاستخفاء، وأن يكون المال محرزاً مصوناً معنياً بحفظه العناية التي تليق، ويجب أن يكون المسروق مالاً متقوماً لا شبهة فيه، ولا قصور في ماليتة، بأن يتموله الناس، ويعذونه لأغراضهم المختلفة، ويتنافسون في طلبه، كما اتفقوا على أن اليد لا تقطع إلا إذا بلغ المسروق قدراً من المال، مقداره ربع دينار أو عشرة دراهم.

٣٩ - إذا كان قطع اليد هو العقوبة الرادعة، فمن تاب من بعد ما ظلم نفسه بالسرقة وارتكاب الذنوب عامة، توبة صادقة نصوحاً، وأصلح نفسه بالاستقامة والإفلاع عن الذنب، وعدم الإصرار عليه والتعلق به، وأصلح سلوكه في المستقبل، فإن الله يعود عليه بفضلته ورحمته وفيوض عطاءاته، ويقبل توبته، ويتجاوز عنه؛ إن الله كثير الستر لمن تاب، واسع الرحمة به. وقد اتفق الفقهاء على أن التوبة قبل الترافع إلى الحاكم إذا صاحبها رد المسروق إلى مالكه تمنع إقامة الحد. أما إذا كان بعد الترافع وإثبات السرقة، فقد ذهب بعض الفقهاء إلى أنها لا تسقط الحد؛ لأن الأمر بالقطع عام يشمل التائب وغير التائب، والتوبة المنصوص عليها في هذه الآية هي ما يكون بعد إقامة الحد

يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا
أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ
لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ
قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ
هَادُوا وَسَكَّهَتْ قُلُوبُهُمْ لِلْكَذِبِ سَكَنَاتٍ لِقَوْمٍ
آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ
يَقُولُونَ إِنْ أُرْسِلَتْ هَذِهِ آفَاحُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا
وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي
الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

وقطع اليد. وقال بعض الفقهاء: التوبة تمنع إقامة الحد.

٤٠ - ألم تفكر - أيها المخاطب ببياننا - حتى ترى رؤية علمية أن الله له ملك السموات والأرض يُدبرهما ويصرفهما، لا يتمتع عليه شيء مما أراد فيهما، يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ على معصيته، ويغفر لمن يشاء بالتوبة، ومشيئته سبحانه لا تفارق حكمته. والله سبحانه على كل شيء يشاؤه عظيم القدرة، وكل ما في الوجود خاضع لإرادته وقدرته وسلطانه، لا يخرج عنه شيء، ولا يعجز عن شيء.

٤١ - يا أيها الرسول لا تهتم بمسارعة منافقي اليهود السَّيِّئِينَ في سبل الكفر وموالاته الكفار، فإني ناصرك عليهم وكافيك شرهم، من الذين قالوا: آمنا بسعة أفواههم نطقاً وتشدقاً، ولم تؤمن قلوبهم، فهم من الكافرين، ولا يحزنك مسارعة طائفة من اليهود في جحود نبوتك، سماعون بغية تلقى أحكام مفتراة على الله؛ لينقلوها لقوم آخرين لم يأتوا معهم لسؤال رسول الله، وهم أولياء الزانيين، يُغَيِّرُونَ حَدُودَ اللَّهِ التي أوجبها عليهم في التوراة، وذلك أنهم بدلوا الرِّجْمَ بالجلد والتحميم، من بعد أن وضعه الله موضعه، وفرض حدوده.

يقول اليهود: إن أفتاكم محمد بالجلد والتحميم، فأقبلوا منه، وإن لم يُفْتِكُمْ بذلك وأفتاكم بالرَّجْمِ، فاحذروا أن تقبلوه، ومن يرد الله امتحانه واختباره في ظروف هذه الحياة الدنيا من خلال ما أعطاه من إرادة حرة، لكشف ما في نفسه من خير وطاعة، أو شر ومعصية، فلن تملك له من الله شيئاً تجعله به مجبوراً على الهداية، أولئك البُعْدَاءُ عن رحمة الله الذين ارتكست نفوسهم في الشر والضلال، حتى صار النفاق دأبهم، وتحريف القول بعد استقرار مواضع طريقتهم، واستمراؤهم للكذب يستمعون إليه وصفهم، قوم لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الشك والشرك؛ لأن الله امتحنهم، فكشفوا عما في قلوبهم من أدناس، فمن العدل أن لا يطهر الله قلوبهم بالمغفرة، وأن لا يريد ذلك؛ لأن إرادته تتبع حكمته، وحكمة الله تقضي بأن لا يحكم ببراءة المجرمين بجريمة الكفر.

للمنافقين واليهود عقابان: مُعَجَّلٌ وَمُؤَجَّلٌ، فالعقاب المُعَجَّلُ: فضيحة في الدنيا، وذل دائم مقيم مهما يكن لهم من مظاهر القوة والعزة، والعقاب المُؤَجَّلُ: عذاب عظيم في الآخرة، إذ موقعهم الدرك الأسفل من النار.

٤٢ - حُكَّامُ الْيَهُودِ كَثِيرٌ السَّمْعُ لِلْكَذِبِ، كَثِيرٌ الْأَكْلُ لِلْمَالِ الْحَرَامِ، كَالرُّبَا وَالرِّشْوَةِ، يَسْمَعُونَ الْكَذِبَ مِمَّنْ رَشَاهُمْ وَيَقْضُونَ لَهُ، فَإِنْ جَاءَكَ الْيَهُودُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مُتَرَدِّدِينَ فِي التَّحَاكُمِ إِلَيْكَ، فَأَنْتَ مُخَيَّرٌ فِي الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ أَوْ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، لِتَعْرِفَ أَمْرَهُمْ، فَإِنْ كَانُوا يَرِيدُونَ الْحَقَّ وَيَطْلُبُونَهُ وَيُذْعِنُونَ لَهُ اسْتَجِيبْتَ لِلْأَمْرِ وَحَكَمْتَ، وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُمْ جَاؤُوا مُغْرِضِينَ، لَا يَنْقُذُونَ إِلَّا مَا يَتَّفِقُ مَعَ أَهْوَائِهِمْ أَعْرَضْتَ عَنْهُمْ؛ وَإِنْ لَمْ تَحْكَمْ بَيْنَهُمْ لَأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يُطَوِّعُوا الْأَحْكَامَ لِأَهْوَائِهِمْ، أَوْ يَتَأَوَّلُوهَا بِغَيْرِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا، فَلَنْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، وَإِنْ اخْتَرْتَ أَنْ تَحْكَمْ بَيْنَهُمْ رَجَاءً أَنْ يُنْقِذُوا الْحُكْمَ وَيُذْعِنُوا لَهُ، فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ، وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنَ الْأَحْكَامِ. فَالْحَاكِمُ الْمُسْلِمُ مُكَلَّفٌ أَنْ يَحْكَمْ بَيْنَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا تَرَاغَعُوا فِي قَضَائِهِمْ إِلَيْهِ، بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، إِذَا شَاءَ أَنْ يَحْكَمْ بَيْنَهُمْ، وَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَرِيدُونَ الْحَقَّ وَيُذْعِنُونَ لَهُ، وَلَا يَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَقْتَضَى قَوَانِينِهِمْ وَأَنْظُمَتِهِمْ؛ لِأَنَّهَا أَحْكَامُ مَرْفُوضَةٍ لَا يَتَّبِعُهَا حَاكِمُ مُسْلِمٍ؛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَادِلِينَ فِيمَا وُلُّوا وَحَكَمُوا فِيهِ، وَيُنِيهِمْ عَلَى عَدْلِهِمْ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ؛ لِأَنَّ مَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ أَكْرَمَهُ، وَأَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ.

٤٣ - وَكَيْفَ يَجْعَلُونَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - حَكَمًا بَيْنَهُمْ، وَيَرْضَوْنَ بِحُكْمِكَ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِكَ، وَلَا بِكِتَابِكَ، وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ الَّتِي يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَفِيهَا حُكْمُ اللَّهِ بِالرَّجْمِ الَّذِي تَحَاكُمُوا إِلَيْكَ مِنْ أَجْلِهِ، ثُمَّ يَتَّبِعُونَ مَدِيرِينَ عَنْ حُكْمِكَ الْمُوَافِقَ لِمَا فِي كِتَابِهِمْ؟ وَمَا أَوْلَتْكَ الْيَهُودُ بِالْمُؤْمِنِينَ بِكِتَابِهِمْ كَمَا يَزْعُمُونَ.

٤٤ - إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا الْبَيَانُ وَالتَّوْرُ الْكَاشِفُ لِلشُّبُهَاتِ، الْمَوْضِحُ لِلْمَشْكَلَاتِ، يَحْكَمْ بِالتَّوْرَةِ لِلْيَهُودِ النَّبِيُّونَ الَّذِينَ بُعِثُوا بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَانْقَادُوا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَطَاعُوهُ بِإِقَامَتِهَا وَتَنْفِذِ أَحْكَامِهَا، وَكَذَلِكَ يَحْكَمْ بِالتَّوْرَةِ لِلْيَهُودِ الْعُبَادُ وَالْفُقَهَاءُ؛ بِسَبَبِ مَا اسْتَوْدَعُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ بِحِفْظِهِ فِي صُدُورِهِمْ وَتَدْرِيسِهِ، وَعَدَمِ تَضْيِيعِ أَحْكَامِهِ

وَإِهْمَالِ شَرَائِعِهِ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ النَّبِيُّونَ وَالْعُبَادُ وَالْفُقَهَاءُ رِقَابًا يَحْفَظُونَ عَلَى نصوص التَّوْرَةِ كَامِلَةً، وَرِقَابًا أَيْضًا عَلَى تَنْفِيزِهِ، وَيَشْهَدُونَ بِصَدْقِ مَا نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ وَصَدَقَ، وَإِذَا كَانَ الْكِتَابُ قَائِمًا وَثَابِتًا، وَنَفَذَهُ السَّلَفُ وَالْخَلْفُ إِلَى مَا بَعْدَ عَصْرِ النَّبِيِّينَ، فَلَا تَخْشَوُا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ - يَا حُكَّامَ الْيَهُودِ - فِي إِظْهَارِ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْعَمَلِ بِالرَّجْمِ، وَاخْشَوْنَ وَحْدِي فِي كِتْمَانِ ذَلِكَ، وَكَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ تَغْيِيرِ الْأَحْكَامِ لِأَجْلِ خَوْفِ النَّاسِ، كَذَلِكَ أَنْهَاكُمْ عَنِ التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ لِأَجْلِ الطَّمَعِ فِي الْمَالِ وَأَخْذِ الرِّشْوَةِ، فَلَا تَأْخُذُوا بِتَرْكِ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلْتُ عَوَضًا يَسِيرًا، فَإِنَّ كُلَّ مَتَاعِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَأَوْلَتْكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ. وَالْكَفَرُ بِمَسْتَوِيَّاتِهِ الْمُخْتَلِفَاتِ مِنْ انْكَارِ وَجُودِ اللَّهِ، أَوْ الْيَوْمِ الْآخِرِ، أَوْ رَفْضِ طَاعَةِ اللَّهِ، أَوْ الشُّكِّ فِي حُكْمِ مَنْ أَحْكَمَهُ، هُوَ الْبَاثِلُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَدْفَعُ فَرْدًا أَوْ جَمَاعَةً مِنَ النَّاسِ إِلَى عَدَمِ تَطْبِيقِ شَرِيعَةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ. وَيَلْحَقُ بِذَلِكَ وَضْعُ الْقَوَانِينِ الْعَامَّةِ الْمُخَالَفَةِ لِأَحْكَامِ اللَّهِ فِي شَرِيعَتِهِ، مَا لَمْ يَكُنْ بِتَأْثِيرِ ضُغُوطٍ تَضَعُفُ إِرَادَةَ الْعَصَاةِ مَعَهَا، فَإِنْ كَانَ بِتَأْثِيرِ ضُغُوطٍ، خَوْفًا عَلَى الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ، أَوْ خَوْفًا عَلَى الْمَنَاصِبِ، مَعَ عَدَمِ وَجُودِ أَيْ نَاقِضٍ مِنْ نَوَاقِضِ الْإِيمَانِ، فَهُوَ مِنَ الْمَعَاصِي الْكُبْرَى الْوَاقِعَةُ عَلَى حَافَةِ هَاوِيَةِ التَّكْفِيرِ.

٤٥ - وَفَرَضْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَةِ أَنْ نَفْسَ الْقَاتِلِ نَفْسُ الْمَقْتُولِ وَفَاقًا، فَيُقْتَلَ بِهِ، وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ تَقْفًا بِهَا، وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ يُجْدَعُ بِهِ، وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ تُقَطَّعُ بِهَا، وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ تُقْلَعُ بِهَا، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَطْرَافِ الَّتِي يَجْرِي فِيهَا الْقَصَاصُ كَالْيَدِ وَالرَّجْلِ وَالْإِصْبَعِ. وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يُقْتَصَّ مِنْهُ، وَذَلِكَ بِالسَّوَادَةِ بَيْنَ الْجَرِيْمَةِ وَعَقُوبَتِهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ مِنْ جِنْسِهَا وَفِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الْجَرْحُ، فَإِنْ تَعَذَّرَ التَّسَاوِي فَإِنَّهُ يَكُونُ الْأَرَشُ (أَي: دِيَةِ الْجَرَاحَاتِ) عَوَضًا عَنِ الْكَسْرِ أَوْ الْجَرْحِ، فَمَنْ تَصَدَّقَ مِنْ أَصْحَابِ الْحَقِّ بِالْقِصَاصِ فَلَمْ يَقْتَصَّ مِنَ الْجَانِي، فَهُوَ كَفَّارَةٌ سَائِرَةٌ لِدُنُوبِ الْمَجْرُوحِ وَوَلِيِّ الْمَقْتُولِ. وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَأَوْلَتْكَ هُمُ الْمُتَجَاوِزُونَ حُدُودَ اللَّهِ، الظَّالِمُونَ لِعِبَادِ اللَّهِ، وَالظُّلْمُ هُوَ الْبَاثِلُ الثَّانِي الَّذِي يَدْفَعُ بَعْضَ النَّاسِ إِلَى عَدَمِ تَطْبِيقِ شَرِيعَةِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ، مَا يُقْضِي بِهِمْ إِلَى ظُلْمِ الْآخَرِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ؛ كَرَغْبَتِهِمْ فِي الْحَصُولِ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ حَقٌّ مِنْ حَقِّ الْآخَرِينَ، أَوْ رَغْبَتِهِمْ فِي الْإِتِّصَارِ لِفَرِيقٍ ضِدَّ فَرِيقٍ بِدَافِعِ الْمَصْلُحَةِ الْمَادِيَّةِ ظُلْمًا وَعَدْوَانًا. وَهَذِهِ الْآيَاتُ وَإِنْ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ سَبَابُ النُّزُولِ، وَالسِّيَاقُ نَفْسُهُ، وَلَكِنْ خَوَاتِيمُ الْآيَاتِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ﴾ .. جَاءَتْ بِصِغَةِ الْعُمُومِ، فَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ، وَلَا يَجُوزُ قَصْرُ أَحْكَامِهَا عَلَى غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءَكُمْ فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٣﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُ اللَّهُ عِنْدَهُمُ التَّوْرَةَ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَسْتَرْوُا يُبَاقِيَنَّكُمْ فَيَقِيلُوا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسُ الْفَسَادِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَاللِّسَنُ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٦﴾

٤٦ - وأتبعنا على آثار أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فأرسلناه بعدهم مؤمناً بأن التوراة مُنزلةٌ من عند الله عز وجل، عاملاً بما فيها ممّا لم ينسخه كتابه، وأتينا الإنجيل فيه هدى من الضلالة، ونور من عمى البصيرة، وحال كونه شاهداً على صدق التوراة بما اشتمل عليه من أحكامها، وهدى يتضمن البشارة بمحمد ﷺ، ونصحاً مقروناً بما يثير الرغبة والرهبة، وتذكيراً بليغاً للمتقين المُتتبعين بمواعظه وزواجه وأمثاله.

٤٧ - وأتينا الإنجيل وقلنا: ليحكم أهل الإنجيل الذين أُرسِل إليهم عيسى بما أنزل الله فيه من الأحكام، والإيمان بمحمد ﷺ، والتّصديق بنبوته، ومن لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل. والفسق - بعد الكفر والظلم - هو الباعث الثالث الذي يدفع إلى عدم تطبيق شريعة الله، وينطبق على الذين يتبعون هوى أو شهوة، أو نزعة نفسية، أو نزعة من نزعات الشيطان، في أمر لا ظلم فيه لأحد من خلق الله، ولم يقترن به ناقض من نواقض الإيمان.

٤٨ - وأنزلنا إليك - يا رسول الله - القرآن بالحق الذي لا تشوبه شائبة من الباطل، مُصدّقاً لجميع الكتب الربانية التي أنزلها الله، ورقياً على ما سبقه من الكتب السماوية، حيث يشهد لما صحّ نقله منها بالصحة وموافقة الحق، ويُقرّر أصول شرائعها، وما شرع مؤدّاً من فروعها، وما تُسخ منها، ويكشف ما دخل إليها من تحريف وتبديل، ويشهد عليه بالبطان والفساد، فاحكم - يا رسول الله - بين أهل الكتاب إذا ترافعوا إليك بالقرآن الذي أنزله الله إليك، ولا تتّبع أهواءهم مُنصرفاً عما جاءك من الحق، لك شرعتك ومنهاجك اللذين أوحينا بهما إليك، ولكلّ منهم جعلنا شريعة (وهي المبادئ والأسس الاعتقادية التي يستقون منها مفاهيمهم وعقائدهم)، وطريقاً

واضحاً (وهي الأحكام التفصيلية المُستندة إلى المبادئ والأسس الاعتقادية)، فسنة الله في المجتمع البشري أن مناهج الناس في الحياة تتبع مشاربهم وشرائعهم، فالمؤمنون شرعتهم ابتغاء مرضاة الله، ومنهجهم أحكام دينه لعباده، والكافرون شرائعهم أهواءهم وضلالات الشياطين، ومنهجهم ما يرضي شهواتهم، ويرسمه لهم شيطانهم، ولو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لسلبكم إرادتكم الحرة، فكنتم مَجْبُورِينَ على طاعته، وعندئذ يجعلكم أمة واحدة مهدين جميعاً، كالملائكة، ولكن شاء أن يجعلكم ذوي إرادات حرة، وزودكم بكل شروط الامتحان؛ ليبلوكم فيما آتاكم من هبات، واستودعكم من أمانات، وكلفكم من تكاليف، وإذا كنتم مُمتحنين فيما آتاكم ربكم، فاستبقوا الخيرات، لتنالوا عند الله ثواب أعمالكم، فإنكم بعد رحلة امتحانكم يكون رجوعكم جميعاً إلى الله وحده، فيخبركم في الآخرة بما كنتم فيه تختلفون من عقائد ومفاهيم ومذاهب وأعمال وغير ذلك، ويومئذ يظهر للجميع أن الحق هو شرعة الله ومنهاجه، اللذين أوحى بهما إلى رسله، وأمّا شرائع الناس ومنهجهم المختلفة، فهي بواطل وزیوف، ويومئذ تحقّ كلمة الرحمة والتكريم لمن استقى من شرعته الطاهرة النقية، وسلك المنهاج الواضح البين، وتحقّ كلمة العذاب والإهانة لمن كفر بالله، واتخذ لنفسه شرعة شيطانية مُتنتة، وسلك في حياته منهاجاً واضح البطلان والفساد.

٤٩ - وأنزلنا إليك: أن أحكم - يا رسول الله - بين اليهود بالحكم الذي أنزله الله في القرآن، وأثبت عليه في كل الأحوال، ولا تتّبع أهواءهم فيما أمروك به، على سبيل المُداراة لهم، لجلبهم إلى الإسلام، أو لتأليف قلوبهم، واحذر - يا رسول الله - هؤلاء اليهود الذين جاؤوا إليك أن يصرفوك بمكرهم ويكدهم على ترك العمل ببعض ما أنزل الله إليك في كتابه، ولو كان أقلّ قليل، بتصوير الباطل بصورة الحق، أو بالكذب على التوراة بإنكار بعض أحكامها، فإن انصرفوا مُبتعدين عن الإيمان بك والرضا بحكمك، فاعلم - يا رسول الله - أن الله يريد أن يُعجل لهم العقوبة في الدنيا ببعض ذنوبهم، وإن كثيراً من الناس خارجون عن طاعة الله إلى ذرّكات الكفر؛ لأنهم ردّوا حكم الله تعالى.

٥٠ - أينصرف هؤلاء اليهود عن قبول حكمك بما أنزل الله، ويُعرضون عنه، فيطلبون بشدة حكم الجاهلية؟! وأي حكم أحسن من حكم الله لقوم يتدبرون الأمور، ويتحقّقون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أن لا أحسن حكماً من الله عز وجل؟

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّوْرَةِ ۚ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ
أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ
اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا
عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا
آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنْصِتُ لِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلَفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَن آخُكُمْ يَتَّبِعْ بِمَا
أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقُولُوا عَنِ
بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَعَلِمَ أَنَا يَرِيدُ ۚ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۚ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ
الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

٥١ - يا أيها الذين صدّقوا الله واتّبعوا رسوله: لا تجعلوا اليهود والنصارى أنصاراً وأعواناً، تحالفونهم وتناصرونهم وتطلعونهم على أسرار المسلمين، وتستنصرون بهم ضد إخوانكم المؤمنين، فاليهود أنصاراً لبعض على المؤمنين، وكذلك النصارى، فهم يد واحدة عليكم، يشتركان في خطط المكر والكيد ضدكم، على الرغم من العداء الشديد الذي يحمله كل فريق منهما للآخر، ومن يتول اليهود والنصارى موالاة تعاون وتناصر، ضد شيء من مصالح المسلمين الدينية أو الدنيوية ممن هو منكم - ولو بالانتماء الظاهر إليكم - ، فينصرهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملتهم، وحكمه حكمهم؛ إن الله لا يحكم بالهداية لمن وضع الولاية في غير موضعها، فتولّى اليهود والنصارى.

٥٢ - فتَرَى - يا رسول الله ويا كل داع إلى الله من أمته - الذين في قلوبهم ضغينة وحسد من منافقي اليهود الذين أسلموا ظاهراً، يسارعون في مودة اليهود وموالاتهم ومناصحتهم، فهم منغمرون فيهم دائماً، لا يخرجون عن دائرتهم، يقول المنافقون: إنما نخالط اليهود؛ لأننا نخشى أن يدور علينا الدهر بمكره، فمن المرجو أن يأتي الله بالتوسعة، والفصل بين الحق والباطل، والنصر والظفر لرسوله محمد ﷺ على أعدائه، أو يهوى من الأمور ما تذهب به قوة اليهود والنصارى، وعند الفتح أو الأمر الذي يزيل سلطان من يستنصر بهم مرضى القلوب، يفرح المؤمنون بنصر الله، ويصبح المنافقون الذين أسروا في أنفسهم خذلان المؤمنين، ورجاء ما عند غيرهم، نادمين على ما حدثوا به أنفسهم؛ إذ قالوا: نخشى أن تصيبنا داهية بشر وسوء تحيط بنا من كل جانب، فلا نجد لأنفسنا نجاة منها، فإذا كانت لنا يد مُصانعة مع اليهود والنصارى أمكن أن نجد لأنفسنا وأهلنا مَخارج سلامة. والندم هو الظن الفاسد الذي وقعوا فيه، وخيبة الأمل فيما يرجونه، فليس ندمهم كندم التائب الذي يرجع إلى الله، وإنما ندمهم كندم المغيظ المُحتق الذي كان يتوقع أمراً فتيين له غيره.

٥٣ - ويقول الذين آمنوا في وقت إظهار الله تعالى نفاق المنافقين متعجبين من حالهم: أهؤلاء المنافقون الذين أقسموا لكم الأيمان المَغْلَظَة، مجتهدين غاية الاجتهاد في توكيد أيمانهم: إنهم لمعكم ومن أنصاركم؟ ضاعت أعمالهم التي عملوها؛ لأجل ما أظهروا من النفاق وموالاة اليهود، فخسروا الدنيا بافتضحهم، وخسروا في الآخرة بإبطال ثواب أعمالهم.

٥٤ - يا أيها الذين صدّقوا الله واتّبعوا رسوله: من يرجع منكم عن دينه الحق الذي هو عليه، فيبدّله ويغيّره بدخوله في الكفر بعد الإيمان، أو يوالي أعداء الإسلام من اليهود والنصارى ويستنصر بهم على المؤمنين، فسوف يأتي الله بقوم خير منهم، يتصفون بخمس صفات: **الصفة الأولى:** يُحِبُّهُمْ الله، فينالون من محبته سبحانه: المغفرة والنعيم المقيم والرضوان العظيم، **والصفة الثانية:** يحبونه سبحانه وتعالى، فيشعرون بأنه ملء نفوسهم وقلوبهم، ولا يدخل في قلبهم شيء غير عظمتة عز وجل، فيسارعون إلى طاعته، **والصفة الثالثة:** متذللين متواضعين عطفاً على إخوانهم المؤمنين، فهو تذلل عطف ورحمة وحنو متبادل بينهم، مع عزة نفس واستغناء بالله، لا تذلل مهانة وضعة وحقارة نفس وطمع بمنافع دنيوية، **والصفة الرابعة:** أشداء أقوياء بعزة الله وقوته على أعدائهم الكافرين، الذين يعتزّون ويستكبرون بقواهم المادية، وبشباطينهم ودهاتهم، **الصفة الخامسة:** يجاهدون بقوة في سبيل الله، ولا يخافون من أي ضغط اجتماعي يأتي على صورة تلويح وتثريب في نصرهم دين الله من أي لائم كائن من كان. ذلك الذي خصّهم الله به من محبته سبحانه وتعالى لهم ورضوانه عليهم، ومحبّتهم له سبحانه ومسايرتهم إلى طاعته، وتعاطفهم وتراحمهم فيما بينهم، وشدّتهم على أعدائهم، وجهادهم في سبيله، وأطراح لوم اللاتيمين، وعدم الالتفات إليهم من فضل الله تعالى تفضّل به عليهم، والله تعالى كثير الفضل والجود، عليهم بمواضع الفضل وبمن يستحقّه.

٥٥، ٥٦ - ما ناصركم - أيها المؤمنون - إلا الله ورسوله، والمؤمنون الذين يتصفون بهذه الأوصاف الثلاثة: **الأولى:** يحافظون على الصلوة المفروضة، كاملة لا اعوجاج فيها، **والوصف الثاني:** يؤدّون زكاة أموالهم إذا وجبت عليهم طيبة بها نفوسهم، ابتغاء وجه الله، **والوصف الثالث:** هم منقادون خاضعون لأوامر الله ونواهيه. ومن يجعل الله ورسوله والذين آمنوا أولياءه، يؤيدهم وينصرهم ويجاهد جهادهم، فهو من حزب الله وأنصار دينه، وإن أنصار دين الله هم الغالبون؛ لأن الله ناصرهم على عدوهم.

٥٧ - يا أيها الذين صدّقوا الله واتّبعوا رسوله: لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم موضع استهزاء ومزح، وموضع لعب وعبت، يسخرون من الدين، ويستهزئون بأهله، ويتعابثون به، ويلعبون بحقائقه، ويقصدون به مجرد إزجاء الفراغ والتسلية، من اليهود والنصارى، وعبدّة الأصنام قوماً تتبادلون معهم التواؤم والتعاون والتناصر والتأييد، والإمداد بالأخبار والقوى، فإذا اتخذتم منهم أولياء، عرّضتم أنفسكم لعقاب الله، وأثّقوا الله بامثال أوامره، واجتنب نواهيه إن كنتم مؤمنين إيماناً صحيحاً صادقاً.

الجزء الثاني

سورة المائدة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصِيبَهُمْ أَوْ يَأسُرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فسوف يأتي الله بقومٍ يحبُّهُمْ ويحبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّا بِمِرَّةٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُغْلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مِّنْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

٥٨ - ومن مظاهر اتخاذهم دين الإسلام هُزُواً ولعباً: أنه إذا أذن مؤذّنكم - أيها المؤمنون - بالصلاة، قاموا إلى الصلاة مُستهزئين بمن يؤدّيها من المؤمنين، ومشاركين في أدائها مشاركة اللاعبين بالحركات، وسبب اتخاذهم دين الله هُزُواً ولعباً: أنهم قومٌ لا يعقلون عقلاً إرادياً يمنعهم من التورط في قبيحة الاستهزاء بمن يعبدون الله متجهين له، ولا يعقلون عقلاً علمياً يدركون به أهمية الصلاة، وما سيلاقون من مصير عند ربهم يوم القيامة جزاء استهزائهم ولعبهم.

٥٩ - قل - يا رسول الله ويا كلّ داعٍ إلى سبيل ربّه من بعده - لهؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا دينك هُزُواً ولعباً من المجاهرين بكفرهم، أو منافقين مندسّين في صفوف المؤمنين: هل تكفرون منا أو تعييبون علينا إلا واحداً من أمور ثلاثة: الإيمان بالله، وبما أنزل إلينا، وبما أنزل على جميع الأنبياء من قبل؟ وإنما كرهتم إيماننا ونقمتم علينا ديننا، وأتباعنا لرسولنا النبي العربي الذي ليس من بني إسرائيل، مع علمكم بأننا على الحق؛ بسبب أن أكثركم خارجون عن الإيمان بالله إلى ذركات الكفر.

٦٠ - قل - يا رسول الله ويا كلّ داعٍ إلى الله - لهؤلاء اليهود الذين قالوا: ما نعرف ديناً شراً من دينكم: هل أخبركم بشرّ من ذلك الذي ذكرتم ونقمتم علينا حسب ظنكم واعتقادكم؟ مَنْ طَرَدَهُ اللَّهُ عَنْ رَحْمَتِهِ، وانتقم منه من أسلافكم، وجعل منهم قردةً وخنازير فمسخهم حقيقة، وهلكوا دون أن يكون لهم ذرّية، أو مسخ قلوبهم، فصاروا في نزواتهم وعشهم بكلّ القيم الخلقيّة كالقردة، كما صاروا في قذارات نفوسهم، وتطلّهم للقذر من المكاسب كالخنازير، إذ يطلبون القذارات يأكلونها، وتنمو أجسامهم عليها، وجعل منهم مَنْ أطاع الشيطان فيما سَوَّلَ له، فهم يعبدون الطغيان دائماً، يعبدون الحاكم الطاغوي، ويكونون أدواته، ويعبدون المال الطاغوي المأخوذ من غير حِلّه، أولئك الملعونون والمغضوب عليهم والممسوخون من أسلافكم شرّاً مكاناً من غيرهم، وأكثر ضلّالاً وبعداً عن قُصْدِ طريق الحق

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَن آتَاَنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ خَلَوْنَا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْآثَرِ وَالْعُدُونِ وَأَكْلِهِمْ أَلْسَحَتْ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبُّونَ وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثَرُ أَكْلِهِمْ أَلْسَحَتْ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيزِيدَنَّ كَيْثَرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَلَقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

السويّ المستقيم.

٦١ - وإذا جاءكم - أيها المؤمنون - منافقو اليهود، قالوا: آمنا، وقد دخلوا في صفوفكم متظاهرين بالإسلام، وهم متلبسون بالكفر، وهم قد خرجوا من حقيقة الإسلام بالكفر نفسه الذي دخلوا به، لم يتعلّق بقلوبهم شيء من الإيمان، فهم كافرون في حاليّ الدخول والخروج، والله أعلم بما كانوا يكتُمون من الكفر الذي في قلوبهم.

٦٢ - وترى - أيها الراي المتتبّع لأحوالهم المُرَاقِب لسلوكهم - كثيراً من اليهود يُبادرون دون تردّد إلى ارتكاب المعاصي والمنهيات، ومُجاوزة الحدّ في العصيان والظلم، وأكل الرِّبَا والرِّشوة والغش والتزوير الذي يستأصل التعامل فيه كل علاقة اجتماعية تربط الناس بعضهم ببعض، وتفسد أمورهم، لَيْسَ العمل كان هؤلاء اليهود يعملون في الماضي والحاضر والمستقبل.

٦٣ - مَلَأَ ينهاتهم العُباد والفقهاء الذين كان يتبعهم اليهود، ويستجيبون لهم عن قولهم الكذب بإعلانهم الإسلام وإبطانهم الكفر، وأكلهم أموال الناس بالباطل، لَيْسَ ما كان عبّادهم وعلماؤهم يصنعون؛ إذ لم يَنْهَوْا غيرهم عن المعاصي، فكانوا بمنزلة المرتكبين لها، بل صاروا أشدّ جرماً، لأنّ عملهم سمّاه الله تعالى صناعة، وهي تكون بمهارة وتدبير وتعرّف للغايات والنتائج، فصار جرمهم مُستقرّاً في نفوسهم، راسخاً في قلوبهم، متمكناً في سلوكهم.

٦٤ - وقالت اليهود: يدُ الله مَحْبُوسَةٌ مقبوضة عن الرِّزْق والعطاء، أُمْسِكْتَ أَيْدِيَهُمْ عن كلّ خير، وأصيبوا بالشُّح المَرِير الذي يجعلهم مُبْغِضِينَ للناس، منحرفين عن طريقهم، مطرودين من مجتمعاتهم، وقُبِضَتْ أَيْدِيَهُمُ الباطشة فلا يَقْوُوا على غيرهم، ويعيشوا كالأسارى في ذل وهوان، وعُذِّبُوا في جهنّم بالأغلال، وطردوا عن رحمة الله بسبب ما قالوه، ولكن يدها سبحانه مَبْسُوطَةٌ بالجود والعطاء الذي لا نهاية له، فهو سبحانه يرزق كما يريد ويختار، فيوسّع على مَنْ يشاء، ويُقَرِّر على مَنْ يشاء، ومشيئته تعالى مشمولة بحكمته، وكلّما نزلت عليك - يا رسول الله - آية من القرآن كفروا بها، فازدادوا شدةً في كفرهم، وطغياناً على طغيانهم، وألْقَيْنَا العداوة المعلنّة، والكرامية المُستَكَنّة في القلوب بين طوائف اليهود، فجعلناهم مختلفين متعادين إلى يوم القيامة، كلّما أفسد اليهود، وأثاروا الفتن، وأشعلوا نار الحرب، ردّ الله كيدهم، ولا يزال اليهود يجتهدون في محاربة الإسلام بالمكر والكيد، ويسعون في نشر الفساد الفكري والسلوكي والنفسي، واللّه لا يحبّ المفسدين، فهم أَبْغَضُ خلق الله إليه، ومَنْ جعل نفسه بإرادته في زمرة الذين لا يحبّهم الله، فقد جعلها عُرْضة لنقمته وعذابه الشديد.

الْبَيْتَةُ النَّصَارَى

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

٦٥ - ولو أن اليهود والنصارى آمنوا بالله وحده، وصدقوا رسوله ﷺ فيما جاء به من عند الله، وجعلوا بينهم وبين الباطل وقاية، واجتنبوا ما حَرَّمَهُ الله، وخافوا عقاب الله تعالى، لَمَحَوْنَا عَنْهُمْ ذُنُوبَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ، ولَدْخُلَانَاهُمْ جَنَاتِ النَّعِيمِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٦٦ - ولو أن اليهود والنصارى أقاموا أحكامَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وعملوا بما فيهما من الوفاء بالعهود، والتصديق بمحمد ﷺ، واتباع شريعته، ولم يُحَرِّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَأَقَامُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، لو فعلوا ذلك، وقاموا بما خُوطِبُوا بِهِ حَقُّ الْقِيَامِ، لَوَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَطَرَ، وَأَخْرَجَ لَهُمُ النَّبَاتَ. مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ جَمَاعَةٌ مُعْتَدِلَةٌ لَمْ تَغْلُ وَلَمْ تُقْصِرْ، وَهُمْ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَقَامُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَيَكُونُ حَالُهُمْ مَا يُثِيرُ الْعَجَبَ مِنْ عَظَمِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ سُوءٍ.

٦٧ - يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ جَمِيعَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ مُجَاهِرًا بِهِ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ، دُونَ تَغْيِيرٍ أَوْ تَبْدِيلٍ أَوْ كِتْمَانٍ أَوْ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ، وَإِنْ لَمْ تُبَلِّغْ كُلَّ مَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ؛ ذَلِكَ أَنْ بَعْضَهَا لَيْسَ بِأَوْلى بِالْأَدَاءِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِذَا لَمْ تُؤَدِّ بَعْضَهَا فَكَأَنَّكَ أَغْفَلْتَ آدَاءَهَا جَمِيعًا، كَمَا أَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِبَعْضِهَا كَانَ كَأَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِكُلِّهَا، وَاللَّهُ يَحْفَظُكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَيَمْنَعُكَ مِنَ الْكُفَّارِ أَنْ يَعْتَدُوا عَلَيْكَ بِالْقَتْلِ، أَوْ يُمَكِّنُوا مِنْ دَعْوَتِكَ بِعَاقِقَةِ طَرِيقِ انْتِشَارِهَا أَوْ الْقَضَاءِ عَلَيْهَا؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يَحْكُمُ بِهَدَايَةِ مَنْ كَذَبَكَ وَأَعْرَضَ عَنْكَ، وَجَحَدَ مَا جِئْتَ بِهِ.

٦٨ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَهُؤُلَاءِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ الْمُرْتَضَى عِنْدَ اللَّهِ، حَتَّى تَعْمَلُوا بِمَا فِي التَّوْرَةِ

وَالْإِنْجِيلِ، بِالتَّصْدِيقِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَتَعْمَلُوا بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي الْقُرْآنِ، وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَزِيدُهُمْ إِنْزَالُ الْقُرْآنِ إِلَيْكَ إِلَّا تَمَادِيًا فِي الْجُحُودِ وَكُفْرًا بِآيَاتِ اللَّهِ؛ بِسَبَبِ حَقْدِهِمْ وَحَسَدِهِمْ، فَلَا تَحْزَنْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَلَا تَتَأَسَفْ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، وَجَحَدُوا نُبُوتَكَ، فَإِنَّمَا يَعُودُ ضَرَرُ ذَلِكَ الْكُفْرِ عَلَيْهِمْ.

٦٩ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ إِيمَانًا حَقًّا، فَلَا خَوْفَ مُسْلَطَ عَلَيْهِمْ تَضَطَّرُّ بِهِ نَفْسُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ، بِسَبَبِ تَوَقُّعِ حَدُوثِ مَكْرُوهِ، أَوْ تَوَقُّعِ فَوَاتٍ مُجُوبٍ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ بِسَبَبِ مَكْرُوهِ نَزَلَ فَعَلًا بِهِمْ، أَوْ مِنْ أَجْلِ مُجُوبٍ فَاتِهِمْ الْحَصُولَ عَلَيْهِ. وَالْيَهُودُ، وَالصَّابِئُونَ - وَهُمْ قَوْمٌ حَنَفَاءُ مُوَحِّدُونَ بَاقُونَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ، وَلَيْسَتْ لَهُمْ شَرِيعَةٌ يَعْمَلُونَ بِهَا -، وَالنَّصَارَى الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِيمَانًا صَاحِبًا صَادِقًا، وَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَصَدَّقُوا مَا جَاءَ فِي كِتَابِهِ، وَعَمِلُوا بِشَرِيعَتِهِ، فَلَا خَوْفَ مُسْلَطَ عَلَيْهِمْ أَيْضًا مِنْ مُزْهَبَاتٍ قَادِمَاتٍ مُسْتَقْبَلَاتٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَهُمُ الْأَمْنَ مِنْذُ لَحْظَةِ مَوْتِهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ كَذَلِكَ عَلَى شَيْءٍ فَاتِهِمْ مِنْ حِفْظِ الدُّنْيَا، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ اخْتَارَ لَهُمْ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ، وَأَفْضَلُ جَزَاءٍ؛ نَتِيجَةُ إِيْمَانِهِمُ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، وَاسْتِقَامَتِهِمْ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَفِي الْآيَةِ إِغْرَاءٌ لِأَهْلِ الطَّوَائِفِ الثَّلَاثِ: (الْيَهُودِ وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى) بِالْدُخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَالِاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ، وَإِشْعَارٌ لَهُمْ بِأَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ دِينٍ وَشَرِيعَةٍ لَمْ يَعدْ مَقْبُولًا بَعْدَ أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ.

٧٠ - وَنُؤَكِّدُ تَأْكِيدًا مُشَدَّدًا أَنَّا أَخَذْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَةِ الْعَهْدَ الْمَوْثُوقَ الْمَشْدَّدَ فِيهِ بِأَنْ يُحَافِظُوا عَلَى الْإِيْمَانِ بِعُنَاوَرِ الْقَاعَةِ الْإِيْمَانِيَّةِ كُلِّهَا، وَبِأَنْ يَسِيرُوا عَلَى مَنَاجِ الدِّينِ الَّذِي اضْطَفَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، ثُمَّ انْحَرَفُوا وَنَقَضُوا عَهْدَهُمْ وَمَوَاقِفَهُمْ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا يَذْكُرُونَهُمْ بِمَوَاقِفِهِمْ وَعَهْدِهِمْ، وَيُعَلِّمُونَهُمْ مَا نَسَوْهُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ يُخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ، وَيَضَادُّ شَهْوَاتِهِمْ، نَاصِبُهُ الْعَدَاءُ وَقَاوِمُوهُ، فَفَرِيقًا مِنْ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ كَذَّبُوهُمْ فَقَطَّ دُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُمْ، وَفَرِيقًا آخَرِينَ كَذَّبُوهُمْ وَلَاحِقُوهُمْ بِالتَّنْكِيلِ وَالتَّعْذِيبِ حَتَّى قَتَلُوهُمْ أَخِيرًا، كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَهُمْ عَلَى اسْتِعْدَادٍ نَفْسِيٍّ لِأَنْ يَقْتُلُوا خَاتِمَ النَّبِيِّينَ، وَقَدْ هُمُوا وَلَمْ يَنَالُوا.



٧١ - وتوهم باطلا هؤلاء الذين كذبوا الرسل، وقتلوا الأنبياء أن لا يُعذبهم الله ولا يبتليهم بذلك الفعل الذي فعلوه، ويسبب ذلك انطلقوا وراء أهوائهم وشهواتهم، فعموا عن الحق ولم يُبصروه، وصموا عن استماعه فلم ينفذ إلى قلوبهم، ثم عاقبهم الله، فأنزل بهم عذابه الذي لم يكن ماحقا مستأصلا شأفتهم، فتابوا إلى ربهم فتاب الله عليهم، ثم عادوا إلى انحرافهم، فطغوا وظلموا وفجروا، وأحاطت بالمراكز الداخلية لأبصارهم وسمعهم حُجب أهوائهم وشهواتهم، فعموا وصموا بالنسبة إلى قضايا الدين، وحقوق الله على عباده، وما يرتبط بذلك من جزاء، والله بصير دوما بما يعملون جيلا بعد جيل، فتجري فيهم سنن الإمهالية والجزائية وفق حكمته سبحانه.

٧٢ - نؤكد تأكيداً مُشدداً أنه كَفَر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، حيث زعموا أنه ابن الله قد حلت فيه الإلهية، وقال المسيح عند مُبعثه: يا بني إسرائيل اعبدوا الله وحده لا شريك، فهو سبحانه ربي الذي خلقتني ورزقني ورباني، وهو ربكم الذي خلقكم ورزقكم ورباكم بنعمه، فأنا وأنتم في العبودية لخالقنا ومالكنا ورازقنا ومُمدنا بعبادات ربوبيته سواء، إنه من يجعل لله شريكاً في ربوبيته أو إلهيته، فقد حَرَم الله عليه الجنة إذا مات على شركه، ويصير إلى النار في الآخرة؛ بسبب كفره وظلمه الكبير، وما للمُشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك من أنصار ينصرونهم ويمنعونهم من العذاب يوم القيامة.

٧٣ - نؤكد تأكيداً مُشدداً أنه كَفَر النصارى الذين قالوا: إن الله مجموع ثلاثة أشياء، هي: الأب، والابن، وروح القدس، والإلهية مُشتركة بينهم. أما علم هؤلاء النصارى أنه ليس في الوجود إلا إله واحد موصوف بالوحدانية في ذاته وصفاته وأفعاله، لا ثاني له ولا

شريك ولا ولد له ولا صاحبة، وأقسم لئن لم ينته النصارى عن هذه المقالة الخبيثة التي يقولونها دون أن تكون عقيدة يعتقدونها؛ لأنها لا تتفق مع العقل السوي السليم، ليمسّن الذين كفروا منهم في مواضع الإحساس فيهم عذاب مؤلم موجه في الآخرة؛ بسبب كفرهم بالله وافتراءهم وكذبهم عليه.

٧٤ - أستمرون على حالهم من الإفك، والإضرار على الباطل فلا يتوبون إلى الله من قولهم بالتثليث، ويطلبون مغفرته من هذا الذنب العظيم؟ والله تعالى كثير الستر لمن استغفره، متجاوز عن ذنوب التائبين، دائم الرحمة لهم.

٧٥ - ما المسيح ابن مريم عليه السلام إلا رسول من الله عز وجل، وعبد من أصفياء عباده، اختاره للرسالة؛ كسائر الرسل الذين مضوا قبله، وسيمضي كما مضوا؛ فكيف يكون إلهاً أو جزءاً إله؟ وما أمه إلا أمة من إماء الله صدقت تصديقاً جازماً بآيات ربها وكتبه، كانت وابنها يأكلان الطعام، ويعيشان به كسائر بني آدم، ولا يكون إلهاً من يحتاج إلى الطعام ليعيش، فكيف تنسبون إليهما ما نسبتم من الباطل المحال!! أنظر - يا رسول الله، ويا كل صالح للخطاب - كيف بُيّن لهم الآيات الدالة على بطلان قولهم، ثم أنظر كيف يُضرفون عن استماع الحق وقوله مع ما بينا من دلائله؟!

٧٦ - قل - يا رسول الله ويا كل داع إلى الله من أمته - لهؤلاء النصارى: أتعبدون من دون الله من لا يستطيع أن يضرركم، ولا يقدر أن ينفعكم؟ فإن الضار والنافع هو الله تعالى لا من تعبدون من دونه، والله تعالى هو وحده السميع لأقوالكم، العليم بما في ضمائركم، فكيف تتركون عبادة الله تعالى وحده، وهو السميع لأقوال عباده، العالم بكل شيء، الذي لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، إلى عبادة ما لا يسمع ولا يعلم، ولا ينفع ولا يضر؟!

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مِنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمَنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَا يَاقُوتُ الطُّعَامِ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

٧٧ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ - لليهود والنصارى: لَا تُجَاوِزُوا الْحَدَّ، وَتَشْدُدُوا فِي دِينِكُمْ غُلُوًّا غَيْرَ الْحَقِّ، فَلَا تَشْدُدُوا فِي آدَاءِ مَا يُطَلَبُ مِنْكُمْ، وَلَا تَتَجَاوَزُوا الْحَقَّ فِيمَا تَعْتَقِدُونَهُ مِنْ أَمْرِ الْمَسِيحِ، فَتَرْفَعُوهُ عَنْ رُتْبَةِ الرِّسَالَةِ، وَأُمُّهُ عَنْ رُتْبَةِ الصِّدْقِيَّةِ إِلَى مَا اتَّحَلْتُمُوهُ فِي حَقِّهَا غُلُوًّا بَاطِلًا، وَكَلَا الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى غُلُوًّا فِي عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالْيَهُودُ قَصُرُوا فِي حَقِّهِ حَتَّى نَسَبُوهُ إِلَى غَيْرِ رَشْدِهِ، وَالنَّصَارَى جَاوَزُوا الْحَدَّ فِي حَقِّهِ حَتَّى جَعَلُوهُ إِلَهًا، وَلَا تَتَّبِعُوا مَا ابْتَدَعَهُ أَسْلَافُكُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ بِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ شَهَوَاتُ نَفْسِهِمْ، وَقَدْ أَضَلُّوا مِنْ أَتْبَعِهِمْ عَلَى ضَلَالِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَأَخْطَئُوا عَنْ قَصْدِ طَرِيقِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ؛ بِسَبَبِ حَسَدِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ، وَتَرْكِهِمْ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ.

٧٨ - طُرِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ الزَّبُورُ - ، وَفِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ الْإِنْجِيلُ - ، ذَلِكَ الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَتِهِ سَبْحَانَهُ؛ بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ أَوَامِرَ اللَّهِ، وَكَانُوا فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ يَعْتَدُونَ عَلَى حُرْمَاتِ اللَّهِ، وَعَلَى خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَتُسَبِّ الْعِصْيَانُ وَالْإِعْتِدَاءُ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا، وَإِنْ كَانَ وَقَعَ مِنْ بَعْضِهِمْ، لِأَنَّ سَائِرَهُمْ أَقْرَبَهُ وَسَكَتَ عَنْهُ، فَكَانَ مِنْهُمْ وَقَعًا وَرَضًا.

٧٩ - كَانَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ يُجَاهِرُونَ بِالْمَعَاصِي، وَلَا يَنْهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ أَيِّ مَنَكْرٍ فَعَلُوهُ، بَلْ يُصِرُّونَ عَلَيْهِ، وَيُسْتَمِرُّونَ عَلَى فَعْلِهِمْ، فَلَا يَتَوَبُّونَ وَلَا يَرْجِعُونَ، لَيْشَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ دَوَامًا مِنْ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَالْعُدْوَانِ.

٨٠ - تَرَى - يَا رَسُولَ اللَّهِ - كَثِيرًا مِنَ الْيَهُودِ، يُؤَالُونَ الْمَشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَيُصَافُونَهُمْ؛ لِعِدَاوَتِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَتَوَاطَنُونَ مَعَهُمْ عَلَى مُحَارَبَتِهِ، بِشَيْءٍ مَا قَدَّمُوا مِنَ الْعَمَلِ لِمَعَادِهِمْ فِي الْآخِرَةِ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِمَا فَعَلُوا مِنْ مَوَالَةِ الْكُفَّارِ، وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ فِي جَهَنَّمَ.

٨١ - وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ الَّذِينَ يُنَاصِرُونَ الْمَشْرِكِينَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ، وَيُصَدِّقُونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ إِيمَانًا صَاحِقًا صَادِقًا، مَا اتَّخَذُوا الْكُفَّارَ أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، مُتَمَرِّدُونَ عَنِ الْحَقِّ بِسَبَبِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ حَقْدٍ وَحَسَدٍ. وَنَرَى فِي آيَةِ إِنْصَافِ الْقُرْآنِ بَيِّنًا وَاضِحًا إِذْ لَمْ يَرْمِهِمْ جَمِيعًا بِالْفُسُوقِ عَنْ أَمْرِهِ، وَلَكِنْ وَصَفَ أَكْثَرَهُمْ، وَأَكَّدَ فَسَقَهُمْ بِالْوَصْفِ الْمُسْتَمِرِّ فِيهِمْ.

٨٢ - وَاللَّهُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ وَيَا كُلَّ مُؤْمِنٍ مِنْ أُمَّتِهِ - إِنَّكَ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ الْكُفَّارِ عِدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَصَدَّقُواكَ وَاتَّبَعوكَ: الْيَهُودَ، وَعَبْدَةَ الْأَصْنَامِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرِهِ؛ بِسَبَبِ حَسَدِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَعِنَادِهِمْ، وَجُحُودِهِمْ، وَغَمْطِهِمُ الْحَقَّ.

وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَسْهَلَهُمْ قَبُولًا لِلْحَقِّ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصَارَى؛ وَالسَّبَبُ فِي قُرْبِ الْمَوَدَّةِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالنَّصَارَى أَنَّ مِنْهُمْ عُلَمَاءَ بِأَحْكَامِ دِينِهِمْ، وَعِبَادًا مُتَّبِلِينَ مُنْقَطِعِينَ لِلْعِبَادَةِ، وَأَتَّهَمَ مُتَوَاضِعُونَ لَا يَتَعَاطَمُونَ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِدْعَاءِ لِلْحَقِّ؛ فَالسَّبَبُ فِي قُرْبِ مَوَدَّتِهِمُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، بِخِلَافِ الْيَهُودِ وَالْمَشْرِكِينَ، فَالْيَهُودُ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَاؤُهُ، وَأَنَّهُمْ مِنْ صِنْفٍ فَوْقَ النَّاسِ، وَأَنَّ الْجَمِيعَ دُونَهُمْ، وَالْمَشْرُوكُونَ مَا كَفَرُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ إِلَّا أَنَّهُمْ رَأَوْا الْعَبِيدَ وَالْفُقَرَاءَ وَالضُّعَفَاءَ هُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ، فَذَهَبَ بِهِمْ كِبَرُهُمْ وَعِزَّتُهُمْ بِالْبَاطِلِ أَلَّا يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَتَّبِعُوهُ.

وهذه الآية نزلت فيمن آمن من النصارى، وقبلوا رسالة محمد ﷺ، مثل النجاشي وأصحابه، ولم يرد بها كل النصارى، فإن معظم النصارى في عداوة المسلمين كاليهود.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عِدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّكُمْ وَرَحْمَتَنَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

٨٣ - ومما يدل على قرب مودتهم للمسلمين أن فريقاً منهم، وهم وفد الحبشة، لما سمعوا القرآن الذي أنزل إلى الرسول محمد ﷺ ترى الدمع يسيل من عيونهم فائضاً عما تمتلىء به؛ لأجل أنهم عرفوا الحق الذي نزل على محمد ﷺ، وفرحوا به، يقول القسيسون والرهبان: ربنا آمنا بالقرآن، وبرسالة النبي ﷺ، وشهدنا أنه حق وصدق، فاكتبنا مع أمة محمد ﷺ الذين يشهدون بالحق، وينالون شرف الشهادة على الأمم يوم القيامة.

٨٤ - ويقولون: ما لنا لا نؤمن بوحداية الله، وما جاءنا من الحق من عنده على لسان رسوله محمد ﷺ، ونرجو بذلك الإيمان أن يدخلنا ربنا الجنة يوم القيامة، مع أمة محمد ﷺ؟

٨٥ - فجاءهم الله الجزاء الأوفى بالتوحيد الذي قالوه: جئنا تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، خالدين في الجنات لا يخرجون منها، ولا يحولون عنها، وذلك جزاء المؤمنين الموحدين المخلصين الذين ارتقوا إلى أعلى مراتب الإيمان، وهي: الإحسان. وهذه الآيات نزلت في الثناء على موقف النجاشي ومن معه، الذين تأثروا بسماع آيات القرآن، وعرفوا أن محمداً هو رسول الله ﷺ، وتنطبق هذه الآيات على من يقفون هذا الموقف من النصاري في أي زمان ومكان، فيؤمنون أن عيسى عبد الله ورسوله، ثم يؤمنون أن محمداً هو عبد الله ورسوله ﷺ، ويدخلون في الإسلام، ويكونون مؤمنين صادقين.

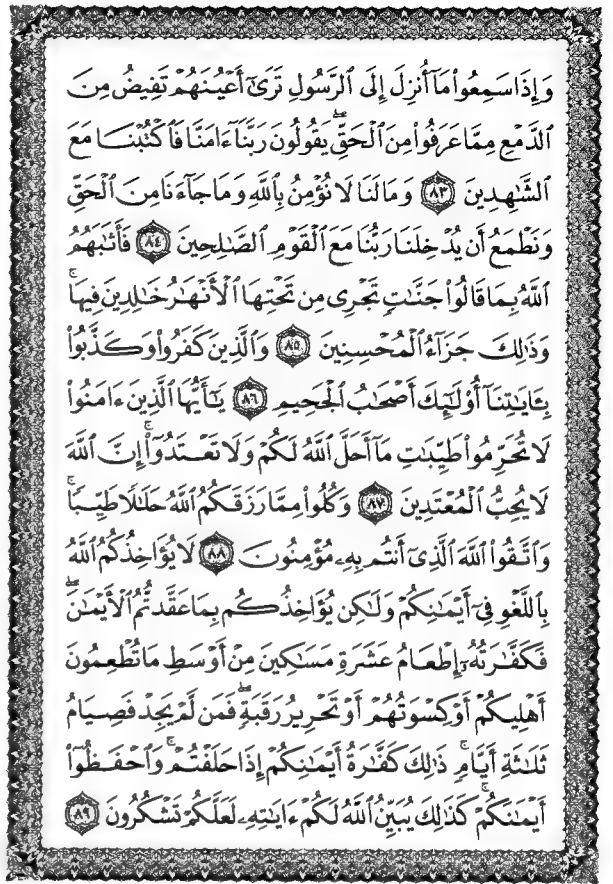
٨٦ - والذين جحدوا وحدانية الله وقدرته، وكذبوا بآياته المنزلة على رسله، أولئك البعداء عن رحمة الله، المنحطون في الدركات، هم أصحاب النار المتأججة التي لا تنطفئ، الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها.

٨٧ - يا أيها الذين صدقوا الله وأتبعوا رسوله: لا تعتقدوا تحريم

اللذيات المباحات التي تشتهيها الأنفس، وتميل إليها القلوب من المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة التي أحلها الله لكم، فتضيّقوا ما وسع الله عليكم؛ ولا تتجاوزوا حدود ما حرّم الله، بالإسراف في البذخ والتعالي والتفاخر، أو بتناول المحرّم، أو الاعتداء على حقوق الناس؛ إن الله لا يحب المعتدين المجاوزين حدود ما شرعه الله تعالى إلى ما لم يشرعه، ومن أخرج نفسه من محبة الله صار محلاً لسخطه عليه ونقمته، وابتعد عن مجالات مغفرته ورحمته.

٨٨ - وكلوا - أيها المؤمنون - من رزق الله الذي رزقكم وأحلّه لكم من المطاعم والمشارب، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون؛ بأداء حق الله تعالى الذي رزقكم وأنعم عليكم، وبشكره سبحانه، وأن يكون طريق كسبكم طيباً لا خُبث فيه، وبأداء حق الناس فيما تتناولون من طيبات، وألا يدفعكم ذلك إلى الغرور والتعالي، والتفاخر والاستطالة على الناس.

٨٩ - لا يعاقبكم الله - أيها المسلمون - ببلوغ اليمين في الدنيا بالكفارة، ولا في الآخرة بالعقوبة، ولغو اليمين: أن يحلف على شيء يرى أنه صادق فيه، ثم يبتين له خلاف ذلك، أو ما يجري على اللسان بلا قصد، مثل قول بعضهم: لا والله، وبلى والله، ولكن يؤاخذكم بما ربطتم إرادة قلوبكم بما حلفتم عليه بالاستتكم، وقصدتم به اليمين ووثقتموه على أن تفعلوا شيئاً، أو تركوا شيئاً، ثم لم تفوا به، فإزالة أثر أيمانكم التي ربطتم إرادة قلوبكم بما حلفتم عليه بالاستتكم، إذا لم تفوا بها، واحد من أمور ثلاثة: الأول: إطعام عشرة مساكين من خير ما تطعمون به أهليكم وأفضله، الثاني: كسوة عشرة مساكين، لكل مسكين ما يكفي في الكسوة، الثالث: تحرير إنسان من الرق. فالحالف الذي لم يقب بيمينه مخير بين هذه الأمور الثلاثة، فإذا عجز من لزمته كفارة اليمين عن الإطعام أو الكسوة أو العتق، فعليه صيام ثلاثة أيام، وكل واحد من هذه الأمور يُغفر به ذنب الحلف الموثق بالنية إذا نقضه الحالف، وضوّنوا - أيها المسلمون - أيمانكم: بترك الحلف، أو الوفاء إن حلفتم، أو فعل ما يشتر خطيتكم إذا لم تفوا بأيمانكم. وكما بين الله لكم كفارة أيمانكم إذا لم تفوا بها، كذلك يبين الله لكم جميع ما تحتاجون إليه في أمر دينكم؛ لتشكروا له سبحانه على هدايته إياكم إلى الطريق المستقيم، وتكون دافعاً لكم للعمل بما جاء في كتاب الله من أحكام وأوامر ووصايا.



البقرة الشارح

سورة البقرة

٩٠ - يا أيها الذين صدّقوا الله وأتبعوا رسوله، إنّما الخمر، وهي: كل ما خامر العقل وغطاه مشروباً كان أو مأكولاً، والميسر، وهو: القمار، ويشمل كل كسب بطريق الحظّ المبني على المضادّة من كل الوجوه، والأنصاب، وهي: الحجارة التي كانوا يُنصبونها للعبادة، ويذبحون عندها تقريباً للأصنام، والأزلام، وهي: الأقداح التي كانوا يستقسمون بها قبل الإقدام على الشيء، أو الإحجام عنه، إنّ ذلك كلّهُ نجسٌ معنويٌّ في السلوك أو الاعتقاد من ذرّة كباثر الإثم، أو من ذرّة الإشراك بالله، وهي من تزيين الشيطان وإغوائه، وإذا كان تناول هذه المحرّمات رجساً، ومن عمل الشيطان، فكونوا على جانب منها بالابتعاد الكلّي عن مواقعها؛ رغبة أن تكونوا من الناجين من النار، الفائزين بالجنة.

٩١ - إنّما يُزيّن لكم الشيطان شرب الخمر ولعب القمار؛ إرادة أن يوقع بينكم العداوة المعلنة والبغضاء المستكنة في القلوب؛ بسبب شرب الخمر والقمار، ويشغلكم عن ذكر الله، وعن فعل الصلاة، وإذا كنتم قد علمتم ما في الخمر والميسر مضار، وما يؤذيان إليه من شحناء وبغضاء، وما يفسدان به المجتمعات، أفأنتم بعد ذلك تنتهون عنهما تاركون لهما، أم أنكم مازلتُم في غيكم تعمهون، سادرين عن أمر الله تعالى؟! فانتهوا عما أنتم فيه.

٩٢ - وأطيعوا الله سبحانه وأطيعوا الرسول ﷺ فيما أمركم به ونهاكم عنه، واحذروا مخالفة الله تعالى ومخالفة رسوله ﷺ، فإن أنصرفتُم مبتعدين عما أمركم به ونهاكم عنه، فاعلموا أنكم لن تضروا بتوليكم عن الرسول؛ لأنّه ما كلّف إلاّ البلاغ الواضح الظاهر، والمُظهر المُوضح لقضايا الإيمان، ولشرائع الله وأحكامه، وليس مأموراً بالقيام بوسيلة من وسائل الإكراه والإلزام لإجباركم على الإيمان، وتحويلكم عن الكفر.

٩٣ - لا حرج ولا إثم على الذين آمنوا وعملوا الصّالحات فيما شربوا من الخمر، وأكلوا من مال القمار في وقت الإباحة قبل التحريم، إذا ما اتّقوا الشُّرك، وآمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، وازدادوا من عمل الصّالحات التي تُعبّر عملياً عن صدق الإيمان الإراديّ الاعتقاديّ، ثم اتّقوا الخمر والميسر بعد التحريم وآمنوا بتحريمهما وازدادوا بذلك مراقبة لله عزّ وجلّ وإيماناً به، ثم اتّقوا ما حُرّم عليهم في المستقبل وأحسنوا العمل مع الله تعالى، فقاموا بما أمرهم به مع الإخلاص له، وصدق التوجّه إليه، والإقبال عليه مُشاهدين أو مُراقبين، وأحسنوا العمل مع خلق الله تعالى، واللّه يحبّ المحسنين الذين تقربوا إليه بالإيمان والأعمال الصّالحة، وتحققوا بمرتبة التقوى ثم البر، ثم ارتقوا إلى أعلى درجات الإيمان، وهي الإحسان، ويُشبههم على إحسانهم، ويدخلهم جنّات النعيم؛ لأنّ من أحبه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

٩٤ - يا أيها الذين صدّقوا الله وأتبعوا رسوله: لِيُخْتَبَرَنَّ الله طاعتكم من معصيتكم، وليعلم ثبوتكم معاملته المختبر الكاشف لحقيقة نفوسكم وإراداتكم بشيء قليل من بعض صيّد البرّ في حالة الإحرام، وهذا الصيّد قريب منكم يغري النفس ويحرضها على فعل المنهي عنه؛ إذ أن أيديكم تستطيع تناوله إذا كان قريباً صغيراً، وتستطيع رماحكم تناوله إذا كان كبيراً أو بعيداً؛ لتمييز من يخاف الله وهو لم يره، ممّن لا يخافه، فَمَنْ تجاوز الحدّ وخالف أمر الله بعد إعلامه بأنه اختيار من الله له، فَصَادَ في حالة الإحرام بعد النهي، فله عذاب أليم؛ لاعتدائه وعدم مبالاته بطاعة ربه، ومن لم يتعوّد كَبَح نفسه، وطاعة ربه في الهين من هذه الابتلاءات لا يكاد يكبحها عن العظام والمزالق. وهذا سرٌّ من أسرار الابتلاء.

٩٥ - يا أيها الذين صدّقوا الله وأتبعوا رسوله: لا تَقْتُلُوا صَيِّدَ البرّ، وأنتم مُحْرَمُونَ بالحبّ أو العمرة، أو داخل الحرم وأنتم حلالّ، ومن تعمّد قتل الصيّد منكم فعليه جزاء من بهيمة الأنعام: الإبل أو البقر أو الغنم، مُمَاتِل لما قتل في الخلقة أو القيمة، يحكم بالجزاء في قتل الصيّد رجلاً صالحاً عدلاً من أهل دينكم ومِلَّتكم، تُساق كقارة الهدى إلى الحرم، فيذبح الهدي بمكة تعويضاً عن الصيد، أو يقوم قاتل الصيد المثلّ دراهم، والدراهم طعاماً، ثم يتصدّق به على مساكين الحرم، لكلّ مسكين مُدّ (وهو ميكيال يُقدّر بـ ٥١٠ غراماً)، وإن شاء صام عن كل مُدّ من الطعام يوماً، فَرَضَ الله عليه هذا العقاب؛ ليدرك عاقبة الأمر الذي وقع فيه إدراك من يحسّه ويدوقه، عفا الله عمّا سلف قبل التحريم، فهو في موضع عفو لا يحاسب الله تعالى عليه في الدنيا ولا في الآخرة، ومَنْ عادَ إلى قتل الصيّد مرّة ثانية فيبالغ الله في عقوبته في الآخرة؛ لأن تكرار قتل الصيّد يدلّ على الاستهانة بأمر الله ونهيه، واللّه قويّ غالب، ذو انتقام ممّن عَصَاه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ مَا كَفَرُوهَ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَعْمَهُ بِهٖ ذَوَّاعِلٌ مِّنْكُمْ هَذَا يَبْلُغُ الْكَفَّةَ أَوْ كَثْرَةَ طَعَامٍ مَّسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَٰلِكَ صَيًّا مَّا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

٩٦ - أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ - أيها المسلمون - في حال إحرامكم الانتفاع بجميع ما صيد من البحر ممَّا يُؤْكَل وممَّا لَا يُؤْكَل، وَأَحَلَّ لَكُمْ أَكْلَ مَا يُطْعَم من صَيْدِهِ، يَنْتَفِعُ بِهِ الْمَقِيمُونَ وَالْمَسَافِرُونَ. وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ مَا صِيدَ فِي الْبَرِّ وَأَنْتُمْ مُحْرَمُونَ، وَأَتَّقُوا اللَّهَ فَلَا تَسْتَحِلُّوا الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ وَلَا فِي الْحَرَمِ، وَسْتَحْشِرُونَ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ.

٩٧ - صَيَّرَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ، وَهُوَ جَمِيعُ الْحَرَمِ، لَتَكُونَ صِلَاحًا لِلنَّاسِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ، فَإِنَّهُ بِهِ تَيَّمُّ مَنَاسِكَ الْحَجِّ، وَفِي أَمْرِ دُنْيَاهُمْ، فَإِنَّهُ تُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَجَعَلَهُ مَثَابَةً وَأَمْنًا، وَمَجْمَعًا لِلتَّجَارَاتِ وَالتَّعَارُفِ وَالتَّشَاوُرِ، وَفِي أَمْرِ آخِرَتِهِمْ فِي تَكْفِيرِ الْخَطِيئَاتِ وَعُلُوِّ الدَّرَجَاتِ، وَجَعَلَ اللَّهُ الْأَشْهُرَ الْحَرَمَ الْأَرْبَعَةَ، وَهِيَ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمَحْرَمُ، وَرَجَبُ الْفَرْدِ سَبَبًا لِإِصْلَاحِ أُمُورِهِمْ، يَأْمُنُونَ فِيهَا مِنَ الْقَتْلِ وَالْقِتَالِ، وَكَذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ مَا يُهْدَى مِنَ الْأَنْعَامِ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَمَا يَقْلَدُ بِهِ الْهَدْيُ عِلَامَةً لَهُ، سَبَبًا لِقِيَامِ مَصَالِحِ النَّاسِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْمُنُونَ بِسُوقِ الْهَدْيِ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَكَذَلِكَ كَانُوا يَأْمُنُونَ إِذَا قَلَدُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ لِحَاءِ شَجَرِ الْحَرَمِ، فَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُمْ أَحَدٌ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ مَصَالِحَ الْعِبَادِ كَمَا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ جَمِيعَ الْمَعْلُومَاتِ الْكُلِّيَّاتِ وَالْجَزْئِيَّاتِ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

٩٨ - اَعْلَمُوا - أيها الناس - أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِمَنْ انْتَهَكَ مُحَارِمَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ كَثِيرُ السَّتْرِ، دَائِمُ الرَّحْمَةِ لِمَنْ تَابَ وَأَمِنَ.

٩٩ - لَيْسَ عَلَى رَسُولِنَا الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ إِلَّا تَبْلِيغُ مَا أُرْسِلَ بِهِ، وَقَدْ فَرَّغَ مِمَّا وَجِبَ عَلَيْهِ، وَقَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْكُمْ، وَلَزِمَتْكُمْ الطَّاعَةُ، فَلَا عُذْرَ فِي التَّفْرِيطِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِكُمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

١٠٠ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - : لَا يَسْتَوِي الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَا

الرَّدِيءُ وَالْجَيِّدُ، وَلَا الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ فِي الدَّرَجَةِ وَالرُّتْبَةِ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ - أيها الإنسان - كَثْرَةُ الْخَبِيثِ؛ لِأَنَّ عَاقِبَتَهُ عَاقِبَةُ سُوءٍ، فَاعْمَلُوا - يَا أَصْحَابَ الْعُقُولِ الْوَاعِيَةِ الدَّرَاكَةِ - الْأَعْمَالَ الطَّيِّبَةَ الصَّالِحَةَ، وَاتْرَكُوا الْأَعْمَالَ الْخَبِيثَةَ السَّيِّئَةَ، رَاجِعِينَ أَنْ تَحَقُّقُوا لِأَنْفُسِكُمْ النِّجَاةَ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ، وَالظَّفَرَ بِجَنَاتِ النِّعَمِ.

١٠١، ١٠٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ: لَا تَسْأَلُوا عَنْ حُكْمِ أَشْيَاءَ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ، لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ وَلَا النَّبَوِيُّ، إِنْ تَظْهَرَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ إِنْ أَمَرْتُمْ بِالْعَمَلِ بِهَا؛ لَكُنِ التَّكْلِيفُ بِهَا شَاقًّا عَلَيْكُمْ، أَوْ لَكُنْهَا مُسْتَوْرَةً وَفِي إِظْهَارِهَا فَضِيحَةٌ لِلسَّائِلِ، وَإِنْ صَبَرْتُمْ حَتَّى يُنْزَلَ الْقُرْآنُ بِحُكْمٍ، وَلَيْسَ فِي ظَاهِرِهِ شَرْحٌ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَمَسَّتْ حَاجَتُكُمْ إِلَيْهِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ فَحِينَئِذٍ يُبْدَى لَكُمْ. تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْ بَيَانِ أَحْكَامٍ مِمَّا يَشُقُّ تَطْبِيقَهُ رَحْمَةً بِعِبَادِهِ، وَتَخْفِيفًا عَنْهُمْ، وَاللَّهُ كَثِيرُ السَّتْرِ لِمَنْ تَابَ مِنْكُمْ، حَلِيمٌ يُقَدِّرُ لِكُلِّ وَقْتٍ مَا يَنْتَظِرُهُ، وَلِلنَّاسِ مَا يُصْلِحُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ. قَدْ سَأَلَ السَّابِقُونَ أَنْبِيَاءَهُمْ عَنْ أَمْثَالِ تِلْكَ الْمَسَائِلِ، فَأَجَابُوهُمْ بِبَيَانِ أَحْكَامِهَا، وَلَمَّا أَمَرُوا بِهَا جَحْدُوهَا، فَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ. وَهَذَا النَّهْيُ عَنِ السُّؤَالِ عَنْ حُكْمِ أُمُورٍ لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهَا الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ وَلَا النَّبَوِيُّ فِي عَهْدِ التَّنْزِيلِ، أَمَّا بَعْدَ عَصْرِ التَّنْزِيلِ، فَإِنَّ السُّؤَالَ عَنْ أَحْكَامِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَمْ يَأْتِ بَيَانٌ صَرِيحٌ حَوْلَهَا فِي الْقُرْآنِ أَوْ فِي السَّنَةِ أَمْرٌ مُطْلَقٌ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْاجْتِهَادِ مِنْ فَهْمَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَخْرِجُونَ أَحْكَامَهَا مِنْ مَصَادِرِ التَّشْرِيعِ.

١٠٣ - مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا شَرَعَ مَا ابْتَدَعَهُ الْمُشْرِكُونَ فِي بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ مِنْ تَرْكِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا، وَجَعَلِهَا لِلْأَصْنَامِ، وَهِيَ: الْبَحِيرَةُ الَّتِي تُقَطَّعُ أُذُنُهَا إِذَا وَلَدَتْ خَمْسَةَ أَبْطَنٍ أَوْ عَشْرَةَ، وَالسَّائِبَةُ الْمُخْلَاةُ الَّتِي لَا تَحْبِسُ عَنْ رَعْيٍ وَلَا مَاءٍ، وَلَا يَرْكَبُهَا أَحَدٌ، وَالْوَصِيلَةُ، وَهِيَ الَّتِي تَنْصَلُ وَلادَتَهَا بَأُنْثَى بَعْدَ أَنْثَى، وَالْحَامِي، وَهُوَ الذَّكَرُ مِنَ الْإِبِلِ يُحِمِّي ظَهْرَهُ فَلَا يَرْكَبُ، وَلَكِنْ الْكَفَّارُ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَيَتَجَرَّؤُونَ عَلَى تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ عَقْلًا عِلْمِيًّا يُمَيِّزُونَ فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيَدْرِكُونَ أَنَّ هَذَا كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ مِنَ الرُّؤَسَاءِ عَلَى اللَّهِ، وَلَا يَعْقِلُونَ عَقْلًا إِرَادِيًّا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْإِنْسِيَاقِ وَرَاءَ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَمَا ابْتَدَعَهُ لَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ.

البَيْعَةُ السَّائِغَةُ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٠٤ - وإذا قيل لهؤلاء المشركين: تعالوا إلى ما أنزل الله في كتابه، وإلى حكم رسوله ﷺ. قالوا: قد اكتفينا بما أخذنا من آياتنا من الدين، ونحن لهم تبع. أيصرون على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعرفون شيئاً من الدين، ولا من الحلال والحرام، ولا يهتدون إذا بين لهم الطريق وأرشدوا إليه؟ فالافتداء إنما يصح بالعالم المهتدي الذي يبني قوله على الحجة والدليل، وآباؤهم لم يكونوا كذلك؛ فكيف يصح اقتداؤهم بهم؟!

١٠٥ - يا أيها الذين صدقتم بآركان الإيمان، وعلمتم بشرائع الإسلام، احفظوا أنفسكم من ملبسة الذنوب، والإصرار على المعاصي، لا يضركم - بعد قيامكم بمسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على أيدي الظالمين - ضلال من ضل، إذا كنتم مهتدين، وأطعتم الله عز وجل فيما أمركم به ونهاكم عنه، إلى حساب الله وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه رجوعكم جميعاً، ومكان رجوعكم، وزمانه، فيخبركم بأعمالكم، ويجازيكم عليها.

١٠٦ - يا أيها الذين صدقوا الله وأتبعوا رسوله: إذا قارب أحدكم وقت حضور الموت، فليشهد على وصيته: اثنين أمينين صادقين من أهل دينكم وملئكم - يا معشر المؤمنين -، أو آخرين من غير أهل دينكم وملئكم عند الحاجة، وعدم وجود غيرهما من المسلمين، تشهدونهما، إن أنتم سافرتهم في الأرض، ونزلت بكم أسباب الموت، فأوصيتهم إليهما، ودفعتم أموالكم إليهما، فإن اتهمهما بعض الوزئة وأدعوا عليهما خيانة، فالحكم أن توقفهما من بعد صلاة العصر، فيحلفان بالله، ويقولان: لا نبيع عهد الله بشيء من الدنيا، ولا نحلف بالله كاذبين؛ لأجل عوض نأخذه أو حق نجحده، ولو كان المشهود له ذا قرابة قريبة، ولا نكتم شهادة الله، إنا إذا لمن الأثمين إن كنتم الشهادة أو حثاً فيها.

١٠٧ - فإن أطلع وظهر لأولياء الميت الذي مات في سفر، ولا طريق للعلم بوصيته إلا عن طريق هذين الشاهدين اللذين لهما مع الشهادة

صفة الوصية، فإن ظهر أنهما خانا الأمانة، فلم يقوما بحق الوصاية، وكذباً في الشهادة، فلم يصدقا، وحلفاً يميناً غموساً تغمس صاحبها في النار، وذلك بالاطلاع على شيء من ماله عندهما لم يكن قد جرى ذكره على لسانهما، ومعروف عند ورثته أنه كان يملكه، أو يظهر عليهما يسارٌ مفاجئ، ويتبين من قرائن الأحوال أنه من ماله، أو يظهر من كتب أرسلها المتوفى قبيل وفاته تدل على ما كان يملكه عند الوفاة، ولم يذكره في شهادتهما، مما فيه ضياع حقوق الورثة، وذهاب أموالهم، فلقيم مقام الوصيين في الشهادة آخران من أولياء الميت وأقربائه في إظهار الحقيقة، وبيان ما خفي من إرادة المتوفى وأمواله، وما له من حقوق، وما عليه من واجبات، والآخران اللذان يقومان مقام الأولين من الوزئة الذين حقت عليهم مغبة الإثم ونتائجه، وإذا كانا يتقدمان لإحقاق الحق فلا بد أن يقسما بالله على أمرين: أولهما: أن شهادتهما الصادقة أحق بالقبول من شهادة الآخرين الكاذبة، وثانيهما: أن يقسما على أنهما ما اعتديا، بأخذ ما ليس بحقهما، وما اتهمهما الشاهدين زوراً، ويقولان: إنا إن اعتدينا وشهدنا بغير الحق لمن الظالمين المتجاوزين حدود الله، المستحقين عقاب من يظلم غيره.

١٠٨ - ذلك الذي حكمتنا به من رد اليمين على أولياء الميت بعد أيمانهم أجدر وأحرى إلى أن يأتي الوصيان وسائر الناس بالشهادة على حقيقتها، وأقرب أن يخاف الوصيان أن تُرد الأيمان على أولياء الميت، فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم، فيفتضحوا ويغرما، وخافوا الله - أيها الناس - راقبوه أن تحلفوا أيماناً كاذبة، أو تخونوا أمانة، أو تقتطعوا بأيمانكم مالا حراماً، واسمعوا ما توعظون به سماع إجابة، والله لا يحكم بهداية القوم الخارجين عن طاعته. وكيفية الشهادة على الوصية في حالة السفر الذي جاء في هذه الآيات، التي افتتحت بهذا النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ...﴾ يبين بعض أحكام المعاملات المالية في المجتمع الإسلامي، فالمال أحد الضروريات الخمس التي قررها الإسلام للإنسان، وشرع ما يؤمنها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال. وهذا النداء الإلهي للمؤمنين في الآية (١٠٦) هو النداء السادس عشر والأخير في هذه السورة، وقد تقدمت هذه النداءات الإلهية للمؤمنين في الآيات: ١ و ٢ و ٦ و ٧ و ١١ و ٣٥ و ٥١ و ٥٤ و ٥٧ و ٨٧ و ٩٠ و ٩٤ و ٩٥ و ١٠١ و ١٠٦. والجدير بالذكر أن الله تعالى لم يذكر في أي سورة من سور القرآن الكريم مثل هذا العدد من الآيات الكريمة المصدرة بهذا النداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فسورة البقرة، وهي أطول سور القرآن الكريم فيها إحدى عشرة آية فقط مفتتحة بهذا النداء. ويُعتبر كل نداء من هذه النداءات الموجهة للمؤمنين في هذه السورة قانوناً يُنظم ناحية من نواحي الحياة عند المسلمين فيما يختص بأنفسهم، وفيما يختص بعلاقتهم مع أهل الكتاب.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٥﴾ يٰ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ يٰ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةً لِمَوْتٍ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْوَصْلَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا تَشْتَرِي بِهِ مَتْنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا تَنْكُتُمْ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴿١٠٧﴾ فَإِنْ عُرِضَ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهِدَتِهِمَا وَمَا أَغْتَدِيَنَّآ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٨﴾ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَحَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَأَنْفَعُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٩﴾

يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِشْرَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمْنَا الْغُيُوبَ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقِصَ ابْنُ مَرْيَمَ أذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُّثْنٍ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا أَمَّا نَا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِيَعْقِصَ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالُوا أَنفِقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾

١٠٩ - اذكروا - أيها الناس - يوم يجمع الله الرُّسُلَ عليهم السلام يوم القيامة، فيقول الله تبارك وتعالى للرسل: ماذا أجابتمكم أممكم حين دَعَوْتُمُوهُمْ إلى توحيددي وطاعتي؟ قال الرسل: لا علم لنا بإخلاصهم وعاقبة أمرهم؛ إِنَّكَ أَنْتَ وحدك العالم علماً ليس فوقه علم بكل ما يغيب عن إدراك المخلوقات، لا تخفى عليك خافية.

١١٠ - ضَع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي لبياننا - حين قال الله يوم القيامة: يا عيسى ابن مريم، اذكر نعمتي عليك في خلقي إِيَّاكَ من أم بلا ذكر، وجعلني إِيَّاكَ آيَةً ودلالة قاطعة على قدرتي، واذكر نعمتي على والدتك، حيث أنبتُها نباتاً حسناً، واضطَّفتُها على نساء العالمين، وبرَّانها مما نُسب إليها. ومن نعمي عليك: أَنِّي قَوَّيْتُكَ وأمددتك بالروح الطاهرة «جبريل» عليه السلام، تُكَلِّمُ النَّاسَ طفلاً في زمن الرضاعة قبل أوان الكلام، وفي حال اكتمال القوة بعد نزولك من السماء، فتدعو إلى الله في صغرك وكبرك، وتُكَلِّمُهُم في هاتين الحالتين من غير أن يتفاوت كلامك في زمن الطفولة وزمن الكهولة، وعلمتكَ الكتابة والفهم والاطلاع على أسرار العلوم، وقوة الفهم والإدراك، وحسن تدبير الأمور، ووضع الأشياء في مواضعها، وعلمتكَ التوراة التي أنزلتها على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزلته عليك هداية لبني إسرائيل، واذكر - يا عيسى - هذه المعجزات الأربع: المعجزة الأولى: تُقَدِّرُ وتُصَوِّرُ من الطين كصورة الطير بإذني، فتنفخ في تلك الهيئة، فتكون طيراً ذا روح بإذني، والمعجزة الثانية: تمسح على الأعمى المَطْمُوس البصر، الذي لم يَرِ النور منذ ولادته، فيُعِيد الله له بصره، ويُزِيل عنه عَمَاه، والمعجزة الثالثة: تمسح على الأبرص الذي يكون في مواضع متفرقة من جسمه بياض مُتَفَرِّق، فيعود جلده سليماً بإذني، والمعجزة الرابعة: تُخْرِجُ الموتى من قبورهم أحياء بإذني، واذكر نعمتي عليك وقت

صَرَفْتُ عَنْكَ الْيَهُودَ حين أرادوا قتلَكَ عندما جئتَهُم بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات، فقال الذين استمروا على كفرهم من اليهود ولم يؤمنوا بهذه المعجزات: ما جاءهم به عيسى عليه السلام من تصوير الطير والنفخ فيه بالحياة، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى إلا سحرٌ ظاهرٌ تنخدع به الأبصار، دون أن يكون له في الواقع حقيقة!! مع أنها أمور واقعة محسوسة، وليست تمويهاً باطلاً خادعاً ولا تخيلاً، مما يدل على أَنَّ الْمُتَعَتِّ لَا تَزِيدُهُ الْحُجَّةُ إِلَّا طَغْيَانًا وكُفْرًا، وكلُّمَا قُوِيَتِ الْحُجَّةُ تحَرَّكَتْ في نفسه عوامل الحسد والحقد، فأوجدت ضغناً، فيطمس الله تعالى على بصيرته، فلا يدرك الحق ولا يذعن له.

١١١ - واذكر - يا عيسى ابن مريم - نعمتي عليك حين ألهمت أصحابك وخَوَاصَّكَ، وألقيت في قلوبهم أَنَّ آمَنُوا بي وصدَّقُوا بوحدانيَّتي، وبنبوة رسولي عيسى. قالوا: صدَّقنا يا ربَّنَا، واشْهَد بَأَنَّ مُتَقَادُونَ لأمرك وخاضعون لك.

١١٢ - واذكروا حين طَلَبَ أَصْفِيَاءُ عيسى وخاصته وأنصاره من عيسى عليه السلام آيَةً عظيمة تُورِثُهُمْ مَزِيدَ الطمأنينة، فقالوا: يا عيسى ابن مريم، آمَنَّا أَنَّ الله قَادِرٌ عَلَى إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، فهل يستجيب ربُّكَ لك دعاءك إِنْ سَأَلْتَهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، تعمُّ كُلَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ، وتكونُ عِيدًا لَأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا؟! قال عيسى مُجِيبًا لِلْحَوَارِيِّينَ: اتَّقُوا غَضَبَ الله، وكثرة السؤال، فإنكم لا تدرون ما يحلُّ بكم عند اقتراح الآيات، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بالله، وبما جئت به، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غنى.

١١٣ - قال الحواريون مجيبين لعيسى عليه السلام: إِنَّمَا نَطْلُبُ نَزُولَ الْمَائِدَةِ عَلَيْنَا، لِأَرْبَعَةِ أُمُورٍ: الأول: لكي نَأْكُلَ مِنْهَا جميعاً، وننال بركتها، في يوم جامع نجعله عيداً سنوياً ننتهج فيه بذكرى هذه المائدة السماوية المعجزة، والثاني: تسكن قلوبنا، فلا يبقى فيها نزعة تساؤل أو قلق بعد أن نأكل منها، ونزداد يقيناً وطمأنينة بأنَّ الله معنا، يكرمنا وينعم علينا، والثالث: نعلم علم مشاهدة أَنَّ قَدْ صَدَّقْتَنَا في نبوتك وآياتك ومعجزاتك وفي كُلِّ ما قلت لنا، والرابع: نكون على هذه المعجزة الكبيرة من الشاهدين عند الذين لم يَزَوْهَا من قومنا؛ لِيُؤْمِنَ كَافِرُهُمْ، ويزدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً.

البينة الشانج

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ
خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ مِنْ تَحْتِهَا
مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾
وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا
وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي
نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ
وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ
يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

١١٤ - أجاب عيسى ابن مريم طلب الحواريين، فدعا ربه عز وجل قائلاً: يا الله، يا ربنا أنزل علينا مائدة طعام من السماء، نتخذ يوم نزولها عيداً لنا، نعبد الله فيه، كما يعبد الناس ربهم في أعيادهم، وهذا العيد يكون عيداً للأحياء منا وقت نزولها، ولمن يأتي بعدنا، وتكون المائدة دلالة على كمال قدرتك ووحدةانيتك، وحنة يصدقون بها رسولك، وارزقنا ذلك من عندك، أنت الرازق لنا، وأنت خير من تفضل ورزق، لا يشوب عطاءك نقص ولا نكد.

١١٥ - قال الله عز وجل: إني سأنزل عليكم المائدة، بناء على طلبكم، وسأطعمكم إياها، وعليكم أن تقبلوها هذا بذكري وشكري والثناء عليّ، وزيادة إيمانكم بي، فإذا لم تفعلوا، وقابلتم ذلك بالكفر، فإني سأعذب الكافر منكم عذاباً لا أعذبه أحداً من عالمي زمانهم. وقد أجرى الله سبحانه هذه الآية الباهرة، والمعجزة الخارقة، فبينما كان الحواريون جالسين مع عيسى عليه السلام، وبعدما دعا عيسى ربه، أنزل الله عليهم المائدة من السماء، فرفع القوم أبصارهم، وإذا بهذه المائدة تنزل من السماء، وعليها مختلف أصناف الطعام الشهي، واستمرت في نزولها المتدرج حتى استقرت أمامهم على الأرض، فمدوا أيديهم، وأكلوا منها، وحمدوا الله وشكروا على هذه النعمة الغامرة.

١١٦ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لبياننا - حين قال الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم القيامة توبيحاً لقومه على رؤوس الأشهاد: أأنت قلت للناس اجعلوني وأمّي معبودين من دون الله؟ كما زعمت النصراني؟!

قال عيسى عليه السلام: تنزيهاً لك عن النقائص، وبراءة لك من العيوب، ليس من شأني أن أقول مثل هذا القول، ولا يمكن أن يصدر عني؛ لأنه ليس بحق، ولست أستحق العبادة حتى أدعو الناس إليها. إن كنت قلت هذا فقد علمته، تعلم ما تُضمّره نفسي، ولا أعلم أنا ما في نفسك، إنك أنت وحدك العالم علماً ليس فوقه علم بجميع ما غاب عن حواس وإدراك المخلوقات، لا تخفى عليك خافية في الأرض ولا في السماء.

١١٧ - قال عيسى عليه السلام: يا رب ما قلت لهم إلا قولاً أوحيتني إليّ، وأمرني بتبليغه، أن اعبدوا الله ووحده ولا تشركوا به شيئاً، فهو المستحق للعبادة وحده؛ لأنه هو الذي خلقتني، فأنا مخلوق، فكيف أكون إلهاً، وهو الذي خلقكم وحده فكيف تعبدون غيره؟ وكنت مُشاهداً لهم، رقيباً عليهم، وما تركت تنبيههم إلى التوحيد مدة بقائي فيهم، فلما أخذتني وافيّاً بالرفع إلى السماء حياً، كنت أنت وحدك الحفيظ عليهم، المراقب لأعمالهم وأقوالهم، المطلع على سرائرهم، وأنت الحاضر المعين الشهيد على كل شيء، لا تخفى عليك في الوجود خافية.

١١٨ - قال عيسى عليه السلام: إن تُعذب بعدلك هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، فإنهم عبادك لا يقدرون على دفع ضرر نزل بهم، ولا جلب نفع لأنفسهم، وإن تغفر برحمتك لمن تاب من كفره منهم، وتستر سيئاتهم، فإنك أنت القوي الغالب في انتقامك لا يمتنع عليك ما تريد، الحكيم في أفعالك كلها.

١١٩ - قال الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم القيامة: هذا يوم الجزاء الذي ينفع الصادقين في إيمانهم وأعمالهم وأقوالهم في الدنيا، صدقهم في الآخرة، لهم جنّات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم بطاعتهم له، وقبول حسناتهم، ورزقوا عنه بما أعطاهم من ثواب عظيم ورضوان كبير، ذلك الجزاء والرضا منه هو الفوز العظيم.

١٢٠ - لله وحده لا شريك له، ملك السموات والأرض وما فيهن، ومن كان له ملك السموات والأرض ومن فيهما، كان الناس في الأرض عبيده؛ إذ هو مالِكهم، وهو ذو السلطان الكامل عليهم، وهو سبحانه الذي يستحق الإلهية، وهو على كل شيء يشاؤه من الممكنات العقلية قدير، إيجاداً أو إعداماً، أو تغييراً، أو تحويلاً، لا يعجزه شيء مهما عظم، ولا يصعب عليه شيء مهما كبر.

١ - الشَّاءُ الْحَسَنُ كُلُّهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لَأنَّهُ مُتَّصِفٌ بِكُلِّ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَمُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ النِّقْصِ، وَمِنْ آثَارِ صِفَاتِهِ الَّتِي اسْتَغْرَقَتْ كُلَّ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، عَلَى مَا هُمَا عَلَيْهِ مِنْ بَدِيعِ الصَّنْعِ وَالْإِحْكَامِ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ، آيَاتٍ لِلْمُتَفَكِّرِينَ، وَدَلَالَةً عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا - مَعَ قِيَامِ هَذِهِ الدَّلَالِ - يُشْرِكُونَ وَيَجْعَلُونَ لَهُ عِدْلًا فِي خَلْقِهِ، وَيَمِيلُونَ عَنْهُ، وَيَنْصَرِفُونَ إِلَى غَيْرِهِ فَيَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ. وَفِي هَذِهِ آيَةِ رَدٍّ عَلَى ثَلَاثَةِ مَلَلٍ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فِيهِ رَدٌّ عَلَى الدَّهْرِيَّةِ، الَّذِينَ يَنْكُرُونَ الْخَالِقَ وَالْبَعْثَ وَالْإِعَادَةَ، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ رَدٌّ عَلَى الْمَجُوسِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الظُّلْمَةَ وَالنُّورَ هُمَا الْمُدْبِرَانِ، ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فِيهِ رَدٌّ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ، وَمَنْ دَعَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا.

٢ - اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنْ مَاءٍ وَتَرَابٍ وَأَنْتُمْ مِنْ نَسْلِهِ، مَخْلُوقُونَ مِنْ طِينٍ تَبَعًا لَهُ، كَمَا أَنَّ جَسَدَ كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ طِينٍ تَحُولُ بِخَلْقِ اللَّهِ إِلَى غِذَاءٍ، فِدَاءٍ، فَنُطْفٍ، فَاجْتَنَّةٍ، ثُمَّ أَنْهَى بِالْمَوْتِ أَجَلَ مَا كَانَ قُدْرَهُ وَأَمْضَاهُ لِحَيَاةِ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَأَجَلَ مُحَدَّدٍ مُعَيَّنٍ بِزَمْنِهِ لِكُلِّ مَا قُدْرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ، ثُمَّ أَنْتُمْ - أَيُّهَا الْمَشْرِكُونَ - مَعَ ظُهُورِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ تَشْكُونَ فِي الْبَعْثِ، وَتَجَادِلُونَ فِيهِ، فَالَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ، وَقَدَّرَ أَجَالَكُمْ، قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ خَلْقِكُمْ وَبَعْثِكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ.

٣ - وَهُوَ سَبْحَانَهُ إِلَهُ السَّمَوَاتِ وَالْإِلَهَ الْأَرْضِ الْمَعْبُودِ فِيهِمَا، يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ فِي ضَمَائِرِكُمْ، وَمَا تُظْهِرُونَ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، لَا تُخْفِي عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ بِإِرَادَاتِكُمُ الْخَيْرَ أَوْ الشَّرَّ، وَمَا تَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ ثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُّونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ لَكَرْهُمُ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُومٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٨﴾

- ٤ - وَمَا تَأْتِي هَؤُلَاءِ الْعُتَاةَ الْمُصْرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ آيَةٌ مَا مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمُ الْبَيِّنَاتِ أَوْ الْإِعْجَازِيَّةِ، إِلَّا أَعْرَضُوا عَنْهَا، وَلَمْ يَعْزُبُوا بِهَا.
- ٥ - فَبَسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الْعِنَادِي السَّابِقَ، تَحَقَّقَ تَكْذِيبُهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَمَا أَتَى بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْمُعْجَزَاتِ لَمَّا جَاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ يَوْمَ الدِّينِ تَحْقِيقُ الْأَنْبَاءِ الَّتِي كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَسْتَهْزِؤْنَ بِهَا.
- ٦ - أَلَمْ يَرَ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبُونَ بِآيَاتِي أَنَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ أَعْدَادًا كَثِيرَةً مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمُقْتَرَنَةِ فِي زَمَنِ وَاحِدٍ، أَعْطَيْنَاهُمْ فِي أَرْضِهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالسَّيْطَةِ فِي الْأَجْسَامِ وَالْأَمْوَالِ مَا لَمْ نُعْطِكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ، وَأَرْسَلْنَا الْمَطَرَ عَلَيْهِمْ غَزِيرًا مُتَّابِعًا كَثِيرًا فِي أَوْقَاتِ الْحَاجَةِ؛ رَحْمَةً مِنَّا وَإِنْعَامًا، وَأَجْرَيْنَا لَهُمُ الْمِيَاهَ الْعَذْبَةَ فِي الْأَنْهَارِ بَعْدَ إِنْزَالِهَا مِنَ السَّمَاءِ، تَجْرِي فِي مَجَارِيهَا تَحْتَ مَسْتَوَى سَطْحِ الْأَرْضِ، فَعَاشُوا فِي خَضْبٍ وَسَعَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ التَّمَكِينِ وَهَذِهِ الْقُوَّةِ أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَأَنْشَأْنَا بَسْئَةَ التَّكَامُلِ الْمُتَدْرِّجِ مِنْ بَعْدِ هَلَاكِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ بَدَلًا مِنْهُمْ، أَفَلَا يَعْتَبِرُ أَهْلُ مَكَّةَ بِذَلِكَ فَلَا يَسْتَمِرُّوا فِي كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ!
- ٧ - وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مِنْ عِنْدِنَا مَكْتُوبًا فِي صَحِيفَةٍ كَمَا طَلَبُوا، فَأَرَوْهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ، لَمَّا آمَنُوا بِهِ، وَلَقَالُوا إِمْعَانًا مِنْهُمْ فِي الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ: مَا هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فِي قِرْطَاسٍ إِلَّا سِحْرٌ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ، تَخْدَعُ بِهِ الْأَبْصَارُ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي الْوَاقِعِ حَقِيقَةٌ. فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلِيمٌ بِمَا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ عِنَادٍ وَمَكَابِرَةٍ وَإِصْرَارٍ عَلَى الْبَاطِلِ، وَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِكَ وَلَوْ جِئْتَهُمْ بِمَا يَطْلُبُونَ مِنْ آيَاتِ خَوَارِقِ، مَا زَالُوا يُلْحُونَ بِطَلْبِهَا عَلَى سَبِيلِ التَّشْهِي وَالْتَعَتُّ.
- ٨ - وَقَالَ أُنْمَةُ الْكُفْرِ الْمُعَانِدُونَ الْمُصْرُونَ عَلَى بَاطِلِهِمْ: هَلَّا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَلَكٌ نَرَاهُ عَيَانًا، وَنُخْبِرُنَا أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ؛ لِنُصَدِّقَهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ مَلَكَ مِنَ السَّمَاءِ فِي صُورَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَشَاهَدُوهُ بِأَعْيُنِهِمْ، لَفَرَّغَ الْأَمْرُ وَلَوْجِبَ الْعَذَابُ، ثُمَّ لَا يَنْهَلُونَ وَلَا يُؤْخَرُونَ طَرَفَةَ عَيْنٍ بَعْدَ إِنْزَالِهِ وَمُشَاهَدَتِهِمْ لَهُ، بَلْ يُعَجِّلُ لَهُمُ الْعَذَابَ، كَمَا هِيَ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ.

البقرة السابعة

سورة البقرة

٩ - ولو أرسلنا إليهم ملكاً، لجعلناه مُثَشِّلاً في صورة رجل من الناس؛ ليتسنى لهم مشاهدته، بحسب استعدادهم البشري، وعندئذ يلتبس عليهم الأمر، فلا يعرفون: هل هو ملكٌ حقيقة، أو رجلٌ من الناس؟! إذ تلبس الصور المتشابهة على أبصار الناظرين، وعندئذ يقولون: هذا أيضاً بشرٌ من البشر، وليس ملكاً، فيكذبون، فيستحقون الإهلاك.

١٠ - وأقسم مؤكداً لك - يا رسول الله - أنه استهزئ برسول من قبلك كما استهزئ بك، فأحاط بالذين سخروا من الرسل العذاب الذي كانوا يهزؤون به، وينكرون وقوعه. فلست - يا رسول الله - أول من طلب منه إنزال الملك عليه على سبيل الاستهزاء، بل قد وقع من الكفار السابقين مع أنبيائهم.

١١ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المستهزئين: سيروا في الأرض مُتَفَكِّرينَ، فابحثوا في الآثار ونقبوا، ثم انظروا بأعينكم بعد البحث والتنقيب في آثارهم المَطمورة: كيف كان جزاء المُكذِّبين؟ وكيف أورثهم الكفر والتكذيب العقاب الرباني الشامل.

١٢ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المُكذِّبين: لمن ملك ما في السموات والأرض؟ قل: الله. أوجب وقضى على نفسه باختياره الرحمة، وكتب هذا في اللوح المحفوظ، فلا يُعجل بالعقوبة، بل يقبل التوبة ممن تاب، فأقبلوا عليه ولا تتولوا عنه، والله ليجمعنكم بعد البعث مسوقين إلى موقف الحساب وتفضل القضاء يوم القيامة لا شك فيه أنه آتٍ؛ فلا يغرنكم هذا الإمهال. الذين خسروا أنفسهم؛ باختيارهم الشرك في الحياة الدنيا، وانقطعت بينهم وبين الإيمان كل الأسباب، فهم لا يؤمنون مهما دَمَعْتَهُمُ الحُجَجَ، ووَجَّهْت لهم المواعظ والإنذارات، فعرضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه.

١٣ - ولله وحده ما سَكَنَ وما تَحَرَّكَ في الليل والنهار؛ لأن كل ساكن في الوجود هو ذو حركة ما، فجميع الموجودات ملكٌ لله تعالى لا لغيره، وهو السميع لأقوالهم وأصواتهم، العليم بسرائرهم وأحوالهم.

١٤ - قل لهم - يا رسول الله - : أعير الله أنْخِذَ ناصراً ومُعِيناً، أَسْتَنْصِرُهُ وَأَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى النَّوَائِبِ، وهو مُبْدِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، وهو غَنِيٌّ عَنِ الْخَلْقِ، وَالْخَلْقُ جَمِيعاً مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، يُطْعِمُ مَخْلُوقَاتِهِ، وَيَمْدُهُم بِأَسْبَابِ الْحَيَاةِ وَالنَّمَاءِ، وَلَا يُطْعِمُهُ أَحَدٌ؟ قل - يا رسول الله - : إني أمرت بأن أكون أول من اسْتَسْلِمَ لأَمْرِ اللَّهِ، وَاِنْقَادَ إِلَى طَاعَتِهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقِيلَ لِي: لَا تَكُونَنَّ - يا رسول الله - مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

١٥ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين دَعَوْكَ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِي: إني أخاف إن عَصَيْتُ رَبِّي، فخالفت أمره، وأشركت معه غيره في عبادته، أن ينزل بي عذاب عظيم يوم القيامة.

١٦ - من يُصْرَفُ عَنِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَدْ رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَنَالَ الثَّوَابَ، وَإِنَّ النِّجَاةَ مِنَ الْعَذَابِ وَحَصُولَ الرَّحْمَةِ هُوَ الظَّفَرُ الْوَاضِحُ الظَّاهِرُ.

١٧ - وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ - أيها الإنسان - مَسّاً خَفِيفاً بِشَيْءٍ تَكْرَهُهُ وَتَرَاهُ ضَرّاً، فَلَا يَوْجِدُ أَحَدٌ فِي الْكَوْنِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْشِفَهُ عَنْكَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَيْفَ لَوْ كَانَ إِصَابَةً دَاخِلَةً إِلَى الْعُمُقِ؟ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ مَسّاً خَفِيفاً بِمَا تَحُبُّ مِنَ الدُّنْيَا وَتَرَاهُ خَيْراً لَكَ فَلَا مَزِيلَ لَهُ إِلَّا هُوَ، فَكَيْفَ لَوْ كَانَتْ إِصَابَةً دَاخِلَةً إِلَى الْعُمُقِ؟ وَهُوَ سَبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤُهُ مِنْ دَفْعِ الضَّرِّ وَجَلْبِ الْخَيْرِ، عَظِيمُ الْقُدْرَةِ، لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ، فَلَا تَتَّخِذْ وَلِياً سِوَى اللَّهِ.

١٨ - والله سبحانه هو الآخذ الغالب لعباده، الْمُقْتَدِرُ عَلَيْهِمْ، الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ، فَهَمَّ تَحْتَ تَسْخِيرِهِ وَتَذَلِيلِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي أَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ عِبَادَهُ، يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا، وَيَخْتَارُ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ وَأَتْقَنَهَا وَأَحْسَنَهَا فِي الْأُمُورِ الْمُخْتَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائِجِ، الْخَيْرُ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَا يُصْلِحُهُمْ عَلَى سَبِيلِ الشُّهُودِ وَالْحَضُورِ الْمُصَاحِبِ لِكُلِّ أَجْزَاءِ الْعَمَلِ، ظَوَاهِرُهُ وَبَوَاطِنُهُ.

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمَا مَا يَلِيسُوتُ ١ وَلَقَدْ اسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٢ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُهُ الْمُكَذِّبِينَ ٣ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنْتُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةً لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٤ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٥ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَأَطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ قُلْ إِنْ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٦ قُلْ إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٧ مَنْ يَصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ ٨ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ١٠



١٩ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين يُكذِّبونك: أي شيء أعظم شهادة يشهد لي بأنني رسول الله؟ فإن هم أجابوك، وإلا فقل أنت - يا رسول الله -: اللَّهُ حاضِرٌ مُعَايِنٌ شَهِيدٌ بيني وبينكم، يشهد لي بالحق فيما جئتكُم به، ويشهد عليكم بالباطل الذي تقولونه؛ لأنه أوحى إليَّ هذا القرآن، وهو أكبر معجزة وأصدق دليل، وقد أوحى إليَّ هذا القرآن من أجل أن أخوفكم بعقاب عاجل أو آجل، ولأنذر بما جاء في القرآن من إنذارات وعقابات، مَنْ بَلَغَتْهُ دعوتي، وَبَلَغَهُ ما جاء في القرآن مَنْ يَأْتِي بعدي إلى يوم القيامة.

قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين اتَّخذوا آلهةً غيري: أيُّكم أيُّها المشركون لتشهدون أنَّ مع الله الأصنام التي تعبدونها؟

قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: لا أشهد بما تشهدون به. قل لهم: ما المعبود الحقُّ إلا إلهٌ واحدٌ، لا شريك له، وبذلك أشهد، وأؤكد لكم بصراحة وقوة أنني بريء من كل شيء تعبدونه سوى الله.

٢٠ - الذين اتَّيناهم التوراة والإنجيل من علماء اليهود والنصارى، يعرفون رسول الله ﷺ بصفاته المكتوبة عندهم كما يعرفون أبناءهم، فكما أنَّ أبناءهم لا يشتبهون أمامهم بغيرهم، فكذلك محمد ﷺ لا يشبهه بغيره لدقَّة وصفه في كتبهم، ولكنهم جحدوا نبوته، وأنكروا معرفته، واتبعوا أهواءهم، فأهلكوا أنفسهم وأبقوها في نار جهنم بإنكارهم نبوة محمد ﷺ، فهم لا يؤمنون به ﷺ.

٢١ - لا يوجد أعظم كفراً وأشدَّ عناداً من هذين الفريقين: الفريق الأول: الذي اختلق على الله كذباً، فزعم أنَّ له شريكاً من خلقه، الفريق الثاني: كذبَ بآيات القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ؛ إنَّه لا يفوز بمطلوبهم الظالمون من ذرَّة الكفر، القائلون على الله الكذب، والمُفْتَرُونَ على الله الباطل.

٢٢ - وَضَع في ذاكرتك - أيُّها المُتَلَقِّي لبياننا - يومَ نجمع العابدين والمعبودين يوم القيامة، ثُمَّ نقول للذين أشركوا: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم يشفعون لكم يوم القيامة!!

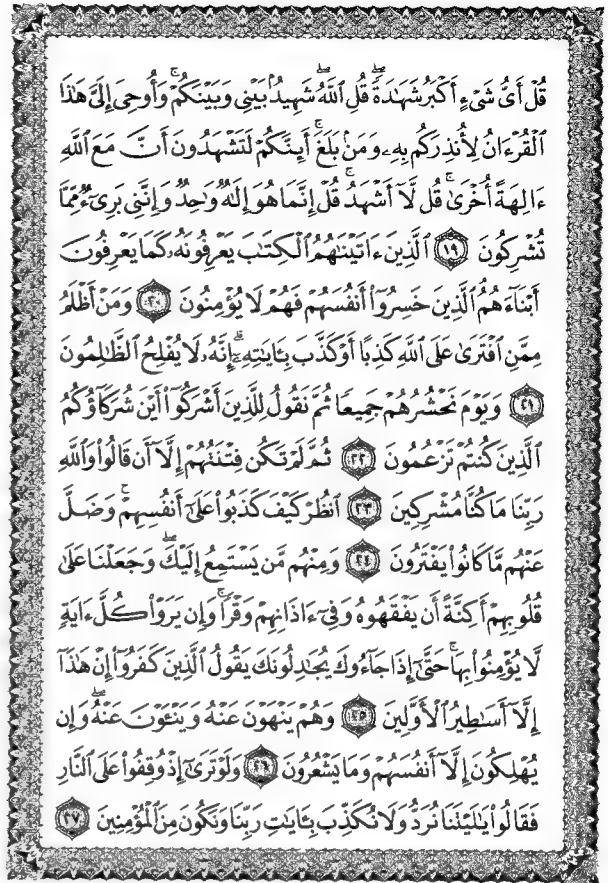
٢٣ - ثُمَّ لم تكن نتيجة محتتم الشديدة في هذا الموقف إلا أن تبرؤوا من الأصنام، بغية الاعتذار والتهرب من الإدانة بشركهم الذي كان منهم في الحياة الدنيا، وقالوا: واللَّهِ ربُّنا ما كنَّا مشركين مع الله غيره، متوهِّمين أنَّ الأيمان الكاذبة تنجيهم من جريمة الشُّرك بالله، ويغفلون عن أن الله عليهم بما في قلوبهم، فعرضوا أنفسهم لعذابٍ أليم على أيمانهم الفاجرة، قبل إلقاتهم في جهنم؛ لينالوا العذاب الدائم على كفرهم.

٢٤ - انظر - أيُّها المُتَلَقِّي - نظر تفكُّر واعتبار، كيف تبرؤوا في موقف الحساب بين يدي ربِّهم من الأصنام والشُّرك الذي كانوا عليه بالكذب والاعتذار بالباطل؟ وزال عنهم وذهب عن ذاكرتهم الذي كانوا يفترونه على ربِّهم من شركاء، ويصطنعونه من ادِّعاءات هم فيها كاذبون.

٢٥ - وبعض أئمة الكفر في مكة مَنْ يستمع إلى قراءتك وكلامك - يا رسول الله -، وجعلنا على قلوبهم حُجْباً كثيفة مانعةً لهم من أن يفهموه فهماً عميقاً، وجعلنا في آذانهم صَمَماً وثقلاً يمنعهم من استماع القرآن على وجه القبول، وإن يَرَوْا كُلَّ معجزة من المعجزات الدالة على صدق نبوتك لا يُصدقوا بها، حتى إذا جاؤوك - يا رسول الله - بعدمَا رَأَوْا آيَات واستمعوا القرآن، جاؤوا لِيُجادلوك ويخاصموك، يقول الذين كفروا: ما هذا القرآن إلا أكاذيب الأولين ومكتوباتهم ومسطوراتهم.

٢٦ - وهؤلاء المشركون يَنْهَوْنَ الناس عن اتباع محمد ﷺ، والاستماع إليه، ويتباعدون عنه بأنفسهم، وما يُهلكون بأعمالهم الإجرامية إلا أنفسهم، ولا يرجع وبال كفرهم إلا عليهم، وما يشعرون بذلك.

٢٧ - ولو ترى - أيُّها الرائي - أئمة الكفر والشُّرك حين يُحبسون على المكان المشرف على هاوية النار، عند أبوابها، ويشاهدون ما فيها من السلاسل والأغلال، لرأيتهُم ينادون: يا ليتنا نَعَاذُ إلى الحياة الدنيا مرةً أخرى، فنصدقَ بآيات الله، ونكون من المؤمنين.



الجنة الشاه

سورة الأنعام

بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَحْفُقُونَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنَّا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا
بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ فَدَخَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَسَاءَ مَا يَرْزُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهُوَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٣٢﴾ فَدَنَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ
وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ
رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمُ نَصْرُنَا
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ
﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْغِي
نَفَقَاتِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمَا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

٢٨ - ليس الأمر كما يقولون، بل بدأ لهم أن يعلنوا على رؤوس
الأشهاد نذمتهم وحسرتهم، بعد أن عاينوا بأبصارهم، وهم مشرفون
على هاوية جهنم، موافقهم فيها، فاشتد ذعرهم وخوفهم، وكانت
لواعج الندم والاستجداء أموراً يخفونها في مواقفهم السابقة،
واستمروا في إخفائها حتى عاينوا مباشرة مصيرهم، ولو ردوا إلى
حياة الامتحان في الدنيا بعد وقوفهم على النار، لعادوا لما نهوا عنه
من الكفر والتكذيب، وإنهم لكاذبون في ادعائهم أنهم إذا أعيدوا إلى
حياة الامتحان، فسيكونون مؤمنين يعملون الصالحات.

٢٩ - وقال الكفار: ما حياتنا التي لنا في الوجود كله إلا حياتنا
الدنيا؛ وما نحن بمبعوثين لحياة أخرى بعد الموت.

٣٠ - ولو ترى - أيها الرائي - منكري البعث، حين وقفوا على
موقف محاكمة ربهم لهم، لرأيت ذلتهم واعترافهم بأن ما كانوا
يكذبون به في الدنيا حق. قال الله تعالى لهم يوم القيامة: أليس هذا
الذي أنتم فيه تحسونه وتعيشون فيه بعد بعثكم إلى الحياة الأخرى
بالواقع الحق، وهو الأمر الذي كنتم تنكرونه في الدنيا؟ فاعترفوا بما
أنكروه. وقالوا: بلى والله إنه لحق. قال الله تعالى لهم: ادخلوا
النار، فذوقوا العذاب بسبب كفركم وجحودكم البعث بعد الموت
استكباراً واتباعاً للهوى.

٣١ - قد خسر الذين كذبوا بالبعث بعد الموت أنفسهم، وفاتهم
الثواب العظيم في دار النعيم المقيم، حتى إذا جاءت ساعة موت
كل واحد منهم، وساعة إنهاء ظروف الحياة فجأة، قالوا: يا ندامتنا
على ما قصرنا وضيعنا في الحياة الدنيا مما هو سبب نجاتنا وسعادتنا
الأبدية، والحال أنهم يحملون أثامهم وخطاياهم الثقيلة على
ظهورهم، كما تحمل البغال والحمير الأحمال الثقيلة على ظهرها.
تنهوا وتحققوا بشئ ما يحملون من أثام وجرائم على ظهورهم.

٣٢ - وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب بآطال لا ثمرة له سوى التعب، وهو شغل عما يعني ويهمهم، والجنة خير للذين يطيعون أوامر
الله، ويتقون العقاب على معاصيه. أفقدتم ما وهبناكم من عقل علمي يميز بين الحق والباطل، والخير والشر، وما وهبناكم من عقل
إرادي يضبط أهواءكم وشهواتكم، فأنتم بسبب ذلك لا تعقلون؟!

٣٣ - نؤكد لك - يا رسول الله - تحقق حصول علمنا بكل ما يحزنك حيناً بعد حين مما يقول الكافرون لك، فإنهم في حقيقة الأمر
لا يكذبونك؛ لأنهم يعتقدون صدقك فيما تبليغ عن ربك، ولكن الكافرين لظلمهم يكذبون بالبراهين الدالة على نبوتك، فلا تعبأ بهم
ولا تهتم لأقوالهم.

٣٤ - وأؤكد لك توكيداً مشدداً - يا رسول الله - أن رسلاً من قبلك كذبوا وأودوا كما كذبك قومك وأدوك، فصبر الرسل عليهم
السلام على تكذيب قومهم إياهم وأذاهم، حتى أتاهم نصرنا بإهلاك من كذبهم، فاصبر كما صبروا، فسأيتك نصرنا لك وللمؤمنين
معك، ولا مبدل لكلمات الله التكوينية والتكليفية والجزائية؛ ومنها: سنه في ابتلاء رسله بتكذيب الكافرين وإيذائهم لهم؛ لاختبار
مقدار صبرهم، ومنها: أن الله لا يجري خوارق آياته الإعجازية، على خلاف سنه التكوينية، إذا كان إجراؤها عبثاً، لقوم جاحدين،
ومنها: أن الله لا يعجل عقاب الذين لم يستجيبوا لدعوة رسله، بل يمهلهم حتى آخر زمن، ليراجعوا باختيارهم الحر عن عنادهم
وإصرارهم على الباطل، ولقد جاءك - يا رسول الله - في بياناتنا السابقة بعض نبا المرسلين الذين كذبته أممهم، فليس ما جرى
لك - يا رسول الله - من قومك على خلاف ما جرى للرسل السابقين مع أممهم وأقوامهم.

٣٥ - وإن كان عظم عليك، وشق على نفسك - يا رسول الله - الهم والحزن بسبب إعراض هؤلاء المشركين عن الإيمان بك، وعدم
إجابتهم إلى ما اقترحوا، وأحببت أن تأتيتهم بآية خارقة معجزة، تلبية لطلباتهم الملحّة، فإن استطعت أن تطلب وتتخذ سرباً في
أعماق الأرض تخلص منه إلى مكان آخر، أو تتخذ مضعداً تصعد به إلى السماء، فتأتيهم بآية خارقة مما اقترحوا عليك تجعلهم
يتبعونك ولا يعرضون عنك فافعل، ولن تستطيع ذلك، لأن الآيات لا يجريها ربك إلا وفق حكمته، ولو شاء الله أن يجمعهم على
الهدى لجمعهم، ولسلبهم إرادتهم الحرة، ولكن لم يرد ذلك، بل أراد أن يمتحنهم عن طريق اختيارهم الحر، فلا يشتد تحسرك
على تكذيبهم إياك، ولا تنزع من إعراضهم عنك، فيقارب حالك حال الجاهلين الذين لا صبر لهم.

٣٦ - لا يستجيب لدعوة الحق إلا المؤمنون الذين لديهم استعداد لأن يسمعوا سماعاً واعياً واصلأ إلى مداركهم. والكفار الذين لا يسمعون ولا يستجيبون، يبعثهم الله يوم القيامة من قبورهم، ثم إليه يرجعون لا إلى غيره؛ فيجزئهم على جحودهم.

٣٧ - وقال رؤساء كفار قريش: هلاً نزل على محمد معجزة من ربه؟ قل لهم - يا رسول الله -: إن الله قادر على إيجاد ما طلبوه، وإنزال ما اقترحوه من الآيات، ولكن أكثرهم لا يعلمون ماذا عليهم في إنزالها من العذاب إن لم يؤمنوا بها.

٣٨ - وما من حيوان يدب على الأرض، أو طائر يطير في السماء بجناحيه إلا جماعات مختلفة أشباهكم في الخلق والموت، والحاجة إلينا في الرزق والتدبير في جميع أمورهم، والدلالة على كمال القدرة وبديع الصنعة في تسخيرها وتصريفها؛ فكيف تظنون عدم قدرتنا على إنزال ما اقترحتم من الآيات! إن ذلك جهل منكم عظيم! وما نُنزل الآيات، وما نترك إنزالها إلا على حسب ما تقتضيه الحكمة والمشئمة، ما ضيعنا في كتاب تسجيل أعمال الأحياء شيئاً، وما نقصنا منها شيئاً، ثم نُحشر الدواب والطيور مسوقين إلى ربهم يوم القيامة، لإقامة العدل الرباني بينها، فيُصنف بعضها من بعض.

٣٩ - والذين كذبوا بإراداتهم الحرة بما تدل عليه آياتنا التكوينية، والإعجازية، والبيانية، تُصيهم بسبب تكذيبهم الإرادي ضمن مقادير الله وقوانينه السببية النتائج الثلاث التالية: النتيجة الأولى: أن يكونوا ضماً عن استماع دعوة الحق، مهما كانت جليلة واضحة، وذات أدلة برهانية دامغة، النتيجة الثانية: أن يكونوا بكماً عن الإقرار بالحق والنطق به؛ لأن ألسنتهم موجهة من قبل أهوائهم وشهواتهم ومصالحهم من الدنيا، ومن قبل شياطين الإنس والجن الضالين المضلين، النتيجة الثالثة: أن يكونوا في الظلمات من معتقدات

باطلات، وأعمال فاجرة، وقوانين جائرة، وشتات في ظلمات دامسات بمثابة الغمي، من يشأ الله الحكم عليه بالضلال، لأنه قد ضل بإرادته، يحكم عليه بالضلال، ومن يشأ الله الحكم له بالهداية، لأنه اهتدى بإرادته، يحكم الله له بالهداية والسير في حياته على طريق مستقيم.

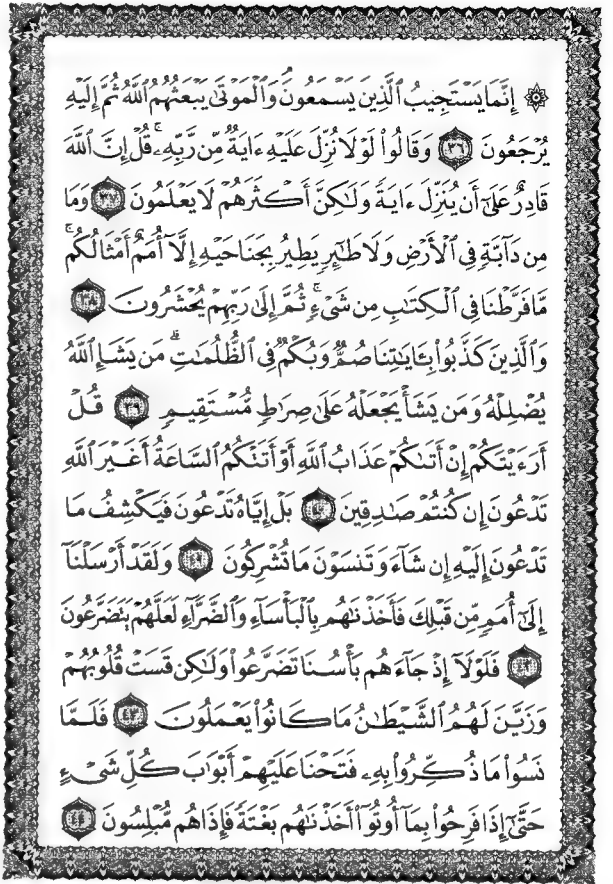
٤٠ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء الكفار: أرايتم أنفسكم إن أتاكم عذاب الله قبل الموت مثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة، أو أتتكم مقدمات ساعة موتكم: أغير الله تدعون في كشف العذاب عنكم، إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم وتكشف عنكم ضرركم؟

٤١ - فإن قالوا: «ندعوا آلهتنا»، فقل لهم: لا تكذبوا، بل تدعون الله، ولا تدعون غيره في كشف ما نزل بكم؛ لأنكم تعلمون أن آلهتكم لا تغنيكم ولا تنجيكم، بل الله هو وحده الذي يغنيكم وينجيكم، فيزيل ما تدعونه إلى كشفه عنكم إن شاء سبحانه، وتتركون دعاء الأصنام التي تعبدونها؛ لعلكم بأنهم لا تنفع ولا تنفع.

٤٢ - وأقسم لك مؤكداً - يا رسول الله - أننا أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك، فكذبوهم ولم يستجيبوا لدعوتهم، فانتقمنا منهم بالفقر والجوع، والأمراض والأوجاع، رغبة أن يتدللوا لربهم، ويخضعوا له وحده بالعبادة.

٤٣ - فهلاً تدللوا لنا حين جاءهم عذابنا التأديبي الجزئي، ولكن غلظت قلوبهم فلم يخشعوا ويتدللوا، وأقاموا على كفرهم وتكذيبهم، وحسن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الكفر والتكذيب والإصرار على معاصي الله.

٤٤ - فلما تركوا ما ذكروا به بمذكر من البأساء والضراء، وما كانوا ذكروا به من قبل رسل ربهم تذكيراً بيانياً بالنصح والإرشاد والإقناع بالحق، ولم يكثرثوا بكل ذلك، ولم يعبوا به، وسعنا لهم في الحياة الدنيا، وبدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة في الرزق، ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان؛ إلزاماً للحجة، واستدراجاً لهم، حتى إذا بطروا واستكبروا بما أوتوا من السعة والرخاء في المعيشة، قبضنا عليهم قبض تعذيب وإهلاك باستئصال شامل مُباغتتين لهم من حيث لا يشعرون، فإذا هم مكتئبون متحسرون، ساكتون منقطعو الحجة، آيسون من كل خير.



الجزء الثاني

سورة الأنعام

٤٥ - فاستَوْصِلْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا بِالْعَذَابِ فَلَمْ يَتَّقِ مِنْهُمْ بَقِيَّةَ. والثناء الكامل والشكر الدائم لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي لَا رَبَّ لَهُمْ سِوَاهُ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ الْمَوْجُودَاتِ الْكَوْنِيَّةِ، وَالْمَمْدُ لَهُا بِعِطَاءَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ، فَكُلُّ الثَّنَاءِ مُوجَّهٌ لَهُ عَلَى إِنْعَامِهِ عَلَى رَسُولِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ بِإِظْهَارِ حُجَّتِهِمْ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ، وَإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ وَاسْتِصْلَاهِهِمْ بِالْعَذَابِ.

٤٦ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ - لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ: أَنْفَكُرتُمْ تَفْكِيراً سَدِيداً بِأَنَاءٍ وَتَعَمَّقُ حَتَّى أَدْرَكْتُمْ إِدْرَاكاً عِلْمِيّاً شَبِيهَ الرُّؤْيَا الْبَصَرِيَّةِ، إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ، فَاصْمَكُمْ حَتَّى لَا تَسْمَعُوا شَيْئاً، وَأَخَذَ أَبْصَارَكُمْ فَأَعْمَاكُمْ حَتَّى لَا تُبْصِرُوا شَيْئاً، وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ حَتَّى لَا تَفْقَهُوا شَيْئاً، مَنْ إِلَهٌ مِمَّنْ تَعْبُدُونَ غَيْرُ اللَّهِ، يَأْتِيكُمْ بِمَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ أَسْمَاعِكُمْ وَأَبْصَارِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ؟ انْظُرْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - كَيْفَ نُنَوِّعُ لَهُمْ آيَاتِنَا الْبَيِّنَاتِ، وَنَعْرُضُهَا مِنْ وَجْهِ مُتَعَدِّدَةٍ، وَنَكْرُرُهَا عَلَى أَنْحَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ، ثُمَّ هُمْ يُعْرِضُونَ عَنْهَا مُكَذِّبِينَ بِهَا؟!

٤٧ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ: أَرَأَيْتُمْ أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ فَجَاءَ بِدُونِ تَوْفَعٍ، أَوْ أَتَاكُمْ ظَاهِراً غَيْرَ مُسْتَتَرٍ، بَلْ مَسْبُوقاً بِمُقَدَّمَاتٍ دَالَّةٍ عَلَى أَنَّهُ عَذَابٌ آتٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُ اللَّهِ يَصْرِفُ عَنْكُمْ مَا أَتَاكُمْ مِنْ وَسَائِلِ تَعْذِيبِكُمْ، لَا يَهْلِكُ إِهْلَاكاً جَمَاعِيّاً شَامِلاً بِعَقُوبَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مُعْجَلَةٍ بِمُقْتَضَى سَنَةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ إِلَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشِّرْكِ؟

٤٨ - وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ لِمَنْ آمَنَ بِالثَّوَابِ، وَمُنْذِرِينَ لِمَنْ أَقَامَ عَلَى كُفْرِهِ بِالْعِقَابِ، فَمَنْ آمَنَ إِيْمَاناً صَاحِحاً صَادِقاً، وَآتَى بِمَا هُوَ عَمَلٌ صَالِحٌ نَافِعٌ، وَأَصْلَحَ مِنْ نَفْسِهِ وَسُلُوكِهِ الْفَاسِدِ، فَلَا خَوْفَ مُسَلِّطٍ عَلَيْهِمْ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى شَيْءٍ فَاتَهُمْ مِنْ حِفْظِ الدُّنْيَا.

٤٩ - وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْإِعْجَازِيَّةِ وَالْبَيِّنَاتِ الْمُنْزَلَةِ، يُصِيبُهُمُ الْعَذَابُ؛ بِسَبَبِ مَا كَانُوا فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الدُّنْيَا يَخْرُجُونَ عَنِ الْإِيْمَانِ إِلَى ذَرَكَاتِ الْكُفْرِ وَالْجَحْدِ.

٥٠ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ: لَسْتُ أَذْعِي أَنَّ عِنْدِي مِفْتَاحَ خَزَائِنِ اللَّهِ، فَأَعْطِيكُمْ مِنْهَا مَا تَرِيدُونَ، وَأَنْصَرِفُ فِيهَا كَمَا أَشَاءُ، وَلَا أَذْعِي أَنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي عِلْمَ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهَذَا الْعِلْمُ مِنْ خِصَائِصِ اللَّهِ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي مَلَكٌ أَقْدِرُ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، مَا أَنَا إِلَّا عَبْدٌ لِلَّهِ، يَتَّبِعُ مَا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ؛ فَكَيْفَ تَقْتَرِحُونَ عَلَيَّ مَا لَا شَأْنَ لِي بِهِ! قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - : هَلْ يَسْتَوِي الْجَاهِلُ بِحَقَائِقِ الدِّينِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الدِّينِ الرَّبَّانِيَّةِ، أَفَقَدْتُمْ مَا وَهَبْنَاكُمْ مِنْ عَقْلِ فَلَا تَتَفَكَّرُونَ أَنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ؟! ٥١ - وَخَوْفٌ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - بِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ إِنْذَارَاتٍ بِالْعِقَابِ الرَّبَّانِيِّ، الْمُؤَجَّلِ وَالْمُعْجَلِ، الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُجْمَعُوا وَيُسَاقُوا إِلَى مُحْكَمَةِ رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِمَحَاسِبَتِهِمْ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ عَلَى مَا قَدَّمُوا فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَرِيبٌ يَنْفَعُهُمْ، وَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهُمْ، حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِي الشَّفَاعَةِ؛ رَغْبَةً أَنْ يَقْتُوا عِقَابَ رَبِّهِمْ؛ لِيَفُوزُوا يَوْمَ الدِّينِ بِالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ.

٥٢ - وَلَا تَطْرُدْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - هَؤُلَاءِ الضَّعَفَاءَ عَنْكَ، الَّذِينَ سَارَعُوا إِلَى الْإِيْمَانِ بِكَ، وَلَا تُبْعِدْهُمْ عَنْ مَجْلِسِكَ؛ أَمَلًا فِي إِسْلَامِ رُؤَسَاءِ الْمَشْرِكِينَ وَسَادَتِهِمْ الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا مِنْهُمْ؛ لِأَجْلِ ضَعْفِهِمْ وَفَقْرِهِمْ، الَّذِينَ يَؤَاطِبُونَ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ لَا سِيَّمَا صَلَاتِي الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ، يَطْلُبُونَ بِعِبَادَتِهِمْ رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ، مَا عَلَيْكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مِنْ حِسَابِ النَّاسِ مِنْ شَيْءٍ إِذَا كَفَرُوا، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ يُحَاسِبُ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَا تَطْرُدُ الْفُقَرَاءَ وَالضَّعَفَاءَ طَمَعاً بِإِيْمَانِ الْكِبَرَاءِ الْأَغْنِيَاءِ؛ لِتَخْلُصَ مِنْ مَسْئُولِيَةِ مُحَاسِبَتِكَ عَلَى عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ، إِذْ لَا تَتَحَمَّلُ مِنْ حِسَابِهِمْ شَيْئاً، وَأَنْتَ مَسْئُولٌ عَنْ تَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ لَجَمِيعِ طَبَقَاتِ النَّاسِ عَلَى سَوَاءٍ، فَقَرَائِهِمْ وَأَغْنِيَائِهِمْ، ضَعْفَائِهِمْ وَسَادَتِهِمْ، فَإِذَا طَرَدْتَ الْفُقَرَاءَ وَالضَّعَفَاءَ اسْتِجَابَةً لَطَلْبِ الْأَغْنِيَاءِ، وَالْكِبَرَاءِ، فَإِنَّكَ تُعَرِّضُ نَفْسَكَ لِلْمَحَاسِبَةِ عَلَى إِبْعَادِهِمْ عَنْ مَجَالِسِ الْعِلْمِ الدِّينِيِّ، وَإِنَّ أَغْنِيَاءَ الْمَشْرِكِينَ وَكِبَرَاءَهُمُ الَّذِينَ تَرِيدُ إِرْضَاءَهُمْ لِيَسْلَمُوا، لَا يَحْمِلُونَ عَنْكَ مِنْ مَسْئُولِيَةِ الْحِسَابِ شَيْئاً، بَلْ سَتَدَانِ وَحْدَكَ بِطَرْدِ الْفُقَرَاءِ الضَّعَفَاءِ، وَعَدَمِ تَرْكِيتِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ، فَطَرْدُ الْفُقَرَاءِ وَالضَّعَفَاءِ عَنْ مَجَالِسِ الْعِلْمِ، وَمَوَاطِنِ الْهَدَايَةِ ظَلَمٌ، فَإِذَا طَرَدْتَهُمْ كُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَضَعُونَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

٥٣ - وكذلك الامتحان الذي امتحنا فيه بعض الناس ببعض، إذ امتحنا الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، وامتحنا الأقوياء بالضعفاء، والضعفاء بالأقوياء، امتحنا كبراء مشركي مكة بضعفاء المؤمنين وفقرائهم، لكشف كبرهم الذي دفعهم ليقولوا: أهؤلاء الفقراء من الله عليهم من بيننا بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ؟ أليس الله سبحانه بأعلم بخلقهم وبأحوالهم، وأعلم بالشاكرين من الكافرين؟! بلى، الله أعلم بالشاكرين له بالإيمان والإسلام والطاعة، من كل ذي علم؛ لأنه محيط بكل ما في نفوسهم وقلوبهم وأعمالهم.

٥٤ - وإذا جاءك - يا رسول الله - ويا كل حامل رسالتي من أمته - الذين يؤمنون بآياتنا المنزلات في القرآن، فقل لهم: سلمكم الله في دينكم وأنفسكم، فَرَضَ ربُّكم على نفسه الرحمة تفضلاً منه وكرماً، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، أنَّ الشانَ ذا الخطر، مَنْ عمل منكم - أيها المؤمنون - سوءاً بجهالة من الجهالات النفسية، التي تضعف معها إرادته، ثم تاب من بعد ارتكابه ذلك السوء، وَرَجَعَ إلى طاعة ربه نادماً، وأصلح العمل في المستقبل، واستقام على الطريقة التي شرعها الله لعباده، فإنَّ الله يغفر له ويرحمه؛ لأنه كثير السَّتر لمن تاب من ذنوبه، دائم الرحمة بعباده.

٥٥ - ومثل ذلك التفصيل الذي فصلناه في الآيات السابقة، نُفَصِّلُ الآيات في سور القرآن، ونجوم التنزيل التي نُثَرِّلُها، بتمييز بعضها عن بعض؛ ليظهر لك - يا رسول الله - طريق الحق المستقيم، ولتظهر وتلتضح لك طريق هؤلاء المجرمين، الذين سوف يكونون يوم القيامة خالدين في عذاب الجحيم.

٥٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: إني نُهيْتُ عن أن أعبد الأصنام التي تعبدونها أنتم من دون الله. قل - يا رسول الله - لهؤلاء

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ إِنِّي نُهيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٦٠﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٦١﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٣﴾

المشركين أيضاً: لا آتبع أهواءكم المضلّة، فإني إن عبثت ما تعبدون من دون الله، وآتبع أهواءكم، أكون قد ضللتُ إذن، وما أنا من المهتدين.

٥٧ - قل - يا رسول الله - للذين لم يستجيبوا لدعوتك: إنَّ ما أدعوكم إليه هو حقٌّ من ربِّكم، وإني أملكُ ملككم وتمكُّن واستعلاء، بيّنةً برهانيةً من ربي تُثبت أنَّ ما أدعوكم إليه هو الحقُّ والصدق، وأنتم كذبتُم به دون أن تملكوا دليلاً ما تُعذرون به، فاعلموا أنَّ عذاب الله سيحلُّ بكم، وقل لهم: ليس في مقدرتي إنزال ما تستعجلون به من العذاب الذي سبق أن أنذرتكم به، بلاغاً عن ربي، والله سبحانه لا يُجري إنذاراته إلا في آجالها الحكيمة، ما الحكم المُطلَق في الكون إلا لله، الذي يفصل بين المُختلفين، يَتَّبِعُ الحقُّ الذي يكون اختياره هو الأحكم، فيُنهيه بقضائه المُبرِّم حكماً، ثم يُنفِذه في أجله، وهو جلُّ جلاله خيرٌ من بين وفصل بين المُحقِّ والمُبطل؛ لأنه لا يقع في حكمه وقضائه جورٌ ولا خيفٌ على أحدٍ من خلقه.

٥٨ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين المُستعجلين لنزول العذاب: لو أنَّ ربي مُلْكُني القدرة على إنزال ما تستعجلون به من عذاب، وأعطاني التفويض بذلك، لاخترتُ أن ألبي طلبكم، وأنزلتُ عليكم العذاب المُهلك، رغبةً في التخلُّص من شروركم، ولكنَّ الله لم يعطني هذه القدرة، ولم يمنحني هذا التفويض باختيار تعذيبكم وهلاككم؛ فالأمر يجب أن يكون متروكاً لله، والله أعلم بالظالمين الذين تجاوزوا حدَّهم فأشركوا معه غيره، وأعلم بما يستحقُّون من العذاب، والوقت الذي يستحقُّونه فيه.

٥٩ - وعند الله وحده لا شريك له جميع مفاتيح كلِّ الغيب التي يتوصَّل بها إلى معرفة حقائق عالم الغيب، لا يعلم مفاتيح الغيب كلُّه إلا هو سبحانه وتعالى، ويعلم كلُّ ما في البرِّ والبحر من أشياء وأحياء، حتى بواطن الذرَّات، ويعلم عدد ما يسقط من الورق وما بقي على الشجر، ويعلم كم انقلبت ظهراً لبطن إلى أن تسقط على الأرض، ولا توجد من حبة تكون في بطن الأرض قبل أن تثبت، ولا كائن من رطبٍ لين ولا يابس جامد، مهما كان صغيراً أم كبيراً، إلا هو معلومٌ لله عزَّ وجلَّ، ومُثَبَّتٌ في اللوح المحفوظ عنده بكلِّ صفاته وتحركاته.

٦٠ - والله وحده الذي يتوفاكم إذا نمتم بالليل، بالفصل الجزئي بين أرواحكم ونفوسكم، ويعلم ما كَسَبْتُمْ بجوارحكم من الخير والشر في النهار، ثم بعد نوم يطول أو يقصر يُوقظكم في النهار بإعادة الاتصال بين الروح والنفس؛ لاستيفاء آجالكم المحددة في الدنيا، ثم يميتكم وتعود أجسادكم تراباً، ثم يبعثكم من موتكم بعد مدة البرزخ الفاصل بين الموت والبعث، ويرد أرواحكم إلى نفوسكم، ثم إليه سبحانه وحده بعد البعث يكون رجوعكم، وإليه سبحانه تعيين زمان رجوعكم، وتهيئة مكانه؛ لثلاقوا حسابكم، وفصل قضائه في كل واحد منكم، ثم في محكمته يُبْتَكَم بما كنتم في حياة ابتلائكم تعملون.

٦١ - والله وحده المُقْتَدِر على عباده، الغالب لهم، الذي لا يُعجزه شيء أراد، ولا يستطيع أحد أن يخرج عن تدبيره وتقديره، ومن جملة قهره لعباده: إرسال الحَفَظَةِ الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم من الخير والشر، ويحفظونهم من المخاطر والمُؤْذِيَات، حتى إذا انتهت مدة حياة أحدكم، ونزل به الموت، تَوَفَّتْهُ الملائكة المُؤَكِّلُونَ بَقِيضِ أرواح البشر، بفصل روحه عن نفسه فصلاً كلياً وهم لا يَقْصُرُونَ فيما أمروا به ولا يتوانون.

٦٢ - ثم رُدَّ العبادُ بالبعث بعد الموت إلى مُلَاقَاةِ اللَّهِ مَالِكِهِمْ وسيُدْهِمُ الْحَقُّ الثَّابِتَ الذي لا شك فيه، تنبَّهوا وتحققوا، له القضاء في كل شيء، وهو أَسْرَعُ مَنْ يَتَوَلَّى الْحِسَابَ والجزاء بين الخلائق.

٦٣ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء الكفار: مَنْ ذا الذي يُنَجِّيكُمْ من شدائد وأحوال تحيط بكم في ظلمات البر والبحر؟ فترجعون إلى الله وتخلصون له في الدعاء تذلاً وسراً قائلين في حال الدعاء: نُقْسِمُ لَئِنْ أَنْجَاَنَا رَبُّنَا مِنْ هَذِهِ الْكَرْبَةِ الْعَظِيمَةِ، وَخَلَّصَنَا مِنَ الْهَلَاكِ،

لَنَكُونَنَّ لَكَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ مِنَ الشَّاكِرِينَ، بالإيمان الصادق الصحيح، والأعمال الصالحة الخالصة.

٦٤ - قل لهم - يا رسول الله -: اللَّهُ سبحانه يُخَلِّصُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَالشَّدَائِدِ، ومن كل غم شديد، ثم أنتم بعد إقراركم بأنه سبحانه الذي أنجاكم من هذه الشدائد، تُشْرِكُونَ معه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

٦٥ - قل - يا رسول الله - لقومك: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ وسائل تعذيب لكم، تُصَبُّ عَلَيْكُمْ من فوقكم كالرَّجْمِ وَالطُّوفَانِ، أو من تحت أرجلكم كالخَسْفِ وَالرَّجْفَةِ، أو يَخْلِطُكُمْ فيجعلكم فرقةً مختلفين، وبذلك يذوق بعضكم بأس بعض، بالتسلط بالحروب المدمرة للأفراد والأسر والجماعات. انظر - أيها الناظر المتفكر - كيف نُنَوِّعُ دَلَالَتَنَا وَحُجَجَنَا لهؤلاء المُكْذِبِينَ، ونكرزها بأساليب مختلفة؛ رغبة منا أن يفهموا حقائق الأمور، فيرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

٦٦ - ومع هذا التنوع في بيان الآيات، كَذَّبَ بِالْقُرْآنِ قَوْمُكَ، وهو الحق الثابت الذي قام الدليل عليه، وشهدت له البينات. قل - يا رسول الله - لهؤلاء المُكْذِبِينَ: أَنَا لَا أَقِيكُمْ وَلَا أَحْمِيكُمْ من عذاب ربكم الذي تستحقونه بِشِرْكِكُمْ، لأنني لست مُتَكَفِّلاً بأموركم، إنما أنا رسولٌ مُبَلِّغٌ عن ربي ما يأمرني بتبليغه.

٦٧ - لكل خبر عظيم جاء الإخبار به في القرآن من الأنبياء المُسْتَقْبَلَةِ حَقِيقَةً ومُتَمَتِّهِ ينتهي إليه في زمان ومكان معلومين مُحدَّدَيْن، إما في الدنيا وإما في الآخرة، وسوف تعلمون - أيها المُكْذِبُونَ - صِحَّةَ هَذَا الْخَبَرِ حينما تشاهدون تحققه في الواقع إما في الدنيا وإما في الآخرة.

٦٨ - وإذا كنت - يا رسول الله - ويا كل مؤمن - قاعداً مع كافرين، تدعوهم إلى الله، ورأيهم يتحدَثُونَ، وسمعتهم يطعنون في آياتنا، ويسخرون منها، مُعلنين كفرهم بها، فَأَذِرْ عَارِضَ وَجْهِكَ عَنْهُمْ، ولا تُجَالِسْهُمْ حتى يكون خَوْضُهم في غير الحديث الذي كانوا يخوضون فيه كفراً بآيات الله واستهزاء بها، وإن أنساكَ الشَّيْطَانُ هَذَا الْأَمْرَ نسياناً مُؤَكِّداً، فَقَعَدْتَ معهم، ولم تُعلن كراهيتك لحديثهم بصورة عملية، فَقَمَّ عَنْهُمْ، ولا تُقْعِدْ بعد تذكرك مع القوم الظالمين الذين يكفرون بآيات الله، ويستهزؤون بها. وفي هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدِينِ وأهل المعاصي والأهواء. واستدل بهذه الآية على أن الناسي غير مكلف لسقوط الإثم عنه، وأنه إذا ذُكِرَ عاد إليه التكليف، فيقلع عما ارتكبه في حال نسيانه.

الْبَيْتُ السَّابِعُ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٧٠﴾ ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٧٢﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيَرْبِطَ بَعْضُكُمْ بِأَسَاسٍ بَعْضٌ نَّظَرُكُمْ نُصْرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٧٤﴾ وَكَذَّبَ بِآيَاتِ قَوْمِكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ بِرَسُولٍ وَلَا بِرَسُولِ اللَّهِ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آبِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾

٦٩ - وما على المؤمنين المستضعفين الذين يَتَّقُونَ الله في قلوبهم، ويتَّقُونَ شرَّ الكافرين أعداء الله في ظاهريهم، من حساب المشركين ولا آثامهم من شيء، إذا جالسوهم؛ لأنهم منكرون في قلوبهم، غير موافقين ولا راضين، ويخشون من مفارقة مجالس الخائضين أن يتعرضوا للأذى والاضطهاد، ولكن عليهم أن يذكروهم؛ لعل تلك الذكرى تمنعهم من الخَوْض والاستهزاء في آيات الله.

٧٠ - وأترك - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - هؤلاء المشركين الذين اتَّخذوا دينهم الذي أمرُوا به ودُعُوا إليه، شيئاً يلعبون به، ويلهون؛ لأنهم يتصوِّرون أنَّ صرف شيء من طاقاتهم للعبادة ضرب من اللعب الذي لا يجلب نفعاً، ومن اللهو الذي يصرفهم عملاً ينبغي أن يوجهوا طاقاتهم له، من متاع الدنيا، وسبب اتَّخاذهم دين الله لهواً ولعباً، هو أنهم خدعتهم الحياة الدنيا، فحسبوا أنها كل شيء في وجودهم، وأنه ليس وراءها حياة أخرى يكون فيها الحساب والجزاء، فلا تعباً بهؤلاء ولا تشغل نفسك بدعوتهم، وذكر بالقرآن مَنْ لم يصل إلى ذِكْرِه مَيُّوسٍ منه وهو فيها؛ مُحَذِّراً من أن تحبس نفس وتُرتهن في جهنم، وتحرم من الثواب في الآخرة؛ بسبب ما كَسَبَتْ من الآثام في الدنيا، ليس لتلك النفس التي هَلَكَتْ من دون الله قريب يلي أمرها، ولا شفيع يشفع لها في الآخرة. وإن تَفَتَّدَ تلك النفس الأثمة مُقَدِّمة كلِّ فداء للنجاة من العذاب، لا يؤخذ ذلك الفداء منها، ولا يقبل ما تفتدي به، على أنها لن تجد ما تُقدِّمه فداءً، ولا تملك إلا ما قَدِّمْتَ من عمل صالح في الحياة الدنيا. أولئك الكفرة البُعداء المنحطون في اتجاه الدرك الأسفل، هم الذين حُبسوا مُعَذِّبين في جهنم يوم الدين؛ بسبب ما اكتسبوا من الأعمال القبيحة في الحياة الدنيا، لهم في النار شراب شديد الحرارة، وعقاب مؤلم لهم إيلاماً شديداً، بسبب كفرهم الذي اكتسبوه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَئِنْ ذَكَرْتُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ ۚ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ۚ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ ۚ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ ۚ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ۚ انْتَظِرْ ۚ إِنَّا هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ ۚ وَأُمِّرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَن أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

٧١ - قل - أيها الداعي إلى الله - للمشركين الذين توجهوا لدعوتكم إلى عبادة آلهتهم: أنعبُد الأصنام التي لا تنفع من عبادة الله، ولا تضر من ترك عبادتها، ونرجع منقلبين على أعقابنا من الارتقاء إلى الانتكاس في هاوية سحيقة، بعد وقت هداية الله لنا، دعوة عن طريق رسوله، وتوفيقاً بتحبيب الإيمان لنا، وشرح صدورنا للإسلام وتطبيقه في سلوكنا؟ كالذي استمالته شياطين الإنس والجن بزُخرف أقوالها، فألقته في هاوية سحيقة من الأرض، تائهاً ضالاً، لا يدري ما يصنع، لهذا المُتَحَيِّر أصحاب مؤمنون مسلمون كان معهم على الطريق المستقيم قبل أن تستميله الشياطين إلى مسالكها، يدعونه إلى الهدى، يقولون له ناصحين مُرشدين: انْتَبَهِ! فلا يجيبهم.

قل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى سبيل ربِّه من أمته -: إنَّ طريق الله الذي أوضحه لعباده، ودينه الذي شرعه لهم هو وحده الهدى والنور، وكل ما هو مُضَادُّ له باطل، وقل لهم أيضاً: أمرنا جميعاً بالتكاليف والشرائع الدينية؛ لأجل أن نُسَلِّمَ ونُخلص العبادة لربِّ العالمين؛ المهيمين علينا وعلى جميع العالمين بصفات ربوبيته، الشاملة للعطاء والمنع، والضر والنفع، وبهذا الإسلام نحقق عبوديتنا لخالقنا ومالكنا ومُؤدنا دوماً بعطاءاته.

٧٢ - وبعد أن أعلنَّا لكم ما اخترناه لنفوسنا، ندعوكم إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة لربِّ العالمين، وبأن داوموا على أداء الصلاة في أوقاتها، على الوجه الشرعي المطلوب، واجعلوا بينكم وبين عذاب معصية الله وقايةً، وهو وحده الذي إليه تُحشرون يوم القيامة، فيجزىكم بأعمالكم.

٧٣ - والذي إليه تحشرون هو الذي خلق السموات والأرض خلقاً مُتَّصِفاً بأنه حق ثابت، فَمَنْ رَعِمَ أنه ليس بعد هذه الحياة الدنيا حساب ولا جزاء، لزمه أن يدَّعي أن الله سبحانه قد خلق هذا الخلق باطلاً وعبثاً، تنزه الله تعالى عن ذلك. واذكر - يا رسول الله - يوم القيامة إذ يقول الله سبحانه لكلِّ شيء تَمَّ به قضاؤه: «كن» فيكون بمقتضى أمر التكوين. قول الله تبارك وتعالى هو الحق الكامل الذي لا باطل فيه، واستقرَّ الملك لله تعالى وحده في ذلك اليوم، لا يدَّعيه يومئذ أحدٌ مِمَّن كان يدَّعيه في الدنيا، يَنفُخُ الْمَلَكُ إِسْرَافِيلُ فِي «القرن» النفخة الثانية التي تكون بها عودة الأرواح إلى الأجسام؛ إنَّه تعالى يعلم ما غاب عن عباده وما يشاهدونه، فلا يغيب عن علمه شيء، وهو الحكيم في جميع أفعاله وتدبير خلقه، الخبير بكل ما يفعلونه من خير أو شرٍ على سبيل الشهود والحضور المُضَاجِبِ لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

٧٤ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لآيات القرآن - قول إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر: أتصنع يديك أصناماً مُتَّخِذاً إِيَّاهَا آلِهَةً تَعْبُدُهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ وَزَوَّجَكَ؟ وهي لا تضر ولا تنفع، ولا تستحقُّ الإلهية؛ بل هي مما تصنعون بأيديكم! إني أراك وقومك الذين يعبدون الأصنام معك في ضلال وضَيَاع ظاهر عن طريق الحق.

٧٥ - وكذلك الفهم الذي فهمناه إبراهيم بشأن بطلان عبادة الأصنام، وأن عابديها في ضلال مبين، كئنا نرى بتتابع مُتَّجِدٍ إبراهيم وملئنا العظيم للسموات والأرض، وسلطاننا وعزتنا وقدرتنا على التصرف في كل شيء فيهما، رؤية فكرية عقلية، مُستندة إلى إدراكات حسية؛ ليكون ذا حُجَجٍ برهانية يُثَبِّتُ بها، أنه لا ربوبية في الكون إلا لنا، ولا إلهية بحق في الكون إلا لنا، وليكون هو في ذاته من الراسخين في الإيمان العالمين علماً لا يخالطه شك.

٧٦ - فحينما أظلم على إبراهيم عليه السلام الليل وسَترَهُ بِسَوَادِهِ، رأى كوكباً في السماء، كان يعبدُه قومه، فأراد أن يستدرج قومه ويُعرِّفهم جهلهم وخطأهم في تعظيم النجوم وعبادتها، قال على سبيل الطرح الاحتمالي، لا على سبيل الاعتقاد الجازم: هذا ربي المهيمن بصفات ربوبيته علي وعلى سائر الكون، فإذا ثبت ربوبيته، وَجَبَتْ عليَّ عبادته، فحينما غاب النجم الذي طَرَحَ احتمال كونه رباً، قال: لا أحبُّ رباً يغيب ويطلع؛ لأنَّ أماراتِ الحدوث فيه ظاهرة؛ وإنما أحبُّ عبادة ربي الحق، الذي لا تعرض له عوارض الحدوث.

٧٧ - فلما رأى القمر طالعاً مُنْتَشِرَ الضوء، قال لقومه - على سبيل الفرض وإرخاء العنان، مُجَاراةً مع عُبَادِ الكواكب، ليثبت أن الرب

لا يجوز عليه التغير والانتقال - : هذا ربي، فحينما غاب القمر قال: لئن لم يُثَبِّتْني ربي على الهدى، لأكونن من القوم الضالين الضائعين عن إدراك الحق بشأن الرب الذي يجب علي أن أؤمن به، وأن أعبدَه، ولا أشرك به شيئاً.

٧٨ - فحينما رأى الشمس طالعةً قال لقومه: هذا أكبر من الكوكب والقمر، فلما غربت الشمس أقلت آخر النهار، قال: يا قوم إني بريء مما تُشركون من عبادةِ النجوم والأصنام التي تعبدونها من دون الله.

٧٩ - إني جعلت وجهي، وَصَرَفْتُ عبادتي، وَقَصَّرْتُ توحيدِي لِلَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَوْجَدَهُمَا عَلَى نِظَامِ الْفَطْرِ وَالشَّقْ وَالْفَلَقِ مِنْ نَقْطَةِ الْعَدَمِ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، حالة كوني مائلاً عن عبادة كل شيء سِوَى اللَّهِ، وما أنا من المشركين بالله شيئاً من خلقه.

٨٠ - وجادلَه قومه في توحيد الله، فقال إبراهيم: أَتَجَادِلُونِي فِي اللَّهِ الَّذِي تَوَافُونَ أَنْتُمْ بِهِ، وَلَكُنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ حُجَّةٌ مُلْزِمَةٌ، وَقَدْ هَدَانِي بِالْذَّلِيلِ الْبَرْهَانِي إِلَى أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رَبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ؟! ومهما خُوفْتُمُونِي بِضُرٍّ يَأْتِينِي مِنْ آلِهَتِكُمْ، فَإِنِّي لَا أَخَافُ أَنْ يَأْتِيَنِي ضُرٌّ أَوْ أَذًى مِنْ جِهَتِهَا، فَإِنَّهَا جَمَادَاتٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَكِنْ الْخَوْفُ مِمَّنْ يَقْدِرُ عَلَى النِّفْعِ وَالضَّرِّ، إِنْ يَشَاءُ رَبِّي شَيْئاً كَانَ مَا يَشَاءُ، وَمَشِيتُهُ لَا تَفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَقَدْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ، أَتَصْرُفُونَ عَلَى بَاطِلِكُمْ، فَلَا يُؤْثِرُ فِيكُمْ هَذَا التَّذْكِيرُ لَكُمْ بِالْحَقِّ الْمَوْجُودِ فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِكُمْ عَنْ اللَّهِ رَبِّكُمْ، فَيَدْفَعُكُمْ إِلَى تَبْذِئِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شَرِكِ، وَإِلَى الْبُعْدِ عَنْ كُلِّ مُجَادَلَةٍ بِالْبَاطِلِ.

٨١ - وفي آيةٍ حالٍ من الأحوال أخافُ ضراً أَوْ أَذًى يُنْزِلُ بِي مِنْ قَبْلِ الْأَصْنَامِ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ لِلَّهِ زُوراً وَكُذْباً، وهي لا تضر ولا تنفع، وأنتم لا تخافون من الله، وقد أشركتم بعبادته، ما ليس لكم فيه حُجَّةٌ وبرهان؟ أخبروني يا قوم: أي الفريقين أولى بالأمن من عذاب الله يوم القيامة: المُوَحِّدُ الَّذِي عَبَدَ مَنْ بِيَدِهِ النِّفْعُ وَالضَّرُّ، أَمْ الْمَشْرِكُ الَّذِي عَبَدَ مَا لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بَرْهَانٍ؟ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنَ الْأَحَقِّ بِالْأَمْنِ فَاتَّبِعُوهُ.

البقرة السابعة

سورة الأنعام

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ۖ إِذْ رَأَيْتَهُ أَصْنَامًا ۖ إِلَهًا ۖ إِنِّي
أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ
مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ
لَأَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا
رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ
الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا
أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ يَتَقَوَّمُ لِي بِرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
خَافِئًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّجَهُ قَوْمُهُ ۖ قَالَ
أَتُحْجَّجُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي ۖ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ۚ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا
تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

٨٢ - الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إيماناً صحيحاً صادقاً، ولم يخلطوا بإيمانهم بشرك في ربوبيته أو إلهيته، أولئك الذين هم ربيعو المكانة عند ربهم، لهم الأمن يوم القيامة من مخاوف عذاب النار، بتسليم الله لهم، وحفظهم ورعايتهم، والعفو عن ذنوبهم، وزحزحتهم عن النار، وإدخالهم الجنة، وأولئك هم مهتدون إلى سبيل الرشاد.

٨٣ - وَتِلْكَ الْحُجَّةُ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَى قَوْمِهِ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى حَدُوثِ الْكَوَاكِبِ بِالْأَقْوَالِ، هِيَ حُجَّتُنَا الَّتِي وَقَفْنَا عَلَيْهَا حَتَّى انْقَطَعَتْ حُجَّتُهُمْ. نرفع بحكمنا المبني على علمنا الشامل مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا مَرَاتِبَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ، عَلَيْهِ بِجَمِيعِ أَحْوَالِ خَلْقِهِ.

٨٤ - وَهَبْنَا لِإِبْرَاهِيمَ إِسْحَاقَ ابْنًا لَصُلْبِهِ، وَيَعْقُوبَ بْنَ إِسْحَاقَ وَلَدَ وَلَدِهِ، هَدَيْنَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ، وَمَنْ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ أَرْشَدْنَا نَوْحًا وَوَقَفْنَا لِلْحَقِّ وَالصُّوَابِ، وَمَنْنَا عَلَيْهِ بِالْهَدَايَةِ، وَكَذَلِكَ وَقَفْنَا لِلْحَقِّ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ: دَاوُدَ، وَابْنَهُ سُلَيْمَانَ، وَأَيُّوبَ، وَيُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ، وَمُوسَى، وَهَارُونَ، وَمِثْلَ ذَلِكَ الْجِزَاءِ الَّذِي مَنْنَا بِهِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ مِنَ الرُّسُلِ، نَجْزِي سَائِرَ الْمُحْسِنِينَ عَلَى إِحْسَانِهِمْ.

٨٥ - وَكَذَلِكَ هَدَيْنَا زَكَرِيَّا، وَيَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا، وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَإِلْيَاسَ، كُلٌّ مِنْ ذَكَرْنَا وَسَمَّيْنَا مِنَ الصَّالِحِينَ الْكَامِلِينَ فِي الصَّلَاحِ. ٨٦ - وَهَدَيْنَا كَذَلِكَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ، وَالْيَسَعَ، وَيُوسُفَ، وَلُوطًا، وَكُلَّ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ فَضَّلْنَا عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِمْ؛ إِذْ وَجَدْنَاهُمْ مُسْتَحْقِينَ لِهَذَا التَّفْضِيلِ.

٨٧ - وَمِنْ بَعْضِ آبَاءِ الَّذِينَ سَمَّيْنَاهُمْ مِنَ الرُّسُلِ، وَمِنْ بَعْضِ ذُرِّيَّاتِهِمْ، وَمِنْ بَعْضِ إِخْوَانِهِمْ، كَانُوا مُحْسِنِينَ، وَكَانُوا مِنْ الصَّالِحِينَ، وَاخْتَرْنَاهُمْ وَاصْطَفَيْنَاهُمْ لِلنَّبُوءَةِ، وَأَرْشَدْنَاهُمْ إِلَى دِينِ الْحَقِّ، بِمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ شَرَائِعٍ وَأَحْكَامٍ، وَكَلَّفْنَاهُمْ أَنْ يُبَلِّغُوا لَأُمَّمِهِمْ وَأَقْوَامِهِمْ.

٨٨ - ذَلِكَ الْهُدَى الْعَظِيمُ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلَاتُ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَى رُسُلِنَا، هُوَ هُدَى اللَّهِ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، إِذْ يَصْطَفِيهِمْ فَيَجْعَلُهُمْ رُسُلًا يَتْلُقُونَ عَنْهُ هُدَاهُ، وَيُبَلِّغُونَهُ إِلَى أُمَّمِهِمْ، وَلَوْ أَشْرَكَ هَؤُلَاءِ الْمُصْطَفَوْنَ بِالنَّبُوءَةِ الَّذِينَ سَمَّيْنَاهُمْ، لَبَطَلَّ وَذَهَبَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَلَسَلَبَهُمُ اللَّهُ مَا فَضَّلَهُمْ بِهِ، وَلَعَاقِبَهُمْ عَلَى شُرْكِهِمْ، لَكِنَّهُمْ مَا أَشْرَكُوا، بَلْ كَانُوا جَمِيعًا مُؤَهَّلِينَ لِمَا اجْتَبَاهُمُ اللَّهُ لَهُ.

٨٩ - أُولَئِكَ الرُّسُلُ رَفِيعُو الْمَكَانَةِ، الَّذِينَ سَمَّيْنَاهُمْ، أَعْطَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَيْهِمْ، وَآتَيْنَاهُمُ الْعِلْمَ وَالْفَهْمَ وَالْإِصَابَةَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَشَرَّفْنَاهُمْ بِالنَّبُوءَةِ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِرِسَالَتِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - كِبَرَاءُ قَوْمِكَ فِي مَكَّةَ، الَّذِينَ تَرَعَّبَ فِي أَنْ يَحْمِلُوا رِسَالَتَكَ، وَيَكُونُوا وَكَلَاءَكَ فِي تَبْلِيغِهَا لِلنَّاسِ، فَقَدْ وَكَلْنَا عَنْكَ بِتَبْلِيغِهَا لِلنَّاسِ، قَوْمًا لَيْسُوا بِكَافِرِينَ، بَلْ هُمْ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ دَعَا إِلَى اللَّهِ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، وَالَّذِينَ عَلِمَ أَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ وَيُسْلِمُونَ، وَيَقُومُونَ بِتَبْلِيغِ رِسَالَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ.

٩٠ - أُولَئِكَ النَّبِيُّونَ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، وَالَّذِينَ لَمْ نَذْكُرْ بِالتَّفْصِيلِ أَسْمَاءَهُمْ، بَلْ أَجْمَلْنَاهُمْ بِعِبَارَةٍ: ﴿وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ هُمُ الْمَخْصُوصُونَ بِالْهَدَايَةِ، فَاتَّبِعْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - هُدَاهُمْ، وَاسْأَلْكَ سَبِيلَهُمْ.

قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِلْمُشْرِكِينَ: لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَعَلَى مَا أَقُومُ بِهِ مِنْ أَجْلِ سَعَادَتِكُمْ وَنَجَاتِكُمْ عَوَضًا مِنَ الدُّنْيَا، مَا الْقُرْآنُ الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ إِلَّا تَذْكِيرٌ لَجَمِيعِ الْعَالَمِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَحْدَكُمْ، فَإِنْ آمَنْتُمْ وَأَسْلَمْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ كَفَرْتُمْ فَقَدْ أَغْنَى رِبُّكُمْ لَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الْجَحِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْ لَهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَشْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

الجزء السابع

سورة الأنعام

٩١ - وما عظم كُبراء مُشركي مكة الله حقَّ عَظَمَتِهِ، ولا عَرَفوه حقَّ معرفته عندما قالوا مُردِّدين مَقُولَةَ أَخبار اليهود: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء. فَاتَّهَموه سبحانه بالعجز عن إنزال الكتب الربَّانية، واستهانوا بعقاب الله على تكذيب رسله فيما يُبلِّغون عن ربِّهم، وهم مُؤيِّدون منه بالمعجزات الباهرات، ولو أنَّهم قدروا الله حقَّ قدره لعلموا أنه قديرٌ على ما يشاء، ولعلموا أنه يعاقب من كَذَب رسله الصَّادقين بالخلود في عذاب النار يوم الدين. قل - يا رسول الله - لهؤلاء اليهود الذين أَوْحوا إلى كفار قريش هذه المقولة الافتراضية: مَنْ أنزل التوراة على موسى نوراً للناس من ظلمة الضلالة، وهدايا إلى الحقِّ وطريق السعادة؟ تجعلون كتاب التوراة أوراقاً مكتوبة مُفَرَّقة؛ لِتَتَمَكَّنُوا من إبداء ما تريدون إبداءه منها، وإخفاء الكثير منها، بحسَب أهوائكم؛ لئلا تكون حُجَّةٌ عليكم، وإنكم - يا معشر اليهود - علَّمتُم في هذا القرآن الذي تجحدونه ولا تؤمنون به ما لم تعلموا قبل إنزاله أنتم ولا آباؤكم من قبلكم.

قل - يا رسول الله - : الله تعالى الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، ثُمَّ دَعَمَ فيما هم فيه من باطلهم وكفرهم يُضَيِّعون أعمارهم وطاقتهم في أعمال باطلة لا خيرَ فيها، كَمَن يَخوض في الماء فيعكِّره بالطين الراسب في القاع، فيفسد صفاء الماء، فهم في خوضهم على غير هدى، فلا يعملون أعمالاً لها نتائج نافعة، بل نتائجها ضارةٌ لهم، ثُمَّ يلاقون مصيرهم عذاباً في جهنم خالدين فيها.

٩٢ - وهذا القرآن كتابٌ أنزلناه من عندنا عليك - يا رسول الله - كثير الخير والبركة، دائم النفع، لا تنضب فيوض معانيه، موافق لما في التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهية المنزلة قبله في أصولها

الصحيحة قبل التحريف، ولتُنذِرَ - يا رسول الله - بما جاء في القرآن من إنذارات أهل مكة وجميع البلاد التي حولها امتداداً في الأرض حتى آخر ساكنٍ فيها؛ لعموم بعثتك للناس كافة، ويقوم معك بالإنذار الدعاة من أمثك على تتابع الأجيال. والذين يُصدِّقون بالآخرة التي تكون بعد البعث، ويؤمنون بما فيها من حساب، وفصل قضاء، وتنفيذ جزاء،، يُصدِّقون بهذا الكتاب، وأنه مُنزَّل من عند الله عزَّ وجل، ويدومون على صلاتهم في أوقاتها، مُستوفيِّ الشروط والأركان والواجبات.

٩٣ - لا أحدٌ أعظم خطأً وأجهلُ فعلاً ممَّن وقع في واحد من هذه القضايا الكفرية التي هي من أظلم الظلم: القضية الأولى: اختلقَ على الله كذباً، فادَّعى أنَّ الله قال كذا، أو حَكَمَ بكذا، أو أنزل كذا، وهو لم يقل ولم يحكم ولم يُنزل ما ادَّعاه المُفترى، والقضية الثانية: ادَّعى كذباً أنَّ الله أوحى إليه ولم يُوحِ إليه شيئاً، والقضية الثالثة: مَنْ قال: سأُنزل مثل ما أنزل الله من القرآن؛ ليُوهَم بأن ما يُبلِّغه محمَّدٌ عن ربِّه وضعٌ بشريٌّ، وليس مُنزَّلاً من عند الله عزَّ وجل.

ولو ترى - أيها الرائي - حال هؤلاء الظالمين في سَكَرات الموت وشدائده، لرأيتَ شدة ما هم فيه من عذاب عظيم. والحال أنَّ الملائكة باسطوا أيديهم لِقَبْض أرواحهم، يقولون لهم: خَلِّصُوا أنفسكم من العذاب. اليوم تُهانون غاية الهوان والدُّل؛ بسبب ما كنتم تقولون كاذبين على الله غير الحق؛ وبسبب ما كنتم تَسْتَكْبِرُونَ في أنفسكم مُمتنعين عن اتِّباع آيات الله.

٩٤ - ونقسم مُؤكِّدين أنكم جِئْتُمونا للحساب والجزاء وفصل القضاء يوم القيامة وحداناً خُفاةً عراةً غُرلاً - غير مختونين -، كما خلقناكم أوَّل مرَّة، لا يملك أحدٌ أن ينصر أحداً، أو أن يستنصر بأحد، وتركتم الذي أعطيناكم ومَلَكناكم من الأموال والأولاد والخدم وراء ظهوركم في الدنيا، غير قادرين على أن تجلبوا معكم منه شيئاً، وما نرى معكم في الآخرة الأصنام التي زعمتم أنَّها تشفع لكم، وتدعون أنَّها شركاء لله في العبادة، لقد تقطَّع الاتصال الذي كان بينكم وبين آلِهتكم في الدنيا واضمحَلَّ، فلا أنتم اليوم تعبدونهم، ولا هم يملكون أن يشفعوا لكم، وضاع مُبتعداً عنكم بُعداً سحيقاً ما كنتم تزعمون بشأن شركائكم ومعتقداتكم الباطلة.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ تَعَزَّزَهُمْ فِي خَوَاصِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادًى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

٩٥ - إِنَّ الذي يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ دُونَ غيره هُوَ اللّهُ الذي يُنَبِّهكُمْ عَلَى هذه الآيات الكونية: الآية الكونية الأولى: يَشُقُّ الحَبَّةَ اليَابِسَةَ، فيُخْرِجُ مِنْهَا النَبَاتَ الأخضرَ النامي، وَيَشُقُّ الثَّوَاةَ، فيُخْرِجُ مِنْهَا الشَّجَرَ، الآية الكونية الثانية: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ ذَاتِ الْمَيِّتِ، فيَجْعَلُ الْمَيِّتَ حَيًّا بِنَفْخِ الرُّوحِ فِي النَّفْسِ بِأَمْرِهِ التَّكْوِينِيِّ مُبَاشَرَةً، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ ذَاتِ الْحَيِّ، فيَجْعَلُ الْحَيَّ مَيِّتًا بِنَزْعِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ، ذَلِكَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ الْجَلِيلُ هُوَ اللّهُ الْمُدَبِّرُ الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فَكَيْفَ تُضَرِّفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَتُشْرِكُونَ بِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَعْلِهِ؟!

٩٦ - الآية الكونية الثالثة: اللّهُ سَبْحَانَهُ شَاقُّ ظِلْمَةِ الْإِصْبَاحِ - وَهِيَ الْعَيْشُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ - عَنِ بَيَاضِ النَّهَارِ، فَيَمْتَدُّ ضِيَاءُ الشَّمْسِ عَلَى الْأَرْضِ، وَيُضْمَحِلُّ الظَّلَامَ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَالْآيَةُ الْكُونِيَّةُ الرَّابِعَةُ: جَعَلَ اللَّيْلَ زَمَانًا تَسْكُنُ إِلَيْهِ النَّفُوسُ، وَتَجِدُ فِيهِ رَاحَةً وَأَنَسًا وَطَمَآنِينَةً، وَالْآيَةُ الْكُونِيَّةُ الْخَامِسَةُ: قَدَّرَ حَرَكَةَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي الْفَلَكَ بِحَسَابِ مُقَدَّرٍ مَعْلُومٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَضْطَرِبُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى أَقْصَى مَنَازِلِهِمَا، بِحَيْثُ تَتِمُّ الشَّمْسُ دَوْرَتَهَا فِي سَنَةٍ، وَيَتِمُّ الْقَمَرُ دَوْرَتَهُ فِي شَهْرٍ؛ وَبِذَلِكَ تَنْتَظِمُ الْمَصَالِحُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْفُصُولِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهَا، ذَلِكَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ تَقْدِيرُ الْقَوِيِّ الْغَالِبِ، الْعَلِيمِ عِلْمًا مُحِيطًا شَامِلًا بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ وَتَدْبِيرِ شُؤْنِهِمْ.

٩٧ - وَالْآيَةُ الْكُونِيَّةُ السَّادِسَةُ: اللّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - هَذِهِ النُّجُومَ؛ لَتَهْتَدُوا بِهَا إِذَا ضَلَلْتُمْ الطَّرِيقَ، وَتَحْيِرْتُمْ فِيهِ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ، قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ الدَّلَالَةَ عَلَى تَوْحِيدِنَا وَكَمَالِ قُدْرَتِنَا، لِقَوْمٍ يَتَابِعُونَ تَعْلَمَ مَا يُنَبِّهُونَ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ.

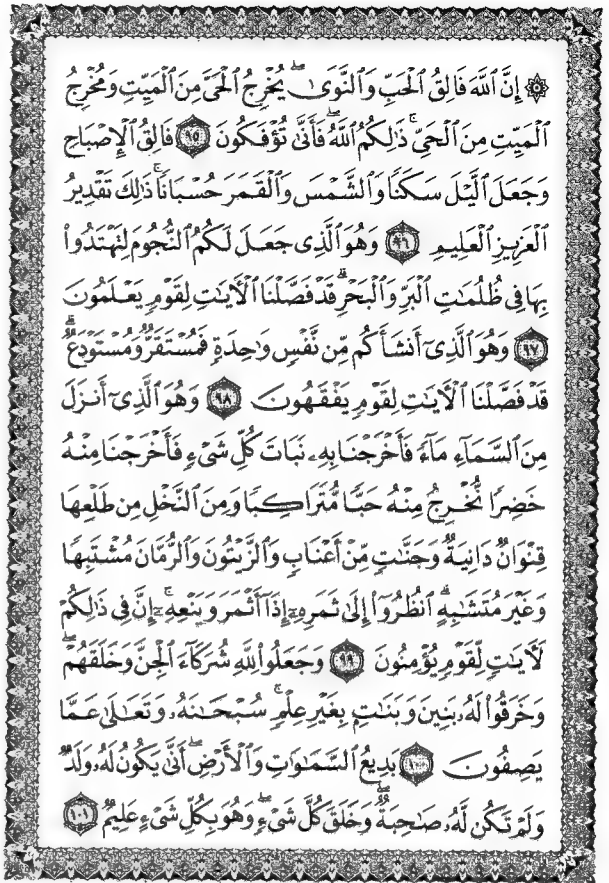
٩٨ - وَالْآيَةُ الْكُونِيَّةُ السَّابِعَةُ: اللّهُ سَبْحَانَهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَفَقَّ خُطَّةَ الْإِنشَاءِ الْمُتَدَرِّجِ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إِذْ خَلَقَهُ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ كَتَمْتُمْ نَسْلًا وَسَلَالَةً مِنْهُ، فَتَنَقَّلْتُمْ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ، كُلُّ طَوْرٍ لَكُمْ فِيهِ مَكَانٌ اسْتِقْرَارٌ وَثُبُوتٌ، وَهَذِهِ الْمُسْتَقَرَّاتُ هِيَ مُسْتَوْدَعَاتُ

تَكُونُوا وَدِيعَةً فِيهَا حَتَّى يَحِينَ وَقْتُ نَقْلِكُمْ إِلَى مُسْتَوْدَعٍ آخَرَ تَكُونُونَ فِيهَا مُسْتَقَرِّينَ، فَنُخْرِجُكُمْ مِنْ ظُهُورِ آبَائِكُمْ وَأَرْحَامِ أُمَّهَاتِكُمْ، لَتَعِيشُوا فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ فِي الْأَرْضِ، فَكَانَتْ الْأَرْضُ لَكُمْ مُسْتَقَرًّا وَمُسْتَوْدَعًا حَتَّى انْتَهَاءَ أَجَالِكُمْ، فَكَانَ لِأَجْسَادِكُمْ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ حَتَّى سَاعَةِ الْقِيَامَةِ، فَكَانَ لَكُمْ فِي أَرْضِ الْمُحْشَرِّ مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ، فَمَنْ قَضَى اللَّهُ لَهُ بِالْخُلُودِ فِي الْجَنَّةِ، فَالْجَنَّةُ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، وَمَنْ قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْخُلُودِ فِي دَارِ الْعَذَابِ، فَهِيَ مُسْتَقَرُّهُ الْأَبَدِيُّ، قَدْ بَيَّنَّا هَذِهِ الْحَقَائِقَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِصِفَاتِ الرَّبِّ لِقَوْمٍ يَتَابِعُونَ الْبَحْثَ فِي بَوَاطِنِ الْأُمُورِ وَخَفَايَاهَا وَدَقَائِقِهَا.

٩٩ - وَالْآيَةُ الْكُونِيَّةُ الثَّمَانِيَّةُ: اللّهُ وَحْدَهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْمَطَرَ مِنَ السَّحَابِ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ كُلَّ شَيْءٍ نَبَتٍ وَنَمُو مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ النَّبَاتَاتِ، فَأَخْرَجْنَا مِنَ النَّبَاتِ زَرْعًا غَضًّا أَخْضَرَ، نُخْرِجُ مِنَ الْخَضِرِ سَبَابِلَ فِيهَا الْحَبُّ يَرْكَبُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ. مِثْلُ: الْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَسَائِرِ الْحَبُوبِ، وَنُخْرِجُ مِنَ طَلْعِ النَّخْلِ - وَهُوَ أَوَّلُ مَا يَبْدُو وَيَخْرُجُ مِنْ ثَمَرِ النَّخْلِ - عَذُوقًا قَرِيبَةً التَّنَاولِ، وَأَخْرَجْنَا مِنْ ذَلِكَ الْخَضِرِ بَسَاتِينَ مِنْ أَشْجَارِ أَعْنَابٍ، وَأَخْرَجْنَا شَجَرَ الزَّيْتُونِ وَشَجَرَ الرُّمَّانِ وَثَمَارَهُمَا، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مُخْتَلَفَاتٍ مُشْتَبِهَةِ الصِّفَاتِ وَالْخُصَائِصِ وَالطَّعُومِ وَالْأَلْوَانِ، وَهَذَا فِي أَصْنَافِ النَّوْعِ الْوَاحِدِ، كَأَصْنَافِ الزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ، وَمُخْتَلَفَاتٍ أُخْرَى غَيْرَ مُشْتَبِهَةٍ فِي خُصَائِصِهَا وَطَعُومِهَا وَأَلْوَانِهَا. انْظُرُوا - أَيُّهَا النَّاسُ - نَظَرَ اسْتِدْلَالٍ وَاسْتَبْصَارٍ إِلَى ثَمَرِهِ، أَوَّلُ مَا يَخْرُجُ ضَعِيفًا لَا مُنْفَعَةَ فِيهِ، وَانْظُرُوا إِلَى حَالِ نُضْجِهِ وَإِدْرَاكِهِ، كَيْفَ يَعُودُ شَيْئًا قَوِيًّا بَعْدَ الضَّعْفِ، جَامِعًا لِمَنَافِعِ شَتَّى، إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي نَبَّهَ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ مِنْ آيَاتِهِ الْكُونِيَّةِ الثَّمَانِ لَعَلَّمَاتٍ جَلِيلَاتٍ لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الْاسْتِعْدَادُ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ، وَيُسَلِّمُونَ.

١٠٠ - وَجَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ - بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِالْإِبْجَادِ، وَبِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي الْمَعَاشِ - الْجِنَّ شُرَكَاءَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْعِبَادَةِ، وَأَطَاعُوهُمْ فِيمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَقَدْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا يَعْبُدُونَ مِنَ الْعَدَمِ، فَهُوَ الْمُسْتَقْبَلُ بِالْخَلْقِ وَحْدَهُ، فَيَجِبُ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَكَذَبَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى حِينَ نَسَبُوا إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ؛ جَاهِلِينَ بِمَا قَالُوا، تَنَزَّهَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، وَعَنْ كُلِّ اعْتِقَادٍ بَاطِلٍ وَقَوْلٍ فَاسِدٍ.

١٠١ - وَاللّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي أَوْجَدَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، مِنْ أَيْنَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ؟ وَاللّهُ تَعَالَى خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْعَدَمِ، وَهُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ، وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.



الجزء الثاني

سورة الأنعام

١٠٢ - ذلکم العظیم الجلیل هو اللہ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، هو ربُّکم الذي یستحقُّ العبادة لا من تدعون من دونه من الأصنام، لا معبود بحقِّ إلا هو، خالقُ کلِّ شيءٍ، فاعبدوه وأطيعوه، وهو على کلِّ شيءٍ رقیبٌ وحفیظٌ، یدبِّرُ أمورَ خلقه.

١٠٣ - لا تحیطُ الأبصارُ بکُنْهِ الخالقِ سبحانه وحقیقته، وإنْ كانت تراه الأبصارُ یومَ القيامة، وهو سبحانه یرى جمیع المَرِئَاتِ ویُبصرُ جمیع المُبْصَرَاتِ، لا یخفی علیهِ شيءٌ منها، وهو اللطیفُ الذي ینفذُ بصفاته إلى أعماقِ کلِّ موجودٍ خلقاً وإمداداً، وعلماً، وتصاریف، الخبیرُ بظواهر الأشياء وخفائِها على سبیل الشهود والحضور المصاحب لکلِّ أجزاء العمل.

١٠٤ - قد جاءکم القرآن من ربِّکم، فیهِ البیان والخجج التي تُبصرون بها الهدى من الضلالة، فَمَنْ فهم الآيات واهتدى بها إلى الحقِّ فلمصلحة نفسه ونجاته قد أبصر، ومَنْ جهل ولم یعرف الآيات ولم یستدل بها، وأعرض عنها، فعلى نفسه جنی؛ إذ دفع بها إلى الخلود یومَ الدین فی عذاب السعیر، وما أنا علیکم برقیبٍ أحصى علیکم أعمالکم وأفعالکم، واللَّه هو الحفیظُ علیکم لا یخفی علیهِ شيءٌ من أعمالکم وأحوالکم.

١٠٥ - وكما نَوَّعنا الآيات الدالة على التوحید فی هذه السورة تنوعاً بدیعاً مُحکماً، نُنَوِّعُ الآيات ونعرضها من وجوه مُتعددة، لنكشف عنادهم وتكذیبهم لك - یا رسول الله -، ولیقولوا: قرأتِ الكتب على أهل الكتاب، ثم جئتنا تزعم أنه من عند الله، ولتبین آيات القرآن تبییناً جلیلاً لقوم لديهم الاستعداد لأن یعلموا الحقَّ بأدلته وبراهینه.

١٠٦، ١٠٧ - أتبع - یا رسول الله - ما أمرك به ربُّك، فاعمل به وبلغه للناس، ولا تعبأ بأنهم مُكذِّبُكَ لك، ولا تضعف عزيمةك عن متابعة تادية رسالتِ ربِّك، لا معبودَ بحقِّ إلا هو سبحانه، وإذا كان كذلك

فإنه تجب طاعته ولا يجوز تركها بسبب جهل الجاهلین وزیغ الزائغین، وأعرض عن المشركین المَعاندین المُصرِّین على باطلهم، ولا تعتد بأقوالهم الباطلة، ولا تُبَالِ بها. ولو شاء الله أن لا یشرکوا لَسَلَبْهم إراداتهم الحرة، ولجعلهم مَجبورین، ولكن الله منحهم الإرادة الحرة التي یختارون بها ما یشاؤون من خیر أو شر؛ لیتَّمت ابتلاؤهم، وما جعلناك - یا رسول الله - على هؤلاء المشركین مُسلطاً علیهم تجبرهم على سلوك صراط الله المستقیم، وتحمیهم من شرور أنفسهم، وما أنت علیهم بوكیل مسؤول عن كفرهم، لأنهم ذوو إرادات حرة، وهم فی ظروف الحیاة الدنیا مُمتحنون، وأنت تُبلِّغهم مطلوب ربهم منهم، وتبشِّرهم وتنذرهم، فلا تحمل فی قلبك همَّ تحويلهم من الکفر إلى الإیمان، ومن الضلال إلى الهدایة.

١٠٨ - ولا تشتموا - أيها المؤمنون - الأصنام التي یعبدُها المشركون، فیشتُموا الله اعتداءً وظلماً باندفاع غضبی، مُقَابَلَةً لکم على ما فعلتم، وكذلك التزین الذي حَصَلَ للمشركین، إذ زینا لهم أعمالهم الباطلة، ضمن نظامنا التکوینی العام. زینا لکلِّ أمة أعمالهم المتفرعة عما یعتمدونه بإراداتهم الحرة، وبهذا یتحقَّق کمالُ الحکمة فی حیاة الابتلاء، ثم إلى حساب ربهم بعد البعث یكون رجوعهم جمیعاً، وإلیهِ سبحانه تعین زمان الرجوع، وتهیئة مكانه، فیتَّبِطُّهم فی محکمتِهِ یومَ الدین بما كانوا یعملون فی الدنیا، ویجازیهم على ذلك. والنهی عن سبِّ آلهة المشركین فی هذه الآية قاعدة لسدِّ الذرائع، فما هو سبب لارتکاب مُحَرَّم هو حرامٌ أيضاً، وإن كان فی ذاته مباحاً. ویستدل بهذه الآية على سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر، إذا خیف من ذلك مفسدة أقوى، وكذا کل فعل مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه.

١٠٩ - وأقسم هؤلاء المشركون بالله بأوكد ما قدِّروا علیه من الأیمان: لئن جاءتهم آية خارقة كما جاءت الأمم من قبلهم لیصدقن بها. قل لهم - یا رسول الله - : إن مرجع الآيات كلها إلى الله تعالى، یقضي فیها حسب مشیئته المبنية على الحکمة البالغة، لا قدرة لأحد علیها، فكیف أتصدى لاستدعاء إنزالها، وما یدریکم - أيها المؤمنون - أن الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركین لا یؤمنون بها، فما لکم تتمنون مجيها؟

١١٠ - ونقلب مراكز التفكير والفهم لديهم؛ لیدرکوا بها الأدلة العقلیة والبراهین الصادقة على ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ عن ربِّه، ونقلب أبصارهم فی آفاق السماء والأرض؛ لیرَوَا بها عجائب قدرتنا، ولكنهم - مع کلِّ ذلك - لا یؤمنون، بل یستمرُّون على كفرهم العنادی، كما لم یؤمنوا بالحقِّ أوَّل مرة، ونذرهم حیثنَّ فی تجاوزهم الحد یترددون مُحْجَرین، مُنْطَوِسی البصيرة.

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾
قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصْرِفُ
الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾
اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيفًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيْنًا
لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ
لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْسَدَهُمْ وَابْسُرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

١١١ - ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴿١١١﴾ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شيطانيةً الأيس واليمين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴿١١٢﴾ ولنصغي إليه أفعدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليفتروا ما هم بمفترون ﴿١١٣﴾ أفغیر الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكون من المتحدين ﴿١١٤﴾ وتنت كلمت ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلمتة وهو السميع العليم ﴿١١٥﴾ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوا عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴿١١٦﴾ إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴿١١٧﴾ فكلوا مما ذكر الله عليه إن كنتم بتآيته مؤمنين ﴿١١٨﴾

١١٢ - كما جعلنا لمن قبلك - يا رسول الله - من الأنبياء أعداء، كذلك جعلنا لك أعداء، شياطين من الإنس وشياطين من الجن، يوحى بعضهم إلى بعض وحياً القول المزخرف المزين لأجل التفرير بمن يضغي إلى زخرف القول، وهذه هي الخطوة الشيطانية الأولى للخداع والإطعام بالباطل

ولو شاء ربك - يا رسول الله - ما مكنتهم من إلقاء حبالهم في الإغواء، واتخاذ وسائلهم في الغرور، لكن حكمة ابتلاء المكلفين في الحياة الدنيا تقضي بتمكين هؤلاء من الإغواء والتضليل، فيغتر بأقوالهم وزخارف حُججهم الجَهلة والمُغفلون، فخلهم - يا رسول الله - وما يختلقون من كذب وزور.

١١٣ - والخطوة الشيطانية الثانية بعد اصطناع زخرف القول لترويج باطلهم وضلالاتهم؛ لتميل إلى قول الشياطين المزخرف المزين المُمَوِّه أعماق قلوب الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء، والخطوة الشيطانية الثالثة؛ ليرضوا بمضمون زخرف القول، لموافقتهم لأهوائهم وشهواتهم والخطوة الشيطانية الرابعة؛ ليكتسبوا من الأعمال الخبيثة التي حلت من أفئدتهم محل الاستحسان والرضا؛ ما هم مكتسبون.

١١٤ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: أفغیر الله أطلب حكماً قاضياً يقضي بيني وبينكم، وهو الذي أنزل إليكم القرآن المجيد، مشتملاً على أسس أحكام المعاملات القائمة على الحق والعدل، وفيه الحكم بيني وبينكم؟ وعلماؤ اليهود والنصارى يشهدون أن هذا القرآن منزل من ربك حالة كونه متصفاً بالحق. فلا تكونن من الشاكين أن علماء أهل الكتاب يعلمون أن هذا القرآن منزل من عند ربك بالحق.

١١٥ - وتنت كلمت ربك الخبرة والتكوينية والتشريعية والجزائية صدقاً مطابقاً للحق والواقع، وعدلاً فيما قدر من مقادير الكائنات، وفيما حكم من الأمر والنهي والحلال والحرام، وسائر الأحكام، لا مغير لكلماته الخبرة والتكوينية والتشريعية والجزائية، ولا مبدل لها من ذاته ولا من غيره، ولا راد لحكمه، ولا خلف لمواعيده، وهو السميع لكل ما هو قابل أن يسمع المحيط بكل شيء علماً.

١١٦ - وإن تنقذ وتسحب وتتبع - أيها الحريص على أن تكون مهتدياً في دنياك سعيداً في آخرتك - أكثر من في الأرض من الإنس والجن، يضلوك عن طريق الحق ونهج الصدق. وهذه القاعدة من قواعد الاجتماع البشري لها سببان رئيسان: السبب الأول: ما يتبع هؤلاء الكفار في آرائهم التي يخرمون بها إلا الظن الضعيف ولا يكفلون أنفسهم البحث والتفكير والتأمل، والسبب الثاني: ما هم إلا يكذبون لترويج آرائهم ومذاهبهم، ويرجمون بالخرص التخيلي والتوهمي، وينون على ذلك عقائدهم وأعمالهم.

١١٧ - إن ربك هو أعلم من كل عليم، أي الناس يضل عن سبيله، ويزداد إغفالاً في الضلال، وهو أعلم بمن كان على هدى واستقامة، لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه.

١١٨ - إن كنتم قد نهيتهم عن اتباع المشركين في تحليلهم وتحريمهم، فكلوا - أيها المؤمنون - من ذبائح الحيوانات المأذون بذبائحها، ومن الصيد المأذون بصيده، ذاكرين اسم الله عليه، ولا تتبعوا افتراءات المفتزين الذين يأكلون الموتى من الحيوانات، ويذبحون ذبائحهم باسم آلهتهم من الأوثان، وإنني أوجه لكم هذا الحكم من أحكام الدين، إن كنتم بآيات الله البينانية في كتابه مُصدِّقين، فاعملوا بمقتضى إيمانكم، واستسلموا لأحكام ربكم.

١١٩ - وما يمنعكم - أيها المسلمون - من أن تذبحوا أو تصيدوا ما أذن الله لكم؟ وما الدافع الذي يدفعكم إلى أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وقد بين الله سبحانه لكم في هذه السورة ما حرم عليكم أكله من الحيوانات؟ إلا أن تدعوكم الضرورة إلى الأكل مما حرم عليكم؛ بسبب شدة المجاعة، فلکم أن تأكلوا منه بمقدار الضرورة، وإن كثيراً من الذين يجادلونكم يتبعون أهواءهم؛ ليضلوا أنفسهم وأتباعهم جهلاً منهم بغير علم. إن ربك - يا رسول الله - هو أعلم بمن تعدى حدوده، فأحل ما حرم الله، وحرم ما أحل الله، فهو يجازيهم على سوء صنيعهم.

١٢٠ - واتركوا - أيها الناس - ما أعلنتم به وما أسررتم من الذنوب كلها، كبائرها وصغائرها، ما كان منها بالجوارح، وما كان منها بالقلوب، كالنفاق، والرياء، والحسد، والنيات الفاسدة، إن الذين يكسبون الإثم بفعل ما نهوا عن فعله نهى تحريم، وترك ما أمروا بفعله أمر إيجاب، سيُجزون في الآخرة؛ بسبب ما كانوا يكسبون في الدنيا من الآثام والأعمال الخبيثة.

١٢١ - ولا تأكلوا - أيها المسلمون - من الذبائح ما أعلن ذابحه أنه يذبحه قرباناً لغير الله، وإن أكله لخروج عن طاعة الله تعالى؛ لأنه غير مذكى ذكاة شرعية، فهو بحكم الميتة، وإن شياطين الجن يؤسوسون إلى أوليائهم من شياطين الإنس؛ ليجادلوكم - أيها المؤمنون - بإلقاء الشبهات حول تحريم أكل الميتة، فيأمرونهم أن يقولوا للمسلمين في جدالهم معهم: إنكم بعدم أكلكم الميتة لا تأكلون ما قتله الله، بينما تأكلون ما تذبحونه، فلا تنقادوا لهم في شيء من ذلك، ولا تتأثروا بجدلبياتهم، وإن أطمعتموهم - أيها المسلمون - مُقادين لهم، ومُتأثرين بضلالاتهم، أخرجوكم عن طاعة ربكم إلى طاعة إبليس، وعندئذ يتحقق فيكم أنكم مشركون، اتخذتم الشيطان معبوداً لكم، وجعلتموه شريكاً لله في إلهيته.

١٢٢ - أو من كان ميئاً بالكفر فأحييناه بالإيمان، وجعلنا له نوراً عظيماً يستضيء به في الناس، ويهتدي به إلى قصد السبيل، أهذا الحي الرشيد ذو النور كمن وصفه أنه في ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة، ليس بخارج من تلك الظلمات المتراكمت؟ لا يستويان. وكذلك التزيين الذي حصل للمشركين؛ إذ زُين لهم أعمالهم الباطلة، فيفعلونها بقوة وجراً ومفاخرة، ضمن نظامنا التكويني العام، كذلك زُين لسائر الكافرين السابقين ما كانوا يعملون من الأهواء والشهوات المتفرعة عما يعتقدونه بإراداتهم الحرة، وبهذا يتحقق كمال الحكمة في حياة الابتلاء.

١٢٣ - وكما جعلنا في «مكة» رؤساء دعاة إلى الكفر وإلى عداوتك والصد عن دين الله تعالى، جعلنا في كل قرية من قرى الرسل من قبلك رؤساء من المجرمين مثلهم؛ ليمكروا فيها بالخديعة والحيلة والغدر والكذب والصد عن دين الله، وما يحق هذا المكر إلا بهم، وما يشعرون أن وبال ذلك المكر يعود عليهم ويضرهم.

١٢٤ - وإذا جاءت هؤلاء المشركين من أهل «مكة» حجة بينة ودلالة واضحة على صدق محمد ﷺ، قال رؤساء الكفر مؤكدين النفي: لن نصدق نبوته حتى يعطينا الله من النبوة والمعجزات مثل ما أعطى رسله السابقين. فرد الله عليهم بقوله: الله أعلم من كل عليم من يستحق الرسالة فيشرقه بها، ويعلم من لا يستحقها ومن ليس بأهل لها، وأنتم لستم لها بأهل، سيصيب الذين الذين أجمعوا من كفار مكة، وسائر المكذبين المعاندين في المستقبل القريب ذلة وهوان من عند الله، وعذاب شديد في نار جهنم؛ بسبب مكرهم السيء وحسدكم، وطلبكم ما لا يستحقون.

الجزء الثاني

سورة الأنعام

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّوا إِلَيْهِ وَإِنْ كَثُرَ الْيُضْلُونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بَغْيَ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْأَثَمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْخُونَ إِلَىٰ أُولِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوْ مَنْ كَانَ مِيئاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِهَا لِيَمْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

١٢٥ - فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ هَدَايَةً تَوْفِيقٍ وَمَعُونَةٍ؛ لِأَنَّهُ اتَّجَهَتْ إِرَادَتُهُ الْجَازِمَةُ الصَّادِقَةُ إِلَى الْإِيمَانِ، يَفْتَحُ صَدْرَهُ وَيُوسِّعُهُ لَتَطْبِيقِ الْإِسْلَامِ فِي سُلُوكِهِ، عَلَى مَقْدَارِ قُوَّةِ إِيْمَانِهِ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُسَيِّرَ لَهُ سُبُلَ الضَّلَالِ؛ لِأَنَّهُ كَفَرَ بِإِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ، يَجْعَلُ صَدْرَهُ شَدِيدَ الضَّيْقِ لَا يَطِيقُ الْخُضُوعَ وَالطَّاعَةَ لِلَّهِ، كَحَالِ مَنْ يَصْعَدُ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ الْعَالِيَا، فَيَصَابُ بِضَيْقٍ شَدِيدٍ فِي التَّنَفُّسِ، لَتَنَاقُصِ أَكْسِجِينِ الْهَوَاءِ، وَكَمَا جَعَلْنَا صُدُورَهُمْ ضَيْقَةً حَرِجَةً، كَذَلِكَ الضَّيْقُ وَالْحَرَجُ فِي الصَّدْرِ الَّذِي يَجْعَلُهُ اللَّهُ فِي صَدْرِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُ، يَجْعَلُهُ أَيْضاً رَجْساً مُتْرَكِباً عَلَى كُلِّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ مَهْماً تَوَاتَرَتْ عَلَيْهِمْ أَدَلَّةُ الْإِيمَانِ وَبِرَاهِينُهُ. فَالْإِنْسَانُ هُوَ الَّذِي يَخْتَارُ بِإِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ سَبِيلَ الْإِيمَانِ، أَوْ يَخْتَارُ سَبِيلَ الْكُفْرِ، فَإِنْ اخْتَارَ سَبِيلَ الْإِيمَانِ انْشَرَحَ صَدْرُهُ لَتَطْبِيقَاتِ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ اخْتَارَ سَبِيلَ الْكُفْرِ، انْقَضَتْ نَفْسُهُ، وَضَاقَ صَدْرُهُ، وَهَذَا مِنْ سُنَنِ اللَّهِ وَقَوَائِينِهِ فِي نَفُوسِ عِبَادِهِ.

١٢٦ - وَهَذَا الَّذِي بَيَّنَّا لَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - دِينَ اللَّهِ الْوَاضِحَ الْجَلِيَّ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ، وَجَعَلَهُ مُسْتَقِيمًا لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، قَدْ بَيَّنَّا وَأَوْضَحْنَا الْآيَاتِ الْمُشْتَمِلَاتِ عَلَى الْعَقَائِدِ وَالشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ، وَالْوَصَايَا الرَّبَّانِيَّةِ، لِقَوْمٍ يَضَعُونَ حَقَائِقَ دِينِ اللَّهِ فِي ذَاكِرَتِهِمْ، وَيَسْتَدْعُونَ مِنْهَا عِنْدَ كُلِّ مَنَاسِبَةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا. وَمَا يُحْدِثُهُ هَذَا التَّذَكُّرُ مِنْ أَثَرِ نَفْسِي وَقَلْبِي وَسُلُوكِي.

١٢٧ - لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَذَكِّرِينَ دَارَ السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ الدَّائِمَةِ، وَالْبَرَاءَةِ وَالْأَمْنِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَكَذَرٍ، وَالْخَلُوءِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَأَذَى، وَهَذِهِ الْجَنَّةُ مُعَدَّةٌ مُهَيَّأَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ حَتَّى يُوَصِّلَهُمْ إِلَيْهَا، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ وَيَحْمِيهِمْ وَيَعِينُهُمْ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ الَّتِي كَانُوا يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا.

١٢٨ - وَاذْكُرْ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِبَيَانِنَا - يَوْمَ يَحْشُرُ رَبُّكَ الْإِنْسَانَ وَالْجِنَّ جَمِيعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَقُولُ لَشَيَاطِينِ الْجِنَّ بِشَأْنِ أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسَانِ: يَا جَمَاعَةَ الْجِنَّ، قَدْ اسْتَكْرَثْتُمْ مِنَ الدَّعَاءِ إِلَى إِضْلَالِ الْإِنْسَانِ وَإِغْوَائِهِمْ، وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنْ كُفَّارِ الْإِنْسَانِ: رَبَّنَا انْتَفِعْ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، حَيْثُ دَلُّوْنَا عَلَى الْمَفَاسِدِ وَمَا يُوْضِلُ إِلَيْهَا، وَأَطْعَمْنَاهُمْ وَانْقَدْنَا إِلَيْهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ الْاسْتِمْتَاعُ إِلَى أَجَلٍ مُعَيَّنٍ، وَوَقْتُ مَحْدُودٍ، ثُمَّ ذَهَبَ وَبَقِيَ الْحَسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَمْتَعَ بِبَعْضِهِمْ بَعْضٌ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَانِ: النَّارُ هِيَ مَقَامُكُمْ وَمَقَرُّكُمْ فِيهَا، وَمَصِيرُكُمْ إِلَيْهَا، مُقِيمِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَدًا، لَا يَنْتَفِي فِي وَقْتٍ مَا إِلَّا وَقْتُ مَشِيئَتِهِ تَعَالَى، وَهُوَ تَعَالَى لَا يَشَاءُ ذَلِكَ، فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ أَبَدًا، فَمَرَدُّ الْأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى مَشِيئَتِهِ تَعَالَى، وَخُلُودِهِمْ إِنَّمَا كَانَ بِمَحْضِ الْمَشِيئَةِ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ عَذَمَهُ لَمْ يُخْلِدُوا، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ، عَلِيمٌ بِعَوَاقِبِ أُمُورِهِمْ وَمَا هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ.

١٢٩ - وَكَذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَا، مِنْ اتِّخَاذِ شَيَاطِينِ الْجِنَّ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسَانِ، نُؤَلِّيْ ضَمْنَ النِّظَامِ الْعَامِ لِلْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا مِنْ كُلِّ قَوْمٍ؛ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا. وَهَذِهِ سَنَةٌ عَامَةٌ مِنْ سُنَنِ الْجَمَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ.

١٣٠ - يَا جَمَاعَةَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَانِ: أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسَلٌ مِنْكُمْ، يُخْبِرُونَكُمْ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِي الْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِي وَتَصْدِيقِ رِسَالِي، وَيُحَذِّرُونَكُمْ إِذَا كَفَرْتُمْ لِقَاءَ عَذَابِي فِي يَوْمِكُمْ هَذَا، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ كُفَّارُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَانِ بَعْدَمَا شَهِدَ عَلَيْهِمُ الشُّهُودُ الْعَدُولُ: أَقْرَبْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا بِمَا كَانَ مِنَّا فِي رَحَلَةِ امْتِحَانِنَا، وَاعْتَرَفْنَا بِأَنَّ رِسْلَكَ قَدْ بَلَغُونَا آيَاتِكَ، فَكَذَّبْنَاهُمْ وَلَمْ نُؤْمِنْ بِهِمْ، وَخَدَعْتَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِبَهْرَجِهَا، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا جَاهِدِينَ اللَّهُ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

١٣١ - ذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ بَعَثَةِ الرِّسْلِ وَإِنْذَارِهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مُهْلِكُ أَهْلِ الْمُجْتَمَعَاتِ السَّكَنِيَّةِ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ، وَالْحَالِ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنْ عَقَائِدِ الدِّينِ وَشَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ، بَلْ يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا يُبَيِّنُونَ لَهُمْ، وَيُوقِظُونَهُمْ مِنْ غَفْلَتِهِمْ، فَإِذَا عَانَدُوا وَكَفَرُوا يُهْلِكُهُمْ إِهْلَاكًا عَامًا مُسْتَأْصَلًا.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ إِلَيْهِمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْرَثُوا مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّيْ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلْمَيَاتُكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي وَشُدْرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾

١٣٢ - ولكل عامل بطاعة الله أو معصيته من الجن والإنس، منازل يبلغها بعمله إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر. وما ربك - أيها المتلقي لبياننا - بغافل عما يعمل عباده، فهو عالم بأعمالهم، ويخزي كل عامل على قدر عمله، وما يليق به من ثواب أو عقاب. وفي الآية دليل على أن الجن كبنی آدم، يستحقون الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية.

١٣٣ - وخالفك ومربك الذي تولاك بربوبيته، الغني عن خلقه وعبادتهم، لا غني في الوجود سواه، وجميع الخلق فقراء إليه، وهو سبحانه ذو الرحمة الواسعة بخلقه، إن يشأ يهلككم إهلاكاً جماعياً، ويشئ ويخلق من بعد إهلاككم خلقاً غيركم أمثل وأطوع منكم يخلفونكم في سكنى الأرض، ويعملون بطاعته، كما أوجدكم أنتم من ذرية قوم آخرين، قضوا أجالهم في الحياة الدنيا، وكنتم خلفاءهم. وفي هذه الآية تهديد رباني بتحويل الاستخلاف، حينما يسئ المستخلفون، ويتعدون الحدود التي حدّها لهم من استخلفهم.

١٣٤ - إن الذي توعّدون به - أيها الناس - من مجيء الساعة والبعث بعد الموت والحشر للحساب يوم القيامة كائن قريب، وما أنتم بقادرين على الإفلات من عذاب ربكم حينما كنتم.

١٣٥ - قل - يا رسول الله وبأكل حامل لرسالته من أمته - للذين مردوا على الكفر، وصاروا مئوساً من استجابتهم عن طريق إراداتهم الحرة: يا قومي الذين تربطني بكم رابطة النسب، اعملوا ما شئتم من الأعمال التي يقتضيها كفركم، واثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة إن رضيتم لأنفسكم العذاب الدائم، فإني عامل وفق ما يقتضيه مني إيماني وإسلامي لرتبي، ثابت على الإسلام

والمصابرة، ولن ترحزحوني عن مقامي مهما اتخذتم من وسائل، فسوف تعلمون غداً في القيامة لمن تكون له العاقبة الحسنة في الجنة؟ إن الشأن العظيم أنه لا يسعد ويفوز بنعيم الجنة ورضوان الله من ظلم وتجاوز حدّه، وصرف العبادة لغير الله عز وجل.

١٣٦ - وجعل المشركون من أحكامهم وأعمالهم الشريكة التعبدية، بعض ما خلق الله لهم من الزروع والثمرات، ومن الأنعام، وهي: الإبل والبقر والغنم، قسماً وجزءاً، يبذلونه في وجوه الخير التي يتقرب بها إلى الله عز وجل، كالإنفاق على الفقراء والمساكين والأيتام والضعفاء والمحرومين، بدعواهم واعتقادهم الباطل، وجعلوا مقداراً آخر يبذلونه لشركائهم من الأوثان والأنصاب، فما جعلوه لشركائهم من الزرع والأنعام أنفقوه على الأوثان وسدنتها، ولا يعطونه المساكين، ولا ينفقونه في وجوه الخير، وما جعلوه لله عز وجل، يقربونه لأصنامهم؛ لتمنحهم عطاياها، ويسرّ لهم ما يطلبون من شؤون دنياهم، فهم مشركون ويؤثرون عبادة آلهتهم على عبادة الله، ساء ما يحكمون حكمهم، وساء ما يفعلون فعلهم؛ إذ افترؤا على ربهم، فجعلوا لله شركاء في إلهيته، وجعلوا له شركاء في بعض ربوبيته.

١٣٧ - وكما حسن الشيطان للمشركين أن يجعلوا لله سبحانه نصيباً من أموالهم، ولشركائهم نصيباً، جهلاً منهم بمعرفة الخالق المنعم، حسن آلهة المشركين الذين اتخذوهم شركاء لله لكثير من المشركين إقدامهم على وأد البنات الصغار أحياء؛ خشية الفقر أو العار؛ ليسقطوهم في أودية الآثام والجرائم حتى ينالوا سخط الله وعقابه، والخلود في عذاب النار، وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام بأوهام فاسدة حتى زلوا إلى الشرك.

ولو شاء الله - جلّ جلاله - أن لا يفعل الشياطين الشركاء ما زئونه، وأن لا يفعل المشركون ما زئ لهم من قتل أولادهم، لسلبهم إراداتهم الحرة، ولجعلهم مجبورين، ولكن تنعدم بهذا الحكمة من وضعهم في الحياة الدنيا موضع الامتحان، فاتركهم - يا رسول الله وبأكل حامل رسالته من أمته - وما يخلفون من الكذب على الله، ويصطنعونه عن عمد، ويعتدون على حق الله عز وجل في ربوبيته وفي إلهيته.

البقرة: ١٣٢

سورة الأنعام

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ يَشَأْ يُغْثِ وَيُؤَثِّرْ وَلَآ يَنْتَعِزُّ عَنْكُمْ شَيْءٌ قَدِ افْعَلْ مَا يَشَاءُ ﴿١٣٤﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلَيْلَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

١٣٨ - وقال المشركون: هذه إبل وزرور ممنوعة مُحَرَّمَةٌ، لا يأكلها إلا خُدَّامُ الأصنام والرجال دون النساء، بافترائهم وظنهم الفاسد، وهذه إبل حُرِّمَتْ ظهورها عن الركوب، فلا يحل ركوبها والحمل عليها في حالٍ من الأحوال، وهذه إبل لا يذكرُونَ اسمَ الله تعالى عليها عند الذبح، ويذكرون أسماء أصنامهم، فعلوا ذلك كذباً منهم على الله عز وجل، سَيَجْزِيهِمْ أَشَدُّ الْجَزَاءِ، جزاءً وفقاً بسبب افترائهم على الله الكذب.

١٣٩ - وقال المشركون: ما في بطون الأنعام من أجنةٍ إذا ولد حيّاً، فهي خالصة الجلل للذكور، ومُحَرَّمٌ على نساتنا، وما وُلد منها ميتاً أكَله الرجال والنساء جميعاً، سَيَجْزِيهِمْ الله جزاءً عقابياً بسبب ما كانوا يفترون على الله في أحكام التحليل والتحرير، التي هي حق ربوبيته وإلهيته؛ إنه حكيمٌ يضع الجزاء بالعدل في الموضع الملائم لوضعه، محيط بكل شيءٍ علماً، لا يظلم أحداً في أحكامه، ولا فيما يجازيه به.

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ كلَّ تحريمٍ في المأكَل والمشارب والألبسة والمساكن دون إذن شرعيٍّ، وليس للمُحَرَّمِ فيه برهانٌ من الله، هو افتراءٌ على الله، وافتئاتٌ في الدين.

١٤٠ - قد حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ، ومن فعل ذلك خسر في الدنيا لأنه سعى في نقص عدده وإزالة ما أنعم الله به عليه، وخسر في الآخرة لأنه استحقَّ بذلك العذاب العظيم، لقد فعلوا ذلك خِفَةً وجهالة مذمومة، وكذلك خسر الذين حرَّموا ما رَزَقَهُمُ الله من الزروع وبعض ما في بطون الأنعام، فعلوا هذه الأفعال المذمومة ونسبوا إلى الله افتراءً وكذباً، قد ضلُّوا في فعلهم عن طريق الحق والرَّشاد، وما كان لديهم الاستعداد لأن يهتدوا مُستقبلاً إلى طريق الحق والصَّواب، إذ رفضوا الحقَّ معاندين.

١٤١ - واللَّهُ سبحانه وتعالى وحده هو الذي خَلَقَ ضمن نظام الإنشاء المُتدرِّج تنامياً، بساتين ذوات أشجار مرفوعاتٍ على دعائم، كالأعنان، وغير مرفوعاتٍ، وهو ما قام على ساق، واستغني باستوائه وقوة ساقه عن التعریش، كالنخل والشجر. وأنشأ النخل والزَّرع، وهو جميع الحبوب التي تُقَات وتُدخَر، حالة كون كلٍّ منهما مختلفاً ثمره الذي يُؤكل منه، شكلاً ولوناً وطعماً وخصائص. وأنشأ سبحانه وتعالى شجر الزيتون وشجر الرُّمان وثمارهما، مُتقارب الصِّفات دون تطابق، وغير متقارب الصِّفات، فلا يلتبس على الناظر الافتراق في الصفات، ولو كان من نوع واحد.

كُلُوا - أيها الناس - من ثمر كلِّ واحدٍ إذا أثمر، واعلموا أنَّ عليكم فيما آتاكم من الأشجار والزُّروع التي أنشأها لكم، حقاً للمساكين والفقراء، ولذوي الحاجات، وللمجتمع الإسلامي، فاتوا هذا الحقَّ، يومَ قُطِيفه وقُطِيعه، ولا تُجاوزوا الحدَّ بلِإنفاق المال وأكل الطعام ونحو ذلك؛ إنه سبحانه لا يُحِبُّ المُسرِّفين المتجاوزين الحدَّ في كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ الإسراف يوصل إلى الوقوع في المضار والمهلك، أو الظلم والتحرير في الدين، ومن لا يحبُّه الله يُبعدُه عن مواطن القُرب منه، ومواقع تنزُّلات عناياته بعباده المحبوبين لديه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب الزكاة في كل زرع وثمر. وأن الزكاة المفروضة لا يجب أدائها قبل الحصاد. ١٤٢ - وخلق لكم ضمن نظام الإنشاء المُتدرِّج تنامياً من الأنعام ما يصلح للعمل والحمل، وهي الكبار الصَّالحة، كالإبل والبقر، وما لا يصلح للحمل والعمل لصغره وقربه من الأرض، كالضأن والمِعْز، كَلُوا ممَّا أحلَّ الله لكم من هذه الأنعام والزُّروع، ولا تسلكوا طرق الشيطان وآثاره في تحريم ما لم يحرمه من الأنعام والزُّروع، كما فعل أهل الجاهلية الذين حرَّموا من الأنعام والحرث ما لم ينزل به تحريماً، فالشيطان له خطوات في الإضلال والإغواء، وهو ينقل بها فريسته ذَرَكَةً ذَرَكَةً، حتى يهوي به إن استطاع إلى أسفل سافلين؛ إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ ظاهر العداوة.

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمَ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلذَّكَورِ نَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الْأُنثَى وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَأَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ، وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾

١٤٣ - وَخَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي رَزَقَهَا عِبَادَهُ ثَمَانِيَةَ أَصْنَافٍ: أَرْبَعَةٌ مِنْهَا مِنَ الْغَنَمِ ذَوَاتُ الصُّوفِ: الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى، وَمِنْ الْمَعَزِ ذَوَاتُ الشَّعْرِ: الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى. قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ الْجَهْلَةِ: هَلْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْكَبِشَ وَالْجَدِيَّ أَمْ النَّعْجَةَ وَالْمَعْزَةَ؟ فَإِنْ كَانَ حَرَّمَ الذَّكَرَيْنِ مَعًا مِنْهُمَا فَكُلْ ذَكَرَهَا حَرَامًا، وَأَنْتُمْ لَا تُحَرِّمُونَ كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعَزِ، وَإِنْ كَانَ حَرَّمَ الْأُنْثَيَيْنِ مَعًا مِنْهُمَا فَكُلْ إِنَاثَهَا حَرَامًا، وَأَنْتُمْ لَا تُحَرِّمُونَ كُلَّ أَنْثَى مِنْ وَلَدِ الضَّأْنِ وَالْمَعَزِ، وَقُلْ لَهُمْ: هَلْ حَرَّمَ اللَّهُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثَيْنِ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعَزِ مِنَ الْحَمْلِ؟ فَإِنَّا لَا تَشْتَمِلُ إِلَّا عَلَى ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى. فَإِنْ قَالُوا: نَعَمْ، فَقُلْ لَهُمْ: قَدْ كَذَبْتُمْ أَيْضًا؛ لَأَنْكُمْ لَا تُحَرِّمُونَ كُلَّ حَمْلٍ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّكُمْ لَا تَمْلِكُونَ دَلِيلًا عَقْلِيًّا وَلَا شَرْعِيًّا يُثَبِّتُ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ. نُبَوِّئُ نَبَأًا مُؤَيَّدًا بِعِلْمٍ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بِأَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ.

١٤٤ - وَبَقِيَّةُ الثَّمَانِيَةِ: هَذِهِ الْأَصْنَافُ الْأَرْبَعَةُ: مِنَ الْإِبِلِ: الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى، وَمِنْ الْبَقَرِ: الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى. قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَأَوْلَئِكَ الْمُشْرِكِينَ: أَحَرَّمَ اللَّهُ الْفَحْلَ مِنَ الْإِبِلِ وَالتَّوْرَ مِنَ الْبَقَرِ أَمْ الْأُنْثَيْنِ مِنَ الْأَرْبَعَةِ، فَحَرَّمَ النَّاَقَةَ مِنَ الْإِبِلِ، وَالبَقْرَةَ مِنَ الْبَقَرِ؟ أَمْ حَرَّمَ اللَّهُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ذَكَورًا وَإِنَاثًا؟ بَلْ أَكُنْتُمْ شُهَدَاءَ حَاضِرِينَ، تَنْقُلُونَ عَنِ اللَّهِ مَبَاشَرَةً، حِينَ وَصَّى اللَّهُ بِهَذِهِ الْأَحْكَامِ الَّتِي زَعَمْتُمْ أَنَّهَا أَحْكَامُ رَبَانِيَّةٍ تَلْتَزِمُونَ بِهَا، وَإِذَا كُنْتُمْ قَدْ كَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَأَدْعَيْتُمْ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا، فَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ مُفْتَرُونَ، وَلَا يُوجَدُ أَشَدُّ ظُلْمًا مِنَ الَّذِي يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ، وَيُضِيفُ تَحْرِيمَ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ إِلَى اللَّهِ؛ لِيُضِلَّ النَّاسَ بِذَلِكَ، وَيَصُدُّهُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ جَهْلًا مِنْهُ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يَثْبِتُ الْهُدَايَةَ لِمَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ، وَأَصَافَ إِلَيْهِ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ لِعِبَادِهِ. وَكَيْفَ يَحْكُمُ لَهُمْ بِالْهُدَايَةِ، وَقَدْ ظَلَمُوا ظُلْمًا كَبِيرًا، وَافْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟

١٤٥ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ يُحْلَلُونَ وَيُحَرِّمُونَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ: لَا أَجِدُ فِي كُلِّ مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ شَيْئًا مُحَرَّمًا عَلَى أَكْلِ يَأْكُلُهُ مِمَّا تَذْكُرُونَ أَنَّهُ حَرَّمَ مِنَ الْأَنْعَامِ، إِلَّا هَذِهِ الْمَحْرَمَاتُ الْآتِيَةُ: الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً لَمْ تُذَكَّ بِالذَّبْحِ وَإِنْ هَارَ الدَّمُ، كَالْمُتَخَنِّقَةِ، وَالْمَوْقُودَةِ الَّتِي وَقُذَتْ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى مَاتَتْ، وَالْمُتْرَدِيَةِ الَّتِي تَرَدَّتْ فِي حَفْرَةٍ أَوْ بُئْرٍ، وَالنَّطِيحَةِ الَّتِي نَطَحَتْ مِنْ أُخْرَى حَتَّى مَاتَتْ، الْمَحْرَمُ الثَّانِي: الدَّمُ السَّائِلُ الْمَسْفُوحُ، الْمَحْرَمُ الثَّلَاثُ: لَحْمُ الْخَنْزِيرِ فَإِنَّهُ نَجَسٌ خَبِيثٌ قَدَرُ، الْمَحْرَمُ الرَّابِعُ: مَا أَعْلَنَ ذَابِئُهُ أَنَّهُ يُقَدِّمُهُ قُرْبَانًا لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ دَعَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ بِسَبَبِ الْجُوعِ الشَّدِيدِ، حَالَةَ كَوْنِهِ غَيْرَ خَارِجٍ عَلَى السُّلْطَةِ الْإِدَارِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ وَلَا مُتَجَاوِزٍ فِيمَا يَأْكُلُ حَدَّ الضَّرُورَةِ؛ إِذْ أَنَّهُ لَا يُبَاحُ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَطَاعِمِ؛ لِأَنَّهُ عَاصٍ فِي خُرُوجِهِ الَّذِي أَفْضَى بِهِ إِلَى ضَرُورَتِهِ، وَمَنْ يُبَاحُ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ مِنَ الْمَطَاعِمِ الْمُحَرَّمَةِ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَسْتَزِيدَ مِنَ الْأَكْلِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْفَعُ بِهِ الضَّرُورَةَ، إِنَّ رَبَّكَ كَثِيرُ السَّعْدِ لِلْمُضْطَرِّ الَّذِي قَدْ يَسْتَزِيدُ مِمَّا يَأْكُلُ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْفَعُ بِهِ ضَرُورَتَهُ، لِأَنَّهُ يَعْسُرُ عَلَيْهِ ضَبْطُ مِقْدَارِ مَا يَدْفَعُ بِهِ ضَرُورَتَهُ؛ دَائِمُ الرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ، إِذْ أَبَاحَ لَهُمُ الْأَكْلَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ. وَقَدْ ثَبِتَ فِي السُّنَّةِ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ تَحْرِيمُ غَيْرِ هَذِهِ الْمَطَاعِمِ الْأَرْبَعَةِ، مِثْلَ لَحْمِ الْحَمْرِ الْأَهْلِيَّةِ، وَكُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ وَمِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ.

١٤٦ - هَذَا مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، وَحَرَّمَنا عَلَى الْيَهُودِ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ ذَوَاتِ الْأَطْفَارِ مِمَّا لَهُ أَصْبَعٌ مِنْ بَهِيمَةٍ أَوْ طَيْرٍ، مِمَّا يَفْتَرَسُ بِظَفَرِهِ، وَمَا لَا يَفْتَرَسُ، وَقَدْ اخْتَصَّ اللَّهُ الْيَهُودَ بِتَحْرِيمِ ذِي الظَّفَرِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ نَوْعَانِ هُمَا: ذَوَاتِ الْأَطْفَارِ الَّتِي لَا تَعْدُو عَلَى غَيْرِهَا، وَذَوَاتِ الْمَخَالِبِ الَّتِي تَعْدُو عَلَى غَيْرِهَا. وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَقَدْ أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهَا مَا كَانَ طَيِّبًا كَالْإِبِلِ وَالنَّعَمِ، وَالْبَطِ وَالْإِوزِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ خَبِيثًا، كَذَوَاتِ الْمَخَالِبِ الَّتِي تَعْدُو عَلَى غَيْرِهَا، وَحَرَّمَنا عَلَى الْيَهُودِ أَيْضًا مِنْ شُحُومِ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ شَحْمَ الْكُلَيْتَيْنِ، وَالشَّحْمَ الَّذِي عَلَى الْكَرْشِ، وَأَحْلَلْنَا لَهُمْ مَا عَلِقَ مِنَ الشَّحْمِ بِالظَّهْرِ وَالْجَنْبِ مِنْ دَاخِلِ بَطُونِهِمَا، أَوْ الشَّحْمَ الْمُلْتَصِقَ بِالْمَبَاعِرِ وَالْمَصَارِينِ، أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ مِنْ شَحْمِ الْأَكْيَةِ الْمُتَّصِلِ بِالْمُغْصَصِ فِي الضَّأْنِ، ذَلِكَ التَّحْرِيمُ الْمُشَدَّدُ عَلَيْهِمْ جَزَائِنَاهُمْ بِهِ؛ عَقُوبَةً لَهُمْ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ وَظُلْمِهِمْ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فِي الْإِخْبَارِ عَنْ بَغْيِهِمْ، وَتَخْصِيصِهِمْ بِهَذَا التَّحْرِيمِ.

ثَمَانِيَةَ أَرْوَجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ
قُلْ وَاللَّذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبَوِّئُ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ وَاللَّذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ
أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ
عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ
فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ
فِسْقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ يَبِغِيهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاعٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا
كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا
اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾

١٤٧ - فَإِنْ كَذَّبَكَ الْمَشْرُكُونَ وَالْيَهُودُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - فِيمَا أَخْبَرْنَاكَ، فَقُلْ: رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَنْكُمْ، وَالْمُجْرِمُونَ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِذَا قُضِيَ تَعَذِّيْبُهُمْ، وَلَا يَزِدُّ عَذَابُهُ وَنِقْمَتُهُ إِذَا جَاءَ وَقْتُهَا الْمُقَدَّرُ فِي عِلْمِهِ سَبْحَانَهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ الْمُتَصَافِرِينَ عَلَى الشَّرِّ، وَالْمُتَعَانِينَ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

١٤٨ - سَيَقُولُ أَئِمَّةُ الشَّرِّكَ مُسَوِّغِينَ إِقَامَتَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالشَّرِّكَ: لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا نُشْرِكَ مَا أَشْرَكْنَا، وَلَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا حَرَّمَنا مِنْ شَيْءٍ، بَلْ شَاءَ أَنْ نَكُونَ مُشْرِكِينَ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا، وَشَاءَ أَنْ نُحَرِّمَ مَا حَرَّمَنا، وَفَطَرْنَا عَلَى هَذَا بِالْخَلْقِ الْجَبْرِيِّ، فَلَا مَسْئُولِيَّةَ عَلَيْنَا، فِيمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ رَبَّنَا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَدًّا وَتَكْذِيبًا لَهُمْ: كَذَلِكَ الْكُذْبُ الَّذِي سَيَقُولُهُ الْمَشْرُكُونَ، كَذْبُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، وَقَالُوا مِثْلَ قَوْلِ هَؤُلَاءِ، حَتَّى أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ، فَلَوْ كَانَ زَعْمُهُمْ صَحِيحًا مُرَضِيًّا عِنْدَ اللَّهِ، لَمَا أَذَاقَ أَصْلَافَهُمُ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ قَالُوا لِرُسُلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، عَذَابُهُ وَنِقْمَتُهُ. قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ - لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ: هَلْ عِنْدَكُمْ بِدْعَاؤُكُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ بَرَهَانٍ عَقْلِيٍّ وَتَجْرِبِيٍّ يُوجِبُ الْيَقِينَ مِنَ الْعِلْمِ، وَتُثْبِتُ أَنْكُمْ مُجْبُورُونَ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، فَتُظْهِرُوا ذَلِكَ الْعِلْمَ لَنَا؟ بَلِ الْبَرَهَانُ الْعَقْلِيُّ وَالتَّجْرِبِيُّ يُثْبِتُ أَنْكُمْ ذَوُو إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ تَرِيدُونَ بِهَا مَا تَشَاوُونَ مِنْ كُلِّ مَا يَخْضَعُ لِتَصَرُّفَاتِكُمُ الْإِرَادِيَّةِ، وَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ عَمَّا تَفْعَلُونَ بِإِرَادَاتِكُمُ الْحُرَّةِ، وَقُلْ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ تَقِيمَ الْحُجَّةَ الْفَاطِعَةَ لَجِدْلِهِمُ الْقَائِمَ عَلَى الْمِغَالَطَةِ: أَنْتُمْ بَيْنَ حَالَتَيْنِ: الْأُولَى: مَا تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ التَّوَهُمِيَّ فِيمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَسْوِيفِ الشَّرِّكَ وَتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، الثَّانِيَّةُ: وَمَا أَنْتُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَّا تَتَأَثَّرُونَ بِأَوْهَامِكُمْ، وَتَنْدَفِعُونَ وَرَاءَهَا كَأَنَّهَا حَقَائِقُ.

١٤٩ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ حِينَ عَجَزُوا عَنْ إِظْهَارِ حُجَّةٍ لَهُمْ: قُلِّلِ الْحُجَّةُ التَّامَّةُ عَلَى خَلْقِهِ بِإِنْزَالِ الْكِتَابِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَسَلَبَكُمْ إِرَادَاتِكُمُ الْحُرَّةَ، وَلَجَعَلَكُمْ مُجْبُورِينَ لَا اخْتِيَارَ لَكُمْ، وَتَكُونُوا جَمِيعًا مُهْدِيَيْنَ كَالْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنْ ذَلِكَ يُلْغِي حِكْمَةَ إِبْتِلَائِكُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَلَا تَزْعُمُوا أَنْكُمْ مُجْبُورُونَ، أَمَا الْهُدَايَةُ بِالْإِدْلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ، وَبَيَانِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ بِهَا رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهَا كِتَابَهُ.

١٥٠ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَهُمْ: هَاتُوا وَأَحْضَرُوا شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ لَكُمْ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَا حَرَّمْتُمْ مِنَ الزَّرْعِ وَالْأَنْعَامِ، فَإِنْ شَهِدُوا - كَذِبًا وَزُورًا - فَلَا تَشْهَدُ أَنْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مَعَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي شَهَادَتِهِمْ كَاذِبُونَ، وَإِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ شَهَادَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى، فَلَا تَتَّبِعْ أَنْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلَكِنْ أَتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، فَهُمْ لَا يَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ، فَيَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، وَيَنْصَرِفُونَ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ خَلْقِهِ.

١٥١ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُمْ بِتَحْرِيمِ مَا حَرَّمَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: هَلُمُّوا - أَيُّهَا الْقَوْمُ - أَخْبِرْكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ فَعَلَهُ أَوْ تَرَكَهُ حَقًّا يَقِينًا لَا ظَنًّا وَلَا كَذِبًا كَمَا زَعَمْتُمْ: الْمُحَرَّمُ الْأَوَّلُ: الشَّرِّكَ بِاللَّهِ: فَلَا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا فِي رَبوبيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وَالْمُحَرَّمُ الثَّانِي: عَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، بِعَدَمِ الْقِيَامِ بِطَاعَتِهِمَا وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا، فَأَحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَالْمُحَرَّمُ الثَّالِثُ: قَتْلُ الْأَوْلَادِ، فَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ تَخَلُّصًا مِنْ أَزْمَةِ الْفَقْرِ الْوَاقِعِ، فَإِنِّي رَازِقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ، وَالْمُحَرَّمُ الرَّابِعُ: الْإِقْتِرَابُ مِنْ كِبَائِرِ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِشَهَوَاتِ الْفُرُوجِ مَا كَانَ ظَاهِرًا مِنْهَا وَمَا كَانَ خَفِيًّا، وَالنَّهْيُ عَنِ الْإِقْتِرَابِ أَشَدُّ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْفِعْلِ، وَالْإِقْتِرَابُ مِنَ الْفَوَاحِشِ يَكُونُ بِالْخُلُوعِ، وَبِالْمَلَامَةِ، وَبِالْمَعَانِقَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَالْمُحَرَّمُ الْخَامِسُ: قَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا فِي عَمُومِ الْأَحْوَالِ، إِلَّا حَالَةَ كَوْنِ قَتْلِهَا مُتَّصِفًا بِالْحَقِّ، وَهِيَ الَّتِي أُبَيِّحُ قَتْلَهَا مِنْ رَدَّةٍ، أَوْ قِصَاصٍ، أَوْ زِنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ، ذَلِكَ الْمَذْكُورُ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي، أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ أَمْرًا مُؤَكَّدًا، وَنَهَاكُمُ عَنْهُ نَهْيًا مُؤَكَّدًا؛ رَغْبَةً فِي أَنْ تَعْقِلُوا عَقْلًا عِلْمِيًّا، وَعَقْلًا إِرَادِيًّا بِضَبْطِ النَّفْسِ عَنْ اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَالْجُنُوحِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ.

١٥٢ - وَالْمُحْرَمُ السَّادِسُ: الاقتراب من مال اليتيم الذي مات أبوه قبل الحُلُم، فلا تُقربوا مال اليتيم الذي أنتم أولياءه أو أوصياءه عليه، إلا بالخصلة التي هي أحسن، بالمحافظة على الأموال الثابتة كالأرضين والدُّور والأغراس، وتثمين المنقول وتحصيل الرِّيح فيه، فاخفَظُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ الْحُلُمَ مع إيناس الرُّشد، فإذا بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله، وَالْمُحْرَمُ السَّابِعُ: عدم إيفاء الكَيْل والمَكْيَال، والوزن والميزان بالعدل، فاجعلوا الكَيْل في المكيلات والوزن في الموزونات تاماً من غير بخس أي مقدار مهما قل. لا تُكَلِّفْ نَفْساً إِلَّا مَا يَسْغُهَا وَلَا يَشُقْ عَلَيْهَا فِي إِيفَاءِ الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ وإتمامه، فما عَجَزْتُمْ عَنْ تَحْقِيقِهِ، فلا مسؤولية عليكم فيه، الْمُحْرَمُ الثَّامِنُ: عدم العدل بالقول، في حكم أو شهادة أو رواية ونحو ذلك، فإذا قلتم قولاً فاصدقوا فيه، وقولوا الحق، ولو كان المحكوم عليه، وكذا المشهود عليه - الذين تريدون مُحَابَاتِهِ بقولٍ مائلٍ عن الحق - ذا قرابة، الْمُحْرَمُ التَّاسِعُ: عدم الوفاء بعهد الله، ممَّا أمر الله به أو نهى عنه، فأوفوا بأوامر الله ونواهيه، وبما يكون بينكم وبين العباد من موثيق وثقتموها بالخلف باسم من أسماء الله تعالى، ذلكم المذكور في هذه الآيات وصَّاكم بالعمل به، رغبة في أن تضعوا ذلك في ذاكرتكم، ويظهر أثر ذلك التذكُّر في نفوسكم وقلوبكم وسلوككم.

١٥٣ - الْمُحْرَمُ الْعَاشِرُ: عدم اتِّبَاعِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، واتِّبَاعِ السَّبِيلِ الْعَدِيدَةِ الْمُتَفَرِّقَةِ، فَاتَّبِعُوا طَرِيقِي وَدِينِي الَّذِي ارْتَضَيْتُهُ لِعِبَادِي قَوِيماً لَا اِعْجَاجَ فِيهِ، فاعملوا به، وَلَا تَتَّبِعُوا الطَّرِيقَ الْمُخْتَلِفَةَ، وَالْأَهْوَاءَ الْمُضِلَّةَ وَالْبِدْعَ الْمُرَدِّيَةَ، فتميل بكم هذه الطرق المختلفة الْمُضِلَّةُ، عن دينه وطريقه الذي ارتضاه لعباده، ذلكم وصَّاكم به باتِّبَاعِ دِينِهِ وَصِرَاطِهِ الَّذِي لَا اِعْجَاجَ فِيهِ؛ رغبة في أن تعملوا بهذه الوصايا، فَتَتَّقُوا الطَّرِيقَ الْمُخْتَلِفَةَ وَالسَّبِيلَ الْمُضِلَّةَ.

١٥٤ - ثُمَّ بَعْدَمَا أُنْزِلْنَا فِي الرِّسَالَاتِ السَّابِقَاتِ أَحْكَاماً وَشَرَائِعَ هِيَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي اضْطَفَيْنَاهُ لِلنَّاسِ، وَهِيَ كَافِيَاتٌ لِلْأَقْوَامِ الَّتِي كُتِفَتْ أَنْ تَعْمَلَ بِهَا، آتَيْنَا مُوسَى كِتَابَ التَّوْرَةِ حَالَةً كَوْنُهُ تَمَاماً كَامِلاً فِي أَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، مَحْمُولاً بِتَمَامِهِ عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ مِنْ قَوْمِهِ، وَتَبْيِيناً لِكُلِّ شَيْءٍ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ، وَهُدًى إِلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ، وَرَحْمَةً مِنِّي عَلَيْهِمْ؛ رغبة في أن يؤمن بنو إِسْرَائِيلَ بِالْبَيْتِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُصَدِّقُوا بِالنُّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَفَصْلَ الْقَضَاءِ وَالْجَزَاءِ، وَيَعْمَلُوا لِلذَّكَاءِ.

١٥٥ - وَهَذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ أُنْزِلَ عَنْ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، كَثِيرُ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ وَالْعِطَاءِ الْعِلْمِيِّ وَالْمَعْرِفِيِّ، وَالْهُدَايَةِ وَالتَّائِيْدَاتِ الْقَلْبِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ، فَأَمَّنُوا بِهِ، وَاعْمَلُوا بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاحِي وَالْأَحْكَامِ، وَاتَّقُوا عَذَابَ رَبِّكُمْ، رَاجِينَ أَنْ يَرْحَمَكُمُ رَبُّكُمْ، فَيَغْفِرَ لَكُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَاتِّبَاعِ كِتَابِهِ سَوَابِقَ كُفْرِكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّكُمْ.

١٥٦ - نُوَجِّهُ لَكُمْ - أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ الْعَرَبُ - هَذَا الْأَمْرَ بِاتِّبَاعِ الْقُرْآنِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ، مَنَعُ أَنْ تَقُولُوا مُعْتَذِرِينَ عَنْ كُفْرِكُمْ يَوْمَ الدِّينِ: مَا أُنْزِلَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَقَدْ كُنَّا عَنْ قِرَاءَتِهِمْ غَافِلِينَ لَا عِلْمَ لَنَا بِمَا فِيهَا؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِلُغَتِنَا.

١٥٧ - أَوْ مَنَعُ أَنْ تَقُولُوا - أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ -: لَوْ أَنَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ كَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، لَكُنَّا خَيْراً مِنْهُمْ وَأَهْدَى، فَقَدْ جَاءَكُمْ هَذَا الْقُرْآنُ فِيهِ بَيَانٌ وَحُجَّةٌ وَاضِحَةٌ تَعْرِفُونَهَا، وَهُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَهُوَ رَحْمَةٌ وَنِعْمَةٌ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَلَا يَوْجَدُ أَكْثَرَ ظُلْماً مِنَ الَّذِي كَذَّبَ بآيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى رَسُولِهِ، وَأَعْرَضَ عَنْهَا، وَصَرَفَ النَّاسَ عَنْهَا، سَنَجْزِي الَّذِينَ يُعْرِضُونَ مَائِلِينَ عَنْ آيَاتِنَا الْمُنَزَّلَاتِ عَلَى رَسُولِنَا، وَالَّذِينَ يَصْرِفُونَ النَّاسَ عَنْهَا، أَسْوَ الْعَذَابِ وَأَشَدَّهُ؛ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ بآيَاتِنَا، وَصَدَّهِمْ عَنْ سَبِيلِنَا.

وَلَا تُقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ
وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفْ نَفْساً إِلَّا
وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ
اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَدِّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَدِّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمٍ يَلْقَاءُ
رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أُنْزِلَ مِنْ رَبِّكَ فَاتَّبِعُوهُ
وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ
عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ
﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ
فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

١٥٨ - هل ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم الرُّسل، وإنكارهم القرآن، إلا إحدى هذه الأمور الثلاث: الأمر الأول: أن تأتيهم الملائكة لِقَبْضِ أرواحهم. الأمر الثاني: أن يأتي ربُّك للحكم وفصل القضاء بين الخلق يوم القيامة. الأمر الثالث: أن يأتي بعضُ أشرار الساعة، وهي طلوع الشمس من مغربها، فحين ظهور هذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة، لا ينفع من كان مشركاً بإيمانه، إن لم يكن آمن من قبل، ولا يقبل من فاسق توبته إن لم يكن عمل قبل ظهور هذه الآية خيراً يُعبر به عن صحة الإيمان وصدقه؛ لأن هذه الآية العظيمة تضطرهم إلى الإيمان والتوبة. قل لهم - يا رسول الله -: انتظروا تحقيق آمالكُم بموتي والتخلص مني، أو بحدوث حَدَثٍ يُوقف مسيرة دعوتي، فانا والذين آمنوا بي منتظرون نصر الله لنا، ومنتظرون ما وعدكم ربُّكم من العذاب يوم القيامة أو قبله في الدنيا.

١٥٩ - إن الذين فرَّقوا دينهم، واختلفوا فيه، وصاروا أحزاباً مُتفرقة في الضلالة، من المشركين واليهود والنصارى، وأهل الأهواء والبدع، بعد ما كانوا مجتمعين على توحيد الله والعمل بشرعه، لست - يا رسول الله - في شيء من دينهم، ولست مسؤولاً عنهم، فلا تحمل همَّ أحدٍ منهم، إنما أمرهم إلى الله، وهو الذي سيحبط كَيْدَهُمْ، ويظهر دينه، وسينصرك عليهم، وستأتيهم آجالهم دون تحقيق آمالهم، وينالون نصيباً من عذابهم عند موتهم، وفي مدة البرزخ، ثم يبعثون؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وحين يُسائلهم ربُّهم، يُنبتُّهم بما كانوا يفعلون في الحياة الدنيا.

١٦٠ - مَنْ جاء بالحسنة فله عشرُ حسناتٍ أمثالها، وَمَنْ جاء بالسئنة فلا يُجزي إلا مثلاً في مقابلها، ولا يُنقُص من ثواب الطائع، ولا يُزاد على عذاب العاصي.

١٦١ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: إنني أرشدني ربِّي إلى طريق الإسلام القويم، لا عوج فيه ولا التواء، حالة كونه ديناً ذا مبادئ عظيمة تقوم بها العقائد وأنواع السلوك الإنساني، وهداني دين إبراهيم في أصوله وعقائده وكتلياته السلوكية، حالة كون إبراهيم عليه السلام مائلاً عن كلِّ عوج في ملل النَّاس ومذاهبهم إلى الاستقامة، وما كان إبراهيم عليه السلام - يا معشر قريش - من المشركين، وأنتم تعبدون الأصنام وتزعمون أنكم على دينه!!

١٦٢، ١٦٣ - قل - يا رسول الله -: إن صلاتي، وعبادتي وتقربي إلى الله سبحانه، وحياتي وموتي، كلها خالصة لوجه الله عز وجل، الخالق لكل الموجودات الكونية، والمُمد لها دوماً بعباءات ربوبيته، فهو المُستحق أن يُعبد وحده. لا شريك له في ربوبيته وفي إلهيته. وبهذا التوحيد أمرت، وأنا أول الذين يُعلنون إسلامهم، وأول المُنفذين لأحكام الإسلام في سلوكي النفسي والجسدي من هذه الأمة.

١٦٤ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء الكفار من قومك: أغير الله أطلُب لنفسي رباً، وهو - جلَّ جلاله - سيّد كل شيء ومالكه لا يُشاركه فيه أحد؟ ولا تخني نفس بما تكسب من آثام، إلا عقوباتٍ مُسلَّطات عليها، لا يُشاركها فيها أحد، ولا تحمل نفسُ أئمة ولا غير أئمةٍ إثمَ نفس أخرى، حتى تُخلص هذه الثانية من إثمها، إنما تحملُ الأئمةُ إثمَ ذنبها الذي فعلته بالمباشرة أو التسبب فتعاقب هي عليه، ثم بعد رحلة امتحانكم - أيها الناس - تموتون، ثم تبعثون، وترجعون إلى ملاقة ربكم في محكمة يوم الدين، فَيُنبتُّكم بكل ما كنتم فيه تختلفون.

١٦٥ - واللَّهُ هو الذي صيَّركم أجيالاً يعقب بعضكم بعضاً في الأرض، تَخْلُفُونَ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَيَخْلُفُكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَجَعَلَكُمْ رَبُّكُمْ مُتَفَاضِلِينَ فِي هَبَائِهِ وَعَطَايَاهُ لَكُمْ فِي ذَوَاتِكُمْ، وفيما ملككم إياه، ومكنكم أن تتصرفوا فيه؛ لِمَتَحَنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فيما آتاه، إن ربك سريع العقاب لأعدائه بإهلاكهم في الدنيا، يُنزله عليهم سريعاً بعد تفاقم شرهم، وهم غير مُترقبين إنزاله فيهم، وإنه لكثير السَّتر لذنوب أوليائه، وأهل طاعته، واسع الرحمة ودائماً لمن آمن منهم.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ
بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا
لَوْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْظُرُوا
إِنَّمَا أَنْظُرُونَ ۝١٥٨ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَأَسْت
مِثُهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
۝١٥٩ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِمَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦٠ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ۝١٦١ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ
۝١٦٣ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا زُرْ وَارِدَهُ وَذَرْ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝١٦٤ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ
خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ
فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٦٥

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

الجزء الثاني

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

١ - ﴿التَّصَّ﴾ سَبَقَ الْكَلَامَ عَلَى مَعَانِي الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

٢ - هَذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - ، فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ ضِيقٌ مِنْ مَسْئُولِيَّاتِكَ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْكَ تُجَاهَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ، فَلَسْتُ مَسْئُولاً عَنْ تَحْوِيلِ النَّاسِ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَاتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ الْإِكْرَاهِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يَتَّبِعُونَهُ؛ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْقُرْآنَ لِنُنْذِرَ بِهِ مَنْ أَمَرْتُكَ بِإِنْذَارِهِ بَعْدَ التَّبْلِيغِ وَالْبَيَانِ وَاتِّخَاذِ كُلِّ وَسَائِلِ الْإِقْنَاعِ، وَلِيَكُونَ ذِكْرِي لِلْمُؤْمِنِينَ، يَذْكُرُونَ بِهِ، وَيَتَذَكَّرُونَهُ كُلَّمَا تَلَّوْهُ، أَوْ قَرَّوْهُ، أَوْ سَمِعُوهُ.

٣ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِقَوْمِكَ: اتَّخَذُوا رَبَّكُمْ وَلِيًّا لَكُمْ، فَاتَّبِعُوا - أَيُّهَا النَّاسُ - الْقُرْآنَ وَمَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَلَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ يَدْعُونَكُمْ إِلَى الْكُفْرِ أَوْلِيَاءَ، تَتَّبِعُونَ مَا يَأْمُرُونَكُمْ بِهِ وَمَا يَنْهَوْنَكُمْ عَنْهُ، مَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا قَلِيلًا بِاِكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ الدِّينِيَّةِ، وَالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا فِي مَخَازِنِ الذَّاكِرَةِ، وَاسْتِدْعَائِهَا إِلَى سَاحَةِ التَّذَكُّرِ عِنْدَ الْمُنَاسِبَاتِ الدَّاعِيَاتِ، لِيَكُونَ هَذَا التَّذَكُّرُ مُوجِّهًا لِإِرَادَتِكُمْ، وَمُحَرِّكًا لِسُلُوكِكُمْ.

٤ - وَكَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْمُجْتَمَعَاتِ السَّكَنِيَّةِ الَّذِينَ أَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ أَرَدْنَا إِهْلَاكَهُمْ، فَقَضَيْنَاهُ، فَجَاءَ أَهْلُهَا عَذَابُنَا الشَّدِيدَ لَيْلًا قَبْلَ أَنْ يُصْبِحُوا كَقَوْمِ لُوطَ، أَوْ هُمْ نَائِمُونَ فِي نِصْفِ النَّهَارِ كَقَوْمِ شُعَيْبَ؛ وَإِنْزَالِ الْعَذَابِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ، وَهُمَا وَقْتُ الدُّعَا وَالْغَفْلَةِ: أَقْسَى وَأَفْظَعَ.

٥ - فَمَا كَانَ دَعَاءُ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي جَاءَهَا عَذَابُنَا إِلَّا أَنْ اعْتَرَفُوا بِالذَّنْبِ حِينَ لَا يَنْفَعُ الْاعْتِرَافُ وَلَا الدَّعَاءُ وَلَا الرَّجَاءُ.

٦ - أَقْسَمَ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَمَمَ الَّذِينَ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ: مَاذَا عَمَلْتُمْ فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ الرُّسُلُ؟ وَأَقْسَمَ لِنَسْأَلَنَّ الرُّسُلَ الَّذِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ إِلَى الْأَمَمِ: هَلْ بَلَّغْتُمْ رِسَالَاتَنَا؟

٧ - فَلَنُخَبِّرَنَّ الرُّسُلَ، وَمَنْ أَرْسَلُوا إِلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَبِقِيْنٍ بِمَا عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا، وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَعْمَالِهِمْ، وَعَنْ الرُّسُلِ فِيمَا بَلَّغُوا، وَعَنْ الْأَمَمِ فِيمَا أَجَابُوا، بَلْ كُنَّا حَاضِرِينَ شَاهِدِينَ كُلِّ شَيْءٍ.

٨ - وَالْوَزْنَ يَوْمَ سُؤَالِ الْأَمَمِ وَالرُّسُلِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ: الْعَدْلُ. فَمَنْ ثَقُلَتْ مَقَادِيرُ أَعْمَالِهِ الْمَوْزُونَةِ؛ بَأَن رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ، فَأُولَئِكَ رَفِيعُوا الْمَنْزِلَةَ هُمُ النَّاجُونَ غَدًا، وَالْفَائِزُونَ بِثَوَابِ اللَّهِ وَجَزَائِهِ.

٩ - وَمَنْ خَفَّتْ مَقَادِيرُ أَعْمَالِهِ الْمَوْزُونَةِ بَأَن رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، وَهُمُ الْكَافَرُ، فَأُولَئِكَ الْبَعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّذِينَ غَبَوُا أَنْفُسَهُمْ حُظُوظَهَا مِنْ جَزِيلِ ثَوَابِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ؛ بِسَبَبِ مَا كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَظْلِمُونَ بِتَرْكِهِمْ أَتْبَاعَ آيَاتِنَا الْمُنْزَلَاتِ الَّتِي أَمَرْنَاهُمْ بِاتِّبَاعِهَا.

١٠ - وَأَقْسَمَ مُؤَكِّدًا لَكُمْ أَنَّنَا جَعَلْنَا لَكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - فِي الْأَرْضِ تَمْكِينًا تَقْدِرُونَ بِهِ عَلَى التَّصَرُّفِ بِالْمُسَخَّرَاتِ لَكُمْ فِيهَا، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا جَمِيعَ وَجْهِ الْمَنَافِعِ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّكُمْ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ مَا صَنَعْتُ إِلَيْكُمْ، وَأَنْعَمْتُ بِهِ عَلَيْكُمْ.

١١ - وَأَقْسَمَ مُؤَكِّدًا لَكُمْ أَنَّنَا قَدَرْنَا تَكْوِينَكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَأَنْتُمْ فِي ظَهْرِ أَيْكُمْ آدَمَ، ثُمَّ بَعْدَ الْخَلْقِ التَّقْدِيرِيِّ الْإِبْدَاعِيِّ صَوْرَتَكُمْ، ثُمَّ قُلْنَا لِمَلَائِكَةِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى - وَمَنْ كَانَ مُتَدَسِّسًا فِيهِمْ، وَمُلْتَحِقًا بِهِمْ، وَهُوَ إِبْلِيسُ - : اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ لِآدَمَ، إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ ضَمَنِ السَّاجِدِينَ؛ حَسَدًا لَهُ عَلَى هَذَا التَّكْرِيمِ الْعَظِيمِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التَّصَّ ١ كُنْتُ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ
لِنُذِيرِهِ وَذِكْرِي لِلْمُؤْمِنِينَ ٢ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ
مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ٣
وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَ هَابًا نَسْنَيْتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ
٤ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِآسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ٥ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ
الْمُرْسَلِينَ ٦ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ يَعْلَمُونَ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ٧
وَالْوَزْنَ يَوْمَ يُؤْمَدُ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ٩ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ
فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ١٠
وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ١١

١٢ - قال الله تعالى لإبليس: أَيُّ شَيْءٍ مَنَعَكَ عَنِ السُّجُودِ لآدَمَ حَامِلًا لَكَ عَلَى الْأَرْضِ تَسْجُدُ وَقْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ مَعَ مَنْ أَمَرْتُ مِنْ مَلَائِكَةِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ دَخَلَتْ فِيهِمْ، وَاعْتَبَرْتُ نَفْسَكَ وَاحِدًا مِنْهُمْ؟ قَالَ إِبْلِيسُ: أَنَا أَشَدُّ مِنْ قُوَّةٍ وَأَفْضَلُ مِنْهُ أَصْلًا؛ لِأَنَّكَ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ.

١٣ - قال الله تعالى لإبليس: كَذَبْتَ، فَلَيْسَتْ خَيْرًا مِنْهُ، بَلْ أَنْتَ مُسْتَكْبِرٌ بِغَيْرِ حَقٍّ، جَاوِزٌ إِلَهِيَّةَ رِبِّكَ، فَاهْبِطْ مِنَ الْجَنَّةِ، فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَسْتَكْبِرَ فِي الْجَنَّةِ عَنْ أَمْرِي وَطَاعَتِي، فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الْأَذْلَاءِ الْمُهَانِينَ.

١٤ - قال إبليس عند ذلك: أَخْرَجَنِي وَلَا تُثْمِنُنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَهُوَ وَقْتُ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ.

١٥ - قال الله تعالى له: إِنَّكَ مِنَ الْمُؤَخَّرِينَ الْمُهْمَلِينَ، إِلَى الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، وَهُوَ وَقْتُ النَّفْخَةِ الْأُولَى حِينَ يَمُوتُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ.

١٦ - قال إبليس: فَسَبِّبْ مَا حَكَمْتَ عَلَيَّ بِالْغَوَاةِ، لِرَفْضِي طَاعَةَ أَمْرِكَ بِالسُّجُودِ لآدَمَ، أَقْسَمُ لَأَقْعُدَنَّ لِإِغْوَائِهِمْ مُلَازِمًا طَرِيقَكَ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي يُوصِلُ سَالِكِهِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، حَتَّى يَسْلُكُوا سُبُلًا مُنْحَدِرَةً بِسَالِكِيهَا إِلَى دَرَكَاتِ الْجَحِيمِ.

١٧ - ثُمَّ لَا يَبْقَى مِنْ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ، بِالصُّدُورِ مِنَ الْأَمَامِ، وَالْمَنْعِ وَالْجَذْبِ مِنَ الْخَلْفِ، وَالتَّحْوِيلِ ذَاتِ الْيَمِينِ، أَوْ ذَاتِ الشِّمَالِ، فِي السُّبُلِ الْمُتَفَرِّقَةِ وَالْمَتَاهَاتِ، وَلَا تَجِدُ بَعْدَ قِيَامِي أَنَا وَذُرِّيَّتِي وَجُنُودِي بِإِغْوَاءِ بَنِي آدَمَ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ، بَلْ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ كَافِرِينَ يَسْتَحْقُونَ الْخُلُودَ فِي النَّارِ.

١٨ - قال الله تعالى لإبليس: اخْرُجْ مِنَ الْجَنَّةِ مَعْبِيًا، مَطْرُودًا، مَدْفُوعًا بِعَفْوِ وَإِهَانَةِ وَإِذْلَالٍ، لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ تَبِعِكَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَإِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتِهِ.

١٩ - وَقُلْنَا: يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ حَوَاءَ الْجَنَّةِ، فَكُلَا مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ مِنْ أَيِّ مَكَانٍ شِئْتُمَا، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ لِلْأَكْلِ، فَإِنْ أَكَلْتُمَا مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ظَلَمْتُمَا أَنْفُسَكُمَا، إِذْ تُسَبِّبُ لَكُمَا مَعْصِيَتَكُمَا الْإِخْرَاجَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْإِهْبَاطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَتَحْمِلَ الْكَذْحَ وَالْكَدَّ وَالْعَنَاءَ فِيهَا.

٢٠ - فَالْقَى الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِي آدَمَ وَحَوَاءَ كَلَامًا خَفِيًّا مَكْرَرًا، مُسَوِّلاً لِهَما الْأَكْلَ مِنَ الشَّجَرَةِ بِطَرِيقٍ كَثِيرَةٍ؛ لِيُظْهِرَ لِهَما مَا سُتِرَ وَأُخْفِيَ عَنْهُمَا مِنْ عَوْرَاتِهِمَا، وَقَالَ إِبْلِيسُ لآدَمَ وَحَوَاءَ: مَا نَهَاكُمَا رُبُّكُمَا عَنِ الْأَكْلِ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ؛ إِلَّا مَنَعَ أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً، أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ الَّذِينَ لَا يَمُوتُونَ؛ بِسَبَبِ مَا فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ مِنْ عَنَاصِرٍ تُسَبِّبُ الْخُلُودَ.

٢١ - وَأَقْسَمَ لِهَما بِاللَّهِ تَعَالَى كَاذِبًا: إِنِّي لَكُمَا لَمَنِ النَّاصِحِينَ بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ، لِيَسْتَجِيبَا لِنَصِيحِهِ الْكَاذِبِ فِيهَا، فَيَأْكُلَا مِنَ الشَّجَرَةِ الْمُحَرَّمَةِ.

٢٢ - غَرَّ إِبْلِيسُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَزَوْجَهُ حَوَاءَ بِالْيَمِينِ الْكَاذِبَةِ، فَحَطَّهُمَا مِنْ مَنَزَلَةِ الطَّاعَةِ إِلَى مَهْوَاةِ الْمَعْصِيَةِ بِخَدَاعِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَحِينَ طَعِمَا مِنْ ثَمَرَةِ الشَّجَرَةِ، ظَهَرَتْ لِهَما عَوْرَاتُهُمَا بِسُقُوطِ الْأَكْسِيَةِ السَّاتِرَةِ لِهَما، وَجَعَلَا يُرْقِعَانِ وَيُلْصِقَانِ عَلَى جُلُودِ سَوَاتِهِمَا مِنْ وَرَقِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، وَنَادَى اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ وَحَوَاءَ وَخَاطَبَهُمَا، فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ أَكْلِ ثَمَرَةِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْمُحَرَّمَةِ، وَأَقُلَّ لَكُمَا: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ بَانَثَ عِدَاؤُهُ لَكُمَا بِتَرْكِ السُّجُودِ حَسَدًا وَبَغْيًا؟! وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُشْفَ الْعَوْرَةِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَأَنَّهُ كَانَ وَلَمْ يَزَلْ مُسْتَقْبَحًا فِي الْعُقُولِ، مُسْتَهْجَأًا فِي الطَّبَاعِ. وَأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَسَالِكِ الشَّيْطَانِ فِي إِشَاعَةِ الْفَحْشَاءِ: التَّكْشُفُ وَالتَّعَرُّي، وَلبس القصير من الثياب.

قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَبْقَى مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمَا مَذْمُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَقَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾

٢٣ - قال آدم وحواء: ربنا ظلمنا أنفسنا بما مخالفة أمرك وطاعة عدونا وعدوك، وأنت يا ربنا إن لم تستر علينا ذنوبنا، وتفضل علينا برحمتك، لنكونن من ضمن جماعات الخاسرين.

٢٤ - قال الله تعالى لآدم وحواء وذريتهما فيهما: اهبطوا من السماء إلى الأرض، والحال أنه سيكون بعضكم عدواً لبعض، بسبب اختلاف مصالحكم وأهوائكم وشهواتكم، وما سيكون بينكم من تحاسد، وخصومات شديدة، وحروب كبرى، ولكم في الأرض موضع استقرار مؤقت، ولكم فيها متاع تستمتعون به إلى انقضاء أجالكم.

٢٥ - قال الله عز وجل لآدم وحواء وذريتهما: في الأرض تعيشون أيام حياتكم، وفيها وفاتكم وموضع قبوركم، ومن الأرض يخرجكم ربكم، ويجمعكم للحساب يوم القيامة.

٢٦ - يا بني آدم قد خلقنا لكم لباساً مادياً تسترون به عوراتكم، ولباساً لزينتكم وتجميلكم وتأثيث منازلكم، ولباساً معنوياً من تعليمات الله وأوامره لكم يقيكم إذا عملتم بها وأتبعتموها شقاء الحياة الدنيا، وعذاب الله يوم الدين، ولباس تقوى الله بفعل الأوامر واجتناب النواهي خير لصاحبه من لباس التجميل وزينة الدنيا؛ لأن صاحبه يبقى به من النار. ذلك الذي أنزلناه عليكم - يا بني آدم - من نعم الحياة الدنيا لمعاشكم، وإنزال تعليمات الدين التي هي هدى لكم من آيات الله العظيمة الدالات على عظيم رحمته ونعمته وحكمته؛ رغبة أن يضعوها في ذاكرتهم، وأن يعملوا بما تهديهم إليه، مما يحقق سعادتهم في عاجل أمرهم وأجله.

٢٧ - يا بني آدم لا يخذعنكم الشيطان بغروره، ولا يضلنكم فيزيئ لكم كشف عوراتكم، فيخرجكم عن صراط الله إلى المعصية،

فتستحقون الحرمان من دخول الجنة، فإن من قدر على إخراج أبيكم وأمكم من الجنة بوسوسته وشدة عداوته يقدر على فتنكم بطريق أولى، يزيل عنهما بوسوسته وغروره لباسهما؛ ليرى آدم عورة حواء، وترى حواء عورة آدم، إن إبليس يراكم - يا بني آدم - هو وجماعته من الجن من أمكنة يكونون معكم فيها، وأنتم لا تزرونهم. إننا جعلنا - بما وضعنا في طبائع الأشياء والنفس من أنظمة وقوانين سببية - الشياطين أعواناً وقرناء للذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وتتولى بوساوسها توجيهه وتسييره في الحياة الدنيا، وتنتهي به إلى أن يكون في الجحيم يوم الدين.

٢٨ - وإذا فعل الكفار فعلاً قبيحاً يتعلق بشهوات الفروج، فثبوا عنه، احتجوا عن هذه الأفعال بعذرين: أحدهما: التقليد لأبائهم، والعدو الثاني: ادعائهم أن الله أمرهم بهذا. قل - يا رسول الله - لهم: إن الله لا يأمر بالأفعال القبيحة المنكرة، إنما يأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق والخصال، أتقولون كذباً على الله - أيها المشركون - ما لا تعلمون علماً يقينياً أنه قاله جل جلاله؟!

٢٩ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء الذين يقولون على الله ما لا يعلمون: أمر ربّي بخمس من قضايا الدين الكبرى منذ عهد آدم: القضية الأولى: أمر بالعدل، وذلك بإعطاء كل ذي حق حقه، أو ما يساويه، وبمعاينة المعتدي بما يعادل ما كان منه من عدوان وظلم على صاحب الحق، والقضية الثانية: أمر بالصلاة، وقال لبني آدم: أقصدوا عبادته مستقيمين إليها عند كل صلاة، وزمان ومكان تسجدون لله فيه، بتوجه الاهتمام والعناية التامة لعبادة الله، استقبلاً للقبلة، وتركيزاً للحواس الظاهرة والباطنة لعبادة الله عز وجل، والقضية الثالثة: أمر الله عز وجل بأن تتوجهوا له بالدعاء مخلصين له العباد والطاعة، القضية الرابعة: الإيمان باليوم الآخر كما بدأ الله خلقكم فكتبتم بشراً أحياء، فإنه يُعيدكم إلى الحياة بعد أن يميتكم، ويجمعكم إلى يوم الحساب، وفصل القضاء.

٣٠ - القضية الخامسة: جعل الله عباده بعد القيامة بعد الحساب وفصل القضاء فريقين: الفريق الأول: حكم الله لهم بالهداية، إذ كانوا اختاروا لأنفسهم في الحياة الدنيا طريق الهداية، والفريق الثاني: ثبت عليهم أنهم كانوا قد اختاروا لأنفسهم في الحياة الدنيا طريق الضلالة؛ إنهم اتخذوا في الحياة الدنيا الشياطين أنصاراً وأعواناً، أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر، ويطئون أنهم مع ضلالهم على هداية وحق.

قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْنِيَّ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لُبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تَكْمُ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِيَّ آدَمَ لَا يَفْنَيْتَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَكْمُ إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّا اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

٣١ - يا بني آدم البسوا الثياب التي تستر عوراتكم عند كل صلاة، وعند كل زمان صلاة تؤدونها، وعند كل مكان صلاة تُصلون فيه، فسُتر العورات في الصلوات والطواف والمساجد من أصول الدين الثابتة في كل الرسالات الربانية للناس، وكلوا واشربوا ما أحل الله لكم، ولا تسرفوا بتجاوز الحد في الأكل والشرب إلى ما يؤذي أو يضر؛ إن الله تعالى لا يحب من أسرف في المأكول والمشروب والملبوس، وغير ذلك؛ لأن الإسراف يوصل إلى الوقوع في المضار والمهلك، أو الظلم والتحريف في الدين، ومن جعل نفسه بإرادته في زمرة الذين لا يحبهم الله، فقد جعلها عرضة لنقمته وعذابه الشديد.

٣٢ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت غرة: من حرم عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتلبسوها في الطواف وغيره؟ ومن حرم الطيبات من الرزق التي أخرجها الله لعباده، وخلقها لهم؟ قل - يا رسول الله - : إن زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من رزقه قد خلقها الله ليتنفع بها الذين آمنوا وغيرهم، في الحياة الدنيا، حال كونها خالصة للمؤمنين يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد، كذلك التعليم والبيان حول الأخبار والشرائع والأحكام، سَنَفُصِّلُ فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَةِ التي سننزلها، لقوم يتابعون مصادر العلم الحق، لاكتساب ما يهملهم مما كانوا يجهلون.

٣٣ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الملتزمين بجاهليتهم في أحكام ما أنزل الله بها من سلطان: ما حرم ربي إلا هذه المحرمات الخمس في كل الرسالات الربانية: المحرم الأول: كبائر المعاصي من شهوات الفروج، المعلنه في بيوت الزنى والطرقات، ونحو ذلك، والتي تكون في السر مع الخليلات والصديقات والأخذان، ونحوهن، الثاني: وحرم المعاصي كلها، كبائرها وصغائرها، وما

بينهما، الثالث: وحرم الظلم والعدوان على حقوق الجماعات والأفراد، والاستطالة على الناس، ومجاوزة الحد بغير الحق، الرابع: وحرم أن تشركوا بالله في ربييته وإلهيته ما لم يُنزل به حجة وبرهاناً، الخامس: وحرم عليكم أن تفتروا الكذب على الله تعالى، بتحريم الحلال، وتحليل الحرام، وغير ذلك مما تتقوله على الله عز وجل.

٣٤ - ولكل جماعة مكذبة كافرة قضى الله بحكمته أن يهلكها إهلاكاً عاماً شاملاً وقت معين وأجل مُسمى، أمهلهم الله إلى ذلك الوقت، فإذا قُرب مجيء وقت عذابهم فلا يؤخرون ولا يتقدمون زماناً ما، مهما قل.

٣٥ - يا بني آدم إما يأتينكم رسل من جنسكم، يقرؤون عليكم بتتبع كامل آياتي وشرائعي التي شرعت لعبادي، فمن اتقى بإيمانه وإسلامه الخلود في عذاب النار، وأصلح نفسه وعمله، فلا خوف مُسلط عليهم حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من دنياهم التي تركوها.

٣٦ - والذين كذبوا بآياتنا الكونية والبيانية والإعجازية، واستكبروا في أنفسهم، وامتنعوا عن الإيمان بها، أولئك البُعداء عن رحمة الله تعالى، أصحاب النار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها خالدون، لا يخرجون منها أبداً.

٣٧ - لا يوجد أحد أشد ظلماً ممن يقول على الله ما لم يقله، أو كذب بالقرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، أولئك يصل إليهم حظهم في الدنيا مما قُدر لهم من الأعمار والأرزاق والأعمال، فهم مع ظلمهم وافتراءهم لا يحرمون منها إلى انقضاء آجالهم، تفضلاً منه تعالى؛ رجاء أن يصلحوا ويتوبوا، حتى إذا جاءت - هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب - ملائكة الموت لقبض أرواحهم عند استكمال أعمارهم وأرزاقهم. قال الملائكة للكفار: أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم ليدفعوا عنكم العذاب النازل بكم. قال الكفار مجيبين للملائكة: ذهبوا عنا وتركوا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا، وشهد هؤلاء الكفار عند مُعَايَنَةِ العذاب أنهم كانوا في حياتهم الدنيا جاحدين وحدانية الله، واعترفوا على أنفسهم بذلك.

يَبْنِيءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَشَرِبُوا
وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَنٌ وَالْأَنَامَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ
فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ
اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنْهَكُمُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَذِبِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَا مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالُوا أَصْلَوْا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

٣٨ - قال الله تعالى يوم القيامة لمن افترى عليه الكذب، وجعل له شريكاً في خلقه: ادخلوا في جملة جماعة قد مضت من قبلكم من الجن والإنس في النار التي هي مستقرهم ومأواكهم، كلما دخلت جماعة النار لعنت أختها من أهل ملتها في الدين، حتى إذا تلاحقوا واجتمعوا في النار جميعاً، ولحق آخرهم أولهم، قالت آخر الأمم دخولاً النار - وهم الأتباع - عن أولهم دخولاً النار - وهم القادة -: ربنا هؤلاء القادة والرؤساء أضلونا عن الهدى بدعوتهم إيانا إلى الضلال، فآتيهم عذاباً مضاعفاً من عذاب النار. قال الله تعالى: للتابع والمُتبوع مثل جرمه، ولكن لا تعلمون ما أعد الله لكل فريق من العذاب.

٣٩ - وقال القادة لأتباعهم: قد ضللتكم كما ضللنا، وكفرتم كما كفرنا، نحن وأنتم متساوون في العذاب، ليس لكم علينا أي فضل يُخفف عنكم العذاب، أو يُوجب أن يثقل العذاب علينا فوق عذابكم، فأنتم ضللتكم كما ضللنا، وإذا كنا قد أضللناكم واتبعتمونا في ضلالنا، فقد أضللتم غيركم، واتبعوكم في ضلالكم كما اتبعتمونا. قال الله تعالى للجميع: ادخلوا في النار ذائقين لها، محسّين بآلامها؛ بسبب ما كنتم تكسبون من الكفر والأعمال الخبيثة.

٤٠ - إن الذين كذبوا رسلنا الذين بلغوهم آياتنا، وتكبروا ممتنعين عن الإيمان بها، والانقياد لها، لهم جزاءان: الجزء الأول: لا تفتح لأرواحهم إذا خرجت من أجسادهم أبواب السماء، ولا يصعد لهم إلى الله عز وجل في وقت حياتهم قول ولا عمل، والجزء الثاني: لا يدخلون الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة، فكما أن ولوح الجمل مع عظم جسمه في ثقب الإبرة الضيق محال، فكذلك دخول الكفار الجنة محال، وكذلك الجزء الذي نجزيه الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها، نجزي سائر الكافرين كفراً إرادياً مع علمهم بالحق الذي جاء به المرسلون. فكل المجرمين لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء بعد قبضها؛ ولا يدخلون الجنة يوم الدين أمراً من عند الله مُبرماً مقطوعاً.

٤١ - لهم من نار جهنم فراش من تحتهم شديد الإيلام، ومن فوقهم ظلمات دخانية حارة تعم سماء جهنم، وتجللهم بالعذاب والكرب، وكذلك الجزء الذي نجزيه الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها، نجزي جميع الظالمين ظلماً من ذرّة الكفر.

٤٢ - والذين صدقوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله وأطاعوه ضمن وسعهم - لا تكلف نفساً إلا ما يسعها من الأعمال، وما يسهل عليها، ويدخل في قدرتها، وما لا حرج فيه عليها ولا ضيق - أولئك ذوو المنازل الرفيعة بحسب مقادير إيمانهم وأعمالهم الصالحة، أصحاب الجنة الملازمون لها، المخالطون لألوان نعيمها، هم فيها باقون بقاء أبدياً.

٤٣ - وأزلنا ما في صدور المؤمنين من غش وحسد وحقد وعداوة كانت بينهم في الدنيا، تجري من تحتهم الأنهار المستجمعة لكل صفات الحسن والكمال، وهم على سرورهم في قصورهم، يتنعمون بمشاهدة جريانها، وبما فيها من شراب مختلف الأنواع والأصناف، وقال المؤمنون إذا دخلوا الجنة: الحمد لله الذي وقفنا وأرشدنا في الحياة الدنيا إلى الصراط المستقيم الذي سلكناه، فأوصلنا إلى هذا النعيم العظيم، وتفضل علينا به رحمةً منه وإحساناً، وما كنا لتوصل بعقولنا وتجاربنا إلى معرفة الصراط المستقيم لولا أن أرشدنا الله إليه، وأرسل رُسُلَهُ، وأنزل معهم كتبه، المشتملة على بيانات كلها حق. لقد جاءت رسل ربنا بالحق الثابت تبليغاً عن ربهم سبحانه، ونادى مُنادٍ: يا أهل الجنة، أن تلکم الجنة الرفيعة المنزلّة، الجليلة القدر، منحكم الله إياها بتوفيقه لكم للأعمال الصالحة التي عملتموها في دار الدنيا، ترثون فيها المنازل التي كانت مُعدّة للكافرين، لو أنهم كانوا قد آمنوا وأسلموا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا صُغُرًا إِنَّ النَّارَ قَالَتْ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أَوْلَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ فَجَازَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ وَتُودُّوْا أَنْ تَكُفُّمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِيثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

٤٤ - ونادى أهل الجنة أهل النار: يا أهل النار قد وجدنا كل ما وعدنا ربنا في الحياة الدنيا على السنة رسله من الثواب على الإيمان به وبرسله وطاعته، حقاً. فهل وجدتم كل ما وعد ربكم من العذاب على الكفر حقاً؟ قال أهل النار مجيبين لأهل الجنة: نعم وجدنا ذلك حقاً. فنادى مناد بين الفريقين: لعنة الله على الظالمين الذين كذبوا بآيات الله، واستكبروا عن اتباعها.

٤٥ - هؤلاء الظالمون هم الذين اتصفوا بهذه الأوصاف الثلاثة: أولها: يهجرون سبيل الله الموصل إلى الحق، ويتعدون عنه، ويمنعون الناس عن الدخول في دين الإسلام، والوصف الثاني: يحاولون بشدة أن يُغيروا دين الله وطريقته التي شرع لعباده، حتى لا يتبينها أحد، والوصف الثالث: هم لا يؤمنون بيوم الدين، فلا يخافون من العقوبات الربانية المقررات على الظالمين.

٤٦ - وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار في أرض المحشر سورٌ عظيم فاصل بين الفريقين، وعلى الأعالي المشرفة التي تكون فوق السور المرتفع رجال يعرفون أهل الجنة بعلاماتهم ببياض الوجوه، ونضرة النعيم، ويعرفون أهل النار بسواد وجوههم. ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة: سلمتم من الآفات، وحصل لكم الأمن والسلامة، وأهل الجنة ما زالوا في موقف الانتظار لم يدخلوا الجنة بعد، وهم يطمعون طمعاً متجدداً بصُدور الأمر التنفيذي في دخولها؛ لأنهم يعلمون بأنهم قد صدرت بشأنهم الأحكام الربانية بأنهم من أصحاب الجنة.

٤٧ - وإذا حُولت أنصار أصحاب الأعراف أتجاة أصحاب النار، على غير رغبة منهم، فنظروا إلى سواد وجوههم، وما هم فيه من العنت والمشقة والعذاب، دَعَوْا رَبَّهُمْ فوراً قائلين: ربنا لا تجعلنا مع القوم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك.

٤٨ - ونادى أصحاب الأعراف وهم على شرفاتهم رجالاً كانوا عظماء في الدنيا، يعرفونهم بعلامات أهل النار، فيقولون لهم مثيرين فيهم الندم والتحسر: ما أغنى عنكم ما كنتم تجمعون من الأموال والرجال والقوى في الحياة الدنيا، وما أغنى عنكم ما كنتم تستكبرون به عن اتباع الآيات المُنزلات التي بلغكم إيّاها رسل ربكم؟

٤٩ - وعندما ينظر أصحاب الأعراف إلى الجنة، فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كان يستهزئ بهم العظماء، يقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار: هؤلاء الضعفاء الذين أقسمتم في الحياة الدنيا أنهم لا يدخلون الجنة، ولا يصيرون إليها؟ ثم يقول الله تعالى لأصحاب الجنة الذين يترقبون صدور الأمر التكريمي لهم بأن يدخلوا الجنة: ادخلوا الجنة بفضلتي ورحمتي، لا خوف عليكم بسبب ترقب مكروه من عذاب الله، ولا أنتم تحزنون بسبب مكروه نزل بكم، أو من أجل محبوب فاتكم الحصول عليه.

٥٠ - يستغيث أهل النار بأهل الجنة إذا استقرؤوا فيها، يقولون لهم بذلة وانكسار: يا أهل الجنة صُوبُوا عَلَيْنَا شيئاً من الماء الفائض عن حاجاتكم، أو أطعمونا ممّا رزقكم الله من الطعام والفاكهة. فيجيئهم أهل الجنة بقولهم: إن الله حَرَّمَ الشَّرَابَ والطعام على الكافرين أصحاب النار.

٥١ - هؤلاء الكفار هم الذين جعلوا الدين الذي كُلّفوا أن يؤمنوا به ويتبعوه، شيئاً يُلْهون به ويلعبون، لأنهم يتصورون أنَّ صرف شيء من طاقاتهم للعبادة ضرب من اللهو الذي يصرفهم عمّا ينبغي أن يُوجَّهوا طاقاتهم له، من متاع الدنيا، ومن اللعب الذي لا يجلب نفعاً، وسبب اتخاذهم دين الله لهواً ولعباً، هو أنهم خَدَعَتَهُم الحياة الدنيا، فحسبوا أنها كل شيء في وجودهم، وأنه ليس وراءها حياة أخرى يكون فيها الحساب والجزاء، فيوم القيامة تتركهم مُهْمَلِينَ مُتَسِينِين في العذاب المهين جِيعاً عطاشاً تَرَكَا مُشَابِهًا لتركهم الإيمان بيوم الدين، وترك العمل والاستعداد له في الحياة الدنيا، ومثلما كانوا يتابعون جحودهم بآياتنا التي نُزِّلْهَا تباعاً، مع أن أنفسهم كانت مُسْتَقِينَةً لها.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ قَالُوا تَذُنُّ مِنْهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا هُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ حَزِينُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَا لَكُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

٥٢ - ونقسم مؤكدين أننا جئنا هؤلاء الكفار بالقرآن الذي أنزلناه عليك - يا رسول الله - لهداية الناس، بيناه بياناً دقيقاً قائماً على علم منا بما نُفصله ونُبينه، وجعلنا القرآن هادياً موصلاً إلى المطلوب، ذا رحمة من الله لقوم يؤمنون بكل ما جاء فيه.

٥٣ - هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآياتنا وجحدوها ولم يؤمنوا بها، إلا تحقق ما تقول إليه الأخبار التي اشتمل عليها من أنباء يوم الدين، إذ تتحقق هذه الأنباء في الواقع، ويجدون أنفسهم في عذاب جهنم؟ يوم يأتي تحقق نذر العذاب يوم الدين يقول الكافرون الذين تركوا العمل بالقرآن ولم يؤمنوا به في الحياة الدنيا عند معاينة العذاب: إن الذي جاء به الرسل حقٌ وصدق، وليس لنا طريق إلى الخلاص مما نحن فيه من العذاب إلا أن يشفع لنا شفيع عند ربنا، فيقبل الله شفاعته، فيخلصنا من هذا العذاب، أو نرد إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً نرضي به ربنا غير العمل السيء الذي كنا نعمل فيها؟ قد خسر الكفار أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها، وذهب عنهم ما كانوا يخلقون من أكاذيب يفترونها على الله.

٥٤ - إن سيدكم ومالككم ومُصلح أموركم هو الله الذي أبدع السموات والأرض، وأنشأ خلقهما على غير مثال سبق، وقدر أحوالهما في مقدار ستة أيام، ثم استوى سبحانه على العرش الذي هو أعظم ما خلق في الكون، استواء يليق بجلاله وعظمته، فهو سبحانه قائم بذاته، مبين لما خلق، يجعل الله النهار يغطي الليل، فيستر سواده بضياؤه، حال كون النهار يطلب الليل طلباً مسرعاً جاداً في حركة دائرية دائبة، وخلق الشمس والقمر والنجوم مذللات بأمرة، للقيام بوظائفها في الكون، تنبهوا وتحققوا، له وحده لا

وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى الْيَلَّ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُ الْجَبَلُ وَالْأَنْدَادُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٤﴾ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بِإِذْنِ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا تَقَالَا سَفْنَةً لِّلْبَلَدِ مِمَّنْ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾

شريك مُلك جميع المخلوقات، إذ هو خالقها، والمُتصرف فيها، والمُدبر لأمرها، وبما أنه سبحانه مالك كل ما في الوجود سواه، فله وحده أمر التكوين وأمر التكليف، وعلى عباده أن يطيعوه في أوامره ونواهيه، ويُحققوا عبوديتهم لله بإراداتهم الحرة، لينالوا ثوابه في جنات النعيم، تعالى الله وتَعَظَّم في صفات كماله، وتنزه عن كل نقص، وكثر خيره وإحسانه، وثبت ودام، ربُّ الخلق أجمعين ومالكهم ورازقهم ومربيهم ومصلحهم.

٥٥ - سلوا ربكم حوائجكم تذللاً واستكانة، وسراً في أنفسكم؛ ليكون أكثر إخلاصاً وصدقاً، ولا تعتدوا؛ بظلم غيركم في حق من حقوقه المادية أو المعنوية، أو بفعل مانه الله عن فعله، وترك ما أمر الله بفعله، أو بتحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم، وتجاوز حدود الله، إن الله سبحانه لا يحب المعتدين المتجاوزين حدود الله سبحانه، ومن جعل نفسه بإرادته في زمرة الذين لا يُحبهم الله، فقد جعلها عُرضةً لنقمته وعذابه الشديد.

٥٦ - ولا تفسدوا - أيها الناس - في الأرض بهدم عقائد الإيمان الصحيح، ونشر الفسوق والفجور وأنواع الفواحش، والمجاهرة الوقحة بمعصية الله ورسوله، بعد إصلاح الله إياها ببعثة الرسل وبيان الشرائع، وأصلحوا في الأرض بكل عمل يؤدي إلى نفع العباد في أمور دنياهم وآخرتهم، وادعوه سبحانه خوفاً منه ومن عقابه، وطمعاً فيما عنده من جزييل ثوابه، وإذا تحقق المؤمن بعبادة ربه بالدعاء دوماً في حالتي الخوف والطمع، ملتزماً آداب الدعاء كان من المرتقين إلى مرتبة الإحسان التي هي أعلى المراتب التي يرتقي إليها الصالحون المؤمنون؛ إن رحمة الله وإفضاله وإنعامه على عباده قريب ثوابها من المحسنين.

٥٧ - وإن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض، هو الذي يرسل الرياح الطيبة التي تبشر بالمطر، قبل مجيء آثار رحمته، وفيوض عطاءاته، بنزول المطر الذي هو سبب حياة الأرض الميتة، حتى إذا حملت هذه الرياح في الجو سحاباً ثقالاً بالماء المتبخر، سُقنا الماء الذي يحمله السحاب إلى بلد مُجذب لا نبات فيه ولا ماء، فأنزلنا بالبلد الميت الماء من السحاب، فأخرجنا بذلك الماء من أصناف الزروع والثمار، كذلك الإخراج الذي نُخرج به النباتات، سوف نخرج الموتى من الأرض؛ ونبعثهم أحياء من قبورهم؛ أعلمناكم بهذه الحقيقة راغبين في أن تتفهموها وتحفظوها وتذكروها دوماً، وتعلموا أن من فعل ذلك كان هو الذي يعيد ويحيي.

٥٨ - والأرض الطيبة التربة، السهلة السَّهْلَة إذا أصابها المطر تُخرج نباتاً هيناً سهلاً صالحاً بإذن الله تعالى، والبلد الذي خُبْتُ أرضه لا يخرج نباته إلا عسراً شحيحاً قليل النفع والعطاء. فَجَوْدَة خروج النبات من الأرض لا ترجع إلى سبب واحد، وهو إنزال الماء من السماء عليها، واختلاط هذا الماء بها، بل هناك سبب آخر هو كون الأرض طيبةً صالحةً لخروج النبات الجيد، أما إذا كانت الأرض خبيثة، فإن إنزال الماء الطهور عليها لا يُغَيِّر من طبيعتها، فلا يخرج نباتها إلا عسراً قليل النفع. وفي هذه الآية بيان لسنة من سنن الله في كونه، وهو: أن السبب قد يكون شرطاً لازماً لتحقيق المُسَبَّب، ولكنه شرط غير كاف، بل لا بد من وجود سبب آخر أو عدة أسباب حتى يتحقق المطلوب، مثل ذلك التنوع في أنواع الأرض، تُنَوِّع في كل الآيات الكونية المُنبئة في كل الكون؛ لتكون دالات على العناية بهم، أما المؤمنون الذين لديهم الاستعداد لشكر الله على نعمه، فهم الذين يستفيدون من هذه الآيات، ويسعون لأداء واجب شكر الله على نعمه، وفضله على عباده.

٥٩ - نقسم مؤكدين أننا أرسلنا نوحاً إلى قومه نبياً ورسولاً، فقال: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، ما لكم في الوجود من إليه يُعبد بحق غير الله سبحانه؛ فإنه هو الذي يستحق العبادة، فإن لم تقبلوا ما أمركم به، من عبادة الله واتباع أمره، أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، في دار العذاب المُعدَّة للكافرين المكذِّبين.

٦٠ - قال كبراء قومه: إنا لنراك - يا نوح - في ذهابٍ عن الحق والصواب بين واضح لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه.

٦١ - قال نوح: يا قوم ليس بي وصف ضلالة ما، ولكني رسول مبعوث من رب كل موجود سوى الله تبارك وتعالى، وهو خالقكم ومالككم، ومدبّر أموركم، والمتصرّف بمقاديركم.

٦٢ - أبلغكم تبعاً جميع تكاليف الله وشرائعه، وأرشدكم إلى الوجه الأصْلَح والأصوب لكم، وما فيه خيركم وسعادتكم، خالصاً من الغش والشوائب، وما أبينّه لكم، وأبلغكم إياه، وأنصحكم به، مُسْتَنَدٌ إلى علم يقيني علّمني الله إياه، وليس من عندي، وأعلم أنكم إن عصيتم أمر الله، وكذبتموني عاقبكم بالطوفان في الدنيا، ويُعَذِّبُكُمْ في الآخرة عذاباً عظيماً.

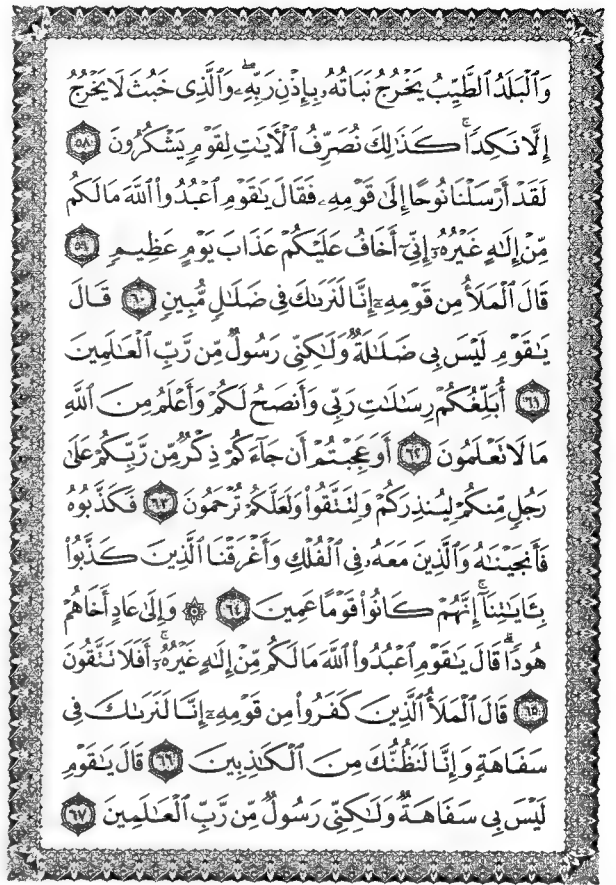
٦٣ - أكرهتم ترك ما أنتم عليه، واتباع ما جئتمكم به، وعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم، وهي حقائق مَغْرُوزَة في نفوسكم وعقولكم، يُطلب منكم أن تتعهدوها بالتذكّر، وهذه التعليمات مُنْزَلَة على رجل منكم تعرفونه وتعرفون نسبه، جاءكم لأجل أن يُنذركم بعقاب الله المُعْجَل والمُؤْجَل إذا لم تؤمنوا وتتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولأجل أن تتقوا سخطه بامثال أوامره، واجتناب نواهيهِ، ولينتحقّ رجائكم بالظفر برحمة الله، فيدخلكم جنات النعيم يوم الدين.

٦٤ - فكذبوا نوحاً، فأنجيناه والذين آمنوا معه من الطوفان والغرق، ومن مكاييد قومه المكذِّبين، وكانت نجاتهم بإرْكَاب نوح ومن آمن معه من قومه في السفينة، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا الكونية والبيانية المُنْزَلَة والإعجازية والجزائية؛ إنهم كانوا قوماً غُمِّي البصائر عن رؤية الحق، والاهتداء بآيات الله ودلائله.

٦٥ - ولقد أرسلنا إلى قبيلة «عاد» أخاهم في النسب هوداً نبياً ورسولاً، قال: يا قوم اعبدوا الله وحده، ولا تجعلوا معه إلهاً آخر، ما لكم من معبود هو رب يستحق أن يُعْبَدَ غير الله، أفلا تخافون عقابه باجتناب الشُّرك، وطاعته فيما يأمركم به، وينهاكم عنه، فتؤدّون ما فرض عليكم، وتتركون ما حَرَّمَ عليكم.

٦٦ - قال الكبراء وذوو الوجاهة الذين كفروا من قومه: إنا نعتقد اعتقاداً جازماً مُسْتَنَداً إلى رؤية فكرية، أنك - يا هود - مُنْغَس في حُفٍّ وجَهالة وضلالة عن الحق والصواب، وإنا لَنُظَنُّكَ من الكاذبين في ادّعاءك أنك رسول من عند الله.

٦٧ - قال هود عليه السلام لقومه الذين شتموه: يا قوم ليس الأمر كما تدّعون أن بي حُفٍّ ونقص عقل، ولكني رسول مبعوث إليكم من رب كل موجود سوى الله عز وجل، وهو خالقكم ومالككم ورازقكم، ومدبّر أموركم، فعليكم أن تُصْغُوا إلى ما أبلغكم به عن ربكم، وتنفّكروا فيه.



٦٨ - أُوذِيَ إِلَيْكُمْ تَبَاعاً مَا أَرْسَلَنِي بِهِ رَبِّي مِنْ أَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَتَشْرِيعَاتِهِ الَّتِي فِيهَا صَلَاحُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنَا لَكُمْ - فِيمَا أَمَرَكُمْ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ - نَاصِحٌ أُرِيدُ الْخَيْرَ لَكُمْ، أَمِينَ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ دُونَ زِيَادَةٍ عَلَيْهَا، وَلَا نَقْصَ مِنْهَا، لَا أَغْشَكُمْ وَلَا أَخْذَعُكُمْ، بَلْ أَدْعُوكُمْ إِلَى سِوَاءِ السَّبِيلِ.

٦٩ - أَكْرَهْتُمْ تَرْكَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ شِرْكَ، وَاتَّبَاعَ مَا جِئْتُمْ بِهِ، وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَاتُ رَبَانِيَّةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَهِيَ حَقَائِقُ مَغْرُوزَةٍ فِي نَفُوسِكُمْ وَعُقُولِكُمْ، يُطَلَّبُ مِنْكُمْ أَنْ تَتَعَهَّدُوا بِالتَّذَكُّرِ، وَهَذِهِ التَّعْلِيمَاتُ مُنْزَلَةٌ عَلَى رَجُلٍ تَعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَصَدَقَهُ؛ جَاءَكُمْ لِأَجْلِ أَنْ يَنْذِرَكُمْ بِعِقَابِ اللَّهِ الْمُعْجَلِ وَالْمُؤَجَّلِ إِذَا لَمْ تَتُومِنُوا بَعْدَ قِيَامِهِ بِدَعْوَتِكُمْ، وَاتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ الْإِقْنَاعِيَّةِ، وَتَبَشِيرِكُمْ بِالْعَوَاقِبِ السَّارَةِ لِمَنْ آمَنَ وَأَطَاعَ؟! وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَهْلَكَ قَوْمَ نُوحٍ، وَجَعَلَكُمْ تَخْلِفُونَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ طَوَلاً وَقُوَّةً، وَهَذِهِ النِّعْمَةُ تَسْتَدْعِي مِنْكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا رَبَّكُمْ فَتُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ، وَتَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْهُ، وَإِذْ زَادَكُمْ فِي خَلْقِهِ لِأَجْسَادِكُمْ قُوَّةً وَسَعَةً، وَأَتَاكُمْ نِعْماً كَثِيرَةً، فَاذْكُرُوا دَوَامَ أَفْعَالِ اللَّهِ الْعَجِيبَةِ، وَنِعْمَةِ الْكَثِيرَةِ عَلَيْكُمْ، وَاعْمَلُوا عَمَلًا يَلِيقُ بِذَلِكَ الْإِنْعَامِ، وَهُوَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَحْدَهُ، وَتَتْرَكُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَتَطِيعُوهُ بِفِعْلٍ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَتَتْرَكُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ؛ رَاجِينَ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ أَنْ تَنْظُرُوا بِالنَّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ الْعَظِيمَةِ فِي الْآخِرَةِ.

٧٠ - قَالَ قَوْمُ هُودٍ مُسْتَهْزِئِينَ بِمَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: أَجِئْنَا - يَا هُودُ - لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَتْرَكَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا مِنَ الْأَصْنَامِ؟ فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُّنَا مِنَ الْعَذَابِ الْعَامِّ الْمُعْجَلِ فِي الدُّنْيَا، إِنَّ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي قَوْلِكُمْ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ.

أَتِلْعَعُكُمْ رَسُولَكَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَاجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا تَصَدَّقْنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَيبٌ فَأُجْبِدُوا لِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَتُتْرَوُ أَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظُرُوا إِلَيَّ مَعََكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجِئْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ نَكَمٌ بَيِّنٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي الْأَرْضِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾

٧١ - قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ ثَلَاثَ مَقَالَاتٍ، بَعْدَ تَحذِيرِهِمْ لَهُ بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِمَا كَانَ يَنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ إِهْلَاكِ شَامِلٍ مُعْجَلٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: الْمَقَالَةُ الْأُولَى: قَدْ نَزَّلَ وَوَجَبَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَذَابٌ وَسَخَطٌ، مُوجِبٌ إِهْلَاكِكُمْ إِهْلَاكاً عَاماً شَامِلاً بَعْدَ أَنْ قَدَّرَ ذَلِكَ بِمَقْتَضَى عِلْمِهِ وَحُكْمَتِهِ، الْمَقَالَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنْخَاصُكُمْ فِي أَسْمَاءِ أَصْنَامٍ وَصَعْتُمْ لَهَا أَسْمَاءَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا فِي الْوَاقِعِ حَقِيقَةُ ذَاتِ أَثَرٍ مَا فِي نَفْعٍ أَوْ ضَرَرٍ؟ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِعِبَادَتِهَا مِنْ حُجَّةٍ مُلْزِمَةٍ وَبِرَهَانٍ قَاطِعٍ، الْمَقَالَةُ الثَّالِثَةُ: فَانْتَظِرُوا نَزُولَ الْعَذَابِ عَلَيْكُمْ، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ لِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي يُهْلِكُ اللَّهُ بِهِ الْكَافِرِينَ، وَيُنْجِي رَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ.

٧٢ - فَأَنْجَيْنَا هُوداً عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ بِقَوْمِهِ، وَأَنْجَيْنَا أَتْبَاعَهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ؛ بِسَبَبِ رَحْمَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَّا، وَأَهْلَكْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ، وَالْإِعْجَازِيَّةِ، وَالْبَيَانِيَّةِ الْمُنْزَلَةِ، وَاسْتَأْصَلْنَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ بِالرِّيحِ الْعَقِيمِ، وَمَا كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَلَا بِرَسُولِهِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَهْمَا أَهْلَهُمُ اللَّهُ، وَأَطَالَ مَدَّةَ اخْتِبَارِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَحَالَتْهُمْ النَّفْسِيَّةُ حَالَةَ مَيُوسٍ مِنْهَا، إِذْ وَصَلُوا إِلَى دَرَكَةِ التَّعَتُّتِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ، رَغْمَ وَضُوحِ الْأَدْلَةِ وَالْبِرَاهِينِ الَّتِي دَمَغَتْهُمْ، وَاسْتَيْقَنْتَهَا قُلُوبُهُمْ، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْزَالُ عِقَابِ اللَّهِ السَّاحِقِ الْمَاحِقِ بِهِمْ.

٧٣ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَةِ «ثَمُودَ» أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ صَالِحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيّاً وَرَسُولاً. قَالَ صَالِحٌ لَهُمْ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، فَمَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ سِوَاهُ، قَدْ جَاءَكُمْ حُجَّةٌ وَاضِحَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبِرَهَانٍ عَلَى صِدْقِ مَا أَقُولُ وَأَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ أَخْرَجَهَا لَكُمْ كَمَا طَلَبْتُمْ، مِنَ الصَّخْرَةِ الَّتِي عَيْنْتُمْ، حَالَةَ كَوْنِهَا مُعْجَزَةٌ خَافِرَةٌ، وَعَلَامَةٌ عَلَى صِدْقِي. فَاتْرَكُوا النَّاقَةَ تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ مِنَ الْمَرَاعِي كَمَا تَشَاءُ، وَلَا تَقْرُبُوهَا بِشَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَى، وَلَوْ ضَايَقْتُمْ فِي طَعَامِهَا أَوْ شَرَابِهَا، فَإِذَا مَسَسْتُمُوهَا بِسُوءٍ، فَإِنَّهُ يَقْبِضُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ قَبْضاً مُؤَلِماً لَكُمْ بِعَفْوٍ وَشِدَّةٍ.

٧٤ - وضعوا في ذاكرتكم دَوَاماً أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَكَ عَاداً أَسْلَافَكُمْ، وجعلكم تخلفونهم في الأرض، وتعمرونها، وهيأ لكم في الأرض منازل تسكنونها، ومكن لكم فيها، حتى صرتم تتخذون من سهولها قصوراً، فتقطعون الصُّخُور من الجبال، وتبنون بها القصور الفخمة، وصرتم تحتون الجبال، فتجوفون غراً في باطنها، حتى تكون الجبال لكم بيوتاً، تحتمون بها من مُدَاهِمَاتِ أَعْدَائِكُمْ، فاذكروا أفعال الله العجيبة، ونعمه الكثيرة عليكم، واشكروه عليها، ولا تفسدوا في الأرض إفساداً شديداً منكراً حالة كونكم قاصدين الإفساد، وباغين الإضرار، وفاعلين لهما.

٧٥ - قال كبراء القوم من ثمود وذوو الوجاهة فيهم، الذين تعظموا عن الإيمان بصالح عليه السلام للمستضعفين من قومهم الذين آمنوا بصالح: أتعلمون أَنَّ اللهَ أَرْسَلَ صَالِحاً إِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ، وهل لديكم أدلة قوية تثبت أن صالحاً مُرْسَلٌ من ربِّه حقاً؟ قال الضعفاء الذين آمنوا: لا تجادلونا في شخص النبي الرسول صالح، ولكن نحن مُستَعْدُونَ لمجادلتكم حول ما أُرْسِلَ به، فما جاء به كافٍ لإثبات أنه نبيُّ مُرْسَلٍ من ربِّه، إنا بما أُرْسَلَ الله به صالحاً من الدين والهدى والحق مُصَدِّقُونَ.

٧٦ - قال الذين استكبروا عن أمر الله والإيمان به وبرسوله بإصرار وعناد: إنا بالذي أمنتكم به من نبوة صالح وما يدعو إليه جاحدون منكرون.

٧٧ - فَتَحَرَّتْ ثَمُودُ النَّاقَةَ، وتكبروا مُبتعدين عن أمر ربِّهم، وتجاوزوا حدود المعاصي المعتادة في الناس، وتمادوا في الإفساد في الأرض، وكذبوا نبيَّهم صالحاً، وقالوا على سبيل الاستهزاء واستبعاد العذاب: يا صالح اثبتنا بما تعبدنا من العذاب العام الشامل، إن كنت كما تزعم أنك رسول الله.

٧٨ - فَأَهْلَكْتَهُمُ الصَّيْحَةُ المصحوبة بالزلزلة الشديدة من تحتهم، فأصبحوا في موضعهم موتى لا يتحركون، لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم، لم يفلت منهم أحد.

٧٩ - فأنصرف عنهم صالح عليه السلام عقب هلاكهم، وقال لهم وهم هلكى مُوْبِحاً ومُقرَّعاً: يا قوم، لقد أَدِيتُ الأمانة التي كَلَّفَنِي ربي أن أبلغكم إياها، وقمت بواجبي تجاهكم، ونصحت لكم، وبذلت من أجلكم كل ما أستطيع، ولكن لا تُحِبُّونَ الأَمْرينِ بالهدى النَّاصِحِينَ لكم، الذين تَرَوْنَ في نُصَحِهِمْ أَنَّهُمْ يُبْعِدُونَكُمْ عن أهوائكم وشهواتكم، واستكباركم وفسادكم.

٨٠ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي - لوطاً عليه السلام حين قال لقومه: أتفعلون الفعلة الخسيسة التي هي غاية في القبح بإتيان الذكران في أدبارهم؟ ما سبقكم - أيها القوم - بهذه الفعلة الفاحشة الشاذة أحد من الناس، فأنتم أكثر وأفحش في مُمارسة هذه الفاحشة ممن مضى من قُصَاقِ الأَقْوَامِ والشعوب.

٨١ - إنكم لتأتون الرجال في أدبارهم، لأجل الشهوة، حالة كون إتيان الرجال لأجل الشهوة هو دون إتيان النساء، إذ النساء أظهر، ولهن المكان الصالح للحرث والبذر، أما الأدبار فبؤرة جرثومية قذرة، جالبة للأمراض والأوجاع، بل أنتم في مُمارسة هذه الفاحشة القبيحة قومٌ مسرفون في البهيمية؛ إذ أتيتم ما لا ترضى به البهائم، ومُسرفون في التفحُّش إذ خرجتم عن سِنةِ الإنسانيَّة، ومُجاوزون الحلال إلى الحرام في هذه العادة الشاذة؛ لأنَّ الله تعالى جعل النساء محلاً للشهوة وموضع النسل، فإذا تركتموهنَّ وعدلتم عنهنَّ إلى غيرهنَّ من الرجال، فقد أسرفتم وجاوزتم واعتديتم، ووضعتن الشيء في غير محله وموضعه الذي خلق له.

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ بَيُوتاً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ الَّتِي لَا تَنْسَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ اتَّعَلَمُونَ أَنْتَ صَالِحاً مَرَّسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِكَ أَرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا عَدَّائِنَا كُتً مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمَ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَاتِ ﴿٧٩﴾ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

٨٢ - فاستهان كبراء قومه بنصائحهم ولؤمه على فواحشهم الشاذة، وما كان جواب قوم لوط للوط عليه السلام حين وبّخهم على فعلهم القبيح، إلا أن وجهوا الأمر لعامتهم وأتباعهم قائلين: أخرجوا لوطاً وأتباعه وأهل دينه من بلدكم، إنهم أناسٌ ينتزّهون عن فعلكم، ويتشدّدون في البُعد عن مواطن القذارات التي تجدون لذاتكم فيها، فهم على خلاف طريقتكم، ووجودهم بينكم مع إنكارهم عليكم، ينغصّ عليكم عيشكم، ويعكّر عليكم صفوكم.

٨٣ - فأنجينا لوطاً ومن آمن به وأتبعه من العذاب، إلا زوجته كانت من الهالكين الباقين مع قومها في أرض الدمار، الذاهبين الماضين الذين لم يبق لهم وجود؛ لأنها كانت كافرة.

٨٤ - وأمطرنا عليهم حجارةً مثل حبات المطر الكبرى، من طين متّحجر شديد ضلْب، بتواتر وتتابع، وعموم وشمول لكل أرض قوم لوط، فانظر - أيها المخاطب - نظر تفكّر واعتبار: كيف كان عاقبة هؤلاء الذين كذبوا بالله ورسوله، وعملوا الفواحش؟! لقد أمطر الله عليهم مطر العذاب، وقَلَب بلادهم عاليها سافلها.

٨٥ - ولقد أرسلنا إلى قبيلة «مدين» أخاهم في النسب شعيباً عليه السلام، وكان قومه أهل كفر وبخس في الميزان والمكيال. قال شعيب: يا قوم اعبدوا الله وحده، بطاعته في تأدية ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبدعائه والتقرب إليه، ولا تشركوا به شيئاً، ما لكم في الوجود كلّ من معبود يستحق العبادة غيره، لا شريك له، قد جاءكم حُجة وبرهان من ربكم بحقّة ما أقول، وصدق ما أدعي من الثبوة والرسالة إليكم، فأتّموا الكيل والمكيال، والوزن والميزان بالعدل، ولا تظلموا الناس حقوقهم، ولا تنقصوهم إياها، ولا تُفسدوا في الأرض - يافساد البر والبحر والجو بالأوثية، وإفساد

الأحياء والنباتات، وإفساد أخلاق الناس وسلوكهم وأفكارهم ومفاهيمهم - بعد أن أصلحها الله تعالى ببعثة الرسل وإقامة العدل، ذلكم الذي ذكرتم لكم وأمرتكم به من الإيمان بالله، ووفاء الكيل والميزان، وترك الظلم، خير لكم في دنياكم وأخراكم ممّا أنتم عليه من الكفر وظلم الناس، إن كنتم ستؤمنون بي، وبما أنزل إليّ من ربكم، فعملون بما أمركم به، وتجتنبون ما أنهاكم عنه.

٨٦ - ولا تفعدوا بكلّ طريق عامة واسعة حالة كونكم تتهدّدون وتتوعّدون المازين من المُجتازين والمسافرين، بسلب أموالهم، وأخذ المكوس منهم، وتمنعون وتصرفون عن طريق الله الواضح الجليّ المستقيم من آمن بسبيل الله، وتطلبون لسبيل الله اعوجاجاً عن الحق، وميلاً عن الاستقامة، وفق أهوائكم وشهواتكم، وتريدون زيف أهل الحقّ عنها بالتحريش والإغراء بينهم؛ لتختلف كلمتهم ويختل أمر دينهم. واذكروا حين كنتم قليلين فكثّر عددكم بعد القلة، وكثركم بالغنى بعد الفقر، وبالقوة بعد الضعف، فاشكروا نعمة الله عليكم وآمنوا به، وانظروا نظراً اعتباراً ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم السالفة والقرون الخالية - حين عتّوا على ربهم، وعصّوا رُسُلَهُ - وما حلّ بهم من العذاب والهلاك؟!

٨٧ - وإن اختلفتم في رسالتي فصرّتم فرقتين: فرقة آمنتم بي وصدّقت برسالتي، وفرقة كذّبت وجحدت رسالتي، وأوقفت انتشار دعوتي بالقوّة، وواجهت من آمن بي وأتبعني بالقمع والاضطهاد، بذريعة الانتصار للدين الموروث عن آبائهم، فاصبروا حتى يقضي الله ويفصل بيننا. والله - جلّ وعلا - خير الحاكمين، فإن كنا نحن على الحقّ الذي يرضاه حكم لنا فنصرنا وأيدنا، وإن كنتم أنتم على الحقّ نصركم وأيدكم.

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنطَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

٨٨ - قال الجماعة من أشراف قومه الذين تكبروا عن الإيمان بالله وبرسوله، وتعظموا عن اتباع شعيب عليه السلام: لا بد من أحد أمرين: إما إخراجك ومن تبعك على دينك من بلدنا، أو لترحل عن دينكم الجديد، ولتدخلن في ديننا وملتنا وما نحن عليه.

قال شعيب منكرًا ومتعجبًا من قولهم: أتكرهوننا على الرجوع عن ملتنا، والدخول في ملتكم، ولو كنا كارهين ترك ديننا، والدخول في دينكم؟ فإن قضايا العقيدة لا يعقل أن تكون مع الكراهية والإجبار، وإنما تكون بالرغبة الذاتية والاختيار الحر.

٨٩ - قد اختلنا على الله كذبًا إن نحن رجعنا عن ديننا إلى ملتكم، وقد علمنا فساد ما أنتم عليه، وقد أنقذنا الله وخلصنا منها، وبصرنا خطأها، وما يكون لنا أن نرجع عن دين ربنا إلى ملتكم، ونترك الحق الذي نحن عليه إلا أن يشاء الله ربنا أن نظهر لكم بالسنتنا وبعض تصرفاتنا ما يرضيكم، لحمايتنا منكم مؤقتًا، أما قلوبنا فستظل مطمئنة بالإيمان، وأما أعمالنا في السر فستبقى على وفق دين الله الحق، وسع علم الله فاستوعب كل شيء، فهو تعالى عالم بكل الأشياء منذ الأزل، على الله وحده نعتد، وإليه نستند في أمورنا كلها، لا على غيره، يا ربنا اقض وافصل واحكم بيننا وبين قومنا الذين هددونا بالإخراج، قضاء بالعدل الذي لا جور فيه ولا ظلم ولا حيف، أنت الحاكم والناصر لنا، وأنت خير الحاكمين والناصرين.

٩٠ - وقال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر به لآخرين منهم آمنوا به، وأتبعوه: نقسم، لئن أتبعتم شعيبًا على دينه، وتركتم دينكم وملتكم، إنكم إذا لتكونون خاسرين، إذ سئسل عليكم من يعذبكم ويقتلكم، فتخسرون أهليكم وأولادكم بالتعذيب والتشريد والقتل.

٩١ - فأخذت قوم شعيب الزلزلة الشديدة، فأصبحوا في دارهم

﴿قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ ۝٨٨ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْخَانِ اللَّهِ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَمَحَّ بِمِلَّتَيْنَا وَبَيْنَ قَوْمَيْنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ۝٨٩ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا أَنْكُرًا إِذَا الْخَيْرُونَ ۝٩٠ فَآخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ۝٩١ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْعَلُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ۝٩٢ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولِي مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَفَرُوا ۝٩٣ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ۝٩٤ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ۝٩٥

هامدين صرعى لا حراك بهم، لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم.

٩٢ - الذين كذبوا شعيبًا كأنهم لم يقيموا في ديارهم، ولم يعيشوا فيها مُتَنَعِمِينَ مُسْتَعْنِينَ، وكان المكذبون بشعيب هم وحدهم الخاسرين، قد خسروا أنفسهم بهلاكهم واستئصالهم، وخسروا آخرتهم؛ لأن مصيرهم الخلود في عذاب الحريق في جهنم.

٩٣ - فانصرف عنهم شعيب حين أتاهم العذاب، وناداهم وهم هالكون قائلاً لهم: يا قوم، لقد أبلغتكم رسالات ربي، وقدمت لكم ما فيه خيركم وسعادتكم، لكنكم لم تستجيبوا لي مع شدة حرصي على نجاتكم، فكيف أحزن على هلاك قوم كافرين، أهلكوا أنفسهم بإصرارهم على الكفر؟

٩٤ - وما أرسلنا في مُجْمَع سَكْنَى من المُجْمَعَات السَكْنَى الصغيرة والكبيرة المُهْلَكَة من نبي يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عما هم فيه من الشرك، فكذبهم أهلها، إلا أخذناهم بالجوع والمشقة وضيق العيش، والشدة وكل حالة تضر في الأموال والأنفس؛ رغبة في أن يتذكروا ربهم، فيستكينوا إليه، داعين مُتَذَلِّلين معترفين بذنوبهم.

٩٥ - ثم لما لم يفعلوا ذلك، واستمروا في كفرهم وعنادهم، امتحناهم بضد تلك المحن اشتدراجاً لهم؛ فأعطيناهم مكان البأساء والضراء النعمة والسعة والخضب والصحة في الأبدان، حتى كثرت أموالهم وأولادهم، وزاد الخير فيهم، وقالوا بعدما صاروا إلى الرخاء والسعة: قد مس أبائنا الشدة والرخاء كما مسنا، وهكذا عادة الدهر قديماً وحديثاً لنا ولآبائنا، ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله، وإنما هي ظاهرات طبيعية ليس من ورائها قصد تأديب أو تذكير، واستمروا على ما هم فيه من كفر، وانطلاق فاجر في كبائر الإثم والظلم والعدوان، فأخذناهم بالعذاب فجأة؛ ليكون ذلك أعظم لحسرتهم، والحال أنهم لا يعلمون أدنى مراتب العلم بنزول العذاب المُبَاغِت بهم.

٩٦ - ولو أن أهل تلك المُجْتَمَعَاتِ السَّكْنِيَّةِ الْمُهْلَكَةِ آمَنُوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وَاتَّقَوْا عِقَابَ اللَّهِ بِأَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ، وترك المحرمات، لفتحنا عليهم أبواب بركات كثيرات، وزيادة خيرات معنوية ومادية تأتيهم من جهة السماء، وتأتيهم من جهة الأرض، بالمطر والنبات والخيرات والأزراق والسلامة من الآفات، ولكن كذبوا الرسل، فأخذناهم بأنواع العذاب؛ بسبب ما كانوا يفعلون من الأعمال الخبيثة.

٩٧ - ألدَى أهل المُجْتَمَعَاتِ السَّكْنِيَّةِ الْكَافِرِينَ عِلْمٌ بِأَنَّ اللَّهَ لَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ عَذَابُهُ عَلَى مَا يَكْسِبُونَ مِنْ آثَامٍ، فَأَمِنُوا وَاطْمَأَنَّنُوا وَلَمْ يَخَافُوا، أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُنَا لَيْلاً وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ نَائِمُونَ؟

٩٨ - أَوْ آمَنَ أَهْلُ الْمُجْتَمَعَاتِ السَّكْنِيَّةِ فَاطْمَأَنَّنُوا وَلَمْ يَخَافُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُنَا أَوَّلَ النَّهَارِ، وَهُمْ غَارِقُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَفَاجِئَهُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ؟

٩٩ - أَفَأَمِنُوا تَدْبِيرَ اللَّهِ الْخَفِيِّ بِإِمهاله إِيَّاهُمْ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَطَاءَاتِ النِّعَمِ الْوَفِيرَةِ فِي الدُّنْيَا؟ فَلَا يَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ مِنَ النِّعْمَةِ مَعَ كُفْرِهِمْ اسْتِدْرَاجاً لَهُمْ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ فِي أُخْرَاهُ، وَهَلَكَ مَعَ الْهَالِكِينَ.

١٠٠ - أَوْ لَمْ يَتَّبِعْ لِلَّذِينَ سَكَنُوا الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ هَلَاكِ أَهْلِهَا الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ، فَوَرِثُوا عَنْهُمْ وَخَلَفُوهُمْ فِيهَا، سُنَّةَ اللَّهِ الثَّابِتَةِ، أَنْ لَوْ نَشَاءُ - إِذَا اقْتَضَتْ حُكْمُنَا - أَخَذْنَاهُمْ وَعَاقَبْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، كَمَا جَرَى لِلْأُمَمِ الْمُهْلَكَةِ السَّابِقَةِ، وَنَطِيعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، إِذَا تَمَادَرَا فِي غِيْهِمْ وَظَلَمَهُمْ وَكُفْرَهُمْ، فَهَمَّ بَعْدَ الطَّبْعِ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَإِقْفَالَهَا إِقْفَالاً تَاماً لَا يَسْمَعُونَ مَوْعِظَةً، وَلَا يَقْبَلُونَ الْإِيمَانَ نَتِيجَةً لِمَا كَسَبُوهُ بِإِرَادَتِهِمْ الْحُرَّةَ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىءِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمَنَ أَهْلُ الْقُرَىءِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطِيعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىءُ نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

١٠١ - تِلْكَ الْمُجْتَمَعَاتُ السَّكْنِيَّةُ الَّتِي ذَكَرْنَا لَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَمْرَهَا وَأَمْرَ أَهْلِهَا، وَهِيَ مُجْتَمَعَاتُ سَكَنِ قَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ، نَقِصُ بِأَحَادِيثٍ تَتَّبِعُهَا بَعْضُ أَنْبَاءِهَا، فِيمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ، وَفِيمَا سَنَنْزِلُ فِي نَجْمِ التَّنْزِيلِ، لِيَكُونَ مَا نَقِصُّهُ عَلَيْكَ عِظَةً وَعِبْرَةً، لِمَنْ يَتَّعِظُ وَيَعْتَبِرُ بِمَا جَرَى لِلْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَنُوَكِّدُ أَنْ أَهْلَ تِلْكَ الْمُجْتَمَعَاتِ السَّكْنِيَّةِ لَمْ نَعْذِبْهُمْ عَذَاباً مُهْلِكاً لَهُمْ إِهْلَاكاً شَامِلاً، إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْمُعْجَزَاتِ الْوَاضِحَاتِ الْجَلِيَّاتِ، وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الْمُنْزَلَاتِ، فَمَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُوكُونَ الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ إِهْلَاكاً شَامِلاً لِيُؤْمِنُوا عِنْدَ إِرْسَالِنَا إِلَيْهِمْ رُسُلَهُمْ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ إِهْلَاكِهِمْ، مَهْمَا أَهْلَوْا. فَقَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ مَيُوسٍ مِنْهَا، فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، كَمَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ كُفَرَاءِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَأَهْلَكِهِمْ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمُ الَّذِي حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنْ كُلِّ أَنْوَارِ الْهَدَايَةِ، كَذَلِكَ الطَّبْعُ الَّذِي طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ يَطْبَعُ اللَّهُ بِقَانُونِهِ الْقَدْرِيِّ الْعَامِ عَلَى قُلُوبِ سَائِرِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَصِلُ أَحْوَالُهُمْ إِلَى مِثْلِ أَحْوَالِ الْمُعْذِبِينَ السَّابِقِينَ.

١٠٢ - وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِ الْفَرِيقِ الَّذِينَ أَنْجَيْنَاهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالْإِهْلَاكِ الَّذِي شَمِلَ أَقْوَامَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِرُسُلِ رَبِّهِمْ، وَعَاهَدُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ، مِنْ وَفَاءٍ وَالتَّزَامِ بِعَهْدِهِمُ الَّذِي عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَنُوَكِّدُ أَنَّ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ فَاسِقِينَ خَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِنَا.

١٠٣ - ثُمَّ بَعَثْنَا بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، وَهُمْ نُوحٌ وَصَالِحٌ وَلُوطٌ وَشُعَيْبٌ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُصْحَباً بِآيَاتِنَا الْبَيِّنَاتِ الْمُنْزَلَةِ وَالْإِعْجَازِيَّةِ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْرَافِ قَوْمِهِ، فَظَلَمُوا كَافِرِينَ بِهَا، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِتَكْذِيبِهَا، وَظَلَمُوا النَّاسَ بِسَبَبِ صَدِّهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ، فَانْظُرْ - أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ - بَعِينَ الْعَقْلِ وَالْبَصِيرَةَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، وَكَيْفَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِالْإِغْرَاقِ بِسَبَبِ إِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ؟

١٠٤ - وَقَالَ مُوسَى لَمَّا دَخَلَ عَلَى فِرْعَوْنَ مُنَادِياً لَهُ بِنْدَاءِ الْبَعْدِ تَكْرِيماً لَهُ: يَا فِرْعَوْنَ إِنِّي مُرْسَلٌ إِلَيْكَ وَإِلَى قَوْمِكَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ الْمَوْجُودَاتِ الْكَوْنِيَّةِ، وَأَمَدَّهَا بِعَطَاءَاتِ رَبِّيَّتِهِ، فَلَيْسَتْ رِسَالَتِي مِنْ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ، وَلَا سُلْطَانٍ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ فِيهَا، وَإِنَّمَا هِيَ رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّ كُلِّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ خَالِقُكُمْ وَمَالِكُكُمْ وَسَيِّدُكُمْ الْمَطْلُوقِ.

١٠٥ - إني رسول من الله، مُلْزَمٌ إلزاماً لا خيار لي فيه، على أن لا أقول على الله إلا الحق في وصفه وتنزيهه، إذ أني معصوم بعصمة الله من أن أفترى عليه، قد جئتكم ببرهان على صدقي، وهي معجزة العصا واليد البيضاء، وإن كنت قد أرسلت إليك ومَلَيْكَ من رب العالمين، فأرسل معي بني إسرائيل، وأطلقهم من أسرك، وخَلَّ سبيلهم لعبادة الله.

١٠٦ - قال فرعون لموسى: إِنْ كُنْتَ جِئْتَ من عند مَنْ أَرْسَلَكَ بمعجزة خارقة للعادة تدلُّ على صِدْقِكَ، فَأْتِي بها وأحضرها عندي؛ لتصحَّ دعواك ويثبت صدقك.

١٠٧ - فأسرع موسى فألقى عصاه على الأرض، فإذا هي حية عظيمة ضخمة في الجثة، ظاهر أمرها لا يُشكُّ فيها، تتميز عما علمته السحرة من التمويه والتخيل.

١٠٨ - وأسرع فأدخل يده السَّمَاءَ في جِيب قميصه، فنزعها بشدة، فإذا هي قد فاجأتهم بأن تحولت بيضاء بياضاً عجيباً خارقاً للعادة؛ إذ كان لها شعاعٌ يغلبُ ضوء الشمس، وكان موسى عليه السلام آدم اللون، فإذا ردها عادت إلى لونها الأول، كسائر بدنه.

١٠٩ - قال الكبراء والمستشارون من قوم فرعون الحاضرون في مجلسه حين قدم موسى آيَّته: إِنَّ موسى كثير العلم بالسحر، يأخذ بأعين الناس، ويؤري الشيء بخلاف ما هو عليه.

١١٠ - يريد موسى أن يُخرجكم - أيها القبط - من أرض مصر. قال فرعون: فأفئ شيء تشيرون أن نفعل به تُجاه هذا الساحر العليم؟

١١١ - قالوا: اجعل لموسى وأخيه هارون، أجلاً نُقيم فيه مباراة بين موسى وبين سحرة مصر، تشهدا الجماهير في مكان جامع، وأرسل مبعوثين من قبلك للبحث في المدائن المصرية، يجمعون ويسوقون إليك مَنْ فيها من السحرة.

حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بَيْنَتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ
جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَى
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
لِّلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرُ
عَلِيمٍ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تُوكُ
بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ
لَمِنَ الْمَقْرِبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنَا ثُلُثِي وَإِنَّمَا أَنَا
ثُلُثُنُ الْمُلْكَيْنِ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا
أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ ثُلُثُ مِمَّا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا
هَنَٰلِكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهَابًا ﴿١٢٠﴾

١١٢ - يأتوك من أقاصي البلاد بكلِّ ساحرٍ ماهر بصناعة السحر.

١١٣ - ولما اجتمع السحرة جاؤوا إلى فرعون، فعرض عليهم المهمة التي جمعهم من أجلها؛ وهي إجراء مباراة بينهم وبين ساحر كبير من بني إسرائيل، فقبلوا أن يدخلوا المباراة على شرط أن يجعل لهم فرعون أجراً كبيراً إن كانوا هم الغالبين، قالوا: إن لنا لعطاءً نكرمنا به إن كنا نحن الغالبين لموسى؟

١١٤ - قال لهم فرعون: لكم الأجر والعطاء، ولكم المنزلة الرفيعة عندي.

١١٥ - ووقف الفريقان للمباراة، قال السحرة لموسى على سبيل التكبر وعدم المبالاة: يا موسى اختر أحد الأمرين: إمَّا أن تُلقِيَ عَصَاكَ أولاً، وإمَّا أن تكون نحن المُلقين أدوات سحرنا أولاً.

١١٦ - قال لهم موسى: ألقوا أنتم، فلما ألقوا حبالهم وعصيتهم، صَرَفُوا أعين الناس عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخيل، وخَوْفُوهم بما فعلوه من السحر تخويفاً شديداً، وجاء السحرة بسحرٍ عظيم.

١١٧ - وأوحينا إلى موسى أن أَلْقِ عَصَاكَ، فألقاها، فانقلبت حيةً رهيبَةً عظيمة، وفاجأت الجماهير المحتشدة لشهود المباراة، بأنها صارت تبتلع وتلقم بسرعة عجيبة كلَّ أدوات السحرة، التي يتابعون تقديمها، ويكذبون بها على الحقيقة، إذ كانوا يُزَوِّنُون أعين الناس أخيلةً حيَّاتٍ وثعابينَ تسعى، وهي في الحقيقة حبالٌ وعصيٌّ تتحرك ولكن لا حياة فيها، بخلاف عصا موسى عليه السلام، فقد انقلبت حيةً عظيمة يخلق الله سبحانه.

١١٨ - فثبت الحق الذي جاء به موسى عليه السلام، وظهر بطلان ما كانوا يعملون من السحر، وتبيَّن أنه كان إيهاماً وخداعاً للأعين.

١١٩ - فغلب السحرة في ذلك المكان الذي جرَّت فيه المباراة، ورجعوا ذليلين مفهورين.

١٢٠ - ولما عاين السحرة من عظيم قدرة الله تعالى، وعلموا أنه ليس بسحر، خَرُّوا لله ربَّ العالمين ساجدين على وجوههم.

١٢١ - قال السحرة: آمنا بخالق العالمين ورازقهم ومربيهم ومصلحهم وسيدهم المطلق.

١٢٢ - فقال فرعون: إياي تعنون، فقالوا: بل آمنا برب موسى وهارون.

١٢٣ - قال فرعون للسحرة: آمنتكم بموسى وصدقتهم قبل أن آمركم وأذن لكم فيه، كيف تفعلون هذا وتعصوني؟! إن هذا لتدبير أمر في خفاء دبّرتموه أنتم وموسى في مدينة «مصر» قبل خروجكم إلى هذا المكان المختار للمباراة؛ لتخرجوا أهل مدينتكم منها إلى الصحراء، وتستولوا عليها أنتم، فسوف تعلمون - أيها السحرة - بعد إهلاككم مدة، ما أنزل بكم من عقاب إذا لم ترجعوا إلى ملتي وطاعتي.

١٢٤ - لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف: بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو بقطع اليد اليسرى والرجل اليمنى، ثم بعد مدة أضعكم تتعذبون فيها، أقسم لأصلبكنم أجمعين على جذوع النخل؛ لتكونوا عبرة لكل من تحدّثه نفسه بمخالفة ديني ونظام حكمي.

١٢٥ - قال السحرة لفرعون حين هددهم بالقتل: إنا إلى ربنا راجعون، وإليه صائرون في الآخرة، وسيكون لنا النعيم الخالد، وهو يعوضنا من أذاك.

١٢٦ - وما تكره منا وتعيب علينا - يا فرعون - إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا مملأ لنا مكياجاً من الصبر بمقدار ما نحتاج لتحمل العذاب، واضبئه كله علينا، حتى لا نتراجع عن الإيمان الذي هدّيتنا إليه، ونسألك أن تتوفانا حالة كوننا مسلمين لك، مستسلمين لأوامرك، ومطيعين لك فيها.

١٢٧ - وقال جماعة من أشرف قوم فرعون لفرعون: أتدع موسى وقومه من بني إسرائيل؛ حتى تكون عاقبة أمرهم الإفساد في أرض «مصر» بتأليب الناس عليك، والانقضاض على حكمك، ولينبذك موسى مع آلهتك معزولين، فلا تجدون مطيعين عابدين لكم، ولا أنصاراً ينصرونكم.

قال فرعون لما استشير غضبه: سنقتل أبناء بني إسرائيل الذكور، لإيقاف القدرات القتالية لديهم، ونترك مواليدهم من البنات اللواتي سيكون مصيرهن نساء أحياء للخدمة والاستمتاع، وإنا فوقهم قاهرون بالغلبة والقدرة عليهم.

١٢٨ - قال موسى لقومه - من بني إسرائيل - لما شكوا إليه: اطلبوا العون من الله ربكم في كل أموركم، فإن الله هو الكافي لكم، واصبروا على ما نالكم من المكارِه في أنفسكم وأبنائكم، إن الأرض كلها ملك لله الذي خلقها، يورثها من يشاء من عباده، فيهلك فرعون وقومه، ويملك أرضهم وبلادهم بعد إهلاكهم من يشاء من عباده، والنصر والظفر للمتقين على عدوهم.

١٢٩ - قال قوم موسى - من بني إسرائيل - لموسى: أذا فرعون وقومه من القبط قبل أن تأتينا نبياً رسولاً، وما زالوا من بعد ما جئنا بالرسالة يؤذوننا، فزادت الشدة والمشقة علينا، فمتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه؟

قال موسى مجيباً لهم: أرجو متوقعاً أن يهلك ربكم فرعون وقومه، وأرجو متوقعاً أن يستخلفكم الله في الأرض المقدسة في فلسطين، فيجعلكم خلفاء ملوكها القائمين، ولكن لا يستخلفكم لمجرد تكريمكم بأن يمنحكم إياها لكونكم من ذرية إبراهيم، إنما يستخلفكم فيها ليلوكم في هذا الاستخلاف، فينظر كيف تعملون، فيحاسبكم بحسب أعمالكم.

١٣٠ - ونقسم مؤكدين أننا قبضنا على آل فرعون قبضة موجهة، بالقحط والجذب والجوع سنة بعد سنة، وإتلاف الغلات والآفات؛ رغبة منا أن يتذكروا، فيتضرعوا ويستغفروا، ويتوبوا إلى ربهم.

الجزء التاسع

سورة الأعراف

قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ أَأَمْنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّ هَذَا الْمَكْرُ مَكْرُتُمْوُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَقِمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُسُ مَوْسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْهَلَكَةَ قَالَ سَنَقْبُلُ آبَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوِزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْيَمِينِ وَنَقَصْنَا مِنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾

١٣١ - فإذا جاء فرعون وقومه الغيث والخصب والسعة والعافية - كما هي سنة الله تعالى في إمداد الناس بالحسنات في الحياة الدنيا، ولو كانوا كفاراً مجرمين - قالوا: نحن مُستحقُّون لها، ونحن أهلها على العادة التي جرت لنا في سعة الأرزاق وصحة الأبدان، ولم يزوا ذلك من فضل الله عليهم، فيشكروه على إنعامه، وإن يُصِيبهم - ولو نادراً - قحطٌ وجذبٌ ومرضٌ، ورأوا ما يكرهون في أنفسهم قالوا: ما أصابنا بلاء إلا بشؤم موسى وقومه. تنبَّهوا وتحقَّقوا إنَّ عملهم الذي عملوه، انطلق طائراً لا يستطيعون رده، والله الذي يُحاسب ويُجازي عليه، وهو الذي سبَّب لهم ما نزل بهم، وفق حكمته، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون أسرار حكيم الله فيما تجري به مقاديره، وأنَّ ما أصابهم ممَّا يكرهون من الله تعالى؛ بسبب أعمالهم الإجرامية التي يُعاندون بها الحقَّ الذي جاء به موسى وهارون.

١٣٢ - وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام: مهما تأتينا من آية من عند ربِّك مهما بلغت في دلالتها البرهانية، فنحن لا نعتبرها إلا عملاً سحرياً، لِنُضَرِّفَنا بهذه الآيات عملاً نحنُ عليه من الدين، فما نحنُ لك بمُصدِّقين.

١٣٣ - فأرسلنا عليهم خمس علامات كُبريات مُتتابعات: الآية الأولى: المطر من السماء فأغرق زروعهم وثمارهم. الآية الثانية: وأرسلنا الجراد، فأكل عامَّة زرعهم والأبواب وسقوف البيوت والأمتعة. الآية الثالثة: وأرسلنا القمل، فَتَتَبَعَ ما بقي من حرثهم وزروعهم فأكلها كلها. الآية الرابعة: وأرسلنا عليهم الضفادع، فامتلات منها بيوتهم وأطعمتهم وآتيتهم ومضاجعهم، ونَغَصَّت عليهم معيشتهم. الآية الخامسة: وأرسلنا عليهم الدم، فصارت أنهارهم ومياههم دماً، أرسلنا كلَّ هذه العلامات الكُبريات المُبَيِّنات الظاهرات، يَتَّبِع بعضها بعضاً، فاستكبروا عن الإيمان، وعاندوا آيات

الله المُذَكِّرات، فلم يتضرَّعوا إلى الله، ولم يتوبوا من كفرهم، ولم يؤمنوا برسول ربِّهم، وكان آل فرعون قومًا مجرمين طوال مدة ابتلائهم بأنواع من البأساء والضراء.

١٣٤ - ولما نزل بهم العذاب الشديد بعد الأمور الخمسة التي أرسلها الله عليهم، بمشابة عصا غليظة عقابية وتأديبية، قالوا: يا موسى ادعُ لنا ربِّك بالدعاء الذي علَّمك إياه ربُّك، وخصَّك به فجعله عندك، إذا دعوت به أجابك. نقسم لك لئن أزلت عنا بدعائك ربِّك العذاب الذي وقع علينا، لَنُصَدِّقَنَّ بما جئت به مُتَّبِعِينَ لك، وَلَنُخْلِيقَنَّ بني إسرائيل حتى يذهبوا معك إلى الأرض المقدَّسة.

١٣٥ - فلما أزلنا عنهم العذاب الذي أوقعناه عليهم بدعاء موسى عليه السلام إلى الوقت الذي أُجِّل لهم، وهو وقت إهلاكهم بالغرق، إذا هم ينقضون العهد الذي التزموه فلم يثبوا به.

١٣٦ - فَسَلَّيْنَاهُم النعمة عقوبة لهم، فأهلكناهم بالغرق في البحر؛ بسبب أنهم كَذَّبُوا بآياتنا الإعجازية والبيانية والجزائية الدالة على وحدانيتنا وصدق نبينا، وكانوا عن دلالات هذه المعجزات غافلين؛ فأعرضوا عنها بإراداتهم الحرَّة، ولم يستفيدوا منها، ولم يعملوا بمقتضى دلالاتها؛ لأنهم كانوا مشغولين بأسباب قوتهم وسلطانهم واستعلائهم في الأرض.

١٣٧ - وملَّكنا بني إسرائيل الذين كانوا يُقهرون ويُغلبون من فرعون وقومه، مشارق أرض الشام ومغاربها التي باركنا فيها، إذ زدنا في خيراتها المادية والمعنوية، وتمَّت كلمة الله القدرية الحُسنَى تفضُّلاً على بني إسرائيل، بالنصر على عدوِّهم، والتمكين لهم في الأرض التي باركنا فيها، بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومِهِ، وأهلكنا ما كان يصنِّع فرعون وقومُهُ في أرض مصر من أدوات القهر والتسلط، وما كانوا يرفعون من الأبنية والقصور، ويجعلون لها العروش من الثمار والأعنان.

فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتَرْسِلَنَّا مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذْ هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ غَارِقَتَهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

١٣٨ - وَسِرْنَا بِالْعَنَايَةِ وَالْحَفِظِ وَالْمَعُونَةِ مُصَاحِبِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الطَّرِيقَ الْيَبَسَ الَّذِي قَلَقْنَا الْبَحْرَ عَنْهُ، حَتَّى قَطَعْنَاهُ بِهِمْ، وَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْهُ إِلَى الْبَرِّ، وَأَوْصَلْنَاهُمْ إِلَيْهِ آمِنِينَ، فَأَتَوْا بَعْدَ عِبُورِ الْبَحْرِ عَلَى قَوْمٍ يَلَازِمُونَ مَلَازِمَةَ الْمُقِيمِ عَلَى عِبَادَةِ أَصْنَامٍ لَهُمْ.

قال بنو إسرائيل لموسى: يا موسى اجعل لنا صنماً واحداً نعبده ونعظمه، كما لهم أصنامٌ متعدّدة يعبدونها ويعظمونها. فردّ عليهم موسى بقوله: إنكم قومٌ تجهلون عظمة الله، وأنت لا يستحق أن يعبد سواه.

١٣٩ - إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ الْمُقِيمِينَ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَامِ مُكَسَّرٌ مُهْلَكٌ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ، وَمَدْمَرٌ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لِنَتْلِكَ الْأَصْنَامِ، وَلَا يَنْتَفِعُوا مِنْهَا بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّهَا لَا تَجْلِبُ لَهُمْ نَفْعًا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرًّا.

١٤٠ - قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: أَغَيَّرَ اللَّهُ أَطْلَبَ أَيْهَا مَعْبُودًا، وَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ الَّذِي فَضَّلَكُمْ بِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ عَلَى الْعَالَمِينَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكُمُ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ؟! فَهَرِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَيُطَاعَ.

١٤١ - وَادْكُرُوا - يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ - نَعْمَانَا عَلَيْكُمْ؛ إِذْ أَنْقَذْنَا أَسْلَافَكُمْ وَأَجْدَادَكُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، الَّذِينَ كَانُوا يُكَلِّفُونَكُمْ وَيُحْمِلُونَكُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَأَسْوَأَهُ، يُذَبِّحُونَ مَوَالِيدَكُمْ مِنَ الذَّكَوَرِ؛ لِثَلَا يَكْثُرَ رِجَالُكُمْ فَيَكُونُوا خَطَرًا عَلَى قُوَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَيَسْتَبْقُونَ مَوَالِيدَكُمْ مِنَ الْبَنَاتِ أَحْيَاءَ اللَّوَاتِي سَيَكُونُ مَصِيرُهُنَّ أَنْ يَكُنَّ نِسَاءً، فَلَا يَقْتُلُونَهُنَّ؛ لِاسْتِعْبَادِهِنَّ وَتَكْلِيفِهِنَّ الْخِدْمَاتِ، وَفِي ذَلِكَ الَّذِي كَانَ يَجْرِي لِأَجْدَادِكُمْ فِي مِصْرَ امْتِحَانًا لَكُمْ عَظِيمًا مِنْ رَبِّكُمْ، الَّذِي كَافَأَكُمْ عَلَى الصَّبْرِ عَلَيْهِ بِأَنْ فَضَّلَكُمْ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ الْقُرُونِ، وَأَنْجَاكُمْ بِالْمُعْجَزَةِ الْخَارِقَةِ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ عِبَادَةُ غَيْرِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ؟!

١٤٢ - وَوَعَدْنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَنَاجَاتِنَا ثَلَاثِينَ لَيْلَةً، وَهِيَ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَأَنْتَمُنَا الثَّلَاثِينَ بَعِشْرَ ذِي الْحِجَّةِ. فَتَمَّ الْوَقْتُ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ لَصُومِ مُوسَى وَعِبَادَتِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ - حِينَ أَرَادَ الْمُضِيَّ لِمَنَاجَاةِ رَبِّهِ - ثَلَاثَ جُمَلٍ تَتَضَمَّنُ مَرْسُومَ تَعْيِينِ مِنْ ثَلَاثِ مَوَادٍ: الْمَادَّةُ الْأُولَى: كُنْ أَنْتَ خَلِيفَتِي فِي قَوْمِي مَدَّةَ غِيَابِي عَنْهُمْ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ، الْمَادَّةُ الثَّانِيَّةُ: وَأَصْلَحْ أُمُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاحْمِلْهُمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَطَاعَتِهِ، الْمَادَّةُ الثَّالِثَةُ: وَلَا تَسْلُكْ طَرِيقَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، مَهْمَا كَانَتْ كَثَرَتُهُمْ، فَاخْزَمْ أَمْرَكَ، وَلَا تُتَّبِعْهُمْ مُدَارِيًا لَهُمْ، وَلَا تَلْنِ لَهُمْ، وَلَا تُسَايِرْهُمْ، بَلْ اقْطَعْ عَلَيْهِمُ الطَّرِيقَ، وَلَا تَمَكِّنْهُمْ مِنْ فِسَادِهِمْ.

١٤٣ - وَحِينَ جَاءَ مُوسَى لِأَجْلِ مُقَابَلَتِنَا فِي مِيقَاتِنَا الْمَكَانِي وَالزَّمَانِي الَّذِي وَقَّعْنَا لَهُ أَنْ يَأْتِيَ فِيهِ لِمَنَاجَاتِنَا، وَكَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاسْتَحْلَى كَلَامَ رَبِّهِ سَبْحَانَهُ، وَاشْتَاقَ لِرُؤْيَتِهِ، قَالَ: رَبِّ اجْعَلْنِي مُتَمَكِّنًا مِنْ رُؤْيَيْكَ، وَارْفَعْ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ ذَاتِكَ الْعَلِيَّةِ الْحِجَابِ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْكَ.

قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ليس لبشر أن يراني في الدنيا، ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه، ولم يفتته التجلي، فسوف تراني إذا تجلّيت لك، فحين ظهر نور ربّه للجبل على الوجه اللائق بجلاله، جعله مدقوقاً مفتتاً مستويّاً بالأرض، وسقط موسى مغشياً عليه؛ لعظم ما رأى من النور الربّاني الذي حصل به التجلي، فحين أفاق موسى من غشّيته قال يخاطب ربّه عَزَّ وَجَلَّ: تنزيهاً لك - يا رب - من النقائص كلّها، إني ثبتُّ إليك من مسألتي إياك الرؤية في هذه الحياة الدنيا بغير إذنك، وأنا أول المؤمنين بك من قومي، ولو لم أشهد ذاتك بعيني.

وَجَوْرًا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَى الْبَحْرِ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَنْمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مِثْرٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيَنْطَلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْيَعِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ مَنَ إِلَى فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَبْنَاءُ كَمْ وَتَسْحِيحُونَ نِسَاءَ كَمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتَ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ خَلِّفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرْنِي وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرْنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ثَبَّتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

١٤٤ - قال الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى إني اخترتك وفضلتك برسالاتي وبكلامي - من غير واسطة - على الناس من أهل زمانك، فارغ - يا موسى - حقوق هذا الاصطفاء، فخذ ما فضلتك وأكرمك به، وكُنْ من الشَّاكرين على إنعامي.

١٤٥ - وكتبنا لموسى في ألواح التَّوراة من كل شيء يُحتاج إليه من مطلوبات الدين، تذكيراً ونصحاً مقروناً بما يثير الرُّغبة والرُّهبة في النفس، للانتفاع بالنصح، واتباع ما هدى إليه، وتبييناً مفصل للعناصر بعضها عن بعض لكل شيء من الحلال والحرام، والحدود والأحكام، والقصص والأخبار والمُغيبات، وقلنا لموسى: خذ الألواح بجد واجتهاد، واستمسك بما جاء فيها من تكاليف وبيانات وتعليمات، وأمر - يا موسى - قومك أمر إلزام وإيجاب ليأخذوا بأحسن ما كتبنا لك في الألواح، من الفرائض التي ألزمتهم بفعلها، والمُحرِّمات التي ألزمتهم بتركها، سأريكم أرض الشام، إذ كانت يومئذ دار الفاسقين، وسأمكنكم من طردهم، ولن تستقروا فيها طويلاً، إذ ستنزل في أجيالكم عقوبة الله بسبب انحرافهم عن دين الله، وإفسادهم في الأرض.

١٤٦ - سأحوّل وأردّ عن قبول آياتي البيانية والكونية والإعجازية، والتَّصديق بها، الذين يزعمون أنهم أفضل الخلق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وإن ير هؤلاء المتكبرين كل آية من آيات الله التي ترى؛ الإعجازية أو التكوينية الكبرى لا يؤمنوا بها، وإن يزعموا - على سبيل الثدرة - طريق الحق والهدى والسُّداد لا يختاروه لأنفسهم طريقاً يسلكونه إلى الهداية؛ لأنه مبينٌ لسبل أهوائهم وشهواتهم وتكبرهم في الأرض بغير الحق، وإن يزعموا طريق الضلال والفساد يتخذوه طريقاً وديناً؛ لأنه يُحقق لهم رَغبات أهوائهم وشهواتهم، ذلك الذي اختاروه لأنفسهم من ترك الرُّشد واتباع الغي؛ بسبب أنهم

قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آتِوْا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَأَتَّخِذُ قَوْمَ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِمْ جُلِيَّةً عَمَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ أَعْيَرُوا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَاسِقِطٌ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

كذبوا بآيات الله الدالة على توحيده، وكانوا عن التفكير فيها، والاتعاظ بها، وإدراك دلالاتها غافلين.

١٤٧ - والذين كذبوا بآيات الله الكلامية المُنزلة، والإعجازية والجزائية، والكونية، وكذبوا بقاء الله في الدار الآخرة التي فيها الثواب والعقاب، بطلت أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا من البر والإحسان والخير؛ فلا ثواب لهم عليها مهما كثرت وعظمت، فصارت كأن لم تكن، إذ لم تكن غايتهن ثواب الآخرة، لأنهم لا يؤمنون بآيات الله، ولا ببقائه، هل يُجْزَوْنَ في الآخرة إلا جزاء العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا؟

١٤٨ - واتخذ أكثر قوم موسى بتصنع وتكلف من بعد ذهاب موسى إلى الجبل لمناجاة ربه عز وجل، وتلقّي ما كتب له في الألواح، إلهاً معبوداً من مَصْوَغات الذهب والفضة على صورة العجل المعروف، صاغه لهم السَّامريُّ، له صوت كصوت البقر. ألم ير الذين عبدوا العجل الذهبي وصنعهوا بأيديهم رؤية عقلية فكرية أنه لا يمكنه أن يتكلّم بصواب، ولا يهدي إلى رُشد، ولا يقدر على ذلك، فكيف يصلح أن يعبد؟ اتخذوا هذا العجل إلهاً معبوداً، مع كونه مصنوعاً بأيديهم، وكانوا قبل اتخاذه ظالمين في أعماق نفوسهم، لأنهم لم يكونوا قد تحرروا من مفهومات الشرك والتعلّق بالأوثان، على الرغم من كل ما شهدوه من معجزات، وعلى الرغم من نهي موسى المُشدّد لهم عن اتّخاذ آلهة من الأصنام.

١٤٩ - ولما رأوا موسى عليه السلام قادمًا إليهم من بعيد، أخذت المخاوف من سطوته تدبّ إلى قلوبهم، وأدركوا أنهم قد أجزموا باتّخاذهم العجل، عندئذ انحلت قواهم من الرعب، وارتخت أعصابهم، وهتكت عزائمهم، كأن أغلالاً ثقيلة من حديد قد أسقطت بعنف في أيديهم، فهي لا تستطيع حراكاً، ورأوا رؤية علمية أنهم قد ضلُّوا باتّخاذهم العجل الذهبي إلهاً يعبدونه. قالوا: واللّه لئن لم يَرْحَمْنَا رَبُّنَا، ويستر ذنوبنا، ويتجاوز عنا، لنكوننَّ من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بوضعهم العبادة في غير موضعها.

١٥٠ - وحين وصل موسى عليه السلام إلى منازل قومه، حالة كونه غضبان حزينا أشد الحزن مما حدث منهم؛ لأن الله تعالى أخبره أنه قد فتن قومه، وأن السامري أضلهم. قال موسى لقومه: بنست خلافة خلفتمونيها من بعد فراقى لكم لمناجاة ربى خلافتكم، أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربكم؟! وهو انتظاري حافظين لعهدي، وما وصيتكم به من التوحيد وإخلاص العبادة لله، حتى آتيتكم بكتاب الله، فغيّرتم وعبدتم العجل! وألقى موسى الألواح التي فيها التوراة، وأخذ بشعر رأس أخيه ولحيته يجزّه إليه من شدة غضبه، متهماً إياه بالتقصير والتهاون.

قال هارون لموسى مدافعاً عن نفسه: يا ابن أمي إن القوم الذين عبدوا العجل وجدوني ضعيفاً لا أملك قوة أغلبهم عليها، وقاربوا أن يقتلوني حين نهيتهم عن عبادة العجل، فلا تُفِرِح الأعداء بما تنال مني من مكروه، ولا تجعلني في الإثم والعقوبة مع القوم الظالمين الذين عبدوا العجل.

١٥١ - لما تبين لموسى عذر أخيه قال: رب اغفر لي بما أظهرت من غضب، واغفر لأخي هارون ما سبق بينه وبين بني إسرائيل، وأدخلنا جميعاً في سعة رحمتك، أنت خير الغافرين، وأنت أرحم الراحمين.

١٥٢ - إن الذين اتخذوا العجل إلهاً عبدوه من دون الله، سيصلهم حتى يمسك بهم غضب من ربهم، وضعف وهوان في عاجل الحياة الدنيا، وهو القتل الذي أمرهم الله به، وكما جزينا هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً، سنجزى كل المفسدين على الله في أصول الدين وأحكامه، وسينالهم في الحياة الدنيا غضب من ربهم وذلة.

١٥٣ - والذين عملوا الأعمال السيئة، ولو كانت كفراً وإشراكاً بالله، ثم بعد مدة رجعوا إلى الله من بعد أعمالهم السيئة، وآمنوا بالإيمان الصحيح الخالي من الشرك، إن ربك - أيها المخاطب - من بعد توبتهم لكثير الستر يستر الذنوب، دائم الرحمة يرحم التائبين.

١٥٤ - وحين هدأت نفس موسى، وذهبت عنها ثورة الغضب الشديد، أخذ الألواح التي ألقاها على الأرض، وفي المكتوب فيها هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب للخائفين من عذاب ربهم.

١٥٥ - وانتقى موسى من قومه سبعين رجلاً ممن لم يعبدوا العجل، وخرج بهم إلى «طور سيناء» للميقات الزماني والمكاني الذي وعده الله أن يلقاه فيه بهم، للتوبة والاعتذار مما كان من سفهاء بني إسرائيل من عبادة العجل، فلما أتوا ذلك المكان، وسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء، ويتوب على من عبد العجل، أخذتهم الزلزلة والاضطراب الشديد، من أجل أنهم لم ينهوا عن المنكر، ولم يأمرهم بالمعروف، ولم يأخذوا على أيدي عبدة العجل بالقوة.

قال موسى: يا رب لو شئت أهلكتهم على تقصيرهم في الأخذ على أيدي سفهاء بني إسرائيل، لكنك أهلكتهم من قبل خروجهم إلى الميقات معتذرين شافعين للذين أجمعوا، ولكنك أهلكتهم معهم، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني، أهلكنا بسبب ما فعل السفهاء ممّا؟ إن تلك الفتنة التي وقع فيها السفهاء بعبادة العجل، لم تكن إلا اختباراً منك وابتلاء، تحكم بالضلال على من تشاء، بعدلك بالنظر إلى نتائج ابتلائك واختبارك لعبادك، وتحكم بالهداية لمن تشاء بالنظر أيضاً إلى نتائج ابتلائك واختبارك لعبادك، لا معقب لحكمك، أنت يا رب ناصرنا وحافظنا والمتولي لكل أمورنا، فاستر ذنوبنا، وزدنا بعد المغفرة من عطايا رحمتك، التي وسعت كل شيء، أنت أرحم الراحمين، وأنت خير الغافرين.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِسْمِ اللَّهِ حَلَفْتُ لِي
مِنْ بَعْدِي أَهْلِكُنَا أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَكُنْ مِنْ الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي
رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
الْعِجْلَ سَيِّئَاتِهِمْ غَضِبَ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ
تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا بِرَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا فَغُفِرَ لَهُمْ
﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي
نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْبَارَ
مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيمِينَ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلَكَنَا بِمَا فَعَلَ
السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي
مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

١٥٦ - واجعلنا ممن كتبَ لهم من آثار رحمتك في هذه الدنيا: حسنةً معجّلة، بتوفيقك ونصرك وعافيتك، وفي الآخرة حسنةً مؤجّلة، بالنجاة من عذابك، والظفر بجنتك ورضوانك، إنا رجعنا إليك طائعين مُستسلمين. قال الله عز وجل لموسى عليه السلام: عقابي أصيب به من أشاء من خلقي، ورحمتي عمّت خلقي كلّهم، فسأكتبُ مقادير من آثار رحمتي للذين يتّقون عقابي وعذابي بامتنال أوامري، واجتناب زواجري، ويؤتون الزكاة، والذين هم يؤمنون، بكلّ ما نزل من آيات على رسلنا، فلا يفرّقون بين أحد منهم، ولا يتعصّبون لسابق ضدّ لاحق.

١٥٧ - من أوصاف المتّقين الذين كتب الله لهم رحمته أنهم يتّبعون الرسولَ محمداً إذا بعثه الله في زمانهم، ومن أوصافه التي بشر بها هذه الصفات العشر: الصفتان الأولى والثانية: أنه رسولٌ مُبلّغ عن الله، ونبيٌّ اضطفاه الله بالنبوة، وأوحى إليه كما أوحى إلى سائر النبيين، والصفة الثالثة: أنه أميٌّ من غير بني إسرائيل، لا يقرأ ولا يكتب، والصفتان الرابعة والخامسة: أنهم يجدون صفاته المميّزة له تميّزاً تاماً، والإعلام ببعثته مكتوباً عندهم في التوراة وفي الإنجيل أيضاً، وهو أمر معلوم لبني إسرائيل منذ عهد موسى وعيسى، والصفتان السادسة والسابعة: يأمرهم بالإيمان بالله وتوحيده وكلّ ما عرّف حسنه، وينهاهم عن الشُّرك بالله وكلّ ما عرّف قبحه، والصفة الثامنة: أنه يحلّ لهم ما كان مُحَرَّماً عليهم في التوراة من الطّيّبات؛ عقوبةً لهم بسبب ظلم منهم ارتكبه، والصفة التاسعة: أنه يُحرّم عليهم الخبائث الضارّة التي يستخبثها الطبع وتُسفّذها النفس، والصفة العاشرة: أنه يُخفّف عنهم ما ألزموا العمل به من العهد المؤكّد الثقيل، والتكاليف الشاقّة والعقوبات الشديدة في التوراة؛ كقطع موضع النجاسة من الثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم السَّبّ،

وتعزير القصاص في القتل مطلقاً دون شرع الدية، ونحو ذلك. فالذين آمنوا بمحمد الرسول النبي الأمي ﷺ ووقّروه وعظّموه، وأيدوه ونصروه على أعدائه، وآتبعوا القرآن الذي أنزل عليه، فهو نورٌ معه يُتْلوه ويُلغّه للناس، ويهدي به العقول، ويزيل الظلمات أولئك وحدهم بعد بعثة محمد ﷺ هم النّاجون الفائزون بالهداية، والظّافرون بجنّات النعيم في الآخرة، وأما الذين لا يتّبعون من أهل الكتاب، فإن الله لا يكتب لهم من رحمته، ولا يدخلهم جنّته، لأنهم كفروا بما أوجب عليهم أن يؤمنوا به، وعصوا أمر الله لهم باتباعه.

١٥٨ - قل - يا رسول الله - لجميع الناس: إني رسولُ الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم دون بعض، إنّ الله الذي له مُلْكُ السموات والأرض وما فيهما، هو الذي أرسلني إليكم جميعاً، لا معبود بحقّ إلا هو، يُحيي الأحياء على اختلاف أنواعها، ويميتها بنزع الروح منها، فآمنوا - أيها الناس - بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وجميع كلماته المنزّلات عليه وعلى النبيين من قبله، واقتدوا بهذا الرسول، فيما يأمركم به وينهاكم عنه، راغبين أن تهتدوا وترشدوا وتُصيِّبوا الحقّ في متابعتكم إياه. وفي الآية تبيّكٌ لليهود، وإعلامٌ بعموم رسالته ﷺ إلى الناس كافّة، وردٌّ على زعمهم أنه مُرسَلٌ للعرب خاصّة.

١٥٩ - ومن قوم موسى الذين آمنوا به وآتبعوه من بني إسرائيل جماعةٌ يهتدون بالحقّ، ويستقيمون عليه، ويعملون به، ويرشدون إليه، وبالحقّ يعدلون إذا حكموا بين الناس.

وهذه شهادة من الله عز وجل لهذا الفريق من قوم موسى، الذين تصحّ نسبتهم إليه، بأنهم يهدون بالحقّ، ويعدلون بالحقّ، أما الذين بقوا على يهوديّتهم من بني إسرائيل بعد بعثة عيسى، فلم يؤمنوا به، ولم يتّبِعوا ما أنزل عليه من ربه، فليس فيهم أمةٌ يهدون بالحقّ وبه يعدلون؛ لأنهم قد أخرجوا أنفسهم من قوم موسى بالكفر بعيسى، وكذلك الذين لم يؤمنوا بمحمد بعد بعثته، من بني إسرائيل الذين آمنوا بعيسى وآتبعوه، ليس فيهم أمةٌ يهدون بالحقّ وبه يعدلون، بسبب كفرهم بما يجب عليهم أن يؤمنوا به، وبسبب عدم اتباعهم ما أنزل إليهم من ربهم على رسوله محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

وَكَتَبْنَا لَنَافِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذَا دُعِيَ النَّاسُ لِمَآءٍ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّيْنَاهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشَرَ آسَاطًا أَمْيًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى
إِذْ أَسْتَسْقَى قَوْمُهُ آبًا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ
وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفْعِرْ
لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ
حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

١٦٠ - وقسمنا بتنظيم إداري بني إسرائيل، وهم في سيناء بقيادة موسى عليه السلام اثنتي عشرة قبيلة بعدد أولاد يعقوب، وصيرناهم جماعات، وأوحينا إلى موسى إذ طلب قومه منه السقيا في التيه، فقلنا: اضرب بعصاك الحجر الذي أعلمناك به، فضرب موسى بعصاه الحجر الذي عينه الله له، فانشقت من الحجر اثنتا عشرة عينا، يخرج من كل عين منها الماء. قد علمت كل قبيلة من القبائل الاثنتي عشرة موضع شربهم الخاص بهم، لا تدخل قبيلة على أخرى، وظللناهم جاعلين عليهم الغمام مظلا لهم في التيه، تقيهم حر الشمس المؤذية، وأنزلنا عليهم المن - وهو رزق يسقط لهم على وجه الأرض، يتجمع كالجليد، طعمه شهوي يشبه الصمغ كرقاق خبز بعسل -، والسلوى - وهو طائر بري لذيذ اللحم، سهل الصيد، يمسكونه بأيديهم، يشبه السمانى -.. وقلنا لهم: كلوا من بعض طيبات ما رزقناكم، فهو رزق وفير يزيد عن حاجاتكم اليومية، فلا داعي لأن تدخروا منه شيئا، ولا تفسدوا في الأرض إفسادا شديدا منكرأ، ولكنهم لم يطيعوا الله فيما نهاهم عنه، فأفسدوا وطغوا وبغوا، وعصوا بارتهم، وظلموا ظلما شنيعا فاحشا، حتى صاروا شر الناس إفسادا في الأرض، إذ يفسدون العقائد، والأخلاق، والنظم، وسلوك الناس، ويجندون الشياطين الأشرار، لتدمير كل القيم الإنسانية، ومحو كل الوصايا والتعليمات الربانية، وما ظلمونا بكفرهم وفجورهم وإفسادهم في الأرض، ولكن كانوا يظلمون أنفسهم، بتعريضها للعقاب، والعذاب الشديد الأبدى في جهنم، مع ما ينزل بهم من عذاب واضطهاد وذل ومهانة في الدنيا.

١٦١ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لهذا البيان من ربك - للاعتبار والانعاط، قصة من قصص بني إسرائيل بعد موسى، حين قيل لهم: ادخلوا هذه القرية مقاتلين في سبيل الله، واسكنوها بدل أهلها الذين سننصركم عليهم، وكُلُوا من ثمار القرية وزرعها في أي مكان شئتم مأكولا صالحا تجدونه، وقولوا: حط عنا ذنوبنا، ولا تحاسبنا عليها، وادخلوا الباب مُنَحْنِينَ متواضعين، نُسْتَر لكم ذنوبكم، فلا نؤاخذكم عليها، سنزيد المحسنين ثوابا وأجرا عظيما.

١٦٢ - فغير الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة أمرنا من بني إسرائيل، فحرّفوا دين الله، وعصوا أوامره، فأخذوا الغلول في الغنائم، وهدموا القرى التي يفتحها الله عليهم وأحرقوها، وتعاضموا بقوتهم وتفاخروا، ولم يدخلوها كما أمرهم الله مطأطي رؤوسهم، متواضعين لربهم، ولكنهم تحابلوا وزحفوا على أستاذهم؛ لئلا يحنوا ظهورهم خضوعا لله تعالى، وبدل أن يقولوا: حطة كما أمرهم الله، قالوا: حنطة في شعيرة، سخريّة من الأمر الموجه إليهم، وعدم إيمان بفائدته، فبعثنا عليهم عذابا نازلا من السماء أهلكهم بسبب ظلمهم ومخالفتهم أمر الله تعالى.

١٦٣ - سل - يا رسول الله - هؤلاء اليهود عن حال أهل القرية التي كانت قريبة من «البحر الأحمر»، حين كان أهلها يتجاوزون حدود الله في انتهاك حرمة يوم السبت، الذي حرّم الله عليهم فيه الأعمال الدنيوية، فخالفوا أوامر الله، وصادوا فيه، حين كانت تأنيهم حيتانهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء كثيرة، وحين يكونون في يوم آخر غير يوم السبت تذهب الحيتان في البحر، ولا يرون منها شيئا، فكانوا يحتالون على حبسها يوم السبت في حفائر، ويصطادونها بعده.

مثل هذا الاختبار الشديد، بإظهار السمك على وجه الماء في اليوم المحرّم عليهم صيده فيه، وإخفائه عليهم في اليوم المَحْلَل لهم فيه صيده، كذلك نختبرهم ونشدّد عليهم؛ بسبب ما كانوا يفسقون دواما، فيخرجون عن طاعة الله إلى أحوال المعصية والطغيان باستكبار وعناد، فيستحقّون العقاب الشديد الذي يناسب استكبارهم وعنادهم وإصرارهم على معصية الله.

١٦٤ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي لِبَيَاننا - حين قالت جماعة صالحة من أهل القرية التي كانت قريبة من البحر، أمسكت عن الصَّيْد، وسكتت عن موعظة المعتدين، ليأسهم من استجابتهم، قالوا للمستمرين في متابعة النُّصْح المقرون بالترهيب من عذاب الله: لِمَ تنصَحون جماعة، اللَّهُ منزلٌ بهم عذاباً يُمِيتهم ويستأصلهم في الدنيا، أو مُعاقبهم عقاباً شديداً دون إمانته واستئصال؟ فقالت الفرقة الناهية للذين لأموهم: نعظهم لأجل أن نرفع اللوم عن أنفسنا عند ربنا، بأننا لم نُقصِّر بواجب النُّصْح والوعظ والثَّهْي عن المنكر، وجائزٌ عندنا أن يتنفَعوا بالموعظة، فيَتَّقُوا الله، ويتركوا ما هم فيه من الصَّيْد.

١٦٥ - فلما تركت الطائفة التي اعتدت يوم السَّبْت ما ذُكرت به، واستمرت على اعتدائها فيه، ولم تستجب لما وَعَظُهَا به الفرقة الناهية، أُلْجِئْنَا من العقاب الذين كانوا يَنْهَوْنَ عن السُّوء، وهم الفريقان: الذين اجتهدوا فرأوا أَنَّ القوم ميؤوس من استجابتهم، والذين اجتهدوا فرأوا أَنَّ القوم لم يصلوا إلى مرحلة ميؤوس منها، وأخذنا الفرقة المُعْتَدِيَة العاصية بعذابٍ شديد وجيع؛ بسبب مواظبتهم المُتَكَرِّرَة على مخالفة أوامر الله، وخروجهم عن طاعته.

١٦٦ - فلما تجاوزوا حدود المعاصي مُسْتَكْفِينَ عن طاعة الله بترك ما نُهَوْا عنه، من العدوان على حُرْمَة يوم السبت، قلنا لهم: كونوا قِرْدَةً أَذْلَاءً مَطْرُودِينَ مُبْعَدِينَ عن كل خير. فَمَسَخَ اللهُ صُورَ أجسادهم، فجعلها على صور أجساد القردة.

١٦٧ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي - حين أعلم ربك أسلاف اليهود مُؤَكِّداً مَقْسَماً: لَيَنْبَغَنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يُحْمَلهم ويُكَلِّفهم أشدَّ العذاب كلما كَثُرَ ظلمهم وإفسادهم، وانتشرت خبايئهم، وبعيدهم إلى وضعهم الذي قضى عليهم فيه، بأن يكونوا في حالة ذُلٍّ وَمَسْكَنَة، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَاب، يُنْزِلُهُ عليهم سريعاً بعد تفاقم شرهم وهم غير مترقبين إنزاله فيهم، وإنه لواسع المغفرة، كثير الرحمة لمن آمن منهم، وَرَجَعَ عن الكفر واليهودية، ودخل في دين الإسلام.

١٦٨ - وفرَّقنا بني إسرائيل في الأرض جماعات متفرقة، في بلدان من الأرض كثيرة، عقوبة لهم؛ لأنهم لم يرجعوا إلى طاعة ربهم، وابتدعوا ما نهوا عنه، وغيروا، واختبرناهم جميعاً بالخصب والعافية، والجذب والشدة؛ رغبة في أن يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا إليه.

١٦٩ - فجاء بعدهم من سلالاتهم الذين حلُّوا محلَّهم، وورثوا مُمْتَلِكَاتهم، ذُرِّيَّةٌ فاسدون، لا خير فيهم، انتقلت إليهم التوراة عن آبائهم، وعلموا ما فيها، وضيَّعوا العمل بما فيها وتركوه، يأخذون عِوَضاً عن قول الحق، متاع هذه الحياة الدنيا، وهو الرشوة في الأحكام، ويعلمون أنها حرام، ثم إنهم مع إقدامهم على هذا الذنب العظيم يُصْرِّفُون عليه، ويقولون: سَيَغْفِرُ لَنَا، فيتمنَّون على الله الأمانى الباطلة الكاذبة. وإن وجدوا من متاع الدنيا في الغد مثله أخذوه؛ لَشِدَّةِ حِرْصهم على الدنيا، وإصرارهم على الذنوب، أَلَمْ يُؤْخَذْ على هؤلاء المُرْتَشِينَ في أحكامهم، العهود والمواثيق في التوراة أن يقولوا الحق؟ فخالقوا أمر الله وقالوا الباطل، والحال أنهم قرؤوا ما في التوراة وتدبروه مراراً، وضيَّعوا العمل بها، وما في الدار الآخرة ممَّا أعَدَّ اللهُ لأوليائه خيرٌ للذين يَتَّقُونَ الله ويخافون عقابه، من متاع الحياة الدنيا، أفقدتم ما وهبناكم من عقلٍ علميٍّ يُمَيِّزُ بين الحق والباطل، وما وهبناكم من عقلٍ إِرَادِيٍّ بضبط أهواءكم وشهواتكم، فأنتم بسبب ذلك لا تعقلون.

١٧٠ - ومن جماهير الخلف الفاسدين من ذريات بني إسرائيل طائفة صالحة محافظة على العمل بتعاليم كتاب ربهم، دون تحريف ولا تبديل، ويدعون غيرهم للتمسك به، وآمنوا بكلِّ رسولٍ ونبيٍّ جاء بعد موسى وهارون، وأقاموا الصلاة المفروضة عليهم، إنا لا نضيع أجر الذين يعملون الأعمال الصالحة، ويسعون في إصلاح الناس ودعوتهم لفعل الصالحات.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَعَلَّاهُمْ يَنْفُثُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْجْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزَابٍ بِئْسَ مَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَنَ عَلَيْهِمُ إِلَى يَوْمِ الْيَقِينَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ أَصْلَحُوا وَبَعْضُهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ بِحَرْفٍ مِنْ هَذَا الْآدَانِ وَيَقُولُونَ سَيُغْفِرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ بِمِثْقِ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يَمَسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

١٧١ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي - قصة بني إسرائيل حين رفعنا فوقهم جبل الطور، فصار كأنه سحابة تظلمهم، وظنوا ظناً قوياً أن الجبل واقع عليهم، ومختلط عند وقوعه بأجسادهم. وقلنا لهم: خذوا ما آتيناكم من أوامر ونواهي بقوة إرادة وعزيمة، وضَعُوا في ذاكرتكم ما جاء في الكتاب من وصايا، ليكون تذكركم لها باعثاً للعمل بمقتضاها فعلاً فيما يجب فعله، وتركاً فيما يجب تركه.

١٧٢ - وضع في ذاكرتك - أيها الصالح لتلقي هذا النبأ - حين استخرج ربك من ظهر كل واحد من بني آدم ذريته المُقَدَّر إيجادها في أزمانها المُحدَّدة لظهورها في حياة الابتلاء على الأرض حتى آخر نَسَمَةٍ تُولد قبل قيام الساعة، في الزمن الذي كان آدم فيه حياً، وهم في عالم الذر، قبل أن ينتقلوا من مُستقرِّ ضلِّبه إلى مُستودع رحم أمهم حواء، وفَرَّهم بتوحيده بما أودَّعه في فطرهم من أنه ربهم وخالقهم، وأخذ عليهم الميثاق بذلك، فاقروا له بالربوبية، واعترفوا على أنفسهم بالعبودية، أخبرتكم بهذا الحدث؛ منع أن تقولوا - أيها الذرية - يوم القيامة معتدين: إنا كنا عن هذا الميثاق الذي جرى لنا في عالم الذر غافلين مُنصرفي الأذهان؛ لأننا أبقينا آثار هذا الحدث في عقولكم أدلة تدلُّكم على أن ربكم هو الله الذي لا شريك له، وأبقينا في نفوسكم وقلوبكم فطرة تنزع بكم إلى هذه الحقيقة، ممَّا يجعل حالكم أقرب إلى الغافل الساهي منه إلى الناسي.

١٧٣ - ونُخبركم بهذا الحدث الذي جرى لكم وأنتم في مرحلة الذر، وأبقينا آثاره في فطر عقولكم ونفوسكم وقلوبكم منع أن تقولوا إن أتتكم بوادر الإهلاك في الدنيا: إنما أشرك آبائنا من قبل، وكنا أتباعاً لهم، فورثنا عنهم عقائدهم الشركية بتأثير البيئة، أفتعذبنا بما فعل الذين أبطلوا أعمالهم، فأشركوا مع الله؟

١٧٤ - ومثل ذلك التفصيل البليغ الذي أجريناه في الآيات السابقات من السورة، نُفَصِّل الآيات في القرآن كله لقوم أخرجتهم أهواؤهم عن الصراط المستقيم، بجَهْلهم وغللاتهم، لكنهم غير ميؤوس من رجوعهم، فهؤلاء نُفَصِّل لهم الآيات بتمييز بعضها عن بعض، رغبة في أن يعلموا، وأن يرجعوا إلى جذور الفطرة في نفوسهم.

١٧٥ - واقرأ على قومك - يا رسول الله - ويا كل داع إلى الله من أمته - خبر رجل من بني إسرائيل أعطيناه حُججنا وأدلتنا، فخرج من الآيات التي آتاه الله إياها وبعُد عنها، وتبرأ منها كما تنسلخ الحية من جلدها، فلحقه الشيطان، وأدركه، وصار قريباً له، فكان باستجابته لوساوس الشيطان وتسويلاته من الهالكين الضالِّين الفاسدين.

١٧٦ - ولو شئنا لرفعنا درجته ومنزلته إلى منازل الأبرار بتلك الآيات التي أوتيتها، ولكنه سَكَن إلى الدنيا ومال إليها ورضي بها، وأتبع بإراداته الحرة أهواءه وشهواته، فَخَسِرَ دُنياه وآخرته، ووقع في هاوية الرُدى والهلاك. فوصف هذا الرجل الذي أتبع هواه وآثر دُنياه، كوصف الكلب الذي يظلُّ لاهثاً دواماً، إن شَدَّذت عليه وأهَجَّتْه يندلع لسانه، وإن تركته على حاله يخرج لسانه، فكذلك حال الحريص على الدنيا، يستمرُّ في كلِّ أحواله كاذباً لاهثاً، من جزية وراء مطالب نفسه التي تتجدد دائماً، دون أن يظفر من دُنياه بطائل، أكثر من متاع زائل، ويستمرُّ الظمأ النفسي المتواصل. ذلك الوصف المنحط السافل الذي ضربناه للذِّي آتيناهاً آياتنا فانسَلَخ منها، هو أيضاً وصف القوم الذين كَذَّبُوا بآيات الله وجحدوها ابتداءً، دون أن يؤمنوا بها، فتحيط بهم كجلودهم؛ لأنَّ ما وصل إليه ذلك المُنسلخ عن آياتنا، يُماثل ما ابتدأ به هؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتنا. فحدث بأخبار الأولين، راجياً ممَّن تُحدثهم أن يؤثر فيهم حديثك، فيجعلهم يتفكرون، ويكون دافعاً لهم على الاستقامة على طريق الحق.

١٧٧ - قُبِحَ مثلاً مثل القوم الذين كَذَّبُوا بآياتنا، وكانوا يظلمون بتكذيبهم بآيات الله، ولكنهم ما كانوا يظلمون إلا أنفسهم؛ لأنَّ تكذيبهم لم يضرَّ الله شيئاً، وإنما عَرَّضهم لعقوبة الله في عذاب خالد يوم الدين.

١٧٨ - من يحكم الله له بالهداية فهو المهتدي، ومن يحكم الله عليهم بالضلالة؛ لأنهم كانوا في الحياة الدنيا ضالِّين باختيارهم الحر، فأولئك البُعداء عن رحمة الله، هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم؛ إذ حرموها من نعيم الجنة.

وَإِذْ نَفَقْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴿١٧١﴾
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٢﴾
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٣﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُطْلُونَ ﴿١٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَرْجِعُونَ
﴿١٧٥﴾ وَأَقْلَعَتْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا
فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٦﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحِمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ
الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٧﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٨﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ
فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضِلِلْ فَلَا تِلْكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٩﴾

١٧٩ - ونقسم مؤكدين لكم أننا خلقنا وفق نظام التناسل كثيراً من ذراري الجن والإنس صائرين لجهنم؛ لهم قلوب لا يتوصلون بها للعلم ببواطن الأمور وخفاياها؛ لأنهم وجَّهوا كل قواهم التفكيرية لخدمة أهوائهم وشهواتهم من متاع الحياة الدنيا، ولهم أعين لا يُبصرون بها طريق الحق والهدى، ولا ينظرون بها في آيات الله ودلائل توحيده، ولهم آذان لا يسمعون بها آيات القرآن ومواعظه فيعتبرون بها. أولئك الذين ضلُّوا بإرادتهم الحرة، فاستحبُّوا العمى على البصر، كالأنعام التي لا تفهم ولا تعقل، بل إن الكفار أضلُّ من الأنعام؛ لأنهم عطلوا ما آتاهم ربُّهم من تفضيل وتكريم ليصلوا به إلى جنات النعيم، وأنزلوا أنفسهم بإراداتهم الحرة إلى أسفل سافلين، أولئك البُعءاء في التسفل في الدركات الذين ردُّوا أنفسهم بكفرهم حتى صاروا أضلُّ من الأنعام هم الغافلون عن الله، وعن مصيرهم يوم الدين، بسبب انشغالهم بمتاع الحياة الدنيا.

١٨٠ - وتختصُّ بالله الأسماء الحُسنى؛ لأنَّ له تعالى أكمل الذات، وأكمل الصفات، فادعوا الله بأسمائه التي سمى بها نفسه، أو سمَّاه بها رسوله، واتركوا طرائق الذين يميلون عن الحق والصواب في أسماء الله تعالى، فيطلقون أسماء الله عزَّ وجلَّ على غيره، أو ينكرون بعض أسمائه الدالة على بعض صفاته، أو يسمُّونه بما لا يليق بجلاله، سيُجزى الذين كانوا في الدنيا يُلحدون في أسماء الله الحُسنى، عقاب ما كانوا يعملون في نار جهنم.

١٨١ - ومن أمة محمد ﷺ خلَّقتنا جماعة يهتدون بالحق، ويدعون إليه، ويرغبون فيه، وبالحق وحده يَفْضون ويُنصفون الناس، وبالعَدل يأخذون ويعطون ويُنصفون.

١٨٢ - والذين كذبوا من أمة دعوة محمد ﷺ العائمة لكل الناس بعد بعثته، بآياتنا البينانية، والإعجازية، والجزائية، والكونية، سنفتح

عليهم من متاع الحياة الدنيا ما يركنون إليه، ونتركهم على حرياتهم يتابعون مسيرتهم إلى ما يَهْلِكهم، ويُضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يُراد بهم.

١٨٣ - وأمهْلهم، وأطيل مدة أعمارهم؛ لِيَتَمَادُوا في الكفر والمعاصي، ولا أعاجلهم بالعقوبة، ثم أنزل بهم عقابي بتدبير مُحكم قوي، وبوسائل شديدة قوية، لأنَّ كيدي متين.

١٨٤ - ألم يتفكر هؤلاء الكفار، بآياتنا التي يُبلِّغهم إياها رسولنا محمد، ليعلموا أنه كامل العقل والفطنة، أولم يتفكروا بشخصية صاحبهم محمد الذي يعرفونه قبل النبوة وبعدها؛ ليعلموا انتفاء أي صورة من صور الجنون عنه، ما صاحبكم محمد ﷺ بالنسبة إليكم وإلى سائر الذين كذبوه إلا نذير مُظهر مُوضح لما يدعوا إليه.

١٨٥ - أولم ينظروا نظر اعتبار واستدلال في مُلك الله العظيم في السموات والأرض، وكل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى، فيه دليل على وحدانيته وآثار قدرته، أولم يقع في تقديرهم أنَّ مدة إمهالهم قد اقتربت من الانتهاء، وأنَّ أجل إنزال العقاب بهم قد صار متوقفاً. فإذا لم يؤمنوا بهذا الحديث المنطقي الهادي فلا يوجد بعده حديث آخر يجعلهم يؤمنون؟!

١٨٦ - مَنْ يحكم الله عليه بالضلال، فلا يوجد أحد يستطيع أن يحكم له بالهداية من دون الله، ويتركهم في ضلالهم وتماديهم في الكفر يتردّدون مُتَحَرِّين في ظلمات أهوائهم وشهواتهم وضلالاتهم.

١٨٧ - يَسْأَلُك - يا رسول الله - كفار مكة عن الوقت الذي يُبعث الناس من أجداثهم إلى الحياة الآخرة، وتنتهي فيه مسيرة هذه الحياة الدنيا، بتصاريفها المتتابعة، وتغيّراتها المستمرة، كما تتوقف السفينة في الميناء، وتُلقي مراسيها، وتثبت وتستقرُّ عنده. قل - يا رسول الله - : لا يعلم الوقت الذي تقوم فيه الساعة إلا الله، لا يُظهرها في وقتها المُعَيَّن إلا الله، ولا يقدر على ذلك غيره، نُقِلَ أمرها وخفي علمها على أهل السموات والأرض، لا تأتیکم إلا فجأة على حين غفلة من الخلق. يسألك قومك عن أحوال الساعة كأنك عالم علم استقصاء بها، وتمنعهم الإخبار عنها. قل - يا رسول الله -: ما علمها إلا عند الله، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون ما ينفعهم وما يضرُّهم، ويشغلون أنفسهم بما لا يفيدهم من العلم، ويتخذون عدم إعلامهم بوقت قيام الساعة ذريعةً لجحودها.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَاللَّهُ الْأَعْلَىٰ أَحْسَنُ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِي لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ قُلْتُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

١٨٨ - قل - يا رسول الله - للمُلْحِقِينَ عَلَيْكَ فِي السُّؤَالِ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِسَائِرِ النَّاسِ: لَا أَقْدِرُ عَلَى اجْتِلَابِ نَفْعٍ لِنَفْسِي، وَلَا دَفْعِ ضَرِّ يَحِلُّ بِهَا، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَقْدِرَ عَلَيْهِ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ مِمَّا سَيَحْدُثُ مُسْتَقْبَلًا، لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ تَحْصِيلِ الْخَيْرِ، وَاحْتِرَازْتُ مِنَ الشَّرِّ، وَمَا مَسَّنِي الضُّرُّ، مَا أَنَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى مَنْ يُلْغَثُهُمْ، وَأَتَّخِذْتُ كُلَّ وَسِيلَةٍ لِقَنَاعِهِمْ وَتُصَحِّهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَّا مُنْذِرٌ أَنْذَرَكُمْ وَأَخَوْفُكُمْ عِقَابُهُ إِنْ لَمْ تَوْفَعُوا، وَأَبَشِّرُ بِثَوَابِهِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الْاِسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَوْفَعُوا.

١٨٩ - هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَجَعَلَ مِنْ نَوْعِ هَذِهِ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ زَوْجَهَا، تُشَارِكُهُ فِي الْخَصَائِصِ وَالطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ؛ لِأَنْسَ بِهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا، فَلَمَّا وَقَعَهَا وَجَامَعَهَا - وَالْمُرَادُ بِهِ: جِنْسُ الزَّوْجَيْنِ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ - حَمَلَتْ النُّطْفَةَ، وَهِيَ خَفِيفَةٌ عَلَيْهَا، فَاسْتَمَرَّتْ بِذَلِكَ الْحَمْلِ، فَقَامَتْ وَقَعَدَتْ بِهَذَا الْحَمْلِ وَهُوَ يَتَنَامِي شَيْئًا فَشَيْئًا، فَلَمَّا صَارَتْ إِلَى حَالِ الثَّقَلِ، وَكَبُرَ ذَلِكَ الْجَنِينَ فِي بَطْنِهَا، وَذَنَّتْ مُدَّةً وَلَادَتْهَا، دَعَا الزَّوْجَانِ رَبَّهُمَا مُفْسِمِينَ: نَقْسَمُ يَا رَبَّنَا، لَئِنْ أَعْطَيْتَنَا بَشَرًا سَوِيًّا سَالِمًا مِنَ الْعُيُوبِ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ لَكَ عَلَى إِعْنَامِكَ عَلَيْنَا.

١٩٠ - فَلَمَّا أَعْطَى اللَّهُ الزَّوْجَيْنِ مَا طَلَبَاهُ مِنَ الْوَلَدِ الصَّالِحِ السَّوِيِّ، جَعَلَ اللَّهُ شُرَكَاءَ فِي ذَلِكَ الْوَلَدِ الَّذِي أَنْفَرَدَ اللَّهُ بِخَلْقِهِ، فَاتَّخَذَا أَعْمَالًا شَرَكِيَّةً لِحِمَايَةِ وَلَدِهِمَا، فَتَنَزَّهُ اللَّهُ وَتَرَفَّعَ وَتَسَامَى عَنْ إِشْرَاكِ الْمَشْرُوكِينَ.

١٩١ - أَتُشْرِكُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُوكُونَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا، وَهَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آلِهَةً مَعَ اللَّهِ يُخْلِقُونَ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ، مَا دَامُوا فِي الْوُجُودِ.

١٩٢ - وَلَا تَقْدِرُ الْأَصْنَامُ عَلَى نَصْرِ مَنْ أَطَاعَهَا وَعَبَدَهَا، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ مَكْرُوهًا. فَإِذَا كَانَتْ لَا تَخْلُقُ شَيْئًا، بَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْفَعَ الْمَكْرُوهَ عَنْ عِبْدِهَا، وَلَا عَنْ نَفْسِهَا، فَكَيْفَ تَتَّخِذُ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً؟!

١٩٣ - وَإِنْ تَدْعُوا - أَيُّهَا الْمَشْرُوكُونَ - هَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي عِبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى الْقِيَامِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ فِيهِ هُدًى، لَا تَسْمَعُ دَعَاءَكُمْ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ دَعَائِكُمْ لِلْأَصْنَامِ أَوْ سَكُوتِكُمْ عَنْهَا، فَإِنَّهَا عَاجِزَةٌ فِي كُلِّ حَالٍ.

١٩٤ - إِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا - أَيُّهَا الْمَشْرُوكُونَ - مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَتَعْتَقِدُونَ فِيهَا النِّفْعَ وَالضَّرَّ، إِنَّهَا هِيَ مَمْلُوكَةٌ لِلَّهِ أَمْثَالِكُمْ، مُسَخَّرَةٌ مُذَلَّلَةٌ لِقُدْرَتِهِ، فَهَمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يُعْبَدُوا، وَعِبَادَتُهُمْ ظُلْمٌ لِحَقِّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ جَمِيعًا، فَإِنْ كُنْتُمْ - كَمَا تَزْعُمُونَ - صَادِقِينَ فِي أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ مِنَ الْعِبَادَةِ شَيْئًا، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ، فَإِنْ اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَحَصَّلُوا مَطْلُوبَكُمْ، وَإِلَّا تَبَيَّنَ أَنَّكُمْ كَاذِبُونَ مُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ.

١٩٥ - أَلِهَذِهِ الْأَصْنَامُ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا لُضْرَتِكُمْ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَنْطِشُونَ بِهَا لِلدِّفَاعِ عَنْكُمْ؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَنْصُرُونَ بِهَا حَتَّى يَعْرِفُوا أَحْوَالَكُمْ؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا أَصْوَاتَ دَعَائِكُمْ؟

إِنَّ قُدْرَةَ الْإِنْسَانِ الْمَخْلُوقِ إِنَّمَا تَكُونُ بِهَذِهِ الْجَوَارِحِ الْأَرْبَعَةِ، وَالْأَصْنَامُ لَيْسَ لَهَا مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ وَالْجَوَارِحِ شَيْءٌ، فَهَمْ مُفْضَلُونَ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَامِ الْعَاجِزَةِ بِكَثِيرٍ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْإِنْسَانِ الْعَاقِلِ الْأَفْضَلِ أَنْ يَشْتَغَلَ بِعِبَادَةِ الْأَخْسَرِ الْأَدْوَنِ الَّذِي لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ؟

قل - يَا رَسُولَ اللَّهِ وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ - لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرُوكِينَ مِنْ عِبَدَةِ الْأَوْثَانِ: ادْعُوا هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا حَتَّى يَتَبَيَّنَ عَجْزُهَا، ثُمَّ حَارِبُونِي أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ بِمَا لَدَيْكُمْ مِنْ وَسَائِلٍ، فَلَا تُمَهِّلُونِي سَاعَةً بَعْدَ تَدْبِيرِ كَيْدِكُمْ مُسْتَعِينِينَ بِشُرَكَائِكُمْ، فَإِنِّي لَا أَبَالِي بِكُمْ، وَلَنْ تَصْلُوا إِلَى ضَرْيٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِّي.

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ
أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سَتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ
أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا
اللَّهَ رَبَّهُمَا إِلَى أَنْ تَتَنَاصِلَا فَلْيَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾
فَلَمَّا آتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَاءَ اتَّهَمَا فَعَلَى
اللَّهِ عَمَّا يَتَشَكَّرُونَ ﴿١٩٠﴾ أَتَشْكُرُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ
﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ
أَمْ أَنْتُمْ صُمُّونَ ﴿١٩٣﴾ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
أَيْدٍ يَنْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
أَعْيُنٌ يَنْصُرُونَ بِهَا حَتَّى يَعْرِفُوا أَحْوَالَكُمْ؟ أَمْ لَهُمْ
آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا أَصْوَاتَ دَعَائِكُمْ؟

١٩٦ - إِنَّ الذي يتولَّى حفظي وينصرني عليكم، هو الله الذي نزل عليَّ القرآن، وكما أيَّدني بإنزال القرآن عليَّ كذلك يتولَّى نصرتي على كلِّ من يكيدونني ويريدون بي شراً، وهو يتولَّى الصَّالحين بنصره وحفظه، فلا تضرُّهم عداوة مَنْ عاداهم من المشركين وغيرهم ممَّن أرادهم بسوء.

١٩٧ - والذين تدعون - أيُّها المشركون - من دون الله من شركائكم، لا يستطيعون نصركم، ولا يقدرون على نصرة أنفسهم.

١٩٨ - وإن تدعوا - أيُّها المشركون - هذه الأصنام إلى القيام بعمل فيه هُدًى وخير لا يسمعون دعاءكم، وترى - يا كلَّ مشرك - هذه الأصنام التي صنعتُم لها عيوناً تُشبه عيون الكائنات الحيَّة، كأنهم يُشبهون النَّاظرين إليكم، وهم لا يُبصرون؛ لأنهم فاقدون لحاسة العين الناقلة للرؤية، ولمركز الإدراك البصريِّ في رؤوسهم الحجرية.

١٩٩ - خذ - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى سبيل الله من أمته - العفو عمَّن أساء إليك، ولا تأخذ التشقُّق لنفسك بالانتقام، ومُعاقبة المسيء على إساءته، وليكن همُّك أن تأمر بالعطاء ومساعدة ذوي الحاجات، وفعل الخير مع كلِّ الناس، وقابل الذين يجهلون عليك ويتسافهون بالسُّباب والشتائم وقبائح الأقوال والأفعال، بعد العفو عن إساءاتهم إذا تَماذَوْا في السَّفاهة بمجرد الإعراض عنهم، بإعطاء جانب وجهك وجسمك دون إدارة الظهر لهم، أو مواجهتهم.

٢٠٠ - وإمَّا يُصِيبُكَ - أيُّها الداعي إلى الله - ويعرض لك من الشيطان وسوسة، لمقاومة جهل الجاهل السفیه بمثل عمله، فاستَجِر بالله، والجا إليه في دفعه عنك، إنَّه سميعٌ لدعائك، عليمٌ بحالك.

٢٠١ - إِنَّ الذين اتَّقوا ربَّهم وخافوا أن يقعوا فيما نهى الله عنه، إذا مسَّهم بالوساوس والدسائس طائفٌ من الشيطان، يطوف بها على نفوسهم، تذكُّروا الله فاستعاذوا، فإذا هم يُبصرون مواقع الخطأ بالتذكُّر والتفكير، ويتصرَّفون بتقوى وعقل وحكمة.

٢٠٢ - وإخوانُ الشَّياطين المصاحبون المتابعون لهم في مسالك الضلال والغِي، يُمُدُّهم الشَّياطين من الجنِّ والإنس في الضَّلالة بالوسوسة والإغراء بالمعاصي، ثمَّ لا يَكْفُون عن متابعة الإغراء والإغواء حتى إبلاغهم قعر شقائهم في الدُّرك الأسفل من النار يوم الدين.

٢٠٣ - وإذا لم تأتِ المشركين - يا رسول الله - بآيةٍ جديدةٍ من القرآن تأخَّر نزولها عليك لحكمة ربَّانية، قال المشركون تَهَكُّمًا: هَلَّا افْتَعَلْتَهَا وَأَنْشَأْتَهَا مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ؟ قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين سألوا نزول نَجْمٍ جديد عليك، ولو آية واحدة: ما أُتِيَ فيما أُوحِيَ إليَّ من القرآن إلَّا الذي أنزل عليَّ، وليس لي أن أتصرَّف بشيءٍ من عندي، هذا القرآن الذي يُنزله عليَّ تبعاً حُجَجَ بَيِّنَةٍ وبراهين نيرةٍ من ربِّكم، وهو رَشَادٌ ودلالةٌ يوصل إلى المطلوب، وهو أثرٌ من آثار رحمة الله بعباده، ومظهرٌ من مظاهر عطاءاته لقوم يؤمنون بكلِّ ما ينزل تبعاً من نجوم القرآن.

٢٠٤ - وإذا قُرِئَ عليكم - أيُّها المؤمنون - القرآن، فأصغروا إليه بأسماعكم؛ لتفهموا معانيه وتدبُّروا مواعظه، واسكتوا عند سماعه؛ راجين أن تُرحموا برحمته الواسعة في الدنيا، وبإدخالكم في جنته التي هي أعظم مظاهر رحمته.

٢٠٥ - واذكر - يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن - ربِّك سِرّاً في نفسك، واستحضِر عظمته في قلبك، مُتَذلِّلاً له وخائفاً منه، واذكره سبحانه باللسان ذكراً متوسطاً بين الجهر والمُخافتة في وقتين مُفَضَّلَيْن: في أوَّل النهار ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وآخره من العصر إلى الغروب، ولا تكن من الغافلين عن ذكره والتفكير في خلقه وتصاريفه في كونه.

٢٠٦ - إِنَّ الملائكة المُقَرَّبِينَ عند ربِّك مع علوِّ مرتبتهم وعظيم شرفهم، لا يستكبرون عن عبادته وطاعته، بل ينقادون لأوامره، ويُزَيِّنونه عن كلِّ ما لا يليق بجلاله على أبلغ وجهٍ وأكملِهِ، وله وحده لا شريك له يتابعون السُّجود، والسموات ملأى بالساجدين من الملائكة المُقَرَّبِينَ.

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَبْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا جِئْتَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُتِيَ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَيَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

الْبَيْتُ السَّامِعُ

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

١ - يسألك أصحابك - يا رسول الله - عن حكم الغنائم المأخوذة من الكفار يوم «بدر»، عطية من الله تعالى، تفضل بها على الأمة المسلمة دون غيرها من الأمم، وزيادة على ما يحصل للمجاهد من ثواب الجهاد؟ قل لهم يا رسول الله: إن الأموال المأخوذة من الكفار حكمها لله ورسوله يَفْصِمَانِها كيف شاء، فاتَّقُوا الله بطاعته واجتناب مخالفته، فإذا امتلأت القلوب بالتقوى لم يكن للشيطان منفذ، ولم يكن للخلاف موضع، وأصلحوا الحال فيما بينكم بترك المنازعة والمخاصمة في حكم الغنائم، وأطيعوا الله ورسوله فيما يأمرانكم به وَيَنْهِيَانَكُمْ عنه، إن كنتم مؤمنين إيماناً صحيحاً صادقاً، فأنتم مطالبون بالتحقق بمقتضى إيمانكم هذا في تحقيق التقوى، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله.

٢ - ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله، إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم الذين يتصفون بالصفات الخمس الآتية: الصفة الأولى: إذا ذكر الله خافت ورقت قلوبهم؛ استعظاماً لجلاله، وحذراً من عقابه، والصفة الثانية: إذا قرئت عليهم آيات القرآن زادتهم تصديقاً و يقيناً، لأنها تزيدهم علماً ومعرفة بحكمته وعلمه، والصفة الثالثة: على ربهم وحده يعتمدون، فيفوضون تدبير جميع أمورهم إليه تعالى، ولا يرجون غيره، ولا يخافون سواه، مع قيامهم بالأسباب المستطاعة المادية والمعنوية، طاعة لأمره سبحانه ونهيه.

٣ - الصفة الرابعة: الذين يقيمون الصلاة المفروضة بحدودها وأركانها في أوقاتها، كاملة الخشوع والخضوع، الصفة الخامسة: يتصدقون من بعض ما أعطاهم الله من الرزق في وجوه البر التي حث الله على البذل في سبيلها، مما هو واجب كالزكاة والنفقة، ومن تجب نفقته، ومما هو تطوع كالصدقات العامة.

٤ - أولئك الفضلاء الموصوفون بتلك الأوصاف الخمسة، الجامعون بين الإيمان والعمل، هم المؤمنون إيماناً صادقاً ثابتاً، لهم ثلاثة وعود حسنة: الوعد الأول: مراتب بعضها أعلى من بعض؛ لتفاوت أحوالهم في التحقق بتلك الأوصاف، والوعد الثاني: ستر عظيم لذنوبهم، والوعد الثالث: رزق كريم أعدّه الله لهم في الجنة.

٥ - أمض لأمر ربك في تقسيم الغنائم بالسوية وإن كره شباب أهل بدر؛ لأنهم هم الذين باشروا القتال دون الشيوخ الذين كانوا معهم في الغزوة، مع أنهم كانوا رداء لهم، كما مضت لأمر ربك في الخروج من بيتك إلى بدر لطلب العير، وهم كارهون قتال قريش، بعد نجاة العير؛ لقلة عددهم وسلاحهم، وكثرة عدوهم فكان في الأمر بالقسمة بالسوية خير للمؤمنين، إذ أصلح الله بينهم، وردهم إلى حالة الرضا والصفاء. كما كان القتال الذي أمروا به عزة الإسلام وحضد شوكة الكفر والطغيان.

٦ - يجادلوك - يا رسول الله - فريق من المؤمنين في أمر القتال، بعدما أعلمتهم أن الله وعدهم إحدى الطائفتين؛ العير أو النفير، وقد فاتتهم العير، فلا بد إذن أن يظفروا بأعدائهم ويتنصروا عليهم، وهم يعلمون صدق الرسول ﷺ فيما أخبرهم به؛ كأنما يساقون - لشدة كراحتهم القتال - إلى الموت، وهم ينظرون إليه عياناً.

٧، ٨ - واذكروا - أيها المجادلون - وعد الله لكم بالظفر بإحدى الفئزتين: الأولى: الإبل الحاملة لأموال المشركين الآتية من الشام إلى مكة. الثانية: النفير، وهو قتال الأعداء والانتصار عليهم، وتريدون وتمتئون أن العير التي ليس فيها قتال ولا سلاح تكون لكم، ويريد الله أن يظهر الحق ويعليه بكلماته التكوينية والتكليفية، ويستأصل الكافرين من بلاد العرب حتى لا يبقى منهم أحد؛ لتكون عاقبة القتال أن يثبت الحق ثبوتاً دائماً مستمراً، ويقوى الإسلام، ويعز أهلها، ويذهب الشرك وجنده، ولو كره المشركون الذين يكرهون إحقاق الحق، وإبطال الباطل؛ لأن ذلك يضرب بمنافعهم وامتيازاتهم وزعاماتهم القائمة على الباطل، فهم يحبون ظهور الباطل حرصاً عليها، ويكرهون ظهور الحق خوفاً من فواتها. وقد هلك في هذه الغزوة صناديد قريش وعصابة المستهزين، وهم أئمة الكفر في مكة.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ١ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
مِنَ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ٥
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ
وَهُمْ يَنْظُرُونَ ٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا
لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ
٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ٨

٩ - اذكروا - أيها المؤمنون - نعمة الله عليكم يوم «بدر» إذ تستجيرون ربكم من عدوكم، وتطلبون منه العَوْتَ والنصر، فأجاب دعاءكم: بآتي مُرسَلٌ إليكم مَدَدًا وَرَدَّةً بِالْفِ من الملائكة من السماء، يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

١٠ - وما جَعَلَ الله الإِمْدَادَ بالملائكة إلا بُشْرَى لَكُمْ بِالنَّصْرِ، فإنَّ ذلك يَشِدُّ من عَزِمَتِكُمْ، ويرفع معنوياتكم، ويزيدكم ثباتًا وإقدامًا، ولتسكُنَ بهذا الإِمْدَادُ قلوبكم، فيزول ما كان بها من خوف وقلق بسبب قِلَّةِ عددكم، وكثرة عدوكم، وما النَّصْرُ إلا من عند الله، فَيَقُوا بنصره - أيها المؤمنون - ولا تَتَّكِلُوا على قُوَّتِكُمْ وشِدَّةِ بأسكم، إنَّ الله قَوِيٌّ مَنِيعٌ لا يَفْهَرُ شيءٌ، ولا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ، حَكِيمٌ في تدبيره ونصره، ينصر من يشاء، ويخذل من يشاء.

١١ - اذكروا - أيها المؤمنون - فضل الله عليكم حين يُلقِي عليكم النِّوَمَ الخفيف لأجل أن يكون أَمْنًا منه تعالى لكم، يُزِيلُ به عن قلوبكم الرُّعب، وَيَقْوِيكم بالاستراحة به على القتال في الغد، وَيُنْزِلُ عليكم المطر لأربع فوائد: الأولى: لِيُطَهِّرَكُم به من الأحداث والجنابة، والثانية: يُذْهِبُ عنكم وَسْوَسة الشيطان لكم، التي تُجُولُ في خواطركم: كيف تصلُّون وأنتم على أحداث ونجاسات لم تتطهروا منها؟ وكيف تُعَرِّضُونَ أنفسكم للقتل وأنتم كذلك؟ والثالثة: ليشدَّ ويقوِّي إرادتكم، ويمدِّكم بالشجاعة القتالية بالربط على قلوبكم؛ بشعوركم بأنَّ الله معكم يمدِّكم بعونه، ولذلك أنزل عليكم الماء من السماء، ومن شأن هذا الشعور أن يُذْهِبَ عن قلوبكم القلق والاضطراب، والفائدة الرابعة: يَثْبُتُ بذلك المطر الأقدام في المعركة بتليد الأرض الرملية، حتى لا تنزلق فيها الأقدام.

١٢ - واذكر - يا رسول الله وَمَنْ مَعَكَ من المؤمنين - وحي ربك المستمر المتجدد إلى الملائكة الذين أمدكم بهم في غزوة «بدر»:

أني معكم - أيها الملائكة - بالنصر والمُعونة، فقووا قلوب المؤمنين، سألني في قلوب الذين كفروا الخوف الشديد والذلة والصغار، فاضربوا - أيها المؤمنون - رؤوس الكفار، واضربوا منهم أطراف الأصابع التي يحملون بها السيوف.

١٣ - ذلك الرعب الذي ألقاه الله في قلوب الكفار والأمر بضربهم على رقابهم ورؤوس أصابعهم يوم بدر؛ بسبب أنَّهم خالفوا الله ورسوله، وناصبوهما العدا، فصاروا في شقِّ المضادِّ المحارب لهما، والله ورسوله في شقِّ آخر، وَمَنْ يُخَالَفِ أَمْرَ الله ورسوله ويناصبهما العدا، ويقف في شقِّ المضادِّ المحارب لهما، فإنَّ الله شديد العقاب له في الدنيا والآخرة.

١٤ - ذلكم الأسر والقتل الذي نزل بكم - أيها الكفار - فدوقوا آلامه وتحسَّسوه عاجلاً في الدنيا، لأنَّ ذلك يسيرٌ بالإضافة إلى العذاب المؤجل الذي أعدَّه الله لكم في الآخرة.

١٥ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله وأتبعوا رُسُلَهُ، إذا قابلتم الذين كفروا مجتمعين، يزحفون زحفاً لقتالكم، فلا تُدِيرُوا لهم ظهوركم منهزمين منهم، ولو كانوا أكثر عدداً وعدة. وهذا النداء الإلهي للمؤمنين هو النداء الأول في هذه السورة من مجموع ستة نداءات.

١٦ - ومن يَنْهَزُ ويدبر لهم ظهره يومَ الحرب والقتال، إلا في حالتين: **الحالة الأولى:** أن يكون في تولِّيه مُنْعِطاً إلى القتال، يُري عدوّه من نفسه الانهزام، وقصدُهُ طلب الكثرة على العدو والعود إليه، **والحالة الثانية:** أن يكون مُنْصَماً وصائراً إلى جماعة من المؤمنين يريدون العود إلى القتال، فمن انهزم من المسلمين وقت الحرب إلا في هاتين الحالتين، فقد رَجَعَ مُتَلَبِّساً بغضبٍ من الله، مُسْتَحَقّاً له، ومأواه الذي يأوي إليه جهنم، وبئس المصير والمَرْجِع.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ
مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِن عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ
عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا
سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَاقُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَمَن يَشَاقِ اللَّهَ وَرُسُلَهُ فَاكِبًا أَلَا
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوا وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُولِهِمْ يُؤْمِدْ
دُبْرَهُ لَا يُؤْمِدْ فَالْقِتَالِ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَيْكَ فَشَوْهَةٌ فَقَدْ بَاءَ
بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

الجزء التاسع

سورة الأعراف

فَلَمْ يَقْتُلُوهُمْ وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ قَتْلَهُمْ وَمَازِمَتِ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ رِجْئِي وَلِئَلَّيْ لَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا
إِن كَرِهَ اللَّهُ سَمِيْعٌ عَلَيْهِمْ ١٧ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدُ
الْكَافِرِينَ ١٨ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ
وَأَن تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُدُّوا نَعْدُو لَن تُغْنِي عَنْكُمْ
فَعْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ١٩ يَأَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَتَوَلَّوْا
تَسْمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا أَسْمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ٢١ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ٢٢ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ٢٣ يَأَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ٢٤ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٢٥

١٧ - إذا كنتم - أيها المؤمنون - قد انتصرتهم عليهم، وقتلتم من قتلتم منهم، فإنكم لم تقتلوا الكفار بقوتكم وحولكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، ولكن الله قتلهم بنصره إياكم، وتقويتكم عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وما رميت - يا رسول الله - الكفار بكف من الحصباء في وجوه القوم، حين رميت فلم يبق مشرك إلا ودخل في عينه وفمه ومنخره من ذلك التراب شيء فانهزموا، ولكن الله رمى، فبفعله أصابت الحصباء القوم. وليعامل الله سبحانه المؤمنين معاملة المختبر لهم اختباراً نتيجة حسنة دائماً، وذلك بأن يكلفهم بالجهاد، وأن يتخذوا هم الأسباب للنصر، وأن تكون كلمة الله على أيديهم هي العليا، إن الله سميع لدعائكم، عليم بأحوالكم.

١٨ - ذلكم البلاء الحسن الذي تحقق لكم بعده الظفر بأعدائكم والنصر المؤزر عليهم، نعمة أنعمنا بها عليكم، واعلموا أن الله مع ذلك مضيق ومبطل مكر الكافرين وكيدهم، مهما كانت مكايدهم كثيرة وخطيرة.

١٩ - إن تطلبوا - أيها المشركون - من الله الحكم على أقطع الفريقين للرحم، وأظلم الفئتين، فينصر المظلوم على الظالم، فقد جاءكم حكم الله بنصره المظلوم على الظالم، والمحق على المبطل، وإن تئسوا - أيها المشركون - عن الكفر بالله ورسوله، وقاتل نبيه محمد ﷺ وتكذبه، فهو خير لكم في دنياكم وأخراكم، وإن تعادوا لقتاله ﷺ نعد؛ بتسليطه ونصره عليكم، ولن تغني عنكم جماعتكم المؤتلفة على الإثم شياً، كما لم تغن عنكم يوم بدر مع كثرة عددكم وعدتكم وقلة عدد المؤمنين وعدتهم، وأن الله مع المؤمنين بنصره وتأيدته.

٢٠ - يا أيها الذين صدقوا بالله رباً، ويمحمد نبياً ورسولاً، وبالإسلام ديناً: أطيعوا الله ورسوله في أمر الجهاد وبذل المال والنفس، ولا تتأوا وتبتعدوا عن سماع نصوص الأوامر والنواهي، وتدبر معانيها، والعمل بمقتضاها، والحال أنكم تسمعون بأذانكم هذه النصوص

سماعاً لا يصل إلى مراكز السمع المدركة الواعية. وهذا النداء الإلهي هو النداء الثاني للمؤمنين في هذه السورة.

٢١ - ولا تكونوا - أيها المؤمنون - كالمناققين الذين قالوا بألسنتهم: سمعنا دعوتك وأوامرك ونواهيك، وهم لا يعظون ولا ينتفعون بما سمعوا من القرآن والمواعظ؛ لأنهم لم يسمعوا سماعاً حقيقياً فيما سبق، ولا يسمعون دوماً؛ لأنهم غير مؤمنين باطناً، فنفسهم منصرفة عن الحق والخير.

٢٢ - إن شر من دب على وجه الأرض من خلق الله عند الله: الضم عن سماع الحق، البكم عن قول الخير والاعتراف بالحق، الذين لا يفهمون عن الله أمره ونهيه، ولا يقبلونه، ولا يعقلون نفوسهم عن أهوائها الجانحة، وبذلك كانوا كافرين بالله واليوم الآخر؛ لأنهم عطلوا أدوات المعرفة التي وهبهم الله إياها، واستخدموها في حدود ظواهر الحياة الدنيا، ولم ينتقلوا إلى معرفة خالقهم، فلا يؤمنون به، ولا يعبدونه ولا يشكروه.

٢٣ - ولو علم الله بعلمه الأزلي في هؤلاء خيراً من إيمان أو إرادة للخير لأسمعهم سماعاً تفهم وانتفاع وقبول للحق، ولو أسمعهم سماع الانتفاع والخضوع والانقياد بعد أن علم أنه لا خير فيهم، لتولوا عن سماع الحق، وهم معرضون عنه؛ لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره.

٢٤ - يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله: استجيبوا لله في كل ما دعاكم ويدعوكم إليه، واستجيبوا للرسول بالطاعة والانقياد، إذا دعاكم إلى ما فيه صلاح حياتكم في الدنيا والآخرة، واعلموا - أيها المؤمنون - أن علم الله نافذ إلى أعماق القلوب، يتلقى ما يصدر عنها مباشرة قبل أن تصل إلى مراكز وعي الإنسان، فلا يصدر عن القلوب شيء دون أن يمر على رقابة علم الله، كما لا يصل شيء من مستويات دائرة النفس من نزغ الشيطان وسواسه، وحركات النفوس المتعلقة بالشهوات والأهواء والغضب والحب إلى القلب إلا بإذن الله وعلمه، ولا يخرج شيء من القلب إلى مستويات دائرة النفس إلا بإذن الله وعلمه، وفق سنته في عبادته، وحكمته في ابتلائهم، واعلموا أيضاً أنكم إلى حساب ربكم، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه وحده تجمعون في الآخرة. وهذا النداء الإلهي هو النداء الثالث للمؤمنين في هذه السورة.

٢٥ - واحذروا - أيها المؤمنون - عقاباً مؤلماً لكم، لا يقتصر على إصابة الظالمين منكم فقط، بل يعظم الظالمين وغيرهم، فيكون للظالمين عقاباً، ويكون لغير الظالمين امتحاناً واختباراً، أو تربية وتأديباً، واعلموا علماً جازماً أن الله شديد العقاب.

٢٦ - واذكروا - يا معشر المؤمنين المهاجرين - : إذ أنتم قليل في العدد، مُستضعفون في أرض مكة في ابتداء الإسلام، تخافون أن يأخذكم الكفار بسرعة من غير تلبث، فأوكم إلى «المدينة»، وجعل لكم فيها إخواناً يؤوونكم وينصرونكم، وأيدكم بنصره، وجعل لكم الغلب والقوة في غزوة «بدر» المظفرة التي انتصر فيها جيش المؤمنين القليل على جيش الكافرين الكثير، ورزقكم من الطيبات في دار هجرتكم، ومن الغنائم التي أحلها لكم، ولم تحل لأحد قبلكم؛ رغبة أن تشكروا الله على نعمه عليكم.

٢٧ - يا أيها الذين صدقوا الله وأتبعوا رسوله، لا تخونوا الله بترك فرائضه، والإخلال بحقوق ما استأنمكم عليه، وأعطيتكم فيه عهد الأمانة منذ أعلنتم الإسلام والتزمت به، ولا تخونوا الرسول؛ لأن حقوقه تابعة لحقوق الله، ومن حقوقه على المؤمنين برسالته: اتباع شريعته، وعدم معصيته فيما أمر به أو نهى عنه، ولا تخونوا أماناتكم التي أئتمنكم الله عليها، وأنتم تعلمون أنها أمانة يجب الوفاء بها. والنهي عن خيانة الأمانات كلها، يشمل ما يتعلق بحقوق كل ذي حق، فخيانة حقوق خلق الله هي خيانة لهم، وخيانة لله تعالى أيضاً، وذلك لأن من حق الله علينا أن لا نخون أحداً من خلقه. وهذا النداء الإلهي هو النداء الرابع للمؤمنين في هذه السورة.

٢٨ - إن من أسباب خيانة الأمانة: حب المال والولد، فحاربوا نوازع الخيانة في نفوسكم، وعالجوا منابع الفساد فيها، واعلموا - أيها المؤمنون - أنما أموالكم وأولادكم من عناصر امتحانكم وابتلائكم في ظروف الحياة الدنيا، فإذا التزمت بطاعة الله عز وجل، ولم تغلبوا محبة المال والولد على محبة الله، كان لكم عنده أجر عظيم.

٢٩ - يا أيها الذين صدقوا بالحق وأذعنوا له: إن تتقوا الله بامتنثال

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَيَرْزُقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذْ ثَلَاثُ عَلِيهِمْ إِذْ تَبَأْتِ الْفُلُوقُ سَمِعَتْ لُنُونًا لَهُمْ أَمَّا لَبِثَ إِلَّا سَنَةً فَأَخَذُوا الْقُلُوبَ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَارَّةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَثْنَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَا كَانَتْ أَلْفُ لَهُمْ مِنْهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلْفُ لَهُمْ مِنْهُمْ وَهُمْ يُسْتَغْفَرُونَ ﴿٣٢﴾

أوامره واجتناب نواهيه، يمنحكم ثلاثة أمور: الأمر الأول: يجعل لكم نوراً وبصيرة في قلوبكم، تُفَرِّقون بها بين الحق والباطل، والأمر الثاني: يمنح عنكم ما سلف من ذنوبكم، ويُزيل آثارها من نفوسكم، ويُجَلِّو صدأ قلوبكم، والأمر الثالث: يستر عليكم سيئاتكم بأن لا يفضحكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يؤاخذكم عليها، والله سبحانه ذو الفضل العظيم على عباده. وهذا النداء الإلهي هو النداء الخامس للمؤمنين في هذه السورة.

٣٠ - واذكر - يا رسول الله - حين يكيد بك مشركو مكة، ويُدبرون أمراً سيئاً في خفاء عنك؛ ليحققوا إحدى هذه الأمور الثلاثة: الأول: ليجسوك ويؤثفوك، الثاني: يقتلوك ويضيع دمك بين القبائل. الثالث: يُخرجوك من مكة، ويحتالون ويُدبرون تدبيراً مذموماً في خفاء، ويُدبر الله سبحانه تدبيراً محموداً في خفاء، يعصم فيه نبيه منهم، ويُهيئ له ما يُقَوِّي شوكتَهُ، حتى يعود فاتحاً منتصراً، بعد خروجه في خفية مهاجراً، والله سبحانه خير المدبرين، يُحِيط تدبير الكافرين، ويصرفهم عما يريدون، حيث نجى رسوله ﷺ منهم.

٣١ - وإذا ثلثى على هؤلاء الكفار آيات القرآن الكريم بتجدد آية تلو آية، قالوا من فزط جهلهم وعنادهم: قد سمعنا مثل هذا الذي جاء به محمد، لو نشاء أن نقول مثل هذا الكلام لقلناه، ولكننا لم نرده، ما هذا الكلام إلا أخبار الماضين سطره في كتبهم من الأحاديث المكذوبة، والقصص المتخيلة.

٣٢ - واذكر - يا رسول الله - قول المشركين من قومك: اللهم إن كان ما جاء به محمد هو الأمر الثابت من عندك، ولا حق سواه، فأمطر علينا حجارة من السماء، تنصب على رؤوسنا انصباباً، كانصباب الماء، أو اثنتين بعذاب أليم مُوجع.

٣٣ - وما كان الله مُريداً لتعذيب هؤلاء المشركين عذاب استئصال، وأنت تقيم فيهم بين أظهرهم بمكة، فإقامتك بينهم بركة عليهم، ورحمة من الله تعالى بهم، وما كان الله مُعَذِّب هؤلاء الكافرين عذاباً شاملاً، ويُوجد فيهم مَنْ يتوب إلى الإسلام، مستغفراً ممّا كان فيه من شرك وكفر.

وَمَا لَهُمْ لَا يَعْبُدُوهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ لِصُدَّاءٍ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَيَسْتَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جِمَاعًا فَجَعَلَهُ
فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَلِيلُهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَللَّهِ فَإِنْ
أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾

٣٤ - وأي شيء يمنعهم من أن يُعَذِّبهم الله بعد خروجك من بين أظهرهم، والحال أنهم يمنعون المؤمنين عن الطواف بالبيت والصلاة في المسجد الحرام؟ وليسوا حُمَاة المسجد الحرام، وما استمرت لهم هذه الولاية؛ لأنهم دَنَسوه بالوثنية، وإنما نُصَرِّاهُ وحُماته الحقيقيون هم المؤمنون المُتَّقُونَ الذين يَتَّقُونَ الشُّرْكَ؛ وذلك لأن ولايتهم إنما هي بالخلافة عن إبراهيم بانيه ورافع قواعده، وما كان مُشركاً، وإنهم إذ أشركوا، وصُدُّوا الناس عن المسجد الحرام، ومنعوا غير العرايا عن الطواف فيه، فقدوا صفة الخلافة عن إبراهيم الذي جاء بالملة الحنيفة، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون ذلك.

٣٥ - وما كان دعاؤهم وتضرعهم عند المسجد الحرام إلا صغيراً وتصفيقاً بالأيدي، وكانوا يطوفون بالبيت عُراة، وإذا سمعوا الرسول ﷺ يصلي ويتلو القرآن صَفَرُوا وَصَفَّقُوا؛ لِيُخَلِّطُوا عَلَيْهِ قراءته، ويشغلوا عنه مَنْ يسمعه. وإذا كانت تلك حالكم وفسادكم، فذُوقُوا عذاب الأسر والقتل في الدنيا، وتحسُّسوا آلامه؛ بسبب كفركم المتجدد المستمر.

٣٦ - إن هؤلاء الذين جَحَدُوا بِالْآيَاتِ وأشركوا بالله، يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بتجدد واستمرار؛ لِيَصْرِفُوا النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَيَسْتَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَجْهِ، ثُمَّ تَكُونُ عَاقِبَةُ إِنْفَاقِهَا نُدْماً وأسفاً؛ لفواتها من غير ثمرة، ثُمَّ يُغْلَبُونَ آخِرَ الْأَمْرِ، ولا يظفرون بما يُؤْمَلُونَ، والذين كفروا - بعد استكمال رحلة الحياة الدنيا، فالموت، فالبرزخ، فالبعث والنشور - إلى جهة جهنم يجمعون يوم القيامة في أرض المحشر تبعاً، وفي المقابل يُجمع المؤمنون إلى جهة الجنة.

٣٧ - يُحْشَرُ أُولَئِكَ الْكَافِرُونَ فِي جِهَةِ جَهَنَّمَ دُونَ غَيْرِهَا؛ لِيُفْصَلَ اللَّهُ وَيُفَرِّزَ بَيْنَ فَرِيقِ الْكُفَّارِ الْخَبِيثِ، وبين فريق المؤمنين الطَّيِّبِ، وبعد إصدار الحكم عليهم بالكفر، وبأنهم من أهل جهنم، يُساقون إلى محبس خاص بهم، لا يختلطون فيه مع الطَّيِّبِينَ، ويجعل الله الْفَرِيقَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ ضَاغِطاً عَلَىٰ بَعْضٍ، فيلقي بعضه على بعض، دون أية عناية بشأنه، كركام القمامات القذرات النجسات، فيجعلهم في جهنم عقب استكمال فوزهم وركمهم من دون إبطاء ولا تراخ زمني، أولئك الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمُ الْخَاسِرُونَ لِكُلِّ شَيْءٍ الَّذِينَ خَسِرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؛ لأنهم اشتروا بأموالهم عقاب الْآخِرَةِ.

٣٨ - ومع هذا الترهيب فإنَّ باب الرجاء مفتوح، فقل - يا رسول الله - لهؤلاء الجاحدين: إِنْ يَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ كُفْرٍ وَمَشَاقَّةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ومُحَارَبَةٍ لِلْحَقِّ، يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ مَضَىٰ مِنْ كُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ يَرْجِعُوا إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَيَصْرُورُوا عَلَىٰ جُحُودِهِمْ، فَقَدْ تَقَرَّرَتْ عَادَةُ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، بِإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِ وَنَصْرِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ. فليقيسوا أحوالهم على أحوال مَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ وَأَعْمَالِهِمْ، وليعلموا أَنَّ سَنَةَ اللَّهِ لَهَا صِفَةُ الثَّبَاتِ، وَأَنَّ عِقَابَ اللَّهِ سَيَنْزِلُ بِهِمْ، كَمَا نَزَلَ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَمَقَاوِمَةٍ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ.

٣٩ - وَقَاتِلُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - الْمَشْرِكِينَ حَتَّى لَا يَفْتِنَ مُؤْمِنٌ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْنَعُ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْحَقِّ، وَيَسْتَمِرَّ الْقِتَالُ إِلَى أَنْ يَزُولَ سَبَبُهُ، بِانْتِهَاءِ إِيْذَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْعِهِمْ مِنْ اعْتِقَادِ مَا يَرَوْنَهُ مِنَ الْحَقِّ، وَيَكُونُ الْخُضُوعُ وَالِاسْتِسْلَامُ لِأَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى، إِمَّا بِالْخُدُوعِ فِي الْإِسْلَامِ، أَوْ بِالرِّضَا بِحُكْمِ الْإِسْلَامِ وَالْعَيْشِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي ظِلِّ سَمَاحَةِ الْإِسْلَامِ وَعَدْلِهِ، فَإِنْ انْتَهُوا عَنْ إِيْذَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَنِيَّاتِهِمْ.

٤٠ - وَإِنْ أَنْصَرَفُوا عَنِ الْإِيمَانِ وَأَصْرَوْا عَلَى الْكُفْرِ، وَعَادُوا إِلَى قِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِيْذَائِهِمْ، فاعلموا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - أَنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ وَنَاصِرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَحَافِظَكُمْ، وَمَنْ كَانَ فِي حِفْظِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ وَكُفَايَتِهِ، فَهُوَ نِعَمٌ الْمَعِينِ وَالنَّاصِرِ، وَوَلَايَتُهُ سَبْحَانَهُ أَحَبُّ وَلَايَةِ وَأَقْوَاهَا، وَنَصْرَتُهُ أَقْوَى نَصْرَةٍ وَأَعْظَمُهَا.

٤١ - واعلموا - أيها المؤمنون - أن الذي ظفرت به من أموال الكفار بقهر وغلبة، من أي شيء كان من الغنيمة، قليلاً أو كثيراً، فقد ثبت وتقرر أن أربعة أخماسه للمقاتلين الذين حضروا المعركة، وأحرزوا أموال الكفار، والخُمس الباقي يُجزأ لخمسة أصناف: الأول: لله وللرسول، فيُجعل في مصالح المسلمين، والثاني: لأقارب رسول الله ﷺ، وهم بنو هاشم، وبنو المطلب، والثالث: لأطفال المسلمين الذين مات آباؤهم وهم فقراء، والرابع: للمساكين المتعزّضين للعطاء، الذين يسألون الصدقة، والخامس: للمسافر سافراً مباحاً، وليس له ما يقطع به مسافة سفره، واعلموا - أيها المؤمنون - أن خمس الغنيمة مصروف إلى تلك الأصناف، فاقطعوا عنها أطماعكم، واقنعوا بأربعة أخماس الغنيمة، إن كنتم أمتم بالله وصدقتم بوحدانيته، وأمتم بالمُنزل على عبدنا محمد ﷺ يوم «بدر» الذي فرّق الله عزّ وجلّ فيه بين الحقّ والباطل، يوم التقى جُمعُ المؤمنين، وجُمعُ الكافرين، والله على نصركم - أيها المؤمنون - قدير مع قتلتم وكثرة أعدائكم.

٤٢ - اذكروا نعمة الله عليكم - يا معشر المسلمين - حينما كنتم بجانب الوادي الأقرب إلى المدينة، والمشركون بجانب الوادي الأبعد من المدينة ممّا يلي مكة، وعيرُ قريش وأصحابها في مكان أسفل من موضع المؤمنين إلى ساحل البحر، ولو تواعدتم أنتم والمشركون على القتال، ثم علمتم حالكم وحالهم، لتخلفتم عن لقائهم في الميعاد؛ هيبةً منهم ويأساً من الظفر بهم؛ لقتلتم وكثرتهم، وضعفكم وقوتهم، ولكنّ الله جمعكم على غير ميعاد؛ ليَقْضِيَ الله أمراً كان مفعولاً من نصر أوليائه وإعزاز دينه، وإهلاك أعدائه وأعداء دينه؛ لتكون نتيجة ذلك اللقاء أن يستمرّ في الكفر من استمرّ على بصيرة من أمره أنه مُبْطَل، وعن حجة قامت عليه، وقطعت عذره، ويؤمن من آمن عن بينة رآها، وعبرة شاهدها، يسمع دعاءكم، عليهم يعلم نياتكم، ولا تخفى عليه خافية.

٤٣ - واذكر - يا رسول الله - نعمة الله عليكم، حينما أراك المشركين في نومك عدداً قليلاً، فأخبرت المؤمنين بذلك، فقوّت قلوبكم، واجترأتم على محاربتهم، واثقين بنصر الله لكم، ولو أراك الله المشركين عدداً كثيراً، فذكرت ذلك لأصحابك، لجَبَّيْتُمْ وعَجَزْتُمْ، واضطرب أمركم، واختلفت كلمتكم، ولكنّ الله سبحانه بلطفه ورحمته سلّمكم من التنازع والمخالفة؛ إنّه تعالى يعلم ما يحصل في الصدور من الجراءة والجبن، والصبر والجزع.

٤٤ - واذكروا نعمة الله عليكم - أيها المؤمنون - حينما قلل عدد المشركين في أعينكم يوم بدر لما التقيتم في ساحة القتال، ليتأكد في البقطة ما رآه النبي ﷺ في منامه، وأخبر به أصحابه، ولتتقوى بذلك قلوبكم، ولا تجبنوا عند قتالهم، ويُقَلِّلْكُمْ - يا معشر المؤمنين - في أعين المشركين حين الالتقاء قبل الالتحام؛ لئلا يبالغوا في الاستعداد والتأهب لقتالكم؛ ليُحَقِّقَ الله بقضائه المحتوم أمراً كان من إعلاء كلمة الإسلام ونصر أهله، وإذلال كلمة الشرك وخذلان أهله، وإلى الله وحده تُرجع الأمور في الآخرة، فيجازي كلّ عامل على قدر عمله.

٤٥ - يا أيها الذين صدّقوا الله واتبعوا رسوله، إذا لقيتم جماعةً كافرةً في معركة من معارك القتال، فاثبتوا لقتالهم، ولا تفروا، واذكروا الله ذكراً كثيراً عند لقاء عدوكم بقلوبكم وألسنتكم، فإنّ ذكر الله تعالى يذهب فزع القلوب، ويُساعد على الثبات، وكونوا على رجاء الفلاح والنصر والظفر. وهذا النداء الإلهي هو النداء السادس للمؤمنين في هذه السورة. وقد تقدّمت تلك النداءات في الآيات ١٥ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٧ و ٢٩.

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ. وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ. إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَقَّىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خِلْفَ لَكُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا قَلْبُكُمُ وَاللَّيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

٤٦ - وأطيعوا الله ورسوله في التزام ما شرعه سبحانه في أمر الجهاد والثبات عند لقاء العدو وفي سائر أحوالكم، ولا تختلفوا فإن الاختلاف يؤدي إلى عجزكم وضعفكم وجبنكم، وذهاب قوتكم ودولتكم، واصبروا عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنهم؛ إن الله مع الصابرين بالنصر والمعونة وحسن الجزاء.

٤٧ - ولا تكونوا مثل المشركين الذين خرجوا إلى «بدر» من ديارهم، لأجل الفخر والخيلاء، والظهور أمام الناس؛ ليحمدوا لهم شجاعتهم وقوتهم، ويمنعون الناس من الدخول في دين الله، ويعوقون انتشاره بينهم، فلا تكونوا - أيها المؤمنون - مثلهم، ولكن أخلصوا لله عز وجل النية، وقاتلوا حُسبة في نصر دينكم، ومؤازرة نبيكم، والله عالم بجميع أحوال الكفار وأعمالهم ونياتهم لا يغيب عنه شيء.

٤٨ - واذكروا - أيها المؤمنون - حين حسن إبليس للمشركين أعمالهم الخبيثة بوسوسته، وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس؛ بسبب قوتكم وكثرة عددكم وعددكم، وإني مجير وناصر لكم، أجيركم من أي ضيم ينزل بكم، فلما التقى الجمعان: المشركون ومعهم الشيطان، والمؤمنون ومعهم الملائكة، علم عدو الله إبليس أنه لا طاقة له بهم، رجع القهقري وولى مديراً هارباً على قفاه، وقال للمشركين: إني بريء منكم، إني أرى ما لا ترون من الملائكة الذين جاؤوا مدداً للمسلمين، إني أخاف الله، والله شديد العقاب لمن عصاه وكفر به.

٤٩ - واذكروا حين يقول المنافقون من أهل المدينة، واليهود الذين في قلوبهم ضغينة وحسد قبل أن تنتصر القلة المؤمنة في بدر على الكثرة الكافرة: خدعهم وأطمعهم وورطهم في التهلكة ما آمنوا به

من هذا الدين الذي لا أساس له من الحقيقة، وحملهم على قتل أنفسهم. ومن يفوض أمره إلى الله، ويثق بفضله، ويعول على إحسانه، فإن الله حافظه وناصره؛ لأنه قوي غالب لا يغلبه شيء، حكيم في تدبيره وصنعه وتصاريفه، يضع النصر بحكمته في الجهة التي تستحق النصر على ما يعلم من بواطن الأمور وغاياتها.

٥٠ - ولو عاينت - أيها الراي - وشاهدت حين تقبض الملائكة أرواح الذين كفروا عند الموت، وهم يضربون وجوههم وأدبارهم إهانة لهم وإذلالاً وتعذيباً. وتقول لهم الملائكة عند الموت: ذوقوا هذا العذاب، وذوقوا عذاب الحريق أيضاً، وتحسّسوا آلامه الدائمة، لو عاينت الذين كفروا في ذلك الوقت لرأيت أمراً عظيماً، ومنظراً فظيماً، وعذاباً شديداً لا تدركه عقول أهل الدنيا، ولا تحيط به أفهامهم.

٥١ - ذلك الذي نزل بكم - أيها الكفار - من العذاب الشديد والحريق الأليم؛ بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر والمعاصي، وهذا الذي جرى لكم هو بسبب صفة العدل الرباني، ومظاهرها من الجزاء بالعقاب. والله سبحانه لا يظلم أحداً شيئاً، وليس بظلام لجميع عباده، بأدنى ظلم لكل واحد منهم، أو لعدد كبير منهم، بل هم الظالمون لأنفسهم؛ إذ ارتكبوا السيئات وهم يعلمون أنهم معاقبون عليها، ضمن قانون الجزاء الرباني.

٥٢ - عادة الله وسنته في معالجة ومعاقبة كفار قريش، واستحقاقهم العذاب الجزئي، دون الإهلاك العام الشامل، كعادة الله في عقاب آل فرعون، وكفار الأمم الماضية من قبل آل فرعون، كفروا بآيات الله الكونية، والبيانية، والإعجازية، والجزائية، مع إدراكهم لدلائلها، فأخذهم الله من مواقع النعم، ونقلهم إلى مواقع المصائب والآلام؛ بسبب كفرهم وذنوبهم، التي ربّ الله عليها أنواعاً من العقاب المعجل في الدنيا؛ إن الله قوي في أخذه وانتقامه، شديد العقاب لمن كفر به وكذب رسله.

فَنَصَّرَ الله المؤمنين عليهم في غزوة بدر، وقتل بعض قادتهم وساداتهم، وأسر فريق منهم، وجعل ما ساقوا من أموال وسلاح غنيمة للمسلمين، هو من صور العقاب الجزئي التأديبي لهم. كما عاقب الله سبحانه قوم فرعون بعقوبات جزئية، كالطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص الثمرات، وكان لكل أمة أجرت عقوبات تلائم جرائمها.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِطَرَاوِرِ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَيعُمُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ
النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ
عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّهُ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ
بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

٥٣ - ذلك العذاب والانتقام الجزئي على الأعمال السيئة عدل إلهي، فقد جرت سنته تعالى في خلقه، واقتضت حكمته ألا يُبدل نعمته على قوم حتى يُغيروا حالهم الطيبة إلى حال سيئة، فيسلبهم الله النعمة إلى مصائب في الأموال والأنفس، ومؤلّقات العقاب دون الإهلاك العام الشامل؛ وأن الله سميع لأقوال خلقه، لا يخفى عليه شيء من كلامهم، عليم بما في صدورهم من خير وشر، فيجازي كل واحد على عمله.

٥٤ - سنة الله وعادته في معالجة ومعاقبة كفار قريش كسنة الله وعادته في عقاب آل فرعون والذين من قبل آل فرعون، عُوقبوا بالعقابات الجزئية فلم يرتدعوا بها، وكذبوا بآيات ربهم وفسروها بأنها ظواهر طبيعية من ظواهر أحداث الكون، وأنها تجري دون قصد وإرادة، وإذا قد وصلوا إلى هذه الحالة الميؤس منها، فإن أمر إهلاكهم العام هو ما تقتضيه الحكمة، فأهلكنا بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالحجارة، وبعضهم بالريح، وبعضهم بالمسح، وأغرقنا آل فرعون بالبحر، وكل من الأمم المكذبة كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي.

٥٥ - إن شر ما دب على الأرض من الإنس، في علم الله وحكمه: الكفار المصرون على الكفر، فهم لا يؤمنون في المستقبل مهما غولجوا بالوسائل المؤثرة، فمن الخير إهلاكهم إهلاكاً عاماً شاملاً، تخليصاً للمجتمع الإنساني منهم.

٥٦ - من أولئك الأشرار يهود بني قريظة الذين دخلوا معك في المعاهدات بأن لا يحاربوك، ولا يُظاهروا عليك أحداً، ثم ينقضون عهدهم في كل معاهدة، وهم لا يخافون الله في نقض العهد، فمن جمع بين الكفر ونقض العهد فهو من شر الدواب.

٥٧ - فإن تأكدت من وجود هؤلاء الذين نقضوا العهد وظفرت بهم في الحرب، وقدرت عليهم، فأنزل بهم من القتل والتنكيل ما تفرق به

جَمَعَ كُلَّ نَاقِضٍ لِلْعَهْدِ؛ حَتَّى يَخَافَكَ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَتَنخَلَعُ قُلُوبُهُمْ ذَعْرًا، فَيَشْرُدُوا وَيَفْرُوا مِنْ وَجْهِ الْمُقَاتِلِينَ الْمُسْلِمِينَ، لَعَلَّ ذَلِكَ الْتِكَالُ، وَشِدَّةُ الْبَاسِ فِي الْقِتَالِ، يَمْنَعُهُمْ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ، وَيُدْفَعُهُمْ إِلَى التَّذَكُّرِ الَّذِي يُغَيِّرُ مِنْ سُلُوكِهِمْ.

٥٨ - وإن خفت خوفاً مؤكداً - يا رسول الله - من قوم معاهدين، وظهرت لك منهم آثار الغدر وبيادر الخيانة كما ظهر من بني قريظة والتَّضْيِيرِ، فاطرح إليهم عهدهم، وارم به على طريق ظَاهر مُستو، بأن تعلمهم بِبَيْدِكَ عهدهم قبل أن تُحاربهم، حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء، فلا يتوهم أحد فيك الغدر، أما إذا ظهر نقضهم العهد ظهوراً مقطوعاً به، كما غدر المشركون في صلح الحديبية، فلا حاجة إلى إعلامهم بالبُيْدِ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ النَاقِضِينَ لِلْعَهْدِ، وَمَنْ أَخْرَجَ نَفْسَهُ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، صَارَ مُحَلًّا لِسُخْطِهِ عَلَيْهِ وَنَقْمَتِهِ، وَابْتَعَدَ عَنْ مَجَالَاتِ مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

٥٩ - ولا يَظُنُّنَّ الْكُفَّارُ أَنَّهُمْ قَدْ سَبَقُوا الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَهُمْ وَعُدَّتَهُمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، فَالسَّبْقُ الْحَالِي لِلْأَعْدَاءِ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقْعِدَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ يَعْجِزَهُمْ، فَالزَّمَنُ طَوِيلٌ، وَالْمَعْرَكَةُ مُسْتَمِرَّةٌ، وَإِنَّ السَّابِقَ الْآنَ لَيْسَ مِنَ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ يَصِيرَ مَسْبُوقاً بَعْدَ حِينٍ، وَإِنَّ الْمَسْبُوقَ الْآنَ لَيْسَ مِنَ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ يَصِيرَ سَابِقاً بَعْدَ حِينٍ، وَلَكِنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُومُوا بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يُحَقِّقُوا فِي أَنْفُسِهِمُ الشُّرُوطَ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ بِهَا تَأْيِيدَ اللَّهِ لَهُمْ، وَأَنْ يَبْدُؤُوا الْإِعْدَادَ مِنْذُ الْآنَ حَتَّى يَكُونَ لَهُمُ السَّبْقُ بِهَذِهِ الْوَسَائِلِ.

٦٠ - وأعدوا - يا معشر المؤمنين - لقتال الكفار: ما استطعتم من جميع أنواع الأسلحة والآلات التي تكون لكم قوة في الحرب على قتال عدوكم، وأعدوا ما تستطيعون من الخيل المربوطة المُجَهَّزَةُ لِلْهَجُومِ وَالْانْقِضَاضِ عَلَى الْعَدُوِّ بَعْدَ إِثْخَانِهِ وَتَدْمِيرِهِ بِقُوَّةِ الرَّمِي، تُخَوِّفُونَ بِتِلْكَ الْقُوَّةِ الْمُزْهِيةِ وَذَلِكَ الرِّبَاطِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، وَتُرْهِبُونَ آخَرِينَ مِنْ غَيْرِ الْأَعْدَاءِ الظَّاهِرِينَ، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، لَا تَظْهَرُ لَكُمْ عِدَاوَتُهُمْ الْآنَ، لَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُمْ، وَإِعْدَادُ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِنْفَاقِ الْمَالِيِّ، فَانْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْفَ إِلَيْكُمْ أَجْرُهُ فِي الْآخِرَةِ، وَتُعْجَلُ لَكُمْ عَوْضُهُ فِي الدُّنْيَا، بَرَكَةٌ فِي رِزْقِكُمْ، وَنَمَاءٌ فِي أَمْوَالِكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تَنْقُصُونَ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً.

٦١ - وإن مَالَ الْأَعْدَاءِ مُحَارِبُونَ إِلَى الْمُصَالِحَةِ، فَمِلْ إِلَيْهَا - يا رسول الله - وَأَقْبَلْ مِنْهُمْ الصُّلْحَ، مَا دَامَ فِيهِ خَيْرٌ وَصَلَاحٌ بَيْنَ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَفَوِّضْ أَمْرَكَ إِلَى اللَّهِ فِيمَا عَقَّدْتَهُ مَعَهُمْ؛ لِيَكُونَ عَوْنًا لَكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لَأَقْوَالِهِمْ، الْعَلِيمُ بِمَا يُدْبِرُونَ وَيَأْتِمُرُونَ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُمْ.

ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهَ لَمْ يَكْ مَعِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَابٌ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا تَنَفَّقْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّ بِهَمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ بَدَّكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَانْذِرْ لَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْبَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا يَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

سورة الأنفال

سورة الأنفال

٦٢ - وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصُورِهِ وَيَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَالْفَ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنِهِمْ إِنَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَتَأَيَّاهُ النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَتَأَيَّاهُ النَّبِيُّ حَرِضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبَرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهْوَ اسْرِيٍّ حَتَّى يَتَخَيَّرَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدَ مِنْ عَرْضِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابُ رَبِّكَ لَأَخَذْتُمْ مِمَّا آخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

٦٣ - وجمع الله بين قلوبهم بالموودة والتراحم والمحبة في الله، وكانوا قبل ذلك أهل حمية وعصبية وضغينة، فلمَّا بُعث رسول الله ﷺ فيهم وآمنوا به واتبعوه انقلبت تلك الحالة، فائتلفت قلوبهم، وصاروا أنصاراً لرسول الله ﷺ وأعواناً، يقاتلون عنه ويحمونه، لو أنفقت - يا رسول الله - جميع ما في الأرض من الأموال والمنافع، في سبيل هذا التآليف، لما أمكنك أن تصل إليه، لأن القلوب بيد الله، ولكن الله أَلَفَ بينهم، بهدائهم إلى الإيمان والمحبة والإخاء، بعد التفرق والتعادي؛ إنه سبحانه قويٌّ غالب، يُدَبِّرُ أمور العباد على وجه الحكمة والصواب.

فوحدة الأمة ولفقتها تدفع عنها مكر أعدائها وكيدهم، وتجعلها في مأمن من جميع مؤامراتهم ودسائسهم، وما تَجَجَّ أعداء الإسلام في تأمرهم على المسلمين، وكيدهم لهم، إلا بسبب تفرق المسلمين وتخاذلهم وتدابره.

٦٤ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَعَاصِمُكَ وَحَامِيكَ، وكافي وعاصم من اتَّبَعَكَ من المؤمنين من المهاجرين والأنصار شرَّ أعدائكم؛ وإن كثر عدوكم، وقلَّ عددكم.

٦٥ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ بِالْغِ فِي حَثِّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّهِمْ بِصَبْرٍ وَجَلَدٍ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ رَجُلًا صَابِرُونَ عِنْدَ الْلِقَاءِ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ

من عدوهم، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، فيجب ثبات الواحد من المؤمنين في مقابلة العشرة من الكفار، ذلك بأنَّ المشركين ليس لهم غاية يفقهونها، فترفع قواهم المعنوية في القتال، ولا أمل لهم فيما بعد الحياة الدنيا، ولا يقاتلون لطلبِ ثوابٍ وخوف عقاب، إنما يقاتلون حميةً، فإذا صدقتموهم في القتال فإنهم لا يثبتون أمامكم.

٦٦ - أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فِي قِتَالِ الْوَاحِدِ لِلْعَشْرَةِ، فَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ مُحْتَسِبَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِعِلْمِ اللَّهِ وَتَمَكِينِهِ الْقَدْرِيِّ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ.

فدلَّتْ هَاتَانِ النُّسْبَتَانِ عَلَى أَنَّ مَسْتَوَى الْإِيمَانِ الْأَعْلَى يَغْلِبُ مَعَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَشْرَةَ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ تَقُلَّ نِسْبَةُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ فِي الْمَجْمُوعِ عَمَّا يُؤْهَلُ لانتصار المؤمنين على مِثْلِيَّتِهِمْ وَغَلْبَتِهِمْ لَهُمْ. فإذا لم يظفروا بالغلب، فذلك يرجع إمَّا إلى ضعف في إيمانهم أو إلى إخلال منهم بشروط النصر التي أمرهم الله بتحقيقها.

٦٧ - مَا سَأَلَ لِنَبِيِّ أَمْرَهُ اللَّهُ بِالْجِهَادِ أَنْ يَكُونَ لَهُ اسْرِيٌّ مِنْ أَعْدَائِهِ يَحْتَجِزُهُمْ، أَوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ، أَوْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ، حَتَّى يَبَالِغَ فِي قِتَالِ الْمَشْرِكِينَ؛ إِذْ لَا لَلْكَفْرِ، وَإِعْزَازًا لِلدِّينِ اللَّهِ، فَإِذَا وَجَّهَ كُلَّ قُوَّتِهِ لَضَرْبِ الْعَدُوِّ وَإِضْعَافِهِ، وَأَنْزَلَ أَكْبَرَ الْخُسَائِرِ فِي صَفْوَفِهِ، فَلَهُ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الْأَشْرِ، تُرِيدُونَ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - حَطَامَ الدُّنْيَا الْعَارِضَ الزَّائِلَ بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَرِيدُ لَكُمْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ؛ بِقَهْرِكُمُ الْمَشْرِكِينَ وَنَصْرِكُمُ الدِّينَ، وَمَنْعِ أَخْذِ الْأَسْرَى حَتَّى تَكُونَ لَكُمْ الْغَلْبَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ فِي الْأَرْضِ، وَاللَّهُ قَوِيٌّ غَالِبٌ لَا يُفْهَرُ وَلَا يُغْلَبُ، حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِ مَصَالِحِ عِبَادِهِ.

٦٨ - لَوْلَا قَضَاءُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ فِي اللُّوْحِ الْمَحْفُوظِ بِإِبَاحَةِ الْغَنَائِمِ، وَفِدَاءِ الْأَسْرَى، لِأَصَابِكُمْ بِسَبَبِ مَا أَخَذْتُمْ مِنَ الْفِدَاءِ قَبْلَ أَنْ تُؤْمَرُوا بِهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

٦٩ - أُجِلَّتْ لَكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - الْغَنَائِمُ وَأَخْذُ الْفِدَاءِ مِنَ الْأَسْرَى، فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا، وَخَافُوا اللَّهَ أَنْ تَعُودُوا، وَأَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا مِنْ قِيلِ أَنْفُسِكُمْ قَبْلَ أَنْ تُؤْمَرُوا بِهِ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ مَا أَقْدَمْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ وَرَحِمَكُمْ؛ لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ كَثِيرُ السَّخْرِ لِلذُّنُوبِ عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ، دَائِمُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ.

٧٠- يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى الذين أسرتموهم في «بدر»، وأخذتم منهم الفداء: لا تأسوا على الفداء الذي أخذ منكم، إن يعلم الله في قلوبكم نية طيبة صالحة، وعزماً على الإيمان والإسلام، يؤتكم خيراً مما أخذ منكم من الفداء، ويغفر لكم ما سلف منكم قبل الإيمان، واللَّهُ كثير السَّتر لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه، دائم الرحمة بأهل طاعته.

٧١- وإن يُرد الأسارى الذين أطلقتم سراحهم - يا رسول الله - من الأسر، أن يغدروا بك مرةً أخرى فلا تبتس، فقد خانوا الله من قبل وحاربوك، فأمكن الله المؤمنين منهم ببدر حتى قتلوا منهم وأسروا منهم، فإن عادوا إلى الخيانة فسيُمكنك الله منهم ويُقدرك عليهم، واللَّهُ عليمٌ بما في ضمائرهم من إيمان وتصديق أو خيانة ونقض عهد، حكيمٌ في تدبير شؤون عباده، يجازي كلَّ بعمله.

٧٢- إن المتصفين بهذه الأوصاف الخمسة: الوصف الأول: الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، وصدقوا بما جاءهم به تصديقاً جازماً، وأتبعوا شريعته، والوصف الثاني: الذين هجروا ديارهم وقومهم في ذات الله عز وجل وابتغاء رضوانه، والوصف الثالث: الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في الجهاد في سبيل الله وطاعته ورضوانه، والوصف الرابع: الذين آووا رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه من المهاجرين، وأسكنوهم منازلهم، والوصف الخامس: الذين نصرُوا رسول الله ﷺ، يقاتلون من قاتله، ويُعادون من عاداه، أولئك المهاجرون والأنصار الموجودون في دار الإسلام، كتلة واحدة، متآخون، متناصرون، متعاونون، بعضهم أولياء بعض في التأخي والتعاون والتناصر والتكافل على تأمين مطالب الحياة. والذين آمنوا ولم يهاجروا في سبيل الله إلى دار الإسلام، بل بقوا في دار الكفر، فهؤلاء ليس بينهم وبين أهل دار الإسلام من المهاجرين والأنصار موالاة، لانقطاع الصلة، وتعدُّل قيام موالاة بينهما؛ إذ لا يملك كل من الفريقين أن يمدَّ الفريق الآخر بالمناصرة الدائمة، والمعونة والمساعدة في إخاء جماعي، لكنَّ هذا الفريق الذي آمن ولم يهاجر، إذا أودى في الله من أجل دينه، وضغط عليه الكافرون في بلد إقامته، وطلب النصرة منكم - يا جماعة المسلمين أهل دار الإسلام -، فعليكم نصرهم وإعانتهم، إلا أن يكون النصر الذي تنصرونهم فيه على قوم بينكم وبينهم عهدٌ مؤكد لم ينقضوه، فلا تنصروهم عليهم، والله بما تعملون بصير.

٧٣- والذين كفروا بعضهم أولياء بعض، فهم متناصرون على الباطل، متعاونون في عداوتكم، ولا موالاة بين الذين آمنوا والذين كفروا، وإن لم تتعاونوا وتتناصروا - أيها المؤمنون - فيما بينكم تكن فتنة في الأرض؛ إذ يرى الكافرون تفرق المؤمنين، وعدم موالاة بعضهم لبعض، فيستلطون على أجزاء منهم، فيفتنونهم في دينهم، فلا ينصروهم إخوانهم المؤمنون، ولا يؤمنهم، فيضعف المفتونون عن المقاومة، فيتأثرون بالضغط، فيكفرون، فيحصل فساد كبير في الأرض.

٧٤- والمتصفون بهذه الأوصاف الخمسة: الأول: الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، والوصف الثاني: الذين تركوا ديارهم قاصدين أهل الإسلام ودولتهم، والوصف الثالث: الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الله، والوصف الرابع: الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه من المهاجرين وأنزلوهم في دورهم وواسوهم بأموالهم، والوصف الخامس: الذين نصرهم على أعدائهم، أولئك الفضلاء رفيعو المنزلة هم المؤمنون إيماناً ثابتاً صادقاً؛ لأنهم حققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد ونصرة دين الله، لهم وعدان كريمان: الوعد الأول: سترٌ عظيمٌ لذنوبهم، والوعد الثاني: رزق كريم في الجنة. وإنما لم يذكر في ختام السورة الدرجات كما جاء في الآية (٤) في أول السورة؛ لأن الآيات جاءت في أولها تحث على الأنصاف بصفات المؤمنين، وتشجع على الازدياد من هذه الأعمال الصالحة، وكلما ازداد الإنسان عملاً بها، رَفَعَ الله درجته في الجنة. وأما في خاتمة السورة فلم تذكر الدرجات، لأن الآيات جاءت في سياق الثناء على السابقين من المهاجرين والأنصار، فكانهم رضي الله عنهم بلغوا الغاية في علو الدرجات، وتسموا أرفع المنازل.

٧٥- والذين آمنوا من بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، وهاجروا إلى دار الإسلام، وجاهدوا معكم، فأولئك مثلكم في النصرة والتآخي والتعاون، وذوو الأرحام من المؤمنين لهم الأولوية في الموالاة، لحق الإسلام وحق الرحم، وأحكام الموالاة العامة بين المؤمنين، لا تتعارض مع أولوية الموالاة بين أولي الأرحام من المؤمنين، فأصحاب القرباب بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، ومنها أحكام التوارث، فالأحكام العامة لا تتعارض مع الأحكام الخاصة، ما دام الخاص داخلاً في العام، إن الله عالمٌ بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهِجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيَتَّبِعُونَ اللَّهِ وَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ لَا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ التَّوْبَةِ

الْحَجَّةُ الْعَظِيمَةُ

سُورَةُ التَّوْبَةِ

١ - هذه براءة واصله من الله عز وجل، ومن رسوله ﷺ، وإعذار وإنذار بانقطاع العهود التي كانت بين المسلمين والمشركين؛ بسبب خيانتهم بنقض العهود. وهذه الآية تقرّر البراءة والتخلّص ورفع العصمة عن المشركين، وجواز نبذ العهود لمن كان بينهم وبين المسلمين عهد متى رأى الإمام مصلحة الأمة في ذلك، كان خيف منهم خيانة، أو نقضوا شيئاً من شروط المعاهدة. كما يؤخذ من هذه الآية أيضاً: أن عقد المعاهدات إنما هو حقّ للجماعة، يوافق عليه أصحاب الرأي والاختصاص في موضوع المعاهدة وما هو في مصلحة الجماعة، ثم يباشرها الإمام بعد ذلك.

٢ - فسيروا - أيها المشركون - في الأرض مُقْبِلِينَ ومُدْبِرِينَ، آمِنِينَ غير خائفين من القتل والقتال مدة أربعة أشهر، من يوم قراءتها على الكفار وتبليغها إليهم (من عاشر ذي الحجة، إلى انقضاء عشر من شهر ربيع الآخر)، واعلموا أن هذا الإنهال ليس لعجز عنكم، ولكن لمصلحة ولطف بكم؛ لتفكروا وتحاطوا، وتعلموا أن ليس لكم بعدها إلا الإسلام أو السيف. وأن الله مُذِلُّ الكافرين بالقتل والأشر في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

٣ - وإعلام صادر من الله تعالى ورسوله ﷺ إلى الناس عامة يوم النحر، بأن الله بريء من المشركين، ورسوله بريء منهم كذلك، فإن رجعت عن شرككم وغدركم، فهو خير لكم في الدنيا والآخرة، وإن ابتعدتم مدبرين عن الإيمان والتوبة، وبقيتم على ما أنتم عليه من الشرك، فاعلموا أن الله قادر على إنزال العذاب بكم، لأنكم في قبضة قدرته سبحانه، وتحت قهر مشيئته في كل زمان ومكان. وبشر - يا رسول الله - الذين كفروا مُتَّهِكاً ومُستَهْزِئاً بهم بعذاب شديد الإيلام في جهنم.

٤ - لكن الذين لم ينكثوا العهد من المشركين، ثم لم ينقصوكم شيئاً من شروط المعاهدة التي عاهدتموهم عليها، ولم يُعانونا عليكم أحداً من عدوكم، كما عاونت قريش بني بكر على خزاعة التي كانت في عهد رسول الله ﷺ، فأتوا إليهم عهدهم، ولا تُجرؤهم مَجْرَى الناكثين، ولا تَجْعَلُوا الوَفْيَ كَالْغَادِرِ، إن الله يحبّ المتقين الذين يوفون بعهودهم ولا يبدؤون بنقض العهد مع المسلمين أو مع غيرهم، ويثيبهم على تقواهم، ويدخلهم جناته؛ لأن من أحبه الله أكرمه، وأدخله في رحمته.

٥ - فإذا مَضَتْ المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الأربعة التي أتمتم فيها المشركين، فاقْتُلُوا أعداء الله الناكثين للعهد في أي وقت وأي مكان وجدتموهم، وأسروهم، واضربوا الحصار عليهم بسد الطرق، وامنعوهم من التقلب في البلاد، واقعدوا لهم على كل ممر مترصدين لهم حتى تقتلوهم أو تأخذوهم من أي وجه وتوجهوا ومن أي طريق سلخوا، فإن تابوا من الشرك ورجعوا إلى الإيمان، والتزموا شرائع الإسلام، وواظبوا على أداء الصلاة المفروضة، وأعطوا الزكاة الواجبة عليهم، طيبة بها نفوسهم، فكفوا عنهم، وافتحوا الطريق أمامهم، ولا تُزهِقُوهم بقتل ولا أسر، ولا منع من البيت؛ إن الله كثير الشتر لمن تاب ورجع من الشرك إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، دائم الرحمة بأوليائه وأهل طاعته.

٦ - وإن طلب جوارك وحمايتك - يا رسول الله - أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الأربعة، وانقضاء مدة الأمان؛ ليسمع كلام الله الذي أنزل عليك، ويطلع على حقيقة الإسلام، فأمنه حتى يسمع كلام الله سماع فهم وتدبر، ويطلع على حقيقة الإسلام ودعوته، ويعرف ما له من الثواب إن آمن، وما عليه من العقاب إن أصر على الكفر، ثم أبلغه الموضع الذي يأمن فيه إن لم يسلم، وإن قاتلك بعد، وقدرت عليه فاقتله، ذلك الأمر بالإجارة؛ بسبب أنهم قوم لا يعلمون حقيقة الإسلام، فهم يحتاجون إلى سماع كلام الله عز وجل وتدبره؛ لئلا يبقى لهم عذر.

تعريف الناس بحقيقة الإسلام أمر ضروري، يجب على المسلمين القيام به، إذ أصبحت نفوس كثير من الناس مُستعدة لقبول الإسلام بعد أن فشلت العقائد المحرّفة والنظم الأرضية في إسعادهم وحل مشكلاتهم.



٧ - على أي حال يكون لهؤلاء المشركين، الناقضين للعهد مراراً، عهد محترم عند الله وعند رسوله؟ فلا تأخذوا بعهودهم، إلا الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام في «صلح الحديبية»، ولم يظهر منهم نكث، فما استقاموا لكم على العهد، فاستقيموا لهم على الوفاء، إن الله يحب المتقين الذين يوفون بالعهد إذا عاهدوا، ويتقون نقضه، ويثيبهم على تقواهم، ويدخلهم جناته؛ لأن من أحبه الله ضاعف له الثواب على أعماله، وزاده منه قرباً، وغمره بفيوض عطاءاته وإحسانه.

٨ - كيف يكون للمشركين الناكثين ثبات على العهد، وهم قوم - إن يتمكنوا منكم، وتكون لهم الغلبة عليكم - فلن يدخروا جهداً في القضاء عليكم، غير مراعين فيكم قرابة ولا عهداً، فلا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم يخدعونكم بكلامهم المعسول، وقلوبهم منطوية على كراحتكم، وسرايرهم تغاير علانيتهم، وأكثرهم خارجون عن الحق، نقضوا العهد، وبالغوا في العداوة، ويوجد عند قليل منهم تمسك جزئي بالقيم، ومراعاة لبعض الأخلاق والمبادئ.

٩ - والباعث الذي يجعل أكثرهم يخرجون على المبادئ والقيم والأخلاق، أنهم استبدلوا بآيات القرآن والإيمان بها، عرضاً قليلاً من متاع الدنيا، فمنعوا الناس عن الدخول في دين الله، وامتنعوا عن الاستجابة لدينه سبحانه؛ لأنه يتعارض مع مصالحهم وشهواتهم؛ إنهم ساء ما كانوا يعملون من الشرك، ونقضهم العهد، ومنعهم الناس عن الدخول في دين الإسلام.

١٠ - إن هؤلاء المشركين لشدة حقدهم على المؤمنين، وبغضهم لهم، لا يرعون في مؤمن قرابة ولا عهداً، إذا قدروا عليه قتلوه، فلا تبقوا أنتم عليهم كما لم يبقوا عليكم إذا ظهروا عليكم، وأولئك

البعداء عن رحمة الله هم المعتدون في نقض العهد، المتجاوزون لحدود كل القيم والمبادئ والأخلاق. فلا يصح لمؤمن يريد للحق أن يستقر في قلوب الناس، وأن تسطع أنواره في الأرض أن يفكر بأي وجه من الوجوه في التعاقد مع أمثال هؤلاء، فنبتدع عهودهم هو الحكمة والواجب. وفي عناية الله سبحانه بتوجيه هذا التشريع، وبيان حكمته إعلام بأن من تمام قيام الحجّة على الناس فيما يفرض عليهم من تشريع، أن يقدم إليهم مصحوباً ببيان حكمته والدواعي التي تقتضيه وتدعو إليه، أو الثمرات التي ترجى منه، ويكون التشريع وسيلة إليها.

١١ - فإن رجعوا عن الشرك إلى الإيمان، وعن نقض العهد إلى الوفاء به، ومدّوا أيديهم للحق، وفتحوا قلوبهم للدعوة، واندمجوا في جماعة المؤمنين، وأقاموا الصلاة المفروضة عليهم بجميع حدودها وأركانها، وبذلوا الزكاة المفروضة عليهم، طيبة بها أنفسهم، فإذا فعلوا ذلك فقد دخلوا في الإسلام، وصاروا إخوانكم في الدين، لهم ما لكم من الحقوق، وعليهم ما عليكم من الواجبات، ونُبِّئُ حُجَجَ أدلتنا، وتوضّح بيان آياتنا لقوم لديهم الاستعداد أن يعلموا الحقائق، ويدركوا مراميها.

١٢ - وإن نقض كفار قريش عهودهم من بعد ما عاهدوكم على أن لا يقتلوكم، ولا يظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم، وعابوا دينكم الذي أنتم عليه، وانتقصوه وانتقدوه، فقاتلوا رؤوس المشركين وقادتهم؛ إنهم لا عهد لهم، حتى يتبها عن الطعن في دينكم، ويرجعوا عن الكفر إلى الإيمان.

١٣ - هلاً تسارعون - أيها المؤمنون - إلى قتال جماعة من المشركين تحققت فيهم أوصاف توجب المبادرة إلى قتالهم: الوصف الأول: أنهم نقضوا عهودهم مراراً، والوصف الثاني: أنهم هموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة، وتوجّهت نفوسهم لتنفيذ ما أرادوا، ولم يتحقق لهم ذلك؛ إذ كان خروجه ﷺ في الليلة التي حاول فيها فريق من مشركي مكة تدبير مكيدة قتله، والوصف الثالث: هم بدؤوكم بالمنازعة والمحاربة والاعتداء أول الأمر. أخافونهم - أيها المؤمنون - فتركوا قتالهم؟! لا تخافوهم ولا تتركوا قتالهم، فالله أحق أن تخافوه خوف تعظيم وحب وإجلال، إن كنتم مؤمنين حقاً.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَوْا بِعَيْتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا تَرْقُبُوا فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمَنُ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَنْقِلُبُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَكَدٌ وَكُفٌّ أُولَئِكَ مَرُوءٌ أَخْشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

١٤ - قاتلوا - يا معشر المؤمنين - أعداء الله الذين تَقَضُّوا العهد، وطعنوا في دينكم، وبدؤوكم بالقتال، يُحَقِّقُ اللهُ لَكُمْ سِتَّةَ عود: الوعد الأول: يُعَذِّبُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بأيديكم، والوعد الثاني: يَذْلِقُهُمُ بالقهر والأسر والتتبع في الأرض، وذهاب سطوتهم وقوتهم، وانخلاع العرب من ربقتهم، والوعد الثالث: ينصركم عليهم بأن يُظْفِرَكُمْ بِهِمْ، ويُعَلِّيْكُمْ كَلِمَتَهُ، والوعد الرابع: يُبْرِئُ بِالْقِتَالِ صدور المؤمنين ممَّا كانوا ينالونه من الأذى من كيد هؤلاء المشركين.

١٥ - والوعد الخامس: يذهب الله عن قلوب المؤمنين غَضَبَهَا وَوَجَدَهَا الشَّدِيدَ، فتمتلئ بالسرور والفرح بعد أن كانت مُمْتَلِئَةً بِالْغَمِّ والحزن، ويهدي الله من يشاء من هؤلاء المعاندين إلى الإسلام، ويقبل توبته، واللَّهُ عَلِيمٌ بِسِرِّاتِ عِبَادِهِ، حَكِيمٌ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ.

١٦ - بل أظننتم - أيها المؤمنون - أن تتركوا، فلا تُؤْمِرُوا بِالْجِهَادِ، ولا تُثَمِّنَحُوا؛ لِيُظْهَرَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، ويتميز المؤمن من المنافق، وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ مع الإخلاص فيه مَن جَاهَدُوا بِدُونِهِ، علماً ظاهراً تقوم به الْحُجَّةُ عليكم، ولم يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ ولا رسوله بَطَانَةً مِنَ الْمَشْرِكِينَ، يناصرونهم ويصاحبونهم، ويُفْشُونَ إِلَيْهِمْ أَسْرَارَهُمْ، وَيَدْخُلُونَهُمْ فِي أُمُورِهِمْ، واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلَى سَبِيلِ الشَّهَادَةِ والحضور الْمُصَاحِبِ لِكُلِّ أَجْزَاءِ الْعَمَلِ، وظواهره وبواطنه من موالاته المشركين وإخلاص العمل لله وحده.

١٧ - ما ينبغي للمشركين أن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ بِنِائِهَا ودخولها والوقوف فيها، حال كونهم مُقِرِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ مُعْلِنِينَ لَهُ، قد نصبوا أصنامهم حَوْلَ الْبَيْتِ، أولئك البُعداء عن رحمة الله بَطَلَتِ أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ التي كانوا قد عملوها في الحياة الدنيا، مهما

عظمت وكثرت؛ لأنهم لم يعملوها ابتغاء مَرْضَاةَ اللهِ، وطلباً لثواب الآخرة، بل عملوها لتحقيق مصالح لهم في الحياة الدنيا، وللكسب والشهرة، والمدح والثناء بين الناس، فهي أعمال باطلة لا قيمة لها، لأنها غير قائمة على أساس من القاعدة الإيمانية، ومصيرهم النار هم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها ولا يموتون، كما أنهم صَمُّوا في الدنيا على أن يظلوا جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكبين لرسالاته.

١٨ - لا يعمر مساجد الله عمارَةً مَعْنَوِيَّةً بعبادة الله فيها، والدعوة، والتعليم، وعمارة مَادِّيَّةٍ ببنائها، وترميمها، وتنظيفها إلا من اتَّصَفَ بهذه الأوصاف الأربعة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة: الأول: مَنْ آمَنَ بالله وحده، وباليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر وحساب وجنة ونار إيماناً صحيحاً، والثاني: أقام الصلاة في أوقاتها بحدودها، وإتمام أركانها وواجباتها وآدابها، والثالث: أتى الزكاة الواجبة لمستحقِّيها طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، ابتغاء مرضاة الله، والرابع: لم يَخَفْ في الدين غير الله، ولم يترك أمر الله لخشية الناس، وأولئك الفضلاء رفيعو المنزل هم - دون غيرهم - المهتدون المتمسكون بطاعة الله التي تُؤَدِّي إلى الجنة.

١٩ - أَحْكَمْتُمْ بِحَسَبِ تَصَوُّرِكُمُ الْبَاطِلَ - أيها القوم - ما تقومون به من سَقْيِ الْحُجَّاجِ وبناء المسجد الحرام وتشْييده، وأنتم على الشُّرْكِ، كإيمان مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر، وكجهاد مَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ بالنفس والمال؟! لا يستوي حال هؤلاء الذين آمنوا بالله، وأخلصوا له العبادة، وجاهدوا في سبيله، بحال مَنْ سَقَى الْحَاجَّ وعَمَّرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وهو مَقِيمٌ عَلَى شِرْكَهْ وَكَفَرِهِ، واللَّهُ لَا يَحْكُمُ بِهِدَايَةِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ لأنفسهم بالكفر.

٢٠ - إِنَّ الْمَوْصُوفِينَ بِهذه الأوصاف الثلاثة: الأول: الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، والثاني: الذين تركوا دار الكفر قاصدين دار الإسلام، والثالث: الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في الجهاد لإعلاء كلمة الله، هؤلاء أعظم منزلة وأعلى رتبة، وأكثر كرامة عند الله مَن افتخر بالسَّقَاية وعمارة المسجد الحرام، ولم تجتمع فيه هذه الصفات، وأولئك الفضلاء الموصوفون بتلك الأوصاف هم - دون غيرهم - النَّاجُونَ مِنَ النَّارِ، الْفَائِزُونَ بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَتِلْوَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيَذْهَبْ عَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٦ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۝١٧ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۝١٨ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٩ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠

٢١ - يخبر الله هؤلاء المؤمنين المهاجرين المجاهدين الخبر السار، برحمة واسعة منه، ورضوان كبير لا سخط بعده، أعظم من كل ثواب مادي، وجئات لهم فيها نعيم دائم غير منقطع أبداً.

٢٢ - خالدين في الجنان وفي النعيم أبداً لا انقطاع لمكثهم وتنعمهم؛ إن الله تعالى عنده أجر عظيم لمن عمل بطاعته، وجاهد في سبيله.

٢٣ - يا أيها الذين صدقوا بآركان الإيمان، وأتبعوا شريعة الإسلام، لا تتخذوا أقبائكم - من الآباء والإخوان وغيرهم - أصدقاء، إن اختاروا الكفر وأقاموا عليه، وتركوا الإيمان بالله ورسوله، ومن يتخذ الكافرين أولياء، فأولئك هم الظالمون؛ لأنهم وضعوا ولاءهم ونصرتهم ومحبتهم في غير موضعها. وهذا النداء الإلهي هو النداء الأول للمؤمنين في هذه السورة، من جملة ستة نداءات.

هذا الخطاب تأكيد على إقامة الحدود الفاصلة بين المؤمنين والكافرين، ولو كانوا من أقرب أقبائهم، فالإسلام لا يعرف مDAHنة ولا مَصانعة على حساب العقيدة، أو على حساب جماعة المسلمين، ولا يقر مبدأ المساومة في أي أمر من أمور الدين؛ لأن موالاة أعداء الله - ولو كانوا مُتَحِدِينَ من السُّلالات الإسلامية - خيانة للكيان الإسلامي، والأمة جميعها، ودونها بنسبة كبيرة بعض كباثر المعاصي الفردية؛ لأن هذه الموالاة لأعداء الله فرع من فروع الففاق.

٢٤ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المؤمنين: إن كانت هذه المحبوبات الدنيوية الثمانية: الأول: أبائكم الذين تُوقرونهم وتعززون بالانتساب إليهم، والثاني: أبناءكم، وهم أقرب وأحب الناس إليكم، والثالث: إخوانكم الذين تجمعكم بهم رابطة النسب، والرابع: أزواجكم الذين تجمعكم بهم رابطة الزوجية، والخامس:

أقاربكم الذين تعيشون بينهم وتعاشرونهم، والسادس: أموال اكتسبتموها مقتطعين لها، وبذلتهم الجهد في تحصيلها، والسابع: تجارة ثمينة تخافون بوارها بفوات وقت رواجها، والثامن: مساكن تستوطنونها راضين بسكنائها، إذا كانت هذه المصالح الدنيوية الثمانية أولى عندكم من طاعة الله ورسوله، ومن المُجَاهدة في سبيل الله، فانتظروا حتى يأتي الله بعقوبته، واللَّهُ لا يحكم بهداية القوم الخارجين عن طاعته الذين يؤثرون مصالحهم الدنيوية على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله عز وجل. وفي هذه الآية تهديد وتخويف لمن أثر محبة مَنْ ذكر على محبة الله تعالى ورسوله ﷺ، وفيها دليل على أنه إذا تعارضت مصلحة من مصالح الدين مع مَهْمَات الدنيا، وجب على المسلم ترجيح جانب الدين على الدنيا؛ ليقى دين المسلم سليماً.

٢٥ - لقد نصركم الله - أيها المؤمنون - على أعدائكم في أماكن كثيرة في غزوات الرسول ﷺ وسراياه، عندما توكلتم على الله وأخذتم بالأسباب، واذكروا يوم «حُنين» حين قُلتُم: لن نُغلب اليوم من قلة، فلم تدفع عنكم كثرَتكم شيئاً، وظهر عليكم العدو، وضائق عليكم الأرض مع سَعَتها وفضائها، ثم ولَّيْتُم منهزمين، وتركتم رسول الله مع قلة من المؤمنين.

٢٦ - ثم أنزل الله الطمانينة والأمنة على رسوله، وعلى المؤمنين الذين رَجَعُوا إلى قتال عدوهم بعد الهزيمة، ورسولُ الله ﷺ ثابت لهم لم يَفر، وأنزل الملائكة لتثبيت المؤمنين وتشجيعهم، وتخذيْل المشركين وتَجْيِينهم، وعذب الذين كفروا بالأسر والقتل وسبي العيال والأموال، وذلك جزاء الكافرين في الدنيا، ثم إذا أَقْضُوا إلى الآخرة كان لهم عذاب أشد من ذلك العذاب وأعظم.

وقد أصاب الله المؤمنين يوم «حُنين» بما أصابهم أولاً ليؤدبهم ويُريهم، حتى لا يغتروا بأنفسهم، وحتى لا ينقطعوا عن الاعتماد على الله والثقة به والتوكل عليه، - وإن كثر عدوهم وعظمت عدَّتهم - ثم تدارك القلة الباقية منهم بنصره المبين، ليثبت للمؤمنين أن النصر من عنده سبحانه، وأن الاعتماد على الله - مع ملاحظة أوامره ببذل قُصَارَى الجَهد لنيل تأييده ونصره - من شأنه أن يُضَاعَف القوة، ويزيد من قدرات القتال في نفوس المؤمنين. أما الاغترار بالنفس، فإنه يُفْضِي إلى الاستهانة بقوة العدو، ومع الاستهانة يحصل التهاون والتباطؤ والتواكل، وهذه من أبرز عوامل الخذلان ومُسَبِّباته.

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَمِنْكُمْ فَآوِلِيَّاهُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرِصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

٢٧ - ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، مِمَّنْ رَجَعَ عَنِ الْكُفْرِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَاللَّهُ كَثِيرُ السَّرِّ لِمَنْ تَابَ، مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، دَائِمِ الرَّحْمَةِ بِهِمْ.

٢٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَاتَّبَعُوا شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ شَيْءٌ قَذِيرٌ خَبِيثٌ؛ وَذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّ الشِّرْكَ الَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ وَيَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَاهُ نَجَاسَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ مُغْلَظَةٌ فِي الْعَقِيدَةِ وَالسُّلُوكِ، وَحَامِلٌ النِّجَاسَةِ الْمُغْلَظَةِ الْمُخْتَلِطَةِ بِمَفَاهِيمِهِ وَإِرَادَتِهِ وَأَنْوَاعِ سُلُوكِهِ يَكُونُ بِهَا نَجَسًا نَجَاسَةً مُغْلَظَةً فِي ذَاتِ نَفْسِهِ، فَلَا تُمَكِّنُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَنْ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا، وَهُوَ سَنَةُ تِسْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ؛ لِحِمَايَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ وَالشُّكِّ فِيهِ مِنْ كُلِّ شِرْكَ وَكُفْرٍ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ خِفْتُمْ فَقَرَأُوا فَاقَةً لَانْقِطَاعِ تِجَارَتِهِمْ عَنْكُمْ؛ بِسَبَبِ مَنْعِهِمْ مِنْ دُخُولِ أَرْضِ الْحَرَمِ، فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ، فَاقْطَعُوا أَمْلَكُمْ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْلُحُكُمْ، حَكِيمٌ فِيمَا يُعْطِي وَيُمْنَعُ، وَيُحَرِّمُ وَيُسَرِّعُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا عَنْ حِكْمَةٍ وَصَوَابٍ. وَقَدْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، إِذْ انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، كَمَا أَغْنَاهُمُ سُبْحَانَهُ بِمَا فَتَحَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَتْوحِ، حَتَّى غَنِمُوا كُنُوزَ كَسْرَى وَقَيْصَرَ. وَهَذَا النِّدَاءُ الْإِلَهِيُّ هُوَ النِّدَاءُ الثَّانِي لِلْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ.

٢٩ - قَاتِلُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - الْقَوْمَ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الْأَرْبَعَةِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِمَانًا صَحِيحًا صَادِقًا، وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنْ بَعَثٍ وَحِسَابٍ وَفَصْلِ قِضَاءٍ، وَتَنْفِيزِ جَزَاءٍ، وَالثَّلَاثُ: لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا مَا حَرَّمَ رَسُولُهُ فِي السُّنَّةِ، وَالرَّابِعُ: لَا

يَعْتَقِدُونَ صِحَّةَ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ الدِّينُ الْحَقُّ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ، مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، حَتَّى يُعْطُوا الْخَرَاجَ الْمَضْرُوبَ عَلَى رِقَابِهِمْ، عَنْ يَدِ مَوَاتِيَةٍ طَائِعَةٍ رَاضِيَةٍ، غَيْرِ مُمْتَنِعَةٍ، وَهُمْ أَذْلَاءُ مَقْهُورُونَ غَيْرِ مُتَمَرِّدِينَ.

وَالْجَزِيَّةُ مَقْدَارٌ مِنَ الْمَالِ يُؤَدِّيهِ الْمُسْتَطِيعُونَ مِنْهُمْ إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، كَدَلِيلٍ مَادِّيٍّ يَدُلُّ عَلَى انْقِيَادِهِمْ لِحُكْمِ الْإِسْلَامِ، وَرِضَاهُمْ بِالْعَيْشِ تَحْتَ سُلْطَانِهِ، وَفِي مِقَابِلِ ذَلِكَ يَأْمَنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ، وَلَا يُكْرَهُونَ عَلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَا يُمْنَعُونَ مِنْ مُمَارَسَةِ طُقُوسِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ، وَمَا يَعْتَقِدُونَهُ أَنَّهُ حَلَالٌ فِي مِلَّتِهِمْ.

وَالْجَزِيَّةُ بِإِجْمَاعِ الْفُقَهَاءِ تُفْرَضُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِنَصِّ هَذِهِ آيَةِ، وَلَا تُفْرَضُ بِالْإِجْمَاعِ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ؛ لِأَنَّهُمْ يُخَيَّرُونَ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالْإِسْلَامِ، حَتَّى لَا يَكُونَ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ دِينَانِ.

٣٠ - الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُمْ أَتَيْتُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَلَدًّا، فَقَدْ أَشْرَكَ الْيَهُودُ بِاللَّهِ عِنْدَمَا زَعَمُوا أَنَّ عَزْرِيئًا ابْنَ اللَّهِ، وَأَشْرَكَ النَّصَارَى بِاللَّهِ عِنْدَمَا ادَّعَوْا أَنَّ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ. إِنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ الْقَوْلَ بِسَعَةِ أَفْوَاهِهِمْ تَنْطَعًا وَتَشْدُقًا، وَلَا يُدْرِكُونَ لَهُ حَقِيقَةَ يَتَصَوَّرُونَهَا، وَهُمْ يُشَابِهُونَ فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ الشَّيْعَةَ قَوْلَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَبْلُ، الَّذِينَ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ؛ أَبْعَدَهُمُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ إِبْعَادًا أَبَدِيًّا، كَيْفَ يُصَرِّفُونَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ بَعْدَ وَضُوحِ الدَّلِيلِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى اسْتِحَالَةِ أَنْ يَكُونَ لَهُ تَعَالَى وَلَدٌ؟!

٣١ - اتَّخَذَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عُلَمَاءَهُمْ وَعِبَادَهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، حَيْثُ أَطَاعُوهُمْ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، كَمَا يُطَاعُ الْأَرْبَابُ فِي أَمْرِهِمْ وَنَوَاهِيهِمْ، وَاتَّخَذُوا الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ إِلَهًا، وَمَنْحُوهُ مِنَ الرِّبَوِيَّةِ أَكْثَرُ مِمَّا مَنْحُوهُ لِعُلَمَائِهِمْ وَعِبَادِهِمْ، وَذَلِكَ لِمَا اعْتَقَدُوا فِيهِ مِنَ الْبُنُوَّةِ وَالْحُلُولِ، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ مَا أَمَرُوا بِأَيِّ أَمْرٍ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ إِلَّا لِيَعْبُدُوا - فِيمَا أَمَرُوا بِهِ - إِلَهًا وَاحِدًا؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ لَا غَيْرَهُ، لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا هُوَ، تَعَالَى وَتَنَزَّاهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ فِي التَّشْرِيعِ وَالْأَحْكَامِ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ فِي الْإِلَهِيَّةِ يَسْتَحِقُّ التَّعْظِيمَ وَالْإِجْلَالَ.

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَنِلُوا الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلْنَاهُمْ
اللَّهُ أَفْ يَوْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

٣٢ - يريد الكفار، ولا سيما اليهود والنصارى إبطال دين الله الذي جاء به محمد ﷺ، والدلائل الدالة على صحة نبوته ﷺ، بأقوالهم المضللة، ومزاعمهم الباطلة، بعد أن أعدوا الوسائل، وانتهوا من مرحلة الاشتغال بتهيئتها، فالوسائل بحسب تصوراتهم قد صارت جاهزة، وما عليهم إلا التنفيذ، ويأبى الله إلا أن يحبط مخططاتهم وتدابيراتهم، ويعلي دينه، ويظهر كلمته، ويتم الحق الذي بعث به رسوله محمد ﷺ، ولو كره ذلك الكافرون، وتميزوا منه غيظاً، وإنما يكره الكافرون أن يمتد نور الإسلام ويعم؛ لأنهم يريدون أن تظل الجماهير مستخرة لأهوائهم، خاضعة لزعاماتهم الباطلة، ومتى تم ظهور نور الحق وعم انتشاره، تيقظت الجماهير المستخرة لهم من غفلتها، وألقت عن ظهورها أوزار المتحكمين بهم، والمتسلطين عليهم من المجرمين الظالمين لعباد الله.

٣٣ - إن الله الذي لا يريد إلا أن يتم نوره، هو الذي أرسل رسوله محمد ﷺ بالقرآن، ودين الإسلام؛ ليعلنه على سائر الأديان، ولو كره الكافرون الجاحدون دين الإسلام وظهوره على الأديان.

٣٤ - يا أيها الذين صدقوا الله وأتبعوا رسوله، إن كثيراً من أحبار اليهود، وعُباد النصارى، يأخذون أموال الناس من أجل أكلها بالباطل، بأخذ الرشا وتحريف الكتاب وتبديله، ويمنعون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، والدخول في دين الإسلام، والذين يجمعون المال، ويجعلون بعضه فوق بعض، ويمنعون الحقوق الواجبة فيه من أهل الكتاب أو من المسلمين، ولا يؤدّون زكاة المال المكنوز، فيشرهم - على سبيل التهكم بهم - بعذاب أليم، وذلك لأنهم ينتظرون من كنزهم في الدنيا بشارات سارة تأتيهم، مما يمتنعهم أو يضاعف ثرواتهم، فجاءت البشارة لفظاً فقط، وهي في الحقيقة إنذار، وتعذيب نفسي لهم، في مقابل فرحهم في الدنيا بما كنزوا ومنعوا حقوق ذوي الحقوق. وهذا النداء الإلهي هو النداء الثالث للمؤمنين في هذه السورة.

٣٥ - يوم القيامة توضع قطع الذهب والفضة في نار جهنم، فإذا اشتدت حرارتها أحرقت بها جباه كائنها، وجنوبهم وظهورهم، ويقال لهم يوم القيامة توبيحاً: هذا مالكم الذي أمسكتموه ومنعتم منه حقوق الله وحقوق العباد، فذوقوا العذاب الموجه وأحسوا بآلامه؛ بسبب ما كنزتم في الدنيا من الأموال، ومنعتم حق الله منها، وحق عباد.

٣٦ - إن عدة شهور السنة في علم الله وحكمه: اثنا عشر شهراً، فيما أثبت في اللوح المحفوظ، حكم به وقضاه يوم خلق السموات والأرض، وهي عدة شهور سنة المسلمين التي يعتدّون بها، مبنية على منازل القمر وسيره، من الشهور أربعة حرم، وهي: (رجب فرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم) ثلاثة متوالية، ذلك هو دين الله المستقيم، الذي لا تبديل فيه ولا تغيير، فلا تظلموا في الأشهر الحرم أنفسكم باستحلال القتال فيها، أو امتناعكم عن القتال ورد الاعتداء إذا غار عليكم الأعداء فيها، ولا تظلموا أنفسكم كذلك بفعل المعاصي وترك الطاعات؛ لمزيد فضلها، ولتركوا الظلم والمعاصي في غيرها من الأشهر، وقاتلوا المشركين بأجمعكم مجتمعين على قتالهم، كما إنهم يقاتلونكم على هذه الصفة، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والمعونة على أعدائهم.

وعظمت الأشهر الحرم في الإسلام، وجعلت المعصية فيها أعظم وزراً منها في غيرها؛ كارتكابها في الحرم وفي حال الإحرام، ولله تعالى أن يميز بعض الأزمنة على بعض بالفضل والتعظيم. وتحريم القتال في هذه الأشهر فرض هدنة شرعية تحمل الناس على ألا يرفعوا السلاح ولا يقاتلوا، ولأن هذه الأشهر هي أشهر الحج، يأمنون فيها في ذهابهم وأوتيتهم حتى تؤدي فرائض الله، إلا أن القتال فيها لرد اعتداء المبتدئين بالقتال المتهكين لحرمه الأشهر الحرم غير محرّم في الإسلام، ولذا قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فكان حقاً على المؤمنين أن يجتمعوا كافة لهم، ولا يتخاذلوا أمامهم، وإن قاتلوا المؤمنين بكافتهم في الأشهر الحرم، وجب أن يجتمعوا كافة لمقاتلتهم، ولا يتوانوا ويتأقلا.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ. وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَأْمَنُونَ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْزْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

٣٧ - إن تأخير شهر حرام إلى شهر آخر الذي كانت تفعله العرب في جاهليتهم، زيادة كفر على كفرهم، لأنهم أمروا بإيقاع كل فعل في وقته من الأشهر الحُرْم، ثم إنهم أخروه إلى وقت آخر، فأوقعوه في غير وقته من الأشهر الحُرْم، فكان ذلك الفعل زيادة في كفرهم، إن شهواتهم في الغارات والقتل، وتحكم الشيطان في نفوسهم يُضللهم، يُجلون الشهر المحرم عاماً فيجعلونه حلالاً، ويحرمونه عاماً فيجعلونه محرماً فلا يغيرون فيه، إنهم ما أحلوا شهراً من المحرم إلا حرموا شهراً مكانه من الحلال، ولم يحرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرام؛ لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرم أربعة كما حرم الله، وإن لم تكن عين الأشهر المحرمة في دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فيكون ذلك موافقة في العدد لا في الحكم، فجلوا ما حرم الله، حسن لهم الشيطان هذا العمل، وحسنت لهم أهواؤهم أعمالهم السيئة، والله سبحانه لا يحكم بهداية القوم المصيرين على كفرهم.

٣٨ - يا أيها الذين صدقوا الله وأطيعوا رسوله، ما لكم إذا قال لكم رسول الله ﷺ أو أي داع من أمته: اخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله مسرعين بجذ ونشاط، تناقلتم وتباطأتم عن الخروج، مائلين إلى الإقامة بأرضكم ومساكنكم؟ عجباً لكم!! أرضيتم بسعة العيش وزهرة الدنيا ودعتها بدل نعيم الآخرة؟ إذا كنتم رضيتم ذلك، فما متاع الحياة الدنيا في جنب الآخرة وبالقياس عليها إلا متاع قليل تافه، لا يستبدله العقلاء، ولا يستحق أن يكون محل إثار وتفضيل؛ إذ أن لذات الدنيا ومتاعها فإن زائل يُفقد عن قليل، ونعيم الآخرة باقٍ على الأبد. وهذا الخطاب الإلهي هو الرابع في هذه السورة، ويدل توجيه هذا الخطاب إلى المؤمنين عامة على أن الجيش في الإسلام هو كل الأمة، ولا يعفى من الجندية سوى الضعفاء لعجز أو شيخوخة، أو مرض، وهذا

الإنكار على جماعة المؤمنين في إخلادهم إلى الأرض حين دعوتهم إلى الجهاد، تعليم عام، وإرشاد شامل لجميع المسلمين في كل مكان وفي كل عصر، في وجوب مسارعهم لدعوة الجهاد، وعدم الإخلاد إلى الأرض. على أن خطاب المؤمنين في ذلك الوقت، وفيهم من لبى الدعوة، وبذل المال دون أن يتناقل، دليل واضح على التضامن الذي يجب أن يكون بين المؤمنين، وعلى أن يتناقل نفر منهم محسوب على الجميع، وأن جماعتهم مسؤولة عن أفرادهم، وهذا هو الشأن العام في التكليف الإلهية. ومقتضى هذا وجوب تعهد الجماعة لمن يبدو عليه من أفرادها شيء من أمارات الضعف والتخاذل بما يقويه ويرفع من معنوياته.

٣٩ - إن لم تخرجوا - أيها المؤمنون - للجهاد في سبيل الله، يُعذبكم نتيجة جبنكم وعدم القيام في وجه عدوكم، عذاباً أليماً بالذلة والهوان، ويُسبَدل بكم رؤسكم قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع، يحملون رسالة الإسلام ويتحملون تبعاته الجسام، يُقاتلون في سبيل الله غير متناقلين ولا متباطئين ولا متكاسلين، ولا تضربوا الله بهذا التخلف شيئاً من الضرر قليلاً كان أو كثيراً؛ لأنه سبحانه غني عن العالمين، وإنما تضربون أنفسكم بترككم الجهاد، فتزل بكم الذلة، وترككم المهانة، وتلحقكم الهزيمة، واللَّهُ عظيم القدرة على كل شيء، فهو ينصر دينه، ويعز نبيّه. وإن الإنذار الذي اشتملت عليه هذه الآية عام خالد، يشمل العصور كلها، فمن يوم أن أثقلت الأمة الإسلامية عن الجهاد، وتركته، ضربت عليها الذلة، وتفرق المسلمون، وصار بأسهم بينهم شديداً، وتوزعتهم الأمم، ونزل بهم العذاب الأليم في الدنيا.

٤٠ - إن لا تضربوا رسول الله محمداً ﷺ - أيها المؤمنون - وتلبوا دعوته إلى الجهاد، فقد نصره الله في الوقت الذي أخرجه فيه كفار قريش من بلده «مكة»، حين مكروا به وأرادوا قتله، حالة كونه بعيداً عنكم، وليس معتمداً عليكم، وإنما كان أحد اثنين لا ثالث لهما، (وهما: رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه)، في ذلك الوقت الذي ضمّه هو ومن معه غار جبل ثور بمكة مخفين من المشركين الذين يتعقبونهما، وقد بلغ الكفار إلى الغار بحثاً عنه، حتى إن أحدهم لو نظر إلى موطئ قدمه لرأى من في الغار، إذ يقول رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق مُطمئناً: لا تحزن إن الله معنا بالنصر والمعونة، فأنزل الله الطمأنينة والسكون على رسوله محمد ﷺ، وأيد النبي ﷺ بإنزال الملائكة؛ ليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته، وجعل كلمة الشرك مغلوبة سُفلى، وكلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) غالبه ظاهرة عالية إلى يوم القيامة، واللَّهُ قويٌّ غالبٌ لا يغلب حقه باطل، حكيمٌ يُدبر الأمر، ويرتب المقدمات والأسباب، ويصل إلى النتائج، ويرد كيد العادين.

إِنَّمَا السَّيِّئَةُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّوْنَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَنْ رَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِنْ أَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنْ أَنْفَرُوا فَقَدْ أَنْصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِثِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

٤١ - إذا أمرتم - أيها المؤمنون - أن تخرجوا من مكان إقامتكم للجهاد في سبيل الله، فخرجوا بهمة ونشاط على الصفة التي يخف عليكم الجهاد فيها، كأن يكون خروجكم دعوة إلى دين الله، أو استطلاعاً لأخبار العدو، أو مناوشة خفيفة تعتمد على الكرّ والفرّ، وأخرجوا بهمة ونشاط على الصفة التي يثقل عليكم الجهاد فيها، كأن يكون النافر ثقيلاً بعنادٍ وأسلحة ومؤونة، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذلكم الخروج من مكان الإقامة، والجهاد بالأموال والأنفس، أكثر نفعاً وفائدة لكم من القعود والإمساك وإيثار السلامة، إن كنتم تعلمون ما يعطيكم الله من خير عاجل وآجل علم يقين، علمتم أن التفرّ والجهاد طاعة للرسول أو لأمرهم من بعده أكثر نفعاً وفائدة لكم، فلم تقصروا بالقيام بهذا الواجب الجهادي.

٤٢ - لو كان ما تدعوا إليه المنافقين المتخلفين عن غزوة «تبوك» غنيمة سهلة قريبة التناول، وسفراً متوسطاً بين القرب والبعد لا مشقة فيه، لخرجوا معك - يا رسول الله - طمعاً في تلك المنافع، التي تحصل لهم، ولكن بعدت عليهم المسافة التي يشق اجتيازها، فلم يتبعوك، وسيحلف المنافقون - الذين تخلفوا عن غزوة «تبوك»، واستأذنوا في القعود عنها بأعذار كاذبة - بالله إذا رجّع النبي ﷺ من هذا الجهاد: لو استطعنا لخرجنا معكم في هذه الغزوة، يهلكون أنفسهم بسبب هذه الأيمان الكاذبة؛ لأنهم يعرضونها لعقاب الله المعجل والمؤجل، والله يعلم أنهم لكاذبون في أيمانهم وقولهم: لو استطعنا لخرجنا معكم، لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

٤٣ - محّا الله عنك - يا رسول الله - أثر ما كان منك في إذنتك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك إلى تبوك، ولا مؤاخذه عليك في اجتهداك؛ لأنك مأذون فيه، وكان الأولى أن لا تأذن لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا في اعتذارهم، وتعلم الكاذبين فيما يعتذرون به.

٤٤ - ليس من عادة المؤمنين بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً متجدداً

حياً في قلوبهم وتصوراتهم، أن يستأذنوك - يا رسول الله - في التخلف عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، دون عذر حقيقي، والله عليم بالمؤمنين الذين تضطّهرهم أعذارٌ حقيقية للاستئذان أو التخلف.

٤٥ - ما يستأذنك في التخلف عن الجهاد معك - يا رسول الله - من غير عذر إلا المنافقون الذين لا يجددون إيمانهم بالله واليوم الآخر، حتى يكون حياً فاعلاً مائلاً في تصورهم، وبسبب عدم تجديد إيمانهم تعرضوا للشكوك، فأثر تواردها على تصوراتهم حتى شكّت قلوبهم في الإيمان، فهم في شكهم الذي حلّ بقلوبهم يترددون بين دواعي الإيمان، ونوازع الشكوك.

٤٦ - ولو أراد المنافقون الخروج إلى غزوة «تبوك» معكم، لتهيؤوا له بإعداد عدّة ما، ولو كانت عدّة ضعيفة لا تفي بالمطلوب لهذه الغزوة، ولكن ما أرادوا الخروج، بل كرهوا مشاركة المؤمنين الجهاد في سبيل الله، فكرة الله خروجهم إلى الغزو معكم، فيسرّ لهم الأسباب التي تحقّق لهم ما يريدون، بإقامة العوائق المادية والنفسية التي تمنعهم عن الخروج مع الرسول في غزوة «تبوك»، وقيل للمنافقين - على سبيل التحقير والإهانة - لما استأذنوا رسول الله في القعود: افعدوا مع النساء والصبيان والمرضى وأهل الأعدار.

٤٧ - من الخير لكم أن لا يخرج هؤلاء المنافقون معكم في هذه الغزوة ولا في غيرها، وذلك لثلاثة أسباب: السبب الأول: لو خرجوا معكم مختلطين فيكم، ما زادوكم بخروجهم إلا شراً وفساداً؛ لأنهم جناء مخذلون، والسبب الثاني: لأسرعوا فيكم، وساروا في أماكن الفرج التي يجدونها بين صفوفكم - أيها المؤمنون - مفسدين ذات بينكم، بإلقاء النيمية والأحاديث الكاذبة وإثارة الشكوك والشبهات، يطلبون لكم ما تفتنون به من تمزيق وحدتكم، وإضعاف قوتكم، وتهويل أمر العدو عليكم، وإلقاء الرعب في قلوبكم، والسبب الثالث: فيكم - أيها المؤمنون - من ليست لديهم حصانة فكرية ونفسية ضدّ وساوسهم ودسائسهم، فهم يحسّنون الظنّ بهم، ويتأثرون بأقوالهم وأفعالهم، وقد يندفعون معهم بحسن ظنّ، والله عليم بالمنافقين الذين يلقون الفتن والدسائس والشكوك والشبهات بين المؤمنين.

وعلى المسلمين أن يعملوا بهذه النصيحة حتى آخر الدهر، فيستبعدوا في المواقف الحاسمة الرهيبة المنافقين والمرجفين والمتخاذلين وضعفاء الإيمان، لأن وجودهم سيكون له تأثير عكسي عليهم، فلا يزيد وجودهم عدداً ولا مدداً، ولكن يزيد المسلمين ضعفاً ووهناً وتخاذلاً وتفرقاً.

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكِ الْالَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَزِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرَتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَغْوِيَنَّكُمُ الْفِتْنَةُ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هُتَمٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾



٤٨ - لقد طلب هؤلاء المنافقون صدأ أصحابك - يا رسول الله - عن الدين، وردّهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنكم قبل غزوة «تبوك»، وأجالوا الرأي فيك وفي أمرك وفي إبطال دينك، ودبروا لك الحيل والمكايد، وظلّوا كذلك ينبغون الفتنة، ويُجربون أنواع مكرهم ويكيدهم وحيلتهم، حتى أدركوا أنهم مُنهزمون خائبون في كل تصرّفاتهم، وذلك حين جاء الحقّ بفتح مكة، وزهق الباطل، وظهر أمر الإسلام على الشرك والمشركين، وسائر الكافرين في الحجاز، وهم كارهون؛ لأنهم كانوا يترقبون أن ينتصر العرب المشركون في آخر الأمر.

٤٩ - وبعض المنافقين من يقول لك - يا رسول الله -: ائذن لي في التخلف عن الجهاد والقيود في المدينة، ولا توقّعي في المعصية والإثم بما يعرض لي في حالة الخروج من الفتنة ببنات بني الأصفر، من الرّوم. تنهّوا وتحقّقوا إنهم وقعوا في الفتنة العظيمة وهي النفاق، ومخالفة رسول الله ﷺ والقيود عنه، وفي استحقاق التعذيب بالإحراق في نار جهنّم، وإنّ جهنّم لمحيطَةٌ بالكافرين يوم القيامة، تُحيط بهم، وتجمعهم فيها، ولا يجدون لأنفسهم مخرجاً ينجيهم من عذاب الحريق فيها.

٥٠ - إنّ تنزل بك - يا رسول الله - نعمة سآزة لك من نصر أو غنيمة، تجعلهم يشعرون بالألم والكراهية، وإنّ تنزل بك مُصيبة من هزيمة أو شدة، يقول المنافقون: قد أخذنا أمرنا بالجدّ والحزم في القعود عن الغزو من قبل أن تقع هذه المصيبة، إذ لم تُعرض أنفسنا لأسباب حدوثها بالعقل والرؤية والحكمة، وابتعدوا عن مجالس المؤمنين، وهم مسرورون لما نالكم من المصيبة وسلامتهم منها.

٥١ - قل - يا رسول الله ويا كلّ مؤمن من أمتي - لهؤلاء المنافقين

الذين يفرحون بما يُصيبكم من المصائب والمكروه: لن يُصيبنا من حسنة تسرنا، أو مصيبة تؤلمنا إلا ما قدره الله لنا، وكلّ ما قضاه الله ممّا يسرنا أو يسوؤنا فهو لخيرنا ومصالحتنا، إنّ الله سبحانه هو ناصرنا وحافظنا وأولى بنا من أنفسنا، وعلى الله وحده فليتوكّل المؤمنون في جميع أمورهم مع قيامهم بالأسباب الماديّة والمعنويّة التي دَعَا إلى اتّخاذها.

٥٢ - قل - يا رسول الله ويا كلّ مؤمن - لهؤلاء المنافقين: ما تنتظرون بنا - أيّها المنافقون - في الواقع وحقيقة الأمر إلا أن يحلّ بنا إحدى العاقبتين الحميدتين اللتين كلّ منهما أحسن من جميع العواقب: **العقبة الأولى الحميدة**: هي أن ينصرنا الله على عدونا، وفيه الأجر والمغنم والسلامة؟! **العقبة الثانية الحميدة**: قتل العدو لنا، وفيه الشهادة والمغفرة والفوز بالجنة والنجاة من النار؟! وكلاهما ممّا تُحبّ ولا نكره. ونحن ننتظر أن تحلّ بكم من ربكم إحدى النقيضتين المُعجلتين في الحياة الدنيا: **النقمة الأولى**: أن يُصيبكم الله بعذاب مُعجل من عنده، فيهلككم كما أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية، **النقمة الثانية**: أن يُسلطنا الله عليكم، فيأذن لنا بقتالكم، وأخذكم حيث وجدناكم، واستئصالكم، حتى لا يكون بين صفوفنا ومجتمعنا الإسلامي منافقون، فانتظروا إنّنا معكم منتظرون وعد الله، وما يُحقّقه لنا من خير، وما يُحقّقه لكم من عذاب ونقمة.

٥٣ - قل - يا رسول الله - للمنافقين الذين يريدون أن يستروا نفاقهم بإنفاق المال في الجهاد وغيره: اتّفقوا طائعين مُختارين من قِبل أنفسكم، أو مُكرهين مُجبورين على الإنفاق. لن يُقبَل منكم هذا الإنفاق عند الله يوم الدين؛ لأنكم كنتم قوماً خارجين عن دين الله وطاعته.

٥٤ - وما أقام المانع بينهم وبين أن تُقبَل نفقاتهم، إلا كفرهم الباطن بالله سبحانه وبرسوله محمد ﷺ، والذي ترتّب عليه في سلوكهم أنهم لا يأتون الصلوة حين إتيانهم من بيوتهم أو مواقع وجودهم لأدائها مع المصلين إلا وهم متناقلون في الإتيان إليها، كارهون لأدائها؛ لأنهم يُراؤون الناس، ولا يرجون على فعلها ثواباً، ولا يخافون بتركها عقاباً، ولا ينفقون أية نفقة إلا في حال أنهم كارهون أن يُنفقوا؛ لأنهم يعدّون الإنفاق مَغرماً.

لَقَدْ اسْتَعَاذَ الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٥٨﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذَا دُعِيَ إِلَى الْفِتْنَةِ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾
إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَوِلُوا
وَهُمْ قَرِحُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾
قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا لَا أَحَدَ الْحَسْبِيِّينَ وَخُنْ
نَرْتَضُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ
أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرِصُونَ ﴿٦٢﴾ قُلْ
أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ
قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٦٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ
إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٦٤﴾

٥٥ - إذا نظرت - أيها المؤمن - إلى بعض المنافقين فوجدتهم محظوظين بكثرة الأموال والأولاد، فلا تُعجبك أموالهم ولا أولادهم، إعجاب مُستغرب من إمداد الله لهم بذلك، وهم كفرة منافقون، فإن الله لا يريد إكرامهم وإسعادهم بها، إنما يريد الله بإمدادهم بها؛ لتكون أسباب شقائهم في الحياة الدنيا، بما تُسببه لهم من متاعب وهموم وغموم ومشكلات، ولتزل أنفسهم بخروج أرواحهم وانفصالها عنهم بشدة وصعوبة، مفتونين بما يُحبون ويهوون من أموال وأولاد، ويموتون على الكفر، فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة.

٥٦ - ويحلف هؤلاء المنافقون بالله لكم - أيها المؤمنون - إنهم على دينكم، وما هم صادقون فيما يحلفون بالله عليه، والسبب الذي يجعلهم يحلفون بالله كاذبين، أنهم يخافون خوفاً شديداً أن تظهروا على ما هم عليه من النفاق، وأن ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسبي.

٥٧ - لو يجد هؤلاء المنافقون - حين يكتشف المؤمنون أمارات كفرهم في الباطن - حصناً يلجؤون إليه، ويتحصنون فيه، أو كهوفاً في الجبال يستخفون فيها، أو سرباً في الأرض يدخلون فيه، لو يجدون على تتابع أزمانهم أحد هذه المخابىء الثلاثة ذات المستويات المختلفة في نسبة حمايتها وإخفائها من يخبئ بها. فأحصنها: الملجأ كقلعة أو حصن، ثم المغارات التي تكون في الجبال، ثم المدخل الذي يشبه المغارة، لكنه دونها إخفاءً وحماية، لو أنهم يجدون ذلك، لأدبروا عن المؤمنين، وأسرعوا إلى أحد هذه المخابىء بعنف؛ إسرار الجموح المستعصي الذي يعاند الحق وسبيل الهدى.

٥٨ - وبعض المنافقين من يعيبك - يا رسول الله - في قسم الصدقات وفي تفريقها على مُستحقّيها، ويطعن عليك في أمرها، فإن أعطوا من الصدقات ولو لم يكونوا من أهل الاستحقاق، رضوا

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾
وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ
قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَعْرَظًا
أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ
فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا
هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ
لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ
وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَنَمِ مِنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ
فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ
الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ
لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ
آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

عنك في قسمتها، وإن لم تعطهم منها وهم غير مُستحقين لها، فاجؤوا بالتسخط والتذمر واللمز طعناً وعيباً.

٥٩ - ولو أن هؤلاء المنافقين، الذين عابوا عليك قسمة الصدقات، طاعنين لك بأنك لا تقسم بالعدل، أخذوا بهذه الوصايا الأربع، وأتبعوها لنالوا خيراً عظيماً: الوصية الأولى: رضوا بما قَسَمَ الله لهم، وقنعوا بما آتاهم الله ورسوله، وطابت نفوسهم به، والوصية الثانية: قالوا: يكفينا الله بعباطه، فهو المعطي الذي بيده الأمر كله، والوصية الثالثة: قالوا: إذا سألنا الله وتوكلنا عليه، فسَيُؤْتِينَا اللَّهُ من فضله ورسوله ما نحتاج إليه، والوصية الرابعة: قالوا داعين ربهم: إننا إلى الله مُتَبَهِّلُونَ مُتَضَرِّعُونَ في أن يُوسِّعَ علينا من فضله، فيُغْنِيَنَا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس، لو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم وأعوذ نفعاً عليهم.

٦٠ - إنما المُسْتَحَقُّونَ للصدقات الواجبة هؤلاء الأصناف الثمانية: فالصنف الأول: الفقراء مستورو الحال أصحاب الحاجة الحقيقية، والثاني: المساكين، وهم المُتَعَرِّضُونَ للعباء، الذين يسألون الصدقة، والثالث: السَّعَاءُ الذين يَتَوَلَّوْنَ جَبَايَةَ الصدقات، والرابع: المؤلفة قلوبهم من المسلمين وهم الذين يرى إمام المسلمين، أنه إذا أعطاهم استمالهم لئلا تُنْصَرِفَ الإسلام ونشره وتثبيته ونصرة المسلمين، والخامس: في فك رقاب الأرقاء والمكاتبين، والسادس: المدينون لأنفسهم في غير معصية، أو في المعروف وإصلاح ذات البين، والسابع: في الجهاد في سبيل الله، وهم الغزاة والدعاة إلى الله، والثامن: المسافر سقراً مباحاً، وليس له ما يقطع به مسافة سفره، إن هذه الأحكام المذكورة في هذه الآية فريضة واجبة وقسمة مُحددة من الله، والله عليم بمصالح عباده، حكيم فيما فرض لهم.

٦١ - ومن المنافقين قوم يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﷺ، ويقولون عنه: هو أذن، سريع الاغترار بكل ما يسمع، يقبل كل ما يقال له ويصدق دون تفكير. قل لهم - أيها المؤمن - : إنه بخسن التلقي بأذنه ما يُتَلَى عليه من الوحي، وضبط تبليغه لما تلقى عن ربه، قد جلب لكم خيراً عظيماً، يضمن لكم خير العاجلة والآجلة، يؤمن بالله عز وجل إيماناً كاملاً، وبكل ما يوحى إليه سبحانه، ويصدق بالأنباء الصادقة التي يأتيه بها المؤمنون، لأجل أنهم عدول لا يكذبون فيما يخبرون به، وهو ﷺ رحمة للمؤمنين المُخلصين لا للمنافقين الذين يزعمون أنهم مؤمنون، والمنافقون الذين يؤذون رسول الله، الذي اصطفاه لتبليغ رسالاته للناس، لهم عذاب مؤلم دائم شديد في الآخرة.

٦٢ - يحلف لكم - أيها المؤمنون - هؤلاء المنافقون الأيمان الكاذبة؛ ليطفئوا حرارة الغضب الذي توهج في قلوبكم ضدهم، فتسكن نائرتكم، فلا تنتقموا منهم، وإن كانوا مؤمنين حقاً علموا بأن الله أحق أن يرضوه من محاولتهم إرضاء المؤمنين بالإيمان الكاذبة، وعلموا بأن الرسول أحق بأن يرضوه كذلك، ليذروا عن أنفسهم العقاب الشديد، فهو عقاب لا تحمي منه الأيمان الكاذبة، بل تزيد منه.

٦٣ - ألم يعلم هؤلاء المنافقون من شرائع الدين التي علمهم إياها رسولنا: أن من يحارب الله ورسوله، باتخاذ حدٍ مناقض لدين الله، فيجراؤه أن له نار جهنم حالة كونه خالداً فيها على الدوام؟ ذلك العذاب في نار جهنم مع الخلود فيها هو الذل الشديد والهوان العظيم. قد علموا ذلك، فليعدوا أنفسهم لتحمل العذاب في نار جهنم خالدين فيها، ما لم يتوبوا إلى الله، ويؤمنوا، ويتخلصوا من خسة النفاق، ويقلعوا عن محاذاة الله ورسوله.

٦٤ - يخشى المنافقون أن تنزل عليهم - بتبليغ الرسول لهم - سورة كاشفة أشخاصهم بالأوصاف المعتبرة، تواجههم بالخطاب، وتنبئهم بما في قلوبهم من الكفر والكيد والحسد والعداوة للمؤمنين. قل لهم - يا رسول الله - مهذباً: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء بالله ورسوله والمؤمنين بتظاهركم بالإسلام مخادعة وكذباً، فإن الأمر لن يطول بكم كثيراً، إن الله مظهر ما كنتم تسترونه وتخفونه عن رسوله والمؤمنين.

٦٥ - وأقسم لئن سألت - يا رسول الله - هؤلاء المنافقين عما كانوا يقولون فيما بينهم؟ ليقولن: إنما كنا نتحدث ونخوض في الكلام على سبيل المزاح والمداعبة، وبقصد الترويح عن النفس. قل - يا

رسول الله - لهؤلاء المنافقين: كيف تقدمون على إيقاع الاستهزاء بفرائض الله وحدوده وأحكامه، وبكتابه، وبرسوله محمد ﷺ وأنتم تدعون أنكم مسلمون؟! وفي هذه الآية دلالة على أن اللاعب والجاد سواء في إظهار كلمة الكفر، وأن الاستهزاء بآيات الله تعالى كفر.

٦٦ - قل لهؤلاء المنافقين: قد انكشف أمركم، وظهر جرمكم، لا تنتحلوا الأعذار الكاذبة، لتخلصوا أنفسكم من جريمة المقالات التي تدينكم بالكفر، فالاستهزاء بالله كفر، والإقدام عليه يوجب الردة، قد أظهرتم الكفر بالاستهزاء بعد ما كنتم أظهرتم الإيمان، إن نَعَفَ عن طائفة منكم بسبب توبتهم وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق، نُعَذِّبُ طائفة بسبب أنهم كانوا مُصِرِّين على النفاق غير تائبين منه.

٦٧ - المنافقون والمنافقات بعضهم من جنس بعضهم الآخر، إذ هم متشابهون في ظواهرهم السلوكية، وصفاتهم النفسية، ومن ظواهرهم السلوكية ظاهرتان: **الظاهرة الأولى:** أنهم يأمرؤن بما نهى الدين عنه، وينهون عما أمر الدين به، والظاهرة الثانية: أنهم بخلاء شحيحون يقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، ومن صفاتهم النفسية: أنهم تركوا أمر الله، وشغلته عن ذكره ومراقبته والتفكير في آياته ومعاصيهم وأثامهم وأهواؤهم وشهواتهم، ومحاولاتهم الدائمة لتغطية نفاقهم، فُضِرْبَ صَفْحاً عن العناية بهم، ورعاية شؤونهم، فتركهم يتخبطون في ظلمات الحيرة والتردد والضلالة، ويتقلبون في أحوال الخوف والقلق والآلام النفسية، إن المنافقين هم الخارجون عن طريق الهدى والدين القيم قد استنفذوا بأثامهم كل عناصر الفسق حتى لم يبقوا منها لغيرهم شيئاً.

٦٨ - وَعَدَ اللَّهُ المنافقين والمنافقات والكفار ثلاثة وعود: **الوعد الأول:** أن يدخلوا نار جهنم مقيمين فيها، لا يخرجون منها، هي كافيتهن جزاءً وعقاباً على كفرهم ونفاقهم، لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها، **والوعد الثاني:** أُبْعِدَهُم الله وطردهم من مواطن تنزلات رحمته، **والوعد الثالث:** لهم عذاب دائم في داخل أنفسهم، فهو لا يرحل عنهم، وهذا العذاب ملازم لنفاقهم وكفرهم، يتعاقب عليهم في الدنيا، ويرافقهم بعنف بعد الموت في البرزخ، ويلقي فيهم ثقله الشديد يوم القيامة.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِرِضْوَانِكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ مِحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْتُمْ أَرْجَاهُمْ خَلْدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا رَبَّ إِلَهَ اللَّهِ خُجِرَ مَا يَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِكُمْ رَسُولُهُ لَنْزِيلِهِ كُنْتُمْ تَسْتَزِرُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾

٦٩ - فعلتم - معشر المنافقين - كأفعال الكفار والمنافقين الذين كانوا من قبلكم، كانوا أشد منكم - أيها المنافقون - بطشاً ومنعةً، وأكثر أموالاً وأولاداً، فتمتعوا مدةً من الزمن بنصيبهم الذي قُدر لهم من ملاذ الدنيا، ورضوا بها عوضاً عن الآخرة، فتمتعتم - أيها المنافقون والكافرون - مدةً من الزمن بنصيبكم المُقدَّر من متاع الحياة الدنيا كما استمتع الكفار الذين من قبلكم بنصيبهم، وسلكتُم في فعلكم مثل ما سلكوا في اتباع الباطل، والكذب على الله، وتكذيب رسله، والاستهزاء بالمؤمنين، أولئك بطلت أعمالهم في الدنيا وذهبت دون أن تُحقَّق لهم ما يرجون من انتصارهم على رسل الله والذين آمنوا بهم، فقد نصَّر الله رسلَهُ والذين آمنوا معهم، وأهلك الكافرين والمنافقين، وكذلك بطلت أعمالهم التي عملوها يريدون منها تحقيق منافع أخروية، فلا يقبلها الله منهم؛ لأنَّ شرط قبول الأعمال عند الله، أن تكون في طاعته، وابتغاء مرضاته، وأولئك البُعداء عن رحمة الله هم الخاسرون، وكما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم - أيها المنافقون - وتخسرون، لأنَّ سنة الله في عبادة واحدة.

٧٠ - ألم يصل إلى هؤلاء المنافقين والكفار نبأ الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم، كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا، وعصوا رسلنا؟ قوم نوح أهلكوا بالطوفان، وعاد قوم هود عليه السلام أهلكوا بالريح العقيم، وثمود قوم صالح عليه السلام أهلكوا بالصيحة، وقوم إبراهيم أهلكوا بسلب النعمة، ومدين قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة، ومدائن قوم لوط المُنقلبات التي جعل الله عاليها سافلها، آتَنَّهُمْ رسلهم بالمعجزات الباهرات، والحُجج الواضحات الدالات على صدقهم، فكذبوهم وأصرُّوا على كفرهم، ومقاومة رسل ربهم، كما فعلتم - أيها المنافقون والكفار - فاحذروا أن يُصيِّبكم مثل ما

أصابهم، فنعجل لكم النعمة كما عجلت لهم، فما كان الله ليُظْلِمَهُمْ بتعجيل العقوبة لهم، ولكن الذي استحقَّوه من العقوبة بسبب مباشرتهم الأسباب المهلكة بمقتضى سنن الله في الأسباب والمُسببات.

وذكر الله تعالى هذه الطوائف الست؛ قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وشعيب ولوط؛ لأنَّ آثارهم باقية، وبلادهم بالشام والعراق واليمن، وكلها قريبة من أرض العرب، فكانوا يمرُّون عليها في أسفارهم، ويعرفون الكثير من أخبارهم.

٧١ - وفي مقابل صنف المنافقين والمنافقات، يوجد صنف مُتميِّز في صفاته النفسية وظواهره السلوكية، وهم المؤمنون والمؤمنات، بعضهم أحياء ونصراء بعض في الدين والعون والنصرة والمحبة، يأمرون داخل المجتمع المسلم بكل ما عُرف في الشرع من خير وبر وطاعة، وينهون عن كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع، وقيامهم بهذه الوظيفة يحمي المجتمع الإسلامي من الانحراف والفساد، ومن تغلب عوامل الشر فيه على عوامل الخير، وقيامهم بالصلاة المفروضة في أوقاتها، ويؤمنون أركانها وحدودها، ويؤتون الزكاة الواجبة عليهم لمُستحقِّيها، ويجددون طاعتهم لله ورسوله، مع كلِّ عمل لله فيه أو لرسوله أمر أو نهْي، أولئك المؤمنون والمؤمنات الموصوفون بهذه الصفات سيرحَمهم الله؛ إنَّ الله قويٌّ غالب لا يمتنع عليه شيء أراد، قادرٌ على إيصال الرحمة لمن أراد، وإيصال العقوبة لمن أراد، حكيمٌ يُدبِّر عباده على ما يقتضيه العدل والإنصاف.

٧٢ - وعدَّ الله المؤمنين والمؤمنات ثلاثة وعود حسنة كريمة: **الوعد الأول:** أن يدخلهم جنَّات مختلفة الأصناف والأوصاف تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ماكين فيها أبداً، لا يزول عنهم نعيمها، **والوعد الثاني:** أن يسكنهم قصوراً عظيمة في درجات مرتفعات في جنَّات ثبات واستقرار دائم، **والوعد الثالث:** رضوان الله الذي يُنزله عليهم، يمنح المؤمنين في الجنة سعادة أكبر من السعادة التي يمنحها النعيم وأنواع اللذات المادية والمعنوية المختلفة، ذلك الجزاء الرفيع النفيس الذي يناله المؤمنون والمؤمنات يوم الدين، هو الظفر والريح العظيم.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ
أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ
كَأَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِّتُمْ
كَالَّذِي خَاصُوا أَوْلِيَّكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأَوْلِيَّكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ
نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودَ وَقَوْمُ
إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾
وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ
وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

٧٣ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ وَاكْفُرْ كُلَّ مُؤْمِنٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ، ابْذُلْ مَا تَمْلِكُ مِنْ جَهْدٍ، أَوْ طَاقَةٍ، أَوْ مَالٍ، أَوْ عِلْمٍ، أَوْ دَعْوَةٍ لِمُقَاوَمَةِ الْكُفَرِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَكُنْ شَدِيداً عَلَيْهِمْ، فَعَامِلُهُمْ بِقَسْوَةٍ وَتَعْنِيفٍ، فَقَدْ تَمَادَوْا فِيهِمَا هُمْ فِيهِ، وَلَمْ تُجِدْ مَعَهُمْ سِيَاسَةَ التَّغَاضِي، وَمَنْزِلَهُمُ الَّذِي سَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ، وَيَقِيمُونَ فِيهِ دَوَاماً جَهَنَّمَ دَارَ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

٧٤ - لِلْمُنَافِقِينَ خَمْسُ ظَوَاهِرٍ سُلُوكِيَّةٍ يَسْتَرُونَ فِيهَا كُفْرَهُمْ: الظَّاهِرَةُ الْأُولَى: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ كَاذِبِينَ عَلَى أَنَّهُمْ مَا قَالُوا شَيْئاً يُسِيءُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالظَّاهِرَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّهُمْ قَالُوا كَلَاماً مَكْفُوراً يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَافِرُونَ، وَالظَّاهِرَةُ الثَّالِثَةُ: وَصُولُ بَعْضِهِمْ بَعْدَ الصَّبْرِ الطَّوِيلِ عَلَى كَتْمِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ، إِلَى أَنْ يَتَفَجَّرَ مَا فِي بَاطِنِهِمْ، فَيُعْلَنُوا فِي بَعْضِ مَجَالِسِهِمُ الْخَاصَّةِ أَمَامَ بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ الصَّادِقِينَ كُفْرَهُمْ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ وَاسْتِسْلَامَهُمْ، وَالظَّاهِرَةُ الرَّابِعَةُ: تَوَجَّهَتْ نَفْسُهُمْ دُونَ أَنْ تَصِلَ إِلَى مَسْتَوَى الْإِرَادَةِ الْجَازِمَةِ لِلْفَتْكِ بِالنَّبِيِّ ﷺ حِينَمَا كَانَ رَاجِعاً إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ تَبُوكَ، بِمَا لَمْ يَحْصِلُوا عَلَيْهِ، إِذْ أَفْسَدَ اللَّهُ خَطَطَهُمْ وَخَبِيرَهُمْ، وَالظَّاهِرَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّهُمْ نَاقِمُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالرَّسُولِ وَالْمُسْلِمِينَ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ كُلِّ الْخَيْرَاتِ الَّتِي اسْتَعْنَوْا بِهَا بِسَبَبِ الْإِسْلَامِ، وَلَا يُوجَدُ فِي الْوَاقِعِ أَمْرٌ يَقْتَضِي نَقْمَتَهُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَّا أَنْ اللَّهَ تَعَالَى تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ، فَأَغْنَاهُمْ بِمَا فَتَحَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْخَيْرِ، فَإِنْ يَتَوَبَّأُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، يَكُنْ ذَلِكَ خَيْراً لَهُمْ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَبِالظَّفَرِ بِالْجَنَّةِ مَعَ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَإِنْ يُدْبِرُوا وَيَتَعَدَّوْا عَنِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ، وَيُصِرُّوا عَلَى النِّفَاقِ وَالْكَفْرِ، يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابَيْنِ: عَذَاباً أَلِيماً مُعْجَلاً بِالْخِزْيِ وَالْإِذْلَالِ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَاباً أَلِيماً مُؤَجَّلاً بِالنَّارِ فِي الْآخِرَةِ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَحَدٌ يَمْنَعُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، أَوْ يَنْصُرُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

٧٥ - وَمَنْ فَقَرَاءَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ أَعْطَى اللَّهُ عَهْداً: وَاللَّهُ لَئِنْ آتَانَا اللَّهُ مَالاً وَفِرّاً مِنْ زِيَادَاتِ إِحْسَانِهِ، لَنُخْرِجَنَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَالِ صَدَقَتَهُ، وَلَنَعْمَلَنَّ فِي ذَلِكَ الْمَالِ مَا يَعْمَلُهُ أَهْلُ الصَّلَاحِ بِأَمْوَالِهِمْ مِنْ وَجْهِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ.

٧٦ - فَلَمَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُمْ، وَأَتَاهُمْ مَا طَلَبُوا مِنْ أَمْوَالٍ، لَمْ يَفْعَلُوا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ شَيْئاً، وَابْتَعَدُوا عَمَّا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَالحَالُ أَنَّهُمْ يَعْطُونَ لِلتَّكَالِيفِ الرَّبَّانِيَّةِ جَانِبَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي ظَاهِرِ أَمْرِهِمْ مُسْلِمُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُدْبِرُوا، وَيُظْهِرُوا بِإِدْبَارِهِمْ كُفْرَهُمْ الَّذِي يُظَنُّونَهُ.

٧٧ - فَجَازَاهُمُ اللَّهُ عِقَابَ نَقْضِهِمْ مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، نِفَاقاً ثَابِتاً مُتَّغِلاً فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ، لَا يَشْفُونَ مِنْهُ، حَتَّى نَهَايَةِ آجَالِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِقَائِهِمْ رَبَّهُمْ مِنْذُ دُخُولِهِمْ عَتَبَةَ الْآخِرَةِ بِالمَوْتِ؛ وَذَلِكَ بِسَبَبِ أَمْرَيْنِ: الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: بِسَبَبِ إِخْلَافِهِمْ مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْأَمْرُ الثَّانِي: بِسَبَبِ كَذِبِهِمُ الَّذِي كَانُوا يَكْذِبُونَهُ فِي إِعْطَائِهِمْ وَعُودَتِهِمْ، وَفِي ادِّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ صَادِقُونَ.

٧٨ - أَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ مِمَّا سَبَقَ لَهُمْ فِي تَجَارِبِهِمُ الْكَثِيرَةِ الَّتِي كَشَفَ اللَّهُ مَا يُسْرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَا يُسَارُونَ بِهِ إِخْوَانَهُمْ، أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَطْوِي عَلَيْهِ صُدُورُهُمْ مِنَ النِّفَاقِ، وَيَعْلَمُ مَا يَفَاوِضُ بِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فِيهِمَا بَيْنَهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ عِلْماً لَيْسَ فَوْقَهُ عِلْمٌ بِجَمِيعِ أَفْرَادٍ مَا غَابَ عَنْ حَوَاسِّ وَإِدْرَاقِ الْمَخْلُوقَاتِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا، فَكَيْفَ تَخْفَى عَلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ؟

٧٩ - الَّذِينَ يَعْيِبُونَ الْمُتَبَرِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ذَوِي الْيَسَارِ فِي بَذْلِهِمُ الصَّدَقَاتِ بِأَنَّهُمْ مُرَاوُونَ، إِذَا كَانُوا مِنَ الْكَثَرِ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ، وَيَعْيِبُونَ الْفُقَرَاءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا الشَّيْءَ الْقَلِيلَ الَّذِي يَسْتَطِيعُونَ بِذَلِّهِ، وَهُوَ مَا فِي طَاقَتِهِمْ أَنْ يَبْذُلُوهُ؛ رَجَاءً مَا عِنْدَ اللَّهِ، يَعْيِبُونَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ التَّذَكِيرَ بِنَفْسِهِمْ، وَالْإِشْعَارَ بِأَنَّهُمْ فَقَرَاءٌ؛ لِنُبْذَلْ لَهُمُ الصَّدَقَاتِ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَسْتَهْزِئُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي إِفْتَاقِهِمُ الْمَالَ الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، وَجَازَاهُمْ عَلَى سُخْرِيَتِهِمْ بِمَا كَشَفَ مِنْ فُضَائِحِهِمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ سُخْرِيَةَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الْآخِرَةِ مَا لَمْ يَتَوَبَّأُوا مِنْ كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ.



٨٠ - اسْتَغْفَرْتَ - يا رسول الله ويا كل مؤمن من أتباعه - لهؤلاء المنافقين، أولم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم، مهما كثر استغفاركم لهم وتكرّر؛ بسبب أنهم اختاروا الكفر على الإيمان بالله ورسوله، والله سبحانه لا يحكم للكافر الخارج عن طاعة الله خروجاً كلياً بأنه ذو هداية، ولو غفر لهم وهم كفارون فاسقون، لكان ذلك مساواة لهم بالمؤمنين المهديين، وهو خلاف واقع حالهم، وهو سبحانه لا يحكم إلا بالحق.

٨١ - سُرَّ الْمُؤْخَرُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَرَاءَ الْخَارِجِينَ إِلَى الْجِهَادِ فِي غَزْوَةِ «تَبُوكَ» بِقَعُودِهِمْ، وَفَرَحُوا بِمَكَانِ قَعُودِهِمُ الَّذِي وَجَدُوا فِيهِ الظِّلَّ وَالْأَمْنَ، وَفَرَحُوا بِزَمَانِ قَعُودِهِمْ، بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مُخَالَفِينَ لَهُ فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، وَكَرِهُوا الْجِهَادَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِجَدْوَى هَذَا الْجِهَادِ لِكُفْرِهِمْ بِالرَّسُولِ ﷺ وَيَوْمِ الدِّينِ، وَقَالُوا: لَا تَنْفِرُوا فِي شِدَّةِ الْحَرِّ. قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِهَؤُلاءِ الَّذِينَ اخْتَارُوا الرَّاحَةَ وَالذَّعَةَ وَالْقَعُودَ عَنِ الْجِهَادِ فِي الْحَرِّ: إِنَّ نَارَ جَهَنَّمَ الَّتِي هِيَ مُوعَدُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَشَدُّ حَرًّا مِنْ حَرِّ الصَّيْفِ الَّذِي أَمُرُوا أَنْ يَخْرُجُوا مُجَاهِدِينَ فِيهِ، لَوْ كَانُوا يَفْهَمُونَ ذَلِكَ، لَمَا كَفَرُوا وَنَاقَوْا.

٨٢ - فَلْيَضْحَكْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَحِينَ، ضَحِكًا قَلِيلًا فِي الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، وَلِيَبْكُوا يَوْمَ الدِّينِ بَكَاءً كَثِيرًا مِمَّا يَذِيقُهُمْ مِنْ عَذَابٍ فِي الْآخِرَةِ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ شَرٍّ وَإِثْمٍ وَكَفَرٍ وَنِفَاقٍ.

٨٣ - فَإِنَّ رَدَّكَ اللَّهُ - يا رسول الله - مِنْ غَزْوَتِكَ هَذِهِ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْكَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلخُرُوجِ مَعَكَ إِلَى غَزْوَةِ أُخْرَى، فَقُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِهَؤُلاءِ الَّذِينَ طَلَبُوا الْخُرُوجَ، وَهُمْ مُقِيمُونَ عَلَى نِفَاقِهِمْ: لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ مُجَاهِدِينَ مُقَاتِلِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَوْ دَاهَمَ الْعَدُوُّ مَوَاقِعَنَا دُونَ أَنْ نَخْرُجَ إِلَيْهِ غَزَاةً؛ لِأَنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقَعُودِ عَنِ الْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ مَعَ الرَّسُولِ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ وَجَهَ فِيهَا إِلَيْكُمْ أَمْرًا إِلْزَامِيًّا بِالْخُرُوجِ مَعَهُ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الدَّعَوَاتُ السَّابِقَةُ لِلخُرُوجِ مَعَهُ عَلَى سَبِيلِ النَّدْبِ وَالتَّحْرِيزِ، لَا عَلَى سَبِيلِ التَّكْلِيفِ الْإِلْزَامِيِّ، وَبِمَا أَنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقَعُودِ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ، عِنْدَ أَوَّلِ إِلْزَامٍ لَكُمْ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ مُجَاهِدِينَ، وَفَرَحْتُمْ بِمَقْعَدِكُمْ، وَكَرِهْتُمْ أَنْ تَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، فَاقْعُدُوا مَعَ الْعَصَاةِ الْكَثِيرَةِ الْخِلَافِ، وَمَعَ الْفَاسِدِينَ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لَا خَيْرَ فِيهِمْ.

٨٤ - وَلَا تَصَلِّ - يا رسول الله ويا كل مؤمن من أتباعه - عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَاتَ أَبَدًا، وَلَا تَقِفْ عَلَى قَبْرِهِ، لِلدَّفْنِ أَوْ لِلزِّيَارَةِ وَالِدَعَاءِ لَهُ، أَوْ الْمَكْثِ عِنْدَهُ طَوِيلًا؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ طَوَالَ حَيَاتِهِمْ حَتَّى مَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ فَسَقًا مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ. وَفِي الْآيَةِ: تَحْرِيمُ الصَّلَاةِ عَلَى الْكَافِرِ، وَالْوُقُوفُ عَلَى قَبْرِهِ، وَأَنْ دَفِنَهُ جَائِزٌ، وَمَفْهُومُهُ: وَجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُسْلِمِ وَدَفْنِهِ، وَمَشْرُوعِيَّةُ الْوُقُوفِ عَلَى قَبْرِهِ، وَالِدَعَاءُ لَهُ وَالِاسْتِغْفَارُ.

٨٥ - وَلَا تُعْجِبْكَ - أيها المؤمن - أَمْوَالُ هَؤُلاءِ الْمُنَافِقِينَ وَأَوْلَادُهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُرِيدُ إِكْرَامَهُمْ وَإِسْعَادَهُمْ بِهَا، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ تَعْذِيبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا، بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ الْمَتَاعِ وَالْمَشَاقِّ فِي تَحْصِيلِهَا، وَحِفْظِهَا، وَالْمَصَائِبِ الْوَاقِعَةِ فِيهَا، غَيْرِ مَثَابِينَ عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَتَزُولُ أَنْفُسُهُمْ بِخُرُوجِ أَرْوَاحِهِمْ وَانْفِصَالِهَا عَنْهُمْ بِشِدَّةٍ وَصَعُوبَةٍ، مَفْتُونِينَ بِمَا يُحِبُّونَ وَيَهْوَوْنَ مِنْ أَمْوَالٍ وَأَوْلَادٍ، وَهُمْ كَافِرُونَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَلْقَوْنَ عَذَابَهُمْ الْأَكْبَرَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ.

٨٦ - وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ رَبِّكَ تَأْمُرُكُمْ أَمْرًا مُبَاشَرًا صَرِيحًا، بِأَنْ أَخْلَصُوا الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، وَتَخَلَّصُوا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ نِفَاقٍ، وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﷺ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، جَاءَكُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - أَهْلُ الْغِنَى وَالثَّرَةِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْجِهَادِ، وَذَوُو الْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ، مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَطَلَبُوا أَنْ تَأْذَنَ لَهُمْ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ، وَتَذَرُّعُوا بِذَرَائِعِ بَاطِلَةٍ، وَاعْتَذَرُوا بِأَعْذَارٍ كَاذِبَةٍ، وَقَالُوا: أَتْرَكْنَا بِسَبَبِ هَذِهِ الْأَعْذَارِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي لَا تَظْهَرُ لِلنَّاسِ نَكُنْ مَعَ أَصْحَابِ الْأَعْذَارِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي يَرَاهَا الْجَمِيعُ، كَالْعُمِيِّ وَالْعُرْجِ وَالْمَرْضَى، وَنَحْوِهِمْ.



٨٧ - رضي هؤلاء المنافقون بما يُلْفَقون من أَعذار كاذبة أن يكونوا في تخلفهم عن الجهاد كالنساء الخوالف للرجال في البيوت، فهم رجال في الصورة، لكنهم في الحقيقة بحكم النساء جنناً، وتهرباً من الواجبات التي يتحمل أعباءها الرجال. وكان من نتيجة كفرهم وتوليهم عن آيات الله البينات، أن جرت فيهم سنة الله، فأقفلت قلوبهم إقفالاً كاملاً، وطُبع على هذه الأقفال إيداناً بألها غير مُستعدة لأن تفتح، فهم لا يفهمون فهماً دقيقاً حقائق الأمور، ويفسرون الأمور تفسيرات سطحية بعيدة عن حقائقها الخفية عليهم؛ بسبب أنهم لم يؤمنوا بالله ورسوله إيماناً صادقاً صحيحاً، فتوقفت أفهامهم عند الظواهر السببية، فلا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

٨٨ - إن تخلف هؤلاء المنافقون ولم يُجاهدوا، فقد جاهد مَنْ هو خيرٌ منهم؛ الرسول والذين آمنوا معه إيماناً صادقاً، جاهدوا فيما سبق بأموالهم وأنفسهم، ولم يتوانوا ولم يتخلفوا، وسيجاهدون فيما يأتي طاعةً لله، وأولئك لهم وحدهم: النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة والكرامة في الآخرة، وأولئك الفضلاء رفيعو المنزلة هم وحدهم الفائزون بما يحبون.

٨٩ - أعد الله لهم جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، خالدين فيها أبداً، ذلك الظفر الكبير والريح العظيم.

٩٠ - وجاء المُعتذرون من سكان البوادي إلى رسول الله ﷺ، يعتذرون إليه في التخلف عن الغزو معه بأعذار كاذبة، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان عن المجيء للاعتذار، وهم منافقو الأعراب الذين ما جاؤوا، وما اعتذروا، سيُصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم في دار العذاب يوم الدين.

٩١ - إن الذين يُقبل عذرهم في التخلف عن الجهاد هم هؤلاء

الأصناف الثلاثة: الصنف الأول: الضعفاء العاجزون الذين لا قدرة لهم على القتال، ومعاناة الأعمال الشاقة، ومقاومة الأحداث الجسام التي يقاومها الرجال الأصحاء، كالشيوخ والنساء والصبيان، وأصحاب العاهات الدائمة والأمراض المُقعدة، كأهل العمى والعرج، الصنف الثاني: أصحاب الأمراض العارضة الطارئة، الصنف الثالث: الفقراء العاجزون عن أهبة الغزو والجهاد، الذين لا يجدون الزاد والراحلة والسلاح، ليس على هؤلاء الأصناف الثلاثة إثم في التخلف عن القتال في سبيل الله المأمور به أمر إلزام، إذا أخلصوا الإيمان لله، وتابعوا الرسول ﷺ، وسعوا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو، ليس على مَنْ أحسن من أصحاب الأعداء، وأراد أن يتحمل المشاق، ويخرج مُجاهداً في سبيل الله، طريق يقتضي مؤاخذتهم إذا لم يقوموا بهذه الأعمال؛ لأنهم غير مأمورين بها أمر إيجاب وإلزام، بل يُدعون إليها على سبيل التذلل والترغيب، فإذا فعلوها كانوا من المحسنين أعلى مراتب المؤمنين، والله كثير الشكر لمن تخلف عن الجهاد بعذر ظاهر أباحه الشرع، دائم الرحمة بعباده المحسنين.

٩٢ - وكذلك لا حرج ولا إثم في التخلف عنك، على الذين إذا أتوك - يا رسول الله - يسألونك أن تحملهم ليلغوا إلى قتال عدوك والجهاد معك. قلت لهم: لا أجد ما تحتاجون إليه لتخرجوا مع المقاتلين، فانصرفوا عنك، حالة كون أعينهم قد امتلأت دمعاً، فجعلت تسيل من أعينهم على وجوههم؛ لأجل الحزن الذي في قلوبهم ونفوسهم على ما فاتهم من شرف الجهاد في سبيل الله؛ لأنهم لم يجدوا ما ينفقون على أنفسهم في الجهاد.

٩٣ - ما طريق المؤاخظة الشرعية إلا على الذين يستأذنونك - يا رسول الله - في التخلف عنك والجهاد معك، وهم قادرون بأجسادهم وأموالهم على الخروج معك، رضوا بالدناءة والانتظام في جملة القواعد من النساء، الخوالف للرجال في البيوت، وطبع الله على قلوبهم، وضرب عليها بالأقفال، وبلغت مبلغاً من القسوة والجفاف، فهي لا تتأثر ببيان، ولا تستجيب لموعظة، وسبب هذا الطبع: نفاقهم وتماديهم في المعاصي والذنوب، فهم لا يفهمون فهماً دقيقاً حقائق الأمور، ويفسرون الأمور تفسيرات سطحية بعيدة عن حقائقها الخفية عليهم.

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمَعَذِرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِذْ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾



٩٤ - يعتذر المنافقون من الأعراب الذين قعدوا متخلفين عن غزوة «تبوك» إليكم - أيها المؤمنون المجاهدون - بالأعذار الباطلة الكاذبة، إذا رجعتم إليهم من سفركم. قل لهم - يا رسول الله ويا كل مؤمن -: لا تلقوا الأعذار الكاذبة، لن نُصدق أقوالكم فيما اعتذرتم به، ولن نطمئن لكم، قد أخبرنا الله فيما سلف من أخباركم، وأنكم تخلفتم عن غزوة «تبوك» بغير عذر، والدافع لكم على تخلفكم نفاقكم، وأمامكم فرصة للتوبة في المستقبل، وللاستقامة والعمل الصالح، وسيرى الله عملكم ما ظهر منه وما بطن، وسيرى رسوله في تجارب المستقبل عملكم إن أطعتم وإن عصيتم، فإن تبتم واستقمتم قبل الله توبتكم، وصفح رسوله عنكم، وإن أصررتم على ما أنتم عليه عرَضتم أنفسكم للمُؤاخضة والعقاب، ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الله الذي هو عالم الغيب مما غاب عن ذوي الإدراك من خلقه، وعالم الشهادة من الأكوام الظاهرة التي تُدرك بالحواس، فيخبركم في موقف الحساب وفصل القضاء بكل ما كنتم تعملون من أعمال باطنة وظاهرة؛ لأنه هو المُطلع على ما في ضمائركم من الخيانة والكذب وإخلاف الوعد.

٩٥ - سَيَحْلِفُ لَكُمْ المتخلفون بالمدينة من الأعراب الذين قعدوا متخلفين عن غزوة «تبوك»، إذا رجعتم من سفركم إليهم، لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم بسبب تخلفهم، فدعُوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، وليكن إعراضكم عنهم إعراض ساخط عليهم، كاره لا كاذبهم والاعيبهم، إنهم نجسون نجاسة معنوية مُغلظة، لأنهم جمعوا نجاسة الكفر، ونجاسة النفاق، فتحوّلت ذاتهم الداخلية إلى نجاسة، وظهرت آثار نجاستهم الفكرية والاعتقادية والخلقية في سلوكهم، ولا يصلح لتطهيرهم من نجاستهم إلا النار، ومُسكنهم في الآخرة جهنم يصيرون إليها جزاء بما كانوا يكسبون من الكفر والنفاق

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أخبارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَبَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَنِ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذْ مَا يَبْتَغِ غَيْرَ مَا وَبَّرَبِّصُكُمْ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَالْأَعْرَابُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذْ مَا يَبْتَغِ قُرْبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَىٰ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

والأعمال الخبيثة في الدنيا.

٩٦ - يحلف لكم هؤلاء المنافقون كذباً؛ لتعرضوا عن مُؤاخذتهم، ولترضوا عنهم، فإن رضيتم عنهم - أيها المؤمنون - بما حلفوا لكم، وقبَلْتُمْ عُذرهم، وهو أمر مُستبعد وقوعه منكم، فإن الله يعلم ما في قلوبهم من الشك والنفاق، فلا يرضى عنهم أبداً.

٩٧ - أهل البادية إذا ما كفروا ونافقوا أشد كُفراً ونفاقاً من أهل الحضر الكفار والمنافقين؛ لما في طبائعهم المكتسبة من البيئة من نفور، وعدم استسلام، واعتياد على عدم الطاعة والانقياد، ودربة على المصانعة والمُداهنة والمُخادعة، وهم أكثر قابليةً للجهل بأمر الدين، وأحرى بأن لا يعلموا الفرائض والسنن والأحكام، لبعدهم عن مراكز التوجيه والتعليم، ونشأتهم في معزل عن مجالسة العلماء بالدين، والله عليم بتأثير البيئة البدوية على الأعراب، حكيماً في اختيار الأفضل لعباده، ممّا يوجب على المسلمين تهئية بيئة صالحة للأعراب، تُساعدهم على اكتساب العلم النافع، وفضائل الأخلاق، وأنواع السلوك الحضاري الراقي.

٩٨ - ومن ظواهر نفاق سكان البادية: ظاهرتان ناتجتان عن كفرهم بالله واليوم الآخر باطناً، الظاهرة الأولى: أن منهم من لا يرجو على إنفاقه ثواباً، ولا يخاف على إمساكه عقاباً، ويعتقد أن الذي يُنفقه في سبيل الله غرامة وخسارة؛ لأنه لا ينفق ذلك إلا خوفاً من المسلمين، أو مُراةً لهم، والظاهرة الثانية: انتظارهم أن ينزل بالرسول ويكم شراً، للتخلص منكم، بل يتقلب عليهم وحدهم الزمان، ويدور السوء والبلاء بهم، ولا يَزُونَ في محمد ﷺ وأصحابه ودينه إلا ما يسوؤهم، والله سميع لأقوالهم، عليم بما يُخفون في ضمائرهم من النفاق والغش وإرادة السوء للمؤمنين.

٩٩ - ويوجد في مجتمع المسلمين إبان غزوة «تبوك» خمسة أقسام رئيسية: من المؤمنين: الصادقين المُستوفين لحدود مرتبة التقوى، والمؤمنين الصادقين السابقين في فعل الخيرات، ومن المنافقين، ومن العصاة التائبين المستغفرين، والعصاة المسرفين: القسم الأول: يوجد من سكان البادية مَنْ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً، ويطلب بما ينفق القربة إلى الله تعالى، ويرغبون في دعاء النبي ﷺ واستغفاره. تنبهاً وتحققوا إن نفقتهم التي ينفقونها طاعةً لله وتقرباً إليه، واستدعاءً لدعاء الرسول لهم بالرحمة، هي لهم قربة مقبولة عند الله، سيدخلهم الله في رحمته الواسعة الشاملة لغفرانه وعفوه وجنته، إن الله كثير السّر للمؤمنين المنفقين في سبيله، دائم الرحمة بهم.

١٠٠ - والقسم الثاني: المؤمنون الصادقون السابقون في فعل الخيرات وأعمال البر والإحسان، زيادة على واجبات مرتبة التقوى، الأولون من أتباع محمد ﷺ الذين سَبَقُوا إلى الهجرة والنصرة، ففارقوا الوطن والعشيرة، ونصروا رسول الله ﷺ على أعدائه، وأَوْوَهُ ووَاسَوْهُ، والذين اتَّبَعُوهم بإحسان من بقيَّة المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين، ومَن اقتدى بهم مَن سيأتي بعدهم إلى أن تقوم الساعة، رضي الله عنهم بسبب ما قَدَّمُوا من أعمال صالحة ابتغاء مرضاته، ورضوا عنه في مقاديره في الدنيا، وأعطاهم مَّا يُرضيهم فوق ما يخطر على بالهم، وهباً لهم جَنَاتٍ تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ذلك الثواب الرفيع هو الربح والظفر العظيم.

١٠١ - والقسم الثالث: بعض مَن حولكم من سكان البادية منافقون منازلهم حول المدينة، وبعض أهل المدينة من الأوس والخزرج منافقون مَرَنُوا على النفاق، وصارت لهم به ممارسة مستديمة، وخيرة طويلة، ويلغوا في النفاق إلى حيث أنك لا تعلمهم - يا رسول الله - علماً مُستغرفاً لكل أفرادهم، لكن نحن نعلمهم؛ لشمول علمنا بواطن الأمور وأسرار قلوب العباد، سنعذبهم مرتين: المرة الأولى: الفضيحة في الدنيا، والمرة الثانية: عذاب القبر بعد الموت، ثم يَرُدُّون إلى عذاب النار في الآخرة.

١٠٢ - والقسم الرابع: العصاة التائبون المستغفرون، وهم قسم آخرون مَن حولكم من الأعراب، ومن أهل المدينة من المؤمنين، تَخَلَّفُوا عن رسول الله ﷺ في غزوة «تبوك»، ثم ندموا على ما فعلوا، وأقروا بذنبهم، ولم يعتذروا عن تخلفهم بأعذار باطلة، جمعوا جمعاً مختلطاً أعمالاً مختلفة، عملاً صالحاً، وآخر سيئاً، فتعادت حسناتهم وسيئاتهم، يرجون أن يتوب الله عليهم، ويُعفيهم من العقاب عن سيئاتهم، لا عترفاهم بذنوبهم، وصدق توبتهم؛ إنَّ الله كثير الشَّرِّ لعباده، دائم الرحمة بهم.

١٠٣ - خُذْ - يا رسول الله - من هؤلاء التائبين الذين خَلَطُوا أعمالهم بعضها ببعض، عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ما يبدلون من أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم بأخذها من دَنَسِ الآثام، وترفع منازلهم عن منازل المنافقين إلى منازل المُخلصين، وتنمي بها حسناتهم وأموالهم، وادع لهم واستغفر لهم؛ إنَّ دعاءك واستغفارك طمأنينة لقلوبهم ورحمة لهم، تسكن به قلوبهم ونفوسهم من القلق والاضطراب الذي نزل بها؛ بسبب ما أصابوه من الذنوب، والله سميع لدعائك، عليم بأعمالهم ونِّيَّاتهم.

١٠٤ - قد سبق أن علم هؤلاء الذين تابوا أنَّ الله يقبل التوبة الصادقة مُتجاوزاً عن سيئات عباده، ويقبل الصدقات الخالصة، ويُثيب عليها، فلا داعي لقلقهم واضطرابهم ممَّا فعلوا من ذنب، بعد أن تابوا واستغفروا وتصدقوا، وأنَّ الله هو الذي يتوب على عباده كثيراً، وهو دائم الرحمة بهم.

١٠٥ - وقل - يا رسول الله - لهؤلاء التائبين: قد تداركتم ما وقعتم فيه من ذنب فيما مضى بالتوبة والاستغفار، وبذل الصدقات، فتاب الله عليكم، فأروا الله ورسوله والمؤمنين في المستقبل أعمالاً صالحات، واستقامة على الطاعات، وبُعداً عن ارتكاب السيئات، فسيري الله أعمالكم ويُجازيكم عليها، ويرى رسول الله ﷺ بإطلاع الله إِيَّاه على أعمالكم، ويرى المؤمنون أعمالكم، فيشهدون لكم بما يَرَوْنَ منكم، ويُعاملونكم بمقتضى ما تحولتم إليه من خير وصلاح واستقامة، وبعد ذلك ستموتون، وسترجعون يوم القيامة إلى مَن يعلم سرَّكم وعلانيتكم، ولا يخفى عليه شيء من بواطنكم وظواهركم، فيُخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شرٍ، ويُحاسِبكم على أعمالكم الظاهرة والباطنة، ويُجازيكم بحكمته وفق مقتضى عدله أو فضله.

١٠٦ - والقسم الخامس: من هؤلاء المُتخلفين عنكم - أيها المؤمنون - في غزوة «تبوك»: عُصاة مُسرفون على أنفسهم، مستغفرون في معاصيهم، مُؤخَّرون لحكم الله فيهم، لم يُسارعوا إلى التوبة، أمرهم إلى الله تعالى، إن شاء عذبهم بسبب تخلفهم، وإن شاء غَفَّرَ لهم وعَفَا عنهم، واللَّهُ عليم بما في قلوبهم، حكيم بما يقضي عليهم، وهو بحكمته يضع كُلَّ من عَفُوهُ أو عقابه في الموضع الملائم، لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

وَالسَّيِّئَاتِ الْأُولَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ
اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠١﴾ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ
مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠٢﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
وَعَمَلًا سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٣﴾
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
إِنَّ صَلَوَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ
اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَیَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُرَدُّونَ إِلَى عِلِّهِ الْعَلِيِّ وَالْشَّهِدَةِ
فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ
اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٧﴾

١٠٧ - وأخص بالذكر من المنافقين الذين بنوا مسجداً؛ لأجل المخالفة للمؤمنين وإنزال الضرر بهم، وتقوية للكفر الذي يضمرونه في قلوبهم، وتفريقاً بين المؤمنين من أهل «قباء»، حسداً لهم على اجتماعهم، وطمعاً في اختلاف كلمتهم، وانتظاراً وإعداداً لمن حارب الله ورسوله من قبل بناء هذا المسجد - وهو أبو عامر الراهب الفاسق - وذلك بإعداد العدة اللازمة لقتال المسلمين، وبانتظار الوقت الملائم لتنفيذ مؤامرة الانقضاض على المسلمين في المدينة، حينما يأتي «أبو عامر» ومعه جنود من قيصر، وليحلفن هؤلاء المنافقون الذين بنوا المسجد الأيمان الكاذبة حين يذهب مبعوثو الرسول لهدم مسجدهم وتحريقه: ما أردنا ببناؤه إلا الغاية الحسنى، وهي الرق بالمسلمين، والتوسعة على الضعفاء العاجزين عن السير إلى مسجد «قباء»، والله يشهد إنهم لكاذبون في قولهم وحليفهم.

١٠٨ - لا تستجب - يا رسول الله - لدعوة الذين يتوهم في أن تصلي لهم فيه، بل لا تدخل ولا تقم فيه أبداً؛ لأنه وكثر لتأمر المنافقين فيجب هدمه ومحو أثره، وكذلك كل ما كان على شاكلته، مما ظاهره الخير وباطنه الشر. لمسجد آخر - غير مسجد الضرار الذي نهينا عن القيام فيه - موصوف بأنه أسس على تقوى الله عز وجل من أول يوم بُني، وهو مسجد الرسول ﷺ، ومسجد «قباء»، أكثر استحقاقاً أن تمكث فيه زمناً ما للعبادة بالصلاة أو غيرها، فيه رجال يحبون أن يتطهروا: طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصي، وطهارة الظاهر من الأحداث والنجاسات بالماء؛ لأنهم مؤمنون صادقوا الإيمان، وحريصون على أن يظفروا بحببة الله لهم، والله يحب المتطهرين، ومن أحبه الله ضاعف له الثواب على أعماله، وزاده منه قرباً، وغمره بفيض إحسانه.

١٠٩ - أضمن عمل أفعالاً صالحة في مظهرها وحقيقتها، ومثلها كبناء حسني من الأبنية المادية، وهذه الأعمال ترتكز على قاعدتين عظيمتين: الأولى: قاعدة اتقاء عذاب الله بأداء فرائضه واجتنب نواهيه، والثانية: قاعدة رضوان الله بالتوسع في أعمال البر والإحسان، وهاتان القاعدتان المعنويتان تشبهان أرضاً صلبة راسخة ثابتة، أقصاحب هذا البناء خير أم صاحب البناء الذي أسسه على أعمال صالحة في مظهرها، إجرامية في حقيقتها، ومثلها كبناء حسني من الأبنية المادية، وهذه الأعمال ترتكز على النفاق، وهذا النفاق يشبه طرف حفرة متداعية للسقوط، فلا يلبث البناء أن يرتفع قليلاً حتى ينهار في الوادي، وكذلك ينهار البناء المعنوي الذي يؤسسه المنافق، في نار جهنم؟! والله لا يحكم بالهداية للقوم الظالمين المستجمعين لعناصر الظلم التي يكفر بها مرتكبها.

١١٠ - لا يزال بنيان المنافقين الذين بنوه مضارةً لمسجد «قباء» شكاً ونفاقاً متمكناً في قلوبهم؛ لأنهم بنوه لتفريق كلمة المؤمنين، وليدبروا فيه الكيد للمسلمين، وحين هدم رسخ ما في قلوبهم من الشك والنفاق، وهذه الريبة باقية في قلوبهم إلى أن يموتوا عليها، والله عليم بأحوالهم، حكيم فيما حكم به عليهم.

١١١ - إن الله اشترى شراءً جازماً من المؤمنين أنفسهم التي خلقها، وأموالهم التي رزقهم إيها، بأن يبذلوا طائعين مختارين، المال لإعداد وسائل الجهاد، ونشر الإسلام في الأرض، ويبذلوا النفوس للقتال في سبيل الله وقمع الكفرة المحاربين للإسلام والمسلمين، مقابل ثمن يدفعه لهم جزماً هو الجنة، يقاتلون في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته وإظهار دينه، فيقتلون أعداء الله، ويستمهدون في سبيله، ذلك الوعد الذي وعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله قد أثبتته الله في التوراة المنزلّة على موسى عليه السلام، والإنجيل المنزلّ على عيسى عليه السلام، كما أثبتته في القرآن المنزلّ على محمد ﷺ، ولا أحد أوفى بالعهد من الله لمن وفى بما عاهد الله عليه. فافرحوا - أيها المؤمنون المبايعون - واستمتعوا بالسرور الذي ينزل بكم، بسبب النعيم المقيم في الجنة الذي تتناولونه عوضاً عما تبذلونه ببيعكم الذي بايعتم به ربكم، وذلك العوض الرفيع المنزلّة، وهو وحده الرّبح الكبير والظفر العظيم الذي لا يساويه ولا يفوقه فوز آخر.



١١٨ - وتاب أيضاً على الرجال الثلاثة من الأنصار، وهم: (كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع) الذين تخلّفوا عن غزوة «تبوك»، ولم يخرجوا مع رسول الله ﷺ فيها، واعترفوا بذنبهم، وبيّنوا أنهم لم يكن لهم عذر في التخلّف، فأعلن الرسول مقاطعتهم، وأمر المسلمين بذلك، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما اتسعت، وضاقت عليهم أنفسهم من شدة الغم والحزن ومُجانبة الناس إيّاهم، وترك كلامهم، وظنّوا أنّ الله معاقبهم على تخلّفهم، وإذا تحقّق ظنهم، وقضى عليهم بالعقاب فلا مفرّ ولا مفرّ من الله إلاّ إليه، ولا عاصم من عذابه إلاّ هو، فرحمهم بقبول توبتهم، ثمّ من بعد قبول توبتهم الأولى تاب الله عليهم، وأقبل عليهم بفيض عطائه، وأمّدهم بلطائف أنواره، ليتوبوا إليه توبة أسمى من توبتهم الأولى، وليرجعوا إليه سبحانه بمزيد من الأعمال الصالحات، ومزيد من المراقبة والإخلاص، حتى يكونوا من المحسنين، إنّ الله هو كثير القبول لتوبة التائبين، دائم الرحمة بهم.

١١٩ - يا أيّها الذين صدّقوا بأركان الإيمان، وأتبعوا شريعة الإسلام، التزموا طاعة الله ورسوله، ولا تعصوا بترك الواجبات وفعل المحرّمات؛ لتتقوا عقاب الله العاجل والآجل، وكونوا مع الصادقين الذين صدّقوا في إيمانهم، وإسلامهم، وأقوالهم، وأعمالهم، التي تُعبّر عن إيمانهم تعبيراً صادقاً لا رياء فيه ولا سمعة، وكونوا مع مَنْ صدّق النبي ﷺ وأصحابه في الغزوات، ولا تكونوا مع المتخلّفين من المنافقين الذين قعدوا في البيوت، وتركوا الغزو. وهذا الخطاب الإلهي للمؤمنين هو الخامس في هذه السورة.

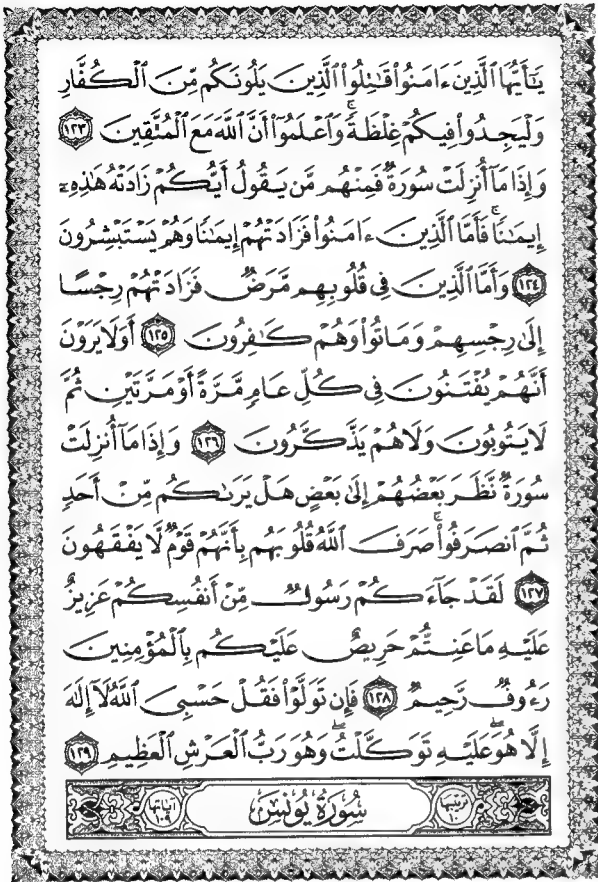
١٢٠ - ما كان ينبغي لساکني «المدينة» من المهاجرين والأنصار، ومن حولهم من سكّان البوادي من الأعراب أن يتخلّفوا في أهلهم ودورهم عن رسول الله ﷺ إذا دعاهم إلى الخروج معه مقاتلين في

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

سبيل الله، على مثل دعوته إيّاهم الخروج لغزوة «تبوك»، وما كان لهم أن يختاروا لأنفسهم الراحة والدعة، ويتركوا مصاحبتة والجهاد معه في حال الشدة والمشقة؛ والسبب الداعي إلى أن يحرص المسلمون على أن لا يتخلّفوا عن رسول الله ﷺ إذا خرج مقاتلاً في سبيله، ودعاهم إلى الخروج معه، وأن لا يتخلّفوا عن أمير المؤمنين من بعده إذا دعاهم إلى ذلك؛ أنّهم لا يُصيبهم في سفرهم وغزواتهم عطشٌ بسبب نفاذ الماء، وانعدام مصادره في طريقهم، ولا تعبٌ أو إعياء مهما كان قليلاً، ولا مُجاعةٌ شديدة في سبيل الله، ناشئة عن خلوّ البطن من الغذاء، ولا يضعون قدماً على الأرض أو تَصْعَقُها دوابُّهم أو مراكبهم، يكون سبباً لغيظ الكفار وغمهم وحزنهم، ولا يصيبون من عدوٍّ أسراً أو قتلاً أو هزيمةً أو غنيمةً أو نحو ذلك قليلاً كان أو كثيراً، إلاّ كُتِبَ الله لهم بذلك ثوابٌ عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبّله منهم، إنّ الله لا يضيع أجر المحسنين الذين يحققون أعلى مراتب المؤمنين.

١٢١ - ولا يُنْفِقُونَ في خروجهم مجاهدين سبيل الله نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً، طيبةً بها نفوسهم، ولا يُجاوِزون في رحلتهم الجهادية وادياً منفرجاً بين الجبال أو التلال، مُقْبِلِينَ أو مُدْبِرِينَ فيه، إلاّ كُتِبَ الله لهم آثارهم وخُطاهم ونفقاتهم؛ ليكافئهم الله ويُثيبهم فيعطيتهم في الجنة أجر أحسن ما كانوا يعملون في الدنيا من أعمال صالحة من الواجبات والقربات والمباحات المقرّونات بنبّيات صالحات، فيشبههم على كلّ أعمالهم الصالحة؛ لأنها هي الأحسن من سائر أعمالهم المباحة والسيئة، ويعطيهم أكثر مما عملوا ضمن قانون المكافآت: الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمئة إلى أضعاف كثيرة.

١٢٢ - ليس من شأن المؤمنين العاملين بوصايا الله أن يخرجوا جميعاً إلى الجهاد؛ لثلا يتعرّضوا لاحتمال الاستئصال إذا هُزموا، فهلاًّ خرج للقتال إذا دعا داعي القتال من كلّ فرقة جماعةٌ مُحدّدةٌ بعدها وتخصّصاتها؛ ليتفَقَّهوا عن طريق التجارب والممارسات العمليّة في أمور القتال وفنون الحرب، وليُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إليهم من الغزو بما اكتسبوا من معلومات يُعتبر الجهل بها ثُغرةً خطرٌ على الإسلام والأُمة الإسلاميّة؛ رجاء أن يحذروا مواطنَ الخطر، فيتّخذوا الأسباب والوسائل الواقية والكفيلة بإحباط وسائل الأعداء، والأسباب والوسائل التي يُرجى منها تحقيق النصر مما يباغتون الأعداء به.



١٢٣ - يا أيُّها الذين صدَّقوا بأركان الإيمان، واتَّبِعُوا شريعة الإسلام ابْدُؤُوا بقتال الأقرب فالأقرب إلى دار الإسلام، ولا تنتقلوا في عمليات قتال الأعداء من الكفار إلى قتال الكفار البعداء حتى تنتهوا من تصفية مشكلاتكم مع الأعداء الأقربين إليكم، المجاورين حدود أرضكم وبلادكم؛ لسهولة التغلب عليهم، ولإلقاء الرعب في قلوب الآخرين، ممَّن هم أشدَّ قوةً، وأعظم بأساً، وأكثر عدداً ومدداً، وليُجِد الكفار في قتالكم لهم شِدَّةً وقوةً وشجاعةً، واتَّقُوا الله دوماً في السُّلْم والحرب، واعلموا أنَّ الله مع المتقين بالعمون والنصر. وهذا الخطاب الإلهي هو السادس والأخير للمؤمنين في هذه السورة، وقد تقدَّم في الآيات: ٢٣ و ٢٨ و ٣٤ و ٣٨ و ١١٩.

١٢٤ - وإذا أنزل الله عزَّ وجلَّ سورةً جديدةً من سُور القرآن على رسوله، يقول بعض المنافقين لبعض على سبيل الاستهزاء: أيُّكم زادت هذه السُّورة تصديقاً و يقيناً بأنَّ محمداً رسول الله، وأن هذا الكلام مُنْزَل من عند الله حقاً وصدقاً؟ فأما الذين آمنوا، فزادهم نزول السُّورة تصديقاً و يقيناً يُضاف إلى مقدار إيمانهم السابق، والحال أنَّهم فرحون مسرورون بنزول القرآن شيئاً بعد شيء؛ لأنهم كلُّما نزل شيء منه ازدادوا إيماناً وعِلماً وهداية.

١٢٥ - وأما الذين في قلوبهم شكٌّ ونفاق، فزادتهم السُّورة من القرآن شكاً ونفاقاً وكفراً مضموماً إلى كفرهم ونفاقهم؛ لأنهم كلُّما جحدوا سورةً أو استهزؤوا بها، ازدادوا كفراً وإصراراً وكراهية للدين مع كفرهم الأوَّل، لما في التنزيل الجديد من تكاليف يكرهونها، ويضيقون بمسايرة المؤمنين في تطبيقها، ولما تشتمل عليه من فضح لنفاقهم، ومات هؤلاء المنافقون وهم جاحدون بما أنزل الله عزَّ وجلَّ على رسوله ﷺ.

١٢٦ - ألا يُفكر المنافقون من خلال الأحداث التي تمرُّ عليهم أنَّهم يُبتَلون في كلِّ عامٍ مرَّةً أو مرَّتَيْن بامتحانات كبيرة تكون لهم فيها مواقف تدلُّ على كفرهم ونفاقهم، ثمَّ ينزل القرآن بكشف هذه المواقف، وفضحهم فيها، ثمَّ لا يتوبون من كفرهم ونفاقهم، ولا يرجعون إلى الله، ولا هم يُثبِتون في ذاكرتهم المعاني التي دلَّت عليها هذه التجارب، ولا يُوجِّهون أفكارهم لدلالات هذه التجارب حتى يحفظوها في ذاكرتهم، ويتذكروها من حين لآخر، حتى يكون تذكُّرها سبباً في إقناعهم وتحويلهم عن طريق إراداتهم الحرة من الكفر إلى الإيمان، ولو على سبيل التدرُّج شيئاً فشيئاً.

١٢٧ - وإذا ما أنزلت سورةً فيها عَيْبُ المنافقين وتوبيخهم، نَظَرَ بعضهم إلى بعض، يريدون الهرب، يقول بعضهم لبعض عن طريق التخابط الإشاري بحركات العيون: هل يراكم أحدٌ من المؤمنين إنَّ قمتم من مجلسكم؟ وبعد المُحادثة فيما بينهم عن طريق حركات العيون التي ينظر بها بعضهم إلى بعض، لا ينصرفون بسرعة، بل يترثثون؛ لئلا يكشف الفطناء أمرهم، فإذا اطمأنوا وشعروا بأنَّ أحداً لم يفتن إليهم، انصرفوا؛ كراهية أن يسمِعوا السُّورة النازلة. صَرَفَ الله قلوبهم عن الإيمان مُجازاةً لهم على فعلهم؛ بسبب أنَّهم قَوْمٌ لَا يفهمون فهماً دقيقاً حقائق الأمور، ويُفسِّرون الأمور تفسيرات بعيدة عن حقائقها الخفية عليهم.

١٢٨ - نوَّكِدْ لَكُمْ تأكيداً مُشدِّداً أنه جاءكم - أيُّها العرب - رسولٌ من نوع أنفسكم تعرفون نَسَبَهُ وَحَسَبَهُ وَصَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ، شديدٌ عليه وشاقٌّ على نفسه كلُّ ما هو شديدٌ وشاقٌّ على نفوسكم، غالبٌ على صبره مشقَّتكم الشديدة، وهالاككم وضرركم وأذاكم، لما في قلبه نحوكم من رَأْفَةٍ شديدة، وذلك لأنَّ الألم الذي ينزل به حينما يراكم في مشقَّة شديدة أقوى من احتمال صبره فهو يغلبه، حريصٌ على إيمانكم وصلاح شأنكم، يذلُّ غايةً جهده في نُصحكم، وإيصال الخير إليكم، ودفع الضَّرِّ والأذى عنكم من كلِّ ما يُؤذِيكم ويضرُّكم في دنياكم وآخرتكم، وهو ﷺ شديد الرأفة بالمؤمنين، عظيم الرحمة بهم.

١٢٩ - فإن أدبر هؤلاء الكفار والمنافقون عن الإيمان بك - يا رسول الله - وناصبوكُ العداء، فقل لهم: يكفيني الله بمعونته وتأييده، وينصرني عليكم، لا معبودَ بحقٍّ في الوجود كلُّه إلا هو، عليه وحده توكلت في أمري كلُّه لا على غيره، وبه وَفَّقْتُ، وهو وحده ربُّ العرش العظيم الذي هو أعظم المخلوقات، المحيط بالسموات والأرض وما فيهنَّ.

٧ - إِنَّ الَّذِينَ لَا يَتَوَقَّعُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحَسَابِ، وَفَصَلَ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِذَ الْجَزَاءِ بِالثَّوَابِ أَوْ بِالْعِقَابِ، فَلَا يَأْمَلُونَ ثَوَابًا، وَلَا يَخْشَوْنَ عِقَابَنَا، وَاخْتَارُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَانْتَفَوْا بِمَتَاعِهَا، وَسَكَنُوا إِلَيْهَا مَطْمَئِنِينَ فِيهَا، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ إدْرَاكِ آيَاتِنَا الْكُوفَةِ، وَالْإِعْجَازِيَّةِ، وَالْجَزَائِيَّةِ، وَالْبَيَانِيَّةِ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا فِي كِتَابِنَا غَافِلُونَ غَفْلَةً تَامَةً.

٨ - أَوْلَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مَقَرُّهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ؛ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فِي دُنْيَاهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَالْأَعْمَالِ الْخَبِيثَةِ.

٩ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا صَاحِحًا صَادِقًا، وَعَبَّرُوا عَنْ إِيْمَانِهِمُ الصَّاحِحِ الصَّادِقِ بِأَعْمَالٍ إِرَادِيَّةٍ صَالِحَةٍ فِي السُّلُوكِ النَّفْسِيِّ وَالْجَسَدِيِّ، يَحْكُمُ لَهُمْ رَبُّهُمْ يَوْمَ الدِّينِ فِي مُحْكَمَةِ الْحِسَابِ، وَفَصَلَ الْقَضَاءِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُهْدِينَ بِإِرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةِ؛ بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِ قُصُورِهِمْ أَنْوَاعُ الْأَنْهَارِ، يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا مِنْ أَعَالِي أَسْرَتِهِمْ وَقُصُورِهِمْ، ذَلِكَ لَهُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

١٠ - دَعَاؤُهُمْ وَكَلَامُهُمْ فِي الْجَنَّةِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، نَزَّهْتُكَ عَنْ كُلِّ سُوءٍ وَنَقِيصَةٍ، وَيُقَابِلُونَ بِالتَّحِيَّةِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ الْمَلَائِكَةِ بِالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَيُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ، وَآخَرُ دَعَائِهِمُ الَّذِي يَدْعُوهُ رَبُّهُمْ، أَنْ يَقُولُوا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» لَهُ الثَّنَاءُ الْكَامِلُ، وَالشُّكْرُ الدَّائِمُ، وَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْحَمْدِ لِكَمَالَاتِهِ الدَّائِمَةِ الْمَطْلُوقَةِ، وَلَأنَّهُ الْمُحْسِنُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى كَافَّةِ الْخَلْقِ، فَهُوَ مَالِكُهُمْ، وَخَالِقُهُمْ، وَرَازِقُهُمْ، وَمُرَبِّيهِمْ بِنِعْمِهِ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهِمْ بِحُكْمَتِهِ، وَالْمُهَيِّئُ عَلَيْهِمْ بِصِفَاتِ رَبُوبِيَّتِهِ.

١١ - وَلَوْ يُعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ كُلِّ مَا يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُسْتَعْجِلِينَ مَا هُوَ شَرٌّ لَهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ، لَطَعُوا وَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ، وَأَلْفَسُوا إِفْسَادًا عَرِيضًا، وَعِنْدَئِذٍ تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ أَنْ يَهْلِكَ اللَّهُ إِهْلَاكًا شَامِلًا عَامًا، قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ أَجَلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَا يُعْجَلُ لِلنَّاسِ كُلِّ مَا يَطْلُبُونَ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ يَسْتَجِيبُ مِنْ مَطْلَبِهِمْ عَلَى وَفْقِ حُكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ، أَمَا مِنْ يُعْجَلُ اللَّهُ لَهُمْ مَطْلَبُهُمْ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ، فَدَعُ الْوَقَّعُونَ لِقَاءَنَا، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي تَمَرُّدِهِمْ وَفَسَادِهِمْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، يَتَرَدَّدُونَ وَيَتَحَيَّرُونَ.

١٢ - وَإِذَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ الْمُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ بَارْتِكَابِ الْمَعَاصِي، الْجَهْدُ وَسُوءُ الْحَالِ - وَلَوْ قَلِيلًا - سَأَلْنَا مُتَذَلِّلًا لِكَشْفِهِ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ: عَلَى جَنْبِهِ مُضْطَجِعًا، أَوْ قَاعِدًا، أَوْ قَائِمًا، فَحِينَ أَرْزَلْنَا عَنْهُ مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الضَّرِّ وَرَفَعْنَاهُ عَنْهُ، اسْتَمَرَّ عَلَى حَالَتِهِ الْأُولَى قَبْلَ أَنْ يَمْسَهُ الضَّرُّ، كَأَنَّهُ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى كَشْفِهِ، وَنَسِيَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالبَلَاءِ وَالضِّيقِ وَالفَقْرِ. كَمَا زَيْنَ لَهُذَا الْكَافِرُ اسْتِغْرَاقَهُ فِي ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، كَذَلِكَ زَيْنَ اللَّهُ لِلْمُجَاوِزِينَ الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي.

١٣ - وَنُقْسِمُ مُؤَكِّدِينَ لَكُمْ أَنَّكُمْ بِعِظَةِ رَبُوبِيَّتِنَا أَهْلَكْنَا إِهْلَاكًا عَامًا شَامِلًا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا، وَأَصْرُوا عَلَى ظُلْمِهِمْ بِالْكَفْرِ وَالتَّكْذِيبِ الرَّسْلِ، وَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَشِّرِينَ بِالصَّوَابِ وَنَذِيرِينَ بِالْعِقَابِ، وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَمُ لِيُصَدِّقُوا بِرُسُلِهِمْ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، مَهْمَا أَهْلَوْا؛ لِانْطِمَاسِ بِصَائِرِهِمْ بِسَبَبِ تَعَلُّقِهِمْ بِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، كَمَا أَهْلَكْنَا الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ، كَذَلِكَ نُهْلِكُكُمْ - أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ - بِتَكْذِيبِكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ. فَسُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاحِدَةٌ، فَمَا أَجْرَاهُ لِلْمُجْرِمِينَ السَّابِقِينَ مِنْ إِهْلَاكِ شَامِلٍ، سَيَجْرِي نَظِيرُهُ لِكُلِّ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ فِي كُلِّ الْعُصُورِ.

١٤ - ثُمَّ بَعْدَ حِينٍ مِنَ الزَّمَنِ جَعَلْنَاكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِهْلَاكِ الْقُرُونِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَبْلِكُمْ، خَلَفْتُمْ فِيهَا مِنْ سَبْقِكُمْ، وَبِخَلْفٍ فِيهَا بَعْضُكُمْ بَعْضًا؛ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ: خَيْرًا أَوْ شَرًّا، فَتَعَامَلُكُمْ عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِكُمْ.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَارِ وَصُورِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَجْرُهُمْ دَعْوَتُهُمْ إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يُعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرُّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَذَرُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَارٍ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ سِنَّةً كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

١٥ - وإذا قرئ على هؤلاء المشركين آيات كتابنا الذي أنزلناه إليك - يا رسول الله - حالة كونها واضحات جليات، هاديات إلى الحق والخير والرشد، قال هؤلاء المشركون الذين لا يتوقعون لقاءنا، فلا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا: أثبت بقرآن آخر، أو بدل بعض آياته التي تسوؤنا بغيرها. قل - يا رسول الله - لهؤلاء: إن هذا القرآن من كلام ربّي، وليس من تأليفي ولا صنعي، وما ينبغي أن أغيّره من قبل نفسي، وليس باستطاعتي؛ لأنّ ربّي لا يمكنني من ذلك، وما أتبع في كلّ ما أمركم به وأناحكم عنه إلا ما يخبرني الله به، ولو حاولت تبديل شيء مما يوحي إليّ أكون عاصياً له سبحانه؛ لأنّه لم يأذن لي بذلك، إني أخشى من الله - إن خالفتم أمره، أو غيرت أحكام كتابه - أن يعذبني عذاب يوم عظيم.

١٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين الذين طلبوا منك تغيير القرآن وتبديله: لو شاء الله لم يُنزل عليّ هذا القرآن، ولم يأمرني بقرآته عليكم، ولا أعلمكم الله به، فاعلموا أنه الحق من ربكم، فإنكم تعلمون أنني مكثت فيكم قبل أن يوحي إليّ هذا القرآن مدة أربعين سنة لم آتكم بشيء، ثم جئتكم بهذا الكتاب العظيم، أفلا تُدركون بعقولكم إدراكاً علمياً أنه لا يمكن لإنسان موهوب قدرات بيانية بفطرته أن يعيش شبابه وكهولته حتى شيخوخته دون أن يصدر عنه ما يُعبر به عن أفكاره ومشاعره ببيان يُعجب أهل البيان، وأفلا تعقلون أهواءكم عن الجنوح الذي جعلكم تكذبون بكتاب الله المعجز، الذي يوحي إلى عبد من عباده، كان الواجب عليكم أن تؤمنوا بنبوّته ورسالته استدلالاً بما يتلوه عليكم من كتاب ربكم.

١٧ - وإذا كان القرآن بمشيئته تعالى وأمره، فمن اختلق من تلقاء نفسه كلاماً وقال: هو من عند الله، أو بدل بعض آياته ببعض، كما يُجوزون ذلك في شأني، أو جحد أنّ القرآن من عند الله، وأنكر

دلائل التوحيد كما يفعلون، فهو أظلم من كلّ ظالم، إنه لا يفوز المكذبون بأنبياء الله ورسله، المُبْعَثُونَ في فجورهم بما يريدون ولا يظفرون بجنات النعيم.

١٨ - ويعبد هؤلاء المشركون معبودات هي بطبيعتها تقع دون الله عزّ وجلّ، في مقابل اتّصافه بالفوقيّة المطلقة، فهو سبحانه العليّ الأعلى، وهذه المعبودات لا تضُرُّهم شيئاً إن عَصَوْها وتركوا عبادتها، ولا تنفعهم شيئاً إن عبدوها، ويقولون: إن كان بعث كما تزعمون، فهؤلاء الأصنام شفعائنا عند الله. قل لهم - يا رسول الله -: أتُخبرون الله العليم بكلّ شيء بخبر مهم بارز، ظاهر البطلان: أنّ له شريكاً، ولا يعلم الله لنفسه شريكاً في السموات ولا في الأرض، تنزّه الله عن الشُركاء والأضداد والأنداد، وتعالى أن يكون له شريك في السموات والأرض.

١٩ - وما كان الناس جميعاً إلاّ أمة واحدة على الدين الحقّ، وهو دين الإسلام، وفترّقوا إلى مؤمن وكافر، ولولا كلمة قضائيّة سبقت من ربك أتمّ بها قضاءه وقدره بتأجيل الحساب وتنفيذ الجزاء على الكفر والخروج عن منهج الله إلى يوم الدين، لقضي بينهم في الحياة الدنيا بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذّبين، وكان ذلك فصلاً بينهم فيما فيه يختلفون.

وهذه الآية فيها إثبات أن العقائد الشريكية طارئة على الناس، ولم تكن موجودة في أجيال البشريّة الأولى، فقد كان المجتمع البشري مجتمعاً موحداً لله في ربوبيّته وفي إلهيّته، ومسلماً إسلاماً صحيحاً بما تلقّوا من تعليمات دين الله الحقّ، الذي أملاه عليهم آدم عليهم السلام، ثم دخل بعد ذلك فيهم الشرك، فاختلفوا؛ إذ تبتّ فريق منهم على إيمانه، ودخلت على آخرين عقائد شركيّة باطلة مختلفة.

٢٠ - ويقول أئمة مشركي مكة بتكرار وتجدد: هلاً أنزل على محمد من ربه ما نفتخره عليه من الآيات الحسيّة، نعلم بها أنه على حقّ فيما يقول، فقل لهم يا رسول الله: إنّ الذي سألتموه هو من الغيب، وإنّما الغيب كلّهُ لله، لا يعلم أحدٌ متى نزول الآية إلا هو، فانتظروا - أيها القوم - نزولها إنّي معكم من المنتظرين، لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتِ بِشَرٍّ مِنْ غَيْرِ هَٰذَا أَكْبَرُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبْدِلَهُ مِنْ يَدَايَ نَفْسِي ۚ إِنِّي أَخَافُ ۚ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ إِنِّي أَخَافُ ۚ إِنِّي عَصَيْتُ رَجِي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ ۚ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنبِئُوكُم أَنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ أَنْ يَعْلَمَ فِي السَّمَاءِ ۚ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ ۚ وَيَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

٢١ - وإذا أذقنا الكفار رخاءً ونعمة من بعد شدةٍ وبلاءٍ وضيق في العيش أصابهم، عادوا إلى جحودهم، وعلّلوا النجاة بالأسباب المادية والمصادفات، وأخذوا يستخدمون ما وهبهم الله من خيارات في تدبير المكاييد، ضد آيات الله. قل لهم - يا رسول الله -: اللّهُ أعجلُ عقوبةً، وأشدُّ أخذاً، وأقدر على الجزاء؛ إنّ الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين يكتبون ويحفظون عليكم الأعمال القبيحة السيئة إلى يوم القيامة، حتى تفتضحوا بها وتُجزّون على تدبيركم السيء بالخفاء، ومخططاتكم المضلّة لمن لديه استعداد للإيمان بآيات الله.

٢٢ - هو اللّهُ وحده المهيّئ لكم أسباب السّير في البرّ والبحر والجو، حتى إذا كنتم في السفن، كان حالكم مثل حال أمثال لكم سلفوا، ركبوها في السفن، وجرت السفن بركابها بريح لينة الهبوب في بحر هادئ ساكن، وفرح ركاب تلك السفن بتلك الريح الطيبة، جاءت سفنهم هذه الريح العاصفة التي تضرب وجه البحر، وتحرك السفن في كل اتجاه، صعدوا وهبوطاً، وتقاذفوا ذات اليمين وذات الشمال، وجاء زكبان السفينة أمواج البحر نائرة مضطربة من كل مكانٍ محيط بهم، عن أيمانهم وشمالهم، ومن أمامهم وخلفهم، ومن تحتهم وفوقهم، واتخذوا كل ما يملكون من وسيلة وحيلة، فما دفعت عنهم شيئاً من المخاطر الآتية بالمهلكات، وظنّوا ظناً راجحاً أنّ الهلاك قد أحاط بهم وأحرق، أخلصوا في الدعاء لله عزّ وجل، ولم يدعوا أحداً سواه من آلهتهم قائلين: والله، لئن أنجيتنا يا ربنا من هذه الشدائد المهلكة التي نحن فيها، لنكونن من المؤمنين المطيعين الحامدين الشاكرين لك على إنعامك علينا بخلاصنا ممّا نحن فيه من هذه الشدة. واستجاب الله دعاءهم رحمةً بهم، وليقدّم لهم البرهان التجريبي على وجوده ورحمته وقدرته، واستجابته دعاء المضطر إذا دعاه مخلصاً له الدين.

وإذا أذقنا الناس رحمةً من بعد ضراءٍ مستهم إذا لهم مكرٌ في آياتنا قل الله أسرع مكرًا إن رسلنا يكتبون ما تمكروا ١١ هو الذي يسير في البرّ والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنّهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ١٢ فلما أنجيتهم إذا هم يبعثون في الأرض بغير الحقّ يأتيناها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم متّع الحيوة الدنيا ثمّ إننا مرجعكم فنبتلحكم بما كنتم تعملون ١٣ إنّما مثل الحيوة الدنيا كالآباء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما ياكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفاً وازينت وظن أهلها أنّهم قديرون عليها أنّها أمرنا بالآباء أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لعلهم يفكرون ١٤ والله يدعونا إلى دار السّلاوة ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ١٥

٢٣ - فلما أنجى الله تعالى هؤلاء الذين أحاطت بهم الشدائد، إذا هم ينقضون عهدهم، ويستعلون في الأرض بغير الحق. يا أيها الناس البغاة الكافرون بأنعم الله عليكم، الناقضون لما عاهدتم ربكم عليه: ما وبأل تجاوزكم الحدّ بغير حقّ إلا راجع على أنفسكم؛ إذ تجنون عليها جناية عظيمة تجلب لكم عذاباً أليماً عند ربكم، ويكون ما تصيرونه من مريضات أهوائكم وشهواتكم متاعاً قليلاً زائلاً من أنواع متاع الحياة الدنيا، وستمرّون في رحلة امتحانكم إلى غايتها، وتنتهي آجالكم وتموتون، ثم بعد مدة البرزخ الفاصل بين الموت والبعث إلينا وحدنا رجوعكم، وتعيين زمان رجوعكم، وتهيئة مكانه، فنحاسبكم على أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، ولدى محاسبكم نبتلكم بكل ما كنتم تعملون في الدنيا من البغي والمعاصي، فنجازيكم عليها.

٢٤ - ما صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها، بعد كثرتها والاعتثار بها؛ إلا كالمطر الذي اختلط به نبات الأرض، فنبت بالماء من كل نوع من النبات، مختلط بعضها ببعض، ممّا يأكل الناس من الحبوب والثمار، وممّا تأكل الأنعام من الحشيش ونحوه، حتى إذا استكملت الأرض حُسْنَهَا ونضارتها، وأظهرت ألوان زهرها، وتزيّنت بأصناف النباتات المختلفة، وظنّ أهل تلك الأرض ظناً راجحاً أنّهم قادرون على حصّادها وقطافها، أنّها قضاؤنا بهلاكها وإبادة كلّ ما نبت فيها في الليل أو النهار، فجعلناها محصودةً مقطوعةً، كأن لم تكن تلك الأشجار والنبات والزروع قائمة على ظهر الأرض في الماضي القريب، كما بيّنا لكم - أيها الناس - مثل الحياة الدنيا في سرعة تقضيها، وانقطاع ملاذها، بعد إقبالها واعتثار الناس بها، كذلك نبين لكم حُجَجَنَا وأدلتنا لمن تفكّر واعتبر.

٢٥ - والله يدعوكم إلى الجنة دار السلام التي تسلمون فيها من الموت والمرض والمصائب، ويسلم الله عليكم، وتسلم الملائكة، ويسلم بعضكم على بعض، والله يهدي هداية توفيق ومعونة بمشيئته التي لا تفارق حكمته وعلمه بما في نفوس عباده من خير إلى دين الإسلام الموصل إلى دار السلام.

٢٦ - للمؤمنين الذين أحسنوا عبادة الله وأطاعوه، المثوبة الحُسنى، وهي: الجنة، وزيادة عليها، وهي: النظر إلى وجه الله الكريم في الجنة، والمغفرة والرضوان، ولا يغشى وجوه أهل الجنة غبارٌ ولا هوانٌ، كما يلحق وجوه أهل النار. أولئك الفضلاء المتصفون بهذه الصفات هم أصحاب الجنة الملائمون لها، المخالطون لألوان نعيمها، وهم فيها دائمو البقاء لا يخرجون منها أبداً ولا يموتون.

٢٧ - والذين عملوا الكفر والمعاصي في الدنيا، فلهم جزاء السيئة التي عملوها بمثلها من عقاب الله في الآخرة، وتغشى وجوههم ذلّة وهوانٌ، لعقاب الله إيّاهم، ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم، كأنما أُلِست وجوههم سواداً من الليل المظلم، أولئك البُعداء عن رحمة الله أصحاب النار الملائمون لها، المخالطون لألوان عذابها، وهم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها ولا يموتون، كما أنهم صمّوا في الدنيا على أن يظّلوا أبداً جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكرين لرسالاته.

٢٨ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لآياتنا - حين نجمع الخلائق جميعاً لموقف الحساب، وبعد مدة متراخية من حشرهم نقول للذين أشركوا: الزموا مكانكم في الموقف واثبتوا فيه أنتم وشركاؤكم، حتى تسألوا أنتم أيها المشركون والأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله، وتنتظروا ما يفعل بكم وبهم، ففرّقنا بين العابدين والمعبودين، وميّزنا بينهم، وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، وقالت الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله: ما كنتم إيّانا تعبدون في الدنيا، بل كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم، وتعبدون الشيطان بطاعته فيما يأمركم به من الكفر، وفيما ينهاكم عنه من الإيمان.

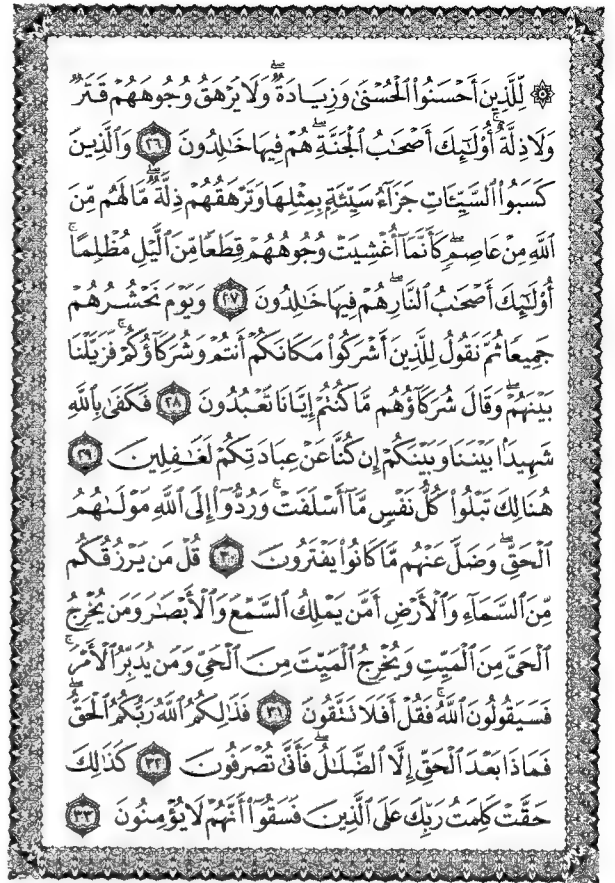
٢٩ - فإن كنتم - أيها المشركون - لا تُصدّقوننا، فالله يشهد لنا أننا لم ندعكم إلى عبادتنا، ولم نطلب منكم أن تتخذوا آلهة شركاء لله من دونه، وأغنى الله حالة كونه شهيداً حاضراً بيننا وبينكم، يشهد لنا أننا لم ندعكم إلى عبادتنا، وما علمنا أنكم كنتم تعبدوننا من دون الله، وما كنّا عن عبادتكم إيّانا إلا غافلين، ما نشعر بذلك.

٣٠ - في ذلك الموقف الدحض الزلزل تُخبر وتعلم كل نفس ما قدّمت من خير أو شر في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ورُدُّوا جميعاً إلى الله الذي يتولّى حسابهم وثوابهم بالعدل، وبطل وذهب عنهم ما كانوا يكذبون فيه في الدنيا، وهو قولهم: أنّ هذه الأصنام تشفع لهم.

٣١ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: مَنْ يرزقكم من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات؟ بحسب أنظمة الكون السببية؟ بل مَنْ يملك السمع والأسماع، والبصر والأبصار، بإيجادها ابتداءً، وإمدادها بالبقاء إلى آجالها؟ ومن يُخرج الحي من الميت التي ترزونها في ظواهر الكون الكثيرة في الحياة النباتية من البزور التي لا حياة فيها، وفي الحياة الحيوانية من الأغذية التي لا حياة فيها، بخلق الله لها في الأجساد الحية تكون منها نُطف، تحتوي على كائنات حية، تتعقد من بعضها الأجنة، فكل حي في الوجود أخرجه الله من ميت لا حياة فيه؟ ومن يخرج الميت من الحي التي ترزونها في ظواهر الكون الكثيرة في بلايين الخلايا التي تموت كل دقيقة داخل جسم الإنسان الحي، وفي المشاهدات الدائمة التي تشاهدونها بأبصاركم؛ يُخرج اللبن من الحيوانات الإناث اللبن، ويُخرج المسك الذي لا حياة فيه من غدة من غدد الغزال، ويُخرج العنبر من حوت العنبر؟ ومن يُدبر أمر السموات والأرض وما فيها؟ إنهم سيعترفون بعد حوار جدلي أنّ فاعل هذه الأشياء هو الله تعالى، وإذا كانوا يُقرُّون بذلك، فقل لهم - يا رسول الله -: أفَتَصْرُفُون على موقفكم الباطل، فلا تجعلون بينكم وبين عذاب ربكم وقاية تقيكم، بنذ عقائدكم الشركية، والإيمان بالله وحده لا شريك له؟

٣٢ - فذلّكم العظيم الجليل الذي يفعل هذه الأشياء، ويُقدِّر عليها هو الله ربكم الحق، الثابتة ربوبيته بالبرهان ثبوتاً لا ريب فيه، الذي يستحق العباداة لا هذه الأصنام، فما الذي يكون بعد الحق إلا الضياع والباطل المُبّين له، فكيف تُصرفون عن هذا الحق الجلي الواضح ببراهينه إلى الضلال بتأثير الأهواء والشهوات، وشياطين الإنس والجن؟!

٣٣ - كذلك الحق الذي دلّت عليه آيات الله في كونه، من أنه لا رب في الوجود إلا الله، وجبّت وثبتت كلمة ربك بمقتضى سنّته التكوينية على الذين تَمَرَّدوا في كفرهم، وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه، أنهم لا يؤمنون مُستقبلاً مهما أمهلوا، وقدّمت لهم الأدلة والبراهين.



٣٤ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: هل بعض هذه الأصنام التي تزعمون أنها آلهة، مَنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُنْشِئَ الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ، ثُمَّ يَعْبُدَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ؟ قل يا رسول الله -: اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ وَإِعَادَتِهِ، فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ؟

٣٥ - قل - يا رسول الله -: هل بعض هذه الأصنام التي جعلتموها شركاء لله مَنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُرْسِدَ إِلَى الْحَقِّ؟ إِذَا قَالُوا: لَا، وَلَا بَدَّ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ. قل لهم أنت - يا رسول الله -: الله وحده يهدي للحق، وإذا كان شركاؤكم لا يهدون إلى الحق فأنأ أسألكم: أيهما أحق بالاتباع؟ مَنْ يهدي وحده إلى الحق أم هذه الأصنام التي لا تهدي إلا أن تُهْدَى؟ فما لكم كيف تحكمون بالباطل حيث تزعمون أنهم أندادُ الله؟

٣٦ - وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ما لا علم لهم بحقيقته وصحته، بل هم في شك منه وريبة، إِنَّ الظَّنَّ الضَّعِيفَ التَّوَهُمِيَّ لَا يُغْنِي عَنِ الْيَقِينِ شَيْئاً وَلَا يَقُومُ مَقَامَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ مِنْ اتِّبَاعِهِمُ الظَّنَّ وَتَكْذِيبِهِمُ الْحَقَّ، وَسِيحَاسِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ.

٣٧ - وما كان ينبغي لهذا القرآن بصفاته الإعجازية أَنْ يُخْتَلَقَ وَيُنْسَبَ إِلَى مَنْ هُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، مِنْ إِنْسٍ أَوْ جِنٍّ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَكِنْ كَانَ الْقُرْآنُ مُصَدِّقاً بِمَا جَاءَ مِنْ بَشَائِرِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي أُنْزِلَتْ مِنْ قَبْلِهِ، وَفِي هَذَا الْقُرْآنِ تَبَيُّنٌ وَتَوْضِيحٌ مَا جَاءَ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ مِنْ مُجْمَلَاتٍ وَنُصُوصٍ غَامِضَةٍ الدَّلَالَاتِ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ مُنْزَلٌ وَمُوحًى بِهِ مِنْ رَبِّ كُلِّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ لَيْسَ مُفْتَرًى عَلَى اللَّهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ.

سُورَةُ الْاِنشَاءِ

سُورَةُ الْاِنشَاءِ

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهِ قُلْ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُهِ فَأَن تَوْفُكُونَ ﴿٣٦﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ قُلْ لَكُمُ الْكَيْفُ تَحْكُمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَن يُوْثِقُ بِهِ وَيُؤْمِنُ بِهِمْ مَن لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتَ بَرِيءٌ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

٣٨ - بل. أيقول هؤلاء المشركون: افترى محمد هذا القرآن واختلقه من قبل نفسه؟ قل لهم - يا رسول الله -: إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ: فَأَتُوا بِسُورَةٍ شَبِيهَةٍ بِهِ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَحُسْنِ النُّظْمِ، وَادْعُوا لِلِاسْتِعَانَةِ عَلَى ذَلِكَ مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ خَلْقِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي ادِّعَاءِ أَنَّ الْبَشَرَ قَادِرُونَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، وَأَنْ مُحَمَّدًا افْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَلَمْ يُوحَ بِهِ إِلَيْهِ، فَحَيْثُ عَجَزْتُمْ عَنْ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ.

٣٩ - فما أجبوا وما قَدَرُوا، بل سارعوا إلى التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ يَتَدَبَّرُوا آيَاتِهِ، وَيَقْفُوا عَلَى مَا فِي تَضَاعُيفِهِ مِنَ الْأَدَلَةِ عَلَى صِدْقِهِ، وَكُفَرُوا بِمَا لَمْ يَحِيطُوا بِهِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَاقْتَرَبَ تَصْيِيرُ مَا أُنْذِرُوا بِهِ مِنْ عَقُوبَاتٍ مُعْجَلَاتٍ فِي الدُّنْيَا أَمْراً واقعاً متحققاً، فَلْيَحْذَرُوا وَقُوعَ مَا أُنْذِرُوا بِهِ. كَمَا كَذَّبَ هَؤُلَاءُ بِالْقُرْآنِ، كَذَلِكَ كَذَّبَتْ الْأُمَمُ الْمَاضِيَةُ أَنْبِيََاءَهُمْ فِيمَا وَعَدُوهُمْ بِهِ، فَانْزَلِ اللَّهُ بِهِمْ عَقُوبَاتٍ سَاحِقَاتٍ مَاحِقَاتٍ. فَانْظُرْ - أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ الْمُؤَهَّلُ لِلنَّظَرِ التَّفَكُّرِيِّ فِي آثَارِ الْمُهْلِكِينَ السَّابِقِينَ - كَيْفَ كَانَ آخِرُ أَمْرِ الظَّالِمِينَ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الْمُهْلَكَةِ بِالْعِقَابِ الرَّبَّانِيِّ الشَّامِلِ؟

٤٠ - ومن قومك - يا رسول الله - مَنْ سَيُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ مُسْتَقْبَلاً، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى ذَلِكَ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ بِالْمُفْسِدِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ. أَبَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حُكْمَهُ فِي عَدَمِ إِنْزَالِ الْعِقَابِ الْمَعْجَلِ بِالْكَفَارِ الْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ، وَهِيَ أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ فِي نَفُوسِ بَعْضِهِمْ اسْتِعْدَاداً لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ مُسْتَقْبَلاً، وَعَلِمَ أَنَّ آخِرِينَ مِنْهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ مَيُؤَسٍّ مِنْهَا، وَهَؤُلَاءِ يَسْتَحْقُونَ أَنْ تَنْزَلَ بِهِمْ عَقُوبَاتٌ فَرْدِيَّةٌ، وَمُهْلَكَاتٌ خَاصَّةٌ.

٤١ - وَإِنْ كَذَّبَكَ قَوْمُكَ - يا رسول الله - فَقُلْ لَهُمْ: لِي أَثَرُ عَمَلِي خَيْراً كَانَ أَمْ شَرّاً، وَلَكُمْ أَثَرُ عَمَلِكُمْ خَيْراً كَانَ أَمْ شَرّاً، فَإِنْ كُنْتَ كَاذِباً أَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ، فَأَنَا وَحْدِي أَنَالُ عِقَابَ افْتِرَائِي عَلَيْهِ، وَأَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِنْ مَسْئُولِيَةِ مَا أَعْمَلُ، وَإِذَا كَذَّبْتُمْ بَيَّاتِ اللَّهِ فَسْتَنَالُونَ عِقَابَ تَكْذِيبِكُمْ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِنْ مَسْئُولِيَةِ كُفْرِكُمْ وَالْجِزَاءِ عَلَيْهِ.

٤٢ - ومن هؤلاء المشركين مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ - يا رسول الله - بِأَسْمَاعِهِمُ الظَّاهِرَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْمَعُكَ بِمَرَكَزِ السَّمْعِ فِي دِمَاغِهِ. أَفَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى إِسْمَاعِ الصُّمِّ صَمَماً دَاخِلِيّاً، الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ فِي مَرَكَزِ السَّمْعِ فِي أَدْمِغَتِهِمْ، مَا تَنْقَلُ مِنْ مَسْمُوعَاتٍ أَجْهَرَةٍ نَقَلَ الْأَصْوَاتُ فِي آذَانِهِمْ؛ بِسَبَبِ الصَّوَارِفِ وَالْحُجُبِ؟! إِنَّ الْقَادِرَ عَلَى إِسْمَاعِهِمْ سَمْعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ هُوَ اللَّهُ الرَّبُّ الْخَالِقُ، بِسُلْطَةِ الْإِجْبَارِ التَّكْوِينِي، لَكِنَّهُ سَبْحَانَهُ لَمْ يَشَأْ، لِمَنَافَاتِهِ لِمَشِئَةِ التَّخْيِيرِ الَّتِي شَاءَهَا لِعِبَادِهِ.

٤٣ - ومن هؤلاء المشركين مَنْ ينظُرُ إليك - يا رسول الله - بأبصارهم الظاهرة، أفأنت تهدي العمي عمى داخلياً بمنع مراكز البصر في أدمغتهم من أن تُبصر ما تنقله من مراثيات أجهزة نقل المراثيات في أعينهم؟ إنك لا تستطيع ذلك، لأننا لم نعطك سلطة الإجبار التكويني، بعد أن منحنا الناس حرية الاختيار بإراداتهم، لا بتلاهم في ظروف الحياة.

٤٤ - إن الله لا يظلم الناس شيئاً بزيادة في سيئاتهم، أو نقص من حسناتهم، ولكن الناس لا يظلمون إلا أنفسهم، بالكفر والمعصية ومخالفة أمر الله ونهيه.

٤٥ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لآياتنا - يوم يجمع الله هؤلاء المشركين بعد البعث في موقف الحساب، كأنهم لم يقيموا في قبورهم طوال مدة البرزخ بين الموت والبعث إلا بمقدار ساعة من النهار الذي كانوا يعهدونه في الحياة الدنيا، يعرف بعضهم بعضاً إذا خرجوا من قبورهم كما كانوا يتعارفون في الدنيا، ثم تنقطع المعرفة بينهم إذا عاينوا أهوال يوم القيامة. قد خسر من باع آخرته الباقية بدياه الفانية، وكذبوا بقاء الله للحساب وفصل القضاء، وما كانوا في الدنيا مهتدين إلى ما يصلحهم وينجيهم من هذا الخسار.

٤٦ - وإما نريئك - يا رسول الله - بعض ما نعدهم به من العذاب المعجل عقاباً لإصرارهم على الكفر والتكذيب، أو نتوفاً قبل أن نريئك بعض الذي نعدهم في الدنيا، فإلينا وحدنا مرجعهم في الآخرة، وسترى - يا رسول الله - ما أعد الله لهم من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم، والله حاضر مراقب يعلم كل صغيرة وكبيرة بكل ما يعملون في الحياة الدنيا مع توالي الوحدات الزمنية، ثم هو سبحانه شهيد عليهم يوم الدين، يخبرهم عند محاسبتهم بجرائمهم التي كانوا قد اكتسبوها في الحياة الدنيا، ويجازيهم عليها يوم القيامة.

٤٧ - ولكل أمة تقدمت قبلكم - أيها الناس - رسول يدعوهم إلى الإيمان بالله وطاعته، فإذا جاءهم رسولهم وبلغهم ما أرسل به إليهم، فكذبوه قوم وصدقوه آخرون، حكم الله بينهم بالعدل، وهم لا يظلمون من جزاء أعمالهم شيئاً، ولكن يجازي كل أحد على قدر عمله.

٤٨ - ويقول هؤلاء الكفار: متى زمن تحقيق هذا الموعود به من عذابنا؟ إن كنتم صادقين فيما تعدونا به؟

٤٩ - قل لهم - يا رسول الله -: إني لا أملك لنفسي دفع ضرر أو جلب نفع، ولا أقدر على ذلك إلا ما شاء الله أن أقدر عليه، لكل أمة أنذرنا الله بعقاب معجل وقت معين في علمه تعالى لا يتغير ولا يتبدل، فإذا جاء وقت إنزال عقابه فيهم، فلا يتأخرون عن ذلك الأجل الذي أجل لهم لحظة من الزمن، ولا يتقدمون عليه لحظة.

٥٠ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: أنفكرتم تفكيراً سديداً بأناء وتعمق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصرية، إن أتاكم عذاب ربكم الذي تستعجلون في الليل أو في النهار، فماذا يكون تصرفكم؟ أتستقبلونه بمسرة وترحاب؟ أم بخوف وهلع وإيمان وندم على ما سلف منكم. ما الذي يستعجل من عذابنا هؤلاء الكفرة المكذبون؟

٥١ - أبعد إمهال لكم مدة من الزمن، إذا وقع العذاب وحل بكم - أيها المشركون - آمتم بالله، وقت لا ينفعكم فيه التصديق، فقد انتهى زمن امتحانكم، وجاء زمن محاسبكم، ويقال لكم: أألأن تؤمنون حين وقع العذاب، وقد كنتم به تستعجلون تكذيباً واستهزاء؟

٥٢ - ثم بعد البعث والحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء بإدخال الظالمين جهنم دار العذاب، إذا سألوا تخفيف يوم من العذاب عنهم، قيل لهم: ذوقوا عذاب الله الدائم. لا تجزؤون إلا بسبب ما كنتم تكسبون في الدنيا من الشرك والتكذيب والجرائم والآثام؟

٥٣ - ويستخبرك هؤلاء المشركون - يا رسول الله -: أحق ما تعدنا به من نزول العذاب المعجل؟ قل لهم - يا رسول الله -: نعم وربّي، إن وعد الله لكم بالعذاب المعجل وعد حق لا شك فيه، وما أنتم بقادرين على الإفلات من عذاب ربكم، إذا شاء إنزاله بكم.



٥٤ - ولو أن لكل نفس أشركت ما في الأرض من شيء، لبذلت ما تنجو به من عذاب يوم القيامة، إلا أنه لا ينفعها الفداء ولا يقبل منها، وأخفوا آثار الغم والأسف يوم القيامة على ما فعلوا من الظلم، حين رأوا بؤادر وسائل العذاب الرباني لهم جزاء ظلمهم، وكان إسرارهم الندامة؛ لأنهم كبراء قومهم، لا يريدون أن يفتضحوا أمام أتباعهم، إذ ما زال الكبر يعمل في صدورهم أعماله، وحكم الله عز وجل بينهم بحسب جرائمهم بالعدل، وهم لا يظلمون في الحكم؛ لأن الله تعالى لا يعاقب أحداً إلا بذنبه.

٥٥ - تنبهوا وتحققوا إن كل شيء في السموات والأرض ملك لله تعالى، لا يشركه فيه غيره، فليس للكافر شيء يفتدي به من عذاب الله يوم القيامة، تنبهوا وتحققوا إن كل ما وعد الله به على لسان نبيه ﷺ من ثواب الطائع وعقاب العاصي هو صدق مطابق لما قدره في المستقبل، وسيقع حتماً، ولكن أكثرهم لا يعلمون حقيقة ذلك.

٥٦ - الذي يملك السموات والأرض هو وحده القادر على الإحياء والإماتة، يدخل الروح في الجسد، فيكون الجسد حياً، ويفصل الروح عن الجسد، فيكون الجسد ميتاً، وإلى حساب ربكم وحده، وفضل قضائه، وتنفيذ جزائه - أيها الناس - ترجعون بعد بعثكم من قبوركم.

٥٧ - يا أيها الناس جميعاً قد جاءكم في آيات القرآن المجيد، موعظة من ربكم تثير الرغبة والرغبة في نفوسكم، وتذكركم بما يلين قلوبكم، وجاءكم في آيات القرآن شفاء لما في الصدور من أمراض العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة والجهالات المهلكة، مما فيه صلاحكم وصلاح مجتمعاتكم، وهو هدى من الضلالة، يرشدكم إلى ما فيه سعادتكم في دنياكم وآخرتكم، وأثر من آثار رحمة الله على المؤمنين؛ لأنهم هم الذين انتفعوا بالقرآن واتبعوا ما يهدي إليه دون غيرهم.

٥٨ - قل - يا رسول الله ويا كل داع إلى الله من أمته - للناس مبيناً ومقتنعاً: استمسكوا بإفضال الله عليكم، ورحمته العظيمة بكم، وما آتاكم في كتابه المجيد من المواعظ وشفاء الصدور، فبذلك الذي جاءكم من ربكم، والحرص على الاستسكاك به واتباعه فليفرحوا، واعلموا أن ما أعد الله لكم - فيما لو استمسكتكم به، واتبعتم وصاياه - هو خير لكم من كل ما يجمعون من متاع الدنيا ولذاتها الفانية. وفي هذه الآية دعوة إقناعية بشأن القرآن وما جاء فيه من موعظة وشفاء وهدى ورحمة، رغبة في استجابة غير المستجيبين بعد من الناس، وتثبيتاً للمستجيبين، وإعلاماً لهم بما يخفف تعلقهم في الدنيا، ويربط قلوبهم بفضل الله المدخر للمؤمنين.

٥٩ - قل - يا رسول الله - لكفار مكة: أنفكرتم تفكيراً سديداً بأنانية وتعمق حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصرية، ما خلقه الله لأجل نفعكم من بركات السماء من زرع وضرع وغيرهما، فجعلتم من ذلك الرزق حراماً كالبحيرة والسائبة، وحلالاً كالهيئة؟ قل لهم - يا رسول الله - : أالله أذن لكم بأن تصدروا أحكام تحريم وتحليل، وهو صاحب الحق دون غيره في أحكام التحريم والتحليل التعبدية؟ بل أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه، وادعائكم: أن الله أمركم بهذا.

٦٠ - أي شيء يظن هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب أن الله فاعل بهم؟ أيحسب هؤلاء إذا لقوه يوم القيامة، أنه سيعفيهم من المسؤولية ولا يعاقبهم على افتراءاتهم في التحليل والتحريم دون إذن منه، ومن غير دليل يستندون إليه؟ إن الله لذو فضل على الناس ببعثة الرسل، وإنزال الكتب، وإمهال المكذبين رغبة في إيمانهم، فلا يعجل لهم العقوبة، ولكن أكثرهم كافرون، لا يشكرون الله على ذلك الفضل والإحسان.

٦١ - وما تكون - يا رسول الله أنت وأصحابك والداعين بدعوتك - في أمر من الأمور، وما تتلو شيئاً من كتاب ربك من مقروء، ولا تعملون - أيها المؤمنون - من عمل صالح تدعون فيه إلى ربكم، وتحملون أذى أعدائكم، إلا كنّا حاضرين مراقبين لأعمالكم، حين تندفعون بهمة ونشاط مجاهدين في نصرة دينكم، وما يبعد عن علم ربك - يا رسول الله - ولا يخفى عليه من مقدار وزن ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من مثل وزن ذرة حتى أقل شيء في الوجود غير قابل للانقسام، ولا أكبر منها حتى أعظم مقدار في الوجود، ولا شيء في الوجود كله من الذوات والصفات والأحداث إلا هو مسجل في كتاب واضح جلي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرَأُ
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ
وَالِإِيَّهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ
فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ آذَنَ لَكُمْ أَنَّهُ عَلَى اللَّهِ
تَقَرُّونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبَيِّنُونَ
فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

٦٢ - تَنبَهُوا وَتَحَقَّقُوا، إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الَّذِينَ نَصَرُوهُ وَأَحْبُوهُ وَتَحَقَّقُوا بعبوديته لا خوف عليهم تَضْطَرِبَ به نفوسهم وقلوبهم يوم الدين، بسبب ترقب مكروه من عذاب الله، ولا هُمْ يحزنون على شيء فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها؛ لأن رحمة الله ستشملهم بالعفو والغفران، ولأن ما سينالون من النعيم في الجنة فوق ما يتمنون ويشتهون.

٦٣ - وصفة أولياء الله: أنهم آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً راسخاً مستوفياً كل عناصر الإيمان، وكانوا يتقون عقوبات الله بامتنال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، ولاقوا ربهم على ذلك.

٦٤ - لهؤلاء الأولياء الخبر السار المفرح من الله سبحانه في الحياة الدنيا؛ بالرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له، والثناء الحسن، والتأييد والنصر والتمكين في الأرض، ولهم البشرى من الملائكة بالمغفرة والرحمة قبيل قبض أرواحهم وهم يُحْتَضَرُونَ، وبعد الموت، وفي موقف الحشر، وبعد الحساب، وبمشاهدة منازلهم في الجنة، لا خُلف لوعده الله الذي وَعَدَ به أوليائه وأهل طاعته في كتابه وعلى السنة رسله، ذلك الذي وعدهم الله به في الآخرة هو الظفر العظيم الرفيع المتزلة.

٦٥ - ولا يحزنك - يا رسول الله - قول هؤلاء المشركين لك، ولا يغمك تخويفهم إياك، إِنَّ القوة الغالبة كلها لله جميعاً، هو المُنْفَرِد بها دون غيره، وهو ناصرك عليهم، والمتقم لك منهم، فلا يحزنك ما يقولون فيك وفي القرآن، وما يدبرونه في أمرك، هو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم وبما يدبرون من مكاييد، وما يُعْلَدُونَ من قوى وخطط لمنع دين الله من الظهور.

٦٦ - انتبهوا واعلموا مُتَحَقِّقِينَ، إِنَّه لا مُلك لأحد في السموات ولا في الأرض إلا لله عز وجل، فهو يملك مَنْ في السموات من

ملائكة، ومَنْ في الأرض من ملائكة وإنس وجن، وأي شيء يَتَّبِعُ الذين يدعون من دون الله ويعبدونهم على أنهم شركاء لله؟ ما يَتَّبِعُونَ في عبادتهم لألهتهم إلا الظن التوهمي بأنها تشفع لهم، وتُقَرِّبُهُمْ إلى الله، وما هم إلا يكذبون على الحقيقة بالتوهم الكاذب، والظن الضعيف الذي لا قيمة له في تحصيل المعارف.

٦٧ - هو الله ربكم - أيها الناس - الذي خَلَقَ لكم الليل لتسكنوا فيه عن حركة العمل والكدح لكسب أرزاقكم، ولتستريحوا فيه من التعب، وخلق النهار مُبْصِراً لكم بضيائه، كاشفاً لكم الأشياء التي تريدون إبصارها بأعينكم؛ لتتهدوا فيه لحوائجكم وأسباب معاشكم، إِنَّ في ذلك آياتٍ لقوم يسمعون سَمِعَ اعتبار وتدبر، فيعلمون أَنَّ الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الإله المعبود المُنْفَرِد بالوحدانية.

٦٨ - قالت طائفة من المشركين: إِنَّ الملائكة بناتُ الله، تنزه الله وتقدس عن اتِّخَاذِ الولد، هو الغني بذاته وصفاته عن جميع خلقه، فكيف يليق بجلاله اتِّخَاذُ الولد؟ له مُلك ما في السموات وما في الأرض، وكلُّهم عبيده وفي قبضته وتصرفه وهو خالقهم، فكيف يكون له ولد مِمَّنْ خلق وكل شيء مملوك له؟! ما عندكم حُجَّة وبرهان على ما زعمتم من اتِّخَاذِهِ تعالى ولداً، أنقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته وصحته بغير حُجَّة ولا برهان؟

٦٩ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء الذين يقولون على الله الباطل ويزعمون أَنَّ له ولداً: إِنَّ الذين يخلتقون الكذب من عند أنفسهم، فيصفون الله بما يستحيل أَنْ يُصَفَ به، أو يتقولون عليه أقوالاً لم يقلها، لا ينجحون في سعيهم، ولا يفوزون بمطلوبهم في الدنيا ولا في الآخرة.

٧٠ - ما يتقلبون فيه مما يلد ويطيّب لهم هو متاع قليل ضئيل زائل يتمتعون به في الدنيا مدّة أعمارهم وانقضاء آجالهم، ثم إلينا وحدنا بعد مدّة البرزخ الفاصل بين الحياة الأولى والحياة الأخرى رجوعهم، إذ نحاسبهم ونفصل القضاء بينهم، ونحكم عليهم يومئذ بأنهم كانوا كافرين، ثم نُنفذُ فيهم ما حكمنا عليهم به من العذاب الشديد؛ بسبب ما كانوا يكفرون كُفْراً إرادياً بما أوجبنا عليهم أن يؤمنوا به دون أن يكون لهم عذر ما بكفروهم.

الْآيَاتِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ذَلَالٌ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ الْآيَاتِ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ آيَاتٍ لِّتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُلْقِيهِمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

٧١ - وأقرأ على قومك - يا رسول الله - المعتزّين بقوّتهم، المستهزّين بالمؤمنين، خبر نوح ذا الشأن العظيم حين قال لقومه الذين توعدّوه بأن يقتلوه رجماً بالحجارة إن لم ينته عن دعوتهم ومقاومة شركهم: يا قوم إن كان ثقل عليكم طول مقامي فيكم، ووعظي إياكم بآيات الله وحججه وبيّناته، وعزمتكم على قتلي وطردي، فعلى الله وحده توكلت في أن يحبط ما تكيدون وتدبرون، فهو حسبي وثقتي، فأحكموا كل أمركم، واعزموا على إهلاكه، وادعوا آلّهتكم فاستعينوا بها على مطلوبكم، ثم لا يكن أمركم الذي تجمعون عليه للتخلص مني، وتعدّون له ما تستطيعون من قوى تدبيراً خفياً مبهماً، ولكن ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً، ثم بعد أن تجمعوا كل قواكم، وتدبروا كل مكايذك، أدوا إليّ بما في أنفسكم من مكروه، وما توعدوني به من قتل وطردي، ولا تمهلوني لحظة واحدة، بل عجّلوا أشد ما تقدرون عليه.

٧٢ - فإن أدبرتم مبتعدين عن الاستجابة لدعوتي، فما سألتكم من عوّض على تبليغ الرسالة، حتى أكون مثهما في نفوسكم بأنّي أدعوك لمصلحة دنيوية لي عندكم، ما ثوابي وجزائي على قيامي بوظائف رسالتي إلا على الله الذي أرسلني لأبلغكم رسالته، وأدعوك إلى الإيمان به، وعبادته وحده، وأنا مثلكم مأمور بالشيء الذي أدعوك إليه، قد أمرني ربّي أن أكون واحداً من المسلمين، المؤمنين برّبهم، المطيعين لأوامره ونواهيه.

٧٣ - فكذب نوحاً قومه تكديباً غير مطموح في رجوعهم عنه، فكان من الحكمة إهلاكهم، فأمرنا نوحاً بأن يصنع السفينة ويركب فيها هو والذين آمنوا به وأتبعوه، فخلصناه هو ومن معه، وهم راكبون في السفينة، من شرور الكفار، ومن الطوفان، وجعلنا الذين نجّيناهم

سكان الأرض يخلّفون من هلكوا بالطوفان، ويخلف بعضهم بعضاً، وأغرقتنا بالطوفان الشامل الذين كذبوا بآياتنا الإعجازيّة والبيانيّة والكونيّة، فانظر - أيها المتفكّر المتدبّر المعتبر بتصاريفنا في عبادنا، الحريص على نجاته وسعادته - كيف كان آخر أمر الذين أنذرهم نوح بعقابنا الشديد المعجّل، فلم يؤمنوا ولم يقبلوا ذلك؟

٧٤ - ثم بعد مدّة من الزمن بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم، فجاؤهم بالدلالات الواضحات، والمعجزات الباهرات التي تدلّ على صدقهم، فبلغوهم رسالة ربّهم، وصبروا عليهم، فكذبوهم، وأصرّوا على كفرهم، واستخجرت قلوبهم، فما كان لديهم أيّ استعداد لأن يؤمنوا عن طريق إراداتهم الحرّة، بسبب ما كذبوا به من قبل طوال مسيرة رسلهم بينهم داعين مبليغيين، مثل ذلك الطبع الذي وصلت إليه أقوام الرسل السابقين، الذين استحقّوا بتكذيبهم رسل ربّهم الإهلاك الشامل، يطبع الله على قلوب كل الكافرين في كل عصر، وفي كل أمة.

٧٥ - وبعد مدّة متراخية من الزمن بعثنا من بعد أولئك الرسل، موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون ملك مصر وأشراف قومه، ومجلس مستشاريه، وكبار أركان ملكه بالمعجزات الدالّات على صدقهما، فاستكبروا عن الاستجابة لدعوة الحقّ الربّانيّة، وكانوا قوماً كفاراً مكتسبين للإثم مُتبعثين في الفجور.

٧٦ - فحين جاء فرعون وقومه الحقّ الذي جاء به موسى من عند الله، كابروا وعاندوا وقالوا: إن هذا الذي جاء به موسى من آيتي العصا واليد سحرٌ ظاهرٌ واضحٌ يعرفه كل أحد.

٧٧ - قال لهم موسى مُتعبجاً من كلامهم: أتقولون للحقّ لما جاءكم: هو سحرٌ، وهو حقّ جليّ واضح!! أسحرٌ هذا؟ إنّه ليس بسحر، وصاحبُ السحر لا يظفر أبداً مهما اتّخذ من وسائل، ومهما أحكم من أسباب؛ لأنّ السحر تخييل وتمويه.

٧٨ - قال قوم فرعون لموسى: أجيئنا ومعك العجائب السحرية؛ لتصرفنا وتلوّينا عمّا وجدنا عليه آباءنا من الدين، ولنكون لك ولأخيك هارون، الاستعلاء والتعظيم في أرض «مصر»؟ وما نحن لكما بمصدّقين فيما جئتما به.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ إِن كَانَ كِبَرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِعَايِنَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أَنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَفًا وَآخَرْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْغَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِثْلُ سِحْرِ مُوسَى ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ كُمْ أُسْحُرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَكُنَّا لَكُمْ لِكْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

٧٩ - وقال فرعون: جيئوني بكل ساحر مُتقن للسحر، لأظهر أن ما أتى به موسى سحرٌ.

٨٠ - فحين جاء السحرة من الأقاليم المصرية، واجتمع بهم فرعون، وعرض عليهم الأمر الذي دعاهم إليه، ووعدهم بالأجر المادي الكبير، وأعدوا غدّتهم، وحضروا مكان المباراة، وقال السحرة: إما أن تلقى، وإما أن نكون أوّل من ألقى؟ قال لهم موسى عليه السلام: ألقوا على الأرض ما معكم من الحبال والعصي.

٨١ - فلما ألقوا ما معهم من الحبال والعصي، وسحروا أعين الناس واسترهبوهم، قال لهم موسى عليه السلام واثقاً بنصرة الله له: الذي جئتم به والقيتموه هو السحر الباطل، الذي يُخيّل لأعين الناس تخيلاً، ولا يقلب حقائق الأشياء، إنّ الله سيهلكه، ويظهر فضيحة صاحبه، إنكم بسحركم مفسدون في الأرض، مع سيّدكم فرعون وجنوده؛ إنّ الله لا يصلح عمل المفسدين، بتخريب العمران، وقتل الأبرياء، وظلم الناس في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم.

٨٢ - ويظهر الله الحق الذي جئتم به ويؤقّبه ويعليه على باطلكم بكلماته التكوينية التي يقول فيها للشيء الذي أراده: كن فيكون فوراً على مراده جلّ جلاله، ولو كره المجرمون المنبعثون في المعاصي من آل فرعون.

٨٣ - فما صدّق بموسى عليه السلام مسلماً له مع ما أتى به من المعجزات العظيمة الباهرة، إلا ذرّته من قومه من بني إسرائيل، على خوف من فرعون وأشراف قومهم من بني إسرائيل، أن ينتقم منهم مُعذّباً لهم، وإنّ فرعون لعاتٍ قهار مُتكبّر في الأرض، وإنه لمن المُجاوزين الحدّ في كثرة القتل والتعذيب لبني إسرائيل.

٨٤ - وقال موسى للذرّية الذين آمنوا له من بني إسرائيل: يا قومي إنّ كنتم آمتم بالله إيماناً صحيحاً صادقاً، وأسلمتم له، فعليه وحده، إنّ كنتم مسلمين، فإنّ صدق التوكّل على الله يمدّكم بالقوة والهمة،

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكْلِمُنِيهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَاءٌ أَمِنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهَ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا الْقَوْمَ كَمَا يُبْصِرُونَ وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

تَوَكَّلُوا، ولأمره فسلموا، فإنه ناصر أوليائه، ومهلك أعدائه، إنّ كنتم مسلمين، فإنّ صدق التوكّل على الله يمدّكم بالقوة والهمة، والصبر والثبات.

٨٥ - فقال قوم موسى مُجيبين له: على الله وحده اعتمدنا لا على غيره، وإليه سبحانه فوَضنا أمرنا، ربّنا لا تُظهر علينا القوم الظالمين، ولا تُسلطهم علينا، ولا تُمكنهم من فتنتنا في ديننا بإغراءاتهم وتضليلاتهم، وتعذيبهم لنا، فإنّنا إنّ فُتْنَا في ديننا صرنا وسيلة فتنة للآخرين، إذ يتأثرون بِفِتْنَتِنَا عن ديننا فيتابعوننا، فنكون نحن بذلك فتنة لهم.

٨٦ - وَخَلَصْنَا بِرَحْمَتِكَ من أيدي قوم فرعون الكافرين؛ الذين يَسْتَعْبِدُونَا ويستعملوننا في الأعمال الشاقة. ٨٧ - وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ: أن اختارا وهيئاً لكما ولقويمكما بمصر بيوتاً لعبادتي فيها بالصلاة والذكر، واجعلوا بيوتكم هذه ذات قبلة متّجهة إلى بيت المقدس، وأقيموا الصلاة بالمواظبة عليها في أوقاتها، وأدائها على الوجه الشرعي المطلوب، وبشّر - يا موسى - المؤمنين الذين يقيمون الصلاة بالعاقبة الحسنة السارة في الدنيا وفي الآخرة.

٨٨ - وقال موسى: ربّنا إنّك آتيت فرعون ووزراءه ومستشاريه وأعيان مملكته، المناصرين له، والمؤيدين لجبروته من زخرف الدنيا ومباهجها وحُلِيِّها زينةً يتزيّنون بها، وأموالاً من الذهب والفضة والجواهر يكتزونها في الحياة الدنيا التي تبثلي فيها عبادك، ربّنا لقد امتحنتهم وأمهلتهم إمهاً طويلاً؛ لتكشف لهم ولغيرهم أنّ إرادتهم الحرّة التي منحتمهم إيّاها لاختبارهم لا تعزم إلا على أن يُضِلُّوا عن سبيلك، وصار صلاحهم وإيمانهم أمراً ميؤوساً منه، ربّنا اطمس على أموالهم بالمحو والإزالة، وغيرها عن هيئتها، فلا ينتفعوا بها، وشدّ على قلوبهم بالمكاره والمؤلّمات المُوجعات؛ لِإِلَاقَتِهَا لِلْحَقِّ، فلن يؤمنوا إلى أن يَرَوْا بِأَعْيُنِهِمْ مُقَدِّمَاتِ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْمُؤْلِمِ.

٨٩ - قال الله تعالى لموسى وهارون: قد أُجيبَت دَعْوَتُكُمَا فِي فرعون وأشراف قومه، وأموالهم، فَسْتَعَذِّبُهُمْ وَنُهْلِكُهُمْ مَعَ جُنُودِهِمْ، فَاسْتَقِيمَا فِي سُلُوكِكُمَا وَفِي قِيَادَتِكُمَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى صِرَاطِ رَبِّكُمَا، وَامْضِيَا لِأَمْرِي إِلَى أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ، وَلَا تَسْلُكَا طَرِيقَ الْجَهْلَةِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ صِرَاطَ الْحَقِّ مِنْ قَوْمِكُمَا بَنِي إِسْرَائِيلَ.

٩٠ - وَسَبَّزْنَا بِالْعَنَاءِ وَالْحَفَظِ مُصَاحِبِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الطَّرِيقَ الْيَبَسَ الَّذِي فَلَقْنَا الْبَحْرَ عَنْهُ حَتَّى عَبَّرُوهُ، وَخَرَجُوا مِنْهُ إِلَى الْبَرِّ أَمْنِينَ، فَلَحَقَهُمْ فِرْعَوْنُ هُوَ وَجُنُودُهُ ظُلُمًا وَتَجَاوَزَا لِلْحَقِّ، وَجَرَى رِوَاهُ هُوَ وَجُنُودُهُ جَرِيًّا سَرِيعًا لِيُدْرِكَهُمْ، فَلَمَّا أَدْرَكَ فِرْعَوْنُ الْغُرْقَ، وَعَايَنَ الْمَلَائِكَةُ وَالْعَذَابُ، قَالَ: صَدَّقْتَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي صَدَّقْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْخَاضِعِينَ لِلَّهِ بِالْإِقْبَادِ وَالطَّاعَةِ.

٩١ - أَلَا أَنْ تَتُوبَ يَا فِرْعَوْنَ، وَتُقَرِّبَ لَكَ بِالْعِبَادَةِ، حِينَ يَسْتُ مِنْ الْحَيَاةِ، وَأَيَقِنْتَ الْمَوْتَ؟! وَقَدْ عَصَيْتَ اللَّهَ قَبْلَ نَزُولِ عَذَابِهِ فِيكَ، وَأَضَعْتَ التَّوْبَةَ فِي وَقْتِهَا، وَأَثَرَتْ دُنْيَاكَ الْفَانِيَةَ عَلَى آخِرَتِكَ الْبَاقِيَةِ، وَكُنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ الطَّغَاةِ الْمُفْسِدِينَ الضَّالِّينَ الْمُضِلِّينَ عَنِ الْإِيمَانِ!!

٩٢ - فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ مِنْ أَنْ تَأْكُلَكَ حَيَاتَانِ الْبَحْرِ، وَنُلْقِيكَ عَلَى مُرْتَفَعٍ مِنَ الْأَرْضِ بِيَدِنَا، وَأَنْتَ جَسَدٌ لَا رُوحَ فِيكَ، فِي نَهَايَةِ الْخَسَةِ وَالذَّلَّةِ؛ لِتَصِيرَ بَرْنَى جَسَدِكَ عَلَى مُرْتَفَعٍ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلًا حَقِيرًا، لِمَنْ يَأْتِي وَرَاءَكَ مِنَ النَّاسِ عِبْرَةً يَعْتَبِرُونَ بِكَ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ حُجَجِنَا وَدَلَائِلِ قُدْرَتِنَا لَغَافِلُونَ، لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا وَلَا يَعْتَبِرُونَ.

٩٣ - وَنُوَكِّدُ لَكُمْ أَنَّنَا أَسْكَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنْزَلْنَاهُمْ مَثَلًا مَحْمُودًا، وَمَكَانًا صَالِحًا مَرْضِيًّا فِي أَرْضِ فِلَسْطِينَ وَبِلَادِ الشَّامِ بَعْدَ وَفَاةِ هَارُونَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَظَهَرُوا مَلِكُ طَالُوتَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الرِّزْقِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ مِنْ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ،

فَجَاءَهُمُ الْعِلْمُ الدِّينِيُّ الرَّبَّانِيُّ بِبِلَاغَاتِ مُوسَى وَهَارُونَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ بَعْدِهِمَا، وَاتَّبَعَ أَحْكَامَ دِينِ اللَّهِ بَعْضُهُمْ، وَخَالَفَهُمْ آخَرُونَ، إِذْ جَاءَ بَعْدَ صَالِحِيهِمْ خَلْفٌ فَاسِدٌ، وَرَثُوا الْكِتَابَ الرَّبَّانِيَّ وَلَمْ يَعْمَلُوا بِأَحْكَامِهِ، وَحَرَّفُوا فِي دِينِ اللَّهِ، فَغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ، فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ مَا أَنْزَلَهُمْ وَأَسْكَنَهُمْ مِنْ مَنَازِلَ حَسَنَةٍ فِي بِلَادِ الشَّامِ، بِسَبَبِ فُسَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ، وَظُلْمِهِمْ وَعُدْوَانِهِمْ، وَلَا يَقْتَصِرُ الْجَزَاءُ عَلَى مَا عَاقَبْنَاهُمْ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ رَبَّكَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لآيَاتِنَا - يَقْضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي كُلِّ مَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَبَعْدَ قَضَائِهِ بَيْنَهُمْ يُجَازِي الْمُحْسِنِينَ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ، وَالْمُسِيئِينَ بِعَدْلِهِ.

٩٤، ٩٥ - فَإِنَّ كُنْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - فِي ظَنٍّ ضَعِيفٍ مُوقِعٍ فِي خَيْرَةٍ وَتَرَدَّدَ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ قُرْآنٍ بِشَأْنِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، فَاسْأَلْ أَحْبَارَ الْيَهُودِ وَعُلَمَاءَهُمْ، الَّذِينَ يَقْرَأُونَ فِي كِتَابِهِمْ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهَا عَنْ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، لِيُطْلَعُوا - إِذَا صَدَقُوا - عَمَّا كُتِبَ فِيهَا مِنْ قِصَصٍ تَتَّفَقُ مَعَ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ، لَقَدْ جَاءَكَ الْخَبَرُ الصَّادِقُ الْحَقُّ الْمُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ تَمَامًا مِنْ رَبِّكَ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِّينَ، وَلَا تَكُونَنَّ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِلْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ الَّذِي تَعْتَلِجُ فِي نَفْسِكَ تَسْأَلَاتٍ مِمَّا سَبَقَ بَيَانُهُ - مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ الْمُنْزَلَةِ فِي الْقُرْآنِ، فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَنَالُوا عِقَابَهُ.

وَالْمَقْصُودُ بِهَذَا الْخَطَابِ: تَوْجِيهِ بَعْضِ حَدِيثِي الْإِسْلَامِ مِنَ الْمَدِينَةِ؛ مِمَّنْ لَهُمْ صِلَةٌ بِيَهُودِ الْمَدِينَةِ لِمَسْحِ الْخَوَاطِرِ التَّشْكِكِيَّةِ، وَالْأَحَادِيثِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَدُورُ فِي نَفْسِهِمْ بِشَأْنِ أَخْبَارِ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، فَالرَّسُولُ ﷺ لَمْ يَشْكُ وَلَمْ يَسْأَلْ، وَهُوَ عَلَى كَمَالِ الْيَقِينِ بِكُلِّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ.

٩٦، ٩٧ - إِنَّ الَّذِينَ ثَبَّتَ عَلَيْهِمْ حُكْمُ رَبِّكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - بِتَعَذِّبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكَ اسْتِثْنَالٍ، أَوْ تَعَذِّبِهِمْ عَذَابًا أَبَدِيًّا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، لَا يُوجَدُ لَهُمْ اسْتِعْدَادٌ مَا لَأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلًا، مِمَّا أَهْلَوْا وَذَكَّرُوا، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ بَيِّنَةٍ، أَوْ كُونِيَّةٌ، أَوْ إِعْجَازِيَّةٌ، فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، حَتَّى يَرَوْا بِأَعْيُنِهِمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، أَوْ مُقَدِّمَاتِ عَذَابِ اسْتِثْنَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَحِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ.

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَخَوَازِنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرِ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ أَفَلَنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بَدَنَكَ لِنَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ طَيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

٩٨ - فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَةً مِنَ الْقُرَى الَّتِي أَهْلَكَتْ هَلَاكَ الاسْتِثْصَالِ، آمَنْتَ قَبْلَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ، وَلَمْ تُؤَخَّرْ إِيْمَانُهَا إِلَى حِينٍ مُعَايِنَتِهِ، فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا!! بَأَنْ يَقْبَلَهُ اللَّهُ مِنْهَا، وَيَكْشِفَ عَنْهَا الْعَذَابَ بِسَبَبِهِ؛ لَكِنْ قَوْمَ يُونُسَ لَمْ يَجْرُوا عَلَى سُنَّةِ أَسْلَافِهِمْ، بَلْ بَادَرُوا إِلَى الْإِيْمَانِ قَبْلَ نَزُولِ الْعَذَابِ حِينَ رَأَوْا أَمَارَاتِهِ، فَقَبِلَ اللَّهُ إِيْمَانَهُمْ، وَكَشَفَ عَنْهُمْ عَذَابَ الذَّلِّ وَالْهَوَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَتَّعَهُمْ إِلَى وَقْتِ انْقِضَاءِ أَجَالِهِمْ.

٩٩ - وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَيا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِهِ - إِكْرَاءَ النَّاسِ عَلَى الْإِيْمَانِ، لَسَلَّيْتُهُمْ حُرِّيَّاتِهِمْ، فَجَعَلْتُهُمْ مَجْبُورِينَ، فَأَكْرَهْتُهُمْ، فَأَمَّنَ بِكَ وَصَدَّقَكَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهِمْ جَمِيعاً، وَلَكِنْ هَذَا يَنَافِي حِكْمَةَ الْإِبْتِلَاءِ، وَتَرَكَ النَّاسَ لِاخْتِيَارِهِمُ الْحَرَّ، فَبَعْضُهُمْ يَخْتَارُ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّ سَبِيلَ الْهُدَايَةِ، وَبَعْضُهُمْ يَخْتَارُ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّ سَبِيلَ الضَّلَالِ. أَفَأَنْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَيا أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ مِنْ بَعْدِهِ - تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَخْتَرَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ، مَعَ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ عَلَيْهِ.

١٠٠ - وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ ذَاتَ إِرَادَةٍ حَرَّةٍ، مُمَكِّنَةً مِنَ الْإِيْمَانِ وَالْكَفْرِ بِحَرِّيَّةٍ تَامَّةٍ، أَنْ تَوْمَنَ أَوْ تَكْفُرَ إِلَّا هِيَ مَصْحُوبَةٌ فِيمَا تَخْتَارُ بِإِذْنِ وَتَمَكِينِ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، دُونَ أَنْ تَكُونَ مَجْبُورَةً عَلَى إِيْمَانٍ أَوْ كَفَرٍ، فَلَا تُجَاهِدُ نَفْسُكَ عَلَى إِيْمَانِهِمْ فَإِنَّ أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَيَجْعَلُ اللَّهُ رَجْسَ الْحَكْمِ بِالْكَفْرِ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَا يَفْهَمُونَ عَنْ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، وَلَا يَعْقِلُونَ بِإِرَادَتِهِمُ الْحَرَّةَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَرَغْبَاتِهِمْ فِي الْفُجُورِ.

١٠١ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ الْآيَاتِ: انْظُرُوا بِقُلُوبِكُمْ نَظَرَ عَتَبَةٍ وَتَفَكَّرُوا وَتَدَبَّرُوا، مَا الَّذِي فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْآيَاتِ التَّكْوِينِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، فَإِذَا

نَظَرْتُمْ هَذَا النَّظَرَ التَّدَبُّرِيَّ تَحَقَّقْتُمْ مِنْ صِدْقِ رَسُولِكُمْ فِيمَا جَاءَكُمْ بِهِ عَنْ رَبِّكُمْ، وَلَا تُغْنِي الْآيَاتُ الْكُونِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ، وَالْأَحْدَاثُ الَّتِي جَرَتْ لِلْمُكَذِّبِينَ الْمُهْلِكِينَ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، عَنْ قَوْمٍ لَيْسَ لَهُمْ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مَعَهُمْ أَمْهَلُوا وَغُولَجُوا، حَتَّى لَا يَمْنَعَهُمُ الْإِيْمَانُ عَنِ الْإِنْتِظَارِ وَرَاءَ أَهْوَاءِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمُ الْجَامِحَةِ.

١٠٢ - لَا يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُوكُونَ مِنْ قَوْمِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - إِلَّا يَوْمًا يُعَايِنُونَ فِيهِ الْعَذَابَ، مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ مَضَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ؛ قَوْمَ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ، أَهْلَكْنَاهُمْ جَمِيعاً. قُلْ لَهُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -: إِنْ لَمْ تَوْمِنُوا، فَانْتَظِرُوا أَنْ لَا يَتَحَقَّقَ لَكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَهُ مِنَ التَّخْلِصِ مِنِّي وَمِنْ دَعْوَتِي، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ أَنْ يَنْصُرَنِي رَبِّي، وَيُخَذِّلَكُمْ وَيُحْبِطَ كُلَّ مَكَايِدِكُمْ.

١٠٣ - ثُمَّ بَعْدَ الْإِنْتِظَارِ نَزَلَ بِهِمُ الْعِقَابُ، وَتُنَجِّي رُسُلُنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ وَاتَّبَعُوهُمْ مِنْ شُرُورِ الْكَافِرِينَ وَمَكَايِدِهِمْ، وَكَمَا أَنْجَيْنَا رُسُلُنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ مِنْ شُرُورِ الْكَافِرِينَ وَمَكَايِدِهِمْ، كَذَلِكَ نُنَجِّيكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ وَصَدَّقُوا حَقَّ ثَابِتاً عَلَيْنَا، فَاطْمَئِنُوا لِنُصْرِ اللَّهَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ.

١٠٤ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرْسَلْتُكَ إِلَيْهِمْ، فَشَكُّوا فِي أَمْرِكَ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِكَ: إِنْ كُنْتُمْ فِي دِينِي الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَشْكُوا فِيهِ؛ لِأَنَّهُ دِينُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنْتُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَتَعْرِفُونَهُ وَلَا تَشْكُونَ فِيهِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَشْكُوا فِي عِبَادَتِكُمْ لِهَذِهِ الْأَصْنَامِ، فَإِنْ أَصْرَرْتُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، فَلَا أَعْبُدُ هَذِهِ الْأَوْثَانَ الَّتِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِهْلَاكِكُمْ وَنُصْرَتِي عَلَيْكُمْ، وَأَمْرَنِي رَبِّي أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ.

١٠٥ - وَأَمْرَنِي رَبِّي بِأَنْ أَجْعَلَ اتِّجَاهَ حَرَكَةِ حَيَاتِكَ مُلَازِماً لِأَدَاءِ وَاجِبَاتِ الدِّينِ وَنَشْرِهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، مُسْتَقِيماً عَلَيْهِ غَيْرَ مَعُوجٍ عَنْهُ إِلَى دِينٍ آخَرَ، وَلَا تَكُونَنَّ مُشْرِكاً بِرَبِّيَّةِ اللَّهِ وَلَا بِالْهَيْئَةِ مِنْ فِتْنَةِ الْمَشْرِكِينَ.

١٠٦ - وَلَا تَعْبُدْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مِنْ دُونِ اللَّهِ بِالْإِدْعَاءِ أَوْ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ، إِلَهًا لَا يَنْفَعُكَ إِنْ عَبَدْتَهُ وَدَعَوْتَهُ، وَلَا يَضُرُّكَ إِنْ تَرَكْتَ عِبَادَتَهُ، فَإِنَّ فِعْلَكَ مَا نَهَيْتُكَ عَنْهُ فَعَبَدْتَ غَيْرِي، فَإِنَّكَ تَصِيرُ مِنَ الظَّالِمِينَ ظُلْماً مِنْ دَرَكَةِ الشَّرِكِ؛ لِأَنَّكَ وَضَعْتَ الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، فَتَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ الْأَبَدِيَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ الْمَشْرُوكُونَ.



١٠٧ - وَإِنْ يَمَسُّنَكَ اللَّهُ - يا رسول الله - بشدة وبلاء لحكمة من حكمه، فألكم هذا الضر، وطلبت إزالته، فلا مزيل لذلك الضر الذي أنزله بك إلا هو سبحانه، لا غيره، وإن يُرْذَكْ رُبُّكَ مُمْتَعًا بسعة ورخاء فلا مانع ولا صارف لفضله، يُصِيبُ الله بالخير العظيم مَنْ يَشَاءُ إصابته من عباده، وهو الكثير السَّترُ لذنوب عباده، الدائم الرحمة بهم.

١٠٨ - قل - يا رسول الله - : يا أيها الناس قد جاءكم الدين الذي هو الأمر الثابت الذي لا شك فيه من الله عز وجل، فمن اهتدى بإرادته الحرّة فإنما ينفع نفسه؛ ومن ضل بإرادته الحرّة فإنما يضل جانيًا على نفسه؛ لأنّ وبال ضلاله راجع إليه، وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم، وأجازيكم عليها، ولست مُجبراً لكم أن تستجيبوا لما أدعوكم إليه؛ ما أنا إلا بشيرٌ ونذير.

١٠٩ - وأتبع - يا رسول الله - الأمر الذي يُوحيه الله إليك، واصبر على أذى مَنْ خالفك من قومك، واستمر متحلياً بالصبر، حتى يحكم الله بشأن المصيرين على كفرهم، وهو سبحانه خير الحاكمين، فلا تسأل ربك التعجيل بإهلاكهم، فإنهم إن أصروا على كفرهم وعنادهم، فسينزل بهم عقابه، وينصرك وينصر الذين آمنوا معك.

سُورَةُ هُودٍ

١ - ﴿الرَّ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

هذا القرآن كتاب نُظِمَتْ آياته تنظيماً محكماً متقناً، لا يقع فيه تناقض ولا خلل، بوضع كل شيء في موضعه، وجعل آياته مطابقة للمعنى المراد، فهي لا تحتل إلا المعنى الذي أريدت به، ثم بُيِّنَ بالأمر والنهي، وبيان الحلال والحرام، والتشبيهات، والاستعارات،

والمحاذيف والمطويات، وضرب الأمثال، وهو مُنَزَّلٌ من عند حكيم يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها في الأمور المختلفة لما يُعْطِي أحسن النتائج، خبير بالغ غاية العلم بأحوال عباده وما يصلحهم على سبيل الشهود والحضور المصاحب لكل أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

٢ - أَعِد - يا رسول الله - على مَسَامِعِ المَطْمُوعِ في استجابتهم بياناً دعويّاً: أن لا تجعلوا أيّ عبادة من عباداتكم موجّهة لغير الله؛ إنني لكم من عند الله نذيرٌ أنذركم عقابه بالخلود في عذاب النار إن اخترتم الكفر وأصررت عليه، بشيرٌ أبشّر بالثواب الجزيل في جنات النعيم لمن آمن بالله ورسوله، وأطاع وأخلص العمل لله وحده.

٣ - واطلبوا من ربكم السَّترَ لسالف ذنوبكم، ثم ارجعوا إليه بالطاعة في المستقبل، إنكم إذا فعلتم ما أمّرتكم به من الاستغفار والتوبة وأخلصتم العبادة لله سبحانه، بسط عليكم من الدنيا وأسباب الرزق ما تعيشون به في أمن وسعة وخير إلى حين الموت ووقت انقضاء آجالكم، ويُعْطَى كل ذي زيادة من إيمانٍ وعملٍ صالحٍ في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة، وإن تديروا ظهوركم كافرين غير مُستجيبين لما أدعوكم إليه من الهدى، فقل لهم - يا رسول الله - : إنني أخاف عليكم عذاب النار في الآخرة.

٤ - إلى حساب الله وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، رجوعكم، ومكان رجوعكم، وزمانه في الآخرة، فيُثِيبُ المُحْسِنَ على إحسانه، ويعاقبُ المُسِيءَ على إساءته، وهو سبحانه على كل شيء يشاؤه من إيصال الرزق إليكم في الدنيا، وثوابكم وعقابكم في الآخرة، عظيم القدرة، لا يعجزه شيء.

٥ - تنبّهوا وتحقّقوا إنّ هؤلاء المشركين يعطفون صدورهم ويلبسونها؛ لِيَسْتَتِرُوا ويتواروا من رسول الله ﷺ، تنبّهوا وتحقّقوا إنهم حين يغطون رؤوسهم بتيابهم؛ لئلا يرى رسول الله ﷺ إعراضهم عن دعوته، يعلم الله ربهم العليم كل ما يسرون وما يعلنون، لا يخفى عليه حالهم؛ إنّ سبحانه عليمٌ بالنيات والسرائر صاحبة الاستقرار في الصدور، وداخل النفوس.

وَإِنْ يَمَسُّنَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرْذَكْ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكِبِ أَعْلَمْتَ أَيُّنَهُ ثُمَّ فَضَّلْتَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْسِيُّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ يُغْفِرْ لَهُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

٦ - وما من دابة ذي حياة تمشي بهدوء رويداً رويداً في الأرض من أكبر حيوان يدب فيها حتى أصغر حيوان، كالفيروسات، إلا أوجب الله على نفسه أن يرزقها، بوسيلة من وسائله التي يختارها، ويعلم سبحانه استقرارها، ومكان استقرارها وزمانه في أصلاب الأصول الذكور، ويعلم استياداعها، ومكان استياداعها وزمانه في أرحام الأمهات، كل ذلك مُثَبَّتٌ وَمُسَجَّلٌ في اللوح المحفوظ.

٧ - والله الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وما فيهما في ستة أيام، وكان عرشه على الماء قبل خلق السموات والأرض؛ ليختبركم - أيها الناس - أيكم أحسن عملاً بطاعة الله، وأيكم أسوأ عملاً؛ فيجازيكم على أعمالكم. ونؤكد لك - يا رسول الله - أنك إن قلت لهؤلاء الكفار من قومك: إنكم مَبْعُوثُونَ من بعد الموت للحساب والجزاء، لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا: ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح ظاهر، وإن محمداً قد أثر السحر على تصوراتهم وقواه الإدراكية، فصار يقولون وعي أقوالاً تخريفية هي من الأباطيل.

٨ - ونقسم مؤكدين لكم: لئن أخرنا عن المشركين العذاب الذي يستحقونه في الدنيا إلى طائفة من الأيام والساعات معدودة الأجزاء الزمنية، لَيَقُولَنَّ استعجالاً بالعذاب واستهزاء: أي شيء يحبس العذاب عنا؟ تنبه وتحقق - أيها المتلقي هذا الخطاب - أن عذاب الله إذا صدر أمره بإزالته عليهم، فإنه يوم يأتيهم لا يصرفه عنهم شيء، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاءً.

٩ - ونقسم مرة ثانية مؤكدين لكم: لئن أذقنا الإنسان - الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر - مثلاً رخاءاً وَسَعَةً في الرزق والعيش، وَبَسَطْنَا عليه من الدنيا، ومَرَّتْ عليه مُدَّةٌ، وهو يستمتع بمتاعاته الحياة الدنيا، ثم سَلَبْنَا ذلك كله، وأصابته المصائب، فاجتاحتته وذهبت به، يظل قانطاً من رحمة الله، شديد اليأس من كل خير،

جَحُوداً لنعمتنا التي أنعمنا بها عليه، لا يتضرع إلى ربه متذللاً داعياً، مؤمناً بأنه هو الواهب والمانع، وهو على كل شيء يشاؤه عظيم القدرة، لا يعجزه شيء أرادته.

١٠ - ونقسم مرة ثالثة مؤكدين لكم: لئن أنعمنا على هذا الإنسان، وبَسَطْنَا عليه من العيش، ووسَّعْنَا عليه في الرزق، بعد نائبة ونكبة أصابته، لَيَقُولَنَّ الذي أصابه الخير والسعة: دَهَبَ الْعُسْرُ وَالضُّيْقُ عَنِّي وَزَالَتِ الشَّدَائِدُ إِلَى غير رجعة، إنه أَشِيرُ بِطَرِّ النِّعْمَةِ مُغْتَرٌّ بها، شديد الفخر والتعالي على الناس بنفسه، وبما أوتي من قوة، أو مالٍ، أو جاه.

١١ - لكن الذين آمنوا وأسلموا واتَّقُوا وصبروا على المكاره، وعلى الطاعات، وعن المعاصي، وعملوا الصالحات ابتغاء مرضاته؛ لا يصابون بأفات اليأس والكفر بنعمة الله، أو الاستكبار والفخر، فإنهم إن نالتهُم شِدَّةٌ صبروا، وإن نالتهُم نعمة شَكَرُوا الله عليها، أولئك الذين هذه صفتهم لهم سَنَرَّ عَظِيمٌ لذنوبهم، وأجرٌ كبيرٌ في الآخرة.

١٢ - فلعلك - يا رسول الله - تاركٌ تبليغ بعض ما يُوحى إليك ربك، وضائقٌ بتبليغه صدرك؛ حرصاً على مُدَاراة كبراء قومك، رجاء أن يؤمنوا؛ لينقدوا أنفسهم من عذاب النار؛ ولئلا يروِّجوا ضدك مقولتهم الإعلامية التي تتأثر بها جماهيرهم: هلاً أنزل عليه كنزٌ يستغني به وينفقه! أو جاء معه ملكٌ يصدِّقه ويشهد له بالنبوة! فذم على التبليغ ولا تَضَيِّقْ بأمرهم ذرعاً، ما أنت - يا رسول الله - بالنسبة إلى هؤلاء الذين يهْمُك أمرهم إلا مُنْذِرٌ لهم بعذاب ربهم، لأنهم قد بلغوا دركة مَيَّوساً معها من أن يستجيبوا لدعوتك بإراداتهم الحرة، إذ هم مُسْتَيَقِنُونَ جاحدون، ولست وكيلاً عليهم، مطالباً بتحويلهم من الكفر إلى الإيمان، والله سبحانه قادرٌ على تحويلهم من الكفر بسلب إراداتهم الحرة، وجعلهم مَجْبُورِينَ على الإيمان، حافظٌ يحفظ أقوالهم وأعمالهم، فيجازيهم عليها يوم القيامة.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ
إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى
أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ
لَيَكْفُرُ بِكَفُورٍ ﴿٤﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءَ
مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿٥﴾
إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٦﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ
وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ
مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٧﴾

١٣ - بل أقول كفار مكة: اِخْتَلَقَ مُحَمَّدٌ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ؟ قُلْ لَهُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - : قَاتُوا أَنْتُمْ بَعَشْرَ سُورٍ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ مُخْتَلَفَةً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنْ صَحَّ أَتَيْ اِخْتِلَافُهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِي! فَإِنَّكُمْ عَرَبٌ فَصَحَاءُ بُلْغَاءُ، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَتَّى يُعِينُوكُمْ عَلَى صِنَاعَةِ عَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ تَفْتَرُونَهَا عَلَى اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي قَوْلِكُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ قَوْلُ الْبَشَرِ.

١٤ - وَقُلْ لَهُمْ: فَإِنْ عَجَزْتُمْ، وَلَمْ يَسْتَجِبْ لَكُمْ - أَيُّهَا الْكُفَّارُ - مِنْ تَدْعُوْنَهُمْ مَنْ دُونِ اللَّهِ، لِلْإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِ الْقُرْآنِ مُفْتَرِيَاتٍ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ مُحَاطًا بِعِلْمِ اللَّهِ، أَلْفَاظًا، وَمَضَامِينٍ، وَوَسِيلَةً تَنْزِيلٍ، وَتَبْلِيغًا لِلرُّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقًّا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَالَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ يُعْبَدُ بِحَقِّ إِلَّا هُوَ، لَا مَنْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، فَاسْلَمُوا وَأَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ.

١٥ - مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا كَافِرًا بِالْآخِرَةِ، وَاجْتَهَدَ فِي كَسْبِ مَطَالِبِهِ مِنَ الدُّنْيَا بِالْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ فِي كَوْنِهِ، نُعْطِهِمْ نَتَائِجَ أَعْمَالِهِمُ السَّبِيئَةِ وَافِيَةً تَامَةً، وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْقِصُونَ مِنْ نَتَائِجِ أَسْبَابِهِمْ شَيْئًا، فَإِذَا قَدَّمُوا أَسْبَابَهُمْ وَافِيَةً أَعْطَاهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ النَّتَائِجَ وَافِيَةً، وَإِذَا نَقَصُوا مِنْهَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوهُ مِنْ أَسْبَابٍ.

١٦ - أُولَئِكَ الْبَعِيدُونَ عَنْ رَحْمَتِنَا بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا عَذَابُ النَّارِ، يُقَاسُونَ حَرْهَا؛ جَزَاءً عَلَى كُفْرِهِمْ، وَذَهَبَ عَنْهُمْ يَوْمَ الدِّينِ نَفْعُ مَا عَمَلُوا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ، فَلَا يَنَالُونَ عَلَيْهَا ثَوَابًا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوهَا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، وَلَا طَلِبًا لِمَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مِنْ نَعِيمٍ مُقِيمٍ، وَبَطَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالٍ كِيدِيَّةٍ ضِدَّ الرُّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ.

١٧ - أَفَمَنْ هُوَ مُسْتَقَرٌّ ثَابِتٌ عَلَى حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ وَبُرْهَانٍ جَلِيِّ مِنْ رَبِّهِ، وَهِيَ قَضَايَا الْإِيمَانِ الَّتِي فَطَّرَ اللَّهُ الْعُقُولَ وَالنَّفُوسَ عَلَيْهَا، وَيَتَّبَعُهُ شَاهِدٌ مِنْ رَبِّهِ، يَشْهَدُ لَهُ بِصَحَّةِ الْحَقَائِقِ الْبَيِّنَةِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَوْصُلُ إِلَيْهَا بِحُجَجٍ الْعَقْلِ وَبِرَاهِينِهِ، وَهَذَا الشَّاهِدُ هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي يَلْبِغُهُ رَسُولٌ مُؤَيَّدٌ بِالْمُعْجَزَاتِ، وَمِنْ قَبْلِ نَزُولِ الْقُرْآنِ وَإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ نَزَلَ شَاهِدٌ آخَرٌ، وَهُوَ: كِتَابُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كِتَابًا مُؤْتَمًّا بِهِ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَةِ الْكُبْرَى، وَنِعْمَةً عَظِيمَةً عَلَى الْمُنْزَلِ عَلَيْهِمْ، كَمَنْ يَتَخَبَّطُ فِي الضَّلَالَاتِ وَالْمَتَاهَاتِ الْفِكْرِيَّةِ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ. أُولَئِكَ رَفِيعُو الْمَنْزِلَةِ الَّذِينَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ، يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ الْمُنْزَلِ عَلَيْهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْقُرْآنِ وَبِالرُّسُولِ ﷺ مِنْ جَمِيعِ الْكُفَّارِ وَأَصْحَابِ الْأَدْيَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فِي الْآخِرَةِ. فَلَا تَكُنْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ - فِي شَكٍّ مِنْ كَوْنِ الْقُرْآنِ نَازِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَا تَكُنْ فِي شَكٍّ مِنْ أَنَّ الْمُبْلَغَ لَهُ عَنْ رَبِّهِ نَبِيُّ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا، إِنَّهُ الْحَقُّ الثَّابِتُ مِنْ رَبِّكَ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُصَدِّقُونَ، أَتْبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَانْسِيَاءً وَرَاءَ الشَّيَاطِينِ وَضُلَالَتِهِمْ وَشَبَاهَتِهِمْ.

١٨ - وَلَا يَوْجَدُ أَشَدَّ ظِلْمًا مِنَ الَّذِي اِخْتَلَقَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَكَذَّبَ عَلَيْهِ، وَزَعَمَ أَنَّ لَهُ شَرِيكَاً وَوَلَدًا، أُولَئِكَ الْمُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، الْبُعْدَاءُ الْمُنْحَطُّونَ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ، يُعَرِّضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَسْأَلُهُمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَقُولُ الشُّهُودُ الَّذِينَ يُسْتَدْعَوْنَ لِتَقْدِيمِ شَهَادَاتِهِمْ عَلَى الْأُتَمَّةِ الْمُضْلِينَ وَأَعْوَانِهِمُ الْمَشَارِكِينَ لَهُمْ فِي الْكَذِبِ وَإِفْسَادِ عَقَائِدِ النَّاسِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَبِحَكْمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ مِنْ أَحْسَنِ دَرَكَاتِ الظُّلْمِ، تَنْبَهُوا وَتَحَقَّقُوا؛ لَعْنَةُ اللَّهِ وَطَرْدُهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَنَزُولُ عَذَابِهِ مُنْصَبًّا عَلَى الظَّالِمِينَ الْكَاذِبِينَ عَلَى رَبِّهِمْ.

١٩ - الَّذِينَ يَمْنَعُونَ وَيَصْرِفُونَ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمَةِ الَّتِي تَخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ، وَيَطْلُبُونَ لِمَلَّةِ الْإِسْلَامِ اعْوِجَاجًا وَمَيْلًا عَنِ الْقُضْدِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَجْحَدُونَ الْبُعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَيَنْكُرُونَهُ، وَيَحْصِرُونَ كُلَّ هَمِّهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ بِمَطَالِبِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ مِنْهَا.

أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ
وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
فَالْعَمَلُ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لِلَّهِ
الْأَهْوَاءَ قُلْ أَنْتُمْ تُسَلِّمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ
﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ
عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ
مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
مِنَ الْأَحْزَابِ فَاَلْتَأَرُّ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَّا شَهِدْتُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى
رَبِّهِمْ أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

٢٠ - أولئك الذين كانوا يفترون على الله الكذب في الدنيا، لم يكونوا قادرين على أن يقلّوا من عذاب ربهم إذا أرادهم بالعذاب، وما كان لهؤلاء المشركين في الحياة الدنيا من أنصارٍ يمنعونهم من عذاب الله لو شاء إنزال عذابه المُعَجَّل فيهم، يُزاد عذابهم في الآخرة، بسبب ضلالهم وإنكارهم البعث بعد الموت، وإضلال غيرهم من الناس بمختلف وسائل الإضلال والإفساد، إنهم صمّوا عن سماع الحق، وعمّوا عن رؤية آيات الله في كونه.

٢١ - أولئك البعداء عن رحمة الله الذين خسروا أنفسهم، وبطل كذبهم وإفكهم وافترائهم على الله، وادّعاهم أن الملائكة والأصنام تشفع لهم.

٢٢ - حق وثبت كونهم في الآخرة هم أكثر الخاسرين خسراناً؛ لأنهم باعوا منازلهم في الجنة، واشتروا عوضها منازل في النار، وهذا هو الخسران المبين.

٢٣ - إن الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات المعيرة عن صدق إيمانهم، وتواضعوا وخشعوا لربهم، وسكنت إليهم قلوبهم ونفوسهم، وأطمأنوا إلى صدق وعد الله بالشواب والجزاء على تلك الأعمال، أولئك رفيعو المنزلة أصحاب الجنة هم فيها خالدون لا انقطاع لنعيمها ولا زوال.

٢٤ - وضرب الله مثلاً لفريقين من الناس: الفريق الأول: الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله، والفريق الثاني: الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخشعوا لربهم، فوصف الفريق الأول: كالأعمى الذي لا يرى شيئاً، والأصم الذي لا يسمع شيئاً، فهو مُنْطَمِسٌ أدوات الإدراك الحسي، وبانطماسها تُحجب عنه المعرفة. ووصف الفريق الثاني: كالبصير شديد البصر، حادّه، الذي يبصر الأشياء على حقيقتها، والسميع قوي السمع مُرَفِّه، الذي يسمع الأصوات

ويجيب الداعي، فهو مُذَكِّر لما يجري حوله، قادرٌ على اكتساب المعارف. فالفريقان لا يستويان مثلاً، إذ حقيقتهما متفاوتتان، وهما على طرفي نقيض، وهل يستوي العمى والبصر الحديد؟ وهل يستوي الصّم والسمع المرهف الشديد؟ أفلا تتعظون وتتفنون بحُسن التذكّر لحقائق الأمور، بعد معرفتها، واستدعائها من الذاكرة عند المناسبات الداعيات؟!!

٢٥، ٢٦ - ونؤكد لكم - أيها المكذّبون برسالة محمد - أن محمداً ليس يدّعي في تاريخ الناس، فقد أرسلنا نوحاً في القرون الأولى إلى قومه، فقال لهم ثلاث مقولات: **المقولة الأولى:** إني لكم - أيها القوم - نذيرٌ واضح في رسالتي مبين لها، **المقولة الثانية:** أدعوكم إلى أن لا تعبدوا إلا الله، **المقولة الثالثة:** إني أخاف عليكم - إن عبدتم غيره - عذاب يوم مؤلم مُوجع.

٢٧ - فاعلن الرؤساء والأشراف من قوم نوح رفض دعوته، معلّين ذلك بأمر ثلاثة: **الأول:** ما نراك يا نوح إلا إنساناً مُماثلاً لنا، فلو كُنت رسولاً لما كنت بشراً، **والأمر الثاني:** ما نراك أتبعك إلا ناقصو المكانة الاجتماعية، الذين هم أسافلنا في أول الرأي من غير تثبّت وتفكّر في أمرك، ولو تبصروا ببواطن الأمور، وتعمّقوا في الفكر ما اتبعوك، فإن أردت أن تتبعك فاطرد هؤلاء الأراذل عن مجالسك، **والأمر الثالث:** ما نرى لكم علينا من زيادة في المال والشرف والجاه تؤهلّكم لاتباعنا لكم، فلو كان الله راضياً عليكم بهذا الإيمان الذي تدعون إليه لفضّلكم بكثرة الخيرات المادية علينا، وما نظنّكم واهمين، بل نظنّك - يا نوح - ومن آمن معك كاذبين عن إرادة وتصميم.

٢٨ - قال نوح: يا قوم، أنفكرتم تفكيراً سديداً بأنّة وتعمّق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريّة، إن كنتم مُتمكّنات من حُجّة قاطعة، ومعجزة باهرة من ربّي، تشهد لي بأني صادق فيما أبلغكم عنه؟! وآتاني مع هذه البيّنة تعليمات وبيانات أوحاها إليّ من عنده، تتضمّن بيان سبيل سعادتكم ونجاتكم، وفي ذلك رحمةٌ عظيمة لكم، فالتبس عليكم أمرها عقوبةً لكم، أنلزمكم - أيها القوم - قبول هذه الرحمة العظيمة، التي هي دين الله الذي اختاره لكم؟ إني لا أقدر على ذلك، وليس لي أن أضطرّكم وأنتم لها كارهون لا تريدونها.

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَسَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ هَلْ يَسْتَوِيانِ مِثْلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِّ ﴿٢٧﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ أَنْ تَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَبَادُوا رَأْيَا وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَانِنِّي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٢٩﴾

٢٩ - وقال نوح لقومه: يا قوم لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة مالا، ولكن ثواب نصحي لكم على الله وحده، ولا يجوز لي أن أطرد الذين أتبعوني، ووصفتهم بأنهم أراذل وأخساء، كما طلبتم مني ذلك أنفة من مجالستهم، واستكباراً عن الانتظام في سلكهم! إنهم ملاقو ربهم يوم القيامة؛ ليحاسبهم ويجازيهم على ما قدموا في الحياة الدنيا من إيمان وعمل صالح، ولكني أراكم على طول العهد بكم، وكثرة تعليمي وتذكيري قوماً تتابعون إضافة جهل إلى جهل، بإضافة معلومات باطلات جديديات، إلى مفهومات باطلات سابقات.

٣٠ - ويا قوم من يمنعني من عذاب الله إن طردتهم عنّي؛ لأنهم مؤمنون مخلصون، أفلا تضعون ما سبق أن بينته لكم من حقائق الدين في ذاكرتكم، لتكون دافعاً لكم إلى الإيمان بالحق الذي جاءكم من ربكم.

٣١ - ولا أقول لكم: عندي خزائن الله التي لا يُفنيها شيء، فأدعوكم إلى أتباعي لأعطيكم منها، بل أقول لكم: إني رسول الله، أبلغ رسالاته، ولا أدعي علم الغيب كله حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم، بل أعلم منه ما يعلمني الله سبحانه، ولا أدعي أنني من الملائكة، بل أنا بشر مثلكم أدعوكم إلى الله، وأبلغكم ما أُرسلت به إليكم، ولا أقول عن الذين تحقروا وتستصغروا أعينكم من ضعفاء المؤمنين: لن يؤتيهم الله توفيقاً وهداية وأجراً. الله أعلم بما في أنفسهم من الخير والشر، إني لو ادّعت أن عندي خزائن الله أعطيتكم منها إذا أمتتم بي، أو ادّعت أنني أعلم الغيب، أو ادّعت أنني ملك كما تتوهمون في الرسل، أو زعمت كما تشتهون أن الفقراء ليسوا أهلاً للكرامة الإيمانية والجزاء على الإيمان والعمل الصالح بالخير العظيم عند الله، فطردتهم؛ إني إذاً لواحد من الظالمين الذين يستحقون عقاب الله.

٣٢ - قالوا: يا نوح قد ناظرنا وحاورنا، فأكثرنا مناظرتنا وحوارنا، فأتنا بما تعدنا من الإهلاك الشامل إن كُنت من الصادقين في دعواك أنك رسول الله إلينا.

٣٣ - قال نوح لقومه: إن إنزال العذاب ليس إليّ، إنما هو إلى الله يُنزل متى شاء، وعلى من يشاء، وما أنتم بقادرين على الإفلات من عذاب الله إن أراد الله أن يُنزل بكم.

٣٤ - ولو حاولت حينئذ أن أتخذ أية وسيلة أدفع بها عنكم عذاب الله، فإن ذلك لا ينفعكم، إن كان الله يريد أن يحكم عليكم بالعقوبة، وأن يُنزل بكم عقاباً معجلاً على ضلالكم، وحين يقضي الله عليكم بالعذاب، بعد أن يحكم عليكم بالعقوبة، فإني لا أستطيع أن أدفع عنكم عذاب ربي، هو سبحانه ربكم يملككم فلا تقدرون على الخروج عن سلطانه، وإلى حساب ربكم وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه ترجعون في الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

٣٥ - بل أيقول كبراء مشركي مكة عن القرآن: إن محمداً افتراه على الله، وجاء به من عند نفسه، ونسبه إلى الله تعالى؟ قل لهم: إن كنت افتريت هذا القرآن على ربي، فإني أكون مجرمًا، وعليّ وحدي ينزل عقاب إجرامي، وإذا كنتم أنتم تكذبون بالحق عناداً وجحوداً، فإنكم مجرمون، وتستحقون عقاب الله، ويقع عليكم وحدكم عقاب تكذيبكم بالقرآن، ولا أنحمل من مسؤوليته شيئاً بعد أن أبلغتكم، وأنا بريء مما تتبعون فيه بوقاحة من الكفر والتكذيب.

٣٦ - وأوحى الله سبحانه إلى نوح: أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن من قبل، فلا تحزن ولا تكن في غم وضيق، بسبب ما كانوا يفعلون في هذه المدة الطويلة، من التكذيب والاستهزاء والإيذاء، فإني ناصرهم عليهم ومهلكهم بسبب مضايقاتهم وإيذاءهم.

٣٧ - واصنع السفينة بمرأى منّا محفوظاً بكلاءتنا وعنايتنا، وبوحينا في خطة العمل، وبناء السفينة، وطريقة التنفيذ، ولا تُخاطبني طالباً إمهال الذين ظلموا من قومك، فإني قد حكمت بإغراقهم قضاءً مُبرماً لا مردّ له.

وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقَوْنَ بِهِمْ وَلَكَيْفَ أَرْكَبُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٣٠﴾ وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا يَنْتَوِخُ قَدْ جَدَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَاِنَّا إِنَّمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِمَا اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٤﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا يَشْعُرُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٧﴾ وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيَنَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٣٨﴾

٣٨ - فنَفَذَ نُوحٌ أَمْرَ رَبِّهِ، وصار يصنع السفينة البحرية هو وَمَنْ مَعَهُ مِمَّنْ يُعِينُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وكلُّمَا مَرَّ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ كِبَرَاءِ قَوْمِهِ، مُسْتَعْلِينَ عَلَيْهِ بِأَوْضَاعِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، استهزؤا به؛ لصنعه السفينة. قال نوح لقومه بعد صبر طويل على سُخْرِيَتِهِمْ مِنْهُ: إِنَّ تَسَخَّرُوا مِنَّا بِسَبَبِ جَهْلِكُمْ بِمَا نَصْنَعُ، وَجَهْلِكُمْ بِالْغَايَةِ مِنْهُ، فَإِنَّا الْآنَ نَسْخَرُ مِنْكُمْ مَقَابِلَةً لِمِثْلِ عَمَلِكُمْ؛ لَعَلَّمْنَا بِأَنْكُمْ هَالِكُونَ غَرَقًا.

٣٩ - فسوف تعلمون يوم القيامة مَنْ يَأْتِيهِ عِقَابٌ مِنَ اللَّهِ يُهَيِّئُهُ إِذْ لَالًا وافتضحاً، أمام الخلائق قبل دخول النار دار العذاب، وَمَنْ يَنْزِلُ عَلَيْهِ حَالًا عَلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنْهُ عَذَابُ النَّارِ الثَّابِتِ الْمُسْتَقَرِّ، الَّذِي لَا انْقِطَاعَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ؟

٤٠ - وانتهى نوح من صنع السفينة، حتى إذا جاء وقت توجيه الأمر بإهلاكهم، وفار الثُّور الَّذِي يُخْتَبَرُ فِيهِ بَدَارُ نُوحٍ بِالْمَاءِ، عَلَامَةً عَلَى مَجِيءِ الْعَذَابِ، قلنا لنوح: احمل في السفينة من كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَهَائِمِ فِي بَيْتِكَ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، واحمل أَهْلَكَ مِنْ زَوْجَةٍ وَوَلَدٍ وَأَقْرَابٍ وَعَشِيرَةٍ ذَاتِ قَرَابَةٍ، وَأَزْوَاجَهُمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُغْرَقِينَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ، وبقي على دين قومه، واحمل معك كُلَّ مَنْ آمَنَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ، وما آمَنَ مع نوح عليه السلام إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ قَوْمِهِ مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ وَالْمَقَامِ فِيهِمْ.

٤١ - فحمل نوح عليه السلام من كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ، وحمل الْأَرْزَاقَ التَّمْوِينِيَّةَ، وقال نُوحٌ لِأَهْلِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ: ارْكَبُوا فِي دَاخِلِ السَّفِينَةِ، بِسْمِ اللَّهِ يَكُونُ جَرِيْهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَبِسْمِ اللَّهِ يَكُونُ مَتْنِهَا سِيرُهَا وَإِرْسَاؤُهَا؛ إِنَّ رَبِّي لكَثِيرُ السُّرْرِ لِلذُّنُوبِ مِنْ آمَنَ مِنْكُمْ، دَائِمَ الرَّحْمَةِ بِكُمْ، حَيْثُ خَلَصَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَكُتِبَ لَكُمْ السَّلَامَةُ وَالنَّجَاةُ. واستدُلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَسْمُرُ اللَّهُ بِجُرْنِهَا وَمُرْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ على استحباب هذا الذكر عند ركوب السفينة.

٤٢ - والسفينة تجري وهم فيها في موج كالجبال في عظمه وارتفاعه، ونادى نُوحٌ ابْنَهُ - وكان في مكان منفرد عن أبيه وقومه - فقال له: يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا فِي السَّفِينَةِ، وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ فَتَهْلِكَ مَعَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ نُوحٌ يَعْلَمُ أَنَّ ابْنَهُ هَذَا كَانَ كَافِرًا؛ إِذْ كَانَ فِي مَعَزِلٍ عَنْهُ، يَكْتُمُ كُفْرَهُ، وَلَا يَتَظَاهَرُ بِهِ.

٤٣ - قال ابنُ نُوحٍ: سَالِجًا إِلَى جَبَلٍ عَالٍ يَمْنَعُنِي مِنَ الْغَرَقِ بِالْمَاءِ. قال له نوح: لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ بِالطُّوفَانِ الْعَامِ الشَّامِلِ، إِلَّا عَاصِمٌ مِّنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ، فَجَعَلَ لَهُ فِي السَّفِينَةِ وَسِيلَةَ النِّجَاةِ الْوَحِيدَةَ، فَأَمَّنْ وَارْكَبْ فِي السَّفِينَةِ مَعَنَا، وَحَالَ الْمَوْجُ الْمُرْتَفِعُ بَيْنَ نُوحٍ وَابْنِهِ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْابْنُ أَنْ يُسْرِعَ إِلَى جَبَلٍ شَاهِقٍ، فَقَدْ دَاهَمَهُ الْمَاءُ، فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ الْهَالِكِينَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَقَدْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ الرَّبَّانِيُّ الْمَبْرُومُ بِأَنَّهُ يَهْلِكُ بِالْإِغْرَاقِ مَعَ كُفْرِهِ قَوْمَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٤٤ - وقال اللَّهُ لِلْأَرْضِ بَعْدَ تَنَاهِي الطُّوفَانِ، وَأَغْرَقَ اللَّهُ قَوْمَ نُوحٍ: يَا أَرْضُ اشْرَبِي مَاءَكَ، فَتَوَقَّفَتْ فَوْرًا عَنْ تَفْجُرِ عَيُونِهَا، وَأَخَذَتْ تَبْلَعُ مَاءَهَا، وَيَا سَمَاءُ كُفِّي وَأَمْسِكِي عَنْ إِرْسَالِ الْمَطَرِ، فَكَفَّتِ السَّمَاءُ، وَأَمْسَكَتْ فَوْرًا عَنِ الْإِمْطَارِ، وَانْقَشَعَتِ الْغُيُومُ، وَصَارَتْ صُخْرًا، وَنَقَصَ الْمَاءُ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَوْقَ الَّذِي حَصَلَ بِابْتِلَاعِ الْأَرْضِ مَاءَهَا، وَفُورَغَ مِنَ الْأَمْرِ بِهَلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ، وَتَوَقَّفَتْ السَّفِينَةُ عَنِ الْجَزْيِ، وَاسْتَقَرَّتْ اسْتِقْرَارًا مُسْتَوِيًّا عَلَى جَبَلِ الْجُودِيِّ، وَقِيلَ: طَرْدُوا وَهَلَاكًا جَمَاعِيًّا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَإِبْعَادًا لَهُمْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

٤٥ - ونادى نُوحٌ رَبَّهُ نِدَاءً اسْتِغَاثَةً وَتَضَرُّعًا وَتَذَلُّلًا فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَقَدْ وَعَدْتَنِي أَنْ تُنَجِّنِي وَأَهْلِي مِنَ الْغَرَقِ وَالْهَلَاكِ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الصَّدْقَ الَّذِي لَا خُلْفَ فِيهِ، إِنْ كُنْتَ أَنْجَيْتَهُ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَى، أَوْ كُنْتَ أَهْلَكَتَهُ مَعَ الْمَغْرَقِينَ، فَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَعْدَلُهُمْ، لَا تَحْكُمْ إِلَّا بِمَا هُوَ حَقٌّ؛ لِأَنَّكَ عَلِيمٌ بِعِبَادِكَ، لَا تَخْفَى عَلَيْكَ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ.

وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَّرُوا مِنَّا إِنَّا تَنَسَخَّرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَّرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرُهَا وَمُرْسِلُهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعَزِلٍ بِنَبِيِّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدٌ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾

٤٦ - قال الله تعالى: يا نوحُ إِنَّ هذا الابن الذي سألتني نجاته ليس من أهلِكَ الذين وَعَدْتُكَ أَنْ أنجيهم؛ إِنَّ ابْنَكَ صاحب عمل غير صالح، فلا تَسألني مُستقبلاً عما يجري في تصاريفي من أمورٍ تجهل بواطنها، إِنِّي أعظك ناهياً لك عن أن تكون في المستقبل من الجاهلين، فتسألني سؤالاً تُطالبني فيه بأمرٍ على خلاف مُقتضى علمي وحكمتي وعدلي، وكن على ثقة بأن ربك عليّم حكيم، وأن تصاريفه تجري على وفق علمه وحكمته.

وفي هذا النصّ تعليمٌ لنا أن لا نسأل الله تعالى تغيير أحكامه العادلة، فيمن حكم عليهم بالعقاب، ولو كنّا لا نعلم السبب الحقيقي لما حكم عليهم به، فهو سبحانه عليّمٌ بعباده، ولا يظلم أحداً، ودعاؤنا في أمرٍ من هذا القبيل يُشعر بالاعتراض على حكمه، أو هو جهالة لا تليق بالمؤمن الذي يعلم أنه أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين.

٤٧ - قال نوح عليه السلام: ربّ إِنِّي ألجأ إليك من أن أندفع في المستقبل مع عواطفي فأسألك سؤالاً مُتسرعاً في أيّ أمرٍ ليس لي به علم، وإن لم تغفر لي جهلي وإقدامي على سؤال ما ليس لي به علم، وترحمني برحمتك التي وسعت كل شيء، أكن من الخاسرين الذين يخسرون بعض منازل رفيعة يستحقها أهل الرفيق الأعلى من المرسلين أولي العزم.

٤٨ - قال الله تعالى: يا نوحُ انزل من أعلى السفينة إلى الأرض، أنت ومن معك، وما معك من البهائم، مصحوبين بأمن وسلامةٍ منا عليك، ومصحوبين ببركاتٍ متنوعات، وخيراتٍ ونعمٍ ثابتات منا عليك، وعلى ذريةٍ أُممٍ ممن كانوا معك في السفينة تحيٍّ من بعدك من المؤمنين، وهناك أُممٌ كافرة هم سلاطاتٌ ممن معك يجيئون بعدك، سنمتّعهم متاعاً قليلاً معجلاً في الدنيا إلى مُنتهى آجالهم، ثم بعد هذا المتاع القليل الضئيل تأتيهم منايهم، ثم يلاقون حسابهم، وبعد حسابهم ينقذ عقابهم على كفرهم وشورهم، ويمسّهم منا عذابٌ أليمٌ في الآخرة.

٤٩ - إِنَّ قصة نوح وقومه التي أخبرناك بها - يا رسول الله - من أخبار الغيب ذات الأهمية نُوحياً إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل نزول القرآن عليك، فاصبر - يا رسول الله - على أذى مُشركي قومك كما صبر نوحٌ على أذى قومه، إِنَّ النّصر والظفر على الأعداء، والفوز بالسعادة الأخروية للمؤمنين المتّقين.

٥٠ - ولقد أرسلنا إلى «عادٍ» أخاهم في النسب «هوداً» نبياً ورسولاً. قال: يا قوم وَحَدُوا اللَّهَ، ولا تُشركوا معه شيئاً في العبادة، إِنَّه تعالى هو إلهكم لا هذه الأصنام التي تعبدونها، فَإِنَّها حجارةٌ لا تضرُّ ولا تنفع، ما أنتم إلا تكذبون، إذ تتخذون مع الله آلهةً تعبدونها من دونه.

٥١ - يا قوم: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً أَخَذَهُ منكم حتى تتهموني بالسعي إلى مصالح شخصيةٍ دنيويةٍ، ما أجرني على ما أقوم به من تبليغكم رسالات ربي إلا على الذي أوجدني من العدم وخلقني، فَإِنَّه هو الذي يرزقني في الدنيا، ويُثبيني في الآخرة، أفلا تعقلون الحقائق بأدوات التفكير لديكم عقلاً علمياً، وتعقلون نفوسكم عن اتباع الأهواء والشهوات عقلاً إرادياً؟

٥٢ - ويا قوم: استغفروا ربكم ممّا سلف منكم من الشُّرك والفجور والظلم والعدوان، ثم ارجعوا إلى ربكم إليه بتجديد الإيمان الصحيح، ومتابعة الأعمال الصالحة، فإن استغفرتكم ربكم من سابق كفركم وذنوبكم، وواظبتم بعد ذلك على طاعته، فإن الله عز وجل ينزل المطر عليكم كثيراً مُتتابعاً مرةً بعد مرةً، في أوقات الحاجة إليه، لإنبات زروعكم، ولإكثار أنواع الثمرات المختلفة الأصناف، ويزدكم شدةً مُضافةً إلى شدتكم، بكثرة ذُرِّيَّاتكم وأموالكم، وتتابع النعم عليكم، ولا تبتعدوا وتذبذبوا عن قبول قولي ونصحي حال كونكم بتوليكم عن دعوة رسول ربكم كافرين مكسبين للإثم، مُتبعين في الفجور.

٥٣ - قالوا: يا هودُ ما جِئتنا بآيةٍ خارقةٍ واضحةٍ ممّا طلبنا منك دليلاً على صِحّة ما تقول، وما نترك عبادة آلهتنا من الأوثان تركاً صادراً عن تأثرنا بقولك، وما نحن بمُصدقين بك نبياً ورسولاً، وما نحن بمُقادير لك، مهما حاولت واجتهدت في دعوتنا وإقناعنا.

قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَنْ
مَالِيَسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا
تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْتُوخُ
أَهْطِ سَلْمًا مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّنْ مَّعَا
وَأُمَمٍ سَنَمِتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ
مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ
مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَى عَادٍ
أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ لَأَافْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقُورُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُكُمْ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَنْقُورُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا
بُحْرَمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

٥٤، ٥٥ - إِنَّكَ يَا هُودُ لَسْتَ تَتَعَاطَى مَا تَتَعَاطَاهُ مِنْ مَخَالِفَتِنَا وَسَبُّ آلِهَتِنَا إِلَّا أَنْ بَعْضَ آلِهَتِنَا أَصَابَكَ بِخَبَلٍ وَجُنُونٍ؛ لَأَنَّكَ سَبَبْتَهُمْ، فَانْقَمُوا مِنْكَ بِذَلِكَ. قَالَ هُودٌ مُجِيباً لَهُمْ: إِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَشْهَدَ لِي، وَاعْلَمُوا أَنْتُمْ عِلْمَ حُضُورٍ وَشُهُودٍ، إِذَا اسْتَدْعَيْتُمْ لِلشَّهَادَةِ عِنْدَ رَبِّي، فَاشْهَدُوا لِي، أَنِّي بَعِيدٌ كُلِّ الْبَعْدِ، طَاهِرٌ غَايَةَ الطَّهَارَةِ مِنْ رَجَسِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَنَا أَتُحَدِّثُكُمْ أَنْتُمْ وَالْهَتَكُمْ جَمِيعاً أَنْ تَكِيدُونِي لِإِهْلَاكِ، أَوْ الْإِضْرَارِ بِي، فَاحْتَالُوا فِي كَيْدِي وَضُرِّي أَنْتُمْ وَأَصْنَامُكُمْ الَّتِي تَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا تَنْصُرُ وَتَنْفَعُ، ثُمَّ لَا تُمْلِئُونِي بِكَيْدِكُمْ، بَلْ عَاجِلُونِي بِالْعُقُوبَةِ.

٥٦ - إِنِّي فَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، وَاعْتَمَدْتُ عَلَيْهِ، فَهُوَ الَّذِي يَحْبِطُ كَيْدَكُمْ وَيَنْصُرُنِي عَلَيْكُمْ، مَا مِنْ دَائِيَّةٍ تَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَهَا قُدْرَةٌ بِحَرَكَتِهَا عَلَى ضَرْأٍ أَوْ نَفْعٍ، إِلَّا هُوَ سَبْحَانَهُ مَالِكُهَا وَالْقَادِرُ عَلَيْهَا، وَهُوَ يَفْهَرُهَا، فَلَا أَبَالِي بِكَيْدِكُمْ وَكَيْدِ آلِهَتِكُمْ، وَإِنِّي عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّ رَبِّي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْصُرَ أَعْدَاءَهُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ؛ لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ فِي تَدْبِيرِهِ لَكُونِهِ وَتَصَارُفِهِ لَشُؤُنِ عِبَادِهِ عَلَى طَرِيقٍ وَاضِحٍ مُمَهَّدٍ مُسْتَقِيمٍ، وَهُوَ طَرِيقُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ وَاخْتِيَارِ أَفْضَلِ الْأُمُورِ وَأَحْسَنَهَا.

٥٧ - فَإِنْ تَوَلَّوْا مُتَعَدِّينَ عَنِ الْإِيمَانِ بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِنِّي لَمْ يَقَعْ مِنِّي تَقْصِيرٌ فِي تَبْلِيغِ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، إِنَّمَا التَّقْصِيرُ مِنْكُمْ فِي قَبُولِ ذَلِكَ، وَإِنَّكُمْ إِنْ أَدْبَرْتُمْ عَنِ الْاسْتِجَابَةِ لِدُعَايِي، وَأَصْرَرْتُمْ عَلَى الْكُفْرِ عِنَاداً وَاسْتِكْبَاراً وَجُحُوداً، فَإِنَّ رَبِّي سَيُعَذِّبُكُمْ وَيَهْلِكُكُمْ، وَيَسْتَخْلِفُ فِي الْأَرْضِ قَوْماً غَيْرَكُمْ أَطْوَعَ مِنْكُمْ يُؤْخِذُونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ، فَيَجْعَلُهُمْ خُلَفَاءَ لَكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِكُفْرِكُمْ، وَمَعْصِيَتِكُمْ أَوَامِرَ رَبِّكُمْ، وَظُلْمِكُمْ وَعُدْوَانِكُمْ لَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً، إِنَّمَا تَضُرُّونَ أَنْفُسَكُمْ بِذَلِكَ، بِتَعْرِيزِهَا لِعَذَابِ اللَّهِ، إِنَّ رَبِّي رَقِيبٌ حَافِظٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَيَحْفَظُنِي مِنْ أَنْ تَنَالُونِي بِسُوءٍ.

٥٨ - وَحِينَ جَاءَ وَقْتُ تَوْجِيهِ أَمْرِنَا التَّكْوِينِي التَّنْفِيزِي بِإِهْلَاكِهِمْ وَعَذَابِهِمْ، نَجَّيْنَا هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَضْجُوبِينَ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَفَضْلٍ وَكَرَمٍ فِي الدُّنْيَا، وَكَمَا أَنْجَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، كَذَلِكَ يَنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ مُضَاعَفٍ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا عَذَابَ أَغْلَظَ مِنْهُ.

٥٩ - وَتِلْكَ آثَارُ قَبِيلَةِ عَادٍ وَقُبُورِهِمْ، فَانْظُرُوا إِلَيْهَا وَاعْتَبَرُوا، إِنَّهُمْ أَنْكَرُوا آيَاتِ رَبِّهِمُ الْإِعْجَازِيَّةَ وَالْكُونِيَّةَ وَالْجَزَائِيَّةَ وَالْبَيَانِيَّةَ، مَعَ عِلْمِهِمْ وَاسْتِقَانِهِمْ بِأَنَّهَا حَقٌّ، وَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ هُوداً، وَرَسَلاً أُرْسِلَهُمُ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ إِلَيْهِمْ، وَأَطَاعُوا أَمْرَ كُلِّ مُتَمَرِّدٍ عَلَى اللَّهِ، مُتَّسِلَةً عَلَى النَّاسِ بِالْقُوَّةِ وَالْعَنْفِ، مُعَانِدِينَ لَا يَقْبَلُ الْحَقُّ وَلَا يَتَّبِعُهُ.

٦٠ - وَاتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَالشَّرَّ وَالْإِلْهَامَ، فَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ تَتَّبِعُهُمْ وَتَلْحَقُهُمْ، وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَتَّبِعُهُمُ اللَّعْنَةُ كَمَا تَتَّبِعُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَالسَّبَبُ الَّذِي اسْتَحَقُّوا بِهِ تَوَالِي اللَّعْنَاتِ عَلَيْهِمْ، الطَّارِدَةُ لَهُمْ مِنْ كُلِّ مَوَاقِعِ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ، أَلَا بَعْدَ لَعَادٍ قَوْمِ هُودٍ إِلَى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ الْجَحِيمِ.

٦١ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَبِيلَةِ «ثَمُودَ» أَخَاهُمْ فِي النَّسَبِ «صَالِحاً» نَبِيّاً وَرَسُولاً. قَالَ: يَا قَوْمِ وَحِّدُوا اللَّهَ، وَخُصُّوهُ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ، إِنَّهُ هُوَ إِلَهُكُمْ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ لَا هَذِهِ الْأَصْنَامُ، هُوَ ابْتِدَأَ خَلْقَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَجَعَلَكُمْ عُمَارَهَا وَسُكَّانَهَا، فَإِذَا آمَنْتُمْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ، وَأَنَّهُ هُوَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَعَلِمْتُمْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمَدِّدُكُمْ دَوَاماً بِعِطَاءَاتِ رِيبِيَّتِهِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلَكُمْ تَقِيمُونَ فِيهَا، وَتَتَنَفَّسُونَ مِنْ خَيْرَاتِهَا، فَاسْأَلُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ مِنْ شُرْكَ وَظُلْمٍ وَأَثَامٍ، ثُمَّ بَعْدَ الْاسْتِغْفَارِ ارْجِعُوا إِلَى رَبِّكُمْ بِتَجْدِيدِ إِيْمَانِكُمْ، وَتَأْدِيَةِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَبِهَذِهِ التَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ إِلَيْهِ تَكُونُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُجِيبٌ لِدُعَائِهِمْ.

٦٢ - قَالُوا: يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا قَبْلَ بَعْثِكَ بِالرَّسَالَةِ مَرْجُوراً لِكُلِّ رَأْيٍ سَدِيدٍ وَعَمَلٍ رَشِيدٍ، أَتُنْهَانَا عَنْ أَنْ نَعْبُدَ الْأَوْثَانَ الَّتِي يَعْبُدُهَا آبَاؤُنَا الَّذِينَ هُمْ قُدُوتُنَا فِي حَيَاتِنَا، وَهُمْ أَهْلُ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ فِينَا؟! وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، مَوْقِعٌ فِي أَتْهَامِكَ بِالْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ.

٦٣ - قال صالح عليه السلام لقومه: يا قوم تفكروا لتروا بعقولكم واقع أمري مع ربي، إن كنت على يقين وبرهان من ربي بأنني نبي ورسول مكلف منه أن أبلغ رسالته، وآتاني من فضله رحمة عظيمة، وهي النبوة والرسالة، وأنا مأمور بدعوتكم وتبليغكم، وإن لم أقم بما فرض الله عليّ، فإني أكون عاصياً لربي، أستحق العذاب الشديد، وعندئذ فمن يمنعني من عذاب الله إن خالفت أمره؟ فإن عصيت ربي مستجباً لمطالبكم بالكف عن دعوتكم، فما تزيدوني غير أن تجعلوني خاسراً هالكاً بإبطال أعمالي، والتعرض لعذاب الله وسخطه.

٦٤ - ويا قوم هذه ناقة أخرجه الله عز وجل كما طلبتم ووصفتهم وعيّنتم، جعلها لكم معجزة دالة على صدقي في الرسالة، فاتركوها تأكل من العشب والنبات في أرض الله كما تشاء، فليس عليكم مؤنتها، ولا تمسوها بسوء ما يؤذيها، فإذا مسستموها بسوء قبض عليكم من ربكم عذاب في الدنيا قريب، لا تأخير فيه ولا تأجيل.

٦٥ - فخالقوا أمر ربهم، وتأمر بعضهم على عقرها، ورضي بهذا سائرهم، فنحروا الناقة، فقال لهم صالح: انتفعوا في داركم بما فيها من أمن ورخاء ثلاثة أيام بلياليها، ثم في اليوم الرابع تهلكون هلاكاً شاملاً. ذلك العذاب الأليم العظيم المهلك الذي أوعدتكم به بعد ثلاثة أيام، وعد صادق غير موعود وعداً كذباً.

٦٦ - فحين جاء وقت تنفيذ أمرنا الذي قضيناه بهلاك ثمود، خلصنا صالحاً والذين آمنوا معه، بوسيلة هي من آثار رحمتنا، وخلصناهم من عذاب ذلك اليوم وهوانه، إن ربك - يا رسول الله - ذو القوة العظيمة الكبرى، لا يمسه نصب، ولا يلحقه ضعف، ذو العزة الكاملة الغالب الذي لا يغلبه شيء.

٦٧ - وقبضت على الذين ظلموا أنفسهم بالكفر الصنيعة العظيمة الطاغية التي أهلكتهم، فدخلوا في صباح اليوم المقرر أن يهلكهم الله فيه، في قراهم وأماكن تجمعهم صرعى لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم، ملازمين أمكتهم لا جراك بهم.

٦٨ - كأنهم في سرعة هلاكهم لم يقيموا في تلك الديار، ولم يسكنوها مدة من الدهر في نعمة ورغد، تنبّهوا وتحققوا إن ثمود جحدوا بآيات ربهم، وستروا أدلة ربوبيته، ألا بعداً وطرداً لكفار ثمود من مواقع نزول آثار الرحمة الربانية.

٦٩ - ونقسم مؤكداً لكم أنه جاءت رسلنا الذين أرسلناهم من الملائكة إبراهيم مصحوبين بالبشارة بإسحاق، ويعقوب من بعده. قالوا: نُسلم عليك سلاماً، قال لهم إبراهيم: تحيّي لكم سلاماً، فذهب بخفة وسرعة لضيافتهم، وهو يجهل كونهم ملائكة، فما أبطأ عن مجيئه بعجل سمين مشوي على الحجارة المحمّاة في حفرة من الأرض.

وفي هذه الآية مشروعية الضيافة والمبادرة إليها، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها.

٧٠ - فلما رأى إبراهيم عليه السلام أيدي أضيافه لا تصل إلى العجل السمين المشوي الذي قرّبه إليهم، استنكر تصرفهم ونفر منهم؛ لامتناعهم من الطعام، ووقع في قلبه خوف منهم، وظنهم أعداء يريدون به كيداً، ولم يعرف أنهم ملائكة لا يأكلون الطعام؛ إذ كان مظهرهم لا يشعر بذلك، فلما رأت الملائكة خوف إبراهيم قالوا له: لا تتخف إنّنا ملائكة الله أرسلنا إلى إهلاك قوم لوط.

٧١ - وزوجة إبراهيم «سارة» قائمة من وراء حجاب في خدمة الرسل تسمع كلامهم، واجمة من الحذر لأنهم لا يأكلون، فلما علمت حالهم، ضحكت سروراً بانجلاء سحابة الخوف عن إبراهيم وعنهما، فبشرناها على السنة الملائكة بأنها ستلد من زوجها إبراهيم ولداً يسمى إسحاق، وسيعيش ولدها، وسيكون لها من بعد إسحاق ولد الولد، يعقوب.

قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ هَذَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ قَرِيبٍ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ مَتَّبِعُوا فِي دَارِكُمْ فَلَنَسَّ أَتْيَارَ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرَ مَكْدُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْآيَاتُ تَمُودًا كَفَرُوا وَارْتَمَوْا الْأَبْعَادَ لَشُمُودٍ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ فَنَكَّرَهُمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرًا لَهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

٧٢ - قالت «سارة» لما بُشِّرَتْ بإسحاق مُتَعَجِّبَةً: يا عَجَباً عظيماً أألدُّ وأنا امرأةٌ عجوزٌ كبيرة السنِّ هَرَمَةً، وهذا زوجي إبراهيم حال كونه شيخاً؟! إنَّ إنجاب الولد من شيخٍ كبيرٍ وعجوزٍ كبيرةٍ لشيءٌ عجيبٌ لم يُشاهد له نظيرٌ في الناس.

٧٣ - قال الرُّسل من الملائكة لسارة: لا تعجبي من أمر الله؛ فإنَّ الله سبحانه قادرٌ على كلِّ شيءٍ، رحمتهُ الله وخيراته الكثيرة ونعمه الثابتة عليكم يا أهل بيت إبراهيم عليه السلام، إنَّه سبحانه المحمود الذي يُحمد على صفات ذاته وأفعاله، كثيرُ الحمد لأهل طاعته والتقرب إليه بمحبَّاه، الواسع الكرم والعطاء، كثير الخير والإحسان.

٧٤ - فلما ذهب عن إبراهيم الفزع والخوف الذي حصل له عند امتناع الملائكة من الأكل؛ وجاءته البُشرى هو وزوجته «سارة» بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وتلقَّى نبأ إهلاك قوم لوط وتعذيبهم، وهدأت نفسه واطمأنت، أخذ يُجادلُ رُسُلنا في قوم لوط، لرفع العذاب عنهم، وعدم تنفيذ إهلاكهم ولو إلى حين.

٧٥ - إنَّ إبراهيم لصبور كثير الأناة، غير عجول، صَفُوح عَمَّنْ أَناءه بمكروه، يقابله بالإحسان واللطف، كثير الحزن، رقيق القلب، كثير التضرُّع إلى الله، تائب يرجع إلى الله دوماً بالتوبة والطاعة الكاملة.

٧٦ - قال الرُّسل من الملائكة لإبراهيم عليه السلام: يا إبراهيم أعط لهذا الأمر الذي توجَّهت نفسك له، شفقةً على قوم لوط جانب وجهك، فشفاعتك فيهم غير مقبولة، ونؤكد لك أنَّ ربَّك قد حكم بعذابهم، فهو نازلٌ بهم لا محالة، وإنَّ العذاب الذي نزلَ بهم غير مصروف ولا مدفوع عنهم، إذ لا رادَّ لقضاء الله المُبرم.

٧٧ - ولما جاءت الملائكة لوطاً، وكانوا على صورة غُلَّمان مُردِّ حسان الوجوه، ساءه وأحزنه حضورهم؛ لاعتقاده أنهم أناس، وأشفق عليهم من قومه أن يقصدوهم بمكروه، وهو عاجزٌ عن مدافعتهم، وفقد طاقةً ووسعاً بسببهم، فلم يجد من ذلك المكروه مخلصاً، وقال لوط: هذا يومٌ شديد شره، عظيم بلاؤه.

٧٨ - وجاء كبار قوم لوط يمشون في سرعة واضطراب، يسوق بعضهم بعضاً إليه من شدة فرحهم، رغبةً في فعل الفاحشة الشاذة بهم، ومن قبل مجيء الملائكة إليهم كانوا يعملون الفعلات الخبيثات، فلما بلغهم نبأ ضيوف لوط الحسان، تركوا ما هم فيه من سيئات كانوا يعملونها على عاداتهم، سعيًا للحصول على لذة مُمارسة الفاحشة في شباب مُردِّ حسان، هي أحبُّ إليهم من السيئات التي كانوا يعملونها. قال لوط لقومه حين قَصَدُوا أضيافه، وظنُّوا أنَّهم غُلَّمان من بني آدم: يا قوم هؤلاء نساء قومي، أزواجكم إياهنَّ، هُنَّ أظهرُ لكم، فخافوا الله أن ينزل بكم عقابه، إذا أصررتن على دخول داري عتوةً، وفعل ما تطلبون في ضيوفي، ولا تسوؤوني في أضيافي، ولا تفضحوني معهم، أليس منكم رجلٌ واحدٌ فيه رُشدٌ وعقلٌ، يمنعكم عمَّا تجمَعنَّ عليَّ من أجله؟

٧٩ - قال قوم لوط له: إنَّكَ تعرض علينا أمراً تعلم أنَّنا لا نقبله في تقاليدنا؛ لأننا لا نأتي نساءنا إلا بحقِّ الزواج، ولكنَّا نأتي الذكور على سبيل الشُّيوع دون عُقود ولا ضوابط، وإنَّكَ لتعلم الشيء الذي تُريده من إتيان الرجال في أدبارهم.

٨٠ - قال لوط عليه السلام: أتمنَّى لو أنَّ لي بصدِّكم ودفعكم عن ضيفي قوة؛ لقاتلتكم حمايةً لضيفي، أو أنضم إلى عشيرة قويَّة تمنعني منكم؛ لانضممت إليهم.

٨١ - قالت الملائكة لما رأوا ما وصل إليه لوط عليه السلام من الشدة والقلق والاضطراب: يا لوط، إننا رُسُلُ ربِّك، لن يصلوا إليك بمكروه، فيز فوراً بأهلك ببقية من الليل، مُبتعداً بهم عن أرض «سدوم» التي سينزل بها العذاب المهلك، ولا يلتفت منكم أحدٌ إلى ورائه، لينظر ما سيحلُّ بهم؛ إلا امرأتك دعها في أرض قومها، ولا تُسرِّ بها؛ إنه سيصيبها ما أصاب قومها من رجز وعذاب، فقال لوط: متى يكون هذا العذاب؟ قالوا: إنَّ موعد إهلاكهم هو وقت الصُّبح، أليس الصُّبح بقريب؟

قَالَتْ يَوٰىلَيْتُ ۖ أَلَدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ ۖ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنتَبِهٌ ﴿٧٥﴾ يَتَّبِعُ بُرْهَانَ عَرَضَ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِتْمٌ عَذَابٍ غَيْرَ مُرْدُوٍّ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُ بِهِمْ وَصَافٍ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّمُ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالُوا لَوْنًا لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۖ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۖ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

٨٢، ٨٣ - فلما جاء وقت تنفيذ أمرنا بتعذيب قوم لوط وإهلاكهم، رفعنا أرضهم التي عليها قراهم في الجوّ، وقلبناها حتى صار أعلاها أسفلها، وصار أسفلها أعلاها، وأمطرنا على شذاها - بعد قلب قراهم - حجارة من طين مُتَصَلِّبٍ منضَمٍّ بعضه إلى بعض باتساق وتراصّف مُنْتَظِمٍ. حالة كونها مُعَلَّمةً عند ربِّك بعلامة معروفة، تخصّ مُجرمي قوم لوط، وما تلك الحجارة التي أمطرها الله على قوم لوط من كلّ الظالمين الذين يستحقّون الإهلاك بها بمكان بعيد عنهم.

٨٤ - ولقد أرسلنا إلى أهل «مدين» أخاهم في النّسب واللغة والموطن شعيباً عليه السلام. قال: يا قوم وَحِدُوا الله، ولا تعبدوا معه غيره؛ لأنّه ما لكم في الواقع والحقيقة من معبود حقّ يصحّ أن يُعبد سواه، ولا تكيّلوا وتزنوا للغير ناقصاً، وتستوفوا الكيل والوزن لأنفسكم زائداً، إني أراكم في نعمة وسعة تُغنيكم عن التّطفيف، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط، يُدرك كلّ واحد منكم بالعذاب، فيهلككم جميعاً في الدنيا، ثم في الآخرة، بعد البعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

٨٥ - ويا قوم أتموا المكيال والميزان وافينين بالعدل، ولا تُطفّفوا فيهما، ولا تُنقصوا الثّاس ممّا استحقّوه شيئاً، ولا تتماذوا في الأرض مُفسدين بأعمالكم الإجرامية الظالمة، ومنع الناس حقوقهم، وقطع الطريق على المسافرين.

٨٦ - ما يُبقيه الله لكم من ربح أذن لكم به في تجارتكم وبيعكم وشرائكم، وسائر مجالات اكتساب أرزاقكم، وما يُبقيه لكم من ثواب جزيل على طاعتكم لربكم، والتزامكم صراطه المستقيم، خير لكم في الدنيا والآخرة ممّا تأخذونه بالحرام، بوسائل التّطفيف في

المكاييل والموازين، وبخس الناس أشياءهم، إن كنتم ستؤمنون بما قلت لكم وأمرتكم به ونهيتكم عنه، وتعملون بما يُوجبُ عليكم إيمانكم، وما أنا مُرسَلٌ إليكم لأكون مُسَيِّطِراً عليكم، أحفظكم بسلطان الجبر والإكراه، من عذاب ربكم العاجل والآجل، إنما أنا مُبلِّغٌ فقط رسالة ربي إليكم. وإني مهما كنت حريصاً على دفع الضرر عنكم، فإنني لا أستطيع أن أكون حفيظاً عليكم أقيكم من عذاب الله، إذا أراد الله عزّ وجلّ بحكمته وعدله أن يعاقبكم، وينزل بكم نقمته وعذابه، إنما يقيكم من عذاب الله إيمانكم وطاعتكم لربكم.

٨٧ - قالوا: يا شعيب هذه الصّلاة تأمرُك أن نترك الأصنام التي يعبدها آبائنا الذين هم قدوتنا في حياتنا، وهم أهل العقل والرّشد، أو صلاتك تأمرُك أن تنهانا عن أن نفعل في أموالنا ما نشاء، معتمدين على مهارتنا في خداع الناس والاحتيايل عليهم؟! أليس هذا أمراً عَجَباً يتنافى مع مُقتضيات صلواتك التي تُصليها لربك؟! إنك لأنت الحليم الرشيد في قومنا؟ فما الذي جرّى لك حتى صرت تتصرّف تصرّفاتٍ ليس فيها حلم ولا رُشد؟!

٨٨ - قال لهم شعيب: يا قوم أفكّرتم تفكيراً سديداً بآناة وتعمّق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريّة، إن كنتم على بصيرة وهداية وبرهانٍ جليّ واضح من ربّي، ورزقني الله منه رزقاً حلالاً لا معصية لله فيه، ولا عدوان فيه على أحد، وآتاني العلم والهداية والنّبوة، فهل يسعني مع هذه النعم الكثيرة أن أخالف أمره ونهيه! وما أريد الآن ولا مستقبلاً أن أقصد الشيء الذي أدعوكم إلى اجتنابه فأفعله، إنّما أختار لكم ما أختاره لنفسي، ما أريد فيما أمركم به وأنهاكم عنه إلا الإصلاح ما استطعت إلى ذلك سبيلاً عن طريق الإقناع والموعظة الحسنة، ولا أستطيع إجباركم على الطاعة، وما تسديدي في خطوات سعبي لتبليغ رسالة ربي، وإصابتي الرّشد في قلبي وعملي، إلا بمعونة الله وعطائه وتسديده، على الله وحده اعتمدت، وإليه أرجع بقلبي ونفسي وفكري في كل أموري لا إلى غيره.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ
شُعَيْبًا قَالَ يَنْفُورُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ عِزَّةٌ
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ يُخَيَّرُ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَنْفُورُوا
أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَفِيزٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ
تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْفُورُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ
كُنْتُ عَلَىٰ يَنْفُورٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنَهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

٨٩ - ويا قوم لا يحملنكم خلافتكم وعداؤكم لي على الإصرار على الباطل والظلم والعدوان، التي تجعلكم تستحقون الإهلاك الشامل، الذي استحقه الأقوام المهلكة قبلكم، فاحذروا مثل الغرق الذي أصاب قوم نوح، أو الريح التي أهلكت قوم هود، أو الصيحة التي أصابت قوم صالح حتى هلكوا جميعاً، أو أن يصيبكم مثل ما أصاب القوم القرييين منكم زماناً ومكاناً، الذين أهلكهم الله بحجارة من سجيل، وبصيحة، وقلب قراهم، فجعل عاليها سافلها، وما ديار قوم لوط ببعيدة منكم، وأنتم حديثو عهد بهلاكهم.

٩٠ - وادعوا ربكم طالبين منه أن يغفر لكم ما سبق أن ارتكبتم من شرك وآثام، ثم بعد الاستغفار الصادق، ارجعوا إلى ربكم، بالقيام بالأعمال الصالحة، وبترك الأعمال السيئة، ولا تقنطوا من رحمة الله مهما أسرفتم على نفوسكم، إن ربي واسع الرحمة بعباده إذا استغفروا وتابوا، مُجِبٌّ لعباده المؤمنين.

٩١ - قالوا: يا شعيب ما نفهم كثيراً مما تدعونا إليه، فاقطع كلامك معنا، ونؤكد لك - يا شعيب - أننا نعلم أنك ضعيف فينا، فلا قوة لك تستطيع بها مواجهة قوانا، إذا أردنا قتلك رجماً بالحجارة؛ لتتخلص منك ومن دعوتك، ولولا جماعتك وعشيرتك الأقربون لقتلناك رجماً بالحجارة، وما أنت علينا بذي كرامة تستحقها علينا حتى نكرمك عن الرجم من أجلها، بل قومك وقبيلتك الذين هم على ملتنا هم الأعزة علينا.

٩٢ - قال شعيب: يا قوم أجماعتي وعشيرتي الأقربون أهيب عندكم من الله وأمنع حتى تركتم قلتي لمكان قومي عندكم؟ ونبذتم أمر الله وراء ظهوركم، وتركتموه كالشيء الملقى الذي لا يلتفت إليه، إن ربي عالم بأحوالكم جميعاً، لا يخفى عليه منها شيء، فيجازيكم بها يوم القيامة.

٩٣ - ويا قوم اعملوا على المكان الاعتقادي الذي اخترتموه لأنفسكم على غاية تمكنكم من أمركم، وأقصى استطاعتكم، إني عاملٌ على المكان الاعتقادي الذي اخترته، لا أتوقف عن دعوتي على الرغم من كل تهديداتكم وتديراتكم الكيدية، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يفصح به بسبب عمله السيئ، وسوف تعلمون حينما ينزل عليكم عذاب الله المخزي المهين، من هو كاذب فيما يدعيه، وانتظروا عاقبة أمري وأمركم، إني معكم منتظر لأحداث المستقبل، وسينصرنى الله عليكم، ويخزيكم بالعذاب الأليم المهين.

٩٤ - ولما جاء وقت تنفيذ أمرنا الذي قضيناه بإهلاك قوم شعيب بسبب ظلمهم، خلصنا شعيباً والذين آمنوا معه، بوسيلة هي من آثار رحمتنا، وقبضت الصيحة العظيمة المميتة، على الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس، فدخلوا في صباح اليوم المقرر أن يهلكهم الله فيه، في قراهم وأماكن تجمعهم لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم، مُلازمين أمكتهم لا يتحركون.

٩٥ - فصارت حالتهم بعد أن نزل بهم من عذاب الله ما نزل، تُشبه حالة الذين لم يقيموا بديارهم مدةً من الدهر في نعمة ورغد، ألا طرداً لكفار «مدين» من كل مواقع نزول آثار الرحمة الربانية كما طردت «ثمود» من قبل.

٩٦ - ونقسم مؤكدين لكم أننا أرسلنا موسى مصحوباً بآياتنا الإعجازية والبيانية والجزائية العظيمة، وآتيناه حجة دامغة وقوة قاهرة ظاهرة دالة على صدقه وصحة رسالته، تنقاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم بها الحجة على المعاندين. كالعصا واليد وغيرهما.

٩٧ - أرسلنا موسى إلى فرعون ملك مصر، ووزرائه ومستشاريه وأعيان مملكته، فاتبعوا شأن سيدهم الملك فرعون اتباعاً تقليدياً، وخضعوا له خضوعاً كاملاً، وما شأن فرعون في دينه وأنواع سلوكه بسديد ولا حميد العاقبة، وما أمره التكليفي بأمر موافق للصواب والهدى.

وَيَقَوْمٍ لَا يُجْرِمَكُمُ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝٨٩ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِ بِعَرِيضٍ ۝٩١ قَالَ يَنْقَوْمُ آرَهِطِي أَعَزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٩٢ وَيَقَوْمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جِئْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ حٰثِمِينَ ۝٩٤ كَانُوا لَمْ يَعْنُوا فِيهَا الْأَبْعَادَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝٩٦ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧

٩٨ - كما كان فرعون قدوة قومه في الضلال والكفر في الدنيا، فكذلك هو قدوتهم وإمامهم في النار، يتقدمهم ويقودهم إلى النار، فأدخلهم فيها بكفره وكفرهم، وبشس المدخل المدخل فيه، الذي سيدخلونه حتماً يوم الدين، عقوبة لهم على كفرهم وجرائمهم.

٩٩ - وأتبع فرعون وقومه الكافرون في هذه الحياة الدنيا طرداً وبعداً عن الرحمة، جعلتهم يذوقون العذاب وهم يغرقون في البحر أدلاءً مهانين خزايا، وأتبعوا لعنة أخرى يوم القيامة مع اللعنة التي حصلت لهم في الدنيا، وبشس العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة، ذلك أنه ترادف عليهم لعنتان: لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة.

١٠٠ - ذلك الذي ذكرناه لك - يا رسول الله - في هذه السورة من قصص نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم السلام، والأقوام الذين أرسلوا إليهم، بعض من أنباء المجتمعات السكينة والأمم السالفة التي أهلك الله كفارها، تُخبرك به - يا رسول الله - لتُخبر قومك أخبارهم؛ لعلهم يعتبرون بها، فيرجعوا عن كفرهم. من مباني تلك المجتمعات السكينة التي أهلكناها ما له آثار باقية، كالزراع القائم على سوقه، ومنها ما عفا أثره، كالزراع الساقط على الأرض، المحصود بالمانجل.

١٠١ - وما ظلمناهم بالعذاب والإهلاك، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، فما كفتهم صارفة عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله، من شيء مما يكرهون، حين جاء وقت تنفيذ أمر ربك بعذابهم، وما زادهم من كانوا يعبدونهم من دون الله غير تخسير وتدمير.

١٠٢ - ومثل ذلك الأخذ التّعذيبي الإهلاكي، الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين، يكون أخذ ربك إذا أخذ القرى وأهلها ظالمون، إن أخذته بالعقوبة للكفرة المجرمين أخذ مؤلّم لهم، شديد صعب عليهم.

١٠٣ - إن في ذلك الذي قصه الله عز وجل من عذاب الأمم الخالية وإهلاكهم لعبرة وموعظة لمن كان يخشى الله ويخاف عذابه في الآخرة، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

١٠٤ - وما نُؤخّر ذلك اليوم المشهود الذي يُجمع الناس فيه للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، إلا إلى وقتٍ معلوم محدود، وذلك الوقت لا يعلمه أحد إلا الله تعالى.

١٠٥ - حين يأتي في ذلك اليوم جميع الخلائق، لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله تعالى، فبعض المجموعين للحساب من أهل الموقف: شقيّ مُعذّب، تُظهر محكمة العدل الربانية أنه محكوم عليه بالشقاء الأبدي، لأن ما قدّمه في رحلة امتحانه من كفيات وجرائم بإرادته الحرّة، يستحقّ عليه الخلود في عذاب النار، وبعض المجموعين للحساب من أهل الموقف: سعيد مُنعم، تُظهر محكمة العدل والفضل الربانية أنه محكوم له بالسعادة الأبديّة؛ لأن ما قدّمه في رحلة امتحانه في الدنيا من إيمان وعمل صالح، يستحقّ مع فضل الله عليه أن يكون سعيداً في جنات النعيم، خالداً فيها أبداً.

١٠٦ - فأما الكفار الذين شقوا في الدنيا، فالتار مُستقرهم، لهم فيها من العذاب والهوان زفيرٌ يدفعون به أنفاسهم الحارة من رئاتهم حتى آخر ما فيها، وشهيقٌ يجذبون به السموم الحارّة إلى أعماق رئاتهم، ولا هواء في النار إلا السموم الحار.

١٠٧ - لاثنين في النار أبداً بقضاء من ربك مُبرّم، ما دام الكون موجوداً؛ إذ الكون المادي لا يخلو من أرض تكون مكاناً في النار للمُعذّبين، ولا يخلو من سموات فوق هذه الأرض، فلا ينقطع عذابهم ولا ينتهي، إلا ما شاء ربك أن يستثنيه بحكمته من عموم القضاء المُبرّم بالخلود، فيما لو يشاء أن يقدره ويقضيه مستقبلاً، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا حق لأحدٍ عليه، ولا يجب عليه شيء؛ إن ربك - يا رسول الله - فقال لما يُريد.

١٠٨ - وأما المؤمنون الذين سعدوا بفضل الله ورحمته، فالجنة مُستقرهم، لاثنين مقيمين فيها أبداً بقضاء مُبرّم، ما دام الكون موجوداً، إذ الكون المادي لا يخلو من أرض تكون مكاناً في الجنة للمُنعّمين، ولا يخلو من سموات فوق هذه الأرض؛ إلا ما شاء ربك أن يستثنيه بحكمته من عموم القضاء المُبرّم بالخلود، فيما لو يشاء أن يقدره ويقضيه مستقبلاً، ويُعطي الله هؤلاء السعداء من أسباب النعيم المُسعد عطاءً غير مقطوع عنهم. وفائدة الاستثناء: إرشاد العباد إلى تفويض جميع الأمور إليه جل شأنه، وإعلامهم بأنها منوطه بمشيئته.

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسُ الْوَرْدُ
الْمُرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَنْسُ
الرِّقْدَ الْمَرْقُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ
مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيْـًٔ
وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ
إِلَيْمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ
ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٢﴾ وَمَا
نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي
النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٥﴾ خَلْدٌ لَيْسَ فِيهَا مَادَامَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ
﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلْدٌ لَيْسَ فِيهَا مَادَامَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ ﴿١٠٨﴾

١٠٩ - فلا تكن في شك - أيها المخاطب - مما يعبد هؤلاء المشركون من آلهة، متوهماً أنها آلهة تنفع أو تضر، ليس لهم في عبادة هذه الأصنام مُستند إلا أنهم رأوا آباءهم يعبدونها فَعَبَدُوهَا مثلهم، وإننا مع عبادتهم هذه الأصنام لمُعْطَوْهُمْ حُظُوظَهُمْ التي سبق أن قَدَرْنَاهَا لهم من متاعات الحياة الدنيا وافيّاً من غير نقص فيه، فإذا جاء وقت الجزاء جازيناهم بما يستحقّون من العدل.

١١٠ - ونؤكد لكم أننا آتينا موسى كتاب التوراة، فاختلف فيه بنو إسرائيل: فمنهم مُصدّق، ومنهم مُكذّب كما اختلف قومك بالقرآن، ولم نُفَضِّ بين مؤمنهم وكافرهم في الحياة الدنيا، بل أخرنا ذلك ليوم القيامة، تنفيذاً لكلمتنا التي سبقت بهذا الأمر، وكذلك الحال تكون معاملتنا للمكذّبين الكافرين بالقرآن من قومك، ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب عن المُكذّبين بالقرآن إلى يوم القيامة، لُعَذِّبُوا في الحال، وفُرغ من عذابهم وإهلاكهم إباداً في الدنيا، وإن هؤلاء المكذّبين من قومك لفي شك من كون القرآن مُنزّلاً من لدنا عليك - يا رسول الله -، وهذا الشك أوقعهم في الرُّبِّ بشأن صدق الرسول ﷺ وأتّهمه بأنه ذو غايةٍ دنيويةٍ من دعوته، وهذا الشك يوقع في تهمتهم بأنهم عالمون بالحقّ وجاحدون به عناداً؛ لضعف شكهم، وقوّة حجج ما هم شاكون فيه.

١١١ - وإنّ كلاً من الفريقين المُخْتَلِفَيْنِ المُصدّق والمُكذّب، يُؤَيِّتُهُمُ اللهُ جزاء أعمالهم، فيجازي المُصدّق على تصديقه الجنة، والمُكذّب على تكذيبه النار، إنّه سبحانه بما يعملون خبيرٌ، على سبيل الشهود والحضور المُصاحب لكلّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

١١٢ - فالزّم - يا رسول الله - التّهجّ المستقيم المتوسّط بين طرقي الإفراط والتفريط، واثبت على دين ربك والعمل به والدعاء إليه كما

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَقْصُودٍ ۝١٠٩ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَرِسِبَ ۝١١٠ وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِقُكُمْ رَبُّكُمْ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١١ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتُمْسِكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّكْرَيْنِ ۝١١٤ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝١١٥ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧

أمرك ربك، أنت ومن آمن معك من أمّتك، ولا تُجَاوِزُوا ما حُدِّدَ لكم بإفراط وتفريط، إنّه سبحانه بصيرٌ دوماً بكلّ ما تعملون في حياتكم، وسيعاقب المتجاوزين حدوده بعدله.

١١٣ - ولا تميلوا إلى بعض إغراءات وتضليلات الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وفجورهم، ساكنين إليهم، ومعتمدين عليهم، فتمسّكم النار بحرّها، ولن تجدوا أحداً ممن ركنتم إليهم أو من غيرهم ينصركم ويتولاكم، ثم لا تجدون لكم من يدفع عنكم ويخلصكم من عقاب الله غداً في القيامة. وفي الآية: النهي عن الركون إلى الظالمين، ومجالستهم، ومداهنتهم، ومؤانستهم.

١١٤ - وأدّ الصلاة المكتوبة على تمامها - يا رسول الله، ويا كلّ مسلم مكلف - غَدُوّ النَّهَارِ في الفجر، وَعَشِيَّةُ في الظهر والعصر، وأقم الصّلاة في ساعات من الليل، وهي صلاتا المغرب والعشاء، إنّ الأعمال الحسنة - كالصلاة والصدقة والاستغفار ونحوها من أعمال البر - يَكْفُرْنَ الذنوب الصغائر ويُذْهِبْنَ المؤاخذه عليها. ذلك الذي تقدّم ذكره من الاستقامة، والمحافظة على الصّلوات الخمس المفروضة، وإتباع السيئة الحسنة، تذكرة للمؤمنين الحريصين على تذكر مطلوب الله منهم، فيفعلون ما أمر الله به، ويتركون ما نهى عنه.

١١٥ - واصبر - يا رسول الله وكلّ داعٍ إلى الله - على أوامر الله وتحمل المشقّات النفسية والجسدية؛ فإنّه سبحانه لا يضيع أجر المحسنين، بل يعطيهم هذا الأجر العظيم في الدنيا نصراً ومَجْداً، ويعطيهم إِيَّاهُ في الآخرة منازل رفيعة في جنّات النعيم.

١١٦ - فهلاً كان من الأمم الماضية التي أهلكناها من قبلكم - يا أمّة محمد - ذوو خَصْلَةٍ باقية من خير وعقل، يقومون بالنهي عن الفساد في الأرض، حتى لا نحكم عليهم بالإهلاك الشامل، ولكن لم يكن فيهم مَنْ فيه خير ينهى عن الفساد، فلذلك أهلكناهم، إلا نزرّاً قليلاً ممن آمن من الأمم الماضية الذين كانوا ينهون عن الفساد، واتباع المهلوك الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ما مُتَّعُوا فيه من الشهوات العاجلة، فَبَطَرُوا النعمة، وكفروا بالله، وكانوا مجرمين، مُتَّبِعِينَ في الفجور، فَوَجِبَ عليهم العذاب. فاحرصوا - أيها المؤمنون - أن تكون منكم أمّة يدعو إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا تكونوا كأهل القرون السابقة التي استحقّت الإهلاك بسبب أنهم لم يبق فيهم بقية صالحة إلا أفراداً قليلين لم يكن لهم تأثير على مجتمعاتهم.

١١٧ - وما كان ربك - يا رسول الله - ليُهْلِكَ أهل القرى بعذاب الاستئصال بالدنيا بسبب ظلمهم الكبير، والحال أنّ لدى كثير من أفرادهم الاستعداد لأن يتحوّلوا عن طريق إراداتهم الحرّة إلى الصّلاح، بإصلاحٍ منهم لما هم فيه من فساد وإفساد.

١١٨ - ولو شاء ربك - أيها المتلقي بيان ربك - لسلب الناس إرادتهم الحرة، فجعلهم مجبورين، وحينئذ يجعلهم أمة واحدة مفطورة على الهداية، لا يوجد فيهم كافر واحد. وبما أن الله سبحانه جعل الناس ذوي إرادات حرة، فإنهم لا يزالون مختلفين.

١١٩ - ومن مظاهر اختلافهم: أن يختار بعضهم الإيمان، وأن يريد بعضهم الكفر، لكن من يختار الإيمان بصدق وإرادة جازمة، يشرح ربك صذره للإسلام برحمته وتوفيقه ومعونته له، وخلقهم ربك ذوي إرادات حرة ليكشف بالامتحان اختلافهم في مراداتهم وأعمالهم، من الإيمان والكفر، والطاعة والعصيان؛ ليجزيهم يوم الدين، على ما قدموا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا من صالحات وسيئات، وإذ علم ربك أن أكثر الجن والإنس، سيريدون بإراداتهم الحرة الكفر والعصيان، فقد تمت كلمته في الحكم على العباد بأن يملأ جهنم من مجرمي الجن والناس أجمعين.

١٢٠ - وتدبر كل نبا نقص عليك - يا رسول الله - من أنباء الرسل وما جرى لهم مع أقوامهم، ما تقوي به قلبك؛ لتصبر على أذى قومك، وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك، وجاءك - يا رسول الله - في هذه السورة من أنباء الرسل مع أقوامهم، الحق الثابت المتضمن ما يثبت به قلبك، ونصح مقرون بما يثير الرغبة والرغبة، وهو أيضاً موعظة لمن يشاء أن يتعظ من غير المؤمنين، بما عاقب الله به مجرمي القرون الماضية، وذكرى للمؤمنين تبصرهم بتأييد الله ونصره لأوليائه، وخذلانه لأعدائه.

١٢١، ١٢٢ - وقُل - يا رسول الله - للذين ليس لديهم استعداد، لأن يؤمنوا بك، ومما جئتكم به عن ربهم: اعملوا ما شئتم أن تعملوه، من مكاييد وتدابير، حالة كونكم ثابتين على مكانتكم

الكفرية الإجرامية، إننا عاملون بما يرضي ربنا، ثابتون على مواقع إيماننا وإسلامنا، وجهادنا وصبرنا، وانتظروا نتائج أعمالكم الكفرية الإجرامية، إننا مُنتظرون ما يحل بكم من نعمة الله وعذابه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، ومنتظرون تأييد الله ونصره لنا، وما يمنحنا من عزة ومجد ورزق حسن في الدنيا، ثم ما يتفضل به علينا من نعيم مقيم في الجنة.

١٢٣ - ولله وحده علم ما غاب عن العباد في السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء فيهما، وإلى الله وحده يرجع أمر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة. فاعبده ولا تشغل بعبادة غيره، وسلم كل أمورك بقلبك إليه مع قيامك بالأسباب المستطاعة، وما ربك بغافل عما تعملون، فهو سبحانه عليم بكل أعمال عباده، لا يخفى عليه منها شيء، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

سُورَةُ يُوسُفَ

١ - ﴿الرَّ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. تلك آيات الكتاب الذي يجب تدوينه بالكتابة، الظاهر الواضح الدلالات، الموضح المظهر ببياناته ما أراد الله عز وجل أن يبينه لعباده.

٢ - إننا أنزلنا هذا الكتاب حالة كونه قرآناً يكتب ويُقرأ المكتوب منه محمياً من التحريف والتغيير. وأنزلناه عربياً بلغتكم التي هي أفصح اللغات، وأكثرها بياناً للمعاني؛ رغبة أن تعلموا - أيها العرب - معانيه، وتفهموا ما فيه، وتعملوا بأحكامه، وتبلغوه للناس أجمعين.

٣ - نحن نقص عليك - يا رسول الله - أحسن القصص الذي نتقي منه أنفع الأنباء، ونختار له أفصح البيان، وأفضل وسائل التأثير بإيحائنا إليك - يا رسول الله - هذا القرآن، وقد كنت من قبل وحيًا إليك لمن الغافلين عن هذه القصة وما فيها من العجائب.

٤ - تدبر وضع في ذاكرتك، قول يوسف لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم: يا أبتِ إني رأيتُ في المنام حلمًا، أخذَ عشرَ كوكبا من كواكب السماء، والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين على شكل سجود البشر لعظيم من عظماء الناس.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُُونَ مُخْتَلِفِينَ
 ١١٨ إِنْ أَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْسُطَ إِلَيْكَ إِلَهُكَ لَخَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
 لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١١٩ وَكَلا نَقُصُّ
 عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئُ بِهِ فَؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ
 الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ١٢٠ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ١٢١ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ
 ١٢٢ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ
 فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٢٣

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الرَّسُولُ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
 لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
 بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ
 لَمِنَ الْغَافِلِينَ ٢ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ
 أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ٣

٥ - قال يعقوب لابنه يوسف: يا بني لا تُخبر إخوتك برؤياك، فإنهم يعرفون تأويلها، فيدبروا في الحَقَاءَ كَيْدًا شديداً، يُسدّدون به لك سهم مُصَيِّبَةً لِلتَّخْلُصِ منك؛ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ وَمُظْهِرُهَا.

ومن هذه الوصية نستفيد استحسان كتمان دلائل النعمة القادمة، والمبشرات بها؛ لئلا تثير حسد الحاسدين، وتُحَرِّضَهُمْ عَلَى فِعْلِ الشَّرِّ، وتُدبِرُ الْمَكَايِدَ.

٦ - سيعطيك الله - يا بني - مُجْداً يجعلك ذا رئاسة عظيمة، يخضع لك بها الناس حتى إخوتك وأبوك، وكذلك الذي سيمُنُّ به عليك يَضْطَفِيكَ رُبُّكَ فيجعلك نبياً ورسولاً، ويعلمُكَ بعض تعبير رؤيا النَّاسِ فيما يَرُونَهُ في منامهم، وَسَيُثِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ أَبِيكَ يعقوب بهباته من خيري الدنيا والآخرة إتماماً مثل إتمامه نعمته على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إِذْ وَهَبَهُمَا مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ، لَا يَفْعَلُ شَيْئاً إِلَّا بِحِكْمَةٍ.

٧ - نوَكِّدُكَ - أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي لآيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ - أَنَّهُ يَوْجَدُ فِي قِصَّةِ يَوْسُفَ وَإِخْوَتِهِ الَّتِي تُحَدِّثُكَ بِهَا عِلَامَاتٌ دَالَّةٌ عَلَى مَعَارِفٍ مَفِيدَةٍ لِلْمُتَدَبِّرِينَ الْبَاحِثِينَ عَنِ الْمَعْرِفَةِ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ سَائِلِينَ بِالْإِسْتِغْنَاءِ، أَوْ بِأَعْمَالِهِمْ عَنِ طَرِيقِ الْوَسَائِلِ الْكُونِيَّةِ الْكَوَاشِفِ، أَوْ عَنِ طَرِيقِ التَّجَارِبِ، بَغْيَةً الْوَصُولِ إِلَى الْأَجُوبَةِ الصَّحِيحَةِ الْنَافِعَةِ.

٨ - ضَعُ فِي ذَاكَرَتِكَ - أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي لِكَلَامِنَا - حِينَ إِذْ قَالَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ مِنْ أَبِيهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ: وَاللَّهِ لَيُؤْسِفَ وَأَخُوهُ الشَّقِيقُ «بَنِيَامِينَ» أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَا مَثَا، وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ نَنْفَعُهُ وَنَقُومُ بِمَصَالِحِهِ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِأَنْ يَحِبَّنَا أَبُونَا أَكْثَرَ مِنْهُمْ؛ إِنَّ أَبَانَا لَفِي خَطَا ظَاهِرٍ بِإِثَارِهِمَا عَلَيْنَا بِالْمَحَبَّةِ، مَعَ فَضْلِنَا عَلَيْهِمَا.

دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى وَقُوعِ الْحَسَدِ بَيْنَ الْأَقْرَابِ، وَأَنَّهُ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى الْكَذْبِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَعَقُوقِ الْوَالِدِ، وَهَذَا مَا حَصَلَ لِإِخْوَةِ يَوْسُفَ: حَمَلَهُمُ الْحَسَدَ عَلَى الْكَذْبِ، وَعَلَى التَّفْكِيرِ جَدِيداً فِي إِبْعَادِ يَوْسُفَ عَنْ أَبِيهِ وَلَوْ بَقْتَلَهُ أَوْ تَغْيِيهِ عَنْهُ، وَفَعَلَهُمْ مِنْ أَقْبَحِ صُورِ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ، وَعَقُوقِ الْوَالِدِ.

٩ - قَالَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ: أَقْتُلُوا يَوْسُفَ، أَوْ أَلْقُوهُ فِي أَرْضٍ بَعِيدَةٍ عَنْ أَبِيهِ، فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ بِيَوْسُفَ أَقْبَلَ يَعْقُوبُ بِوَجْهِهِ إِلَيْكُمْ، وَصَرَفَ مَحَبَّتَهُ لَكُمْ، دُونَ أَنْ يُشَارِكَكُمْ فِيهَا أَحَدٌ؛ وَتَصِيرُوا مِنْ بَعْدِ قَتْلِ يَوْسُفَ أَوْ إِبْعَادِهِ عَنْ أَبِيهِ قَوْمًا صَالِحِينَ بِالْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ.

١٠ - قَالَ قَائِلٌ مِنْ إِخْوَةِ يَوْسُفَ: لَا تَقْتُلُوا يَوْسُفَ، وَارْمُوهُ فِي قَعْرِ الْجُبِّ وَظَلَمْتَهُ حَيْثُ يَغِيبُ خَبْرُهُ، يَعِثُ عَلَيْهِ بَعْضُ الْمَارَّةِ مِنَ الْمَسَافِرِينَ، فَيَذْهَبُ بِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ أُخْرَى فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ، دُونَ أَنْ تَرْتَكِبُوا جَرِيمَةَ الْقَتْلِ ظُلْماً وَعَدْوَاناً، إِنَّ كُنْتُمْ عَازِمِينَ عَلَى التَّخْلُصِ مِنْهُ. وَقَدْ وَافَقَ الْجَمِيعُ عَلَى هَذَا الْإِقْتِرَاحِ.

١١ - قَالَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ لِيَعْقُوبَ: يَا أَبَانَا أَيُّ عَذْرٍ بَاعَتْ لَكَ حَالُ كَوْنِكَ لَا تَرَانَا أَمْنَاءَ عَلَى يَوْسُفَ إِذَا أَرْسَلْتَهُ مَعَنَا، وَقَدْ طَلَبْنَا مِنْكَ أَنْ يَخْرُجَ مَعَنَا إِلَى الْمَرَاعِي عِدَّةَ مَرَاتٍ، وَإِنَّا لَنُرِيدُ لَهُ الْخَيْرَ وَالنَّفْعَ، وَلَا نُضْمِرُ لَهُ غِشًّا.

١٢ - أَرْسَلَهُ مُصَاحِباً لَنَا غَدَاً إِلَى الصَّحْرَاءِ يَتَسَّعُ فِي الْمَلَأِ وَخُضْبِ الْأَكْلِ، وَيُمَارِسُ رِيَاضَةَ نَافِعَةٍ فِي الْمَرَاعِي وَالْهَوَاءِ الطَّلَقِ، وَالْأَرْضِ الْوَاسِعَةِ، وَإِنَّا نَجْتَهِدُ فِي حِفْظِهِ غَايَةَ الْجَاهِدِ حَتَّى نَرُدَّهُ إِلَيْكَ سَالِماً.

١٣ - قَالَ يَعْقُوبُ لِأَبْنَائِهِ: إِنَّهُ لَيُؤْلِمُ قَلْبِي ذَهَابُكُمْ بِهِ وَغِيَابُهُ عَنِ نَظَرِي، فَأَنَا شَدِيدُ الْمَحَبَّةِ لَهُ، لَا صَبْرَ لِي عَلَى مَفَارَقَتِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ، وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ بَرِيعِكُمْ وَلَعِبِكُمْ.

١٤ - قَالَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ لَوَالِدِهِمْ: نَقْسِمُ لَكَ يَا أَبَانَا؛ لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ الَّذِي تَخَافُ مِنْهُ، وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ قَوِيَّةٌ، إِنَّا حِينَ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ لَنَعْزِزُهُ ضَعْفَاءَ لَا خَيْرَ فِينَا، وَلَا نَفْعَ يُرْجَى مِنَّا.

قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَإِ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۖ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلْمُتَّالِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحِبُّ إِلَيَّ آيِنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ اقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَوْطَوْهُ أَرْضًا يَحِلُّ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونُ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَقِ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ۝ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ ۝

١٥ - فاستجاب يعقوب لطلب أولاده، وأرسله معهم، فلما ذهب الإخوة العشرة بأخيهم الغلام الصغير، وعزموا على أن يلقوه في قعر الجُبِّ وظلمته، نَفَّذُوا مَكِيدَتَهُم التي أجمعوا عليها، وأَوْحَيْنَا إِلَى يُوسُفَ: لَنُنَجِّيَنَّكَ، وَلَنَمُنِّنَّ عَلَيْكَ بالوصول إلى مَجْدٍ عَظِيمٍ، وليأتينَّ إليك إخوانك خاضعين طالبين عطفك عليهم، وَلَنُثَبِّتَهُمْ بِأَمْرِهِم هذا الذي فعلوه فيك، وهم لا يدركون أدنى إدراك بأنك أخوهم يوسف؛ لرفعة شأنك وعلو سلطانك حينئذ.

١٦ - وبعد أن ارتكب إخوة يوسف جريمتهم البشعة، جاؤوا إلى أبيهم وقت العشاء، ليكون بكاءً مُصْطَنَعًا؛ لِيُخْفُوا به جريمتهم ضدَّ أخيه. وفي هذه الآية درس للحكام والقضاة، بأن لا يتأثروا بالمظاهر التي يفتعلها بعض المُخَاصِمِينَ.

١٧ - وحين سألهم أبوهم يعقوب عن سبب بكائهم؟ قالوا له صارخين: يا أبانا إنا ذهبنا نتسابق في الجَزْيِ على الأقدام وزمى السَّهَامِ، وتركنا يوسف عند طعامنا وشرابنا وفُرْشنا وأدواتنا، فأكله الذئب في حال استباقتنا وغفلتنا عنه، وما أنت بمُصَدِّقٍ لنا، ولو كنا صادقين في قولنا؛ لشدة محبتك ليوسف، فلا فائدة من محاولة إقناعك بصدقنا.

١٨ - وجاؤوا مُموَّهين على قميص يوسف الذي نزعوه عنه قبل أن يلقوه في الجُبِّ بدم كذب، يدعون ادعاءً عملياً مُخَالَفاً للحقيقة والواقع، ونسوا أن يخرقوا قميص يوسف الذي لَطَّخُوهُ بدم تيس ذبحوه، فكان علامة كذبهم المفضوح. قال لهم أبوهم يعقوب: ما الأمر كما تقولون، بل زَيَّنْتَ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ الحاسدة لأخيكم أمراً كيدياً عظيماً فَعَلْتُمُوهُ، فشاني صَبْرٌ جَمِيلٌ لا شكوى فيه ولا جَزَعٌ، مع الرضا بقضاء الله وقدره، واللَّهُ وحده المُسْتَعَانُ على ما تصفون من القول الكذب.

وفي الآية دليل على مشروعية الأخذ بالقرائن والأمارات؛ لأنَّ يعقوب عليه السلام استدلَّ على كذبهم بسلامة القميص من التخریق. ١٩ - وجاءت جماعة من المسافرين محتاجة لاستقاء الماء من الجُبِّ، فأرسلوا مَنْ يَطْلُبُ لهم الماء، فلما أرسل دَلُوهُ إلى الجُبِّ ليستخرج الماء منه، تعلَّق يوسف بالحبال، فلما خرج يوسف، فرح الوارد، وقال لأصحابه: أبشروا هذا غلام، نسترقه، وأخفاه أصحاب القافلة حتى لا يكتشفه أهله في تلك الأرض فيطالبوا به، واعتبروه بضاعة من البضائع التي يحملونها للتجارة بها، واللَّهُ عليم بما يعملونه بيوسف.

٢٠ - وباعه رجال القافلة في «مصر» بثمن ناقص عن القيمة نقصاً ظاهراً، ودرهم قليلة، وكانوا زاهدين في يوسف، غير راغبين في الاحتفاظ به، وغير مُقدِّرين لقيمته التي يَشْتَرَى مثله بمثلها.

٢١ - وقال عزيز مصر الذي اشترى يوسف لزوجه: اجعلي مكان إقامته مكاناً كريماً، فإذا أكرمت منزله ومقامه، فإننا نرجو أن ينفعنا منافع حسنة بما وهبه الله من أمارات النجابة، أو نبتَّاه ونقيم مقام الولد، وكما منّا على يوسف بأن أُنْقَذناه من القتل وأخرجناه من الجُبِّ، كذلك مكَّناه في أرض «مصر»، فجعلناه على خزانها، ولنعلمه بسبب التمكين الذي مكَّنا له في «مصر» بعضاً من تعبير الرؤيا وتفسيرها، واللَّهُ غالب كلِّ مُغَالِبٍ لمقاديره، قدير على تنفيذ ما قدره الله وقضاه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا دافع لأمره، ولا رادَّ لقضائه، وهو سبحانه غالب على أمر يوسف يُدَبِّرُهُ وَيَحُوطُهُ ولا يتركه إلى غيره حتى لا يصل إليه كيد كائد، فقد أريد به من الفتنة والشرِّ ما أريد أكثر من مرَّة، فلم يحصل له إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا لطفه بعباده، وأنَّ الأمر كله بيد الله.

٢٢ - وحين بلغ منتهى شبابه وشدة قوته، أتينا يوسف فقهاً في الأمور يُمكنه من إصدار الأحكام العلميَّة والقضائيَّة، وآتيناه علماً واسعاً جزاء إحسانه في طاعة ربِّه، وكما أنعمنا على يوسف بهذه النعم كلها، وكذلك الجزاء المُعَجَّل الذي جَزَيْنَاهُ إِيَّاهُ نجزي كلَّ المحسنين على إحسانهم.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَجِّيَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ يَدْمٌ مِرْكَبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبْشَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَّةَ بِهِ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

٢٣ - وطلبت امرأة العزيز - برفق ولين ومهلة وإعمال حيلة - من يوسف الذي هو في بيتها الفعل القبيح، ودعته مخادعة له عن نفسه ليواقعها، وأطبقت الأبواب، وضربت عليه الحصار، وطوّفته بكل ما عند المرأة الغنية المترفة من أطواق الإغراء والفتنة، وقالت: تهيأت لك وتزينت، فكل ما ترى أمامك لك وحدك، هلم إلى الاتصال وأقبل إلى الوصال. قال يوسف: أعود بالله معاذاً مما تريدني مني! وأعتصم به وألتجئ إليه التجاء في دفع ذلك عني، إنه ربي الله الذي أحسن إقامتي في بيت عزيز مصر، وإنه سيدي العزيز أكرم منزلي فلا أخوته في أهله، وإن فعلت هذا الفعل فانا ظالم، ولا يظفر ولا يفوز الظالمون بمطلوبهم.

وفي الآية يعلمنا الله عز وجل أن نلجأ إليه، ونستعبد به من أن نزلق إلى الانغماس في كبائر الإثم، عند المواقف التي قد تضعف فيها مقاومة إرادتنا الرشيدة، وتبدأ فيها غشاوات الشهوات العارمات تتوارد على ساحة بصائرنا الإيمانية.

٢٤ - ولقد توجهت نفس امرأة العزيز دون مستوى الإرادة الجازمة لضربه؛ ثاراً لكرامتها، وتوجهت نفس يوسف لضربها دون مستوى الإرادة الجازمة؛ ليمنع عن نفسه محاولاتها الإلزامية، لولا أن رأى برهاناً جلياً من ربه، منعه من ضربها لضربها، مثل ذلك الذي كان منه من عفة عن الفحشاء، وإمساك نفسه عن مقاومة امرأة العزيز بما يؤذيها ضرباً ودفعاً، كان ممثلاً له عوناً وتثبيتاً وتقوية لعزيمته، لنصرف عنه الوقوع بالسوء الذي يذأ به فيما لو ضربها، أو دفعها بعنف قد يؤذيها به، فيكون دليلاً ضده، ولنصرف عنه الوقوع بفاحشة الزنى التي هي من كبائر الإثم، إنه من عبادنا الذين صفيناهم من الشوائب، واخترناهم للنبوة والرسالة.

٢٥ - وقام يوسف هارباً مبادراً إلى الباب، مبتعداً عن مواطن التهمة والريبة، ومجتنباً مواضع الفتنة، وتبعته المرأة تحاول الإمساك به، لتمنعه من أن يفتح الباب ويفر، فتعلقت بقميصه من خلفه وجذبه إليها حتى لا يخرج، وشقت قميصه طولاً من جهة ظهره، فغلبها يوسف، فخرج وخرجت خلفه، فلما خرجا وجدوا زوج المرأة (العزيز) عند الباب. فلما رآها العزيز قالت له: ما جزاء من أراد بامرأتك ضرباً وإيذاءً، إلا أن يحبس في السجن، ويمنع التصرف، أو يُعذَّب العذاب الموضع المؤلم؟ أرادت الانتقام من يوسف لكبريائها، وتبرته نفسها، واستفزاز مشاعر زوجها، وإثارة غضبه وغيرته، فينتقم من يوسف قبل أن يتحقق من الأمر، ويكشف الحقيقة.

٢٦ - قال يوسف لزوجها بتأن وروية: أنا لم أرد إيذاءها بضرب ولا غيره، ولكن هي التي طلبت مني الفحشاء، ودعنتني إلى الفعل القبيح مخادعة لي عن نفسي لأواقعها، فأثبتت وفقررت إلى جهة الباب، فلحقني وجذبتني لإكراهي على الرجوع. فكذبت وزعمت أنه لحقها لضربها، وأنها هربت إلى جهة الباب، وشهد شاهد من أهل المرأة بأنه رآها هارباً منها، وأنها هي التي لحقته وجذبتته من ثوبه، فكذبت الشاهد، فقال: إن كان قميصه قُطِعَ طولاً من جهة صدره، إذ تدفعه عن نفسها، فصَدقت في اتهامها له، وهو من الكاذبين.

٢٧ - وإن كان قميصه شقّ طولاً من جهة ظهره، إذ أسرع في الخروج فراراً منها، فكذبت في اتهامها له، وهو من الصادقين.

٢٨ - فلما رأى زوج المرأة قميص يوسف شقّ من جهة ظهره لا من جهة صدره، أدرك صحة شهادة الشاهد، وعرف خيانة امرأته، وبراءة يوسف، فوجه كلامه لزوجته قائلاً: إن هذا الصنيع من حيلك ومكرك السوء في خفاء؛ إن مكركن - أيها النساء - عظيم.

٢٩ - قال عزيز مصر: يا يوسف اترك هذا الحديث، فلا تذكره لأحد حتى لا يقشو ويشيع، ثم التفت إلى المرأة فقال لها: واطلبي ستر الذنب من الله، إنك كنت من المتعمدين للذنب حين خُتت زوجك، ورميت يوسف بالتهمة، وهو بريء منها.

٣٠ - وقال جماعة من النساء لما شاع خبر يوسف والمرأة في مدينة «مصر»: امرأة العزيز تطلب من عبدها الشاب الحديث السنّ الفاحشة، وهو يمتنع منها، قد أصاب حبها إيّاه سويداء قلبها، إننا لنراها في خطي واضح ظاهر، حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر، وأحببت فاتها الخاضع لسلطانها في قصرها.

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَ بَرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَتْ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ أَنْ كِيدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾

٣١ - فحين سمعت امرأة العزيز بسوء مقاتلتهن فيها، وقصدهن رؤيته، أرسلت إليهن تدعوهن لزيارتها، وهيأت لهن في مجلسها نمارق ومسانيد يتكئن عليها، وأحضرت لهن طعاماً يقطع بالسكين عند أكله، وأعطت كل واحدة من النساء سكيناً، وقالت ليوسف: أخرج على النسوة، فلما رأيته أعظمته، ودهشن عند رؤيته من فرط جماله، وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين، وسالت دماء جراحاتهن، ولم يجدن الألم لدهشتهم بما رأين، وشغل قلوبهن بيوسف، وقلن متعجبات: نبرأ إلى الله من قدرتنا على مقاومة هذا الجمال دون أن نتأثر به، ولجوءاً إليه ليعيدنا من تأثير هذا الحسن الذي لم نشهد نظيره، ليس هذا بشراً، ما هذا إلا ملك كريم جامع لأكمل صفات الحسن وأسناها!!

٣٢ - قالت امرأة العزيز للنسوة وهي تشير إلى يوسف بإشارة التفخيم: فلذلك الذي لمُتُني في محبته، أقسم مؤكدة أنني طلبته برفق ولين وحيلة، وحاولت إغراءه مخادعة له عن نفسه، فامتنع عن ذلك الفعل الذي طلبته منه امتناعاً شديداً، وتحفظ تحفظاً بليغاً، وأقسم إن لم يطاوعني فيما دعوته إليه، لئيقابن بالسجن، وليكونن من الأذلاء المهانين.

٣٣ - قال يوسف حين توعدته المرأة بذلك: يا رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه من الوقوع في كبيرة الزنى، وإن لم تدفع عني تدبيرهن الخفي، أبل بسبب ضعفي وطبعي إليهن، فأقع في معصيتك، وأكن من الجاهلين، الذين تشتد فيهم حرارة الشهوة، فيقعون في الإثم.

اختار يوسف عليه السلام أخف الضررين، وأهون الشرين، فالسجن فيه إضرار ببدنه ونفسه، وما يدعونه إليه فيه إضراراً بدينه وخلقه، وهو أشد ضرراً وأعظم خطراً.

٣٤ - فأجاب الله دعاء يوسف، فصرف عنه كيد امرأة العزيز وصونحياتها اللاني حاولن بوسائلهن الضغط عليه، ليلبني طلب امرأة العزيز: إن الله هو وحده السميع لدعاء يوسف ولكل دعاء، العليم بحاله وبكل شيء.

٣٥ - ثم بعد مدة بدا للعزيز وأصحابه - من بعد ما رأوا الآيات الدالة على صدق يوسف وبرائه - أن يسجنوه دون إدانة ولا محاكمة، وأقسموا ليحبسن يوسف في السجن إلى مدة يرون رأيهم فيها؛ حتى تنقطع مقالة الناس، فسجنوه.

٣٦ - ودخل السجن مع يوسف غلامان، أحدهما: خباز الملك وصاحب طعامه، والآخر: ساقيه وصاحب شرابه. قال صاحب شراب الملك: إني رأيت في المنام أني أعصر عنباً ليصير خمراً أسقيه الملك، وقال صاحب الطعام: إني رأيت في المنام أني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبتاً بئاً ولبله إنا نراك من الذين يحسنون في أقوالهم وأفعالهم، ومن الذين يحسنون في تعبير الرؤى.

٣٧ - قال لهما يوسف مغتنماً الفرصة لدعوتهما إلى الله تعالى قبل أن يجييهما إلى ما طلباه من تأويل رؤياهما: لا يأتيكما طعام من منازلكما، تطعمانه وتأكلانه إلا أخبركما بقدره ولونه والوقت الذي يصل إليكم فيه، قبل أن يصل إليكما، إن هذا الذي أخبركما به طوال هذه المدة التي مرّت، هو بعض ما علّمني ربّي، إني تركت دين العزيز وقومه الذين لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم جاحدون منكرون للمعاد، وسيلقون مصيرهم في عذاب جهنم؛ لأنهم كذبوا رسل ربهم، ولم يستجيبوا لدعوتهم. لم يشغل السجن وضيقة يوسف عن الدعوة إلى الله تعالى، وهكذا يجب أن يكون الداعي مهتماً بدعوته، لا يفكر إلا بها، ولا ييخل عليها بشيء من وقته وجهده، ولا يشغله عنها شاغل حتى في أخرج الساعات، وأضيق الحالات، وحتى عند ابتلائه بالمصائب والنكبات.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاوِءًا أَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَّ رَأْيَنَّهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجَنَ وَليَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتًا بئاً ولبله إنا نراك من الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْقَاهُ إِلَّا نَبْتًا ثَمَرًا بئاً ولبله قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

٣٨ - تركت دين قومكم، وأتبع دين آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان ينبغي لنا أن نُشرك بالله أي شيء، وقد اختارنا لنبوته، واضطفانا لرسالته، ذلك التوحيد وعدم الإشراك والعلم الذي رزقنا فضل الله علينا وعلى الناس جميعاً، إذ نصّب لهم الأدلة الدالة على وحدانيته، وبعث رُسله لكل الأمم، لدعوتهم إلى توحيد الله وعبادته، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على هذه النعم التي أنعم بها عليهم، بل هم يكفرون ويتخذون شركاء لله في ربوبيته أو في إلهيته.

٣٩ - يا صاحبي في السجن لي، اللذين أنست في السجن الموحش بصحبتهما وبمحادثتهما: أيهما خير لكم وأفضل وأكرم: أن تكونوا عبيداً لأرباب متعددين، يتشاكسون فيما بينهم، ويتنازعون في ربوبيتهم لكم، أم أن تكونوا عبيداً رب واحد عظيم هو المتصرف الأوحد بالكون كله، الغالب الذي لا يوجد شيء في الكون إلا هو واقع تحت سلطان قهره؟

٤٠ - إن هذه الأصنام التي تعبدونها ذليلة مقهورة عاجزة، ما تعبدون - أيها المشركون - من دون الله الواحد القهار إلا أسماء سميتوها آلهة وأرباباً أنتم وآباؤكم من قبلكم، وهي جمادات لا ربوبية لها فلا إلهية لها، لا حجة لكم بتسمية الأصنام آلهة ولا برهان، ولا أذن لكم بعبادتها، ما الحكم والقضاء والأمر والنهي إلا لله تعالى، لا شريك له في ذلك، أمر ألا تعبدوا إلا إياه؛ لأنه المستحق للعبادة، ذلك الذي حدثتكم عنه من توحيد الله، وأن الحكم له وحده، وأنه أمر بعبادته وحده، هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

تدل هذه الآية على أن توحيد الله في الحاكمية هي عقيدة الأنبياء والرسول، وهي متصلة اتصالاً مباشراً بكون الله هو الرب الخالق

المالك للكائنات كلها، ومن كان المالك للكائنات، فهو الحاكم المطلق في كل ما يملك تصرفاً بالإيجاد والإعدام، والحياة والموت، وتصرفاً بالأمر والنهي والتكليف.

٤١ - يا صاحبي لي في السجن، اللذين أنست بصحبتهما، إليكما تعبير رؤياكما: أما صاحب شراب الملك، الذي رأى أنه يعصر العنب، فسيخرج من السجن، ويعود إلى عمله في قصر فرعون، ويسقي سيده الملك خمرًا كما كان يسقيه أولاً، وأما صاحب طعام الملك الذي رأى أنه يحمل على رأسه خبزاً، فإنه يُضَلَب، ويُترك مصلوباً حتى تأتي الطير فتأكل لحماً من رأسه، فُرِغَ من الأمر الذي سألتما عنه.

٤٢ - وقال يوسف عليه السلام للساقى الذي ظن ظناً راجحاً أنه سيخرج من السجن، ويعود إلى عمله في قصر فرعون: اذكرني عند سيدك الملك، وأخبره أنني محبوس مظلوم، فأنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند الملك، فمكث يوسف في السجن بعد خروج صاحبيه منه عدة سنوات. لم يترك يوسف عليه السلام الأخذ بأسباب السلامة والخروج من السجن، مع توكله على الله تعالى وتفويض أمره إليه.

٤٣ - وقال ملك مصر: إني رأيت في منامي سبع بقرات سمان، وسبع بقرات في غاية الهزال، فابتلعت العجاف السمان، ودخلن في بطونهن، ولم يرَ منهن شيئاً، ولم يتبين على الهزيلات منها شيء، ورأيت سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها، وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليها، ولم يبق من خضرتها شيء. يا أيها السادة والكبراء: أخبروني بتأويل رؤياي الخطيرة، وعبروها لي، واذكروا بعدها الواقعي، إن كنتم تحسنون علم العبارة وتفسير رموز الأحلام.

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي السِّجْنُ وَأَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَبِي السِّجْنُ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبِّهِ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنِي الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا أَلْمَأُوتَى فِي رَأْيِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَى تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

٤٤ - قال السَّحرة والكهنة والمُعبرون مُجيبين الملك: رُؤياك هذه أخلاطٌ مُشْتَبِهَةٌ، ومنامات متداخلة باطلة، وما نحن بتفسير المنامات بعالمين.

٤٥ - وقال السَّاقِي الذي نَجَا من القتل بعد هلاك صاحبه الخَبَّاز، وتذكَّر قولَ يوسف بعد مدَّة طويلة من الزمن: - اذكرني عند ربِّك - أنا أخبركم بتأويل هذه الرُّؤيا، إذ أُسْتُفِي فيها السَّجِينُ العِبراني الذي كنت مُصاحباً له في سجن رئيس الشرطة، فأرسلني إليها الملك إلى السَّجن، ففيه رجلٌ عالمٌ يُعَبِّرُ الرُّؤيا، فأرسله فأتى السَّجن.

٤٦ - فلما وصل إليه قال له: يا يوسف أيُّها العَظِيمُ الصَّدَقُ في كلامك، وتأويلك، وسلوكك، وتصرفاتك، وصُحبتك: فسر لنا رُؤيا مَنْ رَأَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ، يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ بَقَرَاتٍ هَزِيلَاتٍ، ورأى سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ، فَإِنَّ الْمَلِكَ رَأَى هَذِهِ الرُّؤْيَا؛ لَعَلِّي أَرْجِعُ بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا إِلَى الْمَلِكِ وَجَمَاعَتِهِ؛ لِيَعْلَمُوا تَأْوِيلَ مَا سَأَلْتُكَ عَنْهُ، وَلِيَعْلَمُوا مَكَانَتَكَ وَفَضْلَكَ.

٤٧ - قال يوسف مُعَبِّراً لتلك الرُّؤْيَا التي تشير إلى الوضع الزراعي والاقتصادي والمالي خلال الخمس عشر سنة القادمة بما فيها من رخاء، ثم قحط، ثم غوث: أَرْزَعُوا سَبْعَ سِنِينَ بَجْدٍ وَاجْتِهَادٍ مِنْ غَيْرِ فَتُورَ عَلَى عَادَتِكُمُ الْمُسْتَمِرَّةِ فِي الزَّرَاعَةِ، فَمَا حَصَدْتُمْ مِنَ الْحِنْطَةِ فَاتْرَكُوهُ فِي سُنْبُلِهِ؛ لِثَلَاثٍ يَفْسُدُ فِيهِ السُّوسُ، وَاحْفَظُوا أَكْثَرَهُ لَوَقْتِ الْحَاجَةِ، إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَهُ مِنَ الْحُجُوبِ.

٤٨ - ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ الدَّأْبِ فِي زِرَاعَةِ الْأَقْوَاتِ وَادِّخَارِهَا طَوَالَ السَّنِينَ السَّبْعِ الْمُخَصَّصَةِ سَبْعَ سِنِينَ مُجْدِيَةٍ مُمَحَلَّةٍ شَدِيدَةٍ عَلَى النَّاسِ، يَأْكُلُ النَّاسُ وَتَأْكُلُ مَوَاشِيهِمْ فِيهَا مَا زَرَعْتُمْ وَادَّخَرْتُمْ لَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ فِي سِنَوَاتِ الْخَصْبِ، إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَحْفَظُونَهُ وَتَدَّخِرُونَهُ، احْتِيَاطاً

لِلطَّوَارِءِ الْمُلْجَةِ التي قد يُسَمَحُ فِيهَا بِالْأَخْذِ مِنَ الْإِحْتِيَاطِ بِمَقَادِيرِ الضَّرُورَةِ.

٤٩ - ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ هَذِهِ السَّنِينَ الْمُجْدِيَةِ عَامٌ تَرْجِعُ فِيهَا تَصَارِيفُ الْكُونِ إِلَى مِثْلِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَفِيهِ تَنْزُلُ الْأَمْطَارُ النَّافِعَةُ الَّتِي يُنْبِئُ اللَّهُ بِهَا الزَّرْعَ، وَفِيهِ يَعْصِرُونَ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُعَصَّرَ مِنْ نَحْوِ الْعِنَبِ وَالزَّيْتُونِ وَالْقَصَبِ، وَتَكْثُرُ النَّعْمُ عَلَى النَّاسِ. لَمْ يَكْتَفِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، بَلْ بَادَرَ فَوْضَعَ لَهُمْ خُطَّةَ عَمَلٍ لِمُوَاجَهَةِ سِنَوَاتِ الْقَحْطِ وَالْجَفَافِ، وَهِيَ خُطَّةٌ اقْتِصَادِيَّةٌ تَتَنَاوَلُ الْحَيَاةَ الزَّرَاعِيَّةَ وَالتَّمْوِينِيَّةَ لِلأُمَّةِ خِلَالَ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ مُسْتَقْبَلَةٍ.

وهذه الرُّؤْيَا هي الثالثة والأخيرة في قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: رُؤْيَاهُ سَجُودَ الْأَحَدِ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَهُ سَاجِدِينَ، وَرُؤْيَا السَّجِينَيْنِ فِي السَّجَنِ، وَرُؤْيَا الْمَلِكِ حَوْلَ الْبَقَرَاتِ وَالسُّبُلَاتِ.

٥٠ - وَقَالَ الْمَلِكُ - لَمَّا سَمِعَ بِتَعْبِيرِ رُؤْيَاهُ، وَمَا أَشَارَ بِهِ مِنْ تَدْبِيرِ اقْتِصَادِيٍّ لِحِمَايَةِ الشَّعْبِ مِنَ الْجُوعِ - لِأَعْوَانِهِ: أَخْرِجُوا الرَّجُلَ الْمَعْبُورَ لِلرُّؤْيَا مِنَ السَّجَنِ، وَأَحْضِرُوهُ لِي، فَلَمَّا جَاءَهُ رَسُولُ الْمَلِكِ يَدْعُوهُ أَبَى أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُ، وَقَالَ يُوسُفُ لِلرَّسُولِ: أَرْجِعْ إِلَى سَيِّدِكَ الْمَلِكِ، فَاسْأَلْهُ مَا شَأْنُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ؟ إِنَّ رَبِّي عَالِمٌ بِصَنِيعَهُنَّ وَمَا احْتَلَنَ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ مِنَ الْحِيلِ الْعَظِيمَةِ.

٥١ - وَلَمَّا أَخْبَرَ الرَّسُولُ الْمَلِكَ بِذَلِكَ جَمْعَهُنَّ، وَبِأَشْرَ التَّحْقِيقِ بِنَفْسِهِ، وَسَأَلَهُنَّ سُؤَالَ الْمَثْهَمِ لَهُنَّ: مَا سَأَلْتُكُمْ حِينَ طَلَبْتُمْ بَرْقَ وَتَمَهَّلْتُمْ مُخَادَعِينَ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟ هَلْ وَجَدْتُنَّ مِنْهُ مِثْلاً إِلَيْكُنَّ؟ قَالَتِ النَّسْوَةُ جَمِيعاً مُجِيبَاتٍ لِلْمَلِكِ: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَعْمَلَ سَوْءاً، وَنَبْرَأَ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَتْهَامِهِ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ خِيَانَةٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ. قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: الْآنَ ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ الْحَقُّ بَعْدَ خَفَاءٍ، فَأَنَا الَّتِي حَاوَلْتُ فَتْنَتَهُ بِمُخَادَعَتِهِ عَنْ نَفْسِهِ، فَامْتَنِعْ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فِي قَوْلِهِ: هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي.

٥٢ - عِنْدَئِذٍ قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بَلَغَتْهُ نَتِيجَةُ تَحْقِيقِ الْمَلِكِ مَعَ النَّسْوَةِ، وَأَنَّ بَرَاءَتَهُ ظَهَرَتْ: ذَلِكَ الْبَقَاءُ فِي السَّجَنِ، وَمُطَالَبَتِي بِالتَّحْقِيقِ فِي قِصَّةِ أَتْهَامِي؛ لِيَعْلَمَ عَزِيزُ مِصْرَ الَّذِي اسْتَأْمَنَنِي عَلَى قَصْرِهِ وَأَهْلِهِ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِشَيْءٍ وَهُوَ غَائِبٌ، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَبْذُ أَنْ يَكْشِفَ كَيْدَ الْخَائِنِينَ، فَلَوْ كُنْتُ خَائِناً مَا نَصَرَنِي رَبِّي، وَأَظْهَرَ بَرَاءَتِي؛ لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَا يَدْعُ كَيْدَ الْخَائِنِينَ سَاتِراً لَخِيَانَاتِهِمْ وَمُلْصَقاً التَّهْمَةَ بِالْبَرِثِينَ.

قَالُوا أَضَعَفْتُ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ
فَارْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خَضِرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْعُمُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُونِي فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا
قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٍ كُلُّ
مَا فَعَلْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
عَامٌ فِيهِ يَأْتُنَّ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي
بِئْسَ الْفُلْمَا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ
النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ
مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ
مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ
الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ
لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

٥٣ - وما أردت تزكية نفسي، بل أردت إظهار ما أنعم الله عليّ به من العصمة والتوفيق، إنّ النفس كثيرة الأمر لصاحبها بعمل المعاصي، داعية إلى شهواتها مائلة إليها، إلا نفساً رحمها ربّي، فعصمها أن تأمر صاحبها بالشوء، إنّ ربي كثير السّر للذنوب من تاب من عباده، دائم الرحمة بهم.

٥٤ - وقال الملك بعدما تبين له براءة يوسف وأمانته وعلمه: اثتوني به، أ جعله خالصاً لنفسي، فلا يشاركني فيه أحد، فجاؤا به، فلما كلم الملك يوسف، وعرف منزلته وأمانته وعفته وذكاءه النادر، وعقله الرّصين الراجح، قال ليوسف: إنّك اليوم عندنا صاحب مكانة ومنزلة وجاه، ومؤتمن على كلّ شيء. وبهذا انتهت محنة يوسف، وانتقل من ظلمة السجن إلى نور الحرية، فعلا نجمه، وذاع صيته، بينما أفل نجم العزيز وزوجته، فلم يعد لهما أي ذكر، وعلم الناس فضل العفة والأمانة والصدق، وقبح الفاحشة والخيانة والكذب.

٥٥ - قال يوسف للملك: اجعلني على خزائن الطعام والأموال بأرض «مصر»، إني كثير الحفظ للأقوات، كثير العلم بأسباب تهيتها، ووجوه مصالحها، مؤهل للقيام بهذا المنصب الخطير. وإنما قال يوسف ذلك لعلمه بقدرته على ما يتولاه، ولما فيه من المصالح للناس، فيجوز للمسلم أن يفعل ذلك، فيمدح نفسه بذكر صفاته وكفاءته على العمل الذي يطلب الولاية عليه إذا وجد في ذلك مصلحة شرعية، وكان واثقاً من القيام بحقوق هذه الولاية ومطلباتها.

٥٦ - وكذلك المنصب الخطير الذي متنا عليه، إذ جعلناه صاحب السلطة العامة على خزائن أرض «مصر»، كذلك مكنا ليوسف في أرض «مصر»، ينزل ويقيم إقامة طويلة وقصيرة، في أي مكان يشاء، بحسب مقتضيات إدارته لعموم المملكة، نعطي من آثار رحمتنا من نشاء من عبادنا، ولا نضيع أجر المحسنين لأمتهم التي ولأهم الله أمرها، فلا يغرّتهم سلطان، ولا يستبد بهم طمع؛ لأن قلوبهم

متوجهة إلى الآخرة. ٥٧ - عجلنا ليوسف بعض الثواب في الدنيا؛ لأنه في اختياراته وأعماله الباطنة والظاهرة من المحسنين، وما ننحبه بعض عبادنا من أجر مُعجل في الحياة الدنيا، لا يؤثر على أجر الآخرة، ولأجر الآخرة عند الله أفضل من أجر الحياة الدنيا، للذين آمنوا وكانوا يتقون دوماً ما نهى الله عنه. وإذا كان هذا الأجر العظيم لأهل مرتبة التقوى على درجاتها، فكيف يكون حال أهل مرتبة البر، وأهل مرتبة الإحسان، ومنهم يوسف عليه السلام؟!

٥٨ - وقدم إخوة يوسف إلى «مصر»، ليجلبوا منها الطعام - بعد أن اشتد القحط وعظم البلاء حتى وصل إلى بلاد الشام -، فدخلوا على يوسف، فعرفهم، وهم لم يعرفوا أنه أخوهم؛ لطول المدة، وتغير هيئته.

٥٩ - ولما أعطاهم يوسف كل ما يحتاجون إليه في سفرهم، وحمل لكل واحد منهم بعبيراً من الطعام، قال لهم - وكانوا قد أخبروه أنّ لهم أخاً من أبيهم لم يحضروه معهم -: اثتوني بأخ لكم من أبيكم خلّفتموه عنده، ألا ترون أنني أنتم الكيل ولا أبخس منه شيئاً، وأزيدكم حمل بعبير آخر لأجل أخيكم أكرمكم به، وأنا خير المضيفين؟!.

٦٠ - ثم قال يوسف: فإن لم تأتوني بأخيكم من أبيكم الذي ذكرتموه لي، ظهر لي أنكم كاذبون، فعندئذ لا أكيل لكم طعاماً، ولا ترجعوا إليّ، ولا تقربوا بلادي.

٦١ - قال إخوة يوسف: سنحاول إقناع أبيه بمختلف الوسائل ليوافق على طلب إرساله معنا، وإنّا لفاعلون ما أمرتنا به، ولن نقصّر في ذلك.

٦٢ - وقال يوسف لغلمانه: اجعلوا ثمن الطعام الذي أعطوني في أوعيتهم التي يحملون فيها الطعام؛ لعلهم يعرفون أنها هي نقودهم التي اشتروا بها إذا رجعوا إلى أهلهم، ويقدرُوا إكرامنا لهم؛ لتحملهم معرفتهم إياها على الرجوع إلينا طمعاً في إعطائنا.

٦٣ - فلما رجعوا إلى أبيهم «يعقوب» بالطعام، وأخبروه بإكرام العزيز لهم، قالوا: سيمنع منا الكيل في المستقبل، إنّ لم نحمل معنا أخانا، فأرسل معنا أخانا نكتل جميعاً، ونتعهد لك بحفظه، ونرده إليك.

وَمَا أَتَيْنِي نَفْسٌ إِلَّا تُفَسِّسُ لِيَ الْفَنَاءِ وَالْأَسْوَى إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ
رَفِيقًا إِن رَفِي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ اثْنُونِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ
لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ
اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرُ
الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ
أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا
كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونَنِي ﴿٦٠﴾ قَالُوا اسْتَزِدْ عَنَّا أَبَاهُ
وإنَّا لَنَفْعَلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتِيلِهِ اجْعَلُوا بَصَنَّتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَرَوْنَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلَ
فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴿٦٣﴾

٦٤ - قال يعقوب: أنتم لستم أمناء على أخيكم، وهل آمنكم على ولدي «بنيامين» إلا كما أمتكم على أخيه الشقيق «يوسف» من قبل. إن ما جرى منكم ليوسف يجعلني لا آمنكم على «بنيامين»، ولكن ماذا أفعل إذا كانت الضرورة ملجئة، فأنتم تقولون: لن يكون لكم كيل ما لم تأخذوا «بنيامين» معكم، وإذا أرسلته معكم فإني أسأل الله أن يحفظه، إن حفظ الله خير من حفظكم له، هو الذي يرحمنا، وهو أرحم الراحمين.

٦٥ - ولما فتحو أوعية الطعام التي حملوها من «مصر»، وجدوا ثمن الطعام الذي كانوا قد أعطوه ليوسف قد رُدَّ عليهم. قالوا: يا أبانا أي شيء نطلب من إحسان الملك الذي وصفناه لك بعد هذا الإحسان والإكرام؟ أوفى لنا الكيل، وردَّ علينا الثمن؛ لتسرع العودة إليه مصحوبين بأخي الصغير حتى يزيد إكرامنا، فكن مطمئناً على أخينا، وأرسله معنا، نشترى لأهلنا الطعام ونحملة إليهم، ونحفظ أخانا «بنيامين» مما تخاف عليه حتى نردَّه إليك، ونزداد لأجل أخينا على أحمالنا حمل بعير من الطعام؛ إن ذلك الكيل الذي نزداد من الطعام هيئ على الملك؛ لأنه قد أحسن إلينا وأكرمنا بأكثر من ذلك.

٦٦ - قال لهم يعقوب: لن أرسل معكم «بنيامين» حتى تؤتوني عهد الله المؤكد باليمين أن تردَّوه إلي، إلا أن تهلكوا جميعاً، فلا تقدروا على الرجوع، فلما أعطوه عهدهم، وحلفوا له. قال أبوه يعقوب: الله شاهد مطلع قريب على ما نقول، فأنا أفوض أمري إليه تسليمًا كاملاً.

٦٧ - وقال يعقوب لأولاده جميعاً حين عزموا على الرحيل إلى مصر، لجلب أقواتهم منها: يا أبنائي لا تدخلوا من باب واحد،

وادخلوا من أبواب متفرقة، حتى لا تضيقكم أعين الحاسدين، وما أدفع عنكم بوصيتي لكم أن تدخلوا من أبواب متفرقة من أمر الله من شيء، إن كان قضى عليكم بقضاء فهو يضيقكم مجتمعين أو متفرقين، وما الحكم الذي يتم به تنفيذ قضاء الله وقدره إلا لله وحده لا شريك له فيه، ولا يدفع قضاءه شيء إلا أن يكون شيء قد قدره الله تعالى سبباً لمنع شيء آخر، وما الأسباب إلا أمور عادية يخلق الله عندها ما يريد، أو يمنع عندها ما يريد منعه، ومع مطالبي باتخاذ الأسباب، وإيماني بأنها لا تصرف من تقدير الله وحكمه شيئاً، فإني عليه اعتمدت في أموري كلها لا على غيره، وعليه وحده فليتوكل المتوكلون. وهذه الآية تدل على أن المؤمن مأمور باتخاذ الأسباب فيما جعل الله له سبباً كونياً، لتحقيق مطلوب يحتاج إليه، أو لدفع مكروه يخشى من حصوله، كما يجب على المؤمن - بعد اتخاذه الأسباب - أن يؤمن إيماناً قلبياً جازماً أن حكم الله في قضائه المبرم نافذ لا محالة، سواء أكان مسaireاً للأسباب المتخذة، أم كان مخالفاً.

٦٨ - ورحل إخوة يوسف ومعهم «بنيامين»، ولما دخلوا من الأبواب المتفرقة كما أمرهم أبوه، ما كان ذلك ليدفع قضاء الله عنهم، ولكن شفقة يعقوب وخوفه عليهم من العين حملته على وصيتهم باتخاذ الأسباب العملية، وهو يعلم أن ذلك لا تأثير له إلا بإذن الله، وإن يعقوب لصاحب علم لتعليمنا إياه بالحقائق الإيمانية الكبرى، ومنها: أنه لا يوجد شيء أو يُعَدُّم إلا بتقدير الله وقضائه، وأن على المؤمن أن يتخذ الأسباب، وأن يتوكل على الله في أموره كلها. ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقائق القضايا الدينية، إذ وجهوا أدوات المعرفة لديهم لمعرفة ما يرغبون من متاعات الدنيا وشهواتهم وأهوائهم منها.

٦٩ - ولما دخل إخوة يوسف على يوسف وهو في مجلسه السلطاني: ضمَّ إليه شقيقه «بنيامين» وأنزله معه في منزله، وقال له سراً: إني أنا أخوك يوسف، فلا تكتئب وتحزن بما كان إختوتنا من أبيننا يعملون بنا، حسداً لنا، فإن الله قد أحسن إلينا، ونجاناً من الهلاك، وجمع بيننا على خير.

قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ
قَبْلِ اللَّهِ خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا
مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا
مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا
أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا
لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ
مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهُ وَإِنَّهُ
لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَنَّ لَوْ أَنْ كَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ
إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

٧٠ - فلما أمر يوسف خدامه وعبيده بتهيئة جهاز إخوته، وحمل إبلهم بالطعام، جعل الإناء الذي كان يكيل الملك به الطعام للمُتتارين في وعاء طعام أخيه «بنيامين» من حيث لا يشعر أحد، ولما انطلقوا راجعين إلى بلادهم، تبعهم جنود الملك، ونادى منادي الجنود قائلاً: يا أصحاب الإبل التي عليها الأحمال، إنكم لسارقون، فقفوا.

٧١ - قال أولاد يعقوب عن بُعد، وأقبلوا على الجند المنادين الذين يتهمونهم بأنهم سارقون: ما الذي تفقدون؟

٧٢ - قال المُنادي وأصحابه: نفقد الإناء الذي يكيل الملك به، ولمن جاء به مكافأة هي مقدار جمل بعير من الطعام إذا جاء به قبل التفتيش، وقال رئيس الرُّهط من الجند: وأنا كفيل بمنحه هذه الجائزة. وهذه الآية أصل في الجعالة، وهو الأجر الذي يُجعل على العمل، وأصل كذلك في الضمان والكفالة.

٧٣ - قال إخوة يوسف مُقسمين على أمرين: والله لقد علمتم من رحلتنا السابقة أننا ما جئنا أرض «مصر» لأجل الفساد فيها، وما كنا في حياتنا كلها منذ نشأنا سارقين.

٧٤ - قال المُنادي وأصحابه لإخوة يوسف: فما جزاء السارق عندكم، إن ظهر بتفتيش أوعيتكم وجود صواع الملك في واحد منها، وبهذا يظهر أنكم كاذبون في ادعائكم أنكم جميعاً لستم بسارقين؟!

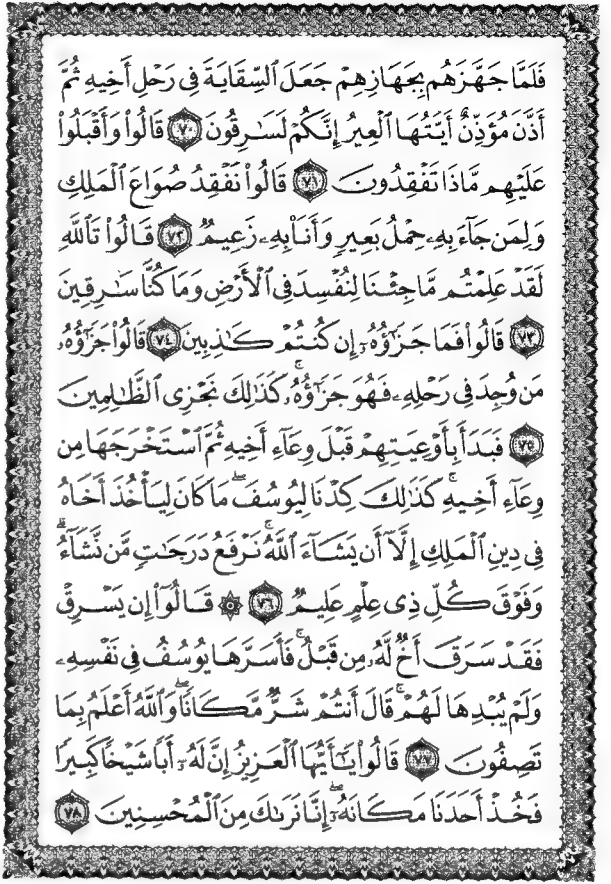
٧٥ - قال إخوة يوسف: جزاء السارق في نظام بلدنا: من وُجد المسروق في رحله يجب أن يُسلم برقبته إلى المسروق منه، فيسرقه مدة من الزمن، جزاء له على جرمه وسرقته، مثل هذا الجزاء في شريعتنا - وهو الاسترقاق - نجزي الظالمين بالسرقه.

٧٦ - فردوهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء شقيقه

لإزالة الشبهة، حتى لم يبق إلا رحل «بنيامين»، فلما فتح متاعه وجد الإناء فيه، فاستخرجه منه. كما ألهمنا يوسف تدبير مكيدة صواع الملك، ودسه في بعض أوعية «بنيامين» ليحتفظ به، كدنا لتحقيق مُراد يوسف كيداً آخر أتمنا به تحقيق مُرادهم، فألهمنا إخوته أن يذكروا نظامهم في عقوبة السارق، وهي استرقاقه مدة من الزمن، على خلاف نظام الدولة المصرية الفرعونية، وهي أن يضرب السارق ويُعزَّم ضعف ما سرق، ما كان يوسف مسموحاً له في النظام العام الذي يقضي به الملك، أن يسرق السارق، لكن له أن يعامل رعايا دولة أخرى بحسب الأنظمة المرعية لديها، فأجرى الله له التدبير الذي يمكنه من الاحتفاظ بأخيه، إلا أن يشاء الله تدبيراً آخر، فإنه قدير على أن يفعل ما يشاء، نرفع بالعلم النافع درجات من نشاء رفعه، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بما منحناه من حقائق العلم الكبرى التي يدرك بها عظيم صفات الله، وعظيم آثارها في كونه، وفوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى، فهو فوق كل عالم.

٧٧ - لما أخرج الصواع من رحل «بنيامين»، قال إخوة يوسف: إن هذا الأمر ليس بغريب منه، إن يسرق «بنيامين» الإناء، فقد سرق شقيقه يوسف من قبل، فنحن لسنا على طريقته ولا على سيرته، فهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة، لأنهما من أم أخرى، فأخفى يوسف في نفسه مقولتهم الظالمة بشأنه، ولم يُبد لهم أنه هو الذي يعنونه بها، لأنه لم يكشف لهم بعد أنه أخوهم يوسف، ولم يسألهم عن اتهامهم أخاهم الغائب بالسرقه، وكيف كانت سرقته؟ وقال لهم في نفسه دون أن يسمعون: أنتم أنزل وأحط مكاناً من «بنيامين»، ومن أخيه الغائب الذي ذكرتم أنه سرق من قبل، والله أعلم من كل عليم بحقيقة ما تصفون به أخاكم الغائب عنكم بأنه قد سرق، وتذكرونه بغيته بما يجرح أمانته، وليس لكم بينة تثبتون بها إدانته.

٧٨ - عندئذ لجأ إخوة يوسف إلى الاستعطاف ليفرج عن «بنيامين» ونادوه نداء المتلهف المستغيث: يا أيها السيد الذي يملك في مصر القوة الغالبة من بعد الملك، إن لأخينا «بنيامين» أباً شيخاً كبيراً في السن والقدر، يُحبه حباً شديداً، ولا يطيق بعده، ولا يصبر على فراقه، وإذا كان لا بُد من العقاب فخذ أحداً مكانه بدلاً عنه، إنا نراك من المحسنين في أفعالك كلها، فآتِهم إحسانك إلينا، بأن تجيب طلبنا والتماسنا.



٧٩ - قال يوسف: عياداً بالله، ولجوءاً إليه، واعتصاماً به، لحمايتنا ووقايتنا أن نأخذ أحداً غير الذي وجدنا المكيال عنده - كما حكمت أنتم -، فإن أخذنا بريئاً بذنب غيره، إنا نكون حيثنّ من الظالمين.

٨٠ - فلما يئسوا من يوسف أن يجيبهم لما سألوه ياساً كاملاً، خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون سرّاً فيما يقولونه لأبيهم في شأن «بنيامين»، قال أكبرهم سنّاً وأحسنهم رأياً: ألم تعلموا أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهداً موثقاً بالآيمان المغلظة المشددة، لتزدن أخاكم إلا أن تغلبوا، وعلمتم تفريطكم في «يوسف» من قبل هذا حتى ضيعتموه، ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه، فلن أخرج من أرض «مصر»، ولن أفارقها على هذه الصورة، حتى يأذن لي أبي في الخروج منها، فيدعوني إليه، أو يقضي الله لي برّ أخ عليّ، والله خير القاضين بالأمر الحكيم؛ لأنه يحكم بالحق والعدل والإنصاف.

٨١ - قال الأخ الكبير لإخوته الباقين: ارجعوا أنتم إلى أبيكم يعقوب، وأخبروه بما جرى، فقولوا له: يا أبانا إن ابنك «بنيامين» سرق، فاحتفظ به عزيز مصر عقوبة له على سرقة، ولم نقل ذلك إلا بعد أن رأينا إخراج المكيال من متاعه، وما كنا نعلم - حين أعطيناك الميثاق - أن ابنك يسرق، ويصير أمرنا إلى هذا.

٨٢ - واسأل - يا أبانا - أهل القرية التي كنا فيها، حين نادانا جنود العزيز متهمين لنا بالسرقة، واسأل أصحاب القوافل الراجعة معنا من «مصر» التي أقبلنا قافلين ونحن ضمنها، فالأمر كان مُعلنًا على الأشهاد، ونؤكد لك - يا أبانا - إننا لصادقون في كلّ ما أخبرناك به.

٨٣ - فرجعوا إلى أبيهم باستثناء أكبر الأخوة، فقد بقي في مصر، وباستثناء «بنيامين» الذي أمسك به العزيز بثمة السرقة، ولما وصلوا إلى أبيهم أخبروه بما جرى لهم، وبما قال كبيرهم، فعند ذلك قال

يعقوب عليه السلام لأبنائه: أنتم لستم صادقين، بل زينت وحسنت لكم أنفسكم أمراً تخلصتم به من «بنيامين» كما تخلصتم قبل من يوسف، فصبري على المصيبة التي نزلت صبراً جميلاً، لا شكوى معه لغير الله تعالى، ولا أعمل عملاً لا يرضى عنه ربي، عسى الله أن يأتيني بيوسف، وبنيامين، والأخ الثالث الذي أقام بمصر، إنه هو العليم بحزني ووحيدي عليهم، الحكيم فيما يدبره ويقضيه.

٨٤ - وابتعد يعقوب عليه السلام عن بنيه، واشتدّ بلاؤه، وتجدّد حزنه على يوسف، وقال: يا حزني الشديد على يوسف ذم، وصار يبكي بكاءً كثيراً، وانقلب سواد عينيه بياضاً، وضعف بصره من شدة الحزن وكثرة البكاء على يوسف، فهو مُمتلىء من الحزن، مُمسك عليه داخل نفسه لا يثبته. ولا يتنافى هذا الحزن مع الرضا بقضاء الله وقدره؛ لأنه ألم نفسي غير إرادي لا يملك الإنسان دفعه ولا رفعه، لكن يملك أن لا يعمل أو يقول ما لا يرضي الله عزّ وجل، فهو مُطالب بما يملك، ولا يؤاخذ على شيء غير خاضع لإرادته.

٨٥ - قال إخوة يوسف لأبيهم يعقوب عليه السلام: تالله لا تزال تذكر يوسف تفجعاً، ولا تفتر عن حبه، ويشدّ حزنك عليه حتى تكون شديد المرض مُشرفاً على الهلاك، فلا تنتفع بنفسك، أو تكون من الأموات؛ بسبب شدة الحزن والهَمّ والأسف.

٨٦ - قال يعقوب مُجيباً لأبنائه: ما أشكو ما انطوت عليه نفسي من الضعف والمرض والغمّ والحزن إلا إلى الله تعالى، لا إليكم، فهو وحده كاشف الضرّ والبلاء، وإن كنتم تلوموني على شكواي لربي على حالي التي لا أملك التغيير فيها، وعلى حزني الذي لا أملك صرفه، فأني أعلم من رحمة الله وإحسانه وفرجه ما لا تعلمونه أنتم وسيأتيني بالفرج القريب من حيث لا أحسب.

وفي الآية دليل على جواز الشكوى إلى الله عزّ وجل، لأنها تتضمن دعاء الشاكي ربه، وطلبه منه أن يكشف عنه الغمّ الذي هو فيه، ودعاء العبد ربه، وطلبه منه من الأمور المشروعة المطلوبة. أما الشكوى إلى غير الله، يُريد بشكواه التفجع والتضجر أو السخط من قدر الله تعالى. فهذا حرام وخطيئة.

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَعِنَا عِنْدَهُ: إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُّوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثَقِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

٨٧ - قال يعقوب: يا أبنائي اذهبوا فتنبؤوا بكل حواسكم ملتقطين من أخبار «يوسف» وأخيه «بنيامين» ما يكشف لكم أموراً يقضي الله بها الفرج الذي أطمع فيه، ولا تفنطوا من فرج من رحمة الله؛ إنه لا يقطع الرجاء من رحمة الله إلا القوم الكافرون، أما المؤمنون فإنهم يعلمون أن الله رحيمٌ بعباده، وأنه على كل شيء قدير، فإذا لجؤوا إليه، وتوكلوا عليه، رحمهم وأغاثهم وأسعفهم بالفرج من لدنه، وكشف الضر عنهم، وسهل الشدائد عليهم.

٨٨ - وذهب إخوة يوسف التسعة إلى «مصر» استجابة لطلب أبيهم، فلما دخلوا على يوسف قالوا: يا أيها السيد الذي يملك في مصر القوة الغالبة من بعد الملك، أصابنا ومن وراءنا من العيال الشدة والفقر والجوع، وجئنا ببضاعة رديئة كاسدة، فأعطنا ما كنت تعطينا من قبل كيلاً وافياً لا نقص فيه، وأعطنا فوق إيفاء الكيل صدقة زائدة من عندك، إن الله تعالى يجزي المتصدقين أحسن الجزاء وأكملته.

وفي الآية دليل على جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها.

٨٩ - فلما سمع يوسف مقالتهم، رفق لهم، وعرفهم بنفسه، وقال لإخوته: قد علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه «بنيامين» للتخلص منهما، وإبعادهما عن أبيكم، والحال أنتم غاضبون ثائرون بدافع الحسد؟

٩٠ - قالوا وقد فاجأتهم الحقيقة وأدهشتهم: أليست أنت يوسف؟ قال: نعم أنا يوسف المظلوم الذي ظلمتموني، وقصدتم قتلي، وهذا أخي المظلوم كما ظلمتموني، قد أنعم الله علينا بنعمة عظيمة، وجمع بيننا بعد الفاقة؛ بسبب التزامنا بتقوى الله، وإحساننا بالصبر على ما نالنا من أذى؛ إنه من يتق الله في جميع أموره، ويصبر على الضراء، وعن المعاصي، فإن الله لا يذهب ثواب المحسنين.

لقد امتحن يوسف بلقائه في الجب، ثم بيعه كعبد رقيق - وهو الحر الأصيل - وامتحن عليه السلام بامرأة العزيز، ثم بالسجن، ولكن العاقبة دائماً للمتقين الصابرين، فقد أخرج الله يوسف من الجب، وعصمه من مزاودة المرأة له، ثم أخرجه من السجن، ثم جعله متصرفاً في أثوات مصر. وكل ذلك من بعض آثار الإحسان القائم على الصبر وتقوى الله تعالى.

٩١ - قال إخوة يوسف معتذرين إليه عما صدر منهم في حقّه ومعترفين له بالفضل عليهم: تالله لقد اختارك الله وفضلك علينا بالعلم والعقل والملك والحكم، ولقد كنا في صنعا بك لمذنبين متعمدين الخطأ.

٩٢ - قال يوسف عليه السلام: لا تعبير ولا لؤم يقتضي إنزال عقاب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين.

٩٣ - ولما سألهم عن أبيه أخبروه بذهاب بصره من كثرة البكاء عليه، فأعطاهم قميصه، وقال: اذهبوا بقميصي هذا، فاطرحوه على وجه أبي، يصبح بصيراً، ثم أحضروا إليّ أهلكم أجمعين.

عادت آيات السورة للمرة الثالثة إلى قميص يوسف، وهو في هذه المرة لا يحمل دماً كذباً، ولا دليل براءته، وإنما حمل في هذه المرة الدواء والشفاء لعيني أبيه يعقوب اللتين أبيضتا من الحزن على فراقه.

٩٤ - ولما خرجت القافلة من أرض «مصر»، منفصلة عن حدود المدينة، ومعهم القميص قاصدة مكان يعقوب قرب بيت المقدس، قال يعقوب لأولاد وأولاده ومن حضره من ذوي قرابته: إني لأشتم ريح يوسف، لولا أن تجهلونني وتقولوا: شيخ كبير قد خرف وذهب عقله! لقلت لكم: إن يوسف قادم إليّ.

٩٥ - قال أولاد أولاده الذين تربوا على الجفاء وقلة الأدب مع جدّهم أخذاً من آبائهم: تالله إنك لا تزال في خطئك القديم بتفضيل يوسف على سائر أبنائك، والإفراط في حبه وذكره، وعدم نسيانه، وتوقع لقائه.

يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَنَّبَؤُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا
مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ
وَجِئْنَا بِضِغَّةٍ مُرْجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَصَدِّقْ عَلَيْنَا
إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ٨٨ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
بِیُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ٨٩ قَالُوا إِنَّكَ
لَأَنْتَ یُوسُفَ قَالَ أَنَا یُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ
عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ٩٠ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَشْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ٩١ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ
الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ٩٢
أَذْهَبُوا بِقَمِصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا
وَأَتَوْفٍ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ٩٣ وَلَمَّا فَصَلَتِ
الْعِيرُ قَالَ أَبْوْهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ یُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ ٩٥

٩٦ - فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْمُبَشِّرُ بِمَا يَسُرُّ يَعْقُوبَ، أَلْقَى قَمِيصَ يَوْسُفَ عَلَى وَجْهِ يَعْقُوبَ، فَرَجَعَ بَصِيرًا بَعْدَ أَنْ صَارَ كَلِيلًا بِسَبَبِ الْمَاءِ الْأَبْيَضِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنْ أَثَرِ الْحُزْنِ عَلَى فِرَاقِ «يُوسُفَ» وَأَخِيهِ «بَنِيَامِينَ»، وَعَادَتْ إِلَيْهِ قُوَّتُهُ بَعْدَ الضَّعْفِ، وَسُرُورُهُ بَعْدَ الْحُزْنِ. عِنْدَئِذٍ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنْ حَيَاةِ يَوْسُفَ، وَأَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا؟

٩٧ - وَلَمَّا وَصَلَ أَبْنَاؤُهُ الْعَشْرَةَ الَّذِينَ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا لِلتَّخْلُصِ مِنْ يَوْسُفَ، وَدَخَلُوا إِلَيْهِ قَالُوا مُعْتَذِرِينَ: يَا أَبَانَا اطْلُبْ لَنَا سِتْرَ ذُنُوبِنَا الَّتِي ارْتَكَبْنَاهَا فِيمَا مَضَى مِنْ عَمَرِنَا، إِنَّا كُنَّا مُذْنِبِينَ عَنْ عَمَدٍ فِي صَنِيعِنَا بِيُوسُفَ وَشَقِيقِهِ.

وتدُلُّ الآيةُ عَلَى اسْتِحْبَابِ طَلَبِ الدَّعَاءِ بِالْمَغْفِرَةِ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى.

٩٨ - فَأَجَابَهُمْ يَعْقُوبُ: سَوْفَ أَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَنِي بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ «بَنِيَامِينَ»، وَأَجِدُ فِيكُمْ الْإِسْتِقَامَةَ وَالصَّلَاحَ وَالتَّخْلُصَ مِنْ دَاءِ الْحَسَدِ، إِنَّهُ هُوَ الْكَثِيرُ السِّتْرَ لَذُنُوبِ عِبَادِهِ، الْوَاسِعَ الرَّحْمَةَ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ.

٩٩ - وَخَرَجَ يَعْقُوبُ وَأَهْلُهُ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى «مِصْرَ»، قَاصِدِينَ يَوْسُفَ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يَوْسُفَ وَهُوَ فِي قَصْرِهِ، أَنْزَلَ أَبُوِيهِ عِنْدَهُ فِي قَصْرِهِ الْخَاصِ بِهِ، وَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ وَاعْتَنَقَهُمَا وَأَحَاطَهُمَا بِعَنَايَتِهِ، وَقَالَ لِإِخْوَتِهِ وَأَبْنَائِهِمْ وَجَمِيعِ أَهْلِهِمْ: ادْخُلُوا «مِصْرَ» بِمَشِيئَةِ اللَّهِ مُسْتَوْطِنِينَ فِيهَا، حَالَةَ كَوْنِكُمْ آمَنِينَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ لَا تَخَافُونَ أَنْ تَتَعَرَّضُوا لِسُوءٍ مِنْ أَحَدٍ فِيهَا.

١٠٠ - وَرَفَعَ يَوْسُفَ أَبُوِيهِ عَلَى السَّرِيرِ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَحَيَّاهُ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ الْأَحَدَ عَشَرَ بِالسُّجُودِ تَحِيَّةً وَتَوَاضَعًا لَهُ، وَكَانَ

ذَلِكَ جَانِزًا فِي شَرِيعَتِهِمْ، وَقَدْ حُرِّمَ فِي شَرِيعَتِنَا. وَقَالَ يَوْسُفُ عِنْدَمَا رَأَى ذَلِكَ: يَا أَبَتُ هَذَا السُّجُودُ تَصْدِيقُ الرُّؤْيَا الَّتِي رَأَيْتَهَا فِي حَالِ الصُّغَرِ، قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا فِي الْيَقِظَةِ، وَقَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ حِينَ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ، وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَادِيَةِ الَّتِي كُنْتُمْ تَقِيمُونَ فِيهَا بِأَطْرَافِ بِلَادِ الشَّامِ الْجَنُوبِيَّةِ، إِلَى الْمَرَكَزِ الْحَضَرِيَّةِ فِي «مِصْرَ»، وَهَيَّا لَكُمْ وَسَائِلَ الْعِيشِ الرَّغْدِ مِنْ بَعْدِ الْأَحْدَاثِ غَيْرِ السَّارَةِ الَّتِي كَانَ سَبَبُهَا إِفْسَادُ الشَّيْطَانِ مَا بَيْنَنَا بِسَبَبِ الْحَسَدِ، إِنَّ رَبِّي ذُو لَطْفٍ بِعِبَادِهِ، يَلْطِفُ بِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، عَالِمٌ بِدَقَائِقِ الْأُمُورِ وَخَفِيَّاتِهَا، إِنَّهُ هُوَ الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ بِمَوْضِعِهَا، وَيَخْتَارُ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائِجِ.

١٠١ - ثُمَّ دَعَا يَوْسُفَ رَبَّهُ قَائِلًا: أَحْمَدُكَ رَبُّ عَلَى مَا قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ مَلِكِ مِصْرَ، وَأَحْمَدُكَ رَبُّ عَلَى مَا عَلَّمْتَنِي مِنْ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، يَا خَالِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمُبْدِعَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، أَنْتَ مُعِينِي وَمُتَوَلِّي أَمْرِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَفْبُضِّنِي إِلَيْكَ عِنْدَ انْتِهَاءِ أَجَلِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مُؤْمِنًا مُسْلِمًا، وَالْحَقَّقَنِي رَبُّ بِدَرَجَةِ آبَائِي الصَّالِحِينَ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمْ قَبْلِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، وَاجْعَلْ مَنْزِلَتِي فِي الْفَرْدُوسِ الْأَعْلَى مِثْلَ مَنْزِلِهِمْ.

١٠٢ - ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَا لَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مِنْ قِصَّةِ يَوْسُفَ، وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ إِخْوَتِهِ هُوَ بَعْضُ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ؛ لِنَشْهَدَ لَكَ بِهِ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَأَنَّ الْقُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ. وَمَا كُنْتُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - حَاضِرًا عِنْدَ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ وَلَا مُشَاهِدًا لَهُمْ حِينَ اتَّفَقُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَى إِلْقَاءِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامِ فِي الْجُبِّ، وَدَبَّرُوا مَا دَبَّرُوا مِنَ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّا أَعْلَمْنَاكَ بِهِ وَحْيًا إِلَيْكَ.

١٠٣ - وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَلَوْ جَهَدْتَ كُلَّ الْجَهْدِ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَهَدَايَتِهِمْ بِمُؤْمِنِينَ، فَلَا تَحْمِلُ هَمَّ إِيْمَانِ النَّاسِ جَمِيعًا؛ لِأَنَّهُمْ مَتْرُوكُونَ لِاخْتِيَارَاتِهِمْ الْحَرَّةِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى إِكْرَاهِهِمْ.

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْأَرْضِ مِّنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِن أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

١٠٤ - وما تسألهم - يا رسول الله - على تبليغ القرآن وتعليمهم ومجاهدتهم به، لهدايتهم ونجاتهم أجراً ما على ذلك، واعلموا أن القرآن ليس هو ذكراً للعرب فقط، ما هو إلا ذكرٌ لجميع العالمين جميعاً الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، فيه هدايتهم ونجاتهم، ويطلب منهم أن يتدبروا معانيه، ويذكروا حقائقه وعلموه وأحكامه.

١٠٥ - وآياتٌ كثيراتٌ دالّاتٌ على توحيده سبحانه وعظيم صفاته مُنبئاتٌ في السموات والأرض يمرّون عليها، والحال أنهم معرضون، لا يتفكرون فيها، ولا يعتبرون بها؛ لانصرافهم إلى شهواتهم وأهوائهم. فليس إعراضهم عن هذه الآيات الظاهرة بأعجب من إعراضهم عنك يا رسول الله.

١٠٦ - وما يصدّق أكثرهم بالله - حين تفرّعهم الحُججُ، وتُلجّجهم الآيات البيّنات إلى الإقرار بوجود الإله، وبأنه خالق كل شيء - إلا وهم مشركون بعبادته غيره، فلا تطمع باستجابة هؤلاء المعاندين الجاحدين لدعوتك، إذا سمعت منهم أقوالاً تشعر بأنهم يؤمنون بالله، لأن أكثرهم لا يؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، بل إيمانهم مشوّب بشرك لا ينفكون عنه، وهم مُصِرّون على التمسك به.

١٠٧ - أفحاصلٌ لديهم أمّنُ فهم لا يخافون أن تأتيهم عقوبة في الدنيا تغشاهم وتُجلّلهم، فلا يستطيعون فراراً منها، أو تأتيهم الساعة التي يُنهي الله بها نظام الحياة الدنيا فجأة، وهم لا يدركون أدنى إدراكٍ علميٍّ بمقدّماتها.

١٠٨ - قل - يا رسول الله - لمن تدعوهم للاستجابة لدعوتك: هذه طريقي التي أدعو إليها، وهي توحيد الله ودين الإسلام على علم جليٍّ واضح لا شبهة فيه، وحُججٌ برهانية قاطعة، أنا ومن آمن بي وصدّق بما جئتُ به فنحن متمكنون من العلم الواضح الجليّ الذي

هو في القلب والفكر بمثابة البصر بالنسبة إلى المراتب الحسيّة، فلنسا مُجبرين ولا مُكرهين أحداً على الإيمان، إنما نحن دعاة فقط، ولا نصر الحق الربانيّ بالباطل والأكاذيب، وأنزّه الله تعالى عما لا يليق به من جميع العيوب والنقائص.

وقل - يا رسول الله -: وما أنا ولا كلٌّ من أتبعني أتباعاً صحيحاً من المشركين الذين أشركوا بالله غيره في ربوبيّته أو إلهيّته. ١٠٩ - وما أرسلنا رسلاً من قبلك - يا رسول الله - إلا رجلاً مثلك، نُوحى إليهم من أهل الأمصار والمدن لا من أهل البوادي، فلمّا كذبتهم أقوامهم نصر الله رسله والذين آمنوا بهم، وأنزل بأسه بالمكذّبين المجرمين. أبقوا في بلدكم فلم يَمْسِ هؤلاء المشركون المُكذّبون في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة مُكذّبي رسل ربهم من قبلكم؟ فَلْيَتَّبِعْ هؤلاء بهم، وما حلّ بهم من عذابنا، وأنجينا أوليائنا وأهل طاعتنا عند نزول العذاب بالأمم المُكذّبة، وما في الدار الآخرة خيرٌ للذين اتّقوا في الحياة الدنيا عقاب الله وعذابه، فأمنوا وأسلموا، وأتبعوا ما أنزل الله إليهم. أليس لديكم عقل يجعلكم تُضبطون نفوسكم عن اتباع الأهواء والشهوات، ناظرين إلى الآخرة وما فيها من النعيم المقيم في جنات النعيم، وما فيها من عذاب أليم في الجحيم.

١١٠ - وما أرسلنا من قبلك إلا رجلاً، فتراخى نصرهم، حتى إذا صار الرسل واجمين حيارى، كاليائسين من إيمان قومهم، وأمهل الله الكفّرة المُكذّبين إمهالاً طويلاً، وظنّ بعض أتباعهم من ضعفاء الإيمان أن الرسل قد كذّبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله إليّهم، وإهلاك أعدائهم، جاء نصر الله والنبیین والذين آمنوا بهم، فَنَجَّى من العذاب مَنْ نشاء من عبادنا المؤمنين، عند نزول العذاب بالكافرين، ولا يُردّ عذابنا عن القوم المُتبعين في الفجور والكفر.

١١١ - ونؤكد لكم أنه يوجد في خبر يوسف وإخوته موعظةٌ يتعلّم بها أصحاب العقول الواعية المُدرّكة، إذ يقيسون أحداث المُستقبل على أحداث الماضي، ثقةً منهم بأنّ سُنّة الله في عباده واحدة، ما كان هذا القرآن حديثاً يُخلَق، ولكن أنزله الله حالة كونه تصديق الذي سبقه من الكتب الإلهيّة، وإنّ في هذا القرآن المُنزّل عليك - يا رسول الله - تبيينٌ كلّ شيء من قضايا العقائد الإيمانيّة، وأمّهات قضايا السلوك الإنساني التي هي مطلوب الله من عباده، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وأنزلناه هدىً إلى كلّ خير، ورحمةً لقوم يؤمنون؛ لأنّهم هم الذين ينتفعون به، فيعملون بما فيه من الأوامر والنواهي.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا
وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ
اللهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
إِلَّا رَجُلًا أَنْ نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ
إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرَدُّ أَسْنَاعُ الْفُجُورِ الْمُجْرِمِينَ
﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يَفْتَرُونَ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

الْبَيْتُ الْبَاقِي

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

١ - «المر» سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

تلك آيات السورة الكاملة العجيبة، وجميع ما أنزل إليك - يا رسول الله - من ربك هو الحق المطابق لما ينبغي أن يكون عليه الناس من اعتقاد أو قول أو فعل، وما ينقضه فهو باطل، ولكن أكثر الناس لا يُصدقون بهذا الحق الذي أنزل إليك؛ مما يستدعي إقامة الأدلة والبراهين إلزاماً لهم بالحجة، حتى لا يكون لهم عذر.

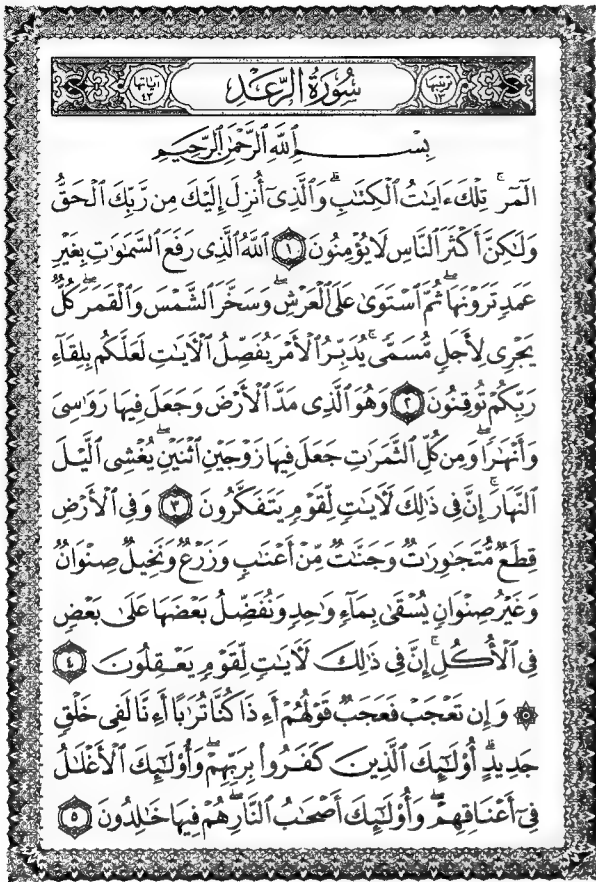
٢ - الله الذي خلق السموات العظيمة المرفوعات بغير دعائم من تحتها، تراها العيون، لكنها جاذبيات هي بمثابة دعائم، ذات قدرات تُحدّد مواقع السموات السبع وكل شيء فيها، فلا تتحرك إلا بنظام رباني يمنعها من التصادم ما لم يقض الله بشيء من ذلك، ثم بعد أن رفع السموات، استوى على العرش استواء يليق به، ودلّل الشمس والقمر لمنافع خلقه، كل من الشمس والقمر ويجري لمدة معلومة محدّدة في علم الله تعالى، إنه سبحانه يُدبّر أمر العالم العلوي والسفلي، ويصرفه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال، يُبين الآيات الدالات على وحدانيته وكمال قدرته؛ رغبة أن تهتدوا فتؤمنوا بقدرته، وصدق وعده، فتصدقوا تصديقاً جازماً تاماً مع طمأنينة القلب بلقائه والمصير إليه بعد الموت، لمحاسبتهكم على أعمالكم، ومجازاةكم عليها.

٣ - وهو سبحانه وحده الذي بسط الأرض بحكمته وإتقانه طويلاً وعرضاً إلى ما لا يدرك البصر منتهاه، ومدّها بالخيرات والمعادن ومواد الخصب؛ لإمكان الاستقرار عليها، وجعل في الأرض جبالاً ثوابت راسخات تُمسكها عن الاضطراب، وأنهاراً جاريةً لمنافع

الخلق، وهو وحده سبحانه الذي جعل في الأرض من كل الثمرات صنفين من اثنين، كالذكر والأنثى في الأحياء، والموجب والسالب في الكهرباء، وهكذا إلى سائر الأزواج في الأشياء وفي النبات، والحيوان، وعالم الذرات، يجعل الله ضياء الشمس في النهار يُعطي الليل، فيستر سواده بضياءه، وكلما ذهب غطاء الضياء وجدت الظلمة في الأشياء، لأنها هي الأصل فيها، إن فيما تقدّم ذكره من عجائب صنعته، وغرائب قدرته الدالة على وحدانيته، دلالات لقوم يتفكّرون تفكيراً عميقاً، ويتأملون تأملاً دقيقاً في تكوين الجبال والأنهار، وفي نظام الزوجية، ونظام الليل والنهار، وخصائص الثور والظلمة.

٤ - وفي الأرض بقاع متقاربات متلاصقات، مختلفة الطبائع والصفات، وفيها بساتين من أعناب، وفيها زرع مختلف الأصناف والطعوم والخصائص، ونخلات يجتمعن من أصل واحد، ونخلات منفردات بأصلها، تُسقى أشجار البساتين وزروعها بماء واحد، ويُفصل بعضها على بعض في الطعام والفائدة وكمية الغذاء؛ إن في ذلك لعلامات لقوم يستعملون عقولهم التي وهبهم الله إياها، في التأمل والبحث عن حقائق الأمور.

٥ - وإن تعجب - يا رسول الله - من تكذيبهم إياك بعد هذه الأدلة، فالعجب الأشد هو: إنكارهم البعث بعد الموت، وقولهم: إذا كنّا تراباً بعد الموت إنا نعاد خلقاً جديداً؟ أولئك البعداء عن إدراك الحق، المنكرون للبعث بعد الموت هم الكافرون برّبهم، وأولئك الأغلال النفسية الصارفة لهم عن الإيمان قد طوّقت أعناقهم، فضيّقت عليها، فحجبتهم عن الاعتراف بالحق، وأولئك أطواق الحديد تُجعل في أعناقهم يوم القيامة، لسحبهم إلى دَرَكَات تعذيبهم، إذلالاً وإهانة لهم، جزاء لما طوّقوا به أنفسهم في الدنيا، وأولئك الكفرة المُكذّبون أصحاب النار الملائمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء، لا يخرجون منها ولا يموتون، كما أنهم صمّموا في الدنيا على أن يظلّوا أبداً جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكرين لرسالاته.



٦ - وَتَسْتَعْجِلُكَ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّوَازِلِ وَالْعُقُوبَاتِ السَّيِّئَةِ، إِذْ يَطْلُبُونَ التَّعْجِيلَ بِهَا فِي الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ يَسْتَكْمِلُوا نَصِيحَتَهُمْ مِنَ النُّعْمِ الْحَسَنَةِ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ إِيَّاهَا لِابْتِلَائِهِمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا. مَا لَهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ الْعُقُوبَاتِ، وَقَدْ مَضَتْ فِي الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ الْعُقُوبَاتِ الْمُتَّكِلَاتِ الْفَاضِحَاتِ، فَجَعَلْتَهُمْ مَثَالاً يَرْتَدِعُ بِهِ غَيْرُهُمْ؛ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ؟ لَكِنْ أَمَرَ اللَّهُ غَيْرَ مُرْتَبِطٍ بِنَزَوَاتِهِمْ، وَلَا بِمُظَاهَرِ طِيْشِهِمْ، وَإِنَّ رَبَّكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَذُو تَجَاوُزٍ عَنِ الْمَشْرِكِينَ مَعَ ظُلْمِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، فَيَمْهَلُهُمْ وَيَتْرَكُ لَهُمْ فُرْصَةَ التَّائُلِ، رَغْبَةً أَنْ يَثُوبُوا إِلَى رَشْدِهِمْ، فَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ قَبْلَ حُلُولِ أَجَلِهِ، عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ، وَإِنَّ رَبَّكَ لِشَدِيدِ الْعِقَابِ لِلْمُصِرِّينَ عَلَى الشُّرْكِ إِذَا مَاتُوا عَلَيْهِ.

٧ - وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ: هَلْ أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ مُعْجَزَةٌ مِنْ رَبِّهِ تُشَبِّهُ مُعْجَزَاتِ مُوسَى وَعِيسَى؟ مَا أَنْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - بِالنَّبِيِّ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمَعَانِدِينَ الْمَصْرِيْنَ إِلَّا مُنْذِرٌ، لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا الْإِنْذَارُ وَالتَّخْوِيفُ، بَعْدَ أَنْ قَدَّمْتَ لَهُمْ مُخْتَلَفَ وَسَائِلِ الْهَدَايَةِ، بِالْإِدْعَاءِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَوُضُفَتْكَ كَوَظِيفَةُ سَائِرِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ نَبِيٌّ يُرْشِدُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

٨ - اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى مِنَ الْبَشَرِ، وَمِنْ دَوَابِّ الْأَرْضِ، وَمِنْ الطَّيْرِ وَالْحَشَرَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، سِوَى الْخَلْقِ أَوْ نَاقِصِ الْخَلْقِ، سَعِيدٌ أَوْ شَقِيٌّ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَيَعْلَمُ سُبْحَانَهُ كُلَّ مَا يَحْصُلُ فِي أَرْحَامِ الْإِنَاثِ مِنْ نَقْصٍ وَزِيَادَةٍ، وَمَا يَتَجَدَّدُ مِنْ تَطَوُّرَاتِهَا وَتَطَوُّرَاتِ مَا فِيهَا مِنْ أَجَنَّةٍ وَمِرَافِقَاتِهَا بِاسْتِمْرَارٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَتَعَلَّقُ مَشِيئَةُ اللَّهِ بِإِيجَادِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ مُقَدَّرٌ بِمِقْدَارٍ مُحَدَّدٍ يَعْلَمُهُ، لَا يُجَاوِزُهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ.

٩ - إِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا غَابَ عَنْ خَلْقِهِ، مِمَّا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ حَوَاسُهُمْ وَعُقُولُهُمْ، وَمَا يُشَاهِدُونَهُ، الْعَظِيمُ الْمُسْتَحَقُّ لَصِفَاتِ الْكَمَالِ، الْمُنَزَّهٌ عَنْ صِفَاتِ النُّقْصِ، الْمُتَعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ.

١٠ - اسْتَوَى فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى مَنْ أَخْفَى الْقَوْلَ مِنْكُمْ وَمَنْ أَظْهَرَهُ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَتِرٌ بِأَعْمَالِهِ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ، وَمَنْ هُوَ ظَاهِرٌ فِي أَعْمَالِهِ، وَذَاهِبٌ فِي طَرِيقِهِ بَوْضُحِ النَّهَارِ، فَإِنَّهُ يَسْتَوِي فِي عِلْمِهِ تَعَالَى السِّرُّ وَالْجَهْرُ، وَالْخَفِيُّ وَالظَّاهِرُ.

١١ - لِلْإِنْسَانِ مَلَائِكَةٌ يَعْقِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؛ لِحِفْظِهِ وَكَلَامَتِهِ، وَلِكِتَابَةِ أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ، فَإِذَا صَعِدَتْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ عَقِبَتِهَا مَلَائِكَةُ النَّهَارِ، يَحْفَظُونَ الْعَبْدَ مِنَ الْمَخَاطِرِ الظَّاهِرَةِ وَالْخَفِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَلَيْسَ حِفْظُهُمْ لَهُ مُبْتَدَأٌ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ اللَّهِ وَإِذْنُهُ، مَا لَمْ يَجِءِ الْقَدْرَ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدْرُ خَلَوْا عَنْهُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ أُخْرَى مُنَاقِضَةً لِلأُولَى حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى حَسَنٍ، غَيَّرَ اللَّهُ أَحْوَالَهُمْ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى حَسَنٍ، وَإِنْ غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ حَسَنٍ إِلَى قَبِيحٍ غَيَّرَ اللَّهُ أَحْوَالَهُمْ، وَأَحْلَلَ بِهِمْ نَقْمَتَهُ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ يَقُومُ بِلَاءٌ فَلَا مَفْرَءَ مِنْهُ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ وَلِيٌّ نَاصِرٌ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ، وَيَمْنَعُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ.

١٢ - اللَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي يُرِيكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - الْبَرْقَ اللَّامِعَ مِنْ خِلَالِ السَّحَابِ، فَتَخَافُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ الصَّوَاعِقُ الْمُحْرِقَةُ، وَتَظْمَعُونَ بَنْزُولَ الْمَطَرِ، وَيُنْشِئُ سُبْحَانَهُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّدْرُجِ فِي مَرَاكِلِ مُتَابَعَةٍ مِنْ ذَرَاتِ الْأَبْخَرَةِ الْمُتَصَاعِدَةِ فِي الْجَوِّ وَالْمُتَجَمِّعَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا الْغَيْمَ الْمُتَسَحِّبَ فِي الْهَوَاءِ، الْمُحْمَلُ بِالْمَطَرِ لِمَنَافِعِكُمْ.

١٣ - وَيُنَزِّلُ الرُّعْدَ اللَّهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، تَنْزِيلًا مُقْتَرِنًا بِحَمْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَتُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَةِ اللَّهِ وَهَيْبَتِهِ وَخَشْيَتِهِ، وَيُرْسِلُ اللَّهُ الْكُتْلَ النَّارِيَّةَ الْمُتَلَهِّبَةَ الَّتِي يَرِافِقُهَا صَوْتُ عَنِيْفٍ، تَهْبِطُ مِنَ السَّحَابِ عَلَى الْأَرْضِ، فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ هَلَاكَهُ، وَعَلَى الرُّغْمِ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْأَدْلَةِ الْمُثَبِّتَةِ فِي الْكُونِ، يُجَادِلُ الْكَفَّارَ فِي وَجُودِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَعَظِيمِ صِفَاتِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ، وَحِينَمَا تَضِيقُ بِهِمُ الْحُجَّةُ يَبْتَئُونَ أَلْوَانَ الْكَيْدِ وَالْمَكْرِ لِلرُّسُولِ وَلِدَعْوَتِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ شَدِيدُ الْقُوَّةِ وَالتَّدْبِيرِ فِي رَدِّ كَيْدِهِمْ، وَالْإِتْقَامِ مِنْهُمْ، فَيَمُدُّ اللَّهُ لَهُمْ، ثُمَّ يَوْقِعُهُمْ بِشَرِّ مَكْرِهِمْ وَكَيْدِهِمْ.

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ١ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ٢ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْزَأُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ٣ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ٤ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَعَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ٥ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومُ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ٦ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ٧ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَايِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ٨

الْبَيْتُ الثَّالِثُ عَشَرَ

سُورَةُ الرَّحْمَةِ

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسٌ بِقَهْمِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغٍ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَعَمَّا وَالْأَرْضُ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلَ اللَّهُ شُرَكَاءَ خَلْقًا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ

١٤ - لله تعالى الدعوة المنتسبة إلى الحق، فهي صاعدة إليه سبحانه يعلمها ويستجيب لمن دعا بها على مقتضى حكمته، والأصنام التي يدعونها من دون الله لا يجيبونهم بشيء يريدونه من جلب نفع أو دفع ضرر، إن دَعَوْهُمْ، إلا استجابة كاستجابة الماء الذي لا يعقل ولا يحس إنساناً شديد الظمأ، متلهفاً باسطاً كفيه إليه، يطلب منه أن يبلغ فاه؛ ليشرب منه، ولا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه، ولا بدعوته له لكونه جماداً، فكَذَلِكَ حال الذين يرجون تحقيق مطالب حياتهم من هذه الأصنام، وهي جمادات لا تحس بدعائهم، ولا تستطيع إجابتهم بشيء، ولا تجلب لهم نفعاً، ولا تدفع عنهم ضرراً، وما سؤال الكافرين أصنامهم إلا في ضياع وبعيد عن الصواب؛ إذ تنتهي قصة حياتهم بالخيبة، ويشتون على أنفسهم أنهم خسروا أنفسهم بحماقاتهم، كما فعل ذلك الأبله الظامئ إذ بسط كفيه إلى الماء داعياً ليلبغ فاه، دون أن يتخذ الوسائل الحقيقية التي تنفعه، وتحقق مطلبه.

١٥ - ولله وحده يخضع كل من في السموات والأرض، من الملائكة والإنس والجن، فالجميع خاضعون لعظمته، متقادون لأحكامه إيجاباً وإعداماً، شأوا أو أبوا، يستوي في ذلك مؤمنهم وكافرهم، إلا أن المؤمن خاضع بذاته وبظاهره، والكافر خاضع بذاته متمرد بظاهره، وتنفاد أمره سبحانه، وتخضع لإرادته ظلال من له منهم ظل، في الامتداد والتقلص، والفيء والزوال في أول النهار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والعشي ما بين العصر وغروب الشمس.

١٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: من مالك السموات والأرض ومُدبرهما ومُبدئهما بنعمته وتربيته على الدوام؟ قل لهم: الله رب السموات والأرض، وأنتم تقرؤون بذلك. قل لهم - يا رسول الله -: كيف توليتهم غير الله، واتخذتم الأصنام أرباباً ونصراء، وهم لا يملكون لأنفسهم أن يجلبوا لها نفعاً، أو يدفعوا عنها ضرراً، فكيف لغيرهم؟ قل

لهم - يا رسول الله -: هل يستوي الكافر الذي لا يهتدي سبيلاً والمؤمن البصير؟ قل لهم: هل تستوي ظلمات الشرك ونور الإيمان؟ بل أجعلوا لله أرباباً اشتركوا مع الله في صفة الخلق والإبداع من العدم، فخلقوا خلقاً مثل خلقه، فتماثل خلق الشركاء بخلق الله عندهم؟ قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: الله وحده هو المُنْفَرِد بخلق سائر الأشياء، وهو الواحد في ذاته المنفرد بالخلق والربوبية، الذي له القدرة الغالبة على كل شيء، وليس لأحد مشاركة الله فيما يقضي به أو يأمر أو يخلق.

١٧ - أنزل الله من السحاب مطراً غزيراً، فسالت المياه في الأودية بمقدار سعتها لاستيعاب الماء، كل بحسبه، فالكبير بمقدار كبره، والصغير بمقدار صغره، فاحتمل بتكلف ومغالبة الماء السائل في الأودية زَبَدًا عالياً طافياً عليه، ينتفخ مظهره، وينفيه الماء عن جوهه، ويقتلعه من مجراه، ويقذفه على شاطئيه. وَضَرَبَ مَثَلًا آخر: من بعض ما يوقد الناس عليه في النار من المعادن وأشباهها حتى تنصهر، ابتغاء صنْع حَلْيَةٍ يُتَرَيَّنُ بها من مصاغ الذهب والفضة، أو طلب صنْع ما ينتفع به على أي وجه من وجوه الانتفاع من المعادن، فيخرج منها عند صهرها خبثها ممَّا لا فائدة فيه مثل زَبَدِ الماء. بمثل هذا يضرب الله المثل للصراع بين الحق والباطل؛ فأما الباطل - وإن علا في وقت - فإنه يَضْمَحَلُ ويذهب كغثاء السَّيْلِ، وزبد المعادن المنصهرة، فإنه يذهب مرمياً به مطروحاً، لا منفعة فيه ولا بقاء له، وأما الماء الصافي والجوهر النقي الذي ينفع الناس، فَيَنْبُتُ وَيَبْقَى ولا يذهب. مثل ذلك الذي أورده الله في المثلين السابقين، يضرب الله الأمثال للصراع الفكري بين أنصار الحق القائم على الجدل بالتي هي أحسن، وأنصار الباطل القائم على المغالطات وزخرف القول، وللصراع الحربي القتالي بين أنصار الحق الملتزمين بسُنَنِ الله السببية، وأنصار الباطل في معركة مُسْتَعْرَعة تمس بلذعاتها وآلامها الفريقين المتقاتلين، فأنصار الباطل كالثواب المختلطة بالمعادن، وهم أهل خفة وطيش، ليس بين أفرادهم تماسك حقيقي، وأنصار الحق كالمعدن الصافي ذي الوزن الثقيل، والنفع الكثير.

١٨ - للمؤمنين الذين أجابوا دعوة ربهم المثوبة الحُسنى، والمعجلة في الدنيا، والمؤجلة إلى ما بعد الموت في البرزخ، وموقف العرض والحساب، والقسم الأخير الأكمل يكون في الجنة. والكفار الذين استمروا على كفرهم، واستنكفوا عن أن يجيبوا دعوة ربهم إلى الإيمان وصالح العمل، المثوبة السيئة، ولو كانوا يملكون جميع ما في الأرض ومثله معه، لبذلوا ذلك كله فداء لأنفسهم مما تستحق من عذاب الله يوم القيامة، أولئك البعداء عن رحمة الله لهم الحساب السيء العسير بالمناقشة والتدقيق على كل صغيرة وكبيرة، والمكان الذي يأوون إليه بعد المحاسبة جهنم، وبئس الفراش الذي مهدوه لأنفسهم في النار.

١٩ - أَقْمَنَ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ - يا رسول الله - من ربِّك الحقُّ، وهو المؤمن المستجيب لدعوة ربِّه الذي يعمل بمقتضى علمه، كَمَن هو أعمى البصيرة؟ وهو الكافر غير المستجيب لربِّه، الذي عطل ما وهبه الله من عقل!! ما يتذكَّر تذكُّراً مؤدِّياً إلى العظة الكاملة إلا أصحاب العقول الواعية المدركة، الذين يعرضون كل أمر على ما أودع الله في عقولهم من أصول ثابتة تعرف بها حقائق الأشياء، فيميزون بها بين الحقِّ والباطل، والخير والشر.

٢٠ - أصحاب العقول الكاملة لهم تسع صفات: الأولى: الذين يُوفُونَ بعهد الله الذي عاهدهم عليه، فيتمُّون فعل ما أوصاهم به من أوامر، وما نهاهم عنه من نواه، والصفة الثانية: لا ينقضون أيَّ عهدٍ مُؤكِّدٍ يُعطونه لأحد، سواء أكان مع الله أو مع عباده.

٢١ - والصفة الثالثة: الذين لا يجدون منقطعاً أمر الله بأن يوصل إلا وصلوه، كصلة الرَّحم، والإخوان في الله، وصلة كلِّ مسلم، وكلِّ ذي روح، والصفة الرابعة: يُعظِّمون ربَّهم ويحبُّونه ويرهبون جانب عدله، والصفة الخامسة: يخافون أن يُحاسِبوا يوم القيامة على ذنوبهم كلّها حساباً عسيراً، فهم يخافون من الأعمال التي تؤدِّي بهم إلى سوء الحساب، فيبتعدون عنها ويجتنبونها.

٢٢ - والصفة السادسة: الذين صَبَرُوا على جميع المصائب والمأمورات، وتركوا جميع المنهيات؛ تعظيماً لله، وطلباً لمرضاته، والصفة السابعة: واطبوا على الصلوة بإتمام أركانها وسننها وآدابها، والصفة الثامنة: أدُّوا زكاتهم المفروضة ونفقاتهم المُستَحبة في السرِّ والعلن، والصفة التاسعة: يدفعون بفعل الخصلة الحسنة أثر الخصلة السيئة، بالمبادرة إلى التوبة وفعل الطاعات إذا بدَّر منهم معصية، ويدفع السيئة التي يَخْشُونَهَا من الناس بالحلم والعفو، ويدفع السيئة التي يَخْشُونَهَا من الشياطين ومن شرِّ كلِّ ذي شرٍّ بالالتجاء إلى الله والاتكال عليه، ويدفع المنكر الذي يشاهدونه بالنهي عنه بالحكمة

والموعظة الحسنة، أولئك الذين أتوا بهذه الأعمال الصالحة، وتحقَّقوا بهذه الأوصاف عاقبتهم جزاؤهم في الجنة دار الثواب.

٢٣، ٢٤ - تلك العاقبة: جنات استقرار وخلود، ذات أقسام ومراتب عالية، يدخلونها، ويدخلها معهم من صدَّق من آبائهم وأمهاتهم وأزواجهم وذُرِّيَّاتهم بما صدَّقوا به، وإن لم يعملوا بأعمالهم ليأنسوا بلقائهم، ويكمل نعيمهم، والملائكة يدخلون عليهم من كلِّ باب من أبواب الجنة. تقول الملائكة لهم: سَلِّمُكُمُ اللَّهُ من الآفات التي كنتم تخافونها، وأدخلكم بسبب صبركم الجنة، فَنِعْمَ العاقبة: الجنة التي نلتموها، وفزتم بها.

٢٥ - وأما الأشياء الذين عطلوا عقولهم عن التفكير، ولم تعقلهم عن الفساد والشر، فهم يَسْتَجْمِعُونَ ثلاثة أصول من خصال السوء: الأول: الذين يُخالفون أوامر الله، ولا يفرون بعهد من بعد ما أوثقوه على أنفسهم، والثاني: يَقْطَعُونَ ما أمر الله به أن يُوَصَّل من صلة الأرحام وغيرها، والثالث: يُفْسِدُونَ في الأرض بالكفر ونشر الفسوق والفجور وأنواع الفواحش، والمجاهرة الوقحة بمعصية الله، والإضرار بالآخرين، والعدوان عليهم، أولئك المُسْتَجْمِعُونَ لهذه الأصول الثلاثة القبيحة، لهم الطرد من رحمة الله عزَّ وجلَّ، ولهم العاقبة السيئة، وهي: النَّار، دار العذاب التي يتقلبون إليها.

٢٦ - اللَّهُ يُوسِّعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ من عباده، فيُغْنِيهِ من فضله، وَيُضَيِّقُ على مَنْ يَشَاءُ من عباده، فيُفْقِرُهُ وَيُقْصِرُ عليه، وَفَرِحَ مُشْرِكُو مكة بما بَسَطَ اللَّهُ عليهم من رزق في الحياة الدنيا، وخدعتهم مفاتنها، وأخذوا يتسابقون في تحصيلها، وما الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة إلا متاع قليل ذاهب زائل.

٢٧ - ويقول الذين كفروا من أهل مكة: هلاً أنزل على محمدٍ معجزة محسوسة من ربِّه، مثل معجزة موسى في قَلْق البحر، ومعجزة عيسى في إحياء الموتى. قل لهم - يا رسول الله - : إنَّ الله يُسهِّلُ لعبده سلوك سبيل الضلالة ويمدُّ له فيها، وذلك بعد أن تتَّجه إرادته الحرة إلى سلوك سبيل الضلالة، فلا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات، ويوفِّق إلى سلوك سبيل الهداية إلى دينه والإيمان به مَنْ أُناب إليه سبحانه بقلبه، ورجع إليه بكليته.

٢٨ - يهدي إليه سبحانه الذين تُسكن قلوبهم وتخضع، فلا يبقى فيها قَلَقٌ ولا اضطراب، ويقوى يقينهم بذكر الله، ويتفكَّرون ويتدبَّرون في صفات رحمة الله وعفوه وغفرانه، وما أعدَّ للمؤمنين من أجر عظيم. تنبَّهوا وتحقَّقوا، بذكر الله تُسكن قلوب المؤمنين، ويستقرُّ اليقين فيها، وتشعر بالراحة والسعادة، والرِّضا بقضاء الله وقدره.

أَفَنَ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذِرُ
أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِمَّةَ
وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِزِّي الدَّارِ ﴿٢١﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٢﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ
وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٣﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَعْنَةٌ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٦﴾

٢٩ - الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيكون لهم يوم القيامة عيشٌ طيبٌ عظيم، وحسنٌ رجوع إلى الله، ومكان حسن، ويوم حسن، ينقلبون ويرجعون إليه في الآخرة، وهي الجنة.

٣٠ - مثل ذلك الإرسال الذي اضطلع بمهامه الرسل السابقون، إذ أرسلناهم قبلك إلى أمم كثيرة قد مضت، أرسلناك - يا رسول الله - إلى هذه الأمة؛ لتتابع لهم تبليغ الذي أوحينا إليك من القرآن وشرائع الدين، والحال أنهم يكفرون بالرحمن، متجاهلين صفة رحمته الغامرة لهم بالنعم التي لا تحصى. قل لهم - يا رسول الله - : إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته هو وحده خالقي الذي يمدني بالتربية الدائمة، لا معبود بحق سواه، عليه وحده اعتمدت في أموري كلها، وإليه - وحده - توبتي ورجوعي في كل أمر من أموري، فهو الذي يحاسبني ويجازيني، لذلك فلا أنظر إلى رضا غيره، ولا أبتغي بعملتي سواه.

٣١ - وتمادى كفار قريش في ضلالهم، وغلوا في كفرهم حتى اقترحوا على الرسول ﷺ أن يسير لهم جبال مكة ليتفسحوا في أرضها، ويفجر لهم الأنهار والعيون ليزرعوها، ويتخذوا فيها البساتين، ويحيي لهم الموتى ليخبروهم بصدقه، والله قادر على الإتيان بما اقترحوا من الآيات، ولكن إرادته لم تتعلق بذلك، لعلهم بعثوهم ونفروهم من الحق، فرد على طلبهم: ولو أن قرآناً سُرِّت به الجبال، فأزيلت عن أماكنها، أو شُفقت به الأرض، فجعلت أنهاراً وعيوناً، أو خوطب به الموتى فأحيها الله به، لما آمنوا بالقرآن، ولما تغير من حال هؤلاء المشركين شيء، لأنهم مكابرون معاندون، بل لله الأمر جميعاً في هذه المعجزات وفي غيرها، يقضي بحكمته ما يشاء، أفلم يتأس الذين آمنوا من أمر هداية الناس جميعاً، إذ لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً، فجعلهم مجبرين على سلوك سبيل الهداية، وسلبهم إراداتهم الحرة، ولكن هذا ينافي

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

الْبَيْتِ الرَّابِعِ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنَ مَّكَابٍ ﴿٣١﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٢﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ أَلَمَوْا بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِيسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ شَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رِيسُلٌ مِّن قِبَلِك فَآمَلْتِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٤﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظَاهِرُونَ الْقَوْلَ بَلْ زَيْنٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٥﴾ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٦﴾

حكمه الابتلاء، بعد أن تمت مشيئة الله تعالى أن يهبهم الإرادات الحرة التي يختارون بها ما يشاؤون من خير أو شر؛ لينلّوهم أيهم أحسن عملاً. ولا يزال الذين كفروا تُصيبهم بما صنعوا من الكفر والأعمال الخبيثة بليةً وداهيةً شديدة تُفرعهم، أو تنزل تلك المصيبة قريباً من دارهم، مُنذرة لهم بقرب حلول عقاب الله فيهم، حتى يحين وقت إنجاز وعد الله بنصر المؤمنين وخذل الكافرين وعقابهم، إن الله لا يترك ولا يهمل تنجيز ما وعد به إذا حان الوقت المحدد الذي قرّر حصول مواعده فيه.

٣٢ - وإذا أحزنك - يا رسول الله - استهزاء الكافرين بك، فقد جاء من قبلك رسلٌ كثيرون، قد استهزأ بهم الكافرون من أقوامهم، فأمهلت الذين كفروا، ولم أعجل لهم العقاب، وبعد زمن مُتراخ أخذتهم بالإهلاك العام والتدمير الشامل، لقمع بُؤرة الشر التي لم تُجد فيها كل وسائل الإصلاح، وليكون هذا العقاب عبرة لغيرهم؛ كي يرتدعوا عن كفرهم وطغيانهم وتماديهم في الفساد، فكيف رأيت ما كان من عقابي لهم؟ ألم يكن عقاباً شديداً؟!

٣٣ - أفمن هو رقيب على كل نفس، حفيظ عليها، عالم بما عملت، ويجازيها بما كسبت من خير أو شر كمن ليس كذلك؟ بل هو عاجزٌ عن نفسه، ومن كان عاجزاً عن نفسه، فهو عن غيره أعجز، وجعل المشركون لله القائم على كل نفس بالمراقبة والعلم والقهر والغلبة، شركاء من خلقه يعبدونهم. قل لهم - يا رسول الله -: صفوهم بما يستحقون، وقدموا الأدلة الدالة على كونهم آلهة، ثم انظروا: هل هي أهل لأن تُعبد، أم أنتم تُخبرون الله بما لا يعلم أن نفسه شريكاً من خلقه في أرضه، أم تُخبرون الله بظواهر من القول مسموع لا حقيقة له في قلوبكم، وأنتم لا تؤمنون بذلك وإنما تكذبون؟ بل حسن الشيطان للكفار تدبيرهم الخفي السيء في نفوسهم المنحرفة، وصرفوا عن سبيل الرشد والهداية، ومن ثبت الله ضلاله بحكمه العادل فما له من هادٍ يُثبت له الهداية، ومن حكم الله عليه بالضلالة، فلا وافي له من عقاب الله.

٣٤ - لهؤلاء الكفار عذابٌ في الحياة الدنيا بالقتل والأسر والخذلان والآلام الجسدية والنفسية والروحية، ولعذاب الحياة الآخرة أشد إيلاماً من عذاب الدنيا في كميته وكيفيته، وأقوى وأكثر أنواعاً ودواماً، وما لهم من عذاب الله من مانع يمنعه ويدفع عنهم الأذى والضر.

٣٥ - صفة الجنة التي وُعدَ بها المتقون، تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ثمُ أشجارها دائم لا ينقطع أبداً، وظلها دائم لا يزول أبداً، تلك الجنة الرفيعة المقام هي عاقبة الذين اتقوا ربهم، وعاقبة الكافرين برّهم وجزاؤهم: النار في الآخرة.

٣٦ - والذين أعطيتهم التوراة والإنجيل ممن أسلم من اليهود والنصارى، يفرحون بالقرآن المنزل إليك؛ لأنهم قد جمعوا بين الحسنيين، فانتقلوا من الدين المنسوخ إلى الدين الناسخ، ومن كل حزب من أحزاب اليهود والنصارى من ينكر بعض ما أنزل إليك، لما فيه من كشف تحريفاتهم في دينهم، وبيان فساد عقائدهم، لذلك فهم يسامون الرسول على دينه، ليحذف من القرآن الآيات التي تكشف باطلهم، وتهاجم معتقداتهم المحرفة. قل لهم - يا رسول الله - : ليست مهمتي استرضاءكم، ما أمرت من قبل ربي وربكم إلا بأن أعبد الله وحده، ولا أشرك به شيئاً، لذلك فأنا إليه وحده أدعو لا إلى غيره، كما أمرني، دون أن أكتن منه شيئاً، أو أحرف فيه وأبدل، وإليه وحده مرجعي في كل أمر من أموري، كما أن إليّ مرجعي يوم القيامة.

٣٧ - ومثل ذلك الكتاب الشامل للكتب المنزلة على بني إسرائيل بلسانهم، أنزلنا القرآن قولاً فصلاً مبيّناً للحق عربياً، وأقسم لئن أتعت أهواء أهل الكتاب، فقبلت مساوماتهم على دينك، بالإقرار بواقعهم وعدم اعتبارهم كافرين، أو بحذف ما في القرآن من مهاجمة لعقائدهم، من بعد ما جاءك العلم الرباني والحكم الإلهي، مآلك من الله من ولي يتولاك وينصرك، ولا واق يقيك من عذابه.

٣٨ - ونؤكد لك أننا لقد أرسلنا رسلاً من قبلك - يا رسول الله - من البشر، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، فليس أمرك بدعاً في الرسل، وما كان لرسول أن يأتي بمعجزة مادية إلا بمشيئة الله سبحانه، لكل وقت محدّد من أوقات المستقبل قضاء الله وقدره، كتاب مسجل فيه ما تم به القضاء والقدر، ولكل مدّة حدّدها الله عز وجل لانتهاه أي شيء، أو

بذء أي شيء، كتاب مسجل فيه مراد الله، ووقت يقع فيه، لا يتقدّم ولا يتأخّر، فتأخّر نزول العذاب بهم إنما هو لعدم حلول وقته المقدر له، فلماذا يستعجل المشركون نزول العذاب عليهم؟

٣٩ - يمحو الله ما يشاء محو، ويثبت ما يشاء إثباته، في صُحف الملائكة من الرزق والأجل والسعادة والشقاء، حسبما تقتضيه المشيئة والحكمة الإلهية، وعنده أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي لا يتعرّض للمحو والتغيير، لأنه قد كتب فيه علم الله.

٤٠ - وإما نريتك - يا رسول الله - بعض الذي نعدّ المشركين في الدنيا من العذاب المُعجل، أو نوفيك أجلك في الحياة الدنيا، وترحل إلى ربك قبل أن نريك ذلك، فليس عليك إلا تبليغ الرسالة، ولست مسؤولاً عن هدايتهم ولا عن محاسبتهم، وعلينا حسابهم يوم القيامة، فنجازيهم بأعمالهم.

٤١ - أعطلوا عقولهم ولم يروا رؤية فكرية تشبه الرؤية العلمية، أنّا نأتي الأرض، التي تقع تحت سلطان المشركين، فننقص من أشرافهم ورجالهم بالقتل أو بالأسر، ونقلص من نفوذ المشركين على نواح من الأرض، ونسب نفوذ المسلمين عليها أرضاً بعد أرض، والله يقضي ويفصل في كل أمر بالحق، لا رادّ لحكمه، ولا ناقض لقضائه، لأن أحكامه حق، وقضائه عدل، فهي مُستندة إلى علمه المحيط بكل شيء، وهو سبحانه سريع الحساب لا يحتاج في إصدار أحكامه إلى أناء وروية، حتى يُحصى أجزاء ما يحكم به، لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

٤٢ - قد دبر الذين من قبل مُشركي مكة من الأمم الماضية التدبير السيء لرسولهم، كما فعل هؤلاء معك، والله سبحانه مطلع على تدبير الكافرين، لا تخفى عليه من أفعالهم ومخططاتهم خافية، وقد دبر لهم من الأمر ما ليس في حساباتهم، فهو سبحانه يفسد خططهم، ولا يحقق لهم أغراضهم، فالتدبير الخفيّ كلّ الله عز وجل، لأن تدبير الكافرين السيء ليس هو في الحقيقة وواقع الأمر مكرراً، لأنه معلوم لله، يعرضهم إلى عقابه، فلم يبق إلا مكره سبحانه بالحق والعدل والخير، يعلم جميع ما تكسب كل نفس سواء أكان كسباً ظاهراً أو باطناً، وسيعلم الكفار لمن تكون العاقبة الحميدة في الدار الآخرة، حين يدخل المؤمنون الجنة؟ ولهم العاقبة الذميمة حين يدخلون النار.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا دَائِمٌ وَعُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ۖ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكُمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَ هُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلْعَامٍ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۖ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجَ ذُرِّيَّةٍ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۖ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۖ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۖ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ۖ



٤٣ - ويقول الذين كفروا: لست مرسلًا من عند الله. قل - يا رسول الله - لهؤلاء الكفار الذين أنكروا نبوتك، لأنك لم تأتهم بالمعجزات التي طلبوها، ولم تستعجل من ربك العقاب لهم: حسبي شهادتان: الشهادة الأولى: أن يشهد الله على نبوتي بما أظهر على يدي من المعجزات الباهرات غير التي تعنتتم بطلبها، وفي مقدمتها معجزة القرآن، والشهادة الثانية: أن يشهد لي من عنده علم بالكتاب من المؤمنين الذين ظهر لهم من إعجاز القرآن ما دلهم على أنه كلام الله حقًا، فعرفوا من ذلك أنني رسول الله حقًا، أو المؤمنون من أهل الكتاب الذين عرفوا من صفاتي في كتبهم ما أثبت لهم أنني رسول الله حقًا.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

١، ٢ - ﴿الر﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

هذا كتاب أنزلناه إليك - يا رسول الله - لئخرج الناس بهذا القرآن، من ظلمات الكفر والضلالة والجهل بمفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه إلى نور الإيمان والهداية والعلم بمفاهيم الإسلام وشرائعه وأحكامه، عن طريق إراداتهم الحرة، بوسائل دعوتهم إلى الحق وتعليمهم وتربيتهم، بتمكين ربهم في اتخاذ الأسباب وتحقيق مسبباتها بلا جبر ولا إكراه للإرادات، ولا منع للأسباب من أن تجري ضمن أنظمتها حتى يتم بها تحقيق مسبباتها، وهذا النور هو طريق الله القوي الغالب الذي لا يغلبه غالب، المحمود على عظيم صفاته، وجليل نعمه، المستحق لجميع المحامد، كثير الحمد لأهل طاعته والتقرب إليه، الله الذي له كل ما في السموات وما في الأرض، خلقًا وملكًا وتصرفًا، وهلاكًا للكافرين من عذاب شديد مُعد لهم في الآخرة.

٣ - هؤلاء الكفار المُتذرون بعذاب شديد، لهم ثلاث صفات: الأولى: أنهم يختارون الحياة الدنيا الفانية، ويؤثرون لذاتها على الآخرة ونعيمها، والصفة الثانية: أنهم يمنعون من يستجيب لهم عن قبول دين الله، ويصرفونه عن الاقتراب منه بدعاياتهم ووسائلهم التضليلية، والصفة الثالثة: أنهم يطلبون لملة الإسلام وأتباعها زينةً وميلاً عن الاستقامة، بالتحريش والإغراء بينهم؛ لاختلاف كلمتهم، ويختل أمر دينهم، أولئك البعداء عن رحمة الله في ذهاب وضياح بعيد عن الحق.

٤ - وما أرسلنا في تاريخ البشرية من رسول قبلك - يا رسول الله - إلا بلغه قومه؛ ليفهموا عنه ما يدعوهم إليه، وليس من مهمته أن يجبرهم على الإيمان، فالله يحكم بالضلالة لمن يشاء بمشيئته الحكيمة، ويحكم بالهداية لمن يشاء بمشيئته الحكيمة، نتيجة امتحان إراداتهم الحرة، وليس على الرسول إلا البلاغ والتبيين، والله هو القوي الغالب الذي لا يغلب، الحكيم في جميع أفعاله.

٥ - ونؤكد لكم - أيها المتلقون لبياننا - أننا بحكمنا وسلطان ربوبيتنا أرسلنا موسى مؤيداً بالمعجزات العظيمة الباهرة الدالة على صدقه، وأمرناه أن أخرج قومك بالدعوة إلى الله من ظلمات الكفر والجهل بعناصر القاعدة الإيمانية، ومفاهيم الدين وشرائعه وأحكامه إلى نور الإيمان والعلم بعناصر القاعدة الإيمانية، ومفاهيم الدين وشرائعه وأحكامه ومنهاجه، بوسائل دعوتهم إلى الحق وتعليمهم وتربيتهم، وذكرهم بالأحداث والوقائع المشتملة على النعم التي سبق أن أكرم الله بها بني إسرائيل في عهد يوسف عليه السلام، والأيام العظمى التي أهلك الله بها الجابرة والكفرة المجرمين، وأنجى فيها رسله ومن معهم من المؤمنين، ومن هذه الأيام: قلقي البحر لموسى ومعه بنو إسرائيل، وإغراق فرعون ومن معه، إن في أيام الله العظمى السابقة آيات دالات على أن الله عز وجل يُمهل المجرمين، ثم ينتقم منهم، ويأخذهم أخذ عزيز مُقتدر، وأنه يُجازي أوليائه المؤمنين بالعز والنصر والتمكين في الأرض، ويُمدهم بخيرات كثيرات ونعم جليلات، يتفجع من دلالات هذه الآيات الهاديات كل كثير الصبر على طاعة الله سبحانه، كثير الشكر بالعمل الصالح لأنعم الله تعالى عليه.

٦ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي لآياتنا - حين امْتَثَلَ موسى أمرَ الله عزَّ وجل، فقال لقومه بني إسرائيل يُذَكِّرْهُمْ نِعْمَ اللهُ عَلَيْهِمْ: اذكروا نعمة الله العظيمة عليكم في ذلك الوقت الذي أنجاكم فيه من ظلم أتباع فرعون لكم، بإخراجكم من مصر، وفلق البحر لكم حتى عبرتم على اليابسة، وقد كان آل فرعون في مصر يُحْمِلُونَكُمْ وَيُكَلِّفُونَكُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ الذَّكَورَ، حتى لا يأتي منهم مَنْ يَسْتُولِي عَلَى مُلْكِ فرعون، ويتركوا مواليدكم من البنات اللواتي سيكون مصيرهنَّ أن يكنَّ نساءً، أحياء ذليلات كالإماء؛ ليستخدمنكم، وفي ذلكم الذي جرى لكم في مصر امتحانٌ لكم عظيمٌ من ربكم، الذي كافأكم على الصَّبْرِ عليه، بأن أنجاكم بخارقة عظيمة، وبأن فضلكم على أهل زمانكم.

٧ - وقال لهم موسى عليه السلام: واذكروا حين أعلمكم ربكم إعلاماً بليغاً، فقال: أقسم لكم: لئن شكرتم - يا بني إسرائيل - ما أعطيناكم من نِعَمٍ بالإيمان والعمل الصالح، لأزيدنكم نعمةً إلى نعمةٍ، ولأضاعفنَّ لكم ما آتيتكم، وأقسم لكم: لئن جحدتم نعمتي ووجداني في رُبُوبِيَّتي وإِلَهِيَّتي، لأعذبنكم ضمن أحكام العدل التي قضيتها في مُجَازَاتِي لِعِبَادِي، إنَّ عَذَابِي - لمن كفر نعمتي ولم يشكرها - لشديدٌ.

٨ - وقال موسى لقومه: إن تكفروا - يا بني إسرائيل - أنتم، والنَّاسُ كلُّهم جميعاً، فإنَّ ضَرَرَ ذلك يعود على أنفسكم بحرمانها الخير كله؛ فإنَّ الله لغنيُّ بذاته وصفاته عن جميع خلقه، كثير الحمد لأهل طاعته والتقرب إليه، محمودٌ في ذاته وصفاته وجميع أفعاله، مُسْتَحَقُّ للحمد والثناء.

٩ - ألم يأتكم - أيها الكفار - نبأ إهلاك الكافرين الذين من قبلكم من القرون الماضية والأُمم الخالية؛ قوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود

قوم صالح، والذين من بعد هؤلاء الأمم الثلاثة، لا يعلم حقيقة مقاديرهم وعددهم إلا الله، جاءتهم رسلهم المرسلون إليهم من ربهم مُؤَيِّدِينَ بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الْوَاضِحَاتِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، ومن قضايا العقيدة وبراهينها، وقضايا العبادة والأخلاق وحقوق الناس، وضوابط التعامل فيما بينهم، فلم يستجيبوا لرسول ربهم، بل أسكتوهم رادِّين أيديهم التي يشيرون بها عند الحديث، وجاعلينها في أفواههم، إسكاتاً لهم، ورفضاً لاستماع دعوة رسل ربهم، وقالوا مؤكِّدين لرسولهم: إنا كفرنا بما زعمتم أنَّ الله أرسلكم به، وإنَّا لفي شكٍّ ممَّا تدعوننا إليه من الإيمان والتوحيد، مُوقِعٍ فِي اتِّهَامِكُمْ بِالْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ.

١٠ - قالت رُسُلُهُمْ مُجِيبِينَ أَقْوَامَهُمْ حَوْلَ الْقَضِيَّةِ الْأُولَى مِنْ قَضَايَا دَعْوَتِهِمْ: أفي وجود الربِّ الخالق البارئ شكٌّ عند ذي فكر يُشَاهِدُ فِي نَفْسِهِ وَفِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ آثار صفاته العظيمة الجليلة؟ وهو مُخْرِجُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ بَاطِنِ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، يدعوكم إلى الإيمان بالحقِّ وإلى الإسلام له، وإلى سائر قضايا الدين الذي اضطفاه الله لعباده؛ ليغفرَ لكم من ذنوبكم الماضية ما يتعلق بحقوقه عليكم، فإذا غفرها لكم حَكَمَ لَكُمْ بِالْهَدَايَةِ، فصرتُم من مُسْتَحَقِّي دُخُولِ جَنَّتِهِ يَوْمَ الدِّينِ، أما الذنوب التي تتعلق بحقوق غير الله عليكم، فَيُطَبَّقُ عَلَيْكُمْ فِيهَا قَانُونُ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيِّ، وهو الْقِصَاصُ أو مسامحة أصحاب الحقوق، وبسبب إيمانكم وإسلامكم، يرفع عنكم ما تستحقُّون من تعذيب وإهلاك مُسْتَأْصِلٍ، ويؤخِّرُكم إلى حينِ انقضاء آجالكم، التي قدرها لكم في الحياة الدنيا، وينذركم بعقابه يوم الدين، وبهلاك مُعَجَّلٍ عام، إذا أضرزتم على كفركم، فإذا نزل بكم هذا الهلاك العام المُعَجَّلُ فِي ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لم يؤخِّرْكم ربكم إلى أجلكم المُقَدَّرَ لَكُمْ فِي خُطَّةِ الْخَلْقِ.

قالت الأممُ مُجِيبِينَ لِلرَّسْلِ: ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا، وليس لكم امتياز تكويني يُؤَهِّلُكُمْ لِلاتِّصَالِ بِاللَّهِ، وتلقَّى الوحي عنه، تُريدون بقولكم هذا صَدَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا الَّتِي كَانَ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَهَا، وَأَنْ نَتَّبِعَكُمْ؛ لَنَحْتَلُوا فِيْنَا مَرْكَزَ الزَّعَامَةِ وَالرِّيَاسَةِ وَالْقِيَادَةِ، وَإِنْ كُنْتُمْ رُسُلًا حَقًّا مَبْعُوثِينَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَاتُّوا بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ وَآيَةٍ خَارِقَةٍ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاكُمْ، تَسْلُطُ بِقُوَّتِهَا عَلَى نَفُوسِنَا، وَتَجْذِبُهَا إِلَى الْيَقِينِ.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ١ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٢ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ جَمِيدٌ ٣ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ٤ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُّونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ٥



قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ
بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا
وَلَنَضْرِبَ عَلَىٰ مَاءٍ أَدْيَمًا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ
﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ
ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا
وَخَافَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مَن وَرَأَاهُ جَهَنَّمَ وَنُفِثَ
مِنْ مَّاءٍ صَٰدِقٍ ﴿١٦﴾ يَجْرَعُهُ ۚ وَلَا يَكَادُ يُسَفِّغُهُ
وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن
وَرَأْيِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

١١ - قالت الرسل للكفار الذين قالوا لهم: ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا؛ إنَّ الأمر كما قلتم ووصفتم، فنحن بشرٌ مثلكم لا ننكر ذلك، ولكنَّ الله يُنعم النعم العظيمة بالفضل بالنبوة والرسالة على مَنْ يشاء من عباده، ومشيئته سبحانه لا تفارق حكمته، فيضطفي مَنْ يشاء من عباده لهذا المنصب العظيم الشريف، ولا يستطيع أحد أن يفرض على الربِّ الخالق أن يُسوِّي بين خلقه في نعمه وعطاياه. وليس لنا - مع ما خضنا الله به من النبوة، وشرَّفنا به من الرسالة - أن نأتيكم بآية وبرهان ومعجزة تدلُّ على صدقنا إلا بإذن الله لنا في ذلك، وعلى الله وحده فليَتَوَكَّلِ المؤمنون في دفع شرور أعدائهم عنهم مع القيام بالأسباب المُستطاعة المادية والمعنوية، طاعةً لأمره ونهيهِ.

١٢ - وأيُّ شيء يكون لنا من عقل وفهم وبصيرة في أن لا نتوكل على الله، والحال أنه قد عرفنا طريق النجاة من ظلم الكافرين، وبين لنا طرق تحقيق هذه النجاة؟ والله لنصبرنَّ على ما أديتُمونا من قول أو فعل، ولا نقابلكم بمثله، ولو ملكنا القوة على معاقتكم بالعدل؛ لأنَّ حرصنا على إيمانكم ونجاتكم من الخلود في عذاب النار، أشدُّ من رَغَبَات نفوسنا بالتشقي منكم؛ إذ كان إيذاؤكم لنا عدواناً بغير حق، وعلى الله وحده فليَتَبَيَّنِ المتوكلون على توكلهم؛ ليصرف عنهم أذى أعدائهم، وينجيهم من مكرمهم ومكايدهم.

١٣ - وقال الذين كفروا لرسولهم بعدما انهزموا أمام مناظراتهم وبياناتهم هزائم فكرية منكورة، فلجؤوا إلى قرار استعمال القوة، للتخيير بين ترك الدين الجديد، والعودة إلى ملة قومهم، وبين النفي والإبعاد من البلاد؛ لئُخرجنَّكم والذين آمنوا معكم من بلادنا وأرضنا، أو لتعودنَّ عن دينكم الجديد الذي آمنتم به، ولتدخلنَّ في ملتنا، فأوحى الله تعالى إلى رسوله مُقسماً مؤكداً: لَنُهْلِكَنَّ الظالمين الجاحدين الذين كفروا بالله ورسوله.

١٤ - وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ من بعد هلاكهم مستقرين آمنين، ذلك الذي وعدنا به الرُّسل من إهلاك الظالمين من أقوامهم، وإسكانهم الأرض من بعدهم، ومعهم الذين آمنوا بهم وأتبعوهم، هو سُئُهُ من سُني، لِمَن خَافَ قيامي عليه ومراقبتي له، ومقامه بين يدي يوم القيامة، وخَافَ إنذارِي بالعقاب على الكفر والعصيان.

١٥ - وسأل الرُّسل ربَّهم أن ينصرهم على أعدائهم لِمَا أيسوا من إيمان قومهم، ودعوا عليهم بالعذاب، فاستجاب الله دعاء رسله، فنصرهم والذين آمنوا معهم، وأنزل بالذين كفروا من أقوامهم الهلاك، وخَسِرَ كُلُّ مُتَعَاطِمٍ في نفسه، مُتَسَلِّطٌ بقوته، شديد الإصرار على رأيه واعتقاده، وإن ظهر له بطلانه.

١٦ - سوف يكون مصير هذا الكافر يوم القيامة جهنم، وهي غيبٌ بالنسبة لهم، ويسقى في جهنم القَيْح الذي يسيل من أجساد أهل النار.

١٧ - يتحسَّاه ويتكلَّف بلعَه جرعةً بعد جرعة؛ لمرارته وحرارته وكرهته ونثنيهِ، ولا يَقْدُرُ على ابتلاعه، ويجدُّ الكافر أَلَمَ الموت وشِدَّتَهُ من كُلِّ نوع، ومن كُلِّ عضو من جسده، وما هو بميتٍ فيستريح، ويأتيه بعد هذا العذاب في مستقبل بقائه في جهنم، عذاب آخر شديد مؤلم.

١٨ - صفة أعمال الذين كفروا برَّبِّهم في مقاومة رسل الله، ومحاربة دينه، تُجاه نصر الله لرسله وأوليائه إذا شاء، كرمادٍ مجتمع لا تماسك بين ذراته، وهو خفيف لا وزن له، فاشتدَّتْ به الريح العاتية في يوم شديد الهبوب، فنفسه وتبددته وتبدداً، ولم تُبقِ منه شيئاً، فهل يَقْدُرُ صاحبُ الرماد أن يجمع ذرات رماده بعد أن بددته أيدي الرياح العاتيات؟! وكذلك أعمال الكفار التي أعدوها لمحاربة رُسُل الله ودينه، أمام سلطان نصر الله، تَبْطُلُ وتذهب حتى لا يبقى منها شيء، لا يقدرُون ممَّا كسبوا في الدنيا على شيءٍ من تلك الأعمال، ذلك السعي والعمل لمحاربة دين الله هو الخُسْران البعيد.

١٩ - أَلَمْ تَرَ بِفِكَرِكَ - أَيُّهَا الرَّائِي الْمَتَفَكِّرُ فِي خَلْقِ اللَّهِ - أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مُتَّصِفًا خَلْقُهُ لِهَمَّا بِالْحَقِّ الثَّابِتِ، لَمْ يَخْلُقْهُمَا عَيْنًا وَبَاطِلًا، إِنَّمَا خَلَقَهُمَا لِأَمْرِ عَظِيمٍ وَغَايَةِ حَكِيمَةٍ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ سِوَاكُمْ أَطُوعَ اللَّهُ مِنْكُمْ.

٢٠ - وَمَا إِهْلَاكُكُمْ وَإِيجَادُ خَلْقٍ آخَرَ سِوَاكُمْ بِمُتَمَنِّعٍ عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا سَهْلَةٌ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنْ جَلَّتْ وَعَظُمَتْ.

٢١ - وَخَرَجْتَ الْخَلَائِقُ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَظَهَرَ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ جَمِيعًا فِي مَوْقِفٍ جَامِعٍ عَلَى أَرْضِ الْمُحْشَرِ، لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ؛ لِيُحَاسِبَهُمْ وَيُجَازِيَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَقَالَ الْأَتْبَاعُ الضُّعَفَاءُ لِلْقَادَةِ الرَّؤَسَاءِ: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا أَتْبَاعًا فِي الدِّينِ وَالْإِيمَانِ، نَسِيرُ فِي أَثَرِكُمْ، وَنَتَّبِعُ أَوَامِرَكُمْ وَخُطُوبَاتِكُمْ، فَهَلْ تَقْدُرُونَ فِي هَذَا الْيَوْمِ أَنْ تَدْفَعُوا عَنَّا بَعْضَ عَذَابِ اللَّهِ الَّذِي حَلَّ بِنَا؟ قَالَ الرَّؤَسَاءُ وَالْقَادَةُ لِلْأَتْبَاعِ: لَوْ حَكَمَ اللَّهُ لَنَا بِالْهُدَايَةِ إِلَى الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا لَهَدَيْنَاكُمْ، وَلَكِنَّا اخْتَرْنَا بِإِرَادَاتِنَا الْحُرَّةِ طَرِيقَ الضَّلَالِ، فَضَلَلْنَا وَأَضَلَلْنَاكُمْ، مُسْتَوٍ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ الضَّعْفُ عَنْ حَمَلِ مَا نَزَلَ بِنَا، أَمْ الصَّبْرُ عَلَى مَا نَزَلَ بِنَا، مَا لَنَا مِنْ مَكَانٍ نَحِيدُ وَنَهْرِبُ إِلَيْهِ، وَلَا مُنْجَاةَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ.

٢٢ - وَقَالَ إِبْلِيسُ - لِمَا فُرِغَ مِنَ الْأَمْرِ، وَأَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ -: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ الْوَعْدَ الْحَقَّ فَصَدَّقَ فِي وَعْدِهِ، وَوَعَدْتُمْ وَعْدًا بَاطِلًا، فَأَخْلَفْتُمْ الْوَعْدَ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَهْرِكُمْ بِهَا عَلَى أَتْبَاعِي، أَوْ حُجَّةٍ أَقْنَعَكُمْ بِهَا، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، وَأَلْقَيْتُ إِلَيْكُمْ الْوَسْوَاسَةَ، فَاسْتَجَبْتُمْ لِي بِاخْتِيَارِكُمْ الْحُرِّ، دُونَ إِكْرَاهٍ وَلَا إِجْبَارٍ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ دَلَائِلَ اللَّهِ، وَجَاءَتْكُمْ الرُّسُلُ، فَكَانَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُلْتَفِتُوا إِلَيَّ، وَلَا تَسْمَعُوا قَوْلِي، فَلَمَّا رَجَحْتُمْ قَوْلِي عَلَى الدَّلَائِلِ الظَّاهِرَةِ مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ، وَجِئْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِاخْتِيَارِكُمْ الْحُرِّ، كَانَ اللَّوْمُ بِكُمْ أَوَّلَى، مَا أَنَا بِمُغِيثِكُمْ وَلَا مُنْقَذِكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ، إِنِّي كَفَرْتُ بِجَعْلِكُمْ لِي بِأَيِّ شَرِيكَاءَ اللَّهُ فِي عِبَادَتِهِ فِي الدُّنْيَا، وَتَبَرَّأْتُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ وَضَعُوا الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، لَهُمْ عَذَابٌ مُؤَلَّمٌ مُوجِعٌ.

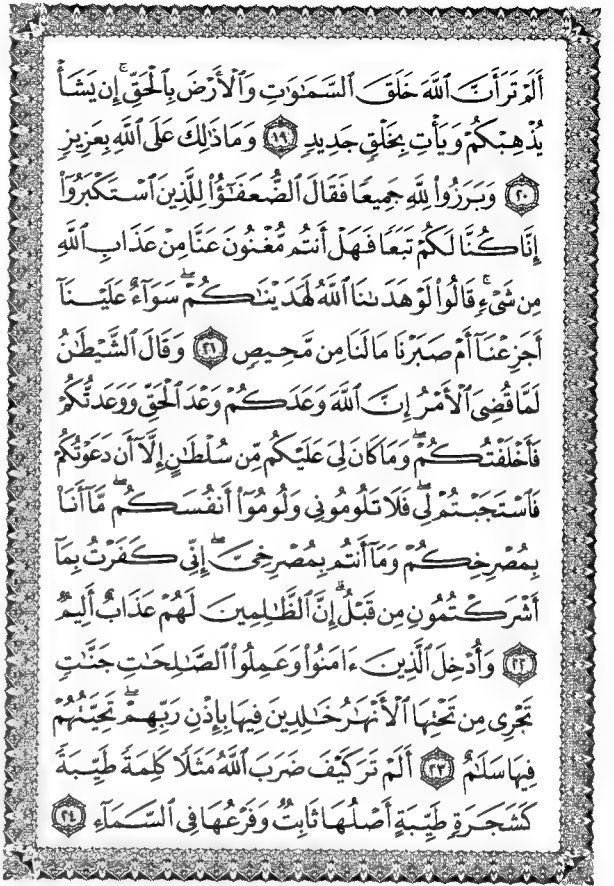
٢٣ - وَفِي مَقَابِلِ إِدْخَالِ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ؛ لِيَذُوقُوا جَزَاءَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، أَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا صَحِيحًا صَادِقًا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الْمُرْضِيَاتِ رَبَّهُمْ عَنْهُمْ، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ وَأَشْجَارُهَا الْأَنْهَارُ، حَالَةٌ كَوْنِهِمْ دَائِمِينَ فِي التَّنْعِيمِ بِأَنْوَاعِ نَعِيمِهَا، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا - بِإِذْنِ رَبِّهِمْ وَفَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ - يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ، وَالْمَلَائِكَةُ تُحَيِّيهِمْ، وَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ يُحَيِّيهِمْ.

٢٤ - انْظُرْ - أَيُّهَا النَّاطِرُ - نَظْرَ تَفَكُّرٍ عَمِيقٍ، وَتَدَبُّرٍ دَقِيقٍ، كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ شَبَهًا لِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ الطَّيِّبَةِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، مِثْلُ: كَلِمَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْكَلِمَةِ التَّعْلِيمِيَّةِ وَالتَّرْبُويَّةِ الرَّشِيدَةِ الَّتِي يَنْصَحُ بِهَا الْمُسْلِمُ أَخَاهُ، كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ مَزْرُوعَةٍ فِي أَرْضٍ طَيِّبَةٍ، وَهِيَ النَّخْلَةُ، جَذَرُهَا ثَابِتٌ ضَارِبٌ بِعُرْوَةِ فِي عَمَقِ الْأَرْضِ، يَمْتَصُّ الْغَذَاءَ لِلشَّجَرَةِ مِنَ الْمَاءِ وَالتُّرَابِ، فَيَصْعَدُ فِي قَنَاوَاتٍ مِنَ الْجُذُورِ إِلَى السَّاقِ، فإِلَى الْفُرُوعِ الصَّاعِدَةِ فِي الْجَوِّ، فإِلَى الْأَوْرَاقِ وَالْأَفْئَانِ وَالثَّمَرَاتِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ التَّنْبِيهِ إِلَى عَظَمَةِ هَذَا الْمَثَلِ وَرَوْعَتِهِ الَّذِي تُصَوِّرُ فِيهِ الْمَعْقُولَاتِ وَالْمَعْلُومَاتِ بِصُورِ الْمَشْهُودَاتِ وَالْمُرْتَبَاتِ. وَوُصِفَتْ كَلِمَةُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) بِأَنَّهَا طَيِّبَةٌ؛ لِأَنَّ مَدْلُولَهَا وَمَوْضُوعَهَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، الْمُتَّصِفُ بِمَا لَا يَتَنَاهَى مِنَ الْكَمَالَاتِ، الْمُنَزَّاهُ عَنِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ طَيِّبَةٌ بِذَاتِهَا، مُطَيِّبَةٌ لِلْقَلْبِ الَّذِي اعْتَقَدَهَا، وَمُطَهِّرَةٌ لَهُ مِنْ نَجَسِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ. وَفِي هَذَا الْمَثَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادَتِهِ تَنْبِيَةً إِلَى أَنَّ الشَّجَرَةَ لَا تَبْقَى فِيهَا حَيَاةُ النَّمُوِّ إِلَّا بِمَادَّةٍ تَسْقِيهَا وَتُغْنِيهَا، فَإِذَا انْقَطَعَ عَنْهَا السَّقْيُ جَفَّتْ وَبَسِثَتْ، وَهَكَذَا شَجَرَةُ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ: إِنْ لَمْ يَتَعَاهَدْهَا صَاحِبُهَا بِالسُّقْيَا، أَوْشَكَ أَنْ تَبْسُوتَ وَتَمُوتَ. وَالْغَيْثُ الَّذِي يُحْيِي اللَّهُ تَعَالَى بِهِ شَجَرَةَ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ وَيُغْنِيهَا وَيَقْوِيهَا هُوَ مَاءُ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ الْقَرَّائِيِّ وَالنَّبَوِيِّ؛ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ.

وَفِي هَذَا الْمَثَلِ أَيْضًا: تَذْكِيرُ بَتَعَاهُدِ شَجَرَةِ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ، بِالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا مِنَ الْأَهْوَاءِ الضَّالَّةِ، وَالشَّهَوَاتِ الضَّارَّةِ، فَإِنَّ شَجَرَةَ الْإِيمَانِ تَضَعُفُ وَتَنْقُصُ ثَمَرَاتُهَا، إِذَا لَمْ يَتَعَاهَدْهَا صَاحِبُهَا وَيَحَافِظَ عَلَيْهَا مِمَّا يَضَعُفُهَا وَيَفْسُدُهَا.

وَفِي هَذَا الْمَثَلِ: تَنْبِيَةٌ إِلَى أَنَّ فُرُوعَ شَجَرَةِ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ وَثَمَرَاتُهَا عَلَى حَسَبِ ثُبُوتِ أَصْلِهَا فِي الْقَلْبِ، فَكَلَّمَا ثَبَتَ أَصْلُهَا وَرَسَخَ، كَلَّمَا عَلَا فَرْعُهَا، وَنَمَا ثَمَرُهَا وَكَثُرَ.



٢٥ - تُؤْتِي ثَمَرَهَا كُلَّ وَقْتٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا، وكذلك الكلمة الطيبة التي تدل على حق مؤيد بالبرهان، أو تهدي إلى خير وعمل صالح، وفي رأس الكلمات الطيبات كلمة (لا إله إلا الله)، فهي شديدة الثبوت في عمق قلب المؤمن، وفروع هذه الكلمة: التطبيقات الإسلامية في سلوك المؤمن، وهي يانعة باستمرار، ثمرة في كل حين. أما ثبات أصلها فإيمان صاحبها وإخلاصه، وأما فروعها الممتدة إلى السماء فبلوغها مستوى القبول عند الله، وأما ثمرها فما تقدمه من أجر بفضل الله لباذلها وزارعها. وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ زِيَادَةً فِي الْإِفْهَامِ، وتصوير المعاني، وتقريب الحقائق، رغبة أن يتذكروا هذه الأمثال عند المناسبات، ويكون لهذا التذكُّر أثره النفسي والقلبي والسلوكي.

٢٦ - وَمَثَلُ كَلِمَةِ الشُّرْكِ الْخَبِيثَةِ؛ كشجرة الْحَنْظَلِ الْخَبِيثَةِ، اسْتَوْصِلَتْ وَقُطِعَتْ من فوق الأرض؛ لثُرب عروقها من سطح الأرض، ما لهذه الشجرة من ثبات؛ لأنها ليس لها جذر ثابت في الأرض، ولا فرع صاعد إلى السماء بل لها فروع شائكة، وممرات سافرات ساقطات على الأرض في الأحوال، لأنها مبينة ومناقضة للحق، وليس لها أصل ثابت في نفس الكافر وقلبه، لأنها لا تعتمد على حجة صحيحة، وفروع هذه الكلمة هي أنواع السلوك الفاسق الفاجر المنحرف عن صراط الله، وهي فروع هابطة إلى مواطن القذارات، تدل على هبوط مستوى قائلها، وخُبث نفسه، كذلك الكافر لا ثبات له، ولا خير فيه، ولا يصعد له قول طيب، ولا عمل صالح.

٢٧ - يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا صَاحِقًا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ التي يحتاجون فيها إلى تثبيت، وهم في الحياة الدنيا، كتثبيتهم على الإيمان كلما تعرضوا لهزات مُزلزلات للقلوب، وتثبيتهم على الإيمان قبل نزاع أرواحهم عند اقتراب آجالهم، لتكون وفاتهم على إيمان كامل، أما في الآخرة فيكون تثبيتهم في القبر عند سؤال الملكين بهديتهم إلى الجواب

الصحيح، وفي موقف الصراط والحساب والميزان، ويحكم الله على الظالمين من ذركات الكفر بالضلال والبُعد عن الهدى والرشاد في دنياهم وآخرتهم، بسبب كفرهم، بعد أن منحهم إرادات حرة يختارون بها طريق الهدى وطريق الضلال، ويفعل الله ما يشاء من تثبيت على الهداية، أو مد في الضلالة، وفق علمه وعدله وحكمته.

٢٨، ٢٩ - أَلَمْ تَنْظُرْ - أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ بِفِكَرِكَ الْمُتَأَمِّلِ الْمُتَدَبِّرِ - إِلَى كَفَّارِ قَرِيشٍ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ؛ لِيُخْرِجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ الْإِيْمَانِ، فاخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَغَيَّرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَأَحْلَوْا مَنْ تَبِعَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ دَارَ الْهَلَاكِ، وهي جهنم، يدخلونها ويقاسون حرَّها، وساء سوءاً لا يوجد أشد منه، مكان إقامتهم واستقرارهم الأبدي فيها.

٣٠ - وَجَعَلَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ لِلَّهِ أَمْثَالاً وَأَشْبَاهاً مِنَ الْأَصْنَامِ فِي التَّسْمِيَةِ وَالْعِبَادَةِ؛ لِيُضِلُّوا مَنْ يَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ. قُلْ - يَا أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ - لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ: تَمَتَّعُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيَّاماً قَلِيلاً، فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ فِي الْآخِرَةِ.

٣١ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - يَا كُلَّ حَامِلٍ لِرِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ - لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا: لِيُقيمُوا الصَّلَاةَ الْوَاجِبَةَ فِي أَوْقَاتِهَا الْخَمْسَ بِإِتِمَامِ أَرْكَانِهَا، وَيَنْفِقُوا بَعْضَ مَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ أَمْوَالٍ طَيِّبَةٍ بِهَا نَفُوسُهُمْ فِي جَمِيعِ وَجْهِ الْخَيْرِ فِي حَالِ السَّرِّ وَحَالِ الْعِلَانِيَةِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي لَا فِدَاءَ فِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَا صَدَاقَةَ بَيْنَ النَّاسِ تَنْفَعُ فِي تَدَارُكِ مَا فَاتَ.

٣٢ - اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِذَلِكَ الْمَاءِ الْمَخْتَلَطِ بِتَرَابِ الْأَرْضِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ، وَذُلِّلَ لَكُمْ السُّفُنُ الْجَارِيَةُ عَلَى الْمَاءِ وَفَقَ نِظَامُ الطُّفُو الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ فِي كَوْنِهِ، لِأَجْلِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا فِي جَلْبِ الرِّزْقِ مِنْ بَلَدٍ لآخر، وَذُلِّلَ لَكُمْ الْأَنْهَارُ تَشْرِبُونَ مِنْهَا، وَتَسْقُونَ زَرْعَكُمْ وَأَشْجَارَكُمْ وَأَنْعَامَكُمْ وَدَوَابَّكُمْ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ أُخْرَى.

٣٣ - وَذُلِّلَ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَجْرِيَانِ دَائِماً فِيمَا يَعُودُ إِلَى مَصَالِحِ الْعِبَادَةِ، لَا يَقْتَرَانِ عَنْ حَرَكتهما إِلَى انْقِضَاءِ عَمْرِ الدُّنْيَا وَذَهَابِهَا، وَذُلِّلَ لَكُمْ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يَتَعَاقِبَانِ فِي الظُّلْمَةِ وَالضِّيَاءِ، وَالنِّقْصَانِ وَالزِّيَادَةِ؛ لِتَسْكُنُوا فِي اللَّيْلِ وَتَسْتَرِيحُوا، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ فِي النَّهَارِ، وَتَدَبَّرُوا مَعَايِشَكُمْ.

تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُشْرِكُونَ بِالْقَرَارِ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلَ اللَّهُ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَايِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

٣٤ - وأعطاكم من كل ما سألتموه شيئاً، واستجاب دعاءكم، فما منكم من أحد إلا سأل الله ربّه أمراً من أمور دنياه في مالٍ أو صحةٍ أو عافيةٍ، أو أمنٍ، أو خلاصٍ من مكروهه، إلا استجاب الله بعض دعائه له؛ ليبيّن له أنه ربّ موجود، يجيب دعاء المضطر إذا دعاه، وإن تعدّوا نعمة الله لا تُقدروا على حصرها ولا عدّها جملةً وتفصيلاً؛ لكثرتها وتنوعها وعدم تناهياها؛ إنّ الإنسان لكثير الظلم لنفسه ولغيره، وكثير الجحود بنعمة ربّه عليه، فبظلمه لنفسه يرتكب الكبائر الكبرى، فيعرض نفسه لعقاب الله الشديد له، وبكثرة كفره جحوداً لينعم الله عليه يخرج عن صراط الله المستقيم، فيعرض نفسه للجرمان من زيادة نعم الله تعالى عليه.

٣٥ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقّي لآياتنا - حين قال إبراهيم داعياً ربه - بعد أن أسكن ابنه إسماعيل وأمه «مكة» - : ربّ اجعل «مكة» بلدًا ذا أمن، يأمن كلُّ من فيها، وأبعدني وأبعد بنيّ عن عبادة الأصنام.

٣٦ - ربّ إنّ الأصنام أضلّلن كثيراً من الناس، فافتتنوا بعبادتها، توهماً منهم أنّ عبادتها تنفعهم في مطالب دنياهم، أو تدفع عنهم ضرراً، ربّ فمَنْ تبعني على التوحيد والإيمان الصحيح، والأعمال الصالحة التي ترضيك، فإنّه من جماعتي، ومن أمتي المُستجيبين لدعوتي، ومن خالفني فيما دون الشُّرك، فإنّك كثير السُّرّ للذنوب المذنبين، دائم الرحمة لهم، تعفو عمن تشاء منهم بفضلك ورحمتك.

٣٧ - ربّنا إنّني أسكنُ بعض دُرّتي، وهم إسماعيل وأولاده بوادٍ في «مكة» ليس فيه زرع ولا ماء، بجوار بيتك ذي الحرمة والمكانة الرفيعة، والممنوع ممّن يُريد به شرّاً؛ ربّنا إنّني فعلت ذلك بأمرك لأجل أن يقيموا الصّلاة بأركانها، وعلى أتمّ وجوها، عند بيتك

المكرم، وليكونوا القدوة للناس في إقامة الصّلاة، وعبادتك على الوجه الذي يرضيك، فاجعل عمق قلوب جماعه من الناس تحنّ وتشاقّ لزيارة بيتك، وتسرع إليهم شوقاً ووداداً، وارزقهم بأن تجلبّ إلى بلدهم الذي لا زرع فيه، من أنواع الثمرات؛ رغبة أن يشكروا هذه النعم التي أنعمت بها عليهم بالإيمان والإسلام والأعمال الصالحة التي ترضيك عنهم.

٣٨ - ربّنا إنّك تعلم السُّرّ كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه، وأنت أرحم بنا منّا، فلا حاجة بنا إلى الدعاء والطلب، وإنّا ندعوك إظهاراً للعبوديّة لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذللاً لعزّتك، وما يخفى على الله عالم الغيب من شيءٍ في كلّ مكان وزمان.

٣٩ - الحمد لله الذي وهب لي مع الكبر في سنّ اليأس من الولد: إسماعيل من «هاجر»، وإسحاق من «سارة»، بعد دعائي أن يهب لي من الصّالحين؛ إنّ ربّي لمجيّب الدعاء ممّن دعاه، فإذا شاء بحكمته أن يجيب دعوة من دعاه أجابه، وقد أجاب الله دعائي، ولم يخيب رجائي.

٤٠ - ربّ اجعلني ممّن يقيم الصّلاة بأركانها، ويحافظ عليها في أوقاتها، واجعل من دُرّتي المؤمنين المسلمين من يقيم الصّلاة على أتمّ وجوها، ربّنا واشتجب دعائي بفضلك وكرمك، واجعله مقبولاً عندك.

٤١ - ربّنا اغفر لي ولوالديّ (وإنّا قال ذلك قبل أن يتبيّن له أنّ أباه من أصحاب الجحيم)، واغفر للمؤمنين كلّهم يوم يقوم الناس للحساب، وفضل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٤٢ - ولا تتوهّم - أيها السامع - أنّ الله يُعامل الظالمين معاملة الغافل عنهم، المُتصرف عن ملاحظتهم ومراقبتهم، ولكن يُعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم، فهو سبحانه يُنهل ولا يهمل، ما يؤخّر عقابهم الشديد إلّا ليوم القيامة؛ إذ ترتفع فيه أبصار أهل الموقف، وتبقى أعينهم مفتوحة خيرةً ودهشةً، وخوفاً وذعراً؛ من هول ما تراه.

وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ
أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلْنِي مِنَ النَّاسِ
فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ
تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ شَاكِرُونَ ﴿٣٧﴾
رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي
عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ دَلِيلٌ ﴿٣٩﴾
رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَاءَ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْزَنْ رَبَّنَا غَفِلْنَا غَمًّا يَمَعِلُ ﴿٤٢﴾
الظَّالِمُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّمَا يُخْرِجُكُم بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ الْأَبْصَارِ

٤٣ - يوم يقوم الظالمون من قبورهم مُسرعين إلى إجابة الداعي بذلة واستكانة، مُطأطي رؤوسهم، مع إمالة خضوع وانكسار، لا يرجع جفن كل واحد منهم إلى الانطباق، من شدة شخوص أبصارهم، وقلوبهم خالية فارغة عن الفهم، لا تعي شيئاً، ولا تعقل من شدة هول الموقف الذي هم فيه.

٤٤ - وخوف الناس - يا رسول الله - بعذاب مؤجل إلى يوم الدين، مع احتمال إنزال عذاب مُعجل فيهم في الدنيا، يكون به هلاكهم إلى حد الاستئصال، يوم يَرَوْنَ نُذْرَ الْعَذَابِ النَّازِلِ بِهِمْ، ومقدمات ما يكون به تعذيبهم وإهلاكهم من وسائل؛ فيقول الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي: رَبَّنَا أَخْزِ تَعْذِيبَنَا وَإِهْلَاكَنَا، وأمهلنا مدة سيرة، نُؤْمِنُ بِكَ، وَنَتَّبِعُ رُسْلَكَ بِاتِّبَاعِ خَاتِمِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ إِذْ أَنْ اتَّبَاعُهُ هُوَ اتِّبَاعٌ لِكُلِّ رُسُلِ اللَّهِ السَّابِقِينَ، فيجأوا توبيخاً على ألسنة الملائكة المأمورين بتعذيبهم: أَلَمْ تَكْذِبُوا رُسْلَ رَبِّكُمْ حِينَ أَنْذَرَكُمْ بِعَذَابِهِ الْمُعْجَلِ وَالْمُؤْجَلِ، وَأَقْسَمْتُمْ عَلَيَّ أَنْكُمْ سَتَدُومُونَ عَلَيَّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ حَتَّى تَأْتِيَكُمْ أَجَالُكُمْ، وَلَيْسَ لِلنَّعْمِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مِنْ زَوَالٍ؛ بِعِقَابٍ مِنْ اللَّهِ لَكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ، ومقاومتكم لدينه، ومعادتكم لرسله.

٤٥ - وتقول لهم الملائكة أيضاً: وسكنتم في مساكن المهلكين إهلاكاً جماعياً، بسبب أنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، وقد تحققت كيف كانت عقوبتنا إليهم، بمُشَاهَدَةِ آثارِ إهلاكهم وتدميرهم، وضررنا لكم الأمثال من أحوال الظالمين الأولين، وما جرى لهم، وكيف أهلكوا إهلاكاً جماعياً؛ لتعتبروا بها، وتقيسوا أنفسكم عليهم، وأعمالكم على أعمالهم، وتعلموا أنه سيحل عليكم مثل الذي حل على الذين من قبلكم متى انتهت مدة إمهالكم، وبقيتم على كفركم ومقاومتكم لدعوة الحق.

٤٦ - وقد دبر هؤلاء الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم تدبيرهم السيئ في الخفاء؛ لقمع دعوة رسل ربهم، وللتخلص منهم، ومن الذين آمنوا بهم واتبعوهم، وعند الله علم تدبيرهم السيئ بكل تفصيلاته ومراحلها وجزئياته، وقد كان مكرهم - من شدته - لِيُزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ.

٤٧ - فلا تظنن - أيها المخاطب - أن الله مُخْلِيفٌ مَا وَعَدَ بِهِ رُسُلُهُ مِنَ النَّصْرِ وَإِعْلَاءِ الْكَلِمَةِ وَإِظْهَارِ الدِّينِ، فإنه ناصِرٌ رُسُلَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ، وَمُهْلِكٌ أَعْدَاءَهُ؛ إِنَّ اللَّهَ غَالِبٌ قَوِيٌّ لَا يَمْنَعُهُ أَحَدٌ عَمَّا يَرِيدُ، ذُو انتقام من أعدائه.

٤٨ - ضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لكلام ربك - يوم القيامة حين تُبْدَلُ صَفَةُ الْأَرْضِ وَهَيْئَتُهَا، فتزول جبالها، وتُسَوَّى وَهَادُهَا، وتذهب أشجارها وجميع ما عليها، ولا يبقى على وجهها شيء إلا ذهب، وتُبْدَلُ صَفَةُ السَّمَاءِ، فتتشر كراكبها، وتُظْمَسُ شَمْسُهَا وَقَمَرُهَا وَيَكْوَرَانِ، وتخرج الخلائق من قبورهم في موقف جامع على أرض المحشر لحكم الله الواحد الذي لا شريك له في ربوبيته ولا في إلهيته، الغالب الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

٤٩، ٥٠ - وتُبْصِر - أيها الراي - المجرمين يوم القيامة مشدودين بعضهم إلى بعض في القيود، قد قُرِنَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ إِلَى رِقَابِهِمْ بِالسَّلَاسِلِ، وهم في ذلة وهوان، تُطْلَى جُلُودُهُم بِالْقَطْرَانِ، وهو دهنٌ كَالرَّفْتِ حَارٌّ شَدِيدُ الْاشْتِعَالِ بِالنَّارِ، حتى يكون الطلاء بمثابة ثياب لهم؛ ليجتمع لهم لَذَعُ الْقَطْرَانِ، وكراهية لونه، وتشن ريعه، وإسراع النار في جلودهم. وتعلو وجوههم وتغطيها وتحيط بها النار التي تُسْعِرُ بِأَجْسَادِهِمُ الْمُسْرِيلَةَ بِالْقَطْرَانِ.

٥١ - تقام محكمة العدل الربانية للعباد الذين لم يصلوا إلى ذرّة المجرمين؛ ليجزي الله كل نفس جزاءً مُسَاوِيًا مَا كَسَبَتْ فِي الدُّنْيَا، ضمن قانون العدل بالنسبة إلى السيئات المقروون بغفوة عن كثير عنها، وضمن عطاءات الفضل بالنسبة إلى الحسنات التي يُضَاعَفُ لِعِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ، وتأخير مَنْ لَمْ يَصِلُوا إِلَى ذَرَّةِ الْمَجْرِمِينَ فِي الْحِسَابِ، وفصل القضاء، عن المجرمين، لا يُؤَثِّرُ فِي نَفْسِهِمْ شَيْئاً؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، لا يشغله شأن عن شأن، فهو قديرٌ على أن يحاسبهم جميعاً في ساعة واحدة، دون أن ينقص أحداً شيئاً من حقه.

٥٢ - هذا البيان الذي جاء في هذه السورة بتبليغ يتضمن قضايا دينية موجهة للناس، لكي يعلموها ويعملوا بها، وليخوفوا بما جاء في هذا البلاغ من إنذارات بعقاب الله المعجل والمؤجل إلى يوم القيامة، وليستدلوا بهذه الآيات على وحدانيته سبحانه، وأنه هو الذي يستحق أن يُعْبَدَ، فمن اتخذ إلهاً من دونه يعبده كان مشركاً بربه، يستحق الخلود في عذاب النار يوم الدين، وليكون في أنفس أصحاب العقول الواعية والأفهام الصحيحة الأثر النافع من حضور المعلومة في الذاكرة العاملة الدافعة للسلوك الديني الملائم لها، والمطلوب منها.

مُطْعِمِينَ مُقْنِعِينَ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ
هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ
الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ
مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ
﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو أَنْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ
وَيَزُولُ إِلَهُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَّابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانٍ وَتَعْنَى
وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا
بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ وَلِيَذَّكَّرُوا لِأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

١ - ﴿الرَّ﴾ سَبَقَ الْكَلَامَ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

تلك آيات الكتاب الدالات على كونها مُنزلات من عند الله، وأن محمداً نبي الله حقاً وصدقاً، وهي آيات قرآن عظيم الشأن، جلّي واضح في حكمه وأحكامه، وفي هدايته وإعجازه؛ فأقبلوا عليها، ولا تقابلوها بالكذب والإعراض.

٢ - سيأتي زمان ليس بالبعيد يرغب بشدة هؤلاء الكافرون المعاندون المُصرون على باطلهم، عندما يُحقّق الله النصر العظيم في غزوة بدر، لو كانوا قبل ذلك الزمن مسلمين من أتباع محمد المناصرين لدعوته؛ ليحموا أنفسهم من الهزيمة الشنيعة التي أنزلها الله بهم.

٣ - دَع - يا رسول الله - هؤلاء الكفار يأكلوا في دنياهم، ويتمتعوا بلذاتها، ويشغلهم طول الأمل عن الإيمان والإسلام، ولا تُضع جهدك ووقتك معهم، فسوف يعلمون سوء عُقباهم إذا وَرَدُوا القيامة، وذاقوا وبال ما صنّعوا.

٤ - وما أهلكنا من أهل قرية هلاك استئصال شامل، إلا في حال كون إهلاكهم مسجلاً في كتاب معلوم لله عز وجل، يشمل على بيان زمن الإهلاك، وكل جزئية من جزئياته.

٥ - ما من أمة يسبق تعذيبها وإهلاكها الوقت المحدد لها، وما من أمة تستطيع بكل وسائلها أن تستأخر تعذيبها وإهلاكها عن الوقت المحدد لها. فلا رادّ لقضاء الله وحكمه في أي أمر من الأمور، لا بالسبق ولا بالتأخير عن أجله، ولا بالتغيير والتبديل في شيء منه.

٦ - وقال مشركو مكة لرسولنا محمد ﷺ استهزاء: يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر لكل العالمين؛ إنك لمجنون.

٧ - هَلَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتَ حَقّاً مِنَ الصّٰدِقِينَ فِي قَوْلِكَ وَادِّعَاكَ الرِّسَالَةَ.

٨ - ما تُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا تَنْزِيلاً مُلْتَبِساً بِالْحَقِّ، بِمَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَالْمَصْلَحَةُ، وَلَا مَصْلَحَةَ لَكُمْ فِي تَنْزِيلِهَا إِلَيْكُمْ كَمَا اقْتَرَحْتُمْ، بَلْ فِي ذَلِكَ مَضَرَّةٌ بِكُمْ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ مَعَ ذَلِكَ إِلَّا اسْتِصْصَالُكُمْ فِي الْحَالِ إِنْ لَمْ تَوْفَّقُوا وَتَصَدَّقُوا، كَمَا جَرَتْ بِذَلِكَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، وَمَا كَانُوا حِينَ تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالْعَذَابِ مُؤَخَّرِينَ مُمَهِّلِينَ.

٩ - إِنَّا نَحْنُ لَا غَيْرُنَا نَزَّلْنَا هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي جَعَلْنَاهُ ذِكْراً لِلْعَالَمِينَ، وَالَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَتَفَهَّمُوا مَعَانِيهِ، وَيَضَعُوا مَا هُوَ مُطْلُوبٌ مِنْهُمْ فِيهِ فِي ذَاكِرَتِهِمْ، وَيَتَذَكَّرُوا عِنْدَ كُلِّ مَنَاسِبَةٍ دَاعِيَةٍ لِلتَّذَكُّرِ، وَإِنَّا لِلْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَمُتَكَفِّلُونَ بِحِفْظِهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ، وَالتَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ وَالتَّحْرِيفِ، مَا دَامَ فِي الْأَرْضِ بَشَرٌ، مَهْمَا تَتَابَعَتِ الْأَجْيَالُ، وَتَوَالَتِ الْقُرُونُ وَالْأَحْقَابُ.

١٠، ١١ - وَنُوَكِّدُ تَأْكِيداً شَدِيداً أَنَّا أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - فِي جَمَاعَاتِ الْكُفْرِ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، يَدْعُونَهُمْ إِلَى مَا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، فَهَذِهِ عَادَةُ الْكُفَّارِ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ، وَلَسْتُ بِدَّعَا مِنَ الرُّسُلِ، فَلَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ أَسُوءُ فِي الصَّبْرِ عَلَى أَدَى قَوْمِكَ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا، وَلَا تَكْثُرْ لَاسْتَهْزَائِهِمْ بِكَ، وَلَا تَعَباً بِهِ.

١٢، ١٣ - كَمَا أَدْخَلْنَا بِمَقْتَضَى سُنَّتِنَا التَّكْوِينِيَّةِ الْكُفْرَ وَالتَّكْذِيبَ وَالاسْتِهْزَاءَ بِالرُّسُلِ فِي قُلُوبِ فِرْقِ الْأَوَّلِينَ، كَذَلِكَ نُدْخِلُهُ فِي قُلُوبِ مُشْرِكِي مَكَّةَ؛ لَكُونَهُمْ جَمِيعاً اخْتَارُوا بِإِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةَ الْكُفْرَ وَالتَّكْذِيبَ وَالاسْتِهْزَاءَ بِالرُّسُلِ. لَا يُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ مَهْمَا قَدَّمَ لَهُمْ مِنْ آيَاتِ صَدَقِهِ، وَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ وَعَادَتُهُ بِإِهْلَاكِ مَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، فَاحْذَرُوا - يَا أَهْلَ مَكَّةَ - أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

١٤، ١٥ - وَلَوْ فَتَحْنَا لَكُفَّارَ مَكَّةَ الْمَعَانِدِينَ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ مَعَارِجِ الْعُرُوجِ فِي السَّمَاءِ، فَاسْتَمَرَّ الْمُشْرِكُونَ طَوَالَ نَهَارِهِمْ فِي ذَلِكَ الْبَابِ يَصْعَدُونَ، فَيَنْظُرُونَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لَمَّا آمَنُوا، وَلَقَالُوا لَقَرَطُ عِنَادِهِمْ وَجُحُودِهِمْ: إِنَّمَا سُدَّتْ أَبْصَارُنَا وَتُعِنُّنَا مِنَ الْإِبْصَارِ، وَمَا نَرَى إِلَّا تَخْيِيراً لَا حَقِيقَةَ لَهُ، بَلْ مَا نَرَاهُ مِنْ أَشْيَاءَ عَجِيبَةٍ عَظِيمَةٍ هُوَ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ السِّحْرِ الَّذِي سَحَرْنَا بِهِ مُحَمَّدًا، وَلَيْسَ آيَةً حَقِيقَةً مُعْجَزَةً تَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقّاً وَصَدَقاً.



١٦ - ونؤكد لكم أننا خلقنا في السماء الدنيا، منازل وطرقاً تسير فيها الكواكب، وزينا السماء الدنيا بالشمس والقمر والنجوم للمعتبرين المُستدلين بها على وحدانية خالقها وصانعها.

١٧، ١٨ - وحفظنا السماء من كل شيطان ملعون مَطرود من رحمة الله. لكن من استرق السمع، وخطف الخطفة اليسيرة من كلام أهل الملاء الأعلى، فلحقه وتبعه بسرعة وقوة شعلة من نار ساطع ظاهراً للمُبصرين، يحول بينه وبين خطف المسموع من الملاء الأعلى.

١٩ - والأرض بسطناها للاستقرار عليها، ومددناها بالخيرات والمعادن والعناصر النافعة للعباد، ووضعنا فيها جبلاً ثوابت تثبت قشرتها حتى لا تتحرك وتضطرب، وأثبتنا في الأرض من أنواع النبات ما هو مقدّر بمقدار معين حسبما تقتضيه الحكمة.

٢٠ - وجعلنا لكم في الأرض ما تعيشون به مدة حياتكم في الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس، وما تتوصلون به إلى ذلك من المكاسب والتجارات، وجعلنا لكم في الأرض من تحبون أن تكونوا لكم مملوكين، أو تابعين من أولاد، أو أزواج، أو خدم، تجب عليكم النفقة عليهم، إلا أنكم لستم لهم برازقين، وإنما المُتكفل برزقهم خالقهم رب العالمين، فلا تصوروا أنكم ينافقكم عليهم ترزقونهم، بل إننا نحن نرزقهم عن طريقكم؛ لنمتحنكم فيما آتيناكم.

٢١ - وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نوجد شيئاً من تلك المقدورات إلا بمقدار معين تقتضيه الحكمة، ونستدعيه المشيئة.

٢٢ - وأرسلنا الرياح لواقحٍ للسحاب، بما تحمل من جسيمات، تكون بمثابة التلقيح لبخار الماء في السحاب، إذ تتكوّن حولها

حبّات المطر أو الثلج أو البرد، فتقلّت بالكثاف، فغويت جاذبية الأرض على اجتذابها إليها، فنزلت ماءً عذباً سائغاً للشاربين من الإنسان والحيوان والنبات، وجرت به السيول والأنهار، وخزناً الكثير منه في باطن الأرض وتجويفاتها، وما أنتم - أيها الناس - بخازنين له في مخازنه في الأرض.

٢٣ - وإنّا لنحن لا أحد غيرنا في الوجود كلّ نُحيي من نشاء أن نجعله ذا حياة، ونميت من نشاء أن نميته من الأحياء، وإنّا نحن نُملك ذا الحياة ما ينتفع به في حياته، فإذا أمتناه لم تبق له ملكية لشيء، ونحن الوارثون؛ لزوال مُلك كلّ مالكٍ عمّا مَلَكناه، وبقاء جميع ذلك لنا.

٢٤ - ونقسم مؤكدين لكم أننا علمنا المُستقدمين الذين تقدّموا إلى الآخرة بالموت، ومَن هم أحياء، ومَن لم يأتوا إلى ظروف الحياة الدنيا بعد، وسيأتون إليها بمقتضى تقدير الله وقضائه السابق إلى آخر حياة الناس في الأرض.

٢٥ - وإنّ ربك يميّث الكلّ، ثم بعد ذلك يحشر الأولين والآخرين على ما ماتوا عليه؛ للحساب والجزاء على ما قدّموا في الحياة الدنيا من خير أو شر، إنّه سبحانه حكيمٌ في تدبيره، عليمٌ لا يخفى عليه شيء.

٢٦ - ونؤكد لكم أننا خلقنا آدم عليه السلام من طين يابس إذا نُقر عليه سُمِعَ له صوت، وهذا الطين اليابس من ترابٍ مُفرّق الأجزاء، بلّ بالماء حتى اسودّ وتغيّر ريحه، ثم صوّر فيه تمثال إنسان أجوف.

٢٧ - وخلقنا أبا الجنّ، وإبليس من ذرّيته من قَبْلِ خلق آدم عليه السلام من ريح حارّة لا دخان لها، تنفذ في مسام البدن.

٢٨ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقّي - حين قال ربك للملائكة، ولَمَن كان مُندساً فيهم ولا حقاً بهم، وهو إبليس: إني سأخلق بشراً من طين يابس إذا نُقر عليه سُمِعَ له صوت، وهذا الطين اليابس من طين أسود متغيّر مُصوّر.

٢٩ - فإذا عدلت خلقه وأتممت تقويمه، ونفخت فيه روحاً من جنس الروح الذي هو خلقٌ من خلقي، ومِلْكٌ من ملكي، ففَعُوا لآدم ساجدين، سجودَ تحيةٍ وتكريم، لا سجودَ عبادة.

٣٠، ٣١ - فسجد الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم كلهم أجمعون دفعةً واحدة، لكن إبليس الذي كان من الجنّ، مُندساً بينهم، مُستتراً بأعمال المنافقين، مُبتغياً العلوّ في صفوف الملائكة، امتنع تكبراً أن يكون مع الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم، فسجدوا.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِ ﴿١٦﴾
وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ
فَاتَّبَعَهُ، وَشَهِابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا
مَعِيشٌ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَعِنْدَنَا
خَزَائِنُهُ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ
لَوْحٍ فَاثِرٍ لِنَأْتِيَنَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَا كُمُوهَ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ
بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْبَلَاءَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ
السُّمُورِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ
صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ
رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾

٣٢ - قال الله تعالى لإبليس مُترَفَقاً بمساءلتيه: يا إبليس أيُّ عُذْر لك حَمَلَك على أن لا تكون ساجداً مع الساجدين من ملائكة الملائكة الأعلى؟

٣٣ - قال إبليس في كبر ووقاحة: لم أكن لأَسْجُدَ لبشرٍ خلقته من طين يابس كان طيناً أسود متغيراً مُصَوِّراً.

٣٤، ٣٥ - قال الله تعالى له: فاخْرُجْ من الجنة، فإنك مطرود من منازل الملائكة الأعلى، وإن عليك اللعنة والبُعد من رحمتي إلى يوم القيامة، ثم تزداد معها بعد ذلك عذاباً مستمراً لا انقطاع له.

٣٦ - قال إبليس مُعْتَرِفاً لله عز وجل بربوبيته: رب إنك حكمت عليّ بالإخراج والرجم واللعنة إلى يوم الدين، فأمهلني حَيّاً إلى يوم يُعْثُونَ.

٣٧، ٣٨ - فأجابه الله سبحانه إلى بعض طلبه، وقال له: فإنك من الأحياء المؤخرين إلى الوقت الذي يموت فيه جميعُ الخلائق، بعد النفخة الأولى، وذلك الإمهال زيادةً له في بلائه وشقائه وعذابه.

٣٩، ٤٠ - قال إبليس: رب بسبب ما حكمت عليّ من العواية بعد ابتلائي بأمر السجود ومعصيتي؛ لأَحْسُنُ لهم في الأرض حُب الدنيا ومعاصيك، ولأَصِلُنَّهُمْ أَجْمَعِينَ بإلقاء الوسوسة في قلوبهم، إلا عبادك المؤمنين الذين أَخْلَصْتَهُمْ وَاضْطَفَيْتَهُمْ بتوفيقك لتوحيدك وعبادتك، فهؤلاء لا أستطيع أن أغويهم وأبعدهم عن صراط الحق والهدى.

٤١ - قال الله تبارك وتعالى لإبليس اللعين: إني قَدَرْتُ وقضيتُ لمن أضعهم في الحياة الدنيا موضع امتحان، صراطاً اعتقادياً وعملياً، أمرهم أن يسلكوه في رحلة امتحانهم، يُؤْذِي بهم إلى كرامتي ورضواني، وهذا الصُّراط عليّ بيانه لكل الذين أضعهم موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وعليّ المكافأة على الالتزام

قَالَ يٰإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ وَمِنْ صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ مَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَذْخَلُوهَا يَسْلَوْنَ فِيهَا آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾

بسلوكه.

٤٢ - وقال الله عز وجل لإبليس: إن عبادي ليس لك عليهم تَسَلُّطٌ وقُدرة على الإغواء، تُؤَثِّرُ عليهم به تأثيراً جَبْرِيّاً، تُلْغِي به إراداتهم الحرة، فهم محميون منك ومن جنودك بحمايتي لهم، إلا من انقاد لك بإراداتهم الحرة من الضالين والمشركين.

٤٣، ٤٤ - وإن جهنم لموعِد إبليس وأتباعه أجمعين، لجهنم سبعة أبواب، بحسب أنواع الجرائم التي ارتكبوها في الحياة الدنيا، فلكل باب من أبواب جهنم جزءٌ منهم مَقْسُومٌ له، وكل جزء منهم يدخل من الباب المُخَصَّص له من أبوابها السبعة.

٤٥ - إن الذين اتَّقُوا الشُّرْكَ والمعاصي بالإيمان الصحيح والعمل الصالح في بساتين متعدّدة، تحتوي على أشجار وثمار وزروع وقصور، وعيون تجري أنهاراً عظمى في الجنّات.

٤٦ - تقول لهم الملائكة عند استقبالهم: ادْخُلُوا الجنة مصحوبين بسلام تحيةً تَكْرِيمِيَّةً لكم، وحالة كونكم آمنين دوماً من الموت ومن جميع الآفات.

٤٧ - وجذبنا واقتلنا ما في صدورهم من حقدٍ وحسدٍ وبغضاء، حالة كونهم إخواناً مُتَوَادِّينَ مُتَحَابِّينَ في الجنة، على مجالس رفيعة عالية مُهيأة للسرور، يقابل بعضهم بعضاً، ويتحدثون بما يَسُرُّهم ويزيد من نعيمهم.

٤٨ - لا يَمَسُّهُمْ في الجنة تَعَبٌ؛ لأنهم لا يكدحون للحصول على مطالبهم، بل تأتيهم عَفْواً صَفْواً، وهم خالدون مُنْعَمُونَ في الجنة أبداً بلا نهاية، وما هم منها بِمُخْرَجِينَ.

٤٩، ٥٠ - أخبر وأعلم - يا رسول الله - يا كل دافع إلى الله - الخير الهام جميع عبادي: أنني أنا كثير السَّتر لذنوب المؤمنين التائبين، الدائم الرحمة لهم، وأن عذابي هو العذاب المؤلَّم الموجه لغير المؤمنين التائبين.

٥١ - وأخبر - يا رسول الله - الخير الهام مُشْرِكِي مكة المتعتئين عن قصة ضيف إبراهيم، من الملائكة الذين نزلوا عنده ضيوفاً بصُور آدمية، وبشروه بالولد، وبهلاك قوم لوط.

٥٢ - وأخبرهم - يا رسول الله - الخبر الهام، وقت دخول الملائكة على إبراهيم عليه السلام، فقالوا له: نُسَلِّمُ سَلاماً. قال إبراهيم: إنا منكم خائفون؛ لأنهم لم يأكلوا العجل السمين، الذي قرّبه إليهم، ولم يخطر بباله أنهم ملائكة لا يأكلون الطعام، إذ كان مظهرهم لا يُشعر بذلك.

٥٣ - قال الرسل من الملائكة لإبراهيم عليه السلام، وهو يتصور أنهم ضيف من البشر: لا تَخَفْ مِنَّا، إنا نُبَشِّرُكَ بولد ذكرٍ غلام في صغره، عليم في كبره، سيأتيك من زوجك «سارة»، وهو إسحاق عليه السلام، فنحن ملائكة رسل مرسلون من ربك، لتُقدِّم لك هذه البشارة.

٥٤ - فلما بَشَّرُوهُ بالولد عَجِبَ إبراهيم من كبره وكبر امرأته. قال: أَبَشِّرْتُمُونِي بالولد مع مسِّ الكبر لي والشيخوخة المضعفة عادة عن الإنجاب، فبأي سبب لدي أملكه، يكون من آثاره أن أنجب ولداً فأنتم تُبَشِّرُونَنِي به؟!

٥٥ - قالت الملائكة لإبراهيم: بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ الثابت الذي قضاه الله، بأن يخرج منك ولداً ذكراً تكثر ذُرِّيَّتُهُ، وهو إسحاق، فلا تكن من الآيسين من الخير.

٥٦ - قال إبراهيم: لا أَحَدٌ يَنَاسُ من رحمة ربه إلا الضَّالُّون الجاهلون بقدرة الله على ما يشاء، وخلق ما يشاء.

٥٧ - قال إبراهيم عليه السلام للرسل من الملائكة: فما شأنكم، وما الأمر الذي جِئْتُمْ به - أيها المرسلون - سوى ما بَشِّرْتُمُونِي من الولد؟
٥٨ - قالت الملائكة: إنا أرسلنا من ربنا إلى إهلاك قوم مجرمين، يستحقون الإهلاك الشامل.

٥٩ - إلا لوطاً وأتباعه من أهل دينه، فإننا لا نُهلِكُهم، بل نُنجِّيهم أجمعين من الهلاك الذي نُنزِّلُه بقومه المجرمين.

٦٠ - إلا امرأة لوط قَضَيْنَا لَهَا لَيَمْنَ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ الْمُهِلِّكِينَ مع قومها، فذهبت من الحياة الدنيا مع الذاهبين.

٦١، ٦٢ - فلما دخلت الملائكة على لوط على صُورِ شباب مُرْدٍ حسان. قال لهم لوط عليه السلام: إنكم قومٌ مُنْكَرُونَ لا أعرفكم، ولا لأي غرض دخلتم عليّ؟

٦٣ - قالت الملائكة: لا تَخَفْ، بل جِئْنَاكَ بِالْعَذَابِ الذي كان قومك يشكون أنه نازل بهم.

٦٤ - وَأَتَيْنَاكَ بِالْيَقِينِ الذي لا شك فيه، وإنا لَصَادِقُونَ فيما أخبرناك به من هلاكهم.

٦٥ - فَمِيزَ بأهلك المؤمنين في آخر الليل، مُبْتَدِئاً بهم عن أرض «سدوم»، وأتبع آثار أهلك، وسيز خلفهم، لتطلع عليهم وعلى أحوالهم، وأسرعوا في السَّيْرِ، ولا تهتموا بما خلفكم، ولا يلتفت منكم أحدٌ لينظر ما سيحلُّ بأرض «سدوم»، وامضوا إلى حيث أمركم الله؛ لتكونوا في مكان أمين.

٦٦ - وَأَمْضَيْنَا وَأَنْهَيْنَا إلى لوط عن طريق الوحي إليه ذلك الأمر المهل الخاطر الذي حَكَمْنَا به على قومه وفرغنا منه، أن هؤلاء القوم يُسْتَأْصَلُونَ عن آخرهم بالعذاب حالة كونهم داخلين في وقت الصُّبْح.

٦٧ - وجاء أهل مدينة «سدوم» يُبَشِّرُ بعضهم بعضاً بوجود شَبَّانٍ مُرْدٍ حسانٍ في دار لوط، ويتجدد لهم الفرح والسرور بهذه الغنيمة السهلة، سعيًا للذة الشاذة الفاجرة.

٦٨ - ولما وصل أهل المدينة إلى دار لوط، واجتمعوا حولها، وألحوا عليه أن يُمكنهم من ضيوفه، فاستعصم عليه السلام، وأبى أن يُمكنهم من ضيوفه، وقال لهم: إن هؤلاء ضيفي، وهم في حمايتي، فلا تَقْضَحُونِي بين الناس، إذ يُشَاعُ أن لوطاً مَكْنٌ كبراء فساق «سدوم» من فعل الفاحشة في ضيوفه المُرد الحسان.

٦٩ - وقال لهم: خافوا الله في أمرهم، ولا تُذِلُّونِي بالتعرض بالسوء لهم.

٧٠ - قال قوم لوط الذين جاؤوا إليه: أو لم نَنْهَكَ عن أن تُضَيِّفَ أحداً من العالمين؟ فكيف تستقبل في دارك ضيوفاً غرباء؟

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا نَؤْجِلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ نُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِيطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُتَّحِرُونَ أجمعين ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ وَقَدَرْنَا إِنَّا لَنَبِينَ الْقَنِينِ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَآثِرِكُمْ وَأَنْتُمْ تَبْتَغُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَانَ دَائِرَهُنَّوَلَاءَ مَقْطُوعٍ مُّصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءَ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾

٧١ - قال لوط عليه السلام مُستعظفاً قومه الذين قَصَدُوا أضيافه مُحرّجاً لهم بعرض بناته عليهم: هؤلاء بناتي، إن كنتم فاعلين ما أعرضه عليكم. وكان يعلم من عاداتهم أنهم لا يعتدون على نساء لا حقّ لهم بمعاشرتهنّ إلا عن طريق الزواج، حفاظاً على أنسابهم. فأعرضوا عن عرضه كما سبق في الآية (٧٩) من سورة هود.

٧٢ - وَحَيَاتِكَ - يا رسول الله -: إن قوم لوط في شهوتهم العارمة، وشدة غلّتهم التي أزال عقولهم وتمييزهم يتردّدون ويتحيرون مُنطمسي البصائر.

٧٣، ٧٤ - فقبضت الصّيحة العظمى المهلكة المميّنة عليهم قبضة شديدة بعد إشراق الشمس، فقلّينا قُراهم، فجعلنا عاليها سافلها، وسافلها عاليها، وأمطرنا عليهم جِجَارَةً من طين مُتصلّب.

٧٥، ٧٦ - إن في ذلك العذاب الباقية آثاره في أرضهم لعلامات مُتعدّدة للمتفكرين بتعمّق، استدلالاً بسمات الأشياء وذوات الدلالات على ما ورّأها من خفيا، وإن قرى قوم لوط المهلكة التي غمرها البحر الميت، وآثار ما أنزل الله بهم من عذابه وغضبه لفي طريق واضح مقيم ثابت، يراها المسافرون المارون بها.

٧٧ - إن في ذلك الحَدَث العظيم الذي جرى لقوم لوط ولقُراهم، لآية من آيات الله الجزائية العقابية، ينتفع بدلالاتها المؤمنون بما أنزل الله على رسوله ﷺ.

٧٨ - وقد كان أصحاب المدينة المُلتقّة الشجر - وهم قوم شُعيب - لظالمين بكفرهم وجرائمهم الكبرى، استحقّوا الإهلاك بسبب ظلمهم الشنيع.

٧٩ - فانتقمنا من قوم شُعيب بالعذاب، بسحابة كالظُلّة التجوّأ إليها، فبعث الله عليهم ناراً أحرقتهم جميعاً. وإن قرى قوم لوط، ومساكن قوم شُعيب لبطريق واضح مُستبين لمن مرّ بهما.

٨٠ - ونقسم مؤكّدين لكم أنه كَذَب أصحاب «وادي الحجر» - الذي كانت تسكنه قبيلة ثمود بين الشام والحجاز - المرسلين؛ فقد جاءهم عدّة رسل، كان صالح آخرهم إرسالاً إليهم، وآتيناهم آياتنا البيانية لتعريفهم بواجباتهم تجاه ربهم، وآياتنا الإعجازية لإثبات صدق الرسل في رسالاتهم، فكانوا عن آياتنا البيانية والإعجازية مُعرضين غير مُلتفتين، وكانوا يَتَجَتَّحُونَ صخوراً من الجبال، فيَتَخَذُونَ منها بُيُوتاً ليسكنوها آمنين من أن تنهدم، فقبضت الصّيحة العظيمة المهلكة عليهم قبضة شديدة وَفَتْ الصُّبْح، فما كفاهم فصرف عنهم عذاب الله الذي نَزَلَ بهم: ما كانوا يكسبون من أموال، ويتحصّنون به من حصون، ووسائل قوّة ودفاع وأمن.

٨٥ - وما خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وما بينهما عبثاً، بل خلقنا كل ذلك مُتّصفاً بالحقّ الذي لا باطل فيه، وإن الساعة التي يكون بعدها يوم الدين لآتية لا مَحَالَة؛ لِيُجَازِيَ الْمُحْسِنُ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءُ بِإِسَاءَتِهِ، فَأَعْرِضْ - يا رسول الله - عن المشركين، وتجاوز عما يفعلونه، ولا تقابل الأذى بمثلها، ولا تظهر علامات الغضب على وجهك أو كلامك.

٨٦ - إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي اصْطَفَاكَ بالنبوة هو الخلاق لكل شيء، المحيط بكل شيء علماً.

٨٧ - ونقسم مؤكّدين لك أننا آتيناك - يا رسول الله - فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات، جامعة في طياتها لكلّيات الدين الكبرى، هي بمثابة عنوانات عامات للدين الذي اصطفاه الله لعباده، جاء بيانها التفصيلي في سائر سور القرآن، وآتيناك القرآن العظيم.

٨٨ - لَا تَنْظُرْ نَظْرَ تَنَمُّه - يا رسول الله - إلى ما متّعنا به أصنافاً من الكفّار من متاع الدنيا وزينتها؛ لامتحانهم واختبارهم بها، فإنه مُستَحَقَّرٌ بالنسبة لما آتيناك من عندنا، ولا تحزن على كفرهم، بسبب تعريضهم أنفسهم لعذاب جهنم خالدين فيها إذا لم يؤمنوا، وتواضع وألّن جانبك للمؤمنين، وارفق بهم، وأجطهم بالحنان والرحمة والرعاية والحفظ.

٨٩، ٩٠ - وقل - يا رسول الله - للمُعاندين المُصرّين على باطلهم الذين سبق أن دعوتهم وعالجتهم بوسائل الإقناع: إني أنا النذير بالعقاب لمن عصاني، الموضح لكم ما أنذركم به، بجلاء، أنذركم بعذاب الله يوم الدين في نار جهنم إنذاراً مُمَثِّلاً لما أنزل من إنذارٍ على المُقسّمين، من اليهود والنصارى، الذين جرّؤوا كتابه، فقبلوا منه ما وافق أهواءهم، وحذفوا أو أخفّوا منه ما خالف أهواءهم.

قَالَ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي إِنْ كُنْتُ فَعَلِينِ ﴿٧١﴾ لَعَرَّكَ أَنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّالْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لِلْأَسْبَلِ مُقِيمِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَآمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَعَآيِنْتَهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُجِتَّخُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّصْحَ الْحَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَتَدَنَّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

٩١ - وهم الذين جَعَلُوا الْقُرْآنَ أَجْزَاءً وَأَعْضَاءً مُفَرَّقَةً، فَجَعَلُوا مَا يُوَافِقُ كِتَابَهُمْ حَقًّا، وَمَا يَخَالِفُهُ بَاطِلًا.

٩٢، ٩٣ - قُورَيْبُكَ - يا رسول الله - لَنَسْأَلَنَّ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَؤُلَاءِ الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَزَّوْا الْقُرْآنَ أَجْزَاءً، فَأَمَنُوا بَبَعْضٍ، وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، عَمَّا كَانُوا يَقُولُونَهُ فِي الْقُرْآنِ، وَيَعْمَلُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي.

٩٤ - فَأَعْلَنَ - يا رسول الله - الدَّعْوَةَ إِعْلَانًا عَامًّا، وَارْفَعَ صَوْتَكَ بِمَا تُؤْمَرُ بِتَبْلِيغِهِ، وَإِنْ شِئْتَ ذَلِكَ عَلَى بَعْضِ الْقُلُوبِ فَانْصَدَعْتَ، وَأَعْطِ عَارِضَ وَجْهِكَ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ الْمَكَابِرِينَ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، وَوَجْهَ عَنَانِكَ لِأَخْرِينَ غَيْرِ مَيُؤُوسٍ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ.

٩٥، ٩٦ - لَا تَخَفْ أَحَدًا غَيْرِي، فَأَنَا كَافِيكَ وَحَافِظُكَ مِمَّنْ عَادَاكَ، فَإِنَّا تَوَلَّيْنَا إِهْلَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ مِنْ رُؤَسَاءِ كُفَرَارِ قُرَيْشٍ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، افْتِرَاءً عَلَيْهِ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذَا نَزَلَ الْعَذَابُ بِهِمْ صَدَقَ إِنْذَارَاتُ الرَّسُولِ لَهُمْ.

٩٧، ٩٨ - وَتَوَكَّدْ لَكَ - يا رسول الله - أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ، بِسَبَبِ مَا يَقُولُونَ مِنَ الْهُزْءِ وَالْقَوْلِ الْفَاحِشِ، فَافْتَعْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا نَابَكَ مِنْ ضِيقِ الصُّدْرِ بِتَنْزِيهِهِ سُبْحَانَهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِصِفَاتِ كَمَالِهِ، وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ الْخَاضِعِينَ الْمُتَذَلِّلِينَ؛ يَكْفِكَ إِيْذَاءَاتِ الْكُفْرَةِ، وَيَكْشِفُ الْغَمَّ عَنْكَ.

٩٩ - وَتَابِعْ عِبَادَتَكَ لِرَبِّكَ - يا رسول الله - فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِكَ وَمُدَّةِ حَيَاتِكَ، وَمِنْهَا قِيَامُكَ بِوِطَائِفِ رِسَالَتِكَ الَّتِي حَمَلْتَكَ رَبُّكَ أَعْبَاءَهَا، وَاضْطَّقَكَ لَهَا مِنْ دُونِ سَائِرِ خَلْقِهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ يَقِينٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَنْتَ فِي عِبَادَةِ رَبِّكَ.

سُورَةُ الْفَتْحَةِ

سُورَةُ الْفَتْحَةِ

سُورَةُ الْفَتْحَةِ

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿١﴾ قُورَيْبُكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٤﴾ إِنَّا كُنْهِتُكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٧﴾ فَسَيَحْجَمِدُرْكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩﴾

سُورَةُ الْفَتْحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنَّهُ أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

١ - قَدَّرَ اللَّهُ وَقَضَى وَحَدَّدَ وَقَتًا قَرِيبًا لِعِقَابِكُمْ - أَيُّهَا الْكُفَّارُ - عَلَى كُفْرِكُمْ وَمَعَانِدَتِكُمْ لِرَسُولِ رَبِّكُمْ، فَلَا تُكْذِبُوا بِهِ، وَلَا تَطْلُبُوا تَعَجِيلَهُ قَبْلَ أَوَانِهِ، فَإِنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ. تَنْزَهُ اللَّهُ وَتَعَظَّمَ بِدَنَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ وَصِفَاتِهِ الْحَمِيدَةِ عَنِ الشُّرْكِ، وَعَمَّا يَجْعَلُ الْمُشْرِكُونَ بِهِ مِنْ شُرَكَاءَ لَهُ.

٢ - يُنَزِّلُ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ مُصْحُوبَةً بِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِتَعَالِيمِ الدِّينِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَصْطَفِيهِ مِنْ عِبَادِهِ لِلنَّبِيِّ وَالرَّسَالَةِ، وَمُضْمُونِ الرِّسَالَةِ: أَنْ يُلْغُوا أَقْوَامَكُمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَلَا تَشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئًا، وَأَنْذِرُوهُمْ بِعَذَابِ خَالِدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَهَنَّمَ إِذَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ شَرِيكًا، وَمَرُومَهُمْ نَاصِحِينَ لَهُمْ بِأَنْ يَقْتُوا عَذَابَ رَبِّهِمْ بِطَاعَتِهِ.

٣ - خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَشْيَاءَ وَأَحْيَاءَ مُتَّصِفًا بِالْحَقِّ الثَّابِتِ، وَلَمْ يَخْلُقْهُمَا بَاطِلًا وَلَا عَبَثًا، يَدُلُّ خَلْقُهُ لِهَمَا عَلَى أَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، تَنْزَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عُلُوًّا كَبِيرًا عَمَّا يُشْرِكُ الْمُشْرِكُونَ بِرَبُّوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، فَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً اتَّخَذُوهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ.

٤ - خَلَقَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ مَهِينَةٍ حَقِيرَةٍ، وَمَرَّ فِي أَطْوَارِ خَلْقِهِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ، فَلَمَّا اكْتَمَلَ فَاجَأَ النَّازِرَ إِلَيْهِ الْمُتَفَكِّرَ بِخَلْقِهِ بِأَنَّهُ مُخَاصِمٌ وَمُجَادِلٌ بِالْبَاطِلِ، مَبِينٌ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ حُجَجِهِ الْخُصَامِيَّةِ.

٥ - وَالْأَمْوَالُ الرَّاعِيَّةُ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ خَلَقَهَا لِمَصَالِحِكُمْ وَحَاجَاتِكُمْ. لَكُمْ فِيهَا - أَيُّهَا النَّاسُ - مَا تَسْتَدْفِنُونَ بِهِ مِنَ اللِّبَاسِ الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الْأَصْوَابِ وَالْأَوْبَارِ وَالْأَشْعَارِ، وَلَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ مَنَافِعُ أُخْرَى فِي النَّسْلِ وَدُرِّ اللَّبَنِ وَالرُّكُوبِ وَالْحَمْلِ عَلَيْهَا، وَمِنْ لَحُومِهَا وَشَحُومِهَا وَدَهْنِهَا، وَشَتَقَاتِ أَلْبَانِهَا تَأْكُلُونَ.

٦ - وَلَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ زِينَةٌ تَدْخُلُ السَّرُورَ عَلَيْكُمْ حِينَ تَسْتَرِيحُونَ مِنْ تَعَبِ الرَّعْيِ، وَحِينَ تَدْخُلُونَ فِي وَقْتِ الرُّوْحِ، مِنْ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى اللَّيْلِ، وَتَرْدُونَ أَنْعَامَكُمْ بِالْعَشِيِّ مَلَأَى الْبَطُونَ، حَافِلَةً الضُّرُوعِ إِلَى مَرَاجِحِهَا حَيْثُ تَأْوِي إِلَيْهِ بِاللَّيْلِ، وَحِينَ تُخْرَجُونَ الْأَنْعَامَ فِي الصَّبَاحِ إِلَى الْمَرْعَى.

٧ - ومن نِعَم الله عليكم - أيها الناس - أن جعل بعض الأنعام مُسَخَّرَةً لحمل الأحمال الثقيلة ومتاع السَّفر وما يحتاجون إليه إلى بلد غير بلدكم، لم تكونوا بالغي ذلك البلد الذي تَقْصِدونه إلا بمشقة الأنفس وتعبها الشديد، إنَّ ربكم لشديد الرحمة بكم دائم الرحمة لكم، ومن آثار رأفته ورحمته بعباده: إنعامه عليهم بجلال النعم ودقائقها، وتعهدهم بعنايته وجوده، وتسخير المستخرات والمكتشفات والمركبات الأرضية والجوية والبحرية.

٨ - وخلق الله سبحانه لكم - أيها الناس - الخيل والبغال والحمير؛ لأجل أن تركبوها، وجعلها زينة مع المنافع التي فيها، ويخلق لكم مستقبلاً من وسائل الركوب في البر والبحر والجو ممَّا لا علم لكم به قبل أن يخلقه لكم ويلهمكم تعلمه؛ لتزدادوا إيماناً به وشكراً له.

٩ - وعلى الله بيان طريق الهدى المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام، بنصب الدلائل عليه، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ومن النفوس مَنْ يلتزم بمطلوب الله من عباده، ومنها نفوس جائرة ظالمة لا تلتزم بمطلوب الله منها، ولو شاء الله - أيها الموضوعون في الامتحان في الحياة الدنيا - لسلبكم إراداتكم الحرة، وَلَجَعَلَكُمْ مَجْبُورِينَ لا اختيار لكم، مَهْدِينَ كَالْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنْ سَلَبَكُمْ إِرَادَاتِكُمُ الْحُرَّةَ يُلْغِي حِكْمَةَ ابْتِلَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَلَا تَزْعَمُوا أَنْكُمْ مَجْبُورُونَ، وَلَا تَطْلُبُوا مِنْ اللَّهِ أَنْ يَهْدِيَ بِالْجَبْرِ الصَّالِينَ الْكَافِرِينَ.

١٠ - واللَّهُ الَّذِي خَلَقَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً حُلُوءًا طَهُورًا نَافِعًا، لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ شَرَابٌ تَشْرَبُونَهُ، وَلَكُمْ - أيها الناس - مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ شَجَرٌ يَكُونُ الْمَاءُ سَبَبًا فِي نَبَاتِهِ وَنَمَائِهِ، فَأَنْتُمْ فِيهِ تُطْلِقُونَ أَنْعَامَكُمْ سَائِمَةً تَرعى مِنْ أَشْجَارِ الْأَرْضِ وَنَبَاتِهَا.

١١ - يُثَبِّتُ اللَّهُ لَكُمْ بِذَلِكَ الْمَاءِ الْحَبَّ الَّذِي يُفْتَاتُ بِهِ، وَالزَّيْتُونَ،

والنخيل، والأعناب، ومن سائر الثمرات. إنَّ في ظاهرة المطر، وما فيه من شراب للناس، وإنبات أنواع الثمار لعلامة دالة على قدرتنا وشمول علمنا، وعظيم حكمتنا لقوم يتفكرون بدلائل قدرتنا، وعظيم نعمنا على عبادنا.

١٢ - وذُلِّلَ لَكُمْ اللَّيْلُ لِرَاحَتِكُمْ، وَالنَّهَارُ لِمَعَاشِكُمْ، وَذُلِّلَ لَكُمْ الشَّمْسُ ضِيَاءً، وَالْقَمَرُ نُورًا، وَلِمَعْرِفَةِ السَّنِينَ وَالْحِسَابِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ. وَالنَّجُومُ فِي السَّمَاءِ مَقْهُورَاتٌ مُذَلَّلَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهَا التَّكْوِينِيِّ، يُصَرِّفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ التَّسْخِيرَ لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ، لَعَدَدًا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالِّاتِ عَلَى صِفَاتِ جَلِيلَاتٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ، يَتَوَصَّلُ لَهَا الَّذِينَ يَعْقِلُونَ عَقْلًا عِلْمِيًّا وَإِرَادِيًّا، فَيَدْرِكُونَ دَلَالَاتِ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَيُوجِّهُونَ إِرَادَاتِهِمْ لِلْعَمَلِ بِمَا تَقْتَضِيهِ هَذِهِ الْمَعَارِفُ الَّتِي تَوْصَلُوا إِلَيْهَا.

١٣ - وما خلق لكم في الأرض، ونشر فيها عن طريق الذرِّية، وسَخَّرَ لَأَجْلِكُمْ مِنَ الدُّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَشْجَارِ وَالثَّمَرِ مُخْتَلَفًا أَلْوَانَهُ وَخَصَائِصَهُ وَأَصْنَافَهُ وَأَنْوَاعَهُ فِي الْخَلْقَةِ وَالْهَيْئَةِ وَالْكَفِيَّةِ، إِنَّ فِي اخْتِلَافِ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَلْوَانِهَا مَعَ كَثَرَتِهَا لآيَةً جَلِيلَةً دَافِعَةً لِقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ مِنْكُمْ، بَأَن يَعْمَلُوا مَعَ كُلِّ تَذَكُّرٍ لِلَّوْنِ مِنْ أَلْوَانِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ مَا يَقْتَضِيهِ مِنْ وَاجِبِ شُكْرِ اللَّهِ عَلَى نِعَمِهِ، وَوَاجِبِ طَاعَتِهِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

١٤ - والله الذي ذُلِّلَ لَكُمْ الْبَحْرُ؛ لِتَأْكُلُوا مِمَّا تَضْطَادُونَ مِنْ سَمَكِهِ لَحْمًا غَضًّا لَيِّنًا، وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُ زِينَةً تَلْبَسُونَهَا وَيَلْبَسُهَا إِنَّاكُمْ كَاللُّؤْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ، وَتَرَى - أيها الرائي - الشُّفْنَ جَوَارِي فِي الْبَحْرِ، تَشْقُ الْمَاءَ شَقًّا، وَتَرْكَبُونَهَا لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ الْأَرْبَاحَ بِالتَّجَارَةِ فِي الْبَحْرِ، وَرَغْبَةً مِّنَا فِي أَنْ تَشْكُرُوا إِنْعَامَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ؛ لِتَنْجُوا مِنْ عَذَابِ الْكَافِرِينَ الْجَاهِدِينَ، وَلِتَنَالُوا ثَوَابَ الشَّاكِرِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّينِ.

وَتَعْمَلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا يَشِقَّ
الْأَنْفُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّوُّوفٌ رَحِيمٌ ٧
وَالْحَمِيرَ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨
وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ هَدَىٰكُمْ
أَجْمَعِينَ ٩ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ
شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ يُثَبِّتُ لَكُمْ
بِهِ الزَّيْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
الشَّجَرِ أَنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١
وَسَخَّرَ لَكُمْ مِنْ أَلْتِهَا رَوْحَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
١٢ وَمَا ذَرَأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ١٣ وَهُوَ الَّذِي
سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا
مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٤

١٥ - وألقى في أعماق الأرض جبلاً ثوابت راسيات تثبت قشرة الأرض؛ منع أن تميل بكم الأرض وتضطرب بسبب الضغوط الغازية بباطن الأرض، وشق في الأرض أنهاراً، وجعل لكم في سطح الأرض طرقاً مختلفة تسلكونها في أسفاركم، وتصرفكم في حوائجكم، رغبة في أن تصلوا بسلك تلك الطرق إلى ما تريدون الوصول إليه فلا تضلّون.

١٦ - وجعل لكم في الأرض علامات تُميّز بعضها عن بعض، تهتدون بها في أسفاركم، وجعلنا في نجوم السماء علامات توصل إلى معرفتها أولو النظر العلمي، فهم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر، لتحديد اتجاهاتهم، والطرق التي يسلكونها. وهذه الآية أصل لمرعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة والطرق.

١٧ - أفمن يخلق هذه المخلوقات البديعة المبرئة بالعيان، وهو الله تعالى، كهذه الأصنام العاجزة التي لا تقدر على شيء؟ أفلا تضعون هذه الحقيقة في مواضع تذكركم الواعي، فتعرفون فساد ما أنتم عليه، فتركوا عبادة هذه الجُمادات التي لا تخلق شيئاً، وتصرفوا العبادة لله سبحانه خالق هذه الأشياء كلها.

١٨ - وإن حاولوا عدّ مفردات نعم الله عليكم لا يستطيعون إحصاءها، لخفاء معظمها عليكم، ولكثرتها كثرة تفوق استطاعتكم على الإحصاء؛ إن الله كثير الشّر لتقصيركم في القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم، واسع الرحمة بكم حيث وسّع عليكم النعم، ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصي.

١٩ - والله سبحانه يعلم كلّ أعمالكم، سواء ما تخفونه منها في نفوسكم وما تظهرونه لغيركم، لا تخفى عليه خافية، وإن دُت وخفيت.

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَنَّا بِكُمُ الْأَرْضَ وَمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَأَفْمن يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوتَ غَيْرِ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِنْ هَكَأِذِهِمُ اللَّهُ وَحْدًا فَلَاذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِيبُكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

٢٠ - والذين يُعبّدون من دون الله كانوا أحياء فماتوا، ما كانوا يخلقون شيئاً، بل هم يُخلقون خلقاً من بعد خلق مع توالي أزمان بقائهم في الحياة.

٢١ - لو كانت هذه المعبودات من دون الله آلهة - كما تزعمون - لكانت أحياء غير جائز عليها الموت، لأن الإله الذي يستحق أن يُعبد هو الحي الذي لا يموت، وهذه جمادات ميتة لا حياة فيها، فلا تستحق العبادة، وما يشعرون متى يُبعثون ليوم الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٢٢ - إن الذي يستحق العبادة إله واحد لا شريك له، فالذين لا يؤمنون بالآخرة - على الرغم من كلّ الحجج البرهانية - قلوبهم جاحدة وحدانيته سبحانه، لا تتقبل الأنباء الصادقة التي تُحدثهم عن يوم الجزاء الأكبر، فلا يخافون عقاب الله، وهم مستكبرون عن اتباع الحق، وعبادة الله الواحد.

٢٣ - حقاً أن الله يعلم ما يُخفون وما يُظهرون، وسيجازيهم على ذلك؛ إنه عز وجل لا يُحب المستكبرين عن اتباع الحق، ومن جعل نفسه بإرادته الحرة في زمرة الذين لا يحبهم الله سبحانه، فقد جعلها عرضة لنقمته وعذابه الشديد.

٢٤، ٢٥ - وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة: ماذا أنزل ربكم على رسوله محمد ﷺ؟ قالوا كذباً وزوراً: أباطيل الأولين وأحاديثهم؛ يضلّون بقولهم هذا من يتأثر بهم من أتباعهم؛ لتكون عاقبتهم يوم القيامة أن يحملوا آثام ضلالهم كاملة يوم القيامة، ويحملوا معها آثام الأتباع الجاهلين المقلّدين الذين يضلّونهم، جهلاً من المضلّين بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الإضلال، ألا يئس ما يحملون من آثام ضلالهم وإضلالهم.

٢٦ - قد دبر الكفار الذين من قبل كفار قريش مكاييد الشر لرسولهم، وأهل الحق من عباده، فأتى الله بنيانهم من أساسه وقواعده، فزلزل الله أبنيتهم، فسقط متفككاً من أثر الزلزال سقف كل بناء عليهم، فأهلكهم وماتوا جميعاً تحته، ولم يستطع أحد منهم الإفلات، وأتاهم العذاب في مآمنهم، من أمكنة لم يكونوا يتوقعون بأنها ستأتيهم منها.

٢٧ - ثُمَّ بَعْدَ مَدَّةِ الْبَرَزَخِ وَبَعَثَهُمُ لِلْحِسَابِ وَفَصَلَ الْقَضَاءِ، يُبْهِنُهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَقُولُ لَهُمْ: أَيْنَ شُرَكَائِي فِي زَعْمِكُمْ وَاعْتِقَادِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَخَالِفُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَخَاصِمُونَهُمْ فِي شَأْنِهِمْ، وَتَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ حَقًّا؟ مَا لَهُمْ لَا يَحْضُرُونَ مَعَكُمْ لِيُدْفَعُوا عَنْكُمْ مَا نَزَلَ بِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ إِنْسٍ وَجُنٍّ مُؤْمِنِينَ وَمَلَائِكَةٍ: إِنَّ الْهَوَانَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْعَذَابِ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا فِي حَيَاةِ الْإِبْتِلَاءِ كَافِرِينَ.

٢٨ - الَّذِينَ يَقْبِضُ مَلَكُ الْمَوْتِ وَأَعْوَانُهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي آجَالِهِمْ بَعْدَ رَحْلَةِ الْإِبْتِلَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ ظَالِمِينَ أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ، فَاسْتَسْلِمُوا لِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ، وَانْقَادُوا حِينَ رَأَوْا عَذَابَ الْآخِرَةِ، وَجَحَدُوا مَا كَانَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَقَالُوا كَاذِبِينَ: مَا كُنَّا نَعْمَلُ شَيْئًا مِنَ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي. فيقال لهم: بلى، كنتم كفرًا، وكانت أعمالكم سيئةً مُلَاطِمةً لِكُفْرِكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مَهْمَا كَانَتْ سِرًّا فِي نَفْسِكُمْ، فَلَا فَائِدَةَ لَكُمْ فِي إِنْكَارِكُمْ.

٢٩ - وَيُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا بِحَسَبِ ذَرَكَاتِكُمْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا، لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا، فَلَبِئْسَ مَقَرٌّ لِّلْمُتَعَاضِمِينَ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَعَنِ عِبَادَتِهِ وَحَدِّهِ وَطَاعَتِهِ.

٣٠ - وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا بَعْدَ أَنْ تَتَوَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَبِيبِينَ: مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ دِينَهُ لِعِبَادِهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالُوا: أَنْزَلَ رَبُّنَا خَيْرًا عَظِيمًا وَأَمَّا بِهِ. لِلَّذِينَ اتَّقَوْا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ دَرَجَاتٍ مُرتَبَةٍ الْإِحْسَانِ، ثَوَابٌ إِحْسَانُهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنَ النُّصْرَةِ وَالْفَتْحِ وَالرِّزْقِ الْحَسَنِ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا يَحْصُلُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَنْذُوحٌ عَظِيمٌ فَاتَّقُوا لِدَارِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، كَامِلِي التَّقْوَى، بِفِعْلِ كُلِّ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكِ كُلِّ الْمَحْرَمَاتِ.

٣١ - جَنَّاتٌ ثَابِتٌ وَاسْتِقْرَارٌ دَائِمٌ يَدْخُلُونَهَا، تَجْرِي مِنْ تَحْتِ قُصُورِهِمْ وَمَسَاكِنُهُمُ الْأَنْهَارُ، لَهُمْ فِي الْجَنَّاتِ مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، وَمِثْلُ جَزَاءِ الْمُتَّقِينَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ يَجْزِي اللَّهُ كَامِلِي التَّقْوَى، مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ رِبَّانِيَّةً مِنْ أَتْبَاعِ الرِّسْلِ قَبْلَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَوُصُولِ رِسَالَتِهِ الْخَاتِمَةِ لِلْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِمْتِحَانِ.

٣٢ - الَّذِينَ يَقْبِضُ الْمَلَائِكَةُ أَرْوَاحَهُمْ فِي آجَالِهِمْ بَعْدَ رَحْلَةِ الْإِبْتِلَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ مُؤْمِنِينَ طَاهِرِينَ مِنْ دَنَسِ الشُّرْكِ وَالْمَعَاصِي، تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي تَحْقِيقِ وَعْدِ اللَّهِ بِأَنْ يُفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ مُنْعَمِينَ خَالِدِينَ؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ مَهْمَا بَلَغَ لَا يُكَافَىءُ مَا تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِنْ نِعْمَةِ الْكَثِيرَةِ.

٣٣ - هَلْ يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ وَجَحَدُوا نُبُوَّتَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ؛ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ، فَيُعَذِّبُوهُمْ بِضَرْبِ وَجُوهِهِمْ وَأَذْبَارِهِمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ، أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ بِعَذَابِ الْإِسْتِثْصَالِ فِي الدُّنْيَا، كَذَلِكَ الْفِعْلُ الَّذِي يَفْعَلُهُ أُمَّةُ الشُّرْكِ فِي مَكَّةَ فَعَلَ أُمَّةُ الشُّرْكِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ إِهْلَاكًا شَامِلًا مَقْرُونًا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ حِينَ أَنْزَلَ بِهِمُ الْعَذَابَ الْمُهِلِّكَ الْمُدمِّرَ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي.

٣٤ - فَأَصَابَهُمْ عِقَابٌ سَيِّئٌ مَا اكْتَسَبُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الْخَبِيثَةِ، وَأَحَاطَ بِهِمْ وَلِزْمَهُمُ الْإِنْذَارُ الَّذِي كَانُوا يَسْخَرُونَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ يَسْتَأْصِلَهُمُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ اسْتِصْلَافًا مَقْرُونًا بِعَذَابِهِ الْأَلِيمِ.

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشُّوَاءُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَوْئِلُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَبِيبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

٣٥ - وقال مشركو مكة: لو شاء الله ما عبدنا من دون جَبْرِه لنا من شيء، لا نحن ولا آباؤنا من قبلنا، ولا حَرَمْنَا من دون جَبْرِه لنا شيئاً لم يُحَرِّمْه، فما ارتكبنا من الشُّرك وتحریم ما حَرَمْنَا واقع بإجباره، بمثل هذا الاحتجاج الباطل احتجَّ الذين من قبلهم من كفار الأمم الماضية، وهم كاذبون، فإنَّ الله أمرهم ونهاهم، وجعل لهم مشيئة تصدر عنها أفعالهم، فاحتجاجهم بالقضاء والقدر على كفرهم وتحريمهم الحلال من أبطل الباطل، من بعد إنذار الرسل لهم، فليس على الرسل، وفي خاتمهم محمد ﷺ إلا البلاغ الواضح الظاهر الذي يعرف به المدعوون قضايا دينهم، وليس عليهم إيجاب الناس على الإيمان، وتحويلهم من الكفر.

٣٦ - ونؤكد لكم أننا بعثنا في كل أمة الأرض رسولاً، كما بعثنا محمداً ﷺ رسولاً للناس جميعاً، يأمرونهم بأن يعبدوا الله وحده، وَيَحْتَنِبُوا عِبَادَةَ كُلِّ كَثِيرِ الطغيان، وكلُّ رأس في الضلال، وكلُّ ما عُبد من دون الله، فمن الأمم الذين جاءتهم الرسل من استجاب لدعوة الحق، فأمن بالله وبرسوله، وعبد الله وحده ولم يُشرك به أحداً، فحكم الله له بالهداية، ومن الأمم من لم يستجب لدعوة الحق، فلم يؤمن بالله ورسوله، بل استمرَّ على ما كان عليه من كفر واتباع للطاغوت، فحكم الله عليه بالضلالة، فثبتت عليه عقوبة ضلالته باختياره الحر، فكان مع المكذِّبين المهلكين إهلاكاً عاماً شاملاً، فسيروا في الأرض، فانظروا بأعينكم مُتَعَبِّرِينَ مُتَفَكِّرِينَ آثار ديارهم وبلادهم، لتعرفوا مآل من كذب الرسل، ولتعرفوا أنَّ العذاب نازلٌ بكم، إنَّ أصرَّرتُم على الكفر والتكذيب كما نَزَلَ بهم.

٣٧ - إنَّ تَحَرِّصَ - يا رسول الله - وتجتهد كل الاجتهاد على هُدى هؤلاء وإيمانهم لن تقدر عليه، فإنَّ الله خلقهم ذوي إرادات حرة؛

لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهم، ولا تستطيع أن تكون مُجْبِراً لهم، وإنَّ رَبَّكَ لا يحكم بهداية من حكم عليهم بالضلالة، لأنه في واقع حاله ضال، وما لهم حين يقضي ربك بتنفيذ عقابه عليهم من مانعين يمنعونهم من العذاب.

٣٨ - وأقسم هؤلاء المشركون بالله أقصى أيمانهم، وكل ما يجتهدون بالقسم به قائلين: لا يبعث الله من يموت، دون أن يكون لهم أي مُسْتَد عَلِيٍّ أو علمي أو خبري يُبَيِّرُ ادِّعَاءَهُمْ. فردَّ الله تعالى عليهم وكذبهم فقال: بلى، يبعثهم الله بعد الموت، فالذي خلق الإنسان وأوجده من العدم قادرٌ على إيجاده بعد إعدامه؛ لأنَّ النشأة الثانية أهون من الأولى، إنَّ الذي وَعَدَ به من البعث بعد الموت، وعدٌ حقٌّ على الله، وهو سبحانه لا يخلف وعده، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون كيف تكون تلك الإعادة، والله سبحانه قادرٌ على كل شيء.

٣٩ - يبعث الله جميع العباد؛ لِيَبَيِّنَ لهم الذي يختلفون فيه من عقائد حول أصول الدين وشرائعه وأحكامه، ويظهر لهم الحق الذي لا خُلف فيه، وليعلم الذين كفروا أنَّهم كانوا في الحياة الدنيا كاذبين في قولهم: لا بعث بعد الموت.

٤٠ - إننا إذا أردنا أن نُحيي الموتى ونبعثهم للحساب والجزاء، فلا تعب علينا في إحيائهم وبعثهم، إنَّما نقول لشيء أردناه: كن فيكون على ما أردناه.

٤١ - والذين هاجروا في سبيل الله وابتغاء مرضاته، تاركين أهلهم وبلدهم ومساكنهم وأموالهم - من بعد ما أودوا وعذبوا ولم يجدوا وسيلة يكفون بها عن أنفسهم ظلم الطغاة المتجبرين من أئمة الكفر -، لَنَسْكِتَنَّهُمْ في الدنيا داراً حسنة، ولَأَجْزُرَّ الله الذي يفرضه عليهم في الآخرة أعظم وأفضل ممَّا أعطاهم في الدنيا، لو كانوا يعلمون ما أعدَّ لهم في الآخرة لزدادوا في الجِدِّ والاجتهاد والصبر على ما أصابهم من أذى المشركين.

٤٢ - هؤلاء المهاجرون في سبيل الله هم الذين صَبَرُوا على العذاب ومفارقة الوطن، وعلى الجهاد وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله، وعلى ربهم وحده يتوكلون في أمورهم كلها، مع القيام بالأسباب المُسْتَطَاعَةِ المادية والمعنوية طاعةً لأمر الله ونهيه.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنْبُوْتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجْرٌ لَآخِرَةٌ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

٤٣ - وقال الذين كفروا: لو شاء الله ما كنا مسلمين، فليعلموا أنهم كانوا في الدنيا كاذبين في قولهم: لا بعث بعد الموت.

٤٤ - إننا إذا أردنا أن نُحيي الموتى ونبعثهم للحساب والجزاء، فلا تعب علينا في إحيائهم وبعثهم، إنَّما نقول لشيء أردناه: كن فيكون على ما أردناه.

٤٥ - والذين هاجروا في سبيل الله وابتغاء مرضاته، تاركين أهلهم وبلدهم ومساكنهم وأموالهم - من بعد ما أودوا وعذبوا ولم يجدوا وسيلة يكفون بها عن أنفسهم ظلم الطغاة المتجبرين من أئمة الكفر -، لَنَسْكِتَنَّهُمْ في الدنيا داراً حسنة، ولَأَجْزُرَّ الله الذي يفرضه عليهم في الآخرة أعظم وأفضل ممَّا أعطاهم في الدنيا، لو كانوا يعلمون ما أعدَّ لهم في الآخرة لزدادوا في الجِدِّ والاجتهاد والصبر على ما أصابهم من أذى المشركين.

٤٦ - هؤلاء المهاجرون في سبيل الله هم الذين صَبَرُوا على العذاب ومفارقة الوطن، وعلى الجهاد وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله، وعلى ربهم وحده يتوكلون في أمورهم كلها، مع القيام بالأسباب المُسْتَطَاعَةِ المادية والمعنوية طاعةً لأمر الله ونهيه.

٤٣، ٤٤ - وما أرسلنا من قبلك - يا رسول الله - إلا رجالاً مثلك نوحى إليهم، فهذه سُنتنا الجارية أننا لم نبعث رسولاً إلا من البشر، وإن أنكرتم ذلك - يا مشركي مكة - مع أنكم تؤمنون بأن الله أرسل رُسلاً بشراً من قبل محمد، ومنهم إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى، فاسألوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فسُخِّرونكم بأن الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشراً، إن كنتم - يا أهل مكة - لا تعلمون هذه الحقيقة. أرسلنا الرسل مَضْحُوبِينَ بالمعجزات الباهرات الدالات على صدقهم، والكتب المُنزَّلة عليهم من الله لبيان الشرائع والتكاليف، وأنزلنا عليك - يا رسول الله - القرآن الذي هو ذكر الأمة الخاتمة للأمم؛ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا أَجْمَلَ من الأحكام والشرائع بيانياً وافيّاً شافياً، ورغبة في أن يستنبط المتفكرون فيما تضمنه القرآن من علوم ومعارف أخرى.

٤٥ - ٤٧ - أَمَلَكْ كَفَّارُ قَرِيشِ الَّذِينَ دَبَّرُوا الْمَكَائِدَ السَّيِّئَاتِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وبأصحابه، وبالغوا في أذيتهم، تصاريق الكون، أو كان لديهم علمٌ مِمَّنْ بيده ملك كل شيء، بأنهم سالمون من أحداث الكون المهلكة؟! فَأَمِنُوا أَنْ يُغَيِّبَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَيَطْمُرَهُمْ فِي بَاطِنِهَا، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ فَجأةً فَيُهْلِكُهُمْ مِنْ مَكَانٍ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ، كأن يأتيهم بالأمراض التي تنتشر داخل أجسادهم، أو من أقرب الناس وأحبهم إليهم، أو يصيبهم العذاب في تصرفهم وتقلُّبهم، لقضاء مصالحهم وحاجاتهم في أوطانهم وأسفارهم آمين، فما هم بفائتين من عذاب الله بالهرب، أو يقبض عليهم قبض إهلاك مع تعذيب حالة كونهم يتخوفون من مصائب وبلايا تحدث قليلاً قليلاً في الأموال والأنفس والثمرات إلى أن يأتي الهلاك على آخرهم، إن ربكم لشديد الرحمة بخلقه، واسع الرحمة بهم لا يُعَجِّلُ الْعُقُوبَةَ وَالْعَذَابَ، رغبة في أن يتوبوا ويؤمنوا ويُقْلَعُوا عَنْ مَكْرِهِمُ السَّيِّئَاتِ.

٤٨ - ٥٠ - أَعْمُوا وَلَمْ يَزُوا بِأَبْصَارِهِمْ إِلَى كُلِّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ يكون لها ظلٌ ساقط على الأرض، ففي الصباح يكون ظله ممتداً على الأرض إلى جهة الغرب، وبعد الزوال يفيء ظله فيمتد على الأرض شيئاً فشيئاً إلى جهة الشرق، تبعاً لحركة ضياء الشمس منذ إشرافها حتى غروبها. والإنسان حيث اتَّجِهَ وَجَدَ ظِلَّهُ وظلُّ الأشياء من حوله يتغيَّرُ متدرجاً، فإذا التفت إلى جهة يمينه وأيمانه، وإلى شماله وشماله وَجَدَ هذا السجود لظله وظلُّ الأشياء من حوله، كلُّ هذه الأشياء والأحياء خاضعة لله، مُسْتَسْلِمَةٌ لأمره، جارية على ما أَرَادَهُ لها من امتداد وتقلُّص، غير ممتنعة عليه سبحانه فيما سَخَّرَهَا لَهُ، وهذه الأشياء والأحياء ذوات الظلال منبسطة على الأرض تدوسها الأقدام، وهم أذلاء صاغرون. ولو شاء الله لجعل أجساد الناس غير حاجبة للضياء، وحينئذ لا يكون لها ظلال، ولكنه جل جلاله جعلها ذات ظلال، ليُشْعِرَهُمْ أَنَّ ظلالهم ساجدة على الأرض له بالقهر والجبر، كما أَنَّ أجسادهم خاضعة لسلطانه إيجاداً وعدماً وتصرفاً بالقهر والجبر، فمن الخير للإنسان أن يكون في حركته الإرادية ساجداً مع الساجدين، وأن يجعل ما هو فيه مختاراً مثل ما هو فيه مَجْبُور. والله وحده سبحانه يسجد سجود طاعة وعبادة، وسجود انقياد وخضوع كل ما في السموات وما في الأرض ممَّا يَدْبُ عَلَيْهَا، والملائكة يسجدون لله جميعاً خاضعين لعظمته، وهم لا يستكبرون عن عبادته. يخاف الملائكة ربهم العالي عليهم بتذليله إِيَّاهُمْ، ويفعلون ما يأمرهم ربهم فلا يعصونه في شيء صغير أو كبير، قليل أو كثير، فمن الحكمة والانسجام مع الكون كله أن لا يشذَّ الذين كفروا، فيستكبروا عن السجود لله ربهم خضوعاً له وذلاً.

٥١، ٥٢ - وقال الله سبحانه لعباده: لا تعبدوا إلهين اثنين، كمجوس الفرس، ومن اتَّبَعَ دينهم من قبائل العرب، الذين يثبتون إلهين اثنين: إلهاً للخير، وهو النور، وإلهاً للشر، وهو الظلمة، لا يجوز أن يكون في الوجود إلهان اثنان، إنما الإله الحق هو إله واحد لا شريك له، فَيَأْتِي فَخَافُونَ، فلا تخافوا إلا منِّي، ولا ترغبوا إلا إليَّ. وله سبحانه كل ما في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلْقاً وَمِلْكَاً وَتَصَرُّفاً، وَلَهُ الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ وَالانْقِيَادُ، وإخلاص العمل دائماً وواجباً لازماً، أفعبد هذا البيان الجليّ تتقون عقاب إله الشر الذي جعلتموه إلهاً كذباً دون أن يكون لكم دليلٌ يثبت إلهيته، ويثبت صحة تخوفكم منه؟

٥٣، ٥٤ - وما بكم من نعمة فكل ذلك من الله، وليس شيء منها من إله الخير الذي تؤمنون به دون أن يكون له وجود إلا في أوهامكم، ثم إذا مسَّكم المرض والشدة، فإليه سبحانه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء؛ ليكشف عنكم ما نزل بكم من الضراء والشدة، ثم إذا أزال الشدة والبلاء عنكم، فاجأ جماعة منكم، فأعلنوا شركهم برَّيْهم المُنِيعَ عليهم، فجعلوا يضيفون كشف الضَّرِّ عنهم إلى الإله الباطل الذي يؤمنون به، أو إلى أسباب يجعلونها منفصلة عن إرادة الله.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشْكُرُوا أَهْلَ
الَّذِينَ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ يَالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٥٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
فِي تَغْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥٧﴾ أَوْ لَعَنَ رُؤُسَهُمْ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ
يَنْفَتِحُ ظِلُّهُ عَنْ الِئْمِينِ وَالشَّمَايِلِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُوَ دَاخِرُونَ
﴿٥٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ
وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا إِلَهَيْنِ
أَتَيْنِ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ فَاَنْتَنِي فَأَرْهَبُونَ ﴿٦١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْدِّينُ وَإِصْبًا أَفَعَبَّ اللَّهُ نَفَقُونَ ﴿٦٢﴾ وَمَا يَكُمُ مِنْ
نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ
إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾



الجزء الرابع عشر

سورة النحل

لِكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ مَا كُتِبَ فَتَقَرُّونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يَوَازِدُكَ اللَّهُ النَّاسَ ظُلْمَهُمْ مَا تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَخْرِجُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَآ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّقَرَّنُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ قَبْلِكَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَهُمْ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

٥٥ - إنهم أشركوا بالله؛ ليجحدوا نعمة عليهم في كشف الضر، حتى لا يلتزموا بما يجب عليهم من شكر الله ربهم، والقيام بطاعته، فعيشوا في اللذة التي أنتم فيها إلى المدة التي ضربها الله لكم، فسوف تعلمون يوم الدين عند نزول العذاب عاقبة أمركم.

٥٦ - ويجعل المشركون للأصنام التي ليس من شأنها العلم، لكونها جمادات لا تحس ولا تشعر، نصيباً من زروعهم وأنعامهم وأموالهم التي رزقهم الله. والله لتُسْأَلُنَّ - أيها المشركون - يوم القيامة في محكمة العدل الربانية عما كنتم تكذبون في الدنيا في قولكم: إن هذه الأصنام آلهة، وإن لها نصيباً من أموالكم.

٥٧ - ويجعل المشركون بالافتراء القولي والاعتقادي لله ربهم الذي لم يلد ولم يولد البنات، فيقولون: الملائكة بنات الله - تنزه الله عن الولد والبنات - ويجعل المشركون لأنفسهم ما يحبون من البنين.

٥٨ - إن هؤلاء المشركين لا يرضى أحدهم بالبنات الأنثى أن تُنسب إليه، فكيف يرضى أن ينسبها إلى الله؟ وإذا بُشِّرَ أحدهم بأنه ولدت له من زوجته مولودة أنثى، صار وجهه مُسْوَدًّا من كراهية ما بُشِّرَ به، وظل طوال نهاره كئيباً، وهو مُمْتَلئ غمًا وحرناً.

٥٩ - يتخفى من قومه، من سوء ما بُشِّرَ به، ولا يظهر أمام الناس، حتى لا تظهر قسّات وجهه الكالحة الدالة على ما في نفسه من كراهية للمولودة، تُحدِثه نفسه: أيمسك ما بُشِّرَ به على هوان وذل؟! أم يخفي ذلك الذي بُشِّرَ به في التراب، ويدفنه حياً حتى يموت؟! تنبهوا وتحققوا، قبح قبحاً شنيعاً ما يصنعون ويُفَضُّون، من أحكام جاهلية لا عقل فيها ولا رشد، ولا عدل ولا حكمة.

٦٠ - للذين لا يؤمنون بالآخرة صفة السوء من احتياجهم إلى الولد الذكر، وكراحتهم الإناث وقتلهن خوف الفقر والعار، ولله جميع صفات الكمال والجلال، في ذاته وصفاته وأفعاله الحكيمة، وأسمائه الحسنى، وهو القويُّ الغالب المُتَمَتِّع في كبريائه وجلاله، الحكيم فيما يشاء ويختار، وقد تقتضي حكمته إمهال العصاة المجرمين، فيؤخر عقابهم؛ ليؤمنوا ويتوبوا.

٦١ - ولو يُتابع الله عز وجل مُوَآخَذَةَ النَّاسِ بالعقاب بسبب ظلمهم، الذي يستحقون به التعذيب والإهلاك، ما ترك على وجه الأرض من دابة تدب عليها، ولأهلك جميع الأحياء التي لم توضع في الحياة الدنيا موضع امتحان، لأنها مخلوقة لأجل الناس، فإذا أهلك الناس لم يكن لهذه الأحياء غاية حكيمة يبقون بسببها في الوجود في الحياة الدنيا، ولكن يُمهّلهم الله بفضله وكرمه وحلمه إلى أجل مُّحَدَّدٍ مُّسَمًّى عنده، فإذا اقترب أجل مُوَآخَذَتِهِم بمقتضى حكمته، فإنهم لا يستطيعون تأخير نزول عذاب الله وعقابه لحظة واحدة، وإذا كان في الأجل مهلة فإنهم لا يستطيعون تعجيل إنزال عقاب الله وعذابه لحظة واحدة.

٦٢ - ويجعلون بالأدعاء الكاذب المُفْتَرَى، لئلا ما يكرهون نظيره لأنفسهم من الشريك، ويتقربون إليه من القربات ما يكرهون نظيره لأنفسهم، وتصف ألسنتهم الوصف الكذب: أن لهم عند الله المنزل الحسن في الجنة، إن كان محمد صادقاً في البعث بعد الموت. حقّ وَبَيَّنَّ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ فِي الْآخِرَةِ يَعَذِّبُونَ فِيهَا، وأنهم مُقَدَّمُونَ على غيرهم في دخول النار، لفرط غلوهم في الكفر الجحودي العنادي.

٦٣ - تالله كما أرسلناك إلى هذه الأمة، نوّكد أننا أرسلنا إلى أمم من قبلك، وفي مقدمتهم اليهود والنصارى والصابئون، فحسّن لهم الشيطان بإلقاء الوسوسة، أعمالهم الخبيثة من الكفر والتكذيب، فانساقوا مع الشيطان في تزييناته حتى خرجوا عن صراطنا المستقيم، فمن لم يستجب لدعوتك منهم بعد بعثتك، فالشيطان ناصرهم اليوم في الحياة الدنيا، ومن كان الشيطان ناصرَه ووليّه فهو مخذول مغلوب، ولهم يوم الدين عذاب أليم موجه في الجحيم.

٦٤ - وما أنزلنا عليك الكتاب - يا رسول الله - إلا لِيُبَيِّنَ لِلْمُتَمَتِّعِينَ لِلْمَلَلِ السابقة التي حرّفها أتباعها عن أصولها، الذي اختلفوا فيه عن الحقّ المنزل من عند الله، وأن يكون القرآن بياناً ورُشْداً عظيماً يهدي إلى طريق الحق، ورحمة لقوم لديهم الاستعداد النفسي والقلبي لأن يؤمنوا بالحقّ الذي اشتمل عليه كتاب الله، ويعملوا به.

٦٥ - واللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا، فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ
والزُّرُوعِ بَعْدَ يَبْسِهَا وَجَدْبِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَدَلَالَةً وَاضِحَةً لِقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ، فهي دلالة قريبة يكفي لإدراكها التذكير بالقول، حتى
يدرك السامعون ما تحتوي عليه من أدلة كونية تدل على قدرة الخالق
العظيم وحكمته.

٦٦ - وَإِنَّ لَكُمْ - أيها الناس - في الأنعام - وهي الإبل والبقر والغنم
- لَأَمْرًا عَجَبًا، إِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِيهَا عَرَفْتُمْ كَمَالَ قُدْرَتِنَا، نَسْقِيكُمْ مِنْ
ضُرُوعِهَا لَبَنًا خَارِجًا - من بين فَرْث - وهو الأشياء المأكولة
المنهضمة بعض الانهضام في الكَرَش - وبين دم، نَقِيًا خَالِصًا مِنْ كُلِّ
الشوائب، جَارِيًا فِي خُلُوقِ الشَّارِبِينَ سَهْلًا لَدَيْدًا هَنِيئًا مَرِيئًا.

٦٧ - وَلَكُمْ أَيْضًا عِبْرَةٌ فِيمَا نَسْقِيكُمْ وَنَرْزُقُكُمْ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ
وَالْأَعْنَابِ، مَا تَتَّخِذُونَ مِنْهُ خَمْرًا مُسْكِرًا غَيْرَ حَسَنٍ - وهذا قبل
تحريمها - وَرِزْقًا حَسَنًا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ ثَمَرِ النَّخِيلِ وَأَشْجَارِ الْعَنْبِ، وَهُوَ
نَحْوُ الزَّبِيبِ وَالتَّمْرِ وَالدَّبْسِ وَالخَلِّ، إِنَّ فِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ إِنْعَامِنَا عَلَى
عِبَادِنَا لَدَلَالَةً وَحُجَّةً وَاضِحَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ عَقْلًا عِلْمِيًّا يَدْرِكُونَ عَظَمَةَ
إِتْقَانِ الصَّنْعِ الرَّبَّانِيِّ، وَعَقْلًا إِزْدَاقِيًّا يَكْفُونُ بِهِ نَفْسَهُمْ عَمَّا يَضُرُّهُمْ،
وهو غير حسن لمآكلهم ومشاربهم ولو كانت تتطلبه شهواتهم
وأموالهم.

٦٨، ٦٩ - وَاللَّهُمَّ اللَّهُ النَّحْلَ الْقِيَامَ بِالْأَعْمَالِ الْعَجِيبَةِ، بَأَن تَأْخُذِي
يُبُوتًا فِي كُهُوفِ الْجِبَالِ، وَفِي مَتَجَوِّفِ الْأَشْجَارِ، وَفِيمَا بَيْنِي النَّاسُ
مِنَ الْخَلَايَا وَيَسْقِفُونَ. ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَبْنِي بَيْوتَكَ، كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
الَّتِي تَشْتَهِيهَا، فَاسْلُكِي الطَّرِيقَ الَّتِي أَلْهَمَكَ اللَّهُ أَنْ تَسْلُكِيهَا وَتَدْخُلِي
فِيهَا لِأَجْلِ طَلَبِ الثَّمَرَاتِ، مُدْلِلَةً لَكَ الطَّرِيقَ، مُسَهِّلَةً لَكَ مَسَالِكَهَا،
يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِ النَّحْلِ بِخَلْقِ اللَّهِ، وَإِتْقَانِ صَنْعِهِ، شَرَابٌ هُوَ «عَسَلٌ»
مُخْتَلَفُ أَلْوَانِهِ بِسَبَبِ اخْتِلَافِ خُصَائِصِ مَرَكَبَاتِهَا مَا بَيْنَ أَيْبُضٍ وَأَحْمَرٍ

وأصفر، فِي كُلِّ صَنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الْعَسَلِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِ النَّحْلِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ لَصَنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الْأَوْجَاعِ وَالْأَمْرَاضِ الَّتِي
دَوَاؤُهَا فِيهِ، إِنَّ فِيمَا يَصْنَعُهُ النَّحْلُ - مِنْ بَيْوتٍ دَقِيقَةٍ مُحْكَمَةٍ بَدِيعَةٍ، وَفِي غَدُوِّهَا لِاقْتِنَاطِ الْأَزْهَارِ وَالثَّمَارِ، وَرَوَاحِهَا إِلَى خَلَايَاهَا مِنْ
مَسَافَاتٍ بَعِيدَةٍ دُونَ أَنْ تَخْطُطَهَا، وَدَأْبِهَا عَلَى عَمَلِهَا بِنِظَامٍ دَقِيقٍ مَعَ صَغَرِ حَجْمِهَا وَضَعْفِ بَنِيَّتِهَا - لآيَةٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَيَسْتَدْلُونَ بِمَا
ذَكَرْنَا عَلَى وَحْدَانِيَّتِنَا وَكَمَالِ قُدْرَتِنَا.

٧٠ - وَاللَّهُ أَوْجَدَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ، وَأَخْرَجَكُمْ إِلَى الْوُجُودِ، وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا، ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ عِنْدَ انْقِضَاءِ آجَالِكُمْ، وَبَعْضُكُمْ يُعَمَّرُ حَتَّى
يُنْكَسَ فِي الْخَلْقِ، وَيُرَدُّ إِلَى أَرْدَا الْعُمُرِ وَأَضْعَفِهِ، وَهُوَ وَقْتُ الْهَرَمِ الَّذِي تُنْقَصُ فِيهِ الْقُوَى وَتَضَعُفُ؛ لَكِي يَرْجِعَ إِلَى حَالَةِ الطُّفُولِيَّةِ
بَنَسِيَانٍ مَا كَانَ عِلْمٌ بِسَبَبِ الْكِبَرِ، فَلَا يَتَعَاطَمَنَّ أَحَدٌ بِقُدْرَتِهِ، وَلَا يَتَفَاخَرَنَّ أَحَدٌ بِوَاسِعِ عِلْمِهِ، فَقُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ عَطَاءٌ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ أَعْطَى
وَوَهَبَ، قَادِرٌ عَلَى سَلْبِ مَا وَهَبَ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ لَا يَتَعَرَّضُ عِلْمُهُ لِلنَّقْصِ، قَدِيرٌ لَا تَتَعَرَّضُ قُدْرَتُهُ لِلْعَجْزِ، وَبِقُدْرَتِهِ الْمَقْرُونَةِ بِعِلْمِهِ
يَفْعَلُ فِي كَوْنِهِ وَعِبَادِهِ مَا يَشَاءُ.

٧١ - وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ بَسْطَ الرِّزْقِ عَلَى بَعْضِكُمْ، وَضَيِّقَهُ عَلَى بَعْضِكُمْ بِمَا افْتَضَّتْهُ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ وَالْقُدْرَةُ الرَّبَّانِيَّةُ، فَمَا الَّذِينَ قُضِّلُوا
بِالرِّزْقِ بَرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى الْعَبِيدِ حَتَّى يَسْتَوُوا فِيهِ هُمْ وَعَبِيدُهُمْ، وَيَكُونُونَ فِي الرِّزْقِ سَوَاءً، فَإِذَا كَانُوا لَا يَقْبَلُونَ هَذَا لِأَنْفُسِهِمْ فَكَيْفَ
جَعَلُوا الْأَصْنَافَ شُرَكَاءَ اللَّهِ فِي رَبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ؟ أَيْزَعُمُونَ أَنَّهُمْ يَكْسِبُونَ أَرْزَاقَهُمْ بِمَهَارَاتِهِمْ، أَوْ أَنَّ لآلِهَتِهِمْ تَأْثِيرَاتٍ غَيْبِيَّةً فِي
أَرْزَاقِهِمْ، فَيُخْجِدُوا نِعْمَةَ رَبِّهِمْ عَلَيْهِمْ؟!!

٧٢ - وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جَنْسِكُمْ أَزْوَاجًا، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ أَزْوَاجًا وَبَنَاتٍ، وَمِنْ نَسْلِهِنَّ أَوْلَادًا وَأَوْلَادًا،
وَرَزَقَكُمْ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَنَاجِحِ وَسَائِرَ مَا يَطِيبُ وَيُلَذِّ. أَنْطَمَسَتْ بِصَاثِرِهِمْ عَنْ إدْرَاكِ الْحَقِيقَةِ الْجَلِيلَةِ فِي
الْوُجُودِ، فَهَمَّ بِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ، فَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ شَرِيكًا، وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ الدَّائِمَةِ عَلَيْهِمْ يَكْفُرُونَ، فَيُضَيِّفُونَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ إِلَى غَيْرِهِ؟

وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِمَنِ اسْتَيْسَرَ مِمَّا
فِي بَطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا يَلِيسًا يَلِيسًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا
حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ
أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي
مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا
شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ نَوَفَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُدْأَى إِلَى أَرْدَلٍ
أَلْعَمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ
فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي
رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ
اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَظَهُ وَرَزَقَكُمْ مِنْ
الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

٧٣ - ويعبد المشركون من دون الله معبودات، لا تملك لعباديتها رزقاً؛ شيئاً قليلاً كان أو كثيراً، لا من السموات ولا من الأرض، ولا يقدرون على إيصال خير أو دفع ضرر.

٧٤ - فلا تشبهوا الله بخلقه، ولا تجعلوا له مثلاً ولا شبيهاً، فإنه لا مثل له ولا شبه ولا شريك من خلقه، إن الله يعلم حقيقة ذاته وصفاته، وأنتم لا تعلمون خطأ ما تضربون له من الأمثال، فاطرحوا عن تصوراتكم ومخيلاتكم كل ما تتوهمون عن الله رب العالمين.

٧٥ - مثلكم في إشراككم بالله الأوثان كمن سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، ولا يملك شيئاً ينفق منه، وبين حر كريم مالك قادر، قد رزقه الله مالاً كثيراً طيباً، فهو يتصرف فيه، وينفق كيف يشاء سرّاً وجهراً، فكما لا يجوز التثنية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة البشرية، فكيف تسوون - أيها المشركون - بين الله عز وجل الخالق الرازق وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء؟ الحمد الكامل لله المستحق لجميع المحامد، المتفضل بجميع النعم، بل أكثر الكفار غير مستعدين أن يعلموا الحق، لأنهم لا يريدون أن يتبعوه، ويعملوا بمقتضاه، مخالفين أهواءهم وشهواتهم وولاءاتهم العمياء.

٧٦ - وضرب الله مثلاً آخر لبطلان الشرك: رجلين، أحدهما: ولد أخرس، لا يفهم ولا يفهم، وعاجز لا يقدر أن يعمل شيئاً، وهو ثقيل على من يلي أمره ويعوله، حيثما يرسله ويصرفه في طلب حاجة أو كفاية لهم لا يأت بئجج؛ لأنه أخرس عاجز، هل يستوي صاحب هذه الصفات المذمومة ومن هو سليم الحواس ذو رشد ورأي، يأمر الناس بالعدل والخير، وهو في نفسه على سيرة صالحة ودين قويم؟ هل يستوي هذان الرجلان في مفاهيمكم - أيها

المشركون -؟ فكيف تسوون في الإلهية بين أوثانكم الجامدة التي لا يرجى خير منها، ولا يخشى ضرر منها، وبين رب العالمين خالق الكون، والمتصرف بكل شيء فيه، والمحيط بكل شيء علماً.

٧٧ - ولله وحده علم كل ما غاب عن العباد في السموات والأرض، مما لا تصل إليه حواسهم وعقولهم، لا يخفى عليه شيء فيهما، وما أمر وجود الساعة بعد أمر التكوين الرباني، سواء أكانت ساعة إنهاء نظام الحياة الدنيا، أم كانت ساعة إيجاد نظام اليوم الآخر، وبعث الأحياء بعد الموت إلا كانطبق جفن العين وفتح في السرعة، بل هو أسرع من ذلك؛ إن الله على كل شيء يشاؤه عظيم القدرة، إذا أراد شيئاً كان أسرع ما يكون.

٧٨ - والله أخرجكم من بطون أمهاتكم بعد مدة الحمل، لا تدركون شيئاً مما حولكم، وأعطاكم الله وسائل الإدراك وأدوات اكتساب المعرفة، وخلق لكم جهاز السمع الذي تصل إليه المسموعات، ومراكز الإدراك للمرئيات في داخل الدماغ، ومراكز فهم الأمور والقضايا؛ لاستنباط الأحكام، والتمييز والتحليل والتركيب، وربط العلل بمعلولاتها، والأسباب بمسبباتها؛ رغبة في أن تشكروا بالإيمان والإسلام والعمل الصالح، حتى تكونوا من أهل جنات النعيم يوم الدين. استدلل بهذه الآية على أن الأصل في الناس الجهل، فلا يجوز استفتاء رجل غير مشهور بالعلم حتى يبيح عن علمه، ومن ادعى جهل شيء كان القول قوله لموافقة للأصل.

٧٩ - ألم ير الغافلون عن آيات الله في كونه بأعينهم إلى أنواع الطيور مذكّلات في الفضاء الواسع بين السماء والأرض، ما يُمسكهن في حال قبض أجنحتها وبسطها في الهواء إلا الله، إن في الطيور وطيرانها والجو الذي تطير فيه آيات كثيرات للمؤمنين؛ لأنهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون بها، ويتفنون بها دون غيرهم. ويدخل في عموم هذه الآية طائرات الركوب، لأنها تدخل لغة في عموم الطير، ولوصفها بأنها مسخرات للإنسان في جو السماء.

وَعَبْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَكُمْ لَهَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِثْرًا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْاَحْمَدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَا أَتْبَعَكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرْوِ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَدْرِي لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾



٨٠ - وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ لَكُمْ مِنْ الْحَجَرِ رَاحَةً وَاسْتَقْرَاراً وَمَسْكناً تَسْكُنُونَهُ، وَأَنْتُمْ مَقِيمُونَ فِي الْحَضَرِ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ: الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ خِيَاماً يَخْفُ عَلَيْكُمْ حَمْلُهَا فِي يَوْمِ سَيْرِكُمْ وَرَحِيلِكُمْ فِي أَصْفَارِكُمْ، وَتَخْفُ عَلَيْكُمْ أَيْضاً فِي إِقَامَتِكُمْ وَحَضْرِكُمْ، فَلَا تَثْقُلْ عَلَيْكُمْ فِي الْحَالَتَيْنِ، وَتَتَّخِذُونَ مِنْ أَصَوافِ الضَّأْنِ وَأَوْبَارِ الْإِبِلِ وَأَشْعَارِ الْمَعْزِ أَثَاناً لِبُيُوتِكُمْ مِنَ الْفَرَشِ وَالْأَكْسِيَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَبِلاغاً تَمْتَعُونَ بِهِ إِلَى حِينِ الْمَوْتِ. اسْتَدْلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى طَهَارَةِ جُلُودِ الْأَنْعَامِ الَّتِي حُلَّ أَكْلُهَا، وَأَصَوَافُهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا إِذَا جُزَّ فِي الْحَيَاةِ، وَكَذَلِكَ جِلْدُ الْمَيِّتَةِ مِنَ الْأَنْعَامِ إِذَا دُبِغَ.

٨١ - وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ ظِلَالِ الْأَبْنِيَةِ وَالْجُدُرَانِ وَالْأَشْجَارِ مَا تَسْتَظِلُّونَ بِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ مَا تَسْتَكُونُ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، كَالْأَسْرَابِ وَالْمَغَارَاتِ وَالْكَهَوفِ وَنَحْوِهَا، وَجَعَلَ لَكُمْ قُمْصاً وَثِياباً مِنَ الْقُطْنِ وَالصُّوفِ وَالْكَتَّانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، تَمْنَعُكُمْ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَدُرُوعاً تَقِيكُمْ فِي الْحَرْبِ بِأَسْ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ، فَلَا تَصِلُ السُّيُوفُ وَالرِّمَاحُ إِلَى جَسَدٍ مِنْ يُضْرَبُ بِشَيْءٍ مِنْهَا. كَذَلِكَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لَكُمْ فِي مَا مَضَى، سَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ، فَيَمَكِّنْكُمْ مِنْ صَنْعِ أَشْيَاءَ لَا حَضَرَ لَهَا فِي الْعَصُورِ الْقَادِمَةِ بَعْدَ عَصْرِ التَّنْزِيلِ، مِمَّا تَوْصَلُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ صَنَاعَاتٍ مَذْهَلَةٍ بِإِلْهَامِ اللَّهِ لَهُمْ، رَغْبَةً فِي أَنْ تَوْمِنُوا بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ فِي كِتَابِهِ، وَفِي أَنْ تُسَلِّمُوا مُتَقَادِينَ لَهُ فِي شَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ.

٨٢ - فَإِنَّ أَكْبَرَ وَابْتَعَدَ عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ وَتَصَدِيقِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - الَّذِينَ يُبْلَغُهُمْ مَا أَمَرْتُ بِتَبْلِيغِهِ، وَأَثَرُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَاللَّذَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَلَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّمَا وَبَالَ ذَلِكَ يَعُودُ عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ عَثَبٌ وَلَا سَمَةٌ تَقْصِيرُ، مَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ الْوَاضِحُ

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنًا وَمَتَعًا إِلَى حِينٍ ٨٠ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَصْرَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ ٨١ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمُبِينُ ٨٢ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ تَعَزَّيْنِ كَرُونَهَا وَكُفِّرُوهَا الْكَفُورُونَ ٨٣ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٨٤ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ٨٦ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّامِعُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٨٧

الظاهر، والمُظْهِرُ الْمَوْضِحُ لِقَضَايَا الْإِيمَانِ، وَلشَرَائِعِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ.

٨٣ - يَعْرِفُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِتَأْمَلَاتِهِمْ الْفَكْرِيَّةِ، وَبِمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ، وَنُْمَلِهِمْ كَثِيراً رَغْبَةً فِي أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ؛ لِيُنْفِذُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ النَّارِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ الْإِمْهَالِ الطَّوِيلِ، يَنْكُرُونَ نِعْمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَيَنْسُبُونَ بَعْضُهَا إِلَى الْأَسْبَابِ الْمَادِيَّةِ الْكُونِيَّةِ، وَإِلَى شُرَكَائِهِمْ.

٨٤ - وَضَعُ فِي ذَاكِرَتِكَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِبَيَانِنَا - يَوْمَ نَبْعَثُ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً مِنَ النَّبِيِّينَ أَوْ مِنْ غَيْرِ النَّبِيِّينَ مِنَ الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ أَتْبَاعَ الْمُرْسَلِينَ؛ لِيَشْهَدُوا عَلَى النَّاسِ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوهُمْ رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ، ثُمَّ بَعْدَ الْحُكْمِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْكَفْرِ وَاسْتَحْقَاقِ الْخُلُودِ فِي النَّارِ، لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ بِهِ فِي الْإِعْتِزَارِ، وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَى الدُّنْيَا فَيَتُوبُوا وَيَرْضَوْا بِرَبِّهِمْ، إِذِ الدَّارُ الْآخِرَةُ دَارُ جَزَاءٍ لَا دَارَ عَمَلٍ وَتَكْلِيفٍ.

٨٥ - وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي مَكَانَ عَذَابِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، وَوَسَائِلَ الْعَذَابِ الْمُزْهِبَةِ لِلْقُلُوبِ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ، إِذَا طَلَبُوا تَخْفِيفَهُ، وَلَا هُمْ يُؤْخَرُونَ وَلَا يُهْمَلُونَ، إِذَا طَلَبُوا تَأْخِيرَ وَقْتِ إِقَائِهِمْ فِي جَهَنَّمَ.

٨٦ - وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا مَعْبُودَاتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا فِي الدُّنْيَا، قَالُوا: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَعْبُدُهُمْ مِنْ دُونِكَ؛ بِسَبَبِ مَا فَتَنُونَا بِهِ مِنْ وَسَائِلِ الْإِضْلَالِ، فَاجْعَلْ عَذَابَ كُفْرَانَا عَلَيْهِمْ، إِذْ هُمْ السَّبَبُ فِي إِضْلَالِنَا. فَاسْرِعْ شُرَكَائِهِمْ لِدَفْعِ تَهْمَةِ إِضْلَالِ عَابِدِيهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ بِعَنْفِ الْحَجَرِ عَلَى رُؤُوسِهِمْ لِدَمْعِهِمْ قَاتِلِينَ لَهُمْ: إِنَّكُمْ - أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ - لَكَاذِبُونَ، نَحْنُ مَا أَضَلَّلْنَاكُمْ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا ضَالِّينَ.

٨٧ - وَاسْتَسْلِمَ الْمَشْرُكُونَ لِلَّهِ، وَانْقَادُوا لِحُكْمِهِ فِيهِمْ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ شَيْئاً، وَزَالَ عَنِ الْمَشْرُكِينَ مَا كَانُوا يَكْذِبُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ وَجُودِ آلِهَةٍ تَشْفَعُ لَهُمْ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَوْهَامٌ بَاطِلَةٌ، وَأَسْمَاءٌ سَمَّوْهَا لَا حَقِيقَةَ لَهَا.

٨٨ - الذين كفروا وضموهم مع كفرهم العنادي الجحودي أنهم منعوا الناس عن الإيمان بالله ورسوله، زدناهم عذاباً على صدهم غيرهم عن سبيل الله فوق العذاب الذي استحقوه بكفرهم، وبسبب ما كانوا يفسدون به أفكار الناس وعقولهم ونفوسهم.

٨٩ - واذكر - يا رسول الله - يوم نبعث في كل أمة رسولا شاهداً على أمته من أنفسهم نسباً ولغة، ليشهد عليهم بما فعلوا من كفر وإيمان، وطاعة وعصيان، وجننا بك - يا رسول الله - يوم الحساب شهيداً على قومك وأميتك الذين بلغتهم رسالة ربك، وأدبت لهم الأمانة. ونزلنا عليك - يا رسول الله - الكتاب متصفاً بأربع صفات: الأولى: تبياناً لكل شيء من قضايا الدين الكبرى، والصفة الثانية: هدى عظيماً يدلهم على طريق سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، والصفة الثالثة: رحمة لمن آمن به وصدق، والصفة الرابعة: بشرى للمسلمين المنقادين لأوامر الله ونواهيه، يبشرهم برضوان الله عليهم، وبالسعادة الأبدية الخالدة في الجنة يوم الدين.

٩٠ - إن الله سبحانه يأمر عباده بثلاثة أنواع من أنواع السلوك الفاضل الحسن: الأول: العدل بين العبد وربّه سبحانه بتوحيده وعدم الإشراك به، وامتنال أوامره واجتناب منهيته، والعدل بين العبد ونفسه؛ بمنعها مما فيه هلاكها وفسادها، والعدل مع الخلق، بإعطاء كل ذي حق حقه، الثاني: الإحسان مع الله سبحانه في أداء فرائضه، وعبادته كأنك تراه، ومع الخلق بأن تحسن إلى من أساء إليك، وبإتقان العمل وإكماله، الثالث: صلة الرحم، وهم القرابة الأدنون والأبعدون منك، فتستحب صلتهم بما فضل من الرزق، فإن لم يكن فدعاء وتودد، وينهى عن ثلاثة أنواع من الرذائل والقبائح: الأول: ارتكاب الكبائر المتعلقة بالفروج، الثاني: ما أنكره الشرع،

ونهى عنه نهى تحريم، الثالث: العدوان على حقوق الناس بالقوة والقهر، ينصحكم الله سبحانه - بالالتزام بتلك الأوامر والانتهاز عن المناهي - نصحاً مقروناً بما يُثير الرغبة والرغبة؛ لكي تتذكروا أوامر الله ونواهيه، فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى، وتتنهوا عما يسخطه عليكم.

٩١ - وأوفوا بجميع العهود التي عاهدتم الله عز وجل عليها، والتي عاهدتم الناس عليها، ولا تنقضوا الأيمان بعدم تحقيق ما عزمتم على فعله أو تركه، وأكذبت عزمكم بالحلف بالله أو باسم من أسمائه، وقد جعلتم الله عليكم شاهداً وضامناً بالوفاء بالعهد، إذ أقسمتم به، وعرضتم أنفسكم لعقوبته الشديدة إذا لم تفوا بما عاهدتم عليه، إن الله يعلم ما تفعلون من وفاء العهد ونقضه.

٩٢ - ولا تكونوا في نقض العهد والأيمان بعد توكيدها، كمثل امرأة حمقاء غزلت غزلاً وأحكمتها، ثم نقضته فجعلته خيوطاً محلولة غير مبرمة، فهي لم تكف عن العمل ولا عن النقص، وكذلك حال من نقض العهد: لا تركه، ولا حين عاهد وفي به، ألتخذون أيمانكم الكاذبة وسيلة غش وخديعة؛ لتخدعوا بها الناس وتغشوهم، حتى يصدقوكم في عهودكم ووعودكم؛ لتكون أمتكم أكثر وأقوى من أمة عدوكم، إن الله يحرم هذه الوسيلة وأمثالها، ولو كان الغرض منها تقوية أمة الإسلام. إن تكوين الأمم متفاضلين مما ابتلاك الله به، وإنكم - أيها المؤمنون - في موضع الامتحان، وهو يتطلب منكم التزام حدود الله، ولو مع أعداء الله، وليبينن الله لكم يوم القيامة عند الحساب، كل ما كنتم تختلفون فيه في الحياة الدنيا من نيات وعقائد وأعمال، فيثيب الطائع، ويعاقب المسيء.

٩٣ - إنكم - يا أيها المؤمنون - لم تكلفوا أن تحولوا الناس للإيمان حتى تتخذوا لذلك أية وسيلة، كالإكراه، والمخادعة بالعهود والأيمان، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة مؤمنة مسلمة، فسلبكم إراداتكم الحرة، وجعلكم مجبرين غير مخيرين، ولكن أراد أن يضعكم موضع الامتحان، فمنحكم إرادات حرة، ونتيجة لامتحانكم سيكون فيكم ضالون، وآخرون مهتدون، أما الضالون فيحكم الله عليهم بالضلالة بمشيئته الحكيمة، وأما المهتدون فيحكم الله لهم بالهداية بمشيئته الحكيمة، وأؤكد لكم أنكم لتسئلن عما كنتم تعملون في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا، لإقامة الحجّة عليكم، وإصدار أحكام العدل بينكم، وتنفيذ الجزاء بالثواب والعقاب.



٩٤ - ولا تتخذوا أيمانكم - أيها الداخلون في الإسلام والمبايعون عليه - أيماناً خديعةً وغشٍ داخل في ثنايا أعمالكم ومقاصدكم منها، فتكون سهلة النقص إذا اقتضت مصالحكم نقضها، فتزلق قدم ما من أقدامكم في مزالق الكفر والردة، فتجرّ معها كل جسد صاحبها بعد ثبوتها على صراط الحق والهدى، وتذوقوا العذاب بسبب ما عرضتم وانصرفتم عن سبيل الله الموصل إلى جنات النعيم، ولكم عذاب عظيم تُعذبون به في الجحيم، عقاباً لكم على ردّكم إلى الكفر.

٩٥ - ولا تستجيبوا لمن يضلّكم من أئمة الكفر، فتوافقوهم على نقض عهد الله والارتداد عن الإسلام، مُقابل ثمن قليل من عاجل الدنيا، إنّ الذي هو عند الله مُعدٌّ للثابتين على إيمانهم وإسلامهم الذي عاهدوا الله عليه، هو خيرٌ من كلّ ثمن يُبدل لكم من متاعات الحياة الدنيا، مقابل ارتدادكم إن ارتدّتم، إن كنتم تعلمون حقيقة ما أذخره الله للمحافظين على عهودهم، ما نقض أحد منكم عهد الله مهما تعرّض لبلاءٍ أو لإغراء.

٩٦ - ما عندكم - أيها الناس - من متاع الدنيا ولذاتها يفنى ويذهب، وما عند الله من ثواب الآخرة ونعيم الجنة باقٍ لا يزول ولا يفنى، وأقسم: لأعطينّ الذين ثبّتوا على الإيمان والإسلام، وصبروا على عدم التأثر بالمُغريات والمُرهبات والمُؤذيات من قِبَل أئمة الكفر، أجرهم على صبرهم ثواباً يُكافئ أحسن ما كانوا يعملون من عمل صالح من الواجبات والقربات والمباحات المقرونات بنيات صالحات.

٩٧ - مَنْ عَمِلَ صالحاً ابتغاء مرضاة الله ذكراً كان أو أنثى، وهو مؤمنٌ إيماناً صحيحاً صادقاً، فَلَنُحْيِيَهُ في الدنيا حياةً طيِّبةً بالقناعة، وحلاوة الطاعة، والرزق الحلال، والرّضا بما قدّره الله له،

ولنجزّيَنَّهُم في الجنة أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون في الدنيا من عمل صالح من الواجبات والقربات والمباحات المقرونات بنيات صالحات، أما المباحات بدون نيات صالحات والخطايا فلا يُؤجرون عليها، ويعفو الله برحمته عمّا يشاء العفو عنه منها.

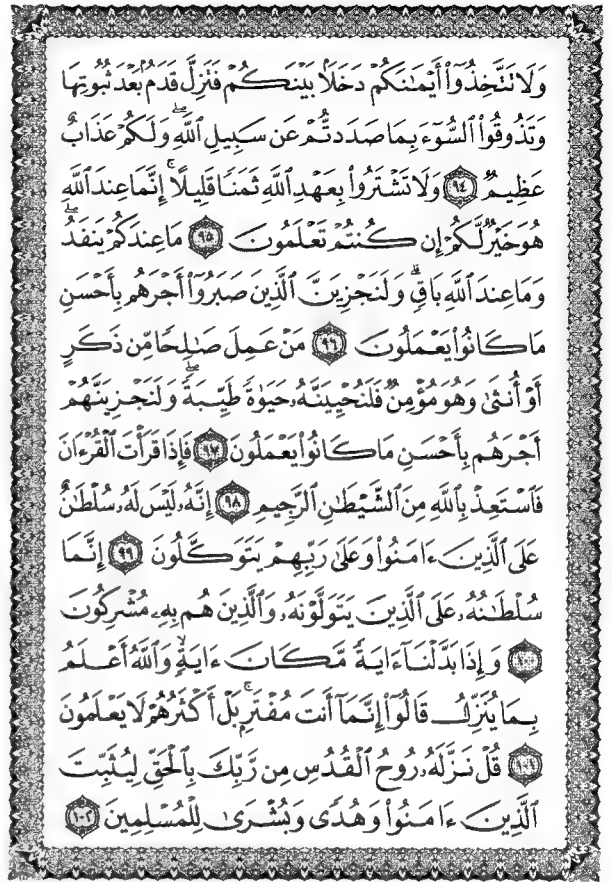
٩٨ - فإذا أردت - أيها المؤمن - قراءة القرآن، فاسأل الله أن يعصمك من وساوس إبليس البعيد عن الله، المَطْرُود عن رحمته؛ حتى لا يصرف قلبك عن التأمل فيه، ولا يُلقِي فيه الشُّبه والشكوك، ولا يُزَيِّن لك الانصراف عنه.

٩٩ - إنّ إبليس ليس له سلطان قوّة وولاية، ولا سلطان حُجّة وبرهان على الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، بما يجب الإيمان به، وعلى ربهم وحده لا شريك له يفوضون تدبير أمورهم وتحقيق ما يرجون، مع القيام بالأسباب المستطاعة المادية والمعنوية طاعةً لأمر الله ونهيه.

١٠٠ - ما سلطانه المؤثر بالولاية إلا على الذين يُطيعونه، ويستنصرون به، ويتأخّون معه، ويلتمسون لديه العون، كالسّحرة والكهنة، والذين هم بسبب طاعته وعبادته مشركون بالله، كالذين يعبدون الشياطين.

١٠١ - وإذا نسَخنا حكمَ آية، فأبدلنا مكانه حكماً آخر - واللّه أعلم بما يُنزّل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه، وبما يُغيّر ويبدّل من أحكامه - قال أئمة الكفر والضلال للرسول ﷺ: إنّما تَخْتَلِفُ - يا محمد - من تلقاء نفسك. إنك - يا رسول الله - لست بمُفْتَرٍ على ربك، بل أكثر الكافرين جاهلون، لا يعلمون ما هو الحقُّ والأحسن والأفضل، ولا يرغبون في أن يعلموا ذلك؛ بسبب اتّباعهم أهواءهم وشهواتهم، وتأثرهم بوساوس الشياطين وتسويلاتهم.

١٠٢ - قل لهم - يا رسول الله - : نزّل القرآن على الرُّوحِ المُقدَّسِ المُطهَّر جبريل من لدن الله ربّي مُتَّصِفاً بالحق؛ لِيُثَبَّتَ - بتنزيل القرآن مُنْجِماً، قابلاً لتبديل آية اقتضت الحكمة جعلها مكان آية - قلوب المؤمنين، إذ يشعرون أنّ الوحي الرّباني على صلة مُتجددة مع الرسول، فيزدادوا إيماناً و يقيناً، وليكون القرآن هدىً تعليمياً مُتَّبِعاً، وبُشرى للمسلمين بما يتضمّن من بشريات بالنصر على أعدائهم، مع النجوم المتتابعة التنزيل.



١٠٣ - ونؤكد تأكيداً شديداً أننا نعلم أن المشركين يتهمونك - يا رسول الله - ويقولون: إنما يتعلم هذا القرآن من غيره، ثم يزعم أنه يُوحى إليه. كذبوا؛ لسان الذي يميلون ويشيرون إليه زاعمين أنه يعلم محمداً القرآن لساناً أعجمي لا يفصح في كلامه، وهذا القرآن عربي بين الفصاحة والبلاغة، أعجزكم بفصاحته وبلاغته، وأنتم أهل اللسان والبيان، فكيف يقدر من هو أعجمي على مثله! وأين فصاحة القرآن من عجمته؟!

١٠٤ - إن الذين لا يصدقون بآيات الله أنها من عند الله، ويشككون في آيات القرآن المجيد المعجز بتعلات ساقطات ليس لها قيمة، لا يحكم لهم بالهداية، إذا أصروا على ما هم فيه من باطل، ولهم عذاب أليم في نار جهنم خالدين.

١٠٥ - ما يقدم على فرية الكذب على الله بوضع أقوالٍ من عنده وأدعاء أنها من كلام الله إلا من لا يؤمن بآيات الله الكونية والبيانية والإعجازية، وأولئك البعداء عن رحمة الله هم وحدهم الكاذبون أحسن الكذب في قولهم: إنما يعلمه بشر، أما محمد الصادق الأمين ﷺ فمُحال أن يكذب على الله، ويقول عليه ما لم يقله.

١٠٦ - من نطق بكلمة الكفر، وارتد من بعد إيمانه بقلبه، وإعلانه الدخول في الإسلام، فعليهم غضب من ربهم، إلا من أكره على أن يتلفظ بكلمة الكفر بعداذ لا طاقة له به، بشرط طمأنينة القلب بالإيمان، وعدم الاعتقاد بما يقوله من كلمة الكفر، ولكن من اختار الكفر ورضي به، ولم يستمر على طمأنينته، وأثرت عليه مغريات الدنيا ولذاتها، فعليهم غضب شديد من الله، ولهم عذاب عظيم في جهنم خالدين فيها.

دلّت هذه الآية على أن المكروه غير مكلف، وأن الإكراه يبيح التلفظ بكلمة الكفر بشرط طمأنينة القلب على الإيمان.

١٠٧ - ذلك الإقدام على الارتداد إلى الكفر؛ لأجل أنهم آثروا وأحبوا متاعات الحياة الدنيا حباً شديداً، جعلهم يتعلقون بها ويؤثرونها على الآخرة، وذلك الغضب من الله عليهم والعذاب العظيم لهم يوم القيامة بسبب أنه سبحانه لا يحكم بهداية القوم الكافرين الذين آثروا الدنيا على الآخرة، وختموا حياة امتحانهم بالكفر والإصرار عليه، بعد معرفتهم عناصر الإيمان، وتذوقهم شيئاً من حلاوته، وأنه دين الله الحق.

١٠٨ - أولئك البعداء عن رحمة الله الذين ختم الله على قلوبهم بحجبها عن إدراك ما يهديها إلى حقائق الإيمان، وأصم سمعهم عن إدراك الآيات الربانية المنزلة في كتابه، وأعمى أبصارهم بحجبها عن رؤية آيات الله في كونه الهادية إلى الإيمان والإسلام، وذلك الطبع نتيجة ما يكسبون بإراداتهم الحرة من أعمال ظاهرة وباطنة، يتولد عنها الطبع بمقتضى سنة الله في قوانين الأسباب والمسببات، وأولئك البعداء عن تنزلات رحمة الله هم وحدهم الغافلون عما هو سبب سعادتهم، وشقائهم في حياة الخلود.

١٠٩ - حق وثبت كونهم في الآخرة هم الخاسرون؛ لأنهم ضيعوا بإراداتهم الحرة رأس مالهم وهو الإيمان؛ تعلقاً بمتاعات الحياة الدنيا وزينتها، ومن ضيع رأس ماله فقد بان خسارته، وظهر غيبه.

١١٠ - ثم إن ربك للذين هاجروا إلى «الحبشة» من بعد ما عذبهم المشركون؛ لأجل أن يرتدوا عن الإسلام، حتى وافقوهم على ما هم عليه ظاهراً، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، ثم جاهدوا في سبيل الله، من بعد هجرتهم إلى «المدينة»، وصبروا على الإيمان والهجرة والجهاد، إن ربك - من بعد الفتنة التي فتنوها - لغفور كثير الستر لهم، دائم الرحمة بهم.

وهذه الآية تؤخذ على عمومها، ولا تقتصر على خصوص السبب، فكل من هاجر في سبيل الله بعدما فتن في دينه في وطنه من قبل كفره باغين ظالمين، ثم جاهد وصبر، ولم تُغيّر أحداث الهجرة شيئاً في قلبه وإيمانه غفر الله له، وأحاطه برحمته.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعِبَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعْتَهُمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجْدِلَةٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حُلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عِبَادُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ لَيْعٍ أَلَّفَهُ بَيْنَهُ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعْ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَامًا فَصَصْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

١١٣ - وَأَوْكَدَ لَكُمْ أَنَّهُ جَاءَ أَهْلَ «مَكَّةَ» رَسُولٌ مِنْهُمْ، نَسَباً وَلُغَةً وَنَشَأً، وَهُوَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ يَعْرِفُونَهُ قَبْلَ النَّبَوَّةِ وَبَعْدَهَا، وَقَدْ عِلِمُوا مِنْ صِفَاتِهِ وَسُلُوكِهِ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَكَذَّبُوهُ جُحُودًا وَاسْتِكْبَارًا، وَبَالِغُوا فِي إِيْذَانِهِ، وَأَرَادُوا قَتْلَهُ، فَأَخَذَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ عَذَابُ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ، وَهُمْ ظَالِمُونَ لَأَنْفُسِهِمْ ظُلْمًا عَظِيمًا بِالشُّرْكِ وَالصَّدِّ عَنْ

١١٨ - وعلى اليهود حَرَمُنَا عليهم ما أخبرناك به - يا رسول الله - من قبل في سورة الأنعام، وهو كُلُّ ذِي طُفْرٍ، وشحوم البقر والغنم، إلا ما حملته ظهورها أو أوعاؤها أو كان مختلطاً بعظم، وما ظلمنا اليهود بتشديد أحكام التحريم عليهم، ولكن حَرَمْنَا عليهم ما حَرَمْنَا بسبب بغيتهم وظلمهم أنفسهم.

١١٩ - ثم بعد البيانات السابقات المُرهبات نُطمع التائبين المصلحين الذين سبق أن عملوا سائر المعاصي بسبب اندفاع نفسي غير رشيد، كشهوة أو غضب أو رغبة جامحة جانحة تُغشي على البصيرة، ثم تابوا من بعد عمل ذلك الشؤ، وأصلحو العمل في المستقبل، واستقاموا على التوبة، إِنَّ رَبَّكَ - من بعد توبتهم وإصلاحهم - لكثير الغفران لِمَنْ تَابَ وَأَمَنَ، واسع الرحمة بهم.

١٢٠ - إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ إِمَامًا فِي الْخَيْرِ يُؤْتَمُّ بِهِ، مطيعاً لله، خاضعاً له، ملازماً لعبادته، مائلاً عن كُلِّ الأديان الباطلة إلى الدين الحق، مُوحِداً لله غير مشرك به أرباباً ولا آلهة ولا أسباباً منذ نشأته.

١٢١ - شَاكِرًا لله على أنعمه التي أنعم بها عليه، اختاره الله لنبوته، واصطفاه لِحُكْمِهِ، وهداه إلى دين الإسلام القويم.

١٢٢ - وَأَتَيْنَاهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَطَايَا حَسَنَةً مِنَ الرِّسَالَةِ وَالْخَلَّةِ، ولسان الصدق، والثناء الحسن، والقبول العام في جميع الأمم، وإنه في الآخرة في أعلى مقامات الصالحين.

١٢٣ - ثُمَّ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ وَعَصْرِهِ، وبعد أهل الكتاب أتباع موسى وعيسى، أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ - يا رسول الله - أَنْ أَتْبِعَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، وما كان عليه من التوحيد، مائلاً عن كُلِّ الملل الباطلة، مُستقيماً على الدين الحق الذي هديناه إليه، وما كان إِبْرَاهِيمَ من المشركين، بل كان من الموحدين المخلصين.

١٢٤ - لَمْ يَكُنِ الْيَوْمُ الْأَسْبُوعِي فِي مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ يَوْمَ السَّبْتِ، بل كان يوم الجمعة، وهو اليوم الذي أتمَّ الله فيه خلق السموات والأرض، فعدّل اليهود عنه ابتداءً منهم إلى يوم السبت، وزعماً منهم أنه اليوم الذي ارتاح الله فيه من بعد أيام التعب التي خلق فيها الخلق، وجعلوا يوم السبت هو اليوم الذي يرتاحون فيه من أعمال الدنيا،

وما جعل السبت وأحكامه المُشددة إلا على اليهود الذين اختلفوا فيه بابتداعهم، وَإِنَّ رَبَّكَ - يا رسول الله - ليحكم بينهم يوم القيامة في كُلِّ ما كانوا فيه يختلفون، فيجازي المُحقِّين بالثواب، والمُبْطِلِينَ بالعقاب.

١٢٥ - ادْعُ - يا رسول الله - أَنْتَ وَمَنْ أَتَّبَعَكَ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْحِكْمَةِ، وهي: وضع كل شيء في موضعه الذي يوجبه العقل، وتكشفه التجربة، وتحقق به الغاية المقصودة، وبالنصح المقرون بما يثير الرغبة أو الرهبة، للارتفاع بالنصح وأتباع ما هدى إليه فعلاً أو تركاً، وجادلهم بالطريقة التي هي أحسن أدباً وتهذيباً وقولاً وفكراً، وتابع دعوة مَنْ لَمْ تُثْبِتِ التجربة الطويلة أنهم مَيُؤَسَّسٌ مِنْ استجابتهم، إِنَّ رَبَّكَ هو وحده أعلم بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ضَلَالًا غَيْرَ مُقْتَرَنٍ باستعداد من غُمِقَ نفسه للاستجابة لدعوة الحق بعد حين، وهو وحده أعلم بِمَنْ لديه استعدادٌ لَأَنْ يَكُونَ مُسْتَقْبَلًا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، ولو بعد حين.

١٢٦ - وَمَعَ تَرْغِينَا لَكُمْ بِالصَّبْرِ وَالتَّجَاوُزِ، إن عاقبتكم - على سبيل الاحتمال الذي نُفَضِّلُ لَكُمْ استنعاذه - فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به من الذين تدعونهم، الذين يَرَوْنَ ما يُنْزِلُونَهُ بِكُمْ مِنْ أَذَىٍ وَتَعْذِيبٍ، عقاباً لَكُمْ على مُخَالَفَتِهِمْ ما هم عليه من عقيدة أو نُظْمٍ أو قوانين معمولٍ بها، وأقسم لكم: لئن صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَذَى، فتجاوزتم عنهم، ولم تعاقبوهم مع قدرتكم على المعاقبة، لهو خيرٌ لَكُمْ بسبب صبركم.

١٢٧ - وَاصْبِرْ - يا رسول الله - ويا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ - عَلَى الْأَذَى وَعَدَمِ الْجَوِّءِ إِلَى الْمَعَاقِبَةِ بِالْعَدْلِ، وما صَبَرَكَ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَمَعُونَتِهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَنْ يَرْفُضُ دَعْوَتَكَ، ويختار لنفسه سُبُلَ الضَّلَالِ وَالشَّرِّ، ولو كانوا أقرب الأقربين، وَلَا تَكُنْ فِي كَرْبٍ وَالْمِ نَفْسِي ضَاغِطٌ عَلَيْهَا، ممَّا يُدْبِرُونَ فِي الْخِفَاءِ ضِدَّكَ وَضِدَّ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ وَنَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ، ومفسد خططهم ومكرهم.

١٢٨ - إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ بَعُونَهُ وَتَوْفِيقَهُ وَنَصْرَهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَعَاقِبُونَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبُوا بِهِ، والذين هم مُحْسِنُونَ بِالْعَفْوِ عَنِ الْجَانِي.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾
 إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
 شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾
 وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾
 ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾
 إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾
 ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾
 وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾
 وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾
 إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

١ - تَنَزَّهَ اللَّهُ سبحانه تنزيهاً عن كُلِّ ما لا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، وكمال صفاته وأسمائه الحسنی، وكمال أفعاله وتصرفاته، فهو الذي أسرى بعبدِه محمد ﷺ الكامل في عبوديته لرَبِّه في جزء قليل من الليل بجسده وروحه، يقطَّعُ لا مناماً، من المسجد الحرام بـ «مكة» الذي جعلَ الله عزَّ وجل مكانه آمناً ممنوعاً بالأمر التكويني والتكليفي، إلى المسجد الأبعد بـ «بيت المقدس» الذي جعلنا فيه وحولَه بركات ماديَّة من خيرات الأرض، ومعنويَّة من عطاءاتنا، وجعلناه مقرَّ الأنبياء ومهبط الوحي؛ وعَرَجنا برسولنا محمد ﷺ إلى السموات حتى سدره المنتهى؛ لنزيه بأداة بصره، ونسمعه بأداة سمعه بعض عجائب قدرتنا، وآياتنا العظام، إِنَّه هو السميع البصير، وقد سمع ورأى من آياتنا العظمى. والآية تدلُّ بصدرها على الإسرائاء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وتدللُّ بآخرها: ﴿لَنُزَيِّرَنَّ عَنْ يَمِينِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ على المعراج الذي جاء تفصيل بعض أحداثه في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾.

٢ - أَسْرَيْنَا بِمُحَمَّدٍ ﷺ ورفعناه إلى السماء، وكلمناه عند سدره المنتهى، وفضلناه بمشاهدات جليات، وأعطيناه القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، وأعطينا موسى عليه السلام الذي كلمناه بجانب الطور كتاب التوراة، وجعلنا الكتاب هادياً ومرشداً لبني إسرائيل، وقلنا لهم: لا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي رَبًّا تَكُلُونُ إِلَيْهِ أُمُورَكُمْ وتفوضونها إليه.

٣ - يَا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ؛ إِنَّ نُوحاً كَانَ عَبْدًا مَتَحَفِّقًا بعبوديته لرَبِّه، كثير الشكر لله تعالى على نعمه. وأنتم - يا

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لَنُرِيَهُ وَمِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ١ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ يَلْأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ٣ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ٧

بني إسرائيل - ذُرِّيَّةَ مَنْ آمَنَ به وحُمِلَ معه، فاجعلوه أسوتكم، ولا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لنقمة الله عليكم، وإنزال عقابه بكم. ٤ - وَأَنهِنَّا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَخْبَرْنَاهُمْ فِيمَا آتَيْنَاهُمْ مِنَ التَّوْرَةِ: أَقْسِمُ لَتُفْسِدُنَّ فِي أَرْضِ الشَّامِ وَبَيْتِ الْمَقْدَسِ إِفْسَاداً عَرِيضاً مُنْتَشِراً مَرَّتَيْنِ كَبْرَتَيْنِ، وَأَقْسِمُ لِيَكُونَنَّ لَكُمْ عُلُوٌّ كَبِيرٌ وَسُلْطَانٌ وَقُوَّةٌ وَكَلِمَةٌ نَافِذَةٌ. وقد تحقَّق لهم العلوُّ الكبير في عهد داود وسليمان عليهما السلام، واستمرَّ هذا العلوُّ قليلاً بعد سليمان، ثم فسد بنو إسرائيل، وعبدوا الأوثان، وأتبعوا الشهوات، فسَلَطَ الله عليهم «بختنصر» ملك «بابل وأشور»، فقتل منهم وسبى، ثم عادوا إلى الإفساد والعلو في واقعهم المعاصر الآن، فأفسدوا إفساداً عريضاً في كلِّ الدنيا، بنشر المذاهب الفكرية المنحرفة، وإقامة مؤسسات الربا، ودور الزنى، والمنظمات العلنية والسريّة التي تعمل لهدم الدين والأخلاق، وعلَّووا في الأرض علُّواً لم تبلغه أمة من الأمم، ولا شعب من الشعوب.

٥ - فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ وَعْدِ عِقَابِنَا لَكُمْ عَلَى إِفْسَادِكُمْ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، بعثنا عليكم عبداً لنا، ذوي بطش وقوة في الحرب، فتردَّدوا بين الديار ذاهبين وآيبين، بحثاً وتفتيشاً يطلبونكم ليقتلوكم، وكان قضاءً كائنًا لازماً لا خُلْفَ فيه. وأثبت التاريخ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ سَلَطَ عليهم «بختنصر»، فقتل وأسَرَّ وغَنِمَ، وساق بقاياهم أسرى إلى بلاده، قبل المسيح عليه السلام.

٦ - وَبَعْدَ مَدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ رَدَدْنَا لَكُمْ الدَّوْلَةَ وَالْعَلْبَةَ عَلَى الَّذِينَ بُعِثُوا عَلَيْكُمْ، حين تَبَيَّنَ مِن ذُنُوبِكُمْ، ورجعتم عن الفساد، وأمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ، وجعلناكم أكثر رجالاً قادرين على الخروج إلى القتال ممَّا كنتم عليه قبل السَّيِّئِ.

٧ - إِنَّ فَعْلَتُمْ حُسْناً يَرْضَاهُ اللَّهُ، فإحسانكم مُخْتَصَّ بأنفسكم، لها ثوابها جزاءً إحسانها، وإن فعلتم ما هو مسيء قبيح لا يرضاه الله، فعليها إساءتها، فإذا جاء وَعْدُ تحقيق عقوبتكم على إفسادكم العريض في الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ، جئنا بكم من مواقع تفرُّقكم في الدنيا إلى فلسطين، مجتمعين من أخلاط شتَّى، وبعد ذلك نبعث عليكم عبداً لنا؛ لِيُحْزِنُوكُمْ ويجعلوا آثَارَ الْمَسَاءَةِ وَالْكَآبَةِ بَادِيَةً عَلَى وَجُوهِكُمْ، وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى مُنْتَصِرِينَ، ومعظمين له ومقدَّسين، كما دخلوه كذلك أول مرة، وَلِيُهْلِكُوا مَا غَلَبُوا عَلَيْهِ مِنْ مَنَشآت ومؤسسات اليهود في فلسطين، حتى يتحوَّل ما بَنَوْه من بناءٍ عظيم شاهق إلى تَلَّةٍ من رمل وحصى.

٨ - بعد معاينة الله لكم - يا بني إسرائيل - بأيدي عباد لنا مسلمين، يُبقي ربكم لكم الرجاء بأن يرحمكم ويتوب عليكم، إذا آمنتم وأسلمتم، وإن عُذْتُمْ إلى مثل ما كنتم عليه من إفساد عريض في الأرض، وعلو كبير، عُذْنَا إلى اتخاذ التدابير التي تُرجعكم إلى وضعكم الذي ضُرب عليكم من الذلة والمسكنة، والإقامة الدائمة بموقع غضب الله، وجعلنا جهنم يوم القيامة للكافرين سجنًا ومحبسًا دائماً.

٩، ١٠ - إن هذا القرآن القريب منكم الذي يُنلى عليكم، له ثلاث وظائف كبرى: الأولى: يدل ويرشد إلى الطريقة التي هي أقرب إلى الاعتدال الكامل في كل سلوك بشري، والوظيفة الثانية: يبشر القرآن المؤمنين إيماناً صحيحاً صادقاً الذين يعملون الصالحات بأن لهم أجراً كبيراً ينالونه في الجنة، والوظيفة الثالثة: ينذر الذين لا يؤمنون بالآخرة بأننا هيئنا لهم عذاباً مؤلماً في النار.

١١ - ويدعو الإنسان بالشَّرِّ في حقيقة الأمر الخافية عليه، دعاءه بالخير الذي يتهيأ له بتعجله وقصر نظره وعدم شمول معرفته. وكان الإنسان عجولاً، يتبع أهواءه وشهوته، يحب الدنيا العاجلة، ويُعرض عن الآخرة.

١٢ - وجعلنا الليل والنهار علامتين دالتين على وحدانيتنا وقدرتنا، وعلى عنايتنا بعبادنا، بهيئتهما وتعاقبهما بإتقان بالغ عجيب، مرتبط بحركة الأرض، حول نفسها باتجاه الشمس، ضمن بُعد محكم التدبير، فجعلنا آية الليل محواً للمرئيات عن أن تُرى بالأبصار، بسبب انعدام الكاشف لها من ضياء أو نور، وجعلنا آية النهار مُسببة لإبصار أصحاب العيون السليمة لها، تُرى فيه الأشياء رؤيةً بيّنة؛ لِتَتَوَضَّلُوا بضياء النهار إلى استبانة أعمالكم، والتصرف في

معاشيكم، ولتعلموا باختلاف الليل والنهار عدد السنين القمرية والشمسية، وما تحتاجون إليه من حساب أوقات الشهور والأيام والساعات. وكل شيء من خلق الله في كونه فصلناه تفصيلاً دقيقاً مُحكماً، حتى لا تطغى ذرة على ذرة، ولا خلية على خلية، ولا كوكب على كوكب، وكذلك كل ما تحتاجون إليه من أمر دينكم وهدايتكم إلى النجاة والفلاح يوم المعاد قد بيّناه في القرآن المنزل هدىً للعالمين بياناً شافياً واضحاً.

١٣ - ولزمننا كل إنسان مُكَلَّفَ عَمَلِهِ الصَّادِرَ منه باختياره في عُنفه، لزوم القلادة أو الغل، فهو ملازمه أينما كان، لا يفارقه حتى يُحاسب به، ونُخرج له يوم القيامة كتاباً سُجِّلَتْ فيه حسناته وسيئاته، يراه مبسوطاً أمام عينيه، مفتوحاً غير مَطْوِيٍّ.

١٤ - ونقول له: أَقْرَأْ كِتَابَكَ، وحاسب نفسك على ما كسبت بإرادتك الحرّة في الحياة الدنيا، كفى بنفسك اليوم عليك مُحاسباً بشأن ما قَدِّمْتَ في رحلة امتحانك.

١٥ - من اختار لنفسه بإرادته الحرّة أن يهتدي، وأتبع ما أنزل الله، فإنه لا يهتدي إلا لمصلحة نفسه ونجاتها وسعادتها، ومن اختار لنفسه بإرادته الحرّة أن يضل بعيداً عن صراط الله، وأتبع أهواءه وشهوته، فإنه لا يضل إلا جانياً على نفسه، جالباً لها الخسران والشقاء، ومُسَلِّطاً عليها نعمة الله، ولا تحمِلُ نفسٌ حاملةً ثِقْلَ نفسٍ أخرى من الآثام، ولا يُؤَاخِذُ أَحَدٌ بِذَنْبِ أَحَدٍ، بل كلُّ أحدٍ مُخْتَصِرٌ بِذَنْبِهِ، وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ أَحَدًا من الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، على عصيانهم لأوامرنا ونواهيها، إلا بعد إقامة الحجّة وقطع العذر ببعثة الرسل وإنزال الكتب.

١٦ - وإذا دنا وقت تحقّق إرادتنا بإهلاك أهل قرية بعدذاب الاستئصال لما اقترفوه من الظلم والمعاصي، أمرنا مُتَعَمِّمِهَا وجبّارِهَا وقادتها بالإيمان والطاعة، فخرجوا عمّا أمرهم الله به حتى صار المجتمع ميؤوساً من إصلاحه، فَوَجِبَ عليها العقاب، فأهلكناها هلاك استئصال عام شامل.

١٧ - وعدداً كثيراً من الأمم المكذبة المقتربة في زمن واحد أهلكنا من بعد إهلاك قوم نوح، كعاد وثمود وغيرهما من الأمم الخالية، ولا تحمل - أيها الداعي إلى الله - همّ كثرة الكافرين، ودعاة الضلالة، ولا تستعجل في طلب إهلاكهم، فالله خبير على سبيل الشهود والحضور بتدابيرهم وكيدهم، بصيرٌ بكل ما يعملون، فتوكّل عليه، وسلّم أمرك إليه، فإنه يكفي أوليائه شرور أعدائه.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عَدَانَا جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَبَدَعَ الْإِنْسَنَ بِالشَّرِّ دَعَاَهُ بِالْحَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَنَ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَن فُحِصْنَآ آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّمَن لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَددَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ نَفْسِيًّا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَنَآ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُقْبِهِ وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَأَنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتَفَرِّقِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

١٨ - مَنْ كَانَ مِنَ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ يَرِيدُ باستمرار وتجدد الحياة العاجلة في الدنيا، كافرًا بالآخرة، ولا يسعى للنعيم فيها سعيًا ما، عجلنا له فيها ما نشاء من متاع الحياة الدنيا ولذاتها، لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ بِهِ ذَلِكَ مِنْ عِبَادِنَا بِحُكْمَتِنَا وَعِلْمِنَا، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ جَهَنَّمَ يَدْخُلُهَا وَيَحْتَرِقُ بِنَارِهَا، حال كونه مُلُومًا على ما جَنَى مِنْ إِثْمٍ عَظِيمٍ، مَطْرُودًا مُبْعَدًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مَعَ إِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ.

١٩ - وَمَنْ أَرَادَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ فِي جَنَاتِ النِّعَمِ، وَسَعَى لِلْآخِرَةِ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَالتَّزَامِ شَرِيعَتِهِ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ إِيمَانًا صَاحِقًا صَادِقًا، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، فَأُولَئِكَ رَفِيعُوا الْمَنْزِلَةَ كَانَ سَعْيُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ مَقْبُولًا مُثْنًى عَلَيْهِ. ٢٠ - نَزِيدُ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ: مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا، وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ، بِرِزْقِهِمَا جَمِيعًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ فِي الدُّنْيَا الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِبَتْلَاءِ عِبَادِهِ مَمْنُوعًا عَنْ أَحَدٍ مِمَّنْ يَرِيدُ إِعْطَاءَهُ، مُؤْمِنًا كَانَ أَوْ كَافِرًا، وَفَقَّ حُكْمَتَهُ وَعِلْمَهُ.

٢١ - انْظُرْ وَتَفَكَّرْ - أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ - كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي عَطَاءِ اتِّنَا مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرَ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، وَأَكْبَرَ تَفْضِيلًا بِعَطَاءَاتِ النِّعَمِ وَوَسَائِلِهِ فِيهَا، وَتُقَابِلِ هَذَا تَفَاوُتَ الْمُعَذِّبِينَ فِي النَّارِ، بِتَنَازُلِ الدَّرَكَاتِ وَانْحِطَاطِهَا حَتَّى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنْهَا، وَبِتَزَايُدِ مَقَادِيرِ الْعَذَابِ؛ بِحَسَبِ مَقَادِيرِ ذُنُوبِهِمْ وَجَرَائِمِهِمُ الَّتِي اكْتَسَبُوهَا بِإِرَادَتِهِمُ الْحَرَّةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

٢٢ - لَا تَعْبُدْ - أَيُّهَا الْإِنْسَانُ - مَعَ اللَّهِ مَعْبُودًا آخَرَ غَيْرَ اللَّهِ، فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مِنْ غَيْرِ حَمْدٍ، مَخْذُولًا بِغَيْرِ نَاصِرٍ.

٢٣ - وَأَنْهَى رَبُّكَ إِرَادَتَهُ التَّكْلِيفِيَّةَ بِقَضَاءِ مُبْرَمٍ فِي وَصَايَا مُوجَّهَةٍ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَلِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أُمَّتِهِ: **الْوَصِيَّةُ الْأُولَى:** تَفْسِيرُهَا أَنْ لَا

تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، فَاجْعَلُوا كُلَّ عِبَادَاتِكُمْ مَحْصُورَةً بِهِ، وَمَقْصُورَةً عَلَيْهِ، **الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَّةُ:** وَأَمَرَ بِالْوَالِدَيْنِ بَرًّا بِهِمَا وَعَظْفًا عَلَيْهِمَا وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمَا، إِمَّا يَبْلُغَانِ إِلَى حَالَةِ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ، فَيَصِيرَانِ عِنْدَكَ فِي آخِرِ الْعُمُرِ كَمَا كُنْتَ عِنْدَهُمَا فِي أَوَّلِ الْعُمُرِ، فَلَا تُثْقِلْ لَهُمَا كَلِمَةً تَضْجُرُ وَكَرَاهِيَّةً، مِثْلَ كَلِمَةِ «أَفْ»، فَضْلًا عَمَّا هُوَ أَشَدُّ مِنْهَا، وَلَا تَزْجُرْهُمَا عَمَّا يَتَّعَاطِيَانِهِ مِمَّا لَا يُعْجِبُكَ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا حَسَنًا جَمِيلًا لِيُنَاقِ فِيهِ تَكْرِيمَ لَهُمَا، وَتَعْظِيمَ لِفَضْلِهِمَا.

٢٤ - وَالْإِنْ جَانَبَكَ وَاخْفِضْهُ مُتَذَلِّلًا لَهُمَا، تَذَلُّلًا نَاشِئًا عَنْ خُلُقِ الرَّحْمَةِ الْمُتَغَلَّغِلِ فِي قَلْبِكَ، وَتَذَلُّلًا لَهُمَا تَذَلُّلُ الرَّاحِمِ لَا تَذَلُّلُ الضَّعِيفِ الْمُهِينِ، حَتَّى لَا تَمْتَنِعَ عَنِ الْقِيَامِ بِكُلِّ صُورِ الْعَطْفِ وَالْإِحْسَانِ، مِنْ خِدْمَةٍ وَمُسَاعَدَةٍ، وَعَطَاءٍ وَتَكْرِيمٍ وَاحْتِرَامٍ، وَسَهَرٍ وَصَبْرٍ، وَبَذْلِ وَتَضَحِيَّةٍ، وَتَوَاضُعٍ وَتَحَبُّبٍ. وَقُلْ: رَبِّ ارْحَمْهُمَا بِرَحْمَتِكَ الْبَاقِيَةِ؛ لِأَجْلِ أَنَّهُمَا رِبِّيَانِي حَالَةَ كَوْنِي صَغِيرًا، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُومَ بِشُؤْنِي لِنَفْسِي.

٢٥ - رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نَفُوسِكُمْ مِنْ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ وَاعْتِقَادِ مَا يَجِبُ لَهُمَا مِنَ التَّوْقِيرِ وَعَدَمِ عَقُوقِهِمَا، إِنْ تَكُونُوا أَبْرَارًا مُطِيعِينَ بَعْدَ تَقْصِيرٍ كَانَ مِنْكُمْ فِي الْقِيَامِ بِمَا أَلَزَمَكُمْ مِنْ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ، ثُمَّ أَنْبَتُمْ إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفَرْتُمْ مِمَّا فَرَطَ مِنْكُمْ، فَإِنَّهُ كَانَ لِلرَّجَّاعِينَ إِلَيْهِ تَعَالَى مِمَّا فَرَطَ مِنْهُمْ كَثِيرَ السَّتْرِ، يَمْنَحُهُمْ مِنْ غَفْرَانِهِ قَدْرًا كَبِيرًا، إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ، وَعَلِمَ صِدْقَ قُلُوبِهِمْ.

٢٦ - **الْوَصِيَّةُ الثَّلَاثَةُ:** وَأَعْطَى أَصْحَابَ الْقَرَابَةِ مِنْكَ حَقَّهُمْ مِنْ صِلَةِ الرَّجْمِ، وَالْمُودَّةِ وَالزِّيَارَةِ، وَحُسْنِ الْمُعَاشَرَةِ، وَإِنْ كَانُوا مُحَاوِجٍ وَأَنْتَ مُوسِرٌ فَأَنْفَقْ عَلَيْهِمْ، وَأَعْطِ الْمَسْكِينِ الَّذِي يَبْدُو مِنْ ظَاهِرِ حَالِهِ الْفَقْرَ، وَالْمَسَافِرِ الْمُنْقَطِعِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، **الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ:** وَلَا تَنْفَقْ مَالَكَ فِي الْمَعْصِيَةِ، أَوْ عَلَى وَجْهِ الْإِسْرَافِ وَالْعَبَثِ إِنْفَاقًا فِي غَيْرِ حَقِّهِ، يَحْكُمُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَقْلِ وَالرُّشْدِ بِأَنَّهُ مِنَ التَّبْذِيرِ.

٢٧ - إِنَّ الْمُنْفَقِينَ أَمْوَالَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ كَانُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيَاطِينِ وَأَصْدِقَاءَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَطِيعُونَهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَهُمْ بِهِ مِنَ الْإِسْرَافِ، وَفِيمَا يَسْتَدْرِجُونَهُمْ مِنَ الْمُبَاحَاتِ إِلَى الْمَكْرُوهِاتِ، فإِلَى الْمَحْرُمَاتِ الصَّغْرَى، فإِلَى الْكِبَائِرِ الْكَبْرَى، ثُمَّ إِلَى الْكُفْرِ وَالْعِيَاذِ بِاللَّهِ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ شَدِيدَ الْجُحُودِ لِنِعْمَةِ رَبِّهِ، فَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُطَاعَ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى مِثْلِ عَمَلِهِ.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا تَبْذُلُونَ هَمَلًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نَفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتَ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ بَذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

٢٨ - وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرْتَ أَنْ تُؤْتِيَهُمْ، انتظر رزق من الله ترجوه أَنْ يَأْتِيَكِ، وتتوقع حصوله راجباً فيه، فقل لهم قولاً لئناً جميلاً، وَعِدْهُمْ وَعْداً طيباً به قلوبهم.

٢٩، ٣٠ - الوصية الخامسة: ولا تُمِسِكْ يَدَكَ عن النفقة في الحق والخير، كالمغلولة يده لا يفتر على مدها، ولا تَبْسُطْهَا بالعطاء كل البسْط، فتعطي جميع ما عندك، فتعبد ملوماً عند أصحابك من سوء تصرفك؛ بسبب إمساكك شحاً وبخلًا، منقطعاً عاجزاً عن تحقيق مطلوباتك؛ بسبب بسطك يدك تبذيراً وإسرافاً؛ إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي يُمَدِّدُ بِعِطَاءَاتِ رِبَوِيَّتِهِ دَوَاماً - يا أيها الإنسان الموضوع في الحياة الدنيا موضع الامتحان - يُوَسِّعُ الرِّزْقَ ويكثره في الحياة الدنيا لِمَنْ يَشَاءُ، وَيُضَيِّقُ وَيُقْتِرُ؛ لِيَتِمَّ امتحان الناس في المجالات التي يطلب فيها الشكر بالبذل والعطاء، ويطلب فيها تزكية النفس من داء الشح والبخل، ويطلب فيها الصبر والرضا عن الله، والقناعة والتسليم لمقاديره الحكيمة، إِنَّهُ سبحانه كان من الأزل إلى الأبد عليمًا بأحوال جميع عباده، وما يصلحهم، علم حضور وشهود وتدبير، بصيراً بخفايا نفوسهم، لا يغيب عن علمه شيء من أحوالهم.

٣١ - الوصية السادسة: ولا تقتلوا أولادكم؛ لتتخلصوا من النفقة عليهم خوف حدوث فقر في المستقبل، نحن نتكفل برزق الأولاد، ورزق آبائهم المنفقين عليهم، إِنَّ قَتْلَ الأولاد كان إثماً عظيماً، وذنباً كبيراً.

٣٢ - الوصية السابعة: ولا تَقْرَبُوا الزَّنى، إِنَّهُ كان قبيحةً وبُشَ الزَّنى طريقاً إلى تحقيق شهوات الفروج. والنهي عن اقتراب الزَّنى أبلغ من النهي عنه؛ لأنه نهى عن الاقتراب من مُقَدِّماته التي قد تُفْضي إليه، كالنظر والملامسة والتقبيل، ونحو ذلك.

٣٣ - الوصية الثامنة: ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا إلا بالحق الشرعي الذي أَدَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فيه بالقتل، كالثب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة، ومن قُتِلَ مظلوماً عَمْدًا وَعُدوانًا، فقد جعلنا لولي أمره من وارث أو حاكم، قوَّةً وولايةً على القاتل بالقتل أو أخذ الدية، فلا يُشْرِفُ الولي بالقتل، فيقتل غير القاتل، أو يقتل به جماعة، إِنَّ وَلِيَّ القاتل كان منصوراً على القاتل باستيفاء القصاص منه، أو الدية.

٣٤ - الوصية التاسعة: ولا تَقْرَبُوا مَالَ الولد الصغير الذي مات أبوه، وهو دون سن الحُلُم، إلا اقتراباً ومباشرة بالطريقة التي هي أَحْسَنُ بتنمية ماله وحفظه، حتى يَبْلُغَ الْيَتِيمُ كَمَالَ عقله ورشده، ويُمكنه القيام بمصالح ماله، الوصية العاشرة: وأَوْفُوا بِأوامر الله ونواهيه، وما بينكم وبين العباد من موثيق اتفقتم عليها بلا نقض ولا إخلاف ولا نقص؛ إِنَّ معطي العهد كان مسؤولاً يوم القيامة عند الله عن حفظه والوفاء به.

٣٥ - الوصية الحادية عشرة: وَأَتُوا الْكَيْلَ ولا تنقصوه إذا كلَّتم لغيركم، وزنوا بالعدل المستقيم، ذلك خير من الطمع بزيادة على حَقِّكم، أو نقص من حق الشخص الذي يتعامل معكم، وأحسن مَالاً وعاقبة يوم الدين.

٣٦ - الوصية الثانية عشرة: ولا تَتَّبِعْ - أيها الإنسان - في أي أمر من أمور حياتك شيئاً لا تعلم أنه حقٌ وصواب من قول أو فعل؛ فإن لديك من أدوات المعرفة ما تستطيع به التبصُّر في الأمور، فإذا أنت اتبعت ما ليس لك به علم فقد عطلت أدوات المعرفة التي لديك؛ إِنَّ الإنسان مسؤولٌ عَمَّا استعمل فيه سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، وعُظم قلبه الذي هو أداة الإدراك في الإنسان، ومركز استقرار العلوم والمعارف، والذي تنطلق منه الإرادات.

٣٧ - الوصية الثالثة عشرة: ولا تَمْشِ - أيها المؤمن - في الأرض بَطَرًا وَكِبَرًا وَخِيَلًا، إِنَّكَ حين تضرب الأرض برجلك، وتتطاوَل مُستعليًا بقامتك على الناس، لن تقطع الأرض حتى تبلغ آخرها، ولا تقدر أن تُطاولَ الجبال وتساويها بقامتك، فالأرض التي تمشي عليها - أيها المستكبر - أصْلَبُ من قوتك، والصخور الجامدة المُكْدَّسة جبالاً أطول من قامتك، فلا تزعمَنَّ أن شدة الوطء، أو تطاول الجسم، يمنحانك عِظْماً حقيقياً.

٣٨ - كُلُّ ما ذَكَرَ من الوصايا السابقة، كان الجانب السيئ المنهي عنه، عند ربك مكروهاً غير محبوب بصفة ثابتة دواماً.

وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتَعَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ رَجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ۝ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيَ تَحَنُّنٌ تَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا لَنَافِلُهُمْ كَانَ خَطَا كَبِيرًا ۝ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ۝ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۝ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝

٣٩ - ذلك الذي بيّناه من الأوامر والنواهي في هذه الآيات التي تتناول كثيراً من جزئيات السلوك الإنساني ممّا أوحيناه إليك - يا رسول الله - من حُسن التصرف في الأمور، ووضع الأشياء في مواضعها الملائمة، والتي يرتقي بها الإنسان في سُلّم الكمال الإنساني، وهي شرائع مُحكمة واجبة الرعاية في جميع الرسالات، ولا تجعل - أيها الإنسان - مع الله إلهاً آخر، فتلقى يوم الدين في نار جهنم موصوفاً بالذنوب والإثم، مطروداً مُبعداً عن كل خير.

٤٠ - أنازل ربكم عن وحدانيته، فخصّصكم واختاركم - يا مشركي مكة - بأفضل الأولاد وهم البنون، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثاً، كما تزعمون؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً شنيعاً بإضافة البنات إليه، وبتفضيل أنفسكم عليه، حيث تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم.

٤١ - ونؤكد لكم أننا بيّنا وأوضحنا ونوعنا في هذا القرآن الطرق الحكيمة للوصول إلى الإقناع الفكري، وفي سائر وسائل الهداية وأساليبها، بالتحويل فيها من وجه إلى وجه آخر، بحسب مقتضيات أحوال المخاطبين الفكرية والفسيّة؛ ليكون الحق الرباني في ذاكرتهم وليتخطّوا ويعتبروا بما فيه من أساليب البيان والدعوة والجدال، وما يزيدهم تصريفاً وتذكيراً إلا تَباعداً عن الحق، كحالة المذعور الشارد.

٤٢ - قل - يا أيها الداعي إلى الله - لهؤلاء المشركين: لو كان مع الله آلهة تحكم في الكون وتتصرف كما يقولون، إذا طلب هؤلاء الآلهة الأرباب إلى صاحب العرش الذي يعترفون به رباً خالقاً له، طريقاً بالمُغالبة والفهر؛ لأن الإلهية المتضمنة كمال التصرف وكمال القدرة لا تقبل الخضوع والاستسلام لرب هو إله معبود فوقها، أما وإنها لم تتخذ هذا السبيل لرب العرش، ورضيت بضعفها وإلهيتها المزعومة في نطاق الأرض، فإن ضعفها هذا من الأدلة القاطعة على

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبِّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
آخَرَ فَلْتَلْفِظْ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ
بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ أَنْ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾
قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبِغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا
﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ
السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ
لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ
الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا
مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَجَعَلْنَا أَسْمَاعَهُمْ أَصْفًا لَّا يَسْمَعُونَ
﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ
يُخَوِّفُونَ الظَّالِمِينَ أَنْ يَخْلَعُوا أَوْ يُسْجَنُوا أَوْ يُخْرِجُوا أَوْ يُنْفَكُوا
﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾
وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفًا آءِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

أنها مخلوقة كسائر المخلوقات، وقد انتحلت لها الإلهية انتحالاً باطلاً، لا يُصاحبه دليل تقبله العقول السليمة.

٤٣ - تنزه الله سبحانه وتقدس عما يصفه به المشركون، وتعالى علواً كبيراً لا حدود ولا نهاية له.

٤٤ - تنزه لله عز وجل السموات السبع والأرض ومن فيهن من الملائكة والإنس والجن، وما من شيء في هذا الوجود كله إلا يُنزه الله تعالى تنزيهاً مقروناً بالثناء عليه سبحانه، ولكن لا تفهمون تسييحهم ما عدا من يسبح بلغتكم ولسانكم، إنه كان دوماً كثير الحلم بعباده، لا يُعجل بمعاينة المشركين المصيرين على كفرهم، رغبة في أن يتوبوا، فإذا استجابوا لربهم غفر لهم؛ لأنه كثير المغفرة لعباده.

٤٥ - وإذا قرأت القرآن فسمعه هؤلاء المشركون، جعلنا بينك وبين استماع الذين لا يؤمنون بالآخرة لقراءتك القرآن، حجاباً يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به؛ بسبب تعلّقهم بشهواتهم وأهوائهم.

٤٦ - وجعلنا على قلوبهم أغطية؛ لئلا يفهموه، وفي آذانهم صمماً وثِقلاً شديداً؛ لئلا يسمعه؛ بسبب انصرافهم عن الآخرة، وتعلّقهم بالدنيا، وإذا حضروا مجلس استماع القرآن، وسمِعوا آيات دالات على وحدانيته، وفهموا منها الدلالة على بطلان ما يعبدون من آلهة، انصرفوا مبتعدين، جاعلين ما كرهوا استماعه مطروحةً على أدبارهم غير عابئين بها، حالة كونهم مبتعدين كحالة المذعور الشارد.

٤٧ - نحن أعلم بالطريقة التي يستمع بها كفار قريش القرآن، حين يستمعون إليك - يا رسول الله - وأنت تقرأ القرآن استماع عازم على الرفض، وتصيّد ما يتخذونه ذريعةً للتشهير بك، والظعن فيما تتلو عليهم، ونحن أعلم حين يُسرّون الحديث في أمرك، حين يقول المشركون: ما تتبعون إلا رجلاً قد خبله السحر فاختلط عقله.

٤٨ - انظر - يا رسول الله - بفكرك متعجباً مستنكراً، كيف اضطنعوا كاذبين لك أوصافاً تنافي صفاتك العظيمة التي تتحلّى بها، فقالوا: ساحر، شاعر، كاهن، مجنون، فضّلوا في متاهات الباطل، وحازوا فلا يستطيعون وصولاً إلى طريق الحق.

٤٩ - وقال المشركون مُستبشرين بالإعادة بعد الموت: إذا كنا عظاماً نخرة وأجزاء مُفتّنة أثناً لمبعوثون يوم القيامة خلقاً جديداً؟!

٥٠ - قل لهم - يا رسول الله - على جهة التعجيز: كونوا حجارة في الشدة، أو حديدًا في القوة.

٥١ - أو كونوا خلقاً ممّا ترونه كبيراً في صدوركم، كالسما والارض والجبال، فيقولون: مَنْ يبعثنا بعد الموت؟ قل لهم - يا رسول الله -: الذي خلقكم أول مرة هو الذي يعيدكم إلى الحياة مرة ثانية، فمن قَدَرَ على الإنشاء قَدَرَ على الإعادة، فسيُحَرِّكون رؤوسهم إذا قلت لهم ذلك، مُستهزئين بما تقول، ويقولون: متى زمن البعث والقيامة؟ قل: أتوقع أن يكون موتكم قريباً، فعندها تنكشف لكم حقائق الآخرة التي لا تؤمنون بها، وأتوقع قرب الساعة التي يكون بها إنهاء ظروف الحياة الدنيا.

٥٢ - بعثكم لليوم الآخر، يكون يوم يدعوكم خالقكم من قبوركم إلى موقف القيامة، فتستجيبون مباشرة لأمره، استجابةً مقترنة بالحمد والثناء، إذ تعلمون يومئذ قدرته على البعث، فتنتقل ألسنتكم بحمده، وتظنون عند البعث أنكم ما لبثتم في البرزخ بين الموت والبعث إلا زمناً قليلاً.

٥٣ - وقل - يا رسول الله - لعبادي المؤمنين يقولوا دوماً الكلمة التي هي أحسن في كل ما ينطقون به؛ إن الشيطان يفسد ويلقي العداوة بينهم بوساوسه وتسويلاته؛ إن الشيطان كان للإنسان عدواً ظاهر العداوة. وفي الآية: الأمر بحسن العشرة بين المؤمنين، وخفض الجناح، ولين الجانب.

٥٤ - ربكم - أيها الناس - أعلم من كلّ عليم بكم، إن يشأ يرحمكم، فيغفر ذنوبكم بمقتضى حكمته، أو إن يشأ يعذبكم عقوبة لكم على كفركم ومعاصيكم، وما أرسلناك - يا رسول الله - عليهم حفيظاً وكفياً، ولست مطالباً بتحويل الناس من الكفر إلى الإيمان،

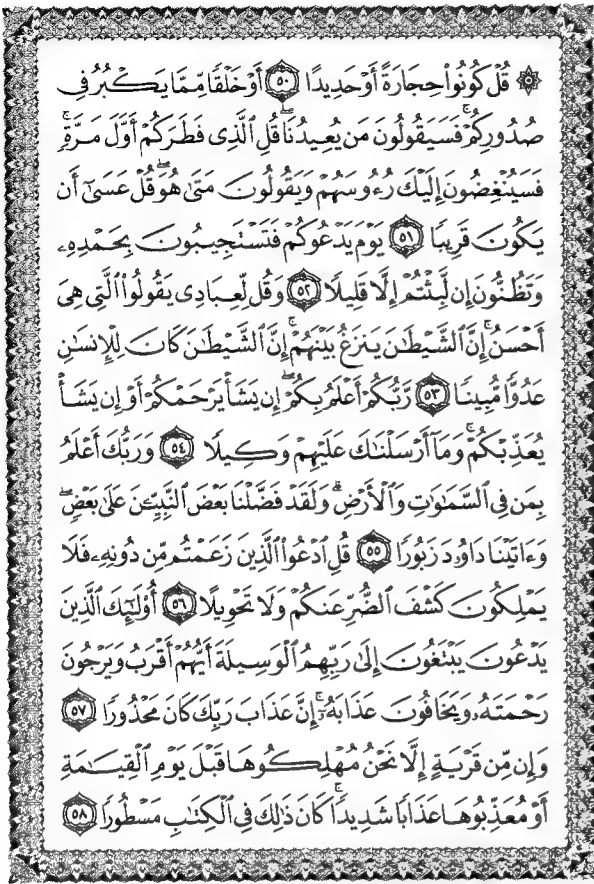
ومن العصيان إلى الطاعة، بل كل واحد مسؤول عما اختاره لنفسه مسؤولية تامة.

٥٥ - وربك - يا رسول الله - أعلم من كلّ ذي علم بمن في السموات والأرض، ويعلمنا بكلّ من في السموات والأرض، فضلناك عليهم جميعاً، إذ آتيناك ما لم نُؤت أحداً منهم من تكريم وتشريف، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض، كما فضلناك على جميع من خلقنا في السموات والأرض، وآتيناه داود كتاباً فيه تحميد وتمجيد ومواظ، فضلناه به على كثير من أنبياء بني إسرائيل الذين لم نُؤتهم كتباً.

٥٦ - قل - يا رسول الله ويا كلّ داع إلى الله من أمته - للمشركين: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله إذا نزل عليكم الضرّ، فلا يملكون كشف الضرّ عنكم، ولا يملكون نقله إلى غيركم ممن لم يعبدكم، ولا يحولون حالكم من العسر إلى اليسر.

٥٧ - أولئك الفضلاء رفيعو المنزلة الذين اتّخذهم الكفار آلهة كالملائكة وبعض الإنس والعجنّ، يطلبون إلى ربهم المنزلة والدرجة العليا، ويتقربون إليه بالعمل الصالح، ويتسابقون بنوافل الطاعات، يتفاضلون فيما بينهم في القرب، أيهم أقرب فهو أسرع استجابةً، وأكثر قبولاً عند ربه، ويتوقعون أنّ بعد أن عطاءه ومعونته وتوفيقه ودخول جنته، ويخافون عذابه، فيفعلون ما أمر الله به، ويجتنبون ما نهى الله عنه؛ إنّ عذاب ربك الذي أعدّه للكافرين العصاة كان حقيقاً بأن يحذره كلّ أحد من ملكٍ مقرب أو نبيٍّ مرسل، فضلاً عن غيرهم من الخلائق.

٥٨ - وما من مُجمّعات سكنية بشرية صغيرة أم كبيرة، حتى أعظم المدن وأكبرها، إلا نحن مهلكوها هلاك استئصال في ظروف امتحانهم في الحياة الدنيا قبل يوم القيامة بسبب كفر أهلها وطغيانهم، أو مُعَذِّبوها عذاباً شديداً دون عذاب الاستئصال الشامل، بسبب كثرة ذنوب أهلها ومعاصيهم، كان بيان ذلك الإهلاك أو العذاب الشديد في اللوح المحفوظ مكتوباً مُتّبِتاً قبل أن يخلق الله الناس، ويمتحنهم في الحياة الدنيا.



٥٩ - وما كان سبب تركنا إرسال الآيات الحسيّة الخارقة للسنن الثابتة التي سألها كفار قومك، إلا أن كذب بها الأولون بعد إرسالها استجابة لمطالبهم، فأهلكناهم إهلاكاً عاماً، فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكناهم، وآتيناهم «ثمود» الناقة معجزة بيّنة واضحة، على وفق ما اقترحوا على رسولهم «صالح»، فظلموا جاحدين بها، وظلموا بعقرها، فاعجلناهم بالعذاب المُستأصل، وما تُرسل بالآيات المُفترحة إلا تخويفاً من نزول العذاب، فإن لم يخافوا وَقَعَ عليهم.

٦٠ - واذكر - يا رسول الله - حين قلنا لك: إن ربك أحاط بالناس، فهم في قبضته وقدرته، لا يقدرون على الخروج من مشيئته، وهو حافظك ومانعك منهم، فلا تهيبهم وامض لما أمرك من التبليغ للرسالة، فهو ينصرك ويَقْوِيكَ على ذلك، وما جعلنا العجائب والآيات التي أَرَيْنَاكَ ببصرك يقطعة ليلة المعراج إلا اختباراً للناس؛ لتمييز كافرهم من مؤمنهم، وما جعلنا شجرة الزقوم التي جاء القرآن بلعن أكليها إلا عذاباً للظالمين في دار العذاب يوم الدين، وتُخَوِّفُ أمة مشركي مكة بالمُخَوِّفات من البأساء والضراء، فما يزيدهم تخويفنا إلا تَجَاوُزاً للحُدِّ في كفرهم وتمرداً عظيماً.

٦١ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَفِّي لكلامنا - قولنا للملائكة: اسجدوا لآدم، فسجدوا جميعاً إلا إبليس، استكبر وقال: أَسْجُدُ وأنا المخلوق من نار لِمَنْ خَلَقْتَهُ من تراب وماء؟

٦٢ - قال إبليس: أَرَأَيْتَ نَفْسَكَ وما فعلت؛ إذ كَرَّمْتُ عَلَيَّ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ التَّكْرِيمَ، وَفَضَّلْتُهُ عَلَيَّ؟! أقسم لئن أبقيتني حياً إلى يوم القيامة، لأَجْعَلَنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ كالدواب التي تُطَوِّعُ بوضع اللُجَمِ في أحناكها، ولَأُسَيِّرَنَّهُمْ في هذه الحياة الدنيا عصاةً لك، ولأنقلنَّهم خطوةً فخطوة، حتى أُوصلَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لي منهم إلى دركة الكافرين المجرمين الذين يستحقُّون العذاب الأبدي في الجحيم، إلا

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
وَأَتَيْنَاهُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَنْ رُسِلَ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخَوَّفَ ۖ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا
جَعَلْنَا الرَّءْيَا لَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ
فِي الْقُرْآنِ وَخَوَّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ۖ
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي
كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَخِرَّنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُخْرِجَنَّكَ
ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مُوقُورًا ۖ وَاسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَعَتْ
مِنْهُمْ بَصُوتِي وَأَجَلَبَ عَلَيْهِمْ بَحِيلِي وَرَجَلِي وَشَارِكُهُمْ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
عُرُورًا ۖ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۖ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ
فِي الْبَحْرِ لِيَبْغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۖ

قليلاً من المعصومين الذين لا يتأثرون بوساوسي وتَسْوِيلاتي، من عبادك المخلصين.

٦٣ - قال الله تعالى لإبليس: امض لِسَانُكَ، فأنت مُمَكِّنٌ ممَّا أَعْدَدْتَ نَفْسَكَ للقيام به من إغراء وإغواء، دون أن يكون لك عليهم سلطان يلغي إراداتهم الحرة، فَمَنْ تَبِعَكَ في كفرك وتمردك من ذُرِّيَّةِ آدَمَ، فإنَّ عذاب جهنم جزاؤك وجزاء أتباعك جزاءً وافرًا كاملاً.

٦٤ - واعمل بوسائلك الصوتية الإعلامية؛ لتستخفَّ من استطعت من ذُرِّيَّةِ آدَمَ، فتنهضهم من مكان استقرارهم بدعائك إِيَّاهم إلى معصية الله بكلِّ وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمُشَاهَدَةِ، واجمع عليهم مُتَقَوِّياً بفرسانك الذين يقاتلون على الخيول، وبالجند المُشَاة على أرجلهم، لتحقيق ما عَزَمْتَ عليه من إغراء وإغواء، وشاركهم في الأموال بإغرائهم بأكل الأموال بالباطل عن طريق البنوك الربويّة، والمعاملات المالية المحرَّمة، وشاركهم في الأولاد بإغرائهم عن صراط الله المستقيم، بتزيين حبِّ الشهوات المحرَّمة، واستيلاد الأولاد بغير ما شرع الله، وزين لهم الوعود الكاذبة، ومَنَّهُم الأمانِي الباطلة، وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا وَعُوداً خادعةً يُزَيِّنُ فيها الباطل بما يُظَنُّ أنه حقٌّ.

٦٥ - إنَّ عبادي المؤمنين الصَّالِحِينَ ليس لك عليهم سلطان تؤثر به عليهم، تُلغِي به إراداتهم الحرَّة، ولا يكون منك لهم أكثر من اتِّخَاذِ الأسباب الإغوائية غير الإكراهية ولا الجبرية، ولن تؤثر فيهم إغراءاتك ووساوسك وتَسْوِيلاتك؛ لأنهم يؤمنون بي، ويستعيذون بي، ويتوكلون عليّ، فأكفيهم بحفظي وعزَّتي، وكفى برَبِّكَ حافظاً، يدفع عنهم كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسَهُ، ويعصمهم عن إغوائه وإضلاله.

٦٦ - ربُّكم - أيها الناس - الذي يَسُوقُ وَيُجْري لكم السُّفُنَ برفق في البحر، ضمن ما سَخَّرَ لكم من أنظمة وقوانين ثابتة في كونه؛ لِيَتَطَلَّبُوا من رزقه بالأرباح في التجارة وغيرها؛ إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا، حيث يَسِّرَ لكم هذه المنافع والمصالح، وسهَّلَهَا عليكم.

٦٧ - وإذا وَصَلَ الضرُّ - وهو ما تكرهون من المؤلّمات - حدَّ المسّ، ولكن لم يصل حدَّ العذاب الأليم المهلك، أو الإصابة القاتلة، ذهب عن أوهامكم وخواطركم كلُّ ما تدعون في حوائجكم من الأصنام وغيرها، إلّا الله وحده، فإنّكم لا تذكرون سواه، ولا يخطر ببالكم غيره؛ لأنّه القادر على إعانتكم ونجاتكم، فلمّا دعوتم الله ربّكم، واستجاب دعاءكم، وأنّجاكم من هَوْل البحر وشدّته، وأوصلكم إلى البرّ، وشعرتم بالأمن والطمأنينة، أعرضتُم عن الإيمان والإخلاص والطاعة، وكفرتُم النعمة، وكان الإنسان كثير الجُحود لنعم الله عليه، لا يؤدّي واجب الشكر.

٦٨ - أملكتم بقدراتكم جانب البرّ، فأمتنم بعد إنجائكم أن تنهار بكم الأرض، فتغيّيون تحت الثرى؟ أو ملكتم بقدراتكم الرياح وإرسالها، فأمتنم أن يرسل عليكم ربكم ريحاً تحمل حجارة من السماء؟ ثمّ بعد أن يخسف الله بكم جانب البر، أو بعد أن يرسل عليكم حاصباً لا تجدوا لكم وكيلاً يتوكّل أمر دفع عذاب الله عنكم، أو يُسأل الله ويقاضيه عما أنزل بكم؛ إذ هو الفعّال لما يشاء، وأفعاله كلّها حكيمة.

٦٩ - بل أمتنم أن يعيدكم في البحر مرّة أخرى، ظانّين أنّ البحر هادئ، وأنّ الرياح مواتية، فيُرسل عليكم ريحاً شديدة تقصف لشدّتها ما مرّت به، فتُغرقكم بكفراكم النعمة وإعراضكم حين أنجيناكم، ثمّ لا تجدون لكم بعد أن تُغرقكم مُطالباً يطالبنا بما فعلنا انتصاراً لكم.

٧٠ - ونقسم مؤكّدين أننا كرّمنا بني آدم بالعقل والطق والتمييز واعتدال القامة وحُسن الصُورة، وبتسخير جميع ما في الأرض لهم، وحملناهم في البرّ على الدوابّ، والمراكب التي هديناهم إلى صُنْعها، وفي البحر على السفن، ورزقناهم في الحياة الدنيا من لذيذ المطاعم والمشارب والمناكح، ومُمَنّعات السمع والبصر وسائر الحواس، وفَضَّلناهم على كثير من المخلوقات تفضيلاً عظيماً.

٧١ - وَضَع في ذاكرتك - أيها المُتلقّي لبياننا - يومَ البعث حين نُقسّم الناس إلى زُمر، بحسب أئمّتهم في الدنيا، وندعو كلّ زمرة منهم معرّفين بإمامهم الذي كانوا يتبعونه في الدنيا، وتكون هذه الدعوة بعد أن يكون أهل الموقف قد تسلّموا كتب أعمالهم، فَمَن أوتي من هؤلاء المدعويين كتاب أعماله يمينه، فأولئك ذوو المنزلة العالية عند ربّهم، يقرّون كتاب حسّاتهم أحسنّ قراءة وأبينّها، فرحين بما تفضّل الله عليهم به من مضاعفات للحسنات، وتجاوز عن السيّئات، ولا يُنْقَضون من ثوابِ أعمالهم أدنى شيء، وإن كان مقدار الخيط الذي يكون في شقّ النواة.

٧٢ - وَمَن كان في هذه الحياة الدنيا كافراً ضالّاً بكفره عن سبيل سعادته العاجلة والآجلة، فهو في الآخرة محكوم عليه بأنه أعمى مفروز مع زمرة الكافرين، وهو يومئذ أكثر ضلّالاً عن سبيل ينجيه من عذاب الله، إذ لا يجد لنفسه طريقاً يسلكه إلا طريق جهنم التي يكون فيها خالداً أبداً.

٧٣ - وقد قارب المشركون ليُغروك - يا رسول الله - بمعسول القول، والمواعيد الكاذبة، صارفين إياك عن تلاوة أو تطبيق بعض الذي أوحينا إليك مما يسوؤهم سماعه أو تطبيقه؛ لِتَحْتَلِقَ وتتقول علينا ما لم نُقله، ولتغيّر في سلوكك سلوكاً آخر يرضي كبراء قومك، ولو فعلت ما دَعَوُكَ إليه، إذن لَأَتَخَذُوك حبيباً خالصاً، تخلّلت مودته في قلوبهم.

٧٤ - ولولا أن ثبّنتك على الحقّ بعصمتنا، وشَدَدنا عزمك على عدم الاستجابة لإغراءاتهم، لقاربت أن تميلَ إليهم بحديث النفس شيئاً قليلاً. ولكن الله ثبّتك ثبّتاً، فمَنَعك بالعصمة من أن تُقارب المَيلَ، فضلاً عن المَيلِ.

٧٥ - لو ركنك إليهم شيئاً قليلاً، وأنت الأسوة الحسنة للمؤمنين، لأذنتك ضِعْف ذنبك في الحياة مِثلَين فأكثر، وضعف عذاب الممات في البرزخ بين الموت والبعث، ثمّ إذا أنزلنا بك العذاب على هذه المعصية الكبيرة لا تجد لك نصيراً ينصرك علينا، فيرفع عنك من عذابنا، لكنك لم تفعل شيئاً من ذلك، وتوكّلت علينا فثبّتناك وعَصَمناك.

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَايَهُ يَتْبَعُ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَن أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْنِيًّا ﴿٧١﴾ وَمَن كَان فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذَا لَا تَجِدُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَا أَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾



٧٦ - ولقد قاربَ المشركون أن يستخفوك بالمثيرات المزعجات ليُخرجوك من «مكة»، لكنك لم تتأثر بما فعلوا، فلم تهاجر من مكة حينئذ، لأن الحكمة لم تقتض خروجه، فلم يأذن لك ربك بالهجرة، وإن أخرجوك بالاستفزاز أو بالإكراه لا يبقون بعد إخراجك من «مكة» إلا زماناً قليلاً، حتى يَهْلِكُوا. وهذا ما حصل فعلاً إذ اضطروه إلى الخروج حين هاجر بعد مدة من الزمن، فدبر الله عز وجل استدراجهم إلى مصارعهم في «بدر»، في السنة الثانية من الهجرة.

٧٧ - حالة كَوْن هذا العقاب لمُخرجي رسولهم طريقتنا المتبعة في كل قوم أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم، وأن لا يُعَذِّبهم ما دام نبئهم بينهم، ولا تجد - يا رسول الله - لِسُنَّة الله تبديلاً ولا تحويلاً عن مَجراها.

٧٨ - أقم الصلاة من بعد زوال الشمس عن وسط السماء، بميلها وسط السماء لجهة الغرب، ويدخل في هذا صلاة الظهر والعصر، وبعد غروب الشمس إلى آخر ظلمة الليل، وهذا يتناول المغرب والعشاء، وأقم صلاة الفجر، إن صلاة الفجر تشهدا ملائكة الليل وملائكة النهار.

٧٩ - وقم - يا رسول الله - بعد نومك، وصل بعض الليل، لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو قدرك ورفع درجائك، راجياً متربحاً أن ينعكس ربك شافعاً للناس يوم القيامة من أهوال الموقف، وقيمك مقاماً يحمدك عليه الأولون والآخرون.

٨٠ - وقال: رب أدخلني مدخل صدق في «المدينة»، وأخرجني مخرج صدق من «مكة»، واجعل لي من محض فضلك الواسع، وقدرتك الباهرة حُجَّةً بيّنة، وعزّاً ظاهراً، وقوة قاهرة تنصرني بها على من يكيديني ويقاوم دعوة الحق.

٨١ - وقال - يا رسول الله - للمشركين: جاء الأمر الثابت الذي لا شك فيه، المطابق للواقع، وذهب واضمحَلَّ الباطل الذي لا ثبات له لمخالفته للواقع؛ إن الباطل كان مُضمَّحلاً سريع الذهاب والزوال، ولو ظهر له زبدٌ خادعٌ يحسبه الجاهل المتسرع ذا قيمة حقيقية، مع أنه فارغ لا وزن له.

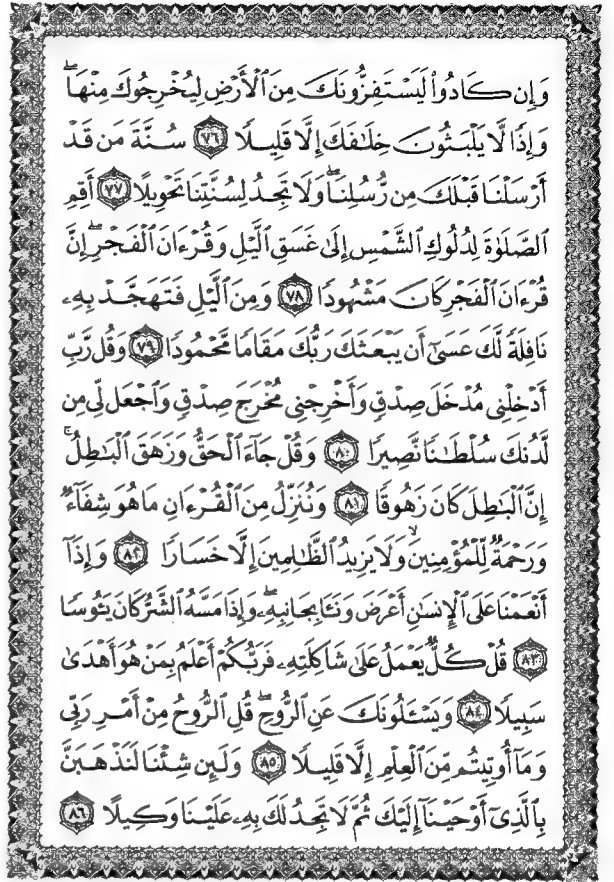
٨٢ - وتُنزل من آيات القرآن ما هو سبب بُرء من الاعتقادات الباطلة، والأخلاق المذمومة، ومن الأمراض الجسمانية، وهذا القرآن بما فيه من علم وحق وهداية رحمة للذين يؤمنون بما أنزل الله فيه، ويدفعهم إيمانهم إلى تطبيق شريعة الله لعباده، ولا يزيد هذا القرآن الكفار عند سماعه إلا نقصاً بالحرمان من السعادة يوم الدين، والهبوط في دركات العذاب؛ لتكذيبهم وكفرهم به.

٨٣ - وإذا أنعمنا على الإنسان بالصحة والسعة والعطاء من متاع الحياة الدنيا، أعرض عن ربه المنعم عليه، وابتعد بجانيه عن ذكرنا، وتكبر وتعظم عن عبادتنا وطاعتنا، كأن لم تنله نعمة منا، وإذا مسته الشدة والضُرُّ مساً خفيفاً كان شديد اليأس من رحمتنا، منقطع الأمل، ظاناً أنه لا خلاص له من الشر الذي جاءت بدايته مساً.

٨٤ - قل - يا أيها الناصح الداعي إلى الله - للذين إذا أنعم الله عليهم أعرضوا وبعثوا بجوانبهم، وإذ مسهم الشر كانوا يؤوسين: كل واحد من المعرض والمُقبل يعمل على طريقته ومذهبه الذي يشابه حاله في الضلال والهدى، فربكم أعلم من كل ذي علم بمن هو أوضح طريقاً، وأحسن مذهباً، وأتباعاً للحق.

٨٥ - ويسألك الكفار عن حقيقة الروح؟ قل لهم: إن الروح مخلوق بأمر التكوين الرباني مباشرة، وحقيقة الروح من علم ربي الذي استأثر به، وما أوتيتم أنتم وجميع الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً في جنب علم الله عز وجل.

٨٦ - لست أنت - يا رسول الله - الذي تنقل القرآن استخراجاً من قدراتك، بل نحن الذين أوحينا به إليك، ونحن الذين نشئته في ذاكرتك فنجعلك لا تنساه، وإن شئنا ذهبنا بالقرآن ومَحَوْنَاهُ من ذاكرتك، فلا تستطيع أن تتلو منه آية أو كلمة، ثم لا تجد بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده عليك، وإعادته محفوظاً مسطوراً. والمراد بالخطاب: تئيس الكافرين الذين يطالبون الرسول ﷺ بتغيير بعض ما في القرآن مما يكرهون.



٨٧ - لَكُنْ ثَبَّتْنَاكَ فَلَمْ تَرْكُنْ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، وَتَرَكْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَحْفُوظًا فِي صَدْرِكَ، إِنَّ فَضْلَ اللَّهِ كَانَ دَوَامًا عَلَيْكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - كَبِيرًا، بِسَبَبِ بَقَاءِ الْعِلْمِ وَتَتَابَعِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَجَعَلِكَ سَيِّدًا وَلَدَ آدَمَ، وَإِنزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ، وَخَتَمِ النَّبِيِّينَ بِكَ، وَإِعْطَاكَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْخَصَائِصِ وَالْفَضَائِلِ.

٨٨ - قل - يا رسول الله - لأئمة المشركين الذين توهَّموا أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ صَنَعِكَ، وَحَاولُوا إِغْرَاكَ بِتَبْدِيلِ مَا كَرِهُوا مِنَ الْقُرْآنِ: أَقْسَمَ لَكُمْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ فِي إِعْجَازِهِ الْبَيَانِيِّ، وَالْعِلْمِيِّ، وَالتَّشْرِيعِيِّ، وَفِي سَائِرِ وَجُوهِ إِعْجَازِهِ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مُعِينًا. فَلَا تَزْعُمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ وَضْعِي وَتَأْلِفِي، إِنَّمَا أَنَا مُبَلِّغٌ وَشَارِحٌ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ لِلنَّاسِ.

٨٩ - وَتَوَكَّدَ تَأْكِيدًا شَدِيدًا أَنَّنَا بَيْنَا وَكَرَّرْنَا وَنَوَعْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ نَمُودَجٍ يُقَاسُ عَلَيْهِ لِكُلِّ نَوْعٍ أَوْ عَمَلٍ أَوْ تَشْرِيعٍ أَوْ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي كَوْنِهِ، مِمَّا تَقْتَضِيهِ هُدَايَةُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا جُحُودًا لِلْحَقِّ وَإِصْرَارًا عَلَى الْبَاطِلِ.

٩٠ - وقال كبراء مُشْرِكِي قَرِيشٍ: لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ مِنْقَادِينَ لَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - حَتَّى تَأْتِنَا بِسُنَّةٍ خَوَارِقٍ: الْخَارِقِ الْأَوَّلِ: أَنْ تُخْرِجَ لَنَا مِنْ أَرْضِ «مَكَّةَ» عَيْنًا لَا يَنْضَبُ مَاؤُهَا وَلَا يَغُورُ.

٩١ - الْخَارِقِ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ لَكَ حَدِيقَةٌ فِيهَا نَخِيلٌ وَعِنَبٌ، وَتَجْعَلَ الْأَنْهَارَ تَجْرِي فِي وَسْطِهَا بِغَزَاةٍ.

٩٢ - الْخَارِقِ الثَّالِثِ: أَنْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ عَلَيْنَا قِطْعًا تُهْلِكُنَا كَمَا زَعَمْتَ، الْخَارِقِ الرَّابِعِ: أَنْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ مَجْتَمِعِينَ، نَرَاهُمْ مُقَابِلَةً وَعَيْنَانَا؛ لِيَشْهَدُوا بِأَنَّكَ رَسُولٌ صَادِقٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ آيَاتِهِ الْمُنَزَّلَاتِ.

٩٣ - الْخَارِقِ الْخَامِسِ: أَنْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ، الْخَارِقِ السَّادِسِ: أَنْ تَصْعَدَ فِي السَّمَاءِ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِأَجْلِ صُعُودِكَ، لَوْ صَعَدْتَ، حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ نَقْرَأُ فِيهِ أَمْرًا بِاتِّبَاعِكَ.

قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: عَجَبًا لَكُمْ - أَيُّهَا الْمُتَعَتِّتُونَ عَلَى رَبِّكُمْ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَنْزَهُوهَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمَنْ خَرَقَ نِظَامَ كَوْنِهِ اسْتِجَابَةً لِمَطَالِبِكُمُ التَّعَتُّتِ: - هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا كَسَائِرِ الرُّسُلِ، لَا يَأْتُونَ قَوْمَهُمْ إِلَّا بِمَا يُظْهِرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ، فَلَيْسَ أَمْرُ الْآيَاتِ إِلَيْهِمْ إِنَّمَا هُوَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

٩٤ - وَمَا مَنَعَ النَّاسَ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ وَبِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا أَنْ قَالُوا جَهْلًا مِنْهُمْ: أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا؛ لِيُبَلِّغَ مِنْ اللَّهِ مَطْلُوبَاتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، وَقَضَايَا دِينِهِ؟! فَمَنْ يَدَّعِي مِنَ الْبَشَرِ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ هُوَ مُدَّعٍ كَذَّابٌ، لَهُ غَايَاتٌ وَمَصَالِحٌ دُنْيَوِيَّةٌ.

٩٥ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين المنكرين أَنْ يُرْسَلَ اللَّهُ رِسَالًا مِنَ الْبَشَرِ: لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ مُسْتَوْتُونِينَ مُقِيمِينَ فِيهَا، وَكَانُوا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ كَالْإِنْسِ، لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا مِنْ جَنْسِهِمْ؛ لِأَنَّ الْجِنْسَ إِلَى الْجِنْسِ أَقْبَلُ. وَكَذَلِكَ حَالُ الْبَشَرِ، تَقْتَضِي الْحِكْمَةَ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ إِلَيْهِمْ بَشَرًا، يُبَلِّغُهُمْ تَعْلِيمَاتِ الدِّينِ، وَمَطَالِبَ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٩٦ - قل - يا رسول الله - لِمُكْذِبِي أَنْتَ رَسُولُ رَبِّكَ: إِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ لِي بِأَنِّي رَسُولُهُ، وَأَغْنِي اللَّهُ طَالِبَ ثَبَّتٍ مِنْ صَدَقَ رِسَالَتِي حَالَةَ كَوْنِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَلَى أَنِّي رَسُولُهُ إِلَيْكُمْ، بِمَا أَظْهَرَ مِنْ مُعْجَزَةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَالْآيَاتِ الْخَوَارِقِ الَّتِي آتَانِي اللَّهُ إِثْبَاهًا؛ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ كَانَ بِعِبَادِهِ مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ عَلِيمًا عَلَمًا تَامًا، مُصَاحِبًا لِكُلِّ أَجْزَاءِ الْعَمَلِ، ظَوَاهِرِهِ وَبَوَاطِنِهِ، بِصِيرًا بِكُلِّ خَفَايَا نَفْسِهِمْ وَأَعْمَاقِ سَرَائِرِهِمْ، فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّوَثُّقِ مِنْ كَوْنِ مُحَمَّدٍ رَسُولَ اللَّهِ، يُهَيِّئْ لَهُ مَا يُوصِلُهُ إِلَى الْاِسْتِيقَانِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ جَاحِذٌ مُعَانِدٌ، يَعَامِلُهُ اللَّهُ بِحَسَبِ مَا فِي نَفْسِهِ، عَلَى وَفْقِ مُقْتَضَى حُكْمَتِهِ. وَبِنَاءً عَلَى عِلْمِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ عِلْمَ خَبْرَةٍ وَرُؤْيَا نَافِذَةٍ إِلَى أَعْمَاقِ السَّرَائِرِ، فَإِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَحْكُمُ بِهَدَايَةٍ مِنْ اهْتَدَى بِاخْتِيَارِهِ الْحَرِّ، وَيَحْكُمُ بِضَلَالٍ مِنْ ضَلَّ بِاخْتِيَارِهِ الْحَرِّ.

الجزء الثاني من السيرة

سورة الأعراف

إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا لِسَعْفٍ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّقُوهُ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمُوتُ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

٩٧ - وَمَنْ يَحْكَمْ اللَّهُ لَهُ بِالْهَدَايَةِ بِنَاءً عَلَى إِيْمَانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ، فَهُوَ الْمُهْتَدِي حَقًّا؛ لِأَنَّهُ كَانَ مُهْتَدِيًّا بِاخْتِيَارِهِ الْحُرِّ فِي فِتْرَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَنْ يَحْكَمْ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالَةِ بِنَاءً عَلَى كُفْرِهِ وَمَا قَدَّمَ مِنْ سَيِّئَاتٍ، نَتِيجَةُ اخْتِيَارِهِ الْحُرِّ فِي فِتْرَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، نَالَ عَقُوبَةَ ضَلَالِهِ بِحَسَبِ دَرَكَتِهِ فِي الْإِثْمِ وَالْجَرَمِ، وَمَهْمَا اجْتَهَدَتْ بِمُخْتَلَفِ الْوَسَائِلِ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُوْلَاءَ الَّذِينَ حَكَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالضَّلَالِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَنْصُرُونَهُمْ، وَيُدْفَعُونَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا ضَالِّينَ بِاخْتِيَارِهِمُ الْحُرِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، إِهَانَةً لَهُمْ وَتَعْذِيبًا، لَا يُبْصِرُونَ، وَلَا يَنْطِقُونَ، وَلَا يَسْمَعُونَ، مَنْزِلُهُمْ وَمَكَانُهُمُ الَّذِي يَسْكُنُونَهُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ، كُلَّمَا سَكَنَ لَهَيْبُهَا، زِدْنَاهُمْ نَارًا مُتَاجِجَةً مُلْتَهَبَةً؛ لِثَلَاثِ تَقْلٍ نِسْبَةِ عَذَابِ الْمُعَذِّبِينَ الْمُجْرِمِينَ فِيهَا.

٩٨ - ذَلِكَ الْعَذَابُ جَزَاؤُهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِآيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ وَالْبَيَانِيَّةِ وَالْإِعْجَازِيَّةِ، وَقَوْلِهِمْ اسْتِنكَارًا لِلْبَيْتِ: إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا عِظَامًا بِالْيَةِ وَأَجْزَاءً مُتَفَتَّةً، تُبْعَثُ بَعْدَ ذَلِكَ خَلْقًا جَدِيدًا!!

٩٩ - أَنْطَمَسَتْ بِصَائِرِهِمْ، وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي عِظَمِهَا وَشَدَّتْهُمَا، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ فِي صَغَرِهِمْ وَضَعْفِهِمْ؟ وَجَعَلَ اللَّهُ لَهُوْلَاءَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَجْلًا تَنْتَهِي عِنْدَهُ حَيَاتُهُمْ بِالْمَوْتِ، لَا شَكَّ فِي مَجِيئِهِ، وَمَعَ وَضُوحِ الْحَقِّ وَدَلَالَتِهِ أَبْنَى الْجَاحِدُونَ الْمُعَانِدُونَ إِلَّا جُحُودًا وَعِنَادًا.

١٠٠ - قُلْ لَهُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -: لَوْ كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ نِعَمِ اللَّهِ وَرِزْقِهِ، الَّتِي لَا نِهَايَةَ لَهَا، إِذَا لَبِخْتُمْ بِهَا، فَلَمْ تَعْطُوا مِنْهَا غَيْرَكُمْ؛ خَشْيَةَ الْفَقْرِ وَالْثِقَادِ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ بِفِطْرَتِهِ مُمَسِّكًا بِخَيْلٍ شَحِيحًا مَعَ سَعَةٍ مَا يَمْلِكُ.

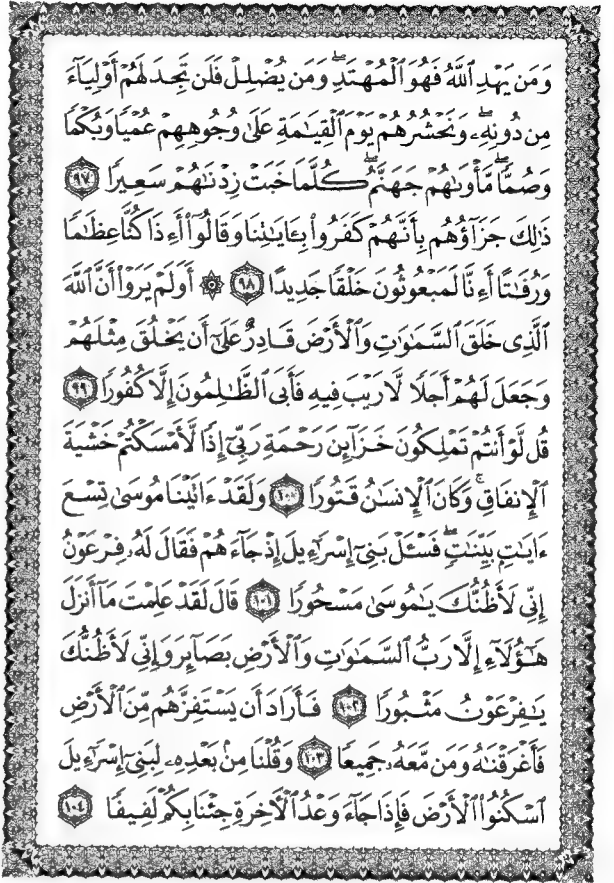
١٠١ - وَنُوَكِّدُ أَنَّنَا آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ مُعْجَزَاتٍ وَاضِحَاتٍ خَارِقَاتٍ

لِلنُّظْمِ الْكُونِيَّةِ، شَاهِدَاتٍ عَلَى صِدْقِ نَبِيِّتِهِ، وَهِيَ: الْعَصَا، وَالْيَدِ، وَالطُّوفَانِ، وَالْجَرَادِ، وَالْقُمَّلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ، وَآيَةُ الرُّجُزِ، وَهُوَ عَذَابُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِفِرْعَوْنَ وَمِثْلِهِ كَأَمْرَاضٍ وَأَوْجَاعٍ لَا عَهْدَ لَهُمْ بِمِثْلِهَا، وَآيَةُ السُّنَيْنِ الْمُجْدِبَاتِ وَالنَّقْصِ فِي الثَّمَرَاتِ، وَإِذَا كُنْتَ - أَيُّهَا الْمُتَعَتِّ - شَاكَاً فِي خَبَرِنَا، فَاسْأَلْ يَهُودَ الْمَدِينَةِ وَأَحْبَارَهَا عَنْ هَذَا النَّبَا فِي وَقْتِ أَنْ جَاءَ مُوسَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِآيَاتِنَا التَّسْعِ الْبَيِّنَاتِ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنَ مُسْتَكْبِرًا مُعَانِدًا جَاحِدًا: إِنِّي لَأَظُنُّكَ - يَا مُوسَى - مُسْحُورًا. وَإِنَّ حَالَ كِبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ الَّذِينَ الْخُورُ بِمُطَالَبِهِمُ التَّعْتِيَةَ لآيَاتِ خَارِقَاتٍ، وَهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِلْإِيْمَانِ كَحَالِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالْفِرْقِ.

١٠٢ - قَالَ مُوسَى: أَوُكِّدُ لَكَ - يَا فِرْعَوْنَ - أَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ التَّسْعِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ تُبْصِرُ مَنْ يَشْهَدُهَا بِصِدْقِي، وَإِنِّي لَأَظُنُّ ظَنًّا رَاجِحًا، مُعْتَمِدًا عَلَى دَلَائِلِ سُنَنِ اللَّهِ الدَّائِمَةِ، أَنَّكَ - يَا فِرْعَوْنَ - مُهْلِكَا؛ بِسَبَبِ طُغْيَانِكَ وَكُفْرِكَ.

١٠٣ - فَأَرَادَ فِرْعَوْنَ أَنْ يُخْرِجَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ «مِصْرَ» الَّتِي كَانُوا يَسْكُنُونَهَا، وَيَسْتَخْفُّهُمْ بِالْمُزْعَجَاتِ وَالْمُخِيفَاتِ حَتَّى يَتَوَزَّعُوا مُفْرَقِينَ أَذْلَاءَ مُهَانِينَ فِي أَرْضِ «مِصْرَ»، حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُمْ تَجَمُّعٌ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، فَأَغْرَقْنَا بِعِظَمَةِ رَبُوبِيَّتِنَا وَبِحُكْمَتِنَا وَعَدْلِنَا، فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، وَنَجَّيْنَا مُوسَى وَقَوْمَهُ.

١٠٤ - وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: اسْكُنُوا الْأَرْضَ مُشْتَتِينَ فِيهَا خَارِجَ أَرْضِ «فِلَسْطِينَ»، الَّتِي أَسْكَنْتُمْ فِيهَا لِتَقِيمُوا الدِّينَ، فَعَلَّوْهُمْ فِيهَا مُسْتَكْبِرِينَ وَمُفْسِدِينَ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ مِنْ إِفْسَادِكُمْ، جِئْنَا بِكُمْ مِنْ أَشْجَاتِ الْأَرْضِ مُجْتَمِعِينَ مِنْ أَخْلَاطِ شَتَّى، إِلَى «فِلَسْطِينَ»، لِتَنَالُوا عَقُوبَةَ رَبِّكُمْ بِأَيْدِي عِبَادٍ لَنَا مُسْلِمِينَ، يَسْؤُونَ وَجُوهَكُمْ، وَيُحْطَمُونَ مَا عَلَوْا مِنْ مَنَاشِئِكُمْ تَحْطِيمًا، وَيَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى مُعْظَمِينَ لَهُ، كَمَا قَدَّرْنَا أَنْ يَدْخُلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي عَهْدِ خُلَافَةِ عُمَرَ.



١٠٥ - وما أنزلنا القرآنَ إلا مُتَّصِفًا بِالْحَقِّ الْمَطَابِقِ لِلْوَاقِعِ، وَحَمَلَهُ أَمِينُ الْوَحْيِ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَلَّغَهُ الرَّسُولُ مُحَمَّدًا ﷺ كَمَا تَلَقَّاهُ عَنْ رَبِّهِ، لَمْ يَغْيُرْ مِنْهُ حَرْفًا وَاحِدًا، فَنَزَلَ مُتَّصِفًا بِالْحَقِّ، وَوَصَلَ إِلَى الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُتَّصِفًا بِالْحَقِّ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - بَعْدَ قِيَامِكَ بِالتَّبْلِيغِ وَالتَّعْلِيمِ وَاتِّخَاذِ كُلِّ الْوَسَائِلِ لِاسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ اخْتِيَارِهِمُ الْحَرَّ، إِلَّا مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِلْمُطِيعِينَ، وَمُخَوِّفًا بِعَذَابِ اللَّهِ وَانْزَالِ نَقْمَتِهِ بِالْكَافِرِينَ الْمَصْرُومِينَ عَلَى عِنَادِهِمْ وَجُحُودِهِمْ.

١٠٦ - وَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - قُرْآنًا فَضْلَنَاهُ وَبَيَّنَّاهُ وَجَزَّأْنَاهُ نَجْوَماً فِي مَرَاكِحِ زَمْنِيَّةٍ مُتَبَاعِدَةٍ وَلَمْ نُثْرِلْهُ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى تَوَدُّةٍ وَتَأَنٍّ وَتَمَهُّلٍ فِي ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً، وَنُزِّلْنَاهُ تَنْزِيلًا بَأَنَاءً وَتَمَهُّلٍ عَلَى حَسَبِ الْحَوَادِثِ وَالْمَصَالِحِ.

١٠٧ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِهَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ مُتَوَعِّدًا وَمُهَذِّدًا: آمَنُوا بِالْقُرْآنِ أَوْ لَا تَوَافُوا بِهِ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِ الْقُرْآنِ مِنْ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ، إِذَا يُثْلَى عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ يَقْعُونَ لِلْأَذْقَانِ أَسْفَلَ وَجُوهِهِمْ سَاجِدِينَ تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَشُكْرًا لَوَعْدِهِ، لِإِنْجَازِ وَعْدِهِ بِبِعْتِكَ.

١٠٨ - وَيَقُولُونَ فِي سَجُودِهِمْ: تَنْزَّهَ رَبُّنَا عَنْ إِخْلَافِ وَعْدِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ بَعَثَةِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ مُحَمَّدٍ ﷺ، مَا كَانَ وَعْدُ رَبُّنَا إِلَّا كَانَتْ أَوَاقِعًا بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ وَانْزَالِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ عَلَيْهِ.

١٠٩ - وَيَقَعُ هَؤُلَاءِ لِلْأَذْقَانِ بِوَضْعِ جَبَاهِهِمْ عَلَى الْأَرْضِ، يَبْكُونَ، وَيَزِيدُهُمْ سَمَاعُ الْقُرْآنِ وَالتَّفَكُّرُ فِي مَعَانِيهِ وَدَلَالَاتِهِ خُضُوعًا، وَسُكُونًا، وَخَشْيَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَطُمَأْنِينَةً لَوَعْدِهِ الْكَرِيمِ بِجَنَاتِ النِّعَمِ.

١١٠ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا عَلَيْكَ الدَّعَاءَ بِقَوْلِكَ: يَا اللَّهُ، يَا رَحْمَنُ: إِنَّهُمَا اسْمَانِ لِلَّهِ تَعَالَى، فَسَمَّوْهُ بِهِذَا الْاسْمِ أَوْ بِهِذَا الْاسْمِ، أَيًّا مِنْ اسْمَيْ اللَّهِ وَالرَّحْمَنِ، وَكَذَا سَائِرِ أَسْمَاءِ اللَّهِ سَمَّيْتُمْ أَوْ ذَكَرْتُمْ، فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى مَعَانِي التَّقْدِيسِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّمْجِيدِ، فَإِذَا حَسُنَتْ أَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا فَهَذَانِ الْاسْمَانِ مِنْهَا. وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ عِنْدَ تِلَاوَتِكَ الْقُرْآنِ فِي صَلَاتِكَ، فَيَسْمَعَكَ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ وَمُثْرِلُهُ، وَلَا تُخَفِّضْ صَوْتَكَ فِي صَلَاتِكَ إِلَى مَسْتَوَى الْإِسْرَارِ وَالْإِخْفَاءِ عَنْ أَصْحَابِكَ فَلَا تُسْمِعَهُمْ، وَاطْلُبْ بَيْنَ الْجَهْرِ بِالصَّوْتِ فِي الصَّلَاةِ وَبَيْنَ الْمُخَافَةِ فِيهَا، طَرِيقًا وَسَطًا.

١١١ - وَقُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَيَا كُلَّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ -: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُسْتَحَقُّ لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ الَّذِي تَنْزَّهَ عَنْ إِنْجَابِ الْوَلَدِ أَوْ تَبْنِيهِ، لِاسْتِغْنَائِهِ بِذَاتِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكَ فِي الْمُلْكِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ فِي الْوُجُودِ خُلِقَ مِنْ خَلْقِهِ، وَخَالَقَ الشَّيْءَ مِنَ الْعَدَمِ هُوَ مَالِكُهُ، وَلَا يُشَارِكُهُ فِي مَلِكِهِ أَحَدٌ سِوَاهُ، وَلَمْ يَذَلَّ وَيَضْعَفْ فَيَحْتَاجْ إِلَى نَاصِرٍ يَتَعَزَّزُ بِهِ، وَعَظْمَتُهُ تَعْظِيمًا كَثِيرًا عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، أَوْ شَرِيكَ، أَوْ وَلِيٌّ، أَوْ نَاصِرٌ مُعِينٌ.

سُورَةُ الْكَهْفِ

١ - الثَّنَاءُ الْجَمِيلُ كُلُّهُ لِلَّهِ تَعَالَى، الَّذِي أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمُشْرِفِ بِعِبَادَتِهِ الْكَامِلَةِ لِرَبِّهِ، بِإِنْزَالِ الْكِتَابِ الْخَاتَمِ لِكُتُبِ اللَّهِ لِلنَّاسِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَشَيْءٍ فِيهِ صِفَةَ الْعُوجِ عَنِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، فَلَا اخْتِلَافَ وَلَا تَنَاقُضَ فِي مَعَانِيهِ.

٢، ٣ - جَعَلَهُ اللَّهُ كِتَابًا مُسْتَقِيمًا مُعْتَدَلًا، لَا إِفْرَاطَ فِيهِمَا اشْتِمَلْ عَلَيْهِ مِنَ التَّكَالِيفِ حَتَّى يَشَقَّ عَلَى الْعِبَادِ، وَلَا تَفْرِيطَ بِإِهْمَالِ مَا هُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ، مُتَكَفِّلًا بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ وَبَيَانِهَا لَهُمْ؛ لِيُنْذَرَ عَنْ طَرِيقِ كِتَابِهِ وَبِلَاغَاتِ رَسُولِهِ، الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا يَوْمَ الدِّينِ، وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ ثَوَابًا جَزِيلًا هُوَ الْجَنَّةُ، خَالِدِينَ فِي هَذَا النِّعَمِ لَا يَفَارِقُونَهُ أَبَدًا.

٤ - وَيُنْذِرُ إِنْذَارًا خَاصًّا غَيْرَ إِنْذَارِ عُمُومِ الْكَافِرِينَ، مُرْتَكِبِي عَظِيمَةٍ مِنَ عَظِيمَاتِ الْكُفْرِ، وَهُمْ الَّذِينَ قَالُوا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مِنْ نَسْلِهِ أَوْ بِالتَّبْنِيِّ مِمَّا خَلَقَ، وَهُمْ النَّصَارَى لِقَوْلِهِمْ فِي عِيسَى ابْنِ اللَّهِ، وَبَعْضُ الْيَهُودِ، وَبَعْضُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ غُلُوءًا كَبِيرًا.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَازِلًا ﴿١٠٦﴾
قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَدْعَاؤَهُ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَكِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾
فَيَمَّا يُلَذَّرُ بِأَسَاسٍ شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِينًا ﴿٣﴾
فِيهِ أَبَدًا ﴿٤﴾ وَيُنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٥﴾

٥ - ما لهؤلاء المشركين بأنخاذ الولد من علم، ولا لأسلافهم من قبلهم الذين ورثوا عنهم مقولاتهم، فقولهم صدر عن جهل مفرط، عظمتم في الشناعة والقيح تلك الكلمة التي تفوهوا بها دون تعقل وفهم، ما يقولون بكلمتهم الكبيرة الشنيعة التي يكرزون وصف الله بها إلا قولاً كذباً. فالعلم المبني على تعاليم الوحي يوصل إلى القيم الثابتة، والنتائج الصحيحة. وأما الجهل فهو يؤدي إلى التشتت بالتقاليد والعادات الموروثة، ويحمل صاحبه على قبول مفتريات لا أصل لها على الإطلاق.

٦ - قد أدبت وظيفتك - يا رسول الله - على الوجه المطلوب منك بالنسبة إلى معاندي قومك، فلعلك قاتل نفسك حزناً وغضباً، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، وكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا، فأنت تتبع آثارهم وتلاحقهم للتأثير عليهم.

٧، ٨ - إننا جعلنا بحكمتنا السامية كل ما على وجه الأرض ممّا تحب النفوس امتلاكه، أو الانتفاع به، أو التفاخر به، زينة لها ولأهلها، لنتخبر الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان أيهم أتبع لأمرنا ونهينا، وأعمل بطاعتنا، وأبعد عن الاعتراض بزينة الدنيا، وإننا بعظمة قدرتنا سنجعل مستقبلاً كل ما على وجه الأرض من الزينة مستأصلاً استئصالاً تاماً، مثل أرض جرداء لا نبات فيها بعد أن كانت خضراء مغشبة. فلا تبتئس - إذن - ولا تذهب نفسك حزناً وأسفاً على من كشف الابتلاء معدنهم الخبيث، وطبيعتهم الفاسدة، فذلك هي سنة الله سبحانه في الابتلاء.

٩ - بل أظننت - أيها المتلقي لآياتنا - ظناً توهمياً ضعيفاً أن أصحاب الثقب المتسع في الجبل، واللوح المكتوب فيه أسماءهم، كانوا أعجب آياتنا؟ فإن ما خلقنا من السموات والأرض وما فيهن من العجائب أعجب منهم وأعظم.

١٠ - وضع في ذاكرتك - يا أيها المتلقي - حين التجأ الشبان إلى

الكهف، وجعلوه مأواهم، يعبدون الله فيه، فراراً بدينهم الحق، من طغيان الكفرة ذوي البأس والسلطان الذين توعدوهم بالتعذيب والقتل، إذا لم يعودوا إلى دينهم الوثني، فقالوا: يا ربنا آتينا من محض فضلك الواسع أئثر رحمة عظيمة، تحمينا بها من أعداء دينك، واجعل لنا من أمرنا الذي نحن عليه من مهاجرة الكفار، والثبات على الإيمان والطاعة اهتداءً إلى الطريق الحق، وسداداً إلى العمل الذي تحب.

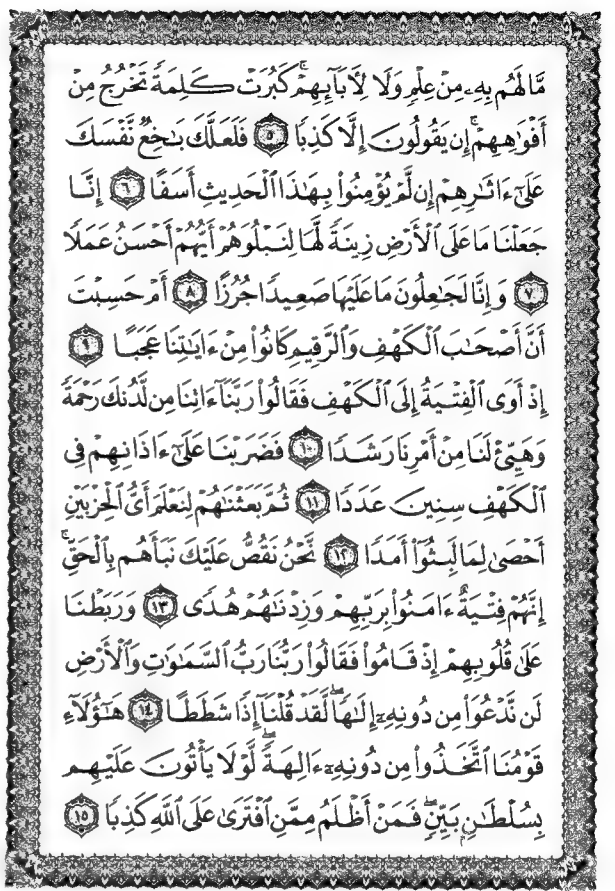
١١ - وعقب دخولهم إلى الكهف ودعائهم، واضطجاعهم للراحة بعد سيرهم الطويل إليه، ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع، وألقينا عليهم النوم العميق في الكهف سنين كثيرة.

١٢ - ثم بعد السنين الكثيرة التي جعلناها فيها رقوداً، أيقظناهم من نومهم؛ لنعلم أي الطائفتين المتنازعتين في مدة لبثهم أعراف بمقدار الزمن الذي مكثوه في كهفهم، بعد عثور الناس عليهم، مطابق لما سبق علمنا به.

١٣ - نحن بعظمة ربوبيتنا وشمول علمنا نقرأ عليك - يا رسول الله - خبر أصحاب الكهف ذا الشأن، متصفاً بأنه حق ثابت. إنهم شبان آمنوا بربهم، وزدناهم بمعونتنا وتوفيقنا إيماناً وبصيرة. وفي الآية دليل على أن الفتیان الشباب أسرع استجابة لنداء الحق، وأشدّ عزماً وتضحية في سبيله.

١٤ - وقوينا قلوبهم بالإيمان، وثبتناهم، وطردها عنها عوامل اليأس والوهن، حين وقفوا بين يدي الملك الجبار موقف صديق وعزم، ورسوخ واطمئنان، عندما عاتبهم على ترك عبادة الأوثان، فقالوا له: ربنا الذي نعبد هو رب السموات والأرض، الذي خلقهما وأبدع تكوينهما، وأودعهما أسراراً وآياته، لن نعبد من دون ربنا إلهاً، لقد قلنا إن دعونا غيره تعالى قولاً جائراً بعيداً عن الحق والصواب.

١٥ - ثم قال بعضهم لبعض وهم ينظرون إلى ما حولهم بئور البصيرة إلى هذا الظلام والجهل والغنى المخيم على قومهم: هؤلاء قومنا السفهاء اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها، هلاً يأتون على صحة عبادة الأصنام بحجة برهانية واضحة، حتى يكونوا معذورين عند ربهم، وإذ لا سلطان لهم على شركهم، فهم ظالمون من أحسن ذركات الظلم، ولا أحد أشدّ ظلماً من الذي اختلق على الله الكذب، وزعم أن له شريكاً أو ولداً. وفي الآية دليل على قيمة الحجة والبرهان، فمن المعلوم أنه لا حجة على الشرك، ولا دليل عليه، ولكن الله سبحانه يطالب المشركين بالبرهان، ويحاكمهم إلى الحجة، ويطلب منهم أن يأتوا على ما يقولون بسلطان مبین، يتسلط على القلوب والعقول، ويؤثر فيها بما يجعلها خاضعة مذعنة.



١٦ - وحين ابتعدتم وتنحيتم عن قومكم بقلوبكم وأبدانكم، وتقطعت بينكم وبينهم صلة العقيدة، وتركتم جميع ما يعبدون من الآلهة، إلا عبادة الله، فإنكم لم تعتزلوا عبادته، فما مقامكم فيهم، وما قراركم في محيطهم الظالم وبينتهم الفاسدة؟ فالجؤوا إلى الكهف لعبادة ربكم، ييسر لكم ربكم من أثار رحمته ما يحفظكم ويحميكم، ويسهل لكم من أمركم ما تنتفعون به في حياتكم من أسباب العيش. وفي الآية دليل على أهمية الهجرة لسلامة الدين، وفتح المقام في دار الكفر، أو في بلد لا يستطيع المسلم أن يعبد الله فيه، فالعزلة لسلامة الدين أمر واجب في الإسلام، في مثل هذه الظروف، وأرض الله واسعة، ووطن المسلم حيث يستطيع أن يعبد الله عز وجل.

١٧ - فأوى الفتية إلى الكهف، ومكثوا فيه، وألقى الله النوم عليهم، وترى - أيها المشاهد لهم - الشمس إذا طلعت من المشرق تميل وتنحرف عن كهفهم إلى جهة يمين الداخل فيه، وإذا غربت تركهم وتعدل عنهم إلى جهة يسار الداخل فيه، متقطعة انقطاعاً دون تدرج، فالشمس تميل عنهم طالعاً وغارية، لا تبلغهم لتؤذيهم بحرّها، وتغيّر ألوانهم، وهم في موضع مُتسع من الكهف، فليسوا قرب باب، ولا مجاورين لحيطانه، بل في وسطه، بحيث يصلهم الهواء، ولا يؤذيهم كرب الغار، ولا حرّ الشمس، ذلك الذي حصل لهؤلاء الفتية من إيوائهم إلى الكهف، وصرف أشعة الشمس عنهم، وإلقاء النوم الطويل عليهم، وحمايتهم من كبراء قومهم، هو من عجائب صنع الله ودلالات قدرته.

من يحكم الله له بالهداية؛ لأنه اهتدى باختياره الحر مثل أصحاب الكهف، فهو المهتدي، الذي يعتني الله به، ويحميه، ويثيبه ثواباً عظيماً يرضيه، ومن يحكم الله عليه بالضلالة؛ لأنه ضلّ باختياره الحر، فلن تجد له في الوجود كله ناصراً ينصره، فيحكم له بالهداية، ويوفقه حتى يكون رشيداً في مسيرته في حياته.

١٨ - وتظن - أيها الناظر - أهل الكهف أيقاظاً مُنتبهيين؛ لأن أعينهم مفتحة، وهم في الواقع نيام، وتقلبهم حال نومهم مرةً للجنب الأيمن، ومرةً للجنب الأيسر؛ لثلا تتعرض أجسادهم للفساد، فتظهر فيها القروح، وتتكاثر في قروحها الجراثيم. وكلّهم الذي صاحبهم ماؤ ذراعيه في مدخل الكهف، لو اطلعت عليهم - أيها المُطلع - لابتعدت عنهم، وهربت منهم فراراً، ولملئت نفسك منهم خوفاً وفرعاً.

١٩ - وكذلك الفعل العجيب الذي كان متاً، حين أنماهم في الكهف، وحفظنا أجسامهم سنين عديدة، أيقظناهم من النومة التي تشبه الموت؛ لیسأل بعضهم بعضاً. قال قائل من أهل الكهف: كم أقمت في الكهف منذ أوئتم إليه؟ قالوا: لبنا يوماً، ثم نظروا فوجدوا الشمس قد بقي منها بقية، فقالوا: أو بعض يوم. وقال آخرون: فوضوا علم ذلك لله، فربكم أعلم بالمدّة التي لبستموها في الكهف نائمين، فخذوا في شيء آخر يهيمكم، فانبثوا أحدكم بنقودكم الفضية إلى المدينة المعهودة التي عشت فيها، وخرجتم منها، فليُنظر: أي أطعمة المدينة أكثر نماءً وزيادة غذاء، يصلح للارتفاق به، وللادّخار أطول مدة من الزمن؟ فليأتكم بقوة وطعام تأكلونه، وليتكلف اللطف وحسن التأنّي واللباقة في الاستخفاء دخلاً وخروجاً، وليكن في ستر وكتمان، ولا يعلمن أدنى علم بكم، ولا بمكان اختفائكم أحداً من الناس. وهذا يدلّ على أنّ الفتية كانوا حذرين خائفين أن ينكشف أمرهم، ولم يعلموا أنّ الأعوام قد كرّث، وأنّ أجيالاً قد تعاقبت، وأنّ معالم المدينة قد تغيّرت، وأنّ دولة الظالمين التي كانوا يخافونها قد دالت.

٢٠ - إنّ قومكم إنّ يعلموا بمكانكم، ويظفروا بكم يرموكم بالحجارة، فيقتلوكم شرّ قتلة، أو يلزموكم بأن تعودوا عن دينكم الحق الذي آمنتم به، وتدخلوا في ملتهم الوثنيّة، فإن استجبتهم لهم فلن تفوزوا بمطلوبكم - إن دخلتم في دينهم - أبداً. تدلّ الآية على أنّ إشفاق أهل الكهف وخوفهم، كان مؤزّعاً بين أمرين: الأول: أمر حياتهم وما هي مُهدّدة به من الضياع على أيدي الطغاة الظالمين بأفطع صورة، والثاني: أمر دينهم وما هو مُهدّد به من الفتنة على أيدي أهل الشُّرك والجحود، وفي كلام أهل الكهف ما يدلّ على إيثار الإيمان على الحياة، ذلك أنهم ذكروا الرّجم في قولهم: «يرجموكم» فلم يعلّقوا عليه بشيء، وذكروا الإعادة إلى ملة الكفر في قولهم: «أو يعيدوكم في ملتهم» فعلّقوا عليها بأهم شيء، وهو قولهم: «ولن تفلحوا إذا أبداً»، فكأنهم لا يهتمون بالرجم يصيبهم، كما يهتمون بالارتداد إلى ملة الكفر، والقهر بالعودة إليها، التي ليس لهم بعدها فلاح أبد الأبد.

وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوَّاى إِلَى الْكَهْفِ
يُنْشِرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهْدِي لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرِيقًا
﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ
مِنْ ذَلِكَ مِنْ عَآيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ
يَضِلَّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا ﴿١٧﴾ وَخَسِبَ أَيْقَاطُكُمْ
وَهُمْ رُفُودٌ وَقَلْبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلَبَهُمْ
بَسِطٌ ذَرَاعَاهُ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
لِئَسَاءَ أَوْلِيَائِهِمْ قَالِ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُمْ بِرِزْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يَمْيِدُوكُمْ فِي مَلْتَمِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا ﴿٢٠﴾

٢١ - وكذلك الفعل العجيب الذي أمننا به أهل الكهف سنين عديدة، وكذلك الفعل العجيب الذي أيقظناهم به، أطلعنا أهل مدينتهم عليهم، وانطلقوا لمقابلتهم في كهفهم، ووصلوا إليهم وشهدوهم أحياء أيقاظاً، وعلموا منهم قصة فرارهم بدينهم، ثم أماتهم الله بعد أن علم القوم بقصتهم، وشاع خبرهم؛ ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم أن البعث بعد الموت وفناء الأجساد حق، وأن القيامة آتية لا شك فيها، فمن قدر على حفظ أجسام أصحاب الكهف مدة ثلاثة قرون متوالية من التعفن والتحلل مع حاجتهم إلى الطعام والشراب، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، وتفرق أجزائها، حين يتنازع كبراء أهل مدينتهم فيما بينهم: هل يبنون على مدخل كهفهم بنياناً، ويتركونهم داخل كهفهم موتى، فرئهم أعلم بحالهم. قال الذين غلبوا بقية المتنازعين على أمرهم، وانتهى الأمر إلى ترجيح قولهم، والأخذ برأيهم: لنتخذن عليهم مسجداً، تكريماً لهم، وتذكيراً بقصتهم، وبمكان كهفهم، وأتفق الجميع بعد ذلك على هذا الرأي.

٢٢ - سيقول بعض الخائضين في شأنهم من أهل الكتاب: هم ثلاثة، رابعهم كلبهم، ويقول فريق آخر: هم خمسة، سادسهم كلبهم، وهم يقولون هذه الأقوال دون دليل ما يدل على صحتها، إنهم يقذفون أقوالهم كمن يحاول أن يرحم هدفاً في ظلمات دامسات لا يرى فيها شيئاً، ولا يعلم أين يكون هدفه فيها، ويقول المسلمون: هم سبعة وثامنهم كلبهم. قل - يا رسول الله -: ربّي هو أعلم بعددهم، وما يعلم عددهم إلا قليل من خلقه، وإذ قد عرفت جهل الجاهلين، وتخبط المتخبطين، فلا تجادل في عدد أهل الكهف وشأنهم أحداً منهم إلا بظاهر ما قصصناه عليك من شأنهم، فقف عنده ولا تزد عليه، ولا تسأل في أصحاب الكهف من أهل الكتاب أحداً، ولا ترجع إلى قول أحد منهم بعد أن أخبرناك قصّتهم. فعلى المؤمن أن يحذر الاعتماد على الظنون والرّجْم بالغيب دون تحقيق، ولا يركن إلا

إلى علم صحيح يأتيه من طريق صحيح، وأن يُعرض عن المُماراة والمُجادلة فيما لا ينفع إلا جдалاً هيناً يسيراً لا يُوغر صدرأ، ولا تُترتب عليه عداوة، ولا يضيع وقتاً. ودلّ النهي عن استفتاء غير المسلمين في شأن أصحاب الكهف وما في معناه، ألا يلجأ المؤمن في معرفة الحقائق والمعارف إلى مصدر غير موثوق به، وذلك أن المعارف التي يصلح عليها حال المؤمنين مكفولة بكتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ فقيهما ما يغنيهم عن سواهم، والمسائل النظرية التي أعرض عنها ولم يذكرها لا طائل تحتها، ولا فائدة فيها.

٢٣، ٢٤ - ولا تقولن - أيها المؤمن -: إني سأفعل ذلك الفعل غداً، مؤكداً عزمك بمؤكدات إلا مقروناً قولك بأن يشاء الله، وإذا نسيت تعليق القول على مشيئة الله، ثم تبيّنت بعد ذلك، فتداركها بذكر ربك، وحين يفوتك ما عزمت على فعله إذا لم يأذن الله بفعله، وكنت حريصاً على تحقيقه، فافرض عن الله بما تمّ تقديره، وفوض أمرك إليه، وقل: عسى أن يهديني ربّي لتحقيق أمرٍ آخر أقرب رشداً من هذا الأمر الذي كنت حريصاً عليه، وأكثر تحقيقاً لما يُرضيني ويسُرني.

٢٥ - ومكث الشبان نياماً في كهفهم ثلاثمائة سنة بحسب مقدار السنة الشمسية، وازدادوا تسع سنين بحسب مقدار السنة القمرية. قل - يا رسول الله - إن نازعك أهل الكتاب في مدة لبثهم في الكهف: الله أعلم منكم بالزمن الذي لبثوا في كهفهم، وقد أخبر أنه ثلاثمائة سنة وتسع سنين قمرية، فهو الحق الصحيح الذي لا شك فيه، الله سبحانه وحده علم كل ما غاب عن العباد في السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من أحوال أهلها، فكيف يخفى عليه حال أصحاب الكهف. ما أبصر الله بكل موجود، وأسمعه بكل مسموع، لا يغيب عن سمعه وبصره شيء، يدرك البواطن كما يدرك الظواهر، ما لهؤلاء الذين يتخذون من دون الله أولياء ولي ما يجلب لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضرراً، وهو سبحانه متفرد في كل تصاريفه، ولا يُشرك في علم غيبه وقضائه وتشريعه أحداً من خلقه.

٢٧ - واقرأ - يا رسول الله - القرآن، واتبع ما فيه واعمل به، لا يقدر أحد على أن يُبدل كلمات ربك في أوامره ونواهيه وتكاليفه تبديلاً ذا أثر في واقع الكون، ولا يستطيع أحد في الوجود أن يُبدل كلمات الله المبيّنات لما قدره وقضاه، فهي نافذة لا محالة، ولن تجد من دون الله - إن لم تتبع القرآن - ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذاً تعوذ به.

وَكَذَلِكَ أَتَيْنَاكَ عَلِيمًا لِيَعْلَمُوا أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا آمَنُوا عَلَيْهِمْ بِتِينَتِ رَبِّهِمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿١٦﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١٧﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لَشَأْنِي إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿١٨﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿١٩﴾ وَلِيُثَوِّقَ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٠﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيُثَوِّقُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢١﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾

٢٨ - واحبس - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - نفسك صابراً على تحمُّل مشقَّات التعليم والتربية والتزكية مُصاحباً وملازماً الذين يعبدون ربَّهم من فقراء المسلمين بالغداة ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس، وبالعشي ما بين صلاة العصر وغروب الشمس، يريدون بعبادتهم وَجْهَ الله لا يريدون عرض الدنيا، ولا تُصرف عينك عنهم إلى غيرهم، تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا، ولا تُطغ - مُثبطاً لك عن عملك، أو مُستدرجاً إياك إلى مزالق الأهواء والشهوات - مَنْ وَجَدنا قلبه غافلاً عن ذكرنا، وأتبع في طلب الشهوات هواه، وكان أمره متفلتاً على غير هدى، فكانت حياته وطاقاته مُبدَّدة ذاهبة سرفاً وتضييعاً. في هذه الآية نهى عن الاستجابة لمطالب زعماء المشركين بطرد فقراء المسلمين؛ ليبقى لأصحاب الجاه والمكانة الاجتماعية، أو الثروة المادية مزايا خاصَّة على غيرهم. وقد مرَّت فكرة المُساومات بمراحل: المرحلة الأولى: محاولة كبت الدعوة والقضاء عليها، بمحاولة ثنيه ﷺ عن الاستمرار في دعوته مقابل مالٍ أو جاهٍ أو مغريات أخرى. والمرحلة الثانية: المُساومة على المتاركة والمداهنة في التعامل بأن يكفَّ كلُّ فريق عن التعرُّض لمعتقدات الفريق الآخر، والمرحلة الثالثة: المُساومة على الشروط بطرد الفقراء عن مجالسهم، وهذه المرحلة هي التي لجأ إليها المشركون عندما ظهرت دعوة الحق، وتعرَّضت مصالحهم لخطر وشيك.

٢٩ - وقل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - لهؤلاء الغافلين عن ذكر الله، السادرين في ملذَّاتهم وشهواتهم: ما جتكم به هو الحق من ربِّكم وليس من عند نفسي، ولست بطارد المؤمنين لهواكم، وأنتم ذوو إرادات حرة مُخيَّرون لا مُجبَّرون، فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا، وتحملوا نتيجة اختياركم، إنا هيَّأنا للظالمين أنفسهم باختيارهم الكفر بآراءاتهم الحرة، ناراً شديدة تُدخلهم فيها، فلا يستطيعون الخروج منها، فقد أحاط بهم سُورُها العظيم المانع من الخروج منها لمن هو في داخلها، وإن يستغيثوا من شدَّة العطش، يُغاثوا بماءٍ غليظ قدر متنن قاتم كالزيت العكر، شديد الحرارة، يشوي بخاره الحار وجوههم التي تقترب منه، بشَّ الشراب الماء الذي يُغاثون به؛ لأنَّه لا يروي الظمأ، ولا يطفىء اللهب، وساءت النار موضعاً لاجتماع الرفقاء، إذ هم فيها يختصمون، ويتلاومون، وينادون بالويل والثبور، وساءت النار كذلك مكاناً للارتفاق والانتفاع بشيءٍ ما منها؛ في كلِّ أمر من مطالب الجسد أو النفس.

٣٠ - إنَّ الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات على اختلاف أنواعها في الحياة الدنيا، وكانوا ممَّن لهم بعض أعمال هي من درجة المحسنين، لهم أجر عظيم عندنا؛ لأننا لا نهمل أجر من عمل عملاً حسناً طاعةً لنا، وابتغاء مرضاتنا، وطلباً للثواب الذي وعدنا به.

٣١ - أولئك المؤمنون الذين عملوا الصَّالحات، أصحابُ المنزل العالية الرفيعة عندنا، لهم جنَّات إقامة واستقرار دائم وثبات، تجري من تحت شُرَفات قصورهم الأنهار، يُحَلُّون فيها من أساور من ذهب، ويلبسون من نوع من الثياب الرقيقة الناعمة المنسوجة من الحرير، ومن نوع من الثياب الغليظة المنسوجة من الحرير أيضاً، حالة كونهم مُتَّكئين في جنَّات عدن على السُرر، نعم الجزاء جزاؤهم، وحسنت جنات عدن موضعاً لاجتماع الرفقاء الصالحين، وحسنت كذلك مكاناً للارتفاق والانتفاع بأي شيء منها، في كلِّ أمر من مطالب الجسد أو النفس.

٣٢ - وأضرب - يا رسول الله - للمؤمنين الذين يدعون ربَّهم في الصباح والمساء مع مُكابدة مشاق الفقر، وللكافرين المستكبرين على الله مع تقلُّبهم في نعمه تعالى، قصَّة رجلين من الأمم السابقة: أحدهما: مؤمن فقير داعٍ إلى الله، والآخر: كافر غني، جعلنا للكافر بُسْتَانَيْنِ من أشجار العنب ذوات العروق والفروع المُمدَّدة على عروش مرتفعة عن الأرض بأعمدة، وجعلنا أشجار النخل محيطاً بالبُستانَيْنِ، وجعلنا في المساحات الفارغات بين النخل والأعنان زروعاً أرضية نافعة لآكل الناس والأنعام.

٣٣ - وأعطت كلُّ واحدة من الجنَّتين ما يُؤكل من ثمر النخل والكرم وصنوف الزرع، ولم تُنقص من أكلها شيئاً، بل جاء وافيّاً وافراً، وشقَّقنا وأجرَّنا وسَطَهما نهراً لسيقيهما بسهولة ويسر.

٣٤ - وكان لصاحب البُستانَيْنِ أموال كثيرة غيرهما، يستثمرها في التجارة والمجالات الأخرى، فقال لصاحبه المؤمن، وهو يُخاطبه ويدعوه إلى أن يسلك مثل طريقته، ويلومه على إيمانه: أنا أكثرُ منك مالاً، وأقوى عشيرةً وأعواناً، مع أنني لا أؤمن بما تدعوني إلى الإيمان به، فلو كان ما تدعوني إليه حقاً لأغناك ربُّك، وأعزَّك بالأولاد والخدم، ولَسَلَّني ما أنا فيه من مالٍ وعزٍّ.

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَظِي
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ
شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادُهَا
وَأَنْ يَسْتَعِثُوا يَأْتُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الْشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ
لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ وَأَضْرِبْ
لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مِنْتًا لَكُلِّهَا وَلَمْ
تَطْلُمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾



٣٥ - ودخل الكافر حديثه، أخذاً بيد صاحبه المؤمن يطوف بها ويريه إياها، وهو ظالم لنفسه بإنكاره ليوم الدين، وبشره؛ لأنه جعل الأسباب هي الفاعل الحقيقي، جاحداً أن الله هو الذي يخلق من خلالها، قال: ما أظن أن تهلك هذه الحديقة أبداً، ما دمت أتخذ الأسباب التي تجعلها مستمرة البقاء والإنتاج الوفير، فهي مُحَصَّنَةٌ بالأسوار، ومُحاطة من الرياح الباردة بأشجار النخيل.

٣٦ - وما أظن الساعة كائنة، وأقسم مؤكداً لئن أرجعت إلى الحياة بعد الموت ليحاسبني ربي - على ما تزعم أيها المؤمن - لأجدن هناك خيراً من جنتي في الدنيا مرجعاً أرجع إليه؛ لأنه لم يُعطني الجنة في الدنيا إلا ليعطيني في الآخرة أفضل منها، فما جاءني هذا الغنى إلا لأنني صاحب مواهب خاصة، وطاقات نادرة، ومزايا ذاتية.

٣٧ - قال له صاحبه المؤمن وهو يحاوره: أكفرت بالذي أجرى أسباب خلقك بدءاً من تراب، ثم من نطفة مهينة، ثم سواك رجلاً مكتملاً، فهل أنت نظرت إلى أطوار وجودك على أنها أسباب فاعلة بذاتها، غير مُسيرة بخلق رب خالق؟! فالله هو الذي يخلق المسببات كما هو خالق للأسباب، ولولا خلقه سبحانه لم يوجد شيء منها.

٣٨ - لكن أنا لست على مذهبك الفاسد، فانا مؤمن بالله ربي الذي يخلق كل شيء بصفات ربوبيته، ولا أشرك بربي أحداً ممن لهم حياة وإرادة وعلم وقدرة، فضلاً عن أن أشرك به أسباباً لا حياة لها ولا إرادة ولا علماً ولا قدرة.

٣٩، ٤٠ - وهلاً قلت حين دخلت جنتك: هذا ما شاء الله، ولم يكن بعلمي وقدرتي وبأسبابي دون تقدير الله وخلقته، لا قوة لأحد في الوجود كله إلا بالله، إن ترن أنا أقل منك مالاً وأولاداً، وقوة وأنصاراً، فانا أتوقع أن يُعطيني ربي خيراً من جنتك، ويرسل على جنتك صواعق من السماء فتُحرقها، وتأتي على الأخضر واليابس فيها، أو رياحاً عاتية تكسر الشجر وتُثلف الثمر وتجرف الجنة من

ودخل جنته، وهو ظالم لنفسه، قال ما أظن أن تبدي هذه أبداً ﴿٣٥﴾ وما أظن الساعة قايمة ولكن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴿٣٦﴾ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ﴿٣٧﴾ لئن كان هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً ﴿٣٨﴾ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً ﴿٣٩﴾ فعسى ربي أن يؤتي خيراً من جنك ويرسل علىهما حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً ﴿٤٠﴾ أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً ﴿٤١﴾ وأحيط بشمرك فأتصبع قبلاً كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يائيتني لم أشرك بربي أحداً ﴿٤٢﴾ ولم تكن لله فئة ينصرونه من دون الله وما كان من نصراً ﴿٤٣﴾ هنالك الولية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً ﴿٤٤﴾ وأصرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقبلاً ﴿٤٥﴾

أصولها، فتصبح أرضاً جرداء ملساء لا تثبت عليها قدم، ولا ينبت فيها زرع.

٤١ - أو يصبح ماء حديقتك غائراً ذاهباً في أعماق الأرض، لا تستطيع الوصول إليه ولا استخراج به بوسيلة من الوسائل. وأحد السببين كافٍ للقضاء عليها، فإذا اجتمع السببان فانت المنفعة منها تماماً.

٤٢ - وأحاط العذاب بثمر جنته، وأرسل الله عليها ناراً من السماء، أو لفحات من الريح الشديدة البرودة، فأهلكتها، وغار ماؤها، فأصبح صاحبها الكافر يُقَلِّبُ كُفَيْهِ بضرب العلما منهما على السفلى تأسفاً وتحسراً على ما أنفق في عمارتها، والحال أن جنته خالية من ثمارها، ومتساقطة الأغصان، ولم يبق فيها إلا عيدان مُتَبَسِّطَةٌ على عروشها، ويقول مُتَذَكِّراً موعظة أخيه حين لا ينفعه التذكُّر والندم: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً.

٤٣ - ولم تكن له حينما نزل به العقاب التأديبي جماعة يحمونه من نزول عذاب الله، وما كان مُمْتَنِعاً يقدر على الانتصار لنفسه بوسائله وأسبابه. ومن آيات الله التي يجب أن تكون موضع العبرة للعقلاء: أن الأغنياء والأقوياء في عنفوان قوتهم يُحاطون بالذين يزعمون لهم أنهم أولياء ومناصرون، وهم في الحقيقة محتالون خبيثاء، يعملون لأنفسهم، ويتجرون بزلفاهم وتقربهم، ويزينون الباطل للمبطل، والفساد للمفسد، حتى إذا زلت به إلى الحضيض قدمه لم يجد أحداً منهم يقبل عليه، أو ينهضه من عثاره، أو يواسيه على بأسائه، ولكنهم جميعاً ينصرفون عنه، ويتكبرون له.

٤٤ - هنالك يوم القيامة المُلْكُ التامُ لله الثابت ذي الوجود الأزلي الأبدي الذي يستحيل في العقل عَدَمُهُ، هو سبحانه خيرُ عطاء ثواب لمن قدَّم إيماناً صحيحاً صادقاً وعملاً صالحاً، من كل ما في الدنيا من متاع، وما يُعقبه لهم خيرُ عاقبة؛ لأن ثوابه باق خالد لا ينقطع، ولأن عقابه هي دار كرامته ورضوانه.

٤٥ - واذكر - يا رسول الله - لقومك صفة الحياة الدنيا التي اغتروا بها في بهجتها وسرعة زوالها، كأرض صالحة للإنبات، فيها بزور نباتات مُتَبَثَّاتٌ في تربتها، أنزل الرب عليها من السحاب ماء، فصار تراب الأرض مبللاً بالماء، فامتصت منه ومن عناصر تراب الأرض، البزور المنبئة في الأرض، فأنبته الله نباتات مختلفات الأنواع، فأصبح النبات متفتتاً يابساً بعد البهجة والتضارة، تنسفه الرياح وتفرقه ذات اليمين وذات الشمال، ليس له تماسك ولا قوة، وكان الله من الأزل إلى الأبد على فعل وخلق وإيجاد وإعدام كل شيء يشاؤه عظيم القدرة، له القدرة الكاملة.

٤٦ - المال الكثير الوفير، والبنون الكثيرون زينة هذه الدنيا الفانية، والأقوال والأعمال الصالحات المَرْضِيَّات لله عزَّ وجلَّ، ذات الآثار الباقيات المُسْعِدَات لفاعليها، هي خيرٌ عند ربِّك ثواباً من كلِّ ما في الدنيا ممَّا هو زينةٌ لها، وهي خيرٌ أملاً لتحقيق مرغوبٍ فيه.

٤٧ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقِّي - يومَ نزولِ الجبال عن مواضعها من الأرض، زمن قِيام الساعة، ونجعلها هباءً منثوراً، وترى الأرضَ ظاهرةً للأعين، ليس عليها شيء يسترها من شجر أو جبل أو بناء، وجمعنا الخلاق إلى موقف الحساب من كلِّ صوب، فلم نترك منهم أحداً لم نجمعه ونُسِّقهُ للعرض علينا.

٤٨ - وعرضَ مَنْ حشرناهم بعد البعث على ربِّك - أيها المتلقِّي - حالة كونهم مصفوفين صفّاً مُنْتَظِماً، يقول لهم ربُّ العالمين: لقد بعثناكم، وخلقناكم خلقاً جديداً، وأحضرناكم، فجئتم إلى موقف العرض فُرادى حفاةً عراةً غير مختونين، كما خلقناكم أوَّل مرة، بل زعمتم أن لن نحاسبكم على ما قدَّمتم في موعِدِ زمانِي ومكانِي نُحدِّدُه لكم.

٤٩ - ووضَعَ الكتابُ العامُّ الشامل لتاريخ حياة المجرمين، أمامهم ليشاهدوه، فتري - أيها المتلقِّي - رؤيا عين، المجرمين خائفين وجلين ممَّا فيه من الأعمال الإجرامية، ويقولون إذا رأوها: يا مصيبتنا العظيمة بالعذاب الأليم الخالد الذي سنلقاه في جهنم! ما لهذا الكتاب الربَّاني العجيب، لا يترك صغيرة ولا كبيرة من ذنوبنا إلا عُدَّها وسجلها بإحصاء شامل للظاهر والباطن؟! ووجدوا كلَّ ما عملوا في الدنيا حاضراً أمامهم، مشهوداً لهم بكلِّ تفاصيله، لم يَغِبْ منه شيء، ولم يُنْسَ منه شيء، ولا يظلم ربُّك أحداً مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك، في تقرير عقابٍ عليه لا يستحقُّه، أو بحرمانه من أجر هو له، بحسب وعده الصادق.

٥٠ - وضعوا في ذاكرتكم أحداث هذه القصة حين قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم، وأمرنا إبليس معهم بالسجود إذ كان مندساً فيهم، فسجد الملائكة جميعاً، لكن إبليس الذي كان من الجنَّ خرج عن طاعة ربِّه خروجاً من مستوى الكفر، ولم يسجد كبيراً وحسداً، وأنهم الربُّ في حكمته، أَقْتَنَحُونُ إبليس - يا بني آدم - وذُرِّيَّتُه بعد أن حذرتكم منهم، أولياء من دوني، بطاعتهم في معصية الله والكفر به، وهم لكم أعداء؟ بِئْسَ إبليسٌ وذُرِّيَّتُه للظالمين الذين يَتَّبِعُونَهُم ويجعلونهم أولياء، بدلاً عن ولاية الله لهم.

٥١ - ما أشهدت هؤلاء الذين زعموا أنني اتخذت ولداً، والذين زعموا أنَّ لي شركاء في ربوبيتي، خلق السموات والأرض، ولا أشهدتهم خَلَقَ أنفسهم، وبحضورهم رأوا ولداً لي يساعديني في أعمال ربوبيتي؟ أو رأوا شركاء يساعدونني في أعمال خلقي؟ لكن الواقع الذي يعترفون به، يُثبت أنني ما أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم، وأنني ما كنتُ مُتَّخِذاً إِيَّاهم أعواناً في شأن من شؤوني.

٥٢ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقِّي - هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة، حين يقول الله تعالى للمشرِّكين: نادوا الشُّركاء الذين زعمتم أنَّهم شركائي في ربوبيتي والهيَّتي؛ ليمنعوكم اليوم من عذابي، أو يخففوا عنكم ولو شيئاً يسيراً من هَؤُل هذا الموقف الرهيب، ادعوه فقد كنتم تدِينون لهم في الدنيا بالتعظيم والإجلال، وتسبِّحون ورائهم صمّاً بكماً عُميّاً، فاستغاثوا بهم؛ ليدفعوا عنهم عذاب ربِّهم، فلم يُجيبوهم ولم ينصروهم، وأقمنا بين المشرِّكين والذين اتَّخذوهم شركاء الله، حاجزاً لقطع التخاصم بين الفريقين. فكلُّ الولاءات والصلوات والأنساب والقربات مبتورة مقطوعة إلا ما كان موصولاً بالإيمان بالله ورسوله وشرائعه.

٥٣ - ورأى المشرِّكون النار، فظنُّوا ظناً راجحاً أنَّهم داخلوها وواقعوا فيها، مع بقاء أمل ضعيف لديهم بأنَّ يستجيب الله طلبهم، في أن يُعيدهم إلى الحياة الدنيا؛ ليستأنفوا رحلة الابتلاء، فيعملوا عملاً صالحاً يستحقُّون به النجاة من النار، ولكن بعد محاكمتهم وإصدار أحكام الله فيهم، لم يجدوا مكاناً ينصرفون إليه عن مُوَاقَعَةِ النار؛ لأنها أحاطت بهم من كلِّ جانب.

الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ تُرَى الْأَرْضُ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مُوبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

٥٤ - ونؤكد تأكيداً شديداً أننا بينا وكّررنا ونوعنا في هذا القرآن للناس من كل مثل يقاس عليه لكل نوع أو عمل أو تشريع أو سنة من سنن الله في كونه، مما تقتضيه هداية الله لعباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا. والحكمة الداعية إلى أن نُصَرِّف في هذا القرآن من كل حجة مُماثلة أن الإنسان أكثرُ جدلاً في الكم والكيف من كل مُجادل في الوجود، والسبب في كون الإنسان أكثر شيء جدلاً ما منحه الله من قدرات فكرية، وقدرات النطق التي يستطيع عن طريقها عرض الحجة الواحدة بعدد وفير من أساليب القول.

٥٥ - وما منع كفار مكة من الإيمان بالله ونُبتد الشرك، إذ جاءهم الهدى في كتاب ربهم وعلى لسان رسوله، ومن أن يستغفروا ربهم طالبين منه أن يستر ما سلف من ذنوبهم ويتجاوز عنها، إلا تأخر أن تأتيهم سنننا في إهلاك الأولين من كفار الأمم السابقة بعذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا، أو أن يأتيهم العذاب غير المستأصل ضرورياً وأنواعاً يتلو بعضه بعضاً.

٥٦ - وما تُرسل المرسلين إلا مبشرين من آمن وأسلم بجئات النعيم، ومُنذرين من كفر ولم يستجب لدعوة الحق بالخلود في عذاب النار يوم الدين، فلا إكراه ولا جبر في دين الله عند جميع رسل الله، ومع وضوح الحق يُجادل الذين كفروا رسلهم بالباطل من المذاهب والأفكار والأكاذيب وزخرف الأقوال؛ ليُزْلَقوا الحق في مزالق الشبهات والتلبسات، فيُزِيلوه عن مواقع ثباته في قلوب المؤمنين، واتخذوا آياتي البيانية المشتملة على براهين الحق وأدلتها، شيئاً يُستهزأ به، إذ لم يستطيعوا أن يقابلوا ما فيها من حجج وبراهين بما يكافئها، فستروا عجزهم بأنّها لشدة ضعفها لا تستحق أكثر من أن يُستهزأ بها، وجعلوا ما أنذروه من عقاب الله المعجل في الدنيا، والمؤجل إلى يوم الدين شيئاً يُستهزأ به أيضاً، تعبيراً عن تكذيبهم بما أنذروه من عقاب.

٥٧ - ولا يوجد أحدٌ أظلم من الذي ذُكر بآيات ربه، فأعطى عارض وجهه لها استهانة بها، وتركها ولم يؤمن بها، بعد إدراكه لما اشتملت عليه من حقائق، ومخى من ذاكرته مع طول الترك ما سبق أن اكتسب من كفر وجرائم، لأنه لم يخش الوعيد الذي اشتملت عليه آيات ربه؛ إذ لم يؤمن بها. إنّنا جعلنا على قلوب المُعرضين عن آياتنا أغطية، تمنع من وصول ما دلت عليه من هدى إلى غمقها، وتحجبها صارفة لها عن فقها وفهمها فهماً سديداً؛ بسبب انصراف كل مشاعرهم بإرادتهم لمطالب أجسادهم ودنياهم، وجعلنا في آذانهم ثقلاً وصمماً؛ فهي لا تسمع ما تُذكر به من آياتنا؛ لأن الاستماع إلى القول إنما يكون عند إرادة فهم المراد به، ومن لا يريد ذلك انصرف سمعه عنه، فهو لا يسمع إلا صوتاً لا معنى له. وإن تدعهم - أيها الداعي إلى الله - إلى هدى الله المنزل في كتابه، واتخذت معهم كل وسائل الإقناع، فلن يهتدوا مُستجيبين لدعوتك حينئذٍ أبداً؛ لأن قلوبهم محجوبة في أكنة، ولأن آذانهم مصابة بداء الصمم، نتيجة كسبهم الإرادي الخاضع لسنة من سنن الله عز وجل في كونه.

٥٨ - وربك - أيها الملتقى لآياتنا - العظيم المغفرة لعباده الذين يتوبون ويؤمنون ويسلمون، الموصوف بالرحمة العظيمة بالمجرمين، فهو برحمته يُمهّلهم؛ رغبة أن يتوبوا وينقذوا أنفسهم من الهلاك المُعجل في الدنيا، والمؤجل إلى يوم الدين، لو يُعاقب الكفار بسبب ما كسبوا من كفريات وجرائم دون أن يمهّلهم، لَعَجَل لهم العذاب في الدنيا، بل لهم - بعد الإمهال الذي تنقطع فيه كل أعارهم - موعد يُجازون فيه بأعمالهم، وحين يقترب هذا الموعد، ويجدون وسائل التعذيب مُقبلة إليهم، لن يجدوا من دون وصول العذاب إليهم ملجأ يلجؤون إليه، ولا مرجعاً يرجعون إليه، ليحميهم منه، إذ يكون العذاب محيطاً بهم.

٥٩ - وتلك أمم القرى الكافرة المجرمة، كقوم نوح وعاذ وثمود ولوط وغيرهم، أهلكناهم لما ظلموا بكفرهم وجرائمهم، وجعلنا لإهلاكهم، ولمكان وزمان هلاكهم، موعداً مُعَيّناً، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

٦٠ - واذكر حين قال موسى بن عمران عليه السلام لخادمه يوشع بن نون: لا أزال أسير حتى أصل إلى مُلتقى البحرين، وهو مكان التقاء البحر الأحمر بخليج العقبة، أو أسير متابعاً سفري زمناً طويلاً حتى أصل إلى العبد الصالح؛ لأتعلّم منه ما ليس عندي من العلم. وفي هذا معنى العزم والتصميم وقوة الإرادة، حيث يجعل الإنسان لنفسه مقصداً، ثم يسير إليه، لا يعوقه عنه عائق، ولا يهتم بتعب ولا نصب، وتلك أخلاق الرجولة، وعزيمة أهل الإيمان.

٦١ - وجدّ موسى وفتاه «يوشع» في السّير، فلما وصلا مَجْمَع التقاء البحرين، جلسا عند صخرة، ونسيا حوتَهما الذي أمر موسى بأخذه معه قوتاً لهما، وحمله «يوشع» في مِكنَل، فإذا الحوت يُصبح حيّاً، وينحدر في البحر، ويتخذ له فيه نفقاً غير نافذ؛ ليجسه.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شِقْوَةٍ جَدلاً ٥٤ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأُولَى أَوْ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ٥٥ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أُمُومِينَ وَبَشِيرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَتَجِدِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْخِلَهُمُ اللَّهُ فِي عَذَابٍ أَلِيمٍ ٥٦ وَمَا أَنْذَرُوا هَؤُلَاءِ ٥٧ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ٥٨ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ٥٩ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْحَدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ٥٨ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ٥٩ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حَقْبًا ٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ٦١

٦٢ - فلما فارق موسى وفتاه ذلك الموضع الذي نسيًا فيه الحوت، وهو مَجْمَعُ البحرين، ألقى الله على موسى الجوع بعدما جاوز الصخرة. قال موسى لفتاه: آتِنَا طَعَامَ الْغُدْوَةِ، أُوَكِّدُ لَكَ أَنَّا لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا تَابِعْنَا فِيهِ السَّيْرَ تَعَبًا وَشِدَّةً.

٦٣ - قال له خادمه «يوشع»: أَرَأَيْتَ الْمَكَانَ الَّذِي نَزَلْنَا فِيهِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ الَّتِي اسْتَرَحْنَا عِنْدَهَا؟ فَإِنِّي تَرَكْتُ الْحَوْتَ وَفَقَدْتَهُ، وَمَا أَنْسَانِي أَنْ أَذْكَرَ لَكَ أَمْرَ الْحَوْتَ إِلَّا الشَّيْطَانُ، فَإِنَّ الْحَوْتَ الْمَيِّتَ دَبَّتْ فِيهِ الْحَيَاةُ، وَاتَّخَذَ لَهُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ اتِّخَاذًا عَجَبًا. وَفِي نِسْبَةِ النِّسْيَانِ إِلَى الشَّيْطَانِ أَدَبٌ قَرَأْتِي رَفِيعٌ، وَهُوَ تَنْزِيهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ إِسْنَادِ فِعْلِ الْمَكْرُوهَاتِ وَالْمَحْفَرَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَيْهِ، عِلْمًا أَنَّ الْفَاعِلَ الْحَقِيقِيَّ لِكُلِّ ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا خَالِقَ وَلَا فَاعِلَ عَلَى الْحَقِيقَةِ سِوَاهُ.

٦٤ - قال موسى لفتاه: ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ الْحَوْتَ هُوَ الَّذِي كُنَّا نَطْلُبُهُ وَنَلْتَمِسُهُ، فَإِنَّهُ عَلَامَةٌ لِي عَلَى مَكَانِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ، فَرَجَعَا فِي طَرِيقَهُمَا الَّذِي سَلَكَاهُ يَتَّبِعَانِ آثَارَ مَشْيِهِمَا اتِّبَاعًا؛ لِثَلَا يَخْطِئَا طَرِيقَهُمَا، فَيَفُوتَهُمَا مَكَانَ الْخَضِرِ مَرَّةً أُخْرَى، حَتَّى انْتَهِيَا إِلَى الصَّخْرَةِ.

٦٥ - فلما وَصَلَا إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي فَقَدَا فِيهِ الْحَوْتَ، وَجَدَا عِنْدَهُ عَبْدًا صَالِحًا مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَحَقِّقِينَ بِعِبُودِيَّتِهِمْ لَنَا هُوَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، آتَيْنَاهُ نَبْؤَةً مِنْ عِنْدِنَا، وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا خَاصًّا لَمْ يُؤْتَ مِنْهُ مُوسَى، وَهُوَ الْعِلْمُ بِبَعْضِ تَصَارِيفِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ مِمَّا ظَاهِرُهُ شَرٌّ مَكْرُوهٌ، وَحَقِيقَتُهُ خَيْرٌ مَحْبُوبٌ.

٦٦ - قال له موسى ملاطفًا متواضعًا: أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أَتَّبِعَكَ؛ لِتُعَلِّمَنِي مِنْ بَعْضِ الْعِلْمِ الَّذِي عَلَّمَكَ اللَّهُ عِلْمًا مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالصَّوَابِ، أَصِيبَ بِهِ الْخَيْرَ فِي دِينِي؟

وفي حرص موسى على لقاء الخضر والتلقي منه ما عنده من علم دليلٌ على أهمية الاستزادة من العلم، والرحلة لتحصيل ذلك، واحتمال المشقة، والتواضع في طلب العلم، وعدم إرهاب الأستاذ ومطالبته بكل ما عنده، وإنما يكفي ببعض ما عنده.

٦٧، ٦٨ - قال الخضر: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا - يَا مُوسَى - إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ عَلَّمْنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ عَلَّمَكَ اللَّهُ، لَا أَعْلَمُهُ. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ يُحِطْ عِلْمُكَ بِالْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ؟

٦٩ - قال له موسى: سَتَجِدُنِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - صَابِرًا عَلَى مَا أَرَاهُ مِنْكَ، وَلَا أَخَالَفُكَ فِيمَا تَأْمُرُنِي بِهِ.

٧٠ - قال الخضر لموسى: أَوْافِقْ عَلَى أَنْ تَتَّبِعَنِي مُتَعَلِّمًا، فَإِنْ صَحِّجْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ أَعْمَلُهُ مِمَّا تَنْكَرُهُ، وَلَا تَعْتَرِضْ عَلَيْهِ، حَتَّى أُحْدِثَ أَتَا لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا بِقَوْلِ آيِينَ لَكَ فِيهِ سَبَبٌ فَعَلِي مَا فَعَلْتُ، مِمَّا هُوَ خَارِجٌ عَنْ حُدُودِ عِلْمِكَ.

٧١ - فذهب موسى والخضر مُسْرِعِينَ بِهِمَّةٍ وَنَشَاطٍ يَمْشِيَانِ عَلَى السَّاحِلِ، يَطْلُبَانِ سَفِينَةً يَرْكَبَانَهَا، فَوَجَدَا سَفِينَةً، فَرَكَبَاهَا بِغَيْرِ أَجْرٍ، فَقَلَعَ الْخَضِرُ لَوْحًا مِنَ الْأَوَاحِ السَّفِينَةَ فَخَرَقَهَا، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَخَرَقْتَ السَّفِينَةَ؛ لِتَغْرُقَ أَهْلَهَا، وَقَدْ حَمَلُونَا بِغَيْرِ أَجْرٍ؟ أُوَكِّدُ أَنَّكَ جِئْتَ بِخَرَقِكَ السَّفِينَةَ شَيْئًا عَظِيمًا مُنْكَرًا لَا يَتَّفَقُ مَعَ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ.

٧٢ - قال له الخضر: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ - يَا مُوسَى - لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. إِنَّ خَرَقَ السَّفِينَةِ فَعَلْتَهُ قَصْدًا، وَهُوَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي اشْتَرَطْتَ مَعَكَ أَنْ لَا تَنْكَرَ عَلَيَّ فِيهَا؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَحِطْ بِهَا خَبْرًا، إِذْ لَهَا سُرٌّ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ.

٧٣ - قال موسى معتذرًا: لَا تُجَازِنِي عَلَى سُؤَالِي هَذَا بِسَبَبِ نِسْيَانِي عَهْدِي مَعَكَ، وَلَا تُكَلِّفْنِي مَشَقَّةً فِي تَعَلُّمِي مِنْكَ، وَلَا تُعَسِّرْ عَلَيَّ مُتَابَعَتَكَ بِشِدَّةِ الْمَحَاسِبَةِ، وَيَسْرَهَا بِالْإِغْضَاءِ وَتَرْكِ الْمُنَاقَشَةِ، فَقَبِلَ الْخَضِرُ عِذْرَهُ.

٧٤ - فانطلق موسى والخضر بعد نزولهما من السفينة يمشيان على الساحل، إِذْ أَبْصَرَا غُلَامًا يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَمَانِ، فَقَتَلَهُ الْخَضِرُ، فَأَنْكَرَ مُوسَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: كَيْفَ تَقْتُلُ نَفْسًا طَاهِرَةً مِنَ الذُّنُوبِ، إِذْ لَمْ تَبْلُغْ مَبْلَغَ التَّكْلِيفِ، وَلَمْ تَقْتُلْ نَفْسًا، حَتَّى يَجِبَ عَلَيْهَا الْقَتْلُ؟ أُوَكِّدُ لَكَ أَنَّكَ جِئْتَ شَيْئًا مُنْكَرًا عَظِيمًا أَنْكَرَ مِنَ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ الْبَرِيَّةِ وَسْفَكَ الدَّمِ الْحَرَامِ لَا يَجُوزُ فِي أَيِّ شَرِيعَةٍ، وَلَا تَحْتَمِلُهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ، وَهُوَ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، لَا أَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءٌ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرِنَا عَلَيَّ أَثَارَهَا فَصَبَا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ وَحَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤْخَذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا قِيَا عِلْمًا فَتَنَّاهُ قَالَ أَمْلَأْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾

٧٥ - قال الخضر لموسى مُعَاتِباً ومُؤَكِّداً: إني كنت وجَّهْتُ الخطاب لك بأنك لن تستطيع معي صَبِراً على ما سأفعله من أمور تخفى عليك مما علَّمنيه الله تعالى؟

٧٦ - قال موسى له: سامحني بهذه التي لم تكن نسياناً، وإن سألتك عن شيء بعد هذه المرة الثانية، ففارقني ولا تصاحبني، قد بلغت إلى الغاية التي تُعذر بسببها في فراقِي؛ حيث احتملني مرتين مع قُرب المُدَّة.

٧٧ - فانطلق موسى والخضر يمشيان حتى أتيا أهل قرية، طلبا منهم طعاماً على سبيل الضيافة، فامتنع أهل القرية البخلاء عن ضيافتهما، فوجدَا فيها جداراً مائلاً يريد - كعجوز من الناس هُرم - أن ينهدم ويسقط إلى الأرض - كانقضاء الطائر - فسوّاه الخضر بيده، فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى - لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة - أن قال للخضر: قوم آتيناهم، فلم يُطعمونا، ولم يضيفونا؛ لو شئت لاتخذت على إصلاح الجدار أجراً، لنسد بالأجر جوعنا، فقد بلغ الجوع منا مبلغاً مُضنياً.

٧٨ - قال الخضر لموسى: هذا السؤال الثالث وقت فراق وُضلي مع وُضلك؛ لأنك شرطت على نفسك بعد حادثة قتل الغلام: أنك إن سألتني عن شيء بعده، فإني لا أصاحبك وأكون في جُلٍّ من فراقك، سأخبرك بمآل وعاقبة ما أنكرت عليّ من أفعالي التي فعلتها، والتي لم تستطع صبراً على ترك السؤال عنها.

٧٩ - أما السفينة التي ركبناها وخرقتها بقلع لوح من ألواحها، فهي لمساكين في البحر يؤجرونها ويكتسبون بها، فأردت أن أجعل فيها عيماً، لأحميها وأحمي أصحابها من ملك غاصب جبّار، وكان وراء نهاية مدّ بصرهم ملك ظالم يأخذ كل سفينة غير معيبة استلاباً بغير حق، فقامت بإحداث عيب في سفينتهم لا يُسبب إغراقاً لها

ولأهلها، حتى لا يأخذها الملك الغاصب من أصحابها. وفي خرق السفينة من قبل الخضر دليل على العمل بالمصلحة الراجحة، وإن استلزمت مفسدة مرجوحة، وأنه إذا تعارضت مفسدتان وجب ارتكاب أخفهما لدفع أشدهما.

٨٠ - وأما الغلام الذي قتلته، فكان مطبوعاً على الكفر، وكان أبوه وأمه مُؤمِنَيْن، فخفنا - لو بقي الغلام حيّاً - أن يُكلّفهما طغياناً وكفراً، فيحملهما حُبّه على أن يتبعاه على دينه.

٨١ - فأردنا أن يُبدِّلَهما ربُّهما غلاماً آخر خيراً من الغلام المقتول طهارة وبراءة من الكفر والإثم والعصيان، وأقرب لوالديه رحمة وشفقةً وعطفاً.

٨٢ - وأما الجدار الذي عدلت مِثْلَهُ حتى صار مستوياً، فهو ملكُ غُلَامَيْن يَتِمَّيْن في المدينة، وكان تحت الجدار مالٌ مدفونٌ مُخْبئاً لهما، وكان أبوهما رجلاً صالحاً من الأتقياء، فأراد ربُّك - بسبب صلاح والدهما - أن يبلغا قوتَهما وكمال عقليهما، ويستخرجا كنزهما إذا بلغا وعقلا وقويا، رحمةً وعطاءً من ربِّك لهما، فأوحى إليّ بأن أقيم الجدار، فأقامته طاعةً لأمره.

وهذا الذي فعلته في أصحاب السفينة، والَّذِي الغلام، ووَليّ الرجل الصالح إنما هو رحمة من الله بهم، وما فعلتُ - يا موسى - جميع الذي رأيته فعلته باختياري ورأيي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه إليّ، ذلك الذي يَبَيِّنُ لك أسبابه هو عاقبة الأمور التي لم تُطَق أن تصير على ترك السؤال عنها، والإنكار عليّ فيها.

٨٣ - ويسألك - يا رسول الله - المشركون من قومك على جهة الامتحان عن خبر ذي القرنين، الملك الصالح العادل الذي بلغ أقصى المشرق والمغرب والشمال والجنوب من القدر المعمور من الأرض، وأعطاه الله العلم والحكمة والسلطان. قل - يا رسول الله - لهم: سأتلو عليكم ممّا سُنزل عليّ ربي في كتابه من بعض أخباره بياناً نافعاً، يصلح أن يكون ذكراً تتذكرونه، عند المناسبات الداعيات لتذكره، ليكون هادياً لكم للاستقامة على صراط الله المستقيم، ولتعرفوا ميزة الملك الصالح المصلح العادل، المؤيّد بتأييد من ربه سبحانه.

قَالَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَٰذَا فَلَا تُصَبِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَاذْكُرْ لَنَا حَقِّ إِذَا أَنبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ أَتَّصَّطَعُمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا فَوْجَدًا فِيهَا حِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَتَّقَضَ أَهْلُهَا أَجْرًا ۖ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَتُخَدَّتْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُوِيلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَ هُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ لُغْوَةُكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

٨٤ - إِنَّا جَعَلْنَا مُلْكَهُ قَوِيًّا ثَابِتًا، وَأَقْدَرْنَاهُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي الْأَرْضِ، وَآتَيْنَاهُ بِتَقْدِيرِنَا وَخَلَقْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُهُ لِتَثْبِيتِ مُلْكِهِ، وَتَحْقِيقِ طُمُوحَاتِهِ فِي فَتْحِ الْمَدَنِ وَمُحَارَبَةِ الْأَعْدَاءِ، وَإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، سَبِيًّا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مَا يَرِيدُ.

٨٥، ٨٦ - فَسَلَّكَ طَرِيقًا مُوَصَّلًا إِلَى أَغْرَاضِهِ وَمَقَاصِدِهِ بِجِدِّ وَاجْتِهَادٍ، حَتَّى إِذَا وَصَلَ ذُو الْقَرْنَيْنِ إِلَى مَتْنَهَى الْأَرْضِ الْمَعْمُورَةِ فِي زَمَنِهِ مِنْ جِهَةِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ، رَأَاهَا رَأَى الْعَيْنِ كَأَنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ ذَاتِ طِينَةٍ سَوْدَاءَ، وَتَوَقَّفَتْ عِنْدَ هَذِهِ الْعَيْنِ، إِذْ وَجَدَهَا آخِرَ مَا يَسْتَطِيعُ جَيْشُهُ أَنْ يَعْبُرَهُ مِنَ الْأَرْضِ، وَهَذِهِ الْعَيْنُ يَأْتِي بِعِندِهَا بَحْرٍ عَظِيمٍ، فَإِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ظَهَرَ لِلنَّازِلِينَ أَنَّهَا تَنْغَمِسُ فِي هَذَا الْبَحْرِ الْعَظِيمِ، وَوَجَدَ عِنْدَ الْعَيْنِ الْحِمَّةَ قَوْمًا كَفَرَاءَ. قُلْنَا: يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذِّبَ الْكَافِرَ الْمُعَانِدَ مِنْهُمْ، بَعْدَ دَعْوَتِهِ إِلَى دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، وَإِقْنَاعِهِ بِهِ، وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ أَمْرًا ذَا حُسْنٍ، بَأَنْ تُمَهِّلَ مِنْ تَرَى إِمَهَالَهُ مِنْهُمْ، وَتَتَلَطَّفَ بِهِ، وَتَصْبِرَ عَلَى مُعَالَجَتِهِ بِحَسَبِ مَا تَرَى مِنْ اسْتِعْدَادِهِ لِأَنْ يَوْمَنْ مُسْتَقْبَلًا وَيَعْمَلَ صَالِحًا.

٨٧ - قَالَ ذُو الْقَرْنَيْنِ: أَمَّا مِنْ ظَلَمَ بِالْكَفْرِ وَارْتَكَبَ الْجَرَائِمَ بَعْدَ دَعْوَتِهِ إِلَى دِينِ الْحَقِّ، فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى رَبِّهِ فِي الْآخِرَةِ، فَيُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ عَذَابًا شَدِيدًا مُنْكَرًا.

٨٨ - وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَبَرَّهَنَ عَلَى صِحَّةِ إِيمَانِهِ بِعَمَلٍ صَالِحٍ، فَلَهُ عِنْدَ رَبِّهِ الْجَنَّةُ الْحُسْنَى، حَالَةً كَوْنِهَا جَزَاءً عَظِيمًا لَهُ، وَنَسْقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا الْمَوْصُولَ بِالتَّنْفِيزِ، مَا فِيهِ يُسَّرُ وَتَيْسِيرُ، وَتَكُونُ أَوْامِرُنَا لَهُ ذَاتُ يُسْرٍ لَا مَشَقَّةَ فِيهَا.

٨٩، ٩٠ - ثُمَّ بَعْدَ مَدَّةٍ سَلَّكَ طَرِيقًا وَمَنَازِلَ مُتَّجِهًا إِلَى الْمَشْرِقِ، وَاسْتَمَرَّ يَتَّخِذُ أَسْبَابَهُ، وَيَتَّبِعُهَا بِجَيْشِهِ الْعَظِيمِ، حَتَّى إِذَا وَصَلَ إِلَى

مَتْنَهَى الْأَرْضِ الْمَعْمُورَةِ فِي زَمَنِهِ مِنْ جِهَةِ مَطْلَعِ الشَّمْسِ، وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ يَعِيشُونَ فِي أَرْضٍ مَكْشُوفَةٍ لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الشَّمْسِ سِتْرٌ مِنْ جَبَلٍ وَلَا شَجَرٍ وَلَا بِنَاءٍ، وَلَمْ يَسْتَرَوْا أَجْسَادَهُمْ بِالْجُلُودِ أَوْ الْمَنَسُوجَاتِ مِنَ الثِّيَابِ.

٩١ - كَذَلِكَ حَكَمَ ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ كَمَا حَكَمَ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ عِنْدَ مَغْرِبِهَا، وَقَدْ عَلِمْنَا بِمَا عِنْدَهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُنْدِ وَالْعُدَّةِ وَأَلَاتِ الْحَرْبِ عِلْمًا شَامِلًا.

٩٢، ٩٣ - ثُمَّ بَعْدَ مَدَّةٍ سَلَّكَ ذُو الْقَرْنَيْنِ طَرِيقًا مُوَصَّلًا إِلَى أَهْدَافِهِ، حَتَّى إِذَا وَصَلَ إِلَى مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ الْحَاجِزَيْنِ لَهَا وَرَاءَهُمَا، وَجَدَ أَمَامَ الْجَبَلَيْنِ قَوْمًا، لَا يَفْهَمُونَ كَلَامَ غَيْرِهِمْ، وَلَا يَفْهَمُ النَّاسُ كَلَامَهُمْ إِلَّا بِالْإِشَارَةِ وَنَحْوِهَا.

٩٤ - قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ: إِنَّ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» - وَهُمَا أَمْتَانِ عَظِيمَتَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ - مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْقَتْلِ وَالظُّلْمِ وَسَائِرِ وَجُوهِ الشَّرِّ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ - أَيُّهَا الْمَلِكُ الصَّالِحُ الْعَادِلُ - أَجْرًا عَظِيمًا مِنَ الْأَمْوَالِ، عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ حَاجِزًا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْنَا، وَالْإِفْسَادِ فِي أَرْضِنَا.

٩٥ - قَالَ لَهُمْ ذُو الْقَرْنَيْنِ: مَا آتَانِي اللَّهُ رَبِّي مِنْ تَمَكِينٍ فِي الْأَرْضِ، خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ لِي مِنْ أَجْرِ عَلَى إِقَامَةِ هَذَا السِّدِّ لَكُمْ، لَا أُرِيدُ مِنْكُمْ الْمَالَ وَلَا حَاجَةً لِي بِهِ، بَلْ أَعِينُونِي بِمَا لَدَيْكُمْ مِنْ قُوَى نَحْتَاجُ إِلَيْهَا، أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حَاجِزًا حَصِينًا وَجِدَارًا مَتِينًا، مَانِعًا لِمَنْ يَغِيرُ عَلَيْكُمْ مِنْ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ». وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ مُسَاعَدَةِ الْمَظْلُومِينَ مِنْ قِبَلِ الْقَادِرِينَ بِمَا أَجْرَ عَلَى هَذِهِ الْمُسَاعَدَةِ.

٩٦ - أَعْطَوْنِي مَا عِنْدَكُمْ مِنْ قِطْعِ الْحَدِيدِ الْعَظِيمَةِ، فَأَتَوَّهُ بِهَا، فَجَعَلَ الْحَطَبَ عَلَى الْحَدِيدِ، وَالْحَدِيدَ عَلَى الْحَطَبِ، حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ طَرَفَيْ الْجَبَلَيْنِ، قَالَ: انْفُخُوا بِالْمَنَايِخِ لِإِقَادِ الثَّارِ، حَتَّى إِذَا جَعَلَ قِطْعَ الْحَدِيدِ حِمَاءً كَالْجَمْرِ، قَالَ: آتُونِي أَصْبُ عَلَيْهِ نَحَاسًا مُذَابًا، فَإِذَا بَرَدَ كَانَ الْجَمِيعُ كِتْلَةً وَاحِدَةً، وَأَنْتُمْ ذُو الْقَرْنَيْنِ السِّدَّ بِجِدَارَتِهِ وَرَدَمَ مَا بَيْنَهُمَا.

٩٧ - وَلَمَّا اكْتَمَلَ بِنَاءُ السِّدِّ وَارْتَفَعَ ارْتِفَاعًا كَافِيًا لِيَكُونَ حَاجِزًا مَانِعًا لَغَارَاتِ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» الْمَدَاهِمَةِ، أَقْبَلَ الْغَزَاةَ الْأَشْرَارَ لِيَدْخُلُوا كَعَادَتِهِمْ مِنَ الْفَرَاغِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَعْطَوْا عَلَى السِّدِّ وَيَرْقَوْا عَلَيْهِ؛ لِعُلُوِّهِ وَمَلَأَسَتِهِ، وَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَخْرِقُوهُ مِنْ أَسْفَلِهِ؛ لِسَدَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ.

الْبَيْتُ الْخَامِسُ

سُورَةُ الْكَهْفِ

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا ٨٤ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ٨٥ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ٨٦ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذُو الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ٨٧ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ٨٨ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا مُكْرَرًا ٨٩ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ٩٠ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ٩١ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ٩٢ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِمْ خَبْرًا ٩٣ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ٩٤ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ٩٥ قَالُوا يَنْذِرُ الْفَرِيقَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ٩٦ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ٩٧ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَّيْنِ ٩٨ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ٩٩ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ١٠٠

٩١ - كَذَلِكَ حَكَمَ ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ كَمَا حَكَمَ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ عِنْدَ مَغْرِبِهَا، وَقَدْ عَلِمْنَا بِمَا عِنْدَهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْجُنْدِ وَالْعُدَّةِ وَأَلَاتِ الْحَرْبِ عِلْمًا شَامِلًا.

٩٢، ٩٣ - ثُمَّ بَعْدَ مَدَّةٍ سَلَّكَ ذُو الْقَرْنَيْنِ طَرِيقًا مُوَصَّلًا إِلَى أَهْدَافِهِ، حَتَّى إِذَا وَصَلَ إِلَى مَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ الْحَاجِزَيْنِ لَهَا وَرَاءَهُمَا، وَجَدَ أَمَامَ الْجَبَلَيْنِ قَوْمًا، لَا يَفْهَمُونَ كَلَامَ غَيْرِهِمْ، وَلَا يَفْهَمُ النَّاسُ كَلَامَهُمْ إِلَّا بِالْإِشَارَةِ وَنَحْوِهَا.

٩٤ - قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ: إِنَّ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» - وَهُمَا أَمْتَانِ عَظِيمَتَانِ مِنْ بَنِي آدَمَ - مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْقَتْلِ وَالظُّلْمِ وَسَائِرِ وَجُوهِ الشَّرِّ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ - أَيُّهَا الْمَلِكُ الصَّالِحُ الْعَادِلُ - أَجْرًا عَظِيمًا مِنَ الْأَمْوَالِ، عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ حَاجِزًا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْنَا، وَالْإِفْسَادِ فِي أَرْضِنَا.

٩٥ - قَالَ لَهُمْ ذُو الْقَرْنَيْنِ: مَا آتَانِي اللَّهُ رَبِّي مِنْ تَمَكِينٍ فِي الْأَرْضِ، خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ لِي مِنْ أَجْرِ عَلَى إِقَامَةِ هَذَا السِّدِّ لَكُمْ، لَا أُرِيدُ مِنْكُمْ الْمَالَ وَلَا حَاجَةً لِي بِهِ، بَلْ أَعِينُونِي بِمَا لَدَيْكُمْ مِنْ قُوَى نَحْتَاجُ إِلَيْهَا، أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ حَاجِزًا حَصِينًا وَجِدَارًا مَتِينًا، مَانِعًا لِمَنْ يَغِيرُ عَلَيْكُمْ مِنْ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ». وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ مُسَاعَدَةِ الْمَظْلُومِينَ مِنْ قِبَلِ الْقَادِرِينَ بِمَا أَجْرَ عَلَى هَذِهِ الْمُسَاعَدَةِ.

٩٦ - أَعْطَوْنِي مَا عِنْدَكُمْ مِنْ قِطْعِ الْحَدِيدِ الْعَظِيمَةِ، فَأَتَوَّهُ بِهَا، فَجَعَلَ الْحَطَبَ عَلَى الْحَدِيدِ، وَالْحَدِيدَ عَلَى الْحَطَبِ، حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ طَرَفَيْ الْجَبَلَيْنِ، قَالَ: انْفُخُوا بِالْمَنَايِخِ لِإِقَادِ الثَّارِ، حَتَّى إِذَا جَعَلَ قِطْعَ الْحَدِيدِ حِمَاءً كَالْجَمْرِ، قَالَ: آتُونِي أَصْبُ عَلَيْهِ نَحَاسًا مُذَابًا، فَإِذَا بَرَدَ كَانَ الْجَمِيعُ كِتْلَةً وَاحِدَةً، وَأَنْتُمْ ذُو الْقَرْنَيْنِ السِّدَّ بِجِدَارَتِهِ وَرَدَمَ مَا بَيْنَهُمَا.

٩٧ - وَلَمَّا اكْتَمَلَ بِنَاءُ السِّدِّ وَارْتَفَعَ ارْتِفَاعًا كَافِيًا لِيَكُونَ حَاجِزًا مَانِعًا لَغَارَاتِ «يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ» الْمَدَاهِمَةِ، أَقْبَلَ الْغَزَاةَ الْأَشْرَارَ لِيَدْخُلُوا كَعَادَتِهِمْ مِنَ الْفَرَاغِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَعْطَوْا عَلَى السِّدِّ وَيَرْقَوْا عَلَيْهِ؛ لِعُلُوِّهِ وَمَلَأَسَتِهِ، وَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَخْرِقُوهُ مِنْ أَسْفَلِهِ؛ لِسَدَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ.

٩٨ - قال ذو القرنين: هذا السد الحصين الذي بنيته حاجزاً عن فساد يأجوج ومأجوج من نعمة ربي، فإذا جاء وعد ربي يوم القيامة جعله أرضاً ملساء مستوية، وكان وعد ربي حقاً.

وفي الآية دليل على دفع الشر بأيسر ما يندفع به، وتذكر فضل الله عز وجل عند القيام بالعمل الصالح، فذو القرنين لم يأخذ البطر والغرور، ولم يضيف هذا الإنجاز إلى نفسه وعلمه، وإنما ذكر ربه، واستحضر فضله العظيم عليه، وأن ما حصل على يده هو محض فضل من الله ورحمة منه لأولئك المستضعفين، لحمايتهم من الاعتداءات، ورحمة بالمعتدين المفسدين أيضاً بمنعهم من الاعتداء والإفساد.

٩٩ - وتركنا جميع الناس عند فتح السد وقرب الساعة، يختلط بعضهم في بعض في أحداث متكررة متجددة كحركة أمواج البحر التي يختلط فيها الماء بعضه ببعض، وتنفخ في «القرن» النفخة الثانية للبعث، فجمعنا الخلق جميعاً بعد إحيائهم جمعاً شاملاً، لم نترك منهم أحداً.

١٠٠ - وأبرزنا جهنم يومئذ للكافرين، ليُشاهدوها عياناً.

١٠١ - الذين كانت أعينهم في الدنيا داخلية في غشاء غليظ وسُتر كثيف عن مشاهدة آياتي في كوني، الدالات على عظيم قدرتي، وجليل حكمتي، فهم لا يرونها، فلا يذكرونني ولا يؤمنون بي، وكانت آذانهم مصابة بالصمم، لا يستطيعون سماع ما يتلى عليهم من آياتي وبياناتي سماع قبول وانتفاع؛ لتوليهم عن الحق، وتعلقهم بالحياة الدنيا وأهوائهم وشهواتهم.

١٠٢ - أنطمت بصائر الذين كفروا فظنوا أن يتخذوا عبادي الذين عبدوا من دوني - كعيسى والملائكة - أرباباً يعبدونهم وهم لا ربوية لهم، وهم لا يستطيعون نصرهم وإنقاذهم من عذابي؟ إنا هيأنا جهنم

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا الْبَحْرُ مَدَادًا لَكُمُنِيَ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

للكافرين منزلاً لضيافتهم!!

١٠٣ - قل - يا رسول الله ويا كل من يحمل رسالة الدعوة إلى الله من أمته - لمن لم يستجيبوا لدعوة الحق الربانية: هل نُخبركم بالأخسرين أعمالاً يوم القيامة؟

١٠٤ - الذين وجدوا أن سعيهم الذي كانوا قد سَعَوْه في الحياة الدنيا، لتحقيق ما كانوا يطمحون له من سعادات، قد ضاع ضياعاً تاماً، فلم يظهر له أثر نافع يوم الدين.

١٠٥ - أولئك الأخسرون أعمالاً، الذين كفروا بآيات ربهم الكونية، والبيانية، والإعجازية، والجزائية، وكفروا بالبعث واليوم الآخر، والثواب والعقاب، فَبَطَلَتْ أعمالهم، ولم يبق في صحائفهم إلا السيئات، فلا تُقِيمُ لهم يوم القيامة ميزاناً نزن به حسناتهم، إذ يأتون يوم القيامة ليس لهم حسنات تُوزن في كفة الحسنات.

١٠٦ - ذلك منزلهم يوم القيامة عذاب في نار جهنم؛ بسبب كفرهم واتخاذهم آياتي البيانية المنزلات على رُسلي مهزوءاً بها ومسخوراً منها.

١٠٧، ١٠٨ - إن الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات المعبرة عن صدق إيمانهم، كانت لهم أعلى الجنة وأفضلها منزلاً مُعداً لضيافتهم، حالة كونهم خالدين فيها أبداً، لا يطلبون عنها تحوُّلاً وانتقالاً إلى غيرها؛ لكونها أطيب المنازل وأعلاها.

١٠٩ - قل - يا رسول الله - : لو كان ماء البحر حبراً للأقلام التي يُكتب بها كلام الله الذي يدل على علمه المحيط بكل شيء، لنفدت هذه البحور دون أن تستوعب الكتابة كلمات الله الدالات على علمه الشامل، ولو جئنا بمثل ماء البحر في كثرته ماءً وزيادة، وذلك لأن البحر مُتناهٍ، وعلم الله غير مُتناهٍ.

١١٠ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: ما أنا بالنسبة إلى تكوين خلقي إلا بشرٌ مثلكم، ولكني خُصِصْتُ بالوحي وأُكرمني الله بالنبوة والرسالة، وقد أوحى إليّ أنما إلهمك إله واحد لا شريك له، فمن كان يتوقع أنه سوف يلقى ربه يوم القيامة ليحاسبه، وينقذ فيه جزاءه بالفضل أو بالعدل، في الجنة دار النعيم، أو النار دار العذاب، فليعمل عملاً صالحاً خالصاً لربه موافقاً لشعره، ولا يشرك بعبادته أحداً من خلقه.

سُورَةُ زَكَرِيَّا

الْمِيقَاتُ

سُورَةُ زَكَرِيَّا

١ - ﴿كَهَيَّصَ﴾ سَبَقَ الْكَلَامَ عَلَى الْحُرُوفِ الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

٢ - هَذَا الَّذِي نَتْلُو عَلَيْكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا الَّذِي شَرَفَهُ بِعِبَادَتِهِ لَهُ، وَجَعَلَهُ أَهْلًا لِرَحْمَتِهِ بِإِجَابَةِ دَعَائِهِ، وَتَلْبِيَةِ طَلِبِهِ، وَجَعَلَ امْرَأَتَهُ الْعَاقِرَ تَلِدُ لَهُ وَلَدًا رَضِيًا، وَنَبِيًّا رَسُولًا.

٣ - أَذْكَرَ رَحْمَةً رَبُّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا بِاسْتِجَابَتِهِ لِدَعَائِهِ حِينَ نَادَى رَبَّهُ مُتَوَجِّهًا بِقَلْبِهِ فِي دَعَائِهِ فِي الْمَحْرَابِ سِرًّا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ؛ لِيَكُونَ أَكْمَلَ إِخْلَاصًا لِلَّهِ، وَأَرْجَى لِلْإِجَابَةِ.

٤ - قَالَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نِدَائِهِ لِرَبِّهِ نِدَاءً خَفِيًّا مُعْبِرًا عَنْ شِدَّةِ تَوَجُّهِهِ بِقَلْبِهِ وَنَفْسِهِ: رَبِّ إِنِّي رَقُ وَضَعُفُ كُلِّ الْعَظْمِ مِنْ جَسَدِي، وَاشْتَعَلَ الشَّعْرُ اشْتِعَالًا مِنْ نَوْعِ الشَّيْبِ، وَانْتَشَرَ فِيهِ بِسْرَعَةٍ، كَمَا يَنْتَشِرُ لَهَبُ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ، حَتَّى اسْتَوْعَبَ كُلَّ أَجْزَائِهِ، وَلَمْ أَكُنْ بِسَبَبِ دَعَائِي إِيَّاكَ - يَا رَبِّي - فِيمَا مَضَى مِنْ عَمْرِي حَتَّى بَلُوغِي سُنَّ الشَّيْخُوخَةِ مُحْرُومًا خَائِبًا، بَلْ كَانَتْ حَيَاتِي كُلُّهَا هَنِيئَةً رَضِيَّةً.

وَفِي الْآيَةِ تَوْجِيهٌ إِلَى أَثَرِ التَّزَامِ الدَّعَاءِ وَالْمَدَاوِمَةِ عَلَيْهِ فِي الظَّفَرِ بِحَيَاةِ رَضِيَّةٍ لَا شِقَاءَ فِيهَا، وَاسْتِحْبَابِ الْإِسْرَارِ وَالْخُضُوعِ فِي الدَّعَاءِ، وَإِظْهَارِ الذِّلِّ وَالْمُسْكِنَةِ وَالضَّعْفِ.

٥ - وَإِنِّي خِفْتُ أَقَارِبِي وَعَصَبَتِي أَلَّا يُحْسِنُوا خِلَافَتِي مِنْ بَعْدِ مَوْتِي، فَيُفْسِدُوا فِي مَرَاكِزِ السُّلْطَةِ الدِّيْنِيَّةِ، وَلَا أَجِدُ فِيهِمْ رَجُلًا صَالِحًا مُؤَهَّلًا لِأَنْ يَكُونَ وَارِثًا مُحَافِظًا عَلَى شَرَائِعِ الدِّينِ وَتَعْلِيمَاتِهِ، وَكَانَتْ امْرَأَتِي فِيمَا مَضَى مِنْ عَمْرِهَا عَاقِرًا لَا تَلِدُ، فَأَعْطَنِي مِنْ مُحَضِّضِ فَضْلِكَ الْوَاسِعِ، وَقَدَرْتِكَ الْبَاهِرَةِ وَارِثًا مِنْ ذُرِّيَّتِي، وَمَعِينًا يَتَوَلَّانِي.

٦ - يَرِثُ الْعِلْمَ وَالْقِيَامَ بِأُمُورِ الدِّينِ مِنْ بَعْدِي، وَيَرِثُ مِنْ بَعْضِ آلِ يَعْقُوبَ - مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - النُّبُوَّةَ وَالْعِلْمَ، وَاجْعَلْهُ رَبُّ بَرًّا تَقِيًّا كَثِيرَ الرِّضَا عَنْكَ فِيمَا تَجْرِي بِهِ مَقَادِيرُكَ، مَرْضِيًّا عَنْكَ قَوْلًا وَفِعْلًا.

٧ - فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ فَقَالَ: يَا زَكَرِيَّا إِنَّا - بِعَظِيمِ رُبُوبِيَّتِنَا - نُبَشِّرُكَ بِوَلَدٍ ذَكَرَ اسْمُهُ يَحْيَى، لَمْ يُسَمَّ أَحَدٌ قَبْلَهُ بِاسْمِهِ، وَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ شَبِيهًا فِي صِفَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ. وَمِنْ جَمَلَةِ الْخَصَائِصِ الَّتِي تَمَيَّزُ بِهَا أَنَّهُ حُصُورٌ، يَعْفُ عَقَّةً تَامَةً عَنِ النِّسَاءِ، فَلَا يَسْتَهْيِئُ بِإِرَادَةِ قُوَّةٍ حَازِمَةٍ مِنْهُ.

٨ - قَالَ زَكَرِيَّا مُتَعَجِّبًا: يَا رَبُّ مِنْ أَيْنَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ، وَهَنَّاكَ سَبِيحَانِ يَمْنَعَانِ بِحَسَبِ الْعَادَةِ مِنْ إِنْجَابِ الْأَوْلَادِ: السَّبَبُ الْأَوَّلُ: كَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فِي شَبَابِهَا، وَفِي السَّنِّ الَّتِي تُنْجِبُ النِّسَاءَ عَادَةً، فَكَيْفَ بِهَا، وَقَدْ بَلَغَتْ سَنَ الْيَاسِ؟ السَّبَبُ الثَّانِي: أَنَّنِي بَلَغْتُ النِّهَايَةَ مِنَ الْكِبَرِ، وَنَحَلَ جِسْمِي، وَدَقَّتْ عِظَامِي، وَجَفَّتْ مَفَاصِلِي؟ وَوَصَلْتُ إِلَى طُورٍ أَعْجَزَ فِيهِ عَنْ مَعَاشَرَةِ النِّسَاءِ مَعَاشَرَةً زَوْجِيَّةً.

٩ - قَالَ الْمَلَكُ مُجِيبًا زَكَرِيَّا عَمَّا تَعَجَّبَ مِنْهُ: الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ مِنْ كَوْنِ امْرَأَتِكَ عَاقِرًا، وَبَلُوغِكَ الْكِبَرِ عِتْيًا، وَلَكِنَّ رَبَّكَ قَالَ: خَلَقْتُ يَحْيَى مَعَ بَلُوغِكَ الْكِبَرِ، وَغَفَّرَ امْرَأَتَكَ أَمْرًا عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ، وَلَيْسَ صَعْبًا عَلَيَّ أَنْ أَصْلَحَ امْرَأَتَكَ فَأَجْعَلَهَا صَالِحَةً لِأَنْ تُنْجِبَ، وَأَمْنَحَكَ الْقُوَّةَ، فَتَكُونَ قَادِرًا عَلَى مَبَاشَرَةِ امْرَأَتِكَ، كَمَا كُنْتَ أَيَّامَ قُدْرَتِكَ، وَقَدْ خَلَقْتُكَ - يَا زَكَرِيَّا - مِنْ قَبْلِ يَحْيَى، وَلَمْ تَكُ شَيْئًا مَذْكُورًا، فَمَا بَشِّرُنَا بِهِ أَهْوَنَ مِنْ خَلْقِكَ، فَلَا تَسْأَلْ وَلَا تَعْجَبْ، إِنَّ رَبَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١٠ - قَالَ زَكَرِيَّا زِيَادَةً فِي طَمَأنِينَتِهِ: رَبِّ اجْعَلْ لِي عِلَامَةً عَلَى حَمْلِ امْرَأَتِي؛ لِأَشْكُرَكَ. قَالَ: عَلَامَتُكَ الَّتِي نَجْعَلُهَا دَلَالَةً عَلَى دُخُولِ الْبَشَرِ مَرَحَلَةَ التَّنْفِذِ وَالتَّحْقِيقِ فِي الْوَاقِعِ، أَلَّا تَسْتَطِيعَ تَكْلِيمَ النَّاسِ بِلِسَانِكَ مَدَّةَ ثَلَاثِ لَيَالٍ مَعَ أَيَاهُمْ، حَالَةَ كَوْنِكَ صَاحِبًا سَلِيمًا لَمْ تُصَبِّ بِعَاهَةٍ فِي نُطْقِكَ.

١١ - فَخَرَجَ زَكَرِيَّا عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ يُصَلِّي فِيهِ، فِي صَبِيحَةِ اللَّيْلَةِ الَّتِي حَمَلَتْ فِيهَا امْرَأَتَهُ، فَأَوْمَأَ وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ إشاراتٍ حَرَكيَّةً بِالْيَدَيْنِ وَبِغَيْرِهِمَا مِنْ أَعْضَاءِ الْجِسْمِ: أَنْ نَزَّهُوا اللَّهَ تَعَالَى عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، شُكْرًا لَهُ، أَوَّلَ النَّهَارِ عِنْدَ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَنِصْفِ النَّهَارِ الثَّانِي حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي أُبَشِّرُكُمْ بِهِ، أَمْرٌ عَظِيمٌ، يَقْتَضِي مِنْكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِ بِالنِّسْبِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنَّةَ اللَّهِ عَلَيَّ بِوَارِثِ نُبُوَّةٍ وَعِلْمٍ مِنْ ذُرِّيَّتِي هِيَ مَنَّةٌ عَلَى أَصْحَابِي، وَأَوْلِيَائِي، وَأَنْصَارِي مِنْ قَوْمِي.

سُورَةُ زَكَرِيَّا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيَّصَ ١ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ ذَكَرِيَّا ٢
إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ
مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَى مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ
امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثْ
مِنْ أَيْلِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ يَزَكَرِيَّا
إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا
٧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ قَالَ كَذَلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْئًا ٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْلَالٍ سَوْيًا ١٠ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ
مِنَ الْمَحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بِكُرَّةٍ وَعَشِيًّا ١١

١٢ - وَهَبْنَا لَزَكْرِيَا يُحْيِي، وقلنا له: يا يحيى خذ كتاب التوراة بجد واجتهاد، وذلك بحسن حفظه وفهمه وتدبره، وحسن العمل بشرائعه وأحكامه، وحسن تعليمه ونشره، وأعطيناه الحكمة وسداد الرأي وحسن الفهم والبصيرة، وتصريف الأمور، والفصل بين الأقضية والخصومات، وهو صبي صغير.

١٣ - وَأَعْطَيْنَاهُ رَحْمَةً عَظِيمَةً من محض فضلنا الواسع، وحسنه على العباد؛ ليدعوهم إلى طاعة ربهم، وأتيناه من لدنا طهارة قلبية، ونفسية، وسلوكية، وتنمياً في المراتب الحميدة، وكان عليه السلام مطيعاً لله تعالى في كل حياته، لم يعمل معصية قط.

١٤ - وكان عليه السلام باراً بوالديه مُحْسِناً إليهما، وكان متواضعاً لئن الجانب، ولم يكن متكبراً متعالياً ذا عصيان ومخالفة لربه.

١٥ - وأمان له من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان، وأمان له يوم يموت من عذاب القبر، ويوم يُبعث حياً من عذاب يوم القيامة حتى بلوغه الفردوس الأعلى. وهذه التحيّة الربّانية تتضمن قضاءً من الله له بالآمن والسلامة، وتوجيهاً للملائكة والصالحين من عباد الله بأن يُحيوه ويدعوا له بالسلام.

١٦ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لآيات كتاب ربك - خبر مريم المُنزَل في هذا القرآن، حين تَنَحَّت من أمكنة قومها إلى ناحية بعيدة تعزلها عنهم، فاتخذت لها مكاناً في مساكن أهلها من الجهة الشرقية من بيت المقدس.

١٧ - فَضَرَبْتَ من دون أهلها سِتْراً يَسْتُرُها عنهم وعن الناس؛ عَقَّةً وطهارة، وتُعدّداً عن الرياء، وحرصاً على الإخلاص لله عز وجل، فأرسلنا عقب اعتزالها، واتخاذها الحجاب، إليها روحنا الذي هو جبريل؛ ليبشّرها بالغلام ولينفخ فيها، فظهر لها الروح جبريل عليه السلام مُتَشَكِّلاً في صورة إنسانٍ معتدل الخلق كامل البنية؛ لتستأنس بكلامه ولا تنفر منه.

١٨ - فَلَمَّا رَأَتْ مَرْيَمَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْسَاناً مُعْتَدِلاً تَأَمَّ الْخَلْقَ يَقْصِدُ نَحْوَهَا فِي مَكَانٍ عَزَلَتْهَا، بادرت من بعيد. قالت: إني أستجير بالرحمن منك أن تنالني بسوء، إن كنت مؤمناً مطيعاً لله، فينبغي أن يكون تفواك مانعاً لك من الفجور.

١٩ - قَالَ لَهَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا أَنَا إِلَّا رَسُولُ رَبِّكَ، بعثني إليك؛ لأُخَبِّرَكَ ولدًا صالحاً طاهراً مُطَهَّراً من الذنوب، نامياً بالخيرات والصالحات، والكمالات البشرية.

٢٠ - قَالَتْ مَرْيَمُ لَجَبْرِيلَ: مِنْ أَيْنَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ؟ ولم يقربني زوجٌ بنكاح حلال، ولم أكن فاجرةً تبغي الرجال، أو يبغيتها الرجال للفجور بها؛ لأن الولد إنما يكون من نكاح أو سفاح ولم يقع واحد منهما؟

٢١ - قَالَ لَهَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَكَذَا الْأَمْرُ كَمَا تَقُولِينَ، لَمْ يَمْسَسْكَ بَشَرٌ بِزَوْاجٍ وَلَا بَغْيَرَةٍ، وَلَكِنْ رَبُّكَ قَالَ جَوَاباً عَلَى اسْتِفْهَامِكَ التَّعْجِيبِي: خَلَقَ وَلَدَكَ بَلَا أَبَ أُمْرٍ هَيِّنٍ سِيرٍ، وليكون الغلام الذي نَهَبَ لك علامة للناس على عظمة ربوبيتنا ودلالة على كمال قدرتنا، ولنجعل له رحمة منا لعبادنا، بما نُحْمِلُهُ من رسالة، يهتدي بها من أتبعه، وكان خَلْقُ عِيسَى عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ أَمراً مُقَدَّراً مَفْرُوعاً مِنْهُ لَا يُرَدُّ وَلَا يُبَدَّلُ، فلا تعترض على أمر الله وقضائه.

٢٢ - فَنفخ جبريل في جيب قميصها، فَوَصَلَتِ النَفْخَةُ إِلَى بَطْنِهَا، فحملت مريم بعيسى في الحال، فاعتزلت بجنينها الذي حملته خالة مكاناً بعيداً عن مساكن قومها وبلدهم.

٢٣ - فَالْجَاهُ وَجَعُ الطَّلُقِ وَجَاءَ بِهَا إِلَى سَاقِ النَّخْلَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَوْتِ إِلَيْهِ، فقالت: يا ليتني مِتُّ قبل هذا الأمر، وكنت شيئاً حقيراً متروكاً لم يذكر ولم يُعرف لحقارته.

٢٤ - فَناداها عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ تَحْتِهَا: أَنْ لَا تَحْزَنِي بِسَبَبِ آلَامِ الْوَضْعِ، وما تتوقعين من اتهام قومك لك بالفاحشة، فعناية الله مصاحبة لك في كل أحوالك، قد جعل ربك تحتك نهراً صغيراً يسري فيه الماء، تشربين منه وتتطهرين.

٢٥ - وَحَزَنِي إِلَيْكَ بِسَاقِ النَّخْلَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي لَا يَكُونُ فِيهَا ثَمَرٌ عَادَةً، تُسَاقُ عَلَيْكَ رُطْباً طَرِيقاً فِي أَوَانِ اجْتِنَائِهِ. وفي الآية دليل على أن الأخذ بالأسباب مطلوب، ولا يناقض التوكل، فعلى المسلم أن يأخذ بالأسباب المشروعة، ويبقى اعتماده وتوكله على الله تعالى، لا على ما باشره من أسباب.



٢٦ - فكلّي - يا مريم - من الرطب المجني، واشربي من ماء النهر، وطيبني نفساً بالولد، وكوني سعيدة به مسرورة، واحملي ولدك واذهي إلى قومك، فإن رأيت من الناس أحداً، فسالك عن ولدك، فقول: إني أوجبت علي نفسي للرحمن صوماً عن الطعام والشراب ومكالمة الناس، فلن أكلم اليوم أحداً من الناس.

وقد أمر الله تعالى مريم بالصمت عن الكلام، كراهة مجادلة السفهاء، والآية تدل على الإغضاء عن السفهاء، وترك مقابلتهم بالسفاهة والجدال.

٢٧ - فأثت مريم بعيسى قومها تحمله بشجاعة وثبات، فلما دخلت على أهلها قالوا: يا مريم لقد فعلت شيئاً عجيباً مستغرباً، وأمرأ عظيماً منكراً غير متوقع من مثلك!!

٢٨ - يا أخت الرجل الصالح هارون - وكان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل شُبهت به في عفتها وصلاحتها -: ما كان أبوك «عمراً» رجل سوء يفعل القبايح والمنكرات، وما كانت أمك «حنة» زانية، فمن أين لك هذا الولد؟

٢٩ - فلاذت بالصمت، وأشارت مريم إلى عيسى أن كلمهم، ولما أشارت إليه غَضَبُوا وتعَجَّبُوا، وقالوا مستكرين ومتعجبين: كيف نكلم من لا يزال في مهده طفلاً رضيعاً؟

٣٠ - قال عيسى عليه السلام وهو في مهده: إني عبد الله، أنا خلق من خلقه، وعبد كسائر عبيده، سبق في قضائه بأن يؤتيني الإنجيل، وبأن يجعلني نبياً من جملة الأنبياء الذين اختصهم الله بالوحي.

٣١ - وجعلني عظيم الخير والنفع أينما توجهت، وأمرني بالصلاة والزكاة وكلّفتني فعلهما ما دمت حياً. وقد ظهرت بركته عليه السلام، فيما آناه الله من علم وحكمة، وآيات بيّنات، فقد كان يُبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويحيي الموتى بإذن الله، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله. وأمر الله تعالى له بالصلاة والزكاة يدل على أنهما من أسس شرائع الرسالات الربّانية.

٣٢ - وجعلني باراً بوالدتي مُحسناً مُكرماً لها، ولم يجعلني مُسلطاً قاسياً مُتكبراً على الخلق، ولا تعساً ضالاً عاصياً لربي. وفي الآية بيان لحق الأم على ولدها، وإشعاراً بأنه وليد أم فقط، بخارقة ربّانية، وليس وليد أم وأب. وفي الآية أيضاً: إعلان براءتها وطهارتها وعفتها، وأنها كانت محل عناية الربّ تبارك وتعالى، إذ اضطفاها لحمل هذا الوليد المبارك. وفي قول عيسى عليه السلام: أن الله لم يجعله جباراً شقياً، إعلاناً بأنه ليس هو الشخص الذي يتمنى اليهود أن يوجد فيهم، فيقيم لهم ملكاً على ما يشتهون، وهم لا يرضونه مُخلصاً رسولاً، ولكنهم يطلبونه ملكاً جباراً، يُعطي اليهود في الأرض سلطاناً بغير هدى، وجبروتاً بالباطل.

٣٣ - والسلامة والأمان من كل مكروه عليّ يوم ولدت من طعن الشيطان، وعند الموت من الشرك، ويوم أبعث حياً من أهوال يوم القيامة. وفي هذا تكريم من الله له بالتحية، وحفظ له من أعدائه الذين يريدون به كيداً، فهو منذ ميلاده حتى موته محفوف بالسلام من الله، وهو محفوظ من الله بالسلام يوم يبعث فلا يمسه سوء يوم القيامة.

٣٤ - ذلك القول الذي نطق به عيسى وهو صبي في المهد هو وصف عيسى، حالة كونه قول الحق الذي فيه يشك اليهود والنصارى ويختلفون.

٣٥ - ما كان لله تعالى اتّخاذ الولد، ولا ينبغي له ذلك، تنزيهاً لله عن الولد، وعن كل ما لا يليق بجلاله وعظيم صفاته، إذا أراد أن يحدث أمراً فلا يتعلّل عليه اتّخاذهُ على الوجه الذي أرادهُ، إنما يقول له: «كن» فيكون.

٣٦ - وقال عيسى عليه السلام لقومه: وإن الله ربّي وربكم فاعبدوه وحده لا شريك له، هذا الذي أخبركم به أن الله أمرني به، هو الطريق المستقيم الذي يؤدّي إلى الجنة.

٣٧ - فاختلف النصارى فيما بينهم في أمر عيسى عليه السلام، فقائل يقول: هو ابن الله، وقائل يقول: الله، وقائل يقول: ثالث ثلاثة، فهلاك وعذاب شديد للذين كفروا من أهل الكتاب من شهود وحضور يوم عظيم الهول، وهو يوم القيامة.

٣٨ - ما أشدّ سَمْعَ الكافرين وما أشدّ بَصَرَهُمْ، حين لا ينفعهم السمع والبصر، يوم يأتوننا للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، لكن الظالمون اليوم في هذه الحياة الدنيا في خطأ بين عن الحق، صمّ بكّم عمي، إذ هم منظمسو الحواس عن إدراك الحقائق ذات الصلة بيوم الدين، وإن شاهدوا وعلموا كثيراً من ظواهر الحياة الدنيا. وسبب انطماس حواسهم أنهم ظالمون، متجاوزون لحدود الحق والخير بإراداتهم الحرة.

فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي
إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾
فَأَثَرْتُ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا لِمَ يَمِرُّ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا
فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أخت هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْه قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي
الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرَّأَوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ
إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ
بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ
وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنَ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾

٣٩ - وأنذرهم - يا رسول الله ويا كلِّ داع إلى الله من أمته - عذاب يوم الندامة الشديدة على ما فات، حين فُرغ من الحساب، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وهم اليوم في هذه الدنيا في غفلة، قد حُجبت أسماعهم عن سماع بيانات الهدى، وحُجبت أبصارهم عن رؤية آيات الله بغشاوات أهوائهم وشهواتهم، وهم لا يؤمنون مستقبلاً، بسبب استغراقهم في غفلاتهم.

٤٠ - إنا نحن نُميت سَكَنَ الأرض جميعاً، ونفرد بالملك والبقاء، وإلينا وحدنا يُرجعون؛ لمحاسبتهم على ما قدموا وأخروا، فنجزهم بأعمالهم.

٤١ - وضع في ذاكرتك - أيها المُلقي لآيات كتاب ربك - خبر إبراهيم عليه السلام المُنزل في هذا القرآن، فاحفظه وتدبره، واستذكره عند المناسبات الداعيات لتنتفع بما يشتمل عليه من إرشادات وتوجيهات؛ إنه كان عظيم الصدق في أقواله وأعماله، وكثير التصديق عن الله عز وجل، نبياً عالي الرتبة والمنزلة اصطفاه الله عز وجل بالوحي إليه.

٤٢ - وضع في ذاكرتك - أيها المُلقي - حين قال إبراهيم لأبيه آزر مُتعجباً مُستنكراً: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع صوتاً، ولا يبصر شيئاً، ولا يدفع عنك شيئاً تكرهه؟

٤٣ - يا أبت، إني قد جاءني من العلم بالله والمعرفة ما لم يأتك، فأتبعني على ديني أرشدك طريقاً مستقيماً لا اعوجاج فيه، وفيه النجاة لك من غضب الله ونقمته.

٤٤ - يا أبت، لا تُطع الشيطان فيما يُزين لك من عبادة الأوثان؛ إن الشيطان كان للرحمن كثير العصيان، شديد التمرد على أوامره ونواهيه.

٤٥ - يا أبت، إني أخاف من طول إصرارك على الشرك، أن يمسخ

في حياتك الدنيا عذاب من الرحمن، فتكون بذلك من أولياء الشيطان وحزبه، الذين يمسخهم في الدنيا قبل الآخرة عذاب عقابي مُعجل.

٤٦ - قال له أبوه عندما وجد نفسه مغلوباً مهزوماً فكرياً ونفسياً: أثاركَ أنتَ ألَهتي وتارك عبادتها يا إبراهيم، وأنت البار الحريص على بري؟ أفسم لئن لم ترجع وتسكت عن عيبك ألَهتنا وشِمك إياها، لأرميك بالحجارة، واجتنبني مُتبعداً عني دهرأ طويلاً.

٤٧ - قال إبراهيم لأبيه: أعلن مفارقتي لك استجابةً لأمرك، فأقول: سلامٌ عليك مُكرماً مُبجلاً، سأسأل الله أن يرزقك التوحيد ويغفر لك، إن ربي كان بي برأً لطيفاً مُكرماً لي، ذا عناية خاصة بتحقيق مطالبتي والإحسان إلي، يستجيب لي إذا دعوته طالباً منه أن يغفر لك. وقد وفى إبراهيم عليه السلام بوعده لأبيه، فسأل ربه أن يغفر له، إذ كان يرجو أن يؤمن بالدين الحق، وينبذ الشرك، فلما تبين له أن أباه مقيم على كفره بإصرار وعناد، وأنه عدو لله تبرأ منه، إذ لا يجوز لمؤمن بالله أن يستغفر لمشرك، ولو كان ذا قُربى.

٤٨ - وأبتعد عنكم وأفارق ما تعبدون من أشياء غير الله، وأهاجر إلى الأرض المُقدَّسة، وأعبد ربي الذي خلقتني وأنعم علي، وأدعو إلى دينه الحق، وأرجو أن لا أشقى بدعاء ربي وعبادته كما تشقون أنتم بعبادة الأصنام.

٤٩ - فلما ذهب مهاجراً، وفارقهم وآلَهم التي يعبدونها من دون الله، وهبنا له بعد الهجرة إلى الشام إسحاق من زوجته «سارة»، ويعقوب بن إسحاق، وأنعمنا عليهما بالنبوة.

٥٠ - ومع ما وهبنا لهم من النبوة والرسالة، وهبنا لهم من رحمتنا خيراً كثيراً، وعطاءً عظيماً، وجعلنا لهم أيضاً ثناءً حسناً ربيعاً في أهل كلِّ دين، حتى أدعاهم أهل الأديان كلهم، فهم يتولونهم ويشنون عليهم، كما جعلنا ألسنتهم تُجهر بالحق والصدق في الدعوة إلى الله عز وجل.

٥١ - وضع في ذاكرتك - أيها المُلقي لآيات كتاب ربك - في هذا القرآن قصّة نبي الله ورسوله موسى - عليه السلام - إنه كان مُختاراً اختاره الله تعالى للنبوة، وكان مُخلصاً لله في أعماله، يبتغي مرضاة ربه، وكان رسولاً مُرسلاً من الله لتبليغ رسالات ربه، نبياً من أولي العزم من الرسل.

٥٢ - ونادينا موسى حين أقبل من «مدين» ورأى النار، من ناحية جبل الطور اليمنى من موسى، وقربناه إلى جهة النداء، وشرّفناه بإسماعه كلامنا سرّاً.

٥٣ - وأجبنا دعوته، وهبنا لموسى من رحمتنا أخاه هارون نبياً، يؤيده ويؤازره.

٥٤ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي - خبر إسماعيل بن إبراهيم، المنزل في القرآن، واحفظه وتدبره، واستذكره عند المناسبات الداعيات، إنه كان صادق الوعد، لم يعد شيئاً إلا وفى به، وكان رسولاً حاملاً لوظائف رسالة ربانية، نبياً مخبراً عن الله تعالى.

٥٥ - وكان يأمر أهله الأقربين، قبل أن يأمر غيرهم بالصلاة والزكاة؛ ليجعلهم قدوة لمن سواهم، وكان قائماً لله بطاعته، فائزاً في كل طاعة بأعلى الدرجات.

٥٦ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لكلامنا - خبر إدريس عليه السلام، المنزل في القرآن، إنه كان عظيم الصدق في أقواله وأعماله، كثير التصديق عن الله عز وجل، نبياً يوحى إليه.

٥٧ - ورفعناه بعلو المرتبة في الدنيا، ورفعنا الملك الذي أمره الله برفعه إلى السماء الرابعة.

٥٨ - أولئك المذكورون في هذه السورة بدءاً من زكريا، وحتى إدريس قد أنعم الله عليهم بالنبوة وغيرها من النعم العظيمة الخاصة، من بعض النبيين من ذرية آدم، وهم: إدريس ونوح، ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، وهو: إبراهيم، ومن ذرية إبراهيم، وهم: إسحاق وإسماعيل ويعقوب، ومن ذرية يعقوب، وهم: موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم، ومن هدينا إلى الإسلام، واضطفينا واخترنا للرسالة والوحي، إذا

تتلى عليهم آيات الرحمن ههنا بدون توقف ساجدين لله عابدين خاضعين، وباكين خوفاً وخشوعاً، وتعظيماً وتمجيداً.

٥٩ - فخلف من بعد النبيين المذكورين قوم سوء من ذريّاتهم، تركوا الصلاة المفروضة، وعصوا الله في أوامره ونواهيه، وآثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله تعالى، فسوف يستقبلون ويواجهون في يوم الدين جزاء ضلالهم وفسادهم، وهو واد في جهنم.

٦٠ - لكن من تحققت فيه ثلاث صفات: الصفة الأولى: تاب من ترك الصلوات وارتكاب المعاصي، والصفة الثانية: آمن بربه إيماناً صحيحاً صادقاً، وبكل ما جاء عن الله سبحانه على لسان رسله الصادقين، والصفة الثالثة: عمل عملاً صالحاً يعبر فيه عن صدق إيمانه، فأولئك الفضلاء، مرتفعو المنزلة، يقبل الله توبتهم، ويدخلون الجنة مع المؤمنين، ولا ينقصون شيئاً من أجورهم بسبب ما كان منهم من كفر وسيئات وكبائر قبل توبتهم وإيمانهم الصادق الصحيح، وأعمالهم الصالحة المقبولة.

٦١ - جئات ثبات واستقرار دائم ذات مراتب ودرجات التي وعد الرحمن بها عباده فيما أنزل من كتبه، حالة كونها موجودة في عوالم الغيب عن الموعودين بها، فأمنوا بها وهي غائبة عنهم وهم غائبون عنها، إن وعد الله بالجنة كان آتياً لا محالة.

٦٢ - لا يسمع أهل الجنة في الجنة فضولاً من الكلام ولا باطلاً وفحشاً، لكن يسمعون فيها سلاماً يسلم الله عليهم، والملائكة، ويسلم بعضهم على بعض، ولهم رزقهم في الجنة من الغذاء والقوت في وقتين متميزين: وقت مشابه لأول النهار حتى طلوع الشمس، ووقت آخر مناظر له من نصف النهار الثاني إلى غروب الشمس، إذ لا ليل ولا نهار، بل هم في نور وظل دائم.

٦٣ - تلك الجنة الموصوفة بتلك الصفات، هي التي نهى بفضل منا المؤمنين من عبادنا، الذين ارتقوا الدرجات العاليات في مرتبة التقوى؛ إذ ورثوا الحصص التي كانت معدة في الجنة لسائر العباد لو آمنوا وعملوا صالحاً، فلما كفر الأكثرين، واستحقوا دخول النار، أخذ المتقون حصصهم، ويأخذ أهل الجنة من هذا الميراث العظيم كل منهم بحسب مرتبته ودرجته.

٦٤ - قل - يا جبريل - لمحمد ﷺ: وما ننزل - نحن الملائكة - من السماء لأمر من الأمور إلا بأمر ربك لنا، لله جل جلاله علم ما بين أيدينا مما يستقبل من أمر الآخرة، وما خلفنا مما مضى من الدنيا، وما بين الدنيا والآخرة، فهو المدبر لنا في كل الأوقات؛ وما نسيتك ربك - يا رسول الله - وما تركك.

الجنة الموصوفة

سورة المؤمن

وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يَحْيَا ۖ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۖ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۖ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۖ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَنُوحَ ۖ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِذَا نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۖ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۖ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ ۖ بِالْغَيْبِ ۖ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ۖ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۖ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۖ وَمَا نَزَّلْنَا إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۖ

٦٥ - ربُّك ربُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وما بينهما، يُدَبِّرُ أحوالهما كلها، فاثبت على عبادته وحده، واستسلم لمقاديره ومجاري حكمته، وكلف نفسك غاية ما تستطيع من صبر بالغاً لعبادته عبادةً من درجة الكمال التي تليق بك، هل تعلم له شيئاً أو نظيراً يستحقُّ العبادة لربوبيته وإلهيته، وكمال تنزهه عن النقائص، واتصافه بكمال الصفات؟!

٦٦ - ويقول الإنسانُ الكافر المنكر للبعث استهزاءً وتكديباً: إذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ مِنْ قَبْرِ حَيًّا ۖ قَوْلُ الْإِنْسَانِ إِذْ مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۖ وَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۖ فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۖ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ۖ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۖ وَإِنْ يَنْكُرُوا لِآوَارِدْهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۖ وَإِذَا نُفِثَ عَلَيْهِمْ إِيْتِنَانِيْنِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۖ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنَانِ ۖ وَرِيتَا ۖ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَأْوِعَدُونَ ۖ إِنَّمَا الْأَعْدَابُ وَوَمَا السَّاعَةُ فَيَسْئَلُونَكَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ۖ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا هُدًى ۖ وَأَلْبَيْتُ الْأَصْلَاحَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ۖ

٦٧ - ألا يعلم الإنسان أن الله الذي خلقه قد برز على خلق ما يريد خلقه؟ أو لا يتذكر ويتفكر منكر البعث في بدء خلقه، فيستدل به على الإعادة ثانياً. فالخالق الذي خلقه بعد أن لم يكن شيئاً، قادر على أن يبعثه إلى الحياة بعد أن يميتَه ويُفنيه.

٦٨ - فَوَرَّيْكَ - يا رسول الله - لَنَجْمَعَنَّ الْمَشْرِكِينَ الْمُنْكَرِينَ للبعث مع الشياطين، وبعد زمنٍ مُتَرَاخٍ لنسوقنهم قهراً حول أبواب جهنم ذليلين خاسئين باركين على رُكْبِهِمْ؛ لما دَهَمَهُمْ من شِدَّةِ الأمور التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم.

٦٩ - وبعد زمنٍ مُتَرَاخٍ عن إحضارهم حول أبواب جهنم، حالة كونهم جاثين على رُكْبِهِمْ، لنَجْذِبَنَّ بِشِدَّةٍ وَعَنْفٍ من كل طائفة تشايعت على الكفر والباطل مَنْ كان منهم في الحياة الدنيا أَشَدُّ كُفْرًا وأَكْبَرَ جَرَمًا من قادة أحزاب الكفر، وأيادهم المنقذة لجرائمهم، فنقدّمه في إدخال النار، ومقاساة شِدَّةِ العذاب.

٧٠ - وبعد زمنٍ مُتَرَاخٍ يمضي على نزع أئمة الكفر، ووضعهم على مقربة من أبواب جهنم، لنَحْنُ أَعْلَمُ بِالْأَشَدِّ كُفْرًا، الذين هم أَوْلَىٰ بدخول النار، ومقاساة حرّها.

٧١ - وما منكم - أيها الناس - أحدٌ إلا واردٌ جهنم، دخولاً فيها،

أو عبوراً على الصُّراط المنصوب على متن جهنم، فيمرُّ عليه البرُّ والفاجر، كلٌّ حسب عمله، كان هذا الورد على جهنم قضاءً لازماً مُتَرَمِّماً قَضَاءُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأَوْجِبُهُ.

٧٢ - وبعد مدة مُتَرَاخِيَةٍ تُنْجِي من الاستمرار في دار العذاب الذين اتَّقَوْا الشَّرَّ، وترك الظالمين المتجاوزين الحدَّ الذين لم يوجد في قلوبهم مثقال ذرَّةٍ من إيمان في النار، باركين على رُكْبِهِمْ أَذْلَاءُ مُهَانِينَ.

٧٣ - وإذا تُتْلَىٰ عليهم آياتٌ من القرآن حالة كونها دلائل وأصحات، قال كفار قريش للَّذِينَ آمَنُوا من فقراء أصحاب رسول الله ﷺ: أَيُّ فَرِيقَيْنَا خَيْرٌ إِقَامَةً وَمَسْكَنًا، وأحسن مجلساً ومجتمعاً؟ يفتخرون بتفوقهم المادي على فريق المؤمنين، ويعتبرون هذا بمثابة دليل على صحة طريقتهم.

٧٤ - وعدداً كثيراً أهلكنا قبل كفار مكة إهلاك تعذيب وإبادة جماعية من أهل زمانٍ واحد؛ هم أَحْسَنُ مِنْهُمْ مَتَاعاً وَأَمْوَالاً، وأجمل منظراً وأعظم مكانة اجتماعية؟

٧٥ - قل - يا رسول الله - لكفار قومك: مَنْ كَانَ مُتَغَمِّسًا فِي الضَّلَالَةِ، فَلْيَدْعُهُ رُبَّهُ فِي طغيانه وَلْيُئْمِلْهُ فِي كُفْرِهِ، وَلْيُطْلَلْ لَهُ فِي عَمْرِهِ؛ ليزداد طغياناً وضلالاً، حتى إذا رَأَوْا مُقَدِّمَاتِ مَا يُوعَدُونَ من جزاء: إما العذاب المُعَجَّلُ احتمالاً في الحياة الدنيا قبل موتهم، وإما العذاب المؤجَّلُ المقطوع به إلى ما بعد ساعة موتهم، فيلقون عذاب القبر، وإلى ما بعد ساعة بعثهم إلى الحياة الأخرى، فيلقون العذاب الأكبر يوم الدين، فسيعلمون عند رؤية العذاب المُعَجَّلِ في الدنيا، والعذاب المؤجَّلِ لهم بعد الموت، مَنْ هُوَ شَرٌّ مَنْزَلاً وَأَقْلُ نَاصِراً؟ أَمْ أَمْ الْمُؤْمِنُونَ؟

٧٦ - وفي مقابل إمهال الله للكافرين، وإمدادهم بوسائل مُتَعَمِّمَةٍ ورفاهيتهم من زينة الحياة الدنيا، يزيدُ الله الَّذِينَ اهْتَدَوْا إيماناً وإيقاناً على يقينهم، فيغفر ذنوبهم، ويضاعف أجورهم. والأعمال الصالحة والأذكار التي تبقى لصاحبها خيراً من كلِّ ما في الدنيا عند ربِّكَ ثَوَابًا، وخَيْرٌ عَاقِبَةً وَمَرْجَعًا.

٧٧ - أَنْظَرْتَ نَظْرًا تَفْكَرِيًّا - يَا أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ الْعَاقِلُ الرَّشِيدُ - فَرَأَيْتَ رُؤْيَا عِلْمِيَّةً، الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا الْكُوتُبِيَّةِ وَالتَّنْزِيلِيَّةِ، وَهُوَ «الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ» وَأَمثالُه، وَقَالَ مُسْتَهْزِئًا بِنَبَأِ الْبَيْتِ وَمُقْسِمًا: لَأَعْطِيَنَّ فِي الْآخِرَةِ - عَلَى فَرَضِ الْبَيْعِ - أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا كَمَا أُوتِيتُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

٧٨ - أَعْلَمَ الْغَيْبِ الْمُسْتَقْبَلِي الَّذِي سَيَكُونُ يَوْمَ الدِّينِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَهْوَى فِي الْجَنَّةِ أَمْ لَا؟ بَلْ أَجْعَلْ عِنْدَ رَبِّهِ الرَّحْمَنُ عَهْدًا أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ فِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُ مَالٌ وَوَلَدٌ فِي الدُّنْيَا؟

٧٩ - فَلْيَرْتَدِعْ عَنْ افْتِرَائَاتِهِ وَاسْتَهْزَاءَاتِهِ، سَنَحْفَظُ عَلَيْهِ مَا يَقُولُهُ، فَتُجَازِيهِ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَنَزِيدُهُ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ.

٨٠ - وَنَرِثْ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ بِإِهْلَاكِهَا إِيَّاهُ، وَيَأْتِينَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا بِلَا مَالٍ وَلَا وَلَدٍ.

٨١ - وَجَعَلَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ بَصْنَعَ مُتَكَلِّفٍ مِنْهُمْ آلِهَةً مَعْبُودَةً بَغَيْرِ حَقٍّ، هِيَ بِطَبِيعَتِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ الْمُتَّصِفِ بِالْفَوْقِيَّةِ الْمَطْلُوقَةِ؛ لِيَكُونُوا لَهُمْ قُوَّةٌ غَالِبَةٌ تَنْصَرِّهُمُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ.

٨٢ - لَنْ تَكُونَ آلِهَتُهُمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُوَّةً غَالِبَةً لَهُمْ، وَحِينَ يَنْصُرُ اللَّهُ أَوْلِيَاءَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَيُذِلُّ أَعْدَاءَهُمُ الْمُشْرِكِينَ، وَيَجْعَلُهُمْ هُمُ الْمَغْلُوبِينَ الْمُنْهَزَمِينَ فِي الْمَعَارِكِ الْقِتَالِيَّةِ، سَيَكْفُرُ الْمُشْرِكُونَ بِعِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ، وَسَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا، فَيُحْطَمُونَ الْأَوْتَانِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا، وَيُشَارِكُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَعَادَاتِهَا وَتَكْسِيرِهَا.

٨٣ - أَلَمْ تَعْلَمْ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لَخَطَابِنَا - عِلْمًا وَاضِحًا جَلِيلًا مُشَابِهًا لِلرُّؤْيَا الْبَصَرِيَّةِ، أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ مُسَلِّطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُغْرِبُهُمْ، وَتُؤَجِّجُ نَارَ أَفْئِدَتِهِمْ، لِمَقَاوِمَةِ دَعْوَةِ الْحَقِّ، وَاضْطِهَادِ أَنْصَارِهَا.

٨٤ - فَلَا تَعْجَلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - بِالْدَّعَاءِ عَلَيْهِمْ، لِلإِسْرَاعِ فِي إِهْلَاكِهِمْ، وَبِتَدْبِيرِ الْخَطِّ لِمَقَاوِمَتِهِمْ وَقَمْعِ شُرُورِهِمْ، إِنَّمَا نُحْصِي لَهُمْ أَعْمَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا إِحْصَاءً دَقِيقًا، حَتَّى إِذَا انْتَهَى وَقْتُ الْإِمْهَالِ، وَحُلَّ الْأَجَلُ الَّذِي أَجَّلَ لِعَذَابِهِمْ، أَنْزَلْنَا بِهِمُ الْعِقَابَ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ، وَتَقْضِيهِ الْحُكْمَةُ.

٨٥، ٨٦ - أَذْكَرَ لَهُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - الْيَوْمَ الَّذِي نَجْمَعُ فِيهِ الْمُتَّقِينَ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ مُسَوِّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ جَمَاعَاتٍ رُكْبَانًا مُعَزِّزِينَ مُكْرَّمِينَ، وَنَسُوقُ الْكَافِرِينَ سَوْقَ إِهَانَةٍ وَإِذْلَالٍ إِلَى جَهَنَّمَ مَشَاءَ عِطَاشًا أَشْقِيَاءَ.

٨٧ - لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ فَرِيقِي الْمُتَّقِينَ وَالْمُجْرِمِينَ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ شَافِعٌ، إِلَّا مَنْ كَانَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَمَّنْ مَاتَ عَلَى إِيْمَانٍ صَحِيحٍ مَقْبُولٍ عِنْدَ اللَّهِ، فَاتَّخَذَ بِمَا كَسَبَ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ عَهْدًا عِنْدَ اللَّهِ بِأَنْ يَكُونَ مَمَّنْ يَأْذَنُ اللَّهُ لِلشَّفْعَاءِ بِأَنْ يَشْفَعُوا لَهُ.

٨٨، ٨٩ - وَقَالَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ مِنَ الْعَرَبِ: جَعَلَ الرَّحْمَنُ لِنَفْسِهِ وَلِدًا مُشْتَقًّا مِنْ ذَاتِهِ، أَوْ بِالتَّبْنِيِّ لَهُ، وَهُوَ خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ!! لَقَدْ جِئْتُمْ - أَيُّهَا الْقَائِلُونَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ الشَّنِيعَةِ - شَيْئًا قَظِيمًا مُنْكَرًا.

٩٠، ٩١ - تَقَرَّبُ السَّمَوَاتُ يَتَشَفَّقْنَ مِنْ عِظَمِ هَذَا الْقَوْلِ قِطْعًا، وَتَتَصَدَّعُ الْأَرْضُ، وَتَسْقُطُ الْجِبَالُ سَقُوطًا وَتَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَسُبُوا لِلرَّحْمَنِ وَلِدًا، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

٩٢ - وَمَا يَلِيقُ بِالرَّحْمَنِ سُبْحَانَهُ اتِّخَاذُ الْوَلَدِ؛ لِأَنَّ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ يَكُونُ لِأَغْرَاضٍ لَا تَصَحُّ لَهِ تَعَالَى، مِنْ اسْتِعَانَةٍ وَسُرُورٍ بِهِ، وَذِكْرِ جَمِيلٍ بَعْدَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ تَعَالَى.

٩٣ - مَا كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، إِلَّا سَوْفَ يَأْتِي الرَّحْمَنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَبْدًا ذَلِيلًا خَاضِعًا.

٩٤ - لَقَدْ عَدَّ أَنْفُسَهُمْ وَأَيَامَهُمْ وَأَنْوَارَهُمْ عَدًّا تَفْصِيلِيًّا شَامِلًا، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ.

٩٥ - وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ عِبَادِهِ سَوْفَ يَأْتِي رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحِيدًا، لَيْسَ مَعَهُ مِنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا شَيْءٌ.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وِلْدًا
 ٧٨ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ٧٨
 ٧٩ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ٧٩ وَنَرِثُهُ
 مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ٨٠ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً
 لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
 عَلَيْهِمْ ضِدًّا ٨٢ أَلَمْ نَرَأَنَّكَ أَزْهَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكَافِرِينَ
 تَوَهُّمَ آرَاءًا ٨٣ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ٨٤
 ٨٥ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ٨٥ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ
 إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ٨٦ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ
 الرَّحْمَنِ عَهْدًا ٨٧ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ٨٨ لَقَدْ
 جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ
 ٩٠ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ٩١ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا
 ٩٢ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٣ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ٩٤ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ
 وَعَدَّهُمْ عَدًّا ٩٥ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ٩٥

٩٦ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا صَحِيحًا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِ الْإِيمَانِ الْإِرَادِيَّ الْاِعْتِقَادِيَّ، سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ مَوَدَّةً وَمَحَبَّةً ثَابِتَةً فِي الْقُلُوبِ؛ لِإِيمَانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ، يُحِبُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى، وَيُحِبُّهُمْ إِلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

٩٧ - فَإِنَّمَا سَهَّلْنَا الْقُرْآنَ بِلِسَانِكَ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِلْحِفْظِ وَالذِّكْرِ وَالْفَهْمِ؛ لِتُشِيرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا شَدِيدِي الْمَكَابِرَةِ وَالْعِنَادِ وَالْخُصُومَةِ وَالْجِدَالِ بِالْبَاطِلِ.

٩٨ - وَعَدَدًا كَثِيرًا أَهْلَكْنَا مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَ قَوْمِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - إِهْلَاكًا شَامِلًا؛ بِسَبَبِ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَتَكْذِيبِهِمُ الرِّسْلَ، هَلْ تَرَى مِنْهُمْ أَحَدًا، أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ صَوْتًا خَفِيًّا؟ فَكَذَلِكَ الْكَفَّارُ مِنْ قَوْمِكَ، نُهْلِكُهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا السَّابِقِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

سورة طه

١ - ﴿طه﴾ سَبَقَ الْكَلَامَ عَلَى الْحُرُوفِ الْمَقْطُوعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

٢ - مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِتَتَعَنَّيَ وَتَتَّعِبَ مِنْ فِرْطِ تَأْسُفِكَ عَلَى كُفْرِ قَوْمِكَ بِهِ.

٣ - لَكِنْ أَنْزَلْنَاهُ لَتَقُومَ بِتَبْلِيغِهِ، وَمُتَابَعَةِ تَذْكِيرٍ مِنْ تَجَدُّدٍ لَدَيْهِ اسْتِعْدَادًا لِأَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَيَتَأَثَّرَ بِالْإِنْدَارِ، فَلَيْسَتْ وَظِيفَتُكَ تَحْوِيلُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ، حَتَّى تُشْقِيَ نَفْسَكَ فِي السَّعْيِ وَرَاءَهُمْ، وَالْحُسْرَةَ عَلَيْهِمْ.

٤ - هَذَا الْقُرْآنُ نُزِّلَ تَنْزِيلًا بَأْنَاءً وَتَمَهُّلًا مِنَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْمَرْتَفَعَةِ الْعَظِيمَةِ. فَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ عَظَمَةُ

الْقُرْآنِ مُتَنَاسِبَةً مَعَ عَظَمَةِ مُنْزِلِهِ، خَالِقِ الْأَرْضِ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ مَنَافِعٍ وَعِجَائِبٍ، وَخَالِقِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَيُلْحِقُ بِهَا الْكَرْسِيَّ وَالْعَرْشَ.

٥ - الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى اسْتِوَاءً يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ. وَالْعَرْشُ كَائِنٌ عَظِيمٌ فَوْقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَفَوْقَ الْكَرْسِيِّ.

٦ - اللَّهُ الرَّحْمَنُ مُلْكُ كُلِّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ أَشْيَاءٍ وَأَحْيَاءٍ، وَمَا تَحْتَ التُّرَابِ الثُّدَى، مِمَّا هُوَ دَاخِلُ الْأَرْضِ مِنْ كُنُوزٍ إِبْنَائِيَّةٍ، بِسَبَبِ الثُّدَى وَالْمَاءِ الَّذِي يَبْلُغُ التُّرَابَ فَيَكُونُ صَالِحًا لظُهُورِ النَّبَاتِ وَنُمُوِّهِ، وَكُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ كُنُوزٍ أُخْرَى، كَالْمَعَادِنِ وَالنَّفْطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَوْدَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ، وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ، دَاخِلًا فِي مُلْكِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَاضِعًا لِسُلْطَانِ مُلْكِهِ فِي كُلِّ التَّنْصِيفَاتِ وَالتَّنْصِيفَاتِ.

٧ - وَإِنْ تُعْلَنَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - بِبَعْضِ دَعَائِكَ، مِنْ شِدَّةٍ مَا أَصَابَكَ مِنْ ضَيْقٍ، بِسَبَبِ عَدَمِ اسْتِجَابَةِ كِبَرَاءِ قَوْمِكَ لَكَ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ مَا تُحَدِّثُ بِهِ غَيْرَكَ، وَتَسْتَكْتُمُهُ إِيَّاهُ، وَمَا تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ دُونَ أَنْ تَتَنَقَّ بِهٖ، كَالْخَوَاطِرِ وَأَحَادِيثِ النَّفْسِ.

٨ - اللَّهُ الَّذِي لَا مَعْبُودَ بَحَقٍّ إِلَّا هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ، لَهُ وَحْدَهُ الْأَسْمَاءُ، الَّتِي فَضِّلْتَ عَلَى سَائِرِ الْأَسْمَاءِ، فَادْعُوهُ بِهَا.

٩ - وَقَدْ أَتَاكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِتَتَأَسَّى بِهِ فِي تَحْمِيلِ أَعْيَابِ النَّبُوءَةِ وَتَكَالِيفِ الرِّسَالَةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى مَقَاسَةِ الشَّدَائِدِ.

١٠ - حِينَ أَبْصَرَ فِي لَيْلَةٍ شَاتِيَةٍ شَدِيدَةِ الْبَرْدِ، وَهُوَ قَادِمٌ مِنْ «مَدْيَنَ» إِلَى مِصْرَ نَارًا مِنْ بَعِيدٍ عَنْ طَرِيقِ مَنْجَبِ الطُّورِ، فَقَالَ لَامِرَاتِهِ: أَقِيمُوا هُنَا، وَانْتَظِرُوا وَتَمَهَّلُوا إِنِّي أَبْصَرْتُ نَارًا، أَتَوَقَّعُ دُونَ جِزْمِ أَنْ أَتِيَكُمْ مِنْهَا بِشُعْلَةٍ مِنْ نَارٍ فِي طَرَفِ عَوْدٍ، أَوْ أَجِدُ عَلَى الْمَشْرِفِينَ عَلَى إِيقَادِ النَّارِ هَادِيًا يَدُلُّنِي عَلَى الطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى مِصْرَ.

١١، ١٢ - فَحِينَ أَتَى مُوسَى إِلَى قُرْبِ مَوْقِعِ النَّارِ، نَادَاهُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا مُوسَى، إِنِّي أَنَا الَّذِي أَكَلَمْتُكَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ خَالُفِكَ وَمُؤَمِّدِكَ بِعَطَايَا رَبُّوبِيَّةٍ دَائِمًا، فَاخْلَعْ مَا تَلْبَسُ بِقَدَمَيْكَ، وَقِفْ مَوْقِفَ الْخُضُوعِ وَالتَّوَاضُعِ وَالْأَدَبِ الْجَمِّ؛ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُنْطَهَرِ مِنَ الْأَرْجَاسِ الْمَادِيَةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ «طَوًى» الْمُتَّصِلِ بِجَبَلِ «الطُّورِ»، وَأَلْصَقِ قَدَمَيْكَ حَافِيَتَيْنِ بَتَرَاهُ وَرِمَالَهُ، فَخَلَعَ مُوسَى نَعْلَيْهِ، وَأَلْقَاهُمَا مِنْ وَرَاءِ الْوَادِي اسْتِعْدَادًا لِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرِ الْقَوْلُ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أَحَدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى ﴿١٢﴾

١٣ - وأنا اضْطَفَيْتُكَ - يا موسى - برسالاتي وبكلامي، لقد جاءك أمر عظيم، فتأهب له، واسمع بإصغاء كامل، ووعي تام لما يُوحى إليك مني.

١٤ - اعلم بتأكيد شديد - يا موسى - إني أنا الله الأزلي الأبدي، خالق الأكوان والمُتَصَرِّفُ فيها، لا معبود بحق في الوجود كله إلا أنا، فاعبدني، ولا تعبد غيري، وأقم الصلاة بإتمام حقوقها، والمواظبة على أدائها في أوقاتها؛ لتذكرني فيها.

١٥ - إن الساعة التي يُبعث فيها الناس للحياة الأخرى آتية لا محالة، أقرب أن أزيل خفاءها، وأكشف غطاءها، وأظهر علاماتها وأشراتها الكبرى، فكونوا على حذر منها كل وقت؛ إنها آتية لتجزئ يوم الدين كل نفس موضوعة للاختبار في الحياة الدنيا بما تعمل من خير أو شر على تتابع الزمن في هذه الحياة الدنيا.

١٦ - فلا يصرفك - يا موسى - عن السعي للظفر بأعظم الجزاء في جنات النعيم يوم الدين بعد قيام الساعة، من لا يؤمن بالجزاء الرباني، وأتبع ما تميل إليه نفسه، وخالف أمر الله، فتنسقط في أودية الآثام والجرائم، إن أنت انصرفت عن ذكرها ومراقبتها والتأهب لها.

١٧ - وما تلك بيدك اليمنى - يا موسى -؟

١٨ - قال موسى عليه السلام: هي عصاي أعتمد عليها إذا مشيت، وإذا عييت، وأهز بها الشجر؛ ليسقط ورقها على غنمي، فتأكل منه، ولي فيها حاجات ومنافع أخرى. والذي دعا موسى عليه السلام إلى بسط الكلام، وإطالة الحديث، رغبة التشرف والاستئناس والتلذذ بطول المحادثة مع الرب عز وجل.

١٩، ٢٠ - قال الله تعالى لموسى عليه السلام: أَلْقِ عَصَاكَ. فطرحها موسى على وجه الأرض، ثم حانت منه نظرة، فإذا هي

حية من أعظم ما تكون من الحيات، تمشي بسرعة على بطنها، فولى موسى مُدْبِراً وهرب.

٢١ - قال الله تعالى لموسى: خُذِ الْحَيَّةَ بِيَمِينِكَ كَمَا لَوْ كَانَتْ عَصَاً، وَلَا تَخَفْ، سَرَّجُهَا بَعْدَ أَنْ تُنَمِّسَكَ بِهَا وَهِيَ حَيَّةٌ إِلَى هَيْئَتِهَا السَّابِقَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا؛ عَصَاً لَا حَيَاةَ فِيهَا وَلَا حَرَكَةَ.

٢٢ - واضْمُمْ يَدَكَ الْيُمْنَى إِلَى إِنْطُكَ وَأَخْرِجْهَا، تَخْرُجُ بِيَضَاءٍ نِيرَةً مُشْرِقَةً مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ، حَالَةٌ كَوْنِ هَذِهِ التَّحْوِيلَةِ فِي الْيَدِ دَلَالَةً أُخْرَى عَلَى صِدْقِكَ، غَيْرَ آيَةِ الْعَصَا وَتَحْوِيلِهَا إِلَى حَيَّةٍ تَسْعَى.

٢٣ - فعلنا ذلك؛ لكي تُرَبِّكَ - يا موسى - بعض آياتنا الكبرى، الدالة على عظيم قُدرتنا، وصحة نبؤتك.

٢٤ - اذْهَبْ - يا موسى - إلى فرعون إنه جاوز الحد في العصيان والتمرد على ربه حتى ادَّعى الربوبية.

٢٥ - ٣٥ - قال موسى: رَبِّ وَسَّعَ لِي صَدْرِي؛ لِيَكُونَ قَادِراً عَلَى تَحْمِيلِ الْمَزْعَجَاتِ وَالْمَكَارِهِ، بِصَبْرِ وَجَلْمٍ، دُونَ انْدِفَاعٍ بِغَضَبٍ سَرِيعٍ، وَسَهْلٍ لِي مَا أَمَرْتَنِي بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَاخْتِلَافِ عَقْدَةٍ تَحْبِسُ مِنْ نَطْقِي، فَإِذَا حَلَلْتُهَا بِقُدْرَتِكَ وَحِكْمَتِكَ، صَرْتُ قَادِراً عَلَى إِفْهَامِ الَّذِينَ أَبْلَغَهُمْ رِسَالَاتِكَ دَقَائِقَ الْمَعَانِي الَّتِي أَقِيمَ بِهَا عَلَيْهِمُ الْبَرَاهِينَ وَالْحُجَجَ، وَاجْعَلْ لِي مُعِيناً مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، قَوْماً بِظَهْرِي، وَاجْعَلْهُ شَرِيكِي فِي أَمْرِ النُّبُوَّةِ وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ الَّتِي كَلَّفْتَنِي بِهَا، مِنْ أَجْلِ أَنْ تُتَّسَاعَدَ وَتُتَّسَاعَدَ عَلَى تَنْزِيهِكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِكَ وَعَظِيمِ صِفَاتِكَ، تَنْزِيهاً كَثِيراً، وَنَذْكُوكَ وَثْنِي عَلَيْكَ بِمَا أَوْلَيْتَنَا مِنْ جَمِيلِ نِعَمِكَ، ذِكْراً كَثِيراً، إِنَّكَ كُنْتَ وَمَا زَلْتَ وَلَنْ تَزَالَ بِنَا بَصِيراً.

٣٦ - قال الله تعالى: قَدْ أُعْطِيتَ جَمِيعَ مَا سَأَلْتَهُ - يا موسى -.

٣٧ - وَنُوَكِّدُ لَكَ - يا موسى - تَأْكِيداً بَلِيعاً أَنَّنَا أَنْعَمْنَا عَلَيْكَ قَبْلَ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْكُبْرَى بِمَكَالْمَتِكَ، نِعْمَةً عَظِيمَةً أُخْرَى بِحِمَايَتِكَ مِنَ الدُّبْعِ حِينَ كُنْتَ رَضِيعاً.

وَأَنَا أَخَّرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿٣٦﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٣٧﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿٣٨﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿٣٩﴾ وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى ﴿٤٠﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿٤١﴾ قَالَ أَفَأَنتَ يَمْوَسَى ﴿٤٢﴾ قَالَ فَالْقَنَاءُ بِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٤٣﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٤٤﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بِيَضَاءٍ مِثْلَ بَيْضَاءِ أَيْةٍ أُخْرَى ﴿٤٥﴾ لِتُرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٤٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٤٨﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٤٩﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٥٠﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٥١﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ﴿٥٢﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٥٣﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٥٤﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٥٥﴾ كَيْ تَشْفِكَ كَثِيراً ﴿٥٦﴾ وَنَذْكُوكَ كَثِيراً ﴿٥٧﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴿٥٨﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَى ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ مَتَّعْنَاكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٦٠﴾

٣٨، ٣٩ - وَضَعَ فِي ذَاكَرَتِكَ - يَا مُوسَى - أَنَا أَلْهَمْنَا أَمَّكَ: أَنْ ضَعِي ابْنَكَ مُوسَى بَعْدَ وَلادَتِهِ فِي الصَّنَدُوقِ الَّذِي تُعَدِّيهِ إِعْدَادًا حَسَنًا لِيُطْفَرُ عَلَى الْمَاءِ دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِلْغَرَقِ، فَأَلْقِيهِ وَاطْرَحِيهِ بِسُرْعَةٍ فِي نَهْرِ النَّيْلِ، فَسَوْفَ يُلْقِيهِ النَّيْلُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَيَأْخُذُهُ فِرْعَوْنُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لِمُوسَى، وَأَنْزَلْتَ بِالْقَاءِ سَرِيعٍ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي، فَأَحْبَبْتُكَ وَحَبَّبْتُكَ إِلَى الْخَلْقِ، وَلِتُرَبِّي وَيُحَسِّنَ إِلَيْكَ، وَأَنَا مُرَاعِيكَ وَمُرَاقِبُكَ بِمُرَآئِي مِنِّي.

٤٠ - وَضَعَ فِي ذَاكَرَتِكَ الْأَحْدَاثَ الَّتِي كَانَتْ حِينَ تَمْشِي أَخْتُكَ مُتَعَرِّفَةً خَبْرَكَ، وَلَمَّا عَلِمْتَ أَنَّكَ وَصَلْتَ إِلَى الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، جَعَلْتَ تَقْرُبُ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الْقَصْرِ، فَتَقُولُ لِمَنْ يَطْلُبُونَ لَكَ مَرْضِعَةً: هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى امْرَأَةٍ تُرْضِعُهُ وَتَضُمُّهُ إِلَيْهَا؟ فَحَضَرَتْ أَمَّكَ إِلَى الْقَصْرِ، لِيُرَوْا هَلْ تَقْبِلُ ثَدْيِيهَا أَمْ تَرْفُضُهُ، كَمَا رَفَضَتْ أَثْدَاءَ الْمَرْضِعَاتِ الْأُخْرَيَاتِ، فَأَلْقَمْتُكَ ثَدْيِيهَا، فَقَبِلْتَهُ، وَأَخَذْتَ تَرْضَعُ مِنْهُ اللَّبَنَ، فَزَدَدْنَاكَ إِلَى أَمَّكَ، وَقَدَّرْنَا أَنْ تَكُونَ سَالِمًا مِنَ الْآفَاتِ وَالْعَاهَاتِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ رَاضِيَةً مَسْرُورَةً بِلِقَائِكَ وَإِرْضَاعِكَ، وَلَكَيْلَا تَحْزَنَ مِنْ أَجْلِكَ إِنْ أَصَابَكَ مَكْرُوهٌ بَعْدَ ذَلِكَ. وَتَلْتِ قُبْطِيًّا، فَخَلَصْنَاكَ مِنَ الْكَرْبِ الَّذِي نَزَلَ بِكَ بِسَبَبِ خَوْفِكَ مِنْ عَقُوبَةِ الْقَتْلِ الَّذِي ائْتَمَرَ بِهِ مَلَأُ فِرْعَوْنُ، عَقُوبَةً لَكَ عَلَى قَتْلِكَ الْقُبْطِيِّ، وَاخْتِيارِكَ اخْتِيارًا شَدِيدًا صَعْبًا، فِيمَا مَضَى مِنْ عَمْرِكَ بِالْمَكَارِهِ وَالشَّهَوَاتِ فَتَجَحَّتْ فِي اخْتِيارِكَ، إِذْ كُنْتَ صَبُورًا مُحَافِظًا عَلَى حُدُودِ اللَّهِ تَقِيًّا، فَكُنْتَ أَهْلًا لِتَحْمِلَ أَثْقَالَ الرِّسَالَةِ، الَّتِي نَكَلَّفَكَ فِيهَا أُمُورًا ثَقِيلَةً جَدًّا، تَتَطَلَّبُ رَجُلًا قَوِيًّا مِنْ أَوْلِي الْعِزْمِ، فَأَوْصَلْنَاكَ - يَا مُوسَى - بِالطَّافِنَةِ الْخَفِيَّةِ إِلَى «مَدْيَنَ»، وَهَيْئًا لَكَ فِيهَا رِزْقًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً، فَمَكَثْتَ أَمْنًا مُطْمَئِنًّا مَرْزُوقًا أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ فِيهِمْ، ثُمَّ جِئْتَ عَلَى وَفْقِ الْوَقْتِ الَّذِي قَدَّرْتُ أَنْ تَجِيءَ فِيهِ لَتَكْلِيمِكَ وَاسْتِثْنَاكَ بِلَا تَأْخُرٍ عَنْهُ.

٤١ - وَاخْتَرْتُكَ - يَا مُوسَى - وَاصْطَفَيْتُكَ لَوْحِي وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِي، وَإِقَامَةِ

إِذَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي النَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أَخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ، فَجَحَنَّاكَ إِلَى أَمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَمِثَّ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَّى (٤٠) وَأَصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي (٤١) أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِثَانِيَّتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي (٤٢) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِنَا (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَانِيَّةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ أَتْبَعِ الْهَدْيِ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَبَكَ وَتَوَلَّى (٤٨) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوَسَّى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١)

حُجَّتِي.

٤٢ - أَذْهَبَ أَنْتَ - يَا مُوسَى - وَأَخُوكَ هَارُونَ مَضْحُوبَيْنِ بِآيَاتِي الْبَيِّنَاتِ وَالْإِعْجَازِيَّةِ وَالْجَزَائِيَّةِ، الدَّالَّةِ عَلَى رَبُوبِيَّتِي وَإِلَهِيَّتِي، وَكَمَالِ قُدْرَتِي، وَلَا تَضَعُفًا، وَلَا تَقْصُرًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِي، وَلَا تَقْتَرَا أَيْضًا فِي ذِكْرِي فِي أَنْفُسِكُمَا وَقُلُوبِكُمَا وَالسُّتُكُمَا، وَفِي عِبَادَتِكُمَا لِي؛ لَتَكُونَا عَلَى صَلَافٍ دَائِمَةٍ بِي.

٤٣ - أَذْهَبَا مَعًا إِلَى فِرْعَوْنَ؛ إِنَّهُ قَدْ جَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ وَالْفُسَادِ.

٤٤ - قَدَارِيَّاهُ وَارْفَاقُهُ، وَلَا تُعْتَفَاهُ فِي قَوْلِكُمَا؛ حَالَةُ كُونِكُمَا رَاجِعِينَ وَطَامِعِينَ أَنْ يَتَأَثَّرَ بِدَعْوَتِكُمَا، أَوْ أَنْ يَخَافَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ؛ إِذْ لَوْ ذَهَبْتُمَا إِلَيْهِ وَأَتَمْتُمَا يَأْسَانِ مِنْ اسْتِجَابَتِهِ، لَمْ تَنْدَفِعْ أَنْفُسُكُمَا لِلْقِيَامِ بِمَهْمَةٍ رَسَالَتِكُمَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَمْلِ الْمَطْلُوبِ مِنْكُمَا.

٤٥ - قَالَ مُوسَى وَهَارُونَ: رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَعْجَلَ عَلَيْنَا بِطَرْدِنَا وَعَقُوبَتِنَا، وَلَا يَصْبِرَ إِلَى إِتِمَامِ الدَّعْوَةِ وَإِظْهَارِ الْمَعْجِزَةِ، أَوْ أَنْ يُجَاوِزَ الْحَدَّ فِي الْإِسَاءَةِ وَالظُّلْمِ حَتَّى الْقَتْلِ.

٤٦ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ مُطْمَئِنَّا لَهُمَا: لَا تَخَافَا؛ إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ دَعَاءَكُمَا، وَأَرَى مَا يُرَادُ بِكُمَا، لَسْتُ بِغَافِلٍ عَنْكُمَا، وَسَاحِمِيكُمَا وَأَحْفَظُكُمَا إِنْ أَرَادَ فِرْعَوْنُ بِكُمَا سُوءًا.

٤٧ - فَاذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَقُولَا لَهُ سِتْ مَقُولَاتٍ: الْأُولَى: إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رُبَّكَ، الثَّانِيَّةُ: فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ، الثَّلَاثَةُ: وَخَلِّ عَنْهُمْ وَأَطْلِقْهُمْ مِنْ أَعْمَالِكَ الشَّقَاةِ، وَارْفَعْ عَنْهُمْ عَذَابَ التَّسْخِيرِ وَالْإِذْلالِ وَالِاسْتِعْبَادِ، الرَّابِعَةُ: قَدْ جِئْنَاكَ بِمَعْجِزَةٍ وَبُرْهَانٍ مِنْ رَبِّكَ يَدُلُّ عَلَى صِدْقِنَا فِي دَعْوَتِنَا. الْمَقُولَةُ الْخَامِسَةُ: وَالْأَمْنُ وَالسَّلَامَةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ هُدَاهُ؛ إِذْ يُسَلِّمُهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ عَذَابِهِ، وَيُسَلِّمُهُ فِي الْآخِرَةِ بِدُخُولِهِ جَنَّتِهِ دَارَ السَّلَامِ.

٤٨ - الْمَقُولَةُ السَّادِسَةُ: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ عَذَابَ اللَّهِ مُنْصَبٌّ عَلَى مَنْ كَذَّبَ بِمَا جِئْنَا بِهِ، وَأَدَارَ ظَهْرَهُ، وَلَمْ يَتَّبِعْ هَدَى اللَّهِ.

٤٩ - قَالَ فِرْعَوْنُ لَهُمَا: فَمَنْ رَبُّكُمَا الَّذِي أَرْسَلَكُمْ يَا مُوسَى؟

٥٠ - قَالَ لَهُ مُوسَى: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ مَخْطُطَ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ مِنْ مَادِّيَّاتٍ وَمَعْنَوِيَّاتٍ وَنَفْسِيَّاتٍ، فَهِيَ كَامِنَةٌ مُسْتَقَرَّةٌ فِي أَعْمَاقِهِ، ثُمَّ هَدَى كُلَّ عِنَصَرٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ لِلنَّمَاءِ وَالتَّحَرُّكِ عَلَى وَفْقِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ فِي خِصَائِهِ.

٥١ - قَالَ فِرْعَوْنُ: فَمَا حَالُ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، الَّتِي مَاتَتْ وَتَفَتَّتْ ذُرَاَتُ أَجْسَادِهَا فِي تَرَابِ الْأَرْضِ؟

٥٢ - قال موسى لفرعون: إنَّ علم القرون الأولى من البشر، وما يتعلَّق بإنشائها الأول، وما يتعلَّق بذواتها وصفاتها، وما قدَّمت من أعمال، مُسَجَّل مُدَوَّن عند رتي في كتاب لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة، أحاط علمه بكلِّ ذلك، لا يتعرَّض علمه للضلال عن الواقع والبعد عنه، ولا يتعرَّض لنسيان المعلومات كما تتعرَّض الخلائق لذلك، وهو محيط بكلِّ شيء علماً.

٥٣ - وربُّكم هو الذي جعل لكم الأرض بمثابة السرير المُمهَّد المبسوط، صالحة لتجدوا عليها راحتكم إقامة، وجلساً، واضطجاعاً، ومناماً، وجعل لكم في الأرض طرقاً صالحة لأن تسلكوها في تنقَّلاتكم وأسفاركم، وبهذه السبل تُحقِّقون منافع كثيرة لكم، وأنزل من السحاب ماءً، فأخرجنا بذلك الماء الذي أنزلناه من السحاب، أصنافاً كثيرة من نبات مختلف الألوان والطعوم والمنافع.

٥٤ - كُلُوا - يا أيُّها الناس - ممَّا أخرجنا لكم من الأرض، ممَّا هو صالح لأن يؤكل، واجعلوا أنعامكم التي خلقناها لكم ترعى من نبات الأرض، إنَّ في ذلك الذي ذكر آيات جليلات لدوي العقول الواعية الدراكة، يدركون أنَّ ذلك الخلق العظيم والنظام البديع لا يكون إلا من ربِّ قادر حكيم.

٥٥ - من تراب الأرض ومائها خلقنا أجسادكم - أيُّها الناس -، وفيها نُعيدكم عند الموت والدفن، ومنها نُخرجكم مرةً أخرى يوم القيامة للبعث والحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

٥٦ - ونؤكد أننا أزيَّنا فرعون الآيات التسع كلها، التي آتينها موسى، فكذب فرعون وزعم أنها سحر، وامتنع عن الإيمان والطاعة.

٥٧ - قال فرعون لموسى: أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، بِسِحْرِكَ، فيكون لك المُلْك وتُخرجنا منها؟

٥٨ - فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلَ سِحْرِكَ، فحدِّد بوعْدٍ منك مكان المباراة التي سيجريها بينك وبين سحرتنا، وحدِّد زمانها، لا تُجاوِزُه نحن ولا أنت، واختر مكاناً عدلاً وسطاً يكون فيه فريقا المباراة متعادلين في كلِّ شيء.

٥٩ - قال موسى: زمان إجراء المباراة ومكانه يومُ العيد الذي تخرجون فيه من مساكنكم مُتزيَّنين، وتلتقون في مكانٍ واسعٍ جامع، وأن يُجمع الناس في ذلك المكان وقت الضحوة نهراً جهاًراً.

٦٠ - فانصرف فرعون عن موسى مُدبراً، وجمَعَ مكره وجيله وسحره، ثم أتى بعد زمنٍ مُتراخٍ لحضور المباراة في الزمان والمكان اللذين تمَّ التواعد لإجراء المباراة فيهما.

٦١ - قال موسى للسحرة الذين جمعهم فرعون قبيل المباراة: عذاباً شديداً لكم؛ بسبب ما تُعدُّون أنفسكم له، فلا تُختلقوا على الله الكذب بأعمال السحر التي تخذعون بها أعين الناس، فيهلككم ويستأصلكم بعذاب عظيم، وقد خسر من ادَّعى مع الله إلهاً آخر، وكذب على الله.

٦٢ - فتنازع السحرة الكلام بينهم، وخالف بعضهم بعضاً الرأي في أمر موسى، وبالغوا في إخفاء ما يتسارون به عن موسى وأخيه. ٦٣ - قال السحرة بعضهم لبعض سراً: إنَّ موسى وهارون ساحران يُريدان أن يُخرجاكم من أرضكم «مصر» بسحرهما، ويذهبا بمذهبكم الاعتقادي، ونظامكم الإداري، ويحلان محلَّهما مذهبهما الديني، ونظاماً إدارياً مُبتثَّفاً عنه.

٦٤ - فأحكموا أمرهم، وأعدُّوا وسائلكم بتدبير خفيٍّ، ثم بعد تمهُّل، وأناة، وإتقان وإحكام في الإعداد، اثَّثوا لمباراة موسى حالة كونكم صفّاً واحداً غير متفرِّقين؛ ليكون أشدَّ لِهَيْبَتِكُمْ، ونحَقِّق ونؤكد أنَّ من كان هو الغالب اليوم في المباراة، ظفر وفاز بما يريد. وانفضَّ مجلسهم الذي أسروا فيه التَّجوى على هذا القرار الأخير، وأخذوا أدواتهم السحرية، وذهبوا إلى حيث يكون الاجتماع الحاشد الجامع، الذي كان يومَ الزينة، ودخلوا الساحة المخصَّصة للمباراة بينهم وبين موسى وأخيه هارون عليهما السلام.

قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ٥٣ كُلُوا
وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ٥٤
خَلَقْنَكُمْ فِيهَا نَعِيدَكُم وَمِنْهَا يُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ٥٥ وَلَقَدْ
أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
مِن أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ
فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا
سَوًى ٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُخْشِرَ النَّاسُ ضُحًى
٥٩ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ٦٠ قَالَ لَهُمْ
مُوسَى وَيَلَكُمْ لَا تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ
وَقَدْ خَابَ مَن أَفْتَرَى ٦١ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا
التَّجْوَى ٦٢ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْران يُريدان أَن يُخْرِجَاكُم
مِّن أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ٦٣ فَأَجْمَعُوا
كَيْدَهُمْ ثُمَّ أَتَتْهُمُ أَصْفًا وَقَدْ أَقْلَحَ الْيَوْمَ مَن أَسْتَعْلَى ٦٤

سُورَةُ طه

٦٥ - قال السَّحَرَةُ بلسان كبيرهم المتحدِّث عنهم لموسى عليه السلام: يا موسى، اختَر أَحَدَ الأمرين: إمَّا أن تطرح ما عندك في ساحة المِباراة قبلنا، وإمَّا أن نكون نحن أوَّل من ألقى ما معنا.

٦٦ - قال لهم موسى: بل اَلْقُوا أَنْتُمْ أَوَّلًا، وأنا مُسْتَهِين بما عندكم من كَيْدٍ سحري، فَالْقُوا حَبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ فِي سَبَاحَةِ الْمُبَارَاةِ، فَإِذَا حَبَالُهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَى مُوسَى مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا ثَعَالِبِن تَمْشِي بِسُرْعَةٍ، مَعَ أَنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ مَا زَالَتْ حَبَالًا وَعَصِيًّا، لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ مِنْ حَقِيقَتِهَا.

٦٧ - فَأُضْمِرَ مُوسَى، فِي نَفْسِهِ الْخَوْفَ، وَظَنَّ أَنَّهَا نَقْصُودُهُ.

٦٩ - وَاللّٰی عَصَاكَ الّٰتِیْ فِیْ یَمِیْنِکَ، تَتَحَوَّلُ فَوْراً حَیَّةً عَظِیْمَةً، تَلْتَقِمُ وَتَبْتَلَعُ بِسُرْعَةِ حَبَالِهِمْ وَعَصِیَّتِهِمْ، مَا صَنَعُوا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَّا کِیْدًا سَحَرِیًّا تَخْلِیلًا بِإِیْهَامِهَا کَذِبًا وَافْتِرَاءً عَلٰی الْحَقِیْقَةِ أَنَّهُا ثَعَابِیْنِ حَقِیْقَتِیَّةٌ، وَلَا یَظْفَرُ السَّاحِرُ فِیْ أٰیِّ مَکَانَ یَأْتِیْهِ، وَیَعْمَلُ فِیْهِ أَعْمَالُهُ السَّحَرِیَّةَ، إِذْ یَجْعَلُهُ اللّٰهُ خَائِبًا خَاسِرًا.

٧٠ - فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ، فَانْقَلَبَتْ حَيَّةً حَقِيقَةً عَظِيمَةً تَسْعَى بِسُرْعَةٍ مُخِيفَةٍ فِي سَاحَةِ الْمَبَارَاةِ، فَلَبَعَثَ مَا صَنَعَ السَّحَرَةُ، فَخَرُّوا عَلَى الْأَرْضِ سَاجِدِينَ دُونَ تَلَكُّوْهُ وَلَا تَرِيْثٍ، وَقَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى.

٧١ - قال فرعون للسحرة متوعداً لهم: آمنتم بما دعاكم للإيمان به موسى منقادين له قبل أن أذن لكم بذلك؟ إن موسى لرئيسكم ومعلمكم صناعة السحر، فلذلك تابعتموه، فلأقنعن في الحال دون تأجيل أو تسويف أيديكم وأرجلكم مخالفاً بينهما، يداً من جهة، ورجلاً من جهة أخرى، ولأضلبنكم بتسمير أطرافكم بمسامير

حديديّة في جذوع النخل؛ فتموتون تعذيباً وصبراً، وتكون مواقعٌ تصلّيكم أماكن تُعرضون فيها لمشاهدة الناس، شهيراً بكم، وعبرةً لمن تحدّثه نفسه بأن يسلك طريقكم من القبط، ولتعلمن في العاجل الحاضر - أيها السّحرة - أيّنا أشدُّ عذاباً في إيّلامه، وأبقى في دوامه: أنا، أو ربّ موسى؟

٧٢ - قال السحرة لفرعون: لَنْ نُؤْثِرَ حُجَجَكَ الْوَاهِيَةَ الضَّعِيفَةَ، وَنَظَامَ حُكْمِكَ الْمُسْتَبْدِ الظَّالِمِ، عَلَى مَا جَاءَنَا بِهِ مُوسَى مِنَ الْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْآيَاتِ الْإِعْجَازِيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ، وَلَنْ نَخْتَارَكَ وَنُفَضِّلَكَ - يَا فِرْعَوْنَ - عَلَى اللَّهِ الَّذِي خَلَقَنَا وَأَبْدَعَ إِبْجَادَنَا عَلَى نَظَامِ الْفَطْرِ، مِنَ الْعُمُقِ الْبَاطِنِ الَّذِي يَحْتَوِي خَرِيطَةَ وَجُودِنَا وَصِفَاتِنَا، إِلَى الظَّاهِرِ الْمُنَاطِقِ تَمَاماً لِمَا فِي الْخَرِيطَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ فِي الْعُمُقِ، فَأَمُضْ بِأَمْرِكَ مَا أَتَيْتَ قَاضِيَهُ عَلَيْنَا، مَا أَمْرُكَ وَسُلْطَانُكَ إِلَّا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَسَيَزُولُ عَنْ قَرِيبٍ.

٧٣ - واعلم - يا فرعون - إننا أمثا برينا؛ ليعفّر لنا بليماننا ما سلف من خطايانا، وليعفّر لنا أيضاً ما أَكْرَهْنَا عليه من تعلّم السحر وعمله، إذ جَلَبْتَنَا بالقسر من مختلف المداخن المصرية، وَفَرَضْتَ علينا أن نعدّ وسائلنا السحرية لمباراة موسى، وأن نمارس كُفْرِيَّات وشُرَكِيَّات لاستخدام كفرة الجنّ ومردتهم لمساعدتنا في أعمالنا السحرية، وإذا كنت - يا فرعون - تُطمعنا بخيرائك إذا عُدْنَا إلى دينك، وتُهدّدنا بعذابك الشديد الباقي، إذا أصررنا على موقفنا، فعطاء الله خيرٌ من عطائك وأبقى، وعذابه أشدُّ من عذابك وأبقى.

٧٤ - إنَّ الشان العظيم المُرْهب المُخيف: مَنْ يَأْت رَبَّهُ كافراً، فَإِنَّ له بالاستحقاق المؤكّد الذي لا مفرّ منه، نارَ جهنّم، لا يموتُ فيها فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياةً مريحة يتنفع بها، بل يكون في عذاب دائم مُتجدّد مهما امتدّ الزمن.

٧٥ - ومن يأت ربّه بعد موته مؤمناً به، صادقاً في إسلامه، قد عمل الصّالحات، فأوئلك الفضلاء لهم الدرجات الرفيعة العلية.

٧٦ - هذه الدرجات الرفيعة، جنَّاتُ إقامة دائمة، تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ملاكثين فيها أبداً، وذلك الجزاء المقرَّر لمن ياتِ ربه مؤمناً قد عمل الصَّالحات، ويكون أيضاً جزاء مَنْ تطهَّر بالإيمان والتوبة من دنس الشُّرك والذنوب.

٧٧ - ونقسم مؤكدين أننا أبلغنا موسى عن طريق الوحي أمرنا: أن سير بني إسرائيل ليلاً من أرض مصر إلى خليج السويس، فاجعل لهم بالضرب بالعصا طريقاً في البحر يابساً ليس فيه ماء ولا طين، لا تخاف أن يُدركك فرعون وجنوده مِن ورائك، ولا تخشى أن يفرقك البحر أمامك.

٧٨ - فلحقهم فرعون مصحوباً بجنوده، فَعَمَرهم من الماء ما لا يعلم كنهه إلا الله، ففرق فرعون وجنوده، ونجا موسى وقومه.

٧٩ - وأضل فرعون قومه، إذ قال لهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ فاتبِعُهم، تَغْلِبُهم، وَتَسْتَعْبِدُهم، وأضلهم بقوله لملته: ﴿مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

٨٠ - يا بني إسرائيل قد منّنا عليكم بثلاث منن: المنّة الأولى: أنجيناكم من فرعون وجنوده، بقلق البحر لكم حتى عبرتم إلى الشاطئ الآخر سالمين، وخلّصناكم من متابعة فرعون وجنوده لكم، وأغرقناهم أجمعين، والمنّة الثانية: وعدناكم وعداً مؤكداً أن نكلم رسولنا موسى وأنتم حضور في الجهة اليمنى من الوادي الواقع بجانب جبل الطور؛ لإنزال التوراة التي بها قوام دينكم وشريعتكم، والمنّة الثالثة: نزلنا عليكم في الثّبة المنّ الذي يشبه العسل، والطيّر الذي يشبه السّماني.

٨١ - قال الله لهم: كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، وَلَا تَتَعَدُوا حُدُودِي فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ، فَلَا تَذْخَرُوا مِنَ الْمَنِّ إِلَى صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي شَيْئاً، باستثناء اليوم السادس الذي يعقبه السبت وهو يوم لا عمل فيه، فإنكم تجمعون فيه ما يكفي حاجتكم ليومين فقط، وساحفظه لكم من الفساد، ومن طغى بتجاوز الحدّ الذي حدّدته فأذخر ما لم أذن بأذخاره، نَزَلَ عَلَيْهِ حَالاً بِهِ غَضَبِي، وَمَنْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ حَالاً بِهِ غَضَبِي فَقَدْ هَلَكَ وَسَقَطَ فِي النَّارِ سَقُوطاً مُخِيفاً جَدّاً.

٨٢ - وإني لكثير المغفرة لمن تاب عن الشّرك، وجدد الإيمان بما يجب الإيمان به من عقائد وشرائع، وعمل الصّالحات التي تدلّ على صدق إيمانه، وصار من أهل الاستقامة والطاعة، ثمّ لزم الإسلام طائعاً لرّبّه، دون انحراف وخروج عنه، حتى مات عليه.

٨٣ - وما هو السبب الذي جعلك تعجل منفصلاً عن قومك - يا موسى -، فسبقتهم إلى ميقاتنا جانب الطور الأيمن، وخلّفتهم وراءك؟

٨٤ - قال: إني أمرتهم بأن يلحقوا بي، لشهود ما يجري في هذا الميعاد، ولم أقصر في واجب تبليغهم، وقد وليت عليهم أخي هارون، فهم سائرون على مواطئ الطريق التي سرت عليها. وأسرعْتُ مُقْبِلاً إلى مكان مُنَاجَاتِكَ رَبِّ، لأظفر برضاك.

٨٥ - قال الله سبحانه لموسى عليه السلام: فَإِنَّا قَدْ ابْتَلَيْنَا قَوْمَكَ الَّذِينَ خَلَفْتَهُمْ مَعَ هَارُونَ، فَافْتَنُوا بِالْعِجْلِ مِنْ بَعْدِ انْطِلَاقِكَ إِلَى الْجِبَلِ، ودعاهم السّامري، وصرفهم إلى عبادة العجل، وأوقعهم في الضلال.

٨٦ - فلما انتهت مدّة الميعاد، وهي أربعون ليلة، رَجَعَ موسى إلى قومه حالة كونه غَضَبَانٍ عليهم، حزيناً جزعاً، قال مُنْكَراً عليهم: يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدّاً حَسَنّاً لَكُمْ بِأَنْ تَشْهَدُوا مَعِيَ مَكَالَمَتَهُ لِي بِجَانِبِ الطُّورِ؟ فَلَمْ تَحْضُرُوا، وَعَصَيْتُمْ أَمْرِي لَكُمْ، بِأَنْ تَسِيرُوا عَلَى أَثَرِي، وَعَصَيْتُمْ أَمْرَ أَخِي هَارُونَ، وَتَمَرَّدْتُمْ عَلَيْهِ؟ أَنْتَظَرْتُمْ زَمْناً طَوِيلاً عَوْدَتِي، فَطَالَ عَلَيْكُمْ مَدَّةُ مَفَارِقَتِي إِيَّاكُمْ، فِي عَشْرِ لَيَالٍ مَدَّهَا رَبِّي لِمَتَحَانِ صَدْقِ إِيْمَانِكُمْ، وَوُضُوحِ مَعْرِفَتِكُمْ لِرَبِّكُمْ؟ إِنَّ زِيَادَةَ عَشْرِ لَيَالٍ فِي الْمِيعَادِ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُفْسِدَ عَقِيدَةً صَحِيحَةً رَاسِخَةً، لَوْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فَعَلّاً فِي قُلُوبِكُمْ، وَوَاضِحَةً فِي أَذْهَانِكُمْ!! بَلْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَفْعَلُوا فَعَلّاً يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ الْغَضَبُ مِنْ رَبِّكُمْ بِسَبَبِهِ، فَأَخْلَفْتُمْ مَا وَعَدْتُمُونِي مِنَ اللَّحَاقِ بِي، وَالسَّيْرِ عَلَى أَثَرِي إِلَى الْوَادِي الْمَقْدَسِ بِجَانِبِ الطُّورِ.

٨٧ - قالوا: مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَنَا إِيَّاكَ الَّذِي وَعَدْنَاكَ فِيهِ أَنْ نَسِيرَ فِي أَثَرِكَ إِلَى جَانِبِ الطُّورِ، وَنَحْنُ نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا جَرَأَةً لِلْحُضُورِ مَعَكَ، وَرَبُّكَ يَكَلِّمُكَ، إِذْ كُنَّا خَائِفِينَ مِنْ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنَّا رَبُّنَا؛ لِأَنَّا كُنَّا مَرْتَكِبِينَ لَذَنْبٍ عَظِيمٍ، حُمَلْنَا بِهِ أَثْقَالاً مِنَ الْإِثْمِ، إِذْ كُنَّا أَخَذْنَا مِنَ الْمَصْرِيِّينَ حُلِيّاً عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِعَارَةِ، وَنَحْنُ نَقْصِدُ سَلْبَهُمْ إِيَّاهَا، لِأَنَّا خَارِجُونَ مِنْ مِصْرَ خُرُوجاً نَهَائِيّاً، وَالْمَصْرِيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ بِذَلِكَ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْحُلِيّ مَعَنَا كَانَتْ شَاهِدَةً عَلَيْنَا بِإِثْمِنَا الْكَبِيرِ، فَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْهَا، فَأَلْقَيْنَاهَا فِي حُفْرَةٍ فِيهَا نَارُ بِأَمْرِ السّامري، فَكَمَا أَلْقَيْنَا كَذَلِكَ أَلْقَى السّامري مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ ثَرْبَةِ حَافِرِ فَرَسٍ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَفُ دَرَكاً وَلَا تُخْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾ يَتَّبِعِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ وَمَا أَصْحَابُكَ عَنْ قَوْمِكَ بِمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُولُونَ لَمْ يَعِْدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدّاً حَسَنّاً أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَاراً مِن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ تَفَنَّا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

٨٨ - فأخرج السامري لبني إسرائيل من الذهب عَجْلاً جَسَداً لا حياة له، يخور كما يخور البقر؛ لامتحان جمهور بني إسرائيل: هل تخلصوا من الوثنية، أم ما زالت أفكارهم ونفوسهم مُتَشَبِّهة بها، فقال السامري وَمَنْ تَابِعَهُ مِمَّنْ افْتِنَ بِهِ: هذا إلهكم وإله موسى، حل في جسد العجل، نسيه وتركه ههنا، وذهب يطلبه. وسجدوا له، وقربوا له القرابين، وصاروا يعكفون عليه.

٨٩ - أَفَقَدَ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعَجَلَ الذَّهَبِيَّ عَقُولَهُمْ، فهم لا يَرَوْنَ أَنَّهُ جَمَاد، لا يَزِدُّ لَهُمْ جَوَاباً ما على ما يسألونه أو يخاطبونه، ولا يستطيع أن يدفع عنهم ضراً، أو يجلب لهم نفعاً.

٩٠ - وَتَقَسَّمُ مُؤَكِّدِينَ أَنَّ هَارُونَ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْلِ رَجُوعِ مُوسَى إِلَيْهِمْ: يا قوم، أَؤَكِّدْ لَكُمْ بَأْثَهُ لَيْسَ فِي خُورِ الْعَجَلِ إِلَّا امْتِحَانُكُمْ؛ لكشف صحة إيمانكم بربكم، وقال لهم: يا قوم إِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنَ الَّذِي يُؤَلِّيكُمْ بِرَحْمَتِهِ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، فَاتَّبِعُونِي عَلَى دِينِي فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَأَطِيعُوا أَمْرِي فِي تَرْكِ عِبَادَةِ الْعَجَلِ.

٩١ - قَالَ عُبَادُ الْعَجَلِ لِهَارُونَ: لن نزال على عبادة العجل مقيمين، ولن نستجيب لك يا هارون حتى يرجع إلينا موسى، فنَنْظُرَ: هل يعبد كما عبدناه، وهل صدق السامري أم لا؟

٩٢، ٩٣ - قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ يُلُومُهُ بِشِدَّةٍ عَلَى مَعْصِيَةِ أَمْرِهِ: يا هارون ما مَنَعَكَ حِينَ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا عَنْ اتِّبَاعِي، وَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ لَا تَتَّبِعَ أَمْرِي وَوَصِيَّتِي، أَلسَتَهَنْتَ بِي، فَعَصَيْتَ أَمْرِي الَّذِي أَمَرْتُكَ بِهِ، إِذْ اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟!

٩٤ - ثُمَّ أَخَذَ مُوسَى بِشَعْرِ رَأْسِ أَخِيهِ وَلَحِيَّتِهِ يَجْرُهُ إِلَيْهِ غَضَباً وَانْكَاراً، فَقَالَ لَهُ هَارُونَ مُسْتَعْطِفاً: يَا ابْنَ أُمِّي، لَا تُمَسِّكْ بِلَحِيَّتِي وَلَا بِشَعْرِ رَأْسِي، إِنِّي خَشِيتُ إِذَا اتَّبَعْتُكَ مَعَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِي، أَنْ

تقول لي: فرقت بين بني إسرائيل، فبقيت فيهم منتظراً عودتك، وخشيت أن تقول لي أيضاً: لم تجعل قولي تحت مراقبتك الدائمة، حين قلت لي: اخلفني في قومي، وأصلح وارفق بهم، ولا تتبع سبيل المفسدين. فقد اجتهدت أن أصلح بقدر استطاعتي، ولم أتبع سبيل المفسدين.

٩٥ - أَقْبَلَ مُوسَى عَلَى السَّامِرِيِّ، عَقِبَ مُحَاكَمَتِهِ لِهَارُونَ، فَقَالَ: مَا أَمْرُكَ وَشَأْنُكَ الْعَظِيمَ الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَقُومَ بِهَذِهِ الْفِتْنَةِ الَّتِي أَفْسَدْتَ بِهَا جُمْهُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَتَّى جَعَلْتَهُمْ يَعْبُدُونَ وَثْناً ذَهَبياً عَلَى صُورَةِ عَجَلٍ؟

٩٦ - قَالَ السَّامِرِيُّ: رَأَيْتُ مَا لَمْ يَرَوْهُ - وَهُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى فَرَسٍ، وَقَدْ خَرُوجُهُمْ مِنَ الْبَحْرِ وَغَرَقَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَفَبِضْتُ بِكَفِّي قَبْضَةً مِنْ تَرَابِ حَافِرِ فَرَسِ جَبْرِيلَ، فَطَرَحْتُ هَذِهِ الْقَبْضَةَ بِسُرْعَةٍ وَخَفَةٍ فِي جَوْفِ الذَّهَبِ الْمَسْبُوكِ عَلَى صُورَةِ عَجَلٍ، فَصَارَ لَهُ خُورٌ كَخُورِ الْبَقَرِ. وَكَذَلِكَ الَّذِي فَعَلْتُهُ زَيْتٌ لِي نَفْسِي، وَحَسَنْتَ لِي صُنْعَهُ.

٩٧ - قَالَ مُوسَى لِلْسَّامِرِيِّ: فَأَذْهَبْ مِنْ بَيْنِنَا، فَإِنَّ لَكَ فِي الدُّنْيَا مَا دَمْتَ حَيًّا، أَنْ تَعِيشَ مُنْبُوذاً لَا تُخَالِطُ أَحَداً، وَلَا يَخَالِطُكَ أَحَدٌ، وَهُوَ عِقَابٌ بِعِزَّةٍ جَبَرِيَّةٍ عَنْ كُلِّ النَّاسِ، فَإِذَا اقْتَرَبَ مِنْكَ أَحَدٌ اشْتَدَّتْ بِكَ أَوْجَاعٌ وَأَلَامٌ لَا تُطِيقُهَا، وَإِنَّ لَكَ - يَا سَامِرِيُّ - مَوْعِداً لِعَذَابِكَ فِي الْآخِرَةِ، لَنْ يُخْلِفَكَ اللَّهُ إِلَاهُ، بَلْ يُكَافِئُكَ عَلَى فِعْلِكَ، وَانْظُرْ إِلَى عِجْلِكَ الذَّهَبِيِّ الَّذِي اتَّخَذْتَهُ إِلَهاً، وَأَقَمْتَ عِنْدَهُ مَلَازِمَ عِبَادَتِهِ، وَدَعَوْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى عِبَادَتِهِ، لثَوَقَدَنْ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّى يَنْصَهَرَ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تُجَزَّئَهُ إِلَى أَجْزَاءٍ صَغِيرَى كَذَرَاتِ الرَّمْلِ، لِنَسْفَتِهِ مُتَفَرِّقَ الذَّرَاتِ فِي الْبَحْرِ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُ عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ.

٩٨ - إِنَّمَا إِلَهُكُمْ - يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ - الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَالتَّعْظِيمِ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا مَعْبُودَ بَحَقٍّ إِلَّا هُوَ، وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَى مَا فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ إِيمَانٍ أَوْ شُرْكَ، وَعَلِيمٌ بِأَعْمَالِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ، وَخَوَاطِرِ نَفُوسِكُمْ، وَسَيُجَازِيكُمْ بِحُكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَفَضْلِهِ.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ٨٩ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُومُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ٩٠ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ٩١ قَالَ يَهْدُونَ مَأْمَعَكُمْ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ٩٢ أَلَا تَتَّبِعُونَ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ٩٣ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٩٤ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُنِي ٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ٩٦ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ٩٧ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ٩٨

٩٩ - مثل ذلك القصص الذي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ - يا رسول الله - بشأن موسى وهارون وفرعون وبني إسرائيل، نقص عليك بعض أنباء ما قد سَبَقَ من أحداث في التاريخ الإنساني، وقد أعطيناك - يا رسول الله - من عندنا كتاباً ربانياً يجب على المكلفين أن يتفهموا معانيه، ويتذكروا ما يُطلب منهم؛ ليكون دافعاً إلى الانتفاع به في علم أو عمل.

١٠٠، ١٠١ - من أَعْرَضَ عن هذا الكتاب الذي هو ذِكرٌ للعالمين، ولم يؤمن به، ولم يعمل به، فإنه يأتي يوم القيامة حاملاً حملاً ثقیلاً من الإثم عقوبةً على إعراضه، حالة كونهم مقيمين في العذاب الذي قضى الله به على الكافرين، وساء الوزر الذي يحمله مَنْ يُعرض عن كتاب الله، حملاً يوم القيامة؛ إذ هو حِمْلٌ ينتهي به إلى عذاب جهنم.

١٠٢ - يوم يُنْفَخُ الْمَلَكُ إِسْرَافِيلُ في «القرن» لصيحة البعث النفخة الثانية، يُدعى بها الناس للحشر، ونجم الكافرين المُستحقِّين للخلود في دار العذاب، حالة كونهم زُرْقاً، يتميزون عن المؤمنين باللون الأزرق، من أثر الضربات التي تقع عليهم من ملائكة العذاب.

١٠٣ - يتسارون بينهم، ويتكلمون خفيةً: ما مكثتم في رقدتكم التي رقدتموها في قبوركم في مدة البرزخ الفاصل بين الموت والبعث إلا عشر ليالٍ.

١٠٤ - نحن أعلم بما يتداولونه من أقوال فيما بينهم، بشأن المدة الزمنية التي لبثوها في قبورهم، حين يقول أوفاهم عقلاً وأعدلهم قولاً في تصوُّرهم: ما لبثتم إلا يوماً واحداً.

١٠٥ - ١٠٧ - ويسألونك - يا رسول الله - عن الجبال، كيف يكون

حالها يوم القيامة؟ فقل: يَقلُّعُها رَبِّي من أصولها ويسحقها، ويُذريها، ويجعلها هباءً منثوراً، فيترك الأرض التي كانت عليها الجبال بعد نسفها أرضاً مُستويةً ملساء لا نبات فيها ولا بناء عليها، لا ترى، فيها - أيها الناظر - انخفاضاً ولا ارتفاعاً، ولا وادياً ولا رابيةً .

١٠٨ - في ذلك اليوم يَتَّبِعُونَ صَوْتَ الدَّاعِي من الملائكة الذي يدعوهم إلى مَوْقِفِ يوم القيامة، لا عَوَجَ للداعي في تصرفاته، ولا عَوَجَ في اتِّباعهم له، فهم لا يزيغون عنه يميناً ولا شمالاً، بل يَتَّبِعُونَهُ سِرَاعاً، وَسَكَنَتِ الأصوات وَخَضَعَتِ للرحمن، فلا تسمع إلا صَوْتاً خفياً.

١٠٩ - يوم تخشع جميع الأصوات للرحمن لا تنفع الشفاعة لأحدٍ من الناس إلا بشرطين: **الشرط الأول:** من أذِنَ له الرحمن أن يشفع، **والشرط الثاني:** أن يَرْضَى الله سبحانه قولَ الشافع، وما تضمنته شفاعته للمشفوع له.

١١٠ - يعلم الله سبحانه كلَّ ما قَدَّمَ عباده في حياة امتحانهم من اعتقادات، ونيات، وأعمال ظاهرة وباطنة، ويعلم سبحانه كلَّ ما سيأتي في مستقبل أمرهم يوم الدين، فهو الذي يكون خلفهم، لأنهم يجهلون، ولا يحيط العبادُ بذات الله ولا بكمال صفاته علماً.

١١١ - وَذَلَّتْ وَخَضَعَتْ وجوهُ الخلائق للحَيِّ الذي لا يموت، القائم على تدبير شؤون خلقه، وقد خسر كلَّ شيءٍ مَنْ جاء يوم القيامة حاملاً أوزار ظلم من ذَرَكَةِ الكفر، إذ يكون قد خسر نفسه، وتسبَّب لها بالعذاب الأبدي بسبب كفره.

١١٢ - وَمَنْ يَعْمَلُ بعض الصَّالِحَات، والحال أنه مؤمنٌ صحيح الإيمان وصادقُهُ، فإنه يوم الدين لا يخاف أن يُحكم عليه أو يعذب بذنبٍ لم يرتكبه، ولا يخاف أن يُقلِّل الله عزَّ وجلَّ من ثوابه.

١١٣ - ومثل ذلك الذين قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ في القرآن من أنباء ما قد سبق في التاريخ الإنساني، أنزلنا القرآن عليك - يا رسول الله - بلسان العرب؛ ليفهموه ويقفوا على إعجازه وحسنِ نظمه وخروجه عن كلام البشر، وكرزنا وفصلنا ونوعنا القول في آيات القرآن تصرفاً من الإنذار بالعاقبة السيئة المؤلمة، جزاءً على فعل العمل السيء الذي نهى الله عنه، أو على ترك العمل الصالح الذي أمر الله به؛ راغبين أن يَتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ بالإيمان والعمل الصالح، أو يُحْدِثَ لَهُمُ القرآن معرفةً تتسرَّب داخل نفوسهم، تُستَدعى هذه المعرفة فيكون لها أثر حسنٌ في نفوسهم، يدفعهم إلى العمل الصالح.

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ ﴿١٠١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ ﴿١٠٢﴾ خَلْدَيْنَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۖ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۖ ﴿١٠٤﴾ يَخْفَتُونَ مِنْهُمْ إِنِ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ ﴿١٠٥﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ إِذْ يَقُولُ أَمْ لَهُمْ طَرِيقٌ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۖ ﴿١٠٦﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ﴿١٠٧﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ ﴿١٠٨﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۖ ﴿١٠٩﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۖ ﴿١١٠﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ ۖ ﴿١١١﴾ قَوْلًا يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۖ ﴿١١٢﴾ عَلِمَّا ۖ ﴿١١٣﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۖ ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۖ ﴿١١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ ﴿١١٦﴾



١١٤ - فَتَسَامَى وَجَلَّ وَعَظَّمَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، المالك لكل شيء في الوجود، ذو الوجود الثابت الواجب الذي لا شك فيه، وتعالى عما يقوله المشركون والجاحدون، ولا تُسرع - يا رسول الله - بمبادرة أمين الوحي جبريل بقراءة آيات القرآن معه، قبل أن يفرغ جبريل من إبلاغه إليك، وتأذ بتلقيه وحفظه على رويّة، وقل - يا رسول الله -: ربّ زدني علماً إلى ما علمت، فإنّ لك في كلّ شيء علماً وحكمة.

١١٥ - ونقسم مؤكّدين أننا أمرنا وأوحينا إلى آدم أن لا يأكل من الشجرة من قبل كلّ من عهد الله إليه من البشر، فترك ما عهدنا إليه من الاحتراز عن أكل هذه الشجرة؛ إذ استجاب لوساوس إبليس، وانخدع بإغراءاته وتوسيلاته، فأكل منها، ولم نجد له إرادة قويّة لا تستجيب لأشدّ المغريات، ولا تضعف أمام المصائب الكبرى التي تحتاج إلى صبر عظيم. ولم يكن آدم حين معصيته نبياً معصوماً، وقد اعترف هو وزوجه بمعصيتهما، واستغفرا من ذنبهما، وتابا إلى ربهما.

١١٦ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقّي لبياننا - هذا الحدث الذي جرى وقت قولنا للملائكة ومن كان مندساً فيهم: اسجدوا لآدم، سجود احترام وتكريم، لا سجود عبادة، فسجد الملائكة كلّهم أجمعون إلا إبليس الذي كان مندساً فيهم كواحد منهم امتنع عن السجود استكباراً.

١١٧ - فقلنا عقب إباء إبليس وإصراره بعناد شديد أن يطيع الله في السجود لآدم: يا آدم إنّ إبليس عدوّ لك ولزوّجك حواء، فلا يُخرجنكما إبليس بوسوسته من الجنة، وعندئذ تعرّض يا آدم لتحمل المكاره والشدائد؛ لأنك ستضطر لأن تكون الأكثر تحملاً لعناء الكد والكدح في العمل، لاكتساب رزقك، ورزق أسرّتك.

١١٨ - إنّ لك - يا آدم - في الجنة المطالب الأساسية الأربعة للعيش السعيد الرغيد: **المطلب الأول:** أن لا تجوع فيها، فالطعام في الجنة وفير لا ينفد، مع ما فيها من فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة،

فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۖ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا ۖ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۖ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجْمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۖ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۖ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُكُمْ هَلْ أَتَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَلِئَ لَابِلًا ۖ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۖ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَغَابَ عَلَيْهِ وَهْدَىٰ ۖ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۖ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ۖ قَالَ رَبِّ لَوْ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۖ

المطلب الثاني: لا تعرّض لمكروه الغري وأذاه. فلباس الجنة فاخرّ فاره من سندس وإستبرق.

١١٩ - **المطلب الثالث:** لا تعطش فيها، فالماء وأنواع الشراب اللذيذ الأخرى لا تنقطع ولا تنفد، **المطلب الرابع:** لا تبرّز للشمس فيؤذيكم حرّها؛ إذ الجنة ظلّ ظليل دائم. ونفي التأذي بحرارة أشعة الشمس يدلّ على نفي التأذي بالبرد، فأهل الجنة لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً.

١٢٠ - فوسّوس الشيطان بتزيين فعل الإثم بأسلوب غير مباشر حتى تصل إلى مراكز التأثير في نفس آدم، قال له: هل أدلك على الشجرة التي إنّ أكلت منها بقيت مخلداً في الجنة خلوداً أبدياً، ومَلَكَتْ لَكَ مَلَكاً لا يبيد ولا يفنى؟

١٢١ - فأكل آدم وحواء من الشجرة المحرّم عليهما أن يأكلا منها، فغريا من الثياب، التي كانت عليهما، حتى بدت فروجهما، وظهرت عوراتهما، غيبت أن ذاقا من الشجرة مباشرة، وسرعاً يلصقان على سَوَاتِيهِمَا مِنْ وَرَقِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ للتستر، وخالف آدم نهي ربّه له عن الأكل من الشجرة، وترك سبيل الرشد، اتّباعاً لما تعلّقت به نفسه مما ظنّه خيراً له.

١٢٢ - وبعد مدّة من الزمن اختاره ربّه واضطّفاً للنبوّة والرسالة، فعادَ عليه بالعفوّ والمغفرة، وهذاه لرُشده. فكان آدم عليه السلام أول نبي للمجتمع البشري من ذريته.

١٢٣ - قال الله تعالى لآدم وحواء: انزلا من مكان الجنة العالي إلى الأرض جميعاً، بعضكم - يا ذريّة آدم - لبعض عدوّ بالتحاسد في الدنيا، والاختلاف في الدين، فإمّا يأتينكم منّي تعليمات مُنْزَلَاتٌ تُبَيِّنُ لَكُمْ دِينِي، وفيها هدايتكم، فأتبعوها واعملوا بما تشتمل عليه من أوامر ونواهي وإرشادات ونصائح، فمن اتّبع هداي بقوة وعناية، فلا يضيع في شتّى المسالك والمَتَاهَاتِ بعيداً عما هو سبب سعادته، ولا يعرّض نفسه للمتاعب والمشقات؛ لأنّ الله سبحانه يمنح قلبه ونفسه الطمأنينة والرضا في حياته، ولو تعرّض للمكاره.

١٢٤ - ومن أعرض عن الذكر الربّاني المُنْزَل فلم يعمل به ولم يتّبعه، فإنّ له في الدنيا عقابين مُرْتَبَيْنِ على إعراضه عن الذكر بعد أن آمن بما جاء فيه من هدى: **العقاب الأول:** أن نجعل له معيشة ضيّقة شاقّة بضيق في نفسه، أو من أهله وأسرته، أو من وسائل رزقه وكسبه، **والعقاب الثاني:** نحشره يوم القيامة بعد البعث أعمى كالكافرين، لمشابهته لهم في أعمالهم.

١٢٥ - قال المعرض عن ذكر الله: ربّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى كالكافرين، وقد كنت في الحياة الدنيا بصيراً ذا إيمان؟

١٢٦ - قال الله تعالى له: فعلنا بك مثل ذلك الذي كان منك في الحياة الدنيا، إذ أنك - مع كونك مؤمناً بي - لم تتبع هُداي الذي أمرتك بأن تتبعه، وتركت العمل بآياتي المُنزلات، فصرت في حياتك مثل الكافرين في السلوك، فانت الآن تستحق أن تكون أعمى مثلهم، ومثل تركك في الدنيا العمل بآياتنا المُنزلات تُترك في موقف الحشر، فلا يُعتنى بك، وتُعامل معاملة الكافرين الذين يُحشرون عُميةً.

١٢٧ - ومثل ذلك الجزاء الذي تُعاقب به مَنْ أعرض عن ذكرنا، نُجزِي أيضاً مَنْ أسرف إسرافاً بالغاً، ولم يؤمن بآياتنا، ولُعذاب الآخرة بالحريق في نار جهنم أشدّ كماً وكَيْفاً، وأكثر بقاءً مع تتابع الزمان من عذاب الضنك في الدنيا، ومن عذاب العمى بالمحشر.

١٢٨ - أما زالوا على جهلهم، فلم يَهْد لهم تاريخ الأمم السابقة مبيّناً سُنة الله في الانتقام من الكفرة المَكذِبين بالإهلاك الجماعي، أهلكنا كثيراً من أهل زمان واحد، وصلوا إلى حالة ميؤوس منها، يمشي هؤلاء الكافرون في مساكن المُهلِكين السابقين؛ إن في ذلك الإهلاك الشامل لمُكذّبي القرون السابقة، لعلامات ذوات دلالات لأصحاب العقول الواعية.

١٢٩ - ولولا كلمة تمّ بها قضاء الله وقدره سَبَقَتْ في خطة التكوين، بتأجيل الحساب إلى يوم الدين، ولولا أجل مُعيّن عند ربّ العالمين، للحساب وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء، لكان إنزال الجزاء الأوفى بهم أمراً مُلَازماً لهم، لأنهم قد استحقّوه بتكذيبهم وكفرهم.

١٣٠ - فاصبر - يا رسول الله - ويا كلّ داع إلى الله - على ما يقوله المُكذّبون، ونزه ربك عما لا يليق بذاته وصفاته تنزيهاً مُفترناً بحمده في صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وصلاة العصر قبل غروبها،

وصل المغرب والعشاء من ساعات الليل، وصل الظهر عند الزوال وقت انتهاء طَرْف النصف الأول، وابتداء النصف الآخر؛ رغبة أن تنال ثواب الله في المَعَاد.

١٣١ - ولا تَنْظُرْ - أيها المؤمن - نَظَر استِخْسانٍ وإعجاب وتَمَنٍّ إلى ما أعطينا من متاع الحياة الدنيا، أصنافاً وجماعات من الناس، حالة كون ما مُتَعْنَاهُمْ به زهرة الحياة الدنيا، ذات المنظر الجميل، والرائحة الزكية، إلا أنها قصيرة العمر، سريعة الذبول والفناء كزهر الأشجار؛ لِتُبَلِّغَهُمْ ونخبر إراداتهم، وليس تشريعاً وتكريماً لهم، ورزق ربك في الحياة الدنيا المقرون بالطمأنينة والرضا، والذي سَيُفِيضُهُ عليك في جنات النعيم خيرٌ من كلِّ ما في هذه الحياة من متاع وزينة؛ وأبقى أنواعاً وأصنافاً وأفراداً؛ لأن دار النعيم هي دار البقاء، أما الحياة الدنيا فهي دار الفناء والأكدار.

١٣٢ - وأمر - يا رسول الله وكلّ حامل لرسالته من أمته - أهلك بالمحافظة على الصلوة، واضبر صَبِراً كثيراً على أداها، وعلى الاستكثار من الصلوات النوافل، ولا سيما في جَوْف الليل، لا تُكَلِّفَكَ أن تَرُزِّق أحداً من خلقنا، ولا أن تَرُزِّق نفسك، بل نحن نُهيئُ لك رزقك الذي يكفيك ويكفي أسرتك، لتتفرّغ للقيام بوظائف رسالة ربك، والعاقبة الحسنة المحموده في الدنيا والآخرة لأهل التقوى.

١٣٣ - وقال المشركون: هلاً يأتينا محمد بآية خارقة، فإذا جاء بمثل هذه الآية المُفْتَرَحَة من ربه آمناً به، أجهلوا ولم يفهموا اشتغال القرآن على بيان ما في الكتب الإلهية؟ فلو أنصفوا لعلّموا أن القرآن وحده بيّنه كافية، ولعلّموا أن الرسول محمد ﷺ بيّنه واضحة بصفاته الممتازة، وخلقته العظيم، وبما جاء بشأنه من بشائر في الصحف الأولى.

١٣٤ - ولو أنا أهلكنا هؤلاء المُكذّبين بسبب كفرهم وجرائمهم بعذاب، من قبل أن نُرسل إليهم رسولاً، ونُنزّل عليهم كتاباً، لقالوا يوم القيامة: يا ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولاً يدعونا، فَتُبْعَ آياتك من قبل أن ينزل بنا الهوان، ونقع في الشرّ والعذاب الأليم.

١٣٥ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: كلُّ منا ومنكم مُنْتَظَرٌ، أنتم منتظرون موتي بحادث من حوادث الدهر، ونحن ننتظر أن يُعْزَنَا ربنا وَيُؤَيِّدَنَا وَيُنْصُرَنَا عليكم، فستعلمون بعد زمن غير بعيد، مَنْ هم أصحاب الطريق المستقيم الذين اهتدوا في مسيرتهم في حياتهم لسلوكه، ومن الذين ساروا في سُبُل الضلالة ومناهاتها، نحن أم أنتم؟!

قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْدُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسى ۝ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۝ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الشُّعْنِ ۝ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزُلَمَاءِ وَاجِلٍ مُّسَمًّى ۝ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَاهُمْ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثِنَّ فِيهِمْ رِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَاسْتَنْكَرَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزَىٰ ۝ قُلْ كُلُّ مُرْصِدٍ قَرَبَصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ۝

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

الجزء الثاني عشر

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
 مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
 يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
 هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَأَنْتُمْ
 تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ
 أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ
 ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ
 ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا أَهْلَ
 الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً
 لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ
 الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
 لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابَ فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

١ - اقْتَرَبَ لِكِبْرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ الْمُعَانِدِينَ الْمُصْرِبِينَ عَلَى جُحُودِهِمْ
 وَقَتَّ حِسَابَهُمُ الْمُعْجَلُ، وَإِنْزَالُ الْعِقَابِ بِهِمْ، وَهُمْ مَنْغَمْسُونَ فِي
 غَفْلَةٍ تَامَّةٍ، مُعْرِضُونَ غَيْرَ مِبَالِينَ وَلَا مَكْتَرَتِينَ.
 ٢ - مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيَانٍ قَرَأَنِي مُنْزَلٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ شَيْئاً فَشَيْئاً، يُتْلَى
 عَلَيْهِمْ مُجَدِّداً التَّذْكِيرَ، إِلَّا اسْتَمَعُوهُ مُدْرِكِينَ الدَّلَالَاتِ الْعَامَةَ لِآيَاتِهِ،
 إِلَّا أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ انْصِرَافَ أَذْهَانِهِمْ بِاللَّعِبِ فِي شُؤْنِ دُنْيَاهُمْ.
 ٣ - اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ حَالَةَ كَوْنِ قُلُوبِهِمْ لَاهِيَةً عَنِ التَّأَثُّرِ بِمَا جَاءَ
 فِيهِ، لَا تَتَأَمَّلُ فِي آيَاتِهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُ فِي حِكْمِهِ، سَاهِيَةً غَافِلَةً عَنِ
 ذِكْرِ اللَّهِ، مَشْغُولَةً عَنِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا،
 وَالَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ظُلْماً مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ بِالْغَوَا فِي إِخْفَاءِ
 تَنَاجِيهِمْ، حَتَّى لَا يَفْتَضِحُوا بَيْنَ جَمَاهِيرِهِمْ بِالتَّأَمُّرِ عَلَى دَعْوَةِ
 الرَّسُولِ، وَقَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هَلْ هَذَا الَّذِي يَدْعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ، فَكَيْفَ تُصَدِّقُونَهُ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ؟!
 وَالرَّسُولُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَلَكاً؟! أَفَقَدْتُمْ عَقْلَكُمْ وَتَقْدِيرَكُمْ لِلْأُمُورِ حَقَّ
 قَدَرِهَا، فَانْتُمْ تَأْتُونَ مُحَمَّدًا لَتَسْمَعُوا مِنْهُ مَا يَسْحَرُكُمْ بِهِ مِنْ كَلَامٍ،
 وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلَكُمْ؟!
 ٤ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: سَوَاءٌ أَسْرَرْتُمْ نَجْوَاكُمْ لَصْنَعِ الْمَكِيدَةِ
 الدَّعَائِيَةِ بَغِيَةِ الصَّدِّقِ عَنْ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، أَمْ أَعْلَنْتُمْ أَقْوَالَكُمْ الْكِيدِيَّةَ،
 فَإِنَّ رَبِّي الَّذِي أَرْسَلَنِي يَعْلَمُ قَوْلَ كُلِّ قَائِلٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا
 يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُسْمَعُ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ.
 ٥ - بَلْ جَحَدَ الْكُفَّارُ الْقُرْآنَ، وَقَالُوا: أَبَاطِيلٌ وَأَهْوَالٌ لَا حَقِيقَةَ لَهَا،
 وَأَفْكَارٌ مُخْتَلِطَةٌ لَا نِظَامَ لَهَا، وَلَا تَرَابُطَ بَيْنَهَا، كَالْأَحْلَامِ الْمُخْتَلِطَةِ
 الَّتِي لَا تَبَيِّنُ حَقَائِقَهَا، بَلْ اخْتَلَقَهُ مُحَمَّدٌ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَادَّعَى كَذِباً
 أَنَّهُ اللَّهُ يُنْزِلُهُ عَلَيْهِ وَحِيّاً، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ كَلَامٌ يُخَيَّلُ لِلْسَّمَاعِ مَعَانِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا، فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ مَادِيَّةٍ، كَعَصَا مُوسَى، وَنَاقَةِ
 صَالِحٍ، إِنْ كَانَ صَادِقاً، كَمَا أُرْسِلَ الرُّسُلُ الْأَوَّلُونَ مُؤَيَّدِينَ بِالْآيَاتِ الْحَسِيَّةِ.
 انتقل الكفار عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليل أحلام، ثم إلى أنه كلام يفترى، ثم إلى أنه قول شاعر، وهكذا الباطل للجُلجُلِ،
 والمبطل مُتَحَيِّرٌ، غَيْرُ ثَابِتٍ عَلَى قَوْلٍ وَاحِدٍ.

٦ - مَا آمَنَتْ قَبْلَ مُشْرِكِي مَكَّةَ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ كَافِرَةٍ، أَتَتْهُمْ الْآيَاتُ كَمَا طَلَبُوا، بَلْ كَذَّبُوا، فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِهْلَاكاً اسْتِصْصَالاً، أَفِيؤْمِنُ كُفَّارُ
 مَكَّةَ إِنْ جَاءَتْهُمْ الْآيَاتُ الَّتِي طَلَبُوهَا؟
 ٧ - إِنَّا لَمْ نُزِيلِ الْمَلَايِكَةَ إِلَى الْأَوَّلِينَ، وَلَمْ نَنْزِلِ الرِّسَالَةَ الرِّبَانِيَّةَ عَلَى مَلَكٍ لَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ، وَلَا يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَتَزَوَّجُ
 النِّسَاءَ، إِنَّمَا أَرْسَلْنَا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِثْلَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -، وَإِنْ أَنْكَرْتُمْ ذَلِكَ، فَاسْأَلُوا - يَا كُفَّارُ مَكَّةَ - عِلْمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ
 الْحَافِظِينَ لِتَوَارِيخِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ السَّابِقِينَ، إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ، فَإِنَّهُمْ لَا يَنْكُرُونَ أَنَّ الرُّسُلَ كَانُوا بَشَرًا، وَإِنْ أَنْكَرُوا
 نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ.
 ٨ - وَمَا جَعَلْنَا الرُّسُلَ السَّابِقِينَ الَّذِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ قَبْلَكَ ذَوِي جَسَدٍ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، بَلْ جَعَلْنَاهُمْ مِثْلَكَ بَشَرًا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، وَمَا
 كَانُوا خَالِدِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بَلْ يَمُوتُونَ كَغَيْرِهِمْ.
 ٩ - وَبَعْدَ مُدَّةٍ إِمَهَالٍ كَافِيَةٍ لِلْكَافِرِينَ الْمُسْرِفِينَ صَدَقْنَا رِسْلَنَا الْوَعْدَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ بِإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ، فَأَنْجَيْنَاهُمْ مِنْ كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ،
 وَأَنْجَيْنَا مَنْ نَشَاءُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ صَدَّقُوهُمْ، وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ الْمُجَاوِزِينَ الْحَدَّ بِالْكَفْرِ.
 ١٠ - وَنُؤَكِّدُ لَكُمْ - يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَنَّنَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ هَذَا الْقُرْآنَ، فِيهِ شَرْفُكُمْ وَفَخْرُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنْ آمَنْتُمْ وَعَمِلْتُمْ بِهِ، وَفِيهِ
 مِنَ الْحَقَائِقِ وَالْهُدَايَةِ إِلَى سَعَادَتِكُمْ مَا يَوْجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَدَبَّرُوهُ، وَتَحْفَظُوا مَعَانِيَهُ فِي ذَاكِرَتِكُمْ، وَتَسْتَدْعُوا مِنْهَا عِنْدَ كُلِّ مَنَاسِبَةٍ مَا
 يَلَانِمُهَا، لِلْعَمَلِ بِهِ، وَالْإِهْتِدَاءِ بِهِدِيهِ. أَغْلَبَتْكُمْ أَهْوَاؤُكُمْ، وَدَوَاعٍ كِبَرُكُمْ، فَلَا تَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيّاً حَقَائِقَ هَذَا الدِّينِ، وَلَا تَعْقِلُونَ
 نَفْسَكُمْ عَقْلاً إِرَادِيّاً عَنِ إِيْتَانِ أَهْوَايَا وَشَهَوَاتِهَا وَكِبَرِهَا؟!

١١ - وعدداً كثيراً أهلكنا من مُجْمَعَات سَكْنِيَّة كَانَ أَهْلُهَا ظَالِمِينَ بكفرهم، فأهلكناهم بعذاب شامل استأصلهم جميعاً، وخلقنا ضمن نظام الإنشاء المتدرج بعد هلاكهم وقطع دابرهم بالكلية قوماً آخرين.

١٢ - فَلَمَّا عَلِمَ الْمُهْلِكُونَ عَذَابَنَا الشَّدِيدَ عَلِمَ حَسْرَةً وَمُشَاهَدَةً، وَرَأَوْا مَقْدَمَاتِهِ، إِذَا هُمْ مِنْ مُجْمَعَاتِهِمُ السَّكْنِيَّةِ يُسْرِعُونَ هَارِبِينَ طُلُباً لِلنَّجَاةِ.

١٣ - فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ اسْتَهِزَّاءٌ: لَا تَرْكُضُوا هَرَباً مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ، فَأَنْتُمْ هَالِكُونَ لَا مَخَالَةَ، وَارْجِعُوا إِلَى مَا نَعَّمْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الْهَنِيِّ، وَالنَّعْمِ الْوَافِرَةِ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ بَطْرِكُمْ وَطُغْيَانِكُمْ، فَذَلِكَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ يُسَلِّطَ عَلَيْكُمْ عِقَابَهُ، وَارْجِعُوا إِلَى مَسَاكِنِكُمْ الَّتِي شِئْتُمُوهَا وَزَخَرْتُمُوهَا، لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ غَدًا عَمَّا جَرَى عَلَيْكُمْ وَنَزَلَ بِكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ؟ وَلَنْ تُسْأَلُوا عَنْ سَبَبِ مَا نَزَلَ بِكُمْ مِنْ تَعَذُّبٍ لَكُمْ، وَتَدْمِيرٍ لِمَسَاكِنِكُمْ، لِأَنْكُمْ وَاقِعُونَ فِي قَبْضَةِ الْإِهْلَاكِ، فَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ شَيْءٍ، وَلَا تَجِيبُونَ عَلَى شَيْءٍ.

١٤، ١٥ - فَلَمَّا عَايَنُوا الْعَذَابَ، أَقْرَأُوا بِجَرَائِمِهِمْ حِينَ لَمْ يَنْفَعِهِمُ النَّدَمُ، قَالُوا: يَا هَلَاكُنَا، إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ لَأَنْفُسِنَا ظُلْماً شَدِيداً مِنْ ذَرَكَةِ الْكُفْرِ الْعَنِيدِ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ الْمَقَالَةُ - وَهِيَ الدَّعَاءُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْهَلَاكِ، وَالاعْتِرَافُ بِالظُّلْمِ - دَعْوَتُهُمْ يُرَدُّونَهَا، يَسْتَغْفِرُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَرْفَعَهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ، حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ فِي الْهَلَاكِ وَالِاسْتِصْغَالِ مِثْلَ الزَّرْعِ الْمَحْصُودِ، خَامِدِينَ لَا حَيَاةَ فِيهِمْ كَخَمُودِ النَّارِ إِذَا طَفَّتْ.

١٦ - وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْبَدِيعَةِ الصُّنْعِ، الْمُحْكَمَةِ التَّدْبِيرِ، لِأَعْيُنٍ دُونَ هَدَفٍ نَقْصَدُهُ، بَلْ خَلَقْنَاهُمْ لِلتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِهِمَا، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْمَنَافِعِ الَّتِي لَا تُحْصَى.

١٧ - لَوْ أَرَدْنَا بِعَظَمَتِنَا وَجَلَالِنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًّا مَا نُلْهِى بِهِ، لَمَا اتَّخَذْنَاهُ مِنْ عِبَادٍ يَفْرَحُونَ وَيَحْزَنُونَ، وَيَتَأَلَّمُونَ وَيُسْرُونَ، إِلَى سَائِرِ الْمَشَاعِرِ الْمُتَضَادَّةِ، بَلْ لَوْ شِئْنَا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ لَا أَحَاسِيسَ لَهَا وَلَا

مَشَاعِرَ وَلَا حَيَاةَ، فَكَيْفَ تَغْفِلُونَ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ؟ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ عَلَى سَبِيلِ الْإِفْتِرَاضِ الْإِحْتِمَالِيِّ الَّذِي تَنْتَزِعُهُ عَنْهُ، وَلَا نَفْعُهُ.

١٨ - دَعَا ذَلِكَ الَّذِي قَالُوهُ فَإِنَّهُ كَذِبٌ وَبَاطِلٌ، وَمَنْ سُئِنَا أَنْ نَرْمِيَ بِالْحَقِّ الْفِكْرِي، وَنُوجِّهَ أَذْلَتَهُ ضِدَّ الْبَاطِلِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي يَجَادِلُ بِهِ الْمُبْطِلُونَ، فَيَصِيبُ دِمَاغَهُ، فَيَمْنَحُهُ وَيُهْلِكُهُ، فَإِذَا الْبَاطِلُ ذَاهِبٌ هَالِكٌ بِسُرْعَةٍ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ ثَبَاتٌ أَوْ قُدْرَةٌ عَلَى الْمَقَاوِمَةِ، وَلَكُمْ - يَا مَعْشَرَ الْكُفَّارِ - الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ مِنْ أَجْلِ مَا تَصِفُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ.

١٩، ٢٠ - وَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ مِنْهُ، لَا يَتَكَبَّرُونَ مُتَمَتِّعِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَلَا يَتَعَبُونَ وَلَا يَمْلُونَ. يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيُزْهِوْنَهُ دَائِماً، لَا يَضَعُفُونَ، وَلَا يَسْكُنُ نَشَاطُهُمْ بِفَتْوَرٍ يَعْزِضُ لَهُمْ عَنْ تَتَزِيهِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَطَاعَتِهِ.

٢١ - إِضْرَاباً عَنْ مَقَالَاتِ الْمُشْرِكِينَ السَّابِقَةِ، وَعَنْ مَوَاقِفِهِمُ الضَّالَّةِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ؛ أَتَتَّخِذُ الْمُشْرِكُونَ أَصْنَاماً مِنْ أَجْزَاءِ الْأَرْضِ؟ أَهَمْ يَبْعَثُونَ الْأَمْوَاتَ مِنْ قُبُورِهِمْ؟ لَا، وَلَا يَكُونُ إِلَهاً إِلَّا مَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى.

٢٢ - لَوْ كَانَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ آلِهَةٌ حَقِيقِيَّةٌ غَيْرُ اللَّهِ، تُدَبِّرُ شُؤْنَهُمَا، لَخَرَجْنَا عَنْ نِظَامِهِمَا، وَلا خْتَلَّ تَمَاسُكُهُمَا، وَهَلَكَ مَنْ فِيهِمَا؛ لِأَنَّ الْإِرَادَاتِ الْحَرَّةَ إِذَا تَوَجَّهَتْ شَطْرَ مَخْلُوقٍ، فَلَا بَدَّ أَنْ تَتَعَاضَّضَ، وَمَتَى تَعَارَضَتْ تَنَازَعَتْ، وَمَتَى تَنَازَعَتْ فَسَدَ نِظَامُ الْمَخْلُوقِ، وَالْكُونُ كُلُّهُ مَخْلُوقٌ مُتَرَابِطٌ بِوَحْدَةِ نِظَامٍ وَتَسْيِيرٍ كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ، فَلَوْ كَانَ فِيهِ آلِهَةٌ أَرْبَابٌ غَيْرُ اللَّهِ لَفَسَدَ نِظَامُهُ، وَخْتَلَّ بَقَاؤُهُ، فَتَنَزَّهَ اللَّهُ خَالِقُ الْعَرْشِ؛ أَعْظَمَ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَكْبَرَهَا عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ وَكُلِّ نَقْصٍ.

٢٣ - لَا أَحَدٌ يَسْأَلُ اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَفْعَلُهُ وَيَقْضِيهِ فِي خَلْقِهِ مُحَاسَباً لَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ وَاخْتِيَارَاتِهِ، لِأَنَّهُ الرَّبُّ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَكُلُّ أَعْمَالِهِ حَكِيمَةٌ مُطَابِقَةٌ لِلْعَدْلِ أَوْ الْفَضْلِ، وَكُلُّ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحَرَّةِ يُسْأَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، وَيُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا.

٢٤ - إِضْرَاباً عَنْ اتِّخَاذِ الْمُشْرِكِينَ آلِهَةً أَرْبَاباً، أَتَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً تَنْفَعُ وَتَضُرُّ وَتُحْيِي وَتُمِيتُ؟ قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَمْرَكُمْ بِعِبَادَةِ آلِهَتِكُمْ فِي كِتَابٍ مُنْزَلٍ أَوْ أَذِنَ لَكُمْ بِهِ، هَذَا الْقُرْآنُ فِيهِ خَيْرٌ مِنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ يَشْعُنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَخَيْرٌ مِنْ قَبْلِي مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَمَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يَفْعَلُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، فَهَلْ فِي كِتَابٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الصَّحِيحَةِ النَّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَمْرٌ أَوْ أَذِنَ بِعِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِهِ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَحْبُونَ أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ، فَهُمْ مُعْرِضُونَ لَا يَرِيدُونَ اسْتِمَاعَ بُرَاهِينِ الْحَقِّ.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرَةٍ كَانَتْ ظِلْمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً
آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا رُكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُشْعَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يُونُسُ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ
دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًّا
لَا تَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ
عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِنْ عِنْدِهِ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ
﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ
وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

٢٥ - وما أرسلنا من قبلك - يا رسول الله - من رسول إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ يُعْبَدُ بِحَقِّ إِلَّا أَنَا، فَوَحَّدُونِي وَأَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِي.

٢٦ - وقال المشركون: اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا بَزَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، تَنْزَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا قَالُوا، بَلِ الْمَلَائِكَةُ عِبَادُ اللَّهِ مُنْزَهُونَ بِمَا فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَنِ الْمَعَاصِي وَعَنِ مَخَالَفَةِ أَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ، وَلَهُمْ مَرَاتِبُ وَمَنَازِلُ رَفِيعَةٌ عِنْدَ اللَّهِ.

٢٧ - لَا يَتَقَدَّمُونَهُ بِالْقَوْلِ، فَلَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا بِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ، لَا يُخَالِفُونَهُ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا.

٢٨ - يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ كُلَّ شَيْءٍ سَبَقَ أَنْ عَمَلُوهُ، وَهُوَ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ سَيَعْمَلُونَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ لَا يَعْلَمُونَهُ، وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا بِإِذْنِهِ لِمَنْ ارْتَضَى اللَّهُ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُ، وَهُمْ مِنْ شِدَّةِ شُعُورِهِمْ بِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَقُدْرَتِهِ يَخْشَوْنَهُ خَشْيَةَ الْمُجَلِّ الْمُعْظَمِ الْمُحِبِّ الْخَاضِعِ الدَّلِيلِ، وَهُمْ مُشْفِقُونَ مِنْ سَطَوْتِهِ وَبَطْشِهِ، فَلَا يَحِيدُونَ عَنْ طَاعَتِهِ مَقْدَارَ شُعْرَةٍ.

٢٩ - وَمَنْ يَقُلْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْمُنْحَطُّ فِي دَرَكَاتِ الْإِثْمِ، نَجْزِيهِ عَذَابًا فِي جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا، كَذَلِكَ الْجَزَاءُ الْأَلِيمَ نَجْزِي كُلَّ الظَّالِمِينَ الْوَاضِعِينَ الْإِلَهِيَّةَ وَالْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا.

٣٠ - أَعْمَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عِلْمَاءِ الْكَوْنِيَّاتِ وَلَمْ يَرَوْا رُؤْيَا فِكْرِيَّةٍ تُشَبِّهُ الرُّؤْيَا الْبَصَرِيَّةَ، أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا كِتْلَةً وَاحِدَةً مُجْتَمِعَةً، لَيْسَ بَيْنَهُمَا انْفِصَالٌ، فَقَسَمْنَاهُمَا إِلَى سَبْعِ سَمَوَاتٍ وَمَجَرَّاتٍ كَثِيرَاتٍ فِيهَا بِلَايِينَ النُّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ، وَمِنْهَا الْأَرْضُ، وَأَنْزَلْنَا الْمَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَخْرَجْنَا النَّبَاتَ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَحْيَيْنَا بِالْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّايِعِ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، أَفَلَا يُصَدِّقُونَ بِمَا يُشَاهَدُونَ؟

٣١ - وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ جِبَالًا ثَوَابِتَ؛ مَنَعَ أَنْ تَحْرُكَ بِهِمْ، وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ طُرُقًا وَمَسَالِكَ وَاسِعَةً بَيْنَ الْجِبَالِ؛ رَغْبَةً أَنْ يَهْتَدُوا إِلَى مَقَاصِدِهِمْ.

٣٢ - وَجَعَلْنَا الْغُلَافَ الْغَازِيَّ حَوْلَ الْأَرْضِ سَقْفًا مُحْفُوظًا مِمَّا يُفْسِدُهُ وَيُغَيِّرُ نِظَامَهُ، وَهُوَ حَافِظٌ لِلْأَرْضِ مِنْ أَشْعَةٍ ضَارَّةٍ تَأْتِي مِنَ الشَّمْسِ وَغَيْرِهَا مِنَ النُّجُومِ، وَحَافِظٌ لَهَا مِنَ الْأَجْرَامِ الَّتِي تَنْجَذِبُ إِلَيْهَا، إِذْ تَنْجَزُّ وَتَتَلَاشَى، وَالَّذِينَ كَفَرُوا مُعْرَضُونَ عَنِ الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ، لَا يَتَفَكَّرُونَ وَلَا يَعْتَبِرُونَ.

٣٣ - وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ؛ لَتَسْكُنُوا فِيهِ، وَالنَّهَارَ؛ لَتَتَصَرَّفُوا فِيهِ، وَخَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ مِنْهُمَا يَجْرِي فِي مَدَارِهِ، وَيَسِيرُ بِسُرْعَةٍ كَالسَّابِجِ فِي الْمَاءِ، دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضَا لِخِلَلٍ يُخْرِجُهُمَا عَنِ النِّظَامِ الْمُقَدَّرِ لِهَما.

٣٤ - وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - الدَّوَامَ وَالْبَقَاءَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَفَلَنْ مِتَّ أَنْتَ عَقِبَ انْتِهَاءِ أَجَلِكَ الْمَقْدَرُ لَكَ، أَفَبَقِيَ فِي الدُّنْيَا هَؤُلَاءِ الشَّامِتُونَ بِمَوْتِكَ؟

٣٥ - كُلُّ نَفْسٍ مَخْلُوقَةٌ ذَاتِقَةٌ طَعَمَ الْمَوْتَ بِالْفَضْلِ الْكُلِّيِّ بَيْنَ الرُّوحِ الْمُمَدَّةِ بِالْحَيَاةِ، وَبَيْنَ النَّفْسِ الَّتِي تَجْتَمِعُ فِيهَا خِصَائِصُ الْكَائِنِ الْقَابِلِ لِلْحَيَاةِ، وَنَحْتَبِرُكُمْ بِالْمَصَائِبِ وَالْمُؤَلِّمَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَالتَّعَمُّ وَالْأُمُورِ السَّارَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ؛ لِنَمْتَحِنَ إِرَادَاتِكُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَمَنْ اجْتَنَزَ الْإِبْتِلَاءَ بِنَجَاحٍ كَانَتِ الْمَصَائِبُ وَالْمُؤَلِّمَاتِ الدُّنْيَوِيَّةُ سَبَبَ خَيْرٍ كَبِيرٍ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ تَجَاوَزَ حُدُودَ اللَّهِ، وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَمْ تَنْفَعِهِ النَّعْمُ وَالْخَيْرَاتُ الْكَثِيرَاتُ الَّتِي تَمْتَعُ بِهَا فِي دُنْيَاهُ، بَلْ تَكُونُ عَلَيْهِ وَبَالًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِلَيْنَا وَحْدَنَا تُرْجَعُونَ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلُ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِذُ الْجَزَاءِ.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْخِفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَأِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّارَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَما جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

٣٦ - وإذا رآك - يا رسول الله - أئمة الكفر، ما يتخذونك إلا سُخْرِيًا، قائلين لأتباعهم: هذا الذي يعيب آلهتكم التي تعبدونها بتقبيحها وغيبها وبيان عجزها وضعفها؟ والحال أنهم بالذكر المنزل من الرحمن هم جاحدون لا يُصدّقون.

٣٧ - خُلِقَ الإنسان مجبولاً مطبوعاً على العَجَلَة والتسرع وقلة التأني والتثبت، يستعجل الأشياء قبل وقتها، وقد تكون مُضِرَّة به، ومن ذلك: استعجال المشركين العذاب الذي أوعدوا به، سأريكم - أيها المشركون - آياتي الجزائية: المُعْجَل منها في الدنيا، والمُؤْجَل منها إلى يوم الدين، فلا تطلبوا العذاب قبل وقته.

٣٨ - ويقول المشركون غُلُوًّا في تكذيبهم للرسول وللمؤمنين: في أي زمن يتحقّق هذا الوعد إن كان ما تخبرون به خبراً صادقاً؟ أخبرونا إن كنتم صادقين؟!

٣٩ - لو يعلم الذين كفروا ما سوف يحصل لهم يوم الدين، حين يُلقَوْنَ في النار، فلا يستطيعون أن يدفعوا عن وجوههم لهب النار، ولا عن ظهورهم السَّيَاط، ولا يجدون ناصرًا ينصرهم من عذاب الله. لو علموا ما يلاقونه لما أقاموا على كفرهم، ولما استعجلوا بالعذاب، وقالوا: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟

٤٠ - بل تأنيهم الساعة الموعودون بها وبعذابها فجأة من غير شعور بمجيئها، فتُحْرِقُهم وتدهشهم، فلا يستطيعون صرفها ودفعها عنهم، ولا هم يُملِهُون للتوبة والمعذرة.

٤١ - ونؤكد لك تأكيداً شديداً أنه استهزى برسول كثيرين من قبلك - يا رسول الله - كما استهزأ بك قومك، فَتَزَلَّ وأحاط بالمستهزئين عقوبة استهزائهم الأليم المُهلِك، فكَذَلِكَ يحق بهؤلاء المستهزئين وبأل استهزائهم، وكيفيك شرهم وكيدهم.

٤٢ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المُستعجلين بالعذاب: مَنْ يحفظُكم ويحرسكم بالليل إذا نمت، وبالنهار إذا انصرفت في معاشكم، ومَنْ يمنعكم من عذاب الرَّحْمَنِ إن أتاكم ليلاً أو نهاراً؟ لكنهم لا يبالون بأن يجيبوا عن هذا السؤال، بل هم عن ذكر خالقهم ورازقهم ومُمدِّهم بعباءات ربوبيته مُعرضون دوماً لا يتأملون في شيء من آيات القرآن.

٤٣ - إضراباً عن إعراض المشركين عن آيات القرآن الذي فيه شرفهم وعزهم، والذي يجب أن يكون ذكراً يتفهّمون معانيه ويتدبرونه؛ أَلِلْمُشْرِكِينَ المُستعجلين بالعذاب أَلَهَةً من دون ربوبيتنا المُهيمنة على كل شيء تمنعهم من عذابنا؟ إن آلهتهم المزعومة لا يُقدِّرون على نصر أنفسهم منا، فكيف يُنصِّرون مَنْ عَدَّاهُمْ؟ ولا هم منا بمصحبين بالنصر والتأييد، فهم في غاية العجز.

٤٤ - بل مُتَعَنَّا هؤلاء الكفار وآباءهم بما أنعمنا عليهم في الحياة الدنيا، حتى امتدَّ بهم الزمن، فاغترُّوا بما أنعمنا عليهم، واستمروا على كفرهم، وظنُّوا أنهم سيستمرُّون في عافية، وسيبقى لهم واقع التفوق على الرسول وعلى المؤمنين في الأموال والقوة القتالية. أما زال المؤهلون لإدراك حكمتنا في الإمهال، وإطالة الأجل غارقين في غفلاتهم، فلا يَرَوْنَ أننا نأتي الأرض اليابسة من أطرافها الملاصقة للبحار، فنضربها بأموج البحار، وحركة المدّ والجزر في أزمان طويلة، فننقص الأرض اليابسة من أطرافها.

أفبعد هذا التقدير المُقْضِي مَتَا يتصوّر الكفرة المشركون أن يكونوا هم الغالبين لرسولنا وللمسلمين؟! إنهم واهمون مغرورون جاهلون بسُنَّتِنا في كوننا.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِبْرَاهِيمَ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ
هُمْ كَفُورُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ
آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ
لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهمُ النَّارِ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصِّرونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى
بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِآيَاتِي وَالنَّهَارِ مِنْ
الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
هُمْ أَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَعْنَا هَؤُلَاءِ
وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

٤٥ - قل لهم - يا رسول الله -: ما أَخَوْفُكُمْ إِلَّا بِالوَحْيِ الَّذِي يُوحِيهِ اللَّهُ إِلَيَّ، لَا مِنْ قَبْلِ نَفْسِي، وَلَا يَسْمَعُ نِدَائِكَ وَدَعَاكَ الْكَفَّارُ الْمَصَابُونَ بِدَاءِ الصُّمِّ إِذَا مَا يُخَوِّفُونَ بِعَذَابِ اللَّهِ؛ إِذْ هُمْ مَفْتُونُونَ بِمَتَاعَاتِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا.

٤٦ - وأقسم لئن مسَّ الكفار نَفْحَةٌ خَفِيفَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ الَّذِي كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَهُ اسْتِهْزَاءً، لَيَقُولُنَّ عِنْدَمَا يَمْسُهُمْ أَقْلٌ شَيْءٌ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: يَا هَلَاكُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ بِالْإِشْرَاقِ وَتَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ، فَيَعْتَرِفُونَ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ الْاعْتِرَافُ.

٤٧ - وَنُحْضِرُ الْمَوَازِينَ الْعَادِلَةَ لِأَهْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ فِي الدُّنْيَا، فَلَا تُبْخَسُ نَفْسٌ مِمَّا لَهَا وَمَا عَلَيْهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ شَيْئاً، فَلَا يُنْقَصُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِ شَيْءٌ مَا، وَلَا يُزَادُ فِي إِسَاءَةِ الْمُسِيءِ شَيْءٌ مَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْعَمَلُ مِقْدَارَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَحْضَرْنَا لَهَا لُجَازِيَّ بِهَا، وَكَفَى بِنَا عَادِينَ وَمُخْصِنِينَ، وَمُقَدِّرِينَ لِكُلِّ شَيْءٍ كَبِيراً كَانَ أَمْ صَغِيراً.

٤٨ - وأقسم مُؤَكِّداً لَكُمْ أَنَّنَا آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ كِتَابَ التَّوْرَةِ الْمُرْفُوقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَضِيَاءٍ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي ظِلْمَاتِ الْجَهْلِ وَالْعَوَايَةِ، وَيُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى سَبِيلِ النِّجَاةِ، وَذِكْرٍ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَذَابِ اللَّهِ وَقَايَةً، وَيَتَفَهَّمُونَ مَعَانِيَ الْكِتَابِ وَيَتَدَبَّرُونَهَا، لِلْعَمَلِ بِهَا طَاعَةً لِلَّهِ، وَسَعياً لِنَيْلِ رِضْوَانِهِ.

٤٩ - الْمُتَّقُونَ هُمُ الَّذِينَ يَخَافُونَ عِقَابَ رَبِّهِمْ، وَهُوَ غَيْبٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَوَاسِهِمْ، وَخَوْفُهُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مَزْجٌ بِإِجْلَالِهِ وَإِعْظَامِهِ وَحُبِّهِ، وَهُمْ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ خَائِفُونَ حَزِرُونَ.

٥٠ - كَمَا آتَيْنَا مُوسَى التَّوْرَةَ، فَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ عَلَى رَسُولِنَا مُحَمَّدٍ ذِكْراً يَجِبُ أَنْ تَتَفَهَّمُوا مَعَانِيهِ، وَتَذْكُرُوا مِنْهَا فِي كُلِّ مَنَاسِبَةٍ مَا يُلَاقِيهَا لِلْعَمَلِ بِهَا طَاعَةً لَنَا، وَسَعياً لِنَيْلِ رِضْوَانِنَا، وَهُوَ ذُو بَرَكَةٍ جَدّاً فِكْرِيَّةً وَنَفْسِيَّةً وَشَفَائِيَّةً، أَمَا زَلْتُمْ - أَيُّهَا الْكَافِرَةُ - عَلَى ضَلَالِكُمْ

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْسَأُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَؤُمْ بِمَدِينٍ ﴿٥٧﴾

زائدة على ما اشتمل عليه كتاب التوراة، ذو خيرات كثيرات القديم، فأنتم تنكرون القرآن، وتكذبون الرسول المبلغ له؟

٥١ - وأقسم مُؤَكِّداً لَكُمْ أَنَّنَا آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ هِدَايَتَهُ الْكَامِلَةَ إِلَى وَجْهِ الصَّلَاحِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مِنْ قَبْلِ إِسْرَافِ مُحَمَّدٍ وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْهَدَايَةِ وَالنُّبُوَّةِ.

٥٢ - حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَا حَقِيقَةُ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي أَنْتُمْ مُلَازِمُونَ لَهَا مُقِيمُونَ عَلَى عِبَادَتِهَا، وَأَنْتُمْ قَدْ صَنَعْتُمُوهَا بِأَيْدِيكُمْ؟

٥٣ - قَالُوا: نَحْنُ نَعْبُدُهَا تَقْلِيداً لِآبَائِنَا، إِذْ وَجَدْنَاهُمْ لَهَا عَابِدِينَ.

٥٤ - قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ بِعِبَادَتِكُمْ لِآبَائِنَا فِي خَطَأٍ ظَاهِرٍ وَضَيَّاعٍ عَنِ الْحَقِّ وَاضِحٍ جَلِيِّ.

٥٥ - قَالُوا: أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ فِي قَوْلِكَ هَذَا، أَمْ أَنْتَ لَاعِبٌ مَازِحٌ فِيمَا تَقُولُ؟

٥٦ - قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: أَنَا لَسْتُ مِنَ اللَّاعِبِينَ، بَلْ خَالِقُكُمْ وَرَازِقُكُمْ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَدْعُوهُ وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ هُوَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ابْتِدَاءً، وَأَبْدَعَهُنَّ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبْقٍ، وَأَنَا عَلَى الَّذِي قُلْتُهُ مِنَ الشَّاهِدِينَ شَهِودٌ فِكْرِيٌّ مَقْرُونٌ بِالْحُجَجِ الْبَرَهَانِيَّةِ، وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ الَّذِينَ يَعلنون شَهَادَتَهُمْ بِهِ، شَهَادَةً بِاللِّسَانِ مُطَابِقَةً لِمَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ إِيمَانٍ رَاسِخٍ الْأَرْكَانِ، ثَابِتٍ الْبَنَانِ.

٥٧ - وَأَقْسَمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ دُونَ أَنْ يُسْمِعَهُمْ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ: تَاللَّهِ، لِأَدْبُرَنَّ التَّدْبِيرَ الَّذِي فِيهِ مَكْرُوهُ بِأَصْنَامِكُمْ بَعْدَ ذَهَابِكُمْ عَنْهَا مُنْطَلِقِينَ إِلَى عَيْدِكُمْ، وَكَانَ لَهُمْ عَيْدٌ فِي كُلِّ سَنَةٍ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، فَدَعَا إِلَى الْخُرُوجِ مَعَهُمْ، فَلَمْ يَخْرُجْ قَائِلاً: «إِنِّي سَقِيمٌ».

٥٨ - فحطّم إبراهيم الأصنام بعد ذهابهم إلى مجتمعهم في يوم عيد لهم، وجعلهم كسراً وقطعاً، إلا صنماً كبيراً لهم تركه ولم يكسره، ووضع الفأس في عنقه؛ رغبة في أن يرجعوا إلى إبراهيم وما يدعوه إلى إذا علموا ضعف الآلهة وعجزها.

٥٩ - فلما رجع القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم، رأوا أصنامهم مكسرةً مُحطمةً، إلا صنماً كبيراً فيها، قالوا: مَنْ فعل هذا بالآلهتنا؟ إنه في تكسيرها واجترائه عليها لمن المتجاوزين حدود الحق الذي يؤمن قوماً به.

٦٠ - قال بعضهم لبعض: سمعنا شاباً فتى يعيبهم ويسبهم، يقال له: إبراهيم، نظن أنه صنع هذا.

٦١ - قال رؤساؤهم: فأتوا به ظاهراً بمرأى من الناس؛ ليشهدوا مُساءلتنا له، وما نحكم به عليه، إذا ثبت أنه هو الذي حطّم أصنامنا.

٦٢ - فلما أتوا بإبراهيم، وأحضره أمام جمع حاشد في معبد أصنامهم، قالوا له: أأنّت فعلت هذا التحطيم والتكسير بالآلهتنا من الأصنام يا إبراهيم؟!

٦٣ - قال إبراهيم مُتهكماً بهم؛ ليلزمهم بالحجة العملية، ويظهر لهم أن أصنامهم لا تستطيع أن تنتصر لنفسها، فضلاً عن أن تنصرهم: لم أفعله أنا، بل فعله كبيرهم هذا، فقد غضب إذ تعبدون معه هذه الأصنام الصغار، وهو أكبر منها، فكسرهن، فاسألوا آلهتكم المزعومة حتى يُخبروا بمن فعل ذلك بهم، إن كانوا يتكلمون.

٦٤ - فرجعوا إلى عمق أنفسهم يحاكمونها، فقالوا: ما نراه إلا كما قال، إنكم أنتم الظالمون بعبادتكم هذه الأوثان القابلة للتحطيم والتكسير دون أن تستطيع الدفاع عن نفسها.

٦٥ - لكنهم بعد ذلك رجعت إليهم عوامل كبرهم، وحميتهم الجاهلية القائمة على الولاء للأباء والأجداد، فانقلبت مفاهيمهم، فنكسوا على رؤوسهم؛ إذ صار أعلاهم وهو موضع جهاز العلم فيهم في موضع أقدامهم، فأخذوا في المجادلة بالباطل، وقالوا لإبراهيم: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، فكيف تطلب منا أن نسألهم عمّن حطّمهم؟!

٦٦، ٦٧ - قال لهم إبراهيم: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً إن عبدتموه، ولا يضرّكم شيئاً إن تركتم عبادته؟ «أف» أوجّهها لكم ولما تعبدون من دون الله، فقد أضجرتُموني من قذارة أعمالكم، وحقارة أصنامكم التي تعبدونها من دون الله، أنظمت بصائرکم، وذابت عقولکم، فأنتم لا تعقلون، لا عقلاً علمياً، ولا عقلاً إرادياً؟

٦٨ - فلما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب، وبلغ الغضب من قومه مبلغه الأقصى، قال بعضهم لبعض: حرقوا إبراهيم، وأنصروا آلهتكم التي حطّمها ظلماً وعدواناً، إن كنتم عازمين على أن تعاقبوه معاقبة رادة لكل من يخالف دينكم، وتُسوّل له نفسه أن يفعل مثلما فعل إبراهيم.

٦٩، ٧٠ - فأشعلوا ناراً عظيمةً، فألقوه فيها، فقال الله عز وجل للثار: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، فنزع الله عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحرّ والإحراق، ولم يئنله منها أذى. وأراد كبراء قومه أن يُنزلوا به كيداً، فأبطل الله كيدهم، ولم يحصل لهم مرادهم، وجعلنا الذين دبّروا له كيد الحريق هم الأخسرين، إذ أخذت مشاعر جماهير قومه تعتقد بطلان الشرك، وفساد عبادة الأوثان.

٧١ - ونَجّينا إبراهيم وابن أخيه لوطاً من نمرود وقومه في العراق، وأخرجناهما إلى أرض الشّام التي باركنا فيها بكثرة الأنبياء، وزيادة الخيرات المادية والمعنوية.

٧٢ - وَهَبْنَا لإبراهيم، بعد إسماعيل من الأمة المصرية «هاجر»، ابنة إسحاق من زوجته «سارة» العجوز العقيم بخارقة ربّانية استجابة لدعائه، وزدناه على ما سأل ولد الولد: يعقوب بن إسحاق، عطيةً من عطاءنا، وجعلنا كلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنبياء في أعلى درجات الصالحين.

فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كِبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
 ٥٨ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ
 قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ٥٩ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ
 عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ٦٠ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ
 هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ٦١ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ
 هَذَا فَاسْتَأْذِنُوا إِنْ كَانُوا بِطِقُوكَ ٦٢ فَارْجِعُوا إِلَى
 أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ٦٣ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى
 رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ٦٤ قَالَ
 أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
 يَضُرُّكُمْ ٦٥ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ٦٦ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 فَاعِلِينَ ٦٧ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ٦٨
 وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ٦٩ وَنَجَّيْنَاهُ
 وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ٧٠ وَوَهَبْنَا
 لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ٧١

٧٣ - وجعلنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب قُدوةً يُهتدى بهم في الخير والصلاح، وأئمةً يُؤْتَمُّ بهم؛ إذ جعلناهم رسلاً يدعون الناس إلى عبادتنا وطاعتنا بأمرنا، وأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ مَنْ عِبَادِهِ أَنْ يَعْمَلُوهَا، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ أَيْضاً الْمُحَافَظَةَ عَلَى الصَّلَاةِ وَإِقَامَتِهَا عَلَى وَجْهِهَا، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ، فامْتثلوا أمرنا، وكانوا لعظيم ربوبيتنا وإلهيتنا مُوَحِّدِينَ مُطِيعِينَ.

٧٤ - وآتينا لوطاً النبوَّةَ وَفَضَّلَ الْقَضَاءَ بَيْنَ الْخُصُومِ، وَفَقَّهَهَا فِي الدِّينِ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ قَرْيَةِ «سُودُومَ» الَّتِي كَانَ أَهْلُهَا يَعْمَلُونَ التَّجَسَّاتِ الْقَذِيرَاتِ الَّتِي فِيهَا ضَرَّرَ لَهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ وَنَفْسِهِمْ وَدِينِهِمْ، وَيَأْتُونَ الذَّكُورَ فِي أَدْبَارِهِمْ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ فُسَادٍ وَفِعْلٍ مَكْرُوهٍ، خَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِكُفْرِهِمْ وَخِيَاثَتِهِمْ.

٧٥ - وأدخلناه في رحمتنا، فهو مَشْمُولٌ بِهَا، وَمِنْ آثَارِ رَحْمَتِنَا: إِنْجَاؤُهُ مِمَّا حُلَّ بِقَوْمِهِ فِي الدُّنْيَا، وَإِدْخَالُهُ جَنَّاتِنَا فِي الْآخِرَةِ؛ إِنَّهُ مِنَ الْكَامِلِينَ فِي الصَّلَاحِ.

٧٦ - وَضَعْنَا فِي ذَاكِرَتِكَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِبَيَانِنَا - نُوحاً حِينَ نَادَى رَبَّهُ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَلُوطَ، فَأَجَبْنَاهُ دَعَاءَهُ، فَتَجَبَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنَ الْغَمِّ الْعَظِيمِ.

٧٧ - وَنَصَرْنَاهُ مُنْتَقِمِينَ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْمُنْزَلَةِ عَلَيْهِ، الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ فُسَادٍ وَشُرٍّ وَاثِمٍ وَطُغْيَانٍ، فَأَغْرَقْنَاهُمْ بِالطُّوفَانِ أَجْمَعِينَ.

٧٨ - وَضَعْنَا فِي ذَاكِرَتِكَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي - قِصَّةَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ وَابْنِهِ سُلَيْمَانَ، الَّتِي كَانَتْ وَقْتُ حُكْمِهِمَا فِي زَرْعٍ حِينَ دَخَلَتْ فِيهِ غَنَمُ قَوْمٍ، وَانْتَشَرَتْ فِيهِ لَيْلًا دُونَ رَاغٍ، فَاتْلَفَتِ الزَّرْعَ، وَأَفْسَدَتْهُ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَحَكَّمَ دَاوُدُ بِأَنْ تَكُونَ الْغَنَمُ لِصَاحِبِ الزَّرْعِ مُلْكاً لَهُ بِقِيَمَةِ الزَّرْعِ الَّتِي أَتْلَفَتْهُ، وَكُنَّا لِحُكْمِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَى عِلْمٍ وَمَرَأَى مَثَا،

وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا أَنْبَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَى إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَاسْلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾

لم يغب عنا.

٧٩ - فَهَمَّنا سُلَيْمَانَ وَالْهَمَّنا حُكْمَ الْقَضِيَّةِ الْأَقْرَبِ لِكَمَالِ الْعَدْلِ، فَحَكَّمَ عَلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ بِإِصْلَاحِ الزَّرْعِ التَّالِفِ فِي فِتْرَةٍ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا صَاحِبُ الزَّرْعِ بِمَنَافِعِ الْغَنَمِ مِنْ لَبَنٍ وَصُوفٍ، ثُمَّ تَعُودُ الْغَنَمُ إِلَى صَاحِبِهَا، وَالزَّرْعُ إِلَى صَاحِبِهِ؛ لِمَسَاوَةِ قِيَمَةِ مَا تَلَفَ مِنَ الزَّرْعِ لِمَنْفَعَةِ الْغَنَمِ، وَكُلًّا مِنْ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا بِوُجُوهِ الْاجْتِهَادِ وَطُرُقِ الْأَحْكَامِ وَحُسْنِ الْإِدَارَةِ، وَذَلَّلْنَا وَفَّقَ قَانُونَ التَّكْوِينِ الْجَبْرِيِّ، مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ مَعَهُ إِذَا سَبَّحَ، وَكَذَلِكَ تُسَبِّحُ الطَّيْرُ، وَكُنَّا قَادِرِينَ عَلَى تَنْفِيزِ مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّرْنَاهُ وَقَضَيْنَاهُ بِالْأَمْرِ التَّكْوِينِيِّ، فَتَحَقَّقَ فِي الْوَاقِعِ عَلَى وَفْقِ سَابِقِ التَّقْدِيرِ وَالْقَضَاءِ.

وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا اِحْتِمَالَ تَعَرُّضِ قَضِيَّةٍ لِصُورَتَيْنِ مِنْ وَسَائِلِ تَحْقِيقِ الْحَقِّ، إِلَّا أَنَّ إِحْدَاهُمَا أَحْسَنُ مِنَ الْأُخْرَى، وَقَدْ أَتَى اللَّهُ تَعَالَى سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَهَمَّا أَكْثَرُ دَقَّةً، وَفَتَحَ عَلَيْهِ بِأَنْ يَقْضِيَ بِحُكْمِ أَحْسَنٍ مِنْ حُكْمِ أُيْبِهِ. لَقَدْ نَظَرَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى صَاحِبِ الْغَنَمِ، فَرَأَى أَنَّهُ سَيَخْسُرُ كُلَّ مَالِهِ، وَلَا يَبْقَى لَدَيْهِ شَيْءٌ، مَعَ أَنَّ بِالْإِمْكَانِ تَكْلِيفُهُ تَسْدِيدَ الْحَقِّ، مَعَ الرِّفْقِ بِهِ فِي أَنْ يَبْقَى غَنَمُهُ لَهُ مَتَى سَلَدَ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْهِ. فَكَانَ اجْتِهَادُهُ أَنْ تُسَلَّمَ الْغَنَمُ لِصَاحِبِ الْأَرْضِ يَسْتَفِيدُ مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَصْوَافِهَا، وَأَنْ تُسَلَّمَ الْأَرْضُ لِصَاحِبِ الْغَنَمِ كَيْ يَزْرَعَهَا وَيُضْلِحَهَا، فَإِذَا بَلَغَ الزَّرْعُ مِثْلَ مَا كَانَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْإِتْلَافِ تُسَلَّمَ صَاحِبُ الْأَرْضِ أَرْضَهُ، وَتُسَلَّمَ صَاحِبُ الْغَنَمِ غَنَمُهُ. إِنَّ الْحَكَمَيْنِ كِلَيْهِمَا يَقَعَانِ ضَمْنَ اِحْتِمَالَاتٍ صُورِ تَسْدِيدِ الْحَقِّ، لَكِنَّ حُكْمَ سُلَيْمَانَ عَلَى خِدَاةِ سَنَةِ، وَقِلَّةِ تَجَرُّبِهِ كَانَ أَحْسَنَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ مِنْ حُكْمِ أُيْبِهِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

٨٠ - وَعَلَّمْنَا دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَنْعَةَ الدَّرُوعِ الَّتِي تُلْبَسُ فِي الْحَرْبِ كَالثُوبِ، يَعْمَلُهَا حَلَقًا مُتَشَابِكَةً، تُسَهِّلُ حَرَكَةَ الْجِسْمِ؛ لَتَقْيُكُمْ مِنْ شُرُورِ حُرُوبِكُمْ، وَلِتَحْمِيَ أَجْسَادَكُمْ مِنْ ضَرَبَاتِ سِيُوفٍ وَرِمَاحٍ وَسَهَامٍ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ فِي الْحَرْبِ، وَابْتِغَاءَ سَلَامَتِكُمْ، فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِهَدَايَتِكُمْ إِلَى وَسَائِلِ سَلَامَتِكُمْ؟ فَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ. وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى تَعَلُّمِ أَهْلِ الْعِلْمِ الصَّنَائِعِ، وَأَنَّهَا لَا تَقْصُ مِنْ مَنَاصِبِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ زِيَادَةٌ فِي فَضْلِهِمْ، إِذْ يَحْصِلُ لَهُمُ التَّوَاضُعُ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَالِاسْتِغْنَاءُ عَنْ غَيْرِهِمْ.

٨١ - وَسَخَّرْنَا لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ، حَالَةَ كَوْنِهَا شَدِيدَةً الْهَبُوبِ، وَخَفِيفَةً بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ، تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى «بَيْتِ الْمَقْدَسِ» بِأَرْضِ الشَّامِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا بِكَثْرَةِ الْخَيْرَاتِ الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، وَقَدْ أَحَاطَ عَلَمُنَا بِكُلِّ شَيْءٍ، فَتَجْرِي الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ عِلْمُنَا.

٨٢ - وسخرنا لسليمانَ من الشياطين مَنْ يدخلون تحت الماء، فيخرجون له من قعر البحر الجواهر واللاّليء وما يشاء استخراجها منها، ويعملون عملاً دون الغوص، من اختراع الصنائع العجيبة، وبناء المحاريب والتماثيل والقصور، ونحو ذلك من أعمالٍ هي أقلُّ مشقةً من الغوص في البحار، وكُنّا بسلطاننا وقوّتنا حافظين لهم من الزبغ حتى لا يخرجوا عن أمّره، فَمَنْ أراد منهم أن يميل عن أمره نذقه من عذاب السعير.

٨٣ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقّي لبياننا - ما دَعَا به أيّوب ربّه ليرفع عنه الضّرّ الذي مسّه وطال أمدهُ فيه حين قال في دعائه لربّه مُتوجّهاً إليه بقلبه ونفسه: أَنِّي مَسْنِي الضّرر، فاكشفه عني، وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

٨٤ - فَأَجَبْنَا دَعَاءَهُ، فَأَزَلْنَا مَا بِهِ مِنْ سُوءِ الْحَالِ فِي جَسَدِهِ، وَرَفَعْنَا عَنْهُ الْبَلَاءَ، وَرَدَدْنَا عَلَيْهِ مَا فَقَدَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ، وَأَعْطَيْنَاهُ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ، فَعَلْنَا بِهِ ذَلِكَ رَحْمَةً عَظِيمَةً مِنْ عِنْدِنَا، وَلِيَكُونَ قُدْوَةً لِكُلِّ صَابِرٍ عَلَى الْبَلَاءِ، رَاجٍ رَحْمَةَ رَبِّهِ، مُنْقَادٍ لَهُ سَبْحَانَهُ بِالْعِبَادَةِ وَالتَّذَلُّلِ.

٨٥ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقّي لبياننا - إسماعيلَ وإدريسَ وَذَا الْكُفْلِ، كُلُّ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ صَبَرُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَعَنْ مَعَاصِيهِ، وَعَلَى الْمُحَنِ وَالشَّدَائِدِ، فَاسْتَحَقُّوا الذِّكْرَ بِالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ.

٨٦ - وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا الْعَظِيمَةِ، إِنَّهُمْ مِنْ زَمَرَةِ الصَّالِحِينَ الْكَامِلِينَ فِي الصَّلَاحِ. الَّذِينَ صَلَّحَتْ بَوَاطِنُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ، وَأَطَاعُوا اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَعَمَلُوا بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ.

٨٧ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقّي لكلام ربّك - «قِصَّةُ يُونُسَ

ابن مَتَّى» عَلَيْهِ السَّلَامُ، صَاحِبَ الْحَوْتِ، حِينَ انصَرَفَ عَنْ قَوْمِهِ، مُغَاضِباً لَهُمْ مِنْ أَجْلِ دِينِ رَبِّهِ، ضَاقَ صَدْرُهُ بِعَصْيَانِهِمْ، دُونَ أَنْ نَأْمُرَهُ بِفِرَاقِهِمْ، وَظَنَّ بِاجْتِهَادٍ مِنْهُ أَنْ لَنْ تُضَيَّقَ عَلَيْهِ، عِقَاباً لَهُ عَلَى تَرْكِ قَوْمِهِ مِنْ غَيْرِ أَمْرِنَا، فَابْتَلَاهُ اللَّهُ بِشِدَّةِ الضِّيقِ وَالْجَبَسِ، وَالتَّقَمُّةِ الْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ، فَنَادَى رَبَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ؛ ظِلْمَةُ اللَّيْلِ، وَظِلْمَةُ الْبَحْرِ، وَظِلْمَةُ جَوْفِ فَمِ الْحَوْتِ تَائِباً مُعْتَرِفاً بِذَنْبِهِ؛ لِتَرْكَهِ الصَّبْرَ عَلَى قَوْمِهِ، قَائِلاً: لَا إِلَهَ مَعْبُودٌ بِحَقِّ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا أَنْتَ، تَنْزَهْتَ عَنْ كُلِّ شَرِيكَ، وَعَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِرَبُّوبِيَّتِكَ وَالْهِيئَةِ، أَوْكَدَ اعْتِرَافِي بِذَنْبِي، إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً قَوْمِي الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِي، قَبْلَ أَنْ تَأْذَنَ لِي بِانصِرَافِي عَنْهُمْ.

٨٨ - فَاسْتَجَبْنَا لَهُ دَعَاءَهُ، وَخَلَّصْنَاهُ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وَقَدَّرْنَا أَنْ يَلْقَظَهُ الْحَوْتُ عَلَى الْيَابَسَةِ قَرِيباً مِنْ شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَفَعَلَ، وَمِثْلُ هَذَا التَّخْلِيسِ مِنَ الْعَمِّ تُخَلِّصُ سَائِرَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ كَامِلِي الْإِيمَانِ مِنَ الْكُرُوبِ ضَمْنِ سُنَّتِنَا فِي تَصَارِفِنَا بِعِبَادِنَا إِذَا دَعَوْنَا وَاسْتَغَاثُوا بِنَا.

٨٩ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقّي لكلام ربّك - قِصَّةَ زَكَرِيَّا حِينَ نَادَى رَبَّهُ مُتَوَجِّهاً بقلبه في دعائه، أَنْ يَرْزُقَهُ الذَّرِّيَّةَ لِمَا كَبُرَتْ سُنَّتُهُ قَائِلاً: رَبِّ لَا تَتْرُكْنِي وَحِيداً مُنْقَطِعاً لَا وَلَدَ لِي يُسَاعِدُنِي، فَارْزُقْنِي وَارثاً يَرِثُ النُّبُوَّةَ وَالْعِلْمَ الدِّينِي مِنْ بَعْدِي، وَأَنْتَ الْأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ الْخَلْقِ، وَخَيْرٌ مِنْ تَرْجُعِ كُلِّ الْأَشْيَاءِ وَالْأَحْيَاءِ إِلَى مُحَضِّ مَلَكِهِ.

٩٠ - فَاسْتَجَبْنَا لَهُ دَعَاءَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ عَلَى الْكِبَرِ مِنْ مُحَضِّ فَضْلِنَا الْوَاسِعِ، وَقَدَّرْنَا الْبَاهِرَةَ وَلِذَا ذَكَرَا سَمِيئَاهُ يَحْيَى، وَجَعَلْنَا زَوْجَهُ وَلَوْ دُونَ مَا كَانَتْ عَقِيمَةً؛ إِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ يُسَارِعُونَ فِي السَّيْرِ فِي طَرِيقِ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالنِّيَّاتِ، وَيَدْعُونَا دَوَاماً رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ، طَمَعاً فِي ثَوَابِنَا الْعَظِيمِ، وَخَوْفاً مِنْ عِقَابِنَا الْأَلِيمِ، وَكَانُوا لَنَا خَائِفِينَ مُتَذَلِّلِينَ مُتَوَاضِعِينَ لِرَبِّهِمْ، سَاكِنِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ وَصَلَوَاتِهِمْ.

وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ، وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضَّرَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سَبِّحْنَاكَ فِي كُلِّ غَدَاةٍ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ رَحْمَةً وَذَكَرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ، وَزَكَرْنَاهُ إِنَّهُمْ كَانُوا إِسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَادِعِينَ ﴿٩٠﴾

٩١ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي - لكلام ربك قصة مريم ابنة عمران التي حفظت فرجها من النكاح الحلال والحرام، فأمرنا جبريل أن ينفخ في جنب قميصها، فأخذت النفخة طريقها، فدخلت فرجها، فخلقنا بذلك النفخ، المسيح في بطنها، وجعلناها بولادتها عيسى من غير أب، وجعلنا ابنها عيسى الذي كلم الناس وهو صبي في المهد، وأجرينا له معجزات باهرات، آية عظيمة للعالمين تدل على كمال قُدرتنا، وآية على أن عيسى عبد الله ورسوله حقاً.

٩٢ - إن هذه أمتكم - أيها الأنبياء من لدن آدم حتى خاتمهم محمد ﷺ - هي أمة ربانية واحدة، وليس كل واحد منكم رسولاً لأمة خاصة، مُنفصلة عن سائر الأمم؛ فالدين عند الله الإسلام، وكل مكلف مطلوب منه أن يكون واحداً من هذه الأمة الربانية الواحدة، وعلى كل قوم جاءهم رسول أن يؤمنوا بجميع أنبياء الله ورسله، دون تفريق بين أحد منهم، وهم مطالبون بعبادته مُستسلمين لما يأمرهم به، أو ينهاهم عنه.

٩٣ - واختلف المعاندون الجاحدون في الدين، وتركوا اتباع الحق للأنبياء، وهَجَرُوا دين الله، وجعلوا لأنفسهم ولأهواء لأديانهم المُحرَفة، وتفاصلوا فيما بينهم، فصاروا فِرَقاً شتى وأحزاباً متقطعة، وكان لكل منهم أمرٌ منقطع لا صلة بينه وبين أمر الفريق الآخر، واتسعت شقة الخلاف والتفرق، حتى لَعَنَ بعضهم بعضاً، وتبرأ بعضهم من بعض، إن هذه الفرق المختلفة راجعون إلينا، فنجزهم بأعمالهم.

٩٤ - فَمَنْ يَعْمَلْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الصَّالِحَاتِ شَيْئاً، وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِمَا يَجِبُ الْإِيمَانَ بِهِ، فَلَا تُبْطَلْ سَعْيُهُ، بَلْ نَشْكُرُهُ وَنُثَبِّتُ عَلَيْهِ، وَإِنَّا لَعَمَلُهُ كَاتِبُونَ وحافظون، تكتبه الحَفَظَةُ في صحيفة عمله، ونُجَازِيهِ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ.

٩٥ - وَمُتَّعَ عَلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَجُحُودِهِمِ الْمَيْوُسِ مَعَهُ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، أَنْ لَا تُهْلِكَهُمْ ضَمَنُ سُنَّتِنَا فِي تَصَارِفِنَا بِعِبَادِنَا، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى مَسْتَوَى الْمَطْمُوعِ فِي اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ، فَحَقٌّ أَنْ تُهْلِكَهُمْ.

٩٦ - حَتَّى إِذَا فُتِحَ سُدُّ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ مَرْتَفَعٍ مِنَ الْأَرْضِ يُشْرِعُونَ النُّزُولَ، وَيَنْصُبُونَ أَنْصَاباً كَالسَّيْلِ الْمَتَدَفِّقِ؛ لِلسَّلبِ والنَّهبِ، والقتل والإفساد.

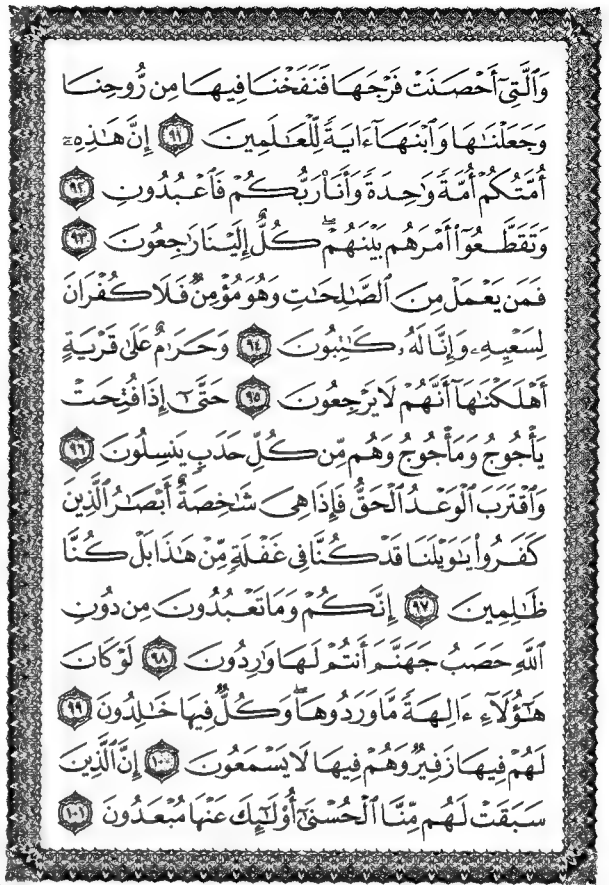
٩٧ - وَدَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبَدَتْ أَهْوَالُهُ، إِذَا أَبْصَارُ الْكُفَّارِ مَفْتُوحَةٌ، لَا تَكَادُ تَطْرِفُ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، يَقُولُونَ مُتَحَسِّرِينَ خَائِفِينَ مِنْ مَصِيرِهِمْ: يَا هَلَكْنَا قَدْ كُنَّا فِي الدُّنْيَا غَارِقِينَ فِي غَفْلَةٍ، نَافِرِينَ مِنْ أَحَادِيثِ السَّاعَةِ وَقِيَامِهَا، غَيْرَ مُصَدِّقِينَ أَخْبَارِ الْمُرْسَلِينَ، بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ فِي وَضْعِنَا الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا، وَتَكْذِيبِينَ الرُّسُلَ.

٩٨ - إِنَّكُمْ - أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ - وَالْأَصْنَامُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ حَطَبٌ جَهَنَّمِ وَوَقُودُهَا، أَنْتُمْ فِيهَا دَاخِلُونَ.

٩٩ - لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَامُ آلِهَةً حَقّاً كَمَا زَعَمْتُمْ مَا دَخَلُوا نَارَ جَهَنَّمِ مَعَكُمْ، وَكُلٌّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَصْنَامِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمِ خَالِدُونَ.

١٠٠ - لِلْمُشْرِكِينَ عِبَادُ الْأَصْنَامِ فِي نَارِ جَهَنَّمِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ زَفِيرٌ يَدْفَعُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمِ الْحَارَّةَ مِنْ رِثَاتِهِمْ حَتَّى آخِرَ مَا فِيهَا، وَشَهيقٌ يَجْذِبُونَ بِهِ السَّمُومَ الْحَارَّةَ إِلَى أَعْمَاقِ رِثَاتِهِمْ، وَهُمْ فِي النَّارِ لَا يَسْمَعُونَ مَا يُنْتَبَغُ وَتَسُرُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ، بَلْ يَسْمَعُونَ الْعَوِيلَ وَالصَّرَاحَ الَّذِي يَزِيدُ مِنْ عَذَابِهِمْ.

١٠١ - إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَجَاءَتْهُمْ الْبُشْرَى الْحُسْنَى عِنْدَ مَوْتِهِمْ، بِأَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْعَذَابِ قَبْلَ الْحِسَابِ يَوْمَ الدِّينِ، أُولَئِكَ الْفَضْلَاءُ رَفِيعُوا الْمَنْزِلَةَ عَنْ جَهَنَّمِ مُتَبَعُونَ، وَفِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ يُنْعَمُونَ.



١٠٢ - حين يكونون في جنّات الخلد يُنعمون، لا يطرق سمعهم صوت لهيب جهنم، واحترق أجساد المُعذّبين فيها؛ لئلا يتكدّروا لسماع هذه الأصوات المُزعّجة، وهم فيما اشتتهت أنفسهم من النعيم والكرامة خالدون خلوداً أبدياً.

١٠٣ - لا يحزنّهم الخوف الأكبر، حين يُطبّق على جهنّم بعد أن يُخرج الله منها مَنْ يُريد أن يُخرجه، وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة، يقولون لهم بحفاوة وتكريم: هذا يومكم العظيم الذي كنتم تُوعدون في الدنيا.

١٠٤ - لا يحزنّهم الهول العظيم في ذلك اليوم، يومَ نطوي السماء بما فيها من بلايين المجزّات طياً مثلَ طيّ الصحيفة على ما كُتب فيها، فيُضَمُّ بعضها على بعض، ونُهي نظامها القائم الآن، كما بدأناهم في بطون أمهاتهم عُراً عُراً - غير مختونين -، كذلك نُعيدهم يومَ القيامة، فمن كان قادراً على الخلق الأول، فإنه قادرٌ على أن يُعيد الخلق بعد موت الأحياء، وفناء أجسادهم، فالبدء والإعادة بالنسبة إلى قدرته العظيمة سواء، وعُذنا بذلك وعداً حقاً كائناً لا محالة، إنّنا كنا فاعلين الإعادة والبعث بعد الموت، وكلّ ما نُعدُّ به.

١٠٥ - وأقسم مُؤكّداً أننا كتبنا في كتاب الزبور الذي آتيناه داود عليه السلام من بعد التوراة التي كتبنا فيها هذا النباَ الخبريَ المُستقبليَّ أنّ الأرض المُقدّسة حول المسجد الأقصى التي كنّا قد وعدنا بها بني إسرائيل، ولما فسدوا سلّبنّاها منهم، وأورثناها عبادنا الصّالحين المؤمنين من هذه الأمة الرّبّانيّة الخاتمة الذين يعملون بأحكام شريعة الله، ويعبدونه لا يشركون بعبادته شيئاً.

١٠٦ - إنّ في هذا البيان بشأن وارثي الأرض المُقدّسة في بلاد الشام، لبلاغاً ينتفع بدلالته قومٌ مسلمون مؤمنون حريصون على أن يكونوا عابدين لرّبهم، وعندئذ يكونون مؤهلين لأن يُورثهم الله الأرض المُقدّسة في بلاد الشام.

١٠٧ - وما اصطفيناك نبياً يُوحى إليك، وما اخترناك - يا رسول الله - رسولاً للإنس والجنّ، وخاتماً للأنبياء والمرسلين إلا رحمةً للعالمين، الإنس والجنّ؛ بسبب حرصك الشديد على إنقاذهم من شقاء الدنيا، وعذاب الله يوم الدين، وعلى أن يظفروا بالنعيم الأبديّ الخالد في جنّات النعيم، وهو ﷺ رحمةً لهم لأنه يحمل لهم ويُلغهم أعظمَ دين، إذا اتّبِعوه وعملوا بما فيه ينجيهم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، ويظفهم بالسعادة الأبديّة في جنّات النعيم.

١٠٨ - قل - يا رسول الله - لمن تُبلّغهم دين الله: إنّ الذي يُوحى إليّ من ربّي الذي بعثني رسولاً للعالمين: ما إلهم الذي يستحقُّ العبادة إلاّ إله واحد، وأنتم جميعاً مدعوون إلى الإسلام، فهل أنتم متقادون لما يُوحى إليّ، بإخلاص التوحيد، والاستسلام لله سبحانه، فتعبدونه وحده ولا تشركون بعبادته شيئاً.

١٠٩ - فإنّ أدار أئمة الكفر والشرك في مكة لدعوتك ظهورهم، ولم يستجيبوا لك، فقل لهم - يا رسول الله -: لم يكن منكم بعد العلاج الطويل إلاّ الإذبار والمُشاقّة، لهذا أعلمتكم بشدّة أننا وإياكم على أمر مُستوٍ بيننا وبينكم من المقاطعة والمفاصلة، فلا تلاقي بيننا وبينكم، وما أدري أقرب أم بعيد ما تُنذرونّه من وعيد مُعجلٍ بعقاب الله لكم في الدين، ولست أنا المنذر لكم بالعقاب، وإنما المنذر لكم خالقكم، فلا تسألوني عن وقت تنفيذ هذا العقاب.

١١٠ - وقل لهم - يا رسول الله -: إنّ الله ربكم يعلم القول الذي تجهرون به، فترفعون به أصواتكم، ويعلم القول الذي تكتُمونه في نفوسكم، في تساؤلكم عن عدم تنفيذ ما أنذركم به.

١١١ - وما أدري لعلّ إمهال الله لكم وتأخير تنفيذ عقابه اختبارٌ لكم؛ ليرى الله صنيعكم، وهو أعلم بكم، وما أدري لعلّ عدم علمكم بوقت ما أنذرتكم به من العذاب متاعٌ تتمتعون به في الحياة الدنيا إلى حين انقضاء آجالكم.

١١٢ - قال النبي ﷺ: ربّ أقص بيني وبين أئمة الكفر والشرك بالحق؛ لترتفع راية الإسلام، وتعلو كلمة الإيمان، وربّنا الرحمنُ المُستعان على محو وإبطال ما تصفون الله ربكم - أيها الكفار - من صفات باطلاٍ لا دليل عليها من العقل، ولا من تنزيل ربّانيّ.

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ
خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقَتْهُمُ
الْمَلَائِكَةُ كَذُحِّ الظُّبُرِ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ
﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا أَنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ
﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا بَلَاءًا
لِقَوْمٍ عَصِيَّةٍ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ
﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّكُمْ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ
فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ
عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمِ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَكْتُمُونَ الْقَوْلَ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهِ فَتَنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ
رَبِّ أَصْحَابِ الْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

سُورَةُ الْحَجَّةِ

سُورَةُ الْحَجِّ

سُورَةُ الْحَجِّ

سُورَةُ الْحَجِّ

١ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ جَمِيعاً احْذَرُوا عِقَابَ اللَّهِ، وَاَعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ، فَهُوَ مَالِكُكُمْ وَمُرْتَبِكُمْ، فَلَا يَأْمُرُكُمْ إِلَّا بِمَا يُصْلِحُكُمْ وَيُسَعِّدُكُمْ، وَلَا يَنْهَاكُمْ إِلَّا عَمَّا يُؤْذِيكُمْ وَيَشْقِيكُمْ؛ إِنَّ مَا يَحْدُثُ فِي الْأَرْضِ فِي آخِرِ الدُّنْيَا، قَبْلَ بَعثِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ، مِنْ حَرَكَةٍ شَدِيدَةٍ، شَيْءٌ عَظِيمٌ الْأَهْوَالِ، وَلَا نَجَاةَ لَكُمْ مِنْ أَهْوَالِ السَّاعَةِ وَأَفْزَاعِهَا إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ طَرِيقُ النِّجَاةِ .

٢ - يَوْمَ تَرَوُنَّ قِيَامَ السَّاعَةِ، تُشْغَلُ كُلُّ امْرَأَةٍ مَعَهَا وَلَدٌ تُرْضِعُهُ عَنْ رَضِيعِهَا الَّذِي أَلْقَمْتَهُ ثَدْيِهَا، مِنْ شِدَّةِ كَرْبِهَا وَدَهْشَتِهَا، وَتُسْقِطُ مِنْ شِدَّةِ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ كُلُّ ذَاتِ جَنِينٍ جَنِينِهَا قَبْلَ تَمَامِ حَمْلِهَا، وَتَرَى النَّاسَ - أَيُّهَا النَّاظِرُ - كَالسَّكَارَى مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ وَالْفَزَعِ، وَمَا هُمْ بِسَّكَارَى عَلَى الْحَقِيقِ، وَلَكِنْ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ خَوْفِ عَذَابِ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَذْهَبَ عَقُولَهُمْ، وَأَزَالَ تَمَيِّزَهُمْ .

٣ - وَبَعْضُ النَّاسِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِسَبَبِ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى لغيرِهِمْ مَنْ يَنَازِعُ فِي وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُخَاصِمُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ، وَيَتَّبِعُ فِي جَدَالِهِ كُلِّ شَيْطَانٍ عَاتٍ مُفْسِدٍ شَدِيدِ الْإِقْدَامِ عَلَى الْإِغْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ .

٤ - قَضَى اللَّهُ عَلَى هَذَا الشَّيْطَانِ أَنَّهُ مِنْ اتَّخَذَهُ وَلِيّاً وَتَبِعَهُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَغْوِيهِ وَيُوسُوسُ لَهُ، وَيَدْعُوهُ إِلَى الضَّلَالِ، وَيَصُورُ لَهُ الْبَاطِلَ بِصُورَةِ الْحَقِّ، وَيُزَيِّنُ لَهُ بِالشَّهَوَاتِ وَالْأَهْوَاءِ، حَتَّى يُوَصِّلَهُ بِسَبَبِ مَا يُوَسُوسُ لَهُ، لِيَكُونَ مِنَ أَهْلِ عَذَابِ النَّارِ الْمَلْتَهَةِ . وَهَذَا الصَّنَفُ الْأَوَّلُ مِنَ الْكُفَّارِ، هُمُ الْمُقْلِدُونَ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ قُدْرَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى إِعَادَةِ الْحَيَاةِ إِلَى النَّاسِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَبَعْثِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .

٥ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَانْظُرُوا إِلَى مَبْدَأِ خَلْقِكُمْ، فَإِنَّا خَلَقْنَا أَبَاكُمْ آدَمَ الَّذِي هُوَ أَصْلُ النَّسْلِ مِنْ تَرَابٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا ذُرِّيَّتَهُ مِنْ نَظْفَةٍ، كَمَا أَنَّ جَسَدَ كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ تَرَابٍ تَحَوَّلَ بِخَلْقِ اللَّهِ إِلَى غِذَاءٍ، فَدَمَاءٌ، فَنُطْفٌ، ثُمَّ مِنْ دَمٍ جَامِدٍ غَلِيظٍ، يَتَعَلَّقُ بِجِدَارِ الرَّحِمِ، ثُمَّ مِنْ قِطْعَةٍ لَحْمٍ صَغِيرَةٍ قَدَرِ مَا يُنْمِضُ، تَتَأَلَّفُ الْمُنْمِضَةُ مِنْ جُزْءِ مُخْلَقٍ ظَاهِرِ التَّقْسِيمَاتِ لِلْأَعْضَاءِ، تَعْرِفُهُ إِذَا أَخْرَجَ لَكَ مِنَ الدَّخْلِ عَلَى أَنَّهُ بَشَرٌ سَوِيٌّ، وَمِنْ قُرْصٍ لَحْمِيٍّ أَحْمَرٍ، لَيْسَ عَلَيْهِ تَصَوِيرٌ وَلَا تَخَلُّقٌ وَلَا أَعْضَاءٌ، هُوَ الْمَشِيمَةُ، وَهُمَا مَرْتَبَتَانِ مَعاً؛ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ كِمَالَ قُدْرَتِنَا عَلَى تَطْوِيرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ حَالاً بَعْدَ حَالٍ، وَطَوَّراً بَعْدَ طَوَّرٍ، وَبَعْدَ أَنْ يَتِمَّ تَخْلِيقُ الْجَنِينِ، وَتَنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ يَبْقَى فِي رَحِمِ أُمِّهِ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي قُدِّرَ اللَّهُ لَوْلَادَتِهِ، وَتَقْدِيرِ الْأَجْلِ الْمُسَمَّى لَوْلَادَةِ الْجَنِينِ يَتَعَلَّقُ بِنُمُوهِ بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ التَّلَاوُثُ مَعَ الظُّرُوفِ خَارِجَ الرَّحِمِ، وَحِينَ تَصْبِحُ أَقْطَارُ حِمَمِ رَأْسِهِ قَدْ بَلَغَتْ أَقْلَ مِنْ أَقْطَارِ حَوْضِ أُمِّهِ بِقَلِيلٍ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ وَقْتَ الْوِلَادَةِ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ أَطْفَالاً صَغَاراً، بِحَيْثُ تَتِمُّ الْوِلَادَةُ بِبَطْنٍ وَلُطْفٍ، فَلَا يَمُرُّ فُجْأَةً فَيُؤْذِي وَيَتَأَذَى، وَلَا يَتَأَخَّرُ أَكْثَرَ مِمَّا يَلْزَمُ، ثُمَّ لَتَبَلَّغُوا كِمَالَ الْقُوَّةِ وَالْعَقْلِ وَالتَّمَيِّزِ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَلَّى قَبْلَ بُلُوغِ وَقْتِ الشَّبَابِ وَالْقُوَّةِ وَاكْتِمَالِ الْعَقْلِ، وَبَعْضُكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى الْهَرَمِ وَالْخَرَفِ وَضَعْفِ الْعَقْلِ، فَيَبْلُغُ السَّنَ الَّذِي يَتَغَيَّرُ بِهِ عَقْلُهُ، فَلَا يَعْقِلُ هَذَا الْمَعْمَرُ شَيْئاً مِمَّا كَانَ يَعْلَمُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَيَصِيرُ كَمَا كَانَ فِي أَوَّلِ طُفُولَتِهِ ضَعِيفَ الْبُنْيَةِ، قَلِيلَ الْإِدْرَاكِ .

وَتَرَى - أَيُّهَا النَّاظِرُ الْمُتأملُ - بَدْوَامَ وَتَجَدُّدِ الْأَرْضِ بِأَسَاسَةِ مَيِّتَةٍ لَا نَبَاتَ فِيهَا، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَطَرَ، تَحَرَّكَ تَرَابُهَا لِأَجْلِ خُرُوجِ النَّبَاتِ، وَانْتَفَخَتْ بِسَبَبِ نُمُوِّ النَّبَاتِ وَتَدَاخُلِ الْمَاءِ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ الْمَنْظَرِ .

إِنَّ جِفَافَ الزَّرْعِ وَانْقِطَاعَ تَغْذِيَّتِهِ مِنَ الْأَرْضِ وَحِصَادِهِ يَشْبَهُ حَالَةَ الْمَوْتِ فِي الْأَحْيَاءِ، ثُمَّ إِنَّ السَّيِّئَةَ الْكُونِيَّةَ الدَّائِمَةَ الظَّاهِرَةَ الْمُشَاهِدَةَ فِي انْشِقَاقِ الْحُبُوبِ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ، وَنَبَاتِهَا بَعْدَ مَا سَبَقَ مِنْ حَالَتِهَا الَّتِي تَشْبَهُ حَالَةَ الْمَوْتِ، وَعَوْدَتِهَا إِلَى الْحَيَاةِ وَالنُّضْرَةِ كَرَّةً أُخْرَى، وَذَلِكَ عِنْدَ وَجُودِهَا فِي الْبَيْتَةِ الْمَلَامَةِ مِنْ مَاءٍ مُمْتَزَجٍ بِالتَّرَابِ الصَّالِحِ، لَتُعْطِيَ دَلِيلاً حَسِياً مُشَاهِداً بِاسْتِمْرَارِ لُصُورَةِ بَعْثِ الْأَحْيَاءِ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَفَرُّقِ أَجْزَائِهَا فِي تَرَابِ الْأَرْضِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١
يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَهْدَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٢
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ٣
كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ٤
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ رَبَّكَ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقٍ لَنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّفَ الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّعُ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ٥

٦ - ذلك المذكور من أطوار خلق الإنسان وإحياء النبات؛ لتعلموا بأن الله هو الحق الثابت الأزلي الأبدي، في ذاته وصفاته وأفعاله، وأنه سبحانه يحيي الموتى كما بدأ خلقهم أول مرة، بنفخ الروح التي تكون بها النفوس حيّة، فمن لم يستبعد منه إيجاد هذه المخلوقات من العدم، فكيف يستبعد منه إعادة الأموات، ومن كان كذلك كان عظيم القدرة على جميع الممكنات؛ إذا أراد شيئاً كان أسرع ما يكون.

٧ - وذكرنا تلك الدلائل؛ لتعلموا أن ساعة إنهاء نظام الحياة الدنيا آتية لا شك فيها، وأن الله يبعث الموتى من قبورهم للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٨ - ويوجد صنف آخر من الناس كفار برّبهم على الرغم من كل البراهين والأدلة العقلية والآيات الكونية الدالات على ربوبية الله ووحدانيته، وهؤلاء الكفرة المتكبرون يجادلون في الله بغير علم جلي وبرهان عقلي مستند إلى مقدمات عقلية ذوات دلالات قطعية، ولا علم تجريبي ناتج عن تجارب متكررة، ولا علم خبري آت عن طريق كتاب منير الدلالات صحيح الثبوت.

٩ - حال كون هذا المُجادل لاوياً جانبه وعنقه، متبخرأ، معرضاً عما يدعى إليه من الحق متكبراً؛ ليضل عن دين الله، فلا يكتفي بضلاله، بل يسعى لضلال غيره، وهذا الصنف المتكبر من الكفار لا ينفع معه بيان الدليل والبرهان، له في الدنيا عذاب وهوان، وذلة وضغار يحطم كبريائه الزائفة، وينكسها ولو بعد حين، ونذيقه يوم القيامة عذاب الإحراق يتحسّن آلامه في نار جهنم.

١٠ - يُقال له تقرّياً وتوبيخاً: ذلك العذاب في نار جهنم نتيجة عملك السيء الذي عملته بكسبك واختيارك، وأن الله لا يظلم أحداً

من عباده، فيعذب أحداً منهم بغير جرم، بل هو عادل يثيب المطيع ويعذب العاصي، وهم الظالمون لنفوسهم؛ إذ ارتكبوا السيئات وهم يعلمون أنهم مُعاقبون عليها، ضمن قانون الجزاء الرباني. وهذا الصنف الثاني من الكفار، هم المتكبرون رؤوس الكفر، ودعاة الضلالة.

١١ - ويوجد صنف ثالث من الناس من يعبد الله على شك وقلق واضطراب في أمر دينه، لا ثبات له ولا استقرار، فإن أصابه خير دنيوي من صحة في جسمه، وسعة في معيشته رضي به وسكن إليه، وإن أصابه بلاء في جسمه، وضيق في معيشته؛ لا اختياره وابتلائه، ارتدّ ورجع على عقبه إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر، خسر في الدنيا العزة والكرامة، وخسر في الآخرة نفسه وأهله بالخلود في النار، ذلك الخسران للدارين هو الخسران الظاهر الواضح الذي لا عوض عنه، ولا تلافٍ له. وهذا الصنف الثالث من الكفار هم الماديون النفعيون، طلاب الدنيا.

١٢ - يعبد ذلك الكافر النفعي المادي الذي يزن عقيدته بميزان الربح والخسارة، ويبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، من دون الله تعالى ما لا يضره إن عصاه، وما لا ينفعه إن أطاعه وعبده، ذلك الدعاء وعبادة وطاعة ما لا يملك نفعاً ولا ضرراً هو الضلال البعيد عن الحق والرشد والهدى.

١٣ - يدعو ذلك الخاسر من ضرر عبادته أقرب من نفعه؛ لأنه يجلب له في الدنيا الخزي والذلة والعار، ويوصله في الآخرة إلى العذاب الأليم في النار، قبح ذلك المعبود ناصراً، وقبح صاحباً.

١٤ - إن الله يدخل الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات المعبرة عن صحة الإيمان الاعتقادي الإرادي جئات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار؛ إن الله يفعل ما يريد بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة، وبأهل معصيته من الهوان، فله سبحانه الإرادة المطلقة والمشيئة التامة النافذة في كل ذرة من ذرات الوجود.

١٥ - من كان يظن من الكفار أن لن ينصر الله نبيه محمداً ﷺ في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه، فلنمدد بحبل إلى سقف البيت، ليخنق به نفسه، ثم ليقطع الحبل بعد الاختناق، فلينظر: هل يذهب صنيعه وحيلته الذي يغظه من النصر والتمكين للنبي ﷺ ودينه الذي ارتضاه لعباده؟ فليخنق غيظاً، فإن الله تعالى ناصر نبيه محمداً ﷺ، ومؤيد أتباعه الصادقين.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ فَأَنِّي عَطِفٌ عَلَى الْبَاطِلِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لِيُفِي الدُّنْيَا خِزْيًا وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلِمُ الْغَافِلِينَ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أَلْقَى عَلَى وَجْهِهِ خِيسًا وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْعُ الْذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارَ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

١٦ - وكما أقمنا الحجّة من دلائل قدرتنا على الكافرين بالبعث، أنزلنا القرآن حالة كونه آيات واضحة مؤشرات، وأن الله يوفق من يريد من عباده إلى سلوك سبيل الهداية، بعد أن تصدق إرادة العبد في أن يكون من أهلها.

١٧ - إن الذين آمنوا بالله ورسوله محمد، واليهود، والصّابئين (وهم: قوم موحدون ليست لهم شريعة يعملون بها)، والنّصارى، والمجوس (وهم: عبدة النار)، والذين أشركوا (وهم: عبدة الأوثان)، إن الله يحكم بينهم يوم القيامة، إن الله عالم بما يستحقه كل واحد منهم، معيّن له، يخبر عن كل شيء في الكون إخباراً مطابقاً لما هو عليه في الواقع، فهو سبحانه شهيد على أفعال جميع المخلوقات، عليم بسرّاتهم، وما تكن ضمائرهم، لا تخفى عليه في الوجود خافية.

١٨ - ألم تعلم - أيها العاقل البصير - علماً واضحاً جلياً مشابهاً للرؤية البصرية أن الله سبحانه يستجد له خاضعاً مُنقاداً من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الإنس والجنّ سجوداً إرادياً مُلّين فيه دواعي فطرتهم، وسجوداً غير إراديّ بخضوع ذواتهم لما يُجريه الله فيها بسلطان الجبر. والشّمس والقمر والنجوم والجنّ والشجر والدوابّ كلّها ساجدة لله، وخاضعة خضوعاً تاماً بسلطان الجبر؟ وكثير من النّاس ساجدون سجوداً اختيارياً، حقّ لهم الثواب، وهم المؤمنون المنقادون لله تعالى ظاهراً وباطناً، وكثير من النّاس غير ساجدين لله سجوداً اختيارياً، حقّ عليهم العذاب بكفرهم وتركهم السجود، وما أعزّ أحد نفسه بمثل سجوده لله تعالى وطاعته له، وما أذلّ أحد نفسه بمثل إعراضه عن طاعة الله وعبادته، ومن يحكم الله عليهم بالدّلّة والهوان بسبب كفرهم وتمردهم عن طاعة الله نتيجة اختيارهم الحر في ظروف امتحانهم في الحياة الدنيا، فلا

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَن يُرِيدُ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يَمُن بِاللَّهِ فَقَالِ لَهُ مِن مُّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٦٣﴾ هَذَا نَحْنُ خَصَمَانِ أَخَصِمُوا فِي رَيْبِهِمُ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿٦٤﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٦٥﴾ وَلَهُمْ مَقْذِيعٌ مِّنْ حديدٍ ﴿٦٦﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَعْيُدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٦٨﴾

يستطيع أحد أن يحكم لهم بالكرامة، إن الله يفعل في خلقه ما يشاء وفق حكمته.

١٩ - وتمايم مشيئة الله تعالى وإرادته لا يعني أن الإنسان لا مشيئة له ولا إرادة، فقد شاء الله أن يكون للإنسان المكلف مشيئة وإرادة، فله اختيار في إيمانه وكفره، وطاعته لله وإعراضه عنه، والدليل على ذلك أن كثيراً من الناس اختاروا الكفر بالله وإعراضه عن عبادته، وصار الناس نتيجة ذلك فريقين: فريق مؤمن، وفريق كافر، وحدث بينهم ما هو مُشاهد من الخصام والاختلاف والافتتال، فالذين جادلوا في وحدانية الله وقدرته، قُطِعَتْ لهم في الآخرة ثياب من نحاس مُذاب، تُحيط بهم كإحاطة الثياب، يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الماء الخار الذي انتهت حرارته.

٢٠ - يُذاب بالحميم الذي يُصَبُّ من فوق رؤوسهم ما في بطونهم من الشحوم والأحشاء، والجلود.

٢١ - ولهم مطارق من حديد مُختصة بهم تُضرب بها خزنة النار رؤوسهم إذا أرادوا الخروج منها.

٢٢ - كلّما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بأنفاسهم، رُدُّوا إلى أماكنهم بمطارق الحديد، فلا خروج لهم من النار أبداً، وتقول لهم خزنة جهنم تبيكاً: ذوقوا عذاب النار المُحرِّق.

٢٣ - إن الله تعالى يُدخل الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصّالحات المعبرات عن صدق الإيمان الإراديّ الاعتقاديّ، جنّات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، يُحَلَّون فيها من أساور من ذهب، ويُحَلَّون لؤلؤاً أيضاً، وثيابهم في الجنة الحرير، فما أعظم الفرق بين ثياب النار، وثياب الحرير، وبين مصير الخصمين المتنازعين في وحدانية الله وصفاته، من المؤمنين والكافرين.

٢٤ - وأرشد هؤلاء إلى طريق الجنة الذي يحمدون فيه ربهم على إحسانه وإنعامه، الذي يحمدهم سبحانه على إيمانهم وعملهم الصالح، كما هُودوا في الدنيا إلى طيب القول: من كلمة التوحيد والتسبيح والتحميد، وأرشدوا إلى طريق الله الحميد الذي يحمد عباده المؤمنين، ويشني عليهم بما فعلوا من خير، والذي هو محمود على عظيم صفاته، وجليل نعمه.

٢٥ - إن الذين كفروا بما جاء به محمد ﷺ، ويصدون باستمرار ودوام عن سبيل الله بالمنع من الهجرة والجهاد والإسلام، ويصدون رسول الله ﷺ والمؤمنين في عام «الحديبية» عن المسجد الحرام، الذي جعلناه قبلة للناس في صلاتهم، ومُنسكاً ومُتَعَبِّداً، سواء في تعظيم حرمة وقضاء التُسك به: المَكِّي المقيم فيه، والطارئ القادم إليه من غيره، ومن يرد في المسجد الحرام المَيْل عن الحق ظملاً، فَيَقْصِ الله فيه، نُذْفُهُ من عذاب أليم مُوجع في الآخرة.

وفي الآية دليل على أن السيئة في الحرم أعظم منها في غيره، فإنها تُضاعف فيه، والهم بالسيئة في الحرم مُؤَاخَذَ به.

٢٦ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لبياننا - حين هيأنا لإبراهيم مكان البيت وأعلمناه به، وبحدوده من كل جهاته، وهو الكعبة المشرفة، بيت الله الحرام، وأنزلناه فيه ليؤسس في مكة أمة مؤمنة، تعبد ربها ولا تشرك به شيئاً، وأَوْحَيْنَا إليه بعد ذلك حين أمرناه برفع قواعد البيت مع ولده إسماعيل، وقلنا له: لا تشرك بي شيئاً، وطهر بيتي من كل رجس ماديٍّ أو معنويٍّ، للطائفين الذي يطوفون حَوْلَ بيتي، والذين يعبدونني بالصلاة فيه أو عنده، القائمين والراكعين الساجدين.

٢٧ - وقف - يا إبراهيم - رافعاً صوتك مُنادياً النَّاسَ الموجودين في زمن ندائك، والذين سَيَتَّبِعُونَ أجيالاً بعد جيل إلى أن تقوم الساعة، بوجوب الحج عليهم، فَإِنَّ رَبَّكَ سَيُوصِلُ أثر ندائك إلى قلوب المؤمنين، فَيُحَرِّكُهَا إلى تلبية النداء، يَأْتِيكَ فريقٌ من المُلْبِّينَ مُشَاءً على أرجلهم، وَيَأْتِيكَ فريقٌ آخر من المُلْبِّينَ رُكْبَاناً على الإبل المهزولة من بُعد الشقة وكثرة السَّيْرِ، يَأْتِينَ من كل طريق بعيد إلى البلد الحرام.

٢٨ - ليشهد الحُجَّاج منافع لهم كثيرة، دينية ودنيوية من: ثواب أداء نسكهم وطاعتهم، ومغفرة ذنوبهم، ووحددة كلمتهم، والتشاور في أمورهم، وتكسبهم في تجارتهم، وغير ذلك، وَلْيَذْكُرُوا اسمَ الله بالحمد والثناء والتكبير على ذبح ما يتقربون به من الإبل والبقر والغنم في أيام معلومات، وهي: يوم النحر عاشر ذي الحجة وأيام التشريق الثلاثة بعده، شُكراً لله على ما رزقهم من الإبل والبقر والضأن والمَعَزَّ، فَكُلُوا من لحوم الهدايا والضحايا، وَأَطْعِمُوا البائسين الذين أصابهم بؤس وشدة، المستورين الذين لا شيء لهم ولا يتعرَّضون للصدقات.

٢٩ - ثُمَّ لِيُزِيلُوا عنهم أدرانهم وأوساخهم، ويخرجوا عن الإحرام بالحلق أو القص، وَقَلَّمِ الْأَظْفَارَ والاستحداد، ولبس الثياب، وَلْيُؤْفُوا بما أَوْجَبَهُ على أنفسهم من الحج والعمرة والهدايا، وَلْيَطُوفُوا بعد الوقوف بعرفة وَرَمَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ طَوَافَ الْوَاجِبِ، وهو الإفاضة، بالبيت العتيق القديم، لأنه أول بيت وضع لعبادة الله تعالى وحده، ولأنَّ الله يعتق بفضلِهِ ورحمته رِقَابَ الْمُذْنِبِينَ إِذَا اتُّوا تَائِبِينَ مُسْتَغْفِرِينَ، كما أنه سبحانه أعتقه من أيدي الجابرة أَنْ يَصِلُوا إليه.

٣٠ - ذلك الذي أمر الله به من إزالة الأوساخ والخروج من الإحرام، والوفاء بالثَّوَرِ، والطَّوُافِ بالبيت، هو ما أَوْجَبَهُ الله عليكم، فَاجْتَنِبُوا جميع حُرُمَاتِهِ، وَمَنْ يَجْتَنِبْ جميع ما نهى الله عنه من معاصيه بترك مُلَابَسَتِهَا، وعدم انتهاكها، وحفظ حُرُمَتِهَا، ولا سيما مُقَارَفَةِ حُرُمَاتِ الله في أرض الحرم، وأثناء القيام بمناسك الحج، فتوابع تعظيم الحُرُمَاتِ خَيْرٌ له عند الله في الآخرة. وأحلَّ الله تعالى لكم الأنعام من الإبل والبقر والغنم أَنْ تَتَنَفَّعُوا بسائر وجوه الانتفاع الموجودة فيها، كالانتفاع من أصوافها وأوبارها وجلودها وألبانها ولحومها، إِلَّا مَا يُثَلَّى عليكم تحريمه في القرآن لعارض، كالميتة والدم المسفوح، وما ذُبِحَ على غير اسم الله تعالى، فَاجْتَنِبُوا وَابْتَعِدُوا عن الأوثان القَدِيرَةِ التي تعبدونها من دون الله، والتي هي رأس الزور والباطل، وَاجْتَنِبُوا قول الباطل كله، وشهادة الزور والكذب القبيح.

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَطْلُمِ نُذْفُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا لَا عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾

٣١ - اجتنبوا الشُّرك وقول الباطل حال كونكم مُخلصين له تعالى، عادلين عن كلِّ دين سوى دينه، غير مُشركين به أحداً في عبادته، ومن يُشرك بالله فكأنما سَقَطَ من السَّمَاء إلى الأرض، فَتَسْتَلِبُهُ جوارح الطَّير وتذهبُ به بسرعة، وتَقْطَعُه وتُمزِّقُه بمخالبها، أو تميلُ وتذهبُ به الرِّيح فَتَقْذِفُه في مكانٍ بعيد مُهلك، وكذلك المشرك في ضلاله وهلاكه وخيرته يهوي به شركه من أوج الإيمان إلى مهوي الضلالة، وحضيض الكفر، ويعيش قلقاً، مُضطرب النفس، مُشتت الفكر.

٣٢ - ذلك الذي أمر الله به من توحيده وإخلاص العبادة له، واجتناب الأوثان وقول الزور، ومن يَقُم بِمِراعاة معالم الدين، من الأوامر والنواهي والواجبات والمُستحبات، وأماكن العبادات والطاعات، ويحفظ حُرمتها، ومنها البُدن التي يسوقها الحُجَّاج هدياً بالغ الكعبة، وذلك باختيار أعظمها وأجودها، لأنها من معالم الحج، فإنَّ تعظيم معالم الدين، وأداء أعمال المناسك على الوجه المشروع من أفعال أصحاب القلوب المُتَّصفة بتقوى الله وخشيته.

٣٣ - لكم في تلك الشعائر منافع بالأجر والثواب الحاصل بتعظيمها إلى انقضاء أيام الحج، ولكم منافع بدنها ونسلها وصوفها ووبرها وركوب ظهرها إلى أن تنحروها، ثم منحرها عند أرض الحرم، ومحلَّ الناس من إحرامهم مُنته إلى البيت العتيق الذي جعله الله أول بيت وضع لعبادته، بطواف الزيارة بعد أداء تلك الشعائر.

٣٤ - وَشَرَعْنَا لِكُلِّ جَمَاعَةٍ مَوْثِقَةً سَلَفَتْ قَبْلَكُمْ مَنَاسِكَ مِنْ ذَبْحِ الْقَرَابِين وَإِرَاقَةِ الدَّمَاءِ؛ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ عِنْدَ ذَبْحِهَا وَنَحْرِهَا، فَسَمُّوا عَلَى الذَّبْحِ اسْمَ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَإِنَّ إِلَهُكُمْ الْمُسْتَحَقَّ لِلْعِبَادَةِ إِلَهُ وَاحِدٌ، فَهَلْ خَلَصُوا وَانْقَادُوا وَأَطِيعُوا، وَيُشِّرْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - الْمُتَوَاضِعِينَ الْخَاشِعِينَ الْمُطْمَئِنِّينَ الرَّاغِبِينَ

حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِلَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَنَاحِ وَالْمُعْتَرِ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ نَبَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ بِنَا لَهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾

بقضاء الله، بخيري الدنيا والآخرة.

٣٥ - هؤلاء المتواضعون الخاشعون الراضون بقضاء الله من صفاتهم: أنَّهم إذا ذُكر الله وحده خافت قلوبهم من عقابه، ويشِرُّ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمَرَضِ وَالْمَصَائِبِ، وَيُشِرُّ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ تَامَّةً كَامِلَةً مُسْتَقِيمَةً فِي أَوْقَاتِهَا مُحَافِظِينَ عَلَيْهَا، وَهُمْ يَنْفِقُونَ مِنْ بَعْضِ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُمْ فِي وَجْهِ الْخَيْرِ وَمُسَاعَدَةِ الْمُحْتَاجِينَ.

٣٦ - وَجَعَلْنَا لَكُمْ نَحْرَ الْإِبِلِ الصَّحَاحِ الْأَجْسَامِ وَالْبَقَرِ الْمُهْدَاةِ إِلَى الْبَيْتِ الْمُعْظَمِ مِنْ أَعْلَامِ دِينِ اللَّهِ فِي الْحَجِّ، لَكُمْ فِيهَا - أَيُّهَا الْمُتَقَرَّبُونَ - نَفْعٌ فِي الدُّنْيَا وَثَوَابٌ فِي الْآخِرَةِ، فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا عِنْدَ نَحْرِهَا، فَانْحَرُوهَا قَائِمَةً عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ قَدْ صُفِّتَ رِجْلَاهَا وَيَدَاهَا الِيمْنَى، وَالْأُخْرَى مَعْقُولَةٌ، فَإِذَا سَقَطَتْ بَعْدَ النَّحْرِ، وَوَقَعَ جَنْبُهَا عَلَى الْأَرْضِ، فَكُلُوا مِنْهَا، وَأَطِيعُوا الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ الَّذِي يَقْنَعُ بِمَا يُعْطَى وَلَا يَسْأَلُ، وَالْمُعْتَرِّ الَّذِي يَسْأَلُ لِحَاجَتِهِ. مِثْلَ مَا وَصَفْنَا لَكُمْ مِنْ نَحْرِهَا قِيَاماً، ذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ، مَعَ قُوَّتِهَا وَضَخَامَةِ أَجْسَامِهَا؛ لِتَتَمَكَّنُوا مِنْ نَحْرِهَا، فَلَا تَسْتَعْصِي عَلَيْكُمْ، بَلْ تَقْوِدُونَهَا وَتَعْقِلُونَهَا صَافَّةً قَوَائِمَهَا، ثُمَّ تَطْعَنُونَ فِي لَبَاتِهَا؛ رَغْبَةً أَنْ تَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ.

٣٧ - لَنْ تُرْفَعَ إِلَى اللَّهِ لَحُومُ هَذِهِ الذَّبَائِحِ وَلَا دِمَآؤُهَا، فَهُوَ سَبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ عِبَادَتِكُمْ، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِذَبْحِهَا لِحَاجَتِهِ سَبْحَانَهُ إِلَى لَحُومِهَا وَدِمَائِهَا، وَلَكِنْ تُرْفَعُ إِلَيْهِ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، وَمَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَذَلِكَ ذَلَّلْنَا لَكُمْ الْبُدْنَ؛ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَأَرْشَدَكُمْ لِمَعَالِمِ دِينِهِ، وَمَنَاسِكِ حَجِّهِ، وَيُشِّرْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - الْمُحْسِنِينَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَتَطْبِيقِ شَرِيعَتِهِ، الَّذِينَ ارْتَقَوْا إِلَى أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ.

٣٨ - إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ عَدْوَانَ الْكَافِرِينَ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنْهُمْ، وَيَنْصُرُهُمْ عَلَيْهِمْ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَائِنٍ لِلْأَمَانَاتِ، شَدِيدِ الْجُحُودِ لِنِعْمَتِهِ. وَمِنْ رَحْمَتِهِ سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ أَخْبَرَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَكْلِفَهُمُ بِالْجِهَادِ وَقِتَالِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ يُدَافِعُ عَنْهُمْ، وَيُوَيْدُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، فَدَفَاعُهُ سَبْحَانَهُ عَنْهُمْ - إِذَا تَحَقَّقُوا بِالْإِيمَانِ الصَّادِقِ الْكَامِلِ - مُسْتَمِرٌّ لَا يَنْقَطِعُ؛ لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَعْلَمُ أَنَّ عَدْوَانَ الْكَافِرِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَمِرٌّ لَا يَنْقَطِعُ.

أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُوا بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمُوعُ وَبِيعَ وَصَلَاتٌ وَمَسْجِدٌ ذِكْرُهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيْسَ نَصْرُكَ اللَّهُ مِنْ نَصْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَنْ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا عَاوِيَةُ عَلَىٰ عُرْوَتِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

٣٩ - أَذِنَ اللهُ للمسلمين الذين يُقاتلهم المشركون بالجهاد، بسبب ما وَقَعَ عليهم من الظلم والعدوان من أجل إيمانهم برَبِّهم، وَإِنَّ الله على نصر المؤمنين وإذلال عدوهم لعظمِ القدرة. فطريق دفاع الله عن المؤمنين إنما هو إذنه لهم في قتال عدوهم ودفعه بسلاحهم بعد أن كانوا ممنوعين من الدفاع عن أنفسهم بالمقاتلة، مأمورين بالصبر واحتمال الأذى مدة إقامتهم بمكة، والله سبحانه قادر على أن ينصر دينه، ويُعلي كلمته بدون قتال، ولكن حكمته افْتَضَتْ أَنْ يَبْتَلِيَ المؤمنين بقتال الكافرين ومجاهدتهم.

٤٠ - الذين أُلْجِئوا إلى الخروج من ديارهم في مكة بغير موجب سوى التوحيد، الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتعظيم والتمكين لا موجب النفي والإبعاد، ولولا سُنَّةُ الله أَنْ يدفع بأهل الإيمان والطاعة أهل الكفر والمعصية، وأن يُسَلِّطَ الأشرار بعضهم على بعض، لساد الباطل، وتمادى الطغاة في طغيانهم، وهُدمت أماكن العبادة، من معابد الرهبان المتخذة في الصحراء، ومعابد النصراني في البلد، وكنائس اليهود، ومساجد المسلمين، التي يُصَلُّون فيها، ويذكرون اسمَ الله فيها كثيراً، وقد أخذ الله العهد الأكيد على نفسه أن ينصر من ينصر دينه ونبيه؛ إِنَّ الله لقويٌّ على نصر مَنْ ينصر دينه، عزيزٌ لا يغلبه غالب، ولا يُمنع ممَّا يريد.

٤١ - الذين وعدناهم بنصرنا هُمُ المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، إِنَّ نصرناهم على عدوهم حتى تمكنوا من البلاد، أقاموا الصَّلَاةَ بأدائها في أوقاتها، وإتمام أركانها وسننها وأدائها، وأعطوا الزكاة إلى أهلها، طيِّبَةً بها نفوسهم، ابتغاء مرضاة الله، وأمروا بكلِّ فعل حسن يُسْتَحْسَنُ في الشرع والعقل، ونهَوْا عن كلِّ ما عُرف في الشرع والعقل قُبْحُهُ، والله وحده مصيرُ الخلق وعاقبةُ أمورهم.

٤٢ - ٤٤ - وَإِنْ يَكْذِبُكَ - يا رسول الله - قومُك، فقد سبقهم في تكذيب رسلهم قومُ نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب «مَدْيَنَ» الذين كَذَّبُوا شعبياً عليه السلام، وكذب فرعون وقومه موسى عليه السلام مع وضوح آياته وعظم معجزاته، فأمهلتُ الكافرين وأخرتُ العقوبة عنهم؛ ليتوبوا ويُصلحوا، ثُمَّ بعد إمهالهم أخذتهم بالعذاب والإهلاك العام الشامل، فكيف كان إنكاري الذي نتج عنه عقابي؟ ألم يكن عقاباً شديداً مؤلماً مهلكاً إهلاكاً عاماً شاملاً. فإن استمرَّ مشركو مكة على تكذيب الرسول ﷺ ومعاداته ومقاتلته، فسيكون مصيرهم مثل مصير المُكذِّبين الظالمين المجرمين من قبلهم.

٤٥ - فعددنا كثيراً من مُجتمعات سَكْنِيَّةٍ أهلكناها بعذاب شامل استأصلهم جميعاً، وأهلها ظالمون بكفرهم وتكذيبهم، فهي فارغة لا ساكن فيها، ساقطة جدرانها على سقوفها، وكم من بئر متروكة لا يَسْتَقِي منها الوردون لهلاك أهلها، وكم قَصْرٍ رفيع طويل عالٍ أخلىناه من ساكنيه بإهلاكهم؟

٤٦ - أَلَزِمَ مَكْذِبُوكَ - يا رسول الله - مواطن إقامتهم، فلم يسيروا في الأرض، فينظروا إلى مَصَارِعِ المُكذِّبين، وآثار السابقين من الأمم الخالية، فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أهواءهم وشهواتهم، ويحجزونها في دائرة الحق والخير، أو آذانٌ يسمعون بها ما يذكر لهم من أخبار القرون الماضية فيعتبرون بها؟ أو تكون لهم أبصارٌ يَرَوْنَ بها آيات الله رؤيةً باحثين مُتدبرين لا رؤيةً مُستمتعين بالظواهر، غافلين عن البواطن ودلالاتها، فإنَّها لا تَعْمَى الأبصار عن إدراك بواطن الآيات وحقائقها، لأنها لا تملك هذه القُدرات الإدراكية، ولكن تعمى عن إدراك دلالات آيات الله في كونه، مراكز التفكير التي في عمق المراكز الإدراكية، إذ تملك القُدرات التفكيرية الإدراكية في أصل فطرتها الربَّانية، ولكنَّ الأهواء والشهوات تغشى عليها، فتعميها.

والقلب أطلق في القرآن على القُوَّة المدركة للمعارف، وأطلق على مواطن الإرادة والعواطف، أو مراكز التأثر بها. فالقُوَّة المدركة للمعارف هي في الدماغ، وهو في الرأس، أما مواطن ظهور الرغبات، والعواطف والانفعالات، ومراكز حركة عواطف الإيمان والكفر، وحركة الإرادات للأعمال، فهي في القلوب التي في الصُّدُور. وهذه القلوب التي في الصُّدُور قد يحصل لديها عَمَى، فتُخالف ما أدركته الأذهان من الحق، لانطماس بصيرتها بالأهواء والشهوات، فيكون من أثر ذلك كفرٌ وحركة إرادة نحو الشرِّ، وهذا هو العَمَى الحقيقي الذي يُصاب به أهل الكفر والضلال.

٤٧ - وَيَسْتَعْجِلْكَ - يا رسول الله - الذين كفروا بك وبما جئت به عن ربك بالعذاب المُعَجَّل والمُؤَجَّل الذي أنذرتهم به توهُمًا منهم أنك غير صادق فيما تُبْلغهم عني، ولن يُخَلِّفَ اللَّهُ ما وعدهم به من العذاب، فلا بدَّ من وقوعه، وقد عُجِّلَ لهم في الدنيا في يوم «بدر»، وإنَّ يوماً من أيام عذابهم في الآخرة كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون من سنِّي الدنيا، فكيف يستعجلونه؟

٤٨ - وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُجْمَعَاتِ السَّكْنِيَّةِ أَهْلَتْهَا مع استمرار أهلها على الظلم، وإصرارهم على الكفر، ثم بعد ذلك قبضت عليها بيد العذاب الشديد في الدنيا، وإليَّ وحدي مصيرهم في الآخرة، فأعذبهم بما يستحقُّون.

٤٩ - ٥٠ - قُل - يا رسول الله - : يا أيُّها النَّاسُ ما أنا لكم إلا مُرسل من الله، نذيرٌ واضح مبين في إنذاري وكلِّ دعوتي، بعد تأدية الوظائف السابقة من تبليغ وبيان وإقناع وتبشير، فالَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالِحَاتِ الدَّالَّاتِ على صدق إيمانهم الإراديِّ الاعتقاديِّ، لهم سَتْرٌ لذنوبهم، ورزقٌ كريم في الجنة لا ينقطع أبداً.

٥١ - والذين عملوا بهمةً ونشاط، وبذلوا جهدهم في إبطال آياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة، حال كونهم معاندين مشاكسين، ظَّالِمِينَ ومُفْذَرِّين أُنْهَم يُعْجِزُونَا ويفوتُونَا، فلا نقدر عليهم، أولئك المنحطون في الدركات أصحاب النار الموقدة المُلازِمُونَ لها، المخالطون لألوان عذابها.

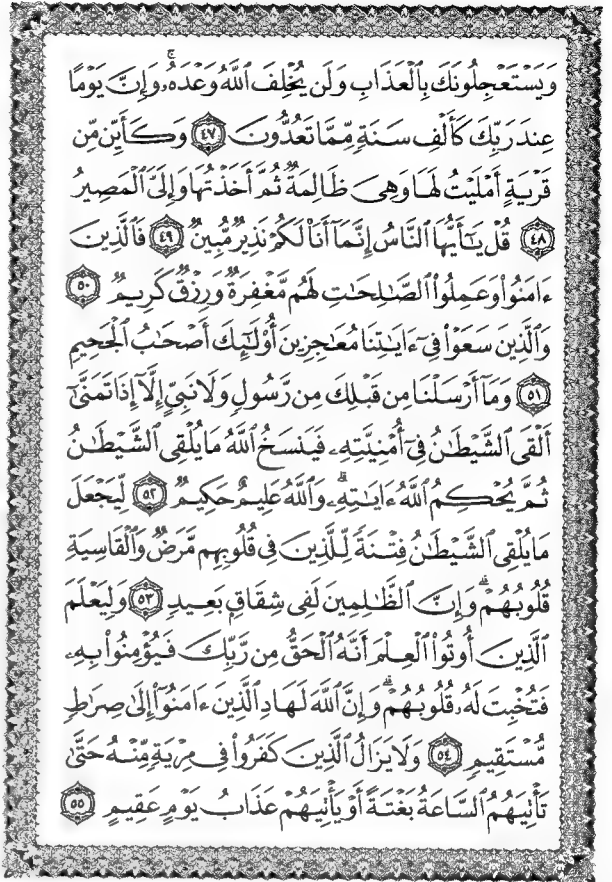
٥٢ - وما أَرْسَلْنَا - يا رسول الله - من قَبْلِكَ من رسول بُعِثَ بشرع جديد، ولا نبيُّ بُعِثَ لتقرير شرع من قبله إلا إذا أَحَبَّ وودَّ أن يهتدي قومه ويؤمنوا بما جاء به من الحقِّ، ألقى الشيطان في قلوب بعض السامعين ما يحول دون تحقيق أمنيته من شبهات باطلة،

ولشكالات فاسدة؛ ليصرف قلوبهم عن الاستجابة والإيجاب بما جاءهم به رسولهم أو نبيُّهم، فيبطل الله ما يُلقى الشيطان في قلوب السامعين، ويُزيل شبهاته ووساوسه، ويمحق أثرها، ثم يُثَبِّت تلك الآيات ويُمَكِّنُها في قلوب المؤمنين، بأن يُتَابِعَ بعدها آيات وآيات فيها إبطال لتلك الشبهات والضلالات والشكوك التي ألغاه الشيطان، ويزيلها بالأدلة القرآنية القاطعة، والله عليم بما كان ويكون، لا تخفى عليه خافية، حكيم يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء لما يُعْطِي أفضل النتائج. وقد انتهت أمانة الرسول ﷺ في إيمان قومه واهتدائهم بانتصار دينه، والتمكين لأتباعه، وإيمان مَنْ تَبَقَّى من الكافرين بعدما هَزَمَ الله المعاندين وأهلكهم في غزوات بدر وأحد والخندق وخيبر وغيرها. وهذه هي سنة الله في الصِّراع بين الحق الذي يقوده الأنبياء والرُّسل، وبين الباطل الذي يقوده الشيطان، على مدار التاريخ الإنساني.

٥٣ - ذلك المعجى بالآيات مُحْكَمَةٌ مُثَبَّتَةٌ لا تُقْبَلُ الرد؛ لَيَجْعَلَ اللَّهُ ما يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ من تلك الوسواس والشبهات مُحَنَّةً وَابْتِلَاءً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ حَقْدٌ وَحَسَدٌ مِنْ مُنَافِقِي الْيَهُودِ، وللمشركين الجافية قلوبهم عن قبول الحقِّ، فكلَّا الفريقين من الكفار يحمل في قلبه علةً تجعله يتقبل نَزْعَ الشيطان ووسوسته، فالعلة في قلوب الفريق الأول: الحسد والحقد والنفاق والشك، والعلة في قلوب الفريق الثاني: قسوة القلب، وإنَّ الظالمين من المنافقين والمشركين لفي عداوةٍ شديدة لله ولرسوله، وخلافٍ للحقِّ بعيد عن الصواب.

٥٤ - وليلعلم الذين أوتوا العلم الراسخ القائم على الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة، أنَّ ما جاء به الرسول هو الحقُّ النَّازِلُ من ربِّك، لا شبهة فيه، ولا سبيل للشيطان إليه، فيثبَّت الله بذلك إيمانهم ويزيدهم منه، فتطمئنَّ وتسكنَّ إليه قلوبهم، وإنَّ الله لهادي الذين آمنوا به وبرسوله إلى طريق الحق الذي يَدْحُضُ الباطل ويدفعه، وهو: الإسلام، مُكَافَأَةً لهم على خضوعهم وخشوعهم لكلامه سبحانه، فيقولاهم برحمته وعنايته، وَيُثَبِّتُهُمْ على الصراط المستقيم، فلا يضلُّون ولا يزُلُّون، ويحفظهم من فتن الشيطان وشبهاته وضلالاته بهدایتهم إلى ما يرُدُّها وَيُظِلُّهَا.

٥٥ - ولا يزال الذين كفروا في شكٍّ وَقَلَقٍ وَخَيْرَةٍ من القرآن، إلى أن تأتيهم ساعةٌ إنهاء نظام الحياة الدنيا فجأةً، وهم مُصْرُونَ على تكذيبهم، فيصيروا إلى العذاب الدائم، أو يأتيهم عذابٌ يومٍ لا خير فيه، وهو يوم القيامة.



٥٦ - الْمُلْكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ مِنْ غَيْرِ مُنَازَعٍ وَلَا مُشَارِكٍ فِيهِ، يَفْصِلُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ. فَأَلْذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا صَاحِقًا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ الدَّالَاتِ عَلَى صَدَقِ الْإِيمَانِ الْإِرَادِيِّ الْاِعْتِقَادِيِّ فِي جَنَاتِ النَّعِيمِ.

٥٧ - وَالَّذِينَ جَحَدُوا وَحَدَانِيَّةَ اللَّهِ، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ وَالْبَيَانِيَّةِ وَالْإِعْجَازِيَّةِ، فَأُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْمَنْحَطُونَ فِي الدَّرَكَاتِ، لَهُمْ عَذَابٌ مُذِلٌّ فِي جَهَنَّمَ.

٥٨ - وَالَّذِينَ فَارَقُوا أَوطَانَهُمْ وَعَشَائِرَهُمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَطَلَبِ رِضَاهُ، ثُمَّ قُتِلُوا فِي الْجِهَادِ، أَوْ مَاتُوا مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، لَيَرِزَنَّ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ رِزْقًا حَسَنًا لَا يَنْقُطُ أَبَدًا، وَإِنَّ اللَّهَ - وَحْدَهُ - لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، يُعْطِي مِنَ الرِّزْقِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَكُلُّ رِزْقٍ مِنْ سِوَاهُ، فَهُوَ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ أَجْرَاهُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، وَهُوَ الرِّزْقُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي لَا رَازِقَ سِوَاهُ، فَاطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنْهُ وَحْدَهُ، وَخُذُوا بِالْأَسْبَابِ الَّتِي أَمَرَكُمْ بِهَا.

٥٩ - لَيُدْخِلَنَّ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَيَسْكُنَهُمْ مَسْكَنًا يَخْتَارُونَهُ؛ إِذَا فِيهِ رِضَاهُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ بِنِّيَّاتِهِمْ، حَلِيمٌ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ.

٦٠ - ذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ بِإِدْخَالِ الْكُفَّارِ النَّارَ، وَبِإِدْخَالِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ الْجَنَّةَ، وَنَحْنُ لَا نَدْعُ نُصْرَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيْهِمْ، وَمَنْ قَاتَلَ الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَاتَلُوهُ، وَجَازَى الظَّالِمَ بِمِثْلِ ظُلْمِهِ، فَقَدْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَقَابِلَ الْجَانِي بِمِثْلِ فِعْلَتِهِ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، ثُمَّ إِذَا عَادَ الْجَانِي إِلَى إِيْذَانِهِ وَتَجَاوَزَ الْحُدَّ فِي ظُلْمِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ الْمَظْلُومَ الْمُتَعَدِّيَّ عَلَيْهِ عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيْهِ وَظَلَمَهُ؛ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ عَنِ الْمُذْنِبِينَ فَلَا يُعَاجِلُهُم بِالْعُقُوبَةِ، يَزِيلُ أَثَرَ الذُّنُوبِ مِنْ صَحَائِفِ أَعْمَالِهِمْ، وَيَتْرَكُ مُؤَاخَذَتَهُمْ عَلَيْهَا، كَثِيرَ السَّتْرِ لَذُنُوبِهِمْ يَتَجَاوَزُ عَنْهَا، بَعْدَ اسْتِغْفَارِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ، فَضْلًا مِنْهُ وَكَرَمًا.

٦١ - ذَلِكَ النَّصْرُ لِلْمَظْلُومِ بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ آيَاتِ قُدْرَتِهِ: أَنَّهُ يَدْخُلُ ظِلْمَةُ اللَّيْلِ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ، بِالتَّابِعِ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَيَتَّبِعُ ذَهَابَ اللَّيْلِ عِنْدَ تَتَابُعِ حَالَاتِ الْإِشْرَاقِ، وَيَدْخُلُ ضَوْءُ النَّهَارِ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ، بِالتَّابِعِ شَيْئًا فَشَيْئًا، فَيَتَّبِعُ ذَهَابَ النَّهَارِ عِنْدَ تَتَابُعِ حَالَاتِ الْغُرُوبِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا يَجْرِي فِيهِمَا عَلَى أَيْدِي عِبَادِهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْبَغْيِ وَالْإِنْصَافِ، وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لِمَا يَقُولُونَ، لَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ فِي النَّهَارِ الْأَصْوَاتُ بِمُخْتَلَفِ اللُّغَاتِ، بِصِيرٍ بِمَا يَفْعَلُونَ، لَا يَسْتَرُّ عَنْهُ شَيْءٌ بِشَيْءٍ فِي اللَّيَالِي، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الظُّلُمَاتُ.

٦٢ - ذَلِكَ الْوَصْفُ بِخَلْقِهِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَإِحَاطَتِهِ بِمَا يَجْرِي فِيهَا، وَإِدْرَاكِهِ قَوْلَهُمْ وَفِعْلَهُمْ، بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ الْأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، قَوْلُهُ حَقٌّ، وَدِينُهُ حَقٌّ، وَعِبَادَتُهُ حَقٌّ، وَوَعْدُهُ بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ حَقٌّ، وَأَنْ مَا يَدْعُو الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ هُوَ الْبَاطِلُ، الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الْمُتَعَالِي عَنِ الْأَشْيَاءِ وَالْأَنْدَادِ، الْعَظِيمُ فِي قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ الَّذِي لَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ شَأْنًا، وَأَكْبَرُ سُلْطَانًا.

٦٣ - أَلَمْ تَرَ - أَيُّهَا الْعَاقِلُ الْبَصِيرُ الرَّشِيدُ - نَظَرًا إِلَى آثَارِ صُنْعِ رَبِّكَ؛ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً، عَلَى أَرْضٍ صَالِحَةٍ لِلْأَنْبَاتِ، فِيهَا بَزُورٌ نَبَاتَاتٌ مُنْبِتَاتٌ فِي تَرْبَتِهَا، فَامْتَصَّتِ الْبَزُورُ الْمُنْبِتَةُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْمَاءِ وَمِنْ عُنَاصِرِ تَرَابِ الْأَرْضِ، فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ إِثْرَ نَزُولِ الْمَطَرِ مُخْضَرَّةً بِالنَّبَاتِ الْمُخْتَلَفِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ؟ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ بِاسْتِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَالْحَيَوَانِ، يَنْفِذُ بِصِفَاتِهِ إِلَى أَعْمَاقِ كُلِّ مَوْجُودٍ، خَلَقًا وَإِمْدَادًا، وَعِلْمًا، وَتَصَارِيفَ، خَبِيرٌ عَلَى سَبِيلِ الشُّهُودِ وَالْحُضُورِ بِمَا فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ إِذَا تَأَخَّرَ الْمَطَرُ عَنْهُمْ.

٦٤ - لَهُ كُلُّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ خَلَقًا وَمِلْكًا وَتَدْبِيرًا، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ عِبَادِهِ، الْمَحْمُودُ بِعَظِيمِ صِفَاتِهِ، الَّذِي يَحْمَدُهُ عِبَادُهُ الْمُؤْمِنُونَ، الْحَامِدُ الَّذِي يَحْمَدُ أَهْلَ طَاعَتِهِ مِنْ عِبَادِهِ، وَثِنِي عَلَيْهِمْ، تَكْرِيمًا لأَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةِ الصَّالِحَةِ.

الْبَيْتُ الثَّانِي

سُورَةُ الْحَجِّ

الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾



٦٥ - ألم تر - أيها العاقل البصير - ناظراً إلى آثار صنع ربك الذي أنقن كل شيء، أن الله دَلَّلَ لكم ما في الأرض، كالأحجار والمعادن والنار والحيوان، وكل ما يمكن أن يتفجع به الإنسان، ودَلَّلَ لكم السفنَ الجارية على الماء وفق نظام الطفو الذي قَدَّرَهُ الله في كونه، لِمَنَافِعِكُمْ ومصالحكم، فما يكون لها من سلامة إلا بأمره، وما يكون لها من توفيق وبلوغ إلى غايات أهلها إلا بأمره، وما يكون لها من حركة الرياح عبر الأمواج إلا بأمره، ويُمسِكُ السماء؛ مَنَعُ أن تسقط على الأرض، إلا بأمره ومشيئته، إنَّ الله شديد الرحمة بخلقه، يدفع عنهم المكروه، واسع الرحمة بهم. ومن آثار رافته ورحمته بعباده: تسخير كل ما في الأرض، وتسيير السفن في البحر، وإفساك السموات بدءاً من الغلاف الغازي، فأجرام السماء المشع منها لذاته، مثل النجوم والمجرات، وغير المشع لذاته كالأقمار والكواكب والمذنبات والنيازك، فجميع هذه العوالم تحتفظ بكيانها وتماسكها بقانون الجاذبية، والقوى الناشئة عن الحركة. ومن رافة الله ورحمته بالعباد: أن هيأ للأرض غلافاً غازياً يحمي سكان الأرض من الإشعاعات الكونية، وأسراب الشهب والكواكب التي تحترق في جوها العلوي قبل أن تصل إلى الأرض.

٦٦ - وهو الله تعالى الذي أنشأكم ولم تكونوا شيئاً؛ لِيَتْلِيَكُمْ في ظروف هذه الحياة الدنيا، والمطلوب في هذه الابتلاء أن تشكروا نعمة الله عليكم، وذلك بطاعته وعبادته، ثم يُمِيتُكُمْ عند انقضاء آجالكم، ثم يُحْيِيكُمْ يوم البعث للثواب والعقاب، إنَّ الإنسانَ لكثير الجحود لِنِعْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مع ظهورها وكثرتها.

٦٧ - لكل أهل ملّة وشرع جَعَلْنَا شريعةً هم عاملون بها، ومكاناً مُعَيَّناً وزماناً مُحَدَّداً لأداء الطاعات، فلا يُنَازِعُكَ - يا رسول الله - أهل الأديان الأخرى في شريعتك، وليحذروا من مُخالفتك وعصيانك، وادعُ جميع الناس إلى عبادة ربك وتوحيده والتزام شريعته، إنَّكَ لَعَلَى دين واضح قويم، لا اعوجاج فيه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءٌ وَفٌ رَجِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلَكٌ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذْ أَتَى عَلَىهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمُوسٌ بَشَرٌ مِمَّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

٦٨ - وإنَّ خَاصِمُوكَ فيما تدعوهم إليه مراءً وتعنتاً فلا تُجَادِلْهُمْ، بل قُلْ لَهُمْ: اللَّهُ أَعْلَمُ بما تعملونه من الكفر والتكذيب، والعناد والمكابرة، وما تستحقون على تلك الأعمال من الجزاء بالعدل.

٦٩ - اللَّهُ تعالى يَفْصِلُ بينكم - أيها المؤمنون والكافرون - يوم القيامة، فيما كنتم فيه تختلفون من أمر الدين، فتعلمون حينئذ الحق من الباطل.

٧٠ - ألم تَعْلَمْ - أيها المتفكر في ظاهرات الكون - أنَّ الله المهيمن على كل شيء، والمُتَصَرِّفُ في كل شيء، يعلم كل شيء مهما كان صغيراً غاية في الصغر، ومُستَخْفِياً غاية الاستخفاء، في السماء الشاملة لكل مرتفع عن الأرض علوي، حتى آخر ذي وجود، وفي الأرض حتى آخر طبقة من طبقاتها، اعْلَمْ بأنَّ ذلك العلم الرباني مُسَجَّلٌ في اللوح المحفوظ، واعلم بأنَّ ذلك العلم العظيم، وتسجيل ذلك في كتاب مبين على الله جلَّ جلاله هَيِّنٌ يسيرٌ. وكلُّ شيءٍ على الله يسيرٌ، لأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فهو يكون بأمر التكوين.

٧١ - ويعبدُ المشركون من دون الله ما لم يُنْزَلْ به حُجَّةٌ وبرهاناً من دليل عقلي يُثَبِّت أنَّ الله شريكاً في ربوبيته أو إلهيته، وما ليس لهم به علم من خبر صحيح صادق عن رسول من رُسُلِ الله، يُثَبِّتُ بيقين أنَّ الله شريكاً، إنَّهم فعلوا ما فعلوه عن جهل لا عن علم ولا دليل، وظلموا أنفسهم بوضع العبادة في غير موضعها، واستحقوا أن يكونوا في جهنم دار العذاب يوم الدين، وما للمُشْرِكِينَ من مانع يمنعهم من العذاب المهين.

٧٢ - وإذا تُنْزِلُ على هؤلاء المشركين آيات القرآن حال كونها واضحات مُوضَّحات، تتبيَّن في وجوه الذين كفروا علامات الإنكار والكراهة، يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم آياتنا من القرآن لشدة كراهيتهم سماعه. قُلْ لَهُمْ - يا رسول الله -: أفلا أخبركم بشرُّ لكم وأكْرَه من سَمَاعِ الْحَقِّ ورؤية الداعين إليه، وما هو شرُّ مما أنتم عليه من الغضب والرغبة في البطش والانتقام؟ هي النَّارُ وعدّها الله الذين كفروا في الآخرة، وما فيها من عذاب ونكال أشد من غيظكم وحقدكم على المؤمنين الذين يتلون عليكم آيات الله تعالى، وبشَّ المكان الذي يصيرون إليه النار.

٧٣ - يا أيها الناس ضُربَ مَثَلٌ قَدَّ بَرُّهُ حَقٌّ تَدَّبَّرُوهُ: إِنَّ الأصنامَ التي يعبدُها المشركونَ لَن يَخْلُقُوا ذَبَاباً واحداً في صِغَرِهِ وضعفه وقلته؛ لأنها لا تقدر على ذلك، ولو اجتمعت هذه الأصنامُ لم يقدرُوا على خلق ذبابة على ضعفها وصِغَرها، فكيف يليقُ بالعاقل جعلها معبوداً له؟ وإنْ يأخذ الذبابُ شيئاً ممَّا يَطْلُونُ به الأصنامَ من الطيب والزعفران والعسل لا يَسْتَخْلِصُوهُ منه، ضَعْفُ الطالب، وهو الصنم المعبودُ من دون الله أن يستنقِذَ ما أخذه الذباب منه، وضعف المطلوب الذي هو الذباب. فكيف تُتخذ هذه الأصنامُ آلهة، وهي بهذا الضعف والهوان؟!

٧٤ - ما عَظَّمُوا اللهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ، وما عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، ولا وَصَفُوهُ حَقَّ وَصْفِهِ، حيثُ أشركوا به العاجزين عن خلق الذبابة، وما لا يقدرُونَ على الانتصاف منها إذا سَلَبْتَهُمْ شيئاً ما، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ غَالِبٌ لا يُفْهَرُ.

٧٥ - اللهُ تعالى يختار من الملائكة رُسلًا يحملون رسالته إلى أنبيائه عليهم السلام، ويختارُ الله من الناس رُسلًا لتبليغ رسالاته إلى الخَلْق، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِهِمْ، بصيرٌ بأفعالِهِمْ، لا تخفى عليه خافية، أحاط سمعه وبصره بالأشياء كلها.

٧٦ - يعلمُ سبحانه كلَّ شيءٍ سَبَقَ أن عملوه، وهو الذي بين أيديهم، ويعلمُ سبحانه كلَّ ما سيأتي في مستقبل أمرهم يوم الدين، فهو الذي يكون خلفهم لا يعلمونه، وإلى الله وحده تُرجع أمورهم في الآخرة.

٧٧ - يا أيها الذين صدَّقُوا اللهَ ورسوله: اركعُوا واسجدُوا في صلاتكم، واعبدُوا ربَّكم وحده لا شريكَ له، واكسبُوا بإراداتكم كلَّ عمل قلبيٍّ أو جسديٍّ يُحَقِّقْ لَكُمْ عند الله خيراً باقياً، وسعادةً خالدةً، وثواباً حسناً، ولو كان ذلك العمل شاقاً أو مُضْناً أو مُؤلماً، رغبةً منا في أن تسعدوا وتفوزوا بالجنة.

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُربَ مَثَلٍ فَأَسْتَمِعُوا اللَّهَ إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ مَا يَتَذَكَّرُ فِي دِينِهِمْ وَمَا خَلَفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

٧٨ - وجاهدوا في سبيل الله الجهادَ الحقَّ، الذي لا نفاق فيه، ولا رياء، ولا تقصير، واستغفروا الطاقة فيه بنية صادقة خالصة لله؛ لتكون كلمة الله هي العليا، هو الله الذي اختاركم - أيها المؤمنون - من دون سائر الأمم السابقة لحمل الرسالة الخاتمة، وحملكم وظيفة تبليغ الدين الخاتم للناس أجمعين، وإذا كان التبليغ جزءاً من هذا الدين، فإنه لم يجعل عليكم من حرج في هذا التبليغ، فلم يُحمِّلْكم مسؤولية تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان، ولا من العصيان إلى الطاعة، وما جعل عليكم أيضاً في الدين الذي تعبدكم به ضيقاً لا مخرج لكم ممَّا ابتليتم به، بل وسَّع عليكم، فجعل التوبة في بعض مخرجاً، والكفارة في بعض مخرجاً، والقصاص كذلك، وشرع اليسر في كلِّ شيء، وسَّع دينكم توسعةً مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ، اللَّهُ سبحانه سمَّاكم المسلمين في الكتب القديمة من قبل بعثة النبي محمد ﷺ ونزول القرآن، وفي هذا القرآن سمَّاكم المسلمين، فاعرفوا قدر أنفسكم، ومقدار التبعات الجسام الملقاة على عاتقكم، وقد اختصَّكم الله بهذا الاختيار، وكلَّفكم بواجب البلاغ على الوجه المطلوب منكم؛ ليكون الرسولُ شهيداً عليكم يوم القيامة أن قد بلغكم رسالات ربِّه، وتكونوا شهداء على الناس إذا قمتم بواجبكم، فبلغتم رسالات ربِّكم للناس، وتشهدون يوم القيامة على الأمم أن رسلهم قد بلغتهم، فأقيموا الصلاة المفروضة ولا تضيعوها ولا تنهاونوا بشيء منها، وآتوا الزكاة الواجبة طيبة بها نفوسكم ابتغاء مرضاة الله، فلا تمنعوا شيئاً ممَّا أوجبَ الله عليكم في أموالكم، واعتصموا مُحْتَمِينَ بالله الذي له القوة الغالبة، مجتمعين غير متفرِّقين، ولا مُتَنَازِعِينَ، ولا مُتَبَعِينَ أهواء مصالح دنيوية، هو سبحانه مُتَوَلِّي أموركم وحافظكم وناصركم ومُؤدِّكم بعبادته، ومُزِيلُ الْعَقَبَاتِ مِنْ طَرِيقِ انْسِيَاكُمْ فِي الْأَرْضِ مُبْلِغِينَ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى، ونِعْمَ النَّاصِرُ لَكُمْ، وَمَنْ يتولاه الله لم يضع، وَمَنْ نَصَرَهُ لم يُخْذَلْ، فثقوا بالله تعالى في جميع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه سبحانه.

١ - قد فاز المُصَدِّقون بالله وبرسوله، العاملون بشرعه، بما يريدون، وظفروا بنعيم الآخرة الأبدي، وهم الموصوفون بالأوصاف الستة الآتية:

٢ - **الصفة الأولى:** الذين هم في صلاتهم مُتَذَلِّلُونَ خاضعون، جمعوا بين أفعال القلب؛ كالخُوف والرهبة، وأفعال الجوارح؛ كالسكون وترك الالتفات.

٣ - **والصفة الثانية:** الذين هم عن كلِّ باطل وما لا يُغتدُّ به من الأقوال والأفعال مُعرضون.

٤ - **والصفة الثالثة:** الذين هم لأجل تزكية نفوسهم فاعلون الخير، وللزكاة الواجبة من أموالهم مُؤدُّون، يُطهِّرون نفوسهم وأموالهم بأداء زكاة أموالهم على اختلاف أجناسها للفقراء، والمساكين وذوي الحاجات.

٥، ٦ - **والصفة الرابعة:** الذين هم لفروجهم مُمسكون، من إتيان أحدٍ أنثى أو ذكرٍ شهوةً، إلا قَصْرًا على أزواجهم الحرائر، أو ما مَلَكَت أيمانهم من الإماء والجواري، فإنهم إذا عاشروا زوجاتهم أو إماءهم على الوجه الذي أذن فيه الشرع، فإنهم غير ملومين، أما الإتيان في غير المأثي، وفي حال الحيض والنفاس فإنه محظور، وفاعله ملوم.

٧ - فمن التمس وطلب سوى الأزواج والجواري المملوكة، فأولئك البُعداء العُصاة هم المعتدون المُجاوزون الحدَّ من الحلال إلى الحرام. ويدخل في ذلك الزنى واللواط والسحاق ومواقعة البهائم.

٨ - **والصفة الخامسة:** الذين هم قائمون بحفظ كلِّ ما أُثِّمُوا عليه، مُوفون بما عاقدها الله تعالى والناس عليه؛ كالتكاليف الشرعية،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لَأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْأَرْضَ مِنْهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
خَلَقْنَا النَّظْفَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمَضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا
ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
لَمَعِينُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ
خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

والأموال المُودعة، والأيمان والنذور والعقود ونحوها.

٩ - **والصفة السادسة:** الذين هم على صَلَاتِهِمُ الخمس المفروضة في كلِّ يوم ليلة يُداومون ويُراعون أوقاتها، ويتمون ركوعها وسجودها وسائر شروطها وأركانها، ولا يُخلون بشيء من واجباتها وسُنَنِها وآدابها.

١٠ - أولئك الفضلاء المُتصِفون بتلك الأوصاف هم الوارثون الجنة، هبةً من الله من غير عوض؛ لأنَّ ما يُقدِّمه المؤمنون مهما عَظُمَ لا يُكافئهم نعمة حاسية واحدة من حواسهم التي أنعم الله بها عليهم.

١١ - الذين يَرِثُونَ أعلى الجنات وأفضلها، هم فيها خالدون لا يخرجون منها ولا يموتون، ولا ينقطع نعيمهم ولا يزول.

١٢ - ونؤكد لكم أننا خَلَقْنَا آدمَ من خُلاصةِ سُلْتِ واستخرجت من ماء مختلط بتراب الأرض.

١٣ - ثُمَّ خَلَقْنَا السلالات الإنسانية بعد خلق آدم وزوجه مُتَنَاسِلِينَ من نطفة تستقر في الرَّجْمِ في مُسْتَقَرٍّ مُتَمَكِّنٍ إلى وقت الولادة.

١٤ - ثُمَّ صَيَّرْنَا النُّطْفَةَ قطعة دم جامد، متعلقة بالرحم، فجعلنا الدم الجامد قطعة لحم صغيرة بقدر ما يُضغ، فخلقنا المَضْغَةَ عظاماً، فَسَرْنَا العظام بالعضلات والأغشية التي تغطي العظام، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ مُبَايِنًا لِلْخَلْقِ الأول، بنفخ الرُّوح فيه وتصويره وتسويته بعد هذه الأطوار، فصار إنساناً ذا قوَى وحواس، فتعظم وتقُدَّسَ الله أحسنُ المُصَوِّرِينَ والمُقَدِّرِينَ، وكثر خيره وإحسانه.

١٥ - ثُمَّ إِنَّكُمْ - أيها الناس - بعدما ذُكِرَ من تَمَامِ الْخَلْقِ لَمَيِّتُونَ عند انقضاء آجالكم.

١٦ - ثُمَّ إِنَّكُمْ بعد الموت ومرور المُدَّةِ المُقَدَّرَةِ في البرزخ بين الموت والبعث، تُبعثون من قبوركم للحساب، وفصل القضاء وتنفيذ الجزاء يوم القيامة.

١٧ - ونؤكد لكم أننا خَلَقْنَا فوقكم سَبْعَ سَمَوَاتٍ بعضهنَّ فوق بعض، وما كنَّا عَمَّا خَلَقْنَا من هذا الخلق العظيم بكلِّ ما فيه غافلين، بل نتابع تسييره من أصغر ذرَّةٍ إلى أكبر مجرَّةٍ بعلمنا وقدرتنا.

١٨ - وأنزلنا من السحاب ماءً بمقدار مُحدّدٍ، وتدبير حكيم، بحسب حاجة الخلائق إليه ومصالحهم، فأسكّناه في تجايف الأرض وعلى سطحها في بحيرات عظيّمات وأنهار كبيرة، وكما قدّرنا على إنزاله، نقدر على إذهابه، فلا يستطيع الناس له طلباً مع شدّة حاجتهم إليه.

١٩ - فخلقنا لكم بالماء ضمن نظام الإنشاء المتدرّج تنامياً بساتين من نخيل وأعنان مُتعدّد الأجناس والألوان، لكم في البساتين فواكه كثيرة الأنواع والأشكال سوى النخيل والأعنان، ومنها تأكلون شتاءً وصيفاً.

٢٠ - وأنشأنا لكم - أيها الناس - بهذا الماء أيضاً شجرة الزيتون التي كانت في أصل إنشائها تخرج من أرض طور سيناء المبارك، تثبت مُلتبسةً بالذهن ومصحوبةً به، الذي تدهنون به شعورك وأجسادكم لما فيه من منافع لها، والذي تأكلون منه بمقدار صَبَغ خبزكم، وصَبَغ كثير من أطعمتكم، ولا تأكلون منه كما تأكلون الخبز وغيره من أطعمتكم التي تؤكل وتمضغ.

٢١ - وإنّ لكم - أيها الناس - في الأموال الرّاعية، وهي: الإبل والبقر والغنم، لأمراً عَجَباً إذا تفكّرتُم فيها عرفتم كمال قدرتنا، تُخرج لكم من بطونها حليباً نقيّاً خالصاً من كلّ الشوائب، جارياً في خلوق الشاربين سهلاً لذيذاً، ولكم في الأنعام منافع أخرى كثيرة في اللباس المُتخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ومن النّسل، والركوب عليها، وكما تتنفّعون بها وهي حيّة، فكذاك تتنفّعون بها بعد الذّبح بأكل لحومها وشحومها ودهنها.

٢٢ - وعلى بعض الأنعام تُحملون في البرّ، إذ ذلّلها الله لكم، وهي الإبل والبقر حين تجرّ مراكب تركبونها، وعلى السفن تُحملون في البحر. ويقاس على الإبل والسفن ما توصّل النّاس إليه بإلهام الله سبحانه وتسخيره من مراكب برّية وبحريّة وجويّة.

٢٣ - وأؤكد لكم أننا أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، ما لكم معبود سواه، أفلا تخافون عقابه إذا عبدتم غيره؟

٢٤ - فقال السادة والكبراء الذين كفروا من قومه لجماهيرهم ست مقولات بُغِيّة صدّهم عن الإيمان بنوح وأتباعه: **المقولة الأولى:** ما هذا الذي يدّعي أنه نبيّ يوحى إليه إلا آدمي مثلكم، مُشارك لكم في جميع الأمور، **المقولة الثانية:** يريد أن يطلب الفضل والسيادة عليكم بصفة لا تملكون نظيرها، فيصير متبوعاً وأنتم له تبع، **المقولة الثالثة:** ولو شاء الله أن يرسل رسلاً إلى النّاس يبلّغون عنه دينه لأنزل ملائكة، ولم يرسل رُسلًا بشراً، **المقولة الرابعة:** ما سمعنا بهذا الذي يدعوننا إليه نوح في آبائنا الأولين!! واحتجاجهم بعدم سماع الأخبار لا يقتضي أنّ الأمر الذي لم يسمع خبره غير موجود في الواقع والحقيقة، فاحتجاجهم ساقط، لا يقبل به عاقل، لكنّ ملا قوم نوح حاولوا به إقناع جماهيرهم تضليلاً وإيهاماً وتمويهاً، ويغلب في الأتباع قبول أقوال سادتهم وكبرائهم دون أن يعرضوها على مقاييس الفكر الصحيح، وموازن المنطق السليم.

٢٥ - **المقولة الخامسة:** ما هو إلا رجلٌ به نوع من أنواع الجنون، فهو طالب زعامة وسيادة، مفتون بحبّها، اتّخذ للوصول إليها وسيلة ادّعاء أنه رسول، فهو يصرّ على ذلك، ولن يصل إلى ما يحب، فأصراره على موقفه إصرارٌ مدفوع بدافع من الجنون، **المقولة السادسة:** فانتظروا واصبروا عليه إلى أن يموت، فتستريحوا منه ومن دعوته.

٢٦ - قال نوحٌ عليه السلام في آخر مسيرته الدعويّة لقومه بعد أن يش من إيمانهم واستجابتهم لدعوته: ربّ أعنّي على قومي بإهلاكهم؛ بسبب تكذيبهم إيّاي فيما بلّغتهم من رسالتك.

٢٧ - فاستجبنا دعاءه، وقدّرنا نصره وقضيناه، فأوحينا إلى نوح أن اصنع السفينة بمرأى منا وحفظنا ومراقبتنا الدائمة، وتعليمنا إيّاك صنعها بمهارة صناعية رفيعة، وخبرة عالية، فإذا جاءت مُقدّمات تنفيذ أمرنا بعداب قومك، ورأيت الماء يفيض من الثّور الذي يُخبّر فيه، فأدخل في السفينة بانتظام وإحكام من كلّ نوع من الأحياء التي يهّمك حمْلُهُ زوجين ذكراً وأنثى؛ ليستمر النّسل، وأدخل سائر مَنْ آمَنَ بك، إلّا مَنْ وَجِبَ عليه العذاب من الكفار، ولا تسألني - يا نوح - في رفع العقاب عنهم، فأمرُ إهلاكهم جميعاً صار قضاءً مُبرماً، إغراقاً بالماء مع أنهم في برٍّ آمِن من الغرق بحسب العادة.

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلْكُلِينِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونُ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ بِقَوْمٍ أَعْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يُدْعَى فَإِنْ صَرَحُوا بِهُ حَتَّى جِئْنَا بِقَوْمٍ أَصْحَابِ الْأَعْيُنِ فَأَوْرَثْنَا إِلَيْهِمْ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا إِذْ جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَازِينَ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَحْطِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٢٧﴾

٢٨ - فإذا حَصَلَ لَكَ وَلَمْ يَمَعَكَ الاستقرار الملائم المستوي في السفينة، فاذا ذكر الله بالثناء عليه، واحمده قائلاً: الحمد لله الذي خلّصنا وأنقذنا بتدبيره وعنايته من القوم الظالمين.

٢٩ - وقل: رَبِّ أَنْزِلْنِي - أنا ومن معي - مكاناً مباركاً، وإنزالاً مباركاً، بإنجاتنا من العرق وكثرة الشَّلِّ وتتابع الخيرات بعد الإنجاء، أنت المُنْزِلُ لنا، وأنت خير المُنْزِلِينَ؛ لأنك تحفظ مَنْ أَنْزَلْتَهُ وتكَلِّمُهُ في سائر أحواله، وتدفع عنه المَكَاَرِهَ.

٣٠ - إِنَّ فِي ذَلِكَ الذي ذكر من أمر نوح والسفينة، وإهلاك أعداء الله لِدَلَالَاتٍ واضحات على قُدْرَتنا وحكمتنا في امتحان عبادنا، ومُجَازَاتهم بالعدل وبالفضل، وما كُنَّا إِلَّا مُخْتَبِرِينَ إِيَّاهُمْ بإرسال نوح ووعظِهِ وتذكيرِهِ؛ لِنَنْظُرَ مَا هُمْ عَامِلُونَ.

٣١ - ثُمَّ خَلَقْنَا ضمن نظام الإنشاء المتدرِّج من بعد إهلاك قوم نوح ومرور مدّة زمنية مُتَرَاخِيَةٍ، جيلاً آخر، وهم عاد قوم النبي هود عليه السلام.

٣٢ - فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رسولاً منهم نسباً ولغةً وإقامةً، وهو هُودٌ عليه السلام، فقال لهم: اعبُدوا الله وحده لا شريك له، ما لكم من إله يَسْتَحِقُّ أَنْ تَعْبُدُوهُ إِلَّا هُوَ، واعلموا أَنَّكُمْ إِذَا عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ اسْخَطْتُمْ عَلَيْكُمْ اللهَ رَبَّكُمْ، فأنزل بكم عَذَابَهُ، أَلَّا تَعْقِلُونَ فَتَتَّقُونَ عَذَابَ رَبِّكُمْ يوم الدين، مع ما قد يُعْجَلُ لَكُمْ من عقاب في الدنيا إِذَا عَانَدْتُمْ وَكُنْتُمْ مُفْسِدِينَ مُجْرِمِينَ؟!

٣٣ - وقال الأشراف والوجهاء من قومه، الذين كفروا بالله وبرساله هود عليه السلام، وكذبوا بقاء الحياة الآخرة بعد البعث، ونَعَمْنَاهُمْ وَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمْ من متاع الحياة الدنيا حتى بطروا: ما هذا الذي يَدْعِي أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ مِنْ طَعَامٍ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ مِنْهُ مِنْ شَرَابٍ، فَهُوَ لَا يَصْلَحُ لِأَنْ يَكُونَ

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةَ أَتُوقِنُ أَنَّكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا الْخَلَسْتُمْ عَنْ أَفْعَادِكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٣٤﴾ هَيَّاهُتْ هَيَّاهُتْ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٣٩﴾ فَلَاخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدَ اللَّقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٤١﴾

رسولاً من الله.

٣٤ - ونُقَسِّمُ لَكُمْ بأنكم - أيها الجماهير - إِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ فيما يأمركم به وينهاكم عنه، إِنَّكُمْ حينئذٍ لَخَاسِرُونَ بترككم آلِهَتِكُمْ، وَاتِّبَاعَكُمْ إِيَّاهُ.

٣٥ - أَيْعِدْكُمْ هود وعداً عجيباً مُسْتَعْرَباً، فيذكر لكم أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ، وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً نَخْرَةً بَالِيَةً، أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ من قبوركم أَحْيَاءُ؟!

٣٦ - بعيدٌ بعيدٌ لما تُوعَدُونَ به - أيها القوم - من البعث بعد الموت والحياة الأخرى!!

٣٧ - ما حَيَاتُنَا إِلَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، يَمُوتُ مَنْ يَمُوتُ فِيهَا، وَيَحْيَا مَنْ يَحْيَا فِيهَا فَقَطْ، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بعد الموت إلى حياةٍ أخرى.

٣٨ - وما هُودٌ إِلَّا رَجُلٌ اخْتَلَقَ عَلَى اللَّهِ كَذِباً فِي ادِّعَائِهِ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَلَا بِمُسْلِمِينَ لَهُ.

٣٩ - قال هود عليه السلام في آخر مسيرته الدعوية لقومه، بعد أن يئس من إيمانهم واستجابتهم لدعوته: رَبِّ انصُرْنِي عَلَيْهِمْ بِإِهْلَاكِهِمْ؛ بسبب تكذيبهم إِيَّايَ.

٤٠ - قال الله تعالى مُجِيباً دعوته: بعد زمنٍ قريبٍ أُؤَكِّدُ لَكَ، سَيَصِيرُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ نَادِمِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ، إِذْ يَأْتِيهِمْ عَذَابُنَا فِي الصَّبَاحِ.

٤١ - ونزل بهم عقاب الله في الوقت المُقَدَّرُ لإِهْلَاكِهِمْ، فَأَخَذْتُهُمْ مع الرياح التي أرسلها الله على أرضهم صَيْحَةً الْعَذَابِ الْعَظْمَى بِالْعَدْلِ مِنَ اللَّهِ، فَصَبَّرْنَا هَلْكَى هَامِدِينَ، فَيَسُّوا يَيْسٌ مَا بَلَى وَاشْوَدَّ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ، فَهَلَاكَ وَطَرْدًا مِنْ مَوَاقِعِ تَنْزِلَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

٤٢ - وبعد مرور مدّة زمنية مُتَرَاخِيَةٍ خَلَقْنَا ضمن نظام الإنشاء المتدرِّج من بعد قوم هود، أَقْوَاماً آخَرِينَ، كَأَقْوَامِ صَالِحٍ وَلُوطٍ وَشُعَيْبٍ، وَغَيْرِهِمْ.

٤٣ - ما من أمة يسبق تعذيبها وإهلاكها الأجل المُقدَّر لها، وما من أمة تستطيع بكلِّ وسائلها أن تستأخر تعذيبها وإهلاكها عن الأجل المُقدَّر لها.

٤٤ - وبعد مدة متراخية من الزمن، الذي أهلكنا به قروناً كذبت رسل ربهم، أنشأنا أمةً متعددة، وأرسلنا إليهم رُسُلنا مُتتابعين يتبع بعضهم بعضاً، كلما جاء أمة رسولها كذبوه، فأتبعنا بعضهم بعضاً بالإهلاك، وجعلنا الأمم المكذبة قصصاً وسمراً يتحدث بها الناس تعجباً وتلهياً، فهلاكاً وطرداً من رحمة الله موجهاً لقوم ليس لديهم استعداد لأن يؤمنوا ويستجيبوا للدعوة الحق، مهما أهملوا، إذ بلغوا إلى دركة ميؤوس منها أن يؤمنوا عن طريق إراداتهم الحرّة.

٤٥، ٤٦ - وبعد مدة متراخية من الزمن أرسلنا موسى وأخاه هارون مَصحوبين بآياتنا الإعجازية والبيانية والجزائية العظيمة، وبحجة بيّنة دامغة، ومعجزة ظاهرة، كالعصا واليد وغيرهما إلى فرعون ملك مصر وأشراف قومه، فاستكبروا عن الإيمان، وكانوا قوماً متطاولين على الناس، قاهرين لهم بالظلم.

٤٧ - فقال فرعون وقومه: أنؤمن بما دعا إليه موسى وهارون، منقادين لهما، وقومهما بنو إسرائيل لنا مطيعون مُتذلّلون مُسخّرون لخدمتنا؟

٤٨ - فكذبوهما استكباراً وعناداً، فكانوا من المُهلكين بالفرق.

٤٩ - ونقسم لكم مُؤكّدين - أيها الناس - أننا آتينا موسى التّوراة؛ رغبة في أن يهتدي بنو إسرائيل بها إلى الحق.

٥٠ - وجعلنا عيسى ابن مريم وأمه دلالة على قدرتنا، وجعلناهما بألطف مقاديرنا يأويان إلى مكانٍ مرتفع مُستوٍ واسع، ذات موضع صالح للسكن والطمأنينة والاستقرار، وذات ماء جارٍ مُتجدّد، تراه العيون، ويسهل تناوله.

٥١ - يا أيّها الرُّسل كُلُّوا من الطّيّبات التي أحللتها لكم، واستقيموا على ما يوجِبُه الشَّرْع، واحذروا مُخالفة أمري، فإنّي بكلِّ ما تعملون عليمٌ، لا يخفى عليّ شيءٌ من أعمالكم.

٥٢ - وإنّ هذه أُنْتكم - يا معشر الأنبياء - من عهد آدم حتى بعثة آخر المرسلين محمد ﷺ هي أمة ربّانية واحدة، وليس كلُّ واحدٍ منكم رسولاً لأمةٍ خاصّةٍ منفصلةٍ عن سائر الأمم، فالدين عند الله الإسلام، وكلُّ مكلفٍ مطلوبٌ منه أن يكون واحداً من هذه الأمة الربّانية الواحدة، وعلى كلّ قوم جاءهم رسولٌ أن يؤمنوا بجميع أنبياء الله ورسله، دون تفريق بين أحدٍ منهم، وأنا ربُّكم جميعاً لا شريك لي في الربوبية والإلهية، فاعبدوني متّقين في عبادتكم سخطي وعقابي، وما يمكن أن تجنوه لأنفسكم من شرٍّ وضُرٍّ في الحياة الدنيا بسبب معصيتي وترك عبادتي.

٥٣ - فقطّعوا أمر دينهم قطعاً متفرّقةً خارجةً عن صراط الأمة الربّانية، وجعلوه أدياناً مختلفة، عقب بعثات الرسل عليهم الصلاة والسلام، فلم يطل أمر اجتماعهم، على ما جمعهم عليه رسلهم، فصاروا يهوداً ونصارى ومجوساً، وغير ذلك من الأديان المختلفة، والأحزاب المتعادية، كلّ حزب بما لديهم من باطلٍ مسرورون، مُعجبون بما عندهم من مبادئ ومنهاج حياة.

٥٤ - فاتركهم - يا رسول الله - في جهالتهم وضلالتهم الغامرة لهم من كلّ جوانبهم إلى أن ينزل العذاب بهم، ولا تُضع جهدك ووقتك معهم، ولا تشغل نفسك بدعوتهم، لأنهم وصلوا إلى حالة ميؤوس منها.

٥٥، ٥٦ - أظنُّ هؤلاء الكفار أنّ ما نُعطيهم، ونجعل لهم مددًا من المال والبنين في الدنيا، نُعجل في منحهم ما يحبّون من الخيرات، ونُقدّمه ثواباً لأعمالهم لمرضاتنا عنهم؟ لا تسارع لهم به فيما فيه خيرهم وإكرامهم، بل لا يشعرون أنّ ذلك استدراج لهم عاقبته الهلاك.

٥٧ - إنّ المؤمنين بما هم عليه من خوف مصحوب بتعظيم وإجلال لله عزّ وجل، حذرون خائفون دوماً من عقابه.

٥٨، ٥٩ - والذين هم بآيات ربهم البينية في القرآن الكريم يصدّقون، ويعملون بها، والذين هم يخلصون العبادة لله وحده، ولا يشركون به غيره.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا
كُلَّ مَاجَاءٍ أُمَّةٍ رُسُلُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ فَبِعَدَا الْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ
هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمَهُمَا لَنَا عِبَدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنْ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
ابْنَ مَرْيَمَ وَآمَةَ هَايَةَ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ
﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ
فَاتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ
فِرْحُونٌ ﴿٥٣﴾ فَذَرُّهُمْ فِي غَمَرِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيْخَسِبُونَ أَنَّمَا
نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ سُبَّاحٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرِ بَلَّ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

٦٠ - والذين يُعْطُونَ ما أَعْطَوْا من الزكاة والصَّدَقَاتِ، ويعملون ما عملوا من أعمال البرِّ، والحال أنَّ قلوبهم خائفةٌ من التقصيرات في أداء الواجبات، وترك المُحَرَّمَاتِ، ومن عدم الإخلاص المطلوب فيما يفعلون وفيما يتركون، ويضعون نُصْبَ أعينهم أنهم إلى ربِّهم وحده راجعون يوم القيامة، فيُجازي كلَّ إنسان بما عمل.

٦١ - أولئك الفضلاء ذوو المنزلة والمكانة الرفيعة يُادرون إلى الأعمال الصَّالحة، وهم لصالحات الأعمال الزائدة على فعل الواجبات، وترك المُحَرَّمَاتِ سابقون إليها، ولأجلها سابقون غيرهم في درجات القُرب من الله عزَّ وجلَّ.

٦٢ - ولا تُكَلِّف نفساً إلا ما يسع قدرتها على العمل، بحيث لا يستغرق العمل أَقصى قدرتها، وقد أثبتنا عمل كلِّ عامل في كتابِ عملِهِ الذي يكتبه الحَفَظَةُ، فهو ينطق بالصدِّق ويُبَيِّنُه، ولا يُنقص من حسناتهم، ولا يُزاد على سيئاتهم.

٦٣ - بل قلوب هؤلاء الكفرة المعاندين مغمورةٌ في متاع الحياة الدنيا وزينتها، فلا حركة لها إلا فيما هي مشغولةٌ مغمورةٌ فيه، لا تعي ما يردُّ عليها من الخارج من مواعظ ومذكرات من هذا القرآن، ولهم مع شركهم أعمالٌ خبيثة من المعاصي والخطايا، هم لتلك الأعمال الخبيثة عاملون، وعليها مقيمون، لا يتركونها حتى يأخذهم الله بالعذاب.

٦٤ - حتى إذا عاقبنا أهل النعمة والبَطَر منهم بالعذاب المُهِين في الآخرة، يفاجئون بأن يرفعوا أصواتهم مستغيثين داعين أن يرفع الله عنهم العذاب.

٦٥ - فيقال لهم: لا ترفعوا أصواتكم مُستغيثين لكشف العذاب عنكم، إنكم لا ينالكم منا نصرةٌ تنجيكم ممَّا أنتم فيه، ولا ينفعكم تضرعكم.

٦٦ - قد كانت آياتُ القرآن تُثَلِّى عليكم، فكنتم ترجعون وراءكم، مُؤلِّين عن سماع الآيات، كفرأ بها، وتكذِّباً لرسولي الذي بُلِّغها.

٦٧ - مُتَكَبِّرِينَ على الرسول ومستهزئين به، وكنتم تستمتعون في

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكُلِفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
عَمِلُونَ ﴿٦٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٥﴾
لَا يُخَفِّرُونَ وَلَا يُؤْمِنُونَ أَنَّهُمْ مِّنَّا لَنَنْصُرُونَ ﴿٦٦﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي
تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِرُ كُصُونَ ﴿٦٧﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
بِهِ سَعَرَ أَتَهَجَّرُونَ ﴿٦٨﴾ أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا أَلْفَ أَمْجَاءَ هُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ
آبَاءَهُمْ إِلَّا زَلِيلِينَ ﴿٦٩﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٧٠﴾
أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ
كَذِبُونَ ﴿٧١﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ
ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٢﴾ أَمْ سَأَلْتَهُم خَرْجًا فَأَخْرَجَ رِيكَ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٤﴾
وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّ ﴿٧٥﴾

مجالس سَمَرَكُم بالطعن بالقرآن والرسول بالأقوال القبيحة والسيئة.

٦٨ - أَنْطَمَسَتْ بصائرهم وعقولهم بغشاوات من أهوائهم وشهواتهم، فلم يَتَذَبَّرُوا ما جاءهم من القرآن، فيعتبروا بما فيه من الدلالات الواضحات على صدِّق محمد ﷺ، بل: أجاءهم من دين ربِّ العالمين ما لم يَأْتِ آبَاءَهُم الأولين، إنهم إذا ادَّعوا هذا فهم كاذبون، فقد سَبَّقَ أن جاءهم رسولان كريمان هما: إبراهيم وابنه إسماعيل، واستمرَّ دين الله هو السائد في مكة، حتى غَيَّرُوا وعبدوا الأوثان؟

٦٩ - بل: ألم يعرفوا رسولهم محمداً ﷺ صغيراً وكبيراً، وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته وحُسْنَ أخلاقه؟ لقد عرفوه بهذه الصفات والكمالات، فهم له مُنْكَرُونَ بَغْيًا وحَسَدًا؟!

٧٠ - بل: أيقولون به جنون؟ وقد كانوا يعرفون أنه أرجح الناس عقلاً، وأثبتهم رأياً. ليس الأمر كما زعموا في حقِّ القرآن والرسول، بل جاءهم بالصدِّق الثابت الذي لا مُحِيدَ عنه، والقول الذي لا تخفى صحَّته وحُسْنه على عاقل، وأكثرهم للحقِّ كارهون؛ لأنه يصادم أهواءهم وشهواتهم ومصالحهم الخاصَّة.

٧١ - ولو أَتَبَعَ اللَّهُ الحقَّ مُرَادَهُم فيما يفعل، لَفَسَدَتِ السموات والأرض ومن فيهنَّ، من ملائكة وإنس وجن، لكنَّ الله الحقَّ لا يمكن أن يَتَّبِعَ أهواء النَّاسِ، بل يختار بحكمته لكلِّ شيء ما يُحَقِّقُ صلاحه، ويمنع عنه الفساد، وكذلك فيما يختاره من أحكام الدين وشرائعه، بل أثبتناهم بالقرآن الذي فيه شرفهم وفخرهم. فهم عن القرآن ذي الشرف والشأن العظيم، الذي يجب أن يكون ذكراً في ألسنتهم وقلوبهم وعقولهم معرضون لا يبالون به، ولا يتتبعون بما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم.

٧٢ - بل أتسألهم - يا رسول الله - على تبليغ الرسالة وتعليمهم وهدايتهم أجراً؟ إنك لم تسألهم مالاَ تفرضه عليهم؛ لأنك على يقين بعبء ربِّك الذي أعدَّه لك، خيرٌ من كلِّ مال يجمعه الجامعون، وأما رزقك الذي تحتاج إليه في الحياة الدنيا، فالله هو الذي يرزقك، وهو خير من يعطي ويرزق، وهو الرَّاِزِقُ الحقيقي الذي لا رازق سواه، فإياه فاسأل، ومنه فاطلب، واستعن بطاعته على تَيْلُّ ما عنده من خيري الدنيا والآخرة.

٧٣، ٧٤ - وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ - يا رسول الله - إلى دين الإسلام، وإنَّ الذين لا يُصَدِّقُونَ بالبعث والجزاء والثواب والعقاب، عن دين الحقِّ لماثلون إلى غيره من سُبُلِ الأهواء والشهوات والضلالات التي ينزلق فيها سالكوها إلى عذاب النار.

٧٥ - ولو رَجَمْنَاهُمْ فَأَزَلْنَا عَنْهُمْ مَا يُعَانُونَ مِنْ قَحْطٍ وَجُوعٍ، لما تابوا إلى بارئهم، بل لثبوا ملازمين كفرهم وعنادهم، ولا استمروا يترددون متحيرين، مُنْطَمِسي البصيرة.

٧٦ - ونؤكد لكم أننا أخذنا كَفَّار قريش بالقحط والجوع، فما ذلُّوا ولا خَضَعُوا لربِّهم، وانقادوا له وأطاعوه، وما يتذللون داعين أن يزيل الله عنهم ما أنزل بهم من عذاب، بل مضوا على تمردهم.

٧٧ - حتى إذا فَتَحْنَا عليهم باباً من أبواب العذاب الشديد، إذا هم فيه آيسون من كل خير، ساكتون من شدة الحيرة.

٧٨ - والله الذي خلق لكم من العدم وَفَقَّ نظام الإنشاء المُتَدَرِّج، مراكز السَّمْع لِتَسْمَعُوا، ومراكز إدراك المراثيات لِتُبْصِرُوا، ومراكز فهم الأمور والقضايا؛ لِتَفَكِّرُوا وتأمَّلُوا وتستنتجوا، وهذه الأجهزة تتطلب منكم أن تشكروا بارئكم عليها بالإيمان به، وبفعل ما يأمركم. قليلاً جداً ما تشكرون؛ لأنكم تؤثرون تلبية أهوائكم وشهواتكم من الحياة الدنيا.

٧٩ - والله سبحانه الذي خلقكم عن طريق الذرية وبثكم بالتناسل في الأرض. وإلى حسابه، وفصل قضائه، وتحقيق جزائه وحده، تُجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

٨٠ - والله وحده الذي يُحيي ويميت، بفضل الروح عن ذي الحياة، وله وحده كل ما يجري من مُختلفات في الليل والنهار تقديراً وخلقاً وفعلًا، أسَلَبْت منكم عقولكم فأنتم لا تعقلون حقائق الأمور، وضعفت إرادتكم فأنتم لا تملكون أن تعقلوا نفوسكم عن أهوائها وشهواتها؟

٨١ - بل أصرَّ كَفَّار مكة على موقفهم العنادي الجحودي في إنكار يوم الدين. ومقاتلهم بشأن التكذيب بيوم الدين مُماتلة لمقالة كَفَّار الأولين الذين أهلكهم الله، إذ لم يجد هؤلاء ولا أولئك ذريعة فكرية يتكئون عليها، فلجؤوا إلى توجيه الاستهزام التعجبي الاستغرابي الاستبعادي، الذي عبَّروا به عن إنكارهم وتكذيبهم بأنباء يوم الدين.

٨٢ - قالوا: أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَماً أَلْنَا لَمُخْرَجُونَ إِلَى الْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى؟! إنَّ هذا الأمر مُسْتَكْرَرٌّ جداً، ولا يمكن أن يُصدَّق.

٨٣ - نؤكد أننا وَعَدْنَا هذا الوعد، وَوَعَدَ آبَاءُنَا قَوْمَ ذِكْرًا أَنَّهُمْ رسل الله، وقد مرَّت القرون العديدة والمديدة، دون أن يأتي يوم البعث هذا. ما نبأ الحياة بعد الموت للحساب، وَفَضْلُ الْقَضَاءِ، وتنفيذ الجزاء إلا أكاذيب وأباطيل الأولين.

٨٤ - قل لهم - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - إلزاماً للحُجَّة على أنه سبحانه قادرٌ على البعث، وأنه الذي يستحي أن يُعبد وحده: لِمَنْ الأرض وَمَنْ فِيهَا خلقاً وتديراً وعنايةً وإمداداً بعباءات ربوبيته، إن كنتم تعلمون خالقها ومالكها ومُدبرها؟

٨٥ - فسيقولون لمُناظرهم مُستقبلاً بعد إسقاط ذرائعهم وإقامة الحُجَّة عليهم: لِلَّهِ الأرض وَمَنْ فِيهَا، وليس لأحد سواه مِلْكٌ في شيء منها، ولا تصرف فيه. قل لهم - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - إذا أقروا بذلك: أفلا تضعون في ذاكرتكم هذه الحقيقة، فيدفعكم هذا التذكير إلى تَبْذِئ الشُّرْك دوماً، وعبادة الله وحده؟

٨٦، ٨٧ - قل لهم - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - : مَنْ الذي له أمر متابعة التدبير والتصريف للمُتَغَيَّرَات المُسْتَمِرَّة في السَّمَوَات السَّبْع وفي العرش العظيم الذي هو أعظم المَخْلُوقَات وأعلاها، وَلِمَنْ يرجع مِلْكُهَا؟ سيقولون مُستقبلاً بعد إقامة الحُجَج والبراهين عليهم: لله ربوبية السموات السبع والعرش العظيم، وهو مالِكُهَا. قل لهم - يا رسول الله - : أفنصرون على موقفكم الباطل، فلا تجعلون بينكم وبين عذاب ربكم وقايةً تقيكم، بنبذ عقائدكم الشركية، والإيمان بالله وحده لا شريك له؟!

٨٨، ٨٩ - قل لهم - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - : لمن تنسبون التصرف بِمِلْكٍ شاملٍ لكلِّ شيء في الكون، فله العزَّة والسلطان دون منازع ولا ند ولا مشارك، وهو الذي له الْقُدْرَةُ الْكَامِلَةُ على حماية من احتذى به، من استجار به فأجاره كفاه وحماه، ومن أراد به سوء فإنه لا يجد بعد الله أحداً يُؤمِّنه فيكفيه أو يحميه أو يدفع عنه، إن كنتم تعلمون حقيقة هذا السؤال فأجيبوا؟ سيقول مَنْ لديه استعداد للإيمان بالحق منهم بعد إقامة الحُجَج والأدلة البرهانية: لله عزَّ وجلَّ وحده ملكوت كل شيء، ولا تملك الآلهة التي اتخذناها من دون الله التصرف في أحداث الكون، وليس لها أي حكم أو سلطان. قل لهم - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - : فكيف تخضعون لتأثير سحر الشياطين لكم بالآوهام والوساوس وجيل الأفكار الباطلة، فتتبعونهم، فتعبدون مع الله آلهة من دُون الله، وتؤمنون بأنها شركاء لله في بعض خصائص ربوبيته وحكمه وسلطانه؟!

الْمِيزَانُ

سُورَةُ الْهُنُوتِ

وَلَوْ رَجَمْنَاهُمْ فَأَزَلْنَا عَنْهُمْ مَا يُعَانُونَ مِنْ قَحْطٍ وَجُوعٍ، لَمَا تَابُوا إِلَى بَارِئِهِمْ، بَلْ لَثَبُوا مَلَاذِمِينَ كُفْرَهُمْ وَعِنَادَهُمْ، وَلَا اسْتَمَرُّوا يَتَرَدَّدُونَ مُتَحِيرِينَ، مُنْطَمِسي الْبَصِيرَةِ.

وَنُؤَكِّدُ لَكُمْ أَنَّنَا أَخَذْنَا كَفَّارَ قَرِيْشٍ بِالْقَحْطِ وَالْجُوعِ، فَمَا ذَلُّوا وَلَا خَضَعُوا لِرَبِّهِمْ، وَانْقَادُوا لَهُ وَأَطَاعُوهُ، وَمَا يَتَذَلَّلُونَ دَاعِينَ أَنْ يَزِيلَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ، بَلْ مَضَوْا عَلَى تَمَرْدِهِمْ.

حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، إِذَا هُمْ فِيهِ آيْسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، سَاكِتُونَ مِنْ شِدَّةِ الْحَيْرَةِ.

وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ وَفَقَّ نِظَامَ الْإِنشَاءِ الْمُتَدَرِّجِ، مَرَكَزَ السَّمْعِ لِتَسْمَعُوا، وَمَرَكَزَ إِدْرَاكِ الْمَرَاثِيَّاتِ لِتُبْصِرُوا، وَمَرَكَزَ فَهْمِ الْأُمُورِ وَالْقَضَايَا؛ لِتَفَكِّرُوا وَتَتَأَمَّلُوا وَتَسْتَنْتِجُوا، وَهَذِهِ الْأَجْزَاءُ تَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا بَارِئَكُمْ عَلَيْهَا بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَبِفِعْلِ مَا يَأْمُرُكُمْ. قَلِيلًا جَدًّا مَا تَشْكُرُونَ؛ لِأَنَّكُمْ تَوْثِرُونَ تَلْبِيَةَ أَهْوَائِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ عَنْ طَرِيقِ الذَّرِيَّةِ وَبَثَّكُمْ بِالتَّنَاسُلِ فِي الْأَرْضِ. وَإِلَى حِسَابِهِ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَحْقِيقِ جَزَائِهِ وَحَدِهِ، تُجْمَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ تَفَرُّقِكُمْ.

وَاللَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، بِفَضْلِ الرُّوحِ عَنْ ذِي الْحَيَاةِ، وَلَهُ وَحْدَهُ كُلُّ مَا يَجْرِي مِنْ مُخْتَلِفَاتٍ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ تَقْدِيرًا وَخَلْقًا وَفِعْلًا، أَسْلَبْتَ مِنْكُمْ عُقُولَكُمْ فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ حَقَائِقَ الْأُمُورِ، وَضَعَفْتَ إِرَادَتَكُمْ فَأَنْتُمْ لَا تَمْلِكُونَ أَنْ تَعْقِلُوا نَفُوسَكُمْ عَنْ أَهْوَائِهَا وَشَهَوَاتِهَا؟

بَلْ أَصْرَّ كَفَّارُ مَكَّةَ عَلَى مَوْقِفِهِمُ الْعِنَادِيِّ الْجُحُودِيِّ فِي إِنْكَارِ يَوْمِ الدِّينِ. وَمُقَاتِلَتُهُمْ بِشَأْنِ التَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الدِّينِ مُمَاتِلَةٌ لِمَقَالَةِ كَفَّارِ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ، إِذْ لَمْ يَجِدْ هَؤُلَاءِ وَلَا أُولَئِكَ ذَرِيعَةً فِكْرِيَّةً يَتَكَوَّنُونَ عَلَيْهَا، فَلَجَّؤُوا إِلَى تَوْجِيهِهِ السِّتْهَامِ التَّعْجِيبِيِّ السِّتْغَرَابِيِّ السِّتْبَعَادِيِّ، الَّذِي عَبَّرُوا بِهِ عَنْ إِنْكَارِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ بِأَنْبَاءِ يَوْمِ الدِّينِ.

٩٠ - إِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ كَمَا يَدَّعِي الْمُشْرِكُونَ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ فِيمَا بَعَثْنَا بِهِ الرَّسُولَ ﷺ بِالْحَقِّ الثَّابِتِ، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ لَكَاذِبُونَ فِيمَا يَدَّعُونَ مِنَ الشَّرِكَ وَالْوَلَدِ.

٩١ - مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ كَمَا يَزْعُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ مَعْبُودٍ بِحَقٍّ، وَلَا يَكُونُ أَوَّلًا، فَلَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ مَا، لَهُ حَقُّ الْعِبَادَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لَكَانَ لَهُ مُشَارَكَةٌ لِلَّهِ فِي رَبُوبِيَّتِهِ فِي الْكُونِ، وَلَوْ كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَلْهَةِ الْمَزْعُومَةِ مُشَارَكَةٌ لِلَّهِ فِي رَبُوبِيَّتِهِ، إِذَا لَا تَفْرَدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَلْهَةِ بِخَلْقِهِ الَّذِي خَلَقَهُ، وَلَمْ يَرْضَ أَنْ يُضَافَ خَلْقُهُ وَإِنْعَامُهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَمَنْعَ كُلِّ إِلَهٍ الْآخَرِ عَنِ الْاِسْتِثْلَاءِ عَلَى مَا خَلَقَهُ هُوَ، وَلَطَلَّبَ بَعْضُهُمْ مِغَالِبَةَ بَعْضٍ، فَيُخْتَلُ نِظَامُ الْكُونِ، لَكِنَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَحْدِثْ، بَلِ الْكُونُ كُلُّهُ خَاضِعٌ لِنِظَامٍ وَاحِدٍ، وَسُلْطَانٍ وَاحِدٍ، فَلَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا سُلْطَانَ إِلَّا اللَّهُ، تَنَزَّهَ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ إِثْبَاتِ الْوَلَدِ وَالشَّرِكَ.

٩٢ - اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَالِمُ الْغَيْبِ مِمَّا غَابَ عَنْ ذَوِي الْإِدْرَاكِ مِنْ خَلْقِهِ، وَعَالِمُ الشَّهَادَةِ مِنَ الْأَكْوَانِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، فَلَا يَغِيبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ، تَعَالَى وَتَرَفَّعَ وَتَسَامَى مِنْ أَنْ يُوصَفَ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَعَمَّا يَشْرِكُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ جَمِيعًا.

٩٣، ٩٤ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - : يَا رَبِّ إِنْ تَكْرَمْنِي فَتَجْعَلْنِي أَرَى مَا أَكْدَتَ لِي أَنْ تُرِينِي إِيَّاهُ مِنْ إِنْزَالِ نَفْعَتِكَ بِمَنْ عَادَانِي، وَاضْطَهَدَ الَّذِينَ آمَنُوا بِي، فَأَخْرِجْنِي قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ مَجْتَمِعِهِمْ، فَلَا تَنْزِلْ عِقَابَكَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا مُوجُودٌ فِيهِمْ.

٩٥ - اطْمَئِنَّ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - فَسَتَرَى هَزِيمَتَهُمْ وَخَزِيرَهُمْ، وَإِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ تُرِيكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مَا نَعْدُكَ مِنَ الْعَذَابِ.

٩٦ - ادْفَعْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ وَبِأَكْلِ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ - مَنْ يَرِيدُ مَقَاوِمَ دَعْوَتِكَ بِمَا يُضْرِكُ أَوْ يُؤْذِيكَ، وَيَقْبَلُ عَلَيْكَ بَشَرًا، بِالْخَصْلَةِ الَّتِي هِيَ

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سَبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعْدُكَمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِنْ الشَّيْءِ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٣﴾

أَحْسَنَ، مَنْ خُلِقَ أَوْ قَوْلٌ أَوْ عَمَلٌ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَكَ بِهِ فِي شَتَائِمِهِمْ وَأَتِهَامَاتِهِمُ الْبَاطِلَاتِ، وَتُدَبِّرُ بِحِكْمَتِنَا مَا يَلْزَمُ لِنَنْصُرَكَ عَلَى أَعْدَائِكَ.

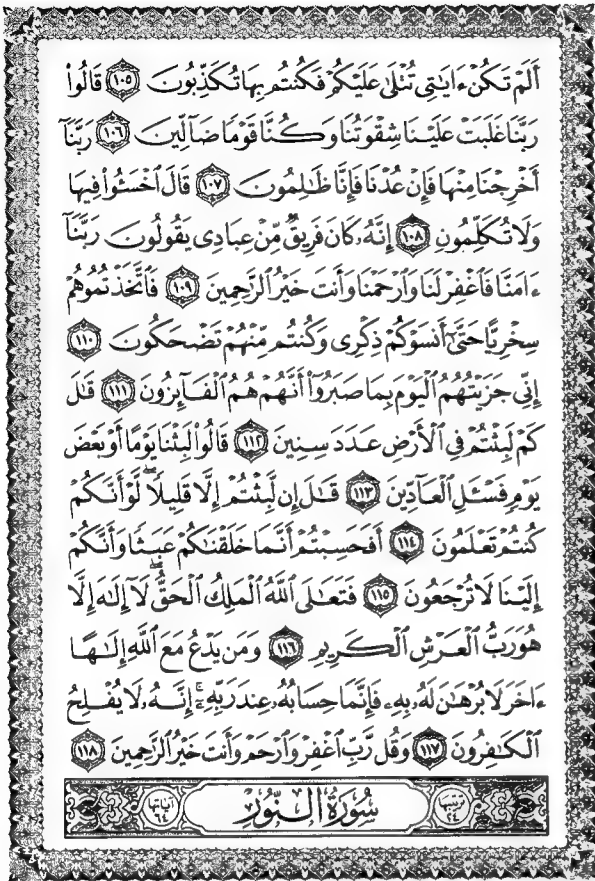
٩٧، ٩٨ - وَقُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ وَبِأَكْلِ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ - بِحُضُورِ قَلْبٍ وَهَمَّةٍ نَفْسِيَّةٍ صَادِقَةٍ: يَا رَبِّ أَمْتَنُ وَأَعْتَصِمُ بِكَ أَنْ تَحْمِيَنِي وَتَحْفَظْنِي مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيَاطِينِ وَخَطَرَاتِهِمْ الَّتِي يَخْطَرُونَهَا بِالْقَلْبِ، مِمَّا يُغْرِي بِالْمَعَاصِي وَالشُّرُورِ، وَأَمْتَنُ وَأَعْتَصِمُ بِكَ - يَا رَبِّ - أَنْ يَحْضُرُونِي فِي أَيِّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِي.

٩٩، ١٠٠ - حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ الْبَعْثَ، مُقَدِّمَاتِ الْمَوْتِ، وَبَعْضُ مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ، قَالَ مُسْتَجِدًّا مُتَذَلِّلًا: يَا رَبِّ رُدُّونِي إِلَى الدُّنْيَا، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا يَرْضِيكَ فِيمَا تَرَكْتُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. كَلَّا لَا يَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا، فَقَدْ فَاتَ الْأَوَانُ، وَانْتَهَى زَمَنُ الْاِمْتِحَانِ؛ إِنَّ مَسْأَلَةَ الرَّجْعَةِ كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا لَا يَنْالُهَا، وَمِنْ وَرَاءِ الْمَوْتِ وَمَشَاهِدَاتِهِمُ الَّتِي يَشْهَدُونَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَعَقْبَهُ، حَاجِزٌ يَسْتَمِرُّ زَمَنُهُ إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ؛ لِيَلَاقُوا أَحْدَاثَ يَوْمِ الْجَزَاءِ الْأَكْبَرِ.

١٠١ - فَإِذَا نَفَخَ إِسْرَافِيلُ فِي «الْقُرْنِ» نَفْخَةَ الْبَعْثِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْبَرْزَخِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، خَرَجَ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ، فَلَا يَتَفَاخَرُونَ بِالْأَنْسَابِ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ، وَلَا تَنْفَعُهُمْ أَنْسَابُهُمْ شَيْئًا؛ لِعِظَمِ الْهَوْلِ وَاشْتِغَالِ كُلِّ نَفْسٍ، وَلَا يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ عَيْتِهِ، أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ شَيْئًا.

١٠٢، ١٠٣ - فَمَنْ ثَقُلَتْ مَقَادِيرُ أَعْمَالِهِ الْمَوْزُونَةِ بِأَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ، فَأُولَئِكَ الْفُضَّلَاءُ رَفِيعُوا الْمَنْزِلَةَ، هُمُ الْفَائِزُونَ بِالْجَنَّةِ الْمُتَعَمِّمُونَ فِيهَا، وَمَنْ خَفَّتْ مَقَادِيرُ أَعْمَالِهِ الْمَوْزُونَةِ بِأَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ، وَأَعْظَمَهَا الشَّرْكَ، فَأُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، يُعَذَّبُونَ فِيهَا بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ، وَأَشْدُّهَا عَذَابُ الْحَرِيقِ.

١٠٤ - تَمَسُّ النَّارُ وَجُوهَهُمْ، وَسَائِرَ أَجْسَادِهِمْ، فَتُحْرِقُهَا إِحْرَاقًا غَيْرَ مُنْضِجٍ لِلْحُومِهَا وَعِظَامِهَا، وَهُمْ فِي جَهَنَّمَ عَابِسُونَ، وَقَدْ بَدَتْ أَسْنَانُهُمْ، وَتَقَلَّصَتْ شَفَاهُهُمْ.



١٠٥ - يقول الله تعالى للكفار وهم يعذبون في النار: ألم تكن آياتي البينّة المنزلة تُثبّتي عليكم من قِبَل رسولي، أو من قِبَل مبلّغي رسالته، فكنتم يومئذ تكذبون بها؟

١٠٦ - قالوا: ربّنا غلبت على إرادتنا ضلالتنا التي أتبعنا بها أهواءنا وشهواتنا، وكُنّا في حياة الامتحان قوماً ضالّين عن الهدى.

١٠٧ - ربّنا أخرجنا من الثّار، وأرجعنا إلى الدنيا؛ لنستأنف رحلة امتحاننا في الدنيا، ونعمل صالحاً، فإنّ عُذنا إلى الكفر والتكذيب فإنّا ظالمون لأنفسنا ظلاماً من أخس الدركات، ونستحقّ الخلود في عذاب جهنّم.

١٠٨ - قال الله عزّ وجلّ لهم: كونوا صاغرين أذلاء مُبتعدين من واسع رحمتي، تُعذبون في جهنّم، ولا تُكلموني في رفع العذاب عنكم، فإنّي لا أرفعه عنكم.

١٠٩ - إنّهُ كان فريقٌ من عبادي المؤمنين الذين وضعتهم في الحياة الدنيا موضع الامتحان، يقولون: ربّنا آمنا بما أُوحيت علينا أن نؤمن به، إيماناً صحيحاً صادقاً، ولكنّا ارتكبنا خطايا، فاشترّ ذنوبنا، وارحمنا برحمتك الواسعة، وأنت خيرُ الراحمين.

١١٠ - فأتخذتموهم - أيّها الجهنميّون - وأنتم في حياة الابتلاء مسخوراً منهم، لتردوهم إلى الكفر، حتى أنساكم انشغالكم بالاستهزاء بهم ذكري، وكنتم منهم تضحكون استهزاء بهم.

١١١ - إني بعفوي ورحمتي، جزيّتهم اليوم الفوز بالجنّة؛ بسبب صبرهم على أذاكم واستهزائكم بهم في الدنيا.

١١٢ - قال الله تعالى للكفار يوم البعث: كم لبثتم في الأرض عدّة سنين بين الموت والبعث؟

١١٣ - قالوا: أقمنا بحسب تصوّرنا، يوماً أو بعض يوم؛ لأننا كنّا

فاقدين الإحساس بمرور الزمن، فاسأل الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم ويحسونها عليهم.

١١٤ - قال الله تعالى: ما لبثتم مهما طال زمن مُكنكم موتى في باطن الأرض، إلا زمناً قليلاً في جنّب ما تمكثون في الآخرة، وأنتم كنتم قادرين على إدراك هذه الحقيقة في حياة الامتحان، لو أنّكم كنتم تعلمون بأنكم مبعوثون ومُجازؤون جزاء خالداً في أزمان لا نهاية لها.

١١٥ - أفقدتم قدرات التفكير التي خلقتُها فيكم، وحكمتم أهواءكم وشهواتكم، فتوهّمتم أنّما خلقناكم لعباً وباطلاً دون حكمة، وتوهّمتم أنّكم إلينا لا تُرجعون في الدار الآخرة للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء؟!

١١٦ - فتعالى الله وارتفع بعظمته وتنزّه عن أن يخلُق عبثاً، هو الملك للوجود كلّ، الحقّ الثابت الذي لا معبود بحقّ إلا هو، ربّ العرش الكريم؛ أعظم المخلوقات وأعلاها، الجامع لكلّ صفات الكمال الملائمة لخلقه فوق السموات السبع، ومحيطاً بها.

١١٧ - ومنّ يعبد مع الله إلهاً آخر، لا حجة له يثبت به ربوبيّته وإلهيّته، إذ لا يمكن إقامة برهان ولا دليل على ربوبيّة وإلهيّة غير الله، فإنّما جزاء الجاحد المُكذّب يوم الدين، عند ربّه، إنه لا يسعد ولا ينجو من عذاب يوم القيامة. فقله سبحانه: ﴿لَا بُرْهَانَ لَكُمْ بِهِ﴾ قيد يؤكد ضمناً عدم وجود شريك لله عزّ وجلّ في الإلهيّة. وفي هذا تكريمٌ للفكر الإنساني أن يبحث كلّ أصول الإيمان، وقضاياها الكبرى بالبراهين العقليّة، ولا يأخذها بمجرد التسليم للخبر، فلن يستطيع أن يأتي ببرهانٍ على أنّ الله شريكاً في ربوبيّته، أو في الإلهيّة. على أنّ في التعبير معنى التحدي بأن يأتي المشركون ببرهان يُثبتون به ما يعتقدونه من شرك، وهذا التحدي يتضمّن تأكيد نفي وجود برهان يُثبت ادّعاءهم في وجود أيّ شريك لله عزّ وجلّ.

١١٨ - وقل - يا رسول الله ويا كلّ مؤمن -: ربّ اغفر لي ذنوبي، وارحمني برحمتك الواسعة، وأنت خيرُ الراحمين، لأنّ رحمتك إذا أذرت أحداً أغنته عن رحمة غيرك، ورحمة غيرك لا تُغني عن رحمتك.

سُورَةُ الزَّانِيَةِ

سُورَةُ الزَّانِيَةِ

الْمِيزَةُ الدِّينِيَّةُ الشَّرِيفَةُ

١ - هذه سورة ذات مرتبة رفيعة ومنزلة عالية، وبداية ونهاية معلومتين، أنزلناها عليك - يا رسول الله -، وأوجبنا ما فيها من الأحكام، وألزمناكم العمل بها - أيها المؤمنون -، وأنزلنا فيها آيات واضحة؛ رغبة أن تتذكروا ما فيها من الأحكام، وتعملوا بها.

٢ - الزَّانِيَةُ والزَّانِي - وهما: المرأة المكلفة والرجل المكلف العالمان بتحريم الإسلام للزنى وأقدما على ارتكابه حقيقة باختيارهما -، فاضربوا - أيها الحكماء - كل واحد منهما مائة جلدة بالسوط تباشر أجسادهم، ولا تأخذكم بهما رقة ورحمة في شرع الله وحكمه، فتعطّلوا الحدود ولا تقيموها، أو تخفّفوا الضرب، بل أوجعوهما ضرباً إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر حقيقة لا ادعاء، وليخضّر مشهد التعذيب والتأديب لأولئك الزناة والزواني جمع من أهل الإيمان والإسلام رجالاً ونساء؛ تشهيراً بهما، وزيادة في افضاحهما؛ ليكون الخزي والعار أبلغ في حقهما، وهذا في حد الزاني غير المُحصّن، وأما المُحصّن - وهو من وطئ في زواج شرعي صحيح - فجلده الرجم بالحجارة حتى يموت، كما ثبت في السنة.

٣ - الزاني الفاجر الخبيث لا ينتظر منه أن تتّجه رغبته وميله إلى نكاح الصالحة من النساء، وإنما يرغب في نكاح فاسقة خبيثة مثله أو مشرقة، فهي الأليق بحاله والأنسب به. والفاسقة الخبيثة الفاجرة لا يليق بها نكاح الصالحاء من الرجال، وإنما ترغب في نكاح فاسق خبيث مثلها أو مشرقة، وحرم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك يحرم إنكاح الزاني حتى يتوب. فلا يجوز إنشاء علاقة زوجية بين الأعفاء من المسلمين وبين الزناة والزواني منهم إلا بعد التوبة، وانقضاء عدة الزنى، لضرورة براءة الأرحام، وللمنع الاختلاط بين الأنساب.

٤ - والذين يقدّفون الحرائر العفيفات بالزنى، ثم لم يأتوا بأربعة رجال عدول يشهدون على الزنى، فاجلدوا كل واحد منهم بالسوط ثمانين جلدة، ولا ترضوا منهم بأي شهادة يدلّون بها في أي قضية مدّة حياتهم، وأولئك البعداء الذين ظلموا عباد الله في حقوقهم هم الخارجون عن طاعة الله. وإذا كان هذا في الرمي بالزنى والاتهام به، فكيف يكون حال مُقرّف هذا الجرم الفاحش الشنيع!!

٥ - لكن الذين تابوا من بعد أن تحققت الأحكام الثلاثة: (الجلد، ورد الشهادة، والتفسيق)، وأصلحوا عملهم، وأصلحوا ذات البين التي أفسدوها، باستحلالهم ممّن قذفوه حتى يسامحهم ويصفو لهم، فإن الله كثير السّتر لهم، دائم الرحمة بهم.

وقد اشترط الإسلام الشهداء الأربعة في خبر الاتهام بالزنى نظراً لأهمية موضوع الخبر، ولأنّ النفوس يتجسّم لديها الظنّ به، حتى يصل إلى مرتبة التحقيق فتشهد به، دون أدلة مادية، ونظراً لما يترتب عليه أيضاً من هدم الأسر، والخزي والفضيحة لمن تثبت عليه التهمة.

٦، ٧ - والذين يقدّفون أزواجهم بالزنى، ولم يكن لهم شهداء يشهدون على صحّة ما قالوا إلا شهادة أنفسهم، فعلى كل واحد منهم أن يشهد أمام القاضي أربع مرّات بقوله: أشهد بالله أنني صادق فيما زعمتها به من الزنى، والشهادة الخامسة: أن يدعوا على نفسه باستحقاق لعنة الله والبعد عن رحمته، إن كان من الكاذبين فيما قذف به زوجته من الزنى. وحينئذ تترتب عقوبة الزنى على الزوجة.

٨، ٩ - ويدفع عن الزوجة عذاب الحد أن تشهد أمام القاضي أربع شهادات بالله: أنّ زوجها لم يزن الكاذبين فيما رماها به من الزنى، وتشهد الشهادة الخامسة: أنّ غضب الله عليها وسخطه ومقته وعذابه إن كان زوجها من الصادقين فيما رماها به من الزنى. وحينئذ يفرّق بينهما.

١٠ - ولولا فضل الله عليكم ومزيد إحسانه، ورحمته بكم - أيها المؤمنون - لأحلّ بالكاذب من المتلاعنين ما دعا به على نفسه، ولعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم، ودفع عنكم الحد باللعان، وتفضل عليكم بتشريع هذا الحكم، وأنّ الله تواب يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة، حكيم فيما فرضه من الحدود.

وإذ تيقنت الزوجة المسلمة العفيفة أن زوجها يقرّف الزنى، فإنّ الشرع يفرّق بينهما بسبب الإضرار بالزوجة، لما في زنى الزوج من أذى نفسي ومعنوي، وما فيه من ضرر ديني يلحقها، ويسلك القضاء نظام التحكيم بينهما، وللمرأة أن تطلب الطلاق أو الخلع منه، فإن تعذّر ذلك فلتعلن نشوزها وتكون حينئذ معذورة ديانة. وإنما لم يشرع للزوجة سبيل اللعان كما شرع للزوج، لأن اللعان شبيه بتشريع الطلاق، وهو من خصائص الأزواج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الزَّانِيَةِ وَفَضَّلَهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَبِهُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
 ١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ٣ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُنَّ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا يَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ٦ وَالْخَامِسَةَ أَنِ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٧ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ٨ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٩ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآيَاتِكِ غُصْبَةً مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَكْتُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا امْتِنَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ أَلْيَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفُحْشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢١﴾

١١ - إِنَّ الَّذِينَ قَصَدُوا وَاهْتَمُّوا بِأَسْوَأِ الْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ بِأَثْمِهِمْ أَمْ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِالْفَاحِشَةِ، جَمَاعَةً مَعْدُودَةً مِنْكُمْ، وَمَنْسُوبَةٌ إِلَيْكُمْ، لَا يَقَعُ فِي تَوَهُمِكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - وَجُودَ ظَاهِرَةِ الْإِفْكِ فِي مَجْتَمَعِكُمُ الْإِسْلَامِي الْأَمَثِلِ، وَالرَّسُولُ فِيكُمْ، قَوْلُهُمْ شَرًّا لَكُمْ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ - عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَرَاتِهِ - كَانَ خَيْرًا فِي أَثَارِهِ وَنَتَائِجِهِ، إِذْ كَانَتْ الْحَادِثَةُ سَبَبًا فِي الْكَشْفِ عَنِ الْكَائِنِينَ لِلْإِسْلَامِ فِي شَخْصِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَكَانَتْ سَبَبًا لِنُتْعِيزِ شَأْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِرَاءَةِ زَوْجِهِ أَمْ الْمُؤْمِنِينَ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ الْغُصْبَةِ الْكَاذِبَةِ جِزَاءٌ مَا اجْتَرَحَ مِنَ الذَّنْبِ عَلَى قَدَرٍ مَا خَاضَ فِيهِ، وَالَّذِي تَحْمِلُ مُعْظَمَهُ، وَبَدَأَ بِالْخَوْضِ فِيهِ، وَقَامَ بِإِشَاعَتِهِ وَالتَّرْوِيجِ لَهُ، مِنْ أَفْرَادِ هَذِهِ الْعَصْبَةِ، وَهُوَ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سُلُولٍ، لَهُ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ عَذَابٌ عَظِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ إِذْ وُصِفَ فِي الدُّنْيَا بِمَيْسَمِ الذِّلِّ، وَظَهَرَ نِفَاقُهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَصَارَ مَثْبُودًا مُحْتَقَرًا، وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَهِيَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

١٢ - هَلَّا إِذْ سَمِعْتُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - قَوْلَ أَهْلِ الْإِفْكِ، ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ السَّلَامَةَ مِمَّا زَمِي بِهِ إِخْوَانُهُمُ النَّازِلِينَ مِنْزِلَةَ أَنْفُسِهِمْ، وَقَالُوا مُسْتَنْكَرِينَ مَقَالَتَهُمْ بِلِسَانِ الْحَالِ وَالْمَقَالِ: هَذَا كَذِبٌ بَيِّنٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ.

١٣ - هَلَّا جَاؤُوا عَلَى مَا زَعَمُوا بِأَرْبَعَةِ رِجَالٍ عَدُولٍ يَشْهَدُونَ عَلَى دَعْوَاهُمْ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ، فَأُولَئِكَ الْخَائِضُونَ فِي الْإِفْكِ الْبُعْدَاءِ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَفِي الْوَقَاعِ هُمُ الْكَاذِبُونَ الَّذِينَ جَمَعُوا كُلَّ أَنْوَاعِ الْكَذِبِ، وَاسْتَكْمَلُوا عِنَاصِرَهُ، فَهَمُ أَخْسَرُ الْكَذَابِينَ، فَلَا يَشَارِكُهُمْ فِي ذَرَكَةِ هَذِهِ الْخَسَةِ أَحَدٌ، وَكَانَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا كَذِبَهُمْ، وَلَا تَتَخَدَعُوا بِقَوْلِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ.

١٤ - لَوْلَا أَنِّي قَضَيْتُ أَنْ أَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِضُرُوبِ النُّعْمِ، وَزِيَادَةِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ، الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا الْإِمْهَالُ لِلتُّوبَةِ، وَالْإِرْشَادُ لَطَرِقِ الْخَيْرِ، وَعَدَمُ الْمَعَاجَلَةِ بِالْعُقُوبَةِ، وَأَنْ أَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْآخِرَةِ وَأَرْحَمَكُمْ بِقَبُولِ تَوْبَةِ النَّائِبِينَ، وَإِثَابَتِهِمْ عَلَى امْتِنَالِ أَوَامِرِي، لِعَاجِلَتِكُمْ بِالْعِقَابِ الْعَظِيمِ بِسَبَبِ مَا خُضِّتُمْ فِيهِ مِنْ حَدِيثِ الْإِفْكِ.

١٥ - حِينَ يَرُوي حَدِيثَ الْإِفْكِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مِنْ غَيْرِ رُويَةٍ وَلَا تَفَكَّرُ، وَتَقُولُونَ أَنَّ قَذْفَ أَمْ الْمُؤْمِنِينَ شَيْءٌ سَهْلٌ لَا تَبِعَةَ فِيهِ، وَالْحَالُ أَنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ الْوُزْرُ.

١٦ - وَهَلَّا قُلْتُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - عِنْدَ سَمَاعِ حَدِيثِ الْإِفْكِ تَكْذِيبًا وَزَجْرًا لِلْخَائِضِينَ فِيهِ وَالْمُفْتَرِينَ لَهُ: مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا، فَضْلًا عَنِ الْإِفْاضَةِ فِيهِ، وَتَلَقِّيهِ بِالسُّنْتِنَا بَحْثًا عَنْهُ وَجَرِيًّا وَرَاءَهُ، تَنْزِيهًا لَكَ - يَا رَبَّنَا - عَنْ أَنْ تَرْضَى لِأَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَيْكَ بِحُلُولِ هَذِهِ النَّقِيصَةِ بِالصَّقِّ النَّاسِ بِهِ، أَوْ أَنْ تَرْضَى عَنْ طُغْيَانِ الْأَفَّاكِينَ، هَذَا كَذِبٌ يَبْهَتْ وَيُحِيرُ سَامِعَهُ لَفْظَاعَتِهِ، لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ لِعَظَمَةِ الْمَبْهُوتِ عَلَيْهِ.

١٧ - يُذَكِّرُكُمُ اللَّهُ وَيُنصَحُكُمْ نَصْحًا مَقْرُونًا بِالترغيب والترهيب حتى لا تقعوا في ما وقعتم فيه بلا تبصّر، ويُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِ هَذَا الْإِثْمِ الْكَاذِبِ مَا دُمْتُمْ أَحْيَاءَ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ وَثِمَرُهُ، فَإِنْ لَمْ تَتَنَفَّعُوا بِهَذَا النَّصِيحِ الْمُؤَثِّرِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ لَمْ يَمْلِكْ قُلُوبَكُمْ، وَلَمْ يَوُثِّ ثِمَارَهُ فِي نَفُوسِكُمْ.

١٨ - وَيُنْزِلُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى الْأَحْكَامِ وَاضِحَةً جَلِيَّةً؛ لِتَتَدَبَّرُوا فِي أَحْكَامِهِ وَحُكْمِهِ، وَاللَّهُ وَاسِعُ الْعِلْمِ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، حَكِيمٌ يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا، وَيَخْتَارُ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ وَأَتْقَنَهَا فِي الْأُمُورِ الْمُخْتَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائِجِ.

١٩ - إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ الزُّنَى وَاللُّوَاطُ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ وَيَذِيعُ فِي جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ، لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا، بِالْعُقُوبَاتِ التَّأْدِيبِيَّةِ الَّتِي تَسْتَأْصِلُ سَبَابَ إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ وَعَوَامِلَ الْإِفْسَادِ الْأَخْلَاقِي، وَبِالْعُقُوبَاتِ الْقَضَائِيَّةِ مِنَ الْجُلْدِ وَالرَّجْمِ، وَحَدِّ الْقَذْفِ، وَإِسْقَاطِ الشَّهَادَةِ، وَالْوَسْمِ بِالْفُسْقِ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ إِنْ لَمْ يَتُوبُوا؛ لِأَنَّ فِي إِشَاعَةِ الشُّوْءِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِيْذَاءً لَهُمْ وَإِضْرَارًا بِهِمْ، وَتَهْوِينَ مِنْ أَمْرِ فَعَلِ الْفَاحِشَةِ، وَتَشْجِيعَ عَلَى ارْتِكَابِهَا، وَلَا سِيْمَا إِذَا كَانَ مِنْ أَشْيَعِ عَنْهُ مِنْ أَهْلِ السُّتْرِ وَالصِّيَانَةِ بَيْنَ النَّاسِ. وَاللَّهُ - وَحْدَهُ - يَعْلَمُ كَذِبَهُمْ وَبِرَاءَةَ عَائِشَةَ، وَمَا خَاضُوا فِيهِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، فَلَا تَتْرَكُوا عِلْمَهُ الْحَقَّ إِلَى أَوْهَامِكُمُ الْبَاطِلَةِ.

٢٠ - وَلَوْلَا إِنْعَامُهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ بِكُمْ لَمَا بَيَّنَّ لَكُمْ هَذِهِ الْأَحْكَامَ، وَلِعَاجِلَتِكُمُ بِالْعُقُوبَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ شَدِيدُ الرَّحْمَةِ بِعِبَادِهِ، لَمْ يُحْمَلْهُمْ مَا لَا يَطِيقُونَ، وَاسِعُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ. وَمِنْ أَثَارِ رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ: تَجَاوَزَهُ عَنْ ذَنْبِ الْخَائِضِينَ فِي حَادِثَةِ الْإِفْكِ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ وَإِظْهَارِهِ بِرَاءَةَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٢١ - يا أيها الذين صدقوا الله واتبعوا رسوله لا تتبعوا خطوات الشيطان المتنازلات الماكرات ومساكره ووساوسه، ومن يسلك طرق الشيطان وخطواته المتنازلات الماكرات فإنه يأمر بالكبائر المتعلقة بالفروج، وبالقبائح من الأقوال والأفعال، وكل ما يكرهه الله عز وجل. ولولا فضل الله عليكم بالحفظ والعصمة من المعاصي، ورحمته لكم بالعتو والغفران ما طهر ولا صلح منكم من أدناس ذنوبه ومعاصيه أبداً، ولكن الله يطهر من يشاء من الذنب بالرحمة والمغفرة، والله سميع لأقوالكم، عليم بما في قلوبكم.

٢٢ - ولا يحلف أهل الزيادة في الخير والسعة في المال منكم؛ كراهة أن يؤثروا النفقة الأقرباء والمحتاجين السائلين والمهاجرين في سبيل الله مما لديهم من فضل وسعة رزق، بسبب ذنب فعلوه، ولتجاوزوا عن إساءتهم، وليعرضوا عن عقوبتهم، ولا تكن الإساءة الشخصية مانعة من فعل الخير مع المسيء؛ لأن فعل الخير إنما يبتغي به وجه الله ومرضاته، لا مرضاة الذين يُقدم لهم الإحسان، فمن كان حريصاً على أن يغفر الله له، فليعف عمن يسيء إليه، وليترك لومه، ألا تحبون أن يغفر الله لكم سيئاتكم التي تفعلونها في جنبه، إذا أنتم عفوتهم عن إخوانكم وصفحتم عنهم؟ والله كثير الستر، دائم الرحمة. وفي الآية أهمية صلة الرحم والتجاوز عن خطئه، والوصية بأخلاق الإسلام في الرضا والغضب، وعدم الانصياع لردود الفعل، ولا سيما مع أهل السابقة في الدين، وذوي الحاجة، وذوي القربى، كمسطح بن أثانة ابن خالة أبي بكر الصديق، الذي خاض في الإفك مع الخائضين، ولكنه تاب وندم، وقد حلف أبو بكر الصديق أن لا ينفق عليه بسبب خوضه في حديث الإفك. وقد عاد أبو بكر إلى برّه وإحسانه، وقال: بلى، والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ بُيُوتُهُمْ وَاللَّهُ بِمَا هُمْ أَحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٩٥﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مَبْرُورَاتٌ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٩٦﴾ يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٧﴾

٢٣ - إن الذين يرمون بالزنى المتحصنات بهذه الأوصاف الثلاثة: الصفة الأولى: العفاف المصونات، والصفة الثانية: الغافلات المنصرفات الذهن عن التفكير في هذه الفواحش، فلا تتجه إليهن نفس منهن بتفكير فضلاً عن التوجه إليها برغبة، والصفة الثالثة: المؤمنات الإيمان الصحيح الصادق، المذعنات لله سبحانه بالطاعة، فالذين يقذفونهم بالزنى طردوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة؛ ولهم عذاب مؤلم في نار جهنم يوم القيامة.

٢٤ - ذلك العذاب العظيم يوم القيامة، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، وتنطق بما كانوا يعملون في الدنيا.

٢٥ - في هذا اليوم الذي تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاء أعمالهم الثابت عليهم، وأياً تاماً، ويعلمون في ذلك الموقف العظيم علماً ضرورياً أن الله هو الحق فيما أنزل على رسله من أمر ونهي، المحق فيما حكم، المبين لما شرع، العادل فيما رتب عليهم من جزاء.

٢٦ - الخبيثات من النساء مختصات بالخبيثين من الرجال، والخبيثون منهم مختصون بالخبيثات منهن، والطيبات من النساء مختصات بالطيبين من الرجال، والطيبون منهم مختصون بالطيبات منهن، وإذا كان رسول الله ﷺ أطيّب الطيبين تبين كون الصديقة من أطيّب الطيبات، لما جرت به سنة الله بين الناس من إلف الشكل لشكله، وانجذاب كل قبيل إلى قبيله، وإن الخبيث من القول لا يليق إلا بالخبيث من الناس، والطيب من القول لا يليق إلا بالطيب من الناس، وعائشة لا يليق بها الخبيث من القول، لأنها طيبة، فيضاف إليها طيب القول من الثناء والمدح وما يليق بها. أولئك الفضلاء رفيعو الدرجة، الطيبون والطيبات من أهل بيت النبوة رجالاً ونساء، منزّهون مما يقوله أصحاب الإفك في حقهم من الأكاذيب الباطلة، لهم ستر كبير لذنوبهم، ورزق كريم دائم في الجنة.

٢٧ - يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشريعته لا تدخلوا بيوتاً لستم تملكونها ولا تسكنوها حتى تستعلموا وتستكشفوا هل يراد دخولكم أو لا، وتسلموا عليهم. وصيغة ذلك من السنة: السلام عليكم أَدْخُلْ؟ ذلك الاستعلام والسلام قبل دخول بيوت ليست تحت تصرفكم خير لكم وأولى بكم من التهجم بغير إذن؛ رغبة أن تذكروا هذه الآداب التي أمرتم بها فتعملوا بها.

٢٨ - فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِي بَيْوتِ الْآخَرِينَ شَخْصاً مَوْهَلًا شَرعاً لِيَأْذَنَ لَكُمْ فِي الدُّخُولِ إِلَيْهَا، فَلَا تَدْخُلُوهَا إِلَى أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ فِي الدُّخُولِ. وَإِذَا كَانَ فِي الْبَيْتِ قَوْمٌ وَكَرِهُوا دُخُولَكُمْ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَكُمْ - أَيُّهَا الْمُسْتَأْنَسُونَ -: ارْجِعُوا، فَارْجِعُوا، وَلَا تَقْفُوا عَلَى الْبَابِ مُلَازِمِينَ. فَالْرجُوعُ أَظْهَرَ لِنَفْسِكُمْ مِنْ دَنْسِ الرِّبَةِ وَالدَّنَاءِ، وَأَنْفَعُ لِدِينِكُمْ، وَأَكْمَلُ لِأَدَابِكُمْ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ.

٢٩ - لَيْسَ عَلَيْكُمْ إِثْمٌ فِي أَنْ تَدْخُلُوا بِغَيْرِ إِذْنٍ بَيْوتاً غَيْرَ مُعَدَّةٍ لِسُكْنَى طَائِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ، بَلْ مُعَدَّةٌ لِيَنْتَفِعَ بِهَا مَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَّخِذَهَا مَسْكناً، كَحَوَانِيتِ التِّجَارِ فِي الْأَسْوَاقِ، وَالْحَمَامَاتِ، وَالْفَنَاقِ، وَالْمُسْتَشْفِيَّاتِ وَتَوَابِعِهَا، وَالْمَكْتَبَاتِ وَقَاعَاتِ الْمَطَالَعَةِ، وَالْمَدَارِسِ وَأَمَاكِنِ تَدْرِيسِ الْعُلُومِ الْمَأْذُونِ فِيهَا شَرعاً، وَالدَّوَائِرِ الْحُكُومِيَّةِ فِي أَثْنَاءِ الدَّوَامِ الرَّسْمِيِّ، وَغَيْرِهَا، فِيهَا حَقٌّ تَمَتُّعٌ لَكُمْ؛ كَالِاسْتِكْنَانِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَإِبْوَاءِ الْأَمْتَةِ، وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُظْهِرُونَ وَمَا تُبْشِرُونَ. فَاحْذَرُوا مِنْ تَجَاوُزِ مَا شَرَعَ اللَّهُ لَكُمْ، فَلَا تَدْخُلُوا بَيْوتاً مَسْكُونَةً مِنْ غَيْرِكُمْ أَوْ لَيْسَتْ تَحْتَ تَصَرُّفِكُمْ دُونَ اسْتِثْنَاءِ مُضْحُوبٍ بِالِاسْتِثْنَاءِ، وَلَا تَدْخُلُوا كَذَلِكَ بَيْوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ بِقَصْدِ التَّجَسُّسِ عَلَى قُطَّانِهَا، أَوْ أَذْيَتِهِمْ، أَوْ سَرَقَةِ أَمْتَعَتِهِمْ.

٣٠ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِلْمُؤْمِنِينَ يَكْفُوا مِنْ نَظَرِهِمْ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ، وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُمْ مِنَ الزُّنَى وَاللَّوَاظَةِ وَالْكَشْفِ وَالْإِبْدَاءِ، إِنَّ كَفَّ الْبَصَرَ وَحَفِظَ الْفَرْجَ أَطْهَرَ لَهُمْ مِنْ دَنْسِ الرِّبَةِ وَالدَّنَاءِ، وَأَنْفَعُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِأَحْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَكَيْفَ يُجِيلُونَ أَبْصَارَهُمْ، وَكَيْفَ يَضْنَعُونَ بِسَائِرِ حَوَاسِهِمْ وَجَوَارِحِهِمْ.

٣١ - وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَكْفُنْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ النَّظَرُ إِلَيْهِ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ مِنَ الزُّنَى وَالسَّحَاقِ وَالْإِبْدَاءِ، وَلَا يُظْهِرْنَ زِينَتَهُنَّ الْخَفِيَّةَ لِلرِّجَالِ، مِثْلَ: الْخَلْخَالِ وَالْخَضَابِ فِي الرَّجْلِ، وَالسُّوَارِ فِي الْمَغْصَمِ، وَالْقُرْطِ فِي الْأُذُنِ، وَالْقَلَائِدِ فِي الْعُنُقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ إِظْهَارُهَا حَالَ مُلَابَسَتِهَا لِمَوَاضِعِهَا، وَلَا يَجُوزُ لِلْأَجْنَبِيِّ النَّظَرَ إِلَى مَوَاضِعِ الزِّينَةِ فِي الْبَدَنِ، إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنَ الزِّينَةِ، وَهُوَ: الْوَجْهَ وَالْكَفَّانَ الْخَالِيَانِ مِنَ الزِّينَةِ الْمَكْتَسِبَةِ. فَمَا كَانَ مِنَ الزِّينَةِ الظَّاهِرَةِ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ الْأَجْنَبِيِّ النَّظَرَ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يَخَفْ فِتْنَةً وَشَهْوَةً. فَإِنْ خَافَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ غَضَّ الْبَصَرَ، وَإِنَّمَا رُخِّصَ فِي هَذَا الْقَدْرِ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُبْدِيَ مِنْ بَدْنِهَا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِعَوْرَةٍ وَتَوَافُرَ بَكْشَفِهِ فِي الصَّلَاةِ وَالْحُجِّ، وَسَائِرِ بَدْنِهَا عَوْرَةٍ. وَلْيُلْقِينَ بِأَعْطِيَةِ رُؤُوسِهِنَّ عَلَى فِتْحَاتِ صُدُورِهِنَّ؛ لِيَسْتَرْنَ بِذَلِكَ شُعُورَهُنَّ وَأَعْنَاقَهُنَّ وَنَحُورَهُنَّ وَصُدُورَهُنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَنِ الْأَجَانِبِ؛ لِثَلَاثِ أُمُورٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يُبْدِينَ مَوَاضِعَ زِينَتَهُنَّ الْخَفِيَّةَ لِكُلِّ أَحَدٍ؛ إِلَّا مَنْ اسْتَثْنَى فِيهَا، وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ نَوْعاً: الْأَوَّلُ: الْأَزْوَاجُ، لِأَنَّهُمْ الْمَقْصُودُونَ بِالزِّينَةِ، فَيَجُوزُ لِلزَّوْجِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى جَمِيعِ بَدَنِ زَوْجَتِهِ. الثَّانِي: وَأَحَلَّ اللَّهُ النَّظَرَ إِلَى الزِّينَةِ الْبَاطِنَةِ مَا عَدَا مَا بَيْنَ السَّرَّةِ وَالرَّكْبَةِ لِأَبَائِهِنَّ، الثَّالِثُ: آبَاءُ أَزْوَاجِهِنَّ، الرَّابِعُ: أَبْنَائُهُنَّ، الْخَامِسُ: أَبْنَاءُ أَزْوَاجِهِنَّ، السَّادِسُ: إِخْوَانُهُنَّ، السَّابِعُ: أَبْنَاءُ إِخْوَانِهِنَّ، الثَّامِنُ: أَبْنَاءُ أَخَوَاتِهِنَّ، فَيَجُوزُ إِبْدَاءُ مَوَاضِعِ الزِّينَةِ لَهُؤُلَاءِ الْمَحَارِمِ السَّبْعَةِ؛ لِاحْتِيَاجِ النِّسَاءِ لِمَخَالِطَتِهِمْ، وَأَمِنْ الْفِتْنَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ، لَمَّا تَرَكَّزَ فِي الطَّبَاعِ مِنَ الثُّفْرَةِ مِنْ مِمَاسَةِ الْقَرَابِ، وَيُلْحَقُ بِهِمُ الْأَعْمَامُ وَالْأَخْوَالُ وَالْمَحَارِمُ مِنَ الرِّضَاعِ. التَّاسِعُ: نِسَائُهُنَّ الْكَرِيمَاتِ الْأَخْلَاقِ الْمُخْتَصَّاتُ بِهِنَّ، سِوَا كُنَّ مُسْلِمَاتٍ أَوْ غَيْرِ مُسْلِمَاتٍ، وَأَمَّا الْفَاسِقَاتُ اللَّاتِي لَا حَيَاءَ عِنْدَهُنَّ، وَلَا يَعْتَمِدُ عَلَى أَخْلَاقِهِنَّ، فَلَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ الصَّالِحَةِ أَنْ تَظْهَرَ زِينَتَهَا أَمَامَهُنَّ وَلَوْ كُنَّ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ، الْعَاشِرُ: مَا مَلَكَنَ مِنَ الْإِمَاءِ، الْحَادِي عَشَرَ: الثَّابِعُونَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَا حَاجَةَ لَهُمْ فِي النِّسَاءِ، وَلَا يَعْرِفُونَ شَيْئاً مِنْ أُمُورِهِنَّ بِحَيْثُ لَا تُحَدِّثُهُمْ أَنْفُسُهُمْ بِفَاحِشَةٍ، وَلَا يَصِفُونَهُنَّ لِلْأَجَانِبِ، الثَّانِي عَشَرَ: الْأَطْفَالُ الصِّغَارُ الَّذِينَ لَمْ يَعْرِفُوا مَا الْعَوْرَةُ، وَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا، أَوْ الَّذِينَ لَمْ يَنْلِغُوا حَذَّ الشَّهْوَةِ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الْجِمَاعِ. وَلَا يَضْرِبُ النِّسَاءُ عِنْدَ سَيْرِهِنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ فِي الْأَرْضِ، لِيَسْمَعَ صَوْتَ خَلَاجِلِهِنَّ مَنْ يَسْمَعُهُ مِنَ الرِّجَالِ؛ فَيَدْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى التَّطَلُّعِ وَالْمَيْلِ إِلَيْهِنَّ، وَذَلِكَ سَدَأٌ لَذَرِيعَةِ الْفَسَادِ، وَفِي حَكْمِ الضَّرْبِ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيَسْمَعَ صَوْتُ خَلَاجِلِهِنَّ؛ إِيدَاءً مَا يُخْفِيهِنَّ مِنْ زِينَتِهِنَّ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ كَانَتْ. وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - مِنَ التَّقْصِيرِ الْوَاقِعِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَرَاجِعُوا طَاعَتَهُ فِيمَا أَمَرَكَمُ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ الْأَدَابِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ؛ رَغْبَةً أَنْ تَفُوزُوا بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هَؤُلَاءِ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُجُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّبِيعَاتِ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

٣٢، ٣٣ - زَوْجُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - مَنْ لَا زَوْجَ لَهُ مِنْ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ، وَزَوْجُوا - أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ - مَنْ كَانَ فِيهِ صَلَاحٌ وَخَيْرٌ مِنْ عِبِيدِكُمْ وَجَوَارِيكُمْ، بِالْمَعَاوَةِ وَالتَّوَسُّطِ فِي النِّكَاحِ وَالتَّمَكِينِ مِنْهُ، إِنْ يَكُونُوا فَقَرَاءً مِنَ الْمَالِ يُوسِّعُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلِهِ وَجُودِهِ، وَاللَّهُ ذُو الْإِفْضَالِ وَالْجُودِ لَا نِفَادَ لِنِعْمَتِهِ، وَلَا حَدٌّ لِقُدْرَتِهِ، عَلِيمٌ بِمَا يُصْلِحُ خَلْقَهُ مِنَ الرِّزْقِ. وَلَيُزَلِّمْ جَانِبَ الْعَقَّةِ بِضَبْطِ النَّفْسِ، وَحِفْظِ الْجَوَارِحِ عَنِ الْإِسْتِرْسَالِ فِي طَرِيقِ الشَّهَوَاتِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ وَسَائِلَ النِّكَاحِ الْمَوْصَلَةَ إِلَيْهِ مِنَ الصَّدَاقِ وَالتَّفَقُّهِ إِلَى أَنْ يُوسِّعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ رِزْقِهِ، فَإِذَا التَّزَمُوا جَانِبَ الْعَقَّةِ، وَلَمْ يَفْعَلُوا مَا لَمْ يَأْذُنِ اللَّهُ بِهِ، أَغْنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَهَيَّا لَهُمُ الْقُدْرَةَ الْمَالِيَّةَ عَلَى الزَّوْاجِ.

وَالَّذِينَ يَطْلُبُونَ الْمُكَاتَبَةَ مِنْ عِبِيدِكُمْ وَإِمَائِكُمْ عَلَى مَالٍ مَعْلُومٍ يُؤْذُونَهُ إِلَيْكُمْ؛ لِيَتَحَرَّرُوا مِنَ الرِّقِّ، فَيَنْدُبَ لَكُمْ مَكَاتِبَتَهُمْ كَمَا طَلَبُوا؛ مَسَارَعَةً إِلَى تَحْرِيرِهِمْ، إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ قُوَّةً عَلَى الْكَسْبِ وَقُدْرَةً عَلَى أَدَاءِ مَا كَاتَبْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ، وَصَدَقًا وَأَمَانَةً، وَحُطُّوا عَنْهُمْ شَيْئًا مِنْ مَالِ الْكِتَابَةِ، وَلَا تَكْرَهُوا إِمَاءَكُمْ عَلَى الزَّانِي بِقَهْرِهِمْ عَلَيْهِ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى فَعْلِهِ بِالْقُوَّةِ، كَمَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ بِالْجَاهِلِيَّةِ؛ لِيَتَّعِلُّوا مِنْ أَمْوَالِ الدُّنْيَا بِكَسْبِهِمْ وَبَيْعِ أَوْلَادِهِمْ، وَكَيْفَ يَقَعُ مِنْكُمْ إِكْرَاهُهُمْ عَلَى الزَّانِي، وَهَنْ إِمَاءٍ يُرْذَنُ الْعَقَّةُ عَنِ الزَّانِي؟ وَمَنْ يُكْرِهُهُمْ عَلَى الزَّانِي؛ فَعَلِيهِ إِثْمُ إِكْرَاهِهِمْ، وَهَنْ لَا يَقَامُ عَلَيْهِمْ حَدُّ زَانِي الْإِمَاءِ، لِأَنَّهُمْ أُرْدَنُ تَحْصُنًا بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يَفْعَلُوا مَا فَعَلُوا بِإِرَادَتِهِمْ، وَاللَّهُ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِ أَوْلِيائِهِمْ لَهُمْ عَلَى الزَّانِي كَثِيرُ السُّرْرِ لَهُمْ، دَائِمُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ.

٣٤ - وَأَوْكَدَ لَكُمْ أَنَّنَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: الْأَوَّلُ: آيَاتٍ مُشْتَمِلَاتٍ عَلَى بَيَانِ الْقَضَايَا الَّتِي تَرْتَبِطُ بِهَا هِدَايَتُكُمْ مُوَضَّحَاتٍ لِكُلِّ قَضَايَا الْهَدَايَةِ فِي الدِّينِ، وَالثَّانِي: شَبَّهُ مِنْ كُلِّ حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ الَّذِينَ مَضَوْا فِي

الْأَزْمَنَةِ السَّابِقَةِ عَلَيْكُمْ مِمَّا فِيهِ عِبْرَةٌ وَأَسْوَةٌ حَسَنَةٌ لَكُمْ، وَالثَّالِثُ: نَصِيحَةٌ مَقْرُونَةٌ بِمَا يُثِيرُ الرُّغْبَةَ وَالرُّهْبَةَ لِلانْتِفَاعِ بِاللُّصْحِ، وَاتِّبَاعِ مَا تَضُنُّهُ فَعَلًا أَوْ تَرْكًا، يَنْتَفِعُ بِهَا الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ يَخَافُونَ الْحِسَابَ وَالْعِقَابَ يَوْمَ الدِّينِ.

٣٥ - اللَّهُ سُبْحَانَهُ صَاحِبُ كُلِّ نَوْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَلَا نَوْرَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مُصَدَّرًا، وَإِمْدَادًا، وَتَسْخِيرًا، مَثَلُ نَوْرِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَسْتَهْدُونَ بِهِ كَفْجُوهَ فِي حَائِطٍ، فِيهَا مَصْبَاحٌ شَدِيدُ التَّوْجِعِ، الْمَصْبَاحُ فِي زَجَاجَةٍ شَفَافَةٍ صُلْبَةٍ، الزَّجَاجَةُ تَبْتُ نَوْرَ الْمَصْبَاحِ كَبْتُ الْكَوْكَبِ فِي السَّمَاءِ لِنَوْرِهِ، وَكُلُّونَ الدَّرَّ فِي صَفَائِهِ وَهَدُوتِهِ، يُوقِدُ هَذَا الْمَصْبَاحُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ كَثِيرَةِ الْخَيْرِ، وَافِرَةِ الْعَطَاءِ، هِيَ مِنْ نَوْعِ شَجَرِ الزَّيْتُونِ، مَغْرُوسَةٌ فِي مَوْقِعٍ لَا شَرْقِيٍّ يَحْجُبُهَا عَنِ الشَّمْسِ صَبَاحًا الْجَبَلُ الشَّرْقِيُّ، وَلَا غَرْبِيٍّ يَحْجُبُهَا عَنِ الشَّمْسِ مَسَاءً الْجَبَلُ الْغَرْبِيُّ، بَلْ تَأْخُذُ حَظُّهَا مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ طَوَالَ النَّهَارِ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ فَيَنْشُرُ الثُّورَ، وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ مِنْ شِدَّةِ صَفَائِهِ، وَانْكَسَارِ الْأَشْعَةِ عَلَيْهِ، حَتَّى كَانَهُ عَلَى وَشَكِّ أَنْ يَلْتَهَبُ وَيُضِيءُ، نَوْرُ مُتْرَاكِبٍ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ تَرَكَبًا يَزِيدُ مِنْ قُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ، فَقَدْ اجْتَمَعَ صَفَاءُ الزَّيْتِ، وَنَوْرُ الْمَصْبَاحِ، وَنَقَاءُ الزَّجَاجَةِ الْمَشْعَّةِ مَعَ لَوْنِهَا الدَّرِّيِّ، الَّتِي تَزِيدُ النُّورَ وَتَضَاعَفُ بِانْعِكَاسِهَا. وَكَذَلِكَ نَوْرُ الْقُرْآنِ فِي أَلْفَاظِهِ وَجُمْلِهِ وَأَسَالِيهِ يَضِيفُ إِلَى مَعَانِيهِ الَّتِي تَهْدِي الْمُؤْمِنَ فِي حَيَاتِهِ نَوْرًا، فَيَكُونُ مِنْهُمَا نَوْرَانِ مُجْتَمِعَانِ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِ كِتَابِهِ الْمَنْزُولِ مِنْ شِئَاءِ أَنْ يَهْدِيَهُ مِنْ عِبَادِهِ، بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهِ، وَصَدَقَ طَلِبُهُ وَتَوَجُّهُهُ. وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ مَرَارًا وَتَكَرَّرًا فِي كِتَابِهِ لِتَقَرُّبِ الْمَعَانِي الْمُرَادَةِ إِلَى أَهْلَامِهِمْ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

٣٦ - مَكَانُ الْمَشْكَاتِ الَّتِي فِيهَا الْمَصْبَاحُ، بَيُوتُ اللَّهِ الَّتِي أَذَّنَ اللَّهُ بِرَفْعِ بَنِيَانِهَا؛ لِيَكُونَ إِعْلَاؤُهَا مَعَالِمَ بَارِزَةٍ لِبُلْدَانِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلِيَجْذِبَ النَّاسَ إِلَيْهَا، وَتَأَلِّفَ قُلُوبَهُمْ عَلَيْهَا، وَأَمْرٌ بِأَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، يُتَزَّهَّ سُبْحَانَهُ وَيُذَكَّرُ فِي بَيُوتِهِ الْمَضَافَةِ إِلَيْهِ بِالْغُدُوَّةِ: مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ، وَالْأَصَالِ: حِينَ تَصْفُرُ الشَّمْسُ مَسَاءً حَتَّى الْغُرُوبِ.

٣٧ - رجالٌ لا تصرف أذهانهم ويستأثرون باهتمامهم تجارة ولا بيع، عن ذكر الله، وإقام الصلاة في وقتها، وإيتاء الزكاة المفروضة لمستحقّيها، وسائر الواجبات الدينية، وحقوق الأسرة والمجتمع. يخافون من الجزاء والعقاب يوم الدين الذي تتحرك فيه القلوب بمشاعر الخوف والرجاء والطمع، وتتحرك فيه الأبصار ترقباً للأحداث.

٣٨ - إنهم يعملون بطاعته سبحانه، لينجزهم عن أعمالهم التي عملوها في الدنيا ثواباً يكافئ أحسن ما عملوا من أعمال حسنة مقبولة عنده، ويزيدهم من فضله عطاءً فوق مجازاتهم على أعمالهم ثواباً مكافئاً أحسن ما عملوا، والله يرزق من فيض عطائه بغير محاسبة على مقادير الأعمال، ومضاعفات جزائها من يشاء. وهم السابقون المقربون أهل مرتبة الإحسان.

٣٩ - والذين رفضوا الإيمان بالله ورسوله، وتولّوا عن آيات الله، ولم يهتدوا بنورها قسماً: القسم الأول: كل أعمالهم مهما كدوا وتعبوا من أجل تحقيق ما يتمنّونه من سعادة، كسراب مُلاصقٍ لما استوى من الأرض، يظنه الظمآن الذي لا ماء معه، ماءً يترقب على سطح الأرض المنبسطة في امتداد بصره، وإنما هي انعكاسات أشعة الشمس، حتى إذا وصل إلى موضع السراب، لا يجده شيئاً، ويموت وهو ظمآن خائب المسعى. وكذلك حال الكافر الذي يتخذ الأسباب التي يحسب أنها توصله إلى مطامحه وأماله، يكدها لهناً حتى تخترمه المنية دون أن يصل إلى ما يصبو إليه، وظهر للكافر عند الموت الحقيقة، ونال جزاءه وأفا يوم الدين عما قدّم في دنياه، والله سريع الحساب، يُجري حسابه بالسرعة الملائمة لكمال صفاته، وبالدفّة النائمة التي لا يكون فيها زيادة ولا نقصان.

٤٠ - والقسم الثاني من الذين كفروا: أعمالهم تخبطات عمياء، في ظلمات فكرية ونفسية وقلبية، كظلمات في بحر عظيم عميق، يعلوه موج، من فوق الموج الذي هو فوق الظلمات موج آخر، من فوق الموج السطحيّ سحب، يحجب الأضواء والأنوار، ظلمات الأمواج في العمق، والتي في السطح، والسحب المترابطة فوق البحر قد أحدثت مقادير من الظلمة حجبت الأنوار العلوية ذات الأشعة الممتدة إلى الأرض، إذا أخرج هذا المتخبط في ظلمات أعماق البحر يده من مكان وضعها الطبيعي وأدناها من عينه إدناء كثيراً لم يقرب من رؤيتها، فضلاً عن أن يراها من شدة ما هو فيه من الظلمات. والسبب الذي ولّد هذه الظلمات هو أنهم رفضوا الإيمان، وألقوا بينهم وبين نور الله حجباً كثيفاً، منها ما هو في أعماق دواتهم من أمواج الشهوات، ومنها ما هو فوقها على سطح نفوسهم من أمواج الأهواء، ومنها ما هو مظلّل لهم ومُضلل من تقاليد وأفكار وعقائد، فكان من نتائج اختيارهم الحر، أن الله تعالى ضمن قوانينه التكوينية لم يجعل لهم نوراً، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

٤١ - ألم ترّ ناظراً ببصرك - أيها العاقل الرشيد - حتى ترى رؤية علمية أن جميع الكائنات من العقلاء وغيرهم، تُنزه الله سبحانه بلسان حالها ومقالها في ذاته وصفاته وأفعاله، عن كل ما لا يليق بشأنه العظيم. والطير باسطات أجنحتهن في الهواء تُسبح ربّها، كل مُضلل ومُضلل علم الله صلاته وتسيبته، والله عليهم بما يفعلون، لا يُغزّب عن علمه شيء. وفي الآية تقريع للكفار حيث جعلوا من الجمادات التي من شأنها التسيب لله شركاء لله تعالى يعبدونها كعبادته سبحانه.

٤٢ - والله وحده كل ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وتصرفاً، وإلى حكم الله وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، وإلى المكان الذي يقضي فيه مرجع جميع الخلائق.

٤٣ - ألم ترّ - أيها العاقل البصير - ناظراً إلى آثار صنع ربك الذي أتقن كل شيء، أن الله يسوق سحاباً سَوْقاً رقيقاً بأمره حيث يشاء، ثم يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها إلى بعض، ثم يجعله متراكماً بعضه فوق بعض، فترى المطر ينقذ من خلال السحاب، والله يُنزل من مجموعات السحب المتكاثفة التي تشبه الجبال في عظمتها برداً كالحصى، فيصيب الله سبحانه بالبرد المنزل من السحاب من يشاء من عباده، فيهلكه وأمواله، ويضره عن شيء منهم، فلا يضره، يقرب ضوء برق السحاب ولمعانه الحادث من اضطكاك السحب، يذهب بالأبصار من شدة ضوءه وبريقه.

رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَلَا بَصِيرَةٌ ﴿٣٧﴾
لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتُهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾
أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَّجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن
فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ
يَكْدِرْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَشْيَارِ كُلِّ قَدْ
عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَخْرِجُ
مِثْبَاتًا مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ نُورًا وَكَأَنَّهُ لَيُدَوِّجُ الْأُودُقَ يَخْرِجُ مِنْ
حِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِثْبَاتًا فِي مِثْبَاتٍ بَرْدًا فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ
وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاقِرُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾

٤٤ - يُغَيِّرُ اللَّهُ أحوال الليل والنهار بالطول والقصر، والابتداء والانتهاء، بسبب حركة الأرض حول نفسها، وحول الشمس، إن في ذلك لدلالة لأهل العقول والبصائر على قدرة الله ووحدانيته.

٤٥ - واللَّهُ خلق كل حيوان يشاهد في الدنيا من إنسان وأنعام ووحوش وزواحف وطيور وأسماك وغيرها، من نطفة، فمنهم من يمشي على بطنه بدون آلة مشي، كالحيتان والديدان ونحو ذلك، ومنهم من يمشي على رجلين، مثل بني آدم والطيور ونحوهما، ومنهم من يمشي على أربع، كالبهائم والسباع، ومنهم من يمشي على أكثر من أربع، يخلق الله ما يشاء من خلقه على أية كيفية تكون؛ إن الله هو البالغ القدرة، لا يعجزه شيء أرادته.

٤٦ - لقد أنزلنا في القرآن آيات واضحات ظاهرات، وعلامات مُرشدات، تُبين الحق من الباطل، والرشد من الغي، إلا أن وضوح الآيات في نفسها وتبينها الشبل تبييناً وافياً لا يغني عن توفيق الله للهدى، واللَّهُ يهدي ويوفق من يشاء من عباده إلى دين الإسلام الذي هو دين الله وطريقه إلى جنته.

٤٧ - ومع وضوح هذه الآيات يقول المنافقون بالسنتهم من غير اعتقاد: آمناً بالله وبالرسول وخضعنا وأتبعنا منقادين بحسب ما يطلب منا، ثم يتعد فريق منهم منصرفاً عن طاعة الله ورسوله من بعد أن اعترفوا بالإيمان، وأعطوا العهد على الطاعة، ووضحت لهم الآيات البينات، وما أولئك البُعءاء عن رحمة الله بالمؤمنين.

٤٨ - وإذا دُعوا إلى الله ورسوله؛ لِيَحْكُمَ بينهم وبين خصومهم بحكم الله، فاجأ الداعي إعراض فريق منهم عن حكم الله ورسوله وهم مُصْتمون على الإعراض، مُصْرُونَ عليه.

٤٩ - وإن علموا أن الحق بيدهم، والحكم لهم على غيرهم، وقليل ما يكون ذلك، أسرعوا إلى حكم النبي ﷺ مُطِيعِينَ مُتْقَادِينَ،

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾
وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾
لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ تُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُنْ لَّكُم لُحُوقٌ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِرِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ تَأْتُوا أُمَّ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أُمِّرَتْهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَّا تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

مُسرعين مُبادرين؛ لثقتهم بأنه لا يحكم إلا بالحق، وأنه كما يحكم عليهم يحكم لهم أيضاً.

٥٠ - أفي قلوبهم مرضٌ حقد وحسد؟ أم شكوا في أمر محمد ﷺ فلا يدرون أيؤق في حكمه أم لا؟ أم يخافون أن يكون حكم الله ورسوله جائراً؟ ليس شيء من أسباب إعراضهم عن حكمه ﷺ مُبرراً، بل أولئك البُعءاء إلى جهة السُّفل هم الظالمون لأنفسهم بإعراضهم عن الحق ومخالفتهم لمقتضيات الإيمان.

٥١ - ما كان قول المؤمنين الصادقين إذا دُعوا إلى كتاب الله وحكم رسوله إلا أن يقولوا: سمعنا قوله وأطعنا أمره، فنحن نقبل بما يصدر من حكم ولو كان علينا، وضد هوانا؛ لأننا نؤمن أن الحكم بكتاب الله وسنة رسوله يضمن الحق لأهله، ولا يجوز عليهم، وأولئك الملتزمون بالسمع والطاعة، المُحَقِّقون بالتطبيق العملي مضمون قولهم: «سمعنا وأطعنا»، هم الناجون الظافرون بالخير.

٥٢ - ومن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيما ساءه وسرّه، ويخاف الله خوفاً مُتَدَفِّقاً من منابع الإيمان في قلبه، مصحوباً بإجلال وتعظيم وحب، ويتَّقِي الله فيما يستقبل، فأولئك الطائعون لله ورسوله، الخائفون المُتَّقُونَ رُفِعُوا الدرجة هم الناجون الظافرون بخيري الدنيا والآخرة. فهذه الآية تشتمل على شرط وجزاء. أما الشرط فيها فقد جمع ثلاثة عناصر: الأول: طاعة الله ورسوله، وهو عنصر سلوكي في المؤمن، والثاني: خشية الله عز وجل، وهو عنصر قلبي ونفسي، والثالث: تقوى الله، وهو العنصر الوسيط بين الخشية القلبية النفسية، وبين سلوك الطاعة. فعن الخشية تتحرك الإرادة لانتخاذ الوقاية من عذاب الله، وأثر التقوى في السلوك يكون بطاعة الله ورسوله. فالنص أبان أولاً الأثر الظاهر، وبعده أبان الباعث من الداخل، وأخيراً أبان الوسطة بينهما، وفي هذا إتقان في الترتيب عجيب. وأما الجزاء ولمن تحققت فيهم هذه الشروط، فهو الظفر والنَّجاة من الشر والربح العظيم، فهم الذين انحصر فيهم كمال الفوز يوم الدين.

٥٣ - وأقسَمَ المنافقون بالله أقصى وسعهم في الأيمان المُعْطَلَة: لئن أُمِّرَتْهم - يا رسول الله - بالخروج للجهاد معك لَيَخْرُجُنَّ. قل لهم - يا رسول الله - ويا كل قائل للمسلمين من بعده - : لا تحلفوا كذباً؛ فطاعتكم طاعة معروفة حقيقتها، لا تتجاوز اللسان والشفتين، ولا يخفى من أمركم من شيء، إن الله خير بما تعملون على سبيل الشهود والحضور، المُصَاحِب لكل أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، وسيُحبط أعمالكم التي تعملونها ضد دينه، وسيُجازيكم على كفركم ونفاقكم ومعاصيكم.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَمَا عَلَيْهِ مَا حِلٌّ
وَعَلَيْكُمْ مَا حِلْمٌ وَإِنْ تَطِيعُوا تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
وَلَيَزِيدَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
شَيْئًا مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٦﴾
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرحَمُونَ ﴿٥٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا أُولَٰئِكَ إِلَّا فِي أَعْيُنِنَا وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّحَابِ
لَيَسْتَعِزَّ بِكُمْ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَلْبِغُوا الْحِلْمَ مِنْكُمْ
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ
وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوُفُوتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى
بَعْضٍ كَذَٰلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

٥٤ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المنافقين المتظاهرين ساعة الأمن والرخاء بإعلان حماسهم الشديد بالخروج للقتال باذلين نفوسهم وأموالهم: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول بقلوبكم وصدق نيّاتكم، فإن تتولّوا متبعدين عن طاعة الله ورسوله، فما على الرسول من مسؤولية تجاه ربه إلا ما كُلف وأمر به من تبليغ الرسالة، وقد آذاه، وما عليكم من مسؤولية تجاه ربكم إلا ما كُلفتم من الإجابة والطاعة والانقياد، فانظروا لأنفسكم، ولا عذر لكم فيما تنكصون، فقد بين لكم طريق الرشاد والهدى، وذلك في طاعته واتباع أمره، وإن تطيعوا رسولنا تُصيبوا الحق والرشد، ولن يضره تأخركم عن إجابته، ولا يحق سوء عملكم إلا بكم، وأما هو ﷺ فما بعثناه عليكم وكيلاً، وما على الرسول إلا التبليغ الواضح الظاهر، والمظهر الموضح لقضايا الإيمان، ولشرايع الله وأحكامه، وليس مسؤولاً عن تحويل قومه من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، وليس مطالباً بأن يكره الناس على سلوك الصراط المستقيم إذا أبوا ورفضوا سلوكه، ولم يستجيبوا لدعوته، إذ خطة الامتحان الرباني قائمة على اختبار الناس في أن يؤمنوا ويسلكوا صراط الله المستقيم، عن طريق إرادتهم الحرة، لا بالإلزام والإجبار.

٥٥ - وعد الله الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات التي أمروا أن يقوموا بها، كإقامة العدل، ونشر الأمن، والأخذ بالأسباب، وإعداد القوة المُرَّبة للكفار، بثلاثة وعود: الوعد الأول: ليُورثهم أرض الكفار من العرب والعجم، فيجعلهم خلفاً لملوكها وحكامها، ذوي القوى الماديّة والعسكريّة التي لا تدانيها قوى الذين آمنوا، كما استخلف المؤمنين من قبلهم بالحكم والسلطان في الأرض، والوعد الثاني: ليُمكّنهم لهم دينهم الذي اختاره لهم، ويظهره على سائر الأديان، والوعد الثالث: ليبدّلهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني آمنين لا يشركون بي شيئاً. وقد أنجز الله وعده، وأظهر

دينه، ونصر أوليائه، ومن كفر نعمة الله بعد الاستخلاف المستقر الثابت، وفسد وانحرف، وتخلّى عن الصفات التي تؤهلهم للتمكين، فأولئك البعداء عن رحمة الله هم الخارجون عن طاعة الله الذين يسلبهم الله نعمة الاستخلاف، كشأن غيرهم من الأمم. وهذه الآية شاهد عدل وصدق على هذه الأمة، فما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله وحكمت شريعته في حياتها إلا وتحقق لها وعد الله بالتمكين والاستخلاف، وما من مرة حادت هذه الأمة عن نهج الله الذي ارتضاه لها إلا تخلفت في ذيل القافلة وذلت، وطردت من الهيمنة على البشرية، واستبدّ بها الخوف، وتخطفها الأعداء. ووعد الله قائم، وشرطه معروف، فمن شاء الوعد، فلْيُقيم بالشرط، ومن أوفى بعهده من الله؟!

٥٦ - وأقيموا الصلّة بالمواظبة عليها في أوقاتها، وإتمام أركانها، وآثوا الزكاة لمستحقّيها، طيبة بها نفوسكم، ابتغاء وجه الله، وأطيعوا الرسول في كلّ أوامره ونواهيه التشريعيّة، والقياديّة السياسيّة، والعسكريّة؛ رغبة أن تُرحموا.

٥٧ - لا تظنّ الذين كفروا فائتين عثاً، أو خارجين عن قدرتنا، فأين يُعجزوننا وهم مهما ذهبوا في الأرض، فهم واقعون في قبضتنا، ذائقون في هذه الحياة مرّ النكال مثلاً، ومأواهم في الحياة الأخرى النار، وليش المرجع النار.

٥٨ - يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشريعته مُرّوا عبيدكم وإماءكم، والأطفال الأحرار في سنّ التمييز، وهم الذين عرفوا أمر النساء ولم يبلغوا الحلم، أن يستأذنوا في ثلاثة أوقات في اليوم واللييلة، هي تلك الأوقات التي يحتاج المرء أن يستريح فيها، ويملك في نفسه حرية التصرف، فيختار الوضع الذي يروقه، والهيئة التي توافقه، وهو آمن من اطلاع غيره عليه، الوقت الأول: من قبل صلاة الفجر حين يستيقظ من نومه، ويهب من فراشه، ويطرح ثياب النوم، ويلبس ثياب اليقظة، والوقت الثاني: حين تخلعون ثيابكم وتطرحونها وقت شدّة الحر، والوقت الثالث: من بعد صلاة العشاء حيث يكون قد فرغ من عمله، وانتهى من عبادته، وركنت نفسه إلى أن يأوي لفراشه، فيخلع ثياب اليقظة، ويلبس ثياب النوم، وربما كان يميل إلى الأُنس بأهله؛ هذه الأوقات ثلاث عورات، يكره الإنسان أن يطلع عليها غيره، شرعت لمصلحتكم ورحمة بكم، ليس عليكم ولا على العبيد والخدم والصبيان أيّ حرج بعد هذه الأوقات الثلاثة في الدخول عليكم بغير استئذان، هم كثيرو التردّد والمقابلة لكم، والمخالطة معكم في شؤون الحياة، يتردّدون ويدخلون ويخرجون في أشغالكم بغير إذن، لا يستغني كلاً منكم عن مخالطة صاحبه، كما بين لكم حكم الاستئذان بياناً شافياً يملأ القلب روعةً وجلالاً، مثل هذا البيان يُبين لكم غيره من الآيات التي احتجتم إلى بيانها، والله علّم بمصالح عباده، حكيم في تدبير أمورهم.

٥٩ - وإذا بلغ الأطفال الأحرار ذكوراً كانوا أو إناثاً سن الاحتلام، وحد البلوغ، فليستأذنوا في جميع الأوقات في الدخول عليكم كما استأذن الذين بلغوا الحلم من قبلهم من الأحرار الكبار، ولا تتسامحوا في دخولهم ومخالطتهم على سابق عاداتهم قبل بلوغهم، بحجة أنهم اعتادوا ذلك منذ صغرهم، مثل هذا البيان يكون دائماً تبيين آياته التي تلى عليكم، لتخضعوا لأمره تعالى وإن خالف عاداتكم، فهو أعلم بما فيه مصلحتكم، والله أعلم بأمور خلقه شامل العلم لكل ما يصلح، وبما كان ويكون، يضع لكم من الأحكام ما يناسبكم، ويكفل لكم سعادتهم.

٦٠ - والنساء العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والولد وعن الاستمتاع بهن؛ لكبرهن، اللاتي لا يطمعن في الزواج ولا يردن الأزواج؛ لياسهن من أن يتطلع إليهن، فليس عليهن حرج أو إثم أن ينزعن عنهن ثيابهن الظاهرة التي لا يفضي نزعهما إلى كشف العورة، كالجلباب والرداء الذي فوق الثياب، غير مظهرات زينة مما أمرن بإخفائهن، وغير قاصدات بوضع الجلباب والرداء إظهار زينتهن ومحاسنهن للرجال، وأن يستغفرن فلا يلقين الجلباب ولا الرداء، ويقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة خير لهن، والله سميع لما يقرن، عليم بما يقصدن.

٦١ - ليس على الأعمى والأعرج والمريض من أصحاب الأعدار وذوي العاهات ضيق وإثم في مأكلة الأصحاء، وليس عليهم إثم في أن يأكلوا من بيوت غيرهم حيث أباحوا لهم ذلك في غيبتهم، ولا يتحرج الأصحاء من مخالطة أولئك الطوائف في الطعام، ولا على أنفسكم ضيق وإثم أن تأكلوا من هذه البيوت الإحدى عشرة: البيت الأول: بيوتكم الشخصية وبيوت أولادكم وبيوت أزواجكم؛ لأنهم أقرب الناس اتصالاً بكم، البيت الثاني: بيوت آبائكم، البيت الثالث: بيوت أمهاتكم، البيت الرابع: بيوت إخوانكم، البيت الخامس: بيوت

أخوانكم، البيت السادس: بيوت أعمامكم، البيت السابع: بيوت عماتكم، البيت الثامن: بيوت أخوالكم، البيت التاسع: بيوت خالاتكم، البيت العاشر: البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أربابها؛ كما إذا كنتم وكلاء عنهم أو خازنين عندهم، البيت الحادي عشر: بيوت أصدقائكم وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة، فليس عليكم حرج أو إثم أن تأكلوا من بيوت الأحد عشر صنفاً المذكورة إذا دخلتموها، وإن لم يحضروا، إذا علم رضاهم به بصريح اللفظ، أو القرينة من غير أن تزودوا وتحملوا.

وليس عليكم من ضيق في كيفية الاجتماع على الطعام بعدما أباح لكم تناوله أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين. وقد كان من عادات بعضهم في الجاهلية أن لا يأكل طعاماً على انفراد، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام، فرفع الله تعالى هذا الحرج المتكلف، ورد الأمر إلى اليسر بلا تعقيد، وأباح لهم أن يأكلوا أفراداً أو جماعات. كما كان من عاداتهم في الجاهلية أن يتحرج الغني من الأكل من طعام الفقير من ذوي قرابته أو صداقته، فأبطل الإسلام هذه العادة، وأباح الأكل، وإن اختلفت أحوال الأكليين.

فإذا دخلتم بيوتاً من هذه البيوت التي رخص لكم في دخولها، فليسلم بعضكم على بعض بتحية الإسلام، وهي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فهم منكم وأنتم منهم، وهم في المودة ولحمة القرابة بمنزلة أنفسكم، فكأنكم تسلمون على أنفسكم، وإذا لم يكن في البيت أحد، فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، حيّوهم تحية مشروعة من لدنه تعالى، ثابتة بأمره وإرشاده، مباركة كثيرة الخير والنفع، طيبة تطيب بها نفوسهم وتطمئن إليها، من جملة الكلم الطيب المضمون قبوله وصعوده إلى الله تعالى، بمثل هذا التبيين الذي تقدم في هذه السورة يبين الله لكم سائر الآيات التي تحتاجون إلى بيانها؛ رغبة أن تعقلوا عقلاً علمياً أحكام شريعة الله سبحانه، وتعقلوا بإرادة حازمة شهواتكم وأهواء نفوسكم. وفي هذه الآية ذكر آداب الضيافة والمخالطة داخل بيوت المسلمين، وتحديد البيوت التي يجوز للمسلم أن يأكل منها، وفيها بيان منزلة الصديق حيث ألحقته الآية بالقرابة النسبية؛ بسبب المحبة واحتكام الإلفة ورفع الكلفة. وفيها الدعوة إلى التعاون والإيثار، إذ يجوز للمسلم أن يدخل إلى ملك أخيه المسلم، وأن ينتفع بأدواته، ونحو ذلك من التصرف الذي لا يشق على صاحبه، ولا يشك برضاه وسماحته ومحبته التي هي موجب الصداقة. وفي هذه الآية الكريمة ما يدل على أن دين الإسلام جاء بحسن المعاشرة، وبالسماحة وسخاوة النفس، وبتواضع العباد بعضهم لبعض، دون ترفع بالحال أو بالمال على الغير، وبالنسجام مع كل مؤمن، غنياً أو فقيراً، كبيراً أو صغيراً، صحيحاً أو مريضاً، كما أن الآية ترد على كل منقطع ومشتد في معاملاته ومعاشرته ومؤاكلته، وأشارت الآية إلى أدب التحية عند الدخول إلى البيوت المتقدم ذكرها؛ لئلا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة مبيحة لإسقاط الآداب، فإن واجب المرء أن يلازم الآداب مع القريب والبعيد.

وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ﴿٥٩﴾ والقواعد من النساء التي لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ﴿٦٠﴾ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت عماتكم أو بيوت عمتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتكم مفاتيحه أو صدقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴿٦١﴾

٦٢ - ما المؤمنون الصادقون العاملون بمقتضى إيمانهم إلا الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، وإذا كانوا مع رسول الله ﷺ على أمر عام مهم ديني أو دنيوي، مدعاة للاجتماع للتعاون أو التشاور من استعداد لدفع الطوارئ، أو حرب، أو صلاة حضرت، أو جمعة أو جماعة أو عيد، وما يماثل ذلك من مهمات الأمور، لم يفرقوا عن رسول الله ﷺ، ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له، حتى يستأذنه ويأذن لهم إذا شاء. فإذا استأذنه ولم يأذن لهم لم يكن لهم أن يذهبوا؛ فليس الخروج من العهدة بمجرد طلب الإذن، ولو لم يصدر لهم الإذن، وإلا لم يكن للاستئذان معنى. إن الذين يستأذنونك - يا رسول الله - أولئك الذين يؤمنون بدوام وتجدد بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، فإذا استأذنونك لبعض شؤونهم الضرورية المهمة، فأذن لمن شئت منهم بالانصراف، وإن شئت لا تأذن، وذلك بتمييز من يستحق الإذن ومن لا يستحقه، عن رأي وروية، وتقدير مصلحة، والأولى والأحسن بالمؤمنين أن يتحاشوا عن الانصراف، ولو بإذن، ولو في الشؤون الشخصية المهمة، فالمصلحة العامة للمؤمنين، والأمر الجامع أحق بأن يتفرغ له، وأن يُقدّم على الشؤون الخاصة، واطلب - يا رسول الله - من الله أن يغفر لهم استئذانهم، وتقديم مصالحهم الخاصة على المصالح العامة، وأمور الجماعة، إن الله كثير السّر للذنوب عباده واسع الرحمة عظيمها.

٦٣ - لا تجعلوا دعاء الرسول إليكم - أيها المؤمنون - لتتشاوروا أو تتعاونوا أو تقوموا بأي غرض مهم من أغراض الدنيا أو الدين، كدعاء بعضكم بعضاً في الشؤون التافهة المبنية على التسامح من الجانبين، فلا يُبالي الداعي أجيب أم لم يُجب، ولا على المدعو في أن يجيب أو لم يُجب، نوكد تحقق حصول علم الله مع كل اللحظات المتجددات بالمنافقين الذين يخرجون من مجلس النبي ﷺ إلى

أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن منه، يستتر بعضهم بعض، ويروغون في خفية، فليحذر الذين يعرضون ويصدون عن أمره، ويتصرفون عنه بغير إذنه أن ينزل بهم بلاءً ومحنة في الدنيا، أو يصيبهم في الآخرة عذاب مؤلمٌ وجيع.

٦٤ - تنبهوا وتحققوا إن لله ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وتصرفاً، وإنكم مع شمول القدرة بكم من جميع نواحيكم، فإنه لا تخفى عليه أحوالكم، تأكدوا وكونوا على يقين بأن الله يعلم لحظة بعد لحظة ما أنتم عليه من كل ذواتكم وصفاتكم وأحوالكم من خير أو شر، ومن صالح عمل أو سيئه، ويوم يرجعون إليه يوم القيامة فينبئهم بما عملوا، حتى تقوم الحجة، ويعترفوا بذنوبهم، ويعلموا أن الله قد أحصى عليهم كل صغيرة وكبيرة، ويجازي كل عامل بما عمل، والله بكل شيء عليم، لا تخفى عليه أعمالهم وأحوالهم.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

١ - كثرت خيرات الله، وعظمت بركاته، وكملت أوصافه، وتنامت وتزايدت عن كل ما يصفه به الواصفون من كمالات، الذي نزل القرآن الفارق بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، على عبده محمد ﷺ الذي تحقق بعبوديته الكاملة لله عز وجل؛ ليكون للعالمين نبياً رسولاً، وليكون الفرقان الذي أنزل عليه بلاغاً عاماً للعالمين، إنسهم وجنهم. فالبلاغ القرآني عام للعالمين، والرسول المبلغ له رسول للعالمين جميعاً، وكل منهما نذير لمن لم يؤمن ويستجب.

٢ - وتبارك الذي له وحده ملك السموات والأرض، يتصرف فيهما كيف يشاء، وهو الفرد في وحدانيته، لم يجعل سبحانه لنفسه ممّا خلق من عباده ولداً، وهو المنفرد في الإلهية، وما كان له شريك في ملك السموات والأرض أزلاً وأبداً؛ لأنه هو الخالق المالك لكل شيء، وأوجد كل شيء من العدم فقدّر بالإيجاد الفعلي التنفيذي، ما قدر بعلمه وقضى بإرادته أن يوجده، تقديرًا دقيقاً مُحْكماً دالاً على عظمته وجلاله وبديع صنعه.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا الْإِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْثُونَ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّاهُ فَيَحْذَرُ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُفِعَ دَرَجَاتٌ



٣ - وَجَعَلَ عَبْدَهُ الْأَوْتَانِ بِصْنَعِ مِنْهُمْ، آلهةً لأنفسهم من أشياء من غيره هي بطبيعتها تقع دونه، لا تستطيع خلق شيء ما، وهم يُخْلِقُونَ ما تَجَدَّدُ بقاءهم في الوجود خلقاً من بعد خلق، فهم مفتقرون في أصل وجودهم إلى الخالق سبحانه، ومفتقرون في بقاء وجودهم إلى خلق البارئ لهم، مُفسكاً لهم في البقاء، ولا يملك هؤلاء الشركاء المعبودون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم دفع ضرر ولا جلب نفع، ولا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم إماتة ولا إحياء ولا بعثاً بعد الموت.

٤ - وقال الذين كفروا: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد ﷺ عن عمد من تلقاء نفسه على ربه، وأعانه على افتراءه أناس آخرون. فقد جاء قائلو هذه المقالة بظلم عظيم، وكذب فظيع، انحرفوا به عن جادة الحق والإنصاف.

٥ - وقال الكافرون عن هذا القرآن: هو أكاذيب المُتَقَدِّمِينَ وأباطيلهم التي سَطَرُوها في كتبهم، أمر محمدٌ غيره بكتابتها له، فهي تُلقى عليه بعد اكتتابها أول النهار إلى طلوع الشمس، وحين تصفر الشمس لمغربها، فهو يتسأل في هذين الوقتين بعيداً عن الرقباء؛ ليحفظها.

٦ - قل - يا رسول الله -: أنزل القرآن الذي يعلم كل السر في السموات والأرض، إنه كان كثير السُّرِّ لذنوب عباده، عظيم الرحمة بهم، إذا استغفروا وآمنوا، وأتبعوا الرسول.

٧، ٨ - وقال المشركون مُتَعَجِّبِينَ: أي شيء اختص به محمد حتى استطاع بسببه أن يكون رسولاً، والحال أنه: يأكل الطعام كما نأكل نحن، ويمشي في الأسواق كما نمشي يلتمس المعاش؟ هلاً أنزل الله عليه ملكاً يُصدِّقُه ويشهد له، فيكون هذا الملك معه مُبْلِغاً ومُبَشِّراً ونذيراً، أو يُلقى إليه بعطاء من الله كنز من السماء ينفقه، فلا يحتاج إلى التصرف في طلب المعاش، فإن لم يكن له كنز، فلا أقل

أن تكون له حديقة عظيمة يأكل منها، وقال الظالمون: ما تَتَّبِعُونَ - أيها المؤمنون - إلا رجلاً مغلوباً على عقله بالسحر، يتصرف بغير إرادة واعية منه.

٩ - انظر - يا رسول الله - بفكرك متعجباً مُسْتَنَكِراً: كيف اضطنعوا كذباً وافتراء لك أوصافاً يكشف الفكر القريب بطلانها، لمنافاتها لصفاتك العظيمة، فقالوا: مُفْتَرٍ كَذَابٍ، ورجل مسحور، وشاعر، ومجنون، فضلوا عن الحق، فلا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى، ومُخْرَجاً عن الضلالة.

١٠ - كُثِرَتْ خيرات الله، وعظمت أوصافه فوق كل وصف كمال يصفه به الواصفون، الذي إن شاء وَهَبَ لك - يا رسول الله - خيراً ممَّا اقترحوه لك من ثراء واسع في الدنيا، بساتين تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ويجعل لك قصوراً تتجدد دائماً، مباني وأثاثاً ورياشاً وزينة، لكن الله لم يشأ ذلك لأنه سبحانه قضت حكمته أن لا يجعل نبيّه ذا ثراء واسع وجئات وقصور في الدنيا، كما اقترح الذين كفروا؛ ليكون أسوة للناس أجمعين، ولتكون الاستجابة لما يدعو إليه استجابةً من أجل مضمون دعوته الحق التي يدعو إليها، لا من أجل ملكه وسلطانه وغناه؛ ولئلا تكون تطلعات المؤمنين من بعده لزينة الحياة الدنيا، والتكاثر من أموالها وما فيها من متاع.

١١ - ليس ما يُقدِّمونه من اعتراضات واقتراحات هو للتثبت من صحة الرسالة، بل مشكلتهم وباعنهم الداخلي تكذيبهم بالبعث بعد الموت، وأعدنا لكل من كذب بالقيامة ناراً عظيمة شديدة الاشتعال.

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْ نَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ
أَقْرَبِهِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَ ظُلْمًا وَزُورًا
﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا
مَا هَذَا إِلَّا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ
لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى
إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

١٢ - إذا رأت النار المُلْتَهَبَةُ الْمُوقَدَةُ هؤلاء الكفار من مكانٍ بعيد سمعوا صوت غليانها وتفجراتها وفوران المنصهرات فيها، وسمعوا أصوات الأنفاس والرياح والسُّموم التي تدفع بها عند الزفير، من شدة غضبها عليهم.

١٣ - وإذا ألقوا من النار إلقاءً باهانةً وإذلالاً في مكانٍ ضيقٍ حالة كونهم مشدودين بالحبال والسلاسل، مجموعين مع نظرائهم، يُسحبون إلى عذاب السعير، نادوا هنالك بأعلى أصواتهم طالبين خلاصهم بالهلاك العام الشامل.

١٤ - فيقال لهم تَيْئِسًا: لا تدعوا اليوم هلاكاً واحداً، وادعوا هلاكاً كثيراً، فكررُوا دعاءكم كثيراً مع الأزمان وأنواع العذاب، ولاحظْ لكم في الهلاك الذي تدعونه؛ لأن الله قضى بأن لا موت بعد البعث يوم الدين.

١٥ - قل لهم - يا رسول الله ويا كلِّ داعٍ إلى الله -: أذلك الذي ذكرت من صفة النار وأهلها خيرٌ أم جنةُ البقاء الدائم التي وعدَها الْمُتَّقُونَ الخائفون من عذاب ربهم، كانت لهم ثواباً على ما قدموا من عمل صالح، وعاقبةً ومنزلاً طيباً يرجعون إليه في الآخرة.

١٦ - يمتلك المتقون في الجنة جميع المراتبات من أنواع النعيم، خالدين في نعيم الجنة، كان هذا الجزاء في الجنة حقاً على ربك - يا رسول الله - أوجبه على نفسه، وعداً مطلوباً جديراً بأن يُسأل ويُطلب لعظم شأنه، يسأله عباد الله المتقون، ويُحقق الله لهم مسألتهم.

١٧ - ويوم القيامة يحشرُ الله المشركين وما يعبدون من كائن ما غير الله، كالملائكة، وعيسى، وأمه، والرجال الصالحين الذين اتخذ لهم قومهم من بعدهم أوثاناً على صورهم، فعبدوهم. فيقول الله للمعبودين: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء بمختلف الوسائل القولية أو العملية أم هم أخطؤوا الطريق باختيارهم الانطلاق في متاهات الضلال الاعتقادي والعملية؟

١٨ - قال المعبودون من دون الله: نُزِّهْكَ - يا ربنا - من أن يكون معك شركاء في ربوبيتك أو إلهيتك، ما استقام لنا ونحن عبادك المطيعون لك، أن نتخذ أتباعاً يعبدوننا من دونك، ولكن جعلتهم يستمتعون بأنواع من متاع الحياة الدنيا مدةً مُتطاولة، حتى تهاونوا في القيام بما أمرتهم به ونهيتمهم عنه، في الذكر الذي أنزلته عليهم، وبلغهم إياه رُسُلهم، ثم أعرضوا عنه إعراضاً تاماً، وكانوا قوماً فاسدين لا خيرَ فيهم، وفسادهم يُقضي بهم إلى أن يكونوا هالكين، تحلَّ عليهم نقمة الله وعذابه في الدنيا، وأن يكونوا من الخالدين في العذاب يوم الدين.

١٩ - فقد كذبتكم - أيها المشركون - آلهتكم الذين تعبدونهم من دون الله بما تقولون، وبعد إصدار الحكم عليكم ما تستطيعون - أيها الكفار - دفع العذاب عنكم، ولا نصر أنفسكم. ومن يُشرك بالله منكم فيظلم نفسه ويعبد غير الله، ويمت على ذلك، ينزل به عذاباً كبيراً يحس بالآلامه في توالي الأوقات.

٢٠ - وما أرسلنا قبلك - يا رسول الله - أحداً من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق طلباً لمعاشهم واكتساب أرزاقهم بالبيع والشراء، وهذه سنة الله في جميع المرسلين السابقين، وما أنا إلا رسول، وما كنت يدعاً من الرسل، وهم كانوا بشراً مثلي يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. وجعلنا بخلقنا بعضكم - أيها الناس - لبعض ابتلاء واختباراً في هذه الحياة الدنيا، هلاً صبرتم على هذا الابتلاء، وضبطتم أنفسكم على تحمل المكاره، حتى تظفروا بالنجاح في الامتحان الرباني لكم، وتقوموا بما أوجبه الله عليكم، وتشكروا له؟ وكان ربك - يا رسول الله - بصيراً بمن صبر على أذى الكافرين، وهو لأوليائه المؤمنين المجاهدين في سبيله نصير.

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ يَبْعِدُ سَمِعُوا لَهَا نَغِيظًا وَزَفِيرًا ۚ وَإِذَا أَلْقَاوْنَهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرِينَ دَعَوْا هُنَا لَكَ ثُبُورًا ۚ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۚ قُلْ أَدْلَيْكُمْ خَيْرَ أَمْرٍ حَتَّى الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۚ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا ۚ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۚ قَالُوا سَحَكُنَا مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۚ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۚ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ يَئِسَ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۚ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۚ

٢١ - وقال الذين لا يؤمنون لقاءنا، فلا يرغبون في ثوابنا، ولا يخافون من عقابنا، هَلَّا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ لِثَلَاثَةِ مَرَّاتٍ وَحْيَ اللَّهِ، أَوْ نَرَى رَبَّنَا رُؤْيَا بَصِيرَةٍ، فَيَكْلَمُنَا بِمُخَاطَبَةٍ، دُونَ وَسَاطَةِ رَسُولٍ مِنَ الْبَشَرِ أَوْ الْمَلَائِكَةِ، لَقَدْ عَظُمَ الْكِبَرُ وَاشْتَدَّ الْقُوَى فِي أَنْفُسِهِمْ، وَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الطَّغْيَانِ وَالْكَفْرِ تَجَاوُزًا بِالْغَاثِ.

٢٢ - يوم يرى الكفار الملائكة عند الموت، وفي البرزخ، وحينما يبعثون ويُساقون إلى موقف الحساب، وحينما يكفون في النار على وجوههم، ويستقرّون فيها، لا يُشْرَى فِي كُلِّ هَذِهِ الْمَرَاهِلِ الَّتِي يَرُونَ فِيهَا الْمَلَائِكَةَ، بَلْ لَهُمْ أَحْزَانٌ وَمَخَافٌ وَآلَامٌ، وَيَقُولُونَ مُسْتَعِذِينَ عِنْدَمَا يَشَاهِدُونَ مَا يَشِيرُ الْهَلَعُ فِي قُلُوبِهِمْ: مُنْعَا مُنْعَا.

٢٣ - وعَمَدُنَا إِلَى مَا عَمِلَ الْكَافَرُ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ الَّتِي عَمِلَهَا فِي حَالِ الْكُفْرِ، كَصَلَةِ رَحِمٍ، وَإِعَاثَةِ مَلْهُوفٍ، وَقِرَى ضَيْفٍ، فَجَعَلْنَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَاطِلًا لَا ثَوَابَ لَهُ؛ مِثْلَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْكُوَّةِ مَعَ ضَوْءِ الشَّمْسِ شَبِيهًا بِالْغُبَارِ، مُتَفَرِّقًا ذَاهِبًا كُلُّ مَذْهَبٍ، لَا يَتَأْتِي جَمْعُهُ.

٢٤ - أصحاب الجنة يَوْمَ يَرُونَ الْمَلَائِكَةَ خَيْرَ إِقَامَةٍ وَمَكَانًا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَحْسَنُ مَكَانٍ نَوْمٍ وَرَاحَةٍ فِي مَدَّةِ الْبَرْزَخِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، حَيْثُ تَبْقَى نَفُوسُهُمْ فِي حَالَةٍ تُشَبِّهُ حَالَةَ النَّائِمِ فِي قَلْبُولَتِهِ.

٢٥ - وحين تشقق في يوم القيامة السماء، وتخرج من الشقوق سُحُبٌ بِيضَاءَ رَقِيقَةٍ، هَابِطَةٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَمِنْهَا أَفْوَاجُ الْمَلَائِكَةِ تَتَنَاجَى.

٢٦ - الْمَلِكُ الَّذِي هُوَ الْمَلِكُ حَقًّا مُلْكُ الرَّحْمَنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى كُلِّ الْكَافِرِينَ صَعْبًا شَدِيدًا. وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَيْرًا.

٢٧ - وَضَعُ فِي ذَاكَرَتِكَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي - حِينَ يَعْصُ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ عَلَى يَدَيْهِ تَحْسُرًا وَنَدَامَةً. يَقُولُ كُلُّ ظَالِمٍ: يَا لَيْتَنِي أَتَّبَعْتُ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَتَّخَذْتُ مَعَهُ فِي الدُّنْيَا طَرِيقًا إِلَى الْهَدَايَةِ وَالنَّجَاةِ.

٢٨ - وَيَتَحَسَّرُ وَيَتَوَجَّعُ مِنَ الْخَوْفِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ، وَمَنْ تَرَقَّبَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ الصَّائِرَ إِلَيْهِ، وَيَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ بِالْهَلَاكِ، وَيَقُولُ: يَا وَلَيْتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ الْكَافِرَ فَلَانًا صَدِيقًا تَخَلَّلَتْ مَوَدَّتُهُ قَلْبِي.

٢٩ - لَقَدْ أَضَلَّنِي فِي طَرِيقِ الْغَوَايَةِ مُبْدَأُ إِيَّايَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ذِكْرًا دَوَامًا لِلْعَمَلِ بِمَا جَاءَ فِيهِ، بَعْدَ زَمَنِ مَجِيئِهِ إِلَيَّ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ ﷺ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ الْمُتَمَرِّدُ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ كَثِيرَ الْخَذْلَانِ لِلْإِنْسَانِ، يَتْرَكُهُ وَيَتَبَرَّأُ مِنْهُ عِنْدَ نَزُولِ الْبَلَاءِ وَالْعَذَابِ.

٣٠ - وَقَالَ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ يَشْكُو كُفْرَ قَوْمِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: يَا رَبِّ إِنَّ كِبْرَاءَ قَوْمِي وَأَتْبَاعَهُمْ جَعَلُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَتْرُوكًا مُتَبَاعِدًا عَنْهُمْ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَلَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ، وَأَتَّخِذُونِي وَمَنْ آمَنَ بِي عَدُوًّا، وَبَدَّوْا يَعْدُونَ الْعُدَّةَ لِحَرْبِي وَمَقَاوِمَ دَعْوَتِي.

٣١ - وَمِثْلُ ذَلِكَ الَّذِي وَجَدْتَهُ مِنْ قَوْمِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - جَعَلْنَا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ بِمَقْتَضَى السُّنَنِ التَّكْوِينِيَّةِ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ، فَلَا يَكْبُرُ عَلَيْكَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَكَ قَدْ لَقُوا هَذَا مِنْ قَوْمِهِمْ فَصَبَرُوا، فَاصْبِرْ أَنْتَ كَمَا صَبَرُوا، وَأَتَّخِذِ الْأَسْبَابَ لِمَنْعِ عَدُوِّكَ مِنْ تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِ، فَإِنِّي هَادِيكَ إِلَى سُبُلِ السَّلَامَةِ مِنْهُمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَتَوَقَّعْ بَصْرَهُ، فَإِنِّي نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ، وَكَفَى بِرَبِّكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - هَادِيًا وَنَصِيرًا.

٣٢ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: هَلَّا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ دَفْعَةً وَاحِدَةً مُجْتَمِعَ الْآيَاتِ وَالسُّورِ، كَمَا أَنْزَلْتَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، وَالْإِنْجِيلَ عَلَى عِيسَى، وَالزَّبُورَ عَلَى دَاوُدَ! قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْزَلْنَا مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مُنْجِمًا، وَسَنَنْزَلُ مَا بَقِيَ مِنَ الْقُرْآنِ مُنْجِمًا كَذَلِكَ التَّنْزِيلُ الَّذِي اعْتَرَضُوا عَلَيْهِ، وَاقْتَرَحُوا خِلَافَهُ لثَلَاثِ حُكْمٍ: الْحُكْمَةُ الْأُولَى: لِنَقُويَ بِهِ قَلْبَكَ بِالسَّكِينَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، لَتَوْذِي رِسَالَتَكَ، وَتَقُومَ بِجَلَائِلِ الْأُمُورِ، مَهْمَا تَأَلَّبَ عَلَيْكَ كُفْرُ قَوْمِكَ، وَأَرَادُوا مَنَعَكَ مِنْ تَأْدِيَةِ رِسَالَتِكَ، وَالْحُكْمَةُ الثَّانِيَّةُ: لِنُرْتِّلَهُ تَرْتِيلًا، بِتَمَهُّلٍ وَأَنَاءَةٍ، فِي دُرُوسٍ تَعْلِيمِيَّةٍ مُتَّابِعَةٍ، وَلِتَتَابَعَ أَقْوَالُ أَهْلِ الْبَاطِلِ بَيَانَ الْحَقِّ، وَبَيَانُ مَا هُوَ أَحْسَنُ تَفْسِيرًا.

٣٣ - الحكمة الثالثة: ولا يأتيك - يا رسول الله - هؤلاء المشركون بنماذج مقترحة يصطنعونها بأرائهم، ويقترحونها ويرون أنها هي الصور الأفضل التي ينبغي أن يكون عليها الرسول، أو القرآن، أو أحكام الشريعة، إلا جئناك في نجوم التنزيل اللاحق ما يكشف وجه الحق، وجئناك بما هو أحسن بياناً وتفصيلاً مما اقترحوه.

وقد تضمن الجواب عن اعتراض المشركين على نزول القرآن جملة واحدة ثلاث حكم: **الحكمة الأولى:** تثبيت فؤاد النبي ﷺ بما يورثه السكينة والطمأنينة تجاه ما يمكن أن يقلقه ويزعجه من أحداث غير سارة، **والحكمة الثانية:** التمهّل والتأني في الكلام، لبناء المعرفة، في دروس تعليمية قسماً بعد قسم، مع الاستفادة من الأحداث والمناسبات، **والحكمة الثالثة:** متابعة جدليات الكافرين فيما يقدمونه من أمثلة يقترحونها، لكشف وجه الحق، واختيار ما هو أفضل وأحكم.

٣٤ - لا تهتم - يا رسول الله - لموقف الذين كفروا منك وممن أتبعك اليوم، ولا تكثر لنظرات الاحتقار والاستضعاف التي ينظرون بها إليك. هؤلاء المشركون هم الذين يساقون ويُجرّون على وجوههم إلى جهنم يوم الدين، أولئك البعداء عن رحمة الله بسبب كفرهم العنادي شرّ منزلاً ومصيراً، وأخطأ طريقاً، لا يجدون سبيلاً إلى نجاتهم.

٣٥ - وأؤكد لكم أننا آتينا موسى التوراة، وجعلنا معه أخاه هارون مُعيناً وظهيراً.

٣٦ - قللنا لهما: اذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذبوا بآياتنا، فامثلا أمرنا، وقاما بواجب الرسالة يدعوان إلى الله دهرأ، ثم خرجا ببني إسرائيل سراً، فلحقهما فرعون وجنوده، فأهلكناهم بالغرق إهلاكاً عنيفاً شديداً.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٧﴾
الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٩﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٤٠﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سُلَالًا سَلًّا ﴿٤١﴾ وَآيَةَ الْاٰمِرَاتِ الْعَذَابِ الْاَلِيمِ عَذَابًا اَلِيمًا ﴿٤٢﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٤٣﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلَّامًا نَذِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّوءَ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَرَوْهُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ شُورًا ﴿٤٥﴾ وَإِذْ أَرَأَوْنَا أَنْ يَنْخَذِلُوكَ إِلَّا هَرَوْنَا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤٦﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٧﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

٣٧ - وأغرقتنا قوم نوح حين كذبوا الرسل الذين أرسلوا إليهم، وكان نوح أطولهم عمراً، والمُقدّم فيهم. وجعلنا إهلاكهم علامة ظاهرة للناس على قدرتنا وعدلنا وحكمتنا في معاقبة المجرمين بالإهلاك الشامل، يعتبر بدلالاتها الذين يخشون أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم، وهيئنا لكل الظالمين في الآخرة عذاباً مؤلماً.

٣٨ - وأهلكنا عاداً قوم هود، وثمود قوم صالح، وأصحاب البئر، وأهلكنا أمماً كثيرة بين عاد وثمود وأصحاب الرّس. ٣٩ - وكل قوم من هؤلاء الأقوام الذين أهلكوا وصفنا له أحوال الأمم السابقة التي أهلكناها، ليتّعظوا بها ويعتبروا، وكلّ منهم أهلكناهم إهلاكاً هائلاً فيه تحطيم وتفتيت؛ لتماديهم في الكفر والطغيان.

٤٠ - ونقسم مؤكّدين أنه أتى مشركو «مكة» في ممرّهم إلى الشام على القرية التي أمطرت بالحجارة مطراً عاماً شاملاً للضر والعذاب، وهي قرى قوم لوط، أفلم يكونوا في رحلاتهم الكثيرة إلى بلاد الشام يزّون آثار قوم لوط الذين أهلكهم الله، فيعتبروا ويتّعظوا، بل كانوا يزّونها، ولكن كانوا لا يتوقعون بعثاً من القبور للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

٤١ - وإذا رآك هؤلاء المُكذّبون - يا رسول الله - ما يتخذونك إلا مهزواً بك، يقولون: أهدا الذي بَعَثَ الله إلينا حالة كونه رسولاً، وهو لا يؤيده ولا ينصره؟

٤٢ - قد قارب محمدٌ ببيانه وحججه أن يُضِلَّنَا عن عبادة ألّهتنا، لولا أن صَبَرْنَا على عبادتها، لَصُرْفْنَا عنها، وسوف يعلمون حين يزّون العذاب في الدنيا الذي يرافقه انتصار الرسول والذين آمنوا معه، والعذاب في الآخرة: مَنْ أخطأ طريقاً، وأبعد عن سبيل الهداية والنجاة؟ إنهم الكافرون بالله ورسوله لا محالة.

٤٣ - أَرَأَيْتَ - يا رسول الله، ويا كلّ داع إلى الله - مَنْ جعل معبوده الذي يُوَجِّه له الطاعة والانقياد في أموره كلّها هواه، أفأنت تكون عليه حفيظاً تحفظه من اتباع الهوى، أو مسؤولاً عن ضلاله، حتى تشعر في نفسك بالآلام عدم استجابته لدعوتك، كما يشعر المقصّر في تأدية وظيفته تجاه من هو وكيلٌ عليه من القاصرين؟ فلا تحزن من أجل الذين كفروا معاندين مُصْرِينَ على اتباع أهوائهم، وسلوك سُبل الضلالة، فإنك لست وكيلاً عليهم حتى تكون مسؤولاً عن إيمانهم أو محاسباً على كفرهم.

٤٤ - بل أنظر أن أكثر الذين تدعوهم يسمعون ما تقول سماع طالب الإفهام، أو يعقلون ما يعاينون من الحُجَج؟ ما هُم إلا كالأنعام في عَدَم انتفاعهم بالكلام، وعدم إقدامهم على التدبُّر والتفكُّر، بل هم أضلُّ سبيلاً؛ لأنَّ الأنعام تهتدي لمراعيها ومشاربها، وتنقاد لأربابها الذين يتعاهدونها، وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحقِّ، ولا يطيعون ربَّهم الذي خلقهم ورزقهم، ولأنَّ الأنعام تسجد وتُسَبِّح، والكفار لا يفعلون ذلك.

٤٥، ٤٦ - ألم تعلم ناظراً إلى آثار صنْع ربِّك الذي أتقن كلَّ شيء كيف مَدَّ الله الظلَّ على وَجْه الأرض، حتى ترى معه الأشياء دون انزعاج بأشعة الشمس المباشرة؟ ولو شاء الله لجعل الظلَّ دائماً ثابتاً غير متحرِّك، ثمَّ بعد مَدَّ الظلَّ طوال ليل كامل، تشرق الشمس، فتدلُّ على أنَّ الذي كان على الأرض من انكشاف المراثيات بدرجات متفاوتات، ونسب مختلفات، منذ بدء الغروب حتى الشروق، إنما كان قبل أشعة الشمس التي تنعكس أضواؤها على الأرض مُرتدة من جهات الأفق، ثم قبضنا الظلَّ بالتدرُّج جزءاً فجزءاً قبضاً هيئاً لئناً.

٤٧ - والله تعالى الذي جعل لكم الليل كاللباس يُجَلِّل الأشياء ويسترها بظلمته، وجعل النوم راحةً لأبدانكم، وقطعاً لأعمالكم، وجعل النهار وقتاً مناسباً لينتشر الناس فيه من نومهم، وليتفرَّقوا فيه يبتغون بأعمالهم فضل الله من أمور دنياهم وأخرهم.

٤٨، ٤٩ - وهو الذي أرسل الرياح إعلاماً ساراً بمقدم غيث قبل نزوله، تسوقه أوامر الله التكوينية التي هي من آثار صفة رحمته بعباده، وأنزلنا من السحاب ماء طاهراً يُطَهِّر به؛ لئحي بالمطر بلدأ مئتماً بما نخرجه من نباتات الأرض وما فيها من نماء وخضرة، ونسقي من ذلك الماء ممَّا خلقنا أنعاماً وبشراً كثيراً.

٥٠ - ونقسم مؤكِّدين لكم أننا نوَّعنا في القرآن أساليب الحُجَج

والبراهين والإقناعات بحسب اختلاف طبائع الناس ومستويات أفكارهم وأفهامهم واستعداداتهم؛ ليضعوا البيانات الربانية في ذاكرتهم، وليعملوا بوصاياها، فأبى أكثر الناس إلا سترًا للحقِّ وبراهينه بالجحود والنعاد.

٥١، ٥٢ - ولو شئنا لبعثنا في كلِّ قرية رسولاً يُنذِرهم بعقاب الله المُعَجَّل والمُؤَجَّل، ولكن بعثناك - يا رسول الله - إلى الناس أجمعين، وحملناك ثقل الثَّأرة؛ لئستوجب بصبرك ما أعدنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة. فلا تُطع الكافرين فيما يدعونك من موافقتهم ومدامنتهم، ولا تتأثر بمقترحاتهم وتشكيكاتهم، واجاهد الكافرين بمفاهيم القرآن وحججه وبراهينه جهاداً كبيراً بالمتابعة والصبر ومضاغة الجهد.

٥٣ - وهو الذي خلط عناصر الماء الحلو، وعناصر الماء المالح، بنسب صالحة لمنافع الناس والحياة، وأرسلهما في الأرض، فاندفعت تؤذي وظائفها المُقدَّرة لها، هذا عذب شديد العدوية مُستطاب للشاربين، وهذا ملح شديد الملوحة والمرارة، وجعل بينهما حاجزاً عظيماً بقدرته، وجعل كلَّ واحدٍ منهما مُحَرِّماً على الآخر أن يفسده، فلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب، ولا يبغي أحدهما على الآخر، ولا يفسد الملح العذب.

٥٤ - وهو الذي خلَق من الطُّفَّة بشراً، فجعل من جنس البشر علاقة رَجم وقِرابة، تنشأ عن طريق التناسل القائم على اشتقاق الأحياء بعضها من بعض، وجعل علاقة مصاهرة، تنشأ عن طريق التزاوج بين الذكور والإناث، وتشمل أقارب الزوج وأقارب الزوجة، وكان ربُّك قديراً دوماً من الأزل إلى الأبد.

٥٥ - ومع كلِّ هذه الدلائل على قُدرة الله وإنعامه على خلقه هؤلاء المشركون من دون الله ما لا ينفعهم إنَّ عبْدوه، ولا يضرُّهم إن تركوه، وكان الكافر مُعانداً قاسياً مُستعلياً على بيانات ربِّه، مُعِيناً للشيطان ضدَّ مرضاة ربِّه.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٢﴾ ثُمَّ قَبَضْتَهُ لِيَبْأَخْذًا سِيرًا ﴿٣﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٥﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا ﴿٦﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٧﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٨﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿١٠﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿١١﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿١٢﴾

٥٦ - وما أرسلناك - يا رسول الله - بعد قيامك بالتبليغ واتخاذ كل الوسائل لاستجابتهم عن طريق اختيارهم الحر، إلا مبشراً بالثواب على الإيمان والطاعة، ومُنذراً بالعقاب على الكفر والمعصية، ولست مسؤولاً عن تحويل الناس بالجبر والإكراه إلى الإيمان والطاعة.

٥٧ - قل لهم - يا رسول الله -: ما أسألكم على تبليغ الوحي، وما أقدم لكم من هداية وخير أجرأ ما قل أم كثر، فتقولوا: إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعوننا إليه فلا نطيعه، لكن من شاء أن يتخذ بإففاق ماله سبيلاً إلى مرضاة ربه وثوابه فليفعل.

٥٨ - واعتمد على الله سبحانه بقلبك اعتماداً صادقاً في جميع أمورك، مُستسلماً لجميع ما يختاره لك، مع قيامك باتخاذ الأسباب الكونية والتعبدية، فإنه حي لا يموت، فلا ينقطع توكل من توكل عليه بموته ولا يضيع ألبته، ونزّهه تعالى عن جميع النقائص مثنياً عليه بأوصاف الكمال، ولا تحمل هم ما تشاهد من ذنوب عباد الله الكثيرة، وكفى بالله تعالى حالة كونه عالماً بجميع ذنوب عباده، علماً كاملاً شاملاً، لكل ظواهر الأشياء وبواطنها، علم حضور وشهود، فيجازيهم عليها.

٥٩ - الرب الخالق الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش استواء يليق بجلاله، هو نفسه الرحمن على خلاف ما يزعمه مشركو مكة من أنه لا يتصف بصفة الرحمة، لذلك فهم لا يلتزمون رحمته، فأسأل عنه عالماً بالأمر عن تجربة وممارسة، ممن جربوا في حياتهم ربهم عن طريق الدعاء واللجوء إليه في الملهمات والأزمات، فإنهم سيخبرون بما جرى لهم في تجاربهم مع ربهم، ويثبتون أنه قد رحمهم، فاستجاب لهم لما التجؤوا إليه مُتضرعين داعين.

٦٠ - وإذا قيل للكافرين: اسجدوا للرحمن الذي يشملكم برحمته، ويمدكم بعباءاته. قالوا: لا نسجد للرحمن. وما الرحمن؟ وما هي

الظواهر التي تدل على أن الله القوي العزيز متصف بالرحمة؟ أنسجد لوصف لا نعرفه، تأمرنا - يا محمد - أن نسجد لله من أجله؟ وزادهم الرسول إذ قال لهم: اسجدوا للرحمن بعداً عن الإيمان؛ لأنهم لا يؤمنون بأن الرحمة من صفاته، ويعتقدون أن ألهمتهم التي يعبدونها هي التي يجلب لهم المنافع في حياتهم، وتدفع عنهم المضار.

٦١ - كثرت خيرات الله وعظمت أوصافه وكمالاته عن كل ما يصفه الواصفون من كمالات، لأنه أجل وأعظم، الذي جعل في السماء منازل للكواكب والنجوم السيارة، وجعل في السماء شمساً تضيء، وقمرأ يُنير من انعكاس ضوء الشمس الذي يسقط على سطحه.

٦٢ - وهو الذي جعل الليل والنهار يتعاقبان، فيخلف كل منهما الآخر، بتأثير نظام التكامل بين الشمس وحركة الأرض، لئمن أراد أن يضع هذه الظواهر والآيات في ذاكرته، فتكون باعثة له إلى الإيمان بالله والاستجابة لدعوة الرسول، ومن أراد أن يكون شاكراً لنعيم ربه عليه، بالتفكير بآيات الله في كونه الدالات على رحمته بعباده وعنايته بهم، وإنعامه عليهم.

٦٣ - وعباد الرحمن المؤهلون لأن يكونوا أئمة المتقين لهم اثنا عشر صفة: **الصفة الأولى:** الذين يمشون لقضاء شؤون حياتهم الدنيا على الأرض بالسكينة والوقار والرفق والروية متواضعين غير بطرين ولا متكبرين، ولا يكذون لمطالب الدنيا بسعي يستهلك كل طاقاتهم وأوقاتهم، **الصفة الثانية:** أنهم إذا خاطبهم السفهاء بالشتائم والألفاظ القبيحة مُستثيرين غضبهم، قالوا لهم: سلاماً، وفارقوا مجالس الجاهلين.

٦٤ - **الصفة الثالثة** من صفات عباد الرحمن: أنهم يتفرغون في ليلهم لعبادة ربهم، حال كونهم سُجداً على وجوههم، وقياماً على أقدامهم.

٦٥ - **الصفة الرابعة:** أنهم يدعون ربهم: ربنا رد عنا عقاب جهنم، وأبعده وحوله عنا؛ إن عذابها كان مُلحاً دائماً لازماً، غير مُفارق من عُذّب من الكفار؛ إن جهنم ساءت مكان استقرار دائم للمشركين، وساءت مكان إقامة قليلة لعصاة المؤمنين.

٦٧ - **الصفة الخامسة:** أنهم إذا بذلوا أموالهم فيما أذن الله ببذله، لم يُجاوزوا الحد في الإنفاق حتى يدخل حد التذير، ولم يضيّقوا النفقة على أنفسهم، وعلى من تجب عليهم نفقتهم، وكان إنفاقهم بين التذير والتفتير وسطاً معتدلاً مستقيماً غير مائل ولا معوج.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ ذُنُوبًا عَبَادُهُ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْئَلُ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

٦٨ - **الصفة السادسة:** من صفات عباد الرحمن: أنهم لا يسألون لمطالب دنياهم وأخراهم مع الله إلهاً آخر يجعلونه شريكاً له. **والصفة السابعة:** أنهم لا يقتلون النفس التي حَرَّمَ الله قتلها، إلا بالحق الذي أذن الله به، كحَدِّ، أو قِصاص، أو قتال لإعلاء كلمة الله، أو دفاع عن النفس. **والصفة الثامنة:** أنهم لا يزنون، ومَنْ يفعل هذه الكبائر الثلاث، يَسْتَقْبِلُ في عاقبة أمره جزاءً إثمه.

٦٩ - يُضَاعَفُ العذاب بإضافة مثله إليه لَمَنْ سَقَطَ من عباد الرحمن في بعض كبائر الشُّرك والقَتْل والزَّنى؛ وَيُخْلَدُ في العذاب ذليلاً، بسبب موته وهو مُشْرِك، ولأنه قابل تكريم الله بالانتكاس، بعد ارتقائه إلى مرتبة عباد الرحمن.

٧٠، ٧١ - لَكِنْ مَنْ تَابَ صادقاً، وجدَّدَ إيمانه، وعَبَّرَ عن صدق توبته وإيمانه بالعمل الصالح الذي يبتغي به رضوان الله، فأولئك يُبْدِلُ الله سَيِّئَاتِهِم التي سقطوا فيها، فيجعلها لهم حَسَنَاتٍ، وَمَنْ تَابَ وعَبَّرَ عن توبته الصَّادقة بالعمل الصالح، وذلك بالإقلاع عن فعل ما تَابَ عنه من المُحَرَّمَات، وبالمُؤَاطَبَةِ على فعل ما تَابَ عن تركه من الواجبات، فإنه يتوبُ إلى الله متاباً صادقاً نصوحاً.

٧٢ - **الصفة التاسعة:** أنهم لا يحضرون الباطل، كمجالس أهل الشُّرك والضلال، ولا يُخْبِرُونَ بالباطل والكذب، **والصفة العاشرة** من صفاتهم: أنهم إذا مروا باللغو ممَّا لا يُعْتَدُّ به من قول أو فعل، ولا يُحصل منه على فائدة أو نفع، مروا مُروراً عابراً، حالة كونهم كراماً في أنفسهم، إذ لا يهينونها بالهَبُوط إلى السُّفَاسف ومُحَقَّرَات الأمور، وهم يدركون قيمة الوقت، ويعلمون أنه رأس مالهم في هذه الحياة، فيخشون أن يخسروا مقادير من رأس مالهم دون تحقيق ربح وفير بعمل صالح.

٧٣ - **الصفة الحادية عشرة:** أنهم إذا ذُكِّروا بآيات الله المسموعة

والمشهودة، أسرعوا فسجدوا لله واضعين جبهتهم على الأرض، غير مُستَكْبِرِينَ، مع حضور قلبي وفكري ونفسي في تدبُّر آيات الله المسموعة والمشهودة، ولم يخروا غافلين ولا مُرائين ولا منافقين صُمّاً عن آيات الله المثلَّوة، وعُمياً عن آيات الله المشهودة.

٧٤ - **الصفة الثانية عشرة:** أنهم يسألون الله تعالى أن تكون أزواجهم وذُرِّيَّاتُهم من أهل الإيمان والتَّقوى، وبذلك تمتلئ قلوبُهم سروراً، ويكونوا قُرَّةَ أعين لهم في الدنيا وفي الآخرة، ويَطْمَحُونَ إلى الارتقاء إلى درجات الأبرار والمحسنين، حتى يكونوا أئمةً يقتدي بهم أهل مرتبة التقوى.

٧٥ - أولئك المُتَّصِفُونَ بِالصِّفَاتِ الاثنتي عشرة السابقة من عباد الرحمن، يَجْزِيهِمُ الله غُرَفَاتٍ رَفِيعَاتٍ في الفردوس من جنَّات النعيم؛ بسبب صبرهم على فعل الطاعات، وترك المخالفات والمكروهات، ويُلقَّوْنَ من قِبَلِ الملائكة والحدود العيون والولدان المُخْلَدِينَ تَحِيَّةً وأمناً وسلامة من كُلِّ مكروه.

٧٦ - باقِينَ في الغُرَفَاتِ بقاءً أبدياً بلا نهاية، حَسَنَتْ مُسْتَقَرّاً لأهلها يقرؤون فيه، ومقاماً لزوارها من أهل درجات مرتبة المُتَّقِينَ في الجنة.

٧٧ - قل - يا رسول الله ويا كُلَّ دَاعٍ إلى الله من أمته - للكَفَّارِ المُصْرِّينَ على مواقفهم: ما يُبَالِي بكم ربِّي من أجل ذاته، بل من أجلكم أنتم، رحمةً بكم، لولا دعاءُ الله إليكم إلى سلوك الصراط المستقيم لسعادتكم ونجاتكم، ما كان ربِّي يعابى بكم، ولكنكم مع هذه العناية بكم، فقد كذبتُم - أيها الكافرون - الرسولَ المبعوثَ إليكم، وكذبتُم بالقرآن، وبالجزء يوم الدين، وأصررتُم على مواقف الكفر، فسوف يكون جزاء تكذيبكم هذا عذاباً دائماً مُلَازِماً لكم حتى تنالوا عقابه يوم الدين في السَّعِيرِ دون نهاية.



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

الْبَقَرَةُ

١ - ﴿طَسَّرَ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

٢ - تلك الآيات البيانية الرفيعة المنزلة العالية الرتبة، آيات القرآن المنزّل على رسول الله ﷺ، الظاهر الواضح لمن تدبّره، والمظهر الموضح للمعاني المراد بيّانها للناس من دلائل التوحيد والأحكام، والذي يجب على المؤمنين أن يكتبوه في كتاب واحد، مميزاً عن غيره من الكتب.

٣ - لعلك - يا رسول الله - من شدة حرصك على إيمان أهل مكة، مهلك نفسك حسرة عليهم إن لم يؤمنوا.

٤ - إن نشأ أن ننزل عليهم آية من السماء تلجثهم إلجاء إلى الإيمان، فدامت أعناقهم مطاطنةً مُنَحْنِيَةً لها بسبب خوفهم من انتقام ربهم منهم، حالة كونهم في نفوسهم وقلوبهم خاضعين لربهم من هول ما يشاهدون من عظمة الآية، ولم نأتهم بذلك لأن سئتنا تكليف الناس دون إلجاء، كيلا تفوت الحكمة من الابتلاء، وما يترتب عليه من ثواب وعقاب.

٥ - أنت شديد الحزن من أجل هؤلاء المشركين المكذّبين حالة كونهم ما يأتهم من وعظ وتذكير من الرحمن مُخَدِّثٍ إنزاله، ومُتَجَدِّدٍ إنباؤهم به، إلا كانوا مُحَوِّلِينَ وجوههم عنه، غير عابئين ولا مكترئين.

٦ - فقد كذبوا بالقرآن، واستهزؤوا بالآيات التي تُثَلِّي عليهم، وما فيها من إنذارٍ ووعدٍ لهم، فسيأتيهم تحقيق أخبار وعواقب ما كانوا به يكذبون ويستهزؤون.

٧ - أأصروا على كفرهم وتكذيبهم، ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة لهم عن ذلك، والداعية إلى الإيمان بالله، كم أثبتنا فيها بعد أن لم يكن نبات من كل جنس ونوع وصنف حسن كثير المنافع ممّا يأكل الناس والأنعام؟!

٨، ٩ - إن فيما ذكر من الإنبات لآية عظيمة تدلّ على أن مُنْبِتُهَا قادرٌ على إحياء الموتى، ولكن ما وجدنا أكثرهم ذوي قابلية لأن يؤمنوا مستقبلاً، وإن ربك - يا رسول الله - لهو القويّ الغالب المنتقم من أعدائه المكذّبين المصّرّين على كفرهم، العظيم الرحمة للذين لديهم قابلية لأن يؤمنوا ويتبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم.

١٠، ١١ - واذكر - يا رسول الله - الأحداث التي جرت وقت نادى ربك موسى حين رأى الشجرة والنار: أن أثت قوم فرعون الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي، وظلموا بني إسرائيل باستعبادهم وسؤمهم سوء العذاب، وقل لهم بلين ورفق: ألا يريدون أن يقوا أنفسهم عقوبة الله بطاعته والإيمان به؟

١٢ - ١٤ - قال موسى: يا ربّ إني أخاف أن يكذبوني، ويضيق صدري بتكذيبهم إياي، ولا ينطلق لساني بالدعوة، فأرسل جبريل بالوحي إلى هارون، فاجعله نبياً ورسولاً معي؛ ليؤازرنِي ويُعينني على تبليغ الرسالة، ولهم عليّ دعوى ذنبٍ بقتل القبطي الذي وكّزته انتصاراً للإسرائيلي قبل خروجي من مصر فاراً إلى «مدين»، فأخاف أن يقتلوني به.

١٥ - ١٧ - قال الله تعالى لموسى: كلا لن يقتلوك، وقد أجبتُ دعاءك في أخيك هارون، وجعلته رسولاً معك، فاذهباً مَضْحُوبَيْنِ بالمعجزات الدالة على صدقكما، إنّما معكم بالعلم والحفظ والثّصرة، سامعون ما تقولون وما يُقال لكم. فأتيا فرعون فقولاً له: إنا رسولان، ولكننا بمثابة رسول واحد؛ لأننا متعاضدان، فما يقوله أحدهما يُعَبَّرُ عن قولنا مُجْتَمَعَيْنِ، وإن ربك هو ربّ كل موجود سواء تبارك وتعالى، فهو الذي خلق كل الموجودات الكونية، وأمدها بعطاءات ربوبيته؛ أن اترك بني إسرائيل، وأذن لهم بالخروج معنا من مصر إلى أرض فلسطين، ولا تستعبدهم.

١٨، ١٩ - قال فرعون لموسى: ألم تُرَبِّك ضمن أسرتنا الملكية كأحد أولادنا، منذ كنت وليداً حتى صرت رجلاً مكتملاً، أو لم تُقَمِّ في رعايتنا سنين من عُمرِكَ؟ أو لم ترتكب جريمة قتل المصري انتصاراً لرجلٍ من قومك الإسرائيليّين، وأنت من الجاحدين لنعمتي وحقّ تربيتي؟!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّرَ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَدِيعُ نَفْسِكَ
أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣ إِنْ شَأْنُنَا نَزَّلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ
أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ
إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٦ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ ٧ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨ وَإِنْ
رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَتِ الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ١١ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ
إِلَيَّ هَازِلُونَ ١٣ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٤ قَالَ
كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ١٥ فَآتَا فِرْعَوْنَ
فَقَوْلًا نَارَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦ أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
١٧ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلِيَشِ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ ١٨
وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكَ الْفَعْلَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ١٩

٢٠، ٢١ - قال موسى لفرعون: وَكَزَّتُ الْقَبْطِي حِينَئِذٍ، وَأَنَا مِنَ
الْجَاهِلِينَ بِأَنَّ ذَلِكَ يُوَدِّي إِلَى قَتْلِهِ، لِأَنَّ فَعْلَ الْوَكْزَةِ عَلَى وَجْهِ
التَّأْدِيبِ لَا عَلَى وَجْهِ الْقَتْلِ. فَهَزَبْتُ مِنْكُمْ إِلَى «مَدْيَنَ» حِينَ خَفْتُ
أَنْ تَقْتُلُونِي بِمَا فَعَلْتَ مِنْ غَيْرِ عَمْدٍ، فَوَهَّبَ لِي رَبِّي الْعِلْمَ وَالْفَهْمَ،
وَجَعَلَنِي نَبِيًّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

٢٢ - وتلك التربية في بيتك نعمة تفضّلت بها عليّ، أَنْ اتَّخَذْتُ بَنِي
إِسْرَائِيلَ لَكَ عِبِيداً، فَجَعَلْتَ تَقْتُلُ الْأَبْنَاءَ مِنَ الْمَوَالِيدِ، وَتُسْتَحْيِي
الْبَنَاتِ فَلَا تَقْتُلُهُنَّ لِتُسَخَّرَهُنَّ فِي الْخِدْمَةِ مَتَى صِرْنَ نِسَاءً قَادِرَاتٍ عَلَى
الْخِدْمَةِ، وَلَوْلَا رَغْبَةُ أَهْلِكَ فِي أَنْ أَنْفَعَهُمْ أَوْ أَنْ يَتَّخِذُونِي وَلِذَا لَهُمْ
لَذَبَحْتُمُونِي مَعَ سَائِرِ مَنْ ذَبَحْتُمْ مِنْ مَوَالِيدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَفَهَذِهِ تَصْلَحُ
لَأَنْ تَكُونَ نِعْمَةً تُمْنُهَا عَلَيَّ؟!!

٢٣، ٢٤ - قال فرعون: مَا حَقِيقَةُ ذَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي تَزْعُمُ
أَنَّكَ رَسُولُهُ؟ فَأَعْرَضَ مُوسَى عَنْ إِجَابَةِ فِرْعَوْنَ عَنْ حَقِيقَةِ ذَاتِهِ جُلَّ
جَلَالِهِ، وَسَمَّتْ عَنِ الْإِدْرَاكِ ذَاتَهُ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ ذَاتِهِ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ
إِدْرَاكَهَا. قَالَ مُوسَى: رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا، وَمِمَّا بَعْطَاءَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ دَوَاماً، إِنْ كُنْتُمْ مُسْتَعْدِينَ لِأَنْ
تَتَفَكَّرُوا بِالْحَقَائِقِ الَّتِي أَعْرَضَهَا عَلَيْكُمْ، فَتَوْقِنُوا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ عَنْ
طَرِيقِ الْبِرَاهِينِ وَالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ، فَإِذَا كُنْتُمْ غَيْرَ مُسْتَعْدِينَ لِأَنْ تَتَفَكَّرُوا
فَتَوْقِنُوا مُسْتَقْبَلاً، فَإِنَّ بَيَانِي هَذَا لَنْ يُغَيِّرَ مِنْ جُحُودِكُمْ لِرَبِّكُمْ شَيْئاً
مَهْمَا قَدَّمْتُ لَكُمْ مِنْ أَدْلَةٍ.

٢٥ - قال فرعون لِمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ: أَلَا تَسْتَمْعُونَ لْجَوَابِهِ،
إِنِّي أَطْلُبُ مِنْهُ الْمَاهِيَّةَ وَهُوَ يُجِيبُنِي بِأَفْعَالِهِ وَأَثَارِهِ؟
٢٦ - قال موسى: إِنَّهُ خَالَقُكُمْ وَخَالِقُ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ مَاتُوا عِنْدَ
انْتِهَاءِ أَجَالِهِمْ، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَنْ هُوَ مَخْلُوقٌ مِثْلَكُمْ، وَلَهُ أَبَاءٌ قَدْ
قَبَلُوا كِبَائِكُمْ؟

٢٧ - قال فرعون: إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي يَدْعِي الرِّسَالَةَ مَجْنُونٌ لَا يَفْهَمُ السُّؤَالَ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يَجِيبَ عَنْهُ، وَتَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ لَا نَقْبَلُهُ وَلَا
نَعْرِفُ صَحَّتَهُ.

٢٨ - قال موسى: الرَّبُّ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ هُوَ الْمُدَبِّرُ بِصِفَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ لِمَكَانِ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا، وَلِزَمَانِ الشُّرُوقِ وَالْغُرُوبِ،
وَهُوَ رَبُّ كُلِّ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مِنْ ظِلْمَةٍ وَضِيَاءٍ، وَأَحْيَاءٍ وَبَشَرٍ، وَرِيَّاحٍ وَسُحْبٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ إِنْ كُنْتُمْ تَدْرِكُونَ حَقِيقَةَ رَبُّوبِيَّتِهِ
لِلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَحَسْبُكُمْ أَنْ تَدْلِكُمُ الظُّوَاهِرُ عَلَى صِفَاتِهِ. وَمَا لَكُمْ وَلِلْبَحْثِ عَنْ ذَاتِهِ؟

٢٩ - قال فرعون حِينَ لَزِمَتْهُ الْحُجَّةُ، وَانْقَطَعَ عَنْهُ الْجَوَابُ: أَقْسَمُ لَنْ اتَّخَذْتُ - يَا مُوسَى - مَعْبُوداً تَعْبُدُهُ غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
الْمُسْجُونِينَ.

٣٠ - قال موسى حِينَ تَوَعَّدَهُ بِالسَّجْنِ: أَتَأْمُرُ بِسَجْنِي، وَلَوْ جِئْتُكَ - يَا فِرْعَوْنَ - بِآيَةٍ بَيِّنَةٍ يَتَّبِعُنَّ بِهَا صَدَقِي فِيمَا دَعَوْتُكَ إِلَيْهِ؟

٣١ - قال فرعون: فَأَنْتَ بِالَّذِي يُبَيِّنُ صِدْقَكَ، فَإِنَّا لَنْ نَسْجُنَكَ حِينَئِذٍ؛ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي أَنَّ لَكَ بَيِّنَةً.

٣٢، ٣٣ - فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ، فَصَارَتْ حَيَّةً ظَاهِرَةً، وَأَدْخَلَ يَدَهُ السَّمَاءَ فِي فَتْحَةٍ ثَوْبِهِ عِنْدَ صَدْرِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا، فَإِذَا هِيَ بَيَاضٌ
بِياضاً نَوْرَانِيًّا مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ، لَهَا شِعَاعٌ كَشَعَاعِ الشَّمْسِ تَبْهَرُ النَّاضِرِينَ.

٣٤، ٣٥ - قال فرعون لِأَشْرَافِ قَوْمِهِ: إِنَّ مُوسَى لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ بِالسَّحْرِ، يَرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ بِسَحْرِهِ مِنْ أَرْضِكُمْ، فَمَا رَأَيْكُمْ فِيهِ، وَمَا
الَّذِي أَعْمَلُهُ؟

٣٦، ٣٧ - قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: أَخْرَهُ وَأَخَاهُ هَارُونَ، وَلَا تُعْجَلْ بِعَقُوبَتِهِمَا، وَأَرْسِلْ مَبْعُوثِينَ مِنْ قَبْلِكَ لِلْبَحْثِ فِي الْمَدَائِنِ الْمِصْرِيَّةِ،
يَجْمَعُونَ لَكَ أُمَهْرَ السَّحَرَةِ، يَأْتُوكَ مِنْ أَقْصَايِ الْبِلَادِ بِكُلِّ مَاهِرٍ بِالسَّحْرِ، مُتَّفِقُونَ بِمَعْرِفَتِهِ؛ لِقَاوَمِهِ، وَلَا تَثْبِتْ لَهُ حِجَةً.

٣٨، ٣٩ - فَجَمَعَ جُنُودَ فِرْعَوْنَ السَّحَرَةَ لِإِجْرَاءِ الْمُبَارَاةِ فِي الْمَوْعِدِ الْمَحْدَدِ مَكَاناً وَزَمَاناً، فِي وَقْتِ الصُّحَى مِنْ يَوْمِ الزَّيْنَةِ الَّذِي
يَتَفَرَّغُونَ فِيهِ مِنْ أَشْغَالِهِمْ، وَيَجْتَمِعُونَ وَيَتَزَيَّنُونَ، وَقِيلَ لْجَمَاهِيرِ الْمِصْرِيِّينَ عَلَى سَبِيلِ الْعَرْضِ لَا الْإِلْزَامِ: هَلْ أَنْتُمْ مَجْتَمِعُونَ لِنَتَنَظَّرُوا
مَاذَا يَفْعَلُ الْفَرِيقَانِ، وَلِمَنْ تَكُونُ الْعَلْبَةُ؟

٤٠ - وقال مُذِيعُو نَبَأِ المَبَارَاةِ: لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ عَلَى دِينِهِمْ، وَنَتَعَلَّمَ السَّحْرَ مِنْهُمْ، إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ فِي المَبَارَاةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُوسَى.

٤١ - فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ وَعَرَّضَ عَلَيْهِمُ الْغَرَضَ الَّذِي جَمَعَهُمْ مِنْ أَجْلِهِ، وَهُوَ إِجْرَاءُ مَبَارَاةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُوسَى الَّذِي يَسْحَرُ عَصَاهُ فَتَصِيرُ ثَعْبَانًا مَخِيفًا، قَالُوا لَهُ: أَتُعْطِينَا أَجْرًا يُكَافِيءُ الْمَالَ وَالْجَهْدَ الَّذِي نَبْذِلُهُ لِإِجْرَاءِ أَعْمَالِنَا السَّحَرِيَّةِ، إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ بِسِحْرِنَا مَا يَأْتِي بِهِ مُوسَى؟

٤٢ - فَأَجَابَهُمْ فِرْعَوْنُ فَوْرًا قَاتِلًا لَهُمْ: نَعَمْ لَكُمْ أَجْرٌ عِنْدِي، وَتَكُونُونَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ حَاشِيَةِ قَصْرِي، أَمْنَحُكُمْ مِنْ عَطَائِي، وَأُحَقِّقُ رَغْبَاتِكُمْ، وَأُجِيبُ طَلِبَاتِكُمْ.

٤٣ - قَالَ مُوسَى لِلْسَّحْرَةِ: اطْرَحُوا فِي سَاحَةِ المَبَارَاةِ مَا تَرِيدُونَ إِنْ لَقِيتُمْ مِنَ السَّحْرِ، فَأَنَا مُتَحَدِّثُكُمْ، وَقَابِلٌ تَحْدِيثُكُمْ.

٤٤ - فَطَرَحَ السَّحْرَةَ فِي سَاحَةِ المَبَارَاةِ جِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ، وَقَالُوا: بِعَظْمَةِ فِرْعَوْنَ وَقُوَّتِهِ الْغَالِبَةِ، إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ.

٤٥ - فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ، فَانْقَلَبَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ التَّكْوِينِي حَيَّةً عَظِيمَةً، وَفَاجَأَتْ الْمَشَاهِدِينَ بِأَنَّهَا شَرَعَتْ تَبْتَلَعُ بِسُرْعَةٍ فِي فَمِهَا ابْتِلَاعًا حَقِيقِيًّا مَا يُمَوِّهُونَ وَيَزُورُونَ بِهِ مِنَ الْمَخَايِيلِ وَالْخُدَعِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا حَقِيقَةٌ فِي الْوَاقِعِ.

٤٦ - وَعَجَزَ السَّحْرَةَ عَنْ اتِّخَاذِ أَيِّ شَيْءٍ حِيَالِ الْعَصَا الْمُنْقَلِبَةِ حَيَّةً حَقِيقِيَّةً، وَابْتِلَاعِهَا أَدَوَاتِهِمُ السَّحَرِيَّةَ، وَأَدْرَكُوا أَنَّهَا آيَةٌ مِنْ آيَاتِ خَالِقِ الْكَوْنِ، فَخَرُّوا لِلَّهِ سَاجِدِينَ دُونَ تَلَكُّوْهُ وَلَا تَرِيثِ.

٤٧، ٤٨ - قَالُوا: أَمَنَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقِهِمْ وَمَالِكِهِمْ وَمُذَمِّهِمْ بِعَطَاءَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ، الرَّبِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ مُوسَى وَهَارُونَ.

٤٩ - قَالَ فِرْعَوْنُ لِلْسَّحْرَةِ مُسْتَنْكَرًا: أَمَتُّمْ بِمُوسَى مُسْلِمِينَ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ بِذَلِكَ، إِنَّهُ مُوسَى لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السَّحْرَ، وَقَدْ أَتَقَفْتُمْ

مَعَهُ عَلَى أَنْ تَكُونُوا شُرَكَاءَ فِي حُكْمِ مِصْرَ بِمُؤَامَرَةٍ مُدْبِرَةٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُوسَى، فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وَبَيَّالَ مَا فَعَلْتُمْ. لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَزْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ: بِقَطْعِ الْبَيْدِ الْيُمْنِيِّ وَالرُّجْلِ الْيُسْرَى أَوْ عَكْسَ ذَلِكَ، وَلَأَصْلُبُنَّكُمْ أَجْمَعِينَ تَشْهِيرًا بِكُمْ أَمَامَ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ؛ لَتَكُونُوا عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمُخَالَفَةِ دِينِي وَنِظَامِ حُكْمِي.

٥٠ - قَالَ السَّحْرَةُ لِفِرْعَوْنَ: لَا ضَرَرَ عَلَيْنَا فِيمَا يَلْحَقُنَا مِنْ عَذَابِ فِي الدُّنْيَا، لَأَنَّا نَنْقَلِبُ وَنَصِيرُ إِلَى رَبِّنَا فِي الْآخِرَةِ مُؤْمِنِينَ مُؤْمِلِينَ غَفْرَانِهِ.

٥١ - وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: إِنَّا نَرْجُو أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا مِنَ الشُّرْكِ وَالسَّحْرِ؛ بِسَبَبِ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْقَبْطِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى وَهَارُونَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٥٢ - وَأَبْلَغْنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ أَمْرًا: أَنَّ الشَّأْنَ الْعَظِيمَ الْخَطِيرَ هُوَ أَمْرُنَا لَكَ بِأَنْ تَسِيرَ لَيْلًا بِعَبَادِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ مُتَّبِعُوكُمْ؛ لِيُحَوِّلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْخُرُوجِ.

٥٣ - ٥٦ - فَلَمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ بِخُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ دُونَ إِذْنِ مَنْهُ، أَرْسَلَ الشُّرَطَ فِي الْمَدَائِنِ الْمِصْرِيَّةِ جَامِعِينَ لِلْعَسَاكِرِ، لِمَتَابَعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْفَارِّينَ بِقِيَادَةِ مُوسَى، وَرَدَّهُمْ إِلَى الذَّلِّ وَالْعُبُودِيَّةِ. قَالَ فِرْعَوْنُ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ فَرُّوا مَعَ مُوسَى لَطَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ الْعِدَدِ غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى الْقِتَالِ، وَإِنَّهُمْ أَغْضَبُونَا أَشَدَّ الْغَضَبِ بِمُخَالَفَتِهِمْ دِينَنَا، وَخُرُوجِهِمْ مِنْ أَرْضِنَا بِغَيْرِ إِذْنِنَا، وَإِنَّا لَجَمِيعُ خَائِفُونَ عَلَى مُلْكِ «مِصْرَ»، وَعَلَى الشَّعْبِ الْقَبْطِيِّ مِنْ خُرُوجِهِمْ، إِذْ قَدْ يَكُونُونَ خَارِجَ «مِصْرَ» جَيْشًا قَوِيًّا، ثُمَّ يَرْجِعُونَ مُقَاتِلِينَ، لَانْتِزَاعِ الْحُكْمِ، وَاسْتِعْبَادِ الشَّعْبِ الْقَبْطِيِّ بِالْقُوَّةِ انْتِقَامًا مِنْ اسْتِعْبَادِنَا لَهُمْ.

٥٧، ٥٨ - وَكَانَ فِي إِغْرَائِهِمْ وَتَهْيِيجِهِمْ مِمَّا لِنَفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ، وَإِحْدَاثِ الْغَضَبِ الشَّدِيدِ فِيهَا، وَالرَّغْبَةِ فِي مَتَابَعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنْ أَخْرَجْنَا فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ مِنْ بَسَاتِينٍ مُمْتَدَّةٍ، وَعَيُونَ مَاءٍ جَارِيَاتٍ، وَأَمْوَالٍ ظَاهِرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَكَانٍ مَعْنَوِيٍّ رَفِيعٍ، الَّذِي كَانُوا فِيهِ أَهْلُ وَلايَةٍ وَحُكْمٍ وَسُلْطَانٍ فِي أَرْضِ «مِصْرَ».

٥٩ - كَذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَجُنْدِهِ مِنْ إِخْرَاجِ لَهُمْ، حَصَلَ لَجِبَّارِينَ آخَرِينَ كَافِرِينَ، كَمَا وَقَعَ لِلْكِنَعَانِيِّينَ الْوَثْنِيِّينَ فِي أَرْضِ فِلَسْطِينَ، وَجَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمُ الْمَالِكِينَ لَهَا، بَعْدَ مَالِكِيهَا السَّابِقِينَ، عَنْ طَرِيقِ الْقِتَالِ وَالْحَرْبِ وَالْمَعُونَةِ الْإِلَهِيَّةِ.

٦٠ - فَسَارَ جَيْشُ فِرْعَوْنَ بِقِيَادَتِهِ، فِي أَثَرِ مُوسَى وَأَصْحَابِهِ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي سَارُوا فِيهِ حَالَةَ كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ فِي وَقْتِ شُرُوقِ الشَّمْسِ.

٦١ - فلما تقابل الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه، قال أصحاب موسى الملازمون له، المقربون إليه، الذين استخلصهم لصحبته: إن فرعون وقومه سيُدركوننا، ولا طاقة لنا بهم.

٦٢ - قال موسى - لثقتة بوعد الله -: كلاً لن يُدركونا، فلا تخشوا على أنفسكم، ولا على جمهور بني إسرائيل، فإنّ معي ربي بالمعونة والتأييد سيُدلني على طريق النجاة.

٦٣ - فأوحينا إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر، ففُزّيه، فانشقّ البحر بأمر الله التكويني إلى اثني عشر طريقاً بعدد قبائل بني إسرائيل، فكان كل قسم انفرق من الماء مُنحازاً لإحداث طريق يعبر منه بنو إسرائيل إلى الشاطئ الآخر، كالجبل العظيم قائماً ثابتاً لا يسيل من مائه شيء إلى الطريق اليس الذي جعله الله عز وجل في قاع البحر.

٦٤ - وقرّينا هنالك فرعون وجنوده إلى البحر، فرأوا طريقاً واسعاً منفطحاً في وسط البحر بين جبلين عظيمين من ماء مُتجمّد، فدخل فرعون وجنوده في الطريق اليس مُتباعين بني إسرائيل.

٦٥، ٦٦ - وأنجينا موسى ومن معه أجمعين من الغرق، وخرجوا إلى البر من جهة الشاطئ المقابل، ثمّ لما وصل فرعون وجيشه إلى نحو الثلث الأخير من الطريق اليس داخل البحر، انطبق عليهم، وسالت الجبال المائيّة عليهم مُتدفقة بشدّة وعنف، فأغرقتهم أجمعين.

٦٧ - إنّ فيما حَدَثَ في البحر من انفلاقه لآية من الآيات العظام الدالة على قُدرتنا، ومعجزة لموسى عليه السلام. وما كان أكثر كبراء مكة مؤمنين مُستقبلاً، مهما غولجوا وأمهلوا.

٦٨ - وإنّ ربك لهو القويّ الغالب بالانتقام من أعدائه، الدائم الرحمة بالإنعام على أوليائه، وبِعزّته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجّى موسى ومن معه أجمعين.

٦٩، ٧٠ - وأتلى - يا رسول الله - على مُشركي قريش خبر إبراهيم

فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالِ اصْحَبْ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ﴿٦١﴾ قَالِ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عِيَدِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذَا تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَأَنتُمْ أَشِرُّ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنِّهِمْ عُدُوٌّ لِلْأَرْبِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْعَمُنِي إِذْ عَفِرْتُ خَطِيئَتِي يَوْمَ الذِّبِّ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّلَاحِ

إلهام في دعوته لقومه الوثنيين، الذين تُشابه حالهم حال قومك، حين قال لأبيه وقومه: ما حقيقة ذات ما تعبدون، وما هي صفاتها التي تؤهلها لأن تُعبد من دون الله؟

٧١ - قالوا: نعبد أصناماً، فنداوم على عبادتها ملازمين لها ملازمة المقيم الذي أعطى كل نفسه وحواسه لما هو عاكف عليه.

٧٢، ٧٣ - قال إبراهيم: هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم لمطالب حياتكم من رزق، ونصر، وأمن، ودُزِّيَّة، ونحو ذلك من مطالب الحياة؟ أو ينفعونكم إن عبدتموها، أو يضرّوكم إن تركتم عبادتها؟

٧٤ - قالوا: إنّها لا تسمع قولاً، ولا تجلب لنا نفعاً، ولا تدفع عنا ضرراً، بل وجدنا آباءنا يفعلون مثل ذلك، فنحن لهم مقلّدون.

٧٥ - ٧٧ - قال إبراهيم: أنفكرتم تفكراً سليماً، فرايتم بعقولكم وقلوبكم بطلان ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأولون، فإنهم أعداء لي، لأنهم باطل ليس لهم من الإلهية وصف ما، ولكن رب العالمين الخالق لكل الموجودات الكونية، والمُمد لها بعباءات ربوبيته، فإنّه ربي وولّي الذي يستحق العبادة.

٧٨، ٧٩ - من صفات ربوبيّة الله رب العالمين، ثماني ظواهر: الأولى: الذي ابتدعني من العدم، وحدّد مقادير كل شيء فيّ، والظاهرة الثانية: الله وحده الذي يهديني في كل تصرّفاتني الإرادية الجسدية والنفسية لتنفيذ الأعمال المُحقّقة للأغراض منها، والظاهرتان الثالثة والرابعة: الله هو وحده الذي يرزقي ويغذّي بالطعام والشراب، لا يطعمني ولا يسقيني أحد سواه.

٨٠ - والظاهرة الخامسة: إذا أصابني مرض فهو يُبرئني ويُعافيني من المرض.

٨١، ٨٢ - والظاهرتان السادسة والسابعة: الذي يُميتني في الدنيا بفصل الروح عن النّفس، ثمّ يُحيي في الآخرة، ويُحيي جميع الناس؛ للحساب والجزاء، والظاهرة الثامنة: الله وحده الذي أرجو أن يغفر لي خطيئتي يوم الجزاء والحساب، فلا غافر لذنوب من آمن وأسلم إلّا هو جلّ جلاله وعظم سلطانه.

٨٣ - قال إبراهيم داعياً ربه: ربّ هب لي فقهاً في الأمور، ومعرفةً مطابقةً للحق والخير في أحكامي العلميّة والعملية، وقدرةً على تقديم الحجج الدامغة، والبراهين القاطعة لجدلّيات المُبطلين، ومُحاصرتهم من كلّ مهرب فكري، واجعلني ألحق بالصالحين الكاملين في صلاحهم، من أولي العزم من الأنبياء والمرسلين، فإذا لحقّتهم سرّ معهم سابقاً في الخيرات التي تُرضيك عني.

٨٤ - واجعل لي ثناء صادقاً، وذكرًا جميلاً، وقبولاً في الأمم التي تحيي بعدي، باقياً إلى يوم القيامة، وذلك بكمال المداومة على أن أكون من كاملي الصلاح، طوال حياتي.

٨٥ - واجعلني بفيض عطائك من ورثة جنة النعيم؛ لأن دخول الجنة إنما هو بفضل الله لا بالأعمال مهما كانت صالحة.

٨٦ - واصفح لأبي عن شركه بك، ولا تعاقبه عليه؛ إنه كان من الضالين الكافرين. دَعَا إبراهيم لأبيه رجاء أن يسلم فيغفر له، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

٨٧ - ٨٩ - ولا تفضحني ولا تذلني بعقابك يوم يبعث العباد من قبورهم؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يوم لا ينفع مال أحداً كان قد جمعه في الدنيا، بالغاً ما بلغ، ولا ينفع أحدناؤه الذين كانوا ينصرونه، إلا مَنْ أتى الله بعد موته بقلب سليم خالص من الشك والشرك وأمراض كبائر الذنوب والآثام. فإنه ينتفع بثواب أمواله التي جمعتها وأنفقها فيما أذن الله به، وينتفع ببنيه، إذ يجد في صحيفته دعاءهم واستغفارهم وثواب تربيتهم تربية إيمانية إسلامية.

٩٠، ٩١ - وقربت الجنة للمتقين الذين اتقوا عقاب الله في الآخرة بطاعتهم إياه في الدنيا، بحيث يرونها في مكان تجميعهم في المحشر الخاص بأصحاب اليمين، الواقع إلى جهة يمين العرش، وأظهرت الجحيم بعد خفاء للضالين عن طريق الحق، التاركين سبيل الرشد؛ بحيث يرونها في مكان تجميعهم في المحشر الخاص بأصحاب الشمال، الواقع إلى جهة شمال العرش.

٩٢، ٩٣ - تقول لهم الملائكة: أين ألهتكم التي كنتم تعبدونها من دون الله في الدنيا؟ هل يمنعونكم من عذاب الله، أو ينتصرون لأنفسهم فضلاً عن أن ينصروكم؟

٩٤، ٩٥ - فجميعوا وألقوا في جهنم على رؤوسهم بتتابع متكرر إلى أن استقروا في قعرها: المشركون وسائر الضالين المجافين لسبيل الحق والهدى أتباعاً لأهوائهم وشهواتهم، وأتباع إبليس ومن أطاعه من الإنس والجن أجمعون، لا يستثنى منهم أحد.

٩٦ - ٩٩ - قال الذين كانوا يعبدون من دون الله شركاء، لمن كانوا يعبدونهم، وهم في النار يتخاصمون: تالله إن كُنا لفي ضياع عن صراط الحق ظاهر واضح؛ حين كُنا نغديلكم رب العالمين، الخالق لما سواه، والمتصرف في العالمين دوماً بصفتي ربوبيته، ونجعلكم وإياه سواء في استحقاق العبادة، وأنتم أعجز الخلق. وما دَعَانَا إِلَى الضلال وعبادة الأصنام من الجن والإنس إلا المجرمون، الذين ارتكبوا الجرائم الكبرى، والآثام العظمى.

١٠٠، ١٠١ - فما لنا من شافعين يشفعوا لنا، ولا صديق صادق في المودة يُشفق علينا، ويدافع عنا.

١٠٢ - فلو أن لنا رجعة إلى الدنيا، فنكون من المؤمنين بالله الصادقين في إيماننا.

١٠٣، ١٠٤ - إن فيما ذكر لعبرة لمن اعتبر، وما كان أكثرهم مؤمنين مع هذه الدلائل والآيات، وصار أكثرهم مرضى القلوب غير ذوي قابلية لأن يؤمنوا مستقبلاً، ووصلوا إلى حالة ميؤوس من إيمانهم، وصار إنزال العقاب بهم، ونصر رسوله والمؤمنين هو الأمر الحكيم، وإن ربك لهو القوي الغالب المنتقم الذي لا يُغالب، العظيم الرحمة التي وسعت كل شيء.

١٠٥ - ١٠٧ - كذبت جماعة قوم نوح المرسلين؛ الذين كان آخرهم إرسالاً إليهم أو بقاء فيهم نوح عليه السلام، إذ قال لهم أخوهم في النسب نوح: ألا تخافون عقاب الله فتركوا الكفر والمعاصي، وتؤمنوا بالله إيماناً صحيحاً صادقاً؟ إني لكم رسول أمين على الوحي، معروف عندكم بالأمانة.

١٠٨ - ١١٠ - فأتقوا عذاب الله بطاعته وعبادته، وأطيعوني فيما أَدْعُوكُم إِلَيْهِ، وما أسألكم على تبليغ الرسالة وما أقدم لكم من تعليم ونصح من أجر وجزاء، ما ثوابي الذي أستحقه إلا على كفالة رب كل موجود سواه تبارك وتعالى، الذي خلق كل الموجودات الكونية، وأمدّها بعباءات ربوبيته، فاحذروا عقابه، وأطيعوني بامتثال أوامره، واجتتاب نواهيه، فلست أخذ منكم أجراً.

١١١ - قال له قومه: أتؤمن بما تدعونا إليه متقادين لك - يا نوح - والحال أنه أتبعك الأخشون من الناس أصحاب الصناعات الدنيئة، والمهن الحقيرة، والأعمال التي يترفع عنها أهل الكرامة والشرف؟

الجزء التاسع عشر

سورة الشعراء

وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفُ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَرْسَلْنَا الْجَنَّةَ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾
وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبِّرُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُودُ يُدْلِسُ
أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نَسِيكَمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا
إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدِّيقِيمٍ ﴿١٠١﴾
قَالُوا لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١٠٤﴾ كَذَبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَنْتَقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

١١٢ - قال نوح: إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَوْنَهُمُ الْأَرْذَلِينَ هُمْ يَشْكُرُكُمْ، مسؤولون تجاه ربهم عن الإيمان والعمل الصالح مهما كانت طبقتهم الاجتماعية في نظركم طبقة خسيصة، وإنني لست مبعوثاً لطبقة اجتماعية خاصة دون أخرى، وما تأثير علمي بما كانوا يعملون في دعوة ربانية أمرني ربي أن أبلغها لجميع قومي دون استثناء.

١١٣ - ما حسابهم على أعمالهم إلا على ربي، وهو الذي سوف يحاسبهم عليها يوم الدين، أتمنى لكم أن تدركوا هذه الحقائق.

١١٤، ١١٥ - وما أنا بمُبعِد أي فرد أو جماعة دخلوا في جماعة المؤمنين مهما كان وضعهم الاجتماعي، ما أنا بالنسبة إلى غير المستجيبين لدعوتي بإصرار واستكبار إلا نذير بين الإنذار.

١١٦ - قالوا: نقسم لئن لم تَنْتَهِ يا نوح عن متابعة الدعوة إلى دينك، لنحكمن عليك وعلى من آمن معك بالقتل رجماً بالحجارة.

١١٧، ١١٨ - قال نوح: يا ربِّ إِنَّ كُلَّ قَوْمِي كَذِبُونَ - باستثناء القلة الذين آمنوا بي واتبعوني - ومنعوني من متابعة دعوتي، وهذّوني بالقتل رمياً بالحجارة، فاحكم بيني وبينهم حكماً من عندك تُهلك به المُبطل، وتتقم من كفر بك، وكذب رسولك، ونجني ومن معي من المؤمنين ممّا توعدونا به.

١١٩ - فاستجبنا دعاءه مباشرة، فأنجيناه ومن معه في السفينة المملوءة بالناس والطير والحيوان والمتاع.

١٢٠ - ثم أغرقنا بعد إنجاء نوح ومن معه، الباقين في الأرض من قوم نوح، الذين لم يركبوا معه في السفينة.

١٢١، ١٢٢ - إِنَّ فِي إِنْجَاء نوح وإهلاك المُكذِّبين لَعِبْرَةً عَظِيمَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، ولكن ما وَجَدنا أكثرهم ذوي قابليّة لأن يؤمنوا مُستقبلاً، وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْقَوِيُّ الْغَالِبُ الْمُنتَقِمُ، العظيم الرحمة التي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِن قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْنِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحاً وَبَحْثاً وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتُتْبَنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٍ تَقْبَلُونُ ﴿١٢٨﴾ وَتَسْتَخِفُّونَ مَصَالِحَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَحَنَنٍ وَغُيُونٍ ﴿١٣٢﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٣﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَارِثِينَ ﴿١٣٤﴾

١٢٣ - كَذَّبَتْ قَبِيلَةُ عاد المرسلين؛ فقد جاءهم عدّة رسل، كان هود - عليه السلام - آخرهم إرسالاً إليهم.

١٢٤، ١٢٥ - إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ: أَلَا تَجْعَلُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عِقَابِ اللَّهِ وَقَايَةً بفعل ما أمر، وأوله الإيمان الصحيح الصادق، وترك ما نهى عنه، وأوله الكفر؟ إني لكم رسول أمين على رسالة ربي، أبلغها لكم كما أتلقاها بالوحي عنه، لا أزيد فيها شيئاً من عندي، ولا أنقص منها شيئاً، معروف عندكم بالأمانة، فكيف تتهمونني اليوم؟!

١٢٦، ١٢٧ - فَاتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ بطاعته وعبادته، وأطيعوني فيما أمركم به من التوحيد، وما جئتكم به من عند الله. وما أسألكم على تبليغ الرسالة أي نوع من أنواع الأجر، وما ثوابي الذي أستحقّه إلا على كفالة ربِّ كُلِّ موجود سواء تبارك وتعالى، الذي خلق كُلِّ الموجودات الكونية، وأمدّها بعباءات ربوبيّته.

١٢٨، ١٢٩ - أَتُتْبَنُونَ بِكُلِّ مَكَانٍ مُّرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ بِنَاءً عَالِياً، تعشون ببناها؛ إذ لم تكونوا محتاجين إليها، وإنما بنيتموها للتفاخر بها؟ وأنتم تتخذون منشآت حضارية، ومُجمّعات سكنية وقصوراً وحصوناً وأحواض مياه، ألعلكم تتوهمون أنكم تخلصون في هذه الحياة الدنيا، التي تبالغون في اتّخاذ ما يترفكم فيها، ناسين الموت والبعث ويوم الدين؟!

١٣٠، ١٣٤ - وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكُمْ بالقوّة المتفوّقة على قوَى كُلِّ الْأَقْوَامِ من حولكم، حتى صرتم جبارين في الأرض، فإذا بطشتم بخصومكم بطشتم بقوة وعنف، حالة كونكم جبارين ظالمين، وقد كان الواجب عليكم أن تقيموا العدل والحق، فاتّقوا عقاب الله في مخالفتي، وأطيعوني فيما أمركم به، واتّقوا الذي أنعم عليكم وأعطاكم من الخير ما تعلمون؛ ليبلوكم ويمتحنكم، فانظروا إلى ما أمدّكم به من عطائه، أمدّكم بالأنعام، والأولاد، والبساتين المثمرة، والعيون الجارية، فلا تقابلوا نِعَمَ اللَّهِ عليكم التي أمدّكم بها، وجعلها وافرّة كثيرة بالكفر والجحود والعصيان.

١٣٥ - قال هود - عليه السلام - مُحذِّراً قومه: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ - إِذْ عَصَيْتُمُونِي - عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ فِي الْآخِرَةِ.

١٣٦ - فكان جوابهم: يستوي عندنا نصحك المقرون بالوعد والوعيد وعدمه، فكفّ عن نصحك وتذكيرك، فلن نؤمن لك ولن نصدّقك.

١٣٧ - وقالوا: ما هذا الذي تستنكره علينا، وتعظنا بتركه إلا عادة الأولين من آبائنا وأجدادنا التي درجوا عليها، ونحن على آثارهم مقتدون، ولم يهلك الله آبائنا، ولم ينزل بهم ما نُنذرنا به.

١٣٨ - وما نحن بمعذبين على ما نفعل، بالعذاب المعجل في الحياة الدنيا الذي حذرتنا منه.

١٣٩ - فكذبوا هوداً، فأهلكناهم بريح باردة شديدة. إن في ذلك الإهلاك لعلبة لمن بعدهم، ولكن ما وجدنا أكثر الناس ذوي قابلية لأن يؤمنوا مستقبلاً مع هذه الدلائل والآيات.

١٤٠ - وإن ربك لهو القوي الغالب المنتقم من الكافرين، الدائم الرحمة بالمؤمنين.

١٤١ - كذبت قبيلة ثمود المرسلين، الذين كان آخرهم إرسالاً إليهم صالح عليه السلام.

١٤٢ - ١٤٥ - إذ قال لهم أخوهم في النسب صالح: ألا تجعلون بينكم وبين عقاب الله وقاية، بفعل ما أمر، وأوله الإيمان الصحيح الصادق، وترك ما نهى عنه، وأوله الكفر؟ إني لكم رسول أمين على الوحي، معروف عندكم بالأمانة، فكيف تتهموني اليوم؟ فأتقوا عذاب الله بطاعته وعبادته، وأطيعوني فيما أمركم به من التوحيد، وفي كل ما جئتمكم به من عند الله، وما أسألكم على تبليغ الرسالة أي نوع من أنواع الأجر، وما ثوابي الذي أستحقه إلا على كفالة رب العالمين مما سوى الله تعالى من موجودات حاضرات، أو غابرات، أو ستوجد، أو سوف توجد في المستقبل، وهذه الموجودات علامات دالات على خالقها وصفاته الحسنى.

١٤٦ - ١٤٩ - أتتركون فيما أنتم فيه من النعيم في الدنيا آمنين من العذاب في حقائق مثمرة، وعيون جارية، وزروع كثيرة مختلفة،

ونخل ثمرها الذي يطعم منها يانع نضيج مريء سهل الهضم، وتثحنون من الجبال بيوتاً حاذقين بنحتها.

١٥٠ - ١٥٢ - فأتقوا عقاب الله وعذابه، واحذروا أن ينزل بكم نقمته وبأسه، ويسلبكم نعمه، إذا لم تؤمنوا به، وتسلموا له، وأطيعوني فيما أوصيكم به، ولا تطيعوا أمر المتجاوزين حد الحكمة والحق في تصرفاتهم، الذين يفسدون في الأرض بتصرفاتهم الآثمة الظالمة، لتقوية سلطانهم، وتحقيق مصالحهم، وزيادة ثرواتهم.

١٥٣ - قال قوم ثمود لصالح عليه السلام: ما أنت إلا من الذين سحروا سحراً كثيراً، حتى غلب على عقلك السحر، وجعلك مختلاً العقل مخلاً.

١٥٤ - ما أنت إلا بشر مثلاً، وليس لك من الصفات الشخصية الخارجة عن نظام البشر ما يؤهلك لأن تكون نبياً، تتلقى الوحي عن الله رب العالمين؟ فأت بعلمة من الخوارق المعجزة دالة على صحة ما تقول، إن كنت من الصادقين أنك رسول إلينا من رب العالمين.

١٥٥ - قال لهم صالح: هذه ناقة لها نصيب من الماء في يوم معلوم، فلا تراحموها فيه، ولكم نصيب منه، لا تراحمكم فيه.

١٥٦ - ولا تمسوها مساً بسوء، ولو ضايقتكم في طعامها وشرابها، فيقبض عليكم عذاب شديد قبضاً مؤلماً لكم بعنف وشدة في يوم عظيم الأحوال.

١٥٧ - فنحروا الناقة، فأصبحوا على عقرها متحسرين، لما رأوا إمارات نزول العذاب بهم، فلم يفهم ندمهم.

١٥٨ - فأخذهم العذاب بصيحة مصحوية بصاعقة طاعية لا تبقي ولا تذر. إن في إهلاك ثمود لعلبة لمن اعتبر بهذا المصير، وما كان أكثرهم - مع هذه الدلائل والآيات - مؤمنين، وصار أكثرهم مرضى القلوب غير ذوي قابلية لأن يؤمنوا مستقبلاً، ووصلوا إلى حالة ميؤوس من إيمانهم، وصار إنزال العقاب بهم، ونصر صالح والمؤمنين معه هو الأمر الحكيم.

١٥٩ - وإن ربك لهو القوي الغالب المنتقم من أعدائه المكذبين، العظيم الرحمة بعباده المؤمنين.



١٦٠ - كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ؛ الَّذِينَ كَانَ آخِرُهُمْ إِرْسَالاً إِلَيْهِمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٦١، ١٦٢ - حين قال لهم أخوهم في النسب لوط: ألا تخافون عقاب الله، ففتركوا الكفر والمعاصي؟ إني لكم رسول أمين على الوحي، معروفٌ عندكم بالأمانة.

١٦٣، ١٦٤ - فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقايةً، بطاعته وعبادته، وأطيعوني فيما أمركم به من التوحيد، وما أسألكم على تبليغ الرسالة من أجر وجزاء، ما ثوابي الذي أستحقُّه إلا على كفالة ربِّ العالمين ممَّا سوى الله تبارك وتعالى من موجودات حاضرات، أو غائبات، أو ستوجد، أو سوف توجد في المستقبل، وهذه الموجودات علامات دالات على خالقها سبحانه وصفاته الحُسنى.

١٦٥، ١٦٦ - أتأتون الذكور من الناس في أدبارهم، وتتركون مكان الطهارة والثقاء الذي خلقه ربُّكم في فروج أزواجكم من النساء؟ بل أنتم قومٌ مُعَدُّون في انحرافكم وشذوذكُم، مُتَجَاوِزُونَ ما أحله الله لكم من استمتاعكم بأزواجكم إلى ما حرَّمه عليكم.

١٦٧ - قال قومُ لوط: نُقَسِمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ عَنْ إِنْكَارِكَ عَلَيْنَا وَتَقْبِيحِ أَمْرِنَا، لَتَكُونَنَّ - أنتَ وَمَنْ هُوَ عَلَى دِينِكَ - مِنَ الْمُخْرَجِينَ مِنْ قَرْيَتِنَا.

١٦٨ - قال لوط: إني لِعَمَلِكُمُ الَّذِي أَنْكَرْتُهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكَارِهِينَ الْمُتَغَضِّينَ أَشَدَّ الْبَغْضِ.

١٦٩ - ربُّ أَنْفَذَنِي وَأَهْلِي مِنَ الْعِقَابِ وَالْعَذَابِ الَّذِي سَيَنْزِلُ بِهِمْ جَزَاءً مَا يَعْمَلُونَ مِنَ الْعَمَلِ الْخَبِيثِ.

١٧٠، ١٧١ - فَاسْتَجِبْنَا دَعَاءَهُ، فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَالْمُسْتَجِيبِينَ لِدَعْوَتِهِ أَجْمَعِينَ، إِلَّا أَمْرَاتَهُ لَمْ تَشَارِكْهُمْ فِي الْإِيمَانِ، وَبَقِيَتْ فِي أَرْضِ قَوْمِهَا، فَكَانَتْ مَعَ الظَّالِمِينَ الْهَالِكِينَ.

١٧٢، ١٧٣ - ثُمَّ بَعْدَ خُرُوجِ لُوطٍ وَأَهْلِهِ مِنْ أَرْضِ «سُودوم»، أَهْلَكْنَاهُمْ أَشَدَّ هَلَاكٍ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِثْلَ حَبَاتِ الْمَطَرِ الْكَبِيرِ، مِنْ طِينٍ مُتَّحَجَّرٍ شَدِيدِ صَلْبٍ، بِتَوَاتُرٍ وَتَابَعٍ، وَعُمُومٍ وَشُمُولٍ لِكُلِّ أَرْضِ قَوْمِ لُوطٍ، فَفُجِّحَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ مَطَرُهُمْ، الَّذِينَ أَنْذَرَهُمْ لُوطٌ بِعَذَابِ اللَّهِ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَقْلَعُوا عَنْ فَوَاحِشِهِمْ.

١٧٤ - إِنَّ فِي ذَلِكَ الْعِقَابِ الَّذِي نَزَلَ بِقَوْمِ لُوطٍ لَعِبْرَةً وَمَوْعِظَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مَرْضَى الْقُلُوبِ غَيْرِ ذَوِي قَابِلِيَّةٍ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ مُسْتَقْبَلًا، وَوَصَلُوا إِلَى حَالَةِ مَيُوسٍ مِنْ إِيْمَانِهِمْ، وَصَارَ إِنْزَالُ الْعِقَابِ بِهِمْ، وَنَصْرُ لُوطٍ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ هُوَ الْأَمْرُ الْحَكِيمُ.

١٧٥ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْقَوِيُّ الْغَالِبُ الْمُتَّقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ الْمَكْذِبِينَ، الدَّائِمُ الرَّحْمَةُ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

١٧٦ - كَذَبَ أَصْحَابُ الْأَرْضِ ذَاتِ الشَّجَرِ الْمُؤْتَفِّ الْمُرْسَلِينَ؛ الَّذِينَ كَانَ آخِرُهُمْ إِرْسَالاً إِلَيْهِمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

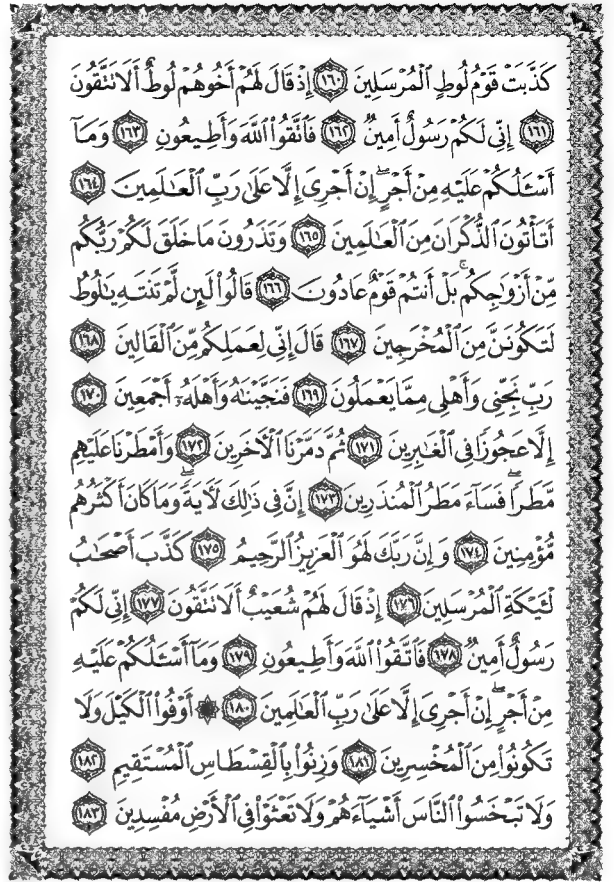
١٧٧، ١٧٨ - حين قال شعيب لقومه: ألا تخافون عقاب الله، ففتركوا الكفر والمعاصي، إني لكم رسول أمين على الوحي، معروفٌ عندكم بالأمانة.

١٧٩، ١٨٠ - فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقايةً بطاعته وعبادته، وأطيعوني فيما أمركم به، وأدعوكم إليه، وما أسألكم على تبليغ الرسالة من أجر وجزاء، ما ثوابي الذي أستحقُّه إلا على كفالة ربِّ كلِّ موجود سواء تبارك وتعالى الذي خلق كلَّ الموجودات الكونية، وأمدها بعباءات ربوبيته.

١٨١ - أَثْمُوا الْكَيْلَ وَالْمِكْيَالَ، وَلَا تَكُونُوا مِنَ النَّاَقِصِينَ لِحَقُوقِ النَّاسِ فِي الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ.

١٨٢ - وَزِنُوا بِالْمِيزَانِ الْعَدْلِ السَّوِيِّ الَّذِي لَا بَخْسَ فِيهِ عَلَى مَنْ وَزَنْتُمْ لَهُ.

١٨٣ - وَلَا تَنْقُصُوا النَّاسَ شَيْئًا مِنْ حَقُوقِهِمْ فِي كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا تَكْثُرُوا فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ؛ بِالشُّرْكِ وَالْقَتْلِ وَقَطْعِ الطَّرِيقِ وَتَخْوِيفِ النَّاسِ، وَسَائِرِ الْمَمارَسَاتِ الْإِجْرَامِيَّةِ الظَّالِمَةِ.



١٨٤ - واحذروا عقاب ربكم الذي خَلَقَكُمْ، وخلق الخلاق والأمم المتقدمة عليكم الذين كانوا على خلقه وطبيعة عظيمة، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر حين عَتَوْا عن أمره، وأنتم أضعف منهم حالاً وأهون شيء عليه أن يأخذكم كما أخذهم.

١٨٥ - ١٨٧ - قالوا: ما أنت - يا شعيب - إلا من الذين سُحروا كثيراً حتى غلب على عقولهم السحر. وما أنت إلا بشرٌ مثلنا، وليس لك من الصفات الشخصية الخارجة عن نظام البشر ما يؤهلك لأن تكون نبياً تتلقى الوحي من الله، ونؤكد لك أننا نظنك كاذباً من الكاذبين فيما تدعيه من النبوة والرسالة، فإن كنت صادقاً في أنك نبي ورسول أرسلك الله إلينا، فاذغ الله أن يسقط علينا قطع عذاب من جهة السماء تستأصلنا.

١٨٨ - قال شعيب: ربي أعلم بما تعملون من نقصان الكيل والوزن، وغير ذلك من أعمالكم الظاهرة والباطنة التي تستحقون بها إنزال العقاب الشامل فيكم، وهو مجازيكم بأعمالكم، وليس العذاب إليّ، وما عليّ إلا الدعوة والتبليغ.

١٨٩ - فاستمروا على تكذيبهم، فقبض على جميع كفار قومه قبضاً شديداً قاهراً عذاب حر شديد، فكانوا يدخلون الأشراب، فيجدونها أحر من ذلك، فيخرجون، فأظلمت سحابة، فوجدوا لها برداً ونسيماً، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم ناراً، ورجفت بهم الأرض، فاحترقوا جميعاً، إن عذاب يومهم الخاص بالظلة التي عمت أرضهم ومسكنهم، كان عذاباً عظيماً.

١٩٠، ١٩١ - إن في ذلك العقاب الذي نزل بهم، لعبرة وموعظة، وما كان أكثرهم - مع تلك العبر والعظات - مؤمنين، وصار أكثرهم مرضى القلوب غير ذوي قابلية لأن يؤمنوا مستقبلاً، وإن ربك - يا

رسول الله - لهو القوي الغالب المنتقم من أعدائه المكذبين، الدائم الرحمة بعباده المؤمنين.

١٩٢ - ١٩٥ - وإن هذا القرآن في سموه وعظمه معانيه ومبانيه لمُنَزَّل في كل حروفه وألفاظه ودلالاته من رب العالمين الذي لا رب سواه، وهو خالقهم ومالكهم ومربيهم ومصلحهم وسيدهم المطلق. نزل به جبريل عليه السلام المؤمن على وحي الله لأتبيائه، على قلبك - يا رسول الله - حتى تعيه وتفهمه ولا تنساه؛ لتكون - بعد قيامك بوظائف التبليغ والبيان والإقناع - من المُنذرين، بلسان عربي واضح ظاهر، وموضح ومُظهر؛ ليفهموا ما فيه.

١٩٦ - وإن ما جاء في القرآن من حقائق إيمانية، ومبادئ أخلاقية، وشرائع إسلامية، لَمُثِّبَت في الكتب الربانية التي أنزلها الله على الأنبياء الأولين.

١٩٧ - ألم يسألوا علماء بني إسرائيل، ولم يكن لهؤلاء المتكبرين علامة ودلالة على أن القرآن كلام الله المنزل على رسوله محمد ﷺ، أن يعلم صدق ما نزل في القرآن من قضايا الدين علماء بني إسرائيل الذين سألوهم؟!

١٩٨، ١٩٩ - ولو أنزلنا القرآن على رجلٍ من الأعجمين لا يقدر على التكلم بالعربية، ولا يتصور اتهامه باختراعه لغجمته؛ فقرأه على كفار قريش قراءةً صحيحة، لكفروا به، ولاستكبروا بمُنْجَهِتِهِم العربية عن اتباع أعجمي، مع رفضهم لما اشتمل عليه من حقائق الدين التي تُخالف أهواءهم وشهواتهم وتقاليدهم العمياء. فلا تحزن عليهم - يا رسول الله - ولا تحمل هم إيمانهم، لأنهم مستكبرون جفاة معاندون، وسيلقون مصيرهم عذاباً أبدياً في جهنم يوم الدين.

٢٠٠ - ٢٠٣ - ومثل إدخال القرآن في قلوب كبراء كفار قريش المجرمين دخول كفر به، وعداوة له، نُدخله في قلوب سائر المجرمين؛ لأنهم يكرهون الحق والخير، مُتَّبِعِينَ أهواءهم وشهواتهم، وهذا من سُنن الله في عباده الناتجة عن اختياراتهم الحرة، لا يؤمنون بالقرآن - مهما غولجوا وأمهلوا - حتى يروا عذاب الله الأليم محيطاً بهم ونازلاً عليهم، فإنهم عندئذ يؤمنون، لكن إيمانهم - بعد شهود مُقَدَّمات العذاب - لا ينفعهم، فيأتيهم عذاب الله فجأة، وهم لا يشعرون بإتيانه، فيقولوا عقب أن يدوقوا أوائل عذاب الله لهم: هل نحن مُمهلون مُؤخرون قليلاً؛ حتى نؤمن تائبين إلى ربنا؟!

٢٠٤ - ٢٠٦ - أغر هؤلاء إمهالي، فَيَسْتَعْجِلُونَ عذابنا استهانةً به؟ أفكرت في حال هؤلاء المُعاندِينَ المُكذِّبِينَ، فرأيت بفكرك وعلمت، أننا إن متعناهم في الدنيا عدة سنين، ثم جاءهم بعد هذه السنين ما كانوا يوعدون من عذاب؟!

وَأَنفَعُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَكِنَّ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَعَدَّائِنَا لِمَنَاجِلَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

٢٠٧ - إنهم وإن طال تمتعهم بمتاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية، فإذا أتاهم العذاب الخالد الأبدى في الجحيم لم يدفع عنهم طول التمتع شيئاً من عذاب يوم الدين.

٢٠٨، ٢٠٩ - وما أهلكنا من أهل قرية إهلاكاً جماعياً، إلا بعد أن أرسلنا لهم رسلاً يُنذرونهم بعذاب مُهلِك، فتمردوا واستكبروا، فعذبوا وأهلكوا، ونذكر إهلاكنا للكفرة المجرمين الأولين تذكيراً بسنتنا، فليتوقع المجرمون من الآخرين تحقيق سنتنا فيهم، وما كنا بإهلاكنا ظالمين في تعذيبهم حيث أقمنا الحجة عليهم، بل كنا عادلين نتصرف بكمال الحكمة.

٢١٠ - ٢١٢ - وما تنزلت بالقرآن الشياطين على محمد ﷺ، كما زعم المشركون، وما يصلح للشياطين أن ينزلوا بالقرآن، وما يستطيعون أن يؤلفوا القرآن من عند أنفسهم، أو أن يَشْتَرِقُوا استماعه من ملائكة السماء، إنهم عن السمع لمحجوبون بالرَّمْيِ بالشُّهْبِ، فلا يصلون إلى استراق السمع.

٢١٣ - فلا تعبد - يا رسول الله - ويا كُلُّ داعٍ إلى الله - مع الله معبوداً آخر، فتكون من المُعَذِّبِينَ. وإذا كان رسول الله وحبيبه المصطفى - المعصوم بعصمة الله - مُخَاطَبٌ بعقائد الإيمان وشرائع الإسلام، وغير مُعَفِّيٍّ من أن يكون مُعَذَّباً من المُعَذِّبِينَ لو أنه أشرك فدعا مع الله إلهاً آخر. فكيف يكون حال مَنْ دونه من المنهيين عن أن يُشْرِكُوا بالله شيئاً؟!

٢١٤، ٢١٥ - وأنذر - يا رسول الله - ويا كُلُّ داعٍ إلى الله - الأقرب فالأقرب من قومك من الذين وصلوا إلى دركة ميؤوس معها من إيمانهم عن طريق إراداتهم الحرة، وألن جانبك وتواضع لمن أتبعك من المؤمنين، ولتكن في تواضعك ورحمتك كطائر يخفض جناحه لفراخه تذلاً ورحمة وحُؤَافاً.

٢١٦ - فإن لم يستجيبوا لدعوتك ولم يؤمنوا، ولو كانوا عشيرتك الأقربين، فقل لهم بصراحة لا مداراة فيها ولا مصانعة: إني مُفَارِقٌ ومبتعدٌ ومُتَحَلٍّ عما تصنعون، ولن أدفع عنكم شيئاً من عذاب الله، وقرابتي لن تنفعكم بشيء.

٢١٧ - ٢٢٠ - وفوضُ أمورك إلى مَنْ يَمْلِكُ الأمر، ويفدُرُ على الثُّغَرِ والضُّرِّ، وهو الله القويُّ الغالب الذي يَفْهَرُ أعداءك بعزِّته، العظيم الرحمة الذي يشمل من اعتمد عليه برحمته. وهو سبحانه الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك، ويرى ثَقْلَبَكَ قائماً وراكعاً وساجداً وجالساً مع السَّاجِدِينَ في صلاتهم معك، إنه سبحانه هو السميع لقولك - يا رسول الله - ودعاك، العليم بئتيك وعملك. ٢٢١ - ٢٢٣ - هل أخبركم عن صفات الفئة من الناس الذين تَنْتَزِلُ عليهم الشياطين؟ تَنْتَزِلُ على كُلِّ كَذَّابٍ متعمد، كثير صرف الأشياء عن وجوها التي ينبغي أن تكون عليها، كثير ارتكاب الإثم، كالكَهَنَةِ والمُتَنَبِّئِينَ، وأكثرهم كاذبون فيما يخبرون عن أوليائهم من الجن؛ لأنهم يخلطون به كذباً كثيراً.

٢٢٤ - ٢٢٦ - وشعراء الكفار الذين يهجون النَّبِيَّ ﷺ، ويقولون فيه الكَذِبَ والباطل، وَمَنْ كان على شاكلتهم من الشعراء الذين يخوضون في الباطل، ويكذبون ويُمَزِّقُونَ الأعراض، وينشرون المَآلِبَ، ويقدحون في الأنساب، ويُفَرِّطُونَ في المَدَحِ والقدح، يجتمع إليهم غواة قومهم، ويروون شعرهم، وَيَسْتَحْسِنُونَ قَبَائِحَهُمْ، وَيُحْسِنُونَ إِلَيْهِمْ، أَلَمْ تَرَ - أيها المتفكر - أنهم في كُلِّ وادٍ من أودية الضلال يذهبون على وجوههم حائرين، وعن طريق الحق حائدين، وأنهم يكذبون في شعرهم، فيقولون في حاضرهم ومستقبلهم ما لا يفعلون؟

٢٢٧ - لكنَّ شعراء المسلمين الذين اتَّصَفُوا بالإيمان الصادق، وعملوا الصَّالِحَاتِ المعبرة عن صدق إيمانهم، وذكروا الله كثيراً، فلم يَشْغَلْهُمْ الشُّعْرُ عن ذكر الله، وانتصروا لأنفسهم بالعدل، إذا ظَلَمُوا بهجاء أو غيره، وانتصروا لدينهم بالرَّدِّ على هجاء المشركين، وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم بالظعن في دين الله، أو بالظعن في رسوله والمؤمنين أي مرجع يرجعون إليه؟! سينقلب حالهم من القوة والسلطان والأمن إلى الضعف والذلة والخوف والعذاب.



سُورَةُ النِّسَاءِ

سُورَةُ النِّسَاءِ

الْبَقَرَةُ

١ - ﴿طس﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

تلك الآيات الرفيعة المنزلة، العالية الرتبة آيات القرآن الدالات على كونها مُنزلات من عند الله، وأنَّ محمداً نبي الله حقاً وصدقاً، وآيات كتاب واضح ظاهر، مُوضح مُظهر، مطلوب من المؤمنين أن يقرؤوه من صحف يكتبونها تلقياً من الرسول ﷺ، وأن يُدُونوه في كتاب خاص به.

٢، ٣ - هو هُدى من الضلالة، وبُشرى للمؤمنين المُصدقين به بالفوز بالجنة، الذين يقيمون الصلاة بشرائطها، ويواظبون على أدائها، ويُعطون الزكاة إذا وَجَبَتْ عليهم طيبة بها أنفسهم، وهؤلاء الذين يعملون الصالحات هم المؤمنون بالآخرة وما فيها من جزاء، إيماناً جازماً لا يخالطه ولا يعتريه شك.

٤ - إنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة معاندين ومكابرين، جملنا وحسنا لهم أعمالهم القبيحة بمقتضى سُنتنا التكوينية التي تجري على البر والفاجر، فأروها حسنة، جالبة لهم لذات من متاع الحياة الدنيا، فانطمست بسبب كفرهم العنادي بصائرهم، فهم في سعيهم في حياتهم الدنيا يترددون مُتَحِيرِينَ متخبطين سائرين على غير هدى.

٥ - أولئك البُعداء عن رحمة الله الذين لهم أشد العذاب في الدنيا بالقتل والأسر، وهم في الحياة الآخرة بعد البعث أشد الناس خسراناً، خسروا أنفسهم وأهلهم، وصاروا إلى عذاب النار.

٦ - وإنَّك - يا رسول الله - لتتلقى القرآن وحياً بعناية تامة، حرفاً فحرفاً، وكلمة فكلمة، وآية فآية، من عند الله العظيم الحكمة الذي يضع الأشياء مواضعها، الواسع العلم الذي يحيط بكل شيء علماً.

٧ - ضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لهذا البيان - حين قال موسى بأهله من «مدين» إلى «مصر»: «إني أبصرت من بُعد نارا، فأنا ذاهبٌ إلى جبتها، وسأتلُّ أهلها عن أخبار الطريق إلى «مصر»، وأرجو أني سأتيكم من عند أصحاب النار بخبرٍ عن الطريق الذي يوصلنا إلى «مصر»، أو أتاكم بشعلة نار؛ رجاء أن تُستدنفوا بها من البرد.

٨ - فلما جاء موسى المكان الذي رأى النار تشتعل فيه، ناداه الله تعالى بأنه تَبَّ واستقرَّ وكثُرَ خَيْرٌ مَنْ في مكان النار من الملائكة، وموسى والملائكة الذين حُولَ النار، وتنزه الله خالق العالمين ورازقهم ومالكهم ومُرَبِّيهم عن كل سوء ونقص ومُماثلة للحوادث.

٩ - ١١ - يا موسى إنَّ الشأن العظيم الجليل الذي أطلبك بأن تدركه، أن تؤمن بأنني أنا الله القويُّ الغالب، ذو الإرادة الحكيمة النافذة، فلا تُفارق مشيئتي المُطلقة حكمتي في تصاريقي، وادفع عصاك إلى الأرض دفعةً واحدة؛ لتعلم معجزتك فتأس بها، فألقاها، فلما رآها موسى عليه السلام تتحرك وتضطرب، كأنها في شدة حركتها واضطرابها مع عظم جثتها: حيَّة سريعة الحركة، انصرف مُبتعداً، وأدار ظهره، ولم يرجع ويلتفت. قال الله تعالى: يا موسى لا تخف، وكُن آمناً فلن يُصيبك مكروه من هذا الثعبان الذي يسعى ويهتز بقوة ونشاط وسرعة حركة؛ إني لا يخاف لديَّ المُرسلون إذا أمنتهم، لكن مَنْ ظلم بمخالفة أمري أو نهْيي، فإنه يخاف عقابي، فإن تاب وعمل فيه حُسناً من بعد عملٍ فيه سوء، فإني كثير السَّتر، واسع الرحمة بعبادي المؤمنين، أشملهم بعبادات رحمتي دوماً.

١٢، ١٣ - وأدخل يدك اليمنى في فتحة قميصك من جهة الرأس، وضعها تحت عضدك الأيسر، وأخرجها تخرج بيضاء تبرق مثل شعاع الشمس من غير برص، خذ هاتين الآيتين: آية العصا التي تنقلب ثعباناً، وآية اليد التي تخرج بيضاء من غير سوء، في جملة تسع معجزات، قدَّرت منك إياها، دليلاً على أنك رسولي، وأنت صادق فيما تبلغ عني، أنت مُرسَلٌ بهنَّ إلى فرعون وقومه؛ إنَّهم كانوا قوماً خارجين عن الطاعة. وهذه الآيات التسع قد سبق بيانها، وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وسنوات الجذب والقحط والنقص من الثمرات، وآية الرجز، وهو عذاب أنزله الله بفرعون وملئه كأمراض وأوجاع لا عهد لهم بمثلها. فلما جاءتهم آياتنا الخوارق التسع كلها بينة واضحة مُضيئة مُبصرة لهم بأن موسى رسولٌ من ربِّ العالمين. قالوا: هذا الذي نراه سحرٌ واضح ظاهر.



١٤ - وأنكروا الآيات ولم يقرؤا أنها من عند الله بالاستهتيم، واستيقنوها بقلوبهم وضمايرهم، ظلماً للآيات حيث أنزلوها عن منزلتها الرفيعة وسَمَوُها سحرًا، وترفعًا واستكبارًا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى. فانظر - أيها المؤهل للنظر التفكري في آثار المهلكين السابقين - كيف كان مصير الذين دأبوا على الفساد؟ أغرقهم الله في البحر.

١٥ - ونقسم مؤكدين أننا أعطينا داود وابنه سليمان عليهما السلام علماً كثيراً بالشريعة والقضاء والسياسة، وقالوا: الحمد لله الذي فضلنا بالنبوة والكتاب والملك وتسخير الجن والإنس على كثير من عباده المؤمنين ممن لم يؤت مثل ما أوتينا.

١٦ - وورث سليمان أباه داود في النبوة والعلم والملك والحكمة الإدارية والسياسة دون سائر إخوته، وقال سليمان في خطبة ملكية خطبها: يا أيها الناس علمنا فهم لغة الطير، وأتانا الله من فضله من كل شيء مما يؤتاه الملوك من مال وسلطان وجند في ظروف الحياة الدنيا، ومن كل شيء طلبناه ورغبنا فيه. إن هذا الإحسان بالعطاء لهُوَ الإحسان الواضح الجلي.

١٧ - وجميع لسليمان جنوده من نوع الجن والإنس وأصناف الطيور من الأماكن المختلفة في مسير له، فهم لكثرتهم العظيمة يجمعون في مكان جامع، ويرتبون صفوفًا، ويسوون للقيام منتظمين بما يكلفونه من الأعمال.

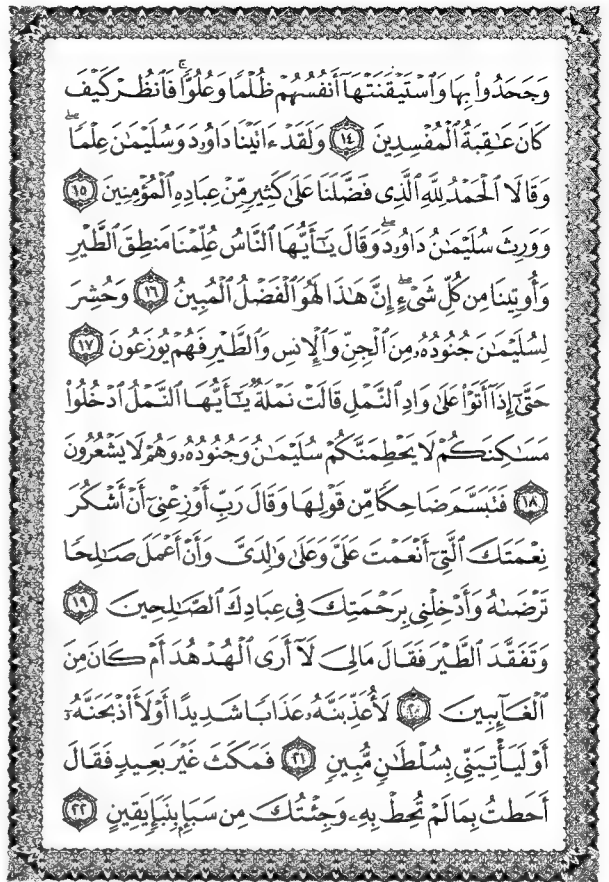
١٨ - فسار سليمان بجنوده الكثيفة يجتاز أرضاً فأرضاً، حتى إذا أشرفوا على وادي النمل، قالت نملة: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، لا يكسرئكم سليمان وجنوده، دون اكتراث ولا التفات، ولو لم تدخلوا وطوؤكم ولم يشعروا بذلك، فهم لشدة عدلهم وفضلهم لا يقتلون نملة فما فوقها بغير وجه حق إلا إذا وقع منهم ذلك بدون قصد ولا أدنى علم. وفي كلام النملة إشعار باهتمامها بأمور جماعتها، باعتبارها واحدة من هذه الجماعة، وكان بوسعها أن تختفي في مكان أمين، وتدع بني جنسها من النمل وشأنهم، ولكنها لم تفعل ذلك، بل قامت بتحذيرهم مع بيان وجه هذا التحذير، مما يدل على شعورها بالمسؤولية نحوهم، وأن الواجب عليها أن تحرص على نجاتهم ودفع الشر عنهم، كما تحرص على نجات نفسها ودفع الشر عنها.

١٩ - فنسب سليمان ضاحكاً مما دل عليه قول هذه النملة لإدراكها وحرصها على أمتها، ولظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم، وسروره بما آتاه الله من إدراك سمعه ما قالته النملة، وقال داعياً: يا رب ألهمني واجمع نفسي وقلبي وإرادتي لأن أشكر نعمتك التي أنعمت علي بالنبوة والعلم والملك، وعلى والدي، التي تجري آثارها إلي، ووفقتي لأن أعمل الأعمال الصالحة التي ترضاهمني، وترضى بها عني، والتي تعبر عن الشكر القلبي لنعمتك علي، وأدخلني برحمتك في جملة عبادك الصالحين، وأثبت اسمي مع أسمائهم، واحشرنني في زميرهم.

٢٠ - وطلب سليمان في إحدى مهماته في جنده ما فقد من الطير، فلم يَرَ قائد طيور الهدهد، فقال: ما الأمر الذي حصل لي حالة كوني لا أرى الهدهد؟ أهو حاضر بيننا ولم يقع عليه بصري بين الطيور، أم أنه كان من الغائبيين عني، فلم أره لغيبته؟ وفي الآية: عناية سليمان عليه السلام برعيته، وتفقدهم وعدم إهمالهم، والذي يعني بتفقد الطير، لا يفوته أن يتفقد ما هو أهم منه، وذلك استقصاء كامل في رعاية نواحي الدولة، والعناية بأمورها. وفي الآية: بقظة سليمان العجيبة، وفطنته الحساسة؛ إذ يقطن إلى غياب الهدهد، وسط هذه الألوف من الخلائق المحشورة له، وهو مثل أعلى في البقظة ينصبه الله عز وجل، ليحتذيه كل من ولي من أمور المسلمين شيئاً، ليكون مُعَهِّداً لشؤون رعيته صغيرها وكبيرها، حازماً في محاسبة المسؤولين، فإن لم يكن كذلك انحلت قوى الدولة، وانفطر عقدها.

٢١ - فلما علم أن الهدهد غائب عنه، غضب من غيابه، وقال متوعداً مُهْدِداً الهدهد بإحدى عقوبتين شدينتين: أقسم بالله لأعذبن هذا الهدهد على غيبته عذاباً مؤلماً شديداً، أو لأذبحته؛ ليكون موعظة لسائر الجند، وتأديباً وتربية لهم، أو أعفيه منهما إذا قدم حجة واضحة تبين غدره في غيابه. وفي الآية بيان أن القائد الحكيم يرى لكل جندي عمل لا يؤذيه غيره، فإذا غاب أو أهمل، اختل التناسق في العمل، وأدركه الاضطراب والخلل، ومن هنا يعظم في صدر القائد الحساس، ما يقع من جرائم الغياب أو التقصير، فيكون حازماً في مواخذة أصحابها مواخذة تحمل العذاب الشديد، وتمتد إلى الإعدام. وقد اختار الله عز وجل لنا من بقظة سليمان هذا المثال، ليعلمنا أن الذي يهتم بصغار الأمور هذا الاهتمام، يكون بكبارها أشد رعاية واهتماماً، وأن الذي يحاسب الحساب العسير الحازم على ما قد يبدو هيناً، لا يمكن أن يفرط في المواخذة على الأخطاء الجسيمة

٢٢ - فلزم الهدهد مكانه مُتَمَهِّلاً منتظراً غير بعيد عن مكان سليمان، ثم جاء إلى سليمان، فقال له: علمتُ بأمرٍ على وجه الإحاطة به، =



= لم تُحط أنت به، وجئتك من بلدة «سبأ» باليمن بخبر ذي شأن عظيم، حق لا شك فيه، يَسْتَنِدُ إلى إدارك حسي.

٢٣ - إني وجدت أهل «سبأ» يخضعون لسلطان امرأة ملكة عليهم تحكمهم، وأوتيت من كل ما تحتاج إليه الملوك من المال والقصور والخدم والجند والقوى، ولها سرير فخم عال.

٢٤ - وجدتُها هي وقومها يعبدون الشمس، فيسجدون لها، معرضين عن عبادة الله. وحسن لهم الشيطان أعمالهم بالإغراء والوساوس، فصرفهم ومنعهم عن سلوك طريق الحق المستقيم، فهم لا يهتمون بأنفسهم إلى سلوك سبيل الله الحق الذي يؤدي بسالكه إلى خير دنياهم، وسعادة آخرتهم.

٢٥ - زين لهم الشيطان أعمالهم؛ لأجل ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخفي المخبأ في السموات والأرض كائناً ما كان، من إنزال المطر وإنبات النبات، وخواص الموجودات، التي يهدي إليها من يشاء من عباده، ويعلم ما تيسرون - أيها الناس - وما تظهرون.

٢٦ - لا يستحق العبادة إلا من هو قادر على من في السموات والأرض، عالم بجميع المعلومات، وهو الله خالق كل شيء، لا معبود بحق سواه، هو رب العرش العظيم، الذي هو أكبر من السموات والأرض.

٢٧ - لم يأخذ سليمان اعتذار الهدهد قضية مسلمة، بل وضعها موضع التحقيق والتثبت، قال: سَنَنْظُرُ أَصْدَقْتَ فيما أخبرت عن أهل سبأ وملكتهم أم كنت من الكاذبين؟

٢٨ - أحمل كتابي هذا، واذهب به إلى أهل «سبأ»، وترقب اجتماع ملكتهم بملكها وقادتها، فارمهم إليهم وهم مجتمعون، ثم تنح عنهم، فقف قريباً من مجلسهم، فاعلم ما الذي يرجعونه من رأي أو تدبير على ما جاء في كتابي إليهم؟

٢٩ - ذهب الهدهد، وألقى الكتاب إلى الملكة، فقرأته، فجمعت أشرف قومها، وسمعتها تناديهم باهتمام بالغ: يا أيها الأشراف وأركان المملكة ومجلس الشورى الذين أستميرهم في المهفات: إني ألقى إلي كتاب شريف مختوم، من شخص عظيم الشأن.

٣٠ - إن هذا الكتاب من سليمان، وإنه مفتوح بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

٣١ - اعلما أن الشيء العظيم الذي أوجه إليكم يا أصحاب الملك والسلطان في «سبأ»: لا تستكبروا عن الخضوع لسلطاني، ولا تمتنعوا من إجابتي، وأتوني طائعين مُسْتَسْلِمِينَ.

٣٢ - قالت: يا أيها الأشراف وأركان المملكة الذين تملؤون عيون العامة مهابة وإجلالاً، أبنوا لي ما تزون من رأي سديد بشأن هذا الأمر الخطير، الذي فرضه علينا الملك العظيم سليمان، ما كنت مُصدرةً أمراً مُهماً من أمور الدولة حتى تكونوا حاضري مجلسي، وحتى تُقدِّموا ما عندكم من مشورة حول الرأي الصواب الذي تزون، وبعد ذلك أصدر ما أراه من قرار فيه خير الدولة ومصلحة الشعب.

٣٣ - قال أهل مشورة ملكة سبأ مُجيبين لها: نحن أصحاب قوة قادرة على الدفاع، رجالاً وسلاحاً وعتاداً، ونحن أصحاب قتال شديد عند الحرب، والأمر مفوض إليك - أيها الملكة - في القتال وتركه. فانظري بفكرك الثاقب، وتدبري بحكمتك ماذا تأمرين؟ تجدينا مطيعين لأمرك.

٣٤ - قالت بلبقيس مُجيبية لهم: إن من عادة الملوك أنهم إذا دخلوا بجيوشهم قرية من القرى عنوة وقهراً أفسدوها، بتخريب مبانيها ومنشأتها، وتحطيم أشجارها ومزارعها، والاستيلاء على خيراتها، وأهانوا أشرافها وكبرائها؛ كي يستقيم لهم الأمر، وهذه عادتهم المُستمرّة التي لا تتغير في كل زمان ومكان.

٣٥ - وإني مُرسلة إلى «سليمان» ورجال دولته بهدية نفيسة، أصانعه بها على ملكي، واختبره بها: أملك هو أم نبي، فمترقبةً ومنتظرةً بأي شيء يرجع المرسلون الذين أرسلهم إلى سليمان بالهدية، فإن كان ملكاً قبل الهدية ورجع، وإن كان نبياً لم يقبل الهدية ولم يرض منا إلا أن نثبته في دينه. وفي الآية: فطنة بلبقيس، وتوقد ذكاها، في تريثها، واختبار حقيقة سليمان، فإنها لم تحاول أن ترشوه بالمال، وإنما حاولت أن تختبر حقيقته، فإن كان ممن يعملون للمال فقد أسكتته الهدية، ورضي بما يدفع له من خراج، وإذا كان من أرباب الإيمان بما يدعوها إليه في خطابه، فسوف يرد الهدية، ولا يقبل إلا القتال. فإذا تبين لها ذلك، كان حقاً عليها - وهي العاقلة الذكيّة - أن لا تردد في مبايعة هذا الحاكم المؤمن.

الجزء التاسع عشر

سورة النمل

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ قَالَ سَنْظُرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥﴾ أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَذَا قَالِقَةَ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٦﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ إِلَهِي إِلَٰهُكُمْ كَذِبٌ إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٧﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرَ حَقٍّ تَشْهَدُونَ ﴿٩﴾ قَالُوا نَحْنُ أَقْوَمُ وَأُولُوا نَأْيٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿١٠﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ بَفَعَلُوا ﴿١١﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ سُونَ ﴿١٢﴾



٣٦ - فَلَمَّا وَصَلَ وَفَدُ الْمَلِكَةُ بِالْهَدِيَّةِ إِلَى سُلَيْمَانَ، قَالَ مُسْتَنْكَراً ذَلِكَ مُتَحَدِّثاً بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ: أَتُمَدُّونَنِي بِمَالٍ؟ فَمَا أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ النَّبُوءَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمُلْكِ أَفْضَلَ مِمَّا آتَاكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ فَرَحَ سُرُورٍ، ظَانِّينَ أَنَّهَا تُرْضِينِي، فَتَكْفُنِي عَنِ الْقُدُومِ بِجُنْدِي إِلَى بِلَادِكُمْ، وَضُمَّهَا إِلَى مُلْكِي.

٣٧ - وَقَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَمِيرِ الْوَفْدِ: ارْجِعْ إِلَى بَلْقِيسَ وَقَوْمِهَا بِمَا أُتَيْتَ بِهِ مِنَ الْهَدِيَّةِ، فَوَاللَّهِ لَأَتَيْنَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى مَقَاتِلَتِهَا وَمَقَاوِمَتِهَا، وَلَتُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ أَرْضِ «سَبَأٍ» أَذْلَةً، وَهُمْ مُهَانُونَ بِالْأَسْرِ وَالْإِسْتِعْبَادِ. وَقَرَّرَتْ «بَلْقِيسُ» أَنْ تَطِيعَ أَمْرَ سُلَيْمَانَ، وَأَنْ تَأْتِيَ إِلَى عَاصِمَةِ مُلْكِهِ فِي الْقُدْسِ.

٣٨ - وَعَلِمَ سُلَيْمَانُ بِمَا عَزَمَتْ أَنْ تَفْعَلَهُ «بَلْقِيسُ» مِنْ طَاعَتِهِ وَالْقُدُومِ إِلَيْهِ، وَبَيْنَمَا كَانَ رَكْبُهَا فِي طَرِيقِهِمْ إِلَيْهِ، أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ آيَةً تَدْهَشُ الْقَوْمَ، وَتَلِينُ قُلُوبَهُمْ لِلْإِيمَانِ، قَالَ سُلَيْمَانُ مُخَاطَباً أَهْلَ مَجْلِسِهِ: يَا أَيُّهَا الْأَشْرَافُ، أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِسَرِيرِ مُلْكِهَا الْعَظِيمِ مِنْ «سَبَأٍ» فِي الْيَمَنِ إِلَى قَصْرِي فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي خَاضِعِينَ مُنْقَادِينَ؟

٣٩ - قَالَ مَارِدٌ قَوِيٌّ مِنَ الْجَنِّ: أَنَا آتِيكَ بِسَرِيرِ مُلْكِهَا قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِ قَضَائِكَ، وَإِنِّي عَلَى حِمْلِهِ لَقَوِيٌّ، وَإِنِّي عَلَى جَوَاهِرِهِ وَنَفَائِسِهِ لِأَمِينٌ.

٤٠ - قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ خَاصٌّ مِنَ الْكِتَابِ لِسُلَيْمَانَ: أَنَا آتِيكَ بِهَذَا الْعَرْشِ خِلَالَ زَمَنِ يُعَادِلُ رَدَّ جَفْنِيكَ إِلَى الْإِطْبَاقِ بَعْدَ انْفِرَاجِهَا، فَأَذِنَ لَهُ سُلَيْمَانُ، فَدَعَا اللَّهَ، فَآتَى بِالْعَرْشِ، فَلَمَّا رَأَى سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْعَرْشَ مُخَوَّلاً إِلَيْهِ مِنْ مَأْرَبٍ إِلَى الشَّامِ، وَمُسْتَقَرّاً عَلَى قَوَائِمِهِ، وَمُهِيئاً لِلْجُلُوسِ عَلَيْهِ، قَالَ مُبِيناً فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ: إِحْضَارُ عَرْشِ بَلْقِيسَ لِي، كَلِمَحُ الْبَصَرِ، هُوَ مِنْ فَضْلِ رَبِّي عَلَيَّ؛ لِيَمْتَحِنَنِي: أَأَشْكُرُ نِعْمَتَهُ عَلَيَّ، أَمْ أَكْفُرُ فَلَا أَشْكُرُهَا، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ شُكْرِهِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُكَافئه عَلَى شُكْرِهِ بِمَزِيدٍ مِنْ نِعْمَةٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَبِأَجْرِ

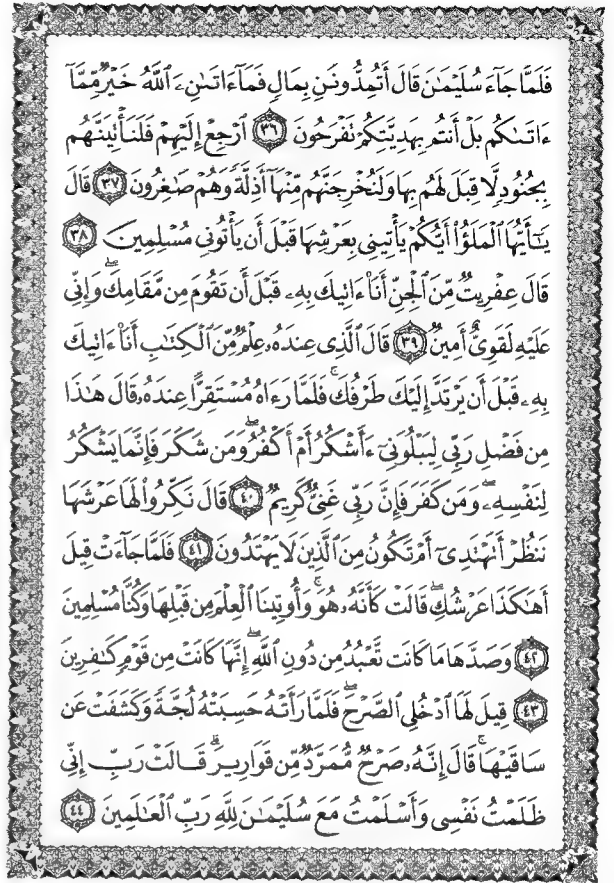
عَظِيمٍ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْ كَفَرَ جَاحِداً نِعَمَ رَبِّهِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَنْ شُكْرِهِ، لَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ الْكُفْرَانُ، بَلْ يَضُرُّ نَفْسَهُ، جَوَادٌ كَرِيمٌ يُنْهَلُ عِبَادُهُ رَغْبَةً فِي أَنْ يَتُوبُوا وَيُصْلِحُوا، فَلَا يُعْجَلُ لَهُمْ عِقَابُهُ.

٤١ - قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِحَاشِيَتِهِ: غَيِّرُوا سَرِيرَ مُلْكِهَا الَّذِي تَجْلِسُ عَلَيْهِ تَغْيِيراً يَجْعَلُهَا تُنْكَرُهُ إِذَا رَأَتْهُ، مَعَ الْمَحَافَظَةِ عَلَى سَائِرِ صِفَاتِهِ؛ نَخْتَبِرُ ذِكَاةَها وَقُوَّةَ مَلاحِظَتِهَا وَانْتِبَاهِهَا إِذَا حَضَرَتْ وَأَرِنَاهَا إِيَّاهُ: أَتَهْتَدِي إِلَى أَنَّهُ عَرْشُهَا مَعَ تَغْيِيرِ فِيهِ، أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ؟

٤٢ - فَلَمَّا جَاءَتْ مَلِكَةُ «سَبَأٍ» إِلَى سُلَيْمَانَ فِي مَجْلِسِهِ، قَالَ لَهَا رَئِيسُ لَجْنَةِ الْمُرَافِقِينَ التَّكْرِيمِيَّةِ: أَهَذَا كُرْسِيُّ مُلْكِكَ؟ فَقَالَتْ لِكَمَالِ التَّشَابُهِ: كَأَنَّهُ هُوَ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَرْشِي تَشَابُهُ كَبِيرٌ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لَهُ، فَعَرَفَ سُلَيْمَانُ كَمَالَ عَقْلِهَا، وَتَوَقَّدَ ذِكَاةَها، بِحَيْثُ لَمْ تُقَرَّ وَلَمْ تُنْكَرْ، قَلَمَ تَقُلْ: إِنَّهُ هُوَ، لِأَنَّهَا تَرَكْتَهُ وَرَاءَهَا فِي بِلَادِهَا، وَالْمَسَافَةُ بَعِيدَةٌ، وَلَكِنَّهَا فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ لَمْ تَقُلْ: لَيْسَ عَرْشِي، لِأَنَّهَا تَرَاهُ بِكَثِيرٍ مِنْ مَعَالِمِهِ وَصِفَاتِهِ. فَخَرَجَتْ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ الْمَحْرُجِ، بِهَذِهِ الْجَوَابَةِ الْكَيِّسَةِ اللَّبِيقَةِ، الَّتِي مَا كَانَ يَصْلُحُ لِلْمَوْقِفِ غَيْرَهَا، ثُمَّ قَالَتْ: وَسَبِقَ أَنْ أُوْتِنَا الْعِلْمُ مِنْ قَبْلِ الْمُشَاهَدَةِ الْبَصَرِيَّةِ، بِعَظَمَةِ مُلْكِ سُلَيْمَانَ، وَأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ بِمَا لَمْ يُؤَيَّدْ بِهِ مُلْكٌ آخَرُ، وَكُنَّا مِنْ قَبْلِ حُضُورِنَا إِلَى مَمْلَكَتِهِ، وَمَشَاهِدَاتِنَا مُسْتَسْلِمِينَ مُنْقَادِينَ خَاضِعِينَ.

٤٣ - وَدَعَاها رَئِيسُ لَجْنَةِ اسْتِقْبَالِهَا إِلَى الْإِسْلَامِ وَالِدُخُولِ فِي دِينِ سُلَيْمَانَ، وَصَرَفَهَا عَنِ الِاسْتِجَابَةِ لِلدَّعْوَةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ، فَشَأَتْ مُشْدُودَةً إِلَى قَوْمِهَا بِالْعَصْبِيَّةِ، وَالْإِعْتِزَازِ بِهِمْ، وَالْإِنْتِصَارَ لَهُمْ، وَلَوْ كَانُوا عَلَى بَاطِلٍ أَوْ خَطَأٍ ظَاهِرٍ.

٤٤ - قَالَ لَهَا رَئِيسُ لَجْنَةِ التَّكْرِيمِ: ادْخُلِي قَصْرَ سُلَيْمَانَ الْعَظِيمِ الْعَالِي الذَّاهِبِ ارْتِفَاعاً فِي السَّمَاءِ، فَلَمَّا رَأَتْ أَرْضَ سَاحَتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ تَوَهَّمَتْ أَنَّهُ مَاءٌ كَثِيرٌ ذُو مَوْجٍ، وَكَشَفَتْ ثَوْبَهَا السَّاتِرَ إِلَى قَدَمِهَا عَنْ سَاقِهَا؛ لِثَلَا يَتَبَلَّ بِالْمَاءِ أَسْفَلَ ثَوْبِهَا. قَالَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ صَحْنٌ أَمْلَسَ مِنْ زَجَاجٍ صَافٍ وَليْسَ بِمَاءٍ، وَقَالَتْ مُعْلَنَةً تَوْبَتِهَا، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ الدَّهْشَ مِنْهَا مَبْلَغُهُ الْأَقْصَى، وَتَفَجَّرَ مِنْ أَعْمَاقِهَا الرُّشْدُ وَكَمَالُ الْعَقْلِ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بَعَادَةً غَيْرِكَ، وَأَنْقَدْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ مُصَاحِبَةً لَهُ فِي إِسْلَامِهِ لِلَّهِ خَالِقِ الْعَالَمِينَ وَرَازِقِهِمْ وَمَالِكِهِمْ وَمُرَبِّيهِمْ وَالْمُحَمَّدَ لَهُمْ بِعِطَائِهِ وَرِعَايَتِهِ وَحِفْظِهِ، مُخْلِصَةً لَهُ سُبْحَانَهُ التَّوْحِيدَ وَالْعِبَادَةَ.



٤٥ - ونقسم مُؤكِّدين لكم، أننا أرسلنا إلى ثمودَ أخاهم في النسب صالحاً، بأنَّ وُحِّدوا الله، ولا تشركوا بعبادته شيئاً، فأذى صالح رسالة ربِّه، ونَصَحَ قومه، وبينَ لهم الحقَّ الربَّاني، فكانت المفاجأة أن آمن به وأتبعه فريقٌ منهم، وكذَّبه وكفر بما جاء به عن ربِّه فريقٌ، وشرَّعَ الفريقان يختصمون، فيخاصم أفرادُ هذا الفريق المؤمن، أفرادَ ذلك الفريق المكذِّب الكافر.

٤٦ - قال صالح لكفار قومه بعد مسيرته الدعويَّة الطويلة معهم: يا قوم لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بطلب ما أنذرتكم به من عذاب ربِّكم وإهلاككم إهلاكاً مُدمراً، قبل أن تستوفوا حظوظكم الحسنة التي قضى الله أن تستمتعوا بها في الحياة الدنيا؟ إنَّ ربكم يُمهلكم رغبةً في توبتكم واستغفاركم، هلاً تستغفرون الله بالتوبة إليه من الكفر؛ راجين أن يشملكم برحمته، فيغفرَ لكم ذنوبكم، ويرفعَ عنكم ما تستحقُّون من عقاب على ما سبق منكم من كفر وجرائم.

٤٧ - قال قوم صالح له: نَشَاءُ مِنَّا بك وبِمَن آمَنَ معك، حيث توالث علينا الشَّدائد منذ جئتُ بما جئتُ به.

قال لهم صالح: عملكم انطلق طائراً، فصار عند الله علماً وتسجيلاً وحساباً، وهو السببُ الذي من أجله أنزل الله بكم من البأساء والضراء ما تكرهون، رغبةً في أن تتوبوا إليه؛ ليكشف عنكم ما أنزل بكم من مصائب، فلا شؤمَ مِنِّي ولا من الذين آمنوا بي وأتبعوني، بل أنتم قوم تُخَدَعُونَ بالباطل، فتستجيبون لوساوس الشيطان وإغراءاته وتسيولاته، فتضلُّون عن إدراك الحق والاستمسك به، والعمل بما يقتضيه منكم من سلوك صراط الله المستقيم.

٤٨ - وكان في مدينة ثمود - وهي «الجزر» الواقعة في شمال غرب جزيرة العرب - تسعة رجال من أبناء أشrafهم، يفسدون في الأرض بالمعاصي، ولا يكون منهم صلاح ولا إصلاح ما، في كلِّ أعمالهم وتصرفاتهم.

٤٩ - قال هؤلاء الأشقياء التسعة لبعضهم لبعض: ليقسم كلُّ منَّا بالله، فأقسموا قائلين: لنأتين صالحاً بغتةً في الليل، فنقتله ومعه أهله في داره، في وقت لا يرانا فيه أحد، ثم لنقولن لوليِّ دمه الذي يطالب بالثأر: ما حَضَرنا مهلكه ولا مهلكَ أهله، ونؤكد صدقنا في أننا ما شهدنا مهلكهم حَدثاً ولا زماناً ولا مكاناً.

٥٠ - ودبروا تدبيراً سيئاً في خفاء لإهلاك صالح وأهله معه ليلاً، ودبرنا لصالح ومَن آمن معه تدبيراً محموداً، وجازيناهم على مكرمهم بتعجيل العذاب، وهم لا يعلمون أقلَّ علم بتدبير الله عزَّ وجل.

٥١ - فانظر - أيُّها المُتلقِّي المتفكِّر - نظرة اعتبار إلى عاقبة غدر هؤلاء الأشقياء التسعة بنبيهم صالح؟ أنا أهلكناهم وكفَّار قومهم أجمعين إهلاكاً مصحوباً بعذاب شديد.

٥٢ - فتلك مساكنهم الباقية من آثارهم في مدائن صالح، حالة كونها خاليةً منهم ومن أيِّ ساكن من الناس؛ بسبب ظلمهم وكفرهم، إنَّ في ذلك الإهلاك التدميريَّ الجماعيَّ لعلامة واضحة على عدل الله وجزائه، موجَّهة لقوم يعلمون سنننا في عبادنا، وحكمتنا في تصاريفنا، وعلمهم يدفعهم إلى الالتزام بطاعتنا، واجتناب نواهينا.

٥٣ - وخلصنا من الإهلاك التدميري الذي حلَّ بشمود صالحاً عليه السلام، والذين آمنوا من قومه، وكانوا يتقون عقاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه.

٥٤ - واذكر - أيُّها المُتلقِّي لآيات الله - رسولنا لوطاً حين قال لقومه أهل «سدوم»: أتأتون الفعلة القبيحة، تستعلنون بها، وببصر بعضكم بعضاً لدى ممارستها، استمتاعاً بما تشاهدون؟!

٥٥ - إنَّكم لتأتون الرجال في أدبارهم للشهوة عوضاً عن النساء؟ بل أنتم قوم تُضيفون إلى ممارساتكم الشاذَّة، غلياناً غَضَبياً ضدَّ من ينكر عليكم، وتسافهوا وشئاتهم توجَّهونها له، فأنتم بهذا تجهلون بتكرار أنا فاتنا، وتتفاقم الجهالات الصادرة عنكم شدةً وغفلاً.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَاعْتَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا نَقَاسِمُوكَ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّكَ وَأَهْلَكَ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَكَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٠﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ وَأَنبَيَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٣﴾ أَيْنَكُم مَّا تَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ ﴿٥٤﴾

٥٦ - فما كان ردُّ قومه في آخر مسيرة «لوط» الدعويّة إلا قول بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً وأتباعه من مُجَمِّعكم السكنى؛ لأنهم أناسٌ يتنزهون دوماً عن مشاركتنا فيما نفعل من إتيان الذكuran، ويُشدّدون في التلويح علينا، فطريقتهم مخالفة لطريقتنا، ووجودهم بيننا ينغص علينا ملذّاتنا وشهواتنا!!

٥٧ - فخلّصنا لوطاً وأهله من العذاب الواقع بالقوم، إلا امرأته فضّينا عليها بأن جعلناها من الباقيين في أرض قومها، الذاهبين في الهلاك والعذاب؛ لأنها كانت عوناً لقومها على أفعالهم القبيحة، راضية بها.

٥٨ - وأمطرنا عليهم من السماء حجارةً مثل حجّات المطر الكبرى، من طين مُتَحَجَّرٍ شديد صلب بتواتر وتتابع وعموم وشمول لكل أرض قوم لوط، فبُئس مطرُ المُنذرين الذين أنذرهم لوط بعدذاب الله، فلم يقبلوا الإنذار ولم يقلعوا عن الفواحش.

٥٩ - قل - يا رسول الله ويا كلّ داعٍ إلى الله - : الحمد لله وحده على هلاك كفار الأمم الخالية، وقل: سلامٌ وأمنٌ وتحيّةٌ على جميع الأنبياء والمرسلين الذين حملوا لواء الدعوة إلى التوحيد، والأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن الإشراك به. واسأل - يا رسول الله - مُشركي قومك: أَللهُ خَيْرٌ لِمَنْ عِبَدَهُ أَمْ الأصنام لِمَنْ عِبَدَهَا؟ فإن الله خَيْرٌ لِمَنْ عِبَدَهُ وأمن به، لإغنائه عنه من الهلاك، والأصنام لن تُغن شيئاً عن عابديها عند نزول العذاب.

٦٠ - واسألهم - يا أيّها المناظر الداعي إلى الله -: بل مَنْ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرض، وأنزل لأجلكم من السماء المطر، فأَنْبَتَ بِعَظْمَةِ رِبوِيَّتِهِ لهم به بساتين ذات منظر حسن ونَصَارَة وجمال؟ لا تقدرون على إنبات شجرها؛ لأنّ إنبات الحقائق المختلفة الأصناف والطعوم والروائح المختلفة تُسقى بماء واحد، لا يُقدّر عليه إلا الله تعالى.

هل مع الله معبودٌ أعانه على صنعه؟ ليس معه إلهٌ ولا شريك، بل هؤلاء المشركون يعدلون عَمْداً عن طريق الحقِّ الظاهر والهدى إلى سُبلِ الباطل والضلال البين، ويفترون على الله، فيتخذون له شريكاً مُعادلاً له في صفات رِبوِيَّتِهِ، ويسوون به غيره في العبادة والتعظيم.

٦١ - بل مَنْ هذا العظيم القدير الذي دَحَى الأرض وسواها صالحةً للاستقرار عليها؟ وَمَنْ هذا العظيم المُتَقِنُ الذي جعل بتدبيره خلال الأرض أنهاراً؟ وَمَنْ هذا العظيم المدبّر القدير، الذي جعل للأرض جبلاً ثوابت تُمسكها من التحرك والاضطراب؟ وَمَنْ هذا العظيم الجليل، المُتَقِنُ الحكيم الذي جَعَلَ بين البحر العذب والبحر المالح مانعاً، يمنع من امتزاج أحدهما بالآخر؟ أمعبودٌ مع الله فعَلْ ذلك حتى تُشركوه معه في عبادتكم؟ بل أكثر المشركين مقلّدون لا يعلمون دلالات هذه الظواهر بما فيها من آيات على وحدانيّة الربِّ الخالق.

٦٢ - بل مَنْ هذا العظيم الذي يُجيب المُكْرِبَ المجهود إذا دعاه، ويكشف الضّر النازل به؟ وَمَنْ هذا العظيم القدير، الذي يجعلكم سكان الأرض، تتوارثون سكنها والتصرّف فيها، والانتفاع بخيراتها جيلاً بعد جيل؟ أمعبودٌ مع الله يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، ويخلق النّاسَ وَفَق سنة الأجيال التي يخلف بعضها بعضاً؟ تذكراً قليلاً جداً يتذكرون، فلا يحدث التذكّر أثراً نفسياً وسلوكياً.

٦٣ - بل مَنْ هذا العظيم الجليل القدير الذي يهديكم بالنجوم في السماء، والعلامات البارزة في الأرض، كالجبال والوديان، وكهبوب الرياح، وغير ذلك من وسائل الهداية، مثل «البوصلة»، إذا جَنَّ عليكم الليل مسافرين في البرِّ والبحرِّ والجوِّ؟ وَمَنْ هذا العظيم المتقن الحكيم الذي يُرسل الرياح إعلاماً ساراً بمقدم غيث تسوقه أوامر الله عزَّ وجلَّ التي هي من آثار رحمته؟ أمعبودٌ مع الله يفعل بكم شيئاً من ذلك فتدعونه من دونه؟ تسامى وترفعَ اللهُ الرَّبُّ الخالق لكلِّ شيءٍ عن أن يُكافئه في إلهيَّته أحدٌ، وَمَنْ يجعلهم المشركون شركاءَ الله، يعبدونهم كعبادته هم خَلَقَ من خلقه، لا يستحقُّون من الإلهيَّة شيئاً، فكيف إذا كان المشركون يعبدون ما لا حياة له ولا علم ولا عقل!!

فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالَ أَوْ أَخْرِجُوا أَلْ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِهُرُونَ ٥٦ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَقَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَنِيِّ ٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ٥٨ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ نَعْلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ٦٠ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خُلُوفَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ نَعْلَمْ مَعَ اللَّهِ أَنَّهُ يُبْذَرُ ٦١ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلُوفَ الْأَرْضِ آثَارًا ٦٢ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِأُصْرَائِيكَ يَدَى رَحْمَتِهِ أَلَمْ نَعْلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٣

الجزء العنبري

سورة النمل

أَمِنْ يَدُ الْخَالِقِ تُرْعِضُهُ. وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 أَعْلَمُكُمْ قُلْ هَاسِئُوا بِرُءُوسِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾
 قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
 أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ
 فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِذَا بَابُآؤُنَا آيَاتُ الْمَخْرُجِ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا
 هَٰذَا الْخَنَازِ وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ
 ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى
 أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمِمَّنْ غَابِ
 فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ
 يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

٦٤ - بل مَنْ هذا العظيم الخالق القدير الذي يبدأ خلق المخلوقات بتكرار، ثم يعيد الخلق بعد إفنائها له؟ وَمَنْ هذا العظيم القدير المُنقذ الحكيم الذي يرزقكم من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات؟ أمعبود مع الله يبدأ خلق المخلوقات بتكرار، ثم يعيدها بعد إفنائها، ويرزق سائر الأحياء من السماء والأرض بعدة أسباب لا يقدر على خلقها إلا الله؟ قل: هاتوا حُجَّةً عقليةً أو نقليةً على ما تدعون أن مع الله إلهاً آخر، أو أن صانعاً يصنع صنعه إن كنتم صادقين.

٦٥ - قل - يا رسول الله ويا كل داع إلى الله للذين يعتقدون أن الكُهان يعلمون الغيب -: إنَّ الله هو الذي يعلم الغيب وحده، ويعلم زمن البعث إلى الحياة الأخرى، ولا يعلم الغيب جميع من لديهم استعداد لعلم ما، في السموات وفي الأرض، إلا الله عز وجل وحده، وما يُدركون أقل درجات الإدراك بالوقت العظيم الذي يكون فيه بعثهم بعد موتهم للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء بالثواب أو العقاب؟
 ٦٦ - بل تلاخق وتتابع علم مشركي مكة في موضوع البعث إلى الحياة الآخرة، وتنفيذ الجزاء على ما يكسب الناس في رحلة الحياة الدنيا، فالتقى موروثهم من بقايا الدين الذي ورثوه عن إبراهيم وإسماعيل مع عقائد أهل الكتاب على نبي واحد، بل هم على الرغم من تتابع هذا العلم، في شك من الآخرة، بل هم لنفورهم من الآخرة، تعلّقوا بشهواتهم وأهوائهم، عمّون عن الحقيقة، لا يدركونها ببصائر سليمة الرؤية.

٦٧، ٦٨ - وقال مشركو مكة: إذا متنا وفنيت أجسادنا، وصرنا تراباً مختلطاً بتراب الأرض، وصار آباؤنا تراباً كذلك، إنّا لمبعوثون من قبورنا أحياء؟ لقد وعدنا أننا سنبعث بعد الموت للحساب والجزاء، ووعد آباؤنا هذا الوعد نفسه على السنة الأنبياء من قبل محمد، ما نبأ الحياة بعد الموت للحساب والجزاء الذي يُنبئنا به محمد إلا منقول من أحاديث الأولين وأكاذيبهم التي كتبوها.

٦٩ - قل - يا رسول الله ويا كل داع إلى الله من أمته - لهؤلاء المُكذّبين الذين لا يؤمنون بقانون الجزاء الرباني: سيروا في الأرض، فانظروا بأبصاركم، وتفكروا بعقولكم على أية حال كانت عاقبة الكافرين الأولين، وما حل بهم من عقوبات ربانية؟ والله فاعل بكم مثلهم إن لم تؤمنوا، فسنة الله في عبادته واحدة.

٧٠ - ولا تحزن على مَنْ تحرص على إيمانهم لنجاتهم وإنقاذهم من الخلود في عذاب النار من كفار قومك، ولا تكن في ضيقٍ صدرٍ وألم في النفس من مكرهم وكيدهم، فإنَّ الله حافظك وناصرُك عليهم، وراؤك عنك كيدهم.

٧١ - ويقول كفار مكة بتكرار وتجدد: متى يحين موعد العذاب المُعجل في الدنيا، والمُؤجل إلى يوم الدين الذي تعدنا به أنت وأتباعك، إن كنتم صادقين في أنَّ العذاب نازلٌ بالمُكذّبين؟!

٧٢ - قل لهم - يا رسول الله -: نتوقع برُحجان أن يكون دناً وقرب بعض ما تستعجلون به من الجزاء الرباني، فلا يُعزّركم إمهال الله لكم، فقد يُداهمكم عذابه وأنتم عنه غافلون.

٧٣ - وإنَّ ربك - يا رسول الله - لذو فضل على الكافرين المجرمين حيث لم يُعجل لهم العذاب، بل ترك لهم زمناً طويلاً يراجعون فيه أنفسهم، رغبة أن يتوبوا ويرجعوا إلى الحق، ولكن أكثر الناس لا يقابلون تفضل الله عليهم بالإمهال بالشكر، ولو من أدنى درجات الشكر، وهي درجة الإيمان به والإسلام له.

٧٤ - وإنَّ ربك - يا رسول الله - ليعلم ما تخفي صدور الكافرين، وما يعلنون من مكرهم ضدَّ الرسول ﷺ، وكرهاتهم الشديدة للدين الذي جاءهم به، واستكبارهم عن عبادة الله وطاعته، وهو سبحانه أحاط علمه بكل شيء، لا يخفى عليه مما يسرونه ويعلنونه شيء.

٧٥ - وما من موجودة في الأكوان غائبة عن إدراك الخلائق أو مشهودة في السماء والأرض إلا وهي معلومةٌ لله عز وجل، مُسجلةٌ مدونةٌ في كتاب بين واضح لمن يطلع عليه، ويقرأ فيه، من الملائكة المطهرين.

٧٦ - إنَّ هذا القرآن يُحدث بني إسرائيل بحديث صحيح مُطابق للحق أكثر الذي هم فيه يختلفون مع الحق، في أمور الدين، وحكاية التاريخ، فيُصحح باطلهم، ويكشف تحريفهم.

٧٧ - وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَهْدَايَةٌ مِنَ الضَّلَالِ، وَرَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَجَمِيعٍ مَّنْ آمَنَ بِهِ، فَهَمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَيَعْمَلُونَ بِأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ.

٧٨ - إِنَّ رَبَّكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَبَا كُلُّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ - يَقْضِي بَيْنَ أَفْرَادِ أَعْدَائِكَ، فَيَكْفِيكَ فَرِيقًا مِنْهُمْ بِالْمَوْتِ، وَيَحْبِطُ مَكَائِدَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، وَيُلْقِي دَوَاعِيَ الْفُرْقَةِ بَيْنَهُمْ، فَأَنْتَ وَمَنْ يَهْتَكُ أَمْرَهُمْ مُحْفُوظُونَ بِأَحْكَامِ رَبِّكَ الْقَضَائِيَّةِ الْمُتَبَاعَةِ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْغَالِبُ الْقَدِيرُ عَلَى حِمَايَتِكَ الَّذِي لَا يُرَدُّ لَهُ أَمْرٌ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِ أَعْدَائِكَ وَمَا يَمْكُرُونَهُ وَيُدْبِرُونَهُ ضَدَّكُمْ.

٧٩ - فَيَقُِّ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَفَوْضُ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ؛ إِنَّكَ مُسْتَقَرٌّ عَلَى الْحَقِّ الثَّابِتِ الْمَبِينِ الْوَاضِحِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ.

٨٠ - إِنَّكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَبَا كُلُّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ - لَا تَسْمَعُ الْكُفَّارَ مَوْتَى الْقُلُوبِ، الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى حَضِيضِ الْكُفْرِ، وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الَّذِينَ انْصَرَفَتْ نَفُوسُهُمْ عَنْ اسْتِمَاعِ كُلِّ نَدَاءٍ يَتَعَلَّقُ بِقَضَايَا الدِّينِ انْصِرَافًا كُلِّيًّا، إِذَا نَفَرُوا مِنْ دَعْوَتِكَ، وَتَوَلَّوْا عَنْ قَبُولِ مُوَاجَهَتِكَ، وَابْتَعَدُوا مُذْبِرِينَ. فَلَا تَنْفَقُ وَقْتُكَ وَطَاقَاتُكَ طَمَعًا فِي هِدَايَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ مَيُوسٍ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ مَعَهَا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْخَرَّةَ.

٨١ - وَمَا أَنْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - بِهَادِي غُمِّي الْقُلُوبِ صَارِفًا لَهُمْ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ، مَا تَسْمَعُ إِسْمَاعًا نَافِعًا مُؤَثِّرًا، إِلَّا الَّذِينَ لَدَيْهِمْ اسْتِعْدَادٌ لِأَنَّهُمْ يَزُومُونَ بَيِّنَاتِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي يَتَلَقَّوْنَهَا تَبَاعًا، إِيْمَانًا صَاحِقًا صَادِقًا، دَافِعًا إِلَى الطَّاعَةِ، فَهَمُ مُخْلَصُونَ مُسْتَجِيبُونَ لِمَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ.

٨٢ - وَإِذَا ثَبَّتَ وَتَحَقَّقَ قَوْلُ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ بِإِقْفَالِ بَابِ التَّوْبَةِ تَمْهِيدًا لِقِيَامِ السَّاعَةِ، أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ، تُكَلِّمُ النَّاسَ بِلُغَاتِهِمُ الْمُخْتَلَفَةِ، وَالسَّبَبُ فِي إِخْرَاجِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ تَكْشِفَ لِكُفَّارِهِمْ أَنََّّهُمْ

وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا ۖ أَمَّا أَنَا فَأَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنِعَ اللَّهُ لِذِي الْإِنْفِنِ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

كَانُوا بِآيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ وَالْبَيِّنَاتِ الْمُزْنَلَةِ وَالْجَزَائِيَّةِ الْعِقَابِيَّةِ لَا يُصَدِّقُونَ.

٨٣ - وَضَعُ فِي ذَاكَرَتِكَ - أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي لآيَاتِ اللَّهِ - يَوْمَ نَجْمُ فَوْجًا مُنْتَزَعًا مِنْ كُلِّ جَمَاعَةٍ مِمَّنْ يُكَذِّبُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِآيَاتِنَا الْمُنْزَلَاتِ، فَهَمُ بَعْدَ الْجَمْعِ وَالسُّوقِ، يُجْمَعُونَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ قَرِيبٍ مِنْ جَهَنَّمَ، وَيُرْتَبُونَ صُفُوفًا بِحَسَبِ دَرَكَاتِ كُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ، وَيَكْفُونَ وَيَمْنَعُونَ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي وَضَعُوا فِيهَا.

٨٤ - حَتَّى إِذَا جَاؤُوا الْمَكَانَ الْمُخَصَّصَ لِحَشْرِهِمْ قُرْبَ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُوْخًا لَهُمْ: أَكْذَبْتُمْ رَسُولِي بِآيَاتِي الَّتِي أَنْزَلْتُهَا عَلَيْهِ؛ لِيُبَلِّغَكُمْ إِيَّاهَا، وَلَمْ تَتَفَكَّرُوا فِي مَعَانِي آيَاتِي الَّتِي أَنْزَلْتُهَا لَتَتَّبِعُوهَا، وَتَعْمَلُوا بِمَا جَاءَ فِيهَا، أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟

٨٥ - وَوَجَبَ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ، فَهَمُ عَقِبَ وَقُوعِ الْقَوْلِ الرَّبَّانِيِّ الْقَضَائِيِّ عَلَيْهِمْ لَا يَنْطِقُونَ بِحُجَّةٍ يَدْفَعُونَ بِهَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ مَا حُلَّ بِهِمْ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ.

٨٦ - أَلَمْ يَتَفَكَّرْ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ فَيَعْلَمُوا عِلْمًا مُشَابِهًا لِلرُّؤْيَةِ الْبَصَرِيَّةِ، أَنَا خَلَقْنَا بِعَظْمَةِ رَبُّوبِيَّتِنَا اللَّيْلِ لِيَسْتَرِيحُوا فِيهِ وَيَنَامُوا، وَخَلَقْنَا النَّهَارَ بِضُوئِهِ كَاشِفًا لَهُمْ الْأَشْيَاءَ الَّتِي يَرِيدُونَ إِبْصَارَهَا بِأَعْيُنِهِمْ؛ فَهَمُ بِضُوئِهِ يَبْصُرُونَ. إِنَّ فِي نِعْمَتِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَى شُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ لَمَنْ لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ لِأَنَّهُمْ يَزُومُونَ بِالْحَقِّ.

٨٧ - وَضَعُ فِي ذَاكَرَتِكَ - أَيُّهَا الْمَتَلَقِّي - يَوْمَ يَنْفَخُ إِسْرَافِيلُ فِي الْبُوقِ نَفْخَةَ الْخَوْفِ وَالذُّعْرِ، فَخَافَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ حَفَظَهُ مِنَ الْفَزَعِ، وَكُلُّ الَّذِينَ أَحْيَاوَا بَعْدَ الْمَوْتِ جَاؤُوا أَذْلَاءَ صَاغِرِينَ خَاضِعِينَ.

٨٨ - وَتَرَى الْجِبَالَ - أَيُّهَا الرَّائِي - تَظُنُّهَا مَتَمَاسِكَةً لَا حَرَكَةَ لَذَرَاتِهَا، وَلَا سَيْرَ لَهَا فِي جَمَلَتِهَا، وَهِيَ فِي وَاقِعِ حَالِهَا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ، الَّذِي تَتَحَرَّكُ ذَرَاتُهُ تَحَرُّكًا دَاخِلِيًّا، وَيَسِيرُ فِي جَمَلَتِهِ مِنْ مَوْقِعٍ إِلَى مَوْقِعٍ فِي السَّمَاءِ، وَكَذَلِكَ حَالُ الْجِبَالِ، وَسَائِرُ مَا فِي الْأَرْضِ، إِذْ ذَرَّاتُ كُلِّ شَيْءٍ تَتَحَرَّكُ حَرَكَاتٍ فِي دَوَائِرٍ وَأَقْفَالٍ مُقْفَلَةٍ، وَجَمَلَةُ الْأَرْضِ مَعَ جِبَالِهَا تَمُرُّ سَائِرَةً فِي دَوْرَةٍ يَوْمِيَّةٍ حَوْلَ نَفْسِهَا، وَفِي دَوْرَةٍ سَنَوِيَّةٍ حَوْلَ الشَّمْسِ، صَنَعَ اللَّهُ ذَلِكَ صُنْعًا، الَّذِي أَحْكَمَ صُنْعَهُ، وَجَعَلَهُ مُطَابِقًا لِلْمَقْصُودِ مِنْهُ، إِنَّهُ سُبْحَانَهُ خَبِيرٌ عَلَى سَبِيلِ الشُّهُودِ وَالْحَضُورِ بِمَا تَفْعَلُونَ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

٨٩ - كُلُّ مَنْ جَاءَ رَبَّهُ بِالْإِيمَانِ الصَّاحِبِ الصَّادِقِ، وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يَحْمِلُهَا فِي صَحِيفَةِ أَعْمَالِهِ، فَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ وَمُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ حَسَنَتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا، وَهُوَ الثَّوَابُ وَالْجَنَّةُ وَرِضْوَانُ اللَّهِ، وَأَصْحَابُ هَذِهِ الْحَسَنَاتِ آمَنُونَ مِنَ الْخَوْفِ وَالذَّرِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٩٠ - وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ الْكُفْرِيَّةِ الْعُظْمَى، فَأَلْقُوا فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ مَنَكُوسِينَ، وَقُولْ لَهُمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ بَعْدَ أَنْ يَسْتَقْرُوا فِي مَنَازِلِهِمْ مِنْ دَرَكَاتِ جَهَنَّمَ: هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مُعَادِلَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّيِّئَةِ الْكُفْرِيَّةِ وَالسَّيِّئَاتِ الْمُكْتَسَبَاتِ الْكَثِيرَاتِ مَعَهَا وَوَرَاءَهَا؟

٩١ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِمَنْ تَرْجُو اسْتِجَابَتَهُمْ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ: مَا أُمِرْتُ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي رَسُولًا لِلْعَالَمِينَ، إِلَّا بِأَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ، «مَكَّةَ» أَحَبَّ الْبِلَادِ وَأَكْرَمَهَا عَلَيْهِ، الَّذِي جَعَلَهَا حَرَمًا أَمْنًا، لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ، وَلَا يُظْلَمُ فِيهَا أَحَدٌ، وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا، وَلَا يُقَطَّعُ شَجَرُهَا، فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِلرَّسُولِ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ بِالْأَذَى وَالتَّعْذِيبِ وَالْإِضْطِهَادِ، وَأَنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ حُرْمَةَ هَذِهِ الْبَلَدَةِ، وَأَطِيعُوا رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي تَفْتَخِرُونَ بِأَنْكُمْ أَهْلُهَا وَحُمَاتُهَا، وَمَنْ طَاعَتَكُمْ لِرَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ: أَنْ تَوَاضَعُوا لِي وَتَتَّبِعُونِي مُسْلِمِينَ لِلَّهِ رَبِّكُمْ، وَلَهُ سَبْحَانَهُ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ خَلْقًا وَمُلْكًا وَتَصَرُّفًا وَتَدْبِيرًا، وَأُمِرْتُ مِنَ اللَّهِ رَبِّي أَنْ أَكُونَ كَسَائِرِ النَّاسِ مُسْلِمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُطِيعِينَ لَهُ.

٩٢ - وَأُمِرْتُ أَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِي، وَعَلَى النَّاسِ الَّذِينَ أَرْسَلَنِي إِلَيْهِمْ رَبِّي، وَعَلَى الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَاتَّبَعُونِي، مِنْ حِفْظِي، مُتَّبِعًا حُرُوفَهُ وَكَلِمَاتِهِ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ، فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّ نَفْعَ اهْتِدَائِهِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، وَمَنْ ضَلَّ عَنْ الْإِيمَانِ، وَأَخْطَأَ طَرِيقَ الْهُدَى، فَقُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَهُ: بِمَا أَنْكَ لَمْ تَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِي، وَرَفَضْتَ بِإِرَادَتِكَ الْحُرَّةَ الْحَقَّ، وَانْطَلَقْتَ هَائِمًا فِي أَوْدِيَةِ الضَّلَالِ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مُنْذَرٌ بِعَذَابِ أَلِيمٍ خَالِدٍ يَوْمَ الدِّينِ.

٩٣ - وَقُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -: كُلُّ الْحَمْدِ وَالثَنَاءِ لِلَّهِ عَلَى جَمِيعِ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ وَكَمَالَاتِهِ وَنِعَمِهِ، سَيَرِيكُمْ آيَاتِهِ الْكُونِيَّةُ الْبَاهِرَةُ، وَدَلَائِلُهُ الْقَاهِرَةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ، وَمَا يُحَقِّقُ مِنْ أَخْبَارٍ عَنْ أَحْدَاثٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ، فَتَعْرِفُونَ الْآيَاتِ الدَّلَالَتِ عَلَى صِفَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ وَالْهِئَةِ، وَعَلَى أَنَّ الْحَمْدَ كُلَّهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أَبَها الْكَافِرُونَ، وَسَيُجَازِيكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَيَحْبِطُ مَا تُدْبِرُونَهُ ضِدًّا دِينِهِ، وَسَيَنْصُرُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَيْكُمْ.

سُورَةُ الْقَصَصِ

١ - ﴿طَسَرَ﴾ سَبَقَ الْكَلَامَ عَلَى الْحُرُوفِ الْمَقْطُوعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

٢ - تِلْكَ الْآيَاتِ الرَّفِيعَةِ الْمَنْزِلَةِ الْعَالِيَةِ الرَّتَبَةِ آيَاتُ الْكِتَابِ الرَّبَّانِيِّ الْمَطْلُوبِ أَنْ يُدَوَّنَ فِي كِتَابٍ مُوثَّقٍ، الْوَاضِحِ الدَّلَالَاتِ لِمَنْ أَحْسَنَ تَدَبُّرَهُ، وَالْمُوضِحِ لِلْمَعَانِي الْمُرَادَةِ مِنْ آيَاتِهِ.

٣ - نَتَابَعُ فِيمَا نُوْحِي إِلَيْكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مِنْ بَعْضِ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالصَّدْقِ الْمَطَابِقِ لِلْوَاقِعِ؛ لِقَوْمٍ لَدَيْهِمْ الْإِسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا.

٤ - إِنَّ فِرْعَوْنَ تَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ فِي أَرْضِ «مِصْرَ»، وَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْعُدَاوَانِ حَتَّى ادَّعَى الرَّبُّوبِيَّةَ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا فِرْقًا مُتَخَالِفَةً مُتَعَادِيَةً، وَأَحْزَابًا مُتَصَارِعَةً مُتَنَافِسَةً فِيمَا بَيْنَهُمَا، يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَأْمُرُ بِتَذْيِيقِ مَوَالِيدِهِمُ الذُّكُورَ وَهُمْ فِي سَنِّ الرِّضَاعِ فِي بَعْضِ السَّنَوَاتِ دُونَ بَعْضٍ؛ لِثَلَا يَكْثُرَ رِجَالُ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَيَتْرَكَ الْمَوَالِيدَ الْإِنَاثِ أَحْيَاءَ؛ لِلاَّتِنْفَاعِ مِنْهُمْ بِالْخِدْمَةِ وَالتَّسْخِيرِ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ بِالْقَتْلِ وَالتَّجْبِيرِ وَالطُّغْيَانِ فِي الْأَرْضِ.

٥ - وَنَرِيدُ بِسُلْطَانِ رَبُّوبِيَّتِنَا أَنْ نُنْعِمَ بِنِعْمَتِنَا الْعُظْمَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفَهُمْ فِرْعَوْنُ فِي أَرْضِ «مِصْرَ»، فَخَرَجَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ ضَعْفٍ وَذَلٍّ وَاسْتِعْبَادٍ، وَنَجْعَلُهُمْ قَادَةً فِي الْخَيْرِ، هُدَاةً يُقْتَدَى بِهِمْ، وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ لِحَبْنَاتِ وَعْيُونِ وَمُلْكِ وَسُلْطَانِ فِي الْأَرْضِ بِهَيْبَةٍ مِثْلَ لَهُمْ.

الجزء العشر

سُورَةُ الْقَصَصِ

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَهُمْ مِنْ فَرَحٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾
وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ
الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلْ الْحَمْدُ
لِلَّهِ سَيَرِيكُمْ إِلَيْهِ فَنَعْرِفُنَّهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

سُورَةُ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
طَسَرَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ
مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ
طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَ هَمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾

٦ - ونريد بتنفيذ أقضيئنا تبعاً أن نُقدِّرهم على التصرف في أرض مصر والشام، ونُسَلِّطهم عليها يتصرفون فيها كيف شاؤوا، ونُريَ فرعون، ووزيره الأول هامانَ والمعِين الأكبر له على ارتكاب جرائمه، وجنودهما المؤازرين لهما من هذه الطائفة المستضعفة ما كانوا يخافونه من ذهاب مُلكهم، وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل، فأراهم الله ما كانوا يحذرونه.

٧ - وأعلمَ اللهُ أمَ موسى إعلاماً خفياً: أن استمرِّي في إرضاعه في الحَفَاء، بعيداً عن أعين الرقباء، فإذا خِفْتُ عليه أن يُعلم أمره، ويصل خبره إلى جنود السلطة الفرعونية، وأن يأتوا إليك ليذبحوه، فضعية في التابوت، وألقيه في نيل مصر، ولا تخافي عليه من العرق إذا ألقىته، فالله حافظه وحاميه، ولا تحزني على فراقه؛ إذ هو فراق في زمن قليل، إنا راؤو ولدك إليك، إذ تكونين أنت مرضعته وحاضنته، وإنا جاعلوه مستقبلاً حينما يكون أهلاً للاضطفاء بالنبوة والرسالة، نبياً من الأنبياء، ورسولاً من المرسلين.

٨ - فَوَضَعْتُهُ في صندوق وألقته في النيل، فَعَثَر عليه أعوان فرعون وأخذوه، ليتحقق ما قَدَّره الله بأن يكون موسى رسولاً مُعادياً لهم، ومثيراً لحزنهم بنقد دينهم، والطعن على ظلمهم؛ إن فرعون، ووزيره الأول هامان، وجنودهما كانوا مذبذبين آثمين مُشرفين في الطغيان والفساد عن عَمَد وإصرار، أتباعاً للأهواء والشهوات، ومصالح الحكم والسلطان.

٩ - وقالت امرأة فرعون حين رأت موسى لزوجها فرعون: هذا الطفل الذي التقطناه من اليم، مَبْعُثُ السُّرور لي ولك، لا تُصدر أوامرك لجندك بأن يقتلوه؛ رجاء أن ينفعنا إذا كَبُرَ وَنَمَّا في قصرنا، أو تنبأه، والحال أن فرعون وآله لا يدركون أقل إدراك بما قَدَّر الله في شأنه، بأن يكون هذا الصبي سبباً في هلاك فرعون، وتقويض

وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرى فرعونَ وَهَمَنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ قُودًا أُمِّ مُوسَى فَذَرِ الْآنَ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّىٰ قَلْبَهَا لَتَأْكُوتُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ لِأُخْتِي هَٰذَا قَصِيَّةٌ فَبَصَّرْتُ بِهَا عَنْ جُنبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

مملكته في مصر.

١٠ - وأصبح عُثْقُ قلب أم موسى بعد إلقاء وليدها في تابوته في النيل خفيفاً طائشاً، غير ذي وزن ثَقِيل يُثْبِتُهُ، وبخفته وطيشه صار مُوهلاً لأن يتأثر بالأم نفسها من أجل ولدها، فيُعطي توجيهه لإرادتها، فتُصدر أوامرها للسانها بأن ييُوح بما فعلت سراً، إنَّ الشَّانَ الخطير أن أم موسى، كادت لتُصرِّح بأنه ابنها من شدة وَجَلِّها، وعندئذ يفضح أمرها، ويشيع خبرها، لولا أن رَبَّنَا على قلبها بالعصمة والصبر والتثبُّت؛ لتكون بخصائصها النفسية من المؤمنين الصَّابرين الثابتين المتوكلين على الله من الرجال، الذين يضبطون بإراداتهم الحازمات تصرفاتهم على مُقتضى الحكمة، بخلاف النساء فإنَّ طبائعهنَّ تَغْلِبُهُنَّ فتدفعهنَّ الخفة إلى تصرفاتٍ لا تُحمد عُقباها.

١١ - وقالت أم موسى عليه السلام - بعد أن ألقته في النيل - لأختها: اتَّبِعِي أثر موسى، حتى تعرفي خبره؟ فَتَبَّعَتْ أثره، فعلمت به علماً صحيحاً مؤكداً حاله كونها مُتجاوزة مكاناً يفصل بينها وبين النيل بمقدارٍ هو في نظر الناس بعيد، لا يُعْتَبَرُ الموجود فيه مراقباً لما يحدث في النهر، وهم لا يشعرون أنها أخته، وأنها ترقبه.

١٢ - وحَرَّمْنَا على موسى المراضع تحريماً قدرتياً، فمنعناه أن يرضع ثَدْياً لمرضع، من قبل وصول أخته إلى مكان طلب مُرضع له؛ لردِّه إلى أمه، وكانت أخته تَتَّبَع أخباره، فلمَّا وصلت إلى حيث يُطلب له مرضع يُقْبَلُ ثديها، قالت للذين يبحثون له عن مرخصة تركضه وتكفله: هل أدلكم على أهل بيت يضمُّونه ويُرضعونه، ويقومون بتربيته وحضائته لأجلكم؟ وهم له ناصحون مخلصون، ليس في كفالتهم غش ولا خيانة، فأجابوها إلى ذلك.

جاءت أخت موسى عليه السلام بلفظ «بيت» نكرة، وقالت: «أهل بيت»، ولم تقل: مُرضعة، لتلاحظ مدى استجابتهم للعرض، ولتُبْعِد الشبهة عن أن تكون أمه في هذا البيت، خوفاً على أخيها وأمها، فلما استوثقت من تلُفهم، وصدق رغبتهم، وأنهم لم يشعروا بأنها ذات علاقة ما بالطفل، دلَّتْهم وأخذت بهم إلى أمها، فالتصم ثديها، وشرع يَرْضَعُ برغبة تامة.

١٣ - فأرجعنا الصبيَّ موسى إلى أمه؛ لتقوم بإرضاعه وكفالتها، كي تطيب نفسها وتفرح برِّد ولدها الرضيع إليها، ولتلا تحزن بسبب فراقه لها، ولتعلم أن وعد الله حقُّ برِّد إليها، وبجعله نبياً ورسولاً، ولكنَّ أكثر الناس جاهلون لا يعلمون هذه الحقيقة.

الْحَجَّةُ الْغَيْرِيَّةُ

سُورَةُ الْقَصَصِ

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
 فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَمِنَ الْغَفْلَةِ
 فَاسْتَفْتَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ
 فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ
 ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ
 الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ
 ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
 الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِآلَامِيسَ تَصْرِيحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ
 مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
 يَمُوسَىٰ أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِآلَامِيسَ إِنْ تَرِيدُ إِلَّا
 أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾
 وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمَلَأَ
 بِأَتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ ذَٰلِكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾
 فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

١٤ - ولما بلغ موسى النشأ في القصر الفرعوني نهاية قوته ونُضج الجسدي والفكري والنفسي، واستقام واعتدل، وكان في سلوكه وفي نشأته وشبابه، وفي اكتمال رجولته، من المحسنين، آتيناها فقها في الأمور، ومعرفة للحق والباطل، والخير والشر وحدودهما، يُصدر بها أحكامه العلمية والعملية والقضائية، وآتيناها معارف دينية وديوية، ومثل ذلك الإحسان الذي أحسنا به إلى موسى، نكافئ كل المحسنين على إحسانهم.

١٥ - ودخل موسى المدينة مُستخفياً وقت غفلة أهلها، عقب غروب الشمس، عند دخول أول الليل، فوجد فيها رجلين يتخاصمان ويتضاربان تضارباً يشبه التقاتل: هذا من بني إسرائيل من قوم موسى، وهذا من القبط قوم فرعون الذين يُسخرون الشعب الإسرائيلي ظلماً وعدواناً ويستعبدونهم، فسأله الإسرائيلي أن يخلصه من عدوه القبطي الظالم، وينصره عليه، فتدخل موسى ليصلح بينهما، فتناول عليه المصري مُعتزاً بعنصريته، فغضب موسى وضربه بيده مضمومة أصابعها في صدره، فسقط المصري في الأرض قتيلاً من قوة الدفع، وكان موسى شديد القوة البدنية، وكان المصري يُهاجم ويضارب، وندم موسى على تسرعه لما رأى المصري قتيلاً، ولم يكن قصده القتل. قال موسى: هذا من نزغ الشيطان؛ بأن هيّج غضبي، حتى ضربت هذا القبطي، فهلك؛ إن الشيطان عدو مُضِلٌّ بَيْنَ الضَّلَالَةِ.

١٦ - قال موسى داعياً ربّه: ربّ إني عملت عملاً منكراً من مثلي لم تأمرني به، ولم تأذن لي به، فظلمت نفسي بارتكابه، فاغفر لي فعلتي، فاستجاب الله دعاءه، فغفر له وستره فلم يفضح أمره؛ إن الله كثير المغفرة لذنوب عباده، يسترها لهم، ولا يُؤاخذهم عليها، عظيم الرحمة بهم، يمدّهم بعطائه ومعونته، ويسكن نفوسهم، ويطمئن قلوبهم.

١٧ - قال موسى مُتضرعاً: ربّ بالمغفرة والستر الذي أنعمت عليّ، فلم تكشف آتي أنا الذي قتلت المصري، فلن أكون مُعاوناً لأحد من المجرمين، ولو كان من قومي وشيعتي الإسرائيليين.

١٨ - فدخل موسى في أول النهار يسير في أسواق المدينة التي قتل فيها القبطي، حالة كونه خائفاً يترصد الأخبار بانتباه شديد، من جرائ قتلته القبطي، فقوى موسى بأن الإسرائيلي الذي طلب منه النصرة بالأمس على القبطي، يستغيث به من قبطي آخر بصوت مرتفع. قال موسى للإسرائيلي: إنك لضال بين الضلالة، ظاهر البعد عن جادة الحق، قاتلت رجلاً بالأمس فقتلته بسببك، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه. فأدرك شهود الحدّث في السوق أن موسى هو الذي استغاث به الإسرائيلي بالأمس، فنصره، فقتل خصمه المصري، وأخذ الناس يتهايمسون بهذا، ويشيعون الخبر، ووصل النبا إلى أسماع رجال الأمن، فنقلوه بسرعة إلى رؤسائهم.

١٩ - أخذت موسى الغيرة والرقة للإسرائيلي، فمدّ يده ليطش بالقبطي، فظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به لما رأى من غضب موسى. قال الإسرائيلي: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت القبطي بالأمس؟ ما تريد إلا أن تكون مُتعاضماً في أرض «مصر»، مُسلطاً بالقوة، وما تريد أن تكون من المصلحين بين الخصماء.

٢٠ - ولما فسأ أن موسى قتل القبطي، ووصل الخبر إلى رجال القصر الفرعوني، عقد وزراء القصر الفرعوني مجلس تشاور على وجه السرعة بشأن الحدث، واتجهت الآراء لإصدار الأمر بقتل موسى عقوبة له على قتله المصري، وسمع بذلك رجل مؤمن من آل فرعون، فجاء من آخر أطراف المدينة يُسرّع في مشيه، وأخبره وأنذره بما سمع. قال يا موسى: إن وجوه القوم وكبراءهم ووزراء فرعون ومجلس مُستشاريه يتشاورون في شأنك ليقتلوك، فخرج من هذه المدينة مُهاجراً، حتى لا يظفروا بك فيقتلوك، وأؤكد لك أنني من المشفقين عليك التّاصحين لك في الأمر بالخروج.

٢١ - فاستجاب موسى لنصح الرجل الصادق، فخرج من المدينة حالة كونه خائفاً على نفسه من آل فرعون، يلاحظ بانتباه شديد بسمعه وبصره ما يتعلّق بالحكم عليه بالقتل، وبالقبط عليه أينما وجد، وسأل ربّه داعياً مع أول شروعه في الخروج قائلاً: يا ربّ خلّصني من فرعون وجنوده الظالمين بكفرهم وأعمالهم الظالمة لعباد الله.

٢٢ - وَلَمَّا تَوَجَّهَ مُوسَى مُسْتَقْبِلًا بِلَادَ «مَدْيَنَ» فَارًّا مِنْ مِصْرَ وَجُنُودَ فِرْعَوْنَ، قَالَ: أَرْجُو مِنْ رَبِّي أَنْ يُحَقِّقَ لِي بِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ الطَّرِيقَ الْوَسْطَ الَّذِي فِيهِ النِّجَاةُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فِي مِصْرَ، فَأَخْرَجَ عَنْ حُدُودِ سُلْطَانِهِمْ إِلَى أَرْضِ «مَدْيَنَ»، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ إِلَيْهَا.

٢٣ - وَحِينَ أَشْرَفَ مُوسَى عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي فِيهَا مَاءُ آلِ مَدْيَنَ، وَكَانُوا يَسْقُونَ مِنْهَا مَوَاشِيَهُمْ، وَجَدَ عَلَى الْمَاءِ جَمَاعَةً كَثِيرَةً مِنَ النَّاسِ، يَسْتَخْرِجُونَ الْمَاءَ مِنَ الْبَيْتْرِ بِالذَّلَاءِ وَيَصُبُّونَهُ فِي أَجْرَانِ، لَتَشْرَبَ أَنْعَامُهُمْ وَدَوَابُّهُمْ، وَوَجَدَ مُوسَى مِنْ خَلْفِ الْجَمَاعَةِ امْرَأَتَيْنِ تُبْعَدَانِ أَغْنَامَهُمَا عَنِ الْمَاءِ حَتَّى يَفْرَغَ النَّاسُ، وَتَخْلُو لِهَمَا الْبَيْتْرُ. قَالَ مُوسَى لِلْمَرَأَتَيْنِ: مَا شَأْنُكُمَا لَا تَسْقِيَانِ مَوَاشِيَكُمَا مَعَ النَّاسِ؟! قَالَتَا: إِنَّا امْرَأَتَانِ لَا نَزَاحِمُ الرِّجَالَ أَدْبًا وَاسْتَحْيَاءً، فَإِذَا رَجَعَ الرُّعَاةُ عَنِ الْمَاءِ سَقَيْنَا مَوَاشِينَا مِنْ فَضْلِ مَا بَقِيَ مِنَ الْمَاءِ، وَالسَّبَبُ فِي قِيَامِنَا بِوُضُفَةِ سَقْيِ مَوَاشِيِ أَبِينَا، أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا إِخْوَةٌ ذَكَرُوا لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْوُضُفَةِ، وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْقِيَ مَوَاشِيَهُ.

٢٤ - فَلَمَّا سَمِعَ كَلَامَهُمَا رَقِيَ لِهَمَا وَرَحِمَهُمَا، وَسَقَى لِهَمَا الْغَنَمَ، وَبَعْدَ أَنْ سَاقَتِ الْمَرَأَتَانِ أَغْنَامَهُمَا، وَابْتَعَدَتَا فِي اتِّجَاهِ دَارِ أَبِيهِمَا، ابْتَعَدَ مُوسَى عَنْ مَكَانِ الْبَيْتْرِ، وَأَوَى إِلَى شَجَرَةٍ، فَجَلَسَ فِي ظِلِّهَا مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ، فَسَأَلَ رَبَّهُ قَائِلًا: رَبِّ إِنِّي لَمَّا سَبَقْتُ أَنْ أَنْزِلْتَ إِلَيَّ مِنَ النَّجَاةِ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَالْوَصُولِ إِلَى مَاءِ «مَدْيَنَ»، وَالِاسْتِظْلَالِ أَمْنًا فِي ظِلِّ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، مُفْتَقِرٌ إِلَى مَا تَسَوَّقُهُ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ وَرِزْقٍ تَفْضُلًا مِنْكَ وَإِنْعَامًا، وَمِنْ ذَلِكَ: تَزْوِيجِي بِزَوْجَةٍ صَالِحَةٍ عَفِيفَةٍ تَعْفُنِي وَتَكُونُ لِي سَكَنًا.

٢٥ - وَصَلَتِ الْمَرَأَتَانِ إِلَى أَبِيهِمَا، وَأَخْبَرَتَاهُ خَيْرَ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ الَّذِي سَقَى لِهَمَا، وَعَقِبَ دَعَاءِ مُوسَى رَبَّهُ مَبَاشَرَةً جَاءَتْ إِحْدَى

وَلَمَّا تَوَجَّهَ يَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخَ كَبِيرٍ ﴿٢٤﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٥﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرًا مَسْقِيَةً لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَفَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَحْوَتِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطُتُ اسْتَعِجْهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مِنَ اسْتَعِجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمْنِي حِجْجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٩﴾

الفتاتين اللتين سقى لهما تسيرُ إليه في حياءٍ، قالت: إِنَّ أَبِي، يطلب منك أَنْ تَأْتِيَ إِلَيْهِ؛ لِيُعْطِيكَ أَجْرَ سَقْيِكَ لَنَا، فَلَمَّا جَاءَ مُوسَى أَبَاهُمَا الشَّيْخَ الْكَبِيرَ، وَأَخْبَرَهُ بِأَمْرِهِ أَجْمَعُ، قَالَ الشَّيْخُ أَبُو الْمَرَأَتَيْنِ لِمُوسَى: لَا تَخَفْ مِنْ جُنُودِ السُّلْطَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ، فَنَحْنُ فِي «مَدْيَنَ» نَقَعُ خَارِجَ سُلْطَتِهِ وَنِظَامِ حُكْمِهِ، وَبِوَصُولِكَ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ نَجُوتُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الظَّالِمِينَ.

٢٦ - قَالَتْ إِحْدَى الْفَتَاتَيْنِ: يَا أَبَتِ اتَّخِذْهُ أَجِيرًا لِيرْعَى أَغْنَامَنَا، وَيَقُومَ عَلَى حِفْظِهَا، فَهُوَ قَوِيٌّ الْجِسْدِ، اسْتَخْرَجَ الْمَاءَ بِالذَّلَاءِ مِنَ الْبَيْتْرِ بِقُوَّةٍ وَهَمَّةٍ، عَلَى الرُّغْمِ مِنْ قُدُومِهِ إِلَى «مَدْيَنَ» مَاشِيًا عَلَى قَدَمَيْهِ مِنْ مِصْرَ، وَهُوَ أَمِينٌ، فَقَدْ اخْتَارَ أَنْ يَمْشِيَ أَمَانًا إِلَى مَسْكَنَتِنَا، حَتَّى لَا تَصِفَ الرِّيحُ جِسَدَنَا؛ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَعْمَلْتَ مَنْ قَوِيٍّ عَلَى الْعَمَلِ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ.

٢٧ - قَالَ الشَّيْخُ لِمُوسَى: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَزُوجَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ، عَلَى شَرْطِ أَنْ تَكُونَ أَجِيرًا لِي فِي رِعْيِ مَاشِيَتِي ثَمَانِي سَنِينَ، فَإِنْ أَتَمَمْتَ الْعَشْرَ سَنِينَ، فَذَلِكَ تَفْضُلُ مِنْكَ، وَتَبْرُعُ لِي بِوَأَجِبٍ عَلَيْكَ، وَمَا أُرِيدُ بِاسْتِجَارِي لَكَ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ فِي الْعَمَلِ، وَلَا أَحْمِلُكَ مِنَ التَّكْلِيفِ مَا بِهِ مَشَقَّةٌ عَلَيْكَ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الصَّالِحِينَ فِي حُسْنِ الْمَعَامَلَةِ، وَلِيْنِ الْجَانِبِ، وَالْوَفَاءِ بِمَا قُلْتُ.

وفي هذه الآية: اخْتِيارُ الزَّوْجِ الْكَفِيِّ، وَعَرْضُ الرَّجُلِ ابْنَتَهُ عَلَى الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَهَذَا دَأْبُ عِقْلَاءِ الرِّجَالِ، أَنْ يَخْتَارُوا هُمْ أَزْوَاجَهُمْ أَكْفَاءَ صَالِحِينَ لِبَنَاتِهِمْ، وَلَيْسَ فِي مِثْلِ هَذَا الطَّلَبِ وَإِبْدَاءِ الرِّغْبَةِ مَقْصَدَةٌ لَهُمْ، بَلْ فِيهَا مَرُوءَةٌ وَحُسْنُ تَدْبِيرٍ. وفي الآية أيضًا: أَنَّ الْمُسْتَأْجَرَ إِذَا شَرَطَ شَرْطًا فِي عَقْدِ الْاسْتِجَارَةِ لِلْقِيَامِ بِعَمَلٍ مَا، فَإِنْ خَالَفَ الْمُسْتَأْجِرَ، وَحُمِّلَ الْأَجِيرَ عَمَلًا فِيهِ مَشَقَّةٌ بِحَسَبِ مَعْتَادِ النَّاسِ، فَلِلْأَجِيرِ أَنْ لَا يَسْتَجِيبَ لِمَخَالَفَتِهِ لِلشَّرْطِ. وفي الآية: التَّعْلِيْقُ عَلَى مِثْلِيَّةِ اللَّهِ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَعْمَالِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ، وَهُوَ مِنْ مُقْتَضَى الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

٢٨ - قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ الَّذِي قُلْتَهُ وَعَاهَدْتَنِي عَلَيْهِ قَائِمٌ بَيْنَنَا جَمِيعًا، أَيُّ الْمُدَّتَيْنِ أَتَمَمْتُ وَفَرِغْتُ مِنْهُ، الثَّمَانِيَّةُ أَوْ الْعَشْرَةُ أَكُنْ قَدْ وَفَيْتُكَ، فَلَا ظَلَمَ عَلَيَّ بِأَنْ أَطَالِبَ بِأَكْثَرِ مِنْهُ، وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ حَافِظٌ يَرِاقِبُنَا، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَلَى مَا تَعَاهَدْنَا عَلَيْهِ.

٢٩ - رضي موسى عليه السلام بعرض شيخ «مدين»، وتزوج البنت التي اختارها من ابنتيه على الشرط الذي عرّضه عليه أبوها، فلما أتم موسى المدة عشر سنين، وهي أكمل المدينتين، وقام بالخدمة على الوجه المطلوب المرضي، واستأذن أبا زوجته أن يسافر إلى «مصر»، مستصحباً زوجته وولده، وأذن له، وأعد ما يلزم لهذا الرحيل، وسار مصاحباً أهله، متجهاً شطر مصر، حيث قومه بنو إسرائيل، أبصر من ناحية جبل الطور ناراً تتعالى السنة لهبها في الجو، وكان البرد شديداً، وكان الطريق السوي إلى مصر غير واضح. قال موسى لأهله: تمهلوا وانتظروا، إني أبصر ناراً، وإني ذاهب إلى المكان الذي هي فيه، أتوقع دون جزم أن آتيكم من أهلها بخبر عن الطريق الموصل إلى «مصر»، أو عود من الخشب في رأسه نار، لتوقدوا منها حطباً، رجاء أن تستدفئوا بناره.

٣٠ - فلما أتى موسى عليه السلام النار التي أبصرها، ناداه الله تعالى من جانب الوادي الذي عن يمين موسى في القطعة من الأرض المتميزة عما حولها، التي جعل الله عز وجل فيها الزيادة من الخير والنماء، من ناحية الشجرة: أن يا موسى، أؤكد لك ما أقول لك: أنا الله الذي تؤمن به، أنت وآباؤك المؤمنون الموحدون، وأنا خالق الكائنات كلها، والمتصرف فيها بحكمته دواماً، ويسلطان ربوبيته الشاملة لكل ما في الكون من حوادث وتصاريف.

٣١ - وأن ادفع عصاك من يدك إلى الأرض زمياً، فرماها، فلما رآها تتحرك بشدة واضطراب كأنها في سرعة حركتها وخفتها كالحيّة الصغيرة، انهزم مبتعداً، مُعطياً ظهره لجهة العصا التي انقلبت حية مخيفة تسعى، ولم يرجع من شدة خوفه على نفسه، فناداه ربه عند ذلك: يا موسى أقبل على النداء، وعُد إلى مكانك الذي قررت منه خوفاً من الحية، ولا تخف أن تؤذيكَ؛ إنك من الأمنين من كل مكروه بتأمين ربك لك.

٣٢ - أذخلك من يدك في فتحة قميصك، وأوصلها إلى إبطك، وأخرجها بعد ذلك، تخرج شديدة البياض متلاثة مضية من غير مرض ولا برص، واضمُم يدك اليسرى إلى جانب صدرك الأيسر، حيث قلبك، فيذهب ما نالك من أثر الخوف، فهاتان المعجزتان الخارقتان العجيبتان: قلب العصا حية مخيفة، وقلب اليد السمراء بيضاء تبرق كالبرق، حجتان بينتان من ربك إلى فرعون وأشراف قومه ووزرائه ومستشاريه، وحاشية قصره؛ إنهم كانوا زمناً طويلاً عاصين، وما زالوا قوماً خارجين عن طاعة الله، تاركين لأوامره.

٣٣ - قال موسى عليه السلام: رب إني قتلْتُ من قوم فرعون نفساً، قبل خروجي من مصر إلى «مدين»، فأخاف أن يقتلوني به عقاباً على قتلي له.

٣٤ - وأخي هارون هو أفصح مني بياناً، فأرسله معي عوناً وناصرًا يلخص الدلائل، ويجيب عن الشبهات، ويجادل الكفار، إني أخاف أن يكذبني فرعون وقومه.

٣٥ - قال الله تعالى لموسى عليه السلام: سنقويك بأخيك هارون ونعينك به، ونجعل لكما حجة وبرهاناً، وقوة غيبية معنوية تحجز فرعون وجنوده عن أن يصلوا إليكما بما فيه ضرر أو أذى لكما، فلا يصلون إليكما وصولاً بشيء يضركما أو يؤذيكما؛ بسبب ما نعطيكما من المعجزات وما نريهم من الآيات التي تخيفهم بها، فيحذرون أن يهلكوا إذا كادوكما كيداً يؤذي أحداً منكما. أنتما - يا موسى وهارون - ومن أتبعكما واهتدى بكما الغالبون المنتصرون على فرعون وقومه.

وقد حقق الله عز وجل هذا الوعد في نهاية مسيرتهما الدعوية، فأغرق فرعون وملاه وجنودهم في البحر، وكانوا عبرة لمن يعتبر.

فَلَمَّا فَصَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ كَذُوبَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا هَآئِلًا تَلْتَأَتًا جَاءَ وَلِي مُّدِيرًا وَلَمَّا يَعْثُبْ يَمْوِسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْشَىٰ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَلَذَكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾

٣٦ - فلما جاء موسى عليه السلام فرعونَ ورجال القصر الفرعوني، ومن دونهم من سائر المصريين بآياتنا التسع، حالة كونها واضحات الدلالة على أنها من الله رب العالمين، قالوا: ما هذا الذي جاء به موسى من آيات إلا ظواهر أعمال من أعمال السحرة، وأدعاؤه أنها آيات يُجريها رب العالمين له ادعاء مُفترى، وما سمعنا بهذا الذي تدعونا إليه فيمن سبقنا من آبائنا الأولين الذين كانوا على مثل ديننا. والآيات التسع التي سبق بيانها هي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وسنوات الجذب والقحط والثقص من الثمرات، وآية الرجز، وهو عذاب أنزله الله بفرعون وملته، كأمراض وأوجاع لا عهد لهم بمثلها.

٣٧ - وقال موسى لفرعون: ربّي أعلم من كلّ عليم بمن جاء بالهدى من عنده، وبمن هو كذابٌ يفترى عليه، وهو الذي يُجازي من أطاع هداه، ويعاقب من عصى وتمرد على طاعته، فليرتقب كل فريق منا عاقبة أمره في الدنيا، ثم في الآخرة يوم الدين، إنَّ الشأن العظيم الذي هو من سنن الله في عباده، أنَّ الظالمين المفترين على الله، لا يكون لهم فوزٌ ونجاة وظفرٌ في الدنيا، ولا في الآخرة.

٣٨ - وقال فرعونُ لوزرائه ومُستشاريه: يا أيُّها السادة الكبراء، ما علمت لكم من إلهٍ غيري يستحقُّ العبادة، فأخذ - يا وزيري هامان - وسائلك؛ ليقود العمال النار على اللبن من الطين، حتى يشتدَّ ويصير أجراً، وأمر البنائين بعد تهيئة الأجر اللازم أن يبنوا لي قصراً عالياً أصعد فيه، لأنظر في أجواء السماء العليا إلى إله موسى، وأقف على حاله، وإنّي لأظنُّ موسى من الكاذبين في زعمه أنَّ للخلق إلهاً غيري، وأنَّ الله أرسله.

٣٩ - وتعاضم فرعون وجنوده في أرض «مصر» تعاضماً شديداً، وامتنع عن الإيمان وقبول الحق، ولم يقبلوا أن يؤمنوا بالبعث،

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَبْتَغِي قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْدِسُنَّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِكَيْدِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُ إِلَى الْكَاثِرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

وظنوا ظناً توهمياً أنَّهم إلينا بعد مماتهم لا يرجعون للحساب، وفضل القضاء، وتحقيق الجزاء. ٤٠ - فجعلنا في نفس فرعون غيظاً يدفعه لاتباع موسى وقومه بني إسرائيل بجيش قوي لمقاتلتهم، واستدرجناهم حتى دخلوا ملاحقين الإسرائيليين من مكان الفلق في البحر الذي فلقه الله لهم، فلما اكتمل دخولهم جميعاً في الطريق الذي عبر منه موسى وهارون وقومهما، صمّمنا على فرعون وجنوده فلقتي البحر، فأغرقناهم أجمعين، فطرحناهم وأبعدناهم من الحياة، كما يطرح الشيء المحترق المكروه، فانظر نظراً تفكيرياً - أيها الصالح للنظر التفكري - كيف كان عاقبة فرعون وجنوده الظالمين ظلماً من ذرّة الكفر حين صاروا إلى الهلاك؟!

٤١ - وجعلنا - ضمن سنننا الكونية - فرعون وقومه قُدوة في الضلال والكفر، يتبعهم غيرهم فيه، فيكون عليهم وزرهم ووزر أتباعهم، يدعون من يستجيب لهم بإراداتهم الحرّة إلى الكفر والمعاصي التي يستحقّون بها عذاب النار يوم الدين، ويوم القيامة لا يجد الأئمة الكفرة، ولا من أتبعهم من ينصرهم، فيدفع عنهم عذاب الله، أو يرفع عنهم شيئاً منه.

٤٢ - وأتبعنا فرعون وجنوده بعد إهلاكهم بالإغراق في هذه الدنيا خزيّاً وبُعداً وعذاباً، بما هم فيه من عذاب نفسي وروحاني بعد الموت حتى البعث، ويوم القيامة هم أيضاً من المطرودين المُبْعَدِينَ عن رحمة الله.

٤٣ - ونقسم مؤكدين لكم أننا آتينا موسى كتاب التوراة، من بعدما أهلكنا الأمم السابقة المكذبة، كقوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وغيرهم ممن كانوا قبل موسى؛ حالة كون هذا الكتاب يتّصف بصفات ثلاث: **الصفة الأولى**: كونه بصائر للناس، يشتمل على علم وحجج وبراهين، يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، **والصفة الثانية**: كونه هدى، يشتمل على ما فيه هدايتهم وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم، **والصفة الثالثة**: كونه رحمة، يشتمل على ما فيه رحمة لهم، بما فيه من دلالة على الحق والخير والضراط المستقيم، رغبة في أن يضع الناس الذين أنزلت عليهم التوراة لهدايتهم ما اشتملت عليه في ذاكرتهم، فيتذكروا منها ما يهديهم إلى ما هو خير لهم في عاجل أمرهم وأجله، فتكون دافعاً لهم إلى العمل بما جاء فيها من أوامر، أو نواهي، أو وصايا.

٤٤ - وما كنت - يا رسول الله - موجوداً بجانب المكان الغربي في الوادي المقدس «طوى» وقت إنهابنا إلى موسى أمر مكالمته، وإيتائه آتبي العصا واليد، وتكليفه أن يذهب بالرسالة إلى فرعون وملئيه، وما كنت من الحاضرين حتى تشاهد ما جرى من مناجاة بين موسى وربّه، فتذكره من ذات نفسك، وتحدث به قومك.

٤٥ - والسبب في إعادة إرسال الرسل برسالاتٍ من لدنا: أننا أنشأنا بعد موسى عليه السلام أمماً افترنوا معاً في زمن واحد، بعد موسى عليه السلام، فطالت عليهم المدة، فتنسوا عهد الله، وتركوا أمره، فافتضى هذا الواقع إرسال رسلٍ لاحقين لرسل سابقين، وكنت أنت آخرهم وخاتمهم، وما كنت - يا رسول الله - مقيماً في أهل «مدين» وقت تلاوتك على أهل مكة قصة موسى أيام وجوده فيها، حتى تنقلها إليهم بطريق المشاهدة، ولكنا أرسلناك رسولاً، وأنزلنا إليك كتاباً، فيه هذه الأخبار؛ لتتلوها عليهم، ولولا ذلك لما علمتها أنت، ولم تخبرهم بها.

٤٦ - وما كنت - يا رسول الله - بناحية جبل الطور، حين نادينا موسى ليلة المناجاة، واضطفينا له لرسالتنا، ولم تشهد شيئاً من ذلك فتعلمه، ولكن جعلناك نبياً رسولاً، ونزلنا عليك القرآن لتبلغه للناس رحمة من ربك بهم، لتتذّر قوماً الإنذار الذي سبق أن أتاهم من قبلك، وتبلغهم إياه رسل من قبلك؛ رغبة في أن يضعوا ما نزل عليك من قرآن في ذاكرتهم، فيكون دافعاً لهم إلى العمل بما جاء فيه من أوامر ونواهي أو وصايا.

٤٧ - ولولا أن تصيب الكفار عقوبةً ونقمةً؛ بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والمعاصي، فيقولوا عند العذاب: ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولاً، يتلو علينا آياتك، ويبلغنا مطلوبك منا، فتتبع آياتك، وتكون

من المؤمنين بك. فلولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلتناهم بالعقوبة قبل أن نرسل إليهم رسولنا محمداً، وقبل أن ننزل عليه القرآن، لأن ما هم فيه من كفر وفجور، وهم يعلمون الحق والباطل، والخير والشر، ويعلمون أن الله قد أرسل رسلاً، بلغوا وأنذروا، كافٍ بمقتضى الحق والعدل لأن نعاقبهم. وقطعاً لأعذارهم لم نعاقبهم على كفرهم وفجورهم، قبل إرسال رسول لهم، يتلو عليهم آياتنا، ويبلغهم أوامرنا ونواهيها.

٤٨ - فلما جاءهم رسول الله ﷺ بالحق الثابت من عند الله، وتلا عليهم ما أنزلنا عليه من كتابنا، قال كفار مكة: هلاً أوتي محمد من الآيات الخوارق مثل ما أوتي موسى من قبل من الآيات، كالعصا التي تنقلب خيئة تسعى، واليد التي تنقلب بيضاء مضيئة متألئة؟ كيف يطالبون بأن يؤتى محمد مثل ما أوتي موسى من قبل، وهم يكفرون بما أوتي موسى من التوراة، ويكفرون بالآيات التي آتاه الله إياها مصدقة أنه رسول رب العالمين، وقال كفار مكة: إن ما جاء به موسى ومحمد سحر، فهما سحران تعاون، يقوي كل واحد منهما الآخر، على إثبات قضية واحدة، وهي: توحيد الله، ونفي الشركاء، وإثبات يوم الدين، وقالوا مُعلنين كفرهم ومؤكدين قولهم: إنا بكل ما جاء به موسى، وما جاء به محمد كافرون، لا نؤمن بالتوراة والقرآن، ولا نؤمن أنهم نبيان.

٤٩ - قل - يا رسول الله - لمشركي مكة الذين يزعمون أن موسى افترى التوراة من عنده على ربه، وأنت افترت القرآن من عندك على ربك: فائتوا بكتاب من عند الله هو أكثر هداية من التوراة والقرآن أتبعه، إن كنتم صادقين في زعمكم أنهما سحران مُفتريان على الله.

٥٠ - فإن لم يطبعوك، ويحققوا ما طلبته منهم، من الإتيان بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن، فاعلم أن ما ركبوه من الكفر لا حجة لهم فيه، وإنما آثروا اتباع ما هم عليه من الهوى وما تميل إليه نفوسهم من العصيان والكفر والفجور، ولا يوجد أحد أكثر ضلالاً من الذي اتبع هواه بغير هدى من الله؛ لأن من يلتزم بهدى الله يتعلق هواه بمراضيه ومحابه، فيكون هواه تبعاً لما يحب الله ويرضى؛ إن الله لا يحكم بالهداية لهؤلاء القوم الظالمين، ما داموا على كفرهم وطغيانهم وجحودهم للحق.

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفَرٍ مِّن قَبْلُ فَاتُوا يُكَلِّبُكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ إِلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمِنْ أَصْلٍ مِّمَّنْ أَتَعَٰهُ هَوْنَهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾

٥١ - ونؤكد تأكيداً شديداً أننا جعلنا القول الذي يشتمل على مطلوبنا من عبادنا في رحلة امتحانهم، يصل إلى مراكز وعيهم وصولاً تاماً، رغبة منا أن يتذكروا من معاني القول الذي وصلناه لهم تذكراً مؤثراً فيهم إيماناً وإسلاماً؛ لينجوا من عذاب الجحيم، وليظفروا بجنت النعيم.

٥٢ - الذين آتيناهم الكتاب من قبل القرآن الذي ينزل على محمد ﷺ من مؤمني أهل الكتاب، هم بمحمد ﷺ وبالقرآن يؤمنون. والمراد بهم من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، والنجاشي، وكل من هو مُستعدٌ لأن يؤمن ويُسلم مستقبلاً.

٥٣ - وإذا يُتلى عليهم القرآن قالوا: آمناً به، إنه الحق من عند ربنا، إننا كنا من قبل تنزل القرآن مؤمنين برّبنا ومسلمين له إسلاماً تاماً، ومُصدقين بمحمد ﷺ أنه نبي حق.

٥٤ - أولئك الفضلاء رفيعو المنزلة الذين آمنوا بالقرآن، وبما أنزل من قبله، يُؤثرون ثواب عملهم مرّتين: على إيمانهم بالكتاب الأول، والكتاب الآخر، بسبب تحليلهم بأربع صفات: **الصفة الأولى:** صبرهم على دينهم، وعلى أذى أهل ملّتهم الذين فارقوهم، **والصفة الثانية:** يتخذون الحسنة التي يفعلونها، دريئةً تصطدم بها السيئة التي تُوجه لهم، فيدفعون بذلك الأذى والضّر عن أنفسهم، **والصفة الثالثة:** أنهم ينفقون في سبيل الخير من بعض الذي رزقناهم طيبةً بها نفوسهم ابتغاء مرضاتنا.

٥٥ - **والصفة الرابعة:** إذا سمعوا الطعن في الدين، والاستهزاء بالمؤمنين، والقول القبيح من الجاهلين، أعرضوا عنه تكريماً وتنزهاً، وقالوا لأصحاب اللغو: لنا أعمالنا، ونُحاسب عليها، ولكم أعمالكم، ونُحاسبون عليها، أمانٌ منا عليكم، ومفارقة لكم ولما أنتم عليه من لغو تعصون به ربكم، وتظلمون به عبادة المؤمنين، لا نريد مشاركة الجاهلين السفهاء في جهلهم وسفاههم.

٥٦ - إنك - يا رسول الله - لا تستطيع أن تحكم بالهداية لمن تُحب، لأن الحكم بالهداية أو الضلالة هو لله وحده، وهو سبحانه يحكم بمشيئته المطلقة، ولكن صفة مشيئته المطلقة لا تُفارق صفة حكمته، وهو أعلم بالمهتدين هداية حقيقية في باطن ما في نفوسهم وقلوبهم، فهو يحكم بالهداية لمن يعلم من نفسه وقلبه أنه مهتد، ويحكم بالضلالة على مَنْ يعلم من نفسه وقلبه أنه ضال.

٥٧ - وقال كبار مشركي قريش للرسول ﷺ معتردين عن الدخول في الإسلام، مُتعللين بالتخوف من نقمة من حولهم من المشركين: إن نُتبّع الحق الذي جئنا به، نُنتزع بسرعة من أرضنا من قبائل العرب بالقتل والأسر ونهب الأموال؛ إذ نُخالف عقائدهم، ولهم في مكة نُسك، ولهم بالأوثان حول الكعبة ارتباط عابدٍ بمعبود، ولا قِبَلٌ لنا بمواجهتهم إذا اجتمعوا على قتالنا؛ أولم نجعل لهم حَرماً آمناً يأمنون فيه - وهم كفرة - على أنفسهم وأموالهم، ونُقدرهم على التصرف الموصول إلى تحقيق مطلوبهم، ويُجلب إلى الحرم ويُحمل إليه ثمراتُ أشياء كثيرة، رزقاً نسوقه إليهم من عندنا، فكيف يستقيم أن يسلبهم الله الأمن ويُعرضهم للخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت الإيمان بمحمد ﷺ؟ ولكن أكثر المشركين لا يعلمون قدر هذه النعم عليهم، فيشكروا مَنْ أنعم عليهم بها ويطيعوه.

٥٨ - وعدداً كثيراً أهلكننا من أهل المَجْمَعَات السَكْنِيَّة إهلاكاً جماعياً شاملاً، أخذهم المرحُ والزهو والكِبَر، فاستخفوا نعم الله عليهم، فتلك مساكنهم خالية لم تُسكن من بعدهم، لم يسكنها إلا المسافرون زمناً قليلاً، ولم يخلّفهم أحدٌ بعد هلاكهم، وكنا نحن لا غَيرنا الوارثين لما ملكتنا عبادنا، ومكناهم التصرف فيه، فانتزعاهم منهم بإهلاكهم، وصار أمرهم إلى الله؛ لأنّه الباقي بعد فناء الخلق. فليعلم كفار مكة الذين يستمسكون بكفرهم خوفاً من أن يتخطفهم الناس، أنهم يُعرضون أنفسهم لعقاب مُعجل من ربهم، وإهلاك جماعي شامل، نظير الذي أنزله بأهل القرى من قبلهم؛ بسبب كفرهم، وكبرهم، وفجورهم.

٥٩ - وليس من سنة ربك - يا رسول الله - أن يُهلك أهل المَجْمَعَات السَكْنِيَّة الكافرة إهلاكاً جماعياً شاملاً، حتى يبعث في عاصمتها التي هي المركز الرئيسي لها رسولاً يتلو عليهم آيات الله المُنزلات، إلزاماً للحُجَّة وقطعاً للمعذرة، وليس من سُنتنا أن نُهلك المَجْمَعَات السَكْنِيَّة إهلاكاً جماعياً شاملاً، في حالٍ من الأحوال، إلا في حالة كون أهلها ظالمين ظلاماً من ذرّة الكفر العنادي، وما يلزم عنه من بغي وفجور وعدوان وفساد.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ يَوْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ أُنزِلَ عَلَيْهِمْ
قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ
السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ
لَا نَبْنِئُ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن
تُبْعِ الْهَدَىٰ مَعَكَ نُخَطِّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ
حَرَمًا آمِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ
بَطَرْتَ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنَهُمْ لَمَنْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا
كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

٦٠ - وما أعطيتم - أيها الناس - من شيء من أعراض الدنيا وزينتها، فهو متاع قليل تتمتعون به أيام حياتكم، ثم هو إلى فناء وانقضاء، وما عند الله مما أذخره لأهل الإيمان والتقوى في جنات النعيم خير وأبقى؛ لأن منافع الآخرة خالصة عن الشوائب والمنغصات، وهي دائمة متجددة غير منقطعة. انظمت بصائرهم فلا تعقلون الفرق بين الفاني المختلط بالمكدرات، وبين النعيم الخالد الخالص المصفى من كل الأكدار؟!

٦١ - آممن وعدناه وعداً حسناً بالجنة، لأنه صدق وعد الله الحسن بجنات النعيم يوم الدين، فأمن وأسلم، فهو مستقبله وصائر إليه، كمن متعنه متاع الحياة الدنيا، فاغتر بما يناله فيها، ولم يصدق وعد الله، ثم مات على كفره، ثم هو يوم القيامة من المسوقين قهراً حتى يحضروا عند ربهم، لمحاسبتهم، وفصل القضاء بشأنهم، ومجازاتهم على كفرهم في نار جهنم.

٦٢ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لبائنا - يوم ينادي الله عز وجل هؤلاء المشركين، فيقول لهم: أين شركائي، الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي، فتعبدونهم من دوني؟

٦٣ - قال رؤوس الضلالة الذين وجب عليهم العذاب لكفرهم وإغوائهم من استجاب لهم: ربنا هؤلاء الاتباع الذين دعوناهم إلى الغي، أضللناهم بطريق الوسوسة والتسويل، لا بالإكراه والإلجاء، فضلوا باختيارهم كما ضللنا باختيارنا، فنحن وهم في ذلك سواء، تبرأنا إليك منهم اليوم، ومما اختاروه في الدنيا من الكفر، لم يعبدونا نحن، بل عبدوا أهواءهم، وأطاعوا شهواتهم.

٦٤ - وقيل للكفار يوم القيامة: ادعوا الذين اتخذتموهم شركاء الله، فعبدتموهم من دونه؛ ليخلصوكم اليوم من العذاب، فصار كل

مشرك ينادي معبوده، فلم يستجيبوا لنداءات عابديهم، وحكم الله عليهم بالخلود في عذاب النار بحسب دركات كفرهم، ورأوا بأبصارهم دار العذاب، ومنازلهم فيها، والمصير الذي هم إليه صاثرون، فيتمنون قائلين: ليتنا كنا في الحياة الدنيا نهتدي، استجابة لما كان الدعاة يدعوننا إليه أنا قاتنا، فتنجوا من هذا العذاب، ونظفر بجنات النعيم.

٦٥ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي - يوم ينادي الله المشركين في موقف الحساب، وفصل القضاء، فيقول لهم: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين؟

٦٦ - فحفيث واشتبهت عليهم الأخبار والأعذار والحجج، فلم يكن لهم عذر ولا حجة، فهم لا يسأل بعضهم بعضاً في تشاور عن جواب يجيبون ربهم به، لظهور الحيرة والذل والانكسار على وجوههم.

٦٧ - فأما من رجع إلى ربه طالباً غفرانه وعفوه مما كان فيه من كفر، وآمن إيماناً صحيحاً، وعمل عملاً صالحاً يعبر فيه عن صدق إيمانه، فحسب أن يكون من السعداء الناجين. فينبغي على العبد أن يكون على رجاء مع خوف التوبة والإيمان والعمل الصالح، وأن يستمر حاله كذلك، ليتحقق وعد الله، وهو وعد حق مقطوع به، إذا حقق الشروط التي رتب عليها الوعد.

٦٨ - وربك - أيها العبد الصالح للخطاب - المالك المطلق، يخلق ما يشاء خلقه، ويصطفي من يشاء اصطفاؤه، فيصطفي من يخلقه شفعاء ويختارهم للشفاعة، ويفضل بعض مخلوقاته على بعض بما يشاء، ما استقام لهؤلاء المشركين أن يصطفوا ما شاؤوا، ويفضلوا بعض مخلوقاتيه على بعض، فيجعلوا منها شفعاء وشركاء لله! فليس لهم إلا اتباع اصطفاؤه سبحانه، وهو سبحانه لم يظطف شركاءهم الذين اضطفؤهم للعبادة والشفاعة على الوجه الذي اضطفؤهم عليه، تنزه الله وتعالى عن شركهم.

٦٩ - وربك - أيها الصالح للخطاب - يعلم ما تخفي صدورهم من العقائد والنيات، وما يظهرون من أقوال وأعمال. وسيكون حسابهم يوم الدين على ما يكسبونه بإراداتهم الحرة من عمل باطن تستره صدورهم، وعمل ظاهر بجوارحهم.

٧٠ - وهو الله الذي لا معبود بحق إلا هو، المستحق وحده للحمد من عباده، يحمده أولياؤه في الدنيا، ويحمدونه في الآخرة في الجنة، وله وحده فضل القضاء بين العباد يوم الدين، لا يشاركه فيه نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وإليه سبحانه وحده تروdon بالبعث بعد مماتكم للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ آمَنَ وَعَدْنَاهُ وَعَدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْهِ كَمَنْ مَّتَّعْنَاهُ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ ﴿٦٢﴾ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِئَاةٌ يَّعْبُدُونَ ﴿٦٤﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٥﴾ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسْبُكَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٠﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِصْمُ الْأَوَّلِيُّ وَالْآخِرُ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧١﴾

٧١ - قل - يا رسول الله ويا كُلَّ داعٍ إلى الله من أمته -: أرايتم - أيها الناس - رؤية فكرية هادية إلى الحق في ظاهرتي الليل والنهار، اللتين تفضل الرب الخالق بهما عليكم رحمة بكم، لو أنه - سبحانه - لم يجعل هذا النظام القائم بين الأرض والشمس، إذ تدور الأرض حول نفسها باتجاه الشمس في نظام دقيق جداً، بل جعل الأرض مظلمة دوماً، لا تشرق عليها شمس، يجعل فيها نهاراً، بل كان الليل دائماً لا ينقطع إلى يوم القيامة، مَنْ إله غير الله يأتيكم بنهار تُحققون فيه مصالح حياتكم؟! أين آذانكم التي تسمع بيانات الحق، وتنقلها إلى أجهزة التفكير فيكم حتى تعقلوها، أصمّت فلا تسمعون سماع تدبّر واعتبار؟

٧٢ - قل - يا رسول الله - لهم: أرايتم رؤية فكرية هادية إلى الحق، إن جعل عليكم النهار دائماً إلى يوم القيامة لا لئيل فيه، مَنْ إله غير الله يأتيكم بليل تستريحون فيه من عمل النهار؟ أين أبصاركم التي تبصر آيات الله المشهودة في كونه، وتنقلها إلى أجهزة التفكير فيكم، فتستنبطون أنه لا رب في الكون إلا الله، أعميت أعينكم فأنتم لا تبصرون؟!

٧٣ - ومن آثار رحمة الله بكم - أيها الناس -: أن جعل لكم الليل والنهار يتعاقبان بالظلمة والضياء؛ لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من رزق الله ومطالب حياتكم بالنهار، ونرغب في أن تشكروا؛ لنمنحكم سعادة الدنيا والآخرة.

٧٤ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لبائنا - يوم يُنادي الله هؤلاء المشركين، فيقول لهم مُقرَّعاً ومُوبِخاً: أين شركائي الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي؟

٧٥ - وأخرجنا وجذبنا بسرعة من كل جماعة رسولهم، يشهد عليهم بأنه بلغهم رسالة ربهم، ونصح لهم، فقلنا للأمم المكذبة لرسولهم:

هاثوا حُجَّتكم بأن معي شريكاً، فعلموا أن الحق كله لله، وليس لهم شيء من الحق، وبحثوا عن شركائهم لينصروهم، أو ليشفعوا لهم عند ربهم، فلم يجدوا لهم أثراً، إذ كانوا أوهاماً وأسماء سموها لا حقيقة لها، وذُهب عنهم ما كانوا يَخْتلقونه من الكذب على الله في الدنيا.

٧٦ - إن قارون كان من بني إسرائيل قوم موسى - عليه السلام - فظلم قومه الإسرائيليين، وتجاوزَ حدَّه عليهم في الظلم والكبر والتجبر والفساد في الأرض؛ إذ جعل نفسه خادماً لمصالح فرعون وآله، في إذلال بني إسرائيل واستعبادهم، وأعطيناهُ من كنوز الأموال شيئاً عظيماً، اكنزها في مباني حصينة، ذات أبواب تُقفل بإحكام، فلا تفتح إلا بمفاتيح خاصة بها، حتى إن مفاتيح خزانته ليشقل حملها على الجماعة الأقوياء من الرجال، فإذا حملوها مالت ظهورهم من ثقلها عجزاً عن النهوض بها قائمين، وحين اغترَّ بنعمة الله عليه وكفر بها، نصحه عقلاء قومه مُوجهين له أربع نصائح: النصيحة الأولى: لا تبظر بكثرة مالك، وتستكبر وتتعالى به على الناس، ولا يفتنك الفرح به عن شكر الله؛ إن الله لا يحب البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، فكن على حذر من نقمة الله عليك وعقابه، فَمَنْ جعل نفسه بإرادته في زمرة من لا يحبهم الله، فقد جعلها عُرضةً لنقمته وعذابه الشديد.

٧٧ - النصيحة الثانية: واطلب في تصرفك فيما أعطاك الله من الأموال الكثيرة، قاصداً ثواب ربك الذي لا يَنقُذ في الجنة، بأن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك، وتنفقه في رضاه، ولا تفهم أننا ننصحك، أن تجعل كل ما آتاك الله مَوْجِهاً لتحقيق ثواب الآخرة في جنات النعيم، بل نقول لك أيضاً: لا تترك حظك من الطيبات التي أحلها الله لك، النصيحة الثالثة: وأحسن إلى فقراء قومك ومساكينهم وذوي الضرورات والحاجات فيهم، بمالٍ أو قولٍ أو عمل كما أحسن الله إليك بنعمته، النصيحة الرابعة: ولا تطلب وسائل الفساد في الأرض من ظلم الإسرائيليين والغدوان عليهم في أموالهم، وإذلالهم وتسخيرهم بالإكراه، ونشر الفاحشة، وطرح الشبهات، وتربية النفوس على الحقد والحسد والكيد، وإفساد القيم في الأخلاق والمعاملات والآداب؛ إن الله لا يحب المفسدين. فكن على حذر شديد من نقمة الله عليك وعقابه، فمن جعل نفسه بإرادته في زمرة الذين لا يحبهم، فقد جعلها عُرضةً لنقمته وعذابه الشديد.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ إِنْ قَرُّونَ كَانَتْ مِنْ قُوَّةٍ مَوْسَى فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ وَعَاقِلْنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنْ مَفَاحِشُهُ وَلَنُؤَايَا الْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

٧٨ - ردَّ قارون على الناصحين له من قومه: لم أملك ما ملكته من أموال، ولم أصل إلى ما وصلت إليه من مراتب الرفعة والعزة والعلو في الأرض، بعبء أعطانيه الله إحساناً، بل أوتيته بناءً على علمي بأسباب اكتساب الأموال وجمعها، وأسباب اكتساب المجد ومراتب الرفعة والعزة!! أجهل هذا المغرور بذكائه وعلمه بالأسباب، ولم يعتبر بمن أهلكهم الله من قبله من كفار القرون السابقة، وقد كانوا أشد منه قوة، وأكثر جمعاً للأموال؟ فليعد نفسه لمصير يكون فيه هالكا معذباً جزاء له على جحوده وبغيه واستكباره وعدوانه على قومه. وحين يقضي الله عز وجل بإهلاك المجرمين في الحياة الدنيا، فإنه يهلكهم وينهي وجودهم فيها، دون أن يسألهم ويحاسبهم، إذ السؤال والحساب وقُضِلَ القضاء إنما يكون يوم الدين، قبل تنفيذ الجزاء. أما الإهلاك في الحياة الدنيا، فالغرض منه: إيقاف شرورهم، وتطهير المجتمع البشري من وبائهم.

٧٩ - فخرج قارون على قومه في مظاهر الغنى الفاحش، والترف الزائد؛ ليظهر تميزه على سائر قومه الإسرائيليين، وليزِدَ على ناصحيه بحركة عملية في مشهد ينهر به جمهور قومه. فلما مر في أحياء قومه وطرقات مساكنهم أدهش عامة قومه، وسوَّاهم الأعظم، قال الذين غرَّتهم مظاهر الحياة الدنيا وزيناتها، وتعلقت بها نفوسهم، وسيطرت على مشاعرهم وتصوراتهم: يا ليت لنا مثل ما أَعْطَى قارون من المال والزينة والجاه؛ إن قارون لذو حظ عظيم من الدنيا.

٨٠ - وقال الذين أوتوا العلم الحق، والبصيرة الواعية، للذين فتنوا بالاستعراض الضخم الذي صنعه قارون، وتمنوا مثل ما أوتي من مظاهر الحياة الدنيا وزينتها: احذروا هلاككم وعذابكم، ممَّا فتنتم به، إذ تمئتم أن يكون لكم مثل ما أوتي قارون، ما عند الله من الثواب العظيم مُعَدَّ لِمَنْ آمَنَ بما أوجب الله على عباده أن يؤمنوا به، إيماناً صحيحاً صادقاً، وعبر عن صحة إيمانه بالعمل الصالح، ولا ينال هذه الصفة المؤهلة لثواب العظيم إلا الصَّابرون على طاعة الله، وعن زينة الحياة الدنيا.

٨١ - فأتبعنا استعراضه الكيدي التضليلي، بما يمحو آثاره من نفوس الجمهور الأعظم من الإسرائيليين محواً كلياً، فحَسَفْنَا بقارون وبداره الأرض، فابتلعتهم هو وداره بما فيها من أموال وزينة، فلم توجد له من جماعة ذات قوة وبأس يمنعون عنه ما نزل به من عذاب الله، وما استطاع هو أن يدفع عن نفسه ما نزل به، لقد غيَّبه الأرض، وغَيَّبَ داره وكنوزه في باطنها.

٨٢ - ودخل في صباح ليلة الحَسَفِ بقارون، المفتونون من جمهور بني إسرائيل الذين تمنوا باليوم الذي كان قبل ليلة الحَسَفِ، ما رَزَقَهُ الله من الأموال والزينة، يقول بعضهم لبعض متوجعين ومتحسرين: اسمع - أيها المخاطب - تعجبي من نفسي، كيف كنت جاهلاً عن حقيقة أنَّ الله يُوسِّعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ من عباده، ويضيق الرِّزْقَ على مَنْ يَشَاءُ من عباده، لحكم يعلمها، وليس بسط الرِّزْقِ تكريماً، ولا تضيقه إهانة، وإنما هو امتحان وابتلاء، لولا أنَّ أنعم الله علينا النعمة العظمى بالإيمان، وأبعدنا عن بسط الرِّزْقِ المُطغني والمُوصل إلى ما وصل إليه قارون، لَحَسَفَ بنا الأرض كما فعل بقارون. اسمع - أيها المخاطب - تعجبي من نفسي، كيف كنت جاهلاً عن حقيقة أنَّ الشأن العظيم من مقادير الله في كونه، وسُنَّته في عباده، عدُّ ظفر الكافرين الذين يجحدون نِعَمَ الله عليهم، ولا يؤمنون بما أُوجِبَ عليهم أن يؤمنوا به.

٨٣ - تلك الجنة البعيدة المكان والمكانة، والمرتفعة المنزلة، نجعل نعيمها مستقبلاً للذين لا يريدون استكباراً عن الإيمان، واستطالة على الناس، لتحقيق حظوظ أنفسهم من الدنيا، ولا الذين يدعون إلى عبادة غير الله، وينشرون الفاحشة، ويطرحون الشبهات، ويفسدون الأخلاق والقيم والآداب. والعاقبة الحسنة المحمودة في جنات النعيم لِمَنْ اتَّقَى عقاب الله بأداء أوامره، واجتناب نواهيه.

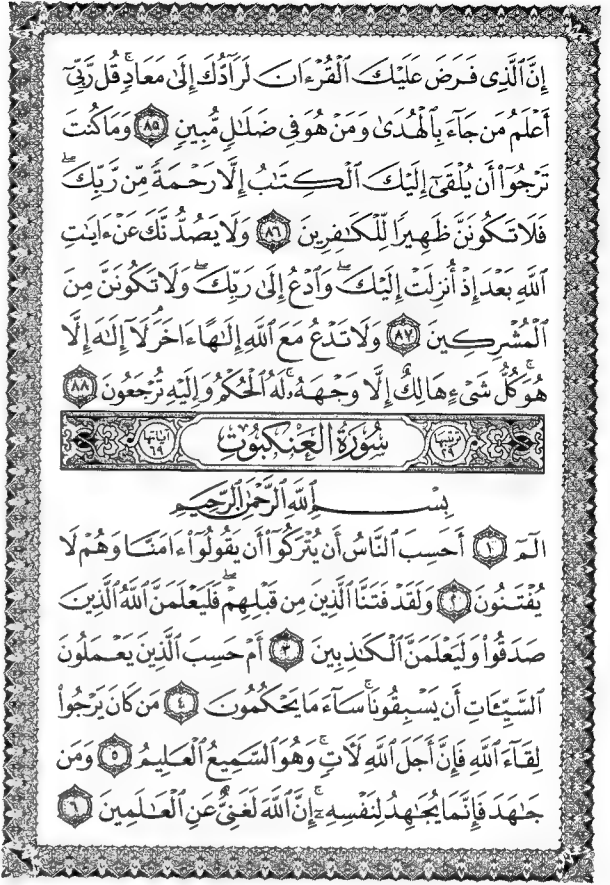
٨٤ - مَنْ أتى ربَّه يوم القيامة بالحسنة المقبولة عنده تعالى، مُسَجَّلةً في كتاب أعماله، مما كسبه الإنسان بإرادته الحرة ابتغاء مرضاة ربِّه، من حركة نفسية، أو فكرية، أو جسدية، فَلَهُ عند ربِّه ثوابٌ مُضاعَفٌ بسببها، وَمَنْ جَاءَ بالأعمال السيئة، فلا يُجزى الذين عملوا السيئات على أعمالهم إلا جزاء مطابقاً لما كانوا يعملون من سوء في الدنيا، فلا يزداد أحدٌ منهم على ذلك.

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ ﴿٨٠﴾ فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاهُ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

٨٥ - إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْكَ - يا رسول الله - تبليغ القرآن، ففقت بما فرض الله عليك من التبليغ، فكان قيامك بهذا الواجب سبباً في إخراجك من مكة إلى المدينة، لَمْزَجُكَ مُسْتَقْبَلاً إلى بلدك مكة المكرمة على رُغْمِ أنوف الذين أخرجوك من مكة مهاجراً إلى المدينة. قل - يا رسول الله - للمتعجلين الذين لا يعلمون سُنَنَ الله في المجتمع البشري: ربي أعلم من كل ذي علم مَنْ جاء بالهدى من الله، وبلغه للناس، فعاداه المُضِلُّون، ويعلم مَنْ هو في ضلال مبين، وهو بحكمته لا بد أن يَنْصُرَ في آخر مراحل الصُّراع مَنْ جاء بالهدى على مَنْ هو في ذهاب واضح عن الحق.

٨٦ - وما كنت - يا رسول الله - تتوقع أن يُوحى إليك القرآن، لكن الله رحمك فاضطفاك نبياً رسولاً، ونزل عليك آيات كتابه لئُبْلَغَها للناس، فلا تتأثر بما يُرَدِّدُه الجاهلون وقصيرو النظر الذين يتوهَّمون أنَّ رَبَّكَ تَخَلَّى عن نصرتك، إذ مَكَّنْ أئمة الشرك في مكة من إيدائك واضطهاد الذين آمنوا بك، إِنَّكَ إِذَا تَأَثَّرْتَ بما ينشره المُضِلُّون، فَضَعُفَ يَقِينُكَ بأنَّ رَبَّكَ سينصرك في نهاية مراحل الصُّراع مع الكافرين، فإنك بذلك تكون بهذا التأثير ظهيراً مُعِيناً للكافرين على نفسك.

٨٧ - ولا يَصْرِفُكَ الكافرون عن تبليغ آيات الله والعمل بها، بعد وقت إنزالها إليك، واذع إلى الإيمان برَبِّكَ وأتباع دينه، ولا تكونن من المشركين، وإذا كنت مأموراً بالحذر من الشرك وأنت الرسول المُجْتَبَى المعصوم، فأولئ بأتباعك أن يحذروا من الشرك مهما كان خفياً، ولا يتصوروا أنَّ للأسباب تأثيراً دون خلق الله لما ينتج عنها. ٨٨ - ولا تدع مع الله مدعواً آخر، قد يتوهم الجاهلون من دعائك له أنه شريك لله في إلهيته، لا معبود بحق في الوجود كله إلا الله وحده لا شريك له، كل شيء فاني إلا وجهه، له فضل القضاء بين الخلق يوم الحساب، وإلى حساب ربكم، وفصل قضائه، تُردُّون بعد بعثكم من قبوركم، فيُجزِيكم بأعمالكم التي قدتموها في رحلة



امتحانكم في الحياة الدنيا.

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

- ١ - ﴿الْمَرْ﴾ سبق الكلام على الحروف الْمُقَطَّعة في أول سورة البقرة.
- ٢ - أَظُنُّ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِمْ: آمَنَّا بالله؟! وهم لا يُخْتَبَرُونَ وَمُتَحَنِّونَ بِمَشَاقِّ التَّكْلِيفِ، ووظائف الطاعات، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال؟ كلا لَنُخْتَبَرَنَّهُمْ؛ لِتُبَيِّنَ الْمُخْلِصُ مِنَ الْمَنَاقِ، وَالصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَالصَّابِرُ مِنَ الْجَزُوعِ.
- ٣ - وَنُؤَكِّدُ مُقْسِمِينَ أَنَّا اخْتَبَرْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ بِضُرُوبِ الْفِتَنِ وَأَنْوَاعِ الْمُحَنِ، فَمَنْهُمْ مَنْ نُشِيرُ بِالْمَنْشَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، فَصَبِرُوا؟ فَمَا لَهُمْ لَا يَصْبِرُونَ مِثْلَهُمْ؟ فَلْيُظْهِرَنَّ اللَّهُ الصَّادِقِينَ فِي الْإِيمَانِ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِيهِ، بِاخْتِبَارِهِمْ اخْتِبَاراً عَمَلِيّاً، يَكْشِفُ صَدَقَ الصَّادِقِينَ، وَكَذَبَ الْكَاذِبِينَ.
- ٤ - بَلْ أَظُنُّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، وَمِنْهَا: النِّفَاقُ بِإِعْلَانِ الْإِيمَانِ بِاللِّسَانِ، وَإِبْطَانِ الْكُفْرِ أَنْ يُعْجِزُونَا، بِكُتْمِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ عَنْ إِظْهَارِهِ، وَذَلِكَ بِاخْتِبَارِنَا لَهُمْ بِمُخْتَلَفِ الْوَسَائِلِ، وَمِنْهَا: اخْتِبَارُهُمْ بِالْمَكَارِهِ الَّتِي تَضِيقُ صُدُورَهُمْ عَنِ الصَّبْرِ عَلَيْهَا؟ بِشَسِّ حُكْمِهِمْ هَذَا الَّذِي يَحْكُمُونَ بِهِ؟ إِذْ هُمْ مَا قَدَرُوا رِيبَهُمْ حَقَّ قَدْرِهِ، فَاللهُ لَا يُعْجِزُهُ كُشْفُ مَا يَكْتُمُ عِبَادُهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.
- ٥ - مَنْ كَانَ يَتَوَقَّعُ لِقَاءَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيَحَاسِبَهُ، وَيَنْقُذَ فِيهِ جِزَاءَهُ بِالْفَضْلِ فِي الْجَنَّةِ دَارِ النِّعَمِ، أَوْ بِالْعَدْلِ فِي النَّارِ دَارِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا، وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا، وَلَيْسْتَ عَدُّ لَذَلِكَ الْيَوْمِ، فَإِنَّ الْوَقْتَ الَّذِي عَيْنُهُ اللهُ لِهَذَا اللَّقَاءِ لَا تِي فِي الزَّمَانِ الْمُحَدَّدِ لَهُ لَا مَحَالَةَ، وَاللهُ وَحْدَهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ الْعِبَادُ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، فَيُثَبِّتُهُم بِالْفَضْلِ أَوْ يَعَاقِبُهُم بِالْعَدْلِ.
- ٦ - وَمَنْ بَذَلَ غَايَةَ مَا لَدَيْهِ مِنْ طَاقَةٍ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، وَاتَّخَذَ الْوَسَائِلَ لِلْخَلَّاصِ مِنَ الْفِتْنَةِ، بِالْهَجْرَةِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ الَّتِي أَصْبَحَتْ أَمْنَةً مَطْمَئِنَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَا يُجَاهِدُ إِلَّا لِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ؛ إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَغَنِيٌّ عَنْ أَعْمَالِ الْعَالَمِينَ وَعِبَادَتِهِمْ، قَادِرٌ عَلَى نُصْرَةِ دِينِهِ دُونَ مَجَاهِدَةِ الْمُجَاهِدِينَ الْمُؤْمِنِينَ، لَكِنْ ابْتِلَاءُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا اقْتَضَى تَكْلِيفَهُمْ بِالْجِهَادِ لِنُصْرَةِ دِينِهِ، وَتَرْكِ الْأَمْرِ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي وَضَعَهَا لِلنَّاسِ.

٧ - والذين آمنوا بما يجب الإيمان به إيماناً صحيحاً صادقاً، وعبروا عن صدق إيمانهم الإرادي الاعتقادي بعمل الصالحات، لئذ هيّن عنهم سيئاتهم، ونسرتها بالحسنات والمغفرة، وعدم المؤاخذه عليها، ولئليّئهم بكل أعمالهم الصالحة التي عملوها في الحياة الدنيا؛ لأنها هي الأحسن من سائر أعمالهم المباحة والسيئة، ونعطيهم أكثر مما عملوا ضمن قانون المكافآت: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة إلى أضعاف كثيرة.

٨ - وأمرنا الإنسان بالدينه أن يبرهما، ويحسن إليهما، ويطيع أمرهما في المعروف، وإن اشتد عليك في الطلب - أيها الابن المؤمن - مستخدمين وسائل الحيلة والملاينة للإقناع والتحويل عن الإيمان؛ لتشرك بي شريكاً ما، لا تعلم أنه يستحق العبادة، فلا تستجب لهما في ذلك؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إليّ وحدي رجوعكم، ومكان رجوعكم، وزمانه، فأخبركم بصالح أعمالكم وسيئاتها، وأجازيكم عليها.

٩ - والذين ثبتوا على إيمانهم الصحيح الصادق، وعملوا الصالحات الدالة على صدق إيمانهم الإرادي الاعتقادي، لئذ خلّتهم الجنة في زمرة الكاملين في الصلاح من الأنبياء والصديقين.

١٠ - ووجد فريق من الناس من يقول بلسانه: آمناً بالله، حماية لأنفسهم من جماعة المؤمنين، أو طمعاً بمغانم ينالونها مع المؤمنين، إذا نصرهم الله على أعدائهم، فإذا أصاب هذا الفريق مع المؤمنين أذى، شك في حكمة الله في ابتلاء عباده، ورأى عدم تدخل الله في حماية المؤمنين من أسباب الكافرين الإيدائية التعذيبية، يشبه عذاب الله المباشّر للمؤمنين، وأقسم مؤكداً: لئن جاء فتح ونصر من ربك - يا رسول الله - للمؤمنين، ليقولن هؤلاء المنافقون للمؤمنين: إنا كنا معكم على عدوكم، وكنا مسلمين، وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلناه. أوليس الله بأعلم من كل عليم بما في صدور العالمين جميعاً من الإيمان والنفاق؟

١١ - وليعلمن الله - بما يتعرض له الناس من امتحان في ظروف الحياة الدنيا - علماً بعد الوقوع الفعلي مطابقاً لعلمه السابق قبل الوقوع الفعلي، حقيقة أحوال الذين آمنوا صادقين، فثبتوا على الإيمان والإسلام عند البلاء، وليعلمن حقيقة أحوال المنافقين بالارتداد عن الإسلام عند البلاء.

١٢ - وقال الذين كفروا من أهل مكة للذين آمنوا منهم: اتبعوا ديننا وملة آبائنا، واستمتعوا بلذات الحياة وطيباتها كما نستمتع، وإن كنتم تزؤون أن سلوك طريقنا يحملكم خطايا تجاه ربكم، فنحن نتعهد لكم ملزمين أنفسنا بأن نحمل عنكم هذه الخطايا، ونكون نحن المسؤولين عنها، وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء؛ إنهم لكاذبون بادعائهم هذا الإلزام لأنفسهم بتحمل خطاياهم عنهم. إنهم يوم الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يتبرؤون منهم، ويتبرؤون من تحمل شيء من خطاياهم، وخطايا كل الذين يتبعونهم على ضلالهم، وهذا حال كل المشبوعين والقادة المضللين.

١٣ - وأقسم: ليحملن أثقال ذنوبهم الخاصة التي ارتكبوها بأنفسهم، وأثقال من أضلوا وصدّوا عن سبيل الله من الاتباع مع أوزار أنفسهم، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يكذبون من العقائد الكفرية، وأحكامهم في العبادات، وشؤون الحلال والحرام، وسوف يحاسبون عليها، ويجازون.

١٤ - ونقسم مؤكدين أننا أرسلنا نوحاً رسولاً إلى قومه؛ ليبلغهم ديننا، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله وتوحيده ألف سنة إلا خمسين عاماً، بمختلف وسائل الدعوة الجهرية والسرية، وصبر على أذاهم صبراً كثيراً، فأخذهم الماء الكثير الذي طاف بهم وعلاهم، أخذ إهلاك مستأصل، وكان إهلاكهم غرقاً في حال أنهم ظالمون كفرة مجرمون.

الجزء العشر

سورة العنكبوت

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَعَيْنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِّنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَ لَا مَع أَثْقَالَهُمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾

١٥ - فَأَتَجَنَّبُنَا نُوْحًا وَالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ رَكِبُوا مَعَهُ السَّفِينَةَ مِنَ الْغُرُقِ، وَجَعَلْنَا السَّفِينَةَ عِبْرَةً لِّلْعَالَمِينَ فِي أَزْمَانٍ لَّاحِقَةٍ بَعْدَ الطُّوفَانِ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ جَلُّ جَلَالِهِ قَدْ أَهْلَكَ كُفْرَ قَوْمِ نُوحٍ بِالطُّوفَانِ الْعَظِيمِ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَّعْظُوا فَلَا يَكْفُرُوا وَلَا يُعَانِدُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ.

١٦ - وَأَرْسَلْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى قَوْمِهِ، فَادَّكَرَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لآيَاتِ كِتَابِ رَبِّكَ - حِينَ دَعَا قَوْمَهُ وَقَالَ لَهُمْ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَاتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ عَلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شُرْكَ وَضَلَالَاتٍ سُلُوكِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ وَجَسَدِيَّةٍ، ذَلِكَ الَّذِي هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ، وَاتَّقَاءَ عِقَابِهِ، خَيْرٌ لَكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَأُخْرَتِكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ تَجَاهَ اللَّهِ رَبِّكُمْ، وَتَعْمَلُونَ بِمَقْتَضَى هَذَا الْعِلْمِ مُؤْمِنِينَ بِهِ.

١٧ - مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَصْنَامًا تَصْنَعُونَهَا بِأَيْدِيكُمْ، لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، وَلَا تَنْطِقُ، وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَتَفْتَرُونَ بِأَصْنَامِكُمْ كَذِبًا عَلَى الْحَقِيقَةِ، حَيْثُ تُسَمِّنُونَهَا آلِهَةً، وَتَجْعَلُونَهَا لِلَّهِ شُرَكَاءَ، وَتَزْعُمُونَ أَنَّهَا لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ شَفَعَاءُ، إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَرْزُقَوْكُمْ أَقْلَ رِزْقٍ، فَاطْلُبُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ، فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ، وَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ بِالْدَّعَاءِ وَبِغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تُرْضِيهِ، وَاشْكُرُوا لَهُ مَا يُمِدُّكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمٍ، بِالْعَمَلِ بِمَرْضِيهِ، وَالْإِيمَانِ بِأَنَّهُ لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، وَلَا إِلَهَ سِوَاهُ، وَسَتُبْعَثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَى، وَإِلَى حِسَابِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَفَصْلِ قَضَائِهِ، وَتَنْفِذِ جَزَائِهِ، تَرُدُّونَ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَى مَا عَمِلْتُمْ.

١٨ - وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوْمِهِ: إِنْ تُكَذِّبُونِي - أَيُّهَا النَّاسُ - فِي بِلَاغَاتِي الَّتِي بَلَّغْتُكُمْ إِلَيْهَا، فَلَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ رَسُلَهَا فِيمَا دَعَمْتُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، مِثْلَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ، وَاسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهُمْ بِأَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْعَذَابِ، وَبِمَا أَنِي رَسُولٌ لَا أَمْلِكُ إِلَّا التَّبْلِيغَ، فَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا التَّبْلِيغُ الظَّاهِرُ

الوَاضِحُ، وَالْمُظْهَرُ الْمَوْضَحُ لِقَضَايَا الْإِيمَانِ، وَلِشَرَائِعِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ، وَلَيْسَ مَأْمُورًا بِالْقِيَامِ بِوَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ الْإِكْرَاهِ وَالْإِلْزَامِ لِإِجْبَارِ النَّاسِ عَلَى الْإِيمَانِ، وَتَحْوِيلِهِمْ عَنِ الْكُفْرِ.

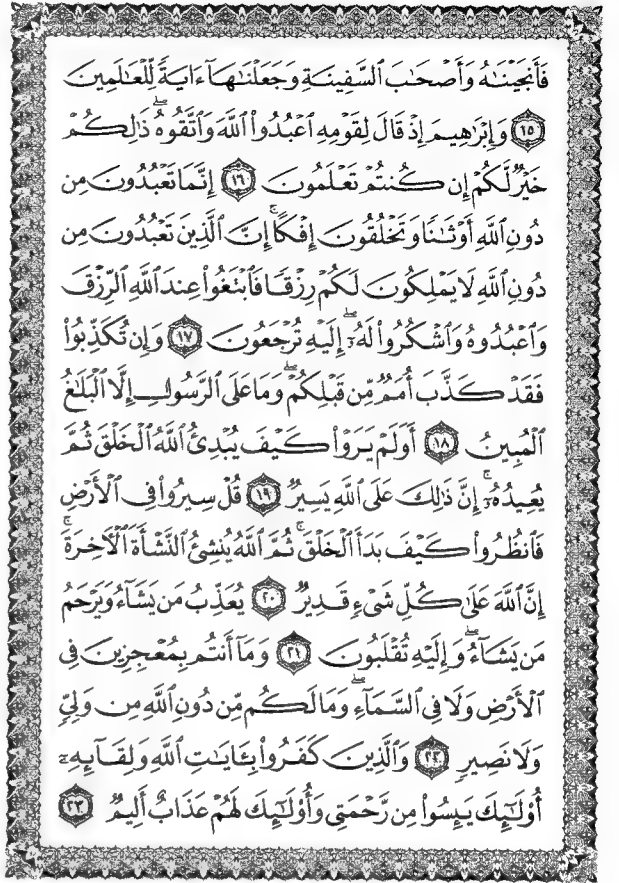
١٩ - أَعْطَلُوا عَقُولَهُمْ وَلَمْ يَرَوْا رُؤْيَا فِكْرِيَّةً تُشَبِّهُ الرُّؤْيَا الْبَصَرِيَّةَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْخَلْقَ ابْتِدَاءً مِنْ مَادَّةٍ - كَالْطُّفَةِ وَالتَّرَابِ - وَمِنْ غَيْرِ مَادَّةٍ؛ لِيَسْتَدِلُّوا بِذَلِكَ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِعَادَةِ، ثُمَّ هُوَ يَعِيدُ الْخَلْقَ بَعْدَ إِفْنَائِهِ كَمَا بَدَأَهُ؟ إِنَّ الْخَلْقَ الْأَوَّلَ وَالْخَلْقَ الثَّانِي عَلَى اللَّهِ خَلْقٌ يَسِيرٌ، لِأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَهُوَ يَكُونُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ.

٢٠ - قُلْ - يَا أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ - لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ وَالْحَيَاةِ الْآخِرَى: سِيرُوا فِي الْأَرْضِ مُنْقَبِينَ وَبَاحِثِينَ، وَتَتَّبِعُوا أَحْوَالَ الْخَلْقِ، فَانظُرُوا كَيْفَ خَلَقَهُمْ ابْتِدَاءً عَلَى أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَطَبَائِعَ مُتَغَايِرَةٍ، وَأَخْلَاقٍ شَتَّى، وَلَنْ تَصْلُحُوا إِلَى مَعْرِفَةِ أَسْبَابِ تُمَكِّنْكُمْ مِنْ مُضَاهَاةِ خَلْقِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ بَدْءَ الْخَلْقِ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ مِنْهُ سَبْحَانَهُ، فَهُوَ إِذَا أَرَادَ خَلْقَ شَيْءٍ قَالَ لَهُ: كُنْ فَهُوَ يَكُونُ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَ النَّشْأَةَ الْأُولَى، وَأَوْجَدَ الْخَلْقَ مِنَ الْعَدَمِ يُنْشِئُهُمْ بِأَسْلُوبِ التَّرْبِيَةِ الْمَتَدَرِّجَةِ التَّكَامُلِيَّةِ نَشْأَةً ثَانِيَةً بَعْدَ الْمَوْتِ، فَكَمَا لَمْ يَتَعَذَّرْ عَلَيْهِ إِنْشَاؤُهُمْ مُبْدِئًا، كَذَلِكَ لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ إِنْشَاؤُهُمْ مُعِيدًا بَعْدَ الْمَوْتِ ثَانِيًا، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِشَاؤُهُ قَدِيرٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ.

٢١ - يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى مَا أَسْلَفَ مِنْ جُرْمِهِ فِي أَيَّامِ حَيَاتِهِ عَذَابًا مُنْزِلًا، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا تَفْضُلًا، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ بِالْبَعْثِ تُرْدُونَ وَتُرْجَعُونَ، فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ.

٢٢ - وَمَا أَنْتُمْ - أَيُّهَا الْكُفْرَةُ الْمُجْرِمُونَ - بِفَاتِنَتَيْنِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِالْهَرَبِ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا التَّمَسَّتِ الْحِمَاةُ مِنْ أَنْزَالِ عَذَابِ اللَّهِ بِكُمْ، أَوْ إِهْلَاكِكُمْ إِهْلَاكَ اسْتِصْطَالٍ، فَلَنْ تَجِدُوا وَلِيًّا يَمْنَعُكُمْ مِنِّي، وَلَا نَصِيرًا يَحِيصُكُمْ مِنْ عَذَابِي.

٢٣ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَاتِ الْمُنْزَلَةِ، وَالْكَوْنِيَّةِ، وَالْإِعْجَازِيَّةِ، وَالْجَزَائِيَّةِ الْعِقَابِيَّةِ، وَأَنْكَرُوا الْبَعْثَ وَلِقَاءَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ، وَأُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ الْمُتَسَفِّلُونَ فِي ذَرَكَاتِ جَهَنَّمَ لَيْسَ لَهُمْ مَطْمَعٌ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَأُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ مُؤَلَّمٌ فِي دَارِ الْعَذَابِ الْمُعَدَّةِ لِلْمُجْرِمِينَ، وَهَذَا الْعَذَابُ الْأَلِيمُ يَذُوقُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ خَالِدِينَ فِيهِ أَبَدًا، لَا يُقْتَرَّ عَنْهُمْ.



٢٤ - فلم يكن جواب قوم إبراهيم له بعد دعوتهم لتوحيد الله، إلا أن قال بعضهم لبعض: اقتلوه وتخلصوا من حُججه البرهانية، أو خرّقوه بالنار التي توقدونها له بحضور جماهير القوم؛ ليكون عبرة لمن يعتبر، ولئلا يتأثر بعض الناس بدعوته. وبنوا البنيان العظيم، وأوقدوا فيه النار؛ لإلقائه فيها، أمام مشهد من قومه، فألقوه فيها، فأنجاه الله من النار، وجعلها عليه برداً وسلاماً، إن في إحباط كَيْدِهِم وإنجائه من النار لعلامات وأدلة وحججاً لقوم لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا مستقبلاً بالحق، ويتبعوا ما جاءهم به رسول ربهم.

٢٥ - وقال إبراهيم لقومه: ما اتخذتم من دون الله إلهاً باطلاً، للتوّد بينكم، والتواصل لاجتماعكم على عبادتها في الدنيا، واتفاقكم عليها، وللخشية من ذهاب المودة فيما بينكم إن تركتم عبادتها، ثم يوم القيامة تتبرأ الأوثان من عابديها، وتتبرأ القادة من الأتباع، ويلعن الأتباع قاداتهم الذين كانوا يلزمونهم بعبادة الأوثان، ويؤمنون لهم عبادتها، ويؤمنذ يكون ما واكم الذي تأوون إليه، وتقيمون فيه، النار التي تحترقون فيها، وما لكم يوم القيامة من ناصرين يحمونكم فيكشفون عنكم عذاب ربكم الذي لا كاشف له إلا هو.

٢٦ - فصّدّق لوط بعنه إبراهيم نبياً رسولاً، وأسلم له، وبما جاء به متّبِعاً مطيعاً، وقال إبراهيم بعد أن يئس من استجابة قومه لدعوته، وأذن الله له بالهجرة: إني مهاجر من العراق إلى حيث أمرني ربي، وتارك دار قومي إلى الأرض المباركة في الشام؛ إنّه هو القويّ الغالب الذي لا يُغلب، والذي يمنعي من أعدائي، الحكيم الذي لا يأمرني إلا بما يصلحني.

وكان مع إبراهيم امرأته سارة، ولوط ابن أخيه، فنزل إبراهيم «فلسطين»، ونزل لوط «سدوم».

٢٧ - ووهبنا لإبراهيم بعد بكرة إسماعيل، ابنه إسحاق، وحفيده يعقوب بن إسحاق عليهم السلام، وجعلنا في ذُرِّيَةِ إبراهيم الأنبياء والكتب، فسائر الأنبياء والرسل الذين كانوا من بعده من ذُرِّيَتِهِ، بدءاً بإسماعيل وإسحاق إلى عيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وآتيناه أجره في الدنيا بالثناء الحسن، والرزق الواسع، والذُرِّيَةِ الطيبة، والنبوة من نسله، هذا في الدنيا، وإنّه في الآخرة في زمرة الكاملين في الصلاح.

٢٨ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقّي لبيانا - لوطاً حين قال لقومه: إنكم لتأتون الفعلة القبيحة بإتيان الرجال شهوة من دون النساء، ما تفوق عليكم فيها أحد قبلكم، فأنتم أكثر الناس مُمارسة لهذه الفاحشة الشنيعة الشاذة، الخارجة عن نظام الخلق الرباني السوي.

٢٩ - أنكم تفضّون الشهوة من الرجال، وتقطعون على المسافرين الطريق بالقتل وأخذ المال والإكراه على فعل الفاحشة، وتأتون في مجلسكم الذي تجتمعون فيه الأعمال المنكرة بوقاحة ومجون واستخفاف بكل الفضائل وأعراف الناس؛ فكان آخر أمر لوط مع قومه أن أنذرهم بإهلاك الله لهم إذا استمروا على كفرهم وقبائحهم ومنكراتهم الشنيعة، فما كان جواب قوم لوط على إنذاراتهم بعذاب الله إلا أن قالوا مُستهزئين مُتحدّين: أثبتنا بعذاب الله، إن كنت من الصادقين أن العذاب نازل بنا.

٣٠ - سأل لوط عليه السلام ربّه بعد أن منعه قومه عن متابعة رسالته منعاً جبّرياً، ورأى أنهم قد وصلوا إلى حالة ميؤوس من صلاحهم معها عن طريق إراداتهم الحرة، وبعد أن تحدّوه بأن يأتيهم بعذاب الله إن كان من الصادقين، فسأل ربّه قائلاً: رب انصُرني على القوم المفسدين بإنزال العذاب عليهم، فاستجاب الله دعاه، وأرسل ملائكته لعذابهم، وقبّل بلادهم. وجعل الله لهؤلاء الرسل من الملائكة وظيفتين: الأولى: أن يبشروا إبراهيم عليه السلام بولد ذكر من صلبه من زوجته «سارة»، والثانية: أن يذهبوا إلى أرض «سدوم» التي فيها قوم «لوط» لإخراج «لوط» وأهله منها، باستثناء زوجته التي كانت على دين قومه الكافرين المفسدين.

الحِجَّةُ الْعِصْرِيَّةُ

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم مِّبْعُضَ كُمْ يَبْعُضٌ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَا وَتَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَأَمَّا لَهُ لُوطُ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَ تَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرني عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

٣١ - وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىِ قَالَوْا إِنَّا مُهْلِكُوْا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِيْنَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيْهَا لَوْطًا قَالَوْا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيْهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِيْنَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَوَّاهُ بَيْنَهُمْ وَصَافَكْ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوْكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِيْنَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُوْكَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُوْنَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَى مَدِيْنٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومُوا عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِيْنَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوْهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيْمِيْنَ ﴿٣٧﴾ وَعَادَا وَثِمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فُصْدَهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِيْنَ ﴿٣٨﴾

٣٢ - قال إبراهيم عليه السلام للملائكة إشفافاً على لوط: إن في هذه القرية المأمورين بإهلاك أهلها «لوطاً» ابن أخي، وهو نبي ورسول، فكيف تهلكونها؟ قالت الرُّسل من الملائكة لإبراهيم عليه السلام: نحن أعلم بمن فيها منك ومن غيرك، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي سَيَنْزِلُ بِهِمْ، إِلَّا أَمْرَانَهُ، فَإِنَّهَا عَلَى مَذْهَبِ قَوْمِهَا وَمِلَّتِهِمْ، فَيَسْتَحْمِلُهَا الْإِهْلَاكُ، وَتَكُونُ مِنَ الْبَاقِيْنَ فِي أَرْضِ قَوْمِهَا، الذَّاهِبِينَ الْهَالِكِينَ، فَلَا تَخْشَ عَلَى لُوطٍ وَالْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ مَعَهُ.

٣٣ - وَلَمَّا جَاءَتْ الْمَلَائِكَةُ لُوطًا، اعْتَرَتْهُ الْمَسَاءَةُ وَالْغَمُّ، مَخَافَةً أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُمْ قَوْمُهُ بِسُوءٍ، كَمَا هِيَ عَادَتُهُمْ مَعَ الْغُرَبَاءِ، وَقَدْ ظَنَّهُمْ مِنَ الْإِنْسِ، فَخَافَ عَلَيْهِمْ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَثَقُلَ بِسَبَبِ مَقْدَمِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ جَاؤُوا عَلَى صُورِ شُبَّانِ مُرْدٍ حَسَانٍ، وَكَشَفَ زَائِرُهُ لَهُ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُكَلَّفُونَ أَنْ يَهْلِكُوا قَوْمَهُ أَهْلَ «سَدُومَ»، وَقَالُوا لَهُ: لَا تَخَفْ مِنْ أَجْلِ نَفْسِكَ وَأَهْلِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَى قَوْمِكَ، إِنَّا مُهْلِكُوهُمْ، وَمُنْجُوْكَ وَأَهْلَكَ، إِلَّا أَمْرَانَكَ كَانَتْ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ مِنَ الْبَاقِيْنَ فِي أَرْضِ قَوْمِهَا، الذَّاهِبِينَ فِي الْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ مَعَ الذَّاهِبِينَ.

٣٤ - إِنَّا سَنُنْزِلُ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَسَائِلَ تَعْذِيبٍ خَاصَّةً مِنْ جَهَةِ السَّمَاءِ، غَيْرِ وَسَائِلِ الْإِهْلَاكِ الْعَامِ؛ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يُكْرَرُونَ فِي

أَعْمَالِهِمُ الْخُرُوجَ عَنِ الْحَقِّ، وَأَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ.

٣٥ - وَنُوَكِّدُ لَكُمْ أَنَّنَا تَرَكْنَا مِنْ قُرَى قَوْمِ «لُوطٍ» الْمَدْمَرَةَ عِبْرَةً ظَاهِرَةً، وَعَلَامَةً وَاضِحَةً، وَهِيَ آثَارُ دِيَارِهِمُ الْخَرِبَةِ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ عَقْلًا عِلْمِيًّا ذَا دَلَالَةٍ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَعَدْلِهِ فِي عِبَادِهِ، وَيَعْقِلُونَ عَقْلًا إِرَادِيًّا يَمْنَعُهُمْ عَنِ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ، وَارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي تُسْخِطُهُ.

٣٦ - وَأَرْسَلْنَا إِلَى أَهْلِ «مَدْيَنَ» أَخَاهُمْ نَسَبًا وَلُغَةً وَمَوْطِنًا «شُعَيْبًا» عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ عَقِبْ إِرْسَالَهُ إِلَى أَهْلِ «مَدْيَنَ» مُبَاشَرَةً: يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بَطَاعَتُهُ فِي فِعْلٍ مَا أَمَرَ بِفِعْلِهِ، وَتَرْكٍ مَا نَهَى عَنْهُ، وَبِدَعَائِهِ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِمَحَابِّهِ، وَتَوَقُّعُوا لِقَاءَ رَبِّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، فَأَمَّلُوا ثَوَابَهُ، وَاخْشَوْا عِقَابَهُ، وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ أَشَدَّ الْفُسَادِ، بِالْعُدْوَانِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَتَطْغِيفِ الْمَكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَبُخْسِ النَّاسِ أَشْيَاءَهُمْ، وَإِفْسَادِ أَخْلَاقِ النَّاسِ وَسُلُوكِهِمْ، وَإِفْسَادِ أَفْكَارِهِمْ وَمَفْهُومَاتِهِمْ، وَإِفْسَادِ الْعِمْرَانِ الْحَضَارِيِّ فِي الْمَدَنِ وَالْقُرَى، وَإِفْسَادِ النَّبَاتِ وَالْجَوِّ.

٣٧ - فَكَذَّبَ أَهْلُ «مَدْيَنَ» شُعَيْبًا فِي بِلَاغَاتِهِ وَإِنْذَارَاتِهِ بِعَذَابِ اللَّهِ لَهُمْ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يَطِيعُوا اللَّهَ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَلَمْ يُفْلَعُوا عَنْ إِفْسَادِهِمُ الشَّدِيدِ فِي الْأَرْضِ، فَقَبِضَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ جَوَانِبِ أَفْرَادِهِمْ وَجَمَاعَاتِهِمُ الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي رَحَّتْ مِنْهَا قُلُوبُهُمْ؛ بِسَبَبِ صَيِّحَةِ جِبْرِيلَ، فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ لِاصْقِينَ بِالْأَرْضِ عَلَى رُكْبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، مَلَاظِمِينَ أَمَكْنَتِهِمْ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ مَيِّتِينَ.

٣٨ - وَضَعُوا فِي ذَاكِرَتِكُمْ - أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ رَسُولَ رَبِّكُمْ مُحَمَّدًا - كَيْفَ أَهْلَكْنَا غَادًا قَوْمَ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَثُمُودَ قَوْمَ «صَالِحٍ» عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ بوضوح - يَا أَهْلَ مَكَّةَ - مِنْ مَنَازِلِهِمْ بِالْحَجَرِ وَالْيَمَنِ، أَنَّ اللَّهَ دَمَّرَهَا عَلَيْهِمْ، وَأَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكًا مُفْتَرَنًا بِتَعْذِيبٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ، مُتَأَثِّرِينَ بِمَا زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ؛ إِذْ حَسَّنَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمُ الْإِجْرَامِيَّةَ وَالشَّرَكِيَّةَ الْمُتَنَوِّعَةَ، فَصَدَّهُمْ عَنِ سَبِيلِ الْحَقِّ، وَصَرَّاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ بِالْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ، وَكَانُوا عَالَمِينَ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَتْهُمْ بِهِ رُسُلُ رَبِّهِمْ، مُدْرِكِينَ لَهُ بِبَصَرٍ فِكْرِي قَوِيٍّ، لَكُنْهُمْ كَانُوا رَافِضِينَ أَتْبَاعَ الْحَقِّ جُحُودًا.

٣٩ - وضعوا في ذاكرتكم - أيها المشركون المُكذِّبون رسولَ ربكم محمداً - هؤلاء البُغاة الجابرة الثلاثة: الأول: «قارون» الذي كان من قوم موسى، فجعل نفسه خادماً للقصر الفرعوني، مقابل تمكينه من تحصيل ثروة عظيمة، فبغى على بني إسرائيل اعتزازاً بما آتاه الله من أموال ومكانة عند فرعون وملئه، والثاني: «فرعون» الذي كان طاغية جباراً عنيداً، مُستعبداً بني إسرائيل، والثالث: «هامان» الذي كان الوزير الأول في القصر الفرعوني، والمتفدِّ لرغبات فرعون مهما كان فيها من ظلم وعدوان وإفساد في الأرض، ونقسم مُؤكِّدين أن موسى عليه السلام جاءهم بالدلالات الفكرية والإعجازية الواضحات، فبالغوا في كبرهم عن اتباع الحق، والاستجابة لدعوة موسى البرهانية، وتمادوا في اضطهادهم معتزِينَ بما لديهم من قوى قتالية متفوقة، وجنود مُدجَّجين بالأسلحة، في عموم أرض «مصر» التي لهم سلطان عليها، وما كانت قواهم مُتفوقة في الواقع حين قضى الله عليهم بأن يهلكهم.

٤٠ - فكلُّ فريق من المهلكين السابقين قبضنا عليه قبض إهلاك بسبب ذنبه الشنيع الذي اقترفه، فمنهم الذين رُموا بالحصي الصغار، وهم قوم لوط في أرض «سدوم»، ومنهم من عذبنا وأهلكناه بالصرخة الشديدة، وهم ثمود قوم صالح، ومنهم من عذبناه وأهلكناه بالخسف، فغاص في الأرض هو وداره وماله، كقارون وأصحابه، ومنهم من عذبناه وأهلكناه بالإغراق، وهم قوم نوح، وفرعون وقومه، وما كان الله من الأزل إلى الأبد ليظلمهم بالهلاك، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بالإشراك وارتكاب الجرائم العظمى.

٤١ - وَصَفَ المشركين الذين اتَّخذوا آلهة من دون الله؛ ليكونوا لهم أولياء يحمونهم وينصرونهم بقوى غيبية، يتوهمونها لهم، كوصف بيت العنكبوت الذي تُلغى وجوده قسَّة ضئيلة الحجم، ضعيفة القوة، فهم واهمون في اعتمادهم على حماية أوليائهم من دون الله، والقوى التي ينسبون لها إلى أوليائهم هي من صنف خيوط العنكبوت، وإن أضعف البيوت التي تتخذها الكائنات الحيَّة هو بيت العنكبوت، لو كانوا حريصين على أن يعلموا الحقيقة، لعلموا أنَّ اعتمادهم على قوى أوليائهم لئصرتهم وحمايتهم أو دفع الضرر عنهم، يُساوي اعتمادهم على قوَّة تُساوي قوَّة بيت العنكبوت، ولو أنَّهم علموا هذه الحقيقة لنبذوا عقائدهم الشركية، تَبَذَّ القشور إلى رُكام القمامات.

٤٢ - إنَّ الله المحيط بكلِّ شيء علماً، يعلم أن المشركين ما يعبدون ولا يسألون لمطالبهم من شركائهم شيئاً ما تَوَهَّل صفاته لجلب نفع لهم، أو دفع ضرر عنهم، إنَّما يدعون أوهاماً اصطنعوها افتراءً على الحقيقة، وجعلوها شركاء لله، وهو ذو القوَّة الغالبة، والحكمة البالغة، الذي يضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجهٍ وأكمل، ويختار أفضل المخترعات وأتقنها في الأمور المختلفة، لما يُعطي أحسن النتائج.

٤٣ - وتلك الأمثال السامية في أسلوبها ودلالاتها تُبينها للناس، من أجل إقناعهم وهدايتهم للحق، وما يعقل دلالاتها العميقة، ويتمسك بما تُرشد إليه إلا العلماء الذين يعقلونها، ويفهمون الغاية منها، أما الذين يُعطلون أدوات المعرفة فيهم، ويضعون الأغشية على أسماعهم وأبصارهم وعقولهم، فليسوا جديرين بأن يعقلوها، أو يفهموا الغاية منها، أو يعملوا بهديها إذا هم فهموا معانيها.

٤٤ - خَلَقَ الله السَّمَوَاتِ والأَرْضَ خلقاً مُتصفاً بأنه حق ثابت، ولم يخلقهما عبثاً ولا باطلاً، يدلُّ خلقه لهما على أنه لا ربَّ في الوجود غيره، إنَّ في ذلك الأمر العظيم آية عظيمة دالة على وحدانية الله وعظيم قدرته، لقوم لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا مُستقبلاً.

٤٥ - انْطَقَ بلسانك - يا رسول الله - من حفظك في ذاكرتك ما أوجي إليك من القرآن، واعمل به، ودُمَّ على إقامة الصلاة على وجهها الشرعي في أوقاتها؛ إنَّ الصلاة من شأنها إذا أدت كما أمر الله بالوقوف بين يديه بغاية الذلِّ والخضوع، ونهاية التعظيم والخشوع أن تكون مانعة لفاعلها عمَّا قَبِح من الأعمال، ولا سيَّما الكبائر المتعلقة بشهوات الفروج، وما يُنكره الشرع وينهى عنه نهْيٍ تحريم، واعلم مُتأكداً - أيها المُتلقِّي لبيانات ربك - أنَّ ذكر الله تعالى بالفكر والقلب واللسان ذو أثر أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر، ولا سيَّما إذا كان الذكر كثير الدوام، كما أنَّ ذكر الله تعالى يُؤكِّد في نفسه وفي الملاء الأعلى أكبر من ذكركم إيَّاه، والله يعلم ما تصنعون من خير أو شر، لا يخفى عليه شيء من أمركم، وسيُجازيكم على أعمالكم.

البقرة العنكبوت

سورة العنكبوت

وَقَرُّونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى
بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ
﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ
وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مِثْلَ الَّذِينَ
أَخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنكَبُوتِ
اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَكَ مِنْ
دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ
الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ
﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتُلَى مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

٤٦ - ولا تُجادلوا - أيها المؤمنون - أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا بالأساليب الفكرية والقولية التي هي أحسن وأفضل، فإن سلك مُجادلوكم مسالكَ غَيْرَ مُهَذَّبَةِ القول، فتقيدوا أنتم بكل قولٍ مُهَذَّب، وأسلوب أفضل، وكونوا في مجادلته على حالة أرقى وأحسنَ باستمرار من الحال التي يكونُ عليها مَنْ يجادلُكم أدباً وتهذيباً، أو قولاً وفكراً، لكن الذين ظلموا من أهل الكتاب، وحادوا عن الحق، وأفراطوا في الاعتداء والعناد، ولم ينفع معهم الرفق، فأغلظوا عليهم، وقابلوا السيئة بمثلها، وقولوا للذين أوتوا الكتاب إذا حدثوكم بشيء مما في كتبهم: آمناً بالذي أنزل إلينا من القرآن، وبالذي أنزل إليكم من التوراة والإنجيل، مما لم يدخل فيه تحريف ولا تبديل، وإلها وإلهكم واحد، لا شريك له في ربوبيته، ولا في إلهيته، ونحن له وحده خاضعون مُتذللون، منقادون مطيعون.

٤٧ - ومثل ذلك الإنزال الذي أنزلناه إلى رُسُل أهل الكتاب من قبلك، أنزلنا إليك - يا رسول الله - الكتاب المُصَدِّق للكتب السابقة، فالذين آتيناكم الكتاب من مؤمني أهل الكتاب يؤمنون بأننا سنبتلك، ونُنزل إليك كتاباً، وبعض هؤلاء الذين يقولون: إنهم أهل الكتاب السابق من سيؤمن به، كعبد الله بن سلام، وبعض الذين يقولون: إنهم أهل الكتاب سيُجحدون بآياتنا البَيِّنَات في القرآن، مع استيقانهم في قلوبهم بأنها آيات مُنزَّلات من لدنا، وما يُنكر آياتنا بعد ظهورها إلا الكافرون الذين يسترون الحق بزيف الأقوال الإيهامية، وزُخرف الأفكار الخداعية، اتِّباعاً لأهوائهم ومصالحهم الدنيوية.

٤٨ - وما كنت تتلوا - يا رسول الله - من قبل ما أنزلنا إليك القرآن من كتب، ولا كنت تكتب بيمينك، ولو كنت تتلو من قبل الوحي إليك من كتاب، أو كنت كاتباً تخط بيمينك، إذا لارتاب المشركون، وفي الآية دليل صريح على أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب،

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَنَا وَالْهَكْمَ وَجِدْوَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ رِسْمِينَ إِذَا لَازِمْتَ رَبَّكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

٤٩ - ليس هذا القرآن موضع ارتياب، بل هو آيات واضحة في صدور المؤمنين الذين حملوا القرآن، فهي تؤمن أنه من عند الله، وينكشف لديها إعجازه، وما ينكر آياتنا البينات الواضحات بعد معرفتها إلا الظالمون المعاندون الذين يعلمون الحق ويُجحدونه.

٥٠ - وقال كفار مكة تعتاً وتشهياً: هلاً أنزل على محمد آيات خوارق كبرى من ربه نشاهدها، كناقصة صالح، ومائدة عيسى، ونحو ذلك. قل - يا رسول الله - لهم: ما الآيات إلا عند الله، وهو الذي إن شاء أن يُجريها لرسوله أجزاها، وقل لهم أيضاً: هو على كل شيء يشاؤه عظيم القدرة لا يعجزه شيء، وما أنا بالنسبة إليكم وما تُتصفون به من جحود وعناد إلا مُرسَل من الله، نذير واضح مبين في إنذاري وكل دعوتي، بعد تأدية الوظائف السابقة من تبليغ وبيان، وإقناع وتبشير، وليس إنزال الآيات بيدي.

٥١ - أُنْظِمَتْ بصائرهم، وعُطِلَتْ عقولهم عن إدراك الحق المنزل من ربهم، وَلَمْ يَكْفِ هؤلاء المشركون المُقْتَرِحُونَ نزول الآيات، أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ - يا رسول الله - القرآن يُقرأ عليهم؟ فالقرآن معجزة أتم من معجزة من تقدم من الأنبياء؛ لأنَّ معجزة القرآن تدوم على مرَّ الدهور والزمان، ثابتة لا تَضْمَحَل، إنَّ في ذلك القرآن الذي جئتكم به من عند ربكم لرحمة وتذكيراً لقوم لديهم الاستعداد النفسي والقلبي لأن يؤمنوا بالحق الذي اشتمل عليه كتاب الله، فهم المنتفعون به، فإن آمنتم وأسلمتم فهو لخيركم، وإن كفرتم فقد اغتَدَ ربكم لكم عذاباً أليماً في الجحيم يوم الدين.

٥٢ - قل - يا رسول الله -: أغنى الله بيني وبينكم حالة كونه شاهداً على صدقي أنني رسوله، وعلى تكذيبكم لي وردكم الحق الذي جئت به من عند الله، يعلم ما في السموات والأرض، فلا يخفى عليه شيء منهما، والذين آمنوا بما سوى الله، وكفروا بالله - مع هذه الدلائل الواضحة - أولئك البعداء عن رحمة الله في اتِّجَاهِ الدرك الأسفل من النار هم الخاسرون في الدنيا والآخرة؛ إذ قذفوا بأنفسهم إلى عذابٍ أبديٍّ في نار جهنم.

٦٤ - وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴿٦٤﴾ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نَجَّوْهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ يكفروا بما آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمْنَعُوا فُسُوقَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أولم يروا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا لَبِطِلٌ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقْرَأَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

٦٥، ٦٦ - فإذا ركب هؤلاء المشركون في السفن، وعلتهم الأمواج، وخافوا العرق، تركوا الأصنام، ولجؤوا إلى الله تعالى بالدعاء، مخلصين له العبادة والطاعة، فلما أسكن الله البحر، وهباً لهم وسائل النجاة، ونجّاهم إلى البرّ آمنين، وزالت عنهم الشدة، يُفاجئون بأنهم يعودون إلى ما كانوا عليه من الشرك والعناد الذي يُفضي بهم إلى البغي في الأرض بغير الحق. ودوافع الشرك الذي يختارونه، بعد إخلاص الدين عند الشدة؛ ترجع إلى أمرين: الأمر الأول: رغبتهم في أن يكفروا بما آتاهم ربهم من نعم كثيرة تعالى واستكباراً، والأمر الثاني: أن ينطلقوا بفجور يستمتعون بكل ما يشاؤون من متاعات الحياة الدنيا، دون آية ضوابط أو قيود، ودون مبالاة بما يرتكبون من قبائح ومنكرات، وبغي وظلم وطغيان، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم، وما أعدّه الله لهم من عذاب يوم القيامة.

٦٧ - أغفل أهل مكة ولم يروا بأعينهم، ويتفكروا بعقولهم أننا جعلنا بلدهم حرمًا آمناً من أجل بيته المشرف الذي بناه جدهم إبراهيم، وابنه إسماعيل بعيداً عن مواطن الشرك والكفر حينئذ في الأرض، وقد جعل الله فيه الأمن من الحوادث الكونية المدمرة، كالزلازل والبراكين، وجعل فيه الأمن بالأحكام التكليفية الشرعية الموروثة عن إسماعيل عليه السلام، بينما قبائل العرب من حولهم، يُستلبون ويُؤخذون بسرعة من قِبل الغزاة، بالقتل والسبي والنهب، وأنواع الضرر والأذى؟ فهل من العقل والرشد وحسن تقدير عواقب الأمور أن

يؤمنوا بالباطل من الشرك وأوثانه، ويكفروا بنعمة الله عليهم، ويُعرضوا أنفسهم لسخط الله وعقوباته العاجلة والآجلة؟! ٦٨ - لا يوجد أشد ظلماً من هذين الفريقين: الفريق الأول: من كذب على الله، فزعم أن له ولداً أو شريكاً في ربوبيته، أو إلهيته، أو ادعى أنه نبي أو رسول، أو حكم بحكم في الدين زاعماً أنه من دين الله دون أن يكون لديه دليل صحيح. والفريق الثاني: من كذب بمحمد ﷺ المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الباهرات، حين بلغته دعوته. أليس في جهنم مكان إقامة واستقرار لهؤلاء الذين كذبوا عليّ، وكذبوا بالحق الذي جاء به محمد ﷺ؟

٦٩ - وفي مقابل الفريقين السابقين من الكافرين المكذبين يوجد فريقان من المؤمنين: الفريق الأول: الذين جاهدوا أنفسهم من أجلنا، بالصبر على الطاعات، ومخالفة الهوى، وجاهدوا المشركين بالصبر على أذاهم، واتخذوا السبل للهجرة والفرار بدينهم؛ لثوقتهم إلى سبل نجاتهم وسلامتهم من المشركين والمتجبرين، وتيسير طرق هجرة آمنة، معها تأمين رزقهم ومعاشهم، والفريق الثاني: المحسنون، الذين أحسنوا التصرف، واتخذوا الشروط السببية الملائمة، وإن الله لمع المحسنين مُصاحب لهم بالنصر والمعونة والتأييد.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١ - ﴿الْعَرَبُ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

٢ - ٥ - غَلَبَتْ فارسُ الرُّومَ في أقرب الأرض من الجزيرة العربية، وهي أطراف الشام، وهم من بعد غلبة الفرس لهم سيغلبونهم في مدة من الزمن، لا تزيد على عشر سنوات ولا تنقص عن ثلاث، ولله وحده كل الأمر من تصارييف الكون قبل انتصار دولة الروم على فارس، ومن بعد انتصارهم، فمن غلب فهو بأمر الله تعالى وقضائه، ويوم يتحقق انتصار الروم على فارس يفرح المؤمنون بنصر الله لرسوله والمؤمنين على مشركي مكة في غزوة «بدر»، ويظهر الروم أهل الكتاب على فارس عبّاد النار. بيده سبحانه النصر، ينصر من يشاء، ويخذل من يشاء، وهو القوي الغالب الذي لا يُغالب، الدائم الرحمة بالمؤمنين. وقد حقق الله وعده، فانتصر الرسول ﷺ وأصحابه على مشركي قريش في غزوة بدر الكبرى، وانتصر الروم على الفرس بعد سبع سنين، فكان ذلك آية بيّنة شاهدة على صدق محمد ﷺ؛ لما فيه من الإخبار بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

٦ - وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَعْدًا بظهور الرُّومِ على الفرس، وبانتصار الرسول والمؤمنين المُسْتَضْعَفِينَ على مشركي مكة، لا يُخْلِفُ اللهُ وعده، أيًا كان ممَّا يتعلَّقُ بالدنيا والآخرة، ولكنَّ أكثرَ الناس لا يؤمنون بكمالات صفات الله، وتنزُّهه عن النقائص، فهم لا يعلمون أنَّ وعد الله حقٌّ، وأنه لا يُخْلِفُ الميعاد.

٧ - سبب جهلهم بشؤونه تعالى، أنهم يقضرون تفكيرهم على ما يظهر من شؤون الدنيا، وأمور معاشهم وملذاتهم، وكيف ينعمون بها ويحصلون عليها، دون أن يفكروا فيما وراءها من المقاصد العليا، وهم بالتأكيد المُشَدَّد غافلون عن الحياة الآخرة وما ينفعهم فيها، غفلة تامَّة، لا يتفكرون فيها، ولا يعلمون بها، ولا يعملون لها.

٨ - أَنْظَمَسَتْ عقولهم وبصائرهم بتعلُّقهم بمتاعات الحياة الدنيا؟ ولم يتفكروا هؤلاء المُكذِّبون بالله ولقائه تفكيراً سديداً في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات، فيتدبروا ما أودعها الله من غرائب الحكمة، فيعلموا أنه تعالى ما خلق السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وما بينهما إلا بالحقِّ الثابت، ولوقتٍ معلوم قدَّره الله تعالى إذا انتهت إليه فَيُنشِئَ، وهو يوم القيامة؟ والتفكر في خلق أنفسهم، وخلق السموات والأرض وإتقان صنعهما وتسخيرهما للناس، وجعل كل شيء فيهما ذا أجل تنتهي عنده وظيفته، دليلٌ على أنَّ السموات والأرض وما فيهما ومن فيهما مخلوقات لغاية، والتفكر في خلق الناس يدلُّ على أنهم مخلوقون للامتحان، والامتحان يفتضي الجزاء، ولا بدَّ من حياة أخرى يتحقَّق فيها الجزاء الأمثل، وإنَّ كثيراً من الناس بلقاء ربِّهم لجاحدون منكرون؛ لأنَّ الإيمان بالآخرة يجعلهم يتركون كثيراً ممَّا يُحبُّون من الدنيا، وهم مُتَشَبِّهون بها، لا يسهل على أنفسهم أن يتركوها.

وَعَدَ اللهُ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَتَدَبَّرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا الشُّرَاقَىٰ إِنَّ كَذِبًا يُعَادَى اللَّهُ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ أَوْ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَاذِبِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْحَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

٩ - أَغْفَلُوا عَنِ الْآخِرَةِ، وجهلوا بأنَّ معادهم إلى الله بعد فنائهم؟ ولم يسيروا هؤلاء المُكذِّبون بالله الغافلون عن الآخرة مسافرين في الأرض، فينظروا بأعينهم إلى مصارع الأمم قبلهم، وآثار بلادهم المدمَّرة، فيعتبروا؟ وقد كان هؤلاء المُهلِّكون السابقون أقوى منهم أجساماً، وأعظم حضارة وعمراناً، وقلَّبوا وَجْهَ الأرض، ونقَّبوا ما فيها؛ ليستخرجوا مخزوناتِها من مياه وزروع ومعادن وكنوز، وعمرُوا الأرض أكثر ممَّا عَمَرَهَا هؤلاء المشركون، وجاءتهم رُسُلهم بالمعجزات الواضحات، والكتب المنزلَّات، فلم يؤمنوا، فأهلكهم الله بقضائه العادل، فما كان الله ليظلمهم بنقص حقوقهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بكفرهم وبارتكابهم الجرائم الكبرى.

١٠ - ثُمَّ كَانَتِ الْعُقُوبَةُ الْمُتَنَاهِيَةُ فِي السُّوءِ، وهي العذاب في جهنم، عاقبة الذين أساءوا العمل؛ بسبب أنهم كذبوا بآيات الله الكونية والبيانية والإعجازية والجزائية العقابية، وكانوا بها يستهزؤون، إنكاراً وجحوداً لها.

١١ - اللهُ سُبْحَانَهُ الْأَزَلِيُّ بِلا بداية، الأبدِيُّ بِلا نهاية هو الذي ينشئ المخلوقات كلها ابتداءً، ثُمَّ يعيدهم بعد الموت أحياء، ثُمَّ إليه وحده - أيها الناس - تُرجعون، لحسابه، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه.

١٢ - وَيَوْمَ تَقُومُ سَاعَةُ الْبَعْثِ يَنَاسُ الْكَافِرُونَ الْمُتَبَعَثُونَ فِي الْمَعَاصِي، والمعتدون بذنوب كبيرة من كلِّ خير، ويسكتون وتنقطع حجَّتُهم، وتصيبهم الحيرة.

١٣ - ولم يكن للمشركين في ذلك اليوم من أصنامهم التي عبدوها شفعاء يشفعون لهم عند الله، وكانوا بشركائهم جاحدين مُتَبَرِّئين، يتبرَّون منها، وتبرَّأ منهم، ولكن بعد فوات الأوان، وانتهاء حياة الامتحان.

١٤ - وَيَوْمَ تَقُومُ سَاعَةُ الْبَعْثِ يَوْمُئِذٍ يَفْتَرِقُ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَأَهْلُ الْكُفْرِ، ويتميَّز أصحاب الجنة من أصحاب النار.

١٥ - فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْأَرْكَانِ الْإِيمَانِيَّةِ السَّتَةِ، وعملوا الصَّالِحَاتِ التي تُعبِّرُ عملياً عن صَحَّةِ الْإِيمَانِ الْإِرَادِيِّ الْعَقْدَادِيِّ، فهم في جَنَّةٍ، يتنعمون ويُسرُّون ويكرمون.

١٦ - وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، وكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْكُوفِيَّةِ وَالْبَيَانِيَّةِ وَالْإِعْجَازِيَّةِ وَالْجَزَائِيَّةِ، وأنكروا البعث يوم القيامة، فأولئك البُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ سوف يكونون مَسْجُوقِينَ قَهْرًا إِلَى دَرَكَاتٍ تَعَذِّبُهُمْ فِي جَهَنَّمَ، ومقيمِينَ فِي الْعَذَابِ لَا يَغِيْبُونَ عَنْهُ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ، جزاء ما كَذَّبُوا فِي الدُّنْيَا.

١٧ - فَتَزْهَوِ اللَّهُ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - تَنْزِيهًا عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ، وَصِفُوهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، بِقُلُوبِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَجَوَارِحِكُمْ، وَصَلُّوا لَهُ حِينَ تَدْخُلُونَ فِي الْمَسَاءِ، وَهِيَ: صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَحِينَ تَدْخُلُونَ فِي الصَّبَاحِ، وَهِيَ: صَلَاةُ الصَّبْحِ.

١٨ - وَلَهُ سُبْحَانَةُ الْحَمْدِ وَالثَنَاءِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَدُلُّ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى صِفَاتِهِ الْعَظْمَى، وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَيَحْمَدُهُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيُصَلُّونَ لَهُ، وَصَلُّوا لِلَّهِ عَشِيًّا، وَهِيَ: صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَحِينَ تَدْخُلُونَ فِي وَقْتِ الظُّهْرِ، وَهِيَ: صَلَاةُ الظُّهْرِ.

١٩ - يُخْرِجُ اللَّهُ تَعَالَى الْحَيَّ مِنْ ذَاتِ الْمَيِّتِ؛ فَيَجْعَلُ الْمَيِّتَ حَيًّا بِإِدْخَالِ الرُّوحِ فِي النَّفْسِ بِأَمْرِهِ التَّكْوِينِيِّ الْمُبَاشَرِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ ذَاتِ الْحَيِّ، فَيَجْعَلُ الْحَيَّ مَيِّتًا بِفَضْلِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ، وَيُحْيِي الْأَرْضَ بِالْمَطَرِ وَإِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنْهَا بَعْدَ يُبْسِهَا وَجَفَافِهَا. وَمِثْلُ ذَلِكَ الْإِخْرَاجُ الْبَدِيعُ الْعَجِيبُ الَّذِي تَشَاهِدُونَهُ مِنْ إِحْيَاءِ النَّبَاتَاتِ مِنْ بُزُورِهَا، تُخْرَجُونَ - أَيُّهَا النَّاسُ - مِنَ الْقُبُورِ أَحْيَاءَ يَوْمَ الْبَعْثِ، مِنْ بَزْرَةٍ صَغِيرَةٍ مَحْفُوظَةٍ فِي عَجَبِ الدُّنْبِ، فَتَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ النَّبَاتَاتُ مِنْ نَوَاتٍ بُزُورِهَا، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، وَيَأْمُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ رُوحٍ أَنْ تَدْخُلَ فِي الْجَسَدِ الَّذِي نَمَّا عَلَى مِثْلِ صَوْرَتِهِ السَّابِقَةِ.

٢٠ - وَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ: أَنْ خَلَقَ أَبَاكُمْ أَدَمَ مِنْ تَرَابٍ، وَأَنْتُمْ مِنْ نَسْلِهِ مَخْلُوقُونَ مِنْ تَرَابٍ تَبَعًا لَهُ، كَمَا أَنَّ جَسَدَ كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ تَرَابٍ تَحَوَّلَ بِخَلْقِ اللَّهِ إِلَى غِذَاءٍ، فَدَمَاءٍ، فَطَنَفٍ، فَاجْتَهَتْ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَعْدَ تَقَلُّبِكُمْ فِي أَطْوَارِ التَّكْوِينِ بَشَرًا مَكْتَمَلًا

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَخْلَفَ الْأَسْبَابَ وَالْوُجُوهَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

الخلق، تَنْبَسُطُونَ وَتَنْفَرُّونَ فِي الْأَرْضِ، وَتَنْصَرِّفُونَ فِيهَا هُوَ قَوَامُ مَعَاشِكُمْ، وَتَتَقَلَّبُونَ فِي أَسْفَارِكُمْ ابْتِغَاءَ رِزْقِكُمْ. ٢١ - وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ: أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ جَنْسِكُمْ - أَيُّهَا الرِّجَالُ - أَزْوَاجًا، لِتَمِيلُوا إِلَيْهِنَّ وَتَأْلَفُوهُنَّ، وَتَصِيبُوا مِنْهُنَّ مَتْعَةً وَلَذَّةً، وَجَعَلَ بَيْنَ الرُّوَجِينَ نَوْعًا مِنَ الْحُبِّ الْهَادِيءِ الثَّابِتِ، وَعَاطِفَةً نَفْسِيَّةً تَدْفَعُكُمْ إِلَى الْعَطَاءِ وَالْمُسَاعَدَةِ، وَمُشَارَكَةِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ فِي آلَامِهِ وَأَمَالِهِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعَلَامَاتٍ مُتَعَدَّدَاتٍ جَلِيلَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ تَفَكِيرًا عَمِيقًا مَتَانِيًّا فِيمَا خَلَقَ اللَّهُ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ مِنْ مَوَدَّةٍ وَرَحْمَةٍ، وَسَكَنٍ نَفْسِيٍّ.

٢٢ - وَمِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ فِي كَوْنِهِ الدَّالَّةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَةِ، وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى: خَلَقَ السَّمَوَاتِ مُزَيَّنَةً بِالْكَوَاكِبِ لِلْاهْتِدَاءِ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ، وَبِالسَّمْسِ الَّتِي سَخَّرَ ضَوْءَهَا وَحَرَارَتَهَا لِحَيَاةِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، وَبِالْقَمَرِ لِمَعْرِفَةِ عَدَدِ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ الَّتِي تَسْتَوُونَ عَلَى ظَهْرِهَا، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَأَنْهَارٍ وَبِحَارٍ وَخَيْرَاتٍ عَظِيمَةٍ، وَاخْتِلَافٍ أَلْسِنَتِكُمْ فِي اللُّغَاتِ وَاللَّهْجَاتِ وَأَجْنَاسِ النَّطْقِ وَأَشْكَالِهِ، وَتَبَايُنِ أَلْوَانِكُمْ وَصِفَاتِكُمْ، مَعَ كَوْنِ الْأَصْلِ وَاحِدًا؛ لِلتَّمَايُزِ وَإِمَّاكَانِ التَّعَارُفِ وَالتَّفَاهُمِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْ مُرَادَاتِ الْأَنْفُسِ؛ إِنَّ فِي إدْرَاكِ آيَاتِ اللَّهِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَلُغَاتِهِمْ، وَأَلْوَانِهِمْ، إِنَّمَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ الْعَالِمُونَ الَّذِينَ يَتَابِعُونَ الْبَحْثَ الْعِلْمِيَّ التَّجْرِبِيَّ لِمَعْرِفَةِ أَسْرَارِ نَشْأَةِ وَتَرْكِيبِ وَخُصَائِصِ هَذِهِ الظَّاهِرَاتِ الْكُوفِيَّةِ، الدَّالَّاتِ عَلَى حِكْمَةِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، وَعَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، وَعَلَى إِتْقَانِ صَنْعِهِ لِكُلِّ مَا خَلَقَ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ.

٢٣ - وَمِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ: مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ أَوْ النَّهَارِ لِلرَّاحَةِ مِنْ عَنَاءِ الْكَدِّ وَالْكَدْحِ، وَجَعَلَ سَاعَاتٍ يَقْظَتُكُمْ وَنَشَاطِكُمْ زَمَنًا مَلَانِمًا لَطْلَبِ أَرْزَاقِكُمْ، وَمَطَالِبِ حَيَاتِكُمْ، مِنْ فَضْلِ رَبِّكُمْ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَدَلَائِلَ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سَمَاعًا تَدَبَّرَ وَاعْتَبَارَ. فَنَوْمُ النَّاسِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّاسِ لِكِتْسَابِ الرِّزْقِ وَحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْبَدِئِيَّةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِي إدْرَاكِهَا النَّاسُ جَمِيعًا، مَهْمَا تَنَازَلَتْ مُسْتَوِيَاتُهُمْ الْفِكْرِيَّةُ، فَلَا يَحْتَاجُ التَّبَصُّرُ فِيهَا إِلَى أَكْثَرِ مِنْ لَفْظِ النَّظَرِ بِالْقَوْلِ، وَذَلِكَ كَافٍ بِأَنْ يَشْعُرُوا بِعَجْزِهِمْ، وَبِقُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ.

٢٤ - وَمِنْ دَلَائِلِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ: أَنْ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ مِنْ خِلَالِ السُّحُبِ، فَتَخَافُونَ مِنَ الصَّوَاعِقِ الْمُهْلِكَةِ الْمَدْمُورَةِ، وَتَطْمَعُونَ فِي الْغَيْثِ، وَيُنْزِلُ مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا، فَتَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ وَالرِّبِّ لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ بَعْدَ يُبْسِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَدَلَالَاتٍ مُتَعَدَّدَاتٍ جَلِيلَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ الْأُمُورَ عَقْلًا عِلْمِيًّا فَيَفْهَمُونَهَا عَلَى وَجْهِهَا، وَلِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ بِإِرَادَاتِهِمْ الْقُوَّةَ نَفْسَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهِمْ عَنْ ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي.

وَمَنْ عَائِنَهُ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ
دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَنِينٌ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ
أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي
مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ
أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْرَعُوا وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا
دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

٢٥ - ومن الدلائل على كمال قدرته وحكمته: دوام قيام السموات والأرض، واستمسكتهما وبقاؤهما بأمره التكويني وسلطانه الدائم على كل شيء في كونه، ثم إذا دعاكم بعد موتكم - أيها الناس - للبعث دعوة من القبور، تُفاجؤون بأنكم تخرجون منها أحياء للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٢٦ - ولله سبحانه وحده كل من في السموات والأرض من أحياء ذوي علم، كل له خاضعون مطيعون لأمره سبحانه، إما بالاختيار، وإما بالجبر، فمن لم يكن مطيعاً لأمر الله التكليفي، كان مطيعاً وخاضعاً لأمر الله التكويني بالقهر والجبر.

٢٧ - والله وحده الذي يبدأ الخلق من العدم، ثم يعيدهم إلى مثل ما كانوا عليه قبل أن يميتهم، ويُنفي أجسادهم، وهذا الخلق الثاني في مقاييسكم - أيها الناس - أهون عليه، لأنكم ترون أن البدء على غير مثال سبق أصعب من الإعادة، مع أن الإعادة بالنسبة إلى الله سبحانه مثل البدء؛ لأنه إذا أراد أن يخلق شيئاً، فإنما يقول له: كن، فهو يكون فوراً، بدون فاصل زمني، وله سبحانه الوصف الأعلى في خلقه للسموات والأرض، فهذا الخلق أكبر من خلق الناس، وهو مثل أعلى من قدرة الله عز وجل على الخلق، وخالق المثل الأعلى قادر على خلق المثل الأدنى بذهاءه، وهو ذو القوة الغالبة، الحكيم الذي يجري خلقه وتصاريقه على أفضل الاحتمالات وأحكمها، لما يُعطي أفضل النتائج.

٢٨ - بين لكم شبهاً بحالكم - أيها المشركون - ذلك الشبه مُنتزع من أنفسكم، لتقيسوا عليه: هل يشارككم عبيدكم في أموالكم التي أعطيناكم، فأنتم وهم مُستورون في التصرف فيها؟ تخافون هؤلاء العبيد خيفة كأنه مثل خيفتكم من هو من نوعكم، فلا تتصرفون في شيء مما تملكون دون إذنتهم، كما يخاف الحر أن يستبد بالتصرف في المال دون شريكه الحر؟ فإذا لم تخافوا هذا من مَماليككم، ولا ترضون لأنفسكم أن يشاركوكم فيما رزقناكم من الأموال ونحوها، وهم

أمثالكم في البشرية غير مخلوقين لكم. فكيف تشركون به سبحانه في الإلهية مخلوقاته؟! بل مصنوع مخلوقاته؟! حيث تصنعونهم بأيديكم، ثم تعبدونهم من دونه؟! كذلك التفصيل الذي فصلناه في هذا المثل الإقناعي لإبطال الشرك نُفصل الدلالات والبراهين والأمثال لقوم يعقلونها ويفهمون دلالتها، ويتبصرون فيها، ويعقلون عقلاً إرادياً، فيحجزون أهواءهم ونفوسهم عن الاستمسك بالباطل واتباعه.

٢٩ - لا حجة للذين أشركوا، ولكن اتبع الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله أهواءهم الطائشة، وما تميل إليه نفوسهم؛ جهلاً منهم بغير علم، ودون تبصر بالعواقب، ولو أنهم كانوا على حذر من أهوائهم، وبصر بعواقب أمورهم لشدوا لجام أهوائهم، واستقاموا على سبيل الهدى، ولكنهم اتبعوا أهواءهم بغير علم، فكانوا من الضالين الظالمين لأنفسهم، وإذا قد ضلوا بإرادتهم الحرة فلا بد أن يُضلهم الله بأن يحكم عليهم بالضلالة، ومن يستطيع أن يحكم بهداية من حكم الله عليه بالضلالة؟ لأنه انزل إلى مواطن الظلم والكفر بإرادته الحرة، واتباع أهواء نفسه، وما لهم من ناصرين ينصرونهم فيدفعون عنهم عذاب الله.

٣٠ - فلازم - أيها الموضوع في الدنيا موضع الامتحان - توجية إرادتك باستقامة على صراط الله، مائلاً عن كل العقائد والمذاهب والأديان المخالفة لدين الله الحق، الزموا دين الإسلام والتوحيد، قابلين له، مُتساقين إليه، لا تبديل لدينه الذي خلق الله الناس عليه، إذا خلوا وأنفسهم، دون أن تعترضهم الأهواء والوساوس، فلا تبدلوا التوحيد بالشرك، ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له: هو الدين المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ولا انحراف عن الحق بحال، وهو القيمة الحقيقية العظيمة الجليلة بين كل المذاهب والأديان والاحتمالات الفكرية المخالفة له، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة؛ لأنهم صرفوا أذهانهم عن التبصر فيها، ومحاولة إدراكها؛ إذ ربطوا أنفسهم بحب العاجلة، وترك الآخرة، والتولي عنها.

٣١ - وكونوا راجعين إلى الله بالرجوع إلى فطرتكم التي فطركم عليها، ومُقبلين إليه سبحانه بالطاعة، واجعلوا بينكم وبين عذابه وسخطه وقايةً بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، ودواموا على أداء الصلوات الخمس في أوقاتها بحدودها وإتمام أركانها، وحفظها من أن يقع فيها خلل، ولا تكونوا من المشركين بربوبية الله، ولا بالإلهية، ولو كان شركاً خفياً، كتصور أن الأسباب ذات تأثير ذاتي بمسبباتها، وكاتباء مُراءات العباد في الأعمال، لتحصيل منافع دنيوية.

٣٢ - ولا تكونوا من المنتمين إلى اليهودية والنصرانية الذين بللوا دينهم، وغيره، فأخذوا بعضه، وتركوا بعضه، وصاروا فرقا مختلفة في الدين، كل فرقة تُشايح إمامها الذي أضلها. كل جماعة تشاكلت مبادئهم وأهوائهم، واتفقت أعمالهم بما لديهم مما ابتدعوه من شركات مسرورون راضون؛ لأن هذه المبتدعات تخدم مصالحهم ومنافعهم من دنياهم، ولا سيما أثمتهم وقادتهم.

٣٣ - وإذا مسَّ النَّاسَ سُوءٌ فَهُمْ مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَتَاتِ ذَا الْقُرْنَى حَقَّهُ وَالْمُسْكِينِ وَابْنُ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَاءٌ أَنْبَتْنَا رَبًّا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَاءٌ أَنْبَتْنَا مِنْ دَكْوَنٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَنَعْلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفُسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

٣٤ - والباعث لهذا الفريق على شركهم، رغبتهم بجُحود ما آتاهم الله من فضله، حتى لا يشعروا بأنهم مُلزَمون بشكر الله بالعمل بمراضيه، فتمتّعوا - أيها الكفار - بتحقيق لذاتكم وما يَسُرُّكم في هذه الدنيا، فسوف تعلمون مصير كفركم في الآخرة، وما تَلْقَوْنَه من العذاب الأليم.

٣٥ - بل أنزلنا على هؤلاء المشركين عن طريق رسولٍ من رُسُلنا، حُجَّةً وبرهاناً في كتابٍ صادقٍ من كتبنا، فهو ينطق بصحّة ما كانوا في حياتهم الدنيا يشركون به؟ إننا لم نُنزل كتاباً فيه آياتٌ يتكلّم تالوه بصحّة ما كانوا يشركون به.

٣٦ - وإذا أذقنا الناس نعماً هي من آثار رحمتنا، فرحوا وبطروا ولم يشكروا ربّهم على نعمه، وإنّ تنزل بهم أحياناً نادرة سيئة تُصِيبهم في أنفسهم، أو أهلهم، أو أموالهم؛ بسبب ما كسبت أيديهم من السيئات، يُفاجئون مُراقبهم المُتأمل في أحوالهم بأنهم يَنَاسُونَ من رحمة الله.

٣٧ - أَنْطَمَسَتْ بصائرهم، ولم يَرَوْا رؤية علميّة، شبيهة بالرؤية البصريّة، أنّ الله يُوسِّع الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ من عباده العاصين والطائعين، وَيُضَيِّقُ الرِّزْقَ وَيَقْلِلُهُ على مَنْ يَشَاءُ ابتلاءً وامتحاناً، بحسب ما تَقْتَضِيهِ حكمته؟ ولا يدلُّ البسْطُ على رضا الله تعالى، ولا التضيقُ على سَخَطِهِ؛ إنّ في ذلك التوسيع والتضييق والتفضيل بين العباد آيات متعديّات على حكمة الله في اختياراته، يُدركها القوم المُسْتَعِدُّون لأنّ يؤمنوا بحكم الله الجليلة، في اختياراته لعباده وما يريده لهم من بسط

وقبض، وعطاء وإمساك.

٣٨ - أيها المؤمن - صاحب القرابة منك حقّه من البرّ والصلة، والمودة والزيارة، وحُسن المعاشرة، وإنّ كانوا محاييج وأنت مُوسرٌ فأنفق عليهم، وتصدّق على المسكين الذي يتعرّض بالسؤال، ويُعلن أنّه ذو حاجة، وآتِ المسافر المنقطع عن أهله وماله، ليعود إلى بلده ودار إقامته، ذلك الإعطاء لذوي القربى، والمسكين، وابن السبيل، خيرٌ للذين يطلبون ثواب الله بما كانوا يعملون، وأولئك الفضلاء بعيدو المنزلة، رفاعو المكانة هم الفائزون بثواب الله، الثَّاجُونَ من عقابه.

٣٩ - وما أعطيتُم قرضاً من المال بقصد الربا؛ ليزيد وينمو في أموال الناس، فيدفعوا لكم أَجَرَ مرور الزمن على الأموال التي هي لكم عندهم، مُستغلّين ضروراتهم وحاجاتهم، فلا يزيد عند الله، بل يَمْحَقُهُ وَيَبْطُلُهُ. وما أعطيتُم من صدقة، تريدون بتلك الصدقة وَجْهَ اللَّهِ، فأولئك الفضلاء رفاعو المنزلة عند الله هم الذين يُضَاعَفُ لهم الثواب أضعافاً كثيرة.

٤٠ - الله سبحانه الذي خلقكم - أيها الناس - خَلَقَ إبداعاً على غير مثالٍ سبق، وَخَلَقَ تصويراً، فَجَعَلَكم في أحسن تقويمٍ نفسي، وأحسن صورةٍ جسديّة، ثم بعد أن نفخ في أجسادكم الرُّوحَ الإنسانيّة، رزقكم بِالطَّافَةِ الخفيّة من دماء أمهاتكم، ثم بالرزّاع، فالطعام والشراب طَوَالَ حياتكم، ثُمَّ يَمِيتُكم عند انتهاء آجالكم في الحياة الدنيا، ثُمَّ يبعثكم من قبوركم للحساب والجزاء، هل بعضُ شركائكم الذين تعبّدونهم من دون الله، مَنْ يَخْلُقُ أو يَرْزُقُ، أو يُمِيتُ أو يُحْيِي؟! تنزّه الله وتسامى عن كلّ ما يجعله المشركون شركاء له في ربوبيّته أو في إلهيّته.

٤١ - تدخلُ الناس في تغيير نظام الله في كونه، فظهر بسبب تدخلهم فسادٌ خطيرٌ في البرّ والبحر والجوّ الجامع لهما، ومن ذلك: تصحّر البيئة بسبب الإسراف في قطع الأشجار، وتلوّث الهواء والماء بسبب مُخَلَّفَاتِ الآلات الصناعيّة المُفْسِدة، وظهور الأمراض المُستعصية على العلاج، وإفساد نظام الأسرة والعلاقات بين الرجال والنساء؛ لنذيقهم بعض ما كسبت أيديهم من المكاره والآلام والعقوبات، رغبة في أن يرجعوا عن تماديهم في تدخلاتهم المُفْسِدة في نظام الله في كونه. وتحقّق هذه الآية في زماننا من معجزات القرآن الخبريّة التي تحدّثت عن غيب المستقبل.

٤٢ - قُلْ - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أُمَّته - للناس جميعاً: سيروا في نواحي الأرض سَيْرَ عَتَبَارٍ وتفكروا، حتى تصلوا إلى ديار المهلكين السابقين، فانظروا كيف كان عاقبة الأمم السابقة المكذبة، وتفكروا كيف أهلكهم الله إهلاكاً جماعياً مُستأصلاً، فسترون منازلهم وقصورهم ومعابدهم الوثنية خاوية؛ بسبب أن أكثرهم كانوا مشركين في ربوبية الله، وفي إلهيته، واتخذوا من دون الله آلهة باطلة، وزعموا أنها تجلب لعبادها نفعاً، وتدفع عنهم ضرراً.

٤٣ - فاجعل اتجاه حركة حياتك - أيها المُنْتَحَن في هذه الحياة الدنيا - مُلَازماً لأداء واجبات الدين ونشره والدعوة إليه، واستمسك به من قبل أن يأتي يوم القيامة، لا يقدر على رده أحد من الخلق، يوم يأتي ذلك اليوم يتفرق الناس إلى أقسام متعددة، وزمر مختلفة بحسب ما قَدَّموا لآخرتهم.

٤٤ - مَنْ كَفَرَ ومات وهو كافر، فعليه وبال كفره، بخلوده في عذاب جهنم، وَمَنْ عمل عملاً صالحاً يُعَبِّر به عن صحة إيمانه الإرادي الاعتقادي، فلأنفسهم يُوطنون منازل في الجنة، كما يُوطىء الرجل لنفسه فراشاً؛ لثلاث يصيبه في مضجعه ما ينقص عليه رقاذه أو يؤذيه.

٤٥ - لِيُثِيبَ الله الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات من فضله وإحسانه ثواباً أكثر من أعمالهم، أما الكفار فلا نصيب لهم من فضله، بل يكون نصيبهم من عدله، وهو الخلود في عذاب النار خلوداً لا نهاية له؛ لأنه سبحانه لا يحب الكافرين؛ لسخطه وغضبه عليهم.

٤٦ - ومن العلامات الدالات على طائفة من صفات الله وأسمائه الحُسنى: إرساله أنواعاً من الرياح مُبَشِّرَات بِسُحُب ذات غيث، يُثَبِّت الزرع، ويفيض به الرزق على الناس وسائر الأحياء، وليذيقكم من آثار رحمته بإنزال المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، ولتجري السفن بهذه الرياح في البحر بأمره ومشيته، ولتطلبوا - أيها الناس - بركوب السفن، وبتشجير الله إياها لكم من فضله، جَلْبَ أرزاق، واستخراج لحم طري، ونقل بضائع تجنون منها أرباحاً عن طريق التجارة مع أهل بلدان نائية، وغير ذلك من مصالح ومنافع لكم، ورغبة في أن تشكروا ربكم - أيها الناس - على ما تفضل به عليكم من نعمه.

٤٧ - ونؤكد توكيداً مُشدداً أننا أرسلنا من قبلك - يا رسول الله - رُسلاً كثيرين إلى أقوامهم، فجاءوهم بالدلالات الواضحات، والمعجزات الساطعات الدالات على صدقهم، فكذب أكثرهم برسُلنا، فعذبنا الذين كذبوهم، ونصرنا الرُّسل وأتباعهم المؤمنين، وكان واجباً علينا نصر المؤمنين على أعدائهم المجرمين، ألزمتنا به أنفسنا فيما دبرناه وقرنناه من تصاريفنا لعبادنا.

٤٨ - الله سبحانه هو وحده الذي يُرسل الرياح على اختلاف أنواعها، وشِدَّتْها وضعفها، ودرجات حرارتها وبردوتها، فتتشر الرياح السحاب وتُحرَّكه وتهبِّجه، فيمدُّه الله في السماء كيف يشاء هنا وهناك في قلة أو كثرة، ويجعله قِطْعاً مُتَفَرِّقة، فتري - أيها الراثي - المطر يخرج من خلال السحاب وفُرْجه، بتقدير الله وقضائه وعلمه وحكمته، فإذا أصاب الله بالمطر مواضع حاجات ومطالب مَنْ يشاء من عباده، فاجزوا الناظر إليهم المتفكر في أحوالهم بأنهم يفرحون ويُسرُّون.

٤٩ - وقد كان شأنهم من قبل أن يُنْزَلَ عليهم المطر - لتطاول عهدهم به واحتباسه عنهم - ساكتين من شدة الحزن، قد استحکم بأسهم من نزوله، لا يملكون وسيلة يجلبون بها ما يغنيهم لأنفسهم وأرضهم وبهائمهم وسائر ما يحتاجون فيه إلى الماء.

٥٠ - فانظر - أيها الناظر المتفكر المُتَدَبِّر - نَظَرَ تفكر وتدبر إلى آثار رحمة الله في كونه، وتصاريف خلقه: كيف يُحيي الله الأرض، بإخراج نباتها وزروعها وأشجارها وثمراتها بالماء الذي يُنْزَل من السماء، فيختلط بتراب الأرض، ثم يختلط بالبرور والجذور، فتتنامى بخلقها، حتى تكون الزروع والأشجار على وَجْه الأرض مختلفة الأجناس والأنواع؟! إن ذلك العظيم الجليل القدير الذي أحيا الأرض بعد موتها، لمُحيي الموتى من الأحياء جميعاً، وهو - جلَّ جلاله - عظيم القدرة على إيجاد كل شيء يشاء بإيجاده، وعلى إعدام كل شيء يشاء إعدامه، ومشيتته سبحانه في الإيجاد والإعدام لا تتعلق إلا بالجائزات العقلية، فلا تتعلق بالواجبات العقلية، وهي ذاته وصفاته، ولا بالمستحيلات العقلية، كإيجاد ربِّ مُماثل له، وكالجمع بين النقيضين.

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقْرَجَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ
مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَذِي بَصْدَعُونَ ﴿٤٣﴾
مَنْ كَفَرَ فَلْيَكْفُرْهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ بِهِ هُدُونَ ﴿٤٤﴾
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَنْ أَيْبَسَهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ
مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَفَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُشِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ
فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَن يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتِينَ
﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

٥١ - وأقسم لئن أرسلنا ريحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ. يَكْفُرُونَ نباتهم قد فسد بتلك الريح، فصار من بعد خضرته مُصْفَرّاً، لأعلنوا إيمانهم وتوبتهم، ولاستمزوا دوماً بعد أن يصرف الله عنهم العذاب يكفرون بالله وآياته.

٥٢ - فَإِنَّكَ - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته - لا تُسْمِعُ الكفار موتى القلوب، الذين فقدوا كلَّ الحواس الظاهرة والباطنة التي تستثيرها دعوة القرآن؛ وإنك لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الذين انصرفت نفوسهم عن استماع كلِّ ما يتعلّق بقضايا الدين انصرافاً كليّاً، إذا نفروا من دعوتك، وتولّوا عن قبول مواجهتك، وإبتعدوا مدبرين، وبانعدام الاتصال ينعدم التلقّي والاستجابة، لأنَّ كلَّ أجزاء أسماعهم متّصلة بأمور شهواتهم وأهوائهم ومطالبهم من دنياهم، فلا تحزن من عنادهم وعدم استجابتهم لك، ولا تُنفق وقتك وطاقاتك طمعاً في هدايتهم، فإنهم كالموتى والصُّمَّ لا يسمعون، ولا يشعرون ولو كانوا حاضرين، فكيف إذا فرّوا عنك مدبرين؟

٥٣ - وما أنت - يا أيّها الداعي إلى الله - بهادي عُمي القلوب، صارفاً لهم عن ضلالتهم؛ بسبب إعراضهم الإرادي عن الحقِّ والرّشاد، ورؤية آيات الله في كونه، ما تُسمع سماع فهم وقبول إلا من يُصدق بآياتنا البيانية والكوينية والإعجازيّة والجزيّة تصديقاً صحيحاً دافعاً إلى الطاعة، فهم خاضعون منقادون مستجيبون لما دَعَوْتهم إليه.

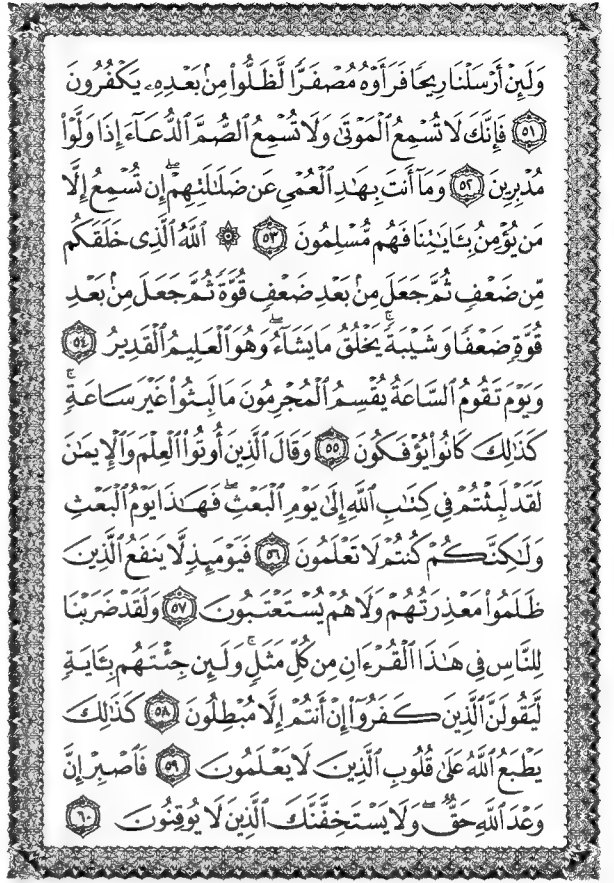
٥٤ - الله تعالى هو الذي بدأ خلقكم من نُطفة، وأنشأكم على ضعف حال الطفولة، ثمَّ جعل الله فيكم من بعد ضعف الطفولة، شيئاً من القوة النسيئة التي تتدرّج مُتصاعدة حتى تبلغوا كمال قوّتكم، وهي قوّة الشباب، ثمَّ جعل الله بعد هذه القوّة ضعف الكبر والهَرَم، وضعف الشيخوخة والشَّيْب، فتتناقص لديكم هذه القوة تدريجياً حتى تصل إلى تمام الضعف ونهاية الكبر، إذا كنتم من المُعَمَّرين، أو توافيكم منايكم قبل ذلك، يخلق الله ما يشاء خلقه من الضعف والقوّة، والشباب والشَّيْب، وهو العليم بتدبير خلقه، القدير على ما يشاء.

٥٥ - ويوم تقوم ساعة البعث إلى الحياة الأخرى للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يحلف غلاة الكفرة، المُتبعثون بارتكاب الآثام الكبرى قائلين: ما أقاموا في مدافهم بين الموت والبعث غير فترة قصيرة من الزمن؛ لأنَّ الإحساس بالزمن ومروره، يُلغى من إدراك أرواحهم ونفوسهم، وهم ميّتون قد انفصلت أرواحهم عن أجسادهم، كذلك كانوا يُصْرَفُونَ عن الحقِّ في الدنيا، بزعمهم أن لا يبعثوا.

٥٦، ٥٧ - وقال الذين أوتوا العلم والإيمان من الملائكة والأنبياء والمؤمنين للمجرمين الذين كانوا في الحياة الدنيا كافرين بأنباء يوم الدين: لقد مكثتم في مُدَّة البرزخ زمناً مكتوباً قضاءه الله وقدره وكتبه في اللوح المحفوظ، حتى بُعثتم إلى يوم الدين، فهذا اليوم الذي أنتم فيه الآن هو يوم البعث الذي كنتم تنكرونه في الحياة الدنيا، ولكنكم كنتم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا مُكذِّبين كافرين بيوم الدين، لا تعلمون هذه الحقيقة لأنكم كنتم مصروفين عنها، للاستمتاع بأنواع فجوركم، كافرين بما جاء به رسول ربكم من حق. فيوم تُقُومُ ساعة البعث، وتُحْضَرُ محكمة العدل الربانيّة، لا ينفع الذين كفروا حُجُجهم الكواذب التي يُقَدِّمونها، لسُتْر ذنوبهم، ولا يُستجاب لطلبهم رَفَع الملام والعُتْب والمواخظة عنهم، مهما تذللوا وخضعوا داعين أن يرفع الله عنهم العقاب، فقد انتهت حياة الابتلاء، وجاء يوم الجزاء.

٥٨، ٥٩ - ونقسم مُؤكِّدين أننا بيّنا للناس في هذا القرآن من كلّ قضية من القضايا الدينيّة أشباه ونظائر يُقاس عليها؛ رغبة في أن يتذكروا، وينزجروا عمّا هم عليه من الكفر، وأقسم لئن جئت - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - هؤلاء المعاندين المُتعتِّين بأية كونيّة أو بيانية دليلاً على ما تعرضه من قضايا الدين، ليقولنَّ الذين كفروا منهم للرسول وللذين آمنوا معه بمكابرة وعناد: ما أنت وأنباعك إلا على باطل في دعواكم. لقد أصروا على رفضهم وعدم استجابتهم للحقِّ، أتباعاً لأهوائهم وشهواتهم، وبسبب ذلك جرّت فيهم سُنن الله السببيّة، فاقفلت قلوبهم، وطبع على إقفالها، فهي لا تستقبل الحقَّ، ولا تستجيب له، كما طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية؛ بسبب ما كسبوه بإراداتهم الحرّة من الكفر والتكذيب، ومثل ذلك الطّبع يطبع الله على قلوب سائر الذين لا يعلمون حقائق الإيمان لمخالفتها لأهوائهم وشهواتهم ورغبات نفوسهم.

٦٠ - فاصبر - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - على ما ينالك من أذى قومك وتكذيبهم لك، واستمرّ مُتَحلياً بالصَّبر، حتى يأتي وعد الله؛ إنَّ وعد الله حقٌّ في نصرّك وإظهارك على عدوك، ولا يحملُك على الخِفة والعَجَلَة وعدم الصَّبر الذين لا يوقنون بالبعث والحساب والجزاء.



سُورَةُ الْقُشْمَانِ

الجزء الثاني من القرآن

سُورَةُ الْقُشْمَانِ



١ - ﴿الرَّحْمَنُ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

٢ - تلك الآيات العظيمة الرفيعة المكانة السامية الرتبة، آيات الكتاب ذي الحكمة البالغة في ألفاظه ومعانيه، علامات دالات على كونها منزلات من عند الله العليم الحكيم. والذي يجب على المؤمنين تدوينه بالكتابة، وجعله بين الناس كتاباً محرراً يرجعون إليه، محمياً من التحريف والتغيير، بالزيادة، أو بالنقص، أو بالتبديل.

٣ - هذه الآيات حال كونها هدى ودلالة على الحق والرشد، ورحمة شاملة لأهل مرتبة الإحسان؛ لأنهم يتلونهم ويتدبرونها ويعملون بما جاء فيها من هدى.

٤، ٥ - المحسنون هم المتصفون بالأوصاف الثلاثة: الأول: الذين يؤدون الصلاة كاملة في أوقاتها، والثاني: ينفقون من أموالهم في وجوه الخير التي أمر الله بالإنفاق فيها، والثالث: هم بالبعث والجزاء يوقنون يقيناً كاملاً. أولئك المتصفون بهذه الأوصاف الثلاثة متمكنون من الهدى الذي جاءهم من ربهم، وأولئك هم - دون غيرهم - الفائزون في الدنيا والآخرة.

٦ - وفريق من الناس من يبذل ماله لا يستمتع بالحديث الذي يلهي عن طاعة الله، ويصد عن مرضاته؛ ليضل غيره عن دين الله وسماع القرآن، ويتخذ لذلك وسائل شتى من الملهيات والمسلات السمعية والبصرية وغيرها، فيملأ بها أوقات الذين يريد إضلالهم، ويستنفذ بها طاقتهم الفكرية والنفسية والجسدية، يفعل ذلك عن جهل، ولو عقل هؤلاء لسمعوا فيما فيه فائدتهم ومنفعتهم العاجلة أو الآجلة، ويتخذ هذا الفريق خطة أخرى لتبرير عدم استجابته للحق، ولصد

غيره عن اتباعه، وهي خطة الهز والسخرية، ويجعل سبيل الله الموصلة إلى السعادة الأبدية شيئاً مهزوءاً به، أولئك البعداء المُنحدرين في اتجاه الدرك الأسفل لهم عذاب يهيئهم ويدلهم.

٧ - وإذا تئلى على هذا الضال آيات القرآن أدبر ونأى عنها جسدياً أو نفسياً، مترفعاً عنها بشدة، لا يعاب بها، ولا يرفع لها رأساً، يشبه حاله في نفوره النفسي عن آيات الله حال من لم يسمعها، كأف في أذنيه صمماً وثقلاً شديداً مانعاً عن السمع، فبشره - أيها المؤمن - متهكماً به بعذاب مؤلم موجه في النار يوم القيامة.

٨، ٩ - إن الذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة، وعملوا الصالحات التي تعبر عملياً عن صحة الإيمان الإرادي الاعتقادي، لهم بفضل الله ورحمته جنات النعيم المقيم يوم الدين، حالة كونهم خالدين فيها خلوداً أبدياً بلا نهاية، وعدهم الله ذلك وعداً، وحقه حقاً، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، وهو القوي الغالب الذي لا يغلب، الحكيم الذي يضع كل شيء في الموضع الملائم، ويقدر ويقضي على أكمل وجه وأحسنه وأتقنه.

١٠ - من آيات الله في كونه الدالات على قدرته العظيمة، وحكمته البالغة، أربع آيات ظاهرات: الأولى: خلق الله السموات وزعمها بغير عمد تراها العيون، لكنها جاذبات هي بمثابة عمد، ذات قدرات تحدد مواقع السموات السبع وكل شيء فيها، فلا تتحرك إلا بنظام رباني يمنعها من التصادم ما لم يقض الله بشيء من ذلك، والآية الثانية: ألقى الله في الأرض جبلاً ثوابت راسيات؛ منع أن تتحرك بكم الأرض وتضطرب، والآية الثالثة: نشر في الأرض وفرق من كل جنس، ونوع، وصنف ممّا خلق من الدواب، والآية الرابعة: أنزلنا من السحاب مطراً، فأنبتنا به في الأرض من كل صنف من أصناف الزروع وأشجار والثمار، كريم جامع للصفات النافعة المحمودة بالنسبة إلى صنفه.

١١ - هذا الذي ذكرت ممّا تزوّن - أيها المشركون - من الظاهرات الكونية الأربع هو من آثار خلق الله، فأروني - أيها المشركون - بمشاهدة حسية، أو بدليل عقلي في رؤية ذهنية فكرية: ماذا خلقت آلهتكم التي تعبدونها من دون الله؟ إنهم لا يستطيعون أن يثبتوا أن شيئاً من الكون من خلق آلهتهم، بل المشركون في ضلال عن الحق جلي واضح.

١٢ - ونقسم مُؤكِّدين لكم أننا آتينا لُقمان العلم والعمل والإصابة في الأمور، وقلنا له: اشكر الله؛ ومن يشكر الله بالإيمان والحمد والطاعة والعمل بمراضيه، فإنما يعود نفع شكره عليه؛ لأن الله يجزيه على شكره ثواباً عظيماً، ومن لم يشكر الله بالإيمان والحمد والطاعة والعمل بمراضيه، يعود عليه وبالٌ كفره، والله غنيٌّ بذاته غير محتاج إلى شكر الشاكرين، محمودٌ من كل شيءٍ في الوجود.

١٣ - وضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي آيات كتاب الله - نصيحة لقمان لابنه، وهو ينصحه نصحاً مقررناً بما يثير الرغبة والرغبة: يا بُنيَّ القريب من قلبي، والحبيب لي: لا تجعل الله في اعتقادك أو عملك شريكاً له في ربوبيته لكونه، أو في إلهيته؛ لأنَّ التسوية بين مَنْ يستحقُّ العبادة، وبين مَنْ لا يستحقُّها ظلمٌ عظيم، بوضع العبادة في غير موضعها.

١٤ - ونصحن الإنسان نصحاً مؤكداً بعهد أن يبرَّ والدَّيه، ويحسن إليهما، ويطيع أمرهما في المعروف، ويجعل أمه أوفر نصيباً، حمَلته أمه حملٌ ضعيفٌ في حالتها النفسية، على ضعف في قواها الجسدية، ثم بعد آلام الوضع ومتاعب النفاس تعاني الأم من متاعب الإرضاع والتربية، ويكون فطامه عن الرضاع في مدة سنتين لمن أراد أن يتمَّ الرضاعة الفضلى، وقلنا له: اشكر الله على نعمه التي لا تحصى، بعبادته والتقرب إليه بمراضيه، واشكر لوالدك على ما تحملاً وما قدماً في تنشئتهما وتربيتهما من عطاءات كثيرة، إليَّ وحدي المرجع للحساب والجزاء، فأثيب على الشكر، وأعاقب على الجحود والكفر.

١٥ - وإن اشتدَّ عليك بالطلب - أيها الابن المؤمن - مُكرهين لك على أن تُشرك بي شريكاً ما، لا تعلم أنه يستحقُّ العبادة، فلا تستجب لهما في ذلك؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق،

ورافقهما في أمور الدنيا مُصاحبةً حسنةً، وقدم لهما معروفاً، كمالٍ وتكريم وخدمة، وأتبع في مسيرتك في حياتك سبيل المؤمنين؛ لأنهم هم الذين رجعوا إليَّ بالإيمان والعمل الصالح والتوبة من الذنوب، ثم إليَّ بعد رحلة الامتحان في الدنيا، وبعد موتكم رجوعكم، ومكان رجوعكم، وزمانه، فأخبركم بما كنتم تعملونه في الدنيا من خير أو شر؛ لأجازيكم عليه.

١٦ - يا بُنيَّ القريب من قلبي، والحبيب لي: إنَّ الغائبة عند الخلاق إنَّ كانت في الصغر قدر حبة من خردل، فتكن هذه الغائبة الخفية مع صغرها في باطن صخرة، أو في مكانٍ ما من السموات، أو في مكانٍ ما من باطن الأرض، يأت بها الله من مكانها التي هي فيه؛ لأنه عالمٌ بها قادرٌ على استخراجها، إنَّ الله لطيفٌ يُجري تدابيرَه وأفعاله برفق تام، ينفذ بصفاته إلى أعماق كلِّ موجود خلقاً وإمداداً، وعلماً وتصاريق، عليمٌ علماً كاملاً شاملاً، لكلِّ ظواهر الأشياء وبواطنها، علم حضور وشهود وتبدير.

١٧ - يا بُنيَّ القريب من قلبي، والحبيب لي: إني أوصيك بهذه الوصايا الثمانية بعد أن أوصيتك بعهد مؤكَّد مُشدَّد: أن لا تُشرك بالله. الوصية الأولى: أذ الصلاة تامةً بأركانها وشروطها وواجباتها، الوصية الثانية: وأمرٌ بالمعروف الذي يعرفه الشرع والعقل، الوصية الثالثة: وأنه عن المنكر الذي ينكره الشرع والعقل، الوصية الرابعة: وسيصيبك أذى من الذين تأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، فاضبر على ما أصابك؛ إنَّ ذلك الضبر على ما يصيب القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحتاج إرادةً قويةً رفيعة هي من مستوى العزم الذي يدفع أصحابه إلى تنفيذ ما يريدون ممَّا يرضى الله، ولو اقترن به تحمُّل أشدَّ الصعوبات، وأعظم الآلام.

١٨ - الوصية الخامسة: ولا تتكبر فتحقر الناس، وتعرض بوجهك عنهم إذا كلموك، كما يفعل أهل الكبر، الوصية السادسة: ولا تمش في الأرض مُختلاً متبخرّاً في مشيتك؛ إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ مُختلٍ في مشيه، مستكبر عليهم بإعراضه عنهم، مبالغ في الفخر على الناس بنفسه، أو بما آتاه الله من قوَّة، أو مال، أو نسب، أو جاه، أو ذكاء، أو جمال وجهٍ وحسن طلعة، ومن لا يحبه الله فإنه يُعرض نفسه لعقابه.

١٩ - الوصية السابعة: وليكن في مشيتك توسُّطٌ بين الإسراع والتأني، في سكينته ووقار، الوصية الثامنة: واخفِض من صوتك بقدر حاجة المستمعين؛ إنَّ رفع الصوت دون حاجةٍ إلى رفعه من صفات الحمير، فلا تكن - يا بُنيَّ - مُتصفاً بصفة هي من صفات الحمير التي تنهقُ فترفعُ أصواتها المنكرة؛ إنَّ أقبح الأصوات وأكثرها تضريراً للأسماع لصوت الحمير.



٢٠ - أَلَمْ تَرَوْا - أيها الصالحون لمثل هذا الخطاب - رؤية فكرية وبصرية، أن الله دُلِّلَ لكم بتقديره وقضائه جميع ما في السموات وما في الأرض، وأتمم وأكمل ووَسَّعَ عليكم - أيها الناس - نعمه الكثيرة التي لا تستطيعون إحصاءها، حالة كون هذه النعم ظاهرة مشهودة لكم، وباطنة لا تشاهدونها بأبصاركم، ويوجد فريق من الناس كفار برئهم على الرغم من كل البراهين والأدلة العقلية والآيات الكونية الدالات على ربوبية الله ووحدانتيه، وهؤلاء الكفرة يجادلون في وحدانية الله، وعظيم قدرته، وسامي حكمته بغير برهان عقلي مُستند إلى مُقدمات عقلية، ولا علم تجريبي، ناتج عن تجارب مُتكررة، ولا علم خبري آت عن طريق كتاب منير الدلالات، صحيح الثبوت.

٢١ - وإذا قيلَ لهؤلاء الكفرة المشركين المُقلِّدين لآبائهم: اتَّبِعُوا ما أنزلَ الله من حقائق إيمانية، وشرائع وأحكام على نبيه محمد ﷺ. قالوا: لا نَتَّبِعُ ما تدعوننا إليه، بل نَتَّبِعُ ما وَجَدنا عليه آباءنا من عقائد شركية. أيعاندون مُصرِّين على اتِّباع آبائهم، ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب النار المُستعرة يوم الدين؟

٢٢ - وَمَنْ يَكُنْ منقاداً في رحلة امتحانه لأوامر الله ونواهيه من قِبَل وجهه طائعاً مختاراً، والحال أنه مُحسِنٌ عبادته وطاعته لربه، فقد اعتَصَمَ بالعهد الأوثق الذي لا يُخَافُ انقطاعه، ويرتقي بسببه إلى أعلى المراتب والغايات في جنَّات النعيم، وإلى الله وحده مصيرُ جميع الأمور، ويُجازي الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، بفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدين.

٢٣ - وَمَنْ كَفَرَ من قومك فلم يستجب لدعوتك، فلا يحزنك - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله - جحوده وإعراضه، إلينا وحدنا

مرجع هؤلاء يوم القيامة، فنخبرهم بأعمالهم الخبيثة التي عملوها في الحياة الدنيا، ثم نُجازيهم عليها، ونكشف ما كانوا يضمرون ويكتُمون في صدورهم من سرائر، إنَّ الله عليم بما تكثُر صدورهم، لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم.

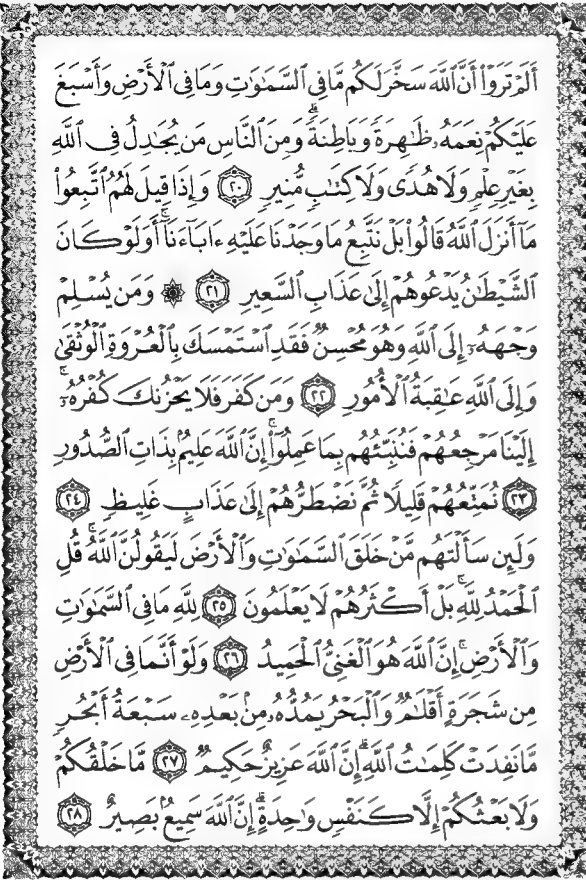
٢٤ - نعطيتهم ممَّا يُحِبُّونَ من متاعات الحياة الدنيا متاعاً قليلاً في مقداره بالنسبة إلى نعيم الآخرة، وقليلاً في زمنه بالنسبة إلى الخلود الأبدي يوم الدين، ثم بعد البعث والحساب تُلْجِئُهُم بِالْجَزَرِ دون أن يكون لهم اختيار، إلى عذاب شديد الإيلام في جهنم.

٢٥ - ونؤكد لك أيها الداعي إلى الله وإلى وحدانيته في ربوبيته وإلهيته، لئن سألت المشركين بالله في حوار جذلي: مَنْ خَلَقَ السموات والأرض؟ ليقولنَّ بتلقائية حاضرة في أذهانهم دون إبطاء: الله هو الذي خلق السموات والأرض. فإذا أقرُّوا بهذه الحقيقة، فقل لهم: الله وحده يجب أن يكون له الحمد والثناء، وأن لا يُعبد معه غيره، بل أكثرهم لا يستعملون ما وهبهم ربهم من موازين عقلية وفكرية؛ لإدراك أنَّ الخالق الرب لا يمكن أن يشاركه أحدٌ في تصاريفه وهيمته بصفات ربوبيته على شيء مما هو خلقه وملَّكه.

٢٦ - بما أنكم تؤمنون بأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو خالق السموات والأرض، فاعلموا أنَّ لله سبحانه ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وتديراً، إنَّ الله هو الغني بذاته وصفاته الأزلية عن أن يتخذ شركاء له يُعينونه في تدبير أمور كونه، وله كمال الصفات، وهو بذلك محمود، ينطق بحمده كلُّ شيء في كونه، وهو سبحانه حامداً يحمده مَنْ يستحقُّ الحمد والثناء من عباده.

٢٧ - ولو أنَّ أشجار الأرض كلها قُطعت أقلاماً، والبحر الغامر لمعظم سطح الأرض كان مداداً لكتابة كلمات الله، وهذا البحر يمدُّه بعد نفاذه سبعة أبحر، والخلائق يكتبون بتلك الأقلام مُستمدِّين مداد أقلامهم من البحور الثمانية، لتكسرت تلك الأقلام، ولنقد ذلك المداد، وما تَفِدَّتْ كلمات الله؛ لأنها لا نهاية لها، إنَّ الله قويٌّ لا يُعجزه شيء، حكيمٌ في اختياراته كلها، ومنها: حكمته في اختيار الكلمات الدالات على كلِّ معلوم له سبحانه مهما دقَّ وصغر، فلا تختلط معلومة بأخرى، ولا تشبه كلمة بأخرى شبيهة بها.

٢٨ - ما خَلَقَكُمْ - أيها الناس - ولا بعثكم إلى الحياة بعد الموت جميعاً في وقت واحد، بالنسبة إلى قدرة الله، إلا مثل خلقِ نفسٍ واحدة وبعثها، لا يتعدَّر عليه شيء؛ إنَّ الله سميعٌ لأقوالكم، بصيرٌ بأعمالكم الظاهرة والباطنة، لا تخفى عليه خافية.



٢٩ - ألم تفكر - أيها المكلف - حتى ترى رؤية علمية، مُشابهة للرؤية البصرية هذه الآيات الكونية الثلاث: الآية الكونية الأولى: أن الله يُدخل ظلمة الليل في ضوء النهار بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب الليل عند تتابع حالات الشروق، ويدخل ضوء النهار في ظلمة الليل بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب النهار عند تتابع حالات الغروب، والآية الكونية الثانية: دَلَّى الشمس والقمر لمنافع العباد ومصلحتهم، وضروريات حياتهم، كل من الشمس والقمر يُجري إلى بلوغ غاية الزمن المُحدّد له في علم الله تعالى، إذ يتوقّف عنده جريانهما، وأن الله بما تعملون وتُدبرون سرّاً من مكر وكيد، ضدّ دعوة الرسول ﷺ خير، لا يخفى عليه شيء.

٣٠ - ذلك الذي ذكرناه بياناً إقناعياً برهانياً للمشركين؛ بسبب أن الله هو الإله الحقّ المُستحقّ وحده للعبادة، وبسبب أن ما يدعون من دون الله هو الباطل الذي لا يستحقّ العبادة، وبسبب أن الله هو العليّ في صفاته، له الصفات العليا والأسماء الحُسنى، الكبير في ذاته وأسمائه وصفاته؛ الذي ليس كمثل شيء.

٣١ - ألم تفكر حتى ترى رؤية علمية - أيها المتلقّي لخطاب ربك - إلى هذه الآية الكونية الثالثة: آية السُفن والمراكب التي تجري في البحر مضحوبة بإحسان الله وآثار رحمته؛ ليُرَبِّكم - أيها الناس - بعض عجائب آياته؟ إن في ذلك الذي دلّت عليه ظاهرة جزّي السُفن في البحر لدلالات كثيرات لكلّ صابر صَبْرًا كثيرًا، وشاكر شكرًا كثيرًا، يتوصّل من خلال التفكير إلى معرفة أفضل الأسباب الصناعية، لتسيير الفُلُك تسييراً يغلب فيه الأمن من عوارض الهلاك، ولا يتوصّل إلى ذلك الهدف العلمي إلا كلّ صَبَّار في بحوثه العلمية، ويدرك المتفكر عظمة إتقان الله لكلّ ما خلق في كونه، ووافر إنعامه على عباده، وواسع رحمته بهم، فيزيد من طاعة الله والتقرب إليه؛ ليكون شكوراً لله سبحانه.



٣٢ - وإذا ركب الناس في السُفن، وعَلَتْهُم الأمواج كالجبال والسُحب، ابتهلوا إلى الله بالدعاء وترك كلّ ما عداه، فلمّا أسكن الله البحر، وهباً لهم وسائل النجاة، ونجّاهم من تلك الشدّة إلى البرّ آمين، فقسّم من المؤمنين أصحاب اليمين مُقْتَصِدًا، وهم الذين يؤدّون حقوق مرتبة التقوى بتأدية الواجبات، واجتناب المحرّمات، ومنهم أحسن حالاً من المقتصدین، وهم السابقون بفعل الخيرات، ومنهم أسوأ حالاً من المقتصدین، وهم الظالمون لنفوسهم بكثرة معاصيهم. وأما الفريق الثاني فهم الكافرون أصحاب الشمال، وهم على ذرّكات مُتنازلات إلى قرار الجحيم، وأخسّ أقسامهم الغدار الناقض لعهده، شديد الكفر عتاداً وكِبَرًا وفجوراً، وما يُنكر دلالة آياتنا الكونية والبيانية والإعجازيّة والجزائيّة العقابية - مع العلم بها - إلا كلّ غدار مُراوغ، شديد الكفر مُمنع في ستره لدلائل الحق.

٣٣ - يا أيها الناس امْتَلُوا أمر ربكم واجتنبوا نواهيه، وخافوا وقائع يوم يكون فيه الحساب، وفضل القضاء، وتنفيذ الجزاء، لا يُغني فيه والد عن ولده شيئاً، ولا مولود هو مُغن عن والده شيئاً؛ إذ لا يملك أحد أن يُساعد أحداً أو ينصر أحداً؛ إن وعد الله الذي وعد عباده بالبعث، والحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، حقّ ثابت، فلا تُخدعكم زخارف الحياة الدنيا، ولا تُلهيكم بذلتها وزينتها عن عمل الآخرة، وطلب ما عند الله، ولا تُخدعكم وساوس الشيطان ودسائسه وتزييفاته، فتصرفكم عن الله وطاعته.

٣٤ - إن الله عنده مفاتيح الغيب الخمسة: الأول: علم وقت انتهاء ظروف الحياة الدنيا وأحداثها فلا يدري أحد من الناس متى تنتهي ظروف الحياة الدنيا سواه، والثاني: يُنزل باختياره الحكيم المطر الذي فيه الخير العميم، فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث الذي يرزق الله به عباده، إلا الله، والثالث: يعلم علماً ذاتياً كلّ ما في أرحام الإناث من كلّ ذي حياة، حتى البعوضة فما دونها من الكائنات الحيّة، علماً يشمل كلّ الدقائق ويحيط بها، والرابع: ما تدري نفس مخلوق ما الشيء الذي تكسبه في غداها من خير أو شر، والخامس: ما يدري مخلوق ما بأيّ بقعة من الأرض سيكون موته فيها، فقد سبق في تقدير الله وقضائه، تعيين المكان الذي يكون فيه موت النفس التي قضى الله عليها الموت، مع تعيين الزمان الذي يكون موتها فيه، والله حكيم جليل في كلّ تصاريفه وتقاديره، إن الله علیم علماً كاملاً شاملاً بهذه الأشياء ويغيرها، خبير على سبيل الحضور والشهود المُصاحِب لكلّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَرِيمِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

١ - ﴿الْعَر﴾ سبق الكلام على الحروف المُقطَّعة في أول سورة البقرة.

٢ - تنزيل القرآن على محمد ﷺ لا شك فيه أنه من رب كل موجود سوى الله تبارك وتعالى، الذي لا رب لهم سواه، وهو خالقهم ومالكهم ورازقهم والمتصرف فيهم بحكمته، والممد لهم بعباءات ربوبيته.

٣ - بل يقول أئمة الكفر: اختلق محمد هذا القرآن من تلقاء نفسه ونسبه إلى ربه؟ كذبوا، بل هذا القرآن هو الحق الثابت المنزل عليك - يا رسول الله - من ربك؛ لتبلغ وتعلم وتُنذِر قوماً الشيء الذي سبق أن أتاهم من تعاليم الدين، وهو ما جاء به إليهم إسماعيل بن إبراهيم، واستمر مُتَوَارِثاً فيهم، حتى غيروا وبدلوا، رغبة في أن يهتدوا باختيارهم الحُرّ للحق.

٤ - الله سبحانه وحده الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم بعد مدة متراخية عن خلق السموات والأرض استوى سبحانه على العرش الذي هو أعظم المخلوقات فوق السموات السبع ومحيط بها، استواء يليق بجلاله، ليس لكم - أيها الناس - من غير الله الذين هم دونه سبحانه من ولي يتولى أموركم بنصركم وحمايتكم ورزقكم، ولا شفيع يشفع لكم عند الله، أحرثتم من الإدراك السوي، والفهم الصحيح النافع، فلا تضعون هذه الحقائق في ذاكرتكم، ثم تتذكرونها عند المناسبات الداعيات، فتعملون بمقتضاها؟!

٥ - يحكم الأمر كُلَّهُ، ويُنزل القضاء والقدر بدءاً من أول السماء حتى غاية مركز الأرض، ثم يصعد إليه الملائكة المأمورون بتنفيذ أحداث هذا التدبير في يوم كان مقداره ألف سنة من أيام الدنيا التي تعدونها.

٦ - ذلك الخالق المُدَبِّر هو عالم كل ما غاب عن ذوي الإدراك من خلقه مما لا تصل إليه حواسهم وعقولهم، وعالم ما خَصَرَ وظَهَرَ لهم من الأكوان الظاهرة التي تدرك بالحواس، لا تخفى عليه خافية، القوي الغالب المنتقم من أعدائه، العظيم الرحمة بأوليائه وأهل طاعته.

٧ - الله الذي جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ مخلوقاً حسناً بالنسبة إلى الوظيفة التي أعدها في كونه لها، وبدأ خلق آدم أبو البشر من طين مؤلف من امتزاج عُصْرِي الماء والتراب.

٨ - ثم جعل ذرية آدم - بعد ذلك - متناسلة من ماء ضعيف حقير لا يُعْبَأُ به ولا يُصَان.

٩ - ثم في أطوار من الخلق، جَعَلَهُ جنيناً في بطن أمه، ونَفَخَ فيه من روحه التي هي خَلْقٌ من خلقه بأمر التكوين المباشر الصادر عنه، وخلق لكم - أيها الناس - جهاز السمع الذي تصل إليه المسموعات، ومراكز الإدراك للمرئيات في داخل الدماغ، ومراكز فهم الأمور والقضايا، وتحليل عناصرها واستنتاجها بالتفكير والتأمل، وهذه الأجهزة والأدوات تتطلب منكم أن تشكروا ربكم، فتؤمنوا به، وتستجيبيوا لما يدعوكم إليه، وواقع حالكم - أيها الناس - يثبت أنكم شكراً قليلاً جداً تشكرون ربكم.

١٠ - وقال منكمو البعث: إذا ضاعت ذرات أجسادنا في تراب الأرض الواسعة، إننا لنعود خلقاً جديداً مطابقاً لما كنا عليه في الحياة الأولى؟ بل هم بالبعث بعد الموت كافرون، يسترون أدلته وبراهينه بالأدلة الواهية؛ لأنهم لا يريدون أن يلحقوا ربهم ليحاسبهم ويجازيهم على ما هم فيه من شرك وجرائم.

١١ - قل - يا رسول الله ويا أيها الداعي إلى الله من أمته - لهؤلاء المشركين: ينزع أرواحكم من نفوسكم ملك الموت الذي وكل بكم، بعد أن تستوفوا حياتكم المُقَدَّرَةَ لكل واحد منكم، ثم بعد مدة البرزخ الفاصل بين الموت والبعث ترجعون إلى ربكم أحياء، فيجزىكم بأعمالكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَر ١ نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 ٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِنَّا نُنذِرُ قَوْمًا
 مَا أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ٣ اللَّهُ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
 ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا
 تَتَذَكَّرُونَ ٤ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ
 إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ٥ ذَلِكَ
 عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦ الَّذِي أَحْسَنَ
 كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ٧ ثُمَّ جَعَلَ
 نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ٨ ثُمَّ رَسَوْنَاهُ فَنَفَخَ فِيهِ
 مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا
 مَّا تَشْكُرُونَ ٩ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي
 خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ١٠ قُلْ يَتُوقَكُمُ
 مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١١

١٢ - ولو ترى - أيها الصالح لمثل هذا الخطاب - ما سيحدث مستقبلاً حين يكون المنكرون للبعث المُبْعَثون بوقاحة في الكفر والجرائم مُطَاطِئُ الرُّؤُوسِ ذُلاًّ وانكساراً، وندماً على ما فعلوا عند ربهم، يقولون: ربنا أبصرنا أحداثاً جسيمةً عظيمةً مخيفةً ممّا سيلقاه الجاحدون المُكذِّبون بيوم الدين، وسمعنا من زفير جهنم وشهيقها وأصواتها المُزعجة، ما جعل قلوبنا على يقينٍ ممّا كُتِبَ لكفر به، فاردُّنا إلى الدنيا نعمل عملاً صالحاً، إننا آمنّا إيماناً جازماً لا شك فيه، ولكن لا ينفع ذلك الإيمان. لو أُتِيح لك - أيها المخاطب - أن ترى المجرمين في هذا الموقف لرأيت أمراً عظيماً، وخطباً جسيماً.

١٣ - ولو شئنا لَسَلَبْنَا كُلَّ نَفْسٍ ذات إرادةٍ حرّةٍ موضوعَةٍ في الحياة الدنيا موضعَ الامتحان، إرادتها الحرّة، فجعلناها مخلوقاً مجبوراً، وحيثُ نختر أن نُؤْتِيَ كُلَّ نَفْسٍ هُداها بالجبر، كما خلقنا الملائكة مهّدين، ولا نختر أن نخلق نفساً مجبورةً على الضلالة، ولكن لم نشأ أن نَسْلُبَ ذوي الإرادات الحرّة إراداتهم، فهذا مُخَالَفٌ لحكمتنا من خلقهم، ولكن حيث تَمَتَّت الحكمة بأن تُوهب هذه الأنفس الاختيار الحر، والقُدرة على الكسب ضمن دائرة التكليف، فقد ثبت القول الصادر مِنِّي: لأملأن جهنم من كفّار الجنّ والإنس أجمعين، الذين اختاروا طريق الضلالة.

١٤ - فدوقوا - أيها المجرمون المُبْعَثون بوقاحة في الكفر والجرائم - العذابَ النفسيّ والجسديّ؛ بسبب غفلتكم عن الآخرة، وترككم الإيمان في الدنيا، إنا تركناكم بالكلية غير مُلتفتين إليكم، وذوقوا العذاب الدائم الذي لا انقطاع له وتحسّسوا آلامه؛ بسبب كفركم وتكذيبكم.

١٥ - لا يؤمن بآياتنا المنزلة في كتابنا إيماناً كاملاً إلا الذين يتحلّون بالصفات الستّ التالية: **الصفة الأولى:** الذين إذا ذُكِّروا بآيات الله

في كتابه، تدبّروا معانيها، ونفّذت إلى قلوبهم مشاعرُ الأحاسيس بعظمة الله وجلاله، أسرعوا في خفض رؤوسهم وأجسادهم لوضع جباههم على الأرض خضوعاً لله وذُلاًّ، **والصفة الثانية:** نزّهوا ربهم عن كلّ ما لا يليق به من صفاتٍ، تنزيهاً مُتمتّجاً بحمده والثناء عليه، **والصفة الثالثة:** هم لا يستكبرون مُمتنعين عن عبادة الله وطاعته.

١٦ - **الصفة الرابعة:** ترتفع وتنبو جنوبيهم عن فراش النوم، يتهجّدون بالليل، **والصفة الخامسة:** يدعون ربهم حالة كونهم خائفين من النار، وحالة كونهم طامعين في الجنة، **والصفة السادسة:** أنهم ينفقون آناً فآناً من بعض ما رزقناهم في وجوه الخير ابتغاء وجه الله.

١٧ - فلا تعلم نفسٌ مقدّار ما أعدّه الله وأخفاه لهؤلاء الأبرار والمحسنين ممّا تقرُّ به أعينهم من سرورٍ ونعيمٍ ورضا، فلا يلتفتون إلى غيره، جزاءً عظيماً بسبب ما كانوا يعملون من الطاعات في دار الدنيا.

١٨ - أُنْفِقَ العدل الربّاني، وفُقدت حكمة الله في الجزاء، فيستوي في جزاء الله يوم الدين مَنْ كان مؤمناً بما أمر الله بالإيمان به، ومن كان خارجاً عن الحق خروجاً من ذرّة الكفر، فلا يؤمن بما أمر الله عزّ وجلّ بالإيمان به؟! لا يستوي المؤمنون، والفاسقون الكافرون في حكمة الله وأعدله في الجزاء.

١٩ - أمّا الذين آمنوا بما أمر الله بالإيمان به إيماناً صادقاً كاملاً، وعملوا الصّالحات التي تُعبّر عن صدق إيمانهم وصحته، فلهم جنّات المأوى التي يَأْوِي إليها المؤمنون ويسكنون فيها سُكنى أبدية، عطاءً وضيافةً من عند الله؛ بسبب ما كانوا يعملون من الطاعات في دار الدنيا.

٢٠ - وأمّا الذين فسقوا بالكفر بما أمر الله به، وعملوا السيئات الكبيرات، فَمَلَجَوْهُم ومنزلهم النار، كُلّما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا إكراهاً فيها، وقال لهم خَزَنَةُ النار - توبيخاً وتقريعاً -: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به في الحياة الدنيا تكذبون عناداً وإصراراً على الباطل، وأتباعاً للشهوات والأهواء.

وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا إِيْمَانًا يَسْتَمِرُّ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُوَفَّى عِبَائِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوِينَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجَلٌ أَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقِينَ أَجْرُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

٢١ - ونقسم لنُذيقنَّ هؤلاء الفاسقين المُكذِّبين بعض العذاب الأقرب الأصغر من مصائب الدنيا ومحنها وأسقامها قبل العذاب الأكبر يوم القيامة، حيث يُعذبون في نار جهنم؛ رغبة في أن يرجعوا عن كفرهم إلى أصل فطرتهم الإيمانية.

٢٢ - لا يوجد أظلم من الذي ذُكر بآيات ربِّه، مرَّات مُتكرِّرات، ونظر فيها، وأدرك دلالاتها، ثم أعطى عارض وجهه لها، غير مُكترِب بها، إنَّنا من المُنبِئين بوقاحة في الكفر والجرائم منتقمون بالعذاب الأكبر يوم الدين.

٢٣ - وأؤكد لك - أيُّها المنكر رسالة مُحمَّد، والمُكذِّب بالقرآن - أنَّنا آتينا موسى كتاب التوراة، من قبل بعثه محمد وإنزال القرآن عليه، وجعلنا موسى والتوراة هُدى لبني إسرائيل، فلا تكن في شك من لقاء موسى يوم القيامة، وتعلم حينئذ يقيناً أنَّنا أرسلناه وأنزلنا عليه التوراة هُدى لبني إسرائيل، كما أرسلنا محمداً وأنزلنا عليه القرآن هُدى للعالمين.

٢٤ - وجعلنا من بني إسرائيل قادة للخير يُقتدى بهم، يدعون الناس إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وإنما نالوا هذه المرتبة الرفيعة لأجل أنهم صبروا على فعل الطاعات، وترك المنهيات، وعلى ما أصابهم من البلاء في سبيل الله، ولأجل أنهم كانوا بآياتنا في كتاب التوراة يُصدِّقون تصديقاً لا يُخالطه ولا يُداخله شك، فإذا آمتم بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزل إليه، وصبرتم وأيقنتم، جعلنا منكم هداة ودعاة إلى الخير، يأتهم الناس بهم.

٢٥ - إنَّ ربَّك - أيُّها المُتلقِّي للخطاب - هو - وحده - يقضي بينهم، مُبيناً حكمه على كلِّ واحدٍ منهم بمقتضى عدله وفضله، فيما كانوا في الحياة الدنيا يختلفون فيه، من حقِّ وباطل، وخير وشر، ويُجازي كلَّ واحدٍ منهم.

٢٦ - أما زالوا جاهلين بسنة الله في عبادته، ولم يُبين الله لهم كثرة مَنْ أهلكنا من قبلهم من الأمم الخالية المقترنين في زمن واحد، يسرون في بلادهم ومنازلهم إذا سافروا فيشاهدونها عياناً، كقوم هود وصالح ولوط؟! إنَّ في مواطن المُهلِكين السابقين، وبقاء بعض آثارهم فيها لدلالات يُستدلُّ بها على سُنَّة الله في إهلاك الكافرين المُكذِّبين، أهم صمُّ فلا يسمعون أخبار المُهلِكين السابقين، الذين أهلكهم الله؛ بسبب عنادهم وإصرارهم على الكفر؟! في العقوبات المعجَّلة، وآثارها الباقية في الأرض، آيات دالات على أنَّ وراء هذا الكون المشهود قوة قاهرة عادلة، هي التي تُسيِّر هذا الكون وتُدبِّره، وتراقب ما فيه من أحداث، وتنقذ بعض أحكامها العادلة، في ظروف هذه الحياة العاجلة.

٢٧ - أعْمِيَ المُكذِّبون بالبعث، ولم ينظروا بأعينهم، ويتفكروا بعقولهم، أنَّا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، فنخرج بذلك الماء زرعاً تأكل من العشب والتبن أنعامهم، ومن الحبوب والثمار أنفسهم؟! أنظمت أبصارهم، فهم لا يُبصرون دلائل قدرة الله على إحياء الموتى فيعتبروا!؟

٢٨ - ويقول المشركون للمؤمنين ساخرين: متى يتحقَّق النصر الذي وعدكم الله به علينا إن كنتم صادقين في دعوكم؟

٢٩ - قل لهم - يا رسول الله -: يوم تحقَّق النصر في المعركة، وسقوط الكافر قتيلاً لا ينفعه إيمانه عند ربِّه، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، أما إذا وقع في الأسر فإنه لا ينفعه إيمانه عندئذ في إعفائه من الفدية أو الاسترقاق، إذا قرَّرت قيادة المسلمين ذلك ولم تُمنَّ على الأسرى.

٣٠ - فأعرض - يا رسول الله - عن مواجهة هؤلاء المعرضين عن بيانات دعوتك، ولا تهتمَّ بهم، ولا تلتفت إليهم، وانتظر اليوم الذي نُحقِّق فيه نصرَك ونصر أصحابك عليهم، إنهم ينتظرون الفرص الملائمة للتخلُّص منكم، في حين أنهم ينتظرون في الواقع عقابنا لهم بنصركم عليهم، وقتل صناديدهم وجبابرتهم. وقد حصَّل هذا في معركة بدر.



١ - يا أيها النبي الذي شرفناك وكرمناك بالنبوة دُم على تقوى الله، وازدد منها، ودُم على عدم إطاعة الكافرين المظهريين للكفر من أهل مكة، والمنافقين الذين يظهرون الإسلام، ويخفون الكفر من أهل المدينة، ولا تتأثر بأقوالهم وأتهاماتهم الظالمة؛ إن الله كان عليمًا بخلقه قبل أن يخلقهم، حكيمًا فيما دبّر لهم، لا يختار في أحكامه وأفضيته القدرة والتشريعة إلا ما هو الأحكم والأعدل.

وهذا النداء للنبي ﷺ فيه تكريم وتشريف له، لأنه ناداه بالنبوة، ونادى سائر الأنبياء بأسمائهم. وقد تكرّر هذا النداء للنبي ﷺ في هذه السورة، خمس مرات في الآيات: ١ و ٢٨ و ٤٥ و ٥٠ و ٥٩ كما تكرّر هذا النداء أيضاً في القرآن الكريم ثلاثة عشرة مرة.

٢ - واتبع - يا رسول الله - ما يوحي إليك من ربك في إبطال عادة التبني الجاهلية، والتغيير العملي لهذا التقليد الجاهلي، ولا تتمهل أو تترث في القيام بهذا التكليف، مهما أثار الكافرون والمنافقون الشبهات والتهامات ومقالات السوء؛ إن الله كان بما تعملون عليمًا علماً كاملاً شاملاً، على سبيل الحضور والشهود المصاحب لكل أجزاء العمل، ظواهريه وبواطنه، لا يخفى عليه شيء، وسيجزيك به.

٣ - وثق - يا رسول الله - بالله، وكل أمرك إليه، فهو الذي يحميك ويصونك، ويجعل ما تخشى منه سبباً في كمال نجاتك، وصدق نبؤتك، وكفى بالله حافظاً لك، ومُتَوَلِّياً كُلَّ أَمْرِكَ.

٤ - وكما لم يخلق الله للإنسان قلبين في جوفه، لم يجعل المرأة الواحدة زوجاً للرجل وأماً له، والمرء دعياً لرجل وابناً له، وما جعل نساءكم اللاتي تُحرموهن على أنفسكم تحريماً مؤبداً، وتقولن لهن:

أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي، في التحريم كأمهاتكم، ولكنه منكر وزور منكم، وما جعل الله أذعياءكم الذين تَتَّبَعُونَهُمْ أَبْنَاءَكُمْ، جعلكم الزوجات أمهات، والأذعياء أبناء، قول يصدر من أفواهكم، لا يطابق من الحق شيئاً، ولا يوافق حكماً شرعياً مُنزَلاً من عند الله، والله يقول القول الثابت المُحَقَّق، وهو يُرشد إلى سبيل الحق. فدعوا قولكم، وخذوا بقوله عز وجل.

٥ - أنسبوا هؤلاء الأولاد لأبائهم الحقيقيين الذين خَرَجُوا من أصلابهم. نسبة الأبناء إلى آبائهم التَّسْبِيح أعدل عند الله من نسبتهم إلى مَنْ يعطف عليهم فيتبنّاهم، فإن لم تعلموا آباءهم لتنسبهم إليهم، فهم إخوانكم في الدين، ونصراؤكم، فقولوا للواحد منهم: أخي ومولاي، وليس عليكم إثم في نسبة الأبناء إلى الآباء بحسب ما ظهر لكم من الأدلة والأمارات، فلستم مُكَلَّفِينَ أَنْ تَتَّبِعُوا اليقين العلمي في هذا الأمر، والخطأ في هذا لا إثم فيه. ولكن ما تعمّدت قلوبكم تعمداً إرادياً من نسبة إنسان إلى غير أبيه، فعليكم إثم في هذه النسبة؛ لأنكم تشهدون شهادة كذب وزور، وكان الله كثير السُّرِّ لِمَنْ أخطأ، دائم الرحمة لِمَنْ تاب من ذنبه.

٦ - النبي أرحم بالمؤمنين وأشد رافةً وحناناً وشفقةً عليهم من أنفسهم، في الدنيا والآخرة، فيجب أن يكون أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم والناس أجمعين، وهو أحق بالمؤمنين من أنفسهم في نفوذ حكمه عليهم، ووجوب طاعته، فإذا دعاهم إلى أمر، ودعتهم نفوسهم إلى خلافه وجب أن يؤثروا ما دعاهم إليه على ما دعتهم أنفسهم إليه؛ لأنه ﷺ لمزيد شفقتهم عليهم، ونصحه لهم لا يدعوهم إلا إلى ما فيه نجاتهم، ونفوسهم كثيراً ما تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، وأزواجه أمهات المؤمنين في تعظيم حرمتهم، ووجوب برهن، وتحريم نكاحهن على التأييد. وذوو القربات مطلقاً: سواء كانوا أصحاب فروض، أم عصبات (وهم بنوه وقرباته لأبيه)، أم ذوي أرحام، بعضهم أحق بميراث بعض - فيما أنزله الله في كتابه في آية الموارث من سورة النساء - من المؤمنين الذين آخى رسول الله ﷺ بينهم، والمهاجرين الذين كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة. لكن إذا أوصيتم إلى من توارثوهم من هؤلاء بما أحببت من ثلث مالكم كان ذلك جائزاً، فيكون لهم بحكم الوصية لا الميراث، كان ذلك الحكم في إلغاء التوارث على أساس التبني، ومن أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، في اللوح المحفوظ مكتوباً مُثَبِّتاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝^١ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝^٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝^٣ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَى تَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝^٤ أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝^٥ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَئُوا الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝^٦

وَلِأَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَمْ نُوْحٌ وَإِبْرَاهِيمُ
وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا
﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَإِزَاعَتْ أَلْبَاصُهُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زُلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَلِأَيُّقُولَ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتِ طَائِفَةٌ
مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبِ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ
مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا
فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا أَتَقْنَتَ
لَا تَوْهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا
اللَّهِ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّوهُ إِلَّا ذِكْرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

٧ - واذكر - يا رسول الله - حين أخذنا من جميع النبيين العهد المؤكد على الوفاء بما حملوا، وأن يُلغوا أممهم ما أمرهم بتبليغهم، وأن يُصدّق بعضهم بعضاً، ويُبشّر بعضهم ببعض، وأخذنا العهد المؤكد منك - يا رسول الله - ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وهم أولو العزم من الرسل وأصحاب الكتب والشرائع، وأخذنا من هؤلاء المخصوصين بالذكر عهداً وثيقاً شديداً على الوفاء بما حملوا من تبليغ الرسالات، وإقامة الدين الحق.

٨ - أخذ الله ميثاقهم؛ لكي يسأل النبيين عن تبليغهم الرسالة لأقوامهم، تبكيتاً لمن أرسلوا إليهم ولم يستجيبوا لهم، وبعد هذه الشهادة، ومحاسبة الكفار على رفضهم بلاغات رسل ربهم، يصدر الحكم على الذين كفروا بأنهم أصحاب النار، وأعد الله للكافرين يوم القيامة عذاباً مؤلماً في جهنم.

٩ - يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه، اذكروا بقلوبكم وألسنتكم نعمة الله التي أنعم بها عليكم حين حوصرتكم مع النبي ﷺ بالمدينة أيام الخندق، حين جاءكم جنود الأحزاب من قريش وعطفان، ويهود بني قريظة والتضير، فأرسلنا عليهم ريحاً شديدة الهبوب والبرودة، شاهدتموها، فقلّعت خيامهم، ورمّت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وأرسلنا عليهم ملائكة لم تروها، ألقوا الرعب في قلوب الأحزاب، وكان الله بعملكم - أيها المؤمنون - من التحصن بالخندق والثبات مع رسول الله ﷺ بصيراً.

١٠ - اذكروا نعمة الله التي أنعم عليكم وقت جاؤكم من فوق الوادي من قبل نجد، وهم قبائل عطفان، ومن أسفل منكم من بطن الوادي من قبل مكة، وهم قريش وكنانة، واذكروا الحالة التي وصلتكم إليها من الشدة حينئذ، إذ مالت الأبصار عن مواضعها خيرة

ودهشة، شاحصة لا تلتفت إلى شيء إلا إلى عدوها، وزالت القلوب عن أماكنها في الصدور، حتى بلغت الحُلُوق من شدة الهول وعظم الفزع والخوف، واضطربت الأفكار، وأقبلت واردات الأوهام، وظنّ المؤمنون الصادقون بالله الظنون المنافية لمقتضى إيمانهم، وهي حالة عارضة، جلبها اختلال وظائف النفس بسبب شدة الخوف الطارئ.

١١ - هنالك في ذلك الموقع الذي كان فيه المسلمون محاصرين، داخل المدينة من قبل أحزاب العرب، امتحن المؤمنون ومن معهم من مدّعي الإيمان امتحاناً قاسياً، وحُرّكوا بالامتحان تحريكاً شديداً واصلوا إلى الأعماق، فمن لم يكن في أعماقه إيماناً راسخاً أصابه الاضطراب والقلق، وظهرت منه تصرفات تكشف سرائر قلبه، أما صادق الإيمان فتزيد الزلزلة إيمانه رسوخاً وعمقاً واستقراراً.

١٢ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقّي لآيات الله - ما حدّث من المنافقين والذين في قلوبهم حقدٌ وحسدٌ من منافقي اليهود، حين يقولون: ما وعدنا الله ورسوله بفتح قصور الشام وفارس، وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رَحْلَهُ إلا وعداً باطلاً قصِد به التّغريب بنا.

١٣ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقّي لآيات الله - حين قالت طائفة من المنافقين: يا أهل «يثرب» مؤثّرين للاسم الجاهلي على الاسم الإسلامي، وهو «المدينة»؛ لارتباط نفوسهم بجاهليّتهم وكفرهم، لا إقامة لكم هنا، فارجعوا إلى منازلكم، وتخلّوا عن موقع المواجهة للعدو الغازي، ويستأذن فريق آخر من المنافقين النبي ﷺ يقولون: إن بيوتنا خالية ضائعة، غير حصينة، يسهل دخولها، ويخشى عليها السراق، ولا بدّ لنا من الرجوع لحراستها، وما كانت بيوتهم كما يقولون، ما يريدون باستئذانهم إلا فراراً من مواجهة العدو، وهرباً من موقع المراقبة والقتال مع المؤمنين.

١٤ - ولو دخل هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم من نواحي «المدينة»، وهجموا عليهم من جميع جوانبها، ثم بعد ذلك طلب منهم المشركون الردّة، لأعطوا ما يطلب منهم من كفر، ولاستجابوا للكافرين، وأعلنوا ردّهم طيبةً بذلك نفوسهم، وما بقوا في بيوتهم في «المدينة»، إلا زمناً يسيراً؛ لأنّ الله سيمكّن المؤمنين منهم حينئذ، فيقتلونهم أو يُلجئونهم إلى الفرار أو الجلاء عن المدينة، حتى يكونوا مطّاردين مُشرّدين في الأرض.

١٥ - ولقد كان هؤلاء المنافقون عاهدوا الله من قبل غزوة الخندق، لا ينهزمون إن شهدوا الحرب، ولا يتأخرون إذا دُعوا إلى الجهاد، ولكنهم خانوا عهدهم، وسيحاسبهم الله على ذلك، وكان عهد الله مسؤولاً عنه في الآخرة.

١٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المنافقين: لن ينفعكم الفرار من المعركة خوفاً من الموت أو القتل، الذي كُتب عليكم؛ لأن من حضر أجله مات أو قُتل لا بد من ذلك، وإن فررتم لا تُمَتَّعون بعد الفرار بالحياة إلا مدة آجالكم، وهو زمن يسير جداً بالنسبة إلى الآخرة.

١٧ - قل - يا رسول الله - لهم: مَنْ ذا الذي يمنعكم من الله إن أراد بكم عقاباً على فراركم، أو مَنْ ذا الذي يمنع عنكم رحمة الله إذا تبتم واستغفرتم وأراد بكم الرحمة؟ ولا يجد هؤلاء المنافقون لهم من دون الله ولياً يتولاهم، ولا ناصرأ ينصرهم.

١٨ - إن الله يعلم المُبْطِئِينَ عن القتال، الصَّارِفِينَ النَّاسَ عن نُصْرَةِ رسول الله ﷺ، والقائِلِينَ لِإِخْوَانِهِم الذين بقوا مع المسلمين: تعالوا إلى ما نحن فيه من الإقامة والأمن والدِّعة، ودعوا محمداً، فلا تشهدوا معه الحرب، فإننا نخاف عليكم الهلاك، وهم مع تخذيلهم هذا لا يأتون الحرب إلا إتياناً قليلاً حين لا يجدون منه بُدّاً، فيأتون رياءً وسمعةً لا احتساباً عند الله تعالى، ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيراً.

١٩ - بخلاء عليكم - أيها المؤمنون - بالنفقة في سبيل الله، ونُصْرَةِ دينه، والمعاونة في حفر الخندق، وبكل ما فيه منفعة لكم، فإذا جاءت دواعي الخوف كموقف القتال، أو الدعوة إلى الخروج لمواجهة جيش العدو، تملَّكهم الخوف، وهزَّ قلوبهم، وأزعج نفوسهم، فرأيتهم ينظرون إليك - يا رسول الله - تدور أعينهم بأحداقهم يميناً وشمالاً من الخوف والجُبْن، كدوران عيني الذي قُرب من الموت، وغشيته أسبابه؛ لذهوله وشدة خوفه، فإذا زال الخوف، وانتهت الحرب أسمعوكم ما تكرهون من القول مع صباح ورفع صوت، وأذوكم في الكلام ورموكم بالسنة سليطة قويّة جارحة

للفنوس، كالسيوف والسكاكين المُحدَّدة المسنونة، شديدي البخل على الخير، فليسوا فقط أشحّة بالأموال والأعمال والأنفس منهم ومن غيرهم عليكم، بل هم أشحّة بكل ذلك على الخير، لأنهم لا يؤمنون بفائدة البذل في سبيل مرضاة الله، أولئك البُعْدَاء عن رحمة الله لم يؤمنوا حقيقة الإيمان، وإن أظهروا الإيمان لفظاً، فأبطل الله بمقتضى عدله أعمالهم التي كانوا يأتون بها مع المسلمين؛ لأنها غير صادرة عن إيمان، وأبطل بمقتضى حكمته ونصرته لأوليائه أعمالهم التي يكيّدون بها المسلمين، وكان ذلك على الله يسيراً، وكل شيء على الله عَزَّ وَجَلَّ هَيِّنٌ يسيرٌ.

٢٠ - يظن هؤلاء المنافقون قُرَيْشاً وِعَظْفَاناً واليهود لم ينصرفوا عن قتال المسلمين، وقد انصرفوا عنهم، وهزمهم الله شرَّ هزيمة، وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال بعد الذهاب من «المدينة»، يتمي المنافقون لو أنهم كانوا غائبين عن «المدينة» في بادية مع الأعراب حَدَرًا من القتل؛ لشدة خوفهم وجُبْنهم، يسألون من بُعد عن أخباركم وما آل إليه أمركم، ولو كان هؤلاء المنافقون فيكم ما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً، يقيمون به عذرهم، فيقولون: قد قاتلنا معكم.

٢١ - لقد كان لكم - أيها المؤمنون - في أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله، وأخلاقه، وثقته بالله وثباته في الشدائد، وصبره على المكاره، وفتاله بنفسه، وكل جزئيات سلوكه في الحياة، قدوةً صالحةً، وخَصْلَةٌ حَسَنَةٌ من حقها أن يُؤْتَى ويُتَدَّى بها، لِمَنْ كان يُؤْمَلُ مُتَرَقِّبًا ثواب الله، ويرجو السعادة الخالدة يوم الدين، وَذَكَرَ الله كثيراً في جميع المواطن بالسَّراءِ والضَّرَّاءِ.

٢٢ - ولما رأى المؤمنون جيش الأحزاب الذين تحزَّبوا حول «المدينة» وأحاطوا بها، قالوا تسليماً لأمر الله وتصديقاً بوعده: هذا ما وَعَدَنَا اللهُ ورسوله، من الابتلاء والمحنة والنصر، وَصَدَّقَ اللهُ ورسوله في جميع ما بَشَّرَ به من فتح مكة والروم وفارس، وما زادهم ما رأوا من كثرة عدوهم إلا تصديقاً بأنَّ الله سبحانه سيحقق لهم ما وعدهم من التأييد والنصر، وما زادهم إلا انقياداً وطاعةً لأمره وقضائه الحكيم.

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسَّيَةِ جَدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

٢٣ - من المؤمنين رجال قاموا بما عاهدوا الله عليه ووفوا به، فبعض هؤلاء المؤمنين الصادقين من وئى بعهد مع الله، وأدى نذره، وصبر على الجهاد حتى استشهد في سبيل الله، ومن بقي بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون إحدى الحسنيين: إما الشهادة، أو النصر على الأعداء، وكلا الفريقين الذين قضوا نحبهم، والذين ينتظرون قضاءه حتى غايته، ما بدّلوا فيما عاهدوا الله عليه تبديلاً ما، بل حافظوا على عهودهم، ونفذوها ووفوا بها.

٢٤ - لقد كان الابتلاء بمواجهة جيش الأعداء؛ ليتحقق به كشف أحوال المنتسبين إلى الإسلام، وبعد الكشف يأتي تحقيق قانون الجزاء؛ ليجزي الله المؤمنين الصادقين بحسب صدقهم في إيمانهم وعملهم، ويعذب المنافقين المصريين على نفاقهم - إن شاء - أو يتوب عليهم إذا تابوا من نفاقهم، وصحّحوا عقيدتهم، وقوموا سلوكهم؛ إن الله كان كثير الغفران لمن استغفره من عباده، واسع الرحمة بخلقه.

٢٥ - ورد الله الذين كفروا من قريش وعطفان عن المدينة، مُمْتَلِئَةً قلوبهم بالغضب، لم يشف صدورهم بتل ما أرادوا، لم ينالوا بجمعهم الأحزاب، وقدومهم لحرب المسلمين في المدينة خيراً ما صغيراً ولا كبيراً، وكفى الله المؤمنين القتال بالملائكة والريح، وكان الله دوماً قوياً في ملكه، غالباً في انتقامه.

٢٦ - وأنزل الذين عاونوا الأحزاب من قريش وعطفان على رسول الله ﷺ، وعلى قتال المسلمين، - وهم يهود بني قريظة - من حصونهم المنية التي تحصنوا بها، وقذف في قلوبهم الخوف، فنزلوا من حصونهم مُستسلمين، تقتلون المقاتلة من الرجال جزاء خيانتهم وغدرهم، وتأسرون النساء والذاري.

٢٧ - وجعل أرضهم وديارهم وأموالهم ميراثاً لكم، وأورثكم بقضائه وقدره أرضاً لم تطّوها أقدامكم بعد في الواقع، ممّا سيفتح عليكم في أرض العرب وغيرهما من بلاد الدنيا، وتطلّ لها راية الإسلام إلى يوم القيامة، وكان الله دوماً على كل شيء قديراً، لا يُعجزه شيء. وقد حقّق الله سبحانه وعده بما فتح على الأمة المسلمة من فتوح، وهو سبحانه قادر أيضاً على أن يفتح عليها مرة ثانية إذا عادت إلى التمسك بسنته، والتأسي به ﷺ.

٢٨ - يا أيها النبي الذي شرفناك وكرّمناك بالنبوة قل لأزواجك اللاتي سألنك شيئاً من عرض الدنيا، وطلبن منك الزيادة في النفقة: إن كنّ تُرِدْنَ سَعَةَ الحَيَاةِ الدنيا ورفاهيتها والنعيم فيها، وزخارفها، فتعالين أعطكنّ مُتعة الطلاق، وأطلقكنّ طلاقاً خالياً من الضرار أو من الخصومة. وهذا النداء للنبي ﷺ هو النداء الثاني في هذه السورة.

٢٩ - وإن كنّ تُرِدْنَ رضا الله ورضا رسوله، ونعيم الدار الآخرة، وترضين بما أتنّ فيه من خشونة عيش، وضيق حال، فإن الله أعدّ للمحسنات في أعمالهنّ أجراً عظيماً لا يُقدّر قدره. ولما نزلت هذه الآية بدأ ﷺ بعائشة - رضي الله عنها - وكانت أحبهنّ إليه، فخيرها، فاخترت الله ورسوله والدار الآخرة، ثم اختار جميعهنّ اختيارها، وكنّ يومئذ تسعاً: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة، وسودة، وصفية، وميمونة، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث. وقد وقعت حادثة التخيير في بداية سنة تسع من الهجرة بعد غزوة خيبر التي غنم المسلمون فيها غنائم عظيمة، فلم يوزّعها على أهلها، ولم تطمح إليها نفسه، بل وزّعها على المسلمين لا سيما من ضعفت نفسه يتألّفه على الإسلام. وفي الآية مشروعية التخيير، فقد أجازت الشريعة للمسلم أن يُخيّر زوجته بين البقاء عنده، أو مفارقتها، إذا طالبت به أمور لا يستطيع الوفاء بها، وهو باب من أبواب تفويض الطلاق للزوجة. وفي حادثة التخيير تطبيق رائع لمبدأ الشورى في نظام الأسرة، ولون من ألوان تكريم المرأة باستشارتها وتخييرها في أن تأخذ القرار. وفيها مبادرة أمهات المؤمنين إلى الخير. وقد اخترن - رضي الله عنهنّ - الله ورسوله، وما أعدّ لهنّ في الدار الآخرة، وقد كرّمهنّ الله تبارك وتعالى، وكافأهنّ على اختيارهنّ، أحسنّ تكريم، وأعظمّ مكافأة؛ إذ وصلن بهذا الاختيار إلى مرتبة الإحسان التي هي أعلى مراتب الإيمان.

٣٠ - يا نساء النبي أنتنّ زوجات خير المرسلين وأمّهات المؤمنين، تتحملن لذلك مسؤوليات عظيمة، وتعبات جساماً: من يأت منكنّ بمعصية ظاهرة القبح من نشوز وسوء خلق، يُضَاعَف لها العذاب مثليّين؛ بسبب إيذاء النبي ﷺ والإضرار بمنصبه الرفيع، ولشرفهنّ ومنزلتهنّ ورفعة مكانتهنّ، وكان عذابها على الله سيراً. وكلّ شيء على الله عزّ وجلّ هين يسير.

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْتُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبَيْهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يٰ نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مَكِّنًا بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

٣١ - وَمَنْ تَخَضَّعَ وَتَطَعَّ مِنْكَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَعَمَلَ صَلَاحًا نَوْتَهَا
مثل أجر غيرها مَرَّتَيْنِ من سائر النساء، وأعدنا لها رزقاً كريماً،
وهو الجنة. فالثواب منوطٌ بطاعة الله سبحانه، ورسوله ﷺ، والعمل
الصالح، وليس منوطاً بمنزلة من العالية، فالتكليف في الإسلام لا
يسقط عن أحد أبداً مهما كانت منزلته رفيعة.

٣٢ - يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَيْسَ قَدْرُكُمْ عِنْدِي مِثْلَ قَدْرِ غَيْرِكُمْ مِنَ النِّسَاءِ
الصَّالِحَاتِ، فَأَنْتُنَّ أَكْرَمُ عَلَيَّ، وَثَوَابُكُمْ أَعْظَمُ لَدَيَّ، إِنْ أَتَقَيْنَنَّ اللَّهَ
فَأَطَعْتُهُ، فَلَا تُلْنِ الْقَوْلَ عِنْدَ مُحَاطَبَةِ الرِّجَالِ، وَلَا تَرْفُقْنَهُ، فَيَجِدَ
الَّذِي فِي قَلْبِهِ حَسَدٌ وَرَغْبَةً بِاللَّذَّةِ الْمُحَرَّمَةِ سَبِيلًا إِلَى الطَّمَعِ فِي
الزَّوْجِ مِنْكَ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَقُلْنَ قَوْلًا جَادًا حَازِمًا، لَا لَعْوَ
فِيهِ وَلَا هَزْلَ، حَسَنًا مَعْرُوفًا، يُوجِبُهُ الدِّينُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، بَيِّنًا
بَعِيدَ عَنِ الرِّيْبَةِ وَالْخَضُوعِ. وهذا الأمر واجب على كل امرأة تؤمن
بالله واليوم الآخر.

٣٣ - وَالزَّمَنُ - يَا أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ - بِيُوتُكُمْ، فَلَا تَخْرُجْنَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ
مَشْرُوعَةٍ، وَإِذَا خَرَجْتُنَّ لِحَاجَةٍ فَيَحْرَمُ أَنْ تُبْدِيَ إِحْدَاكُنَّ مِنْ زِينَتِهَا مَا
أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا سِتْرَهُ؛ كَالشَّعْرِ وَالْعُنُقِ وَالذَّرَاعَيْنِ وَالسَّاقَيْنِ، مِمَّا
شَأْنُهُ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِ شَهْوَةً الرِّجَالِ، وَيَحْرَمُ عَلَيْهَا أَنْ تَتَكَسَّرَ فِي
مَشِيَّتِهَا، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ نِسَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي الْأَزْمَةِ السَّابِقَةِ قَبْلَ
الإِسْلَامِ، وَكَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النِّسَاءِ فِي هَذَا الْعَصْرِ: الْكَاسِيَاتِ
الْعَارِيَّاتِ، الْمُتَبَرِّجَاتِ الْمُتَبَخَّرَاتِ، وَأَدَيْنَ الصَّلَاةَ الْوَاجِبَةَ كَامِلَةً فِي
أَوْقَاتِهَا، وَأَتَيْنَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُكُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ
اللَّهِ، وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي أَمْرِهِمَا وَنَهْيِهِمَا طَاعَةً كَامِلَةً مُطْلَقَةً، مَا
يُرِيدُ اللَّهُ بِتَوْجِيهِ هَذِهِ التَّكَالِيفِ الْمُشْدَّدَةِ، وَالْوَعِيدِ الْمُشْدَّدِ، وَالْإِطْمَاعِ
بِالْأَجْرِ الْمُضَاعَفِ، إِلَّا الْعَنَاءَ بِكُمْ، لَتَقْبَلَنَّ اللَّهُ بِاخْتِيَارِكُنَّ، فَيُذْهِبَ
عَنَكُنَّ بِالتَّزَامِكِ الْعَمَلِ بِمَقْتَضَى هَذِهِ التَّكَالِيفِ الْإِثْمَ وَالسُّوءَ - يَا أَهْلَ

وَمَنْ يَقْنَتَ مِنْكَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلَ صَلَاحًا نَوْتَهَا
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يٰ نِسَاءَ النَّبِيِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ
فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ
الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ
آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ
وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فِرْجَتَهُمُ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

بَيْتِ النَّبِيِّ - وَلِيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا زَائِدًا عَنْ تَطْهِيرِ أَهْلِ الثَّقْوَى مِنْ سَائِرِ النِّسَاءِ، حَتَّى تَكُنَّ قُدُواتٍ لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَمِنْ شَأْنِ الْمُقْتَدِي بِهِ
أَنْ يَكُونَ أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْمُقْتَدِي. وَأَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ هُمْ: أَزْوَاجُهُ، وَذُرِّيَّتُهُ وَأَقَارِبُهُ كَالْعَبَّاسِ وَعَلِيٍّ، وَكُلٌّ مِنْ حُرْمَتِ عَلَيْهِ
الْصَّدَقَةِ. وَلَقَدْ شَرَّفَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ وَأَكْرَمَهُنَّ بِالِانْتِمَاءِ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الْكَرِيمِ، عِنْدَمَا تَشْرَفْنَ بِالزَّوْجِ مِنْ
النَّبِيِّ ﷺ، فَالآيَةُ نَزَلَتْ بِسَبَبِهَا، وَالْخُطَابُ مُوجَّهٌ إِلَيْهَا، وَيدخل فيه من باب أولى ذُرِّيَّتُهُ الطَّاهِرَةُ.

٣٤ - وَاذْكُرْنَ - يَا أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ - مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، بِأَنْ يَشْمُرَ هَذَا التَّذَكُّرُ عَمَلًا وَسُلُوكًا؛ لِأَنْكُنَّ خُصِيصَتُنَّ
بِنَزُولِ الْوَحْيِ فِي بُيُوتِكُنَّ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ، فَأَنْتُنَّ أَحَقُّ بِهَذِهِ الذِّكْرِ مِنْ سِوَاكُنَّ؛ إِنَّ اللَّهَ كَانَ رَفِيقًا رَوْفًا بِأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ،
يَجْرِي تَدَابِيرُهُ وَأَفْعَالُهُ بِرَفْقٍ تَامٍ، يَنْفَذُ بِصِفَاتِهِ إِلَى أَعْمَاقِ كُلِّ مَوْجُودٍ، خَلْقًا، وَإِمَادًا، وَعِلْمًا، وَتَصَارِيفَ، عَلِيمًا عِلْمًا تَامًا شَامِلًا،
لِكُلِّ ظَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ وَبَوَاطِنِهَا، عِلْمٌ حُضُورٌ وَشُهُودٌ وَتَدْبِيرٌ.

٣٥ - إِنَّ الْمُتَصَفِّينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْعَشْرَةِ: الْأُولَى: الْمُتَفَادِينَ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، وَالثَّانِيَةِ: الْمُتَصَدِّقِينَ بِالْأَرْكَانِ
الْإِيمَانِيَّةِ السَّتَةِ تَصَدِيقًا جَازِمًا، وَالْمُصَّدَّقَاتِ، وَالثَّلَاثَةِ: الْمَلَازِمِينَ الطَّاعَةَ وَالِاسْتِقَامَةَ وَالْخُضُوعَ وَالْمَدَاوِمَاتِ عَلَى الطَّاعَاتِ فِي كُلِّ
زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَقَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَالرَّابِعَةِ: الصَّادِقِينَ فِي أَقْوَالِهِمْ، وَفِي أَعْمَالِهِمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَفِي نِيَّاتِهِمْ وَعِزَائِمِهِمْ، وَالصَّادِقَاتِ،
وَالْخَامِسَةِ: الصَّابِرِينَ عَلَى الطَّاعَاتِ، وَعَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَعَنِ الْمَكَارِهِ وَالشَّدَائِدِ، وَالصَّابِرَاتِ، وَالسَّادِسَةِ: الْخَائِفِينَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى،
وَالْخَائِفَاتِ خَوْفًا مَقْرُونًا بِتَعْظِيمِ وَإِجْلَالِ، وَالسَّابِعَةِ: الْمُتَصَدِّقِينَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُمْ، وَالْمُتَصَدِّقَاتِ،
وَالثَّامِنَةِ: الصَّائِمِينَ فِي الْفَرَضِ وَالنَّفْلِ، وَالصَّائِمَاتِ، وَالثَّاسِعَةِ: الْحَافِظِينَ فِرْجَتَهُمْ عَنِ الزُّنَى وَمُقَدِّمَاتِهِ، وَعَنِ كَشْفِ الْعَوْرَاتِ،
وَالْحَافِظَاتِ، وَالْعَاشِرَةِ: الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا بِقُلُوبِهِمْ وَالسَّنْتَهُمْ فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ، وَالذَّاكِرَاتِ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَاسِعَةً تَمْحُو
ذُنُوبَهُمْ، وَأَجْرًا عَظِيمًا بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَهُوَ الْجَنَّةُ.

فهذه الآية أظهرت المساواة التامة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء، وبَيَّنَّتْ أَنَّ الْفَضَائِلَ وَالْآدَابَ الَّتِي أُدْبِ بِهَا أَزْوَاجُ النَّبِيِّ
ﷺ، يُمْكِنُ لِعُمُومِ الْمُسْلِمَاتِ أَنْ يَتَحَقَّقْنَ بِهَا، إِذَا مَا تَأَسَّيْنَ بِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاقْتَدَيْنَ بِهِنَّ، فَطَرِيقُ الْفَضَائِلِ وَالْمَكَارِمِ مُفْتُوحٌ
لِلْجَمِيعِ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ.

٣٦ - ليس من وصف المستكملين شروط مرتبة التقوى من المؤمنين والمؤمنات، إذا أمضى الله ورسوله أمراً تكليفاً إلزامياً بفعل شيء أو ترك شيء أن يكون لهم اختيار آخر غير ما أمضى الله ورسوله، ومن يعص الله ورسوله دوماً فقد خرج عن صراط الاستقامة على طاعة الله، وضلاله ظاهر واضح جلي كاشف لما في نفسه من نقص في الإيمان، أو حُب للعاجلة وإيثار لها، أو ضعف في الإرادة أمام مطالب الأهواء والشهوات.

٣٧ - واذكر - يا رسول الله - إذ تقول للذي أنعم الله عليه بالإسلام - وهو زيد بن حارثة - وأنعمت عليه بالعق، وبالتبني قبل إلغائه، وبتزويجه من «أم أيمن» مولاتك، ثم بتزويجه من ابنة عمك «زينب بنت جحش» عندما جاء يشكو إليك «زينب» بأسرتها وحسبها عليه، ورغبته في طلاقها: أبق زوجك زينب بنت جحش، وتحمل تعالها عليك، وأتقي الله في أمرها، ولا تطلقها ضراراً وتعللاً بحديثها وتكبرها، وتضمّر - يا رسول الله - في نفسك ما الله مُظهره من أن زيداً سيطلقها، وستكون إحدى نسائك بتزويج الله إياها لك، وتخاف لائمة الناس، أن يقولوا: تزوج محمد مطلقاً مُتّبئاً، والله تعالى وحده أحق أن يخافه. فلما قضى زيد حاجته منها، ولم يبق له فيها أرب، وطابت عنها نفسه، وطلقها عن إرادة جازمة منه، ورغبة ذاتية فيه، وانقضت عدتها، جعلناها زوجة لك بلا عقد ومهر وشهود؛ لتكون قدوة في إبطال عادة تحريم الزواج بزوجة المُتّبئ بعد طلاقها، ولا يتحرج المسلمون بعد ذلك من الزواج بمطلقات أديانهم الذين كانوا يتبنونهم بعد انقضاء عدتهن، بخلاف امرأة ابن الصلب، فإنها لا تحل للاب، وكان قضاء الله ماضياً وحكمه نافذاً. وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ.

٣٨ - ليس على النبي دوماً من إثم فيما أحل الله له، وخصه به من تزوج «زينب» التي طلقها دعيه «زيد بن حارثة»، حالة كون رفع هذا الحرج طريقة الله ومنهاجه في الأنبياء الذين مضوا من قبل، أن لا حرج عليهم في الإقدام على ما أباح الله لهم من مباحات تتطلبها طبيعتهم البشرية، ووسّع عليهم في باب النكاح، فليس محمد في هذا بدءاً من الرسل، بل شأنه كشأنهم استمتاعاً باللذات المباحات في الحياة الدنيا، وكان أمر الله في التكوين والتشريع مسبقاً دوماً بتحديد دقيق لمقادير الأشياء التي حددها بإرادته الحكيمة.

٣٩ - الذين يُبَلِّغون فرائض الله وسننه وأوامره ونواهيه بأقوالهم وأعمالهم وتقريراتهم إلى مَنْ أرسَلوا إليهم، ويخافون الله، ولا يخافون قالة الناس ولا امتهم فيما أحل لهم وفرض عليهم، وكفى بالله كافياً لِمَنْ تَوَكَّلَ عليه، ومُحاسباً على عزائم القلوب وأفعال الجوارح، فلا ينبغي أن يُخشى غيره.

٤٠ - ما كان مُحَمَّدٌ أباً لأحد من رجالكم أبوة حقيقية، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من الإرث والنفقة وحرمة المُصاهرة والنكاح، و«زيد» من رجالهم، فليس النبي أباً له، ولكن رسول الله وخاتم النبيين والمرسلين، فلا نبوة معه ولا بعده إلى قيام الساعة، فمن زعم النبوة بعده، فهو كذاب أفاك، وكافر بكتاب الله وسنة رسوله، ولما قضى الله بِختم الرسالات والنبوات التي جعلها في سلالة إبراهيم عليه السلام من بعده، أوقف الذُرِّيَّات الذكور عند محمد بن عبد الله ﷺ في عرق النبوة الموصول بشرط سلالة إسماعيل بن إبراهيم، كما أوقفها في عرق النبوة الموصول بشرط سلالة إسحاق بن إبراهيم، عند يحيى وعيسى عليهم السلام، وختم النبيين بمحمد هو من حكمة الله، وهو عليم دوماً بكل شيء.

٤١، ٤٢ - يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله بقلوبكم وألستم ذكرًا كثيراً في سائر الأوقات، وكل الأحوال، ولا تغفلوا عن ذكره أبداً، وينبغي أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتزنيه من كل سوء أول النهار وآخره، لاجتماع ملائكة الليل والنهار فيهما. وهذا النداء الإلهي للمؤمنين هو الثاني في هذه السورة.

٤٣ - هو سبحانه الذي يرحمكم ويُنِّي عنكم، وتدعو لكم ملائكته وتستغفر لكم؛ ليُخرجكم برحمته وهدايته، ودعاء الملائكة واستغفارها لكم من ظلمات الكفر والجهل والمعاصي إلى نور الإيمان والهداية والطاعة، وكان الله بالمؤمنين دائم الرحمة.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

٤٤ - تحية المؤمنين من الله تعالى عند دخول الجنة: سلام وأمان لهم من جميع الآفات، ويسلم بعضهم على بعض، وتسلم عليهم الملائكة، وأعد لهم في الجنة ثواباً حسناً نفساً.

٤٥، ٤٦ - يا أيها النبي الذي شرفناك وكرمناك بالنبوة، إنا أرسلناك بعظمة ربيوتنا متصفاً بخمسة أوصاف: الأول: أرسلناك مبلغاً رسالة ربك وجميع ما أنزل إليك، لمن تستطيع أن تبلغهم من الناس؛ لتكون شاهداً على أمتك يوم القيامة بإبلاغهم الرسالة، الوصف الثاني: وأرسلناك مبشراً لمن آمن وأطاع بفضل الله عليهم في الدنيا بالنصر والتمكين، وفي الآخرة بالمغفرة والرضوان ودخول الجنة، الوصف الثالث: وأرسلناك نذيراً لمن كذب وعصى بالنار، الوصف الرابع: وأرسلناك داعياً إلى توحيد الله وطاعته بأمره إياك بالحكمة والموعظة الحسنة، ويسر لك أمر الدعوة إليه مع شدتها وثقلها وعظيم خطرها، الوصف الخامس: ومضياً تهدي بذاتك، ومؤثراً في غيرك بضيائك، حتى يكون ذا نور يهدي، كما تؤثر الشمس بضيائها في القمر فيبعث نوراً.

وهذا النداء الإلهي للنبي ﷺ هو الثالث في هذه السورة، فإن الله سبحانه لما أبلغه بالنداء الأول ما هو متعلق بذاته، وبالنداء الثاني ما هو متعلق بأزواجه، ناداه سبحانه في هذه الآية بأوصاف أودعها سبحانه فيه؛ للتنبؤ به بشأنه، وزيادة رفعة مقداره، وبين له خصائص رسالته، ومواقفه ﷺ من العالم.

٤٧ - وبشر - يا رسول الله - المؤمنين بأن لهم من الله ثواباً عظيماً، زيادة على الثواب في جنات النعيم.

٤٨ - ولا تطع - يا رسول الله - أي فريق أو فرد من الكافرين والمنافقين، في أي مقترح أو أي أمر من الأمور التي تتنافى مع رسالتك، ودع التفكير في أذاهم الموجه منهم لك وللمسلمين، ودع الاشتغال بدفعه؛ وتجمل بالصبر والصفح، وتوكل على الله في كل أمورك، ولا تخش أن يتخذوا من إعراضك عن مقابلة أذاهم بمثله أن يصعدوا من العدوان عليك وعلى المسلمين تصوراً منهم أنك إنما أعرضت عن مقابلة أذاهم بأذى مثله، لأنك ضعيف أنت ومن معك من المؤمنين، فإن الله سيتولى رد كيدهم والدفاع عنك، وكفى بالله حافظاً لك، متولياً كل أمورك. فمن توكل على الله كفاه ما أهمه، ورد كيده أعدائه إلى نحورهم.

٤٩ - يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، وعملوا بشريعة، وإذا عقدتم على النساء، ولم تدخلوا بهن، ثم طلقتموهن من قبل أن تجمعهن، فما لكم عليهن من عدوة تحصن عليهن بالإفراء والأشهر، فأعطوهن من أموالكم ما يستمتعن به، بحسب الوسع جبراً لخواطرن، وخلوا سبيلهن بالمعروف، وأخرجوهن من منازلكن لعدم وجوب العدة عليهن إخراجاً خالياً عن أدنى ومنع ما وجب لهن من حقوق. والمتعة عطية يعطيها الزوج للمرأة إذا طلقها، وقد جعل الله التمتع جبراً لخاطر المرأة المنكسر بالطلاق، والمتعة حق للمطلقة سواء سمي لها صداق أم لم يسم. وهذا النداء الإلهي للمؤمنين هو الثالث في هذه السورة.

٥٠ - يا أيها النبي الذي شرفناك وكرمناك بالنبوة، إنا أبحنك لك النكاح من هذه الأصناف الأربعة: الصنف الأول: أزواجك اللاتي أعطيتهن مهرهن، وهن النسوة اللاتي تزوجتهن على حكم النكاح الذي يعم الأمة، الصنف الثاني: وأبحنك أيضاً ما ملكت يمينك مما أنعم الله به عليك من السني، كصفية بنت حيي، من سني خيبر، وجويرة بنت الحارث من سني بني المضطلق، الصنف الثالث: وأحللنا لك التزويج بينات عمك وبينات عماتك من قراباتك من جهة الأب من نساء قريش، وبينات خالك وبينات خالاتك من قراباتك من جهة الأم من نساء بني زهرة، اللاتي هاجرن معك إلى المدينة، فمن لم تهجر منه لم يجز لك نكاحها، الصنف الرابع: وأحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق، إن كنت تريد الزواج منها وترغب فيها، خلصت لك هذه الهبة من دون المؤمنين، فلا تحل لهم، قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين في أزواجهم من الأحكام، وهو أن لا يتزوجوا أكثر من أربع، ولا يتزوجوا إلا بولي وشهود ومهر، وما أوجبنا عليهم من الأحكام في ملك اليمين فلا يجوز لهم الإخلال بتلك الشرائط، ولا الاقتداء بالرسول ﷺ فيما خصه الله به. ولكنا أحللنا لك - يا رسول الله - صنوفاً من النساء: صنفاً تدفع لهن المهر، وصنفاً تتمتع بهن بملك اليمين، وصنفاً من أقاربك، وصنفاً رابعاً تنكحه دون مهر، بعد أن تهب المرأة نفسها لك، ويتم قولك، توسعة عليك وتكريماً لك؛ لكي لا يكون عليك أدنى ضيق في نكاح من نكحت من هؤلاء الأصناف الأربعة، وكان الله من الأزل إلى الأبد كثير الستر للواقع في الحرج، دائم الرحمة بالتوسعة على عباده المؤمنين. وهذا النداء الذي خطب به النبي ﷺ هو الرابع في هذه السورة، في شأن خاص به، هو بيان ما أحل الله له من الزوجات والسراير، مما بعضه تقريراً لتشريع له سابق، وبعضه تشريع له للمستقبل، ومما بعضه يتساوى فيه النبي ﷺ مع الأمة، وبعضه خاص به أكرمه الله بخصوصيته مما هو توسعة عليه.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوْنَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّوهُنَّ سِرَاجًا مُبِينًا ﴿٤٩﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

٥٥ - لا إثم على نساء النبي ﷺ وسائر النساء في رؤية هؤلاء لهم وعدم احتجابهن منهن، وهؤلاء الأصناف هم سبعة: الأول: أبائهن، والثاني: أبناءهن، والثالث: إخوانهن، والرابع: أبناء إخوانهن، والخامس: أبناء أخواتهن، والسادس: النساء المملوكات، والسابع: العبيد المملوكون لهم؛ لشدة الحاجة إليهم في الخدمة، وأتقن الله - أيها النساء - أن يراكن أحد غير هؤلاء؛ إن الله كان على كل شيء من أعمال العباد شهيداً حاضراً معائناً، يُخبر عن كل شيء في الكون إخباراً مطابقاً لما هو عليه في الواقع، لا تخفى عليه في الوجود خافية. ويلحق بأصناف الأقرباء: الأعمام والأخوال، لأن ذكر أبناء الإخوان، وأبناء الأخوات يقتضي اتحاد الحكم، فلما رُفِعَ الحرج عنهن فيمن هن عمات لهم، أو خالات، كان رفع الحرج عنهن في الأعمام والأخوال كذلك.

٥٦ - إن الله سبحانه يرحم نبيه ﷺ، ويثني عليه دواماً في حياته وبعد مماته، تكريماً له، ورفعة لدرجته، والملائكة يدعون له ﷺ، ويثنون عليه بدوام واستمرار دون فتور ولا انقطاع، يا أيها الذين آمنوا، عظموا شأن النبي ﷺ، وادعوا له بالرحمة، وسلموا عليه تسليماً، تحية وتعظيماً له، وانقادوا لحكمه، وتمسكوا بسنته، تحقيقاً لصديق محبته، ووفاء له ببعض حقه مقابل ما قدمه لكم وللعالَمين أجمعين من هداية وإخلاص ودعاء، وما سيقدمه يوم القيامة من شفاعته، واحمدوا الله سبحانه واشكروه، لأنه كلفكم بالصلاة والسلام على نبيه ﷺ، ففي ذلك رحمة بكم، إذ ثواب صلاتكم عليه ﷺ يعود عليكم، فضلاً منه تعالى، وتكريماً لنبيه ﷺ، كما تتألون القرب منه ﷺ يوم القيامة بالإكثار من الصلاة والسلام عليه، ويكفيكم الله هموم الدنيا، فيشرح صدوركم، ويطمئن قلوبكم، ويغفر ذنوبكم، ويضع عنكم أثقال أوزاركم يوم القيامة.

وصفة الصلاة على النبي ﷺ ثبتت في السنة على أنواع، منها: «اللهم

صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد». وهذا النداء الإلهي للمؤمنين هو الخامس في هذه السورة.

٥٧ - إن الذين يؤذون الله ورسوله بأقوالهم أو أفعالهم من اليهود والنصارى والمشرَكين والمنافقين، طردهم الله وأبعدهم عن رحمته في الدنيا والآخرة، وهىء لهم في الآخرة عذاباً يُذَلِّهُم وَيُهَيِّئُهُم.

٥٨ - والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات من غير عمل يُوجب أذاهم، فقد كلفوا أنفسهم كذباً عظيماً، وإثماً ظاهراً كبيراً يحملونه على ظهورهم يوم القيامة. ألحقت حرمة المؤمنين في هذه الآية بحرمة الرسول ﷺ تنوياً بشأنهم، وذكروا على حدة للإشارة إلى نزول رتبهم عن رتبة ﷺ.

٥٩ - يا أيها النبي الذي شرفناك بكرمناك بالنبوة، قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُرخَّينَ وَيَسُدَّنَ عليهنَّ من ملاحفهنَّ حتى تَشُرَّ أجسادهنَّ من رؤوسهنَّ إلى أقدامهنَّ، ذلك أقرب أن يُمَيَّزَ بالسُّرِّ والصَّيَانَةِ والعِفَّةِ، فلا يختلطن بالإماء، فإذا عُرفْنَ فلا يُتَعَرَّضَ لهنَّ بمكروه أو أذى، وكان الله كثير المغفرة لما سلف، يستر ذنوب عباده، ويتجاوز عن تقصيرهم، دائم الرحمة بهم. وهذا النداء الذي حُوِّطَ به النبي ﷺ هو الخامس والأخير في هذه السورة، وقد تقدَّم في الآيات (١) و(٢٨) و(٤٥) و(٥٠).

٦٠ - أقسم لئن لم يكف المنافقون عن نفاقهم، والذين في قلوبهم حَسَدٌ من منافقي اليهود، والمشيعون للأخبار الكاذبة في «المدينة» عن أعمالهم العدائية للإسلام والمسلمين، لَنُتَّسَلَطَنَّ عليهم - يا رسول الله - للانتقام منهم وطردهم حتى يخرجوا من «المدينة»، ثم لا يُسَاكُنُونَك فيها إلا زمناً قليلاً ريثما يُجْلَوْنَ عنها.

٦١ - مطردون من رحمة الله في أي مكان وجدوا وأدركوا فيه، أُسِرُوا، وقُتِلُوا أكبر قتل وأشنع، تطهيراً للمجتمع من شرهم وفسادهم.

٦٢ - هذه العقوبة الشديدة في معاملة المنافقين إذا استمروا على مكابدهم وتصرفاتهم العدائية، وهم داخل صفوف المسلمين كسنة الله وطريقته في منافقي الأمم السابقة، إذا تَمَادَوْا في غيِّهم ولم ينتهوا عن إيذاء رُسلهم، أن يُؤْسَرُوا وَيُقْتَلُوا شَرُّ قِتْلَةٍ أَيْنَمَا وُجِدُوا، ذلك لأن خطرهم حينئذ يكون أشد من خطر الكافرين المُجَاهِرِينَ بعداوتهم، وهي سنة مُستمرة لا تبديل لها، ولن تجد - يا رسول الله - لسنة الله الثابتة في الشرائع الربانية تغييراً.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَمْلُوكَاتٍ أَيْمَنَهُمْ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِكُ عَلَيْهِمْ مِنْ جَلْبِيبِهِمْ ذَلِكَ أَذَى أَنْ يَعْرِفَنْ فَلَإِيُؤْذِنُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَنْ لَزَيْنَهُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعْنَتُكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحْكَرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخْدًا وَقِفُوا أَتَقْبِلُوا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

٦٣ - يسألك المشركون - يا رسول الله - عن وقت قيام الساعة التي يكون فيها إنهاء ظروف الحياة الدنيا، استبعاداً واستهزاءً، ويسألك المنافقون إيداءً وإرجافاً، واليهود امتحاناً واختباراً؟ قل لهم: إن الله تعالى قد استأثر به، ولم يُطلع عليه نبياً ولا ملكاً، وأني شيء أعلمك - يا رسول الله - متى يكون قيام الساعة، لعل وقت قيامها يكون قريباً؟ عند ذلك يندم الجاحدون، ويصدق المكذبون، ويستيقن المرتابون.

٦٤، ٦٥ - إن الله طرد الكافرين من رحمته، وهياً لهم ناراً شديدة الانتقاد، ماكثين فيها أبداً، لا يجدون ولياً يتولاهم ويدفع عنهم، ولا ناصراً ينصرهم، فيخرجهم من النار.

٦٦ - ضُغ في ذاكرتك - أيها المتلقي لآياتنا - يوم تتقلب وجوه الكافرين ظهراً لبطن حين يُسحبون على النار؛ لتشوى من كل الجهات، فلا يبقى فيها مكان لا تلفحه النار، يقولون نادمين متحسرين: يا ليتنا أطعنا الله، وأطعنا رسوله في الدنيا، فتخلص من هذا العذاب.

٦٧ - وقال الكافرون يوم القيامة: ربنا أطعنا طاعة جاهلة عمياء رؤساءنا في الكفر، وأئمتنا في الضلال، الذين لقنونا الكفر وزينوه لنا، فأبعدونا عن سبيل الحق والهدى.

٦٨ - ربنا عذب رؤساء الكفر وكبراء الضلالة ضعف عذاب غيرهم؛ عذاباً على ضلالهم في أنفسهم، وعذاباً على إضلالهم لنا، واطردهم من رحمتك طرداً شديداً.

٦٩ - يا أيها الذين آمنوا لا تؤذوا رسول الله بأي نوع من الأذى، ولا تكونوا ك رؤساء الضلال في بني إسرائيل الذين آذوا نبي الله موسى، ونشروا عنه الأراجيف والأكاذيب؛ بقصد إيذائه، وتشويه سمعته، فطهره الله مما قالوا فيه من الكذب والزور، وحفظ له مكانته ووجاهته، وكان عند الله كريماً ذا جأه وقدر، فلا تفعلوا هذا بنبينا

ﷺ فإن له من الوجاهة والمكانة عند الله أعظم مما لموسى عليه السلام. وهذا النداء الإلهي للمؤمنين هو السادس في هذه السورة. ٧٠، ٧١ - يا أيها الذين آمنوا خافوا عقاب الله إذا عصيتموه، وقولوا قولاً صواباً قاصداً إلى الحق والسداد، يتقبل الله حسناتكم، ويمح ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد ظفر بالخير العظيم بالنجاة من النار، ودخول الجنة. وهذا النداء للمؤمنين هو السابع والأخير في هذه السورة.

٧٢ - إنا عرضنا الأمانة - التي ائتمن الله - عليها المكلفين، بأن يعبروا رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وهم يحملون الإرادة الحرة، وقدرات الإدراك والفهم، على أن تسخر لهم بخلق الله الأشياء والقوى في ذات أنفسهم، وفي الكون من حولهم؛ ليمتحنوا في ظروف الحياة الدنيا، بالإيمان والإسلام والعبادة، فمن كفر بالله كان مصيره إلى الخلود في النار، ومن آمن وكسب في إيمانه خيراً، كان مصيره إلى الخلود في جنات النعيم، عرضنا تلك الأمانة على السموات والأرض والجبال، وكان العرض عليهم تخييراً لا إلزاماً، فأبت السموات والأرض والجبال رغم كبرها وضخامتها من حمل هذه الأمانة، بل خفن من حملها، بعد أن أعطاهن الله القدرة على إدراكها، إذ لا تملك استعداداً فطرياً لحمل الأمانة، لأنها لا تملك إرادة حرة حتى تختبر أمانتها وخيانتها، وحملها الإنسان؛ لأنه يحمل الاستعداد الفطري الكامل لحمل الأمانة؛ بما منحه الله سبحانه من خصائص التفكير والعقل ومعرفة صفات الأشياء، والإرادة الحرة، مما يستطيع التصرف فيه بفعل الخير أو بفعل الشر، وإذ وضع الله هذه الخصائص أمانة تحت يده، وضع له منهاجاً يسير عليه، فإذا استعمل الإنسان ما استودع الله إرادته من قوى وطاقت، في طاعة الله، وفيما أذن له به، فإنه يُثبت أنه صاحب أمانة، أما إذا استعملها فيما لا يرضي الله، أو فيما فيه ظلم أو عدوان على أحد من خلق الله، فهو خائن فيما استأمنه الله عليه، وجعله وديعة عنده؛ إنه كان ظلوماً لنفسه لكثرة خيانه للأمانة، وعدوانه على حقوقها، استجابة لأهوائه وشهواته، ووساوس الشياطين، جهولاً بأمر ربّه، لم يتبصر بعواقب ظلمه، ولم يحسب حساباً لمسؤوليته، ولم يخش عقاب ربّه، كما هو المشاهد في وصف معظم الناس.

٧٣ - لتكون عاقبة حمل الأمانة، وثمرة هذه المسؤولية، الجزاء بالعدل والفضل، فيُعذب الله بعدله المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبتطنون الكفر، والمنافقات، والمشركيين والمشركات بما خانوا الأمانة، ولم يقوموا بحقوقها، ويتوب الله بفضله ورحمته على المؤمنين والمؤمنات، ويهديهم ويرحمهم بما أدوا من الأمانة التي استأمنهم عليها مالكمها، وأخضعها لتصرفهم، فيما أذن لهم به، وكان الله كثير السّر للتائبين، دائم الرحمة بعباده المؤمنين.

١ - الثناء كله حق لله وحده، الذي له كل ما في السموات وما في الأرض ملكاً وخلقاً، وله الثناء والشكر الكامل في الآخرة كما هو له في الدنيا؛ لأن النعم في الدارين كلها منه، فكما أنه المحمود على نعم الدنيا فهو المحمود على نعم الآخرة، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها الملائمة لها، ويختار أفضل الأشياء وأنقنها وأحسنها في الأمور المختلفة لما يعطي أحسن النتائج، الخبير على سبيل الشهود والحضور المصاحب لكل أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

٢ - يعلم ما يدخل في الأرض من المياه، والأحياء الكبرى والصغرى، حتى «البكتريات»، وما هو أصغر منها، ويشمل الأشعة والحرارة وأجزاءها حتى أصغر جزء، ويشمل القوى المختلفة، ومنها الجاذبية حتى أقل مقدار منها، وما يخرج من الأرض من النبات على اختلاف أفرادها، وأجناسها، وأنواعها، ومنه: ينابيع المياه حتى أقل مقدار من الماء، ومنه: المعادن والصخور والأتربة والرمال، وقوى الجاذبية، ويعلم سبحانه كل ما ينزل من السماء من المطر والثلج والبرد، والشهب، وأشعة الشمس والأنوار، وأنواع البركات والملائكة، ويعلم كل ما يعرج في السماء صاعداً من الأرض، أو من إحدى السموات إلى ما فوقها، حتى آخر بُعد من أبعاد السموات من الملائكة والأرواح والدعاء وأعمال العباد، وهو الواسع الرحمة الغفور الذي يستر ذنوب عباده، ويتجاوز عن تقصيرهم في أداء ما وجب عليهم من شكر نعمه.

٣ - وقال الكافرون المنكرون للبعث: لا تأتينا الساعة الموعودة للبعث والنشور، وملاقة الحساب، وفضل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

قل لهم - يا رسول الله -: مقولتكم كاذبة مرفوضة، وأقسم لكم برئي لتأتيتكم ساعة البعث ليوم الدين الذي تلاقون فيه جزاءكم على ما أسلفتم في الحياة الدنيا، ولا تتصوروا أن أعمالكم خافية على ربكم، بل هي معلومة له، وكيف يخفى عليه ما كسبتم وما تكسبون من أعمال ظاهرة في الجوارح، وباطنة في السرائر، وهو عالم كل ما هو غيب بالنسبة إلى غيره، لا يخفى عليه شيء من الخفيات، ولا يغيب عن علمه وزن ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من الذرة ولا أكبر، إلا هو مدون في كتاب مبين، واضح ظاهر، مبين ما هو مدون فيه بياناً واضحاً، وهو اللوح المحفوظ.

٤ - لتأتيتكم الساعة التي فيها البعث ليوم الدين؛ ليجزي الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات الدالة على صحة الإيمان الاعتقادي الإرادي بالثواب فضلاً من الرب الجليل، أولئك رفيقوا المكانة عند ربهم لهم ثوابان: الثواب الأول: مغفرة لذنوبهم، فيسترها ويتجاوز عن محاسبتهم ومجازاتهم عليها، والثواب الثاني: رزق كريم ينالونه في جنات النعيم.

٥ - والذين سَعَوْا بهمة ونشاط مُجْتَهِدِينَ في الصّد عن آياتنا الكونية والبيانية، يحسبون أنهم قادرون على الإفلات والهرب من قبضتنا التي نأخذهم بها إلى العذاب الأليم المُعَدّ للكافرين، أولئك البعداء في اتجاه الدرك الأسفل من النار لهم عذاب من أسوأ العذاب وأشدّه ألماً.

٦ - ويرى مؤمنو أهل الكتاب أن القرآن الذي أنزله الله إليك هو الحق الثابت من عند الله، ويُرشد القرآن إلى طريق الله القوي الغالب على كل شيء، الذي يحمد عباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، والذي هو محمود يُسَبِّح بحمده كل شيء.

٧ - وقال الكفار المنكرون للبعث لمن يستمع إليهم قولاً مقروناً بالسخرية والاستهزاء: هل ندلكم على رجل - يريدون محمداً ﷺ - يُحَدِّثُكُمْ بأعجوبة من الأعاجيب، وهي: أنكم إذا مِثُم وقُطِّعتم كل تقطيع، وفُرِّقَت أجسامكم في الأرض كل فريق، وصِرْتُم تراباً، يقول: إنكم تُبعثون وتشؤون خلقاً جديداً؟



٨ - أهذا الرجل الذي جاء بهذا القول العجيب المستنكر: مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ كَذِباً فيما يُنسب إليه من ذلك، أم به جنون يُوهمه ذلك، ويلقيه على لسانه، فهو يتكلم بما لا يدري؟ ليس الأمر كما زعموا، بل الذين ينكرون البعث، ولا يعملون من أجله في العذاب الدائم في الآخرة، والضلال البعيد عن الحق في الدنيا.

٩ - أَنْطَمَسَتْ أَبْصَارُهُمْ وَبَصَائِرُهُمْ، فلم يَرَوْا بأعينهم ولا بعقولهم ناظرين إلى ما خلقه الله في كونه من السماء والأرض، مما بعضه واقع بين أيديهم من مواقع أقدامهم إلى امتداد بصرهم، وبعضه واقع خلفهم، فيعلموا أنهم حيث كانوا في أرضي، وتحت سمائي، فإن أرضي وسمائي محيطَةٌ بهم، لا يخرجون من أقطارها، وأنا قادرٌ عليهم؟ إِنْ نَشَأْ نَغْوِرُ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَرْضَ، فندفنهم فيها، كما فعلنا بقارون، أو إِنْ نَشَأْ نَسْقِطُ عَلَيْهِمْ قِطْعاً مُهْلِكَةً مِنَ السَّمَاءِ، كما فعلنا بقوم شُعَيْبٍ؛ لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول، إِنْ فِي ذَلِكَ الَّذِي هُوَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَالَّذِي هُوَ خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَعَلَّامَةٌ عَظِيمَةٌ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَتِنَا عَلَى الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَعَلَى أَنْ نَخْسِفَ الْأَرْضَ بِمِنْ نَشَاءَ، وَأَنْ نَسْقِطَ قِطْعاً مُهْلِكَةً مِنَ السَّمَاءِ عَلَى مَنْ نَشَاءَ، إِلَّا أَنْ الَّذِي يُدْرِكُ هَذِهِ الْآيَةَ وَيَهْتَدِي بِهَا، كُلُّ عَبْدٍ لَدَيْهِ الرِّغْبَةُ فِي أَنْ يَرْجِعَ إِلَى رَبِّهِ بِقَلْبِهِ وَنَفْسِهِ وَفِكَرِهِ، مُؤْمِناً مُطِيعاً مُسْلِماً.

١٠ - وَتُقَسِّمُ مُؤَكِّدِينَ أَنَّنَا آتَيْنَا دَاوُدَ مَنَا عَطَاءً زَائِداً خَصَصْنَاهُ بِهِ، وَمِنْ هَذَا الْفَضْلِ: تَرْجِيعَ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ صَدَى صَوْتِهِ الشَّجِيِّ فِي تَسَابِيحِهِ، وَقَلْنَا لِلْجِبَالِ وَالطَّيْرِ: رَجَّعِي مَعَهُ تَسْبِيحَهُ إِذَا سَبَّحَ، وَالنَّارَ لَهِ الْحَدِيدِ، فَكَانَ فِي يَدِهِ كَالْعَجِينِ، يَعْمَلُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَلَا ضَرْبِ مَطْرَقَةٍ.

١١ - وَأَمْرَانَهُ أَنْ أَعْمَلَ - يَا دَاوُدَ - دُرُوعاً تَأْمَنُ وَاسِعَاتِ سَاطِرَاتٍ، وَأَحْكَمَ مَقَادِيرَ حَلَقِ الدُّرُوعِ، وَمَقَادِيرَ الثُّقُوبِ عِنْدَ مَوَاطِنِ اتِّصَالِهَا بِبَعْضِهَا، وَمَقَادِيرَ مَسَامِيرِ الرُّبُطِ بَيْنَهَا، حَتَّى تَوْذِيَ الْغَرَضَ مِنْهَا أَدَاءً حَسَنًا، وَأَحْكَمَ تَفْصِيلَهَا عَلَى مَقَادِيرِ أَجْسَادِ لَابِسِيهَا، حَتَّى تَكُونَ وَافِيَةً الْوَقَايَةَ، تَأْتِي الصُّنْعَةَ، وَاعْمَلْ - يَا دَاوُدَ وَأَهْلَكَ - عَمَلاً صَالِحاً مُتَّقِناً، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، فَأَجَازِيكُمْ بِالثَّوَابِ الْعَظِيمِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَوْمَ الدِّينِ، فَوْقَ مَا أَمْنَحُكُمْ مِنْ ثَوَابٍ مُعْجَلٍ فِي الدُّنْيَا.

١٢ - وَذَلَّلْنَا لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ الرِّيحَ جَزْئُهَا بِالْعُدَّةِ مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مَسِيرَةً شَهْرٍ، وَجَرَّيْهَا بِالْعِشِيِّ مِنْ وَقْتِ الْعَصْرِ إِلَى الْغُرُوبِ كَذَلِكَ، فَكَانَتْ تَسِيرُ بِهِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَسِيرَةً مَا تَجْتَازُهُ قَافِلَةُ الْمَسَافِرِينَ فِي شَهْرَيْنِ كَامِلَيْنِ بِالسَّيْرِ الْمَعْتَادِ، وَأَذْبَنَّا لَهُ عَيْنَ الثُّخَاسِ يَجْرِي غَزِيرًا مُسْتَمَرًّا، وَذَلَّلْنَا مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَحْتَ سُلْطَانِهِ الْمُبَاشَرِ وَمِرَاقَبَتِهِ، بِأَمْرِ رَبِّهِ، وَمَنْ يَنْحَرِفُ مِنَ الْجِنِّ عَنْ تَنْفِيزِ أَمْرِنَا لَهُمْ بِطَاعَةِ سُلَيْمَانَ، نُذَفِّهِ بِبَعْضِ عَذَابِ مِنَ النَّارِ الْمُسْتَعْرَةِ الْمُعْرِقَةِ فِي الْآخِرَةِ.

١٣ - يَعْمَلُ الْجِنُّ لِسُلَيْمَانَ مَا يَشَاءُ مِنْ مَسَاجِدَ لِلْعِبَادَةِ، وَصُورَ مَجَسَّمَةٍ مِنْ نَحَاسٍ وَرَخَامٍ وَزَجَاجٍ، وَقِصَاصٍ كِبَارٍ كَالْحَيَاضِ الَّتِي يُجْبَى فِيهَا الْمَاءُ، وَقُدُورَ ثَابِتَاتٍ عَلَى قَوَاعِدِهَا لَا تَحْرُكُ وَلَا تَنْزِلُ عَنْ أَمَاكِنِهَا لِعَظَمَتِهَا، وَقَلْنَا: يَا آلَ دَاوُدَ أَعْمَلُوا عَمَلاً صَالِحاً؛ لِأَجْلِ شُكْرِ اللَّهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَلَى مَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعَمٍ كَثِيرَةٍ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الْعَامِلِ بِطَاعَتِي، شُكراً لِنِعْمَتِي.

١٤ - فَحِينَ أَمْضَيْنَا قَضَاءَنَا عَلَى سُلَيْمَانَ بِالْمَوْتِ، مَا دَلَّ الْجِنُّ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا الْأَرْضَ - وَهِيَ دُودَةٌ تَأْكُلُ الْخَشَبَ وَتُعْرِفُ بِاسْمِ النَّمْلِ الْأَبْيَضِ - تَأْكُلُ عَصَاهُ الَّتِي يَتَوَكَّلُ عَلَيْهَا، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّهِ، مُتَمَسِكاً بِعَصَاهُ، وَاضِعاً جَبِينَهُ عَلَى أَعْلَاهَا، فَلَمَّا سَقَطَ سُلَيْمَانُ عَلَى الْأَرْضِ، عَلِمَتْ الْجِنُّ وَأَيَقَنْتْ أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، مَا أَقَامُوا هَذِهِ الْمُدَّةَ الْوَاقِعَةَ مَا بَيْنَ مَوْتِهِ وَعِلْمِهِمْ بِهِ، يُنْفِذُونَ الْأَعْمَالَ الْمُؤَذَّلَةَ الْمُخْزِيَةَ الَّتِي كَانَ قَدْ أَمَرَهُمْ بِتَنْفِيزِهَا، وَكَانُوا يَرَهْبُونَ سَطَوَتَهُ، وَمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ سُلْطَانٍ قَوِيٍّ عَلَيْهِمْ. وَكَانَ سُلَيْمَانُ إِذَا دَخَلَ مَحْرَابَهُ وَخَلَا لِنَفْسِهِ، وَاعْتَكَفَ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ - سِوَاكَ كَانَ مِنْ أَهْلِهِ أَوْ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَسِوَاكَ كَانَ مِنَ الْإِنْسِ أَوْ مِنَ الْجِنِّ - حَتَّى يَأْذَنَ لَهُ، وَذَلِكَ بِمَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ هَيْبَةٍ، وَسُلْطَانٍ، وَبِخَاصَّةٍ بَعْدَ أَنْ اسْتَقَرَّ مُلْكُهُ، وَكَبُرَتْ سُنَّتُهُ، وَصَارَ مِثَالاً لِلْخُلُوتِ يَعْبُدُ فِيهَا رَبَّهُ، وَيَتَجَرَّدُ مِنْ كُلِّ عِلَاقٍ الدُّنْيَا.

أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ وَالْأَرْضِ نَشْأُ أَنْخَسِفَ بِهِمُ
الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَافًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مَنَا فَضْلًا
يَنْجِي آلَ أَبِي مَعَّةَ وَالطَّيْرَ وَالنَّارَ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ
سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صِلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرًا وَرَوْحَهَا شَهْرًا
وَأَسْلَمْنَا لَهُ الْفُطُورَ وَمَنْ أَلْجَأَ مِنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ
رَبِّهِ وَمَنْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرٍ نَأْذِقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَتَنْشِيلُ جِفَانٍ كَالْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ
الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ
إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجِنُّ
أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

١٥ - نَوَكَّدَ لَكُمْ - أَيُّهَا الْمَصْرُورُونَ عَلَى كُفْرِكُمْ - أَنَّهُ كَانَ لِأَهْلِ «سَبَأَ» فِي مَسْكَنِهِمْ بِالْيَمَنِ» علامة دالة على وحدانيتنا وقُدْرَتنا وإحساننا ووجوب شكرنا هذه الآية: بُسْتَانَانِ عَنْ يَمِينِ الْوَادِي وَشِمَالِهِ، يَنْعَمُ النَّاسُ بِشِمَارِهَا، وَيَسْتَتِرُونَ بِظِلَالِهَا، وَقِيلَ لَهُمْ: كُلُوا مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّتَيْنِ، وَأَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا رَزَقَكُمْ مِنَ النِّعْمَةِ، وَاعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ، هَذِهِ بِلَدَّتْكُمْ بِلْدَةٌ طَيِّبَةٌ خَالِيَةٌ مِنَ الْأَوْبَةِ، جَيِّدَةُ الْهَوَاءِ، مُعْتَدِلَةٌ دَرَجَاتِ الْحَرَارَةِ، وَافِرَةُ الْعَطَاءِ مِنَ الْأَرْزَاقِ، وَرَبُّكُمْ - إِنْ آمَنْتُمْ إِيْمَانًا صَحِيحًا، وَأَسْلَمْتُمْ وَأَطَعْتُمْ وَشَكَرْتُمْ عَلَى مَا رَزَقَكُمْ - رَبُّ كَثِيرِ السَّيْرِ لَذُنُوبِ عِبَادِهِ.

١٦ - فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ دَاعِيَهُمْ، وَلَمْ يَكْتَرِثُوا بِإِنذارِهِ بِعِقَابِ اللَّهِ لَهُمْ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ السَّيْلَ الْجَارِفَ الْعَنِيفَ الْمُتَدَفِّقَ بِالْوَحْلِ الَّذِي لَا يُطَاقُ، فَدَمَّرَ مَسَاكِنَهُمْ، وَأَتْلَفَ مَزَارِعَهُمْ، وَبَدَّلْنَا هُمْلَهُمْ بِالْجَنَّتَيْنِ الْمُثْمِرَتَيْنِ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْنِ طَعْمُ مَرٍّ، قَلِيلِ الْحَمْلِ، وَشَجَرٍ عَظِيمٍ مِنْ شَجَرِ الْعِصَاةِ، كَثِيرِ الْأَغْصَانِ، دَقِيقِ الْوَرَقِ، وَشَيْءٍ قَلِيلٍ مِنْ شَجَرِ الثَّقِيِّ، كَثِيرِ الشُّوكِ، يَنْبُتُ فِي الْجِبَالِ وَالرَّمْلِ، لَا نَفْعَ فِيهِ.

١٧ - ذَلِكَ الْجَزَاءُ الَّذِي جَزَيْنَا بِهِ قَوْمَ «سَبَأَ» بِسَبَبِ كُفْرِهِمُ الْمُؤْغِلَ فِي الْخَسَةِ. وَنَحْنُ مِنْ سُنَّتِنَا فِي عِبَادِنَا أَنَّنَا لَا نُجَازِي فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِثْلَ هَذَا الْجَزَاءِ الْمَعْجَلِ بِالْعِقَابِ الْمَهْلِكِ الشَّامِلِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ بِقَوْمِ «سَبَأَ» إِلَّا مَنْ كَانَ مُؤْغِلًا فِي ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ، مُعَانِدًا مُجْرِمًا جَاحِدًا لِلْحَقِّ وَهُوَ عَالِمٌ بِهِ. وَأَنْتُمْ - أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ - فِي مَكَّةَ، فِي قَرْيَةٍ آمنة مطمئنة يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَلَا تُسَبِّبُوا لَأَنْفُسِكُمْ بِالْكَفْرِ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّكُمْ أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بِكُمْ نَظِيرَ مَا أَنْزَلَ بِقَوْمِ «سَبَأَ».

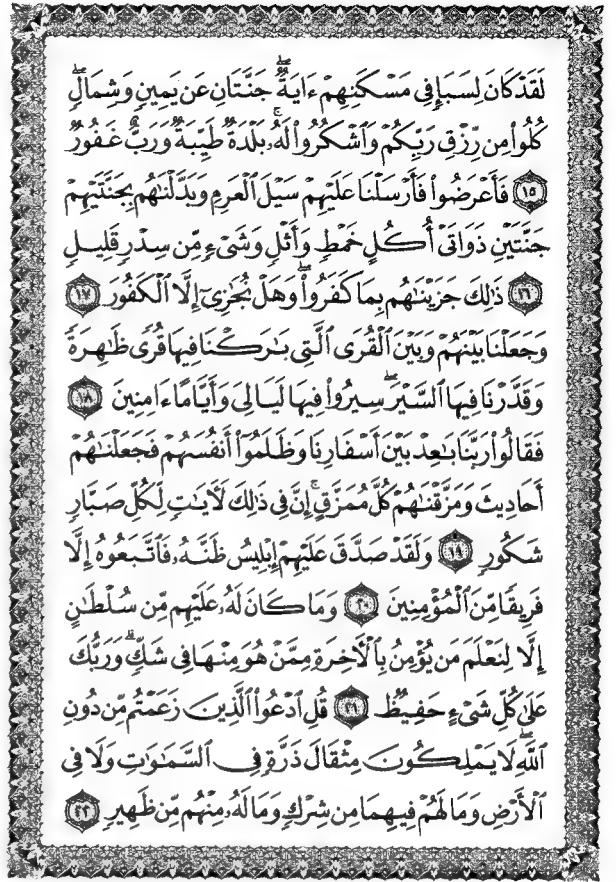
١٨ - وَجَعَلْنَا بَيْنَ مَسَاكِنِ أَهْلِ «سَبَأَ» بِالْيَمَنِ، وَبَيْنَ قَرْيَةِ بِلَادِ الشَّامِ الْمُبَارَكَةِ، مُجْتَمَعَاتٍ سَكْنِيَّةٍ مُتَوَاصِلَةٍ، تَظْهَرُ الثَّانِيَةُ مِنَ الْأُولَى، لِقُرْبَاهَا مِنْهَا، تَحْطُّ رِحَالُهُمْ عِنْدَهَا بَغْيَةً الْإِسْتِرَاحَةِ وَالتَّزَوُّدِ، وَقُدِّرْنَا سَيْرَهُمْ بَيْنَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ بِمِقْدَارِ مُعَيَّنٍ لَا مَشَقَّةَ فِيهِ، وَقَلْنَا لَهُمْ: سَيَرُوا فِيهَا فِي أَيِّ وَقْتٍ شِئْتُمْ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، آمَنِينَ لَا تَخَافُونَ عَدُوًّا، وَلَا جَوْعًا وَلَا عَطْشًا، فَبَطَرُوا النِّعْمَةَ، وَسَيِّمُوا الرَّاحَةَ، وَطَعَفُوا، وَلَمْ يَصْبِرُوا عَلَى الْعَافِيَةِ.

١٩ - فَقَالُوا: رَبَّنَا اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَرْيَةِ بِلَادِ الشَّامِ مَسَافَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ؛ لَنُرَكِّبَ فِيهَا الرِّوَاحِلَ، وَنَتَزَوَّدَ الْأَزْوَادَ، وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْبَطَرِ وَالطَّغْيَانِ، وَارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَالْجَرَائِمِ، فَبَعَدَ أَنْ كَانُوا فِي «الْيَمَنِ» أُمَّةً مَشْهُودَةً الْقُوَّةَ وَالْمَكَانَةَ، سَلْبِنَاهُمْ قُوَّتَهُمْ، وَعَزَلْنَاهُمْ عَنْ مَكَانَتِهِمْ، وَسَلَّطْنَا عَلَيْهِمْ مَنْ غَلِبَهُمْ، وَجَعَلْنَاهُمْ عَبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ، يَتَحَدَّثُونَ بِأَمْرِهِمْ وَشَأْنِهِمْ، وَجَزَّأْنَاهُمْ غَايَةَ التَّجْزِئَةِ فِي مُخْتَلَفِ الْأَمَاكِنِ وَالْقَرْيِ وَالْمَنَازِلِ؛ إِنْ فِي ذَلِكَ الَّذِي كَانَ مِنَ السَّبِّبِينَ، وَمَنْ تَصَارِفْنَا الْحَكِيمَةَ فِيهِمْ، وَمَتَابَعَتْنَا لَهُمْ بِالْعِقَابِ، لَعِبْرًا وَدَلَالَاتٍ عَلَى سُنَةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ لِكُلِّ كَثِيرِ الصَّبْرِ عَلَى الْإِبْتِلَاءِ وَعَنِ الْمَعَاصِي، كَثِيرِ الشُّكْرِ لِلَّهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِنَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ.

٢٠ - وَثَقَسَمَ مُؤَكِّدِينَ أَنَّ إِبْلِيسَ حَقَّقَ ظَنَّهُ عَلَى بَنِي آدَمَ بِمَا عَلَّمَهُ مِنْ صِفَاتِهِمْ، وَقِيَاسًا عَلَى خَبَرَتِهِ بِوَقْعِ حَالِ الْجِنِّ الْمَخْلُوقِينَ قَبْلَ الْإِنْسِ، فَتَحَقَّقَ فِي الْوَاقِعِ التَّجْرِبِيِّ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ وَأَطَاعُوهُ، وَتَأَثَّرُوا بِوَسَاوِسِهِ وَإِغْوَايَاتِهِ وَإِغْوَاءَاتِهِ، إِلَّا فَرِيقًا قَلِيلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

٢١ - وَمَا كَانَ لِإِبْلِيسَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مِنْ تَسْلِيْطٍ يُبْلِغِي إِرَادَتَهُمْ الْحَرَّةَ، وَإِنَّمَا اتَّبَعُوهُ طَاعَةً لَأَهْوَاهِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِإِبْلِيسَ إِلَّا أَنْ دَعَاهُمْ بِأَسْلُوبِ الْوَسْوَاسَةِ وَالتَّسْوِيلِ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ، وَمَا مَكْنًا لِإِبْلِيسَ وَجُودِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْإِغْوَايَةِ، إِلَّا لَنَرَى مِنْ يُصَدِّقُ بِالْآخِرَةِ وَنَمِيزُهُ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ، أَوْ مَنكِرٍ لَهَا. وَرَبُّكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ بِسُلْطَانِهِ وَهَيْمَتِهِ، وَمَحِيطٌ بِعِلْمِهِ، وَمُرَاقِبٌ دَوَامًا لِكُلِّ مَا أَحَاطَ بِهِ عِلْمُهُ.

٢٢ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ - فِي حِوَارِ دَعْوِيٍّ مَعَ الْمُشْرِكِينَ: اسْأَلُوا لِتَحْقِيقِ مَنَافِعِ لَكُمْ، أَوْ كَشْفِ ضُرِّ عَنْكُمْ، الَّذِينَ جَعَلْتُمُوهُمْ آلِهَةً تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ، وَهُمْ مِنْ دُونِهِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، خَاضِعُونَ لِتَصَارِفِهِ، فَجَعَلْتُمُوهُمْ كَذِبًا وَزُورًا وَافْتِرَاءً شُرَكَاءَ لِلَّهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَفِي بَعْضِ رَبوبيَّتِهِ، إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِقْدَارَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَيْسَ لَأَلْهَتِكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ مِشَارَكَةٍ لِلرَّبِّ الْخَالِقِ الْمَالِكِ فِي خَلْقِ شَيْءٍ مِنْهُمَا، وَلَا فِي امْتِلَاكِ شَيْءٍ مِنْهُمَا، وَلَا فِي التَّصَرُّفِ بِشَيْءٍ مِنْهُمَا، وَلَيْسَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ مِنْ أَلْهَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ مُعَيَّنٍ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ تَصَارِفِهِ فِي كَوْنِهِ.



٢٣ - ولا تنفع الشفاعة عند الله تعالى إلا لمن أذن الله له في الشفاعة، كالملائكة والرُّسل ونحوهم من المُستأهلين لمقام الشفاعة عنده، فلا تطمعوا - أيها المشركون - بأن تشفع لكم آلهتكم الذين تعبدون من دون الله، ومن عظيم قدرة الله سبحانه: أنه إذا تكلم بالوحي، فسمعه أهل السموات، أصاب الملائكة غشية عند سماع كلامه، حتى إذا كُشِفَ الفزع وأُزيل عن قلوبهم. قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: قال القول الحق الثابت، وهو - وحده - ذو العلو والكبرياء.

٢٤ - قل - يا أيها الداعي إلى الله - للمشركين: مَنْ يرزقكم المطر والنبات من السموات والأرض؟ قل لهم - على جهة الإلزام والإنصاف في الحجاج -: إن رازقكم من السموات والأرض هو الله، وليس لآلهتكم - أيها المشركون - تأثير في شيء من تصارييف الكون وأحداثه كلها، ومنها: أرزاق العباد، وما نحن وأنتم على أمر واحد، بل نحن وإياكم في معتقداتنا وأفكارنا على طرفي نقيض، فلما أن نكون نحن على هدى، وأنتم في ضلال مبين، وإما أن تكونوا أنتم على هدى، ونحن في ضلال مبين، فقدّموا ما لديكم من أدلة لإثبات ما تدعون، ونحن نقدم ما لدينا من براهين لإثبات ما نؤمن به.

وفي هذا التعليم الرباني إلزام للداعي إلى الله أن يعلن عند حوار غير المؤمنين تجرده عن سوابق أفكاره حول ما يؤمن به، وأنه يقدم قضايا موضوعه الذي يدعو إليه للبحث المتجرد على مائدة سواء بين الفريقين، فعلى كل منهما أن ينظر بتجرد نظراً فكرياً عقلياً علمياً، ثم على كل منهما أن يقبل ما يوصل إليه البحث العلمي المتجرد، ويؤمن به.

٢٥ - قل لهم - يا أيها الداعي إلى الله - متلطفاً معهم في العبارة: إن المسؤولية عند الله مسؤولية شخصية فردية، فإن كنا قد أجرنا في نظركم فلا تُسألون عما أجرنا، ونحن لا تُسأل عما تعملون؛ إذ لا نصفكم بالإجرام رداً على أنهماكم لنا بالإجرام.

٢٦ - قل - أيها الداعي - للمشركين الذين يدعون أن الله سوف يعطيهم في الآخرة - على فرض وجودها الذي لا يؤمنون به - مثلما أعطاهم في الدنيا: سوف يجمع بيننا ربنا يوم القيامة، إذ يبعثنا إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، كما وعدنا، ثم ينفذ ما قضى به من جزاء بالثواب في جنات النعيم، أو بالعذاب في نار الجحيم، وهو الحاكم الذي يحكم بين عبادِه بالحق، العليم بما يتعلق بحكمه من المصالح، المحيط بكل شيء علماً.

٢٧ - قل - أيها الداعي - للمشركين: أروني بمشاهدة حسية أو بدليل عقلي في رؤية ذهنية، الأصنام التي أشركتوها مع الله في العبادة، فإن توصلتم إلى أن لهم ربوبية في الكون فأخبروني: هل يخلقون أو يرزقون؟ ارتدعوا عن زعم الشرك، فإنهم لا يخلقون ولا يرزقون، بل هو الله القوي الغالب على أمره، الحكيم في تدبير خلقه، فأنى يكون له شريك في ملكه؟

٢٨ - وما أرسلناك - يا رسول الله - في حال من الأحوال إلا في حال كونك مُرسلاً للناس أجمعين، حالة كونك - مع تبليغك رسالة ربك - بشيراً لمن آمن بالسعادة الأبدية الخالدة في جنات النعيم يوم الدين، مع أنواع ثواب مُعجل في الدنيا، ونذيراً لمن كفر وأعرض عن الاستجابة بالشقاء الأبدية بعذاب في نار جهنم يوم الدين، مع أنواع عقاب مُعجل في الدنيا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون صدق وعموم رسالتك، وحقائق الدين الذي تدعوهم إليه؛ لثلا يصرفهم هذا العلم عما هم فيه من تحقيق أهوائهم، وشهواتهم، ومطالبهم في الحياة الدنيا العاجلة.

٢٩ - ويقول هؤلاء المشركون مستهزئين: متى هذا الوعد الذي تعدوننا أن يجمعنا الله فيه، إن كنتم صادقين فيما تعدوننا به؟

٣٠ - قل - يا رسول الله -: لكم - أيها المشركون - وقت تحقيق الموعود في يوم معلوم، لا تستطيعون - مهما بذلت من جهد - تأخير زمن وقوع ميعاد الله مهما قل، ولا تستطيعون - مهما بذلت من جهد - تقديم فعل شيء قبل زمنه الذي قدره الله له.

٣١ - وقال الذين كفروا: لن نُصدق بهذا القرآن، ولا بالكتب التي نزلت من قبله على الرسل السابقين، ولو ترى - أيها الرائي - في الآخرة حال الظالمين من ذرّة الكفر وقت وقوفهم عند خالقهم ومالك أمرهم، في محكمة العدل الربانية، لمحاسبتهم وفصل القضاء بشأن كل واحد منهم، يُجيب المخاضمون بما وُجه لهم من كلام خصومهم، كل يرفع عن نفسه المسؤولية، لرأيت حالة فظيعة. يقول الأتباع الذين كانوا في الدنيا مُستضعفين للقادة والرؤساء الذين كانوا في الدنيا مُستكبرين: لولا فتنكم لنا، وضغطكم علينا، لكنا مؤمنين بما جاء به رسول ربنا، ولما تعرضنا لحساب الله، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه.

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَهَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعْجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ أَتَّصَعَفُوا لَالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾

٣٢ - قال الرؤساء المَتَّبِعُونَ في الكفر لِلْمُسْتَضْعَفِينَ - مُنْكَرِينَ اتِّهَامَهُمْ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا هُم السَّبَبُ فِي ضَلَالِهِمْ وَمَنْعَهُمْ عَنِ الاستِجَابَةِ لدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ -: أَنَحْنُ مَنْعْنَاكُمْ وَصَرَفْنَاكُمْ بِسُلْطَانِنَا عَنْ اتِّبَاعِ الْهَدْيِ، بعد إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ؟ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ فِي دَخِيلَةِ نَفُوسِكُمْ، فَأَعْجَبْتُمْكَمْ مَسَالِكُنَا الْبَعِيدَةَ عَنْ طَرِيقِ الْهَدْيِ، وَوَجَدْتُمْ مَا يُرْضِي أَهْوَاءَكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ فَاتَّبَعْتُمُونَا بِمَحْضِ إِرَادَاتِكُمْ، وَلَمْ نَكُنْ مُكْرِهِينَ لَكُمْ، فَمَسْئُولِيَّتَكُمْ عَنْ ضَلَالِكُمْ مَسْئُولِيَّةَ شَخْصِيَّةٍ.

٣٣ - وقال الْآتِبَاعُ الْمُسْتَضْعَفُونَ لِقَادَتِهِمُ الْمُجْرِمِينَ: بَلْ كَانَ لَكُمْ تَأْثِيرٌ عَلَيْنَا بِالتَّضْلِيلِ الْفَكْرِيِّ، وَالْإِغْرَاءَاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَكَانَ هَذَا مِنْكُمْ تَدْبِيرًا خَفِيًّا دَبَّرْتُمُوهُ لَنَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، حِينَ كُنْتُمْ فِي الدُّنْيَا تَطْلُبُونَ مِنَّا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ، وَنَجْعَلَ لَهُ أَشْبَاهًا وَنَظَرَاءَ وَأَمْثَالًا نَعْبُدُهَا مِنْ دُونِهِ تَعَالَى، وَأَسْرُ الْآتِبَاعِ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَضْعَفِينَ، وَالْمَتَّبِعُونَ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَكْبِرِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَسْفَهَهُمْ وَتَحَسَّرَهُمْ وَلَوْ مِثْلَهُمْ لِنَفْسِهِمْ عَلَى مَا كَانُوا قَدْ ارْتَكَبُوهُ مِنْ جَرَائِمٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حِينَ رَأَوْا الْعَذَابَ وَاقِعًا بِهِمْ، وَجَعَلْنَا أَطْوَاقَ الْحَدِيدِ فِي أَعْنَاقِ الْآتِبَاعِ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَالْمَتَّبِعِينَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، الَّذِينَ كَفَرُوا، لَا يُجْزَوْنَ بِمَقْتَضَى عَدْلِ اللَّهِ التَّامِّ إِلَّا جِزَاءً مُطَابِقًا وَمُثَآثِلًا لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْجَرَائِمِ وَالْمَعَاصِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؟

٣٤ - وما أَرْسَلْنَا فِي أَهْلِ مُجْمَعٍ سَكْنِيٍّ وَلَوْ كَانَ مَدِينَةً عَظِيمَةً مِنْ رَسُولٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَيَقُومُ بِوُظَائِفِ رِسَالَتِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَفِي آخِرِهَا إِذْ نَادَى الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِهَا، بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، إِلَّا قَالَ رُؤَسَاؤُهُمْ وَأَغْنِيَاؤُهُمْ وَجَبَّابَتُهُا الْمُتَسَعِّعُونَ فِي النِّعَمِ فِيهَا الْبَطْرُونَ بِهَا لِرُسُلِ رَبِّهِمْ: إِنَّا بِالَّذِي جِئْتُمْ بِهِ - أَيُّهَا الرُّسُلُ - جَا حِلْدُونَ.

٣٥ - وقالوا: نحن أكثر منكم أموالاً وأولاداً، ولو لم يكن للهِ راضياً بما نحن عليه لم يُعْطِنَا هَذِهِ النِّعَمَ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا فِي الدُّنْيَا بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ، فَلَا يُعَذِّبُنَا فِي الْآخِرَةِ.

٣٦ - قل لهم - أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ النَّاصِحُ الْمُرْشِدُ -: إِنَّ رَبِّي يُوسِّعُ الرِّزْقَ وَيُكَثِّرُهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الْعَاصِينَ وَالطَّائِعِينَ، وَيُضَيِّقُ الرِّزْقَ وَيُقَلِّلُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا، حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ، وَلَا يَدُلُّ الْبَسْطُ عَلَى رِضَا اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا التَّضْيِيقُ عَلَى سَخَطِهِ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهَا لِلْامْتِحَانِ وَالْابْتِلَاءِ، فَتَغْتَرُّهُمْ وَفَرَةٌ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ، نَاسِينَ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَلَا يَفْتَحُونَ مِغَالِيقَ نَفُوسِهِمْ، لِإِدْرَاكِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَرِيدُونَ أَدَاءَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، مِمَّا يَخَالِفُ أَهْوَاءَهُمْ، وَيَصْطَدِمُ مَعَ شَخْصِ نَفْسِهِمْ.

٣٧ - وليست أموالكم ولا أولادكم بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا أَقْلَ تَقَرِّيبٍ، فَنَحْنُ الَّذِينَ مَنَحْنَاكُمْ هَؤُلَاءِ؛ لِنَبْلُوكُمْ فِي رَحَلَةِ امْتِحَانِكُمْ، وَلَكِنَّ الَّذِي يُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا مَا كَانَ مِنْ كَسْبِكُمْ الْإِرَادِيَّ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِنَا، بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْنَا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَأُولَئِكَ نَجْزِيهِمْ جِزَاءً مُضَاعَفًا عَلَى حَسَنَاتِهِمْ، فَنَجْزِي بِالْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ فَأَكْثَرُ؛ بِسَبَبِ مَا عَمَلُوا مِنْ صَالِحَاتٍ فِي مَرَحَلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ الرَّفِيعَاتِ النَّفِيسَاتِ فِي أَعَالِي الْجَنَّاتِ آمِنُونَ مِنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُونَ.

٣٨ - وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ بِهَمَّةٍ وَنَشَاطٍ فِي جُحُودِ آيَاتِنَا، وَتَحْرِيفِ دَلَالَتِنَا، وَالتَّشْكِيكِ فِيهَا، مَتَوَهِّمِينَ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُفْلِتُوا مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، أُولَئِكَ الْمُنْحَطُونَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُحْضَرُونَ، تُحْضَرُهُمُ الزَّبَانِيَّةُ، فَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا.

٣٩ - قل - يَا رَسُولَ اللَّهِ وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ - لَهُؤُلَاءِ الْمُغْتَرِّينَ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ: إِنَّ رَبِّي يُوسِّعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِمْ؛ لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا، وَمَا أَنْفَقْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ مِنْ شَيْءٍ مِمَّا قَلَّ أَوْ كَثُرَ، فَاللَّهُ يَعُوضُ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا لَا مُعُوضَ سِوَاهُ، بِالْمَالِ أَوْ الْقَنَاعَةِ الَّتِي هِيَ كَنْزٌ لَا يَفْنَى، إِضَافَةً إِلَى الْأَجْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَدْخَلَهُ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - خَيْرٌ مِمَّنْ يُعْطِي وَيَرْزُقُ؛ لِأَنَّ كُلَّ رِزْقٍ مِنْ سِوَاهُ، فَهُوَ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ، أَجْرَاهُ اللَّهُ عَلَى أَيْدِي هَؤُلَاءِ، وَهُوَ الرِّزْقُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي لَا رَازِقَ سِوَاهُ، فَاطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنْهُ وَحْدَهُ، وَخُذُوا بِالْأَسْبَابِ الَّتِي أَمَرَكُمْ بِهَا.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ
تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ
لَمَارَأُوا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْنَاقَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ
مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالُوا أَنَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾
قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا
زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ مُضَاعَفٌ
بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي
أَعْيُنِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ
إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا
أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

٤٠ - ضع في ذاكرتك - أيها المُتلقِّي لبياننا - يوم يحشر الله الإنس والجنَّ جميعاً، ويسوقهم إلى موقف الحساب، ويأتي بالشهود ومنهم الملائكة، ثم بعد وقوف المحاسبين والشهود يقول الله تعالى للملائكة: أهؤلاء المشركون كانوا يخصونكم بالعبادة والطاعة بحسب ما يزعمون؟

٤١ - قال الملائكة: تنزيهاً لك عن أن يكون لك شركاء في ربوبيتك أو في إلهيتك، نحن نتولأ ولا نتولأهم، نبرأ من الرضا بعبادتهم لنا، إنهم في الحقيقة لا يعبدوننا، ولا يطيعون أوامرنا، بل كانوا يعبدون الشياطين الذين زينوا لهم عبادتنا، فأطاعوهم في ذلك، فكانت طاعتهم للشياطين عبادة لهم، أكثرهم بشياطينهم من الجنَّ مُصدِّقون، مطيعون لهم.

٤٢ - يقول الله عز وجل للمشركين ولأوليائهم من شياطين الجن: لقد استمتع بعضكم ببعض في الحياة الدنيا، حتى قضيتم فيها آجالكم، فيوم الحشر لا يملك بعضكم لبعض شفاعة، ولا دفع عذاب، وسيلقى كل واحد منكم جزاءه، ونقول للذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي إهانة لهم: تحسبوا آلام عذاب النار التي كنتم بها في الدنيا تكذبون.

٤٣ - وإذا ثلثي على الكفار طائفة من آيات القرآن حالة كونها واضحات، قال المشركون خمس مقولات كاذبات: **المقولة الكاذبة الأولى:** ما محمد إلا رجل يريد أن يصرفكم ويحولكم عما كان يعبد آبائكم، **المقولة الكاذبة الثانية:** وقالوا: ما هذا القرآن الذي يتلوه محمد إلا كلام كذب في نفسه، مُختلق ومُضطنع عن عمد من حيث نسبته إلى الله، **المقولة الكاذبة الثالثة:** وقال الكفار عن الحق الإعجازي في القرآن لما جاءهم من عند الله: ما هذا التأثير الذي يكون من القرآن في النفوس عند تلاوته، إلا بسبب كونه نوعاً من أنواع السحر الظاهر، لا بسبب كونه كلاماً معجزاً مُنزلاً من لدن رب العالمين.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

الْحَجَّةُ الْبَاقِيَةُ الْخَيْرُ

وَيَوْمَ يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴿٤٤﴾ قالوا سبحانك أنت ولسنا من دُونهم بل كانوا يعبدون الجنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٥﴾ فالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ إِنَّا بِمَا كُنْتُمْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آيَاتُكَ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِن هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مِنَّا ﴿٤٧﴾ وَمَاءَ الْيَنْبَغِ لَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٨﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مَعْشَارَ مَا الْيَنْبَغُ فَكذبوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيكُمْ بِهِمْ جَدَّةٌ أَنْ تَقُولُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفِرْدًى ثُمَّ نُنْفَكِرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٥٠﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥١﴾ قُلْ إِنْ رِئَافَتِي يَفْزِدُ بِالْحَقِّ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٥٢﴾

٤٤ - **المقولة الكاذبة الرابعة:** وزعموا أننا لم نأتهم بكتب ربانية يدرسونها، ويؤمنوا بما جاء من حق فيها، **المقولة الكاذبة الخامسة:** وقالوا: إن الله ما أرسل إليهم قبل محمد ﷺ رسولا مُبلِّغاً ومُعلِّماً وهادياً ومُبشِّراً من آمن وأطاع بجنات النعيم، ومُنذراً من كفر وعصى بعذاب النار يوم الدين. إنهم يقولون هذا القول مع افتخارهم بجدهم إسماعيل بن إبراهيم، وإيمانهم بأنهما رسولان، وهم يعلنون أنهم وارثو مناسك الحج عنهما؟!!

٤٥ - وكذب هؤلاء والذين من قبلهم من الأمم السالفة، كعاد، وثمود، وفرعون وملته، وما بلغ هؤلاء المشركون من أهل «مكة» عُشر ما أعطينا الأمم الخالية من القوة، والأنصار، والأموال، وطول الأعمار، فأرسلت لأولئك المكذِّبين السابقين رُسلي، فكذبوهم فيما جاؤوهم به، فأهلكناهم، فكيف كان إنكاري عليهم؟ ألم يكن إنكاراً ساحقاً ماحقاً؟! فليحذر كفار هذه الأمة المعاندين المُصرِّين على باطلهم مثل عذاب الأمم الماضية.

٤٦ - قل - يا رسول الله ويا كل داعٍ إلى الله من أمته - للجماهير من الأتباع: ما أنصحكم إلا بنصيحة واحدة مقرونة بما يثير الرغبة والرهبة في نفوسكم، للارتفاع بالنصح، واتباع ما هدى إليه؛ أن تقوموا مُتَجَرِّدين من الأهواء والعصبيات تبتغون الوصول إلى الحق ومرضاة الله، اثنين فائنين، وواحد فواحداً، بعيدين عن الضغط الجماعي الذي يحيط بكم، ويُهَيِّمُ عليكم به أئمتكم وقادتكم، ثم تفكروا في أمر محمد ﷺ ورسالته وما جاء به، فتعلموا أنه ما بصاحبكم من جنون، كما يزعم قادتكم، بل هو من تعلمونه أرجح الناس عقلاً، وأصدقهم قولاً، وأفضلهم علماً، وأحسنهم عملاً، وأجمعهم للكمالات البشرية، فما جاءكم به إنما هو وحيٌ يُوحى إليه من الله تعالى، وما هو إلا مُبلِّغٌ رسالات ربِّه لكم، وناصحٌ لكم أمين، ومُبشِّرٌ من آمن وأطاع بجنات النعيم، ومُنذِرٌ من كفر وعصى بعذاب شديد يوم الدين، وهو ينلركم قبل نزول عذاب شديد سوف تعذبونه إذا لم تؤمنوا وتعملوا صالحاً.

٤٧ - قل - يا رسول الله - للكفار: أنا لم أسألكم أجراً على دعوتكم إلى دين الله وتعليمكم ونصحكم، وإن كنتم تتوهَّمون أنني أريد من دعوتي أجراً لنفسي من مطالب الحياة الدنيا، فهذا الأجر الذي أطلبه هو لكم، ما ثوابي إلا على الله، يعلم ما في نيتي، ويشهد لي بأني لم أطلب منكم أجراً، وهو على كل شيء مُطَّلِعٌ يعلم حالي وحالكم، لا تخفى عليه خافية من أمورنا.

٤٨ - قل - يا رسول الله -: إن ربي يرمي بالحق الذي أنزله على رسوله على الباطل الذي لا قيمة له، فيزيله، وهو سبحانه علام جميع ما غاب من حواس وإدراك المخلوقات، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

٤٩ - قل - يا رسول الله -: جاء الحقُّ الربَّانيُّ المؤيَّد بالبراهين القاطعة، والحجج الساطعة، وذهب الباطل وزال، ولم تَبْقَ منه بقية، وإنَّ الباطل لا يُبدى في الوجود خيراً، ولا أمة مؤيَّدة بنصر الله، وإذا تداعت الأمة المَبْنِيَّة على الباطل، فإنَّ الباطل لا يستطيع أن يعيد تلك الأمة التي جرَّته فلم تغلح، بل كان سبب سقوطها.

٥٠ - قل لهم - يا رسول الله -: إن كنتُ ضَلَلْتُ بترك عبادة الأصنام فيما تزعمون أنتم، فإني لا أضلُّ إلا جانباً على نفسي؛ إذ عَرَضْتُهَا لعقاب ربِّي الحَكَم العَدل، وإن كنت اهتديت فليس هذا مني، بل بسبب ما يوحى إليَّ ربِّي من القرآن والحكمة؛ إنَّ ربِّي سميع لأقوالكم ولما أقوله لكم، قريب بعلمه مني ومنكم، يجازيني ويجازيكم.

٥١ - ولو ترى - أيها الرائي - حين خاف الكفار خوفاً شديداً، ممَّا هم صائرون إليه من عذاب ربِّهم، بعد البعث من قبورهم، فلا قُدرة لهم على القُوَّة والهَرَب، ولا نَجاة لهم يومئذ من عذاب الله، وأخذوا إلى النار من مكان قريب التناول، لرأيت أحداثاً هائلة مُرعبة تخلع القلوب من مواضعها.

٥٢ - وقالوا حين عَانُوا العذاب: آمناً بالحقِّ الذي جاءنا به الرسول وبلغنا إيَّاه، وكيف لهم تناول ما بَعُد عنهم من الإيمان والتوبة من الكفر في الآخرة، وقد كان ذلك قريباً منهم في الدنيا فضيَّعوه؟! وكيف يقدرُونَ على الظفر به في الآخرة، وهي بعيدة من الدنيا؟!

٥٣ - وقد كفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وأنباء يوم الدين، وما جاء به الرسول من قبل أن يُعانيوا العذاب وأحوال القيامة، وكانوا في الحياة يَرْجُمُونَ بالظنِّ، ويدعُونَ دعاوى كاذبات، ويثبتون آلهة باطلة، وينسبون إليها صفات وأفعالا غيبية، وهو رَجْمٌ من مكان بعيد جداً عن الغيب الذي يتحدثون عن أمورٍ هي فيه، وليس باستطاعتهم أن

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٥١﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَى إِلَيَّ رِيفٌ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٢﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥٣﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٤﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٥﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ الْفُطْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَثْنٍ وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ يَرْيَدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَّ كُلِّ شَيْءٍ فَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تَوْفُكُوتُ ﴿٣﴾

يصلوا إلى أي موقع منه.

٥٤ - وأقيم حائل حاجز في الآخرة بين الكفار وبين ما يشتهون من الإيمان المقبول، والتوبة المُنجية، والرجوع إلى الدنيا، كما فعل الله بنظرائهم ومَن كانوا على مثل حالهم من الكفار، فلم تُقبل منهم التوبة والإيمان في وقت اليأس، وأدخلوا في دار العذاب كما أدخل أشباههم من قبلهم، إنهم كانوا جميعاً في شكٍّ من البعث ونزول العذاب بهم، مُوجِبٌ للقلق والاضطراب، يُوقِع في تُهْمَتهم بأنهم عالمون بالحقِّ وجاحدون به عناداً؛ ودوافعهم إلى الشكِّ نابعة من أهوائهم وشهواتهم، ورغبات نفوسهم من متاعات الحياة الدنيا.

سُورَةُ الْفُطْرِ

١ - الثناء الجميل حقُّ لله وحده، خالق السموات والأرض ومُبتدِعهما وَفَّقَ نظام الفُطر والشقُّ ابتداءً من العدم على غير مثال سَبَق، جاعل الملائكة رُسلاً إلى الأنبياء، يُبلِّغونهم رسالاته، أصحاب أجنحة عديدة، تستعملها للصعود والهبوط بين السماء والأرض، والقيام بوظائفها المأمورة بها، فبعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة أجنحة، وبعضهم له أربعة، وبعضهم أكثر من ذلك، يزد بتجدد مُستمر في خلق كلِّ ما يريد خلقه ما يشاء، وكذلك ينقص في الخلق ما يشاء، بمقتضى حكمته وتدبيره، إنَّ الله على كلِّ شيء مُمَّا يريد خلقه عظيم القدرة، لا يعجزه شيء أراد.

٢ - ما يفتح الله بالتتابع مع الزمن للناس من خير أو رزق أو أمن أو علم أو حكمة، وعطاءات متواليات، فلا يستطيع أحدٌ حَبْسُها، وما يمنع ويحبس فلا مطلقٌ له من بعد إمساكه، وهو القويُّ الغالب فيما أمسك، الحكيم فيما أرسل.

٣ - يا أيها الناس اذكروا بالسنتكم وقلوبكم وجوارحكم نعمة الله عليكم، واحفظوها بمعرفة حقِّها والإقرار بها، وطاعة مُوليها وتخصيصه بالعبادة، لا خالقٌ إلا الله يرزقكم المطر من السماء، والنبات من الأرض، لا معبود بحقٍّ إلا الربُّ الخالق الرازق، تعالى وتنزه عن أيِّ شريك له في ربوبيته، وإلهيته، فكيف تُصرفون عن هذه الحقيقة الواضحة الجليلة إلى الشُّرك وعبادة مَن لا يستحقُّ أن يُعبد بوجهٍ من الوجوه؟!

٤ - وَإِنْ يُكَذِّبُكَ قَوْمُكَ، وَيَجْحَدُونَ نَبُوءَتَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مع العلم بصدقك، فقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ كثيرون، وذوو مكانات رفيعات من قَبْلِكَ، فصبروا على ما كُذِّبُوا وأوذوا، فتأسَّ بهم واضبِر كما صَبَرُوا، وإلى الله وحده تصير الأمور، فتوكل عليه، وسلم أمرك إليه، وسيجزيك على صبرك، ويؤيدك بنصره، وسينتقم من المكذِّبين في الدنيا، وفي دار العذاب التي أعدَّها للمجرمين في الآخرة.

٥ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ الَّذِي وَعَدَ عِبَادَهُ بِالْبَعثِ وَالْحِسَابِ وَفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، حَقٌّ ثَابِتٌ، فَلَا تَخْذَعْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا تُلْهِيَتْكُمْ بِلَذَائِهَا وَزِينَتِهَا عَنْ عَمَلِ الْآخِرَةِ وَطَلَبِ مَا عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِمَا يَخْدَعُكُمْ بِهِ الشَّيْطَانُ بِتَزِينَاتِهِ وَوَسْوَاسِهِ، عَنْ طَرِيقِ الْأَفْكَارِ؛ تَشْكِيكاً فِي دِينِ اللَّهِ، أَوْ إِطْلَالاً، أَوْ جُحُوداً بِهِ، وَعَنْ طَرِيقِ الْعَوَاطِفِ اسْتِثَارَةً لَهَا حَتَّى تَقْعُوا فِي الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، وَتَصِيرَ بَتَكَارِهَا مَقْبُولَةً مُسْتَحْسَنَةً فِي الْأَفْكَارِ، فَيُسْتَدْرَجُكُمْ إِلَى الشُّكِّ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ، وَالْكَفْرِ، وَتَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

٦ - إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ، فَعَادُوهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا تُطِيعُوهُ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، وَلَا تَسْتَجِيبُوا لِإِغْرَائِهِ وَتَزِينَاتِهِ. إِنَّمَا يَدْعُو الشَّيْطَانُ أَشْيَاعَهُ وَأَوْلِيَائَهُ؛ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الثَّارِ الْمُوقَدَةِ فِي الْآخِرَةِ.

٧ - الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ كُفْراً عِنَادِيّاً، وَانْتَهتْ حَيَاةُ امْتِحَانِهِمْ دُونَ أَنْ يُرَاجِعُوا أَنْفُسَهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ، لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ فِي دَارِ الْعَذَابِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْأَرْكَانِ الْإِيمَانِيَةِ السَّتَةِ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ سَثْرٌ لذنوبهم التي سَلَفَتْ مِنْهُمْ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَأَجْرٌ كَبِيرٌ فِي الْجَنَّةِ عَلَى صَالِحَاتِ أَعْمَالِهِمْ.

سُورَةُ فَطْلٍ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

وَأَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
١ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ٢ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ٣ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ٤ أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا
فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ
عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ٥ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ
الرِّيحَ فَتُبْرِجَ سَحَابًا فُسْقِنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ
مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ٦ مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً
إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ
يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ
٧ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ
وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ٨

٨ - أَقَمَنْ شَبَّهُ لَهُ وَمُؤَهُ عَلَيْهِ قَبِيحَ عَمَلِهِ، بِتَزِينِ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَرَأَى الْبَاطِلَ حَقًّا، كَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ، فَرَأَى الْحَقَّ حَقًّا، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا؟ لَا يَسْتَوِيَانِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ فِي مُحْكَمَةِ يَوْمِ الدِّينِ عَلَى مَنْ ضَلَّ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالضَّلَالِ، وَلَمَنْ اهْتَدَى فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ بِالْهَدَايَةِ، بِمَحْضِ مَشِيئَتِهِ الْمَطْلُوقَةِ الْحَكِيمَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، فَلَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ تَذَهُبُ مِنْ جَسَدِكَ بِالمَوْتِ، بِسَبَبِ تَوَالِي الْحَسَرَاتِ، وَشِدَّةِ الْأَحْزَانِ، مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْكُفْرَ، بَلْ قَابِلِ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي مَقَادِيرِهِ وَتَدْبِيرَاتِهِ بِالتَّسْلِيمِ التَّامِّ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ وَبَاطِنَةٍ، حَتَّى مَكْتَسِبَاتِ قُلُوبِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ.

٩ - وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بِتَوَدَّةٍ وَتَرَفُّقٍ، فَتَجْمَعُ السَّحَابُ، وَتُحَرِّكُهُ وَتُرْجِعُهُ مِنْ مَكَانِهِ، فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ بَعِيدٍ مَيِّتٍ، فَأَحْيَيْنَا بِالْمَطَرِ الْأَرْضَ بَعْدَ يَبْسُهَا، فَتَخْضِرُ بِالنَّبَاتِ مِثْلَ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

١٠ - مَنْ كَانَ يَرِيدُ الشَّرْفَ وَالْمَنْعَةَ وَالْقُوَّةَ الْغَالِبَةَ، فَلْيَطْلُبْهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِطَاعَتِهِ، وَنَصْرِ دِينِهِ، فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ حَالَةً كَوْنَهَا جَمِيعاً لَهُ، لَا يَشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ. وَلَا سَبِيلَ لِنَيْلِ الْعِزِّ الْحَقِيقِيِّ الدَّائِمِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَا شَرَعَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَحَدَهُ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، الَّذِي أَثْمَرَتِهِ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي غَرَسَهَا اللَّهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، وَهِيَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَيَشْمَلُ سَائِرَ الْأَذْكَارِ وَالِدَعَوَاتِ، فَيَقْبَلُ عِنْدَهُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَيَكُونُ مَرْضِيّاً. وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ الصَّوَابُ الْخَالِصُ لَوَجْهِ اللَّهِ، يَرْفَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِوَسَاطَةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَيَقْبَلُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَيَمْنَحُ أَصْحَابَهُ الْعُلُوَّ وَالْعِزَّةَ الْغَالِبَةَ، وَالَّذِينَ يُدْبِرُونَ فِي الْخِفَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَكِيدَاتِ الَّتِي تَسُوُّهُمْ، لَهُمْ عِقَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الدِّينِ، وَتَدْبِيرٌ أَوْلَئِكَ الْبَعْدَاءِ إِلَى الْحَضِيضِ الَّذِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَكْرَهُمْ يَجْلِبُ لَهُمْ نَفْعاً، وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرراً، هُوَ يَهْلِكُ وَيُضْمَحِلُّ، وَلَا يَحْقُقُ غَرَضاً، وَلَا يَفِيدُهُمْ شَيْئاً، وَهُمْ الْخَاسِرُونَ الْمَغْلُوبُونَ الْخَائِبُونَ.

١١ - وَاللَّهُ خَلَقَ أَبَاكَ أَدَمَ مِنْ تُرَابٍ، وَأَنْتُمْ مِنْ نَسْلِهِ مَخْلُوقُونَ مِنْ تُرَابٍ تَبَعاً لَهُ، كَمَا أَنَّ جَسَدَ كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ تُرَابٍ تَحَوَّلَ بِخَلْقِ اللَّهِ إِلَى غِذَاءٍ، فَدَمَاءٍ، ثُمَّ تَتَكَوَّنُ النُّطْفَةُ الْمُنَوَّيَّةُ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَصْنَافاً ذَكَرَاناً وَإِنَاثاً، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى مِنَ النَّاسِ، وَلَا أُنْثَى مِنْ غَيْرِ النَّاسِ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ، حَتَّى الْبَعُوضَةُ فَمَا دُونَهَا، وَلَا تَضَعُ حَمْلَهَا إِلَّا بِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ، وَإِلَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ بِحِفْظِهِ، وَمَا يُنْثَلُ فِي عُمُرٍ أَحَدٍ، وَمَا يُقْتَلُ مِنْ عُمُرٍ أَحَدٍ، فَيَجْعَلُ نَاقِصَ الْعُمُرِ عَنْ نَظَرَاتِهِ، إِلَّا هُوَ مَعْلُومٌ لِلَّهِ، وَمَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ بِحِفْظِ اللَّهِ، إِنَّ خَلْقَ الْأَحْيَاءِ، وَكِتَابَةَ الْأَجَالِ وَالْأَعْمَالِ عَلَى اللَّهِ هَيِّنٌ يَسِيرٌ.

١٢ - وما يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ الْعَذْبُ وَالْمَالِحُ: هذا عَذْبٌ طَيِّبٌ مُسْتَسَاغٌ، يزيل العطش، سَهْلٌ انحداره في الحَلَقِ، هنيءٌ مريءٌ، وهذا شديد الملوحة، يحرقُ الحَلَقَ بمرارته، ومن كلٍّ من البحرين: العَذْبُ الفرات، والملح الأجاج، تأكلون السَّمَكَ لحمًا طرياً فيه لَذَّةٌ وغذاء، وتستخرجون زينةً هي اللؤلؤ والمرجان تلبسونها، وترى - أيها الراي - السُّفُنَ تجري في البحرين العذب والمالح، شاقَّةُ الماء بسرعتها، وقاطعة المسافات البعيدات؛ لِيَتَّبِعُوا - أيها الناس - في التنقلِ مَحْمُولِينَ عليها، أنتم وأثقالكم وأمتعكم، مصالح دنياكم وأرزاقكم من فضل ربكم عليكم، ورغبةً في أن تشكروا الله على نعمه التي أنعم بها عليكم، بالعمل بمراضيه والتزام طاعته.

١٣ - يُدْخِلُ ظِلْمَةُ اللَّيْلِ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ بِالتَّبَاعِ شَيْئاً فُشِيئاً، فيتتابع ذهاب الليل عند تتابع حالات الشروق، فيظهر ضوء النهار، ويدخل ضوء النهار في ظلمة الليل بالتتابع شيئاً فُشِيئاً، فيتتابع ذهاب النهار عند تتابع حالات الغروب، فيختفي ضوء النهار، وتنتشر ظلمة الليل، بسبب حركة دوران الأرض حول نفسها باتجاه الشمس ضمن نظام مُتَقَنَّ عَجِيب. ودلِّلَ الشمس والقمر لمنافع الناس، وسائر الأحياء على الأرض، ويقومان بوظائفهما التي سخرهما الله لها طَوَالَ الْمُدَّةِ الْمُحَدَّدَةِ لهما في علم الله، ذلكم العجيب العظيم الشأن، هو الله مُدَبِّرُ أُمُورِكُمْ، له وحده الْمُلْكُ فلا يشاركه فيه غيره، والذين تدعون من غيره من الأصنام ما يملكون من قسرة نواة، فما هي فائدتهم - أيها المشركون - من عبادة الأصنام، وكيف تعبدونهم وتدعونهم، رجاء أن يستجيبوا لكم، فيُحَقِّقُوا مطالبكم التي تطلبونها منهم؟

١٤ - إِنْ تَدْعُوا - يا أيها المشركون - هذه الأصنام التي لا حياة فيها طالبين منهم نفعاً أو معونةً أو نصراً، أو دفعَ ضَرٍّ أو رفعه، لا يسمعون دعاءكم؛ لأنهم أشياء جامدة لا تسمع، فكيف تسمح عقولكم بأن تدعوه، وهم لا يسمعون أصواتكم؟! ولو سمعوا - كَأَنَّ كَانَ الْمَعْبُودَ مِنَ الْجِنِّ أَوْ الْمَلَائِكَةِ - ما أجابوكم وما نفَعوكم، وبُرْهَانُ عدم استجابة ألهنكم المزعومة: الواقع التجريبي المتكرر، ويوم القيامة يتبرَّون منكم ومن عبادتكم إياها، فاسألوا مُجَرَّبِي دعاء شركائهم من دون الله، هل يستطيع أحدهم إثبات استجابة شركائهم لدعائهم في تجربة متكررة، ولا يُخَبِّرُكُمْ خبراً مُهِمّاً مُطَابِقاً للواقع تماماً، مثل خبير ذي تجربات مُتَكَرِّرَاتٍ أَكْسَبَتْهُ خَبْرَةٌ تَامَّةٌ، والعليم الخبير الأجل الذي لا تخفى عليه خافية، هو الله جلَّ جلاله، ومنْ دُونِهِ الْخَبْرَاءُ من عباده.

١٥ - يا أيها النَّاسُ أنتم الْفُقَرَاءُ الْمُحْتَاجُونَ دَوْماً إِلَى فَضْلِ اللَّهِ وإحسانه وإمداده لكم بعباءات ربوبيَّتِهِ، واللَّهُ وحده هو الْغَنِيُّ عَنْ خَلْقِهِ لا يحتاج إليهم، وكلُّ شيءٍ في الوجود محتاج إليه، وهو وحده المحمود في إحسانه إليهم، الْمُسْتَحِقُّ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْمَدُوهُ، والذي يَحْمَدُ مَنْ آمَنَ به وأطاعه، ويجازيهم بالثواب الجزيل يوم الدين، مع ما قد يكرمهم به من ثوابٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا.

١٦ - إِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُهْلِكْكُمْ وَيَذْهَبْ بِكُمْ مِنَ الْوُجُودِ إِلَى الْعَدَمِ، كما أَوْجَدَكُمْ وأنشأكم من العدم ومنحكم الوجود، وَإِنْ يَشَأْ أَنْ يَأْتِيَ بِخَلْقٍ آخَرَ جَدِيدٍ، يأت به. وفي إعلام الكافرين بذلك، تهديدٌ لهم بإهلاكهم جميعاً إهلاكاً عاماً شاملاً، إذا استمروا على كفرهم ومعادنتهم الحق.

١٧ - وما ذلك الإذْهَابُ والإِتْيَانُ بِخَلْقٍ سِوَاكُمْ عَلَى اللَّهِ بصعب ولا شاق ولا عسير، بل هو على الله سهلٌ يسيرٌ، إذ يتمُّ بأمر التكوين.

١٨ - ولا تحملُ نَفْسٌ مُذْنِبَةً، ذَنْبَ نَفْسٍ أُخْرَى، فكلُّ نَفْسٍ يوم القيامة لا تحملُ إِلَّا ذَنْبَهَا الذي باشرته أو تسببت فيه، ولا تُؤَاخَذُ بِذَنْبِ غَيْرِهَا، وَإِنْ تَسْأَلُ نَفْسٌ مُثْقَلَةً بِذُنُوبِهَا مَنْ يَحْمِلُ عَنْهَا مِنْ خَطَايَاهَا التي أَثْقَلَتْهَا لم تجد مَنْ يَحْمِلُ عَنْهَا شَيْئاً مهما قَلَّ مقداره، ولو كان الذي سألته للمشاركة في حَمْلِ شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ ذا قرابة، فإنه لا يستجيب لها؛ لِأَنَّ قَانُونَ الْجَزَاءِ الرَّبَّانِيَّ لا يَأْذُنُ لِهَذَا، وَلِأَنَّ كُلَّ مَدْعُوٍّ لِلْحِسَابِ وفصل القضاء، مهتَمٌّ بِوَمُثْدِ بِنَفْسِهِ، يطلب النجاة لها. ما ينفع إنذارك - يا رسول الله - مخوفاً من عذاب الله ونقمته إلا الذين يخافون عقاب ربهم خوفاً مصحوباً بتعظيم وإجلال، حالة كونه سبحانه محجوباً عن حواسهم الظاهرة، ودفعهم إيمانهم به إلى إقامة الصَّلَاة له، وهذه الصَّلَاة تذكركم به سبحانه وبصفاته الجليلة، وَمَنْ تَطَهَّرَ مِنْ دَنَسِ الْكُفْرِ وَالذُّنُوبِ بِالْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فلا يتطهر إِلَّا لِنَفْسِهِ، وإليها يعودُ الأجر والثواب، وإلى حكم الله وحده وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، الرجوع ومكانه وزمانه، فيجازي كُلّاً بما يستحق يوم الدين بعد بعث الموتى إلى الحياة مرة أخرى.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا
مِلْحٌ أجاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيبًا وَتَسْتَخْرِجُونَ
حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لَبَنَعًا مِنْ فُضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ
تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَهُمْ كَرُّوا سَمْعًا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَمَنْ لَا يُبَيِّنْكُمْ مِثْلَ خَيْرٍ
﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ اسْمًا الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾
وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ
تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جِهْلِهَا لِأَتَّخِذَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَمِنْ تَرَكُنِي فَاتَّبَعْتَكَ لِنَفْسِكَ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

١٩ - ٢٣ - إنَّ قانون الجزاء الرباني قائمٌ على العدل، ومن الظلم: التسوية بين المتفاضلين في الدرجات، أو المتفاوتين في الدَرَكَات، فلا تصحُّ التسوية بين المشرك الجاهل الأعمى، والمؤمن العالم البصير بالهدى، ولا تستوي أفراد الظلمات في مقادير ظلماتها، ولا تستوي أفراد النور في مقادير أنوارها، ولا تستوي أفراد الأشياء ذوات الظل، ولا تستوي أفراد الأشياء ذوات الحرور التي تصيبها أشعة الشمس بحرارتها، فهي مختلفة النسب باختلاف الأزمنة والأمكنة، وما يستوي أحياء القلوب بالإيمان والعمل الصالح، وموتى القلوب بالكفر والمعاصي، وإنَّ من وصلَّت حالة نفوسهم إلى دركة الموت، بالكفر الذي يطمس بصيرتهم، فإنه لا فائدة من الاشتغال بدعوتهم، وليس الداعي إلى الله مُجْبِرًا ولا مُحَوِّلًا لإراداتهم الحرة بالإكراه. أما القادر على الجبر، فهو الرب سبحانه، إنَّ الله يُسمع مَنْ يشاء إسماعه، بتغيير طبيعة تكوينه، وجعله مُجْبِرًا لا مختارًا، لكنه - سبحانه - تَمَّتْ مشيئته بأن يجعل عباده مُخَيَّرِينَ؛ ليمتحنهم بالتكاليف من خلال اختيارهم الحر. وما أنت - يا رسول الله - بِمُسمع إسماعاً مؤثراً نافعاً مَنْ وصل إلى حالة تُشبه حالة الميت المُقْبور، فلا تطمع بإسماعه، واشتغل بدعوة مَنْ لم يصلوا إلى حالة ميؤوس منها، ما أنت بالنسبة إلى هؤلاء المشركين المعاندين المُصرِّين إلا نذيرٌ بعذاب الله عز وجل.

٢٤ - إنا أرسلناك - يا رسول الله - بالحقِّ الثابت المطابق للواقع، مُبَشِّرًا برضوان الله وجنته لِمَنْ آمَنَ بك واتبَعَ ما أنزل إليك من ربِّك، ومُنذِرًا بالعقاب لِمَنْ كفر، وما من جماعة مُضَتْ في تاريخ الناس، إلا مضى فيها نبيٌّ يُبلِّغها ويدعوها إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويُبشِّرُها برضوان الله وجنته، إذا استجابت لدعوة ربِّها، ويُنذِرُها بسخطه ونقمته وعذابه، إذا لم تستجب، لكنَّ معظم هذه الأمم لم تستجب لبلاغات الرسل، وكفروا وعاندوا، فأنذروهم بالإهلاك الشامل المُدمر.

٢٥، ٢٦ - وإنَّ يكذبك قومك - يا رسول الله - فقد كذبت الأمم الماضية رُسُلهم، وقد جاؤوهم بالمعجزات الواضحات التي تدلُّ على صدق نبوتهم، وبالصحف، وبالكتاب المنير الواضح، الحافل بالشرائع والأحكام والبراهين، كالنوراة والإنجيل والقرآن المجيد، ثم بعد إهمال أخذت الذين أصروا على كفرهم من كفار القرون السابقة أخذًا شديدًا، وأهلكتهم إهلاكًا شاملاً، فانظر - أيُّها المتفكر - كيف كان إنكاري عليهم بحلول عقوبتي بهم؟

٢٧ - ألم تر أنَّ الله أنزل من السحاب المطر، فأخرجنا به ثمراتٍ من أزهار وورود ونور تنشقُّ عنه البراعم، مختلفاً ألوانها في الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك من بديع صنع الله؟ ومن الجبال طرقٌ وصخورٌ بيضٌ جامعةٌ لكلِّ ألوان الطيف الستة: (البنفسجي، فالأزرق، فالأخضر، فالأصفر، فالبرتقالي، فالأحمر)، وحُمْرٌ، وهي أطول الموجات الضوئية التي يرى الناس ألوان طيوفها، مختلفة الدَرَجات فيما بينها، فالبيض متفاوتة الدَرَجات في البياض، والحُمْر متفاوتة الدَرَجات في حُمْرتها، وطرق وصخور في الجبال شديدة السواد، تراه العيون أسود قد امتصَّ كلُّ الأمواج الضوئية التي ترى أعينُ الناس طيوف ألوانها، فالأسود يمثل انعدام اللون. تتعرَّفون عن طريق اختلاف الألوان على تنوع الأشياء وخصائصها، مع ما تستمتعون به من جماليَّات كثيرات.

٢٨ - ومَرَّتْ مختلف ألوانه من الناس والدواب والإبل والبقر والغنم، كاختلاف الألوان في الثمرات والجبال. ما يخاف الله تعالى مع إجلالٍ وتعظيمٍ وحُبٍّ، إلا العلماء به سبحانه، وبصفاته الجليلة، وأفعاله الحكيمة، وبشرعه، وأسرار صنعه، أما الجاهلون به تعالى فلا يخشونه ولا يخافون عقابه؛ إنَّ الله قويٌّ غالب، كثير السُّرِّ لذنوب عباده إذا آمنوا وتابوا واستغفروا.

٢٩ - إنَّ الذين يداومون على قراءة كتاب الله المُنزَّل على نبيِّه محمد ﷺ، ويعلمون ما فيه ويعملون به بدوام واستمرار، وثَبَّتَ فيما مضى من أمرهم أنهم داوموا على الصَّلَاة المفروضة في أوقاتها وأدَّوها على الوجهِ الشرعيِّ المطلوب منها، وثَبَّتَ فيما مضى من أمرهم أنهم أنفقوا من بعض ما رزقناهم في سبيل الله من أنواع النفقات الواجبة والمُسْتَحَبَّة في الخفاء عن أعين الناس بعداً عن الرياء، وعلانية، مع الإخلاص في الإنفاق، طلباً للثواب العظيم، هؤلاء يتوقَّعون بذلك تجارةً رابحة نامية القيمة، باقية الرواج دائماً، لأنَّ تكسَد ولنَّ تخسر.

٣٠ - يتقرَّبون إلى الله سبحانه بِمَحَابِّهِ؛ لِيُعْطِيَهُم رُبَّهُم ثواب أعمالهم كاملاً غير منقوص، ويزيدُهم من فضله سوى الثواب ممَّا لم تَرِ عينٌ ولم تسمع أذنٌ، إنَّه سبحانه كثير المغفرة وعظيمها، يستر العظيم من ذنوبهم ولا يحاسبهم عليها، كثير الشكر وعظيمه، يشكر اليسير من أعمالهم، ويُجازيهم على طاعاتهم أوفى الجزاء.

الْمِيزَانُ الْعَظِيمُ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٦﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٧﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَةُ وَلَا الْأُمُوتُ ﴿١٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٠﴾ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٥﴾ وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٧﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٨﴾

٣١ - والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ - يا رسول الله - من القرآن هو الحقُّ وحده، بالإضافة إلى ما ناقضه من أحاديث وأقوال وأدعاءات، حالة كونه شاهداً لما تقدّم من الكتب السابقة بالصدق، إنّ الله بكلِّ أفراد عباده الذين خلقهم من كلّ الأجناس والأنواع لَحَبِيرٌ، له شمول العلم بالعمل عند ممارسته على سبيل الحضور المُصَاحِب لكلِّ أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، بصيرٌ له غاية البصر المحيط بكلِّ ما يمكن عقلاً أن يدرك بالبصر، لا يخفى عليه شيء. وفي هذه الآية تهديد وتحذير للذين كذبوا بما أنزل الله من القرآن، ولا سيّما أهل الكتاب الذين بلغهم ما أنزل من القرآن، فكذبوا به ولم يُصدّقوا، وفيها إطماع للمؤمنين بالأجر العظيم والثواب الجزيل.

٣٢ - ثمَّ أَوْرثْنَا الْكِتَابَ الْرَبَّانِيَّ الْخَاتَمَ، الأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الَّتِي آمَنَتْ بِهِ وَاتَّبَعَتْهُ فِي مَجْمُوعِهَا، الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَ أَزْمَانٍ مَدِيدَةٍ تَتَابَعَتْ فِيهَا الْأُمَمُ الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِمْ كِتَاباً فِيهَا هُدًى وَنُورٌ، فَقَسَمَ مِنْ وَارِثِي هَذَا الْكِتَابِ: ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ بِالْمَعَاصِي وَارْتِكَابِ الْكِبَايِرِ وَالْآثَامِ، وَهُمْ الْقِسْمُ الْأَدْنَى مُرْتَبَةً وَالْأَكْثَرُ عِدْداً، وَمِنْ وَارِثِي الْكِتَابِ الْرَبَّانِيِّ: قِسْمٌ مُقْتَصِدٌ مُتَوَسِّطٌ فِي السُّلُوكِ الدِّينِيِّ، يَحْرَصُ عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَلَا يَعْتَنِي بِالتَّوَسُّعِ فِي نَوَافِلِ الْعِبَادَاتِ وَالْقُرْبَاتِ، وَمِنْ وَارِثِي الْكِتَابِ الْرَبَّانِيِّ: قِسْمٌ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ، يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ بِالنَّوَافِلِ مِمَّا يُحِبُّهُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَوْقَ أَدَائِهِمْ لِلْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكِهِمْ لِلْمُحَرَّمَاتِ. وَجَمِيعُ كَسْبِ الْعِبَادِ سِوَا أَكْثَرِ ظَالِمِينَ لِنَفْسِهِمْ، أَمْ مُقْتَصِدِينَ، أَمْ سَابِقِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ هُوَ الَّذِي يُمَدِّهِمْ بِطَاقَاتِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَ بِهَا أَعْمَالَهُمْ، وَهُوَ عَالِمٌ بِاخْتِيَارَاتِهِمْ، ذَلِكَ الْإِيرَاثُ لِلْكِتَابِ، وَاضْطِفَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَإِدْخَالُهُمُ الْجَنَّةَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ.

٣٣ - جَنَّاتٌ إِقَامَةٌ دَائِمَةٌ يَدْخُلُهَا الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ، عَلَى اخْتِلَافِ أَتْسَامِهَا وَدَرَجَاتِهَا الْمُتَفَاضِلَاتِ، يَتَرَبَّعُونَ فِيهَا بِأَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا، وَكُلُّ أَنْوَاعِ الْأَبْسَاطِ فِي الْجَنَّةِ مُصْنُوعَةٌ مِنْ خِيوطِ الْحَرِيرِ،

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحْضَانَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا غُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرِ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذَوْقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

أنفس الخيوط وأنعمها.

٣٤، ٣٥ - وقالوا وقد دخلوا الجنة واستقروا فيها: الحمد لله الذي أذهب عنا ما يصيب النفس من غم وألم على شيء فاتنا، أو على شيء لم نناله فيها، ونؤكد أنّ ربنا لكثير المغفرة لعظيم الذنوب، كثير الشكر للقليل من الأعمال، يجزي على العمل الصالح اليسير، بالجزاء الكثير الوافر، الذي جعلنا نُحِلُّ دار الإقامة الدائمة من فضله ورحمته، لا بأعمالنا وكسبنا، لا يمسنا فيها تعبٌ ما، ولا يمسنا فيها إعياءٌ وعجزٌ عن متابعة العمل، بسبب القوة التي منحنا الله دوامها في الجنة.

٣٦ - والذين ستروا براهين الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ بتشكيكاتهم وشبهاتهم، فأنكروا الحقَّ جُحوداً، أعدت لهم نار جهنم يَصْلُونَهَا مُحَرَّقِينَ فِيهَا، لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ بِالْمَوْتِ فَيَسْتَرِيحُوا مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ شَيْءٌ مِمَّا طَالَتْ مَدَّةُ إِقَامَتِهِمْ، وَمِثْلُ ذَلِكَ الْجَزَاءُ الشَّدِيدُ نَجْزِي كُلِّ مُتَمَادٍ فِي الْكُفْرِ مُصِرٍّ عَلَيْهِ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ؛ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، فَسَنَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ وَاحِدَةٌ.

٣٧ - وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ بِشِدَّةٍ وَصُوتٍ مُرْتَفِعٍ جَدًّا مِنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنَ النَّارِ، وَأَعِدْ لَنَا رَحْلَةَ امْتِحَانِنَا فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّا نَعُدُّكَ بِأَنْ نَعْمَلَ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشُّرْكِ وَالسَّيِّئَاتِ. فيقول الله تعالى توبيخاً لهم: أَلَمْ نُمَهِّلْكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَنُطِلَّ أَعْمَارَكُمْ زَمَناً كَافِياً، تَتِمَكَّنُونَ فِيهِ مِنَ التَّذَكُّرِ وَالْإِنْتِعَازِ، فَيُؤْمِنُ بِرَبِّهِ وَيُسَلِّمُ لَهُ مَنْ اسْتَجَابَ لِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ تَذَكُّرُهُ، وَكُلُّ مِنْكُمْ قَدْ حَصَلَ فِي ذَهْنِهِ هَذَا التَّذَكُّرُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَاعِيهِ، وَمَعَ حُصُولِ تَذَكُّرِكُمْ لِمَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ تَجَاهَ رَبِّكُمْ، فَقَدْ جَاءَكُمْ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ إِذْخَالُ الْكَافِرِينَ بِعَذَابِ خَالِدٍ فِي نَارِ جَهَنَّمَ؟ فَلَا عُذْرَ لَكُمْ تَعْتَذِرُونَ بِهِ، وَيَقَالُ لَهُمْ: فَذَوْقُوا اسْتِمْرَارِيَّةَ الْعَذَابِ فِي النَّارِ، وَتَحَسُّسُوا آلامَهُ، فَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرٍ يَنْصُرُكُمْ، فَيُخْرِجُكُمْ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ، لِأَنَّكُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ.

٣٨ - إنّ الله عالم ما غاب عن غير الله تعالى في السموات والأرض، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عن علمه شيء، إنّهُ عَلِيمٌ بِالنَّبَاتِ وَالسَّرَائِرِ صَاحِبَةُ الْاسْتِقْرَارِ فِي الصُّدُورِ وَدَاخِلِ النُّفُوسِ. فلو علم الله في صدورهم خيراً قابلاً لتغيّر أحوالهم، إذا أعاد امتحانهم إعادةً مُشَابِهَةً لظروف ولشروط الامتحان الذي كانوا فيه، لاسْتَجَابَ لَطَلِبِهِمْ، لَكُنْهُمْ لَوْ رَدُّوا إِلَى مِثْلِ أَحْوَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَعَادُوا إِلَى مِثْلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وَجُحُودٍ.

٣٩ - الله الذي جعلكم - أيها الناس - خَلْقًا لِمَنْ سَبَقَكُمْ من الأمم، ومخلوفون مِمَّنْ سِيَّاتِي بعدكم، تتعاقبون أجيالاً، جيلاً فجياً في عمارة الأرض، وملَّككم منافعها، ومقاليد التصرف فيها؛ لتشكروه بالتوحيد والطاعة، فمن جحد هذه النعمة وغمطها، فعليه وبال كفره، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا بغضاً وشقاءً وعذاباً نفسياً، ولا يزيد الكافرين كفرهم بالله إلا خسراناً عظيماً، يخسرون سعادتهم وراحتهم النفسية في الدنيا، وفوق كل ذلك يأتيهم عذابه الشديد يوم الدين، وما يلحق بهم من خسارة أبدية.

٤٠ - قل - يا رسول الله وكل داع إلى الله - للمشركين: أنفكرتم تفكيراً سديداً بأنارة وتعمق حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصرية، هذه الآلهة التي اتخذتموها شركاء الله، الذين تسألونهم وتطلبون منهم مطالبكم، أروني بالشهود الحسي أو بالدليل العقلي: أي شيء خلقوا من الأرض، حتى استحقوا في نظركم أن تعبدوهم؟! بل أتعقدون أنهم شركاء الله في خلق شيء من السموات، أو في إخراج تصاريقها، حتى تستحق أن تعبد؟! أم هل آتيناهم كتاباً ربانياً منزلاً من عند الله، يأمرهم أو يذن لهم بعبادة آلهتهم، فهم على حجة وبرهان من ذلك؟! بل ما يعبد الظالمون المشركون بعضهم بعضاً إلا وعداً كاذباً، يغرونهم به، ويدعون به دعاوى كاذبة.

٤١ - إن الله يمسك السموات والأرض بقدرته إمساكاً متتابعاً في الوجود بإمدادهما بأسباب البقاء، حفظاً لهما من أن تزولا، فتحولاً من الوجود إلى العدم، وكانتا جديرتين بأن تزولا وتهدأ هذا لعظم كلمة الشرك، وأقسم لئن زالت السموات والأرض فيما لو رفع الله إمساكاً لهما في الوجود بقدرته، ما أمسكهما في الوجود أحد سوى الله؛ إنه كان حليماً يملئ للظالمين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، ليرك لهم أقصى أمل يرجى فيه هدايتهم، وهو كثير المغفرة لعباده المذنبين، يستر العظيم من ذنوبهم إذا تابوا وأمنوا وأصلحوا.

٤٢ - وأقسم كفار مكة بالله أشد الإيمان وأكدها قبل بعثة محمد ﷺ: لئن جاءهم رسول صادق من عند الله يخوفهم في آخر المراحل الدعوية عقاب الله، ليكونن أهدى ديناً من اليهود أو من النصارى الذين أنتهم رسلهم فكذبوهم، فلما جاءهم الرسول محمد ﷺ المبلغ عن ربه، البشير النذير، وأنذرهم عذاب الله إذا أصروا على كفرهم وعنادهم وفجورهم، ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى كحالة المذعور الخائف، أو الممتنع المتراجع بحراي.

٤٣ - ازدادوا نفوراً لأجل أن يحققوا لأنفسهم الاستكبار في الأرض، متوهمين أن أتباعهم للرسول يحرمهم من مكاناتهم الاجتماعية الرفيعة، لأجل شهوات النفس وأهوائها، ومطالبها الفاجرة من زينة الحياة الدنيا، وهذه لا تتحقق لطلابها، إلا بالتدبير الخفي السيء، ولا يصيب المكركب السيء ويحيط - في آخر المراحل - إلا بأهله المستحقين له، فهل ينتظر المشركون المصرون على الكفر وترقبون إلا سنة الله التي أجراها في كفار القرون الماضية، بأن ينصر رسوله والذين أتبعوه عليهم، وأن يحبط مكائدهم التي يكيدونها ضد الإسلام، فلن تجد لسنة الله التبرؤة والجزائية الثابتة قوة قادرة على تبديلها بتنفيذ عمل آخر غير العمل الذي تقتضيه سنة الله، أو تحويلها بصرف العمل الذي تقتضيه سنة الله عن مجراه المحدد له بقضاء الله وقدره، فكونوا - أيها المشركون - على بينة من أمركم، ومن أمر سنة الله في عبادته، ولا تعرضوا أنفسكم لعقاب الله.

٤٤ - ألم يتعظوا بما جاءهم من أخبار عن قوم نوح، وعاد، وثمود، وأهل مدين، وقوم لوط، وفرعون، ويسيروا في الأرض، فينظروا إلى آثار المهلكين الأولين، وكيف كانت عاقبتهم بسبب تكذيب رسلهم، وطغيانهم وظلمهم وفجورهم، وكان هؤلاء المهلكون السابقون أكثر منهم أموالاً، وأعظم حضارة وعمراناً، وأشد منهم قوة ومنعة وتمكناً في الأرض، فلم تحم الأولين من عذاب الله وإهلاكه لهم، قوتهم ولا تقدمهم العمراني، وما كان الله ليعجزه ويفوته من شيء يريده في السموات ولا في الأرض، إنه كان على الدوام عليماً بكل شيء، قديراً على ما يريد من إيجاد وإعدام، لا معارض لسلطانه.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مُقْنًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خُسْرًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ أَمَّنَّاهُمْ كُنُوزًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن بَعْدَ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِّلْآعْرُورِ ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِيمَانِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَنَةَ الْأُولَٰئِينَ فَلَن تَجِدُ لِسَنَةِ اللَّهِ تَدْوِيلًا وَلَن تَجِدُ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أُولَٰئِكَ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

٤٥ - ولو يُعاقبُ الله الناس في الدنيا بما عملوا من كفر وشرك وفسق وفجور وعصيان، ما ترك على ظهر الأرض من نَسمة تدب عليها، ولكن يُؤَخَّرُ كُلُّ واحد منهم إلى أجله الذي قضاه له؛ لامتحانهم في ظروف الحياة الدنيا، فإذا جاء أجلهم أمانتهم الله، ثم بعثهم، ثم حاسبهم محاسبة تعتمد على علمه الشامل بكل أحوالهم الظاهرة والباطنة، فإن الله كان - من الأزل إلى الأبد - بعباده بصيراً، لا يخفى عليه ممَّا كسبوا في رحلة امتحانهم شيء، ويقضي عليهم بالعدل، ويقضي لهم بالفضل بحسب أحوالهم، أما المجرمون، فيلقون جزاءهم بالعدل عذاباً أليماً، خالدين في جهنم، وأما المؤمنون الذين عملوا الصالحات، فيلقون جزاءهم بالفضل الراتب مغفرةً وأجرًا كبيراً في جنات النعيم.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

- ١ - ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.
- ٢، ٣ - يُقسم الله سبحانه بالقرآن المُحكم في مبانيه ومعانيه وأغراضه ومراميها، أنَّ محمداً ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن من لدن حكيم عليم لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَمَن أنزل القرآن - وهو ما هو في عَظَم شأنه - هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ.
- ٤ - وإنك - يا رسول الله - ثابت على طريق واضح لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام.
- ٥ - أقسم أنَّ هذا القرآن حال كونه مُنزلاً تنزيل القوي الغالب في ملكه، الواسع الرحمة بخلقه.
- ٦ - أنزلنا عليك القرآن؛ لتُنذِر قوماً - بعد تبليغهم ودعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة - الإنذار الذي أنذره آبائهم مِن قبلك، فهم

وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرٍهَا مِّن دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَارْتَبَّ اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ۝١٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنْزِيلَ الْغَفِيرِ الرَّحِيمِ ۝٥ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَذَرُ ۚ أَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعِقِهِمْ أَغْلًا ۚ فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ ۝١١ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٣

- غافلون مشغولون في أمور دنيائهم، واتباع أهوائهم وشهواتهم، عن الاستجابة لدعوة الرسول.
- ٧ - والله لقد ثبت قول الله بالعذاب مُسلطاً على أكثر قادة وأئمة مُشركي مكة، فهم لا يؤمنون مستقبلاً بإنذارك إياهم، مهما وجهت لهم وسائل العلاج الإقناعي والتربوي والتأهيلي؛ لأن من جعل نفسه باختياره الحر أسير أهوائه وشهواته، فإنه لا يؤمن بالجزاء الرباني، فحالة نفوسهم ميؤوس منها، فلا تطمع بإيمانهم، وَوَجَّه طاقَاتِك - يا رسول الله - لدعوة الآخرين الذين لم تستحکم في نفوسهم عُقدة الاستكبار والعناد والإضرار على الباطل.
- ٨ - إِنَّا جَعَلْنَا بُسْتَنًا التَّكْوِينِيَّةَ فِي أَسْرَى الشهوات والأهواء وَحُب الاستعلاء بغير الحق، قيوداً عظيمة في أعناقهم، فهي واصلَةٌ إلى الأذقان، فهم رافعوا رؤوسهم إلى الأعلى، فلا تحسبن - أيها المتدبر - أن ما تراه من رفع رؤوس الجاحدين المستكبرين إلى الأعلى رافضين الاستجابة لدعوة الحق مُعبراً عن علو في أنفسهم، بل هم أسرى أهوائهم وشهواتهم، ورغباتهم في الفجور.
- ٩ - وَجَعَلْنَا بِمَقْتَضَى سُنَنِ الكونية وقوانيننا في النفوس ذوات الإرادات الحرة المُبتلاة في ظروف الحياة الدنيا، حاجزاً من أمام الكافرين، وحاجزاً من ورائهم، فجعلنا على بصائرهم غطاءً ساتراً، يحجب عنهم رؤية الحق وأمور الهداية الربانية كَيْفَمَا استداروا؛ لأنهم اختاروا لأنفسهم ظلمات الكفر والجحود، واتباع الأهواء والشهوات، فهم لا يُبْصِرُونَ رُشداً، ولا يهتدون سبيلاً.
- ١٠ - واستوى عند هؤلاء الكفار المعاندين إنذارك لهم - يا رسول الله - بعذاب الله المُسلط عليهم، والذي سينزل بهم إذا استمروا على كفرهم وعنادهم، وعدم إنذارك لهم، فهم لا يؤمنون مستقبلاً.
- ١١ - ما تُخبر بوعيد الله بالعقاب إخباراً مؤثراً نافعاً إلا من اتَّبَعَ بيانات الله في القرآن، بالإضغاء والفهم وحسن التدبر، والعمل بما فيه، وخاف الرحمن حالة كونه سبحانه في عالم الغيب عن مجالات الإدراكات الحسية لعباده، في الحياة الدنيا، فبشِّره - يا رسول الله - بمغفرة عظيمة لذنوبه التي سلفت منه، وأجر كريم على إيمانه وصالحات أعماله، في جنات النعيم.
- ١٢ - إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْأَمْواتَ ببعثهم يوم القيامة، ونكتب ما قَدَّمُوا في الحياة الدنيا لآخرتهم من الأعمال من خير أو شر، ونكتب آثار كسبهم في حياتهم وبعد مماتهم، وما سَوَّوْا من سُنة حسنة أو سيئة، وكل شيء حفظناه وعددناه وأثبتناه في أصلٍ عظيم يُقْتَدَى به، واضح جلي، مُظهِر لما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وهو اللوح المحفوظ.

١٣، ١٤ - وَصِفَ لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - شَبَهًا مُمَازِلًا لِحَالِهِمْ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ، حِينَ جَاءَهَا رَسُلٌ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ أُرْسِلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولَيْنِ اثْنَيْنِ لِدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، فَكَذَّبُوهُمَا، فَقَوَّيْنَا الرُّسُولَيْنِ بِرَسُولٍ ثَالِثٍ، فَقَالَ الرُّسُلُ جَمِيعًا لِأَهْلِ الْقَرْيَةِ: نُوَكِّدُ لَكُمْ إِنَّا إِلَيْكُمْ - أَيُّهَا الْقَوْمُ - مَرْسَلُونَ.

١٥ - قَالَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ لِلْمُرْسَلِينَ مُعْتَرِضِينَ عَلَيْهِمْ: مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْبَشَرِ أَنْ يَكُونُوا رُسُلٌ رَبِّهِمْ، وَقَالُوا لَهُمْ مُفْتَرِينَ: مَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ عَلَى بَشَرٍ رِسَالَةً مَا، مَا أَنْتُمْ - أَيُّهَا الرُّسُلُ - إِلَّا بَشَرٌ تَكْذِبُونَ فِي ادِّعَاءِ أَنْكُمْ رُسُلٌ تَبْلُغُونَ دِينَ اللَّهِ لِلنَّاسِ.

١٦ - قَالَ الْمُرْسَلُونَ مُؤَكِّدِينَ: رَبُّنَا الَّذِي بَعَثَنَا إِلَيْكُمْ، يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، حَقًّا وَصِدْقًا.

١٧ - وَمَا أَوْجَبَ عَلَيْنَا رَبُّنَا إِلَّا التَّبْلِغَ الظَّاهِرَ الْوَاضِحَ، وَالْمُظْهَرَ الْمَوْضُوحَ لِقَضَايَا الْإِيمَانِ، وَلِشُرَائِعِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ، وَلِسْنَا مَأْمُورِينَ بِالْقِيَامِ بِوَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ الْإِزْمَارِ وَالْإِكْرَاهِ عَلَى قَبُولِ الدِّينِ الْجَدِيدِ، وَلَيْسَ لَنَا مَصَالِحُ وَمَنَافِعُ عِنْدَ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ.

١٨ - قَالَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ لِلرُّسُلِ الثَّلَاثَةِ: إِنَّا نَشَاءُ مِنْكُمْ بَكْمَ، فَمَا أَصَابَنَا مِنْ بَلَاءٍ، وَمَا نَزَلَ بِنَا مِنْ مَكْرُوهِ، فَإِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِكُمْ، وَبِسَبَبِ دَعْوَتِكُمُ الَّتِي جِئْتُمُونَا بِهَا، فَكُفُّوا عَنْ دَعْوَتِكُمْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنَّا مَا نَزَلَ بِنَا مِنْ مَصَائِبَ، نَقْسَمُ لَئِنْ لَمْ تَكُفُّوا عَنْ مَتَابَعَةِ دَعْوَتِكُمْ لَنَا، لَنَقْتُلَنَّكُمْ رَمِيًّا بِالْحِجَارَةِ، وَلَيُصِيبَنَّكُمْ مِنْهَا عَذَابٌ شَدِيدٌ أَلِيمٌ.

١٩ - قَالَ الْمُرْسَلُونَ: شَوْمُكُمْ مَعَكُمْ بِكُفْرِكُمْ وَتَكْذِيبِكُمْ، وَسَبِّهِ مِنْكُمْ لَا مَثَاءَ، وَهُوَ مَا لَدَيْكُمْ مِنْ أَسْبَابِ اسْتِدْعَتْ تَذَكِيرَكُمْ بِبَعْضِ صُنُوفِ الْجَزَاءِ الدُّنْيَوِيِّ الْمُعْجَلِ، أَنْ ذُكِّرْتُمْ مِنْ قَبْلِ رَبِّكُمْ بِالْمَصَائِبِ الَّتِي يَنْزِلُهَا بِكُمْ، رَغْبَةً فِي أَنْ تَتَذَكَّرُوا وَتَضُحُّوا مِنْ غَفْلَاتِكُمْ، فَتَتَوَبَّوْا إِلَى رَبِّكُمْ، قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ بِكُمْ هَلَاكًا شَامِلًا، جَعَلْتُمْ هَذَا التَّذْكِيرَ الرَّبَّانِيَّ

لَكُمْ سَبَبًا لِلتَّشَاؤَمِ مِنْهَا، وَتَوَعَّدْتُمُونَا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَبِالزُّجْمِ حَتَّى الْمَوْتِ؟ وَلَيْسَتْ أَحْوَالُكُمْ الْعَدَوَانِيَّةُ الظَّالِمَةُ مِثْلَ أَحْوَالِ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمَةِ الْآخَرَى، لَكِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُتَجَاوِزُونَ فِي ضَلَالِكُمْ وَبِشْرِكِكُمْ، مُتَمَادُّونَ فِي قَبَاحِكُمْ وَجَرَائِمِكُمْ.

٢٠ - وَجَاءَ مِنْ أَبْعَدِ مَكَانٍ بِالْمَدِينَةِ رَجُلٌ مُجَاهِدٌ يُسْرِعُ نَحْوَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، عَنْ حِمَاةٍ وَتَصْمِيمٍ وَتَضْحِيَةٍ بِالنَّفْسِ دِفَاعًا عَنِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ، لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ قَوْمَهُ كَذَّبُوا الرُّسُلَ، وَأَرَادُوا قَتْلَهُمْ. قَالَ: يَا قَوْمُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ فِيمَا يَدْعُونَكُمْ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ.

٢١ - اتَّبِعُوا الَّذِينَ لَا يَطْلُبُونَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَلَى نُصْحِكُمْ وَإِرْشَادِكُمْ، فَهَمَّ لَيْسُوا أَصْحَابُ مَصَالِحٍ شَخْصِيَّةٍ دُنْيَوِيَّةٍ، وَهَمَّ مُهْتَدُونَ فِي ذَوَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَمَعَامِلَاتِهِمْ، فَلَا تَخْشَرُونَ مَعَهُمْ شَيْئًا مِنْ دُنْيَاكُمْ، وَتَرْبِحُونَ صَحَّةَ دِينِكُمْ، فَيَحْصِلُ لَكُمْ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

٢٢ - وَلَمَّا دَعَا هَذَا الرَّجُلُ الْمُؤْمِنَ لِاتِّبَاعِ الرُّسُلِ، حَاكَمَهُ أَهْلُ الْقَرْيَةِ، لِأَنَّهُ خَرَجَ عَنْ مِلَّتِهِمْ، وَقَالُوا لَهُ: أَتَرَكْتَ عِبَادَةَ آلِهَتِنَا، وَذَهَبْتَ تَعْبُدُ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلُ؟ فَأَجَابَهُمْ بِحِكْمَةٍ وَسَدَادٍ: نَعَمْ أَوْمِنُ بِمَا جَاؤُوا بِهِ، وَأَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَنِي، وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِي خَلَقَنِي، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ تُرْجَعُونَ عِنْدَ الْبَعْثِ، فَيُجْزِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؟

٢٣ - أَتُرِيدُونَ مِنِّي أَنْ أَتَّخِذَ مُسْتَقْبَلًا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَقَدْ جَرَّبْتُ آلِهَتَكُمْ وَدَعْوَتَهَا فِيمَا مَضَى فَلَمْ تَنْفَعْنِي شَيْئًا، إِنْ يُرْذَنُ الرَّحْمَنُ مُسْتَقْبَلًا بِسُوءٍ وَمَكْرُوهِ، وَعَبَدْتَهَا وَدَعْوَتَهَا مُسْتَشْفَعًا بِهَا، لَا تَدْفَعُ عَنِّي شَفَاعَتَهَا شَيْئًا، وَلَا تَسْتَطِيعُ إِفْقَازِي مِنْ مَكْرُوهِ؟

لَقَدْ وَضَعَ هَذَا الرَّجُلُ الْمُؤْمِنَ قَوْمَهُ أَمَامَ بَرَهَانٍ مُسَبِّقٍ بِتَجَارِبِ، وَهَذَا الْبَرَهَانُ يَدْعُمُ إِيْمَانَهُ وَيَسْقُطُ مَفْهُومَاتِ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ الشَّرِكِيَّةِ، وَقَدْ أَثَرُ هَذَا الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَذْكَرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ اسْمَ «الرَّحْمَنِ» لِيُشْعَرَ قَوْمَهُ بِأَنْ مَا يُنْزَلُ اللَّهُ بِهِ مِنْ ضَرٍّ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَتِهِ، لَا مِنْ مَظَاهِرِ عِظَمِهِ وَنَقْمَتِهِ.

٢٤، ٢٥ - إِنْ إِذَا اتَّخَذْتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَفِي خَطَأٍ وَاضِحٍ ظَاهِرٍ، إِنْ صَدَّقْتُ بِرَبِّكُمْ، فَاسْمَعُوا لِي، وَأَطِيعُوا.

٢٦، ٢٧ - فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ، وَتَبَّ قَوْمَهُ إِلَيْهِ وَقَتْلُوهُ، فَبَشَّرْتَهُ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ إِكْرَامًا لَهُ بَعْدَ قَتْلِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدًا: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَلَمَّا أَفْضَى إِلَى الْجَنَّةِ، وَرَأَى نَعِيمَهَا، وَلَقِيَ مَا لَقِيَ مِنْ كَرَامَةٍ عَظِيمَةٍ عِنْدَ رَبِّهِ. نَادَى وَهُوَ فِي عَالَمِ الْحَيَاةِ الْبَرَزِيَّةِ، مَتَمْنِيًا أَنْ يَعْلَمَ قَوْمَهُ الَّذِينَ قَتَلُوهُ، انْتِقَامًا مِنْهُ، بِثَوَابَيْنِ عَظِيمَيْنِ ظَفَرَ بِهِمَا عِنْدَ رَبِّهِ: الثَّوَابُ الْأَوَّلُ: أَنْ رَبُّهُ غَفَرَ لَهُ ذُنُوبَهُ، وَالثَّوَابُ الثَّانِي: أَنْ رَبُّهُ جَعَلَهُ مِنَ الْمَكْرَمِينَ. فَقَالَ: يَا لَيْتَ قَوْمِي الَّذِينَ قَتَلُونِي يَعْلَمُونَ بِغَفْرَانِ رَبِّي لِي ذُنُوبِي، وَسَرَّهَا عَلَيَّ، فَلَمْ يَحَاسِبْنِي عَلَيْهَا، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرَمِينَ، إِذْ ادْخَلَ رُوحِي الْجَنَّةَ، تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا؛ لِيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنْتُ، فَيَدْخُلُوا الْجَنَّةَ مِثْلِي.

٢٨ - وما أنزلنا على قوم الرجل الثَّاصِح من بعد قتله لإهلاكهم ملائكة من السماء، كما أنزلنا على غيرهم من المهلكين، وما كنَّا لنفعل هذا، بل الأمر في إهلاكهم أيسر مما تظنون.

٢٩ - ما كانت وسيلة إهلاكهم إلا ضيحة واحدة من السماء، صاح بها جبريل، فإذا هم هالكون كنار ثائرة هائجة خمدت فجأة واستحالت رماداً.

٣٠ - يا حسرة وندامة وتأسفاً على العباد المكذِبين المُستهزئين برسل ربهم، لتحقق نزول العذاب فيهم، والذي يستدعي تحسُّر العقلاء الرُّحماء من أجلهم، أنه ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون ويسخرون بتوجيه أعمال وأقوال فيها احتقار وازدراء بهم وبدعوتهم إلى دين الله الحق.

٣١ - ألم ير أهل مكة كثيراً من أهل زمان واحد من الأمم الخالية أهلكناهم إهلاكاً جماعياً شاملاً، أيشكون في سبب تعرض المهلكين السابقين للهلاك الشامل، بسبب تكذيبهم رسل ربهم واستهزائهم بهم؛ لأنهم إليهم لا يرجعون، فلا يخبرون بما جرى لهم؟!!

٣٢ - وما كل مُمتحن من العباد في الدنيا إلا جميعٌ عندنا مشوقون قهراً حتى يحضروا عندنا يوم القيامة لمحاسبتهم، وفصل القضاء بينهم.

٣٣ - وخُجة برهانية لهؤلاء المشركين تدلُّهم على كمال قُدرتنا على إحياء الموتى: هذه الأرض الميتة أحييناها بالمطر، وأخرجنا من الأرض التي أحييناها حياً من مختلف الأجناس والأنواع، فمنه يأكل الناس.

٣٤ - وخلقنا في الأرض بساتين من نخيل مُثمر وغير مُثمر، وأعنان، وأخرجنا فيها متدفقاً بقوة من بعض عيون الماء ما يروي شجرها، ويُخرج ثمرها.

٣٥ - ليأكلوا من بعض ثمر شجر النخيل والأعنان وسائر الشجر، وليأكلوا ولينتفعوا ممَّا عملته أيديهم بالتصنيع من الغرس والسقي والتلقيح وغير ذلك من الأعمال، أفلا يشكرون نِعَم الله تعالى الكثيرة؟!!

إنَّ عدم شكرهم ربهم على فيوضات نعمه عليهم لأمرٌ مُستنكر جداً، يدعو إلى اشمئزاز ذوي النفوس السَّوية الرشيدة.

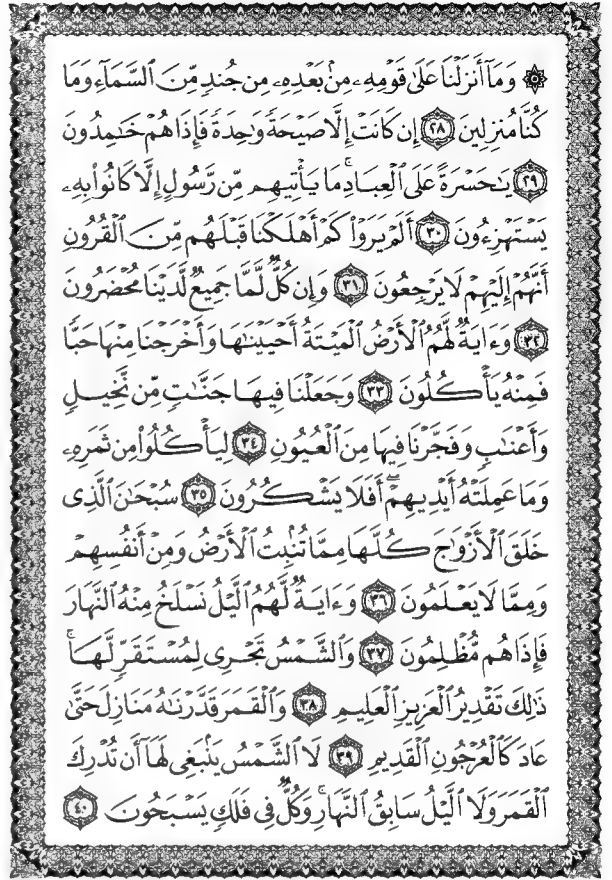
٣٦ - تنزه الله العظيم عمَّا لا يليق به، الذي خلق أنواع المخلوقات وأصنافها كلها ممَّا تُثبت الأرض من الأشجار والثمار والحبوب، ومن أنفسهم ذكوراً وإناثاً، وفي الذرات، وفي القوى الكهربائية والمغناطيسية، وفي كلِّ ما توصَّلوا إلى معرفة طبيعته من شيءٍ في الكون، وممَّا غاب عنهم منه ما هو في عالم الغيب بالنسبة إليهم.

٣٧ - وعلامة لهم تدلُّهم على كمال قُدرتنا: هذا الليلُ ننزع ونكشط منه ضياء النهار شيئاً فشيئاً، بمقدار نسبة حركة دوران الأرض حوْل نفسها في مقابلة الشمس، فتظهر الظلمة شيئاً فشيئاً، كما ينسلخ جلد الدبَّيح من الحيوان عنه شيئاً فشيئاً، فإذا هم يُفاجئون بأنهم داخلون في الظلام المُشتمل عليهم من كلِّ جانب.

٣٨ - وآية كونية ترتبط بمصالحهم في الأرض: هذه الشمس تسير بانتظام مُسرعة إلى مُستقرِّ لها، قُدره الله زماناً ومكاناً، ذلك الجريان المُتقن العجيب، المستمرُّ لبلوغ مُستقرِّ يتوقف عنده جريان الشمس في مكان محدَّد من الكون، وزمان محدَّد من الدهر، تقديرُ القوى الغالب بقدرته، المحيط علمياً بكلِّ شيء، الذي حدَّد مقادير الأزمنة والأمكنة التي تجري فيها الشمس، ومقادير حجمها بالنسبة إلى مجموعتها، وبالنسبة إلى مجموعات النجوم الأخرى في السموات.

٣٩ - وقُدرنا للقمر منازل ينزل في كلِّ ليلة في منزل منها لا يتعداه، يبدأ هلالاً ضئيلاً حتى يكمل قمراً مُستديراً، ثم يرجع في آخر منازل ضئيلاً مثل عُود النخلة المتقوس اليابس المُضفر كما كان في أوَّل الشهر.

٤٠ - لا الشمس يصلح لها، ولا يتيسَّر لها أن تلحق وتبلغ القمر، فتبتلعهُ؛ لأنَّ ضابط العدل المُتقن بين الجاذبيات والحركات، يمنعها من أن تطغى متجاوزة حدودها التي قُدرها الله وقضاها، ولا الليل يسبق زمان حدوث النهار، ولا يسبق مكان حدوثه، إذ كلُّما وجد النهار في أيِّ زمان ومكان انعدم الليل، فلا يكون لليل سَبَقٌ للنهار، لا في الزمان ولا في المكان، كما أنَّ الظلمة بطبيعتها لا تغلب الضوء، ولا تستطيع أن تتفوق عليه؛ لأنَّ وجود الليل يتوقف على غياب النهار، بينما يحدث النهار بمجرد إشراق الشمس بضوئها، ولكلِّ نجم أو كوكب فلكٌ خاصُّ به، يسير على خطِّه سابحاً، لا يتعدى حدوده، وهم جميعاً يسبحون بانتظام عجيب، دون أن تتعارض أو تتصادم.



٤١ - وآية كونيّة لهم: أَنَا حَمَلْنَا جميع البشر الذين تناسلوا من بعد الطوفان في أصلاب أجدادهم الذين كانوا في سفينة نوح المملوءة ركاباً وأحمالاً، وهذه الآية آية مُستمرة لكل البشر، ما داموا يستخدمون المراكب البحرية لركوب البحار، وعبورها، وحمل أثقالهم عليها، ونقلها إلى بلاد لم يكونوا بالغياها إلا بشق الأنفس.

٤٢ - وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح من المراكب البحرية والبرية والجوية، ما يركبون في البحر والبر والجو، ممّا ألهم الله عباده وأعانهم على صناعته.

٤٣، ٤٤ - وَإِنْ نَشَأْ إِغْرَقْهُمْ نَعْرِقْهُمْ، فلا مُغيث لهم، ولا يوجد مَنْ يُنقذهم من الهلاك، إلا أن يرحمهم الله، ويمتّعهم إلى انقضاء آجالهم المقضية لهم في هذه الحياة. وكذلك يكون حالهم إن شاء الله إهلاكهم في البر، أو الجو، أو في أيّ موقع.

٤٥ - وإذا قيل للمشركين: اتّقوا عقوبات الله التي هي أمثال ما سلف ومضى من العقوبات التي أنزلها الله سبحانه بكفار الأمم السالفة، تطبيقاً لسنّته الثابتة، بالإيمان والتوبة والاستغفار، واتّقوا ما يأتي مُستقبلاً من عقوبات الله في الدنيا والآخرة، راجين أن يرحمكم ربكم، فيحميكم من عقابه، ويمنحكم من فضله، أعرضوا، ولم ينجبوا إلى ذلك.

٤٦ - وما تأتي هؤلاء المشركين من آية بيانية مُنزلة، وكونية دالة على صفات الخالق، ومعجزات خارقات للسنن شاهدات على صدق محمد ﷺ، إلا كانوا عنها معرضين، لا ينتفعون بشيء منها.

٤٧ - وإذا قيل للكافرين: أنفقوا ممّا أعطاكم الله. قال الذين كفروا للذين آمنوا: أنطعم مَنْ لو يشاء الله إطعامه أطعمه؟ ما أنتم - أيها المؤمنون - إلا في ضياع واضح جليّ عن طريق الحق والهدى في

بذلك أموالكم للفقراء والمساكين، وفي دعوتكم لمساعدتهم وإطعامهم. فنحن نوافق مشيئة الله تعالى، التي قضت أن يهين الفقراء بالفقر والجوع، لأنهم لا يستحقّون إلا ذلك، ونحن لا نُغيّر مراد الله فيهم. وهذه الذريعة الباطلة التي يتذرع بها الكافرون، إنّما هي نتيجة سوء فهمهم عن الله ومقاديره في خلقه. فليس إغناؤهم من أجل تكريمهم على مَنْ سواهم، وليس إفقار بعض عباده من أجل إهانته، وإنما ذلك لحكمة الابتلاء والامتحان. فالله أغناهم ليمتحن شكرهم لله بعباء ذوي الحاجات، وأفقر أولئك ليمتحن صبرهم ورضاهم عن الله، وبعدهم عن الحسد، ولكنهم يَصرفون عن أفكارهم تصوّر هذه المعاني حرصاً على تضيق دائرة الطبقة الاجتماعية التي هم منها، ومحافظة على مواقع الاستكبار البخل.

٤٨ - ويقول هؤلاء الكفار استهزاءً وتكدياً: متى يكون يوم القيامة والبعث إن كُنتم صادقين فيما وعدتم؟!!

٤٩، ٥٠ - ما ينتظر هؤلاء المشركون الذين يستعجلون بوعيد الله إياهم، إلا نفخة الفزع عند قيام الساعة، تُهلكهم وتُميتهم فجأة، وهم يتخاصمون في أمر الدنيا وتصرفاتها، فتأتيهم الساعة أغفل ما كانوا عنها، فلا يُقدر هؤلاء المشركون عند النفخ في «القرن» أن يُوصوا أحداً بشيء، بل أعجلوا عن الوصية فماتوا، ولا يقدرون على الرجوع إلى أهلهم؛ ليكون موتهم بين من يُحبهم، بل يُهلكون بين مَنْ يخاصمونه.

٥١ - ونفخ إسرئيل في «القرن» نفخة البعث، فإذا هم من القبور يخرجون منها أحياء مُسرعين إلى حساب ربهم على ما أسلفوا في رحلة امتحانهم في الحياة الأولى، وإلى فضل قضائه، وتنفيذ جزائه.

٥٢ - قالوا: يا هلاكنا وحزننا ممّا سنلقى من مشقة وعذاب أليم. مَنْ أيقظنا من نومنا، وأخرجنا من قبورنا؟ فيجابون: هذا البعث إلى الحياة الأخرى، وهو الأمر الذي كان وعد الرحمن عباده، وصدق المُرسلون فيما أخبروا عنه.

٥٣ - ما كانت دعوتهم إلى الخروج من القبور إلا نفخة واحدة في «القرن»، فإذا هم جميعٌ لدى ربهم مُحضرون، تسوقهم الملائكة حتى يحضروا مواقف حسابهم بين يدي ربهم، وفصل القضاء بينهم.

٥٤ - فاليوم الذي هو يوم الحساب، وفضل القضاء، وتنفيذ الجزاء، لا تُظلم نفسٌ ما شيئاً، بزيادة العذاب على ما قدّمت من شر، أو بنقصان الثواب عمّا وعدت به من أجر على فعل الخير، ولا تُجزّون جزاء عقابٍ إلاّ جزاء ما كُنتم تعملون في الدنيا.

وَأَيُّهُ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ٤١ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ٤٢ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ٤٣ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ٤٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٥ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٤٦ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ انْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِئْتٌ ضَلَالٌ مُبِينٌ ٤٧ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٤٨ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا الصَّيْحَةَ وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ٥٠ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ٥١ قَالُوا لَوْلَا كُنَّا مِنْ بَعْثُنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ٥٢ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ٥٣ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٤

٥٥ - إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْمُتْلَازِمِينَ لَهَا، وَالْمُنْعَمِينَ فِيهَا، فِي ذَلِكَ

اليوم مشغولون بما هم فيه من نعيم، فرحون ناعمون.

٥٦ - هم وأزواجهم مُتَنَعِّمُونَ بالجلوس على السُرُرِ الْمُزَيَّنَةِ، تحت تلك الظلال الوارفة، فلا تُؤْذِيهِمْ أشعةُ شمس بحرارتها وَوَهْجها.

٥٧ - لهم في الجنة فاكهة كثيرة الأصناف، والأنواع، والمقادير، ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون، فكلُّ ما يدعو به أهل الجنة بأنبيهم.

٥٨ - سلامٌ عظيمٌ مُسْتَمَرٌّ عليكم حال كونه قولاً من ربِّ رحيم، فتعْمُهُم السعادة العظمى، وَيَسْلُمُونَ السَّلامَةَ الأبدية.

٥٩ - ويُقال للكفار في ذلك اليوم: اعتزلوا وانفردوا وتنحوا إلى جهة خاصة بكم عن سائر مَنْ بقي من أهل الموقف، مِمَّنْ لم يُحاسب بعد، ولم يُفصل بشأنه القضاء.

٦٠ - ألم أمركم وأوصيكم - يا بني آدم - أن لا تطيعوا الشيطان فيما يُوسوس ويُزَيِّنْ لكم من الكفر بربكم ومعصيته؟ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ.

٦١ - وَأَنْ حَقَّقُوا مَطْلُوبِي مِنْكُمْ فَاطِيعُونِي وَوَحْدُونِي، هذا الذي أمرتكم به هو طريقٌ مُسْتَقِيمٌ، يُوصِلُكُمْ إِلَى الْخُلُودِ فِي دَارِ النِّعَمِ.

٦٢ - وَأَوْكُذْ لَكُمْ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَضَلُّ عَنْ الْحَقِّ مِنْكُمْ خَلْقًا كَثِيرًا؛ إِذْ اسْتَجَابُوا لِدَعْوَتِهِ، وَاتَّبَعُوا خَطَوَاتِهِ. أُسْلِبْتُمْ قُدْرَاتِ التَّفَكِيرِ فِيكُمْ، وَسُلِبْتُمْ إِرَادَتَكُمْ الضَّابِطَةَ لِأَهْوَاكُمْ وشهواتكم، فلم تكونوا تعقلون؟!

٦٣، ٦٤ - ويُقال للكفار لَمَّا دَنَوْا مِنَ النَّارِ: هذه جهنم التي كان الله ورسله يُنذرونكم بعذابها، وكنتم بها تُكذِّبون وتستهينون، فلا تحذرون عذاب الله فيها، ادخلوها اليوم، واحترقوا بنارها، وقاسوا حرَّها، بسبب ما كنتم في رحلة الحياة الدنيا تكفرون، حتى انتهت أعماركم فيها وأنتم توالون كفركم بالحق من ربكم.

٦٥ - اليوم الذي هو يوم الحساب نُخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِ الْمُشْرِكِينَ فَلَا

ينطقون، وتنطق أيديهم التي كانت تُبَاشِرُ الْعَمَلَ، وتشهد أرجلهم التي كانت حاضرة بما كانوا يكسبون في الحياة الدنيا. وذلك عندما ينكر الكفار ويَجْحَدُونَ كفرهم وتكذيبهم الرسل، فتنتطق جوارحهم؛ ليعلموا أَنَّ أَعْضَاءَهُمْ التي كانت عَوْنًا لَهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي، صَارَتْ شَاهِدَةً عَلَيْهِمْ، وذلك أَنَّ إِقْرَارَ الْجَوَارِحِ أَبْلَغُ مِنْ إِقْرَارِ اللِّسَانِ.

٦٦ - وَلَوْ نَشَاءُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ مُسْتَقْبَلِ وجودهم في الحياة الدنيا لَأَعْمَيْنَا أَعْيُنَهُمُ الظَّاهِرَةَ بِحَيْثُ لَا يَبْدُو لَهَا جَفْنٌ وَلَا شَقٌّ، فإذا ساروا يريدون الطريق الواضح الجلي، جاوزوه وتركوه، فضلُّوا وساروا فِي الْمَتَاهَاتِ، وكيف يُبْصِرُونَ وقد أَعْمَيْنَا أَعْيُنَهُمْ؟

٦٧ - وَلَوْ نَشَاءُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ مُسْتَقْبَلِ وجودهم في الحياة الدنيا أَنْ نُغَيِّرَ صُورَهُمُ الْإِنْسَانِيَّةَ إِلَى صُورٍ حَيَوَانِيَّةٍ قَبِيحَةٍ، لَفَعَلْنَا بِهِمْ، فنبتوا على الموضع الذي هم فيه، مشوهين قباحاً، خاسرين مكائتهم الاجتماعية فلا يقدرون مُضِيًّا إِلَى الْأَمَامِ، وَلَا هُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ.

٦٨ - وَمَنْ نُطِلْ عُمرَهُ نجعله يتنازل مائلاً إِلَى الْأَسْفَلِ ضِعْفًا وَعَجْزًا شَيْئًا فشيئًا، فنبدله بالقوَّةِ ضِعْفًا، وبالشباب هَرَمًا، وبالعقل خَرَفًا، أَيْسَمِرُونَ فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ بعد الموت، فلا يعقلون عقلاً علمياً أَنَّ الَّذِي قَدَرَ عَلَى تَصْرِيفِ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ بعد الموت؟ وَلَا يَعْلَمُونَ عقلاً إِرَادِيًّا يَضْبُطُ نفوسهم عَمَّا يجعلهم يوم الدين من المَعْذِبِينَ فِي دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ وَالْعَصَاةِ الْمَذْنِبِينَ.

٦٩ - وَمَا أَعْطَيْنَا رَسُولَنَا مُحَمَّدًا ﷺ موهبة صناعة الشعر، وضبط أوزانه، وسَوَّقَ كلامه وَفَّقَ أساليبه وطرائقه، وما ينبغي له أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا تستهويه أغراض الشعراء فيما يقولون من شعر، وما يسهل له ذلك، وما يصلح منه، بحيث لو أراد نَظْمَ شعر لم يأتأ له ذلك، كما جعلناه أُمِّيًّا لَا يَكْتُبُ وَلَا يَحْسِبُ؛ لِتَكُونَ الْحُجَّةُ أَثْبَتَ، وَالشُّبْهَةُ أَدْحَضَ. وليس القرآن من جنس الشعر، ما الكلام الذي يتلوه محمدٌ مُبَلِّغًا إِيَّاهُ عَنْ رَبِّهِ، ويتحدَّى الناس بأن يأتوا بمثله، إلا ذَكَرَ يَجِبُ عَلَى الْمُكَلِّفِينَ أَنْ يَتَفَهَّمُوهُ ويعقلوا معانيه، ويكون لهم ذِكْرًا لِلْعَمَلِ بِمَقْتَضَاهُ، وَقِرَاءَنَ مَقْرُوءٍ مَكْتُوبٍ فِي الْمَصَاحِفِ، وَاضْطَحَّ فِي ذَاتِهِ صِيَغَةً وَنَطَقًا، وَمَبِينٌ لِلْمَعَانِي التي يدلُّ عليها.

٧٠ - لِيُنْذِرَ الرُّسُولَ وَالْقُرْآنَ مَنْ كَانَتْ لَدَيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْ حَيَاةٍ، إِنْذَارًا يَنْتَفِعُ بِهِ؛ إِذْ يُوَثَّرُ فِيهِ، فَيُؤْمِنُ وَيَكْسِبُ فِي إِيْمَانِهِ خَيْرًا، فَيَحِقُّ قَوْلُ الْوَعْدِ بِثَوَابِهِ، فَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَمَنْ كَانَ بِمِثَابَةِ الْمِيتِ الَّذِي لَمْ تَبْقَ فِيهِ بَقِيَّةٌ مِنْ حَيَاةٍ، فَإِنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا الْإِنْذَارِ؛ إِذْ لَا يُوَثَّرُ فِيهِ، فَلَا يُؤْمِنُ، فَيَحِقُّ عَلَيْهِ قَوْلُ الْوَعْدِ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ الْخَالِدِينَ فِيهَا.

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَدُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَیَّءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْ يَبْصُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نَعْمِرْهُ نَنْكِسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

٧١ - أَعْمِيَ الْكَافِرُونَ وَلَمْ يَنْظُرُوا بِأَعْيُنِهِمْ، وَتَفَكَّرُوا بِعَقُولِهِمْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ بَعْضِ مَا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا كَثِيرَةً عَظِيمَةَ الْمَنَافِعِ مِنْ غَيْرِ إِعَانَةِ أَحَدٍ فِي إِنْشَائِهَا، فَهَمَّ لَهَا عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ مَالِكُونَ مُلْكًا مُتَمَكِّنًا، قَادِرُونَ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيهَا؟

٧٢ - وأخضعناها لهم، وجعلناها مطيعةً منقادّةً، فمن الأنعام ما يركبون، ويحملون عليها الأثقال وهي الإبل، ومن الأنعام يذبحون، ويأكلون من أجسادها لحماً، وما يطيب لهم منها.

٧٣ - ولهم فيها منافع أخرى يتفنون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها ونسلها، ويشربون من ألوانها، ألا يتفكرون في هذه النعم العظيمة التي أنعم الله بها عليهم، فهم بسبب عدم تفكيرهم لا يشكرون ربهم عليها بالإيمان والإسلام والطاعة.

٧٤ - واتخذ المشركون بتكلف وتصنع مُخالف للحقيقة والواقع، من دون الله ألهةً يعبدونهم، حالة كونهم راجين منهم أن ينصروهم على خصومهم وأعدائهم.

٧٥ - إِنَّ هَؤُلَاءِ الْأَلْهَةَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تُقْدِرُ عَلَى
نَصْرِ عَابِدِيهَا وَمَنْعِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْمُشْرِكُونَ لَا لَهُمْ مَدَافِعُونَ
عَنْهُمْ، مَنَاصِرُونَ لَهُمْ، تَسْوِقُهُمُ الشَّيَاطِينُ بِوَسْوَاسِهَا لِلدِّفَاعِ عَنْهُمْ،
وَالْحُضُورِ لِمَنَاصِرَتِهِمْ.

٧٦ - فلا يَحْزُنْكَ - يا رسول الله - قولُ كفار مكة في تكذيبك وأتْهامك بأنك شاعر، بل اصرف عن ذهنك ونفسك أقوالهم، ولا تعباً بها، واعلم بأنَّ ربَّكَ النصير لك، يعلم كلَّ ما يُسرُّون في ضمائرهم من التكذيب، وكلَّ ما يعلنون بالسنتهم من الأذى، وسُجَّازيهم على ذلك.

٧٧ - أجهل الإنسان الجاحد قُدرة الله على البعث ولم يَر: أَنَا خَلَقْنَاهُ
من نطفةٍ قدرة خسيّةٍ، فلمّا صار إنساناً سوياً كاملاً، فاجأ بالخصومة
ظاهرٍ مجاهرٍ في إنكار البعث، مع علمه بأصل خَلَقْتَهُ!

٧٨ - وَقَدْ لَنَا ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الْخَصِيمُ الْمُنْكَرُ لِلْبَيْتِ نَمُودَجًا مِنْ جَسَدٍ مَيِّتٍ قَدْ بَلِيَ، وَنَسِيَ حِينَ ضَرَبَ هَذَا الْمَثَلُ: خَلَقْنَا إِيَّاهُ مِنْ نَظْفَةٍ، وَتَقْلِيلِهِ فِي أَطْوَارٍ شَتَّى حَتَّى صَارَ إِنْسَانًا سَوِيًّا، وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا، قَالَ: مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ بِالْيَةِ أَشَدَّ الْبَلَى؟

٧٩ - قل له - يا رسول الله :- إِنَّ الذي أَنشَأَ العِظامَ في المَرَّةِ الأولى، وَكَسَّاهَا لَحْماً، وَصَوَّرَ الإنسانَ في رَحِمِ أُمِّهِ بأَحْسَنِ صُورَةٍ، هُوَ نَفْسُهُ القَدِيرُ عَلى إِنْشائها وإِحْيائها بَعدَ المَوتِ والفِناء، مَرَّةً ثَانيَةً وثَلاثَةً، إَلى ما لا نَهايةَ لَه مِن مَرَّاتٍ، وَهُوَ سَبيحانُهُ بِكُلِّ خَلْقٍ يَخْلُقُهُ عَلَيمٌ بِهِ قَبلَ أَن يَخْلُقَهُ، إِذَ الخَلقِ مَسبُوقٍ بِقِضاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَعَليمٌ بِهِ حِينَ خَلَقَهُ عَلى وَفْقِ خَريطَةِ تَكوِينِهِ، وَعَليمٌ بِهِ بَعدَ أَن خَلَقَهُ، وَعَليمٌ بِما كانَ عَلَيه بَعدَ أَن أَماتَهُ وَأَفْناهُ.

٨٠ - الذي أخرجَ لكم من الشَّجَرِ الأخضرِ النَّدى الرُّطْبَ ناراً مُحرَقَةً، فإذا أنتم تستعملون منه الوقود كلما احتجتم إلى النَّارِ، تنتفعون بها في حياتكم انتفاعاً عظيماً، إذ تستمدُّون منها طاقات عظيمة، للإنضاج، والصَّهر، والصناعات المختلفة، دون أن تنتفعوا بدلالائها، وتستدلُّوا على قدرته سبحانه على البعث، فهو القادرُ على إخراج الضُّدِّ من الضُّدِّ، ومن ذلك إخراج الموتى من قبورهم أحياء.

٨١ - أَوَّلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ - مَعَ عَظَمِ حَجْمِهِمَا - قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ خَلْقِ النَّاسِ مَعَ صِغَرِهِمْ وَضَعْفِ شَأْنِهِمْ؟ بَلَى هُوَ الْقَادِرُ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ الَّذِي لَهُ غَايَةُ الْقُدْرَةِ عَلَى خَلْقِ مَا يَشَاءُ، وَلَهُ الْعِلْمُ الشَّامِلُ فِيمَا كَانَ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَمَا سَيَكُونُ، وَمَا هُوَ مُمَكِّنٌ أَنْ يَكُونَ، وَمَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ أَنْ يَكُونَ، وَلَا يَشَارِكُهُ فِي صِفَاتِهِ أَحَدٌ.

٨٢ - ما أمرُهُ التَّكْوِينِي سُبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ إِحْدَاثَ شَيْءٍ وَتَكْوِينَهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ لَهُ أَمْرًا أَمَرَ تَكْوِين: كُنْ فَهُوَ يَكُونُ، وَيُوجَدُ لَا مَحَالَةَ عَلَى وَفْقِ مَشِئَتِهِ تَمَامًا.

٨٣ - فتَنَزَّهَ اللهُ تعالى وتَقَدَّسَ عن كُلِّ ما لا يليقُ به من صفات النقص ، الذي بيده التصرفُ الكاملُ التامُّ بكلِّ شيءٍ في الوجود ، وإليه وحده تُرَدُّونَ بعد الموت للحساب ، وفصل القضاء ، وتنفذ الجزاء .

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

الْحَبَرَةُ الثَّالِثَةُ الْغَنِيَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالَّذِينَ جَرَّتْ زَحْرًا ۝٢ قَالَتِلْنِي ذَكَرًا ۝٣
إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشْرِيقِ ۝٥ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِنَةِ الْكَوَكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا
مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ
مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُخْرًا وَمَنْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خِطَفَ
الْغُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ ۝١٠ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١١ فَاسْتَفِينَهُمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا
أَمْ مَّنْ خَلَقْنَا ۝١٢ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ۝١٣ بَلْ عَجِبْتَ
وَيَسْخَرُونَ ۝١٤ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٥ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ
۝١٦ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٧ أَوْ ذَا مِثْنًا وَكَانَ رَأْيَا وَعِظْلًا
أَوْ نَالِجَعُونَ ۝١٨ أَوْ آتَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝١٩ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ
۝٢٠ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۝٢١ وَقَالُوا إِنَّا لَنَرَاهَا هَذَا
يَوْمَ الدِّينِ ۝٢٢ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢٣
۞ احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٤ مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٥ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ۝٢٦

١ - ٤ - أقسم الله تعالى بالملائكة تصف في عبادتها صُفُوفًا مُتْرَاصَةً، وبالملائكة تَزْجُرُ السَّحَابَ وتسوقه، وبالملائكة يتلون ذكر الله تعالى. وجواب القسم: إِنَّ معبودكم الحق - أيها الناس - لَوَاحِدٌ لا شريك له، فأخلصوا له العبادة والطاعة.

٥ - هو - وحده - خالقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وما بينهما، المالك القادر المُنْزَه عن الشَّرِيكِ، وربُّ مشارق الشمس ومغاريها؛ إذ لا تُشرق الشمس من جهة، إلا غَرَبَتْ في الوقت نفسه عن الجهة المُقابِلة لها في دورة الأرض حول نفسها. فهو سبحانه المهيمن بصفات ربوبيته خَلْقًا وتديراً وتصاريق على الشُّرُوق والغروب، وعلى أمكنة وأزمنة الشُّرُوق والغروب، فهو ربُّ كُلِّ المشارق والمغارب.

٦ - إنا بعظيم ربوبيتنا حسناً وجمالنا السماء الأقرب لكم - أيها الناس - التي تلي الأرض بالكواكب والنجوم التي تظهر زينتها لكل ذي نظر يرى به السماء.

٧ - وحفظنا السماء حفظاً بالشُّهب من كلِّ شيطانٍ متجردٍ عن الخير بخروجه عن طاعة الله.

٨، ٩ - لا يستطيع الشياطين من التسمُّع إلى الكلام الذي تنزل به ملائكة الملائكة الأعلى، لملائكة تنفيذ الأوامر في الأرض، ويُؤمنون بالشُّهب من آفاق السماء إذا حاولوا الصُّعود إليها، إبعاداً لهم بعنف وشدة عن مواقع التسمُّع من ملائكة الملائكة الأعلى، ولهم في الآخرة عذاب دائم ملازم.

١٠ - إلا من اختلَس من الشياطين الكلمة من كلام الملائكة، فإنه لا يستطيع أن يهرب بها لتبليغها إلى أهل الأرض، بل يلحقه بسرعة

وقوة شهابٍ نارٍ شديد التوهُّج لا يُخطئه، بل يقتله ويحرقه.

١١ - فاسأل - يا رسول الله - كفار مكة المُعتزِّين بقوتهم، وجنودهم: أهُم أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَّنْ خَلَقْنَا مِنَ الْأُمِّ الْخَالِيَةِ؟ فهؤلاء المشركون ليسوا بأحكم خلقاً من غيرهم من الأمم، وقد أهلكناهم بذنوبهم، فما الذي يؤمنهم من العذاب؟ إنا خلقنا أباهم آدم من ماء مُمتزج بتراب، متماسك لزوج، يلتصق بعضه ببعض، وهم من ذرئته، ونحن قادرون على إعادة خلقهم وبعثهم إلى الحياة الآخرة.

١٢ - ١٤ - بل عَجِبْتَ - يا رسول الله - من تكذيبهم إياك، وهم يَسْخَرُونَ من الإنذارات التي تُوجَّه لهم، وإذا ذُكِّرُوا بما سبق أن بلغتهم إِيَّاه من حقائق دين الله وأحكام شريعته لا ينتفعون بتذكيرك، ولا يستجيبون لدعوتك، وإذا رَأَوْا مُعْجَزَةً دَالَّةً على نبوتك، يسخرون بشدة، وَيَسْتَدْعِي بعضهم بعضاً إلى السُّخْرة.

١٥ - ١٧ - وقال الكافرون بعد انتهاء وقت جريان الآية الخارقة: ما هذا الذي جئت به إلا سحرٌ ظاهرٌ بَيِّن. إذا مِثْنًا وكان بعض أجزائنا تراباً، وبعضها عظماً بالية: إِنَّا لَمُخْرَجُونَ مِنْ قُبُورِنَا أَحْيَاءُ؟ أو يبعث أبائنا الأولون الذين ماتوا قبلنا وهلوكوا؟

١٨، ١٩ - قل لهم - يا رسول الله -: نعم سَتُبْعُونَ جميعاً يوم القيامة، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وأنتم أذلاء صاغرون خاضعون، فَإِنَّمَا شَأْنُ بَعْثِهِمْ يوم القيامة هي صيحة واحدة، وهي نفخة البعث، فيُفْجَأُ الموتى بأنهم أَحْيَاءُ ينظرون أهوال يوم القيامة.

٢٠، ٢١ - وقال المشركون: يا شدة خوفنا من العذاب الذي سَنَلْقَاهُ، ويا حزننا على ما فرطنا في دنيانا، هذا يوم الحساب والجزاء على الأعمال. فيقال لهم: هذا يوم فصل قضاء الله بين عباده الذي كُنْتُمْ به تُكَذِّبُونَ في الحياة الدنيا.

٢٢، ٢٣ - يقول الله تعالى لملائكة العذاب: اجمِعُوا وسُوقُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ ذِكْرِ الْكُفْرِ والتكذيب بيوم الدين، وأشباههم وأمثالهم من الكفار، والأصنام التي كانوا يعبدونها في الدنيا من دون الله، فذلُّوهم إلى الطريق الواسع الذي يصل بهم إلى الجحيم، دار العذاب التي يُسَاقُونَ إليها عقاباً على كفرهم وظلمهم في الحياة الدنيا.

٢٤ - واحبسوهم قريباً من أبواب الجحيم قبل أن يُكَبِّرُوا فيها؛ إنهم مسؤولون عن جرائمهم التي ارتكبوها في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

٢٥ - وتقول لهم خزنة جهنم توبيخاً لهم: ما لكم لا ينضرو بعضكم بعضاً؟

٢٦ - إنهم لا يفكرون في التناصر، لعلمهم أنهم عاجزون، لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم عذاباً ما، ولا أن يحققوا لأنفسهم مطلوباً ما، بل هم اليوم أذلاء مفقودون، لا حيلة لهم.

٢٧ - وأقبل الأتباع والقادة الذين كانوا يضلونهم في الدنيا، يتلاومون ويتخاصمون.

٢٨ - قال الأتباع للرؤساء: إنكم كنتم تأتوننا في الحياة الدنيا صائدين إيانا عن الإيمان الذي من شأنه أن يجعلنا من أصحاب اليمين.

٢٩ - قال الرؤساء للأتباع: لسنا الذين صدّدناكم عن الإيمان، بل لم تكونوا على حق حتى نُضلكم عنه، ولم تكونوا مُستعدين لأن تؤمنوا.

٣٠ - وما كان لنا عليكم من قوّة قاهرة تُجبركم على مُتابعتنا، بل كنتم قوماً متجاوزين للحق، فأعجبتمكم مسالكنا الكفرية الإجرامية، فاتبعتمونا.

٣١ - فوجِب علينا جميعاً نحن وأنتم قول ربنا الذي أصدر به الحكم بعذابنا في نار جهنم، إنا لذائقو العذاب في النار ومُتَحَسِّسوا آلامه جميعاً؛ الضالّ والمُضِلّ.

٣٢ - فدعوناكم إلى الغي دعوة غير مُلحجة، بالتزيين والتحسين والإطعام بالباطل؛ لتنضموا إلينا، إنا كنّا ضالّين من قبلكم، وكلّ منا يتحمّل من الجرم على مقدار ما اكتسب منه في الحياة الدنيا.

٣٣، ٣٤ - فإنّ الرؤساء والأتباع مشتركون يوم القيامة في العذاب، بمقدار جرائمهم التي ارتكبوها في الدنيا، كما كانوا مشتركين في الغواية في الدنيا. إنا مثل ذلك العذاب نفعل بسائر المجرمين من الإنس والجنّ.

٣٥، ٣٦ - إنّ أولئك المشركين كانوا في الحياة الدنيا، إذا قيل لهم: تعالوا إلى عبادة الله وحده، لا تشركون به شيئاً، يستكبرون، فلا يستجيبون لدعوة الحق الربّانية، ويقولون: إنا لنأركو آلهتنا لقول رجلٍ شاعرٍ مجنون، يدّعي أنه رسول ربّ العالمين؟

٣٧ - ليس محمّد كما قلتم كاذبين شاتمين: هو شاعر مجنون، بل هو رسول من ربّ العالمين، جاءكم وجاء الناس جميعاً بالحق من لدنا، وأتى بما أتى به المرسلون قبله، وصدّقهم فيما أخبروا به من الدين والتوحيد والدعوة إليه، فكيف تقولون: شاعر مجنون!!

٣٨، ٣٩ - إنكم - أيها المشركون - لذائقون في جهنم العذاب الأليم حريقاً في النار، وما تُجزّون إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من الشُرك والتكذيب.

٤٠ - لكن عباد الله الذين أخلصوا لله تعالى في إيمانهم وإسلامهم وعبادتهم، فأخلصهم الله واختصهم برحمته، لا يقتصر ثوابهم على ما كانوا يعملون في الدنيا، بل يُضاعف الله ثوابهم بفضلهم أضعافاً كثيرة جداً.

٤١ - أولئك الذين أخلصهم الله لطاعته لهم في الجنة رزقٌ معلوم الصّفة من لذة طعم، وطيب رائحة، وحسن منظر.

٤٢ - ذلك الرزق فواكه كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، تُؤكل للتلذذ لا للقوت، والحال أنهم مُكرّمون بثواب الله تعالى.

٤٣، ٤٤ - مساكنهم في جنّات النعيم، مُتّكئين على سُررٍ يقابل بعضهم بعضاً، للتحدّث السّارّ، والأنس والتّمتّع باللقاء.

٤٥ - ٤٧ - يدور عليهم في مجالسهم ولدانٌ مُخلّدون بكؤوس من خمر تجري به بعض أنهار الجنة، ظاهرة تراها العيون. الكؤوس وما فيها من الخمر بيضاء شفافة حسنة المنظر، طيبة الطّعم، لذيدة للشاربين، لا تغتال عقولهم فتذهب بها، ولا هم بشرها يذهب وعيهم شيئاً فشيئاً، فلا أذى فيها، ولا مضرة على شاربيها في جسم أو عقل.

٤٨، ٤٩ - وعندهم في الجنة حوريات من نساء الجنة اللواتي أنشأهن الله فيها إنشأاً لهم، غير أزواجهم المؤمنات من نساء الحياة الدنيا، لهنّ ثلاث صفات: **الصفة الأولى:** أنهنّ غاضّات العيون، عفيفات قصّرن أعْيُنهنّ على أزواجهنّ، **الصفة الثانية:** حسنّ الأعين عظامها، **الصفة الثالثة:** كأنهنّ بيض الثّعام المصنوع بأجنحته من الريح والغبار.

٥٠ - فأقبل أهل الجنة في الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن حاله في الدنيا، وهم في مجالس أنسهم يتنعمون، ويحمدون الله على أن جعلهم من أهل جنّات النعيم.

الجنة الباقية

سورة الصافات

مَا كُنَّا لَنَا صُرُونٌ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ أَیُّومٌ مُّسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَالِعِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْتُمْ كُنْتُمْ إِنَّا كُنَّا غُيُوبٌ ﴿٣٢﴾ فَأَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كُنَّا نَعْمَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَأْرُكُوهُنَّ لَأَهْتِنَا لِسَاعَةٍ نَجْهِنُ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَرَهُمْ مَكْرُمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَامِينَ مِنْ تَحْتِهِنَّ بِئِضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٥﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٦﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٧﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٨﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٠﴾

٥١ - قال قائل من أهل الجنة: إني كان لي في الدنيا صاحب من المشركين، مُلازمٌ لي.

٥٣، ٥٢ - يقول مُستنكراً إيماني: أأُنك من المُصدِّقين بالبعث بعد الموت؟ أبعد أن نفني، ونصيرَ تراباً وعظاماً تُخَرَّة، أأنا لميعوثون لحياةٍ أخرى غير هذه الحياة؛ لِئَحَاسَبَ وَنُجَازِيَّ على ما قَدَّمنا في الحياة الأولى؟

٥٤ - قال المؤمن لإخوانه من أهل الجنة: هل أنتم راغبون في أن تطلِّعوا معي؛ لنرى مصيرَ ذلك القرين الذي كان يحاول إغوائي، لأَكْذِبَ بيوم الدين؟

٥٥ - فاطَّلَعَ المؤمنُ على أهل النار، فرأى قرينه في وسط جهنم. ٥٦ - قال المؤمن لقرينه حينما رآه: والله، لقد قاربت بإغراءاتك وإغواءاتك لثَّقِطَني معك في هاوية عذاب الجحيم.

٥٧ - ولولا رحمةُ ربي وإنعامه عليَّ بتقوية إرادتي الخيرة الصادقة على مقاومة إغراءاتك، لاسْتَجَبْتُ لك فكفرت، فكنت من المسوقين قهراً حتى أكون معك حاضراً في النار.

٥٨، ٥٩ - يقول أهل الجنة للملائكة حين يُذبح الموت: أنحن مُخلِّدون مُنعمون، فما نحن بميتين، إلا موتنا الأولى في الدنيا، وما نحن بمعدَّين بعد دخولنا الجنة؟!

٦٠ - إن هذا الذي أعطانا الله من الكرامة في الجنة لهو الظفر العظيم، والنجاة الكبرى ممَّا كُنَّا نحذرُه في الدنيا من عقاب الله.

٦١ - لِمِثْلِ هذا الفوز العظيم، فليعمل العاملون، إيماناً وإسلاماً وطاعةً لربهم في الدنيا؛ ليصبروا إليه في الآخرة.

٦٢ - أذلك النعيم المُعدُّ لأهل الجنة خيرُ ضيافةٍ وعطاءٍ من الله أم شجرة الزُّقوم الخبيثة المُرَّة الكريهة المُعدَّة لأهل النار؟!

٦٣ - إنَّ شَجَرَةَ الزُّقوم في جهنم شجرةٌ يُعَذَّبُ بالأكْل من ثمرها الكافرون، إنهم يأكلون منها من شدَّة جوعهم، ثم يكون ما أكلوه كنار لاهية تحرقهم من داخل بطونهم.

٦٤ - إنها شجرةٌ تنبت في قعر النار، ثمرها الذي يُؤكل منه كأنه رؤوس الشياطين في قبح المنظر. فإنَّ الظالمين المجرمين لآكلون من ثمرها، ويكرهون على أكلها حتى تمتلئ بطونهم، ثم بعد امتلاء بطونهم من ثمر شجر الزُّقوم، الذي يغلي في بطونهم كغلي الحميم، يشتدُّ ظمؤهم، فلا يجدون إلا ماءً شديداً الحرارة، فيشربون منه مُلَجَّجِينَ، لتخفيف لهيبتهم، فيدخل هذا الماء الحميم في بطونهم، فيختلط بما أكلوا من طلع شجرة الزُّقوم، ثم إنَّ رجوعهم ومكانه وزمائه إلى ذركاتهم في الجحيم بعد أكلهم الزُّقوم وشربهم الحميم في قاع الجحيم.

٦٩، ٧٠ - إنهم وَجَدُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ، فهم يُسرِّعون الخُطى على آثامهم، ويعملون مثل عملهم من غير تفكير، مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل.

٧١، ٧٢ - ونؤكد لك - أيها المتلقِّي - أنه ضلَّ قبلهم أكثرُ الأمم الخالية بإراداتهم الخُرة، ونؤكد أننا أرسلنا فيهم رُسلاً مُبلِّغين ومُبشِّرين بجَنَاتِ النعيم من آمن وأطاع، ومنذرين من كذب وعصى بإهلاك شاملٍ ماحقٍ في الدنيا قبل يوم الحساب، وبعذابٍ خالدٍ يوم الدين.

٧٣ - فما كان منهم بعد الإمهال الطويل لهم إلا الإصرار على كفرهم، فأهلكناهم إهلاكاً جماعياً شاملاً، فانظر - أيها المتلقِّي المتفكر - كيف كان مآل الذين أنذرتهم رسلهم؟ لقد أهلكناهم إهلاكاً عقابياً؛ ليكونوا عبرةً لمن يأتي بعدهم من الناس.

٧٤ - ولكن ليس كلُّ المُنذرين أهلكوا، بل كان منهم من آمن وأخلص في إيمانه وإسلامه وعبادته، فجعلناهم من المُخلَّصين، فأنجيناهم ولم نُهلكهم مع المُهلكين.

٧٥، ٧٦ - ونقسم مؤكِّدين لكم أن نوحاً دعانا في آخر مسيرة دعوته لقومه دعاءً فيه شدَّة النداء وخُرقة؛ لننصره على قومه، فاستمعنا نداءه، وأجبنا دعاءه، وفرَّجنا كربَه، فَلَنِعْمَ المُجيبونُ كُنَّا له، وخلصناه، وخلصنا أهله المؤمنين معه ممَّا كانوا فيه من حزن وغمٍّ شديد، فإذا وصلت - يا رسول الله - مع قومك إلى حالة كربٍ عظيم، فادعنا نُجَبِّكَ، ونهلك أعداءك.

يَقُولُ أَتَىكَ لَمَنِ الْمَصْدَقِينَ ﴿٥٢﴾ أَدَامْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَتَى
لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ
الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي
لَكُنْتَ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتُنَا
الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْفُورِ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾
لِيُمِثِّلَ هَذَا الْقَلِيلَ عَمَلِ الْعَمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ تُرْزَلُ أَمْ شَجَرَةُ
الزُّقُومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ
﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا لِقْوٌ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا لَشَوْأِبًا مِنْ حِمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
إِنَّهُمْ أَلفَاءُ آبَاءِهِمْ مُضْرَّابِينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ أُنْدَرِهِمْ يَهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ
مُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ
الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

٧٧ - وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ نُوحَ هَمَّ الْبَاقِينَ بَعْدَ غَرَقِ قَوْمِهِ فَلَمْ يُنْجِبْ أَحَدٌ ذُرِّيَّةَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ رَكِبُوا مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ، وَنَجَّوْا مِنَ الْغَرَقِ، غَيْرِ
أَوْلَادِهِ الثَّلَاثَةِ: «سَامَ - وَحَامَ - يَافَثَ».

٧٨ - وَأَبْقَيْنَا عَلَى نُوحٍ ثَنَاءً حَسَنًا وَذَكَرًا جَمِيلًا وَتَحِيَّةً طَيِّبَةً فِيمَنْ بَعْدَهُ
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

٧٩ - ٨١ - سَلَامٌ وَتَحِيَّةٌ وَعَافِيَةٌ وَأَمْنٌ، وَبِرَاءَةٌ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَنَقْصٍ
عَلَى نُوحٍ مَثًّا فِي الْعَالَمِينَ؛ إِنَّا جَزَيْنَاهُ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ،
وَأَبْقَيْنَا لَهُ ثَنَاءً حَسَنًا وَتَحِيَّةً طَيِّبَةً، لِأَنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا، وَإِنَّا كَذَلِكَ الْجَزَاءُ
نَجْزِي سَائِرَ الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُصْذِقِينَ الْمُخْلِصِينَ.

٨٢ - ثُمَّ بَعْدَ أَنْ أَنْجَيْنَا نُوحًا وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ بِمَدَّةٍ مَتْرَاحِيَةٍ،
جَرَّتْ فِيهَا السَّفِينَةُ عَلَى الْمَاءِ، أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ مِنْ كِفَارِ قَوْمِهِ
بِالطُّوفَانِ.

٨٣ - وَإِنَّ مَثَمَّنَ عَلَى مَنَاجِ نُوحٍ وَسُتَّةً فِي التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، نَبِيُّ
اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَالْعَقَائِدُ وَالشَّرَائِعُ الَّتِي جَاءَ بِهَا نُوحٌ عَلَيْهِ
السَّلَامُ قَدْ بَقِيَتْ مِنْهَا بَقَايَا صَحِيحَةٌ فِي الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِهِ حَتَّى أَيَّامِ
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّهُ أَطْلَعَ عَلَيْهَا رَغْمَ انْتِشَارِ الْوَثْنِيَّةِ فِي قَوْمِهِ،
فَأَمَّنَ بِهَا وَاتَّبَعَهَا، إِيْمَانًا بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاتِّبَاعًا لَهُ، قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ
اللَّهُ نَبِيًّا، وَيُبْعَثَهُ إِلَى قَوْمِهِ رَسُولًا.

٨٤ - ضَعُفٌ فِي ذَاكَرَتِكَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي - حِينَ أَقْبَلَ عَلَى رَبِّهِ بَعْدَ رَحَلَةِ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِقَلْبٍ مُخْلِصٍ مِنَ الشُّرْكِ وَالشَّكِّ، وَالْغُلِّ وَالْغَشِّ،
وَالْحَقْدِ وَالْحَسَدِ.

٨٥ - ٨٧ - ضَعُفٌ فِي ذَاكَرَتِكَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي - جِهَادُ إِبْرَاهِيمَ الدَّعَوِيَّ
حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ: مَا الَّذِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟
أَتَتَّخِذُونَ أَصْنَامًا وَتَجْعَلُونَهَا آلِهَةً تُعْبَدُ كَذِبًا عَلَى اللَّهِ، وَتَرِيدُونَ
بِعِبَادَتِكُمْ لَهَا أَنْ تَجْلِبَ لَكُمْ نَفْعًا، أَوْ تَدْفَعَ عَنْكُمْ ضَرًّا؟ فَمَا ظَنُّكُمْ
الَّذِي تَظُنُّونَهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ الْخَالِقَ لِلْكَوْنِ، وَالْمُؤَدِّ لِهَ بَعْطَاءَاتِ رِبْوِيَّتِهِ

دَوَامًا؟ فَابْحَثُوا بِأَفْكَارِكُمْ، فَهَلْ تَصِلُونَ إِلَى ظَنِّ بَأَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا مِنَ الْكَوْنِ، أَوْ أَنْ يُمَثَّلَ بِشَيْءٍ مِنَ الْكَوْنِ؟
٨٨ - فَتَنْظُرُ إِبْرَاهِيمَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ؛ لِيُوهِمَ مِنْ حَوْلِهِ مِنْ قَوْمِهِ أَنَّهُ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ فِي النَّظَرِ إِلَى حَرَكَاتِ النُّجُومِ؛ ثَلَاثًا يُنْكَرُوا عَلَيْهِ، وَذَلِكَ
أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكِيدَ أَصْنَامَهُمْ فِي يَوْمِ عِيدِهِمْ، فَيُحْطِمُهَا إِلَّا كَبِيرَهَا؛ لِيُزَيِّمَهُمُ الْحُجَّةَ أَنَّهُ لَا تَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ.
٨٩، ٩٠ - فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِنِّي مَرِيضٌ، وَمَرْضِي يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَخْرَجَ مَعَكُمْ فِي يَوْمِ عِيدِكُمْ، فَقَبِلْتُ عَشِيرَتُهُ عُذْرَهُ، فَخَرَجُوا نَائِثِينَ عَنِ
الْمَكَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَبَقِيَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَدِينَةِ لَا يُرَاقِبُهُ فِيهَا أَحَدٌ.
٩١، ٩٢ - فَمَالَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَصْنَامِهِمْ فِي خُفْيَةٍ وَخُفَّةٍ حَرَكَةٍ، فَقَالَ لِلْأَصْنَامِ اسْتَهْزَاءً بِهَا: أَلَا تَأْكُلُونَ الطَّعَامَ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ؟ مَا لَكُمْ
عَجَزْتُمْ عَنِ الْكَلَامِ؟

٩٣ - فَمَالَ عَلَيْهِمْ بِخُفَّةٍ وَنَشَاطٍ، وَجَعَلَ يَضْرِبُهَا ضَرْبًا قَوِيًّا بِيَدِهِ الْيُمْنَى، فَكَسَّرَهَا إِلَّا صِنْمًا كَبِيرًا مِنْهَا.
٩٤ - ٩٦ - فَأَقْبَلَ قَوْمَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ يُسْرِعُونَ بَعْدَ مَا أَخْبَرُوا بِصَنْعِ إِبْرَاهِيمَ بِأَلْهَتِهِمْ. قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَنْكَرًا فَعَلَهُمْ مُسَفْهُأً عَقُولَهُمْ:
أَتَعْبُدُونَ مَا تَتَّخِذُونَ بِأَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ الَّذِي تَعْمَلُونَ بِأَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا، وَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ
تَكُونَ الْعِبَادَةُ لَهُ.

٩٧ - وَقَالَ عَبَادُ الْأَصْنَامِ لِبَعْضٍ لَمَّا قَرَعَتْهُمْ الْحُجَّةُ: ابْنُوا لِأَجَلِهِ بَنِيَانًا، وَامْلُؤُوهُ حَطَبًا، وَأَوْقِدُوا عَلَيْهِ، وَاطْرَحُوهُ فِي النَّارِ الشَّدِيدَةِ
التَّاجِجِ؛ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ، فَفَعَلُوا.

٩٨ - فَأَرَادُوا بِإِبْرَاهِيمَ شَرًّا، وَبَدَعُوهُ مَا يُلْغِيهَا وَيَمْنَعُ انْتِشَارَهَا، فَجَعَلْنَاهُمْ الْمَقْهُورِينَ الْمَغْلُوبِينَ، إِذْ سَلَّمَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ.

٩٩ - وَقَالَ إِبْرَاهِيمَ لِعَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ: إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى أَرْضٍ غَيْرِ أَرْضِكُمْ، يَخْتَارُهَا لِي رَبِّي، سَيَهْدِينِي إِلَى حَيْثُ أَمَرَنِي بِالْهَجْرَةِ، وَهِيَ
أَرْضُ الشَّامِ.

١٠٠، ١٠١ - رَبِّ هَبْ لِي وَلَدًا مِنْ ذُرِّيَّتِي يَكُونُ صَالِحًا مِنَ الصَّالِحِينَ، يَبْلُغُ أَوَانَ الْحُلُمِ، فَأَجَبْنَاهُ دَعْوَتَهُ، وَبَشَّرْنَاهُ بِابْنٍ يَتَحَلَّى بِالْعَقْلِ
وَالْأَنَاءَةِ وَضَبْطِ النَّفْسِ، وَقُوَّةِ الْإِرَادَةِ، فَوُلِدَتْ «هَاجِرُ» الْغَلَامُ الْحَلِيمُ «إِسْمَاعِيلُ».

١٠٢ - فَلَمَّا بَلَغَ إِسْمَاعِيلُ السَّنَ الَّتِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْعَى فِيهَا مَعَ أَبِيهِ فِي أَعْمَالِهِ وَحَاجَاتِهِ، وَيُعِينُهُ فِي دَعْوَتِهِ وَجِهَادِهِ. قَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ إِنِّي
أَرَى فِي الْمَنَامِ رُؤْيَا تَتَكَرَّرُ عَلَيَّ وَحَيًّا مِنْ اللَّهِ أَنِّي أَذْبَحُكَ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى أَنْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَقَالَ إِسْمَاعِيلُ لِأَبِيهِ: أَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ،
سَتَجِدْنِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَا حَوْلَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِعَصْمَتِهِ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَتِهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِهِ.

الْحِجَّةُ الثَّالِثَةُ الْعِشْرُونَ

سُورَةُ الصَّافَّاتِ



وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هَرُ الْبَاقِينَ ٧٧ وَرَكَعًا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ٧٨ سَلَّمَ
عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ٨٢ وَإِنَّا مِنْ
شَيْعِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ٨٣ إِذْ جَاءَهُ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٤ إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ٨٥ أَفَكُفَّاءُ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَرِيدُونَ
٨٦ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٨٧ فَتَنْظُرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ٨٨
فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ٨٩ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ٩٠ فَرَاغَ إِلَى اللَّهِ إِلَهُ الْهِنَمِ
فَقَالَ أَلَا تَأْتَا كُؤُونَ ٩١ مَا كُؤُونَ لَا تَنْطَفُونَ ٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا
بِالْيَمِينِ ٩٣ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرَفُونَ ٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُحُونَ
٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٩٦ قَالُوا اتَّوَلَّاهُ بَنِينًا فَالْقُوَّةُ
فِي الْجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ ٩٨
وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ
١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ
يَبْنِيْ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ١٠٢ قَالَ
يَتَّيَّبْتُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ١٠٣

أَوْ أَنْ يُمَثَّلَ بِشَيْءٍ مِنَ الْكَوْنِ؟
٨٨ - فَتَنْظُرُ إِبْرَاهِيمَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ؛ لِيُوهِمَ مِنْ حَوْلِهِ مِنْ قَوْمِهِ أَنَّهُ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ فِي النَّظَرِ إِلَى حَرَكَاتِ النُّجُومِ؛ ثَلَاثًا يُنْكَرُوا عَلَيْهِ، وَذَلِكَ
أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكِيدَ أَصْنَامَهُمْ فِي يَوْمِ عِيدِهِمْ، فَيُحْطِمُهَا إِلَّا كَبِيرَهَا؛ لِيُزَيِّمَهُمُ الْحُجَّةَ أَنَّهُ لَا تَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ.

٨٩، ٩٠ - فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِنِّي مَرِيضٌ، وَمَرْضِي يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَخْرَجَ مَعَكُمْ فِي يَوْمِ عِيدِكُمْ، فَقَبِلْتُ عَشِيرَتُهُ عُذْرَهُ، فَخَرَجُوا نَائِثِينَ عَنِ
الْمَكَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، وَبَقِيَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَدِينَةِ لَا يُرَاقِبُهُ فِيهَا أَحَدٌ.

٩١، ٩٢ - فَمَالَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَصْنَامِهِمْ فِي خُفْيَةٍ وَخُفَّةٍ حَرَكَةٍ، فَقَالَ لِلْأَصْنَامِ اسْتَهْزَاءً بِهَا: أَلَا تَأْكُلُونَ الطَّعَامَ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ؟ مَا لَكُمْ
عَجَزْتُمْ عَنِ الْكَلَامِ؟

٩٣ - فَمَالَ عَلَيْهِمْ بِخُفَّةٍ وَنَشَاطٍ، وَجَعَلَ يَضْرِبُهَا ضَرْبًا قَوِيًّا بِيَدِهِ الْيُمْنَى، فَكَسَّرَهَا إِلَّا صِنْمًا كَبِيرًا مِنْهَا.

٩٤ - ٩٦ - فَأَقْبَلَ قَوْمَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ يُسْرِعُونَ بَعْدَ مَا أَخْبَرُوا بِصَنْعِ إِبْرَاهِيمَ بِأَلْهَتِهِمْ. قَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَنْكَرًا فَعَلَهُمْ مُسَفْهُأً عَقُولَهُمْ:
أَتَعْبُدُونَ مَا تَتَّخِذُونَ بِأَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ الَّذِي تَعْمَلُونَ بِأَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا، وَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ
تَكُونَ الْعِبَادَةُ لَهُ.

٩٧ - وَقَالَ عَبَادُ الْأَصْنَامِ لِبَعْضٍ لَمَّا قَرَعَتْهُمْ الْحُجَّةُ: ابْنُوا لِأَجَلِهِ بَنِيَانًا، وَامْلُؤُوهُ حَطَبًا، وَأَوْقِدُوا عَلَيْهِ، وَاطْرَحُوهُ فِي النَّارِ الشَّدِيدَةِ
التَّاجِجِ؛ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ، فَفَعَلُوا.

٩٨ - فَأَرَادُوا بِإِبْرَاهِيمَ شَرًّا، وَبَدَعُوهُ مَا يُلْغِيهَا وَيَمْنَعُ انْتِشَارَهَا، فَجَعَلْنَاهُمْ الْمَقْهُورِينَ الْمَغْلُوبِينَ، إِذْ سَلَّمَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ.

٩٩ - وَقَالَ إِبْرَاهِيمَ لِعَشِيرَتِهِ الْأَقْرَبِينَ: إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى أَرْضٍ غَيْرِ أَرْضِكُمْ، يَخْتَارُهَا لِي رَبِّي، سَيَهْدِينِي إِلَى حَيْثُ أَمَرَنِي بِالْهَجْرَةِ، وَهِيَ
أَرْضُ الشَّامِ.

١٠٠، ١٠١ - رَبِّ هَبْ لِي وَلَدًا مِنْ ذُرِّيَّتِي يَكُونُ صَالِحًا مِنَ الصَّالِحِينَ، يَبْلُغُ أَوَانَ الْحُلُمِ، فَأَجَبْنَاهُ دَعْوَتَهُ، وَبَشَّرْنَاهُ بِابْنٍ يَتَحَلَّى بِالْعَقْلِ
وَالْأَنَاءَةِ وَضَبْطِ النَّفْسِ، وَقُوَّةِ الْإِرَادَةِ، فَوُلِدَتْ «هَاجِرُ» الْغَلَامُ الْحَلِيمُ «إِسْمَاعِيلُ».

١٠٢ - فَلَمَّا بَلَغَ إِسْمَاعِيلُ السَّنَ الَّتِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْعَى فِيهَا مَعَ أَبِيهِ فِي أَعْمَالِهِ وَحَاجَاتِهِ، وَيُعِينُهُ فِي دَعْوَتِهِ وَجِهَادِهِ. قَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ إِنِّي
أَرَى فِي الْمَنَامِ رُؤْيَا تَتَكَرَّرُ عَلَيَّ وَحَيًّا مِنْ اللَّهِ أَنِّي أَذْبَحُكَ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى أَنْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَقَالَ إِسْمَاعِيلُ لِأَبِيهِ: أَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ،
سَتَجِدْنِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَا حَوْلَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِعَصْمَتِهِ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَتِهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِهِ.

١٠٣ - فلما أسلم الأب والابن أمرهما الله عز وجل، طاعة له، وامثالاً لأمره، وألقى إبراهيم ابنه إسماعيل على عنقه وخذه، وجعل أحد جانبي جهته على الأرض؛ ليذبحه، وقبض على مِقْبَضِ سكينه لينفذ الأمر الرباني، ثم ابتلاؤهما واجتازاه بنجاح عظيم.

١٠٤ - ونادينا إبراهيم: أن يا إبراهيم قد حصل المقصود من تلك الرؤية، حيث ظهر منك كمال الطاعة والانقياد لأمر الله.

١٠٥ - إنا كما عَفَوْنَا عن ذبح ولده، كذلك نجزي سائر المحسنين في طاعتنا، فنخلصهم من الشدائد في الدنيا والآخرة.

١٠٦ - إن هذا الامتحان الذي امتحنا به إبراهيم وإسماعيل، لهُوَ الاختبار الظاهر الجلي، الذي أبان عن صدق إيمانهما واستسلامهما لله عز وجل.

١٠٧ - واستنقذنا إسماعيل، فجعلنا بديلاً عنه كبشاً ضخم الجثة سميئاً.

١٠٨ - وتركنا لإبراهيم ذكراً جميلاً، وثناءً حسناً، وتحيّةً طيبةً يدعو بها المرسلون وأتباعهم.

١٠٩ - سلامٌ وتحيّةٌ وعافية وأمن، وبراءةٌ من كلِّ مكروه ونقص على إبراهيم، وهذا السلام على إبراهيم ومن قبله نوح، ومن بعده موسى وهارون وإلياس هو ثواب تكريمي مُعَجَّلٌ لهم في الدنيا، إذ شرع للمؤمنين أن يُحيّوهم بالسلام كلما ذكروا أسماءهم.

١١٠، ١١١ - كما جَزَيْنَا إبراهيم على طاعته لنا، وامثاله أمرنا، مثل هذا الجزاء نجزي سائر المُحْسِنِينَ من عبادنا؛ إنَّه من عبادنا المؤمنين الكاملين في إيمانهم.

١١٢ - وبشرنا إبراهيم بولده «إسحاق» يأتيه من امرأته «سارة»، يكون هذا الولد نبياً من الصالحين؛ جزاءً لطاعته وصبره.

١١٣ - وأنعمنا على إبراهيم، وعلى ولده إسحاق بخيرات كثيرات،

وجعلنا ممّن تناسل من ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ لنفسه بالإيمان والطاعة، وظالم لنفسه بالكفر بين الكفر، فأفضلهم درجة أهل درجة الإحسان، وأحطهم دركة أهل الكفر، وسائرهم على درجات أو دركات بين درجة المُحْسِنِ، ودركة الظالم لنفسه الواضح في انحطاطه إلى أسفل سافلين.

١١٤ - ١١٦ - ونقسم مؤكدين لكم أننا أنعمنا على الأخوين موسى وهارون عليهما السلام بالنبوة والرسالة والنعم الجسام، وخلصناهما وقومهما بني إسرائيل من استعباد فرعون إليّاهم، ونصرنا موسى وهارون وقومهما، بتشجيتهم بقلق البحر لهم، وبإغراق فرعون وجيشه الذي خرج معه وراء بني إسرائيل، فكانوا هم الغالبيين لأعدائهم القبط دون أن يكون من بني إسرائيل قتال لأعدائهم، ولا مواجهة لهم بحرب أو دفاع.

١١٧، ١١٨ - وآتينَا موسى وهارون عليهما السلام الكتابَ الظاهر الواضح وضوحاً شديداً، وهو كتاب التوراة الذي لا غموض فيه، ولا غَبَشَ عليه، ودلّلناهما إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام.

١١٩ - وأبقينا ثناءً حسناً عليهما وتحيّةً طيبةً في الآخرين الذين جاؤوا مِنْ بعدهما.

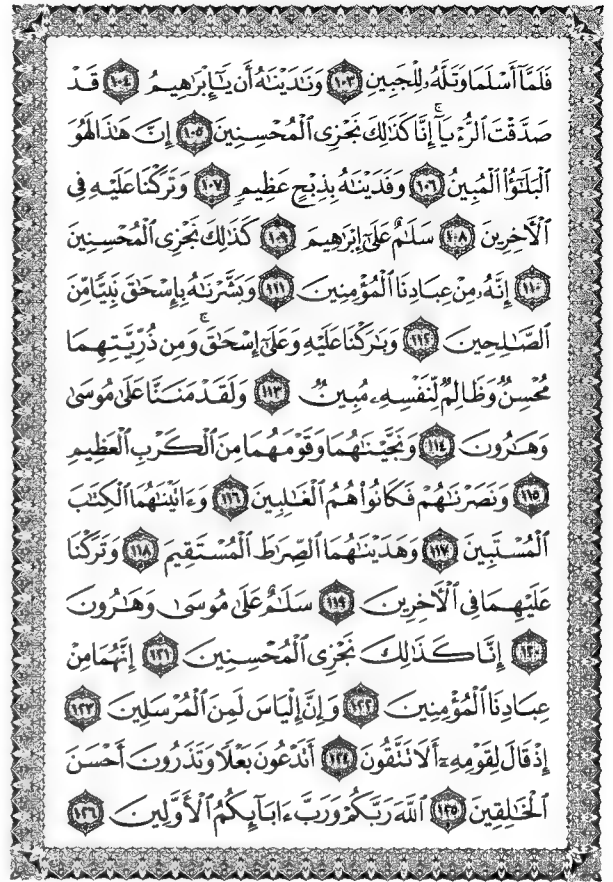
١٢٠ - تحيةً لموسى وهارون من عند الله، وثناءً ودعاءً لهما بالسلامة من كلِّ آفة.

١٢١، ١٢٢ - كما جَزَيْنَاهُمَا الجزاءَ الحَسَنَ، نجزي مثل هذا الجزاء سائر المحسنين من عبادنا. إنَّهما من عبادنا المؤمنين الكاملين في إيمانهم.

١٢٣ - ونؤكد لكم - أيُّها المتلقون لآياتنا - إنَّ إلياسَ لَمِنَ المرسلين الذين أكرمناهم بالنبوة، وأرسلناهم هدايةً لأقوامهم.

١٢٤ - وضع في ذاكرتك - أيُّها المتلقون لآياتنا - حين قال إلياس لقومه من بني إسرائيل - وكانوا يعبدون صنماً -: ألا تخافون الله بآثاق عذابه؟

١٢٥، ١٢٦ - أتعبدون الصنم المُسمَّى «بعلاً»، وتتركون - مع إعراض وإهمال - عبادة الله أحسن الخالقين المقدرين، الذي يُعطي أجزاء الشيء مقاديرها المناسبة لها، وتتركون الله ربكم ربَّ آبائكم الماضين من قبلكم فلا تعبدونه؟ فهو سبحانه المُتصرِّف في كلِّ أموركم، الحقيق بالعبادة.



١٢٧ - فكذب قوم إلياس نبيهم، فإنهم بسبب كفرهم وتكذيبهم لمحضرون قهراً في النار يوم القيامة.

١٢٨ - إلا عباد الله الذين أخلصوا في إيمانهم وإسلامهم وعبادتهم، فجعلهم الله من المخلصين عنده، فإنهم ناجون من العذاب.

١٢٩ - ١٣١ - وجعلنا لإلياس ذكراً حسناً وتحيّة طيبة على السنة من جاؤوا بعده، تحية من الله وثناء على إلياس، وبراءة له من كل نقص ومكروه، وكما جزيئنا إلياس الجزاء الحسن على طاعته، نجزي مثل هذا الجزاء سائر المحسنين من عبادنا المؤمنين.

١٣٢ - إن إلياس من عبادنا المؤمنين الكاملين في إيمانهم.

١٣٣ - وإن لوطاً لمن المرسلين الذين أرسلناهم لنبلغ رسالتنا.

١٣٤، ١٣٥ - ضغ في ذاكرتك - أيها المتلقي - حين نجينا لوطاً وأهله أجمعين من العذاب، إلا امرأته العجوز، فقد كانت بسبب كفرها من الماكثين في أرض قومها إذ أهلكت وهي فيها، وكانت كذلك من الماضين الذاهبين المهلكين.

١٣٦ - ويعد أن أنجينا لوطاً وأهله إلا امرأته، وأوصلناهم إلى أرض آمنة، أهلكنا هلاك استئصال الباقيين المكذبين من قومه.

١٣٧، ١٣٨ - وإنكم - يا أهل مكة - لتمثرون في أسفاركم إلى أرض الشام، على منازل قوم لوط وأثارهم في الأرض المشرفة على البحر الميت، وقت الصبح،، وتمثرون عليهم بالليل قبل الفجر. أفلا تعتبرون بهم، وتضبطوا أهواءكم وشهواتكم بإرادة حازمة عن الشرود إلى مهاوي الهلاك.

١٣٩ - ١٤١ - وإن من جملة رسل الله تعالى يونس، إذ هرب من قومه من غير أمر ربّه، راغباً في العودة إلى منازل أهله في فلسطين، وتوجّه جهة ساحل البحر، وركب سفينة مملوءة ركاباً وأمتعة، وأحاطت بها الأمواج العظيمة، وخاف أهل السفينة على أنفسهم من العرق، فقرروا أن يجروا قرعة لإسقاط من تقع القرعة عليه في البحر، فشارك في القرعة بالسهم، فخرجت القرعة على يونس، فكان من المزلقين عن السفينة بمقتضى القرعة التي أجرها.

١٤٢ - فألقي في البحر، فوضعه الحوت في جوف فمه كأنه لقمة من طعام، وهو آت بما يلام عليه من قبل ربّه عز وجل؛ لأنه ترك قومه دون إذن له بذلك.

١٤٣، ١٤٤ - فلولا أن يونس كان في جوف فم الحوت من المنزهين لله تعالى، المواظبين على ذكره، لأكله الحوت وهضمه، وصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة.

١٤٥، ١٤٦ - فأمرنا الحوت بطرحه في الفضاء الواسع من الأرض، على شطّ النهر، قرب «نينوى» من أرض الموصل، وهو عليل، وأثبتنا عليه شجرة من القرع، تمتد على وجه الأرض، فغطته وظلّته أوراقها، ووقته غوائل الجو.

١٤٧، ١٤٨ - حتى إذا صبح ممّا أصابه، أرسلناه إرسالاً جديداً إلى مائة ألف من أهل «نينوى»، بل يزيدون، فوجد قومه قد آمنوا وأسلموا، منتظرين عودة رسولهم، ليأتمروا بأمره ويتبعوه، فلبث فيهم يعلمهم ويُرشدهم إلى صراط الله المستقيم، ومنع الله أهل «نينوى» مدة إقامة يونس فيهم، ومنعهم بعده فيها آمين مطمئنين حتى إذا أفسدوا بعد ذلك سلط الله عليهم مهلكات أهلكتهم ودمرت مدينتهم.

١٤٩ - فسل - يا رسول الله - كفار مكة توبيخاً لهم: أجمعوا لله أولاداً انفصلوا منه، وجعلوا هؤلاء الأولاد من صنف البنات اللاتي يكرهونهنّ، ولأنفسهم البنين الذين يريدونهم؟

١٥٠ - ١٥٢ - واسألهم: أخلقنا الملائكة إناثاً، وهم حاضرون يشاهدون بأعينهم خلقنا إناثاً، فأروا أنهم إناث؟! انتبه وتحقق - أيها المؤمن المناظر لهؤلاء - إنهم من كذبهم على الله ليقولون: ولّد الله، وإنهم لكاذبون فيما زعموا.

١٥٣ - أختار لنفسه البنات المكروهة في زعمكم على البنين المحبوبة منكم، وهو الخالق للبنين والبنات، الغني بذاته عن أن يكون له أولاد؟

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَرِيمِ

سُورَةُ الصَّافَاتِ

فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ لِأَعْبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنْ لَوْطًا لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُ وَأَهْلُهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكَ لَمُتْرُونٌ عَلَيْهِمْ مِّنْصَبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْبَيْتِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنْ يُونُسَ لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبْعَدَ إِلَى الْمَلَكِ الْمَشْهُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَئِثٌ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْنَيْنَاهُ عَلَى شَجَرَةٍ مِّنْ يَّفَظِينَ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتَاهُمُ الرَّبُّ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾

١٥٤، ١٥٥ - أي شيء هو حُجَّةُ لكم من دليل عقلي، يُسَوِّغُ لكم أن تزعموا أن ربكم أنجب ولدًا من نسله، أو تبتنى ولدًا؟! أفستمرون على التزام هذا الحكم الباطل، فلا تضعون موازين الحق في ذاكرتكم؛ لتهديكُم إلى الإيمان.

١٥٦، ١٥٧ - بل ألكم حُجَّةٌ واضحة، جاءت في كتاب مُنَزَّل من عند الله ربكم، وفيها إثبات أن الملائكة بناتُ الله بالنسب أو بالتبني؟ فأتوا بكتابكم الذي لكم فيه حُجَّةٌ إن كنتم صادقين في هذا الادِّعاء؟
١٥٨ - وجعلَ المشركون بين الله تعالى وبين سادات الجنِّ قرابةً ونسباً بزعمهم؛ إذ زعموا أن الله سبحانه قد تزوج نساءً من سُرُوات الجنِّ، فأنجب منهم الملائكة، فالملائكة ذوو نسب متَّصل بالله ناتج عن مُصاهرة الله لأشراف من الجنِّ؟! ولقد علم الجنُّ أنهم عبيدُ الله مُمتَحنون في الحياة الدنيا، وأنهم مُحَضَّرُونَ يوم القيامة إلى المحكمة الربَّانيَّة، فليس أحدٌ منهم ولا من ذُراريهم أولاداً لله؛ إذ لو كان بعضُ ذراريهم من نسل الله، لكان فيهم جزءٌ من ربوبيَّة الله، ومن له ربوبيَّة ما لا يخضع لحساب وجزاء.

١٥٩، ١٦٠ - تنزهَ الله عن كلِّ ما لا يليقُ به ممَّا يصفُهُ الكافرون، باستثناء عبادِ الله المُخْلِصين من النبيين والملائكة والمؤمنين الذين حكم الله لهم بأنهم بريئون من وصف الله عزَّ وجلَّ بما لا يليقُ به.
١٦١ - ١٦٣ - فإنَّكم - أيها المشركون - مع ما تعبدون من دون ربكم، ما أنتم حالة كونكم ثابتين على شرككم بمُضِلِّين أحداً بإغوائكم، إضلال تسلُّط وإكراه ليعتقد معتقداتكم الباطلة، لكن من استجاب لكم بإرادته الحرة، أتباعاً لأهوائه وشهواته، فإنه صائرٌ إلى عذاب الحريق في الجحيم.

١٦٤ - ١٦٦ - قالت الملائكة: وما مثلاً - معشَرَ الملائكة - مَلَكٌ إلا له مقامٌ في السماء معلومٌ يعبدُ ربَّه فيه، لا يتجاوزُه. وإنا لنحن الصَّافُّون أقدامنا في عبادة الله تعالى، وإنا لنحن المُتَزَهِّونَ الله تعالى عن كلِّ ما

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ أَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ الْإِعْبَادَ لِلَّهِ الْأَخْلَاصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَن هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مَثَلُ إِلَّا لَهُمْ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُوا ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْأَخْلَاصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكُفُّوا رُءُوسَهُمْ فَيَسْأَلُونَ عَنْهُمْ وَيَقُولُ سُبْحَتَ كَيْفَ مَنَّا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٠﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِنْ جُنَدَانَا لَهُمُ الْقَابِلُونَ ﴿١٧٢﴾ وَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٣﴾ وَأَبْصُرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٤﴾ أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٥﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِجِهِمْ سَاءٌ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٦﴾ وَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٧﴾ وَأَبْصُرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٨﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٧٩﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٠﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨١﴾

سُورَةُ الْجِنِّ

لا يليقُ بذاته وصفاته وأفعاله.

١٦٧ - ١٦٩ - وقد كان كفارُ مكة ليقولون قبل بعثة النبي ﷺ: لو أنَّ عندنا كتاباً ريانياً موروثاً من الرسل الأولين، وبقي لدينا ذكراً نرجع إليه في عقائدنا ومناهج سلوكنا، لأتبعنا آياته وتعليماته، وأخلصنا الإيمان والعبادة لله، فجعلنا عنده من المُخْلِصين.

١٧٠ - فلما جاءهم القرآن ذكراً عظيماً للعالمين، كفروا به، وكذبوا رسول ربهم، فسوف يعلمون ما لهم من العذاب في الآخرة.
١٧١ - ١٧٣ - ونقسم مؤكدين أنه سبقت كلمتنا المُعَبَّرُة عن تقديرنا وقضائنا، لأجل عبادنا المرسلين، وجنِّدنا المؤمنين، إن رُسُلنا لهم المنصورون بنصرٍ مثلاً في آخر صراعاتهم لأقوامهم، مهما نالتهم في مسيراتهم معهم من أذى وهزائم جزئية مُؤَقَّتة، وإن جندنا الذين يقاتلون أحزاب الكفر صادقين، ضمن وصايانا وتعليماتنا، والتي منها أخذهم بالأسباب المادية والمعنوية، لهم الغالبون أخيراً في معارك القتال، مهما كان بين البدايات والنهايات من فُرٍّ وكُرٍّ، وبعض هزائم لجند الله.

١٧٤، ١٧٥ - فابتعد - يا رسول الله - عمن عاند، ولا تشغل وقتك وطاقاتك بمعالجتهم ليؤمنوا، حتى وقت تقتضي الحكمة أن تواجههم بقتال أنت ومن معك من المؤمنين، ولا تكن غافلاً عنهم، بل ضعهم تحت ملاحظتك الدائمة ببصرك، لتكون على علم بما يُدَبِّرون ضدك، وضد الذين آمنوا بك وأتبعوك، فسوف يُبصرون في الدنيا كيف نصرك عليهم، وسوف يُبصرون يوم القيامة عاقبتهم الوخيمة.
١٧٦، ١٧٧ - أقبِ نزولِ عذابنا يستعجلون؟ فإذا نزل العذاب بساحتهم، محيطاً بهم من كلِّ جهاتهم، وغامراً لهم، فبُشِّرْ صَبَاحَ الكافرين، المصحوبُ بعذاب شديد الإيلام والخزي.

١٧٨، ١٧٩ - ولازم الموقف الذي أوصيناك به - يا رسول الله -، وابتعد عن أقوال أئمة الكفر الاستهزائية، ووجه طاقاتك لدعوة غير الميؤوس من استجابتهم حتى يأذن الله بعذابهم، مع شدة مراقبتك لهم ببصرك، فسوف يُبصرون عاقبتهم الوخيمة، آجلاً وعاجلاً.
١٨٠ - ١٨٢ - تنزهَ ربُّك ربُّ القوة الغالبة والقدرة العظيمة عما يصفه هؤلاء المُفْتَرُونَ من اتِّخاذ الشُّركاء والأولاد، ومما لا يليقُ بذاته وصفاته وأفعاله، وتدبيراته، وقضائه وقدره، وتحية احترام وتوقير وتكريم على المرسلين الذين بلغوا عن الله عزَّ وجلَّ التوحيد والشرائع، ونصَّحوا أقوامهم، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، والثناء الكامل، والشكر الدائم لله خالق العالمين، ومالكهم، ورازقهم، ومُربِّيهم، ومُصلحهم، فهو سبحانه المستحقُّ للحمد لكَمالاته الذاتية المُطْلَقة، ولأنه المحسن المُتَفَضِّلُ على كافة الخلق.

سُورَةُ هُودٍ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ شَقَاقٍ ٢
 كَرَاهِلَكُمْ مَن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا بَرَاءَةُ اللَّهِ الَّذِي فِيهِ
 أَن جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ٣
 أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٤ وَانطَلَقْنَا لَمَلَأُ
 مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ٥
 مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِن هَذَا إِلَّا أَخْلَاقٌ ٦ أَهَ نَزَّلَ
 عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَكَ إِلَىٰ
 ٨ أَمْرٍ عِنْدَهُمْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ٩ أَمَّا لَهُمْ
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرَوْا فِي الْآسَنِيبِ ١٠
 جُنْدٌ مَا هَٰؤُلَاءِ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
 نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ ١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ
 لَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ١٣ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولَ
 فَحَقَّ عِقَابُ ١٤ وَمَا نَظَرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا فِي صَبَاحٍ وَنَحْوٍ مَّا هَٰؤُلَاءِ
 مِّن قَوَامٍ ١٥ وَقَالُوا رَبَّنَا اجْعَلْ لَّنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ١٦

١ - ﴿صَّ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. يُقَسِّمُ الله سبحانه بالقرآن ذي الشرف والشأن العظيم، المتَّصِفُ بأنه يستحقُّ أن يكون ذِكْرًا للعالمين في الألسنة والقلوب والعقول في كلِّ زمان ومكان؛ ليستنبطوا معانيه، ويعملوا بأحكامه ووصاياه.

٢ - ولكنَّ الكافرين من أهل مكة السَّاترين لأدلة الإيمان وشواهد الحقِّ التي ظهرت لهم في حمية جاهليَّة وتكبُّر عن قبول الحق، وخلاف وعداوة لمحمد ﷺ ووقوف في شقِّ المعادي المحارب.

٣ - كثيرًا ما أهلكتنا من قبلهم من كفار الأمم الخالية، مقترنين في زمن واحد، فاستغاثوا عند نزول العذاب وحلول النعمة، وليس الوقت وقت فرار وخلص.

٤ - وَعَجِبَ كَفَّار مكة أن جاءهم مُنذِرٌ بشرٍّ منهم، يُخَوِّفهم عذاب الله بعد أن بلغهم وبيَّن لهم، وأقام لهم الحجج والبراهين، وقال أئمة الشرك والكفر المعاندون المُصرون على كفرهم الساترون لأدلة الحق وبراهينه الواضحة: هذا ساحرٌ مُموَّةٌ شديد الكذب.

٥ - أَجْعَلُ محمدُ الآلهة المتعددة إلهاً واحداً؟ إنَّ هذا الذي جاء به ودعا إليه لشيءٌ يُعْجَب منه أشدَّ العجب!!.

٦ - وذهب رؤساء القوم وكبرائهم من مجلسهم مُسرعين، يقول بعضهم لبعض: امضوا على طريقة آبائكم، واثبثوا صابرين على عبادة آلهتكم المتعددة، ولا تتأثروا بما جاء به محمد من دعوة إلى التوحيد، ونبد عبادة الأصنام، إنَّ ما جاء به هذا الرسول شيءٌ مُدْبِرٌ يَقْصِدُ منه الرئاسة والملك.

٧ - ما سمعنا بهذا الذي يقوله محمدٌ - من التوحيد - في ملَّة النصرانيَّة التي هي آخر الملل، ما هذا الذي جاء به محمد إلا كَذِبٌ وافتعال.

٨ - أَحْضَ محمدٌ من بيننا بشرف نزول القرآن عليه، وليس بأكرنا ولا أشرفنا؟ فلينظروا مُتدبرين هذا القرآن الذي يبلغهم إيَّاه، بل هم في شكٍّ من بياني الذي يجب عليهم أن يذكروه، ليحققوا مطلوباتي منهم في رحلة امتحاني لهم، وإنَّ ما في القرآن من إنذار بعدائي - إن لم يؤمنوا - كافٍ لإيقاظهم من غفلاتهم، بل هم أشد من أن يَكْفِيهم الإنذار؛ لأنَّهم لم يدعوا عذابي، وإن زمن إنزال العذاب فيهم قد صار وشيكاً.

٩ - بل أيملكون خزائن رحمة ربِّك العزيز في ملكه، الوهَّاب الذي وهب النبوة لمحمد ﷺ، حتى يُعطوا مفاتيح النبوة لِمَن شَاؤوا ويصرفوها عَمَّن شَاؤوا؟

١٠ - بل الهؤلاء المشركين مُلْكُ السَّموات والأرض وما بينهما؟ ليس لهم ذلك، فإن ادَّعوا شيئاً من ذلك، فليصعدوا في الأسباب التي تُوصلهم إلى السماء؛ ليأتوا منها بالوحي إلى من يختارون.

١١ - هؤلاء الذين يقولون هذا القول: جُنْدٌ مغلوبون في مواجهات قتاليَّة قادمة، من جملة أحزاب الكفر ذوي المذاهب المتفرقة، والتكتلات المختلفة، وقد تحقَّق فيما بعد انهزام جند كفار قريش في غزوة بدر، والأحزاب، وفتح مكة. وهذا الخبر من معجزات القرآن الخبريَّة التي أخبر الله عزَّ وجلَّ عنها فيه، وتحقَّقت كما جاء في خبره.

١٢، ١٣ - كَذَّبَتْ قَبْلَ هَٰؤُلَاءِ: قومُ نوح، وعاد، وفرعون - ذو البناء المُحكَّم والمُلْكُ الشَّدِيد الثابت - وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب. أولئك الأمم الذين تحزَّبوا على الأنبياء، ومشركو قريش حزبٌ من أولئك الأحزاب.

١٤ - ما كلُّ حزب منهم إلا هو حزب كَذَّبَ رسوله وكَذَّبَ سائر الرسل، فجرَّه تكذيبه إلى قبائح وشرور وفساد في الأرض، فوجِبَ عليهم العذاب، وصار أمراً واقعاً، لأنَّهم استحقُّوه، فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين إذا نزل بهم؟

١٥ - وما ينتظر كفَّار مكة - لحلول العذاب عليهم إن بقوا على شركهم - إلا صَبَاحٌ واحدةٌ تهلكهم، ما لهذه الصبيحة من مُهلة، بين انطلاقها وإهلاكهم.

١٦ - وقالوا استهزاء بما أنذروا به من عقاب في الدنيا: ربَّنَا عَجِّلْ لَنَا حِطًّا ونصيبنا من العذاب في الدنيا قبل يوم الحساب.

١٧ - اصبر - يا رسول الله - على ما يقول الكفار بشأنك مما تكره، واضبط نفسك عن مُقابلة أقوالهم بمثلها، أو بأشد منها، واضبط نفسك عن إظهار الغضب والتأثر والانفعال منها، وعن التحرك العملي للمقاومة بوسائل القوة المادية، قبل الاستعداد المكافئ لهذه المواجهات، واذكر عبدنا داود الذي صدق في عبوديته لنا، مُستشعراً عظمة ربوبيتنا، صاحب القوة الجسدية النادرة، والنفسية الفائقة؛ إنه كثير الرجوع إلى مراقبة الله عز وجل وذكره وطاعته، كلما ابتعد عن ذلك ولو ابتعاداً قليلاً.

١٨، ١٩ - إنا ذللنا الجبال مع داود يُسَبِّحُ الله بتسبيحه إذا سَبَّح في آخر النهار من العصر إلى غروب الشمس، وبعد شروق الشمس، أول وقت الضحى، وسخرنا له الطير مجموعة إليه، تُسَبِّح معه، كل من الجبال والطير رجاءً إلى طاعته، مطيعاً له بالتسبيح معه.

٢٠ - ومننا عليه ثلاث منن أخرى، غير مئتي تسخير الجبال، وحشر الطير: **المئة الأولى:** قوينا ملكه بأسباب القوة كلها، بمنحه الهيبة وقوة السلطان، والجند والأنصار، وبخذل أعدائه وخصومه، **والمئة الثانية:** آتيناه النبوة والإصابة في الأمور، وحسن الإدارة والسياسة في ملكه، والحكم بالحق والعدل، **والمئة الثالثة:** آتيناه الكلام البليغ، الفاضل في القضايا والأحكام.

٢١ - وهل جاءك - يا رسول الله - ويا كل مُتَلَقِّ لآياتِ الله - خبرُ الخصمين البارز ذو الأهمية اللذين تسورا على داود في مكان عبادته؟

٢٢ - حين دخلوا على داود، فخاف منهما حين هجما عليه في محرابه بغير إذنه، وهو في خلوته واستغراقه في عبادته ومناجاته لربه، ولم يكن يقتحم عليه خلوته أحد، إذ كان يمنع من ذلك، ويأمر حراسه بأن لا يأتوا لأحد بالدخول عليه، وسبق إلى ظنه أنهم يريدون به شراً، قالوا له: لا داعي للخوف، فإننا لم ندخل عليك بشراً أو ضرراً أو أذى، نحن خصمان تعدي بعضنا على بعض، وخرج عن حده، جئناك لتقضي بيننا، فاحكم بيننا بالحق، ولا تتجاوز الحق في

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾
إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصَّلَ الْخُطَابَ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا
الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ
خَصْمَانِ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاخْمِرْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِعْمَةً
وَلِي نِعْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَقِلَّ
مَاهُمْ وَظَنَ دَاوُدَ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
﴿٢٤﴾ فَفَعَلْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ
﴿٢٥﴾ يَذْكُرُ إِذْ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سَوَّاهُمْ بِالْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

حكمك، وأرشدنا إلى طريق الحق والصواب.

٢٣ - قال المدعي من الخصمين الذي يشكو خصمه: إن هذا أخي على ديني وطريقتي، له تسع وتسعون من النعاج، وليس لي إلا نعمة واحدة، فلم ينظر إلى غناه عنها، ولا إلى افتقاري إليها، فقال لي أخي هذا: اجعلها تحت كفالي، ضمن حظيرة نعاجي، وتنازل عنها، إذ ليس لديك استعدادات لرعايتها وحمايتها، والقيام بما تحتاج إليه، أما أنا فعندي كل الوسائل لذلك، وغلبنني وقهرني في القول، فلم أملك إلا أن أوافق، وأنا مضطراً مغلوباً.

٢٤ - قال داود - بعد أن تثبت من أن صاحب النعمة الواحدة هو صاحب الحق: لقد ظلمك أخوك بسؤاله نعيك ضامناً لها إلى نعاجه، مع حاجتك الشديدة لها، وغناه هو عنها، وإن كثيراً من الشركاء ليعتدي بعضهم على بعض، فيظلمه في حقوقه، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم لا يظلمون أحداً وهم قليل جداً. وظن داود ظناً قوياً راجحاً أنما ابتليناه وامتحناه بهذه الخصومة، وأن الذين دخلوا عليه هم ملائكة جاؤوا على صورة بشرية، وأن الله عز وجل لم يرسلهم إلا لتذكيره بفشو التعدي والظلم والبغي في المجتمع، مما يستوجب دوام الجلوس إليهم، وفرض النزاع بينهم، والأخذ على يد الباغي، ورد المظالم إلى أهلها، لا أن يتخلى عن ذلك كله، ويعتمد إلى محرابه يتعبد، ولكأن الملكين يقولان له: ما دمت تعلم من حال قومك، وطبيعة الخلطاء فيهم كل ذلك، فلم تركتهم في بغيهم وظلمهم، واعتكفت عنهم؟ في الوقت الذي أعطاك الله الحكمة، وفصل الخطاب، وجعلك خليفة للناس، فأخرج إلى الناس، واحكم بينهم بالحق، فهو أحب إلى الله، وهو منصبك الذي وضعك الله فيه، فسأل ربه الغفران، وأسرع في الهوي للركوع دون بطة، ورجع إلى ربه بصدق التوبة والندم، والسجود له سبحانه.

٢٥ - فغفرنا له ذلك الذي كان منه، من إثارة الاعتكاف والعبادة في محرابه، واحتجابه بالحراس الأشداء عن فض المنازعات وسياسة الحكم، لأن اعتكافه في محرابه قاصر على نفسه، أما جلوسه للحكم فهو لرفع الظلم، وإقرار العدل، ولمصلحة الأمة، فهم أحوج ما يكونون ليوم اعتكافه بضمه ليوم حكمته، وإن له عندنا يوم القيامة بعد المغفرة لقربة ومكانة، وحسن مرجع ومقلب في جئات النعيم.

٢٦ - يا داود إنا جعلناك حاكماً في الأرض ذا سلطان معانٍ مؤيد بتأييد الله، لتدبر أمر الناس بأمر نافذ الحكم فيهم، فاحكم بين الناس بالعدل والإنصاف، وإعطاء كل ذي حق حقه، ولا تمل مع ما تشتهي نفسك إذا خالف أمر الله، فيضلك ذلك عن دين الله وطريقه، إن الذين يضلون عن سبيل الله، ويخرجون عن حدوده ذات اليمين وذات الشمال لهم عذاب شديد عند ربهم؛ بسبب تركهم الإيمان بيوم الحساب، والعمل له. وقد دلت الآية الكريمة على إلزام والتزام ولاة أمور المسلمين أن يحكموا بالحق بين الناس، بما أنزل الله في =

= كتابه، وبسنة نبية ﷺ ولا يعدلوا عن ذلك فيضلوا عن سبيل الله، وإذا كان الله تعالى حذر نبية داود عليه السلام من الحيدة عن الحكم بالحق، وعن اتباع الهوى في حكمه بين الناس وفي سياسته لهم، وتوعده إن فعل ذلك، فهم - أي ولاية الأمر - أولى بهذا التحذير من داود عليه السلام. وإن من أعظم ما تُبتلى به الأمة أن يتولى حكمها حكام جائرون، أو عن الحق ناكبون، ولأهوائهم متبعون؛ لأن بحكم هؤلاء يعظم ضررهم وإضرارهم بالناس، ويُفضي ذلك إلى خراب البلاد، وإشاعة الفساد؛ ثم هلاك الأمة. ومن أعظم ما تسعد به الأمة أن يتولى حكمها: الحكام الصالحون الذين يحكمون بالعدل والحق.

٢٧ - وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما من إنس وجن وملائكة وحيوان ونبات وغير ذلك باطلاً، دون قصد حكيم، وغاية حكيمة، ولو لم يكن بعد الحياة الدنيا حياة أخرى يجري فيها الحساب والجزاء، وإقامة العدل الرباني، لكان خلق السماء والأرض عبثاً، والخالق الحكيم مُزَّهً عن العبث واللغو واللعب. ذلك ظن الذين كفروا، أنا خلقناهم لغير شيء، وأنه لا بعث ولا حساب، فعذاب شديد للذين كفروا من النار؛ لظنهم الباطل، وكفرهم بالله.

٢٨ - بل أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالكفرة المفسدين في الأرض، بل أنجعل الذين أثقوا عقاب ربهم، كالْفُجَّارِ الْمُتَّبِعِينَ في ارتكاب الجرائم والآثام؟ لا نجعل الفريقين سواء في الآخرة.

٢٩ - هذا القرآن أنزلناه إليك - يا رسول الله - كثير خَيْرُهُ ونفعُهُ، لا تنضب فيؤس معانيه، ليتدبروا آياته، ويفهموا بعمق ما اشتملت عليه من دلالات، وليتفكروا في أسرارهِ العجيبة، ومعانيهِ اللطيفة، لا يهجره، أو يكتفوا بترديده دون فهم وعمل، وليتَّظَّ ذوو العقول الحصيفة الواعية الدراكة، وليعملوا بتوجيهاته ونصائحه وأوامره ونواهيه، عند كل سلوك يريدونه في حياتهم.

٣٠ - وأعطينا لداود ابنه سليمان عطية خالية من الأعواض والأغراض، نعم العبد سليمان؛ إنه كثير الرجوع إلى الله تعالى بالاستغفار والتوبة وذكر الله تعالى، كلما شغلته شواغل الملك والسلطان، أو تعرض لما لا يليق بمقام نبوته ورسالته، مما قد يُبعده عن مقام قرب المقرَّبين المحسنين.

٣١، ٣٢ - نعم العبد سليمان حين غرض عليه بعد العصر الخيول الخيَّار السَّراع، القائمة على ثلاث قوائم، مقيمة الرابعة على طرف الحافر من رجل أو يد، فما زالت تُعرض عليه حتى استتر آخر أرتالها عن نظره، فقال: إني أحببت اقتناء الخيل، وتدريبها، واستعراضها حباً ناشئاً عن ذكر ربِّي، لا عن انشغال بمباهج الحياة وزينتها حتى استترت بالحجاب الساتر لها.

٣٣ - قال سليمان لأمرأ ساسة الخيل: ردُّوا الخيل عليّ، فشرع في تواضع كريم يمسحُ بيده سَوْفَهَا وأعناقها؛ ترفقاً بها وحُباً لها؛ لأنها من أعظم عُدد الجهاد في سبيل الله.

٣٤، ٣٥ - ونقسم مؤكدين أننا اخترنا سليمان وابنتيه، وألقينا على سرير ملكه شيق ولد له، حين أقسم ليُطوفنَّ على نسائه، وكلهنَّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهنَّ جميعاً، فلم تحمل منهنَّ إلا امرأة واحدة جاءت بشق ولد، ثم رجع سليمان إلى ربِّه ليحافظ على كمال مرتبة المحسنين المقرَّبين، قال: ربِّ اغفر لي ذنبي، وهب لي ملكاً عظيماً لا يكون لأحد من البشر بعدي، ولا أسلبه في حياتي؛ إنك أنت الكثير العطاء.

٣٦ - فذلَّلنا لسليمان الريح، تجري بأمره ليئة لا تزعج ولا تؤذي، حيث قصَّد وأراد.

٣٧، ٣٨ - وسخرنا له شياطين الجن بسلطان جعلناه له عليهم، يبنون له ما يشاء من القصور والقلاع الحصينة، ويستخرجون اللآلئ من البحر، وسخرنا له آخرين، وجعلنا له سلطاناً على العصاة منهم، فهم مشدودون فرادى أو مجتمعين في السلاسل والأغلال، يؤدبهم بالإذلال والتعذيب. وهم من مَرَدَةِ الجن.

٣٩، ٤٠ - قال الله عزَّ وجلَّ لسليمان عليه السلام: هذا الملك العظيم والتسخير الخاص، عطاؤنا لك - يا سليمان -، فأحسن إلى مَنْ شئت، أو أمسك عمن شئت، لا خرَّج عليك فيما أعطيت ولا فيما أمسكت. وإنَّ لسليمان عندنا يوم القيامة لقربة ومكانة، وحسن مرجع ومُنْقَلَب في جنَّات النعيم.

٤١، ٤٢ - وضع في ذاكرتك قصة عبدنا أيوب، حين دعا ربَّه طالباً منه الشفاء: أتني أصابني الشيطان بمشقَّةٍ وضُرٍّ، ومؤلِّمات جسدية ونفسية، وقد زادت وساوس الشيطان من جرَّاء طول المرض، وضاعفت هذه الوسوس من متاعبي وآلامي، فقلنا له فور ندائه: ﴿إِنِّي مَسِّيَ الشَّيْطَانُ بِضَيْصٍ وَعَذَابٍ﴾: اضرب برجلك الأرض، تتفجَّر لك عين ماء عذب بارد، فاغتسل بهذا الماء واشرب منه، يذهب عنك كل داء.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
﴿٢٨﴾ كَتَبْنَا نُزْلَهُ إِلَيْكَ مُبَرَّكًا لِيَذَّبُوا عَنْ آيَتِهِ وَيَسْتَكْثِرُوا وَلَوْ
أَلَّا لَبِئْسَ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ
﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصِّغْنََاتِ الْإِيَادِ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي
أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾
رُدُّوهَُا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْقَابِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ
لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ
كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مَقَرَّيْنِ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ لَمْ يَرَوْا لِرَبِّكَ لُفْيَ وَحَسَنَ
مَقَابٍ ﴿٤٠﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَآتَى مَسْجِدَ الشَّيْطَانِ
يُنْصَبُ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

٤٣، ٤٤ - وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ مِنْ زَوْجَةٍ وَوَلَدٍ، وَزِدْنَاهُ مِنْهُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً، فَعَلْنَا ذَلِكَ مَعَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّفَضُّلِ وَالرَّحْمَةِ، وَذَكَرَى وَعِبْرَةً لِدَوِي الْعُقُولِ وَالْبَصَائِرِ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ، الْفَرْجُ وَكَشْفُ الضَّرِّ، وَقُلْنَا لَهُ: خُذْ بِمِلءِ كَفِّكَ حُزْمَةً مِنْ عِيدَانِ الْأَرْضِ الرَّفِيعَةِ، فَاضْرِبْ بِهَا زَوْجَكَ دُونَ أَنْ تُؤْذِيَهَا، إِبْرَاراً بِمِثْلِكَ، وَكَانَ قَدْ حَلَفَ أَنْ يَضْرِبَ امْرَأَتَهُ مِائَةَ سَوْطٍ، فَشَكَرَ اللَّهُ حُسْنَ صَبْرِهَا مَعَهُ، فَافْتَاهُ فِي ضَرْبِهَا، وَسَهَّلَ لَهُ الْأَمْرَ، إِنَّا وَجَدْنَا أَيُّوبَ صَابِراً عَلَى الْبَلَاءِ الَّذِي ابْتَلَيْنَاهُ بِهِ، نِعَمَ الْعَبْدُ أَيُّوبُ؛ إِنَّهُ كَثِيرُ الرَّجُوعِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ وَذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

٤٥ - وَاذْكُرْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِلتَّائِسِي وَالْآتِبَاعِ عِبَادَنَا: إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ؛ أَصْحَابَ الْقُوَّةِ وَالْمُجَاهِدَةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَأَصْحَابِ الْأَبْصَارِ الدَّرَاكَةِ الْوَاعِيَةِ النَّافِذَةِ لِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَوُظِيفَةِ الْإِنْسَانِ فِيهَا، وَحَقِيقَةِ الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَوَاجِبِ الْإِنْسَانِ نَحْوَهَا.

٤٦، ٤٧ - إِنَّا بِعِظَمَةِ رُبُوبِيَّتِنَا تَقَيُّنَاهُمْ وَاصْطَفَيْنَاهُمْ بِسَبَبِ صِفَةٍ خَالِصَةٍ فِيهِمْ مِنَ الْمُؤَثَّرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تُخْرِجُ عَنْ مَرَاضِي اللَّهِ وَالْعَمَلِ لِلدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ، هَذِهِ الصِّفَةُ الْخَالِصَةُ فِيهِمْ هِيَ ذَكَرَى الدَّارِ الْآخِرَةِ دَوَاماً، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَيَمُنُّ الَّذِينَ اتَّخَذْنَاهُمْ صَفُوةً لِمَنَاظِلِ الْقُرْبِ وَرَفِيعِ الْمَرَاتِبِ وَالدرجاتِ، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَيَمُنُّ الْأَخْيَارُ، الَّذِينَ اكْتَسَبُوا بِأَعْمَالِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ الْاخْتِيَارِيَّةَ خَيْرِيَّةً كَبْرَى. وَهَذَا أَعْظَمُ تَقْوِيمٍ مَنَحَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَزِمْرَةٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُرْسَلِينَ، وَفِيهِ إِمَّاخٌ ضَمْنِيٌّ لِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ أَنْ يَخْتَارَ طَرِيقَةَ هَؤُلَاءِ، لَا طَرِيقَةَ أَصْحَابِ الْمُلْكِ وَالْغِنَى مِنْ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَوْ كَانُوا مَرْسَلِينَ. وَقَدْ آثَرَ ﷺ نَمُودَجَ: «إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ»، وَجَعَلَ ذَكَرَى الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ هَمِّهِ، وَاخْتَارَ ﷺ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا.

٤٨ - وَاذْكُرْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - عِبَادَنَا وَأَنْبِيَاءَنَا: إِسْمَاعِيلَ الْابْنَ الْأَكْبَرَ

لِإِبْرَاهِيمَ، وَالْيَسَعَ، وَذَا الْكِفْلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَذْكَرَهُمْ بِفَضْلِهِمْ وَصَبْرِهِمْ؛ لَتَسْلُكِ طَرِيقَهُمْ، وَكُلُّهُمْ مِنَ الْأَخْيَارِ، وَلَكِنْهُمْ لَمْ يَرْتَقُوا فِي تَقْوِيمِ دَرَجَتِهِمْ إِلَى أَنْهُمْ مِنَ «الْمُصْطَفَيْنِ» مِنْ دَرَجَةِ صِنْفٍ: «إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

٤٩ - ٥١ - هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي يُثْلَى عَلَيْكُمْ ذِكْرٌ وَشَرَفٌ لَكُمْ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَاضِراً فِي ذَاكِرَتِكُمْ، لِلانْتِفَاعِ بِهِ، وَلَا اسْتِعْدَائِهِ عِنْدَ الْمُنَاسِبَاتِ الدَّاعِيَاتِ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَرْجِعٍ وَمُنْقَلَبٍ يَرْجِعُونَ وَيُنْقَلِبُونَ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ. أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ إِقَامَةً وَخُلُوداً، إِذَا جَاؤُوهَا وَجَدُوا أَبْوَابَهَا مُفْتَحَةً لَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَصُولِهِمْ إِلَيْهَا، تَكْرِيماً لَهُمْ بِالِاسْتِقْبَالِ الْحَسَنِ، مُتَكَيِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ وَالسَّرُرِ، يَطْلُبُونَ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ مَا يَشْتَهُونَ مِنَ الْفَوَاكِهِ الْكَثِيرَةِ الْأَنْوَاعِ وَالشَّرَابِ النَّفِيسِ، مِنْ كُلِّ مَا تَشْتَهِيهِ نَفُوسُهُمْ، وَتَلَذُّهُ أَعْيُنُهُمْ.

٥٢ - وَعِنْدَهُمْ فِي الْجَنَّةِ نِسَاءٌ عَفِيفَاتٌ قَاصِرَاتُ نَظَرٍ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، فَلَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِهِمْ؛ لَشَدَّةِ مُحِبَّتِهِنَّ لَهُمْ، مُتَسَاوِيَاتٍ فِي السِّنِّ وَالشَّبَابِ، وَمُتَشَابِهَاتٍ فِي الْحُسْنِ.

٥٣، ٥٤ - هَذَا النِّعِيمُ هُوَ مَا تُوعَدُونَ بِهِ - أَيُّهَا الْمُتَّقُونَ - مُؤْجَلًا لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا، مَا لَهُ مِنْ انْقِطَاعٍ وَفَنَاءٍ أَبَدًا، بَلْ هُوَ دَائِمٌ كُلَّمَا أَخَذَ مِنْهُ شَيْءٌ عَادَ مِثْلُهُ فِي مَكَانِهِ.

٥٥، ٥٦ - هَذَا الَّذِي سَبَقَ وَصْفُهُ لِلْمُتَّقِينَ، وَأَمَّا الْمُتَجَاوِزُونَ الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، فَلَهُمْ شَرٌّ مَرْجِعٍ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ: جَهَنَّمُ يَدْخُلُونَهَا، وَيُقَاسُونَ حَرَّهَا، فَيُقْسَمُ الْفَرَّاشُ فَرَّاشَهُمْ.

٥٧ - ٥٩ - هَذَا الْعَذَابُ مَاءٌ حَارٌّ، وَصَدِيدٌ يَسِيلُ مِنْ جُلُودِ أَهْلِ النَّارِ، فَلْيَذُوقُوهُ مَجْبُورِينَ مُكْرَهِينَ، وَآخِرُ مَنْ مِثْلُ هَذَا الْعَذَابِ فِي الشَّدَةِ وَالْفُظَاعَةِ: أَصْنَافٌ وَأَجْنَاسٌ. تَقُولُ خِزْنَةُ جَهَنَّمَ: هَذَا جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنْ أَتْبَاعِكُمْ فِي الضَّلَالِ دَاخِلٌ مَعَكُمْ النَّارَ كَمَا دَخَلْتُمُوهَا أَيُّهَا الْقَادَةُ، فَيَجِيبُ الْقَادَةُ: لَا نَزِيدُ أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَنَا فِي مُسْتَقَرَّاتِ عَذَابِنَا؛ إِنَّهُمْ مَعْدُوبُونَ بِعَذَابِ الْحَرِيقِ فِي النَّارِ بِأَسْبَابٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

٦٠، ٦١ - قَالَ فُوجُ الْأَتْبَاعِ لِلْقَادَةِ: بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ؛ لِأَنَّكُمْ بَدَأْتُمْ بِالْكَفْرِ قَبْلَنَا، وَشَرَعْتُمُوهُ لَنَا، فَأَنْتُمْ بِإِغْوَاثِكُمْ وَإِضْلَالِكُمْ قَدَّمْتُمْ هَذَا الْعَذَابَ لَنَا، فَيُسْأَلُ الْقَارِئُ قَرَارَكُمْ فِي قَاعِ الْجَحِيمِ. قَالَ فُوجُ الْأَتْبَاعِ: رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا الْعَذَابَ بِإِغْوَاثِهِ وَإِضْلَالِهِ وَتَحْرِيزِهِ، فَرَدُّهُ عَذَاباً مُضَاعَفاً فِي النَّارِ، عَذَاباً لِعَوَاثِمِهِمْ، وَعَذَاباً لِإِغْوَاثِهِمْ لَنَا.

٦٢ - وقال أهل النار: ما لنا لا نرى في النار رجالاً كنا نعدُّهم في الحياة الدنيا من الأشرار الأذال، من الذين آمنوا وأتبعوا الرسول؟ فلا بد أن يكونوا معنا في دار العذاب.

٦٣ - إننا بعد البحث والتفتيش عنهم في دار العذاب لم نرهم، وعدم رؤيتنا لهم يعود لاحتمالين: الاحتمال الأول: أننا كنا نستضعفهم في الدنيا، ونكلّفهم حمل الأعباء والأعمال الشاقة، مع السُخْرية بهم، وهم لا يستحقّون هذه الإهانة، وما كان يصح اتّخاذهم كذلك، لأنهم عند ربّهم مُكْرَمُونَ بإيمانهم. الاحتمال الثاني: أنّهم موجودون في دار العذاب، إلّا أن الأبصار مالت عن رؤيتهم، لما في دار العذاب من سُمُومٍ ولهبٍ يجعل الأبصار تزيف فلا ترى بعض من هم في دار العذاب.

٦٤ - إنّ ذلك الذي ذكرناه من جدال أهل النار وتراشق المسؤولية وتدافعها بين الأتباع وقادتهم لَحَقَّ لا بد أن يقع.

٦٥ - قل - يا رسول الله - لمُشْرِكِي مكة: ما أنا بالنسبة إليكم بعد أن رفضتم بلاغاتي عن ربّي، وبعد أن عاندتم وأصررتم على الكفر إلّا مُنْذِرٌ لكم من عذاب الله، وقل لهم أيضاً: ما من معبود بحقّ إلّا الله الواحد الذي لا شريك له في ربوبيّته، الغالب الذي قَهَرَ كُلَّ شيءٍ وغلبه.

٦٦ - خالق السموات والأرض وما بينهما، يُرَبِّيهُم بإحسانه وكرمه، القوي الغالب الذي لا يُغلب، الكثير الستر لعباده المذنبين، وإن عَظُمَتْ.

٦٧، ٦٨ - قل - يا رسول الله - لقومك: إنّ نَبَأَ البعث بعد الموت؛ للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، نبأ عظيم خطير، أنتم عنه مُعْرِضُونَ؛ لثلا يمنعكم عن ممارساتكم الآثمة الظالمة.

٦٩، ٧٠ - وقل لهم: هذا النّبأ العظيم ليس أمراً جديداً ولا مُستغرباً، في تاريخ الخلق، بل هو معلوم للملائكة والجن قبل خلق آدم، وله شاهد في قصة خلق آدم، وما جرى من تساؤل عن حكمة خلقه، ما كان لي من علم باختصاص كبراء الملائكة وعظمائهم في شأن آدم، حين قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. إنّما علمت هذه المُخَاصَمة بوحى من الله تعالى إليّ، ما يوحى إليّ بالنسبة إليكم - أيها الكافرون المُصْرُوثون على كفركم - إلّا أنّما أنا نذير ظاهر واضح، ومُظْهِرٌ مُوَضِّحٌ لما أنذر به.

٧١، ٧٢ - ضع في ذاكرتك - أيها المُتَلَقِّي - الحدث الذي نقضه عليك، حين قال ربُّك للملائكة، ومَنْ كان مُنْذِراً فيهم منافقاً، وهو إبليس: إني سأخلق بشراً من ماء وتراب مُخْتَلَطَيْنِ، فإذا أَتَمَمْتُ خَلْقَهُ، وَنَفَخْتُ فِي دَاخِلِ جَسَدِهِ مِنَ الرُّوحِ التي هي من أمري، فخرّوا له ساجدين سجود تحية وإكرام.

٧٣، ٧٤ - فَسَجَدَ الملائكةُ عن آخرهم، في وقت واحد غير متفرّقين، إلّا إبليس الذي كان مُنْذِراً فيهم بنفاقه، تعظّم ولم يَسْجُد، وكان قبل أن يكشفه الامتحان من الكافرين بإلهية ربّه.

٧٥ - قال الله تعالى لإبليس: ما الذي مَنَعَكَ من السجود لِمَنْ تَوَلَّيْتُ خَلْقَهُ بيدي، أَجَعَلْتَ نَفْسَكَ بغير حقّ في مرتبة فوق مرتبتك التي هي لك؟ أم كنت في تصوّرك من العالين حقيقةً في المرتبة، فرأيت أنه لا يليق بك أن تسجد لآدم، ولو كان ذلك طاعةً لربّك؟

٧٦ - قال إبليس: لو كنت مُساوياً له في الشرف، لكان يقبح أن أسجد له، فكيف وأنا خير منه، خلقتني من نارٍ، وخلقته من طين، والنّار أشرف من الطين وأفضل. وهذه النزعة الإبلّيسية هي أساس مزاعم التفوّق العرقي، والتعالى العنصري، والاستكبار القومي، وهي قائمة على وهم باطل لا صحّة له.

٧٧، ٧٨ - قال الله تعالى لإبليس: فأخْرِجْ من الجنة، فإنّك مَطْرُودٌ من السماء، وإنّ عليك لعنتي وطردي من رحمتي إلى يوم الدين. فإذا كان يوم القيامة زِيدَ له مع اللعنة من أسباب العذاب ما ينسبُ بذلك اللعنة، فكانها انقطعت عنه.

٧٩ - قال إبليس: يا رَبِّ فأخّر أجلي، ولا تُؤمّنني إلى يوم بعث الخلق من قبورهم. قال الله تعالى لإبليس: فإنّك من المؤخّرين إلى الوقت المُعَيَّن لفناء الخلق، وهو وقت النفخة الأولى الذي تقوم فيه الساعة، وأميت فيه كل الخلائق.

٨٢، ٨٣ - قال إبليس لربه: فَيَعِزَّتْكَ الغالبة، لأضِلُّنَ البَشَرَ أَجْمَعِينَ بتزيين المعاصي لهم، إلّا عبَادَكَ الذين أَخْلَصْتَهُمْ لطاعتك، فلا سُلْطَانٌ لي عليهم.

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ۖ أَتُخَذُّنَهُمْ
سَخِرًا أَمْ رَأَيْتَ عَنَهُمُ الْأَبْصَرَ ۖ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
النَّارِ ۖ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَنْ إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۖ
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۖ قُلْ هُوَ نَبِيُّ
عَظِيمٍ ۖ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۖ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّهِ الْأَخْفَى
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۖ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۖ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۖ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۖ قَالَ
يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ۖ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ
مِنَ الْعَالِينَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ
ۖ قَالَ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۖ وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ
الْدِينِ ۖ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
الْمُنْظَرِينَ ۖ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۖ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأَعْرَبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۖ

٨٤، ٨٥ - قال الله تعالى لإبليس: اتَّخِذْ مَا شِئْتَ مِنْ وَسِيلَةٍ لِإِغْوَانِهِمْ، فَالْحَقُّ قَسَمِي - وَلَا أَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ -: لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ أَجْمَعِينَ.

٨٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على تبليغ الرسالة من أجر قلَّ أو كَثُرَ، وما أنا فيه من المتَّبِعِينَ لما لا يعينهم، بل أنا مُكَلَّفٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّي أَنْ أُبَلِّغَكُمْ وَأُرْشِدَكُمْ وَأُعَلِّمَكُمْ.

٨٧ - ما هذا القرآن بمضامينه الفكرية المعجزة إلا تذكير وموعظة للخلق أجمعين، ليس لكم وحدكم فقط، ولا للعرب فقط، بل هو بلاغ للعالمين كلِّ العالمين، وعليهم أن يتدبروا معانيه، وأن يكون لهم ذكراً دواماً، يذكرونه عند كلِّ مناسبة داعية؛ ليعملوا بما فيه من أوامر ونواهي ووصايا.

٨٨ - وَلَتَعْلَمُنَّ - أيها المشركون - صدق مضامين القرآن الخيرية، وما يشتمل عليه من أنباء ماضية، وما هو قائم منها في الكون، وما سيأتي منها بعد حين من الدهر، وكذلك حين يقع عليكم العذاب، وتنتقع عنكم الأسباب.

سُورَةُ الْاَنْشُرِ

١ - هذا البيان الرباني القولي، الذي يجب على المؤمنين أن يدُونوه في كتاب محفوظ من التحريف والتبديل، والزيادة والنقص، تنزيل من الله القويِّ الغالب الذي لا يُغلب، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها في الأمور المختلفة لما يُعطي أحسن النتائج.

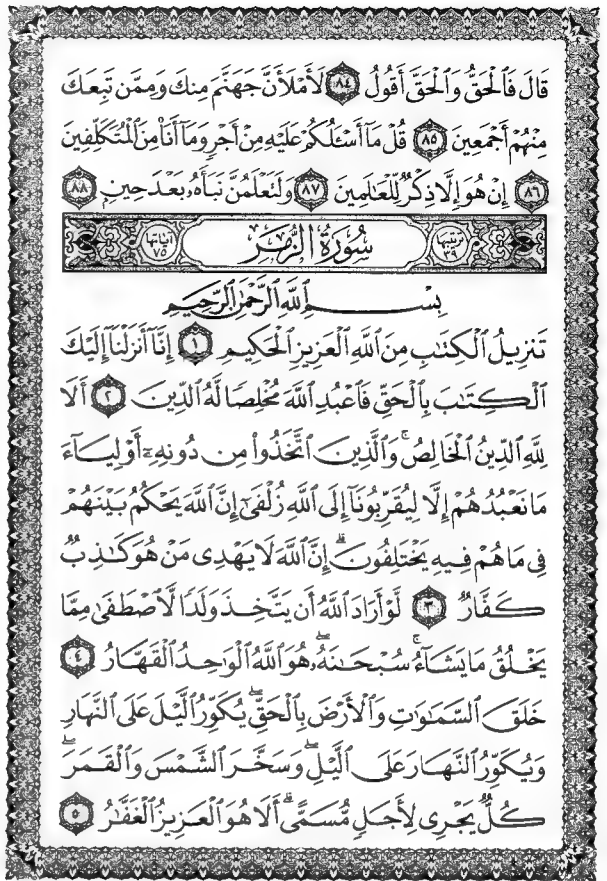
٢ - إنا أنزلنا - يا رسول الله - إليك الكتاب مُتَّصِفاً بِالْحَقِّ الثَّابِت الذي لا شك فيه، ولم نُزَلِّه باطلاً لغير شيء، فاعبد - أيها الرسول - الله وحده، وأخلص له الطاعة والانقياد.

٣ - تَنْبَهُوا وَتَحَقَّقُوا - أيها النَّاس - لِلَّهِ وَحْدَهُ الدِّينُ الْخَالِصُ مِنْ شَوَائِبِ الشُّرْكِ، والذين تكلَّفوا باصطناع منهم على خلاف الحقِّ والواقع من دون الله آلهة يعبدونهم بعبادات هي من خصائص الربِّ سبحانه، قائلين: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله منزلة، لما لهم عند الله من المنزلة العظيمة، ويشفعوا لنا عنده فيما ينوبنا من أمور الدنيا، لما لهم من شفاعته مقبولة؛ إِنَّ الله يحكم بين المسلمين والمشركين يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الدين، فيُجازيهم بحسب أحكامه فيهم ثواباً بفضلِهِ، أو عقاباً بعدله؛ إِنَّ الله لا يحكم ولا يقضي بهداية من افترى على الله، وَزَعَمَ أَنَّ الْآلِهَةَ تَشْفَعُ لَهُ؛ وهو شديد الكفر باتخاذ آلهة من دون الله تعالى.

٤ - لو أراد الله أَنْ يَتَّخِذَ وَلِداً بِالتَّبْنِيِّ، لاختار لنفسه ممَّا يخلق مخلوقاً عظيماً جداً، ولم يختار لنفسه مثل هذه الأوثان الحقيرة التي لا تملك لغيرها ولا لأنفسها جلب نفع، أو دفع ضرر، لكنه لم يختار أحداً؛ تنزيهاً له تعالى عن اتِّخَاذِ الْوَلَدِ، هو الله الواحد في ملكه الذي لا شريك له ولا ولد، الغالب الكامل القدرة الذي تنفذ مشيئته في خلقه بالقهر والسلطان.

٥ - خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَلْقاً مُتَّصِفاً بِأَنَّهُ حَقٌّ ثَابِت، مشتملاً على الحكم والمصالح، ولم يخلقهما باطلاً، وهو سبحانه يلف بتجدد واستمرار الليل في آخر النهار على الثَّهَارِ، فيستره شيئاً فشيئاً، فيبدو في محله الليل، ويلف بتجدد واستمرار الثَّهَارِ في آخر الليل على الليل، فيستره شيئاً فشيئاً، ويبدو في محله النهار، كما تُلَفُّ خيوط الصُّوف على بعضها حتى تكون كرة ذات محيط دائريٍّ من كلِّ جهاتها؛ بسبب حركة دوران الأرض حول نفسها باتجاه الشمس في نظام رائع بديع، وذُلِّلَ الشَّمْسُ والقمر لمصلحة عباده، كلُّ منهما يسير في فلكه بانتظام لأجل معيَّن باسمه المُحَدَّد له في علم الله، وفي الكتاب الذي كتب الله عزَّ وجلَّ فيه كلَّ شيءٍ قدَّره وقضاه.

انتبهوا وتحققوا - أيها المشركون - إِنَّ رَبَّكُمْ الذي خلق هذه الأشياء العظيمة هو القويُّ الغالب الكامل القدرة، الساتر المتجاوز عن سيئات الذين آمنوا وأسلموا، وتابوا إلى ربِّهم.



خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ
مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَصْنَافٍ أَرْوَجَ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَاتِلُوا أَشْرُفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ
اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ
لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾
وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ
نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا
لِّضَلِّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَاتَاءَ الْيَلِّ سَاجِدًا وَقَافًا يَمُحِذُ
الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَعْبَادُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا النَّقْوَارَ كَمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

٦ - خلقكم ربكم - أيها الناس - أنسالاً من نفس أبيكم «آدم»، ثم خلق من هذه النفس بعد مدة زمنية زوجها «حواء»، وأنشأ لكم - أيها الناس - من الأنعام المذلة ثمانية أصناف: ذكراً وأنثى من الإبل، والبقرة، والغنم، والمعز، يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً متتابعاً من نقطة، ثم علقه، ثم مضغه، في ظلمات ثلاث ذات نسب بعضها أشد من بعض: (غشاء السلى، المحيط بالأغشية كلها، وغشاء الكوريون المشيمي، وغشاء الرحم الذي يسقط بعد الولادة أو الإجهاض)، ذلكم العظيم الجليل الذي خلق هذه الأشياء، ربكم المهيمن عليكم، والمُصَرِّف فيكم، له كل ما في الوجود لا يشاركه في ملكه أحد، لا خالق لهذا الخلق، ولا معبود لهم بحق، إلا الله تعالى، فكيف تُصرفون عن طريق الحق، وتبعدون عن هذه الحقيقة الجليلة البديهية التي تدل عليها ظواهر الكون وبديهيته؟!

٧ - إن تكفروا - أيها الناس - بربكم، فإن الله غني عنكم، لا ينفعه إيمانكم، ولا يضره كفركم، ولا يرضى لعباده الذين يمنحهم شرف العبودية له أن يتصفوا بالكفر، ولا يمدحهم ولا يثني عليهم، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد. وإن تشكروه - سبحانه - بالإيمان والإسلام، وبفعل ما يرضى لكم من الصالحات، وباجتناب ما لا يرضى لكم من السيئات، فإنه تبارك وتعالى يرضاه لكم، ولا تحمل نفس أئمة ولا غير أئمة إثم نفس أخرى، قد حملت مما اكتسبت أوزاراً وذنوباً حتى تُخلص هذه الثانية من إثمها، إنما تحمل الأئمة إثم ذنبها الذي فعلته بالمباشرة أو التسبب فتعاقب هي عليه، فلا يحمل الصالحون المقربون أوزار المجرمين، ويفتدونهم بأنفسهم عند ربهم، فالمسؤولية عن ارتكاب الذنوب التي تشبه الحمل الثقيل، مسؤولية شخصية، ثم بعد انتهاء حياة الابتلاء في الحياة الدنيا تموتون، ثم تبعثون، لتلاقوا حساب ربكم، وفيه يكون رجوعكم، ومكان رجوعكم وزمانه إلى ربكم، فينبئكم بما كنتم تعملون في

الدنيا، ويحاسبكم على ما كسبت قلوبكم ونفوسكم بإراداتكم من أعمال كالنيات السيئات، وإرادات الشر، فيجزئكم على هذه المكتسبات القلبية والنفسية بما تستحق من جزاء بالعدل؛ إنه سبحانه عليم بما تكنه صدور عباده، فلا يخفي عليه شيء منها.

٨ - وإذا مس الإنسان بلاءٌ وشدة، دعا ربه راجعاً إليه، مُستغيثاً به، مُستقيناً من غمق فؤاده أنه لا يكشف الضر إلا هو، ثم بعد مدة متراخية من الزمن، إذا أعطاه ربه نعمة عظيمة تفضلاً منه سبحانه، وملكه إيّاها، نسي الضر الذي كان يدعو ربه إلى كشفه عنه، وأبترته النعمة، وجعل لله أمثالاً ونظائر من الأوثان، أو الإنس، أو الجن، أو الأسباب والقوانين الطبيعية، يعبدونها من دون الله؛ ليرد غيره عن دين الله تعالى، ويجعلهم ضالين تائهين خارجين عن سبيل الله المستقيم. قل - يا رسول الله ويا أيها الداعي إلى الله من أئمة - لهذا الكافر المصّر على جحوده وكفره: تمتع بكفرك بتحقيق اللذات، وما يسرك في الدنيا متاعاً قليلاً، إلى انقضاء أجلك، إنك من أهل النار الملازمين لها، المخالطين لألوان عذابها، المُخلّدين فيها.

٩ - هذا الكافر الذي جعل لله أمثالاً خيراً، أم من هو مقيم على طاعة الله ساعات الليل؛ أوله وأوسطه وآخره، ساجداً وراكعاً وقائماً في الصلاة، يحذر عقاب الله في الآخرة على ما سلف في حياته من إخلال بمرتبة التقوى، ويتوقع طامعاً أن ينال رحمة ربه وثوابه العظيم؟ قل - أيها الناصح المرشد -: هل يستوي الذين يعلمون ما عند الله من الثواب والعقاب، والذين لا يعلمون ذلك؟ لا يستوون. ما يتذكر هذا التذکر المؤثر في القلب والنفس، والسلوك إلا أصحاب العقول الواعية الدراكاة التي تعقل المعارف، وتعقل النفس بإرادة قوية عن اتباع الهوى، والاستجابة لوساوس الشيطان. وفي الآية: مدح العلم ورفعة قدره، وذم الجهل ونقصه.

١٠ - قل - يا رسول الله ويا كل داعٍ إلى الله من أئمة -: إن ربكم الذي شرفكم بعبوديتكم له يناديكم قائلاً لكم: يا عبادي المؤمنين: اتقوا عقاب ربكم الذي يمدكم دوماً بعباءات ربوبيته لكم، بالتزام حقوق مرتبة التقوى، بفعل الواجبات، وترك المحرمات، وكونوا أبراراً بالتقرب إليه بنوافل العبادات، يزدكم من فضله، وأحسنوا، للذين عبدوا الله كأنهم يَرونه، وأحسنوا العمل في هذه الدنيا، عطايا ومنح حسنة في الآخرة، وهي الجنة، وحسنة في الدنيا، وهي الصحة والرزق والتأييد وغير ذلك. ومن البر والإحسان: الهجرة في سبيل الله، فالهجرة مُيسرة لكم، وأرض الله فسيحة، فلا تقيموا في ذل، واصبروا على متاعب الهجرة وغيرها؛ لتنالوا الأجر العظيم عند ربكم، إنما يُعطى الصابرون على مفارقة الأوطان واحتمال الشدائد في سبيل الله، أجرهم وافيًا تاماً يوم القيامة بالعباءة العظيم الخالد الدائم المتجدد، الذي لا تستطيع الخلائق حساب مقداره بالنسبة إلى ما تحمّلوا من صبر ابتغاء مرضاة الله.

١١، ١٢ - قل - يا رسول الله - مُعلنًا للناس جميعاً: إني أمرت أن أعبد الله وحده مُخلصاً له الطاعة والانقياد، جاعلاً كل أعمالي التعبدية صافية مُنفقة من الشُّرك والرياء، وقل لهم: أمرت بأوامر وتكاليف زائدة على التكاليف المُوجَّهة لسائر المسلمين؛ لأجل أن أكون أول المسلمين من هذه الأمة الربانية الخاتمة للأمم.

١٣ - وقل لهم - يا رسول الله -: إني أخاف إن عصيتُ ربي، فعبدت من دونه شركاء، أو عصيتهُ بترك ما أمرني بفعله، أو بفعل ما أمرني بتركه عذابه الأليم الذي سيكون في يوم عظيم، فلست معفياً من المؤاخذه إن أنا عصيتهُ، ولكن اعلّموا أنني لن أعرض نفسي لعقاب ربي، وقد آتاني عقلاً ورشداً، وإرادة قوية أضبط بها سلوكي على وفق ما يرضيه سبحانه.

١٤، ١٥ - قل - يا رسول الله -: إني أعبد الله وحده، ولا أعبد أحداً غيره، مُخلصاً له الدين من كل شوائب الشُّرك والرياء، فاعبدوا أتم - أيها المشركون - ما شئتم من دون الله، وعليكم أن تتحملوا نتائج اختياراتكم. قل - يا رسول الله -: إنكم إذا عبدتم أحداً من دون الله خسرتم أنفسكم وأهليكم، وجوزيتهم بعذاب شديد يوم الدين على شرككم؛ إنَّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بإلقائها في العذاب الأبدي الأليم، وخسروا أهليهم يوم القيامة، انتبهوا وتأكدوا إن خسران الإنسان نفسه وأهله، هو الخسران البين الواضح.

١٦ - لهؤلاء الخاسرين يوم القيامة في جهنم من فوق رؤوسهم ظُلل من دخان أسود شديد الحرارة والظلمة، ومن تحت أرجلهم كذلك، ذلك التحذير الشديد من عذاب الله يوم الدين، بيانٌ يُخوِّف الله به عباده المؤمنين؛ لأنهم إذا سمعوا حال الكفار في الآخرة خافوا، وأخلصوا التوحيد والطاعة لله عزَّ وجل. يا عبادي، فاتقوا عذابي، ولا تعرَّضوا لما يُوجبُ سخطي.

١٧، ١٨ - والذين اجْتَنَبُوا كُلَّ رُؤُوس الضلالة التي تُعبد من دون الله اجتناباً كلياً، وابتعدوا عن الاقتراب منها ومن الدعاة إلى تعظيمها وعبادتها؛ خشية أن تؤثر في نفوسهم، فتستدرجهم إلى التعلُّق بها تعلُّقاً تاماً، وطاعتها طاعة كاملة، وتجعلهم عابدين لها من دون الله، ورَجَعُوا إلى عبادة الله تعالى مرةً فمرة، لهم البُشرى في الدنيا بالثناء عليهم بصلاح أعمالهم، وعند نزول الموت، وعند الوضع في القبر. وفي الآخرة عند الخروج من القبر، وعند الوقوف للحساب، وعند جواز الصُّراط، وعند دخول الجنة، وفي الجنة. فَبُشِّر - أيها الداعي إلى الله - عبادي بالسعادة الخالدة في جنات النعيم، الذين يستمعون قول الله ورسوله وحَمَلَة دعوته من أمتة، ويستمعون زُخرف أقوال المشركين، فيوازنون بين الأقوال، فيَتَبَدَّون ما يظهر لهم أنه باطل، وهي الأصول التي يبني عليها الكافرون أبنيتهم الفكرية والتنظيمية لشؤون الحياة، ويتبعون ما يَرُونَهُ هو الأحسن، فيلتزمون دين الله التزاماً كاملاً في أصوله التي هي الحق، وفي فروعه التي هي الأحسن، أولئك رفيعو المنزلة والمكانة العالية الذين هداهم الله إلى عبادته وتوحيده، وأولئك هم - دون غيرهم - أصحاب العقول النيرة الواعية الدراكة التي تعقل المعارف فتُمسك بها، وتعقل النفوس عن اتِّباع الهوى.

١٩، ٢٠ - أَقَمْنِ كان من الكافرين باختياره الحر، ومات على كفره مُعاندًا، وَكَبَّتْ وتحقَّق عليه بمقتضى عدل الله، الذي صَدَرَتْ به كلمة الله القضائية، أن يكون من أهل النار. أتملك - يا مَنْ تُحِبُّه أياً كنت - أن تُنقِذه من عذاب ربِّه، فإنك لا تقدر - مهما كان شأنك - على إنقاذه من النار؛ إذ الحكم والتنفيذ لله وحده؟ لكن الذين اتَّقُوا عذاب ربِّهم بالإيمان والعمل الصالح، فحَمَوْا أنفسهم من عذاب النار، لهم قصورٌ عظيمة في جنات النعيم، وفي هذه القصور العظيمة عُرف مبنية من فوقها غرف هي أرفع منها، تجري من تحت قصورها الأنهار الجميلة الرائعة التدفق والجريان، وَعَدَّ الله عباده المُتَّقِينَ تلك العُرف والمنازل وعداً لا يُخلفه.

٢١ - ألم تر - أيها الراي - أن الله أنزل من السحاب ماءً، فأدخل ذلك الماء في مَسَارِب من الأرض، وجَعَلَهُ مَخْرُوناً في تجاويها، وأخرجها ينابيع، منها ما يكون عيوناً، ومنها ما يجري سَوَاقِي وأَنْهَاراً، ثم يخرج بالماء زرعاً مختلفاً ألوانه، ومختلفة أجناسه وأصنافه وطعومه، ثم يَبْسُ وَيَصْفُرُ، فتراه - أيها الراي - بعد يُبْسُهُ مُصْفَرّاً، ثم يجعله الله قُتَاتاً مُتَكَسِّراً؟ إنَّ في إنزال الماء وإخراج الزرع ونَقْلَهُ من حال إلى حال لتذكير لأصحاب العقول الواعية الدراكة الحصيفة.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ۚ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۚ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ۚ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ
قُلْ إِنَّا خَاسِرِينَ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا
ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۚ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ
وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَعْبُدُونَ فَاتَّقُونِ ۚ
وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغْيَاتِ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ۚ
فَبَشِّرْ عِبَادِ ۚ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أَهْلُ الْأَلْبَابِ ۚ
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مِنْ النَّارِ ۚ
لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ الْوَعْدَ ۚ أَلَمْ تَرَ
أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبُوعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ
يَخْرُجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَنُهُ ۚ ثُمَّ يَهْبِجُ بِهِ فَرَحَهُ مُصْفًى ۚ رَأَيْتُمْ
يَجْعَلُهُ حُطَباً ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ
لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مَنْ ذَكَرَ اللَّهُ أَتُوبُكَ أَوْ تِلْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾
اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَنْفُسُ مِنْهُ
جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ
الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾
كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابِ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْغُرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ
الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي
هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
غَيْرَ ذِي وَجْهِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ
شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
أَلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مِيتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ
﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُمُونَ ﴿٣١﴾

٢٢ - أَمَّنْ كَانَ ذَا إِيْمَانٍ صَحِيحٍ بِإِرَادَةِ حُرَّةٍ مِنْ قَلْبِهِ، فَشَرَحَ لَهُ صَدْرُهُ
لِلتَّطَبُّقَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِسَبَبِ إِيْمَانِهِ، فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ يَهْدِيهِ،
وَيَجْعَلُهُ يَسِيرَ فِي حَيَاتِهِ عَلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، كَمَنْ هُوَ كَافِرٌ يَجِدُ
صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا، يَنْفُرُ مِنَ التَّطَبُّقَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَشْمُزُّ نَفْسُهُ
مِنْهَا، بِمَقْتَضَى سُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ، فَهُوَ فِي حَيَاتِهِ يَسِيرُ فِي مَتَاهَاتِ
سُبُلٍ مَظْلَمَةٍ، تَنْتَهِي بِهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ؟ فَعَذَابٌ شَدِيدٌ لِلْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمُ النَّافِرَةِ الْمُشْمُزَّةِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، حِينَمَا يَذْكُرُونَ بِهِ، أَوْ تُثَلَّى
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ، أُولَئِكَ الْكَافِرُونَ الْبَعِيدُونَ عَنْ مَوَاطِنِ تَنْزِلَاتِ رَحِمَاتِ
رَبِّهِمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَاضِحٍ، يَدْرِكُهُ أَصْحَابُ الْعُقُولِ الْحَصِيْفَةِ،
وَالْبَصَائِرِ النَّافِذَةِ الدَّرَاكَةِ.

٢٣ - اللَّهُ نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَحْسَنَ
الْحَدِيثِ فِي فَصَاحَتِهِ وَبِلَاحَتِهِ، وَفِي مَعْنَاهُ، وَتَنْزِيهِهِ عَنِ التَّنَاقُضِ
وَالْاِخْتِلَافِ، وَاشْتِمَالِهِ عَلَى أَخْبَارِ الْمَاضِيْنَ، وَقَصَصِ الْأَوَّلِينَ، وَأَخْبَارِ
الْغُيُوبِ الْكَثِيرَةِ، كِتَابًا مَصُونًا مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ، مِمَّا ثَلَّ
الْكَمَالِ، يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ، وَالتَّأَثُّرِ فِي الْقُلُوبِ،
فِيهِ مَطْوِيَّاتٌ بَيْنَ جُمْلَةٍ، وَبَيْنَ أَجْزَاءِ الْجُمْلَةِ مِنْهُ، هِيَ مَحْذُوفَاتٌ لَفْظًا
تُذَكَّرُ عَنْ طَرِيقِ الدَّلَالَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، وَاللَّوْازِمِ الْفِكْرِيَّةِ، وَذَلِكَ مِنْ
الْإِعْجَازِ الْإِيْجَازِيِّ فِي الْقُرْآنِ. تَنْفَعِلُ قُلُوبُهُمْ وَنَفُوسُهُمْ حِينَمَا يَسْمَعُونَ
أَوْ يَتْلُونَ آيَاتٍ فِيهَا تَرْهِيْبٌ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، وَمَشَاعِرُ الْخَشْيَةِ وَالْوَجَلِ
الَّذِي يَحْدُثُ فِي قُلُوبِهِمْ يَمْتَدُّ إِلَى أَعْصَابِهِمُ الْوَاصِلَةِ إِلَى جُلُودِهِمْ،
فَتَرْجَفُ جُلُودُهُمْ الَّتِي تَتَرَكَّزُ فِيهَا النِّهَايَاتُ الْعَصَبِيَّةُ، ثُمَّ تَسْكُنُ نَفُوسُهُمْ
وَقُلُوبُهُمْ بِمَتَابَعَةِ مَسِيرَتِهِمُ الْإِيْمَانِيَّةِ، فَيَصِلُونَ إِلَى مَرَحَلَةِ الطَّمَانِيْنَةِ
الْكَامِلَةِ، فَيَغْلِبُ رَجَاؤُهُمْ بِعَفْوِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ عَلَى الْخَوْفِ مِنْ عِقَابِهِ،
وَيَطْمَئِنُّونَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَحَاطَهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ،
ذَلِكَ الْأَمْرُ الْحَمِيدُ الَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، هُدَى اللَّهِ
الْمَقْرُونُ بِالْعَنَاءِ الرَّبَّانِيَّةِ؛ إِذْ ارْتَقَوْا بِتَوْفِيقِهِ سَبْحَانَهُ مِنْ مَرْتَبَةِ الْخَشْيَةِ
إِلَى الْخُشُوعِ، إِلَى الطَّمَانِيْنَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ، وَمَنْ يَحْكُمِ اللَّهُ
عَلَيْهِ بِالضَّلَالِ لِأَنَّهُ ضَلَّ بِإِرَادَتِهِ الْحَرَّةَ، فَمَا لَهُ مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ لَهُ بِالْهُدَايَةِ.

٢٤ - أَفَمَنْ يَتَّبِعِ فِي الدُّنْيَا بَوَجهَهُ الَّذِي يُوجِّهُهُ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، شِدَّةَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ بَعِيدًا عَنْ كُلِّ شَرِكٍ
بِرَبِّيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، كَمَنْ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ مِنْ ذَرَكَةِ الْكَفْرِ؟ وَتَقُولُ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ لِلظَّالِمِينَ عِنْدَ الْإِقَائِهِمْ فِي جَهَنَّمَ: لَا مَسَاسَ وَأَحْسُوا عَذَابَ مَا
كُنتُمْ تَكْسِبُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ ظَلَمٍ هُوَ مِنْ ذَرَكَةِ الْكَفْرِ، تَسْتَحْقُّونَ عَلَيْهِ الْخُلُودَ فِي النَّارِ.

٢٥، ٢٦ - كَذَّبَ كَفَّارُ الْأَقْوَامِ مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ رُسُلَهُمْ، وَأَنْذَرُوا بِعَذَابِ رَبِّهِمْ، وَاسْتَمَرُّوا مُصْرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ، فَأَنَاهُمُ الْعَذَابُ
الَّذِي أَنْذَرُوا وَهُمْ غَافِلُونَ، مِنْ مَكَانٍ لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ إِلَّا أَنَّهُمْ فِيهِ آمِنُونَ، فَجَعَلَهُمُ اللَّهُ يُحْسِنُونَ بِأَلَامِ الْعَذَابِ وَالْهَوَانِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ مِمَّا نَزَّلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، لَوْ كَانُوا حَرِيصِينَ عَلَى أَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ، وَيَعْمَلُوا بِهِ لَمَا أَلْقَوْا أَنْفُسَهُمْ
بِأَيْدِيهِمْ إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ الْوَحِيمِ.

٢٧، ٢٨ - وَنَقَسَمُ مُؤَكِّدِينَ أَنَّنَا بَيِّنَاتٌ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ قَضِيَّةٍ مِنَ الْقَضَايَا الدِّينِيَّةِ لَهَا أَشْبَاهُ وَنِظَائِرُ يُقَاسُ عَلَيْهَا؛ رَغْبَةً فِي أَنْ
يَتَذَكَّرُوا، وَمَا يَنْجُمُ عَنِ التَّذَكُّرِ مِنْ سُلُوكٍ دِينِيٍّ وَنَفْسِيٍّ وَجَسَدِيٍّ يَتَحَقَّقُ بِهِ رِضْوَانُ اللَّهِ. حَالَةٌ كَوْنِ هَذَا الْقُرْآنِ قِرَاءًا عَرَبِيًّا فَصِيحًا، أَعْجَزَ
الْفَصَحَاءِ وَالبُلْغَاءِ عَنْ مَعَارَضَتِهِ، مُسْتَقِيمًا عَلَى صِرَاطِ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ، لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا اخْتِلَافَ، مُتَزَاهَا عَنِ التَّنَاقُضِ؛ رَغْبَةً فِي أَنْ يَنْهَوِيَ
رَحْلَةَ حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا مَوْجِنِينَ مُسْلِمِينَ؛ لِيَتَّقُوا عَذَابَ اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ.

٢٩ - ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا إِقْنَاعًا لِلتَّنْفِيرِ مِنَ الشُّرْكِ: عَبْدًا مَمْلُوكًا اشْتَرَكَ فِي مِلْكِهِ شُرَكَاءُ مُتَنَازِعُونَ مُخْتَلِفُونَ، سَيِّئَةُ أَخْلَاقِهِمْ، كُلُّ وَاحِدٍ يَرِيدُ
أَنْ يَسْتَأْثَرَ بِخِدْمَاتِهِ، فَهُوَ خَيْرَانِ فِي إِرْضَائِهِمْ، وَعَبْدًا خَالصًا لِمَالِكِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهِ وَلَا مُنَازِعَ، يَعْرِفُ مَرَادَهُ وَمَا يُرْضِيهِ، هَلْ يَسْتَوِي
هَذَانِ الرَّجُلَانِ وَصَفًا؟ لَا يَسْتَوِيَانِ وَصَفًا، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ نَفُوسَكُمْ عِبِيدًا لِأَلْهَةِ مُتَعَدِّدِينَ، تَتَوَرَّعُ أَوْقَاتِكُمْ لِعِبَادَتِهَا، بَيْنَمَا رَبُّكُمْ الْخَالِقُ
لَكُمْ، هُوَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْحَمْدُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْمَعْبُودِينَ، بَلْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْمُسْتَحَقَّ لِلْعِبَادَةِ هُوَ اللَّهُ
تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

٣٠، ٣١ - إِنَّكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - سَتَمُوتُ كَسَائِرِ الْأَحْيَاءِ، وَإِنَّهُمْ سَيَمُوتُونَ، فَالْمَوْتُ قَضَاءٌ مُبْتَرَمٌ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَى الْأَحْيَاءِ جَمِيعًا
فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ مَدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ مُتَرَاخِيَةٍ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ يَوْمَ تَقُومُونَ مِنْ نَوَاتِكُمْ الْمَتَاثِرَةِ فِي الْأَرْضِ أَحْيَاءَ، عِنْدَ رَبِّكُمْ
تَخْتَصِمُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ مِنْ حَقُوقٍ، فِي الْأَمْوَالِ، أَوْ الْأَنْفُسِ، أَوْ الْأَعْرَاضِ، وَغَيْرِهَا، فَيَحْكُمُ بَيْنَكُمْ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ.

٣٢ - لا أحد أشد ظلماً من هذين الفريقين: الفريق الأول: مَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، فزعم أنَّ له ولداً أو شريكاً، أو ادَّعى أنه نبيٌّ أو رسول، أو حكم بحكم في الدين زاعماً أنه من دين الله دون أن يكون لديه دليل صحيح، والفريق الثاني: كَذَّبَ بِالصَّدَقِ الذي جاء به محمد ﷺ من غير تفكير أو اهتمام بتمييز بين حقٍّ وباطل، أليس في جهنم مكان إقامة واستقرار لهؤلاء الذين كذبوا عليَّ، وكذبوا بالصدق الذي جاء به محمد ﷺ؟

٣٣ - وفي مقابل الفريقين السابقين من الكافرين المُكذِّبين، يُوجد فريقان من المؤمنين المُتقين، الفريق الأول: الذي جاء النَّاسُ يُحَدِّثُهُم بِالصَّدَقِ عن الله ودينه وأحكام شريعته، داعياً هادياً مُبْلِغاً، وهم أنبياء الله ورسله، وَحَمَلَةَ رسالته، والفريق الثاني: الذي صدَّق بالصدق الذي جاء به أنبياء الله ورسله، وأتباعهم، وهم المؤمنون، أولئك رفيعو المكانة عند الله هم المُتَّقُونَ الذين امتثلوا أوامر الله، واجتنبوا نواهيه.

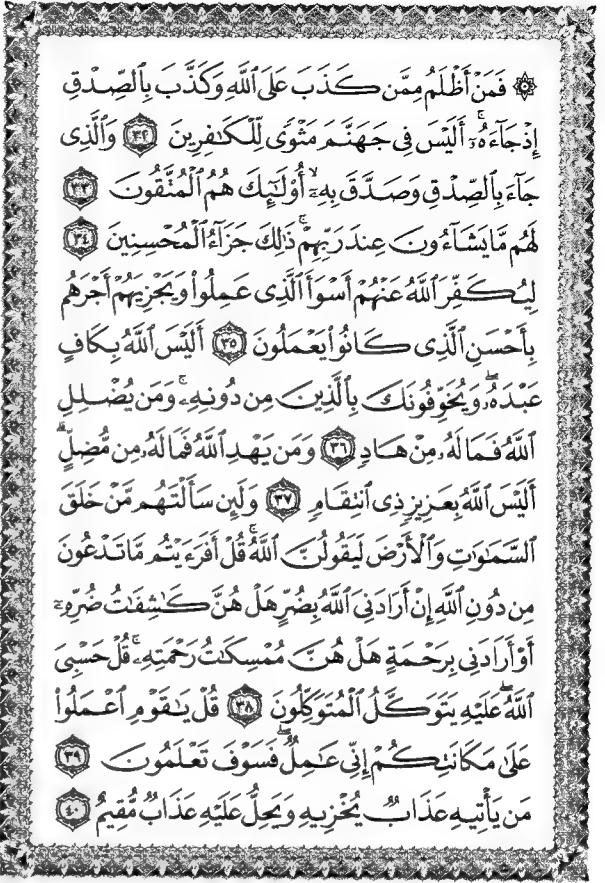
٣٤ - لهؤلاء المُصَدِّقِينَ الْمُتَّقِينَ ما يشاؤون عند ربهم من الجزاء والكرامة، ويجزي الله مثل هذا الجزاء لعموم المُتَّقِينَ، الأبرار والمحسنين، ذلك الذي يناله عموم المُتَّقِينَ، يناله المحسنون أيضاً، مع زيادات من فضل الله؛ بسبب ارتقائهم إلى مرتبة الإحسان.

٣٥ - ويخصُّ الله المحسنين بجزاء فوق ما يتصوَّرون، ويُخرجهم من ضمن الموضوعين للمحاسبة على أعمالهم؛ لِيَسْتَرْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَسْوَا الذي عملوا في الدنيا من الأعمال فما دونه من باب أولى، وليجزَّيهم أَجْرَهُمْ على كُلِّ الصالحات من أعمالهم، بجزاء يُساوي الجزاء المقرَّر لأحسن الذي كانوا يعملون من أعمالٍ صالحةٍ يتقربون بها إلى الله؛ لأنهم كانوا محسنين في الدنيا.

٣٦، ٣٧ - أليس الله العظيم الكبير الذي أرسل رسوله محمداً بقادر على أن يكفِّي عبده محمداً ﷺ شرَّ مَنْ عاداه وَقَصَدَهُ بالشرِّ؟ فاعلموا أنَّ الله حافظُ رسوله محمداً ﷺ وحاميه من مكائدهم، مهما دبرتم ومكرتم. ويخوفُك المشركون - يا رسول الله - بمضرة الأوثان التي اتَّخذوها آلهةً من دونه، وَمَنْ يحكم الله عليه بأنه ضالٌّ؛ لأنه اجتاز مرحلة امتحانه ضالاً باختياره الحر، فاستحقَّ العقاب، فما لَهُ من حاكم يحكم له بأنه كان مهتدياً في رحلة امتحانه، ليرفع الله عنه العقاب الذي استحقَّه، وَمَنْ يحكم الله له بالهداية، فيستحقُّ بحكم الله دُخُولَ الجنة خالداً أبداً، فما لَهُ من حاكم يحكم عليه بالضلالة، ليحبَّبَ عنه فضل ربِّه عليه. فلا يطمع المشركون بأن تصنع لهم آلهتهم شيئاً، فتدفع عنهم عذاب الله إذا حكم به عليهم، أو تجلب لهم منفعة ما، إذا قضى الله أن يُمسكها عنهم. أليس الله بقويٍّ غالب، لا يمنع عن تنفيذ إرادته قوة ما في الوجود كله، ذي عقوبة بالعدل؟! فترقبوا - أيها المشركون - عقاب الله لكم.

٣٨ - ولئن سألت - يا رسول الله - هؤلاء المشركين: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ: خَلَقَهُنَّ اللَّهُ، فإنكم - أيها المشركون - تؤمنون بأنَّ الله هو الذي خلق السموات والأرض، ولا تجعلون له شركاء في هذا القسم من أقسام ربوبيته، لكنكم بالنسبة إلى أحوال الناس تجعلون لله شركاء في ربوبيته، كقضايا الرزق، والذرية، والنصر على الأعداء. قل لهم - يا رسول الله -: أفتفكرتم تفكيراً سديداً بأنَّه وتعمق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريَّة: ما تعبدون من دون الله بعبادات مُخْتَلَفَات، وفي مقدمتها الدعاء لتحقيق المطالب والرغبات، فإن توصلتم إلى أنَّ لهم ربوبيَّة ما في الكون فأخبروني - إنَّ أَرَادَنِي اللَّهُ مُصَاباً بِشِدَّةٍ وبلاء -: هل تستطيع آلهتكم أن تكشف عني ما أنزل بي من ضرٍّ؟! أو أَرَادَنِي مَمْسُوساً بنعمةٍ وخير وبركة: هل تستطيع آلهتكم أن تُمسك رحمة الله فتمنعها عني؟ قل لهم - يا رسول الله -: الله كافٍ لي عن كلِّ ما سواه في جميع أموري، من إصابة الخير، ودفع الشر، هو ثقتي، وعليه اعتمادي، عليه وحده يتوكَّل المتوكِّلون، ويُفَوِّضون أمورهم إليه، ويعتمدون بقلوبهم عليه مع قيامهم بالأسباب الكونية.

٣٩، ٤٠ - قل - يا رسول الله - لقومك المُعَانِدِينَ: اعملوا ما تشاؤون محافظين على موقعكم الشَّرْكَِيِّ، واجتهدوا في أنواع مكرم وكيدكم، إني عاملٌ فيما أمرت به من إقامة الدين، ومُلازمٌ مكاني فيه، لا أتزعجُ عنه، فَسَوْفَ تعلمون يوم القيامة مَنْ يأتيه من ربِّه عذابٌ يُذِلُّه في موقف الحشر وما بعده، وَمَنْ يَجِلُّ عليه من ربِّه في الآخرة عذابٌ دائمٌ؟! إنكم أنتم الذين تنالون هذا المصير اللوخيم.



٤٨ - وَظَهَرَ لَهُؤَلاءِ الْمُكْذِبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بعد الحساب والقضاء جزاء سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِم التي اقترفوها، فنزل بهم من الذُّعْر والهَمِّ الشديد، مما هم صائرون إليه، وأحاط بهم ولزمهم من كل جانب عذاب أليم؛ عقاباً لهم على استهزائهم بالعذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزؤون به؛ إذ يُكَبُّون في النار على وجوههم، فيهبون بين وديانها، وصنوف العذاب فيها.

٤٩ - فإذا مَسَّ الإنسانَ شِدَّةٌ، دعانا أن نُفْرَجَ عنه، ثم بعد مدَّةٍ إذا أعطيناه على سبيل التفضُّل نعمةً صادرةً من أمرنا، وجاريةً ضمن أنظمتنا السببية، قال متفاحراً بمهارته وعلمه باتخاذ الأسباب: ما أُوتيت هذا الذي أملكه إلا بمهارتي وعلمي وحيلتي. بل لم تصل إليك النعمة بمهارتك وعلمك وحيلتك، بل نحن منحناك تلك النعمة استدراجاً منا فيما آتيناك، وامتحاناً لك: أشكر أم تكفر؟ ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنها استدراج من الله وفتنة، وأن ما يستمتعون به في الحياة الدنيا من نِعَم هو من فضل الله عليهم.

٥٠ - قد قال هذه المقالة الدالة على الجُحود والكُنود والاستكبار، الكفورون الذين من قبلهم من الأمم المكذبة، فما كفاهم فصرف عنهم من عذاب الله، ما كانوا يكسبون من متاع الدنيا، ويتوهمون أنهم أوتوه باجتهادهم القائم على علم عندهم، وليس من إيتاء الله لهم؛ ليلبؤهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

٥١ - فأصاب الذين قالوا هذه المقالة من الأمم الخالية جزاء سَيِّئَاتِ كَسْبِهِمْ، فعوجلوا بالعذاب في الدنيا، والذين كفروا من مشركي قومك - يا رسول الله - سيصيبهم في الدنيا مثل ما أصاب الذين من قبلهم، وما هم بقادرين على الهرب والإفلات من عقاب الله الذي سيصيبهم.

٥٢ - أكانوا صُماً عما سبق بيانه، ولم يعلم هؤلاء أن الله يُوسِّع الرزق ويكثره لمن يشاء من عباده، ويضيِّقه على من يشاء من عباده؛ ليلبؤ كلاً فيما آتاه، إن في ذلك التوسيع والتضييق لعلامات على أنه لا قابض ولا باسط إلا الله. فكم من ضعيف الحيلة والذكاء قد وسَّع الله عليه رزقه، ولكن هذه الآيات يُدركها ويتأثر بها الذين لديهم الاستعداد النفسي والقلبي لأن يؤمنوا بالله وبحكمته، ولأن يعملوا بمقتضى إيمانهم، في امتحان الله لهم في ظروف الحياة الدنيا.

٥٣ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ داعٍ إلى الله من أمته - للمذنبين الذين لم يُسلموا بعد، وتأنس فيهم قابلية لأن يستجيبوا لدعوة الحق: الله يناديكم، فيقول لكم: يا عبادي الذين تجاوزوا الحدَّ جانين على أنفسهم في ارتكاب المعاصي، إذ جعلوها مستحقةً للعذاب الأليم: لا تئأسوا من آثار رحمة الله إذا تعرَّضتم لها بإراداتكم، إنَّ الله يستر الذنوب جميعاً، بالتجاوز عنها، وعدم المؤاخذه عليها، إذا ثبتتم وصَّحت توبتكم، إنَّه وحده هو الكثير الستر لذنوب عباده التائبين، الدائم الرحمة بهم.

٥٤ - وارجعوا إلى ربِّكم الذي فطركم على الإيمان، فآمنوا بكمال ربوبيته، واستسلموا وأخلصوا له العبادة، وتداركوا أنفسكم من قبل أن يأتِيكم العذاب في الدنيا، جزاء إصراركم على الشرك، ويكون فيه إهلاككم، ثم يأتِيكم يوم القيامة عذابٌ أبدى لا تجدون من ينصركم، فيمنع عنكم الخلود في العذاب.

٥٥ - وأتبعوا بعد أن تؤمنوا وتسلموا، ما شرَّعه لكم ربُّكم من أحكام، فافعلوا ما فَرَضَ الله عليكم أن تفعلوه، واتركوا ما حَرَّمَ عليكم أن تفعلوه، فهذا أحسن ما أنزل إليكم، وأتبعوا كذلك بعد ما فرض الله عليكم أعمالاً يحسن فعلها، إذا اتبعتموها تطوعاً أثابكم ربُّكم، وإذا لم تتبعوها لم يؤاخذكم على عدم اتباعها، ولكن تُحرمون ثواب اتباعها، فآمنوا وأسلموا، وأتبعوا جميع أوامره، واجتنبوا جميع نواهيه، من قبل أن يأتِيكم العذاب فجأةً - إن لم تؤمنوا ولم تسلموا وتلتزموا أحكام الدين -، وأنتم غافلون عنه، فقد طال أمد عنادكم وإصراركم على شرككم الباطل.

٥٦ - أنزلنا الكتاب، وبعثنا الرسول مبلِّغاً، وكلفنا الدعاة أن يبلغوا للأسباب الأربعة الآتية: السبب الأول: أن تقول يوم القيامة نفس كفرت وكذبت مؤيخة نفسها على ما كان منها من جرائم: يا نَدَمي ويا حُزني على ما قَصُرْتُ في حقِّ الله، وقد كنت في الدنيا لمن المُستهزئين بدين الله وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين، ويوم الدين وما فيه من حساب وجزاء.

وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ قَدْ فَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٦١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٢﴾ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٦٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٦٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٦٦﴾

٥٧ - والسبب الثاني: مَنَعَ أَنْ تَقُولَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تِلْكَ النَّفْسُ الْكَافِرَةُ الْمُكْذِبَةُ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يَرْسُلَ رَسُولًا، أَوْ يُنْزِلَ كِتَابًا، أَوْ تَكْلِيفَ دَعَاةٍ يُبَلِّغُونَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولَ، لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ الشُّرَكَ وَالْمَعَاصِي.

٥٨ - والسبب الثالث: رَدُّ وَصْدُ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ كَفَرْتُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيْنًا وَهِيَ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ: لَوْ أَنَّ لِي رَجْعَةً إِلَى الدُّنْيَا، فَأَكُونَ فِيهَا مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ، أَعْلَى مَرَاتِبِ الْمُؤْمِنِينَ.

٥٩ - والسبب الرابع: زَجَرَ أَنْ تَقُولَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَفْسٌ كَفَرْتُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، بِإِدْعَاءِ كَاذِبٍ وَقَح: يَا رَبِّ لَمْ تَأْتِنِي آيَاتُكَ مِنْ عِنْدِكَ، وَلَوْ جَاءَ تَنبِيهُ لَأَمَنْتُ بِهَا، وَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. أَعْذَارُكَ زَائِلَةٌ، وَتَعْلِيلَاتُكَ بَاطِلَةٌ، بَلَى قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي، وَبَيَّنْتُ لَكَ سَبِيلَ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، وَمَكُنْتُكَ مِنْ اخْتِبَارِ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَكِنْ تَرَكْتَ ذَلِكَ وَضِيعْتُ، فَكُذِّبَتْ بِآيَاتِي، وَتَكَبَّرَتْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَاتَّبَاعِهَا، وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ كَفَرًا عِنَادِيًّا اسْتِكْبَارِيًّا، مَعَ وَضُوحِ الْحَقِّ لَكَ بِأَدْلَتِهِ.

٦٠ - وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى - أَيُّهَا الرَّائِي - الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ، وَزَعَمُوا أَنَّ لَهُ وَلَدًا وَشَرِيكًَا، وَجُوهَهُمْ مُسْوَدَّةٌ مُحْضَرَةً لَهُمْ، وَعَلَامَةٌ فَارِقَةٌ تُفَرِّقُهُمْ عَنِ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ؛ إِذْ يَجْعَلُهَا اللَّهُ بِيضَاءً مُتَلَالِفَةً: أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَكَانٌ إِقَامَةٌ وَاسْتِقْرَارٌ لِلْمُتَكَبِّرِينَ عَنِ الْإِيمَانِ؟

٦١ - وَيُخَلِّصُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِعَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ، مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ يَتَوَقَّعُونَهُ عَلَى خَطَايَاهُمْ، بِالْحُكْمِ لَهُمْ بِالْفَوْزِ، وَبِإِبْلَاغِهِمْ بِالطَّرِيقِ الَّتِي تُؤَدِّيهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ، لَا يَمَسُّهُمْ الْمَكْرُوهُ وَلَوْ مَسًّا خَفِيفًا، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَحَبُوبٍ أَوْ مَرْغُوبٍ فِيهِ فَاتَهُمْ، أَوْ يَخْشَوْنَ فَوَاتَهُ، بَلْ هُمْ فَرِحُونَ مَسْرُورُونَ آمِنُونَ.

٦٢ - اللَّهُ مُقَدِّرُ كُلِّ شَيْءٍ بِأَحْكَامٍ كَامِلَةٍ، وَمُبْدِعُ كُلِّ شَيْءٍ إِيجَادًا مِنَ الْعَدَمِ مِمَّا هُوَ كَائِنٌ أَوْ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ، فَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا مُوَكَّلَةٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ الْقَائِمُ بِحِفْظِهَا وَبِالتَّصَرُّفِ فِيهَا، إِيجَادًا وَإِمْدَادًا، وَتَغْيِيرًا وَابْتِلَاءً، وَمُحَاسَبَةً وَمَجَازَاةً لِمَنْ مَنَحَهُ اللَّهُ الْاِخْتِيَارَ الْحُرَّ، فَمَا مِنْ أَصْغَرِ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ كُلِّ ذَرَّةٍ فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ إِلَّا وَهُوَ خَاضِعٌ لِرَبُوبِيَّتِهِ فِي كَوْنِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

٦٣ - اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَحْدَهُ مِفْتَاحُ خَزَائِنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْمَعَادِنِ وَالْقَوَى، فَهُوَ مَالِكُ أَمْرِهَا وَحَافِظُهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا، وَالَّذِينَ جَحَدُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِهِ الْكُونِيَّةِ، وَالْجَزَائِيَّةِ الْعِقَابِيَّةِ، وَالْإِعْجَازِيَّةِ، وَالْبَيِّنَاتِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى رُسُلِهِ، أُولَئِكَ الْمُنْحَطُّونَ، الْبُعْدَاءُ عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمُ الْخَاسِرُونَ؛ لِأَنَّهُمْ خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ بِإِرَادَاتِهِمْ الْحَرَّةِ.

٦٤ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِقَادَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ الَّذِينَ دَعَوْكَ إِلَى عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ، وَطَلَبُوا مِنْكَ الْكَفَّ عَنْ بَيَانِ بَطْلَانِهَا، وَوَعَدُوكَ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ مَعَكَ، فَيَجْمَعُوا بَيْنَ عِبَادَةِ اللَّهِ وَعِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ: أَفَعَزَّ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَنْ أَعْبُدَ أَيُّهَا السُّفَهَاءُ الْحَمَقَى الَّذِينَ تَغْلُوا صُدُورَكُمْ غِيظًا مِنْ اِتِّسَارِ الْإِسْلَامِ فِي مَكَّةَ. مَا هَذِهِ الْحِمَاقَةُ الَّتِي تَرْتَكِبُونَهَا؟ وَمَا هَذِهِ السَّفَاهَةُ الَّتِي لَا تَخْجَلُونَ مِنْهَا؟!

٦٥ - وَنُؤَكِّدُ بِشِدَّةٍ أَنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَأُوحِيَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ، قَائِلِينَ لِكُلِّ رَسُولٍ وَنَبِيٍّ: نَقَسِمُ لَكَ: لَنْ أَشْرَكَتَ بِاللَّهِ غَيْرَهُ، لَنْ يَطْلُرَنَّ عَمَلُكَ الصَّالِحَ الَّذِي عَمَلْتَهُ قَبْلَ الشُّرْكِ، وَلَنْ تَكُونَ مِنَ الْقَوْمِ الْخَاسِرِينَ، وَهَذَا خُطَابٌ بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ لِلرُّسُولِ ﷺ، وَهُوَ تَعْرِيفُ لِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ أَنْ يَحْذَرُوا مِنَ الشُّرْكِ؛ لِثَلَا تَحْبِطَ أَعْمَالُهُمْ، وَيَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ عِنْدَ رَبِّهِ الْحِمَايَةَ مِنْ أَنْ يَحْبِطَ عَمَلُهُ وَيَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ إِذَا أَشْرَكَ، وَهُوَ ذُو الْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَالْمَخْصُوصِ بِالْإِصْطِفَاءِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ سَائِرِ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ؟!!

٦٦ - لَا تُجِبْهُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - إِلَى مَا طَلَبُوهُ مِنْكَ، بَلْ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَاعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَكُنْ مِنَ الْعَامِلِينَ بِمَا يُرْضِي اللَّهَ عَنْكَ، وَالشَّاكِرِينَ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ.

٦٧ - وَمَا عَظَّمُوا اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ، وَلَمْ تَصِلْ تَصَوُّرَاتُهُمْ إِلَى إدْرَاكِ مَقْدَارِهِ الْحَقِّ الْمُنَاطِقِ لِلْوَاقِعِ، بَلْ كُلُّ إدْرَاكِاتِهِمْ نَاقِصَاتٌ عَمَّا هُوَ لَهُ مِنْ مَقْدَارٍ، وَانْحَطَّ الْمُشْرِكُونَ انْحِطَاطًا فَاحِشًا حِينَ أَشْرَكُوا بِهِ غَيْرَهُ، وَدَعَا الرَّسُولُ ﷺ إِلَى الشُّرْكِ، وَمِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ سَبْحَانَهُ: أَنَّ الْأَرْضَ جَمِيعًا فِي قَبْضَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَاوَاتُ مَضْمُونَاتٌ، أَوْ مَلْفُوفَاتٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بِيَمِينِهِ، تَنْزَرُّهُ وَتَعَاظِمُ اللَّهُ وَتَعَالَى عُلُوقًا لَا حُدَّ لَهُ، عَمَّا يَفْتَرِي الْمُشْرِكُونَ مِنْ شُرَكَاءِ اللَّهِ فِي رَبُوبِيَّتِهِ، أَوْ فِي إِلَهِيَّتِهِ، فَيَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِهِ.

أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ
مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيَسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا
بِمَقَارِئِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ فِي سِوَاهِمْ سُوءٌ وَلَا هُمْ يُعْزَبُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ
خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ
هُمْ فِي الْخَسِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَعَزَّ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَنْ أَعْبُدَ أَيُّهَا
الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ
أَشْرَكَتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلَى اللَّهُ
فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ
وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

٦٨ - وَنُفِخَ فِي «القرن» النفخة الأولى، فمات كل من في السموات ومن في الأرض من شدة الفزع، إلا من شاء الله عدم موته، وبعد مدة متراخية - الله أعلم بمقدارها - نفخ الملك «إسرافيل» في «القرن» النفخة الثانية، مؤذناً بإحياء جميع الخلائق، فإذا جميع الخلائق قيام من قبورهم، راجعون إلى الحياة مرة أخرى، ينظرون ماذا يفعل الله بهم؟.

٦٩ - وظهرت أرض المحشر مشرقة مضيئة بنور ربها حين يتجلى الرب تبارك وتعالى لفضل القضاء بين خلقه، فما يضارئون في نوره كما لا يضارئون في الشمس في اليوم الصحو، وأحضر كتاب الأعمال، ونشرت الملائكة صحيفة كل مكلف، وحيى بأمر الله بالنبين وفي مقدمتهم الرسل عليهم السلام؛ ليكونوا شهداء على أمهم بتبليغ رسالة الله لعباده، وحيى بأمة محمد ﷺ الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة، فتقوم الحجة على الأمم، وقضي بين العباد بالعدل التام، وهم لا يظلمون شيئاً، فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

٧٠ - وأعطيت كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، جزاء وافيًا غير منقوص، وهو سبحانه أعلم من كل العالمين بما يفعل عباده، مما يكسبون بإراداتهم الحرة، حتى ما يكسبون منها في داخل نفوسهم وقلوبهم، لا يحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد.

٧١ - وسيق الذين كفروا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا إلى أبواب جهنم سوقاً عتيفاً، أفواجاً وجماعات، بعضهم إثر بعض، كل أمة على حدة، بحسب أنواع كفرهم ومستوياته، وبحسب فئاتهم في الدنيا، حتى إذا وصلوا إلى أبوابها، فتحت أبوابها السبعة تلقائياً، وكانت قبل ذلك مغلقة، وقال خزنة جهنم من الملائكة للمسوقين إلى إلقائهم من أبوابها توبيخاً وتقريعاً: ألم يأتكم رسل من أنفسكم

ومن جنسكم، يتلون عليكم آيات منزلات من الله ربكم، ويحذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قال الكافرون مقرين: بلى قد جاءت رسل ربنا بالحق، وتلوا علينا آياته، وأنذرونا لقاء يومنا هذا، وعذاب ربنا في جهنم، ولكن استكبرنا، وكذبنا، وكفرنا، وأتبعنا أهواءنا وشهواتنا، وغرطنا الحياة الدنيا بزيناتها، وخدعنا شياطين الإنس والجن بأباطيلهم، فثبتت علينا وتحققت كلمة العذاب الرباني السابقة بعذاب الكافرين في جهنم خالدين فيها. دل هذا القول على أن كل الذين يحكم عليهم بأنهم كانوا كافرين في الحياة الدنيا، وماتوا كافرين، قد تبلفوا رسالة رسول منهم، من الأولين والآخرين. ودل أيضاً على أن كل رسول من رسل الله قد كان يتلو على أمته آيات منزلات من عند الله. ودل كذلك على أن كل رسول أنبا أمته بالآخرة ويوم الدين، وأطمعهم بجئات النعيم إذا آمنوا واستجابوا لدعوة ربهم، وحذروهم وأنذروهم عذاب الله في جهنم خالدين، إذا رفضوا أن يستجيبوا لدعوة ربهم التي بلغهم إيها رسوله.

٧٢ - قال خزنة جهنم للكافرين إهانة لهم وإذلالاً: ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها أبداً، فبئس مكان إقامة المتكبرين على ربهم، المتعاليين عن قبول الحق، جهنم التي يستقرون فيها.

٧٣ - وسيق الذين اتقوا ربهم - بتوحيده والعمل بطاعته - إلى دار الكرامة والرضوان على مراكبهم إلى الجنة أفواجاً وجماعات، بعضهم إثر بعض، بحسب أعمالهم ودرجاتهم، حتى إذا جاؤوها، استقبلوا بالحفاوة والتكريم، وقد فتحت أبواب الجنة قبل مجيئهم، مبالغة في تكريمهم، والحفاوة بهم، فحصل لهم السرور والفرح بذلك، وقال لهم خزنتها عند دخولهم الجنة: أنشروا بالأمن الدائم، وبالسلاسة من كل الآفات، طهرتم من دنس المعاصي، وزكوتهم وسعدتهم، فادخلوا الجنة حالة كونكم ستكونون خالدين فيها أبداً.

٧٤ - فدخلوا الجنة معززين مكرمين، وقالوا حين وجدوا أنفسهم على أرضها، يتنقلون أحراراً، منعمين بما فيها من نعيم عظيم: كل الثناء لله؛ إذ هو مستحق الحمد كله، لكمالاته الذاتية المطلقة، وإحسانه وتفضله، الذي صدقنا وعدة الذي وعدنا إياه على السنة رسله، بأن يدخلنا جنته خالدين أبداً، وأورثنا أرض الجنة عطاء من فضله، وملأنا ما كان قد خلق للذين كفروا في رحلة امتحانهم، فيما لو كانوا آمنوا وأسلموا باختيارهم الحر، تنزل في الجنة ونقيم حيث نريد، ونصرف فيها كما نشاء، لا ينازعنا فيها منازع، فنعلم ثواب العاملين الذين اجتهدوا طاعة ربهم، الجنة التي ينعمون فيها، خالدين أبداً.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ
﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ
بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ
﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُم وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ
﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَوْىً
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى
الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ
خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ
نَبِّينَا ۖ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾

٧٥ - وترى - يا رسول الله ويا كلَّ راءٍ مؤهلٍ لهذا الشرف الرباني - الملائكة مُحدقين مُحيطين بالعرش، مُضطَّقين بحافته وجوانبه، يُنْزِهون الله عن كلِّ نقص، تنزيهاً مُقترناً بحمد خالقهم، وأُنْهَي قضاء الله بين أهل الجنة وأهل النار بالحق الثابت حكماً وتنفيذاً، وقال شهود هذا الموقف من الرُّسل والنبين والملائكة وأهل الجنة - شكراً حين تمَّ وعدُ الله لهم -: الحمد لله ربِّ العالمين، ربِّ كلِّ موجود سوى الله تبارك وتعالى، فهو المُستحقُّ للثناء الكامل والشكر الدائم، لكمالاته الذاتية المطلقة، ولأنه سبحانه المحسن المتفضل على عباده.

سُورَةُ عَاذِلٍ

١ - ﴿حَمَّ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المُقطَّعة في أوَّل سورة البقرة.

٢ - تنزيلُ الكتاب المُتعبَّد بتلاوته - الذي يجب على المؤمنين أن يُدُونوه في كتاب مَصُون محفوظ عن التحريف والتغيير، والزيادة والنقص - على النبيِّ محمد ﷺ من عند الله القويِّ الغالب الذي لا يُغلب، العليم بكلِّ المعلومات.

٣ - سائر الذنوب للمذنبين، وقابل التوبة من التائبين الراجعين إلى طاعته، شديد الجزاء على الذنب بجعله مكافئاً لمقدار الذنب، ذي السَّعة والغنى والتفضل والإنعام، لا معبود بحق إلا هو، إلى حكم الله وحده وقضائه وتنفيذ جزائه، وإلى المكان الذي يقضي فيه، مصير جميع الخلائق في الآخرة، فيُجازي كلَّ ما يستحق.

٤ - ما يُخَاصِمُ ويُحَاجِجُ في دفع آيات الله الكونية والبيانية المُنزلة بالتكذيب والإنكار إلا الذين كفروا، فلا يَخْذَعُك ويصرفك عن البصيرة المُدرَكة للحق - أيُّها المُشاهد لإمهال الله لهم - تصرفهم في

البلاد كيف شاؤوا، بما لديهم من إمكانات وقوى، ووسائل مُسخرة لهم؛ فإنَّ عاقبة أمرهم العذاب.

٥ - ليسوا أوَّل من كَذَب حتى تجهلوا عاقبة تكذيبهم، فقبلهم كَذَب قوم نوحاً، والكفار الذين تشاكلت مبادئهم وأهواؤهم وأتَّفقت أعمالهم، بعد قوم نوح، كعاد وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وجنوده، وهَمَّتْ كُلُّ أُمَّة من هذه الأمم المكذبة بتدبير المكايد، وإعداد أنواع المكر ضدَّ رسولهم، ليقبضوا عليه ويمنعوه من متابعة الدعوة، بالسجن، أو بالقتل، أو بالطرْد والإخراج من الأرض، وهذا الهَمُّ هو رغبة نفسية لم تصل إلى مستوى الإرادة الجازمة المؤثرة في التنفيذ، وخصاموا في آيات الله بالباطل من الأقوال المزخرفة والحيل الفكرية؛ لِيُزِلُّوا بجِدالهم الحقَّ الذي جاء به الرسل في مزالق الشبهات والتلبسات والتدليسات، رغبة في أن يُزِيلوا الحقَّ عن مواقع ثباته في قلوب المؤمنين به، فقبضت عليهم قَبْضُ مُعَاقِب، فعذبته وأهلكته، فتفكَّر - أيُّها المتفكِّر - الحالة التي كان عليها عقابي الشديد؟ كان مهلكاً إهلاكاً جماعياً مُستأصلاً.

٦ - وكذلك العقاب الذي أنزله ربُّكَ بكفار الأمم السابقة المُكذبة، ثبتت كلمة ربِّكَ الصادرة بشأن جزاء الكافرين الذين ماتوا على كفرهم ولم يستغفروا ولم يتوبوا؛ بأنَّهم أصحاب النار الملازمون لها أبداً لا يفارقونها، ولا يُخَفَّف عنهم عذابها.

٧ - الذين يحملون العرش - وهم أشرف الملائكة وأفضلهم لقربهم من الله عزَّ وجلَّ - وَمَنْ حَوْلَ العرش مِمَّنْ يحفُّ به من سادات الملائكة، يُنْزِهون الله عن كلِّ نقص تنزيهاً مُقترناً بحمده، وإثبات الكمالات الذاتية المطلقة له، إذ يقولون: «سبحان الله وبحمده»، ويصدقون بأنَّه واحد لا شريك له، ولا مثل له ولا نظير، ويُخَيِّون في نفوسهم بتكرير وتجديد، تصوراتهم الإيمانية، ويسألون الله تعالى دوماً وبتجدد المغفرة للمؤمنين، ويقولون في استغفارهم: رَبَّنَا وَسِعْتَ رَحْمَتَكَ وَعِلْمَكَ كُلَّ شَيْءٍ، فاعفُ بِمَقْتَضَى سَعَةِ رَحْمَتِكَ وَعِلْمِكَ الذنوب والمعاصي مغفرة تستتبع عدم المُؤاخَذة والعقاب عليها، لعبادك الذين تابوا راجعين إلى الإيمان بك، وإلى طاعتك، وأتبعوا دينك الذي أمرتهم أن يسلكوه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، وَصْنُهم واحفظهم من عذاب الجحيم، بغفرانك وعفوك وفضلك، وبحمايتهم من الوقوع بمُسيئات عذاب الجحيم.

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

سُورَةُ عَاذِلٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ١ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٣ مَا يُجَدِّلُ فِيءِ ابْنِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْيَلْدِ ٤ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِمَنْ رَكِبَكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ٦ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٧

٨ - رَبَّنَا وَأَدْخِلِ الْمُؤْمِنِينَ جَنَّاتٍ ثَابِتٍ وَاسْتَقَرَّ دَائِمٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ عَلَى لِسَانِ رُسُلِكَ، وَأَدْخِلِ مَعَهُمْ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ الصَّالِحِينَ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَزْوَاجِ وَالذَّرِّيَّةِ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا يَسْتَحْفَتُونَ دَرَجَاتِ جَنَّاتٍ عَدْنٍ بِأَعْمَالِهِمْ؛ لِيَكْمَلَ سُرُورُهُمْ، وَيَتَضَاعَفَ ابْتِهَاجُهُمْ، وَيَأْنَسُوا بِأَهْلِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ وَحْدَكَ الْقَوِيُّ الْغَالِبُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، الْحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِكَ وَصُنْعِكَ.

٩ - وَصْنُهُمْ وَاحْفَظْهُمْ - يَا رَبَّنَا - مِنَ الْمُوَاخَذَةِ عَلَى مَا ارْتَكَبُوا مِنْ سَيِّئَاتٍ، وَمَنْ لَمْ تَوَاخِذْهُ يَوْمَ الدِّينِ عَلَى مَا ارْتَكَبَ مِنَ السَّيِّئَاتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَقَدْ رَحِمْتَهُ بِرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ فِي الْقِيَامَةِ. وَذَلِكَ الْعَفْوُ عَنْ سَيِّئَاتٍ مَرْتَكَبٍ الْمَعَاصِي هُوَ الرِّيحُ وَالظُّفَرُ الْعَظِيمُ.

١٠ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا تَنَادِيهِمْ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ فِي النَّارِ، وَقَدْ كَرِهُوا أَنْفُسَهُمْ حِينَ غُرِضَتْ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ وَعَايَنُوا الْعَذَابَ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ فِي النَّدَاءِ مِنْ بَعِيدٍ: لَكْرَاهَةُ اللَّهِ وَبَغْضُهُ الشَّدِيدِ يُؤَاكِمُ فِي الدُّنْيَا - حِينَ طُلِبَ مِنْكُمْ الْإِيمَانُ، فَأَبَيْتُمْ وَسَرْتُمْ الْحَقَّ وَبَرَاهِيْنَهُ - أَكْبَرَ مِنْ كَرَاهَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ الْآنَ، عِنْدَ حُلُولِ الْعَذَابِ بِكُمْ.

١١ - قَالَ الْكَافِرُونَ: رَبَّنَا أَمَتْنَا مَوْتَتَيْنِ: حِينَ كُنَّا فِي بَطُونِ أُمَهَاتِنَا نُطْفَأُ قَبْلَ اتِّصَالِ الرُّوحِ بِنَفُوسِنَا، وَحِينَ انْقَضَى أَجْلُنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَخْيَيْنَا مَرَّتَيْنِ: فِي دَارِ الدُّنْيَا، يَوْمَ اتَّصَلَتِ الرُّوحُ بِنَفُوسِنَا بَعْدَ مِئَةِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا فِي رَحِمِ أُمَهَاتِنَا، وَيَوْمَ بُعِثْنَا مِنْ قُبُورِنَا، فَأَمَتْنَا وَأَحْيَا حَيَاةَ امْتِحَانٍ أُخْرَى، لِنُؤْمِنَ وَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ، أَمَّا مَا كَانَ مِنَّا فِي الْحَيَاةِ الْأُولَى الَّتِي كُنَّا فِيهَا مُتَمَتِّحِينَ فَقَدْ أَقْرَبْنَا بِذُنُوبِنَا الَّتِي ارْتَكَبْنَاهَا مِنْ إنْكَارِ الْبَعْثِ وَمَا تَبِعَهُ مِنْ كِبَائِرِ الْإِثْمِ، وَقَدْ مَرَّتْ عَلَيْنَا مَدَّةٌ نَحْنُ فِيهَا نَعْدُبُ فِي جَهَنَّمَ، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنَ النَّارِ، وَرَجُوعٍ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ سَبِيلٍ لِنُصْلِحَ أَعْمَالَنَا، وَنَعْمَلَ بِطَاعَتِكَ؟

١٢ - فَأَجِيبُوا مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ: أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْخُرُوجِ، وَذَلِكَ

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتُ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

العذاب والخلود في النار - أيها الكافرون - بسبب أنكم إذا دُعِيتُمْ لتوحيد الله كفرتم به، وإن يجعل الله شريكاً تُصَدِّقُوا بذلك، فالحكم في شأنكم لله العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه.

١٣ - الله العلي الكبير الذي يُرِيكُم - أيها الناس - دَوَامَ آيَاتِهِ فِي الظَّوَاهِرِ الْكُونِيَّةِ الْمُتَجَدِّدَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَيُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّحَابِ مَاءً تَشْرَبُونَ مِنْهُ، وَتَنْبِتُ بِهِ الزَّرْعَ الْمَخْتَلِفَ الَّتِي فِيهَا رِزْقٌ لَكُمْ، وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ أَيْضاً أَشْعَةَ الشَّمْسِ، وَعَنَاصِرَ كَثِيرَةً تَمُدُّ الْأَرْضَ بِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَمَا يَسْتَحْضِرُ الْمَعْلُومَاتِ الدِّينِيَّةِ، وَالْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ الْمُتَبَيِّنَةِ فِي هَذَا الْكُونِ، وَالنَّعْمَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي يَفِيضُهَا اللَّهُ عَلَيْنَا إِلَّا الَّذِينَ يَرْجِعُونَ آتَاءً فَآتَاءً إِلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ وَشُكْرِهِ وَمِرَاقَبَتِهِ وَخَشْيَتِهِ.

١٤ - فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ - أيها المؤمنون - مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَا تَشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئاً، وَخُصُّوه بِالْإِدْعَاءِ، وَقَوْمُوا بِالْإِدْعَاءِ إِلَى دِينِ اللَّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ عِبَادَتَكُمْ وَإِحْلَاصَكُمْ وَتَبْلِيغَ دِينِ رَبِّكُمْ.

١٥ - الله سبحانه ذو درجات رفيعات من الكمالات لا تدرك الخلائق غايات لها، المرتفع سبحانه بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته عن كل ما سواه، وذو درجات رفيعات مما خلق، يرفع إلى أجزاء منها بعض عباده الذين يستحقون بفضلهم أن يرفعهم إليها، وهم متفاضلون في الدرجات التي يرفعهم إليها، خالق العرش ومالكه والمتصرف فيه، وهو مخلوق عظيم، فوق السموات السبع ومحيط بها، يُنْزِلُ الْوَحْيَ بِقَضَايَا الدِّينِ مِنْ عَقَائِدٍ وَشَرَائِعٍ وَوَصَايَا وَتَعْلِيمَاتٍ فَتَحِيَا بِهَا الْأَرْوَاحَ، كَمَا تَحْيَا الْأَبْدَانُ بِالْأَرْوَاحِ، يُنْزِلُهُ مِنْ قَضَائِهِ وَأَمْرِهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ؛ لِيُبَلِّغُوا بِالْوَحْيِ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ، وَلِيُبَشِّرُوا مَنْ آمَنَ بِجَنَّاتِ النِّعَمِ، وَلِيُنْذِرُوا مَنْ كَفَرَ وَعَصَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَلْتَقِي فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، بِدَعَا مِنْ آدَمَ حَتَّى آخِرِ مَخْلُوقٍ مِنَ النَّاسِ.

١٦ - يَوْمَ هُمْ خَارِجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ، ظَاهِرُونَ لَا يَسْتُرُهُمْ شَيْءٌ، عَلَى أَرْضِ الْمُحْشَرِ الْوَاسِعَةِ الْخَالِيَةِ مِنْ كُلِّ سَاتِرٍ، لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ فِي الدُّنْيَا، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْمُحْشَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ فَيَأْتِي الْجَوَابُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُتَلَاقِينَ فِي الْمُحْشَرِ: لِلَّهِ الْوَاحِدِ فِي رَبِيبِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، الْمُتَفَرِّدُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، الْقَهَّارُ الَّذِي قَهَرَ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ بِقُدْرَتِهِ وَعِزَّتِهِ.

١٧ - اليوم تُحاسب كل نفس وتُجزى بما كسبت بإراداتها الحرة، فيُجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا ظلم لأحد اليوم بزيادة المسيء بأكثر من إساءته، أو نقص المحسن بأقل من حسنة، إن الله المحيط بكل شيء علماً سريع الحساب، لا يشغله حساب عن حساب، بل يحاسب الخلق كلهم في وقت واحد، ولا يُظلم محسن ولا مسيء بطول انتظار.

١٨ - وأعلم - يا رسول الله - الذين كفروا ولم يستجيبوا لدعوة الحق بعواقب غير سارة يوم القيامة القريبة، حين نزول القلوب عن أماكنها تحت قفص الصدر حتى ترتفع إلى الحناجر من شدة الخوف من هول الموقف، حالة كونهم مكروبين مُمتلئين خوفاً وحزناً، مُمسكين ذعرهم داخل صدورهم، لا يُعبرون عنه بصياح ولا عويل، ما للظالمين من قريب ينفعهم، ولا شفيع يشفع لهم، يُطاع فيهم، فيدفع عنهم تنفيذ قضاء الله بعذابهم.

١٩ - يعلم الله سبحانه مُسارعة الأعين للنظر إلى ما لا يحل، ويعلم مُضمرات القلوب مما لا يظهر أصحابها، من الكفر الذي يخفيه المنافقون، والرياء، والكراهية، والحب، ومن النيات والإرادات والرغبات؛ فيجزى كل نفس بما كسبت.

٢٠ - واللَّهُ يحكم بالعدل، ويبت قرارات الجزاء بالشواب والعقاب بين الخلائق بالحق يوم القيامة، أما المحسنون فيضاعف لهم أجورهم أضعافاً كثيرة، وأما المسيئون فيتجاوز عن كثير من سيئاتهم، فلا يُعاقبهم عليها، والذين يعبدون المشركين من دون الله، لا يحكمون بين العباد بشيء؛ لأنها لا تعلم شيئاً، ولا تقدر على شيء، إن الله هو وحده السميع لكل ما له صوت مهما كان ضعيفاً خافتاً، حتى أصوات حركات أجزاء الذرة مهما صغرت، وهو وحده البصير بكل ما له ذات يُمكن أن تُرى، ومنه حركات الإلكترونات في داخل الذرات، فكيف يخفى عليه شيء من أصوات عباد وأعمالهم؟!

٢١ - أبقوا في بلدكم، ولم يسر هؤلاء المُكذِّبون في الأرض مسافرين في رحلاتهم التجارية، فينظروا بأعينهم كيف كان مصير الأمم الذين كانوا من قبلهم؟ دمر الله بلدانهم، وأبقى منها أثراً يعتبرون بها. فالعاقل من اعتبر بغيره، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من مشركي مكة، وأبقى أثراً عمرانية في الأرض، فلم تنفعهم قوتهم ومنشأتهم، من عقاب الله لهم، فقبض الله عليهم قبض عقاب، وأهلكهم إهلاك استئصال؛ بسبب ذنوبهم، ولم يكن لهم من حافظ وحام يدفع عنهم العذاب.

٢٢ - ذلك العذاب الذي نزل بالمهلكين السابقين، بسبب أنهم كانت تأتيهم رُسُلهم بالأدلة الواضحات من خوارق العادات، والآيات المنزلات على الرسل، المُبَيِّنَات لأصول الدين وأحكام الشريعة، فَجَحَدُواها، فقبض الله عليهم قبض عقاب وإهلاك شاملٍ مقرونٍ بعذاب شديد، إنَّه سبحانه عظيم القوة لا يغلبه أحد، بالغ الشدة في العذاب.

٢٣، ٢٤ - ونؤكد بشدة أننا بعظمة ربوبيتنا أرسلنا موسى مصحوباً بآياتنا البَيَّانَةِ والإعجازية العظيمة، وحجة ظاهرة وبرهان جلي مُبين للحق الذي أرسلناه به إلي فرعون ملك مصر، وهامان وزيره، وقارون صاحب الأموال والكنوز، وأقوامهم، فقالوا: هو ساحر بما جاء به من المعجزات، كذاب في دعواه أنه رسولٌ من ربه؟

٢٥ - فلما جاء موسى فرعون وقومه بالمعجزات الظاهرة من عندنا، ومنها: آيتا العَصَا التي تنقلب ثعباناً حقيقياً، واليد التي تصير بيضاء متلألئة من غير سوء، وبدأ بعض قومه الإسرائيليين يؤمنون به، وبما جاء به عن ربه. قال أركان القصر الفرعوني: أعيّدوا قتل أبناء الذين آمنوا معه، واستبقوا المواليد الإناث على قيد الحياة؛ للخدمة إذا صرن نساء كما فعلتم من قبل؛ ليصدوهم بذلك عن متابعة موسى عليه السلام ومظاهرته، خوفاً من أن يؤمن به كل الإسرائيليين، ويمتد إلى المصريين، وما تدبير فرعون وقومه وكيدهم الذي يكيدونه لحماية باطلهم إلا مغموساً في أحوال ضلال عن الحق والهدى والرشاد، يُذهب الله كيدهم في نهاية الأمر، ويحيق بهم ما يريد الله بهم من ضياع وخسران.

الْبَيْتُ الْكَبِيرُ

سُورَةُ غَافِلٍ

الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ
اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٧﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ لَا رَفْوَ إِذْ الْقُلُوبُ
لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
يُطَاعُ ﴿٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٩﴾
وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ
بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارُوا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ
قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا
وَسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿١٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَقُرُونَ
فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ
عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٥﴾



٢٦ - وقال فرعونُ لوزرائه ومجلس المُستشارين في أواخر دعوة موسى عليه السلام في مصر، وبعد أن أجرى الله له الآيات التسع التي أتاه إياها: اتركوني أقتل موسى، ولْيَدْعُ موسى ربَّه الذي يزعم أنه أرسله إلينا، فيمنعه منا، وينزل نعمته علينا، إني أخاف أن يُغَيِّرَ موسى دينكم الذي أنتم عليه، أو أن يُظهِرَ بدعوته وخوارقه في أرض مصر الفساد، بتحريض الشعب على التمرد على سلطان القصر الفرعوني.

٢٧ - وقال موسى لفرعون وملئه لما تهددوه بالقتل: إني لجأت مستعيذاً بربي وربكم لحمايتي وحفظي، واعتمدتُ عليه من شرِّ كلِّ مُستَكبر عن توحيد الله وطاعته، لا يؤمن بيوم القيامة الذي يكون فيه الحساب من قِبَلِ رَبِّ العباد.

٢٨ - عقد فرعون جلسة لاحقة جمع فيها وزراءه ومُستشاريه، وقال لأعضاء مجلس وزرائه ومُستشاريه: ما رأيكم فيما عرضتُ عليكم من قتل موسى؟ وعندئذ قال رجلٌ مؤمنٌ من أعضاء مجلس المُستشارين في القصر الفرعوني يُخفي إيمانه منكراً عليهم: أقتلوا رجلاً من أجل أنه يقول: ربِّي الله؟ في حال أنه قد جاءكم بالجليات الفكرية الصحيحة المقرونة بالمعجزات الواضحات التي تدلُّ على صدق نبوته من خالقكم ومُمدِّكم دوماً بعباءات ربوبيته، ولا يخلو أمر موسى من أحد احتمالين: إمَّا أن يكون كاذباً، وإمَّا أن يكون صادقاً، فإن كان كاذباً لا يضركم ذلك، إنما يعودُ وبأَلْ كذبه عليه، وإن كان صادقاً فكذبتموه، يُصبكم - في أضعف احتمالات النجاة - بعض الذي يعدُّكم، مُحذِّراً ومنذراً من عقاب الله العاجل في الدنيا، والآجل إلى يوم الدين، ولو أنه كان كاذباً لما تابعت هداية الله له، وإمداده بآيات شاهدها، إنَّ الله لا يهدي مَنْ هو مُجاوِزٌ للحُدِّ، كَذَّابٌ على الله في ادِّعائه النبوة، فلا بدَّ أن يخيب في مشعاه، ولا

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بَيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُولُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرَ لِي فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَ فَأَقَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَاوُدَ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادَ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُنَادُونَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يَضِلْ لَهِ فَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

ينجح في مقاصده.

٢٩ - يا قومي الذين أنتم أهلي وعشيرتي: لَكُمْ الْمُلْكُ اليوم غالبين بقواتكم في أرض «مصر» كلُّ مخالفكم ومُنافسيكم، فلا تتعرضوا لعذاب الله بالتكذيب وقتل النبي، فَمَنْ ينصرنا حامياً لنا من عذاب الله الشديد إن حلَّ بنا كما توعدنا موسى بسبب كفرنا بما جاء به عن الله؟ قال فرعون لمجلس وزرائه ومُستشاريه بعدما خشي أن تؤثر أقوال هذا الرجل على جمهور الأمراء والوزراء لما فيها من بيانات وحجج مقنعة، فأنهى العرض الاستشاري، وحسم الأمر بقرار استبدادي: ما أريكم من الرأي والنصيحة إلا ما أراه لنفسي صالحاً، وما أرشدكم في عرضي عليكم أن أقتل موسى إلا إلى طريق الهدى؛ لحمايتكم ممَّا يُحدثه هذا الرجل من فتنة في «مصر».

٣٠ - وقال الرجل المؤمن من آل فرعون يتابع نُصحه لفرعون ومجلس وزرائه ومُستشاريه: يا قومي الذين أنتم أهلي وعشيرتي، إني أخاف عليكم عذاباً مُعجلاً في الدنيا، وإهلاكاً شاملاً، ينزلُهُ ربُّكم بكم، مثل ما أنزل في الأيام التي أهلك فيها الجماعات الذين تشابهت مبادئهم وأهواؤهم وصور كفرهم، وتحزَّبوا على أنبيائهم.

٣١ - إني أخاف عليكم إجراء سنةٍ مثل سنةِ الله التي أجراها الله لقوم نوح وعاد وثمود، وَمَنْ جاء بعدهم في الإصرار على الكفر والتكذيب حتى أتاهم العذاب. وقد أهلك الله هؤلاء الأحزاب بعده؛ لأنهم ظلموا بكفرهم، ويتكذَّبهم رسل ربهم، وما الله سبحانه يريد ظُلماً للعباد، فلا يهلكهم إلا بعد إقامة الحُجَّة عليهم.

٣٢ - ويا قومي الذين أنتم أهلي وعشيرتي: إني أخاف عليكم من عقاب الله المؤجَّل إلى يوم التَّنَاد، يُنادى كلُّ أناس بإمامهم، وينادي بعضكم بعضاً، بالويل والثبور، والشكوى والتحسر ممَّا نزل بكم من عظام الأمور.

٣٣ - يوم تحاولون أن تتعدوا مدبرين، خائفين من إلقاءكم في النار، فلا تستطيعون. ما لكم من عذاب الله وعقابه النازل بكم حتماً من حافظ يحفظكم، ومنع يمنعكم من عذابه، وَمَنْ يحكم الله عليه بالضلالة بناءً على ما سَلَفَ منه في الحياة الدنيا، فما لَهُ مِنْ حاكم يحكم له بالهداية، لِيُنْجِيَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.

وبعد أن حذر مؤمن آل فرعون قومه من العذاب المعجل في الدنيا أولاً، وحذرهم من عذاب الله الخالد يوم الدين ثانياً، ذكَّره بعد هذين التحذيرين بيوسف عليه السلام الذي كان الرجل الثاني في القصر بعد فرعون ملك «مصر» في زمانه.

٣٤ - وأؤكد لكم - أيها القوم - مفسماً أن الله أرسل إليكم النبي الكريم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالآيات الواضحات الجليات من قضايا الدين عقيدة وشريعة وأحكاماً، مقرونة بالآيات الخوارق الدالات على صدق نبوته، فما زلت في شك مما جاءكم به مانع لكم من الإيمان به، وترك طريقكم الباطلة؛ لتبقى لكم امتيازاتكم الظالمة التي تنالونها بقوة السلطان في «مصر»، حتى إذا مات وخلا لكم الحكم، انطلقتم في «مصر» ظالمين آثمين، لا يعترض تصرفاتكم سلطان رسول حاكم، بيده مقاليد أمور الدولة، وقتلتم من غير حجة ولا برهان: لن يبعث الله من بعد يوسف رسولاً يملك مقاليد الحكم في القصر الفرعوني؛ لأننا لن نمكّن رسولاً من الوصول إلى كرسي الحكم، حتى لا يمنعنا من تحقيق مبادئنا من أهوائنا وشهواتنا، باعتبارنا الأسرة المالكة الحاكمة ذات التصرف المطلق، وقد انطلقتم باغين ظالمين، بعد يوسف، ومكنكم الله من هذا الضلال في الدنيا، ليدنكم بجرائمكم يوم الدين. مثل هذا الإضلال الذي حصل لآل فرعون يمكّن الله من الضلال من أرادته لنفسه ممن هو مجاوز الحد في شركه وعصيانه وبغيه وجرائمه، شك في الحق الواضح الجلي لتحقيق أهوائه وشهواته ومبادئه الظالمة الآثمة. وهذه سنة الله في عباده، فمن اختار لنفسه سبل الضلال مكّنه الله من سلوكها، وأمدّه بمختلف القوى؛ ليحقق ما اختار لنفسه في رحلة امتحانه.

٣٥ - هؤلاء المشرفون المرتابون الذين يجادلون في إبطال آيات الله البيانية والكونية والإعجازية بالكذب بغير حجة وبرهان أتاهم من علم صحيح أو خبر يقيني ثابت عن الله، كبر ذلك الجدل كرهاً عند الله وعند المؤمنين؛ لانكشاف مرواغاتهم وحيلهم الجدلية. كما ختم بالضلال، وحجب عن الهدى قلوب هؤلاء المخاصمين نتيجة ما كسبوه بإراداتهم من أعمال ظاهرة وباطنة، يتولد عنها الطبع بمقتضى

سنة الله في عباده، ضمن قوانين الأسباب والمسببات الثابتة، كذلك يختم الله على كل قلب متعالٍ على الحق، متعاضم على عباد الله، متسلط بالقوة على الناس يكرههم بالقهر على ما يريد بغير حق، فتنتمس بصيرته فلا يهتدي بالنور الذي يوضع بين يديه، بل يستمر تائهاً في ظلماته.

٣٦، ٣٧ - وقال فرعون لوزيره: يا هامان ابني لي قصراً عالياً شامخاً؛ لعلّي أبلغ طرق السموات وأبوابها العلوية من سماء إلى سماء، فأرى إله موسى الذي يمدّه بالقوى العجيبة والخوارق، لأسأله: هل موسى رسوله حقاً؟ وإني لأظن موسى كاذباً فيما يدعي ويقول: أن له رباً غيبي. ومثل ذلك التزيين الباطل الذي جعل فرعون يعرض عن قبول دعوة المؤمن من آله إلى الحق الرباني، زين لفرعون أيضاً سوء عمله في كل حياته حتى رآه حسناً، ومنع وصرف عن سبيل الهدى؛ بتزيين الشيطان وأهواء نفسه ووساوسها وشهواتها، ودبر فرعون تدبيراً ظاهراً وخفياً للتخلص من الرجل المؤمن من آله، ومن موسى عليه السلام، ولكن الله أحبط كيده، وأنجى موسى وهارون ومن معهما، وأغرق فرعون وجيشه، وما مكر فرعون واحتياله لقمع الحق ودعائه إلا في خسارة وخيبة وهلاك.

٣٨ - وقال الذي آمن من قوم فرعون: يا قومي الذين أنتم أهلي وعشيرتي: اتبعون فيما أَدْعُوكُم إليه، أبين وأوضح لكم الطريق الموافق للحق والصواب، ولما هو الأفضل والأحسن والأكثر نفعاً، والأبعد عن الضرر العاجل والآجل.

٣٩ - يا قومي الذين أحرص على نجاتهم من عذاب الله: ما هذه الحياة الدنيا إلا متاع حقير صغير سريع الزوال، تنتفعون بها مدة قليلة ثم تنقطع، ومصيرها إلى الزوال والفناء، فلا تغرّكم زينتها، ولا تخدعنكم مظاهرها وفنتها. وإن الآخرة - وحدها - هي دار الاستقرار الدائم التي تستقرون فيها بسكون وطمأنينة، فاحذروا أن يكون استقراركم في الآخرة في دار العذاب، واحرصوا أن يكون استقراركم في دار النعيم التي أعدّها الله للمؤمنين المتقين.

٤٠ - إن من قانون الجزاء الرباني القائم على العدل: أن من عمل سيئة من مرتبة الشرك فما دونه من الجحود والنفاق فجزاؤه جهنم خالداً فيها، ومن عمل بالمعاصي دون الشرك فجزاؤه العقوبة بقدرها في أشد درجات الجزاء عليها، إذا لم يغفر ولم يعف سبحانه. ومن قانون الجزاء الرباني القائم على الفضل: أن من عمل عملاً صالحاً من ذكر أو أنثى - وهو مؤمن بما يجب أن يؤمن به - فأولئك رفيعو المنزل يدخلون الجنة، يرزقون فيها مما يحبون من رزق مادي ومعنوي رزقاً غير مقطوع ولا ممنوع، وغير مُقدّر بحساب الحاسبين، لا تبعه عليهم فما يعطون في الجنة من الخير.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ يُونُسَ

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَمَرْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَيُغَيِّرُ سُلْطَانًا أَنْتَهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ ابْنُ بَنِي صَرَاحَةَ عَلِيٍّ أَتُبْلَغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٨﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُوا أَنِّي مَعَكُمْ ۚ هَدَىٰكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٤٠﴾ يَقُومُوا إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ۚ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٤١﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۚ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٢﴾

٤١ - ويا قومي الذين أنتم أهلي وعشيرتي: أي شيء هو لي مبين للحق والخير حتى رفضتم دعوتي إلى الإيمان الذي يُوجب النجاة من الخلود في عذاب النار يوم الدين، وأي شيء هو لكم من دليل تقبله العقول السليمة، وأنتم تدعونني إلى الشرك الذي يُوجب الخلود في عذاب النار؟!

٤٢ - إنكم تدعونني لأكفر بالله خالق كل شيء، وتدعونني لأشرك به ألهمتكم الباطلة، التي لا يوجد دليل عقلي يُثبت إلهيتها، ولا دليل حسي يُثبت ربوبيتها، وأنا أدعوكم إلى الإيمان بالله ربكم، الذي لا يوجد معبود بحق إلا هو، ومن صفاته: أنه القوي الغالب في انتقامه ممن كفر، عظيم الغفران وكثيره، فهو يستر سوابق ذنوبكم، ويتجاوز عن مؤاخذتكم عليها، إن أنتم وأسلمتم وعملتكم أعمالاً صالحة ترضيه.

٤٣ - حقاً إن الإله الذي تدعونني لعبادته ليس له أثر يُحقق صحة هذه الدعوة في الدنيا ولا في الآخرة، فدعوتكم كاذبة باطلة ليس لها حقيقة، مرفوضة لذوي العقول الصحيحة السليمة، فهي بمثابة الأمر المعلوم الذي يقال بشأنه: لا وجود له، وأن رجوعنا، ومكان رجوعنا، وزمانه بعد الموت والبعث، إلى حساب الله، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، فيُجازي كل بما يستحقه، وأن الغالين في ذنوبهم، ومعاصيهم، وبغيهم، وجرائمهم، وظلمهم إلى ذرّة الكفر هم أصحاب النار الملازمون لها، لا يفارقونها، ولا يُخفف عنهم عذابها.

٤٤ - فسَذكرون في الدنيا قبل الآخرة، ما أقول لكم بتكرار ناصحاً وهدايا، وذلك حينما ينزل بكم عذاب من الله يستأصلكم به مُهلكاً لكم، وأردُ أمري إلى الله، وأجعل له التصرف فيه، وإسأله الحماية والحفظ من مكر الأعداء وكيدهم؛ إن الله بصير بالعباد لا يغيب عن

وَيَقُولُ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفُورِ ۖ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ فَسَذكُرُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۖ فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مِمَّا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۖ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ وَإِذْ يَتَحَاجَّوْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَلَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۖ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۖ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۖ

بصره تدبير أعدائه، فهو قادرٌ على أن يُحبط تدابيرهم، وهو الذي يحفظ أوليائه.

٤٥ - فجعل الله بين مؤمن آل فرعون وبين السيئات التي مكروها ضده وقاية، فلم يُصبه منها شيء، وأحاط العذاب السوء نازلاً بآل فرعون، بالغرق في الدنيا، والنار في البرزخ والآخرة.

٤٦ - النار يُعرضون عليها صباحاً ما بين طلوع الفجر والشمس، ومساءً من العصر إلى غروب الشمس في قبورهم إلى يوم الحساب، ويوم تقوم ساعة بعث الموتى إلى الآخرة، ويجري حساب الله، وفصل قضائه بآل فرعون الكافرين، يقول الله تعالى لَخَزَنَةٌ جَهَنَّمَ: ادخلوا آل فرعون مكاناً من جهنم فيه أشد العذاب.

وهذه الآية دليلٌ على إثبات عذاب القبر، أعادنا الله منه بمئه وكرمه؛ إذ أن آل فرعون يُعرضون على النار - في مدة البرزخ بين الموت والبعث - غدواً وعشيا، قبل يوم القيامة، وإن في هذا العرض على النار لعذاباً.

٤٧ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لبيان ربك - إذ يختصم أهل النار في النار، فيقول الضعفاء الأتباع للمستكبرين الذين كانوا أئمتهم: إنا كنا لكم تابعين، وكنتم أئمتنا في الدنيا، نطيعكم فيما كنتم تأمروننا به، وصرنا الآن جميعاً مُعَلِّين للكفر الذي أمرتمونا به، وللجرائم التي أظعنكم في ارتكابها، فهل أنتم اليوم كأفون وصارفون عنا جزءاً من عذاب النار، بتحملكم قسطاً من عذابنا؟

٤٨ - قال الرؤساء والقادة المتبعون: إنا جميعاً في النار نحن وأنتم، وكل واحد منا يعذب بالعدل على مقدار ما قدم في الدنيا من كفر وجرائم وآثام، باختيابه الحر، إن الله قد قضى بين العباد جميعاً بالعدل والفضل، فلم يحكم عليكم بأكثر مما تستحقون من عذاب، ولا نستطيع أن نكف أو نصرف عنكم شيئاً من العذاب، والحكم له وحده لا شريك له.

٤٩ - وقال الذين يعذبون في النار بعذاب أبدي حين اشتد عليهم العذاب لَخَزَنَةٌ جَهَنَّمَ يستعطفونهم بتذلل وخضوع: ادعوا ربكم يُخفف عنا يوماً واحداً من العذاب بقدر يوم من أيام الدنيا؛ كي تحصل لنا بعض الراحة.

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْتَدِلُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّهُمْ يَخْتَصِمُونَ لَكُمْ أَنْتُمْ تَكُونُونَ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَأْهُمْ يَلْغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٧﴾ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مِمَّا تَدْكُرُونَ ﴿٥٩﴾

٥٠ - قال خَزَنَةُ جهنم - تهكمًا بهم -: ألم تكن لكم أسماع وأبصار ووسائل إدراك تفرق بين الحق والباطل، ولم تكن تأتاكم رُسُلُكم في الحياة الدنيا بالمعجزات الظاهرات؟ قال أهل جهنم: بلى. كانت لنا أسماع وأبصار وأجهزة إدراك تفرق بين الحق والباطل، وجاءتنا الرسل، فبلغونا مطلوب الله منا، فكذبناهم. قال خَزَنَةُ جهنم: نحن لا ندعو لكم، ولا يُخَفَّفُ عنكم العذاب، فادعوا أنتم ربكم، ولكن هذا الدعاء لا ينفعكم؛ لأنكم كنتم في الحياة الدنيا كافرين، وما دعاء الذين كانوا كافرين بربهم إلا في ضياع لا يقبل، ولا يُستجاب، ولا أثر له عند الله.

٥١ - إنا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً في الحياة الدنيا على أعدائهم الكافرين بالغلبة والقهر، والحجة والبرهان، وبالانتقام منهم، مهما أمهلتهم وأملت لهم، وسوف ننصر رسلنا والذين آمنوا يوم القيامة، يوم تشهد فيه الملائكة والرسل والمؤمنون على الأمم التي كذبت رسلها، وتشهد بأن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، فيحكم الله لأوليائه المؤمنين بأنهم من أهل جنات النعيم، ويحكم على الكافرين بأنهم من أصحاب دار العذاب الآليم.

٥٢ - يوم لا ينفع الظالمين عذرهم إن اعتذروا عن كفرهم، ولا يقبل منهم، ولهم الطرد الكبير الشديد من رحمة الله، ولهم سوء دار الآخرة، وهو عذابها في جهنم.

٥٣، ٥٤ - ونقسم مؤكدين أننا آتينا موسى الآيات البيّنات المنزلات، والآيات الخوارق المعجزات، فكذب بها فرعون وجنوده، فنصرنا أوليائنا على أعدائنا، وأورثنا بني إسرائيل من بعد موسى كتاب التوراة؛ إرشاداً وتذكيراً لأصحاب العقول الواعية الذراة، التي تعقل المعارف فتُمسك بها، وتعقل النفس عن اتباع الهوى.

٥٥ - فاصبر - يا رسول الله - على أذى قومك، كما صبر الذين من قبلك من الرسل؛ إن وعد الله حق في إظهار دينك، وإهلاك أعدائك، واسأل ربك أن يغفر لك ما قد يقع منك من ذنب، في حدود التقصير فيما أوجب عليك من مراتب البر والإحسان، ونزه ربك تنزيهاً عن كل ما لا يليق بجلاله، واجعل هذا التنزيه مُقْتَرناً بحمده والثناء عليه بصفاته الجليلة وأسمائه الحُسنى بالعشي: في آخر النهار من العصر إلى الغروب، والإبكار: في أوله من طلوع الفجر حتى طلوع الشمس.

٥٦ - إن الذين يُخَاصِمُونَ في دلالات آيات الله الكونية والبيانية المنزلة والجزائية العقابية والإعجازية عناداً بغير برهان أناهم من مقاييس عقلية، أو أدلة حسية، أو خبر عن الله صادق، ما حملهم على المجادلة في آيات الله بالباطل إلا ما في صدورهم من الكبر والتعظيم والتعالي عن الحق، وليس تعالىهم بموصلهم إلى غايتهم، فهم بين الكبر في نفوسهم وواقع حالهم على طرفي نقيض، إن كبرهم يجعلهم يتنفخون في نفوسهم، وواقع حالهم يتصاغروا بهم حتى يضعهم في مواقعهم التي هم عليها، فاعتصم بالله من شرهم، ومن التأثير بجذلياتهم وزخرف أقوالهم الخادعة؛ إنه هو السميع لاستعدادك به، البصير بأحوال نفسك، فإذا وجدك صادقاً في تضرعك، أعاذك وحماك ونصرك على المجادلين في آيات الله بالباطل.

٥٧ - لَخَلَقُ الله السموات والأرض مع عظيمها أكبر من خلق الناس وإعدادهم بعد الموت، ومع أن السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فهي كلها مُسَخَّرَةٌ لله، تسير طائعة لما يُجري الله فيها بأمره. فما للإنسان المستكبر يتعالى ويتعظم عن طاعة الله وعبادته، ويجادل في آياته بالباطل؟! ولكن أكثر الناس لا يرغبون في أن يعلموا حقائق الأمور، التي تقتضي كُفْهم عن اتباع أهوائهم وشهواتهم وجدالهم بالباطل.

٥٨ - وما يستوي الجاهل الذي ساقه الجهل إلى الكفر، والعالم الذي هداه علمه إلى الإيمان، وكذلك لا يستوي أفراد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا أفراد جنس المُسيء، فكل من الفريقين أفرادهما متفاضلو المستويات؛ فلا بد أن يظهر التفاوت بين الفريقين، فيما بعد الموت والبعث، ولا بد أن يعاقب الكافر على كفره، وأن يُثاب المؤمن على إيمانه. كما لا بد أن يُثاب كل فرد من أفراد من آمن وعمل صالحاً بحسب درجته، أما المسيئون فيستحقون العقاب بحسب ذرّة كل واحد منهم من المعاصي والذنوب، تذكراً قليلاً لتذكرون - أيها الناس - فيحدث التذكّر فيكم الأثر النفسي والسلوكي.

٥٩ - إِنَّ سَاعَةَ بَعثِ الْمَوْتَى وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ، لِسَاعَةٍ آتِيَةٍ لَا شَكَّ فِي قِيَامِهَا وَمَجِيئِهَا، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَرْغَبُونَ أَنْ يُصَدِّقُوا بِالْبَعثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَتْبَاعاً لَأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَمَطَالِبِ نَفْسِهِمْ.

٦٠ - وَقَالَ رَبُّكُمْ: ادْعُونِي - دُونَ غَيْرِي - وَخَضُّونِي بِالْعِبَادَةِ، وَلَا تَشْرِكُوا بِي أَحَدًا، أَسْتَجِبْ لَكُمْ، وَأَمَّا آلِهَتُكُمْ فَإِنَّهَا لَا تَسْتَجِيبُ لَكُمْ شَيْئًا. إِنَّ الَّذِينَ يَغْلُون فِي كِبَرِهِمْ، مُتَرَفِّعِينَ مَمْتَنِّعِينَ عَنْ عِبَادَتِي، وَأَنَا رَبُّهُمْ الْمُؤَمِّلُ لَهُمْ بَعْطَاءَاتٍ رَبُوبِيَّةً، سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَاغِرِينَ ذُلِيلِينَ، جَزَاءً أَسْتَكْبَارِهِمْ.

٦١ - اللَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ؛ لِتَحْصِلَ لَكُمْ الرَّاحَةُ فِيهِ بِالنَّوْمِ وَالسَّكُونِ، وَجَعَلَ النَّهَارَ مُضِيئًا كَاشِفًا لَكُمْ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَرِيدُونَ إِبْصَارَهَا بِأَعْيُنِكُمْ، لِتَعْمَلُوا فِي النَّهَارِ وَتَتَصَرَّفُوا فِي حَوَائِجِكُمْ وَمُهِمَّاتِكُمْ وَأُمُورِ مَعَاشِكُمْ. إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ عَلَى النَّاسِ بِنِعْمَةِ الْوَفَاةِ، وَالوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَى مَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ يَكْفُرُونَ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَشْكُرُونَهُ أَدْنَى دَرَجَاتِ الشُّكْرِ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ.

٦٢ - ذَلِكَ الْعَظِيمُ الْجَلِيلُ - الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، الْمُمَيِّزُ بِالْأَفْعَالِ الْخَاصَّةِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ - هُوَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، مِنْ أَصْغَرِ أَجْزَاءِ الذَّرَّاتِ، إِلَى أَكْبَرِ الْكَائِنَاتِ مِنَ الْمَجَرَّاتِ، فَمَا فَوْقَهَا، حَتَّى حَرَكَاتِ كُلِّ ذِي حَرَكَةٍ فِيهَا، لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ، الْجَامِعُ لِهَذِهِ الْأَوْصَافِ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ وَالرَّبُوبِيَّةِ وَخَلَقِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَكَيْفَ تُصَرِّفُونَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟!

٦٣ - كَمَا صُرِفْتُمْ عَنْ الْحَقِّ مَعَ قِيَامِ الدَّلَائِلِ الْجَلِيَّةِ، كَذَلِكَ يُصَرَّفُ عَنِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ بِهِ الَّذِينَ كَانُوا يُنْكِرُونَ آيَاتِ اللَّهِ وَيَجْحَدُونَهَا مِنْ

إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَارْتِيَابٍ فِيهَا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤَفِّكُمُ الَّذِينَ كَانُوا يُبْغِضُونَ إِلَهُكُمْ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْإِلَهَ الْأَوْفَاقَ تُوَفَّقُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكَّرًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾

الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، فَنَالُوا بِجُحُودِهِمْ مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ عَذَابٍ وَإِهْلَاكٍ، ثُمَّ يَنَالُونَ خُلُودًا فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

٦٤ - اللَّهُ الَّذِي افْتَرَقَ عَلَيْكُمْ بِأَرْبَعِ مَنَ: الْمَنَّةُ الْأُولَى: جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَكَانًا صَالِحًا لِلْإِسْتِقْرَارِ عَلَيْهَا وَالسَّكُونِ وَالْإِطْمِئْنَانِ وَالْإِقَامَةِ الدَّائِمَةِ، وَالْمَنَّةُ الثَّانِيَّةُ: جَعَلَ السَّمَاءَ بَنَاءً ذَاتَ أَجْزَاءٍ مُتْرَابَةٍ مَتَمَاسِكَةٍ يَمْنَعُ هَذِهِ الْأَجْزَاءُ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ نِظَامِهَا خُرُوجًا مُفْسِدًا لَوْحِدَةِ نِظَامِ الْكَوْنِ، الَّذِي لَوْ وَجَدَتْ لَتَسَاقَطَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلِصَارَتِ الْأَرْضُ هَبَاءً مَنثورًا، وَالْمَنَّةُ الثَّالِثَةُ: صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ، فَالْإِنْسَانُ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي أَكْمَلِ هَيْئَةٍ وَأَحْسَنِ صُورَةٍ، مِنْ كُلِّ ذِي حَيَاةٍ لَهُ صُورَةٌ مَا، وَالْمَنَّةُ الرَّابِعَةُ: رَزَقَكُمْ مِنَ الْمُبَاحَاتِ مَا يَلْذُّ لَكُمْ. ذَلِكَ الْعَظِيمُ الْجَلِيلُ - الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ - هُوَ رَبُّكُمْ الْمَهِيْمُنُ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رَبُوبِيَّتِهِ، وَالْمُؤَمِّلُ لَكُمْ بِمَنْنِهِ وَهَبَاتِهِ وَعَطَايَاهُ، فَتَكَاتِيرُ خَيْرِهِ وَفَضْلُهُ، وَتَزَايِدُ وَتَعَاظِمُ فَوْقَ كُلِّ مَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِمَّا سِوَى اللَّهِ مِنْ مَوْجُودَاتِ حَاضِرَاتٍ، أَوْ غَائِبَاتٍ، أَوْ سَتُوجَدُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَهِيَ عَلَامَاتٌ دَالَاتٌ عَلَى خَالِقِهَا وَصِفَاتِهِ الْحُسْنَى.

٦٥ - هُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ الْحَيُّ دَوَامًا مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ الْفَعَّالُ لِمَا يَرِيدُ، الَّذِي لَهُ الْعِلْمُ التَّامُّ وَالْقُدْرَةُ التَّامَّةُ، وَلَا يُوصَفُ بِالْحَيَاةِ الْكَامِلَةِ إِلَّا هُوَ، لَهُ كِمَالُ الْوَحْدَانِيَّةِ، لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ، فَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِالْإِعْدَاءِ، مُخْلِصِينَ لَهُ دِينَكُمْ وَطَاعَتَكُمْ، وَاحْمَدُوهُ سَبْحَانَهُ، فَالْتِمَاءُ كُلُّهُ حَقٌّ ثَابِتٌ لِلَّهِ رَبِّ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ، فَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْحَمْدِ لِكَمَالَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ الْمَطْلُوقَةِ، وَلِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ الْمَتَفَضِّلُ عَلَى عِبَادِهِ، وَالْمُؤَمِّلُ لَهُمْ بِرِعَايَتِهِ وَحِفْظِهِ وَعَطَايَاتِ رَبُوبِيَّتِهِ.

٦٦ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لِمَشْرِكِي قَوْمِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِلَى عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ وَلِلنَّاسِ جَمِيعًا: إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الْآلِهَةَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، حِينَ جَاءَتْنِي الْآيَاتُ الْوَاضِحَاتُ مِنْ عِنْدِ رَبِّي، وَقُلْ لَهُمْ أَيْضًا: أُمِرْتُ أَنْ أُخْلِصَ تَوْحِيدِي، وَأَنْقَادَ بِالطَّاعَةِ التَّامَّةِ فِي كُلِّ أَعْمَالِي الْإِرَادِيَّةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَالْجَسَدِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ لِخَالِقِ الْكَائِنَاتِ، وَالْمُهَيِّمِنِ عَلَى كُلِّ مَا سِوَاهُ بِسُلْطَانِ رَبُوبِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظَّمَ سُلْطَانَهُ.

٦٧ - هو الله الذي خَلَقَ أبابكم آدم من تراب وأنتم من نسله، مخلوقون من تراب، كما أنَّ جسد كلِّ مخلوق من تراب تحوّل بخلق الله إلى غذاء، فدماء، ومن الدم تكون نطف المني، ثم بعد أطوار كثيرة أوجدكم من مَنِيٍّ، ثم بعد أطوار كثيرة أوجدكم من قطعة دم جامد، ثم بعد أطوار كثيرة يُخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً، ثم يمدُّ في آجالكم؛ لتبلغوا سنَّ الكمال في القوة والعقل، ثم يطيل أعماركم؛ لتبلغوا سنَّ الشيخوخة، وبعضكم يتوفاه الله في أيِّ سنِّ بعد ولادته، ومن قبل أن يصل إلى مرحلة الشيخوخة التي يتصل بها الهرم، ويُبقِي الله في الحياة مَنْ لم ينته أجله، ويستمرُّ مُمدداً له في الحياة، وتبلغوا جميعاً وقتاً محدوداً لا تُجاوزونه، ويرغب ربكم في أن تعقلوا عقلاً علمياً ما في هذه الأحوال العجيبة، واختلاف الأعمار المجهولة، وذلك بوضع هذه الحقيقة في ذاكرتكم، وأن تعقلوا عقلاً إرادياً بضبط حركة حياتكم بإرادة جازمة عن تعريض نفوسكم لسخط الله وعذابه بمعصيته، وبالخروج عن صراطه المستقيم.

٦٨ - الله سبحانه وحده هو المُنفرد بالإحياء والإماتة، يُحيي الأحياء على اختلاف أنواعها ورُبَّها في سُلَم الحياة، فلا أحد في الوجود كلُّه يُحيي بنفخ الروح التي تكون بها النفوس حيّة غيره جلّ جلاله، ولا أحد في الوجود كلُّه يميت بنزع الروح التي تكون بها النفوس الحيّة ميّنة غيره جلّ جلاله، فإذا أراد الله سبحانه تنفيذ أمر سبق أن قدره وقضاه، وجاء أجل التنفيذ، فلا يحتاج تنفيذه إلا أن يوجّه له أمر التكوين، فيقول له: «كن»، فهو يكون.

٦٩ - ألم تر - أيها العاقل البصير - ناظراً إلى الذين يُجادلون في آيات الله بالباطل، كيف يُصرفون عن آيات الله الواضحة الجليّة، المُوجبة للإيمان بها، إلى الجحود والتكذيب، والجدال بالباطل فيها.

سُورَةُ غَاثِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَكُمْ كُنُوزٌ ثُمَّ يَكُونُوا سُيُوفًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٠﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصْرِفُونَهَا ﴿٧٢﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ إِذِ الْأَعْدَاءُ فِي أَغْنَقِيهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧٤﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٥﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٦﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنْ عَابِلٍ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٨﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيدَنَّ بَعْضَ الَّذِي نَعْلَمُ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّا نِيرْجِعُونَ ﴿٨٠﴾

٧٠ - هؤلاء المجادلون في آيات الله بالباطل الذين كذبوا بالقرآن والكتب التي أنزلناها على رُسُلنا، وكذبوا بما أرسلنا به رُسُلنا من كلِّ الأمم، حتى خاتمهم محمد، فسوف يعلمون عاقبة كذبهم، حين تُجعل أطواق الحديد في أعناقهم، والسلاسل في أرجلهم، يُجرّون بتلك السلاسل في الجمر الكاوي لأجسادهم، ثم بعد سحبهم على الجمر، يوضعون في النار ليحترقوا بها، فيكونوا وقودها كما يُملأ الثور بالحطب لإحماته.

٧٣، ٧٤ - ثم تقول لهم الخزنة توبيخاً: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ فادعوه؛ ليخلصوكم من العذاب الذي أنتم فيه الآن؟ قالوا: غابوا عن عيوننا، فلم نرهم، بل ضاعت عبادتنا لها، فكأننا لم نكن نعبد من قبل في الحياة الدنيا شيئاً له وجود في الواقع، مثل هذا الضلال الذي ضلَّ به المشركون الذين يجادلون في آيات الله بالباطل، يحكم الله عليهم بالضلال، ويحكم على كل الكافرين بالضلال المُماتل لضلالهم، بمقدار نسبة ضلال كلِّ فرد منهم، فحكم الله على الناس حكماً إفراديًّا، وليس حكماً جماعياً.

٧٥ - ويقال لهم أيضاً بعد إصدار الحكم عليهم بالعذاب الذي يستحقُّه كلُّ واحدٍ منهم: ذلك العذاب الذي نزل بكم؛ بسبب ما كنتم تفرحون في الحياة الدنيا من كفر بالله وتكذيب بآياته، وتحقيق ما تحبون وتشتهون من فسق وفجور، وظلم وبغي وعدوان، وبسبب ما كنتم عليه في الحياة الدنيا من الأشر والبطر والاستكبار على عباد الله.

٧٦ - ويقال لهم: ادخلوا أبواب جهنم السبعة بحسب ذرّكاتكم؛ عقوبة لكم على كفركم بالله ومعصيتكم له، خالدين فيها، فبئس مكان الإقامة الدائمة للمتكبرين، الذين جعلهم كبرهم يرفضون اتباع ما جاءهم من عند ربهم.

٧٧ - فاصبر - يا رسول الله - ولا تستشرف نفسك إلى تعجيل الانتقام من مُكذِّبك؛ إنَّ وعد الله حقٌّ، له وقتٌ مُحدّدٌ عنده، وسينصرك على أعدائك، فإنما نريدك بعض الذي نعدُّهم به من عقاب مُعجل في الحياة الدنيا قبل أن تتوفَّاك، أو نتوفّيكَ قبل أن يجلَّ ذلك بهم، فإلينا - وحدنا - مصيرهم يوم القيامة، فنحاسهم على ما كانوا يفعلون.

٧٨ - وَنُقَسِّمُ مُؤَكِّدِينَ أَنَّا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - رُسُلًا مِنْهُمْ مِنْ قَضَضْنَا عَلَيْكَ خَبْرَهُ فِي الْقُرْآنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى آيَاتٍ وَمُعْجَزَاتٍ، وَقَدْ جَادَلَهُ قَوْمُهُ وَكَذَّبُوهُ فِيهَا، فَلَا تَتَطَلَّعْ إِلَى آيَةٍ إِعْجَازِيَّةٍ كَبْرَى تَكُونُ سَبَبًا فِي هِدَايَةِ كُفْرَاءِ قَوْمِكَ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِمُعْجَزَةٍ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ، فَإِذَا أَتَى اللَّهُ رَسُولَهُ آيَةً كَبْرَى اسْتِجَابَةً لَطَلَبِ قَوْمِهِ، ثُمَّ أَصْرَّ قَوْمُهُ عَلَى الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ، قَضَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ الْحَكِيمَةِ بِإِهْلَاكِهِمْ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ الْحَكِيمِ بِنُزُولِ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِ، الَّذِينَ انْتَهَى زَمَنُ امْتِحَانِهِمْ، حَكَّمَ اللَّهُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَمُكَذِّبِهِمْ بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ، فَأَصْدَرَ أَمْرَهُ التَّكْوِينِيَّ، فَتَمَّ بِهِ تَنْفِيزَ إِهْلَاكِهِمْ عَلَى وَفْقِ الْأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي عُذِّبَ وَأُهْلِكَ فِيهِ الْمُبْطِلُونَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ.

٧٩، ٨٠ - اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالضَّأْنَ وَالْمِعْزَ؛ لِتَرْكَبُوا بَعْضًا مِنْهَا، وَهِيَ الْإِبِلُ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ اللَّحُومَ. وَلَكُمْ فِي أَلْبَانِهَا، وَأَصْوَافِهَا، وَأَوْبَارِهَا، وَأَشْعَارِهَا وَجُلُودِهَا، وَعِظَامِهَا، وَزَوْثِهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ أُخْرَى، وَلِتَحْمِلُوا عَلَى ظَهْرٍ مَا يَصْلُحُ لِلْحِمْلِ مِنْهَا أَثْقَالَكُمْ، وَتَبْعَثُوهَا إِلَى بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، فَتُحَقِّقُوا بِذَلِكَ حَاجَةَ تَقْصِدُونَ تَحْقِيقَهَا فِي صُدُورِكُمْ الْحَاوِيَةِ لِقُلُوبِكُمْ، الْبَاعِثَةِ لِإِرَادَاتِكُمْ، الَّتِي تُوجِّهُهَا رَغْبَاتُ نَفْسِكُمْ، كَالْتِجَارَةِ، وَالِارْتِحَالِ مِنْ بِلَدٍ إِلَى بِلَدٍ. وَعَلَى الْإِبِلِ مِنْهَا تُحْمَلُونَ فِي الْبَرِّ، وَعَلَى السُّفُنِ تُحْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ. وَيُقَاسُ عَلَى الْإِبِلِ وَالْمَرَائِبِ الْبَحْرِيَّةِ مَا تَوْصَلُ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْهَامِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَتَسْخِيرِهِ، مِنْ مَرَائِبِ بَرِّيَّةٍ وَبَحْرِيَّةٍ وَجُوتِيَّةٍ.

٨١ - وَيُزَيِّدُكُمْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ - أَيُّهَا النَّاسُ - دَلَائِلَ قُدْرَتِهِ الْكَثِيرَةِ الْوَاضِحَةِ، فِي كُلِّ شَيْءٍ إِذَا اسْتَعْمَلْتُمْ عَقُولَكُمْ، وَتَجَرَّدْتُمْ مِنَ الْهَوَائِكُمْ، وَهِيَ آيَاتُ جَلِيلَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَى عَظِيمِ صِفَاتِهِ، وَجَزِيلِ نَعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ، فَأَيُّ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الظَّاهِرَاتِ الْبَاهِرَاتِ تُنْكِرُونَهَا، وَلَا تَعْتَرِفُونَ بِهَا؟

٨٢ - أَبْقُوا فِي بِلَادِهِمْ، فَلَمْ يَسِيرْ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ مَسَافِرِينَ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ؛ أَمْ كَانُوا غُمِيَانًا، فَلَمْ يَرَوْا بِأَعْيُنِهِمْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ كُفْرِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَمَا حُلَّ بِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالتَّدمِيرِ؟! كَانَ مَنْ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ عِدْدًا، وَأَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارًا عِمَارَانِيَّةً بَاقِيَةً فِي الْأَرْضِ، فَدمَّرَ اللَّهُ بِلَادَهُمْ وَعَذَّبَهُمْ وَأَهْلَكَهُمْ إِهْلَاكًا اسْتِثْصَالَ، فَمَا صَرَفَ عَنْهُمْ عِقَابَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ، مَا كَانُوا يَكْسِبُونَهُ مِنْ وَسَائِلِ قُوَّةٍ وَتَمَكَّنَ فِي الْأَرْضِ.

٨٣ - كَانَ هَؤُلَاءِ الْمُهْلَكُونَ السَّابِقُونَ خَارِجِينَ عَنْ دِينِ اللَّهِ الْحَقِّ، فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْمُعْجَزَاتِ الْوَاضِحَاتِ، وَالْآيَاتِ الْمُنزَّلَاتِ الْمُبِينَاتِ، لَمْ يَقْبَلُوا الْعِلْمَ الرَّبَّانِي الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ رُسُلُ اللَّهِ، فَحَرِحَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمٍ يَنْفَعُهُمْ فِي أُمُورِ مَأْكَلِهِمْ وَمَشَارِبِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَمَنَاقِحِهِمْ، وَسَائِرِ مَصَالِحِهِمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَرَفَضُوا الِاسْتِجَابَةَ لِمَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ آخِرَتِهِمْ، وَمَصِيرِهِمُ الْأَبَدِيِّ، وَاسْتَمَرُّوا كَذَلِكَ حَتَّى اسْتَحَقُّوا عِقَابَ اللَّهِ بِإِهْلَاكِهِمْ إِهْلَاكًا اسْتِثْصَالَ، وَأَصَابَهُمْ وَأَحَاطَ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ، جَزَاءً مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ.

٨٤ - فَلَمَّا عَايَنُوا فِي الدُّنْيَا مَقْدَمَاتِ عَذَابِنَا، وَوَسَائِلَهُ، وَأَيَقِنُوا أَنَّهُمْ مُعَذَّبُونَ، أَقْرَأُوا حِينَ لَا يَنْفَعُ الْإِقْرَارُ، وَقَالُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَتَبَرَّأْنَا مِمَّا كُنَّا نَعْدِلُ بِاللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي كُنَّا بِعِبَادَتِهَا مُشْرِكِينَ بِاللَّهِ.

٨٥ - فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ فِي رَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، حِينَ رَأَوْا مُقَدِّمَاتِ عَذَابِنَا وَوَسَائِلَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِيْمَانٌ قَدْ اضْطُرُّوا إِلَيْهِ بَعْدَ الشُّهُودِ الْحَسَنِيِّ، لَا إِيْمَانٌ اخْتِيَارٍ وَرَغْبَةٍ، إِذَ الْإِيْمَانُ الَّذِي يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ هُوَ الْإِيْمَانُ بِالْغَيْبِ الْقَائِمِ عَلَى أَدْلَةِ الْعَقْلِ وَبِرَاهِينِهِ. أَجْرَى اللَّهُ فِيهِمْ سِنَّةً مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، بِعَدَمِ قَبُولِ الْإِيْمَانِ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ وَشُهُودِ مَقْدَمَاتِهِ وَوَسَائِلِهِ، وَخَسِرَ وَقْتُ نُزُولِ الْعَذَابِ الْكَافِرُونَ، وَلَا خَسَارَةَ أَشَدَّ مِنْ خَسَارَةِ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِكَائِفَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَفُتِحَ يَلْقَى وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْتَغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى أَلْفَاكٍ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُزَيِّدُكُمْ إِنْ تَبْتَغُوا فَآيَةٌ آيَتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَلَمْ تَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ فَصَّلَاتٍ



١ - ﴿حَمْدٌ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المُقطَّعة في أول سورة البقرة.

٢ - هذا القرآن العظيم المتلو على لسان الرسول محمد ﷺ تنزيل من الرحمن العظيم الرحمة الذي تجلَّت آثار رحمته، وبَدَتْ مظاهرها في كل أنحاء الوجود، الدائم الرحمة بعباده المؤمنين.

٣ - كتابٌ بُيِّنَتْ آياته بياناً واضحاً وافياً بالمقصود، حالة كونه قرآناً عربياً مُيسراً فهمه، لقوم يعلمون ما نُزِّل عليهم من الآيات المُفصَّلة المبيِّنة بلسانهم العربي.

٤ - بشيراً لأولياء الله بالشواب العاجل والآجل، ونذيراً لأعداء الله بالعقاب العاجل والآجل، فأعرض أكثر الناس عنه، فهم لا يُصغون إليه تكبراً.

٥ - وقال مشركو مكة للنبي ﷺ: مراكز الإدراك والتفكير في أدمغتنا مُحاطة في أغطية متكاثفة تمنع وصول ما تدعوننا إليه، فلا نفقه ما تقول، وفي آذاننا صمم، فلا نسمع ما تقول، والأرض الفاصلة بيننا وبينك - يا محمد - قد قام فيها حجاب يحجبنا عنك، فنحن لا نراك ولا نشعر بوجودك في مجتمعنا، فاعمل ما شئت أن تعمل، فنحن ذوو القوة الغالبون، وتؤكد إننا عاملون ضدك وضد دعوتك، وضد الذين آمنوا بك وأتبعوك.

٦، ٧ - قل لهم - يا رسول الله -: ما أنا إلا بشرٌ مثلكم من جهة التكوين الجسدي والنفسي، فَلَسْتُ مَلَكاً من الملائكة، وليس لي طبيعة فوق طبيعة البشر، واختار الله أن يُضطفيَنِي فيجعلني نبياً ورسولاً، فهو يُوحِي إِلَيَّ بتتابع أنه لا إله لكم إلا إله واحد، فاسلكوا صراط الله المستقيم، ولا تميلوا عن سبيله، واستمروا

مستقيمين إلى الغاية التي يكون عندها حسابكم ومجازاتكم، وادعوا الله أن يغفر لكم ذنوبكم إذا خرجتم عن واجب الاستقامة، وعذاب شديد للمشركين الذين لا يُطهِّرون أنفسهم من الشُّرك بالتوحيد، ولا يؤتون الزكاة من أموالهم، ولا يشكرون نعم الله عليهم، ببذل شيء منها في سبيل الله، إذ لا يتوقعون أن الله سيكافئهم على ما يبذلونه، وهم بالبعث بعد الموت والشواب والعقاب هم كافرون.

٨ - إن الذين آمنوا إيماناً صحيحاً كاملاً، وعملوا الصالحات الدالات بالتطبيق العملي على صحة إيمانهم، لهم عند ربهم يوم الدين ثوابٌ عظيم غير ناقص ولا مقطوع عنهم.

٩ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين مُنكراً ومويخاً لهم: أنكم لتكفرون بالله الذي خلق الأرض بتكوينها الأساسي في يومين اثنين، وتجعلون له سبحانه نظراء وأمثالا من مخلوقاته تعبدونها؟! ذلك الخالق للأرض هو رب العالمين وخالقهم، ومالكهم، ورازقهم، والمُمد لهم بمنته وعطاياه، والمهيمن على كل ما سواه بسُلطان ربوبيته؛ المُستحق للعبادة.

١٠ - وجعل سبحانه في الأرض جبالاً ثوابت من فوقها؛ لئلا تَضطرب، وبارك فيها بكثرة خيراتها، وحدد في الأرض مقادير أرزاق جميع من يعيش على ظهرها مساوياً لحاجة السائلين الباحثين عن أقواتهم الذين يتخذون الأسباب الكونية لتحقيق مطالبهم من خزائن الله في الأرض في تمام أربعة أيام؛ يومان خلق فيهما الأرض، ويومان جعل فيها رواسب وقدر فيها أقواتها.

١١ - ثُمَّ استوى سبحانه قاصداً إلى خلق السماء، وهي مُكوَّنة ممَّا يشبه الدخان، وكانت حينئذ سماء واحدة متصلة الغازات في الفراغ الكوني، غير مقسمة إلى سبع سموات، فقال للسماء والأرض: احضرا لتحديد موقع الأرض، وموقع كل جزء من أجزاء السموات في موقعه من الكون الفسيح - مُختارَتَيْن أو مُجبرَتَيْن -، قالتا: آتَيْنَا مُذعنين لك، ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

١٢ - فَقَدَّرَ وَقَضَى أَنْ يَجْعَلَ السَّمَوَاتِ ذَاتَ الطَّبَقَاتِ الْمُرْتَفَعَاتِ، سَبْعَ سَمَوَاتٍ، وَلِكُلِّ سَمَاءٍ مِنْهَا نِظَامٌ خَاصٌّ بِهَا، وَفَرَّغَ مِنْ خَلْقِهِنَّ عَلَى أَوَّلِ بَدْعِ صُورَةٍ، وَأَحْكَمَ وَضَعَ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَتَمَّ بِذَلِكَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَأَصْدَرَ بِالْأَمْرِ التَّكْوِينِي الَّذِي وَجَّهَهُ وَحِيًّا نَافِذَ الْإِثَرِ فِي كُلِّ سَمَاءٍ، كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤْنِهَا الْمُتَعَلِّقَةِ بِذَوَاتِ عُنَاصِرِهَا، وَبِصِفَاتِهَا، وَبِوُضَائِفِهَا فِي الْكَوْنِ، وَبِمَنْ يَحِلُّ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا الَّتِي تَلِي الْأَرْضَ بِكَوَاكِبِ تَضِيءُ كَالْمَصَابِيحِ، وَجَعَلْنَا الْكَوَاكِبَ حِفْظًا لِلْسَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ الَّذِينَ يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ - مِنْ صُنْعِهِ وَخَلْقِهِ - تَقْدِيرَ الْقُوَى الْغَالِبِ، الْعَلِيمِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ يَقْدَرُ كُلَّ شَيْءٍ بِالْمَقْدَارِ الْمُتَقَنِّ الْمُحْكَمِ.

١٣ - فَإِنْ أَعْرَضَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ إِعْرَاضًا كَلْبِيًّا شَامِلًا كُلَّ أَفْرَادِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ مِنْ صِفَاتِ الْإِلَهِ الْعَظِيمِ، فَقُلْ لَهُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -: خَوْفَتُكُمْ صَاعِقَةٌ تَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ قَوْمِ هُودٍ، أَوْ صَاعِقَةِ ثَمُودَ قَوْمِ صَالِحٍ فَتُهْلِكُكُمْ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا شَامِلًا. وَإِنَّمَا خَصَّ هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ؛ لِأَنَّ قَرِيبًا كَانُوا يَمُرُّونَ عَلَى بِلَادِهِمْ.

١٤ - أَهْلَكَ اللَّهُ عَادًا وَثَمُودَ إِهْلَاكًا جَمَاعِيًّا شَامِلًا؛ لِأَنَّهُمْ أَتَّهَمُوا الرُّسُلَ، مِنْ قَبْلِ جِيلِ الْمُهْلَكِينَ، وَقَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُودًا لِعَادَ، وَصَالِحًا لثَمُودَ، وَمِنْ بَعْدِ تَكُونِ جِيلِ الْمُهْلَكِينَ، إِذْ جَاءَ عَادًا رَسُولُهُمْ هُودٌ، وَجَاءَ ثَمُودَ رَسُولُهُمْ صَالِحٌ، فَلَمْ يَرْوَوْا مِنْهُمْ إِلَّا الْإِعْرَاضَ، وَقَالُوا لَهُمْ: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، فَفَرَضُوا دَعْوَةَ الرُّسُلِ، وَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا، لَوْ شَاءَ رَبُّنَا إِرْسَالُ رُسُلٍ يُبَلِّغُونَنَا عَنْهُ مَطْلُوبُهُ، لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مِنَ السَّمَاءِ، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ - وَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِثْلُنَا -، وَلِهَذَا فَإِنَّا كَافِرُونَ بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَلَا نُصَدِّقُكُمْ فِي قَوْلِكُمْ لَنَا: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ.

١٥ - فَأَمَّا عَادَ قَوْمِ هُودٍ، فَتَعَالَوْا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَقَالُوا عِنْدَمَا هَدَّاهُمْ هُودٌ بِالْعَذَابِ: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ نَحْنُ نَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الْعَذَابِ عَنَّا بِفَضْلِ قُوَّتِنَا. فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: أَعْمَيْتُمْ أَبْصَارَهُمْ وَلَمْ يَرَوْا رُؤْيَا فِكْرِيَّةً تُشَبِّهُ الرُّؤْيَا الْبَصَرِيَّةَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَبِطْشًا؟ وَأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تَعَذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ عِقَابًا لَهُمْ عَلَى اسْتِكْبَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ وَالْإِعْجَازِيَّةِ وَالْبَيِّنَاتِيَّةِ الْمُنْزَلَةِ وَالْجَزَائِيَّةِ الْعِقَابِيَّةِ يَنْكُرُونَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهَا حَقٌّ.

١٦ - فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا عَاصِفًا شَدِيدَةً الْبُرُودِ وَالصَّوْتِ فِي أَيَّامٍ نَكِدَاتٍ مَشْؤُومَاتٍ؛ لِئَنذِيْقَهُمْ عَذَابَ الذَّلِّ وَالْهَوَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابِ الْآخِرَةِ الَّذِي سَوْفَ يُلَاقُوهُ أَشَدُّ إِهَانَةً وَإِيلَامًا لِأَجْسَادِهِمْ وَلِنَفُوسِهِمْ، وَهُمْ لَا يُمْنَعُونَ مِنَ الْعَذَابِ؛ إِذْ لَا حَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ عَنِ التَّنْفِيزِ.

١٧ - وَأَمَّا ثَمُودَ قَوْمِ صَالِحٍ، فَبَيَّنَّا لَهُمْ سَبِيلَ الْهُدَى، وَرَغَبْنَاهُمْ بِسُلُوكِهِ، وَحَذَرْنَاهُمْ مِنْ مَخَالَفَتِهِ، فَاخْتَارُوا وَأَحْبَبُوا بِشِدَّةٍ طَاطِيَّةً عَلَى نَفْسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ عَلَى الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ يَحَقِّقَانِ لِهَمَّا مَا يَهُوُونَ وَيَشْتَهُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَأَخَذَتْهُمْ أَخَذٌ تَعَذِيبٍ وَإِهْلَاكِ شَامِلٍ، دَاهِيَةُ الْعَذَابِ الْمُهِينِ؛ بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الشُّرْكِ، وَالْجَرَائِمِ وَالْآثَامِ وَالْعُدْوَانِ.

١٨ - وَخَلَصْنَا مِنَ التَّعَذِيبِ وَالْإِهْلَاكِ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِ رَبِّهِمْ مِنَ الْقَوْمَيْنِ؛ عَادَ وَثَمُودَ، وَكَانُوا يَعْبُرُونَ عَنْ صَحَّةِ إِيمَانِهِمْ وَصِدْقِهِمْ فِيهِ بِسُلُوكِ يَتَّقُونَ فِيهِ عِقَابَ اللَّهِ الْمُقَرَّرَ عَلَى تَرْكِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَفَعَلَ مَا نَهَى عَنْهُ.

١٩، ٢٠ - وَضَعَ فِي ذَاكَرَتِكَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي لِكَلَامِنَا - يَوْمَ يُجْمَعُ الْكَفَّارُ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَيُسَاقُونَ إِلَى مَوْقِفٍ حَسَابِهِمْ عِنْدَ أَبْوَابِ النَّارِ، فَهُمْ يُجْمَعُونَ فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّارِ، وَيَرْتَبُونَ صَفُوفًا، وَيُسَوِّوْنَ لِلْقِيَامِ مُنْتَظِمِينَ، حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوا قُرْبَ أَبْوَابِ النَّارِ، وَسُئِلُوا عَمَّا ارْتَكَبُوا مِنَ الْجَرَائِمِ وَالْآثَامِ فِي الدُّنْيَا، فَانْكُرُوا، شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ.

فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ١٢ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ١٣ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً
فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ١٤ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ
١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَبْلُوَهُمْ
عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ
لَا يُصْزَوْنَ ١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى
الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
١٧ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ١٨ وَيَوْمَ يُحْشَرُ
أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّى إِذَا مَا جَاءَهُمْ هَاشِدٌ
عَلَيْهِمْ سَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَجَلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٠

٢١ - وقال الكفار الذين يُجْرُونَ إلى النار لجلودهم مُعَاتِبِينَ: لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟ نحن ندافع عنكم لثلاث تذوقوا عذاب ربكم. فأجابتهم جلودهم: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، فما سبق أن عملتموه بنا في الحياة الدنيا مُسَجَّلٌ في باطن خلایانا، والذي أنطق كل شيء هو الذي خلقكم أول مرة في الدنيا من عناصر لا حياة فيها ولا علم لها، ولا تنطق، فجعلكم أحياء ذوي علم تنطقون، وجعلكم في الحياة الدنيا مُمْتَحِنِينَ ومُكَلَّفِينَ، وإليه - وحده - ترجعون بعد البعث، فيحاسبكم على ما قُدمتم من عمل.

٢٢ - وما كنتم تستطيعون أن تستتروا خُذَرُ أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم، ولا تظنون أنها تشهد عليكم، ولكن ظننتم متوهمين أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، فهو لا يحاسبكم ولا يجازيكم على هذا الكثير.

٢٣ - وذلك الظنُّ التوهمي الباطل الذي ظننتموه بربكم - أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون - أسقطكم في أودية الآثام والجرائم، فأصبحتم يوم القيامة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم كلها، وقذفوا بها إلى عذاب أبدي.

٢٤ - إن أعداء الله الكافرين بين أمرين: إما أن يتلقوا قضاء الله بشأنهم صابرين صامتين، وإما أن يعلنوا توبتهم وندمهم، فإن يُضْبِرُوا على العذاب، ويسكتوا يائسين نادمين، فالتأثر مكان إقامتهم واستقرارهم الأبدى، وإن يطلبوا سائلين الله أن يرفع العتب والملام عنهم، والجزاء الذي استحقوه، فما هم من المُجَابِينَ إلى رفع الملام والمُؤَاخَذَةِ.

٢٥ - وهَيَّأْنَا وَسَبَّأْنَا لَهْوَاءِ الظالمين الجاحدين من حيث لم يحتسبوا نُظْرَاءَ السُّوءِ من الشياطين، حتى أضلُّوهم، فحَسَّنُوا بِزُخْرَفِ أقوالهم

جرائم السابقين لهم من الأمم، الذين علَّوْا في الأرض، وحَسَّنُوا لهم أن يرتكبوا جرائم عدوان وظلم في مستقبل حياتهم؛ لينالوا أعظم نصيب من مَنَاعَاتِ الحياة الدنيا، وقد استجاب هؤلاء الكفرة للقرناء المُضِلِّين بإراداتهم الحرَّة، وماتوا وهم كفرة ضالُّون مجرمون، وَوَجِبَ عليهم القول بأنهم سوف يكونون خالدين في عذاب النار مع أمم كافرة قد مَضَتْ من قبلهم من كفرة الجن والإنس المُمْتَحِنِينَ في ظروف الحياة الدنيا؛ لاختيارهم الضلالة على الهدى، إنهم كانوا خاسرين نفوسهم خسراناً كاملاً؛ إذ جلبوا لها عذاباً أبدياً لا خلاص منه. ولا يوجد خسراناً أشدَّ من أن يَخْسِرَ الإنسان نفسه، ويقذف بها إلى عذاب أليم خالد.

٢٦ - وقال أئمة الشرك في مكة لجماهير قومهم لما انقطعت حجتهم حول القرآن، ورأوا تأثيره العجيب على قلوب الناس: لا تسمعوا لهذا القرآن؛ لثلاث تشغلوا أفكاركم بدلالات آياته، وارفعوا أصواتكم بالصياح والصَّفير والتخليط على محمد، فلا يسمع لتلاوته أحد، ولا يُنتفع به؛ لعلكم تغلبون بتشويشكم بيانات القرآن وتأثيره في قلوب الذين يستمعون إليه.

لجأ الكافرون في جدالهم إلى أسلوب المشاغبة رجاء أن يغلبوا الحق، وهذا الأسلوب الغوغائي أثقته أئمة الكفر والضلال، وأحزاب الهدم والتخريب في كل زمان، واللجوء إلى خطة المشاغبة يقدِّم الدليل ضد المُشَاغِبِينَ بأنهم قد غدوا خائبين مغلوبين، منهزمين من معركة البيان والبرهان، ومتحوِّلين إلى معركة اللغظ والضجيج والغوغائية، ولما لم يكن من شأن الحق أن يقابل الجنوح بالجنوح، أو يتحول من المناظرة بالحق إلى اللغظ والمشاغبة، أعرض القرآن عن مقالاتهم هذه، وبيَّن سوء المصير الذي سوف يلاقونه يوم الدين.

٢٧ - ونُوَكِّدُ لكم أننا سنُعَذِّبُ الذين كفروا عذاباً شديداً يوم الدين يحشون بالمه في كل موضع من أجسادهم، ولنجزئهم جزاء أسوأ الذي كانوا يعملون في الدنيا، وهو الكفر، إذ لا يفتر عنهم العذاب.

٢٨ - ذلك العذاب الشديد العادل الذي يُجْزَى به هؤلاء الذين كفروا، جزاء أعداء الله النار، لهم في النار دار الإقامة الدائمة، لا انتقال لهم عنها؛ جزاء بسبب ما كانوا بآياتنا الكونية والإعجازية والجزائية والبيانية المُنْزَلَةِ ينكرون مع علمهم بأنها حق.

٢٩ - وقال الذين كفروا، وهم يعدُّون في النار: يا ربنا أرنا الفريقين اللذين أوقعنا في الضلال من قُرْآنِ الجن والإنس، نجعلهما تحت أقدامنا في النار؛ ليعلموا في الدرك الأسفل من النار.

وَقَالُوا الْجُلُودُ بِهِمْ لَمْ شَهِدَتْمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا قَالِئَارُ مَمُوتَى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعِيبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْافِئِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا نَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

٣٠ - إِنَّ الَّذِينَ أَعْلَنُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ مُتَحَدِّينَ الطُّغَاةَ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرِ: رَبُّنَا اللَّهُ وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، ثُمَّ اسْتَقامُوا عَلَى سُلُوكِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، اعتقاداً وعملاً، ظاهراً وباطناً، نفسياً وجسدياً، تتنزل عليهم الملائكة أَنَا فَأَنَا كُلُّمَا تَعَرَّضُوا لِمُقْلَقَاتِ مُزْعَجَاتِ بِالْمَخَافِ وَالْمُحْزَنَاتِ، فَتُلْقِي بِمَا يَشْبِهُ حَدِيثِ النَّفْسِ فِي قُلُوبِهِمْ: أَنْ لَا تَخَافُوا مِنْ مَكَارِهِ تَنْزِيلِ بَكْمِ، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَى شَيْءٍ فَاتَكُمُ مِنْ مَحَابِبِكُمْ، لِأَنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ قَدْ اخْتَارَ لَكُمْ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَفْضَلُ؛ جَزَاءَ إِيْمَانِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ، وَتَنْزِيلِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ الْمَوْتِ، قَاتِلِينَ لَهُمْ: لَا تَخَافُوا عَلَى مَا تُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا خَلَّفْتُمْ وَرَاءَكُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، فَمَا أَعَدَّ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَعْظَمُ، وَأَنْبَشُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ فِي الدُّنْيَا.

٣١، ٣٢ - تَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ نَزُولِهِمْ بِالْبُشْرَى: نَحْنُ أَنْصَارُكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمُ الْكُفْرَةِ، وَالْمَحَافِظُونَ عَلَيْكُمْ، نَحْمِيكُمْ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَنَحْنُ أَنْصَارُكُمْ وَأَحِبَّاءُكُمْ فِي الْآخِرَةِ، لَا نُفَارِقُكُمْ حَتَّى تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، وَلَكُمْ فِي الْجَنَّةِ كُلُّ مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَاللَّذَاتِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَمْتَنُونَ ضِيَاةً وَإِكْرَاماً مِنْ رَبِّ وَاسِعِ الْمَغْفِرَةِ لَذُنُوبِكُمْ، دَائِمِ الرَّحْمَةِ بِكُمْ.

٣٣ - لَا يُوجَدُ قَائِلٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُ قَوْلًا أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ الَّذِي دَعَا إِلَى اللَّهِ، وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا مُطَابِقًا لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَقَالَ بِلِسَانِهِ مَعْتَقِدًا بقلبه: إِنِّي وَاحِدٌ مِنْ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ، أَدْعُو إِلَى دِينِ أَوْفَرٍ بِهِ، وَأَنْتَمِي إِلَى الْأُمَّةِ الَّتِي تَدِينُ بِالْإِسْلَامِ. فَلَا يَدَّ لِلدَّاعِي إِلَى اللَّهِ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِهِذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ: الْأَوَّلُ: أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا صَالِحًا، وَالثَّانِي: أَنْ يُعْلَنَ صِرَاحَةً أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ. فَالَّذِي لَا يَعْمَلُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ الَّذِي يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، مُشْكُوكٌ فِي دَعْوَتِهِ، إِذْ يَقُولُ النَّاسُ: لَوْ كَانَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ حَقًّا، لَكَانَ أَوَّلَ الْعَامِلِينَ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَالدَّاعِي إِلَى الْإِنْتِمَاءِ إِلَى الْإِسْلَامِ، إِذَا لَمْ

يُعلن أنه واحد من المسلمين، مُشْكُوكٌ فِي دَعْوَتِهِ، إِذْ يَقُولُ النَّاسُ: لَوْ كَانَ الْإِسْلَامُ الَّذِي يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ دِينًا صَحِيحًا لَكَانَ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ، وَلَأَعْلَنَ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ إِذَنْ مُنَافِقٌ مَاجُورٌ، أَوْ ذُو مَصْلَحَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مِنْ دَعْوَتِهِ، فَدَعْوَتُهُ مُشْكُوكٌ فِيهَا.

٣٤ - وَلَا تَسْتَوِي فِي فِطْرِ النَّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَقَوَاعِدِ التَّعَامُلِ الْإِنْسَانِيِّ: مَفْرَدَاتُ جِنْسِ الْحَسَنَةِ، وَمَفْرَدَاتُ جِنْسِ السَّيِّئَةِ، فَأَفْرَادُ جِنْسِ الْحَسَنَةِ مُتَفَاوِتَةٌ، وَأَفْرَادُ جِنْسِ السَّيِّئَةِ مُتَفَاوِتَةٌ، ادْفَعْ مَنْ يَرِيدُ مَقَاوِمَ دَعْوَتِكَ بِمَا يَضُرُّكَ أَوْ يُوْذِيكَ، وَاقْبَلْ عَلَيْكَ بَشَرًا، بِالْخَصْلَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، مِنْ خُلُقٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ صَدِيقٌ قَرِيبٌ مُصَافٍ لَكَ، لَا يَحْمِلُ عَدَاوَةً وَلَا كِرَاهِيَةً، بَلْ يَحْمِلُ وَدًّا وَوَلَاءً.

٣٥ - وَمَا يُمْنَحُ تَلَقُّيًا هَذِهِ الْخَصْلَةُ الْحَمِيدَةُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ ضَبْطُ نَفْسِهِ فَيُدْفِعُ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ إِسَاءَاتِ مَنْ يَسِيءُ إِلَيْهِ، إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى تَحْمِلِ الْمَكَارِهِ، وَتَجَرُّعِ الشَّدَائِدِ، وَكُظْمِ الْغَيْظِ، وَتَرْكِ الْإِنْتِقَامِ، وَمَا يُعْطَاهَا عَطَاءٌ رَبَّانِيًّا مِنَ اللَّهِ إِلَّا ذُو نَصِيبٍ عَظِيمٍ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْعَقْلِ، وَسَعَةِ الصَّدْرِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَذُو نَصِيبٍ عَظِيمٍ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْأَجْرِ، وَرَفِيعِ الْمَنْزِلَةِ فِي دَارِ النِّعَمِ.

٣٦ - وَإِنْ صَرَفَكَ الشَّيْطَانُ بِوَسَاوِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ، وَحَرَّكَ نَفْسَكَ لِلإِنْتِقَامِ وَدَفَعَ الشَّرَّ بِمِثْلِهِ، وَمَعَاقِبَةِ الْمُسِيئِينَ بِمِثْلِ إِسَاءَتِهِمْ أَوْ بِأَكْثَرِ مِنْهَا، فَاعْتَصِمْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ بِلِسَانِكَ وَقَلْبِكَ، وَامْضِ عَلَى جِلْمِكَ وَلَا تُطْعِهِ؛ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ وَحْدَهُ السَّمِيعُ لاسْتِعَاذَتِكَ وَلِكُلِّ مَسْمُوعٍ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِكَ، وَالَّذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، يَعْلَمُ مَا يُوَسَّوِسُ بِهِ الشَّيْطَانُ مَهْمَا أَخْفَى مِنْ وَسَاوِسِهِ وَنَزَغَاتِهِ، وَسَيَمِذُكَ بِعَوْنِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَيَصْرِفُ عَنْكَ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ وَنَزَغَاتِهِ.

٣٧ - وَمِنْ دَلَائِلِ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَعِلْمِهِ الْمَحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ؛ لِأَنَّهُمَا مَخْلُوقَانِ مُسَخَّرَانِ، وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الْمُسْتَحَقَّ وَحْدَهُ لِلسَّجُودِ وَالتَّعْظِيمِ، خَالِقَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، إِنْ كُنتُمْ تَقْرُدُونَ اللَّهَ بِعِبَادَتِهِ، وَلَا تُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، وَتُرِيدُونَ نَجَاةَ أَنْفُسِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

٣٨ - فَإِنْ اسْتَكْبَرَ عِبَادُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ عَنِ السَّجُودِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُمْ لَا يَغْيُرُونَ بِسُلُوكِهِمُ الْكُفْرِيَّ شَيْئًا مِنْ وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَكُونُونَ شَاذِينَ بَعْدًا، وَخَارِجِينَ عَنْ صُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ الْمَالِئَةِ لِلْسَّمَوَاتِ، الْمُطَهَّرِينَ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، وَهُمْ يُسَبِّحُونَ لَهُ، وَيُنْزَهُونَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَيَسْجُدُونَ لَهُ وَيَرْكَعُونَ، لَا يَقْتَرُونَ عَنْ ذَلِكَ، وَلَا يَمْلُونَ عَنْ تَسْبِيحِهِ وَعِبَادَتِهِ.



٣٩ - ومن دلائل وحدانية الله وقدرته على البعث: أنك ترى الأرض يابسة، فإذا أنزلنا عليها الماء من السماء تحركت بالنبات، وارتفعت وزادت، وارتفعت فوق سطح الأرض، إن الذي أحيا الأرض بعد موتها، قادر على إحياء الخلق بعد موتهم، وفناء أجسادهم، بإنزال مطر خاص تنفجر نويات أجسادهم المحفوظة في عجب ذنب كل من كان ذا حياة من الناس وأشباههم من الأحياء، فينبتون كما تنبت النباتات من نويات بزورها، ثم يُنفخ في الصور، ويأمر الله كل روح أن تدخل في الجسد الذي نما على مثل صورته السابقة، إنه على كل شيء يشاء خلقه ضمن الممكنات العقلية عظيم القدرة، لا يعجزه شيء أراد.

٤٠ - إن الذين يميلون عن الحق في تفسير آياتنا الكونية، والجزائية، والإعجازية، وآياتنا المنزلات على رسلنا، ويضعونها في غير موضعها، معلومون لنا علماً تاماً، لا يخفون علينا، وهم يُعرضون نفوسهم لعقوباتنا بالعدل على كفرهم وتلاعبهم في تفسير الآيات، فهذا الملحد في آيات الله الذي يرمى في النار خبز، أم المؤمن بآياتنا الذي يأتي يوم القيامة آمناً من عذاب الله؟ اعملوا - أيها الملحدون - ما شئتم، ولكن ستحملون مسؤولياتكم تجاه مشيائكم المخالفة لما أمركم به، وأنهاركم عنه؛ إنه سبحانه عالم بأعمالكم، وسيجازيكم عليها.

٤١، ٤٢ - إن الذين كفروا بالقرآن ذي الشرف والشأن العظيم الذي يجب أن تكون معانيه مخزونة في ذاكرتهم، وأن يذكروا عند كل مناسبة ما يتعلّق بها؛ ليعملوا بما يوجب القرآن العمل به، حين جاءهم بلاغاً عن ربهم على لسان رسوله ﷺ، يُجازون بكفرهم، وإنه لكتاب لا نظير له، قوي في الحق، غالب ببيانه وحججه وبراهينه غير مغلوب، لا يأتيه ما يُبطل شيئاً منه من حقائق سابقة لتزيله، ولا مما يأتي بعد تنزيله، فلا يجد الباطل إليه سبيلاً من جهة من الجهات، وهو أيضاً محفوظ بحفظ الله من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص،

تنزيل من حكيم في جميع أفعاله، يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها في الأمور المختلفة، لما يُعطي أحسن النتائج، محمود ينطق بحمده كل شيء في كونه، وهو سبحانه حامد يحمد من يستحق الحمد والثناء من عباده.

٤٣ - ما يقول لك - يا رسول الله - كفار قومك إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية، فاصبر على ما ينالك في سبيل الدعوة إليه، ولا تبتس بما يقوله الكافرون، ولا تكثر به، وما زال بعض قومك لم يصلوا إلى دركة اليأس من توبتهم وإيمانهم؛ إن ربك لذو مغفرة لهؤلاء إذا تابوا وآمنوا بك، وأما الميؤوس من توبتهم وإيمانهم، فلهم عقاب شديد الإيلاء، إن ربك لذو عقاب أليم لمن أصر على كفره وتكذيبه.

٤٤ - ولو جعلنا هذا الكتاب الذي تقرأه على الناس - يا رسول الله - قرآناً أعجمياً بغير لغة العرب، لقال المشركون: هلاً يَبُتُّ آياته بالعربية حتى نفهمها! ولقالوا منكرين: أكتاب أعجمي ومُبلّغ به عربي لا يعرف اللغة التي يُخاطب بها؟! قل - يا رسول الله -: هذا القرآن للذين آمنوا به هدى كله، يهديهم إلى سعادتهم الأبدية عقيدة وخلقاً وسلوكاً، وشفاء لما في القلوب من مرض الشرك والشك، والذين لا يؤمنون بالله ورسوله يوجد في آذانهم صمم مانع من سماع القرآن وتدبره؛ لأن قلوبهم كافرة رافضة الاستماع له، وفهم دلالاته، وهو ظلمة وشبهة مُستولية عليهم، فلا يتفكرون به؛ أولئك الكافرون المُوغلون في تيه الكفر والضلال بعيدون جداً عن الحق، فلا يستجيبون لدين الله؛ كأن من يُبلغهم آيات الله ليستمعوا إليها، يُناديهم من مكان بعيد، فهم لا يسمعون من نداءه إلا صوتاً مختلطاً، ليس فيه حروف ولا كلمات حتى يفهموا دلالاتها.

٤٥ - ونؤكد لكم أننا أتينا موسى كتاب التوراة، فاختلف فيه بنو إسرائيل: فمنهم مُصدّق، ومنهم مُكذّب، كما اختلف قومك في كتابك - يا رسول الله -، ولم نقض بين مؤمنهم وكافريهم في الحياة الدنيا، بل أخرنا ذلك ليوم القيامة، تنفيذاً لكلماتنا التي سبقت بهذا الأمر، وكذلك الحال تكون معاملتنا للمكذّبين الكافرين بالقرآن من قومك، ولولا كلمة سبقت من ربك في تأخير العذاب عن المكذّبين بالقرآن إلى يوم الدين، لبُتَّ الحكم بإدانة المكذّبين في الدنيا، وعُجل إهلاكهم وإبادة، وإن كفار قومك لفي شك من كتابك وصدقك، موجب للقلق والاضطراب، يوقع في تهمتهم بأنهم عالمون بالحق وجاحدون به عناداً؛ لضعف شكهم، وقوة حُجج ما هم شاكّون فيه.

٤٦ - مَنْ عمل عملاً صالحاً مبنياً على قاعدة إيمانية صحيحة، فيعود نفع إيمانه وعمله لنفسه، ومَنْ عمل عملاً سيئاً باختياره الحر، فضرر إيسائه يعود على نفسه أيضاً، وما ربك - يا رسول الله - يظلم أحداً منهم، بل هم الظالمون لأنفسهم؛ إذ ارتكبوا السيئات، وهم يعلمون أنهم معاقبون عليها، ضمن قانون الجزاء الربّاني.

وَمَنْ آيِنَهُ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِيعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
 اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا الْمُحْيِ الْمَوْفِقُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا أَفَنُ
 يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ
 وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَرِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
 خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ
 لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾
 وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَءِ تَعْجَبُ
 وَعَرَفْتَ قُلُوبَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا هَؤُلَاءِ وَشِقَاقُ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْوَاهُمْ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ
 يَتْلَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
 فَأَخْلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ
 بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
 فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

٤٧ - إلى الله تعالى وحده يُزَجَع علمُ السَّاعة، فلا يعلم وقت قيام الساعة إلا الله، ولا سبيلَ للخلق إلى معرفة ذلك، ويرجع إليه علم ما تَخْرُجُ ثمرة من أوعيتها في شجرتها أو نباتها، إلا مصحوبة بعلم الله المحيط بكل ذرة من ذراتها، وما تحمل أنثى من الناس والحيوان والحشرات والميكروبات حملها ولا تضعه إلا مصحوبة بعلمه المحيط بكل أطوارها، يعلم عدد أيام الحمل وأحواله من الخداج والتمام، والذكورة والأنوثة، والحسن والقبح، وغير ذلك. ويوم يُنادي الله تعالى المشركين بعد محاسبتهم في أرض المحشر، فيقول: أين شركائي الذين كنتم تدعون أنها آلهة؟

قال المشركون: أعلمناك ربنا بأننا كنا في الحياة الدنيا ضالين، ندعي أن لك شركاء دون أن تكون لنا أدلة تثبت ذلك، ما منا اليوم شهيد يشهد أن لك شريكاً.

٤٨ - وذهب عن هؤلاء المشركين شركاؤهم الذين كانوا يعبدونهم في الحياة الدنيا، وظنوا ظناً راجحاً أنهم ما لهم من مهرب من عذاب الله الذي حكم عليهم به خلوداً في جهنم، مع طمعهم بأن يرحمهم الله بالتجاوز أو بالتخفيف.

٤٩ - من صفات الإنسان بوجه عام خمس صفات تنطبق على النسبة الغالبة منهم: **الصفة الأولى:** لا يملُ الإنسان من سؤال ربه المال والغنى والصحة وطلب الخير لنفسه، **الصفة الثانية:** وإن مسه الفقر والشدة والمرض على سبيل الثدرة، فهو شديد اليأس من رزق الله، شديد القنوط من رحمته.

٥٠ - **الصفة الثالثة:** ونؤكد بالقسم لئن جعلناه بفضل منا يستمتع بآثار رحمة منا، فيحس بلذة ما وهبناه من بعد شدة وبلاء أنزلناها به، ليقولن: هذا الذي أصبته من نعمة هو لي، أستحقه بعملتي، واكتسبته بمهارتي، ولست على يقين من البعث، وأقسم لئن كان

خبر الرجوع إلى الحياة بعد الموت خبراً صحيحاً، وتحقق هذا الرجوع المستبعد جداً، إن لي عنده الجنة، كما أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة؛ لأنني أستحق هذا الإنعام والإكرام، فلنخبرن الذين كفروا بحقيقة ما عملوا في الحياة الدنيا من الأعمال الموجبة للعذاب، ولنذيقنهم في جهنم من عذاب شديد لا يفتّر عنهم.

٥١ - **الصفة الرابعة:** وإذا أنعمنا على الإنسان بنعمة، أبطرت النعمة، وأعرض عن شكر ربه، ولم يقابل نعم الله عليه بطاعته له، والعمل بما يرضيه، بل ذهب بنفسه وتكبر وتعظم عن طاعة ربه، **الصفة الخامسة:** وإذا مسه الفقر والشدة والمصائب وسائر المكاره، فذو دعاء مسموع على عرض امتداده يميناً وشمالاً، يُعبر عن مشاعر ألمه وضجره وتذمره مما مسه من شر.

٥٢ - قل - يا رسول الله - للكافرين بالقرآن: أفكرتم تفكيراً سديداً بأناءة وتعقّق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصريّة، إن كان هذا القرآن من عند الله حقاً، ثم بعد أن توالى عليكم إنزال سوره وآياته البليغة المعجزة، جحدتم أنه من عند الله؟ أفكرتم بالمصير الذي أنتم صائرون إليه؟! أما تعلمون أنه لا يوجد أحد أكثر ضللاً ممن هو في خلافٍ للحق بعيد عنه.

٥٣ - سئريهم في الحياة الدنيا قبل الآخرة، آيات وحدانيّتنا وقدرتنا في الأبعاد العليا المحيطة بالأرض، وفي تكوين أنفسهم وما اشتملت عليه من لطيف الحكمة وبديع الصنعة، حتى يتبين لهم أن القرآن هو الحق المنزل من عند الله، المحيط بكل شيء علماً. أو لم يكف بربك الذي خلق هذا الكون كله أن يُخبر عن كل شيء في الكون إخباراً مطابقاً لما هو عليه في الواقع، فهو سبحانه حاضرٌ مُعّين لما يُخبر به، لا تخفى عليه في الوجود خافية.

٥٤ - تنبهوا وتحققوا إن هؤلاء الكفار في شك عظيم من لقاء ربهم يوم الدين؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، تنبهوا وتحققوا، إن الله سبحانه محيط بكل شيء علماً وقدره، وسلطاناً وقضاءً وقدرًا وتصاريّف وامتحناناً وجزاءً.

إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ
شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَنكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٥٧﴾ وَصَلَ
عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيسٍ ﴿٥٨﴾
لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْتَوْسُ
قَنُوطٌ ﴿٥٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى
رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ
أَعْرَضَ وَنَسَى بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ
﴿٦١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ
بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٦٢﴾ سَأُتِيهِمْ
ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ
فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ الشُّورَى

الجزء الثاني من القرآن

سُورَةُ الشُّورَى

١، ٢ - ﴿حَمْدَ عَسَقَ﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

٣ - مَثَلٌ ما تَضَمَّنَتْه هذه السورة من المعاني، قد أوحى الله إليك - يا رسول الله - مثله في غيرها من السور، وأوحاه إلى الرسل من قبلك، الله العزيز بقدرته الغالبة، الحكيم في اختياراته، إذ اصطفاك نبياً ورسولاً، يُوحى إليك، وكذلك كان يُوحى إلى الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم من قبلك بعزته وحكمته.

٤ - الله - وحده - كل شيء في السموات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً، وهو وحده المنفرد بعلو الشأن، وعِظَم السلطان الذي لا يساويه في علوه وعظمته، ولا يدانيه فيها أحد سواه.

٥ - تقترب السموات يتشققن، فيسقطن مع عظمهن من أعلاهن؛ غضباً لله ربها، من أقوال الأمم الكافرة بربها المسخطة له، والملائكة في السموات العُلا يقومون بأداء وظيفتين: الأولى: أنهم يُزْهَوْنَ رَبَّهُمْ عَمَّا لا يليق بجلاله، وهذا التنزيه مُقْتَرَن بحمده والثناء عليه بكل صفات الكمال التي هي له. والوظيفة الثانية: أنهم يطلبون لجميع من في الأرض من الإنس والجن عفو الله وغفرانه، فهم يستغفرون الله لعصاة المؤمنين طمعاً في أن يغفر الله لهم، ويستغفرون الله للكفار من الأحياء؛ لئلا يعجل بعقابهم على كفرائتهم، رجاء أن يتوبوا ويؤمنوا فيغفر الله لهم، أما الذين ماتوا كافرين فإن الملائكة لا يسألون الله ربهم أن يغفر لهم؛ لأن الله لا يغفر لمن مات كافراً. انتبهوا وتأكدوا - أيها المُتَلَقُونَ - واعلموا هذه الحقيقة إن الله وحده هو الغفور الرحيم، يُعْطِي الرحمة التي سألوها، فيستر ذنوبهم، ولا يعجل بعقابهم، ويضم إليها بمنه وكرمه الرحمة العامة الشاملة.

٦ - والذين جَعَلُوا لله شركاء وأنداداً، الله مُهَيِّمٌ عليهم بسلطانه

الجَبْرِي، يحفظهم ممّا في كونه مما يسوؤهم أو يضرهم إذا لم يكن له شيء منه قضاء وقدر، ويحفظ ما يصدر عنهم من أعمال اختيارية بعلمه، وبما تُسْجَل الملائكة المُكَلَّفُونَ بكتابة أعمال العباد، وما أنت - يا رسول الله - على الذين اتَّخَذُوا من دون الله أولياء بوكيل مسؤول عن كفرهم، لأنهم ذوو إرادات حرة، وهم في الحياة الدنيا مُتَمَحِّنون، وأنت تُبَلِّغهم مطلوب ربهم، وتُبَشِّرهم وتُنذِرهم، فلا تحمل في قلبك هم تحويلهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهداية.

٧ - وكما أَوْحَيْنَا إلى الأنبياء والرسل من قبلك، أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا؛ لَتُبْلَغ وتُنَبِّر، وتنذر أهل مكة، ومن حولها من العرب ومن الناس أجمعين عقاباً مُعْجَلًا إذا اقْتَضَتْ حكمة ربك ذلك، وتُنذِرهم عقاب الله المُحَقَّق يوم القيامة، الذي يجمع الله تعالى فيه الأولين والآخرين، وأهل السموات وأهل الأرضين، لا شك في الجمع أنه حق، ثم بعد ذلك الجمع للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء يَتَفَرَّقُونَ، منهم فريق في الجنة، ومنهم فريق في النار.

٨ - ولو شاء الله أن يجعل الناس أمة واحدة، لسلبهم إراداتهم الحرة، ولجعلهم مَجْبُورِينَ على الإيمان، ولكن شاء الله أن يمنح كل مَنْ وَضَعه من عباده موضع الامتحان إرادة حرة، يريد بها لنفسه طريق الهدى أو الضلال، ويأتي بعد هذا الامتحان الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، فيدخل في رحمته التي من آثارها النعيم المقيم في جنات الخلود مَنْ يشاء من عباده المؤمنين، وأما الكافرون فلهم عذاب أليم، وما لهم من وَلِيٍّ ما يرحمهم، ولا نصير ينصرهم فيدفع عنهم عذاب الله تعالى.

٩ - بل اتَّخَذَ الكفار من دون الله أولياء يَتَوَلَّوْنَهُمْ، فالله وحده هو الوليُّ بالحق، المُتَكَلِّفُ بأمور الخلاق كلها، وهو الذي يجب أن يُتَوَلَّى وحده دون سواه، وهو يُحْيِي الموتى يوم البعث، وهو على كل شيء يشاء إيجاده، أو إعدامه، أو إجراء أي تصرف فيه عظيم القدرة.

١٠ - وكل ما اختلفتم فيه - أيها الناس - من شيء في قضايا الدين، فحكمه إلى الله وحده يَقْضِي فيه، ويحكم بأنه حق أو باطل، وسوف يُحاسبكم يوم الدين بحكمه هو، فمن آمن بالحق وأسلم وأطاع، نجا وفاز بالسعادة الأبدية، ومن كفر بالحق خسر كل نفسه، وأدخله الله بعدله دار العذاب، ذلكم العظيم الجليل الذي يحكم بين المختلفين من قضايا الدين يوم القيامة، ويجازيكم عليه، هو الله ربي، الذي جعلني نبياً، وكلفني أن أُبَيِّنَ لكم قضايا الدين، فإذا لم تستجيبوا لي، وحاولتم مقاومة دعوتي، والتخلص مني، فاعلموا أنني عليه وحده تَوَكَّلْتُ في جميع أموري، فهو الكفيل بحمايتي ونصري، وإليه وحده أرجع في كل المهمات طاعة له، واتباعاً لأوامره.

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ١ عَسَقَ ٢ كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ
 وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
 الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ
 ٦ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ
 حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
 السَّعِيرِ ٧ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ
 مِنَ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨
 أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
 إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١٠

١١ - الله سبحانه هو خالق السموات والأرض ومبدعهما على نظام الفطر، وهو الشئ من عمق باطن الأشياء من نقطة العدم، جعل لكم متفضلاً عليكم اشتقاقاً من أنفسكم أزواجاً حلائل، تتلاقون تلاقياً مودة ورحمة وشهوة ولذة، فيخرج لكم فيه ذرية من أصلاب ذكوركم ويطون إناثكم، فيكثركم، ويجعلكم شعوباً وقبائل وأمماً، وكذلك جعل لكم من الأنعام أصنافاً ذكراناً وإناثاً، فهو يكثرها لكم بالتوالد والتناسل، فإذا كان نظام الله في الكائنات الحية قائماً على التزاوج والتناسل، فإن الله الأزلي الأبدي واحد أحد، ليس يشبهه ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهو سبحانه السميع لساائر المسموعات، البصير لساائر المبصرات.

١٢ - الله سبحانه جميع خزائن السموات والأرض، وجميع مفاتيح هذه الخزائن، يوسع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيّق ويقلل الرزق على من يشاء من عباده، بحسب حكمته لعلمه بما في نفوسهم، وما هو الأحكم لهم في حياتهم، إنه بكل شيء عليم.

١٣ - بين الله لكم - أيها الناس - طريقاً واضحاً من الأسس الاعتقادية والمبادئ الأخلاقية والقواعد العامة، تتأبعت على صحته الأنبياء، وهو كل ما أمر به نوحاً أول الأنبياء أصحاب الشرائع، والذي أوحينا إليك - يا رسول الله - من القرآن وشرائع الإسلام التي هي ختام وصايا الله لعباده من الدين الذي اصطفاه لهم، وما أمر به إبراهيم وموسى وعيسى من وصايا الدين الكبرى، وما فيها من زيادات على رسالة نوح، هي داخلة في الوصايا لخاتم المرسلين، ونوصيكم - أيها الناس - في رسالة محمد الخاتمة للرسالات، بإقامة الدين مستقيماً، والمداومة والثبات عليه، بتوحيد الله والإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر، وطاعة الله في أوامره ونواهيه، ولا تختلفوا في

الدين الذي أمرتكم به إلى طوائف وفرق، واجتمعوا متّحدين على التمسك بأصول الدين الكبرى، في العقائد، والأخلاق، والمعاملات، عظّم على المشركين وثقل عليهم ما تدعوهم إليه - يا رسول الله - من التوحيد ورفض الأوثان؛ لكرهيتهم ترك ما ألفوه، من دين آبائهم وأجدادهم، وترك منافعهم الدنيوية، والتنازل عن أهوائهم وشهواتهم، الله يضطفي لرسالته مقرباً إليه من يشاء من عباده، ويهدي بتعليمه وتوفيقه إلى سلوك السبيل الموصل إلى رضوانه من يقبل على طاعته، ويرجع مقرباً إليه أنا فأنأ، بقلبه، ونفسه، وفكره، وعمله الظاهر والباطن.

١٤ - وما تفرّق أهل الأديان المختلفة إلا من بعد ما جاءهم العلم الرباني بما أنزل الله وفهموه ووعوه، وكان سبب تفرّقهم الحسد والظلم والفساد في الأرض، فلا تتبعوا سنن من كان قبلكم - يا أمة خاتم المرسلين ﷺ -، ولولا كلمة من كلمات ربك المحدثات قضاءه وقدره، سبقت بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة، لقضي بين من آمن وكفر، وأنزل العذاب بالمكذّبين في الحياة الدنيا عقب تفرّقهم وكفرهم، ولكن الله قضى أن يؤخّر عقاب الكافرين إلى يوم الدين، وإن اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل من بعد أنبيائهم، لمنغمسون في شك من أمر محمد ﷺ وكتابه المنزل من عند الله، وشكهم هذا يوقع في الرّيب والشّبهة بأنهم عالمون بالحقّ وجاحدون به عناداً، ودوافعهم إلى الشك نابعة من أهوائهم وشهواتهم، ورغبات نفوسهم من متاعات الحياة الدنيا.

١٥ - فلأجل ذلك التفرّق، وما حدث بسببه من الاختلاف في الدين، فادع أنت - يا رسول الله - إلى ما وصّى الله تعالى به الأنبياء من التوحيد والاتفاق على الملة الحنيفية، واثبت على الدين الذي أمرت به، ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة، وقل - يا رسول الله -: آمنت بكل ما أنزل الله على أي رسول من رسله السابقين من كتاب، وأمرت بإقامة شرائع الإسلام وأحكامه لأجل أن أحكم بالعدل بينكم - أيها الناس - إذا تخاصمتم إليّ، وقل للذين لم يستجيبوا لدعوتك: الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، فكل أحد مخصوص بعمل نفسه، وكلّ يُجازى بعمله، لا حجة بيننا وبينكم نقدّمها لكم بعد أن رفضتم كلّ حججنا البرهانية، ولا حجة بيننا وبينكم تقدّمونها لنا إذ ليس لديكم حجة صحيحة تقبلها العقول السليمة، فمن الخير قطع الجدل بيننا وبينكم؛ الله يجمع بيننا يوم الجمع، وإليه وحده المنتهى والعاقبة، وهو وحده الذي يحاسب عباده ويحكم بينهم، ويومئذ تعلمون علم اليقين أنكم كنتم في الحياة الدنيا مبطلين، تستحقّون الخلود في ذرّكات الجحيم.

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَأَيْسَ كَيْمَلِيهِ شَيْءٌ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾
﴿١٣﴾ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ
وَلَا تَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٤﴾ وَمَا
تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيَا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرْيَبٌ ﴿١٥﴾
فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

١٦ - والذين يُجادلون في ربوبية الله وإلهيته، ويُقدّمون في محاولاتهم حُججاً، من بعدما استجاب كثيرون من عقلاء الناس لدعوته التي بلّغها رسوله، عن اقتناع ببراهين الحق الذي اشتملت عليه، ما يُقدّمون من تلبّيسات يُوهمون أنها حُجّة لهم هي ساقطة تنزل في أحوال الباطل، ولا ثبات لها على موقع صُلب عند ربهم، وتنزل عليهم آثار غضب من الله، ولهم عند ربهم عذابٌ شديدٌ في جهنم.

١٧ - الله ربّ العالمين هو الذي أنزل القرآن - المُشتمل على أنواع الدلائل والأحكام - متّصفاً بالحقّ الثابت الذي لا شكّ فيه، والبيان المطابق للواقع، والإرشاد لما ينفع ويفيد، وأنزل النظم والقواعد والوصايا والأحكام التي يوصل أتباعها إلى تحقيق العدل، وأيّ شيء يعلمك - أيها المتلقي - متى تقوم الساعة التي يكون فيها إنهاء ظروف الحياة الدنيا، فقد أخفى الله العلم بقيام الساعة على كلّ عباده في السموات والأرض، ولكن ضَع في توقُّعك احتمال أن وقت قيام الساعة قريبٌ، بالنسبة إلى ما سبق من عمر الحياة الدنيا.

١٨ - يستحثّ طالباً تعجيل قيام الساعة الذين ليس لديهم استعداد نفسي لأن يؤمنوا بها، استهزاءً بخبر قيامها، وتكديباً بما أُنذروا به، والذين آمنوا بأركان الإيمان، ومنها إيمانهم بالساعة والبعث والجزاء، خائفون حدرون من قيامها، ويعلمون أنها آتية لا شك فيها. تنبّهوا وتأكدوا إنّ الذين يُجادلون بزخرف أقوالهم في نبأ قيام الساعة ويشكّون فيها، لفي ضياع في قعرٍ بعيد عن موقع الحق، فهم فيه مُعرّضون لعذاب شديد وشقاءٍ مديد.

١٩ - الله تعالى رفيقٌ رؤوف، كثيرٌ الإحسان إلى البرّ والفاجر من عباده، حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم، يرزق من يشاء رزقه من مؤمن وكافر، ممّا ينتفع به من عطاءاته الظاهرة والباطنة، والمادية والمعنوية والنفسية، ومع كون الله تبارك وتعالى لطيفاً بعباده، يعطيهم

الرزق من آثار لطفه ورحمته، هو أيضاً كامل القوة، وكامل العزّة، لا يُشاركه في كمالهما أحدٌ، وبقوّته وعزّته يعاقب الكافرين، ويهلك الجبارين الذين يستعملون ما أنعم الله به عليهم من رزق في البغي والظلم والفساد.

٢٠ - مَنْ كان يُريد بعمله ثواب الآخرة، مجتهداً في الأعمال التي يتغي بها مرضاة الله، باذلاً جهده للحصول على ثمرات عمله، نَزِد له في ثمرات عمله، بتوفيقه وإعانتة وتسهيل سبيل الخيرات والطاعات إليه، ومضاعفة الثواب له، ونعطيّه حظّه من الحياة الدنيا بحسب ما قسم الله له، ومن كان يُريد بعمله الدنيا وحدها، باذلاً جهده للحصول على ثمراتها، مُؤثراً لها على الآخرة، نُؤْتِيه ما قُدّر وقُسم له منها، وما له نصيبٌ قط في الآخرة من نعيم الجنة؛ لأنّه لم يعمل لها، بل له عذابٌ أليم في الجحيم.

٢١ - بل هؤلاء المشركين بالله آلهة هي أربابٌ تستحقّ الإلهية بربوبيّتها، فهم شركاء لله شرّعا لهم من الدين ما لم يأمر به الله، وزينوا لهم الشُّرك وإنكار البعث؟ ولولا كلمة الفصل التي أبرم الله بها تقديره وقضائه، وحكم فيها بين الخلق بتأخير العذاب عنهم إلى يوم الدين، لَفُرغ من عذاب الذين يُكذّبونك في الحياة الدنيا؛ لأنهم وصلوا إلى حالة ميؤوس من إصلاحهم منها عن طريق إراداتهم الحرة، وصاروا مُستحقّين العذاب، وإنّ الظالمين من ذرّة الكفر لهم يوم القيامة عذابٌ شديد الإيلام في دار العذاب.

٢٢ - لو كنت من أهل حضور هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة - أيها المُتلقّي لبيانا - لكنت ترى الظالمين خائفين خوفاً شديداً من جزاء ما كسبوا في الدنيا من الشُّرك والأعمال الخبيثة، وجزاء كسبهم واقعٌ بهم لا محالة، ولكنت ترى الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً وعملوا الصالحات المُعبرّات عن صدق إيمانهم، يتنعمون في بساتين الجنات مُمتّعين في أطيب بقاع الجنة وأنزهها، لهم فيها ما يشاؤون عند ربهم من الكرامة ومنازل القُرب مهما بالغوا في أمانيتهم، تسبق عطاياه وفيوض مننه التي لا تنقطع حتى تعجز خواطرهم عن طلب أمانتي جديدة، ذلك الذي أعطاه الله لهم من عظمة الجزاء، وارتفاع المنزلة هو الفضل الكبير الذي يتفضّل الله به على عباده.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

سُورَةُ الشُّورَى

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ مِنْهُمْ
دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ
أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ
﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ
كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ
مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّى بَيْنَهُمْ
وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
مُسْفِكِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

٢٣ - ذلك النعيم في الجنة والفضل الكبير هو الذي يُبَشِّرُ الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قل - يا رسول الله - للمشركين: لا أسألكم على تبليغ الرسالة ونصحي وحرصي على نجاتكم وسعادتكم جزاءً، ولكن أسألكم أن تعاملوني معاملة المودة التي تكون بين الأقرباء، ولو كانت قراباتهم بعيدة، فراعوا هذه المودة، فلا تُعادوني ولا تُدبروا المكاييد ضدي، وضد الذين آمنوا بي وأتبعوني، ومن يكتسب حسنة بإرادته الحرة ابتغاء مرضاة ربه، نزل له في حسنته التي اكتسبها حسناً، لنزيد له عليها ثواباً مضاعفاً، إن الله كثير المغفرة للذنوب عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، كثير الشكر للأعمال الصالحة التي يعملها عباده المؤمنون.

٢٤ - بل أقول كفار مكة مُكررين تكريراً إعلامياً دعائياً: اختلق محمد الكذب على الله بأدعائه النبوة والرسالة، وأن ما يتلوه من كلام علينا هو كلام مُنزل عليه من ربه؟ فإن يشأ الله يطبع على قلبك - يا رسول الله - فلا يصل شيء إلى جهاز الإدراك والتفكير والعلم والتعبير فيه، ويمنع خروج أي شيء منه، فلا يستطيع لسانك أن يقول كلاماً صحيحاً سوياً، لو افتريت على الله. ويذهب الله الباطل الذي يقولون، ويزيل أثره الضار، ويحقق الحق، ويجعله ثابتاً في واقع الحياة، بكلماته التكوينية التي يُنفذ بها ما قدره وقضاه، وبكلماته البيانية التي يهتدي بها أهل العقل والرشد، وقد فعل الله ذلك، فَمَحَا باطلهم، وأعلى كلمة الإسلام، إنه سبحانه عليهم بالأعمال والنيات والحب والكراهية، والحقد والتدابير الكيدية صاحبة الاستقرار في الصدور، لا يخفى عليه شيء.

٢٥ - والله سبحانه - وحده - هو الذي يقبل التوبة من عباده الكافرين إذا تابوا فآمنوا وأسلموا، ويتجاوز عن خطاياهم السابقة التي فعلوها قبل الإسلام، ويمحو أثر سيئات عباده المؤمنين ممّا دون الشرك

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعُ لَوَلَدٌ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ سَـَّطَ اللَّهُ الرَّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِن دَأْبَةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾

متجاوزاً عنها إذا تابوا، ويعلم سبحانه ما تفعلون من أعمال ظاهرة وباطنة، جسدية ونفسية، لا تخفى عليه منكم خافية.

٢٦ - ويستجيب الذين تابوا فآمنوا وعملوا الصالحات المُعْبَرَات عن صحّة إيمانهم، فيما دعاهم لطاعته، ويزيدهم الله من فضله، فيوفّقهم لأداء نوافل الطاعات والقربات، ويزيدهم ثواباً بمضاعفة الأجور المقررة على ثواب أعمالهم تفضلاً منه، والكافرون لهم عند ربهم عذاب شديد في الآخرة.

٢٧ - ولو وسّع الله الرزق لعباده لَطَغَوْا وظلموا وأفسدوا في الأرض، ولكن يُنَزِّل ما يشاء إنزاله من رزق لعباده، بمقدار مُحدّد معلوم، ووفق حكمته، إنه تعالى عليم علماً كاملاً شاملاً بأحوال عباده وبطباعهم، وبعواقب أمورهم، وبصير بكل شيء في كونه، فيقدّر أرزاقهم بالمقادير التي تقتضيها مشيئته الحكيمة على وفق مصالحهم.

٢٨ - واللّه وحده هو الذي يُنَزِّل المطر من بعد ما يئسّ الناس من نزوله بأساً شديداً؛ ليكون ذلك أدعى لهم إلى الشكر والفرح بحصول النعمة بعد الشدة، ويُنشِط آثار رحمته بعباده بعد إنزال الغيث، أرزاقاً وإنعامات كثيرات على مساحات واسعات من الأرض، ليستمتع بها العباد، وهو الولي الذي يتولى عباده بإحسانه وفضله، المحمود حمداً كثيراً على ما يوصل إلى الخلق من آثار رحمته.

٢٩ - ومن العلامات الدالات على قدرة الله: خَلَقَ السموات والأرض على هذه الصورة العجيبة والنظام المُحكّم، وما فَرَّق ونشر في السموات والأرض من كل ذي حياة، وهو على جَمْع الخلق بعد الموت يوم القيامة إذا يشاء قدير، إنما أمره إذا أراد أن يخلق شيئاً، فإنما يقول له: «كن» فهو يكون بأمره التكويني.

٣٠ - وما أصابكم - أيها الناس - من مصيبة مكروهة عامة، تشمل أمة من الأمم أو قوماً من الأقوام، فبسبب ما كَسَبَتْ أيديكم من الذنوب والمعاصي، جزاءً، أو تربيةً، أو تذكيراً بالجزاء الأكبر، ويمحو من سَجَلِ الْمُؤَاخَذَةِ كثيراً من الذنوب.

٣١ - وما أنتم - أيها الناس - بقادرين على الإفلات في الأرض هرباً من عذاب ربكم، ولا تُعجزون الله حيثما كنتم، إذا قضت حكمته بأن يُنزل بكم عذابه، عقوبة لكم على كفركم وجرائمكم، وما يوجد لكم من دون الله ولي يتولّى حمايتكم من عذاب ربكم، ولا يستطيع نصير أن ينصركم فيمنع نزول عذاب الله فيكم.

وَمَنْ آتَيْنَاهُ الْجُودَ فِي الْبَحْرِ كَالْجِبَالِ الْعَظِيمَةِ ۖ إِنَّ يَسَاءَ اللَّهُ يَسْكُنُ الرِّيحَ الَّتِي تَجْرِي بِهَا السُّفُنُ، فَيُبْقِيَنَّ سَوَاكِنَ ثَابِتَاتٍ عَلَى ظَهْرِ الْبَحْرِ لَا يَجْرِيْنَ إِلَى حَيْثُ يَرِيدُ رُكَّابُهَا، إِنَّ فِي طُفُو هَذِهِ السُّفُنِ الْعَظِيمَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ، وَفِي جَرِيَانِهَا بِالرِّيَّاحِ قَدِيمًا، وَبِالطَّاقَةِ الْحَرَارِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إِسْكَانِ الرِّيَّاحِ، وَتَعْطِيلِ الْمُحَرَّكَاتِ الْآخَرَى، لَايَاتٍ كَثِيرَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَى إِتْقَانِ صَنْعِ اللَّهِ لِكُونِهِ، وَعَنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَلَا يَصِلُ إِلَى إِدْرَاكِ دَقَائِقِ صَنْعِ اللَّهِ وَتَدَابِيرِهِ إِلَّا كُلُّ كَثِيرٍ الصَّبْرِ فِي الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، يَعْمَلُ مُجْتَهِدًا بِدَأْبٍ لِبُلُوغِ مَعْرِفَةِ النِّظَامِ السَّبِيِّ الَّذِي تَنْتَجِ عَنْهُ ظَوَاهِرُ الطُّفُو، وَإِجْرَاءِ السُّفُنِ، وَلَا يَنْتَفِعُ مِنْ إِدْرَاكِ عَظِيمِ صِفَاتِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ إِلَّا كُلُّ كَثِيرٍ الشُّكْرِ لِرَبِّهِ.

٣٤، ٣٥ - فَإِنْ لَمْ يَسْكُنِ الرِّيَّاحُ فَمِنْ الْإِحْتِمَالَاتِ أَنْ يَحْطُمَ السُّفُنُ وَيُهْلِكَ رُكَّابُهَا بِإِرْسَالِ الرِّيَّاحِ الْعَاصِفَةِ وَالْأَمْوَاجِ الْمُغْرَقَةِ؛ بِسَبَبِ مَا كَسَبَ رُكَّابُهَا مِنَ الْكُفْرِيَّاتِ وَالْجَرَائِمِ، وَيَغْفُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، فَلَا يَعَاقِبُ عَلَيْهَا؛ رَحْمَةً بِهِمْ، وَحِينَ يُنْزِلُ اللَّهُ هَذَا الْعِقَابَ بِالْمُجْرِمِينَ، فَمِنْ الْأَغْرَاضِ أَنْ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ فِي آيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ، أَنَّهُمْ مَا لَهُمْ مِنْ مَهْرَبٍ يَهْرَبُونَ إِلَيْهِ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ عَذَابُهُ.

٣٦ - ٣٩ - فَمَا أُوتِيتُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - مِنْ شَيْءٍ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا، فَهُوَ مَتَاعٌ لَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، يُنْتَفَعُ بِهِ مَوْقَاتًا، وَهُوَ سَرِيعُ الزَّوَالِ، وَقَلِيلُ الْقِيَمَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَكْثَرُ بَقَاءً، لِأَنَّهُ يَتَجَدَّدُ دَوَامًا، أَعَدَّ اللَّهُ هَذَا الثَّوَابَ الْعَظِيمَ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الْعَشْرَةِ: **الصفة الأولى والثانية:** الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا صَاحِحًا صَادِقًا، وَعَلَى رَبِّهِمْ وَحْدَهُ - يَعْتَمِدُونَ فِي أُمُورِهِمْ كُلِّهَا، مَعَ قِيَامِهِمْ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي دَعَا إِلَى اتِّخَاذِهَا، **والصفة الثالثة:** الَّذِينَ يَبْتَغُونَ عَنْ كِبَائِرِ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، مِمَّا تَعْظُمُ عَقُوبَتُهُ، كَالشُّرْكِ وَالْقَتْلِ وَالرِّبَا وَالسَّرْقَةِ وَشَرْبِ الْخَمْرِ وَشَبِّهِ ذَلِكَ، **والصفة الرابعة:** يُجْتَنِبُونَ كُلَّ مَا عَظُمَ قَبْحُهُ مِنَ الْكِبَائِرِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِشَهَوَاتِ الْفُرُوجِ، وَمِنْهَا: الزُّنَى، وَعَمَلُ قَوْمِ لُوطَ، **والصفة الخامسة:** إِذَا أَسَاءَ إِلَيْهِمْ مَسِيءٌ، وَاسْتِثَارَ غَضَبُهُمْ مُؤَذِّ فَأَغْضَبَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَسْتَرُونَ إِسَاءَتَهُ وَإِذْيَاءَهُ، وَيَتَجَاوِزُونَ عَنْ مُوَاخَذَتِهِ، **والصفة السادسة:** الَّذِينَ أَطَاعُوا رَبَّهُمْ فَأَجَابُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ، **والصفة السابعة:** أَذَوْا الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ مَدَافِينِ عَلَيْهَا فِي أَوْقَاتِهَا، عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَطْلُوبِ، **والصفة الثامنة:** يَطْلُبُونَ رَأْيَ أَهْلِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ فِي الْأُمُورِ الْمَتْرُوكَةِ لِنَتِظِيمَاتِهِمْ وَتَدْبِيرَاتِهِمْ، لَا تَتَّخِذُ قَرَارَ فِيهِ، مِمَّا لَا حُكْمَ فِيهِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا يَنْفَرِدُونَ بِرَأْيٍ مَا لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَيْهِ، **والصفة التاسعة:** يَنْفَقُونَ بَعْضًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ إِيَّاهُ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، **والصفة العاشرة:** الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ هُمْ يَتَقِمُونَ مِنْ ظَالِمِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَعَدٍّ.

٤٠ - وَجَزَاءُ سَيِّئَةِ الْمُعْتَدِي الْبَاغِي عَقُوبَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، تَقْرِيرًا لِلْعَدْلِ، فَمَنْ عَفَا عَنْ ظُلْمِهِ وَلَمْ يَقَابِلِ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، مَعَ قُدْرَتِهِ أَنْ يَنْتَصِرَ لِنَفْسِهِ، وَأَصْلَحَ نَفُوسَ كَثِيرٍ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، بِجَعْلِ قُلُوبِهِمْ تَعْطَفُ عَلَيْهِ، وَتُكَبِّرُ خُلُقَهُ الْإِسْلَامِي بِعَفْوِهِ عَنِ الْبَاغِي الظَّالِمِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا، وَأَصْلَحَ كَذَلِكَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ظَالِمِهِ، بِوَسَائِلِ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْخُصَمَاءِ، مَعَ عَفْوِهِ عَمَّا نَالَهُ مِنْ أَدَى، فَثَوَابُهُ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ بِقُدْرِهِ سِوَاهُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِالظُّلْمِ. وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُعْرِضُ نَفْسَهُ لِعِقَابِهِ.

٤١، ٤٢ - وَمَنْ الْمُؤَكَّدُ أَنْ كُلِّ مَنْ انْتَصَرَ لِنَفْسِهِ بَعْدَ ظُلْمِ الظَّالِمِ إِيَّاهُ، لَا بِمَجْرَدِ التَّخَوُّفِ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الْفَضْلَاءُ الْمُتَنَصِّرُونَ لِنَفْسِهِمْ فِي حُدُودِ ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ لَا يَوْجَدُ سَبِيلٌ يُوصِلُ إِلَى لُومِهِمْ أَوْ مُوَاخَذَتِهِمْ عَلَى انْتِصَارِهِمْ لِنَفْسِهِمْ بِالْعَدْلِ. مَا السَّبِيلُ الْمَوْصُوفُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ الْمَوْصِلُ إِلَى إِقَامَةِ الْجَزَاءِ الْعِقَابِيِّ عَلَى مُسْتَحَقِّهِ، إِلَّا السَّبِيلُ الْمُسَلِّطُ بِسُلْطَانِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ عَلَى الَّذِينَ يَدْعُونَ بِالظُّلْمِ، وَيَعْتَدُونَ بِغَاةٍ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَيَعْمَلُونَ فِيهَا الْمَعَاصِيَ، أُولَئِكَ الْمُنْحَطُونَ الْمَجْرُمُونَ بِالْبَغَاةِ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٌ مُؤَلَّمٌ مُوجِعٌ.

٤٣ - وَمَنْ الْمُؤَكَّدُ أَنْ كُلِّ مَنْ صَبَرَ عَلَى الظُّلْمِ وَالْأَذَى مِمَّنْ ظَلَمَهُ وَأَسَاءَ إِلَيْهِ، وَضَبِطَ نَفْسَهُ عَنِ الْإِنْدِفَاعِ بِعَوَامِلِ الْغَضَبِ أَوْ الطَّيْشِ أَوْ الرُّعُونَةِ، وَغَطَّى إِسَاءَةَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَنْشُرْهَا، وَتَجَاوَزَ عَنْ مُجَازَاتِهِ بِمِثْلِ سَيِّئَتِهِ، إِنَّ ذَلِكَ الْخُلُقَ الرَّفِيعَ وَالسُّلُوكَ الْبَدِيعَ لِمَنْ إِرَادَةَ الْأُمُورَ الصَّعْبَةَ الشَّاقَّةَ عَلَى النَّفُوسِ، الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى إِرَادَةِ قُوَّةٍ جَدًّا، هِيَ مِنْ مَسْتَوَى الْعِزْمِ.

٤٤ - وَمَنْ يَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالَةِ، وَيَقْضِي بِمَعَاقِبَتِهِ بِحَسَبِ ضَلَالَتِهِ، فَمَا لَهُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ مِنْ وَلِيٍّ مُحِبٍّ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِالْهَدَايَةِ، وَأَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ عِقَابَ اللَّهِ الَّذِي قَضَى بِهِ عَلَيْهِ، وَلَوْ كُنْتُ - أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ الْمُتَلَقِّي لِبَيَانِنَا - مِنْ أَهْلِ حَضُورِ هَذَا الْمَشْهَدِ =

٣٣، ٣٤ - وَمِنْ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّاتِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ: السُّفُنُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ، كَالْجِبَالِ الْعَظِيمَةِ. إِنَّ يَسَاءَ اللَّهُ يَسْكُنُ الرِّيحَ الَّتِي تَجْرِي بِهَا السُّفُنُ، فَيُبْقِيَنَّ سَوَاكِنَ ثَابِتَاتٍ عَلَى ظَهْرِ الْبَحْرِ لَا يَجْرِيْنَ إِلَى حَيْثُ يَرِيدُ رُكَّابُهَا، إِنَّ فِي طُفُو هَذِهِ السُّفُنِ الْعَظِيمَةِ عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ، وَفِي جَرِيَانِهَا بِالرِّيَّاحِ قَدِيمًا، وَبِالطَّاقَةِ الْحَرَارِيَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إِسْكَانِ الرِّيَّاحِ، وَتَعْطِيلِ الْمُحَرَّكَاتِ الْآخَرَى، لَايَاتٍ كَثِيرَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَى إِتْقَانِ صَنْعِ اللَّهِ لِكُونِهِ، وَعَنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَلَا يَصِلُ إِلَى إِدْرَاكِ دَقَائِقِ صَنْعِ اللَّهِ وَتَدَابِيرِهِ إِلَّا كُلُّ كَثِيرٍ الصَّبْرِ فِي الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، يَعْمَلُ مُجْتَهِدًا بِدَأْبٍ لِبُلُوغِ مَعْرِفَةِ النِّظَامِ السَّبِيِّ الَّذِي تَنْتَجِ عَنْهُ ظَوَاهِرُ الطُّفُو، وَإِجْرَاءِ السُّفُنِ، وَلَا يَنْتَفِعُ مِنْ إِدْرَاكِ عَظِيمِ صِفَاتِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ إِلَّا كُلُّ كَثِيرٍ الشُّكْرِ لِرَبِّهِ.

٣٤، ٣٥ - فَإِنْ لَمْ يَسْكُنِ الرِّيَّاحُ فَمِنْ الْإِحْتِمَالَاتِ أَنْ يَحْطُمَ السُّفُنُ وَيُهْلِكَ رُكَّابُهَا بِإِرْسَالِ الرِّيَّاحِ الْعَاصِفَةِ وَالْأَمْوَاجِ الْمُغْرَقَةِ؛ بِسَبَبِ مَا كَسَبَ رُكَّابُهَا مِنَ الْكُفْرِيَّاتِ وَالْجَرَائِمِ، وَيَغْفُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، فَلَا يَعَاقِبُ عَلَيْهَا؛ رَحْمَةً بِهِمْ، وَحِينَ يُنْزِلُ اللَّهُ هَذَا الْعِقَابَ بِالْمُجْرِمِينَ، فَمِنْ الْأَغْرَاضِ أَنْ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ فِي آيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ، أَنَّهُمْ مَا لَهُمْ مِنْ مَهْرَبٍ يَهْرَبُونَ إِلَيْهِ، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ عَذَابُهُ.

٣٦ - ٣٩ - فَمَا أُوتِيتُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - مِنْ شَيْءٍ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا، فَهُوَ مَتَاعٌ لَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، يُنْتَفَعُ بِهِ مَوْقَاتًا، وَهُوَ سَرِيعُ الزَّوَالِ، وَقَلِيلُ الْقِيَمَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَكْثَرُ بَقَاءً، لِأَنَّهُ يَتَجَدَّدُ دَوَامًا، أَعَدَّ اللَّهُ هَذَا الثَّوَابَ الْعَظِيمَ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الْعَشْرَةِ: **الصفة الأولى والثانية:** الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا صَاحِحًا صَادِقًا، وَعَلَى رَبِّهِمْ وَحْدَهُ - يَعْتَمِدُونَ فِي أُمُورِهِمْ كُلِّهَا، مَعَ قِيَامِهِمْ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي دَعَا إِلَى اتِّخَاذِهَا، **والصفة الثالثة:** الَّذِينَ يَبْتَغُونَ عَنْ كِبَائِرِ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، مِمَّا تَعْظُمُ عَقُوبَتُهُ، كَالشُّرْكِ وَالْقَتْلِ وَالرِّبَا وَالسَّرْقَةِ وَشَرْبِ الْخَمْرِ وَشَبِّهِ ذَلِكَ، **والصفة الرابعة:** يُجْتَنِبُونَ كُلَّ مَا عَظُمَ قَبْحُهُ مِنَ الْكِبَائِرِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِشَهَوَاتِ الْفُرُوجِ، وَمِنْهَا: الزُّنَى، وَعَمَلُ قَوْمِ لُوطَ، **والصفة الخامسة:** إِذَا أَسَاءَ إِلَيْهِمْ مَسِيءٌ، وَاسْتِثَارَ غَضَبُهُمْ مُؤَذِّ فَأَغْضَبَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَسْتَرُونَ إِسَاءَتَهُ وَإِذْيَاءَهُ، وَيَتَجَاوِزُونَ عَنْ مُوَاخَذَتِهِ، **والصفة السادسة:** الَّذِينَ أَطَاعُوا رَبَّهُمْ فَأَجَابُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكِ، **والصفة السابعة:** أَذَوْا الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ مَدَافِينِ عَلَيْهَا فِي أَوْقَاتِهَا، عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَطْلُوبِ، **والصفة الثامنة:** يَطْلُبُونَ رَأْيَ أَهْلِ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ فِي الْأُمُورِ الْمَتْرُوكَةِ لِنَتِظِيمَاتِهِمْ وَتَدْبِيرَاتِهِمْ، لَا تَتَّخِذُ قَرَارَ فِيهِ، مِمَّا لَا حُكْمَ فِيهِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا يَنْفَرِدُونَ بِرَأْيٍ مَا لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَيْهِ، **والصفة التاسعة:** يَنْفَقُونَ بَعْضًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ إِيَّاهُ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ، **والصفة العاشرة:** الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الظُّلْمُ وَالْعُدْوَانُ هُمْ يَتَقِمُونَ مِنْ ظَالِمِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَعَدٍّ.

٤٠ - وَجَزَاءُ سَيِّئَةِ الْمُعْتَدِي الْبَاغِي عَقُوبَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، تَقْرِيرًا لِلْعَدْلِ، فَمَنْ عَفَا عَنْ ظُلْمِهِ وَلَمْ يَقَابِلِ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، مَعَ قُدْرَتِهِ أَنْ يَنْتَصِرَ لِنَفْسِهِ، وَأَصْلَحَ نَفُوسَ كَثِيرٍ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، بِجَعْلِ قُلُوبِهِمْ تَعْطَفُ عَلَيْهِ، وَتُكَبِّرُ خُلُقَهُ الْإِسْلَامِي بِعَفْوِهِ عَنِ الْبَاغِي الظَّالِمِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مُقَابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا، وَأَصْلَحَ كَذَلِكَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ظَالِمِهِ، بِوَسَائِلِ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْخُصَمَاءِ، مَعَ عَفْوِهِ عَمَّا نَالَهُ مِنْ أَدَى، فَثَوَابُهُ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ بِقُدْرِهِ سِوَاهُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِالظُّلْمِ. وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُعْرِضُ نَفْسَهُ لِعِقَابِهِ.

٤١، ٤٢ - وَمَنْ الْمُؤَكَّدُ أَنْ كُلِّ مَنْ انْتَصَرَ لِنَفْسِهِ بَعْدَ ظُلْمِ الظَّالِمِ إِيَّاهُ، لَا بِمَجْرَدِ التَّخَوُّفِ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الْفَضْلَاءُ الْمُتَنَصِّرُونَ لِنَفْسِهِمْ فِي حُدُودِ ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ لَا يَوْجَدُ سَبِيلٌ يُوصِلُ إِلَى لُومِهِمْ أَوْ مُوَاخَذَتِهِمْ عَلَى انْتِصَارِهِمْ لِنَفْسِهِمْ بِالْعَدْلِ. مَا السَّبِيلُ الْمَوْصُوفُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ الْمَوْصِلُ إِلَى إِقَامَةِ الْجَزَاءِ الْعِقَابِيِّ عَلَى مُسْتَحَقِّهِ، إِلَّا السَّبِيلُ الْمُسَلِّطُ بِسُلْطَانِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ عَلَى الَّذِينَ يَدْعُونَ بِالظُّلْمِ، وَيَعْتَدُونَ بِغَاةٍ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَيَعْمَلُونَ فِيهَا الْمَعَاصِيَ، أُولَئِكَ الْمُنْحَطُونَ الْمَجْرُمُونَ بِالْبَغَاةِ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٌ مُؤَلَّمٌ مُوجِعٌ.

٤٣ - وَمَنْ الْمُؤَكَّدُ أَنْ كُلِّ مَنْ صَبَرَ عَلَى الظُّلْمِ وَالْأَذَى مِمَّنْ ظَلَمَهُ وَأَسَاءَ إِلَيْهِ، وَضَبِطَ نَفْسَهُ عَنِ الْإِنْدِفَاعِ بِعَوَامِلِ الْغَضَبِ أَوْ الطَّيْشِ أَوْ الرُّعُونَةِ، وَغَطَّى إِسَاءَةَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَنْشُرْهَا، وَتَجَاوَزَ عَنْ مُجَازَاتِهِ بِمِثْلِ سَيِّئَتِهِ، إِنَّ ذَلِكَ الْخُلُقَ الرَّفِيعَ وَالسُّلُوكَ الْبَدِيعَ لِمَنْ إِرَادَةَ الْأُمُورَ الصَّعْبَةَ الشَّاقَّةَ عَلَى النَّفُوسِ، الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى إِرَادَةِ قُوَّةٍ جَدًّا، هِيَ مِنْ مَسْتَوَى الْعِزْمِ.

٤٤ - وَمَنْ يَحْكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالضَّلَالَةِ، وَيَقْضِي بِمَعَاقِبَتِهِ بِحَسَبِ ضَلَالَتِهِ، فَمَا لَهُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ مِنْ وَلِيٍّ مُحِبٍّ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِالْهَدَايَةِ، وَأَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ عِقَابَ اللَّهِ الَّذِي قَضَى بِهِ عَلَيْهِ، وَلَوْ كُنْتُ - أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ الْمُتَلَقِّي لِبَيَانِنَا - مِنْ أَهْلِ حَضُورِ هَذَا الْمَشْهَدِ =

= من مشاهد يوم القيامة، لكنت ترى الظالمين حين رأوا مكان العذاب، ووسائل تعذيبهم في جهنم، يقولون في أنفسهم متسائلين: هل لنا من وسيلة للرجعة إلى الحياة الدنيا لاستئناف رحلة الامتحان؟

٤٥ - ولكنت ترى - أيها الرائي - هؤلاء الظالمين يُعْرَضُونَ على جهنم، خاضعين متضائلين منكسرين ممّا يلحقهم من الذل، يرمون بأبصارهم إلى الأرض، وينظرون إلى مواقع عذابهم في النار من طَرْفِ خَفِيٍّ، خوفاً منها، وخجلاً من أهل المحشر، وقال الذين آمنوا في موقف الحشر بعد أن جاءتهم البشرى بأنهم من أصحاب الجنة، وبعد أن شاهدوا أهل النار على أبوابها أذلاء منكسرين: إِنَّ الْخَاسِرِينَ حَقًّا كُلُّ شَيْءٍ، هم الذين خَسَرُوا أنفسهم، وخسروا أهلكهم يوم القيامة بأن صاروا إلى عذاب النار الأبدي. تنبّهوا وتأكدوا إِنَّ الظالمين - يوم القيامة - في عذابٍ دائمٍ مُستمرٍ شديد، لا ينقطع عنهم ولا يزول.

٤٦ - وما كان لهؤلاء الكافرين حين محاسبتهم والحكم عليهم بالخلود في عذاب النار من نُصْرَاءٍ من دون الله يُقَدِّزُونَهُمْ من عذاب الله الأبدي، وَمَنْ يحكم الله عليه بالضلال والعذاب الأبدي، فما له من طريق يُوصِلُهُ إلى الخلاص والنجاة من عذاب الله.

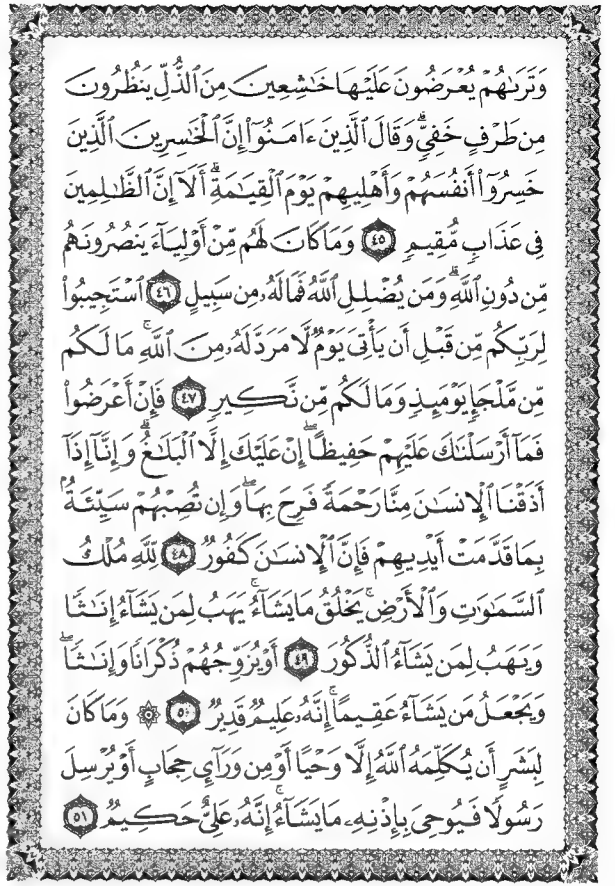
٤٧ - أطيعوا ربكم إلى ما دعاكم إلى الإيمان به، وإلى فعله أو تركه، من قبل أن يأتي يوم حسابكم جزائكم، لا يُقَدِّرُ أَحَدٌ على دفعه ومنعه، إذ هو من أمر الله تقديراً، وقضاء، وخلقاً، ما لكم من مَلْجَأٍ تلجؤون إليه ليقىكم من العذاب، وما لكم من إنكارٍ لما يُنْزِلُهُ الله بكم من جزاء بالعدل؛ لاستحقاقكم له.

٤٨ - فَإِنْ أَعْرَضَ هؤلاء المشركون عن الاستجابة لك، فما أرسلناك - يا رسول الله - عليهم حفيظاً تحفظ أعمالهم، ولست مُكَلِّفاً أَنْ تُحَوِّلَهُمْ من الكفر إلى الإيمان، ولست مُجْبِراً ولا مُكْرَهاً لهم، ما

يجب عليك - يا رسول الله - إلا البلاغ، بتوصيل ما أمرك ربك بإبلاغه إلى الناس، بالبيان الكلامي، والعمل، والقُدوة الحسنة. وإنا إذا أذقنا الإنسان - بفضل منا - نعمةً وصحةً وسعةً وأماناً، بطر لأجلها، واستكبر وتفاخر وتعالى على الناس، وإنَّ نُصْبَهُمْ مُصِيبَةٌ من مرض وفقر وقحط؛ بسبب ما قَدِّمَتْ أيديهم من الأعمال الخبيثة، فهم يؤوسون قنوطون، وذوو دعاء عريض، فمن المؤكّد حقاً إن الإنسان بالنظر إلى غالب أفراد جنسه، كثير الجحود، ينكر الحق، وهو عالمٌ بأنه حقٌّ.

٤٩، ٥٠ - لله تعالى - وحده - مُلْكُ السموات والأرض خلقاً وتديراً وتصرفاً، يخلق في الوجود ما يشاء أن يخلقه، إيجاداً من العدم وإبداعاً، أو إيجاداً لكائناتٍ جديداتٍ من موجوداتٍ سابقات، ومشيئته سبحانه مقترنة بعلمه وحكمته، ومن خلقه: خلق الذرّيات الإنسانية، ضمن نظام التناسل، يَهَبُ لِمَنْ يشاء إنثاءً، فلا يُؤَلِّدُ له ذكر، وَيَهَبُ لِمَنْ يشاء الذكور، فلا يُؤَلِّدُ له أنثى، أو يجمع بينهما، فيولد له الذكور والإناث، ويجعل مَنْ يشاء عقيماً، لا يُؤَلِّدُ له؛ إنه سبحانه عليمٌ بما يخلق، قديرٌ على ما يريد. فأقسام مَنْ يُؤَلِّدُ لهم مواليد أو يُحرمون منها مع اتّخاذهم أسباب الإنجاب، أربعة أقسام لا خامس لها، وَفَقَّ القسمة العقلية والواقعية، فإذا أن تكون الذرية من الإناث، وإما أن تكون من الذكور، وإما أن تكون من الصنفين، وإما أن يكون الإنسان عقيماً لا يُنجب.

٥١ - وما جعل الله بتقديره وقضائه الحكيم لأحدٍ من البشر أن يكلّمه تكليماً مّا في الحياة الدنيا إلا بهذه الأنواع الثلاثة: الأول: الوحي بالإلقاء في القلب إلهاماً أو مناماً بطريقةٍ يُعَلِّمُهُ بيقين أنّ هذا الكلام تنزيلٌ من ربِّ العالمين، النوع الثاني: أن يُسمعه كلامه بأذنيه نافذاً إلى أعماق فؤاده من وراء حجاب، النوع الثالث: أن يُرسلَ رسولاً من الملائكة، كما ينزل جبريل عليه السلام إلى المرسل إليه، فيُوحِي ذلك المَلَكُ إلى الرسول المُخْتَارَ لإيصال كلام الله إليه، بإذن ربّه ما يشاء الله إحياءه؛ إنه سبحانه عليٌّ في ذاته وصفاته وأفعاله، له العلوّ الذي لا يُدَانِيهِ ولا يقاربه علوّ، إذ كُلُّ ما في الوجود هو من دونه، وهو مخلوقٌ ومملوكٌ له، حكيمٌ في تدبير أمور خلقه، يضع الأشياء في مواضعها الملائمة لها، ويختارُ أَفْضَلَ الأشياء وأحسنها في الأمور المختلفة لما يُحَقِّقُ أحسن النتائج.



٥٢، ٥٣ - وكما أَوْحَيْنَا إِلَى سَائِر رُسُلِنَا، أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - قِرَاءَةً مِنْ أَمْرِنَا مُشْتَمِلَةً عَلَى زُبْدَةِ الْعُلُومِ الرِّبَانِيَّةِ الْمُنْزَلَةِ، وَكُلِّيَّاتِ الدِّينِ الْكَبِيرَى، وَهُوَ كَالرُّوحِ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْأَجْسَادِ، إِذْ هُوَ حَيَاةٌ لِلْقُلُوبِ وَالنَّفُوسِ وَالْأَفْكَارِ، يَحْيِي بِهِ مَنْ تَلَقَّاهُ وَأَمَّنْ بِهِ، وَتَدَبَّرَ مَعَانِيَهُ وَتَأَثَّرَ بِهَا، مَا كُنْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - تَدْرِي قَبْلَ الْوَحْيِ إِلَيْكَ: مَا الْقُرْآنُ وَلَا شَرَائِعَ الْإِيمَانِ وَمَعَالِمَهُ وَتَفَاصِيلَهُ؟ وَلَكِنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، وَعَلَّمْنَاكَ الْإِيمَانَ وَأَرْكَانَهُ، وَجَعَلْنَا الْقُرْآنَ نُورًا هَادِيًا لِلْقُلُوبِ وَالنَّفُوسِ وَالْأَفْكَارِ، نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، إِلَى سُلُوكِ صِرَاطِنَا الْمُسْتَقِيمِ، وَنَمَحُو بِهِ ظِلْمَاتِ الضَّلَالَاتِ الْفَكْرِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ، وَإِنَّكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَتَهْدِي هِدَايَةَ دَعْوَةٍ وَتَبْلِيغٍ إِلَى طَرِيقِ رَبِّكَ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي لَا عِوَجَ لَهُ، وَهَذَا الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الْجَلِيُّ لَيْسَ مِنْ وَضْعِكَ، بَلْ هُوَ اصْطِفَاءٌ حَكِيمٌ مِنَ اللَّهِ، الَّذِي لَهُ كُلُّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ. انْتَبِهُوا وَتَأَكَّدُوا - أَيُّهَا النَّاسُ - إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصِيرُ كُلُّ أُمُورِ الْخَلَائِقِ، وَيُجَازِي الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْإِبْتِلَاءِ، بِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِذِ الْجَزَاءِ، يَوْمَ الدِّينِ.

سُورَةُ الْحُرُوفِ

١ - ﴿حَمْ﴾ سبق الكلام على الحروف الْمُقْطَعَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.
٢ - أَقْسَمَ بِالْكِتَابِ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْمُكَلِّفِينَ أَنْ يُدُونُوهُ كِتَابًا مَصُونًا مُحْفُوظًا مِنَ التَّغْيِيرِ وَالتَّحْدِيدِ، وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالتَّحْرِيفِ وَالضِّيَاعِ.
٣ - إِنَّا أَنْزَلْنَا هَذَا الْكِتَابَ قِرَاءَةً عَرَبِيًّا يُقْرَأُ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ؛ رَغْبَةً فِي أَنْ تَعْقِلُوا عَقْلًا عِلْمِيًّا مَعَانِيَهُ وَأَحْكَامَهُ، وَعَقْلًا إِرَادِيًّا تُضَبِّطُونَ بِهِ نَفُوسَكُمْ عَنْ اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ.

٤ - وَإِنْ كَذَّبْتُمْ - يَا أَهْلَ مَكَّةَ - بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ مُثَبَّتٌ عِنْدَنَا فِي اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ، فِي مَكَانٍ عَلِيٍّ ذِي مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ؛ لِأَنَّ دَلَالَاتِهِ تَتَعَلَّقُ بِكِبَرِيَّاتِ الْحَقَائِقِ الْمِثْنَاتِ لَصَفَاتِ اللَّهِ، وَمَطْلُوبَاتِهِ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ أَيْضًا حَكِيمٌ مُشْتَمِلٌ عَلَى حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ فِي مَعَانِيهِ وَمَبَانِيهِ، وَأَغْرَاضِهِ وَمَرَامِيهِ، مُحْكَمٌ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْفَسَادُ وَالْبَطْلَانُ وَلَا الْإِخْتِلَافُ وَلَا التَّنَاقُضُ.
٥ - أَنْتَرَكْتُمْ فِي غَوَايَاتِكُمْ، فَانْصَرَفْ عَنْكُمْ تَبْلِيغُ آيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ وَالتَّذْكِيرِ بِهَا، إِعْرَاضًا عَنْكُمْ، وَيَأْسًا مِنْ اسْتِجَابَتِكُمْ، مِنْ أَجْلِ أَنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ، ذَوِي غُلُوٍّ فِي الْمَكَابِرَةِ وَالْعِنَادِ، وَرَفُضَ دَعْوَةِ الْحَقِّ؟ إِنَّا لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ.
٦ - وَأَرْسَلْنَا كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، فَلَيْسَ عَجَبًا إِرْسَالُ رَسُولٍ إِلَيْكُمْ.
٧ - وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ، كَاسْتَهْزَاءِ قَوْمِكَ بِكَ.
٨ - فَأَهْلَكْنَا أَقْوَامًا كَثِيرِينَ كَانُوا أَقْوَى مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُسْرِفِينَ سَطْوَةً وَقُوَّةً، وَمَضَى - فِيمَا نَزَلَ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ - ذِكْرُ وَصْفِ الْمُهْلَكِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَعِنَادِهِمْ وَاسْتِصْصَالَهُمْ، وَإِنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ سَلَكَوا فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ مَسْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ، فَلْيَحْذَرُوا أَنْ يَنْزَلَ بِهِمْ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِالْأَوَّلِينَ مِنَ الْخِزْيِ وَالْعُقُوبَةِ.
٩ - وَنُؤَكِّدُ بِالْقَسَمِ: لَنْ سَأَلْتُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - قَوْمَكَ: مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ لِيَقُولُنَّ بِتَلْقَائِيَّةٍ وَتَتَابَعٍ: خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ الْقُوَى، الْعَلِيمُ ذُو الْعِلْمِ الشَّامِلِ لِكُلِّ مَا خَلَقَ. وَمَعَ إِقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمَا، وَاعْتِرَافِهِمْ بِعِزَّتِهِ وَعِلْمِهِ، أَشْرَكُوا بِرَبِّيَّتِهِ، فَجَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي شُؤْنِ حَيَاتِهِمْ، كَالنَّصَرِ، وَالرُّزْقِ، وَالْأَمْنِ، وَالتَّوْفِيقِ، وَمَنْحِ الذَّرِّيَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.
١٠ - الَّذِي تَوَّعَدُوا أَنَّ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، لَمْ يُشَارِكْهُ فِي خَلْقِهِمَا شَرِيكَ مَا، هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَكَانًا مُمَهَّدًا؛ لِتَجِدُوا عَلَيْهَا رَاحَتَكُمْ إِقَامَةً، وَجُلُوسًا، وَاضْطِجَاعًا، وَقِيَامًا، فَوَدَيَانَهَا وَسَهَّلَهَا تَشْبِهُ الْمَكَانِ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ الطِّفْلُ فِي بَاطِنِ السَّرِيرِ، وَجِبَالَهَا تَشْبِهُ حَافَتِي السَّرِيرِ الْمُرْتَفِعَتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ طُرُقًا صَالِحَةً لِأَنْ تَسْلُكُوها فِي تَنْقَلَاتِكُمْ وَأَسْفَارِكُمْ؛ رَغْبَةً فِي أَنْ تَهْتَدُوا إِلَى تَحْقِيقِ مَصَالِحِكُمْ فِي زِرَاعَتِكُمْ وَصِنَاعَتِكُمْ وَتِجَارَتِكُمْ، وَسَبِيلِ حِمَايَتِكُمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

سُورَةُ الْحُرُوفِ

سُورَةُ الْحُرُوفِ

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَصِيرَ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

سُورَةُ الْحُرُوفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَى حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مِثْلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَكِنْ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

١١ - وهو الذي يرزقكم، فلا ترزقكم آلهتكم التي تعبدونها من دونه، ومن مظاهر رزقه: أنه نزل من السحاب ماء بمقدار محدد معلوم اقتضته حكمته؛ لرزق عباده وسائر الأحياء في الأرض، فأحيينا بالمطر بلدة مُجدبة، لا نبات فيها ولا زرع، كما أحيينا هذه البلدة المُقفرة من النبات بالمطر، كذلك تُخرجون - أيها الناس - من قبوركم أحياء يوم البعث من بُزرة صغيرة محفوظة في عَجَب الذنب، فتخرجون بنماء، حتى تصيروا أجساداً كاملة، وتزوج تلك الأجساد بأرواحها التي كانت داخلية فيها في الحياة الدنيا.

١٢ - والذي خلق أصناف المخلوقات كلها، وجعل لكل فرد زوجاً من جنسه أو من نوعه، فهما يتكاملان في أداء وظيفتهما في الوجود، كالذكر والأنثى في الأحياء، وكالسَّالب والموجب في الكهرباء، وفي الذرات، وفي غير ذلك، وجعل لكم من السفن والإبل ما تركبون في البحر والبر.

١٣، ١٤ - لتكونوا راكبين باعتماد واستقامة على ظهور السفن والأنعام، ثم تذكروا نعمة ربكم في تسخيرها لكم عند الاستقرار عليها، ولتقولوا - استعظماً لتذليلها العجيب، واعترافاً بالعجز عن ضبطها والتسلط عليها -: سُبْحَانَ الَّذِي ذَلَّلَ لَنَا هَذَا الْمَرْكُوبَ، وجعله متقاداً لنا، وما كنا له مطيقين لولا أن الله طوعه لنا، ونسأله أن يعيدنا بعد قضاء حاجتنا في سفرنا آمين، وإنا إلى ربنا لراجعون بعد الموت والبعث، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

١٥ - وحكم وأثبت المشركون الله سبحانه ممّا خلق ولدًا، زاعمين أنه جزء منفصل من ذاته، قياساً على ما يعرفون من أولادهم، وأنهم أجزاء من ذواتهم، إن أكثر أفراد الإنسان لَجُحود نِعَمَ الله تعالى عليه، ظاهرٌ جحوده وسُتْرُهُ أدلة الإيمان بعد أن وُضِّحت له.

١٦ - بل أتزعمون - أيها الجاحدون - أن ربكم اتخذ لنفسه ممّا

يخلق في كونه بناتٍ، وتبأهنّ أولاداً له، وهنّ خلق من خلقه وعباد من عباده؟! وأتركم على أنفسه بالبنين؟! فكيف تتصورون أن الله اختار لنفسه الأدنى، وآثر الناس الأكمّل.

١٧ - إنهم نسبوا إليه سبحانه البنات، حين زعموا أن الملائكة بنات الله، مع أنهم يكرهون لأنفسهم البنات، وإذا بُشِّرَ أحدهم بما صنع من عنده مثلاً زعم أنه مشابه للرحمن، في نسبة إنجاب ذرية البنات لله، بقي وجهه كالحأ طول نهاره عليه سحابات سوداء من سوء البشارة بالأنثى، وهو مُفسك على ما امتلأت به نفسه، من الحزن والغیظ.

١٨ - ويقول في نفسه عن المولود من الإنثى: أبشّر بمن لا يكسب لي رزقاً، ولا يدافع عني في قتال، ولا أفتخر به بين الناس، ومن يُنشأ في الزينة، وهو في المخاصمة غير مبین بحُجّة دامغة يقبلها أهل الفكر والرشد والبيان؟!

١٩ - حكم هؤلاء المشركون وأثبتوا الأنوثة للملائكة الذين هم عباد الرحمن، دون أن يكون لهم دليلٌ خبريٌّ عن الله، ودون أن يكون لهم شهودٌ حسيّ، أحضروا خلقهم حين خلقوا، ورأوا أنهم إناث؟ سَتَكْتَبُ شهادتهم إن شهدوا بأنهم رأوهم إناثاً بشهود بصريّ، وسألون عن شهادتهم الكاذبة هذه يوم القيامة، ويُجازون عليها.

٢٠ - وقال هؤلاء المشركون: لو شاء الرحمن ما عبدنا أحداً من دونه، فعبادتنا للآلهة من دون الله، إنما هي أمرٌ جبّريٌّ سبق به تقدير الله وقضاؤه، ولا تخضع لإرادتنا، فلا مسؤولية علينا منها، ليس لهم دليلٌ علميٌّ من برهان عقليّ يثبت أنهم مجبورون، بل البرهان العقلي والتجريبي يثبت أنهم ذوو إرادات حرة يريدون بها ما يشاؤون من كل ما يخضع لتصرفاتهم الإرادية، وهم مسؤولون عما يفعلون بإراداتهم الحرة، وما هم بأدعائهم هذا إلا يكذبون ويستندون إلى ظنون توهميّة، إرضاءً لأهوائهم، والتزاماً بتقاليدهم العمياء لأبائهم.

٢١ - أم آتيناهم كتاباً مُنزلاً على رسول من قبل إنزال القرآن على محمد، وفي هذا الكتاب أمرٌ أو إذنٌ منا بأن يعبدوا غير الله، فهم بما دلّ عليه هذا الكتاب مُستمسكون، يعملون بما فيه، ويحتجون به عليك يا رسول الله؟

٢٢ - بل قالوا بعد عجزهم عن الحُجّة من العقل والنقل: إنا وجدنا آباءنا سائرين على دينٍ وملةٍ تؤمُّ وتُقصّد، وإنا نسير على آثار آبائنا فيما كانوا عليه، مُقتدين بهم، ونؤمن بأننا مهتدون بهذا الاقتداء.



٢٣ - وكذلك ما أرسلنا من قبلك - يا رسول الله - في أهل مُجَمِّع سكني من رسول قام بوظائف رسالته من التبليغ والتعليم والتذكير والتبشير والإنذار في آخر الأمر، إلا قال أغنياؤها ورؤساؤها: إنا وجدنا آباءنا على قِلَّةٍ ودين، وإنا سائرون على آثار ملَّة آبائنا، ومُفْتَدُونَ بهم، ومهتدون في مسيرتنا.

٢٤ - قال محمد ﷺ وَمَنْ سَبَقَهُ مِنَ الرُّسُلِ: أَتَقْتَدُونَ بِآبَائِكُمْ، ولو جئتكم بأفضل هداية إلى نجاتكم وسعادتكم من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم؟! قال المشركون المستكبرون لرسول ربهم: إنا بكل الذي أرسلتم به من التوحيد وأبناء البعث يوم القيامة جاحدون.

٢٥ - فانتقمنا من المُكذِّبين لرسولهم انتقاماً شديداً بالإهلاك المُستأصل في الدنيا، فانظر - أيها المُخاطب المؤهل للنظر التفكري في آثار المُهلِكين السابقين - كيف كان جزاء المُكذِّبين في أماكن مختلفة من بلدان الأمم السابقة؟

٢٦ - واذكروا الحَدَّث الذي جرى - يا أبناء إسماعيل بن إبراهيم - حين أنكر جدكم إبراهيم على أبيه وقومه عبادة الأصنام، وقال: إني بعيد كل البعد ممَّا تعبدون من الآلهة الباطلة.

٢٧ - أنا أتبرأ ممَّا تعبدون، لكن الله الذي خلقتني وأوجدني بعد أن لم أكن شيئاً مذكوراً، وهداني إلى الإيمان به رباً لا شريك له، فإنه سيرشدني إلى أعمال العبادات التي تُرضيه، المُبينة لعبادتكم لألهتكم التي اتخذتموها من دون الله، زوراً وبهتاناً.

٢٨ - وجعل إبراهيم الكلمة التي قالها لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَّةٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي، كلمةً باقية في ذُرِّيَّتِهِ إلى يوم القيامة، ووصى بها من كان حياً من أولاده قبل موته، وأوصاهم أن يجعلوها وصيته بنقلها خَلَفَ عن سلف، راجياً بهذه الوصية أن ترجع ذرياته إلى تذكُّرها جيلاً بعد جيل، وأن يلتزموا بمضمونها.

٢٩ - بل مُتَّعَ - يا رسول الله - كفار مكة وآباءهم المشركين في الدنيا، وأمهلتهم إلى آجالهم المقدرة لهم، ولم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وترك وصية إبراهيم بالمحافظة على عقيدة التوحيد، التي كان قد وصى بها أجدادهم، وأوصاهم أن يتوارثوها جيلاً بعد جيل، واستمرَّ إمدادي لهم بمتاعاتهم من الحياة الدنيا، حتى جاءهم القرآن، ورسول يبيِّن الرسالة وأوضحها بما معه من الآيات والمعجزات.

٣٠، ٣١ - ولَمَّا جاءهم الكتابُ الحقُّ من عند الله بلاغاً على لسان رسوله ﷺ، وأدهشتهم بلاغته، وعجزوا عن أن يأتوا بمثله، قالوا: هذا التأثير الذي نجده في نفوسنا وقلوبنا وعقولنا ناتجٌ عما اقترن به من سحرٍ يَسْحَرُنَا به، وليس لأنه بذاته بيانٌ من الله عظيمٌ معجز، وإنا به جاحدون؛ لأنه يشتمل على ما يُخالف تقاليدنا وأهواءنا وشهواتنا. وقال هؤلاء المشركون: إنَّ منصب النبوة منصبٌ عظيمٌ شريف، لا يليق إلا برجل كثير المال والجاه، هَلَّا نُزِّلَ هذا القرآن - الذي يزعم محمد أنه وحى من عند الله - على رجلٍ عظيم الجاه، واسع المال، ذي مكانة رفيعة من إحدى هاتين القريتين: «مكة» أو «الطائف»؟

٣٢ - أبايديهم مفاتيح الرسالة، فيضعونها حيث شاؤوا؟ نحن بحكمتنا الجليلة قَسَمْنَا بين الناس معيشتهم في الحياة الدنيا، فجعلنا بعضهم غنياً موسعاً عليه في الرزق على درجات متفاوتات، وبعضهم فقيراً مُقْتَرّاً عليه في الرزق على درجات متنازلات، ونحن رفعنا بعض الناس فوق بعض درجات في الهبات والخصائص المادية والمعنوية، والجسدية والنفسية، والفكرية والخلقية؛ ليكون بعض الناس مُسَخَّراً لبعض بحسب خصائص كلٍّ منهم، ويحصل بهذا تبادل الخدمات، وتكامل تأدية وظائف الحياة ومعيش الناس، فإذا عجزوا عن الاعتراض على حكمنا في أحوال الدنيا مع قَلَّتْها وذَلَّتْها، فكيف يقدرُون على تغيير حكمنا في تخصيص بعض عبادنا بمنصب النبوة والرسالة التي لا تكون إلا لمن هو مؤهل لها، ورحمة ربك الخاصة بالاضطفاء للنبوة والرسالة، هي خيرٌ وأجلُّ وأعظم من كلِّ ما يجمع الكفار من أموالٍ ومتاعٍ من مظاهر الحياة الدنيا.

٣٣ - ولولا أن يفتن أكثر الناس بمظاهر الحياة الدنيا وزيناتها، فيكونوا جماعةً واحدةً على الكفر، إذا رأوا الكفار في سعة من المال والرزق، لجعلنا لبيوت الذين يكفرون بالرحمن المُمِدُّ لهم بعبءات رحمته سُقْفاً من فضة، ولجعلنا لهم مَصَاعِدَ من فضة أيضاً، على هذه المصاعد والسلام يرقون ويصعدون.

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ حُتُّوا بَاهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْفُرْقَانَ فَذَقْنَاهُ لَأَبْرِهِيمَ إِنَّنِي بِرَأْيِهِ وَجَدْتُمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٦﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءً وَرَحْمَتَ رَبِّكَ حَزِيراً مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣١﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِسُوءَتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٢﴾

٣٤، ٣٥ - وَلَجَعَلْنَا لِبَيْوتِهِمْ أَبْوَاباً سُوراً من فضة، ولجعلناهم مُرْقَهين يَتَكاثرون على سُررهم الوفيرة، ولجعلنا من ذلك ذهباً يستمتعون به، ويتفاخرون بحُسنه، وبما فيه من زينات سائرَات للناظرين، وما كُل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا يستمتع به الإنسان قليلاً، وهو ضئيل القيمة، مصيره إلى الفناء، والآخرة العظيمة الخالدة في جنات النعيم، هي عند ربك - أيها المُتلقى ببياناته - خَاصَّةٌ للمُتقين الذين زهدوا في الدنيا.

٣٦ - وَمَنْ يجعل بإرادته الحرة على بصر بصيرته غشاوة تجعله ضعيفاً قليلاً عن الرؤية في ظلمات أهوائه، فيعرض بسبب ذلك عن آيات الذكر الذي أنزله الرحمن، مُتبعاً أهواءه وشهواته ولذاته من دنياه، نهى له شيطاناً عاتياً مُتمرداً في الدنيا من الجن، ونضمه إليه، وتسلطه عليه، ضمن سُنَّتنا السبيية التي تأتي بأسباب من إرادات الموضوعين في الحياة الدنيا، فهو له مُصاحب مُلازم لا يفارقه، يُزِن له العَمَى، ويُخَيِّل إليه أنه على هدى.

٣٧ - وَإِنَّ القُرءاء من الشياطين ليمنعون قراءتهم عن سبيل الله المُوصل إلى النجاة والفوز والخلود في جنات النعيم، ويظنُّ كفار بني آدم ظناً ضعيفاً أنهم مهتدون إلى ما يُحقق سعادتهم.

٣٨ - ويستمرُّ الكافر، مُصاحباً قرينه الشيطان، ويحسب أنه مُهتدٍ باتباعه، حتى إذا جاءنا وحده عند انتهاء أجله في الحياة الدنيا، وانكشف له مصيره الذي هو صائرٌ إليه، قال الكافر لقرينه الشيطان: يا لَيْتَ بي وبيني وبينك بُعد ما بين المشرق والمغرب، قَبِئْسَ القَرِينُ أنت.

٣٩ - ولن ينفعكم اليوم - أيها المُعرضون عن ذكر الرحمن، وقرناؤكم من الشياطين - لأنكم كنتم ظلمتم في الدنيا ظلماً من ذرَّة الكفر، أنكم ملتصقون بقرنائكم، وتنزل عليكم وسائل تعذيبكم نزلةً

وَلِبَيْوتِهِمْ أَبْوَاباً سُوراً عَلَيْهَا يَكُونُ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَتَاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ رَشِيدُنَا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ يَصِدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ نَاقَالَ بِلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَنَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا أَتَيْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَسْكِنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ بِأَنَّهُ عَلَى صَرَطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

واحدة، تكونون فيها مشتركين، بل لكل واحد منكم نصيبه الخاص به من العذاب.

٤٠ - أَفَأَنْتَ تُسْمِع - يا رسول الله - مَنْ لا سَمْعَ له الذين يتولَّون عن استماع البيانات الداعيات إلى دين الحق، أو تهدي من لا بصر له الذين يُدبرون عن تفهيم آيات الله المشهودة الدالات على وحدانيته وقدرته، وَمَنْ كان في ضلال عن الحق بَيِّن واضح؟ فهو مكابرٌ معاندٌ جاحدٌ، فلا تنفق وقتك في معالجة هؤلاء الميؤوس من استجابتهم عن طريق إراداتهم الحرَّة.

٤١، ٤٢ - فَإِنَّمَا تُنمِتُك - يا رسول الله - قبل أن ننتقم من المكابرين المعاندين، فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْتَقِمُونَ بالعقوبة بعد موتك، أو تُرِيَنَّكَ في حياتك الذي وعدناهم به من العذاب، فَإِنَّمَا شَدِيدُ الْقُدْرَةِ على الانتقام منهم، وعلى تنفيذ ما وعدناهم إِيَّاه من عقوبة مُؤَلِمَةٍ.

٤٣، ٤٤ - فَاسْكُنْ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ - يا رسول الله - مؤمناً وعاملاً بكلِّ الذي أُوحى إليك من ربك؛ إِنَّكَ بتمسُّكك بالذي أُوحى إليك من ربك، تسير في حياتك على طريق واضح جليٍّ واسع مُمَهَّد، لا عوج فيه ولا مُعْثِرَات. وَإِنَّ هذا القرآنَ لَشَرَفٌ عَظِيمٌ لك - يا رسول الله - ولقَوْمك العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، وهذا الشرف العظيم ينبغي أن يكون دافعاً لهم أن يؤمنوا بالقرآن، لا أن يكفروا به، ويكذبوا رسول ربهم، وسوف تُسألون يوم القيامة عن القيام بحقه، والاستسكاك به، والسَّير على صراطه المستقيم.

٤٥ - واسأل مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رسلنا الذين أرسلتهم: أَجَعَلْنَا مِمَّنْ خلَقنا من عبادنا من ملائكةٍ أو أنبياء - مهما علت منزلتهم - آلِهَةً يُعْبَدُونَ؟! بل كُلُّ الرسل كانوا يأمرون أقوامهم بعبادة الله وحده. وهذا الأمر صيغته عامَّة موجَّهة لكلِّ فرد من أفراد أمة دعوة الرسول ﷺ، والمقصود به من كان لديه شكٌّ أو توهَّم، فإذا أراد أن يدفع شكَّه أو توهَّمه، فليسال النصوص الصحيحة الثابتة، أما الرسول ﷺ فلا يحتاج أن يسأل الرسل السابقين؛ لأنَّ ما يُوحى إليه من أعلى مراتب اليقين الذي لا يعتريه شكٌّ أو توهَّم، ولكن حُوطب الشاك من أمة دعوته، من خلال خطابه ﷺ، إذ هو رأس هذه الأمة بعد بعثته إلى أن تقوم الساعة.

٤٦، ٤٧ - ونؤكِّد لكم أننا أرسلنا نبينا موسى مَصْحوباً بآياتنا البيانية والإعجازية إلى فرعون وَعَلِيَّة قومه، فقال لهم: إني رسول ربِّ كُلِّ موجود سواه تبارك وتعالى، الذي خلق كُلَّ الموجودات الكونية، وأمدَّها بعباءات ربوبيته، فحين جاءهم موسى عليه السلام بآياتنا البيانية والإعجازية، فاجؤوا موسى بالضحك ممَّا جاءهم من الآيات الواضحات.

٤٨ - وطلب فرعون من موسى أن يقدم ما يدل على أنه رسول رب العالمين، فأراه آيتي العصا واليد، فأتهمه بأنه ساحر، ودعاه إلى مباراة بينه وبين كبار السحرة، فنصر الله موسى، وما نري فرعون وعليّة قومه من آية إعجازيّة من بقية الآيات التسع وهي: (الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وسنوات القحط، ونقص الثمرات) إلا هي أكبر من أحتها السابقة لها، أخذاً بحكمة التدرج الارتقائي، وقبضنا عليهم قبضاً شديداً مؤلماً بعذاب الرجز، رغبة منا في أن يرجعوا عن كفرهم إلى أصل فطرتهم الإيمانية.

٤٩ - وقال فرعون وعليّة قومه لموسى لما عاينوا العذاب: يا أيها العالم الكامل الحاذق بسحره، ادع لنا ربك بصيغة الدعاء الذي عهد به إليك، ليجيب دعاءك، وجعله عندك، فإذا استجاب ربك لك، فرفع عنا عذاب الرجز، فإننا نعدك بأن نكون مهتدين، بالإيمان بك وبما جئتنا عن ربك.

٥٠ - فلما أزلنا عنهم العذاب الذي أخذناهم به أخذاً شديداً مؤلماً، إذا هم يُفاجئون موسى بنقض عهدهم، ويصرون على كفرهم.

٥١ - ونادى فرعون في قومه المصريين مفتخراً بما يملك، لافتاً أنظارهم إلى عناصر التفوق التي يريد أن يخدعهم بها، لانتزاع إقرارهم في غوغائية بتفوقه على موسى: قال يا قوم أليس لي ملك «مصر» ميراثاً عن آبائي الملوك المؤيدين بالقوى الغيبية؟ وهذه أنهار النيل الكبار تجري من تحت قصري؟ أفلا تبصرون عظمتي وشدة ملكي الذي لا حق لأحد أن ينازعني فيه؟

٥٢ - بل أنا خير من موسى الذي هو ضعيف حقير، ولا يقارب أن يفصح بكلامه، ويُعبّر عن مراده.

٥٣ - فهلاً - إن كان رسول رب العالمين كما يزعم - أغناه الله فجعله من ذوي الثراء العظيم، بآيات باهرات؛ وألقى عليه أسورة من ذهب، أو جاء معه الملائكة متتابعين، يقارن بعضهم بعضاً، يشهدون له بصدقه، ويُعينونه على أمره.

٥٤ - فعمل فرعون بحيله المُعَالِطِيَّة، ووسائله الإغرائيّة، التي جعل بها قومه القبط غير ذوي أوزان فكريّة ونفسية متأنية، تربيّت حتى تفكر وتدرك غرض فرعون من حيله ووسائله، وحملهم على الخفة والجهل، فأطاعوه طمعاً بما وعدهم به من مغريات؛ إنهم كانوا قوماً خارجين من دين الله، حيث أطاعوا فرعون أتباعاً لأهوائهم وشهواتهم، ورغباتهم من متاعات الحياة الدنيا.

٥٥ - فحين أغضبونا أشد الغضب - بإفراطهم بالفساد - عاقبناهم على ما كان منهم من كفر وجرائم، فأغرقتناهم في البحر أجمعين.

٥٦ - فجعلنا المُتَقَدِّمِينَ الماضين الذين أغرقناهم في البحر سلفاً لمن يعمل مثل عملهم، ممن يجيء بعدهم، وجعلناهم حديثاً يمثل به، ليقاس عليهم أمثالهم في الكفر والعناد، وليكونوا عبرة لمن يعتبر بما أنزل الله بهم من انتقام، فسنة الله في عبادته واحدة.

٥٧ - ولما ضرب ابن مريم مثلاً للأنبياء السابقين، الذين طلب سؤال أتباعهم وحملة شرائعهم، عن جعل الرحمن آلهة تُعبد من دون الله، إذا قومك من هذا المثل يرتفع لهم ضجيج وصياح وفرح، وقالوا: ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلهاً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم إلهاً.

٥٨ - وتمادى مشركو قريش في غيهم، واعتبروا عبادة النصارى لعيسى مُسَوِّغاً لعبادتهم الملائكة؛ لأن الملائكة في زعمهم خير من عيسى. ما ضربوا لك - يا رسول الله - مثل عيسى الذي قُصِدَ به إقامة الحُجَّة عليهم إلا جدلاً لإثبات مشروعيتهم لعبادتهم للملائكة؛ وزعمهم أنَّ محمداً أراد من المشركين عبادته كما عبدت النصارى عيسى، بل هم في مُحاجّتهم إيّاك قوم شديذو الخصومة بالباطل.

٥٩ - ما عيسى ابن مريم إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة والمعجزات، وجعلنا آية وعبرة لبني إسرائيل، يعرفون به قدرة الله على ما يشاء، حيث خلقه من غير أب.

٦٠ - ولو نشاء لأهلكناكم - يا أهل مكة -، ولجعلنا بدلاً منكم ملائكة يكونون خلفاً منكم، يعمرّون الأرض، ويعبدونني ويطيعونني.

وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَأَعْلَاهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا هَذَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

٦١ - وَإِنَّ نَزُولَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَدَلِيلٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبِهَا، فَلَا تَشْكُنْ بَقِيَامَ السَّاعَةِ، واعلموا أنها حقٌ وصدق، وسيروا على أثري، واقتدوا بي في اعتقادكم، وفي أقوالكم، وفي أعمالكم، وفي أخلاقكم، فإنا أسوة حسنة لكم. هذا الذي أدعوكم إليه طريقٌ واضحٌ جليٌّ، واسعٌ مُمهّدٌ، لا اعوجاج فيه ولا مُغثرات.

٦٢ - وَلَا يَصْرِفُكُمْ الشَّيْطَانُ بِوَسَاوِسِهِ عَنِ دِينِ اللَّهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ظَاهِرٌ الْعَدَاوَةِ.

٦٣ - وَحِينَ جَاءَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا وَرَسُولًا دَاعِيًّا إِلَى اللَّهِ فِي مَجْتَمَعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ومصحوباً بالمعجزات الواضحات الشاهدات له بأنه نبيُّ الله ورسوله، قال لقومه: قد جئتكم بالحكمة في السلوك، وفي الأخلاق، وفي الآداب، وفي كليات المعارف والمفاهيم الدينية، ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه من قضايا كلية كبرى من قضايا الدين التي انحرفتم فيها عن دين الله الحق، فأتقوا عقوبات الله على انحرافاتكم ومخالفاتكم، وأطيعوني فيما أمركم به.

٦٤ - إِنَّ اللَّهَ - وحده - هو ربي وربكم، فاعبدوه - دون سواه -، واعملوا بشرائعه وأحكام دينه، هذا الذي أدعوكم إليه طريقٌ مستقيمٌ واضحٌ جليٌّ، واسعٌ مُمهّدٌ، مُوصلٌ إلى الجَنَّةِ.

٦٥ - فَانْقَسَمَ النَّاسُ إِلَى أَحْزَابٍ بِشَأْنِ عِيسَى، فمنهم من كفر به وعاداه، ومنهم من آمن به وأتبعه، ومنهم من غلا فيه فجعله إلهاً، علي أنه ابن الله، أو هو الله بطريق حلول الله فيه، أو هو ثالث ثلاثة، فَهَلَاكَ وَدَمَارٌ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَحْزَابِ ظُلْمًا مِنْ ذَرَكَةِ الْكُفْرِ، من جنس عذاب مؤلم لهم يوم القيامة في النار.

٦٦ - هل ينتظر هؤلاء الكافرون بتباطئهم عن الإيمان والإسلام، وتأخير استجابتهم لدعوة الحق إلا أن تأتيهم الساعة التي تنتهي بها آجالهم، وتنقطع بها أعمالهم في الحياة الدنيا، ثم يستقبلون بعد ذلك ساعة البعث للحياة الأخرى فجأة دون إشعار سابق، إنها ستأتيهم لا

وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلْسَاعَةِ فَلَا تَمَرُّكَ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَآئِن لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَتَّبِعُوا أَحْوَفَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أُنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بَيْنَنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴿٧١﴾ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٢﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٤﴾

مَحَالَةً، وهم لا يدركون أدنى إدراك بإنهاء ظروف الحياة الدنيا، وبدء الحياة الأخرى حين يبعثون.

٦٧ - الْأَصْدِقَاءُ الَّذِينَ تَخَلَّلَتْ الْمَحَبَّةُ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ فِي الدُّنْيَا، بعضهم لبعض عدوٌّ يوم القيامة، إلا الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ، الْمُجْتَمِعِينَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَذَلِكَ لِبِنْعَمَا وَيَأْنَسُوا فِي دَارِ النِّعَمِ بِالْأَخْوَةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

٦٨ - يُنَادِي اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ: يَا عِبَادِي، لَا خَوْفٌ مُسْلَطٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ مِنْ عِقَابِي، وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا، فَقَدْ أَمْتَمْتُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَضُمِنَ لَكُمْ الثَّوَابُ.

٦٩ - الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِيْمَانًا صَاحِقًا صَادِقًا بِآيَاتِنَا الْبَيِّنَاتِ الْمُنْزَلَةِ، وَالْكُونِيَّةِ، وَالْإِعْجَازِيَّةِ، وَكَانُوا مُسْلِمِينَ لِلَّهِ مُنْقَادِينَ لَهُ بِقُلُوبِهِمْ وَجَوَارِحِهِمْ.

٧٠ - يَدْعُوهُمْ اللَّهُ إِلَى دُخُولِ الْجَنَّةِ مُكْرَمِينَ مُحْتَفًى بِهِمْ، فيقول لهم: ادخلوا الجنة التي كنتم وعدتم بدخولها أنتم وأزواجكم المؤمنات اللواتي كن في الدنيا أزواجكم، حالة كونكم تُسْرُونَ وَتُنْعَمُونَ بما تَلْقَوْنَ فِيهَا مِنْ نِعَمٍ مُقِيمٍ.

٧١ - يَدُورُ عَلَيْهِمُ الْحُورُ الْحَسَنَاتُ، وَالْوِلْدَانُ الْمُخْلَدُونَ فِي الْجَنَّةِ بِالطَّعَامِ وَالْفَاكِهَةِ فِي أَوَانٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَبِالشَّرَابِ فِي أَكْوَابٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَفِي الْجَنَّةِ كُلُّ مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُهُمْ، وَتَرْغِبُ فِيهِ، وَكُلُّ مَا تَلَذُّ بِمُشَاهَدَتِهِ أَعْيُنُهُمْ، وَيَقَالُ لَهُمْ - إِكْمَالًا لِلسُّرُورِ -: أَنْتُمْ فِي هَٰذَا النِّعَمِ مُخْلَدُونَ بِاقْوٍ بَقَاءً أَبَدِيًّا.

٧٢ - وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الرَّفِيعَةُ الْمُنْزَلَةُ، الْجَلِيلَةُ الْقَدْرُ الَّتِي مَنَحَكُمْ اللَّهُ إِيَّاهَا؛ بِسَبَبِ مَا وَقَّعْتُمْ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، تَرْتَوْنَ فِيهَا الْمَنَازِلَ الَّتِي كَانَتْ مُعَدَّةً لِلْكَافِرِينَ، لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. فَدْخُولُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ وَنَعِيمُهُمْ فِيهَا خَالِدِينَ، مُحْضٌ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ، وَعَطَاءٌ يُشَبِّهُ عَطَاءَ الْمِيرَاثِ الَّذِي يَنَالُهُ الْإِنْسَانُ دُونَ جَهْدٍ مِنْهُ، بِسَبَبِ مَا قَامَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَعْمَالٍ يَتَّبِعُونَ بِهَا رِضْوَانَ اللَّهِ وَثَوَابِهِ، مَعَ أَنَّ هَٰذِهِ الْأَعْمَالُ لَا تَكْفِي عَنْ بَعْضِ نِعَمِ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ.

٧٣ - لَكُمْ فِي الْجَنَّةِ فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ الْأَنْوَاعِ وَالطَّعُومِ وَالرَّوَاتِحِ الزَّكِيَّةِ، مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَصِنْفٍ وَطَعْمٍ، تَلَذُّونَ بِلَذَاتِ الْأَكْلِ مِنْهَا، وَلَا يَنْقُطُ الْإِمْدَادُ بِهَا.

٧٤ - ٧٦ - إِنَّ الْمَجْرِمِينَ الْكَافِرِينَ الْمُتْرَكِبِينَ لِلْآثَامِ الْكَبِيرِ يَوْمَ الدِّينِ، مُسْتَقَرُّونَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ أَبَدًا، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ، وَهُمْ فِي جَهَنَّمَ آيِسُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، سَاكِتُونَ، نَادِمُونَ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ بِهَذَا الْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ لَأَنْفُسِهِمْ بِمَا جَنَوا عَلَيْهَا.

٧٧ - وَنَادَى الْمَجْرُمُونَ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ - وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي جَهَنَّمَ - يَسْتَغِيثُونَ بِهِ: لَيْتَ رَبُّكَ قَرَارَهُ الْإِرَادِيِّ عَلَيْنَا بِالْمَوْتِ، فَنَسْتَرِيحُ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ. قَالَ لَهُمْ مَالِكٌ: إِنَّكُمْ بَاقُونَ فِي الْعَذَابِ.

٧٨ - لَقَدْ جِئْنَاكُمْ - يَا كَفَّارَ قَرِيشَ - بِمَا بَلَّغَكُمْ رَسُولُنَا بِالْحَقِّ الثَّابِتِ مِنْ قَضَايَا الْإِيمَانِ وَالسُّلُوكِ، وَدَعَوْنَاكُمْ إِلَى اتِّبَاعِهِ، وَلَكِنْ لَمْ تَسْتَجِيبُوا لِمَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَيْهِ، وَالسَّبَبُ فِي عَدَمِ اسْتِجَابَتِكُمْ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ يَكْرَهُونَ الْحَقَّ الَّذِي جِئْنَاكُمْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ يَحْرِمُكُمْ مِنْ تَحْقِيقِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْوَاؤِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ وَرَغْبَاتِكُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِيكُمْ مَنْ لَا يَكْرَهُونَ هَذَا الْحَقَّ؛ إِلَّا أَنَّهُمْ مَتَأَثِّرُونَ بِقَادَتِهِمْ، مُقْلِدُونَ لِأَبَائِهِمْ.

٧٩ - بَلْ أَأَحْكَمَ مُشْرِكُو مَكَّةَ كَيْدًا ضِدَّ الْحَقِّ الَّذِي بَعَثْنَا بِهِ رَسُولَنَا مُحَمَّدًا ﷺ، وَضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبَعُوهُ؟ فَإِنَّا مُحْكِمُونَ كَيْدًا أَشَدَّ مِنْ كَيْدِهِمْ، نَحْبِطُ بِهِ كَيْدَهُمْ، وَنَرْذُهُ إِلَى نُحُورِهِمْ.

٨٠ - بَلْ أَيْظُنُّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ نَفُوسِهِمْ، وَلَا نَسْمَعُ مَا يَتَنَاجَوْنَ بِهِ سِرًّا فِيمَا بَيْنَهُمْ؟ بَلَى نَحْنُ نَسْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَالْحَقْفَةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَهُمْ يَكْتُبُونَ مَا يُسِرُّونَ بِهِ وَمَا يَتَنَاجَوْنَ فِيهِ مِنْ مَكْرٍ بِالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، حَالًا وَتَبَاعًا؛ لِإِحْبَاطِ أَعْمَالِهِمْ، وَرَدِّ مَكَايِدِهِمْ عَلَيْهِمْ.

٨١ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - لَهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عْبَدُوا الْمَلَائِكَةَ، وَادَّعَاوْا أَنَّكَ قَصَدْتَ بِذِكْرِ قِصَّةِ عِيسَى أَنْ يَعْبُدَكَ الْمُشْرِكُونَ كَمَا عْبَدَتِ النَّصَارَى عِيسَى: إِنْ كَانَ هُنَاكَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ يُعْبَدُ - كَمَا زَعَمْتُمْ - فَلَا يَنْطَبِقُ ذَلِكَ عَلَيَّ؛ لِأَنَّنِي أَوَّلُ الْعَابِدِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمَنْ كَانَ عَابِدًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودًا، وَلَا يَطْلُبُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُمْ يَرُونَهُ عَابِدًا، فَكَيْفَ يَقْبَلُونَهُ مَعْبُودًا.

٨٢ - تَنَزَّهَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ عَمَّا يَدَّعِيهِ الْمُشْرِكُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ نِسْبَةِ الْوَلَدِ إِلَى اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ!! كَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ وَالْعَرْشُ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقَةٌ لَهُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ؟!

٨٣ - فَاتْرَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - هَؤُلَاءِ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ يَخُوضُوا فِي بَاطِلِهِمْ وَشُرُورِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ كَمَنْ يَخُوضُ فِي الْمَاءِ فَيُعْكَرُهُ بِالطِّينِ الرَّاسِبِ فِي الْمَاءِ، فَيُفْسِدُ صَفَاءَ الْمَاءِ، وَيَلْعَبُوا كَمَا يَهْوَوْنَ فِي دُنْيَاهُمْ، حَتَّى يَنْتَهِيَ وَقْتُ إِمْهَالِهِمْ، وَيُلَاقُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِي يُوعَدُونَ فِيهِ بِالْعَذَابِ.

٨٤ - وَهُوَ الْإِلَهِ الَّذِي يُعْبَدُ فِي السَّمَاءِ وَفِي الْأَرْضِ، لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا هُوَ، وَهُوَ الْمُتَّصِفُ بِكَمَالِ الْحِكْمَةِ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ، وَتَصَارُيفِهِ فِي كَوْنِهِ، وَهُوَ الْمُتَّصِفُ بِكَمَالِ الْعِلْمِ، أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا.

٨٥ - وَعَظَّمَ مُلْكُ اللَّهِ، وَكَثُرَ خَيْرُهُ، وَتَنَامَى وَتَزَايَدَ فَوْقَ مَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ مِنْ كِمَالَاتِ، الَّذِي لَهُ - وَحْدَهُ - كَمَالُ التَّصَرُّفِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ مَخْلُوقَاتٍ، وَلَهُ تَدْبِيرُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ. وَعِنْدَهُ - وَحْدَهُ - عِلْمُ وَقْتِ قِيَامِ سَاعَةِ إِنْهَاءِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقِيَامِ سَاعَةِ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْآخِرَى، وَإِلَى حِسَابِهِ، وَفَصْلُ قَضَائِهِ، وَتَفْذِيلُ جَزَائِهِ - وَحْدَهُ - تُرْجَعُونَ يَوْمَ الدِّينِ.

٨٦ - وَلَا يَمْلِكُ الْكُفَّاتُ - الَّذِينَ يَعْبُدُهُمُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ لِمَنْ عَبَدُوهُمْ، لَكِنْ مِنْ تَحَقُّقِ فِيهِ شَرْطَانِ: الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا، شَهِدَ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، شَهَادَةً صَحِيحَةً صَادِقَةً، وَالشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْلَمُونَ بِقُلُوبِهِمْ عِلْمًا جَلِيلًا مَا شَهِدُوا بِهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ.

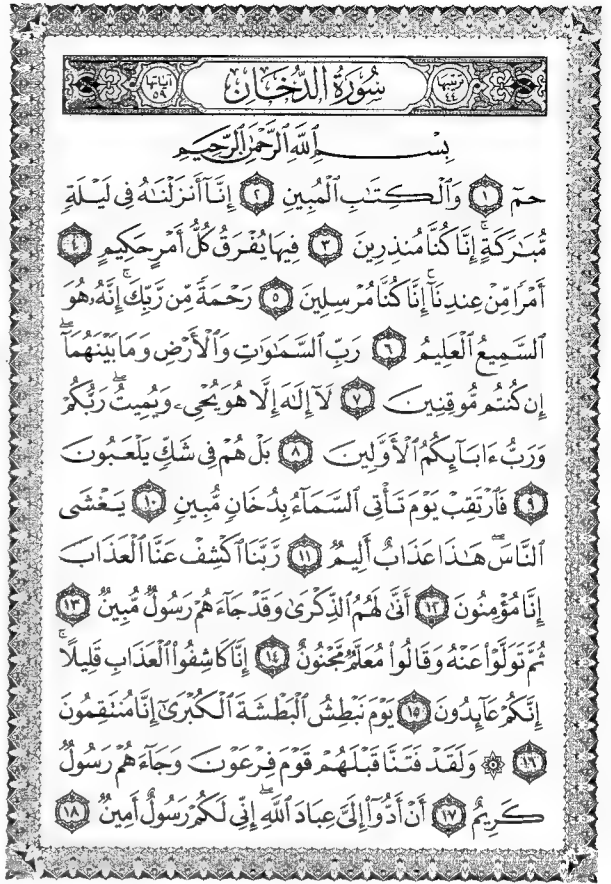
٨٧ - أَقْسَمُ لَنْ سَأَلْتُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِكَ: مَنْ خَلَقَهُمْ؟ لِيَقُولُنَّ مَبَاشَرَةً بِتَلْقَائِي: اللَّهُ خَلَقَنَا، فَهَمْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ خَالِقُهُمْ، وَيُلْزَمُ مِنْ هَذَا الْإِيمَانِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِأَنَّ رِزْقَهُمْ وَنَصْرَهُمْ وَسَائِرَ أُمُورِ حَيَاتِهِمْ خَاضِعَةٌ لِسُلْطَانِ رِبِّيَّتِهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ وَحْدَهُ لِلْعِبَادَةِ، فَكَيْفَ يُصَرِّفُ الْمُشْرِكُونَ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، فَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ؟

٨٨ - وَهُوَ سَبْحَانَهُ سَامِعُ قَوْلِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي نَفْسِهِ، شَاكِيًا إِلَى رَبِّهِ قَوْمَهُ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ، مُتَوَجِّعًا قَلْبَهُ مِنْ أَجْلِهِمْ، مُتَلَهِّفًا لِإِيمَانِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ: يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمَعَانِدِينَ الْمَصْرِيْنَ عَلَى بَاطِلِهِمْ قَوْمٌ لَيْسُوا مُسْتَعْدِينَ مُسْتَقْبَلًا أَنْ يُؤْمِنُوا.

٨٩ - فَلَا تَسْتَعْجَلْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - التَّخَلُّصَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَكَابِرِينَ الْمَعَانِدِينَ، وَاصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ، وَتَجَاوَزْ عَنْ مَقَابِلَةِ سِيئَاتِهِمْ بِمِثْلِهَا، وَقُلْ لَهُمْ: لَكُمْ مِنْنِي سَلَامٌ مُفَارِقَةٌ لَكُمْ، وَبُعْدٌ عَنْكُمْ، وَعَنْ دَعْوَتِكُمْ، إِذْ لَا جَدْوَى مِنْ مُجَادَلَتِكُمْ لِإِقْنَاعِكُمْ بِالْحَقِّ، فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّكُمْ مَيُوسِرُونَ مِنْ اسْتِجَابَتِكُمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَتِكُمْ الْحَرَّةِ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ.

إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَرِّغُهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَنَنْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَكْرَبُ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

١ - ﴿حَمَّ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.
 ٢ - أقسم بالكتاب الظاهر الواضح الذي لا غموض في كلماته وتراكيب جملة، والمظهر الموضح للمعاني المقصودة من تنزيله.
 ٣ - ٦ - إنا ابتدأنا إنزال الكتاب المبين على محمد ﷺ في ليلة كثيرة البركات، وفيرة الخيرات، هي ليلة القدر، إنا من شأننا أن نُنْزِلَ عبادنا عاقبة عدم استجابتهم للإيمان والإسلام، بعد تبليغهم وإقناعهم بالأدلة والحجج والبراهين. في تلك الليلة المباركة التي أنزل فيها علي الرسول محمد ﷺ أول ما أنزل من القرآن يُفَصِّلُ في نظيرها من كل سنة كل أمر من قضاء الله وقدره مُحْكَمٌ مُخْتَارٌ من بين الاحتمالات الممكنة اختياراً حكيماً؛ إذ يبين فيها للملائكة كل أمر من أرزاق العباد وأجالهم، وجميع شؤونهم، من هذه الليلة إلى ليلة القدر التي تليها من السنة المقبلة. حالة كون الأمر الحكيم الذي تمّ تحديده بالتقدير والقضاء أمراً عظيماً صادراً من عندنا، إنا من شأننا في كل الأمم السابقة، وفي هذه الأمة الخاتمة للأمم أن نرسل مَنْ يحمل رسالتنا، ويُبلِّغها عنا، وأن نُؤَيِّدَهُ بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ والمعجزات الباهرات؛ لنشهد له بأنه رسولنا حقاً وصدقاً. بعثنا إليهم الرُّسُلَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ - يا رسول الله -، لهداية الناس إلى الدين الحق الموصول من أتبعه إلى السعادة الأبدية الخالدة؛ إنه هو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم.
 ٧، ٨ - رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وما بينهما وكل ما فيهما، فاعبدوه وحده، إن كنتم مُسْتَعِدِّينَ لأن تُوقِنُوا بهذه الحقيقة التي دلَّت عليها آياتُ الله في كونه، وبراهين العقل. لا معبود بحق يستحق أن يُعبد إلا ربُّ السموات والأرض وما بينهما، يُحْيِي سائر الأحياء ويميتهم، هو ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين الذين سَلَفُوا في تاريخ البشرية من آدم جذمكم الأول، وأنتم وآباؤكم موضوعون في الحياة الدنيا موضع



الامتحان، والمطلوب منكم جميعاً في رحلة امتحانكم أن تعبدوا ربكم بالإيمان والإسلام والطاعة والانقياد.
 ٩ - بل مشركو مكة منغمسون من كل جوانبهم في شك من كون هذا القرآن كلام الله، ومن كون محمد ﷺ نبياً لله حقاً وصدقاً، وهم ينفقون أوقاتهم وطاقاتهم بما لا فائدة فيه، بل سوف يجني عليهم عذاباً أليماً يكونون خالدين فيه أبداً.
 ١٠، ١١ - فانتظر - يا رسول الله - انتظاراً مُقْتَرَنًا بِتَوَقُّعٍ أمرٍ سيحدث قريباً بهؤلاء المشركين يوم يُنْزَلُ رَبُّكَ بِكُفَّارِ قَوْمِكَ الْمُصْرِينَ على عنادهم عقاباً جزئياً، يمسُّهم فيه القحط والجوع، والحرمان من الغيث، ينظرون إلى السماء فلا يَرَوْنَ إِلَّا غُبَاراً ودخاناً من شدة الجفاف، يحيط هذا الدخان بالمكذِّبين فيُعْمِئُهُمْ وَيُجَلِّلُهُمْ كالسَّيْرِ والغطاء الكبير، فيقولون لشدة ما نزل بهم من قحط وجفاف وجوع: هذا عذابٌ مؤلِّمٌ موجه.

١٢ - ويشتدُّ عليهم هذا البلاء، ويقولون سائلين رفعه عنهم: رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَا الْعَذَابَ، فَإِنْ كَشَفْتَهُ عَنَا، فَلِنَا سَنُومٌ بِكَ.
 ١٣، ١٤ - من أين تحصل لهم الذكرى التي تُؤَثِّرُ في قلوبهم ونفوسهم، فتجعلهم يَقُونُ بوعدهم أن يؤمنوا، إذا كشفنا عنهم العذاب، وقد جاءهم رسولٌ ظاهرٌ في صحَّةِ نبوته ورسالته، ومُظْهِرٌ للحق الذي أرسلناه لتبليغه، ثم بعد سنين مُتَعَدِّدة، عالجهم الرسول بكلِّ وسائل الإقناع، والترغيب والترهيب، لم يكن منهم إلا إدارة ظهورهم لدعوته، والابتعاد عنه، وقالوا غُلُوءاً في كفرهم: مُعَلِّمٌ يَعْلَمُهُ بَشَرٌ مِنْ عِلْمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وهو مجنون جنونٌ عظيمة واستعلاء، يدَّعي أنه رسول ربِّ العالمين؟

١٥ - إنا سنكشف عذاب الجوع عنكم زمناً يسيراً، لكن لن تَقُومُوا بوعدكم؛ إنكم ستعودون إلى كفركم العنادي الجحودي.
 ١٦ - إنا سننتقم منكم ونعاقبكم على كفركم يومَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى بكم في غزوة بدر، إنا مُنْتَقِمُونَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

١٧، ١٨ - ونؤكد لكم أننا اختبرنا وإبْتَلَيْنَا قَبْلَ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ، وجاء المصريين والأقباط وسائر الخاضعين لسلطان فرعون، رسول كريم على الله، جامع لأنواع الخير والشرف، والفضائل والصفات الرفيعة، وهو موسى عليه السلام، وقال لهم موسى: أَدُوا إِلَيَّ حَقَّ اللَّهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ، وواجب الطاعة والانقياد إليه - يا عباد الله -؛ إني لكم رسول أمينٌ على الوحي، مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَيْكُمْ.

١٩ - وأن لا تتجبروا على الله بترك طاعته، إني آتيكم ببرهان صادق على صحة رسالتي، يوصلكم إلى اليقين بأن ما أدعوكم إليه هو الحق الذي لا شك فيه.

٢٠ - وإني اعتصمتُ بربي وربكم، واستجرتُ به طالباً الحماية والوقاية من أن تقتلوني رجماً بالحجارة.

٢١ - وإن لم تؤمنوا بي وتسلموا لي، فاعتزلوا مجلسي، ولا تسمعوا لدعوتي، فإنا لا أكره أحداً على الإيمان.

٢٢ - فدعا موسى ربه شاكياً قومه: أن هؤلاء قوم لا خير فيهم، فقد بلغوا ذرّة الكفر الإجماعي العنادي، ولعلّ خير علاج لهم أن يبتروا من المجتمع الإنساني.

٢٣ - فأجاب الله دعاءه، فقال: فأخرج - يا موسى - ليلاً عبادي بني إسرائيل الذين صدّقوك، دون أن يحسّ المصريون بخروجكم، إنكم متبعون من فرعون وجنوده.

٢٤ - وارك البحر إذا قطعته أنت وأصحابك منفلقاً ساكناً على حالته التي كان عليها حين سلكته، حتى يدخله فرعون وقومه، واطمئن بترك البحر كما هو؛ إنهم جند مغرّقون في البحر قبل أن يصل أحد منهم إلى الشاطئ الآخر.

٢٥ - ٢٧ - كم ترك فرعون وقومه بعد الغرق من بساتين كثيرة ناضرة، وعيون من الماء جارية، ومزروعات مختلفات الأصناف والأجناس، ومكان نفيس، ماديّ لمتاعات أجسادهم ولقيامهم وجلسهم، ومعنويّ لمتاعات نفوسهم واستقرارهم، وعيش لين رغد، كانوا في تلك الرفاهية وطيب العيش مستمتعين مسرورين.

٢٨ - كذلك الذي حصل لفرعون وآله وملئه، من إهلاك لهم، وتركهم لتلك النعم، حصل لطغاة آخرين فاسقين في الأرض، ضمن سنة الله الثابتة، وأورث الله ما تركوا قوماً آخرين.

٢٩ - فما بكت لهلاك فرعون وقومه، ولا لهلاك من أهلكوا من مجرمي الأمم الأخرى السماء والأرض حزناً عليهم؛ ليهوان شأنهم، وما كان الذين أهلكوا من قوم فرعون وأمثالهم من الأمم الأخرى مُهْلِينَ حين رأوا بوادر نزول العذاب فيهم.

٣٠ - ونؤكد لكم أننا نجّينا بني إسرائيل من العذاب المذلّ لهم، بقتل أبنائهم واستحياء نساءهم، وسننّجي رسولنا والذين آمنوا معه من اضطهادكم لهم.

٣١ - نجّيناهم من فرعون؛ إنّه كان متكبراً جباراً من المتجاوزين الحدّ في الغلو والتكبر على عباد الله.

٣٢ - ونؤكد لكم أننا اخترنا بني إسرائيل في ذلك العهد اختياراً قائماً على علم علمناه فيهم ويسائر الناس في زمانهم لحمل الرسالة التي أنزلناها على موسى، وفضّلناهم في ذلك الزمان على سائر العالمين. وسنختار عبادنا المؤمنين من الأمة المحمدية من بعدهم، ونرفع مكانتهم فوق العالمين إلى قيام الساعة.

٣٣ - وآتيناهم من آيات التكاليف الدينية المنزلات في التوراة ما فيه اختبار ظاهر لطاعتهم، وامتنال أحكام ربهم فيما فرض عليهم، وفيما حرم عليهم.

٣٤ - ٣٦ - إن مشركي مكة ليقولون: لا مَوْتَ لنا إلا هذه المَوْتُ التي نموتها في الدنيا، وما نحن بمبعوثين بعد موتتنا هذه، فأحيوا آبائنا الذين ماتوا قبل، إن كنتم صادقين أننا نُبعث أحياء بعد الموت.

٣٧ - أهؤلاء المشركون خير في الشدة والقوة والكثرة أم قوم تُبِعَ الجُمَيْرِي، والذين من قبلهم من الأمم الكافرة؟ أهلكناهم إنهم كانوا كافرين منكبرين للبعث.

٣٨، ٣٩ - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما حالة كوننا لاعبين، دون بعث ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب!! ما خلقناهما إلا بالحقّ الثابت، لإثابة الطائعين بالفضل، وعقاب المسيئين بالعدل، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يحبّون أن يعلموا هذه الحقيقة؛ لتلا يكون علمهم بها دافعاً لهم إلى الإيمان بها، والعمل بمقتضاها، على خلاف ما يحبّون من دنياهم.

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ١٩ وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ٢٠ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّ لِي ٢١ وَلَا تَسْمَعُوا لِدَعْوَتِي ٢٢ فَدَعَا مُوسَىٰ رَبَّهُ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا خَيْرَ فِيهِمْ ٢٢ فَقَدْ بَلَغُوا ذُرَّةَ الْكُفْرِ الْإِجْمَاعِي الْعِنَادِي ٢٢ وَلَعَلَّ خَيْرَ عِلَاجٍ لَهُمْ أَنْ يُبْتَرُوا مِنَ الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِي ٢٢ ٢٣ فَأَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ ٢٣ فَقَالَ ٢٣ فَأَخْرِجْ ٢٣ يَا مُوسَى ٢٣ لَيْلًا عِبَادِي بَنِي إِسْرَءِيلَ الَّذِينَ صَدَّقُواكَ ٢٣ دُونَ أَنْ يَحْسُ الْمَصْرِيُّونَ بِخُرُوجِكُمْ ٢٣ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ٢٣ مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ ٢٣ ٢٤ وَارْكَبِ الْبَحْرَ إِذَا قَطَعْتَهُ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مُنْفَلِقِينَ ٢٤ سَاكِنًا عَلَىٰ حَالِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا حِينَ سَلَكَتَهُ ٢٤ حَتَّىٰ يَدْخُلَهُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ٢٤ وَاطْمَئِنَّ بِتَرْكِ الْبَحْرِ كَمَا هُوَ ٢٤ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ٢٤ فِي الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى الشَّاطِئِ الْآخَرِ ٢٤ ٢٥ - ٢٧ - كَمْ تَرَكَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ بَعْدَ الْغُرُقِ مِنْ بَسَاتِينَ كَثِيرَةٍ نَاضِرَةٍ ٢٥ وَعُيُونٍ مِنَ الْمَاءِ جَارِيَةٍ ٢٥ وَمَزْرُوعَاتٍ مُّخْتَلِفَاتِ الْأَصْنَافِ ٢٥ وَالْأَجْنَاسِ ٢٥ وَمَكَانٍ نَفِيسٍ ٢٥ مَادِيٍّ لِمَتَاعَاتِ أَجْسَادِهِمْ وَلِقِيَامِهِمْ ٢٥ وَجُلُوسِهِمْ ٢٥ وَمَعْنَوِيٍّ لِمَتَاعَاتِ نَفُوسِهِمْ وَاسْتِقْرَارِهِمْ ٢٥ وَعَيْشٍ لِّئِنْ رَغِدُوا ٢٥ كَانُوا فِي تِلْكَ الرِّفَاقَةِ وَطِيبِ الْعَيْشِ مُسْتَمْتِعِينَ ٢٥ مَسْرُورِينَ ٢٥ ٢٨ - كَذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ لِفِرْعَوْنَ وَآلِهِ وَمَلِئِهِ ٢٨ مِنْ إِهْلَاكِ لَهُمْ ٢٨ وَتَرْكِهُمْ لِتِلْكَ النِّعَمِ ٢٨ حَصَلَ لَطْغَاءَ آخَرِينَ فَاسِقِينَ فِي الْأَرْضِ ٢٨ ضَمِنَ سُنَّةُ اللَّهِ الثَّابِتَةُ ٢٨ وَأَوْرَثَ اللَّهُ مَا تَرَكَوا قَوْمًا آخَرِينَ ٢٨ ٢٩ - فَمَا بَكَتْ لِهَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ٢٩ وَلَا لِهَلَاكِ مَنْ أَهْلَكُوا مِنْ مُّجْرِمِي الْأُمَمِ الْآخَرَى السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ حُزْنًا عَلَيْهِمْ ٢٩ لِيَهْوَانَ شَأْنَهُمْ ٢٩ وَمَا كَانَ الَّذِينَ أَهْلَكُوا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْآخَرَى مُّهْلِينَ ٢٩ حِينَ رَأَوْا بُودَارَ نَزُولِ الْعَذَابِ فِيهِمْ ٢٩ ٣٠ - وَنُوكِّدُ لَكُمْ أَنَّنَا نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمَذِلِّ لَهُمْ ٣٠ بِقَتْلِ أَبْنَائِهِمْ وَاسْتِحْيَاءِ نِسَائِهِمْ ٣٠ وَسَنَنْجِي رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ٣٠ مِنْ اضْطِهَادِكُمْ لَهُمْ ٣٠ ٣١ - نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ ٣١؛ إِنَّهُ كَانَ مُتَكَبِّرًا جَبَّارًا ٣١ مِنَ الْمُتَجَاوِزِينَ الْحَدَّ فِي الْغُلُوِّ وَالتَّكَبُّرِ عَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ ٣١ ٣٢ - وَنُوكِّدُ لَكُمْ أَنَّنَا اخْتَرْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ اخْتِيَارًا قَائِمًا ٣٢ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَّمْنَاهُ فِيهِمْ وَيَسَائِرَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ ٣٢ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَىٰ مُوسَىٰ ٣٢ وَفَضَّلْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ عَلَىٰ سَائِرِ الْعَالَمِينَ ٣٢ وَسَنَخْتَارُ عِبَادَنَا الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ ٣٢ وَنَرْفَعُ مَكَانَتَهُمْ فَوْقَ الْعَالَمِينَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ ٣٢ ٣٣ - وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ آيَاتِ التَّكَالِيفِ الدِّينِيَّةِ الْمُنَزَّلَاتِ فِي التَّوْرَةِ مَا فِيهِ اخْتِبَارٌ ظَاهِرٌ لِّطَاعَتِهِمْ ٣٣ وَامْتِنَالٌ أَحْكَامِ رَبِّهِمْ ٣٣ فِيمَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ ٣٣ وَفِيمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ ٣٣ ٣٤ - ٣٦ - إِنَّ مَشْرُكِي مَكَّةَ لَيَقُولُونَ ٣٤ لَا مَوْتَ لَنَا إِلَّا هَذِهِ الْمَوْتُ الَّتِي نَمُوتُهَا فِي الدُّنْيَا ٣٤ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بَعْدَ مَوْتِنَا هَذِهِ ٣٤ فَأَحْيُوا آبَاءَنَا الَّذِينَ مَاتُوا قَبْلَ ٣٤ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٣٤ أَنَّا نُبْعَثُ أَحْيَاءَ بَعْدَ الْمَوْتِ ٣٤ ٣٧ - أَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ خَيْرٌ فِي الشَّدَّةِ وَالْقُوَّةِ وَالْكَثَرَةِ ٣٧ أَمْ قَوْمُ تُبَّعِ الْجُمَيْرِيِّ ٣٧ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ ٣٧ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنْهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ٣٧ مُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ ٣٧ ٣٨، ٣٩ - وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا حَالَةً ٣٨ كَوْنَنَا ٣٨ لَاعِبِينَ ٣٨ دُونَ بَعثٍ وَلَا حِسَابٍ ٣٨ وَلَا ثَوَابٍ وَلَا عِقَابٍ ٣٨!! مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ الثَّابِتِ ٣٨ لِإِثَابَةِ الطَّائِعِينَ بِالْفَضْلِ ٣٨ وَعِقَابِ الْمُسِيئِينَ بِالْعَدْلِ ٣٨ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ٣٨ لَا يُحِبُّونَ أَنْ يَعْلَمُوا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ ٣٨؛ لِتَلَا يَكُونَ عِلْمُهُمْ بِهَا دَافِعًا لَهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهَا ٣٨ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا ٣٨ عَلَىٰ خِلَافِ مَا يُحِبُّونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ ٣٨

٤٠ - إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي يَفْصِلُ اللَّهُ فِيهِ وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُحَقِّقِ وَالْمُبْطِلِ وَقَتٌ مُعَيَّنٌ، وَمَكَانٌ مُحَدَّدٌ لِلْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ أَجْمَعِينَ.

٤١، ٤٢ - يَوْمَ يَكُونُ الْحُكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَلَا يَكْفِي أَحَدٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَمْرًا لِأَحَدٍ، وَلَا يَصْرِفُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا مِمَّا يَقْضِيهِ اللَّهُ، مَهْمَا كَانَ قَرِيبًا، أَوْ مَحْبَبًا، وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنْهُ بَعْضَ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ عِقَابٍ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَيَغْفِرُ لَهُ، أَوْ يَغْفُو عَنْهُ، أَوْ يَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِ كَانَ قَدْ ارْتَكَبَهَا فِي الدُّنْيَا؛ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ الْقَوِيُّ الْغَالِبُ فِي اتِّقَامِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، الرَّحِيمُ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ، بَعِزَّتِهِ الْغَالِبَةُ يَجْزِي بِالْعَدْلِ، وَبِرَحْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ يَجْزِي بِالْفَضْلِ.

٤٣، ٤٤ - إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْفَاجِرِ الْمُسْرِفِ الْغَالِي فِي ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ وَالْآثَامِ.

٤٥، ٤٦ - ثَمَرَةُ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ كَسَائِلُ الْمَعْدِنِ الَّذِي صَبَّرَتْهُ الْحَرَارَةُ، يَفُورُ مِنْ شِدَّةِ الْحَرَارَةِ فِي بَطُونِ الْكُفَّارِ، كَغَلْيِ الْمَاءِ الْحَارِ إِذَا اشْتَدَّ غَلْيَانُهُ.

٤٧ - يُقَالُ لِلزَّبَانِيَةِ: خَذُوا هَذَا الْأَيْثِمَ الْفَاجِرَ، فَادْفَعُوهُ وَسُقُوهُ بِغُفٍّ إِلَى وَسْطِ النَّارِ.

٤٨ - ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ الْمَاءَ الشَّدِيدَ الْحَرَارَةَ، زِيَادَةً فِي تَعْذِيبِهِ وَإِبْلَامِهِ.

٤٩ - يُقَالُ لِهَذَا الْأَيْثِمِ الْفَاجِرِ عَلَى طَرِيقِ الْاسْتِخْفَافِ وَالتَّوْبِيخِ: ذُقْ هَذَا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ بِسَبَبِ كُفْرِكَ الْعِنَادِيِّ الْجُحُودِيِّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ عِنْدَ قَوْمِكَ بِزَعْمِكَ.

٥٠ - إِنَّ هَذَا الْعَذَابَ الَّذِي تُعَذِّبُونَ بِهِ الْيَوْمَ هُوَ الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتُمْ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تَجَادِلُونَ مُكَذِّبِينَ بِهِ، مُتَوَهِّمِينَ



أنكم بجِدَالِكُمْ تُغَيِّرُونَ مِنَ الْوَاقِعِ شَيْئًا.

٥١ - ٥٣ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَكَانٍ إِقَامَةٍ آمِنٍ، يَأْمَنُونَ فِيهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْآفَاتِ وَالْمَكَارِهِ، فِي جَنَّاتٍ كَثِيرَاتٍ يُنْعَمُونَ فِيهَا، وَعِيُونَ مِنَ الْمَاءِ جَارِيَةٍ تَحْتَ الْأَشْجَارِ وَالْقُصُورِ، يَلْبَسُونَ مَا رَقَّ مِنَ الْحَرِيرِ النَّاعِمِ الْمُطْلَاقِ لِلدُّنَى، وَمَا غَلَّظَ مِنَ الثِّيَابِ الْمَنْسُوجَةِ مِنَ الْحَرِيرِ، فَوْقَ ثِيَابٍ مِنْ سُنْدُسٍ، يُقَابِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي مَجَالِسِ أُنْسٍ وَسُرُورٍ، وَأَحَادِيثٍ تَزِيدُ فِي نَعِيمِهِمْ.

٥٤ - كَمَا أَكْرَمْنَاهُمْ بِمَا وَصَفْنَا مِنَ الْجَنَّاتِ وَالْعِيُونِ وَاللِّبَاسِ، كَذَلِكَ أَكْرَمْنَاهُمْ بِأَنْ زُوجْنَاهُمْ بِخُورٍ يَحَارُ الطَّرْفَ مِنْ بَيَاضِهِنَّ، وَصَفَاءِ لَوْنِهِنَّ، وَسَعَةِ أَعْيُنِهِنَّ.

٥٥ - يَطْلُبُونَ فِي الْجَنَّاتِ مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ أَرَادُوهَا وَاشْتَهَوْهَا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ آمِنِينَ مِنْ انْقِطَاعِهَا وَزَوَالِهَا؛ لِأَنَّ فَوَاكِهَ الْجَنَّةِ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ.

٥٦ - لَا يَذُوقُونَ فِي الْجَنَّةِ الْمَوْتَ أَبَدًا؛ لِأَنَّهَا دَارُ بَقَاءٍ دَائِمٍ وَخُلُودٍ، لَا يَذُوقُونَ سِوَى الْمَوْتِ الْأُولَى الَّتِي ذَاقُوهَا فِي الدُّنْيَا عِنْدَ انْفِصَالِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ بَعْدَ الْأَجْلِ الَّذِي عَاشُوهُ، وَوَقَّتِ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْمُتَّقِينَ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ عَذَابِ الْجَحِيمِ.

٥٧ - كُلُّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْمُتَّقُونَ عَلَى تَفَاضُلِ دَرَجَاتِهِمْ مِنَ الْخَلَاصِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَالْفَوْزِ بِالْجَنَّةِ، إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا بِعَمَلِهِمْ، فَعَمَلُهُمْ لَا يَصْلِحُ لِأَنْ يَشْكُرُوا بِهِ رَبَّهُمْ عَلَى أَقْلِ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، ذَلِكَ هُوَ الظَّفَرُ وَالرِّيحُ الْعَظِيمُ.

٥٨ - مَا يَسْرِنَا تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ وَتَبْلِيغَهُ إِلَّا بِلِسَانِكَ الْعَرَبِيِّ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -، وَهُوَ لِسَانُ قَوْمِكَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ مَعَ أَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِالتَّبَصُّرِ فِيهِ، وَفَهُمْ دَلَالَاتُهُ، وَتَدْبِيرُ مَعَانِيهِ، وَالِافْتِخَارُ بِهِ، خَصَّصْنَا تَيْسِيرَهُ وَتَسْهِيلَ فَهْمِهِ بِلِسَانِكَ وَلِسَانِ قَوْمِكَ رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَذَكَّرُوا بَيَانَاتِهِ عِنْدَ الْمُنَاسِبَاتِ الدَّاعِيَاتِ، لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا، لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ النَّاسِ عَلَى فَهْمِهَا وَتَدْبِيرِ مَعَانِيهَا.

٥٩ - فَاَنْتَظِرْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مَا سَنَفَعُكَ بِشَأْنِ هَؤُلَاءِ، وَكَيْفَ نَعَاقِبُهُمْ، وَنَنْصَرِّكُ وَنَنْصَرُّ الْمُؤْمِنِينَ مَعَكَ عَلَيْهِمْ، إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ بِتَدْبِيرَاتِهِمْ وَمَكَايِدِهِمْ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْكَ، وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ، وَهُمْ مُنْتَظَرُونَ حَوَادِثَ الدَّهْرِ أَنْ تَنْزِلَ بِكَ؛ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْكَ وَمِنْ دَعْوَتِكَ.

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

الجزء الثاني عشر

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

١ - ﴿حَمِّ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.
٢ - هذا البيان الرباني القول، الذي يجب على المؤمنين أن يُدُونوه في كتاب محفوظ من التحريف والتبديل، والزيادة والنقص، تنزيل من الله القوي الغالب الذي لا يُغلب، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها.

٣ - إن في خلق السموات بما فيها من عجائب، وبما لها من أبعاد، والأرض بما فيها من بحار، وجبال، وأنهار، ونباتات مختلفات الأجناس والأصناف، لدلالات لقوم لديهم الاستعداد لأن يؤمنوا إيماناً صحيحاً مقبولاً.

٤، ٥ - وفي خلق أنفسكم من تراب، ثم من نقطة إلى أن يصير إنساناً ذا عقل وتميز، وما يُفَرِّق في الأرض باتقان عجيب من جميع الحيوانات على اختلاف أجناسها في الخلق والشكل والصورة، دلالات لقوم لديهم الاستعداد لأن يصلوا إلى درجة العلم الذي لا شك فيه، وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما عليكم بنظام منضبط بديع، وما أنزل الله من السماء من المطر والضياء والحرارة، فأحيا الأرض بعد يُنسها، وأنبت الزروع والثمار وسائر الأرزاق النافعة الشاملة لكل ما يحتاج الناس إليه، وفي قلب الرياح لكم على اختلاف أنواعها ووظائفها بتقدير الله من جهة إلى أخرى، ومن حالة إلى حالة، علامات دلالات لقوم لديهم الاستعداد لأن يعقلوا حقائق الأمور عقلاً دقيقاً، ولأن يعقلوا أهواءهم وشهواتهم بإرادات جازمات، تجعلهم لا يخرجون عن صراط الله المستقيم.

٦ - تلك آيات كتاب الله، نجعل بأمرنا جبريل أمين الوحي يتابع تلقينك إياها - يا رسول الله - كما أنزلناها، حالة كونها متصفة بالحق الثابت، المطابق للواقع، فإن لم يؤمن أئمة الكفر بحديث معجز مؤثر

في العقول والنفوس صادر عن الله رب العالمين، فبأي حديث يصدر عن غير الله في أقوال لا إعجاز فيها يؤمنون بالحق الذي يُدْعَوْنَ إلى الإيمان به؟! إنهم لن يؤمنوا متأثرين بأي حديث؛ لأنهم مكابرون معاندون، يعرفون الحق ويرفضون الإيمان به، أتباعاً لأهوائهم وشهواتهم ورغبات نفوسهم.

٧ - عذاب شديد لكل كثير الكذب والتكذيب بالحق، وكثير الضلال والتضليل، مُسرف غالٍ في ارتكاب الذنوب من الكبائر.
٨ - يسمع آيات الله من كتابه تُثْلَى عليه، فيفهمها ويعلم أن ما جاء فيها حق مُنزَل من رب العالمين، ثم يُصِرُّ على الكفر، حالة كونه مُستَكْبِراً عن الإيمان، متعالياً بمركزه الاجتماعي، ويتأى مُبتعداً كأنه لم يسمع ما تُثْلَى عليه من آيات الله، فبُشِّر - أيها الداعي - هذا الأفك الأثيم بعذاب مؤلم سوف يلقاه يوم الدين.

٩ - وإذا علم هذا الأفك من آيات القرآن شيئاً يسوؤه مما يتعلق بدم شركائته، وتقيح شروره سَخَر منها، أولئك المنحطون إلى جهة الدرك الأسفل من النار، لهم عذاب مُذِلُّ مُخْزٍ لهم في الدنيا، وعند الموت، وبعده في البرزخ؛ جزاء استهزائهم بآيات الله.

١٠ - من أمام هؤلاء المستهزئين بآيات الله جهنم تنتظرهم، ولا يدفع عنهم ما كسبوا في الحياة الدنيا من الأموال والأولاد والأنصار شيئاً، ولا يدفع عنهم أيضاً شيئاً من عذاب الله أولياؤهم الذين عبدوهم من دون الله، ولهم يوم الدين في جهنم عذاب عظيم.

١١ - هذا القرآن الذي أنزلناه عليك - يا رسول الله - هُدىً من الضلالة، والذين كفروا بما في القرآن من الآيات الدالة على الوحداية، لهم عذاب مؤلم مُوجِع من أشد أنواع العذاب.

١٢، ١٣ - الله سبحانه الذي ذلل لكم البحر، فجعله صالحاً لطفو السفن عليه، وجريانه فيه؛ لتسير السفن فيه بأمر الله التكويني، ولتطلبوا أرزاقكم ومصالح حياتكم المختلفة من فضل الله، باستخدام أسبابها المتاحة لكم ضمن أنظمة الله السببية في كونه، ولتعريفكم ببعض نعم الله عليكم، رغبة في أن تشكروا الله بالإيمان، والعمل بمراضيه، وحمده بما هو أهله، وجعل لكم جميع ما في السموات وما في الأرض مسخرات تسخيراً مترابط الوحدات، من أصغر الذرات حتى أكبر المجزآت على أحسن وجه لمنافعكم، إن في تسخير البحر، وتسخير جميع ما في السموات وما في الأرض لعلامات دالات على بعض صفاته وأسمائه، وعلى نعمه الكثيرة على عباده، ولكن الذين يدركون دلالات هذه الآيات هم القوم الذين يستخدمون ما وهبهم ربهم من قدرات التفكير فيما خلق في كونه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمِّ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١
وَالْأَرْضِ لَا يَأْتِي لَهَا مُوَسِّمِينَ ٢
وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ ٣
إِنَّتُمْ لَقَوْمٌ يُوقِنُونَ ٤
وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ٥
إِنَّتُمْ لَقَوْمٌ يَفْقَهُونَ ٦
تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ يَا الْحَقُّ قَائِي حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يَوْمُئِذٍ ٧
وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٨
يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ٩
وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَ هَاهُنَا أَوْلِيَّكَ لَّهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ١٠
مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١
هَذِهِ الْآيَاتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ ١٢
اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَى الْفُلُوكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٣
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِمَّنْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٤

١٤ - قل - يا رسول الله - للذين آمنوا، أن يستروا ويصْفَحُوا عن الإيذاء الذي يُصِيبُهُمْ من الذين لا يتوقعون مجيء أيام الله الجزائية ووقائعهُ بأعدائِهِ؛ ليجزي الله قومًا متقين بما كانوا يفعلون باختيارهم الحر من خيرات وصالحات، وليجزي قومًا عَصَاةً بما كانوا يفعلون باختيارهم الحر من الإيذاء للمؤمنين.

١٥ - مَنْ عمل عملاً إرادياً صالحاً فلنفسه جَلَب ثواباً عظيماً، يجزيه الله به تفضلاً منه عليه، وَمَنْ أساء بعمله الاختياري فعلى نفسه جنى، إذ استحقَّ به عقاباً ربّانياً، ثُمَّ بعد انتهاء زمن ابتلائكم في الحياة الدنيا إلى ربِّكم وحده تُرجعون للحساب والجزاء بالفضل في جنات النعيم، أو بالعدل في دار العذاب.

١٦ - ونؤكد لكم أننا آتينا بني إسرائيل التَّورَةَ والإنجيل، وفقه الأمور الفاصل بين الحقِّ والباطل، والخير والشر، وجعلنا فيهم أكثر الأنبياء من ذرِّيَّة إبراهيم عليه السلام، ورزقناهم من الخيرات المتنوعة، وفضلناهم على العالمين في أزمانهم.

١٧ - وآتينا بني إسرائيل الآيات الواضحات المُشتملات على أحكام الدين الصادر من أمر الله عزَّ وجل، من الواجبات، والمحرمات، والمندوبات، والمكروهات، والمباحات، ممَّا يُوجب عليهم حَمْل رسالة الله للناس، لكنهم اختلفوا ولم يحافظوا على دين الله، بل غيروا فيه وحرَّفوا، وأدخلوا في عقائدهم كُفُريَّات ووثنيَّات، فما وَقَّع الخلاف بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم الربَّاني المُوجب لزوال الخلاف، وإنما اختلفوا لعداوة وحسد بينهم. إن ربَّك - يا رسول الله - يحكم بين المختلفين من بني إسرائيل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا.

١٨ - ثُمَّ بعد أن قَسَدَ بنو إسرائيل، وصاروا غير صالحين لحَمْل رسالتنا للناس، اضطفيناك، وبعثناك رسولا للعالمين، وجعلناك - يا

رسول الله - على طريقة ومنهاج واضح جليٍّ من الأمر الربَّاني الذي فيه تحديد أحكام الله، من الواجبات، والمحرمات، والمندوبات، والمكروهات، والمباحات، فأتبع شريعتك الثابتة، فأت أول المأمورين بالتزامها، ولا تستجب لدعوات أصحاب الأهواء الذين تتحكم فيهم أهواؤهم، فيدعونك لاتباعها، وهم لا يعلمون أحكام الله وشرائعه، ولا يريدون أن يعلموها مستقبلاً.

١٩ - إن هؤلاء المشركين لن يدفعوا عنك - يا رسول الله - من عذاب الله شيئاً، إن اتبعت أهواءهم، ولا تتخذ أصحاب الأهواء أولياء لك تنصرهم وينصرونك، إن الظالمين فئة منزلة عن المسلمين، ينصر بعضهم بعضاً في الحياة الدنيا، ولا ولي لهم في الآخرة، واللَّهُ ربُّ المتقين وناصرهم ومتولي جميع أمورهم في الدنيا والآخرة.

٢٠ - هذا القرآن الذي أنزلناه إليك - يا رسول الله - معالم للناس في الحدود والأحكام، يشتمل على حُجج وبراهين، تكشف الحق وتُثبتهُ، وتكشف الباطل وترهقه، وهُدًى من الضلالة، ورحمة من الله لقوم لديهم الاستعداد لأن يستنبصوا بما جاء في كتاب الله، ويوقنوا بالحق الذي جاء فيه.

٢١ - بل أظنُّ الذين اكتسبوا المُكتسبات السيئات من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، فيكونون بذلك مُتساوين في الجزاء، بأن نجعل ظروف ما بعد الموت للموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان مُساوية لظروفهم في الحياة الدنيا، وذلك يتنافى مع صِفَتَي عدل الله وحكمته، سَاءَ سوءاً شديداً ما يحكمون به على ربِّهم. فهذه الحياة ليست نهاية قصة الإنسان، ولكنها مرحلة قصيرة أعدت للابتلاء، ولا بدَّ حتماً من حياة أخرى، تظهر فيها تطبيقات قواعد العدل الإلهي، ويبدأ تطبيق قواعد الجزاء مع بداية مرحلة الموت، فهذه الآية تشير إلى التطبيقات الجزائية التي تكون في مدَّة الحياة البرزخية بعد الموت وقبل البعث، وهو ما يطلق عليه نعيم القبر وعذابه.

٢٢ - وَخَلَقَ الله السموات والأرض؛ خلقاً مُتصفاً بالحق المناقض للباطل، الذي من مظاهره: العيب واللعب، وخلق ذوي الإرادات الحرَّة من الجن والإنس، الموضوعين موضع الابتلاء في الحياة الدنيا؛ ليجزي يوم الدين كلَّ نفس بما كسبت من خير أو شر، والحال أنهم في مجازاتهم لا يُنقصون شيئاً من جزاء أعمالهم.

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ يَنبُوتَ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا أَخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيَّا يَنفَرُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا صَبْرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

٢٣ - أَنْظُرْ بتفكير وإمعان نظر - يا صاحب الرأي والفكر - لترى من اتَّخَذَ معبوده في الحياة الدنيا هواه، فهو يُوجِّه كلَّ حركات حياته لما تميل إليه نفسه، كتوجُّه العابد لمعبوده، وحكم الله عليه بالضلال حكماً مبنياً على علم بحاله؛ إذ اختار لنفسه الضلال على الهدى، وسدَّ على منافذ سمعه وقلبه، سدّاً مانعاً من دخول الهداية إليهما؛ نتيجة اختياره الحر؛ ضمن نظام الله التكويني، وجعل على بصره غطاءً مانعاً من إدراك أثر رؤية آيات الله في كونه، نتيجة اختياره الحر أيضاً. لا يوجد أحد في الوجود كله يحكم له بالهداية من بعد أن حكم الله عليه بأنه ضال بإرادته الحرة. أفلا تضعون هذه الحقائق التي عرضناها عليكم في خزائن معارفكم، وتستدعونها إلى ذاكرتكم عند كل مناسبة تدعو إلى تذكُّرها، لإيقاظ الإيمان بها، والعمل بمقتضاها.

٢٤ - وقال الدهريون الذين يربطون التغيرات في الكون بمرور الأزمان، وتحرك عناصر الكون وأجزائه: ما الحياة إلا حياتنا الدنيا التي نعيش فيها، نموت ونحيا فيها، وما يحيينا وما يهلكنا إلا ممرُّ الزمان، واختلاف الليل والنهار، ليس لهم دليل علمي مهما كان ضعيفاً، يدلُّ على أنَّ أحداث الكون، ومنها الإحياء والإماتة، من آثار مرور الزمن الطويل، وحركة أجزاء الكون، ما هم إلا يظنون ظناً توهيمياً ضعيفاً.

٢٥ - وإذا تُثُلِّي على مُنكري البعث آياتنا واضحات، مُثبتات أنَّ البعث حقٌّ، وأنه سيكون بعد إنهاء ظروف الحياة الدنيا كلها، لم يكن لهم حُجَّة مقبولة في مقياس العقول السليمة إلا أن قالوا بطريقة دعائية غوغائية: إنَّ صحَّ ذلك فأتوا بآبائنا الذين ماتوا ليُشهدوا لنا بصحة البعث، إنَّ كنتم صادقين في دعوى وقوع البعث.

٢٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين المُكذِّبين بالبعث: اللَّهُ سبحانه يُحييكم في الدنيا من العدم، ويتابع إحياءكم إلى آجالكم المُقدَّرة لموتكم، ثمَّ يُميتكم فيها عند انقضاء آجالكم، ثمَّ يجمعكم مسوقين محشورين إلى يوم القيامة، لا شك في هذا الجمع، ولكنَّ أكثر الناس لا يريدون أن يعلموا هذه الحقائق عن يوم القيامة، لأنَّ علمهم يلجمهم عن اتباع أهوائهم وشهواتهم، وكثير من رغباتهم من متاعات الحياة الدنيا.

٢٧ - ولِلَّهِ سبحانه - وحده - مُلك السموات والأرض خُلُقاً ومُلْكاً وتديراً، ويوم تقوم ساعة بعث الموتى من قبورهم للوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ للحساب والجزاء، يومئذ يظهر خُسران الكافرين، الذين اتَّبَعُوا الباطل، وسلوكوا سبيله.

٢٨ - وترى - أيها الرائي - يوم تقوم القيامة، كلَّ جماعة موضوعة في الحياة الدنيا موضع الامتحان - عند الحساب من هؤل الموقف - باركين على الرُكْب على هيئة المذنب المنتظر لما يكره، أو قائمين على أطراف أصابعهم، كلُّ أمة تُدعى إلى سِجِل أعمالها الذي أَمَرَ الله الحَفَظَةَ بكتابتها؛ لحاسب عليه، ويقال لهم: اليوم تُجزَّون جزاءً مُطابقاً لما كنتم تعملون من خير أو شر.

٢٩ - هذا كتابنا الذي أَمَرْنَا الحَفَظَةَ بكتبه، ينطق عليكم بالحقِّ الثابت المطابق للواقع بما كان من أعمالكم في رحلة امتحانكم في الدنيا، إنَّا كُنَّا نأمر الملائكة بتصوير أعمالكم الظاهرة والباطنة وكتابتها وإثباتها عليكم في الصُّحف.

٣٠ - فأما الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات التي تدلُّ على صحة إيمانهم، فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ في رحمته التي من آثارها جَنَّةُ العظيمة، ذلك الدخول في الجنة هو - وحده - الظفر المطلوب والريح الظاهر الجلي الواضح.

٣١ - وأما الذين كفروا، فيقال لهم تفرِّعاً وتوبيخاً: أكنتم مُهلِّين متروكين، فلم تكن آياتُ القرآن تُثُلِّي عليكم، فاستكبرتم عن الإيمان بها، وكنتم قوماً مجرمين بالكفر، وبارتكاب الكبار من الآثام.

٣٢ - وكنتم إذا قيل لكم: إنَّ وعد الله بالجزاء على الأعمال بعد البعث كائنٌ، والساعة التي تكون فيها بعث الموتى لا شك في أنها كائنة، أنكرتموها، وقتلتم: ما ندري أي شيء الساعة؟ ما نعلم ذلك إلا ظناً احتمالياً لا يصل إلى درجة العلم الذي يجب اعتقاده، وما نحن بمُستيقنين.

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَنَبَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا نُثِّلَتْ عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ يَنْصُرُوا رَأْسَهُمْ لَأَنَّ هُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ بِنَفْثِهِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تُلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

٣٣ - وعلموا قضاء الله بشأنهم، وعُرِضَتْ عليهم منازلهم في جهنم، وظهر لهؤلاء الكفار في الآخرة تَحَقُّقُ جزاء سيئات ما عملوا في الدنيا، ولزِمهم وأصابهم إصابة مُحِيطَةٌ بِكُلِّ ذَرَّةٍ من ذراتهم العذاب الذي كانوا في الحياة الدنيا يستهزؤون به.

٣٤ - وقيل لهؤلاء الكفار: اليوم نترككم تتقلبون في العذاب الذي قُضِيَ به عليكم، كما تركتم الإيمان والعمل للقاء هذا اليوم، ومنزلكم الذي تستقرون فيه دوماً دار العذاب النار، وما لكم من مانعين يمنعونكم من العذاب.

٣٥ - ذلكم العذاب الشديد الذي حاق بكم، بسبب أنكم اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ الْمُنْزَلَاتِ لِهَدَايَتِكُمْ شَيْئاً يُسْتَهْزَأُ بِهِ، وَيُسْخَرُ مِنْهُ، وَخَدَعْتُمْ زِينَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَطْمَعْتُمْ بِالْبَاطِلِ، فَصَرَفْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ، وَالْعَمَلِ بِمَا يُحَقِّقُ لَكُمْ السَّعَادَةَ الْآبِدِيَّةَ، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْ دَارِ الْعَذَابِ النَّارِ، وَلَا يُرْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَالْمَلَامُ مَهْمَا دَعَوْا وَتَضَرَّعُوا وَصَاحُوا مُطَالِبِينَ بِالْخُلَاصِ وَالْخُرُوجِ مِنْ دَارِ الْعَذَابِ، إِذْ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، بِقَضَاءِ مُبْرَمٍ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

٣٦، ٣٧ - فَلِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ، عَلَى صِفَاتِ ذَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِجَلَالِهِ، رَبِّ السَّمَاوَاتِ، وَرَبِّ الْأَرْضِ، وَرَبِّ كُلِّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَهُ وَحْدَهُ الْمَلِكُ وَالْعَظْمَةُ وَالْإِسْتِقْلَالُ بِالْحُكْمِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَحَقُّ لِمِثْلِهِ أَنْ يُكَبَّرَ وَيُعْظَمَ، وَهُوَ - وَحْدَهُ - الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ الْغَالِبَةُ لِكُلِّ الْقُوَى، الْحَكِيمُ الَّذِي يَقْدُرُ تَقْدِيرَاتِهِ، وَيَقْضِي أَقْضِيَّتَهُ، وَيُجْرِي تَصَارِيفَهُ فِي كَوْنِهِ بِكَمَالِ الْحِكْمَةِ، فَيَخْتَارُ أَحْكَمَ الْأَشْيَاءِ لِكُلِّ شَيْءٍ.

سُورَةُ الْاٰحْقَافِ

وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٧﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَوْنَهُمْ نَحْيَةً ﴿٣٩﴾ أَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْهَا وَلَا هُمْ يَسْتَعْبُونَ ﴿٤٠﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾

سُورَةُ الْاٰحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُتُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَبِّئُ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُونَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾

١ - ﴿حَمْدٌ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

٢ - هذا البيان الرباني القولي، الذي يجب على المؤمنين أن يدُونوه في كتاب مَصْنُوعٍ من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف والضياع، تنزيل من الله القوي الغالب الذي لا يُغْلَبُ، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء، وأتقنها وأحسنها في الأمور المختلفة لما يُعْطِي أفضل النتائج.

٣ - ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من كائنات حيّة وغير حيّة إلا خَلْقًا مُتَّصِفًا بِالْحَقِّ الثَّابِتِ الذي تَقْتَضِيهِ المِشِيئَةُ الإِلَهِيَّةُ، والحكمة الربانيّة، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِعَدِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حِسَابَ وَلَا جَزَاءَ، لَزِمَهُ أَنْ يَدَّعِي أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَ هَذَا بَاطِلًا وَعَبَثًا، تَنْزَهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَجَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَقَاءَ نِظَامِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُعَدَّدًا بِأَمَدٍ مُعَيَّنٍ، فَإِذَا انْتَهَى أَجَلُ الْبَقَاءِ، وَجَاءَ أَجَلُ الْإِنْهَاءِ، هَدَمَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ نِظَامَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، بِقِيَامِ السَّاعَةِ الْمُحَدَّدَةِ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ عَمَّا خُوفُوا بِهِ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، وَفَضَّلَ الْقَضَاءَ، وَتَنَفَّذَ الْجَزَاءَ، مُعْرِضُونَ غَيْرِ مُبَالِينِ بِإِنذَارَاتِ اللَّهِ.

٤ - قل - يا أيها الداعي إلى الله - لهؤلاء الكفار: أَتَفَكَّرْتُمْ تَفَكِيرًا سَدِيدًا بِأَنَّا وَتَعَمَّقُوا، حَتَّى أَدْرَكْتُمْ إِدْرَاكًا عِلْمِيًّا يَشَبُهَ الرُّؤْيَا الْبَصَرِيَّةَ، الْأَصْنَامُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، أَرُونِي بِمُشَاهَدَةِ حَسِيَّةٍ، أَوْ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ فِي رُؤْيَا ذَهْنِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ: مَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي خَلَقُوهُ مِنَ الْأَرْضِ، فَكَانُوا بِهِ شُرَكَاءَ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، حَتَّى يَسْتَحَقُّوا أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَ اللَّهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ فِي الْأَرْضِ؟ بَلْ أَرُونِي بِمُشَاهَدَةِ حَسِيَّةٍ، أَوْ بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ فِي رُؤْيَا فِكْرِيَّةٍ: مَاذَا خَلَقُوا مِنَ السَّمَوَاتِ، فَلَهُمْ بِهَذَا الْخَلْقِ مِشَارَكَةُ اللَّهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ لِلْسَّمَاءِ، حَتَّى يَسْتَحَقُّوا أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَ اللَّهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ؟ أَتُنَبِّئُ بِكِتَابِ رَبَّانِيٍّ صَحِيحٍ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَفِيهِ مَا يُثَبِّتُ ادِّعَاءَكُمْ الْكَاذِبَ، أَوْ بَقِيَّةٍ مِنْ عِلْمٍ صَحِيحٍ يُؤَثِّرُ عَنْ رَسُولٍ مِنَ رَسْلِ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ شَرِيكًا.

٥ - لَا يُوْجَدُ أَكْثَرُ ضَلَالًا مِنَ الَّذِي يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَعْبُودًا بِأَيِّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ، وَفِي مَقْدَمَتِهَا الدُّعَاءُ؛ لِتَحْقِيقِ مَرْغُوبٍ، أَوْ دَفْعِ مَكْرُوهٍ، وَالْمَعْبُودُ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَابِدِهِ بِشَيْءٍ طَوَالَ وُجُودِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ؛ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجْلِبُوا لَهُمْ نَفْعًا، أَوْ يَدْفَعُوا عَنْهُمْ ضَرًّا.

٦ - وإذا جُمع الناس للحساب، وفصل القضاء يوم القيامة، كان هؤلاء المعبودون أعداءً لمن عبدوهم، يلعنونهم ويتبرؤون منهم، وكانوا بعبادة عابديهم كافرين، لا علم لهم بعبادتهم إياهم.

٧ - وحين تُتلى على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلات من كتابنا، حالة كونها واضحة الدلالات، قال الذين كفروا للحقّ الذي فهموه من آياتنا الماثلة عليهم: هذا القرآن سحرٌ ظاهر؛ ليصدّوا أتباعهم عن التّأثّر به، والاستجابة لدعوة الحقّ الرّبّانيّة.

٨ - بل أيقول هؤلاء الكافرون: اختلف القرآن محمدًا من قِبَل نفسه، وزعم أنه كلام الله يتنزل عليه؟ قل لهم - يا رسول الله -: إن افتريته أهلكني الله ولم يُمكنني أن أبلغكم كلمةً منه، فلا تقدرون أن تردوا عني شيئاً - مهما كان قليلاً - من عذاب الله، إن عذَّبني على افترائي؟ والله أعلم بما تندفعون فيه بهمةً ونشاط لمقاومة دعوتي، واضطهاد الذين آمنوا بي. كفى بالله شاهداً حاضراً بيني وبينكم، يشهد لي بالصدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالجحود والإنكار، لا تخفى عليه من أعمالنا وأعمالكم خافية، وهو الغفور لمن تاب منكم، الرحيم به.

٩ - قل - يا رسول الله - لمشركي قومك : ما كنتُ أوّل مُرسل، وقد بُعث قبلي كثير من الأنبياء، فكيف صَحَّ في ذهنكم أن تؤمنوا برسُل سابقين، كإبراهيم وإسماعيل وموسى وهارون وعيسى وغيرهم، وتُجددوا رسالتي، وقد آتاني من الآيات ما يُثبت أنّي رسولُ ربِّ العالمين حقاً وصدقاً؟! وأبلغكم ما أمرني ربِّي بتبليغه، ويتوقف علمي عند حدود ما علَّمني ربِّي، ولا أعلم من تلقاء نفسي ماذا يصير من أمري وأمركم، إلا إذا نبأني الله بشيء من ذلك؟ ما أتبع في مسائل الدين وقضاياه إلا الذي يُوحى إليّ من ربِّي، فلا أبتدع من عندي شيئاً، وما أنا بالنسبة إليكم بعد أن دعوتكم بمختلف الوسائل إلا نذيرٌ بين الإنذار، أنذركم بالعذاب المُعجل في الحياة الدنيا، بعد أن وصلتُم إلى حالة ميؤوس منها، وأنذركم بالعذاب المُؤجل الذي سوف

١٠ - قل - يا رسول الله - لمُشركي قومك : أفكرتم تفكيراً سديداً بعمقٍ وإمعانٍ نظر، حتى رأيتم بفكركم رؤيةً مشابهةً للرؤية البصريّة، ماذا تقولون إن كان القرآن - الذي زعمتم أنني افتريته على ربي - هو من عند الله، والحال أنكم كفرتم به - أيها المشركون - وشهد شاهدٌ عظيم الشأن من بني إسرائيل، كعبد الله بن سلام على مثل هذا القرآن، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من التوحيد، والتصديق بنبوّة محمد ﷺ، وآمن الشاهد بما جاء في القرآن، وقد كفرتم بما أنزل على رسولكم استكباراً وجحوداً، فما هو العذر الذي تعتذرون به، إذ رفضتم الإيمان بالكتاب الذي أنزله بلسانكم؟ أفلا يحكم الله عليكم بأنكم كنتم كافرين جحوداً واستكباراً وتستحقّون الخلود في عذاب النار؟ إنّ الله الحكم العدل لا يحكم بهداية القوم الظالمين ظلماً من دركة الكفر.

١١ - وقال الذين كفروا بالقرآن وبرسالة الرسول ﷺ لضعفاء المؤمنين وفقراءهم: لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء الضعفاء والفقراء إلى الإيمان به، وإذ لم يهتدوا بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان، فيقولون ليُبرّوا إعراضهم عنه، ورفضهم لاتباعه: هذا كذب قديم من أخبار الأولين نقلها محمد، وأدعى أن الله يُوحى بها إليه.

١٢ - هم يعلمون أننا أنزلنا كتباً لهداية الناس على عدد من المرسلين، من قبل هذا الكتاب الذي أنزلناه على نبيِّنا محمد ﷺ، ومنها كتاب التوراة، الذي أنزلناه على موسى إماماً لبني إسرائيل يُقتدى به في مدَّة وجوب العمل به في قضايا العقائد والأخلاق والمعاملات، وما اشتمل عليه من وصايا، وأثرٌ من آثار رحمة الله بعباده، وهذا القرآن كتابٌ مُصدِّقٌ للكتب التي قبله، أنها مُنزَّلة من الله حقاً وصدقاً قبل التحريف والتغيير الذي دخل إليها، حالة كون هذا القرآن مُنزَّلاً بلسانٍ عربيٍّ؛ لينذر القرآن بما فيه من إنذارات الذين ظلموا من دركة الكفر، وليبشِّر أهل مرتبة الإحسان، أعلى مراتب المؤمنين، بالأجر العظيم، والثواب الجزيل في جنات النعيم.

١٣، ١٤ - إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا بِصَدَقَ رَبُّنَا اللَّهُ وَحْدَهُ، ثُمَّ بَعْدَ إِعْلَانِهِمُ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ بِصَدَقَ اسْتَقَامُوا عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَا يَتَسَلَّطُ عَلَيْهِمْ خَوْفٌ مِنْ مُرْهَبَاتٍ قَادِمَاتٍ مُسْتَقْبَلَاتٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَهُمُ الْأَمْنَ مِنْذُ لَحْظَةِ مَوْتِهِمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى شَيْءٍ فَاتِهِمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ أَعْظَمُ وَأَجَلٌ مِنْ كُلِّ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعٍ، أَوْلَيْكَ الْفَضْلَاءُ ذَوُو الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الْمَلَاذِمُونَ لَهَا بِفَضْلِ رَبِّهِمْ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ خَالِدِينَ فِيهَا، جَزَاءً بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الصَّالِحَاتِ.

١٥ - وأمرنا الإنسان بأن يُحسن إلى والديه إحساناً عظيماً، ويَبْرَهُمَا بصنوف البر في حياتهما وبعد مماتهما؛ حملته أمه مدة حملها حملاً ذا مشقة، وهي راضية صابرة حريصة على سلامته، ووضعت حين ولادته وضعاً ذا مشقة، وهي راضية فرحة به، وليداً لها، ومدة حملها إلى أن يفصل من الرضاع ثلاثون شهراً، وعمل الولد المؤمن الشاكر لربه، البار بوالديه، بوصية الله له، واستمر شاكراً باراً، حتى إذا بلغ نهاية قوته، وغاية شبابه واستوائه، وبلغ أربعين سنة، ونضج عقله، وقوي إيمانه، وشعر بأن خط حياه الصاعد بدأ ينحني قليلاً قليلاً، دعا ربه وقال: ربّ ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضيه وأصلح لي في ذريّتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ﴿١٥﴾ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصديق الذي كانوا يعدون ﴿١٦﴾ والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أسطير الأولين ﴿١٧﴾ أولئك الذين حق عليهم القول في أم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خسرين ﴿١٨﴾ ولكل درجت مما عملوا وليوفيهن أعمالهم وهم لا يظلمون ﴿١٩﴾ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيبكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسئون ﴿٢٠﴾

١٦ - أولئك ربيعو المكانة، الأولاد الشاكرون البرّة الذين نتقبل الصادر عنهم من فعل الواجبات والمندوبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، فثيبهم عليها، ونتجاوز عن سيئاتهم فلا نؤاخذهم عليها، ونجعلهم في أصحاب الجنة، مُحَقِّقِينَ وعد الصديق الذي وعدناهم في الدنيا على لسان الرسول ﷺ بأن نتقبل حسناتهم، ونتجاوز عن سيئاتهم.

١٧ - والذي قال لوالديه الحريصين عليه حين دَعَاَهُ إلى الإيمان بالله والإقرار بالبعث بعد الموت مُتَضَجِّراً منهما ومُنْكَراً عليهما: أف لكما، لقد أضجرتاني، أتعدانني بالخروج من قبري حيّاً، والحال أنه قد مضت الأمم من قبلي، وتحولت أجسادهم إلى تراب، ولم يُبعث من القبور أحد إلى الحياة؟ وأبواه يطلبان من الله العون والنصرة على إصلاح ولدهما، ويقولان له: عذاباً لك؛ إن كفرَكَ

وجُحودَكَ سيجلب لك عذاب الله الخالد، آمن بما يطلب الله منك أن تؤمن به، إنَّ وعد الله بالبعث بعد الموت للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء حق لا ريب فيه، فيقول الولد الكافر العاق لوالديه: ما هذا الذي تذكران عن البعث بعد الموت، واليوم الآخر، إلا خرافات سطرها الأولون في كتبهم، ليس لها أساس صحيح، يعتمد عليه ويوثق به.

١٨ - أولئك البعداء المُنْحَطُّون إلى جهة الدرك الأسفل من النار الذين ثَبَّتَ عليهم القول المُبَرِّم السابق بالعذاب؛ بسبب ما اختاروه لأنفسهم، وهم يدخلون جهنم في أمم كافرة قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، إنهم جميعاً بعد عبورهم رحلة الامتحان في الحياة الدنيا كانوا خاسرين أعظم خسارة؛ إذ اختاروا الكفر على الإيمان، فَخَسَرُوا نفوسهم، وصاروا في العذاب خالدين.

١٩ - ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس منازل ومراتب من بعض ما عملوا في الدنيا، وهذه المراتب يوم القيامة تكون صاعدات إلى الفردوس الأعلى بفضل الله، أو نازلات هابطات إلى الدرك الأسفل من النار بعدل الله؛ ولِيُعْطَى كُلُّ مَنْهُمْ جزاء أعمالهم، وافيّاً تاماً، وهم جميعاً لا يظلمون بزيادة في سيئاتهم، ولا بنقص من حسناتهم. وفي الآية دليل على أنَّ الجن يُثابون ويعاقبون كالإنس.

٢٠ - ويُقال للذين كفروا يوم يُعرضون على النار، ويرون مواقع ذركاتهم فيها: بذلتُم كُلَّ طاقاتكم الماديّة والفكريّة والمعنويّة، للحصول على طيبات الحياة الدنيا من مأكليها ومشاربها ومناكحها وقصورها ومُتْرَفَاتِهَا، وَحَصَلَتْ لَكُمْ لذات ضئيلات القيمة، سريعات الزوال، فلم يبقَ لكم بعد استيفاء حظكم منها شيء؟ فاليوم تُجزون - أيها الكفار - عذاب الذلّ والخزي في النار؛ بسبب جرمين كانا منكم في الدنيا: الأول: الاستكبار والترفع الباطل في الأرض بغير الحق، والثاني: بسبب خروجكم عن طاعة الله، وارتكابكم الآثام والمعاصي من ذركات الكفر.

٢١ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لهذا البيان - خَيْرَ نَبِيِّ اللَّهِ هوداً عليه السلام، أخوا قبيلة عاد في النسب، حين أُنذر قومه أن يحلّ بهم عذاب الله، وهم مقيمون في منازلهم المعروفة بـ«الأحقاف»، وهي الرمال الكثيرة جنوب الجزيرة العربية، والحال أن هوداً قد مضت الرُّسل الذين بُعثوا من قبل هود، والذين سيبعثون بعده، وقال لقومه مثلما الذين جاؤوا من قبله، ومن بعده: بأن لا تشركوا مع الله شيئاً في عبادتكم له، فإن لم تستجيبوا لي، وقد أقمت فيكم زمناً طويلاً أبلغكم رسالات ربّي، فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، يكون فيه هلاككم هلاكاً جماعياً ساحقاً ماحقاً.

٢٢ - قال قوم هود إنكاراً عليه: أجنّتنا بدعوتك؛ لتصرفنا عن عبادة آلهتنا التي ورثنا عبادتها عن آبائنا إلى عبادة ما تدعوننا إليه، وتنذرنا بالعذاب الذي يبيدنا في يوم عظيم؟ فأتينا بهذا العذاب المهلك لنا إهلاكاً جماعياً، إن كنت من الصادقين في كونك رسولاً مبعوثاً من رب العالمين.

٢٣ - قال هود عليه السلام مجيباً قومه الذين وصلوا إلى طور العناد الشديد والتحدي بأن يأتيهم بالإهلاك الذي كان يُنذرهم به: ما العلم بوقت مجيء العذاب إلا عند الله عز وجل، وأبلغكم ما أرسلت به من الوحي الذي أنزله الله تعالى عليّ، وأمرني بتبليغه إليكم، ولكني أراكم قوماً تستجيون لانفعالات غضبكم أنا فأنّا، وقد عطّلتكم موازين عقولكم.

٢٤ - فلما رأوا مُقدمات عذابهم ووسائل إهلاكهم الذي استعجلوه؛ سحاباً مُمتدّاً في أفق السماء، مُتوجّهاً نحو أوديتهم، حسبه سحاباً قادماً بغيث، وقالوا: هذا سحابٌ يأتينا بالمطر والخير، فردّ عليهم هود عليه السلام: ليس هذا بعارض غيثٍ ورحمة كما حسبت، بل هو ما استعجلتم به من العذاب، ريحٌ عاتيةٌ شديدةٌ فيها عذابٌ مؤلمٌ مٌوجع.

٢٥ - تُهلك هذه الريح بشدّتها وقوّة سرعتها كلّ شيء مرّت به بأمر ربّها إيّاها بإهلاكه، فأهلكهم الله سبحانه بهذه الريح العاتية، فأصبحوا لا يرى قائماً في أرضهم إلا آثار مساكنهم الخاوية المُعطّلة، مثل ذلك الجزاء العقابيّ الوخيم، نُجزّي كلّ المجرمين الكفّرة، ضمن قانون العدل الذي نُجزّيه به؛ بسبب جرمهم وطغيانهم.

٢٦ - ونقسم مؤكّدين لكم، أننا مكثنا عاداً من قبلكم فيما لم تُمكنكم فيه - يا أهل مكة - بما أمّددناهم من قوّة الأبدان، وطول الأعمار، وكثرة الأموال، والقدرة على التصرف المُوصل إلى تحقيق مطلوبهم، وجعلنا لهم سمعاً يسمعون به ما يدلّهم على الحق والخير والهدى، وأبصاراً يُبصرون بها آياتنا في كوننا، وأفئدة يدركون بها ما يُوصل إليهم سمعهم من آياتنا البيانيّة، وبصرهم من آياتنا الكونيّة المرئيّة، فما نفعهم وصرف عنهم شيئاً من عذابنا، سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم التي هي أدوات الإدراك فيهم، ومراكز استقرار العلوم والمعارف، والتي تنطلق منها إراداتهم؛ لأنهم كانوا يكذبون بآيات الله، مع علمهم بأنها حق، ونزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزؤون به، حين كان ينذرهم به هود، فاحذروا أن تكونوا - يا أهل مكة - مثلهم.

٢٧ - ونؤكّد لكم أننا أهلكنا إهلاكاً جماعياً شاملاً ما حوّلكم - يا أهل مكة - من المُجمّعات السكنيّة، كقوم عاد وثمود ولوط، وقبل أن تُهلكهم، نوّعنا عليهم الآيات البيانيّة، والإعجازيّة، وكرّرناها بأساليب مختلفة؛ رغبةً منا في أن يرجعوا إلى أصل فطرتهم الإيمانيّة، ويُبْذوا ما هم فيه من شرك وضلال، فلم يرجعوا، فأهلكناهم إهلاكاً جماعياً مُستأصلاً.

٢٨ - فهلاًّ منع هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم السابقة الأصنام التي اتّخذوها آلهة يتقرّبون بعبادتها إلى الله؛ لتشفع لهم عنده، بل غابت الآلهة عنهم، فلم تنفعهم عند نزول العذاب بهم، ولم يروا لها أثراً، وذلك الذي حلّ بهم من خذلان آلهتهم، وضياعها عنهم هو عاقبة كذبهم، الذي كانوا يرُدّونه مُتوهّمين أنّ آلهتهم تنفعهم، وعاقبة ما كانوا يكذبون على الله اصطناعاً من عند أنفسهم، ظلماً وعدواناً على حقّ الله الذي لا ربّ سواه.

وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَ عَنْ آلهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا تَعْبُدُونَ إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيْمَا إِن مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوَّلَكُمْ مِنَ الْفُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِي آتَيْنَاهُم مِّن دُونِ اللَّهِ قَرِيبًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْرُتُونَ ﴿٢٨﴾

٢٩ - واذكر - يا رسول الله - حين وجهنا إليك جماعة ذا علم وفضل من كبراء الجن من مكان بعيد، يستمعون القرآن بعناية وقصد، فحين حضروا رسول الله ﷺ لاستماع القرآن، قال بعضهم لبعض: اسكتوا؛ لنستمع إلى قراءته، فحين قرع من قراءته، رجعوا إلى قومهم من الجن مبلّغين داعين إلى الإيمان، ومبشرين من آمن بالنعيم المقيم، ومُنذرين أخيراً من كفر بعذاب أليم في الجحيم.

٣٠ - قالوا: يا قومنا إننا سمعنا كتاباً عظيم الشأن، أنزل على رسول من بعد موسى، مُصدّقاً لما قبله من الكتب الإلهية المنزلة على الرسل السابقين، يهدي إلى الحق الثابت في العقائد الإيمانية، والأخبار الماضية، والحاضرة، والمستقبلية، وإلى طريق سلوك ذوي الإرادات الحرة، في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

٣١ - يا قومنا أطيعوا داعي الله محمداً ﷺ، وصدقوا فيما جاءكم به، يشتر الله لكم بعض ذنوبكم، وهي حقوق الله عليكم، فلا يؤاخذكم عليها، ولا يُجازيكم بعذاب على اقترافها، ويُبقي عليكم حقوق العباد، فهذه إما أن تؤدوها، أو تؤدوا تعويضاً عنها، أو يُسامحكم أصحابها، ويحكمكم - بسبب إيمانكم، وإجاباتكم داعي ربكم - من عذاب مؤلم موجع في جهنم.

٣٢ - ومن يعص بعدد إجابته رسول الله إلى ما دعا إليه، فليس بقادر على أن يُفْلِت من عقاب الله وعذابه، مهما كانت له قدرة على الهرب، وليس له من دون الله نصراء ينصرونه، فيدفعون عنه عذاب الله، أولئك الذين لم يجيبوا رسول الله، البُعداء عن تنزلات رحمت الله باختيارهم الحر مُغمسون في ضلال واضح عن الحق، يدركه كل ذي فكر سليم، وفهم مستقيم.

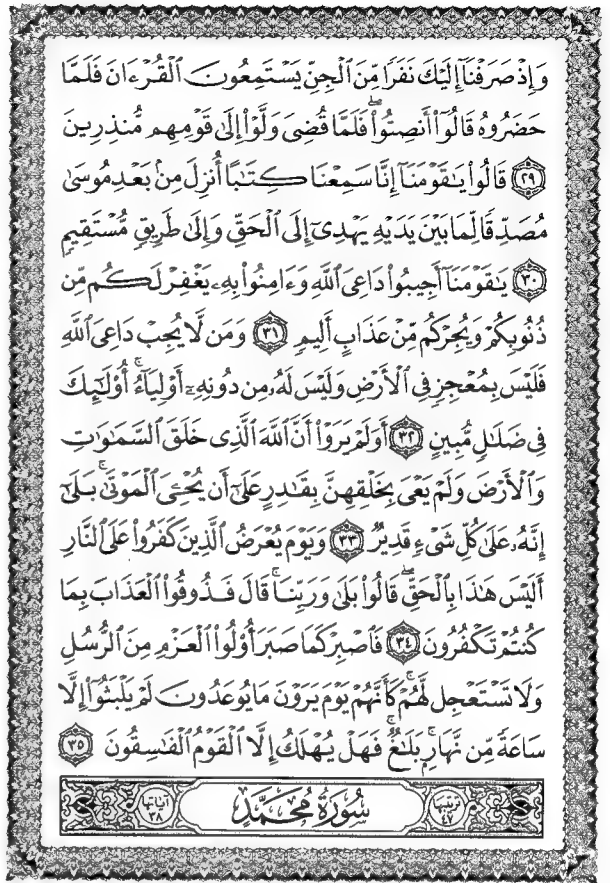
٣٣ - أعطّلوا عقولهم ولم يَرَوْا رؤية فكرية تشبه الرؤية البصرية أن الله الذي خلق السموات والأرض، ولم يعجز عن إبداعهن، بقادر

على إحياء الموتى كما بدأ خلقهم أول مرة، دون أن يكونوا شيئاً مذكوراً؟ بلى لقد رأوا هذه الحقيقة، ولكنهم جحدوا وأتبعوا أهواءهم، إن إعادة الخلق وإحياءه بعد الموت أهون عليه من إبداعه وخلقِهِ، فالكُلُّ هينٌ عليه، وهو على كُلِّ شيء قدير من إماتة الخلق وإحيائهم، لا يعجزه شيء.

٣٤ - ويقال للذين كفروا يوم يُعرضون على النار، ويرَوْن مواقعهم فيها: أليس هذا العذاب الذي وعدكم به الرسل هو الحق؟ قالوا: بلى وربنا هو الحق، فيقال لهم: فذوقوا عذاب الحريق في جهنم؛ بسبب ما كنتم في الحياة الدنيا تكفرون بالحق كفر جحود.

٣٥ - فاصبر - يا رسول الله - على أذى قومك المُكذِّبين لك، كما صَبَرَ أصحابُ القوة والصبر على الشدائد والأذى في القيام بأعباء الرسالة من قبلك الذين ارتقت قوة إرادتهم إلى مستوى العزم الذي يستطيعون به تنفيذ ما يريدون، - وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأنت يا رسول الله منهم - ولا تستعجل لمُعاندي قومك الإهلاك المُعْجَل الذي يطالبونك به، أما العذاب الذي وعدوا به يوم الدين، فإنه نازلٌ بهم لا محالة، إذا ماتوا على كفرهم وجحودهم، كأنهم يوم يَرَوْنَ ما يُوعَدون من العذاب في الآخرة، يشعرون أنهم لم يلبثوا بين الموت والبعث، إلا قَدْر ساعة من نهار ناموا فيه نوم القيلولة واستيقظوا، فهم لا يحشون بالزمن الذي مرَّ عليهم من لحظة موتهم حتى بعثهم إلا كما يحسُّ النائم في نهار لا يطول فيه نومه، وذلك لأنَّ الإحساس بمرور الزمن قد مُسح من أجهزة الإدراك في نفوسهم بعد موتهم.

هذا بلاغ من الله عامٌّ إليكم في سُنَّة ثابتة من سُنن الله في الأمم: ليس للإهلاك سبب غير الفسق الذي ينتشر فيها، ويُلازمها حتى يكون أحد صفاتها الثابتة، فهل يَهْلِكُ بالعذاب الإهلاك الشامل إلا القوم الخارجون عن الإيمان بالله وطاعته، فلا تتطَّلَع نفوسكم - أيها المؤمنون - لإهلاك جماعات الكافرين إهلاكاً عاماً شاملاً، قبل أن تقتضي حكمة الله تعالى في إهلاكهم.



سُورَةُ الْحَجِّ مَكِّيَّةٌ

الجزء الثاني من القرآن الكريم

سُورَةُ الْحَجِّ مَكِّيَّةٌ

١ - الذين كفروا بالله ورسوله، وامتنعوا عن الدخول في دين الله، ومنعوا غيرهم عن الدخول في الإسلام، أبطل الله أعمالهم، ولم يتقبلها منهم؛ بسبب كفرهم وصددهم عن سبيل الله، وأذهب أعمالهم التي دبروها وقاموا بها لأجل الصد عن سبيل الله، وإطفاء نوره، فصارت ضالة ضائعة.

٢ - والذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً كاملاً، وعملوا الصالحات الدالة على صدق إيمانهم الإرادي الاعتقادي، وصدقوا بالقرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ، وما جاء به من عند الله - وهو الحق الثابت الذي لا شك فيه من ربهم - ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي؛ لرجوعهم وتوبتهم منها، فغفر لهم بذلك ما كان منهم، وأصلح حالهم وشأنهم وخاطرهم بالتوفيق في أمور الدين والدنيا.

٣ - ذلك الأمر وهو إضلال أعمال الكفار، وتكفير سيئات المؤمنين وإصلاح أعمالهم كائن بسبب أن الذين جحدوا توحيد الله، اتبعوا الشيطان فطاعوه، وأن الذين آمنوا اتبعوا القرآن والرسول ﷺ، وما جاء به من الحق من خالقهم ومالكهم ومُتَوَلِّي أمورهم، مثل ذلك البيان الواضح يبين الله للناس أحوال الفريقين: الكفار والمؤمنين؛ ليعتبروا بها، وهي اتباع المؤمنين الحق وفوزهم، واتباع الكافرين الباطل وخسرانهم، فيلحق بكل قوم من الأمثال والأشكال ما يناسبه.

٤ - فإذا لقيتم - أيها المؤمنون - الذين كفروا في ساحات الحرب، فاضربوا رقابهم ضرباً، حتى إذا أكثرتم فيهم القتل والجراح، ومنعتموهم من النهوض والحركة، فأسروهم وأحكموا قيدهم؛ حتى لا يفلتوا منكم، وبعد الأسر: إما أن تمثوا عليهم متاً بإطلاقهم من غير عوض، وإما أن تفاوهم فداءً بالمال. واستمروا على ذلك حتى

يضع أهل الحرب أسلحتهم، ويُسكوا عن القتال، ذلك الذي ذكر ويُن من حكم الكفار، ولو يشاء الله لأهلكهم بغير قتال، وكفاكم أمرهم، ولكن أمركم الله بالقتال؛ ليمتحن المؤمنين بالكافرين؛ إذ ينكشف في القتال المنهزمون، والضعفاء والمتخاذلون، والمجاهدون الصابرون، والذين قتلوا في سبيل الله من المؤمنين فلن يبطل الله أعمالهم، بل يوفيهم ثواب أعمالهم التي عملوها لله تعالى كاملة غير منقوصة.

٥، ٦ - سيهديهم الله أيام حياتهم في الدنيا إلى أرشد الأمور، ويوفقهم إلى طاعته ومرضاته، وفي الآخرة إلى الدرجات العلى، ويصلح شأنهم في الدنيا والآخرة، ويرضى أعمالهم ويقبلها، ويدخلهم الجنة، بين لهم منازلهم فيها، لا يخطئونها، كأنهم ساكنوها منذ خلقوا. ٧ - يا أيها الذين صدقوا بالله واليوم الآخر، واتبعوا رسوله، إن تنصروا دين الله، بالجهاد في سبيله، والحكم بكتابه، وامتنال أوامره، واجتنب نواهيه، ينصركم الله على عدوكم، ويثبت أقدامكم عند القتال.

٨، ٩ - والذين كفروا فهلاكاً وخيبةً لهم، وأبطل الله ثواب أعمالهم؛ بسبب كفرهم، كما أحبط أعمالهم التي دبروها من أجل الصد عن سبيل الله، وإطفاء نوره، فصارت ضالة ضائعة؛ ذلك التمس والإضلال بسبب أنهم كرهوا كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ الذي فيه الهدى والنور؛ وإنما كرهوه لأن فيه الأحكام والتكاليف التي تخالف أهواءهم وشهوات نفوسهم، فأبطل أعمالهم التي عملوها، ولم يتقبلها منهم.

١٠ - أبقوا في بلدكم فلم يَيسر هؤلاء الكفار في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة الأمم الماضية والقرون الخالية الكافرة؟ فإن آثار الأمم الهالكة المعبدة، تُنبئ عن أخبارهم، دمر الله عليهم مساكنهم وبلادهم، وما يختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وللكافرين المعاصرين المصيرين على كفرهم، ومن سيأتي بعدهم أمثال ذلك العذاب الذي حل بالأمم الكافرة إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وبما جاءهم به من عند الله عز وجل.

١١ - ذلك الإهلاك والهوان الذي حل بالأمم الكافرة؛ بسبب أن الله ناصر المؤمنين على أعدائهم، ومُتَوَلِّي أمورهم، وأن الكافرين لا ناصر لهم يدفع عنهم العذاب والعقاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ
اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۚ ۞ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ۚ حَتَّىٰ
إِذَا أَتَخْتَمِرُوهُمْ فَمَنْدُوكُوا الرِّقَابَ ۚ فَمِمَّا تَبَعُوا فِدَاءً ۚ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ
أُوزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَىٰ نَصْرَهُمْ وَلَٰكِنْ لَيْسَ لِبَعْضِكُمْ
بِعِزٌّ ۚ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۚ ۞ سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۚ ۞ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۚ ۞ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَإِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ ۚ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَعَسَّاهُمْ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۚ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ
فَاحْطَ أَعْمَالَهُمْ ۚ ۞ ۞ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلَاهُمْ ۚ ۞
ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۚ ۞

١٢ - إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ فِي الدُّنْيَا بِشَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا، وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ، لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا إِلَّا بَطْنُهُمْ وَفُرُوجُهُمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِيهَا إِلَّا الْبُخْلُ وَالْمَتَاعُ هَدَفَ أَسْمَى يَسْعُونَ إِلَيْهِ. فَمَنْ لَمْ يَسْتَعْمِلُوا مَا وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِنْ قُلُوبٍ وَعُقُولٍ وَأَبْصَارٍ وَأَسْمَاعٍ فِي مَعْرِفَةِ أَذْلَةِ وَجُودِ اللَّهِ وَالْغَايَةِ مِنَ الْخَلْقِ، بَلْ عَطَّلُوهَا وَاسْتَعْمَلُوهَا اسْتِعْمَالاً أَوْذَى بِهِمْ إِلَى الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْخَالِدِ، وَنَارُ جَهَنَّمَ مَكَانٌ اسْتِقْرَارٌ لَهُمْ.

١٣ - وكثير من أهل القرى السابقين هم أشد قوة - يا رسول الله - من أهل قريتك - مكة - التي أخرجك أهلها. أهلكتناهم، فلا مانع يمنعهم من العذاب والهلاك الذي حل بهم.

١٤ - أقمن كان مستقراً على يقين من دينه، وبرهان واضح من ربه، فهو يعلم الحق حقاً، والباطل باطلاً، ولم ينحرف تحت تأثير أهوائه الجانحة، وأتبعوا كتاب الله وصراطه المستقيم، كمن لم يكن على يقين من دينه، وانطمست بصيرته، وحسن له سوء عمله، من الكفر والمعاصي، وأتبعوا أهواءهم على عمى وجهالة من غير تبصير بالعواقب؟ لا يستوي الفريقان.

١٥ - صفة الجنة التي وعدها الله المتيقنين: فيها أنهار عظيمة من ماء غير متغير الطعم والريح، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه كما تتغير ألوان الدنيا، وأنهار من خمر يلبذ بها الشاربون ولا يكون معها ذهاب عقل وصداع وأسقام كخمر الدنيا، وأنهار من عسل خالص صافٍ من جميع شوائب عسل الدنيا، ولهؤلاء المتيقنين في هذه الجنة من كل الثمرات للذة والتفكه، ولهم مع هذا النعيم مغفرة عظيمة من ربهم. أقمن هو خالد مُنعم في هذه الجنة كمن هو خالد في النار لا يخرج منها أبداً، وسقوا ماء تنأى في شدة حره، فإذا شربوه قطع أمعاءهم؟

١٦ - ومن الذين كفروا منافقون ضمن جماعة المسلمين يتصنعون

التظاهر باستماع قولك - يا رسول الله - مظهرين إصغاءهم إليك بإمالة رؤوسهم وتوجيه آذانهم، حتى إذا خرج هؤلاء المنافقون من عندك، وفارقوا مجلسك الذي كنت تحدث فيه وتتلو آيات الله، قالوا للذين أوتوا العلم من الصحابة: ما الذي قال محمد حين كنا عنده في الزمن القريب؟ أولئك البعداء عن رحمة الله، الذين اتخذوا من الأسباب الصارفة عن الهداية، ما كان نتيجته ضمن سنن الله السببية أن تغفل قلوبهم، ويضرب الحثم على تلك الأقفال، فلا تقبل الحق والهداية، وأتبعوا رغبات الأنفس من زينة الحياة الدنيا، ومتاعها، وشهواتها، فهوت بهم إلى العذاب الأليم، والشقاء الدائم.

١٧ - وفي مقابل أولئك المنافقين المندسين في صفوف المسلمين، المؤمنون الذين اختاروا لأنفسهم بإرادتهم الحرة الإيمان، فاهتدوا إلى الحق وصراط الله المستقيم، وانتفعوا بما يستمعون من رسول الله ﷺ، زادهم الله هدى مع هدايتهم، وإيماناً مع إيمانهم، ووفقههم للعمل بما أمرهم به، ومنحهم ملكة الاستقامة على طاعة الله.

١٨ - فهل ينتظر المنافقون الذين ينتظرون أن تدور الدائرة على المؤمنين إلا أن تأتيهم الساعة التي تنتهي بها ظروف الحياة فجأة تفجؤهم، وهو الأمر الذي لم يكونوا ينتظرونه ولا يتوقعونه، فقد ظهرت أمارات الساعة وعلاماتها، فكيف تكون نافعة لهم ذكراهم للساعة، وصارفة عنهم عذابها، إذا لم تحصل لهم هذه الذكري إلا بعد مجيئها؟ إنهم يومئذ لا يملكون أن يعملوا عملاً ينفعهم، فقد مضى زمن الابتلاء، وأقبل يوم الجزاء.

١٩ - فاعلم - يا رسول الله - أنه لا معبود بحق إلا الله، ودُم على ما أنت عليه من العلم بهذه الحقيقة العظمى، والإيمان والتسليم القلبي، والطمأنينة النائمة، واعمل بمقتضى توحيد الإلهية لله عز وجل، واستغفر الله لذنبك - يا رسول الله - مما يُعد بالنسبة لمنصبك الرفيع ذنباً، مما يقع من الفترات والغفلات عن الذكر الذي من شأنك الدوام عليه، بسبب انشغالك بالنظر في مصالح المسلمين، وإن كان في ذاته من أعظم الطاعات، وأشرف العبادات؛ لتبقى في أعلى مراتب الإيمان والإحسان، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات من أمتك، والله يعلم حركتكم التي بها تتصرفون وتتقبلون في الأعمال، ويعلم مكانها وزمانها، ويعلم سكونكم واستقراركم ومكانهما وزمانهما، عالم بجميع أحوالكم، لا يخفى عليه شيء منها.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ فِي الدُّنْيَا بِشَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِينِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا تَأْخُذُ بِهِمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوهُ أَوْ لَا يَخْلُفُ مَثَلُ الْغَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآيَاتِهِمْ بِقَوْلِهِمْ ﴿١٦﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى يُؤْذِلُوكَ إِذْ دُرِّسُوا بِهَا فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٧﴾

٢٠ - ويقول المؤمنون الصادقون: هلاً أنزلت سورة واضحة البيان، نُؤمر فيها بالقتال أمراً صريحاً؛ لكي نقاتل الكفار، لإعلاء كلمة الله، وتأمين الدعوة، ونشر الحق والعدل في الأرض، فإذا أنزلت سورة بيّنة واضحة الدلالة غير متشابهة، لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال، وأمر فيها بالجهاد، رأيت المنافقين ينظرون إليك - يا رسول الله - شزراً وكراهية منهم للقتال، وجبناً عن لقاء العدو، كما ينظر المحتضر الشاخص بصره عند مُعاينة الموت، فقارب هؤلاء الذين في قلوبهم مرض أن يليهم المكروه بمحاولتهم الخلاص من القتال الذي يكرهون.

٢١ - المطلوب من المسلم في موضوع آيات القتال أن يعلن الطاعة والقول المعروف الذي يدل على صدق إسلامه، فإذا صدر الأمر الجازم بالخروج إلى القتال، وعَزَم أولياء الأمر وقادة المسلمين على الإلزام بالخروج للقتال، جَبَنَ فريق من المؤمنين الصادقين نتيجة الضعف البشري، فلو صدّقوا الله في قتال الكافرين ولم يضعفوا عن القتال بسبب الجبن، لكان ذلك الصدق والمبادرة إلى تنفيذ أمره خيراً لهم عند ربهم، إذ يكون أجرهم عنده عظيماً. ولو لم يصدقوا في القتال يوم المعركة لما كان ذلك دليلاً واضحاً على كفرهم، لاحتمال أن يكون أثر جبن في قلوبهم، ممّا لا يناقض الإيمان.

٢٢ - فلعلكم إن ابتعدتم وأدبرتم - أيها المنافقون - عن الإيمان والجهاد مع رسول الله ﷺ، أو إن كنتم أولياء الأمر وأصحاب القوة أن تفسدوا في الأرض بخراب العمران الحضاري في المدن والقرى، وإهلاك الحزث والنسل، والبغي وسفك الدماء، وإفساد أخلاق الناس وسلوكهم، وإفساد أفكارهم ومفهوماتهم، وتقطّعوأ أرحامكم؛ لتحقيق أغراضكم الشخصية، ومصالحكم الدنيوية.

٢٣ - أولئك المنافقون البُعداء عن مهابط الرحمة إلى جهة الدرك الأسفل من النار، الذين لعنهم الله بسبب نفاقهم، فأصمهم عن سَماع الحق، وأعمى أبصارهم عن رؤية آيات الله البينات في أنفسهم، وفي الكون من حولهم، فهم في ضلالهم يترددون، وفي الظلمات يتقلبون، لأنهم اختاروا لأنفسهم السَّير في الظلمات، فَجَرَتْ فيهم سنّة الله أن لا يسمعوا الحق، وأن لا يروا شيئاً من معالم الهدى.

٢٤ - أفلا يتفكّرون في القرآن وفي مواظبه وزواجه؛ ليتعرّفوا من خلال التدبّر على ما يدفعون به كلّ شبهاتهم وأوهامهم في تبرير قتال الكافرين؟ إذ يتردّد في صدورهم أنّ الدعوة إلى القتال ينجم عنه إفساد في الأرض، وخراب للعمران، وتقطيع للأرحام، الذي يتجلّى في واقعهم إذا كانوا أولياء الأمر، وكانت الدولة القائمة لهم، بل على قلوبهم ما يحجبها عن تدبّر القرآن، والتفكّر في الآيات، بسبب كفرهم ونفاقهم، فهي مُغلقة لا يدخلها الإيمان، ولا يخرج منها الكفر.

٢٥ - إنّ المنافقين الذين رجّعوا إلى الكفر الذي كانوا فيه قبل الإسلام من بعد ما وُضِح لهم طريق الهداية، الشيطان زَيّن لهم القبيح حتى رَأَوْهُ حَسَنًا، وَحَبَّبَ إليهم الباطل والشرّ، وسهّل لهم، ومدّ لهم في الأماني والآمال، وأسباب الغواية والضلال.

٢٦ - ذلك التَّسْوِيل والإملاء؛ بسبب أنّ المنافقين قالوا لليهود الذين كرهوا ما نزل الله: سنتعاون معكم على عداوة محمد ﷺ، وترك الجهاد معه، والقعود عنه، والله تعالى يعلم سرهم، لا تخفى عليه خافية من أمرهم.

٢٧ - فكيف يكون حالهم إذا جاءتهم ملائكة الموت لتقبض أرواحهم عند انتهاء آجالهم، يضرّبون وجوههم وأدبارهم؟

٢٨ - ذلك الضرب الذي استحقّوه ونالوه؛ بسبب جمعهم بين خستين: الأولى: المعصية التطبيقية العملية، باتباعهم ما أسخط الله من معاونة الكافرين، وترك الجهاد مع رسول الله ﷺ، والثانية: الكراهية القلبية لدين الله، فكرهوا ما فيه رضوان الله عزّ وجل، وهو الإيمان والطاعة والجهاد مع رسول الله ﷺ، فأبطل الله أعمالهم الصالحة التي عملوها في مُدّة إيمانهم قبل ردتهم، وكذلك يحبط الله أعمالهم التي يعملونها ضدّ المؤمنين، وينصر أولياءه ضدّ أعدائه من الكافرين والمنافقين.

٢٩ - بل أظنّ هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم أحقاد وكيد أن لن يُعرضهم الله في حياتهم الدنيا لاختبارات صعبة على نفوسهم، يَظْطَرُّون معها أن يُعبّروا عن أحقادهم وما يَظْمُرُون في صدورهم من عداوة وغيظ وكيد للرسول والمؤمنين، فيُبدّوها حتى يعرف المؤمنون نفاقهم؟

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْصَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ۚ أَفَلَا يَذَّكَّرُونَ ۚ الْقُرْءَانُ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۚ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۚ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَضْرُوتٍ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ۚ فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ ۚ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ۚ

٣٠ - لا مانع لنا من إظهار أحقادهم المكتومة في صدورهم بأعمالهم وأقوالهم، ولو نشاء - يا رسول الله - لعرفناك بهم، وذلكناك عليهم، فلعرفتهم بعلامتهم تعريفاً لا يقع معه اشتباه، وإثك - يا رسول الله - لتعرفن المنافقين فيما يُعرضون به من القول من تهجين أمرك وأمر المسلمين وتقبّحه والاستهزاء به، فيظهر في فلتات لسانهم ما يدل على حقيقتهم، واعملوا للحذر من المنافقين بملاحظة أقوالهم، وتتبع تصرفاتهم، لاستنباط هويّتهم الحقيقية، والله الذي يعلم أعمالكم يُعينكم ويهديكم، ويكشف أحقادهم لكم.

٣١ - ولنعاملكم - أيها المسلمون - معاملة المُختبر لكم، ونأمركم بالجهاد؛ حتى يتميز المجاهدون بأموالهم وأنفسهم بحسب درجاتهم ومراتبهم من غير المجاهدين، ويتبين الصّابرون على اختلاف درجاتهم ومراتبهم من غير الصّابرين ذوي الهلع والجزع، وتُظهر أخباركم ونكشفها؛ ليتبين من يأبى القتال، ولا يصير على الجهاد.

٣٢ - إن هؤلاء الذين كفروا مرتدين عن الإسلام في الباطن، وظلّوا محافظين على انتمائهم للإسلام في الظاهر، وابتعدوا بأنفسهم عن دين الله، وعملوا على إبعاد غيرهم عنه، وخالفوا الرسول ﷺ، وناصبوه العدا، ووقفوا في شقّ المضادّ المحارب، من بعدما ظهر لهم أدلة الهدى وصدق الرسول ﷺ، لن يضروا الله شيئاً في ذاته أو دينه أو كتابه أو رسوله، إنما يضرون أنفسهم بذلك، وسيبطل الله أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فلا يَرُونَ لها ثواباً في الآخرة؛ لأنها لم تكن لله تعالى، وسيبطل ويُغني أثر أعمالهم التي يعملونها بالمكر والكيد، ليحفظ دينه وكتابه ورسوله والمؤمنين الصادقين.

٣٣ - يا أيها الذين صدّقوا بأركان الإيمان، وأثبّعوا رسول الله ﷺ وأطيعوا الرسول في أمرهما ونهيهما، ولا تُبطلوا ثواب أعمالكم بالكفر والمعاصي.

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلِتَبْلُغُكُمْ حَقِّي تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُغُوا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنَ يُضْرُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَسَيُحِطُ أَعْمَالُهُمْ ﴿٣٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَأْنُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ لَا عَلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَزِيَّكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَنُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمْ عَنْهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَخَرَجَ أَصْغَرُكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا نَتْرُكُهَا لَكُمْ تَدْعُونَ لِنُفِيقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

٣٤ - إن الذين أنكروا توحيد الله، وستروا دلائل الحق، وصدّوا الناس عن الدخول في الإسلام، ثم ماتوا وهم مُصرون على كفرهم، فلن يغفر الله لهم شركهم، وسيُعذبهم عقاباً لهم على كفرهم، ويفضحهم أمام الخلائق يوم القيامة.

٣٥ - فلا تضعفوا - أيها المؤمنون - عن جهاد الكافرين، وتجنّبوا عن قتالهم، ولا تدعوه إلى الصلح والمسالمة خوفاً وجبناً، وقاتلوهم حتى تكون كلمة الله هي العليا، وأنتم الغالبون لهم، والعالمون عليهم، والله تعالى معكم بالنصرة والمعونة، ولن يُنقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم، وأجر جهادكم. وفي هذه الآية: دليل على منع مُهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وتحريم ترك الجهاد إلا عند العذر.

٣٦ - ما الحياة الدنيا إلا لعبٌ باطل لا ثمرة له سوى التعب، ولهوٌ قليل الجدوى شاغل عما يعني ويهمّ، فكيف تمنعكم الدنيا عن طلب الآخرة، وقد علمتم أن الحياة الدنيا باطلٌ وغرورٌ، وإن تؤمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، وتتقوا الله بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه، يؤتكم ثواب إيمانكم وتقواكم في الآخرة، ولا يسألكم الله ورسوله ﷺ إخراج أموالكم كلها في الصدقات، إنما يسألكم إخراج بعضها، وهي شيء يسير قليل، تُردّ على الفقراء، فطيّبوا بإخراج الزكاة نفساً.

٣٧ - إن يسألكم الله أموالكم، فيُجهدكم، ويُلحّ في المسألة، ويطلبها كلها، تبخلوا بالمال، فلا تُعطوه، ويُظهر أحقادكم وعداوتكم؛ لشدة محبتكم للأموال، وكرهاتكم بذله في سبيل الله.

٣٨ - ها أنتم - يا هؤلاء - تدعون لتنفقوا في جميع وجوه البر، فمنكم الذي يبخل بما فرض الله عليه إخراجاً من الزكاة، أو يُدب إلى إنفاقه من وجوه البر، ومن يبخل بالصدقة فإنما يبخل مُسكاً الخير عن نفسه، والله تعالى الغني عن صدقاتكم وطاعاتكم، وأنتم الفقراء المحتاجون إليه سبحانه، وإن تتولّوا عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ. يهلككم ويأتي بقوم آخرين، يكونون أطوعَ لله ورسوله ﷺ منكم، ثم لا يكونوا أمثالكم في التولي عن أمر الله، بل يطيعونه ويطيعون رسوله ﷺ، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم.

سُورَةُ الْفَتْحِ

الجزء الثاني عشر

سُورَةُ الْفَتْحِ

١ - إنا قَضَيْنَا وَحَكَمْنَا لَكَ - يا رسول الله - على أعدائك فتحاً جلياً واضحاً ظاهراً، بغير قتال ولا تعب، وهو صلح «الحديبية».

وقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ المَوَازِعَةَ على إثر مناوشات ظهر لهم فيها أن المصلحة في الصلح، وتم على شروط تبدو في ظاهرها مُجِيفَةً بالمسلمين، ولكنها في الواقع كانت خيراً عظيماً لهم، وشراً على الشُّرك والمُشركين، فانطلقت الدعوة إلى الله بسبب هذا الصلح دون أن تقف في وجهها عوائق من مشركي قريش، ونَجَمَ عنه نقضُ المشركين لبعض بنوده، وسقوطهم في الغدر، الأمر الذي مكَّن الرسول ﷺ من التوجه لهم بجيش المسلمين الذي بلغ قوامه عشرة آلاف مقاتل، ودخلهم مكة فاتحين لها.

٢، ٣ - فتحنا لك فتحاً مبيناً، وعدنا النصرَ العزيزَ الغالبَ قريباً، وأقرب انتهاء وظيفتك في هذه الحياة الدنيا؛ ليغفر لك الله ما عملت من عمل كان الأولي أن لا تعمله، وليغفر لك الله ما تركت من عمل كان الأولي بك أن تعمله، وعد ذلك ذنباً من إمام المرسلين، وإن كان من غيره يُعتبر براً وإحساناً، بحسب مقامه العظيم عند ربه، ويتم نعمته عليك - يا رسول الله - بإتمام شرائع الدين وأحكامه ووصاياه، ويوفِّقك ويُسدِّدك على متابعة سبيلك على دين الله وأحكامه، ويثبتك عليه، إلى أن تلقى ربك حائزاً أسمى درجات المحسنين، وتكون في الذروة من الفردوس الأعلى، وينصرك الله بهذا الفتح المبين نصراً غالباً ذا عزٍّ ومَنَّةٍ وظهور على الأعداء. وقد نصر الله رسوله نصراً عزيزاً في حياته، ففتح له حصون خيبر، ودخل مكة فاتحاً، وبعث البعث لهدم الأصنام، ونصره الله على هوازن وثقيف في غزوة حنين، وغزا أطراف الشام في غزوة تبوك، وجاءته الوفود، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ونصر الله رسوله بعد أن انتقل إلى جوار ربه، فكلُ الفتوحات التي كانت للمسلمين بعد الرسول هي نصر عزيز للرسول ﷺ.

٤ - هو الله الذي أوجد الطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين الذين كانوا مع الرسول ﷺ معتمرين مُحَضَّرِينَ في «الحديبية»؛ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم السابق، وذلك أنه كلما وَرَدَ عليهم أمر أو نهي، آمنوا به، وعملوا بمقتضاه، والله سبحانه جنودُ السموات والأرض، يؤيد بها عباده المؤمنين، وكان الله عليمًا بجميع جنوده الذين في السموات والأرض، حكيمًا في تدبيرهم.

٥، ٦ - من علمه وحكمته أن سَكَنَ قلوب المؤمنين بصلح «الحديبية»، ووعدهم بالفتح والنصر؛ لشكروهم على نعمه تعالى، فثبهم ويدخلهم جثات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، خالدين فيها أبداً، ويمحو عنهم سيئاتهم، فلا يُحاسبهم عليها، وكان ذلك الوعد بدخول المؤمنين الجنة، وتكفير سيئاتهم في علم الله ظفراً وربحاً عظيماً؛ لأنه منتهى ما تطمح إليه قلوب المؤمنين والمؤمنات، ويُعَذِّبُ الله عذاباً مُعْجَلاً في الدنيا المنافقين والمنافقات من أهل المدينة، والمشركين والمشركات من أهل مكة، الظانين أن الله تعالى لا ينصر محمداً ﷺ والمؤمنين، عليهم دائرة العذاب والهلاك المحيطة بهم، وغَضِبَ الله عليهم بتكيد أمور حياتهم في أنفسهم وأموالهم وأولادهم زيادةً في تعذيبهم، وأبعدهم وطردهم عن مواطن رحمته، وهياً لهم في الآخرة عذاباً مؤجلاً، جهنم يُعَذِّبون فيها، وتكون هي مصيرهم الذي سيصيرون إليه، وساءت جهنم مصيراً.

٧ - ولله سبحانه جنودُ السموات والأرض، يُؤَيِّدُ بهم عباده المؤمنين، ويُعَذِّبُ بهم المنافقين والكافرين. وكان الله قوياً غالباً منتقماً، لا يُرَدُّ بأسه عن المنافقين والكافرين، حكيمًا يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها في الأمور المختلفة لما يُعطي أفضل النتائج.

٨، ٩ - إنا أرسلناك - يا رسول الله - مُبَلِّغاً رسالة ربِّك، وجميع ما أنزل إليك لمن تستطيع أن تُبَلِّغهم من الناس؛ لتشهد يوم القيامة بأنك قد بلغت جميع ما أمرت بتبليغه، ومُبَشِّراً لِمَنْ آمَنَ بك وأطاعك بالثواب المعجل والمؤجل، ونذيراً لِمَنْ خالفك وعصى أمرك بالعقاب المعجل والمؤجل؛ لتقوموا - أيها الناس - بأربعة واجبات عظمى: **الواجب الأول:** لتؤمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، **والواجب الثاني:** أن تنصروا الله سبحانه بنصر دينه، وتجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، **والواجب الثالث:** أن تعظموا الله سبحانه وتجلوه بقلوبكم ونفوسكم، وتُثَنِّوا عليه بتمجيد صفات العظمة والجلال بالاستتكم، **والواجب الرابع:** أن تنزهوه وتقُدِّسوه من جميع النقائص بكرة من أول النهار إلى طلوع الشمس، وأصيلاً حين اضفرار الشمس إلى غروبها.

سُورَةُ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝
وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۝ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۝ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۝ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّتُ بَجَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ ۝ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَيُعَذِّبُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ
يَا لَلَّهِ طَرَفُ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ ۝ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ وَلِلَّهِ جُنُودُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝

١٠ - إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ - يا رسول الله - ببيعة الرضوان بالحُدُوبِية على أن لا يفروا، إنما يُبَايِعُونَ الله، ويعقدون العقد معه ابتغاء جثته ورضوانه؛ لأنهم باعوا أنفسهم لله عز وجل، يد الله فوق أيديهم، فهو معهم يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، وعقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله، فمن نقض العهد الذي عقده مع النبي ﷺ ونكث البيعة، فإن وبال ذلك وضربه يرجع إليه، ولا يضرب إلا نفسه، ومن أتم العمل بكل ما عاهد عليه الله في مبايعته التي بايع عليها، فسيعطيه الله في المستقبل أجراً عظيماً في الآخرة، وهو الجنة.

١١ - سَيَقُولُ لَكَ - يا رسول الله - الذين تخلفوا من سُكَّانِ البادية عن الخروج معك إلى «مكة» معتمراً عام «الحُدُوبِية» إذا رجعت إليهم من عُمرتك هذه، وعاتبته عن التخلف عنك: شغلنا أموالنا ونساونا وذرائنا، ولم يكن لنا من يخلفنا فيهم، فلذا تخلفنا عنك، إنا مع عذرنا معترفون بالإساءة، فاسأل ربك أن يغفر لنا بسبب تخلفنا عنك، إنهم في طلب الاستغفار كاذبون؛ لأنهم لا يبالون استغفر لهم النبي ﷺ أم لا. قل لهم - يا رسول الله -: إِنَّ الذي يملك الضر والنفع في الوجود هو الله، فَمَنْ يَمْلِكُ من الله شيئاً إن أراد أن ينزل بكم سوءاً، أو أراد أن ينزل بكم نفعاً؟ فكل ما يريد الله بكم نافذ لا محالة من ضر أو نفع. إنكم - أيها المنافقون - تتصورون أن كفركم ومكركم أمور مستورة لا يعلم بها غيركم، بل كان الله بما تعملون - من إظهاركم الاعتذار، وطلب الاستغفار، وإخفاءكم النفاق - عالماً على سبيل الشهود والحضور، المصاحب لكل أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

١٢ - وليس الأمر كما ادَّعَيْتُمْ من انشغالكم بالأموال والأهل، بل ظننتم ظناً قوياً مستنداً إلى الظواهر السببية التي بدت في موازين القوة المنظورة، أن لن يرجع الرسول ﷺ والمؤمنون إلى أهلهم أبداً، وأن العدو يستأصلهم، وسينتهي أمرهم وأمر الإسلام كله، وزين الشيطان ذلك الظن الذي فرحت به ورغبتم فيه، حتى صار عقيدة راسخة في قلوبكم، بسبب كراهيتكم للرسول والمؤمنين، ورغبتمكم في التخلص من هذا الدين، وظننتم ظناً آخر مستنداً إلى عقائدكم الشركية التي تبطنونها، وهو أن الله لن ينصر رسوله والمؤمنين معه، لأنهم على غير الحق في محاربة مشركي قريش، وأن الله استخرجهم من «المدينة» إلى «مكة» ليقضي عليهم المشركون، وكنتم - أيها المنافقون المخلفون - قوماً فاسدين هالكين لا خير فيكم.

١٣ - وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بالله ورسوله مُستقبلاً من الكافرين المجاهرين بكفرهم، أو المنافقين، فإننا هيئنا للكافرين ناراً مُوقدة ذات لهب. ١٤ - وَلِلَّهِ - وحده - ملك السموات والأرض، ومن كان كذلك فهو المُسْتَحَقُّ وحده للعبادة، يغفر لمن يشاء بمشيئته التي لا تفارق حكمته، ويُعَذِّبُ من يشاء بحكمته وعدله، وغفرائه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل، وكان الله دوماً كثير السَّخَرِ، دائم الرحمة، سبق رحمته غضبه. وفي هذه الآية إغراء بالتوبة والحث عليها، فالمخلفون المنافقون من الأعراب كغيرهم، ما داموا في الحياة، وما دام باب التوبة مفتوحاً للعباد، فإنهم يملكون أن يتوبوا ويستغفروا ربهم، فإذا فعلوا ذلك وجدوا الله تواباً رحيماً.

١٥ - سَيَقُولُ لَكَ - يا رسول الله - أولئك الأعراب الذين تخلفوا عن «الحُدُوبِية»، إذا ذهبتم - أيها المؤمنون - مُسرعين إلى غنائم «خير» التي وعدكم الله بها: اتركوا نبيكم إلى «خير»، فشهد معكم قتال أهلها، ونشارككم في الغنائم، يريدون أن يُغَيِّرُوا مواعيد الله لأهل الحُدُوبِية، حيث وعدهم غنيمة «خير» خاصة لهم. قل لهم - يا رسول الله -: لَنْ تَتَّبِعُونَا إلى «خير» ما دمت على ما أنتم عليه من النفاق، كذلك قال الله من قبل مرجعنا إليكم: أَنْ غَنِيمة «خير» لمن شهد «الحُدُوبِية»، ليس لغيرهم فيها نصيب، فيقولون: لم يأمركم الله بذلك، بل يمنعكم الحسد أن نصيب معكم من الغنائم شيئاً، وتريدون أن تستأثروا بها لأنفسكم!! وليس الأمر كما زعموا، بل كانوا لا يفهمون من قضايا الدين إلا شيئاً قليلاً، لا يكون لديهم عقيدة صالحة، ولا إيماناً مقبولاً، بسبب أنهم كفار باطناء.

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ۖ اللَّهُ فَمَسِيئَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلْفُونَ ۖ مِّنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنْتُهُمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۖ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنْتَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝ وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَعْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا ۝ سَيَقُولُ الْمُخَلْفُونَ ۖ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِرِكُمْ لِتَأْخُذُوا هَاذِرُونَ أَنِّيَعْلَمَكُم بَرِيدُوتٌ أَن يَدْرُؤُوا ۚ كَلِمَ اللَّهُ قُلْ لَّنْ تَتَّبِعُونَا ۖ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِّن قَبْلُ ۖ فَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝

١٦ - قل - يا رسول الله - للذين تخلفوا من الأعراب عن القتال: سَتُدْعَوْنَ مُسْتَقْبِلًا إِلَى قِتَالِ قَوْمٍ أَصْحَابُ بَأْسٍ شَدِيدٍ فِي الْقِتَالِ، تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، فَإِنْ تَطِيعُوا أَمْرَ الدَّعْوَةِ إِلَى قِتَالِ الْقَوْمِ أُولَى الْبَأْسِ الشَّدِيدِ، فَتَخْرُجُوا لِلْقِتَالِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ، يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا مُعَجَّلًا فِي الدُّنْيَا؛ وَمُؤَخَّلًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، مَشْرُوطًا بِصِحَّةِ إِيْمَانِكُمْ وَابْتِغَائِكُمْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَالْجَنَّةِ، وَإِنْ تَدْبَرُوا وَتَبْتَدِعُوا عَنِ الْاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الْجِهَادِ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ حِينَ دَعَيْتُمْ لِلخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ فِي عُمْرَتِهِ عَامَ «الْحُدَيْبِيَّةِ»، يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا فِي النَّارِ. وهذه الآية تدل على أن باب الجهاد مفتوح للمتخلفين عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الحديبية، وأنه يمكنهم أن يتلافوا ما سلف منهم من تقاعس وتثاقل. وأما القوم أولو القوة الشديدة الذين يدعون إلى قتالهم، فهم جميع أعداء الإسلام من ثقيف وهوازن، وأهل الردة، والروم وفارس، والتتر والمغول. وفي الآية دليل على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم.

١٧ - ليس على الأعمى إثم، ولا على الأعرج إثم، ولا على المريض إثم، في التخلف عن الجهاد مع المؤمنين ومَنْ فِي مَعْنَاهُمْ من أصحاب الأعداء المانعة عن الجهاد؛ لأنهم لا يقدرُونَ عَلَى الْكُرِّ وَالْفَرِّ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي أَمْرِ الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ، يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ وَأَشْجَارُهَا الْأَنْهَارُ، وَمَنْ يَدْبِرْ وَيَبْتَدِعْ عَنِ الطَّاعَةِ، وَيَسْتَمِرَّ عَلَى الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ، وَيَتَخَلَّفْ عَنِ الْجِهَادِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، يُعَاقِبْهُ اللَّهُ عِقَابًا مُؤَلَّمًا فِي الْآخِرَةِ.

١٨، ١٩ - نؤكد بشدة أن الله سبحانه رضي عن المؤمنين حين يابِعوك - يا رسول الله - تحت الشجرة بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ فِي «الْحُدَيْبِيَّةِ»

على أن يُنَاجِزُوا قَرِيشًا وَلَا يَفِرُّوا حَتَّى الْمَوْتِ، فَعَلِمَ سُبْحَانَهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الصُّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْوَفَاءِ، كَمَا عَلِمَ مَا فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْمَرَضِ وَالنَّفَاقِ، فَأَنْزَلَ الطَّمَأْنِينَةَ وَالْأَمْنَ وَسَكُونَ النَّفْسِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمَخْلَصِينَ حَتَّى ثَبَتُوا وَيَابِعُوا عَلَى الْمَوْتِ، وَعَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا، وَجَازَاهُمْ وَعَوَّضَهُمْ عَمَّا فَاتَهُمْ بِصَلْحِ «الْحُدَيْبِيَّةِ» فَتَحًا قَرِيبًا، وَهُوَ فَتْحُ «خَيْبَرَ»، وَمَغَانِمُ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُونَهَا مِنْ أَمْوَالِ يَهُودِ «خَيْبَرَ»، وَكَانَ اللَّهُ دَوَامًا قَوِيًّا غَالِبًا كَامِلَ الْعِزَّةِ فِي انتقامه من أعدائه، حَكِيمًا حَيْثُ حَكَمَ لَكُمْ بِالْغَنَائِمِ، وَلَأَعْدَاكُمْ بِالْهَلَاكِ عَلَى أَيْدِيكُمْ.

٢٠ - وعَدَّكُمْ اللَّهُ - أيها المؤمنون - مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَغْنَمُونَهَا مِنَ الْفَتْوحَاتِ الَّتِي تُفْتَحُ لَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَعَجَّلَ لَكُمْ مَغَانِمَ «خَيْبَرَ» الَّتِي غَنِمْتُمُوهَا، وَمَنْعَ أَيْدِي أَهْلِ خَيْبَرَ وَحُلَفَائِهِمْ عَنْكُمْ بِإِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ، فَلَمْ يَنْلِكُمْ سُوءَ مِمَّا كَانَ أَعْدَاؤُكُمْ أَضْمَرُوهُ لَكُمْ مِنَ الْمَحَارِبَةِ وَالْقِتَالِ، وَمَنْ أَنْ يَنْالُوا مِمَّنْ تَرَكْتُمُوهُمْ وَرَاءَكُمْ فِي «الْمَدِينَةِ»؛ لِتَشْكُرُوهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الْمَغَانِمِ، وَعَلَى كَفِّ أَيْدِي النَّاسِ وَحِمَايَتِكُمْ مِنْ كَيْدِ الْيَهُودِ، وَلِتَكُونَ هَزِيمَتُهُمْ وَسَلَامَتُكُمْ وَغَنِيمَتُكُمْ عَلَامَةً لِلْمُؤْمِنِينَ دَالَّةً عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ ﷺ فِي إِبْخَارِهِ عَنِ الْغُيُوبِ، فَيَزِدَادُوا يَقِينًا إِلَى يَقِينِهِمْ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَوَلَّى حَفَظَهُمْ وَمُؤَيِّدُهُمْ وَنَاصِرُهُمْ، وَلِيُدْلِّكُمْ وَيُعِينَكُمْ وَيُوفِّقَكُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا لَمْ تَسْلُكُوهُ بَعْدَ مِنَ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَيُسَدِّدَكُمْ حَتَّى تَلْزَمُوهُ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِكُمْ، إِذَا صَدَقْتُمْ مَعَ اللَّهِ، وَأَخْلَصْتُمْ لَهُ الْعَمَلَ.

٢١ - وعَدَّكُمْ اللَّهُ فَتْحَ بِلَادٍ أُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا، قَدْ حَفَظَهَا لَكُمْ حَتَّى تَفْتَحُوهَا، وَمَنْعَهَا مِنْ غَيْرِكُمْ حَتَّى تَأْخُذُوهَا، وَكَانَ اللَّهُ دَوَامًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا مِنْ فَتْحِ الْقُرَى وَالْبِلَادِ لَكُمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ.

٢٢ - وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَسَدٍ وَغُطْفَانٍ وَأَهْلِ خَيْبَرَ، لَانْهَزَمُوا عَنْكُمْ وَلَوْكُمْ ظُهُورُهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا يَلِي أَمْرَهُمْ، وَلَا نَصِيرًا يَنْصُرُهُمْ.

٢٣ - هذه طريقة الله المتَّبَعَةُ، الَّتِي مَضَتْ مِنْ قَبْلِ الَّتِي أَجْرَاهَا اللَّهُ فِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَهِيَ الْإِنْتِصَارُ لِرُسُلِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ، وَهِيَ سُنَّةُ تَرْبُوتِيَّةٍ جَزَائِيَّةٍ ثَابِتَةٌ قَائِمَةٌ عَلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَكَمَالِ الْحِكْمَةِ، وَلَنْ تَجِدَ - أَيُّهَا الْمُتَّقِي - لَطَرِيقَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا، إِذْ لَا تَوْجِدُ قُوَّةَ فِي الْوُجُودِ قَادِرَةً عَلَى تَبْدِيلِهَا.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتُ بَعْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَنْبَرُ لَمْ تَدْبَرْتُمْ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدِلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِتَبْدِيلِكُمْ ۝

٢٤ - وهو الذي كف أيدي المشركين عنكم، وأيديكم عنهم، بوادي «مكة»، من بعد أن مكّنكم منهم حتى ظفرتهم بهم، (وهؤلاء المشركون هم الذين خرجوا على عسكر رسول الله ﷺ بـ«الحديبية»، فأمسكهم المسلمون، ثم تركوهم ولم يقاتلوهم، وكانوا نحو ثمانين رجلاً)، وكان الله من الأزل إلى الأبد بما تعملون بصيراً، لا تخفى عليه خافية، فيجازيكم على أعمالكم.

٢٥ - كفار «مكة» هم الذين جحدوا توحيد الله، ومنعوكم يوم «الحديبية» عن المسجد الحرام، أن تطوفوا به، وحبسوا الهدى التي ساقها رسول الله ﷺ، أن تبلغ الحرم حيث يحل نحرها. ولولا رجال مؤمنون مُستضعفون، ونساء مؤمنات مُستضعفات بين أظهر هؤلاء الكافرين بـ«مكة»، يكتمون إيمانهم خيفةً على أنفسهم، لم تعرفوهم بأعيانهم؛ خشية أن تطؤوهم بجيشكم بالقتل وتوقعوا بهم، فيلزمكم - بذلك القتل - إثم ومشقة وعيب وكفارة قتل الخطأ بغير علم، لولا ذلك لأذن لكم في دخول مكة، ولكن حال بينكم وبين ذلك لهذا السب.

كان الكف عن دخول مكة؛ ليُدخل الله في دين الإسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقبل دخولها، لو تميّز هؤلاء المؤمنون والمؤمنات عن كفار «مكة» وخرجوا من بينهم، لعذبنا الذين كفروا من أهل «مكة» عذاباً مؤلماً موجعاً بالسَّيِّئِ والقتل.

٢٦ - ضع في ذاكرتك - أيها المتلقّي لبينا - حين جعل الذين كفروا من قريش في قلوبهم الأنفة والتكبر والغضب، عندما صُدُّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، ومنعوا الهدى، ومن ذلك: امتناعهم أن يكتبوا في صلح الحديبية «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأبوا أن يكتبوا: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فأنزل الله طمأنينته على رسوله، وعلى المؤمنين معه، حتى لا يدخلهم ما دخلهم من

الحمية، فيعصون الله في قتالهم، وألزمهم الكلمة التي يتقَى بها الشرك والخلود في العذاب، وهي كلمة التوحيد والإخلاص «لا إله إلا الله»، وهي رأس كل تقوى، وكان الرسول ﷺ وأصحابه أحقّ بكلمة التقوى من كفار مكة، وكانوا أهلها في علم الله تعالى، وكان الله بكل شيء عليمًا من أمر الكفار، وما يستحقونه من العقوبة، وأمر المؤمنين، وما يستحقونه من التكريم، لا يخفى عليه شيء.

٢٧ - نوّكد بشدة أن الله عزّ وجلّ صدّق رسوله محمداً ﷺ الرؤيا التي أراها إيّاه بالحق، أنك - يا رسول الله - تدخل وأصحابك بيت الله الحرام - إن شاء الله - آمنين، مُحلّقين رؤوسكم كلها، ومقصرين تأخذون بعض شعوركهم، لا تخافون من عدوكم حال الإحرام، وبعد الإحرام في حال الرجوع، فعلم أن الصلاح كان في الصلح عام «الحديبية»، وتأخير الدخول إلى «مكة»، فجعل من دون فتح «مكة» الذي وعدتم به، فتحاً قريباً، وهو صلح «الحديبية»، وفتح «خير».

وجملة: «إن شاء الله» اعتراضية في أثناء كلام متصل في معناه، للمبادأة إلى تعليم المؤمنين أن يقولوا في كل ما يرجون وقوعه أو يريدون إيقاعه مستقبلاً: «إن شاء الله»، وتعليمهم كيف يكون إدخال هذا التعليق على مشيئة الله في كلامهم.

٢٨ - الله عزّ وجلّ الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالبيان الواضح ودين الإسلام؛ ليُعلِّيه ويقويه على الأديان كلها، وأغنى الله حالة كونه شهيداً يشهد له أنه رسول الله ﷺ للناس أجمعين، بما أظهر له من معجزة القرآن المجيد، والآيات الخوارق التي آتاه الله إيّاه. ولقد حقّق الله سبحانه وعده، فنصر نبيّه، وأعزّ دينه، وأظهره على كلّ دين، فما يثبت أمامه دين آخر في ذاته وحقيقته، فأما الملل الوثنية فليست في شيء في هذا المجال، وأما الرسالات السماوية الكتابية فقد حُرّفت وشُوّهت وانتهت لحالٍ لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة، ثم إنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود. فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة هذا الدين وحقيقته، فأما من ناحية واقع الحياة، فلقد ظهر دين الحق، لا في الجزيرة وحدها، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها في مدى قرنٍ من الزمان. وما يزال يمتدّ بنفسه على الرغم من كل ما يُرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد. وما من مُنصف ينظر إلى الإسلام نظرةً مجردة عن التعصّب والهوى حتى يُقرّ باستقامة هذا الدين مع الفطرة، وتلبية حاجات العقل والروح، وحاجات العمران والتقدم، وقدرته على قيادة البشرية في جميع الأحوال. وكفى بالله شهيداً.

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ
بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ هُمْ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ
مَعَكُمْ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ
لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتَضَيِّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ
لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَو تَزَيَّيْنَا لَلَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٦﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا
فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى
وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٧﴾
لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبُوبَ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ
فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٩﴾

٢٩ - مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَقْوِيَاءُ شَجْعَانُ، أَهْلُ بَأْسٍ وَجِهَادٍ، مُسْتَعْلُونَ بِقُوَّتِهِمْ وبَأْسِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ اخْتَارُوا لأنفسهم - بعد معرفة الحق - سبيل الكفر جُحوداً وعناداً، بعد اتخاذ مختلف الوسائل لتعريفهم بالحق، وهدايتهم وإرشادهم، ثم إنهم بعد رفضهم للحق صَدُّوا النَّاسَ عَنِ الدِّينِ، وقاوموا الدعاة الهداة إليه، وبسبب ذلك يقف المؤمنون أمام الكفار في معاركهم الحربية أقوياء شجعان، يُقاتلونهم بكلِّ بَأْسٍ وتضحية وبَسَالَةٍ، وهم رحماء متعاطفون متواثون فيما بينهم، ومن ظواهر تراحمهم: إرادة الخير لكل المسلمين، والتعاون على البرِّ والتقوى، والبذل والعطاء، والمحبة والإخاء، وهم كثيرو الصلة برَبِّهم والخضوع له، والتذلل بين يديه، إذ تراهم - أيها الرائي المُشاهد لهم - رُكعاً سُجَّداً، يَطْلُبُونَ بَنِيَّاتِهِمْ وقلوبهم، وبأدعيتهم بألستهم أن يمنحهم خالقهم ومُرَبِّهم زيادة من عطائه وكرمه في العاجلة والأجلة، وأن يشملهم برضوانه الذي هو أكبر من كل نعيم الجنة. علامة طاعتهم لله عزَّ وجلَّ ظاهرة في وجوههم من أثر السجود المتكرر الطويل، ذلك الذي ذُكر من نعوتهم الجليلة هو وصفهم العجيب الشأن الجاري مَجْرَى الأمثال في كتاب الله التوراة المنزل على موسى عليه السلام.

وَوُصِفَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْإِنْجِيلِ الْمُنْزَلِ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي تَنَامِيهِمْ واشتداد قُوَّتِهِمْ، وكثرة خيراتهم، كزراع نَبَتٍ نباتاً حسناً في أخصب أرض وأحسن شروط، فأخرج أصله وفروعه من جوانبه، فأعان أصله بالقوة والحماية، فَعَلَّطَ ذلك الزرع واشتدَّ، فاعتدل ووصل إلى درجة كماله وقوته مستوياً على سوقه، يُعْجِبُ الَّذِينَ زَرَعُوا الزَّرْعَ، إِذْ يَرَوْنَ الْبَهْجَةَ مِنْهُ، ومظهر العطاء الوفير؛ ليغيط الله بأصحاب محمد الكفار الذين يغطون ويسترون أدلة التوحيد، وما جاء به الرسول ﷺ عن ربه بالإنكار والجحود، وزخرف القول، إذ

تتولد في نفوسهم مشاعر ألم شديد من قوة ضاغطة عليهم، حينما يرون تنامي قوة أصحاب محمد، واشتداد بأسهم، وانتشارهم في الأرض. وعد الله الذين آمنوا إيماناً صادقاً، وعملوا الصالحات من أصحاب محمد ﷺ بأمرين: الأمر الأول: مغفرة عظيمة لسيئاتهم وخطاياهم، فهم غير معصومين عن الذنوب والمعاصي، ولكن لا يُصْرُونَ، بل يستغفرون. والأمر الثاني: أجر عظيم على إيمانهم وجهادهم في سبيل الله، ونشرهم لدينه، ونصرتهم لرسوله، فهم قد حققوا في واقعهم التطبيقي ما كان إشارة عنهم في خبر غيبي في التوراة والإنجيل.

سورة الحجرات

١ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ لَا تَقْدُمُوا قَوْلاً أَوْ فِعْلاً أَمَامَ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا نَهَيْهِمَا، لَا فِي خَاصَّةِ أَنْفُسِكُمْ، وَلَا فِي أُمُورِ الْحَيَاةِ مِنْ حَوْلِكُمْ، وَلَا تَسْبِقُوا إِلَى أَمْرٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ حَتَّى تَعْلَمُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِ، عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَلَا تَقْضُوا فِي أَمْرٍ لَا تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ، وَقَوْلِ رَسُولِهِ ﷺ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَصْلَحَتِكُمْ، وَمَا كَانَتْ أَنْظَارُكُمْ بِبَالِغَةٍ مِنَ الْعِلْمِ شَيْئاً مِمَّا عَلِمَهُ اللَّهُ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي تَضْيِيعِ حَقِّهِ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لَأَقْوَالِكُمْ، عَلِيمٌ بِنِيَّاتِكُمْ وَيَأْفَعَالِكُمْ.

٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَعَمِلُوا بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ، لَا تَجْعَلُوا كَلَامَكُمْ مُرْتَفِعاً عَلَى كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ مُخَاطَبَتِكُمْ لَهُ، وَبِجُلُوهِ وَفَحْوَهِ، واجعلوا أصواتكم أخفض من صوته، ولا تُنادوه كما ينادي بعضكم بعضاً، فنقولوا: - يا محمد -، بل قولوا: - يا نبي الله، يا رسول الله -؛ خشية أن يَظَلَّ ثَوَابُ أَعْمَالِكُمْ، وأنتم لا تعلمون بذلك أدنى علم؛ لأنَّ رفع الصوت والجهر استخفافاً، قد يؤدي إلى الكفر المُحِيط إِذَا ضُمَّ إِلَيْهِ قَصْدُ الْإِهَانَةِ، وعدم المبالاة.

٣ - إِنَّ الَّذِينَ يَخْفِضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَلِينُونَهَا إِجْلَالاً وَتَعْظِيماً لَهُ، وَأُولَئِكَ الْفَضْلَاءُ ذَوُو الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ الَّذِينَ اخْتَبَرَهُ اللَّهُ قُلُوبَهُمُ الَّتِي هِيَ مَنَبِعُ إِرَادَاتِهِمْ، فَانْتَهَى الْامْتِحَانُ لِلنَّتِيجَةِ الَّتِي قَرَّرْتَ لَهُمْ، وَهِيَ التَّقْوَى، فَهُمْ قَوْمٌ أَثْبَتُوا أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ تَعْمُرُ قُلُوبَهُمْ، إِذْ امْتَلَأُوا مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَانْتَهَوْا عَمَّا نَهَاكَمُ اللَّهُ عَنْهُ. لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَغْفَرَةٌ وَاسِعَةٌ لَذُنُوبِهِمْ، وَثَوَابٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ الْجَنَّةُ.

٤ - إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مِنْ خَلْفِ حُجْرَاتِكَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ لِبَعْضِ مَسَائِلِهِمْ، أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ عَقْلاً عِلْمِيّاً مَا يَنْبَغِي لِمَقَامِكَ مِنَ التَّوْقِيرِ وَالْإِجْلَالِ، وَلَا يَمْلِكُونَ إِرَادَاتٍ قَوِيَّةً حَازِمَةً تَضْبِطُ نَفُوسَهُمْ، وَتَعْقِلُهَا عَنِ التَّسَرُّعِ غَيْرِ الْمَحْمُودِ.

يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَاجْتَنَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ
يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَتَأْتِيهِ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَزِمُوا وَلَكِنْ
قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بِلِ اللَّهِ
يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

١٢ - يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنِّ الوهمي، والظنِّ الذي هو من مرتبة الشك، وكذلك الظنِّ الراجح برجحان ضعيف لا يقوى على الإدانة، إنَّ بعض الظنِّ بالناس المُفْضِي إلى اتِّهامهم بغير حقٍّ إثمٌ؛ لأنَّ اتِّباع الظنِّ الذي لا يصلح للحكم والإدانة ولا لتحصيل المعارف، يجعل الإنسان دائم السُّبْح في الظنون، سريع إصدار الأحكام بمجرد الظنِّ، وهذا يوقعه في كثير من الخطأ الذي يفضي به إلى الوقوع في الإثم الذي يؤاخذ عليه. على أنَّ الأمر باجتناب كثير من الظنِّ يفيد أنَّ من الظنِّ ما لم يأمر الله باجتنابه، كالظنون التي تُبنى عليها أحكام قضائية، وتُستنبط بها أحكام شرعية، فحكم القاضي بشاهدين صحيحي الشهادة حكمٌ بالظنِّ لا باليقين، لاحتمال خطئهما ونسيانهما، واحتمال فسقهما مع ظهور عدالتهما، والاستنباطات الظنِّية الاجتهادية من قِبَل ذوي أهلية اجتهادية استنباطات مقبولة شرعاً. ولا تبحثوا عن عيوب الناس وتَّبِعُوا عوراتهم، وهم في خَلَوَاتِهِمْ، إمَّا بالنظر إليهم وهم لا يشعرون، وإمَّا باستراق السمع وهم لا يعلمون، وإمَّا بالاطلاع على مكتوباتهم ووثائقهم وأسرارهم وما يُخفونه عن أعين الناس دون إذنٍ منهم، ما داموا ظاهري الاستقامة غير مجاهرين بمعاصيهم، وكان ما يُخفونه من أمورهم من السلوك الشخصي الذي يخصُّهم، أما إذا كانوا فاسقين معروفين بالفسق، أو منافقين مكشوفين النفاق، أو ما يُخفونه من قبيل خيانة المسلمين مع عدوِّهم، فهوَّاء لا حرمة لهم، وينبغي كشف خياناتهم، وما يكيدون المسلمين مع أعدائهم. ولا يتناول بعضكم بعضاً بظهر الغيب بما يسوؤه ويكرهه ممَّا هو متَّصف به، فإنَّ مَنْ يذمُّ أخاه المؤمن، ويتحدَّث عن نقائصه ومعايبه، يؤذيه أذىً يشبه أذى مَنْ يعضُّه ويأكل لحمه، فإذا كان ذلك في غيبته وعلى غير شعور منه، كان كمن يعضُّه ويأكل من لحمه وهو ميت لا يحسُّ ألم العضِّ والأكل، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا؟ لا يحبُّ أَحَدُكُمْ أَكْلَ جيفة أخيه، كما كرهتم هذا، فاجتنبوا ذكره بسوء غائباً، واتَّقُوا اللَّهَ في أمر الغيبة، واجتناب نواهيهِ؛ إِنَّ اللَّهَ كثير التوبة على عباده المؤمنين، دائم الرحمة بهم.

١٣ - يا أيها الناس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ، فالمجموعة البشرية كلها تلتقي على أصل واحد، وبين الناس أخوة إنسانية عامة، وجعلناكم جُمُوعاً عظيمة وقبائل مُتَعَدِّدة؛ ليعرف بعضكم بعضاً، في قُرب النَّسَبِ ويُعْده، لا للتفاخر بالأنساب والتعالي بالأحساب؛ إِنَّ أَرْفَعَكُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَتَقَاكُمْ لَهُ؛ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ عِلْماً كاملاً شاملاً بظواهركم ويعلم أنسابكم، خبيرٌ على سبيل الشهود والحضور ببواطنكم، لا تخفى عليه أسراركم، فاجعلوا التقوى زادكم إلى معادكم.

١٤ - قال بعض الأعراب الذين أعلنوا انتماءهم للإسلام انتماءً قائماً على مصالح دنيوية: صدَّقنا بالله ورسوله تصديقاً كاملاً. قل لهم - يا رسول الله -: لَمْ تُصَدِّقُوا بِقُلُوبِكُمْ، ولكن قولوا: اسْتَسْلَمْنَا مَخَافَةَ الْقَتْلِ وَالسُّبْيِ، ولم يدخل بعدُ الإيمانُ في قلوبكم، ويُتَوَقَّعُ ذلك منكم إن صدَّقتم تصديقاً جازماً، وأخلصتم في طاعة الله ورسوله، وإن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ظاهراً وباطناً، سِرّاً وعلانية، لا يُنْقِصُكُمْ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً، إِنَّ اللَّهَ كثير المغفرة، يستر ذنوبكم ولا يؤاخذكم بها، دائم الرحمة بكم.

١٥ - ما المؤمنون إلَّا الذين صدَّقوا بالله ورسوله، ثُمَّ لَمْ يَشْكُوا فِي دِينِهِمْ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، بكلِّ أنواع الجهاد، ومنه: مجاهدة النفس، وجهاد الدعوة، والإعداد والقتال، أولئك رفيعو المنزلة هم الصَّادِقُونَ في إيمانهم.

١٦ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء الأعراب: أَتُخْبِرُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ؟ واللَّهُ يعلم ما في السموات وما في الأرض، لا تخفى عليه خافية، واللَّهُ بكلِّ شيءٍ عَلِيمٌ لا يحتاج إلى إخباركم، ولا يخفى عليه ما في قلوبكم من الإيمان أو الكفر، والبر أو الفجور.

١٧ - يَمُنُّ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ عَلَيْكَ - يا رسول الله - بقولهم: أَسْلَمْنَا وَلَمْ نُحَارِبْكَ. قل لهم: لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ، بل اللَّهُ يُنْعِمُ عَلَيْكُمْ النعمة العظمى، حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وأدعيتهم، إن كنتم صادقين في إيمانكم.

١٨ - إِنَّ اللَّهَ سبحانه يعلم كُلَّ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ممَّا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ حَوَاشُهُمْ وَعُقُولُهُمْ، لا يخفى عليه شيءٌ فيهما، فكيف يخفى عليه حالكم؟ بل يعلم سرَّكم وجهركم، والله بصيرٌ بأعمالكم، وسيُجازيكم عليها.

١ - ﴿ق﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة. أقسم بالقرآن الشريف الكريم، الرفيع المقام، العليّ المنزلة، على صدق رسولي محمد، وصدق ما جاء به من أمر البعث بعد الموت إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٢ - لكنّ الذين كفروا لم تُؤثّر فيهم معجزة القرآن، ولم يؤمنوا بالرسول، وبما أخبر به من أمر البعث بعد الموت، بل عَجِبَ المشركون من أهل مكة أن جاءهم مُنْذِرٌ بَشَرٌ منهم يُخَوِّفهم بعذاب الله وعقابه المُعَجَّل والمُؤَجَّل بعد أن أُصْرُوا على جُحودهم وَعنادهم، فقال الكافرون السَّاترون للحقّ وأدلتّه: هذا البعث الذي أنذر به محمد شيء يُعَجِّب منه.

٣ - إذا متنا وصِرنا تراباً، نُبعث كما يقول؟ ذلك البعث بعد الموت بعيد الوقوع.

٤ - نوّكد أنه سبق في علمنا قبل خلق الناس ما تنقص الأرض من لحومهم وعظامهم بالإفناء، لا يَعْزُب عن علمنا شيء، وعندنا - مع علمنا بذلك - كتابٌ حافظ لكلّ معلوم، محفوظٌ من التغيير والتبديل، وهو اللوح المحفوظ.

٥ - ليسوا في حقيقة الأمر شاكّين، بل كَذَّب هؤلاء المشركون بالقرآن حين جاءهم، دون أن يتفكروا أو يتعقلوا، فهم في أمر مُختلط مُلتبس، يقولون في القرآن مرة: سحر، ومرة: رَجَز، ومرة: مُفْتَرى!!

٦ - ألم يستعملوا ما لديهم من أدوات نظر تفكّري، فلم ينظروا - حين كفروا بالبعث - إلى السماء العظيمة فوقهم، كيف بَنَيْنَاهَا بغير عَمَد، وجَمَلْنَاهَا وحسَّانها بالكواكب والنجوم، وما لها من شقوق وصدوع؟

٧ - والأرض بسطناها ووسّعناها، وأمددناها بالعناصر الصّالحة لنفع الناس ورزقهم، وألقينا فيها جبالاً ثوابت تمنعها من المَيِّدان والاضطراب، وأنبتنا فيها من كلّ صنف من أصناف الزروع والأشجار، كريم حَسَن، يُسرُّ به الناظر إليه.

٨ - جعلنا تلك الآيات في السماء والأرض تعليمًا وتفهمًا، وتذكيرًا مُتكرراً بما سبق أن تعلّمه وتعرّف عليه من آيات الله في كونه، ينتفع بهذه التبصرة والذكرى كلّ عبد يرجع إلى الله تعالى بالتدبّر في بدائع صنعته، ودلائل قدرته.

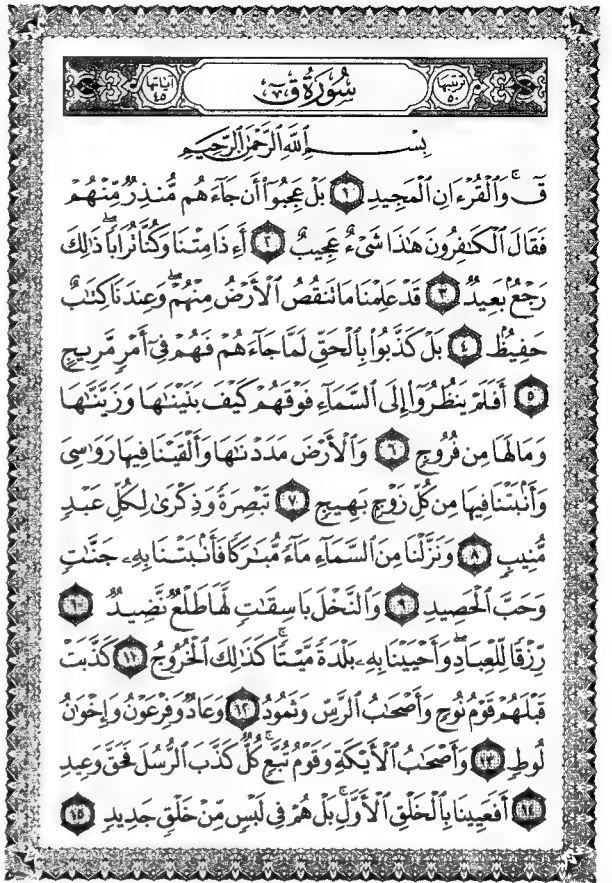
٩ - ونزلنا من السُّحُب مطراً كثير الخير والبركة، فيه حياة كلّ شيء، فأنبثنا بذلك الماء بساتين كثيرة الأشجار، مختلفة الثمار، وأنبتنا به حبّ البر والشعير، وسائر الحبوب التي تُحصَد بعد نضجها.

١٠ - وأنبتنا به النخل طويلاً مرتفعات القامات في السماء، لها ثمرٌ يطلع ويظهر، مُتراكبٌ بعضه على بعض باتساق جميل، ونظام بديع.

١١ - جعلنا ذلك رزقاً للعباد، وأحيينا بالمطر بلدةً جدبة لا زرع فيها ولا نبات، فأنبثنا فيها الكَلأ والعشب، كما أحيينا بذلك الماء الأرض المَيِّتة نُخرجكم من قبوركم أحياء بعد الموت، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

١٢ - كَذَّب بالرسول قبل هؤلاء المشركين: قومُ نوح، وأصحابُ البشر التي كانوا مقيمين حولها، وثمودُ قوم صالح، وعادُ قوم هود، وقومُ فرعون، وإخوانُ لوط، وأصحابُ الأيكة قومُ شعيب، وقومُ تُبّع الجُمَيْري باليمن، كلّ هؤلاء الأقوام كَذَّبوا رسلهم، فصار وعيدي السابق أمراً واقعاً محققاً. فاحذروا - أيها المكذَّبون - برسالة محمد ﷺ وكتابه أن يأخذكم الله بالعذاب كما فعل بالأُمم الماضية.

١٥ - أقصدنا وأردنا بدء الخلق، فَعَجَزْنَا حين خلقناهم أول مرة، ولم يكن لهم وجودٌ في الواقع قبله، فَعَجَزَ عن إعادتهم ثانياً بعد فنائهم؟ وذلك لأنهم اعترفوا بالخلق الأول، فكيف ينكرون قدرتنا على إعادة الخلق بعد فناءه على الرُّغم من مساواته للخلق الأول مساواة تامّة!! بل هم في خلط وشبهة من أمر البعث بعد الموت بتأثير رغباتهم وشهواتهم وأهواء نفوسهم.



١٦ - ونؤكد بشدة لكم أننا أوجدنا الإنسان بعظمة ربوبيتنا، ونعلم ما تُحدثه نفسه من خواطر خفية، فلا تخفى علينا سرائره وضمائره، ونحن - لكمال علمنا وقدرتنا - أقرب إليه من أقرب شيء إليه، وهو عرق الوريد، الذي يجري فيه الدم.

١٧ - حين يكتب المَلَكُ المَوَكَّلان به في صحيفة حسناته وسيئاته كل ما يصدر عنه من عمل أو قول، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، كل واحد منهما قاعد مُلازم لا يبرح.

١٨ - ما يتكلم من كلام يخرج من فيه، وما يعمل من عمل إلا عنده ملكٌ حافظ يكتب قوله، مُعدّ مهياً لذلك، حاضرٌ عنده، لا يفارقه.

١٩ - خلقنا الإنسان، ووضعناه موضع الامتحان في الحياة الدنيا، وانتهى أجله فيها، وجاءت غمرة الموت وشدته بالحق الثابت الذي لا مرد له، ذلك الموت هو ما كنت منه - أيها الإنسان - تهرب وتفر في حياتك، فلم ينفعك منه الهرب والفرار.

٢٠ - ونُفخ في «القرن» نفخة البعث الثانية، ذلك اليوم الذي وعد الله الكفار أن يُعذبهم فيه.

٢١ - وجاءت في ذلك اليوم كل نفس برّة أو فاجرة، معها سائق من الملائكة يسوقها إلى المحشر، وشهيد من الملائكة يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير وشر.

٢٢ - يقال للكافر إذا عاين ما لم يكن يُصدق به في الدنيا لغفلته: نؤكد لك أنك كنت مُغمساً في غفلة، غارقاً في متاع الحياة الدنيا وزينتها، نافراً من هذا الذي تُعائنه، فأزلنا عنك غطاءك الذي كان على قلبك وسميعك وبصرك في الدنيا، فزالَت عنك الغفلة التي كانت تحجبك عن أمور المعاد، فبصرُك اليوم قويٌّ ثابت نافذ، تُبصر به ما كنت تجحده في الدنيا.

٢٣ - وقال الملك الموكَّل المُوكَّل بكتابة السيئات: هذا الذي في صحيفته من السيئات مكتوبٌ عندي مُعدّ مُحضّر.

٢٤ - ٢٦ - يقول الله تعالى للملكين المُوكَلين بمراقبته في الدنيا، وسوّقه والشهادة عليه يوم الحساب: اطرحا في جهنم كل من اتصف بصفة من هذه الصفات الست: **الصفة الأولى:** أنه شديد الكفر، **الصفة الثانية:** أنه مُعانِد لله فيما أمر به، يعرف الحق ويرده بجرأة ووقاحة. **الصفة الثالثة:** أنه متاع للخير أن يصل إلى نفسه، أو غيره، فهو لا يُحسن إلى عباد الله بماله أو حاله أو قاله أوجاهه، **الصفة الرابعة:** أنه ظالم متجاوز للحد، **الصفة الخامسة:** أنه مُشكك لغيره في الله وفي دينه، بوساوسه وإغوائه، **الصفة السادسة:** الذي جعل مع الله إلهاً آخر يعبد من دون الله، فألقياه في عذاب جهنم الشديد.

٢٧ - قال شيطانه الذي قُبِض لهذا الكافر في الدنيا: ربنا ما أنا الذي جعلته يُجاوز الحد في العصيان، حتى بلغ مُنحطاً إلى الكفر، ولكن كان في ضلالٍ بعيد عن الحق.

٢٨ - فیردُّ الله تعالى على المتخاصمين من كفار الإنس وقُرنائهم من شياطين الجن: لا تعتذروا عندي في دار الجزاء وموقف الحساب، وقد قُدمت إليكم بالوعيد في القرآن، وأنذرتكم على لسان الرسل، وحذرتكم عذابي في الآخرة لمن كفر بي وعصاني.

٢٩ - لا يبدل الوعيد الذي قرّرتَه على الكافرين، ولا مَطْمَع لأحد أن يجد معاذير يعتذر بها، وما أنا بظلام للعبيد؛ فلا أظلم أحداً منهم أدنى ظلم، بل هم الظالمون لأنفسهم؛ إذ ارتكبوا السيئات، وهم يعلمون أنهم معاقبون عليها، ضمن قانون الجزاء الربّاني.

٣٠ - اذكر يوم يقول الله تعالى لجهنم توبيخاً للكفرة: هل امتلأت؟ وتقول جهنم غضباً عليهم: هل من زيادة أَسْتزِيد بها من هؤلاء الظالمين؟

٣١ - ٣٣ - وَقُرِبَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ - بأداء فرائضه واجتناب معاصيه - في أرض المحشر على مرأى منهم ومقرّبة، يَرَوْنَ نضرتها وجمالها، ويشمّون ريحها، يقال لهم: هذا الذي وعدتم به - أيها المُتَّقون - في الدنيا على ألسنة الأنبياء، لكل من اتّصف بالصفات الأربعة التالية: **الصفة الأولى:** أنه رَجَّاع عن المعصية إلى الطاعة، **الصفة الثانية:** كثير الحفظ لإيمانه وعهده لرّبه، ولتوبته من النقص والتغيير، ولجميع أوامر الله ونواهيه، **الصفة الثالثة:** مَنْ خاف الرحمن خوفاً مصحوباً بتعظيم وحب فإطاعه وإن لم يره، **والصفة الرابعة:** جاء يوم القيامة بقلب راجع إلى الله تعالى، مُخلص في طاعته.

٣٤، ٣٥ - ويقال لهؤلاء المُتَّقِينَ: ادخلوا الجنة بسلامة من العذاب والهموم، ذلك هو يوم الخلود الأبدي في الجنة؛ لأنه لا موت فيها. لأصحاب الجنة كل ما يشتهون، وكل ما يسألون الله فيها، حتى تنقطع آمانيهم، وتنتهي مسألتهم، فيزيد الله عبادَه من النعيم ما لم يسألوا - ممّا لم يخطر على قلب بشر - وأعظمه النظر إلى وجه الله الكريم.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَآئُوسًا بِهِ ۖ نَفْسَهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ نَفَخْنَا فِيهِ مِنْ أَمْرِنَا عَلِيمٍ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٧﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ
الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٨﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۖ ذَٰلِكَ
يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿١٩﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢٠﴾ لَقَدْ
كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ۖ فَبَصُرْتَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢١﴾
وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٢٢﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿٢٣﴾ مَتَاعَ الْخَيْرِ ۖ مُعْتَدٍ مُّرِيدٍ ﴿٢٤﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٥﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطِيعَتُهُ
وَلَكِنْ كَانُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٦﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيْ ۖ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٧﴾ مَا يُبْدِلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ ۖ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٨﴾
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٢٩﴾ وَأُزْلِفَتِ
الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣٠﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣١﴾
مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ ۖ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٢﴾ ادْخُلُوهَا
بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٤﴾



٣٦ - إنا أهلكنا قبل كفار مكة كثيراً من أهل القرون الماضية إهلاكاً جماعياً، كانوا أشد منهم بأساً وقوة، فاستعملوا قواهم القادرة على البطش في البحث للوصول إلى ما يريدون في البلاد. هل كان للمُهْلَكِينَ الأولين، حين أنزل الله عليهم العذاب من مَهْرَبٍ يَفْرُونَ إليه؟!

٣٧ - إني في إهلاك كفار القرون الأولى إهلاكاً جماعياً عقابياً لذكرى مؤثرة لمن كان له قلب يعقل به، أو وجه كل سمعه لتلقي بيانات الله، وهو مُعَايِنٌ آثار المُهْلَكِينَ السابقين معانية البصير الواعي.

٣٨ - ونؤكد بشدة لكم أننا خلقنا السموات والأرض وما بينهما من كواكب ونجوم وبحار وعوالم كثيرة جداً في مقدار ستة أيام، وما أصابنا من إعياء وتعب. وفي هذه الآية رد على اليهود في قولهم: إن الله استراح يوم السبت.

٣٩ - فاصبر - يا رسول الله - على ما يقوله المكذَّبون، واترك أمرهم إلى الله، فإن الله لهم بالمرصاد، ونزه ربك تنزيهاً مُقْتَرِناً بحمده ومُضَاجِجاً له، قبل طلوع الشمس، وهو وقت صلاة الفجر، وما قبل غروب الشمس، وهو وقت صلاة العصر.

٤٠ - ونزه ربك تنزيهاً مُقْتَرِناً بحمده في وقت ما من الليل، وعَقِبَ الصَّلوات المكتوبة.

٤١ - واستمع - يا رسول الله - يوم يُنادي إسرافيل بنفخه في «القرن» من مكان قريب.

٤٢ - يوم يسمعون النُّفخة الثانية مُتَلَبِّسَةً بالحق الثابت الذي لا شك فيه، ذلك يوم الخروج من القبور.

٤٣ - إنا نحن بعظيم قدرتنا نُحْيِي في الدنيا، ونُمِيت عند انقضاء الأجل، وإلى حكمنا وحدنا، وفصل قضائنا، وتنفيذ جزائنا، وإلى المكان الذي نقضي فيه مصير جميع الخلائق في الآخرة بعد رحلة التخيير والتسخير في الدنيا.

٤٤ - يوم تنشق الأرض عن الموتى في قبورهم، يخرجون منها سراعاً، ويُحشرون في الأرض المُخَصَّصة للحشر، ذلك جمع علينا هين يسير.

٤٥ - نحن أعلم بما يقول كفار مكة في تكذيبك وإتهامك وسبابك، وما أنت عليهم - يا رسول الله - بمُسَلِّطٍ تجبرهم على الإيمان، بل أنت مُكَلَّفٌ أن تُبَلِّغَهُمْ وَتُبَيِّنَ لَهُمْ، وتقدِّم لهم الحُجَج والأدلة، ووسائل الترغيب والترهيب بما عند الله، فذكر بالقرآن مَنْ تشعر بأنه يخاف وعيد الله المُعْجَل والمُؤْجَل أَقْلُ خوف، فهو مطموح باستجابته لدعوة الحق يوماً ما، فينبغي تذكيره بما سبق أن تبَّلَّغه وتفهمه من بلاغات القرآن وبياناته، أما مَنْ تَتَيَقَّن أنه لا يخاف وعيد الله، فإن التذكير لا ينفع فيه.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

١ - أقسم الله تعالى بالرياح التي تُثير التراب وذرات الماء وبخاره.

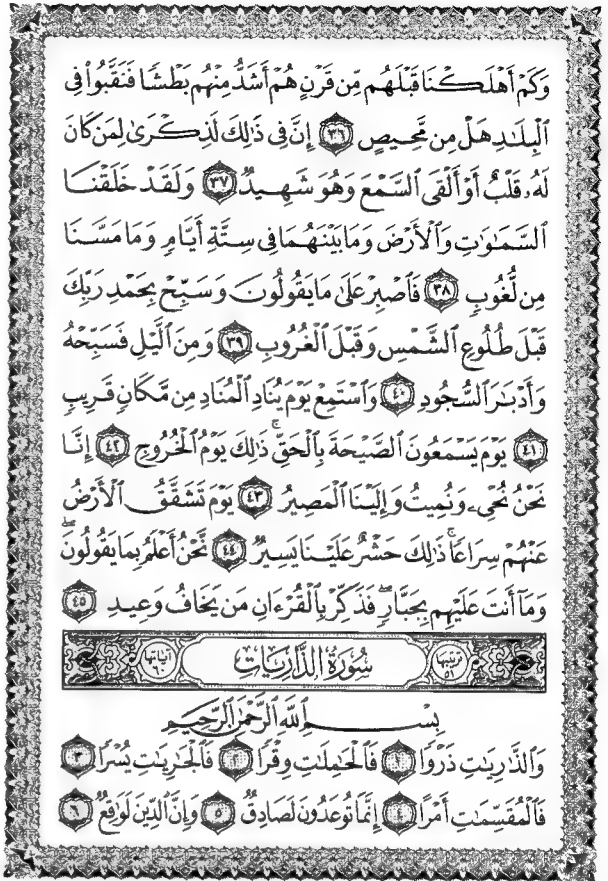
٢ - فالرياح الحاملات للسحب الثقيل بالماء.

٣ - فالرياح الجاريات في الجو جرياً ليئناً رقيقاً.

٤ - فالرياح التي تقسم اللقاحات على الأشجار والثمرات، وتقسم ثويات اللقاح على بخار الماء في السحب لتكوّن حبات ماء تنزل أمطاراً، وتقسم السحب وتوزعها على البلاد، لإنزال الأمطار بقضاء الله وأمره، على وفق حكمته. أقسم الله تعالى بهذه الظواهر الكونية العظيمة لما فيها من الدلالات على عجب صنعته وقدرته وحكمته في كونه.

٥ - إن الذي تُوعَدون به - أيها الناس - بمتابعة وتكرير من البعث والحساب والثواب والعقاب لوعد صادق.

٦ - وإن الحساب والجزاء على ما يكسبه الموضوعون للابتلاء في الحياة الدنيا لأمر واقع لا محالة يوم القيامة.



٧ - ٩ - وأقسم الله تعالى بالسماء ذات الطرق المحكمة التي تسير ضمن حدودها النجوم والكواكب والمجرات باتقان عجيب مدهش، إنكم - يا أهل مكة - لنفي قول متخالف متناقض في أمره تعالى، وأمر رسوله ﷺ، وأمر الحشر، ليس لكم وحدة فكرية جامعة لعقائدكم ومفهوماتكم حول الوجود والنشأة والمصير، يُصرف عن الإيمان بما كُلفوا الإيمان به من صُرف، حتى يكذبه.

١٠ - ١٢ - طُرد وأبعد من رحمة الله إبعاداً أبدياً، الكذابون المعتمدون على الظنون الضعيفة التوهمية في قضايا تحتاج إلى براهين وأدلة يقينية، الذين هم منغمسون في غفلة وعمى وجهالة، لا هون غافلون عن أمر الآخرة، يقولون تكديباً واستهزاء: - يا محمد - متى يوم القيامة الذي يكون فيه الحساب والجزاء؟

١٣، ١٤ - إنهم سوف يتحسرون ويندمون، يوم هم على لهب النار يُعذبون عقاباً لهم على كفرهم، تقول لهم خزنة جهنم، وهم يُعذبون بالحريق: ذوقوا عذابكم الذي رفضتم أن تؤمنوا به، هذا الذي تذوقونه اليوم هو الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا تكديباً به.

١٥، ١٦ - إن المتقين الذين أدوا حقوق مرتبة التقوى، وزادوا عليها من النوافل والقربات حتى دخلوا في درجات مرتبة البر، ثم زادوا من صالحات الأعمال حتى ارتقوا إلى درجات مرتبة الإحسان، في جئات عظيمة، وعيون كثيرات من لبن، وعسل مُصفى، وماء غير آسن، وخمر لذة للشاربين، آخذين ما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة؛ إنهم كانوا قبل دخولهم الجنة مُحسنين في الحياة الدنيا.

١٧، ١٨ - كانوا ينامون قليلاً من الليل، ويصّلون أكثره، وربما مدّوا عبادتهم إلى وقت السحر، فإذا جاءت أوقات السحر اجتهدوا في سؤال الله أن يغفر لهم سوابق ذنوبهم وتقصيرهم في العبادة.

١٩ - وفي أموالهم نصيبٌ يذلولونه للسائل المسكين الذي يسأل الناس ويطلب منهم، والفقير المحروم المُتَعَفِّف الذي لا يسأل الناس حياة.

٢٠، ٢١ - وتوجد في الأرض وما فيها - من البحار والجبال والأشجار والشمار وأنواع النبات - آيات كثيرات للمؤمنين بالله الذي يعرفونه، ويستدلون عليه بصنائه، وتوجد في خلق أنفسكم دلائل على قدرة الله، أفلا تبصرون في آيات الله في الأرض وفي الأنفس، للوصول إلى العلم اليقيني المُشابه للعلم الذي يحصل عن طريق الإدراك البصري.

٢٢، ٢٣ - وفي السماء رزقكم المُقدَّر لكم، وما تُوعدون من الثواب والعقاب يوم الدين. قَوِّبَ السَّمَاء والأرض إن ما ذُكر بشأن الرزق والجزاء، لَحَقَّ لا رُبَّ فيه، حالة كونه مشابهاً لنطقكم، فكما أنكم لا تشكون في أنكم تنطقون، حينما تريدون أن تُعبروا بنطقكم عن شيء ممّا في نفوسكم، كذلك قضينا رزقكم، وما توعدون من الجزاء.

٢٤، ٢٥ - هل أتاك - يا رسول الله - قصة الملائكة الكرام عند الله الذين جاؤوا إبراهيم بالبشرى، حين دخلوا عليه في بيته، فقالوا: نُسَلِّمُ عليك سلاماً. قال: تحيّي لكم سلام، أنتم قومٌ غرباء لا أعرف أشخاصكم، ولكن لكم عليّ حقٌ ضيافتكم.

٢٦، ٢٧ - فذهب بخفة وسرعة لضيافتهم دون أن يظهر علامات إرادة إكرامهم، من شدة ما لديه من جود وسخاء نفس، فجاء بعجل سمين مشوي، فقرّبه إليهم، فلمّا لم يأكلوا، قال: ألا تأكلون؟

٢٨ - فأضمر في نفسه خوفاً منهم حين رأى عليه السلام إعراضهم عن الطعام. قالوا له: لا تخف إنا رُسلٌ من الملائكة، وبشروه بأن زوجته «سارة» ستلد له ولداً، سيكون من أهل العلم بالله ودينه، وهو إسحاق عليه السلام.

٢٩ - فأقبلت زوجة إبراهيم «سارة» من وراء الحجاب، ودخلت عليهم في ضجة وصيحة، فلطمّت وجهها بكفها بدافع من غيرتها أن يتزوج زوجة صرة لها، صالحة لأن تحمل وتلد، وقالت: كيف تبشرون زوجي إبراهيم بسلام، وأنا عجوز عقيم لا ألد؟

٣٠ - قالت لها الملائكة: مثل ذلك الذي بشرناكم به قال ربك، وقوله الحق، إنك ستلدن غلاماً؛ إنه هو الكامل الحكمة، الذي يضع الأشياء في مواضعها، الكامل العلم، المحيط بكل شيء علماً، وبسبب كمال علمه وشموله، فهو يصلح ما كان سبباً للعقم.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَعَلَى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكْرِ ﴿٩﴾ قُلِ الْخَرَصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ آيَاتِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا أَمْسَأَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْخَرُورِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ قَوِّبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّسْكِرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَبَإِذٍ يَعَجِلْ سَمِينٌ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَمَ عِلْمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

٣١ - قال إبراهيم عليه السلام: فما حالكم وشأنكم الخطير، الذي لأجله أرسلتم - أيها المرسلون - سوى هذه البشري؟

٣٢ - ٣٤ - قالوا: إنا أرسلنا من ربنا إلى إهلاك قوم مجرمين، يستحقون التعذيب والإهلاك الشامل، وهم قوم لوط؛ لنرسل عليهم من السماء حجارة من طين، مُعلّمة عند ربك بعلامات لهؤلاء المتجاوزين الحد في الفجور والعصيان، المتوغّلين في فعل الجرائم والآثام، وكبائر الفواحش والمنكرات.

٣٥، ٣٦ - فأخرجنا من كان في قري لوط من المؤمنين الصادقين المعلنين إسلامهم وانقيادهم، فما وجدنا فيها غير أهل بيت واحد فيه مسلمون مؤمنون، وهم لوط وابنتاه، الذين نَجَّيْنَاهُمْ، ومنهم مسلمون ظاهراً غير مؤمنين قلباً، بل منافقون، كامراً لوط، فهي مسلمة غير مؤمنة، فلم تشملها النجاة، إنما النجاة والسلامة للمؤمنين الصادقين.

٣٧ - وتركنا في مدينة قوم لوط علامة باقية دالة على ما أنزلنا بهم من تدمير وإهلاك، وهذه الآية يتفع بها الذين يخافون عذاب الله الأليم.

٣٨ - وتركنا في إرسال موسى آية وعبرة، إذ أرسلناه برسالاتنا وآياتنا العظيمة إلى فرعون مَضْحوباً بحجة برهانيّة ظاهرة، وخوارق باهرة.

٣٩ - فتولّى فرعون مُبتعداً مُذبراً عن الإيمان، مغترّاً بجمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم، وقال فرعون عن موسى: هذا ساحر أو مجنون. وفي كلام فرعون تهافت ظاهر، لأنه جَمَعَ بين أمرين مُتضادين، وذلك لأنّ من شأن الساحر أن يكون كثير الفطنة والذكاء والدهاء، وهذا يتنافى مع الجنون تنافياً كلياً.

٤٠ - فأخذنا فرعون وجنوده، بتدابيرنا الحكيمة، إذ جعلناه وجيشه يلاحقون بني إسرائيل الخارجين من مصر، فأغرقتناهم جميعاً في البحر، وقائداهم فرعون أت بما يُلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسل.

٤١ - وفي إهلاك قبيلة «عاد» قوم الرسول هود، آية وعبرة للمعتبرين،

قَالَ فَاخْطِبْكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَ مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَاهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ يَكْفُرُ ﴿٣٩﴾ وَفِي هَارُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤٠﴾ مَا تَذَكَّرْنَا مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالْمُصِيبِ ﴿٤١﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ ذُكِّرُوا بِمِثْلِهِ فَأَخَذُوا كُنُوزَهُمْ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ ﴿٤٢﴾ فَغَرَّاهُمْ أَهْوَاهُمْ وَأَخَذَتْهُمُ الضُّلَعَةُ وَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ فَأَسْطَلُّوا مِنْ قِيَامِهِمْ ﴿٤٣﴾ وَكَانُوا مِنْ نُصْرَتِهِمْ كَأَنَّهُمْ قَوْمٌ أَعْمَى ﴿٤٤﴾ وَفِي لُوطَ إِذْ جَاءَهُ الْبَاقِعُ فَأَخَذْتُهُ وَأَسْطَلُّوا مِنْ قِيَامِهِمْ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا مِنْ نُصْرَتِهِمْ كَأَنَّهُمْ قَوْمٌ أَعْمَى ﴿٤٦﴾ وَفِي هَارُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤٧﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ يَكْفُرُ ﴿٤٨﴾ وَفِي هَارُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤٩﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ يَكْفُرُ ﴿٥٠﴾ وَفِي هَارُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٥١﴾

إذ أرسلنا عليهم الريح الشديدة التي لا خير فيها ولا بركة، فلا تُلْقَح شجراً ولا تحمل مطراً.

٤٢ - ما تترك من شيء أنت عليه في الأرض من أنفسهم وأموالهم وأنعامهم إلا جعلته مفتتاً كالشيء الهالك البالي، ولستم - يا كفار مكة - أكرم على ربكم من كفار عاد.

٤٣، ٤٤ - وفي إهلاك قبيلة «ثمود» قوم الرسول صالح آية وعبرة للمعتبرين، حين قيل لهم لما عَقَرُوا الناقة: تمتعوا إلى وقت انقضاء آجالكم، فتكبروا عن طاعة ربهم، فأخذتهم صاعقة العذاب المهلكة لهم، وهم يَرَوْنَ ذلك العذاب عياناً.

٤٥ - فسقطوا صرعى، وما قاموا بعد نزول العذاب بهم، ولا قدروا على النهوض، وما كانوا ممتنعين منا.

٤٦ - وأغرقتنا قوم نوح بالطوفان الشامل، من قبل هؤلاء، وهم: عاد وثمود وقوم فرعون؛ لأنهم كانوا قوماً خارجين عن الطاعة إلى دركات الكفر العنادي الجحودي. فاعتبروا - يا كفار مكة وجابرتها - أن ينزل بكم ما نزل بالأقوام السابقين.

٤٧ - وبَيَّنَّا السماء بقوة وشدة، وإنا لمُوسعون فيها خلقاً وامتداداً لأرجائها وأنحائها بعد خلقها الأول مع توالي الأزمان.

٤٨ - وبسطنا الأرض ومهدناها لكم، فَنَعَمَ المُسَوِّون المصلحون لهذه المنبسطات من الأرض عنايةً متاً بمصالح الناس.

٤٩ - ومن كل شيء في الكون خلقنا صنفين ونوعين مختلفين في الناس، والنباتات، والكهرياء، والمغنطيس، والذرات؛ نبين لكم هذه الحقيقة التكوينية راغبين أن تضعوها في ذاكرتكم - أيها المُتَلَقُّون المتدبرون - فكلما اكتشفت وجود نظام الزوجية في شيء كان خفياً عليكم تذكركم هذا البيان، فعلمتم أن القرآن مُنَزَّل من لدنه، وعلمتم أن خالق الأزواج فرد لا نظير له، ولا شريك معه.

٥٠ - أنتم - أيها المشركون - في مواقعكم الشركية، يقترب منكم العذاب شيئاً فشيئاً، على ما تمارسونه من شرك وكفر وجرائم، ففرّوا من هذه المواقع قبل أن يفاجئكم العذاب المهلك الشامل؛ إني لكم مُخَوِّفٌ، بَيِّنُ الرسالة بالحجة الظاهرة، والمعجزة الباهرة، والبرهان القاطع.

٥١ - وحذوا الله، ولا تشركوا به شيئاً؛ إني لكم نذير مُرْسَلٌ من الله مُبَيِّنٌ في إنذارِي وكُلِّ دعوتي، بعد تأدية الوظائف السابقة لي من تبليغ، وبيان، وإقناع، وتبشير.

٥٢ - كما كَذَّبَكَ كُبراء كُفار قَوْمِكَ - يا رسول الله - وقالوا: ساحرٌ أو مجنون، كذلك ما أتى الذين من قبل كفرار مكة والأمم الخالية من رسول يدعوهم إلى الإيمان والطاعة إلا قالوا: ساحرٌ أو مجنون.

٥٣ - أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالتَّكْذِيبِ، وتواطؤوا عليه؟ إنهم لم يتواصوا بهذا القول؛ لأنهم لم يتلاقوا في زمانٍ واحد، بل جمعتهم على ذلك عِلَّةٌ نفسيةٌ واحدة، وهي: الطغيان، وهو الحامل لهم على رفض دعوة الحق الربانية المؤيدة بالبراهين القواطع.

٥٤ - فانصرف - يا رسول الله - عن دعوة هؤلاء المستكبرين المعاندين، فلا لَوَمَ عليك، فقد أذيت الرسالة، وبذلت المجهود، وما قصرت فيما أمرت به.

٥٥ - ووجه تذكيرك للذين تطمع أن ينفعهم تذكيرك، فإن التذكير ينفع الذين لديهم استعداد داخلي لأن يؤمنوا مستقبلاً عن طريق إرادتهم الحرة، ولم يصلوا إلى دركة ميؤوس منها.

٥٦ - وما خَلَقْتُ الْجَنَّ وَالْإِنْسَ في الحياة الدنيا مُتَحَنِّينَ مُخْتَبِرِينَ، إلا لآمرهم أن يُوحِدُونِي، وأدعوهم إلى عبادتي وحدي دون سواي. ٥٧ - ما أريد منهم أن يُقدِّموا لي رزقاً، ولا أن يُقدِّموا لي طعاماً، كما يتوهم المشركون، إذ يُقدِّمون القرايين والأطعمة لشركائهم. ٥٨ - إن الله - وحده - هو الرزاق لجميع خلقه، القوي الشديد، المُقَدِّرُ البليغ القوة والقدرة.

٥٩ - فإن للذين ظلموا من كفرار مكة مقداراً من العذاب المُعْجَل في الدنيا مُمَثَّلاً لمقادير العذاب التي عَذَّبَ بها أصحابكم المُمَثَّلون لكم في الظلم من الأمم السالفة، يذوقون آلامه، ويكونون به هالكين، يشبه صبَّ ذُنُوبٍ من ماءٍ حميم يغلي غلياناً شديداً على المعذب، فيذوق آلامه الشديدة لمدة ليست طويلة، ويُعْقِبُهُ موته، ويكون له بعد الموت مثل ما لساير الكافرين. فانتظروا هذا العذاب الآتي لا محالة، ولا تستعجلوا نزوله مُسْتَهِينِينَ به.

٦٠ - فَهَلَاكَ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ لِلَّذِينَ يَمُوتُونَ وهم كفرار، من يوم القيامة الذي يُوعَدُونَ فيه بنزول العذاب الشديد الذي يكونون خالدين فيه.

سُورَةُ الطُّورِ

١ - ٦ - أقسم الله تعالى بجبل الطور الذي كلم الله سبحانه موسى عليه، وكتاب مكتوب أسطراً في جلد رقيق يُكتب عليه، مبسوط غير مطوي، وهو التوراة قبل التحريفات التي أدخلها اليهود، وبالبيت المعمور في السماء السابعة بالملائكة الكرام الذين يطوفون به، وبالسما المرفوعة من غير عمد، وبالبحر الممتلئ ماءً وعجائب من عجائب الخلق.

٧، ٨ - إنَّ جزاء ربِّك - يا رسول الله - بالعذاب لمُسْتَحْقِيهِ سيقع لا محالة، لا يوجد دافع ما يدفعه.

٩، ١٠ - تقع بدايات العذاب يوم تتحرك السماء حركة تشبه حركة الدَّوامة في البحر، وتختلف أجزاؤها بعضها من بعض، وتضطرب، وتزول الجبال عن أماكنها، تمهيداً لبثها وتفتيتها، وجعل الأرض سطحاً مستوياً.

١١، ١٢ - فَبَشِيرَةٌ وَهَلَاكٌ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يوم القيامة للمُكْذِبِينَ بالبعث واليوم الآخر، الذين يخوضون في تصرفاتهم في الحياة الدنيا على غير هدى، كَمَنْ يخوض في الماء فيعكره بالطين الراسب في القاع، فيفسد صفاء الماء، وهم في خوضهم على غير هدى يلعبون فلا يعملون أعمالاً لها نتائج نافعة، بل نتائج ضارة لهم.

١٣، ١٤ - يوم يُدْفَعُونَ إلى أبواب نار جهنم لقتلهم بها دفعاً بعنف وجفوة، حتى إذا دَنَوْا من أبواب جهنم، قال لهم خزنتها توبيخاً لهم: هذه النار التي كنتم تُكذِّبون بها في الدنيا.

١٥ - أَفَسِحَرَّ مَا تُشَاهِدُونَهُ الْيَوْمَ مِنَ الْعَذَابِ، أَمْ أَنْتُمْ عُمِّي لَا تَبْصُرُونَ كَمَا كُنتُمْ عُمِيًّا فِي الدُّنْيَا؟

١٦ - ذُوقُوا حَرَّ النَّارِ، وَقَاسُوا شِدَّتَهَا، فَاصْبِرُوا عَلَى الْعَذَابِ أَوْ لَا تَصْبِرُوا عَلَيْهِ، سِوَاءٍ عَلَيْكُمُ الصَّبْرُ وَالْجَزَعُ، مَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَطَاقٍ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ فِي الدُّنْيَا.

١٧، ١٨ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ يقيمون دَوَامًا فِي جَنَّاتٍ تَحْتَوِي عَلَى أَشْجَارٍ وَثَمَارٍ وَزُرُوعٍ وَأَنْهَارٍ وَقُصُورٍ، وَفِي نَعِيمٍ مُحِيطٍ بِهِمْ، مُنْعَمِينَ فَرِحِينَ مَسْرُورِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالْكَرَامَةِ، يَتَفَكَّهُونَ بِأَصْنَافِ الْمَلَأْذِ مِنْ مَأْكَلٍ وَمَشَارِبٍ وَمَلَابِسٍ وَمَسَاكِنٍ وَمَنَاحِكٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَتَجَاوَزُ عَنْ خَطَايَا كَثِيرَةٍ قَدْ ارْتَكَبَهَا بَعْضُهُمْ، وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ.

١٩ - يُقَالُ لَهُمْ: كُلُّوا أَنْوَاعَ وَأَصْنَافَ مَأْكُولَاتٍ طَيِّبَاتٍ، وَاشْرَبُوا أَنْوَاعَ وَأَصْنَافَ مَشْرُوبَاتٍ لَذِيزَاتٍ أَكْلًا وَشَرِبًا سَائِغًا لَذِيزًا مَأْمُونٍ الْعَاقِبَةِ مِنَ التُّخْمَةِ وَالسَّقَمِ؛ جَزَاءً بِسَبَبِ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ اعْتِقَادِيَّةٍ وَخُلُقِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ وَسُلُوكِيَّةٍ.

٢٠ - جَالِسِينَ بِتَمَكُّنٍ عَلَيَّ مُضْجِعِ ذِي قَوَائِمٍ أَرْبَعَةٍ مَرْفُوعَةٍ عَنِ الْأَرْضِ، مَوْضُوعَةٍ عَلَى صَفٍّ وَخَطٍّ مُسْتَوٍّ، يُشَاهِدُ الْمُتَكَنُّونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيتَحَادَثُونَ، وَهُمْ سَعْدَاءُ بِمَا يُنْعَمُونَ بِهِ، وَزَوْجَانَهُمْ بِنِسَاءٍ بِيضٍ كِبَارٍ الْأَعْيُنِ جَسَانَهَا.

٢١ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا بِإِيمَانِهِمْ صَالِحَاتٍ اسْتَحَقُّوا بِهَا دَرَجَاتٍ مُرْتَفِعَاتٍ فِي الْجَنَّةِ، وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ صَحِيحٍ مَقْبُولٍ اسْتَحَقُّوا بِهِ دُخُولَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ بَعْدَ مُجَازَاتِهِمْ بِبَعْضِ الْعُقُوبَاتِ، أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ؛ لِيُشَارِكُوهُمْ فِي مَنَازِلِهِمُ الْوَاسِعَةِ، وَإِنْ لَمْ يَلِغُوا بِأَعْمَالِهِمْ دَرَجَاتِ آبَائِهِمْ تَكْرَمَةً لِأَبَائِهِمْ؛ لَنَقَرَّ بِذَلِكَ أَعْيُنَهُمْ، وَمَا نَقَصْنَا الْآبَاءَ بِهَذَا الْإِلْحَاقِ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ شَيْئًا، بَلْ أَعْطَيْنَاهُمْ

ثَوَابَهُمْ كَامِلًا. كُلُّ أَمْرٍ اجْتِازَ رَحْلَةَ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَانَ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ فِيهَا أَعْمَالًا يُجَازَى عَلَيْهَا بِالْعِقَابِ، فَإِنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحْبَسُ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِ، عِقَابًا أَوْ غَفْرَانًا، فَإِذَا عُوقِبَ أَوْ غُفِرَ اللَّهُ لَهُ بِحُكْمَتِهِ، أُفْرِجَ عَنْهُ، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا تَتَكَلَّوْا - أَيُّهَا الْآبَاءُ - عَلَى صِلَاحِ الْآبَاءِ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَرْهُونُونَ بِأَعْمَالِكُمْ، لَا يَحْمِلُ ذَنْبَكُمْ أَحَدٌ.

٢٢ - وَتَابَعْنَا إِيْتَاءَهُمْ زِيَادَةً عَمَّا كَانَ لَهُمْ بِفَاكِهِةٍ، وَمِمَّا يَشْتَهُونَ مِنْ أَنْوَاعِ اللَّحُومِ.

٢٣ - يَتَجَادِبُونَ فِي الْجَنَّةِ كَأَسَا مِنْ الْخَمْرِ، لَا بَاطِلَ فِيهَا وَلَا رَفَثٌ وَلَا تَخَاضُمٌ، وَلَا يَكُونُ فِيهَا مَا يُؤْثِمُهُمْ، وَلَا يَتَّهَمُ شَارِبُهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْإِثْمِ.

٢٤ - وَيَدُورُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ مَمْلُوكُونَ لَهُمْ، مُعْدُونَ لخدمَتِهِمْ، كَأَنَّهُمْ فِي الْحُسْنِ وَالْبَيَاضِ وَالصَّفَاءِ لَوْلَوْ مَخْزُونٌ مَصُونٌ لَمْ تَعْبَثَ بِهِ أَيْدِي الْعَابِثِينَ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا يُغَيِّرُ صَفَاءَهُ وَنِقَاءَهُ.

٢٥ - ٢٧ - وَأَقْبَلَ بَعْضُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي مَجْلَسٍ مُحَادَثَةٍ بَيْنَهُمْ. قَالُوا: إِنَّا كُنَّا قَبْلَ هَذَا النَّعِيمِ فِي أَهْلِنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، خَائِفِينَ دَائِمِي الْخَذَرِ مِنْ أَنْ تُجَازَى عَلَى خَطَايَانَا الَّتِي ارْتَكَبْنَاهَا، وَأَنْ لَا يَشْمَلَنَا غَفْرَانُ اللَّهِ لَهَا، فَانْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالنِّعْمَةِ الْكَبِيرَةِ بِالْمَغْفَرَةِ، وَحَمَانًا وَصَرَفَ عَنَّا عَذَابَ النَّارِ النَّافِذَةَ فِي الْمَسَامِ نَفُوزَ الرِّيحِ الْحَارَةِ.

٢٨ - إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، نُخْلِصُ لَهُ الدُّعَاءَ، فَاسْتَجَابَ لَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السُّمُومِ؛ إِنَّهُ هُوَ ذُو الْعَطَاءِ الْوَاسِعِ، وَالْفَضْلِ الْجَزِيلِ، وَالرَّحْمَةِ الدَّائِمَةِ.

٢٩ - فَذَكَرَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - بِالْقُرْآنِ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَى حَالَةِ مِيثُوسٍ مَعَهَا اسْتِجَابَتُهُمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، فَمَا أَنْتَ بِسَبَبِ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْكَ بِالنَّبِوَةِ وَالرَّسَالَةِ - كَمَا يَقُولُ كُفَّارُ مَكَّةَ - بِكَاهِنٍ: تُوْهِمُ أَنَّكَ تَعْلَمُ الْغَيْبَ مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ، وَلَا مَجْنُونٍ: لَا يَعْقِلُ مَا يَقُولُ.

٣٠ - بَلْ، أَيْقُولُ هَؤُلَاءِ الْمَشْرُكُونَ: هُوَ شَاعِرٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ نَصَبِرُ عَلَيْهِ زَمَنًا، وَنَنْتَظِرُ أَنْ تَنْزِلَ بِهِ حَوَادِثُ الدَّهْرِ الْمُمِيتَةِ وَصُرُوفُ الْمُهْلَكَةِ، فَيَمُوتُ وَيَهْلِكُ كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ؟

٣١ - قُلْ لَهُمْ - يَا رَسُولَ اللَّهِ -: انْتَظَرُوا بِصَبْرِ مَوْتِي، فَإِنِّي مَعَكُمْ مُنْتَظَرٌ بِصَبْرِ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ فِيكُمْ، وَيَنْصُرَنِي عَلَيْكُمْ.

٣٢ - بل، أتأمر هؤلاء المُكذِّبين عقولهم الراجحة بهذا التناقض في القول، وهو قولهم: كاهنٌ وشاعرٌ مع قولهم مجنون؟ بل هم قومٌ مُتجاوزون الحدَّ في الطغيان والكفر.

٣٣ - بل، أيقول هؤلاء المشركون: أخلَقَ محمدُ القرآنَ من تلقاء نفسه، وادَّعى أنه كلامُ الله؟ ليس الأمرُ كما زعموا، بل علَّتهم النفسيةُ أنهم لا يريدون أن يؤمنوا؛ لأن الإيمانَ يمنعهم من اتباع أهوائهم وشهواتهم ورغباتهم من متاع الحياة الدنيا.

٣٤ - فليأتوا بحديثٍ مثل القرآن في نظمهِ وحُسنهِ وبيانه، إن كانوا صادقين - في زعمهم - أن محمدًا تقوله على ربِّهِ من قِبَل نفسه.

٣٥ - بل، أتحوِّل الذين ينكرون وجود خالقٍ لهذا الكون من العدم العامِّ المطلق دون مُوجدٍ، فصاروا بشرًا أحياء بلا خالق؟! بل أهم حين كانوا عَدَمًا خلقوا أنفسهم، فحوَّلوا من العدم إلى الوجود؟

٣٦ - بل، أيدعون أنهم خلَقوا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ؟ ليس الأمر كذلك، بل لا يريدون أن يوقنوا بتوحيد الله وقدرته على البعث مهما اقتضت الحُجُجُ والبراهين العقلية أن يوقنوا به.

٣٧ - بل، استغْنُوا عن الإيمان بوحدايةِ الله؛ لأنَّ خزائن ربِّك - أيها العاقل الرشيد - من كُلِّ ما يحتاجون إليه في حياتهم هي عندهم وفي متناول أيديهم، بل، أهم الأرباب المُتسلِّطون القاهرون، فلا يكونون تحت أمرٍ ولا نهي، ويفعلون ما يشاؤون؟

٣٨ - بل، ألهم مُصعَّدٌ يصعدون فيه حتى يصلوا إلى مقاعد استراق السمع في السماء، وبه يعلمون أحداثًا مُستقبليةً يفتنون بها من يتأثر بهم من الناس؟ فليأت مُستمعهم - إن ادعوا ذلك - بحُجَّةٍ بينةٍ تُثبت صحَّةَ استماعه.

٣٩ - بل، أله سبحانه البنات، وهم الملائكة - كما تزعمون افتراءً عليه -، ولكم البنون كما تُحبُّون؟

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَهْلَهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ
بَلْ لَا يَوْمُنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ
﴿٣٤﴾ أَمْ خَلَقُوا مِنَ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُصْطَفُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ هُمْ سَامِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْتَأْذِنُ أَجْرَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُمُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ هُمُ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا
مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَّهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْرُ الْحُمْرِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ

١٢٦

٤٠ - بل، أنسأل - يا رسول الله - هؤلاء المشركين أجرًا ماديًا أو معنويًا على ما جتتهم به من النبوة، فهم في جهد ومشقة من ذلك

المَغْرَم الذي سألتهم، فيصدُّون من أجل استتقاله عن الاستجابة لك، والإيمان برسالتك، وتصديقك فيما تُبلِّغهم عن ربِّك؟

٤١ - بل، أعندهم تدبيرُ الغيب المُستقبلي، فهم يُقدِّرون ويُدَبِّرون ما يشاؤون لأنفسهم آمنين، ويكتبون ما قدروا لها غير خائفين من أن يأتي قدر الله وقضاؤه على ما يكرهون، ومنه هلاكهم وتعذيبهم على كفرهم؟

٤٢ - بل، أيريدون تدبيراً خفياً بك - يا رسول الله -؛ ليهلكوك، فليعلموا أنهم بسبب كفرهم هم المُجزيُّون بكَيْدِهِم، الذي ينزل بهم أشدَّ ما يكرهون، ويُسلِّم الله دينه ورسوله والمؤمنين وينصرهم عليهم.

٤٣، ٤٤ - بل، ألهم إله غير الله يرزقهم وينصرهم ويمنحهم ما يريدون؟ تنزَّه الله عَمَّا يشركون في ربوبيته وإلهيته. وإن يَرَوْا جرماً عظيماً ساقطاً عليهم من السماء لتعذيبهم وإهلاكهم، يقولوا لمعاندهم: هذا سَحَابٌ مُترَكَمٌ بعضُهُ على بعضٍ؛ لِسُقْيَا، ولم يخطر في بالهم أنه عذابٌ من الله عزَّ وجل، هابطٌ عليهم، حتى يذوقوا عذاب الله المعجل الأليم.

٤٥، ٤٦ - فدع - يا رسول الله - هؤلاء المشركين حتى يستقبلوا يومهم الذي قضى الله أن يموتوا فيه. يومٌ لا ينفعهم ولا يصرف عنهم كَيْدُهُم شيئاً، ولا يمنعهم من العذاب مانع.

٤٧ - وإنَّ للذين ظلموا ظلماً عظيماً من دَرَكَةِ الكفر عذاباً يَلْقَوْنَهُ في الدنيا، ويحسُّون آلامه قبل موتهم، وهو دون عذابهم في الآخرة، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون أنَّ ما نزل بهم من العذاب هو عقوبةٌ لهم، بل يتصوِّرون أنه من عوارض الدهر الطبيعية.

٤٨، ٤٩ - يا رسول الله - مُسْتَسْلِمًا لِحُكْمِ رَبِّكَ إلى أن يقع بهم العذاب الذي حكمنا عليهم به، فإنَّك بمرأى منا وحفظنا، فلا يصلون إليك بمكروه، وسَبِّحْ رَبَّكَ تسبيحاً مُقترناً ومتلبساً بحمده ومُصاحباً له حين تقوم من مجلسك، أو من منامك، أو حين تقوم إلى الصَّلَاة، ومن الليل فسبِّحْهُ، وعند السَّحَر في وقت إدبار النجوم. قالتسبيح هو الذي يساعد على التحلي بالصبر، ويعالج ضيق النفس والكرب الذي يضغط عليها.

١، ٢ - أقسم الله تعالى بالنَّجم المضيء اللامع في السماء إذا سقط مُنْقَضاً من علو إلى سُفل، ما ضاع صاحِبكم محمد ﷺ دون قُصد ولا تعمُد عن طريق الهدى، وما تنكب طريق الرُّشد عن قُصد وتعمُد، أتباعاً لهوى نفسه، وهو مَنْ تعرفون - لطول صحبتكم له - اتَّصفاه بغاية الهدى والرُّشاد.

٣ - ٧ - ولا ينطق بما ينطق به صادراً عن توجيه الهوى وتأثيره، ما القرآن إلا وحي من الله يُوحى إليه، علَّمه هذا الوحي مَلَكٌ شديدُ القوى، ذو إحكام وإتقان وممارسة وخبرة في التعليم، تعتمد على المعالجة الحكيمة، واستخدام مختلف الوسائل التعليمية، فوصل الرسول محمد ﷺ إلى مستوى الاستواء الكامل في التعلُّم، وقد رأى محمد ﷺ جبريل على صورته الحقيقية، التي خلقه الله عليها، والحال أن جبريل ظاهر بالجهة العليا من السماء، عند مطلع الشمس.

٨ - ١٠ - وبعد مدَّة متراخية قُرْب جبريل من الرسول ﷺ، فزاد في القُرب، فكان دنؤه قدر قوسين، بل أدنى من ذلك، فأوحى الله تعالى إلى عبده جبريل - ملك الوحي الأمين - الوحي نفسه الذي أوحاه جبريل إلى محمد خاتم النبيين.

١١ - ما كَذَبَ قلبُ محمد ﷺ فيما رأى بعينه ليلة المعراج.

١٢ - ألا تعجبون من أنفسكم - أيها الكافرون المكذِّبون لرسولنا - فيما يراه رؤية حق، فتجادلونه بالباطل حريصين على إنكار ما يرى، وتكذِّبه فيه؟

١٣ - ١٥ - وأؤكد تأكيداً بليغاً أن محمداً ﷺ رأى جبريل مرَّةً أخرى في صورته التي خُلِقَ عليها نازلاً من السماء نزلةً أخرى. عند شجرة بُتَّى في السماء السابعة، ينتهي إليها ما يُعرَّجُ به من الأرض، وينتهي إليها ما يُهبط به من فوقها، عند سِدرة المُنتهى جنَّة المأوى التي يصير

إليها المُتَّقون، وتأوي إليها أرواح الشهداء.

١٦ - رأى محمد ﷺ جبريل في النزلة الأخرى عند سِدرة المنتهى حين كان يجلس سِدرة المُنتهى ويغطيها من نور الخَلْق والملائكة، ما لا يعلم وصفه إلا الله تعالى.

١٧ - ما اضطرب بصرُ النَّبي ﷺ ولا انحرف في ذلك المقام، وفي تلك الحَضرة المُقدَّسة يميناً ولا شمالاً، وما زاد في الرؤية على الحقيقة شيئاً.

١٨ - أؤكد تأكيداً بليغاً أن رسول الله ﷺ رأى ليلة المعراج رؤية حسيَّة بصريَّة من آيات الله الكبرى الدالَّة على عظمته وقدرته.

١٩، ٢٠ - أنفكرتم فرايتم - أيها المشركون - هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله: اللات الأولى، والعزى الأخرى الثانية، ومناة الأخيرة الثالثة، هل لها من القدرة والعظمة - التي وُصف بها ربُّ العزَّة - شيء؟

٢١ - ٢٣ - أتجعلون لكم الذِّكر الذي تحبُّونه، وتجعلون لله - بزعمكم - الأنثى التي تكرهونها؟ تلك إذن قسمة جائرة، حيث جعلتم لربكم افتراءً عليه ما تكرهون لأنفسكم. ما هذه الأصنام إلا أسماء سَمَّيْتُمُوهَا آلهة أنتم وأبائكم، وليس لها إلهيَّة في الحقيقة والواقع، ما أنزل الله بالأمر بعبادتها أي حجة يُحتجُّ بها، ما يتَّبِع هؤلاء المشركون إلا الظنَّ الضعيف الذي لا تدعمه أدلة فكرية، ولا أدلة حسيَّة، ولا أدلة خبريَّة صحيحة، وما يتَّبِع هؤلاء المشركون أيضاً إلا ما تهواه أنفسهم المنحرفة، وتميل إليه من مطالب وحاجات، ومتع ولذات وشهوات، ولقد جاءهم من ربِّهم البيان - بالكتاب المنزل والنبي المرسل - أنَّ الأصنام ليست بآلهة، وأنَّ العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار، فأصروا على باطلهم، ولم يَتَّبِعوا الهدى.

٢٤، ٢٥ - أيظنُّ الكافر أنَّ له ما يتمنى ويشتهي من شفاعَةِ الأصنام، فللَّهِ مِلْكُ الآخرة بكلِّ ما فيها، ومِلْكُ الحياة الدنيا بكلِّ ما فيها، لا يملك أحدٌ منهما شيئاً أبداً إلا بإذنه.

٢٦ - ليس للإنسان ما تمنى، ولا تنفعه شفاعَةُ آلهة من دون الله، وعددٌ كثيرٌ من الملائكة في السموات السبع ممَّن يعبدهم هؤلاء المشركون، ويرجون شفاعتهم عند الله، لا تُغني شفاعتهم شيئاً، إلا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعَةِ، ويرضى أقوالهم فيمن شفعوا فيه.



٢٧ - إِنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ بِتِسْمِيَةِ الْأَنْثَى، حَيْثُ قَالُوا: أَنَّهُمْ بَنَاتُ اللَّهِ.

٢٨ - وَمَا لَهُمْ بِمَا يَقُولُونَ مِنْ عِلْمٍ، مَا يَتَّبِعُونَ دَلِيلًا إِلَّا الظَّنَّ التَّوَهُّمِيَّ الْبَاطِلَ فِي تِسْمِيَةِ الْمَلَائِكَةِ بِالْإِنَاثِ، وَإِنَّ الظَّنَّ التَّوَهُّمِيَّ لَا يَكْفِي فِي تَقْدِيمِ حُجَّةٍ صَحِيحَةٍ.

٢٩ - فَأَعْرَضَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - عَمَّنْ أَدْبَرَ وَنَأَى عَنِ الْاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ كِتَابِ اللَّهِ، وَلَمْ يَرُدْ إِلَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِذَاتِهَا وَزِينَاتِهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حَتَّى يَرِيدُوهَا وَيَعْمَلُوهَا لَهَا.

٣٠ - ذَلِكَ الَّذِي لَمْ يَرِيدُوا غَيْرَهُ هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي انْتَهَى إِلَيْهَا عِلْمُهُمْ؛ إِذْ رَفَضُوا الْإِيمَانَ بِيَوْمِ الدِّينِ، وَانْحَصَرُ عِلْمُهُمْ فِي حُدُودِ دَائِرَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى، وَسَيُجَازِي الْفَرِيقَيْنِ بِأَعْمَالِهِمْ.

٣١، ٣٢ - وَلِلَّهِ - وَحْدَهُ - مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ خَلْقًا وَتَدْبِيرًا وَمِلْكًا لَا لغيره، وَقَدْ خَلَقَ مَا فِيهِمَا؛ لِيَجْزِيَ الْمَسِيئِينَ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ عَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ حَتَّى أَحْسَنَ دَرَكَاتِهِمْ بِمَقْدَارِ إِسَاءَاتِهِمْ، وَيَجْزِيَ الْمُحْسِنِينَ أَهْلَ الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا مِنْ مَرَاتِبِ الْمُؤْمِنِينَ، فَمِنْ دُونِهِمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَالْأَبْرَارِ عَلَى تَفَاضُلِ دَرَجَاتِهِمْ بِالْمَثُوبَةِ الْحُسْنَى، وَهِيَ: الْجَنَّةُ، وَهُمْ الَّذِينَ يَبْتَغِدُونَ عَنْ حُدُودِ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَمَا عَظُمَ قُبْحُهُ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ، إِلَّا مَا قَلَّ وَصَغُرَ مِنَ الذُّنُوبِ مِمَّا يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ الْحَيُّ بَعْدَ الْحَيِّ، وَلَا يَكُونُ لَهُ عَادَةٌ وَلَا إِقَامَةٌ، فَإِنَّ هَذِهِ يَغْفُو اللَّهُ عَنْهَا، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ، هُوَ أَعْلَمُ بِضَعْفِكُمْ فِي أَصْلِ تَكْوِينِكُمْ تَجَاهَ أَهْوَاؤِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ، حِينَ خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنَ التُّرَابِ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونِ أُمَهَاتِكُمْ، فَلَا تَمْدَحُوا أَنْفُسَكُمْ بِحُسْنِ الْأَعْمَالِ وَالْبِرَاءَةِ مِنَ

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴿٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَذِّقُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي عَنْ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ﴿١٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿١١﴾ الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ إِلَّاثِمٍ وَالْفَوْحُ حَشٌّ إِلَّا لِلَّهِ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذَا أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بَطُونِ أُمَهَاتِكُمْ فَلَا تَرْكَبُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَى ﴿١٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿١٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿١٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿١٥﴾ أَمْ لَمْ يَلْبَسْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿١٦﴾ أَلَا تَنْزِيلُ رِزْقِهِ وَرِزْقُ آخَرَى ﴿١٧﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿١٨﴾ وَأَنْ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى ﴿١٩﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴿٢٠﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٢١﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٢٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٢٣﴾

الْإِنَامِ، وَلَا تَصْفُوهَا بِذَلِكَ، فَأَمَرَ الْحُكْمَ بِطَهَارَتِكُمْ مِنَ الْمَعَاصِي، وَتَرْكِيَةِ أَنْفُسِكُمْ لَيْسَ لَكُمْ، إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ بَرَّ وَأَطَاعَ وَأَخْلَصَ الْعَمَلَ، فَمَنْ زَكَّاهُ فَحُكْمٌ لَهُ بِذَلِكَ، فَهُوَ الزَّكِيُّ الْتَقِيُّ، لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ هُوَ الْعَلِيمُ بِعِبَادِهِ، الْحَكِيمُ فِي أَحْكَامِهِ.

٣٣ - ٣٥ - أَنْظَرْتُ فَرَأَيْتُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - هَذَا الَّذِي أَدْبَرَ وَتَوَلَّى مُبْتَدَأًا مُرْتَدًّا عَنِ الْإِيمَانِ؟ وَأَقْبَلَ فِي بَدَايَةِ أَمْرِهِ مُضْغِيًا مُتَفَكِّرًا فِي دَعْوَةِ الرُّسُولِ، وَيَخِلُّ وَشَخَّ بِعِطَاءٍ مِنْ فِكْرِهِ وَنَفْسِهِ؛ لِأَنَّ مَضَامِينَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ لَمْ تَوَافِقْ هَوَاهُ وَشَهَوَاتِهِ وَنَزَغَاتِهِ وَكِبْرَهُ، فَاسْتَحْجَرَ عِطَاؤُهُ الْفِكْرِي وَالنَّفْسِي، كَالْأَرْضِ الْغَلِيظَةِ، وَالصَّخْرَةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي لَا تَرْشَحُ بِمَاءٍ؟ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى مَا غَابَ عَنْ عَيْنَانَا؟

٣٦ - ٣٨ - بَلْ أَلَمْ يُخَبِّرْ الْخَبَرَ الْهَامَ بِمَا فِي أَسْفَارِ التَّوْرَةِ، وَيُخَبِّرُ بِمَا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي كَمَّلَ وَتَمَّمَ مَا أَمَرَ بِهِ، فَأَذَاهُ أَدَاءً وَافِيًا لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا؟ أَلَا تَحْمِلُ نَفْسُ آثِمَةٍ وَلَا غَيْرُ آثِمَةٍ إِثْمَ نَفْسٍ أُخْرَى، حَتَّى تَخْلُصَ هَذِهِ الثَّانِيَةَ مِنْ إِثْمِهَا، إِنَّمَا تَحْمِلُ الْآثِمَةَ إِثْمَ ذَنْبِهَا الَّذِي فَعَلْتَهُ بِالْمُبَاشَرَةِ أَوِ التَّسْبِيبِ فَتُعَاقَبُ عَلَيْهِ.

٣٩ - ٤١ - وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَقِّ أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ بِفَضْلِهِ إِلَّا مَا كَسَبَهُ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، وَهَذَا لَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ يَصِلَهُ شَيْءٌ بِفَضْلِ اللَّهِ دُونَ سَعْيِهِ مِنْهُ، كَدَعَاءٍ مَنْ يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دَعَاءَهُ لَهُ، أَوْ شَفَاعَةٍ مَنْ يَأْذَنُ اللَّهُ لَهُ بِالشَّفَاعَةِ، وَأَنْ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَاهُ يَوْمَ الدِّينِ فِي كِتَابِ عَمَلِهِ، ثُمَّ بَعْدَ الْمَحَاسَبَةِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ يُجْزَى جِزَاءَ سَعْيِهِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْجِزَاءَ الْآتِمَّ الْأَكْمَلَ دُونَ نَقْصٍ مَعَ زِيَادَةٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ.

٤٢ - وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - مُنْتَهَى الْخَلْقِ وَمَصِيرُهُمْ إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ مُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ.

٤٣ - وَأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ هُوَ - وَحْدَهُ - أَضْحَكَ وَأَبْكَى، فَخَلَقَ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَسْرُ، وَمَشَاعِرَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ، وَخَلَقَ الْأَسْبَابَ الَّتِي تُؤْلَمُ، وَمَشَاعِرَ الْحُزْنِ وَالْأَلَمِ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى إِيجَادِ الضَّدِّينِ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ.

٤٤ - وَأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ هُوَ وَحْدَهُ أَمَاتَ فِي الدُّنْيَا، وَأَحْيَا لِلْبَعْثِ، فَهُوَ الْمُتَقَرِّدُ سَبَّحَانَهُ بِالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ.

٤٥ - ٤٧ - وأنه سبحانه خلق الزوجين: الذكر والأنثى من كل حيوان، من نقطة إذا تُصَبَّ في الرِّجَم، وأنَّ عليه سبحانه إحداث الخلق الثاني بعد الموت؛ التي تبدأ بالبعث إلى الحياة الأخرى؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٤٨ - وأنه سبحانه هو - وحده - أغنى الناس بالأموال، وجعل لهم ما يفتنونه ويدخلونه مما يحتاجون إليه مستقبلاً.

٤٩ - وأنه هو ربُّ معبودهم الشعري، وهو نجمٌ مُضيء، كان بعض العرب في الجاهلية يعبدونه من دون الله. وتخصيص «الشعري» من دون سائر النجوم مع أنَّ الله سبحانه هو ربُّها جميعاً ما عُلِمَ منها وما لم يُعَلَم، للتنبيه على أنَّ عبادة بعض العرب للشعري عبادة باطلة؛ لأنَّ الله ربُّها، وليس لها من الربوبية شيء. ويُقاس على الشعري سائر النجوم والكواكب، ولا سيما ما عُبدَ منها من دون الله.

٥٠ - ٥٤ - وأنه سبحانه أهلك عاداً الأولى، قومَ هودٍ بريح صرصر، وأهلك ثمود، قومَ صالح بالصَّيْحَةِ، فما أبقى منهم أحداً، وأهلك قوم نوح بالغرق من قبل إهلاكه عاداً وثمود؛ إنَّهم كانوا هم أعظم كفراً وأشد تمرداً من عاد وثمود، لطول دعوة نوح إليَّهم، وعتوهم على الله بالمعصية والتكذيب، وقرئ قوم لوط رفعها جبريل إلى السماء بأهلها المجرمين، ثم أهوى بها إلى الأرض، فنزل عليها من فوقها شيء عظيم مهول سترها كلها، فدمرها تدميراً شاملاً بالحجارة المنصودة المُسومة.

٥٥ - فبأي أفعال ربِّك العجيبة، وشؤونه الغريبة تُشكُّ أيها الإنسان الكافر ربِّك، المكذب لرسوله؟!!

٥٦ - هذا الرسول محمد ﷺ بالنسبة إلى الكفرة المكذِّبين نذيرٌ بالحق، من جنس النذر الأولى، رسلاً كانوا، أو كتباً ربَّانية، أو إنذارات جاءت في الكتب السابقة، أو على السنة الرسل.

٥٧، ٥٨ - قُرِبت الساعة القريبة، ليس للساعة من غير الله وإعلام منه نفسٌ كاشفة وقت حدوثها.

٥٩ - ٦٢ - أرفضتم - أيها المشركون - الحقَّ الجليَّ الذي حدَّثناكم به في

القرآن، وأعلنتم إنكاركم له، فصرتم تستبعدونه وتوهمون أنه باطلٌ بأسلوب التعجب، وتضحكون استهزاء، ولا تكونون ممَّا فيه من الوعيد، وأنتم عنه لاهون غافلون، متحيرون متكبِّرون، جامدون لا تتأثرون؟! إنَّ الذي يثير التعجب والضحك حقاً هو حالكم؛ إذ تعجبون وتضحكون من آيات القرآن المشتملة على حقائق وإقناعات وإرشادات، وبشارات وإنذارات فيها الخير العظيم لكم في دنياكم وأخراكم. فاسجدوا - أيها الناس - لله، وأخلصوا العبادة له وحده.

سُورَةُ الْقَبْرِ

١ - دَنَا وقتُ انتهاء ظروف الحياة الدنيا وأنظمتها، التي يكون بعدها أحداث يوم القيامة، وانشقَّ القمر فِلَقَتَيْنِ؛ معجزة كبرى للرسول ﷺ، وقَّعت بحضور المشركين، تدلُّ على صدق الرسول فيما يُخبر به عن الله تعالى، ومنه الإخبار باقتراب الساعة، وبعث الموتى إلى الحياة الآخرة التي يكون فيها الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٢ - وإن يَرِ الكفار آيةً عظيمةً من آيات الله تدلُّ على صدق رسول الله ﷺ، يُعرضوا عن الإيمان بها، ولا يُصدِّقوا بدلالاتها، ويقولوا: هذه الآيات سحرٌ يأتي به محمد بصفة متكررة دائمة. وفي ادعائهم أنه سحرٌ مُستمرٌ استمراراً زمنياً تعارضٌ وتهافت؛ وذلك لأنَّ من شأن السحر أن لا يكون دائماً، ومن شأن الأمور الدائمة أن لا تكون سحراً، أما أن يكون الشيء الواحد سحراً ومُستمرّاً معاً، فهو جمع بين أمرين متضادين لا يجتمعان.

٣ - أعرضوا عن آية انشقاق القمر ودلالاتها، وكذبوا النَّبِيَّ ﷺ، ببلاغاته عن ربِّه عزَّ وجلَّ، فلم يؤمنوا بالقرآن، ورفضوا اتباع الرسول فيما جاءهم به، وأتبعوا أهواءهم في القضايا الاعتقادية والفكرية والنفسية والسلوكية، فهم في أمر مختلط غير متجانس ولا متوافق، وإنَّ تكذيبهم واتباعهم لأهوائهم لا يُغيِّر من أنظمة الكون وقوانينه المُستقرَّة الثابتة شيئاً، فإنهم لا يضرُّون إلا أنفسهم، ولا يستطيعون أن يمنعوا عن أنفسهم عقاب الله، ولا أن يمتنعوا ظهور دين الله، ولا أن يظفروا بالانتصار أخيراً على رسول الله والذين آمنوا معه.

٤ - وأؤكد لكم أنه جاء كبراء كفار قريش من أخبار الأمم الماضية المكذَّبة في القرآن، ما فيه ازدجار وكفٌ لردعهم عن كفرهم وضلالهم.

٥ - إيراد أنباء الأولين وقصصهم وما جرى لهم من عقوبات ربَّانية أهلكتهم إهلاكاً عاماً، حكمةٌ بالغة غاية ما يمكن اتخاذه من وسائل إقناعية تربوية ذات تأثير في النفوس المُستعدة للتأثر بالمخيفات، فما تكفي وما تنفع هؤلاء الكفار هذه النذر مهما كان إرهابها وتخويفها.

٦ - فأدبر وجهك - يا رسول الله - عن هؤلاء الذين مَرَدُّوا على الكفر، ولم تُغنهم النذر، وانصرف إلى دعوة غيرهم من الذين لم يصلوا إلى حالة ميؤوس منها كحالهم، واذكر يوم ينفخ إسرافيل في «القرن» إلى شيء منكر فظيع لم يَرَوْا مثله، فينكرونه استعظماً له.



٨، ٧ - ذليلة خاضعة أبصارهم عند رؤية العذاب، يخرجون من القبور، كأنهم جرادٌ مُنتشر في كثرتهم وتجمعهم وتتابعهم وتصادم بعضهم في بعض، حيارى فزعين، مُسرعين مادي أعناقهم، مُقبلين إلى صوت الداعي إسرافيل. يقول الكافرون: هذا يوم صُغِبَ شديد. ٩ - كذبت قبل كبراء مُشركي مكة، قوم نوح، فكذبوا عبدنا نوحاً المتحقق بكمال العبودية الصادقة لنا، وقالوا: هذا رجل مجنون، ومُنِعَ من متابعة دعوته إلى ربه، وانتهر بعنف وشدة مصحوب بتهديد والزاجرون له كبراء قومه وأصحاب النفوذ والسلطان فيهم.

١٠، ١١ - فدعا نوحُ ربه بعد صبر طويل على قومه، وقال: إني مغلوب في دعوتي لقومي؛ إذ زجرني كبراء قومي بشدة عن الاستمرار في دعوتي، فانتقم لي منهم؛ فأجبنا دعاءه، ففتحنا أبواب السماء بماء مُنْصَب انصباباً شديداً على مواقعها من الأرض.

١٢ - وجعلنا الأرض كلها عيوناً متدفقة مُنبِعثة بالماء بقوة، فاجتمع ماء السماء المنهمر وماء الأرض المنفجر على أمر قد حُدِدَ مقدار كل شيء فيه بالتقدير الدقيق الحكيم الشامل لكل الدقائق والتفاصيل، وتم إغراق الذين كفروا بنوح في الزمن المحدد له، وبالطريقة المحددة له في سابق التقدير.

١٣ - وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح ومسامير، تُشدُّ بها ألواح الخشب.

١٤ - تجري السفينة محفوفةً بأكمل الحفظ والرعاية والحماية من أي شيء يضرها ويؤذيها، فعلنا ذلك من إنجاء نوح، وإغراق قومه، انتصاراً لنوح عليه السلام، وثواباً معجلاً له في الدنيا؛ لأنه كان كُفِرَ به وجُحِدَ أمره من قبل قومه.

١٥، ١٦ - وأؤكد لكم أننا أبقينا سفينة نوح، آيةً باقيةً زمناً طويلاً من بعده؛ لتكون علامة على حادثة الطوفان، وشاهداً على عقاب الله

للمكذِبين، فهل من مُتَعَطٍّ مُتَذَكِّرٍ معتبر خائف مثل عقوبتهم؟ فعلى أية حال كان عذابي لقوم نوح؟ وعلى أية حال كانت نُذْرِي لهم؟ لقد كان العذاب شديداً مخيفاً، وكانت النذر التي أنذر الله بها قوم نوح على لسان رسولهم نُذْراً صادقة.

١٧ - والله لقد سهَّلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر، فهل من مُتَعَطٍّ به؟ وقد وردت هذه الجملة القسمية أربع مرات: في آخر قصة إهلاك قوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم لوط، حتّى على تدبر القرآن وتذكره، وتنبيهاً على أن هؤلاء الأقوام لو تَلَفُّوا ما أنزل إليهم من ربهم عن طريق رسلهم، وتدبروه، ووضعوه في ذاكرتهم، والتمزوا أوامر الله لهم، ما عَرَضُوا أنفسهم للهلاك الشامل المعجل في الدنيا، وللعذاب الخالد المؤجل إلى يوم الدين.

١٨ - كذبت عاد رسولهم هوداً فعاقبناهم، فعلى أي حال كان عذابي وإنذاري لهم بالعذاب قبل وقوعه؟ ١٩، ٢٠ - إنا أرسلنا عليهم ريحاً شديدة الهبوب والبرودة، في يوم جهْدٍ وضُرٍّ وعذاب قوي مُتَكَرِّرٍ، تقلعهم الريح من مواضعهم على الأرض، ثم تطرحهم على الأرض تبدو أسافلهم قد بليت بصورٍ قبيحةٍ تَشْمِئُزُ منها النفوس، وتنفر منها العيون، كأنهم أصول نخل منقلع من أرضه، وبانقلاعه تظهر أسافله ذوات المنظر القبيح.

٢١ - فعلى أي حال كان عذابي لقوم هود؟ وإنذاري لمن كذب رسلي ولم يؤمن بهم؟

٢٢ - والله لقد سهَّلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر، فهل من مُتَعَطٍّ به؟

٢٣، ٢٤ - كذبت ثمود رسولهم صالحاً بالإنذارات المُتَعَدِّدَاتِ التي أنذرهم بها، بعد دعوتهم إلى الإيمان والإسلام والطاعة، فقالوا: اتَّبِعْ بشراً واحداً من جنس البشر، ونحن جماعة كثيرون؟ إنا إذا اتَّبَعْنَا لفي خطأً وذهاب عن الصواب في مسيرتنا وجنون في عقولنا.

٢٥ - أنزل الكتاب الرباني عليه من بيننا، لا عذر له فيما ادَّعاه، بل هو كذاب بَطِرٌ متكبر، يريد أن يتعظَّم علينا بادعائه النبوة؟

٢٦، ٢٧ - سيعلمون حين ينزل العذاب بهم في الدنيا من الكذاب المُتَكَبِّرِ؟ صالح أم من كذبه؟ إنا باعثو الناقة ومُخرجوها من الصخرة؛ محنةً واختباراً لهم، فانتظرهم - يا صالح - واجعلهم تحت مراقبتك وملاحظتك لما سيكون منهم، واصطبر بتكليف ومجاهدة نفسك على أذاهم حتى يأتي أمر الله.

خُشِعَا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ٧
مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ٨
فَبَلَّغَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا لَوْ أَنَّا نَحْنُ وَآزُجْرُ ٩
رَبِّنَا أَيْنَا مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ١٠
فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ١١
وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ وُقِّرَ ١٢
وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِّرَ ١٣
تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ ١٤
كُفِرَ ١٥
وَلَقَدْ رَكَنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَّدَكِرٍ ١٦
عَذَابِي وَنُذِرٍ ١٧
وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ١٨
كَذَّبْتَ عَادَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٍ ١٩
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ٢٠
رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ٢١
تَزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ ٢٢
تَحُلُ مُنْقَعِرٍ ٢٣
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرٍ ٢٤
وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ ٢٥
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ٢٦
كَذَّبْتَ ثَمُودَ بِالنَّذْرِ ٢٧
فَقَالُوا ابْشِرْكَ ٢٨
مَتَارِجَآءَ نَبِيْعَةٍ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٢٩
أَلَمْ يَلْقَ الْذِّكْرَ عَلَيْهِ ٣٠
مِنَ الْيَسَنِابِلِ هُوَ كَذَّابٌ أَشْرٌ ٣١
سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ ٣٢
الْأَشْرِ ٣٣
إِنَّا مَرْسَلُوكَ الْفَأَقِمْ وَفَنَّا لَهُمْ فَأَنْتَ بِهِمْ وَاصِطِرٌ ٣٤

٢٨ - وأخبرهم بهذا الخبر الهام ذي الشأن الشديد عليهم، أن الماء قسمة بين الناقة وبينهم: لها يوم لا يشاركونها فيه، ولهم يوم لا تشاركهم فيه، كل نصيب من الماء يحضره من كانت نوبته.

٢٩، ٣٠ - فنادى كفار ثمود صاحبهم المشارك لهم في سفاهتهم، مُحَرِّضِينَ إِيَّاهُ عَلَى التَّخْلُصِ مِنَ النَّاقَةِ، فأَسْرَعَ عَقْبَ مَنَادَةِ قَوْمِهِ، فتناول سلاحه بخفة، وأقبل يمشي على رؤوس أصابع رجليه، ماذا يذيه بسلاحه إلى الأعلى، وأقبل بجراً إلى الناقة، فقطع أولاً أحد قوائمها حتى سقطت على الأرض، وعقرها ثانياً فذبحها. فعاقتهم، فعلى أي حالة كان عقابي لهم، وإنذاري؟

٣١ - إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة، صاحبها بهم جبريل، فأهلكهم في مكان تجمعهم، ولم تسمح لهم بأن يتفرقوا، فكانوا كأكوام الثبت اليابس المتكسر بعضه فوق بعض في حظيرة صاحب دواب، تدوسه الدواب بأرجلها، وتلقي ما تلقي عليه من فضلاتها.

٣٢ - والله لقد سهلنا القرآن للعظة والاعتبار، فهل من مُتَعِظٍ به؟

٣٣، ٣٤ - كذبت قوم لوط بإنذارات رسولهم المعجّلة في الحياة الدنيا، والمؤجلة إلى يوم الدين. إنا أرسلنا عليهم ريحاً شديدة بلغت من شدتها أن تحمل الأحجار الصغيرة من الأرض، وترميها في الجو، ثم تهوي بها على من نريد تعذيبهم، إلا لوطاً وابنتيه، نجّيناهم من العذاب في آخر الليل.

٣٥ - نجّينا آل لوط نجاة نعمة منا عليهم، كما أنعمنا على آل لوط، كذلك تجزي من شكر نعمتنا بالإيمان والطاعة.

٣٦ - ونؤكد تأكيداً بليغاً أن لوطاً خُوفَ قَوْمَهُ بأننا سنبتش بهم بطشة انتقام كبرى، إذا لم يقلعوا عما هم فيه من كفر وفحش، فكذبوا بالإنذارات التي كرّرها عليهم لوط.

٣٧ - ونؤكد أيضاً تأكيداً بليغاً أنهم طلبوا منه أن يُسَلِّمَ إِلَيْهِمْ أضيافه؛

ليفعلوا الفاحشة بهم، فصيرنا أعينهم كسائر الوجه، لا يرى لهم شق، فذوقوا عذابي وما أنذركم به لوط من العذاب. ٣٨، ٣٩ - ونقسم مؤكداً أنه جاءهم في وقت الصبح عذاب دائم استقر فيهم، حتى أفضى بهم إلى عذاب الآخرة، فتجرّعوا عذابي وما أنذركم به لوط عليه السلام.

٤٠ - والله لقد سهلنا القرآن للعظة والاعتبار، فهل من مُتَعِظٍ به؟!

٤١ - ونقسم مؤكداً أنه جاء أتباع فرعون وقومه إنذارنا بالعقوبات المُعَجَّلَات في الدنيا، والمؤجلات إلى يوم الدين.

٤٢ - كذب فرعون وجنوده وأتباعه من شعب مصر بآياتنا ومعجزاتنا كلها، التي أجريناها على يد موسى عليه السلام، فأخذناهم بالعذاب أخذ قوي غالب في انتقامه، ذي قدرة بالغة على إهلاكهم.

٤٣ - أكفأكم - يا معشر قريش - خير من كفار أهل القرون الأولى الذين أحللت بهم نعمتي، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون؟ بل الكفأكم خلاص وسلامة من العذاب في الكتب المنزلة على الأنبياء، بأنه لن يصيبكم ما أصاب الأمم الخالية؟ فسنة الله في عباده واحدة، فلا فضل لفريق منهم على فريق آخر بعنصر، أو لون، أو لغة، أو أرض.

٤٤ - بل أيقول كفار مكة: نحن يد واحدة على من خالفنا، منتصرون ممن عادانا؟

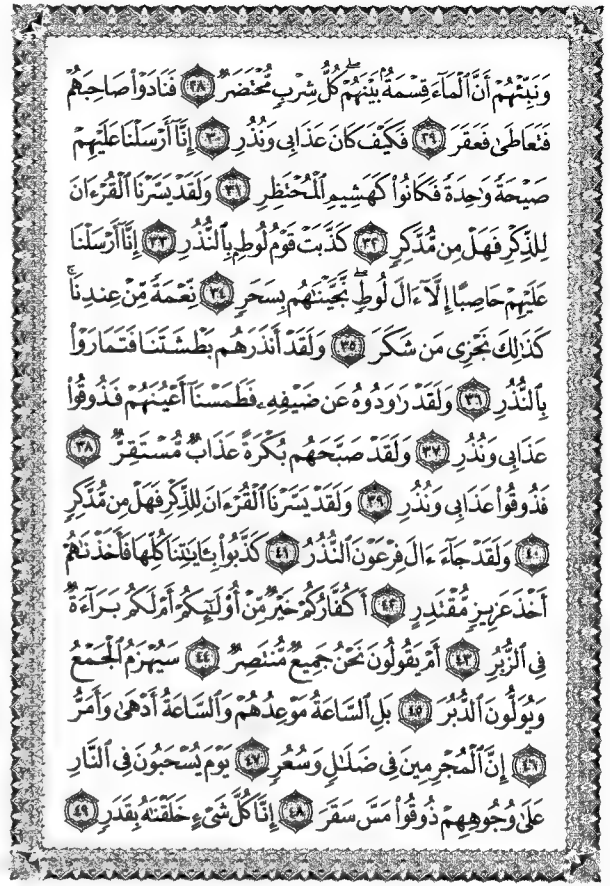
٤٥ - لانصر لهم في الدنيا، سيُهْزَم كفار مكة، ويُولَوْنَ الأدبار، وقد كان ذلك يوم «بدر»، ولا نجاة لهم في الآخرة.

٤٦ - بل ساعة البعث للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، موعد عذابهم في جهنم، وهذا العذاب أعظم داهية، وأشد مرارة ممّا سيصيبهم من عذاب الدنيا.

٤٧ - إن الذين كذبوا رسل ربهم مُنْغَمِسُونَ في بُعْدٍ عَنِ الْحَقِّ، وعناء وعذاب نفسي دائم، وجنون.

٤٨ - اذكر يوم يُجْرُونَ في النار على وجوههم، ويقال لهم: قاسوا - أيها المكذبون - آلام جهنم وتحسّسوا حرارتها.

٤٩ - إنا كل شيء خلقناه بمقدار مُحدّد لكل عنصر فيه، ولكل صفة فيه، فما من شيء صغير أو كبير إلا خلقه الله بقدر مُحدّد معلوم.



٥٠ - وما أمرنا شيء إذا أردنا تكوينه إلا كلمة واحدة، وهي: «كن»، فيكون، لا مراجعة فيه، ولا حاجة إلى تكرير القول، ينفذ أمرنا بأسرع من لمح البصر.

٥١ - ونقسم مؤكدين أننا أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر من الأمم السالفة، واعلموا أنكم إذا وصلتم إلى مثل ما وصل إليه المهلكون السابقون، فإننا سننزل بكم إهلاكاً عاماً شاملاً، مماثلاً لما أنزلناه بالمجرمين السابقين، فهل من متذكر بما حلّ بهم من العذاب، فيخاف ويعتبر؟

٥٢ - وكل شيء فعله الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الابتلاء مكتوب ومحفوظ في كُتب الحَفَظَةِ، فلا تظنوا أن أفعالكم متروكة منسيّة، ليس وراءها حساب، وفصل قضاء، وتنفيذ جزاء.

٥٣ - وكل صغير وكبير في الوجود، ما كان ومضى، وما هو كائن، وما سيكون في المستقبل، مكتوبٌ ومُسجَلٌ تسجيلاً ثابتاً لا يتعرّض للتآكل والمحو مهما تطاولت الأزمان به.

٥٤، ٥٥ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي بساتينٍ عظيمة، وأنهارٍ جارية يوم القيامة، في مكانٍ إقامة مريحة مطمئنة، مُقَرَّبِينَ عند عظيم الملك، المتصرف بالأمر والنهي في عبادته، ذي القدرة الكاملة.

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

١، ٢ - الرَّحْمَنُ الَّذِي وسعت رحمته الكون كله، علّم القرآن المنزل على الرسول محمد ﷺ، بتيسير تلاوته وحفظه وفهم معانيه، وذلك أن الله عز وجل عدّد مظاهر رحمته ونعمه على عباده، فقدّم أعظمها نعمة وأعلاها رتبة، وهو القرآن العزيز.

٣، ٤ - خَلَقَ الْإِنْسَانَ، علّمه النطق بالكلام، والإنهام بالقلم، وعن طريق البيان المنطوق والمكتوب، انتشرت العلوم والمعارف ودوّنت، وعبر الناس عمّا يختلج في نفوسهم وأفكارهم ومشاعرهم ممّا يريدون إعلام الآخرين به، مهما تباعدت بينهم المسافات المكانية والزمانية.

٥ - الشمس والقمر مُقَدَّرَان في كتلتيهما وحركتيهما تقديراً غاية في الدقّة والإنقان، يجريان مُتعاقِبَيْن بحساب معلوم مُقدّر، ومنازل لا يتعدّيانها. وهذا التقدير المُحكم الدقيق ظاهرة عامة في كل المخلوقات، وإنما خصّ البعض بالذكر ليدلّ به على الكل.

٦ - والنبات الذي لا ساق له، والشجر الذي يقوم على ساقه، ينقادان لله تعالى فيما يريد بهما؛ كاتقياد الساجد. فكل مخلوق في هذا الوجود لا بدّ أن يتّجه نحو خالقه، وليس ذلك خاصاً بالنجم والشجر، وإنما اكتفى بذكر البعض هنا ليدلّ به على الكل كما في الآية السابقة.

٧ - والسّماء رفعها فوق الأرض بغير عمد يرونها، وأقام بناء الكون على توازن دقيق يسمح له بالبقاء والاستمرار، ووضع في الأرض العدل وأمر به؛ ليستقيم أمر العالم.

٨، ٩ - لئلا تتجاوزوا حقوقكم إلى حقوق غيركم إذا وزنتم لأنفسكم، وأقيموا لسان الميزان بالعدل، ولا تُنقصوا في الكيل والوزن إذا وزنتم للناس. وفي الآية: وجوب العدل في الوزن وتحريم البخس فيه.

١٠ - والأرض بسطها ومهدّها للمخلوق الذين بثّهم على ظهرها، وجعلها وافيةً بحاجاتهم.

١١، ١٢ - في الأرض أنواع كثيرة من الفاكهة، والنخل ذات الأوعية التي فيها الثمر، وذات الليف الذي تلفّ به النخلة، وفي الأرض الحبّ الذي يُقَثّات به، ذو الورق والتبن؛ رزقاً لكم ولأنعامكم، وفيها كل نبت مشوم طيب الرائحة.

١٣ - فَبِأَيِّ فِعَالٍ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ، ونعمه الدنيّة والدنيوة - يا معشر الجنّ والإنس - تُكذِّبان؟ وكُرّر هذه الآية في السورة في واحدٍ وثلاثين موضعاً تقريراً لفعاله العجيبة، وتأكيداً في التذكير بها، وإقامة للحجّة عليهم عند جحودها.

١٤، ١٥ - خَلَقَ اللَّهُ أَبَا الْإِنْسَانِ، وهو آدم من طين يابس له صلصلة، إذا نقرته صوتٌ من يُيسه، وهذا الصلصال يشبه الفخار إذا يس، إلا أنه ليس فخاراً، لأنّ الفخار مطبوخ بالنار، بخلاف الصلصال فهو طين يابس غير مطبوخ بالنار، وخلق أبا الجنّ من لَهَب النار المتموج المُختلط ببعضه بعض.

١٦ - فَبِأَيِّ فِعَالٍ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ - يا معشر الجنّ والإنس - تُكذِّبان؟ وينبغي للعبد إذا ثلّبت عليه هذه الفعال العجيبة، والشؤون الغريبة، أن يجيب كما أجابت الجن حين قالوا: «لا شيء من آلائك ربّنا نكذب، فلك الحمد».

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾
عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ
وَالشَّجَرُ سَجْدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾
أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾
فِيهَا فَتَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ
وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ
مِنْ مَارِجٍ مِنْ تَارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿١٦﴾

١٧ - هو سبحانه ربُّ مشرق الشمس والقمر وما فيهما من الظهور واليبان، ومغرب الشمس والقمر وما فيهما من العتمة والظلام.

١٨ - فبأيِّ فِعَالِ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ وَنَعِيمِهِ - أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ - تُكَذِّبَانِ؟!

١٩ - ٢١ - أرسلَ اللهُ سبحانه ماءَ البحرينِ الملحَيْنِ المختلفَيْنِ في خصائصهما في حالي ذهاب وإياب، واختلاط واضطراب، بينهما حاجز يمنع كلا منهما أن يطغى ويتجاوز حدَّه، وهذا الحاجز هو ماء ثالث يختلف في خصائصه عن كلٍّ من البحرينِ المتمايزين من حيث الملوحة والحرارة والأحياء المائية، وهو يتحرك بين البحرينِ المتجاورين، ويخلط بعضهما ببعض ببطء شديد، ويقلب المياه العابرة من بحر إلى بحر، لتكسب المياه المنتقلة من بحر إلى آخر صفات البحر الذي ستدخل إليه، وتفقد صفات البحر الذي جاءت منه، فبأيِّ فِعَالِ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ وَنَعِيمِهِ - أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ - تُكَذِّبَانِ وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ هَذِهِ الْقُدْرَةَ الْفَائِقَةَ وَالنَّعْمَةَ الْكَبِيرَةَ فِي شَأْنِ هَذَيْنِ الْبَحْرَيْنِ؛ إِذْ يَلْتَقِيَانِ وَلَا يَتَّيْنَانِ؟!

٢٢، ٢٣ - يخرج من البحرينِ اللؤلؤَ والمَرْجَانَ، تَتَّخِذُونَ مِنْهُمَا جِلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا، فبأيِّ فِعَالِ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ وَنَعِيمِهِ - أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ - تُكَذِّبَانِ؟!

٢٤، ٢٥ - وله سبحانه السُّفُنُ الْكِبَارُ الْمَرْفُوعَاتُ الشُّرُوعُ فِي الْبَحْرِ، كَالْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ، فبأيِّ فِعَالِ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ وَنَعِيمِهِ - أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ - تُكَذِّبَانِ؟!

٢٦ - ٢٨ - كُلُّ مَنْ عَلَى الْأَرْضِ هَالِكٌ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ الْمُتَّصِفِ بِكَمَالِ الْعَظْمَةِ وَالْكَبِيرَاءِ وَالرُّفْعَةِ وَالْمَجْدِ، وَالْمُتَّصِفِ بِكَمَالِ الْفَضْلِ وَالْإِنْعَامِ، الْمُكْرَمِ لِأَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَجَمِيعِ خَلْقِهِ بِلُطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ مَعَ جَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، فبأيِّ فِعَالِ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ وَنَعِيمِهِ - أَيُّهَا الْإِنْسُ

رَبُّ الشَّرْقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْخٌ لَا يَتَّيْنَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْخَوَارِجُ الْمُنْتَثَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَنْفَعُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ بِنَعْمَتِ الْإِنِّسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا وَلَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِإِذْنِ سُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْصُرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ إِذَا أَنْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آيَةِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

وَالْجِنُّ - تُكَذِّبَانِ؟!

٢٩ - يُسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ مَلِكٍ وَإِنْسٍ وَجِنٍّ سَوْألاً مُسْتَمَرّاً بِلِسَانِ الْمَقَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْحَالِ، كُلُّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي وَجُودِهِمْ وَبِقَائِهِمْ، فَلَا يَسْتَغْنِي عَنْ فَضْلِهِ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلُّهُمْ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ: يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعْزِزُ وَيُذَلِّ، وَيَشْفِي وَيُمْرِضُ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ، إِلَى مَا لَا يُحْصَى مِنْ أَعْمَالِهِ فِي خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ.

٣٠ - فبأيِّ فِعَالِ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ وَنَعِيمِهِ - أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ - تُكَذِّبَانِ؟!

٣١ - سَتَقْصِدُ لِحِسَابِكُمْ وَمُجَازَاتِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ الَّتِي عَمِلْتُمُوهَا فِي الدُّنْيَا، أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ. وَهَذَا وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ لِلثَّقَلَيْنِ.

٣٢ - فبأيِّ فِعَالِ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ - أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ - تُكَذِّبَانِ؟!

٣٣ - يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا مِنْ جَوَانِبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَطْرَافِهَا، فَتَفْلُتُوا مِنْ حِسَابِ رَبِّكُمْ، فَاخْرُجُوا، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَّا بِقُوَّةٍ وَقَهْرٍ وَغَلْبَةٍ، وَأَتَى لَكُمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّكُمْ حِيثَمَا تَوَجَّهْتُمْ كُنْتُمْ فِي مَلِكِي وَسُلْطَانِي.

٣٤ - فبأيِّ فِعَالِ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ - أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ - تُكَذِّبَانِ؟!

٣٥، ٣٦ - يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا لَهَبٌ مِنْ نَّارٍ لَا دُخَانَ فِيهِ، وَنَحَّاسٌ مُذَابٌ يُصَبُّ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، فَلَا تَمْتَنِعَانِ مِنَ اللَّهِ، وَلَا يَكُونُ لَكُمْ نَاصِرٌ مِنْهُ. فبأيِّ فِعَالِ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ - أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ - تُكَذِّبَانِ؟!

٣٧، ٣٨ - إِذَا تَصَدَّعَتِ السَّمَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَتَغَيَّرَ لَوْنُهَا مِنْ زَرْقَتِهَا الْمَعْهُودَةِ إِلَى حُمْرَةٍ وَرَدِيَّةٍ، وَتَغَيَّرَتْ بَنِيَّتُهَا إِلَى مَادَّةٍ سَائِلَةٍ كَالدَّهْنِ الذَّائِبِ، وَذَلِكَ حِينَ يَصْلُهَا حَرُّ جَهَنَّمَ، رَأَيْتَ مَا يَذْهَلُ وَيُفْرَعُ، فبأيِّ فِعَالِ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ - أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ - تُكَذِّبَانِ؟!

٣٩، ٤٠ - فَيَوْمَ تَنْشَقُّ السَّمَاءُ، وَيَتَهَيَّي نِظَامُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ. وَنَفْيُ السُّؤَالِ هُنَا عِنْدَ انْتِهَاءِ نِظَامِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَا يَتَعَلَّقُ بِالسُّؤَالِ الَّذِي يَكُونُ مَقْدَمَةً لِلْحِسَابِ، وَفَصْلَ الْقَضَاءِ، تَمْهيداً لِتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ، فبأيِّ فِعَالِ رَبُّكُمَا الْعَجِيبَةِ - أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ - تُكَذِّبَانِ؟!



٦٨ - في هاتين الجنتين أنواع الفواكه كلها، ونخلٌ ورمّان.
٦٩ - فبأيِّ فعال ربُّكما العجيبة ونعيمه - يا معشر الإنس والجنّ - تكذِّبان؟!

٧٠ - في هاتين الجنتين زوجات خيرات الأخلاق، حسان الوجوه.
٧١ - فبأيِّ فعال ربُّكما العجيبة ونعيمه - يا معشر الإنس والجنّ - تكذِّبان؟!

٧٢ - حورٌ ملازمات خُدورهنّ، مستورات في الخيام، لا يخرجنّ؛ لكرامتهنّ وشرهنّ، ولا يتطلَّعنّ لغير أزواجهنّ، عفةً، وعشقاَ لهم، وتعلّقاً بهم.

٧٣ - فبأيِّ فعال ربُّكما العجيبة ونعيمه - يا معشر الإنس والجنّ - تكذِّبان؟!

٧٤ - لم يَطأ هؤلاء الحور إنسٌ قبل أزواجهنّ من أهل الجنة ولا جانٌ.

٧٥ - فبأيِّ فعال ربُّكما العجيبة ونعيمه - يا معشر الإنس والجنّ - تكذِّبان؟!

٧٦ - مُتَكِنين على وسائد ذوات أعطية خضر، وطنافس حسانٍ عجيبة الصنع.

٧٧ - فبأيِّ فعال ربُّكما العجيبة ونعيمه - يا معشر الإنس والجنّ - تكذِّبان؟!

٧٨ - تعاضم وتنامى وتزايد فوق كلّ تصوّر تتصوّره المخلوقات كلّها، اسمُ ربِّك، المتّصف بكمال الشرف والعظمة والرّفعة والمجد، والمتّصف بكمال الإكرام في عطايه وهباته، ومنجيه وجوده وإحسانه.

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

فِيهِمَا فَكَّهُهٗ وَنَخْلٌ وَرَمَّانٌ ﴿١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢﴾
فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤﴾
مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦﴾
لَمْ يَطْمِئِنَّ عَنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨﴾
مُتَكِّينَ عَلَى رَقَرٍ خَضِرٍ وَعَبَقَرٍ حِسَانٍ ﴿٩﴾ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٠﴾ نَبِّذْنَاكَ أَنْتُمْ رَّبِّكَ ذِي الْمُلْكِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١١﴾

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾
إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥﴾
فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ
الْمِمْنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمِمْنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ
الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾
فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾
عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَنِّيلِينَ ﴿١٦﴾

١ - ٣ - إذا حدثت الحادثة العظمى، وقامت القيامة، ليس بعد مجيئها نفسٌ كاذبة، لأنها تكون مشهودة لجميع الخلائق، تخفض أقواماً إلى الدرجات المنحطّات في النار، وترفع أقواماً إلى الدرجات الصّاعداً في الجنة.

٤ - ٦ - تكون هذه الواقعة الكبرى، ذات الظواهر الكونية العظمى، إذا حُرّكت الأرض وزُلزلت زلزالاً شديداً، وقُتّتت الجبال إلى أجزاءٍ صغيرة جداً تفتتتاً شديداً، فصارت الجبال غباراً متفرّقاً في الجو، كالذي يرى في شعاع الشمس إذا دخل الكوة.

٧ - وصرتم - أيها الناس - جميعاً بعد فرزكم في موقف الحشر يوم الدين، أصنافاً ثلاثة: هم المؤمنون أصحاب الميمنة، والكافرون أصحاب المشأمة، والسابقون المقربون ذوو الدرجات العلية من المؤمنين.

٨ - فأصحاب اليمين، أهل المنزلة العالية، الذين يُؤْتَوْنَ صحائفهم بأيّمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين إلى جهة الجنة، ويوضعون على يمين العرش، ما أعظم مكانتهم!!

٩ - وأصحاب الشمال، أهل المنزلة الدنيئة، الذين يُؤْتَوْنَ كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال إلى جهة النار، ويوضعون على يسار العرش، ما أسوأ حالهم!!

١٠ - ١٢ - والسابقون إلى الخيرات في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات في الآخرة، أولئك ربيع المنازل هم المقربون من الله في جواره، وفي ظلّ عرشه ودار كرامته في جنّات النعيم.

١٣، ١٤ - هؤلاء المقربون جماعة غير محصورة العدد من الأمم الماضية من لدن آدم إلى زمن نبيّنا محمد ﷺ، وقليل من الآخرين من هذه الأمة بالنسبة إلى الأمم السابقة.

١٥، ١٦ - مُستقرّين على سُررٍ منسوجة نسجاً مضاعفاً، ومطعمّة بالجواهر النفيسة، وخيوط الذهب وأسلاكه، جالسين بتمكّن، على السُرر الوثيرة في راحة وسرور، متقابلة وجوههم، زيادة في المحبة.

١٧ - ١٩ - يدور حولهم للخدمة غلمانٌ مُخَلَّدون لا يموتون ولا يهرمون، ولا يتغيرون ولا ينتقلون من حالة إلى حالة، بأقداح لا عروة لها ولا خرطوم، وأباريق ذوات الخراطيم والعرا، تبرق من صفائها ونفاستها، وكأس مملوءة من نهر خمر يجري في الجنة ظاهراً، يسهل تناول منه، لا تُصدع رؤوسهم من شربها، ولا ينفد شربهم.

٢٠، ٢١ - ويطوف عليهم الولدان المُخَلَّدون بفاكهة مما يتخيرون من ثمرات أشجار الجنة، ولحم طير مما يتمنون من أصنافها وأنواعها.

٢٢ - ٢٤ - ولهم حورٌ بيض جميلات واسعات العيون، ألوان بشرتهن ونعومتها كأمثال اللؤلؤ المخزون في الصدف المصون الذي لم تمسه الأيدي، ولم تقع عليه الشمس والهواء، فيكون في نهاية الصفاء. فعلنا ذلك بهم؛ ثواباً بسبب ما كانوا يعملون في الدنيا بطاعتنا.

٢٥، ٢٦ - لا يسمعون في الجنة كلاماً لا ينفع، ولا حديثاً يائس سامعه، ولكن يقولون قولاً يسلم من اللغو والتأنيث، ويسلم الله عليهم والملائكة، ويسلم بعضهم على بعض.

٢٧ - وصنّف أصحاب اليمين، لا يعلم أحد ما جزاء أصحاب اليمين مما يفوق التصور والتخيل؟

٢٨، ٢٩ - يكون أصحاب اليمين في جنات النعيم يوم الدين في محيط بهم من شجر الثبق الذي لا شوك فيه، وشجر من الموز مُترابك بعضه فوق بعض بأنساقٍ بديع، وتراصف مُنظم.

٣٠، ٣١ - وظلٌ دائم لا انقطاع له، وشامل لا تعرف له حدود، وماءٌ مضبوب يجري من تحت قصور أهل الجنة أنهاراً.

٣٢ - ٣٤ - وفاكهة كثيرة الأنواع والأصناف، لا مقطوعة إذا جُنِثت، ولا ممنوعة من أحد إذا أراد أخذها، بل هي مبدولة لهم دوماً، وفي تناول أيديهم، وفرش مرفوعة عالية على مواضعها من الأسرة النفيسة، مهيئة للضجوع عليها، مع من يكن عليها من الحور العين.

٣٥ - ٣٨ - إنا خلقنا نساء أهل الجنة من الآدميات خلقاً جديداً بعد الكبر والهرم، فجعلناهن عذارى لم تُفْتَض بكارتهن، مُتَحَبَّبات إلى أزواجهن، حريصات على إسعادهن، مُستويات في السن، أنشأناهن لأصحاب اليمين، إكراماً لهم، وإنعاماً منا عليهم.

٣٩، ٤٠ - أصحاب اليمين جماعة كثيرة من المؤمنين قبل هذه الأمة، وجماعة كثيرة من مؤمني هذه الأمة.

٤١ - وصنّف أصحاب الشمال الذين يُعطون كتبهم بشمائلهم، لا يعلم أحد ما هم فيه من العذاب.

٤٢ - ٤٤ - يكون أصحاب الشمال في جهنم يوم الدين في محيط من ريح حارة تدخل مسام البدن، وتفعل فيه فعل السم، وماءٍ حار يغلي، وظلٌ من دخانٍ شديد السواد، لا بارد يُستروح به، ولا نافع لمن يأوي إليه من أذى الحر.

٤٥، ٤٦ - استحقوا ذلك العذاب؛ لأنهم كانوا قبل ذلك في رحلة ابتلائهم في الحياة الدنيا مُنعمين، لم يشكروا نعم الله عليهم في الحياة الدنيا بالإيمان به سبحانه رباً واحداً لا شريك له، وكانوا يُصمِّمون على الإثم العظيم، وهو الكفر.

٤٧، ٤٨ - وكانوا يقولون إنكاراً للبعث: إذا مِتْنَا وَصِرْنَا بعد الموت تُراباً متفرقاً في الأرض، وعظاماً بالية، إنا لعائدون إلى الحياة ثانياً؟! أنبعث نحن وآباؤنا الأقدمون الذين صاروا تراباً متفرقاً في الأرض!؟

٤٩، ٥٠ - قل - يا رسول الله ويا كلُّ داعٍ إلى الله من أمته - لهؤلاء المكابرين: إنَّ الأولين من عهد آدم حتى عصرنا الحاضر، والآخرين من عصرنا الحاضر حتى آخر إنسان على وجه الأرض، لمَبْعُوثُونَ للحياة الأخرى بعد موتهم، ولمجموعون في المحشر، مسوقين إلى ميقات حسابهم في يومٍ معلوم قد حدّد الله عزَّ وجلَّ زمانه ومكانه.

سورة الواقعة

سورة الواقعة

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١﴾ يَا كُوفٍ وَابَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٢﴾ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَزْفُونَ ﴿٣﴾ وَفَكَهْهَ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٤﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٦﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكُونِ ﴿٧﴾ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا ﴿٩﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿١٠﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿١١﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿١٢﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿١٣﴾ وظلٌّ ممدودٍ ﴿١٤﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿١٥﴾ وَفَكَهْهَ كَثِيرٍ ﴿١٦﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿١٧﴾ وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴿١٩﴾ فجعلناهن أنثى ﴿٢٠﴾ أَتْكَارًا ﴿٢١﴾ غُرَابًا تَرْابًا ﴿٢٢﴾ لَا صَحْبَ الْيَمِينِ ﴿٢٣﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأُولَى ﴿٢٤﴾ وَثَلَاثٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٢٦﴾ فِي سُورٍ وَحْمِيرٍ ﴿٢٧﴾ وظلٌّ من يحومر ﴿٢٨﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٣٠﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٣١﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ۖ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٣٢﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٣٤﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٥﴾

٥١ - ٥٥ - ثُمَّ إِنَّكُمْ - أَيُّهَا الضَّالُّونَ عَنِ الْهُدَى، الْمُكَذِّبُونَ بِالْبَعثِ - لَأَكُونُ فِي جَهَنَّمَ مِنْ نَوْعِ شَجَرٍ، يُقَالُ لَهُ: «زُقُومٌ»، كَرِيهِهِ الْمَنْظَرُ وَالرَّائِحَةُ، فَمَا لَؤُونَ مِنَ الْأَكْلِ مِنْ ثَمَرِهَا بِطَوْنِكُمْ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، فَشَارِبُونَ عَلَى مَا تَأْكُلُونَ مِنْ هَذَا الشَّجَرِ مَاءً مَتْنَاهُ فِي الْحَرَارَةِ، لَا يَرَوِي ظَمَأً، فَشَارِبُونَ مِنْهُ بِكَثْرَةٍ، كَشَرَبِ الْإِبِلِ الْعَطَاشِ الَّتِي لَا تَرَوِي بِشَرَبِ الْمَاءِ.

٥٦ - هَذَا الَّذِي ذُكِرَ مِنْ أَلْوَانِ الْعَذَابِ ضِيافَتُهُمُ الَّتِي يُسْتَضَافُونَ بِهَا فِي جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابِهِمْ.

٥٧ - نَحْنُ وَحَدَّثْنَا بِعَظَمَتِنَا خَلْقَنَّاكُمْ - أَيُّهَا النَّاسُ - وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئاً، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ، فَهَلَّا تُصَدِّقُونَ بِالْبَعثِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

٥٨، ٥٩ - أَنْفَكْرْتُمْ تَفْكِيراً سَدِيداً بَأْنَاءً وَعَمَقٍ، حَتَّى أَدْرَكْتُمْ إِدْرَاكاً عِلْمِيّاً يُشَبِّهُ الرُّوْيَةَ الْبَصَرِيَّةَ مَا تُصْبُونَ فِي الْأَرْحَامِ مِنَ الْطُّفْلِ؟ أَلَنْتُمْ تَخْلُقُونَ مَا تُنْمُونَ بِشَرّاً؟ أَمْ نَحْنُ - لَا غَيْرُنَا - الْخَالِقُونَ؟ وَخَلَقَ الْبَشَرُ مِنَ الطُّفْطَةِ الْمُنَوَّيَّةِ هِيَ الظَّاهِرَةُ الْكُونِيَّةُ الْأُولَى الدَّالَّةُ عَلَى رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ لِكُونِهِ، وَعَظِيمُ قُدْرَتِهِ وَإِتْقَانِهِ.

٦٠، ٦١ - الظَّاهِرَةُ الْكُونِيَّةُ الثَّانِيَّةُ: الْمَوْتُ الَّذِي لَا مَفْرَاحَ لِحَيٍّ مِنْهُ: نَحْنُ جَعَلْنَا مَوْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مُقَدَّراً بِالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، وَالْأَسْبَابِ، فَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْكُمْ زَمَاناً مَا، وَلَا يَتَقَدَّمُ مَوْتَهُ زَمَاناً مَا مَهْمَا قُلَّ، وَالْمَكَانَ الَّذِي حَدَّدْنَاهُ أَنْ يَمُوتَ فِيهِ لَا بَدَّ أَنْ يَمُوتَ فِيهِ. وَمَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ عَاجِزِينَ، وَلَا تَوْجِدُ فِي الْوُجُودِ قُدْرَةَ تُغَيِّرُ مَا قُدَّرْنَاهُ فِي قَضِيَّةِ الْمَوْتِ زَمَاناً، وَمَكَاناً، وَسَبَباً، وَلَا فِي غَيْرِ قَضِيَّةِ الْمَوْتِ، بَلْ نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُحْيِيَكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ، وَنَجْمِعَكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ، فَنَبْدِلُ نَظِيرَ صِفَاتِكُمْ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا، وَنَنْشِئُكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ مِنْ صِفَاتِ تِلْكَ النَّشْأَةِ.

٦٢ - الظَّاهِرَةُ الْكُونِيَّةُ الثَّالِثَةُ: نَشْأَةُ الْحَيَاةِ الْأُولَى: وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ الْخَلْقَةَ

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ
فَمَا لَؤُونَ مِنْهَا الْبَطُونُ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَرِبُونَ
شَرِبَ الْهَمِيمِ هَذَا نَزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا
تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ
عَلَى أَنْ نُبْدِلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ
عَلَّمْنَا النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْمِلُونَ
أَفَرَأَيْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
حُطّاً فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمَعْرِضُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ
أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ
نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرَةً وَنَتَعَلَّ لِلْمُؤْمِنِينَ
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ فَلَا أَقْسَمُ
بِمَوْقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ

الأولى عن طريق أشباهكم ونظرائكم، فهَلَّا تَذْكُرُونَ بَأْنِي قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ كَمَا قَدَرْتُ عَلَى إِبْدَانِكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

٦٣ - ٦٧ - الظَّاهِرَةُ الْكُونِيَّةُ الرَّابِعَةُ: إِتْقَانُ صَنْعِ النَّبَاتِ: أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَثِيرُونَ مِنَ الْأَرْضِ، وَتَلْقُونَ فِيهِ الْبَذَرَ؟ أَأَنْتُمْ تُثْبِتُونَهُ وَتُنْمُونَهُ حَتَّى يَشْتَدَّ وَيَقُومَ عَلَى سَاقِهِ، وَيَبْلُغُ غَايَتَهُ؟ أَمْ نَحْنُ الْمُثْبِتُونَ لَهُ؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا ذَلِكَ الزَّرْعَ مَتَكْسِراً مُتَفَتِّتاً لَشِدَّةِ يُسِّهِ، لَا نَفْعَ فِيهِ، فَدُمْتُمْ تَنْدُمُونَ، وَتَقُولُونَ: إِنَّا لَخَاسِرُونَ بِذَهَابِ الْحَبِّ الَّذِي بَذَرْنَاهُ بِغَيْرِ عَوْضٍ، بَلْ نَحْنُ حُرْمُنَا الَّذِي كُنَّا نَطْلُبُهُ مِنَ الرِّيحِ فِي هَذَا الزَّرْعِ.

٦٨، ٦٩ - الظَّاهِرَةُ الْكُونِيَّةُ الْخَامِسَةُ: الْمَاءُ وَإِنْزَالُهُ مِنَ السَّحَبِ: أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الْعَذْبَ السَّائِغَ الَّذِي تَشْرَبُونَ مِنْهُ؟ أَخْبَرُونِي! أَأَنْتُمْ دَبَّرْتُمْ نِظَامَ تَصْعِيدِهِ مِنَ الْمَحِيطَاتِ الْمَرَّةِ الْمَالِحَةِ، وَتَكُونُهُ سُحُباً فِي الْأَجْوَاءِ، وَإِنْزَالُهُ طَهُوراً نَقِيّاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ؟ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَهُ بِقُدْرَتِنَا؟ رَحْمَةً بِكُمْ؟

٧٠ - لَوْ نَشَاءُ صَبَّرْنَاهُ شَدِيدَ الْمَلُوحَةِ لَا يُسَاقُ، فَهَلَّا تَشْكُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.

٧١، ٧٢ - الظَّاهِرَةُ الْكُونِيَّةُ السَّادِسَةُ: النَّارُ وَتَخْزِينُهَا فِي الْأَشْجَارِ: أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُوقِدُونَ؟ أَأَنْتُمْ خَلَقْتُمْ ضَمْنَ نِظَامِ الْإِحْدَاتِ الْمَصْحُوبِ بِالتَّكَامُلِ الْمَتَدَرِّجِ شَجَرَتِهَا الَّتِي تُوقَدُ مِنْهَا النَّارُ؟ أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ لَهَا كَذَلِكَ؟

٧٣ - نَحْنُ جَعَلْنَا نَارَ الدُّنْيَا تَذَكُّرَةً لِلنَّارِ الْكُبْرَى فِي الْآخِرَةِ، يَتَّعِظُ بِهَا الْمُؤْمِنُ، وَبُلْغَةً وَمَنْفَعَةً لِلْمَسَافِرِينَ النَّازِلِينَ فِي الْفَقْرِ مِنَ الْأَرْضِ، إِذْ تَكُونُ النَّارُ مَتَاعاً لَهُمْ، لِدَفْئِهِمْ، وَطَهُوْ طَعَامِهِمْ. وَهِيَ أَيْضاً مَتَاعٌ لَغَيْرِ الْمَسَافِرِينَ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الْعَنَاءِ بِالْمَسَافِرِينَ ذَوِي الْحَاجَاتِ الطَّارَةِ، يَدُلُّ عَلَى الْعَنَاءِ بِذَوِي الْحَاجَاتِ الْمَتَكْرَرَةِ دَوَاماً مِنْ بَابِ أَوَّلَى، وَهَذَا مِنْ رَوَائِعِ الْإِبْجَازِ فِي الْبَيَانِ الْقَرَّائِيِّ.

٧٤ - وَإِذَا قَدْ عَلِمْتَ - أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي - مَا عُدَّ مِنْ بَدَائِعِ الصَّنْعَةِ، وَجَلَائِلِ النِّعَمِ، وَالتِّي مِنْهَا الظُّوَاهِرُ الْكُونِيَّةُ السَّتُّ الَّتِي بُنِّهَكَ عَلَيْهَا، فَتَزَهُ رَبُّكَ وَقُدْسُهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، قَارِئاً تَسْبِيحَكَ بِاسْمِ مِنْ أَسْمَاءِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ؛ لِأَنَّ عِلْمَ الْخَلَائِقِ لَا يَصِلُ إِلَى إِدْرَاكِ شَيْءٍ مِنْ ذَاتِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، أَمَا أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ، فَيَدْرِكُونَ مِنْهَا عَلَى مَقَادِيرِ اسْتِعْدَادِهِمْ، مَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالَاتِهِ الَّتِي لَا تَنْتَاهِي.

٧٥، ٧٦ - أَقْسَمُ بِمَوَاضِعِ النُّجُومِ وَبُعْدِهَا السَّحِيقِ فِي السَّمَاءِ، وَمَوَاقِعِ سَقُوطِهَا ضَمْنَ حَرَكَتِهَا الْمُنْتَظِمَةِ فِي مَدَارَاتِهَا، الَّتِي لَمْ تَصِلْ مَدَارِكُ الْمُخَاطَبِينَ الْعِلْمِيَّةِ إِلَى مَعْرِفَةِ عَظَمَتِهَا، وَسَيَأْتِي فِي الْقُرُونِ الْلاحِقَةِ مَنْ يَكْتَشِفُ عَظَمَةَ مَوَاقِعِهَا، وَإِنَّ الْقِسْمَ بِمَوَاقِعِ سَقُوطِ النُّجُومِ، وَمَوَاضِعِ بُعْدِهَا السَّحِيقِ فِي السَّمَاءِ، لَقَسَمٌ عَظِيمٌ جَدّاً، لَوْ تَعْلَمُونَ عَظَمَتَهُ لَانْتَفَعْتُمْ بِهِ.

٧٧ - ٧٩ - إنَّ الكتابَ الذي أنزلَ على محمد ﷺ لَقُرْآنٌ بَالِغٌ غَايَةِ الشَّرَفِ، وَجَامِعٌ كُلِّ صِفَاتِ الْمَجْدِ وَالْكَمَالِ، وَمُبْرَأٌ مِنْ كُلِّ النِّقَاطِصِ، فِي كِتَابٍ مَصُونٍ مُسْتَوٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي اللُّوْحِ الْمَحْفُوظِ. لَا يَمَسُّ ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمَكْنُونِ إِلَّا الْمَلَائِكَةُ الْمُوصَفُونَ بِالطَّهَارَةِ مِنَ الشُّرْكِ وَالذَّنُوبِ وَالْأَحْدَاثِ، وَلَا يَمَسُّهُ أَيْضاً إِلَّا الْمُتَطَهِّرُونَ مِنَ الشُّرْكِ وَالْجَنَابَةِ وَالْحَدَثِ.

٨٠ - هذا القرآن الكريم مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّ كُلِّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى قَلْبِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَةَ فِيهِ.

٨١ - اتَّخِصُّونَ هَذَا الْقُرْآنَ بِأَوْصَافٍ فِيهَا اعْتِرَافٌ بِعَظَمَتِهِ وَتَفَوُّقِهِ، عَلَى سَبِيلِ الْمُدَاهَنَةِ، وَلَكِنْ فِيهَا صَرَفٌ عَنِ الْاعْتِرَافِ بِكَوْنِهِ مُنْزَلاً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَتَقُولُونَ: إِنَّهُ سِحْرٌ، أَوْ شَعْرٌ، أَوْ مُكْتَتَبٌ مِنْ كُتُبِ الرِّسَالِ السَّابِقِينَ؟!

٨٢ - وَتَجْعَلُونَ مُقَابِلَ إِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالرِّزْقِ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ بِكِتَابِ رَبِّكُمْ الْمَعْجَازِ، بَدَلُ أَنْ تَشْكُرُوهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ؟!

٨٣ - ٨٥ - إِنْ كُنْتُمْ - أَيُّهَا الْجَاهِدُونَ - غَيْرَ مَرْبُوبِينَ لَنَا، وَلَا مَقْهُورِينَ بِسُلْطَانِنَا؛ فَهَلْ إِذَا بَلَغَتْ الرُّوحُ مَجْرَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنَّفْسِ، وَأَنْتُمْ - يَا أَهْلَ الْمَيِّتِ - تَشَاهِدُونَ مَا يُقَاسِيهِ مِنْ هَوْلِ الْفَرْعِ وَسَكَرَاتِ الْمَوْتِ، أَنْ تَمْسُكُوا رُوحَهُ فِي جَسَدِهِ؟ لَنْ تَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَى الْمُحْتَضَرِّ مِنْكُمْ بِعِلْمِنَا وَقُدْرَتِنَا وَمَلَائِكَتِنَا، وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ.

٨٦، ٨٧ - فَهَلْ إِنْ كُنْتُمْ - كَمَا تَزْعُمُونَ - غَيْرَ مُحَاسِبِينَ وَمَعْجِزِينَ، تَرُدُّونَ رُوحَ هَذَا الْمَيِّتِ إِلَى جَسَدِهِ بَعْدَمَا بَلَغَتْ الْحُلُقُومَ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ أَنَّهُ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ وَلَا إِلَهَ يُجَازِي؟ وَإِذَا لَمْ يُمْكِنْكُمْ ذَلِكَ، فَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمْرَ إِلَيَّ، فَآمَنُوا بِي.

٨٨، ٨٩ - فَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمَيِّتُ مِنْ صِنْفِ الْمُقَرَّبِينَ السَّابِقِينَ، فَلَهُ رَاحَةٌ وَرَحْمَةٌ، وَرِزْقٌ طَيِّبٌ، وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ يُفْضِي إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ. ٩٠، ٩١ - وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمَيِّتُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، فَتَقُولُ لَهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ عَقِبَ مَوْتِهِ: أَمِنْ وَطْمَائِنْتَ، وَتَحِيَّةٌ مُوجَّهَةٌ لَكَ، حَالَةَ كَوْنِكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ.

٩٢ - ٩٤ - وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْمَيِّتُ مِنَ الْمُكْذِبِينَ بِالْبَعْثِ، الضَّالِّينَ عَنِ الْهُدَى، وَهُمْ أَصْحَابُ الشَّمَالِ، فَلَهُ ضِيَافَةٌ أُعِدَّتْ لَهُ فِي جَهَنَّمَ مِنْ مَاءٍ حَارٍ تَنَاهَتْ حَرَارَتُهُ، وَإِدْخَالُ نَارٍ عَظِيمَةٍ، يُحْرَقُ بِهَا، وَيُقَاسَى عَذَابُهَا الشَّدِيدَ.

٩٥، ٩٦ - إِنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، لَهُوَ الْمَسْتَوَى مِنَ الْيَقِينِ الْقَائِمِ عَلَى إِدْرَاكِ الْمَعْلُومِ بِمُخْتَلَفِ الْحَوَاسِ، مِثْلَ يَقِينِ مَنْ دَخَلَ النَّارَ وَذَاقَ آلَامَهَا، وَيَقِينِ مَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَذَاقَ نَعِيمَهَا، فَتَرَاهُ رَبَّكَ الْعَظِيمَ وَقَدْ سَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ، وَادَّكَرَهُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَمَجَّدَهُ بِصِفَاتِهِ الْعَظْمَى.

سُورَةُ الْحَٰدِّثَةِ

١ - نَزَّهَ اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَ أَجْزَاءِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ وَنَجُومٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَجَمِيعَ ذُرَّاتِ الْأَرْضِينَ وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَبِحَارٍ وَشَجَرٍ وَدَوَابٍّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، كُلُّهَا مُسَبَّحَةٌ خَاشِعَةٌ لَجَلَالِ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، مُتَقَادَّةٌ لَهُ، يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَهُوَ الْغَالِبُ الْكَامِلُ الْقُدْرَةُ الَّذِي لَا يُنَازَعُهُ شَيْءٌ، الْحَكِيمُ الَّذِي جَمِيعُ أَفْعَالِهِ عَلَى وَفْقِ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ.

٢ - لَهُ التَّصَرُّفُ الْكَامِلُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، الْغَنِيُّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَكُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، يُحْيِي الْأَحْيَاءَ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَرَتَبِهَا فِي سَلَمِ الْحَيَاةِ، يَنْفُخُ الرُّوحَ فِيهَا، وَيَمِيتُهَا بِنَزْعِ الرُّوحِ مِنْهَا، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِشَاءٌ إِيْجَادُهُ أَوْ إِعْدَامُهُ، أَوْ إِجْرَاءُ أَيِّ تَصَرُّفٍ فِيهِ، عَظِيمُ الْقُدْرَةِ، إِذَا أَرَادَ شَيْئاً كَانَ أَسْرَعَ مَا يَكُونُ.

٣ - هُوَ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِلَا ابْتِدَاءٍ، وَالْآخِرُ بَعْدَ فَنَاءِ كُلِّ أَحَدٍ بِلَا انْتِهَاءٍ، وَالظَّاهِرُ وَجُودُهُ بِالْأَدَلَةِ الْوَاضِحَةِ، الْغَالِبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَالْبَاطِنُ الْمُخْتَجِبُ بِكُنْهِ ذَاتِهِ عَنْ إِدْرَاكِ الْأَبْصَارِ وَالْحَوَاسِ وَالْعُقُولِ، أَقْرَبُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ نَفْسِهِ، بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، الْعَالِمُ بِمَا خَفِيَ مِنَ الْأُمُورِ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مَعْلُومَةٌ مِنْ كُلِّ مَا يُدْرِكُ بِالْعِلْمِ، مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَالْمُسْتَحِيلَاتِ، وَالْجَائِزَاتِ عَقْلاً، وَمَا هُوَ مَوْجُودٌ، وَمَا هُوَ مَعْدُومٌ.



٤ - هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش استواء يليق بجلاله، يعلم ما يدخل في الأرض من المياه والأحياء الكبرى والصغرى حتى «البكتريات»، وما هو أصغر منها، ويشمل الأشعة والحرارة حتى أصغر جزء منها، ويشمل القوى المختلفة، ومنها الجاذبية حتى أقل مقدار منها، وما يخرج من الأرض من الشجر والنبات والعيون والمعادن والأموات إذا بعثوا، ويعلم سبحانه ما ينزل من السماء من المطر والثلج والبرد والشهب وأشعة الشمس والأنوار وأنواع البركات والملائكة، ويعلم كل ما يعرج في السماء صاعداً من الأرض، أو من إحدى السموات إلى ما فوقها، حتى آخر بُعد من أبعاد السموات، من الملائكة والأرواح والدعاء وأعمال العباد، وهو سبحانه معكم بعلمه وقدرته أينما كنتم، والله بما تعملون بصير، فيجازيكم على حسب أعمالكم.

٥ - لله - وحده - ملك السموات والأرض، وإليه - وحده - سبحانه ترجع أمور خلقه، وتنتهي مصائرهم.

٦ - يدخل ظلمة الليل في ضوء النهار، بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب الليل عند تتابع حالات الشروق، فيظهر ضوء النهار، ويدخل ضوء النهار في ظلمة الليل بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب النهار عند تتابع حالات الغروب، وهو سبحانه عليكم بالنيات والسرائر صاحبة الاستقرار في الصدور وداخل النفوس.

٧ - آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ إيماناً صحيحاً صادقاً، وأنفقوا في سبيل الله ابتغاء مرضاته، من المال الذي أعطاكم الله إياه، وجعلكم خلفاء فيه عمن مضى استخلاقاً مؤقتاً، ليس لكم فيه ملك ثابت؛ ليمنحكنكم في تصرفاتكم، وليختبر كيف تكون طاعتكم، فالذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة منكم إيماناً صحيحاً صادقاً، وأنفقوا أموالهم، طيبة بها نفوسهم، ابتغاء مرضاة الله، لهم ثواب كبير.

٨ - وأي عذر لكم في ترك الإيمان بالله، والرسول يدعوكم إلى الإيمان به، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالحجة والبرهان، وقد أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم عليه السلام، بأن الله ربكم لا إله سواه، إن كنتم مؤمنين يوماً ما، فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج، والإعلام ببعثة الرسول ﷺ.

٩ - الله سبحانه الذي يتابع تنزيل الآيات الواضحات من القرآن على عبده محمد ﷺ في نجوم التنزيل؛ ليخرجكم الله بها - إذا استجبت لها، وعملت بما جاء فيها - من ظلمات الشرك والمعاصي والمخالفات إلى نور الإيمان والطاعات والقربات، وإن الله لشديد الرحمة بكم، دائم الرحمة لكم.

١٠ - وما الباعث لكم على ترك الإنفاق في سبيل الله بعد أن آمنتم بالله واليوم الآخر، وعلمتم أن الله هو الرزاق، وأن الله ميراث السموات والأرض، يرث كل من فيهما، وأنتم ميتون تاركون أموالكم لغيركم؟! فالأولى أن تنفقوها فيما يقرّبكم إلى الله، وتستحقون به الثواب. لا يستوي في الفضل منكم من أنفق ماله وقاتل العدو مع رسول الله ﷺ قبل فتح مكة، مع من أنفق ماله وقاتل ماله وقاتل بعد الفتح، أولئك رفعوا المنزلة المنفقون المقاتلون قبل الفتح أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا، وكلا الفريقين وعد الله المثوبة الحسنى، وهي: الجنة، مع تفاوت درجاتهم، والله بما تعملون خبير على سبيل الحضور والشهود، المصاحب لكل أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، فيجازي كل بما يستحق. وفي الآية دليل على أن فضيلة العمل على قدر رجوع منفعة إلى الإسلام والمسلمين.

١١ - من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله صادقاً محتسباً بالصدقة، طيبة بها نفسه، من غير من ولا أذى، فيعطيه ربّه أجره على إنفاقه مضاعفاً، وله فوق المضاعفة أجر نفيس رفيع في الجنة؟ فمن يتعامل مع الله عز وجل بالبذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كمن يعقد عقداً ربوياً مُحقق الفائدة البالغة مضاعفاً كثيرة بالنسبة إلى رأس المال المبدول. وفي الترغيب بهذا التعامل مع الله سبحانه الذي يشبه عقد الربا: استخدام أسلوب التربية بالتحويل لما يحبه الناس من فوائد ربوية لا يبذلون جهداً في الحصول عليها، بل هم يدخرون أموالهم بعقد الربا ضامين السلامة، لثربو بنفسها دون كد ولا تعب في أموال الناس، وتوجيهه لجهة الله عز وجل المالك لكل شيء، الذي لا تفنى خزائنه. وفيه أيضاً استخدام أسلوب التربية بالتصعيد عن الفوائد الهابطة التي تؤخذ من الناس، إلى الفوائد السامية التي يمنحها الله بفضله في العاجلة والآجلة.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣﴾ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِكُمْ وَقَدْ آخَذَ مِنْكُمْ إِبْرَاهِيمُ الْحَقْلَ إِنَّكُمْ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٨﴾

١٢ - اذكر - أيها المخاطب - يوم ترى المؤمنين والمؤمنات على الصراط، حالة كونهم يسعى نورهم لكل واحد منهم أمامهم؛ لكشف طرقاتهم، بحسب مقدار إيمان كل منهم، وما قدم من عمل صالح. ووسيلة بث هذا النور وتوجيهه بأيانهم، وتقول لهم الملائكة قبل الحساب وفضل القضاء: الشيء السار المفرح الذي تبشرون به في هذا اليوم جئات عظيمة معدة لكم تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، لا تخرجون منها أبداً، ذلك الثواب الرفيع هو - وحده - الظفر والريح العظيم.

١٣ - وضع في ذاكرتك - أيها المخاطب - يوم يلقي المنافقون عذابهم في صورة تشبه عملهم في الدنيا، فالجزء من جنس العمل، إذ يتمثل لهم إسلامهم الذي تظاهروا به في الدنيا، بشيء من النور يمشون به خطوات قليلة على الصراط، حتى يظن أحدهم أنه قد أمن ونجا، فبينما هم كذلك ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات كفرهم ونفاقهم. يقول المنافقون والمنافقات يوم القيامة، وهم في الظلمات للذين آمنوا: انتظرونا وتمهلوا قليلاً من أجلنا حتى نستفيد من نور إيمانكم في هذا الظلام الدامس، ونسير كما كنا نسير معكم في الدنيا، فيقول لهم المؤمنون: ارجعوا إلى أعمالكم التي عملتموها في ماضي حياتكم في الدار الدنيا، فالتمسوا نوركم منها إن كان لكم فيها عمل صالح، ولكن أتى لكم ذلك؟ فإنكم لم تعملوا إلا ما يضاعف لكم الظلمات، فلا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا. ففصل بين المؤمنين والمنافقين بحائط بين الجنة والنار، له باب لا يدخله إلا المؤمنون، وهذا السور له باطن وظاهر، أما باطنه وهو ما يقع في جهة المؤمنين ففيه الرحمة في دار النعيم، وأما ظاهره، وهو ما يقع في جهة الكافرين والمنافقين، فيأتي من جهته العذاب في نار جهنم.

١٤ - يُنادي المنافقون من ظاهر السور المؤمنين وهم في باطن السور حين حُجزَ بينهم وبقوا في الظلمات لا نور لهم؛ لأنهم كانوا محرومين من الإيمان الصادق في الدنيا: ألم تكن معكم في الدنيا نُصلي ونصوم؟ فلماذا لا نكون معكم في الآخرة؟ فيقول لهم المؤمنون: بلى، لقد كنتم معنا في ظاهر انتسابكم، ولكنكم أهلكم أنفسكم بتعريضها لعقاب الله ونقمته، باختياركم الكفر باطناً، ومخادعة المؤمنين ظاهراً، وانتظرتُم بمحمد ﷺ، وبالمؤمنين الحوادث المهلكة، وشككتُم في نبوته وفيما أوعدكم به، وخدعتكم أطعامكم الفارغة، وأمالكم الكاذبة، وبقيتُم على ذلك، حتى جاءكم الموت، وخدعكم الشيطان بتزييناته ووساوسه عن طريق الأفكار تشكيكاً في دين الله، أو إبطالاً، أو جحوداً به، وعن طريق العواطف استثارة لها، حتى وقعتُم في المعاصي والآثام، وصارت بتكرارها مقبولة مستحسنة في الأفكار، فاستدرجكم إلى الشك في أحكام الله والكفر بها.

١٥ - فالיום لا يُقبل منكم - أيها المنافقون - عوض وبدل؛ بأن تغدوا أنفسكم من العذاب، ولا من الذين كفروا بالله ورسوله كفراً صريحاً، مكانكم الذي تنزلون فيه النار، هي التي تتولى شؤونكم، وبئس المصير النار التي ستصيرون إليها.

١٦ - ألم يحزن الوقت للذين آمنوا أن ترق قلوبهم وتلين وتخضع لذكر الله ومواعظه، وما نزل من القرآن؟ فقد مرت عليهم بعد إيمانهم مدة كافية، كان ينبغي أن يرتقوا فيها من درجة إيمان الوجل والخوف الذي يرافقه قلق واضطراب في القلب إلى درجة إيمان الخشوع وسكون القلب. ولا يكونوا كاليهود والنصارى، فطال عليهم الزمن في النعمة والرفاهية والقوة المادية وارتكاب المعاصي، فأخلدوا إلى الأرض، وابتعدوا عن مهابط رحمة الله، فقست قلوبهم، وجفت منابع الشفقة والرحمة والعطاء لديهم، ولم تؤثر فيهم الموعظ والمذكرات بالله واليوم الآخر، وكثير منهم خارجون عن أمر الله إلى ذركات الكفر بها.

١٧ - اعلّموا أن الله سبحانه يُحيي الأرض بالمطر بعد موتها، فيُخرج النبات بعد ينسها، وكذلك يُحيي الله القلوب الميتة بالإيمان والعبادة والإكثار من ذكره، وتدبر آياته، ومراقبة علمه وعدله وفضله ورحمته، قد بينا لكم الآيات الدالات على وحدانيتنا وقدرتنا؛ رغبة أن تعقلوا عقلاً علمياً، وإرادياً بضبط النفس عن اتباع الأهواء والشهوات والانغماس في المعاصي والمحرمات.

١٨ - إن المتصدقين والمتصدقات، الذين يبذلون أموالهم ابتغاء مرضاة الله في وجوه البر والإحسان، وقدموا مالهم في سبيل الله، خالياً من رياء وحُب شهرة، يُضاعف لهم ثواب ذلك، ولهم عند الله فوق المضاعفة أجر نفيس رفيع في أوصافه.

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
بُشْرَتُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ
آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ سُورٌ لَهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ
الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ
أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا
مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْفَىكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾
اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا
اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهِمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

١٩ - والذين آمنوا بالله ورسله إيماناً صحيحاً صادقاً، أولئك الفضلاء ذوو المنزلة العالية والمكانة الرفيعة هم عظيمو الصدق في أقوالهم وأعمالهم، وكثيرو التصديق عند الله عز وجل، يحملون وظيفة تبليغ الدين، فيشهدون على الناس بتبليغ رسالات ربهم، ويشهدون يوم القيامة على الأمم أن رسلهم قد بلغتهم. ولهم عند ربهم في جنات النعيم أجرهم الكبير، بما قاموا من واجب التبليغ وعملوا من العمل الصالح، ولهم نورهم العظيم على الصراط يوم القيامة. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا الكونية والبيانية والإعجازية والعجزية العقابية، أولئك البعداء المنحطون إلى جهة الدرك الأسفل من النار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء، لا يفارقونها أبداً، كما أنهم صمموا في دنياهم على أن يظلوا أبداً جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكرين لرسالاته.

٢٠ - اعلّموا - أيها الناس - إن مغريات الحياة الدنيا لمن صرفها في غير طاعة الله منحصرة في مجالات خمسة كبرى: الأولى: أنها لعب غير جاد لا حاصل له سوى التعب، والثاني: لهو شاغل عما يعني ويهم، ينقضي عن قريب، والثالث: مظهر جميل تتزينون به، والرابع: تسابق بينكم على حيازة ما به تفتخرون على غيركم، لترضوا ما في نفوسكم من واقع الكبر وحب الاستعلاء، والخامس: مباحاة بكثرة الأموال والأولاد، ويلحق بهم الأنصار والأعوان والأجناد، وما يتعلق بزينة الحياة الدنيا مادياً كان أو معنوياً، مثل الحياة الدنيا كمثل مطر أعجب الزرع نبأته الذي نبت بذلك المطر، ثم يبس بعد مدة قصيرة، فتراه مضطراً بعد خضرته، ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه ويفنى، وبعد الحياة الدنيا تأتي الآخرة، وللناس في الآخرة ثلاثة أنواع من الجزاء: الأول: عذاب شديد خالد للكافرين، والثاني: مغفرة عظيمة من الله للمؤمنين، والثالث: رضوان

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّاهِدَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَسِيحُ فَرَنَّهُ مُمْسِراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَنَعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلُ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ إِنَّكُمْ وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ مَحْتَالٍ فَخُورٌ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْخَبِيرُ ﴿٢٤﴾

من الله لأوليائه وأهل طاعته من الأبرار والمحسنين. وما الحياة الدنيا بما فيها من لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، إلا متاع يتنفع به انتفاعاً مؤقتاً إلى حين، ثم يأتي عليه الفناء والزوال، وهي في حقيقتها غير جديرة بأن يُعْتَرَّ بها، فإذا اغتر بها الجاهل وأثرها على الدار الآخرة، وعصى الله بسببها كانت بالنسبة إليه متاع غرور، لا متاع بلاغ يتبلغ به إلى يوم الخلود يوم الجزاء الأكبر.

٢١ - لتكن مفاخرتكم ومكاثرتكم - أيها الناس - في غير ما أنتم عليه، بل احرصوا على أن تكون مسابقتكم إلى ما يُوجب ستر ذنوبكم، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض، هيئت للذين صدقوا بالله ورسله، ذلك فضل الله وعطاؤه الواسع الذي يؤتيه من يشاء من خلقه، فلا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله تعالى. والله ذو الفضل العظيم على عباده المؤمنين، يزيدهم من فضله عطاء فوق مجازاتهم على إيمانهم، ومضاعفة أجورهم على مقادير أعمالهم في جنات النعيم.

٢٢ - ما نزل من مصيبة، ولا نزل من نعمة في الأرض، ولا في أنفسكم، إلا مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تُخلق الأنفس؛ لنبلوكم بالمصائب والنعيم، إن إثبات ذلك في اللوح المحفوظ - على كثرة - هين يسير على الله عز وجل وليس بعسير، لأنه سبحانه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فهو يكون بأمره التكويني.

٢٣ - أعلّمناكم بذلك؛ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا، ولا تفرحوا بما أعطاكم فرحاً يجركم إلى البطر والاختيال والفخر، فأنتم في حياة امتحان بالمصائب والنعيم، فتقبلوا مصائب المقادير الربانية بالصبر، وتقبلوا نعم المقادير الربانية بالشكر، مبتعدين عن الفرح المبطر الذي يؤلّد في النفس رذيلتي الاختيال والفخر، وذلك بالتكبر على خلق الله، وبالطغيان الذي يؤلّد الشعور بالاستغناء، والله لا يحب كل متكبر بما أوتي من الدنيا، فخور بذلك الذي أوتي على الناس.

٢٤ - هؤلاء المتكبرون هم الذين يبخلون بمالهم، ولا ينفقونه في سبيل الله ووجه الخير، ولا يكفهم أنهم بخلوا به حتى يأمرؤ الناس بالبخل، ومن يدبر مبتعداً عن الإيمان والإنفاق، فإن الله هو الغني بذاته عن عباده، له الغني التام المطلق، المحمود على عظيم صفاته، وجليل نعمه، المستحق بذاته للحمد والثناء، كثير الحمد لأهل طاعته.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ
بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصِيرَةٍ وَرُسُلَهُ
بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمَنْهُمْ مُمْتَدِّ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ
بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً
ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا
رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَأَمُوا بِرُسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِنْ رَحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ
نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ لَتَلَايَعُنَّ
أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٩﴾

٢٥ - نؤكد لكم أننا أرسلنا بعظيم ربوبيتنا رسلنا بالدلالات والآيات
والحجج الواضحات، وأنزلنا معهم الكتاب المتضمن للأحكام
وشرائع الدين؛ لنبين لهم طريق نجاتهم وفوزهم في رحلة امتحانهم
في الحياة الدنيا، وأنزلنا معهم النظم والقواعد والوصايا والأحكام
التي يوصل أتباعها إلى تحقيق العدل، ليتعامل الناس فيما بينهم
بالعدل الذي أمر الله به في كليات الدين العامة، ضمن استطاعة
الناس، فهم مطالبون بتحقيق العدل، أو الاقتراب منه على مقدار
الاستطاعة البشرية، وأنزلنا لهم الحديد فيه قوة شديدة في الجهاد في
سبيل الله لإقامة العدل، وهداية الخلق إلى الحق، بغية رذع الظالمين
الآثمين المعتدين، الذين يظلمون الناس، ويقاومون الحق، ويحمون
أنفسهم بسلطان القوة المادية، وفيه منافع للناس في السلم؛ ليتنفعوا
به في الصناعة المدنية وسائر مصالحهم ومعايشهم، وليرى الله من
ينصّر دينه ورسله بما سمع من الأوصاف الغائبة عنه، فأمن بها، إن
الله قوي لا يقهر، عزيز لا يغالب.

٢٦ - ونؤكد لكم تأكيداً بليغاً أننا أرسلنا نوحاً وإبراهيم عليهما
السلام إلى قومهما، وجعلنا في أولادهما النبوة والكتب المنزلّة، ولا
يعني جعل النبوة والكتاب في ذرية كل من نوح وإبراهيم، صلاح
كل ذريتهما، فبعض هذه الذرية سالكون طريق الهداية، ومن هؤلاء
المهتدين من اصطفى الله منهم أنبياء ومرسلين، وكثير من ذرية نوح
وإبراهيم خارجون عن طاعة الله تعالى خروجاً من دركة الكفر إلى
دون الكفر من المعاصي والآثام حتى أخف دركات الفسق.

٢٧ - ثم بعد مدة متراخية من الزمن أتبعنا على آثار نوح وإبراهيم،
ومن مضى من الأنبياء برسلنا؛ رسولاً بعد رسول إلى أن انتهت
الرسالة إلى عيسى ابن مريم، وآتيناه الإنجيل، وجعلنا بقانوننا

القدري في قلوب الذين اتبعوه على دينه عاطفةً أخص من الرحمة وأشد رقة؛ إذ لا تكاد تكون الرافة مع الكره، وجعلنا في قلوبهم
رقةً وعطفاً، يرحمون بها حتى من يكرهون ويبغضون من الناس، وابتدعوا رهبانية جاؤوا بها من قبل أنفسهم، وحمّلوا أنفسهم
المشاق في العبادة الزائدة، وترك النكاح، واستعمال الخشن في الطعام والمشرب والملبس مع التقلل من ذلك، ما فرضناها نحن
عليهم، لكنهم ابتدعوها طلب رضوان الله، فلم يزغوا تلك الرهبانية حق رعايتها، ولم يحافظوا عليها حق المحافظة، بل ضيعوها في
جملتهم، وضمّوا إليها التلث والاتحاد، وكفروا بدين عيسى، ودخلوا في دين ملوكهم، وأقام فريق منهم على دين عيسى ابن مريم
عليه السلام حتى أدركوا محمداً ﷺ، فأمنوا به، فآتيناه الذين ثبتوا على الدين الصحيح، وعملوا بمقتضى إيمانهم أجراً كبيراً،
ولكنهم كانوا قلة، وكثير منهم خارجون عن طاعة الله، مكذبون بمحمد ﷺ، لم يلتزموا بمقتضيات إيمانهم، فلم جزأهم بالعدل.

٢٨ - يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله، وأتبعوا شرعه: اثبتوا على التقوى والإيمان برسوله محمد ﷺ، يؤتكم نصيبين من رحمته:
نصيباً على الإيمان به ﷺ، ونصيباً على الإيمان بالرسل السابقين، كما أعطى الله مؤمني أهل الكتاب نصيبين من الأجر: أحدهما:
للإيمان بالرسول محمد ﷺ، والآخر: للإيمان بالرسول السابق الذي نسخت شريعته بالشرعية المحمدية، ويجعل لكم نوراً من
الهداية تمشون به في الدنيا، ونوراً تمشون به يوم القيامة، ويغفر لكم ما سلف من ذنوبكم، والله كثير الستر لذنوب عباده، دائم
الرحمة بهم.

٢٩ - جعلنا الأجرين لمن آمن بمحمد ﷺ؛ ليعلم أهل الكتاب - الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وحسدوا المؤمنين - أنه لا أجر ولا
نصيب لهم من فضل الله، وأن الفضل كله بيد الله وحده، يؤتية من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم، يزيدهم من فضله عطاء
فوق مجازاتهم على إيمانهم، ومضاعفة أجورهم على مقادير أعمالهم في جنات النعيم.

١ - قد سمع الله قول (خولة بنت ثعلبة) التي تُراجعك الكلام في أمر زوجها (أوس بن الصامت) الذي ظاهرَ منها، لقوله لها: «أنت عليّ كظهر أمي» في حرمة النكاح، وتشتكي إلى الله شدة حالها وفاقتها ووحدتها، والله يسمع مراجعتكما الكلام، إنَّ الله سميعٌ لمن يُناجيه، ويتضرع إليه، بصيرٌ بمن يشكو إليه، لا تخفى عليه خافية.

٢ - الذين يقولون لنسائهنَّ: أنئنَّ علينا كظهور أمهاتنا - في حرمة النكاح -، ما الزوجات بأمهاتهم على الحقيقة، ما أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم، وإنَّ هؤلاء المظاهرين ليقولون منكراً من القول لا يُعرف في الشرع، وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحقيقة، لا تُعرف صحته، وإنَّ الله لكثير التجاوز عنهم، كثير الستر لهم.

دلَّت هذه الآية على أن الظهار حرام من الكبائر؛ لأن فيه إقداماً على تبديل حكم الله بدون إذن، ومن ثمَّ وجبت فيه الكفارة.

٣ - والذين يمتنعون بلفظ الظهار عن جماع نسائهنَّ، ثم يعودون إلى ما قالوا بالنقض والرفع والإزالة، باستباحة الوطء والملامسة والنظر إليها بشهوة، فعلى الزوج المظاهر - والحالة هذه - كفارة التحريم، وهي: إعتاق رَقبة، عبد أو أمة، قبل المجامعة، فلا يحلُّ للمُظاهر وطء امرأته التي ظاهر منها ما لم يُكفر؛ ذلكم هو حكم الله فيمن ظاهر من زوجه تُصحون به نُصحاً مقرّوناً بما يُثير الرغبة والرغبة في النفس، للارتفاع بالنصح، حتى تركوا - أيها المؤمنون - الظهار وقول الزور، وتكفروا إن وقعتم فيه، ولكي لا تعودوا إليه، والله سبحانه بما تعملون خير على سبيل الحضور والشهود المصاحب لكل أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو مُجازيكم عليها.

٤ - فمن لم يجد رَقبةً يعتقها، فكفارته صيام شهرين مُتتابعين من قبل أن يطأ زوجته، فمن لم يستطع صيام الشهرين لهرم أو مرض مُزمن أو شهوة مفرطة، فكفارته إطعام ستين مسكيناً ما يشبههم. ذلك الفرض الذي فَرَضَناه من كفارة الظهار؛ لِتَصَدَّقُوا الله فيما أمر به، وَتَصَدَّقُوا الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله تعالى. وتلك الأحكام المذكورة هي حدود الله أقامها ليوقف الناس عندها لا يتعدونها، وهو يغضب على مَنْ لا يراعاها ولا يتحرَّج من تجاوزها، وللمجاهدين السَّاترين دلائل الحق عذاب مؤلِّم في النَّار، بتعديهم وعدم إيمانهم، وعدم قوفهم عند حدود الله كالمؤمنين.

٥ - إنَّ الذين استمروا يقفون موقف العداء ضدَّ دين الله وضدَّ رسوله، في السُّر من المنافقين، ويأخذون موقفاً عند الحدِّ الآخر في مواجهة الله ورسوله، أذلُّوا وأخزوا وأهلكوا، كما أخزي مَنْ كان قبلهم من أهل النفاق في أعقاب غزوة بني المصطلق، وقد أنزلنا بشأن الذين أخزوا من قبلهم آيات واضحة في سورة (المنافقون) التي نزلت قبل سورة (المجادلة)، والتي فضحتهم، وأبانت أنهم كاذبون، ولا يفقهون، ولا يعلمون، ولكنهم لم يتعظوا بما حصل لإخوانهم، ولا بالآيات البينات الواضحات المُنزَّلات بشأنهم، وللكافرين عذابٌ مُذِلُّ مُخزٍ، يذهب بعزهم وكبرهم.

٦ - لجميع الكافرين، ومنهم المنافقون الذين يُبطنون الكفر عذابٌ مُذِلُّ مُخزٍ، يومَ يبعثهم الله جميعاً بعد موتهم؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، فيُخبرهم الله عزَّ وجلَّ بما عملوا في الحياة الدنيا من القبائح والذنوب على رؤوس الأشهاد تشهيراً بحالهم، وتشديداً لعذابهم، حفظ الله عليهم أعمالهم، وأحاط بها عدداً، فلم يفته منها شيء، ونسوا ما كانوا يعملون في الحياة الدنيا، والله على كل شيء شهيد مُطَّلِع، حاضرٌ مراقب له مراقبة تامَّة، بعلم محيط شامل، مُدرك لكل صفاته وأحواله وتغيُّراته، لا يخفى عن علمه شيء فليحذر من علم الله وإطلاعه، وحضوره وشهوده الكافرون، وليطمئنَّ بحضوره وشهوده المؤمنون.



٧ - أَلَمْ تَتَفَكَّرْ - أَيُّهَا الْمُخَاطَب - حتى ترى رؤية علمية، أَنَّ الله يعلم جميع المعلومات؟ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ما يقع مِنْ إِسْرَارٍ ثَلَاثَةَ يُسَارِرُ بعضهم بعضاً بالحديث، بحيث لا يسمعه غيرهم إلا هو تعالى رابعهم بالعلم، ولا خمسة إلا هو سبحانه سادسهم، ولا أقل من ثلاثة وخمسة، ولا أكثر من ذلك العدد إلا هو سبحانه معهم بالعلم والقدرة في أي مكان كانوا فيه، ثم يُنَبِّئُهُمْ بما عملوا على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، فيُجَازِيهِمْ عليه؛ إِنَّ الله بكل شيءٍ من أقوالهم ونياتهم وإراداتهم عليم لا تخفى عليه معلومة من كل ما يُدْرِكُ بالعلم، من الواجبات، والمستحيلات، والجائزات عقلاً، وما هو موجود، وما هو معدوم.

٨ - أَلَمْ تَرَ - يا رسول الله - ناظراً إلى اليهود والمنافقين الذين نُهِوا عن الحديث سرّاً فيما بينهم دون المؤمنين، ثم يرجعون إلى المناجاة التي نُهِوا عنها، ويتساورون فيما بينهم بالمكر والكيد للمسلمين، وما يسوؤُهُمْ، ويوصي بعضهم بعضاً بمعصية الرسول ﷺ في أوامره الدينية والإدارية؟

وإذا جاءك - يا رسول الله - المنافقون حيّوك بغير التحية التي جعلها لك، فقالوا كما تعلموا من اليهود: (السّام عليك) - أي: الموت لك -، ويقولون إذا خرجوا من عندك في أنفسهم: لو كان نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول له؟! لكنّ محمداً ليس رسولاً، وليس ما يتلوه كلاماً منزلاً من عند الله!! وغفل هؤلاء المنافقون عن سُنته سبحانه أنه يُمهّل ولا يُعجل لعباده العقاب، وأن الحياة الدنيا مرحلة امتحان، لا مرحلة جزاء، تكفيهم جهنم بما تشتمل عليه من عذاب حالة كونهم يدخلونها يوم الدين، ويحترقون بنارها، فيُثْبِتُ المرجع والمآل الذي سيصيرون إليه في جهنم.

٩ - يا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا بِأركان الإيمان، وعملوا بشريعة الإسلام: لا تسلكوا طريق اليهود والمنافقين، إذا تحدّثتم فيما بينكم سرّاً، فلا تتحدّثوا بما فيه ذنب وظلم، وتجاوز للحدّ المأذون به، ومخالفة لأمر الرسول ﷺ، وتحدّثوا سرّاً - إذا أردتم أن تتناجوا - بالتوسّع في أعمال الخير من نوافل الطاعات، فوق حدود الواجبات، وبالاتزام بفعل الواجبات، وترك المحرّمات، واثقوا الله الذي إليه - وحده - تُجْمَعُونَ بعد بعثكم؛ لتحاسبوا على ما قدّمتم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا.

١٠ - ما التحدّث خفيةً بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ إلا من ترزين الشيطان؛ يُزَيِّنُ ذلك ليدخل الحزن على قلوب المؤمنين، وليس ذلك التناجي بمؤذي المؤمنين شيئاً إلا ما أراد الله تعالى؛ لأنّ الله مُحِبٌّ كَيْدَ الكافرين، ومُبْطِلٌ أعمالهم. وعلى الله - وحده - فليكل المؤمنون أمرهم، ويستعيدوا به من الشيطان، بعد أن يتخذوا كامل الأسباب التي أمرهم الله بها؛ ليدفع عنهم الوسوس، ويكشف لهم أعداءهم، ويحبط مكائدهم، فإنّ من توكل على الله لا يُخَيِّبُ أمله، ولا يُبْطِلُ سعيه.

١١ - يا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا الله ورسوله، واتبعوا شرعَه: إذا طُلب منكم أن يُوسّع بعضكم لبعض في المجالس، فأوسعوا، يُوسّع الله لكم في المكان والرزق والقبر والجنة ومجالس النعيم فيها. وإذا طُلب منكم - أيها المؤمنون - أن تنهضوا من مجالسكم للتوسعة على المقبلين فانهمضوا، يرفع الله الذين آمنوا منكم بطاعتهم لله ورسوله، وامتنال أمره في قيامهم من مجالسهم وتوسعتهم لإخوانهم، ويرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين بفضل علمهم وسابقتهم درجات صاعدات، على مَنْ سواهم من سائر الناس، حتى تتناسب مع مقادير العلم الذي يكتسبه كل فريق منهم، فيحتلّ الدرجة المكافئة لمستواه من العلم والمعرفة، والله بما تعملون خبير على سبيل الحضور والشهود المُصَاحِبِ لكل أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه. والآية تحضُّ على الإفراح للقادم ليجلس، كما تحضُّ على طاعة الأمر إذا قيل لجالس أن يرفع فيرفع، وهذا الأمر يجيء من القائد المسؤول عن تنظيم الجماعة المؤمنة، لا من القادم. والغرض هو إيجاد الفُسْحَى في النفس قبل إيجاد الفُسْحَى في المكان، ومتى رُحِبَ القلب اتّسع وتسامح، واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسّماحة، فأفسح لهم المكان عن رضى وارتياح. فأما إذا رأى القائد أنّ هناك اعتباراً من الاعتبارات يقتضي إخلاء المكان، فالطاعة يجب أن تُرعى عن طوعية نفس، ورضى خاطر، وطمأنينة بال. مع الحرص على مراعاة آداب الإسلام بعدم تخطي الرقاب، أو إقامة الرجل للرجل ليأخذ مكانه، وإنما هي السّماحة والنظام يُقرّزهما الإسلام، والأدب الواجب في كل حال.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ التَّجْوِي ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَبَّهُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَكَ بِمَا لَمْ يَحِمْكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُفْسِدُ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا التَّجْوِي مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَفَسِّحُوا فَمَا فَسَّحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا وَيَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

١٢ - يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وأطيعوا شرعهُ: إذا أردتم أن تُكَلِّمُوا رسول الله ﷺ سرّاً، فقدّموا أمام ذلك صدقة لأهل الحاجة، إعظماً لمناجاة الرسول ﷺ، ذلك التقديم للصدقة على المناجاة خير لكم، وأطهر لذنوبكم، فإن لم تجدوا ما تتصدّقون به، فإن الله كثير السّتر لعباده المؤمنين، دائم الرحمة بهم.

١٣ - أخفّتم الغيلة والفاقَة إن قدّمتم صدقة قبل مناجاتكم رسول الله؟ فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به - وتجاوز الله عنكم، ونسخ الصدقة - فأقيموا الصلاة المفروضة، وآتوا الزكاة الواجبة، وأطيعوا الله ورسوله فيما أمر ونهى، والله عليم بأعمالكم علماً كاملاً شاملاً، لكل ظواهر الأشياء وبواطنها، علم حضور وشهود وتدبير.

١٤ - ألم تر - أيها الرائي - رؤية فكرية علمية شبيهة بالمشاهدة البصرية ناظراً إلى هؤلاء المنافقين المتظاهرين بالإسلام، والمُبتطنين للشرك، الذين اتخذوا اليهود المغضوب عليهم أولياء لهم من دون المؤمنين، ينصرونهم ويستنصرون بهم، ويؤادونهم، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين؟ ما هؤلاء المنافقون منكم - أيها المؤمنون - في الدين والولاء، ولا من اليهود، يصنعون الكذب، ويحلفون الأيمان الكاذبة عليه، للإغراء بتصديقهم، فيجعلون الأيمان أغطية على الكذب لسرّ كونه كذباً، ولخداع المؤمنين بأنه صدق، وهم يعلمون أنهم كاذبون منافقون.

١٥ - أعد الله لهؤلاء المنافقين عذاباً شديداً يذوقونه في جهنم يوم الدين؛ إنهم ساء ما كانوا يعملون من النفاق والحلف على الكذب.

١٦ - اتخذ المنافقون - بتكليف مضطّغ - أيمانهم الكاذبة سُترة واقية يسترون بها نفاقهم، ويدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم، فأخجّموا عن سلوك دين الله، وانصرفوا عنه سرّاً، وصرفوا غيرهم ممّن يتأثر بهم من ضعفاء الإيمان عن سلوكه، فلهم عذابٌ مذلٌّ مخزٍ في

يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ
صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿١٢﴾ أَشَفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا
وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ
عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ
اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا
إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَعِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ
اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ
﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾
كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلِبَ أَنا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

الآخرة.

١٧ - لن تدفع عن المنافقين أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، إذا أراد الله أن يُنزل بهم عقابه في الدنيا، بجائحة كونيّة من أمره، أو مصيبة تنزل بهم على يد رسوله وأيدي المؤمنين؛ إذ يكشف من خياناتهم ما يستحقّون عليه العقاب، أولئك البعداء عن رحمة الله، هم أهل النار المُلازمون لها، المخالطون لأنواع عذابها، باقون فيها دوماً لا يخرجون منها، ولا يموتون.

١٨ - يوم القيامة يبعث الله المنافقين جميعاً، ويوقفون للحساب، فيحلفون له كاذبين أنهم كانوا مؤمنين، كما يحلفون لكم - أيها المؤمنون - في الحياة الدنيا، ويظنون أنهم - بأيمانهم الكاذبة - على شيء ينفعهم عند الله، فيدفع عنهم عذاب الله، لكنهم يفتضحون، وتقام عليهم البينات التي لا يستطيعون جحودها، وتشهد عليهم جوارحهم، ويذاتون بكفرهم ونفاقهم. تنبّهوا وتحقّقوا إنهم هم الكاذبون الذين جمعوا كلّ أنواع الكذب، واستكملوا كلّ عناصره، فلا يشاركونهم في دركة هذه الخسة أحد.

١٩ - استولى عليهم الشيطان استيلاءً كاملاً، وساقهم بشدة، وغلبهم بوسوسته وتزيينه حتى اتّبِعوه، فأنساهم ذكر الله واستحضار عظمته، أولئك البعداء عن رحمة الله، المنحطون في الدركات حزب الشيطان، لأنه هو قائدهم وموجههم، وواضع برامجهم، تلاقوا على مبادئ وعقائد وأهواء وأعمال جرّهم الشيطان إلى سلوكها. تنبّهوا وتحقّقوا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون في الدنيا والآخرة؛ إذ خسروا أنفسهم، ودفعوا بها إلى العذاب الأليم الخالد في دار العذاب.

٢٠ - إنّ الذين يقفون في حدٍّ معارضٍ ومُضادٍّ لحَدِّ الله ورسوله سرّاً، أولئك البعداء عن رحمة الله في مَجْمَعِ الْأَذَلِّينِ المخدولين والمغلوبين؛ ليسوا مؤهلين لأن يتنصروا، مهما اتّخذوا من وسائل وأسباب.

٢١ - قضى الله قضاءً ثابتاً في اللوح المحفوظ، لا غلبَ أنا ورسلي، والمؤمنون الصادقون المتبعون لرسلي، وهذه الغلبة تكون بظهور الحقّ ظهوراً فكرياً بالحجّة والبرهان، أو بالتجربة العملية، وممارسات الحياة التي تكشف أنّ ما جاء من عند الله تعالى، وبلغه رسل الله عليهم السلام حقٌّ وصدق، وفيه نفع وسعادة للناس، وإما أنّ تكون الغلبة بظهور الحقّ على الباطل ظهوراً فكرياً وعسكرياً معاً، فيكون لحكمة رسالة الله في الأرض الظهور والفتح المبين، والسلطان والتمكين، إنّ الله قويٌّ على نصر رسله وأوليائه، غالبٌ على أعدائه، لا يعجزه شيء.

٢٢ - لا تجد - أيها الباحث الصالح للخطاب - قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً صحيحاً، يحبون ويناصحون من عادى الله ورسوله، واختار لنفسه سبيل الكفر المناقض لسبيل الإيمان، ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو أقرباءهم؛ لأن محبتهم تستلزم الرضى عنهم في اتجاههم، والتجاوز عن مكايدهم للإسلام والمسلمين، ومناصرتهم على باطلهم، وكل ذلك يناقض الإيمان ولوآزمه. أولئك رفيعو المنزلة عند الله، الموالون في الله، والمعادون فيه، قوم قد آمنوا إيماناً صادقاً، وقد دخل هذا الإيمان في عمق قلوبهم، حتى احتل أعمق مراكز عواطفهم، فكتب الله كلمات الإيمان في قلوبهم بقضاء مُنجز، فهي مؤمنة مؤكدة مُخلصة، وقواهم على الثبات في مواقف الإيمان، وفي المعارك بقوة معنوية خفية غير منظورة، ويدخلهم جنات عظيمة تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، حالة كونهم خالدين فيها، أحل الله عليهم رضوانه العظيم، فلا يسخط عليهم أبداً، ورضوا عن ربهم بما أعطاهم من النعيم وأرفع المراتب، أولئك ذوو المنزلة العلية والمقام الرفيع حزب الله وجنّده، تلاقوا على عقائد ومبادئ وصراط رباني واحد، ومن كان من حزب الله جعله الله في كنفه، وأمدّه بمدد من لدنه، تنبّهوا وتحققوا؛ إن حزب الله هم المختصون بالفوز والظفر في الدنيا والآخرة.

سورة النازع العشر

١ - نزهة الله تعالى عما لا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، وكمال صفاته العليا، وأسمائه الحسنى، وكمال أفعاله وتصرفاته، جميع أجزاء السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم ومجرات، وغير ذلك، وجميع ذرات الأرضين، وما فيها من جبال وبحار وشجر ودواب، كلها مُسبحة خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله تعالى، مُنفادة له منذ إنشائها، يتصرف فيها كيف يشاء، وهو القوي الغالب الكامل القدرة الذي لا ينازعه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها في الأمور المختلفة لما يعطي أحسن النتائج.

٢ - هو سبحانه الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب، وهم يهود بني النضير، من مساكنهم التي جاؤوا بها المسلمون حول «المدينة»، عند أول إخراج لهم من جزيرة العرب إلى مكان جمعهم في «الشام»، ما ظننتم - أيها المؤمنون - أن يخرجوا من «المدينة» بهذا الذل والهوان؛ لعزتهم ومعتهم وشدة بأسهم، وذلك أنهم كانوا أهل حصون وعقار ونخل كثير، وظنّ بنو النضير ظناً قوياً أنّ حصونهم تمنعهم من بأس الله؛ لفرط وثوقهم بما هم فيه، فاتاهم أمر الله وعذابه من حيث لم يخطر ببالهم، وهو أنّ الله تعالى أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلالهم، وكانوا لا يظنون ذلك، وقذف في قلوبهم الخوف الشديد بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، يُخربون بيوتهم بأيديهم؛ لثلا يسكنها المؤمنون، ويُخرب المؤمنون باقيها؛ ليقضوا على تحصنهم، فأنعظوا وانظروا ما نزل بهم يا ذوي العقول الراجحة، والبصائر السليمة، إذ أيّدكم الله بنصره، مع أنّ قواكم لم تكن كافية لتحقيق هذا النصر الذي مكّنكم منه، فنقوا بالله تعالى، وتوكلوا عليه.

وفي الآية حثّ لمن بقي من اليهود في «المدينة»، ليعتبروا أيضاً اعتباراً تعاط بما شاهدوا بأبصارهم من إجلالهم بني النضير، مع أنهم كانوا مُحَصِّنِينَ مُتَمَكِّنِينَ في حصونهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، ومكّن المؤمنين من إجلالهم.

٣ - ولولا أن قدّر الله عليهم أن يعاقبهم بالخروج من ديارهم، جزاء خيانتهم، لكان عقابهم المعجل في الدنيا أشدّ، فلعدّهم في الدنيا داخل حصونهم التي كانت لهم في «المدينة» بعداب من عنده، أو بعداب ينزل بهم على أيدي المسلمين، ولهم في الآخرة على كلّ الأحوال عذاب النار، جزاء إصرارهم على الكفر والتكذيب برسول الله ﷺ، وبما جاء به من عند ربه، فالعذاب لازم لهم، فإن نجوا منه في الدنيا لم ينجوا منه في الآخرة.

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سورة النازع العشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ
لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ
فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ٢ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ
الْإِجْلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ٣

٤ - ذلك الذي لَحِقَ ونزل ببني النضير؛ بسبب أنهم خالفوا أمر الله وأمر رسوله، وناصبوهما العداء، ووقفوا في شق المضاد المحارب، ومن يخالف الله ورسوله ويُنَاصِبُهُمَا العداء، ويقف في شق المضاد المحارب لهما، فإن الله شديد العقاب.

٥ - ما قطعتم - أيها المؤمنون - أثناء حصار بني النضير، من نخلة، أو تركتموها قائمة على سوقها من غير أن تتعرضوا لها، فبأمر الله ومشيتته؛ ولأجل إخراج اليهود وإدلالهم أَذِنَ الله في قطعها. وهذه الآية تدل على جواز هدم دور الكفار وقطع أشجارهم إذا كان للمسلمين مصلحة في ذلك.

٦ - وما ردَّ الله على رسوله من أموال يهود بني النضير، فما أسرعت في السير إليه بخيل ولا إبل، مقاتلين به عدوكم، ولكن الله يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَنْ يَشَاءُ من أعدائه، فيستسلمون لهم بلا قتال، والله على كل شيء يشاؤه عظيم القدرة، لا يُعجزه شيء أرادته. وفي الآية دليل على أن الفبيء ما أخذ من الكفار بلا قتال، ومقاساة مشقة من إسراع خيل وإبل، والغنيمة ما أخذ منهم بقتال كما تقدم في الآية (٤١) من سورة الأنفال.

٧ - ما ردَّه الله على رسوله من أموال كفار أهل القرى، من غير قتال، فيقسم خمسه على خمسة أسهم: السهم الأول: لله سبحانه وللرسول ﷺ، وهو خمس الخمس، يُصرف في مصالح المسلمين العامة، والسهم الثاني: لذي قرابة رسول الله ﷺ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، والسهم الثالث: لليتامى، وهم الأطفال الفقراء الذين مات أبائهم وهم دون سن البلوغ، والسهم الرابع: للمساكين المتعرضين للعتاء، الذين يسألون الصدقة، والسهم الخامس: للمسافر البعيد من ماله، وليس له ما يقطع به مسافة سفره، يُصرف خُمسُ الفبيء على هذه الأسهم الخمسة؛ كيلا يكون الفبيء مُتَذَوِّلاً خُمسُ الفبيء على هذه الأسهم الخمسة، وما آتاكم الرسول من مال الغنيمة والفبيء فخذوه، فهو حلال لكم، وما نهاكم عنه من الغلول وغيره فانتهاوا. وهذا نازل في أموال الفبيء خاصة، وهو عام في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه من قول أو عمل - واجب أو مندوب أو مستحب أو نهى عن مُحَرَّم -، واتقوا الله بامتثال أوامره وترك نواهيه؛ إنَّ الله شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره ونهيه. وهذه الآية أصل في وجوب العمل بالسنة: قولاً أو فعلاً أو تقريراً.

٨ - وكذلك يُعطى من المال الذي ردَّه الله تعالى على رسوله ﷺ من الأربعة أخماس الباقية: الفقراء المهاجرون، الذين ألجأهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وأموالهم، يطلبون ثواباً من الله وطلباً لرضاه عز وجل، وينصرون دين الله ورسوله بالجهاد بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، أولئك رقيقو المنزلة هم الصادقون في إيمانهم وهجرتهم وجهادهم.

٩ - والأنصار الذين توطنوا «المدينة» واتخذوها سكناً، وأسلموا في ديارهم، وأخلصوا في الإيمان وتمكنوا فيه، من قبل هجرة المهاجرين إليهم، يُحبون مَنْ هاجر إليهم من المسلمين، ويُزولونهم في منازلهم، ويُشاركونهم في أموالهم، ولا يجدون في صدورهم حِرَازَةً وغيظاً وحسداً ممَّا أعطي المهاجرون من الفبيء دونهم، عَقَّةٌ منهم، وشعوراً بحق المهاجرين الذين أصابهم الفقر بسبب الهجرة، ويؤثر الأنصار المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم، ولو كان بهم فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون به، ومن يكفه الله الحالة النفسانية التي تقتضي منْعَ المال، حتى يُخالِفها فيما يغلب عليها من البخل والجحش الشديد الذي يدفع إلى ارتكاب كبائر الإثم، فينفق ماله في سبيل الله تعالى، في المصارف التي أمر الله بالإففاق فيها، طيَّبَ النفس بذلك، فأولئك الفضلاء رقيقو الدرجة هم - وحدهم - الظافرون بكل خير، الفائزون بكل مطلب في الدنيا والآخرة. وفي الآية مدح الإيثار في حفظ النفس والدنيا.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا فَإِذْنُ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

١٠ - والذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار الأولين، وهم المؤمنون التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، يقولون: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غشاً وحسداً وبغضاً للذين آمنوا، ربنا إنك شديد الرحمة بعبادك، دائم الرحمة لهم. وفي الآية: الحث على الدعاء، والترضي عن الصحابة، وتصفية القلوب من بغض أحد منهم، وفيها دليل على أن من كان في قلبه غل أو بغض لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يترحم على جميعهم، فإنه ليس ممن عناه الله تعالى بهذه الآية.

١١ - ألم تعلم - أيها المتلقي - علماً بيناً واضحاً شبيهاً بالحسن البصري ناظراً إلى الدين أظهرها خلاف ما أضمرها، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه، يقولون بتكرار لإخوانهم الذين كفروا من اليهود من بني النضير - أثناء حصارهم - ثلاث مقالات: الأولى: نقسم لكم؛ لئن أخرجكم محمد من مساكنكم في «المدينة»، وعجزتم عن المقاومة، واضطرتتم إلى قبول الجلاء، لنخرجن معكم منها، المقالة الثانية: ونحن لا نطيع في ترك موالاتكم، وعدم الخروج معكم أحداً كائناً من كان، المقالة الثالثة: وإن قوتلتهم من قبل محمد وأصحابه لنعيثنكم، ولنقاتلن معكم، ولندافعن عنكم، والله يعلم علم شهود لأحوالهم ظاهراً وباطناً إن المنافقين لكاذبون فيما قالوا لإخوانهم الكافرين من يهود بني النضير، فلا تفت مقالاتهم في أعضادكم أيها المؤمنون.

١٢ - لئن أخرج اليهود من «المدينة» لا يخرج المنافقون معهم، ولا يقدمون أي شيء يثبت ولاءهم لهم، وأقسم: لئن قوتلوا لا يمنعونهم ويقاتلون معهم، وأقسم مؤكداً: لئن حصرنا المعركة

لنضرتهم لجبنوا عن مواجهة المؤمنين، ولأداروا ظهورهم فأرين منهن، ثم لا ينصر المنافقون بعد خيانتهم العظمى، بفرارهم من متابعة المؤمنين لهم، أو من نزول عقوبة الله المعجلة بهم في الدنيا مهما تراخى بهم الزمن.

١٣ - نوكد لكم - يا معشر المسلمين - لأثم بإرهابكم لليهود في القتال أشد إحداث رهبة في صدورهم من رهبتهم من عقاب الله؛ ذلك الخوف الشديد منكم بسبب أنهم قوم لا يفهمون حقائق الإيمان والسنن الربانية فهماً سديداً عميقاً، ولو أنهم كانوا يفهمون دقائق الأمور وأعماقها لكانت رهبتهم من الله أشد من رهبتهم من أي مرهوب، ولدفعتهم هذه الرهبة إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به عن ربه سبحانه.

١٤ - لا يبرز اليهود لقتالكم حالة كونكم مجتمعين لقتالهم، إنما يقاتلونكم متحصنين بالمجمعات السكنية، أو من وراء جدران يستترون بها. إذا وقعت معارك فيما بينهم كانوا ذوي شدة على بعضهم، تظن - أيها الناظر من بعد - اليهود مجتمعين، وقلوبهم متفرقة غير مجمعة على رأي واحد؛ ذلك التفرق والاختلاف بسبب أنهم قوم لا يعقلون عقلاً علمياً يميزون به بين الحق والباطل، وليس لديهم إرادات حازمة تضبط نفوسهم عن اتباع أهوائهم وشهواتهم، والاستجابة للتحاسد والتباغض فيما بينهم. فلا تخشوا - أيها المؤمنون - من ملافة اليهود في قتال تكونون فيه مؤمنين حقاً، ومجتمعين على قتالهم، فإنهم لن يشتبوا لقتالكم.

١٥ - حال يهود بني النضير في خيانتهم واحتمائهم بحصونهم، ثم استسلامهم، وطلبهم قبول جلائهم، يشبه حال بني قينقاع الذي مضى قريباً، ذاقوا في الدنيا سوء عاقبة كفرهم، ونالوا جزاء خيانتهم وغدرهم، على أيدي المسلمين بقيادة الرسول ﷺ، فأجلاهم الرسول ﷺ من «المدينة»، بسبب ما كان منهم من شر، ونقض للعهد والميثاق، ولهم فوق ذلك عذاب أليم في الآخرة.

١٦ - مثل اليهود والمنافقين جميعاً - في تخاذلهم وتخلي بعضهم عن بعض - كمثل الشيطان حين أغرى الإنسان بترك الإيمان، فقال له: اكفر، فاستجاب له فكفر، وحين يأتي يوم الحساب والجزاء، يدعو الكافر الشيطان لنصرته، فيقول الشيطان له: إني بريء منك، إني أخاف الله خالق العالمين ومالكهم وسيدهم ومربيهم، الذي أنعم عليهم فخلقهم بقدرته، ورباهم بنعمته، وأمدهم ببرعايته وحفظه، وهذه العوالم العظيمة الكثيرة التي خلقها وأمدها بعباءات ربوبيته علامات دالات على خالقها وصفاته الحسنى.

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكَنَّ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَئِنْ أَسْأَلْتُمْ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكِ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنَلُوكُمْ جَمِيعًا الْآفِ قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ شَنِيعٌ سَدِيدٌ نَحْشِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكِ يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾



١ - يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، وأتبعوا شريعته: لا تتخذوا عدوِّي وعدوكم أصدقاء وأنصاراً، تُلْقُونَ إليهم بأسباب المحبة، كما فعل حاطب بن أبي بلتعة تودداً منه لكبراء كفار قريش من أجل أهله وَرَجِمْهُ فِي «مَكَّة»، وقد أصابه من أجلهم الضعف البشري، فَسَقَطَ فِي مَعْصِيَتِهِ هَذِهِ، ولم يكن ذلك منه حياً للكافرين، وحال هؤلاء الأعداء الذين تتخذونهم أولياء، أنهم كفروا بما جاءكم من الحق، فهم مخالفون لكم في أصل العقيدة، ممّا يمثل تبايناً جذرياً بينكم، ومن مظاهر عدائهم لكم: أنهم يُخْرِجُونَ الرَسُولَ ﷺ، ويُخْرِجُونَكُمْ - أيها المؤمنون - من دياركم وأموالكم في «مكة»؛ يفعلون ذلك لإيمانكم بالله ربكم، فنقموا عليكم ذلك، واعتبروكم أعداء للخلاف الاعتقادي الذي خالفتموهم فيه منذ آمنتم بالله، وكفرتهم بالكهتهم وعقائدهم الباطلة؛ إن كنتم خرجتم من دياركم - يوم خرجتم - مهاجرين فراراً بدينكم من اضطهاد مشركي مكة لكم، مجاهدين في سبيلي، وطالبن مرضاتي عنكم، فلا تتخذوا عدوِّي وعدوكم أولياء، تُسْرُونَ إليهم أخباره ﷺ؛ بسبب ما بينكم وبينهم من المودة، وأنا أعلم بما أخفيتم في قلوبكم من المودة للكفار، وما أظهرتم بالستنكم منها، ومن يفعل منكم الإسرار إليهم بالنصيحة والمشاورة وإلقاء المودة، فقد أخطأ طريق الحق والصواب.

٢ - إن يظفر بكم هؤلاء الذين تُسْرُونَ إليهم بالمودة ويتمكنوا منكم، يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة والغيط والحنق عليكم، ويمدوا إليكم أيديهم بالضرب والحرب، والقتل والأسر، وألستهم بالسُّبِّ والسُّبِّ، والطعن والتجريح، والهُزْء والسخرية، وتمثّلوا

تكونوا مثلهم كافرين، فلا يرضون عنكم حتى تُشاركوهم في الكفر بالله، وتركوا إيمانكم وإسلامكم.

٣ - لا تدعوكم قرباتكم وأولادكم الذين بمكة إلى خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين، ونقل أخبارهم، وموالاته أعدائهم، فإنه لا تنفعكم - أيها المؤمنون - قرباتكم ولا أولادكم الذين عصيتهم الله لأجلهم، يوم القيامة يُفَرِّقُ الله بينكم، فيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار، والله بما تعملون بصير، لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأعمالكم.

٤ - قد كانت لكم - أيها المؤمنون - قدوة حسنة تقتدون بها في إبراهيم، والذين معه من أهل الإيمان، حين قالوا لقومهم المشركين: إنا بريئون منكم، ومن الآلهة التي تعبدونها من دون الله، كفرنا بأننا منكم وبأنكم منّا، فلا ولاية بيننا وبينكم، وكفرنا بأن لكم علينا حقّ القرابة، أو المواطنة، وكفرنا بما تؤمنون به من باطل، فلا نُبَالِي بكم ولا بالكهتكم، وظهر بيننا وبينكم العداوة وشدة الكراهية، فنحن أعداؤكم، وأنتم أعداء لنا، ونحن نبغضكم بغضاً لا يزول أبداً، حتى تؤمنوا بالله - وحده - لا شريك له، وأنتم تبغضوننا لأننا نقاوم شرككم، ونُحْطِمُ أصنامكم. لكن قول إبراهيم لأبيه: لأطلبنّ لك المغفرة من الله ليس ممّا يُقْتَدَى به؛ لأنه وعده بالاستغفار رجاءً إسلامه، قبل أن يتبين له أن أباه عدوٌّ لله، فلمّا تبين له إقامته على الكفر تبرأ منه، وقال إبراهيم بعدما وعد أباه بالاستغفار: وما أغني عنك، ولا أدفع عنك من عذاب الله إن عصيتَهُ وأشركتَ به، قولوا - أيها المؤمنون - كما قال إبراهيم ومَنْ معه من المؤمنين: ربّنا عليك توكلنا، وإليك رجعنا تائبين، وإلى حكمك وحده، وفُضِّلَ قضائك، وتفيذ جزائك، وإلى المكان الذي تقضي فيه، مصير جميع الخلائق يوم القيامة.

٥ - ربّنا لا تُعَذِّبْنَا بأيدي الكفار ولا بعذاب من عندك، فيقول الكفار: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك العذاب، فيزدادوا كفراً، واسترّ ذنوبنا يا ربّنا، إنك أنت القويُّ الغالب الكامل القدرة الذي لا ينازعه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها في الأمور المختلفة لما يُعْطِي أحسن النتائج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِئُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۚ إِنْ يَشْفِقُوا كَيْفَ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْأَلُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا أَنْ تُكْفِرُوا ۚ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا وَلَدُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ ۚ بَصِيرٌ ۚ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَّلْنَا بُيُوتَكُمْ وَمِنَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِقْ لَكَ وَمَا أَمْلَكَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ رَبَّنَا عَلَيْنَا نَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآخِذْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝

٦ - لقد كان لكم - أيها المؤمنون - في إبراهيم ومن معه من أهل الإيمان قدوة حسنة، هذه القدوة لمن يؤمل متربياً ثواب الله، ويطمع بالسعادة الخالدة يوم الدين، ويخاف من العقاب فيه، ومن يتول مديراً عن الإيمان، ويوال الكفار، فإن الله هو الغني بذاته وصفاته عن خلقه، له الغنى التام المطلق، المحمود على عظيم صفاته، وجليل نعمه، كثير الحمد والثناء لأهل طاعته وأوليائه.

٧ - أرجوا الله سبحانه متربئين أن يجعل بينكم - أيها المؤمنون - وبين الذين عاديتهم من كفار مكة من يوافقكم في الدين، ويؤمن بعد الكفر؛ فيتصل حب المودة بينكم بعد الإيمان، والله قدير على جعل المودة بينكم، مُتَّصِفٌ بالقدرة العامة التي يخلق بها ما يشاء، ويفعل بها ما يريد، والله كثير الستر، دائم الرحمة لمن تاب منهم وأسلم. وقد حقق الله تعالى ذلك بأن أسلم كثير منهم، فصاروا لهم أولياء وإخواناً.

٨، ٩ - لا ينهاكم الله - أيها المؤمنون - عن الذين لم يقاتلوكم من الكفار بسبب الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تصلوهم وتعدلوا فيهم بالإحسان إليهم والبر بهم؛ إن الله يحب العادلين، ويثيبهم على عدلهم، ويدخلهم جنات النعيم؛ لأن من أحبه الله أكرمه، وأدخله في رحمته. إنما ينهاكم الله - أيها المؤمنون - عن الذين قاتلوكم بسبب الدين، وأخرجوكم من دياركم، وعاونوا على إخراجكم أن تتخذوهم أصدقاء وأنصاراً، ومن يتخذهم أنصاراً على المؤمنين وأحباباً، فأولئك البعداء عن رحمة الله هم الظالمون لأنفسهم، حيث وضعوا الولاء في غير موضعه، فعرضوا أنفسهم للعذاب الشديد.

فموادة المؤمنين بالله واليوم الآخر لمعادي الله ورسوله ومُعَلِّني الحرب على المسلمين قضية تناقض الإيمان، لأن من مقتضى الإيمان معاداة من عادى الله ورسوله وحارب المسلمين. وهذه قضية

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَمِمَّنْ نَّوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٧﴾ لَا يَنْهَى اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ
مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم
مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْمُؤْمِنَاتُ
مُهَاجِرَاتٍ فَأَمَرَ جُنُودَهُنَّ أَن يَأْمَنَهُنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ
فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ لَهُنَّ وَلَا هُمْ يُحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثَرُهُنَّ
مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ
وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَافِرِ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ بِأَنْفَقُوا
ذَلِكَ حِكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ
شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُم إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابَقْتُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ
أَزْوَاجُهُمْ بِشَيْءٍ مَّا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

غير قضية معاملة الكافرين غير المقاتلين للمسلمين بالبر والقسط، إذ قد تكون معاملتهم بالبر والقسط سبباً لتأليف قلوبهم، وتحبيبهم بالإسلام، فيسلمون حباً بدين الله، وإعجاباً بالأخلاق التي يتحلَّى بها أتباعه.

١٠ - يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، واتبعوا هديته: إذا جاءكم النساء المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام، فاختبروهن، بأن تستحلف إحداهن: ما خرجت من بُغْضِ زوج، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام، وحباً لله ولرسوله ﷺ؛ هذا الامتحان لتعلموا صدق إيمانهن، بغلبة الظن التي تُرجح أنهن مؤمنات، والله أعلم بحقيقة إيمانهن؛ لأن حقيقة الإيمان كامنة في القلوب لا يعلمها إلا الله، والدلائل التي تدل على الإيمان بالنسبة إلى الناس لا تعدو أن تكون ظواهر مُرجحة، وقد يكون المكنون في القلوب على خلاف ذلك، ومع هذا فقد جعل الله نتائج هذا الإيمان التي لا تصل إلى مرتبة اليقين، وإنما تصل إلى مرتبة الظن الراجح نوعاً من العلم، الذي يصح الاعتماد عليه والاستفادة منه، فإذا أقرن بالإيمان، وظهرت لكم أمارات صدقهن، فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار؛ لأن الله لم يُبَيِّح مؤمنة لكافر، لا المؤمنات حلالاً لأزواجهن الكفار، فيزول النكاح، وتثبت الفرقة بإيمانهن وهجرتهن، ولا الأزواج الكفار يحلون للمؤمنات فيما يستأنف ويستقبل من النكاح، وآتوا أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر الذي دفعوه إليهن، ولا إثم عليكم أن تتزوجوا المؤمنات المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام، وإن كان لهن أزواج كفار في دار الحرب، إذا آتيتموهن مهورهن، فما دفعتم لأزواجهن لا يقوم مقام مهورهن، ولا تُمسكوا بعقد زوجية الكافرات المقيمات في دار الحرب، واطلبوا - أيها المؤمنون - إن لحقت امرأة منكم بالمشركون مرتدة، ما أنفقتم من المهر ممن تزوجها منهم، وليطلب المشركون الذين لحقت أزواجهم بكم ما أنفقوا من المهر ممن تزوجها منكم، ذلكم التشريع حكم الله، يحكم به بينكم، فلا تخالفوه، والله عليم بمصالح عباده، حكيم في جميع أفعاله وأقواله.

١١ - وإن أفلت منكم - أيها المؤمنون - بعض أزواجكم إلى الكفار، فليحشَّن بهم مُرتدات، فغزوتهم فغنتم، وأصبتم من الكفار غنًى، وهي الغنيمة، فأعطوا المسلمين الذين ذهب أزواجهم منكم إلى الكفار مُرتدات، من الغنائم التي صارت في أيديكم مثل ما أعطوهن من المهور قبل ذلك، واتقوا الله - بامتنال أوامره، واجتناب نواهيه - الذي أنتم به مؤمنون.

١٢ - يا أيها النبي الذي شرفناك بالنبوة، إذا جاءك النساء المؤمنات بالله ورسوله يعاهدنك على الوفاء بهذه الشروط الستة: الشرط الأول: أن لا يشركن بالله شيئاً ما في ربوبيته ولا في إلهيته، والثاني: لا يسرقن، والثالث: لا يزني، والرابع: لا يقتلن أولادهن بواد أو إسقاط حمل بعد ظهور التخلق، والخامس: لا يأتين بأولاد يلتقطنهم ويُسبِبنهم كذباً إلى الأزواج، والسادس: لا يعصينك في كل ما تأمرهن به، أو تنهاهن عنه، إذا بايعتك على هذه الشروط فبايعهن، واطلب لهن المغفرة من الله، إن الله كثير الستر لذنوب عباده، واسع الرحمة بهم.

١٣ - يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، واتبعوا هديه: لا تتخذوا أولياء وأنصاراً قوماً غَضِبَ الله عليهم من اليهود، الذين عاينوا رسول الله ﷺ، وعرفوا أنه رسول الله، فكذبوه ولم يؤمنوا به، قد يشعرون أن يكون لهم ثواب أو خير في الآخرة، كما يشك الكفار من أصحاب القبور أن يرجعوا إليهم، أو كما ينس الكفار المشبورون، من رحمة الله في الآخرة؛ حين شاهدوا العذاب، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم من رحمة الله عز وجل.

سُورَةُ الصَّفَاتِ

١ - نزه الله عن كل ما لا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه، وكمال صفاته وأسمائه الحسنى، وكمال أفعاله وتصرفاته، جميع أجزاء السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم ومجرات، وغير ذلك، وجميع ذرات الأرضين، وما فيها من جبال وبحار وشجر ودواب، كلها مُسَبَّحَةٌ خاشعة خاضعة لجلال عظمة الله تعالى، منقادة له منذ إنشائها، يتصرف فيها كيف يشاء، وهو سبحانه القوي الغالب الكامل القدرة الذي لا يغالب، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها في الأمور المختلفة لما يعطي أحسن النتائج.

٢، ٣ - يا أيها الذين صدقوا بالله واتبعوا رسوله، لم تقولون بالستكم ما لا تُصدقه أفعالكم؟ عظم بغضاً عند الله، أن تقولوا بالستكم ما لا تفعلونه. وفي هاتين الآيتين: الحث على الصدق والاستقامة، وأن يكون باطن المسلم كظاهره، وأن يطابق فعله قوله، في تمتي فريضة الجهاد وعدم النكول عنه، وفي سائر الأمور. وفيها أيضاً: ضرورة موالاة النفس البشرية بالتقوية والتثبيت والتوجيه، وهي تواجه التكالييف الشاقة؛ لتستقيم في طريقها، وتتغلب على لحظات ضعفها، كما ترشدنا أن نتواضع في طلب التكالييف وتمثيها ونحن في حالة العافية، فلعلنا لا نقوى على ما نقترح على الله حين يُكلفنا إياه. وهؤلاء جماعة من المسلمين في المدينة كانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله ليفعلوه، فلما أمروا بالجهاد كرهوه! فعتابهم الله سبحانه هذا العتاب الشديد.

٤ - إن الله يحب الذين يصفون أنفسهم عند القتال في سبيل الله صفاءً، في خطة مرسومة موحدة جامعة للقوى، ويشبتون في الجهاد، وينفذون أوامر قيادتهم الحربية الواحدة، كأنهم ببناءً مُحَكَّمً متلاصق قد رُصَّ بعضه ببعض، فليس فيه فُرْجة ولا خَلَل. وقد تقضي الخطة الحكيمة التي تضعها القيادة أن يقاتل بعض المقاتلين، ويترئص بعضهم، ويكون قسم منهم في الكمان، وأن يدهموا العدو من عدة جهات مختلفات الشكل، متنوعات السلاح. وليس معنى وحدة صف المقاتلين أن يواجهوا عدوهم على طريقة الصف المتراص كتفاً بكتف؛ لأن ذلك قد يُمكن العدو من خضدهم بالأسلحة النارية الحديثة بسرعة خاطفة. وفي الآية الحث على القتال في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وأن يواجه جنود الإسلام أعداءه، صفاءً سوياً راسخاً، كالبنين الذي تتعاون لبناته وتتضام وتماسك، وتؤدي كل لبنة دورها، وتسد ثغرتها؛ لأن البنين كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها، تقدمت أو تأخرت، أو تخلت عن أن تمسك بأختها تحتها أو فوقها، أو على جانبيها سواء.

٥ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لبائنا - حين قال موسى عليه السلام لقومه بني إسرائيل: يا قوم الذين أنتم أهلي وعشيرتي لم تؤذوني بأنواع من الأذى والتعنُّت، والعصيان والتمرد، وأنتم عالمون علماً قطعياً أنني رسول الله إليكم؟ والرسول يوقر ويعظم ولا يؤذى، وعلمكم بأن رسول الله يلزمكم بطاعتي والمسايرة إلى تنفيذ أمري، فلما عدلوا ومالوا عن الحق بإراداتهم وأعمالهم، وأصروا على ذلك، آمال الله قلوبهم عن قبول الهداية؛ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم، فحكم على قلوبهم بما جرى فيها من ميل عن الحق، إلى المنهات والضلالات، والله سبحانه لا يحكم لهم بالهداية، وهم قوم خارجون عن طاعته وهدايته، وهذا مقتضى الحق والعدل. وفي هذه الآية تنبيه على عظم إيذاء الرسل حتى إن أذاهم يؤدي إلى الكفر، وزيغ القلوب عن الهدى، والعياذ بالله تعالى.

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرُكَنَّ
بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَشْرُفْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ
فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَانْتَوَلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسُوءُ الْكَافِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ١٣

سُورَةُ الصَّفَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ١
كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢
اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ
بُتَيْنَ مَرْصُوصٍ ٣ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا لِمَ
تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا
زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٤

٦ - وضع - أيها المُتلقِّي لبياننا - في ذاكرتك حين قال عيسى ابن مريم: يا بني إسرائيل إني رسولُ الله، أرسلت إليكم بالوصف الذي وُصفت به في التوراة، مُصدِّقاً بأحكام التوراة وكُتب الله وأنبيائه جميعاً ممَّن قد تقدَّم، ومُبشِّراً برسول يأتي من بعدي اسمه «أحمد»؛ لكثرة حمده لله، وجمعه للفضائل والمحاسن والأخلاق التي يُحمد بها، فلمَّا جاءهم الرسول المُبشِّر به، محمد ﷺ بالآيات الواضحات، قالوا: هذا سحرٌ ظاهر واضح.

٧ - ولا أحد أقيح ظلماً ممَّن يدعوهُ ربُّه على لسان نبيِّه ﷺ، إلى الإسلام الذي فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب على الله بقوله: هذا سحرٌ واضح ظاهر، والله لا يُثبت الهداية لمن افترى عليه الكذب، وكذب رسوله الخاتم المُبشِّر به في كتبهم، وكيف يحكم لهم بالهداية، وقد ظلموا ظلماً كثيراً، وافتروا على الله كذباً؟!

٨ - يريد الكفار، ولا سيما اليهود والنصارى مُرادات مختلفات، ويتخذون أسباباً متعدِّدة، يُدبرون بها مكائد ووسائل؛ ليقمعوا دينَ الله، ويُطفئوا نور رسالة الحق التي أرسل الله بها رسوله، بأضاليلهم التي يقولونها بأفواههم، ونظرياتهم الباطلة ومغالطاتهم وأكاذيبهم؛ ليعشوا بهذه الأقوال والمغالطات والافتراءات على عقول أتباعهم، فلا يروا نور الحق المبين فحالهم فيما يريدون كحالهم وهم يريدون أن يطفئوا نور الله الكوني بأفواههم، والله متمُّ نوره العظيم ومُظهره، ومبلِّغه غايته رُغم كلِّ محاولاتهم الفاشلة، ولو كره الكافرون ذلك، وتميَّزوا منه غيظاً.

٩ - الله عزَّ وجلَّ الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ هُدى للناس، وبالإسلام دين الحق؛ ليُعليه على الأديان المخالفة له، ولو كره المشركون من يهود ونصارى وغيرهم. ولقد فعل الله ذلك، فلم يبقَ

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحَدُ قُلُومًا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْعَةٍ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ تَأْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيَسْكِنُونَ طَيْبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ تَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوفُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عِدَّتِهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿٩﴾

دين من الأديان إلا وهو مغلوب ومقهور بدين الإسلام.

١٠، ١١ - يا أيُّها الذين صدَّقوا الله ورسوله، واتبعوا شريعته: هل أرشدكم إلى تجارة عظيمة مُنْجِية، تريحون فيها رضا الله عزَّ وجلَّ، وتنالون جنته، وتنجون من النار؟ هذه التجارة العظيمة الراحبة هي أن تثبتوا على الإيمان بالله ورسوله، وتُجاهدوا في سبيل الله جهاداً صادقاً خالصاً من شوائب أغراض الدنيا بأموالكم وأنفسكم، ذلكم - الذي أمركم به من الإيمان والجهاد للثَّرة دين الله - خيرٌ لكم من أموالكم وأنفسكم، إن كنتم تعلمون أنه خيرٌ لكم، فتحبُّوا الإيمان والجهاد فوق حُبِّكم أموالكم وأنفسكم.

١٢ - إذا آمنتم بالله إيماناً صحيحاً صادقاً، وجاهدتم في أموالكم وأنفسكم جهاداً صادقاً خالصاً، تنالون ثمرة التجارة الراحبة؛ ثواباً مُؤجَّلاً ليوم الدين، وهو الثواب الأعظم الذي ينبغي أن يكون هدف المجاهدين، وثمره هذا الثواب المُعجل: أولاً: يَسْتَرِ عليكم ذُنُوبكم، وثانياً: يدخلكم جَنَّات عظيمات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، وثالثاً: يُسكنكم مساكن طاهرة زكية، تسكن فيها نفوسكم، وتسكنون فيها إلى أزواجكم من الحور العين الطيبات الطاهرات الزاكيات، وهذه المساكن تكون في جَنَّات إقامة دائمة لا تنقطع، ذلك الجزء الذي ذُكر هو الربح العظيم.

١٣ - ولكم أيضاً مع الثواب المُؤجل ليوم الدين ثواب آخر مُعجل، في الدنيا تحبُّونه، وثمره هذا الثواب المُعجل: أولاً: نصرٌ من الله على أعدائكم على أيِّ وجِه من وجوه النصر، بالقتال أو بغيره، وثانياً: فتحٌ عاجلٌ قريب يفتح الله به للمجاهدين البلاد والممالك، تظفرون فيه بالمجد العظيم، والمغانم الكثيرة، وبشر - يا رسول الله - المؤمنين بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة. وقد تحقَّق وعد الله، فتمَّ نصر الله للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ، وكتب لهم الفتح القريب - وهو فتح مكة - ثم فتح الممالك العظمى التي كانت صاحبة السلطان في الأرض، وما يزال يتحقَّق وعد الله تعالى في كلِّ زمان ومكان.

١٤ - يا أيُّها الذين آمنوا، كونوا أنصاراً لدين الله، كما نصرَ أصفياء عيسى عليه السلام وخواصه دينَ الله، لما قال لهم عيسى عليه السلام: مَنْ الَّذِينَ يَنْصُرُونِي، ساعين إلى بلوغ مرضاة الله، بالجهاد الدعوي في سبيله، مُبلِّغين دينه مهما تلقَّوا من أذى واضطهاد؟ قال أصفياء عيسى وخُصَّص أصحابه: نحن الذين ينصرون دينَ الله بصدق وإخلاص وتضحية، فأمنت طائفة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام، وكفرت طائفة به، فقوينا الذين آمنوا بعيسى على عدوهم الذين كفروا به، فأصبحوا قاهرين لهم، ظاهرين عليهم.

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

الْمِيزَةُ الْقَائِمَةُ الْغَيْبَةِ

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

١ - يُنْزَهُ اللهُ تَعَالَى بِدَوَامِ وَتَجَدُّدِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَكَمَالِ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى، وَكَمَالِ أَفْعَالِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ، جَمِيعِ أَجْزَاءِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ وَنُجُومٍ وَمَجْرَّاتٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَجَمِيعِ ذُرَّاتِ الْأَرْضِينَ، وَمَا فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَبِحَارٍ وَشَجَرٍ وَدَوَابٍ، كُلُّهَا مُسَبَّحَةٌ خَاشِعَةٌ خَاضِعَةٌ لَجَلَالِ عَظَمَةِ اللهِ تَعَالَى، مُنْقَادَةٌ لَهُ، وَهُوَ - وَحْدَهُ - الْمُتَصَرِّفُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ، الْمَالِكُ لَهُمْ، فَهَمُّ تَحْتَ مَلِكِهِ وَإِرَادَتُهُ، الطَّاهِرُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، الْمُنْزَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، الْغَالِبُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، الْحَكِيمُ الَّذِي جَمِيعُ أَفْعَالِهِ وَفَقُّ الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ.

٢ - اللهُ سُبْحَانَهُ الَّذِي بَعَثَ فِي الْعَرَبِ الَّذِينَ لَا يَقْرَءُونَ وَلَا يَكْتُبُونَ، رَسُولًا أُمِّيًّا مِثْلَهُمْ، يَعْلَمُونَ نَسَبَهُ وَصَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ، يَقْرَأُ عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللهِ؛ لِيَحْفَظُوهَا وَيُحْسِنُوا أَدَاءَهَا، وَلِيُنْقَلُوها إِلَى الْأَجْيَالِ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَيُطَهِّرَهُمْ مِنْ دَسِّ الشُّرْكِ، وَمِنْ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ، وَالنِّيَّاتِ الْفَاسِدَةِ، وَالْعَقَائِدِ وَالْأَفْكَارِ الْبَاطِلَةِ، وَيُزِيدَهُمْ فِي الْخَيْرِ وَالْفَضَائِلِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا: النَّفْسِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالْإِعْتِقَادِيَّةِ وَالسَّلَوُكِيَّةِ، وَيُعَلِّمُهُمْ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَحَقَائِقَهُ، وَأَحْكَامَ السَّنَةِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُبِينَةِ وَالشَّارِحَةَ لِلْكِتَابِ، كَمَا يَرشُدُهُمْ إِلَى وَضْعِ الْأَشْيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا، اعْتِقَادًا، أَوْ فِكْرًا، أَوْ مَعْرِفَةً، أَوْ عَمَلًا، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَفِي بُعْدٍ عَنِ الْحَقِّ شَدِيدِ الْوُضُوحِ. وَتَخْصِيصِ الْعَرَبِ بِالذِّكْرِ لَا يَنْفِي عُمُومَ رِسَالَتِهِ لْغَيْرِهِمْ، فَرِسَالَتُهُ ﷺ عَامَةٌ شَامِلَةٌ، وَلَكِنْ الْمُنَّةُ عَلَى الْعَرَبِ أَبْلَغُ وَأَكْبَرُ، وَمَسْئُولِيَّتُهُمْ عَنْ خُتْلِ رِسَالَتِهِ أَعْظَمُ.

٣ - وَأَرْسَلَهُ سُبْحَانَهُ إِلَى قَوْمِ آخَرِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لَمْ يُدْرِكُوا

الصَّحَابَةَ، وَجَاؤُوا بَعْدَهُمْ، وَهُمْ جَمِيعٌ مَنْ دَخَلَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْقَوِيُّ الْغَالِبُ، فِي تَمْكِينِهِ رَجُلًا أُمِّيًّا مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، وَتَأْيِيدِهِ عَلَيْهِ، الْحَكِيمُ فِي اخْتِيَارِهِ إِيَّاهُ مِنْ كَافَّةِ الْبَشَرِ.

٤ - ذَلِكَ الْبَعْثُ لِلرَّسُولِ ﷺ وَاخْتِيَارُهُ وَتَعْلِيمُهُ، فَضَّلَ اللهُ، يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَاللهُ ذُو الْإِحْسَانِ الْعَظِيمِ، وَالْعَطَاءُ الْجَزِيلُ لَخَلْقِهِ، حَيْثُ أَرْسَلَ فِيهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَشَرَّفَهُمْ بِحَمْلِ رِسَالَتِهِ، وَنَشَرَهَا، وَالْجِهَادَ مِنْ أَجْلِهَا.

٥ - مِثْلُ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَلَّفُوا الْقِيَامَ بِالتَّوْرَةِ وَالْعَمَلُ بِمَا فِيهَا، ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا، وَلَمْ يُوْثِّدُوا حَقَّهَا، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، كَمِثْلِ الْحِمَارِ الْمَشْتَهَرِ بِالْبَلَادَةِ وَالْغَيَاءِ يَحْمِلُ الْكُتُبَ الْعِظَامَ مِنَ الْعِلْمِ، وَهُوَ لَا يَقْفَهُ مَا فِيهَا مِنْ دَلَالَاتٍ، وَلَا يَعْمَلُ بِشَيْءٍ مِنْهَا، قَبَّحَ مِثْلًا مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ التَّوْرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِهَا حِينَ تَرَكُوا الْإِيمَانَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا أَتَى بِهِ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَاللهُ لَا يَحْكُمُ بِالْهَدَايَةِ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِتَكْذِيبِ آيَاتِ اللهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَعَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْعَذَابِ الْأَلِيمِ فِي نَارِ الْجَحِيمِ.

٦ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللهِ، وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ -: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَارُوا يَهُودًا، إِنْ ادَّعَيْتُمْ - بَاطِلًا - أَنْكُمْ أَحِبَّاءُ اللهِ مِنْ دُونِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَأَحْبَبُوا الْمَوْتَ فِي قُلُوبِكُمْ، وَأَعْلَنُوا ذَلِكَ بِالْإِعْلَانِ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّ الْمَوْتَ هُوَ الَّذِي يُوصِلُكُمْ إِلَى لِقَاءِ اللهِ، وَحِسَابِهِ، وَجَزَائِهِ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ - فِيمَا زَعَمْتُمْ - أَنْكُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاءُهُ؛ لِأَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِأَوْلِيَاءِ اللهِ مِنَ الدُّنْيَا.

٧ - وَلَا يَتِمُّ الْيَهُودُ الْمَوْتَ أَبَدًا، إِثَارًا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ؛ بِسَبَبِ مَا قَدَّمُوا مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا بِهِ، وَتَعَدَّوْا عَلَى حَقِّقِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَحَقِّقِ عِبَادِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ظُلْمِهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ.

٨ - قُلْ - يَا رَسُولَ اللهِ، وَيَا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ -: إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَهْرَبُونَ مِنْهُ، وَلَا تَجْسُرُوا أَنْ تَمُوتُوهُ خِيفَةً أَنْ تُؤْخَذُوا بِوَبَالِ كُفْرِكُمْ، فَإِنَّهُ آتٍ إِلَيْكُمْ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَالِكُمْ، لَا يَنْفَعُكُمْ الْفِرَارُ مِنْهُ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ السَّرِّ وَالْعِلَانِيَةِ، يَعْلَمُ مَا غَابَ عَنْكُمْ مِمَّا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ حَوَاسِكُمْ وَعُقُولُكُمْ، وَمَا تُشَاهِدُونَهُ، فَيُخَبِّرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْمَلُونَهَا فِي الدُّنْيَا، وَيَجَازِيَكُمْ عَلَيْهَا.



٩ - يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً صادقاً، إذا نُودي لوقتِ الصَّلَاةِ في يوم الجمعة، فامضُوا بهمة ونشاط إلى سماع الخطبة وأداء الصلاة، واتركوا البيع والشراء وسائر الأعمال الدنيوية، ذلك الذي أمرتم به من حضور الجمعة، وترك الأعمال الدنيوية، وأهمها: البيع والشراء، خير لكم من المباحة التي فيها ربحٌ من غير جهد كبير في ذلك الوقت، إن كنتم تعلمون مصلح أنفسكم، فأقبلوا على العبادة بهمة نفسية، ونشاط في العمل؛ لأنها مُحَدَّدة الوقت، معلومة المقدار، مضمونة النتيجة عند الله تعالى.

١٠ - فإذا فُرِغ من صلاة الجمعة، فتفرقوا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم، ومطالب حياتكم، ومصالح دنياكم، واطلبوا رزق الله بأنابة ورفق مع صبر وكدح، واذكروا الله كثيراً في جميع أحوالكم؛ رغبة في الفوز بخيري الدنيا والآخرة.

١١ - وإذا أنصَر بعض المسلمين تجارة أو لهواً، تفرقوا وذهبوا نحو التجارة واللهو، وتركوك قائماً في الخطبة للجمعة. قل لهم - يا رسول الله -: ما عند الله من الثواب والأجر على الصَّلَاة، والثبات مع النبي ﷺ خير مما يشغلكم عن الطاعة، ومن التجارة التي تبغون منها الربح والمنافع العاجلة، ولن يفوتكم ما قُدِّر لكم من الرزق، والله تعالى - وحده - هو خير من يُعطي ويرزق؛ لأن كل رزق من سواه، فهو من رزق الله، أجراه الله على يديه، وهو الرزاق الحقيقي الذي لا رازق سواه، فليأبه فاسألوا، ومنه فاطلبوا، واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة.

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

١ - إذا جاءك - يا رسول الله - المنافقون الكاذبون في ادعاء الإيمان قالوا بالستهم: نشهدُ بالستنا شهادةً مطابقة لما نعتقه ونؤمن به في

قلوبنا، إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله الذي أرسلك، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في قولهم: نشهد إنك لرسول الله؛ لأن قولهم خالف اعتقادهم.

٢ - جعلوا أيمانهم الكاذبة التي يحلفونها سُتْرَةً يَسْتَتِرُونَ بها من القتل، فأعرضوا بأنفسهم عن طاعة الله ورسوله، ومنعوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، والجهاد معه، ما أشد سوءهم بسبب ما كانوا يعملون من عمل شديد السوء!!

٣ - ذلك الذي ذكر من حالهم الذي دأبوا عليه؛ بسبب أنهم آمنوا في الظاهر، ثم كفروا في السر، وبعد أن استمروا مدة فيما اختاروه لأنفسهم من نفاق، كان من نتيجة ذلك بمقتضى سنن الله السببية أن يُثقل على قلوبهم إقبالاً كاملاً، ويُطبع على هذه الأقفال بالأختام، حتى صارت غير مُستعدة لاستقبال واردات الهداية، فهم لا يفهمون بواطن الأمور ودقائقها، ولا يتبصرون بالنتائج والعواقب الوخيمة للأعمال الفاسدة المفسدة، وينطلقون في جرائم نفاقهم بجرأة ووقاحة، كأنهم هداة مصلحون غير مفسدين.

٤ - وإذا رأيت - يا رسول الله - المنافقين تُعَجِّبك مناظرهم الحسنة، وإن يقولوا تسمع لأقوالهم المنمقة، فهم يتصنَّون الظواهر التي تخدع الأنظار، ويحسنون القول فصاحةً وبياناً واتقاءً للمعاني، فإذا حضروا مجالس العلم والذكر مع المؤمنين اختاروا لأنفسهم الأماكن التي يسندون إليهم ظهورهم كالجُدُر والسُّواري، لأنها مُريحة لهم، وذات وجهة، لكنهم لا يعون مما يقال في هذه المجالس من علم وذكر شيناً، لانصراف أذهانهم وقلوبهم، كأنهم أعمدة من خشب مُستندة على الجُدُر، يظنون لخبثهم ولشدَّة حذرهم وترقيهم كل صوت عالٍ بإنذار واقعاً عليهم بما يكرهون؛ لما في قلوبهم من الرعب والخوف من افتضاح أمرهم، هم وحدهم الكاملون في العداوة، الراسخون فيها؛ لمخالطتهم ومداخلتهم ومصانعتهم، وتظاهرهم بالإسلام، ومعرفتهم مقاتل المسلمين، وثغرات الضعف التي يمكن أن ينفذوا إليها، فاحذرهم - يا رسول الله -، وراقب كل حركة من حركاتهم، وكل تصرف من تصرفاتهم، واتخذ كل الوسائل التي تحميك والمسلمين من مكرهم ومكايدهم، ولا تدع لهم متقدماً ينفذون منه للإضرار بالمسلمين، وإفساد أحوالهم، ولا تأمنهم على سرِّك؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار، ينقلون إليهم أسرارك، لعنهم الله وطردهم من رحمته طرداً أبدياً، كيف يُضرفون عن الحق والرشد إلى ما هم عليه من الكفر والضلال؟!

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ مِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا مِنْ حَيْثُ كَانُوا فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ قَوْلَهُمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُوَ الْعُدُو فَاخْذِرْهُمْ فَإِنَّهُمْ يَخْلَعُونَ ﴿٤﴾

٥ - وإذا ارتكب المنافقون ذنباً من الكبائر التي تمس الرسول أو جماعة المؤمنين، تنم عن سوء طويتهم، وتدلل على عدم صدق ولائهم، ودعاهم بعض المؤمنين إلى الرسول؛ ليعتذروا ويطلبوا منه أن يستغفر لهم، أعلنوا الرفض بتلقائية، وأمالوا رؤوسهم بسرعة وعنف، رغبة عن الاستغفار؛ ورأيتهم - يا رسول الله - يحجمون عما دُعوا إليه، ويصرفون من يتأثر بهم عن سلوك سبيل الله، وهم مستكبرون عن اتباعك وطاعتك واستغفارك لهم، والسبب في ذلك: أنهم كافرون باطنياً، فهم لا يؤمنون بأنهم عصاة حتى يشعروا بالحاجة إلى أن يستغفر لهم الرسول، ويُعرضون عن كل عمل فيه مرضاة الله تعالى، أو طاعة لرسوله ﷺ، ويرون أنهم أحق بالزعامة والقيادة.

٦ - سواءً على هؤلاء المنافقين، أطلبت لهم المغفرة من الله - يا رسول الله - أم لم تطلب لهم، لن يغفر الله لهم ما داموا كافرين باطنياً؛ إن الله لا يحكم بالهداية للحق القوم الخارجين على أمره، الذين سلخوا بإراداتهم الحرّة مسلك الكفر والضلال. فالحكم بالمغفرة والهداية التي تجعل العصاة من أهل النجاة والهداية، إنما يكونان لأهل الإيمان فقط، أما من هبط عن أدنى درجات الإيمان، ودخل في دركات الكفر فلا حظ له بشيء منهما.

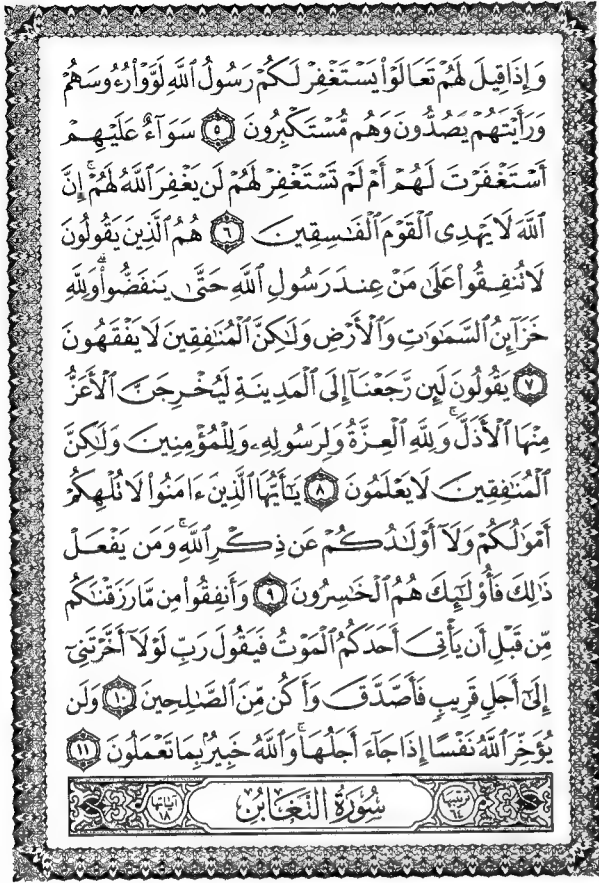
٧ - هؤلاء المنافقون هم الذين يقولون لأهل المدينة من الأنصار: لا تنفقوا من أموالكم على من عند رسول الله من فقراء المؤمنين؛ كي ينفقوا عنه ولا يصحبه، ولله - وحده - مفاتيح الرزق، فهو الذي يعطي منها ويمنع من يشاء من عباده، بحسب حكمته ومشيئته، وقضت سنته أن من أنفق ابتغاء مرضاة ربه أخلف الله عليه، وضاعف له الأجر، وأن من أمسك أمسك الله عنه، أو حرمه من أن يستمتع أو ينتفع بما وهبه، ولكن هذه المعاني الدقيقة لا يفقهها المنافقون؛ لأن أذهانهم وأفكارهم لا تتجاوز ظواهر الحياة الدنيا، ومصالحهم القريية العاجلة.

٨ - يقول هؤلاء المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبي الذين وافقوه على مقالته: نقسم لئن رجعنا من غزوة بني المصطلق إلى «المدينة»، ليُخرجنَ فريقنا الأقوى منها فريق المؤمنين الأضعف والأهون، ولله العزة بقمه وقوته وغلته، ولرسوله ﷺ بإظهار دينه على الأديان كلها، وللمؤمنين بإمداد الله لهم بالقوة الغالبة، ونصرهم على أعدائهم، ولكن المنافقين لا يعلمون هذه الحقيقة؛ لفرط جهلهم، ويحسبون أن لديهم من القوة ما يستطيعون بها إخراج الرسول والمهاجرين مطرودين من «المدينة».

٩ - يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله، واتبعوا هديته: لا تشغلكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر كل ما يتصل بالله سبحانه من عقائد إيمانية، وواجبات أمر الله بها، ومحرمات نهى عنها، كما ألهمت الأموال والأولاد المنافقين، ومن شغله ماله وولده عن ذكر الله، فأولئك البعداء عن مراتب المؤمنين هم الخاسرون في تجارتهم، الذين خسروا رأس مالهم في هذه الحياة، وهو: عمرهم المحدود، ومن خسر ذاته كان هو الخاسر الأكبر. فمن وجه كل هم في الحياة الدنيا للأموال وجمعها وعدّها وتنميتها، وللأولاد وحاجاتهم ومطالبهم التي لا تنتهي، اضطر أن ينفق في ذلك كل طاقات فكره ونفسه، حتى تمحي من تصورات عقائده الإيمان وأوامر الله التي كلّفه بها، ويحل محلها مفهومات أهل النفاق ومطالبهم من الحياة الدنيا، فيفتق في مفهوماته وسلوكه معهم.

١٠ - وأنفقوا - أيها المؤمنون - بعض ما رزقناكم في الحياة الدنيا، من قبل أن يرى أحدكم دلائل الموت ومقدماته وعلاماته، فيقول: ربّ هلاً أهملني في الحياة الدنيا، وأخرت أجلي، فأتصدّق وأبذل مالي تقريباً إليك، وأكون من المؤمنين الصالحين. لكنه مطلب لا يستجاب له، فقد انتهت رحلة الامتحان عند حلول أجل الموت، وانقطع كل عمل، ودخل الإنسان عتبة اليوم الآخر.

١١ - ولن يؤخر الله تعالى من حضر أجله، وانقضت مدته، والله خبير بما تعملون من خير أو شر، على سبيل الشهود والحضور المصاحب لكل أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه، وسيجازيكم على أعمالكم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ
وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصُورَكُمْ فَالْحَسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
فَدَّأَوْا بِآلِ آمِرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ مِثْلُنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْتَفُوا
اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِ حِمْدِهِ ﴿٦﴾ رَزَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ لِي وَرَبِّي
الْبَيْتُنُ ثُمَّ لِنُبَيِّنَنَّ يَمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَاٰمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ
يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْحَمْدِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

١ - يُنْزَهُ اللَّهُ بدوام وتجدد عما لا يليق بجلاله، وعظيم سلطانه،
وكمال أسمائه الحُسنَى وصفاته العلىا، وكمال أفعاله وتصرفاته، جميعُ
أجزاء السموات وما فيها من شمس وقمر، ونجوم ومجرات، وغير
ذلك، وجميع ذرات الأرضين، وما فيها من جبال وبحار وشجر
ودواب، كلها مُسَبَّحة خاشعة خاضعة لجلال الله تعالى منقادة له، له
سبحانه التصرف المطلق في ملكه كيف يشاء، وله الثناء الحَسَنُ
الجميل؛ لأنَّ أصول النعم كلها منه، وهو الذي يُحمد على كُلِّ حال،
فلا محمود في جميع الأحوال إلا هو، وهو سبحانه على كُلِّ شيء
يشاؤه من المُمكنات العقلية عظيم القدرة، إيجاداً أو إعداماً، أو تغييراً
أو تحويلاً، لا يعجزه شيء مهما عظم، ولا يصعب عليه شيء مهما
كبر.

٢ - هو سبحانه الذي أوجدكم وأنشأكم كما أراد، فبعضكم جاحدٌ
لربوبيته، مشركٌ بإلهيته، وبعضكم مُصدق به، عامل بشرعه، فلكلٍّ
واحد من الفريقين إرادة حرة يختار بها طريق الكفر أو الإيمان، وكان
الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان، شاكرين الله على
نعمة الخلق والإيجاد وسائر النعم، فما فعلتم ذلك مع تمكينكم منه،
والله سبحانه بصير بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها، وسيحاسبكم
عليها.

٣ - خلق الله السموات والأرض بالحكمة البالغة، وصوَّركم فأتقنَ
وأحكم صوَّركم على وجه لا مثيل له في الحُسن والمنظر، وإلى حكم
الله وحده، وفصل قضائه، وتنفيذ جزائه، وإلى المكان الذي يقضي
فيه، مرجع جميع الخلائق.

٤ - يعلم سبحانه وتعالى كُلَّ ما في السموات والأرض، ويعلم ما
تُخفونه - أيها الناس - وما تُظهرونه، لا تخفى عليه خافية، والله

سبحانه عليم بالنيات والسرائر صاحبة الاستقرار في الصدور، وداخل النفوس، فأتقوه واحذروه.

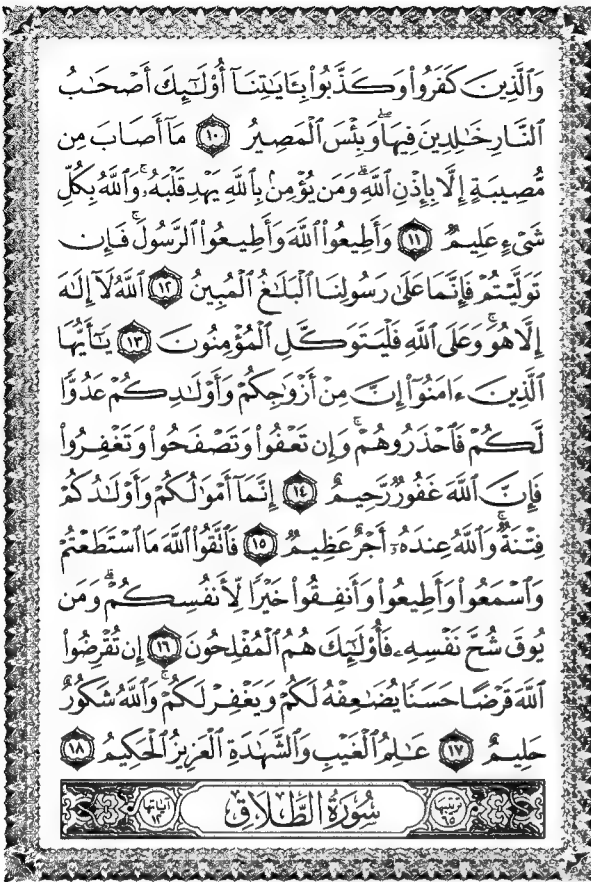
٥ - ألم يأتكم - أيها المشركون - خبر الأمم الخالية المكذبة قبلكم، كقوم نوح وهود وصالح، لحَقُّهم العذاب في الدنيا، وتجرَّعوا وبال
كفرهم، وجزاء أعمالهم، ولهم عذابٌ أليم في الآخرة؟

٦ - ذلك الذي نَزَلَ بهم من العذاب في الدنيا وما سينزل بهم في الآخرة؛ بسبب أنه كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الواضحات، فقالوا
منكرين: أبشِرْ مثلنا يَرسُدوننا؟ فَجَحَدُوا وأنكروا، وانصرفوا مبتعدين عن الحق فلم يقبلوه، واستغنى الله عن إيمانهم وعبادتهم، والله
غنيٌ بذاته وصفاته وأفعاله عن خلقه، محمودٌ على عظيم صفاته، وجيل نعماته، كثير الحمد لأهل طاعته والتقرب إليه.

٧ - ادَّعى الذين كفروا - باطلاً - أنهم لن يُبعثوا بعد الموت. قل لهم - يا رسول الله -: بلَى لِرَبِّي لُتُخْرِجَنَّ من قبوركم أحياء، ثُمَّ لُتُخَبِّرَنَّ
يوم القيامة بما عملتم في الحياة الدنيا، وأمر البعث والحساب يوم القيامة على الله هَيِّنٌ يسير، وكلُّ شيء على الله سبحانه يسير؛ لأنه إذا
أراد شيئاً يقول له: كن فهو يكون، بأمر التكوين الرباني.

٨ - وإذا كان الأمر كذلك، فآمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ - أيها المشركون -: لئلا ينزل بكم ما نزل من العذاب بالأمم المكذبة، وآمنوا
بالقرآن الذي أنزله على رسوله، يُهتدى به في ظلمات الضلالة كما يُهتدى بالنور في الظلمة، والله بما تعملون خبير، علماً كاملاً شاملاً،
لكلِّ ظواهر الأشياء وبواطنها، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو مُجازيكم عليها يوم القيامة، فراقبوه وخافوه.

٩ - اذكروا يوم يجمعكم مسوقين ليوم القيامة، يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وأهل السموات وأهل الأرضين، ذلك اليوم الذي
يخسر فيه الكافرون والعصاة منازلهم ومراتبهم التي كانت مُعدَّة لهم في الجنة، وكانوا يستحقونها لو أنهم آمنوا وأطاعوا، فيقع عليهم
العُقُوبَةُ الذي غبنوا به أنفسهم؛ إذ يورث الله عز وجل المؤمنين مراتبهم ومنازلهم فيها، وهو يومٌ تظهر فيه خسارة صفقة الكافرين خسراناً
عظيماً، وربح صفقة المؤمنين ربحاً عظيماً، ومن يؤمن بالله إيماناً صحيحاً كاملاً، ويعمل صالحاً في إيمانه إلى أن يموت على ذلك،
يُمَحُّ عنه سيئاته، ويدخله جنَّاتٍ عظيمات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، ذلك الجزاء هو الفوز العظيم
الذي لا فوز بعده.



١٠ - والذين كفروا بوحدةانية الله وقدرته، وكذبوا بآياتنا الكونية والبيانية والإعجازية والجزائية العقابية، أولئك البعداء عن رحمة الله، المنحطون في الدركات أصحاب النار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، خالدين فيها أبداً، وساء المرجع الذي صاروا إليه، جهنم.

١١ - ما أصاب أحداً مصيبة إلا بقضاء الله وقدره وإرادته، ومن يؤمن بالله إيماناً صحيحاً صادقاً، ويصدق أنه لا يصيبه مصيبة إلا بقضاء الله وقدره وإذنه، يحكم الله له بهداية قلبه، ويوفقه لليقين والمزيد من الهداية، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، والله بكل شيء عليم.

١٢ - وأطيعوا الله تعالى فيما أمر، وأطيعوا الرسول ﷺ فيما جاء به عن الله، فإن انصرفتم مبتعدين عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه، فما على رسولنا إلا التبليغ الواضح الظاهر، والمظهر الموضح لقضايا الإيمان، ولشرائع الله وأحكامه، وليس مأموراً بالقيام بوسيلة من وسائل الإكراه والإلزام لإجبار الناس على الإيمان، وتحويلهم عن الكفر.

١٣ - لا معبود بحق ولا مقصود إلا هو سبحانه، وعلى الله وحده - فليعتمد المؤمنون في كل أمورهم مع قيامهم بالأسباب المستطاعة المادية والمعنوية التي دعا الله تعالى إلى اتخاذها.

١٤ - يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، واتبعوا شرعه، إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم، يصدونكم عن طاعة الله، وقد يحملونكم على السعي في اكتساب الحرام، وارتكاب الآثام، والوقوع في المعاصي، فاحذروا أن تطيعوهم، ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم، ولا يعظم في نفوسكم ويصعب عليكم مكافأتهم على

إحسانكم بالإساءة والجحود ونكران الجميل، وإن تعفوا عنهم إذا أطلعتهم منهم على عداوة أو تقصير ونكران للجميل، وتعرضوا عن توبيخهم، وتستروا ذنوبهم، فإن الله يغفر لكم ذنوبكم، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويرحمكم؛ لأنه سبحانه واسع المغفرة والرحمة، وإن لكم سيئات كثيرات ترتكبونها في جنب الله، وأنتم بحاجة إلى أن يغفرها الله لكم ويرحمكم برحمات واسعات، مع أنكم مغمورون بنعمه التي لا تنقطع، فلا يعظم في نفوسكم أن تتلقوا الإساءة ممن تحسنون إليهم، فأنتم تفعلون مثل ذلك في جنب الله دائماً.

١٥ - ما أموالكم وأولادكم إلا بلاء واختبار وشغل عن الآخرة، فلا تبأشروا المعاصي بسبب أولادكم، ولا تؤثرهم على طاعة الله، والله عنده ثواب عظيم في الجنة لمن أثر طاعته سبحانه على طاعة غيره.

١٦ - فابذلوا - أيها المؤمنون - في تقوى الله جهدكم، واسمعو ما توعظون به سماع تفكر وتدبر، وأطيعوا الله ورسوله فيما تؤمرون به، وتنهون عنه، وأنفقوا من أموالكم حق الله الذي أمركم به، يكن الإنفاق خيراً لأنفسكم، ومن يكفه الله بخل نفسه وحرصها الشديد على المال، فيفعل في ماله جميع ما أمر الله به، طيب النفس به، فأولئك الفضلاء رفيعو المنزلة هم - وحدهم - الفائزون بكل خير، الظافرون بكل مطلب في الدنيا والآخرة.

١٧ - إن تنفقوا أموالكم في طاعة الله بإخلاص وطيب نفس، يضاعف الله ثواب ما أنفقتم إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء من الزيادة، ويغفر لكم ذنوبكم، والله كثير الشكر للقليل من الأعمال، يجزي على العمل الصالح اليسير، بالجزاء الوافر الكثير، حلیم لا يعاجلكم بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم، ليرتدكم لكم أقصى أمد يرجى فيه هدايتكم. فمن يتعامل مع الله بالبذل في سبيله كمن يعقد عقد رباحاً متحقق الفائدة البالغة أضعافاً مضاعفة كثيرة بالنسبة إلى رأس المال المبذول، ومثل هذا العقد مع الناس محرم، وما يجنى به من فائدة زائدة على رأس المال سُحت، لما فيه من ظلم واستغلال لضرورة ذوي الحاجات. لكنه مع الرب الخالق، عمل مبرور، وعقد مشكور، والله عز وجل لا يناله شيء مما يبذل عباده في سبيله، إنما يناله التقوى، والعمل الصالح، وهو سبحانه يكافئ عباده ثواباً، وهم جميعاً مملوكه، وكل ما يملكونه هو ملكه سبحانه.

١٨ - هو سبحانه عالم الغيب ممّا غاب عن ذوي الإدراك من خلقه، وعالم الشهادة من الأكوان الظاهرة التي تُدرك بالحواس، فلا يغيب عن علمه شيء، القوي الغالب الذي لا يُغالب، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه، الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأنفعها وأحسنها في الأمور المختلفة لما يُعطي أحسن النتائج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ
وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَنَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَفَكَرْتُ أَنَّ
اللَّهَ وَمَنْ يَتَّبِعُ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ
اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُوهنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذُوَى عَدْلِ مِنْكُمْ
وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ
بَلِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي بَيَّنَّ
مِنَ الْمَحْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ رَزَقْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ
وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ
وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ
إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

١ - يا أيها النبي الذي شرّفناك بالنبوة قل لأمتك: إذا أردتم تطليق نساءكم المدخول بهنّ من المعتدات بالحيض، فطلقوهنّ في وقت يستقبلن فيه عدتهنّ، وهو الطهر الذي لم يقع فيه جماع، واضبطوا العدة؛ للعلم ببقاء زمن الرجعة، ومراعاة أمر النفقة والسكنى، واحشوا الله خالقكم ورازقكم ومربيكم بنعمه، ولا تعصوه فيما أمركم به، ونهاكم عنه، فلا تطلقوا إلا طلاقاً سنياً واحداً، في طهر لم توافقوا فيه نساءكم، وعلى الزوجة أن تقضي العدة في بيت الزوجية في الطلقة الرجعية، لعلّ قُربهما من بعضهما يحرك الشوق، ويحدث الندامة، ويستتر الخصام، ويعيد الوثام، لا تخرجوا المطلقات من البيوت التي يسكنن فيها، ما لم تنقض عدتهنّ، وهي ثلاث حيضات أو أطهار لغير الصغيرة والأيسة والحامل، ولا يجوز لهنّ الخروج منها بأنفسهنّ، إلا إذا فعّلن فعلة منكراً واضحة، ممّا يؤذي العرض أو الكرامة، أو يأباه العرف السليم، فيحلّ إخراجها من منزل الزوجية لتقضي عدتها عند أهلها؛ لأنها هي التي أساءت إلى الزوج إيذاءً شديداً، وخرجت على حدودها، فلا بدّ أن تكون الإساءة الزوجية واضحة بليغة، فلا تتوسّعوا - أيها الأزواج - بعد الهفوات والأخطاء اليسيرة على زوجاتكم، ولا تشدّدوا في احتساب كلّ شيء عليهنّ، ولكن ينبغي أن تكون الحياة الزوجية قائمة على كثير من التسامح، وتلك أحكام الطلاق التي شرّعها الله لعباده، ومن يتجاوز هذه الأحكام، فقد ضرّ نفسه وظلمها، وأوردها مؤرد الهلاك. والنهي عن تجاوز حدود الله نهْيٌ تحريمي؛ لأنه لا يدخل فيها إلا بأن يمسّ منطقة الحرام.

لا تدري - أيها المطلّق - لعلّ الله يُوقع في قلبك مراجعة زوجتك بعد الطلقة والطلقتين. وهذا يدلّ على استحباب تفريق الطلقات، وأنّ

لا تُوقع الثلاث دفعة واحدة حتى إذا تدمّ أمكنه المراجعة.

٢، ٣ - فإذا قُرْبَن من انقضاء عدتهنّ، وشارفت العلاقة الزوجية على الانقطاع التام، فراجعوهنّ بنية القيام بحقوقهنّ على الوجه المستحسن شرعاً وعرفاً، أو اتركوهنّ حتى تنقضي عدتهنّ قَتْبَيْنِ مِنْكُمْ، والمفارقة بالمعروف تقتضي أن يُؤدّي لها كلّ حقوقها، وأن يعاونا إن كانت في حاجة إلى معاونته، وألا يذكرها إلا بخير، وأشهدوا على الرجعة، أو على الطلاق رجُلَيْنِ عَدْلَيْنِ في سلوكهم وأحكامهم وأقوالهم من المسلمين؛ وأدّوا الشهادة - أيها الشهود - طلباً لمرضاة الله، وقياماً بوظيفته، ذلك الذي أمركم الله به من أحكام تتعلق بالطلاق والعدة وحقوق المطلقات يُنصح به نصحاً مقروناً بما يثير الرغبة والرهبة في النفس للانتفاع بالنصح، واتباع ما هدى الله إليه، مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً صحيحاً صادقاً. وفي هذه الآية دليل على أهمية سلامة القاعدة الإيمانية للاتعاظ بالوصايا والأحكام الربّانية.

ومن يتقّ الله، فيعمل بما أمره، ويجتنب ما نهاه عنه، يجعل الله له مخرجاً ومخلصاً من غموم الدنيا والآخرة، ويرزقه دواماً ويسّر له أسباب الرزق من حيث لا يخطر على باله، ولا يكون في حسبانته. ومن يكّل أمره إلى الله فهو كافيه ما أهمّه في الدارين، إنّ الله مُنْفِذُ أمره، ومُخَصّ في خلقه ما قضاه، لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب، قد جعل الله قدراً مُحَدّداً حكيماً لكلّ ما خلق، ولكلّ ما أمر به أمر تكليف وتشرية، ولكلّ شيء يخضع لأمره، فأحكام الله وشرائعه وأوامره ونواهيه ذوات حدود ومقادير ينطبق عليها القانون الربّاني العام، المنضبط بسنة الحدود والمقادير.

٤ - والنساء المطلقات العجائز اللاتي وصلن إلى سنّ اليأس، وانقطع عنهنّ دم الحيض - إن شكّتم في حكمهنّ ولم تدروا ما عدتهنّ - فعِدَّتُهُنَّ ثلاثة أشهر، والصغيرات اللاتي لم يحضن بعد، فعِدَّتُهُنَّ أيضاً ثلاثة أشهر، وذوات الحمل من النساء عدتهنّ أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، ولا فرق في ذلك بين المطلقات والمتوفّين عنهنّ أزواجهنّ، ومن يتقّ الله باجتناب معاصيه، وامتنال أوامره، يُسهّل الله عليه أمر الدنيا والآخرة، ويوفقه للخير.

٥ - ذلك الذي ذُكر من أحكام الطلاق والعدة أمر الله الذي أنزله إليكم، وشرعه لكم - أيها المؤمنون - لتعملوا به، ومن يتقّ الله باجتناب معاصيه، وأداء فرائضه، يَمْحُ عنه خطاياه؛ فإنّ الحسنات يُذهبن السيئات، ويُعظم له الجزاء ويُضاعفه يوم الدين، ويدخله الجنة.

٦ - أَسْكَنُوا الْمُطَلَّقاتِ من نسائكم في أثناء عدَّتِهِنَّ مكاناً من مسكنكم على قدر سَعَتِكُمْ وطاقتِكُمْ، ولا تُؤْذوهنَّ في مساكنهنَّ فَيُخْرِجنَّ، وإنَّ كانتِ نساؤُكم الْمُطَلَّقاتِ ذواتِ حَمَلٍ، فَأَنْفِقُوا عليهنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، فَيُخْرِجنَّ من عدَّتِهِنَّ، فإنَّ أرضَعْنَ لَكُمْ أولادكم بعد أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، فَأَتَوْهُنَّ أَجورَهُنَّ على إرضاعهنَّ، وليأمر بعضكم بعضاً بما تُعَوِّفُ عليه من سماحة وطيب نفس، فلا يَقْصُرَ الرجلُ في حقِّ المرأةِ ونفقتها، ولا المرأةُ في حقِّ الولدِ ورضاعه، وإن تَضايَقْتُمْ بِالْمُشَاحَّةِ في حقِّ الولدِ وأجرة الرُّضَاعِ، فَأَبَى الزَّوْجُ أن يعطي المرأةَ أَجرةَ رضاعها، وأبَتِ الأمُّ أن تُرْضِعَهُ، فلا سبيلَ للزَّوْجِ عليها، وليس له إكراهها على إرضاعه، ولكنه يستأجر لابنه مرضعةً غير أمِّه المُبانة منه.

٧ - لِيُنْفِقَ الزَّوْجُ المُوسِعُ عليه على زوجته المطلقة، وعلى ولده على قدر غناه، ومن ضَيَّقَ عليه رزقه، فَلْيُنْفِقْ على قدر ما آتاه الله من المال وإن كان قليلاً، لا يُكَلِّفُ الله نفساً في النفقة إلا ما آتاها من الجود والسخاء، فلا يُكَلِّفُ الجواد الكريم مثل ما يُكَلِّفُ السَّخِيفَ في النفقة، سيجعل الله بعد ضيقٍ وشدةٍ غنىً وسعةً. دَلَّتْ هذه الآية على أنَّ التَّكْلِيفَ والمسؤوليةَ على مقدار الهبة الرِّبَائيَّةِ، وما لا قدرة للإنسان عليه، هو خارجٌ عن دائرة مسؤوليته، فمسؤولية الإنسان المَفْطُور على نسبة عالية من الشَّحِّ أخف من مسؤولية الإنسان المَفْطُور على نسبة عالية من الكرم، وكلُّ منهما تقف حدود مسؤوليته عند حدود استطاعته مغالبة نفسه، فمتى وصل إلى المستوى الذي لا يستطيعه، فإنَّ مسؤوليته عندئذ ترتفع، ولكن لا ترتفع المسؤولية في تكليف عام لا حَظَّ فيه الشارع حدود الاستطاعة الموجودة لدى مختلف طبائع الناس، كالزكاة والنفقة الواجبة في باب البذل والإنفاق.

٨، ٩ - وكثيرٌ من أهل مُجْمَعات سَكَنِيَّة عَصَوْا وَطَعَوْا عن أمر ربِّهم، وأمر رسله، فحاسبناهم حساباً شديداً بالتدقيق والاستقصاء لكلِّ ذنوبهم، فلم تغادر منه شيئاً، وعدَّبناهم عذاباً مُتَكَرِّراً قَظِيحاً، فَتَجَرَّعُوا سُوءَ مَالِ أَمْرِهِمْ، وَجَزَاءَ كُفْرِهِمْ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ خُسْرَاناً في الدنيا والآخرة، لأنهم باعُوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل.

١٠، ١١ - هَيَّاَ اللهُ لِهَؤُلاءِ الكُفَّارِ، عَذَاباً شَدِيداً يَنْزِلُ بِهِمْ كَمَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، فَأَثَقُوا اللهَ، واحذروا سخطه وعقابه، وذلك بامْتِثَالِ أوامره، واجتنابِ نواهيه - يا ذوي العقول الراجحة الواعية الدِّراكة التي تعقل المعارف فتُمْسِكُ بها، وتعقل النفوس عن اتِّبَاعِ الهوى والشهوات -؛ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللهَ وَاتَّبَعُوا رِسْلَهُ. قد أنزل الله إليكم - أيها المؤمنون - بما أوحى إلى رسوله ﷺ ذِكْراً تَذَكُّرُونَهُ أَنَا فَأَنَّا، وَتَتَذَكَّرُونَ آيَاتِهِ، وَتَتَفَكَّرُونَ فِي مَعَانِيهِ، وَتَعْمَلُونَ بِأَحْكَامِهِ وَوَصَايَاهُ، وَأَرْسَلَ إِلَيْكُمْ رَسُولاً هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ، يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ حَالِ كَوْنِهَا مُوَضَّحَاتٍ لَكُمْ الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ؛ لِيُخْرِجَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً صَاحِقاً صَادِقاً، وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ الْمَعْبُورَةَ عَنْ صِحَّةِ إِيمَانِهِمْ وَصِدْقِهِمْ فِيهِ، مِنْ ظَلَمَاتِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ وَالْمَعَاصِي وَالْمُخَالَفاتِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ، وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ إِيمَاناً صَاحِقاً صَادِقاً، وَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ إِيمَانِهِ الْإِرَادِيِّ الْاعْتِقَادِيِّ، يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ عَظِيمَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ، مَا كُنْثِي فِيهَا أَبَداً، قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لِلْمُؤْمِنِ الصَّالِحِ نَعِيمًا لَا يَنْقُطُ فِي الْجَنَّةِ.

١٢ - اللهُ - وحده - الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَخَلَقَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ فِي التَّرْكِيبِ وَالْخِصَائِصِ، فَالْعُنَاصِرُ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الْأَرْضُ، مُمَاتِلَةٌ لِلْعُنَاصِرِ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا أَجْرَامُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، يَجْرِي أَمْرُ اللهِ، وَيَنْزِلُ قَضَاؤُهُ وَقَدْرُهُ بَدْءاً مِنْ أَوَّلِ السَّمَاءِ حَتَّى غَايَةِ مَرْكَزِ الْأَرْضِ؛ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَإِءٌ إِبْجَادُهُ أَوْ إِعْدَامُهُ، أَوْ إِجْرَاءُ أَيِّ تَصَرُّفٍ فِيهِ قَدِيرٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَأَنَّ اللهَ سَبْحَانَهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مَعْلُومَةٌ مِنْ كُلِّ مَا يُدْرِكُ بِالْعِلْمِ، مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَالْمُسْتَحِيلَاتِ، وَالْجَائِزَاتِ عَقْلاً، وَمَا هُوَ مَوْجُودٌ، وَمَا هُوَ مَعْدُومٌ، وَكُلُّ الْكَائِنَاتِ جَارِيَةٌ تَحْتَ قُدْرَتِهِ، دَاخِلَةٌ فِي عِلْمِهِ.

أَسْكَنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقِهِنَّ عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتُّوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ وَأَيْتُكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَمَاسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى ٦ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعِيهِ ۖ وَمَن قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ٧ وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ عَنَّتْ عَنِ أَمْرِ رِبَّهَا وَرُسُلِهِ ۖ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا ثَكْرًا ٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ٩ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ١٠ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مِثْلَ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكَ رِزْقًا ١١ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنِهَا لَعَلَّكُمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ١٢

١ - يا أيها النبي الذي شرفناك وكرمناك بالنبوة، لم تمنع نفسك عن الانتفاع بما أحل الله لك من ملك اليمين، تطلب إرضاء بعض زوجاتك بترك ما أحل الله لك؟ والله واسع المغفرة غفر لك ذلك التحريم، شديد الرحمة بك. وسبب التحريم هو: تحريمه ﷺ مارية القبطية، التي أهداها له المقوقس، صاحب الإسكندرية بمصر، وكانت امرأة جميلة، تسرى بها رسول الله ﷺ، وأرسل إليها - عندما ذهبت حفصة إلى بيت أبيها - فطلت معه في بيت حفصة، فلما رجعت وجدت عنده مارية، قالت: يا نبي الله لقد جئت شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك بمثله، في يومي وعلى فراشي؟ قال: ألا ترصين أن أحرمها فلا أقربها؟ قالت: بلى، فحرمها، وقال: لا تذكرني ذلك لأحد، فذكرته لعائشة. فاعتزل رسول الله ﷺ نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعاً وعشرين ليلة، من شدة موجدته عليهن، حين عاتبه الله عز وجل.

٢ - قد بين الله وأوجب لكم - أيها المؤمنون - تحليل إيمانكم بالكفارة عنها، في سورة المائدة في الآية (٨٩) وهي: إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، والله متولي أموركم وناصركم، وهو العليم بخلقهم، الحكيم فيما قرأ من حكمه.

٣ - وضع في ذاكرتك - أيها المتلقي لبیاننا - حين أسر النبي ﷺ إلى زوجته حفصة بنت عمر - رضي الله عنهما - من تحريم مارية القبطية أم ولده إبراهيم على نفسه، واستكتما ذلك، فلما أخبرت حفصة عائشة بذلك، وأطلع الله نبيه على قول حفصة لعائشة، عرّف حفصة بعض الحديث، وأخبرها ببعض ما كان منها، وأعرض - تكراً - عن بعض، ولم يخبرها به، فلما أخبرت حفصة مما أظهره الله عليه، قالت: من أخبرك بأني أفشيت السر؟ قال: أخبرني به الله العليم علماً كاملاً شاملاً بما تكته الضمائر، الخبير على سبيل الشهود والحضور، المصاحب لكل أجزاء العمل، ظواهره وبواطنه.

٤ - إن ترجعاً - يا عائشة وحفصة - إلى الله نادمتين من التعاون على رسول الله ﷺ والإيذاء له، يُتَبَّ عليكم، لأن قلوبكما قد زاعجت ومالت عن الحق، واستوجبتما أن تتوبيا؛ وذلك بأن سرهما ما كره رسول الله ﷺ، وهو اجتناب مارية، وإن تعاونا على إيذاء النبي ﷺ بما يسوؤه من الغيرة وإفشاء سره، يُنصر عليكم؛ لأن الله هو وليه وناصره، وجبريل، وصالح المؤمنين، والملائكة - بعد نصر الله وجبريل وصالح المؤمنين - أعوان للنبي ﷺ ينصرونه على من يؤذيه ويعداه. والحكمة في هذا الوعيد الشديد للمتظاهرتين، أنه أمر يتعلق ببيت رسول الله ﷺ، القدوة لبيوت المسلمين جميعاً، وما يجري فيه يستمد المسلمون منه أحكام دينهم، ومناهج حياتهم الأسرية. فينبغي أن يُنزه هذا البيت من الأعياب النساء وحيلهن لكسب قلب الزوج، وتحوله عن ضرائهن بدافع الغيرة النسائية.

٥ - يرجو رسول الله ﷺ ربه متقرباً إن طلقكن - أيها الزوجات - أن يُبدله أزواجاً خيراً منكن، متصفات بهذه الأوصاف السبعة: الأولى: خاضعات لله بالطاعة، الصفة الثانية: مُصدقات بالأركان الإيمانية الستة تصديقاً صحيحاً صادقاً، الصفة الثالثة: مداومات على الطاعات والاستقامة في كل زمان ومكان، وقول وعمل، الصفة الرابعة: تاركات للذنوب، ناديات على ما وقع منهن، راجعات إلى ما يُحبه الله من طاعته، الصفة الخامسة: كثيرات العبادات لله عز وجل بحب وخوف وإخلاص، الصفة السادسة: متأملات متدبرات متفكرات في ملكوت الله وبدائع صنعه، الصفة السابعة: منهن متزوجات افتقرن عن أزواجهن بوجه من الوجوه، ومنهن غير متزوجات عذارى.

٦ - يا أيها الذين أفرأوا بوحدانية الله، وصدقوا رسوله وعملوا بسنته، احفظوا أنفسكم بالعمل بطاعة الله، والانتهاز عن معصيته، واحفظوا أهليكم بتعليمهم وتاديبهم، وأمرهم بالخير، ونهيهم عن الشر، تحفظوهم ناراً حطبها الذي توقد به: الكفار، والأصنام المعبودة من دون الله، يقوم على تعذيب أهلها ملائكة جفاة غلاظ الخلق والطباع، أقوياء البدن، لم يخلق الله الرحمة فيهم، لا يخالفون الله فيما أمرهم به، ونهاهم عنه، لا تأخذهم رافة في تنفيذ أوامره، والانتقام من أعدائه.

٧ - يقال للكافرين عند دخول النار: يا أيها الذين جحدوا وحادانية الله وكفروا به، لا تعتذروا اليوم حين تُعانون العذاب؛ لأنه لا ينفعكم الاعتذار، وقد قدم إليكم الإنذار والإعذار، ما تُجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من الأعمال السيئة التي ألزمتكم العذاب.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٢ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَ هَاهُنَا قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ٣ إِنْ نُبُوًّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَحِبَّاتٍ فِي دُورٍ ٥ فَاذْكُرْنَ أَنْ يُبَدِّلَهُنَّ خَيْرًا مِنْكُنَّ ٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَفَنُفْسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَفُودُهَا النَّارُ وَالْجِبَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٧ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٨

٨ - يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه، ثوبوا إلى الله توبة صادقة خالصة، سابغة وافية، وذلك بالندم في القلب على الذنب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، وبالعزم على عدم العودة إلى الذنب الذي تبثّم منه في المستقبل، ورد الحقوق لأصحابها، راجين الله ربكم أن يمحو عنكم سيئات أعمالكم تفضلاً وتكرماً منه، ويدخلكم جنّات عظيمات تجري من تحت قصورها الأنهار، يوم يرفع الله شأن النبي محمد ﷺ والذين آمنوا معه، ويعلي مكانتهم، نورهم الخاص بكل واحد منهم بحسب إيمانه وعمله الصالح، يسير أمامهم؛ لكشف طرقاتهم على مقادير سعيهم في طاعة الله ومراضيه في الدنيا، وهذا النور يثبّونه ويوجهونه بأيمانهم، يقولون: يا ربنا أئتم لنا نورنا بسبب ما كان منا من تقصيرات وذنوب ارتكبتها في الحياة الدنيا، حتى نكون مع السابقين، واشتر علينا ذنوبنا، إنك على كل شيء تشاؤه عظيم القدرة، إذا أردت شيئاً كان أسرع ما يكون.

٩ - يا أيها النبي - ويا كل قائد للأمة الإسلامية من المؤمنين - ابذل جهدك في مغالبة الكفار والمنافقين بما تستطيع من مال أو علم أو دعوة أو قتال، وكن شديداً عليهم، فعاملهم بقسوة وعنف، فقد تمادوا فيما هم فيه، ولم تجد معهم سياسة التغاضي والتخفيف بالآخرة. ومنزلهم الذي سيصرون إليه في الآخرة، ويقيمون فيه دوماً جهنم دار العذاب، وبئس المصير مصيرهم إليها.

١٠ - بين الله شَبَهاً وحالاً للذين كفروا - في مخالطتهم المؤمنين ومعاشرتهم لهم، وأن ذلك لا ينفعهم لكفرهم - بحال زوجة نبي الله نوح، وزوجة نبي الله لوط، كانتا في عِصمة عبدّين من عبادنا صالحين، فخانتاهما بالتآمر عليهما وإفشاء سرهما إلى قومهما، فلم

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُؤْبَوْنَ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَنِ رَبِّكُمْ
أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٨
يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَا لَهُمْ بِهِمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٩
لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتُ نُوحَ وَأَمْرَاتُ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغَيِّرْ عَنَّهُمَا
مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ١٠
وَضُرِبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتُ فِرْعَوْنَ إِذْ
قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١١ وَنَجَّى ابْنَتُ
عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا
وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ ١٢

يدفع هذان النبيان الكريمان عن امرأتهما شيئاً من عذاب الله، وقيل للزوجتين عند هلاكهما: ادخلا النار مع سائر الداخلين فيها. وهذا مثل ضربته الله تعالى لنموذجين من النساء كانتا تحت نبين كريمين من أنبياء الله تعالى، فخالفتا مبادئ دعوة زوجيهما، ليتقرّر من خلال سلوك الزوجتين: أنّ القرب من الصالحين لا ينفع من لم يهد الله قلبه للإيمان، فالعبرة بالنسب العقدي وبالولاء القلبي، وليس بالقرب المكاني أو النسبي.

١١ - وبين الله شَبَهاً وحالاً للذين صدّقوا بالله ورسوله، وعملوا بشرعه - وأنهم لا تضُرهم مخالطة الكافرين في معاملتهم - بحال امرأتين أخريّتين: إحداهما: امرأة مؤمنة مجاهدة صابرة، كانت زوجة كافر طاغ جبار في الأرض، هي (آسية امرأة فرعون) حين قالت: ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة، قريباً من رحمتك، وأنقذني من فرعون وعمله الخبيث، وأنقذني من القوم الظالمة أنفسهم بالكفر، وهم القبط الوثنيون أتباع فرعون. فكانت امرأة فرعون نموذج المرأة المترفة ذات الجاه والمكانة والمنصب، فتسامت بعقيدتها وإيمانها على كلّ ذلك، وتحملت عذاب فرعون وزبائنه حتى لحقت بالرفيق الأعلى شهيدة في سبيل الله.

١٢ - والمرأة الثانية الصالحة في المثل المضروب للنماذج الحسنة: مريم ابنة عمران، التي حفظت فرجها، وصانته من أن يصل إليه أحد، فأمرنا جبريل عليه السلام أن ينفخ في جيب قميصها، فأخذت النفخة طريقها، فدخلت فرجها، فحملت بعيسى عليه السلام من غير زوج، وتعرّضت لبلاء الاتهام في عفتها، فصبرت واحتسبت، وصدّقت بكلمات ربّها التي كانت الملائكة تُبلغها إيّاها، وفي مقدّمتها كلمات جبريل لها تبليغاً من الله، وصدّقت بشرائع الله وأحكامه ووصاياهم، وكتبه المُنزلة على إبراهيم وموسى وداد وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وكانت من القوم المؤمنين المطيعين المتذلّلين لله تعالى، حتى بلغت في خضوعها وتذلّلها لربّها مبلغ الكاملين من الرجال، ولم تُشاركها في هذه المرتبة عابدة من عابدات النساء في بني إسرائيل، لكن كان يوجد في بني إسرائيل رجال قانتون من درجّة رفيعة، في مرتبة عالية، فكانت جديرة بأن تكون معهم في المرتبة والدرجة، طاعة لله، وخضوعاً له، وعملاً بمراضيه. فالواجب على أزواج النبي ﷺ أن يكنّ مثل هاتين المرأتين المؤمنتين في طاعتهما لربّهما، وفي إخلاصهما العبادة، وفي إثارهما الدار الباقية على الدار الفانية، وألاً يتكلّن على أنهما أزواج رسول الله ﷺ. وبمثل هاتين المرأتين اللتين تتمثل فيهما مبادئ الرفعة والعزّة، ومعاني العفة والطهر والحصانة، ينبغي أن يقتدي النساء، وأن تكون سيرهنّ منهج سلوك المرأة المسلمة.

سُورَةُ الْمُلْكِ

سُورَةُ الْمُلْكِ

الْمُلْكُ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ

١ - تعاضم وتقدس الله بكثرة أسمائه الحُسنى، وصفاته العليا، وبكثرة نعمائه وإفاضة برّه وإحسانه على جميع مخلوقاته، على وجه لا ينقطع ولا يُعد ولا يُحصى، الذي بيده التصرف التام المطلق النافذ، وله الأمر والنهي والسلطان، فيُعز من يشاء، ويدل من يشاء، وهو على كل شيء يشاؤه من المُمكنات العقلية قدير، إيجاباً أو إعداماً، أو تغييراً، أو تحويلاً. لا يُعجزه شيء مهما عظم، ولا يصعب عليه شيء مهما كبر.

٢ - الذي خلق الموت بفصل الروح عن النفس، وخلق الحياة باتصال الروح بالنفس؛ ليختبركم ويمتحنكم - أيها الناس - فيما بين الحياة إلى الموت، ويكشف باختباركم: أيكم أخلص عملاً وأصوبه؟ وأيكم أسوأ عملاً؟ ويجازي كل فرد منكم بحسب درجته في عمله خلال رحلة امتحانه، وهو تبارك وتعالى القوي الغالب المنتقم ممن عصاه، الكثير السّر لمن تاب إليه ورجع عن إساءته.

٣ - هو الذي خلق في كونه سبع سموات فجعلها متطابقة بعضها فوق بعض، كل كرة تحيط بالكرة الداخلة فيها إلى سبع كرات، ما ترى - أيها الناظر المدقق - في شيء من خلق الرحمن اعوجاجاً ولا اختلافاً ولا تناقضاً عن قصوى درجات إتقانه لما خلق له، وإن كنت في شك من ذلك، فكرر النظر - في خلق السموات السبع -: هل ترى فيها من شقوق وصدوع؟

٤ - ثم كرّر النظر مرّة، بعد مرّة، يرجع إليك البصر متحيراً من عظمة خلق الله لها، منقطعاً، وإما يرجع صاعراً ذليلاً مُحقرّاً، مُبعداً خائب المسعى، وأمرُك يكون بحسب حالك إنصافاً أو جحوداً.

٥ - ونؤكد لكم أننا جملنا وحسنا السماء القُربى من الأرض، التي

يراها الناس بكواكب كالمصابيح في الإضاءة، وجعلنا قسم الشهب منها رجوماً محرقة، يُرجم بها الشياطين، لطردهم عن استراق السمع، وهيأنا بعناية مُشددة للشياطين - بعد الرّجم في الدنيا بالنيازك المنبثة فوق الغلاف الغازي المحيط بالأرض - عذاب النار المُوقدة، يقاسون حرّها في الآخرة.

٦ - وهيأنا للذين كفروا بخالقهم ورازقهم ومُرَبّيهم عذاب جهنّم، وساء المصير والحال الذي يصيرون إليه: جهنّم.

٧ - إذا طُرح هؤلاء الكافرون في جهنّم، سمعوا لها صوتاً يشابه صوت الشهيق، عند أخذ جهنم الريح إلى باطنها بقوة، وهو صوت مخيف مُرعب يناسب حجمها وكبر جوفها، وهي تغلي بهم غلياناً شديداً كغلي المرّجل.

٨ - تكاد جهنّم تنقطع وينفصل بعضها عن بعض من شدة غضبها على الكفار، الذي يحدث حركات تفجّر داخلها، كُلما طُرح فيها جماعة من الكفار، سألهم الملائكة المكلفون بحراسة أبواب جهنم سؤال توبيخ وتقريع: ألم يأتكم رسل صادقون بالآيات والمعجزات، فبلغوكم، وكان آخر أمرهم معكم أن شدّدوا في إنذاركم وتحذيركم من عذاب ربكم الذي أنتم فيه؟

٩ - قالوا: بلى، قد جاءنا رسل صادقون مؤيّدون من الله، فبلغونا مطلوب ربنا منا، وأنذرونا عقابه في هذه النار التي ألقينا فيها، فكذبنا ولم نستجب لدعوتهم، وقلنا للرسل: ما نزل الله من شيء، ما أنتم - أيها الرسل - إلا في ذهاب كبير عن الحق.

١٠ - وقالوا معترفين بذنوبهم: لو كنّا نسمع من الرسل ما جاؤوا به سماعاً مؤثراً، أو لو كنا نعقل نفوسنا بإرادة جازمة قوية عن اتباع أهوائنا وشهواتنا، ما كنّا في عداد أصحاب النار، الذين يستحقّون الخلود فيها.

١١ - فاعترفوا بتكذيبهم الرسل، وقولهم: ما نزل الله من شيء، قُبُعداً شديداً لأهل النار عن رحمة الله.

١٢ - إنّ المؤمنين الذين يخافون ربهم خوفاً ممزوجاً بإعظام وإجلال، وهم مُلتبسون بغيب حواسهم عنه، ويخشون العذاب في الآخرة قبل معاينته، لهم من ربهم مغفرة عظيمة لذنوبهم، ولهم يوم الدين أجرٌ كبير في جنّات النعيم، لا يعلم قدره إلا الله؛ جزاء أعمالهم الصالحة.



٢٧ - فلما رأوا العذاب في الآخرة قريباً منهم، قَبَحَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كفروا بالسَّود والكآبة، وقالت لهم الملائكة السائقة لهم إلى النار توبيخاً وتقريراً: هذا الذي تشاهدونه هو العذاب الذي كنتم في الدنيا تكذبون به، وتزعمون أنه لا صِحة للبعث بعد الموت.

٢٨ - قل - يا رسول الله - لمشركي مكة الذين يتمنون هلاكك ومن معك، إما بموتكم أو التغلب عليكم: أتفكرتم تفكيراً سديداً بأناءة وتعمق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصرية، إن أمانتي الله ومن معي من المؤمنين كما تتمنون، أو رحمتنا بالنصر عليكم والتمكّن منكم، فمن ينجي الكافرين من عذاب مؤلم مُعَدّ لهم في جهنم يوم الدين؟ فآمنوا هو خير لكم، ودعوا الأمانى الكاذبة، فإن الله حافظ رسوله، وناصر له وللمؤمنين.

٢٩ - قل لهم - يا رسول الله - توبيخاً لهم وإنكاراً عليهم: الله ربنا هو الرَّحْمَن، نحن آمنّا به إيماناً عظيماً متنامياً، وعبدناه، واعتمدنا عليه - وحده - في كلِّ أمورنا توكلاً عظيماً لا يتزلزل، مع قيامنا بالأسباب التي أمرنا الله باتخاذها، وأنتم كفرتم به، فستعلمون - أيها الكافرون - عند مُعَاينة العذاب: أي الفريقين في ذهاب بعيد عن الحق، نحن أم أنتم؟

٣٠ - قل - يا رسول الله - لهؤلاء المشركين: أتفكرتم تفكيراً سديداً بأناءة وتعمق، حتى أدركتم إدراكاً علمياً يشبه الرؤية البصرية، إن أصبح ماؤكم ذاهباً في أعماق الأرض، لا تناله الأيدي ولا الدلاء، فمن يأتيتكم من دون ربكم بماء ظاهر، تراه العيون، وتناله الأيدي والدلاء؟ الله رب العالمين.

سُورَةُ الْقَبَلَةِ

١ - ﴿ت﴾ سَبَقَ الكلام على الحروف المقطّعة في أوّل سورة

البقرة. أقسم الله سبحانه بالقلم الذي كتب الله به الذكر، وما يكتبه الحَفَظَةُ من أعمال بني آدم، وما يكتبه الكاتبون مما فيه علمٌ وخيرٌ ونفع.

٢ - ما أنت - يا رسول الله - بفضل نعمة الله عليك بالنبوة والرسالة بمجنون؛ لأنّ مواقف رسالتك ودعوتك الحكيمة هي في أعلى درجة العلم والحكمة، فكيف يتصوّر هذا، ويلتقي مع قولهم فيك مجنون؟!.

٣ - وإنّ لك - يا رسول الله - على احتمالك الطعن، وضربك على هذا القول القبيح وافتراءهم عليك، لأجرأ غير منقوص ولا مقطوع.

٤ - وإنّك - يا رسول الله - لمُتَمَكِّنٌ بعلو من خُلق عظيم، قابضٌ على ناصيته. وكان ﷺ خُلِقَ القرآن، يَأْتُرُ بأمره، وينتهي عن نواهيه.

٥، ٦ - فَسْتَبْصِرُ - يا رسول الله - ويُنْصَرُ أهل مكة - إذا نزل بهم العذاب في الدنيا - بأيكم المجنون؟ وهذا المصير ليس بعيداً عنهم، وعندئذ يدركون أنّ المجنون هو الذي دفع بنفسه وبمن أتبعه إلى الشقاء والخسارة.

٧ - إنّ ربك سبحانه هو العالم بالفريقين؛ الضال والمهتدي، والمجنون والعاقل.

٨ - ١٣ - فلا تُطع - يا رسول الله - مشركي مكة، تمّنوا وأحبوا لو تَلاينهم وتُصانعهم، فتترك بعض ما أنت عليه ممّا لا يرضونه، فيفعلوا مثل ذلك، ويتركوا بعض ما لا ترضى، فتلين لهم ويلينون لك. ولا تطع - يا رسول الله - كلّ كثير الحَلَفِ بالباطل، حقيق ذليل، مُغْتَاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب، فتأني يسعى بالنميمة؛ ليُفْسِدَ بين الناس، بخيل بالمال، ظلوم يتعدّى الحق، فاجر يتعاطى الإثم، غليظ جاف، وهو - مع ما وصفناه به من الصفات المذمومة - دَعِيٌّ مُلْصَقٌ في القوم، منسوبٌ لغير أبيه، معروف بلؤمه وشره.

١٤، ١٥ - ارتكب هذه القبائح الشنيعة مغترّاً بنفسه؛ لأنه كان ذا مال وبنين، فقابل النعم التي أعطاه الله له بالكفر وارتكاب المعاصي والجرائم، وإذا يُتلى عليه القرآن قال: هذا أباطيل الأولين وخرافاتهم!.



١٦ - سنكوي أنف هذا المستكبر عن آيات الله، وعلى خلق الله بالنار؛ إهانة له على عناده واستكباره.

١٧، ١٨ - إنا اختبرنا كُبراء مشركي مكة بعون المحتاجين وإطعام الجائعين، كما اختبرنا أصحاب الحديقة، حين تحالفوا ليلاً لتأكيد ما عَزَمُوا عليه: ليقطعن ثمرها إذا أصبحوا قبل أن يخرج إليهم المساكين، ولا يستنون شيئاً للمساكين من ثمر جنتهم.

١٩ - ٢٢ - فدار عليها محيطاً بها، ريحٌ عاصفة، وهم نائمون، فأصبحت كالقطعة المنقطعة من الرَّمْل، وحولها البساتين والمزارع قائمة. فنادى بعضهم بعضاً لما أصبحوا: أن اذهبوا مبكرين على الثمار والزرع والأعشاب، إن كنتم قاطعين ثماركم.

٢٣، ٢٤ - فأسرعوا إلى حديقتهم وهم يتحادثون فيما بينهم بصوت منخفض، يقول بعضهم لبعض سراً: أن لا نُمكّنوا اليوم أحداً من المساكين من دخول جنتكم.

٢٥ - وساروا أول النهار إلى جنتهم - على قصدهم السيء في منع المساكين - وهم في غاية القدرة على جنتهم وثمارها، لا يحول بينهم وبينها أحد.

٢٦، ٢٧ - فلما رأوا جنتهم هالكة، قالوا: إنا لمُخطؤون الطريق عن مكان جنتنا، وليست هذه جنتنا، فلما عرفوا أنها جنتهم، قال بعضهم: قد حُرمتنا خيرها ونفعها؛ بمنعنا المساكين من حظهم منها.

٢٨، ٢٩ - قال أعدلهم وأعقلهم وأفضلهم: ألم أقل لكم هلاً تَزْهَوْنَ الله تعالى عن تصور أنه حرّمكم العطاء دون أن تتركبوا إثماً؟ قالوا: تنزه الله عن الظلم فيما فعل، إنا كنّا ظالمين بمنعنا المساكين حقوقهم.

٣٠ - ٣٢ - فأقبل بعضهم على بعض، يلوم كل منهم الآخر، قالوا: يا هلاكنا، إنا كنّا متجاوزين الحد في منعنا الفقراء والمساكين، عسى ربنا أن يعوّضنا خيراً من جنتنا المهلكة، إنا إلى ربنا - وحده - راغبون طالبون الخير، راجون العفو.

٣٣ - كما فعلنا بأصحاب الجنة - من إهلاك حرثهم، وهم في غاية القدرة عليه والثقة به - ففعل بمن تعدّى حدودنا، وخالف أمرنا، ولَعَذَابُ الآخرة أعظم وأشد من عذاب الدنيا لو كان العصاة والكفرة والمذنبون يعلمون كمال صفات الله تعالى، وحكمته وعدله، وما أعد في الآخرة من حساب وجزاء بالعدل.

٣٤ - ٣٦ - إن الذين اتقوا عقاب الله بفعل ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، لهم عند ربهم في الآخرة جنّات النعيم الخالص. أنحيف في الحكم، فنجعل الذين خضعوا لنا بالطاعة والعبادة، كالذين اكتسبوا المآثم وارتكبوا المعاصي؟ ما لكم - أيها الكفار - تحكمون هذا الحكم المعوج؟

٣٧ - ٣٩ - أم لكم كتاب رباني نزل من عند الله، تقرأون فيه بأن لكم ما تختارون وتشتهون من عمل دون أن تكونوا عرضة للمُؤَاخَذَةِ والعقاب على ما تسيئون وتظلمون؟ أم لكم عهدٌ مؤكدة بالآيمان، ومواثيق متناهية في التوكيد، عاهدناكم عليها، فاستوثقت بها منا، لا تنقطع تلك العهود والمواثيق إلى يوم القيامة، إن لكم في ذلك العهد لما تحكمون به لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله عز وجل؟

٤٠، ٤١ - سل المشركين - يا رسول الله -: أيهم كفيلاً بأن لهم ما يحكمون لأنفسهم من السعادة والنجاة والفلاح؟ أم لهم شركاء من دون الله يحمنونهم من عذاب الله، ويحققون لهم نجاتهم وفوزهم يوم القيامة، فليأتوا بشركائهم لتفتهم وتشفع لهم، إن كانوا صادقين في دعوهم؟

٤٢ - اذكر لهم يوم يشتد الأمر، ويعظم الخطب، وهو يوم القيامة، ويدعى الكفار والمنافقون إلى السجود - توبيخاً لهم وتحسيراً على تفریطهم في طاعة الله في الدنيا - فلا يستطيعون؛ لصيرورة أصلابهم عظماً واحداً. وفي هذا المشهد الاختباري يوم الدين، يكشف الله عز وجل عن ساق، ويدعى أهل الموقف للسجود، فيسجد كل مؤمن ومؤمنة، أما المنافقون فلا يستطيعون السجود لربهم يومئذ، إذ يكون ظهر كل منهم طَبَقاً واحداً، غير ذي فقرات تثني للسجود؛ لأنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا لربهم، وإنما كانوا يسجدون نفاقاً ورياءً وسمعةً.

البقرة: ١٦-٤٢

سورة البقرة

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُوطِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتِ كُلُّ صِرْمٍ مِّنْهُمْ فَتَنَّا دَاوُودَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٢٠﴾ أَغْدُوْا عَلٰى حَرْدٍ مِّنْكُمْ صَدْرَمِينَ ﴿٢١﴾ فَاذْهَبُوا وَهَارُونَ يَخْتَفُونَ ﴿٢٢﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْهِمْ كَرِيسِكِينَ ﴿٢٣﴾ وَغَدَا عَلٰى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلُوْا أَقْبَلْ لَكُمُوْا لَا تَخَافُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَامُؤْنَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طٰغِينَ ﴿٣٠﴾ عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَ لَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣١﴾ كَذٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَنَّا الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٣٣﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْبِرُونَّ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِلِقَاكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ ﴿٣٨﴾ سَأَلَهُمْ أَتَيْهِمْ بِذٰلِكَ رَعِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُوْدِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤١﴾

٤٣ - أبصار الكافرين منكسرة، يَغشى وجوههم ذلٌ وخسرانٌ وندامة، وقد كانوا يُدعون في الدنيا إلى الإيمان برّبهم والسجود له، وهم أصحاء قادرون على السجود فلا يفعلون.

٤٤ - قَدْ عني - يا رسول الله - مع مَنْ يَكْذِبُ الآنَ ومستقبلاً، بهذا القرآن الذي أنزله بأسلوب الداعي الناصح الذي يُقَدِّمُ الإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة، وخلٌ بيني وبينهم، ولا تشغل قلبك بهم، فإني أكفيك إيّاهم، سَنَسْتَنْزِلُهُمْ إِلَى الْعَذَابِ دَرَجَةً دَرَجَةً، بالإمهال والإحسان وإسباغ النعم؛ حتى يظنّوا ذلك تفضيلاً لهم على المؤمنين، فيتمادوا في الطغيان والكفر، ثم نأخذهم أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ.

٤٥ - وأمهلهم وأطيل لهم المدة على كفرهم وتمردهم؛ لتتكمّل الحجة عليهم، ولا يبقى لهم عذرٌ يعتذرون به يوم الحساب والجزاء؛ إن تديري قويٌّ شديد لا يفلت منه أحد.

٤٦ - بل أنسأل - يا رسول الله - هؤلاء المشركين أجراً ما من الأجور المادية على تبليغ الرسالة، فيثقل عليهم حُملُ الخسارة في أموالهم، فيشطّهم ذلك عن الإيمان؟!

٤٧ - أم عندهم علم غيب ما مضى من الأمم السالفة، وعلمٌ بأساطيرهم ومكتوباتهم، فهم يكتبون منها، ويستندون إليها في تكذيبهم القرآن؟!

٤٨ - ٥٠ - فاصبر - يا رسول الله ويا كُلَّ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ - مُسْتَسْلِمًا لِقَضَاءِ رَبِّكَ عَلَى أَذَى قَوْمِكَ وتكذيبهم وإعراضهم، متابِعاً القيام بوظائف رسالتك، انتظراً لحكم ربِّك فيمن عاندوا وأصروا على الكفر، ولا تكن في الضَّجَرِ والعجلة كيونس بن مَثَى عليه السلام، إذ ترك قومه أهل نَيْنَوَى مُعَاضِبًا، لَمَّا كَذَّبُوهُ ورفضوا الاستجابة لدعوته، قبل أن يأذن الله له بذلك، حين نادى ربّه في فم الحوت، قائلاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

وهو مَمْلُوءٌ غَمًّا على قومه الذين رفضوا دعوته، ومعتزف بذنبه إذ تركهم قبل أن يأذن الله له، لولا أن لحقته نعمة من ربّه حين رحمه وتاب عليه، لَطُرِحَ من بطن الحوت بالأرض الفضاء الخالية من النبات والأشجار، وهو آتٍ بما يلام عليه، ولكنه لم يكن مذمومًا، بل كان من الأوَّابِينَ، فاضطَّفاه ربّه، وردّ عليه الوحي، وشفّعه في قومه، فَجَعَلَهُ من النّبيّين الكاملين في الصّلاح.

٥١ - وإن يكاد الكافرون من شدة نَظَرِهِمْ إِلَيْكَ بِالْعَدَاوَةِ والبغضاء، أن يزيلوك - يا رسول الله - عن مكانك، حين سمعوا القرآن، ويقولون: إنه لمجنون. وفي هذه الآية دليل على أَنَّ العين وإصابتها وتأثيرها حقٌّ بأمر الله عزَّ وجل.

٥٢ - وما القرآن إلا موعظةٌ لكلِّ العالمين. وفي هذه الآية بيان عموم الرسالة المحمدية، وفيها إيماءٌ إلى أَنَّ الذين كفروا بالقرآن من أهل مكة قليلون، بالنسبة إلى الذين سيؤمنون به من شعوب الأرض، متى أدركوا إعجازه وعظمة ما اشتمل عليه من علم وهداية.

سُورَةُ الْحَقِّ

- ١، ٢ - القيامة الثابتة الوقوع التي تُحَقِّقُ فيها الأمور، فتُعرف على حقيقتها. أي شيء هي القيامة الواقعة حقاً؟ إنها شيء مخيف مهول.
- ٣ - أعظم بأمر القيامة الثابتة الوقوع إعظاماً لا تصل إليه درايتك مهما فكرت في تصوّراتك لإدراك ما فيها من الأهوال، لأنك لم تُعَينها ولم تَرها، ومهما قدّرت حالها فهي أعظم من ذلك؟
- ٤ - ٨ - كَذَّبَتْ ثُمُودُ قوم صالح، وعاد قوم هود بالقيامة التي تفرع القلوب بأهوالها. فأما ثمود فأهلكوا بالصّيحة الشديدة المجاوزة الحد في القوة، وأما عاد فأهلكوا بريح باردة شديدة الصوت، قاتلة مدمرة، متجاوزة الحد في شدتها، فلم يقدروا عليها مع شدتهم وقوتهم، أرسلها وسلّطها عليهم بقضائه وقدره سبع ليالٍ وثمانية أيام ذات برد وريح شديد، متتابعة متوالية في الشرّ والتعذيب ليس لها فتور ولا انقطاع، لحسم مادتهم واستتصالهم، فترى القوم في تلك الليالي والأيام هلكى مقتولين مرميئون تبدو أسافلهم قد بليت حتى غدت أجوافها خالية، كأنهم أصول نخل خالية الأجواف، بالية لا شيء فيها، فهل ترى لهؤلاء القوم - أيها الباحث عنهم في أرضهم - من نفس باقية دون هلاك؟



٩ - وجاء فرعون، وَمَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ من بعد عاد وثمود، وجاء أهل قري قوم لوط التي انقلبت بهم، بالفعلة ذات الخطأ العظيم.

١٠ - فَعَصَتْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ رَسُولَ رَبِّهِمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ، فقبض ربهم عليهم بسبب ذنوبهم الكبرى لتعذيبهم وإهلاكهم قبضة زائدة في شدتها وعنفها، نامية في مظهرها.

١١، ١٢ - إِنَّا لَمَّا عَلَا الْمَاءُ وَارْتَفَعَ، فِي الطُّوفَانِ زَمَنَ نُوحٍ، حَمَلْنَا آبَاءَكُمْ وَأَنْتُمْ فِي أَصْلَابِهِمْ بِالسَّفِينَةِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْمَاءِ؛ لَنَجْعَلَ إغراق قوم نوح، ونجاة مَنْ حَمَلْنَا مَعَهُ لَكُمْ عِبْرَةً وَمَوْعِظَةً، وتحفظها أذُنٌ تَسْمَعُ وَتَعْقِلُ عَنْ اللَّهِ مَا سَمِعَتْ.

١٣، ١٤ - فَلِذَا نَفَخَ الْمَلَكُ «إِسْرَافِيلَ» فِي «الْقُرْنِ» نَفْخَةً وَاحِدَةً، وَهِيَ نَفْخَةُ الصَّعْقِ، وَرُفِعَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ مِنْ أَمَاكِنِهَا، فَذُقْنَا دَقَّةً وَاحِدَةً لَجْعَلِ سَطْحَ الْأَرْضِ مُسْتَوِيًّا، تَهَيَّئَةً لظهور الأحياء المبنوثة على سطحها ظهوراً تاماً منكشفاً.

١٥، ١٦ - ففِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قَامَتِ الْقِيَامَةُ، وَتَصَدَّعَتِ السَّمَاءُ بِرَفْعِ نِظَامِ الْجَاذِبَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَمْرِهِ وَتَكْوِينِهِ، وَأَخَذَتْ أَجْرَامَهَا تَبْتَعِدُ عَنْ مَسِيرَاتِهَا، فَهِيَ حِينَ انشِقَاقِهَا تَكُونُ ضَعِيفَةً التَّمَاكُ، ضَعِيفَةُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْحَمْلِ بِسَبَبِ الانشِقَاقِ الَّذِي يَحْصُلُ فِيهَا.

١٧ - وَالْمَلَائِكَةُ وَاقِفُونَ عَلَى جَوَانِبِ السَّمَوَاتِ وَحَافَاتِهَا؛ يَنْتَظِرُونَ أَمْرَ اللَّهِ لَهُمْ لِيَنْزِلُوا فَيُحِيطُوا بِالْأَرْضِ، وَيَحْمِلَ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَمَانِيَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْعَظَامِ.

١٨ - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بَعْدَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ تُعَرِّضُونَ - أَيُّهَا الْمَوْضُوعُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ - عَلَى اللَّهِ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيزِ الْجَزَاءِ، لَا تَخْفَى مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كَانَ مَخْفِياً فِي نَفْسِكُمْ وَصُدُورِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ، وَمَا كُنْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تَعْمَلُونَ.

١٩ - وَيُعْطِي الَّذِينَ كَانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الْامْتِحَانِ كِتَابَ أَعْمَالِهِمْ: فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ كِتَابَ أَعْمَالِهِ بِيَمِينِهِ، فَيَقُولُ - لِمَا عَلِمَ أَنَّهُ مِنَ النَّاجِينَ - لِأَهْلِهِ وَأَقْرَبَائِهِ: تَعَالَوْا أَقْرَبُوا كِتَابِي.

٢٠ - إِنِّي كُنْتُ فِي الدُّنْيَا أَرْجُو أَنْ أَدْخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَأَظُنُّ ظَنًّا رَاجِحاً قَوِيًّا أَنَّ رَبِّي سَيَحْسَبُنِي حِسَاباً يَسِيراً، فَتَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيَّ فَأَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

٢١ - ٢٣ - فَهُوَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْعَيْشِ مَرْضِيَّةٍ؛ لِأَنَّهُ رَاضٍ بِفَضْلِ اللَّهِ وَعَطَائِهِ، يَشِيعُ الرِّضَا فِي كُلِّ مَا يَحِيطُ بِهِ، فِي جَنَّةٍ مَرْتَفَعَةِ الْمَكَانِ وَالدرجات، ثَمَارِ أَشْجَارِهَا قَرِيبَةٍ لِمَنْ يَتَنَاوَلُهَا قَائِماً وَقَاعِداً وَمُضْطَجِعاً، يَقْطِفُونَهَا كَيْفَ شَاءُوا.

٢٤ - يُقَالُ لَهُمْ: كُلُوا وَاشْرَبُوا أَكْلاً وَشَرْباً سَائِغاً لَذِيذاً غَيْرَ مُنْعَصٍ وَلَا مُكْدَّرٍ؛ بِسَبَبِ مَا قَدَّمْتُمْ لِآخِرَتِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِي أَيَّامِ الدُّنْيَا الْمَاضِيَةِ.

٢٥ - ٢٧ - وَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ كِتَابَ أَعْمَالِهِ بِشِمَالِهِ، فَيَقُولُ نَادِماً مُتَحَسِّراً - لِمَا نَظَرَ فِي كِتَابِهِ، وَرَأَى قَبَائِحَ أَعْمَالِهِ -: يَا لَيْتَنِي لَمْ أُعْطِ كِتَابِي، وَلَمْ أَعْلَمْ أَيُّ شَيْءٍ حِسَابِي، يَا لَيْتَ الْمَوْتِ الَّتِي مِثُّهَا فِي الدُّنْيَا كَانَتْ الْمُثْنَةُ لِحَيَاتِي إِنْهَاءً أَبَدِيًّا، فَمَا أَحْيَا بَعْدَهَا.

٢٨، ٢٩ - لَمْ يَدْفَعْ عَنِّي يَسَارِي وَمَالِي مِنَ الْعَذَابِ شَيْئاً، زَالَ عَنِّي مُلْكِي وَقَوَّتِي وَتَسَلَّطِي عَلَى النَّاسِ، وَبَقِيَتْ ذَلِيلًا حَقِيراً فَقِيراً، وَفَنِي مُبْتَعِداً عَنِّي كُلِّ مَا كُنْتُ أَحَاجُّ بِهِ وَأَجَادِلُ، فَقَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ لِلْعَيَانِ، وَأَسَكَتَ الْوَاقِعُ كُلَّ لِسَانٍ.

٣٠ - ٣٢ - يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: خُذُوا هَذَا الْمَجْرِمَ الْأَثِيمَ، فَاجْعَلُوا طَوْقَ الْحَدِيدِ مُحِيطاً بِرَقَبَتِهِ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَمَرُّوا بِهِ مَغْلُولاً مُهَاناً فِي أَرْضِ الْمُحْشَرِّ، أَدْخَلُوهُ النَّارَ الْعَظِيمَةَ الشَّدِيدَةَ التَّأْجُّجِ؛ لِيُقَاسِيَ حَرَّهَا، ثُمَّ فِي سَلْسِلَةٍ مِنْ حَدِيدٍ مَقْدَارُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَادْخُلُوهُ.

٣٣، ٣٤ - إِنَّهُ كَانَ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا جَاحِداً كَنُوداً لَا يُصَدِّقُ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ، وَكَانَ قَاسِيَ الْقَلْبِ، جَافَ الْعَاطِفَةَ لَا يَحِثُّ نَفْسَهُ عَلَى إِطْعَامِ الْمَسْكِينِ، وَلَا يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِذَلِكَ، فَضْلاً عَنْ أَنْ يُطْعِمَهُ. وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى تَعْظِيمِ الْجُرْمِ فِي حَقِّ الْمَسَاكِينِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَظْفَهُ عَلَى الْكُفْرِ، وَجَعَلَهُ قَرِينَهُ.

سورة النازعات

سورة النازعات

وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْحَافِطَةِ ١ فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ٢ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُ كُرْسِيُّ الْجَارِيَةِ ٣ لَنُجْعَلَهَا لِكُرْسِيٍّ ذِكْرًا وَتَعْبًا ٤ أَذُنَ وَعِيَةً ٥ وَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً ٦ وَجَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكِّدَا ذَكَّةً وَاحِدَةً ٧ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ٨ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ٩ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمْنِيَةٌ ١٠ يَوْمَئِذٍ تُعَرِّضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ١١ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِسَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيَّةُ ١٢ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكِي حِسَابِيَةٍ ١٣ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ١٤ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ١٥ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ١٦ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْأَلَاةِ ١٧ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَأَوْتُ كِتَابِيَةَ ١٨ وَلَوْلَا ذَرٌّ مَا حِسَابِيَةٍ ١٩ يَلَيْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ٢٠ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَةَ ٢١ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةُ ٢٢ خُذُوهُ فَاعْلَوْهُ ٢٣ قَرَأَ الْحَجِيمِ صَلَوَهُ ٢٤ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ٢٥ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ٢٦ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ٢٧

٣٥ - ٣٧ - فليس لهذا الكافر في الآخرة قريب ينفعه أو صديق يشفع له، ولا طعام يأكله ليسدَّ جوعه في الجحيم إلا من صديد أهل النار، وغسالة جروحهم، لا يأكله إلا المذنبون ذنباً من ذرّة الكفر.

٣٨ - ٤٢ - لا فائدة من أن أقسم لكم بآياتي في كوني التي تبصرونها والتي لا تبصرونها، مع أنها تستحق أن أقسم بها؛ لأنكم بلغتكم من الإصرار على المعاندة مبلغاً شنيعاً، فما سبق أن نزل من القرآن كاف لأن يمحو كل أثر للشك فيه، إنه لتلاوة رسول محمود الصفات الرفيعة، جامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، وما هذا القرآن بقول رجل شاعر، ولا هو من ضروب الشعر ولا تركيبه، لكنكم قليلاً ما تصدقون بالحق الذي يخالف أهواءكم وتقاليديكم العمياء، وليس القرآن بقول رجل كاهن، ولا هو من جنس الكهانة، لكنكم قليلاً ما تتعظون بالمذكرات التي تذكركم بسنن الله في عقوبات الجاحدين المكابرين الذين يصرون على الباطل.

٤٣ - هذا القرآن الذي يتلوه عليكم محمد ﷺ، هو تنزيل من خالق العالمين ومالكهم ورازقهم والممد لهم بمننه وعطاياه، والمهيمن على كل ما سواه بسلطان ربوبيته.

٤٤ - ٤٧ - واعلموا حقيقة أخرى تدل على أن القرآن تنزيل من رب العالمين على رسوله محمد ﷺ، وهي أنه لو كان يكذب علينا شيئاً من عند نفسه لم نقله نحن، ولم نوحه إليه، مع تأييدنا له بالمعجزات، لما تركناه على قيد الحياة، بل لأخذناه بالقوة والقدرة، وانتقمنا منه بالحق، ثم لقطعنا منه نياط القلب فنيته، فلا يقدر أحد على دفع عقوبتنا عنه. لكنه لم يتقوّل علينا كلمة أو حرفاً، فهو صادق أمين، معصوم، بدليل أننا لم نعاقه، فلم نأخذ منه باليمين، ولم نقطع منه الوتين.

٤٨، ٤٩ - وإن القرآن لو سيلة تذكر بمطلوب الله من عباده ينتفع بها دوماً المتقون الذين اتقوا ربهم، فآمنوا به، وأسلموا له، وإنا لنعلم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝ تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ۝

أن منكم مكذّبين بالقرآن.

٥٠ - ٥٢ - وإن القرآن لحسرة وندامة عظيمة على الكافرين يوم القيامة، يندمون على ترك الإيمان به، لما يَرَوْنَ من ثواب من آمن به، وحين يدخل المكذّبون النار يصل علمهم بما يذوقونه من عذاب إلى مرتبة حقّ اليقين، إذ صار بالنسبة إليهم حقيقة واقعة يذوقونها بحواسهم، ويدركونها بكل ما لديهم من قدرات إدراك، فنزّه - يا رسول الله - ربك العظيم عما لا يليق به، واذكره بأسمائه الحسنى، ومجده بصفاته العظمى، واشكره على أن جعلك أهلاً لإيحاها إليك.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

١ - ٤ - طلب طالب، ودعا داع - استعجلاً على سبيل الاستهزاء - بعذاب واقع ونازل من الله بالكافرين، ليس لذلك العذاب الصادر من الله دافع يدفعه عنهم، فوقوعه من الله ذي السموات التي تعرج فيها الملائكة وجبريل عليه السلام إلى الله عز وجل في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة من سني الدنيا.

٥ - فاصبر - يا رسول الله - على تكذيبهم إياك واستعجالهم العذاب، صبراً جميلاً مصحوباً بالتلطّف، وحسن مقابلة أذى المكذّبين بالصّفح والعفو والإحسان بالعطاء، وبالكلمة الطيبة، تأليفاً لقلوبهم، دون قلق ولا اضطراب ولا تذمّر.

٦، ٧ - إن المكذّبين المُستهزّئين يَرَوْنَ عذاب يوم الدين أمراً بعيداً على فرض أنه حقّ، فبين زمن وجودهم في الحياة الدنيا وزمن حصوله يوم الدين - إن صحّ الخبر به - أحقاب طويلة جداً، ونراه بجلال ربوبيتنا وشمول علمنا قريباً، إذ ليس بين الموت والبعث الذي يحصل فيه هذا العذاب إلا فاصل البرزخ.

٨، ٩ - إن عذاب الكافرين المكذّبين يصير قريباً جداً، يوم تكون السماء ذائبة رجراجة كالنحاس المُذاب، وتكون الجبال هشة متفخخة كالصوف المصبوغ بألوان مختلفة، فهي تحافظ على ألوانها التي كانت عليها سوداً وحمراً وبيضاً وغير ذلك.

١٠ - وحين تقوم الساعة، وبيعت الموتى، لا يسأل قريب من الكفار قريبه؛ لهول ذلك اليوم وشدته، وشغله بشأن نفسه.

البقرة الممتحنة

سورة الممتحنة

يَصْرُوهُمْ يَوْمَ الْمَجْزِمْ لَوْ يَقْدِرُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ يُدْخِلُ بَيْنَهُ
وَصَحْبَتَهُ وَأَخِيهِ ۚ وَفَصِّلَتِ الَّتِي تُتَوَبُّ ۚ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۚ كَلَّا إِنَّمَا الظِّلُّ ۚ نَزَاعَةٌ لِلشَّوْىِ ۚ تَدْعُوا
مَنْ أَدْبَرُ وَتَوَلَّى ۚ وَجَمْعٌ فَآوَعْنَ ۚ ۞ إِنَّا الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعًا
ۚ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۚ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ ۞ لَا
الْمُصْلِينَ ۚ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۚ وَالَّذِينَ فِي
أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۚ ۞ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۚ ۞ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ
بِيَوْمِ الدِّينِ ۚ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۚ ۞ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۚ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۚ ۞ إِلَّا عَلَى
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ ۞ فَمَنْ أَتَى
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۚ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ لَأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ
ۚ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ۚ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ
ۚ ۞ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ۚ ۞ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُم مَهْطِعِينَ
ۚ ۞ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ۚ ۞ أَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ
أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۚ ۞ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ۚ ۞

١١ - ١٤ - يُعَرِّفُونَ أَقْرَبَاءَهُمْ، ويرونهم بأبصارهم، فلا يسألونهم؛ لأنهم يعلمون أنهم عاجزون عن إعانتهم بشيء. يتمنى المشرك لو يفدي نفسه من عذاب يوم القيامة ببنه أحب الناس إليه، وزوجته التي كانت قريبته في الدنيا، وأخيه الذي كان نصيره في الدنيا، وعشيرته التي تضمه ويأوي إليها عند الشدة، ومن في الأرض جميعاً، ثم ينجيهم ذلك الفداء من عذاب الله. فكيف وهو لا يملك شيئاً من ذلك؟

١٥، ١٦ - كلا، لا ينجيهم من عذاب الله شيء. إنها النار تلهب، قلاعاً لجلدة الرأس وأطراف البدن، فلا تترك عليها لحماً ولا جلدًا، ثم تعود كما كانت.

١٧، ١٨ - تدعو النار من أدير عن الإيمان، وتولى عن دعوة الحق، وتدعو من جمع المال، فوضعه في خزانته، ولم يؤد حق الله فيه.

١٩ - ٢٣ - إن الإنسان جليل على حب ذاته، وحب لذاته، وما يتفرع عنهما من حب البقاء، والسلامة، والاستمتاع بما يستلذه، إذا أصابه الشر كان كثير الجزع والتضرع، وإذا أصابه الخير كان كثير المنع مفسكاً قتوراً، إلا المؤمنين المسلمين المتصفين بهذه الأوصاف الثمانية: الوصف الأول: المصلون الذين يواظبون على أداء الصلاة، ولا يتركونها في وقت من الأوقات.

٢٤، ٢٥ - والوصف الثاني: الذين في أموالهم نصيب معين فرضه الله عليهم، وهو الزكاة التي يخرجونها للسائل الذي يسأل الناس، والفقير المتعفف عن السؤال، فيحسب غنياً فيحرم.

٢٦ - ٢٨ - والوصف الثالث: الذين يؤمنون بالبعث بعد الموت، والحشر والنشر، والحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم

القيامة، فيستعدون له بالأعمال الصالحة، والوصف الرابع: الذين هم من عذاب خالقهم ورازقهم وممدهم بنعمه خائفون، إن عذاب ربهم لا يأمنه أحد؛ لوقوع الإنسان بالتقصير في أداء الواجبات، واجتناب المحظورات.

٢٩، ٣٠ - والوصف الخامس: الذين هم لفروجهم حافظون ممّا حرم الله من الزنى واللواط، وكل الفواحش المتعلقة بالفروج التي نهى الله عنها، إلا على زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم من الإماء والجواري، فإنهم غير مؤاخذين بعدم حفظ فروجهم إذا كان على الوجه الذي أذن فيه الشرع.

٣١ - فمن التمس وطلب لقضاء شهوته غير الزوجات والجواري المملوكة، فأولئك البعداء العصاة هم المجاوزون الحلال إلى الحرام.

٣٢ - والوصف السادس: الذين هم لأماناتهم التي ائتمنوا عليها، فيما بينهم وبين الله تعالى، وفيما يكون بين العباد، حافظون غير خائنين ولا ناقضين.

٣٣ - والوصف السابع: الذين يقومون بشهادتهم على الوجه الذي أمر الله به من صدق وتأدية للشهادة على وجهها، وبعد عن كل تغيير وكتمان مضيع للحقوق.

٣٤ - والوصف الثامن: الذين هم على صلواتهم الخمس المفروضة في كل يوم وليلة يحافظون، فيؤدونها على أكمل الوجوه المستوفية لشروطها الفكرية والقلبية والنفسية والروحية والجسدية.

٣٥ - أولئك الفضلاء رفيعو المكانة، المتصفون بتلك الأوصاف المحمودة مستقرون في جنات مكرمون فيها بكل أنواع التكريم.

٣٦ - ٣٩ - فما بال الذين كفروا إلى جهنك - يا رسول الله - مشرعين مقبلين إليك ماذي أعناقهم، ومُدبمي النظر إليك، مجتمعين جلقاً وفرقاً عن يمينك وعن شمالك؟ أطمع كل رجل منهم أن يدخل جنة النعيم، كما يدخلها المسلمون، ويتنعمون فيها، وهم كافرون بالله ربهم، وبكتابه وبرسوله، وهو الذي أعد جنة نعيم لمن آمن به وأسلم، وأعد دار عذاب لمن كفر به؟ كلا. لا يدخلونها أبداً. إنا خلقناهم ممّا يعلمون من الأشياء المستفزة من نقطة، ثم من علقه، ثم من مضغه، فليست لهم ميزة على غيرهم من البشر.

٤٠، ٤١ - لا فائدة من أن أقسم بخالق المشارق والمغارب، ولكن سيأتي من يدرك هذه الحقيقة من حقائق نظام الكون الناشئة عن حركة الأرض حول نفسها في اتجاه الشمس؛ إذ تحدث مُتدرّجة مُتتابة، فهو سبحانه المهيمن بصفات ربوبيته خلقاً وتدبيراً على الشروق والغروب، وعلى أمكنة وأزمنة الشروق والغروب، فلا أحد غير الله له ربوبية في شيء من ذلك، إنا لقادرون على أن نهلكهم، وعلى أن نخلق أمثلاً منهم وأطوع لله عز وجل، وما نحن بمغلوبين عاجزين عن إهلاكهم، وإبدالهم بمن هو خير منهم.

٤٢ - فدع - يا رسول الله - هؤلاء الكافرين المصيرين على عنادهم يخوضوا في أباطيلهم وجرائمهم كمن يخوض في الماء فيعكره بالطين الراسب بالماء، فيفسد صفاءه، ودعمه يلعبوا كما يهوون في دنياهم، حتى يلاقوا مصيرهم الوخيم في يوم القيامة الذي يوعدون فيه بالحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٤٣ - يوم يخرجون من القبور مُسرعين إلى إجابة الداعي الذي يدعوهم إلى الموقف، كما كانوا يُسرعون في الدنيا متدافعين إلى أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

٤٤ - يُسرعون مُجبرين، ذليلة أبصارهم خاضعة، لا يرفعونها لما هم فيه من الخزي، يغشاهم الهوان الشديد؛ لعلمهم بمصيرهم الذي هم إليه صائرون، ذلك يوم القيامة الذي كانوا يُوعدون به في الدنيا، وكانوا به يهزؤون ويكذبون.

سُورَةُ نُوحٍ

١ - إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ليلبّغهم دين الله، فقام بما أمره الله، يُذكّركم وينصّحكم، فلم تُجد فيهم وسائله طوال القرون، فكلّفه الله بأن خوف قَوْمك وحذرهم عاقبة كفرهم؛ من قبل أن يأتيهم عقاب

فَلَا أَقْسِمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿١﴾ عَلَى أَنْ نَبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ ﴿٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٣﴾ يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنْ أَجْدَاثٍ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ ﴿٤﴾ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلِكَ يَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥﴾

سُورَةُ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُمْ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَهُ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَسْقَوْا بِهَيْبَتِهِمْ وَاصْرَوْا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٨﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٩﴾

مؤلم إيلاًماً شديداً، إذا أصرّوا على عنادهم واستكبارهم.

٢، ٣ - قال نوح: يا قومي إنّي لكم نذيرٌ ظاهر واضح، مُبين مُوضّح لحقائق الدين وشرائعه، أنذركم من عذاب الله إن عصيتموه، وأبين لكم أن اعبدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً، واتقوا عقابه، وأطيعوا بالاستجابة لدعوتي إياكم إلى دين ربكم.

٤ - فإن تفعلوا ذلك، يستر لكم بعض ذنوبكم، وهي حقوق الله عليكم، فلا يؤاخذكم عليها، ولا يُجازيكم بعذاب على اقترافها، ويُبقي عليكم حقوق العباد، فهذه إمّا أن تؤدّوها، أو تؤدّوها تعويضاً عنها، أو يُسامحكم أصحابها، ويُؤخّركم في الحياة الدنيا إلى أجل مُسمّى مُحدّد بتقديره وقضائه لكلّ حيٍّ منكم، آمنوا قبل حلول أجل العقاب والإهلاك الشامل، فإنّ أجل الله إذا جاء لا يُؤخّر عن وقته، أتمنى لو كنتم تعلمون تلك الحقائق التي بيّنتها لكم، ليكون علمكم بها باعثاً على الإيمان والخوف من نقمة الله وعقابه.

٥، ٦ - قال نوح عليه السلام: ربّ إني دعوت قومي إلى الإيمان والإسلام، وعبادتك وحدك لا شريك لك، ليلاً ونهاراً بلا كلّيل ولا ملل، فلم يزدني دعائي إلا هروباً وابتعاداً عن الإيمان.

٧ - وإني كلّما دعوتهم ليؤمنوا بك؛ ليكون سبباً في غفرانك ما كان منهم من ضلّالات، جعلوا أصابعهم في آذانهم؛ لئلا يسمعوا دعوتي، وليشعروني بأنّ أقوالي صارت محفوظة لديهم، ونفوسهم تسمتئ منها، وتتقرّز من سماعها، وغطوا وجوههم بشبابهم؛ لئلا يروني، وليشعروني بأنّي صرث ثقل الظلّ كريهاً لديهم، ولزموا بعناد ما هم عليه من كفر، واستكبروا عن الإيمان بك تكبراً مُسرفاً شنيعاً.

٨، ٩ - ثمّ إني بعد اليأس من استخدام أسلوب العرض العادي على أفرادهم وجماعاتهم، دعوتهم في مجامعهم خطيباً مُعلنّاً بأعلى صوتي، ثم بعد اليأس من دعوتهم جهاراً، اتخذت أسلوب الإعلان والإسرار، فدعوت بعضهم علانية بالمحادثة والحوار والمجادلة، ودعوت أفراداً منهم بأسلوب الحديث السري، ولم أنشره وأحدث الناس به؛ ليكون أدعى للتأثير بهم.

١٠ - فقلت لقومي: اطلبوا من ربكم أن يغفر لكم ذنوبكم، بتوبتكم عمّا أنتم عليه من كفر وفسوق، إنّه كان يزل كثير المغفرة لذنوب من يرجع إليه من عباده بالإيمان والطاعة.

١١، ١٢ - إِنْ تَوَمَّنَا وَتَسْلَمُوا وَتَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ وَتَتُوبُوا إِلَيْهِ، يُرْسِلْ عَلَى أَرْضِكُمْ وَبِلَادِكُمْ مَاءَ السَّمَاءِ كَثِيراً مُتَتَابِعاً، لِمَنَافِعِكُمْ وَسُقْيَاكُمْ، وَيَكْثُرْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ، وَيَجْعَلَ لَكُمْ بَسَاتِينَ تَتَعَمَّونَ بِجَمَالِهَا وَثِمَارِهَا، وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَاراً جَارِيَةً؛ لِمَتَاعِ نَفْسِكُمْ وَأَعْيُنِكُمْ، وَلِسُقْيَا الْأَشْجَارِ وَالزَّرْعِ.

١٣، ١٤ - أَيُّ شَيْءٍ حَصَلَ لَكُمْ - أَيُّهَا الْقَوْمُ - فَأَفْسَدَ نَفْسَكُمْ وَعَقُولَكُمْ وَقُلُوبَكُمْ، فَصَرَفَكُمْ عَنْ تَوْفَعِ ثَوَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ يَوْمَ الدِّينِ اللَّذِينَ هُمَا مِنْ أَثَارِ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَوَقَارِهِ، وَالْحَالِ أَنَّهُ خَلَقَكُمْ خَلْقاً مُتَدَرِّجاً طَوَّراً فَطَوَّراً مِنْ تَرَابٍ إِلَى غِذَاءٍ إِلَى نَظْفَةٍ إِلَى عِلْقَةٍ إِلَى مَضْغَةٍ إِلَى تَمَامِ الْخَلْقِ؟

١٥، ١٦ - أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فَجَعَلَهَا مُتطَابِقَةً بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، كُلُّ كُرَّةٍ تَحِيطُ بِالْكُرَّةِ الدَّاخِلَةِ فِيهَا إِلَى سَبْعِ كُرَاتٍ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا بَانِئاً نُوراً لِلْأَرْضِ وَمِنْ فِيهَا، وَجَعَلَ الشَّمْسُ مَصْبَاحاً مُضِيئاً، يَبْعَثُ بِالْحَرَارَةِ إِلَى الْأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ النَّاسِ فِيهَا.

١٧، ١٨ - وَاللَّهُ أَنْبَتَ مَادَّةَ بِنَاءِ أَجْسَادِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً مُتَقَنّاً وَفَقِ نِظَامٍ خَاصٍّ جَارٍ ضَمْنِ تَسْلُسُلِ الْأَطْوَارِ، فَكَانَ عِذَاءً، فِدْماً، فَتُطْفَأَ، فَاجْتَنَّةً، فَأَنَاسِيٌّ مُكْتَمَلَةٌ، ثُمَّ يَعِيدُكُمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُخْرِجُكُمْ مِنْهَا يَوْمَ الْبَعْثِ إِخْرَاجاً كَالنَّبَاتِ؛ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِذِ الْجَزَاءِ.

١٩، ٢٠ - وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مَوَاضِعَ كَثِيرَةً فِي الْأَرْضِ كَالْبَسَاطِ، فِي سَطُوحِهَا عَلَى دَائِرَةِ كُرَّتِهَا، تَتَقَلَّبُونَ عَلَيْهَا كَمَا يَتَقَلَّبُ الرَّجُلُ عَلَى بَسَاطَةٍ؛ لَتَدْخُلُوا وَتَعْبُرُوا مِنَ الْأَرْضِ طَرِيقاً مُخْتَلِفَةً وَاسِعَةً.

٢١ - قَالَ نُوحٌ يَشْكُو مَعْصِيَةَ قَوْمِهِ لَهُ: رَبِّ إِنَّهُمْ لَمْ يُجِيبُوا دَعْوَتِي،

وإِنْ جَمَاهِيرُ قَوْمِي أَتَّبَعُوا كِبْرَاءَهُمْ وَسَادَاتِهِمُ الَّذِينَ لَمْ تَزِدْهُمْ كَثْرَةَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ إِلَّا طُغْيَاناً وَفَسَاداً، زَادَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ خَسَاراً فَوْقَ الْخَسَارِ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ بِكُفْرِهِمْ، إِذْ هُمْ قَدْ تَحَمَّلُوا إِثْمَ ضَلَالِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، وَإِثْمَ الْأَعْمَالِ الَّتِي أَضَلُّوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ.

٢٢ - وَاحْتَالَ الرُّؤَسَاءُ وَالْقَادَةُ احْتِيَالاً كَبِيراً عَظِماً، بِتَحْرِيشِ السُّفْلَةِ عَلَى أَدَى نُوحٍ، وَصَدَّ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُ. ٢٣، ٢٤ - وَقَالَ هَؤُلَاءِ الْقَادَةُ لِأَتْبَاعِهِمْ: لَا تَتَرَكَّنْ عِبَادَةَ آلِهَتِكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَلَا تَتَرَكَّنْ أَعْظَمَ الْأَصْنَامِ الْخَمْسَةِ عِنْدَكُمْ: وَدَّاءً، وَلَا سُوعَاءً، وَلَا يَغُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرًا، وَقَدْ أَضَلَّ كِبْرَاءُ قَوْمِ نُوحٍ إِضْلَالاً كَثِيراً بِتَأْثِيرِهِمْ عَلَى أَتْبَاعِهِمْ، وَأَضَلُّوا كَثِيراً مِنَ النَّاسِ، وَهَدَدُونَا بِالرَّجْمِ، وَلَا تَزِدْ - يَا رَبَّنَا - هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمُ بِالْكَفْرِ وَالْعِنَادِ الَّذِينَ يُوَدُّونَ قَتْلَنَا لِلتَّخَلُّصِ مِنْهَا إِلَّا هَلَاكاً.

٢٥ - مِنْ أَجْلِ أَخْطَائِهِمُ الشَّنِيعَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ أَغْرَقُوا بِالطُّوفَانِ، فَأَدْخَلُوا عَقِيبَ الْإِغْرَاقِ نَاراً عَظِيمَةً اللَّهَبِ وَالْإِحْرَاقِ، وَبَحَنُوا عَنْ آلِهَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لِيَنْصَرُوهُمْ، فَيُدْفَعُوا عَنْهُمْ عَذَابُ رَبِّهِمْ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ أَنْصَاراً تَنْصَرُهُمْ وَتَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ. وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْفَاءَ تَقْضِي الْعَقِيبَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَاراً﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا حَصَلَ دُخُولُ النَّارِ عَقِيبَ الْإِغْرَاقِ.

٢٦ - وَقَالَ نُوحٌ فِي دَعَائِهِ لِرَبِّهِ بَعْدَ الطُّوفَانِ، وَبَعْدَ اسْتِقْرَارِهِ هُوَ وَالَّذِينَ مَعَهُ عَلَى الْيَابِسَةِ: بِمَا أَنَّكَ يَا رَبُّ قَدْ قَضَيْتَ عَلَى قَوْمِي الْكَافِرِينَ بِالْإِغْرَاقِ، فَأَهْلَكْتَهُمْ جَمِيعاً، وَلَا تَتْرِكْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَداً يَدُورُ فِي الْأَرْضِ، وَيَذْهَبُ وَيَجِيءُ، مِمَّنْ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ مَاءُ الطُّوفَانِ وَلَمْ يَغْرُقْ.

٢٧ - إِنَّكَ يَا رَبِّ - إِنْ تَتْرَكُهُمْ دُونَ إِهْلَاكِكَ وَاسْتِثْصَالِ، يُضِلُّوا عِبَادَكَ فِي أَمَاكِنَ مِنَ الْأَرْضِ لَمْ يَغْمُرْهَا الطُّوفَانُ، وَإِنْ تَوَالَدُوا فَإِنَّهُمْ لَا يَلِدُوا إِلَّا مَوْلُوداً يؤولُ أَمْرُهُ إِلَى أَنْ يَكُونَ بَعْدَ بُلُوغِهِ فَاجِراً مُتَبِعاً بِقُوَّةٍ لَارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ وَالْآثَامِ، مُبَالِغاً فِي كُفْرِهِ، جُحُوداً لِلْحَقِّ وَتَغْطِيَةً لِأَدْلَتِهِ بِالْكَاذِبِ وَالْمَغَالِطَاتِ الْمَزِيَّةِ بِزُخْرَفِ الْقَوْلِ.

٢٨ - رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ دَارِي مُؤْمِناً، وَلِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَلَا تَزِدْ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمُ بِالْكَفْرِ إِلَّا عَذَاباً مُرَافِقاً لِإِهْلَاكِهِمْ.

يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ١١ وَنُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَنَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَنَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَاراً ١٢ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجاً ١٦ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ١٧ ثُمَّ يَعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ١٨ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطاً ١٩ لَتَسْكُنُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجاً ٢٠ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَا لِي بِلَهُمْ وَلَا لِي بِهِمْ وَقَوْلُوا ٢١ مَالَهُمْ بَوْلَدُهُ إِلَّا خُسَاراً ٢٢ وَمَكَرُوا مَكْراً كَبِيراً ٢٣ وَقَالُوا لَا تَنْزِرْ الْهَاطِلَ وَلَا تَنْزِرْ وَدَّاعاً وَلَا سُوعَاءً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ٢٤ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً ٢٥ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَاراً فَتَرَجَدُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً ٢٦ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَنْزِرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَاراً ٢٧ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا أَفْجَاراً كَفَّاراً ٢٨ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَاراً ٢٩

سُورَةُ الْجِنِّ

١، ٢ - قل - يا رسول الله -: أوحى الله إلي أن جماعة من الجن قصدوا سماع تلاوتي للقرآن مع إصغاء وإنصات، فقالوا لما رجعوا إلى قومهم: إنا سمعنا قرآناً بليغاً يعجب منه لبلاغته وفصاحته، يدل ويرشد إلى كل سلوك فكري أو نفسي أو عملي موافق للحق والصواب، فآمنا بالقرآن، وسائر القضايا الدينية التي اشتملت عليها آياته، ولن نعود في مستقبل حياتنا إلى ما كنا عليه من الشرك.

٣ - وأنه تعالى جلال ربنا وعظم قدره، عن أن يتخذ زوجة أو ولداً.

٤ - وأنه كان يقول جاهلنا إبليس على الله قولاً بعيداً عن الحق، جائراً، وهو وصفه سبحانه بالشريك والولد.

٥ - وأنا كنا نظنّ ظناً توهمياً أن الإنس والجن صادقون في قولهم: إن الله صاحبة ولد، وأنهم لا يكذبون على الله في ذلك، فلما سمعنا القرآن علمنا أننا كنا مخدوعين بأقوالهم الكفرية الكاذبة الباطلة.

٦ - وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال من الجن؛ ليعينهم وليعيذهم مما يخافون، فزاد الجن المستعيزين بهم من الإنس سفهاً وحماقة، وإثماً وطغياناً.

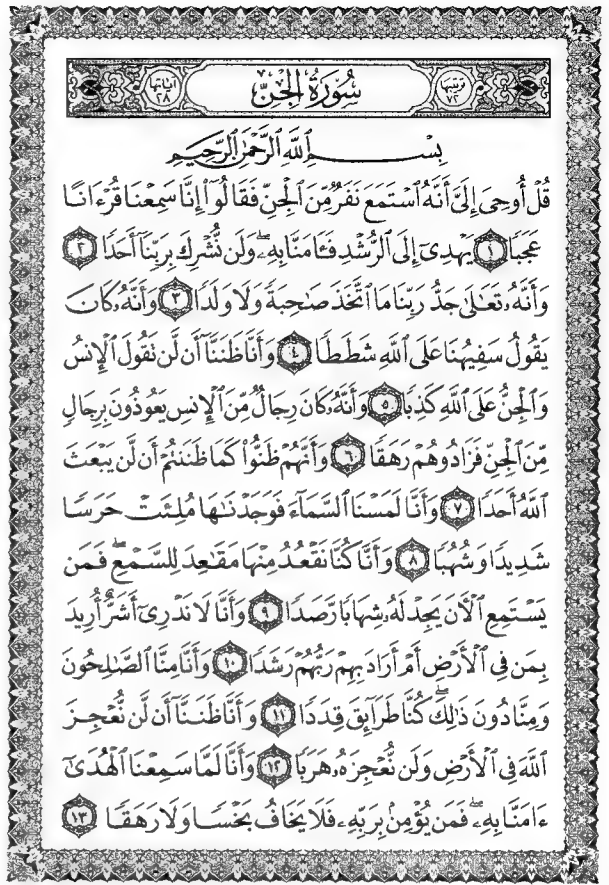
وفي الآية تحذير من اللجوء إلى السحرة والمشعوذين وأمثالهم، والمنع من الرقى التي لا يقرها الشرع.

٧ - وأن كفار الجن ظنوا ظناً توهمياً ضعيفاً كما ظننتم - يا معشر الكفار من الإنس - أن لن يبعث الله بعد الموت أحداً، فلا حساب يوم الدين، ولا فصل قضاء، ولا جزاء.

٨ - يقول الجن: وأنا طلبنا بلوغ السماء الدنيا؛ لاستماع كلام

سُورَةُ الْجِنِّ

الجزء السابع والعشرون



أهلها، ووصلنا إلى سطح حدودها، فوجدناها مليئت خراساً أقوياء من الملائكة يحرسونها من استراق السمع، وشهباً نارياً تنقض على مُسترق السمع.

٩ - وأنا - معشر الجن - كنا نجد في السماء بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، نقعد فيها لاستراق السمع من الملائكة، مما يتعلّق بالأحداث التي تحدث في الأرض، ونلقي هذه الأخبار التي نلتقطها إلى أوليائنا من الإنس، مع أكاذيب كثيرة نضيفها إليها من عند أنفسنا، فمن يستمع الآن - بعد بعثة الرسول ﷺ ونزول القرآن وما يأتي من أزمان لاحقات - يجد له شهباً مُعدّاً ومُهَيَّأً له؛ ليُرمى به. وفي هذه الآية والتي قبلها إبطال مزاعم السحرة والمشعوذين، الذين يدعون علم الغيب، ويغررون بضعة العقول بافتراءاتهم وأقوالهم الباطلة.

١٠ - وأنا لا ندرى هل المقصود من المنع من الاستراق والرمي بالشهب هو شرُّ أريد بأهل الأرض، أم أريد بهم صلاح وخير يمنع عنهم به كهانة الكهان، وما تُوحى إليهم به الشياطين من بعض أخبار السماء؟ لكن دَرَيْنا بعد أن استمعنا القرآن فآمنا به، وذهب عنا التحير، وعلمنا أن الله عز وجل قد أراد بأهل الأرض أمراً رُشداً.

١١ - وأنا من المؤمنين المُخلصون، ومن دون فريق الصالحين مراتب ودرجات ودركات، كنا قبل استماع القرآن جماعات مُتفرقين، ومذاهب وعقائد وأديان متقطعة وأهواء مختلفة لا جامعة تجمع بينها.

١٢ - وأنا ظننا ظناً راجحاً قبل سماع القرآن ومعرفة سبب امتلاء السماء بالحرس الشديد والشهب أن الله قادر علينا، وأنا في قبضته وسلطانه، فلن نفوته إن أراد بنا أمراً أينما كنا، ولن نستطيع أن نُفلت من عقابه هرباً، إن طلبنا.

١٣ - وأنا لما سمعنا القرآن، وما اشتمل عليه من الهدى، صدّقنا به وبمحمد ﷺ تصديقاً جازماً، فقد تدرّجنا في الاقتناع حتى بلغنا إلى اليقين، فآمنوا - أيها الجن - بالرب إيماناً كاملاً، واستسلموا له، فمن يؤمن بربه إيماناً صحيحاً، فلا يخاف نقصاناً من عمله وثوابه، ولا يخاف أن يُحمّل ما لا يُطبق.

١٤ - وأن قومنا بعد أن دعوناهم إلى الإسلام صاروا فرقتين: المسلمون الذين آمنوا بالنبي ﷺ، والجائرون العادلون عن الحق، فمن استسلم لله صادقاً مخلصاً، فأولئك أصحاب المنازل الرفيعة الفضلاء قصدوا باهتمام واجتهاد طريق الحق وتوحيده، فكانوا من أهل الجنة، ينعمون فيها.

١٥ - وأما الجائرون عن صراط الله المستقيم الذين اتبعوا الغي، استجابة لأهوائهم وشهواتهم، فكانوا لجهنم يوم القيامة كالحطب الذي يُعدُّ لتوقد به النار، أو ليزيد به وقودها، إذ هم سيطرحدون ويكبون في نار جهنم كما يطرح ويكب الحطب في النار.

١٦، ١٧ - وأن الشأن العظيم هو: لو استقام الجن والإنس على طريقة الحق والإيمان والهدى، وكانوا مؤمنين مطيعين، لو سعى عليهم الرزق في الدنيا، ولاسقيناهم ماء كثيراً غزيراً، ومتعناهم بالعيش الرغيد؛ لنختبرهم: كيف شكرهم فيما أعطيناهم؟ ومن يُعرض عن كتاب ربّه المنزل على نبيه ﷺ، بعدم التوجه لتلقيه وتدبر معانيه، ويأته أجله وهو على إعراضه يدخله مذيقاً إيّاه عذاباً شديداً شاقاً، في مكان ضيق لا يتسع لأكثر منه، لا يزداد إلا شدة، كما يُدخل السلك في الثقب الضيق؛ ليدوق جزاء إعراضه عن دعوة ربّه، وعدم استجابته لدين الله، واتباع كتابه.

١٨ - وأن السجود والمواضع التي بُنيت للصلاة والعبادة وذكر الله عز وجل، لله وحده، فلا تعبداً - أيها الإنس والجن - مع الله أحداً، وأخلصوا الدعاء له.

١٩ - وأنه لما قام عبد الله محمد ﷺ بهمة وعزم يُبلغ كتاب الله، ويدعو إلى سبيل ربّه، كاد رافضو دعوته يكونون جماعات مجتمعة بكثافة ضده، لمقاومة دعوته، ولمنعه من أداء رسالة ربّه.

وَأَنَّا مَنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۖ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾
وَالَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ طَرِيقَةٍ لَّا سَقِينَاهُمْ مَاءً عَذًّا ﴿١٦﴾ لَنَفْسِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً ۖ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أضعف ناصراً وأقلَّ عدداً ﴿٢٤﴾ قُلْ إِن أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوَعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن أَرَادَ أَنْ يُرْسِلَ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لَّيَعْلَمَنَّ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

٢٠ - قل - يا رسول الله - لكفار مكة: ما أعبد إلا ربّي وحده، ولا أشرك به في ربوبيته ولا في إلهيته أحداً، وسأتابع عبادتي لربّي في تبليغ دينه، مهما جمعتهم جموعكم لحربي ومقاومة دعوتي، ومهما تلبّستم عليّ متواطئين ضديّ، وضاغطين عليّ صدري، لإسكات لساني، وقطع أنفاسي.

٢١ - قل - يا رسول الله - لهم: إني لا أقدر على مقارعتكم بوسيلة مادية أضركم بها، لأنني تألبكم عليّ وعلى الذين آمنوا بي، ولا أملك وسيلة ألزكم بها إلزاماً إكراهياً أن تكونوا راشدين مسلمين، فأنتم مسؤولون عن اختياركم الحر أمام ربكم.

٢٢، ٢٣ - قل - يا رسول الله -: لن يمنعني من عذاب الله أحد إن لم أقم بوظائف رسالتي التي أرسلني للقيام بها، ولن أجد من دونه ملجأً ألجأ إليه، لكن أملك أن أبلغكم عن الله ما أمرني بتبليغه، ورسالته التي أرسلني بها إليكم، فذلك الذي أملكه بعون الله وتوفيقه. ومن يعص الله ورسوله، ولم يؤمن، فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً.

٢٤ - أمهلهم - يا رسول الله - واصبر عليهم، حتى إذا رأوا ما يُوعَدون من نكبات تنزل بهم، فسيعلمون عند انتصار المؤمنين عليهم في الدنيا من أضعف ناصراً وأقلَّ عدداً؟ أم المؤمنون؟

٢٥ - قل - يا رسول الله -: ما أدري أقرب وقت العذاب الذي تُوعَدون أم يجعل له ربّي أجلاً وغاية تطول مدتها؟

٢٦، ٢٧ - هو سبحانه عالم ما غاب عن العباد، فلا يُطلع على الغيب الذي يعلمه أحد من الناس، إلا من يصطفيه لرسالته ونبوته، فيظهره على ما يشاء من الغيب؛ حتى يكون ما يُخير به من المعجزات معجزة دالة على نبوته، فإذا أراد سبحانه إظهاره على ما يشاء من غيبه، فإنه يدخل من أمام الرسول ومن خلفه حَفَظَةً من الملائكة يحفظونه من الجن؛ لئلا يسمعوها الوحي.

٢٨ - وقد أخبرناه ﷺ بحفظنا الوحي؛ ليعلم أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم، وأن الله قد حفظهم ودفع عنهم، وأحاط الله علمه بما عند الرسل، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، وعلم سبحانه عدد الموجودات كلها، فلم يخف عليه شيء، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه؟

سُورَةُ الْمُرْزَمِ

١، ٢ - يا أيها المُتَلَفُفُ المُتَغَطِّي بِثِيَابِهِ، قُمْ الليل للصلاة والعبادة إلا قليلاً تنام فيه.

٣، ٤ - قُمْ نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث، أو زد على النصف إلى الثلثين، واقرأ القرآن بترسل وتمهل وتبين، مع حضور القلب والتأمل في معاني الآيات. وفي الآية: استحباب ترتيل القرآن، وأنه أفضل من سرعة القراءة.

٥ - إنا سُنَلِقِي عَلَيْكَ - يا رسول الله - كلاماً عظيماً جليلاً ذا معانٍ وفيرة غزيرة، لا يُسْتَطَاعُ تفهيمها؛ إلا بالقراءة المُرتلة التي فيها أناة، وتمهل، وتفكير، وتدبر.

٦ - إنَّ العبادة التي تنشأ بالليل هي أشدُّ ثباتاً في القلب ورسوخاً فيه، وأكثر غلبةً للنفس وشهواتها، وأكثر قهراً لها وتذليلاً، وأبين قولاً، وأكثر استقامة وسداداً وتوفيقاً للمعاني الجليلة؛ لحضور القلب، وهدهد الأصوات، وذلك أجمع للفكرة، وأبعث على التأمل والاستفادة.

٧ - إنَّ لك - يا رسول الله - في النهار تصرفاً وتقلباً في حوائجك ومطالب حياتك، وزماناً طويلاً للقيام بوظائف رسالتك الدعوية والتربوية، ففرغ نفسك ليلاً لعبادة ربك.

٨ - واذكر - يا رسول الله - مع سُبْحِكَ في النهار بحثاً عن الرزق ومطالب الحياة، اسمَ ربِّكَ بالتوحيد والتعظيم والتقديس والتسبيح، وأخلص له إخلاصاً، وافرغ لعبادته، وانقطع عن كل شيء إلا من عبادة الله وطاعته.

٩ - هو سبحانه ربُّ المشرق والمغرب، المُقَدَّرُ لمواقع الأرض والشمس، وحركة الأرض حول نفسها وحول الشمس، لا معبود

بحق إلا هو، ففوض أمرك إليه وتوكل عليه، حتى يُيسِّرَ لك الأمور، ويُسهِّلَ لك الأسباب، ويُدِلُّكَ للعقبات.

١٠ - واصبر - يا رسول الله - على ما يقوله المشركون من التكذيب والأذى، واعتزلهم اعتزالاً حسناً لا غضب فيه، ولا مخاصمة ولا عتاب، وأعرض عن مجالس شتائمهم برفق، لتعود إلى نصيحتهم وكأنك لم تسمع شيئاً يؤذيكَ.

١١ - ودعني - يا رسول الله - والمُكَذِّبِينَ المترفين أهل التثنم، ومَهْلِهِمْ في الدنيا زماناً قليلاً.

١٢، ١٣ - إنَّ عندنا في الآخرة قيوداً ثقيلاً، وناراً مُحرقة، وطعاماً كريهاً غير سائغ في الحلق، لا ينزل إلى المريء ولا يخرج إلى الفم، وعذاباً آخر فوق ذلك وجيعاً.

١٤ - سيكون هذا الوعيد، يوم تنزل الأرض، وتتحرك الجبال، وتكون الجبال - بسبب ذلك الزلزال العظيم - رملاً منصّباً مندفعاً، بعد أن كانت أحجاراً صلبة عظيمة.

١٥، ١٦ - إنا بعظمة ربوبيتنا أرسلنا إليكم - يا أهل مكة - محمداً رسولاً، مُبَلِّغاً لَكُمْ كُلَّ ما أمَرُ الله بتبليغه، ومُبَيِّناً، وداعياً، فإذا لم تستجبوا له فإنه يأتي يوم القيامة شاهداً عليكم بأنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، إلا أنكم لم تستجبوا، كما أرسلنا إلى الطاغية المستبد فرعون ملك مصر، موسى بن عمران، فعصى فرعون الرسول موسى، وكذب برسالته، فعاقبنا فرعون عقاباً شديداً ثقيلاً.

١٧ - فكيف تتقون - إن كفرتم في الدنيا - العذاب يوم القيامة الذي يجعل الولدان شيوخاً من هَوْلِ ذلك اليوم وشِدَّتِهِ؟

١٨ - السماء - مع عظمتها - تشق بشدة هَوْلِ يوم القيامة، كان وعد الله تعالى كائناتاً لا مَحَالَةَ.

١٩ - إنَّ هذه الرسالة الإلهية رسالة بيان وهداية وموعظة وإرشاد وتذكير باقٍ، فهي ليست رسالة إكراه ولا إلزام، فمن شاء نجاة نفسه وسعادتها، بما آتاه الله من إرادة حُرَّةٍ مُمَكَّنَةٍ بخلق الله أن تشاء بحُرِّيَّةٍ، اتَّخَذَ إلى مرضاة ربه طريقاً، وَمَنْ لم يشأ ذلك استحقَّ العقاب والعذاب، فهو الذي يتحمَّلُ نتائج رفضه للحقِّ وسلوك سبيل الهداية.

سُورَةُ الْمُرْزَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُرْزَمُ ١ قِرْ أَيْلًا لِقَلِيلًا ٢ تَصَفَّهُ ٣ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ٤
أُورِدْ عَلَيْهِ وَرَبَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ٥ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا
ثَقِيلًا ٦ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ٧ إِنَّ لَكَ فِي
النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ٨ وَاذْكُرْ أَمْرَ رَبِّكَ وَبَسِّلَ الْبَصِيلَ ٩
رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ١٠ وَأَصْبِرْ
عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١١ وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ
أُولِي النِّعَمِ وَمَهْلِكُ قَلِيلًا ١٢ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ١٣
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ١٤ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
وَكُنْتَ الْجِبَالُ كِغَيَا مَهِيلًا ١٥ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ١٦ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ
فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا ١٧ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ
الْوِلْدَانَ شِيبًا ١٨ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ١٩ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ٢٠
إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ٢١

٢٠ - إِنَّ رَبَّكَ - يا رسول الله - يعلمُ أنك تقومُ للتهجدِ زمناً أقلَّ من ثلثي الليل، وتقوم نصفه وثلثه، ويقوم معك الليل جماعة من أصحابك، والله - وحده - العالم بمقادير الليل والنهار، لا يفوته علم ما تفعلون، فيعلم القدر الذي تقومون من الليل والذي تنامون فيه، عَلمَ أن لن يتيسرَ لكم مستقبلاً المحافظة على القيام المطلوب منكم محافظةً تستغرق كلَّ الليالي، فرجع مُتفضلاً عليكم بحكم التخفيف، فاقروا في صلاتكم ما تيسرَ لكم قراءته من القرآن، عَلمَ أن سيكون منكم مرضى يضعفون عن التهجد بالليل، وآخرون يسافرون للتجارة من أجل معاشهم، يطلبون من رزق الله، وقوم آخرون يجاهدون في سبيل الله، فاقروا ما تيسرَ من القرآن، وأقيموا الصلاة المفروضة، بالمواظبة على أدائها في أوقاتها، وأعطوا الزكاة الواجبة، وتصدقوا في وجوه البرِّ والإحسان من كَسْبِ طيب ابتغاء مرضاة الله، وما تقدّموا لأنفسكم من عمل إراديٍّ سواء كان عملاً قلبياً أم نفسياً أم جسدياً، تلقوا أجره وثوابه عند الله، خيراً وأعظم من الذي ادّخرتموه ولم تقدّموه، واطلبوا المغفرة من الله لذنوبكم وتقصيركم في قيام الليل وجميع أحوالكم، إِنَّ الله كثير السّتر وعظيمه، دائم الرحمة وعظيمها.

سُورَةُ الْمُنَادِ

١ - ٥ - يا أَيُّهَا الْمُتَغَطِّي بِثِيَابِهِ، المُسْتَدْفِئُ بِهَا، المذعور من رؤية جبريل على هيئة عظيمة بين السماء والأرض، دع الجلوس قابلاً في دارك عند أهلك، وقم بالدعوة إلى سبيل ربك وفق مراحلها، تبليغاً وإقناعاً وتبشيراً بثواب الله العظيم يوم الدين حتى آخر مراحلها، وهي الإنذار بعذاب الله المؤجل والمُعجل، وخُصَّ ربك وحده بالتكبير والتعظيم، ببيان عظيم صفاته وأسمائه الحسنى، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته، وذكره بالقلب واللسان، وخُصَّ ثيابك بالطهارة عن النجاسات، ونفسك عن الذنوب والآثام، واخُصَّ الشُّرك بالهجر الكامل، وابتعد عن كلِّ الوثنيات والشركيات، ولا تقترب من شيء منها مطلقاً، وذم على هجر الأصنام والأوثان.

٦ - ٧ - وأنعم بالعطاء الكثير الحسن ممّا تملك من جسّدك ونفسك ومالك عطاء لا يُراد منه الرّبح من الناس، ولأجل ابتغاء مرضاة ربك - وحده - فاصبر على طاعته وأوامره، وعلى ما تلقاه من الذين تدعوهم من إعراض أو أذى بأقوالهم وأعمالهم.

٨ - ١٠ - فإذا نفخ «إسرافيل» في «القرن» النفخة الثانية؛ لإعادة الأرواح إلى الأجساد، فذلك اليوم الذي تبعث فيه الأحياء للمحاسبة وفصل القضاء والجزاء، يومٌ شديد يعسر على الكافرين. وفي بيان كون هذا اليوم عسيراً على الكافرين دلالة على أَنَّ الله عزَّ وجلَّ يُسرُّ أمر هذا اليوم العصيب على المؤمنين.

سُورَةُ الْمُنَادِ

سُورَةُ الْمُنَادِ

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَافُةً مِنْ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ إِنَّ عِلْمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا الْقُرْآنَ وَنُصْحًا لَكُمْ وَمَا يُغْنِي عَنْكُمْ كَثْرَتُهُمْ مِنْ خَيْرِ نَجْدِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ أَنْتُمْ مُنْجَدُونَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

سُورَةُ الْمُنَادِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبِّكَ أَكْبَرُ ۝٣ وَتَبَارَكَ فَطِيرُ ۝٤
وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِرَ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧
فَإِذَا نَفَخَ الْفَافُورُ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمُ عَسِيرٍ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ
عَسِيرٍ ۝١٠ ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقَتْ وَجِيدًا ۝١١ وَجَعَلَتْ لَهُ مِثْلَ
مَمْدُودًا ۝١٢ وَبَيْنَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدَتْ لَهُ لَمْ تَمْهِدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ
أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِندَ ۝١٦ سَاءَ هُوَ صَعُودًا ۝١٧

١١ - ١٥ - دعني - يا رسول الله - مع مَنْ خَلَقْتُهُ فريداً، لا مالَ له ولا ولد، وجعلتُ له مَالاً كثيراً يمدُّ بعضه بعضاً، وبينَ حضوراً لا يغيبون عنه، وبَسَطْتُ لَهُ العَيْشَ وطول العمر بَسْطاً مع الجاه العريض والرياسة في قومه، ثُمَّ يَرجو أن أَزيدَه مَالاً وولداً وتمهيداً (والمراد به الوليد بن المغيرة المخزومي، ويلحق به مَنْ كان مثله في كفره وعناده، وإصراره على الباطل على الرغم من وضوح الحق له).

١٦ - لا أفعل ولا أَزيدُه؛ إِنَّه كان مُعَانِداً في جميع دلائل التوحيد والقدرة والبعث والنبوة، يعرف كل ذلك بقلبه وينكر بلسانه، وهو أَقْبَحُ الكفر وأفحشه. فَدَعَ مواجهة هذا الصَّنَف من الجاحدين المُعَانِدِينَ، فلا تتصارع معه صراعاً كلامياً ولا جسدياً، بل تابع مسيرتك في دعوتك دون أن تشغلك مصارعتهم عن القيام بواجبات رسالتك.

١٧ - سأُكَلِّفُه مشقَّةً عظيمةً من العذاب لا يطيق حملها. وهذه الآية تضمَّنَت وعيداً للوليد بن المغيرة ولمَنْ كان مثله في عناده لآيات الله بعذاب ذي صفة خاصَّة في جهنم، وهو تحميله ما لا يطيق صاعداً على عقبة كؤود.

١٨ - ٢٥ - إنه أعمل فكره في أمر محمد ﷺ والقرآن، وهياً في نفسه ماذا يمكن أن يقول في محمد ﷺ والقرآن، فعُذِبَ وطُردَ عن رحمة الله طرداً أبدياً على أية حال كان عليها تفكيره وتقديره؟ ثم تريت وزاد في تمهله وتفكيره لتزيين الكفر بالقرآن، فطُردَ طرداً مميّناً على أية حال كان عليها تفكيره وتقديره؟ ثم بعد تأمل طويل ثبتت نظره على فكرة رجاء أن تكون مقبولة لدى جماهير قومه، إلا أنه أدرك ضعفها وعدم كفايتها للإقناع، فظهر أثر هذا الذي اعتلج في نفسه على وجهه، فتجهّم ساخطاً، وظهر الشحوب في وجهه من أثر استياء نفسه، ثم أدبر عن متابعة النظر والتفكير، واستكبر عن الإيمان بالقرآن، وبالرسول محمد ﷺ، فقال: ما هذا الذي يقوله محمد ويقولوه إلا سحر يروى ويحكى عن الأولين، ما هذا إلا كلام المخلوقين تعلّمه محمد منهم.

٢٦ - ٢٨ - سادخله جهنّم؛ ليحترق فيها، وأي شيء أعلمك ما «سقر»؟ إنك لا تدري عظمة «سقر» وهول شدتها إلا إذا أعلمناك بذلك، إنها لا تبقى أحداً من المُستحقّين للعذاب إلا أخذته، ولا تدر من لحوم أولئك شيئاً إلا أكلته وأقنته.

٢٩، ٣٠ - مُعَيَّرَةٌ للجلد حتى تجعله أسوداً. يُشرف على تعذيب المُعذّبين في «سقر» تسعة عشر من الملائكة الغلاظ الأشداء.

٣١ - وما جعلنا أصحاب النار - الخازنين لها، الموكّلين بعذاب أهلها - إلا ملائكة عظاماً؛ ليكونوا من غير جنس المُعذّبين، وأشدّ منهم، وما جعلنا عددهم في القلّة إلا اختباراً عاماً للمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، نمتحن به نفوسهم وعقولهم؛ ليستيقن الذين أعطوا الكتاب من اليهود والنصارى بأن هذا العدد مكتوب في التوراة والإنجيل مع أنّ محمداً لم يطلع على كتبهم، ولم يقرأ منها شيئاً، ولكن يصدهم حسدهم وتعصّبهم عن التصديق برسالة محمد ﷺ،

ويزداد الذين آمنوا إيماناً، إذ يجدون هذا الخبر مُطابقاً لما في كتب أهل الكتاب من أخبار صحيحة لم تُحرّف، ويزداد إيمانهم بعدل الله في تعذيب الكفار يوم الدين، ويزيد التزامهم بطاعة الله والعمل بمراضيه، ولا يشكّ الذين أعطوا الكتاب والمؤمنون مُستقبلاً في أيّ خبر يُخبر به رسول الله ﷺ، وليقول الذين في قلوبهم شكّ ونفاق ومُشركو مكة - استفرباً منهم لهذا العدد واستبعاداً له -: أيّ شيء أراد الله بذكر عدد خزنة «سقر» تسعة عشر؟! وعلى مثل تلك الحال التي عليها الناس بأقسامهم، يحكم بمشيئته على من ضلّ بالضلالة، ويحكم بمشيئته لمن اهتدى بالهداية، وما يعلم عدد أعوان خزنة جهنّم من الملائكة الذين خلّقوا لتعذيب أهل النار إلا الله تعالى، وما «سقر» التي ذكرنا صفاتها إلا لغرض أن يكون العلم بها لدى الناس مُستقرّاً في ذكاراتهم، يستدعون عند المناسبات، فإذا تذكروها كانت دافعة لهم عن طريق اختيارهم الحر إلى أن يتّقوا الكفر والمعاصي التي تجعل مرتكبيها يستحقّون عذاب الله فيها.

٣٢ - ٣٧ - كلا لا يتعظون ولا يتذكرون، أقسم سبحانه بالقمر، وبالليل وقت إدباره، وظهور نور الفجر، وبالصُّبح وقت إسفاره وانكشاف ضوئه، إنّ سقر لإحدى الأمور العظام، إنذاراً وتخويفاً للناس، لِمَنْ شاء منكم - أيها البشر - أن يتقدّم إلى مُقتضيات العذاب بـ «سقر»، بأن يكفر ويكذب بما جاء عن ربّه، غير مُكترث للإنذار، وعليه أن يتحلّل نتائج اختياره بمشيئته الحرة خلوداً في العذاب الأليم في «سقر»، ومَنْ شاء أن يتأخّر إلى مواقع النجاة والسلامة بالإيمان والعمل الصالح، تأخّر باختياره الحرّ فسليم ونجا وظفر.

٣٨ - ٤٧ - كلُّ نفس مكلفّة في الدنيا، كاسبة لأعمالها باختيارها الحر، محبوسة في النار حبساً أبدياً بكسبها، ومأخوذة بعملها الذي تُستوجب به الخلود في النار، إلا المؤمنين المخلصين أصحاب اليمين، الذين يؤثّون صحف أعمالهم يوم القيامة بأيّمانهم، فإنهم غير محبوسين بذنوبهم في النار، فكوا رقاب أنفسهم بأعمالهم الصالحة. هم في بساتين، يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين، يقول المسؤولون للسائلين: قلنا للمجرمين: أيّ شيء أدخلكم في «سقر»؟ قال المجرمون مجيبين لهم وهم في «سقر»: لم نكن من المؤمنين الذين يُصلّون لرّبهم، ولم نكن نصدّق على المساكين المحتاجين إلى الطعام، وكنا نخوض في مخاضات الإنم والمعاصي، ونتلبّس في مُحرمات المظالم في الأنفس والأموال والأعراض، مع الخائضين من الظالمين وقادة الشرّ والضلال، دون خوف ولا وجل، وكنا نكذب بيوم الحساب والجزاء، حتى آتانا الموت الذي لا شكّ فيه.

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقِيلَ يَفْ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ يَفْ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ
ثُمَّ عَبَسَ وَسَبَرَ ۚ ثُمَّ أَذَبَ وَأَسْتَكْبَرَ ۚ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
يُؤْتَرُ ۚ إِن هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۚ سَاحِلِيهِ سَقَرٌ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ
مَا سَقَرٌ ۚ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۚ لَوَاحِشُهُ لِّلْبَشَرِ ۚ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ
وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيزدادَ الَّذِينَ آمَنُوا أَيْمَانًا
وَلَا يَرْتَابَ ۚ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي
مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۚ كَلَّا
وَالْقَمَرِ ۚ وَآيِلٌ إِذَا دُبِرَ ۚ وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرُ ۚ إِنَّهَا لَإِحْدَى
الْكُتُبِ ۚ يَذِيرُ اللَّبَشَرِ ۚ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۚ كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ۚ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۚ فِي جَنَّتٍ يُسَاءَلُونَ
عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۚ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ
الْمُصْلِينَ ۚ وَلَوْ نَكُنَّ نَظْمًا الْمَسْكِينِ ۚ وَكُنَّا نَخْضُوعُ مَعَ
الْخَائِضِينَ ۚ وَكَذَّا كَذِبَ يَوْمَ الَّذِينَ ۚ حَتَّى آتَيْنَا الْيَقِينَ ۚ

٤٨ - فما تنفع المكذبين بيوم الدين، شفاعة الشافعين من الملائكة والنبين والشهداء والصالحين وجميع المؤمنين.

٤٩ - ٥١ - فما لهؤلاء المشركين عن تذكرة القرآن الباقية المشتملة على بيان وهداية وموعظة وإرشاد معرضين؟ كأن هؤلاء الكفار في إعراضهم عن سطوة القرآن الفكرية المؤثرة فيهم بما فيه من حقائق وأنوار وهداية، حُمرٌ وحشية نافرة، هزيت من أسد كاسر.

٥٢، ٥٣ - لا تقبل ادعاءاتهم في أن القرآن سحر، وأنه قول البشر، بل يريد كل واحد من كفار قريش؛ لعل الكبر في نفوسهم، أن يُعطى كتباً مفتوحة غير مطوية، يقرؤها كل من يراها. ليس الأمر كما زعموا، بل علّتهم النفسية أنهم لا يخافون عذاب الآخرة.

٥٤ - ٥٦ - ردعاً وزجراً للمعرضين عن تذكرة القرآن؛ إن القرآن بما اشتمل عليه من هداية وإرشاد تذكرة دائمة بحقائق علمية يطلب من الناس أن يعلموها أولاً، ثم يتذكروها دوماً عند المناسبات الداعيات لتذكرها، لتكون موجهة لإرادتهم وأنواع سلوكهم، وكل إنسان هو خُرٌ بعد أن تُعرض عليه هذه التذكرة في أن يستجيب لمضمونها فيؤمن، أو يرفضها فيكفر، وما يذكرون بمشيتهم الحرة إلا أن يشاء الله أن يمنحهم القدرة على المشيئة الحرة، ويُسخّر لهم الأسباب التي بها يذكرون، دون أن تتأثر حريتهم بجبر ولا قسر، هو سبحانه حقيق بأن يتقي عباده، ويخافوا عقابه، فيؤمنوا به ويطيعوه، وهو حقيق بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم وذنوبهم.

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

١، ٢ - أقسم بيوم القيامة الذي يُبعث فيه الخلق للجزاء، ولكنه أمرٌ غيبي لا يدرك عظمته منكرو البعث. وأقسم بالنفس المؤمنة التقيّة الناصحة التي تلوم صاحبها على تقصيره، وإن اجتهدت في الطاعة، ولكن هذه النفس للوامة ضامرة هزيلة داخل الإنسان منكر البعث.

٣ - أظنُّ هذا الكافر المنكر للبعث ظناً توهمياً ضعيفاً أنَّ العظام بعد تفريقها ورجوعها رميمًا لا يمكننا جمعها مرةً أخرى؟

٤ - ليس الأمر كما يحسب هذا الإنسان الكافر، بلى قادرين على جمع عظامه وتأليفها، حتى نعيد السلاميات على صغرها إلى أماكنها، ونؤلف بينها حتى تستوي الأنامل، فمن يقدر على جمع العظام الصغار فهو على جمع كبارها أقدر.

٥، ٦ - ليس صحيحاً أنَّ هذا الإنسان الكافر شك في قدرة الرب على إحياء الموتى، بل يريد هذا الإنسان ليدوم على تدفقه الوقع إلى فعل الشرور والآثام فيما يستقبله من الزمان، دون أن يشعر في أعماق وجدانه بوخز من ضمير، وفي نفسه بعقبة خوف من المصير، فيسأل سؤال متعنت مُستبعد ليوم القيامة الذي يكون فيه الحساب والجزاء: متى يكون يوم القيامة هذا، وقد خلت القرون العديدة دون أن يحدث هذا اليوم الموعود به؟!

٧ - ١٠ - فإذا تحير البصر عند الموت، فزعاً ودهشاً، ممّا يرى من العجائب التي كان يُكذب بها في الدنيا، وأظلم القمر وذهب نوره، وانجذب القمر إلى الشمس، حتى إذا بلغها ابتلعته الشمس في أحد تجويفاتها العظيمة، فجمع بينهما، يقول الإنسان الكافر المكذب يوم القيامة: أين المهرّب من العذاب؟ وأين الملجأ؟

١١، ١٢ - زَجْرًا وردعاً، لا ملجأ لك - أيها الكافر - تلتجئ إليه، ولا شيء يعصمك من عذاب الله تعالى، إنَّ الحكم يوم القيامة بمكان استقرارك في جهنم الذي سوف تستقر فيه خالداً مخلداً هو إلى ربك، لا مُعَقَّبٌ لحكمه ولا رادُّ لقضائه.

١٣ - ١٥ - يُخَبِّرُ الإنسان يوم القيامة بكلِّ ما قدَّم قبل موته من عمل قد عمله، خيراً كان أو شراً، ويكلِّ ما لم يعمل من أعمال كان يجب عليه أن يعملها، فأخبرها وراءه في الحياة الدنيا، حتى وافته منيته، وانتهت ظروف امتحانه، وأقبلت مرحلة حسابه ومجازاته، فينكر هذا الإنسان ويرفض الإقرار، ويحاول أن يُلقي معاذيره، بل الإنسان كثير البصر والمعرفة بمرادات نفسه وأهوائها وشهواتها ونياتها، وسائر ما يصدر عنها، ولو أُلقي حُجَجُه الكاذبة، وأقواله التي يحاول بها تبرئة نفسه، وستر ذنوبه.

١٦ - ١٩ - لا تُحَرِّك - يا رسول الله - بما ينزل عليك من القرآن لسانك؛ لتعجل بأخذه، إنَّ علينا جَمْعَهُ في صدرك وذاكرتك، وضبط لسانك على تلاوته، كما يُلقِّنك إياه جبريل، فلا تكن قراءتك مقارنة لقراءة جبريل عليك، بل أنصت حتى يُنمَّ جبريل ما يُوحى إليك، فإذا فرغ جبريل من القراءة، فخذ أنت فيها، ثم إنَّ علينا - بعد حفظه وضبط تلاوته - بيان ما يشتمل عليه القرآن من دلالات وعلوم في الأزمنة المستقبلية.

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿١٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿١٩﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٢٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٢١﴾ بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٢٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٢٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٢٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْغَفْرِ ﴿٢٦﴾

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَحْسَبُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلْ قَدَرِينٌ عَلَّ أَنْ سُئِيَ بَنَانُهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرَأَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَى الْمَفْرَءَ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يَلْبَثُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَهُ لَتَعَجَّلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَانْفَعُ قُرْءَانُهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾



٢٠، ٢١ - ارتدعوا وازدجروا - أيها الناس - عن ادعاء المعاذير التي تصرفكم عن السعي للآخرة، بل أنتم تُحبون الدنيا العاجلة الفانية السريعة الزوال، وتوجهون لها كل اهتماماتكم، وتتركون الآخرة ونعيمها.

٢٢، ٢٣ - وجوه أهل السعادة يوم القيامة حسنة ناعمة مُشرقة مُضيئة بالنعيم، إلى ربها سبحانه ناظرة عياناً بلا حجاب.

٢٤، ٢٥ - وجوه الأشقياء يوم القيامة عابسة كالحة مُتغيرة مُسودة، تظن - وهي في موقف الحشر - أن يفعل بها أمرٌ عظيم وشرٌ كبير من العذاب؛ لبقاء أمل ضعيف بأن يجعل الله لهم مخرجاً من العذاب، باستئناف رحلة امتحانهم، أو يجعلهم تراباً.

٢٦ - ٣٠ - ارتدعوا عن إثارة الدنيا التي تفارقونها، إذا بلغت الروح عند خروجها من الجسد إلى العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، انكشفت له حقيقة الأمر، وقال مَنْ حَضَرَهُ: هل من طبيب يرقيه ويُداويه ممّا نزل به؟ وظنّ المُحتَضَر أنه الخروج من الدنيا، وفراق الأهل والولد؛ لبقاء أمل ضعيف باستمرار الحياة، واجتمعت شدة مفارقة الدنيا مع شدة إقبال الآخرة، إلى حكم ربك - وحده - يوم القيامة مرجع العباد، يُساقون إليه؛ ليفصل بينهم.

٣١ - ٣٥ - فلا صدق ذلك الذي ظن أن لن نجعل عظامه بما يجب التصديق به، ولم يصلُ الله تعالى، ولكن كذب بكل ما جاء به الرسول عن ربه، وأدبر وابتعد نائياً، ثم ذهب إلى أهله يتبخر ويختال في مشيته، قاربك ما تكره من أنواع العذاب، فيتبعها نوع آخر، ثم يتبعه نوع ثالث من العذاب، فيتبعه نوع رابع في عذاب أبدى في جهنم.

٣٦ - أظنّ هذا الإنسان المنكر للبعث أن يترك هَملاً لا يؤمر ولا يُنهي، ولا يكلف في الدنيا ولا يُحاسب في الآخرة!

٣٧ - ٤٠ - ألم يكن هذا الإنسان المُتَكَبِّر المُتَمَرِّد عن طاعة الله ماءً قليلاً يُصب في الرَّحْم؟ ثم صار قطعة دم جامد بعد النطفة، فقدّر الله خلقه وسوّاه وعَدَلَه، فجعل من المني الذي يقذفه الرجل الصّنفين: الذكر والأنثى، أليس ذلك الربّ الجليل العظيم الذي فعل هذا، وأنشأ الأشياء أول مرة بقادرٍ على إعادته بعد الموت؟! بلى إنه على كل شيء قدير، وهو الخلاق العليم.

سُورَةُ الْإِنشَاءِ

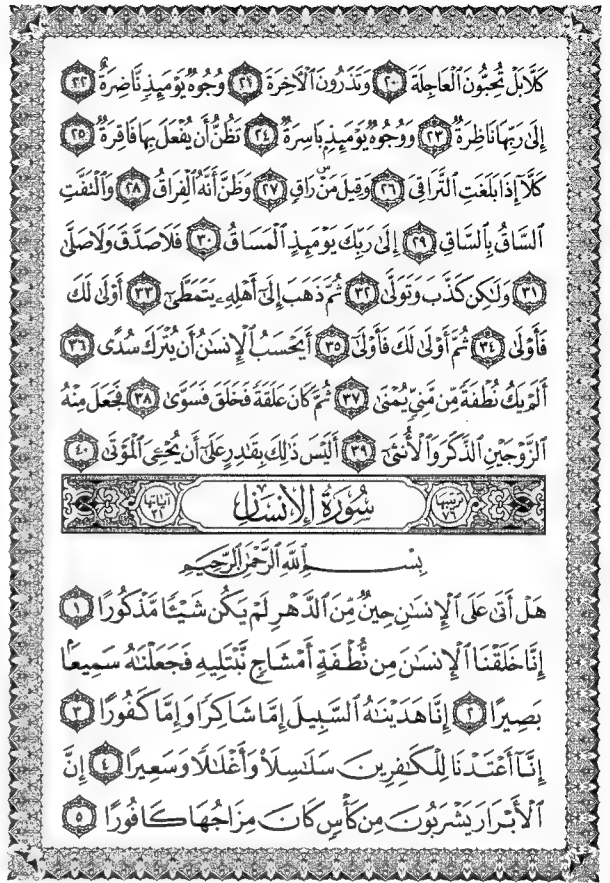
١ - هل أتى على الإنسان وقتٌ طويل من الزمان، قبل أن ينفخ فيه الروح، لم يكن شيئاً يُذكر؟ نعم، لقد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر في أغوار الزمن الماضي السحيق لم يكن شيئاً مذكوراً مطلقاً، في أفرادهِ، ونوعهِ، وخصائصهِ التكوينية. وإذا بُتت هذه الحقيقة لزم عنها أن الإنسان لا بدّ له من حادث يُحدثه، وخالق يخلقه، إذ العدم المحض لا يصلح بذاته أن يتحوّل إلى الوجود.

٢ - إنا خلقنا الإنسان من ماءٍ مختلطٍ ممتزج من مني الرجل ومني المرأة، وهي صِغِيَّات تحمل عوامل وراثية، وخصائص وصفات مختلفة، تظهر في صفات الإنسان الجسدية والفكرية والنفسية؛ لنتخبره ونمتحنه مستقبلاً حينما يبلغ مبلغ المسؤولية والتكليف، ومنحناه وسائل المعرفة، وهي: السمع والبصر؛ ليستكمل شروط الامتحان الأمثل، وذلك حتى يتعرّف بهذه الوسائل على الأدلة التي بثها الله في كونه، وحتى يستطيع إدراك وصايا الشرائع والتعاليم الربّانية التي ينزلها الله للناس.

٣ - إنا أُرشدناه إلى طريق الهدى بنصب الدلائل وبعثة الرسل وإنزال الكتب؛ ليكون بعد ظروف الامتحان: إما شاكراً مُوَحِّداً طائعاً مُقرّراً معترفاً بوجوب شكر خالقه سبحانه، وإما أن يكون مبالغاً في كفره جحوداً يَنعَم الله عليه، لا يُقدّم من الشكر مقدار ذرةٍ من إيمان بالله وامتنال لتكاليفه، فهو يستحقّ الخلود في عذاب النار.

٤ - إنا هيأنا للكافرين في جهنم سلاسل يُشدّون بها، وأغلالاً في أيديهم تُغلّ بها إلى أعناقهم، وناراً حامية جداً شديدة الانقباد، بها يُحرقون.

٥ - إن المؤمنين الصادقين في إيمانهم المطيعين لربهم، المتوسعين في أعمال الخير، يشربون من كأسٍ فيها خمر ممزوجة بالكافور، وهو طيبٌ معروف فيه بياض وبرودة، وله رائحة طيبة.



٦ - هذا الشراب الذي مُزج بالكافور للأبرار، هو عينٌ يشرب منها أولياء الله المقربون صرفاً خالصاً، ويمتلئون بها ريثاً، يُجرونها إلى حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم إجراءً سهلاً لا يمتنع عليهم.

٧، ٨ - استوجب الأبرار هذا الثواب في الآخرة؛ لأنهم كانوا في الدنيا يؤدون ما أوجبه الله عليهم، ويوفون بما أوجبوا على أنفسهم من طاعة الله، ويخافون يوماً عظيماً كان شره منتشراً ممتداً، ويطعمون الطعام - على حبهم للطعام وقلته، وتعلق شهوتهم به، وحاجتهم إليه - مسكيناً لا مال له ولا يقدر على الكسب، وصغيراً لا أب له يكتسب له ويُفق عليه، وأسيراً بيد الأعداء أو مسجوناً من المسلمين وغيرهم.

٩، ١٠ - يقولون لمن أطعموه: ما نُطعمكم إلا لأجل وجهه الله تعالى، ورجاء ثوابه، لا نُريدُ مكافأةً ولا طلبَ حمدٍ وثناءٍ منكم، إنا نخاف من ربنا يوماً شديداً تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته، كريهاً تتقطبُ الجباه من فظاعة أمره.

١١ - ١٤ - فوقاهم الله شرُّ ذلك اليوم الذي يخافونه، وأعطاهم بدل عبوس الكفار وحزنهم حسناً في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، وجزاهم بما صبروا على طاعة الله واجتناب معاصيه جنةً عظيمة، وألبسهم حريراً ناعماً من السندس والاستبرق، مُتَكِينِينَ في الجنة على الشُّر المزيّنة بفاخر الثياب والستور، لا يؤذيهم حرُّ الشمس ولا برد الزمهرير، وقريبةً منهم ظلال أشجار الجنة، وسُخِرَتْ وقُربت ثمارها، فيأكلون من ثمارها قياماً وقعوداً ومضطجعين، ويتناولونها كيف شاؤوا، وعلى أيِّ حال أرادوا.

١٥ - ١٧ - ويدورُ عليهم خدمهم بأواني الطعام الفضية، وبأكواب من فضة بيضاء في صفاء الزجاج، هذه الأكواب هي قوارير في صفتها يرى ما في باطنها من ظاهرها، قَدَرها السُّقاة والخدم تقديرًا دقيقاً محكماً في أشكالها، وحجومها، وعلى قدر رِي شاربيها وكفايتهم، لا تزيد ولا تنقص. ويُسقى الأبرار في الجنة كأساً مملوءة خمرًا مُزَجَّت بالزنجبيل، يشرب المقربون من عينٍ في الجنة ويرتوون بها ريثاً كاملاً، تُسمى هذه العين سُلْسِيلاً؛ لأنها سِلْسَلة مُتقادة لهم، تسيل عليهم في طرقهم ومنازلهم.

١٨ - ويدور على أهل الجنة غلمانٌ دائمون على حالهم من النُّضارة والجمال، لا يهرمون ولا يتغيرون، إذا أبصرتهم ظننتهم؛ - لحُسْنهم وصفاء ألوانهم وبهجة أنوارهم وانتشارهم في الخدمة - لَوْلُوا مُفَرَّقاً مضيئاً.

١٩ - ٢١ - وإذا أبصرت ببصرك هناك في الجنة رأيتَ نعيماً لا تُوصَفُ عظمته، ومُلْكاً كبيراً لا زوال له ولا انتقال، يعلوهم ثياب بطائنها من الحرير الرقيق الأخضر، وظاهرها من الحرير الغليظ، وحُلُّوا في أيديهم أساور من فضة، وسقاهاهم رُثَم شرباً نقياً من الشوائب بالغ الطهارة، يُطَهَر قلوبهم ونفوسهم، وهو نوع آخر يفوق النوعين السابقين: كأس الخمر الممزوجة بالكافور، وكأس الخمر الممزوجة بالزنجبيل.

٢٢ - يقال لأهل الجنة - بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم نعيمها -: إنَّ هذا النعيم كان لكم جزاءً لأعمالكم، قد أعدَّه الله لكم، وكان سعيكم محموداً مرضياً مقبولاً عندنا.

٢٣، ٢٤ - إنا نحن بعظيم ربوبيتنا نزلنا عليك - يا رسول الله - القرآن تنزيلاً مُفَرَّقاً آيةً بعد آية، فاصبر مُستسلماً لحكم ربِّك المبرم في قضائه وقدره، متابِعاً القيام بمهمات رسالتك لغاية تحقيق حكم الله في المدعوين، ولا تُطع من المشركين من كان مُقَدِّماً على المعاصي يدعوك إلى ترك مهمات الرسالة، أو الخروج فيها عما أمر الله به، أو جُحوداً نَعَمَ ربُّه عليه.

٢٥ - وداوم على ذكر اسم خالقك ومالكك ومُؤدِّك بعبادات ربوبيته في أول النهار وآخره، وصلِّ لربِّك أول النهار صلاة الصبح، وبعد الزوال صلاة الظهر والعصر.

سورة الانشراح

سورة الانشراح

عَيْنَا شَرِبَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُصَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَدْرِ وَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيِّرَ قَطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّحَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّحَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَلْفُوفُهَا نَذِيرًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا
﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُوا مُنُورًا ﴿١٩﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ
خُضْرٌ وَأَسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّاهُمْ رُثَمَ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

عَيْنَا شَرِبَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُصَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَدْرِ وَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيِّرَ قَطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّحَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّحَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَلْفُوفُهَا نَذِيرًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا
﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُوا مُنُورًا ﴿١٩﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ
خُضْرٌ وَأَسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّاهُمْ رُثَمَ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

عَيْنَا شَرِبَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُصَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَدْرِ وَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيِّرَ قَطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّحَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّحَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَلْفُوفُهَا نَذِيرًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا
﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُوا مُنُورًا ﴿١٩﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ
خُضْرٌ وَأَسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّاهُمْ رُثَمَ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

عَيْنَا شَرِبَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُصَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَدْرِ وَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيِّرَ قَطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّحَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّحَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَلْفُوفُهَا نَذِيرًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا
﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُوا مُنُورًا ﴿١٩﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ
خُضْرٌ وَأَسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّاهُمْ رُثَمَ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

عَيْنَا شَرِبَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُصَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَدْرِ وَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيِّرَ قَطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّحَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّحَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَلْفُوفُهَا نَذِيرًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا
﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُوا مُنُورًا ﴿١٩﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ
خُضْرٌ وَأَسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّاهُمْ رُثَمَ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

عَيْنَا شَرِبَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُصَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَدْرِ وَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيِّرَ قَطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّحَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّحَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَلْفُوفُهَا نَذِيرًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا
﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُوا مُنُورًا ﴿١٩﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ
خُضْرٌ وَأَسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّاهُمْ رُثَمَ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

عَيْنَا شَرِبَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُصَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَدْرِ وَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيِّرَ قَطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّحَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّحَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَلْفُوفُهَا نَذِيرًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنَا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا
﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُوا مُنُورًا ﴿١٩﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ
خُضْرٌ وَأَسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّاهُمْ رُثَمَ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

٢٦ - ومن بعض الليل فَصَلَ لربِّكَ صلاة المغرب والعشاء، وتهجد بالليل صلاة التطوع بعد المكتوبة زمناً طويلاً من الليل، وسبحه مدة طويلة في صلاة قيام الليل أو خارجها، فلهذا التسبيح أثر فعال في علاج الهموم العظيمة، والأعباء الجسيمة.

٢٧ - إن هؤلاء الكفرة يحبون الدنيا العاجلة، ويوجهون كل أعمالهم واهتماماتهم لنيل متاعها وشهواتها، ويدبرون ويتولون نابذين وراءهم الإيمان بيوم الدين الذي هو يوم ثقیل في شدائده وأهواله وكرباته، فلا يؤمنون به، ولا يعملون له.

٢٨ - نحن خلقناهم، وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق، حتى صار لهم قوة وتماسك، وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة بعد موتهم، وبدلنا صفاتهم، وأعدناهم خلقاً جديداً.

٢٩ - ٣١ - إن هذه الرسالة رسالة بيان وهداية وموعظة وإرشاد وتذكير دواماً، وليست رسالة إكراه ولا إلزام، فمن شاء بما آتاه الله من إرادة حرة مُمكنة بخلق الله اتَّخَذَ لنفسه في الدنيا إلى رضوان ربه ونعيمه في جنته وسيلة بالطاعة والتقرب إليه، ولستم تشاؤون شيئاً إلا إذا منحكم الله المشيئة الحرة، ومكنكم من استخدامهما؛ لتشاوروا بها طريق نجاتكم وسعادتكم، أو طريق هلاككم وشقايتكم، لكن الله ما وضعكم موضع الامتحان إلا بعد أن منحكم الإرادة الحرة، وسائر شروط التكليف، فأنتم مسؤولون مسؤوليَّة تامَّة عن مشيئاتكم وأعمالكم، إن الله كان عليماً بأحوال خلقه وما يكون منهم، حكيماً حيث خلقهم ووضعهم موضع الامتحان بعد أن منحهم الإرادة الحرة، يدخل من يشاء من عباده المؤمنين في جنته بفضلِهِ وإحسانه. والظالمين من ذرَّة الكفر أعد الله لهم بعدله في الآخرة عذاباً مؤلماً في دار العذاب.

سُورَةُ الرِّيحِ

١ - ٧ - أقسم الله بنوع الرياح المُرسلات تبعاً بيُسر وسهولة إرسالاً معروفاً، بمبشراتٍ من رحمة الله وفيوض عطائه، فالرياح الشديدة

الهبوب التي تحمل ما على وجه الأرض من نبات يابس، والرياح اللاتي تنشر بخار الماء، ونويات اللقاح، وغبار الطلع، وبزور النباتات؛ لتحقيق منافع للأحياء في مواضع مختلفة من الأرض، فالرياح الفارقات بين الأشياء التي تحملها عقب نشرها، فتوزعها بحسب مقتضيات حكمة الرب جل جلاله، فالرياح ذوات الصفات المختلفة التي تلقى في أفكار أولي الألباب ذكراً بالله، وبصفاته الجليلة، وبأسمائه الحسنى، وهو سبحانه بتصاريفه المتنوعة في الرياح يلقي العُذر قبل تنفيذ العقاب فيمن يستحقونه، فإذا أنزل بهم عقابه بعد ذلك على كفرهم فلا يلوموا إلا أنفسهم، وهو سبحانه بما أجرى من عقاب بالريح المُدمرة للأمم السابقة ينذر بأنه سيُجري نظير عقوباته السابقة على المجرمين الذين يصلون إلى مثل ما وصل إليه المجرمون السابقون الذين أهلكهم الله بالريح المُدمرة، إن الذي تُوعِدونه - أيها الناس - من بعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء في الدار الآخرة لواقع في المستقبل حتماً.

٨ - ١٤ - فإذا النجوم مُجِي ضوؤها، وذهب أثرها، وإذا السماء جُعل فيها منافذ منفرجة، بدل نظام التماسك وعناصره المُلتحمة، وإذا الجبال قُليت من أماكنها، وإذا الرُّسل من الملائكة حُدَّت أوقات قيامها بوظائفها المأمورة بقيامها يوم القيامة، لأي يوم عظيم أُخِرَتْ؟ ليوم يفصل الرحمن فيه بين الخلائق. وما أعلمك - أيها الإنسان - بيوم الفصل وهولِهِ وشِدَّتِهِ؟

١٥ - هلاك عظيم في ذلك اليوم للمُكذِّبين بالتوحيد والنبوة والبعث والحساب، ومكان سحيق لتعذيبهم في جهنم. وقد تكررَت هذه الآية في هذه السورة عشرَ مرَّات، عقب كل آية كُذِّب بها الجاحدون، إنذاراً للمُكذِّبين بيوم الدين، وترهيباً من عذاب جهنم الذي سيلاقونه إذا أصرُّوا على كفرهم وتكذيبهم وماتوا على ذلك دون توبة.

١٦ - ١٨ - ألم تُهلك إهلاكاً شاملاً المجرمين السابقين من الأمم الماضية بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم؟ ثم تُبعثهم السالكين سيبلهم في الكفر والتكذيب. مثل ذلك الإهلاك الفظيع الشامل الذي فعلنا بالمجرمين الأولين نفعل بسائر المجرمين من الأمم اللاحقة.

١٩ - هلاك ودمار يوم القيامة للمُكذِّبين بآيات الله وأنبيائه، ومكان سحيق لتعذيبهم في جهنم، هو وادي «وئيل».



الْبَيْتُ الْخَامِسُ: التَّكْذِيبُ

سُورَةُ الْاِنْشِاقِ

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كَهَاتَا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِجْسًا شَهِدَتْ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرَى بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جُمُلٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَرِدُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفُوكِهِمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّكَ كَذَلِكَ بَعْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوْا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تَجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا تِرْكَعُوتَ ﴿٤٨﴾ وَيَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ بِرُؤُوسِكَ ﴿٥٠﴾

٢٠ - ٢٤ - ألم نخلقكم من ماء قليل ضعيف حقير، وهو النطفة، فجعلنا هذا الماء في مكان استقرار، حيث يتم تلقيحه لبيضة الأنثى، ويتم علوقه بجدار الرحم، إلى تحقيق قدر معلوم لله تعالى، يشمل المقادير الزمانية والمكانية والذاتية والوصفية في خلق كل جنين، فأحكمنا تحديد المقادير كلها، دون زيادة ولا نقص عن مقتضى الإتيان والتسوية المحكمة، فينعم القادرون المحدثون للمقادير الحكيمة نحن. هلاك ودمار يوم القيامة للمنكرين للبعث؛ لأن القادر على الابتداء قادر على إعادة الموتى إلى الحياة للحساب، وتحقيق الجزاء.

٢٥ - ٢٧ - ألم نجعل الأرض وعاءاً جامعاً لدورة الحياة والموت، يخرج منها أحياء بتقدير الله وخلقها، ويعود إليها أموات بتقدير الله وخلقها، وهذه الدورة ظاهرة في إعادة النباتات من بزورها، وفي نشأة أجيال الأحياء من النسل، تداولاً، حتى تنتهي ظروف الحياة الدنيا. وجعلنا في الأرض جبلاً راسخات عاليات؛ تثبت قشرة الأرض من أن تكون عرضة للتشققات والزلازل، والتحرك والاضطراب، وأسقيناكم ماء عذبا من الأنهار الجارية، والآبار والعيون؛ تشربون منه أنتم ودوابكم، وتسقون زروعكم.

٢٨ - هلاك ودمار يوم القيامة للمنكرين للبعث، ومكان سحق لتعذيبهم في جهنم، هو وادي «ويل».

٢٩ - ٣٤ - تقول خزنة جهنم للكافرين بعد الحساب وفصل القضاء: اذهبوا سريعاً - أيها المكذبون - إلى ما كنتم تكذبون به في الدنيا من العذاب. انطلقوا إلى مكان ظل من دخان جهنم أسود، يلقي ظله على أسفل واد من وديانها في مكان واسع تحيط به ثلاثة جبال غير متلاصقة، فيها مخارج ضيقة، واللهب محيط بالوادي وبجباله

وبشعبه، ولا مخرج لأهل النار إلا بأن يصعدوا على جبل من هذه الجبال يتحملون به عذاباً أشد، يقتربون فيه من مصادر اللهب، أو بأن يدخلوا هذه المضائق التي هي أشد حراً وعذاباً، فهم في مكان مظلم يُغطي ظلاً من دخان لهب النار الموقدة، ولا يحجب عنهم حرارة اللهب. إن جهنم تُقدف من أعالي الجبال المحيطة بوادي «ويل» بشرر جفري متوهج، كالبنا العظيم العالي، كأن شرر جهنم المتطائر منها، طائفة من الجمال الصفر المجتمع. هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بهذا اليوم وأهواله، ومكان سحق لتعذيبهم في جهنم، هو وادي «ويل».

٣٥ - ٣٧ - هذا يوم القيامة لا ينطق الكفار فيه بحجة تنفعهم، ولا يكون إذن واعتذار عن جرائمهم؛ لأنه قد تقدم الإعذار والإنذار في الدنيا. هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بهذا اليوم، ومكان سحق لتعذيبهم في جهنم، هو وادي «ويل».

٣٨ - ٤٠ - يقال للكافرين يومئذ: هذا يوم الفرق والتمييز بين العباد في الحقوق والمحاکمات، جمعناكم - أيها المكذبون من هذه الأمة - والذين كذبوا أنبياءهم من الأمم الماضية، فإن كانت لكم حيلة تحتالون بها لأنفسكم فاحتالوا. هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بهذا اليوم، إذ لا حيلة لهم في الخلاص من العذاب.

٤١ - ٤٥ - إن المتقين الشرك والمعاصي في ظلال الأشجار والقصور، وعيون الماء الجارية، وفواكه متنوعة مما يشتهون، يتلذذون بها. يقول الله تعالى لهم: كلوا واشربوا أكلاً وشرباً خالص اللذة لا يشوبه تنغيص؛ بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الطاعات، إنا مثل ذلك الجزاء العظيم الذي نجزيه المتقين الذين هم من أهل مرتبة التقوى نجزي المحسنين الذين هم من مرتبة الإحسان العليا مع ما يفضلهم الله به من جزاءات خاصة بهم. هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بالجنة، لما فاتهم من النعم العظيمة.

٤٦، ٤٧ - يقال للكافرين المكذبين في الدنيا تهديداً لهم: كلوا وتمتعوا قليلاً في الدنيا إلى منتهى آجالكم؛ إنكم مشركون بالله، مستحقون للعقاب، إذا بقيتم مُصرِّين على كفركم وتكذيبكم. هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بالنعم.

٤٨ - وإذا قيل لهؤلاء المشركين: اخضعوا لله عز وجل بعبادته أدنى خضوع، لم يخضعوا لله استكباراً وعناداً.

٤٩، ٥٠ - هلاك ودمار يوم القيامة للمكذبين بأوامر الله ونواهيه، المتكبرين على خالقهم، فيأتي حديث هادي كثير التأثير في النفوس البشرية يؤمنون بعد هذا الحديث البياني الإقناعي؟! إن إصرارهم على التكذيب بعد هذا الحديث لا يكون إلا ناشئاً عن عناد وإصرار على الباطل، واتباع للهوى والشهوات، وارتكاب الجرائم والآثام.

١ - ٣ - عن أي شيء يتساءل المشركون؟ يتساءلون عن الخبر العظيم الشأن، وهو البعث إلى الحياة بعد الموت. الذي هم فيه مختلفون، بين شاكين، وبين مُستيقنين في قلوبهم جاحدين عناداً ومكابرة.

٤، ٥ - فليرتدع ولينزجر المُكذَّبون بالبعث ويوم الدين، سيعلمون عند نزاع أرواحهم عاقبة تكذيبهم حين تنكشف لهم مقاعدهم في جهنم دار العذاب، ثم عند البعث سيعلمون أن ما كانوا يُكذِّبون به من أحوال الآخرة حق لا ريب فيه.

٦ - ألم نجعل الأرض مكاناً مُمَهِّداً موطأً؛ لتجدوا عليها أمكنة إقامة وراحة وسكن مطمئن.

٧ - أولم نجعل الجبال في الأرض كالأوتاد المثبته للخيام عند نصيبها، تحفظها من الاضطراب والسقوط؟ فالله سبحانه جعل الجبال مَثَبَاتٍ لقشرة الأرض حماية لها من أن تميد بسكانها، ومنع أن تتحرك وتضطرب بهم، مع ما في الجبال من منافع كثيرة للأرض.

٨ - وأنشأناكم وجعلناكم - أيها الناس - ذكوراً وإناثاً؟ وأصنافاً ذوي أشكال مختلفة في ألوانكم، ووجوهكم، وحجومكم، وأطوالكم، وذكائكم مع وحدة النوع وأصول مخطط الخلق العام.

٩، ١٠ - وجعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم؛ لتستريحوا فيه من عناء العمل طول النهار؟ وجعلنا الليل لباساً تلبسكم ظلمته، وتغطيكم، كما يستر الثوب لابسهُ؟

١١، ١٢ - وجعلنا النهار سبباً للمعاش والتصرف في المصالح، ورفعنا فوقكم بناءً: سَبْعَ سَمَوَاتٍ مُحْكَمَاتٍ لا يتطرق إليهن شقوق ولا فطور على مَمَرِ الزمان إلى أن يأتي أمر الله تعالى؟

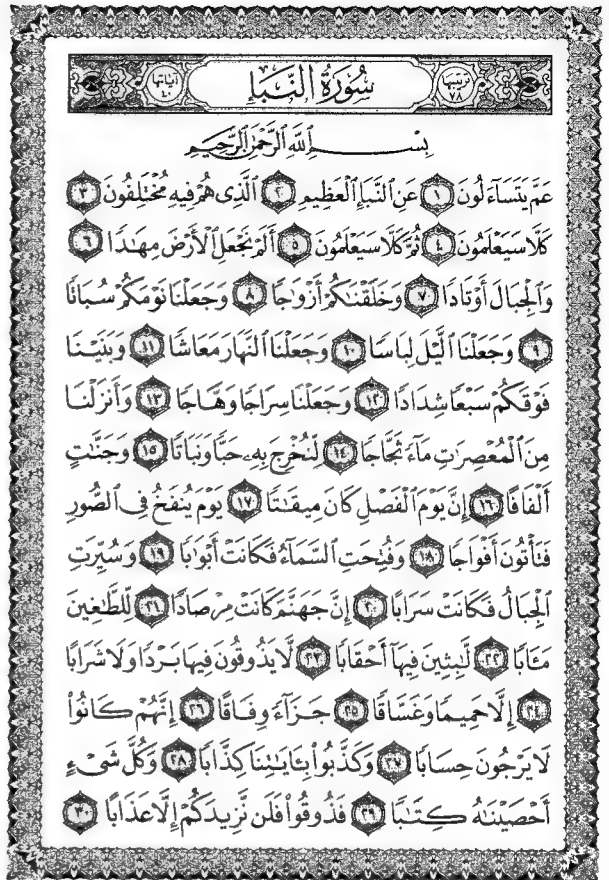
١٣ - ١٦ - وجعلنا في السماء الشمس مصباحاً زاهراً مضيئاً، بالغاً في الحرارة؟ وأنزلنا من السحب الثقال التي حان أن تُمطر ماءً مدراراً مُتتابعاً، يتلو بعضه بعضاً؛ لُتُخْرِجَ بِذَلِكَ الماء حباً مختلف الأصناف ممَّا يأكله الإنسان ويُدْخِرُهُ؛ كالحنطة والشعير والأرز ونحوها، ونخرج نباتاً ممَّا تنبت الأرض من الحشيش ممَّا يأكل منه الأنعام، وبساتين مُلتقَّة بالشجر ليس بينها انفراج؛ لتقارب أغصانها؟

١٧، ١٨ - إن يوم الفصل الذي يفصل الله فيه ويُفَرِّق بين المحقِّ والمُبْطَل، ويحكم لهم أو عليهم، كان موعداً مُؤَقَّتاً، ومكاناً مُحدَّداً، يجتمع فيه الخلائق؛ لِيُقْضَى بَيْنَهُمْ، ويكون ابتداءه يوم ينفخُ إسرَافيل عليه السلام في «القرن» النفخة الثانية، للبعث من القبور، فتأتون - أيها الناس - مسرعين جماعات وأممًا من كلِّ مكانٍ للحساب.

١٩، ٢٠ - وشُقَّتِ السَّمَاءُ، فكانت ذات أبواب لنزول الملائكة، وشُيِّرَتِ الجبال عن وَجْهِ الأرض، فكانت هباءً مُنْبَثًّا؛ كالسَّراب في عين الناظر.

٢١ - ٢٦ - إن نار جهنم كانت مُعَدَّةً مُهيَّاةً ترتقب الكفار وتنتظرهم، للطَّاعِينَ الَّذِينَ تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الْعَصْيَانِ حَتَّى بَلَغُوا الْكُفْرَ مرجعاً يرجعون إليها، ويستقرُّون فيها، ماكثين في جهنم دهوراً مُتَعاقِبَةً لا تنقطع، لا يحسُّون ولا يطعمون فيها برودة تُخَفِّفُ عَنْهُمْ حَرَّ النَّارِ، ولا يشربون شيئاً يغنيهم عن عطش، لكن يشربون ماءً حاراً انتهى حرُّه، وصديداً مُتَتَابِعاً يسيل من أهل النار، جَزَيْنَاهُمْ بِذَلِكَ الْعَذَابِ جِزَاءً عَادِلاً مُوَافِقاً لأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، فلا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أعظم من النار.

٢٧ - ٣٠ - إنهم كانوا في الدنيا لا يتوقَّعون لقاء ربهم يوم القيامة للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، فلا يُأْمَلُونَ ثَوَابًا، ولا يخشون عقابنا، وكذَّبوا بآياتنا الكونية والبيانية والإعجازية والجزائية تكذيباً شديداً مُفْرطاً - وكلُّ شيء من الأعمال كُتِبَ لَهُمْ إحصاء تام لكلِّ صغير وكبير في اللوح المحفوظ - ويقال لأهل جهنم: ذوقوا عذاب الحريق فيها، وأحسُّوا بملامسته، مع أنواع عذاب غيرهِ، فلن نزيدكم بعد ما أنتم فيه من عذاب إلا عذاباً فوق عذابكم.



٣١ - ٣٥ - إِنَّ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ بطاعته واجتناب معاصيه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، نَجاةً من العذاب، وقَوْزاً بما حَصَلَ لهم من النعيم؛ بساتين عظيمة وأعناباً، وجواري نواهد قد تكعبت أندأوهنَّ، مُستويات في السَّنِّ، متشابهات في الحسن، وقدحاً مملوءة خمرأ، متتابعة صافية من الشوائب، لا يسمعون في الجنة ما لا يُعْتَدُّ به من الكلام وغيره، ولا يُكْذَبُ بعضهم بعضاً.

٣٦، ٣٧ - يَتَنَعَّمُ الْمُتَّقُونَ بهذا الثواب العظيم في جنات النعيم حالة كونه جزاءً من رَبِّكَ على أعمالهم الصالحة في الدنيا، وعطاءً كافياً وافياً من غير مقابل، وهو زيادة في الجنة يزيد الله سبحانه لَمَن يشاء من عباده، خالق السموات والأرض وما بينهما ومُدبِّر أمورهما، والمهيمن عليهما بصفات ربوبيته، الرحمن الذي وَسَّعَتْ رحمته كُلَّ شيء، لا يستطيع أحدٌ من أهل الموقف أن يخاطب الله سبحانه بشيءٍ لنفسه، أو لغيره إلا بإذنه.

٣٨ - يوم يقومُ الرُّوحُ جبريلُ عليه السلام متميزاً بارتفاع منزلته عند رَبِّهِ، والملائكةُ معه مُصْطَفَيْنَ، ساكتين صامتين، لا يشفعون إلا لَمَن أُوذِنَ له الرحمن في الشفاعة، وقال حقاً وسداداً.

٣٩ - ذلك اليوم العظيم المنزلة الذي يقوم فيه الرُّوح والملائكة، هو - وحده - اليوم الحقُّ الثابت الوقوع لا مَحَالَةٍ، فَمَن أراد منكم - أيها العباد - اتَّخَذَ إلى لقاء رَبِّهِ مَرَجِعاً حَسَناً يرجع إليه، وذلك بالإيمان والعمل الصالح، أو يختار لنفسه عاقبة سيئة بكفره، فيستحق العذاب الأليم يوم الدين.

٤٠ - إنا أعلمناكم - أيها المكذبون بيوم الدين - مخوفين لكم عذاباً قريباً؛ لأنَّ الحياة الدنيا لكلِّ واحد منكم قصيرة، ثم إنكم بين الموت والبعث ينعدم إحساس نفوسكم بإدراك الزمن، يوم ينظرُ المرءُ ما قَدَّمَتْ يده من خيرٍ أو شرٍّ، ويقول الكافر: يا ليتني بقيتُ تراباً بعد الموت، فلم أبعث ولم أحاسب.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا ﴿٣٣﴾ وَأَسْوَا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مِثَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا ﴿٤٠﴾

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ دُخَانًا ﴿٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبًا ﴿٣﴾ فَالْمُزِيدَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٥﴾ تَتَّبِعُنَّهَا رِازِدَةٌ ﴿٦﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٧﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٨﴾ يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَاوِرَةِ ﴿٩﴾ أَوَّاهٌ كُنَّا عِظَمًا خِرَّةً ﴿١٠﴾ قَالُوا لَوْلَا ذِكْرُكَ إِذَا كَرِهَتْ خَاسِرَةٌ ﴿١١﴾ فَلَمَّا هِيَ رَجَرَةٌ وَجِدَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٣﴾ هَلْ أَنْتَكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٤﴾

١ - ٥ - أقسم الله تعالى بالملائكة التي تنزع أرواح الكفار من أجسادهم نزعاً شديداً، كما ينزع الرامي بقوسيه وتر قوسيه بشدة حتى يستوفي غاية مداه، والملائكة التي تجذب أرواح المؤمنين من أجسادهم عند انتهاء آجالهم برفق وسهولة ويسر، والملائكة الذين يترقبون دوماً ما ينزل إليهم من أوامر ربانية؛ ليقوموا بتنفيذها في كونه، دون كلل ولا تعب، فالملائكة المتقدّمات المُسرعات لتنفيذ أوامر الله دون تأخير ولا تباطؤ، فالملائكة المنفذات ما سبق به تدبير الله، وتمَّ به تقديره وقضاؤه.

٦، ٧ - لَتُبْعَثُنَّ يَوْمَ تُضْطَرُّبُ الْأَرْضُ بسبب النفخة الأولى، ويموت جميع الخلائق، تلحق بها النفخة الثانية التابعة للنفخة الأولى؛ لبعث الأموات أحياء للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

٨، ٩ - حين تنفخ النفختان في الصُّور، الأولى والثانية، ويُبْعَثُ الأحياء، ويُرَوَّنُ أهوال الموقف، تكون قلوب الكفار قلقاً مضطربة، أبصار أصحاب هذه القلوب ذليلة؛ منكسرة تنظر إلى الأرض.

١٠، ١١ - يقول المنكرون للبعث إذا قيل لهم: إنكم مبعوثون بعد الموت: أُنْزِدْ إلى أوَّل الحال وابتداء الأمر، فنصير أحياء بعد الموت؟ كيف نرجع إلى حالنا الأوَّل، وقد تحلَّلت أجسامنا وصرنا عظاماً بالية متفرقة في تراب الأرض!!

١٢ - قال المنكرون للبعث استهزاء واستكباراً: رَجَعْنَا بعد الموت - إن صَحَّت - رجعة خائبة غير رابحة؛ لتكذيبنا بها.

١٣، ١٤ - إنَّ الأمر لا يحتاج إلى كبير عناء، فما النفخة الأخيرة إلا صَيحَةٌ واحدة، يُجْمَعُونَ بها جميعاً، فإذا هم أحياء على وَجْهِ الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في بطنها.

١٥ - استمع مُتَفَهِّمًا - أيها المخاطب - هذا الحديث المتعلِّق بالنبيِّ موسى عليه السلام.

١٦، ١٧ - حين ناداه ربُّه بالوادي المُطَهَّر «طوى»؛ الواقع إلى جانب جبل الطور: اذهب إلى فرعون؛ إنه علا وتكبر وتجاوز الحد في كفره وفساده وظلمه وعدوانه.

١٨، ١٩ - فقل لفرعون بغاية الرفق والتكريم: هل يطيب لك أن أدعوك إلى أن تتطهر من الشرك والكفر، وأعرّفك بصفات ربك الجليلة، وأسمائه الحُسنى، فإذا عرفت صفاته الجليلة، خشيت عقابه وانتقامه، فأمنت به رباً لا شريك له، وعبدته وحده، وأطعته طامعاً بشوابه الجليل يوم الدين؟

٢٠ - ٢٢ - فطلب فرعون من موسى عليه السلام، أن يُريَه آيةً تدلُّ على أنه رسولٌ مُرسَلٌ من ربِّه، فأرى موسى فرعون المعجزة العظيمة: اليد البيضاء والعَصَا، علامةً واضحةً على نبوته وصدقه فيما جاء به عن ربِّه، فكذب فرعون بأنها من عند الله، وتمرد وأظهر التجبر، ثم تولى مبتعداً عن الإيمان والطاعة، مُجذّداً في إبطال أمر موسى، ومعارضة معجزاته.

٢٣، ٢٤ - فجمع فرعون قومه وجنوده، فنادى لما اجتمعوا، فقال: أنا ربكم الأعلى، لا ربّ فوقى.

٢٥ - فعاقبه الله عقاباً شديداً رادعاً بإغراقه وملئه وجيشه في البحر، فجعله عبرةً لغيره، جزاء الآخرة في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، وقوله في الأولى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾.

٢٦ - إن في ذلك الذي جرى لفرعون حين كذب وعصى لموعظةً لمن يتعظ ويخاف عقاب الله عز وجل.

٢٧ - ٣٣ - أخلقكم - يا مَنْ أنكرتم البعث - بعد الموت أصعب وأشقُّ أم خلق السماء بأبعادها وما فيها من نجوم لا تُحصى؟ بناها بناءً عظيماً مُحكماً لا خللَ فيه ولا نقص، وأعلى سقفها بغير عمَد، فأتقن بناءها، فجعلها تامةً مُستويةً بالغةً الغاية المقصودة من خلقها، وأظلم ليلها، وأظهر وأبرز نهارها بضياء الشمس، ودرج الأرض بعد خلق

السماء، وجعلها كروية تدور حول نفسها في اتجاه الشمس دورةً كاملةً في كلِّ يوم، يكون من أثرها ظاهرة الليل والنهار، وتدور في مدار حول الشمس دورةً كاملةً في كل سنة شمسية، يكون من أثرها الفصول الأربعة، أخرج من الأرض ماءها بتفجير العيون، وإجراء الأنهار والبحار العظام، وجميع ما يقتات به الناس والدواب، والجبال أثبتتها في الأرض كالأوتاد، لتثبيت قشرتها؛ كيلا تميد وتضطرب، فعل ذلك كله منفعة لكم ولأنعامكم مدّة من الزمان، ثم ينتهي هذا الانتفاع المؤقت.

٣٤ - ٣٦ - فإذا جاءت الداهية التي لا تُستطاع، تَطُمُّ على كلِّ شيء وتعلو عليه، يوم يتذكر الإنسان ما عمل من خيرٍ أو شرٍ كسبه باختيابه الحر مدّة امتحانه في الحياة في الدنيا، وأظهرت جهنم إظهاراً بيناً لا خفاء فيه على أحد.

٣٧ - ٤١ - فأما من كفر وتجاوز الحد بعصيانه، وجعل كلَّ همِّه وهمته الحياة الدنيا، ووجّه لها طاقات مطامعه وشرائه نفسه، وآثر الحياة الدنيا وملذاتها الزائلة على نعيم الآخرة إيثاراً كلياً، فإنَّ الجحيم هي المرجع الذي يصير إليه، وينزل فيه، ويسكنه سكناً أبدياً. وأما من خاف عظمة الله عز وجل، وقيامه سبحانه عليه ومراقبته له، والقيام بين يديه سبحانه للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء العادل على المعاصي التي ارتكبها، وزجر النفس وكفّها عن المحارم التي يشتتها، فإنَّ الجنة هي المرجع الذي يصير إليه، والدار التي يسكنها سكناً أبدياً، مُنعماً خالداً فيها.

٤٢ - ٤٤ - يسألك المكذّبون بالبعث ويوم الدين - يا رسول الله - عن الوقت الذي يُبعث الناس من أجدانهم إلى الحياة الآخرة، وتنتهي فيه مسيرة هذه الحياة الدنيا، بتصاريفها المتتابعة، وتغيّراتها المستمرة، كما تتوقف السفينة في الميناء، وتلقي مَراسيها، وتثبت وتستقرُّ عنده؟ في أي شيء أنت - يا رسول الله - من تذكر وقت قيام الساعة، وأنت لا تعلم عن هذا الوقت شيئاً حتى تسأل عنه؟ إلى ربك وحده - منتهى علمها، لا يعلم متى ينتهي مسير زمن الحياة الدنيا، وترسو عنده ساعة إنهاء ظروف هذه الحياة إلا الله تعالى.

٤٥، ٤٦ - ليس من وظيفتك أن تُبين للسائلين وقت قيام الساعة وقد أخفاه ربك على كلِّ عباده، إنما وظيفتك أن تُنذر بعقاب الله من يخشى الساعة، كأن الكفار يوم يَرَوْنَ مشاهد يوم القيامة ساعة البعث من قبورهم إلى الحياة الأخرى بعد الموت، لم يلبثوا في قبورهم أمواتاً إلا مقدار عشية يوم؛ ما بين الظهر إلى غروب الشمس، أو ضحى ذلك اليوم؛ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار، لأنَّ الحسَّ بالزمن مَمْسُوحٌ من مراكز شعورهم وإحساسهم.



سُورَةُ عَلِيٍّ

الْبَقَرَةُ

سُورَةُ عَلِيٍّ

١، ٢ - تَغْيِيرُ وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ كَارِهًا، وَأَدَارَ ظَهْرِهِ مُدْبِرًا؛ لِأَجْلِ أَنْ الْأَعْمَى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ جَاءَهُ مُسْتَرْشِدًا، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّهُ مُقْبِلٌ عَلَى دَعْوَةِ كِبَارِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، حَتَّى ظَهَرَتِ الْكَرَاهَةُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَطْعِهِ كَلَامِهِ.

٣، ٤ - وَأَيُّ شَيْءٍ يَجْعَلُكَ تَعْلَمُ مِنْ حَالِ هَذَا الرَّجُلِ الْأَعْمَى، أَنَّهُ جَاءَ لِيَشْغَلَكَ بِفَضُولٍ مِنَ الْمَسَائِلِ، الَّتِي تَصْرَفُكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دَعْوَةِ عِظَمَاءِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ، رَاجِيًا اسْتِجَابَتَهُمْ لِدَعْوَتِكَ؟ لَعَلَّهُ يَتَطَهَّرُ مِنْ أَرْجَاسِ الذُّنُوبِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَيَزِدَادُ مَعْرِفَةً وَارْتِقَاءً فِي أُمُورِ دِينِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَسُلُوكِهِ، أَوْ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَمْرًا هُوَ نَاسٍ لَهُ أَوْ غَافِلٌ عَنْهُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ، فَيَنْفَعُهُ التَّذَكُّرُ وَالتَّذَكِيرُ؟

٥، ٦ - أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى عَنِ اللَّهِ وَعَنِ الْإِيمَانِ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الْمَالِ، فَأَنْتَ تَتَعَرَّضُ لَهُ، وَتُقْبَلُ عَلَيْهِ، وَتُصْغِي إِلَى كَلَامِهِ حِرْصًا عَلَى إِيْمَانِهِ.

٧ - وَلَا خَرَجَ عَلَيْكَ أَنْ لَا يُؤْمِنَ وَلَا يَهْتَدِيَ، بَعْدَ أَنْ بَلَغْتَهُ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ، وَنَصَحْتَهُ وَأَرْشَدْتَهُ.

٨ - ١٠ - وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يُسْرِعُ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ، وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَنْتَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - تَشَاغُلُ وَتُعْرِضُ عَنْهُ.

١١، ١٢ - لَا تَفْعَلْ بَعْدَهَا مِثْلَهَا، إِنَّ رِسَالَتَكَ - يَا رَسُولَ اللَّهِ - رِسَالَةٌ بَيَانٍ وَهَدَايَةٍ وَتَذَكِيرٍ، وَوُضِئَتْكَ وَظِيفَةُ مُذَكَّرٍ، وَلَيْسَتْ وَظِيفَةُ مُكْرِهِ وَلَا مُغَيِّرٍ، حَتَّى تَوَجَّهَ اهْتِمَامُكَ الْكَبِيرُ لِدَعْوَةِ الْكَافِرِينَ، فَالِاسْتِجَابَةَ لِلدَّعْوَةِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بِإِرَادَةِ الْمَدْعُوِّ الْحَرَّةِ، وَاخْتِيَارِهِ الْإِيمَانَ بِالْحَقِّ، وَسُلُوكَ صِرَاطِ الْهَدَايَةِ، لَا بِالْإِكْرَاهِ وَالْإِجْبَارِ.

١٣ - ١٦ - إِنَّ الْقُرْآنَ مَكْتُوبٌ فِي صُحُفٍ مُكْرَّمَةٍ عِنْدَ اللَّهِ، رَفِيعَةٌ الْقَدْرُ وَالْمَنْزَلَةُ، مُطَهَّرَةٌ مِنَ الدَّنَسِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ، هَذِهِ الصُّحُفُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا الْقُرْآنُ بِأَيْدِي مَلَائِكَةٍ كَتَبَةٍ، كَرَامٍ عَلَى اللَّهِ، مُطِيعِينَ لَهُ، مُتَوَسِّعِينَ فِي فِعْلِ الْقُرْبَاتِ وَالْأَذْكَارِ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

١٧ - ٢٢ - طُرِدَ الْكَافِرُ الْمَعَانِدَ وَأُبْعِدَ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ إِبْعَادًا أَبَدِيًّا، مَا أَشَدَّ كَفْرُهُ بِاللَّهِ مَعَ كَثْرَةِ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِ!! مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ؟ مِنْ بَعْضِ مَاءٍ مَهِينٍ بَدَأَ خَلْقَهُ، فَقَدَّرَ الْعُنَاصِرَ وَالصِّفَاتِ وَالْأَخْلَاقَ فِي الْخَلْقَةِ الْأُولَى تَقْدِيرًا تَامًا الْإِحْكَامَ، وَقَدَّرَهُ أَطْوَارًا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، إِلَى أَنْ تَمَّ خَلْقُهُ وَتَكْوِينُهُ، ثُمَّ بَعْدَ وَلادته وَنَشَأَتِهِ يَسِّرُهُ لِسُلُوكِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، ثُمَّ حَكَمَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ بَعْدَ أَنْ عَاشَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَجَعَلَ لَهُ قَبْرًا يُورِى فِيهِ تَكْرِيمًا لَجَسَدِهِ، ثُمَّ بَعْدَ مَرُورِ زَمَنِ الْبَرِزْخِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ إِذَا شَاءَ أَحْيَاهُ بَعْدَ مَوْتِهِ لِلْحِسَابِ وَفَصَلَ الْقَضَاءِ وَتَحْقِيقِ الْجَزَاءِ. وَالْمَشِئَةُ هُنَا مَشِئَةُ التَّنْفِيزِ لِمَا سَبَقَ أَنْ تَمَّ بِهِ قَضَاؤُهُ وَقَدَرَهُ.

٢٣ - لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَقُولُ الْكَافِرُ وَيَفْعَلُ، لَمْ يَفْعَلْ هَذَا الْكَافِرُ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ، وَلَمْ يُؤَدِّ مَا فَرَضَ عَلَيْهِ مَدَّةَ ابْتِلَائِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. ٢٤ - ٣٢ - فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ نَظْرَ تَفَكُّرٍ إِلَى طَعَامِهِ: كَيْفَ قَدَّرَهُ رَبُّهُ، وَيَسِّرَهُ وَدَبَّرَهُ لَهُ، وَجَعَلَهُ سَبَبًا لِحَيَاتِهِ؟ أَنَا أَنْزَلْنَا لَهُ الْغَيْثَ مِنَ السَّمَاءِ أَنْزَالًا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ شَقًّا بَدِيعًا، فَأَنْبَتْنَا فِي الْأَرْضِ الْمُنَشَقَّةِ بِذَلِكَ الْمَاءِ حَبًّا يَقْتَاتُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَيَذْخَرُهُ، وَعَنْبًا يَتَفَكَّهُ بِهِ، وَنَبَاتًا يُؤْكَلُ رَطْبًا، وَزَيْتُونًا يُعَصَّرُ مِنْهُ الزَّيْتُ، وَنَخْلًا، وَبَسَاتِينَ كَثِيفَةَ الْأَشْجَارِ، مِلْتَقًا بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَأَنْبَتْنَا بِهَذَا الْمَاءِ الْمُنْصَبِّ: فَالْكَهْ مِنْ ثَمَارِ هَذِهِ الْأَشْجَارِ تَتَعَمَّنُ بِأَكْلِهَا، وَعَشْبًا تَأْكُلُهُ أَنْعَامُكُمْ فِي الْمَرْعَى، جَعَلْنَا هَذَا الطَّعَامَ مَنَفْعَةً لَكُمْ، تَنْتَفِعُونَ بِهِ أَنْتُمْ وَأَنْعَامُكُمْ مَدَّةَ الزَّمَانِ، ثُمَّ يَنْتَهِي هَذَا الْإِنْتِفَاعُ.

٣٣ - ٣٧ - إِذَا جَاءَتْ صَنِيعَةُ الْقِيَامَةِ الَّتِي تَصُفُّ مِنْ هَوْلِهَا الْأَسْمَاعُ، وَيَكُونُ بِهَا بَعْثُ الْمَوْتَى، يَوْمَ يَتَبَاعَدُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَزَوْجَتِهِ وَبَنِيهِ؛ لِشُغْلِهِ بِنَفْسِهِ، وَاحْتِرَازًا عَنْ مَطَالِبَتِهِ بِالْحَقُوقِ. لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ فِي نَفْسِهِ يَشْغَلُهُ عَنْ شَأْنِ غَيْرِهِ.

٣٨ - ٤٢ - وَجُوهُ أَهْلِ الْإِيمَانِ يَوْمَئِذٍ مُشْرِقَةٌ مُضِيئَةٌ، ضَاحِكَةٌ عِنْدَ الْفَرْجِ مِنَ الْحِسَابِ، مَسْرُورَةٌ فَرِحَةً بِمَا تَنَالُ مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ. وَجُوهُ أَهْلِ الْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ سَوَادٌ وَكَأَبٌ، تَعْلُوها ظِلْمَةٌ وَكُسُوفٌ؛ بِسَبَبِ مَا هِيَ صَائِرَةٌ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ، أُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمُ الْجَاخِدُونَ لِلْحَقِّ، الْمُتَبَعَثُونَ بِوَقَاحَةٍ فِي ارْتِكَابِ الْآثَامِ وَالْمَعَاصِي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٖ يَرَى ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى ۚ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْبَى ۚ وَآمَنَ مِنْ جَاءَةِ سَعَى ۚ وَهُوَ يَخْشَى ۚ أَمَّا مَنْ لَّهُ مِنْ دِينِهِ ۚ لَهِ ۚ وَلَا يُنْذِرُ ۚ فَلَا يَنْصَحُهُ ۚ فَلَا يَذْكُرُهُ ۚ فِي صُفْحٍ مُكْرَمَةٍ ۚ سَرُوعَهُ مُطَهَّرَةٍ ۚ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۚ كَرَامِ رِزْوَانِهِ ۚ فَلَا لِإِنْسَنِ مَا الْكَرَّةُ ۚ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ مِنْ تَطْفِئَةِ خَلْقِهِ ۚ فَقَدَّرَهُ ۚ ثُمَّ أَلْسَيْلَ يَسْرِهِ ۚ ثُمَّ أَمَلَهُ ۚ فَاقْبَرَهُ ۚ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۚ وَلَا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۚ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَعَبَا وَقَضْبًا ۚ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۚ وَحَدَائِقَ غُلًّا ۚ وَفَكْهَةً وَأَبَّا ۚ مَلْعَاكَ ۚ وَلَا تَعْلَمُكُمْ ۚ فَإِذَا جَاءَتْ الصَّلَاةُ ۚ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۚ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِمَّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۚ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ ۚ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۚ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۚ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ۚ



١ - ٦ - إذا الشمسُ جُمِعَ بعضها إلى بعض ولُفَّت وذَهَبَ ضَوْؤُهَا، وإذا النُّجُومُ خرجت عن مداراتها وطُرق سَيْرُهَا، وتناثرت من السماء، وسقطت على الأرض، وإذا الجبال سُيِّرَت عن وجه الأرض، فصارت هباءً منثوراً، وإذا الثُّقُوبُ الحوامل التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها، تُرِكَت هَمَلاً بلا راع؛ بسبب ذَهول الناس بأحداث الكون الجسماني قُبِيلَ قيام الساعة، وإذا الوحوشُ من دوابِّ الأرض جُمِعَت من أوكارها، وإذا البحارُ أُحْمِيَتْ بالنار حتى تَبَخَّرَت مياهها، وظهرت النار في مكانها. فهذه الأحداث الستة ستكون قُبِيلَ قيام الساعة التي يكون بها إنهاء ظُروف الحياة الدنيا، والنظام الكوني المرتبط بها، وبعدها ستقع أحداث ستة أخرى بعد البعث إلى يوم الدين.

٧ - ١٤ - وإذا النفوسُ قُرِئَتْ بأَمثالها ونظائرها، وإذا الطفلة المدفونة حَيَّةٌ سُئِلَتْ - ترضيةً لها، وتوبيخاً لقاتلها -: بأيِّ ذنب قُتِلَتْ؟ وإذا صحائف الأعمال تُنْشَرُ للحساب، وإذا السماء تُرْعَت وأُزِيلَتْ، وإذا نار الجحيم أُوقِدَتْ لأعداء الله تعالى؛ كي تستقبلهم، وإذا الجنة قُرِبَتْ لأولياء الله وهم في موقف الحشر؛ إيناساً لهم برؤيتهم، وتمهيداً لدخولها، إذا وقعت تلك الأحداث الستة المذكورة في الآيات (١ - ٦) التي تكون قبيل الساعة، والأحداث الستة الأخرى المذكورة في الآيات (٧ - ١٣) التي تكون بعد البعث: تعلم كلُّ نفس ما أحضرت من خير أو شر كسبته باختيارها الحر في مدة امتحانها في الحياة الدنيا.

١٥، ١٦ - أُقْسِمُ بهذه الآيات الكونية الثلاث التي لا تُدركون عظمتها، ولكن سيأتي زمان يدرك فيه علماء الكون عظمة هذه الآيات: الآية الكونية الأولى: أقسم بالنجوم تبدو بالليل فتظهر، وتختفي بالنهار تحت ضوء الشمس؛ النجوم الجارية المُستترة في



أبراجها كما تستتر الظباء بين الأشجار عن أعين طلاب صيدها.

١٧، ١٨ - الآية الكونية الثانية: وأقسم بالليل إذا أقبل وأدبر بظلامه أول الليل وآخره، الآية الكونية الثالثة: وأقسم بالصبح إذا تبلىج وامتد وبزغ ضَوْؤُهُ، وانتشرت نسماته الباردة، شبه الليل بالمكروب المحزون، فإذا بدا الصبح فكأنه تخلص من الحزن.

١٩ - ٢١ - إن القرآن تبليغ رسول كريم، هو جبريل عليه السلام، الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، صاحب قوة عظيمة في تنفيذ ما يُؤمر به، وصاحب منزلة عالية ومكانة رفيعة راسخة عند الله ذي العرش، وهو مُطاع هنالك بين الملائكة العالين عند رب العالمين، وهو أمين على وحي الله إلى أنبيائه، لا ينقص منه شيئاً، ولا يزيد فيه شيئاً، بل يؤديه كما أوحى إليه بدقة تامة.

٢٢ - وما رسولكم - يا كفار مكة - الذي صاحبتموه، وعرفتم رجاحة عقله بمجنون، كما يزعم من اتهمه بالمجنون منكم؛ فإن هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله عليه يدلُّ على أنه في ذروة الكمال العقلي والنفسي.

٢٣ - وأقسم مؤكداً أنَّ محمداً ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته التي خُلِقَ عليها بالأفق الظاهر الواضح من ناحية المشرق حيث تطلع الشمس. والمراد: الرؤية الأولى الواقعة بغار حراء.

٢٤، ٢٥ - وما محمد ﷺ على الوحي وخبر السماء، وما أطلع عليه ممَّا كان غائباً عنه من القصص والأنباء ببخيل به عليكم، لا يقصُر في تبليغه ولا يكتمه عنكم، وليس القرآن المُنزَّل عليه بقول شيطان ملعون مطرود مُستترق للسمع من الملأ الأعلى حتى تقولوا: إنه كهانة! ولكنه كلام الله ووحية.

٢٦ - ٢٩ - انتبهوا، ولا تذهبوا بعيداً منصرفين عن إدراك الحقيقة، فأني طريق تسلكون فأرئيت من حقيقة أنَّ القرآن مُنزَّل من عند الله، ودلائل الحق تُحاصرهم من كلِّ جانب؟ ما القرآن الذي يتلوه محمدٌ إلا مُوجَّه لجميع العالمين المكلفين الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا، ينتفع بهذا الذكر، ويهتدي بهديه، من أراد بإرادته الحرَّة أن يستقيم على صراط الحق والهدى، وقد منحكم الله مشيئة حرَّة تستطيعون بها أن تشاؤوا طريق الخير، أو طريق الشر، ولولا ذلك لكنتم مُجبرين، ولستم تشاؤون شيئاً إلا إذا منحكم خالق الكائنات والمُهمَّين على كلِّ ما سواه بسلطان ربوبيته المشيئة الحرَّة، ومكنكم من استخدامها، فأنتم مسؤولون مسؤولية تامة عن مشيئاتكم وأعمالكم الاختيارية.

سُورَةُ الْأَنْفُطَارِ

الْبَيْتُ الْاَلَاوِي

سُورَةُ الْأَنْفُطَارِ

١ - ٥ - إذا السماء انشقت أجزاؤها المتماسكة، وإذا نجوم السماء تفرقت على غير نظام، وخرجت عن خطوط مداراتها، وإذا البحار اندفعت بقوة وشدة، ببعث البراكين من باطن الأرض تحتها، فيكون من أثرها تفجّر البحار، وتندفع مع البراكين نارٌ شديدة تجعل مياه البحار ضمن لهب نيران البراكين، ووقوداً مضافاً إليها، وإذا القبور قلبت ترابها، وأثير ما فيها من الموتى فبعثوا أحياء، علمت نفس في ذلك اليوم ما عملت من عمل طاعة أو معصية فقدمته إلى الآخرة، وما تركت من عمل فأخرته، فبقي عدماً مع انصرام زمن الامتحان في الحياة الدنيا، فهي تستحق الثواب على ما أخرت فلم تعمل من عمل فيه معصية الله، وتستحق العقاب على ما أخرت فلم تعمل من عمل كان يجب عليها أن تعمل طاعة لله.

٦ - يا أيها الإنسان أي شيء خدعك وسؤل لك الباطل، وما الذي أمّنتك من عقاب ربك الرفيع القدر، العظيم الشأن، الموصوف بالصفات الجليلة، حتى صنعت ما صنعت، وضيعت ما أوجب الله عليك؟

٧، ٨ - ربك الكريم: الذي أوجدك من العدم إلى الوجود، فجعلك سوياً سالم الأعضاء، بالغاً الغاية المقصودة من خلقك وصنعك، فأعطى كل عضو من أعضائك الظاهرة والباطنة، وكل خلية من خلاياك، حقه من المواد والعناصر المكونة له، حتى يبلغ الغاية المقصودة من خلقه، في أي صورة ما شاء ربك من الصور المختلفة.

٩ - ١٢ - زجرأ لكم يا أيها الذين لم تنتفعوا بآيات الله فيكم، بل تكذبون تكديباً متتابعاً بيوم الحساب والجزاء، وإن عليكم رقباء من الملائكة، يحفظون عليكم أعمالكم الظاهرة الجسدية والباطنة النفسية، كراماً على الله، يكتبون أقوالكم وأعمالكم الإرادية،

ويسرعون في تسجيل الحسنات، ويتمهلون في كتابة السيئات، رجاء توبة المذنب واستغفاره، يعلمون ما تفعلون من خير أو شر، فليسوا مجرد أدوات تسجيل لا تعلم ما تسجل، بل هم يعلمون ما يسجلون؛ لأنهم يسجلون النيات من الأعمال، وما تكفه الصدور.

١٣ - إن الصادقين في إيمانهم، الفائمين بمقتضيات مرتبة التقوى بفعل الواجبات وترك المحرمات، وبفعل الخيرات الزائدة على واجبات مرتبة التقوى، لمنغمسون في نعيم محيط بهم من كل جوانبهم في الجنة يوم الدين.

١٤ - ١٦ - وإن المُنْبَغِثِينَ بوقاحة واتساع في الكفر وارتكاب الجرائم، لمنغمسون في نيران محرقة محيطية بهم من كل جوانبهم، نافذة إلى مراكز إحساسهم، يدخلونها يوم الجزاء الأكبر، فتحرقهم بحرّها وتشويهم، وما هم عن عذاب جهنم بغائبين، لا غياباً أبدياً ولا مؤقتاً، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

١٧ - ١٩ - وأعظم - أيها المتلقّي - بيوم الحساب إعظماً لا تصل إليه درايتك مهما فكرت؛ لأنه لم يمر في تصوّراتك شيء يجعلك تقيس هذا الأمر عليه؟ ثم أعظم بيوم الحساب إعظماً لا تصل إليه درايتك في الهول والشدة؟ يوم لا تملك نفس من نفوس كل المخلوقات أن تصنع أو تفعل شيئاً لنفس أخرى، ولو كانت من أحب النفوس إليها، والأمر في ذلك اليوم لله وحده، لا سلطان لسواه؛ له الملك، وله الحكم، وله الخلق، وله الأمر والنهي.

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

١ - ٣ - هلاك وعذاب شديد من الله للذين ينقصون المكيال والميزان، الذين إذا اكتالوا من الناس، استوفوا لأنفسهم الكيل والوزن تماماً غير ناقص، وإذا كالوا غيرهم أو وزنوا لهم، ينقصون الكيل والوزن، فيعطونهم عن طريق التلاعب بالكيل أو الوزن أقل من حقهم.

٤ - ٦ - ألا يكفي أولئك البُعداء إلى جهة أسفل سافلين الذين يأخذون لأنفسهم زيادةً، ويدفعون إلى غيرهم نقصاً، أن يظنوا أنهم مبعوثون بعد موتهم ليوم عظيم الهول؟ يوم يقوم الناس من قبورهم للحضور في محكمة خالق الخلق أجمعين ومالكهم والمتصرف فيهم بسلطان ربوبيته، لمحاسبتهم ومجازاتهم؟ كأنهم لا يخطر ببالهم، ولا يخمنون تخميناً أنهم مبعوثون ليوم القيامة، ومسؤولون فيه عن مقدار الذرة! فإن من يظن ذلك ولو ظناً ضعيفاً لا يكاد يجترئ على بخس الحق؟! فكيف وقد قامت على البعث البراهين القطعية التي تفيد اليقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ۝ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝ يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ رَبِّكَ ۝ أَلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَّكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝ كَلَّا بَلْ تَكْذِبُونَ ۝ بِالَّذِينَ ۝ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَنِينِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنْ الْأَبْرَارُ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ صَلَّوْهُمْ يَوْمَ الْدِّينِ ۝ وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۝ وَالْأَمْرُ يَوْمَ لِلَّهِ ۝

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا كَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝

٧ - ٩ - ليس الأمر على ما هم عليه من بَخْس الكَيْل والميزان، فليتردعوا عنه، إِنَّ كتاب الغلاة المسرفين في ارتكاب الآثام والجرائم الذي كُتِبَ فيه أعمالهم وعقوباتهم لُمُثِّبٌ في ديوانِ جامع، في الأرض السفلى، دُون الله فيه أعمال الكفرة من الجن والإنس، وأعظم بأمر سَجِينٍ إعظاماً لا تصل إليه درايتك، لأنه لم يمر في تصوراتك شيء يجعلك تقيس هذا الأمر عليه؟ هو كتابٌ مسطور بين الكتابة. أطلق على هذا الكتاب سَجِين؛ لأنه سبب الحَسْب والتضييق في جهنم.

١٠ - ١٣ - هَلَاكٌ أَبَدِيٌّ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ لِلْمُكَذِّبِينَ، الذين يُكَذِّبُونَ بيومِ الجزاء، وما يُكَذِّبُ بيومِ الجزاء إلا كُلُّ متجاوزٍ عن نهج الحق، مُسْرِفٌ في ارتكاب الآثام والمعاصي. إذا تَنَلَّى على هذا المعتدي الأثيم بتركار آيات القرآن العظيم قال: هذا ما سطره السابقون في كتبهم من الأباطيل والخرافات. فهم يُكَذِّبُونَ بيوم الدين لِيَحْسِنُوا لنفوسهم سُبُل الظلم، والاستزادة بفجور من متاعات الحياة الدنيا.

١٤ - ليس الأمر كما زعموا، بل غلبت على قلوبهم، وأحاطت بها وغلفتها بنكت سوداء قدرة ما كانوا يكسبونه بتركار من إثم وعدوانٍ، حتى أصبحت مقفلة مغلقة، لا تتقبل نفحات الهداية.

١٥ - ١٧ - ليس الأمر كما يقولون: أَنَّ لهم في الآخرة خيراً، بل إنهم عن رؤية الله يوم القيامة لممنوعون، ثم إنَّهم بعد حسابهم وفصل القضاء بشأنهم لداخلون النار التي تشويهم بحرّها، وبعد مدّة مُتْرَاحِيَةٍ من الزمن تقول لهم الْحَزَنَةُ وهم يذوقون عذاب الحريق: هذا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، فلا تُصَدِّقُونَ رسل ربكم الذين كانوا يندرونكم بعذاب يوم الدين.

١٨ - ٢١ - ليس الأمر كما يتوهمه الْفُجَّار من إنكار البعث. إِنَّ كتاب المتوسِّعين في فعل الصالحات من نوافل العبادات، وفي ترك المكروهات الذي كُتِبَ فيه أعمالهم ومثوباتهم لُمُثِّبٌ في ديوان

جامع، عالٍ قدره في السماء السابعة، دُون الله فيه أعمال الصالحين من الجن والإنس، وأعظم بهذا الأمر إعظاماً لا تصل إليه درايتك؟ هو كتابٌ مسطور بين الكتابة، يُطْلَع عليه الملائكة الْمُقَرَّبُونَ ويحضرونه. أطلق على هذا الكتاب عليون؛ لأنه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنة.

٢٢ - ٢٨ - إِنَّ الْقَائِمِينَ بِمَقْتَضِيَّاتِ رِثَةِ التَّقْوَى بِفَعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ، ويفعل الخيرات الزائدة على واجبات مرتبة التقوى الذين يتوسعون في نوافل العبادات، وفي التَّنَزُّهِ عن المكروهات، لُمُحَاطُونَ بِلَذَاتِ النِّعَمِ، يجلسون على المقاعد الْمُنْجُذَةِ الْوُثِيرَةِ الْمُزَيَّنَةِ، ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم من نعيم الجنة، تعرف - أيها الرائي - في وجوههم حُسْنًا ذا بريقٍ تظهر عليه السُّمَاتُ الدَّالَاتُ على أنهم سعداء بما فيه يَنْعَمُونَ. يسقيهم خدمهم من خمر صافية طيِّبة بيضاء، حُتِمَ على ذلك الشراب لشرفه ونفاسه، ومُنِعَ أَنْ تَمْسَهُ الْأَيْدِي إِلَى أَنْ يَفُكَّ خَتَمَهُ الْأَبْرَار، يجد شاربو هذا الرحيق في آخر شربهم له رائحة المسك النفيس، وفي ذلك الشراب الرفيع فليتسابق المتسابقون، وليتبارى المتبارون، ومزاج الرحيق من عين في الجنة تُعرف لُغْلُوها بـ«تسليم»، تنصبُّ عليهم من غرفهم ومنازلهم في أوانيهم على قدر ملئها، حال كون تسليم عيناً يشرب منها ويتنعم بها الْمُقَرَّبُونَ السابقون، وهو أشرف شراب أهل الجنة، يُمزج لسائر أهل الجنة، ويشربه الْمُقَرَّبُونَ من أهل مرتبة الإحسان صرفاً غير مخلوط.

٢٩ - ٣٤ - إِنَّ الَّذِينَ ارْتَكَبُوا الْآثَامَ مِنْ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ كَانُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي رَحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَضْحَكُونَ، إذ يتصوِّرون أنهم قد حرموا أنفسهم من كثير من متاعات الدنيا، بأوهام خوفهم من عقاب الله، وطمعهم بثوابه، وإذا مروا بالمؤمنين يشيرون إليهم بالأعين استهزاء بهم، وإذا رجع الكفار إلى أهلهم في بيوتهم، رجعوا مُتَلَذِّذِينَ باستخفافهم بالمؤمنين، والسُّخْرِيَةِ منهم، وإذا رأى المجرمون المؤمنين، قالوا: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ لَتَائِهُونَ عَنْ سُبُلِ سَعَادَتِهِمْ، ووسائل تحقيق متاعاتهم من دنياهم، ولمغرورون بأوهام البعث بعد الموت، وما أُرْسِلَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ خُرَاساً مُرَاقِبِينَ، ليكونوا ذوي سلطان على المؤمنين بالقهر والجَبَر، حتى يلزموا المؤمنين بأن يسلكوا معهم سُبُل الضلال والإفساد في الأرض. فالיום الذي هو يوم القيامة، يضحك المؤمنون من الكفار وهم يتقبلون في عذاب الجحيم، كما ضحك الكافرون منهم في الدنيا.



٣٥، ٣٦ - هؤلاء المؤمنون جالسون على المقاعد المنجدة الوثيرة الفاخرة، ينظرون إلى المجرمين، وهم في النار يُعذبون؛ فيُسرون بذلك، ويضحكون من أعداء الله الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا. هل جوزي الكفار بالعدل المطابق لما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين؛ من الاستهزاء والضحك؟ نعم، لقد جوزوا بالعدل المطابق لما كانوا يفعلونه في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

سُورَةُ الْأَنْشِقَاقِ

١، ٢ - إذا السماء انشقت أجزاؤها المتماسكة، واستمعت لأوامر ربها الكونية فأطاعت إطاعة جبرية، ونفذت أوامره على وفق مشيئته.

٣ - ٥ - وإذا الأرض بُسطت بسطاً واسعاً، فصارت سطحاً مستوياً، لا عوج فيه، ولا مرتفعات ولا منخفضات، وأخرجت ما هو مُستودع فيها أو مكنون، وتخلت عن الاحتفاظ به، وسمعت أمر ربها التكويني وأطاعته إطاعة جبرية في مدها وإخراج ما في بطنها، وحق لها أن تطيع أمر ربها. عندئذ تبدأ أحداث يوم الجزاء الأكبر، بما فيه من حساب، وفصل قضاء، وتنفيذ جزاء.

٦ - يا أيها الإنسان إنك عامل بتكلف ومشقة ونصب إلى لقاء ربك بالموت الذي ينقطع به عملك، وبعد الموت تلاقي جزاء عملك خيراً كان أو شراً.

٧ - ٩ - فأما من أوتي ديوان عمله الذي عمله في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا بيده اليميني، فسوف يُحاسب في محكمة العدل الربانية حساباً يسيراً لا شدة فيه ولا مناقشة، تُعرض عليه أعماله، فيعرف بالطاعة والمعصية، ثم يُثاب على الطاعة، ويُتجاوز له عن المعصية، وينصرف ذاهباً إلى زوجاته من المؤمنات، والحرور العين، وعشيرته وأصحاب موثته من أهل الإيمان، مسروراً بما أوتي من الخير والكرامة.

سُورَةُ الْأَنْشِقَاقِ

سُورَةُ الْأَنْشِقَاقِ

عَلَى الْأَرْأْيِكِ يَنْظُرُونَ ٣٥ هَلْ تُوبَ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٣٦

سُورَةُ الْأَنْشِقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ٥ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًا فَمَلَقْتَهُ ٦ فَأَمَّا مَنْ أَوَفَّ كُتْبَهُ بِرِيسْمِهِ ٧ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مُسْرُورًا ٩ وَأَمَّا مَنْ أَوَفَّ كُتْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ١١ وَيَصْلَى سَعِيرًا ١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا ١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ١٤ بَلْ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ١٥ فَلَا أَقْسَمُ بِالْشفَى ١٦ وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ١٨ لَتَرْكُنَّ طباقاً نطبِقُ ١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ٢١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٢٥

١٠ - ١٢ - وأما من أوتي ديوان عمله بيده الشمال من وراء ظهره، وهو الكافر، فسوف يدعو على نفسه - بعد الحكم عليه بأنه من أهل النار، وسَوْفه إلى أبواب جهنم ومشاهدته ذرّته في عذاب الجحيم -، بالويل والهلاك الأبدى.

١٣، ١٤ - إن هذا الذي أوتي كتابه وراء ظهره كان في أهله في الحياة الدنيا مسروراً باتباع هواه وركوب شهواته، إنه ظن ظناً ضعيفاً أن لن يرجع إلى ربّه حياً بعد الممات، ليُحاسب ويُجازى على أعماله.

١٥ - ليس الأمر كما ظن ظناً توهمياً، بل يُبعث ويُحاسب، ويدخل النار ويحترق فيها؛ إن ربّه كان به بصيراً حين كان يخوض في الحياة الدنيا خَوْضَهُ عاصياً مجرماً.

١٦ - ١٩ - أقسم بهذه الآيات الكونية الثلاث التي لا تدركون عظمتها، ولكن سيأتي زمان يدرك فيه علماء الكون عظمة هذه الآيات: الآيات الكونية الأولى: أقسم بالخُمْرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس، الآيات الكونية الثانية: وأقسم بالليل وما ستر وجلل من أشياء بظلمته، وما جمع وضّم ما كان منتشراً بالنهار، الآيات الكونية الثالثة: وأقسم بالقمر إذا اجتمع وتمّ نوره وصار بدرأً مكتملاً، لتركب - أيها الناس - بما ستكتشفون من مراكب بالهَام الله لكم، تنتقلون بها في طبقات الجوّ مُجتازين في كل طبقة تصلون إليها عن طبقة انتهيت من عبورها.

٢٠، ٢١ - أي شيء هو حُجّة لهم تجعلهم يُصرون على كفرهم، مع توالي الوسائل الإقناعية؟ وأي شيء هو صارف لهم عن السجود لعظمة القرآن المجيد، إذ ثلّيت عليهم آياته مع تنابع قراءته على مسامعهم، وتتابع صدّهم عنه؟

٢٢ - ٢٤ - ليس الذين كفروا أصحاب حُجج تجعلهم لا يؤمنون، وليسوا فيما يتظاهرون به من أنهم لا يشعرون ببلاغة القرآن صادقين، بل هم يكذبون تكديماً متجذداً بالقرآن والبعث والنبي كلما تتابعت عليهم براهين الحق الرباني، والله أعلم من كلّ عليم بما يجمعون في أوعية نفوسهم وصدورهم وأدمغتهم من مكتسبات إرادية هم فيها جحدون ظلمة بغاة، فبشّرهم مُتهكماً بهم - يا رسول الله وكلّ مؤمن من أمته - على عنادهم وجحودهم وتكذيبهم بعذاب شديد الإيلام.

٢٥ - لكن الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصالحات لهم عند الله أجرٌ في الآخرة مستمرٌ بتتابع متجدّد، غير مقطوع ولا منقوص؛ إذ هو دائم مع دوام الذين آمنوا وعملوا الصالحات، خالدين في جنات النعيم يوم الدين.

١ - ٣ - أقسم بالسماء ذات المنازل التي تنزل بها الكواكب أثناء سيرها على قدر معلوم، ويوم القيامة الموعود للحساب وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، والقرآن الشاهد على صدق رسوله محمد ﷺ، والرسول محمد ﷺ المشهود له بالنبوة والرسالة، من قبل القرآن المعجز.

٤، ٥ - طرد وأبعد عن رحمة الله إبعاداً أبدياً الطغاة البغاة الظلمة الذين شقوا في الأرض شقاً مستطيلاً عظيماً؛ لتعذيب المؤمنين، وأوقدوا النار الشديدة ذات الوقود، فهم يمدونها بالوقود اللازم لها، كلما تقاصرت السنة لَهَا.

٦، ٧ - ضع في ذاكرتك - أيها المتلقي آياتنا - شناعة جريمة أصحاب الأخدود، إذ هم على نارهم مشرفون جلوس. والمَلِكُ الذي خد الأخدود وأصحابه على ما يفعلون بالمؤمنين - من عرضهم على النار، وإرادتهم أن يرجعوا عن دينهم - حضور، يستمتعون بتعذيب المؤمنين وضراخهم، وقتل نسائهم وأطفالهم، دون أن تمس قلوبهم مشاعر رحمة أو شفقة، ودون أن يتحرك وجدانهم باستنكار ما يمارسونه من ظلم وعدوان.

٨ - وما علموا فيهم عيباً، ولا كرهوا منهم إلا إيمانهم بالله القوي الغالب القاهر الذي لا يُغالب ولا يُدافع، المحمود الذي يستحق أن يُحمد ويثنى عليه، وهو أهل لذلك، والحمد الذي يحمده عباده على ما يكون منهم مما يستحق الحمد، وهو بعزته سينتقم من المجرمين الجبارين، وبمقتضى كونه محمداً بصفاته العلية، وحامداً لمستحقي الحمد من عباده، سيُثيب عباده المؤمنين الصابرين على ما نالهم من اضطهاد بأيدي الطغاة المجرمين.

٩ - الذي له - وحده - ملك السموات والأرض، المُتصَرِّف بكل ما يملك، فهو المُستحق للعبادة، والله على كل شيء من أفعالهم حاضر.

عليم. فما يفعله الطغاة الجبارون بعباده المؤمنين معلوم مشهود له سبحانه، ولا بد أن يعاقب الظالمين بعدله، ويثيب المؤمنين بفضله.

١٠ - إن الذين عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات بالنار، ثم لم يرجعوا عما هم عليه من الكفر، فلهم أنواع العذاب المختلفة في جهنم، ولهم عذاب الحريق بمباشرة النار لأجسادهم.

١١ - إن الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وبرهنوا على صدق إيمانهم بأعمال صالحات، أُعِدَّتْ لهم جنَّات تجري من تحت أشجارها وقصورها ومجالس المنعمين فيها أنهار متنوعة، ذلك الظفر والريح الكبير.

١٢ - ١٦ - إن أخذ ربك للظلمة والجبارة أخذ شديد عنيف، لا يمكن الإفلات منه، إنه هو - وحده - يُبدى خلق الخلق في الدنيا، ثم يعيدهم أحياء بعد الموت؛ ليُجازيهم بأعمالهم في القيامة، وهو كثير السَّتر لذنوب جميع المؤمنين، المحبُّ لهم، وهو جلُّ جلاله خالق العرش ومالكة، الذي هو فوق كل السموات السبع وأعظم منها، وهو العظيم في ذاته وصفاته، الذي له كمال الصفات العلية، والأسماء السنية، فعَّال لما يريد، لا يُعجزه شيء، ولا يتخلف عن إرادته مراد من أفعاله تعالى وأفعال غيره.

١٧، ١٨ - هل أتاك - أيها المتلقي لبياننا - خبر الجُموع القويَّة الكافرة الذين تجنَّدوا على الأنبياء؛ فرعون المستبد في رأيه وأمره، الذي اتخذ نفسه رباً على قومه، وهم جميعاً تابعون له ومطيعون، وقوم ثمود الذين كذبوا صالحاً عليه السلام، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال.

١٩، ٢٠ - ليس للكافرين الذين يكذبون الرسول محمداً ويفتنون المؤمنين عن دينهم عُذْر فيما فعلوا، بل هم غارقون في تكذيب للحق، مُحاطون به من كل جوانب نفوسهم وأفكارهم وقلوبهم، والله من وراء كل شيء فيهم محيط إحاطة تامة لا تدع لهم مهرباً من عذابه وانتقامه.

٢١، ٢٢ - ليس القرآن كما زعم المشركون أنه سحر وكهانة، بل الذي كذبوا به قرآن كريم شريف، كثير النفع والخير، مُسجَّل عند الله في السماء في لوح محفوظ من الشياطين، ومن الزيادة والنقصان، أو التغيير والتبديل.



سُورَةُ الطَّارِقِ

الْبَيْتُ الْاَلَاوِي

سُورَةُ الطَّارِقِ سُورَةُ الْاَلَاوِي



١ - ٣ - أقسم الله سبحانه بالسماء البعيدة، وبالنجم يظهر بالليل، وأعظم بالأمر إعظاماً لا تصل إليه درايتك ما حقيقة هذا النجم مهما عظمت مناظيرك، ووسائلك التي ترصد بها مشاهد النجوم؟ هو النجم المضيء الذي، يثقب الظلام بضياه، فينفذ فيه، دون أن يكون له انتشار ضوئي شامل.

٤ - ما كل نفس مُمتحنة مُكلَّفة في ظروف الحياة الدنيا إلا عليها حافظ من ربها يحفظ عملها، ويحصي عليها ما تكسب من خير أو شر.

٥ - فلينظر الإنسان المنكر للبعث نَظَرَ تَفَكُّرٍ واعتبار من أي شيء خلقه ربه؟

٦ - ٨ - خلق من مني مدفوق مصبوب في الرحم، يخرج الإنسان من رحم أمه بين العمود الفقري وعظام الصدر، إن الله الذي خلق الإنسان من هذا الماء وأخرجه من رحم أمه، لقادر على إرجاعه إلى الحياة بعد موته وإفناء جسده.

٩، ١٠ - وإنه لمبعوث حقاً إلى الحياة بعد موته، وفناء جسده، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يوم تُكشَفُ وتُظْهِرُ الضمائر، فيما أسرت القلوب من العقائد والنيات، وما أخفت من الأعمال. فما لهذا الإنسان المنكر البعث - حين يُجازى على عمله - من قوة يمتنع بها من عذاب الله، ولا ناصر ينصره من الله عز وجل.

١١ - والسماء القريبة المحيطة بالأرض بغلافها الغازي ذات الإرجاع المُتكرِّر لما يصعد إليها من المياه المُتبخِّرة فتُرجعها إلى الأرض ماء حلواً، أو ثلجاً، أو برداً، لسُقيا الناس والدواب، وإلحياض الأرض

بالبساتين المختلفة، كما أن السماء تُرجع قسم الأشعة الكونية المؤذية بعدم السماح لها بالنفوذ في الغلاف الجوي في الأرض.

١٢ - ١٤ - والأرض ذات الشَّق، تنشق عن النبات والأشجار والأنهار، وتكون الأرض من المعادن وغيرها. إن البعث بعد الموت حقٌ وجَدٌ، يفصل الله فيه بين العباد، وما هو باللعب والباطل.

١٥ - ١٧ - إن المكذَّبين بيوم الدين يتخذون أعمالاً وتدبيراتٍ لإدحاض دعوة الحق، وإقامة الباطل، وأدبر في الخير تدبيراً أحيط به تدبير الكافرين، فأنتم منهم في الدنيا والآخرة، فأنظر - يا رسول الله - الكافرين وترقُّ بهم، وأجلهم قليلاً، ولا تستعجل باتخاذ وسائل انتقامية ضدهم، وسترى ما يحلُّ بهم من العذاب والعقوبة.

سُورَةُ الْاَلَاوِي

١ - ٥ - نزه اسم ربك الأعلى بلسانك ونفسك وقلبك عما لا يليق بكماله، واذكره على وجه الخشوع والتعظيم، الذي أبدع المخلوقات على غير مثالٍ سبق، فجعلها في غاية الكمال، والذي قدَّر المقادير في كل صغير وكبير من هذا الكون، فهدى المخلوقات إلى ما يُحقِّق الغاية من خلقها، والذي أنبت العُشب وما ترعاه الأنعام، فجعل المرعى هشيماً يابساً أسود بعد الخضرة.

٦، ٧ - سيقراً جبريل عليك القرآن بأمرنا، فلا تنسى ما يقرأ عليك، إلا ما شاء الله أن تنساه ممَّا نسخ تلاوته من القرآن، وُرفِع من الصدور، لحكمة يشاء الله تحقيقها، إنه سبحانه يعلم العلانية من القول والفعل، وما يخفى على المخلوقات منهما.

٨ - ونهيئك ونمدك بالعز في حنل وظائف رسالتك التي تُبلِّغ بها الشريعة اليسرى، دون أن تعجز عن شيء منها.

٩ - ١٣ - فذكر - يا رسول الله - بما سبق أن بلغته وبيئته، إن رأيت أنَّ من توجه له خطابك غير ميؤوس منه، ولديك طمع ما في أن ينفعه تذكيرك. سينتفع بتذكيرك مَنْ يخشى عذاب الله تعالى، ويتجنب الذكرى ويتباعد عنها الأشقى المُصر على الكفر والعناد وإنكار المعاد، الذي يُعذَّب يوم الدين بالحريق في النار الكبرى، ثم لا يموت في النار فيستريح بالموت، ولا يحيى حياة طيبة تنفعه.

١٤، ١٥ - قد فاز وظفر بالمقصود، ونجا من المكروه من تطهر من رجس الشُّرك بالإيمان، ونمى نفسه بالأعمال الصالحة، وذكر اسم ربه بقلبه ولسانه معظماً، فصلَّى الصَّلوات الخمس في أوقاتها؛ ابتغاء رضوان الله، وامثالاً لأمره.

- ١٦ - لم تفعلوا ما يؤدّي إلى الفلاح، بل تُفَضِّلون - أيها الناس - الدنيا الفانية وزيتها، على الآخرة الباقية ونعيمها.
- ١٧ - والدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم، خيرٌ من الدنيا وأبقى.
- ١٨، ١٩ - إنَّ هذا المذكور في هذه السورة لفي الصُّحف الربانيّة المتقدّمة التي نزلت قبل القرآن؛ صُحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

- ١ - استمع بعناية - أيها المتلقّي - هذا الحديث عن القيامة التي تغشى الخلاق وتعمّم بأموالها.
- ٢ - وجوه الكفار يوم القيامة خاضعة ذليلة منكسرة الأبصار.
- ٣، ٤ - دابة العمل في النار مُتَعَبَةٌ، تذوق عذاب الاحتراق بنار حامية شديدة الحرارة.
- ٥ - تُسْقَى سائلاً من عينٍ مُتناهية في الحرارة.
- ٦، ٧ - ليس لأصحاب النار طعامٌ إلا نباتاً من شوك من نار، وهو من شرّ الطعام وأخبثه، لا يُسَمِّنُ هذا الطعام، ولا يدفع شيئاً من جوع.
- ٨ - ١٠ - وجوه المؤمنين يوم القيامة مُتَنَعِمَةٌ نُضْرَةٌ ذات بهجة وحُسن وكرامة؛ لأجل سعيها في رحلة الابتلاء في الدنيا بما يرضي الله عنها، راضية بثواب الله العظيم في الآخرة، مقيمين في جنة رفيعة المكان والمكانة.
- ١١ - لا تسمع في الجنة - أيها المتلقّي إذا كنت من أهلها - ما لا يُعتدُّ به من كلام وغيره مما لا فائدة منه.
- ١٢ - ١٦ - في هذه الجنة العالية عينٌ جاريةٌ على وجه الأرض من غير أخدود، فيها سُرُرٌ مرتفعة مكاناً وقدرًا، يجلسون عليها ويضطجعون، لينظروا ما حولهم من النعيم، وأكواب كثيرة متنوعة الأشكال والمحتويات موضوعة بين أيديهم، كلّما أرادوا الشرب منها وجدوها مملوءة، ووسائد ومرافق مصفوفة بعضها جنب بعض، وبُسْط عريضة مُتَفَرِّقة مُوزَّعة في المجالس توزيعاً جمالياً، على اختلاف أجناسها وأنواعها وأصنافها ورُسُومها.
- ١٧ - أينكرون البعث ويستبعدون وقوعه، فلا ينظرون نظراً تفكّر واعتبار إلى الإبل التي يُصاحبونها حَضَراً وسفراً، وهي من أعظم أموالهم: كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلق أكثر الحيوان؛ في عظم جسمها، وعجيب هيئاتها اللائقة بتأتي ما سُخِّرَتْ له من الأعمال الشاقة، وغريب أحوالها وصفاتها؟
- ١٨ - وإلى السماء كيف رُفِعَتْ فوق الأرض في أبعاد الفضاء بغير عَمَدٍ تعتمد عليها؟
- ١٩ - وإلى الجبال الشامخة كيف أعلّيت عن سطح اليابس من الأرض لتحقيق منافع جليلة ومتنوعة لسكان الأرض عليها؟
- ٢٠ - وإلى الأرض كيف بُسِطَتْ ومُهْدَتْ بحيث يستقرّ على ظهرها كل شيء؟
- ٢١، ٢٢ - فاعذ - يا رسول الله ويا كلّ داعٍ إلى الله من أمته - ما سبق أن علّمته وأبلغته لقومك من أصول الدين الإيمانيّة والأخلاقيّة، وأصوله التعبدية، ما أنت بالنسبة إلى هؤلاء الذين دعوتهم، وأقمت لهم الحجج والبراهين، إلا مُدَكَّرٌ لهم، لست مُسلّطاً عليهم لإجبارهم وإكراههم على الإيمان والإسلام؛ إذ هم مطالبون بأن يؤمنوا ويسلموا باختيارهم وإراداتهم الحرة، بعدما قدّمت لهم البيان الكافي.
- ٢٣، ٢٤ - لكن من تولى مُدْبِراً مبتعداً منهم عن التذكير والموعظة، وأصرّ على كفره بعناد، فدخله الله يوم القيامة جهنّم خالداً فيها أبداً، ويُعَذِّبُهُ فيها العذاب الأكبر، وهو عذاب الحريق، الذي لا عذاب أكبر منه.
- ٢٥، ٢٦ - إنَّ إلينا رجوعهم بعد الموت لا إلى أحد سوانا، ثم إنَّ علينا جزاءهم بعد الرجوع إلينا.



سُورَةُ الْفَجْرِ

الْمِيقَاتُ الْفَجْرِيَّةُ

سُورَةُ الْفَجْرِ

١ - ٣ - أَقْسَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْفَجْرِ، وهو الزمن المختار لإهلاك عاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وفرعون وجنوده، والليالي العشر من أوّل المحرّم حتى العاشر، وهي مُدّة مسير موسى عليه السلام بقومه حتى نَجَوْا وَعَبَرُوا الْبَحْرَ إِلَى سِينَاء، ومُدّة لحاق فرعون وجنوده لهم، حتى هلكوا غرقاً، والأيام الشفع الثمانية والليالي الوتر السبع، وهي المدة التي أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ فيها الريح الصّرصر العاتية على عادٍ، فقطعت دابرهم.

٤، ٥ - والليل إذا يجري ويذهب بهدوء، وتعبه أحداث الإهلاك العظمى المدمّره عند الفجر لمن يريد الله إهلاكهم، هل فيما ذكرت من الأزمنة التي جَرَتْ فيها هذه الأحداث، بحكمة الله وقدرته وعلمه مكتفى في القسم الذي عقل يتدبّر به ويتفكّر، ويعقل أهواءه وشهواته؟ نعم، إنّ من تفكّر بعقل حصيف في هذه الأزمان التي أهلك الله بها الأمم السابقة، ووقعت بها هذه الأحداث العظمى، تؤكّد صدق الخبر بحدوث أشباهها مُستقبلاً عند وجود المقتضيات المماثلات للمقتضيات التي حدثت بسببها الأحداث الماضية؛ لأن سنة الله القائمة على حكمته سنة دائمة، لا تتغيّر ولا تبدّل.

٦ - ٨ - ألم تر رؤية علمية مُشابهة للرؤية البصرية كيف فعل ربك بعاد، قبيلة «إرم»، ذات القوة والأبنية المرفوعة على الأعمدة، التي لم يُخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوة، وضخامة البناء؟

٩ - وألم تر كيف فعل ربك بثمود قوم صالح، الذين قطعوا الحجر بوادي القرى، وأخذوا مساكن في الجبال وبيوتاً؟

١٠ - وألم تر كيف فعل ربك بفرعون ملك «مصر» ذي الجنود الكثيرة، والمباني العظيمة التي تشبه الجبال؟

١١، ١٢ - هؤلاء الذين تَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي الظلم والتجبر في بلاد الله، فأكثروا فيها الفساد بظلمهم وعدوانهم وسيئات أعمالهم.

١٣، ١٤ - فأنزل عليهم - ربك - باندفاع وسرعة عذاباً مُتتابعاً شديداً تمّ به إهلاكهم، كضربات السياط المتواليات، بتتابع متلاحق دون فاصل زمني بينها، حتى كأنها سُوط واحد ذو أجزاء متتابعة، كلما أدى جزء منه وظيفته اختفى، وجاء الجزء الذي وراءه؛ إنّ ربك - يا رسول الله - لبالمرصاد يراقب مراقبة تامّة كلّ من يفعل مثل فعل هؤلاء المُهلّكين، وسينزل عذابه على المجرمين اللاحقين.

١٥ - فأما الإنسان إذا ما امتحنه ربّه بالنعمة، فأكرمه بالصحة وكثرة المال، وهُدوء البال، والأمن، وتيسير تحقيق مطالب الحياة، فيقول: ربي فضّلني وشرّفني بما أعطاني ووسّع عليّ؛ لمزيد استحقاق له، وكوني له أهلاً.

١٦ - وأما إذا ما امتحنه بالمكاره، فضيّق عليه رزقه، فيقول: ربي أدلني بالفقر، ولم يُعطني ما أستحقّه.

١٧ - ٢٠ - ليس الأمر كذلك، لم أثبت له بالغي لكرامته، ولم أثبت له بالفقر لهوانه، بل اقتضت الحكمة ابتلاء الأول بالتوسعة، وابتلاء الآخر بالتضييق، بل أنتم بسبب الكفر الذي جفّف منابع الرحمة في قلوبكم لا تُكرمون اليتيم الذي مات عنه أبوه دون سنّ البلوغ، ولا تُحسنون معاملته، ولا يحثّ بعضكم بعضاً على إطعام المسكين، وتأكلون الميراث بشرّه أكلاً شديداً، فتأخذون نصيبكم ونصيب غيركم، ولا تدعون شيئاً للآيتام والمساكين، ولا تقسمون شيئاً من التركة للضعفاء وذوي الحاجات، وتحبّون المال حباً كثيراً ولو كان زائداً عن حاجاتكم ومطالب حياتكم مهما طالّت أعماركم في الحياة الدنيا.

٢١ - ٢٣ - ارتدعوا عن تلك الصفات الذميمة - من الحرص على جمع المال وحبه - حتى لا تتعرّضوا بسببها لعذاب الله، فإذا حُطمت الأرض وكُسرت وكُسِر كل شيء عليها حتى لا يبقى على ظهرها شيء، وجاء ربك لفُضّل القضاء بين خلقه، وجاءت الملائكة منتظمين صفوفاً صفوفاً، وجيء يوم القيامة بجهنّم حتى تكون قريبة من الجهة التي يجتمع فيها الكافرون، الذين سيُقضى عليهم بأن يُعذبوا فيها عذاباً أبدياً، يوم يُجاء بجهنّم يتذكّر الإنسان كلّ شيء سَلَفَ في حياته، يتذكّر النذر والمواعظ التي وُجّهت له في الدنيا، والحجج والبيّنات التي كانت كافية لإقناعه، إلا أنّ هذا التذكّر لا ينفعه في ذكرى يُغيّر فيها نتيجته التي تقرّرت عليه، فقد انتهى زمن الابتلاء، وجاء زمن الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٢٤ - يقول الكافر حين يرى العذاب - تندماً على تفریطه في الدنيا :-
يا ليتني قدّمت إيماناً صادقاً صحيحاً، وعملاً صالحاً لأجل حياتي في
الآخرة التي لا مَوْتَ فيها حتى أكون من الناجين من عذاب النار،
ومن السُّعَداء في جنة النعيم.

٢٥، ٢٦ - ففي ذلك اليوم: لا يُعَذَّبُ مثُلُ عذاب الله أَحَدٌ، ولا يُوثَقُ
مثُلُ وثاقِ الله أَحَدٌ. فيؤخذ بالكافر إلى ذَرَكَة عذابه في جهنم، يُعَذَّبُ
فيها هذا العذاب، وهو موثوقٌ فيها لا يستطيع الخروج ولا التحول.

٢٧ - ٣٠ - يا أَيُّهَا النَّفْسُ الثَّابِتَةُ عَلَى الْإِيمَانِ، الخاضعة لأمر الله
وطاعته، الراضية بقضاء الله، المطمئنة لنتائج عملها، لا يمسهَا
الخوف والقلق من سوء المصير: ارجعي إلى ما وَعَدَ رَبُّكَ من الخير
والثواب، راضية عن الله بما أَعَدَّ لَكَ، مرضيةً من الله جلّ جلاله،
فادخلي في جملة عبادي الصّالحين المَرْضِيِّين، وادخلي جَنَّتِي التي
أعددتُهَا لِمُسْتَحَقِّي دخولها بِقَضَائِي.

سُورَةُ الْبَلَدِ

١ - ٣ - أَقْسَمُ بِمَكَّةِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ؛ لَشَرَفِهَا وَحُرْمَتِهَا بِالْبَيْتِ الْمَعْظَمِ،
وأنت يا رسول الله - مُتَّخِذٌ مِنْ كَفَارِ قَوْمِكَ غَرَضاً لِسَهَامِ إِيْذَانِهِمْ
واضطهادهم، وهم يُحَرِّمُونَ أَنْ يَقْتُلُوا بِهِ صَيِّداً، ويستحلّون قَتْلَكَ
وأخراجك من البلد الحرام، فهم بهذا قد أسقطوا من نفوسهم حُرْمَةَ
هذا البلد، ولم يبق لديهم من حرمة ما يستحقُّ أَنْ يَقْسَمَ اللهُ بِهِ مِنْ
أَجْلِهِمْ، وأقسم بكلِّ والدٍ، وكلِّ ما وَلَدَهُ مِنْ أَنْسَالٍ فِي كُلِّ الْأَحْيَاءِ
المتوالدة، التي لا تدركون ظواهر خلق الله العجيبة فيها، وسيأتي
زمان يُدْرِكُ فِيهِ عِلْمَاءُ الْكَوْنِ كَيْفَ تَتَكَوَّنُ النُّطْفُ فِي الْأَبَاءِ وَالْبَيضَاتِ
فِي الْأُمْهَاتِ، وكيف تتعقد الأجنة في الأرحام، وتحصل الأنسال.
٤ - نَوَكِّدُ تَأَكِيداً بَلِيغاً أَنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي شِدَّةٍ وَمَشَقَّةٍ وَمُعَانَاةٍ، منذ
نشأته إلى منتهى أمره؛ لِلامْتِحَانِ وَالْإِبْتِلَاءِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.



٥ - أَيَتُوهُمُ الْكَافِرُ بِمَا لَدَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ وَمَا جَمَعَهُ مِنْ مَالٍ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ أَحَدٌ؟
٦، ٧ - يقول هذا الكافر المغرَّبُ بِقُوَّتِهِ مُتَبَاهِياً: أَفَنَيْتُ بِالْإِنْفَاقِ مَالاً كَثِيراً مُجْتَمِعاً بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فِي إِعْدَادِ الْقَوَى مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْعِتَادِ.
أَيَتُوهُمُ الْكَافِرُ أَنَّ اللهَ لَمْ يَرَهُ، وَلَا يُحَاسِبُهُ عَلَى الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ؟

٨ - ١٠ - أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ يَنْطِقُ بِهِمَا، وَيَبْنِى لَهُ الطَّرِيقَيْنِ الْمُرْتَفَعَيْنِ الْوَاضِحَيْنِ: الْخَيْرِ
وَالشَّرِّ؟! فَالْإِنْسَانُ كَمَا لَدَيْهِ أَدَوَاتُ الْحَسَنِ الظَّاهِرِ، لَدَيْهِ حَسٌّ بَاطِنٌ يُدْرِكُ بِهِ طَرِيقَيِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَهُمَا التَّجْدَانِ الْمُتَمْتِدَانِ فِي أَرْضِ
حَيَاتِهِ الدُّنْيَا، يَخْتَارُ مِنْهُمَا لِسُلُوكِهِ مَا يَشَاءُ، وَعَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَتَحَمَّلَ نَتَائِجَ عَمَلِهِ وَاخْتِيَارِهِ.

١١، ١٢ - فَلَا فِعْلَ مَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ، فَاقْتَحَمَ عَقِبَةَ نَفْسِهِ، وَمَا يَشُقُّ عَلَيْهَا مِنْ مَكَارِهِ، وَلَا تَرَكَ مَا نَهَاها اللهُ عَنْهُ، فَأَحْجَمَ عَنْ اتِّبَاعِ أَهْوَاةِ
وَشَهَوَاتِهِ. وَأَيُّ شَيْءٍ أَعْلَمُكَ: مَا مَقْدَارُ ثَوَابِ اقْتِحَامِ الْعَقَبَةِ عِنْدَ اللهِ، وَمَا يُعِينُ عَلَى تَجَاوُزِهَا؟
١٣ - ١٦ - تَخْلِيصُ الرَّقِيقِ مِنْ إِسَارِ الرِّقِّ، أَوْ إِطْعَامُ فِي يَوْمٍ ذِي مَجَاعَةٍ عَامَةٍ، صَغِيرٌ مَاتَ أَبُوهُ قَبْلَ الْبُلُوغِ، بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ، أَوْ
مُسْكِينٌ إِذَا حَاجَةً وَافْتِقَاراً شَدِيداً، قَدْ لَصِقَ بِالتُّرَابِ مِنْ فَقْرِهِ وَضُرِّهِ.

١٧ - ثُمَّ كَانَ مَعَ فِعْلٍ مَا ذُكِرَ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَبِكُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَتَوَاصَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى أَدَاءِ
جَمِيعِ أَوَامِرِ اللهِ وَالْإِتِّهَاءِ عَنْ نَوَاهِيهِ، وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ الَّتِي تَدْفَعُ لِفِعْلِ الْمَعْرُوفِ، وَإِقَامَةِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْمَتَعَاوِنِ. أُرْشِدَتْ هَذِهِ
الْآيَةُ إِلَى لُزُومِ تَتَبُعِ الْخُطُوبَاتِ الْفِكْرِيَّةِ لِلتَّكَالِيفِ الدِّينِيَّةِ، الَّتِي يَحْتَاجُ الْإِتِّزَامُ بِتَعْلِيمَاتِهَا إِلَى اقْتِحَامِ عَقِبَةِ النَّفْسِ، وَهَذِهِ الْخُطُوبَاتُ يَنْتَقِلُ
الْمَتَّبِعُ فِيهَا مِنْ فُرُوعِ شَجَرَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ فَرْعٍ إِلَى فَرْعٍ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى سَوْقِهَا، ثُمَّ إِلَى جَذْرِهَا الَّذِي تَتَمَدَّدُ أَجْزَاؤُهُ وَعِنَاصِرُهُ الْإِيمَانِيَّةُ
دَاخِلَ غُحْقِ الْفَوَادِ. وَأُرْشِدَتْ الْآيَةُ أَيْضاً إِلَى أَنَّ اقْتِحَامَ عَقِبَةِ النَّفْسِ، بِأَدَاءِ التَّكَالِيفِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحْرَمَاتِ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقَيْنِ بِقِيَامِ
جَمَاعَةٍ مُؤَمَّنَةٍ، تَتَلَفَّى عَلَى وَحْدَةٍ إِيمَانِيَّةٍ، يَتَوَاصَى أَفْرَادُهَا بِالصَّبْرِ وَبِالْمَرْحَمَةِ.

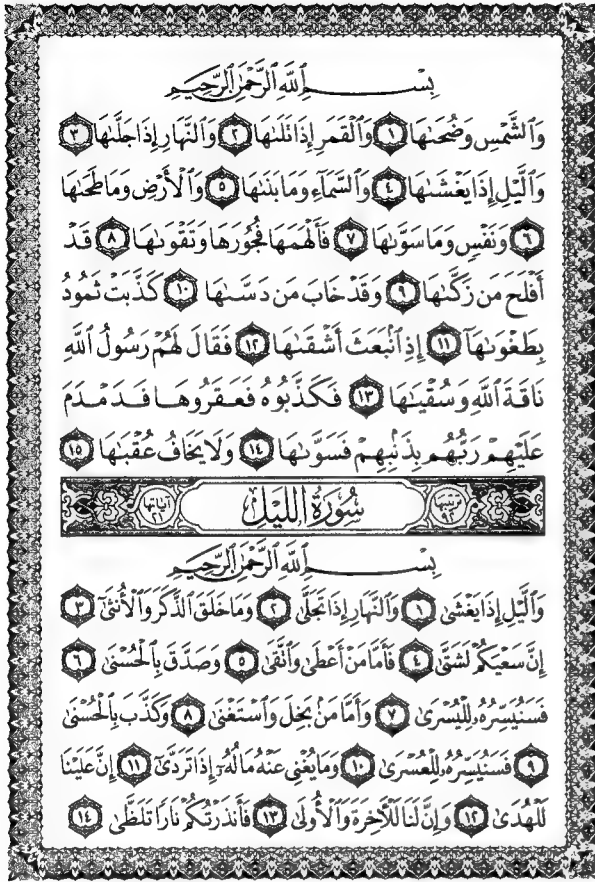
١٨ - أَوْلَيْتُكَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ، وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ أَصْحَابُ الْيَمْنِ الَّذِي يُلَازِمُهُمْ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ كُتُبَ
أَعْمَالِهِمْ بِأَيْمَانِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ.

١٩، ٢٠ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا الْكُونِيَّةِ وَالتَّنْزِيلِيَّةِ هُمْ أَصْحَابُ الشُّؤْمِ الَّذِي يُلَازِمُهُمْ، وَهُمْ أَصْحَابُ الشَّمَالِ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ صُحُفَ
أَعْمَالِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِشَمَائِلِهِمْ، عَلَيْهِمْ نَارٌ مُطْبَقَةٌ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُهَا، فَلَا مَخْرَجَ لَهُمْ مِنْهَا أَبَداً.

سُورَةُ الشَّمْسِ

الجزء الثاني

سُورَةُ الشَّمْسِ



١ - ٤ - أقسم بالشمس، وظهور كل ضوئها وقت إشراقها، والقمر إذا تبع الشمس في نوره الذي يبثه نتيجة انعكاس أشعة الشمس على سطحه الموافق لها، والنهار إذا كشف ظلمة الليل وأزالها بضياته في الوقت الذي تكون المواجهة بين الشمس والجزء المواجه لها من الأرض، والليل إذا يغطي الشمس حين تغيب، فتظلم الأفاق في الوقت الذي يحجب فيه ضياء الشمس بجزم الأرض نفسها، لانعدام المواجهة بين هذا الجزء من الأرض وبين الشمس. وفي الإقسام بالشمس توجية لظاهرة عناية الله بسكان الأرض، في إيجاد هذا الكوكب العظيم، الممجد لأهل الأرض بالطاقة والضيء، وبنور القمر المنعكس من أشعة الشمس المنسكبة عليه.

٥ - ٨ - وأقسم بالسماء وبينائها العظيم العجيب، وبالأرض وبسطها وكرويتها ودورانها حول نفسها، ودورانها في مدار حول الشمس، وبكل نفس مُنتَحَنَة مُكَلَّفَة من الجن والإنس، وما فيها من إبداع الخالق في تسييرها، بجعلها كاملة الصفات التي تؤهلها لأداء وظيفتها في الحياة، فألقى الله في النفس بعد تسييرها معرفة سبل فجورها، ومعرفة طريق تقواها. فحينما تتجه النفس إلى سلوك طريق الفجور، تتجه إليه وهي عارفة بأنه طريق شر، فهي بصيرة بما تعمل، وحينما تتجه إلى سلوك طريق التقوى، تتجه إليه وهي عارفة بأنه طريق خير، فهي بصيرة بما تعمل.

٩، ١٠ - قد فاز وظفر من طهر نفسه من أدناس الرذائل الخلقيّة والسلوكيّة، ونماها بالطاعة، وقد حرم وخسر يوم الدين من أغوى نفسه وأفسدها، وهبط بها وغمسها في أحوال الكفر والفسوق والعصيان، وأخفاها عن استقبال أنوار الهداية.

١١ - ١٥ - كذبت ثمود قوم صالح بسبب طغيانها وعدوانها، حين اندفع وأسرع ثائراً مهتاجاً أشقى القوم لقتل الناقة، فقال لهم رسول الله صالح عليه السلام لما عرف منهم أنهم قد عزموا على عقرها: احذروا عقر ناقة الله، واحذروا شربها الذي اختصها الله به في يومها، فكذبوا صالحاً، فقتل أشقاها الناقة، ورضوا بذلك، فكانوا مشاركين له في القتل، فدمر عليهم ربهم، وأطبق عليهم وسائل التعذيب، وأهلكهم جميعاً بسبب جرمهم، فسوى الأرض فوقهم، ودفنهم، حتى لم يبق لأجسادهم أثر ظاهر، ولا يخاف الله تبعه أحد في هلاكهم؛ لأنه حقق فيهم عدله.

سُورَةُ اللَّيْلِ

١ - ٤ - أقسم بالليل حين يُظلم في الأرض بسبب غروب الشمس عنها، وبالنهار إذا بان وظهر بضياته بعد الظلمة، وبخلق الذكر والأنثى في عالم الأحياء والنباتات، وحاجة كل زوج منهما لزوجه، إن عملكم - أيها الناس - لمختلف ومتفرق تفرقاً شديداً إلى حد التباين والتناقض، ما بين أعلى دُرُوات الفضائل، وأخط دَرَكات الرذائل، وهذا لا يكون إلا إذا كانوا بخلق الله ذوي إرادات حرة.

٥ - ٧ - فأما من أنفق ماله في سبيل الله، واتقى عذاب الله فيما أعطى، وفي كل أقواله وأفعاله الإرادية الظاهرة والباطنة، الجسدية والنفسية، وأيقن بالشرعية الحسنى المُفضَّلة في الحُسن عن كل ما سواها، فسُنَّته ونعطيته من المعونات والإمدادات بالقوى الجسدية والنفسية ما يُهوِّن عليه سلوك الصراط المستقيم الذي يستحق به الأمور اليسرى، مما يكافئ الله بها عبده المؤمن، فينال نصيباً منها في الحياة الدنيا، وفي البرزخ، والحشر والحساب، وينال الجزء الأوفى الخالد في جنات النعيم.

٨ - ١١ - وأما من يخل بالنفقة على الفقراء والمساكين وذوي الحاجات، واستغنى بأمواله عن ربه، وكذب بالملة الحسنى، فسُنَّته لاختيار الأسباب والوسائل المُسَخِّرة له حتى تنتهي حياته للأمور العسرى، التي تورث الخسران في الدنيا والآخرة، جزاء له على استغناؤه عن ربه، وعدم إنفاق ماله في الخير، وتكذيبه بالحسنى. وأي شيء يُغني عنه ماله الذي يخل به إذا هوى في جهنم؟

١٢، ١٣ - إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة، حتى يعرف الناس ما هو مطلوب منهم في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، ولا يكون لهم عذر بالجهل، وإن الآخرة والدنيا، وكل ما فيهما، ومن فيهما، ملك لنا، فنحن المُمْتَحَنُونَ في الأولى، ونحن المحاسبون والمُجَازُونَ في الأخرى.

١٤ - فأعلمتكم - أيها الناس - مخوفاً لكم ناراً تتوهج وتتوقد من شدة إيقادها، وهي نار جهنم.

١٥، ١٦ - لا يحترق بلهبها، ولا يُقاسي حرّها إلا الأكثر شقاءً بسبب كفره عناداً وإصراراً، الذي كَذَّبَ برسالة الرسول الحُسنَى، وأدبر مُتبعداً عن الإيمان بها.

١٧ - ٢١ - وسيُبعد عن هذه النار الذي بَلَغَ كمال التقوى، بفعل كلِّ ما أوجِبَ الله، وترك كلَّ ما حَرَّمَ الله، الذي يُعطي ماله مُخلصاً، جاهداً في تزكية نفسه وتطهيرها، يطلب به أن يكون عند الله زاكياً، لا يطلب بما ينفقه رياءً ولا سمعةً، وما لأحد عنده من نعمة كان قد أنعم بها عليه يُكافئه عليها، ولكن يُؤتي ماله طَلَبَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعلى ومرضاته، ولَسَوْفَ يَرْضَى بما يُعطيهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الآخرة من الجنة والخير والكرامة؛ جزاءً على ما فعل.

سُورَةُ الضُّحَىٰ

١، ٢ - أقسم الله سبحانه بوَثِّ الضُّحَى من ارتفاع الشمس حتى زوالها عن كبد السماء وسط النهار، والليل إذا سَكَنَ فاستقرَّ ظلامه، فلا يزداد بعد ذلك.

٣، ٤ - ما تَرَكْكَ رَبُّكَ - يا رسول الله - منذ اختارك، ولا أَبْغَضَكَ منذ أَحْبَبَكَ، والذي أعطاك ربُّكَ في الآخرة خيرَ لك وأعظم من الذي أعطاك في الدنيا.

٥ - وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ - يا رسول الله - عطاءً عظيماً من خَيْرِي الدنيا والآخرة معاً فترضى بما أعطاك رضا تاماً، وقد أعطاه الله في الدنيا النصر والظفر على الأعداء، وكثرة الأتباع والفتوح، وأعلى دينه، وجعل أمته خير الأمم. وأعطاه في الآخرة الشفاعة العامة والخاصة، ومقامات وكرامات لا يحيط بها إلا المنعم المئان.

٦ - أَلَمْ يَجِدْكَ اللهُ يَتِيماً صَغِيراً حين مات أبوك، فَجَعَلَ لك ماوًى تَأْوِي إليه، وضمَّكَ إلى مَنْ قام بأمرِكَ، وأحسن تربيَتِكَ؟

٧، ٨ - وَوَجَدَكَ غَافِلاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة التي لا تهتدي إليها العقول وحدها، فهداك إلى مناهجها فيما أوحى إليك، وعلمك منها ما لم تكن تعلم؟ وَوَجَدَكَ فَقِيْراً لا مال لك، فأغناكَ، وأرضاك بما أعطاك؟

٩ - ١١ - فقابل هذه النعم الثلاث التي أنعمت بها عليك، بالشكر الملائم لها؛ فأما اليتيم فلا تُذِلُّهُ ولا تُؤْذِيهِ بأي نوع من أنواع الأذى، وأما السائل ذا الحاجة إلى مال أو علم فلا تزجره ولا تُغلظ له القول، ولا تبس في وَجْهِهِ، بل أسعفه بمطلوبه، وأما بنعمة ربِّكَ التي أنعم بها عليك باصطفائك للنبوة والرسالة، فحدث، بتبليغ الناس وتعليمهم وهدايتهم إلى سلوك الصراط المستقيم، شكراً لله على ما مَنَّ به عليك من هداية.

سُورَةُ الشُّرَحِ

١ - ٤ - قد فتحنا لك صَدْرَكَ ووسّعناه للإيمان والنبوة والحكمة، وجعلناه منبسطاً راضياً، ومتحملاً لأعباء حمل الرسالة وتبليغها للناس، ومتحملاً أخلاقهم، وخططنا عنك ما أثقل ظهرك من هموم كبرى لإصلاح قومك، وإنقاذ البشرية من خباثتها وظلمها وفسادها، فبين لك وسائل التبليغ، وأساليب التربية والإصلاح، فألقى عنك كلَّ همومك، بما أوحى إليك من تعليمات وأوامر ربّانية توضّح لك منهج دعوتك، وأعليناك لك - يا رسول الله - ذكرك الحسن، إذ جعلتك رسولاً، واستمرَّ عطائي لك حتى إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معي في الأذان والإقامة والشهيد، وغير ذلك.

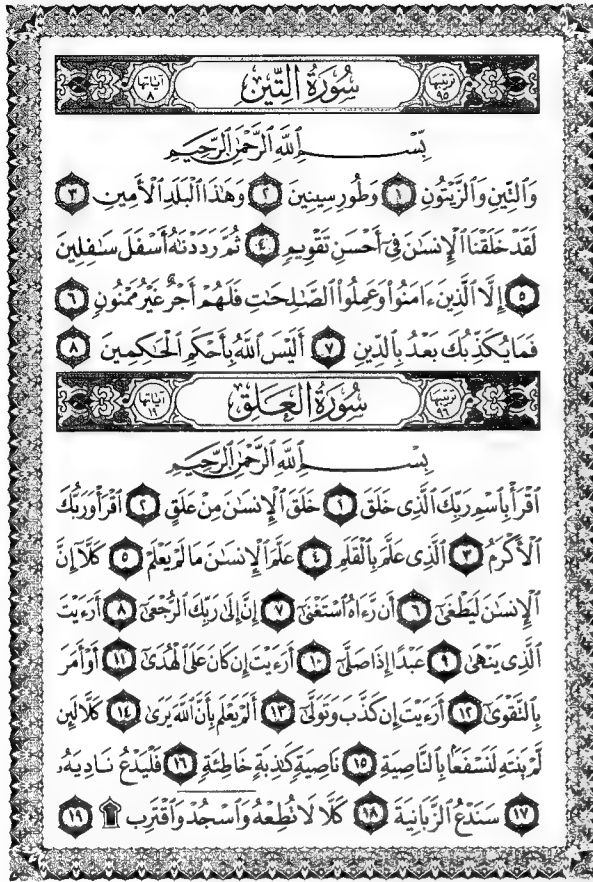
٥، ٦ - فَإِنَّ مع الشدة التي أنت فيها - من جهاد المشركين - يُسرّاً ورحاءً عاجلاً، بأن يُظهركَ اللهُ عليهم حتى ينفادوا للحق الذي جئتهم به، إِنَّ مع العسر يُسرّاً كثيراً كذلك. فكن على أمل بالمستقبل، وتَلَقَّ الأحداث الحاضرة المؤلمة بالرضا والتسليم، وبنفس منسريحة مشحونة بالأمل فيما سيأتي، صابرة على العُسْر الواقع، فالنفس المشحونة بأمل اليُسْر القادم، يضمُر لديها ألم العُسْر القائم، ومنتظر الفجر القريب لا يشعر بظلمة الليل القاتم.

٧، ٨ - فإذا قَرَعْتَ من عمل نافع مفيد يُقَرِّبُكَ إلى الله، فاجتهد في عمل نافع جديد، وأتعب نفسك فيه، ولا تُخلي وقتاً من أوقاتك فارغاً، ولا تتركن إلى الراحة والدعة، وإلى ربِّكَ - وحده - فتَضَرَّع، واجتَلِ رغبتك إلى الله تعالى في جميع مطالب دنياك وآخرتك، وترفع عما في أيدي الناس، فهو - وحده - القادر على إجابتك وإسعافك.

سُورَةُ التِّينِ

سُورَةُ التِّينِ سُورَةُ الْحَقِّ

الْبَيْتِ الْفَلَاكِ



١ - ٦ - أقسم سبحانه بأفضل مهابط الشرائع الإلهية المباركة، مهبط نزول الوحي على عيسى عليه السلام، وإنزال الإنجيل عليه في البقعة المباركة من فلسطين التي ينبت فيها التين والزيتون المباركين، وأقسم بطور سيناء مهبط نزول التوراة على موسى عليه السلام، وأقسم بهذا البلد الآمن، وهو مكة المشرفة مهبط وحي الله لخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ. لقد خلقنا الإنسان في أعدل قامة، وأحسن صورة، ومنحناه أكمل صفات منحناها لمن خلقنا من عبادنا، فأعطيناه مصغرات من العلم والإرادة الحرة والعقل والتمييز والمنطق، فحال هذا الإنسان المكرم يستدعي إنزال هذه الرسائل القيمة المشتملة على الدين القيم. ثم أرجعنا - بمقتضى القوانين الجزائية العادلة - عن مرتبة التفضيل إلى أحط الدرجات وأخسها في نار جهنم، باختياره لنفسه الجحود والكفر والطغيان. لكن الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً بالأركان الإيمانية الستة، وعملوا الصالحات، لهم نعيم دائم غير مقطوع، يخلدون فيه في جنات النعيم، بحسب إيمانهم وصالحات أعمالهم.

٧، ٨ - فأني شيء يحملك - أيها الإنسان - بعد أن خلقتك ربك في أحسن تقويم، على أن تكذب بالحساب والجزاء؟ أليس الله بأفضل الحاكمين الذين يحكمون بالعدل على أعمال العباد، لا يترك الخلق سدى، فلا يحاسبهم ولا يجازيهم؟ وهو سبحانه منزّه عن العبث، واللهو واللعب.

سُورَةُ الْحَقِّ

١ - ٥ - اقرأ - يا رسول الله - ما أنزل الله عليك، مُفْتَتِحاً وَمُسْتَعِيناً باسم ربك على ما تتحمّله من النبوة وأعباء الرسالة، الذي خلّق جميع الخلائق، خلق كل إنسان من قطعة دم جامد متعلّق بالرحم. اقرأ - يا رسول الله - وربك الأكرم من كل كريم الذي يمدك بفيوض المعارف فوق حدود المعاني التي تدلّ عليها الألفاظ المكتوبة، الذي علّم بالقلم الخطّ والكتابة، علّم الإنسان من أنواع العلم والهداية والبيان ما لم يكن يعلم، كالإدراك الحسي للأشياء عن طريق حواسّه الظاهرة والباطنة، والإدراك العقلي القائم على الأصول الفكرية التي فطره الله عليها.

٦ - ٨ - زَجْراً وردعاً عن رفض الاستجابة لهذه الرسالة الربانية المنزلّة؛ إنّ الإنسان ليتجاوز الحدّ ويستكبر على ربه، ويؤمن في جحوده لخالقه؛ من أجل أن رأى نفسه مُمْتَلِكاً الأشياء التي تجعله غنياً عن غيره، غير محتاج إلى أحد، كالمال، والقوة، والسلطان، والعلم، والصحة، والأتباع والأنصار. إنّ إلى ربك وحده - يا رسول الله - المرجع في الآخرة؛ للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

٩ - ١٢ - أرايت - أيها الرائي المتفكّر - هذا الطاغية الجبار (وهو أبو جهل وأمثاله من الطغاة الكافرين) الذي يمنع المصلين عن صلاتهم، ويضطهدهم من أجل معتقداتهم!! أرايت - أيها الرائي المتفكّر - إن كان المنهي عن الصلاة (وهو النبي محمد ﷺ) ومن اقتدى به من أمته على الهدى عقيدة وعبادة، أو كان اضطهاده من أجل أنه دعا الناس إلى الهدى، وأمرهم باتقاء عذاب الله بطاعته في أوامره ونواهيه؟!

١٣، ١٤ - أرايت - أيها الرائي المتفكّر - صنفاً آخر من الناس، وهو صنفٌ افْتَصَرَ على التكذيب بالرسالة الربانية، والابتعاد عنها، ألم يعلم بأنّ الله يراه، ولا بدّ أن يجازيه على تكذيبه وإدباره عن الاستجابة لدعوة الحق الربانية؟!

١٥ - زَجْراً وردعاً لهذا الطاغية المضل؛ والله لئن لم ينته عن اضطهاد المؤمنين الذين يعبدون ربهم، لثُجَابِزَتْهُ بالضرب على مُقَدِّم رأسه، ونقبض عليها ونجذب منها إلى حيث نُزِّل به العذاب.

١٦ - ١٨ - جهازُ الفهم والتفكّر ومنابع الإرادات في مُقَدِّم رأسه، كاذب خاطيء يأتي الذنب متعمداً، فليُدْعَ أهل مجلسه وعشيرته، وكلّ أنصاره مُسْتَنْصِراً بهم، سَنَدُخْ ملائكة العذاب الغلاظ الشداد لتعذيبه.

١٩ - زَجْراً وردعاً لهذا الطاغية الضال المضل. لا تطع - يا رسول الله - ولا كلّ مؤمن - من ينهاك عن إيمانك الحق، وصلاتك لربك، وواظب على صلاتك، واسجد لله تعالى، واقترّب بسجودك منه خضوعاً وذلاً وتضرعاً.

سُورَةُ الْقَدَرِ

سُورَةُ الْقَدَرِ سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

الْبَيِّنَةُ الْبَيِّنَاتِ

١ - إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الْوَحْيِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ وَالْقُدْرَةِ وَالْفَضْلِ، وَتَقْدِيرِ الْأُمُورِ وَالْأَحْكَامِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْأَجَالِ الَّتِي يُظْهِرُهَا اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ وَيَأْمُرُهُمْ بِتَنْفِيزِهَا. وَلَيْلَةُ الْقَدَرِ هِيَ إِحْدَى لَيَالِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، قَدْ أَخْفَاهَا اللَّهُ لِيَجْتَهِدَ الْمُؤْمِنُونَ الْعَابِدُونَ فِي التَّمَسُّكِ طَوَالَ هَذِهِ اللَّيَالِي، حِرْصاً عَلَى اغْتِنَامِ بَرَكَاتِهَا.

٢ - وَأَيُّ شَيْءٍ يَبْلُغُ دَرَايَتَكَ قَدْرَهَا، وَمَبْلَغَ فَضْلِهَا؟ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَهْمَا انْطَلَقْتَ سَابِحاً فِي التَّصَوُّرِ مَبْلَغَ مَكَانَةِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْعَظِيمَةِ، إِلَّا إِذَا أَعْلَمْنَاكَ بِذَلِكَ.

٣ - مِنْ فَضْلِ لَيْلَةِ الْقَدَرِ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ فِيهَا أَكْثَرُ ثَوَاباً، وَأَعْظَمَ فَضْلاً مِنَ الْعَمَلِ فِي أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدَرِ، لَمَّا يُنْزَلُ اللَّهُ فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ. فَمَنْ أَحْيَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِالْعِبَادَاتِ وَالْقُرْبَاتِ وَالِدُعَاءِ وَالذِّكْرِ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ، كَمَا لَوْ عَبَدَ اللَّهَ وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ فِي مُدَّةٍ تَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِينَ أَلْفاً مِنَ الْأَيَّامِ الْآخِرَى، وَهِيَ تَعَادِلُ ثَلَاثًا وَثَمَانِينَ سَنَةً وَثَلَاثَ السَّنَةِ، وَهَذَا عَمْرٌ قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُبْلَغُهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ طَوَالَ عَمْرِهِ؟!

٤ - تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ بِشَكْلِ مُتَتَابِعٍ مُتَلَحِّقٍ عَلَى أَفْوَاجِ بَرْنَاةِ الرُّوحِ الْعَظِيمِ الْكَامِلِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ مَنَازِلِهِمْ فِي السَّمَوَاتِ الْعُلْيَا إِلَى الْأَرْضِ؛ لِيَشْهَدُوا مَوْسِمَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلِيَقُومُوا بِوُضَائِفِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ الَّتِي يَكْلِفُونَهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أَوَامِرِ تَدْبِيرِ اللَّهِ لَخَلْقِهِ.

٥ - أَمَانٌ مِنَ الشَّرِّ وَالسُّوءِ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ يَدُومُ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ.

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

١ - لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ مُتَّبِعِينَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَشُرَكَائِهِمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ الَّتِي وَعَدُوا بِهَا فِي



الكتب السابقة.

٢ - تِلْكَ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ هِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ رَسُولٌ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ الشَّامِلَةِ، يَقْرَأُ كِتَابًا مُطَهَّرًا مِنْ أَيْدِي الْمُتَلَاعِبِينَ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَمِنْ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، وَالْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ وَالزُّورِ، وَالْإِخْلَافِ وَالشَّبَهَاتِ. وَفِي هَذِهِ آيَاتُ إِعْجَازٍ مِنَ الْقُرْآنِ بِإِخْبَارٍ عَنْ أَمْرٍ غَيْبِيٍّ، وَهُوَ كِتَابَةُ هَذَا الْقُرْآنِ فِي الصُّحُفِ، إِذْ أَنَّهُ لَمْ يَنْزَلْ صَحْفًا، بَلْ وَحِيًّا عَلَى قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَسَيَبْقَى مُحْفُوظًا مُطَهَّرًا مِنَ التَّلَاعِبِ وَالتَّغْيِيرِ.

٣ - فِي تِلْكَ الصُّحُفِ أَخْبَارٌ صَادِقَةٌ، وَأَحْكَامٌ عَادِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ، قَائِمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بِالْحُجَّةِ. فَكُلُّ سُورَةٍ مِنْ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هِيَ كِتَابٌ قِيمٌ عَظِيمٌ جَامِعٌ وَمُعْجَزٌ، وَكُلُّ عِلْمٍ جَاءَ بِهِ، وَكُلُّ عَالَمٍ أَخْبَرَ بِهِ هُوَ كِتَابٌ قِيمٌ، وَإِنْ عُلُومُهُ وَمَعَارِفُهُ لَا تَنْتَهِي. فَهَذَا الْقُرْآنُ يَشْتَمِلُ عَلَى الْكُتُبِ السَّابِقَةِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَصَحْفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَنْ ثَمَّ حَقٌّ لَهُ أَنْ يَكُونَ أَكْبَرُ مُعْجَزَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، شَاهِدَةٌ لَهُ بِصِدْقِ نُبُوَّتِهِ، وَعَمُومُ رِسَالَتِهِ لَجَمِيعِ الْعَالَمِينَ، وَحُجَّةٌ قَائِمَةٌ لَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ وَالْأَجْيَالِ عَلَى مَدَى الْأَزْمَانِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

٤ - وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْكِتَابِ الْقُرْآنِيِّ الْجَامِعِ لِلْكُتُبِ الْقِيَمَةِ، إِلَّا مِنْ بَعْدَمَا جَاءَتْهُمْ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ فِي كِتَابِهِمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، فَكَانُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَى تَصْدِيقِهِ ﷺ، فَلَمَّا بُعِثَ تَفَرَّقُوا فِي أَمْرِهِ وَاخْتَلَفُوا، فَأَمَّنَ بِهِ بَعْضُهُمْ، وَكَفَرَ بِهِ آخَرُونَ.

٥ - وَمَا أَمَرَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُ بِكُلِّ أَوَامِرِ التَّكْلِيفِ الَّتِي أُنْزِلَتْ إِلَيْهِمْ، وَبَلَّغَهَا رُسُلُهُمْ إِلَّا لِأَجْلِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، قَاصِدِينَ بِعِبَادَتِهِمْ وَجْهَهُ، مَائِلِينَ عَنِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ فِي أَوْقَاتِهَا، وَيُؤَدُّوا الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ لِلْمُسْتَحِقِّينَ لَهَا، وَذَلِكَ الَّذِي أَمَرُوا بِهِ الْمِلَّةَ الْمُسْتَقِيمَةَ وَالشَّرِيعَةَ الْمَتَّبِعَةَ.

٦ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَعَبَدَةِ الْأَوْثَانِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، مَا كَثُرَتْ فِيهَا، لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، أُولَئِكَ الْبُعْدَاءُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الْمُنْحَطُونَ فِي الدَّرَكَاتِ هُمْ - وَحْدَهُمْ - أَشَدُّ الْخَلْقِ شَرًّا، اسْتَحَقُّوا هَذَا الْوَصْفَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ.

٧ - إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا تَصْدِيقًا إِرَادِيًّا قَلْبِيًّا حَازِمًا بِكُلِّ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ مِنَ الْأَرْكَانِ الْإِيمَانِيَّةِ السَّتَةِ، وَعَبَّروا بِسُلُوكِهِمْ الْإِرَادِيَّ فِي أَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ وَظَاهِرَةٍ عَنْ صِحَّةِ إِيْمَانِهِمْ وَصِدْقِهِمْ فِيهِ، أُولَئِكَ رَفِيعُ الدَّرَجَةِ وَالْمَنْزِلَةِ هُمْ أَفْضَلُ النَّاسِ وَأَكْثَرُهُمْ خَيْرَةً، اسْتَحَقُّوا هَذَا الْوَصْفَ بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمُ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، وَأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ.

٨ - جزاؤهم عند ربهم يوم القيامة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة، جئات إقامه خالدة في نعيم مقيم، تجري من تحت قصورها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، رضي الله عنهم بما عملوه من الأعمال الصالحة، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخير والكرامة، ذلك الجزاء والرضا لمن خاف ربه في الدنيا وأحبه وعظمه، وانتهى عن المعاصي، والتزم أحكام دينه القويم.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

١، ٢ - إذا تحركت الأرض حركة شديدة، واضطربت اضطراباً عنيفاً، وذلك في أوقات مختلفة، فأول زلزالها قبيل الساعة، فتخرج ما فيها من معادن وذهب وفضة، وعند ساعة إنهاء ظروف الحياة الدنيا، التي تأتي بعدها ساعة البعث إلى الحياة الأخرى، فيأمرها الله تعالى أن تخرج الأموات من بطنها، فتتقاد لأمر الله سبحانه. .

٣ - وقال الإنسان حين وقعت الزلزلة: ما لها تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة، وأخرجت ما في بطنها؟

٤، ٥ - يوم القيامة تُحدث الأرض بكل ما عُمل على ظهرها من خير أو شر، فتشكو العاصي، وتشهد عليه، وتشكر الطائع، وتشهد له؛ بسبب أن ربك أمرها بالكلام، وأذن لها أن تُخبر بما عمل عليها. وفي تحديث الأرض بأخبارها دليل على ثبوت شعورها، وإدراكها لما يجري على ظهرها، فهي سوف تشهد يوم القيامة بما عُمل على ظهرها، وهذه الشهادة لا تكون إلا عن علم ومُشاهدة، فلولا أن لها إدراكاً وشعوراً لما علمت، ولما تحملت هذه الشهادة حتى أذنها يوم القيامة، فإن الشهادة لا تقبل إلا ممن تحمّل العلم المشهود به.

٦ - يوم تقع هذه الزلزلة وما بعدها من الأهوال، ينصرف الناس عن موقف الحساب بعد العرض مُتفرقين؛ ليُرَوّ جزء أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

٧ - فمن يعمل مقدار ذرة خيراً ظاهراً أو باطناً من عمل قلبي أو نفسي أو جسدي يكسبه بإرادته في الحياة الدنيا، ير كتاب أعماله مُسجلاً بالصورة والصوت والخواطر والنيات، وينال ثواب عمله الذي عمله في الدنيا، خيراً باقياً، وسعادة خالدة، وثواباً حسناً.

٨ - ومن يعمل مقدار ذرة شراً من عمل قلبي أو نفسي أو جسدي يكتسبه بإرادته في الحياة الدنيا، ير كتاب أعماله مُسجلاً بالصورة والصوت والخواطر والنيات، وينال عقاب عمله الذي عمله في الدنيا.

سُورَةُ الْعَادَاتِ

١ - أقسم الله تعالى بالخيال الجارية بسرعة في سبيله، حين يُسمع صوت أنفاسها من سرعة عذوها.

٢ - فالخيال التي تُخرج شرر النار من الأرض بوقع حوافرها، واندفاعها في سبيلها.

٣ - ٥ - فالخيال تُغير بفرسانها على العدو عند الصباح لمباغته الأعداء في منازلهم، فأثارت الخيول العاديات بجريها السريع عند إغارتها، وضرب حوافرها على الأرض، غباراً ساطعاً في الجو، يسترها ويخفي أعدادها، ويزيد إلقاء الرعب في قلوب القوم الذين تُغير عليهم، فتوسطن بركانهن جموع الأعداء، ففرقنها وشتتتها.

٦ - إن الإنسان لينعم ربه وخالقه ورازقه ومُده يعطائه لكفور جحود، إذ سخرت له الخيل بكل ما فيها من صفات ملائمت لنشر ديني، وإعلاء كلمتي، فاستعمل ما سخرت له في البغي والإثم والعدوان على الآمين.

٧ - وإنه على كفر النعمة وجحودها لشهيد على نفسه، يُجاهر به، ويفاخر بفعله، إذ يزعم أن الغزو للسلب والنهب، والاستعلاء في الأرض، حق الأقوى على الأضعف.

٨ - وإن الإنسان لأجل حب المال وحرصه عليه لشديد قوي في البغي والظلم والعدوان.

٩ - أيفعل ما يفعل من القبائح، فلا يعلم هذا الإنسان مآله إذا أثير وأخرج ما في القبور من الموتى، فبُعثوا للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء؟

جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ٨

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ٣ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ٤ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ٨

سُورَةُ الْعَادَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادَاتِ صَبَاحًا ١ فَالْمُورِتِ قَدَحًا ٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ٣ فَأَنْزِلْنَاهُ نَقْعًا ٤ فَتُوسِّطُنَّ بِهِ جَمْعًا ٥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧ وَإِنَّهُ لَكَبِيرُ الْحَقِيرِ ٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَاهُ فِي الْقُبُورِ ٩

١٠ - وميّز وأبرز ما كان مُضمراً في الصدور من النيات والغايات والعقائد المُستقرّة فيها من إيمان وكفر ونفاق، ومانضمه الصدور من حب وكرهية وبغض، وحقد وحسد.

١١ - إنّ ربّهم بهم يوم البعث والحساب لعليمّ علماً كاملاً شاملاً، لكلّ ظواهر الأشياء وبواطنها، علم حضور وشهود، فيحاسبهم على أعمالهم من الخير والشر محاسبة دقيقة عادلة، وخَصَّ يوم القيامة بالذكر، وهو عالم بهم في جميع الأزمان؛ لأنّ الجزاء يقع فيه.

سورة القدر

١ - ٣ - المصيبة العظيمة المُفاجئة التي تُفزع القلوب بالفزع والشدائد، ويموت جميع الخلائق من شدة صوت نفخة إسرافيل في الصور، إنها فاقّت جميع القوارع في الهول والشدة، وأعظم بهول أحداث القارة إعظماً لا تصل إليه درايتك؛ لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها فهم أحد، وكيفما قدرّت فهي أعظم من ذلك؟

٤ - إنها حادثة عظيمة مهولة تنتهي بها ظروف الحياة الدنيا، يوم يكون الناس في انتشارهم وتفرّقهم وتطايروهم عن سطح الأرض، منبئين لا أوزان لهم، طائشين في كل اتجاه، كالفراس المتشتر المتفرّق.

٥ - وتكون الجبال العظيمة الصلدة في تفرّق أجزائها وتطايروها كالصوف الملوّن المندوف.

٦، ٧ - فأما من رجّحت موازين حسناته على سيئاته، فهو في عيشة مرضية هنيئة في الجنة؛ إذ ينال في الجنة كلّ ما يطلبه من نعيم، وفوق ما يطلبه من فيوض عطاء الله، حتى يكون راضياً، غير متكرّر من حرمان أو نقصان عما يطلب أو يتمنى.

٨، ٩ - وأما من خفّت موازين حسناته على سيئاته، فمُستقرّه الذي يَسْتَقِرُّ فيه، والمكان الذي يضمّه، جهنّم، يهوي بها على أم رأسه في مهوأة لا يُدرّك قعرها.

١٠ - وأعظم بالأمر إعظماً لا تصل إليه درايتك: ما هي هذه الهاوية؟

١١ - نارٌ عظيمة جداً، حامية شديدة الحرارة. نعوذ بالله وعظمته منها.

سورة التكاثر

١، ٢ - شغلّتكم المُفَاخَرَةُ والمُبَاهَاةُ والمُكَاتَرَةُ بكثرة المال والأولاد والأعوان عن طاعة الله ربّكم وما ينجيكم من سخطه، حتى مَثُمّ ودُفِنتم في المقابر في مدة حضور مؤقّت تنتهي بالبعث إلى الحياة الأخرى.

٣، ٤ - ارتدعوا وازدجروا عن الاستكثار من التكاثر في أمور دنيائكم الفانية التي ألّهتكم عن أمور آخرتكم الباقية، سوف تعلمون علماً جازماً مطابقاً للواقع عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت، ثم بعد مدة البرزخ سوف تعلمون عين اليقين تلك العاقبة في موقف الحشر بعد البعث إلى الحياة الأخرى، إذ تُحشرون إلى قرب النار، فتشاهدونها بأعينكم.

٥ - ما هكذا ينبغي أن يشغلّكم التكاثر والتفاخر بالأموال والأولاد، لو تعلمون علماً يقيناً أنّ الله باعثكم بعد الموت لشغلّكم ما تعلمون عما أنتم عليه من التكاثر والتهالك على الدنيا، ولَسَعَيْتُمْ لآخرتكم سعياً يُحقّق لكم النجاة من عذاب الجحيم، والظفر بجنّات النعيم.

٦، ٧ - أقسم لكم - أيها الناس - وأؤكد، أنكم سترون الجحيم بأبصاركم بعد الموت، ثم أقسم لكم وأؤكد أنكم ستشاهدونها في موقف الحشر عياناً دون ريب.

٨ - ثم أقسم وأؤكد أنكم ستسألون سؤال تحسير وتنديم، وأنتم تُعذّبون في نار الجحيم، عن النعيم الذي يتنعم به أهل الجنة وهم فيها، فتزدادون حسرة وندامة وألماً، على ما فاتكم من السعادة الأبدية بسبب كفركم وتكذيبكم، وسلوككم سبل المجرمين.

فالكفار منكرو عذاب النار بتحقيق لهم العلم بما كانوا له منكرين منذ ملامستهم عتبة الموت، ويرافقهم طول مدة البرزخ، ويُسمّى هذا العلم علم اليقين، ثم يكون العلم عن مشاهدة ومعاينة، وهذا العلم يكون في موقف الحشر؛ إذ يحشرون إلى النار فيشاهدونها، ويُسمّى هذا العلم: عين اليقين، ثم يكون العلم عن طريق الإحساس الجسدي حين يذوقون عذاب النار في الجحيم، ويُسمّى هذا العلم: حق اليقين، لتحققه في الواقع تحقّقاً تاماً.

والتلويح على التكاثر من متاع الحياة الدنيا، يتناول في هذه السورة الكافرين، لأنهم هم المخاطبون بما جاء فيها، وفيه تحذير للمؤمنين من أن يلهمهم التكاثر من متاع الحياة الدنيا، وينسيهم كثيراً من واجباتهم، ويجعلهم يقعون في المعاصي والآثام حتى الكبار حتى الكفر.

سُورَةُ الْعَصْرِ

الْبَيْتُ الْخَامِسُ

سُورَةُ الْعَصْرِ

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ٣

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزٍ لُزْمَةً ١ الَّتِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدَ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ٣ كَلَّا لَيَكْبَدَنَّ فِي الْخُطْمَةِ ٤ وَمَا آدَرْنَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ٦ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْفَدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ٨ فِي عَمْرِئٍ مُّمدَّدَةٍ ٩

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ٥

١، ٢ - أقسم الله سبحانه بالوقت الذي يمرُّ به عُمر الإنسان، ويجري من غَيْب المستقبل إلى غَيْب الماضي، ولا ينتفع منه إلا لحظة الحاضر إذا انتفع منه لآخرته، إِنَّ الإنسان لفي خُسْران ونُقْصان، بتضييع عمره في معصية الله، واشتغاله بالدنيا واستغراقه في طلبها.

٣ - إلا الذين استثناهم الله من عموم الإنسان الذي هو في خسر، وهم الذين تحقّقوا بأربع صفات: **الصفة الأولى:** الذين آمنوا بالأركان الإيمانية الستة إيماناً صحيحاً صادقاً، وهذه الصفة عنوان الارتقاء الفكري، والتّصميم الإرادي، حول القضايا الإيمانية الكبرى، **والصفة الثانية:** عملوا الصالحات التي تشمل كلّ عمل من أعمال الخير التي يدفع إليها الإيمان، ويدعو إليها الإسلام، وهذه الصفة عنوان الارتقاء السلوكي في الحياة، **والصفة الثالثة:** أوصى بعض المؤمنين بعضاً بالتمسك بالحقّ: اعتقاداً وقولاً وعملاً، وهو يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة العامة، والدعوة إلى الله. والتواصي بالحق يخدم ركن الإيمان، وما يستدعيه من كلّ قضية حق. **والصفة الرابعة:** أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الطاعات، والصبر عن المُحرّمات، والصبر على البلاء والمصائب، وتحمل الأذى في سبيل الله، والثبات على ذلك. والتواصي بالصبر يخدم ركن العمل الصالح، وذلك لأنّ الأعمال الصالحة لا يقوم بها الإنسان ما لم يكن عنده من الصبر ما يحمل به عبء مخالفة أهواء النفس وشهواتها.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

١ - عذاب شديد وهلاك يوم الدين في وادٍ من أودية جهنم لكلّ عيَاب للناس طعَان في أعراضهم.

٢ - والسبب في طعنه الناس وسخريته منهم: إعجابه بما جمع من مال كثير أحصاه وكرّر إحصاءه مرّات متعدّدة؛ حباً له وشغفاً به.

٣ - يظنّ ظناً ضعيفاً توهُمياً مع كلّ زمن يتجدّد له في الحياة أنّ ماله هو الذي أبقاه عزيزاً في قومه، ذا مكانة اجتماعية رفيعة.

٤ - لا يُخلّده ماله، والله يُطْرَحَنَّ بسبب أفعاله الفاسدة في النار التي تأكل اللحوم وتكسر العظام بعنف وشدة.

٥ - وأعظم بالأمر إعظاماً لا تصل إليه درايتك - أيها المخاطب - عن حقيقة هذه النار؟ إنها نارٌ ليست كسائر النيران.

٦، ٧ - نار الله المُسْعِرة الشديدة اللهب لا تَحُمَدُ أبداً، التي تأكل كل شيء حتى ينتهي إليها ووجعها إلى داخل القلوب.

٨، ٩ - إنّ النار المُوقَدَةُ على الكفار مُطبَّقة مُغلقة الأبواب، لا يستطيعون الخروج منها، مشدودون إلى عمِدٍ ممدودة، فلا حركة لهم فيها، ولا خلاص لهم منها. وقانا الله شرّها، وأجارنا منها.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

١، ٢ - قد رأيت - أيها الرائي - عن طريق العلم اليقينيّ الخَبْرِيّ، المُمَثِّل للروية البصريّة كيف فعل ربُّك بأصحاب الفيل، وهم أبرهة الحبشي وجيشه الذين قصدوا تدمير الكعبة المُشَرَّفة؟ فاعتبر بهذا الحدث التاريخي المتضمّن سُنّة من سُنن الله في عباده. ألم يجعل مكرهم وسعيهم الباطل في تضييع وخسار وإبطال، فلم يصلوا إلى ما أرادوا من تخريب البيت، بل رجع كيدهم عليهم، فخرّب كنيسهم واحترق، وهلكوا.

٣ - ٥ - وأرسل عليهم طيراً كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضاً، تقذفهم بحجارة من طينٍ مُتَحَجَّر مُتَصَلِّب، فجعلهم كزراع وتبن أكلته الدواب من نباتات الأرض، ثم رآته، فیس وتفرقت أجزاءه.

وفي قصة أصحاب الفيل دلالة عظيمة على قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته، وفيها دلالة عظيمة على شرف محمد ﷺ، ومعجزة ظاهرة له، وذلك أنّ الله تعالى إنما فعل ذلك لنصر من ارتضاه، وهو محمد ﷺ الداعي إلى توحيده، وإهلاك من سخط عليه، فكانه قال: أنا الذي فعلتُ ما فعلتُ بأصحاب الفيل تعظيماً لك، وتشريفاً لقدومك، وإذ قد نصرتك قبل قدومك، فكيف أتركك بعد ظهورك؟

سورة قريش

١، ٢ - لأجل إيلاف قريش التجاري الذي تعاقدوا عليه مع قادة الأمم؛ لتأمين قوافل التجار، والسلع التجارية، الذي يسره لهم رب البيت، من أجل بيته وحرمة، والذي تمكنوا به من محبة واعتياد واتصال رحلتيهما في الشتاء إلى «اليمن» جنوباً، وفي الصيف إلى «الشام» شمالاً؛ للتجار وابتغاء الرزق وتحصيل المنافع.

٣ - فليخلصوا العبادة لرب الكعبة المشرفة المطهرة، بيت الله الحرام، وليشكروه على دفع الضر عنهم، وجلب النفع لهم.

٤ - الذي أطعمهم حامياً لهم من جوع شديد، بما هيأ لهم من أسباب الرزق ووسائله، وآمنهم حامياً لهم من خوف وفزع عظيم، بما هيأ لهم من أسباب الأمن ووسائله.

سورة الماعون

١ - تعجب - أيها الرائي المؤهل لأن يرى ويتفكر - من حال هذا الذي يكذب بقانون الجزاء الرباني المعجل منه في الدنيا، والمؤجل إلى يوم الدين؟

٢ - تجذ من صفات الذي يكذب بالدين أنه يقهر اليتيم، ويدفعه عن حقه وماله يعنف وغلظة.

٣ - ولا يطعم الجائع المسكين، ولا يأمر غيره بإطعامه؛ لأنه يكذب بقانون الجزاء الرباني، فتنزع من قلبه الخشية من عقاب الله، أو الطمع بثوابه، وتنمو في نفسه الأنانية الضيقة، ويفقد الرحمة الحانية.

٤، ٥ - فهلاك وعذاب شديد للمصلين، الذين هم عن صلاتهم - التي ورثوا بعض مظاهرها عن دين إسماعيل بن إبراهيم - غافلون تاركون، لا يرجون ثواباً على فعلها، ولا يخافون عقاباً على تركها.

٦ - الذين هم يظهرون للناس أعمالهم؛ لينالوا المنزلة في قلوبهم والثناء عليهم، إذ هم أهل الحرم، وسدنة بيت الله، وغيرها من الوظائف الدينية التي تحقق لهم مصالح ومنافع دنيوية، ولكنهم لا يتفنون بأعمالهم الصالحة التي يراؤون بها الناس، لأنها لم تقترن بإيمان صحيح، ولم يبتغ بها وجه الله عز وجل. وفي الآية: ذم الرياء، والحث على العارية، وهي: تملك منفعة مؤقتة بلا عوض.

٧ - والمكذبون بقانون الجزاء الرباني يمنعون بذل المعونات اليسيرات، التي لا يعبأ الناس بمقادير قيمها وأثمانها عن ذوي الحاجات لها من جيرانهم ومعارفهم.

سورة الكوثر

١ - إنا وهبناك وجعلنا لك - يا رسول الله - الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك: النبوة والكتاب والحكمة، وكثرة الأتباع، والنصر على الأعداء، والحوض المورود، والمقام المحمود، وهو الشفاعة العظمى يوم القيامة، ونهر في الجنة يمد حوضه الذي تشرب منه أمتة في موقف الحشر، حافظه خيام اللؤلؤ المجوف، وطينه المسك، عليه خير كثير.

٢ - فاعبد ربك الذي أعطاك هذا العطاء الجزيل، والخير الكثير، وأعزك وشرّفك على كافة الخلق، ورفع منزلتك فوقهم، فصل لربك خالصاً لوجهه، واشكره على إنعامه عليك، وانحر الإبل متقرباً إليه، وتصدق بها على المحتاجين.

٣ - إن عدوك ومبغضك - يا رسول الله - هو الأقل الأذل المنقطع عن كل خير، وأنت الأعز الأشرف الأعظم. فليس محمداً ﷺ أبتر - كما زعم المشركون - إذ لم يبق الله له ولداً ذكراً، يبلغ مبلغ الرجال، إنما الأبتر من لا عقب له من الخير، الخالد في الشقاء الأبدى.

وهذه الآية الكريمة تدل بنصها على أن مبغض رسول الله ﷺ وما جاء به من الهدى ودين الحق منقطع عن كل خير، وتدل بمفهومها ولازمها على أن محبه ﷺ هو متصل بكل خير في الدنيا والآخرة.

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا يَلْفُ قَرِيشٌ ۖ لَإِلَافِهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ
مِنْ جُوعٍ ۖ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۖ

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ ۖ فَذَلِكَ الَّذِي
يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ وَلَا يَحِضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ
فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۖ
الَّذِينَ هُمْ بِرِءَاوُنَ ۖ وَيَسْتَعُونَ الْمَاعُونَ ۖ

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكُوثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۖ
إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۖ

سُورَةُ الْكَافُرُونَ

الجزء الثاني

سُورَةُ الْكَافُرُونَ

١، ٢ - قل - يا رسول الله - بكلّ حزم وإصرار للمشركين الذين عرضوا عليك مفاوضاتهم التوفيقية بين الإيمان والكفر : يا أيها الكافرون الساترون أدلة الإيمان والإسلام بعد وضوحها، المُصرون على كفرهم بالله. لا أعبد الذي تعبدون من دون الله من الأوثان والآلهة الباطلة؛ لأن الإيمان لا يقبل التبعض، ولأنه حقّ كله، ولا يقبل الاختلاط والامتزاج بالباطل، ومتى امتزج بالباطل لم يعد صحيحاً مقبولاً عند الله تعالى.

٣ - ولا أنتم عابدون الذي أعبد، وهو الله - وحده - المُستحقّ للعبادة.

٤ - ولا أنا عابدٌ في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم الباطلة.

٥ - ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهي.

٦ - لكم كفركم الذي أصررت عليه، ولي إخلاصي وتوحيدي الذي لا أبغي غيره، ولن أستجيب لمساوماتكم الصلحية على حساب دين رباني لا يقبل التتصيف ولا المساومة في مبادئه وحقائقه الاعتقادية.

سُورَةُ النَّصْرِ

١ - إذا جاءك - يا رسول الله - نصرُ الله ومعونته على مَنْ عاداك من قريش، وتمّ لك فتح «مكة».

٢ - ورأيت الكثير من الناس يدخلون في دين الله زمراً وجماعات، القبيلة بأسرها، والقوم بأجمعهم من غير قتال.

٣ - وذلك علامة اقتراب أجلك، وقرب لحوقك بربك، فنزه ربك عما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، تنزيهاً مقترناً بالثناء على الله

بصفات كماله، وقل: «سبحان الله وبحمده»، وصلّ له شكراً، واطلب مغفرته لك ولأمّتك؛ إنّه كان كثير القبول لتوبة عباده.

وفي الآية دليل على فضيلة التسبيح والتحميد والاستغفار، حيث جعل الله تعالى ذلك كافياً في أداء ما وجب عليه ﷺ من شكر نعمة النصر والفتح. وكان ﷺ كثير الحمد والاستغفار بعد نزول هذه السورة.

سُورَةُ الْمَسَدِ

١ - أهلك الله عمّ النبي ﷺ أبا لهب، وقد هلك وتحقق خسرانه فيما تكسب يده من أموال يتقوى بها على حرب الرسول ﷺ ومقاومة دعوته، وفيما كسبه من أولاد كفره مثله يتقوى بهم ويعتز، وخسر في كل ما يكسب من أعمال بفكره، ولسانه، وبحركات جسده، وخسر كل ذاته في النار ذات اللهب التي هو صائرٌ إليها لا محالة.

٢ - ما نفعه ماله الذي اعتزّ به، وما نفعه ما كسب من أعمال، بل باء بالخينة والخسران.

٣ - وإذا جاء أجل موته، سيلقي العذاب والذلّ والصغار، سيدخل ناراً تلتهب عليه، تشويه بحرّها أنا فأنا بصورة مُتكرّرة متجددة؛ بدءاً من البرزخ بين الموت والبعث، ثمّ يكون عذابُه يوم الدين حريقاً بنار جهنّم، خالداً مُخلداً أبداً. فلا يُخدعته من نفسه أنّ قومه رأوا حمرة وجهه ووضاعته، فكثّوه بأبي لهب، فإنّ ظلمات نفسه وقلبه، وكفره، وسوء عمله، ستجعل جزاءه العادل؛ العذاب بالحريق بلهب النار.

٤ - سيدخل هو وامراته أم جميل بنت حرب بن أميّة، أخت أبي سفيان، ناراً ذات لهب، فهي تُعذب مثل عذابه؛ لأنها كانت مشاركة لزوجها في إيذاء الرسول ﷺ، أذمّ حمالة الحطب ذا الشوك الذي كانت تطرحه ليلاً في طريق النبي ﷺ إيذاءً له ولأصحابه، والتي كانت تمشي بالنميمة، لتفصي الناس عن الرسول ﷺ، وتقاوم دعوته.

٥ - في عنقها حبلٌ مُحكم من ليف شديد خشن، تُجرّ به الدوابّ المُحتفّرة كالحمير، فهي امرأةٌ حمقاء لا عقل لها، ولا رُشد عندها، ولا تعمل إلا وفقّ انفعالاتها ونزواتها الرّعاء، كالدابة المُحتفّرة التي يكفي لقيادتها حبلٌ خشنٌ من ليف، وسُطُوقٌ به في نار جهنم، إهانة وإذلالاً لها.

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

- ١ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن من أمته -: ربِّي الذي أدعو إلى الإيمان به، وعبادته وحده، هو الله المنفرد في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، لا يشاركه فيها أحد.
- ٢ - الذي له غاية الكمال في كلِّ الصِّفات، الغني بذاته عن كلِّ شيء، المقصود - وحده - في الحوائج والمطالب.
- ٣ - لم يلد، فلم يصدر عن ذاته ذاتٌ مشتقة منه، ولم يُولد، فلم تصدر ذاته عن ذاتٍ أخرى اشتقَّ هو منها، فهو الأول الذي لم يتقدّمه والدٌ كان منه، وهو الآخر الذي لم يتأخّر عنه ولدٌ يكون منه.
- وفي هذا ردٌّ على مشركي العرب الذين زعموا أنَّ الملائكة بنات الله، وعلى النصارى الذين زعموا أنَّ الله أبٌ لعيسى ابن مريم وأنه ابنه، وعلى مَنْ قال مثل مقالاتهم.
- ٤ - ولم يكن له من خلقه ممَّاثلٌ ومُساوٍ له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، في الماضي والحاضر والمستقبل، من الأزل إلى الأبد.

سُورَةُ الْفَلَقِ

- ١ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن من أمته -: ألوذُّ وأعتصم مُلتجئاً برَبِّ الخلق كُلِّهم، الذي يخلق خلقه وفق سُنَّةِ الْفَلَقِ، فلقَ عنها ظلمة العدم فأخرجها إلى نور الوجود. ومن خلقه: فلقُ الصبح؛ لأنَّ الليل ينشئ عن الصبح، فيظهر ضوء النهار، فالقادر على إزالة هذه الظلمة عن العالم قادرٌ على أن يدفع عن المُستعِذ به ما يخافه ويخشاه.
- ٢ - أستجير به سبحانه من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ من المخلوقات التي لا يدفع شرّها إلا خالقها.
- ٣ - ومن شرِّ ليلٍ شديد الظلمة إذا دَخَلَ وَتَغَلَّغَلَ، وما يكون فيه من الشرور والمُؤذيات، ومن شرِّ كلِّ شيءٍ يدخلُ مظلماً، فينصبُ في

- ثَقَبٍ، ويحمل بدخوله شراً للمدخل فيه. كالجراثيم الضارة المظلمة التي تدخل في مسامِّ الأجساد، وتتولد منها الأمراض والأسقام.
- ٤ - ومن شرِّ النفوس السَّوَّاحِر اللَّاتِي ينفخن فيما يعقدن من عُقَدٍ بقصد السحر.
- ٥ - ومن شرِّ حاسدٍ يتميَّ زوال النعمة عن غيره، إذا ألحق أذىً أو ضرراً على ذي نعمة.

سُورَةُ النَّاسِ

- ١ - قل - يا رسول الله ويا كلَّ مؤمن من أمته -: ألتجئُ وأعتصمُ بخالقِ الناس ومُربِّيهم وفق نظام التربية المتدرِّج حالاً بعد حال، القادر وحده على ردِّ شرِّ الوسواس المُعْغِي بفعل الشرور، وارتكاب المعاصي.
- ٢، ٣ - مَلِكِ النَّاسِ الْأَمْرِ الْمُتَصَرِّفِ فِيهِمْ عَلَى مَا يَشَاءُ، الْمُسْتَحَقُّ لِأَنْ يُعْبَدَ - وحده - جميع الناس؛ لأنه ربُّهم ومالكهم ومليكهم، فلا معبودَ بحقِّ سواه.
- ٤ - ٦ - أستجير به سبحانه من شرِّ الشيطان الذي يتأخّر ويختفي إذا ذكر العبدُ ربَّه، فإذا غَفَلَ أو نسي عاد الشيطان فوسوس في صدره، الذي يُلقِي في خُفْيَةِ الشَّرِّ والشكوك في صدور الناس، من شياطين الجنِّ والإنس التي تصرف الإنسان عن سبيل الرِّشَاد.

والله سبحانه أعلم بمراده وأسرار كتابه، وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد سيِّد المرسلين، وعلى آله وأصحابه، ومَنْ دعا بدعوته، وقام بنشر سُنَّتِهِ إلى يوم الدين. هذا، وقد أتمَّ الله النعمة بالتوفيق لإتمام كتابة هذا التفسير المختصر في صبيحة يوم الثلاثاء ٢٩ من شهر ذي القعدة من سنة ١٤٢٢ على يد جامعهِ الفقير إلى الله تعالى: مَجْدُ بْنُ أَحْمَدَ مَكِّي، عفا الله عنه بمَنِّهِ وكرمه.

ثمَّ قَلْبْتُ النَّظَرَ فِيهِ، وَنَقَحْتُهُ، وَأَعَدْتُ تَجَارِبَ طِبَاعَتِهِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، أَعَدَلْتُ فِي كُلِّ تَجَرِبَةٍ، وَأَزِيدُ وَأَنْقُصُ، وَأَغَيِّرُ وَأُبَدِّلُ، حَتَّى اسْتَوْفَيْتُ الْعَمَلَ بِقَدْرِ الْجُهِدِ الْبَشَرِيِّ الضَّعِيفِ، سَائِلاً الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ الرِّضَا وَالْقَبُولَ، إِنَّهُ أَكْرَمُ مَسْؤُولٍ، وَخَيْرُ مَأْمُولٍ. هذا، وقد انتهيتُ من تصحيح تجاربه للمرة الأخيرة في يوم الاثنين ٢٩ من شهر شعبان من سنة ١٤٢٦ هـ. والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصَّالِحَات.



الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ	سورة النمل	٣٧٧
من أجل قراءة مؤثرة للقرآن الكريم	م	سورة القصص	٣٨٥
الاستعاذة	ف	سورة العنكبوت	٣٩٦
سورة الفاتحة	١	سورة الروم	٤٠٤
سورة البقرة	٢	سورة لقمان	٤١١
سورة آل عمران	٥٠	سورة السجدة	٤١٥
سورة النساء	٧٧	سورة الأحزاب	٤١٨
سورة المائدة	١٠٦	سورة سبأ	٤٢٨
سورة الأنعام	١٢٨	سورة فاطر	٤٣٤
سورة الأعراف	١٥١	سورة يس	٤٤٠
سورة الأنفال	١٧٧	سورة الصافات	٤٤٦
سورة التوبة	١٨٧	سورة ص	٤٥٣
سورة يونس	٢٠٨	سورة الزمر	٤٥٨
سورة هود	٢٢١	سورة غافر	٤٦٧
سورة يوسف	٢٣٥	سورة فصلت	٤٧٧
سورة الرعد	٢٤٩	سورة الشورى	٤٨٣
سورة إبراهيم	٢٥٥	سورة الزخرف	٤٨٩
سورة الحجر	٢٦٢	سورة الدخان	٤٩٦
سورة النحل	٢٦٧	سورة الجاثية	٤٩٩
سورة الإسراء	٢٨٢	سورة الأحقاف	٥٠٢
سورة الكهف	٢٩٣	سورة محمد	٥٠٧
سورة مريم	٣٠٥	سورة الفتح	٥١١
سورة طه	٣١٢	سورة الحجرات	٥١٥
سورة الأنبياء	٣٢٢	سورة ق	٥١٨
سورة الحج	٣٣٢	سورة الذاريات	٥٢٠
سورة «المؤمنون»	٣٤٢	سورة الطور	٥٢٣
سورة النور	٣٥٠	سورة النجم	٥٢٦
سورة الفرقان	٣٥٩	سورة القمر	٥٢٨
سورة الشعراء	٣٦٧	سورة الرحمن	٥٣١

٥٩١	سورة الطارق
٥٩١	سورة الأعلى
٥٩٢	سورة الغاشية
٥٩٣	سورة الفجر
٥٩٤	سورة البلد
٥٩٥	سورة الشمس
٥٩٥	سورة الليل
٥٩٦	سورة الضحى
٥٩٦	سورة الشرح
٥٩٧	سورة التين
٥٩٧	سورة العلق
٥٩٨	سورة القدر
٥٩٨	سورة البيّنة
٥٩٩	سورة الزلزلة
٥٩٩	سورة العاديات
٦٠٠	سورة القارعة
٦٠٠	سورة التكاثر
٦٠١	سورة العصر
٦٠١	سورة الهُمزة
٦٠١	سورة الفيل
٦٠٢	سورة قريش
٦٠٢	سورة الماعون
٦٠٢	سورة الكوثر
٦٠٣	سورة الكافرون
٦٠٣	سورة النصر
٦٠٣	سورة المسد
٦٠٤	سورة الإخلاص
٦٠٤	سورة الفلق
٦٠٤	سورة الناس

٥٣٤	سورة الواقعة
٥٣٧	سورة الحديد
٥٤٢	سورة المجادلة
٥٤٥	سورة الحشر
٥٤٩	سورة الممتحنة
٥٥١	سورة الصّف
٥٥٣	سورة الجمعة
٥٥٤	سورة المنافقون
٥٥٦	سورة التغابن
٥٥٨	سورة الطلاق
٥٦٠	سورة التحريم
٥٦٢	سورة الملك
٥٦٤	سورة القلم
٥٦٦	سورة الحاقة
٥٦٨	سورة المعارج
٥٧٠	سورة نوح
٥٧٢	سورة الجن
٥٧٤	سورة المزمل
٥٧٥	سورة المدثر
٥٧٧	سورة القيامة
٥٧٨	سورة الإنسان
٥٨٠	سورة المرسلات
٥٨٢	سورة النبأ
٥٨٣	سورة التّازعات
٥٨٥	سورة عبس
٥٨٦	سورة التكويد
٥٨٧	سورة الانفطار
٥٨٧	سورة المطففين
٥٨٩	سورة الانشقاق
٥٩٠	سورة البروج